تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

دار طوق النجاة

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الأول

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر

بُـورِكَ حـدائـق الـرَّوح والـريـحـان ... كـمـا بُـورك جَـنَـا الـزَّيْـتُـونِ والـرُمَّـان
كتابٌ حَوَى مِنْ جَنَا التَّفسير أفنانا ... فالحَمْدُ للمولَى على ما قد حبانا
كـتـابٌ لـو يُـبـاع بـوزنـه ذهـبـاً ... لَـقَـدْ كـان الـبـائـعُ فـيـه الـمـغـبـونـا

آخر

بِـلادُ الله واسـعـةٌ فَـضَـاءُ ... وَرِزْقُ الله فـي الـدُّنْـيـا فَـسِـيـحُ
فَـقُـلْ لـلـقـاعـديـن عـلـى هَـوان ... إذا ضـاقـت بـكـم الأرضُ فَـسِـيـحـوا

آخر

سـافـر تـجـد عـوضـاً عـمـن تـفـارقـه ... وانصب فإن اكتساب المجد في النصب
فالأُسْدُ لَوْلاَ فِراقُ الخَيْسِ ما افْتَرَسَتْ ... والسَّهْمُ لَولاَ فِراقُ القوسِ لَمْ يُصِب

آخر

بِـلاَدِي وإنْ جـارَتْ عَـلَـيَّ عَـزِيْـزَةٌ ... وأَهـلِـي وإنْ ضَـنُّـوا عـلـيَّ كِـرامُ

المجلدُ الأول، من تفسير حدائق الروح والريحان، على الحزبِ الأول من القرآن الكريم ولعل مؤلفه قصد أوّلاً: أن يخص كل حزب من الأحزاب الستين بمجلد، فيكون الكتاب إحدى وستين جلدة مع المقدمة.

فائدة: قال مؤلفه وكان التاريخ الشروعى لتفسيرنا هذا مع التوائق والمعائق بتاريخ ٢/١/١٤٠٦ هـ وكان التاريخ الانتهائي منه مع المقدمة بتاريخ ١/١٠/١٤١٧ هـ

فلله الحمد ما أسدى وأولى

ونعم المُولِي ونعم المَوْلَى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

نحمدك يا فارق الفرقان، ومنزل القرآن بالحكمة والبيان، على عبده محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيراً، ولطريق الحق سراجاً منيراً، كتاباً كافلاً ببيان الأحكام، متوشِّحاً ببيان الحلال من الحرام، قاطعاً للخصام، شافياً لصنوف السقام، مرهماً مجرباً لكل الأوهام، العروة الوثقى لمن تمسك بها، والجادة الواضحة لمن سلكها، فأي كلام يستحق من التعظيم، ما يستحقه كلام الرب الحكيم، كتاب أعجز الفصحاء، وأفحم عن دَرْكه البلغاء، فإن فصاحتهم وإن طالت ذيولها، وبلاغتهم وإن سالت سيولها، فإنها تتقاصر عن دَرْكِ أوصافه، وبلوغ أدنى أطرافه، فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقُّه من التقدير والإعظام، أولى وأحرى لجميع الأنام، وأوفق بما يقتضيه الحال والمقام، وكيف لا، فإنه كلام من لا تدركه الأوهام، ولا تحيط بوصفه الأفهام.

ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث قال: فيما أخرجه الترمذي، وحسَّنه من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه» فإنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أَمَرَ فيه وزَجَرَ، وبشر فيه وأنذر، ذَكَر فيه المواعظ لمن يتذكر، وضرب الأمثال لمن يتدبر، وقص فيه القصص لمن يعتبر، وذكر فيه دلائل التوحيد لمن يتفكر، ثم لم يرض منا بسرد حروفه، بدون حفظ حدوده، ولا بتجويد كلماته،

بدون العمل بمحكماته، ولا بتلاوته بلا تدبر قراءته، ولا بمجرد دراسته، بلا تعلم حقائقه، وتفهم دقائقه، ولا وصول إلى هذه المقاصد منه، إلا بدراية تفسيره وأحكامه، ومعرفة حلاله وحرامه، وتناسق آياته، وأسباب نزوله وأقسامه، والوقوف على ناسخه ومنسوخه، والتطلُّع على خاصه وعامِّه، فإنه أرسخ العلوم أصلاً، وأسبغُها فرعاً وفصلاً، وأكرمها نتاجاً، وأنورها سراجاً، فلا شرف إلا وهو السبيل إليه، ولا خير إلا وهو الدالُّ عليه، وقد قيض الله سبحانه وتعالى له رجالاً موفقين، وبالحق ناطقين، وللبدع قامعين، وللسنن ناشرين، وللتفسير متقنين، حتى صنفوا في سائر علومه المصنفات، وجمعوا شوارد فنونه المتفرقات، كلٌّ على قدر فهمه، ومبلغ علمه فشكر الله تعالى سعيهم، ورحم أسلافهم وأخلافهم، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله شهادةَ مَن أقر بربوبيته، وصمم بوحدانيته، وصدق بكتابه، واقتدى بمحكمه، وآمن بمتشابهه، وقال بما قال الراسخون منا، آمنا به كل من عند ربنا.

وأشهد أن سيدنا محمداً ﷺ عبده ورسوله، وصفيه وخليله. أرسله رحمة للعالمين، ومبيداً للعدا والكافرين، أنزل عليه الكتاب المستبين، والفرقان المبين، نوراً هَدَى به من الضلالة، وأنقذ به من الجهالة، حكم بالرضوان لمن اتبعه، وبالخسران لمن أعرض عنه بعد ما سمعه، عجز الخلائق عن معارضته، حين تحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله.

اللهم يا ذا الجود والإنعام، ويا ذا الجلال والإكرام، صلِّ وسلم أفضلَ الصلاة وأزكى السلام، على سيدنا ومولانا محمد مَن أرسلتَه رحمة للأنام، وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وأهل بيته السادات الكرام، صلاة وسلاماً أرقى بهما مراقي الإخلاص، وأنال بهما غاية الخلاص، دائمين بدوامك، باقيين ببقائك، عدد ما أحاط به علمك، وجرى به قلمك.

أما بعد: فإن علم التفسير، لما كان أعظمَ العلوم مقداراً، وأرفعَها شرفاً ومناراً، ورئيسَ العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها، عالي القصور والبنيان، وسيعَ الرحب والميدان، طالما رغبتُ في الدخول من أبوابه،

متطفلاً للقعود في محرابه، لأكون متشبهاً بالفرسان من أحزابه، وممتصًّا من بقية شرابه، وإن لم أكن من فرسان ميدانه، متمثلاً بما قال الأول:

إنْ لم تكُونوا مثلَهُمْ فتشبَّهوا ... إن التشبُّهَ بالكِرام فلاح

ومتسرِّقاً بما قال الآخر:

تطالبني بخدمة القرآن نفسي ... وفيها قُرَّتا بصري وسمعي

فقلت لها: التفاسير ليس تحصى ... وما رُمْتِيْهِ يقصر عنه وُسعِي

على أنه لا يليق لتعاطيه، والتصدِّي للتكلم فيه، إلا من برع في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية، والفنون الأدبية، بأنواعها وأسْرها، فتردَّدْتُ في ذلك زماناً طويلاً خوفاً من الدخول في قوله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار» وفي رواية: «من قال في القرآن برأيه» أخرجه الترمذي.

وفي قوله ﷺ: «من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ» أخرجه أبو داود والترمذي. فلما اشتد عزمي، وغلب سهري على نومي، ناداني منادي القلم، شارباً من مِدَاد الكرم، أما تسمح أيها المَهين، ويا سمي محمد الأمين، بخدمة كتاب ربك المتين، بما عندك من قطرات الفنون، فأجبته بالشروع فيها مشمِّراً عن ساق الجد والاجتهاد، راجياً من الله سبحانه وتعالى المعونة والإمداد، من الفتوحات الإلٰهية، والفيضات الربانية، والمعارف الصمدانية، فتصديت لها بشرحٍ يذكر تناسبه، وينقل أسبابه، ويفك تراكيبه، ويحل معانيه، ويعرِّف مبانيه، ويبيِّن تصاريفه، ويُفصِح بلاغته وفصاحته، ويكشف محاسنه وبداعته، وسميته «حدائق الرَّوح والرَّيحان، في روابي علوم القرآن».

واللَّهَ الكريم أسأل طَوْلَه وفضله، والتوفيق لما هو المعنى عنده، وأن يجعل في عمري البركة إلى أن أكمِّله، لأنه قد مضى منه معظمه، ونونه وواوه، فلم يبق منه إلا درديُّه وعلله، ويصرف عني العوائق والمعائق إلى أن أتممه، إنه وليُّ التوفيق، والهادي إلى أصوب الطريق.

والمرجو ممن اطلع عليه، وصرف وجهه إليه، أن يصلح خلله، ويزيل زلله، بعد التأمل والإمعان، بقلم الإنصاف والإحسان؛ لأن الإنسان مركز الجهل والنسيان، لا سيما حليف البله والبلاهة والتوان، وأسأل الله الكريم، أن ينفع به النفع العميم، لكل من تلقاه بقلب سليم، وأن يفتح على آخذه، وقاصده، باب فيضه وإمداده، وأن يطمس عنه عين حاسده، ويخرس عنه لسان كائده، إنه هو المولى الرقيب، والرب القريب المجيب، والمنعم الجواد الكريم، والبر الرحمن الرحيم، ولنبدأ قبل الشروع في المقصود، بذكر مبادىء الفن والحدود، ليكون الطالب بها بصيراً، وفيما بصدده خبيراً، وها أنا أستمد من الله التوفيق، والهداية لأقوم الطريق، في كتابة هذا الشرح والتعليق، فأقول وقولي هذا: هذه مقدِّمة، رب أكْرِمْني بالنهاية كما وفقتني بالبداية.

والله أعلم

* * *

مقدمة في مبادىء فن التفسير

ينبغي لكل شارع في فن، أن يعرف المبادىء العشرة ليكون على بصيرة فيه، وإلا صار كَمَنْ ركب متن عمياء، وخبط خبط ناقة عشواء، وتلك العشرة هي المجموعة في قول بعضهم:

إنَّ مبادىءَ كلِّ فنٍ عَشَرهْ ... الحدُّ والموضوعُ ثُمَّ الثمرَهْ
وفضلُه ونسبةٌ والواضعُ ... والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائلٌ والبعضُ بالبعضِ اكْتَفى ... ومَنْ دَرَىٰ الجميعَ حاز الشرفا

فالآن نشرعُ في فنِّ التفسير فنقول:

١ ـ حدُّه لغة: الكشفُ والبيان، واصطلاحاً: علمٌ يعرف به معاني كلام الله بحَسَب الطاقة البشرية.

٢ ـ وموضوعه: آيات القرآن من حيث فهم معانيها.

٣ ـ وثمرته: أي فائدته: معرفة معاني كلام الله تعالى على الوجه الأكمل.

٤ ـ وفضله: فوقانه على سائر العلوم؛ لأنه أصل العلوم الشرعيَّة.

٥ ـ ونسبته: تباينه لسائر العلوم.

٦ ـ وواضعه: الراسخون في العلم، من عهد النبي ﷺ إلى الآن على التحقيق، كما شهد الله بذلك بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾ الآية.

٧ ـ واسمه: علمُ التفسير.

٨ ـ واستمداده: من الكتاب والسنة والآثار وكلام الفصحاء من العرب العرباء.

٩ ـ وحكمه: الوجوب الكفائيُّ.

١٠ ـ ومسائله: قضاياه من حيث الأمر والنهي والموعظة إلى غير ذلك.

١١ ـ وغايته: الفوز بسعادة الدارين، أمَّا في الدنيا: فبٱمتثال الأوامر واجتناب النواهي، وأما في الآخرة: فبالجنة ونعيمها، ولذلك يقال له: «اقرأ وارْقَ» كما في الحديث.

والله أعلم

* * *

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

فصل في مباحث الاستعاذة

في الاستعاذة مباحث:

الأول في لفظها: فالمختار في لفظها عند الجمهور (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لموافقة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. وبه قال أبو حنيفة والشافعي، وقال أحمد: الأولى أن يقول: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) جمعاً بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. وقال الثوري والأوزاعي: الأولى أن يقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنّ الله هو السميع). ويؤيّد قول الجمهور: ما روي[1] عن ابن مسعود أنه قال: قلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي النبي ﷺ: «يا ابن أمِّ عبدٍ (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، هكذا أقرأني جبريل عن اللوح عن القلم».

والثاني في حكمها: وأمّا حكمها: فقد[2] اتفق الجمهور على أنّ الاستعاذة سنّة في الصلاة، فلو تركها لم تبطل صلاته، سواء تركها عمداً أو سهواً، ويستحبّ لقارىء القرآن خارج الصلاة أن يتعوذ أيضاً. وفي «القرطبي»: وحكى النقاش، عن عطاء: أنّ الاستعاذة واجبة في صدر كلّ قراءة في الصلاة وغيرها، واختلفوا في الاستعاذة في الصلاة، وكان ابن سيرين والنخَعِيّ وقوم يتعوّذون في الصلاة في كلّ ركعة، ويمتثلون أمر الله في الاستعاذة على العموم، وأبو حنيفة والشافعيّ يتعوذّان في الركعة الأولى من الصلاة، ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة

---

(١) الخازن.

(٢) القرطبي.

واحدة، ومالك لا يرى التعوّذ في الصلاة المفروضة، ويراه في قيام رمضان بعد القراءة. انتهى. وفي «الخازن» دليل الوجوب ظاهر قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾، والأمر للوجوب، وأنّ النبي ﷺ واظب على التعوذ فيكون واجباً. ودليل الجمهور: أنّ النبي ﷺ لم يعلّم الأعرابيّ الاستعاذة في جملة أعمال الصلاة، وتأخير البيان عن وقته غير جائز. وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ بأنّ معناه عند جماهير العلماء: إذا أردت القراءة فاستعذ، كقوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ﴾ معناه: إذا أردتم القيام إلى الصلاة. وأجابوا أيضاً، عن مواظبة النبي ﷺ: بأنّه ﷺ واظب على أشياء كثيرة من أفعال الصلاة ليست بواجبة، كتكبيرات الانتقالات والتسبيحات في الصلاة، فكان التعوّذ مِثْلها، وأجمع العلماء قاطبة على أنّ التعوذ ليس من القرآن ولا آيةً منه.

والثالث في وقتها: وأمّا وقتها: فهو قبل القراءة عند الجمهور، سواء كان في الصلاة أو خارجها. وحكي عن النخعيّ: أنّه بعد القراءة؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ أي: إذا فرغت من قراءة القرآن فاستعذ بالله، وهو قول داود وإحدى الروايتين عن ابن سيرين. حجة[1] الجمهور: ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كبّر ثمّ يقول: «سبحانك اللهمّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك»، ثمّ يقول: «لا إله إلاّ الله ثلاثاً»، ثمّ يقول: «الله أكبر كبيراً ثلاثاً، أعوذ بالله السميع العليم؟ من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه». هَمْزُهُ: وسوسته. نفخه: كِبْرُهُ. نفثه: شعره. رواه أبو داود. وهذا الحديث: نصٌّ في أنَّ التعوذ قبل القراءة.

والرابع في معناها: وأما معناها: فالاستعاذة لغَةً: الالتجاء إلى الغير والاعتصام به، وشرعاً: الالتجاء إلى الله والالتصاق بجانبه من شرّ كل ذي شرّ، انتهى من «الخازن» و«ابن كثير» بتصرف. وقال ابن كثير: ومعنى: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) أي: أستجير[2] بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرّني في

(١) الخازن. (٢) ابن كثير.

ديني أو دنياي أو يصدّني عن فعل ما أُمِرت به أو يحثّني على فعل ما نُهِيت عنه، فإنّ الشيطان لا يكفّه عن الإنسان إلاّ الله تعالى، انتهى منه. ومعنى: (أعوذ بالله) ألتجىء إليه، وأمتنع به مما أخشاه، أو أستجير، أو أستغيث، من شرّ الشيطان، أي: من ضرر الشخص المبعد من رحمة الله، (الرجيم) أي: المطرود الملعون عند الله والملائكة والناس أجمعين. وإنما[1] لم يقيّد المستعاذ منه بشيء من قبائحه ومضارّه، كالهمز، واللمز، واللمس، والوسوسة، والنزعة، وغيرها؛ لتذهب الهمّة كلّ مذهب ليستعاذ من شرّه عموماً.

والخامس في إعرابها: وأما إعراب هذه الجملة فتقول فيه: (أعوذ): فعل مضارع مرفوع بالضمّة الظاهرة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً لإسناده إلى المتكلم، تقديره: أنا، يعود على المستجير، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً نحويّاً، لا محلّ لها من الإعراب. (بالله): جار ومجرور، متعلّق بأعوذ، (من الشيطان): جار ومجرور، متعلّق بأعوذ أيضاً، وجوّز ذلك: اختلاف لفظهما ومعناهما، (الرجيم): صفةُ ذمٍّ للشيطان، مجرور بالكسرة الظاهرة.

والسادس في مفرداتها وتصاريفها: وأمّا مفرداتها وتصاريفها فتقول في بيانهما: الاستعاذة مصدر قياسيّ لاَسْتَعْوَذَ، معناه: الالتجاء والاعتصام، كما مرّ آنفاً. يقال: استعاذ يستعيذ استعاذة إذا تحصّن بشيء من شيء. وأصل الاستعاذة استعواذ، نقلت حركة الواو إلى الساكن قبلها فقلبت الواو ألفاً لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن، فالتقى ساكنان، وهما: ألف عين الكلمة وألف الاستفعال فحذفت ألف الاستفعال لالتقاء الساكنين، وعوضوا عنها التاء فصار استعاذة بوزن استفعالة، وهو أجوف واويّ؛ لأنّه من عاذ، يعُوذُ، عَوذاً، كقال: يقول، قولاً. والعَوْذُ[2] والعِياذ: مصدران كاللَّوْذ واللِّياذ والصوم والصيام. وقول القائل: (أعوذ): إخبار عن فعله، وهو في التقدير سؤالُ الله عزّ وجلّ من فضله،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وفي العدولِ إلى لفظ الخبر فائدةُ التفاؤل بالوقوع، كأنّه وقع الإعاذةُ فيُخبر عن مطاوِعِهِ. (بالله): مذهب أهل الحقائق في لفظ الجلالة عدم الاشتقاق؛ لأنه لا سبيل إلى كُنْهِ معرفته، ولذا قال السعد التفتازاني في حواشي الكشاف: اعلم أنّه كما تحيَّرت الأوهامُ في ذاته وصفاته، فكذا في اللفظ الدالّ عليه من أنّه اسمٌ أو صفةٌ، مشتقٌّ أو غير مشتقّ، عَلَمٌ أو غير عَلَم، إلى غير ذلك، وسيأتي بسط الكلام فيه في مبحث البسملة إن شاء الله تعالى. (من الشيطان) أي: [1] المُبْعَدِ من رحمة الله تعالى، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لمَّا عصَى لُعن وصار شيطاناً، فدلَّ على أنّه؛ إنّما سمّي بهذا الاسم، بعد لعن الله له. وأمَّا قبله فاسمه: عَزازيل أو نائِلٌ. والشيطان: من شَطَن إذا تباعد من الرحمة، وقيل: من شاط يشيط، إذا هلك واحترق غضباً، وهو اسم لكلِّ عاتٍ متمردٍ من الجنّ والإنس.

وعبارةُ «القرطبي» هنا[2]: الشياطين واحد الشيطان: على التكسير، والنون أَصْليَّةٌ؛ لأنّه من شَطَن إذا بَعُد عن الخير، وشَطَنَتْ داره أي: بعدت. قال الشاعر:

نَأَتْ بِسُعَادَ عَنْكَ نَوَى شَطُونُ ... فَبَانَتْ وَالفُؤَادُ بِهَا رَهِيْنُ

وبئر شطون أي: بعيدة القَعْر، والشطن: الحبل، سمّي به لبعد طرفيه وامتداده، وسمّي الشيطان شيطاناً: لبعده عن الحقّ وتمرّده، وذلك أنّ كلّ عات متمرد من الجنّ والإنس والدّواب شيطان. قال جرير:

أَيَّامَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانُ في غَزْلِ ... وَهُنَّ يَهْوَيْنَنِي إذْ كُنْتُ شَيْطَانَا

وقيل: الشيطان مأخوذ من شاط يشيط إذا بطل، فالنونُ زائدة، وشاط إذا احترق، وشَيَّطْتَ اللحمَ إذا دَخَنْتَه، ولم تُنْضِجْه، واشتاط الرجل إذا ٱحتَدَّ غضباً،

---

(١) روح البيان.
(٢) القرطبي.

وناقةٌ مِشْيَاط الَّتِي يَطِير فيها السمنُ، واشْتاطَ إذا هلك. قال الأعشى:

قَدْ نَخْضِبُ العَيْرَ من مَكْنُونِ فَائِلِهِ وَقَدْ يَشِيط على أرماحِنَا البَطَلُ

أي: يهلك. ويُرَدُّ على صاحب هذا القول: أنَّ سيبويه حكى أنَّ العرب تقول: تَشَيْطَنَ فلانٌ إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيِّنٌ أنّه تَفَيْعَل مِنْ شطن، ولو كان من شاط لقالوا: تشَيَّط، ويَرُدُّ عليه أيضاً بَيْتُ أُمية بن أبي الصلت:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ وَرَمَاهُ في السِجْنِ وَالأَغْلاَلِ

فهذا شاطِنٌ مِنْ شَطَن لا شكَّ. والظاهرُ: أنَّ المرادَ بالشيطان إبليس وأعوانهُ، وقيل: عام في كلّ متمردٍ عاتٍ مضلٍّ عن الجادّةِ المُستقيمةِ من جنّ وإنس، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾.

(الرجيم)؛ أي[1]: المَرْمِيّ من السموات بإلقاءِ الملائكة حينَ لُعِنَ. أي: المَرْمِيّ بشُهب السماءِ إذا قصدها، وهذه صفةٌ للشيطان، وله في القرآن أسماءٌ مشؤومة وصفاتٌ مذمومة، فأَجْمَعُ مسَاويه هو الرجيمُ؛ لأنه جامع لجميعِ ما يَقعَ عليه من العقوباتِ، فلذلك خُصَّ به الابتداءُ من بين تلك الأسماءِ والصفاتِ.

وفي القرطبي: (الرجيمُ) أي: المُبْعد[2] من الخير، المُهان، وأصل الرجم: الرمي بالحجارة، وقد رجمْتُه أرجمه فهو رجيم ومرجوم، والرَّجْمُ: القَتْلُ واللَّعنُ والطردُ والشتمُ، وقد قِيل: هذا كُلُّه في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ وقول أبي إبراهيم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾. وسيأتي إن شاء الله تعالى، انتهى. وعلى ما قاله القرطبي: يكون الرجيمُ صفةً كاشفة للشيطان، ويحتمل كونهُ مُؤسِّسة، وعلى كلّ من هذه المعاني: فالرجيمُ فَعِيلٌ إما بمعنى: فاعل؛ لأنّه يَرْجُم بالوسوسة والشرِّ، أو بمعنى: مفعول أي: مرجوم بمعنى: مطرود عن الرحمة وعن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى، أو مرجوم بالشُّهبِ عند استراقِ السمع أو مرجوم بالعذاب.

---

(١) روح البيان.
(٢) القرطبي.

والسابع في بلاغتِها: ومن بلاغتها: العُدُولُ[1] مِن صيغة الإنشاء الذي هو المقصود من الكلام إلى صيغة الإخبار؛ لفائدة التفاؤل بالوقوع، كأنّه وقع الإعاذة، فيُخْبِر عن مطاوِعِهِ؛ لأنّ مقتضَى ظاهِر السؤال أن يقال: أَعِذْني يا ربّ من الشيطان الرجيم.

ومنها: الالتفات من الخطاب بقوله: أعوذ بك، إلى الغَيبة بقوله: أعوذ بالله؛ لأنّ اسمَ الظاهر من قبيل الغَيبة؛ لغرض التبرُّكِ والتَّلذُّذِ بلفظِ الجلالة، ومنها: الإتيان بالصفة الكاشفة في قوله: (الرجيم)؛ لتأكيد معنى الموصوف.

والثامن في بيان لطيفة هذه الجملة: ومِنْ[2] لطائف الاستعاذة أنَّ قوله: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) إقرارٌ من العبد بالعجز والضعف، واعترافٌ من العبد بقدرة البارىء عزَّ وجلَّ، وأنّه هو الغنيُّ القادرُ على دفعِ جميع المضرّات والآفات، واعترافٌ من العبد أيضاً، بأنَّ الشيطان عدوّ مبين، ففي الاستعاذة: التجاء إلى الله تعالى القادر على دفع وسوسة الشيطان الغَوِيِّ الفاجر، وأنه لا يَقْدِر على دفعِهِ عن العبد إلاّ الله تعالى. والله أعلم.

فائدتان:

الأولى: فإن قلت: ما الحكمةُ في الأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن، حيث قال تعالى في سورة النحل ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾؟.

قلت: الحكمة في الاستعاذة عندها الاستئذان، وقَرْعُ الباب؛ لأنّ من أتى باب ملك من الملوك لا يدخل إلا بإذنه، كذلك من أراد قراءة القرآن؛ إنّما يريد الدخول في المناجاة مع الحبيب، فيحتاج إلى طهارةِ اللسان؛ لأنّه قد تنجَّس بفضول الكلام والبهتان، فيطهِّره بالتعوذ.

---

(١) روح البيان بتصرف.
(٢) الخازن.

الثانيةُ: في بيان حقيقة الشيطان، قال في[1] روضة الأخيار: الشياطينُ: ذكور وإناث، يتوالدون ولا يموتون إلى النفخة الأولى، والجنّ: ذكور وإناث يتوالدون ويموتون، والملائكة: ليسوا بذكور ولا إناث، لا يموتون ولا يتوالدون، ولا يأكلون ولا يشربون، فثبت بهذا أنّ للشيطان، والجنّ حقيقةً ووجوداً، ولم يُنْكِر وجود الجن إلاّ شرذمة قليلة من جُهَّال الفلاسفة والأطبّاء ونحوهم.

حكي[2]: أنَّ الإمام الغزاليّ مُحْيِيْ السنة كان مفتي الثقلين، فسألهم يوماً عن الحوادث، قالوا: إنّ الزمخشري صنّف كتاباً في التفسير وبلغ إلى النصف، فطلب منهم أن يأتوا به، فأتوه، فكتب جميع ما ألفه، ثمّ وضعُوا النسخة في مكانها، فلمَّا جاء الزمخشري إليه أراه إيّاه، فتعجَّب الزمخشري وتحيَّر وقال: إن قلْتُ: هو لي وأنا خبَّأْتُهُ وما اطَّلع عليه أحد غيري، فمن أين جاء هذا؟ وإن هو لغيري؛ فالتوارد في اللفظ والمعنى والوضع والترتيب في هذا القدر من الكتاب لا يقبله العقل، قال الإمام الغزالي: هو لك، وقد وصل إلينا من أيدي الجنّ، وكان الزمخشري ينكر الجن فاعترف في مجلسه.

ولا يلزم من هذا عِلْم الجنّ بالغيب كما لا يخفى، قال تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. ثُمَّ حقيقتهم عند من لم يقل بالمجردات: أجسامٌ هوائية، وقيل: نارية قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة، كصور الحيّات والعقارب والكلاب والإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير والطير وبني آدم، لها عقول وأفهام تُقْدِمُ على الأعمال الشاقّة، كما كانوا يعملون لسليمان عليه السلام المحاريب والتماثيل والجفان والقدور. وعند من قال بالمجرّدات: فهم قسم من الملائكة، والمجرّدات: الموجودات الغير المتحيّزة، ولا الحالّة في المتحيز، والمراد بالشيطان هنا: إبليس وأعوانه كما مرّ.

ومما يدّل على تشكُّلها[3]: ما روى الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) القرطبي.

قال، قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: رأيت النبي ﷺ عند الصفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل، وهو يلعنه، قلت: ومن هذا الذي تلعنه يا رسول الله؟ قال: «هذا الشيطان الرجيم»، فقلت: يا عدوّ الله، والله لأقتلنّك ولأرِيْحَنَّ الأمّةَ منك، قال: ما هذا جزائي منك، قلت: وما جزاؤك منّي يا عدوّ الله؟ قال: والله ما أبغضك أحدٌ قطّ، إلاّ شَرَكْتُ أباه في رحمِ أمّه.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ[1] قال: خرج النبي ﷺ ذات يوم من المسجد، فإذا هو بإبليس، فقال له النبي ﷺ: «ما الذي جاء بك إلى باب مسجدي؟» قال: يا محمد، جاء بي الله، قال: «فلم ذا؟» قال: لتسألني عمّا شئت، فقال ابن عباس: فكان أوّل شيء سأله النبي ﷺ الصلاة، فقال له: «يا ملعون، لِمَ تمنع أمتي عن الصلاة بالجماعة؟» قال: يا محمد، إذا خرجَتْ أمّتك إلى الصلاة، تأخذني الحمَّىٰ الحارّة، فلا تندفع حتى يتفرّقوا،» وقال عليه السلام: «لِمَ تمنع أمّتي عن العلم والدعاء؟» قال: عند دعائهم يأخذني الصمم والعمَىٰ، فلا يندفع حتى يتفرّقوا، وقال عليه السلام: «لِمَ تمنع أمّتي عن القرآن»؟ قال: عند قراءتهم أذوب كالرصاص، قال: «لِمَ تمنع أمتي عن الجهاد»؟ قال: إذا خرجوا إلى الجهاد يوضع على قدمي قيد حتى يرجعوا، وإذا خرجوا إلى الحج أُسَلْسَلُ وأُغْلَلُ حتى يرجعوا، وإذا همّوا بالصدقة توضع على رأسي المناشير فتنشرني كما يُنشر الخَشب.

وقال عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: ـ (الفرق بين صلاتنا وصلاة أهل الكتاب: وسوسةُ الشيطان؛ لأنّه فرغ من عمل الكفار، لأنّهم وافقوه والمؤمنون يخالفونه ويحاربونه، والمحاربة تكون مع المخالفة). وقال الحسن: من استعاذ بالله على وجه الحقيقة وهو ما يكون بحضور القلب، جعل الله بينه وبين الشيطان ثلاثمائة حجاب، كلّ حجاب كما بين السماء والأرض.

وفي «التفسير الكبير» للإمام الرازي: أنَّ (أعوذ بالله): رجوع من الخلق إلى

---

(١) روح البيان.

الخالق، ومن الحاجة التَّامَّةِ لنفسه، إلى الغنىٰ التام بالحق في تحصيل كلّ الخيرات ودفع كلّ الآفات، ففيه سرّ قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، وفيه دلالة: على أن لا وسيلةَ إلى القرب من حضرة الربّ إلاّ بالعجز. والعجز منتهى المقامات، انتهى.

فائدة: وفي الأثر: وأوَّلُ ما نزل به جبريل عليه السلام، على النبي ﷺ الاستعاذة، ثمّ البسملة، ثمّ قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ الآيات، هكذا ذكره صاحب «روح البيان».

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ولمّا فرغنا من مباحث الاستعاذة شرعنا في مباحث البسملة، وقلنا:

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾.

وحكمة تأخيرها عن الاستعاذة[١]: الإشعار بأنّ باب التحلية (بالمهملة)، مؤخرّ عن باب التخلية (بالمعجمة)، وبأنّ الإقبال على الله سبحانه، والتوجه إليه، مؤخر عن الإعراض عمّا سوى الله تعالى، والأصحّ المقبول عند متأخري الحنفية: أنّ البسملة آية فذّة ليست جُزْءاً من السورة، أنزلت للفصل بين السور والتبَرُّك بالابتداء بها، كما بُدِيء بذكرها في كلّ أمر ذي بال، وهي: مفتاح القرآن، وأول ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ، وأول ما نزل على آدم عليه السلام.

وحكمة الابتداء بها[٢]: أنّه كانت الكفّار يبدؤون بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسم اللات والعزّى، فوجب أن يقصد الموحّد معنى اختصاص اسم الله عزّ وجلّ بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل، فلذلك قدّر المحذوف متأخراً؛ أي: باسم الله أقرأ، أو أتلو، أو آكل، أو أشرب، أو غير ذلك مما جعلت التسمية مبدأ له.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

فصل

وفي البسملة أبحاث:

الأول منها: في اختلاف العلماء في كون البسملة من (الفاتحة)، وغيرها، سوى (سورة براءة). فذهب أبو هريرة[1]، وعليّ، وابن عباس، وابن عمر، وبعض التابعين، كسعيد بن جبير، وعطاء، والزهري، وابن المبارك، وبعض فقهاء مكة، وقرّائها، ومنهم: ابن كثير، وبعض قرّاء الكوفة، وفقهائها، ومنهم: عاصم، والكسائي، والشافعيّ، وأحمد، إلى أنّ البسملة آية من كلّ سورة من سور القرآن الكريم، ومن أدلّتهم على ذلك:

ـ إجماع الصحابة ومَن بعدهم، على إثباتها في المصحف أوّل كل سورة عدا (سورة براءة)، مع الأمر بتجريد القرآن عن كلّ ما ليس منه، ومن ثمّ لم يكتبوا (آمين) في آخر (الفاتحة).

ـ وما ورد في ذلك من الأحاديث، فقد أخرج مسلم في «صحيحه» عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذا أغفَىٰ إغفاءةً، ثمّ رفع رأسه متبسّماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: «نزلت عليّ آنفاً سورة»، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾، وذكر الحديث، وسيأتي بكماله في سورة الكوثر إن شاء الله تعالى. وروى أبو داود عن ابن عباس: (أنّ رسول الله ﷺ، كان لا يعرف إنقضاءَ السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. وروى الدارقطنيّ عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا قرأتم «الحمد لله» فاقرؤوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فإنها أمّ القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إحدى آياتها».

ـ وإجماع المسلمين على أنّ ما بين الدفّتين كلام الله تعالى، والبسملة

---

(١) المراغي.

بينهما، فوجب جعلها منه.

ـ وقول أمّ سلمة رضي الله عنها: (قرأ رسول الله ﷺ (الفاتحة)، وعدّ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آية)، ومن أجل قولها اختلف في أنها آية برأسها، أم بما بعدها. وذهب مالك وغيره من علماء المدينة، والأوزاعي، وجماعة من علماء الشام، وأبو عمرو، ويعقوب من قرّاء البصرة ـ وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة ـ إلى أنّها آية مفردة من القرآن، أنزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها، فليست بآية من (الفاتحة) ولا من غيرها، ولم يختلفوا في أنها بعض آية في (سورة النمل). وذهب عبد الله بن مسعود أنها ليست من القرآن أصلاً، وهو رأي بعض الحنفية، ومن أدلّتهم على ذلك: حديث أنس رضي الله عنه، قال: صلّيت خلف رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، وكانوا يستفتحون بالحمد لله ربّ العالمين، لا يذكرون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أوّل قراءة، ولا في آخرها.

وعبارة الشوكاني هنا: اختلف أهل العلم، هل هي آية مستقلة في أول كلّ سورة كتبت في أولها؟ أو هي بعض آية من أول كلّ سورة، أو هي كذلك في (الفاتحة) دون غيرها، أو أنّها ليست بآية في الجميع، وإنّما كتبت للفصل، والأقوال وأدلّتها مبسوطة في موضع الكلام على ذلك.

وقد اتفقوا على أنّها بعض آية في (سورة النمل)، وقد جزم قرّاء مكة والكوفة بأنها آية من (الفاتحة)، ومن كلّ سورة، وخالفهم قرّاء المدينة، والبصرة، والشام، فلم يجعلوها آية لا من (الفاتحة)، ولا من غيرها من السور. قالوا: وإنّما كتبت للفصل، والتبرّك. وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس: (أنّ رسول الله ﷺ، كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وأخرجه الحاكم في المستدرك. وأخرج ابن خزيمة في صحيحه عن أمّ سلمة: (أنّ رسول الله، قرأ البسملة في أول (الفاتحة) في الصلاة وغيرها آية)، وفي إسناده عمرو بن هارون البلخيّ، وفيه ضعف. وروى نحوه الدارقطنّي مرفوعاً عن أبي هريرة.

وكما وقع الخلاف في إثباتها، وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة، وقد أخرج النسائي في «سننه»، وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم في «المستدرك»، عن أبي هريرة: (أنّه صلّى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إنّي لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ)، وصحّحه الدارقطني، والخطيب، والبيهقي، وغيرهم.

وروى أبو داود، والترمذي، عن ابن عباس: (أنّ رسول الله ﷺ، كان يفتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم)، قال الترمذي: وليس إسناده بذاك، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك، عن ابن عباس بلفظ، كان رسول الله ﷺ، يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح.

وأخرج البخاريّ في صحيحه، عن أنس، أنّه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: (كانت قراءته مدّاً، ثمّ قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يمدّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ويمدّ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾، ويمدّ ﴿الرَّحِيمِ﴾.

وأخرج أحمد في «المسند»، وأبو داود في «السنن»، وابن خزيمة في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» عن أمّ سلمة أنّها قالت: (كان رسول الله ﷺ يقطّع قراءته ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾، وقال الدارقطني: إسناده صحيح. واحتجّ من قال: بأنّه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، بما في «صحيح مسلم» عن عائشة قالت: (كان رسول الله ﷺ، يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين).

وفي «الصحيحين»، عن أنس قال: (صليت خلف رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله ربّ العالمين)، ولمسلم لا يذكرون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في أوّل قراءة، ولا في آخرها. وأخرج أهل السنن نحوه، عن عبد الله بن مغفّل، وإلى هذا ذهب الخلفاء الأربعة، وجماعة من الصحابة.

وأحاديث الترك وإن كانت أصحّ، ولكن الإثبات أرجح مع كونه خارجاً من

مخرج صحيح، فالأخذ به أولى، ولا سيّما مع إمكان تأويل الترك، وهذا يقتضي الإثبات الذاتي، أعني: كونها قرآناً، والوصفي أعني: الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتتح بها من السور في الصلاة. انتهى من الشوكاني.

والبحث الثاني في فضلها:

وورد في فضلها أحاديث.

منها: ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه، وابن خزيمة في كتاب البسملة، والبيهقي، عن ابن عباس قال: (استرق الشيطان من الناس، أعظم آية من القرآن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾).

وأخرج نحوه أبو عبيد، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضاً. وأخرج الدارقطني بسند ضعيف، عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «كان جبريل إذا جاءني بالوحي، أوّل ما يُلقي عليّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾».

وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره»، والحاكم في «المستدرك»، وصحّحه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن ابن عباس أنّ عثمان بن عفّان، سأل النبي ﷺ، عن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؟ فقال: «هو اسم من أسماء الله تعالى، وما بينه وبين اسم الله الأكبر، إلاّ كما بين سواد العين وبياضها من القرب».

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه، والثعلبيّ، عن جابر قال: (لمّا نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الريح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بآذانها، ورُجِمت الشياطين من السماء، وحلف الله بعزّته، وجلاله أن لا تسمّى على شيء، إلاّ بارك الله فيه).

ومنها: ما أخرجه أبو نعيم، والديلمي، عن عائشة قالت: لمّا نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ضجّت الجبال، حتى سمع أهل مكة دويّها، فقالوا: سحر محمد الجبال، فبعث الله دخاناً، حتى أظلّ على أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ موقناً، سبّحت معه الجبال، إلاّ أنّه لا يسمع ذلك منها».

ومنها: ما أخرجه الديلميّ، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كتب الله له بكلّ حرف أربعة آلاف حسنة، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة، ورفع له أربعة آلاف درجة».

ومنها: ما أخرجه الخطيب في الجامع، عن أبي جعفر، محمد بن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مفتاح كلّ كتاب. اهـ. من «الشوكاني».

ومنها: ما أخرجه ابن العربي بسنده، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: بالله العظيم، لقد حدّثني محمد المصطفى، وقال: «بالله العظيم، لقد حدّثني جبريل»، وقال: بالله العظيم، لقد حدّثني إسرافيل، وقال: قال الله تعالى: يا إسرافيل! بعزّتي، وجلالي، وجودي، وكرمي، من قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، متصلة بفاتحة الكتاب مرّة واحدة؛ فاشهدوا أنّي غفرت له، وقبلت منه الحسنات، وتجاوزت عنه السيئات، ولا أحرق لسانه في النار، وأجيره من عذاب القبر وعذاب النار والفزع الأكبر، ويلقاني قبل الأنبياء، والأولياء أجمعين. اهـ. من المناوي على «الجامع الصغير».

وهذه الأحاديث ينبغي البحث عن أسانيدها، والكلام عليها، بما يتبيّن به حكمها بعد البحث عنها إن شاء الله تعالى. وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع.

منها: عند الوضوء، وعند الذبح، وعند الأكل، والشرب، وعند الجماع، وغير ذلك.

وهذا كلّه مما يدلّ على فضلها، ومما ورد في فضلها أيضاً.

حديث: «من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إجْلالاً له ولاسمه عن أن يُدَنَّس، كان عند الله من الصديقين، وخفّف عن والديه وإن كانا مشركين».

ومما ورد في فضلها:

ما روي عن ابن مسعود قال: (من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر؛ فليقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؛ ليجعل الله له بكلّ حرف منها جُنَّةً من كلّ واحد منهم، فالبسملة تسعة عشر حرفاً على عدد ملائكة أهل النار، الذين قال الله فيهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، وهم يقولون في كلّ أفعالهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾... إلخ. فمن هنالك قوتهم.

والبحث الثالث في تفسيرها ومعناها:

والأحسن أن يقدر متعلّق الباء هنا (قولوا): لأنّ هذا المقام مقام تعليم، وهذا كلام صادر عن حضرة الربّ تعالى. اهـ. «جمل». وقال الطبري: إنّ الله سبحانه وتعالى، أدّب نبيه محمداً ﷺ، بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك لجميع خلقه سنّة يستنّون بها، وسبيلاً يتّبعونه عليها. اهـ.

فمعنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؛ أي: اقرأ يا محمد أنت وأمّتك كتابي، حالة كونكم متبركين باسم الله الواجب الوجود، المستحقّ لجميع المحامد. ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: كثير الرحمة لعباده بجلائل النعم، كنعمتي الإيجاد والإيمان. ﴿الرَّحِيمِ﴾؛ أي: كثير الرحمة لعباده بدقائقها، كالزيادة في الجمال، والعلم، وقوّة السمع، وحدّة البصر. وقال البيضاوي: والرحمن الرحيم: اسمان بُنيا للمبالغة، كالغضبان من غضب، والعليم من علم. والرحمة في اللغة: رِقَّة القلب، وانعطاف يقتضي التفضّل والإحسان، ومنه: الرحم لانعطافها على ما فيه.

والحكمة في تخصيص التسمية بهذه الأسماء الثلاثة؛ ليعلم العارف أنّ المستحق لأن يستعان به في جميع الأمور، هو المعبود الحقيقي الذي هو مُولي النعم كلها عاجلها، وآجلها، جليلها، وحقيرها، فيتوجه بشراشره إلى جناب القدس، ويتمسّك بحبل التوفيق، ويشغل سرّه بذكره والاستغناء به عن غيره. اهـ. منه.

والبحث الرابع في حكم الجهر بها والإسرار:

إذا ثبت بما تقدم من الأدلّة؛ أنّ البسملة آية من (الفاتحة)، ومن غيرها من

السور، حيث كتبت، كان حكمها في الجهر، والإسرار حكم (الفاتحة)، فيجهر بها مع (الفاتحة) في الصلاة الجهريّة، ويسرّ بها مع الفاتحة في الصلاة السريّة. وممن قال بالجهر بالبسملة من الصحابة: أبو هريرة، وابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، ومن التابعين فمَن بعدهم: سعيد بن جبير، وأبو قلابة، والزهري، وعكرمة، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وعليّ بن الحسين، وسالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، وابن سيرين، وابن المنكدر، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، ومكحول، وعمر بن عبد العزيز، وعمرو بن دينار، ومسلم بن خالد، وإليه ذهب الشافعي، وهو أحد قولي ابن وهب صاحب مالك، ويحكى أيضاً عن ابن المبارك، وأبي ثور. وممن ذهب إلى الإسرار بها من الصحابة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، وابن مغفّل، وغيرهم، ومن التابعين فمن بعدهم: الحسن، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والأعمش، والثوري، وإليه ذهب مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وغيرهم.

وأما حجة من قال بالجهر: فقد روى جماعة من الصحابة منهم: أبو هريرة، وابن عباس، وأنس، وعلي بن أبي طالب، وسمرة بن جندب، وأمّ سلمة أنّ النبي ﷺ، جهر بالبسملة، فمنهم من صرّح بذلك، ومنهم من فُهِم ذلك من عبارته.

ولم يرد في صريح الإسرار بها، عن النبي ﷺ إلاّ روايتان:

إحداهما: ضعيفة، وهي رواية عبد الله بن مغفّل.

والأخرى: عن أنس، وهي في «الصحيح»، وهي معلّلة بما أوجب سقوط الاحتجاج بها.

وروى نعيم بن عبد الله المجمرُ قال: صلّيت وراء أبي هريرة فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ثمّ قرأ بأمّ القرآن، وذكر الحديث. وفيه ثم يقول إذا سلّم: (إنّي لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ)، أخرجه النسائي، وابن خزيمة في صحيحه. وقال: أما الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، فقد ثبت وصحّ عن النبي ﷺ.

وروى الدارقطني بسنده، عن أبي هريرة. عن النبي ﷺ: (كان إذا قرأ وهو يؤمّ الناس، افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم)، وذكر الحديث. قال الدارقطني: إسناده كلّهم ثقات. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (كان النبي ﷺ، يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم)، أخرجه الدارقطني، وقال: ليس في رواته مجروح.

وأخرجه الحاكم، أبو عبد الله، وقال: إسناده صحيح، وليس له علّة. وفي رواية عن ابن عباس قال: (كان رسول الله ﷺ، يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم)، أخرجه الدارقطني، وقال: صحيح ليس في إسناده مجروح. وأخرجه الترمذي وقال: ليس إسناده بذاك. قال الشيخ أبو شامة؛ أي: لا يماثل إسناده ما في الصحيح، ولكن إذا انضمّ إلى ما تقدم من الأدلة، رجح على ما في الصحيح.

وعن أنس قال: (كان رسول الله ﷺ، يجهر بالقراءة ببسم الله الرحمن الرحيم)، أخرجه الدارقطني وقال: إسناده صحيح. وفيه عن محمد بن أبي السريّ العسقلاني قال: صلّيت خلف المعتمر بن سليمان، ما لا أحصي صلاة الصبح، وصلاة المغرب، فكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، قبل فاتحة الكتاب، وبعدها، وسمعت المعتمر يقول: ما ألوي أن أقتدي، بصلاة أنس بن مالك، وقال أنس بن مالك: (ما ألوي أن أقتدي، بصلاة رسول الله ﷺ)، أخرجه الدارقطني وقال: كلهم ثقات. وأخرجه الحاكم، أبو عبد الله، وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم كلّهم ثقات.

قلت: وفي الباب أحاديث وأدلّة وإيرادات وأجوبة من الجانبين يطول ذكرها، وفي هذا القدر كفاية، وبالله التوفيق. اهـ. من «الخازن».

البحث الخامس في مفرداتها، وتصاريفها:

فمنه البحث في الباء: فإن قلتَ[1]: ما الحكمة والسر في أنّ الله تعالى جعل افتتاح كتابه بحرف الباء، واختارها على سائر الحروف لا سيّما على

---

(١) روح البيان.

الألف، فإنّه أسقط الألف من الاسم وأثبت مكانه الباء في ﴿بِسْمِ﴾؟.

فالجواب: إنّ الحكمة في افتتاح الله بالباء عشرة معان:

أحدها: أنّ في الألف ترفّعاً وتكبّراً وتطاولاً، وفي الباء انكساراً وتواضعاً وتساقطاً، فمن تواضع لله رفعه الله.

وثانيها: أنّ الباء مخصوصة بالإلصاق بخلاف أكثر الحروف خصوصاً الألف من حروف القطع.

وثالثها: أنّ الباء مكسورة أبداً، فلمّا كانت فيها كسرة، وانكسار في الصورة، والمعنى: وجدت شرف العندية من الله تعالى، كما قال تعالى: (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي).

ورابعها: أنّ في الباء تساقطاً وتكسّراً في الظاهر، ولكن رفعةُ درجةٍ، وعلوُّ همة في الحقيقة، وهي من صفات الصدّيقين، وفي الألف ضدّها. أمّا رفعةُ دَرَجتِهَا: فبأنّها أعطيت نقطة، وليست للألف هذه الدرجة. وأمّا علوّ الهمة: فإنه لمّا عرضت عليها النقط ما قبلت إلاّ واحدة؛ ليكون حالها كحال محبّ لا يقبل إلاّ محبوباً واحداً.

وخامسها: أنّ في الباء صدقاً في طلب قربة الحق؛ لأنها لما وجدت درجة حصول النقطة وضعتها تحت قدمها، وما تفاخرت بها، ولا يُناقضه الجيمُ، والياءُ؛ لأنّ نقطتها في وَضْعِ الحروف ليست تحتهما؛ بل في وسطهما، وإنّما موضع النقط تحتهما عند اتصالهما بحرف آخر؛ لئلا يشتبها بالخاءِ، والتاء، بخلاف الباء؛ فإنّ نقطتها موضوعة تحتها سواء كانت مفردة، أو متصلة بحرف آخر.

سادسها: أنّ الألف حرف علّة بخلاف الباء.

وسابعها: أنّ الباء حرف تامّ متبوع في المعنى، وإن كان تابعاً صورة، من حيث إنّ موضعه بعد الألف في وضع الحروف؛ وذلك لأنّ الألف في لفظ الباء يتبعه بخلاف لفظ الألف، فإنّ الباء لا يتبعه، والمتبوع في المعنى أقوى.

وثامنها: أنّ الباء حرف عامل ومتصرف في غيره، فظهر لها من هذا الوجه قدر وقدرة، فصلحت للابتداء بخلاف الألف؛ فإنّه ليس بعامل.

وتاسعها: أنّ الباء حرف كامل في صفات نفسه؛ بأنّه للإلصاق والاستعانة والإضافة، مكمّل لغيره؛ بأن يخفض الاسم التابع له، ويجعله مكسوراً متصفاً بصفات نفسه، وله علوّ وقدرة في تكميل الغير بالتوحيد والإرشاد، كما أشار إليه عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بقوله: (أنا النقطة تحت الباء). فالباء له مرتبة الإرشاد والدلالة على التوحيد.

وعاشرها: أنّ الباء حرف شفوي، تنفتح الشفة به ما لا تنفتح بغيره من الحروف الشفوية؛ ولذلك كان أول انفتاح فم الذرة الإنسانية، في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ بالباء في جواب ﴿بَلَىٰ﴾، فلمّا كان الباء أول حرف نطق به الإنسان، وفتح به فمه، وكان مخصوصاً بهذه المعاني، اقتضت الحكمة الإلٰهيّة اختياره من سائر الحروف، فاختارها ورفع قدرها، وأظهر برهانها، وجعلها مفتاح كتابه ومبتدأ لكلامه وخطابه تعالى وتقدس، كذا في التأويلات النجمية.

وأما الباء: فلا بحث فيها من جهة التصريف، كما قال ابن مالك في الخلاصة:

حَرفٌ وشِبْهُهُ مِنَ الصَّرْفِ بَرِي   وَمَا سِوَاهُمَا بِتَصْرِيفٍ حَرِي

(اسم): اختلف علماء اللغة في اشتقاق الاسم، فذهب البصريون إلى أنّه من السمّو، وهو العلوّ؛ لأنه من سما يسمو سمواً. وذهب الكوفيّون[1] إلى أنّه مشتق من السمة؛ لأنه من وسم يسم، وسما، وسمة، وهي العلامة؛ لأنه علامة على مسماه، وكلاهما صحيح من جهة المعنى. وفيه خمس لغات: اسم بكسر الهمزة، واسم بضمّها بوزن أفع، والذاهب من الواو لام الكلمة؛ لأنه من سموت، وجمعه: أسماء، وتصغيره: سُمَيٌّ. قال الجوهري: وأسماء يكون جمعاً

---

(١) القرطبي.

لهذا الوزن، وهو مثل: جذع، وأجذاع، وقفل، وأقفال. وسم بكسر السين، وسم بضمّها، وسُمَى بوزن هُدًى.

والاسم: هو واحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة توصّلاً للابتداء بالساكن؛ لسلامة لغتهم من كلّ لُكْنَةٍ، وإذا وقعت في دَرْج الكلام لم تفتقر إلى شيء.

وذهب أبو عبيدة، معمر بن المثنى؛ إلى أنّ لفظ (اسم) هنا صلة زائدة، واستشهدوا بقول لبيد:

إلى الحولِ ثُمَّ اسمُ السلامِ عليكما   وَمَنْ يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذَرْ

فذَكَر اسمَ زيادةً؛ وإنّما أراد ثمّ السلام عليكما. واختلفوا في معنى زيادة (اسم) هنا، فقال قطرب: زيدت؛ لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه. وقال الأخفش: زيدت؛ ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرّك؛ لأنّ أصل الكلام: بالله.

واختلفوا أيضاً في معنى دخول الباء عليه: هل دخلت على معنى الأمر، والتقدير: ابدَأُ بسم الله؟ أو معنى الخبر، والتقدير: ابتدأت بسم الله، قولان: الأول للفرّاء، والثاني للزّجّاج؛ فبسم في موضع نصب على التأويلين. وقيل: المعنى ابتدائي بسم الله؛ فبسم في موضع رفع خبر الابتداء. وقيل: الخبر محذوف؛ أي: ابتدائي مستقر، أو ثابت بسم الله، وإذا قلت: بسم الله يُكتَب بغير ألف، استغناء عنها بباء الإلصاق في الخطّ واللفظ؛ لكثرة الاستعمال، بخلاف قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، فإنّها لم تحذف؛ لقلّة الاستعمال.

وعبارة البيضاوي هنا: والاسم عند أصحابنا البصريين، من الأسماء التي حذفت أعجازها؛ لكثرة استعمالها، وبنيت أوائلها على السكون، وأدخل عليها مبتدأ بها همزة الوصل؛ لأنّ من دأبهم أن يبتدؤا بالمتحرك، ويقفوا على الساكن، ويشهد له تصريفه على أسماء وأسامي وسُمِي، ومجيء سُمًى، كهُدًى لغة فيه، قال:

والله أَسْمَاكَ سُمًى مُباركَا   آثَرك اللَّهُ به إيثارَكَا

والقَلْبُ بعيدٌ غيرُ مطرد، واشتقاقه من السمو عند البصريين؛ لأنّه رفعة للمسمّىٰ وشعار له، ومن السمة عند الكوفيين، وأصله: وسم حذفت الواو، وعوضت عنها همزة الوصل؛ ليقلّ إعلاله، ورُدَّ: بأنّ الهمزة لم تعهد داخلة على ما حُذف صدره في كلامهم، ومن لغاته: سِمٌ، وسُمٌ، قال:

بِـسـمِ الَّـذي فـي كُـلِّ سُـورة سُـمُـهْ

والاسم إن أريد به اللفظ؛ فغير المسمّى؛ لأنّه يتألّف من أصوات مقطّعة غير قارة، ويختلف باختلاف الأمم والأعصار، ويتعدّد تارة ويتحد أخرى، والمسمّى لا يكون كذلك. وإن أريد به ذات الشيء؛ فهو عين المسمّى، لكنّه لم يشتهر بهذا المعنى. وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ المراد به اللفظ؛ لأنّه كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى، وصفاته عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها، عن الرفث وسوء الأدب، أو الاسم مقحم، كما في قول الشاعر:

إلى الحول ثمّ اسم السلام عليكما

كما مرّ.

وإنما قال: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: بالله؛ لأنّ التبرّك والاستعانة بذكر اسمه، أو للفرق بين اليمين والتيَمُّن، ولم تكتب الألف على ما هو وضع الخط؛ لكثرة الاستعمال، وطوّلت الباء عوضاً عنها.

ولفظ ﴿ٱللَّهِ﴾ أصله: إلٰهٌ على وزن فِعال، فحذفت الهمزة، وعُوِّض عنها الألف واللام؛ ولذلك قيل: يا آلله بالقطع، إلا أنّه يختص بالمعبود بالحق. والإلٰه في أصله يطلق على كل معبود، سواء بحقٍ، أم لا، ثم غلب على المعبود بالحق. واشتقاقه من أَلَهَ الرجل إلٰهةً، وألوهةً، وألوهِيَّةً بمعنى: عَبَدَ عبادة، ومنه تألَّه، واستَأْلَه. وقيل: من أَلِهَ إذا تحيَّر؛ لأنّ العقول تتحير في معرفته، أو من أَلِهْت إلى فلان؛ أي: سكنت إليه؛ لأن القلوب تطمئن بذكره، والأرواح تسكن إلى معرفته، أو مِن أَلَهَ إذا فزع من أمر نزل عليه، وأَلَهَهُ غَيْرهُ: أجاره، إذا العائذ يفزع إليه، وهو يجيره حقيقةً، أو بزعمه، أو مِن أَلِهَ الفصيل، إذا أولع بأمه، إذ

العباد يولعون بالتضرع إليه في الشدائد، أو مِن وَلِهَ، إذا تحير وتخبط عقله، وكان أصله: ولاهٌ، فقلبت الواو همزة؛ لاستثقال الكسرة عليها استثقال الضمة في وجوه، فقيل: إلٰهٌ كإعاء، وإشاح، وإسادة في وعاء، ووشاح، ووسادةٍ، ويرده الجمع على آلهة دون أولهاء، وقيل؛ أصله لاَهَ مِن لاَهَ يَلِيْهُ لِيْهاً ولاهاً، إذا احتجب وارتفع؛ لأنّه سبحانه وتعالى محجوب عن إدراك الأبصار، ومرتفع عن كل شيء مما لا يليق به، ويشهد له قول الشاعر:

كَحِلْفَةٍ من أبي رَبَاح يَشْهَدُها لاهَهُ الكُبَّارُ

فكأنه سبحانه يسمى بذلك؛ لاستتاره، واحتجابه عن إدراك الأبصار، وما أجمل قول الشريف الرضي الشاعر: تاهت العقلاء في ذاته تعالى وصفاته، لاحتجابها بأنوار العظمة وتحيروا أيضاً في لفظ الجلالة، كأنه انعكس إليه من تلك الأنوار أشعة بهر أعين المستبصرين، فاختلفوا: أسريانيٌّ هو أو عربي؟ أإسمٌ، أو صفةٌ؟ مشتقٌ؟ وممَّ اشتقاقه؟ وما أصله؟، أو غير مشتق؟ عَلَمٌ، أو غير علم؟.

وقيل: هو عَلَم مرتجل غير مشتق عند الأكثرين، وإليه ذهب سيبويه في أحد قوليه، فهو علم لذاته خاصة؛ لأنه يوصف ولا يوصف به؛ ولأنه لا بد من اسم تجري عليه صفاته، ولا يصلح له مما يطلق عليه سواه؛ ولأنه لو كان وصفاً لم يكن قول: لا إلٰه إلاّ الله توحيداً، مثل: «لا إلٰه إلا الرحمن»، فإنه لا يمنع الشركة.

والأظهر: أنه وصف في أصله، لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره، وصار له كالعَلَم، مثل: الثريا والصعق، أُجْرِيَ مجراه في إجراء الأوصاف عليه وامتناع الوصف به، وعدم تطرُّق احتمال إليه؛ لأنّ ذاته من حيث هو بلا اعتبار أمرٍ آخر حقيقي، أو غيره غير معقول للبشر، فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ، ولأنه لو دل على مجرد ذاته المخصوص، لما أفاد ظاهر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ معنى صحيحاً؛ ولأنَّ معنى الاشتقاق: هو كون أحد اللفظين مشاركاً للآخر في المعنى والتركيب، وهو حاصلٌ بينه وبين الأصول

المذكورة. وقيل: أصله: لاها بالسريانية، فعرِّب بحذف الألف الأخيرة، وإدخال اللام عليه، وتفخيم لامه إذا انفتح ما قبله، أو انضم، وقيل: مطلقاً. وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة، ولا ينعقد به صريح اليمين. وقد جاء لضرورة الشعر:

ألا لا بــارك لاهُ فــي ســهــيــل إذا مــا الله بــارك فــي الــرجــال

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: صيغة فعلان في اللغة، تدل عل وصف فعلي، فيه معنى المبالغة للصفات الطارئة، كعطشان، وغرثان.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: صيغة فعيل، تدلُّ على وصف فعلي، فيه معنى المبالغة للصفات الدائمة الثابتة؛ ولهذا لا يستغني بأحد الوصفين عن الآخر.

والرحمن أبلغ من الرحيم؛ لأنّ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً، كما في قطَّع، وقَطَع، وكُبَّار، وكُبار، وخرج بقولنا غالباً نحو: حذِرٍ، وحاذر، وتلك المبالغة تارة تؤخذ باعتبار الكميّة، وأخرى باعتبار الكيفية، فعلى الأول قيل: يا رحمن الدنيا؛ لأنّه يعم المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة؛ لأنّه يخص المؤمن. وعلى الثاني قيل: يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الآخرة؛ لأن النعم الأخروية كلَّها جسام، وأما النعم الدنيوية؛ فجليلة وحقيرة. وإنما قدم الرحمن، والقياس يقتضي الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى، لتقدم رحمة الدنيا؛ ولأنّه صار كالعَلَم من حيث إنه لا يوصف به غيره تعالى؛ لأنَّ معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها، وذلك لا يَصْدُق على غيره تعالى، فإن مَن عداه فهو مستفيض بلطفه، وإنعامه، يريد به جزيل ثوابٍ، أو جميل ثناءٍ، أو يزيح رقة الجنسية، أو حب المال عن القلب، ثم إنه كالواسطة في ذلك؛ لأنّ ذات النعم، ووجودها، والقدرة على إيصالها، والداعية الباعثة عليه، والتمكن من الانتقام بها، والقوى التي بها يحصل الانتفاع، إلى غير ذلك من خلقه لا يقدرعليها أحدٌ. أو لأنَّ الرحمن لما دل على جلائل النعم، وأصولها، ذكر الرحيم؛ ليتناول ما خرج منها، فيكون كالتتمة والرديف له، أو للمحافظة على رؤوس الآي.

وأمَّا وصف أهل اليمامة مسيلمة الكذاب به مضافاً، فقالوا: رحمن اليمامة، فمِن تَعَنُّتِهم، قال شاعرهم يمدح مسيلمة الكذاب:

سَمَوْتَ بِٱلْمَجْدِ يَا ٱبْنَ ٱلأَكْرَمِينِ أَبَا   وَأَنْتَ غَيْثُ ٱلْوَرَىٰ لاَ زِلْتَ رَحْمَانَا

وقد هجاه بعض المؤمنين فقال:

سَمَوْتَ بِٱلْخَبْثِ يَا ٱبْنَ ٱلأَخْبَثَيْنِ أَبَا   وَأَنْتَ شَرُّ ٱلْوَرَىٰ لاَ زِلْتَ شَيْطَانَا

والبحث السادس في بلاغتها:

فمن بلاغتها: مجازٌ بالحذف في متعلَّق ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، والأولى تقديره: فعلاً خاصّاً مؤخراً على مذهب الكوفيين؛ لأنّ الأصل في العمل أن يكون للأفعال، ولوقوعه في القرآن، والحديث، كقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وكقوله ﷺ: «باسم ربّي وضعت جنبي»، والتمسّك بالأصل أولى؛ ولأنه يفيد التجدد الاستمراري، وتقديره: اسما خاصاً مؤخراً على مذهب البصريين، لأنّه يفيد الديموميّة والثبوت، كأنّما الابتداء باسم الله، حتم دائم في كل ما تمارسه من عمل، وتردّده من قول. وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتابنا «الباكورة الجنية في إعراب الآجرومية».

ومنها: الإيجاز بإضافة العام إلى الخاصّ في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ويسمى إيجاز قصر.

ومنها: الاستعارة المَكْنية التبعية، إذا جعلنا الباء للاستعانة؛ لتشبيهها بارتباط يحصل بين المستعين، والمستعان به، وإذا جعلنا الباء للإلصاق يكون في الكلام مجاز مرسل، علاقته المحليّة، نحو: مررت بزيد؛ أي: ألصقت مروري بمكان يقرب إلى زيد، لا بزيد نفسه.

والبحث السابع في إعرابها:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الباء: حرف جرّ واستعانة، أو تبرّك، (اسمِ): مجرور بالباء، وعلامة جرّه كسرة ظاهرة في آخره. (اسمِ): مضاف، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، مجرور على التعظيم، وعلامة جرّه كسرة ظاهرة في آخره. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: صفة أُولى للجلالة، مجرور بكسرة ظاهرة في آخره. ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾:

صفة ثانية له، وَالجار والمجرور متعلّق بواجب الحذف؛ لشبهه بالمثل. قدّره البصريّون اسماً خاصّاً مؤخراً، تقديره هنا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قِراءَتكم كتابي، أي: حاصلة ببسم الله... الخ. وقدّره الكوفيون فعلاً خاصّاً مؤخراً، تقديره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اقرؤوا كتابي وقد بسطنا الكلام في إعراب البسملة، وما يتعلّق به من العلل، والتقسيمات في كتابنا المذكور، فراجعه إن شئت الخوض فيه.

البحث الثامن في فوائد تتعلّق بالبسملة:

الأولى: يقال لمن قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مُبَسْمِل، وهو ضربٌ من النحت اللغوي.

وهو لغةً: مطلق الاختصار.

واصطلاحاً: أن يُخْتصر حرفٌ، أو حرفان، أو أكثر من كلمة، أو كلمتين، أو أكثر، كـ: ح، من التحويل، و: اهـ، من انتهى، وإلخ: من إلى آخره. وبَسْمَلَ: من البسملة وغير ذلك مما سيأتي، وقد ورد ذلك في شعر لعمر بن أبي ربيعة، حيث قال:

لَقَدْ بَسْمَلَتْ لَيْلَى غَدَاةَ لِقَيْتُها فَيَا حَبَّذا ذَاكَ الحَبِيبُ المُبَسْمِلُ

قال الماورديُّ: ويقال لمن قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ مبسمل، وهي لغةٌ: مولَّدةٌ(١). قلت: المشهور عن أهل اللغة: بسمل، قال يعقوب بن السكيت، والمطرّزي، والثعالبيُّ، وغيرهم من أهل اللغة: بسمل الرجل إذا قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾. ويقال: قد أكثرتَ من البسملة؛ أي: من قول بسم الله، ومثله: حَوْقَلَ الرجل إذا قال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، وهلَّل إذا قال: لا إلٰه إلا الله، وسَبْحَلَ إذا قال: سبحان الله، وحَمْدَلَ إذا قال: الحمد لله، وحَيْصَلَ إذا قال: حيَّ على الصلاة، وجَعْفَلَ إذا قال: جعلت فداك، وطَبْقَلَ إذا قال: أطال الله

---

(١) القرطبي.

بقاءك، ودَمْعَزَ إذا قال: أدام الله عزك، وحَيْفَلَ إذا قال: حيّ على الفلاح، ولم يذكر المطرّزيُّ الحيصلة إذا قال: حيّ على الصلاة.

وهذا كله من النحت المولد، والنحت عند العرب خاصٌّ بالنسبة، أي: إنّهم يأخذون اسمين، فينحتون منهما اسماً واحداً فينسبون إليه، كقولهم: حضرميٌّ، وعبقسيٌّ، وعبشسيٌّ: نسبة إلى حضرموت، وعبد القيس، وعبد شمس، على أنَّ الفراء ذكر عن بعض العرب معنى: عَشَرةٌ فأَحْدِهُنَّ لي: صَيِّرْهُنْ لي أحدَ عشرُ. وقال الفرَّاء: معنى اللهم: يا اللَّهُ أُمَّنَا بخيرٍ؛ أيَ: اقْصدنا بخير، فَكَثُرَتْ في كلام العرب. ونحَتَ العَرَبُ مِنْ اسميَنِ، فقيل عن الصَّلْدَمِ: إنه من الصَّلْدِ والصَّدْم، ومنه: بَلْحَارثِ لبني الحارثِ، وَلعَلَّ الحَقْلَدَ: وهو السَّيِّءُ الخُلُق، والثقيلُ الروْحِ منحوتٌ من الحِقْدِ، والثِقلِ. ونَحتُوا من اسم وحرفٍ، فقالوا: مِنَ لا شيء: تَلاَشَي، ونحَتَوا من حرفين، فقال الخليل: إنَّ كَلمةَ (لن) منحوتة من (لا) و(أن)، وإنها تضمنت بَعْدَ تركيبها، معنًى لم يكُنْ في أَصْلَيْها مجتمعين. وإنما أوردنا هذه الأقوال؛ لا لأنها قاطعةٌ فهي موضع خلاف، كما رأيت، ولكننا استأنسنا بها؛ لتتوافر همُّ المشتغلين باللغة على النحت، ففيه ثروةٌ جديدةٌ للغتنا، وتسهيلٌ لكثير من التعابير الحديثة التي نفتقر إليها.

والثانية: كانت[1] قريش قبل البعثة تكتب في أوّل كتابها باسمك اللهمّ، وكان أميّةُ بن أبي الصلت، أوّلَ من كتب باسمك اللهمّ، إلى أن جاء الإسلام، ونزلت ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. وروى محمد بن سعد في طبقاته: أنّ رسول الله ﷺ؛ كان يكتب كما تكتب قريش باسمك اللهمّ، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ فكتب باسم الله، حتى نزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، فكتب بسم الله الرحمن، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فكتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) الدرويش.

والثالثة: افتتح[1] الله سبحانه وتعالى كتابه الكريم بالبسملة؛ إرشاداً لعباده أن يفتتحوا أعمالهم بها، وقد ورد في الحديث: «كلّ أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبترُ»؛ أي: مقطوع الذَّنَبِ ناقصٌ. وقد كان العرب قبل الإسلام، يبدؤون أعمالهم بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسم اللات، أو باسم العزّى، وكذلك كان يفعل غيرهم من الأمم، فإذا أراد امرؤ منهم أن يفعل أمراً؛ مَرْضاةً لملكٍ، أو أميرٍ يقول: أَعْمَلُهُ باسمِ فلان، إنَّ ذلك العملَ لا وُجودَ له، لولا ذلك الملك، أو الأمير.

وإذاً: فمعنى ابتدىءُ عملي باسم الله الرحمن الرحيم: أنني أعمله بأمر الله، ولله، لا لِحَظِّ نفِسي وشهواتها، ويمكن أن يكون المراد: أنَّ القدرة التي أنشأْتُ بها العمل هي من الله، ولولا ما أعطاني من القدرة لم أفعل شيئاً، فأنا أبرأُ من أن يكون عملي باسمي بل هو باسمه تعالى، لأنني أستمدُّ القوة والعون منه، ولولا ذلك لم أقدر على عمله. وإذاً فمعنى البسملة التي جاءت أول الكتاب الكريم: أنَّ جميع ما في القرآن من الأحكام، والشرائع، والأخلاق، والآداب، والمواعظ هو لله، ومن الله، ليس لأحد غيره فيه شيءٌ.

وكأنّه قال: اقرأ يا محمدا! هذه السورة ببسم الله الرحمن الرحيم؛ أي: اقرأها على أنّها من الله لا منك، فإنّه أنزلها عليك؛ لتهديهم بها إلى ما فيه خيرهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وكذلك كان النبي ﷺ، يقصد من تلاوتها على أُمّته؛ أنه يقرأ عليهم هذه السورة باسم الله لا باسمه؛ أي: أنّها من الله لا منه، فإنّما هو مبلّغ عنه تبارك وتعالى، كما جاء في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

والرابعة: ندب[2] الشرع إلى ذكر البسملة في أوّل كلّ فعل، كالأكل،

---

(١) المراغي.

(٢) القرطبي.

والشرب، والنحر، والجماع، والطهارة، وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال. قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وقال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾. وقال رسول الله ﷺ: «أغلق بابك، واذكر اسم الله، واطفىء مصباحك، واذكر اسم الله، وخمّر إناءك، واذكر اسم الله، وأَوْكِ سقاءك، واذكر اسم الله»، وقال: «لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنّه إن يقدّر بينهما ولدٌ في ذلك لم يضرّه شيطان أبداً».

وقال لعمر بن أبي سلمة: «يا غلام سمّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»، وقال: «إنّ الشيطان ليستحلُّ الطعام إلاّ أن يُذكَرَ اسم الله عليه»، وقال: «من لم يذبح فليذبح باسم الله». وشكا إليه عثمان بن أبي العاص وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرّات: أعوذ بعزّة الله وقدرته من شرّ ما أجد وأحاذر»، هذا كلّه ثابت في الصحيح.

وروى ابن ماجه، والترمذي عن النبي ﷺ قال: «سترُ ما بين ما أعين الجنّ وعورات بني آدم إذا دخل أحد الكنيف أن يقول: بسم الله». وروى الدارقطني عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ، إذا مسّ طَهورَه سمّى الله تعالى ثمّ يفرغ الماء على يديه».

الخامسة: روي عن عليّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه[1] ـ: أنه قال: في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ شفاء من كلّ داء، وعون على كلّ دواء، وأمّا الرحمن: فهو عون لكلّ من آمن به، وهو اسم لم يسمّ به غيره تعالى، وأمّا الرحيم: فهو لمن تاب، وآمن، وعمل صالحاً.

وقد فسّره بعضهم على الحروف. فروي عن عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ: أنه سأل رسول الله ﷺ، عن تفسير ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؟ فقال:

---

(١) قرطبي.

أمّا الباء: فبلاء الله، وروحه، ونصره، وبهاؤه، وأمّا السين: فسناء الله، وأما الميم: فمُلْكُ الله، وأمّا الله: فلا إلٰه غيره. وأما الرحمن: فالعاطف على البَرِّ والفاجر من خلقه. وأمّا الرحيم: فالرفيق بالمؤمنين خاصّةً. وروي عن كعب الأحبار: أنّه قال: الباء: بهاء الله، والسين: سناؤه، فلا شيء أعلى منه، والميم: ملكه، وهو على كلّ شيء قدير، فلا شيء يُعازُّهُ.

وقد قيل: إنّ كلّ حرف هو افتتاح اسم من أسمائه، فالباء: مفتاح اسمه بصير، والسين: مفتاح اسمه سميع، والميم: مفتاح اسمه مليك، والألف: مفتاح اسمه الله، واللام: مفتاح اسمه لطيف، والهاء: مفتاح اسمه هادي، والراء: مفتاح اسمه رازق، والحاء: مفتاح اسمه حليم، والنون: مفتاح اسمه نور، ومعنى هذا كلّه: دعاء الله تعالى عند افتتاح كلّ شيء.

إلى هنا انتهى ما يتعلّق بالاستعاذة، والبسملة في تاريخ: ١٤١٧/٢/٢٨ هـ.

والآن نريد الشروع في تفسير (الفاتحة) بعون الله سبحانه، وتوفيقه، إن شاء الله تعالى، وصلّى الله وسلّم، على سيدّنا محمد، خاتِم النبيين، وعلى آله، وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين. آمين.

والله أعلم

* * *

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة مكية، نزلت بعد المدَّثِّر، وهو قول أكثر العلماء، وقيل: نزلت بالمدينة، وهو قول مجاهد، وقيل: نزلت مرّتين: مرّة بمكة، ومرّة بالمدينة. وسبب تكرار نزولها؛ الدلالة على شرفها وفضلها. وقيل: نزل نصفها بمكة ونصفها بالمدينة، حكاه أبو الليث السمرقندي في تفسيره، والقول[1] الأول أصحّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، وهذه الآية في سورة الحجر و(الحجر) مكية بالإجماع، ولا خلاف أنّ فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنّه كان في الإسلام قطّ صلاة بغير ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدلّ على هذا قوله ﷺ: «لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب».

وهي سبع آيات، وسبع وعشرون كلمة، ومائة وأربعون حرفاً. وقال القرطبي: أجمعت الأمّة على أنّ فاتحة الكتاب سبع آيات، إلاّ ما روي عن حسين الجعفي: أنها ستّ آيات، وهذا شاذّ، وإلاّ ما روى عن عمرو بن عبيد: أنّه جعل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ آية، وهي على هذا ثمان آيات، وهذا شاذ أيضاً، ويردّ هذين القولين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾، وقوله ﷺ فيما يحكيه عن ربّه: «قسمت الصلاة».

وأجمعت الأمة أيضاً على أنها من القرآن، فإن قيل: لو كانت من القرآن لأثبتها ابن مسعود في مصحفه، ولمّا لم يثبتها دلّ على أنّها ليست من القرآن كالمعوذتين عنده. فالجواب: ما ذكره أبو بكر الأنباري قال: حدثنا الحسن بن الحباب بسنده، عن إبراهيم قال: قيل لعبد الله بن مسعود: لم لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها مع كلّ سورة. قال أبو بكر: يعني:

---

(١) القرطبي.

أنّ كلّ ركعة سبيلها أن تُفتَح بأمّ القرآن قبل السورة المتلُوَّة بعدها، فقال: اختصرت بإسقاطها، ووَثِقْتُ بحِفْظِ المسلمين لها، ولم أُثْبِتها في موضع فيلزمني أن أكْتُبها مع كلّ سورة، إذ كانت تتقدَّمها في الصلاة.

أسماؤُها:

ولها نحوُ عشرين اسماً:

الأول: فاتحة الكتاب؛ لأنّها مُفْتَتَحُهُ، ومَبْدَؤُهُ، فكأنّها أصله ومنشؤه؛ ولذلك تسمَّى أساس القرآن؛ أو لأنّها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله، والتعبّد بأمره، ونهيه، وبيان وعده، ووعيده.

والثاني: سورة الكنز؛ لأنها نزلت من كنز تحت العرش.

والثالث: الوافية.

والرابع: الكافية؛ لأنّها وافية كافية في صحة الصلاة عن غيرها، عند القدرة عليها، وقيل: سمّيت وافية؛ لأنها لا تَقْبَلُ التنصيف؛ لأنّه لو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ، ولو نصفت (الفاتحة) في ركعتين لم يُجزِىء.

والخامس: الشافية.

والسادس: سورة الشفاء؛ لقوله ﷺ: «هي شفاء من كلّ داء».

والسابع: السبع المثاني؛ لأنها سبع آيات تُثَنَّىٰ في كلّ ركعة وتكرّر.

والثامن: أمّ القرآن.

والتاسع: سورة النور.

والعاشر: سورة الرُّقية.

والحادي عشر: سورة الحمد والشكر.

والثاني عشر: سورة الدعاء.

والثالث عشر: سورة تعليم المسألة؛ لاشتمالها على ذلك.

والرابع عشر: سورة الدعاء، لاشتمالها عليه.

والخامس عشر: سورة المناجاة.

والسادس عشر: سورة التفويض.

والسابع عشر: أمّ القرآن.

والثامن عشر: أمّ الكتاب.

والتاسع عشر: سورة السؤال.

والعشرون: سورةُ الصلاة؛ لِخَبرِ: «قسمت الصلاة ـ أي: الفاتحة ـ بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، يقول الله: حمدني عبدي» الحديث، وكثرة الأسماء يدلّ على فضلها وشرفها.

والسورة: طائفة من القرآن، مترجمة باسم مخصوص تتضمّن ثلاث آيات فأكثر، وفاتحة الشيء: أوّله، وهي مصدر بمعنى المفعول، أو صفة جعلت اسماً للسورة، والتاء: للنقل كالذبيحة، وإضافة السورة إلى (الفاتحة)، أو إلى غيرها من إضافة العام إلى الخاص، كشجر الأراك، وعلم النحو وهي؛ أي: إضافة (الفاتحة) إلى الكتاب لاميّة؛ لأنّ المضاف إليه ليس ظرفاً للمضاف ولا جنساً له، وهو؛ أي: القرآن يطلق على مجموع ما في المصحف، وعلى القدر المشترك بينه وبين أجزائه.

والله أعلم

* * *

فصل في ذكر فضائلها

فقد دلّ على فضلها أحاديث كثيرة.

فمنها: ما أخرجه البخاري، عن أبي سعيد بن المعلّى قال: كنت أصلّي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه ثمّ أتيته فقلت: يا رسول الله! إنّي كنت أصلّي، فقال: «ألم يَقُلِ الله: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟ ثمّ قال لي: لأعلّمنّك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد، ثمّ أخذ بيدي»، فلمّا أراد أن يخرج قلت له: يا رسول الله! ألم تقل: لأعلّمنك سورة هي أعظم السور في القرآن؟ قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيتُه». رواه مالك في الموطأ عنه، وقال فيه: إنّ النبي ﷺ، نادى أُبيّ بن كعب، وهو يصلّي، وذكر نحوه.

ومنها: ما روي عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله: «ما أنزل الله في التوراة، ولا في الإنجيل مثل أمّ القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل»، أخرجه الترمذي، والنسائي.

ومنها: ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أمّ القرآن، وأمّ الكتاب، والسبع المثاني»، أخرجه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

ومنها: ما روي عن ابن عباس قال: «بينا جبريل قاعد عند رسول الله ﷺ، سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء، فتح اليوم ولم يفتح قطّ إلاّ اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قطّ إلاّ اليوم، فسَلَّم وقال: أَبْشِر بنورين أوتيتَهما لم يؤتَهما نبيّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة» لن تقرأ بحرف منها إلاّ أُعطيتَه، أخرجه مسلم. قوله: (سمع نقيضاً) بالقاف والضاد المعجمة؛ أي: صوتاً كصوت فتح الباب.

ومنها: ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن؛ فهي خِداج، هي خداج، هي خداج غير تمام». قال:

فقلت: يا أبا هريرة! إنّا أحياناً نكون وراء الإمام، فغمز ذراعي وقال: اقرأ بها في نفسك يا فارسيُّ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى»: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي) الحديث، أخرجه مسلم.

وقال ابنُ عبد البرّ:[1] الصحيح من القول: إلغاء تلك الركعة التي لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، ويأتي بركعة بدلاً منها، كمن أسقط سجدةً سهواً، وهو اختيار ابن القاسم. وقال الحسن البصري: وأكثر أهل البصرة. والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومي المدني: إذا قرأ بأمّ القرآن مرّة واحدة في الصلاة أجزأه، ولم يكن عليه إعادة؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأمّ القرآن، وهي تامّة؛ لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأمّ القرآن»، وهذا قد قرأ بها. قلت: ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها في كلّ ركعة، وهو الصحيح، ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها في أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف. وقال أبو حنيفة والثوريّ، والأوزاعي: إنْ تَرَكَها عامداً في صلاته كلّها، وقرأ غيرها أجزأه، على اختلاف عن الأوزاعي في ذلك. وقال أبو يوسف، ومحمد بن الحسن: أقلّه ثلاث آيات.

وجه تسميتها: سمّيت بفاتحة الكتاب: إمّا لافتتاح المصاحف، والتعليم، وقراءة القرآن، والصلاة بها؛ وإمّا لأنّ الحمد فاتحة كلّ كلام؛ وإمّا لأنها أوّل سورة نزلت؛ وإمّا لأنّها أوّل ما كتبت في اللوح المحفوظ؛ وإمّا لأنّها فاتحة أبواب المقاصد في الدنيا وأبواب الجنان في العقبى، وقيل: غير ذلك.

وهذه السورة الكريمة كلّها محكم، لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

والله أعلم

* * *

(١) القرطبي.

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾.

التفسير وأَوْجُهُ القراءة

استدراكٌ في بحث البسملة: والباء[1] في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: حرف خافض يخفض ما بعده، مثل: من وعن، والمتعلق به مضمر محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، تقديره: أبدأ باسم الله أو باسم الله أبدأ أو أقرأ. وإنما طُوّلت الباء في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، وأُسقطت الألف؛ طلباً للخفة، وقيل: لمّا أسقطوا الألف عوضوا طولها عن الألف المحذوفة، وأثبتت الألف في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ لقلّة استعماله. وقيل: إنّما طوّلوا الباء؛ لأنّهم أرادوا أن يستفتحوا كتاب الله بحرف معظم. وقيل: الباء حرف منخفض الصورة، فلمّا اتصل باسم الله ارتفع واستعلى، وقيل: إنّ عمر بن عبد العزيز كان يقول لكُتّابه: طوّلوا الباء من ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وأظهروا السين، ودوّروا الميم؛ تعظيماً لكتاب الله تعالى.

والاسم: هو المسمى عينه، وذاته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾، ثمّ نادى الاسمَ فقال: ﴿يَا يَحْيَىٰ﴾، وقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾، و﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾، وهذا القول ليس بقوي. والصحيح المختار: أنّ الاسم غير المسمى، وغير التسمية، فالاسم: ما تُعرَف به ذات الشيء، وذلك؛ لأنّ الاسم هو الأصوات المقطّعة، والحروف المؤلّفة على ذات ذلك الشيء، فثبت بهذا أنّ الاسم غير المسمى، وأيضاً: قد تكون الأسماء كثيرة، والمسمّى واحد، كقوله

---

(١) الخازن.

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقد يكون الاسم واحداً، والمسمَّيات به كثيرة، كالأسماء المشتركة، وذلك يوجب المغايرة، وأيضاً فقوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أمرٌ أن يُدعىٰ اللَّهُ تعالى بأسمائه، فالاسم آلة الدعاء، والمدعو هو الله تعالى، فالمغايرة حاصلة بين ذات المدعو، وبين اللفظ المدعو به.

وأجيب عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ بأنّ المراد: ذات الشخص المعبّر عنه بيحيى، لا نفس الاسم. وأجيب عن قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ و﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾: بأنّ معنى هذه الألفاظ: يقتضي إضافة الاسم إلى الله تعالى، وإضافة الشيء إلى نفسه محال. وقيل: كما يجب تنزيه ذاته تعالى عن النقص فكذلك يجب تنزيه أسمائه.

وكون الاسم غير التسمية، هو أنّ التسمية: عبارة عن تعيين اللفظ المعيّن؛ لتعريف ذات الشيء، والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة، والفرق ظاهر مما ذكرنا. واختلفوا في اشتقاق الاسم كما مرّ، فقال البصريون: من السموّ، وهو العلوّ، فاسم الشيء ما علاه حتى ظهر به، وعلا عليه، فكأنه علا على معناه، وصار عَلَماً له. وقال الكوفيون: من السمة، وهي العلامة، فكأنّه علامة لمسمّاه. وحجة البصريين: لو كان الاسم اشتقاقه من السمة؛ لكان تصغيره وسيماً، وجمعه أوساماً، وأجمعوا على أنّ تصغيره سُمَيٌّ، وجمعه أسماء، وآسام.

﴿ٱللَّهِ﴾: هو اسم[1] خاص لله تعالى، تفرّد به الباريء سبحانه وتعالى، ليس بمشتقّ، ولا يشركه فيه أحد، وهو الصحيح المختار. دليله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾. وقيل: هو مشتق من أَلَهَ يَأْلَهُ إلاهةً من باب فتح، مثل: عبد الرجل يعبد عبادة. دليله قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾؛ أي: وعبادتك على قراءة قُرَّاء كسر الهمزة. ومعناه: المستحق للعبادة دون غيره. وقيل: مِن الوَلَهِ، وهو الفزع؛ لأن الخلق يولهون إليه؛ أي: يفزعون إليه في حوائجهم. قال بعضهم:

وَلِهْتُ إِلَيْكُم في بَلَايا تَنُوبُنِي ... فَأَلْفَيْتُكُم فِيها كَرائِمَ مَحْتِدِ

---

(١) الخازن.

وقيل: أصلُه أَلَهَ، يقال: أَلَهْتُ إلى فلان، أي: سكنت إليه، فكأنّ الخلق يسكنون إليه ويطمئنّون بذكره. وقيل: أصله وِلاَهٌ، فأبدلت الواو همزة، سُمِّي بذلك؛ لأنَّ كلّ مخلوق والهٌ نحوه: إمَّا بالتحيُّر، أو بالإرادة، ومن هذا قيل: الله محبوبُ كلِّ الأشياء، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

ومن خصائص هذا الاسم: أنّك إذا حذفت منه شيئاً، بقي الباقي يدّل عليه، فإن حذفت الألف بقي لله، وإن حذفت اللام، وأثبَتَّ الألف بقي إلٰه، وإن حذفتهما بقي له، وإن حذفت الألف واللامين معاً، بقي هو، والواو عِوَض عن الضمّة.

وذهب بعضهم إلى أنّ هذا الاسم هو الاسم الأعظم؛ لأنّه يدّل على الذات، وباقي الأسماء تدلّ على الصفات.

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرقُّ من الآخر. وقيل: هما بِمَعنًى؛ مثل: ندمان ونديم، ومعناهما: ذو الرحمة، وإنما جمع بينهما؛ للتأكيد. وقيل: ذُكِرَ أحدُهما بعد الآخر؛ تطميعاً لقلوب الراغبين إليه. وقيل: الرحمن فيه معنى العموم، والرحيم فيه معنى الخصوص. فالرحمن: بمعنى الرزاق في الدنيا، وهو على العموم لكافة الخلق المؤمن والكافر، والرحيم: بمعنى الغفور الكافي للمؤمنين في الآخرة، فهو على الخصوص؛ ولذلك قيل: رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة، ورحمة الله؛ إرادة الخير والإحسان لأهله. وقيل: هي ترك عقوبة من يستحق العقاب، وإسداء الخير والإحسان إلى من لا يستحق، فهو على الأول صفة ذات، وعلى الثاني صفة فعل. وقيل: الرحمن بكشف الكروب، والرحيم بغفر الذنوب. وقيل: الرحمن بتبيين الطريق، والرحيم بالعصمة والتوفيق، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقائق أسمائه. اهـ. من الخازن.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: جنس الحمد، والثناء الحسن مستحَقٌّ لله سبحانه وتعالى وحده، فلا يُستَحَق لغيره؛ لأنّه الفاعل المختار. والأولى[1] من

---

(١) عمدة التفاسير.

الاحتمالات التسعة، الجارية في جملة الحمدلة؛ أن تكون (أل) جنسية، واللام للاستحقاق كما في حلّنا؛ لأنّه يلزم من استحقاق الجنس استحقاق الإفراد؛ أي: جنس الحمد مستحَقّ لله سبحانه؛ وذلك لأنّ (أل) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: إمّا جنسيّة؛ أي: جنس الحمد، أو استغراقية؛ أي: كلّ الحمد بأنواعه، أو للعهد؛ أي: الحمد المعهود، وهو حَمْدُ الله لنفسه، وحَمْدُ عباده له، واللام في ﴿لِلَّهِ﴾: إما للاستحقاق، أو للمُلْك، أو للاختصاص، فهذه ثلاثة في الثلاثة الأولى بتسعة. وقال النسفي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لفظه خبر، كأنّه سبحانه يخبر[1]، أنّ المستحِقّ للحمد هو الله تعالى، ومعناه الأمر؛ أي: قولوا: الحمد لله، وفيه تعليم الخلق كيف يحمدونه.

و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لغة[2]: هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، سواء كان في مقابلة نعمة أم لا.

وعُرفاً: فعل يَدُلُّ على تعظيم المنعِم بسبب كونه منعِماً، سواء كان قولاً باللسان؛ بأن يثني عليه به، أو اعتقاداً بالجنان، بأن يعتقد اتصافه بصفات الكمال، أو عملاً وخدمة بالأعضاء، والأركان؛ بأن يجهد نفسه في طاعته، فمورد العرفي؛ أي: محلُّه عامّ، ومتعلَّقه؛ أي: سببه الباعث عليه، وهو النعمة خاصٌّ، والشكر: مقابلة النعمة قولاً، وعملاً، واعتقاداً، قال بعضهم:

وَما كان شكري وافياً بنوالكم ولكنني حاولت في الجهد مذهبا
أفادتكم النعماءُ منّي ثلاثةً يَدي ولساني والضميرَ المُحجَّبا

يعني: أنّ الشكر هو الاعتراف بالفضل، إزاء نعمةٍ صدرت من المشكور، بالقلب، أو باللسان، أو باليد، أو غيرها من الأعضاء، كما في البيت: يريد الشاعر أنَّ يدي، ولساني، وقلبي لكم فليس في القلب إلاّ نصحكم ومحبتكم، ولا في اللسان، إلاّ الثناء عليكم ومدحكم، ولا في اليد، وسائر الجوارح، والأعضاء؛ إلاّ مكافأتكم وخدمتكم.

---

(١) النسفي.
(٢) البيضاوي.

والمدح: هو الثناء على الجميل مطلقاً. تقول: حمدت زيداً على علمه، وكرمه، ولا تقول: حمدته على حسنه، بل مدحته. وقيل: هما أخوان. والشكر أَعَمُّ منهما من وجه، وأَخَصُّ من آخر. وقيل: الحمد باللسان قولاً، والشكر بالأركان فعلاً، والذمُّ نقيضُ الحمد، والكفران نقيض الشكر، والثناء يستعمل في المدح، والذَّم على السواء، فيقال: أثنَى‌الله عليه شرًّا كما يقال: أثنَىٰ عليه خيراً.

ورفعه بالابتداء، وخبره ﴿لِلَّهِ﴾، وأصله النصب، وقد قرىء به؛ لأنّه من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة أقيمت مقامها، لا تكاد تستعمل معها، كسقياً لك، ورعياً لك. وإنّما عدل عنه إلى الرفع؛ ليَدُلَّ على عموم الحمد، وثباته دون تجدده، وحدوثه، ولهذا أجمع[1] عليها القرّاء السبعة. وقراءة النصب تحتاج إلى عامل مقدر من مادة الحمد، واللام عليها؛ للتبيين، تقديره: أحمد الله، أو حمدت الله، فيتخصَّص الحمد؛ بتخصيص فاعله، وأَشْعَرَ بالتجدد والحدوث، واللام متعلّقة بالعامل المحذوف: كـ: لام سقياً لك، وقدر بعضهم عاملاً للنصب فعلاً غير مشتق من الحمد؛ أي: أقول الحمد لله، أو إلزموا الحمد لله، كما حذفوا من نحو: اللهم وضبعاً وذئباً، والأول هو الصحيح؛ لدلالة اللفظ عليه، وقُرىء ﴿الحمدِ لِلَّهِ﴾[2] باتباع الدال اللام، وبالعكس تنزيلاً لهما، من حيث إنهما يستعملان معاً منزلة كلمة واحدة. قال الشيخ داود القَيْصري[3]: الحمد قوليٌّ، وفعليٌّ، وحاليٌّ، أمّا القولي: فحمد اللسان، وثناؤه عليه بما أثنى به الحق على نفسه، على لسان أنبيائه عليهم السلام، وأمّا الفعليّ: فهو الإتيان بالأعمال البدنية من العبادات، والخيرات؛ ابتغاءَ لوجه الله تعالى، وتوجهاً إلى جنابه الكريم؛ لأنّ الحمد كما يجب على الإنسان باللسان، كذلك يجب عليه بحَسَب كلّ عضو، بل على كلّ عضو، كالشكر، وعند كلّ حال من الأحوال، كما قال النبي ﷺ «الحمد لله على كلّ حال»، وذلك لا يمكن، إلاّ باستعمال كلّ عضو فيما خلق لأجله، على الوجه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البيضاوي.

(٣) روح البيان.

المشروع؛ عبادةً للحق تعالى وانقياداً لأمره، لا طلباً لحظوظ النفس، ومرضاتها. وأما الحاليّ: فهو الذي يكون بحَسَب الروح، والقلب، كالاتصاف بالكمالات العلمية، والعملية، والتخلّق بالأخلاق الإلٰهية؛ لأنّ الناس مأمورون بالتخلّق بأخلاق الله تعالى، بلسان الأنبياء عليهم السلام؛ لتصير الكمالات مَلَكَةً نفوسهم وذواتهم.

وورد في الأثر[١]: (الحمد رأس الشكر ما شكر اللَّهَ عبدٌ لم يحمده). وقد جعله رأس الشكر؛ لأنّ ذكر النعمة باللسان، والثناء على من أسداها، يشهرها بين الناس، ويجعل صاحبها القدوة المؤتسَىٰ به، أمّا الشكر بالقلب: فهو خفِيٌّ قلَّ من يعرفه، وكذلك الشكر بالجوارح مبهمٌ لا يستبين لكثير من الناس.

﴿لِلَّهِ﴾ الله[٢]: عَلَم على المعبود بحقّ، المستجمِع لجميع صفات الكمال، عربي، مرتجل، جامد، أي: غير مشتقّ، وهو الصحيح. وعند الزمخشري: أنّه اسم جنس صار علماً بالغلبة من أَلِهَ بمعنى: تحيّر. والإلٰه: هو المعبود سواء بحقّ، أم بباطل، ثمّ غلب في عرف الشرع على المعبود بحقّ، وهو الذات الواجب الوجود. اهـ. كرخي.

وقد ورد في فضل ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أحاديث[٣]:

منها: ما أخرجه أحمد، والنسائي، والحاكم، وصححه، والبخاري في «الأدب المفرد» عن الأسود بن سريع قال: قلت: يا رسول الله! ألا أنشدك محامد حمدت بها ربّي تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إنّ ربّك يحبّ الحمد».

وأخرج الترمذي وحسّنه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والبيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إلٰه إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله».

وأخرج ابن ماجه، والبيهقي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.
(٣) الشوكاني.

أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلاّ كان الذي أعطىٰ أفضل مما أخذ».

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والقرطبي في «تفسيره» عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لو أنّ الدنيا كلّها بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثمّ قال: الحمد لله لكان الحمد أفضل من ذلك»، قال القرطبي: معناه: لكان إلهامُه الحمدَ، أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا؛ لأنّ ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى.

وأخرج البيهقي في «شُعَب الإيمان» عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يُنْعَمُ عليه بنعمة، إلاّ كان الحمد أفضل منها».

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف» نحوه عن الحسن مرفوعاً.

وأخرج مسلم، والنسائي، وأحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان» الحديث.

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي وحسّنه، وابن مردويه، عن رجل من بني سليم أنّ رسول الله ﷺ قال: سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملأ الميزان، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والطهور نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر».

وغير ذلك من الأحاديث الواردة.

وفي «القرطبي»[1]: اختلف العلماء: أَيُّما أفضل؟ قول العبد: الحمد لله ربّ العالمين أو قوله: لا إلٰه إلاّ الله؟ فقالت طائفة: قول الحمد لله ربّ العالمين أفضل؛ لأنّ في ضمنه التوحيد الذي هو لا إلٰه إلاّ الله، ففي قوله: الحمد لله توحيد، وحمد، وفي قوله: لا إلٰه إلاّ الله توحيد فقط. وقالت طائفة: لا إلٰه إلاّ الله أفضل؛ لأنّها تدفع الكفر، والإشراك، وعليها يقاتل الخلق. قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلٰه إلا الله». واختار هذا القول ابن عطيّة. قال: ويدّل على ذلك: قول النبي ﷺ: «أفضل ما قلت أنا، والنبيون من قبلي: لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له». متفق عليه.

---

(١) الجمل.

ولمّا ذكر سبحانه، استحقاقه الذاتي بجميع المحامد بمقابلة الحمد باسم الذات، أردفه بأسماء الصفات، فقال: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ جمعاً بين الاستحقاقين، وهو؛ أي: رب العالمين، كالبرهان على استحقاقه جميع المحامد الذاتي، والصفاتي، والدنيوي، والأخروي؛ أي: مالك جميع من في السموات، والأرض، وغيرهما من ملك، وإنس، وجنّ، وغيرهم، ومعبودهم. والربّ يأتي لعدّة معان، مجموعة[1] في قول بعضهم نظماً من بحر الطويل:

قريب محيط مالك ومدبّر ... مربٌّ كثير الخير والمُولي للنعمْ
وخالقُنا المعبود جابر كسرنا ... ومصلحنا والصاحب الثابتُ القَدَمْ
وجامعنا والسيّدُ ٱحْفَظْ فهذه ... معانٍ أتت للرّب فادع لمن نظمْ

قال البيضاوي: الربّ في الأصل: مصدر بمعنى التربية، والإصلاح، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثمّ وُصِف به للمبالغة، كالصوم، والعدل. وقيل: هو وصْفٌ من رَبَّهُ يَرُبُّهُ، فهو رَبٌّ، كقولهم: نَمَّ ينمُّ نمًّا ونميمة، فهو نَمٌّ. سمّي به المالك؛ لأنّه يحفظ ما يملكه، ويربّيه، ويصلحه. وقيل: هو اسم فاعل حذفت ألفه، فأصله: رابّ، كما قالوا: رجل بارّ، وبَرّ.

وعبارة المراغي: والربّ[2]: هو السيّد المربِّي الذي يسوس من يربيه، ويدبر شؤونه، وتربية الله للناس نوعان: تربية خَلْقية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشدّ، وتنمية قواهم النفسية، والعقلية، وتربيةٌ دينية تهذيبية، تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم؛ ليبلِّغوا للناس ما به تكمل عقولهم، وتصفو نفوسهم، وليس لغيره تعالى أن يشرع للناس عبادة، ولا أن يحل شيئاً، ويحرِّم آخر إلاّ بإذن منه.

ويطلق الرّب: على الناس، فيقال: ربّ الدار، وربّ هذه الأنعام، كما قال

---

(١) البيجوري على السلم.

(٢) المراغي.

تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام في مولاه عزيز مصر: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ وقوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وكقول عبد المطلب يوم الفيل لأبرهة قائد النجاشي: أمّا الإبل: فأنا ربّها، وأما البيت: فإنّ له ربّاً يحميه.

وعبارة «الروح»: والرّب:[1] بمعنى التربية، والإصلاح، أمّا في حقّ العالَمين: فيربّيهم بأغذيتهم، وسائر أسباب بقاء وجودهم، وأمّا في حقّ الإنسان: فيربّيه تارة بأطواره، وفيض قوى أنواره في أعضائه. فسبحان من أسمع بعظمٍ، وبصّر بشحمٍ، وأنطق بلحم، وأخرى بترتيب غذائه في النبات بحُبُوبِهِ، وثِماره، وفي الحيوانِ بلحومه، وشحومه، وفي الأراضي بأشجاره، وأنهاره، وفي الأفلاك بكواكبه، وأنواره، وفي الزمان بسكونك، وتسكين الحشرات، والحركات المؤذية في الليالي، وحفظك، وتمكينك من ابتغاء فضله في النهار. فيا هذا! يربّيك كأنّه ليس له عبد سواك، وأنت لا تخدمه، أو تخدمه كأنّ لك ربًّا غيره. انتهى.

وقرأ زيد بن عليّ، وطائفة[2]: ﴿رَبَّ الْعَالِمِينَ﴾ بالنصب على المدح، وهي فصيحة، لولا خفض الصفات بعدها، وضُعِّفت إذ ذاك، على أنَّ الأهوازي حكى في قراءة زيد بن عليّ أنّه قرأ: ﴿ربَّ العالمينَ الرحمنَ الرحيم﴾ بنصب الثلاثة، فلا ضعف إذ ذاك، وإنّما ضُعِّفت قراءة نَصْب رب، وخفض الصفات بعدها؛ لأنّهم نصّوا على أنّه لا إتباع بعد القطع في النعوت، لكن تخريجها على أن يكون الرحمن بدلاً، ولا سيّما على مذهب الأعلم، إذ لا يُجِيز في الرحمن أن يكون صفة، وحسّن ذلك على مذهب غيره، كونه وصفاً خاصّاً، وكون البدل على نيّة تكرار العامل، فكأنّه مستأنف من جملة أخرى، فحسن النصب. وقول من زعم: أنّه نصب رب بفعل دلّ عليه الكلام قبله، كأنّه قيل: نحمد الله ربّ العالمين. ضعيف؛ لأنّه مراعاة التوهّم، وهو من خصائص العطف، ولا ينقاس فيه.

دقيقة: [3] في لفظ ربّ خصوصيّة لا توجد في غيره من أسمائه تعالى، وهي:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) هداية الطالب.

أنك إذا قرأته طرداً كان من أسمائه تعالى، وإن قلبته كان من أسمائه تعالى. انتهت.

وقوله: ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: اسم جمع لعالَم بفتح اللام، لا جمع له؛ لعدم العَلَمية، أو الوصفية فيه، وقيل: جمع له شاذ. قال في «الكشاف»: ساغ ذلك لوجود معنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم. وفي البيضاوي: والعالَم: اسم لما يُعْلَم به، كالخاتَم، والقالَب، من العلامة؛ لأنّه علامة على صانعه. وهو كلّ[1] ما سوى الله تعالى من الجواهر، والأعراض، فإنّها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدلّ على وجوده؛ لأنّها مُحْدَثة، وكلّ محدث له صانع، فالعالم له صانع. وإنّما جمعه؛ ليشمل جميع ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلّب العقلاء منهم، فجمعه بالياء والنون، كسائر أوصافهم. اهـ.

فإن قلت[2]: لِمَ جمع العالمين جمع قلّة، مع أنّ المقام مستدع للإتيان بجمع الكثرة، كالعوالم؟

قلت: تنبيهاً على أنهم، وإن كثروا فهم قليلون في جانب عظمته تعالى، وكبريائه.

فإن قلت: الجمع يقتضي اتفاق الأفراد في الحقيقة، وهي هنا مختلفة.

قلنا: بل هي متفقة من حيث إنّ كلاً منها علامة يعلم بها الخالق، والاختلاف إنما عرض بواسطة أسمائها. اهـ. كرخي.

وقيل[3]: اسم وُضِع لذوي العلم من الملائكة، والثقلين، وتناوله لغيره على سبيل الاستتباع. وقيل: عنَىٰ به الناس ههنا، فإنّ كلّ واحد منهم عالَم من حيث، إنّه يشمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض، يعلم بها الصانع، كما يعلم بما أبدعه في العالم، ولذلك سوّى بين النظر فيهما، حيث قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

وقد جرت[4] عادتهم، على أن لا يطلقوا هذا اللفظ، إلاّ على كلّ جماعة

---

(١) البيضاوي.
(٢) الفتوحات.
(٣) البيضاوي.
(٤) المراغي.

متمايزة لأفرادها صفات تقرّبها من العقلاء، إن لم تكن منهم، فيقولون: عالَم الإنسان، وعالَم الحيوان، وعالم النبات، ولا يقولون: عالم الحجر، ولا عالم التراب. ذلك أنّ هذه العوالم هي التي يظهر فيها معنى التربية الذي يفيده لفظ ربّ، إذ يظهر فيها الحياة، والتغذية، والتوالد.

وخلاصة معنى الآية: أنّ كلّ ثناء فهو لله تعالى، إذ هو مصدر جميع الكائنات، وهو الذي يسوس العالمين، ويربّيهم من مبدئهم إلى نهايتهم، ويلهمهم ما فيه خيرهم، وصلاحهم، فللّه الحمد على ما أسدى، والشكر له على ما أولى.

وفي «الخازن»: واختلف في مبلغ عددهم، فقيل: لله ألف عالَم، ستمائة عالم في البحر، وأربعمائة في البرّ. وقيل: ثمانون ألف عالَم، أربعون ألفاً في البرّ، ومثلهم في البحر. وقيل: ثمانية عشر ألف عالَم، الدنيا منها عالَم واحد، وما العمران في الخراب إلاّ كفسطاط في صحراء، قاله: وهب بن منبه. الفسطاط: الخيمة. اهـ.

وفي «الروح»: وقال الضحاك: لله ثلاثمائة وستّون عالَماً، ثلاثمائة منهم: عراة حفاة لا يعرفون خالقهم، وهم حشو جهنم. وستّون عالَماً: يلبسون الثياب، مرّ بهم ذو القرنين، وكلّمهم. وقال كعب الأحبار: لا يُحصَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنّ الله تعالى خلق الخلق أربعة أصناف: الملائكة، والشياطين، والجنّ، والإنس، ثمّ جعل هؤلاء عشرة أجزاء، تسعة منهم الملائكة، وواحد الثلاثة الباقية، ثمّ جعل هذه الثلاثة، عشرة أجزاء، تسعة منهم الشياطين، وجزء واحد الجنّ والإنس، ثمّ جعلهما عشرة أجزاء، فتسعة منهم الجنّ، وواحد الإنس، ثمّ جعل الإنس مائة وخمسة وعشرين جزءاً، فجعل مائة جزء في بلاد الهند، منهم ساطوح، وهم: أناس رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب، وماسوخ وهم: أناس آذانهم كآذان الفِيَلة، ومالوف، وهم: أناس لا يطاوعهم أَرْجُلُهم، يسمّون دَوَالْ بَايْ، ومصير كلّهم إلى النار. وجعل اثني عشر

جزءاً منهم في بلاد الروم: النسطورية، والملكانية، والإسرائيليّة، كلّ من الثلاث أربع طوائف، ومصيرهم إلى النار جميعاً. وجعل ستّة أجزاء منهم في المشرق: يأجوج ومأجوج، وتُركُ خاقان، وتُرْكُ حَدْ خَلَخْ، وتُرْكُ خَزر، وترك جرجير. وجعل ستّة أجزاء في المغرب: الزنج، والزُّط، والحبشة، والنوبة، وبربر، وسائر كفار العرب، ومصيرهم إلى النار. وبقي من الإنس من أهل التوحيد جزء واحد، فجزأهم ثلاثاً وسبعين فرقة: اثنتان وسبعون على خطرٍ، وهم أهل البدع والضلالات، وفرقة ناجية وهم أهل السنة والجماعة، وحسابهم على الله تعالى، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء.

وفي الحديث: «إنّ اليهود افترقت إحدى وسبعين فرقة، والنصارى اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلّهم في النار إلاّ فرقة واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «هم مَن على ما أنا عليه وأصحابي». يعني: ما أنا عليه وأصحابي من الاعتقاد، والفعل، والقول، فهو حقّ، وطريق موصل إلى الجنة، والفوز، والفلاح، وما عداه باطلٌ. وطريقُ النار: إن كانوا إباحيين فهم خلود، وإلاّ فلا. انتهى.

﴿الرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: المنعم بما لا يُتَصَوَّر صدور تلك النعمة من العباد. ﴿الرَّحِيمِ﴾؛ أي: المنعم بما يُتَصَوّر صدور تلك النعمة من العباد، فلا يقال لغير الله: رحمن، ويقال لغيره من العباد: رحيم، وقد مرّ ذكرهما في البسملة، وهو دليل على أنّ البسملة ليست من (الفاتحة)، إذ لو كانت منها لما أعادهما؛ لخلّو الإعادة من الإفادة. اهـ. «نسفي». وقيل: كرّرهما[1] مع بقيّة الأوصاف؛ تعليلاً لاستحقاقه الحمد. والمعنى عليه: وإنّما استحقّ الحمد من عباده؛ لكونه ربًّا موجداً لهم، منعماً عليهم بالنعم كلّها ظاهرها وباطنها، عاجلها وآجلها، جليلها وحقيرها، مالكاً لأمورهم يوم الثواب والعقاب. وقيل: كرّرهما[2]؛ لِيُعَلَمَ أنّ العناية بالرحمة أكثر من غيرها من الأمور، وأنّ الحاجة إليه أكثر، فنبّه سبحانه

---

(١) عمدة التفاسير.

(٢) الخازن.

وتعالى بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها، وأنّه هو المتفضّل بها على خلقه. قال القرطبي: وصف سبحانه وتعالى نفسه بعد ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ بأنه ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنّه لمّا كان في اتصافه بربّ العالمين ترهيب، قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمّن من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، فيكون أعونَ على طاعته وأمنع، كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع في جنّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد». انتهى.

وفي «روح البيان»: في التكرار وجوه:

أحدها: ما سبق من أنّ رحمَتَيِ البسملة ذاتيّتان، ورحمَتَيِ (الفاتحة) صفاتيتان.

والثاني: ليُعلَم أنّ التسمية ليست من (الفاتحة).

والثالث: أنّه ندب العباد إلى كثرة الذكر، فإنّ من علامة حبّ الله، حبّ ذكر الله. وفي الحديث: «من أحبّ شيئاً أكثر ذكره».

والرابع: أنّه ذَكَر ربّ العالمين، فبيَّن أنّ ربّ العالمين: هو الرحمن الذي يرزقهم في الدنيا، الرحيم: الذي يغفر لهم في العقبى، ولذلك ذكر بعده ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. يعني: أنّ الربوبية إمّا بالرحمانية: وهي رزق الدنيا، وإما بالرحيمية: وهي المغفرة في العقبى.

والخامس: أنّه ذكر الحمد، وبالحمد تُنال الرحمة، فإنّ أول من حمد الله تعالى من البشر: آدم عليه السلام حين عطس، فقال: الحمد لله، وأجيب في الحال: يرحمك ربّك، ولذلك خَلَقه، فعلّم خَلْقه الحمد، وبين أنّهم ينالون رحمته بالحمد.

والسادس: أنّ التكرار للتعليل كما مرّ؛ لأنّ ترتيب الحمد على هذه الأوصاف أمارةُ عِلِّيَّةِ مأخذِها، فالرحمانية، والرحيمية من جملتها؛ لدلالتهما على

أنّه مختار في الإحسان لا موجب، وفي ذلك استيفاء أسباب استحقاق الحمد، من فيض الذات بربّ العالمينِ، وفيض الكمالات بالرحمن الرحيم، ولا خارج عنهما في الدنيا، وفيض الأثْوِبةِ لطفاً، والأجْزِيَةَ عدلاً في الآخرة، ومن هذا يُفهم وجه ترتيب الأوصاف الثلاثة.

والفرق بين (الرحمن) و(الرحيم): إمّا باختصاص الحق بالأوّل، أو بعمومه، أو بجلائل النعم، فعلى الأول: هو الرحمن بما لا يصدر جنسه من العباد، والرحيم: بما يتصور صدوره منهم، فذا كما روي عن ذي النون المصري ـ رحمه الله تعالى ـ قال: وقعت وَلْوَلَةٌ في قلبي، فخرجت إلى شطّ النيل، فرأيت عقرباً يعدو، فتبعته، فوصل إلى ضفدع على الشطّ، فركب ظهره، وعبر به النيل، فركبت السفينة واتبعته، فنزل، وعدا إلى شابّ نائم، وإذا أفعى بقربه تقصده، فتواثبا، وتلادغا، وماتا، وسلم النائم.

ويحكى: أنّ ولد الغراب إذا خرج من القِشْر يكون كلحم أحمر، ويفرّ الغراب منه، فيجتمع عليه البعوض، فيلتقمه إلى أن ينبت ريشه، فعند ذلك تعود الأمّ إليه، ولهذا قيل: يا رازق النُّعَاب في عُشِّهِ!

وأمّا على أنّ الرحمن عامّ، فقيل: كيف ذلك وقلَّما يخلو أحدٌ، بل حالةٌ له عن نوع بلوى؟ قلنا: الحوادث منها ما يظنّ أنّه رحمة ويكون نقمة، وبالعكس، قال الله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾، فالأول كما قال الشاعر:

إنّ الشبابَ والفراغَ والجِدَهْ ... مُفسِدة للمرء أيَّ مَفْسَدهْ

وكلّ منها في الظاهر نعمة، والثاني: كحبس الولد في المكتب، وحمله على التعلّم بالضرب، وكقطع اليد المتآكلة، فالأَبْلَهُ يعتبر الظواهر، والعاقل ينظر إلى السرائر، فما من بَليّةٍ ومحنةٍ إلاّ وتحتها رحمة ومنحة، وترك الخير الكثير للشر القليل شرٌّ كبير، فالتكاليف؛ لتطهير الأرواح عن العلائق الجسمانية، وخلق النار؛ لصرف الأشرار إلى أعمال الأبرار، وخلق الشيطان؛ لِتَمَيُّز المخلصين من العباد، فشأن المحقق أن يبني على الحقائق، كالخضر عليه السلام في قصّة

موسى معه. فكُلُّ ما يَكْرَهُ الطبعُ فتَحْتَهُ أَسْرارٌ خَفِيَّةٌ، وحكمةٌ بالغةٌ. وأمّا على أنّ الرحمن لجلائل النعم: فإنّما أتبعه بالرحيم؛ لدفع توهم أن يكون طلب العبد الشيء اليسير سوء أدب، كما قيل لبعضهم: جئتك لحاجة يسيرة. قال: أطلب لها رجلاً يسيراً، فكأنّ الله سبحانه يقول: لو اقتصرت على الرحمن؛ لاحتشمتَ عنّي، ولكنّي رحيم فاطلب منّي حتى شراك نعلك، ومِلْحَ قِدرك. انتهى.

وعبارة المراغي هنا: وقد ذكر سبحانه هذين الوصفين؛ ليبيّن لعباده أن ربوبيته ربوبيّةُ رحمة وإحسان، ليُقبلوا على عمل ما يرضيه، وهم مطمئنو النفوس منشرحو الصدور، لا ربوبيّة جبروت وقَهْرٍ لهم. والعقوبات التي شرعها الله سبحانه وتعالى لعباده في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة، لمن تعدَّى حدوده، وانتهكَ حرماته، هي قهر في الظاهر، ورحمة في الحقيقة؛ لأنها تربية للناس وزجر لهم حتى لا ينحرفوا عن الجادّة التي شرعها لهم، إذ في اتباعها سعادتهم ونعيمهم، وفي تجاوزها شقاؤهم وبلاؤهم، ألا ترى إلى الوالد الرؤوف كيف يربّي أولاده بالترغيب في عمل ما ينفع، والإحسان إليهم إذا لزموا الجادّة، فإذا هم حادوا عن الصراط السويّ، لَجَأ إلى الترهيب بالعقوبة حين لا يجد منها محيصاً؟. قال أبو تمّام:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً ... فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ أي: مالك الأمور ومدبّرها، وقاضيها يوم المجازاة للعباد على أعمالهم؛ بإثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين، وهو يوم القيامة. هذا على قراءة الألف، وقرىء بلا ألف، والمعنى حينئذٍ؛ أي: ذي المُلْكِ، والسلطنة، والقهر في ذلك اليوم؛ لأنّه لا مُلْكَ ظاهر فيه لأحد إلاّ لله تعالى بدليل ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، أمّا في الدنيا: ففيها المُلْك ظاهراً لكثير من الناس، فتحصّل: أنّ وصف المُلْكيّة ثابت له تعالى أزلاً، وظهوره يكون يوم القيامة؛ لإقرار جميع الخلق به.

واختُلِف في أيّ القراءتين أبلغ وأولى؟ فقيل: مَلِك بلا ألف؛ لأنّه أعمّ وأبلغ من مالك، إذ كلّ مَلِك مالك ولا عكس؛ ولأنّ أمر المَلِك نافذ على

المالك في ملكه حتى لا يتصرّف المالك إلاّ عن تدبير المَلِك؛ ولأنّه قراءة أهل الحرمين؛ ولقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾؛ ولما فيه من التعظيم. وقيل: المالك أبلغ لما فيه من زيادة البناء، فيكون أكثر ثواباً؛ لأنه أكثر حروفاً؛ ولأنّه أوسع باباً من مَلِك؛ لأنّه يقال: مالك العبد والدابة، ولا يقال: ملك هذه الأشياء. وقيل: هما بمعنى واحد، مثل: فرهين، وفارهين.

وعبارة المراغي هنا: قرأ بعض القراء ﴿مَٰلِكِ﴾ بالألف، وبعض آخر ﴿ملك﴾ بلا ألف، والفارق بينهما: أنّ المالكَ: هو ذو المِلْك بكسر الميم، والمَلِكَ: هو ذو المُلْك بضمّ الميم، وقد جاء في الكتاب الكريم ما يعاضد كلاًّ من القراءتين، فيعاضد الأولى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾، ويعاضد الثانية قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾.

قال الراغب: والقراءتان وإن رُويتا عن جمع كثير من الصحابة فالثانية يعني: مَلِك بلا ألف يكنفها من الجلال والروعة، وإثارة الخشية ما لا يوجد مثله في القراءة الأولى يعني: مالك بالألف، فهي تدلّ على أنّه سبحانه هو المتصرّف في شؤون العقلاء بالأمر والنهي والجزاء، ومن ثمّ يقال: ملك الناس، ولا يقال: ملك الدابة، وملك العبد، وملك الدار.

فائدة: والفرق بين ﴿المُلك﴾ بضمّ الميم، و﴿المِلك﴾ بكسرها: أنّ المُلك بضمّ الميم: عبارة عن السلطان القاهر، والاستيلاء الباهر، والغلبة التامة، والقدرة على التصرّف الكلّي بالأمر والنهي. والمِلك بكسر الميم: عبارة عن السلطنة، والتصرف غير التامّين. والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه: أنّ المَلِك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله كما في الشوكاني.

﴿يَوْمِ﴾ واليوم في العرف: عبارة عمّا بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان. وفي الشرع: عمّا بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس، والمراد هنا: مطلق الوقت؛ لعدم الشمس والفجر ثَمَّ. و﴿ٱلدِّينِ﴾: الجزاء إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، ومنه قولهم: كما تَدِينُ تُدان، وبيت الحَماسة:

وَلَمْ يَبْقَ سِوَىٰ ٱلْعُدْوا   نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا

أي: مالك الأمر كلّه في يوم الجزاء، وأضاف اسم الفاعل إلى الظرف؛ إجراءً له مجرى المفعول به على الاتّساع، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار. والمعنى: مالك الأمر كلّه في يوم الجزاء، فإضافة اليوم إلى الدين لأدنى ملابسة، كإضافة سائر الظروف إلى ما وقع فيها من الحوادث؛ كيوم الأحزاب، ويوم الفتح، وتخصيصه؛ إمّا لتعظيمه وتهويله، أو لبيان تفرّده بإجراء الأمر فيه، وانقطاع العلائق بين الملاّك والأملاك حينئذٍ بالكلّية، ففي ذلك اليوم لا يكون مالك، ولا قاض، ولا مُجازٍ غيره تعالى. وأصل المُلْكِ والمِلْك: الربط، والشدّة، والقوّة، فللّه في الحقيقة؛ القوّة الكاملة، والولاية النافذة، والحكم الجاري، والتصرّف الماضي، وهو للعباد مُجازٍ، إذ لمِلْكهم بداية ونهاية، وعلى البعض لا على الكلّ، وعلى الجسم لا العرض، وعلى النَّفْسِ لا النَّفَسِ، وعلى الظاهر لا الباطن، وعلى الحيّ لا الميّت، بخلاف المعبود الحقّ، إذ ليس لمِلْكه زوال، ولا لمُلْكه انتقال.

وقال في «تفسير الإرشاد»: قرأ أهل الحرمين المحترَمَيْن ﴿مَلِك﴾ من المُلْك: الذي هو عبارة عن السلطان القاهر، والاستيلاء الباهر، والغلبة التامّة، والقدرة على التصرف الكلّي في أمور العامّة بالأمر والنهي، وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى يوم الدين. انتهى. ولكلّ قراءةٍ وُجُوهٌ تُرِّجحها كما ذكرنا سابقاً.

ويحكى عن أبي عبد الله، محمد بن شجاع الثُّلْجِيِّ ـ رحمه الله تعالى ـ أنّه قال: كان من عادتي قراءة ﴿مالِكِ﴾، فسمعت من بعض الأدباء أنّ ﴿مَلِك﴾ أبلغ، فتركت عادتي وقرأت ﴿مَلِك﴾، فرأيت في المنام قائلاً يقول: لم نقصت من حسناتك عشراً، أما سمعت قول النبي ﷺ: «من قرأ القرآن كتب له بكلّ حرف عشر حسنات، ومحيت عنه عشر سيئات، ورفعت له عشر درجات»؟. فانتبهت فلم أترك عادتي حتى رأيت ثانياً في المنام أنّه قيل لي: لم لا تترك هذه العادة، أما سمعت قول النبي ﷺ: «اقرؤوا القرآن فَخِماً مفخَّماً»؛ أي: عظيماً معظّماً. فأتيت قطرباً، وكان إماماً في اللغة، فسألته ما بين المالك والمَلِك من الفرق؟ فقال: بينهما فرق كثير، أمّا المالك: فهو الذي ملك شيئاً من الدنيا، وأما

المَلِك: فهو الذي يملك الملوك.

وفي «البيضاوي»: وإجراء[1] هذه الأوصاف على الله تعالى من كونه موجداً للعالَمين، ربّاً لهم، منعماً عليهم بالنعم كلّها ظاهرها وباطنها، عاجلها وآجلها، مالكاً لأمورهم يوم الثواب والعقاب؛ للدلالة على أنّه الحقيق بالحمد لا أحدَ أحقُّ به منه، بل لا يستحقُّه على الحقيقة سِواه، فإنَّ ترتُّب الحكم على الوصف يُشعِر بعِلِّيَّته له، وللإشعار من طريق المفهوم على أنّ من لم يتّصف بتلك الصفات؛ لا يستأهل لأن يُحمد فضلاً عن أن يعبد؛ ليكون دليلاً على ما بعده، فالوصف الأول: لبيان ما هو الموجب للحمد، وهو الإيجاد والتربية، والثاني والثالث: للدلالة على أنّه مُفضِّل بذلك، مختار فيه، ليس يصدر منه لإيجاب بالذات، أو وجوب عليه قَضِيَّةً بسوابقِ الأعمال حتى يستحقّ به الحمد، والرابع: لتحقيق الاختصاص، فإنّه مما لا يقبل الشركة، ولتضمين الوعد للحامدين، والوعيد للمعرضين. انتهى.

وفي «الروح»: والوجه في سرد الصفات الخمس كأنّه يقول: خلقتك فأنا إلٰهٌ، ثمّ ربَّيْتُك بالنعم، فأنا ربٌّ، ثمّ عَصَيْتَ فستَرْتُ عليك، فأنا رحمن، ثُمَّ تَبْتَ فغفرت، فأنا رحيم، ثمَّ لا بدّ من الجزاء، فأنا مالك يوم الدين.

فعلم مما تقدم: أنّ يوم الدين هو يوم القيامة، سمّي به؛ لأنّه يُدان فيه كلّ أحد، ويجازَىٰ على عمله. وقيل: الدين الشريعة. وقيل: الطاعة. والمعنى: يوم جزاء الدين، فالدين يطلق لغةً: على الحساب، وعلى المكافأة، وعلى الشريعة وعلى الطاعة، وعلى الدين وعلى الجزاء، وهو المناسب هنا، وإنّما قال:[2] ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ولم يقل: ﴿مالك الدين﴾؛ ليُعلَم أنّ للدين يوماً معيّناً يَلْقَىٰ فيه كلّ عامل جزاء عمله.

---

(١) البيضاوي.
(٢) المراغي.

والناس وإن كانوا يلاقون جزاء أعمالهم في الدنيا باعتبارهم أَفْرَاداً مِنْ بُؤْسٍ وشقاءٍ، جزاء تفريطهم في أداء الحقوق والواجبات التي عليهم، فربّما يظهر ذلك في بعض دون بعض، فإنّا نرى كثيراً من المنغمسين في شهواتهم، يقضون أعمارهم وهم متمتّعون بلذّاتهم. نعم: إنّهم لا يسلمون من المنَغِّصات، وربّما أتتهم الجوائح في أموالهم، واعتلّت أجسامهم، وضعفت عقولهم، ولكن لا يكون جزاء كاملاً لما اقترفوه من عظيم الموبقات، وكبير المنكرات. كذلك نرى كثيراً من المحسنين، يُبتَلون بهضم حقوقهم، ولا ينالون ما يستحقّون من حسن الجزاء. نعم: إنّهم ينالون بعض الجزاء براحة ضمائرهم، وسلامة أجسامهم، وصفاء ملكاتهم، وتهذيب أخلاقهم، ولكن ليس هذا كلّ ما يستحقُّون من الجزاء، فإذا جاء ذلك اليوم، استوفى كلّ عامل جزاء عمله كاملاً، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، جزاء وفاقاً لما عملوا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

أمّا الناس باعتبارهم أمماً وجماعات: فيظهر جزاؤُهم في الدنيا ظهوراً تامّاً، فما من أمّة انحرفت عن الصراط السويّ، ولم تراع سنّة الله في الخليقة، إلاّ حلّ بها ما تستحق من الجزاء من فقر بعد غنى، وذلّ بعد عزّة، ومهانة بعد جلال وهيبة.

فائدة: [1] ومن لطائف ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: أنّ مخالفة المَلِك تؤول إلى خراب العالم وفناء الخلق، فكيف مخالفة ملك الملوك؟ كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ والطاعة سبب المصالح، كما قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، فعلى الرعيّة مطاوعة الملوك، وعلى الملوك مطاوعة ملك الملوك؛ لتنتظم مصالح العالم. ومن لطائفه أيضاً: أنّ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يبيّن أنّ كمال ملكه بِعَدْلِهِ حيث قال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، فالمَلِك المجازي إن كان عادلاً كان حقّاً، فدرّت الضروع، ونمت

---

(١) روح البيان.

الزروع. وإن كان جائراً كان باطلاً، فارتفع الخير.

قرأ[1] ﴿مٰلِكِ﴾ على وزن فاعل بالخفض عاصم، والكسائي، وخلف في اختياره، ويعقوب، وهي قراءة العشرة المبشرة إلاّ طلحة، والزبير، وقراءة كثير من الصحابة منهم: أبيّ، وابن مسعود، ومعاذ، وابن عباس، والتابعين منهم: قتادة، والأعمش. وقرأ ﴿مَلِكِ﴾ على وزن فعل بالخفض باقي السبعة، وزيدٌ، وأبو الدرداء، وابن عمر، والمسور، وكثير من الصحابة والتابعين. وقرأ ﴿مَلْكِ﴾ على وَزْن سهل: أبو هريرة، وعاصم الجحدري، ورواها الجعفي، وعبد الوارث، عن أبي عمرو، وهي لغة بكر بن وائل. وقرأ ﴿مَلِكي﴾ بإشباع كسرة الكاف: أحمد بن صالح، عن ورش، عن نافع. وقرأ ﴿مِلْك﴾ على وزن عِجْل: أبو عثمان النهدي، والشعبي، وعطيّة، ونسبها ابن عطية إلى أبي حياةٍ. وقال صاحب اللوامح: قرأ أنس بن مالك، وأبو نوفل، عمر بن مسلم بن أبي عدي ﴿مَلِكَ يوم الدين﴾ بنصب الكاف من غير ألف، وجاء كذلك عن أبي حياة. انتهى. وقرأ كذلك إلاّ أنّه رفع الكاف: سعد بن أبي وقاص، وعائشة، ومُوَرِّقٌ العجليُّ. وقرأ ﴿مَلَكَ﴾ فعلاً ماضياً: أبو حياة، وأبو حنيفة، وجبير بن مطعم، وأبو عاصم، عبيد بن عمير الليثي، وأبو المحشر، عاصم بن ميمون الجحدري، فينصبون ﴿اليوم﴾. وذكر ابن عطيّة: أنّ هذه قراءة يحيى بن يعمر، والحسن، وعليّ بن أبي طالب. وقرأ ﴿مَالِكَ﴾ بنصب الكاف: الأعمش، وابن السميقع، وعثمان بن أبي سليمان، وعبد الملك قاضي الهند. وذكر ابن عطيّة: أنّها قراءة عمر بن عبد العزيز، وأبي صالح السمان، وأبي عبد الملك الشاميّ. وروى ابن أبي عاصم، عن اليمان ﴿مَلِكاً﴾ بالنصب والتنوين. وقرأ ﴿مَالِكٌ﴾ برفع الكاف والتنوين: عَوْنٌ العقيليّ، ورُويت، عن خلف بن هشام، وأبي عبيد، وأبي حاتم، وبنصب ﴿اليوم﴾. وقرأ ﴿مَالِكُ يومِ﴾ بالرفع والإضافة: أبو هريرة، وأبو حياة، وعمر بن عبد العزيز بخلاف عنه، ونسبها صاحب اللوامح إلى أبي رَوح، عون بن

(١) البحر المحيط.

أبي شدّاد العقيلي ساكن البصرة. وقرأ ﴿مَلِيْك﴾ على وزن فَعِيل: أُبيٌّ، وأبو هريرة، وأبو رجاء العطاردي. وقرأ ﴿مالك﴾ بالإمالة البليغة: يحيى بن يعمر، وأيوب السختياني، وبَيْنَ بَيْن: قتيبة بن مهران، عن الكسائي، وجهل أبو علي الفارِسيُّ النقل في قراءة الإمالة، فقال: لم يُمِلْ أحد من القرّاء ألف مالك، وذلك جائز إلاّ أنّه لا يُقرأ بما يجوز إلاّ أن يأتي بذلك أثر مستفيض، وذكر أيضاً: أنّه قرىء في الشاذ ﴿مَلاَّكِ﴾ بالألف، وتشديد اللام، وكسر الكاف. فهذه ثلاث عشرة قراءة بعضها راجع إلى المَلِك، وبعضها إلى المالك، وهما راجعان إلى المُلْكِ، وهو الربط، ومنه: مُلْكُ العَجِيْن. ذكره أبو حيان.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: إيّاك لا غير نَخصُّ بالعبادة، ونوحِّدك، ونطيعك خاضعين لك. وفيه[1] التفات من الغَيبة إلى الخطاب، وفائدة ذلك من أوّل السورة إلى هنا ثناء، والثناء في الغيبة أولى، ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دعاء، والخطاب في الدعاء أولى. وقيل: فيه مضمر تقديره: أي: قولوا إيّاك نعبد؛ أي: إيّاك نخصّ بالعبادة، ونوحدك، ونطيعك خاضعين لك، والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلّل، وسمّي العبد عبداً؛ لذلّته وانقياده. وقيل:[2] العبادة: عبارة عن الفعل الذي يؤدَّىٰ به الفرض لتعظيم الله تعالى، فقول العبد: ﴿إيّاك نعبد﴾ معناه: لا أعبد أحداً سواك، والعبادة: غاية التذلّل من العبد، ونهاية التعظيم للرب سبحانه وتعالى؛ لأنّه العظيم المستحقّ للعبادة، ولا تُستعمل العبادة إلاّ في الخضوع لله تعالى؛ لأنّه مُولي أعظم النعم، وهي إيجاد العبد من العدم إلى الوجود، ثمّ هَداه إلى دينه فكان العبد حقيقاً بالخضوع، والتذلّل له. وقال ابن كثير: والعبادة في الشرع: عبارة عمّا يجمع كمال المحبّة والخضوع. اهـ. وعبارة المراغي: والعبادة[3] خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأنّ له سلطاناً لا يدرك العقل حقيقته؛ لأنّه أعلى من أن يحيط به

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

فكرُه، أو يرقىٰ إليه إدراكه.

فمن يتذلّل لملك لا يقال: إنّه عبده؛ لأن سبب التذلّل معروف، وهو إما؛ لخوف من جوره وظلمه، وإما؛ رجاء كرمه وجوده. وللعبادة صور وأشكال تختلف باختلاف الأديان والأزمان، وكلّها شرعت؛ لتنبيه الإنسان إلى ذلك السلطان الأعلى، والملكوت الأسمى؛ ولتقويم المِعْوَجِّ من الأخلاق، وتهذيب النفوس، فإن لم تُحْدث هذا الأثرَ لم تكن هي العبادة التي شرعها الدين.

هاك الصلاةَ: هب أنّ الله أمرنا بإقامتها، والإتيان بها كاملة، وجعل من آثارها: أنّها تنهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، فإن لم يكن لها هذا الأثر في النفوس، كانت صُوراً من الحركات والعبارات، خاليةً من روح العبادة وسرّها، فاقدةً جلالها وكمالها، وقد توعّد الله سبحانه فاعلها بالويل والثبور، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فهم وإن سمّاهم مصلّين لأنهم أتوا بصورة الصلاة، وصفهم بالسهو عن حقيقتها ولُبّها؛ وهو توجّه القلب إلى الله والإخبات إليه، وهو المشعر بعظمته. وفي الحديث: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلاّ بعداً». وأنّها «تُلَفُّ كما يُلّف الثوب البالي، ويُضْرب بها وَجْهه».

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي[1]: منك لا من غيرك نَطْلُب المعونة على عبادتك، وعلي جميع أمورنا دِيناً ودُنيا. فإن قلت: الاستعانة على العمل إنّما تكون قبل الشروع فيه، فلِمَ أخّر الاستعانة عن العبادة، وما الحكمة فيه؟

قلنا: قُدِّمت العبادة على الاستعانة؛ لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة، أو قدّمها؛ لرعاية الفاصلة كما قدّم الرحمن، وإن كان الأبلغ لا يُقدَّم. اهـ. «نسفي».

وعبارة «الخازن» هنا: فإن قلت: الاستعانة على العمل إنّما تكون قبل

---

(١) النسفي.

الشروع فيه، فلم أخَّر الاستعانة عن العبادة؟

قلت: ذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: أنّ هذا يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل، ونحن بحمد الله نجعل التوفيق والاستطاعة مع الفعل، فلا فرق بين التقديم والتأخير.

الثاني: أنّ الاستعانة نوع تعبّد، فكأنّه ذكر جملة العبادة أولاً، ثمّ ذكر ما هو من تفاصيلها ثانياً.

الثالث: كأنّ العبد يقول: شرعت في العبادة فأنا أستعين بك على إتمامها، فلا يمنعني من إتمامها مانع.

والرابع: أنّ العبد إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ حصل له الفخر، وذلك منزلة عظيمة، فيحصل بذلك العُجب، فأردف ذلك بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة.

وفي «النسفي»: وأُطلِقت الاستعانة؛ لتتناول كلَّ مستعان فيه، ويجوز أن يراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادات، ويكون قوله: ﴿اهۡدِنَا الصِّرَٰطَ﴾ بياناً للمطلوب منه المعونة، فكأنّه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: ﴿اهۡدِنَا الصِّرَٰطَ الۡمُسۡتَقِيمَ . . .﴾ الخ. اهـ.

والمجيء بالنون في الفعلين[1]؛ لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العِبَادِ. وقيل: إنّ المقام لمّا كان عظيماً، لم يستقلّ به الواحد؛ استقصاراً لنفسه، واستصغاراً لها، فالمجيء بالنون؛ لقصد التواضع لا لتعظيم النفس، وتقديم المعمول على العامل في الفعلين؛ لقصد الاختصاص. وقيل: للاهتمام، والصواب أنّه لهما، ولا تزاحم بين المقتضيات.

وكرّر[2] ﴿إِيَّاكَ﴾ للتنصيص على اختصاصه تعالى بالاستعانة أيضاً، والاستعانة: طلب العون، ويُعدَّىٰ بالباء وبنفسه؛ أي: نطلب العون على عبادتك،

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

أو على ما لا طاقة لنا به، أو على محاربة الشيطان المانع من عبادتك، أو في أمورنا بما يصلحنا في ديننا ودنيانا، والجامع للأقاويل: نسألك أن تعيننا على أداء الحقّ وإقامة الفروض، وتحمّل المكاره وطلب المصالح. والضمير المستكن في ﴿نَعۡبُدُ﴾، وكذا في ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ للقارىء، ومن معه من الحفظة وحاضري صلاة الجماعة، أو له ولسائر الموحدين، أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم، وخلَط حاجته بحاجتهم، لعلّها تقبل ببركتها، وتجاب، ولهذا شرعت الجماعة.

ثمّ قوله ﴿نَعۡبُدُ﴾ يحتمل أن يكون من العبادة، كما عليه تفسيرنا السابق، أو من العبودة. والعبادة: هي العابدية، والعبودة: هي العبدية، فمن العبادة: الصلاة بلا غفلة، والصوم بلا غِيبة، والصدقة بلا منّة، والحج بلا إراءة، والغزو بلا سمعة، والعتق بلا أذيّة، والذِّكر بلا ملالة، وسائر الطاعات بلا آفة. ومن العبودة: الرضى بلا خصومة، والصبر بلا شكاية، واليقين بلا شبهة، والشهود بلا غَيبة، والإقبال بلا رجعة، والإيصال بلا قطيعة.

وخلاصة ما في الآية: أنّ الله سبحانه وتعالى[(١)] قد أمرنا أن لا نعبد أحداً سواه. لأنّه المنفرد بالسلطان، فلا ينبغي أن يشاركه في العبادة سواه، ولا أن يعظم تعظيم المعبود غيره، كما أمرنا أن لا نستعين بمن دونه، ولا نطلب المعونة المتمّمة للعمل، والموصلة إلى الثمرة المرجوّة إلاّ منه فيما وراء الأسباب التي يمكننا كسبها وتحصيلها.

بيان هذا: أنّ الأعمال يتوقّف نجاحها على أسبابٍ ربطتها الحكمة الإلٰهية بمسبّباتها، وجعلتها موصلة إليها، وعلى انتفاء موانع من شأنها أن تحول دونها، وقد أوتي الإنسان بما فطره الله عليه من العلم والمعرفة، كسب بعض الأسباب، ودفع بعض الموانع بقدر استعداده الذي أوتيه، وفي هذا القدر أُمِرْنا أن نتعاون، ويساعد بعضنا بعضاً، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى

---

(١) المراغي.

﴿ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾. فنحن نحضر الدواء مثلاً؛ لشفاء المرضى، ونَجْلُبَ السلاح والكُراع، ونُكثر الجند؛ لغلب العدوّ، ونضع في الأرض السماد، ونرويها ونقتلع منها الحشائش الضارّة؛ للخصب وتكثير الغلّة.

وفيما وراء ذلك مما حُجب عنّا من الأسباب: يجب أن نفوّض أمره إلى الله تعالى، فنستعين به وحده، ونفزع إليه في شفاء مريضنا، ونصرنا على عدونا، ورفع الجوائح السماوية والأرضية عن مزارعنا، إذ لا يقدر على دفع ذلك سواه، وهو قد وعدنا إذا نحن لجأنا إليه بإجابة سؤلنا، كما قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وأرشد إلى أنّه قريب منّا، يسمع دعاءنا، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

وفي ذكر الاستعانة بالله: إرشاد للإنسان إلى أنّه يجب عليه أن يطلب المعونة منه على عمل له فيه كسب، فمن ترك الكسب فقد خالف الفطرة، ونبذ هَدْيَ الشريعة، وأصبح مذموماً مدحوراً لا متوكلاً محموداً، وكذلك فيها إيماء إلى أنّ الإنسان مهما أُوتِيَ من حصافة الرأي، وحسن التدبير، وتقليب الأمور على وجوهها، لا يستغني عن العون الإلٰهيّ، واللطف الخفي.

والاستعانة[1] بهذا المعنى ترادف التوكُّل على الله، وهي من كمال التوحيد والعبادة الخالصة له تعالى، وبها يكون المرء مع الله عبداً خاضعاً مخبتاً، ومع الناس حُرًّا كريماً لا سلطان لأحد عليه لا حيٍّ ولا ميّتٍ، وفي هذا فَكٌّ للإرادة من أسر الرؤساء، والدجّالين المخرّفين، وإطلاق العزائم من قيود الأفاكين الكاذبين.

إيّا[2]: تلحقه ياء المتكلم، وكاف المخاطب، وهاء الغائب، وفروعها، فيكون ضمير نصب منفصلاً لا اسماً ظاهراً أضيف، خلافاً لزاعمه، وهل الضمير

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

هو مع لواحقه، أو هو وحده واللواحق حروف تبيّن المراد به؟ أو هو واللواحق أسماء أضيف هو إليها، أو اللواحق وحدها، وإيّا زائدة لتتصل بها الضمائر. أقوالٌ ذكرت في كتب النحو.

وأما لغاته: فبكسر الهمزة وتشديد الياء، وبها قرأ الجمهور، وبفتح الهمزة وتشديد الياء، وبها قرأ الفضل الرقاشيُّ، وبكسر الهمزة وتخفيف الياء، وبها قرأ عمرو بن فائد، عن أُبيٍّ، وبإبدال الهمزة المكسورة هاءً، وبإبدال الهمزة المفتوحة هاءً، وبذلك قرأ ابن السوَّار الغَنَوِيُّ، وذهَابُ أبي عبيدة إلى أنَّ (إيّا) مشتقٌّ ضعيفٌ، وكان أبو عبيدة لا يُحْسِن النَّحْو، وإن كان إماماً في اللُّغاتِ وأيّام العرب.

وإضافة (إيّا) إلى الظاهر نادرٌ، نحو: وإيَّا الشوابِّ، أو ضرورةٌ، نحو: دَعْنِي وإيّا خالدٍ، واستعماله تحذيراً معروف، وإياك والأسد. وقرأ الحسن، وأبو مِجلز، وأبو المتوكل ﴿إيّاك يُعْبد﴾ بالياء مبنياً للمفعول، وهذه القراءة مشكلة؛ لأنَّ إيَّاك ضمير نصب ولا ناصب له، وتوجيهُها أنّ فيها استعارةً والتفاتاً، فالاستعارةُ إحلالُ الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع، فكأنَّه قال: أنت، ثمَّ التفت فأخبر عنه إخبار الغائب؛ لمَّا كان ﴿إيّاك﴾ هو الغائب من حيث المعنى فقال: يُعبد، فكأنّه قيل: هو يُعبد؛ أي: ربُّ العالمين الموصوف بما ذُكر يعبد، وغرابة هذا الالتفات كونه في جملة واحدة.

وعن بعض أهل مكة ﴿نعبدْ﴾ بإسكان الدال. وقرأ زيدُ بن عليّ، ويحيى بن وثَّاب، وعُبيد بن عمير الليثيُّ ﴿ونِعبد﴾ بكسر النون. وقرأ الجمهور ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون الأولى، وهي لغةُ الحجاز، وهي الفصحى. وقرأ عبيد بن عمير الليثيّ، وزِرُّ بن حُبيش، ويحيى بن وثّاب، والنخعيُّ، والأعمش بكسرها، وهي لغة قيس، وتميم، وأسد، وربيعة، وكذلك حُكْمُ حرف المضارعة في هذا الفعل وما أشبهه. وقال أبو جعفر الطُّوسِيُّ: هي لغة هُذيل. وانقلاب الواو ألفاً في استعان ومستعانٍ وياءً في نستعين ومستعين والحذف في الاستعانة مذكور في علم التصريف، فراجعه.

وكرر ﴿إِيَّاكَ﴾ ليكون كلٌّ من العبادة والاستعانة سِيْقا في جملتين، وكُلٌّ منهما مقصودة، وللتنصيص على طلب العون منه، بخلاف ما لو قال: إيّاك نعبد ونستعين، فإنّه كان يحتملُ أن يكون إخباراً بطلب العون؛ أي: وليطلب العون من غير أن يعيِّن ممن يطلب منه، وفي قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ قالوا: ردٌّ على الجبرية، وفي ﴿نَسْتَعِينُ﴾ ردٌّ على القدرية، وقالوا: في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ ردٌّ على الدهرية، والمعطلة، والمنكرين لوجود الصانع، فإنه خطاب لموجودٍ حاضرٍ، والله أعلم بأسرار كتابه.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: أرشدنا إلى الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، الذي هو دين الإسلام، وثبتنا على المنهاج الواضح الذي رضيته لنا، وهذا بيانٌ للمعونة المطلوبة أوّلاً، فكأنّه قال: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهدنا. وإفرادٌ لما هو المقصود الأعظم الذي هو الهداية وهي الدلالة بلطف.

والمراد زدنا هدايةً إليه، أو أدمنا مهديِّين إليه، وإلا فنحن مهديُّون بحمد الله تعالى. وفي «السمين»: وأصل هدى أن يتعدَّى إلى الأول بنفسه، وإلى الثاني بحرف الجرّ، وهو إمّا إلى أو اللام، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، ثُمَّ قد يُتَّبع فيه، فيحذف الحرف فيتعدى للثاني بنفسه، كما هنا، فأصل ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾: اهدنا للصراط، أو إلى الصراط، ثم حذف الحرف ووصل الفعل إلى المفعول بنفسه، ووزن اهد: إفع، حذفت لامه وهي الياءُ؛ حملاً للأمر على المضارع المجزوم، والمجزوم تحذف لامه إذا كان حرف علّة. والهداية: الإرشاد، والدلالة، والتبيين، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بيَّنا لهم، والإلهام: كقوله: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ أي: ألهمه لمصالحه، والدعاء: كقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؛ أي: داع. وقال الراغب: الهداية دلالةٌ بلطف، ومنه: الهديَّة؛ لأنَّها تُمالُ من مالكٍ إلى مالكٍ. والصراط: الطريق المستهل، وبعضهم لا يُقيده بالمستهل، ومنه قول جرير:

أَمِيرُ المؤمنين على صراطٍ إذا اعوَجَّ المَوارِدُ مُستقيمِ

أي: على طريقةٍ حسنة، والمراد به هنا: دينُ الإسلام كما قاله ابن عباس. وقيل: هو القرآن، ورُوي ذلك مرفوعاً. وقيل: السنة والجماعة[1]. وقيل: معناه: اهدنا صراطَ المستحِقِّينَ للجنةِ.

وأصلُه[2]: السين، وقرأ بها قُنْبُلٌ حيث ورد، وإنّما أبدلت صاداً؛ لأجل حرف الاستعلاء؛ أي: ليطابق الطاء في الإطباق. والسراطُ: من سرط الطعام إذا ابتلعه، فكأنّه يسرط السابلة، ولذلك سُمِّي لَقْماً؛ لأنّه يلتقمهم، وجمعه: سُرُط ككُتُب، وقد تشمُّ الصاد في الصراط زاياً، وبه قرأ خلفٌ، وقُرِىء بالزاي المحضةِ، ولم يرسم في المصحف إلاّ بالصاد مع اختلاف قراءتهم فيها، كما سيأتي. والصراط يذكر ويؤنّث كالطريق، فالتذكير: لغة تميم، والتأنيث: لغة الحجازِ. والمستقيم: اسمُ فاعل من استقام، ومعناه: استوى من غير اعْوِجَاج، وأصله: مستقوم، ثم أُعِلّ كإعلال ﴿نَسْتَعِينُ﴾، كما سيأتي في مباحث الصرف.

وفي «أبي السعود»: والصراط: جمعه صُرُط، ككتاب وكُتُب، وهو كالطريق والسبيل، في التذكير والتأنيث. والمستقيم: المستوي، والمراد به: طريق الحقّ، وهي المِلَّةُ الحنيفِيَّة السَّمْحَةُ المتوسّطةُ بين الإفراط والتفريط. اهـ. وأصل الصراط: السراطُ بالسين.

وقرأ قُنْبَلٌ، ورُوَيْسٌ[3]: ﴿الصِّرَاطَ﴾ بإبدال سينه صاداً، وهي الفصحى، وهي لغة قريش، وبها قرأ الجمهور، وبها كُتبت في مصحف الإمام. والزِراط: لغةٌ رواها الأصمعيُّ، عن أبي عمرو، وإشمامها زاياً: لغة قيس، وبه قرأ حمزة بخلافٍ وتفصيلٍ عن رواته. وقال أبو عليٍّ. ورُوِي عن أبي عمرو السين والصاد، والمضارعة بين الزاي والصاد. وقال أبو جعفر الطَّوسي في تفسيره: الصراط بالصاد: لغة قريش، وهي اللغة الجيِّده، وعامَّةُ العرب يجعلونها سيناً،

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

والزاي: لغةٌ لبني عُذرةَ، وكعبٍ، وبني القَيْن، وقال أبو بكر بن مجاهد: وهذه القراءةُ تشير: إلى أنَّ قراءة من قرأ بين الزاي والصاد تكلُّف حرفٍ بَيْنَ حرفين، وذلك صعبٌ على اللسان، وليس بحرفٍ يُبنى عليه الكلام ولا من حروف المعجم، لست أدفع أنّه من كلام فصحاء العرب إلاّ أنَّ الصاد أفصحُ وأوسعُ. وقرأ زيد بن علي، والضحاك، ونصر بن علي، عن الحسن ﴿اهدنا صراطاً مستقيماً﴾ بالتنوين من غير لام التعريف، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾. وقرأ جعفرٌ الصادق في ﴿صِراطَ مستقيمٍ﴾ بالإضافة.

واعلم[1]: أنَّ هداية الله للإنسان على ضروبٍ.

١ - هدايةُ الإلهام: وتكون للطفل منذ ولادته فهو يشعر بالحاجة إلى الغذاء، ويصرخ طالباً له.

٢ - هداية الحواسِّ: وهاتان الهدايتان يشترك فيهما الإنسان والحيوان الأعجم، بل هما في الحيوان أتم منهما في الإنسان، إذ إلهامه وحواسُّه يكملان بعد ولادته بقليل، ويحصلان في الإنسان تدريجاً.

٣ - هداية العقل: وهي هدايةٌ أعلى من هداية الحسِّ والإلهام، فالإنسان قد خلق ليعيش مجتمعاً مع غيره، وحواسُّه وإلهامُه لا يكفيان لهذه الحياة، فلا بدّ له من العقل الذي يُصحِّحُ له أغلاطَ الحواسّ. ألا ترى الصَّفْراويَّ يذوق الحُلْوَ مُرًّا، والرَّائِي يُبْصرُ العودَ المستقيمَ في الماء مُعوجًّا.

٤ - هداية الأديان والشرائع: وهي هداية لا بدّ منها لمن استرقَّتْ الأهواءُ عقلَه، وسخَّر نفَسْهَ لِلَذَّاتهِ وشَهْواته، وسَلكَ مسالكَ الشرور والآثام، وعدا على بني جنسه، وحدث بينه وبينهم التَّجاذُبُ والتدافع، فبها يحصل الرشاد، إذا غلبت الأهواءُ العقولَ، وتتبينَّ للناس الحدودُ والشرائع، ليقفوا عندها، ويكفُّوا أيديهم عمّا وراءها إلى أنَّ في غرائز الإنسان الشعورَ بسلطان غيبيٍّ متسلط على الأكوان،

---

(١) روح البيان.

إليه يُنسب كل ما لا يُعرف له سبباً، وبأن له حياةً وراء هذه الحياة المحدودة، وهو بعقله لا يدرك ما يجب لصاحب هذا السلطان، ولا يصل فكره إلى ما فيه سعادته في هذه الحياة، فاحتاج إلى هداية الدين التي تفضَّل الله بها عليه ووهبه إيّاها.

وإلى تلك الهدايات أشار الكتاب الكريم في آيات كثيرات، كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريق الخير والشرّ، والسعادة والشقاء، وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: أرشدناهم إلى طريق الخير والشرّ، فاختاروا الثاني الذي عبَّر عنه بالعمى. وهناك نوع آخر من الهداية.

وهي المعونة والتوفيق للسير في طريق الخير، وهي التي أمرنا الله بطلبها في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، إذ المراد: دُلَّنا دلالة تصحبها من لدنك معونةٌ غيبيّةٌ تحفظنا بها من الوقوع في الخطاء والضلال، وهذه الهداية خاصَّة به سبحانه لم يمنحها أحداً من خلقه، ومن ثم نفاها عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وأثبتها لنفسه في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

أمَّا الهداية بمعنى الدلالة على الخير والحقّ مع بيان ما يعقب ذلك من السعادة، والفوز، والفلاح، فهي مما تفضَّل الله بها على خلقه، ومَنَحَهُموها، ومن ثَمَّ أثبتها للنبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هذا والصراط المستقيم: هو جملة ما يوصل إلى السعادة في الدنيا، والآخرة من عقائد، وأحكام، وآداب، وتشريع دينّي، كالعلم الصحيح بالله والنبوة، وأحوال الكون، وأحوال الاجتماع. وقد سَمَّىٰ هذا صراطاً مستقيماً؛ تشبيهاً له بالطريق الحسي، إذ كل منهما موصل إلى غاية، فهذا سيرٌ معنويٌّ يوصل إلى غاية يقصدها الإنسان، وذاك سيرٌ حسيٌّ يصل به إلى غاية أخرى.

وقد أرشدنا الله سبحانه إلى طلب الهداية منه؛ ليكون عَوْناً لنا بنصرنا على أهوائنا وشهواتنا، بعد أن نبذل ما نستطيع من الجهد في معرفة أحكام الشريعة، ونكلِّف أنفسنا الجري على سَنَنِها؛ لنحصل على خير الدنيا والآخرة.

قال في «التيسير»[1]: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لإظهار التوحيد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لطلب العون عليه، ﴿ٱهْدِنَا﴾ لسؤال الثبات على دينه، وهو تحقيق عبادته واستعانته؛ وذلك لأنَّ الثبات على الهداية أهمُّ الحاجات، إذ هو الذي سأله الأنبياء والأولياء، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، وسحرة فرعون: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، والصحابة: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾؛ وذلك لأنه لا ينبغي أن يعتمد على ظاهر الحال، فقد يتغيَّر في المآل كما لإبليس، وبرصيصا، وبلعم بن باعورا. اهـ.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل[2] من الصراط، بدل كُلٍّ من كلّ، فهو على نيّة تكرار العامل، وفائدته: التأكيد والإشعار بأنّ الصراط المستقيم هو صراط هؤلاء الذين أنعمت عليهم. ويجوز أن يكون عطف بيان، وفائدته الإيضاح.

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في (سورة النساء)، حيث قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾، وأطلق الإنعام؛ ليشمل كلّ إنعام.

والمعنى: أي أَرْشِدْنا إلى صراط الأقوام الذين مننت عليهم بالهداية، وأكرمتهم بالتوفيق. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيّروا ولم يبدّلوا. وقيل: هم أصحاب محمد ﷺ وأهل بيته.

وقرىء[3]: ﴿صراط مَن أنعمتَ عليهم﴾. والإنعام: إيصال النعمة، وهي في الأصل الحالة التي يَسْتَلِذُّها الإنسان، فأطلقت لما يستلذه من النعمة، وهي اللين. ونعم الله، وإن كانت لا تحصى كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾، تنحصر في جنسين دنيويٍ وأخرويٍ. والأول قسمان: مُوهَبيٌّ وكسبيٌّ.

---

(١) عمدة التفاسير.

(٢) البيضاوي.

(٣) البحر المحيط.

والموهبيُّ قسمان: روحاني: كنفخ الروح فيه، وإشراقه بالعقل، وما يتبعه من القوى، كالفهم، والفكر، والنطق. وجسماني: كتخليق البدن والقوى الحالَّة فيه، والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء. والكسبيُّ: تزكية النفس عن الرذائل، وتحليتها بالأخلاق السنيَّة والمَلَكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة، والحُلي المستحسنة، وحصول الجاه، والمال. والثاني: أن يغفر ما فَرَط منه، ويرضى عنه ويُبَوِّئَهُ في أعلى عليّين مع الملائكة المقربين أبدَ الآبدين. والمراد هنا: هو القسم الأخير، وما يكون وُصْلَةً إلى نيله من القسم الآخر، فإنَّ ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر.

وحكى اللُّغويُّون في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عشر لغات[1]: ضمُّ الهاء وإسكان الميم، وهي قراءة حمزة، وكسرها وإسكان الميم، هي قراءة الجمهور، وكسر الهاء والميم وياءٍ بعدها، وهي قراءة الحسين، وزاد ابن مجاهد، أنها قراءة عمر بن قائد، وكذلك بغير ياءٍ، وهي قراءة عمرو بن فائد، وكسر الهاء وضمُّ الميم وواوٍ بعدها، وهي قراءة ابن كثير، وقالون بخلافٍ عنه، وكسر الهاء وضمّ الميم بغير واو، وضمُّ الهاء والميم وواوٍ بعدها، وهي قراءة الأعرج، والخفاف، عن أبي عمرو، وكذلك بدون واوٍ، وضمُّ الهاء وكسر الميم بياءٍ بعدها، وكذلك بغير ياءٍ، وقرىء بهما. وتوضيح هذه القراءات بالخط والشكل: عليهُمْ، عليهِمْ، عليهمي، عليهِمِ، عليهمو، عليهِمُ، عليهُمو، عليهُمُ، عليهُمِي، عليهُمِ.

وفي «القرطبي»:[2] وفي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عشر لغات قُرىء بعامّتها: ﴿عليهُمْ﴾ بضمّ الهاء وإسكان الميم، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكسر الهاء وإسكان الميم، و﴿عليهمي﴾ بكسر الهاء والميم، وإلحاق ياء بعد الكسرة، و﴿عليهِمو﴾ بكسر الهاء وضمّ الميم، وزيادة واو بعد الضمّة، و﴿عليهُمو﴾ بضمّ الهاء والميم، وزيادة واو بعد الميم، و﴿عليهُمُ﴾ بضمّ الهاء والميم من غير زيادة واو. وهذه الأوجه الستّة مأثورة عن أئمّة القرَّاء. الثلاثة الأول منها: سبعيّة، وأوجه أربعة منقولة عن العرب

---

(١) الفتوحات.

(٢) البيضاوي.

غير محكيّة عن القرّاء. ﴿عليهُمِي﴾ بضمّ الهاء وكسر الميم، وزيادة ياء بعد الميم، حكاها الأخفش البصري عن العرب، و﴿عليهُمِ﴾ بضمّ الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء، و﴿عليهِمُ﴾ بكسر الهاء وضمّ الميم من غير إلحاق واو، و﴿عليهِمِ﴾ بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم. وكلّها صواب قاله ابن الأنباري. اهـ.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل كلّ من كلّ. أي: صراط غير اليهود الذين غَضبت عليهم وخذلتهم، وانتقمت منهم؛ لقوله تعالى فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. أي: وصراط غير النصارى الذين ضلّوا وأخطأوا عن الهدى لقوله تعالى فيهم: ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقيل: غير المغضوب عليهم بالبدعة، ولا الضالّين عن السنّة، والله أعلم.

والمعنى: وفّقنا طريق الهدى والرشاد التي هي طريق الأنبياء والمؤمنين، وجنّبنا عن طريق أهل الغضب والضلال التي هي طريق الكفار والمنافقين. وورد في الحديث: أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ المغضوبَ عليهم اليهود، وإنّ الضالّين هم النصارى» رواه ابن حبّان وصحّحه. وإنّما سُمّي كلٌّ من اليهود والنصارى بما ذكر، مع أنّ كلاًّ منهم مغضوب عليه وضالّ؛ لاختصاص كلّ منهما بما غلب عليه. اهـ. خطيب. ويتجه أن يقال: المغضوب عليهم العصاة، والضالون الجاهلون بالله؛ لأنّ المنعَم عليه من وُفّقَ للجمع بين معرفة الحقّ لذاته، والخير للعمل به، وكان المقابل له من اختَلّ إحدى قُوَّتَيه العاقلة والعاملة، والمخل بالعمل فاسقٌ مغضوبٌ عليه؛ لقوله تعالى في القاتل عمداً: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، والمخل بالعلم جاهلٌ ضالٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾. اهـ. من «البيضاوي».

والحاصل: أنّ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بدل[1] من ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ﴾ على

---

(١) الشوكاني.

معنى: أنّ المنعَم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال، أو صفة له مبيّنة، أو مقيّدة على معنى: أنّهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من الغضب والضلال، وذلك إنّما يصحّ بأحد تأويلين: أجراءِ الموصول مجرى النكرة في الإبهام، إذ لم يقصد به معهود كالمحلّى بـ (أل) الجنسية في قوله:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني   فمضيت ثم قلت لا يعنيني

وكقولهم: إنّي لأمرّ على الرجل مثلك فيكرمني. أو جَعْلُ ﴿غير﴾ معرَّفاً بالإضافة؛ لأنه أُضيف إلى ما له ضِدٌّ واحد، وهو المُنْعَم عليه، فيتعيَّنُ تعيُّن الحركةِ مِنْ غيرِ السكون، وعن ابن كثير: نصَبْهُ على الحال من الضمير المجرور في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، والعامل ﴿أَنْعَمْتَ﴾ أو بإضمار أعني أو بالاستثناء، إن فُسِّر المُنْعَمُ بما يعمُّ القبيلين، وبه قرأ عمر، وابن مسعود، وعليٌّ، وابن الزبير وليست في المتواتر عن ابن كثير.

والغضب: ثوران النفس لإرادة الانتقام، ومعنى الغضب في صفة الله: إرادة العقوبة، فهو صفة ذاته، أو نفس العقوبة. ومنه الحديث: «إنّ الصدقة تطفىء غضب الربّ»، فهو صفة فعله. قال في «الكشاف»: غضب الله إرادته الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على مَن تحتَ يده.

والفرق[1] بين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الأولى و﴿عَلَيْهِمْ﴾ الثانية: أنَّ الأولى في محل نصب على المفعولية، والثانية في محل رفع على النيابة عن الفاعل. و﴿لا﴾ في قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ زائدةٌ لتأكيد النفي المفهوم من ﴿غَيْرِ﴾، فكأنّه قال: لا المغضوب عليهم ولا الضالين.

وقرأ عمر وأُبَيٌّ[2]: ﴿وغَيْرِ الضالّين﴾، ورُوِيَ عنهما في الراءِ في الحرفين النصب والخفض، ويدلُّ على أنَّ المغضوب عليهم هم غير الضالين. والتأكيد

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

فيها أبعد، والتأكيد في لا، أقرب. وقرأ أيوب السختياني ﴿ولا الضَّأْلِّين﴾ بإبدال الألف همزةً؛ فراراً من التقاء الساكنين. وحكى أبو زيد: دأَبَّةٌ وشأَبَّةٌ في دَابَّةٍ وشابَّةٍ في كتاب الهمز، ومع ذلك فلا ينقاس هذا الإبدال؛ لأنّه لم يكثر كثرةً توجب القياس، نصَّ على أنّه لا ينقاسُ النحويُّون.

قال القرطبي: الضلال في لسان العرب: هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحقّ، ومنه ضَلَّ اللبن في الماء؛ أي: غاب. ومنه: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: غبنا بالموت وصرنا تراباً. ويقال: ضللت الشيء: جهلت المكان الذي وضعته فيه، وأضللت الشيء: ضيعته، وأضل أعمالهم وضلَّ: غفل ونسي، ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾، والضلالُ: سلوك سبيل غير القصد. ضل عن الطريق: سلك غير جادتها، والضلال: الحَيرة والتردُّد. ومنه: قيل لحجرٍ أملس يردده الماء في الوادي: ضلضلةٌ.

وفي «الخطيب»: وفي قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ مَدَّان: مدٌّ لازمٌ، ومدٌّ عارضٌ، فاللازم: هو الذي على الألف بعد الضاد وقبل اللام المشدّدة، والعارض: هو الذي على الياء قبل النون. اهـ. والأصل في الضالّين: الضالِلين، ثمّ أدغمت اللام في اللام، فاجتمع ساكنان مدّتِ الألف واللام المدغمة.

والحاصل من معنى الآيتين، كما قاله المراغي: أنّ الله سبحانه وتعالى أمرنا[1] باتباع صراط مَن تقدَّمنا؛ لأنَّ دين الله واحد في جميع الأزمان، فهو إيمانٌ بالله ورسله، واليوم الآخر، وتخلُّقٌ بفاضل الأخلاق، وعمل الخير، وترك الشرِّ، وما عدا ذلك فهو فروع وأحكامٌ تختلفُ باختلاف الزمان والمكان، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾. و﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ قيل: هم الذين بلغهم الدين الحقُّ الذي شرعه الله تعالى لعباده، فرفضوه ونبذوه وراءَهم ظهريّاً، وانصرفوا عن النظر في الأدلَّة؛ تقليداً لما ورثوه عن الآباء والأجداد، وهؤلاء عاقبتهم النكال والوبال في نار جهنم وبئس القرار.

---

(١) المراغي.

والضالُّون: هم الذين لم يعرفوا الحقَّ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح، وهؤلاء هم الذين لم تَبْلُغهم رسالة، أو بلغتهم على وجه لم يستبن لهم فيه الحقُّ، فهم تائهون في عمايةٍ، لا يهتدون معها إلى مطلوب تعترضُهم الشُّبهات التي تلبِّسُ الحق بالباطل والصواب بالخطأ، إن لم يضلّوا في شؤون الدنيا، فقد ضَلّوا في شؤون الحياة الآخرة، فمن حُرِم هُدى الدين ظهر له أثر الاضطراب في أحواله المعيشيَّة، وحلَّت به الرزايا، والذين جاؤوا على فترة من الرسل لا يكلَّفون بشريعة، ولا يعذَّبون في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾.

وهذا رأي جمهرة العلماء[1]، وترى فئةٌ منهم: أنَّ العقل وحده كاف في التكليف، فمتى أوتيه الإنسان وجب عليه النظر في ملكوت السموات والأرض، والتدبُّر، والتفكُّر في خالق الكون، وما يجب له من عبادة وإجلال بقدر ما يهديه عقلُه، ويصل إليه اجتهاده، وبذلك ينجو من عذاب النار يوم القيامة، فإنْ لم يفعل ذلك كان من الهالكين.

تنبيه: آخر (الفاتحة)[2]: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وأما لفظ آمين: فليس منها ولا من القرآن مطلقاً، بل هو سنّة يسنّ لقارىء (الفاتحة) في الصلاة، وغيرها أن يختم به، وهو اسم فعل دعاء بمعنى استجب وتقبّل يا الله هذا الدعاء! وهو قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إلى آخرها. وهذا الاسم مبنّي؛ لشبهه بالحرف شبهاً استعماليّاً على الفتح؛ فراراً من التقاء الساكنين وللخِفَّة، كما في أين وكيف.

وفيه لغتان: المد على وزن فاعيل، كياسين، أو قابيل وهابيل، فيكون اسماً أعجمياً، والقصر على وزن يمين، ومن المدّ قول الشاعر:

يا رب لا تَسْلُبَنّي حُبَّها أبداً   ويرحَمُ الله عبداً قال آمِينا

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.

وقال الآخر:

آمِـيـنَ آمـيـن لا أرضـىٰ بـواحـدةٍ   حـتـى أكـمِّـلَـهـا ألـفـيـنِ آمـيـنـاً

ومن القصر قول الآخر:

أمِـيْـنَ فَـزادَ الـلَّـهُ مـا بَـيْـنَـنَـا بُـعْـدَا

قال الجوهري: وتشديد الميم خطأٌ، ورُوي عن الحسن، وجعفر الصادق، والحسين بن فضل: التشديد من أمَّ إذا قصد؛ أي: نحن قاصدون نحوك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ حكى ذلك القرطبيُّ. وقيل: ليست اسم فعل، بل هي من أسماء الله، والتقدير: يا آمين، وضعفه أبو البقاء بوجهين:

أحدهما: أنه لو كان كذلك لكان ينبغي أن يبنى على الضمّ؛ لأنّه منادى مفردٌ معرفةٌ.

الثاني: أنّ أسماء الله تعالى توقيفيّة. ووَجَّه الفارسيّ قول من جعله اسماً لله تعالى على معنى: أنّ فيه ضميراً يعود على الله تعالى، فكأنّه اسم فعل، وهو توجيهٌ حسن، نقله صاحب المُغْرِب، ويكون المعنى: إنّا نتوجه إليك يا إلهنا فإليك المرجع والمصيرُ.

وفي «الخطيب»: والسُنّة للقارىء: أن يقول بعد فراغه من (الفاتحة): آمين مفصولاً عن ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ بسكتة؛ ليتميَّز ما هو قرآن عمّا ليس بقرآن، وهو اسمُ الفعل الذي معناه: استجب دعاءَنا.

فائدة: في مشروعيّة التأمين بعد قراءة (الفاتحة):

اعلم: أنّ السُنّة الصحيحة، الصريحة، الثابتة تواتراً، قد دلّت على ذلك، فمن ذلك: ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن وائل بن حُجْر قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقال: آمين، مدّ بها صوته. ولأبي داود: رفع بها صوته، وقد حسّنه الترمذي. وأخرجه أيضاً النسائي، وابن أبي شيبة، وابن ماجه، والحاكم وصحّحه، وفي لفظ من حديثه: أنّه ﷺ قال: «رب اغفر لي آمين». وأخرجه الطبراني والبيهقي. وفي لفظٍ أنه

قال: آمين ثلاث مرّات، وأخرجه الطبراني. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبة عن أبي ميسرة قال: لمّا أقرأ جبريلُ رسولَ الله ﷺ فاتحة الكتاب، فبلغ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: قل: «آمين»، فقال: «آمين». وأخرج ابن ماجه عن عليّ قال: سمعت رسول الله ﷺ إذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: آمين. وأخرج مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ - يعني: الإمام - ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين يُحِبُّكُمُ الله». وأخرج البخاري، ومسلم، وأصحاب السنن، وأحمد، وابن أبي شيبة، وغيرهم عن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا أمّن الإمام فأمّنوا، فإنّه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وأخرج أحمد، وابن ماجه، والبيهقي بسند. قال السيوطي صحيح عن عائشة: أنّ النبي ﷺ قال: «ما حسَدَتْكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على السلام والتأمين». وأخرج ابن عديّ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ اليهود قوم حُسَّد، حسدوكم على ثلاثة: إفشاء السلام، وإقامة الصفّ، وآمينْ».

وأخرج الديلميّ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ثمّ قرأ فاتحة الكتاب، ثمّ قال: آمين. لم يبق ملك في السماء مقرّب إلاّ استغفر له».

وأخرج الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله سبحانه، أعطى أمتي ثلاثاً، لَمْ تُعْطَ أحداً قبلهم: السلام، وهو تحية أهل الجنة، وصفوف الملائكة، وآمين، إلاّ ما كان موسى وهارون». قال أبو عبد الله: معناه: أنّ موسى دعا على فرعون، وأمّن هارون، فقال الله تبارك وتعالى عند ما ذكر دعاء موسى في تنزيله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، ولم يذكر مقالة هارون، وقال موسى: ﴿رَبَّنَا﴾، فكان من هارون التأمين، فسمّاه داعياً في تنزيله، إذ صير ذلك دعوة منه. وقيل: إنّ آمين خاصّ بهذه الأمّة، كما مرّ قريباً.

فائدة أخرى: في حكم (الفاتحة):

اختلف العلماء في وجوب قراءة (الفاتحة): فذهب مالك، والشافعيّ، وأحمد، وجمهور العلماء إلى وجوب (الفاتحة)، فإنّها متعيّنة في الصلاة، ولا تجزىء إلاّ بها، واحتجّوا بما روى عبادة بن الصامت: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب»، أخرجاه في الصحيحين. وبحديث أبي هريرة: «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، فهي خداج ثلاثاً غير تمام» الحديث وقد تقدم في بحث فضل (سورة الفاتحة). وذهب أبو حنيفة: إلى أنّ (الفاتحة) لا تتعيّن على المصلّي، بل الواجب عليه قراءة آية من القرآن طويلة، أو ثلاث آيات قصار، واحتج بقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، وبقوله ﷺ في حديث الأعرابيّ المسيء صلاته: «ثمّ اقرأ بما تيسر معك من القرآن»، أخرجاه في الصحيحين.

دليل الجمهور: ما تقدم من الأحاديث، فإن قيل: المراد من الحديث: لا صلاة كاملة. قلت: هذا خلاف ظاهر لفظ الحديث، ومما يدل عليه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزىء صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب»، أخرجه الدارقطني، وقال: إسناده صحيح. وعنه: أنّ رسول الله ﷺ أمره أن يخرج فينادي «لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب، فما زاد» أخرجه أحمد، وأبو داود. وأجيب عن حديث الأعرابيّ: بأنه محمول على (الفاتحة)، فإنّها متيسرة، أو على ما زاد على (الفاتحة)، أو على العاجز عن قراءة (الفاتحة)، والله أعلم.

الإعراب

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿الْحَمْدُ﴾ مبتدأ مرفوع بالابتداء. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور، متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: مستحَقّ لله، والجملة الإسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً، أو في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: قولوا: الحمد لله ربّ العالمين. ﴿رَبِّ﴾ صفة أُولى للجلالة، مجرور بالكسرة الظاهرة، وهو مضاف. ﴿الْعَالَمِينَ﴾ مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ صفة ثانية للجلالة، مجرور بالكسرة الظاهرة. ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ صفة ثالثة لها. ﴿مَٰلِكِ﴾ صفة رابعة لها، وهو مضاف. ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مضاف إليه. ﴿إِيَّاكَ﴾ إيّا ضمير نصب منفصل، في محل النصب مفعول به مقدم؛ لغرض الحصر، والكاف حرف دالّ على الخطاب. ﴿نَعۡبُدُ﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ لإسناده إلى المتكلم، تقديره: نحن يعود على القارىء ومن معه، أو على المعظم نفسه، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَإِيَّاكَ﴾ الواو عاطفة. ﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير نصب منفصل في محل النصب مفعول مقدم. ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر يعود على القارىء ومن معه، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَعۡبُدُ﴾. ﴿ٱهۡدِنَا﴾ (اهد) فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع البارىء سبحانه، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ لإسناده إلى المخاطَب، تقديره: أنت يعود على الله، والجملة مستأنفة لا محلّ لها من الإعراب، أو في محلّ النصب مقول قولوا كسابقها، أو جملة دعائية لا محل لها من الإعراب. (نا) ضمير نصب متصل، يعود على القارىء ومن معه، في محل النصب مفعول أول، مبني بسكون على الألف المحذوفة؛ للتخلّص من التقاء الساكنين. ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ مفعول ثان ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ صفة للصراط.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

﴿صِرَٰطَ﴾ بدل من الصراط، بدل كلّ من كلّ، وهو مضاف. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محلّ الجر بالإضافة، مبني على الفتح، أو على الياء على الخلاف المذكور في محلّه؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، وإنّما حرك مع كون الأصل في المبني السكون؛ ليعلم أنّ له أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة فتحة؛ للخفة مع ثقل الموصول. ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلّق بأنعمت، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير عليهم. ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ ﴿غَيۡرِ﴾ بدل من الذين، أو من الضمير في عليهم، بدل كلّ من كلّ، أو نعت للموصول، مجرور بالكسرة الظاهرة، وهو مضاف. ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ مضاف إليه،

مجرور بالكسرة الظاهرة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور في محلّ الرفع نائب فاعل للمغضوب؛ لأنّه اسم مفعول يعمل عمل الفعل المغيّر. ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة. لا: زائدة زيدت؛ لتأكيد النفي المفهوم من غير. ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾. معطوف على المغضوب عليهم، مجرور بالياء؛ لأنّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين والحركة اللذين كانا في الاسم المفرد.

آمين: اسم فعل أمر؛ أي: دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباريء سبحانه؛ بمعنى: استجب، مبنّي على الفتح؛ لشبهه بالحرف شبهاً استعمالياً، والشبه الاستعمالي: هو أن يشبه الاسم الحرف في كونه عاملاً لا معمولاً، وإنّما حرك؛ ليعلم أنّ له أصلاً في الإعراب، أو فراراً من التقاء الساكنين، كما في أين وكيف، وكانت الحركة فتحة؛ للخفة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً لإسناده إلى المخاطَب، تقديره: أنت يعود على الباريء سبحانه، والجملة من اسم الفعل وفاعله لا محلّ لها من الإعراب؛ لأنّ اسم الفعل عامل غير معمول، أو جملة دعائية، والمعنى: اسمع يا الله قراءتنا واستجب دعاءَنا! وتقدم الخلاف في معناه.

التَّصريف ومفردات اللغة

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والرب: هو السيّد، والمالك، والمصلح، وغير ذلك من المعاني المارّة، فهو اسم فاعل مِن رَبَّ يَرُبّ رباً، نظير: نمّ ينم نمّاً، إذا نقل الحديث على وجه الإفساد، فهو ربّ وذاك مربوب. أصله: رابّ، حذفوا ألفه؛ اعتباطاً، كما في برّ وبارّ. ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالَم بفتح اللام، وجُمِع جَمْعَ المذكر السالم العاقل؛ تغليباً للعقلاء، والمراد به جميع الكائنات، والعالَم لا واحد له من لفظه، ولا من غير لفظه؛ لأنّه اسم جمع لأشياء مختلفة الحقائق.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ والمالك: إمّا من المُلْك بضمّ الميم، وهو عبارة عن السلطان القاهر والاستيلاء الباهر، أو من المِلْك بكسر الميم، وهو السلطنة الخاصّة، والدين: الجزاء، وهو المراد هنا، ويوم الجزاء: هو يوم القيامة، والطاعةُ، كقوله تعالى: ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾، والدين أيضاً المِلَّة، وفي «القرطبي» ما نصُّه: إن قال قائل: كيف قال: مالك يوم الدين، ويوم الدين لم يوجد بعد،

فكيف وصف نفسه سبحانه بملك ما لم يوجد؟ قيل له: اعلم أنَّ مالكاً: اسم فاعل من مَلَكَ يَمْلِك، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده، وهو بمعنى الفعل المستقبل، ويكون ذلك عندهم كلاماً سديداً معقولاً صحيحاً، كقولك: هذا ضاربُ زيدٍ غداً؛ أي: سيضرب زيداً، وهكذا حَاجُّ بيتِ الله في العام المستقبل تأويله: سيحج في العام المستقبل، أفلا ترى أنَّ الفعل قد ينسب إليه وهو لم يفعل بعد؛ وإنّما أريد به الاستقبال، فكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ على تأويل الاستقبال؛ أي: سيملك يوم الدين، أو في يوم الدين إذا حضر.

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أصله: نستَعْوِن بوزن نستخرج، فهو سداسيّ أجوف واويّ؛ لأنّه من العون، ففيه إعلال بالنقل والقلب، فاستثقلت الكسرة على الواو، فنقلت إلى الساكن قبلها على حدّ قول ابن مالك في «الخلاصة» في باب التصريف:

لساكنٍ صَحَّ انقُلْ التحريك من ذِي لِيْنٍ آتٍ عَيْن فِعل كأبن

فسكنت الواو بعد النقل، وانكسر ما قبلها فقلبت ياء، وهذه قاعدة مطردة عند الصرفيّين، نحو: ميزان وميقات، وهما من الوزن والوقت. اهـ. «سمين» مع زيادة. وفي «المصباح»: استعان به فأعانه، وقد يتعدى بنفسه، فيقال: أعانه، والاسم: المعونة والمَعانة بالفتح. اهـ. والاستعانة: طلب العون، والطلب أحد معاني استفعل، وهي ثلاثة عشر، فمنها: هذا، والاتخاذ، والتحوّل، وإلقاءُ الشيء بمعنى: ما صِيغ منه وعدُّه كذلك، ومطاوعة أفعل وموافقته، وموافقة تفعَّل، وافتعل، والفعل المجرد، والاغناء عنه وعن فعَّل، وموافقة تفاعل. مثلُ ذلك: استطعم، واستعبده، واسْتَنْسَر، واستعظمه، واستحسنه، وإن لم يكن كذلك، واسْتَشْلَىٰ مطاوع أشلَّ، واستَنْبَل موافق ومطاوع أبَلَ، واستكبر موافق تكبَّر، واستعصم موافق اعتصم، واستغنى موافق غَنِيَ، واستنكف، واستحيا مغنيان عن المجرَّد، واسترجع، واستعان حَلَق عانته مغنياً عن فَعلَ، فاستعان طلب العون، كاستغفر، واستعظم، واستمسك بالشيء، وتماسك به، ومَسَك به بمعنى واحد أي: احْتَبَسْتُ به. اهـ. من «البحر المحيط». وقد بسَطْنا الكلامَ على

أبنية الفعل المزيد، ووضعنا لها جدولاً في كتابنا «مناهل الرجال على لاميّة الأفعال» في الصرف، فراجعه.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ووزن اهد إفع، حذفت لامه، وهي الياء حملاً للأمر على المضارع المجزوم، والمجزوم تحذف لامه إذا كانت حرف علة. والصراط، كالطريق والسبيل في التذكير والتأنيث، كما مرّ، يُجمع على صُرُط، ككتاب وكُتُب. والمستقيم: اسم فاعل من استقام السداسيّ الذي من باب استفعل بمعنى: الفعل المجرد من الزوائد، فهو هنا بمعنى: قام إذا استوى وانتصب، وأصله: مستَقْوِم بوزن مستفعل، استثقلت الكسرة على الواو، ثمّ نقلت إلى الساكن قبلها، فقلبت الواو ياء؛ لسكونها وانكسار ما قبلها، فصار مستقيم.

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهمزة أنعم؛ لجعل الشيء صاحب ما صيغ منه؛ أي: جعلتهم أصحاب نعمة، وهذا أحد المعاني التي لأفعل، وهي أربعة وعشرون معنى، وهذا أحدها، والتعدية، والكثرة، والصيرورة، والإعانة، والتعريض، والسلب إلى آخر ما في مطوّلات الصرف فراجعها. والتاء المتصلة بأنعمت: ضمير المخاطب المنزه عن الذكورة والأنوثة الباري سبحانه، وهي حرف خطاب في أنت، والضمير هناك أن، فهو مركب من اسم وحرف.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ جمع ضالّ، اسم فاعل من ضلّ الثلاثي، فأصله: الضَّالِلِيْنَ، سُكِّنت اللام الأولى؛ لثقل توالي كسرتين فالتقى ساكنان، فأدغمت اللام في اللام، فصار ضالّين، ووزن ضالّين فاعلين، وقد تقدم لك أنّ أيّوب السختياني يقرأ ﴿وَلاَ الضَّأْلِينَ﴾؛ فراراً من التقاء الساكنين، قال أبو زيد: سمعت عمرو بن عبيد يقرأ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَأَنٌّ﴾، فظننته قد لحن، حتى سمعت من العرب دَأَبَّةٌ، وشَأَبَّةٌ.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة، والبيان، والبديع:

فمنها: حسن الافتتاح وبراعة المطلع، فإن كان أوّلها بسم الله الرحمن الرحيم على قول من عدّها منها، فناهيك بذلك حسناً، إذ كان مطلعها مفتتحاً باسم الله، وإن كان أولها الحمد لله فحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ووصفه بما له من الصفات العليّة، أحسن ما افتتح به الكلام، وقُدم بين يدي النثر والنظم، وقد تكرّر الافتتاح بالحمد في كثير من السور. والمطلع ينقسم إلى حسن وقبيح، والحسن إلى ظاهر وخفيّ على ما قسم في علم البديع.

ومنها: المبالغة في الثناء على الله؛ وذلك لعموم أل في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ على التفسير الذي مرّ.

ومنها: تلوين الخطاب على قول بعضهم، فإنّه ذكر أنّ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ صيغته صيغة الخبر، ومعناه الأمر، كقوله: لا ريب فيه ومعناه: النهي؛ أي: لا ترتابوا فيه.

ومنها: الاختصاص باللام التي في لله، إذ دلّت على أنّ جميع المحامد مختصّة به تعالى، فهو مستحِق لها، وبالإضافة في مالك يوم الدين؛ لزوال الأملاك والممالك عن سواه تعالى في ذلك اليوم، وتفرّده فيه بالمِلك والمُلك، قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ ولأنّه لا يجازي في ذلك اليوم على الأعمال سواه.

ومنها: الحذف، وهو على قراءة من نصب الحمد ظاهر، وتقدم هل يقدّر من لفظ الحمد، أو من غير لفظه، قال بعضهم: ومنه حُذْف العامل الذي هو في الحقيقة خبر عن الحمد، وهو الذي يقدّر بكائن، أو مستقرّ، قال: ومنه حذف صراط من قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، التقدير: صراط غير المغضوب عليهم وصراط غير الضالّين، وحذف سورة إن قدّرنا العامل في الحمد إذا نصبناه باذكروا، أو اقرؤا، تقديره: اقرءوا سورة الحمد.

ومنها: الإتيان بالرحمن الرحيم عقب اتصافه بربّ العالمين؛ لإفادة الترغيب بعد الترهيب، فيكون أرغب للعبد على الطاعة، وأمنع من المعصية.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لإفادة الحصر والاختصاص.

ومنها: الإضافة لأدنى ملابسة في ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ كإضافة سائر الظروف إلى ما وقع فيها من الحوادث، كيوم الأحزاب، ويوم الفتح.

ومنها: تقديم العبادة على الاستعانة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ ليوافق رؤوس الآي؛ وليُعلَم أنّ تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة.

ومنها: إعادة إيّاك مع الفعل الثاني؛ ليفيد أنّ كلاً من العبادة والاستعانة مقصود بالذات، فلا يستلزم كلّ منهما الآخر.

ومنها: الالتفات من الغَيبة في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ...﴾ إلخ؛ تطريباً للنفس، وزيادة في نشاطها جرياً على أساليبهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ حيث شبّه دين الإسلام بالطريق الحسّي، بجامع أنّ كلاً يوصل إلى المقصود، واستعير اسم المشبّه به للمشبّه.

ومنها: طلب الشيء مراداً به طلب دوامه واستمراره في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: ثبّتنا عليه.

ومنها: التفسير والبيان في قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد الإبهام في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ لأنّه أوقع في النفس، وأرسخ فيه.

ومنها: نسبة الغضب إلى المجهول في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، حيث لم يقل: غير الذين غضبت عليهم؛ تعليماً لعباده الأدب، حيث أسند الخير إلى نفسه، وأبهم في الشرّ، نظير قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ومنها: زيادة لا في قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لتأكيد النفي المستفاد من غير.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا انتهى تفسير سورة الفاتحة بعون الله وتوفيقه، بُعَيد الظهر من يوم الاثنين، اليوم السابع من شهر ربيع الأول من شهور سنة ألف وأربع مئة وسبع عشرة سنة من الهجرة النبوية: ٧/ ٣/ ١٤١٧ هـ على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلّى الله وسلم على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

سورة البقرة

سورة البقرة مدنية كلّها، نزلت بعد المطفِّفين في مُدَدٍ شَتّى، وهي أوّل ما نزل بالمدينة. قيل: إلاّ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية، فإنّها آخر آيةٍ نزلت من السماء، نزلت يوم النحر في حجةِ الوداع بمنى، وآيات الربا أيضاً من أواخر ما نزل من القرآن، ذكره القرطبي في «تفسيره».

وهي[١] مئتان وستّ أو سبع أو ثمان وثمانون آية، وستّة آلاف كلمة، ومئة وإحدى وعشرون كلمة، وخَمْسٌ وعشرون ألف حرف وخمس مئة حرف.

المناسبة: مناسبتها للفاتحة ظاهرةٌ؛ لأنَّ سورة الفاتحة ختمت بالأمر بطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى، حيث قال فيها: قولوا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وسورة البقرة بُدِئَت ببيان محلّ الهداية والوسيلة إليها، حيث قال فيها: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. وقال صاحب «الروح»: فإن قلت:[٢] ما الحكمة في ابتداء البقرة بآلم والفاتحة بالحرف الظاهر المحكم وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟

فالجواب ما قاله السيوطي ـ رحمه الله ـ في «الإتقان»: أقول في مناسبة ابتداء البقرة بآلم: أنّه لما ابتُدِئَت الفاتحة بالحرف المحكم الظاهر لكلّ أحد، بحيث لا يُعذَر في فهمه أحد، ابتدئت البقرة بمقابله، وهو الحرف المتشابه البعيد التأويل؛ ليُعلم مراتبه للعقلاء والحكماء: ليعجزهم بذلك؛ ليعتبروا ويدبَّروا آياته.

التسميةُ: سُمّيت السورة الكريمة بسورة البقرة: إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة التي ظهرت في زمن موسى الكليم عليه السلام، حيث قُتِل شخص من بني

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

إسرائيل، ولم يعرفوا قاتله إلى آخر ما سيأتي. وسيأتي بيان الناسخ والمنسوخ منها في آخرها، إن شاء الله تعالى.

فضلها: وورد في فضلها أحاديث كثيرة:

منها: ما أخرجه مسلم، والترمذي، وأحمد، والبخاري في «تاريخه»، ومحمد بن نصر، عن النوّاس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران». قال: وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان، أو قال: كأنَّهما غيايتان، أو كأنهما ظلتان سوداوان، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ تحاجان عن صاحبهما».

ومنها: ما أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والدارمي، وأحمد، ومحمد بن نصر، والحاكم وصحّحه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا سورة البقرة وآل عمران فإنّهما الزهراوان تُظِلاّن صاحبهما يوم القيامة، كأنّهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف». قال ابن كثير: وإسناده حسن على شرط مسلم.

ومنها: ما أخرجه مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنّ الشيطان يفرّ من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، وعنه أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيّدة آي القرآن، آية الكرسيّ»، أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب.

ومنها: ما أخرجه مسلم في «صحيحه» مطولاً، عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: اقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلة؛ يعني: السحرة.

ومنها: ما أخرجه أبو يعلى، وابن حبان، والطبراني، والبيهقي عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكلّ شيء سَناماً، وسنام القرآن سورة البقرة من قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام، ومن قرأها في

بيته ليلاً لم يدخله الشيطان ثلاث ليال».

وأخرج أحمد، ومحمد بن نصر، والطبراني بسند صحيح، عن معقل بن يسار: أنّ رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كلّ آية منها ثمانون ملكاً، واسْتُخرجت ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ من تحت العرش، فوُصِلت بها».

وأخرج البغوي في «معجم الصحابة»، وابن عساكر في «تاريخه» عن ربيعة الجَرَسِيّ قال: سئل رسول الله ﷺ أيُّ القرآن أفضل؟ قال: «السورة التي يُذكَر فيها البقرة» قيل: فأيُّ البقرة أفضل؟ قال: «آية الكرسيّ وخواتيم سورة البقرة نزلت من تحت العرش». إلى غير ذلك مما ورد في فضلها من الأحاديث المختلفة صحة، وحسناً، وغرابة، وضعفاً.

وقوله: سورة البقرة كذا وكذا آية يؤخذ منه: أنّ تسميتها بما ذكر غير مكروه خلافاً لمن قال بكراهة ذلك، وقال: لا يقال ذلك؛ لما فيه من نوع تنقيص بإضافتها إلى البقرة، أو إلى العنكبوت مثلاً، وإنّما يقال: السورة التي تُذكَر فيها البقرة، أو السورة التي يذكر فيها آل عمران، أو العنكبوت مثلاً، واستدلّ هذا القائل بما رواه الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الشُّعَب»، وغيرهما بسند ضعيف، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء، وكذا القرآن كلّه، ولكن قولوا: السورة التي تذكر فيها البقرة والسورة التي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كلّه». قال ابن كثير: هذا حديث غريب لا يصحّ رفعه، وفي إسناده يحيى بن ميمون الخوَّاص، وهو ضعيف الرواية لا يحتجّ به. وبما أخرجه البيهقي في «الشعب» بسند صحيح، عن ابن عمر قال: (لا تقولوا سورة البقرة، ولكن قولوا: السورة التي تذكر فيها البقرة)، ولكنه موقوف على ابن عمر لم يرفعه.

والذي عليه الجماهير من الصحابة والتابعين، ومَن بعدهم عدم الكراهة، فقد روي عن جماعة من الصحابة ما يدلّ على عدم الكراهة، فثبت في «الصحيحين» عن ابن مسعود: أنّه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن

يساره، ومنى عن يمينه، ثمّ قال: (هذا مقام الذي أُنزلت عليه سورة البقرة).

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، وأهل السنن، والحاكم وصحّحه عن حذيفة قال: (صلّيت مع رسول الله ﷺ ليلة من رمضان فافتتح البقرة، فقلت: يصلّي بها في ركعة، ثمّ افتتح النساء فقرأها، ثمّ افتتح آل عمران فقرأها مترسّلاً» الحديث.

وأخرج أحمد، وابن الضريس، والبيهقي عن عائشة قالت: (كنت أقوم مع رسول الله ﷺ في الليل، فيقرأ بالبقرة وآل عمران و(النساء).

وأخرجه أبو داود، والترمذي في «الشمائل»، والنسائي، والبيهقي عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام، فقرأ سورة البقرة لا يمرّ بآية رحمة إلاّ وقف» الحديث.

والسورة قد يكون لها اسم واحد، وقد يكون لها اسمان أو أكثر، والسورة مأخوذة من سور البلد؛ لارتفاع رتبتها كارتفاعه، وإحاطتها بالمعاني الغزيرة، كإحاطته بالبلد، وهي طائفة من القرآن، لها أوّل وآخر. وتسميتها باسم خاصّ بها توقيفي على الراجح، والراجح: أنّ المكيّ: ما نزل قبل الهجرة، ولو في غير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة ولو في غير المدينة. والآية في العرف: هي طائفة من كلمات القرآن، متميّزة بفصل، والفصل: هو آخر الآية، يُجمع على فواصل، وقد تكون كلمة، مثل: ﴿ٱلْفَجْرِ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، وكذا ﴿الٓمٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿يسٓ﴾ ونحوها عند الكوفيين، وغيرهم لا يسمّيها آيات، بل يقول: هي فواتح السور. وعن أبي عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلاّ قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾. اهـ. من «التحبير». وأصل آية: أَيَيَة كشجرة، قُلِبت عينها ألفاً على غير قياس، وقيل: آيِيَة كفاعلة، حذفت الهمزة تخفيفاً، وقيل: غير ذلك، وقد بسطنا الكلام في هذا المقام في المقدمة فراجعها.

واعلم: أنّ كون ترتيب الآيات والسور توقيفياً؛ إنما هو على الراجح.

وقيل: إنّه ثبت باجتهاد الصحابة. وقال السيوطي ـ رحمه الله تعالى في «التحبير»: اختلف: هل ترتيب الآي والسور على النظم الذي هو الآن عليه، بتوقيف من النبي ﷺ، أو باجتهاد من الصحابة؟ فذهب قوم إلى الثاني، واختار مكي وغيره: أنّ ترتيب الآيات والبسملة في الأوائل من النبي ﷺ، وترتيب السور منه لا باجتهاد الصحابة. والمختار: أنّ الكلّ من النبي ﷺ. اهـ. وعلى كلّ من القولين: فأسماء السور في المصاحف لم يثبتها الصحابة في مصاحفهم؛ وإنّما هو شيء ابتدعه الحجاج، كما ابتدع إثبات الأعشار، والأسباع، كما ذكره الخطيب. فإثبات أسماء السور ظاهر، كما فعل المفسرون، وإثبات الأعشار بأن جزّأ الحجاج القرآن عشرة أجزاء، وكتب عند أول عُشر بهامش المصحف عُشر بضمّ العين، وكذلك كتب الأسباع، فآخر السبع الأول: الدالّ من قوله في النساء: ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾، وآخر السبع الثاني: التاء من قوله في الأعراف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ﴾، وآخر الثالث: الألف من أكلها في قوله في الرعد: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾، وآخر الرابع: الألف من جعلنا في قوله في الحج ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾، وآخر الخامس: التاء من قوله في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾، وآخر السادس: الواو من قوله في الفتح: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، وآخر السابع: ما بقي من القرآن، كما ذكره القرطبي.

وذكر القرطبي أيضاً: أنّ الحجاج كان يقرأ كلّ ليلة ربعاً، فأوّل ربعه: خاتمة الأنعام، والربع الثاني: في الكهف ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾، والربع الثالث: خاتمة الزمر، والربع الرابع: ما بقي من القرآن، وقيل غير ذلك.

وقال السيوطي في «التحبير» ما نصّه: وكون أسماء السور توقيفية؛ إنّما هو بالنسبة إلى الاسم الذي تذكر به السورة، وتشتهر به، وإلاّ فقد سمّى جماعة من الصحابة والتابعين سوراً بأسماءَ من عندهم، كما سَمَّىٰ حذيفة التوبة بالفاضحة، وسورة العذاب، وسمّى خالد بن معدان البقرة: فسطاط القرآن، وسمّى سفيان بن عيينة سورة الفاتحة: الوافية، وسمّاها يحيى بن كثير الكافية؛ لأنّها تكفي عمّا عداها.

ومن السور ما له اسمان فأكثر، فالفاتحة تسمّى أمّ القرآن، وأمّ الكتاب،

وسورة الحمد، وسورة الصلاة، والشفاء، والسبع المثاني، والرقية، والنور، والدعاء، والمناجاة، والشافية، والكافية، والكنز، والأساس. وبراءة تسمّى التوبة، والفاضحة، وسورة العذاب. ويونس تسمّى السابعة؛ لأنّها سابعة السبع الطوال. والإسراء تسمّى سورة بني إسرائيل، والسجدة تسمّى المضاجع، وفاطر تسمّى سورة الملائكة، وغافر تسمّى المؤمن، وفصّلت تسمّى السجدة، والجاثية تسمّى الشريعة، وسورة محمد ﷺ تسمّى القتال، والطلاق تسمّى النساء القصرى.

وقد يوضع اسم لجملة من السور كالزهراوين للبقرة وآل عمران، والسبع الطوال، وهي البقرة وما بعدها إلى الأعراف، والسابعة يونس، كذا روي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، والمفصّل، والأصحّ: أنّه من الحجرات إلى آخر القرآن؛ لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، والمعوذات للإخلاص، والفلق والناس. اهـ. بحروفه.

فائدة:

فإن قلت: أيُّ سورة أطول في القرآن، وأيّها أقصر؟ وأيّ آية أطول وأيّها أقصر؟، وأيّ كلمة أطول وأيها أقصر؟.

قلت: أطول سورة في القرآن: البقرة، وأقصرها: الكوثر، وأطول آية: آية الدَّين، وأقصرها آية: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ و﴿الْفَجْرِ﴾ و﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾، وأطول كلمة: ما بلغ عشرة أحرف، نحو قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، وأما قوله: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ فهو عشرة أحرف في الرسم، وأحد عشر في اللفظ. وأقصرها: ما كان على حرفين نحو: ما، ولا، وله، وبه وما أشبه ذلك، ومن حروف المعاني ما هو على حرف واحد، كهمزة الاستفهام، وواو العطف إلاّ أنّه لا ينطق به مفرداً.

فإن قلت: [1] ما الحكمة في كون سورة البقرة أعظم السور ما عدا الفاتحة؟.

---

(١) روح البيان.

قلت: كانت أعظمها؛ لأنها فُصّلت فيها الأحكام، وضُرِبت الأمثال، وأقيمت الحجج، إذ لم تشتمل سورة على ما اشتملت عليه؛ ولذلك سميت فسطاط القرآن.

قال ابن العربي في «أحكام القرآن»: سمعت بعض مشايخي يقول: في سورة البقرة ألف أمر، وألف نهي، وألف خبر، ولعُظْم فقهها أقام ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ثماني سنين على تعلّمها، كذا في «أسئلة الحكم».

فإن قلت: لم سوّرت السور طوالاً، وأوساطاً، وقصاراً؟.

قلت: سوّرت كذلك تنبيهاً على أنّ الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات، وهي معجزةٌ إعجاز سورة البقرة، ثمّ ظهرت لذلك التسوير؛ حكمة في التعليم، وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها تيسيراً من الله تعالى على عباده، وفي ذلك أيضاً: ترغيب وتوسيع في الفضيلة في الصلاة، وغيرها، كسورة الإخلاص من القصار تعدل ثلث القرآن، فمَن فَهِم ذلك فاز بسر التسوير.

فإن قلت: ما الحكمة في تعدّد مواطن نزول القرآن، وتكرّر مشاهده مكيّاً، مدنياً، ليليّاً، نهاريّاً سفريّاً، حضريّاً، صيفيّاً، شتائياً، نوميّاً، برزخيّاً: يعني: بين الليل والنهار أرْضِيّاً سماويّاً. غاريّاً. يعني: ما نزل في الغار تحت الأرض برزخياً. يعني: ما نزل بين مكة والمدينة، عرشيّاً معراجيّاً. يعني: ما نزل ليلة المعراج. آخر (سورة البقرة)؟.

قلت: الحكمة في ذلك تشريف مواطن الكون كلّها بنزول الوحي الإلٰهيّ فيها، وحضور الحضرة المحمّديّة عندها، كما قيل: سرّ المعراج والإسراء به، وسَيْر المصطفى في مواطن الكون كلّها: كأنّ الكون، والعرش، والجنان، يسأل كلّ موطن بلسان الحال، أن يشرّفه الله تعالى بقدوم قدم حبيبه، وتكتحل أعين الأعيان والكبار بغبار نعال قدم سيّد السادات.

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

أسباب النزول

وذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات من قوله: ﴿الٓمٓ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أقوالاً.

أحدها: أنّها نزلت في مؤمني أهل الكتاب دون غيرهم، وهو قول ابن عباس وجماعة.

والثاني: نزلت في جميع المؤمنين، قاله مجاهد. اهـ. من «البحر».

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ﴾: الله أعلم بمراده بذلك، فأرجح الأقوال في هذه الأحرف التي ابتدىء بها كثير من السور سواء كانت أحاديّة: كـ ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿نٓ﴾، أو ثنائية: كـ ﴿طسٓ﴾ و﴿يسٓ﴾، أو ثلاثية: كـ ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓرۚ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾، أو رباعية: كـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓرۚ﴾ أو خماسيّة: كـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾: أنَّهُ من المتشابه الذي اختصَّ الله سبحانه وتعالى بعلمه، وعلى هذا فلا محلّ لها من الإعراب؛ لأنّ الإعراب فرع عن إدراك المعنى، فلا يحكم عليها بإعراب، ولا بناء، ولا تركيب مع عامل.

والحاصل: أنّ مجموع الأحرف المنزلة في أوائل السور: **أربعة عشر حرفاً**، وهي نصف حروف الهجاء، وقد تفرّقت في تسع وعشرين سورة، **المبدوء بالألف**

واللام منها: ثلاثة عشر، وبالحاء والميم سبعة، وبالطاء أربعة، وبالكاف واحدة، وبالياء واحدة، وبالصاد واحدة، وبالنون واحدة. وبعض هذه الحروف المبدوء بها أحاديّ، وبعضها ثنائي، وبعضها ثلاثي، وبعضها رباعيّ، وبعضها خماسيّ، ولا تزيد عليه.

وعبارة «الروح» هنا: واعلموا أنّهم تكلّموا في شأن هذه الفواتح الكريمة، وما أريد بها. فقيل: إنّها من العلوم المستورة، والأسرار المحجوبة؛ أي: من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سرّ القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها: طلب الإيمان بها، والإشارة إلى أنّ القرآن إنّما نزل للإعجاز. وقيل: كلّ حرف منها مفتاح اسم من أسمائه تعالى، فالألف: مفتاح اسم الجلالة، واللام: مفتاح اسم اللطيف، والميم: مفتاح اسم المجيد، كما أنّ قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ أنا الله أرى، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أنا الله الكريم الهادي الحكيم العليم الصادق، وكذا قوله تعالى: ﴿قٓۚ﴾ إشارة إلى أنّه القادر، و﴿نٓۚ﴾ إشارة إلى أنّه النور الناصر، فهي حروف مقطعة كلّ منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى، والاكتفاء ببعض الكلمة معهود في العربية، كما قال الشاعر:

قُلْتُ لها قِفِي فقَالَتْ قَ

أرادَ قالَتْ: وَقَفْتُ وقال زُهير:

بِالخَيْرِ خَيْرَاتٌ وَإنْ شَرًّا فَا ... ولاَ أُرِيدُ الشَّرَّ إلاَّ أنْ تَا

أراد وإنْ شرّاً فشرّ، وأراد إلاّ أن تشا. وقيل: إنّ هذه الحروف ذكرت في أوائل بعض السور؛ لتدل على أنّ القرآن مؤلّف من الحروف التي هي: أ ب ت ث، فجاء بعضها مقطعاً، وبعضها مؤلّفاً؛ ليكون إيقاظاً لمن تحدّى بالقرآن، وتنبيهاً لهم على أنّه منتظم من عين ما يُنَظِّمُونَ منه كلامهم، فلولا أنّه خارج عن طوق البشر نازل من عند خلاّق القُوَى والقُدر؛ لأتوا بمثله. هذا ما جنح إليه أهل التحقيق.

وقال الشيخ الأكبر ـ رحمه الله تعالى في «تفسيره»: وأمّا الحروف المجهولة التي أنزلها الله تعالى في أوائل السور، فسبب ذلك؛ من أجل لغو العرب عند

نزول القرآن، فأنزلها سبحانه حكمة منه حتى تتوفّر دواعيهم، لِمَا أنزل الله تعالى إذا سمعوا مثل هذا الذي ما عهدوه، والنفوس من طبعها أن تميل إلى كلّ أمر غريب غير معتاد، فينصتون عن اللغو، ويقبلون عليها، ويصغون إليها، فيحصل المقصود فيما يسمعونه مما يأتي بعد هذه الحروف النازلة من عند الله تعالى، وتتوفّر دواعيهم للنظر في الأمر المناسب بين حروف الهجاء التي جاء بها مقطعة، وبين ما يجاورها من الكلم، وأبهم الأمر عليهم من عدم اطلاعهم عليها. فردّ الله سبحانه بذلك شرّاً كبيراً من عنادهم، وعتوّهم، ولغوهم كان يظهر منهم؛ فذاك رحمة للمؤمنين، وحكمة منه سبحانه وتعالى. انتهى.

وقال المراغي: ﴿الٓمٓ﴾ هي وأمثالها من الحروف المقطعة، نحو: ﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓرٓ﴾ حروف للتنبيه كألا، ويا، ونحوهما مما وضع؛ لإيقاظ السامع إلى ما يلقى بعدها، فهنا جاءت؛ للفت نظر المخاطَب إلى وصف القرآن الكريم، والإشارة إلى إعجازه، وإقامة الحجة على أهل الكتاب، إلى نحو ذلك مما جاء في أثناء السورة.

وتُقرأ مقطعة بذكر أسمائها ساكنة الأواخر، فيقال: ألف لام ميم، كما يقال في أسماء الأعداد: واحد اثنان ثلاثة. انتهى. وعلى هذا القول: فلا محلّ لها من الإعراب، كالقول الأوّل الراجح. وقيل: إنّها أسماء للسور التي ابتدئت بها. وقيل: أسماء للقرآن. وقيل: أسماء لله تعالى. وقيل: كل حرف منها مفتاح اسم من أسمائه تعالى، كما مرّ؛ أي: إنّ كلَّ حرف منها اسم مدلوله حرفٌ من حروف المباني، وذلك الحرف جزءٌ من اسم من أسماء الله تعالى، فألفٌ: اسمٌ مدلوله اه من الله، واللامُ، اسمٌ مدلوله له من لطيف، والميم: اسمٌ مدلوله مَهْ من مجيد. وقيل: كُلُّ حرف منها يُشير إلى نعمةٍ من نعم الله تعالى. وقيل: إلى ملكٍ. وقيل: إلى نَبيٍّ. وقيل: الألف تشير إلى آلاء الله، واللام تشير إلى لطف الله، والميم تشير إلى مُلْكِ الله. وعلى هذه الأقوال فلها محلٌّ من الإعراب، فقيل: الرفع، وقيل: النصب، وقيل: الجرّ. فالرفع على أحد وجهين: إما بكونها مبتدأ خبرها ما بعدها، وإما بكونها خبراً لمحذوف، كما سيأتي بيانه. والنصب على

أحد وجهين أيضاً: إمّا بإضمار فعل لائق تقديره: اقرؤا ﴿الٓمٓ﴾، وإما بإسقاط حرف القسم، كقوله:

إِذَا مَا الخُبْزَ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ فَذَاكَ أَمَانَةَ اللهِ الثَّرِيدُ

يريد: وأمانة الله، وكذلك هذه الحروف أقسم الله تعالى بها. والجرّ من وجه واحد، وهو أنّها مُقسَم بها حذف حرف القسم وبقي عمله، كقولهم: اللَّهِ لأفعلنّ. أجاز ذلك الزمخشري، وأبو البقاء، وهذا ضعيف؛ لأنّ ذلك من خصائص الجلالة المعظّمة لا يشركها فيه غيرها.

فتلخّص مما تقدّم: أنّ في ﴿الٓمٓ﴾ ونحوها ستة أوجه، وهي: أنّها لا محلَّ لها من الإعراب، أو لها محلٌّ وهو الرفع بالابتداء، أو على الخبر، والنصب بإضمار فعل، أو حذف حرف القَسَم، والجرّ بإضمار حرف القسم. وأما قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فيجوز في ذلك أن يكون مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر ﴿الٓمٓ﴾، وأُغنِي عن الرابط باسم الإشارة، ويجوز أن يكون ﴿الٓمٓ﴾ مبتدأ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ خبره، و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ صفة لذلك، أو بدل منه، أو عطف بيان، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، وهو وخبره خبر عن الأول، ويجوز أن يكون ﴿الٓمٓ﴾ خبر مبتدأ مضمر تقديره: هذه ألم، فتكون جملة مستقلّة بنفسها، ويكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ خبره، ويجوز أن يكون صفة له، أو بدلاً، أو بياناً، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الخبر عن ذلك، أو يكون ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ خبراً لذلك، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر ثان.

تنبيه: ثمّ اعلم أنّ المتشابه كالمحكم من جهة أجر التلاوة؛ لما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله: «من قرأ حرفاً من كتاب الله، فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف، ففي ألم تسع حسنات».

فائدة هذا الربع من هذه السورة ينقسم أربعة أقسام:

قسم يتعلّق بالمؤمنين ظاهراً وباطناً، وهو الآيات الأربع الأول إلى

﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

وقسم يتعلّق بالكافرين كذلك، وهو الآيتان بعد ذلك.

وقسم يتعلّق بالمؤمنين ظاهراً لا باطناً، وهو ثلاث عشر آية من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

وقسم يتعلق بالفرق الثلاثة، وهو من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى آخر الربع. اهـ. شيخنا.

فعلى القول الأول: الراجح الذي جرى عليه السلف: أنّ ﴿الٓمٓ﴾ مهمل لا يحكم عليه بإعراب، ولا بناء، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان له، أو صفة له، وجملة ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ خبر المبتدأ. والمعنى؛ أي:[1] هذا القرآن المنزل عليك يا محمّد لا ريب، ولا شكّ، ولا تهمة، في أنّه منزل من عند الله تعالى لمن تدبّر فيه وتأمّل، وتذكّر لما اشتمل عليه من الإعجاز الباهر. وأشار إليه بإشارة البعيد؛ تنزيلاً لبعد المرتبة منزلة البعد الحسّيّ.

فإن قلت: إنّ الريب فيه موجود عند بعض الناس كالكفار، فكيف نفي الريب عنه؟

قلت: المعنى لا ريب به عند المؤمنين، كما أشرنا إليه في الحلّ.

وعلى القول: بأنّ ﴿الٓمٓ﴾ اسم للقرآن، فهو؛ أي لفظ ﴿الٓمٓ﴾: مبتدأ و﴿ذَٰلِكَ﴾ خبره إشارة إلى الكتاب، و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾: صفة لاسم الإشارة، والمعنى: ﴿الٓمٓ﴾ هو ذلك الكتاب الكامل الموعود إنزاله في الكتب المتقدمة حال كونه لا ريب ولا شكّ في إنزاله من عند الله تعالى، وإنّما أشار بذلك إلى ما ليس ببعيد؛

---

(١) عمدة التفاسير.

لأنّ الكتاب من حيث كونه موعوداً في حكم البعيد.

قالوا: لمّا أنزل الله تعالى على موسى التوراة، وهي: ألف سورة كل سورة ألف آية. قال موسى عليه السلام: يا ربّ ومن يطيق قراءة هذا الكتاب وحفظه؟ فقال تعالى: إنّي أنزل كتاباً أعظم من هذا، قال: على من يا ربّ؟ قال: على خاتم النبيين، قال: وكيف تقرؤه أمته، ولهم أعمار قصيرة؟ قال: إنّي أيسره عليهم حتى يقرأه صبيانهم، قال: يا ربّ وكيف تفعل؟ قال: إنّي أنزلت من السماء إلى الأرض مئة وثلاثة كتب: خمسين على شيث، وثلاثين على إدريس، وعشرين على إبراهيم، والتوراة عليك، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، وذكرت الكائنات في هذه الكتب، فأذكر جميع معاني هذه الكتب في كتاب محمد ﷺ، وأجمع ذلك كلّه في مائة وأربع عشرة سورة، وأجعل هذه السور في ثلاثين جزءاً، والأجزاء في سبعة أسباع؛ يعني: في سبع آيات (الفاتحة)، ثمّ أجعل معانيها في سبعة أحرف، وهي ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ثمّ ذلك كلّه في الألف من ﴿الٓمٓ﴾ ثمّ افتتح سورة (البقرة) فأقول ﴿الٓمٓ﴾. ولمّا وعد الله ذلك في التوراة، وأنزله على محمد ﷺ جحدت اليهود لعنهم الله تعالى أن يكون هذا ذلك، فقال تعالى: ذلك الكتاب، كما في تفسير «التيسير». وقد مرّ لك: أنّ في هذه الآية أوجه أخر من الإعراب، وسيأتي تطبيق بعضها في مبحث الإعراب.

والكتاب:(١) اسم بمعنى المكتوب، وهو النقوش والرقوم الدالّة على المعاني، والمراد به هنا: الكتاب المعروف المعهود للنبي ﷺ الذي وعده الله تعالى به؛ لتأييد رسالته، وكفل به هداية طلاّب الحقّ، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم.

وفي التعبير به: إيماء إلى أنّ النبي ﷺ لم يؤمر بكتابة شيء سواه، وعدم كتابة القرآن كلّه بالفعل حين الإشارة إليه لا يمنع الإشارة، ألا ترى أنّ من

---

(١) المراغي.

المستفيض الشائع في التخاطب: أن يقول إنسان لآخر: هَلُم أُمْلِ عَلَيْكَ كتاباً، والكتاب لم يوجد بعد.

﴿لَا رَيْبَ﴾: كائن ﴿فِيهِ﴾، فقوله:[1] ﴿رَيْبَ﴾: اسم لا، و﴿فِيهِ﴾: خبرها، وهو في الأصل: من رابني الشيء، إذا حصل فيك الريبة، وهي قلق النفس واضطرابها، سمّي به الشكّ؛ لأنّه يقلق النفس، ويزيل الطمأنينة، قال الشاعر:

ليس في الحقِّ يا أُميَّةُ رَيْبُ   إنَّما الرَّيْبُ ما يَقول الكَذُوبُ

وفي الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». فإنّ الشكّ ريبة، والصدق طمأنينة. ومنه: رِيَب الزمان لنوائبه. وفي «التيسير»: الريب: شكّ فيه خوف، وهو أخصّ من الشكّ، فكلّ ريب شكّ، وليس كلّ شكّ ريباً. والشكّ: هو التردّد بين النقيضين، ولا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاكّ. ولم يقدم الظرف على الريب؛ لئلاّ يذهب الفهم إلى أنّ هناك كتاباً آخر فيه الريب لا فيه.

فإن قلتَ: الكفّار شكّوا فيه فلم يُقِرُّوا بكتاب الله تعالى، والمبتدعون من أهل القبلة شكّوا في معاني متشابهه، فأوّلوها وضلّوا بها، والعلماء شكّوا في وجوهه، فلم يقطعوا القول على وجه منها، والعوامّ شكّوا فيه فلم يفهموا معانيه، فما معنى نفي الريب عنه؟.

فالجواب: إنّ هذا إنما هو نفي الريب عن الكتاب لا عن الناس، والكتاب موصوف بأنّه لا يتمكّن فيه ريب، فهو حقٌّ صدق معلومٌ ومفهومٌ شَكَّ فيه الناسُ، أو لم يشكُّوا، كالصدق صدقٌ في نفسه وإن وصفه الناس بالكذب، والكذب كذب وإن وصفه الناس بالصدق، فكذا الكتاب ليس مما يلحقه ريب، أو يتمكن فيه عيب، ويجوز أن يكون خبراً في معنى الأمر، ومعناه: لا ترتابوا، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ المعنى: لا ترفثوا، ولا تفسقوا، ولا تجادلوا، كما في «الوسيط» و«العيون».

---

(١) روح البيان.

والمعنى[١]: أنّ هذا الكتاب لا يعتريه ريب في كونه من عند الله، ولا في هدايته وإرشاده، ولا في أسلوبه وبلاغته، فلا يستطيع أحد أن يأتيَ بكلام يَقربُ منه بلاغةً وفصاحةً. وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾. وارتياب كثير من الناس فيه؛ إنّما نشأ عن جهل بحقيقته، أو عن عَمَىٰ بصيرتهم، أو عن التعنّت عناداً، واستكباراً، واتباعاً للهوى، أو تقليداً لسواهم.

والهاء[٢] المتصلة بفي من ﴿فِيهِ﴾: ضمير غائب مذكر مفرد، وقد يوصل بياء، وهي قراءة ابن كثير، وحكم هذه الهاء بالنسبة إلى الحركة، والإسكان، والاختلاس، والإشباع في كتب النحو. والوقف[٣] على ﴿فِيهِ﴾ هو المشهور، وقد روي عن نافع، وعاصم، الوقف على ﴿لَا رَيْبَ﴾. قال في «الكشاف»: ولا بد للواقف من أن ينويَ خبراً، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾، وقول العرب: لا بأس. وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز، والتقدير: لا ريب فيه. فيه هدى.

﴿هُدًى﴾؛ أي: هو رشد وبيان ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي:[٤] للضالّين المشارفين التقوى الصائرين إليها. ومثله حديث «من قتل قتيلاً فله سلبه»، وقال أبو السعود في «الإرشاد» ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للمتصفين بالتقوى حالاً، أو مآلاً. وتخصيص الهدى بهم؛ لما أنّهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره، وإن كان ذلك شاملاً لكلّ ناظر من مؤمن وكافر. والهداية: عبارة عن الدلالة. وقيل: دلالة بلطف. وقيل: هو هاد لا ريب في هدايته للمتقين. قال في «التيسير»: وكذلك يقال في كلّ من انتفع بشيء دون غيره: إنه لك على الخصوص؛ أي: المنتفع به وحدك. وليس في كون بعض الناس لم يهتدوا به ما يخرجه من أن يكون هدى، فالشمس

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

شمس وإن لم يرها الضرير، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه الممرور، والمسك مسك وإن لم يدرك طيبه المأنوف. فالخيبة كلّ الخيبة؛ لمن عطش، والبحر زاخر، وبقي في الظلمة والبدر زاهر، وخَبُث والطيب حاضر، والحسرة كل الحسرة؛ لمن عصى وفسق، والقرآن ناه آمر، وفارق الرغبة والرهبة، والوعد متواتر والوعيد متظاهر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

والمتقين: جمع متّق، والمتقي: اسم فاعل من باب الافتعال من الوقاية، وهي فرط الصيانة، قال البغوي: هو مأخوذ من الاتقاء، وأصله: الحاجز بين الشيئين، ومنه يقال: اتقى بترسه؛ أي: جعله حاجزاً بين نفسه وبين من يقصده. وفي الحديث: كنّا إذا احمرَّ البأس، اتقينا برسول الله ﷺ؛ أي: إذا اشتد الحرب جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدوّ، فكأنَّ المتقي يجعل امتثال أمر الله، والاجتناب عمّا نهاه حاجزاً بينه وبين العذاب. والتقوى في عرف الشرع[1]: عبارة عن كمال التوقّي عمّا ضُرّه في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التوقّي عن العذاب المخلّد؛ بالتبرّي من الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

والثانية: التجنّب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾.

والثالثة: أن يتنزّه عما يشغل سرّه عن الحقّ عز وجلّ، ويتبتل إليه بكليته، وهو التقوى الحقيقية المأمور بها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾. وأقصى مراتب هذا النوع من التقوى: ما انتهى إليه هِمَمُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث جمعوا رياستي النبوة والولاية، وما عاقهم التعلّق بعالم الأشباح، عن العروج إلى عالم الأرواح، ولم تصدّهم الملابسة بمصالح الخلق، عن الاستغراق في شؤون الحقّ؛ لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيّدة

---

(١) روح البيان.

بالقوة القدسية، وهداية الكتاب المبين شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين، فهداية العامّ بالإسلام، وهداية الخاص بالإيقان والإحسان، وهداية الأخصّ بكشف الحجب ومشاهدة العيان.

وفي «التأويلات النجمية»: المتقون هم الذين أوفوا بعهد الله من بعد ميثاقه، ووصلوا به ما أمر الله أن يوصل به من مأمورات الشرع ظاهراً وباطناً، يدلّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

والعقاب الذي يُتَّقىٰ منه ضربان[1]: دنيوي وأخروي، وكلّ منهما يُتَّقىٰ باتقاء أسبابه، فعقاب الدنيا يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله في الخليقة، وعدم مخالفة النظم التي وضعها في الكون، فاتقاء الفشل والخذلان في القتال مثلاً، يتوقّف على معرفة نظم الحرب، وفنونها، وآلاتها، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾، كما يتوقّف على القوة المعنوية: من اجتماع الكلمة، واتحاد الأمة، والصبر والثبات، والتوكل على الله، واحتساب الأجر عنده، وعقاب الآخرة يتقى: بالإيمان الخالص، والتوحيد، والعمل الصالح، واجتناب ما يضادّ ذلك من الشرك، واجتناب المعاصي والآثام التي تضرّ المرء، أو تضرّ المجتمع.

والمتقون في هذه الآية: هم الذين سمت نفوسهم، فأصابت ضرباً من الهداية، واستعداداً لتلقي نور الحقّ، والسعي في مرضاة الله بقدر ما يصل إليه إدراكهم، ويبلغ إليه اجتهادهم. وقد كان من هؤلاء ناسٌ في الجاهلية كرهوا عبادة الأصنام، وأدركوا أنَّ خالق الكون لا يرضى بعبادتها، كذلك كان من أهل الكتاب ناسٌ يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين.

ومن المعلوم: أنّ في قوله: ﴿هُدًى﴾ مجازاً عقلياً؛ لما فيه من إسناد الشيء إلى سببه؛ أي: هو هاد، أو مجازاً بالحذف؛ أي: ذو هُدًى، أو مبالغة

---

(١) المراغي.

فيه حتى جُعِل نفسَ الهدى على حدّ: زيدٌ عدلٌ.

والمعنى؛ أي: هذا الكتاب هاد ومرشد للمؤمنين المتصفين بالتقوى من سخط الله تعالى، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ثم وصف المتقين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي يصدّقون ويوقنون ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: بالشيء الغائب عنهم مما لم تدركه عقولهم، ولم تعرفه حواسُّهم مما أخبرهم الرسول ﷺ، أو القرآن من اليوم الآخر وأحواله من البعث، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار، وغير ذلك من أهواله.

والإيمان: تصديقٌ جازمٌ يقترن بإذعان النفس واستسلامها، وأمارته: العمل بما يقتضيه الإيمان، وهو يختلف باختلاف مراتب المؤمنين في اليقين. والغيب: ما غاب عنهم علمه، كذات الله سبحانه، وملائكته، ، والدار الآخرة وما فيها من البعث، والنشور، والحساب، والمجازاة. والإيمان بالغيب: هو اعتقاد وجود موجود وراء المُحسَّسات، متى أرشد إليه الدليل، أو الوجدان السليم. ومن يعتقد بهذا يسهل عليه التصديق بوجود خالقٍ للسموات والأرض، منزه عن المادّة وتوابعها، وإذا وصف له الرسول العوالم التي استأثر الله وانفرد بعلمها، كعالم الملائكة، أو وصف له اليوم الآخر، لم يصعب عليه التصديق به بعد أن يستيقن صدق النبي الذي جاء به، أمّا من لا يعرف إلاّ ما يدركه الحسّ، فإنه يصعب إقناعه، وقلّما تجد الدعوة إلى الحق من نفسه سبيلاً.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إمّا[1] موصول بالمتقين، ومحلّه الجرّ على أنّه صفةٌ مُقَيِّدَةٌ له، إن فسّرت التقوى بترك المعاصي فقط، مرَتَّبةٌ عليه ترتيب التحلية على التخلية، أو موضحةٌ إن فسرت التقوى بما هو المتعارف شرعاً، والمتبادر عرفاً من فعل الطاعات، وترك المعصيات معاً؛ لأنّها حينئذٍ تكون تفصيلاً لما انطوى عليه اسم الموصول إجمالاً، وصفة مادحة للموصوفين بالتقوى المفسَّرة بما مرّ من فعل الطاعات، وترك السيئات. وتخصيص ما ذكر من

---

(١) الفتوحات.

الخصال الثلاث بالذكر؛ لإظهار شرفها، وإنافتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات. أو محلّه النصب على المدح بتقدير: أمدح، أو الرفع عليه بتقدير: هم. وإمّا مفصول عنه مرفوع بالابتداء، خبره الجملة المصدّرة باسم الإشارة، كما سيأتي بيانه، فالوقف على المتقين حينئذٍ وقف تامّ؛ لأنّه وقف على مستقلّ، وما بعده أيضاً مستقل، وأما على الوُجوهِ الأُوَلِ، فالوقف حسن غير تامّ؛ لتعلّق ما بعده به وتبعيته له. اهـ. «أبو السعود».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالهمزة ساكنة بعد الياء، وهي فاء الكلمة، وحَذَفَ همزةَ أفعل حيث وقع ذلك ورشٌ والسوسي وأبو جعفر وقفاً ووصلاً، وحمزة وقفاً فقط وهذه القراءات كلها في المتواتر، وقرأ رزين - شاذاً - بتحريك الهمزة، مثل: ﴿يؤخركم﴾، ووجه قراءته أنه حذف الهمزة التي هي فاء الكلمة؛ لسكونها، وأقرّ همزة أفعل؛ لتحركها، وتقدمها، واعتلالها في الماضي والأمر. اهـ. من «البحر».

وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: الغيب هنا مصدر بمعنى اسم الفاعل، كما مرّت الإشارة إليه، قال أبو السعود: والغيب: إما مصدر وصف به الغائب مبالغة، كالشهادة في قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾؛ أي: ما غاب عن الحسّ والعقل غيبة كاملة بحيث لا يُدْرَك بواحد منهما ابتداءً بطريق البداهة، وهو قسمان:

قسم: لا دليل عليه، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

وقسم: قامت عليه البراهين كالصانع وصفاته، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام، والشرائع، واليوم الآخر، وأحواله من البعث والنشر، والحساب والجزاء، وهو المراد ههنا. فالباء: صلة للإيمان إما بتضمينه معنى الاعتراف، أو بجعله مجازاً عن الوثوق، وهو واقع موقع المفعول به. وإمّا مصدر على حاله كالغيبة، فالباء: متعلّقة بمحذوف وقع حالاً من الفاعل، كما في قوله تعالى:

---

(١) البحر المحيط.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: يؤمنون ملتبسين بالغيبة إما عن المؤمَن به؛ أي: غائبين عن النبي ﷺ، غير مشاهدين لما معه من شواهد النبوة، وإما عن الناس؛ أي: غائبين عن المؤمنين لا كالمنافقين الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم. وقيل: المراد بالغيب القلب؛ لأنّه مستور، والمعنى: يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فالباء حينئذٍ للآلة. وترك ذكر المؤمَن به على التقادير الثلاثة؛ إيماءً للقصد إلى إحداث نفس الفعل، كما في قولهم: فلان يعطي ويمنع؛ أي: يفعلون الإيمان، وإما للاكتفاء بما سيجيء، فإنّ الكتب الإلْهية ناطقة بتفاصيل ما يجب الإيمان به.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: يؤدّونها بحقوقها الظاهرية من الشروط، والأركان، والسنن، وترك المفسدات، والمكروهات، والباطنية، كالخشوع، وحضور القلب، والإخلاص. والصلاة في هذه الآية: اسم جنس، أريد بها الصلوات الخمس، كما في «الروح». وإقامتها: عبارة عن تعديل أركانها، وحفظها من أن يقع في شيء من فرائضها، وسننها، وآدابها خلل، من أقام العود إذا قوَّمه وعدّله. وقيل: عبارة عن المواظبة عليها من قولهم: قامت السوق إذا نفقت. وقيل: عبارة عن التشمير لأدائها من غير فتور ولا توان، من قولهم: قام بالأمر وأقامه إذا جدَّ فيه وتجاد، وضدُّه قعد عن الأمر وتقاعد.

واعلم: أنّ الصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، ودعاء المعبود بالقول، أو بالفعل، أو بكليهما، يُشْعِر العابدَ بالحاجة إليه؛ استدراراً للنعمة، أو دفعاً للنقمة، والصلاة على النحو الذي شرعه الإسلام، من أفضل ما يعبَّر عن الشعور بعظمة المعبود وشديد الحاجة إليه، لو أقيمت على وجهها، أمّا إذا خلت عن الخشوع، فإنّها تكون صلاةً لا روح لها، وإن كانت قد وجدت صورتها، وهي الكيفيات المخصوصة، ولا يقال للمصّلي حينئذٍ: أنّه امتثل أمر ربه، فأقام الصلاة؛ لأنّ الإقامة مأخوذة من أقام العود، إذا سواه وأزال اعوجاجه، فلا بد فيها من حضور القلب في جميع أجزائها، واستشعار الخشية

ومراقبة الخالق، كأنّك تنظر إليه، كما ورد في الحديث: «أُعبد الله كأنّك تراه، فإنّ لم تكن تراه فإنه يراك».

ولما للصلاة من خطر في تهذيب النفوس والسمو بها إلى الملكوت الأعلى، أبان الله سبحانه عظيم آثارها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، وجعلها النبي ﷺ عماد الدين، فقال: «الصلاة عماد الدين، والزكاة قنطرة الإسلام». وقد أمر الله سبحانه بإقامتها بقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والمحافظة عليها، وإدامتها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، وبأدائها في أوقاتها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾، وبأدائها جماعة بقوله: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وبالخشوع فيها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: ومن بعض ماأعطيناهم، وملّكناهم من الأموال؛ لأنّ المراد بالرزق هنا: المِلْك، وليس المراد به الرزق الحقيقي، إذ لا يمكن تعديه لغيره. وفي قوله: ﴿وَمِمَّا﴾ حذف نون من التبعيضية لفظاً وخطّاً؛ لإدغامها في ما الموصولة. ﴿يُنفِقُونَ﴾: ويصرفون إنفاقاً واجباً، كالزكاة، والنفقة على الوالدين والعيال، أو مندوباً، كالتوسعة على العيال، ومواساة الأقارب والفقراء، فالإنفاق هنا شامل للواجب والمندوب، كما اختاره ابن جرير. وروي عن ابن عباس: أنّ المراد بها: زكاة الأموال. والرزق في اللغة: العطاء، وفي العرف: ما ينتفع به الحيوان، وهو يتناول الحلال والحرام عند أهل السنة، كما قال أحمد بن رسلان:

يَرزُقُ مَنْ شَاءَ ومَنْ شَا أحْرَمَا والرزقُ ما ينفعْ ولو محرَّما

ولكنّ[1] القرينة ههنا تخصصه بالحلال؛ لأنّ المقام مقام المدح. وتقديم المفعول للاهتمام به، وللمحافظة على رؤوس الآي. وإدخال من التبعيضية عليه؛ للكفّ عن الإسراف المنهيّ عنه. وصيغة الجمع في رَزَقْنا مع أنّه تعالى واحد لا

---

(١) روح البيان.

شريك له؛ لأنّه خطاب الملوك، والله تعالى مالك الملك، وملك الملوك، والمعهود من كلام الملوك أربعة أوجه: الإخبار على لفظ الواحد، نحو: فعلت كذا، وعلى لفظ الجمع، نحو: فعلنا كذا، وعلى ما لم يسم فاعله، نحو: رُسِمَ كذا، وإضافة الفعل إلى اسمه على وجه المغايبة، نحو: أمركم سلطانكم بكذا، والقرآن نزل بلغة العرب، فجمع الله فيه هذه الوجوه كلّها فيما أخبر به عن نفسه، فقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ على صيغة الواحد، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ على صيغة الجمع، وقال فيما لم يسمّ فاعله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ وأمثاله، وقال في المغايبة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وأمثاله، كذا في «التيسير».

والإنفاق والإنفاد أَخَوان، خلا أنَّ في الثاني معنى الإذهاب بالكلية دون الأول، والمراد بهذا الإنفاق: الصرف إلى سبيل الخير فرضاً كان أو نفلاً. ومن فسّره بالزكاة ذكر أفضل أنواعه والأصل فيه، أو خصصه بها لاقترانه بما هي شقيقتها وأختها، وهي الصلاة.

واعلم: أنّه سبحانه ذكر في الآية الإيمان، وهو بالقلب، ثمّ الصلاة وهي بالبدن، ثمّ الإنفاق وهو بالمال، وهو مجموع كل العبادات. ففي الإيمان النجاة، وفي الصلاة المناجاة، وفي الإنفاق الدرجات، وفي الإيمان البشارة، وفي الصلاة الكفارة، وفي الإنفاق الطهارة، وفي الإيمان العزة، وفي الصلاة القربة، وفي الإنفاق الزيادة.

فصلٌ في مسائل تتعلق بالصلاة

المسألة الأولى: واعلم أنّ الناس بالنسبة إلى الصلاة على أربع طباق:

الأولى: طبقة لم يقبلوها، ورأسهم أبو جهل لعنه الله، وفي حقّه قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، وذكر مصيرهم بقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

والثانية: طبقةٌ قبلوها ولم يؤدوها، وهم أهل الكتاب، وذكرهم الله تعالى

بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ وهم أهل الكتاب ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وذكر مصيرهم ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

والثالثة: طبقة قبلوها وأدَّوْا بعضاً منها، ولم يؤدُّوا بعضاً آخر متكاسلين، وهم المنافقون، وذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾.

والرابعة: طبقة قبلوها، وهم يراعونها في أوقاتها بشرائطها، ورأسهم المصطفى ﷺ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ﴾، وأصحابُه كذلك، وذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾، وذكر مصيرهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾.

المسألة الثانية: رُوي(١) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (بعث الله النبي ﷺ بشهادة أن لا إلٰه إلاّ الله، فلمّا صدّق زاد الصلاة، فلمّا صدّق زاد الزكاة، فلمّا صدّق زاد الصيام، فلمّا صدّق زاد الحج، ثمّ الجهاد، ثمّ أكمل لهم الدين).

وقال مقاتل: كان النبي ﷺ يصلّي بمكة ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشاء، فلمّا عُرِج به إلى السماء أُمِر بالصلوات الخمس، كما في «روضة الأخيار».

وإنما فرضت الصلاة ليلة المعراج؛ لأنّ المعراج أفضل الأوقات، وأشرف الحالات، وأعزّ المناجات، والصلاة بعد الإيمان أفضل الطاعات، وفي التعبّد أحسن الهيئات، ففَرَضَ أفضل العبادات في أفضل الأوقات، وهو وصول العبد إلى ربّه، وقربه منه.

المسألة الثالثة: في ذكر بعض الحِكَم. وأمَّا الحكمة في فرضيتها؛ فلأنّه ﷺ لمَّا أُسري به شاهد ملكوت السموات بأسرها وعبادات سكّانها من الملائكة، فاستكثرها ﷺ غبطة، وطلب ذلك لأمّته، فجمع الله له في الصلوات الخمس

---

(١) روح البيان.

عبادات الملائكة كلّها؛ لأنّ منهم من هو قائم، ومنهم من هو راكع، ومنهم من هو ساجد، وحامد، ومسبّح، ومكبّر، إلى غير ذلك. فأعطى الله سبحانه أجور عبادات أهل السموات لأمّته إذا أقاموا بالصلوات الخمس، هكذا قالوا، والله أعلم.

والحكمة في كونها خمس صلوات: أنها كانت متفرّقة في الأمم السالفة، فجمعها سبحانه لنبيّه وأمّته؛ لأنّه ﷺ مجمع الفضائل كلّها دنيا وأخرى، وأمته من بين الأمم كذلك، فقد قيل: أوّل من صلّى الفجر آدم، والظهر إبراهيم، والعصر يونس، والمغرب عيسى، والعشاء موسى. فهذا سرّ القرار على خمس صلوات. وقيل: صلّى آدم الصلوات الخمس كلّها، ثمّ تفرقت بعده بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأوّل من صلّى الوتر رسول الله ﷺ ليلة المعراج، ولذلك قال: «زادني ربّي صلاة»؛ أي: الوتر على الخمس، أو صلاة الليل، فافهم.

قيل[1]: وأول من بادر إلى السجود جبريل ـ عليه السلام ـ ولذلك كان رفيق الأنبياء وخادمهم، وأوّل من قال: سبحان الله جبريل، والحمد لله آدم، ولا إله إلاّ الله نوح، والله أكبر إبراهيم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم رسول الله ﷺ. ذكر ذلك كلّه في «كشف الكنوز وحلّ الرموز»، وهكذا قالوا ولكن لا أصل له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على الموصول الأول، وهو نوع آخر للمتقين، فإنها أنزلت فيمن كان آمن بعيسى وأدرك النبي ﷺ: كعبد الله بن سلام، وعمّار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والنجاشي وغيرِهم. وأما النوع الأول: فهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ من مشركي العرب؛ لأنّهم لم يُرسَل إليهم غيره ﷺ. فنزلت الآية الأولى إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيهم. روى ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّ المراد بالمؤمنين هنا: مَن آمنوا بالنبي ﷺ وبالقرآن من أهل الكتاب، وبالمؤمنين فيما قبلها مَن آمنوا من مشركي العرب.

---

(١) روح البيان.

أي: والذين يصدّقون ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، وهو القرآن الذي يتلى، والوحي الذي لا يتلى. وهو ما بيّنه النبي ﷺ من أعداد الركعات، ونُصب الزكوات، وحدود الجنايات. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وقال أيضاً: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾. والتعبير عن إنزاله بالماضي مع كون بعضه مترقباً حينئذٍ؛ لتغليب المحقَّق على المقدَّر، أو لتنزيل ما في شرف الوقوع لتحقُّقِه منزلة الواقع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ مع أنّ الجنّ ما كانوا سمعوا الكتاب جميعاً، ولا كان الجميع إذ ذاك نازلاً. وفي «الكواشي»: لأنّ القرآن شيء واحد في الحُكم، ولأنّ المؤمن ببعضه مؤمن بكلّه. انتهى. والإنزال هنا[1]: بمعنى الوحي، وسمّي إنزالاً، وهو نقل الشيء من العلو إلى السفل، ولا يكون إلاّ في الأجسام؛ لما في جانب الألوهية من علوّ الخالق على المخلوق، أو لإنزال جبريل له على النبي ﷺ لتبليغه للخلق، كما قال في آية أخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾؛ يعني: أنّ الإنزال نقل الشيء من أعلى إلى أسفل، وهو إنّما يلحق المعاني بواسطة لحوقه الذوات الحاملة لها، فنزول ما عدا الصحف من الكتب الإلٰهيّة إلى الرسل عليهم السلام والله أعلم: بأن يتلقّاها الملك من جنابه تعالى تلقّياً روحانياً، أو يحفظها من اللوح المحفوظ، فينزل بها إلى الرسل، فيلقيها عليهم.

﴿وَ﴾ يؤمنون بـ ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ من الكتب السالفة من التوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها على الرسل الذين أُرسلوا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ إيماناً إجماليّاً لا تفصيلياً، والإيمان بالكل جملة فرض عين، وبالقرآن تفصيلاً من حيث إنّا متعبَّدون بتفاصيله فرض كفاية، فإنّ في وجوبه على الكلّ عيناً حرجاً بَيّناً، وإخلالاً بأمر المعاش.

قال في «التيسير»:[2] الإيمان بكلّ الكتب مع تنافي أحكامها على وجهين:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

أحدهما: التصديق أنّ كلّها من عند الله تعالى.

والثاني: الإيمان بما لم ينسخ من أحكامها.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأول، وهو في المعدودات اسم للفرد اللاحق، وهي صفة الدار بدليل قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾، وهي من الصفات الغالبة، وكذا الدنيا، وسمّيت الدنيا دنيا لدنوها؛ أي: قربها من الآخرة، أو لدناءتها وخسّتها، وسمّيت الآخرة آخرة؛ لتأخّرها، وكونها بعد الدنيا. ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يعتقدون اعتقاداً جازماً، وتقديم الجار والمجرور على الفعل؛ لرعاية الفاصلة، أو لإفادة الحصر، وأتى بالجملة الاسمية للاهتمام به؛ لأنّه أعلى من الإنفاق. والإيقان: إتقان العلم بالشيء بنفي الشكّ، والشبهة عنه نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يسمّى علمه تعالى يقيناً، وكذا العلوم الضرورية. وفيه ردّ على من أنكر الآخرة ممن لا يؤمن بمحمد ﷺ.

وقرأ الجمهور ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ مبنياً للمفعول. وقرأهما النخعيّ، وأبو حيوة، ويزيد بن قطيب مبنياً للفاعل، وقرىء شاذّاً ﴿بما أنزلَّ إليك﴾ بتشديد اللام، ووجه ذلك: أنه أسكن لام ﴿أُنزِلَ﴾ ثم حذف همزة (إلى)، ونقل كسرتها إلى لام «أنزل»، فالتقى المثلان من كلمتين، فأُدغِم، والإدغام جائز. وقرأ الجمهور ﴿يُوقِنُونَ﴾ بواو ساكنة بعد الياء، وهي مبدلةٌ من ياء؛ لأنّه من أيقن. وقرأ أبو حية النَّمِريُّ بهمزة ساكنة بدل الواو.

ومعنى الآية: أي[1] والذين يصدقون بما أنزل إليك من القرآن والوحي، أنه من عند الله تعالى، ويصدقون بما أُنزل على الرسل من قبلك من سائر الكتب السماوية، أنها من عند الله سبحانه وتعالى، لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله. وقال ابن عباس: أي: يصدقون بما جئت به من الله تعالى، وبما جاء به مَنْ قبلك من الرسل، لا يفرقون بينهم ولا يجحدون بما جاءوا به من ربهم، وبمجيء الدار الآخرة التي تتلو الدنيا مع ما فيها من البعث، والحشر والحساب،

(١) العمدة.

والميزان، والجزاء، والجنة والنار. هم يوقنون؛ أي:[1] يعلمون علماً قطعياً مُزيحاً لما كان عليه أهل الكتاب من الشكوك والأوهام التي من جملتها: زعمهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى، وأنَّ النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، واختلافهم في أن نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أو لا؟ وهل هو دائم أو لا؟ فقال فرقة منهم: يجري حالهم في التلذذ بالمطاعم، والمشارب، والمناكح على حسب مجراها في الدنيا، وقال آخرون: إنّ ذلك إنّما احتيج إليه في هذه الدار من أجل نماء الأجسام، ولمكان التوالد والتناسل، وأهل الجنة مستغنون عنه، فلا يتلذذون إلا بالنسيم، والأرواح العبقة، والسماع اللذيذ، والفرح والسرور. وفي بناء ﴿يُوقِنُونَ﴾ على الضمير تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته، فإنّ اعتقادهم في أمور الآخرة بمعزل من الصحة، فضلاً من الوصول إلى مرتبة اليقين. فدل التقديم على التخصيص، بأن إيقان من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، مقصورٌ على الآخرة الحقيقية لا يتجاوز إلا ما أثبته الكفار بالإقرار من أهل الكتاب.

واليقين[2]: هو التصديق الجازم الذي لا شبهة فيه ولا تردد، ويُعرَف اليقين بالله واليوم الآخر بآثاره في الأعمال، فمن يشهد الزور، أو يشرب الخمر، أو يأكل حقوق الناس يكن إيمانه بهما خيالاً يلوح في الذهن لا إيماناً يقوم على اليقين، إذ لم يظهر آثاره في الجوارح واللسان، وهو لا يكون إيماناً حقّاً إلاّ إذا كان مالكاً لزمام النفس مصرّفاً لها في أعمالها.

والإيمان على الوجه الصحيح يحصل من أحد طريقين:

١ ـ البحث والتأمّل فيما يُحتاج إلى ذلك، كالعلم بوجود الله سبحانه ورسالة الرسل.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

٢ ـ خَبَرُ الرسول بعد أن تقوم الدلائل على صدقه فيما يبلغ عن ربه، أو خبر من سمع منه بطريق لا تحتمل ريباً ولا شكّاً، وهي طريق التواتر، كالعلم بأخبار الآخرة وأحوالها، والعالم العُلوي وأوصافه. وعلينا أن نقف عند ذلك، فلا نزيد فيه شيئاً، ولا نخلطه بغيره مما جاء عن طريق أهل الكتاب، أو عن بعض السلف بدون تمحيص ولا تَثَبُّت من صحته، وقد دَوَّنه المفسرون في كتبهم، وجعلوه من صلب الدين، وهو ليس منه في شيء.

قال أبو الليث ـ رحمه الله تعالى ـ في «تفسيره»: اليقين على ثلاثة أوجه: يقين عيان، ويقين دلالة، ويقين خبر. فأما يقين العيان: فهو أنّه إذا رأى شيئاً زال الشك عنه في ذلك الشيء. وأما يقين الدلالة: فهو أن يرى الرجل دخاناً ارتفع من موضع يعلم باليقين أن هناك ناراً وإن لم يرها. وأما يقين الخبر: فهو أنّ الرجل يعلم باليقين أنّ في الدنيا مدينة يقال لها: بغداد وإن لم ينته إليها.

فههنا يقين خبر ويقين دلالة؛ لأنّ الآخرة حقّ، ولأنّ الخبر يصير معاينة عند الرؤية. انتهى. ويقال: علم اليقين ظاهر الشريعة، وعين اليقين الإخلاص فيها، وحقّ اليقين المشاهدة فيها، ثُمَّ ثمرة اليقين بالآخرة الاستعداد لها. فقد قيل: عشرةٌ من المغرورين: من أيقن أنّ الله خالقه ولا يعبده، ومن أيقن أنّ الله رازقه ولا يطمئن به، ومن أيقن أن الدنيا زائلة ويعتمد عليها، ومن أيقن أنّ الورثة أعداؤه ويجمع لهم، ومن أيقن أنَّ الموت آت فلا يستعدُّ له، ومن أيقن أنَّ القبر منزله فلا يعمره، ومن أيقن أنّ الديَّان يحاسبه فلا يصحح حجته، ومن أيقن أنّ الصراط مَمَرُّهُ فلا يخفف ثقله، ومن أيقن أنَّ النار دار الفجّار فلا يهرب منها، ومن أيقن أنّ الجنّة دار الأبْرار فلا يعمل لها، كما في «التيسير».

قال ذو النون المصريُّ: اليقين داع إلى قِصَر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، والحكمة تورث النظر في العواقب. اهـ.

وجملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في محل[1] الرفع، إن جُعِل أحد المَوصولَيْنِ

---

(١) روح البيان.

مفصولاً عن المتقين على أنّها خبر له، وكأنّه لما قيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قيل: ما بالهم خُصُّوا بذلك؟ فأجيب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى آخر الآيات. وإلاّ فاستئنافٌ لا محلَّ لها، فكأنَّه ينتجه الأحكام السابقة، والصفات المتقدمة. وأولاء: جمع، لا واحد له من لفظه، مبني على الكسر، وكافه للخطاب كالكاف في ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: المذكورون قبله، وهم المتقون الموصوفون بالإيمان بالغيب وسائر الأوصاف المذكورة بعده. وفيه دلالة على أنّهم متميّزون بذلك أكمل تميُّزٍ، منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد؛ للإشعار بعلوّ درجتهم وبُعد منزلتهم في الفضل.

وهو مبتدأ، وقوله عزّ وجل: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ خبره، وما فيه من الإبهام المفهوم من التنكير؛ لكمال تفخيمه، كأنّه قيل: على هُدًى؛ أيْ: هدى لا يُبلَغ كنهه ولا يُقادَر قدره، كما تقول: لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً. وإيراد كلمة الاستعلاء؛ لتمثيلِ حالهم في ملابستهم بالهدى، وتمسكهم به، واستقرارهم عليه بحال من يقبل الشيء، ويستولي عليه. يعني: شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد؛ وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر، وإدامة النظر فيما نصب من الحجج، والمواظبة على محاسبة النفس في العمل. يعني: أكرمهم الله تعالى في الدنيا، حيث هداهم، وبيَّن لهم طريق الفلاح قبل الموت.

﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفةً له، مبيِّنة لفخامته الإضافية إثر بيان فخامته الذاتيّة، مؤكِّدةً لها؛ أي: على هدى كائن من ربهم سبحانه، وهو شامل لجميع أنواع هدايته تعالى وفنون توفيقه. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم؛ لغاية تفخيم الموصوف، والمضاف إليهم وتشريفهما.

ثُمَّ في هذه الآيةِ[1] ذَكَر الهدى للموصوفين بكل هذه الصفات، وفي قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ

---

(١) روح البيان.

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ ذكر لهم الهداية بالإقرار والاعتقاد بدون سائر الطاعات؛ بياناً لشرف الإيمان، وجلالة قدره، وعلو أمره، فإنّه إذا قوي لم يبطله نفس المخالفات، بل هو الذي يغلب، فيُرَدُّ إلى التوبة بعد التمادي في البطالات، وكما هُدِيَ اليوم إلى الإيمان يُهدَىٰ غداً إلى الجنان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾. وذلك، أنَّ المطيعين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وهم على مراكب طاعاتهم، والملائكة تتلقاهم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، وتتلقَّاهم الملائكة، وتبقى العصاة منفردين منقطعين في متاهات القيامة، ليس لهم نور الطاعات، ولا في حقهم استقبال الملائكة، فلا يهتدون السبيل، ولا يهديهم دليل.

وقرأ ابن هرمز ﴿من ربُّهُم﴾ بضمّ الهاء، وكذلك سائِر هاءَات جمع المذكر والمؤنث على الأصل من غير أن يراعي فيها سبق كسر أو ياءٍ، ذكره في «البحر».

فإن قلت: لِمَ ذكر هدى هنا مع قوله أولاً: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؟

قلت: لأنّه ذكر هنا مع هدًى فاعلَه بخلافه ثَمَّ. ذكره في فتح الرحمن. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تكرير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[1]؛ للدلالة على أنّ كلّ واحد من الحُكْمين مستبدّ في تميّزهم به عن غيرهم، فكيف بهما، وتوسيط العطف بينهما؛ تنبيه على تغايرهما في الحقيقة لاختلاف مفهوم الجملتين ههنا، بخلاف قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ فإنّ التسجيل بالغفلة، والتشبيه بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقررة للأولى، فلا تناسب الفصل.

وفائدة الفصل بين المبتدأ والخبر بالضمير: الدلالة على أنّ ما بعده خبر لا صفة، وأنّ المسند ثابت للمسند إليه دون غيره، فصفةُ الفلاح مقصورة عليهم، لا تتجاوز إلى من عداهم من اليهود والنصارى، ولا يلزم من هذا أن لا يكون ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ صفة أخرى غير الفلاح، فالقصر قصر الصفة على الموصوف لا العكس، حتى يلزم ذلك. أو ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبره والجملة خبر

---

(١) روح البيان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. والمفلح بالحاء والجيم: هو الفائز بالبغية بعد سعي في الحصول عليها، واجتهاد في إدراكها، كأنْه انفتحت له وجوه الظفر، ولم تستغلق عليه من الفلح، وهو الشقُّ والقطع، ومنه سمّي الزارع فلاحاً؛ لأنّه يشقّ الأرض. وهذا التركيب وما يشاركه في الفاء والعين، نحو: فلق، وفلذ، وفلىٰ يدلّ على الشق والفتح. والمشار إليه بأولئك في الموضعين واحد، وهم المؤمنون من غير أهل الكتاب، والمؤمنون منهم.

تنبيه[1]: تأمّل كيف نبّه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد من وجوه شتّى: بناء الكلام على اسم الإشارة؛ للتعليل مع الإيجاز، وتكريره، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل لإظهار قدرهم، والترغيب في اقتفاء أثرهم. وقد تشبثت الوعيدية بهذه الآية في خلود الفساق من أهل القبلة في العذاب، ورُدَّ بأن المراد بالمفلحون: الكاملون في فلاحهم، ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم، لا عدم الفلاح لهم رأساً، كما في «تفسير البيضاوي».

وحاصل الفلاح يرجع إلى ثلاثة أشياء[2]: أحدها: الظفر على النفس فلم يتابعوا هواها، والدنيا فلم يَطغَوْا بزخارفها، والشيطان فلم يُفتَنوا بوساوسه، وقرناء السوء فلم يُبْتَلُوا بمكروهاتهم.

والمعنى: أولئك الموصوفون بالصفات المذكورة، كائنون على هدى ورشادٍ كائنٍ من ربّهم، ومعبودهم، ومالكهم، وأولئك المذكورون هم المفلحون؛ أي: الفائزون في الدنيا وفي الآخرة بالجنّة، والناجون من النار، والمقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة. وقال ابن كثير: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي[3]: المُنجِحون المدرِكون ما طلبوا عند الله بأعمالهم، وإيمانهم بالله، وكتبه، ورسله من الفوز

---

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) ابن كثير.

بالثواب، والخلود في الجنات، والنجاة مما أعدّ الله لأعدائه من العقاب. انتهى.

فائدة: ويستفاد من هذه الآيات[1]: أنَّ الهداية الموصلة إلى الفلاح الأبديّ لا تحصل إلا لمن اتصف بالتقوى، وآمن بالغيب الذي أخبر به محمد ﷺ وأقام الصلاة المفروضة، وأنفق في الواجبات مما رزقه الله تعالى، وآمن بالكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ وعلى الرسل قبله عليهم الصلاة والسلام، وأيقن مجيء الدار الآخرة.

الإعراب

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿الٓمٓ﴾ كلمة أريد لفظها لا معناها؛ لأنها اسم للسورة، في محلّ الرفع خبر لمبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: هذه ﴿الٓمٓ﴾، أي: هذه السورة مسمّاة بلفظ ﴿الٓمٓ﴾ مبني على السكون؛ لشَبَهه بالحرف شَبَهاً وضعياً. أو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: ألم هذا محلُّه. وقد تقدم بسط الكلام في معناه وإعرابه في مبحث التفسير، فراجعه. والجملة الإسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً، لا محلّ لها من الإعراب.

وعبارة «عمدة التفاسير» هنا: قوله: ﴿الٓمٓ﴾ تقدم لك أنّ الأرجح فيه القول: بأنّه مما انفرد الله سبحانه وتعالى بعلم المراد منه، وعلى هذا القول فلا يوصف بإعراب، ولا بناء؛ لأنّ الإعراب فرع عن إدراك المعنى، ومعناه لم يُعلَم لنا. وعلى القول: بأنّه اسم لهذه السورة مثلاً، ففيه ثلاثة أوجه من الإعراب:

الأول: الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف،

والثاني: النصب على أنّه مفعول به لفعل محذوف وجوباً؛ لشبهه بالمثل، تقديره: اقرؤوا ﴿الٓمٓ﴾ اقرؤوا فعل وفاعل، ﴿الٓمٓ﴾ في محل النصب مفعول به،

---

(١) العمدة.

مبني على السكون؛ لشَبَهه بالحرف شَبَهاً استعمالياً بواسطة شبهه بأسماء الأصوات، والجملة الفعلية مستأنفة.

والثالث: الجرّ على أنّه مُقْسَم به حُذِف منه حرف القسم. اهـ. وقال العكبري: هذه الحروف المقطعة كل واحدة منها اسم، فألف: اسم يُعبَّر به عن مثل الألف الذي في (قال)، ولام: اسم يعبّر به عن مثل اللام الذي في (قال)، وكذلك ما أشبهها. والدليل على أنّها أسماء: أنّ كلّاً منها يدلّ على معنى في نفسه، وهي مبنية؛ لأنّك لا تريد أن تخبر عنها بشيء، وإنما يحكي بها ألفاظ الحروف التي جعلت أسماء لها، فهي كالأصوات، نحو: غاق في حكاية صوت الغراب. انتهى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ ذا: اسم إشارة يشار به للمفرد المذكر البعيد تنزيلاً للبعد المعنوي منزلة البعد الحسي، في محلّ الرفع مبتدأ، مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، واللام: لبعد المشار إليه، أو لمبالغة البعد، والكاف: حرف دالّ على الخطاب. ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه، مرفوع بالضمة الظاهرة. ﴿لَا﴾ نافية لحكم الخبر عن جنس الاسم، تعمل عمل إنّ، ﴿رَيْبَۛ﴾ في محل النصب، اسمها مبني على الفتح؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً لتضمّنه معنى من الاستغراقية، ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور، متعلّق بمحذوف وجوباً؛ لوقوعه خبراً للا، تقديره: لا ريب موجود فيه، وجملة لا من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: هذا الكتاب الذي يقرؤُه محمد ﷺ مُخبَر عنه بعدم وجود ريب فيه، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة استئنافاً نحوياً، لا محل لها من الإعراب. ﴿هُدًى﴾ خبر ثان للمبتدأ، ففيه الإخبار بالمفرد بعد الإخبار بالجملة، فهو جائزٌ فصيحٌ، والخبر مرفوع بالمبتدأ، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على الألف المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها التعذّر؛ لأنّه اسم مقصور، مثل: فتىً، وصح الإخبار به مع كونه اسم معنى؛ لأنه في تأويل هاد، ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ خبر أول له؛ لأنه قصد به الإخبار بأنه الكتاب المقدّس المستحق لهذا الاسم، وجملة ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِ﴾ خبر ثان له، أو حال من الكتاب، و﴿هُدًى﴾ خبر ثالث له، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جار ومجرور، وعلامة جره الياء؛ لأنّه من جمع المذكر السالم، وهو جمع مُتَّقٍ

أصله: متقيين بياءين، الأولى لام الكلمة، والثانية علامة الجمع، فاستثقلت الكسرة على لام الكلمة، وهي الياء الأولى، فحذفت الضمة فالتقى ساكنان، وهما الياءان، فحذفت إحداهما، وهي الأولى، فصار متقين، كما سيأتي بسط الكلام فيه في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى. الجار والمجرور متعلّق بهدًى؛ لأنّه مصدر، ويجوز أن تجعله صفة لهدى.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول لجمع المذكر في محل الجر صفة للمتقين، مبني على الفتح، أو على الياء على الخلاف المذكور في محلّه؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، ويجوز فيه القطع إلى الرفع، أو النصب. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، مرفوع بثبات النون، والواو ضمير لجماعة الذكور الغائبين، في محلّ الرفع. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ جار ومجرور، متعلّق بيؤمنون، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد الواو في يؤمنون، وهو أعني الموصول جامد مؤول بمشتق مأخوذ من الصلة، تقديره: هدى للمتقين المؤمنين بالغيب، أو مأخوذ من ضدّ معنى الموصول، تقديره: للمتقين المعلوم إيمانهم بالغيب. ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل، ومفعول به، معطوف على يؤمنون على كونه صلة الموصول. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ الواو عاطفة. ﴿مما﴾ من حرف جرّ مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ما. ﴿ما﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل الجر بمن، مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، الجار والمجرور متعلّق بينفقون المذكور بعده، قُدِّم عليه اهتماماً بشأن المنفق، أو لرعاية الفاصلة. ﴿رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ومما رزقناهم إياه، وهو المفعول الثاني لرزقناهم، وفي «الجَمَل»: أنّ العائد محذوف، فيقدّر متصلاً أو منفصلاً على حدّ قول ابن مالك:

وصـل أو افـصـل هـاء سـلـنـيـه

﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ على كونها صلة الموصول والعائد إلى الموصول الواو في ﴿يُنفِقُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل الجر، معطوف على الموصول الأوّل، على كونه صفة للمتقين. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِمَآ﴾ الباء حرف جرّ. ﴿ما﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محلّ الجر بالباء، والجار والمجرور متعلّق بيؤمنون. ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، مبني على الفتح، ونائب فاعله ضمير يعود على ما، والجملة صلة لما، أو صفة لها. ﴿إِلَيۡكَ﴾ جار ومجرور متعلّق بأنزل. ﴿وَمَآ﴾ الواو عاطفة. ﴿ما﴾ في محلّ الجر معطوفة على ما الأولى. ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعل مستتر فيه، والجملة صلة لما، أو صفة لها. ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ جار ومجرور متعلّق بأنزل. ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الواو عاطفة. ﴿بالآخرة﴾ جار ومجرور متعلّق بيوقنون الآتي، قُدّم عليه اهتماماً بشأن الآخرة، أو لرعاية الفاصلة. ﴿هُمۡ﴾ الهاء ضمير لجماعة الذكور الغائبين في محل الرفع مبتدأ، مبني على الضمّ؛ لشبهه بالحرف شبهاً وضعياً، والميم حرف دالّ على الجمع. ﴿يُوقِنُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والتقدير: وهم موقنون بالآخرة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ على كونها صلة الموصول، ففيه عطف الجملة الإسمية على الفعلية، وهو جائز.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسم إشارة يشار به للجمع المطلق، في محلّ الرفع مبتدأ، مبني على الكسر؛ لشَبَهه بالحرف شَبَهاً معنوياً، الكاف حرف دال على الخطاب مبني على الفتح. ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: كائنون على هدى، والجملة الإسمية مستأنفة استئنافاً بيانيّاً، لا محلّ لها من الإعراب. ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف صفة لهدى، تقديره: على هدى كائن من ربّهم. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الواو عاطفة. ﴿أولئك﴾ مبتدأ. ﴿هُمُ﴾ ضمير

فصل، حرف لا محلّ له من الإعراب. ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبر المبتدأ، مرفوع بالواو، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ويصحّ أن يعرب ﴿أولئك﴾ مبتدأ أول. و﴿هُمُ﴾ ضمير لجماعة الذكور الغائبين، في محلّ الرفع مبتدأ ثان ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول معطوفة على الجملة التي قبلها.

التصريفُ ومفرداتُ اللغة

﴿الٓمٓ﴾ هي وأمثالها من الحروف المقطعة، نحو: ﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓرٓ﴾ وغيرها، أسماء مدلولها حروف المعجم، ولذلك نطق بها نطق حروف المعجم، وهي موقوفة الآخر، لا يقال: إنّها معرَبة؛ لأنّها لم يدخل عليها عامل فتعرب، ولا يقال: إنها مبنية؛ لعدم سبب البناء، لكن أسماء حروف المعجم قابلةٌ لتركيب العوامل عليها فتُعرَب، فتقول: هذه ألف حسنة، ونظير سرد هذه الأسماء موقوفةً أسماء العَدد إذا عدوا يقولون: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة. وقد اختلف العلماء في المراد بها، كما مرّ بسطه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الكتاب يطلق على معان كثيرة، منها: العقد المعروف بين العبد وسيّده على مالٍ منجَّم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وعلى الفرض، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وعلى الحُكْم قاله الجوهري، كما في قوله ﷺ: «لأقضيَنَّ بينكما بكتاب الله، كتاب الله القصاص»، وعلى القَدَر، كما في قوله:

يا ابْنَةَ عَمّي كتابُ اللّهِ أخرَجني عَنْكُم وهَلْ أمْنَعَنَّ اللّهَ ما فَعَلا

أي: قَدَرُ الله سبحانه، وعلى مصدر كَتَبْتُ، تقول: كتبت كتاباً وكتباً، ومنه: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وعلى المكتوب، كالحساب بمعنى المحسوب، ومنه قول الشاعر:

بَشَرْتُ عِيالِي إذْ رأيتُ صَحِيفَةً أتَتْكَ مِن الحَجّاجِ يُتلى كتابها

ومنه ما هنا.

﴿لَا رَيْبَ﴾ الريب: الشكّ بتهمة، وللريب في اللغة ثلاثة معان.

أحدها: الشكّ، وهو المراد هنا.

وثانيها: التهمة، كما في قول جميل:

بُثَيْنَةُ قالَتْ يا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي ... فقلتُ كِلاَنا يا بُثَيْنُ مُرِيبُ

وثالثها: الحاجةُ، كما قال الشاعر:

قَضَيْنَا مِنْ تِهامَةَ كُلَّ رَيْبٍ ... وخَيْبَرَ ثُمَّ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَا

﴿هُدًى﴾؛ أي: رشادٍ وبيانٍ، فهو مصدرٌ من هداه، كالسُّرَى والبُكى. اهـ. «أبو السعود». ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جمع متَّقٍ، وأصله: مُتَّقيين بياءين، الأولى لام الكلمة، والثانية علامة الجمع، فاستثقلت الكسرة على لام الكلمة، وهي الياء الأولى فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت إحداهما، هي الأولى، فقيل: للمتقين. ومتَّقٍ: اسم فاعل من الوقاية؛ أي: المتخذ له وقاية من النار. اهـ. «جمل». وأصل هذه الكلمة: موتقيين بوزن مفتعلين؛ لأنّ أصل المادّة من الوقاية، وفعلها: وقى لفيف مفروق، واتقى منه وزنه افتعل، وأصل اتقى أو تقي تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثمّ أبدلت الواو ـ فاء الكلمة ـ تاء، وأدغمت في تاء الافتعال على حدّ قول ابن مالك في باب التصريف:

ذو اللِّيْن فا تَا فِي افْتِعَالٍ أُبْدِلا ... وشذَّ في ذِي الهَمْزِ نَحْوَ ائتكَلاَ

وعليه فاسم الفاعل مُوْتَقِيٌ بوزن مفتَعلٍ، أبدلت الواو تاء وأدغمت في تاء الافتعال، كما تقدّم قريباً، ثم أُعلّ إعلال قاض بحذف يائه، وأصل التقوى: وقياً، أبدلت الواو تاءً، كما أبدلت الياء واواً فقيل: تقوى بعد أن كانت وقياً، كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

مِنْ لاَمِ فعْلَى اسماً أتى الوَاوُ بَدَلْ ... يَاءٍ كَتَقْوَى غَالِباً جَا ذَا البدلُ

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يؤمنون على وزن يُفْعِلون بضمّ حرف المضارعة

مضارع آمن الرباعي، أصله: أأمن بوزن أفعل، فكرهوا اجتماع الهمزتين في كلمة، فقلبوا الثانية ألفاً.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مضارع أقام الرباعيّ، وفيه حذف همزة أفعل، إذ القياس إثباتها، وفيه إعلالٌ بالتسكين والقلب، فأصله: يُقْوِمون، نقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها، فسكنت الواو إثر كسرة فقلبت ياءً حرف مدّ، فوزنه يفعلون. وفي «الجمل»: أصله: يؤقومون، حذفت همزة أفعل؛ لوقوعها بعد حرف المضارعة، فصار يُقوِمون بوزن يُكرِمون، فاستثقلت الكسرة على الواو، فنقلت إلى القاف، ثمّ قلبت الواو ياء؛ لانكسار ما قبلها. اهـ. «سمين». الصلاة أصله: صَلَوَة، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، ففيه إعلال بالقلب. وقيل: من الوُصلة؛ لأنها وُصلة بين العبد وبين ربّه، وعليه فأصلها وَصْلة، قُلبت الواو قلباً مكانياً فصار صَلْوَة، ثمّ يقال: تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً.

﴿يُنفِقُونَ﴾ فيه حذف همزة أفعل من المضارع، إذ القياس: يؤنفقون. ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ﴾ الآخرة مؤنث الآخر، كما أنّ الدنيا مؤنث الأدنى، ثمّ صارا عَلَمين للدارين. ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أصله: يُيْقِنون بياءين؛ لأنّ المادة من اليقين، وفيه همزة أفعل؛ لأنّه من مضارع أيقن، وفيه إعلال بالقلب حيث قلبت الياء الثانية الساكنة واواً؛ لسكونها إثر ضمّة، فجُعِلَتْ حرف مدّ، وهذا على حدّ قول ابن مالك:

وَوَجَب إبدالُ واوٍ بَعْد ضَمٍّ مِنْ ألف ... ويأكُموقن بِذالَهُ اعْتُرِفْ

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ جمع مفلح، أصله: مؤفلح بوزن مفعل، ففيه حذف همزة أفلح الرباعي من اسم الفاعل، أصله: المؤفلحون.

البلاغة

وقد تضمَّنت هذه الآيات الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: حسن الافتتاح في قوله: ﴿الٓمٓ﴾ حيث افتتح بما فيه غموض ودقة؛

لتنبيه السامع على النظر، والفكر، والاستنباط.

ومنها: الإتيانُ باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى بعد منزلته ورتبته.

ومنها: التعريف بالألف واللام في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لقدره.

ومنها: معدول الخطاب في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، حيث عبّر فيه بصيغة الخبر مراداً به الأمر؛ أي: لا ترتابوا فيه.

ومنها: تقديم الريب على الجار والمجرور في هذه الجملة؛ لأنّه أولى بالذكر أوّلاً استعداداً لصورته حتى تتجسّد أمام السامع.

ومنها: المجاز العقليّ في قوله: ﴿هُدًى﴾ لما فيه من الإسناد إلى السبب، حيث أسند الهداية إلى الكتاب والهادي في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الصائرين إلى التقوى، علاقته اعتبار ما يؤول إليه.

ومنها: الإيجاز في ذكر المتقين؛ لأنّ الوقاية اسم جامع لكلّ ما تجب الوقاية منه.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ لكونهم المنتفعين به.

ومنها: إطلاق المصدر، وإرادة اسم الفاعل في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنّه بمعنى الغائب مبالغة فيه.

ومنها: تقديم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ على ﴿يُنفِقُونَ﴾ اهتماماً بشأن المنفق به، أو لرعاية الفاصلة.

ومنها: التعبير بضمير جماعة المتكلمين في قوله: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مع كون الله واحداً لا شريك له؛ جرياً على عادة خطاب الملوك في التعبير عن أنفسهم بصيغة الجمع، كما مرّ في مبحث التفسير.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وفي قوله: ﴿الذين والذين﴾ إن كان الموصوف واحداً، فهو تكرار اللفظ والمعنى، وإن كان مختلفاً كان من تكرار اللفظ دون المعنى.

ومنها: تكرار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للدلالة على أنّ كلّ واحد من الحُكْمَين مستبدّ في تميُّزِهم به من غيرهم، فكيف بهما؟.

ومنها: توسيط العاطف بينهما؛ تنبيهاً على تغايرهما في الحقيقة.

ومنها: الفصل بين المبتدأ والخبر في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ للدلالة على أنّ ما بعده خبر لا صفة، وأنّ المسند ثابت للمسند إليه دون غيره. وفي هذه الجملة أيضاً: قصر الصفة على الموصوف؛ لأنّ صفة الفلاح مقصورة عليهم لا تتجاوز إلى من عداهم من اليهود والنصارى، وفي هذه الجملة أيضاً: تأكيد المُظهَر بالمُضمَر.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾؛ تشبيهاً لحال المتقين بحال من اعتلى صهوة جواده، فحذف المشبه فاستعيرت كلمة على: الدالَّة على الاستعلاء؛ لبيان أنّ شيئاً تفوَّق واستعلى على ما بعدها حقيقةً، نحو: زيد على السطح، أو حُكماً، نحو: عليه دَيْنٌ، فالدَّين لِلزومِهِ وتحمُّله، كأنّه ركب عليه وتحمَّله. والدِّقَّةُ: أنَّ الاستعارة بالحرف، ويقال في تقريرها: شُبِّه مطلق ارتباط بين هدى ومهدى بمطلق ارتباط بين مستعل ومستعل عليه؛ بجامع التمكن في كلّ منهما، فسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات، ثمّ استعيرت على وهي من جزئيات المشبه به لجزئيٍّ من جزئيات المشبه على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الحذف، وهو في مواضع: فمنها: قوله هذه: ﴿الٓمٓ﴾ على قول من يقدر ذلك، وقوله: ﴿هُدًى﴾ أي: هو هدى، فحذف المبتدأ، وقوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ أي: المال. ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: من القرآن. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: من قبل إرسالك، أو قبل الإنزال إليك. ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ﴾؛ أي: بجزاء الآخرة.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ مع كون بعضه مترقباً حينئذٍ؛ لتغليب المحقَّق على المترقَّب نزوله، أو لتنزيل ما في شرف الوقوع لتحقّقه منزلة الواقع.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾؛ للدلالة على كمال تفخيمه، كأنّه قيل: على هُدًى أيِّ هدى لا يُقادَر قدره.

ومنها: التعرّض لعنوان الربوبية في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾؛ للدلالة على تفخيم الموصوف، وشرف المضاف إليهم.

ومنها: حسن التقسيم، وهو فنّ من فنون البلاغة، وهو استيعاب المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، بحيث لا يغادر منه شيئاً، فقد استوعبت هذه الآيات جميع الأوصاف المحمودة، والعبادات التي يعكف عليها المؤمنون؛ لأنّ العبادات كلّها تنحصر في نوعين: بدنيّة ومالية، ولا بدّ من استيفائهما لتكون العبادات كلّها مستوفاة.

فائدة مستجادة: وقد ورد في فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث(١):

منها: ما أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» والحاكم والبيهقي عن أبيّ بن كعب قال: «كنت عند النبي ﷺ فجاء أعرابيّ، فقال: يا نبي الله! إنّ لي أخاً وبه وجع، فقال: «وما وجعه؟» قال: به لَمَم، قال: فأتني به، فوضعه بين يديه فعوَّذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب، وأربع آيات من أوّل سورة البقرة وهاتين الآيتين: وإلٰهكم إلٰه واحد، وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وآية من الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ وآخر سورة المؤمنين ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾، وآية من سورة الجنّ ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين. فقام الرجل كأنّه لم يَشْتكِ قطّ،

---

(١) الشوكاني.

وأخرج نحوه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» من طريق عبد الرحمن بن أبي يعلى، عن رجل، عن أُبيٍّ مثله.

وأخرج الدارميّ، وابن الضريس عن ابن مسعود قال: (من قرأ أربع آيات من أوّل سورة البقرة، وآية الكرسي، وآيتين بعد آية الكرسي، وثلاثاً من آخر (سورة البقرة) لم يقربه ولا أهله يومئذٍ شيطان، ولا شيء يكرهه في أهله ولا ماله، ولا تُقرأ على مجنون إلاّ أفاق. وأخرج الدارميّ، وابن المنذر، والطبراني عنه قال: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة، لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح؛ أربع من أوّلها، وآية الكرسي، وآيتان بعدها، وثلاث خواتمها: أوّلها ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، والدارمي والبيهقي عن المغيرة بن سبيع وكان من أصحاب عبد الله بن مسعود بنحوه. وأخرج الطبراني، والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات أحدكم فلا تَحْبِسُوْه، وأسرعوا به إلى قبره، وليُقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة، وعند رجليه بخاتمة سورة البقرة.

وقد ورد في ذلك غير هذا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾.

المناسبة

مناسبةُ هاتين الآيتين لما قبلهما: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا[1] بيَّن حالَ المتقين الذين يؤمنون بالغيب، وبما أُنزل إلى الرسول ﷺ وما أنزل من قبله، وبيّن ما آل إليه أمرهم من الهداية والفلاح، أعقب هذا بشرح طائفة ثانية، وهم الكفرة الفجرة، وأبان أنّه قد بلغ من أمرهم في الغواية والضلال أن لا يُجْدِي فيهم الإنذارُ والتبشيرُ، وأن لا تُؤثِّر فيهم العِظَةُ والتذكير، فهم عن الصراط السوي ناكبون، وعن الحق معرضون. فالإنذار وعدمه سِيَّانِ، فماذا ينَفْعُ النورُ مهما سطع، والضوء مهما ارتفع؟ مع مَنْ أَغْمض عَيْنَيه حتى لا يراهُ بغضاً له وعداوةً لِمن دعا إليه، لأنّ الجهلَ أفسد وُجْدانَه، وأصبح لا يميِّزُ بين نورٍ وظلمةٍ، ولا بين نافع وضارّ.

وقد جَرَتْ عادةُ الله في مِثل هؤلاءِ الذين مَرَنُوا على الكفر أن يَخْتِمَ على قلوبهم، فلا يُبْقِي فيها استعداداً لغير الكفر، ويَختِمَ على سمعهم، فلا يسمعون إلاّ أصواتاً لا يَنْفُذ منها إلى القلب شيءٌ يُنْتَفَعُ به، ويَجْعَلَ على أبصارهم غشاوةً، إذ هم لم ينظروا إلى ما في الكون من آيات وعِبَرٍ، ولم يبصروا ما به يتقون الخطر، فكأنّهم لا يبصرون شيئاً، وكأنّه قد ضُرِب على أبصارهم بغشاوة.

وقد حكم الله سبحانه عليهم بالعذاب الأليم في العقبى، وفَقْدِ العِزّ والسلطان في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

روي: أنّ هاتين الآيتين نزلتا في مَنْ عَلِمَ اللَّهُ عدمَ إيمانه من الكفار، إما مطلقاً، وإما في طائفة مخصوصة، كأبي جهل، وأبي لهب، وغيرهما من كفار مكة. والحكمة في إخبار الله سبحانه نبيّه ﷺ بذلك؛ إراحة قلبه من تعلّقه بإيمانهم، فلا يُشغَل بهدايتهم ولا تأليفهم. قال أبو حيان: وذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين أقوالاً:

أحدها: أنّها نزلت في يهود كانوا حول المدينة، قاله ابن عباس، وكان يسميهم.

الثاني: نزلت في قادة الأحزاب من مشركي قريش، قاله أبو العالية.

الثالث: في أبي جهل، وخمسة من أهل بيته، قاله الضحاك.

الرابع: في أصحاب القليب، وهم: أبو جهل، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

الخامس: في مشركي العرب قريش، وغيرها.

السادس: في المنافقين.

والحكمة في عدم الدعاء منه عليهم مع علمه بأنّه يستحيل إيمانهم، أنّه يرجو الإيمان من ذرّيتهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا، وأنكروا بآيات الله، وكذبوا برسوله محمد ﷺ وأصرّوا، وداموا على ذلك. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي: مُسْتَوٍ عندهم في عدمِ الإفادة، إنذارك وتخويفُك يا محمد إياهم من عذاب الله على كفرهم، وعدمُ إنذارك إيّاهم. فهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدّقون بما جئتهم به من التوحيد، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ لأنّه قد سبق في علمنا عدم إيمانهم بك. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على تكذيب قومه له.

لمَّا ذَكَر سبحانه خاصَّةَ عباده، وخالصة أوليائه بصفاتهم التي أهّلتهم للهدى والفلاح، أعقبهم بأضدادهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى، ولا يغني عنهم الآيات والنذر. وتعريف الموصول: إمّا للعهد، والمراد به: ناس بأعيانهم، كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأحبار اليهود، أو للجنس متناولاً كلّ من صمّم على كفره تصميماً لا يرعوي بعده وغَيْرَهم، فخصّ منهم غير المصرّين بما أسند إليه.

والكُفر لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الليل كافراً، لأنّه يستر الأشياء بظلمته. قال الشاعر:

فـي لـيـلـةٍ كَـفَـر الـنـجـومَ غَـمـامُـهـا

أي: سترها. وشرعاً: إنكار ما عُلِم بالضرورة مجيء الرسول ﷺ به.

واعلم: أنّ الكفر على أربعة أضرب[1]:

كفر إنكار: وهو أن لا يعرف الله سبحانه أصلاً، ككفر فرعون، حيث قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾.

وكفر جحود: وهو أن يعرف الله بقلبه، ولا يقرّ بلسانه، ككفر إبليس اللعين.

وكفر عناد: وهو أن يعرف الله بقلبه، ويقرّ بلسانه، ولا يدين به، ككفر أمية ابن أبي الصلت، وأبي طالب، حيث قال في شعر له:

ولـقـد عـلِـمْـتُ بـأنَّ ديـنَ مـحـمـد　　مـن خـيـر أديـان الـبـريّـة ديـنـا
لَـوْلاَ الـمَـلامـةُ أو حَـذَارُ مَـسـبَّـة　　لـوجـدتُّـنـي سـمـحـاً بـذاك مُـبِـيـنـا

وكُفر نفاق: وهو أن يقرّ بلسانه، ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه، فجميعُ هذه الأنواع كفر.

---

(١) الخازن.

وحاصلُه[1]: أنَّ مَن جحد الله سبحانه، أو أنكر وحدانيته، أو أنكر شيئاً مما أنزله على رسوله، أو أنكر نبوةَ محمد ﷺ، أو نبوة أحد من الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهو كافر، فإن مات على ذلك فهو في النار خالداً فيها، ولا يغفر الله سبحانه له.

والمراد بالذين كفروا هنا: مَن علم الله سبحانه أنّ الكفر قد رسخ في قلوبهم حتى أصبحوا غير مستعدّين للإيمان بجحودهم بالنبي ﷺ، وبما جاء به بعد أن بلغتهم رسالته بلاغاً صحيحاً، وعرضت عليهم الدلائل على صحتها للنظر والبحث، فأعرضوا عنها عناداً واستهزاءً. وسبب كفرهم: إما عناد للحق بعد معرفته، وقد كان من هذا الصنف جماعة من المشركين واليهود في زمن النبي ﷺ، كأبي جهل وأضرابه، وأحبار اليهود، ككعب بن الأشرف وإما إعراض عن معرفته، واستكبار عن النظر فيه.

والمعرضون عن الحقّ يوجَدون في كلّ زمان ومكان، وهؤلاء إذا طاف بهم طائف الحقّ لوّوا رؤوسهم، واستكبروا، وهم معرضون، وفيهم يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي[2]: مستو عند هؤلاء الكفرة، وهو اسم مصدر بمعنى الاستواء، وصف به كما يوصف بالمصادر مبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾. وارتفاعه على أنّه خبر إنّ، وقوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ يا محمد ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ مرتفع على الفاعلية بسواء؛ لأنّ الهمزة وأم مجرّدتان عن معنى الاستفهام؛ لتحقيق معنى الاستواء بين مدخوليهما، كما جرّد الأمر والنهي عن معنييهما؛ لتحقيق معنى الاستواء في قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ كأنّه قيل: إنّ الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه، كقولك: إن

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

زيداً مختصم أخوه وابن عمّه. وقيل: ﴿سَوَآءٌ﴾ خبر مقدم للمصدر المنسَبك من الجملة التي بعده من غير سابك لإصلاح المعنى، وخبر إنّ جملة قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآتية، وجملة ﴿سَوَآءٌ﴾ معترضة بين اسم إنّ وخبرها. وصحّ على هذا القول الابتداء بالفعل والإخبار عنه بسواء؛ هجراً لجانب اللفظ إلى جانب المعنى، كأنّه قيل: إنذارك إياهم وعدمه سواء، كقولهم: تسمع بالمعيدي خَيْرٌ مِنْ أن تراه، أي: سماعك به خير من رؤيته.

وأصلُ الإنذار: الإعلامُ بأمر مخوف، وكلُّ مُنْذِرٍ مُعْلِمٌ، وليس كلّ مُعْلِمٍ مِنذراً، كما في «تفسير أبي الليث»، والمرادُ ههنا: التخويفُ من عذاب الله وعقابه على المعاصي، وإنّما اقتصر على الإنذار دون التبشير؛ لَمَّا أنَّهم ليسوا بأهل للبشارة أصلاً؛ ولأنَّ الإنذار أوقع في القلوب، وأشدّ تأثيراً في النفوس، فإنّ دفع المضار أهمُّ من جلب المنافع، فحيثُ لم يتأثّروا به فَلأَن لا يرفعوا للبشارة رأساً أولى.

فإن قلت: لم حذف الواو هنا، وأثبت في (يس) حيث قال فيها: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾؟

قلت: لأنّ (ما) هنا جملة هي خبر عن اسم إنّ، و(ما) هناك جملة عطفت على أخرى، فبينهما فرق. وإنما لم يقل: (سواء عليك)، كما قال لعبدة الأوثان: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، لأنّ إنذارك، وترك إنذارك ليسا سواءً في حقِّك؛ لأنّك تثاب على الإنذار وإن لم يؤمنوا، وأمّا في حقّهم فهما سواءٌ في عدم الإفادة؛ لأنّهم لا يؤمنون في الحالين، وهو نظير الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإنّه يثاب به الآمر وإن لم يمتثل المأمور. وكان هؤلاء القوم، كقوم هود عليه السلام حيث قالوا له: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستقلّة على الوجه الأول، مؤكدة لما قبلها، مبيّنة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء، فلا محلَّ لها من الإعراب، أيْ: مُوضحة لتساوي الإنذارِ وعدمه في حقّهم لا في حقّه ﷺ، ولا في حقِّ الدُّعاةِ إلى دينه، إذْ هم يَدْعُون كلَّ كافر إلى الدين الحقّ، لا فرق بين المستعدِّ للإيمان وغيرِ

المستعد. أو حال مؤكدة، أو بدل منه، أو خبر إن، والجملة قبلها اعتراضٌ بما هو علَّة الحكم.

ثم هذا تَيْئِيسٌ للنبي ﷺ، وتَفْرِيغٌ لقلبه، حيثُ أَخْبَرهُ عن هؤلاء بما أَخْبَر به نوحاً عليه السلام في الانْتِهاءِ، فإنّه قال تعالى لنوح عليه السلام بعد طول الزمان، ومقاساة الشدائد والأحزان: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، فدعا بهلاكهم بعد ذلك، وكذلك سائرُ الأنبياء.

وفي الآية الكريمة: إخبار بالغيب على ما هو به، إن أريد بالموصول أشخاصٌ بأعيانهم فهي من المعجزات الباهرة. وفي الآية: إثبات فعل العبادة، فإنّه قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفيه إثباتُ الاختيار، ونَفْيُ الإكراهِ، والإِخْبارُ، فإنّه لم يَقُلْ: لا يستطيعون، بل قال: لا يؤمنون.

فإن قلت[1]: حين علم الله أنهم لا يؤمنون، فلِمَ أمر النبي ﷺ بدعائهم؟

قلت: فائدةُ الإنذار بعد العلم: بأنّه لا يُنجع إلزامُ الحجة، كما أنّ الله تعالى بعث موسى إلى فرعون ليدعوه إلى الإيمان، وعلم أنّه لا يؤمن، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

فإن قلت: قد أخبر الله رسوله أنّهم لا يؤمنون، فهلاّ أهلكهم كما أهلك قوم نوح عليه السلام، بعدما أخبره أنّهم لا يؤمنون؟

قلت: لأنّ النبي ﷺ كان رحمة للعالمين، كما ورد به الكتاب، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

والآية[2] مما احتَّج به مَنْ جوّز تكليفَ ما لا يطاق، فإنّه سبحانه وتعالى

---

(١) روح البيان.

(٢) البيضاوي.

أخبر عنهم بأنّهم لا يؤمنون، وأمرهم بالإيمان، فلو آمنوا انقلب خبره كذباً، وشمل إيمانهم الإيمان بأنّهم لا يؤمنون، فيجتمع الضدّان، والحقّ أنّ التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلاً من حيث إنّ الأحكام لا تستدعي غرضاً سيّما الامتثال، لكنه غير واقع للاستقراء والإخبارُ بوقوع الشيء، أو عدمه لا ينفي القدرة عليه، كإخباره سبحانه عمّا يفعله هو أو العبدُ باختياره، فلا يلزم جواز تكليف ما لا يطاق.

وقال صاحب اللوامح[1]: قرأ الجُحْدَريُّ ﴿سَوَآءٌ﴾ بتخفيف الهمزة على لغة الحجاز، فيجوز أنّه أخلص الواو، ويجوز أنّه جعل الهمزة بين بين، وهو أن يكون بين الهمزة والواو، وفي كلا الوجهين لا بدّ من دخول النقص فيما قبل الهمزة المليّنة من المدّ. انتهى.

فعلى هذا: يكون ﴿سَوَآءٌ﴾ ليس لامه ياءً، بل واواً، فيكون مِنْ بابِ قَواءٍ. وعن الخليل: ﴿سُوْءٌ عليهم﴾ بضمّ السين مع واو بعدها مكان الألف، مثل ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ على قراءة من ضمّ السين، وفي ذلك عدول عن معنى المساواة إلى معنى القُبْح والسَّبِّ، ولا يكون على هذه القراءة له تعلُّق إعرابٍ بالجملةِ بعدها، بَلْ يبقى قوله: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ إخباراً بانتفاء إيمانهم على تقدير إنذارك، وعدم إنذارك، وأمّا سواء الواقعُ في الاستثناء في قولهم: (قاموا سواك) بمعنى: قاموا غيرك، فهو موافق لهذا في اللفظ مخالف في المعنى، فهو من باب المشترك، وله أحكام ذُكرت في باب الاستثناء.

وقوله: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ فيه خمس قراءات سبعيّة[2]:

الأولى: تحقيق الهمزتين مع إدخال ألف؛ أي: مدّ طبيعيّ بينهما.

والثانية: تحقيق بلا إدخال ألف بينهما.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) صاوي بتصرف.

والثالثة: تسهيل الثانية، وهو أن تكون بين الهمزة والهاء مع إدخال ألف بين المسّهلة والأخرى.

والرابعة: تسهيل الثانية بلا إدخال ألف بين المسّهلة والأخرى.

والخامسة: إبدال الثانية ألفاً؛ أي: مدّاً لازماً، وقدره ستّ حركات خلافاً للبيضاوي، حيث قال: إنّ قراءة الإبدال لحنٌ؛ لوجهين:

الأوّل: أنّ الهمزة المتحركة لا تبدل ألفاً.

والثاني: أن فيه التقاء الساكنين على غير حدّه.

ورَدَّ عليه مُلَّا عَلِي القَارِي: بأنّ القراءة متواترةٌ عن رسول الله ﷺ ومن أنكرها كَفَر، فيُستدلُّ بها لا لها. وأما قوله: إنّ الهمزة المتحركة لا تُبدل ألفاً في القلب القياسيّ، وأمَّا السماعي كما في سأل، ومِنْسَأته، فلا لحن فيه؛ لأنّه يُقتصر فيه على السماع. وقوله: فيه التقاء الساكنين على غير حدّه نقول: سَهَّلَه طُولُ المدّ والسماعُ اهـ. صاوي بتصرف، وسيأتي بسطه في مبحث القراءة.

وفي «الجمل»: قال الجَعْبَرِيُّ[1]: وَجْهُ الإبدال المبالغةُ في التخفيف، إذ في التسهيل قِسْطُ هَمْزٍ. قال قُطرب: هي قرشيّة وليست قياسيّة، لكنها كثرت حتى اطّرَدَتْ، وأما تعليلهُم بأنّه يُؤدّي إلى جمع الساكنين على غيره، فمدفوع بأنّ من يقلبها ألفاً يُشبع الألف إشباعاً زائداً على مقدار الألف بحيث يصير المدُّ لازماً، فيكون فاصلاً بين الساكنين، ويقوم قيامَ الحركة، كما في ﴿محياي﴾ بإسكان الياء لنافعٍ وَصْلاً، ويُسمّي هذا حاجزاً. وقد أجمع القُراء وأهلُ العربية على إبدال الهمزة المتحركة الثانية في نحو: الآن، ثم اعلم أنَّ موافقة العربية؛ إنما هي شرط لصحة القراءة، إذا كانت بطريق الآحاد، وأما إذا ثبتت متواترة فيُسْتشهد بها لا لها، وإنّما ذكَرْنَا ما ذُكر؛ تفهيماً للقاعدة، وتتميماً للفائدة اهـ.

ثمَّ بيَّن سبب تركهم الإيمان، فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، وقفّل

---

(١) الفتوحات.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وطَبَع عليها، وطَمَس[1] نُور بصيرتهم بحيثُ لا تَعِي خبراً ولا تفهمه، فلا يدخل فيها نور، ولا يُشرق فيها إيمان. وذلك أنَّ القلوب إذا كَثُرت عليها الذنوب طمسَتْ نُورَ البصيرة فيها، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلَكٌ، ولا للكفر عنها مَخْلَص. والمرادُ بالختم هنا: عدم وصول الحقّ إلى قلوبهم، وعدمُ نفوذِه واستقرارِه فيها. وهذه الجملة مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما سَبَق من الحكم، وهو عدم إيمانهم.

وأَصلُ الختم[2]: التغطيةُ، وحقيقتُه: الاستيثاقُ من الشيء؛ لكي لا يَخرُج منه ما حصل فيه، ولا يَدْخُله ما خرج منه. ومنه: ختم الكتاب ولا خَتْم في الحقيقة، وإنما المراد به: أن يُحدث في نفوسهم هيئةَ تَمرُّنِهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات، بسبب غَيِّهم، وانهماكهم في التقليد، وإعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا يؤثر فيها الإنذار، ولا يَنْفذُ إليها الحقّ أصلاً. وسَمَّى هذه الهيئة: ختماً على سبيل الاستعارة، فالمرادُ بالقلب هنا: مَحلُّ القوة العاقلة من الفؤاد. وقد يطلق ويراد به: المعرفة والعقل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾. والمراد[3] بالقلب هنا: جسم لطيف قائم بالقلب اللحمانيّ، الصنوبري الشكل، قيام العرض بمحله، أو قيام الحرارة بالفحم، وهذا القلب: هو الذي يحصل به الإدراك، وترتسم فيه العلوم والمعارف، وهو العقل، بخلاف القلب الذي بمعنى اللحمة الصنوبرية الشكل، فإنّها للبهائم والأموات.

﴿و﴾ ختم الله ﴿على سمعهم﴾ وآذانهم؛ أي: أصمّ مواضع سمعهم، فجعلها بحيثُ تعَافُ استماعَ الحقّ، ولا تُصْغِي إلى خير، ولا تَعِيه، ولا تَقْبَلُه. والخَتْمُ عقوبةٌ لهم على سوء اختيارهم، وميلهم إلى الباطل، وإيثارهم إياه. والسمع هو: إدراك القوة السامعة، وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها،

---

(١) عمدة التفاسير.

(٢) روح البيان.

(٣) العمدة.

وهو المراد هنا؛ لأنّه أشدّ مناسبة للختم، وهو المختوم عليه أصالة.

والمعنى: أصمّ مواضع سمعهم، فلا يسمعون الحقّ، ولا ينتفعون به: لأنّها تَمُّجه، وتَنْبُو عن الإصغاء إليه. وقرىء شاذاً ﴿وعلى أسماعهم﴾، كما سيأتي في مبحث القراءة.

وإنّما أفرده وجمع صَاحِبَيْهِ؛ لأنّه مصدر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع. وقيل: أفرده لوحدة المسموع، وهو الصوت، كذا في «الجمل». وفي «الروح»: وفي توحيد السمع وجوه[1]:

أحدها: أنّه في الأصل مصدر، والمصادر لا تثنى ولا تجمع؛ لصلاحيتها للواحد والاثنين والجماعة.

فإن قلت: فلم جمع الأبصار والواحد بصر، وهو كالسمع؟

قلنا: إنّه اسم للعين، فكان اسماً لا مصدراً فجُمع لذلك.

وثانيها: أنّ فيه إضماراً، أي: على مواضع سمعهم وحواسّه، كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: أهلها. وثبت هذا الإضمار بدلالة أنّ السمع فعل، ولا يختم على الفعل، وإنّما يختم على محله.

وثالثها: أنّه أراد سمع كلّ واحد منهم، والإضافة إلى الجمع تغنى عن الجمع، وفي التوحيد أمن اللبس، كما في قول الشاعر:

كُلُوا فِي نِصْفِ بَطْنِكُمُ تَعِيشُوا ... فَإِنَّ زَمَانَكُم زَمَنٌ خَمِيصُ

أي: في أَنصافِ بطونكم، إذا البطنُ لا يُشترك فيه.

ورابعها: قول سيبويه: أنّه توسّط بين جمعين، فدلّ على أنّه جمع معنى وإن توّحد لفظاً، كما في قوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، دلّ على الأنوار ذِكْرُ الظلمات.

---

(١) روح البيان.

وتقديمُ ختمُ قلوبهم؛ للإيذان بأنَّها الأصلُ في عدم الإيمان، وتقديم حال السمع على حال أبصارهم؛ للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال. قالوا: السمع أفضل من البصر؛ لأنّه تعالى حيث ذكرهما، قدّم السمع على البصر، ولأنّ السمع شرط النبوة، ولذلك ما بعث الله تعالى رسولاً أصمّ، ولأنّ السمع وسيلة إلى استكمال العقل بالمعارفِ إلَى تُتلَقَّفُ مِنْ أصحابها.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فالوقف عليه تامّ، وما بعده جملة اسمية. وقوله: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ خبر مقدم، جمع بصر، وهو إدراك العين، وقد يطلق مجازاً على القوة الباصرة وعلى العضوين، وهو المراد ههنا؛ لأنّه أشدّ مناسبة للتغطية. ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر، أي: غطاء عظيم، وساتر جسيم، فلا يبصرون الحقّ، وفي الحقيقة لا تَغْشِيَةَ، وإنّما المرادُ بها: إحداثُ حالة تجعلُ أبصارَهم بسبب كفرهم لا تَجْتَلِي الآياتِ المنصوبةَ في الأنفس والآفاق، كما تَجْتَلِيها أَعْيُنُ المستبصرين، وتَصير كأنّها غُطّي عليها، وحيل بينها وبين الإبصار. ومعنى التنكير: أنّ على أبصارهم ضرباً من الغشاوة خارجاً مما يتعارفه الناس، وهي غشاوة التعامي عن الآيات.

ولما اشترك السمع والقلب في الإدراك من جميع الجوانب، جَعَل ما يَمنَعهما مِن خاصّ فعلهما الخَتْمَ الذي يمنع من جميع الجهات، وإدراك الأبصار لما كان مما اختصَّ بجهة المقابلة، جعل المانع لها من فعلها الغشاوةَ المختصة بتلك الجهة.

وإنّما خَصَّ سبحانه وتعالى هذه الأعضاءَ الثلاثةَ بالذكر؛ لأنَّها طُرُقٌ للعلم، فالقلب محلّ العلم، وطريقُه: إما السماعُ، وإما الرؤية. اهـ. كرخي. وقال في «التيسير»: إنّما ذَكَر في الآية القلوب، والسمع، والأبصار؛ لأنّ الخطاب كان باستعمال هذه الثلاثة في الحقّ، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ اهـ.

﴿وَلَهُمْ﴾ أي: ولهؤلاء الكفار المذكورين في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عذاب شديد دائم لا ينقطع بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله تعالى. والعذابُ

كالنكال وزناً ومعنى، وهو إيصال الآلام إلى الحيوان على وجه الهَوان، فإيلام الأطفال والبهائم ليس بعذاب. يقال: أَعْذَب عن الشيء، إذا أَمْسَكَ عنه، وسُمّي العذاب عذاباً، لأنّه يمنع عن الجناية إذا تأمَّل العاقل فيها، ومنه الماءُ العذب، لما أنّه يقمَع العطشَ، أي: يَكْسِره ويَرْدَعُه بخلاف المِلْح فإنّه يزيدُه. وقيل: إنمّا سُمِّيَ به؛ لأنَّه جزاء ما استعذبه المرء بطبعه؛ أي: استطابه، ولذلك قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى﴾، وإنما يُذاق الطيب على معنى: أنّه جزاءُ ما استطابه واستحلاه بهواه في الدنيا. والعظيم[١]: نقيضُ الحقير، والكبير: نقيض الصغير، فكان العظيم فوق الكبير، كما أنّ الحقير دون الصغير. قال في «التيسير»: ﴿عَظِيمٌ﴾ أي: كبير، أو كثير، أو دائم، وهو التعذيب بالنار أبداً، ثُمَّ عِظمُه بأهواله، وبشدةِ أحواله، وكثرةِ سَلاسلِه وأغلاله. فتكون هذه الآيةُ وعيداً وبياناً لما يستحقُّونه في الآخرة. وقيل: هو القتل والأسر في الدنيا، والتحريق بالنار في العقبى.

ومعنى التوصيف بالعظيم: أنّه إذا قيس بسائر ما يجانسه قصر عنه جميعه، ومعنى التنكير: أنّ لهم من الآلام نوعاً عظيماً لا يعلم كنهه إلاّ الله سبحانه وتعالى، فعلى العاقل أنّ يجتنب عمّا يؤدّي إلى العذاب الأليم، والعقاب العظيم، وهو الإصرار على الذنوب، والإكبابُ على اقتراف الخطيئات والعيوبِ. وأمّهاتُ الخطايا ثلاث: الحرص، والحسد، والكبر. فحصل من هؤلاء ستّ خصال، فصارت جملتها تسعاً: الشبع، والنوم، والراحة، وحّب المال، وحبّ الجاه، وحّب الرياسة. فحّب المال والرياسة من أعظم ما يجرّ صاحبه إلى الكفر والهلاك.

وظاهر قوله تعالى[٢]: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ أنّه إخبار من الله تعالى بختمه، وحمله بعضهم على أنّه دعاء عليهم، وكنى بالختم على القلوب عن كونها لا تقبل شيئاً من الحقّ ولا تعيه؛ لإعراضها عنه، فاستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

أو مثّل القلب بالوعاء الذي خُتم عليه؛ صوناً لما فيه، ومنعاً لغيره من الدخول إليه. والأول مجاز بالاستعارة، والثاني مجاز بالتمثيل. وتكرير حرف الجرّ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ﴾ يدلّ على أنّ الختم ختمان، أو على التوكيد إن كان الختم واحداً، فيكون أدلّ على شدّة الختم.

وقرأ ابن أبي عبلة[1]: ﴿وعلى أسماعهم﴾، فطابق في الجمع بين القلوب، والأسماع، والأبصار. وقرأ الجمهور ﴿وعلى سمعهم﴾ على التوحيد، إمّا لكونه مصدراً في الأصل، فلُمِح فيه الأصل، وإمّا اكتفاء بالمفرد عن الجمع؛ لأنّ ما قبله وما بعده يدلّ على أنّه أريد به الجمع. وقرأ الكوفيون، وابن ذكوان وروح، عن يعقوب وخلف العاشر قوله: ﴿ءأنذرتهم﴾ بتحقيق الهمزتين، وهو الأصل. وأهل الحجاز لا يرون الجمع بينهما طلباً للتخفيف؛ فقرأ قالون عن نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية بينهاوبين الألف مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ابن كثير ورويس عن يعقوب بتسهيل الهمزة الثانية من غير إدخال ألف بينهما، ولهشام وجهان: الأول: تحقيق الهمزتين مع إدخال ألف بينهما وهي قراءة ابن عباس، وابن أبي إسحاق، والثاني: التسهيل مع إدخال الألف. ولورش عن نافع أيضاً وجهان: الأول: كابن كثير ورويس، والثاني: إبدال الثانية ألفاً مع المد المشبع فيلتقي ساكنان على غير حدهما وقد أنكر هذه القراءةَ الزمخشري، وزَعَم أنّ ذلك لحن وخروج عن كلام العرب من وجهين، وقد مرَّ لنا ذِكْرُ الوجهين مع الرد عليهما، فراجعه. وما قاله الزمخشري هو مذهب البصريين. وقد أجاز الكوفيون الجَمْعَ بين الساكنين على غير الحد الذي أجازه البصريون. وقراءةُ ورش صحيحةُ النقل، لا تُدفع باختيار المذاهب، ولكن عادة هذا الرجل إساءةُ الأدب على أهل الأداء ونَقَلَةِ القرآن. وقرأ الزهري، وابن مُحَيْصِنٍ ﴿أنذرتهم﴾ بهمزة واحدة حَذَفا الهمزةَ الأولى؛ لدلالةِ المعنى عليها، ولأجل ثُبوتِ ما عادلها، وهو ﴿أمْ﴾ وقرأ أبيٌّ أيضاً[2]: بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الميم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

الساكنة قبلها، والمفعول الثاني لأنْذَر محذوف؛ لدلالة المعنى عليه، والتقدير: أأنذرتهم العذاب على كفرهم أم لم تُنْذِرْهُموه. وقد قرىء ﴿أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ بالإمالة، وهي جائزة، لأنّه قد غَلَبَتْ الراءُ المكسورة حرف الاستعلاء، إذ لولاها لما جازت الإمالة، وهذا بتمامه مذكور في كتب النحو.

وقرأ الجمهور ﴿غِشَـٰوَةٌ﴾ بكسر الغين ورفع التاء، وكانت هذه الجملة ابتدائية؛ ليشمل الكلام الإسنادين: إسناد الجملة الفعلية، وإسناد الجملة الابتدائية. فيكون ذلك آكد؛ لأنّ الفعلية تدلّ على التجدّد والحدوث، والاسمية تدلّ على الثبوت والدوام، وكان تقديم الفعلية أولى، لدلالتها على أنّ ذلك قد وقع وفَرِغَ منه. قال الفرّاء[1]: أما قريش وعامّة العرب، فيكسرون الغين من ﴿غِشَـٰوَةٌ﴾، وعكل يضمّون الغين، وبعض العرب يفتحها، وأظنُّها لربيعة. ورَوَى الفَضلُ عن عاصم ﴿غِشاوَةً﴾ بالنصب على تقدير: جَعَلَ على أبصارهم غشاوةً، أو على[2] عطفِ ﴿أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ على ما قبله، ونصب ﴿غِشَـٰوَةٌ﴾ على حذف حرف الجر؛ أي: بغشاوة، وهو ضعيف. قال أبو علي: وقراءة الرفع أولى؛ لأنّ النصب على تقدير: وجعل على أبصارهم غشاوة، يكون الكلام عليه من باب: علفتها تبنا وماء بارداً. ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حال سعة واختيار. وقرأ الحسن باختلافٍ عنه، وزيدُ بن عليّ ﴿غُشاوةٌ﴾ بضمّ الغين ورفع التاء، وأصحابُ عبد الله بالفتح والنصب وسكون الشين، وعُبيد بن عمير كذلك، إلاّ أنّه رَفَع التاء. وقرأ بعضهم ﴿غِشْوَةٌ﴾ بالكسر والرفع. وقرأ بعضهم ﴿غَشْوَةٌ﴾ بالفتح والرفع والنصب، وهي قراءة أبي حيوة، والأعمش. قال الثوري: وكان أصحاب عبد الله يقرؤونها ﴿غَشَيَةٌ﴾ بفتح الغين والياء والرفع، وقال يعقوب ﴿غُشاوةٌ﴾ بالضمّ لغة، ولم يُؤثرها عن أحدٍ من القراء. وقرأ بعضُهم ﴿عِشَاوَةٌ﴾ بالعين المهملة المكسورة والرفع، من العشي، وهو شِبْهُ العمى في العين. وقال بعض المفسرين: وأَصْوَبُ هذه القراءاتِ المقروء بها: ما عليه السبعة من كسر الغين على وزن عِمامة.

---

(١) زاد المير.

(٢) البحر المحيط.

وحاصل معنى الآية: أنّ الله سبحانه وتعالى[1] ضَرَب مثلاً لحال قلوب أولئك القوم، وقد تمكّن الكفر فيها حتى امتنع أن يصل إليها شيء من الأمور الدينية النافعة لها في معاشها ومعادها، وحِيل بينها وبينه، بحالِ بيوتٍ مُعدّة؛ لحلول ما يأتي إليها مما فيه مصالح مهمّة للناس، لكنّه مُنِعَ ذلك بالختم عليها، وحِيل بينها وبين ما أُعدت لأجله. فقد حدث في كلّ منهما امتناع دخول شيء بسبب مانع قويّ، وكذلك حدث مثل هذا في الأسماع، فلا تسمع آيات الله المنزَلة سماعَ تأمّل وتدبّر، وجعل على الأبصار غشاوة، فلا تُدرِك آياتِ الله المبصَرة في الآفاق والأنفس الدالّة على الإيمان، ومن ثمّ لا يرجى تغيير حالهم، ولا أن يدخل في قلوبهم الإيمان.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر، في محل النصب اسمها، مبنيّ على الفتح. ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل، والألف تكتب؛ للفرق بين واو الضمير وبين واو جزء الكلمة في غير الرسم العثماني، وفرقاً بين المتطرّفة والمتوسّطة في الرسم العثماني. والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿سَوَآءٌ﴾ خبر مقدم، أو خبر إنّ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور، متعلّق بسواء؛ لأنّه اسم مصدر لاستوى الخماسّي. ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الهمزة في أصلها للاستفهام، ولكن سَحَبَتْ معناها الأصلي، فجعلت للتسوية؛ لوقوعها بعد سواء. ﴿أنذرتهم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف؛ لدلالة المقام عليه؛ أي: أنذرتهم العذاب، والجملة من الفعل والفاعل في تأويل مصدر من غير سابك؛ لإصلاح المعنى، مرفوع على كونه مبتدأ مؤخراً لسواء، والتقدير: إنّ الذين كفروا إنذراك إياهم وعدم إنذارك إياهم سيّان عندهم. والجملة من المبتدأ المؤَخّر وخبره المقدم في محلّ الرفع خبر إنّ، وجملة إنّ مستأنفة، أو في تأويل مصدر مرفوع

---

(١) المراغي.

على كونه فاعلاً لسواء، الذي أجري مَجرى المصادر في عمله عمل الفعل، والتقدير: إنّ الذين كفروا مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه. ويجوز أن يكون ﴿سَوَآءٌ﴾ مبتدأ، سوّغ الابتداء بالنكرة عمله في الجار والمجرور، والمصدر المنسبك مما بعدها خبرها، وجملة ﴿سَوَآءٌ﴾ معترضة، لا محلّ لها من الإعراب، لاعتراضها بين اسم إنّ وخبرها، وهو جملة قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآتية، وفي «الصاوي»: وعلى ما ذكرنا هنا فقولهم: الفعل لا بدّ له من سابك قاعدة أغلبية. وقيل: السابك هنا الهمزة؛ لأنّ بعض النحاة جعل السابك للفعل ستة، وعدّ منها هذه الهمزة، كما ذكره الفَاسِيُّ في «حاشيته على الألفيّة». ﴿أَمْ﴾ عاطفة متصلة؛ لوقوعها بعد همزة التسوية. ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم. ﴿تُنذِرْهُمْ﴾ فعل مضارع ومفعول أول وفاعل مستتر مجزوم بلم، والثاني محذوف، تقديره: العذاب. والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾، على كونها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، أو على الفاعلية، أو على الخبرية لسواء، والتقدير: إنّ الذين كفروا، إنذراك إياهم العذاب، وعدم إنذارك إياهم سواء في عدم الإفادة لهم. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنّ، أو خبر بعد خبر لها، أو في محل النصب حال من ضمير عليهم، أو مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها، لا محلّ لها من الإعراب، والتقدير: على كونها خبراً؛ لأنّ إنّ الذين كفروا عادمون الإيمان بك، لما سبق في علمي من كفرهم فلا تأس عليهم، وإنذراك إياهم وعدمه سواء عليهم، لا ينتفعون به. وجملة إنّ مستأنفة استئنافاً نحوياً، لا محل لها من الإعراب.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة؛ لتعليل عدم إيمانهم. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ جار ومجرور، متعلّق بختم. ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ الواو عاطفة. ﴿على أبصارهم﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدم. ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ مبتدأ مؤخّر والجملة معطوفة على جملة ﴿خَتَمَ﴾ عَطْفَ اسمية على فعلية، كما مرّ. ﴿وَلَهُمْ﴾

الواو عاطفة ﴿لهم﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة لعذاب، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ختم أيضاً على كونها مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها.

فصل في هاء الضمير

نحو: (عليهم، وعليه، وفيه، وفيهم). وإنّما أفردناه بالفصل؛ لكثرة تكرّره في القرآن، والأصل في هذه الهاء الضمّ؛ لأنّها تضمّ بعد الفتحة والضمة والسكون، نحو: (أنّه، وله، وجاء غلامه، ويسمعه، ومنه). وإنما يجوز كسرها بعد الياء، نحو: (عليهم وأيديهم)، وبعد الكسر، نحو: (به وبداره). وضمّها في الموضعين جائز، لأنّه في الأصل كما قرأ به حفص بعد الياء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾. وإنّما كسرت في الموضعين؛ لتجانس ما قبلها من الياء والكسرة، وبكلّ من الضمّ والكسر قد قرىء. انتهى من «العكبري».

فوائد:

١ ـ همزة التسوية هي الواقعة بين سواء وبعد ما أبالي، وما أدري، وليت شعري. وضابطها: أنّها الهمزة التي تدخل على جملة يصحّ حلول المصدر محلّها، كما رأيت.

٢ ـ أم: لها حالان:

أ ـ متصلة وهي منحصرة في نوعين؛ وذلك لأنّها: إما أن تتقدم عليها همزة التسوية، كما في الآية، أو همزة يطلب بها وبأم التعيين، نحو: أزيد في الدار أم عمرو، وسمّيت متصلة؛ لأنّ ما قبلها وما بعدها لا يُسْتغنى بأحدهما عن الآخر، وتسمّى أيضاً معادلة؛ لمعادلتها الهمزة في النوع الأول، إذ كلتاهما تفيد التسوية.

ب ـ منقطعة: وهي المسبوقة بالخبر المحض، نحو: قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾. وسمّيت منقطعة؛

لانقطاع ما بعدها عمّا قبلها، فكلّ منهما كلام مستقل لا ارتباط له بالآخر.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَوَآءٌ﴾ فيه إعلال بالإبدال، فأصله: سواي، أبدلت الياء همزة؛ لتطرفها إثر ألف زائدة، وهو اسم مصدر بمعنى الاستواء، أجري مُجرى المصادر، فلذلك لا يثنّى ولا يجمع. قالوا: هما وهم سواء، فإذا أرادوا لفظ المثنى قالوا: سيّان، وإن شئت قلت سواءان، وفي الجمع: هم أسواء، وأيضاً على غير القياس: هم سَوَاسي وسَواسِيَة؛ أي: هما متساويان وهم متساوون. والسَّواءُ: العَدْلُ الوسطُ بين حديثين يقال: ضَرَبَ سَواءَه، أي: وسَطَه، وجِئْتُه في سواءِ النهار؛ أي: في منتصفه. وإذا كانت سواءٌ بعد همزة التسوية، فلا بدّ من (أَمْ) اسمين كانَتْ الكلمتان أم فعلين. وإذا كان بعدها فعلان بغير همزة التسوية، عُطف الثاني بأو، نحو: سواء عليّ قُمْتُ أو قعدت، وإذا كان بعدها مصدران عطف الثاني بالواو أو بأو، نحو سواء عليّ قيامُك وقعُودك، وقيامك أو قعودك.

وقوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ قراءةُ وَرْشٍ بإبدال همزة التعدية حرفَ مدّ مجانساً لحركة همزة الاستفهام المفتوحة في رواية عنه، وعليه يكون في الكلمة إبدالُ حرف بحرف، وذلك نوع من التصريف، كما هو معروف، وقس على هذا اللفظ كلّ ما شابهه مما اجتمعت فيه همزتان: إحداهما للاستفهام والثانية للتعدية.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ والخَتْمُ الكَتْمُ، سُمّي به الاسْتِيثَاقُ من الشيءِ بضَرْبِ الخاتَم عليه؛ لأنّه خُتم له، وبُلوغُ آخره، ومنه خَتْمُ القرآنِ. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ جمعُ قلبٍ، وهو الفُؤاد، سمّي قلباً؛ لتقلُّبِه في الأُمور، ولتصرّفه في الأعضاء، كما قال بعضهم:

وَمَا سُمِّيَ الإنسانُ إلاّ لِنَسْيِهِ ... وَمَا القَلْبُ إلاَّ أَنَّهُ يتقَلَّبُ

وفي «تفسير الشيخ»: القَلْبُ: قِطعةُ لحم مَشكَّل بالشكل الصنوبري معلَّق بالوَتِين مقلوباً، والوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه، ويقال: الأبهر. وفي «تفسير الكواشي» القلب: قطعة سوداء في الفؤاد، وزعم بعضهم: أنّه الشكل

الصنوبري المعلّق بالوتين مقلوباً. وفي «تعريفات السيّد»: القلب لطيفة ربّانية، لها بالقلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلُّقٌ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، والمراد بالقلب في الآية: محلّ القوة العاقلة من الفؤاد، كما مرّ. ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ والسمع: هو إدراك القوة السامعة، وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا، كما مرّ. ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ جمع بصر، وهو إدراك العين وقد يطلق مجازاً على القوة الباصرة. ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ وهو فعالة من غشاه، أو غشيه إذا غَطَّاه، وهذا البناء لما يشتمِلُ على الشيء، كالعصابة والعمامة. ويجوز في الغين الكسر، والضمّ والفتح. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ والعذاب: العقوبة. يقال: أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه، وسمّي العذاب عذاباً، لأنّه يمنع من الجناية إذا تأمّل فيها العاقل. ﴿عَظِيمٌ﴾ أي: قوي شديد، ومنه: العَظْمُ. والعَذَابُ: إِيصالُ الأَلم إلى الحيّ هَواناً وذُلاً، كما مّر. والعظيم: ضدّ الحقير، وفعيل له معان كثيرة، يكون اسماً وصفة، والاسم: إما مفرد أو جمع، والمفرد: إما اسمُ معنى أو اسم عين، نحو: قَمِيص، وظريف، وصهيل، وكَلِيب جمعُ كَلْب، ويكون اسم فاعل من فَعُل المضموم، نحو: عظيم من عَظُم، ومبالغةً في فاعل، نحو: عليم في عالم، وبمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجروح، ومُفْعِل، كسميع بمعنى مُسْمِع، ومُفِاعل، كجَليس بمعنى مُجالس، ومفتعل، كبديع بمعنى مبتدع، ومُنفعِل، كسعير بمعنى مُنْسعر، وفَعَل، كعجيب بمعنى عَجَب، وفعال، كصحيح بمعنى صحاح، وبمعنى الفاعل والمفعول، كصريخ بمعنى صارخ أو مصروخ، وبمعنى الواحِدِ والجمعِ، نحوُ: خليط، وجَمْعُ فاعل، كغريب جمعُ غارب. اهـ. «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الخطاب العام: اللفظ الخاص المعنى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إذا أريد بهم أشخاص معيّنون.

ومنها: الاستفهام الذي يراد به: تقرير المعنى في النفس؛ أي: تقرير أنّ الإنذار وعدمه سواء عندهم في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الخ.

ومنها: مجاز بالاستعارة في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، لأنّ حقيقة الختم: وَضْعُ محسوس على محسوس يَحْدُث بينهما رَقْمٌ، يكون علامةً للخاتم. والخَتْم هنا معنويٌّ، فإنّ القلب لما لم يَقْبَلِ الحق مع ظهوره، استُعير له اسم المختوم عليه على طريق الاستعارة التصريحية التبعية. وقيل: في إسناد الختم إلى القلوب استعارة تمثيلية، فقد شبّهت قلوبهم في نُبُوِّها عن الحقّ، وعدم الإصغاء إليه بحال قلوب ختم الله عليها، وهي قلوب البهائم، وهو تشبيه معقول بمحسوس، أو هو مجاز عقلّي، وهو باب واسع عند العرب. يقولون: سال بهم الوادي؛ إذا هلكوا، وطارَتْ بِفُلانٍ العَنْقاء؛ إذا طَالَتْ غَيْبَتُهُ.

ومنها: توحيد السمع لوحْدةِ المسموع، وهو الصوت دون القلوب والأبصار؛ لتنوعِ المُدْرَكَاتِ والمَرْئِيَّاتِ.

ومنها: تنكير ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ في قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ إشارة[1] إلى أنّ على أبصارهم ضرباً من الغشاوة خارجاً مما يتعارفه الناس، وهي غشاوة التعامي عن الآيات الكونية.

ومنها: تنكير ﴿عَذَابٌ﴾ في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إشارة إلى أنّه نوع منه مجهول الكمّ والكيف.

ومنها: وصفه بعظيم؛ لدفع الإيهام بقلّته وندرته، وللإشارة إلى أنّ لهم من الآلام نوعاً عظيماً، لا يعلم كنهه إلاّ الله عزّ وجلّ.

ومنها: الحذف، وهو في مواضع[2].

منها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: إنّ القوم الذين كفروا بالله وبك، وبما

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

جئت به.

ومنها: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بالله، وبما أخبرتهم به عن الله.

ومنها: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فلا تعي. ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي: فلا تصغي.

ومنها: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ على قراءة من نصب، أي: وجعل على أبصارهم غشاوة، فلا يبصرون سبيل الهدى.

ومنها: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لهم يوم القيامة عذاب عظيم دائم، ويجوز أن يكون التقدير: ولهم عذاب عظيم في الدنيا بالقتل والأسر، أو بالإذلال ووضع الجزية، وفي الآخرة بالخلود في نار جهنم.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ
مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟
إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا
يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا
نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤) ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ
نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّۢ بُكْمٌ
عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ
ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (١٩) يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ
أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا[(١)] ذكر أوّلاً من أخلص دينه لله، ووافق سرّه علنه، وفعله قوله، ثمّ ثنّى بذكر من محّضوا الكفر ظاهراً وباطناً. ثلّث هنا بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة؛ لأنّهم ضموا إلى الكفر استهزاء، وخداعاً، وتمويهاً، وتدليساً، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

وقد وصف الله سبحانه حال الذين كفروا في آيتين، وحال المنافقين في ثلاث عشرة آية. نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وفضحهم، واستجهلهم،

---

(١) المراغي.

واستهزأ بهم، وتهكّم بفعلهم، ودعاهم صمّاً بكماً عمياً، وضرب لهم شنيع الأمثال.

فنعى عليهم خبثهم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، ونعى عليهم مكرهم في قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وفضحهم في قوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وفي قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، واستجهلهم في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وتهكّم بفعلهم في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، ودعاهم صمّا بكماً عمياً في قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾، وضرب لهم شنيع الأمثال في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ إلخ، وفي قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] مَنِ الكتابُ هُدًى لهم، وهم المتقون الذين جمعوا أوصاف الإيمان من خلوص الاعتقاد، وأوصاف الإسلام من الأفعال البدنية والمالية، وذكر ما آل أمرهم إليه في الدنيا من الهدى، وفي الآخرة من الفلاح. ثمّ أعقب ذلك بمقابلهم من الكفار الذين ختم عليهم بعدم الإيمان، وختم لهم بما يؤولون إليه من العذاب في النيران، وبقي قسم ثالث: أظهروا الإسلام مقالاً، وأبطنوا الكفر اعتقاداً، وهم المنافقون. أخذ يذكر شيئاً من أحوالهم، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾. الخ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر في الآيات السابقة مقالتهم الكاذبة، وخداعاتهم العاطلة، وأمراضهم المعضلة، عدّد[2] في هذه الآيات الثلاث بعض شناعاتهم المترتّبة على كفرهم ونفاقهم. ففصّل بعض خبائثهم وجناياتهم، وذكر

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

بعض هفواتهم. ثمّ أظهر فسادها، وأبان بطلانها، فحكى ما أسداه المؤمنون إليهم من النصائح حين طلبوا منهم ترك الرذائل التي تؤدّي إلى الفتنة والفساد، والتمسك بأهداب الفضائل، واتباع ذوي الأحلام الراجحة والعقول الناضجة. ثمّ ما أجابوا به، مما دلّ على عظيم جهلهم، وتماديهم في سفههم وغفلتهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها. أنّه سبحانه وتعالى لمّا ذكر فيما قبلها بعض خبائثهم وجناياتهم، وبعض هفواتهم، ذكر[1] هنا حال جماعة من المنافقين الذين كانوا في عصر التنزيل، قد بلغ مِن دَعارتهم، وتمردهم في النفاق وفساد الأخلاق أن كانوا يظهرون بوجهين، ويتكلّمون بلسانين، فإذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا بما أنتم به مؤمنون، وإذا خلوا إلى شياطينهم دعاة الفتنة والإفساد الذين يصدّون عن سبيل الحقّ. قالوا لهم: إنّما نقول ذلك لهم استهزاءً بهم، وقد فضح الله بهتانهم، وأوعدهم شديد العقاب على استهزائهم، وزادهم حيرة في أمورهم. ثمّ ذكر أنّهم قد اختاروا الضلالة على الهدى، إذ هم أهملوا العقل في فهم الكتاب بعد أن تمكنت منهم التقاليد والعادات، وتحكمت فيهم البدع، فخسروا في تجارتهم، وما كانوا مهتدين فيها؛ لأنّهم باعوا ما وهبهم الله تعالى من النور والهدى، بضلالات البدع والأهواء.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أنّ الله سبحانه لما ذكر فيما قبلهما بعض أحوال المنافقين الذين يظهرون بوجهين، ويتكلّمون بلسانين، أراد أن يضرب لهم الأمثال؛ لأنّ نهج القرآن الكريم، كنهج لغات العرب في أساليبها، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ إلخ. فضرب الأمثال التي تُجْلِي المعاني أتمَّ جلاء، وتحدث في النفوس من الأثر، ما لا يُقْدَر قَدْره ولا يُسْبر غوره؛ لما فيها من إبراز المعقولات الخفية في معرض المحسوسات الجليّة، وإظهار ما ينكر في لباس ما يعرف ويشهر. وعلى هذا السنن ضرب الله سبحانه مثل المنافقين، فمثّل حالهم حينما

---

(١) المراغي.

أسلموا أوّلاً، ودخل نور الإيمان في قلوبهم، ثمّ داخلهم الشكّ فيه، فكفروا به، إذ لم يدركوا فضائله، ولم يفقهوا محاسنه، وصاروا لا يبصرون مسلكاً من مسالك الهداية، ولا يدركون وسيلة من وسائل النجاة، وقد أضاء ذلك النور قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين. بحال جماعة أوقدوا ناراً؛ لينتفعوا بها في جلب خير، أو دفع ضرّ، فلمّا أضاءت ما حولهم من الأشياء والأماكن جاءها عارض خفِيّ، أو أمر سماوي، كمطر شديد، أو ريح عاصف، جرفها وبدّدها فأصبحوا في ظلام دامس، لا يتسنَّى لهم الإبصار بحال.

ثمّ جعلهم مرّة أخرى كالصمّ البكم العمي الذين فقدوا هذه المشاعر والحواسّ، إذ هم حين لم ينتفعوا بآثارها فكأنّهم فقدوها، فما فائدة السمع إلاّ الإصاخة إلى نصح الناصح وهدى الواعظ، وما منفعة اللسان إلاّ الاسترشاد بالقول، وطلب الدليل والبرهان؛ لتتجلّى المعقولات وتتضح المشكلات، وما مزية البصر إلاّ النظر والاعتبار؛ لزيادة الهدى والاستبصار، فمن لم يستعملها في شيء من ذلك فكأنّه فقدها، وأنَّى لمثله أن يخرج من ضلالة أو يرجع إلى هدى.

ثمّ أراد سبحانه أن ينتقل إلى أسلوب آخر من الأمثال، فقال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. فضرب[1] سبحانه في هذه الآيات مثلاً آخر، يشرح به حال المنافقين، ويبيّن فظاعة أعمالهم وسوء أفعالهم؛ زيادة في التنكيل بهم وهتكاً لأستارهم، إذ كانوا فتنة للبشر، ومرضاً في الأمم، فجعل حالهم، وقد أتتهم تلك الإرشادات الإلٰهية النازلة من السماء، فأصابهم القلق والاضطراب، واعترضتهم ظلمات الشبه والتقاليد، والخوف من ذمّ الجماهير عند العمل بما يخالف آراءهم، ثمّ استبان لهم أثناء ذلك قبس من النور يلمع في أنفسهم حين يدعوهم الداعي، وتلوح لهم الآيات البيّنة والحجج القيّمة، فيعزمون على اتباع الحقّ، وتسير أفكارهم في نوره بعض الخطى، ولكن لا يلبثون أن تعود إليهم عتمة التقليد وظلمة الشبهات، فتقيد

---

(١) المراغي.

الفكر وإن لم توقف سيره، بل تعود به إلى الحيرة، كحال قوم في إحدى الفلوات، نزل بهم بعد ظلام الليل صيّب من السماء فيه رعود قاصفة، وبروق لامعة، وصواعق متساقطة، فتولاّهم الدهش والرعب، فهووا بأصابعهم إلى آذانهم كلّما قصف هزيم الرعد؛ ليسدُّوا منافذ السمع لما يحذرونه من الموت الزؤام، ويخافونه من نزول الحمام، ولكن هل ينجي حذرٌ من قدر؟ تعددت الأسباب والموت واحد! بلى إنّ الله قدير أن يذهب الأسماع والأبصار التي كانت وسيلة الدهش والخوف، ولكن لحكمةٍ غاب عنّا سِرُّها، ومصلحة لا تعرف كنهها، لم يشأ ذلك وهو الحكيم الخبير.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآيات، نزلت[1] هذه الآيات في المنافقين: عبد الله بنِ أبيّ ابنِ سلول، ومعتّب بن قُشير، وجُدّ بن قيس، وأصحابهم. وذلك أنّهم أظهروا كلمة الإسلام؛ ليَسْلَموا بها من النبي ﷺ وأصحابه، وأسرّوا الكفر واعتقدوه، وأكثرهم من اليهود.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ الآية، سبب نزوله: ما أخرجه الواحدي، والثعلبيّ من طريق محمد بن مروان السدّي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (نزلت[2] هذه الآية في عبد الله بن أبيّ وأصحابه، وذلك أنّهم خرجوا ذات يوم، فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن أبيّ: أنظروا كيف أردّ عنكم هؤلاء السفهاء، فذهب فأخذ بيد أبي بكر، فقال: مرحباً بالصِّدِّيق سيد بَنِي تيم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثمّ أخذ بيد عمر، فقال: مرحباً بسيّد بني عديّ بن كعب، الفاروق القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثمّ أخذ بيد عليّ، فقال: مرحباً بابن عمّ رسول الله وختنه سيد بني

---

(١) الخازن.

(٢) لباب النقول.

هاشم ما خلا رسول الله. ثمّ افترقوا، فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت، فأثنوا عليه خيراً. فرجع المسلمون إلى النبي ﷺ وأخبروه بذلك، فنزلت هذه الآية). ولكن هذا الإسناد واه جداً، فإنّ السدي الصغير كذّاب، وكذا الكلبي، وأبو صالح ضعيف.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ الآية، سبب نزوله: ما أخرجه[1] ابن جرير من طريق السدي الكبير، عن أبي مالك، وأبي صالح، عن ابن عباس وعن مرّة، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: (كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين، فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد شديد، وصواعق، وبرق، كلّما أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما؛ من الفرَق أن تدخل الصواعق في مسامعهما، فتقتلهما. وإذا لمع البرق مشيا في ضوئه، وإذا لم يلمع لم يُبصِرا، فأتيا مكانهما يمشيان، فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمداً، فنضع أيدينا في يده، فأتياه فأسلما، ووضعا أيديهما في يده، وحسن إسلامهما). فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة، وكان المنافقون إذا حضروا مجلس رسول الله ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم؛ فرقاً من كلام النبي ﷺ أن ينزل فيهم شيء، أو يُذكَروا بشيء فيُقتَلوا، كما كان كذلك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾؛ أي: فإذا كثرت أموالهم وولدهم، وأصابوا غنيمة أو فتحاً مشوا فيها، وقالوا حينئذٍ: إنّ دين محمد صِدْقٌ، واستقاموا عليه، كما كان ذانك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهما البرق، وإذا أظلم عليهم قاموا، وكانوا إذا هلكت أموالهم وأولادهم، وأصابهم البلاء قالوا: هذا من أجل محمد، وارتدّوا كفاراً، كما قال ذانك المنافقان حين أظلم البرق عليهما.

وفي «الصاوي»: والمراد من المنافقين هنا: بعض سكان البوادي؛ وبعض

---

(١) لباب النقول.

أهل المدينة في زمنه ﷺ. وخَيْرُ ما فسَّرْته بالوارد، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ...﴾ الآية. وأخّرهم عن المؤمنين والكافرين ظاهراً وباطناً؛ إشارة إلى أنّهم أسوأ حالاً من الكفار.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾؛ أي: وبعض[1] الناس يقولون بألسنتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: صدّقنا بوحدانية الله تعالى. ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ أي: صدّقنا بمجيء اليوم الآخر بما فيه من البعث، والحشر والجزاء، وبجميع ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات. وفي تكرير الباء؛ ادّعاء الإيمان بكلّ واحد على الأصالة والاستحكام، ذكره البيضاوي. وفي «العمدة»: وأعاد الجار؛ لإفادة تأكيد دعواهم الإيمان بكلّ ما جاء به محمد ﷺ. فردّ الله سبحانه عليهم بأبلغ ردّ بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ حيث أتى بالجملة الاسمية، وزاد الجار في الخبر. أي: يقولون ذلك والحال أنّهم غير مصدّقين بما ذكر؛ لأنّهم يقولون ذلك قولاً لسانيّاً دون اعتقاد، وكلاماً خداعياً دون تصديق. والمراد باليوم الآخر: يوم القيامة، سمّي بذلك؛ لأنّه يأتي بعد الدنيا، وهو آخر الأيام المحدودة المعدودة، وما بعده فلا حدّ له ولا آخر.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لمّا افتتح الله سبحانه وتعالى[2] كتابه بشرح حاله، وسَاقَ لبيانه ذِكْرَ الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، وثَنَّى بأضدادهم الذين محّضوا الكفر ظاهراً، وباطناً. ثَلَّث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للتقسيم، وهم أي المنافقون أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله؛ لأنّهم موّهوا الكفر، وخلطوا به خداعاً واستهزاء، ولذلك طوّل في بيان خبثهم.

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

قال الفاشانيّ: الاقتصار في وصف الكفار المصرِّيْن المطبوع على قلوبهم على آيتين، والإطناب في وصف المنافقين في ثلاث عشرة آية للإضراب عن أولئك صفحاً، إذ لا ينجع فيهم الكلام، ولا يجدي عليهم الخطاب. وأمّا المنافقون فقد ينجع فيهم التوبيخ والتعيير، وعسى أن يرتدعوا بالتشنيع عليهم، وتفظيع شأنهم وسيرتهم، وتهجير عادتهم، وخبث نيتهم وسريرتهم، وينتهوا بقبح صورة حالهم، وتفضيحهم بالتمثيل بهم وبطريقتهم فتلين قلوبهم، وتنقاد نفوسهم، وتَزَّكّىٰ بواطنهم، وتضمحل رذائلهم، فيرجعون عما هم عليه، ويصيرون من المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

والنَّاسُ[(١)]: اسم جمع لِلناسي، سمّي به؛ لأنه عُهِدَ إليه فنَسِيَ. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، ولذلك جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أي: نَسَّاءٌ للنعم، ذكَّارٌ للمِحَن. وقيل: سمي به؛ لظهوره من آنس؛ أي: أبصر؛ لأنّهم ظاهرون مبصرون، ولذلك سمّوا بشراً، كما سمّي الجنّ جناً؛ لاجْتِنَانِهِم؛ أي: استتارهم عن أعين الناس. وقيل: هو من الأُنس الذي هو ضدّ الوحشة؛ لأنّهم يستأنسون بأمثالهم، أو يستأنس أرواحهم بأبدانهم، وأبدانهم بأرواحهم. واللام فيه للجنس. و﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يَقُولُ﴾ نكرة موصوفة، إذ لا عهد، فكأنّه قال: ومن الناس ناس يقولون؛ أي: يقرُّون باللسان. والقول: هو التلفظ بما يفيد، ويأتي بمعنى المقول. وللمعنى المحصور في النفس المعبّر عنه باللفظ وللرأي، وللمذهب مجازاً. ووحَّد الضمير في ﴿يَقُولُ﴾باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، وجمعه في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾، وقوله: ﴿وَمَا هُم﴾ باعتبار معناها؛ لأنّ كلمة ﴿مَن﴾ تصلح للواحد والجمع، أو اللام فيه للعهد، والمعهود: هم الذين كفروا. و﴿مَن﴾ موصولة مراد بها: عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، ونظراؤه من المنافقين، حيث أظهروا كلمة الإسلام؛ ليسلموا من

(١) روح البيان.

النبي ﷺ وأصحابه، واعتقدوا خلافها، وأكثرهم من اليهود، كما مرّ. فإنّهم من حيث إنهم صمّموا على النفاق دخلوا في عداد الكفار المختوم على قلوبهم. واختصاصهم بزيادة زادوها على الكفر لا يأبى دخولهم تحت هذا الجنس، فإنّ الأجناس إنما تتنوّع بزيادات يختلف فيها أبعاضها. فعلى هذا تكون الآية تقسيماً للقسم الثاني.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: صدّقنا بالله. ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وهو من وقت الحشر إلى ما لا يتناهى؛ أي: الوقت الدائم الذي هو آخر الأوقات المنقضية، والمراد به: البعث، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ لأنّه آخر الأيام المحدودة، إذ لا حدّ وراءه، وسمّي بالآخر؛ لتأخّره عن الدنيا.

وتخصيصُهم للإيمان بهما بالذكر له؛ ادّعاءُ أنّهم قد حازوا الإيمان من قطريه، وأحاطوا به من جانبيه، وإيذان بأنّهم منافقون فيما يظنّون فيه، فكيف بما يقصدون به النفاق؛ لأنّ القوم كانوا يهوداً، وكانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً كَلاَ إيمان؛ لاعتقادهم التشبيه، واتخاذ الولد، وأنّ الجنة لا يدخلها غيرهم، وأنّ النار لن تمسهم إلاّ أياماً معدودة، وغيرها، ويرون المؤمنين أنّهم آمنوا مثل إيمانهم. وحكاية الله سبحانه عبارتهم؛ لبيان كمال خبثهم، فإنَّ ما قالوه لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق، وعقيدتهم عقيدتهم الأولى، لم يكن ذلك إيماناً، فكيف وهم يقولونه تمويهاً على المسلمين واستهزاءً بهم، فكان خبثاً إلى خبث، وكفراً إلى كفر.

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما هم[1] بداخلين في عداد المؤمنين الصادقين، الذين يشعرون بعظيم سلطان الله، ويعلمون أنّه مطلع على سرّهم ونجواهم، إذ كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات ظناً منهم أنّ ذلك يُرضي ربّهم، ثمَّ هم بعد ذلك منغمسون في الشرور والمآثم من كذب، وغِشٍّ، وخيانة، وطمع إلى نحو ذلك مما حكاه الكتاب الكريم عنهم، ونقله الرواة أجمعون.

---

(١) المراغي.

و﴿مَا﴾ نافية[1] بمعنى ليس، ولهذا عقّب بالباء؛ أي: ليسوا بمصدّقين؛ لأنّهم يضمرون خلاف ما يظهرون بل هم منافقون. وفي الحكم عليهم بأنّهم ليسوا بمؤمنين، نَفْيُ ما ادّعوه على سبيل البت والقطع؛ لأنّه نفيُ أصل الإيمان منهم بإدخال الباء في خبر ﴿مَا﴾، ولذا لم يَقُلْ: وما هم من المؤمنين، فإنّ الأول أبلغ من الثاني.

دلَّتْ الآية: على أنَّ الدعوى مردودةٌ، إذا لم يقم عليها دلائل الصحة. قال بعضهم: مَنْ تحلَّى بغير ما فيه فضح الامتحان ما يدَّعِيه، فإنّ من مدح نفسه ذُمَّ، ومن ذَمَّ نفسه مُدح، قال فرعون عليه لعنة الله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فقيل فيه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وقال يونس ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقيل له: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾.

وقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ جملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين؟ فقيل: يخادعون الله الخ. أي: يخدعون الله سبحانه وتعالى، وإنما أخرج على زنة فاعل؛ للمبالغة، فليست المفاعلة على بابها، وخداعهم مع الله ليس على ظاهره؛ لأنّه لا تخفى عليه خافية؛ ولأنّهم لم يقصدوا خديعته بل المراد إما مخادعة رسوله ﷺ فيكون الكلام على حذف مضاف، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: يخادعون رسول الله ويغرُّونه بما أظهروا من الإسلام، أو على أنّ معاملة الرسول معاملة الله، من حيث إنه خليفته في أرضه، والناطق عنه بأوامره ونواهيه مع عباده. ففيه رفع درجة النبي ﷺ حيث جعل خداعه خداعه.

والخَدْعُ على ما ذكرنا من جانب المنافقين لله وللمؤمنين، والتعبير بصيغة المخادعة؛ للدلالة على المبالغة في حصول الفعل، وهو الخدع، أو للدلالة على حصوله مرّة بعد أخرى، كما يقال: مارَسْتُ الشيء وزاولته، إذ هم كانوا مداومين على الخدع، إذ أعمالهم الظاهرة لا تُصدّقها بواطنهم، وهذا لا يكون إلاّ من

---

(١) روح البيان.

مخادع، لا من تائبٍ خاشع والخَدْعُ: أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه؛ لتحول بينه وبين ما يريد. وقيل: الخدع: أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه؛ ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب، أو يوهمه المساعدة على ما يريد هو به؛ لِيغتَرَّ بذلك، فيتجوَّز منه بسهولةٍ من قولهم: ضبٌّ خادع وخدعٌ، وهو الذي إذا أمرَّ الحارشُ يده على باب جحره يوهمه الإقبال عليه، فيخرج من بابه الآخر. وكلا المعنيين مناسب للمقام، فإنّهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين، فيحملوها إلى أعدائهم، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب بسائر الكفرة من القتل، والأسر، والنهب، وأن ينالوا به نظم مصالح الدنيا جميعاً، كأن يُفعل بهم ما يُفعل بالمؤمنين من الإعطاء. وإما لأنّ صورة صنعهم مع الله من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصُنْع الله معهم من إجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده تعالى أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار استدراجاً لهم، وامتثال الرسول والمؤمنين أمر الله تعالى في إخفاء حالهم، وإجراء حكم الإسلام عليهم مجازاةً لهم بمثل صنيعهم صورة صنع المخادعين، فتكون المخادعة بين الاثنين، فتكون المفاعلة على بابها.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ معطوف على الجلالة؛ أي: ويريدون بذلك القول: أن يخدعوا الذين آمنوا، ويغروهم بإظهار الإيمان، وإخفاء الكفر للاطلاع على أسرارهم، وإذاعتها إلى أعدائهم من المشركين واليهود، ودفع الأذى عن أنفسهم.

وجملة قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾؛ أي: يخادعون الله والمؤمنين بذلك القول، والحال أنّهم ما يضرّون بخداعهم ومكرهم في الحقيقة إلاّ أنفسهم؛ لأنّ وبال خداعهم وعقوبته راجعٌ إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، فيفتضحون في الدنيا بإطلاع الله نبيه على ما أبطنوه، وأمره بإخراجهم من المسجد. ونزل فيهم: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ الآيات، ويعاقبون في الآخرة بالعذاب الدائم المُؤبّد في الدرك الأسفل من النار. أي: فدائرةُ فعلهم مقصورة عليهم. ومن راعى صيغة المفاعلة قال: وما يعاملون تلك المعاملة الشبيهة بمعاملة المخادعين إلاّ بأنفسهم؛ لأنّ ضررها لا يحيق إلاّ

بهم، ووبال خداعهم راجع إليهم. والمراد بأنفسهم هنا: ذواتهم لا سائر المعاني التي تدخل في مسمى النفس، كالروح، والدم، والقلب.

وجملة قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ حال من ضمير ﴿ما يخدعون﴾؛ أي: يقتصرون على خدع أنفسهم والحال أنّهم ما يُحِسُّون وما يعلمون ذلك. أي: أنّ ضرر خدعهم ووباله عليهم؛ لتمادي غفلتهم وتكامل حماقتهم، ولو علموا ذلك ما فعلوا الخداع، بل أخلصوا في إيمانهم.

والخدع، وكذا الخديعة، والحيلة، والمكر: هو ما يُتوصّل به إلى المقصود بطريق خفيّ، كما ذكره القسطلاني في كتاب الحِيل من «صحيح البخاري». والشعور: إدراك الشيء من وجه يدقّ ويخفى، مشتق من الشعر لدقّته. وقيل:[١] هو الإدراك بالحاسّة، مشتق من الشعار، وهو ثوب يلي الجسد، ومنه: مشاعر الإنسان؛ أي: حواسه الخمس التي يشعر بها. اهـ. «سمين». وسُمْيت مشاعره حواس؛ لكون كلّ حاسة منها محلّاً للشعور والعظة.

والمعنى: أنّ لحوق ذلك لهم كالمحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حسّ له. ثمّ في هذه الآية[٢] نفي العلم عنهم، وفي قوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إثبات العلم لهم، فبينهما معارضة، فما وَجْهُ الجمع بينهما؟ قلت: الجمع بينهما بأن يقال: إنَّهم علموا به حقيقة، ولكن لم يعملوا بما علموا، فكأنّهم لم يعلموا، وهو كقوله عز وجلّ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، فكانوا ناطقين سامعين ناظرين حقيقة، لكن لم ينتفعوا بذلك، فكانوا كأنّهم صّم بكم عمي، فذو الآلة إذا لم ينتفع بها، فهو وعادمُ الآلة سواء، والعالم الذي لا يعمل بعلمه، فهو والجاهل سواء، والغني الذي لا ينتفع بماله، فهو والفقير سواء. فإثبات العلم للكفار إلزام الحجة، وذكر الجهل إثبات المنقصة، بخلاف المؤمنين فإنّ إثبات العلم لهم إثبات الكرامة، وذكر الجهل تلقين عذر المعصية. فعلى المؤمن أن

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

يتحلّى بالعلم والعمل، ويجتنب عن الخطاء، والزلل، والبطالة، ويطيع ربّه خالصاً لوجهه الكريم، ويعبده بقلب سليم.

وفي الحديث: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم يجازي العباد بأعمالهم»: (اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون لهم في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم خيراً). وإنّما يقال لهم ذلك: لأنّ عملهم في الدنيا كان على وجه الخداع، فيعاملون في الآخرة على وجه الخداع، كذا في «تنبيه الغافلين».

وأخرج[1] أحمد بن منيع في «مسنده» بسند ضعيف، عن رجل من الصحابة: «أنّ قائلاً من المسلمين قال: يا رسول الله ما النجاة غداً؟ قال: «لا تخادع الله»، قال: وكيف نخادع الله؟ قال: «أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره، فاتقوا الرياء، فإنّه الشرك بالله، فإنّ المُرائي ينادىٰ يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء»: يا كافر، يا فاجر، يا خاسر، يا غادر ضَلّ عملك، وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند الله، فالتمس أجرك ممن كنت تعملُ له يا مخادع، وقرأ آياتٍ من القرآن ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية، و﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن وهب قال: سألت ابن زيد عن قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟ قال: هؤلاء المنافقون يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا، أنّهم مؤمنون بما أظهروه.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو[2]: ﴿يخادعون﴾ بالألف في الموضعين، وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي، وابن عامر في الثاني ﴿يَخْدَعُونَ﴾ بلا ألفٍ. والمراد بمخادعتهم أنفسهم: أنّهم يُمَنُّونها الأماني الباطلة، وهي كذلك تُمنِّيهم.

والحاصل: أنّه قد نفى[3] الشعور عنهم في مخادعتهم؛ لأنّهم لم يحاسبوا

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

أنفسهم على أقوالهم، ولم يراقبوه في أفعالهم، ولم يفكّروا فيما يرضيه، بل جَرَوا في ريائهم على ما ألفوا وتعودوا، فهم يعملون عمل المخادعين، وما يشعرون، فإذا عرض لهم زاجرٌ من الدين يحول بينهم وبين ما يشتهون، وجدوا لهم من المعاذير ما يسهّل أمره، إمَّا بأملٍ في المغفرة، أو تحريف في أوامر الكتاب، لما رسخ في نفوسهم من عقائد الزيغ التي يسمّونها إيماناً، وهم في الحقيقة مخدوعون، وعن الصراط السويّ ناكبون.

والمشاهد: أنّ الإنسان إذا همّ بعمل وناجى، وجد كأنّ في قلبه خصمين مختصمين:

أحدهما: يميل به إلى اللذة، ويسير به في طريق الضلال والغواية.

وثانيهما: يأمره بالسير في الطريق القويم، وينهاه عن اتباع النفس والهوى. ولقد جاء في كلامهم عن المتردّد: (فلان يشاور نفسه) ولا يترجّح عنده جانب الشرّ إلاّ إذا خدع نفسه، وصرفها عن الحقّ، وزيّن لها اتباع الباطل. وإنّما يكون ذلك بعد مشاورة ومذاكرة، تَجُولُ في الخاطر، وتَهْجُسُ في النفس، ربّما لا يلتفت إليها الإنسان، ولا يشعر بما يجول بين جنبيه.

﴿فِي قُلُوبِهِم﴾؛ أي: في قلوب هؤلاء المنافقين وعقولهم، فالمراد بالقلوب هنا: العقول، وهو تعبير معروف عند العرب. ﴿مَّرَضٌ﴾؛ أي: مرض معنوي الذي هو الشكّ، والكفر، والنفاق. والمرضُ: حقيقةٌ فيما يَعْرضُ للبدن، فيخرجه عن الاعتدال اللائق، ويوجب الخلل في أفاعيله، ويؤدّي إلى الموت. ومجازٌ في الأعراض النفسانية التي تُخِلُّ بكمالها: كالجهل، وسوء العقيدة، والحسد، والضغينة، وحبّ المعاصي، وغير ذلك من فنون الكفر المؤدي إلى الهلاك الروحاني؛ لأنّها مانعة عن نيل الفضائل، أو مؤدّية إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية، والآيةُ الكريمةُ تحتملها، فإنّ قلوبهم كانت متألّمة تَحَرّقاً على ما فات عنهم من الرياسة، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ واستعلاء شأنه يوماً فيوماً.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ﴾ على مرضهم الأول ﴿مَرَضًا﴾ آخر بما أنزله من القرآن؛ لأنّ

نزول القرآن يزيد الكافر والمنافق مرضاً بمعنى: كفراً وشكّاً، فينشأ عنه المرض الحسّي، كما يزيد المؤمن إيماناً فينشأ عنه البهجة والسرور. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا...﴾ الآيات، ويحتمل بما أنزله في حقّهم من فضيحتهم خصوصاً بسورة التوبة، فإنّها تسمّى الفاضحة.

والمعنى: فزاد الله غمَّهم بما زاد في إعلاء أمره ورفع قدره، وأنَّ نفوسهم كانت مَؤُوْفَةً بالكفرِ، وسوء الاعتقاد، ومعاداة النبي ﷺ ونحوها، فزاد الله ذلك بأن طبع على قلوبهم؛ لعلمه تعالى بأنّه لا يؤثّر فيها التذكير والإنذار، وبازدياد التكاليف الشرعية، وتكرير الوحي، وتضاعف النصر؛ لأنّهم كلما ازداد التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفراً، وقد كان يشقّ عليهم التكلم بالشهادة، فكيف وقد لحقتهم الزيادات، وهي وظائف الطاعات، ثُمَّ العقوبة على الجنايات، فازدادوا بذلك اضطراباً على اضطراب، وارتياباً على ارتياب، ويزدادون بذلك في الآخرة عذاباً على عذاب. قال تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، والمؤمنون لهم في الدنيا ما قال: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾، وفي العقبى ما قال: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

قال القطب العلاَّمة: أمراض القلب: إمَّا متعلّقة بالدين، وهو سوء الاعتقاد والكفر، أو بالأخلاق، وهي إما رذائل فعليَّةٌ، كالغِلّ والحسد، وإما رذائل انفعاليَّة، كالضعف والجُبْنِ. فحُمِل المرضُ أوّلاً على الكفر، ثمّ على الهيئات الفعلية، ثمّ على الهيئات الانفعالية. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ دعاءً عليهم.

فإن قلت:[1] فكيف يحمل على الدعاء، والدعاءُ للعاجز عرفاً، والله تعالى منزَّه عن العجز؟

قلت: هذا تعليمٌ من الله لعباده أنّه يجوز الدعاء على المنافقين، والطردُ لهم؛ لأنّهم شرُّ خلق الله؛ لأنّه أعد لهم يوم القيامة الدرك الأسفل من النار، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) روح البيان.

وعبارة المراغي هنا: وقد وُجد[1] هذا المرض عند هؤلاء المنافقين حين كانوا في فترة من الرسل، فلم يكن لهم حظّ من قراءة كتب الدين إلاّ تلاوتها، ولا من أعماله إلاّ إقامة صُورها، من غير أن تنفذ أسرارها إلى قلوبهم، فتهذب النفوس، وتسمو بها إلى فضائل الأخلاق، والتفقُّهِ في الدين.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ بعد أن جاء النذير البشير، ومعه البرهان القاطع، والنور الساطع وأبوا أن يتبعوه، وزاد تمسكُّهم بما كانوا عليه، فكان ذلك النور عَمىً في أعينهم ومرضاً في قلوبهم، وتحرَّقَتْ قلوبهم حسرةً على ما فاتهم من الرياسة، وحسداً على ما يرونه من ثبات أمر الرسول ﷺ وعلوّ شأنه يوماً بيوم. انتهى.

﴿وَلَهُم﴾؛ أي: ولهؤلاء المنافقين في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ يصل ألمه إلى القلوب، وهو بمعنى: المؤلَم بفتح اللام على أنّه اسم مفعول من الإيلام. يقال: ألم يألم فهو أليم بمعنى: مُؤلم، كسميع بمعنى: مُسْمع. وُصف به للمبالغة، وهو في الحقيقة صفة المعذَّب بفتح الذال المعجمة، كما أنّ الجدّ للجادّ في قولهم: جَدَّ جِدُّه. وجه المبالغة: إفادة أنَّ الألم بلغ الغاية حتى سرى من المعذَّب بفتح الذال إلى العذاب المتعلِّق به.

أي: ولهم عذاب مُوجع ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ بالتخفيف[2]؛ أي: بسبب كذبهم في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، وقرىء بالتشديد؛ أي: بسبب تكذيبهم النبيّ ﷺ فيما جاء به في السرّ. والكذب: هو الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه، كقولك: الجهل نافع والعلم ضارّ، وهو قبيحٌ كُلُّه.

و(الباء)[3] فيه للسببية، أو للمقابلة، و﴿مَا﴾ مصدرية، داخلةٌ في الحقيقة على ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ وكلمة ﴿كَانُواْ﴾ مقحمة؛ لإفادة دوام كذبهم وتجدده؛ أي: بسبب

---

(١) المراغي.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

كذبهم المتجدّد المستمر الذي هو قولهم: ﴿ءَامَنَّا...﴾ إلخ. وفيه رَمْزٌ إلى قُبح الكذب وسماجته، وتخييل أنّ العذاب الأليم لاحقٌ بهم من أجل كذبهم نظراً إلى ظاهر العبارة المتخيَّلة، لانفراده بالسببية مع إحاطة علم السامع بأنّ لحوق العذاب بهم من جهات شتَّى، وأنّ الاقتصار عليه للإشعار بنهاية قبحه والتنفير عنه. وأمّا ما روي: أنّ إبراهيم عليه السلام كَذَبَ ثلاثَ كذبات، فالمراد به: التعريض، لكن لمَّا شابه الكذب في صورته سُمّي به، وهي قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، وقوله: (هذه أختي) كما هو مذكور في محلّه.

وحاصل معنى الآية: أنَّ الله سبحانه جعل[1] العذاب جزاء الكذب دون سائر موجباته الأخرى، كالكفر وغيره من أعمال السوء؛ للتحذير منه، وبيان فظاعته، وعظم جرمه؛ وللأشعار بأنَّ الكفر من محتوياته، وإليه ينتهي في حدوده وغاياته، ومن ثم حذر منه القرآن أتمَّ التحذير. فما فشا في أُمةٍ إلاّ كثرت فيها الجرائم، وشاعت فيها الرذائل، فهو مصدر كل رذيلةٍ ومنشأ كلِّ كبيرة. وقد روي عن النبي ﷺ: أنّه قال: «إياكم والكذب، فإنّه مجانب للإيمان»؛ يعني: أنَّ الإيمان في جانب والكذب في جانب آخر منه، مقابلٍ له، وهذا كنايةٌ عن كمال البعد بينهما.

وفي الحديث[2]: «ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار». كلّ الكذب مكتوب كذباً لا محالة، إلاّ أن يكذب الرجل في الحرب، فإنّ الحرب خُدعةٌ، أو يكون بين رجلين شحناء، فيصلح بينهما، أو يحدث امرأته ليرضيها، مثل أن يقول: (لا أحد أحبّ إليّ منك)، وكذا من جانب المرأة. فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها: ما أدّاها إذا ارتبط بمقصودٍ صحيحٍ له، أو لغيره، لكن هذا في حقِّ الغير، وأمّا في حقّ نفسه، فالصدق أولى وإن لزم الضرر.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

واعلم: أنَّ المراد بالكذب في الحقيقة: الكذب في العبوديّة والقيام بحقوق الربوبيّة، كما للمنافقين ومن يحذو حذوهم، ولا يصح الاقتداء بأرباب الكذب مطلقاً، ولا يعتمد عليهم، فإنّهم يجرُّون إلى الهلاك، والفراق عن مالك الأملاك.

وأمال حمزة[1] ﴿فَزَادَهُمُ﴾، ووافقه ابن ذكوان، وأجمع القراء على فتح الراء في قوله: ﴿مَّرَضٌ﴾، إلاّ ما رواه الأصمعيُّ، عن أبي عمرو: أنّه قرأ بإسكان الراء. وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بالتخفيف. وقرأ الحرميان: نافع، وابن كثير، والعربيان: أبو عمرو، وابن عامر بالتشديد.

وقد سُئل[2] القرطبيُّ وغيره من المفسرين، عن حكمة كفّه ﷺ عن قتل المنافقين مع عِلْمه بأعيان بعضهم؟ فذكروا أجوبةً عن ذلك.

منها: ما ثبت في «الصحيحين»: أنّه ﷺ قال لعمر ـ رضي الله عنه ـ: «أكْرَهُ أن يتحدَّث العرب أنَّ محمداً يقتل أصحابه».

ومنها: ما قال مالك: (إنّما كفَّ رسول الله ﷺ عن المنافقين؛ ليبيِّن لأُمَّته أنَّ الحاكم لا يحكم بعِلْمه).

ومنها: ما قاله بعضهم: أنّه إنما لم يقتلهم؛ لأنّه كان لا يخاف من شرّهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم، يتلو عليهم آيات الله بينات. فأمّا بعده: فيُقتَلون إذا أظهروا النفاق، وعلمه المسلمون. انتهى.

ثُمَّ[3] شرع في بيان قبائحهم وأحوالهم الشنيعة، وفي الحقيقة: هو تفصيل للمخادعة الحاصلة منهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: وإذا قال المسلمون لهؤلاء المنافقين: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بالكفر، وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وإفشاء أسرار المؤمنين إلى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) ابن كثير.

(٣) العمدة.

الكفار، وإغرائهم عليهم، وغير ذلك.

وإسناد[١] ﴿قِيلَ﴾ إلى ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ إسنادٌ له إلى لفظه، كأنّه قيل: وإذا قيل لهم: هذا اللفظ، كقولك: أُلِّفَ ضرب من ثلاثة أحرف. والفساد: خروج الشيء عن حال استقامته، وكونه منتفعاً به، وضدُّه: الصلاح، وهو الحصول على الحال المستقيمة النافعة. وكلاهما يعمّان كلّ ضارّ ونافع، والفساد في الأرض: تهييجُ الحروب والفتن المستتبعة؛ لزوال الاستقامة عن أحوال العباد، واختلال أمر المعاش والمعاد. والمراد بما نهوا عنه: ما يؤدي إلى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار، وإغرائهم عليهم، وغير ذلك من فنون الشرور. فلمّا كان ذلك من صنيعهم مؤدّياً إلى الفساد. قيل: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾، كما يقال للرجل: لا تقتل نفسك بيدك، ولا تُلْقِ نفسك في النار، إذا أقدم على ما هذه عاقبته. وكانت الأرض قبل البعثة يُعلَن فيها بالمعاصي، فلمَّا بعث النبي ﷺ ارتفع الفساد، وصلحت الأرض، فإذا أعلنوا بالمعاصي، فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، كما في «تفسير أبي الليث».

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ جواب لإذا، وردٌّ للناصح على سبيل المبالغة؛ أي: نحن مقصورون على الإصلاح المحضِ؛ أي: ليس شأننا الإفسادَ أبداً، بل نحن محصورون في الإصلاح، لا نخرج عنه إلى غيره، فهو من حصر المبتدأ في الخبر.

والمعنى[٢]: أنّه لا يصح مخاطبتنا بذلك، فإنّ شأننا ليس إلاّ الإصلاح، وإنّ حالنا متمّحضة عن شوائب الإفساد، وإنَّما قالوا ذلك؛ لأنّهم تصوَّروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾. فأنكروا كون ذلك فساداً، وادَّعوا كونه إصلاحاً محضاً. وهو من قصر الموصوف على الصفة، مثل: إنّما زيد منطلق.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

قال ابن التمجيد[1]: إنّ المسلمين لمّا قالوا لهم: لا تفسدوا في الأرض، توهَّموا أنَّ المسلمين أرادوا بذلك أنّهم يخلطون الإفساد بالإصلاح، فأجابوا بأنَّهم مقصورون على الإصلاح، لا يتجاوزون منه إلى صفة الإفساد، فيلزم منه عدم الخلط. فهو من باب قصر الإفراد، حيث توهَّموا أنّ المؤمنين اعتقدوا الشركة. فأجابهم الله تعالى بعد ذلك بما يدلُّ على القصر القلبيّ، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَآ﴾ أيّها المؤمنون انتبهوا، واعلموا ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فإنّهم لمّا أثبتوا لأنفسهم إحدى الصفتين، ونفوا الأخرى، واعتقدوا ذلك، قلب الله اعتقادهم هذا بأن أثبت لهم ما نفوه، ونفى عنهم ما أثبتوا.

والمعنى: هم مقصورون على إفساد أنفسهم بالكفر، والناس بالتعويق عن الإيمان، لا يتخطّون منه إلى صفة الإصلاح، من باب قصر الشيء على الحكم، فهم لا يعدون صفة الفساد والإفساد، ولا يلزم منه أن لا يكون غيرهم مفسدين.

ثمّ استدرك بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنّهم مفسدون، للإيذان بأنّ كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة، لكن لا حسّ لهم حتى يدركوه. قال الشيخ في «تفسيره»: ذِكرُ الشعور بإزاء الفساد أوفق؛ لأنّه كالمحسوس عادة، ثمّ فيه بيان شرف المؤمنين، حيث تولّى جواب المنافقين عما قالوه للمؤمنين.

والحاصل: أنّهم أكّدوا ذلك بإنّما المفيدة للحصر، وبالجملة الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار. فردّ الله سبحانه عليهم بجملة مؤكّدة بأربع مؤكّدات: ﴿أَلَآ﴾ التي للتنبيه و﴿إِنَّ﴾ وضمير الفصل، وتعريف الخبر، حيث قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ أي: إنّهم وحدهم هم المفسدون، لا مَنْ أومَأوُا إليهم من المؤمنين، ولكن لا يعلمون أنَّ ما فعلوه فساد؛ لأنّه أصبح غَريزةً في طباعهم؛ بما تمكّن فيها من الشُّبه بتقليدهم أحبارهم الذين أشربت قلوبهم تعظيمهم، والثقة بآرائهم. أو لا يعلمون أنّ الله تعالى يُطْلِعُ نبيَّه ﷺ على فسادهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ من طرف المسلمين بطريق الأمر بالمعروف، إثر نهيهم عن

---

(١) روح البيان.

المنكر إتماماً للنصح وإكمالاً للإرشاد، فإنّ كمال الإيمان بمجموع الأمرين: الإعراض عمَّا لا ينبغي، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، والإتيانُ بما ينبغي، وهو المطلوب بقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا﴾ حذف المؤمَنَ به؛ لظهوره؛ أي: آمنوا بالله وباليوم الآخر، أو أُريد: فعلوا الإيمان.

والمعنى: أي[1] وإذا قال لهؤلاء المنافقين النبيُّ ﷺ أو بعض أصحابه بطريق الأمر بالمعروف نصيحةً لهم: آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر إيماناً صادقاً، لا يشوبه نفاق ولا رياء. ﴿كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾؛ أي: كما آمن أصحاب النبي ﷺ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله. والكاف في محل النصب على أنّه نعتٌ لمصدر مؤكّد محذوف؛ أي: آمنوا إيماناً مماثلاً لإيمانهم، فما مصدرية أو كافّة؛ أي: حقّقوا إيمانكم كما تحقق إيمانهم. واللام[2] في ﴿النَّاسُ﴾ للجنس، والمراد به: الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العَقْلِ، أو للعهد، والمراد به: الرسول ﷺ ومن معه، أو من آمن من أهل بلدتهم؛ أي: من أهل ضيعتهم: كابن سلام وأصحابه.

والمعنى: آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص، متمَحّضاً من شوائب النفاق، مماثلاً لإيمانهم.

﴿قَالُوا﴾ مقابلين للأمر بالمعروف بالإنكارِ المُنْكَرِ، واصفين للمراجيح الرزان بضد أوصافهم الحسان ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الهمزة فيه للإنكار مع الاستهزاء والسخرية، واللام فيه مشارٌ بها إلى الناس الكاملين، أو المعهودين، أو إلى الجنس بأسره، وهم مندرجون فيه على زعمهم الفاسد. والسفه: خفَّةُ عقل وسخافة رأي، يورثهما قصور العقل، ويقابله الحلم والأناة. وإنَّما نسبوهم إليه مع أنّهم في الغاية القاضية من الرشد، والرزانة، والوقار؛ لكمال انهماك أنفسهم في السفاهة، وتماديهم في الغواية، وكونهم ممن زُيِّن له سوء عمله، فرآه حسناً،

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

فمن حسِب الضلالَ هدًى يُسمِّي الهدى لا محالة ضلالاً؛ أو لتحقير شأنهم، فإنّ كثيراً من المؤمنين كانوا فقراء، ومنهم الموالي، كصهيب، وبلال، أو للتجلُّد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المراد بالناس: عبد الله بن سلام وأمثاله. وقيل: إنّما سفَّهوهم؛ لأنَّ الصحابة أنفقوا أموالهم في سبيل الله حتى افتقروا، وتحملَّوا المشاقَّ، فسموهم سفهاء لذلك.

فإن قيل: كيف يصحّ النفاق مع المجاهرة بقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

قلنا: فيه أقوال:

الأول: إنّ المنافقين لعنهم الله، كانوا يتكلمون بهذا الكلام في أنفسهم دون أن ينطقوا به بألسنتهم، لكن هتك الله أستارهم، وأظهر أسرارهم عقوبةً على عداوتهم، وهذا كما أظهر ما أضمره أهل الإخلاص من الكلام الحسن، وإن لم يتكلموا به بالألسن؛ تحقيقاً لولايتهم، قال الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، وكان هذا في قلوبهم، فأظهره الله تعالى تشريفاً لهم وتشهيراً لحالهم. وهذا قول صاحب «التيسير».

والثاني: أنّ المنافقين كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بذلك، هذا قول البغويّ.

والثالث: قول أبي السعود في «الإرشاد» حيث قال: هذا القول وإن صدر عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين لهم جواباً عن نصيحتهم، لكن لا يقتضي كونهم مجاهرين لا منافقين، فإنّه ضَرْبٌ من الكفر أنيقٌ، وفنٌّ في النفاق عَرِيقٌ؛ لأنّه محتمل للشرّ، كما ذكر في تفسيره، وللخير بأن يحمل على ادّعاء الإيمان، كإيمان الناس، وإنكار ما اهْتَمُّوا به من النفاق على معنى: أنؤمن كما آمن السفهاء والمَجَانِينُ الذين لا اعتداد بإيمانهم لو آمنوا، ولا نؤمن كإيمان الناس حتى تأمرون بذلك، قد خاطبوا به الناصحين استهزاءً بهم مرائين لإرادة المعنى الأخير

وعلى الأول: ردّ الله ـ سبحانه ـ ذلك عليهم بجملة مؤكّدة بأربع تأكيدات كالسابقة، حيث قال: ﴿أَلَآ﴾ فانتبهوا أيّها المؤمنون ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إنّ المنافقين

القائلين ما ذكر ﴿هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لا غيرهم؛ لأنّ من ركب متن الباطل كان حقيقاً بالسفه بلا امتراء. ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أنّهم هم السفهاء، ولا يحيطون بما عليهم من داء السفه، والمؤمنون بإيمانهم وإخلاصهم هربوا من السفه، وغبُّوا في العلم والحقّ، وهم العلماء في الحقيقة، والمستقيمون على الطريقة.

فائدة: قال أبو حيان: وإذا التقت الهمزتان، أولاهما مضمومة، والثانية مفتوحة، نحو: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ﴾ ففي ذلك أوجه:

أحدها: تحقيق الهمزتين، وبذلك قرأ الكوفيون، وابن عامر.

والثاني: تحقيق الأولىٰ وتخفيف الثانية بإبدالها واواً، وبذلك قرأ الحرميان، وأبو عمرو.

والثالث: تسهيل الأولى بجعلها بين الهمزة والواو، وتحقيق الثانية.

والرابع: تسهيل الأولى بجعلها بين الهمزة والواو وإبدال الثانية واواً.

وأجاز قوم وجهاً.

خامساً: وهو جعل الأولى بين الهمزة والواو وجعل الثانية بين الهمزة والواو، ومنع ذلك بعضهم.

وهذا ردّ[1] ومبالغة في تجهيلهم، فإنّ الجاهل بجهله الجازم على خلاف ما هو الواقع، أعظم ضلالة، وأتمّ جهالة من المتوقّف المعترف بجهله، فإنّه ربّما يعذر وتنفعه الآيات والنذر. وقال النسفيّ: وإنّما ذكر هنا ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾. وفيما تقدم ﴿لَّا يَشۡعُرُونَ﴾؛ لأنه قد ذكر السفه هنا، وهو جهل، وكان ذكر العلم أحسن طبقاً له. انتهى.

وفي «الروح»: واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ في الآية الأولى: نفي

---

(١) روح البيان.

الإحساس عنهم، وفي الثانية: نفي الفِطْنة؛ لأنّ معرفة الصلاح والفساد يُدرَك بالفطنة، وفي الآية الثالثة: نفي العلم، وفي نفيها على هذه الوجوه تنبيهٌ لطيفٌ ومعنى دقيق، وذلك: أنَّه بيَّن في الأولىٰ: أنَّ في استعمالهم الخديعة نهاية الجهل الدال على عدم الحسّ، وفي الثانية: أنّهم لا يفطنون تنبيهاً على أنّ ذلك لازمٌ لهم؛ لأنّ من لا حِسَّ له لا فطنة له، وفي الثالثة: أنّهم لا يعلمون تنبيهاً على أنّ ذلك أيضاً لازم لهم؛ لأنّ من لا فطنة له لا علم له، فإنَّ العلم تابع للعقل، كما حكي: أنّ الله تعالى لمّا خلق آدم عليه السلام أتى إليه جبريل عليه السلام بثلاث تُحَفٍ: العلم، والحياء، والعقل. فقال: يا آدم اختر من هذه الثلاث ما تريد، فاختار العقل. فأشار جبريل إلى العلم والحياء بالرجوع إلى مقرّهما، فقالا: إنّا كنا في عالم الأرواح مجتمعين، فلا نرضى أن يفترق بعضنا عن بعض في الأشباح أيضاً، فنتبع العقل، حيث كان، فقال جبريل عليه السلام: استقرا، فاستقر العقل في الدماغ، والعلم في القلب، والحياء في العين.

فليسارع(١) العاقل إلى تحصيل العلم والمعرفة، حتى يصل إلى توحيد الفعل والصفة. قال الإمام القُشيري ـ رحمه الله تعالى ـ: للعقل نجوم، وهي للشيطان رجوم، وللعلوم أقمار هي للقلوب أنوار واستبصار، وللمعارف شموس، ولها على أسرار العارفين طلوع، والعلم اللدنّي هو الذي ينفتح في بيت القلب من غير سبب مألوف من الخارج، وللقلب بابان: باب إلى الخارج يأخذ العلم من الحواس، وباب إلى الداخل يأخذ العلم بالإلهام. فمثل القلب، كمثل الحوض الذي يجري فيه أنهار خمسة، فلا يخلو ماؤُه عن كدرة ما دام يحصل ماؤُه من الأنهار الخمسة، بخلاف ما إذا خرج ماؤه من قعره حيث يكون ماؤه أصفى وأجلى، فكذا القلب إذا حصل له العلم من طريق الحواس الخمس الظاهرة لا يخلو من كدرة، وشكّ، وشبهة، بخلاف ما إذا ظهر من صميم القلب بطريق الفيض الإلٰهيّ، فإنّه أصفى وأولى. انتهى.

---

(١) روح البيان.

قال الشيخ زين الدين الحافيّ ـ رحمه الله تعالى ـ: والعجب ممن دخل في هذه الطريقة المحمدية، وأراد أن يصل إلى الحقيقة اليقينية، وقد حصَّل من الاصطلاحات ما يستخرج بها المعاني من كتاب الله، وأحاديث رسوله ﷺ، ثمّ لا يشتغل بذكر الله وبمراقبته، والإعراض عما سواه، لتنصبّ إلى قلبه العلوم اللدنية التي لو عاش ألف سنة في تدريس الاصطلاحات وتصنيفها، لا يشمّ منها رائحة، ولا يشاهد من آثارها وأنوارها لمعة. فالعلم بلا عمل عقيم، والعمل بلا علم سقيم، والعمل بالعلم صراط مستقيم. انتهى.

وعبارة المراغي هنا:[1] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ الذين اتبعوا قضيّة العقل، وسلكوا سبيل الرشاد، وكان للإيمان سلطانٌ على نفوسهم، وعليه بَنَوْا تصاريف أعمالهم، كعبد الله بن سلام وأشباهه من أحبارهم. ﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أرادوا بالسفهاء: أتباع النبي ﷺ. أمّا المهاجرون منهم: فلأنّهم عادَوا قومهم وأقاربهم، وهجروا أوطانهم، وتركوا ديارهم؛ ليتبعوا النبي ﷺ، ويسيروا على هديه. وأمّا الأنصار: فلأنّهم شاركوا المهاجرين في ديارهم وأموالهم، ولا يستبعد ممن انهمك في السفاهة، وتمادى في الغواية، ومن زُيّن له سوء عمله، فرآه حسناً، وظنّ الضلال هدى أن يسمِّي الهدى سفهاً وضلالاً، كما مرّ. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وحدهم دون مَنْ عرَّضوا بهم، ونسبوهم إلى السفه، إذ هم لهم سلفٌ صالح تركوا الاقتداء بهم، واكتفوا بانتظار شفاعتهم، ولم يجروا على هديهم وسنتهم، بخلاف أولئك المؤمنين الذين لا سلف لهم إلاّ عابدي أصنام، وقد هداهم الله تعالى، وصارت قلوبهم مطمئنة بالإيمان. ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان وما حقيقته؟ حتى يعلموا أنَّ المؤمنين سفهاءُ.

وقد ختمت هذه الآية بـ ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وسابقتها بـ ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ لأنّ الإيمان لا يتمّ إلاّ بالعلم اليقينيّ، والفائدة المرجوة منه، وهي السعادة في المعاش والمعاد، لا يدركها إلاّ من يعلم حقيقته ويدرك كنهه، فهم قد أخطأوا في

(١) المراغي.

إدراك مصلحتهم ومصلحة غيرهم.

أمَّا نفاقُهم وإفسادهم في الأرض فقد بلغ من الوضوح مبلغ الأمور المحسوسة التي تصل إلى الحواس والمشاعر، ولكن لا حسّ لهم حتى يدركوه. انتهى.

ثُمَّ بيَّن سبحانه وتعالى، مصانعتهم ومعاملتهم مع المؤمنين بعد ما بيّن أولاً مذهبهم ونفاقهم في الواقع، ونفس الأمر بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فلا تكرار بين ما هنا وهناك، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال صاحب «الروح»: وهذا بيان لمعاملتهم مع المؤمنين والكفار، وما صُدّرت به القصة، فمساقه؛ لبيان مذهبهم وتمهيد نفاقهم، فليس بتكرير مع ما سبق؛ أي: وإذا لَقِي هؤلاء المنافقون، وعاينوا، وصَادقُوا، واستقبلوا الذين آمنوا بالحقّ، وهم المهاجرون والأنصار ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال هؤلاء المنافقون كذباً: ﴿ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم وتصديقكم، كما سبق في سبب النزول: أنّ عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه خرجوا ذات يوم، فاستقبلهم نفر من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الخ.

أي: وإذا رأى هؤلاء المنافقون المؤمنين، واجتمعوا معهم، أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقاً ومصانعة. ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟﴾؛ أي: مضوا، أو اجتمعوا على الخلوة. و﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى: مع أو انفردوا و﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى: الباء، أو بمعنى: مع، تقول: خلوت بفلان، وإليه، إذا انفردت معه. ﴿إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾؛ أي: إلى أصحابهم المُماثلين للشيطان في التمردّ والعناد المظهرين لكفرهم. وإضافة الشياطين إلى ضميرهم للمشاركة في الكفر، أو إلى كبار المنافقين، والقائلون صغارهم، وكلُّ عاتٍ متمرّدٍ فهو شيطان.

وقال الضحاك: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ المراد بشياطينهم: كهنتهم، وهم في بني قريظة: كعب بن الأشرف، وفي بني أسلم: أبو بردة، وفي جهينة: عبد الدار، وفي بني أسد: عوف بن عامر، وفي الشام: عبد الله بن سوداء. وكانت العرب تعتقد فيهم أنّهم مطّلعون على الغيب، ويعرفون الأسرار، ويداوون المرضى، وليس من كاهن إلاّ وعند العرب أنّ معه شيطاناً يلقي إليه

كهانته، وسمّوا شياطين؛ لبعدهم عن الحقّ، فإنّ الشُّطون هو البعد، كذا في «التيسير».

والمعنى: أي وإذا انفردوا عن المؤمنين، ورجعوا إلى شياطينهم؛ أي: إلى كبرائهم، ورؤسائهم في الضلال والنفاق الذين شابهوا الشياطين في تمردهم وعتوهم، أو إلى كهنتهم. ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال هؤلاء المنافقون لرؤسائهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾: أي: مصاحبوكم، وموافقوكم على دينكم واعتقادكم لا نفارقكم في حال من الأحوال. وكأنه قيل لهم عند قولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾: فما بالكم توافقون المؤمنين في الإتيان بكلمة الشهادة، وتشهدون مشاهدهم، وتدخلون مساجدهم، وتحجون، وتغزون معهم؟ فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ﴾ في إظهار الإيمان عند المؤمنين ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بهم من غير أن يخطر ببالنا الإيمان حقيقة، فنريهم أنا نوافقهم على دينهم ظاهراً وباطناً، وإنما نكون معهم ظاهراً؛ لنشاركهم في غنائمهم، وننكح بناتهم، ونطّلع على أسرارهم، ونحفظ أموالنا، وأولادنا، ونساءنا من أيديهم. والاستهزاء: التجهيل للغير، والسخرية به، والاستخفاف به.

والمعنى: إنَّا نُجهِّلُ محمداً وأصحابه، ونسخر بهم بإظهارنا الإسلام. وقرىء ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بتحقيق الهمزة، وهو الأصل، وبقلبها ياءً مضمومة؛ لانكسار ما قبلها، ومنهم من يحذف الياء؛ تشبيهاً بالياء الأصلية في نحو: يرمون، ذكره في «البحر».

فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يجازيهم على استهزائهم، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزىء بهم، أو ينزل الحقارة بهم والهوان الذي هو لازم الاستهزاء والغرض منه، أو يعاملهم معاملة المستهزىء بهم، أمَّا في الدنيا: فبإجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال، والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان، وأما في الآخرة: فبما يروى: أنه يفتح لهم باباً إلى الجنة، وهم في جهنّم، فيسرعون نحوه، فإذا وصلوا إليه سدّ عليهم الباب، ورُدّوا إلى جهنم. والمؤمنون على الأرائك في الجنة، ينظرون إليهم، فيضحكون لهم كما ضحكوا من المؤمنين في الدنيا، فذلك بمقابلة هذا،

ويُفعل بهم ذلك مرة بعد مرّة.

قال ابن كثير: وهذا إخبار من الله تعالى أنّه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر عن الجزاء، مَخرج الخبر عن الفعل الذي استحقّوا العقاب عليه. فاللفظ متفق والمعنى مختلف، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾؛ لأنّ الأول ظلم والثاني عدل.

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾؛ أي: يزيدهم، ويقويهم من مدّ الجيش وأمده؛ إذا زاده وقوّاه، لا من المدّ في العمر، فإنّه يعدى باللام كأملي لهم. ويدلّ عليه قراءة ابن كثير ﴿ويُمِدُّهم﴾. ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ متعلّق بيمدّهم. والطغيان: مجاوزة الحد في كلّ أمر، والمراد هنا: إفراطهم في العُتوّ، وغلُّوهم في الكفر. وفي إضافته إليهم إيذان باختصاصه بهم، وتأييد لما أشير إليه من ترتب المدّ على سوء اختيارهم. والمشهور فتح الياء من ﴿يمدهم﴾. وقرىء شاذاً بضمّها، فقيل: الثلاثي والرباعي بمعنى واحد، ونسبت هذه القراءة إلى ابن مُحَيصِن، وشِبْلٍ، وابن كثير، كما مرّ.

حالة كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ فيه؛ أي: يتردَّدُون في الضلالة، متحيّرين عقوبةً لهم في الدنيا لاستهزائهم. وهو حال من الضمير المنصوب، أو المجرور، لكون المضاف مصدراً، وهو مرفوع حكماً. والعمه في البصيرة، كالعمى في البصر، وهو التحيُّر والتردُّد بحيث لا يدري أين يتوجَّه.

والمعنى: أي يزيدهم بطريق الإمهال والترك في طغيانهم، وضلالتهم، وكفرهم حالة كونهم يعمهون؛ أي: يتردَّدُون ويتحيّرون في طغيانهم، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً، لأنّ الله طبع قلوبهم، وأعمى أبصارهم، فلا يبصرون رشداً، ولا يهتدون سبيلاً، أو المعنى: يتردَّدُون في البقاء على الكفر وتركه، والدخول في الإيمان.

والمراد بالعمه: عدم معرفة الحقّ من الباطل، فمنهم: من يظهر له وجه الحقّ، ويكفر عناداً ومنهم: من يشكّ في الحقّ ويقال له: عمي أيضاً. فبين العمه والعمى عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في طَمْس القلب، وينفرد العمى بفقد البصر.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ المنافقون المتصفون بما ذكر من الصفات الشنيعة، المميّزة لهم عمن عداهم أكمل تميزٍ، بحيث صاروا كأنَّهم حضارٌ مشاهدون على ما هم عليه من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ إلى هنا. والإشارة إليهم باسم إشارة البعيد؛ للإيذان ببعد منزلتهم في الشرِّ، وسوء الحال. ومحلّه الرفع على الابتداء، وخبره قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وأصل الاشتراء: بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من الأشياء، ثمّ استعير للإعراض عمَّا في يده محصِّلاً به غيره، ثمّ اتسع فيه، فاستعمل في الرغبة عن الشيء طمعاً في غيره، وهو هٰهنا عبارة عن معاملتهم السابقة المحكيّة.

وقرأ يحيى بن يعمر ﴿اشتروِا الضلالة﴾ بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين. وقرأ أبو السماك قعنب العدوي بفتحها؛ لخفة الفتحة، وأجاز الكسائي همز الواو. وقرأ الجمهور بضمّ الواو، وأمال حمزة والكسائي وخلف العاشر ﴿الهدى﴾، وهي لغة تميم، وقلله ورش والباقون بالفتح، وهي لغة قريش.

أي: أولئك المنافقون هم الذين اشتروا الضلالة، وأخذوها، واختاروها، وهي الكفر والعدول عن الحقّ، والصواب بدل الهدى، وهو الإيمان والسلوك في الطريق المستقيم، والاستقامة عليه أخذاً متّصفاً بالرغبة فيها والإعراض عنه؛ أي: اختاروها عليه، واستبدلوها به، وأخذوها مكانه، وجعل الهدى كأنّه في أيديهم لتمكنهم منه، وهو الاستعداد به، فبميلهم إلى الضلالة عطلوه، وتركوه. والباء تدخل على المتروك في باب المعاوضة. وهذا دليل: على أنّ الحكم في البيع ونحوه، يثبت بالتعاطي من غير تكلم بالإيجاب والقبول على ما ذهب إليه الأحناف، فإنّ هؤلاء سُمُّوا مشترين، بترك الهدى وأخذ الضلال من غير تكلُّمٍ بصيغة المبادلة، كما في «التيسير». فيكون دليلاً لهم على أنّ من أخذ شيئاً من غيره، وترك عليه عوضه برضاه فقد اشتراه وإن لم يتكلم.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ أي:[1] ما ربحت صفقتهم في هذه المعاوضة؛ أي:

(١) روح البيان.

ما ربحوا في تجارتهم ومعاوضتهم، وهذا ترشيح للمجاز؛ أي: ما ربحوا فيها، فإنّ الربح مسند إلى أرباب التجارة في الحقيقة، فإسناده إلى التجارة نفسها على الاتساع؛ لتلبّسها بالفاعل؛ أو لمشابهتها إياه من حيث إنها سبب الربح والخسران، ودخلت الفاء؛ لتضمّن الكلام معنى الشرط، تقديره: وإذا اشتروا فما ربحوا، كما في «الكواشي». والتجارة: صناعة التجار، وهو التصدّي بالبيع والشراء لتحصيل الربح، والربح: هو الفضل على رأس المال.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق التجارة، فإنّ المقصد منها سلامة رأس المال مع حصول الربح، ولئن فات الربح في صفقة، فربّما يتدارك في صفقة أخرى؛ لبقاء الأصل، وأمّا اتلاف الكلّ بالمرة، فليس من باب التجارة قطعاً، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين؛ لأنَّ رأس مالهم كان الفطرة السليمة والعقل الصرف، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم، واختلَّ عقلهم، ولم يبق لهم رأس مال يتوسّلون به إلى درك الحق، ونيل الكمال، فبقوا خاسرين آيسين من الربح، فاقدين الأصل نائين عن طريق التجارة بألف منزل.

واعلم: أنّ المهتدي: هو الذي ترك الدنيا والعادة، ثمّ اشتغل بوظائف الطاعة والعبادة، لا من اتبع كلّ ما يهواه، وخلّط هواه بهداه.

فإن قلت[1]: مقتضى هذه الآية: أنّ الهدى كان موجوداً ثمّ دفعوه، وأخذوا الضلالة.

قلت: الأمر كذلك؛ لقوله ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه» الحديث؛ ولأنّهم في العهد يوم ألست بربكم أجابوا بالإيمان جميعاً؛ أو لأنّهم لمّا تمكنوا من الإيمان جُعِلُوا كأنّ الهدى بأيديهم، فتركوه، وأخذوا الضلالة. فمثلهم، كمثل من عنده كنز عظيم ينفع في الدنيا والآخرة، فاستبدله بالنار؛ لأنّ الضلالة سبب النار.

وحاصل معنى الآيات: أي[2] وإذا رأى المنافقون المؤمنين، واجتمعوا بهم

---

(١) الصاوي. (٢) المراغي.

قالوا كذباً وبهتاناً: آمنا كإيمانكم، وصدّقنا كتصديقكم، وإذا انفردوا بأمثالهم من دعاة الفتنة والإفساد قالوا لهم: إنّا على عقيدتكم، وموافقوكم على دينكم، وإنما نظهر لهم الإيمان استهزاء بهم؛ لنشاركهم في الغنائم، ونحفظ أموالنا، وأولادنا، ونساءَنا من أيديهم، ونطّلع على أسرارهم ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ أي: الله يجازيهم بالعقاب على استهزائهم، وسمّي هذا الجزاء استهزاء؛ للمشاكلة في اللفظ، كما سمّي جزاء السيئة سيئة، ويزيدهم في عتوهم وكفرهم، ويجعلهم حائرين متردّدين في الضلال؛ عقوبة لهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ﴾؛ أي: هؤلاء هم الذين رغبوا عن الهدى وسلوك الطريق المستقيم، ومالوا إلى الضلال، واشتروه، ولكن لم تكن تجارتهم رابحة إذ أضاعوا رأس المال، وهو ما كان لهم من الفطرة السليمة، والاستعداد لإدارك الحقائق ونيل الكمال، فأصبحوا خاسرين آيسين من الربح، وإنَّ من كانت هذه حالتهم فلا علم لهم بطرق التجارة، فإنّ التاجر إن فاته الربح في صفقة، فربّما تداركه في أخرى ما دام رأس المال موجوداً، أمّا وقد فقد رأس المال فلا سبيل إلى الربح بحال.

ولمّا بيَّن الله سبحانه وتعالى قبائحهم وعاقبة أمرهم، شرع يضرب أمثالهم، ويُبيِّن فيها وصفهم وما هم عليه، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ...﴾ إلخ، والمثل في الأصل: بمعنى النظير، ثمّ قيل: للقول السائر المُمثل بمورده، كما ورد من غير تغيير، ولا يضرب إلاّ بما فيه غرابة، ولذلك حوفظ عليه من التغيير، ثُمَّ استعير لكل حالٍ، أو قصةٍ، أو صفةٍ لها شأن عجيب، وفيها غرابة، كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وقوله أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الوصف الذي له شأن من العظمة والجلال.

وعبارة «الروح»: ولمّا جاء الله بحقيقة حال المنافقين، عَقَّبها بضرب المثل؛ زيادةً في التوضيح والتقرير، فإنّ التمثيلَ ألطف ذريعةٍ إلى تسخير الوهم للعقل، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع ثورة الجامح الأبيّ، كيف لا يلطف وهو إبداءٌ للمنكر في صورة المعروف، وإظهارٌ للوحشي في هيئة المألوف، وإراءةٌ للمخيَّل محققّاً، وللمعقول محسوساً، وتصويرٌ للمعاني بصورة الأشخاص، ومن

ثمَّ كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجليّ والغائب بالشاهد، ولأمرٍ مَّا أكثر الله سبحانه في كتبه الأمثال والعبر، وفي الإنجيل سورة تسمّى سورة الأمثال، وفي القرآن ألف آيةٍ من الأمثال والعبر، وهي في كلام الأنبياء عليهم السلام والعلماء والحكماء كثيرةٌ، لا تحصى، ذكر السيوطي في «الإتقان» من أعظم علم القرآن أمثاله، والناس في غفلةٍ عنه.

والمعنى[1]: مثلهم؛ أي: حالهم وصفتهم العجيبة الشأنِ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾؛ أي: كحال الذين من باب وضع مفرد الموصول موضع الجمع منه؛ تخفيفاً للكلام؛ لكونه مستطالاً بصلته، كقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾، والقرينة ما قبله وما بعده، لكن إنَّه وحَّد الضمير في قوله: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ نظراً إلى صورة اللفظ، وجمع في الأفعال الآتية نظراً إلى المعنى. والاستيقاد: طلب الوقود، والسعي في تحصيله، وهو سطوع النور، وارتفاع لهبها. والنار: جوهر لطيف مضيء محرق حارٌّ، والنور ضوؤها وضوء كلّ نيّر، وهو نقيض الظلمة؛ أي: كمثل الذي أوقد في مفازة في ليلة مظلمة ناراً عظيمة؛ خوفاً من السباع وغيرها. ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾ الإضاءة: فرط الإنارة كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾. وقرأ ابن السميقع، وابن أبي عبلة ﴿فلما ضاءت﴾ ثلاثياً فيتخرَّج على زيادة ﴿ما﴾، أو على أن تكون هي الفاعلة، إما موصولةٌ، أو موصوفةٌ؛ أي: أنارت النار ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾؛ أي: ما حول المستوقد من الأماكن والأشياء على أنَّ ﴿مَا﴾ مفعول ﴿أَضَآءَتْ﴾ إن جعلته متعدّياً و(حول) نصب على الظرفية، وإن جعلته لازماً، فهو مسند إلى ﴿مَا﴾، والتأنيث؛ لأنَّ ما حوله أشياء وأماكن، وأصل الحول: الدَّوران، ومنه الحول للعام؛ لأنّه يدور. وجواب ﴿لَمَّا﴾ قوله سبحانه ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ أي: أذهبه بالكلية، وأطفأ نارهم التي هي مدار نورهم. وإنّما علَّق الإذهاب بالنور دون نفس النار؛ لأنّه المقصود بالاستيقاد. وقرأ اليمانيُّ ﴿أذْهَبَ الله نُورهم﴾، وهذا يدلّ على مُرادفةِ الباء للهمزة في التعدية.

---

(١) روح البيان.

وإسناد الإذهاب إلى الله تعالى[1]: إمّا لأنّ الكلّ بخلقه تعالى؛ وإما لأنّ الإنطفاء حصل بسبب خفي، أو أمر سماوي، كريح أو مطر؛ وإما للبمالغة، كما يؤذن به تعدية الفعل بالباء دون الهمزة؛ لما فيها من معنى الاستصحاب والإمساك، يقال: ذهب السلطان بماله إذا أخذه، وما أخذه الله تعالى وأمسكه، فلا مرسل له من بعده، ولذلك عدل عن الضوء الذي هو مقتضى الظاهر إلى النور؛ لأنّ ذهاب الضوء قد يجامع بقاء النور في الجملة، لعدم استلزام عدم القوي، لعدم الضعيف، والمراد إزالته بالكُلّية، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ فإنّ الظلمة هي عدم النور، وانطماسه بالمرة، لا سيّما إذا كانت متضاعفةً متراكمةً متراكباً بعضها فوق بعض، كما يُفيده الجمع، والتنكير التفخيميُّ، وما بعده من قوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ لا يتحقّق إلاّ بعد أن لا يبقى من النور عَيْنٌ ولا أثر. و(ترك) في الأصل بمعنى: طَرح وخلّى، وله مفعول واحد، فضُمّن معنى التصيير، فجرى مجرى أفعال القلوب؛ أي: صيَّرهم ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم. فعلى هذا يكون قوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ وقوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ مفعولين لصيّر بعد المفعول الأول على سنن الأخبار المتتابعة للمخبر عنه الواحد، وإن حمل معناه على الأصل يكونان حالين من المفعول، مترادفين، أو متداخلين.

والمعنى[2]: أنّ حالهم العجيبة التي هي اشتراؤهم الضلالة التي هي: عبارة عن ظلمتي الكفر والنفاق، المستتبعين لظلمة سخط الله تعالى، وظلمة يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، وظلمة العقاب السرمدي بالهدى الذي هو الفطري النوري، المؤيَّد بما شاهدوه من دلائل الحقّ، كحال من استوقد ناراً عظيمة حتى كاد ينتفع بها، فأطفأها الله تعالى، وتركه في ظلمات هائلة لا يتسنى فيها الإبصار.

وقرأ الأعمش، والحسن، وأبو السماك ﴿ظلْمات﴾ بإسكان اللام على الأصل. وقرأ أشهب العقيليّ بفتح اللام. وقرأ الجمهور بضمّ اللام. وهذه اللُّغي

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الثلاث جائزة في جمع فعلةِ الاسم الصحيح العين غير المضعَّف، ولا المُعَل اللام بالياء.

وفي «التيسير والعيون»: إنّ المنافقين أظهروا كلمة الإيمان، فاستناروا بنورها، واستعزّوا بعزّها، وأمنوا بسببها، فناكحوا المسلمين، ووارثوهم، وقاسموهم الغنائم، وأمنوا على أموالهم وأولادهم، فإذا بلغوا إلى آخر العمر كَلَّ لسانهم عنها، وبقوا في ظلمة كفرهم أبد الآباد، وعادوا إلى الخوف والظلمة.

وعبارة «العمدة» هنا: ﴿مَثَلُهُمْ﴾؛ أي: صفة هؤلاء المنافقين في نفاقهم وحالهم الشنيعة، كصفة الشخص الذي أوقد ناراً ليستدفىء بها، ويستضيء. ﴿فلما﴾ اتقدت تلك النار، و﴿أَضَآءَتْ﴾؛ أي: أنارت له ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: المكان الذي حوله، فأبصر، واستدفأ، وأمن مما يخافه من عدوّ، وسباع، وحيّات، وغير ذلك مما يضرّه، وتمَّ له النفع بها، أطفأ الله تلك النار، و﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ أي: أذهب الله، وأعدم نور نارهم وضوءَها، ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾؛ أي: خلاّهم، وصيّرهم ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة السحاب والريح مع المطر حالة كونهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم متحيِّرين عن الطريق خائفين.

فكذلك هؤلاء المنافقون أمنوا على أنفسهم، وأولادهم، وأموالهم من القتل والسبي، وانتفعوا بأخذ الغنائم والزكاة، حيث أسلموا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، فإذا ماتوا فقد ذهب الله بنورهم، فلم يؤمنوا من النار، ولم ينتفعوا بالجنة، وتركهم في ظلمات ثلاث: ظلمة الكفر، والنفاق، والقبر، والجامع بينهما قِلَّة الانتفاع، ودفع المضار في كلّ منهما.

﴿صُمٌّۢ﴾ أي: هم صمّ عن الحقّ، لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوا، فكأنّهم لم يسمعوا. والصمم: انسداد خروق المسامع، بحيث لا يكاد يصل إليها هواءٌ يحصل الصوت بتموجه. والصُّمُّ: جمع أصمَّ وهو من انسدَّت خروق مسامعه. وقرأ ابن مسعود، وحفصة أمّ المؤمنين[1]: ﴿صمّاً بكماً عمياً﴾ بالنصب على الذمّ

---

(١) الشوكاني.

في الثلاثة، ويجوز أن ينتصب بقوله: ﴿تركهم﴾.

﴿بُكْمٌ﴾؛ أي: خرسٌ عن نطق الحقّ، لا يقولونه لَمَّا أبطنوا خلاف ما أظهروا، فكأنّهم لم ينطقوا. وهو جمع أبكم، والأبكم: الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس. وقيل: الأبكم والأخرس كلاهما بمعنى واحد، والبكم: آفةٌ في اللسان يمنع اعتماد الصوت على مخارج الحروف.

﴿عُمْيٌ﴾؛ أي: فاقدوا الأبصار عن النظر الموصل إلى العبرة التي تؤدّيهم إلى الهدى، وفاقدوا البصيرة أيضاً؛ لأن من لا بصيرة له كمن لا بصر له. فالعَمَىٰ هنا مستعملٌ في عدم البصر والبصيرة جميعاً، والعَمَىٰ: فقدان البصر خلقة كان أم لا. والكلام في كل من الثلاثة على التشبيه البليغ، كما سيأتي. وهذه صفاتهم في الدنيا، ولذلك عوقبوا في الآخرة بجنسها. قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾، فلا يسمعون سلام الله، ولا يخاطبون الله، ولا يرونه، والمسلمون كانوا سامعين للحقّ قائلين بالحق، ناظرين إلى الحقّ، فيكرَمون يوم القيامة بخطابه، ولقائه، وسلامه.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون عن الضلالة إلى الهدى الذي تركوه، وضيَّعوه، وباعوه. أو لا يرجعون عمَّا هم عليه من الغيّ، والضلال، والفساد. والفاء: للدلالة على أنّ اتصافهم بالأحكام السابقة سبب تحيُّرهم واحتباسهم. وهذه الآية فذلكة التمثيل ونتيجته، وأفادت أنّهم كانوا يستطيعون الرجوع باستطاعة سلامة الآلات، حيث استحقُّوا الذمَّ بتركه، وأنَّ قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ ليس بنفي الآلات، بل هو نفي تركهم استعمالها.

ثمّ ذكر الله سبحانه وتعالى مثلاً آخر لهم؛ زيادةً في الكشف والإيضاح، فقال: ﴿أَوْ﴾ مثلهم في حيرتهم وترددهم ويصحّ أن تكون ﴿أَوْ﴾ للتنويع، أو للإبهام، أو للشكّ، أو الإباحة، أو التخيير، أو الإضراب، أو بمعنى الواو، وأحسنها الأول. قال الشوكاني عطف هذا المثل على المثل الأول بحرف الشك؛ لقصد التخيير بين المثلين؛ أي: مَثِّلوهم بهذا أو هذا، وهي وإن كانت في الأصل

للشكّ، فقد توسّع فيها حتى صارت لمجرد التساوي من غير شكّ. وقيل: إنّها بمعنى الواو، قاله الفرّاء، وغيره. انتهى. وقوله: ﴿كَصَيِّبٍ﴾ على حذف مضاف؛ أي: صفتهم وحالهم في تردّدهم وحيرتهم، كصفة وحال أصحاب صيّب؛ أي: مطر يصوب؛ أي: ينزل من السماء، ويقع على الأرض من الصوب، وهو النزول. أصله: صيوب نظير سيّد، كما سيأتي. والكاف مرفوع المحل، معطوف على الكاف الذي في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾. و ﴿أَوْ﴾ للتخيير والتساوي.

أي:[1] كيفية قصة المنافقين شبيهةٌ بكيفية هاتين القصتين، والقصتان سواءٌ في استقلال كلّ واحدة منهما بوجه التمثيل، فبأيتهما مثلتها فأنت مصيبٌ، وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك. وقرىء ﴿أو كصايب﴾ وهو اسم فاعل من صاب يصوب، وصيبٌ أبلغ من صائب، ذكره في «البحر».

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلّق بصيّب؛ أي: كأصحاب مطرٍ نازلٍ من السماء. والسماء: سقفُ الدنيا، وتعريفها للإيذان بأنّ انبعاث الصيّب ليس من أفق واحد، فإنّ كلّ أفق من آفاقها؛ أي: كلّ ما يحيط به كلّ أفق منها سماء على حدة. والمعنى: أنّه صيّب عامّ نازل من غمام مطبق، آخذ بآفاق السماء. وفيه أنّ السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماؤه، لا كزعم من يزعم أنّه يأخذه من البحر.

قال الإمام: من الناس من قال: المطر إنما يتحصّل عن ارتفاع أبخرة رطبة من الأرض إلى الهواء، فينعقد هناك من شدّة برد الهواء، ثمّ ينزل مرة أخرى، وأبطل الله ذلك المذهب هنا، بأن بيّن أنّ ذلك الصيب نزل من السماء.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّ تحت العرش بحراً ينزل منه أرزاق الحيوانات، يوحي إليه فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء، حتى ينتهي إلى سماء الدنيا، ويوحي إلى السحاب أن غربله، فيغربله، فليس من قطرة تقطر، إلاّ ومعها ملك يضعها موضعها، ولا ينزل من السماء قطرة، إلاّ بكيل معلوم، ووزن

---

(١) روح البيان.

معلوم، إلاّ ما كان من يوم الطوفان من ماء، فإنّه نزل بلا كيل ولا وزن، كذا في تفسير «التيسير».

قال الشوكاني[1]: وفائدة ذكر نزوله من السماء مع كونه لا يكون إلاّ منها: أنّه لا يختص نزوله بجانب منها دون جانب. وإطلاق السماء على المطر واقع كثيراً في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

إذا نزلَ السماءُ بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غضابا

﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك الصيّب ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾؛ أي: أنواعٌ من ظلمات، وهي ظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر، وظلمة إظلال ما يلزمه من الغمام المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل وليس في الآية ما يدلُّ على ظلمة الليل، لكن يمكن أن يؤخذ ظلمة الليل من سياق الآية، حيث قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ وبعده ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾. فإنّ خطف البرق البصر، إنما يكون غالباً في ظلمة الليل، وكذا وقوف الماشي عن المشي، إنما يكون إذا اشتدت ظلمة الليل، بحيث يحجب الأبصار عن إبصار ما هو أمام الماشي من الطريق وغيره، وظلمةُ سَحْمَةِ السحاب وتكاثفه في النهار، لايوجب وقوف الماشي عن المشي. وجعل[2] المَطر محلاّ للظلمات، مع أنّ بعضها لغيره، كظلمة الغمام والليل؛ لما أنَّهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغةً في شِدّته، وتهويلاً لأمره، وإيذاناً بأنّه من الشدة والهول، بحيث تغمر ظلمته ظلمات الليل والغمام.

﴿وَرَعْدٌ﴾ هو صوتٌ قاصفٌ شديدٌ يسمع من السحاب، والصحيح الذي عليه المعوَّل: أنّه اسم لصوت الملك الذي يزجر السحاب، لما روى الترمذي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سألتِ اليهود النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ قال:

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

«ملكٌ من الملائكة بيده مخاريق» جمع مخراق: آلة تزجر الملائكة بها السحاب مثل السوط من نار، «يسوق بها السحاب حيث شاء الله»، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي نسمعُ؟ قال: «زَجْرهُ بالسحاب إذا زَجَرَه حتى ينتهي إلى حيث أمر»، قالت: صدقت. الحديث بطوله، وفي إسناده مقال. فالمراد بالرعد في هذه الآية: صوت ذلك الملك لا عينه، كما في بعض الروايات: من أنّ الرعد: ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر، وأنّه يجوز الماء في نقرة إبهامه، وأنّه يسبّح الله، فإذا سبّح الله لا يبقى ملك في السماء إلاّ رفع صوته بالتسبيح، فعندها ينزل المطر.

قال القرطبيُّ: وعلى هذا التفسير أكثر العلماء، والمشهور عند الحكماء: أنَّ الرعد يحدث من اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض، أو من إقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها بسوق الرياح إياها سوقاً عنيفاً، وإلى هذا ذهب جمعٌ من المفسرين تبعاً للفلاسفة، وجهلة المتكلمين.

﴿وَبَرْقٌ﴾ وهو لمعانٌ يظهر من السحاب إذا تحاكَّت أجزاؤه، أو عند ضرب الملك السحاب بالمخاريق عند سوقه، وهي جمع مخراق، كما مرّ آنفاً، والمخراق في الأصل: ثوب يلفُّ، ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، وهي هنا: آلة تَزْجُرُ بها الملائكة السحاب. وكونهما؛ أي: الرعد والبرق في الصيّب مع أنَّ مكانهما السحاب، باعتبار كونهما في أعلاه ومُنْصَبِّه، وملتبسين في الجملة ووصول أثرهما إليه، فهما فيه.

والضمائر في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ للمضاف المحذوف في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ لأنّ التقدير: أو كأصحاب صيّب، كما مرّ. وهو وإن حذف لفظه وأقيم الصيب مقامه، لكن معناه باق، فيجوز أن يعود عليه الضمير، ولا محلَّ لهذه الجملة؛ لكونها مستأنفة استئنافاً بيانياً، لأنّه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن الشدة والهول، فكأنَّ قائلاً قال: كيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: يجعلون أصابعهم في آذنهم، والمراد: أناملهم، وفيه من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل، كأنّهم يدخلون من شدّة الحيرة أصابعهم كُلَّها في آذانهم لا أناملها

فحسب، كما هو المعتاد. ويجوز[1] أن يكون هذا إيماءً إلى كمال حيرتهم، وفرط دهشتهم، وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح على النهج المعتاد، وكذا الحال في عدم تعيين الأصبع المعتاد؛ أعني: السبّابة. وقيل: لرعاية الأدب؛ لأنّها فعَّالةٌ من السبّ، فكأن اجتنابها أولى بآداب القرآن. ألا ترى أنّهم قد استبشعوها فكنوا عنها بالمسبحة والمهلِّلة، وغيرهما، ولم يذكر من أمثال هذه الكنايات؛ لأنّها ألفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد. وإطلاق الأصبع على بعضها ـ وهو الأنملة ـ مجاز مشهور، والعلاقة الجزئية والكلية؛ لأنّ الذي يجعل في الأذن، إنما هو رأس الأصبع لا كلها.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ متعلّق بيجعلون؛ أي: يجعلون من أجل خوف الصواعق المقارنة للرعد. والصواعق[2]: ويقال لها: الصواقع، جمع صاعقة، وهي قطعة نار، تنفصل من مخراق الملك الذي يزجر السحاب عند غضبه على السحاب وشدة ضربه لها، كما روي: إذا اشتدَّ غضبه على السحاب طارت من فيه النار، فتضطرب أجرام السحاب، وترتعد. اهـ. «كرخي».

ويدلُّ على ذلك: ما في حديث ابن عباس الذي ذكرنا بعضه قريباً، وبه قال كثير من علماء الشريعة، ومنهم من قال: إنها نار تخرج من فم الملَك، وقال الخليل: هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحياناً قطعة نار، تحرق ما أتت عليه. وقال أبو زيد: الصاعقةُ: نار تسقط من السماء في رعد شديد، وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة: ومن قال بقولهم: إنّها نار لطيفة تنقدح من السحاب إذا اصطكَّت أجرامها، وسيأتي في (سورة الرعد) إن شاء الله تعالى في تفسير الرعد، والبرق، والصواعق، ماله مزيد فائدةٍ وإيضاح.

وقوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ﴾ منصوب[3] بيجعلون على أنّه مفعول لأجله؛ أي:

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) البروسوي.

يجعلونها في آذانها؛ لأجل مخافة الهلاك من سماعها. والموت: فساد بنيَة الحيوان، أو عرضٌ لا يصحُّ معه إحساسٌ معاقبٌ للحياة.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ﴾ أصل الإحاطة: الإحداق بالشيء من جميع جهاته، بحيث لا يفوت المحاط به المحيط بوجه من الوجوه؛ أي: والله سبحانه محيط محدق ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بعلمه وقدرته، لا يفوتونه، كما لا يفوت المحاط به المحيط حقيقة، فيحشرهم يوم القيامة، ويعذّبهم، وهذه الجملة اعتراضية منبهة، على أنَّ ما صنعوا من سَدِّ الآذان بالأصابع لا يغني عنهم شيئاً، فإنّ القدر لا يدافعه الحذر، والحيل لا تردُّ بأس الله عز وجلّ. وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع إلى أصحاب الصيّب؛ الإيذان بأنَّ ما دهمهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم.

وحاصل معنى الآية[1]: صفة هؤلاء المنافقين في حيرتهم ودهشتهم، كصفة أصحاب مطر شديد نازل من السماء ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾؛ أي: مع ذلك المطر ظلمات متكاثفة مجتمعة من ثلاثة أنواع: ظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الليل. ﴿و﴾ معه ﴿رعد﴾ قاصف؛ أي: شديد، وهو صوت الملك الموكل بالسحاب، ﴿و﴾ معه ﴿برق﴾ خاطف؛ أي: مسرع، وهو لمعان سوطه التي يسوق بها السحاب، وهي من نار ﴿يَجْعَلُونَ﴾؛ أي: يجعل أصحاب الصيّب أصابعهم؛ أي: رؤوس أصابعهم ويضعونها في آذانهم ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾؛ أي: من أجل شدّة صوت الرعد. فـ (أل) في ﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ للعهد الذكري؛ لأنّه تقدم ذكرها بعنوان الرعد، فهي عين الرعد السابق، فالتعبير هنا بالصواعق، وهناك بالرعد؛ للتفنّن، ولا يضرُّ في العهد الذكري اختلاف العنوان، كما هو مقرر في محلّه، كما في «الجمل». ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: لأجل خوف الموت والهلاك من سماعها. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: محيط بهم بقدرته وعلمه، وهم في قبضته، وتحت إرادته ومشيئته، لا يفوتونه، كما لا يفوت من أحاط به الأعداء من كلّ جانب.

---

(١) عمدة التفاسير.

والمعنى: أي والله مطّلع على أسرارهم، عالم بما في ضمائرهم، قادر على أخذهم أينما كانوا، فما صنعوا من سدّ الآذان بالأصابع لا يغني عنهم من الله شيئاً، إذ لا يغني حذر من قدر، فمن لم يمت بالصاعقة مات بغيرها.

وقوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ من تمام المَثَل، وأمّا قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فجملة معترضة بين أجزاء المشبّه به، كما مرّ قريباً، جيء بها تسلية للنبي ﷺ؛ أي: يقرب البرق لشدّته وقوته، وكثرة لمعانه ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ أي: يختلس أبصار أصحاب الصيّب ويستلبها، ويأخذها بسرعة، ويذهبها من شدّة ضوئه. وجملة يكاد مستأنفة استئنافاً بيانياً، واقعاً في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: فكيف حالهم مع ذلك البرق؟ فقيل: يكاد ذلك البرق يخطف أبصارهم.

وقرأ مجاهد، وعليّ بن الحسين، ويحيى بن زيد[1]: ﴿يخْطِف﴾ بسكون الخاء وكسر الطاء. قال ابن مجاهد: وأظنه غلطاً، واستدل على ذلك: بأنّ أحداً لم يقرأ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ بالفتح. وقال الزمخشري: الفتح - يعني في المضارع - أفصح. انتهى. والكسر في طاء الماضي لغة قريش، وهي أفصح، وبعض العرب يقول: خطَف بفتح الطاء يخطف بالكسر. قال ابن عطيّة: ونسب المهدوي هذه القراءة إلى الحسن، وأبي رجاء، وذلك وهْم. وقرأ علي، وابن مسعود ﴿يختطف﴾. وقرأ أبيّ ﴿يتخطّف﴾، وقرأ الحسن أيضاً ﴿يَخَطّف﴾ بفتح الياء والخاء والطاء المشددة. وقرأ الحسن أيضاً، والجحدري، وابن أبي إسحاق ﴿يَخَطِّف﴾ بفتح الياء والخاء وتشديد الطاء المكسورة، وأصله: ﴿يختطف﴾، وقرأ الحسن أيضاً، وأبو رجاء، وعاصم، والجحدري وقتادة ﴿يَخِطّف﴾ بفتح الياء وكسر الخاء والطاء المشددة. وقرأ أيضاً الحسن، والأعمش ﴿يِخِطِّف﴾ بكسر الثلاثة وتشديد الطاء. وقرأ زيد بن علي ﴿يُخَطِّف﴾ بضمّ الياء وفتح الخاء وكسر الطاء المشددة، من (خطّف) المضعف، وهو تكثير مبالغة لا تعدية. وقرأ بعض أهل المدينة ﴿يَخْطِّف﴾ بفتح الياء وسكون الخاء وتشديد الطاء المكسورة.

---

(١) البحر المحيط.

والتحقيق: أنّه اختلاسٌ لفتحة الخاء لا إسكان؛ لأنّه يؤدّي إلى التقاء الساكنين على غير حدّة، فهذا الحَرْف قُرىء عَشْرُ قراءات، واحدةٌ سبعيّةٌ، وهي ﴿يَخْطَفُ﴾ بفتح الياء وسكون الخاء وفتح الطاء، وباقيها شواذّ. ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ﴾ ولمع البرق ﴿لَهُم﴾ أي: لأصحاب الصيّب. ولفظ[1] ﴿كُلَّمَآ﴾ ظرف زمان، ضمّن معنى الشرط، والعامل فيه جوابه، وهو ﴿مَّشَوْاْ﴾. و﴿أَضَآءَ﴾ متعد؛ أي: كلّما أنار البرق الطريق في الليلة المظلمة، وهو استئناف ثالث، كأنّه قيل: كيف يصنعون في تَارَتي خُفُوقِ البرق وخُفْيَتِهِ؟ أيفعلون بأبصارهم ما يفعلون بآذانهم أم لا؟ فقيل: كلّما نوَّر البرق لهم ممشًى ومسلكاً ﴿مَّشَوْاْ فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك المسلك؛ أي: في مطرح نوره خطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم، وإيثار المشي على ما فوقه من السعي والعدو؛ للإشعار بعدم استطاعتهم لهما لكمال دهشتهم. وهذا تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين بشدَّته على أهل الصيِّب. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿مضوا فيه﴾.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ﴾ البرق ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: خفي، واستتر، فصار الطريق مظلماً ﴿قَامُواْ﴾؛ أي: وقفوا في أماكنهم، وثبتوا على ما كانوا عليه من الهيئة، متحيّرين، مترصّدين لحظة أخرى عسى يتسنّى لهم الوصول إلى المقصد، أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم. وقرأ زيد بن قطيب، والضحاك ﴿وإذا أُظْلِم﴾ مبنياً للمفعول، ذكره في «البحر».

وهذا تصوير[2] لما هم فيه من غاية التحير والجهل، فإذا صادفوا من البرق لمعة، مع خوفهم أن يخطف أبصارهم انتهزوها فرصة، فيخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي، واستتر، وفتر لمعانه، وفقد: وقفوا عن السَّيْر، وثبتوا في مكانهم؛ خشية التردّي في حفرة، فكذلك المنافقون لمّا آمنوا بألسنتهم مشوا فيما بين المؤمنين؛ لأنّه يقبل إيمانهم اللسانيُّ، فلما ماتوا بقوا في ظلمة القبر والعذاب.

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مفعوله[١] محذوف، تقديره: أي: ولو أراد الله سبحانه أن يُذهب الأسماع التي في الرأس، والأبصار التي في العين، كما ذهب بسمع قلوبهم وأبصارها ﴿لَذَهَبَ﴾؛ أي: لأذهب سبحانه ﴿بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾؛ أي: لأذهب الأسماع بصوت الرعد، والأبصار بنور البرق عقوبة لهم؛ لأنّه لا يعجز عن ذلك؛ أي: لزاد في قصف الرعد، فأصمَّهم، وأذهب أسماعهم، ولزاد في ضوء البرق فأعماهم، وأذهب بأبصارهم، لكنّه لم يشأ؛ لحِكَم ومصالح هو بها عليم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ شاءه وأراده؛ أي: على كلّ موجود بالإمكان، والله تعالى وإن كان يطلق عليه الشيء، لكنه موجود بالوجوب دون الإمكان، فلا يشكّ العاقل، أنّ المراد من الشيء في أمثال هذا الموضع ما سواه تعالى، فالله تعالى مستثنى في الآية مما يتناوله لفظ الشيء بدلالة العقل، فالمعنى: على كلّ شيء سواه قدير، كما يقال: فلان أمين، على معنى: أمين على من سواه من الناس، ولا يدخل فيه نفسه، وإن كان من جملتهم، كما في «حواشي ابن التمجيد». ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: فاعل له على قدر ما تقتضيه حكمته لا ناقصاً ولا زائداً؛ أي: قادر على إيجاده وإعدامه لا منازع له فيه، ومنه إذهاب أسماعهم وأبصارهم. قال ابن جرير: وإنّما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كلّ شيء في هذا الموضع؛ لأنّه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنّه محيط بهم، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر. اهـ.

وقرأ ابن أبي عبلة[٢]: ﴿لأذهب بأسماعهم وأبصارهم﴾، فالباء زائدة، التقدير: لأذهب أسماعهم وأبصارهم.

ثمّ اعلم[٣]: أنّ هذا التمثيل كشف بعد كشف، وإيضاح بعد إيضاح، أبلغ

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

من الأوّل. شبّه الله حال المنافقين في حيرتهم، وما خبطوا فيه من الضلالة، وشدّة الأمر عليهم، وخزيهم، وافتضاحهم بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد، وبرق، وخوف من الصواعق والموت.

هذا إذا كان التمثيل مركباً، وهو الذي يقتضيه جزالة التنزيل، فإنّك تتصوَّر في المركَّب، الهيئة الحاصلة من تفاوت تلك الصور، وكيفياتها المتضامَّة، فيحصل في النفس منه ما لا يحصل من المفردات، كما إذا تصوّرت من مجموع الآية، مكابدة من أدركه الوابل الهطل، مع تكاثف ظلمة الليل وهيئة انتساج السحاب بتتابع القطر، وصوت الرعد الهائل، والبرق الخاطف، والصاعقة المحرقة، ولهم من خوف هذه الشدائد حركَاتُ مَنْ تَحذَّر الموتَ. حصل لك منه أمْرٌ عجيبٌ، وخَطْبٌ هائل، بخلاف ما[1] إذا تكلَّفت لواحدٍ واحدٍ مشبَّهاً به. يعني: إن حمل التمثيل على التشبيه المفرَّق، فشبه القرآن، وما فيه من العلوم والمعارف التي هي مدار الحياة الأبدية بالصيّب الذي هو سبب الحياة الأرضية، وما عرض لهم بنزوله من الغموم، والأحزان، وانكساف البال بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد، بالرعد والبرق، وتصاممهم عمَّا يقرع أسماعهم من الوعيد، بحال من يهوّله الرعد والبرق، فيخاف صواعقه، فيسد أذنه، ولا خلاص له منها، واهتزازهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه، أو رفد يحرزونه، بمشيهم في مطرح ضوء البرق، كلما أضاء لهم، وتحيرهم في أمرهم، حين عَنَّ لهم مصيبةٌ بوقوفهم إذا أظلم عليهم. فهذه حال المنافقين، قصارى عمرهم الحيرة والدهشة. فعلى العاقل أن يتمسَّك بحبل الشرع القويم، والصراط المستقيم، كي يتخلَّص من الغوائل والقيود، ومهالك الوجود، وغاية الأمر خَفِيَّةٌ لا يدري بم يختم.

الإعراب

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾.

﴿وَمِنَ﴾ الواو استئنافية. ﴿من الناس﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَن﴾ اسم

---

(١) البروسوي.

موصول بمعنى الذي، أو نكرة موصوفة بمعنى فريق، في محل الرفع مبتدأ مؤخّر. ﴿يَقُولُ﴾ فعل مضارع وفاعله مستتر، يعود على من، وجملة يقول صلة من الموصولة، لا محلّ لها من الإعراب، إن قلنا: ﴿مَن﴾ موصولة، تقديره: والذي يقول آمنا بالله كائن من الناس. أو في محل الرفع صفة لمن، إن قلنا: ﴿مَن﴾ نكرة موصوفة، تقديره: وفريق يقول آمنا بالله كائن من الناس. والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ﴿يَقُولُ﴾. وردّه[1] أبو السعود فقال: أمّا جعل الظرف خبراً مقدماً، كما هو الشائع في الاستعمال، فيأباه جزالة معنى القرآن؛ لأنّ كون القائل: آمنا بالله من الناس ظاهر معلوم، فالإخبار به عارٍ عن الفائدة، والحقّ أن يقال في إعرابه: ﴿مِن﴾ اسم بمعنى: بعض في محل الرفع مبتدأ، مبني بسكون مقدر؛ لشبهها بالحرف شبهاً وضعياً، و﴿مِن﴾ مضاف. ﴿ٱلنَّاسِ﴾ مضاف إليه مجرور بها. ﴿مَن يَقُولُ﴾ مَن اسم موصول، أو موصوف في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكن المقصود بالإخبار الصلة لا الموصول، والمعنى: وبعض الناس يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الخ. والجملة الإسمية على كلا التقديرين مستأنفة استئنافاً نحوياً، لا محل لها من الإعراب. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ مقول محكيّ ليقول، لأنّ مرادنا لفظه لا معناه، والمقول منصوب بالقول، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الأخير، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية. وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، وحدّ الفعل آمن، آمن فعل ماض مبني بفتحة ظاهرة على النون المدغمة في نون نا. ﴿نا﴾ ضمير لجماعة المتكلمين في محل الرفع فاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلّق بآمنا، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ليقول. ﴿وَبِٱلۡيَوۡمِ﴾ جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿ٱلۡأٓخِرِ﴾ صفة لليوم. ﴿وَمَا﴾ الواو حالية. ﴿مَا﴾ نافية حجازية، تعمل عمل ليس. ﴿هُم﴾ ضمير منفصل لجماعة الغائبين في محل الرفع اسمها. ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ الباء حرف جرّ زائد للتوكيد؛ لأنّه ليس في القرآن حرف زائد خال عن الفائدة. ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ خبر ما الحجازية، منصوب وعلامة نصبة الباء المقدرة، منع من

(١) الصاوي والجمل.

ظهورها الياء المجلوبة لحرف جرّ زائد؛ لأنّه من الجمع المذكر السالم، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل يقول.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾.

﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والواو فاعل. ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به، منصوب بالفتحة، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لوقوعها في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: ما الحامل لهم على إظهار الإيمان وإخفاء الكفر؟ فأجاب بقوله: لأنّهم يريدون مخادعة الله سبحانه والمؤمنين. أو بدل من صلة من في قوله: ﴿مَن يَقُولُ﴾ بدل اشتمال؛ لأنّ قولهم ذلك مشتمل على الخداع؛ أي: ومن الناس من يقول آمنا بالله ويخادع الله والذين آمنوا. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب معطوف على الجلالة، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول. ﴿وَمَا﴾ الواو حالية. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿يَخۡدَعُونَ﴾ فعل وفاعل، مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب حال من فاعل يخادعون؛ أي: يخادعون الله والمؤمنين حال كونهم غير مخادعين إلاّ أنفسهم. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ مفعول به، وهو مضاف، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿وَمَا﴾ الواو حالية، أو استئنافية، أو عاطفة. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل يخدعون؛ أي: وما يخدعون إلاّ أنفسهم حالة كونهم غير شاعرين بذلك، أو مستأنفة، أو معطوفة على جملة يخدعون، ومفعول ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ محذوف للعلم به، تقديره: وما يشعرون أنّ خداعهم راجع إلى أنفسهم، ويسمّى هذا الحذف حذف اختصار. وهو حذف الشيء لدليل.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾.

﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، خبر مقدم. ﴿مَّرَضٞ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الفاء عاطفة. ﴿زادهم الله﴾ فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿مَرَضٗاۖ﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ عطف فعلية على اسمية. ويحتمل أن تكون الفاء استئنافية، وتكون جملة ﴿زادهم﴾ جملة دعائية لا

محل لها من الإعراب. ﴿وَلَهُمْ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية. ﴿لهم﴾ خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخّر. ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة معطوفة على جملة قوله في قلوبهم مرض، أو مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنّه قيل: ما عاقبة خداعهم؟ فقال: عاقبتهم عذاب أليم. ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جرّ وسبب. ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْذِبُونَ﴾ في محل النصب خبر كان؛ أي: بما كانوا كاذبين أو مكذبين، وجملة كان صلة (ما) المصدرية، وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالياء؛ أي: بسبب كذبهم أو تكذيبهم، الجار والمجرور متعلّق بالنسبة الكائنة بين المبتدأ والخبر في قوله: ولهم عذاب أليم، أو صفة ثانية لعذاب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه، منصوب بجوابه متعلّق بالجواب الآتي. ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلّق بقيل. ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ﴾ نائب فاعل محكي لقيل؛ لأنّ مرادنا لفظه لا معناه، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾ ناهية جازمة. ﴿تُفْسِدُواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلّق بتفسدوا، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لقيل، ولكنّها لا تؤول بمفرد؛ لأنّها محكية، وجملة قيل في محل الجرّ مضاف لإذا على كونها فعل شرط لها. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة، أو معطوفة على جملة يقول الواقعة صلة لمن الموصولة. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ مقول محكيّ لقالوا، منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الأخير منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ونفي بمعنى (ما) النافية، وإلاّ المثبتة. ﴿نَحْنُ﴾ ضمير لجماعة المتكلمين في محل الرفع مبتدأ. ﴿مُصْلِحُونَ﴾ خبر مرفوع بالواو، والجملة الإسمية في محل النصب مقول لقالوا. ﴿أَلَآ﴾ حرف استفتاح وتنبيه. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل حرف لا محل له من الإعراب، أو

حرف عماد. ﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ خبر إنّ مرفوع بالواو. أو ﴿هُمُ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ خبره، وجملة المبتدأ مع خبره في محل الرفع خبر إنّ، وجملة إن مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك لا عمل لها. ﴿لَّا﴾ نافية. ﴿يَشْعُرُونَ﴾ فعل وفاعل، مرفوع بثبات النون، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة إنّ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه، متعلّق بالجواب الآتي. ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، مبني على الفتح. ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بقيل. ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ نائب فاعل محكي لقيل؛ لأنّ مرادنا لفظه لا معناه، مرفوع، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على الأخير منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية، وجملة قيل في محل الجرّ مضاف إليه لإذا على كونه فعل شرط لها. وإن شئت قلت: ﴿ءَامِنُوا۟﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لقيل، ولكنّها لا تؤوّل؛ لأنّها محكية. ﴿كَمَآ﴾ الكاف حرف جرّ وتشبيه. ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما المصدرية، وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: آمنوا إيماناً كائناً، كإيمان الناس في كونه قلبيّاً لا لسانيّاً. ﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة، أو معطوفة على جملة يقول كسابقتها. ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ مفعول محكي لقالوا، منصوب بفتحة مقدرة. وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام الإنكاري. ﴿نؤمن﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر يعود على المنافقين، تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا. ﴿كَمَآ﴾ الكاف حرف جرّ وتشبيه. ﴿ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما المصدرية، وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور متعلّق بمحذوف صفة لمصدر

محذوف، تقديره: أنؤمن إيماناً كائناً كإيمان السفهاء؛ أي: لا نؤمن. ﴿أَلَآ﴾ حرف استفتاح وتنبيه. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، أو حرف عماد. ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ خبر إنّ أو ﴿هُمُ﴾ مبتدأ. و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ خبره، والجملة خبر إنّ، وجملة إنّ مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك. ﴿لَّا﴾ نافية. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة إنّ.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو استئنافية أو عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلّق بالجواب الآتي، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿قَالُوٓا۟﴾ جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة، أو معطوفة على جملة يقول كسوابقها. ﴿ءَامَنَّا﴾ مقول محكيّ لقالوا منصوب بفتحة مقدرة، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول قالوا. ﴿وَإِذَا﴾ الواو استئنافية أو عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان متعلّق بالجواب الآتي. ﴿خَلَوْا۟﴾ فعل وفاعل في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ متعلّق بخَلَوا. ﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، جواب إذا، وجملة إذا مستأنفة، أو معطوفة على جملة يقول كسوابقها. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ مقول محكيّ لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مَعَكُمْ﴾ مع منصوب على الظرفية الاعتبارية بالفتحة الظاهرة. ﴿مع﴾ مضاف، والكاف ضمير المخاطبين في محل الجرّ مضاف إليه، مبني على الضمّ، والميم حرف دالّ على الجمع، والظرف متعلّق بمحذوف خبر إنا، تقديره: إنّا كائنون معكم، وجملة إنا في محلّ النصب مقول قالوا. ﴿إِنَّمَا﴾ كافّة ومكفوفة. ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ. ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ خبر المبتدأ مرفوع بالواو، والجملة في محل النصب مقول قالوا.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿بِهِمْ﴾ متعلّق بيستهزىء، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة. ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة يستهزىء، على كونها خبر المبتدأ. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ متعلّق بيمدهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير يمدهم، أو من ضمير طغيانهم، وجاءت الحال من المضاف إليه؛ لأنّ المضاف مصدر مضاف إلى فاعله.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ. ﴿الَّذِينَ﴾ خبره، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿اشْتَرَوُا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿الضَّلَالَةَ﴾ مفعول به. ﴿بِالْهُدَى﴾ متعلّق باشتروا. ﴿فَمَا﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿رَبِحَت﴾ فعل ماض، و(التاء) لتأنيث الفاعل. ﴿تِّجَارَتُهُمْ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة اشتروا. ﴿وَمَا﴾ الواو عاطفة. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿كَانُوا﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مُهْتَدِينَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ربحت. ﴿مَثَلُهُمْ﴾ مبتدأ ومضاف إليه. ﴿كَمَثَلِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: مثلهم كائن كمثل الذي استوقد ناراً، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿مثل﴾ مضاف. ﴿الَّذِي﴾ اسم موصول في محل الجرّ مضاف إليه. ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول، واستعمل ﴿الَّذِي﴾ في موضع الذين، ولذلك قال فيما بعد: ﴿بِنُورِهِمْ﴾. ﴿نَارًا﴾ مفعول به. ﴿فَلَمَّا﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب. ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿أَضَاءَتْ﴾ فعل ماض، والتاء علامة تأنيث الفاعل، وفاعله ضمير مستتر يعود على النار، والجملة فعل شرط للمّا لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى المكان في محلّ النصب، مفعول به. ﴿حَوْلَهُ﴾ منصوب على الظرفية المكانية. ﴿حول﴾ مضاف، والهاء

مضاف إليه، والظرف متعلّق بمحذوف صلة لما، تقديره: ما استقرّ حوله. ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب لما، وجملة لما من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة أستوقد، على كونها صلة الموصول. ﴿بِنُورِهِمْ﴾ متعلّق بذهب. ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على الله، ومفعول أول؛ لأنّ (ترك) هنا بمعنى صيّر. ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ جار ومجرور متعلّق بترك على كونه مفعولاً ثانياً له، تقديره: وصيّرهم كائنين في ظلمات، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ذهب، ﴿لَّا﴾ نافية. ﴿يُبْصِرُونَ﴾ فعل وفاعل، مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب حال من ضمير تركهم، أو من الضمير المستكن في الجار والمجرور؛ أعني: في ظلمات، ومفعول يبصرون محذوف، تقديره: ما حولهم، ويحتمل كون (ترك) بمعنى: خلّى وأهمل، فيتعدّى إلى مفعول واحد، وهو الضمير البارز في تركهم وفي ظلمات لا يبصرون حالان من الضمير في تركهم.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿صُمٌّۢ﴾ خبر لمبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: هم صمّ، والجملة مستأنفة. ﴿بُكْمٌ﴾ خبر ثان. ﴿عُمْىٌ﴾ خبر ثالث، وهذه الأخبار وإن تباينت في اللفظ متحدة في المدلول والمعنى؛ لأنّ مآلها إلى عدم قبول الحقّ مع كونهم سُمْعَ الآذان، فصحاء الألسن، بصراء الأعين. فليس المراد نفي الحواسّ الظاهرة. وقرىء شاذّاً بالنصب على الحال من الضمير في ﴿يُبْصِرُونَ﴾. ﴿فَهُمْ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع. ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محلّ الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية معطوفة على جملة قوله: (هم صمّ بكم عمي).

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أو حرف عطف وتفصيل؛ أي: إنّ الناظرين في حالهم منهم مَنْ يُشبِّهُهم بحالِ المستوقد، ومنهم من يُشبِّههم بأصحاب صيب. ﴿كَصَيِّبٍ﴾ جار ومجرور معطوف على كمثل، ولا بدّ من تقدير مضاف؛ أي: كأصحاب صيّب، بدليل قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ على كونه خبر المبتدأ، تقديره: أو مثلهم كائن كمثل أصحاب صيّب. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور متعلق

بمحذوف صفة لصيّب، تقديره: نازل من السماء. ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لقوله: ظلمات، و﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخّر، مرفوع بالضمة الظاهرة، ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ معطوفان على ظلمات، والتقدير: ظلمات ورعد وبرق كائنات في ذلك الصيّب، والجملة الإسمية في محلّ الجر صفة ثانية لصيّب، تقديره: موصوف بكون ظلمات ورعد وبرق فيه. ﴿يَجْعَلُونَ﴾ فعل وفاعل، مرفوع بثبات النون، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، واقعاً في جواب سؤال مقدر، فكأنّه لما ذكر ما يؤذن بالشدة والهول قيل: فكيف حالهم مع ذلك الرعد القاصف؟ فأجاب بقوله: يجعلون... إلخ. ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بيجعلون على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جار ومجرور متعلّق بيجعلون. و﴿مِّنَ﴾ سببيّة. ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول لأجله ليجعلون، وهو مضاف. ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو اعتراضية. ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿مُحِيطٌۢ﴾ خبره. ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلّق بمحيط، والجملة الإسمية جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين جملتين من أجزاء المشبّه به، وهما: يجعلون أصابعهم، ويكاد البرق.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَكَادُ﴾ فعل مضارع من أفعال المقاربة تعمل عمل كان، وفيها لغتان: فَعِلَ وفَعُلَ، ولذلك يقال فيها عند اتصال ضمير الرفع بماضيه: كدت كبعت، وكدت كقلت. ﴿ٱلْبَرْقُ﴾ اسمها مرفوع. ﴿يَخْطَفُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر فيه جوازاً، تقديره: هو، يعود على البرق، وجملة يخطف في محل النصب خبر يكاد، وجملة يكاد مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنّه قيل: ما حالهم مع تلك الصواعق؟ فأجاب بقوله: يكاد البرق، أو معطوفة بعاطف مقدر على يجعلون. ﴿أَبْصَٰرَهُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿كُلَّمَآ﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلق بالجواب، وهو ﴿مَّشَوْا۟﴾ ﴿أَضَآءَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على البرق. ﴿لَهُم﴾ متعلق بأضاء، والجملة الفعلية فعل شرط لكلما، لا محل لها من

الإعراب. ﴿مَّشَوۡاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بمشوا، والجملة الفعلية جواب كلما لا محل لها من الإعراب، وجملة كلما من فعل شرطها وجوابها مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب، كأنّه قيل: ما يفعلون في حالتي خفوق البرق وخفيته؟ فأجاب بذلك. وهذا أصحّ ما قيل في إعراب كلّما، كما في كتب النحاة، كما بسطناه في تفسيرنا «عمدة التفاسير والمعربين». ﴿وَإِذَآ﴾ إذا ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه. ﴿أَظۡلَمَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير مستتر فيه جوازاً، تقديره: هو، يعود على البرق، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلّق بأظلم. ﴿قَامُواْۚ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا معطوفة على جملة كلما على كونها مستأنفة. ﴿وَلَوۡ﴾ الواو استئنافية. ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: ذهاب سمعهم وأبصارهم. والجملة الفعلية فعل شرط للو. ﴿لَذَهَبَ﴾ اللام رابطة لجواب لو الشرطية. ﴿ذهب﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على الله. ﴿بِسَمۡعِهِمۡ﴾ جار ومجرور متعلّق بذهب. ﴿وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ معطوف على سمعهم، وجملة ذهب جواب لو، لا محل لها من الإعراب، وجملة لو الشرطية مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلّق بقدير، و﴿قَدِيرٞ﴾ خبره، وجملة إنّ مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الناس اسم جمع، لا واحد له من لفظه، ومادّته عند سيبويه والفرّاء همزة ونون وسين، وحذفت همزته شذوذاً، وأصله: أناس، وقد نطق القرآن بهذا الأصل، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾. وذهب الكسائي إلى أنّ مادّته: نون وواو وسين، مشتق من النوس، وهو الحركة، يقال: ناسَ ينوس نوسا، والنَّوْسُ: تذبذبُ الشيء في الهواء، ومنه: نوس القرط في الأذن، وسمي أبو نواس بذلك؛ لأنَّ ذؤابتين له كانتا تنوسان عند أذنيه، واسمه

الحقيقي الحسن بن هانىء. وإنَّما أطلنا في هذا البحث؛ لأنَّ بعض المعاجم الحديثة خلط في أصله، فأوردوه في مادة أنس، وبعضها أورده في مادة نوس، وأضاعوا بذلك الطالب والمراجع في متاهات لا منافذ منها. اهـ. درويش. وقيل: أصله من نسي، فوقع فيه القلب المكاني بتقديم الياء على السين، فصار نيس بوزن فعل، تحركت الياء عندئذٍ وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً، فقيل: ناس، فدخلت الألف واللام للتعريف، فصار الناس. وعلى هذا سمُّوا بذلك لنسيانهم، ووزن الفعل عليه فلع، وعلى القول الأول وزنه فعالٌ، وعلى القول الثاني أجوف واويٌّ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً، وقيل غير ذلك.

﴿مَن يَقُولُ﴾ أصله: يَقْوُل بوزن يفعُل، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت الواو، فصارت حرف مدّ. ﴿ءَامَنَّا﴾ أصله: أأمنَّا بوزن أفعلنا، أبدلت الهمزة الثانية حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى، وهكذا كُلّ همزة ساكنة وقعت فاءً للفعل ودخلت عليها همزة مفتوحة، وقوله ﴿الآخر﴾، الألف فيه مبدلة من همزة ساكنة.

﴿يُخَدِعُونَ﴾ الخداع في الأصل: الإخفاء. ومنه سُمِّي البيت المفرد في المنزل مخدعاً تُسْتَرُ أهلُ صاحب المنزل فيه، ومنه: الأخدعان: وهما العرقان المستبطنان في العنق، وسمّي الدهر خادعاً؛ لما يخفي من غوائله.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الشعور؛ إدراك الشيء من وجه يدقُّ ويخفى، وهو مشتقّ من الشعر لدقّته، كما مرّ. وقيل: هو الإدراك بالحاسَّةِ، فهو مشتق من الشعار، وهو ثوبٌ يلي الجسد، ومشاعر الإنسان حواسه، وشَعَرَ بالأمر من بابي: نصر وكرم: علم به وفطن له، ومنه يسمي الشاعر شاعراً؛ لفطنته ودقَّةِ معرفته. والتحقيق: أنَّ الشعور إدراك ما دَقَّ من حسي وعقلي.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المرض مصدر مَرِض، ويطلق في اللغة على الضعف والفتور، وقالوا المرض في القلب: الفتور عن الحقّ، وفي البدن فتور الأعضاء، وفي العين فتور النظر. ويطلق المرض فيراد به الظلمة، كقوله:

فـي لَـيْـلَـةٍ مَـرِضَـتْ مِـنْ كُـلِّ نَـاحِـيَـةٍ   فـمـا يُـحـسُّ بـهـا نَـجْـمٌ ولا قَـمَـرُ

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ وزاد يستعمل لازماً ومتعدياً لاثنين، ثانيهما غير الأول، كأعطىٰ وكَسَا، فيجوز حذف مفعوليه وأحدهما اختصاراً واقتصاراً، فالأول حذف لدليل والثاني حذف بلا دليل، تقول: زاد المال فهو لازم، وزدت زيداً خيراً، ومنه: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ وزدتُ زيداً ولا تذكر ما زدتَه، وزدتُ مالاً ولا تذكر من زدته، وألف زاد منقلبةٌ عن ياءٍ لقولهم: يزيد. اهـ. «سمين». وأصل زاد زَيَد بوزن فعل بفتح العين، يفعِل بكسرها يائي العين، نظير باع يبيع، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ من أَلِمَ من باب طرب، فهو أليم، كوَجِع فهو وجيع؛ أي متألم ومتوجع. ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ الباء سببية، وما يجوز أن تكون مصدرية؛ أي: بكونهم يكذبون، وهذا على القول: بأنْ كان لها مصدر، وهو الصحيح عند بعضهم للتصريح به في قول الشاعر:

بِبَذلٍ وحِلْمٍ سَادَ في قومه الفَتَى وكونُك إيَّاه عليك يَسِيرُ

وقد صرَّح بالكون، وعلى هذا فلا حاجة إلى ضمير عائد على ما؛ لأنّها حرف مصدري على الصحيح، خلافاً للأخفش وابن السرَّاج، في جعل ما المصدرية اسماً، ويجوز أن تكون بمعنى الذي، وحينئذٍ فلا بدَّ من تقدير عائد؛ أي: بالذي كانوا يكذبونه، وجاز حذف العائد لاستكمال الشروط وهو كونه متصلاً منصوباً بفعل، وليس ثمَّ عائد آخر. اهـ. «سمين». ﴿يكذبون﴾ قرىء بالتخفيف مضارع كذب الثلاثي، وقرىء بالتشديد مضارع كذَّب المضعف.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مبني للمجهول واوي العين، أصله: قُوِلَ استثقلت الكسرة على الواو، والانتقال من ضمّ إلى كسر، فحذفت حركة الفاء التي هي القاف، ونقلت إليها حركة العين التي هي الواو، فسكنت الواو إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ، وهكذا كلُّ فعل من هذا النوع معتل العين بني للمجهول. ﴿قَالُوٓاْ﴾ أصله: قَوَلوا، تحركت الواو وفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فصار: قالوا.

﴿لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والفساد: خروج الشيء عن حال استقامته،

ونقيضه: الصلاح. والفساد في الأرض: تهييج الحروب وإثارة الفتن، والإخلال بمعايش الناس. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ ألا: حرف تنبيه واستفتاح، وليست مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية، بل هي بسيطة، ولكنها لفظٌ مشترك بين التنبيه والاستفتاح، فتدخل على الجملة اسميةً كانت أو فعلية وبين العرض والتحضيض، فتختصُّ بالأفعال لفظاً أو تقديراً. اهـ. «سمين». ﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فيه حذف همزة أفعل من اسم الفاعل، كما تقدم في ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه، وهو المنسوب إلى السفه، والسفه: خِفّة رأيٍ، وسخافةٌ يقتضيها نقصان العقل، ومقابله الحلم، يقال: سفه بكسر الفاء وضمّها.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من اللقاء، وهو المصادفة، يقال: لقيته ولاقيته، إذا صادفته واستقبلته، ومنه: ألقيته إذا طرحته، فإنّك بطرحه جعلته بحيث يلقى. اهـ. «بيضاوي». وأصل لقوا: لقيُوا بوزن شربوا، استثقلت الضمة على الياء، ثمّ نقلت إلى ما قبلها بعد سلب حركته، فالتقى ساكنان، وهما الياء وواو الجماعة، ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين، ثمّ ضمّت القاف؛ لمناسبة الواو، فصار لقوا بوزن فعوا بعد أن كان على وزن فَعِلُوا.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ أصله: خَلَوُوا بوزن نصروا، تحركت الواو الأولى التي هي لام الكلمة وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً فالتقى ساكنان وهما الألف وواو الضمير، ثمّ حذفت الألف؛ لبقاء دالّها وهو فتحة اللام، فصار خلوا بوزن فَعَوا.

﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ جمع شيطان، نحو: غرانين في جمع غرنان، حكاه الفراء. والشيطان فيعالٌ عند البصريّين، فنونه أصليةٌ من شطن؛ إذا بعد، واسم الفاعل شاطن، قال أميّةُ:

أيُّما شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى في السِّجن، والأَكْبَالِ

وعند الكوفيّين وزنه فعلان، فنونه زائدة من شاط يشيط؛ إذا هلك، قال الشاعر:

قَدْ تَظْفَرُ العِيرُ في مَكْنُونِ قائلةٍ وقد تَشيطُ عَلى أَرْمَاحنا البُطَلُ

والشيطانُ: كلُّ متمرّد من الجنّ، والإنس، والدوابّ، قاله ابن عباس، وأنثاه: شيطانةٌ، قال الشاعر:

هي البَازِلُ الكَوْمَاءُ لا شَيْءَ غَيْرُها وشَيْطَانةٌ قَدْ جُنَّ منها جُنونُها

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ اسم فاعل من استهزأ السداسي، والاستهزاء بالشيء: السُّخرية منه يقال: هَزَأت واستهزأتُ بمعنى، وأصله: الخِفَّةُ من الهَزْءِ، وهو القَتْلُ السريعُ، وهزأ يهزأ: مات فجأةً، وتَهْزَأُ به ناقته؛ أي: تُسرع به وتخبُّ. اهـ. «أبو السعود».

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ من مدَّ الجيش من باب ردَّ، وأمده إذا زاده وقواه، ومنه: مددت السراج والأرض؛ إذا أصلحتهما بالزيت والسماد، أصله: يمددهم نقلت حركة الدال الأولى إلى الميم، فسكنت فأدغمت في الدال الثانية.

﴿فِي طُغْيَنِهِمْ﴾ الطُّغيانُ: مصدر طغى يطغى طُغياناً بضم الطاء، وطِغياناً بكسرها ولام طغى. قيل: ياءٌ وقيل: واوٌ. يقال: طغيت وطغوت، وأصل المادّة مجاوزة الحدّ، ومنه: قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ من العمه، وهو التردّد والتحيّر، وهو قريب من العمى، إلاّ أنّ بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً؛ لأنّ العمى يطلق على ذهاب ضوء العين، وعلى الخطأ في الرأي، والعمه لا يطلق إلاّ على الخطأ في الرأي، يقال عَمِهَ يعمه من باب طرب عمها وعمهاناً، فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ اهـ. «سمين».

﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الاشتراء، والشراء بمعنى: الاستبدال بالشيء والاعتياض منه، إلاّ أنّ الاشتراء يستعمل في الابتياع والبيع، وهو مِمَّا جاء فيه افتعل بمعنى: الفعل المجرّد، وهو أحد المعاني التي جاء لها افتعل، وأصل اشترى اشتَرَيَ بوزن افتعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً، ثُمَّ أسند الفعل إلى واو الجماعة فالتقى ساكنان: الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف وبقيت الفتحة دالَّةً عليها، ثُمَّ تحركت الواو لالتقائها ساكنة مع الساكن بعدها؛ لأنّ همزة الوصل ساقطة في الدرج، وخُصَّت بالضمة؛ لأنّها أخت الواو، وأخفُّ

الحركات عليها. وقرىء بكسرها على أصل التقاء الساكنين وبفتحها؛ لأنّه أخفُّ.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ الربح: ما يحصل من الزيادة على رأس المال. والتجارة: هي صناعة التاجر، وهو الذي يتصرَّف في المال لطلب النُّمو والزيادة. ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ أصله: كَوَنوا؛ لأنّه أجوف واويٌّ تحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. ﴿مُهۡتَدِينَ﴾ وزنه مفتعين، أصله: مهتديين بياءين: الأولى لام الكلمة، والثانية ياء إعراب الجمع، استثقلت الحركة على الياء، فحذفت فسكنت، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء الأولى لام الكلمة. وهو جمع مهتد، وهو اسم فاعل من اهتدى الخماسي، وافتعل فيه للمطاوعة، يقال: هديته فاهتدى، نحو: سويته فاستوى، وغممته فاغتم، والمطاوعة أحد المعاني التي جاءت لها افتعل، ولا يكون افتعل للمطاوعة، إلاّ إذا كان من الفعل المتعدّي.

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ المثل في أصل كلام العرب بمعنى: المِثْلِ، والمثيل، كالشَّبه والشِّبه والشبيه، وهو النظير، ويجمع المَثَل، والمِثْل على أمثال، قال اليزيدي: الأمثال: الأشباه، وأصل المثل؛ الوصف. يقال: هذا مثل كذا؛ أي: وصْفه مساوٍ لوصف الآخر بوجه من الوجوه. وأما المَثَل في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ فهو القول السائر الذي فيه غرابةٌ من بعض الوجوه، ولذلك حوفظ على لفظه فلم يُغيَّر، فيقال لكلّ من فرَّط في كل أمرٍ عسرٍ مُدْرَكُهُ: (الصيفَ ضيّعتِ اللبن) سواء كان المخاطب به مفرداً، أو مثنى، أو مجموعاً، أو مذكراً، أو مؤنّثاً. ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ﴾ والاستيقاد بمعنى: الإيقاد واستدعاء ذلك، ووقود النار: ارتفاع لهبها. ﴿وَٱلنَّارُ﴾: جوهر لطيف مُضيء حارٌّ محرق، والنار مؤنثة، وهي واويّة العين؛ لأنّ تصغيرها نُوير، والجمع نوَرٌ ونيرانٌ، وأصل الثاني نِوران، قلبت الواو ياء؛ لسكونها إثر كسرة، وعليه فوزنها فعل بفتح العين، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، وقِسْ على هذا ما ورد من هذا اللفظ.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ﴾ من الإضاءة، وهو الإشراق، وهو فرط الإنارة، أصله: أضوأ بوزن أفعل من الضوء، نقلت حركة حرف العلة (الواو) إلى الساكن الصحيح قبله (الضاد)، فتحركت الضاد بالفتح، ثم أبدلت الواو ألفاً؛ لتحركها في

الأصل، وانفتاح ما قبلها الآن، وقس على هذا ما شاكله من الأفعال: كاستجاب، وأصاب، وأناب، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ جموع كثرة على وزن فُعْلٍ، كأحمر وحمر. والصُّمّ جمع أصمّ، وهو الذي لا يسمع، يقال: صَمَّ يَصَمُّ بفتح الصاد فيهما؛ إذا ثقل السمع منه. قيل: أصله السدّ، تقول: صممت القارورة؛ إذا سددتها، والصمم: داءٌ يحصل في الأذن يسد العروق، فيمنع من السمع، وقيل: أصله الصَّلابةُ، قالوا: قناةٌ صمَّاء، والأصمُّ أصله: أصمم نقلت حركة الميم الأولى إلى الصاد، فسكنت، فأدغمت في الميم الثانية، فوزنه أفعل. ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم، والبكم: آفةٌ في اللسان تمنع من الكلام. قاله أبو حاتم، وقيل: الذي يولد أخرس، وقيل: الذي لا يفهم الكلام، ولا يهتدِي إلى الصواب، فيكون إذ ذاك داءٌ في الفؤاد لا في اللسان. ﴿عُمْيٌ﴾ جمع أعمى، والعمى: ظلمةٌ في العين تمنع من إدراك المبصَرات، والفعل منها على وزن فعِل بكسر العين، واسمُ الفاعل على أفعل، وهو قياس الآفات والعاهات. فوزن الكلمات الثلاث بعد الجمع فعلٌ بضمّ الفاء وسكون العين، ووزن مفردها أفعل، ويجمع أفعل قياساً على فعل بضمّ الفاء، فالأوصاف الثلاثة صفاتٌ مشبهة، جاءت على هذا الوزن، قال ابن مالك في «الخُلاصة»: فعل لنحو أحمر وحمراء.

﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ والرجوع إن لم يتعدَّ فهو بمعنى العود، وإن تعدّى فبمعنى الإعادة. ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ فيه إعلال بالقلب والإدغام. أصله: صيوبٌ من الصَّوب، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما ساكنةً، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، فصار صيِّبٌ، كما فعل في ميّت وسيّد. قال ابن مالك في باب التصريف:

إنْ يَسْكُنِ السَّابِقُ من وَاوٍ ويَا ... وَاتَّصلاَ ومِنْ عُرُوضٍ عَرِيَا
فَياءَ الواوَ اقْلِبَنَّ مُدْغِماً ... وشَذَّ مُعْطىً غَيْرَ مَا قَدْ رُسِمَا

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والسماء: كُلُّ ما علاك فأظلَّك، والسماء مؤنّث وقد يُذَّكر، كما في قول الشاعر:

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إليه قوماً لَحِقْنَا بِالسَّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ

وأصل السماء: السماو من السمو، أبدلت فيه الواو همزةً لمَّا تطرَّفت إثر ألف زائدة، وهذا القلب مطرد فيها، وفي الياء المتطرفة أيضاً بعد ألف زائدة، كما سيأتي إن شاء الله تعالى في مادّة البناء، وقد تقدم عند قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿مُحِيطٌۢ﴾ وزنه: مفعلٌ اسم فاعل من أحاط الرباعيّ، فأصله: مُحوِّط واويٌّ العين، إذ يقال: حاطه يحوطه حوطاً وحوَّط تحويطاً، فالمصدر ظهرت فيه الواو، ولمَّا كان أصله مُحرط، نقلت حركة الواو إلى الحاء، فسكنت الواو إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ أصله: يكوَد بفتح العين بوزن يفعل؛ لأنّ الصحيح أنّه من باب فعل مكسور العين، نقلت حركة حرف العلّة إلى الساكن الصحيح قبله، ثمّ أبدلت الواو ألفاً؛ لتحركها في الأصل، وانفتاح ما قبلها الآن.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ أصله: مَشَيُوا بوزن ضربوا، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان: الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف. ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ أصل قام قَوَم، بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، ثمّ أسند الفعل إلى واو الجماعة، فضمّ آخره. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أصله: شَيِءَ بوزن فَعِل بكسر العين، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، دلَّ على ذلك كون مضارعه يشاء، وسيأتي بيان تصريف مضارعه إن شاء الله تعالى في محلّه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة، والبيان، والبديع:

فمنها: الإتيان بالجملة الاسمية في قوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، حيث لم يقل: وما آمنوا المطابق لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ لإفادة انتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة؛ لإفادتها الدوام والاستمرار؛ أي: لم يتصفوا

بالإيمان في حال من الأحوال، لا في الماضي، ولا في الحال، ولا في الاستقبال، بخلاف الفعلية الموافقة لدعواهم، فلا تفيد إلاّ نفيه في الماضي. اهـ. «أبو السعود».

ومنها: إعادة الجار في قوله: ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ لإفادة تأكُّد دعواهم الإيمان، بكلّ ما جاء به الرسول ﷺ، فردَّ عليهم المولى بأبلغ ردّ بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، حيث أتى بالجملة الإسمية وزاد الجار في الخبر.

ومنها: المشاركة في قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ المفاعلة تقتضي المشاركة في المعنى، وقد أطلق عليه تعالى مقابلاً؛ لما ذكره من خداع المنافقين، كمقابلة المكر بمكرهم، ومن أمثلة هذا الفنّ في الشعر قول بعضهم:

قَالُوا الْتَمِسْ شَيْئاً نُجِدْ لك طَبْخَهُ قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وقَمِيْصا

ومنها: الاستعارةُ التمثيلية في الخداع المنسوب إليه تعالى، حيث شبّه حالهم مع ربّهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر، بحال رعية تخادع سلطانها، واستعير اسم المشبّه به للمشبّه، بطريق الاستعارة التمثيلية، أو شبه حالهم في معاملتهم مع الله تعالى، بحال المخادع مع صاحبه من حيث القُبْحِ، أو من باب المجاز العقلي في النسبة الإيقاعية، حيث أسند الشيء إلى غير من هو له، وأصل التركيب: يخادعون رسول الله، أو من مجاز الحذف، أو من باب التورية، حيث ذكر معاملتهم لله بلفظ الخداع. اهـ. من «أبي السعود» وغيره. والتورية: أن يكون للكلام معنى قريب وبعيد، فيطلق القريب ويُراد البعيد، وهو مطلق الخروج عن الطاعة باطناً، وإن كان العالم لا تخفى عليه خافية اهـ. «صاوي».

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، حيث استعير المرض لما رَانَ على قلوبهم، من جَهْلٍ وسوء عقيدة؛ لأنّ المرض حقيقة في الأجسام.

ومنها: زيادة كان في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾؛ لتأكيد الكلام؛ ولإفادة دوام كذبهم وتجدّده.

ومنها: قصر الموصوف على الصفة في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾؛ أي: مقصورون على الإصلاح، نظير قولهم: إنّما زيد منطلق. وقال ابن التمجيد: هذا القصر إفراد؛ لأنّه لما قال المسلمون لهم: لا تفسدوا توهّموا أنّ المسلمين أرادوا بذلك، أنّهم يخلطون الإفساد بالإصلاح، فأجابوهم بأنّهم مقصورون على الإصلاح، لا يتجاوزون عنه إلى صفة الإفساد، فيلزم منه عدم الخلط، فهو من باب قصر الإفراد، حيث توهّموا أنّ المؤمنين اعتقدوا الشركة، فأجابهم الله سبحانه بعد ذلك، بما يدل على القصر القلبي بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾، فإنّهم لما أثبتوا لأنفسهم إحدى الصفتين، ونفوا الأخرى، واعتقدوا ذلك، قلب الله اعتقادهم هذا، بأن أثبت لهم ما نفوه، ونفى عنهم ما أثبتوا. والمعنى: هم مقصورون على إفساد أنفسهم بالكفر، والناس بالتعويق عن الإيمان، لا يتخطّون منه إلى صفة الإصلاح. اهـ. «روح».

ومنها: جمع المؤكدات في هذه الجملة؛ لتأكيد الردّ عليهم، حيث أكد بألا، وبأنَّ، وبضمير الفصل، وتعريف الخبر مبالغةً في الردّ عليهم، لما ادَّعوه من قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾؛ لأنّهم أخرجوا الجواب جملة اسمية مؤكَّدة بإنما، ليدلُّوا بذلك على ثبوت الوصف لهم، فردَّ الله عليهم بأبلغ وأوكد مما ادعوه. اهـ. «سمين». وكذا جملة قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

ومنها: المفارقة بين الجمل في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾. فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، وهي جملة ﴿ءَامَنَّا﴾، وخاطبوا شياطينهم بالجملة الإسمية، وهي جملة ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ﴾؛ وذلك لأنّ الجملة الإسميّة أثبت من الجملة الفعلية، فإيمانهم قصير المدى لا يَعْدُو تَحْرِيكَ اللسان، أو مدةَ التقائهم بالمؤمنين وركونُهم إلى شياطينهم، دائمُ الاستمرار والتجدُّد، وهو أَعْلَقْ بنفوسهم وأكثر ارتباطاً بما رَسَخ فيها.

ومنها: المخالفة بين جملة مستهزِؤن، وجملة يستهزىء؛ لأنّ هزء الله بهم متجدد وقتاً بعد وقت، وحالاً بعد حال، يوقعهم في مَتاهَاتِ الحيرةِ والإرتباك، زيادةً في التنكيل بهم.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ لأنّ الاستهزاء ضرب من العَبَثِ واللهو، وهما لا يليقان به سبحانه وتعالى، وهو منزَّه عنهما، ولكنه سمَّى جزاء الاستهزاء استهزاءً، فهي مشاكلةٌ لفظيّةٌ لا أقلَّ ولا أكثر. فالمشاكلة: هي الإتفاق في اللفظ دون المعنى.

ومنها: الفصل الواجب في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ لأنّ في عطفها على شيء من الجمل السابقة مانعاً قويّاً؛ لأنّها تدخل حينئذٍ في حيّزِ مقول المنافقين، والحال: أنّ استهزاء الله بهم وخذلانه إيّاهم ثابتان مستمرّان، سواءٌ خلوا إلى شياطينهم أم لا. فالجملة مستأنفة على كلّ حال، واجبة الفصل عمّا قبلها؛ لأنّها مظنة سؤال ينشأ، فيقال: ما مصير أمرهم؟ ما عقبى حالهم؟. فيستأنف جواباً عن هذا السؤال.

ومنها: الإتيان باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ﴾ للإيذان ببعد منزلتهم في الشرّ، وسوء الحال.

ومنها: الاستعارة التصريحية الترشيحية في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾، حيث استعار الشراء الذي هو بذل الثمن؛ لتحصيل ما يطلب لاختيارهم الضلالة بدل الهدى، ورشَّح تلك الاستعارة وقوّاها، بذكر الرِبْحِ والتجارة، لأنّ الترشيح ذكر ما يلائم المستعار منه الذي هو الشراء هنا.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ حيث أسند الربح إلى التجارة؛ لكونها سببه، وحقُّ الإسناد أن يقال: فما ربحوا في تجارتهم.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، وهو أن يأتي المتكلم في آخر كلامه بكلمةٍ أو جملةٍ، تُتِمُّ معنى الكلام السابق، فقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ تتميم لما قبله؛ لأنّه أفاد أنّهم ضالّون مخطئون في جميع ما فعلوه من عمل الشراء، وغيره.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الخ، وكذلك في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. والتشبيه التمثيلي: هو أن يكون وجه

الشبه منتزعاً من أمور متعدّدة، فقد شبّه في المثال الأول المنافق بالمستوقد للنار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار. وفي المثال الثاني شبّه الإسلام بالمطر؛ لأنّ القلوب تحيا به، كحياة الأرض بالمطر، وشبّه شبهات الكفّار بالظلمات، وما في القرآن من الوعد والوعيد، بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الفتن، والبلايا بالصواعق.

ومنها: المخالفة بين الضميرين، فقد وحَّد الضمير في قوله: ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ وفي قوله: ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ نظراً إلى جانب اللفظ؛ لأنّ المنافقين كلَّهم على قول واحد وفعل واحد، وجمع في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾ رعاية للمعنى لكون المقام مقام تقبيح أحوالهم، وبيان صفاتهم وضلالهم، فإثبات الحكم لكلّ فرد منهم واقع.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ فقد شبّههم بالصمّ، والبكم، والعمي، وطوى ذكر المشبّه، وجعله بعضهم من التشبيه البليغ؛ أي: هم كالصمّ البكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس، فحذف أداة التشبيه ووجه الشبه، فصار تشبيهاً بليغاً، وهو في كلامهم كثير، كقوله:

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذُكِرْتُ به   وإنْ ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ حيث أطلق الأصابع، وأراد رؤوسها، فهو من إطلاق الكلّ وإرادة الجزء؛ لأنّ إدخال الأصبع كلّها في الأذن لا يمكن.

ومنها: جمع الأصابع إشارة إلى أنّه لم يرد أصبعاً معيّنة؛ لأنّ الحالة حالة دهش وحيرة، فأَيَّةُ أصبعٍ اتَّفق لهم أن يسَدّوا بها آذانهم، فعلوا غير معرِّجين على ترتيب معتاد، أو تعَيينٍ مفترَضٍ.

ومنها: إفراد البرق والرعد، وجمع الصواعق، لكونهما في الأصل مصدرين، والمصادر لا تجمع. يقال: رعدت السماء رعداً وبرقت برقاً، فراعى فيهما حكم الأصل، فترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع، ولا يخفى أنّ من

الألفاظِ ما يَعْذُب مفردُه ويَقْبُحُ جَمْعُه، وبالعكس.

ومنها: تعريف السماء في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للإيذان بأنَّ انبعاث الصيّب ليس من أفق واحد، فإنَّ كلَّ أُفقٍ من آفاقها سماءٌ على حدةٍ، والمعنى: أنّه نازل من غمامٍ مُطبِقٍ، آخذٍ بآفاق السماء كلها.

ومنها: التعبير بالأصابع دون الأنامل في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ﴾ إشارةً إلى أنّهم لشدّة حيرتهم ودهشتهم، يدخلون أصابعهم كلَّها في إذانهم لا أناملهم فقط، كما هو المعتاد.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث لم يَقُلْ: والله محيط بهم بالضمير الراجع إلى أصحاب الصيّب، إيذاناً. بأنّ ما دهمهم من الأمور الهائلة المحكيَّة بسبب كفرهم.

ومنها: إيثار المشي في قوله: ﴿مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ على ما فوقه من السَّعْي والعدو؛ للإشعار بعدم استطاعتهم لهما لكمال دهشتهم وحيرتهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

فائدة: والحاصل: أنَّ الله وصف المنافقين في هذه الآيات، بثمان صفاتٍ كُلِّها قبيحة شنيعة تدلّ على رسوخهم في الضلال، وهي: الكذب، والخداع، والسفه، والاستهزاء، والإفساد في الأرض، والجهل والضلال، والمرض.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جل وعلا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى[1]، لما ذكر أصناف الخلق، وبيّن أنّ منهم المهتدين والكافرين الذين فقدوا الاستعداد للهداية، والمنافقين المذبذبين بَيْنَ ذلك.. دعا الناس إلى دين التوحيد الحقّ، وهو عبادة الله وحده عبادة خشوع وإخلاص، حتى كأنّهم ينظرون إليه، ويرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنّه يراهم، فإن

---

(١) المراغي.

فعلوا ذلك أعدّوا أنفسهم للتقوى، وبلغوا الغاية القصوى.

ثمّ عدّد بعض نعمه المتظاهرة عليهم الموجبة للعبادة والشكر، فجعل منها خلقهم أحياءً قادرين على العمل والكسب، ثُمَّ خلق الأرض مستقرّاً ومهاداً؛ لينتفعوا بخيراتها، ويستخرجوا معادنها ونباتها. ثمَّ بنى لهم السماء التي زيّنها بالكواكب، وجعل فيها مصابيح يهتدي بها الساري في الليل المظلم، وأنزل منها الماء، فأخرج به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها وأشكالها، أفليس في كلِّ هذا ما يطوّح بالنظر، ويهدي الفكر إلى أنَّ خالق هذا الكون البديع المثال، لا نِدَّ له ولا نظير، وأنَّ ما جعلوه أنداداً له لا يقدرون على إيجاد شيء مما خلق، وأنّهم يعلمون ذلك حقَّ العلم، فكيف يدعون غير الله من الأصنام والأحجار، ويستشفعون به، ويتوسَّلون إليه مع أنّه لا خالق ولا رازق إلاّ الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر[1] أنَّ الناس بالنظر إلى القرآن أقسامٌ ثلاثةٌ: متقون يهتدون بهديه، وجاحدون معاندون معرضون عن سماع حججه وبراهينه، ومذبذبون بين ذلك.. طلب هنا إلى الجاحدين المعاندين في نبوة محمد ﷺ وفي أنَّ القرآن معجزته، أن يتعرّفوا إن كان هو من عند الله كما يَدَّعي هو أو من عند نفسه كما يدَّعون، فَيرُوِّزُوا أنفسهم، ويحاكموه، لعلَّهم يأتون بمثل سورة من أقصر سُوَرة، وهم فرسان البلاغة، وعصرهم أرقى عصور الفصاحة، والكلام ديدنهم، وبه تفاخرهم، وكثير منهم حاز قصب السبق في هذا المضمار، ولم يكن محمد من بينهم، فهو لم يمرَّن عليه، ولم يبار أهله، ولم ينافسهم فيه.

فإن عجزوا ولم يستطيعوا ذلك، وهم لا يستطيعون، وإن تظاهر أنصارهم وكثر أشياعهم، بل لو اجتمعت الإنس والجنّ جميعاً، فليعلموا أنَّ ما جاءهم به، فأعجزهم لم يكن إلاّ بوحي سماوي وإمدادٍ إلٰهيّ، لا يسمو إليه محمد بعقله، ولا

(١) المراغي.

يصل بَيَانُه إلى مثل أسلوبه ونظمه. وإذا استبان عجزهم ولزمتهم الحجة فقد صدق النبي ﷺ فيما ادعى، وكان من ارتاب في صدقه معانداً مكابراً، واستحقَّ العقاب، وكان جزاءه النار التي وقودها العصاة الجاحدون، وما عبدوه من أحجار وأصنام، أعدّت لكلّ من جحد الرسل أو استحدث في الدين، ما هو منه براءٌ.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر الكافرين، وما أعدَّ لهم من العقاب. قفَّى على ذلك ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وما أعدَّ لهم من نعيم مقيم في الدار الآخرة، وقد جرت سنّة القرآن أن يقرن الترهيب بالترغيب؛ تنشيطاً لاكتساب ما يوجب الزلفى عند الله؛ وتثبيطاً عن اقتراف ما يوجب البعد من رضوانه تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا. . .﴾ الآيات، مناسبتها لِمَا قبلها: أنّ الله سبحانه[1]، لما ذكر الدليل القاطع على أنّ القرآن كلام الله، لا يتطرّق إليه شكّ ولا ريب، وأنّه كتاب معجز، أنزله على خاتم المرسلين، وتحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله. ذكر هنا شبهة أوردها الكفار للقدح فيه، وهي: أنّه جاء في القرآن ذكر النحل، والذباب، والعنكبوت، والنمل، وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء، فضلاً من كلام ربّ الأرباب. فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة، وردّ عليهم: بأنّ صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه، إذا كان ذكرها مشتملاً على حكم بالغة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ. . .﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ. . .﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أنّ الله سبحانه وتعالى، لما[2] ذكر أولئك الفاسقين الذين ضلوا بالمثل، ووصفهم بالصفات الشنيعة من نقض العهد الموثّق، وقطع ما أمر

---

(١) عمدة التفاسير والمعربين.

(٢) المراغي.

الله به أن يوصل، والإفساد في الأرض، وجّه الخطاب إليهم في هاتين الآيتين. وجاء به على طريق التوبيخ والتعجيب من صفة كفرهم، بذكر البراهين الداعية إلى الإيمان الصادّة عن الكفر، وهي النعم المتظاهرة الدالّة على قدرته تعالى، من مبدأ الخلق إلى منتهاه من إحيائهم بعد الإماتة، وتركيب صورهم من الذّرات المتناثرة، والنطف الحقيرة المهينة، وخلق ما في الأرض جميعاً لهم؛ ليتمتعوا بجميع ما في ظاهرها وباطنها على فنون شتّى وطرق مختلفة، وخلق سبع سمٰوات مُزيَّنة بمصابيح؛ ليهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر.

أفبعد هذا كله يكفرون به، وينكرون عليه أن يبعث فيهم رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته، ويضرب لهم الأمثال؛ ليهتدوا بها في إيضاح ما أشكل عليهم مما فيه أمر سعادتهم في دينهم ودنياهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية:[1] ما أخرجه ابن جرير عن السدي بأسانيده، لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قال المنافقون: الله أعلى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. وما أخرجه الواحدي من طريق عبد الغني بن سعيد الثقفيّ، عن موسى بن عبد الرحمن، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (إنّ الله ذكر آلهة المشركين، فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾، وذكر كيد الآلهة، فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمدّ، أيّ شيء كان يصنع بهذا؟ فأنزل الله هذه الآية). وعبد الغني واهٍ جدّاً، وقال عبد الرزاق في «تفسيره»: أخبرنا معمر، عن قتادة: لمّا ذكر الله العنكبوت

---

(١) لباب النقول.

والذباب، قال المشركون ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ قال المشركون: ما هذا من الأمثال فيضرب؟ أو ما يشبه هذه الأمثال، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا...﴾ الآية. قلت: القول الأول أصحّ إسناداً، وأنسب بما تقدّم أوّل السورة، وذكر المشركين لا يلائم كون الآية مدنية. وما أوردناه عن قتادة والحسن حكاه عنهما الواحديُّ بلا إسناد بلفظ (قالت اليهود)، وهو أنسب.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يا أيُّها المكلّفون من الإنس والجنّ ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾؛ أي: وحّدوا، وأفرِدُوا بالعبادة، والطاعة، والاستغاثة، والدعاءِ ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾؛ أي: خالقكم الذي ابتدع خلقكم على غير مثال سابق؛ لأنّه الذي يستحقّ العبادة منكم دون غيره من الأصنام، والأحجار، لأنّ تعليق الحكم بمشتقّ يؤذن بعليّة ما منه الاشتقاق، فكأنّه قال: اعبدوه لخلقه إيّاكم، فإنّه هو الذي يُعبد دون غيره.

وهذه الآية[1] مسوقة لإثبات التوحيد، وتحقيق نبوة محمد ﷺ - اللذين هما أصل الإيمان. والناس يصلح اسماً للمؤمنين، والكافرين، والمنافقين. والنداء فائدته؛ تنبيه الغافلين، أو إحضار الغائبين، وتحريك الساكنين؛ وتعريف الجاهلين، وتفريغ المشغولين، وتوجيه المعرضين، وتهييج المحبّين، وتشويق المريدين.

قال بعضهم: أقبل عليهم بالخطاب جبراً؛ لما في العبادة من الكلفة بلذّة الخطاب؛ أي: يا مُؤْنِسُ لا تَنْسَ أُنْسَكَ بي قبل الولادة، أو يا ابنَ النسيان تَنَبَّهَ، ولا تَنْس حيث كنتُ نسياً منسياً، ولم تك شيئاً مذكوراً، فخلقتك وخمرتك طيناً،

---

(١) روح البيان.

ثم نطفةً، ثم دماً، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً ولحوماً وعروقاً وجلوداً وأعصاباً، ثمّ جنيناً، ثم طفلاً، ثمّ صبياً، ثمّ شاباً، ثمّ كهلاً، ثمّ شيخاً، وأنت فيما بين ذلك تتمرَّغ في نعمتي، وتسعى في خدمة غيري، تعبد النفس والهوى، وتبيع الدين بالدنيا، لا تَنس مَنْ خلقك، وجعلك مِنْ لا شيءَ شيئاً مذكوراً كريماً مشكوراً، علَّمك، وقوَّاك، وأكرمك، وأعطاك ما أعطاك. فهذا خطاب للنفس والبدن. قال في «التيسير»: وإذا كان الإنسان من النسيان، ففيه عتاب وتلقين، أمّا العتاب، فكأنّه يقول: أيّها الناس! قابلتم نعمنا بالكفران، وأوامرنا بالعصيان، وأمّا التلقين للعذر، فكأنَّه يقول: أيّها المخالف لنا ناسياً لا عامداً، وساهياً لا قاصداً! اعذرناك لنسيانك، وعفونا عنك لإيمانك.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما[1] ـ: يا أيّها الناس: خطاب لأهل مكة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب لأهل المدينة. وهو هنا خطاب عامّ لسائر المكلّفين؛ لأنّ ذلك أمر أغلبي على أنّ السورة مدنية.

واعلم[2]: أنّ النداء الواقع في القرآن على سبعة مراتب:

الأول: نداء مدح، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

والثاني: نداء ذمّ، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

والثالث: نداء تنبيه، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

والرابع: نداء إضافة، كقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾.

والخامس: نداء نسبة، كقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

والسادس: نداء تسمية، كقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

والسابع: نداء تعنيف، كقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

---

(١) صاوي.

(٢) الخازن.

﴿اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يقول للكفّار:[١] وحّدوا ربّكم، ويقول للعاصين: أطيعوا ربّكم، ويقول للمنافقين: أخلصوا بالتوحيد معرفة ربّكم، ويقول للمطيعين: اثبتوا على طاعة ربّكم. واللفظ يحتمل لهذه الأوجه كلّها، وهو من جوامع الكلم، كما في «تفسير أبي الليث». والعبادة: استفراغ الطاقة في استكمال الطاعة، واستشعار الخشية في استبعاد المعصية. ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة جرت عنه للتعظيم والتعليل معناه: أطيعوا ربّكم الذي خلقكم، لخلقكم ولم تكونوا شيئاً. والخلق: اختراع الشيء على غير مثال سبق. ﴿و﴾ خلق ﴿الذين من قبلكم﴾؛ أي: من أهل زمن قبل زمانكم من الأمم. فـ ﴿مِن﴾ ابتدائية متعلّقة بمحذوف، وفي الوصف به، إيماء إلى سبب وجوب عبادته تعالى، فإنّ خلق أصولهم من موجبات العبادة، كخلق أنفسهم. وفيه دلالة على شمول القدرة، وتنبيه من سنة الغفلة؛ أي: أنّهم كانوا فمضوا، وجاءوا وانقضوا، فلا تنسوا مصيركم، ولا تستجيزوا تقصيركم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: اعبدوه وحده؛ لتجعلوا عبادته وقاية وستراً بينكم وبين عذابه، هذا إن جرينا على أنّ (لعلّ) للتعليل. ويحتمل كونها على أصل معناها من الترجيّ، فتكون جملتها حالاً من فاعل ﴿اعْبُدُواْ﴾؛ أي: أفردوه بالعبادة حالة كونكم راجين أن تدخلوا، وتُنَظَّموا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المستوجبين لجوار الله تعالى. و(لعلّ) للترجّي والإطماع، وهي من الله تعالى واجب؛ لأنّ الكريم لا يُطْمِع إلاّ فيما يفعل. والأولون والآخرون مخاطبون بالأمر بالتقوى. وخصّ المخاطبين بالذكر؛ تغليباً لهم على الغائبين، كما في «الكواشي».

وقرأ ابن السميفع[٢] ﴿وخلق مَنْ قبلكم﴾ جعله من عطف الجمل. وقرأ زيد بن علي ﴿والذين مَنْ قبلكم﴾ بفتح ميم (من) قال الزمخشري: وهي قراءة مشكلة، ووجهها على إشكالها بأن يقال: أقحم الموصول الثاني بين الأول وصلته؛ تأكيداً، كما أقحم جرير في قوله:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

يـا تـيـم تـيـم عـدي لا أبـالَـكُـمُ

تيما الثاني بين الأول وما أضيف إليه، وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في (لا أبالك). انتهى كلامه. ذكره في «البحر».

وفيه تنبيه: على أنّ التقوى منتهى درجة السالكين، وهو التبرّي من كلّ شيء سوى الله تعالى، وأنّ العابد ينبغي له أن لا يغترّ بعبادته، ويكون ذا خوف ورجاء، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾.

وحاصل المعنى: أي أنّ هذا الربّ العظيم المتصف بتلك الصفات التي تعلمونها، هو الذي خلقكم وخلق من قبلكم، وربّاكم وربّى أسلافكم، ودبّر شؤونكم، ووهبكم من طرق الهداية ووسائل المعرفة مثل ما وهبهم، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا بعبادته أحداً من خلقه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: فاعبدوه على تلك الشاكلة، فإنّ العبادة على هذا السنن هي التي تعدّكم للتقوى، ويرجى بها بلوغ درجة الكمال القصوى.

ثمّ ذكر بعض خصائص الربوبيّة التي تقتضي الاختصاص به تعالى، فقال: ﴿الَّذِى جَعَلَ﴾ وصيّر ﴿لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ صفة ثانية لربّكم؛ أي: بساطاً تقعدون، وتنامون عليها، وتتقلّبون فيها، كالفراش المبسوط.

وقدم[1] ذكر الأرض على السماء وإن كانت أعظم في القدرة، وأمكن في الحكمة، وأتمّ في النعمة، وأكبر في المقدار؛ لأنّ السقف والبنيان فيما يعهد، لا بدّ له من أساس وعمد مستقرّ على الأرض، فبدأ بذكرها، إذ على متنها يوضع الأساس، وتستقرّ القواعد، إذ لا ينبغي ذكر السقف أولاً قبل ذكر الأرض التي تستقرّ عليها قواعده؛ أو لأنّ خلق الأرض متقدم على خلق السماء، ذكره في «البحر».

قال أهل اللغة: الأرض: بساط العالم وبسيطها، من حيث إنّه يحيط بها

---

(١) البحر المحيط.

البحر الذي هو البحر المحيط أربعة وعشرون ألف فرسخ، كلّ فرسخ ثلاثة أميال، وهو اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المرسلة، وكلّ ذراع ستّ وثلاثون أصبعاً، كلّ أصبع ستّ حبّات شعير، مصفوفة بطون بعضها إلى بعض. فللسودان: اثنا عشر ألف فرسخ، وللبيضان: ثمانيةٌ، وللفرس: ثلاثة، وللعرب ألف، كذا في كتاب «الملكوت».

وسَمْتُ وسط الأرض المسكونة حضرة الكعبة المشرفة، وأمَّا وسط الأرض كلّها عامرها وخرابها، فهو الموضع الذي يُسمَّى قُبَّة الأرض، وهو مكانٌ يعتدل فيه الأزمان في الحرّ والبرد، ويستوي الليل والنهار أبداً، لا يزيد أحدهما على الآخر، كما في «المَلَكُوتِ».

وروي عن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ: أنّه قال: (إنّما سميت الأرض أرضاً؛ لأنّها تتأرّض ما في بطنها)؛ يعني: تأكل ما فيها. وقال بعضهم: لأنّها تتأرّض بالحوافر والأقدام.

ومعنى جعلها ﴿فِرَٰشًا﴾ جعل بعضها بارزاً من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوب، وجعلها متوسّطة بين الصلابة واللين، صالحة للقعود عليها والنوم فيها، كالبساط المفروش، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحاً حقيقياً، وهو الذي له طول وعرض، فإنّ كرويّة شكلها مع عظم جرمها مصّححة لافتراشها.

وعبارة النسفي هنا: وليس فيه دليل على أنّ الأرض مسطّحة أو كروية، إذ الافتراش ممكن على كلا التقديرين.

﴿و﴾ جعل ﴿السماء﴾ وهو ما علاك وأظلّك؛ لأنّه من السموّ بمعنى: العلوّ. ﴿بِنَآءً﴾ أي: سقفاً مبنياً فوق الأرض مرفوعاً فوقها، كهيئة القبّة؛ أي: جعلها قبّة مضروبة عليكم. وكلّ سماء مطبقة على الأخرى، مثل: القبّة، والسماء الدنيا ملتزقة أطرافها على الأرض، كما في «تفسير أبي الليث».

قيل[1]: إذا تأمّل الإنسان المتفكّر في العالم، وجده كالبيت المعمور فيه كلّ

---

(١) الخازن.

ما يحتاج إليه، والسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مفروشة كالبساط، والنجوم كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت، وفيه ضروب النبات المهيّئة لمنافعه، وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه، فيجب على الإنسان المسخرة له هذه الأشياء، شكر الله تعالى عليها بالتوحيد، والإيمان، والطاعة. وما أحسن قول أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كلّ شيءٍ له آية تدلّ على أنّه الواحدُ

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً عَذْباً فراتاً، أو أنزل من السماء مطراً ينحدر منها على السحاب، ومنه على الأرض. وفيه ردٌّ لزعم من قال: إنّه يأخذه من البحر. ﴿فَأَخْرَجَ﴾ سبحانه وتعالى بفضله وقدرته، وأنبت ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء الذي أنزل من السماء ﴿مِنَ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والفواكه والنباتات، فالمراد بالثمرات هٰهنا: المأكولات كلّها من الحبوب والفواكه، وغيرها مما يخرج من الأرض والشجر، كما في «التيسير». ﴿رِزْقًا﴾ وغذاء وقوتاً ﴿لَّكُمْ﴾ وعلفاً لدوابّكم.

وذلك[1] أنّه أودع في الماء قوةً فاعليَّةً، وفي الأرض قوةً منفعلةً، فتولّد من تفاعلهما أصناف الثمار، فبين المظلّة والمقلّة شبه عقد النكاح، بإنزال الماء منها عليها، والإخراج به من بطنها، أشباه النسل المنتج من الحيوان من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم، ولسائر الأنعام والدوابّ. و﴿مِنَ﴾ للبيان، و﴿رِزْقًا﴾؛ أي: طعاماً وعلفاً لكم ولدوابّكم، كما مرّ آنفاً، ففيه تقديم البيان على المبيّن؛ لغرض الاهتمام.

والمعنى[2]: أنّ الله تعالى أنعم عليكم بذلك كلّه، لتعرفوه بالخالقيّة والرازقيّة، فتوحّدوه.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ والفاء فيه إما تفريعية، أو فصيحية؛ أي: إذا عرفتم أنّه خالق السموات والأرض وما فيهما، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم، فأقول لكم: لا تجعلوا لله سبحانه وتعالى أنداداً؛ أي: شركاء وأشباها من الأصنام، وغيرها تشركونها مع الله تعالى في العبادة. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: والحال أنكم تعلمون أنّها لا تخلق شيئاً، ولا ترزق أحداً، وأنّ الله هو الخالق الرازق. أو تعلمون أنّه ليس في التوراة والإنجيل جواز اتخاذ الأنداد. والأنداد: جمع ندّ، وهو المِثل؛ أي: لا تجعلوا له أمثالاً تعبدونهم كعبادة الله؛ يعني: لا تقولوا له شركاء تعبد معه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (لا تقولوا لولا فلان لأصابني كذا، ولولا كلبنا يصيح على الباب لسرق متاعنا)، وعن النبي ﷺ أنّه قال: «إيّاكم ولو فإنّه من كلام المنافقين» قالوا: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله! أيّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل الله نِدّاً وهو خلقك» الحديث، وكذا حديث معاذ «أتدري ما حقّ الله على عباده؟ حقّ الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً» الحديث.

قال البيضاويّ: واعلم أنّ مضمون الآيتين: هو الأمر بعبادة الله وتوحيده، والنهي عن الإشراك به، والإشارة إلى ما هو العلّة والمقتضي لذلك. انتهى.

وفي «المراغي»: الأنداد[1]: هم الذين خضع الناس لهم، وقصدوهم في قضاء حاجاتهم، وكان مشركوا العرب يسمّون ذلك الخضوع عبادة، إذ لم يكن عندهم شرع ينهاهم عن عبادة غير الله تعالى، وأهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أنداداً وأرباباً، كانوا يتحاشَون هذا اللفظ، فلا يسمّون ذلك الاتخاذ عبادة، ولا أولئك المعظَّمين آلهة وأنداداً، بل يسمّون دعاءهم غيرَ الله، والتقرب إليه توسّلاً واستشفاعاً، ويسمّون تشريعهم لهم بعض العبادات، وتحليل

---

(١) المراغي.

المنكرات، وتحريم بعض الطيبات فقهاً واستنباطاً من التوراة، والكل متفقون على أنّه لا خالق إلاّ الله ولا رازق إلاّ هو. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وإنّكم لتعلمون بطلان ذلك، وإنّكم إذا سئلتم من رزقكم من السمٰوات والأرض؟ ومن يدبّر الأمر؟ تقولون: الله، فلم إذاً تدعون غيره وتستشفعون به؟. ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التي لا تضرّ ولا تنفع؟ ومن أين جاءكم أنّ التقرب إلى الله يكون بغير ما شرعه الله حتى قلتم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

وقرأ زيد بن عليّ، ومحمد بن السميفع(١): ﴿ندّا﴾ على التوحيد، وهو مفرد في سياق النهي، فالمراد به: العموم، إذ ليس المعنى: فلا تجعلوا لله ندّاً واحداً، بل أنداداً.

ولمّا احتجّ سبحانه وتعالى، عليهم في إثبات توحيد الألوهية والربوبيّة بما تقدم، احتجّ عليهم في إثبات نبوة محمد ﷺ بما قطع عذرهم، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيّها الناس ﴿فِى رَيْبٍ﴾ وشكّ ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: في كون القرآن المعجز الذي نزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ وحياً منزّلاً من عند الله تعالى، أو مفترى من عند نفسه. والتنزيل(٢): هو النزول على سبيل التدريج، وأُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا إلى بيت العزّة، ثمّ منه إلى النبي ﷺ مفرّقاً منجماً في ثلاث وعشرين سنة؛ ليحفظ، فإنّه ﷺ كان أمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب، ففُرِّق عليه؛ ليثبت عنده حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء، فإنّه كان كاتباً قارئاً، فيمكنه حفظ الجميع من الكتاب، ولذا قالوا: إنّ سائر الكتب الإلٰهية أنزلت جملة.

وفي إضافة العبد إليه تعالى: تنبيهٌ على عُظْم قدره ﷺ واختصاصه بخالص العبودية ورفعِ محلِّه. وإضافَتُهُ إلى نفسه تعالى واسمُ العبد عامّ وخاصّ، وما هنا من الخاص، كقوله:

لا تَـدْعُـنـي إلاّ بـيـا عـبـدهـا   لأنّـه أشـرف أسـمـائـيْ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

ومن قرأ ﴿عَلَىٰ عبادنا﴾ بالجمع، فقيل: يريد رسول الله ﷺ وأمَّته، قاله الزمخشري، ذكره في «البحر»؛ لأنّ المكذّب لمحمد مكذِّب لأمته، لأنّهم تبعه.

وقوله: ﴿فَأْتُوا۟﴾ جواب الشرط، وهو أمر تعجيز ﴿بِسُورَةٍ﴾ واحدة كائنة ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي: من مثل هذا القرآن الذي نزلناه على عبدنا محمد ﷺ في البلاغة، والفصاحة، والبيان الغريب، وعلوّ الطبقة في حسن النظم، والتركيب، والإخبار عن المغيّبات؛ أي: فهاتوا وجِيئُوْا بسورة واحدة مماثلة له فيما ذكر، فأنتم بشر فصحاء مثله، هذا إن جرينا على أنّ الضمير في ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ عائد على ما نزلنا، وهو المتبادر.

والمعنى: أي[1] ائتوا أنتم بمثل ما أتى هو، إن كان الأمر كما زعمتم من كونه كلام البشر، إذ أنتم وهو سواءٌ في الجوهر، والخلقة، واللسان، وليس هو أولى بالاختلاق منكم. ثمّ القرآن وإن كان لا مثل له؛ لأنّه صفة الله وكلامه ووحيه، ولا مثل لصفاته، كما لا مثل لذاته، لكن معناه من مثله على زعمكم، فقد كانوا يقولون: لو شئنا لقلنا مثل هذا، كما في «التيسير».

ويحتمل[2] عود الضمير على ﴿عَبْدِنَا﴾، والمعنى حينئذٍ: فهاتوا بسورة واحدة واقعة من بشر مماثل لعبدنا محمد ﷺ في كونه عربيّاً فصيحاً. وحدّ السورة: هي قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر، مترجم عنها باسم خاصّ، أقلّها ثلاث آيات. وإنّما سميت سورة؛ لكونها أقوى من الآية من سورة الأسد والشراب؛ أي: قوته. والآية قطعة من السورة مميزاً بفصل يسمّى الفاصلة، هذا إن كان واوها أصلية، وإن كانت منقلبة عن همزة، فهي مأخوذة من السؤر الذي هو البقية من الشيء، فالسورة قطعة من القرآن مفرزة باقية من غيرها.

قال القاضي زكريا: إن قلت: لم ذُكرت ﴿مِّن﴾ هنا، وحذفت في سورتي: يونس وهود؟

قلت: لأنّ ﴿مِّن﴾ هنا للتبعيض، أو للتبيين، أو زائدة على قول الأخفش:

---

(١) روح البيان. (٢) العمدة.

بتقدير رجوع الضمير في ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ إلى ما في قوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾، وهو الأوجه، والمعنى على الأخير: فأتوا بسورة مماثلة للقرآن في البلاغة وحسن النظم، وعلى الأولين: فأتوا بسورة مما هو على صفته في البلاغة وحسن النظم، وحيئنذٍ فكأنّه منه، فحسن الإتيان بمن الدالة على ما ذكر، بخلاف ذاك، فإنّه قد وصف السور بالافتراء صريحاً في هود، وإشارة في يونس، فلم يحسن الإتيان بمن الدالة على ما ذكر؛ لأنّها حينئذٍ تشعر بأنّ ما بعدها من جنس ما قبلها، فيلزم أن يكون قرآناً، وهو محال. ويجوز جَعْلُ ﴿مِّن﴾ للابتداء بتقدير رجوع الضمير في ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ إلى ﴿عَبْدِنَا﴾؛ أي: محمد، والمعنى: فأتوا بسورة مبتدأة من شخص مثل محمد، ذكره في «فتح الرحمن».

وقوله: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ معطوف على جواب الشرط، جمع شهيد بمعنى: الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إما متعلّقة بادعوا، فالمعنى: ادعوا متجاوزين الله من حضركم كائناً من كان، للاستظهار في معارضة القرآن، أو الحاضرين في مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرافكم الذين تفزعون إليهم من المُلمَّات، وتعوِّلُون عليهم في المهمّات. أو القائمين بشهادتكم الجارية فيما بينكم من أمثالكم المتولّين، لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاة. أو القائمين بنصركم حقيقة أو زعماً من الإنس والجنّ، ليعينوكم. وقال القاضي: معنى ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من غيره، وهو بهذا المعنى في جميع ما جاء في القرآن.

وإما متعلّقة بشهداءكم، والمراد بهم: الأصنام. و﴿دون﴾ بمعنى: التجاوز على أنّها ظرف مستقرّ وقع حالاً من ضمير المخاطبين، والعامل ما دلّ عليه ﴿شُهَدَآءَكُم﴾؛ أي: ادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة، وزعمتم أنّهم يشهدون لكم يوم القيامة أنّكم على الحقّ، متجاوزين الله في اتخاذها كذلك.

والمعنى عليه: وادعوا آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ليساعدوكم في معارضة هذا القرآن والإتيان بمثله. ﴿إن كنتم صادقين﴾ في مقالتكم: إنّ محمّداً افتراه من عند نفسه، فإنّكم عربيون فصحاء مثله. وسميّت الآلهة شهداء؛ لزعمهم

أنّهم يشهدون لهم يوم القيامة بصحّة عبادتهم إياهم. والصدق: خلاف الكذب، وهو مطابقة الخبر للواقع أو الاعتقاد، أو لهما على الخلاف المذكور في علم المعاني.

ودلّت الآية: على أنّ الاستعانة بالخلق لا تغني شيئاً، وما يغني رجوع العاجز عن العاجز، فلا ترفع حوائجك إلاّ إلى من لا يشّق عليه قضاؤها، ولا تسأل إلاّ من لا تفنى خزائنه، ولا تعتمد إلاّ على من لا يعجز عن شيء ينصرك من غير معين، ويحفظك من كلّ جانب ومن غير صاحب، ويغنيك من غير مال، فيقلّ أعداد الأعداء الكثيرة إذا حماك، ويكثر عدد المال القليل إذا كفاك.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ محمداً تقوَّله من تلقاء نفسه، وفي أنّ فيه مجالاً للريب، وأنّ آلهتكم شهداؤكم. شرط جوابه محذوف، تقديره: فافعلوا؛ أي: فأتوا بسورة من مثله.

وقد نزل في هذا المعنى آيات كثيرة بمكة، أوّلها: ما في سورة الإسراء ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ الآية، ثمّ ما في سورة هود ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ثمّ ما في سورة يونس ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾، وما جاء في هذه السورة المدنية.

فائدة: وأصل[1] معنى ﴿دُونِ﴾: أدنى مكان من الشيء، واتسع فيه حتى استعمل في تخطّي الشيء إلى شيء آخر، ومنه ما في هذه الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وله معان أخر:

منها: التقصيرُ عن الغاية والحقارة. يقال: هذا الشيء دون؛ أي: حقيرٌ، ومنه قوله:

إذا مَا عَلاَ الـمَـرْءُ رَامَ الـعُـلاَ   وَيَـقْـنَـعُ بـالـدُّون مَـنْ كـان دُوْنَـا

(١) الشوكاني.

والقرب. يقال: هذا دون ذاك؛ أي: أقرب منه، ويكون إغراءً. تقول: دونك زيداً؛ أي: خذه من أدنى مكان.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أُمرتم به من الإتيان بالمثل بعد ما بذلتم في السعي غاية المجهود، يعني: فيما مضى وغبر، وحضر من الزمان، والجملة فعل شرط لإن. وقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾. فيما يستقبل أبداً؛ وذلك لظهور إعجاز القرآن. اعتراض بين الشرط وجوابه، وهذه الجملة المعترضة معجزة باهرة، أخبر بها القرآن قبل وقوعها، حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به سبحانه وتعالى، وقد وقع القرآن كذلك، كيف لا ولو عارضوه بشيء بداية في الجملة لتناقله الرواة خلفاً عن سلف، فلم تقع المعارضة من أحد من الكفرة في أيّام النبوة وفيما بعدها إلى الآن. وقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ بالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقيام بفرائضه، واجتناب مناهيه. جواب الشرط.

والمعنى: أي[1] فإن لم تأتوا الآن بسورة من مثل المُنزل على محمدّ ﷺ لعجزكم عنها، ولن تقدروا على أن تأتوا بمثله في المستقبل لتحقّق عجزكم الآن ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: فاجعلوا لأنفسكم وقاية وستراً من النار المذكورة، بتصديق هذا القرآن، ومن جاء به. وعبّر عن الإتيان بالفعل؛ لأنّ الإتيان فعل من الأفعال، ولقصد الاختصار.

والخلاصة: أي[2] وحين عجزتم عن معارضة القرآن، وعن الإتيان بمثله، لزمتكم الحجة على أنّ محمداً رسولي، والقرآن كتابي، ولزمكم تصديقه والإيمان به، وإن لم تؤمنوا صرتم من أهل النار، فاتقوها.

وفي «الكشاف»: لَصِيْقُ اتقاءِ النار، وضَمِيْمَةُ تَرْكِ العنادِ مِنْ حيثُ إنّه من نتائجه؛ لأنَّ من اتَّقى النار ترك المعاندة، فوضع ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ موضع فاتركوا العناد. اهـ.

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

وقال القاضي: إن قلت: لم عرَّف النار هنا، ونكرَّها في التحريم؟

قلت: لأنّ الخطاب في هذه السورة مع المنافقين، وهم في أسفل النار المحيطة بهم، فعرفت بلام الاستغراق، أو العهد الذهني، وفي تلك مع المؤمنين، والذين يعذّبون من عصاتهم بالنار يكونون في جزءٍ من أعلاها. فناسب تنكيرها لتقليلها. وقيل: لأنَّ تلك الآية نزلت في مكة قبل هذه، فلم تكن النار التي وقودها الناس والحجارة معروفة، فنكَّرها ثمَّ، وهذه نزلت بالمدينة، فعرفت إشارة إلى ما عرفوه أوّلاً. وردَّ هذا: بأنّ آية التحريم نزلت بالمدينة بعد هذه الآية التي هنا.

﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا﴾ وحطبها الذي توقد به ﴿ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: العصاة من الكفار وغيرهم. وقدم الناس على الحجارة؛ لأنّهم العقلاء الذين يدركون الآلام والمعذّبون؛ أو لكونهم أكثر إيقادٍ للنار من الجماد، لما فيهم من الجلود، واللحوم، والشحوم، والعظام، والشعور؛ أو لأنّ ذلك أعظم في التخويف، فإنّك إذا رأيت إنساناً يحرق، اقشعرَّ بَدَنُك وطاشَ لُبُّك، بخلاف الحجر. ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي:[1] حجارةُ الكبريت، وإنما جعل حطبها منها؛ لسرعة اتقادها؛ أي التهابها، وبطيء خمودها، وشدة حرها، وقبح رائحتها، ولصوقها بالبدن. أو الحجارة هي الأصنام التي عبدوها، وإنما جعل التعذيب بها؛ ليتحققوا أنهم عذبوا بعبادتها؛ وليروا ذلها ومهانتها بعد اعتقادهم عزّها وعظمتها، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، والكافر عبَد الصنم، واعتمده، ورجاه، فعُذّب به، إظهاراً لجهله وقطعاً لأمله، كأتْباع الكبراء خدموهم، ورجوهم، وفي النار يسحبون معهم؛ ليكون أشق عليهم وأقطع لرجائهم.

فإن قلت: أنار الجحيم كُلُّها توقد بالناس والحجارة، أم هي نيرانٌ شتَّى منها نارٌ بهذه الصفة؟

قلت: بل هي نارٌ شَتَّى منها: نار توقد بالناس والحجارة، يدلُّ على ذلك

---

(١) روح البيان.

تنكيرها في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، وقوله سبحانه ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾. ولعل لكفّار الجنّ ولشياطينهم ناراً وقودها الشياطين، كما أنّ لكفرة الإنس ناراً وقودها هم، جزاءً لكلٍّ جنسٍ بما يشاكله من العذاب.

وفي هذا من[1] التهويل ما لا يُقادَر قدره، من كون هذه النار تتقد بالناس والحجارة، فأوقدت بنفس ما يراد إحراقه بها. ﴿أُعِدَّتۡ﴾ أي: هيِّئت ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: للذين كفروا بما نزلناه على رسلنا، وجُعِلت عدّة لعذابهم. وفيه دلالة على أنّ النار مخلوقة موجودة الآن خلافاً للمعتزلة، وفيه أيضاً: دلالة على أنّ الكافرين هم المقصود بخلقها أصالة.

وفي الآية[2]: إشارة إلى أنَّ ثمرة الأخذ بالقرآن والإقرار به، وبمحمد ﷺ هو النجاة من النار التي وقودها الناس والحجارة، وفيه زيادة فضل القرآن وأهله. قال البغوي عند قوله: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾ قيل: السورة اسم للمنزلة الرفيعة، وسمِّيت سورة؛ لأنّ القارىء ينال بقراءتها منزلةً رفيعة، حتى يستكمل المنازل باستكمال سور القرآن. اهـ.

وخلاصة معنى الآية[3]: إذا ظهر عجزكم عن المعارضة، صحَّ عندكم صدق محمد ﷺ وإذا صحَّ ذلك فاتركوا العناد، وإذا لزمتم العناد استوجبتم العقاب بالنار.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿وَقُودُهَا﴾ بفتح الواو، وهو الحطب الذي تتقد به، وقد جاء بالفتح مصدراً أيضاً. وقرأ الحسن باختلاف، ومجاهد، وطلحة، وأبو حيوة، وعيسى بن عمر الهمداني بضمّ الواو، وهو مصدر بمعنى: التوقد، وهو حينئذٍ على حذف مضاف؛ أي: ذو وُقودها، لأنّ الناس والحجارة ليسا نفس الاتقاد،

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

(٤) البحر المحيط.

أو على أن جُعِلُوا نَفْسَ الوُقود مبالغةً. وقرأ عبيد بن عمير ﴿وَقِيْدُها﴾ على وزن فَعِيل، وهو بمعنى: الحطب، كقراءة الجمهور.

وعبارة المراغي هنا: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ﴾ الآية، والنار[1] موطن العذاب، ونحن نؤمن بها كما أخبر القرآن، ولا نبحث عن حقيقتها، والوَقود بفتح الواو: ما توقد به النار، والمراد بالناس: العصاة، والمراد بالحجارة هنا: الأصنام، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾؛ أي: هيّئت للذين لا يستجيبون دعوة الرسل، أو ينحرفون عنها لمخالفتهم هدي الدين، وعمل ما تنكره شرائع الأنبياء والمرسلين من الخرافات والبدع.

والخلاصة: فإن لم تفعلوا ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد أن بذلتم المجهود ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ فليس في استطاعتكم، فاحذروا من العناد، واعترفوا بكونه منزلاً من عند الله تعالى، لئلاّ تكونوا أنتم وأصنامكم وقوداً للنار التي أعدّت لأمثالكم من الكافرين. اهـ.

ولمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى جزاء الكافرين، عقَّبه بجزاء المؤمنين؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، كما هي عادته سبحانه في كتابه العزيز؛ لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته، وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه، فقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ...﴾ الخ. وقال ابن كثير:[2] لمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى، ما أعدَّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين بالله وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن مثاني على أصحّ أقوال العلماء، وهو أن يذكر الإيمان، ويتبع بذكر الكفر أو عكسه، أو حال السعداء، ثمّ الأشقياء أو عكسه. وحاصله: أنّه ذكر الشيء ومقابله. انتهى.

(١) المراغي.

(٢) ابن كثير.

والبشارة: الخبر السارُّ الذي يظهر به أثر السرور في البشرة، والتبشير: الإخبار بما يظهر أثره على البشرة، وهي الجلدة الظاهرة من البشر والسرور. والمأمور بالتبشير هنا، قيل: هو النبي ﷺ. وقيل: هو كل أحد ممن يتأتّى منه التبشير، كما في قوله ﷺ: «بَشِّر المشَّائين إلى المساجد في ظلم الليالي، بالنور التامّ يوم القيامة»، فإنّه ﷺ لم يأمر بذلك واحداً بعينه، بل كلَّ أحدٍ ممَّن يتأتَّى منه ذلك، كالعلماء وولاة الأمور. والأمر على الأول للوجوب؛ لأنّ البشارة من جملة ما أمر بتبليغه.

أي: فرِّح يا محمد قلوب الذين آمنوا، وصدّقوا بأنّ القرآن منزل من عند الله تعالى، وبجميع ما أرسلتَ به. ﴿وَعَمِلُوا۟﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ من الفرائض والنوافل، جمع صالحة؛ أي: وعملوا الفعلات الصالحات، وهي كلّ ما كان لله تعالى. وفي عطف[1] العمل على الإيمان، دلالة على تغايرهما، وإشعار بأنّ مدار استحقاق البشارة مجموع الأمرين، فإنّ الإيمان أساس، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناء بأساسٍ لا بناء عليه. وطلب الجنة بلا عمل حال السفهاء؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى، جعل العمل سبباً لدخول الجنة، والعبد وإن كان يدخله الله الجنة بمجرَّد الإيمان، لكن العمل يزيد نور الإيمان، وبه يتنوَّر قلب المؤمن، وكم من عقبةٍ كؤودٍ تستقبل العبد إلى أن يصل إلى الجنة، وأوَّل تلك العقبات عقبة الإيمان، أنّه هل يسلم من السلب أم لا؟ فلزم العمل لتسهيل العقبات.

أي: أخبر يا محمد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بشارةً بـ ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ أي: حدائق وبساتين ذات أشجار مثمرة، ومساكن مزيَّنة. والجنة: ما فيه النخيل، والفردوس: ما فيه الكرم، كذا قال الفراء. ولفرط التفاف أغصان أشجارها، وتستّرها بالأشجار سمِّيت جنةً، كأنّها سترة واحدة، لأنّ الجنة بناء مرّةٍ. وإنّما سميت دار الثواب بها مع أنّ فيها ما لا يوصف من الغرفات والقصور؛ لما أنّها مناط نعيمها ومعظم ملاذّها.

---

(١) روح البيان.

فإن قلت: ما معنى جمع الجنة وتنكيرها؟

قلت: الجنة اسم لدار الثواب كلّها، وهي مشتملة على جنّات كثيرة مرتّبة مراتب على استحقاقات العاملين، لكلّ طبقةٍ منهم جنة من تلك الجنات.

والمراد بالجنة هنا[1]: دار الخلود في الحياة الآخرة، أعدّها الله للمتقين، كما أعدّ النار للكافرين، ونحن نؤمن بهما ولا نبحث عن حقيقتهما. ثمّ[2] الجنان ثمان: دار الجلال كلّها من نور مدائنها، وقصورها، وبيوتها، وأوانيها، وشُرُفها وأبوابها، ودرجها، وغرفها، وأعاليها، وأسافلها، وخيامها، وحليها، وكلٌّ ما فيها. ودار القرار كلّها من المرجان، ودار السلام كلّها من الياقوت الأحمر، وجنة عدن من الزبرجد كلُّها، وهي قصبة الجنة، وهي مشرفة على الجنان كلّها، وجنة المأوى من الذهب الأحمر كلّها، وجنَّة الخلد من الفضّة كلّها، وجنة الفردوس من اللؤلؤ كلّها، وجنة النعيم من الزمردّ كلّها، كذا قالوا، والله أعلم.

وجملة قوله: ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها ومساكنها على ظهر الأرض من غير حفيرة. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة المذكورة في (سورة محمد)؛ أي: المياه المعهودة في الجنة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية. وهي أنهار الخمر، واللبن، والعسل، والماء. صفةٌ لقوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾.

والأنهار جمع نهر بفتح الهاء وسكونها وهو[3] المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، كالنيل وهو نهر مصر، والمراد بها: الماء الجاري فيها، وأسند الجري إليها مجازاً، والجاري حقيقة هو الماء، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: أهلها، وكما قال الشاعر:

ونـبِّـئْـتُ أنَّ الـنَّـار بَـعـدك أُوقِـدَتْ   واسْـتَـبَّ بَـعْـدَكَ يَـا كُـلَـيْـبُ الـمَـجْـلِـسُ

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

والضمير في قوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ عائد إلى الجنات، ولكنه على تقدير مضاف؛ لاشتمالها على الأشجار؛ أي: من تحت أشجارها، كما مرّ آنفاً.

فإن قلت[1]: كيف جَرْيُ الأنهار من تحتها؟

قلت: كما ترى الأشجار النابتة على شواطىء الأنهار الجارية. وعن مسروق: أنَّ أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وهو الشقُّ من الأرض بالاستطالة، وأنزه البساتين، وأكرمها منظراً، ما كانت أشجاره مظللةً، والأنهار في خلالها مطّردةً. ولولا أنَّ الماء الجاري من النعمة العظمى، وأنَّ الرياض وإن كانت أحسن شيء، لا تجلب النشاط حتى يجري فيها الماء، وإلاّ كان السرور الأوفر مفقوداً، وكانت كتماثيل لا أرواح لها، وصوراً لا حياة لها، لَمَا جاء الله بذكر الجنات ألبتة مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها.

وقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ وصفٌ[2] آخر للجنات، أو هو جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنَّ سائلاً قال: كيف ثمارها؟. و﴿كُلَّمَا﴾ ظرف زمان ضُمِّن معنى الشرط؛ أي: متى أطعموا ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك الجنات ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾؛ أي: من أيِّ ثمرةٍ من أنواع ثمراتها. وليس المراد بالثمرة[3]: التفاحة الواحدة أو الرُّمَّانة الفَذَّة، وإنما المراد: نوعٌ من أنواع الثمرات. و﴿مِن﴾ الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية، لأنَّ الرزق قد ابتدىء من الجنات، والرزق من الجنّات قد ابتدىء من ثمرة. ﴿رِزْقًا﴾ مفعول رزقوا. والرزق: ما ينتفع به الحيوان طعاماً. ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال أصحاب الجنة للملائكة والولدان: ﴿هَٰذَا﴾ الطعام الذي أتيتمونا به هو ﴿الَّذِى رُزِقْنَا﴾ به ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مثل الطعام الذي رزقنا به من قبل هذا في الدنيا، ولكن لمَّا استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته.

وإنَّما[4] جعل ثمر الجنة كثمر الدنيا؛ لتميل النفس إليه حين تراه، فإنَّ

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

الطباع مائلةٌ إلى المألوف، متنفرةٌ عن غير المعروف؛ وليتبيَّن لها مزيّةٌ، إذ لو كان جنساً غير معهود، لظن أنّه لا يكون إلاّ كذلك وإن كان فائقاً، فحين أبصروا الرمَّانة من رمّان الدنيا ومبلغها في الحجم، وأنَّ الكبرى لا تفضل عن حدِّ البطيخة الصغيرة، ثمّ يبصرون رمّانة الجنة، وهي تشبع السكن ـ أي: أهل الدار ـ كان ذلك أبين للفضل، وأجلب للسرور، وأزيد في التعجّب من أن يفاجئوا ذلك الرمّان من غير عهدٍ سابقٍ بجنسه. وعموم ﴿كُلَّمَا﴾ يدلُّ على ترديدهم هذه المقالة، كُلَّ مرةٍ رزقوا فيما عدا المرّة الأولى، يظهرون بذلك التبجُّح وفرط الاستغراب، لما بينهما من التفاوت العظيم من حيث اللذَّة، مع اتحادهما في الشكل واللون، كأنّهم قالوا: هذا عين ما رزقناه في الدنيا، فمن أين له هذه الرتبة من اللذة والطيب.

ولا يقدح فيه ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (أنّه ليس في الجنّة من أطعمة الدنيا إلاّ الاسم)، فإنّ ذلك، لبيان كمال التفاوت بينهما من حيث اللذّة، والحسن، والهيئة، لا لبيان أن لا تشابه بينهما أصلاً، كيف لا وإطلاق الأسماء منوطٌ بالاتحاد النوعي قطعاً.

وجملة قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ﴾ حال من فاعل قالوا؛ أي: قالوا ذلك والحال أنّهم أتوا به، أي: جيئوا بذلك الرزق، أو المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً. والضمير عائد إلى ما دلّ عليه فحوى الكلام، مما رُزقوا في الدارين حال كون ما أتوا به وأعطوه في الدارين. ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ بعضه بعضاً في اللون والجودة، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك أجود وألذَّ، يعني: لا يكون فيه رديءٌ، فقوله: ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ حالٌ من ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

وقيل المعنى:[1] كلّما رزقوا من الجنة رزقاً من بعض ثمارها قالوا: هذا الذي وعدنا به في الدنيا جزاءً على الإيمان، وصالح الأعمال، فهو من وادي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ

(١) المراغي.

﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾. ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ﴾ أي: إنّ رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها في صورته، ويختلف في طعمه ولذته.

وقيل المعنى:[1] ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾ وأعطوا، واطعموا ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك الجنات ﴿مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾؛ أي: عطاءً وطعاماً من ثمرةٍ من ثمارها. ﴿قَالُواْ﴾ للملائكة والولدان: ﴿هَٰذَا﴾ الطعام الذي أتيتمونا به في هذه المرّة، مثل الطعام. ﴿ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ وأعطينا به ﴿مِن قَبْلُۖ﴾؛ أي: من قبل هذه المرّة في الجنة؛ أي: مثله في الشكل واللون، فتقول الملائكة: كل يا عبد الله، فاللون واحد، والطعم مختلف. ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ﴾؛ أي: والحال أنّهم أعطوا بذلك الطعام، حال كونه متشابهاً بعضه بعضاً في اللون والمنظر دون الطعم؛ أي: تأتيهم الملائكة والولدان برزق الجنة متشابهاً بعضه بعضاً في اللون مختلفاً في الطعم.

وقرأ الجمهور ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ﴾ مبنياً للمفعول، وحذف الفاعل للعلم به، وهو الخدم والولدان، يُبيِّن ذلك قراءة هارون الأعور، والعتكي ﴿وأَتَوْا به﴾ على البناء للفاعل، ذكره في «البحر».

وروى مسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: أهل الجنة يأكلون، ويشربون، ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يتمخّطون، ولا يبزقون، ويلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النَّفَس طعامهم جشاء، ورشحهم كرشح المسك. وفي رواية: ورشحهم المسك. وعن مسروق: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها؛ أي: منضودٌ بعضها على بعض؛ أي: متراكبٌ ومجتمع ليس كأشجار الدنيا متفرّقةً أغصانها وثمرتها أمثال القلال، كلّما نزعت ثمرةٌ عادت مكانها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعاً، ولو اجتمع الخلائق على عنقود لأشبعهم. وجاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ ـ فقال: يا أبا القاسم! تزعم أنّ أهل الجنة يأكلون ويشربون، فقال: «نعم والذي نفس محمد بيده، إنَّ أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل، والشرب، والجماع»، قال: فإنّ الذي يأكل له

---

(١) العمدة.

حاجة، والجنة طيّبة ليس فيها أذًى، قال عليه السلام: «حاجةُ أحدهم عرقٌ كريح المسك».

وجملة قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ﴾؛ أي: في الجنة ﴿أَزْوَٰجٌ﴾؛ أي: نساءٌ وحور. معطوفة على جملة قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾. على كونها صفة لجنات؛ أي: وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بأنَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وجنات لهم فيها أزواج. ﴿مُّطَهَّـرَةٌ﴾؛ أي:[1] مهذَّبة منقَّاة من الأحوال المستقذرة، كالحيض، والنفاس، والبول، والغائط، والمنيّ، والمُخاط، والبلغم، والورم، والدَّرَن، والصُّداع، وسائر الأوجاع، والولادة، ودنس الطبع، وسوء الخلق، وميل الطبع إلى غير الأزواج، وغير ذلك.

وقوله: ﴿مُّطَهَّـرَةٌ﴾ أبلغ من طاهرة ومتطهرة؛ للإشعار بأنَّ مطَهِّراً طَهَّرهُنَّ، وما هو إلاّ الله سبحانه وتعالى. وقرأ الجمهور[2] ﴿مُّطَهَّـرَةٌ﴾ صفة للأزواج، مَبْنِيَّةٌ على طَهُرت كالواحدة المؤنثة. وقرأ زيد بن علي ﴿مُطهَّرات﴾ فجمع بالألف والتاء على معنى: طُهِّرن. قال الزمخشري: وهما لغتان فصيحتان. يقال: النساء فعلن وهنّ فاعلات، والنساء فعلت وهي فاعلةٌ. وقرأ عبيد بن عمير ﴿مُطَّهِّرة﴾ بتشديد الطاء المفتوحة وتشديد الهاء المكسورة. أصله: متطهرة، وهي مناسبة لقراءة الجمهور. قال الحسن: هنَّ عجائزكم العُمْصُ العُمْشُ طُهِّرن من قاذورات الدنيا. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (خلق الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب؛ أي: الأبيض، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور، إذ أقبلت يتلألأ نور وجهها، كما يتلألأ نور الشمس لأهل الدنيا).

وجملة قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ حال من ضمير لهم؛ أي: ولهم فيها أزواج مطهّرة خالصة من الأدناس الحسية والمعنوية، حالة كونهم خالدين في تلك

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

الجنات ماكثين فيها أحياء أبداً، لا يموتون، ولا يخرجون منها؛ لأنّ من تمام النعمة عليهم الخلود فيها.

قال عكرمة:[1] أهل الجنة ولد ثلاثٍ وثلاثين سنة، رجالهم ونساؤهم، وقامتهم ستون ذراعاً على قامة أبيهم آدم، شبابٌ جردٌ مرْدٌ، مكحلون، عليهم سبعون حُلَّة، تتلوَّنُ كُلُّ حلة في كلِّ ساعة سبعين لوناً، لا يَبْزقون، ولا يتمخّطون، وما كان فوق ذلك من الأذى، فهو أبعد، يزدادون كلّ يوم جمالاً وحسناً، كما يزداد أهل الدنيا هرماً وضعفاً، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم.

واعلم: أنَّ معظم اللذات الحسيَّة، لما كان مقصوراً على المساكن، والمطاعم، والمناكح حسبما يقضي به الإستقراء، وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات، إذ كلُّ نعمة وإن جلَّت حيث كانت في شرف الزوال، ومعرض الاضمحلال، فإنّها منغَّصة غير صافية من شوائب الألم، بشَّر المؤمنين بها وبدوامها تكميلاً للبهجة والسرور، ولذلك قيل:

أشدُّ الغَمِّ عندي في سرورٍ تيقَّنَ عنه صاحبه انتقالا

واعلم[2]: أنّ صحبة الأزواج في الآخرة من الأمور الغيبية التي نؤمن بها، كما أخبر الله تعالى، ولا نبحث فيما وراء ذلك، فأطوار الآخرة أعلى مما في حياتنا الدنيا، فهي سالمة من المنغِّصات في الطعام، والشراب، والمباشرة الزوجيَّة، كما أخبره النبي ﷺ في حديث مسلم السابق.

وقد ورد في الحديث الصحيح[3]، ما يدلُّ على كثرة الأزواج من الحور وغيرهنّ، وأريد بالأزواج هنا القرناء من النساء اللاتي تختصُّ بالرجل، لا يشركه فيها غيره، فمعنى تطهيرهنّ: (إن كُنَّ من الحور، كما روي عن عبد الله: خَلَقَهنّ على الطهارة لم يعلق بهنّ دنسٌ ذاتيٌّ ولا خارجيٌّ) (وإن كُنَّ من بني آدم، كما روي عن الحسن: تطهيرُهنّ من الأدناس الَّتِي كانت بها في الدنيا، ذاتِيَّةً كانت

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

كالحَيْضِ، والنفاسِ، والبول، والغائط، أو عرضيَّةً، كالبَخَرِ، والصُّنان، والقيح، والصديد، أو معنويَّةً كالغضب، والحقد، والحدَّةِ، والكيدِ، والمكرِ، والميل إلى غير الأزواج).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾. الخ. أنزل الله سبحانه هذه الآية ردّاً على الكفار، لمَّا أنكروا ما ضربه من الأمثال، كقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾. وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فقالوا: الله أجلُّ وأعلى من أن يضرب الأمثال. وقال الحسن وقتادة: لمَّا ذكر الله سبحانه الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله هذه الآية، كما مَرَّ في الأسباب بسطه.

والظاهر[1] ما ذكرناه أوّلاً؛ لكون هذه الآية جاءت بعقب المثلين اللذين هما مذكوران قبلها، ولا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك، لكونه قادحاً في الفصاحة والإعجاز.

والحياء: تغيّر وانكسار، يعتري الإنسان من تخوّف ما يعاب به ويذمّ، كذا في «الكشاف»، وتبعه الرازي في «مفاتيح الغيب». وقال القرطبي: أصل الاستحياء: الانقباض عن الشيء، والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح، وهذا محال على الله تعالى. وقد اختلفوا في تأويل ما في هذه الآية من ذكر الحياء، فقيل: ساغ ذلك لكونه واقعاً في الكلام المحكي عن الكفّار، وقيل: هو من باب المشاكلة، وقيل: هو جار على سبيل التمثيل. قال في «الكشاف»: مثَّل تركه تخييب العبد، وأنّه لا يردُّ يديه صِفْراً من عطائه لكرمه، بترك مَن يترك ردَّ المحتاج إليه حياءً منه. اهـ.

والمعنى: أنّ الله لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، ترك من يستحيي أن يمثل بها لحقارتها. وما[2] الأمثال إلاّ إبرازٌ للمعاني المقصودة في قالب الأشياء

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

المحسوسة، لتأنس بها النفس، وتستنزل الوهم عن معارضة العقل. والحكيم علام الغيوب، يعلم حكمة هذا، فلا يترك ضرب المثل بالبعوضة، وما دونها حين تدعو المصلحة إلى ذلك.

والناس إزاء هذا فريقان: مؤمنون يقولون: إنّ الله خالق الأشياء حقيرها وعظيمها، فالكلّ لديه سواء، وكافرون يستهزؤن بالأمثال احتقاراً لها، فحقت عليهم كلمة ربّهم، فأصبحوا من الخاسرين.

فمحلّ ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾؛ أي: يذكر. نصب[1] على المفعولية؛ أي: إنّ الله لا يترك أن يذكر مثلاً وشبهاً لآلهتهم، وما في قوله: ﴿مَّا بَعُوضَةً﴾ اسمية إبهامية؛ أي: موجبة لإبهام ما دخلت عليه؛ أي: تزيد ما تقارنه من الاسم المنكَّر إبهاماً وشيوعاً، حتى يكون أعمّ مما كان عليه أوّلاً، وأكثر شيوعاً في أفراده، فكأنّه قيل: يضرب مثلاً ما من الأمثال أيَّ مثل كان، فهي في موضع نصب، صفة لِمَا قَبْلَها، و﴿بَعُوضَةً﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾. ﴿فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾ معطوف على بعوضة؛ أي: إنّ الله لا يترك أن يذكر مثلاً وشبهاً لآلهتهم أيَّ مثل كان، ولا يترك أن يذكر بعوضةً، فيذكر الذي هو أزيد منها في الكبر، كالذباب والعنكبوت، أو يذكر ما دونها في الصغر، كالذرّة، وجناح بعوضة. قيل: إنّه من الأضداد، ويطلق على الأعلى والأدنى. وقيل: أن يضرب بمعنى: يجعل، فتكون. ﴿بَعُوضَةً﴾ المفعول الثاني، كما سيأتي.

فإن قلت[2]: مثَّل الله آلهتهم ببيت العنكبوت وبالذباب، فأين تمثيلها بالبعوضة فما دونها؟

قلت: في هذه الآية كأنّه قال: إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مَثَل آلهتكم بالبعوضة فما دونها، فما ظنَّكم بالعنكبوت والذباب؟.

والبعوضة: فعولة من بَعَضَ إذا قطع. يقال: بعض وبضع بمعنًى، والبعوض: الناموس، والواحدة: بعوضة. قال الربيعُ بن أنس: ضَرْبُ المثل

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

بالبعوضة عبرةً لأهل الدنيا، فإنّ البعوضة تَحْيَا ما جاعَتْ، وتموت إذا شبعت، فكذا صاحب الدنيا، إذا استغنى طغا، وأحاط به الردى. وقال الإمام أبو منصور: الأُعجوبة في الدلالة على وحدانية الله تعالى، في الخلق الصغير الجُثَّةِ والجسمِ، أكثر منها في الكبار العظام؛ لأنَّ الخلائق لو اجتمعوا على تصوير صورة من نحو البعوض والذباب، وتركيب ما يَحْتَاج من الفم، والأنف، والعين، والرجل، واليد، والمدخل، والمخرج ما قدروا عليه، ولعلَّهم يقدرون على تصوير العظام من الأجسام الكبار منها، فالبعوضة أعطيت على قدر حجمها الحقير، كلَّ آلةٍ وعضوٍ أعطيه الفيل الكبير القويُّ.

قال بعضهم:[1] إنّ الله تعالى قوَّى قلوب ضعفاء الناس بذكر ضعفاء الأجناس، وعرَّف الخلق قدرته في خلق الضعفاء على هيئات الأقوياء، فإنَّ البعوض على صغره بهيئة الفيل على كبره، وفي البعوض زيادة جناحين، فلا يستبعد من كرمه، أن يعطي على قليل العمل ما يعطي على كثير العمل من الخلق، كما أعطَىٰ صغير الجثة ما أعطَىٰ كبير الجثة من الخلقة، ومن العجب أنَّ هذا الصغير يؤذي هذا الكبير، فلا يمتنع منه.

ومن لطف الله تعالى: أنّه خلق الأسد بغاية القوة، والبعوض والذباب بغاية الضعف، ثمّ أعطى البعوض والذباب جراءةً أظهرها في طيرانهما في وجوه الناس، وتماديهما في ذلك مع مبالغة الناس في ذبّهما بالمِذَبَّة، وركَّب الجُبْن في الأسد، وأظهر ذلك بتباعده عن مساكن الناس وطرقهم، ولو تجاسر الأسد تجاسُرَ الذبابِ والبعوضِ لهلك الناس. فمنَّ اللَّهُ تعالى، وجَعَل في الضعيف التجاسر، وفي القوي الجبن، ومن العجب عجزك عن هذا الضعيف، وقدرتك على ذلك الكبير.

وتقدَّم لك أنّ المراد بالبعوض هنا: الناموس، وهو من عجيب خلق الله تعالى، فإنّه في غاية الصغر، وله ستّة أرجل، وأربعة أجنحة، وذنبٌ، وخرطوم

---

(١) روح البيان.

مجوَّف، وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل، والجاموس، والجمل، فيبلغ منه الغاية حتى إنَّ الجمل يموت من قرصته.

قال القشيري ـ رحمه الله تعالى ـ[1]: الخلق في التحقيق بالإضافة إلى قدرة الخالق، أقلُّ من ذرّةٍ من الهباء في الهواء، وسيّان في قدرته العرش والبعوضة، فلا خَلْقُ العرش عليه أعسر، ولا خلق البعوضة عليه أيسر، سبحانه وتقدّس عن لحوق العسر واليسر. انتهى.

أي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَسْتَحْىِۦٓ﴾ ولا يترك ﴿أَن يَضْرِبَ﴾ ويذكر، ويبيِّن للخلق ﴿مَثَلًا مَّا﴾؛ أي: شبهاً ما أيَّ مثلٍ كان ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ أي: فوق البعوضة في الذات والكبر، كالذباب والعنكبوت، أو فوقها في الغرض المقصود من التمثيل، كجناح البعوضة، أو دونها في الذات، كالذرة صغار النمل، وكيف يستحيي الله سبحانه من ذكر شيء، لو اجتمع الخلائق كلُّهم على تخليقه ما قدروا عليه.

والمعنى: أنَّ الله تعالى، لا يترك ضرب المثل ببعوضة فما فوقها، إذا علم أنَّ فيه عبرةً لمن اعتبر، وحجةً على من جحد. والخلاصة: أي: إنّ الله جلّت قدرته، لا يرى من النقص أن يضرب المثل بالبعوضة فما دونها، لأنّه هو الخالق لكلّ شيء جليلاً كان أو حقيراً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَسْتَحْىِۦٓ﴾ بياءين، والماضي استحيا، وهي لغة أهل الحجاز، واستفعل هنا جاء للإغناء عن الثلاثي المجرد، كاستنكف، واستأثر، واستبدَّ، واستعبر، وهو من المعاني التي جاء لها استفعل. قال الزمخشري: يقال: حيي الرجل من الحياء، كما يقال: نسي، وخشي، فيكون استحيا على ذلك موافقاً للمجرّد. وقرأ ابن كثير في رواية شِبْلٍ، وابنِ مُحَيْصنٍ، ويعقوب ﴿يَسْتَحِي﴾ بياء واحدة، وهي لغة بني تميم، وبكر بن وائل، يُجْرُوَنَها مُجْرَى

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

يَسْتَبي، قال الشاعر:

ألا تَستَحِي مِنّا ملوكٌ وتَتَقِي محارمَنا لا يَبُوءُ الدَّمُ بالدَمِ

والماضي اسْتَحىٰ، قال الشاعر:

إذا ما اسْتَحَيْنَ المَاء يُعْرِضُ نَفْسَه كرَعْنَ بِسِتٍّ فِي إِنَاءٍ من الوَرْدِ

وأصله: ﴿يَسْتَحْيِيء﴾ بياءين، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء، فسكنت، ثمّ استثقلت الضمة على الثانية، فسكنت، فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين. واختلف النحاة في المحذوفة، فقيل: لام الكلمة، فالوزن: يستفع، فنقلت حركة العين إلى الفاء وسكنت العين، فصارت يستفع. وقيل: المحذوف العين، فالوزن: يستفِلْ، ثمّ نقلت حركة اللام إلى الفاء وسكنت اللام، فصارت يستفل، وأكثر نصوص الأئمّة على أنَّ المحذوف هو العين.

وقرأ الجمهور[1]: بنصب ﴿بَعُوضَةً﴾، واختلف في توجيه النصب على أوجه:

أحدهما: أن تكون صفة لـ﴿مَا﴾، إذا جعلنا ﴿مَّا﴾ بدلاً من ﴿مَثَلًا﴾، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ﴿يَضْرِبَ﴾.

والثاني: أن تكون ﴿بَعُوضَةً﴾ عطف بيان، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ﴿يَضْرِبَ﴾.

والثالث: أن تكون بدلاً من ﴿مَثَلًا﴾.

والرابع: أن تكون مفعولاً لـ ﴿يَضْرِبَ﴾، وانتصب ﴿مَثَلًا﴾ حالاً من النكرة مقدَّمةً عليها.

والخامس: أن تكون مفعولاً لـ ﴿يَضْرِبَ﴾ ثانياً، والأول هو ﴿مَثَلًا﴾ على أنّ ﴿يَضْرِبَ﴾ بمعنى يجعل يتعدّى لاثنين.

والسادس: أن تكون مفعولاً أوّل لـ ﴿يَضْرِبَ﴾، و﴿مَثَلًا﴾ المفعول الثاني.

والسابع: أن تكون منصوباً على تقدير إسقاط الجار، والمعنى: أن يضرب

---

(١) البحر المحيط.

مثلاً ما بين بعوضة فما فوقها، نظير قولهم: له عشرون ما ناقةً فجملاً.

وقرأ الضحاك[(١)]، وإبراهيم بن أبي عبلة، ورؤبة بن العجاج، وقطرب ﴿بَعُوضَةٌ﴾ بالرفع، وهي لغة تميم. قال أبو الفتح: وجه ذلك: أنّ ﴿مَا﴾ اسم بمنزلة الذي و﴿بَعُوضَةٌ﴾ رفع على إضمار المبتدأ، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهامية في محلّ الرفع بالابتداء، و﴿بَعُوضَةٌ﴾ وما بعدها خبرها، وقيل غير ذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدّقوا بالقرآن، وبما جاء به محمد ﷺ، وهو محمد وأصحابه. والفاء؛ للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما يدل عليه ما قبلها، كأنّه قيل: فيضربه فأما الذين آمنوا ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾؛ أي: أنّ ضرب المثل بالبعوضة والذباب هو الأمر ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يسوغ إنكاره حال كونه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ لا من محمد، فلا يسوغ إنكاره؛ لأنّه ليس عبثاً، بل هو مشتمل على الحِكَم والفوائد، فيؤمنون به. والجار والمجرور[(٢)] حال من الضمير المستكن في ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أو من الضمير العائد إلى المثل؛ أي: كائناً منه تعالى، فيتفكرون في هذا المثل الحقّ، ويوقنون أنّ الله هو خالق الكبير والصغير، وكلّ ذلك في قدرته سواء، فيؤمنون به.

والمعنى: أي[(٣)] فالمؤمنون يقولون: ما ضرب الله هذا المثل إلاّ لحكم ومصالح اقتضت ضربه لها، وهي تقرير الحقّ، والأخذ به، فهو إنّما يضرب لإيضاح المبهم بجعل المعقولات تلبس ثوب المحسوسات، أو تفصيل المجمل لبسطه وإيضاحه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وجحدوا بما جاء به محمد ﷺ وهم اليهود والمشركون، ﴿فَـ﴾ يتعجّبون من ذلك المثل، و﴿يقولون﴾ إنكاراً له: ﴿مَاذَآ﴾؛

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

أي: أيّ شيء، أو ما الغرض الذي ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِهَٰذَا﴾ المثل الخسيس الذي هو التمثيل بالأشياء الحقيرة من البعوضة والذباب. وفي كلمة (هذا) تحقير للمشار إليه، واسترذال له. ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: من جهة كونه مثلاً من الأمثال، فهو تمييز ذات من اسم الإشارة؛ أي: أيّ فائدة وأيّ غرض في ضرب المثل بهذه الأشياء الخسيسة؟ فليس من الله، بل افتراء من محمّد.

قال في «الروح»[1]: الأصل: ماذا أراد الله بهذا المثل؟ فلما حذف الألف واللام نصب على الحال؛ أي: ماذا أراد الله بهذا حال كونه مُمَثَّلاً به، أو على التمييز؛ أي: من جهة كونه مثلاً.

والمعنى[2]: وأمّا الذين كفروا، وهم اليهود والمشركون، وكانوا يجادلون بعد أن استبانت الحجة، وحَصْحَصَ الحقُّ، ويقولون: ماذا أراد الله بهذه المُثُل الحقيرة التي فيها الذباب والعنكبوت، ولو أنصفوا لعرفوا وجه الحكمة في ذلك، وما أعرضوا، وانصرفوا ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

فأجابهم الله تعالى، ردّاً عليهم بقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾؛ أي: يَخْذِلُ بهذا المثل والإضلال: هو الصرف عن الحقّ إلى الباطل، وإسناد الإضلال؛ أي: خلْقُ الضلال إليه سبحانه، مبنيٌّ على أنَّ جميع الأشياء مخلوقةٌ له تعالى، وإن كانت أفعال العباد مستندةً إليهم من حيث الكسبِ؛ أي: أراد الله بهذا المثل أن يضلّ به ﴿كَثِيرًا﴾ من أهل الكفر والنفاق؛ وذلك. لأنّهم ينكرونه، ويكذّبونه، فيزيدون بإنكاره ضلالاً على ضلالهم الأول. ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من أهل الإيمان والإخلاص؛ لأنّهم يعرفون، ويصدّقون به، فيزيدون به إيماناً على إيمانهم. يعني:[3] يضلّ به مَن علم منهم أنّه يختار الضلالة، ويهدي به من علم أنّه يختار الهدى.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

والمعنى: أي[1] إنّ مَن غلب عليهم الجهل إذا سمعوه كابروا، وعاندوا، وقابلوه بالإنكار، فكان ذلك سبباً في ضلالهم، ومَن عادتهم الإنصاف، والنظر بثاقب الفكر إذا سمعوه اهتدوا به؛ لأنّهم يقدِّرون الأشياء بحسب فائدتها. ومن المعلوم: أنَّ أنفع الكلام ما تجلَّت به الحقائق، واهتدى به السامع إلى سواء السبيل، وأجلُّه في ذلك الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾، والعالمون: هم المؤمنون المهتدون بهدي الحقّ.

وقد جعل الله سبحانه، المهتدين في الكثرة كالضالين مع أنَّ هؤلاء أكثر، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾. إشارةً إلى أنَّ المؤمنين المهتدين على قلَّتهم، أكثر نفعاً وأجل فائدة من أولئك الكفرة الفاسقين، وما أحسن قول بعضهم:

إنَّ الكِرام كَثِيرٌ في البِلاد وإنْ قَلُّوا كما غَيْرهم قلٌّ وإنْ كَثُرُوا

وفي «الروح»: فإن قلت:[2] لِمَ وُصف المهديُّون بالكثرة والقلَّة صفتهم؟

قلت: أهل الهدى كثير في أنفسهم، وحين يوصفون بالقلّة إنّما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال، وأيضاً: فإنّ القليل من المهديّين كثيرٌ في الحقيقة، وإن قلُّوا في الصورة؛ لأنَّ هؤلاء على الحقّ، وهم على الباطل. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (السواد الأعظم هو الواحد على الحقّ).

ثمّ أكمل الجواب، وزاد في البيان، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ﴾ الله سبحانه ﴿بِهِۦٓ﴾؛ أي: بهذا المثل؛ أي: لا يخذل، ولا يذلّ بهذا المثل وتكذيبه ﴿إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾؛ أي: إلاّ الخارجين عن حدّ الإيمان والإخلاص إلى الكفر والنفاق، كاليهود والمنافقين.

أي:[3] وما يُضِلّ بضرب المثل إلاّ الذين خرجوا عن سنّة الله في خلقه،

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وعمّا هداهم إليه بالعقل، والمشاعر، والكتب المنزلة على من أوتوها. وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ علّة إضلالهم، ما كانوا عليه من الخروج عن السنن الكونية التي جعلها عبرة لمن تذكّر، فقد انصرفت أنظارهم عن التدبّر في حكمة المثل إلى حقارة المُمَثَّل به، حتى رسخت به جهالتهم، وازدادت ضلالتهم، فأنكروه.

والفسق في اللغة[1]: الخروج، وفي الشرع: الخروج عن طاعة الله بارتكاب الكبيرة التي من جملتها الإصرار على الصغيرة، وله طبقات ثلاثٌ:

الأولى: التغابي، وهو ارتكابها أحياناً مستقبحاً لها.

والثانية: الانهماك في تعاطيها.

والثالثة: المثابرة عليها مع جحود قبحها، وهذه الطبقة من مراتب الكفر، فما لم يبلغها الفاسق لا يسلب عنه اسم المؤمن، لاتصافه بالتصديق الذي يدور عليه الإيمان.

ثُمَّ زاد في ذمّ الفاسقين بذكر أوصاف مستقبحة لهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: يخالفون، ويتركون أمر الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ أي: من بعد توثيق ذلك العهد، وتوكيده بالقبول. فالضمير للعهد، أو من بعد توثيق الله سبحانه ذلك العهد، بإنزال الكتب وإرسال الرسل، فالضمير إلى الله. فالمراد بالميثاق هنا: نفس المصدر لا نفس العهد.

أي: الذين يخالفون أمر الله ووصيّته في الكتب المتقدمة، بالإيمان بمحمد ﷺ من بعد ميثاقه وتوكيده عليهم، وإيجاب وفائه عليهم المذكور في آية ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ الآية.

وقيل[2]: المراد بالعهد: هو الحجة القائمة على عباده الدالّة على وجوب

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

وجوده ووحدانيته، وعلى وجوب صدق رسله. فالمعنى: الذين ينقضون كلّ عهد وميثاق من الإيمان بالله، والتصديق بالرسل، والعمل بالشرائع.

قيل[1]: عهد الله ثلاثة:

الأول: ما أخذه على ذرّيّة آدم - عليه السلام - بأنّ يقرّوا بربوبيته تعالى.

والثاني: ما أخذه على الأنبياء - عليهم السلام - أن أقيموا الدين، ولا تتفرّقوا فيه.

والثالث: ما أخذه على العلماء بأن يبيّنوا الحقّ، ولا يكتموه.

والنقض: الفسخ، وفكّ التركيب.

فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين.

وعبارة المراغي هنا: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ أي:[2] الذين يستعملون المواهب التي خلقها الله لعباده من عقل، ومشاعر، وحواس ترشدهم إلى النظر والاعتبار في غير ما خلقت له، حتى كأنّهم فقدوها، كما قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

وهذا العهد الذي نقضوه هو العهد الفطريُّ، وهناك عهد آخر جاءت به الشرائع، وهو العهد الدينيّ، وقد وثّق الله الأول بجعل العقول قابلة لإدراك السنن الإلٰهيّة التي في الكون، كما وثّق الثاني، بما أيّد به الأنبياء من الحجج والبراهين الدالة على صدقهم، فمن أنكر بعثة الرسل، ولم يهتد بهديهم، فهو ناقض لعهد الله، فاسق عن سننه في إبلاغ القوى البشريّة والنفسيّة حدَّ الكمال الإنسانيّ الممكن لها.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُضِلُّ﴾ بضمّ الياء وكسر الضاد من (أضلّ) الرباعيّ المبني للفاعل في المواضع الثلاثة، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى. وقرأ زيد بن علـــيّ ﴿يُضَلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضَلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فـــي الثلاثة على البناء للمفعول. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة في الثلاثة على البناء للفاعل الظاهر مفتوح حرف المضارعة. وروي عن ابن مسعود: أنّه قرأ ﴿يضلّ﴾ بضمّ الياء في الأول، ﴿وما يَضلّ به﴾ بفتح الياء، و﴿الفاسقون﴾ بالواو، وكذا أيضاً: في القراءتين السابقتين، وهي قراءات متجهة في أنّها مخالفة للمصحف المجمع عليه.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ محلُّ ﴿أَن يُوصَلَ﴾ الجرّ على أنّه بدل من الهاء في ﴿بِهِۦٓ﴾ العائد إلى ﴿مَآ﴾ الموصولة؛ أي:[2] يقطعون ما أمر الله بوصله، من الأرحام والقرابات الدينية والنسبية. وذلك أنّ قريشاً قطعوا رحم النبي ﷺ بالمعاداة، والله أمرهم أن يصلوا حبلهم بحبل المؤمنين، فهم انقطعوا عن المؤمنين، واتصلوا بالكفّار. فلفظ[3] القطع عامّ في كلّ قطيعة لا يرضى الله بها، كقطع الرحم، وقطع موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب السماوية في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطي شرّ، فإنّه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد، من الوصلة التي هي المقصودة بالذات من كلّ وصل وفصل.

وفي الحديث: «إذا أظهر الناس العلم، وضيّعوا العمل به، وتحابّوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا الأرحام لعنهم الله عند ذلك، فأصمّهم وأعمى أبصارهم». وروي عن النبي ﷺ أنّه قال: «ثلاثة في ظلّ عرش الله يوم القيامة: امرأة مات عنها زوجها، وترك عليها يتامى صغاراً، فخُطِبت فلم تتزوج، وقالت:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

أقوم على أيتامي حتى يغنيهم الله تعالى أو يميت ـ يعني: اليتيم أو هي ـ، ورجلٌ له مال صنع طعاماً، فأطاب صنعته، وأحسن نفقته، فدعا عليه اليتيم والمسكين، ورجل وصل الرحم، يوسِّع له في رزقه، ويمدُّ له في أجله، ويكون تحت ظلّ عرش ربّه».

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، والفتن، وتعويق الناس من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، والاستهزاء بالحقّ، وقطع الصلة التي عليها يدور فَلَكُ نظام العالم، وصلاحه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بنقض العهد وبما بعده ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: المغبونون بفوات المثوبة والجنة لهم، والمصير إلى العقوبة والنار المؤبّدة عليهم؛ لأنّهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فصاروا إلى النار المؤبّدة؛ لأنّهم استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل والفساد بالصلاح.

وروي: أنّه ليس من مؤمن ولا كافر إلاّ وله منزل، وأهل، وخدم في الجنة، فإن أطاع الله تعالى أُعْطِي أهله، وخدمه، ومنزله في الجنة، وإن عصاه ورّثه الله المؤمن فقد غبن عن أهله، وخدمه، ومنزله.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ كيف(1) نصب حالاً من الضمير في ﴿تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: حالة كونكم معاندين تكفرون، وتجحدون ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بوحدانية الله، ومعكم ما يصرفكم عن الكفر إلى الإيمان من الدلائل الأنفسيّة والآفاقية. والاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾ إنكاري، لا بمعنى: إنكار الوقوع، بل بمعنى: إنكار الواقع واستبعاده، والتعجيبِ منه، والتوبيخ عليه؛ لأنّ التعجّب من الله يكون على وجه التعجيب، والتعجيب: هو أن يدعو إلى التعجب، وكأنّه يقول: ألا تتعجّبون أنّهم يكفرون الله، كما في «تفسير أبي الليث». وقال القاضي: هو استخبار، والمعنى: أخبروني على أيّ حال تكفرون.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾؛ أي: والحال أنكم كنتم أمواتاً؛ أي: أجساماً لا حياة

---

(1) روح البيان.

لها، عناصر، وأغذيةً، ونطفاً، ومضغاً مخلَّقة وغير مخلّقة؛ أي: لا ينبغي ولا يليق بكم الكفر مع وجود البرهان الساطع على الوحدانية فيكم. والأموات: جمع ميت، كأقوال جمع قيل.

قال في «الكشاف»: فإن قلت: كيف قيل لهم: أموات حال كونهم جماداً، وإنما يقال: ميتٌ فيما تصحُّ منه الحياة من البُنَىٰ؟ قلت: بل يقال ذلك لعادم الحياة لقوله تعالى: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بخلق الأرواح، ونفخها فيكم في أرحام أمهاتكم، ثمّ في دنياكم. وهذا إلزامٌ لهم بالبعث، والفاء[1] للدلالة على التعقيب، فإنَّ الإحياءَ حاصلٌ إثر كونهم أمواتاً، وإن توارد عليهم في تلك الحالة أطوارٌ مترتّبةٌ بعضها متراخ عن بعض، كما أشير إليه آنفاً.

ثُمَّ لما كان المقام في الدنيا قد يطول، جاء بثمّ الدالة على التراخي، فقال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، وكون الإماتة من دلائل القدرة ظاهر، وأمّا كونها من النعم، فلكونها وسيلةً إلى الحياة الثانية التي هي الحيوان الأبدي والنعمة العظمى. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للسؤال في القبور، فيحيى الميت حتى يسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين، ويقال: من ربُّك؟ ومن نبيُّك؟ وما دينك؟. ودلّت ﴿ثُمَّ﴾ التي للتعقيب على سبيل التراخي على أنّه لم يرد به حياة البعث، فإنّ الحياة يومئذٍ يقارنها الرجوع إلى الله بالحساب والجزاء، وتتصل به من غير تراخ. فلا يناسب ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. ودلّت الآية على إثبات عذاب القبر وراحة القبر، كما في «التيسير». ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الحشر لا إلى غيره، فيجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، وإليه تُنشرون من قبوركم للحساب، فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه.

فإن قيل: إن علموا أنّهم كانوا أمواتاً، فأحياهم ثمّ يميتهم، لم يعلموا أنّه يحييهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. قلت: تمكنهم من العلم بهما، لِمَا نصب لهم من

---

(١) روح البيان.

الدلائل منزَّلٌ منزلة علمهم في إزاحة العذر، سيّما. وفي الآية تنبيهٌ على ما يدلّ به على صحتهما. وهو أنّه تعالى، لمَّا قَدَر أنْ أحياهم أوّلاً، قدر أن يحييهم ثانياً، فإنَّ بَدْءَ الخلق ليس بأهون عليه من إعادته.

وحاصل المعنى على هذا التفسير الذي قرَّرناه: ﴿كنتم أمواتاً﴾؛ أي: نطفاً في أصلاب الرجال. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ حياة الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في القبور ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ في القبور ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة التي ليس بعدها موت. قال القرطبي: فعلى هذا التأويل هي ثلاث موتات، وثلاث إحياءات. وكونهم موتى في ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نطفاً في أصلاب الرجال. فعلى هذا يجيء أربع موتات، وأربع إحياءات.

وقيل معنى الآية:[1] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ وتجحدون أيّها العباد إنسكم وجنكم ﴿بِـ﴾ وحدانية ﴿الله﴾ سبحانه وتعالى، وتعبدون معه غيره، ﴿و﴾ الحال أنّه قد وجد فيكم ما يدلّ على وحدانية الله؛ لأنّكم ﴿كنتم أمواتاً﴾؛ أي: أجساماً لا حياة لها نطفاً علقاً ومضغاً ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بنفخ الأرواح فيكم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ في الدنيا بقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة بالبعث والنشور. وقد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة، فمَن بعدهم. قال ابن عطية: وهذا القول هو المراد بالآية، وهو الذي لا محيد للكفار عنه، وإذا أذعنت نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين، ثمّ أحياء في الدنيا، ثمّ أمواتاً فيها لزمهم الإقرار بالحياة الأخرى. وقال غيره: والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا.

﴿ثُمَّ﴾ بعد بعثكم ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى لقائه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وتردّون، فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ؛ أي: ثمّ إليه تنشرون من قبوركم للحساب.

وعبارة المراغي هنا: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: على[2] أيّ حال

---

(١) العمدة.

(٢) المراغي.

تكفرون بالله؟ وعلى أيّ شُبْهةٍ تعتمدون؟ وحالكم في موتتيكم وحياتيكم لا تدع لكم عذراً في الكفران به، والاستهزاء بما ضربه من المثل، وإنكار نبوة نبيه. ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾؛ أي: والحال أنكم كنتم قبل هذه النشأة في الحياة الدنيا أمواتاً، أجزاؤكم متفرّقة في الأرض بعض منها في الطبقات الجامدة، وأخرى في الطبقات السائلة، وقسم في الطبقات الغازية تشركون سائر أجزاء الحيوان والنبات في ذلك، ثمّ خلقكم في أحسن تقويم، وفضّلكم على غيركم بنعمة العقل، والإدراك، والفهم، وتسخير جميع الكائنات الأرضية لكم. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ حين انقضاء آجالكم بقبض الأرواح التي بها نظام حياتكم، وحينئذٍ تنحلّ أبدانكم، وتعود سيرتها الأولى، وتنبثّ في طبقات الأرض، وينعدم هذا الوجود الخاصّ الذي لها. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ حياة أخرى أرقى من هذه الحياة، وأكمل لمن زكّى نفسه، وعمل صالحاً، ودونها لمن أفسد فطرته والتدبّرَ في سنن الكون، وأنكر الإله والرسل، وفسق عن أمر ربّه. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء على ما قدمتم من عمل، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ مبنياً للمفعول من رجع المتعدي. وقرأ مجاهد، ويحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، وابن مُحيصن، والفيَّاض بن غزوان، وسلاّم، ويعقوب ﴿تَرجِعون﴾ مبنياً للفاعل، حيث وقع في القرآن من رجع اللازم؛ لأنّ (رجع) يكون لازماً ومتعديّاً. وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من الترهيب والترغيب ما يزيد المُسيءَ خشية، ويردّه عن بعض ما يرتكبه، ويزيد المحسن رغبة في الخير، ويدعوه رجاؤه إلى الازدياد من الإحسان.

وبعد أن عدَّد سبحانه آياته في الأنفس بذكر المبدأ والمنتهى، ذكر آياته في الآفاق الدالة على قدرته المحيطة بكلّ شيء، وعلى نعمه المتظاهرة على عباده بجعل ما في الأرض مهيّأً لهم ومعدّاً لمنافعهم. فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم﴾ هذا بيان نعمة أخرى؛ أي:[2] قدّر خلقها لأجلكم ولانتفاعكم بها في دنياكم

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ودينكم؛ لأنّ الأشياء كلّها لم تخلق في ذلك الوقت. ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي فيها من الأشياء. ﴿جَمِيعًا﴾ نصب حالاً من الموصول الثاني، وقد يستدلّ بهذا على أنّ الأصل في الأشياء الإباحة، كما في «الكواشي». وقال في «التيسير»: أهل الإباحة من المتصوّفة الجهلة حملوا اللام في ﴿لَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ على الإطلاق والإباحةَ على الإطلاق، وقالوا لا حَظْرَ ولا نَهْيَ ولا أَمْرَ، فإذا تحقَّقت المعرفة، وتأكّدت المحبة سقطت الخدمة، وزالت الحرمة. فالحبيب لا يكلِّف حبيبه ما يتعبه، ولا يمنعه ما يريده ويطلبه. وهذا منهم كفرٌ صريحٌ، وقد نهى الله تعالى، وأمر، وأباح، وحظَّر، ووعد، وأوعد، وبشَّر، وهدَّد، والنصوص ظاهرة والدلائل متظاهرة، فمن حمل هذه الآية على الإباحة المطلقة فقد انسلخ من الدين بالكلية. انتهى كلام «التيسير».

واستدلّ بعضهم بقوله: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على تحريم أكل الطين، قال: لأنّه خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض، ذكره في «البحر».

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: قصد إليها؛ أي: إلى خلقها بإرادته ومشيئته قصداً سويّاً بلا صارفٍ يَلْوِيْهِ ولا عاطفٍ يُثْنِيْهِ من إرادة شيءٍ آخر في تضاعيف خلقها، أو غير ذلك. وسيأتي في مبحث الفائدة البسط في معنى الاستواء.

ولا تناقض بين هذا وبين قوله[1]: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾؛ لأنّ ـ الدَّحو هو البسط. وعن الحسن: (خلق الله الأرض في موضع بيت المقدس، كهيئة الفهرِ ـ أي: الحجر مِلْءِ الكفّ ـ عليها دخانٌ يلتزق بها، ثمّ أصعد الدخان وخلق منه السموات، وأمسك الفهر في موضعه ثمّ بسط منه الأرض)، كذا في «الكواشي».

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (أوّلُ ما خلق الله جوهرةٌ طولها وعرضها مسيرة ألف سنة في مسيرة عشرة آلاف سنة، فنظر إليها بالهيبة، فذابت، واضطربت، ثمَّ ثار منها دخانٌ، فارتفع واجتمع زَبَدٌ، فقام فوق الماء، فجعل

---

(١) روح البيان.

الزبد أرضاً، والدخان سماء). قالوا: فالسماء من دخان خلقت، وبريح ارتفعت، وبإشارةٍ تفرّقت، وبلا عماد قامت، وبنفخةٍ تكسَّرت.

وقرأ أهل الحجاز ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ بالفتح، وأهل نجد بالإمالة، وقرىء في السبعة بهما.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾؛ أي: أتمَّهُنَّ، وقوَّمهنَّ، وخلقهنّ ابتداءً مصونات عن العوج والفطور؛ لأنّه سوّاهنّ بعد أن لم يكن كذلك. والضمير فيه مبهمٌ، فُسِّر بقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾ فهو منصوب على أنّه تمييزٌ، نحو: ربَّه رجلاً. وفي هذا تصريحٌ بأنَّ السموات سبع، وأمَّا الأرض فلم يأت في ذكر عددها، إلاّ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

قال سَلْمانٌ: (هي سبعٌ. اسم الأولى: رفيْعٌ، وهي من زمرّد خضراء، واسم الثانية: أرفلون، وهي من فضة بيضاء، والثالثة: قَيْدُوْمُ، وهي من ياقوتة حمراء، والرابعة: ماعون، وهي من درّة بيضاء، والخامسة: دبقاء، وهي من ذهب أحمر، والسادسة: وفناء، وهي من ياقوتة صفراء، والسابعة: عروباء، وهي من نور يتلألأ).

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليلٌ لما قبله، كأنّه قال: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كُلّها، خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع، واستدلال بأنَّ من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عليماً، فإنَّ إتقان الأفعال وإحكامها، وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع لا يتصور إلاّ من عالم حكيم رحيم. وإزاحةٌ لما يختلج في صدورهم، من أنَّ الأبدان بعد ما تفتَّتت وتكسرت وتبدَّدت أجزاءها، واتصلت بما يشاكلها كيف يجمع أجزاء كُلّ بدن مرّةً ثانيةً، بحيث لا يشذُّ شيءٌ منها، ولا ينضمُّ إليها ما لم يكن معها، فيعاد منها كما كان.

وقرأ بتسكين ﴿وَهْوَ﴾ أبو عَمْرو والكسائي، وقالُون. وقرأ الباقون بضمّ الهاء على الأصل. ووقف يعقوب على ﴿وهو﴾ بالهاء، نحو: وَهُوَه، وتسكين الهاء في هُو، وهي، بعد الواو والفاء واللام قراءة أبي عمرو والكسائي وقالون

وبعد ثُمَّ قراءة الكسائي وقالون، وقَلَّ بعد كاف الجر، وهمزة الاستفهام، وندر بعد لكن في قراءة أبي حَمْدُون ﴿لكِنّ هو الله ربّي﴾، ذكره في «البحر».

وحاصل معنى الآية: ﴿هُوَ﴾؛ أي:[1] الإلٰه الذي ثبتت وحدانيته، ووجبت عبادته هو الخالق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾؛ أي: لأجل انتفاعكم في الدين والدنيا، بالاستدلال على موجدكم وإصلاح الأبدان ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ أي: الأرض، وجميع ما فيها، بعضه للانتفاع وبعضه للاعتبار. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾؛ أي: قصد، ووجَّه إرادته بعد خلق الأرض ﴿إِلَى﴾ خلق طباق ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾؛ أي: صيَّرهُنّ سبع طباق مستويات، لا شقوق فيها، ولا فطور، ولا تفاوت. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الموجودات ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: عالمٌ به، إذ بالعلم يصحّ الفعل المُحْكَم، فلا يمكن أن يكون خالقاً للأرض وما فيها، وللسموات وما فيها من العجائب والغرائب، إلاّ إذا كان عالماً بها محيطاً بجزئياتها وكلّياتها، أفلا تعتبرون بأنّ القادر على خلق ذلك وهنَّ أعظم منكم قادر على إعادتكم. بلى إنّه على كلّ شيء قدير.

والخلاصة: أنّ هذا النظام المحكم لا يكون إلاّ من لدُنْ حكيمٍ عليمٍ بما خلق، فلا عجب أن يرسل رسولاً يوحي إليه بكتاب لهداية من يشاء من عباده، يضرب فيه الأمثال بما شاء من مخلوقاته جلَّ أو حقر، عظم أو صغر.

فائدة: وفي معنى الاستواء هنا سبعة أقوالٍ للعلماء[2]:

أحدها: أَقْبَلَ وعمد إلى خلقها، وقصد من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر، قاله الفرّاء، واختاره الزمخشري.

وثانيها: علا، وارتفع من غير تكييف ولا تحديد، قاله الربيع بن أنس، والتقدير: علا أمره وسلطانه، واختاره ابن جرير.

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط بتصرف.

وثالثها: أن يكون ﴿إِلَى﴾ بمعنى على؛ أي: استوى على السماء؛ أي: تفرَّد بملكها ولم يجعلها كالأرض ملكاً لخلقه، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

فَلَمَّا عَلَوْنَا واسْتَوَيْنَا عَلَيْهِمُ ... تَرَكْنَاهُمُ صَرْعَى لِنَسْرٍ وَكَاسِرِ

ورابعها: معناه: تحوَّل أمره إلى السماء، واستقرَّ فيها، قاله الحسن البصري.

وخامسها: معناه: استوى بخلقه واختراعه إلى السماء، قاله ابن كيسان، ويؤول هذا المعنى إلى القول الأول.

وسادسها: معناه: كمَّل صنعه فيها، كما تقول: استوى الأمر، وهذا ينبو اللفظ عن الدلالة عليه.

وسابعها: أنَّ الضمير في ﴿اَسْتَوَىٰٓ﴾ عائدٌ على الدخان، وهذا بعيدٌ جِدّاً، يبعده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اَسْتَوَىٰٓ إِلَى اَلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ واختلاف الضمائر وعوده على غير مذكور، ولا يفسّره سياق الكلام.

وهذه التأويلات كُلُّها فرارٌ عما تقرَّر في العقول، من أنّ الله تعالى يستحيل أن يتصف بالانتقال المعهود في غيره تعالى، وأن يحل فيه حادثٌ، أو يحل هو في حادث، وسيأتي الكلام على الاستواء بالنسبة إلى العرش إن شاء الله تعالى، ذكره في «البحر».

والقول الأرجح الأسلم: أن يقال في تفسير الاستواء هنا: ثمَّ استوى سبحانه وتعالى إلى السماء، وارتفع، وعلا استواءً يليق به، نثبته ولا نعطله، نعتقده ولا نكيّفه، ولا نمثّله ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

الإعراب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا اَلنَّاسُ اَعْبُدُوا رَبَّكُمُ اَلَّذِى خَلَقَكُمْ وَاَلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء للمتوسط، ولم يقع النداء في القرآن بغيرها من

أدوات النداء، مبني على السكون. ﴿أيّ﴾ منادى نكرة مقصودة في محل النصب على المفعولية، مبني على الضمّ؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد تعويضاً عمّا فات. أيّ من الإضافة مبني بسكون على الألف المحذوفة؛ للتخلص من التقاء الساكنين. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بدل من أيّ، أو عطف بيان له، أو صفة له تبعه في لفظه، مرفوع بضمّة ظاهرة، وجملة النداء مستأنفة استئنافاً نحوياً.

﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون؛ لأنّه أمر من الأفعال الخمسة، والواو في محل الرفع فاعل، والألف تكتب؛ للفرق بين واو الضمير وواو جزء الكلمة في غير الرسم العثماني؛ وفرقاً بين المتطرّفة والمتوسّطة في الرسم العثماني. ﴿رَبَّكُمُ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعليّة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل النصب، صفة لربكم.

﴿خَلَقَكُمۡ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب، معطوف على الكاف من ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، مبنيّ على الفتح، أو على الياء على الخلاف المذكور في محلّه؛ أي: وخلق الذين من قبلكم. ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بمحذوف صلة الموصول، تقديره: والذين مضوا من قبلكم. ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ لعلّ حرف نصب وترج، أو حرف نصب وتعليل بمعنى: كي، مبنيّ على الفتح، والكاف ضمير المخاطبين في محل النصب اسمها. ﴿تَتَّقُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون؛ لأنّه من الأفعال الخمسة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لعلّ، تقديره: لعلكم متقون، ومفعول التقوى محذوف، تقديره: لعلّكم تتقونه، وجملة لعلّ من اسمها وخبرها لا محلّ لها من الإعراب؛ لأنّ موقعها مما قبلها موقع الجزاء من الشرط؛ لأنّه في تقدير: إن عبدتم ربّكم ترجى لكم التقوى. أو في محلّ النصب حال من فاعل ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، تقديره: يا أيها الناس اعبدوا ربّكم حالة كونكم راجين نيل التقوى. أو في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلّقة باعبدوا تقديره: يا أيّها الناس اعبدوا ربّكم لوقاية أنفسكم من عذاب الله تعالى.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل النصب، بدل من ربكم، أو صفة ثانية له، أو منصوب بفعل محذوف، تقديره: أمدح، أو مرفوع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الذي جعل لكم الأرض. ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول ﴿لَكُمُ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فراشاً؛ لأنّه صفة نكرة تقدمت عليها ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مفعول أوّل لجعل، إن كان من الجَعل بمعنى التصيير. ﴿فِرَٰشًا﴾ مفعول ثان له، وإن كان من الجعل بمعنى الخلق، ففراشاً حال مؤوّلة من الأرض؛ أي: مفروشة. وجملة ﴿جَعَلَ﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ معطوف على الأرض على كونه مفعولاً أوّل لجعل ﴿بِنَآءً﴾ مفعول ثان لجعل، أو حال من السماء.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على جعل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور متعلّق بأنزل ﴿مَآءً﴾ مفعول به لأنزل ﴿فَأَخْرَجَ﴾ الفاء عاطفة سببية ﴿أخرج﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على أنزل. ﴿بِهِۦ﴾ متعلّق بأخرج ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من رزقاً؛ لأنّه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿رِزْقًا﴾ مفعول به لأخرج ﴿لَّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف صفة ثانية لرزقاً ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟﴾ الفاء عاطفة تفريعية، أو فصيحية؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنّه خالق السموات والأرض وخالق ما فيهما لكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول لكم: لا تجعلوا. ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَجْعَلُوا۟﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعل ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف، مفعول ثان لجعل، مقدم على الأول وجوباً؛ لأنّ المفعول الأول نكرة ولم يوجد له مسوّغ إلا تقديم الجار والمجرور، ومعنى تجعلوا: لا تصيّروا، أو لا تسمّوا ﴿أَندَادًا﴾ مفعول أول لتجعلوا، والجملة الفعلية معطوفة على جملة اعبدوا ربكم، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ خبره، ومفعول العلم محذوف، تقديره: وأنتم عالمون بطلان ذلك، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل تجعلوا.

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو استئنافية ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه وحدّ الفعل: كن (كن) فعل ماض في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع متحرك، والتاء ضمير لجماعة المخاطبين في محل الرفع اسمها، مبني على الضمّ، والميم: حرف دالّ على الجمع. ﴿فِي رَيۡبٍ﴾ جار ومجرور، متعلّق بمحذوف خبر كان، تقديره: وإن كنتم كائنين في ريب.

فائدة: ولا تدخل ﴿إن﴾ الشرطية على فعل ماض في المعنى، إلاّ على كان؛ لكثرة استعمالها؛ ولأنّها لا تدلّ على حدث، ذكره أبو البقاء العكبري.

﴿مِّمَّا﴾ من حرف جرّ، مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ﴿مَا﴾، و﴿مَا﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة، في محل الجرّ بمن، الجار والمجرور متعلّق بمحذوف صفة لريب، تقديره: في ريب كائن من الذي نزلناه، أو كائن في شيء نزلناه على عبدنا. ﴿نَزَّلۡنَا﴾ فعل وفاعل، صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: من الذي نزلناه، أو من شيء نزلناه. ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلّق بنزّلنا. ﴿فَأۡتُواْ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً: لكون الجواب جملة طلبية ﴿أتوا﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون؛ لأنّه أمر من الأفعال الخمسة، والواو ضمير لجماعة المخاطبين، في محل الرفع فاعل، والألف تكتب للفرق، والجملة الفعليّة في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة مسوقة؛ للردّ على من ارتابوا في القرآن تعنّتاً ولجاجاً. ﴿بِسُورَةٍ﴾ جار ومجرور، متعلّق بأتوا، ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بمحذوف صفة (لسورة) إن قلنا: إنّ الضمير عائد على القرآن، والمعنى على هذا يتناول عدة أمور:

١ ـ فأتوا بسورة كائنة من مثل القرآن في حسن النظم، وبديع الوصف، وروعة الأسلوب وإيجازه.

٢ ـ فأتوا بسورة من مثله في غيبوبة أخباره، وأحاديثه عن الماضين، وتحدّثه عما سيكون.

٣ ـ فأتوا بسورة من مثله فيما انطوى عليه من أمر ونهي، ووعد وعيد، وبشارة وإنذار، وحكم وأمثال.

٤ ـ فأتوا بسورة من مثله في صدقه وصيانته من التحريف والتبديل.

الجار والمجرور متعلّق بأتوا إن قلنا: إنّ الضمير عائد على ﴿عَبْدِنَا﴾، وفي معناه أيضاً عدّة أمور:

(أ) فأتوا من مثل الرسول في كونه أمّيّاً على الفطرة الأصلية، لا يقرأ ولا يكتب.

(ب) فأتوا من مثل الرسول في كونه لم يدارس العلماء، ولم يجالس الحكماء، ولم يتعاط أخبار الأولين، ولم يُؤْثَر ذلك عنه بحال من الأحوال.

(ج) فأتوا من مثل الرسول؛ أي: من كلّ رجل، كما تحسبونه في زعمكم شاعر أو مجنون. وكلا المعنيين واضح صحيح.

﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

﴿وَٱدْعُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على (أتوا) ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بمحذوف حال من شهدائكم، تقديره: حال كونهم منفردين عن الله، أو مغايرين لله، أو متعلّق بادعوا؛ أي: وادعوا من دون الله شهداءَكم. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، والتاء ضمير المخاطبين في محل الرفع اسمها ﴿صَـٰدِقِينَ﴾ خبرها، منصوب بالياء، وجواب الشرط معلوم مما قبله، تقديره: فافعلوا ذلك، كذا قال السيوطي قال

المحليّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ...﴾ الآية، إذا اجتمع شرطان وتوسّط بينهما جواب، فالجواب للأخير، والأول قيد فيه، ولا يحتاج لجواب ثان، والتقدير في الآية: إن كنتم صادقين في دعواكم أنّه من عند محمد، ودمتم على الريب فأتوا بسورة من مثله، وهو أولى لعدم التقدير.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَإِن﴾ (الفاء) استئنافية أو فصيحية؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم فأقول: إن لم تفعلوا. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم وقلب ونفي ﴿تَفْعَلُواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل الجزم بإن الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿وَلَن﴾ الواو اعتراضية ﴿لن﴾ حرف نفي ونصب واستقبال ﴿تَفْعَلُواْ﴾ فعل مضارع منصوب بلن، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الشرط وجوابه، قصد بها تأكيد العجز. ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، ﴿اتقوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محلّ الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿ٱلنَّارَ﴾ مفعول به منصوب ﴿ٱلَّتِى﴾ اسم موصول في محل النصب، صفة للنار ﴿وَقُودُهَا﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿ٱلنَّاسُ﴾ خبر المبتدأ ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ معطوف على الناس، والجملة الإسمية صلة الموصول ﴿أُعِدَّتْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، والتاء علامة تأنيث نائب الفاعل، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على النار ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ جار ومجرور متعلّق بأعدّت، والجملة الفعلية في محل النصب حال لازمة من النار، تقديرها: حالة كونها معدّة مهيّئة للكافرين، أو مستأنفة، كما قاله أبو حيان، وابن عطية.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

﴿وَبَشِّرِ﴾ (الواو) استئنافية أو عاطفة ﴿بشر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على كلّ من يصلح للتبشير. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول به، مبني على الفتح، أو على الياء على الخلاف المذكور في محلّه. والجملة الفعليّة مستأنفة أو معطوفة على معنى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ الآية؛ لأنّه في معنى: وأنذر الذين كفروا بالنار التي وقودها الناس ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ الآية. ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد واو الفاعل، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فعل وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

﴿أَنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد ومصدر ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم؛ لأنّ ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ اسمها مؤخّر منصوب بالكسرة؛ لأنّه جمع مؤنّث سالم، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض المتعلّق ببشّر، تقديره: وبشّر الذين آمنوا بكون جنات تجري من تحتها الأنهار لهم؛ لأنّ حذف الجار مع أنّ وأنْ مطرد، كما قال في «الخلاصة»:

نقلاً وفي أنّ وأنْ يطّرد مع أمن لبس كعجبت أن يدوا

﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بتجري ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لجنات، ولكنّها سببيّة، والرابط الضمير في تحتها. ﴿كُلَّمَا﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلّق بالجواب الآتي. ﴿رُزِقُوا۟﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، والواو في محل الرفع نائب فاعل. ﴿مِنْهَا﴾ جار ومجرور متعلق برزقوا، والجملة الفعلية فعل شرط لكلّما لا محل لها من الإعراب ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ جار ومجرور، بدل من الجار والمجرور قبله بدل اشتمال بإعادة العامل، وإنّما قلنا بدل اشتمال؛ لأنّه لا يتعلّق

حرفان بمعنى واحد بعامل واحد، إلاّ على سبيل البدلية، أو العطف، والمعنى: كلّ وقت رزقوا مرزوقاً مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة، ذكره في «الفتوحات». ﴿رِزْقًا﴾ مفعول ثان لرزقوا؛ أي: مرزوقاً، والأوّل واو الضمير القائمة مقام الفاعل ﴿قَالُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب كلّما لا محل لها من الإعراب، وجملة كلما من فعل شرطها وجوابها في محل النصب صفة ثانية لجنات، قاله في «الفتوحات»، أو حال من جنات، أو من الذين آمنوا، تقديره: مرزوقين على الدوام، كما قاله أبو البقاء، والرابط على الوجهين الأولين الضمير في ﴿مِنْهَا﴾، وعلى الثالث الواو في ﴿رُزِقُوا﴾. ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ ﴿الَّذِي﴾ خبره، ولكن على تقدير مضاف، كما مرّت الإشارة إليه في مبحث التفسير؛ أي: مثل الذي رزقنا من قبل. والجملة الإسمية في محل النصب مقول لقالوا ﴿رُزِقْنَا﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: رزقناه ﴿مِن قَبْلُ﴾ من حرف جرّ ﴿قَبْلُ﴾ في محل الجر بمن، مبني على الضمّ، لقطعه عن المضاف إليه مع نية معناه، والجار والمجرور متعلّق برزقنا ﴿وَأُتُوا﴾ الواو حالية أو اعتراضية ﴿أتوا﴾ فعل ماض مغير الصيغة، والواو نائب فاعل ﴿بِهِ﴾ متعلّق بأتوا؛ أي: بالثمرة المرزوقة لهم من الجنة، والجملة الفعلية معترضة مقرّرة لمعنى ما قبلها، أو حال من الواو في ﴿قَالُوا﴾، ولكن مع تقدير قد، تقديره: قالوا ذلك وقد أتوا به. ﴿مُتَشَابِهًا﴾ حال من ضمير ﴿بِهِ﴾، ﴿وَلَهُمْ﴾ الواو عاطفة أو استئنافية ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلّق بالاستقرار المعلوم من الخبر ﴿أَزْوَاجٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ صفة لأزواج، والجملة الإسمية في محل النصب معطوفة على جملة تجري، على كونها صفة ثالثة لجنات، أو مستأنفة. ﴿وَهُمْ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية، أو حالية ﴿هم﴾ ضمير لجماعة الذكور الغائبين في محل الرفع مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلّق بـ﴿خَالِدُونَ﴾، وهو خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تَجْرِي﴾، على كونها صفة رابعة لجنات، أو مستأنفة، أو حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾، والعامل فيها معنى الاستقرار.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها منصوب ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَسْتَحْيِۦٓ﴾ فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنّ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يَضْرِبَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿يَضْرِبَ﴾ مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، إن كان ﴿يَسْتَحْيِۦٓ﴾ يتعدّى بنفسه؛ أي: إنّ الله لا يستحيي ضرب مثل، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: من ضرب مثل، إن كان غير متعدّ بنفسه و﴿يَضْرِبَ﴾ إما بمعنى: يبيّن متعدّ لواحد ﴿مَثَلًا﴾ مفعول به ﴿مَّا﴾ اسم مبهم بمعنى: أيّ مَثَل في محل النصب صفة لمثلاً، أو زائدة زيدت؛ لتأكيد الخسّة، ﴿بَعُوضَةً﴾ بدل من مثلاً، بدل كلّ من كلّ ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ الفاء عاطفة ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب، معطوفة على ﴿بَعُوضَةً﴾، ﴿فوق﴾ منصوب على الظرفية المكانية، وهو مضاف، والهاء مضاف إليه، والظرف متعلّق بمحذوف صلة لما، أو صفة لها، تقديره: فالذي استقرّ فوقها، أو فشيئاً مستقرّاً فوقها، وإما بمعنى: يجعل فمتعدّ لاثنين. ﴿مَثَلًا﴾ مفعول أول، و﴿مَّا﴾ زائدة ﴿بَعُوضَةً﴾ مفعول ثان، ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ معطوف عليه، ويحتمل كون ﴿بَعُوضَةً﴾ مفعولاً أوّل مؤخراً، و﴿مَثَلًا﴾ مفعولاً ثانياً مقدّماً للاهتمام به. وقرىء ﴿بَعُوضَةٌ﴾ بالرفع شاذاً، كما مرّ، على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو بعوضة، والجملة الإسمية في محل النصب صفة لـ ﴿مَثَلًا﴾، و﴿مَّا﴾ زائدة، تقديرها: مثلاً موصوفاً بكونه بعوضة فما فوقها. ﴿فَأَمَّا﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنّ الله لا يستحيي من ضرب المثل، وأردت بيان فائدة ذلك المثل فأقول لك: أمّا. ﴿أمّا﴾ حرف شرط وتفصيل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿أما﴾، واقعة في غير موضعها للثقل، لأنّ موضعها موضع ﴿أمّا﴾. ﴿يعلمون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: فأمّا الذين آمنوا فعالمون أنّه الحقّ، والجملة الاسمية جواب ﴿أمّا﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول

لجواب إذا المقدرة، وجملة (إذا المقدرة) مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محلّ لها من الإعراب. ﴿أَنَّهُ﴾. ناصب واسمه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بمحذوف حال من الحقّ، تقديره: حال كون ذلك الحقّ كائناً من ربّهم، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي علم، تقديره: (فيعلمون كونه الحقّ من ربّهم).

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

﴿وَأَمَّا﴾ الواو عاطفة ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿فَيَقُولُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿يقولون﴾ خبر المبتدأ، تقديره: (وأمّا الذين كفروا فقائلون ماذا أراد الله بهذا مثلاً). والجملة الإسمية جواب ﴿أما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أمّا﴾ في محل النصب معطوفة على جملة أمّا الأولى ﴿مَاذَآ﴾ ما: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ (ذا) اسم موصول بمعنى: الذي، في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ليقولون ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لذا الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما الذي أراده الله، وإن شئت قلت: ﴿مَاذَآ﴾ اسم استفهام مركب في محلّ النصب مفعول به مقدم وجوباً لأراد الله، وجملة ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ في محلّ النصب مقول ليقولون؛ أي: يقولون: أيّ شيء أراد الله بهذا مثلاً. ﴿بِهَٰذَا﴾ جار ومجرور، متعلّق بأراد ﴿مَثَلًا﴾ تمييز ذات لاسم الإشارة، منصوب به، ﴿يُضِلُّ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، ﴿بِهِۦ﴾ متعلّق بيضلّ، ﴿كَثِيرًا﴾ مفعول به، منصوب، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، جارية مجرى التفسير، والبيان للجملتين المصدّرتين بأمّا، وهي على هذا من كلام الله تعالى. وقيل: في محل النصب صفة لمثلاً، تقديره: مثلاً يفترق به الناس إلى ضالّين ومهتدين، وهي على هذا من كلام الكفار، وأجاز أبو البقاء أن تكون حالاً من اسم الله؛ أي: مضلّاً به كثيراً وهادياً به كثيراً. ﴿وَيَهْدِى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على يضلّ

في إعرابه السابق ﴿بِهِۦ﴾ متعلّق بيهدي ﴿كَثِيرًاۚ﴾ مفعول به ليهدي، ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية ﴿ما﴾ نافية. ﴿يُضِلُّ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ، ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مفعول به ليضلّ، منصوب بالياء، وجوّز الفراء أن يكون منصوباً على الاستثناء، والمستثنى منه محذوف، تقديره: وما يضلّ به أحداً إلاّ الفاسقين. اهـ. «سمين».

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محلّ نصب صفة للفاسقين ﴿يَنقُضُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ جار ومجرور، متعلّق بينقضون ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾ مضاف إليه، والضمير إما عائد على الله، أو على العهد، كما مرّ. ﴿وَيَقۡطَعُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَنقُضُونَ﴾. ﴿مَآ﴾ اسم موصول في محلّ النصب مفعول به. ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلّق بأمر، والجملة الفعلية صلة لما الموصولة. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُوصَلَ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بأن، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَآ﴾، والجملة الفعلية مع أن المصدرية، في تأويل مصدر مجرور على أنّه بدل من ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾ بدل كلّ من كلّ؛ أي: ويقطعون ما أمر الله بوصله، أو مفعول لأجله، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: كراهية وصله، أو لئلاّ يوصل. ﴿وَيُفۡسِدُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿وَيَقۡطَعُونَ﴾، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ متعلّق بيفسدون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسم إشارة في محل الرفع مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، أو حرف عماد لا محل له من الإعراب ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، ولك أن تعرب ﴿هُمُ﴾ مبتدأ. و﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محلّ الرفع خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مستأنفة.

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

﴿كَيۡفَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل النصب على الحال من

فاعل تكفرون و﴿تَكۡفُرُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلّق بتكفرون، والجملة مستأنفة، والتقدير: أتكفرون بالله حالة كونكم معاندين لوحدانية الله تعالى. ويجوز أن تكون ﴿كَيۡفَ﴾ منصوبة على كونها مفعولاً مقدّماً لتكفرون ﴿وَكُنتُمۡ﴾ الواو حالية ﴿كنتم﴾ فعل ناقص واسمه ﴿أَمۡوَٰتٗا﴾ خبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ ولكنها بتقدير: قد. ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب وترتيب ﴿أحياكم﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿يُمِيتُكُمۡ﴾ فعل مضارع، ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾. ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، معطوف على جملة قوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿إِلَيۡهِ﴾ متعلّق بترجعون ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿لَكُم﴾ متعلّق بخلق، والجملة صلة الموصول ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محلّ النصب مفعول خلق ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف صلة لما الموصولة، ﴿جَمِيعٗا﴾ حال من المفعول الذي هو (ما) الموصولة، ولكنه في تأويل مشتقّ، تقديره: مجتمعين. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلّق باستوى، والجملة معطوفة على جملة خلق، وعطف بثمّ؛ إشعاراً بأنّ خلق السماء متأخر عن خلق الأرض بأعمال أخر، كجعل الجبال رواسي، وتقدير الأقوات فيها. ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب (سوّى) فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والهاء ضمير لجماعة الإناث الغائبات في محل النصب مفعول به

أوّل، والنون المشدّدة علامة جمع الإناث. ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾ مفعول ثان ومضاف إليه؛ لأنّ سوى بمعنى صيّر، يتعدّى إلى مفعولين، والجملة الفعلية معطوفة على جملة (استوى). ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بعليم و﴿عَلِيمٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها، كأنّه قال: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كُلِّها، خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع، كما ذكره البيضاوي. قال أبو البقاء: ويقرأ (وهو) بإسكان الهاء، وأصلها الضمّ، وإنّما أسكنت هنا؛ لأنّها صارت كعضد، فخفّفت، وكذلك حالها مع الفاء واللام، نحو: فَهْوَ لَهْوَ، ويقرأ بالضمّ على الأصل كما مر.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ والناس أصله: أناس، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، وعوّض عنها (أل)، فلا يجمع بينهما. اهـ. شيخنا. ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ والعبادة: خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود. ﴿رَبَّكُمُ﴾ والربّ: هو الذي يسوس من يربيه، ويدبر شؤونه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وفي «السمين» ما نصه: وإذا ورد (لعلّ) في كلام الله تعالى فللناس فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ لعلّ على بابها من الترجي والإطماع، ولكنه بالنسبة إلى المخاطبين؛ أي: لعلكم تتقون على رجائكم وطمعكم. وقد نصّ على هذا التأويل سيبويه في «كتابه» في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾؛ أي: اذهبا على رجائكما، وكذا نصّ عليه الزمخشري في «كشافه».

والثاني: أنّها للتعليل؛ أي: اعبدوا ربّكم لكي تتقوا، وبه قال قطرب، واختاره الطبري في «تفسيره الكبير».

والثالث: أنّها للتعريض للشيء، كأنّه قيل افعلوا ذلك متعرّضين لأن تتقوا، نصّ عليه أبو البقاء، واختاره المهدوي في «تفسيره» الممتع. وهذه الجملة على كلّ قول متعلّقة من جهة المعنى باعبدوا؛ أي: اعبدوه على رجائكم التقوى، أو لتتقوا، أو متعرّضين للتقوى.

﴿تَتَّقُونَ﴾ أصله تَوْتَقِيُون على وزن تَفْتَعِلُون، أبدلت الواو التي هي فاء الكلمة تاء، ثمّ أدغمت في تاء الافتعال، واستثقلت الضمة على الياء، فحذفت فسكنت الياء، فالتقت مع واو الجماعة الساكنة، فحذفت الياء، ثمّ صُحّحت حركة القاف، فجعلت ضمّة؛ لتناسب الواو، فصار تتقون بوزن تفعلون.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ والفراش: واحد الفُرُش، وفرش الشيء يفرشه بالضمّ فراشاً إذا بسطه. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أصله: بنايٌ بِدَليل قوله: بنيت بنيانا، فلما تطرّفت الياء بعد ألف زائدة قلبت همزة، وهذا مطّرد في كلّ واو أو ياء تطرّفتا بعد ألف زائدة. وفي «السمين»: والبناء مصدر بنيت، وإنّما قلبت الياء همزةً؛ لتطرّفها بعد ألف زائدة، وقد يراد به المفعول. اهـ. وأصل معنى البناء: وضع شيء على شيء آخر، بحيث يتكوَّن من ذلك شيءٌ بصورةٍ خاصة، كوضع حجر على حجر ليتكوَّن البيت. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فيه إعلالٌ بالقلب والإبدال. أصله: مَوَهٌ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فصار ماه، فاجتمع حرفان ضعيفان: الألف والهاء، فأبدلت الهاء حرفاً قوياً وهو الهمزة؛ ليتقوى بها الضعيف، ودليل ذلك: أنه يصغر على مويه، أما جمعه على مياه، فلإبدال الواو ياء لانكسار ما قبلها، كما فعلوا في ديار إذ الأصل مواه ودوارٌ، وقد جمع على الأصل فقيل: أمواه ﴿أَندَادًا﴾ جمع ند بكسر النون وهو المِثْل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المساوي قال جرير:

أَتَـيْـمٌ تَـجْـعَـلُـون إلـيّ نِـدّاً وَهَـل تَـيـمٌ لِـذِي حَـسـبٍ نَـدِيـدُ

وقال أبو البَقَاءِ أنداد جمعُ نِدّ ونديد، وفي جعله جمع نديد نظرٌ؛ لأنَّ أفعالاً إنما يحفظ في فعيل، بمعنى فاعل، نحو: شريف وأشراف، ولا يقاس عليه والنِدُّ المقاوم المضاهي، سواء كان مثلاً، أو ضداً، أو خلافاً. وقيل: هو الضد، وقيل الكفء والمثل. اهـ. بمعنى يقال فلان ند فلان: إذا كان مماثلاً له في بعض الشؤون ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ أصل كان: كَوَنَ بوزن فعل واوي العين نظير قال، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فصار كان، ثم أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك فسكن آخره وهو النون، فالتقى ساكنان الألف وآخر

الفعل، فحذفت الألف فصار اللفظ كنتم بفتح الكاف، فاحتيج إلى معرفة عين الفعل التي حذفت، هل هي واوٌ أو ياءٌ؟ فحذفت حركة فاء الفعل وعوض عنها حركة مجانسة للعين المحذوفة، وهي الضمة؛ لأنها تناسب الواو، فقيل: كنتم بوزن فلتم، وهكذا كل فعل من هذا النوع.

﴿فَأْتُوا﴾ أصله: ائتيوا أمرٌ من أتى الثلاثي يائيُّ اللام اتصل به واو الجماعة، فوزنه الأصلي افعلوا، فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم حذفت الياء لمَّا سُكِّنت؛ لالتقاء الساكنين على حد قول ابن مالك في «الكافية»:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سَبَقْ　　وإنْ يَكُنْ لِيْناً فحذْفُه اسْتَحَقْ

ثم قلبت كسرة التاء ضمةً، لتناسب الواو، ثم حذفت همزة الوصل للاستغناء عنها بدخول الفاء؛ لأن الغرض منها التوصل إلى النطق بالساكن، وقد توصل إليه بالفاء فوزنه الآن إفعوا.

﴿بِسُورَةٍ﴾ السورة: الطائفة من القرآن التي أقلها ثلاث آيات، ومن معانيها: المرتبة الرفيعة، قال النابغة الذبياني:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الله أعطاك سورة　　ترى كُلَّ مِلْكٍ دُوْنَهَا يَتَذَبْذَبُ

وفي «البيضاوي» والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات، وهي إن جعلت واوها أصلية منقولةً من سور المدينة؛ لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزةٍ محوزةٍ على حيالها، أو محتوية على أنواع من العلم احتواء سور المدينة على ما فيها، أو من السورة التي هي الرتبة؛ لأن السورة كالمنازل والمراتب، يترقى فيها القارىء، أو لها مراتب في الطول والقصر، والفضل والشرف، وثواب القراءة، وإن جعلت مبدلة من الهمزة فمن السؤر. التي هي البقية والقطعة من الشيء. والحكمة في تقطيع القرآن سوراً: إفراد الأنواع، وتلاحق الأشكال، وتناسب النظم، وتنشيط القارىء، وتسهيل الحفظ والترغيب فيه، فإنه إذا ختم سورةً نَفَّسَ ذلك عنه بعض كربة، كالمسافر إذا علم أنه قطع ميلاً، أو طوى بريداً، والحافظ متى حفظها، اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاً تاماً، وفاز بطائفة محدودة مستقلةً، فعظم ذلك عنه، وابتهج به إلى غير ذلك من

الفوائد. ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ أمر جماعة من دعا يدعو ناقص واويٌّ، فلما أسند الفعل إلى واو الجماعة التقى ساكنان، فأصله هنا: ادعووا بواوين، الأولى مضمومة وهي لام الكلمة، والثانية ساكنة وهي واو الجماعة، فاستثقلت الضمة على الواو الأولى، وحذفت الضمة فاجتمع ساكنان، فحذفت الواو الأولى التي هي لام الكلمة؛ لالتقاء الساكنين، وبقيت واو الجماعة؛ لأنها جيء بها لغرضٍ، فلام الكلمة أولى بالحذف؛ لأنها جزء كلمة، وواو الجماعة كلمة مستقلة، فحذف جزء الكلمة أولى من حذف كلمة مستقلة؛ لما فيه من إجحاف الكلمة، فوزنه إفعوا.

﴿شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والشهداء: جمع شهيد، كشرفاء جمع شريف، وعليم وعلماء، ولا يبعد أن يكون جمع شاهد، كشاعر وشعراء، وليس فعلاء مقيساً لباب فاعل، كما في «البحر» والشهيد الحاضر، أو الناصر، أو القائم بالشهادة، أو الإمام، وكأنه سُمِّي به؛ لأنه يحضر المجالس، وتُبْرَمُ بمحضره الأمور ومعنى ﴿دُونِ﴾ أدنى مكان من الشيء، ومنه: تدوين الكتب؛ لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا؛ أي: خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للتفاوت في الرتب، فقيل: زيد دون عمرٍو؛ أي: في الشرف، ومنه: الشيء الدُّون، ثم اتسع فيه، فاستعمل في كل تجاوز حدٍ إلى حد، وتخطى أمرٍ إلى أمر قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾؛ أي: لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين، وهي من الظروف المكانية الملازمة الحقيقية، أو المجازية، ولا يتصرف فيه بغير من، وتجيء دون صفةً بمعنى: رديءٍ، يقال: ثوبٌ دونٌ؛ أي: رديءٌ. حكاه سيبويه في أحد قوليه. فعلى هذا يعرب بوجوه الإعراب ويكون مشتركاً ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ والصدق يقابله الكذب وهو: مطابقة الخبر للمخبَر عنه. ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ أصله: اتقيوا، استثقلت الضمة على الياء التي هي لام الكلمة فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء، ثم ضم ما قبلها؛ لمناسبة الواو ﴿وَقُودُهَا﴾ بفتح الواو وهو: ما توقد به النار من حطب، أو غيره. وأما بضمها فهو: مصدر وقد، وكذا يقال فيما جاء على هذا الوزن، كالوَضوء والطَّهور والسَّحور، وهذه التفرقة على المشهور في أن المفتوح: اسم للآلة والمضموم مصدر، وبعضهم قال: كُلٌ من الضم والفتح يجري في الآلة

والمصدر، فما توقد به النار يقال له وقود بالفتح والضم، وإيقادها كذلك، ومثله نظائره ونحوه. اهـ. بمعنى.

﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ جمع الحجر، والتاء فيها لتأكيد تأنيث الجمع، كالفحولة.

﴿أُعِدَّتْ﴾ أصله: أُعْدِدَت، نقلت حركة الدال الأولى إلى العين، فسكِّنت فأدغمت في الدال الثانية.

﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أصل الكلمة: أُتِيوُا بوزن فُعِلَوا بالبناء للمجهول، استثقلت الضمة على الياء فحذفت فسكنت الياء فحذفت لالتقائها ساكنةً مع واو الجماعة التي أسند إليها الفعل، فوزنه الأصلي فُعِلُوا، ووزنه الحاليُّ فُعُوا؟

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾ جمع زوج، والزوج: ما يكون معه آخر، فيقال: زوجٌ للرجل والمرأة، وأمَّا زوجةٌ بالتاء فقليل. ونقل الفراء أنها لغة تميم، والزوج أيضاً: الصنف والتثنية زوجان.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ والطهارة النظافة، والفعل منها: طَهَر بالفتح من باب قتل، ويقل الضم من باب قَرُب، واسم الفاعل: طاهر فهو مقيسٌ على الفتح شاذٌ على الضم، كخاثر، وحامض من خثُر اللبن، وحمُض بضم العين. اهـ. «سمين». ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والمراد بالخلود هنا: الدوام لما يشهد له من الآيات والأحاديث، وأصله: ثبات طويلُ المدة دام أو لم يدم، ولذا يوصف بالأبدية. اهـ. كرخي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ بياءين أولاهما عين الكلمة، والثانية لامها والحاء فاؤها، وفي «السمين»: واستفعل هنا للإغناء عن الثلاثي المجرد؛ أي: إنه موافق له، فإنه قد ورد حَيِيَ واستحيا بمعنى واحد، والمشهور استحيا يستحيي فهو مستحيٌ ومستحيٌ منه من غير حذف، وقد جاء استحى يستحي فهو مستحٍ، مثل: استقى يستقي، وقد قرىء به كما مر، واختلف في المحذوف، فقيل: عين الكلمة فوزنه يستفل، وقيل: لامها فوزنه يستفع، ثم نقلت حركة اللام على القول الأول، وحركة العين على القول الثاني إلى الفاء وهي الحاء. والحياء لغةً: تغيُّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، أو يذم عليه، واشتقاقه من الحياة؛ ومعناه على ما قاله الزمخشري: نقصت حياته واعتلت مجازاً واستعماله هنا في حق الله

تعالى بمعنى: الترك، وجعله الزمخشري من باب المقابلة يعني: أن الكفار لما قالوا أما يستحي ربُّ محمد أن يضرب المثل بالمحقرات، قُوبِلَ قولُهم ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ﴾ والضرب: إمساس جسم بجسم بعنفٍ، ويكنى به عن السفر في الأرض، ويكون بمعنى الصنع والاعتمال ﴿فَيَقُولُونَ﴾ أصله: يَقْوُلون بوزن يَفْعُلون بضم العين، فنقلت حركة حرف اللين إلى الساكن الصحيح قبله فسكنت الواو إثر ضمه، فصارت حرف مد ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ أصله: أَرْوَد بوزن أفعل أجوف واويٌّ؛ نقلت حركة عينه الواو إلى الراء، فتحركت الراء بالفتح وسكنت الواو لما سلبت حركتها، لكنها أبدلت ألفاً؛ لتحركها أصالةً وفتح ما قبلها الآن، فلفق لها موجب الإبدال، كما قلبت ياءً في المضارع، فقالوا: يريد، وسقطت في المصدر؛ لاجتماعها مع ألف الإفعال على أن المحذوف هي لا ألف الإفعال، أما على مقتضى قول ابن مالك:

وألف الإفعال واستفعال أزل.

فلم تحذف في المصدر، والهاء عوضٌ عن المحذوفة منهما ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أصله: يُضْلِل بوزن يفعل، فنقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد، فسكنت فأدغمت في اللام الثانية ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أصله: يهدي بوزن يفعِل، سكنت الياء؛ لوقوعها إثر كسرة، فصارت حرف مد ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: الخارجين عن طاعة الله تعالى، وفي «المصباح»: فسق فسوقاً من باب قعد خرج عن الطاعة، والاسم: الفسق، وفسق يفسق بالكسر من باب جلس. لغة حكاها الأخفش، فهو فاسق، والجمع فساق وفسقة. اهـ.

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أصل ميثاق: موثاق من الموثق بوزن مفعال، قلبت الواو ياء؛ لسكونها إثر كسرة. ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ جمع. خاسر، والخاسر: من خسر أحد أمورٍ ثلاثة المال، والبدن، والعقل، وهؤلاء من الثالث. اهـ. كرخي. وفي «القاموس»: خسر، كفرح وضرب، خَسْراًوخَسَراً، وخُسْراً، وخُسُراً وخُسْرَاناً، وخَسَارةً، وخَساراً: ضلّ، فهو خاسِر، وخسير، وخسِرَ التاجرُ إذا غُبن في تجارته، والخَسْرُ: النقص، كالإخسار والخسران. اهـ.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ كيف: للسؤال عن الأحوال، والمراد هنا: الأحوال التي يقع عليها الكفر من العسر واليسر، والسفر والإقامة، والكبر والصغر، والعز والذل، وغير ذلك، والاستفهام هنا: للتوبيخ والإنكار، فكأنه قال: لا ينبغي أن توجد فيكم تلك الصفات التي يقع عليها الكفر، فلا ينبغي أن يصدر منكم الكفر في كل حال من تلك الأحوال ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ أصله: أَحْيَيَ بوزن أفعل، عينه ولامه حرفا عِلَّةٍ، تحركت الياء الأخيرة وفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ مضارع أمات الرباعي وأصله: يُمْوِتكم بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت الواو إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أصله: يُحْيِيُكم بوزن يفعل، استثقلت الضمة على الياء الأخيرة فحذفت، فلما سكنت إثر كسرة صارت حرف مد ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أصله استوَيَ بوزن افتعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أصله: سَوَّيَ بوزن فعَّل المضعف، قلبت ياؤه ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: ذكر عنوان الربوبية في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ مع إضافته إلى المخاطبين؛ للتفخيم والتعظيم.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ فقد قابل بين الأرض والسماء، والفراش والبناء.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ لأنه أشرف أسمائه ﷺ.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ الخ. إلى التكلم في قوله: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ لما فيه من التفخيم للمنزَّل والمنزل عليه، ما لا يؤدِّيه ضمير غائب لو قال مما نزل على عبده، لا سيما كونه أتى بـ(نا) المشعرة بالتعظيم التام، وتفخيم الأمر، ونظيره ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا﴾.

ومنها: التعجيز في قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾؛ لأن الأمر هنا، خرج مخرج التعجيز.

ومنها: تنكير السورة؛ لإرادة العموم والشمول.

ومنها: الجملة الاعتراضية في قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾؛ لبيان التحدي في الماضي والمستقبل، وبيان العجز التام في جميع العصور والأزمان، ومن أمثلة الاعتراض، قول عوف بن مُحَلِّم الخزاعيِّ:

إنَّ الثَّمانِينَ وبُلِّغْتُها ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعي إلى تُرْجُمَان

فقوله وبلغتها: اعتراض بين اسم إن وخبرها، وفائدتها: الدعاء للمخاطب، بأن يمتد عمره إلى الثمانين، مع التنصل عن مسؤولية عدم السمع؛ بسبب كبر السن ووقر السمع.

ومنها: إيجاز القصر في قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ والإيجاز: هو جمع المعاني الكثيرة تحت اللفظ القليل، مع الإبانة والإفصاح؛ لأن المعنى: فإن عجزتم عن الإتيان بما ذكر في الحال، والمستقبل، والماضي، فخافوا نار جهنم بتصديقكم بالقرآن.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ والعلاقة المحلية، هذا إذا كان النهر مجرى الماء، كما قال بعض علماء اللغة، أما إذا كان بمعنى الماء في المجرى، فلا مجاز فيه.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ وسمي بليغاً؛ لأنَّ أداة التشبيه فيه محذوفة، فساوى طرفا التشبيه في المرتبة.

ومنها: وصف الأزواج بمطهرة في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ ولم يَقُلْ: طاهرةٌ أو متطهرة؛ للإشعار بأنَّ لهن مطهِّراً طهرهن، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ﴾ من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم. المعنى: إن الله لا يترك أن يبين مثلاً، فعبَّر بالحياء عن الترك؛ لأنَّ الترك من ثمرات الحياء، ومن استحيا من فعل شيء تركه، كما أفاده الزمخشري.

ومنها: الإشارة بهذا في قوله: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ تحقيراً للمشار إليه واسترذالاً له.

ومنها: زيادة ما في قوله: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ لتأكيد خسة الممثَّل به وهو البعوض، وغيره، والمراد بقولنا: زيادة ما؛ لتأكيد الخسة رفع ما يقال، إن القرآن مصونٌ عن الحشو والزائد حشو. وعبارة ابن السبكي: ولا يجوز ورود ما لا معنى له في الكتاب والسنة، خلافاً للحشوية، ومحصل جوابه: أنَّ زيادتها لفائدة، وهي التأكيد، فليست حشواً محضاً. وعبارة البيضاوي: ولا نعني بالمزيد اللغو الضائع، فإن القرآن كله هدى وبيانٌ، بل مرادنا بالمزيد، هو الذي لم يوضع لمعنى يراد منه، وإنما وضع ليذكر مع غيره فيفيد الكلام وثاقةً وقوَّةً، وهو زيادة في الهدى غير قادح فيه. انتهت. أفاده في «الفتوحات».

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ حيث شبه العهد بالحبل، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النقض، على سبيل الاستعارة المكنية، لأنه إحدى حالتي الحبل، وهما النقض والإبرام.

ومنها: الإلتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الخ. إلى الخطاب في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ لغرض التوبيخ، والتقريع، والتعجيب.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾، وبين ﴿يَقْطَعُونَ﴾ و﴿يُوصَلَ﴾.

ومنها: تقديم الإضلال فيهما على الهداية، ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب، أمراً فظيعاً يسوؤهم ويفتت أكبادهم.

ومنها: إيثار صيغة الاستقبال فيهما؛ إيذاناً بالتجدد والاستمرار. اهـ. «أبو السعود».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلا وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ
فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾
وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ
يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟
إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا
مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا
فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ
﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى، لما امتنَّ على العباد بنعمة الخلق والإيجاد، وأنه سخرَّ لهم ما في الأرض جميعاً، أتْبع ذلك بذكر بدء خلقهم، وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه، بجعله خليفة في الأرض، وإسكانه دار الكرامة، وأَمْر الملائكة بالسجود له؛ تعظيماً لشأنه، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء.

فائدة: والحكمة في إخبار الله تعالى للملائكة، عن خلق آدم واستخلافه في الأرض؛ تعليم لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها.

---

(١) العمدة.

وقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا...﴾ الآية. ليس[1] اعتراضاً على الله، ولا حسداً لبني آدم؛ وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك. يقولون: ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض؟ وإنما[2] علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون في الأرض، بإعلام الله إياهم ذلك، وقيل: كان في الأرض جنٌّ فأفسدوا فيها، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلوهم، فقاست الملائكة بني آدم عليهم. وروى[3] الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء؛ وقتل بعضهم بعضاً، قال: فبعث الله عليهم إبليس في جُنْدٍ من الملائكة، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فعلى هذا القول المعنى: إني جاعل في الأرض خليفةً من الجن يخلفونهم فيها، فيسكنونها ويعمرونها. انتهى. ابن جرير.

وفي «المراح» روى الضحاك عن ابن عباس: أنه تعالى إنما[4] قال هذا القول، للملائكة الذين كانوا في الأرض محاربين مع إبليس، لأن الله تعالى لما أسكن الجن الأرض فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً، بعث الله إبليس مع جند من الملائكة، فقتلهم إبليس مع عسكره حتى أخرجوهم من الأرض، وألحقوهم بجزائر البحر، وهؤلاء خُزَّان الجنان، أنزلهم الله تعالى من السماء إلى الأرض؛ لطرد الجن إلى الجزائر والجبال، وسكنوا الأرض، فخفف الله عنهم العبادة، وكان إبليس يعبد الله، تارةً في الأرض، وتارةً في السماء، وتارةً في الجنة، فدخله العُجب، فقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا الملك إلا لأني أكرم الملائكة عليه، فقال تعالى له ولجنده هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها:

---

(١) ابن كثير.

(٢) شهيل.

(٣) ابن جرير.

(٤) المراح.

لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة، تخصيص آدم بالخلافة في الأرض، وبعلم ما لم تعلمه الملائكة، ذكر هنا نوعاً من التكريم أكرمه الله تعالى به، وهو أمر الملائكة بالسجود له، وهو أعلى وجوه التكريم والتشريف لهذا لنوع الإنساني.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما شرف آدم برتبة العلم بإسجاد الملائكة له، امتَّن عليه بأن أسكنه الجنة التي هي دار النعيم وأباح له جميع ما فيها إلا الشجرة، على ما سيأتي فيها إن شاء الله تعالى. ذكره في «البحر».

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ﴾ مفعول اذكر مقدراً؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك وأخبرهم إذ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾؛ أي: قصة ذلك الوقت، وتوجيه[1] الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث، مع أنها المقصودة بالذات؛ للمبالغة في إيجاب ذكرها؛ لما أن إيجاب ذكر الوقت، إيجابٌ لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني؛ ولأن الوقت مشتمل عليها، فإذا استحضر كانت حاضرةً بتفاصيلها، كأنَّها مشاهدة عياناً، واللام في قوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ للتبليغ وتقديم الجار والمجرور في هذا الباب مطردٌ؛ لما في المقول من الطول غالباً مع ما فيه من الاهتمام بما قُدم والتشويق إلى ما أُخر، والملائكة[2]: جمع ملك بوزن فعل، قاله ابن كيسان، وقيل: جمع مَلأَكٍ بوزن مفعل، قاله أبو عبيدة من لأك إذا أرسل، والألُوكة: الرسالة، قال لبيد:

وغُلاَمٌ أرْسَلَتْهُ أُمُّهُ ... بِأُلُوكٍ فَبَذَلْنَا مَا سَأَلْ

وقال عدِيٌّ بن زيد:

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

أبلغ النُّعمان عنّي مَألُكاً   أنّه قَدْ طَالَ حَبْسِي وانْتِظَارْ

ويقال: ألكني؛ أي: أرسلني، وقال النضر بن شميل: لا اشتقاق لمَلَك عند العرب، والهاء في الملائكة؛ لتأكيد تأنيث الجمع، ومثله: الصلادمة والصلادم: الخيل الشداد واحدها صلدمٌ، وقيل: هي للمبالغة، كعلاَّمة، ونسابة وسُموا[1] بها؛ لأنهم وسائط بين الله وبين الناس فهم رسله؛ لأنَّ أصل ملك: مَلأَكٌ مقلوب مألك من الألوكة وهي الرسالة، كما مرَّ آنفاً، والملائكة عند أكثر المسلمين: أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة. والدليل: أن الرسل كانوا يرونهم كذلك، وروي في بيان كثرتهم: أن بني آدم عشر الجن، وهما عشر حيوانات البر، والكل عشر الطيور، والكل عشر حيوانات البحار، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة سماء الدنيا، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية، وهكذا إلى السماء السابعة، ثم كل أولئك في مقابلة الكرسي نزرٌ قليلٌ، ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادقٍ واحدٍ من سرادقات العرش، التي عددها ستمائة ألفٍ، طول كل سرادق، وعرضه، وسمكه، إذا قوبلت به السمٰوات والأرض وما فيهما، وما بينهما لا يكون لها عنده قدر محسوس، وما منه من مقدار شبر إلا وفيه ملكٌ ساجدٌ، أو راكعٌ، أو قائمٌ، لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتقديس، ثُمَّ كُلُّ هؤلاء في مقابلة الذين يحومون حول العرش، كالقطرة في البحر، ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام، والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام، لا يحصى أجناسهم، ولا مدة أعمارهم، ولا كيفيات عباداتهم إلا باريهم العليم الخبير، على ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ وأراد بهم هنا الملائكة الذين كانوا في الأرض، وذلك أن الله خلق السماء والأرض، وخلق الملائكة والجن، فأسكن الملائكة في السماء، وأسكن الجن في الأرض، والجن هم بنو الجان، والجان: أبو الجن، كآدم أبو البشر، وخلق الله الجان من لهب من نار، لا دخان لها بين السماء والأرض، والصواعق تنزل منها، ثم لما سكنوا فيها كثر نسلهم، وذلك قبل آدم بستين ألف سنة، فعمروا دهراً طويلاً في

---

(١) روح البيان.

الأرض، مقدار سبعة آلاف سنة، ثم ظهر فيهم الحسد والبغي، فأفسدوا وقتلوا، فبعث الله إليهم ملائكة سماء الدنيا، وأَمَّر عليهم إبليس، وكان اسمه عزازيل، وكان أكثرهم علماً، فهبطوا إلى الأرض حتى هزموا الجن، وأخرجوهم من الأرض إلى جزائر البحور وشعوب الجبال، وسكنوا الأرض، وصار أمر العبادة عليهم أخف؛ لأن كل صنف من الملائكة يكون أرفع في السموات يكون خوفهم أشدَّ، وملائكة سماء الدنيا يكون أمرهم أيسر من الذين فوقهم، وأعطى الله إبليس مُلْك الأرض، وملك السماء الدنيا، وخزانة الجنة، وكان له جناحان من زمرد أخضر، وكان يعبد الله تارة في الأرض، وتارة في السماء، وتارة في الجنة، فدخله العجب، فقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا المُلك إلا لأني أكرم الملائكة عليه، وأيضاً: كُلُّ من اطمأن إلى الدنيا أُمِر بالتحوُّل عنها، فقال الله له ولجنوده ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾؛ أي: خالق ومصيِّر ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دون السماء؛ لأن التباغي والتظالم كان في الأرض ﴿خَلِيفَةً﴾ ورسولاً يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها، وهو آدم عليه السلام، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أو قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أو خالقٌ فيها بدلاً منكم، وهو آدم عليه السلام؛ لأنه خلف الجن وجاء بعدهم؛ ولأنه خليفة الله في أرضه؛ أي: أريد أن أخلق في الأرض بدلاً منكم، ورافعكم إليَّ، فكرهوا ذلك؛ لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادةً، والمراد به: آدم عليه السلام. وقرأ الجمهور: ﴿خَلِيفَةً﴾ بالفاء وقرأ زيد بن علي، وأبو البَرْ، هَشِيْم عمران ﴿خليقة﴾ بالقاف، ومعناه واضحٌ ذكره في «البحر».

واعلم[1] أن الله تعالى، يحفظ العالم بالخليفة، كما يحفظ الخزائن بالختم، فالبدء كان آدم، والختام يكون بعيسى عليه السلام، والحكمة في الاستخلاف: قصور المستخلف عليه عن قبول فيضه، وتلقِّي أمره بغير واسطة؛ لأن المفيض

---

(١) روح البيان.

تعالى في غاية التنزُّه والتقدُّس، والمستفيض منغمسٌ في العلائق الدنيئة، كالأكل والشرب، وغيرهما، والعوائق الطبيعية، كالأوصاف الذميمة، فالاستفاضة منه إنما تحصل بواسطة ذي جهتين؛ أي: ذي جهة التجرُّد، وجهة التعلق، وهو الخليفة أيّاً كان، ولذا لم يستنبىء الله سبحانه ملكاً، فإن البشر لا يقدر على الاستفادة منه؛ لكونه خلاف جنسه، ألا ترى أن العَظْم لمَّا عجز عن أخذ الغذاء من اللحم؛ لما بينهما من التباعد، جعل الله تعالى بحكمته بينهما الغضروف، والأعصاب المناسب، ليأخذ من اللحم ويعطي العظم، وجعل السلطان الوزير بينه وبين رعيته، إذ هم أقرب إلى قَبولهم منه، وجعل المستوقد الحطب اليابس بين النار وبين الحطب الرطب، وحكمة قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أربعة أمور:

الأول: تعليم المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة، ويقال: أعقَلُ الرجال لا يستغني عن مشاورة أولى الألباب، وأفره الدواب لا يستغني عن السوط، وأورع النساء لا تستغني عن الزوج.

والثاني: إظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم، وهو قوله: ﴿أَتَجْعَلُ﴾. إلخ. وجوابه وهو قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والثالث: تعظيم شأن المجعول، بأن بشر بوجوده سكان ملكوته، ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه.

والرابع: بيان أن الحكمة تقتضي ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير، لأجل الشر القليل، شرٌّ كثير، كقَطْعِ العضوِ الذي فيه أكلةٌ شرٌّ قليلٌ، وسَلَامَةُ جميع البدن، خيرٌ كثيرٌ، فلو لم يُقْطَع ذلكَ العضوُ، سَرَتْ تلك الآفة إلى جميع البدن، وأدَّتْ إلى الهلاك الذي هو شرٌّ كثير.

﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قالت الملائكة استكشافاً عما خفي عليهم من الحكمة، لا اعتراضاً على الله تعالى، ولا طعناً في بني آدم على سبيل الغِيبة، وهو كلام مستأنف استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فماذا قالت الملائكة حينئذٍ، فقيل: قالوا:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾؛ أي: أتجعل يا إلٰهنا في الأرض خليفة ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي بمقتضى القوة الشهوانية، كما أفسدت الجن، وفائدة تكرار الظرف؛ تأكيد الاستبعاد ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بمقتضى القوة الغضبية؛ أي: يصبُّ الدماء ظلماً، كما سفك بنو الجان، فغفلوا عن مقتضى القوة العقلية التي يحصل بها الكمال والفضل، والتعبير عن القتل بسفك الدماء؛ لما أنه أقبح أنواع القتل وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَيَسْفِكُ﴾ بكسر الفاء ورفع الكاف، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة بضم الفاء، وقرىء ﴿وَيُسْفِكُ﴾ من أسفك الرباعي و﴿يُسَفِّكُ﴾ من سَفَّك المشدد، وقرأ ابن هرمز ﴿وَيُسْفِكَ﴾ بنصب الكاف، فمن رفع الكاف عطف على يُفْسِدُوا ومَنْ نصب، فقال المهدوي: هو نصب في جواب الاستفهام، وهو تخريج حسن.

وفي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إيماء[2] إلى أن ملائكة الأرض هم الطاعنون، إذ الظن لا يصدر إلا ممن هو في مَعْرِض ذلك المَنْصِب، وأهل السمٰوات مدبِّرات للعالم العلوي، فما قالت الملائكة الأرضية إلا بمقتضى نشأتهم التي هم عليها، من غبطة منصب الخلافة في الأرض، والغَيرةِ على منصب ملكهم وتعبُّدهم، بما هم عليه من التسبيح والتقديس، فكلُّ إناء يَترشَّحُ بما فيه، وأما الاعتراضُ على فعل الحكيم، والنزاعُ في صُنْعه عند حضرته، فمعفوٌّ عنه؛ لكمال حكمته، وفي «الفتوحات»: إن هاروت وماروت من الملائكة الذين نازعوا آدم، ولأجل هذا ابتلاهما الله تعالى بإظهار الفساد، وسفك الدماء، فَافْهَمْ سِرَّ قوله ﷺ: «دَع الشَّماتة عن أخيك، فيعافيه الله تعالى، ويبتليك» وأيضاً من تلك الملائكة الطاعنين بسفك الدماء: الملائكةُ التي أرسلها الله تعالى نصرةً للمجاهدين، وسَفْكِ الدماء غيرةً على دين الله وشرعه، كذا في «حل الرموز وكشف الكنوز».

﴿وَنَحْنُ﴾؛ أي: والحال إنَّا ﴿نُسَبِّحُ﴾؛ أي: تنزهك عن كل ما لا يليق

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

بشأنك ملتبسين ﴿بِحَمْدِكَ﴾ وثنائك على ما أنعمت به علينا، من فنون النعم التي من جملتها، توفيقنا لهذه العبادة، فالتسبيح؛ لإظهار صفات الجلال، والحمد؛ لتذكير صفات الإنعام ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ تقديساً ﴿لَكَ﴾؛ أي: نصفك بما يليق بك، من العلوّ والعزة، وننزهك عما لا يليق بك، فاللام للبيان، كما في سقياً لك، متعلقة بمصدر محذوف، ويجوز أن تكون مزيدةً؛ أي: نقدسك. قال في «التَّيْسِير» التسبيح: نفي ما لا يليق به، والتقديس: إثبات ما يليق به، وكأنَّه قيل: أتستخلف مَنْ شأنُ ذريته الفساد، مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلاً، والمقصودُ: عَرْضُ أحقيتهم منهم بالخلافة، والاستفسارُ عمَا رَجَح بني آدم عليهم مع ما هو متوقَّع منهم من الفساد، وكأنه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذٍ؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى جواباً لهم ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ من المصلحة في استخلاف آدم ﴿ما لا تعلمون﴾ه؛ لأنه قد يكون من ذريته الطائع والعاصي، فيظهر الفضل والعدل، وقد يكون منهم من يسبحني، ويقدسني، ويحمدني، فلا تعترضوا على حكمي وتقديري، ولا تستكشفوا عن غيبة تدبيري، فليس كلُّ مخلوق يطلع على غيب الخالق، ولا كلُّ أحدٍ من الرعية يقف على سرِّ الملك، وقالت الملائكة فيما بينهم: لن يخلق ربنا خلقاً أكرَمَ عليه منا، ولا أعلَمَ؛ لسبقنا له، ورؤيتنا ما لم يره، فخلق الله آدم من أديم الأرض؛ أي: ترابها، وسواه ونفخ فيه من روحه، فصار حيواناً حساساً بعد أن كان جماداً ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[1]؛ أي: خلق في قلبه علماً بأسماء كل ما خلق، من أجناس المحدثات بجميع اللغات المختلفة التي يتكلَّم بها أولاد آدم اليوم، بعد أن عرض عليه المسميات، كما عرضها على الملائكة، فعِلْمُ المسميات مشترك بينه وبينهم، واختصاصه عنهم إنما هو بالأسماء، فكان يعرف أن هذا الجرم يسمى بكذا، وهم يعرفون الجرم ولا يعرفون اسمه، ففاق عليهم بعلم الأسماء.

والحاصل: أنه سبحانه وتعالى، لما أخبر[2] الملائكة عن وجه الحكمة في

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

خلق آدم وذريته على سبيل الإجمال، أراد أن يفصِّل، فبين لهم من فضل آدم ما لم يكن معلوماً لهم، وذلك بأن علَّمه الأسماء؛ ليظهر فضله وقصورهم عنه في العلم، فأكَّد الجواب الإجمالي بالتفصيل، ولا بد من تقدير جملة محذوفة قبل هذا؛ لأنه بها يتمُّ المعنى ويصحُّ هذا العطف، تقديرها: فجعل في الأرض خليفة، ولما كان لفظ الخليفة محذوفاً مع الجملة المقدرة، أبرزه في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ ناصًّا عليه ومنوّهاً بذكره باسمه، وأبعَدَ مَن زعم: أنَّ وعلَّم آدم معطوفٌ على قوله (قال) من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ﴾ وهل التعليم بتكليم الله تعالى له في السماء، كما كلم موسى في الأرض، أو بواسطة ملك، أو بالإلهام[1] أقوال أظهرها: أن الباري سبحانه هو المعلم، لا بواسطة، ولا إلهام. وقرأ اليمانيُّ، ويزيد اليزيديُّ ﴿وعُلِّمَ آدمُ﴾ مبنياً للمفعول، وحذف الفاعل؛ للعلم به. والتضعيف في عَلَّم؛ للتعدية، إذ كان قبل التضعيف يتعدى لواحد، فعدِّي به إلى اثنين، وليست التعدية بالتضعيف مقيسةً، إنما يُقتصر فيه على مورد السماع، سواء كان الفعل قبل التضعيف لازماً، أم كان متعدياً، نحو: عَلَّم المتعدية إلى واحد، وأما إن كان متعدياً إلى اثنين، فلا يحفظ في شيء منه التعدية بالتضعيف إلى ثلاثة.

فصل في قصة خلق آدم عليه السلام

قال وهب بن منبه[2]: لما أراد الله أن يخلق آدم، أوحى إلى الأرض؛ أي: أفهمها وألهمها أني جاعل منك خليفة، فمنهم من يطيعني فأدخله الجنة، ومنهم من يعصيني فأدخله النار، فقالت الأرض: مني تخلق خلقاً يكون للنار؟ قال: نعم، فبكت فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة، وبعث إليها جبريل عليه السلام؛ ليأتيه بقبضةٍ من زواياها الأربع، من أسودها، وأبيضها، وأحمرها، وأطيبها، وأخبثها، وسهلها، وصعبها، وجبلها، فلما أتاها جبريل ليقبض منها، قالت الأرض: بالله الذي أرسلك، لا تأخذ مني شيئاً، فإن منافع التقرب إلى

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

السلطان كثيرةٌ، ولكن فيه خطر عظيم، فرجع جبريل عليه السلام إلى مكانه، ولم يأخذ منها شيئاً، فقال: يا رب! حلفتني الأرض باسمك العظيم، فكرهت أن أقدم عليها، فأرسل سبحانه ميكائيل عليه السلام، فلما انتهى إليها، قالت الأرض له، كما قالت لجبريل، فرجع ميكائيل، فقال كما قال جبريل، فأرسل الله سبحانه إسرافيل عليه السلام، وجاء ولم يأخذ منها شيئاً، وقال مثل ما قال جبريل، وميكائيل، فأرسل الله تعالى، ملك الموت، فلما انتهى إليها، قالت الأرض: أعوذ بعزة الله الذي أرسلك، أن تقبض مني اليوم قبضة يكون للنار فيها نصيب غداً! فقال ملك الموت: وأنا أعوذ بعزته أن أعصي له أمراً! فقبض قبضة من وجه الأرض، مقدار أربعين ذراعاً من زواياها الأربع، فلذلك يأتي بنوه أخيافاً؛ أي: مختلفين على حسب اختلاف ألوان الأرض وأوصافها، فمنهم الأبيض، والأسود، والأحمر، واللين، والغليظ، فصار كل ذرة من تلك القبضة أصل بدن للإنسان، فإذا مات يدفن في الموضع الذي أخذت منه، ثم صعد إلى السماء، فقال الله سبحانه له: (أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك)، فقال: رأيت أمرك أوجب من قولها، فقال: أنت تصلح لقبض أرواح ولده. قال في «روضة العلماء»: فشَكَت الأرض إلى الله تعالى، وقالت: يا رب نقص مني! قال الله تعالى: (عليَّ أن أرد إليك أحسن وأطيب ممن كان) فمن ثمَّة يحنط الميت بالمسك والغالية. انتهى.

فأمر الله تعالى عزرائيل، فوضع ما أخذ من الأرض في وادي نعمان بين مكة والطائف، بعد ما جعل نصف تلك القبضة في النار، ونصفها في الجنة، فتركها إلى ما شاء الله، ثم أخرجها، ثم أمطر عليها من سحاب الكرم، فجعلها طيناً لازباً، وصور منه جسد آدم.

واختلفوا في خلقة آدم عليه السلام، فقيل: خلق في سماء الدنيا، وقيل: في جنةٍ من جنات الأرض بغربيتها، كالجنة التي يخرج منها النيل، وغيره من الأنهار، وأكثر المفسرين: أنه خلق في جنة عدن، ومنها أُخرج، كما في «كشف الكنوز». وفي الحديث القدسي: (خَمَرت طينةَ آدم بيدي أربعين صباحاً) يعني أربعين يوماً، كل يوم منه ألف عام من أعوام الدنيا، فتركه أربعين سنةً حتى يبس وصار صلصالاً، وهو الطين المصوت من غاية يبسه، كالفخار، فأمطر عليه مطر

الحزن تسعاً وثلاثين سنة، ثم أمطر عليه مطر السرور سنة واحدة؛ فلذلك كثرت الهموم في بني آدم، ولكن يصير عاقبتها إلى الفرح، كما قيل: إن لكل بدايةٍ نهايةً، وإنَّ مع العسر يسرا.

وكانت الملائكة يمرون عليه، ويتعجبون من حسن صورته، وطول قامته؛ لأن طوله كان خمس مئة ذراع، الله أعلم بأيِّ ذراع، وكان رأسه يمسُّ السماء، ولم يكونوا رأوا قبل ذلك صورةً تشابهها، فمرَّ به إبليس فرآه، ثم قال: لأمر ما خلقت، ثم ضربه بيده فإذا هو أجوف، فدخل من فيه وخرج من دبره، وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة: هذا خلق أجوف لا يثبت ولا يتماسك، ثم قال لهم: أرأيتم إنْ فُضِّل هذا عليكم ما أنتم فاعلون. قالوا: نطيع ربنا، فقال إبليس في نفسه: والله لا أطيعه إن فُضِّل عليَّ، ولئن فُضِّلت عليه لأهلكنه، وجمع بزاقه في فمه وألقاه عليه، فوقع بزاق اللعين على موضع سرة آدم عليه السلام، فأمر الله جبريل، فقور بزاق اللعين من بطن آدم، فحفرة السرة من تقوير جبريل، وخلق الله من تلك القوارة كلباً، وللكلب ثلاث خصال، فأُنسه بآدم؛ لكونه من طينه، وطول سهره في الليل؛ من أثر مس جبريل عليه السلام، وعضه الإنسان، وغيره، وأذاه من غير خيانةٍ من أثر بزاق اللعين، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة، وسمي بآدم؛ لكونه من أديم الأرض؛ لأنه مؤلَّف من أنواع ترابها، ولمَّا أراد الله سبحانه أن ينفخ فيه الروح، أمره أن يدخل فيه، فقال: الروح موضعٌ بعيد القعر، مظلم المدخل، فقال له: ثانياً: أدخل، فقال كذلك، فقال له ثالثاً: فقال كذلك، فقال: أدخل كرهاً؛ أي: بلا رضى، واخرج كرهاً، ولذا لا يخرج من البدن إلا كرهاً، فلما نفخه فيه مَرَّ في رأس آدم، وجبينه، وأذنيه، ولسانه، ثم مَرَّ في جسده كله حتى بلغ قدميه، فلم يجد منفذاً، فرجع إلى فخذيه، فعطس، فقال له ربُّه: قل الحمد لله رب العالمين، فقالها آدم، فقال سبحانه له: يرحمك الله، ولذا خلقتك يا آدم، فلما انتهى إلى ركبتيه أراد الوثوب فلم يقدر فلما بلغ قدميه وثب، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ فصار بشراً لحماً ودماً، وعظاماً وعصباً، وأحشاءً، ثم كساه لباساً من ظفر يزداد جسده في كل يوم، وهو في ذلك منتطق متوج، وجعل في جسده تسعة أبواب، سبعةً في رأسه، أذنين يسمع بهما،

وعينين يبصر بهما، ومنخرين يجد بهما كل رائحة، وفماً فيه لسان يتكلم به، وحنك يجد به طعم كل شيء، وبابين في جسده وهما قبله ودبره، يخرج منهما ثفل طعامه وشرابه، وجعل عقله في دماغه، وشرهه في كليتيه، وغضبه في كبده، وشجاعته في قلبه، ورغبته في رئته، وضحكه في طحاله، وفرحه وحزنه في وجهه، فسبحان من جعله يسمع بعظم، ويبصر بشحم، وينطق بلحم، ويعرف بدم، فلما سوّاه ونفخ فيه من روحه علَّمه أسماء الأشياء كلها؛ أي: ألهمه، فوقع في قلبه فجرى على لسانه بما في قلبه بتسمية الأشياء من عنده، فعلمه جميع أسماء المسميات بكل اللُّغات، بأن أراه الأجناس التي خلقها، وعلمه أن هذا اسمه فرسٌ، وهذا اسمه بعيرٌ، وهذا اسمه كذا، وعلَّمه أحوالها وما يتعلَّق بها من المنافع الدينية والدنيوية، وعلمه أسماء الملائكة، وأسماء ذريته كلهم، وأسماء الحيوانات والجمادات وصنعة كل شيء، وأسماء المدن والقرى، وأسماء الطير والشجر وما يكون، وكل نسمة يخلقها إلى يوم القيامة، وأسماء المطعومات والمشروبات، وكل نعيم في الجنة، وأسماء كل شيء حتى القصعه والقُصيعة، وحتى الجُنَّة والمحلب ـ والقصعة إناءُ الأكل معروف، والقُصيعة تصغيرها يعني: حتى الوضيع والحقير، والجُنة الترس، والمحلب إناء يحلب فيه.

وفي الخبر: لما خلق الله آدم، بثَّ فيه أسرار الأحرف، ولم يبث في أحد من الملائكة، فخرجت الأحرف على لسان آدم بفنون اللغات، فجعلها الله صوراً له ومثلت له بأنواع الأشكال. وفي الخبر: علَّمه سبعمائة ألف لغة، فلما وقع في أكل الشجرة سلب اللغات إلا العربية، فلما اصطفاه بالنبوة رد الله عليه جميع اللغات، فكان من معجزاته، تكلمه بجميع اللغات المختلفة التي يتكلَّم بها أولاده إلى يوم القيامة، من العربية، والفارسية، والرومية، والسريانية، واليونانية، والعبرانية، والزنجية، والآرامِيَّة، وغيرها.

قال بعض المفسرين: علم الله آدم ألف حرفة من المكاسب، ثم قال: قل لأولادك: إن أردتم الدنيا فاطلبوها بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدين وأحكام الشرائع. وكان آدم حراثاً؛ أي: زراعاً، ونوح نجاراً، وإدريس خياطاً، وصالح تاجراً، وداود زرَّاداً، وسليمان كان يعمل الزنبيل في سلطنته، ويأكل من ثمنه ولا

يأكل من بيت المال، وكان موسى، وشعيب، ومحمد رعاةً، وكان أكثر عمله ﷺ في البيت الخياطة، وفي الحديث: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة وعمل الأبرار من النساء الغزل» كذا في «روضة الأخيار».

وقال العلماء: الأسماء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ تقتضي الاستغراق واقتران قوله ﴿كُلَّهَا﴾ يوجب الشمول، فكما علمه أسماء المخلوقات علَّمه أسماء الحق تعالى، فإذا كان تخصيصه بمعرفة أسماء المخلوقات يقتضي أن يصح سجود الملائكة له، فما الظنُّ بتخصيصه بمعرفة أسماء الحق، وما الذي يوجب له؟!

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؛ أي: ثم عرض الله سبحانه وتعالى مسميات تلك الأسماء وأظهرها ﴿عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وسألهم عن أسمائها تبكيتاً لهم، وإظهاراً لفضل آدم عليه السلام، وذكَّر[1] الضمير في قوله: ﴿عَرَضَهُمْ﴾؛ لأن في المسميات العقلاء فغلَّبهم على غيرهم، والعرض: إظهار الشيء للغير ليعرف العارض منه حاله. وفي الخبر: أنه عرضهم أمثال الذر، ولعله سبحانه وتعالى، عرض عليهم من أفراد كل نوع، ما يصلح أن يكون أنموذجاً يتعرف منه أحوال البقية وأحكامها. والحكمة في التعليم والعرض؛ تشريف آدم واصطفاؤه، وإظهار الأسرار والعلوم المكنونة في غيب علمه تعالى، على لسان من يشاء من عباده، وهو المعلِّمُ المكرَّم آدمَ الصفيَّ، كيلا يحتجَّ المَلَك وغيره عليه بعلمه ومعرفته، وذلك رحمة الله التي وسعت كل شيء. وثُمَّ[2]: حرف تراخ ومهلة؛ يعني: علَّم آدم، ثم أمهله من ذلك الوقت إلى أن قال: أنبئهم بأسمائهم ليتقرَّر ذلك في قلبه ويتحقق المعلوم؛ ثم أخبرهم عما تحقق به واستيقنه. وأما الملائكة، فقال لهم على وجه التعقيب من غير مهلة: نبئوني، فلما لم يتقدَّم لهم تعريفٌ، لم يخبروا، ولمَّا تقدم لآدم التعليم، أجاب وأخبر ونطق؛ إظهاراً لعنايته السابقة به سبحانه.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ أبي[1]: ﴿ثُمَّ عرضها على الملائكة﴾ وقرأ عبد الله ﴿ثم عرضهُنَّ﴾ والضمير عائد على الأسماء فتكون هي المعروضة، أو يكون التقدير مسمياتها، فيكون المعروض المسميات لا الأسماء، كما مرَّ. وقوله: ﴿عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ظاهرة العموم، فقيل: هو المراد، وقيل: الملائكة الذين كانوا مع إبليس في الأرض. والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى علم[2] آدم الأجناس التي خلقها، وألهمه معرفة ذواتها، وخواصّها، وصفاتها، وأسمائها ولا فارق بين أن يكون هذا العلم في آنٍ واحدٍ، أو آناتٍ متعددة، فالله قادر على كل شيء. وإن كان لفظ عَلَّم يشعر بالتدريج، كما يشهد له نظائره من نحو: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ و﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ إلى نحو ذلك من الآيات التي فيها لفظ التعليم. لكن المتبادر هنا أنه كان دفعةً واحدة.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: ثم أطلع الملائكة على مجموعة تلك الأشياء إطلاعاً إجمالياً بالإلهام، أو غيره، مما يليق بحالهم، وربما كان بعرض نماذج من كل نوع يتعرف منها أحوال البقية وأحكامها، كما مرَّ. وتقدم لك أن الحكمة في التعليم والعرض؛ تشريف آدم واصطفاؤه، كي لا يكون للملائكة مفخرة عليه بعلومهم ومعارفهم؛ وإظهار الأسرار والعلوم المكنونة في غيب علمه تعالى على لسان من يشاء من عباده.

﴿فَقَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى للملائكة تبكيتاً وتعجيزاً لهم، وخطاب[3] التعجيز جائزٌ، وهو الأمر بإتيان الشيء، ولم يكن إتيانه مراداً ليظهر عجز المخاطب، وإن كان ذلك محالاً، كالأمر بإحياء الصورة التي يفعلها المصورون يوم القيامة، ليظهر عجزهم ويحصل لهم الندم، ولا ينفعهم الندم. والفاء[4] في قوله: ﴿فَقَالَ﴾ للتعقيب؛ أي: ولم يتخلل بين العرض والأمر مهلة بحيث يقع فيها

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) البحر المحيط.

تَروٍّ أو فِكْرٍ، وذلك أجدر بعدم الإجابة ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾، أي: أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسميات فرداً فرداً، أو بأسماء هؤلاء الموجودات، كما في «الروح».

وقرأ الأعمش[1]: ﴿نَبُّوني﴾ بغير همز. وقد استدل بقوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ على جواز تكليف ما لا يُطاق، وهو استدلال ضعيف؛ لأنه على سبيل التبكيت، ويدل عليه قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وظاهر قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ حضور أشخاص من الموجودات حالة العرض على الملائكة، ومن قال إن المعروض إنما هي أسماء فقط، جعل الإشارة إلى أشخاص الأسماء وهي غائبةٌ، إذ قد حضر ما هو منها سببٌ، وذلك أسماؤها، وكأنه قال لهم في كل اسم: لأيِّ شخصٍ هذا الاسم؟ وهذا فيه بُعْدٌ وتَكَلُّفٌ، وخروج عن الظاهر بغير داعية إلى ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته، كما ينبيء عنه مقالكم، وهذا شرط[2] جوابه محذوف، تقديره: فأنبئوني يدل عليه أنبئوني السابق، ولا يكون أنبئوني السابق هو الجواب. هذا مذهب سيبويه، وجمهور البصريين، وخالف الكوفيون، وأبو زيد، وأبو العباس، فزعموا: أن جواب الشرط هو المتقدم في نحو هذه المسألة، والصدق هنا هو الصواب، أي: إن كنتم مصيبين، كما يطلق الكذب على الخطأ، كذلك يطلق الصدق على الصواب، ومتعلق الصدق فيه أقوال: إن كنتم صادقين في أني لا أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه؛ لأنه هجس في أنفسهم أنهم أعلم من غيرهم، أو فيما زعمتم أن خلفائي يفسدون في الأرض، أو فيما وقع في نفوسكم أني لا أخلق خلقاً إلا كنتم أفضل منه، أو بأمور مَن أَستَخْلِفُهم بعدكم، أو إني إن استخلفتكم فيها سبحتموني وقدستموني، وإن استخلفت غيركم عصاني، أو في قولكم: إنه لا شيء مما يتعبد به الخلق، إلا وأنتم تصلحون له وتقومون به. قاله ابن مسعود، وابن عباس، أو في ذلك الإنباء، وجواب السؤال بالأسماء.

وأَبعَدَ مَن ذهب إلى أن الصدق هنا ضد الكذب المتعارف؛ لعصمة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

الملائكة، كما أَبعَدَ مَن جعل إن بمعنى إذ، فأخرجها عن الشرطية إلى الظرفية. وإذا التقت همزتان مكسورتان من كلمتين نحو: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فورش، وقنبل، يبدلان الثانية ياء ممدودة، إلا أن ورشاً في ﴿هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ﴾ و﴿عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ﴾ أبدل الهمزة الثانية ياءً خفيفة الكسر، أي: مختلة الكسر، وقالون، والبزي، يُسَهِّلان الأولى، ويحققان الثانية. ذكره في «البحر».

ويقال: هذه الآية دليل[1] على أن أولى الأشياء بعد علم التوحيد، تعلم علم اللغة؛ لأنه تعالى أراهم فضل آدم بعلم اللغة، ودلت أيضاً: أن المدعي يطالب بالحجة، فإن الملائكة ادعوا الفضل، فطولبوا بالبرهان، وبحثوا عن الغيب، فقرعوا بالعيان؛ أي: لا تعلمون أسماء ما تعاينون، فكيف تتكلمون في فساد من لا تعاينون. فيا أرباب الدعاوي! أين المعاني؟ ويا أرباب المعرفة! أين المحبة؟ ويا أرباب المحبة! أين الطاعة؟ قال أبو بكر الواسطي: من المحال أن يعرفه العبد، ثم لا يحبه، ومن المحال أن يحبه، ثم لا يذكره، ومن المحال أن يذكره، ثم لا يجد حلاوة ذكره، ومن المحال أن يجد حلاوة ذكره، ثم يشتغل بغيره. قال أبو عثمان المغربي: ما بلاء الخلق إلا الدعاوي، ألا ترى أن الملائكة لمَّا قالوا: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾ كيف ردوا إلى الجهل حتى قالوا: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ ذكره في «البحر».

وقوله: ﴿قالوا﴾ استئناف واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قالوا حينئذٍ؟ هل خرجوا عن عهدة ما كلفوه أولاً؟ فقيل: قالوا؛ أي: قالت الملائكة اعترافاً لعجزهم وقصورهم ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك عن الاعتراض عليك في حكمك، وتبنا إليك من ذلك القول، أو نسبِّحك عما لا يليق بشأنك الأقدس، من الأمور التي من جملتها خلوُّ أفعالك عن الحِكَم والمصالح، وهي كلمة تُقدَّم على التوبة. قال موسى عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ وقال يونس عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وسبحان: اسم واقع

---

(١) روح البيان.

موقع المصدر، لا يكاد يستعمل إلا مضافاً، فإذا أفرد عن الإضافة، كان اسماً علماً للتسبيح، لا ينصرف للتعريف والألف والنون في آخره، نحو: قول الأعشى:

أقولُ لمَّا جاءَني فَخْرُهُ ... سُبحانَ مِنْ عَلْقَمةِ الفاخِرِ

فجعله علماً، فمنعه الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون، وأما صَرْفُه في قول الآخر:

سبحانه ثم سبحاناً نعوذ به ... وقَبْلنا سَبَّح الجُودِيُّ والجَمَدُ

فضرورةٌ، وقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ اعترافٌ منهم بالعجز عما كلفوه، وإشعار بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً، إذ معناه ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وألهمتنا بحسب قابليتنا من العلوم المناسبة لعالمنا، ولا قدرة لنا على ما هو خارج عن دائرة استعدادنا، حتى لو كنا مستعدين لذلك، لأفضته علينا، يعنون: أن علمهم علم محدود لا يتناول جميع الأشياء، ولا يحيط بكلِّ المسميات، وفيه ثناء على الله بما أفاض عليهم من العلم مع تواضعٍ وأدب، وما في قوله: ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ موصولة، أو موصوفة، ومحلُّه رفع على أنه بدل من موضع ﴿لَا عِلْمَ﴾ كقولك لا إله إلا الله؛ أي: لا علم لنا إلا العلم الذي علمتناه، أو علماً علمتناه.

والمعنى: أي[1] لا معلوم عندنا إلا المعلوم الذي علمتناه من المسميات، فلا علم لنا بأسمائها؛ أي: وإنما قلنا لك: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾؛ لأنك أعلمتنا أنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقلنا لك ذلك، وأمَّا هذه الأسماء، فإنك ما أعلمتنا إياها فكيف نعلمها، ثم أكدوا ما تقدم بقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب، أو في محل النصب تأكيد لاسم إن ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط بعلمه كل الأشياء فلا تخفى عليه خافيةٌ، وهذه إشارةٌ إلى تحقيقهم لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه، المحكِم

---

(١) العمدة.

لمبتدعاته، الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمةٌ بالغةٌ. وناسب[1] تقديم الوصف بالعلم على تقديم الوصف بالحكمة؛ لأنه المتصل به في قوله: ﴿وَعَلَّمَ﴾ ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ فالذي ظهرت به المزية لآدم والفضيلة، هو العلم، فناسب ذكره متصلاً به؛ ولأنَّ الحكمة إنما هي آثار العلم، وناشئةٌ عنه، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة؛ وليكون آخر مقالهم مخالفاً لأوله، حتى يتبين رجوعهم عن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ وفي هذا الجواب[2] منهم، إيذان بأنهم رجعوا إلى ما كان يجب عليهم أن لا يغفلوا عن مثله، من التفويض إلى واسع علم الله وعظيم حكمته، بعد أن تبيَّن لهم ما تبيَّن، وإيماءٌ إلى أنَّ الإنسان ينبغي له أن لا يغفل عن نقصانه، وعن فضل الله عليه وإحسانه، ولا يأنف أن يقول لا أعلم إذا لم يكن يعلم، ولا يكتم الشيء الذي يعلم.

وقال العلماء: قول الشخص لا أدري نصف العلم، وسئل[3] أبو يوسف القاضي عن مسألة؟ فقال: لا أدري، فقالوا له: تَرْتَزِق من بيت المال كُلَّ يوم كذا وكذا، ثم تقول لا أدري، قال: إنما أرتزق بقدر علمي، ولو أعطيت بقدر جهلي لم يسعني مال الدنيا، وحكي: أن عالماً سئل عن مسألة وهو فوق المنبر؟ فقال: لا أدري، فقيل له: ليس المنبر موضع الجُهَّال، فقال: إنما علوت بقدر علمي ولو علوت بقدر جهلي لبلغت السماء.

وقوله: ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى لآدم كلامٌ مستأنف أيضاً ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾؛ أي: أخبر الملائكة وأعلمهم ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بالقصور عن بلوغ مرتبتها؛ أي: أخبرهم بأسماء هؤلاء المسمَّيات، فسمَّى لهم كل شيء باسمه حتى القصعة والقصيعة، وبين لهم أحوال كلٍ من المسميات، وخواصَّه، وأحكامه المتعلقة بالمعاش، والمعاد.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وقال: ﴿أَنۢبِئۡهُم﴾[1] دون أنبئني؛ للإشارة إلى أنَّ علمه عليه السلام بها ظاهرٌ، لا يحتاج إلى ما يجري مجرى الامتحان، وإلى أنه جديرٌ أن يعلِّم غيره، فتكون له منَّة المعلِّم المفيد، ولهم مقام المتعلم المستفيد؛ ولئلا تستولي عليه الهيبة، فإنَّ إنباء العالم ليس كإنباء غيره. وقرأ الجمهور ﴿أَنۢبِئۡهُم﴾ بالهمز وضم الهاء، وهذا هو الأصل، كما تقول: أكرمهم. وروي عن ابن عباس ﴿أَنۢبِئۡهِم﴾ بالهمز وكسر الهاء، ووجهه: أنه أتبع حركة الهاء لحركة الباء، ولم يعتدَّ بالهمزة؛ لأنها ساكنة، فهي حاجزٌ غير حصين وقرأ الحسن، والأعرج، وابن كثير، من طريق الغواس ﴿أنبهم﴾ على وزن أعطهم. قال ابن جني: وهذا على إبدال الهمزة ياء على أنه تقول: أنبيت، كأعطيت، قال: وهذا ضعيف في اللغة؛ لأنه بدل لا تخفيف، والبدل عندنا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر. انتهى. كلام أبي الفتح. ذكره أبو حيان في «البحر المحيط».

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ أي أنبأ آدم الملائكة ﴿بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾؛ أي: بأسماء تلك المسميات مفصلةً، وبين لهم أحوال كل منها، وخواصَّه، وأحكامه. رُوي[2] أنه رُفِع على منبر، وأمر أن ينبيء الملائكة بالأسماء، فلما أنبائهم بها وهم جلوس بين يديه، وذكر منفعة كل شيء ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى، للملائكة توبيخاً لهم وتقريراً منهم ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ يا ملائكتي، والاستفهام للتقرير مع التوبيخ؛ أي: قد قلت لكم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: أعلم ما غاب فيهما عنكم مِمَّا كان ومما يكون، مما لا دليل عليه، ولا طريق إليه، وقيل: غيب السموات أكلُ آدم وحواء من الشجرة؛ لأنها أوَّل معصية وقعت في السماء، وغيب الأرض قتلُ قابيل هابيل؛ لأنها أوَّل معصية كانت في الأرض، وقيل غير ذلك. وذلك أنه سبحانه وتعالى، علم أحوال آدم قبل أن يخلقه، فلهذا قال لهم أعلم ما لا تعلمون ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾؛ أي: ما تظهرون من قولكم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ الآية.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ أي: تسرون من قولكم، لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم منا، وهو استحضار لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وروى الشعبي، عن ابن عباس، وابن مسعود: أن المراد بقوله تعالى: ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وبقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ما أسر إبليس في نفسه من الكبر، ومن أن لا يسجد، وفيه تعريض[1] بمعاتبتهم على ترك الأولى من السؤال، وهو أن يتوقفوا مترصدين لأن يُبيِّن لهم، وفي هذه الآيات دلالةٌ على شرف الإنسان على غيره من المخلوقات، وعلى فضل العلم على العبادة، فإن الملائكة أكثر عبادة من آدم، ومع ذلك لم يكونوا أهلاً لاستحقاق الخلافة، وعلى أن شرط الخلافة العلم، بل هو العمدة فيها، وعلى أنَّ آدم أفضل من هؤلاء الملائكة، لأنه أعلم منهم، والأعلم هو الأفضل من غيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فالعلم أشرف جوهراً، ولكن لا بُدّ للعبادة مع العلم، فإن العلم بمنزلة الشجرة، والعبادة بمنزلة الثمرة، فالشرف للشجرة وهو الأصل، لكن الانتفاع بثمرتها.

وفي استخلاف[2] آدم في الأرض، معنًى سام من الحكمة الإلٰهية، خفي على الملائكة، فإنه لو استخلفهم فيها لما عرفوا أسرار هذا الكون، وما أودع فيه من الخواص، فإنهم ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض، إذ هم على حال يخالف حال الإنسان، فما كانت الأرض لتزرع بمختلف الزروع، ولا تستخرج المعادن من باطنها، ولا تعرف خواصَّها الكيمائية والطبيعية، ولا تعرف الأجرام الفلكية، ولا المستحدثات الطبية، ولا شيءٌ من العلوم التي تفنَىٰ السنون، ولا يدرك الإنسان لها غايةً.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ﴾[3] ياء المتكلم المتحرك ما قبلها، إذا لقيت همزة القطع المفتوحة جاز فيها وجهان: التحريك والإسكان، وقرىء بالوجهين في السبعة

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

على اختلاف بينهم في بعض ذلك، وتفصيل ذلك مذكور في كتب القراءات.

﴿و﴾ اذكر يا محمد لأمتك قصة ﴿إذ قلنا﴾؛ أي: قصة وقت قولنا: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين أنزلهم الله سبحانه إلى الأرض؛ لطرد الجن، أو لجميع الملائكة، وهو الظاهر من قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وقرأ الجمهور[1] ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بجر التاء، وقرأ أبو جعفر، يزيد بن القعقاع، وسليمان بن مهران، بضم التاء إتباعاً لحركة الجيم، ونقل أنها لغة أزد شنوءة، وقال الزجاج: هذا غلط من أبي جعفر، وقال الفارسي: هذا خطأ، ولكن لا ينبغي أن يغلَّط؛ لأنَّ القارىء بها أبو جعفر، أحد القراء المشاهير الذين أخذوا القرآن عرضاً، عن عبد الله بن عباس، وغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وهو شيخ نافع بن أبي نعيم، أحد القراء السبعة، وقد علَّل ضمَّ التاء؛ لشبهها بألف الوصل، ووجه الشبه: أنَّ الهمزة تسقط في الدرج؛ لكونها ليست بأصل، والتاء في الملائكة تسقط أيضاً؛ لأنها ليست بأصل، ألا تراهم قالوا الملائك، وقيل: ضمت؛ لأنَّ العرب تكره الضمة بعد الكسرة لثقلها.

﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ لله سبحانه وخروا له سجوداً شرعياً بوضع الجبهة مستقبلين إلى ﴿آدم﴾ عليه السلام قبلةً لسجودهم؛ تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله، فجعل آدم قبلةً لسجودهم، والسجود لله، كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة، والصلاة لله، أو اسجدوا لآدم سجود تحية بالانحناء من غير وضع الجبهة على الأرض.

والسجود لغةً[2]: الخضوع والانقياد. وشرعاً: وضع الجبهة على الأرض مع أعضائه بقصد العبادة. والمأمور به؛ إما المعنى الشرعي، كما ذكرناه أولاً، فالمسجود له في الحقيقة هو الله تعالى، وجعل آدم قبلة سجودهم، تفخيماً لشأنه؛ وإما المعنى اللغوي، كما ذكرناه آنفاً، وهو التواضع لآدم تحيةً وتعظيماً له، كسجود إخوة يوسف له، وكان سجود التحية جائزاً فيما مضى من الأمم، ثم نسخ

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

بقوله ﷺ لسلمان الفارسي، حين أراد أن يسجد له ﷺ أوَّلَ ما قَدِم على عادة ملوكهم: «لا ينبغي لمخلوق أن يسجد لأحد إلا الله تعالى، ولو أمرت أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» فتحية هذه الأمة هي السلام، لكن يكره الإنحناء؛ لأنه يشبه فعل اليهود، كما في «الدرر».

وكان هذا القول الكريم بعد إنبائهم بالأسماء[١]. قيل: لما خلق آدم، أشكل عليهم أن آدم أعلم أم هم، فلما سألهم عن الأسماء فلم يعرفوا، وسأل آدم فأخبر بها، ظهر لهم أن آدم أعلم منهم، ثم أشكل عليهم أنه أفضل أم هم، فلما أمرهم بالسجود له، ظهر لهم فضله، ومن لطف الله تعالى بنا، أنْ أمَر الملائكة بالسجود لأبينا، ونهانا عن السجود لغيره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ نقلَ الملائكة المقربين إلى آدم وسجدَتِه، ونَقَلنا إلى سجدته وخدمته.

وفائدة هذه السجدة راجعة إلى الإنسان لمعنيين:

أحدهما: أنَّ الإنسان يقتدي بهم في الطاعة، ويتأدَّب بآدابهم في امتثال الأوامر، وينزجر عن الإباء والاستكبار، كيلا يلحق به الطرد واللعن، كما لحق بإبليس، ويكون مقبولاً ممدوحاً مكرماً، كما كان الملائكة في امتثال الأمر، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

وثانيهما: أن الله تعالى من كمال فضله ورحمته مع الإنسان، جعل همة الملائكة في الطاعة، والتسبيح، والتحميد مقصورةً على استعداد المغفرة للإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلذلك أمرهم بالسجود لأجلهم، وليستغفروا لهم.

واعلم: أن[٢] الملائكة من عالم الغيب لا نعرف حقيقتهم، والكتاب الكريم يرشد إلى أنهم أصناف لكل صنف عمل، وقد جاء في لسان الشرع إسناد إلهام

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الحق والخير إلى الملائكة، كما يستفاد من خطابهم لمريم عليها السلام، وإسناد الوسوسة إلى الشياطين، وهو مشهور في الكتاب والسنة. فقد روى الترمذي: إن للشيطان لُمّة بابن آدم، وللمَلَك لُمّة؛ فأما لُمّة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق؛ وأما لُمّة المَلَك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله على ذلك، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ واللُّمّة الإلمام والإصابة، فالملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس لا نعرف حقيقته، بل نؤمن بما ورد فيه ولا نزيد عليه شيئاً آخر.

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾؛ أي: سجدت الملائكة كلهم أجمعون؛ أي: لآدم، دل عليه قوله: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾؛ لأنهم خلقوا من نور، كما قال ﷺ: «خلقت الملائكة من نور» والنور من شأنه الانقياد والطاعة، وكان هذا السجود قبل دخول آدم الجنة؛ لأن الظاهر من السياق وقوع التعليم لآدم، فإنباؤه للملائكة، فأمر الملائكة بالسجود له، فإسكانه الجنة، ثم إخراجه منها وإسكانه الأرض.

وأول من سجد منهم[1]: جبريل، فأكرم بإنزال الوحي على النبيين، وخصوصاً على سيد المرسلين، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم عزرائيل، ثم سائر الملائكة، وقيل: أول من سجد: إسرافيل، فرفع رأسه، وقد ظهر كل القرآن مكتوباً على جبهته كرامة له على سبقه إلى الائتمار.

والفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ للتعقيب؛ لإفادة مسارعتهم إلى الامتثال، وعدم تلَعْثُمِهِم في ذلك، وهذه القصة ذكرت في القرآن في سبع سورٍ، في هذه السورة، والأعراف والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص. والحكمةُ[2] في تكريرها؛ تسليةُ النبي ﷺ، فإنه كان في محنة عظيمة في قومه وأهل زمانه، فكأنه تعالى يقول لنبيه: ألا ترى أن أول الأنبياء وهو آدم عليه السلام، كان في محنة عظيمة في مبدإ خلقه، فاصبر كما صبر.

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾؛ أي: ما سجد؛ لأنه خلق من النار، والنار من شأنها الاستكبار، وطلب العلو طبعاً، وسمي إبليس؛ لأنه أَبْلَسَ من رحمة الله؛ أي: أَيِسَ.

وللعلماء في هذا الاستثناء قولان:

القول الأول: أنه استثناء متصل؛ لأن إبليس كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة، مغموراً بهم، متصفاً بصفاتهم، فغلبوا عليه في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ ثم استثني منهم استثناء واحد منهم، وأكثر المفسرين: أن إبليس من الملائكة؛ لأن خطاب السجود كان مع الملائكة، فعلى هذا كان منهم ثم أَبلَسَ وغُضب عليه، ولُعن، فصار شيطاناً. قال البغوي: وهو الأصح وعليه الجمهور، وابن عباس، وابن مسعود، وابن المسيب، وغيرهم. قال في «التيسير»: أما وصف الملائكة بأنهم لا يعصون ولا يستكبرون، فذلك دليل تصوّر العصيان منهم، ولولا التصوُّر لما مدحوا به، لكن طاعتهم طبعٌ، وعصيانهم تكلُّف، وطاعة البشر تكلُّف، ومتابعة الهوى منهم طَبْعٌ، ولا يستنكر من الملائكة تصوُّر العصيان، فقد ذكر من هاروت وماروت ما ذكر.

والقول الثاني: أنه منقطع؛ لأنه لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن بالنص، قال تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ وروى ابن مسعود، وشهر بن حوشب. أنه من الجن الذين كانوا في الأرض، وقاتلتهم الملائكة فسبوه صغيراً، وتعبَّد مع الملائكة، وخوطب معهم. وعن الحافظ: أن الجن والملائكة جنس واحد، فمن طهر منهم فهو مَلَك، ومن خبث فهو شيطان، ومن كان بين بين فهو جن ﴿أَبَىٰ﴾؛ أي: امتنع عما أمر به من السجود والإباء إمتناع باختيار ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾؛ أي: تعظم وأظهر كبره، ولم يتخذه وصلة في عبادة ربه، أو تعظيمه، وتلقيه بالتحية والتكبر، أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلب ذلك بالتشبُّع؛ أي: بالتزين بالباطل وبما ليس له، ولكن السين هنا للمبالغة لا للطب، وتقديم الإباء على الاستكبار مع كونه مسبَّباً عنه؛ لظهوره ووضوح أثره، فعطفه عليه من عطف العلة على المعلول؛ أي: أبى وامتنع لكبره، كما في «الصاوي».

قالوا[1]: لما سجد الملائكة، امتنع إبليس ولم يتوجه إلى آدم، بل ولّاه ظهره وانتصب هكذا، إلى أن سجدوا وبقوا في السجود مائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة ورفعوا رؤوسهم، وهو قائم معرض لم يندم من الامتناع، ولم يعزم على الاتباع، فلمَّا رأوه عدل ولم يسجد، وهم وفِّقوا للسجود، سجدوا لله تعالى ثانياً، فصار لهم سجدتان، سجدةٌ لآدم، وسجدة لله تعالى، وإبليس يرى ما فعلوُهُ وهذا إباؤُه، فغيَّر الله تعالى صفته، وحالته، وصورته، وهيئته، ونعمته، فصار أقبح من كل قبيح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ قال بعضهم: جعل ممسوخاً على مثال جسد الخنازير، ووجهه كالقردة، وللشيطان نسل وذرية، والممسوخ وإن كان لا يكون له نسل، لكن لما سأل النظرة وأُنظِر، صار له نسل. وفي الخبر: قيل له من قبل الحق: اسجد لقبر آدم أقبل توبتك، وأغفر معصيتك، فقال: ما سجدت لقالبه وجثته، فكيف أسجد لقبره وميتته. وفي الخبر أيضاً: إن الله تعالى يخرجه على رأس مائة ألف سنة من النار، ويخرج آدم من الجنة، ويأمره بالسجود لآدم فيأبى، ثم يرد إلى النار.

﴿وَكَانَ﴾ إبليس اللعين ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: في علم الله تعالى، أو صار منهم باستقباحه أمرَ الله إياه بالسجود لآدم، اعتقاداً بأنه أفضل منه، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالتخضع للمفضول والتوصل به، كما أشعر به قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جواباً لقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ لا بترك الواجب وحده، وإنما قال: ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يكن حينئذٍ كافر غيره؛ لأنه كان في علم الله أن يكون بعده كفار، فذكر أنه كان من الكافرين؛ أي: من الذين يكفرون بعده، وهذا كما في قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقال[2] أبو العالية: ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: من العاصين، وصلة (أل) هنا ظاهرها الماضي؛ أي: من الذين كفروا، فيكون قد سبق إبليس كفار، وهم الجن الذين كانوا في الأرض، أو يكون إبليس أول من كفر مطلقاً، إذ لم يصح أنه كان كفار

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

قبله، وإن صح فيفيد أول من كفر بعد إيمانه، أو يراد الكفر الذي هو التغطية للحق، وكفرُ إبليس قيل: جَهِلَ سلْب الله ما كان وهبه من العلم فخالف الأمر، ونزع يده من الطاعة، وقيل: كفر عناد ولم يسلب العلم، بل كان الكبر مانعه من السجود.

ومن فوائد هذه الآية[1]: استقباح الاستكبار، وأنه قد يُفْضي بصاحبه إلى الكفر، والحثُّ على الائتمار لأمره، وتَرْكُ الخوض في سره، وأنَّ الأمر للوجوب، وأنَّ الذي علم الله مِنْ حاله أنه يتوفى على الكفر هو الكافر حقيقة، إذ العبرة بالخواتم، وإن كان بحكمِ الحالِ مؤمناً وهي مسألة المُوافاة؛ أيْ: اعتبار تمام العمر الذي هو وقت الوفاة، فإذا كان العبرة بالخاتمة، فليسارع العبد إلى الطاعات، فكل ميسر لما خلق له، كما ورد في الخبر الصحيح، خصوصاً في آخر السنة، وخاتمتها، كي يختم له الدفتر بالعمل الصالح. وفي الخبر: قيل يا رسول الله: مَنْ خير الناس؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله» قيل: فأي الناس شر؟ قال: «من طال عمره، وساء عمله، وخيف شره، ولم يرج خيره». وقال الحسن البصري لجلسائه: يا معشر الشيوخ، ما ينتظر بالزرع إذا بلغ؟ قالوا: الحصاد، قال: يا معشر الشباب، فإن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يبلغ، وأنشد بعضهم:

ألاَ مَهِّدْ لنفسك قبل موت ... فإنَّ الشَّيْبَ تَمْهِيدُ الحِمَامِ
وَقَدْ جَدَّ الرَّحِيلُ فَكُنْ مُجِدًّا ... لِحَطِّ الرَّحْلِ في دارِ المُقَامِ

وعن الحسن أيضاً: قال يا ابن آدم: لا تحمّل هَمَّ سنة على يوم، كفى يومك بما فيه، فإن تكن السنةُ من عمرك، يأتك الله فيها برزقك، وإلاّ تكن من عمرك، فأراك تطلب ما ليس لك.

وقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[2] معطوف على الجملة السابقة التي هي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لا على ﴿قُلْنَا﴾ وحده لاختلاف زمانيهما ومعمول القول المنادَىٰ وما بعده، وفائدة النداء؛ تنبيه المأمور لما يلقى إليه من الأمر،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وتحريكه لما يخاطب به، إذ هو من الأمور التي ينبغي أن يجعل لها البال، وهو الأمر بسكنى الجنة. قالوا: ومعنى الأمر هنا: إباحة السكنى والإذن فيها مثلُ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأن الاستقرار في المواضع الطيبة لا يدخل تحت التَّعبُّد.

قال القرطبي في «تفسيره»: لا خلاف أنَّ الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾؛ أي: أقم وامكث، ولازم الجنة، واتخذها مسكناً لك، وهو محل السكون، وليس المراد به ضِدُّ الحركة، بل اللُّبْثُ والاستقرار و﴿أَنتَ﴾ تأكيد للضمير المستكن في ﴿اسْكُنْ﴾ وهذا أحد المواضع التي يستكن فيها الضمير وجوباً ﴿وَزَوْجُكَ﴾ معطوفٌ على ذلك الضمير المُسْتكن، وحسن العطف عليه تأكيده بأنت، كما هو مذكور في محله؛ أي: اسكن أنت وزوجك حواء ﴿الْجَنَّةَ﴾ يقال للمرأة الزوج والزوجة، والزوج أفصح، كما في «تفسير أبي الليث» وإنما لم يخاطبهما أوّلاً؛ تنبيهاً على أنه المقصود بالحكم، والمعطوف عليه تَبَعٌ له، والجنة هي دار الثواب بإجماع المفسرين، خلافاً لبعض المعتزلة، والقدرية، حيث قالوا: المراد بالجنة بستان كان في أرض فلسطين، أو بين فارس وكرمان، خلقه الله تعالى امتحاناً لآدم، وأوّلُوا الهبوط بالانتقال منه إلى أرض الهند، كما في قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، وفيه نظرٌ؛ لأن الهبوط قد يستعار للانتقال إذا ظهر امتناع حقيقته وابتعادها، وهناك ليس كذلك، وقوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾ هو من خطاب الأكابر والعظماء، فأخبر الله تعالى عن نفسه بصيغة الجمع؛ لأنه مَلِك الملوك؛ أي: اتّخذا جنة الخلد مأوى ومنزلاً كُلَّها، وسُمي آدم؛ لأنه خُلق من أديم الأرض؛ أي: ترابها، كما مر. وسميت زوجه حوَّاء؛ لأنها خلقت من حي؛ لأنها خُلقت من ضلع آدم الأيسر، فلذا كان كل إنسان ناقصاً ضلعاً من الجانب الأيسر، فجهة اليمين أضلاعها ثمانية عشر، وجهة اليسار أضلاعها سبعة عشر.

واختلفوا[1] في خلق حواء: هل كان قبل دخول الجنة أو بعده؟ ويدل على

---

(١) روح البيان.

الأول: ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه بعث الله جنداً من الملائكة، فحملوا آدم وحواء على سرير من الذهب مكلل بالياقوت، واللؤلؤ، والزمرد، وعلى آدم منطقة مكللة بالدر والياقوت. حتى أدخلوهما الجنة، ويدل على الثاني: ما روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه لما خلق الله الجنة، وأسكن فيها آدم، بقي فيها وحده، فألقى الله عليه النوم، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من الجانب الأيسر، ووضع مكانه لحماً، فخلق منه حواء. ومن الناس من قال: لا يجوز أن يقال خلقت حواء من ضلع آدم؛ لأنه يكون نقصاناً منه، ولا يجوز القول بنقص الأنبياء. قلنا: هذا نقصٌ منه صورةً، تكميلٌ له معنى؛ لأنه جعلها سكنه وأزال بها وحشته، وحزنه، فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدةً، فسألها من أنت؟ فقالت: إني امرأةٌ، فقال: ولِمَ خُلقت، قالت: لتسكن إليَّ، وأسْكُن إليك، فقالت الملائكة: يا آدم! ما اسمها؟ قال: حواء، قالوا: ولِمَ؟ قال: لأنها خلقت من حي، أو لأنها أصل كل حي، أو لأنها كانت في ذقنها حوَّةٌ؛ أي: حمرةٌ مائلة إلى السواد، وقيل: في شفتها، وسميت مرأةً؛ لأنها خلقت من المرء، كما أن آدم سمي بآدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض، وعاشت بعد آدم سبع سنين وسبعة أشهر، وعمرها تسعمائة وسبعٌ وتسعون سنة.

واعلم: أن الله تعالى، خلق واحداً من أب دون أم وهو حواء، وآخر من أم دون أب وهو عيسى، وآخر من أب وأم وهم أولاد آدم، وآخر من غير أب وأم وهو آدم عليه السلام، فسبحان من أظهر من عجائب صنعه ما يتحيَّر فيه العقول.

ثم اعلم[1]: أن الله تعالى، خلق حواء لأمر تقتضيه الحكمة؛ ليدفع آدم وحشته بها لكونها من جنسه؛ وليبقي الذرية على ممر الأزمان والأيام إلى ساعة القيام، فإن بقاءها سببٌ لبعثه الأنبياء، وتشريع الشرائع والأحكام، ونتيجةٌ لأمر معرفة الله تعالى، فإن الله تعالى خلق الخلق لأجلها.

وفي الزوجية منافع كثيرة دينية، ودنيوية، وأخروية، ولم يذكر الله تعالى في

---

(١) روح البيان.

كتابه من الأنبياء إلا المتزوجين، وقالوا إن يحيىٰ عليه السلام، قد تزوج لنيل الفضل وإقامة السنة، ولكن لم يجامع؛ لكون ذلك عزيمة في تلك الشريعة، ولذلك مدحه الله تعالى بكونه حصوراً. وفي «الأشباه» ليس لنا عبادة شرعت من عهد آدم إلى الآن، ثم تلك العبادة تستمر في الجنة إلا الإيمان والنكاح. قيل: فضل المتأهل على العزب، كفضل المجاهد على القاعد، وركعة من المتأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب، هذا كله لكون التزوج سبباً لبقاء النسل، وحفظاً من الزنا، والترغيب في النكاح يجري إلى ما يجاوز المائة الأولى من الألف الثاني، كما قال ﷺ: «إذا أتى على أمتي مائة وثمانون سنة بعد الألف، فقد حلَّت العزوبة، والعزلة، والترهب على رؤوس الجبال»، وذلك لأن الخلق في المائتين أهل الحرب والقتل، فتربية جروٍ حينئذٍ خير من تربية ولد، وأن تلد المرأة حيَّةً خير من أن تلد الولد.

﴿وَكُلَا﴾ أنتما ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من ثمار الجنة. وجَّه الخطاب[1] إليهما؛ إيذاناً بتساويهما في مباشرة المأمور به، فإن حواء أُسوةٌ له في الأكل بخلاف السكن فإنها تابعة له فيها، ثُمَّ معنى الأمر بهذا والشغل به مع أنه اختصَّه واصطفاه، وللخلافة أبداه أنه مخلوقٌ، والذي يليق بالخلق هو السكون بالخلق، والقيام باستجلاب الحظ؛ أي: وَكُلَا أنتما من ثمار الجنة أكلاً ﴿رَغَدًا﴾؛ أي: أكلاً واسعاً رافهاً بلا تقدير، ولا تقتير ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ أي: من أيِّ مكان من الجنة شِئتما وأردتما الأكل منه، وسَّع عليهما؛ إزاحةً للعلَّة والعذر، في التناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها الفائتة للحصر.

فإن قُلْتَ: لِمَ قال هنا ﴿وَكُلَا﴾ بالواو وفي الأعراف ﴿فكلا﴾ بالفاء؟

قلت: لأن اسكن معناه هنا استقر، لكَوْنِ آدم وحواء كانا في الجنة، والأكل يجامع الاستقرار غالباً، فلهذا عطف بالواو الدالَّة على الجمع والمعنى، اجمعا بين الأكل وبين الاستقرار، وفي الأعراف معناه ادخل، لكونهما، كانا

---

(١) روح البيان.

خارجين عنها، والأكل لا يكون مع الدخول عادةً، بل عَقِبه، فلهذا عطف بالفاء الدالة على التعقيب وقد بسطت الكلام على ذلك في «الفتاوي». اهـ. شيخ الإسلام.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿رَغَدًا﴾ بفتح الغين، وقرأ إبراهيم النخعي، ويحيىٰ بن وثاب بسكونها ﴿رَغْداً﴾، والتسكين لغة تميم؛ أي: أكلاً واسعاً كثيراً لا عناء فيه ولا حَجْرَ. قال امرؤ القيس:

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا يَأْمَنُ الأَحْدَاثَ فِي عَيْشٍ رَغَدِ

وبقوله سبحانه: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أباح لهما الأكل حيث شَاءَا، فلم يحظر عليهما مكاناً من أماكن الجنة، كما لم يحظر عليهما مأكولاً إلا ما وقع النهي عنه. و(شاء) في وزنه خلاف: فنقل عن سيبويه: أنَّ وزنه فعل بكسر العين، فنقلت حركتها إلى الشين فسكنت واللام ساكنة للضمير، فالتقى ساكنان فحذفت لالتقاء الساكنين، وكسرت الشين؛ لتدل على أن المحذوف ياء، كما صنعْتَ؟ في بعتُ، كما سيأتي في مبحث التصريف.

﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ بالأكل ولو كان[2] النهي عن الدنو لضمت الراء ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الشجرة منصوب على أنه بدل من اسم الإشارة، أو نعت له بتأويلها بمشتق؛ أي: هذه الحاضرة من الشجر؛ أي: لا تأكلا منها، وإنما علق النهي بالقربان منها؛ مبالغة في تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه، والشجرة: هي البر والسنبلة. قاله ابن عباس، وأبو مالك، وقتادة، وهو الأشهر، والأجمع، والأنسب؛ لأنَّ النوع الإنساني ظهر في دور السنبلة، وعليها من كل لون، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزُبد، وأشد بياضاً من الثلج، كل حبةٍ من حنطتها، مثل كُلْية البقرة، وقد جعلها الله سبحانه رزق أولاده في الدنيا، ولذلك قيل: تناول سنبلةً فابتلي بحرث السنبلة، وقيل: الكرمة، ولذلك حُرِّمت علينا الخمر. قاله ابن

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

مسعود، وابن عباس أيضاً، وابن جبير. أو التين: قاله بعض الصحابة، وقتادة، ولهذا ابتلاه الحق بلباس ورقها، كما ابتلاه بثمرها، وهو البلاء الحسن، وقيل: شجرة من أكل منها أحدث. قاله أبو العالية، وقالَ عَلِي: شجرةُ الكافور، وقال بعض أهل الكتاب: شجرة الحنظل، وقال أبو مالك: النخلة، والأولى عدم تعينها؛ لعدم ورود النص القاطع فيها.

وقرىء[1]: ﴿وَلَا تِقْرَبَا﴾ بكسر التاء، وهي لغة عن الحجازيين في فعل يفعل، يكسرون حرف المضارعة التاء والهمزة والنون، وأكثرهم لا يكسر الياء، ومنهم من يكسرها، وقرأ ابن محيصن ﴿هذي﴾ بالياء، وقرأ الجمهور بالهاء وقرىء ﴿ٱلشِّجَرَةَ﴾ بكسر الشين، حكاها هارون الأعور، عن بعض القراء، وقرأ أيضاً ﴿الشيرة﴾ بكسر الشين والياء المفتوحة بعدها، وكره أبو عمرو هذه القراءة وقال: يقرأ بها برابر مكة وسوادنها، وينبغي أن لا يكرهها؛ لأنها لغة منقولة فيها، وقال الأصمعي: نحسبه بين الأنام شيره.

وفي نهي[2] الله سبحانه آدم وزوجه عن قربان الشجرة دليل: على أن سكناهما في الجنة لا تدوم لأن المخلد لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يمنع من شيء.

وقوله: ﴿فَتَكُونَا﴾ إما معطوف على تقربا، أو منصوب بأن مضمرة بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، وهذا هو الأظهر، والتقدير عليه: لا يكن منكما قربان الشجرة فكونكما ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: من الذين ظلموا أنفسهم وأضروها بمعصية الله تعالى، أو بإخراجكما من دار النعيم إلى دار الشقاء، أو بالأكل من الشجرة التي نُهِيتُما عنها، أو بالفضيحة في الملأ الأعلى، أو بمتابعة إبليس، أو بترك الأولى. وقال قوم: هما أول من ظلم نفسه من الآدميين. وقال قوم: كان قبلهم ظالمون شبهوا بهم، ونسبوا إليهم، وفي قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

على أن النهي كان على جهة الوجوب لا على جهة الندب؛ لأن تاركه لا يسمى ظالماً.

وقال بعض أهل الإشارات[1]: الذي يليق بالخلق عدم السكون إلى الخلق، وما زال آدم وحده بكل خير وبكل عافية، فلما جاءه الشَّكل والزوج، ظهر إتيان الفتنة وافتتاح باب المحنة، وحين ساكن حواء، أطاعها فيما أشارت عليه من الأكل، فوقع فيما وقع ولقد قيل:

داءٌ قديمٌ في بني آدم   صبوة إنسان بإنسان

قال القشيري: نبه سبحانه، على أن عاقبة دخول آدم الجنة خروجه منها بارتكاب الخطيئة بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فإذا أخبر سبحانه بجعله خليفة في الأرض، فكيف يمكن بقاؤه في الجنة. كان آدم لا يساويه أحد في الرتبة، يتوالى عليه النداء بيا آدم، ويا آدم، فأمسى وقد نزع عنه لباسه، وسلب استئناسه، والقدرة لا تكابَر، وحكم الله لا يعارَض، وقال الشاعر:

لله درُّهم من فتية بكروا   مثل الملوك وراحوا كالمساكين

تتمة[2]: واختلفت آراء العلماء في الجنة المرادة هنا: فمن قائل: إنها دار الثواب التي أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة، لسبق ذكرها في هذه السورة، وفي ظواهر السنة ما يدل عليه، فهي إذاً في السماء حيث شاء الله منها. ومن قائل: إنها جنة أخرى، خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم عليه السلام، وكانت بستاناً في الأرض بين فارس وكرمان، وقيل: بفلسطين، وليست هي الجنة المعروفة، وعلى هذا جرى أبو حنيفة، وتبعه أبو منصور الماتريدي في تفسيره المسمى «بالتأويلات»، فقال: نحن نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين، أو غيضة من الغياض، كان آدم وزوجه منعمين فيها، وليس علينا تعيينها، ولا البحث عن مكانها، وهذا هو مذهب السلف، ولا دليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

السنة وغيرهم. اهـ.

قال الألوسي في تفسيره «روح المعاني»:[1] ومما يؤيد هذا الرأي:

١ ـ أن الله خلق آدم في الأرض؛ ليكون خليفة فيها هو وذريته، فالخلافة منهم مقصودة بالذات، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبة عارضة.

٢ ـ أنه تعالى لم يذكر أنه بعد خلق آدم في الأرض عرج به إلى السماء، ولو حصل لذكر؛ لأنه أمر عظيم.

٣ ـ أن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المؤمنون المتقون، فكيف دخلها الشيطان الكافر للوسوسة.

٤ ـ أنها دار للنعيم والراحة لا دار للتكليف، وقد كلف آدم وزوجه أن لا يأكلا من الشجرة.

٥ ـ أنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها.

٦ ـ أنه لا يقع فيها العصيان والمخالفة؛ لأنها دار طهر لا دار رجس، وعلى الجملة فالأوصاف التي وصفت بها الجنة الموعود بها، ومنها أن عطاءها غير مجذوذ ولا مقطوع، لا تنطبق على جنة آدم.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ أي: كلا منها أكلاً هنيئاً من أي مكانٍ شئتما، وأباح لهما الأكل كذلك، إزاحة للعذر في التناول من الشجرة المنهي عنها، من بين أشجارها التي لا حصر لها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الخ. لم يبين لنا ربنا هذه الشجرة، فلا نستطيع أن نعينها من تلقاء أنفسنا بلا دليل قاطع؛ ولأن المقصود يحصل بدون التعيين، ولكنا نقول إن النهي لحكمة، كأن يكون في أكلها ضرر، أو يكون ذلك ابتلاء من الله لآدم واختباراً له، ليظهر به ما في استعداد الإنسان من الميل إلى معرفة الأشياء واختبارها، ولو كان في ذلك معصية يترتب عليها ضرر.

---

(١) روح المعاني.

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾؛ أي: أزلق آدم وحواء، ونحاهما، وأبعدهما الشيطان؛ أي: إبليس بوسوسته ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن الجنة؛ أي: تسبب بوسوسته ودعائه إلى أكل الشجرة في إخراجهما عن الجنة. وقيل: الضمير في عنها عائد إلى الشجرة، وعن بمعنى الباء السببية؛ أي: أوقعهما الشيطان في الزلل، والهفوة، والخطيئة بسبب الشجرة: أي: بسبب حثه إياهما على أكل الشجرة. والإزلال: الإزلاق والزلة بالفتح، الخطأ، وهو الزوال عن الصواب من غير قصد.

فإن قلت[1]: إبليس كافر، والكافر لا يدخل الجنة، فكيف دخل هو؟

قلت: إنما منع من الدخول على وجه التكرمة، كما تدخلها الملائكة، ولم يمنع من الدخول للوسوسة؛ ابتلاءً لآدم وحواء. وقيل: إنه دخلها على صورة دابة من دواب الجنة. وقيل: وسوس إليهما وهو خارج عنها، وهما داخلها، لكن أتوا على بابها. وقيل: غير ذلك. وقرأ حمزة، والحسن، وأبو رجاء، فأزالهما، ومعنى: الإزالة التنحية. وروي عن حمزة، وأبي عبيدة إمالة فأزالهما ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾؛ أي: تسبب إبليس في إخراجهما ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من الكرامة والنعيم الواسع الذي كانا فيه في الجنة أولاً، بأن قال لهما هل أدلكما على شجرة الخلد، وقاسمهما بالله إني لكما لمن الناصحين، فأكلا منها، ولم يقصد إبليس إخراج آدم من الجنة؛ وإنما قصد إسقاطه من مرتبته، وإبعاده، كما أبعد، فلم يبلغ مقصده، فقال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

﴿وَقُلْنَا﴾ نحن لآدم، وحواء، وإبليس ﴿اهْبِطُوا﴾؛ أي: انزلوا إلى الأرض، فالمأمور بالهبوط آدم، وزوجه، وإبليس، وهو المأثور عن ابن عباس، ومجاهد، وكثير من السلف، ويشهد له قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إذ العداوة بين الشيطان والإنسان.

وقيل: الخطاب لآدم وحواء، ورجحه الزمخشري وجمع الضمير؛ لأنهما أصلا الجنس، فكأنهما الجنس كله، ويدل له قوله تعالى في سورة طه: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾. وقيل: الخطاب لأربعة،

---

(١) روح البيان.

والرابع الحية. قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال كعب، ووهب: اهبطوا جملة، ونزلوا في بلاد متفرقة. وقال مقاتل: اهبطوا متفرقين، فهبط إبليس. قيل بالأُبُلَّة، وحواء بجدة، وآدم بالهند. وقيل: بسرنديب بجبل يقال له وَاسِمٌ. وقيل: كان غذاؤه جوز الهند، وكان السحاب يمسح رأسه فأورث ولده الصلع، وهذا لا يصح، إذ لو كان كذلك لكان أولاده كلهم صلعاً. ورُوي عن ابن عباس: أن الحية اهبطت بنصيبين. وروى الثعلبي: بأصبهان، والمسعودي: بسجستان، وهي أكثر بلاد الله حيات. وقيل: ببيسان. وقيل: لما نزل آدم بسرنديب من الهند، ومعه ريح الجنة، علق بشجرها وأوديتها، فامتلأ ما هناك طيباً، فمن ثم يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام. وذكر ابن الجوزي كيفية في إخراجه، قال: وأدخل آدم في الجنة ضحوة، وأخرج منها بين الصلاتين، فمكث فيها نصف يوم، والنصف خمس مئة عام مما يعد أهل الدنيا، ولكن لا أصل له.

والأشبه أن قوله[1]: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ أمر تكليف؛ لأن فيه مشقة شديدة بسبب ما كانا فيه من الجنة، إلى مكان لا تحصل فيه المعيشة إلا بالمشقة. وقرأ الجمهور ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ بكسر الباء، وقرأ أبو حيوة ﴿اهبُطوا﴾ بضم الباء، وهما لغتان. قال القرطبي[2] في تفسيره: إن الصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض، ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك، وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي، إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف، فكانت تلك الأكلة سبب إهباطهما من الجنة فأخرجهما؛ لأنهما خلقا منها؛ وليكون آدم خليفة الله في الأرض، ولله أن يفعل ما يشاء، وقد قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وهذه منقبة عظيمة، وفضيلة كريمة شريفة. انتهى كلام القرطبي. فهبوطه من الجنة هبوط التشريف، والامتحان، والتمييز بين قبضتي السعادة والشقاوة؛ لأن ذلك من مقتضيات الخلافة الإلهية، وأكثر المفسرين على أن المعنى: انزلوا استخفافاً بكم، لكن القول ما قالت حذام. وجملة قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) القرطبي.

اهبطوا حالة كونكم متعادين، يبغي بعضكم على بعض بتضليله، حال من[1] فاعل اهبطوا، استغنى فيها عن الواو بالضمير، والعدو يصلح للواحد والجمع، ولهذا لم يقل أعداء، فإبليس عدو لهما، وهما عدو لإبليس، والحية عدو لبني آدم، وهم عدوها، هي تلسعهم وهم يدمغونها، وإبليس يفتنهم وهم يلعنونه، وكذا العداوة بين ذرية آدم وحواء، بالتحاسد في الدنيا والاختلاف في الدين، والعداوة مع إبليس دينية، فلا ترتفع ما بقي الدين، والعداوة مع الحية طبيعية، فلا ترتفع ما بقى الطبع، ثم هذه عداوة تأكدت بيننا وبينهم، لكنَّ حزباً يكون الله معهم كان الظفر لهم، ثم قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إخبار عن كونه؛ أي: التعادي لا أمر بتحصيله، ولما قال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال آدم: الحمد لله، حيث لم يقل سبحانه: أنا لكم عدو. والعدو: هو المجاوز حده في مكروه صاحبه.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: موضع استقرار على وجهها بالإقامة فيها، أو في القبور. والمستقر ثلاثة:

الأول: رحم الأم. قال تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أودع في صلب الأب، واستقر في رحم الأم.

والثاني: الدنيا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾.

والثالث: العقبى، إما في الجنة. قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ وإما في النار. قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾ ﴿وَمَتَاعٌ﴾؛ أي: تمتع بنعيمها، وانتفاع به ﴿إِلَى حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت انقضاء آجالكم؛ يعني: إلى الموت.

والمعنى[2]: أي إن استقراركم في الأرض وتمتعكم فيها، ينتهيان إلى وقت محدد، وليسا بدائمين، كما زعم إبليس حين وسوس لآدم، وسمى الشجرة المنهي عنها شجرة الخلد، وفي هذا إشارة إلى أن الإخراج من جنة الراحة إلى الأرض؛ للعمل فيها، لا للفناء، ولا للمعاقبة بالحرمان من التمتع بخيراتها، ولا للخلود فيها.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ فائدة لآدم عليه السلام، ليعلم أنه غير باق فيها، ومنتقل إلى الجنة التي وعد الرجوع إليها، وهي لغير آدم دالة على المعاد فحسب، ولما هبطوا وقع آدم بأرض الهند، ووقعت حواء بجدة، وبينهما سبعمائة فرسخ، فجاء آدم في طلبها حتى أتى جَمْعَاً، فازدلفت إليه حواء، فلذلك سميت المزدلفة، واجتمعا بجمع، والحية بسجستان، وكانت أكثر بلاد الله حيات، ولولا العَربد تأكلها، وتُفْني كثيراً منها، لأُخِلْيَتْ سجستانُ من أجل الحيات، وإبليس بسدِّ يأجوج ومأجوج، فابتلي آدم بالحرث، والكسب، وحواء بالحيض، والحبل، والطلق، ونقصان العقل، وجعل الله قوائم الحية في جوفها، وجعل قُوْتَها التراب، وجعل إبليس بأقبح صورة وأفضح حالة.

يُذْكَر أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام في الجنة، فخانته بأن مكنت عدوه من نفسها، وأظهرت العداوة له هناك، فلما أهبطوا تأكدت العداوة، فقيل لها: أنت عدو بني آدم، وهم أعداؤك، وحيث لقيك منهم أحد شدخ رأسك. قيل: إنها أدخلت إبليس الجنة بين فكيها، ولو كانت تنذره ما تركها تدخل به، وقال إبليس: أنتِ في ذمتي، فأمر رسول الله ﷺ بقتلها ولو في الصلاة، والفاء في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ للدلالة على أن التوبة، حصلت عقب الأمر بالهبوط قبل تحقق المأمور به، ومن ثمة قال القرطبي: إن آدم تاب، ثم هبط، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ ثانياً؛ ومنه يعرف أن الأمر بالهبوط ليس للاستخفاف، ومشوباً بنوع سخط، إذ لا سخط بعد التوبة، فآدم أهبط بعد أن تاب الله عليه، ومعنى تلقِّي الكلمات: استقبالها بالأخذ، والقبول، والعمل بها حين علمها، فإن قلت: ما هن؟

قلتُ: هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إن أحب الكلام إلى الله تعالى، ما قال أبونا آدم حين اقترف الخطيئة، وهي: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، لا إلٰه إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وتلقى من باب تفعَّل الخماسي، وهو هنا بمعنى المجرد؛ أي: بمعنى: لقي آدم من ربه كلمات وأخذها. وقرأ الجمهور برفع آدم ونصب كلمات، والمعنى عليه: حفظ آدم، وألهم من ربه

كلمات، يدعو بها لتكون سبباً ووسيلة له، ولأولاده إلى التوبة، وتلك الكلمات مبَيَّنة في (سورة الأعراف) بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية. وقرأ ابن كثير بنصب آدم، ورفع كلمات، والمعنى: استقبلت آدمَ، وجاءته من ربه كلمات كانت سبباً لتوبته ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: فقبل منه ربه التوبة، وتفضل عليه بالرحمة، ورجع عليه بالقبول، وأصل التوب الرجوع، فإذا وصف به العبد، كان رجوعاً عن المعصية إلى الطاعة، وإذا وصف به البارِىء، أريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة، والفاء للدلالة على ترتبه، على تلقي الكلمات المتضمن لمعنى التوبة، وتمام التوبة من العبد بالندم على ما كان، وبترك الذنب الآن، وبالعزم على أن لا يعود إليه في مستأنف الزمان، وبردِّ مظالم العباد، وبإرضاء الخصم بإيصال حقه إليه باليد، والاعتذار عنه باللسان واكتفى بذكر[1] آدم عليه السلام؛ لأن حواء كانت تابعة له في الحكم، ولذلك طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنن ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: الرجاع على عباده بالمغفرة، أو كثير القبول لتوبة عباده، أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير الرحمة لعباده، وفي الجمع بين الوصفين، وعد بليغ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران، والجملة تعليل؛ لقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿إِنَّهُۥ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ نوفل بن أبي عقرب ﴿أنه﴾ بفتح الهمزة، ووجهه: أنه فتح على التعليل، والتقدير: لأنه، فالمفتوحة مع ما بعدها فضله، إذ هي في تقدير مفرد ثابت واقع مفروغ من ثبوته، لا يمكن فيه نزاع منازع، وأما الكسر، فهي جملة ثابتة تامة، أخرجت مخرج الإخبار المتقبل الثابت.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما[3] ـ قال: بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة، ولم يأكلا، ولم يشربا أربعين يوماً، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة، وقال شهر بن حوشب: بلغني أن آدم لما هبط إلى الأرض،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه حياءً من الله. وروي أن الله تعالى: تاب على آدم في يوم عاشوراء.

قالوا: لو أن دموع أهل الأرض جمع، لكانت دموع داود أكثر حيث أصاب الخطيئة، ولو أن دموع داود، ودموع أهل الأرض جمع، لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من الجنة، فإذا كان حال من اقترف خطيئة دون صغيرة هذا، فكيف حال من انغمس في بحر العصيان، والتوبة بمنزلة الصابون، فكما أن الصابون يزيل الأوساخ الظاهرة، فكذا التوبة تزيل الأوساخ الباطنة، والعبد إذا رجع عن السيئة وأصلح عمله، أصلح الله شأنه وأعاد عليه نعمته الفائتة.

قلت: وما أوردوه في قصة هبوط آدم وحواء من الجنة، وما يتعلق به، قد نقلوا أكثره من الإسرائيليات التي لا يصح شيء منها عند النَّقَدة من أهل العلم، ورجال الدين.

فإن قلت: كيف يصح عصيان آدم ثم توبته، مع أن الأنبياء معصومون؟

قلت: أجيب عنه بثلاثة أجوبة:

١ ـ أن المخالفة التي صدرت منه كانت قبل النبوة، والعصمة إنما تكون عن مخالفة الأوامر بعدها.

٢ ـ أن الذي وقع منه كان نسياناً؛ فسمي عصياناً تعظيماً لأمره، والنسيان والسهو لا ينافيان العصمة.

٣ ـ أن ذلك من المتشابه، كسائر ما جاء في القصة مما لا يمكن حمله على ظاهره، ويجب تفويض أمره إلى الله تعالى، كما هو رأي سلف الأمة، أو هو من باب التمثيل، كما هو رأي الخلف.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾؛ أي: انزلوا ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الجنة إلى الأرض حالة كونكم ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال من ضمير الجمع؛ تأكيدٌ في المعنى للجماعة من آدم، وحواء، وإبليس، والحية، وكأنه قيل: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يستدعي اجتماعهم على الهبوط في زمان؛ أي: اهبطوا منها حال كونكم مجتمعين

في الهبوط في زمان واحد، أو في أزمنة متفرقة، وكرر[١] الأمر بالهبوط؛ للتأكيد، وإيذاناً بتحتم مقتضاه، وتحققه لا محالة، ودفعاً لما عسى يقع في أمنيته عليه السلام، من استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك؛ ولأن الأول: دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها، ولا يخلدون. والثاني: أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف فاختلف المقصود، وكان يصح لو قرن المعنيان بذكر الهبوط مرة، لكن اعترض بينهما كلام، وهو تلقّيهِ الكلمات، ونيله قبول التوبة، فأعاد الأول ليتصل المعنى الثاني به، وهو الابتلاء بالعبادة، والثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية. وقيل: الأول من الجنة إلى السماء الدنيا. والثاني: منها إلى الأرض. قال في «الإرشاد»[٢] والثاني مقرون بوعد إيتاء الهدى المؤدي إلى النجاة والنجاح، وما فيه من وعيد العقاب، فليس بمقصود من التكليف قصداً أولياً، بل إنما هو دائر على سوء اختيار المكلفين، ثم إن في الآية دليلاً على أن المعصية تزيل النعمة عن صاحبها؛ لأن آدم قد أخرج من الجنة بمعصية واحدة، وهذا كما قال القائل:

إذا تَـمَّ أمْـرٌ دَنَـا نَـقْـصُـهُ ... تَـوقَّـعْ زَوَالاً إذا قِـيْـلَ تَـمْ
إذا كُـنْـتَ فـي نِـعْـمَـةٍ فَـارْعـهـا ... فـإن الـمَـعـاصِـيْ تُـزيـلُ الـنِـعَـمْ

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى﴾، يا ذرية آدم؛ أي: إن يأتينكم مني، فما مزيدة، والفاء لترتيب ما بعدها على الهبوط المفهوم من الأمر به ﴿هُدًى﴾؛ أي: رشدٌ وبيان شريعة، برسول أبعثه إليكم، وكتاب أنزله عليكم، والخطاب في قوله: ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ لآدم، والمراد ذريته، وإبليس وذريته، لم يأتهم كتاب ولا رسول، ولا يكون منهم أتباع. وجواب الشرط الأول، هو الشرط الثاني مع جوابه، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾؛ أي: اقتدى برسولي، وتمسك بشريعتي. وكرَّر[٣] لفظ الهدى، ولم

---

(١) روح البيان.

(٢) أبو السعود.

(٣) روح البيان.

يُضمَر بأن. يقال فمن تبعه؛ لأنه أراد بالثاني ما هو أعمُّ من الأول، وهو ما أتى به الرسل من الاعتقاديات والعمليات، واقتضاه العقل؛ أي: فمن تبع ما أتاه من قبل الشرع، مراعياً فيه ما يشهد به العقل من الأدلة الآفاقية والأنفسية ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدارين، من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات مطلوب، فالخوف[1] على المتوقع، والحزن على الواقع. وقيل: الخوف غم يلحق الإنسان من توقع أمر في المستقبل، والحزن: غم يلحقه من فوات أمر في الماضي، وهو بمعنى ما قبله، وأما الخوف المثبت لهم في بعض الآيات، فهو في الدنيا. اهـ. «كرخي». أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك، لا أنه يعتريهم ذلك، لكنهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنه لا يعتريهم نفس الخوف والحزن أصلاً، بل يستمرون على السرور والنشاط، كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاماً لجلال الله تعالى، وهيبته، واستقصاراً للجد والسعي في إقامة حقوق العبودية، من خصائص الخواص والمقربين.

والمعنى[2]: فبعد هبوطكم إلى الأرض، إن يأتكم من جهتي هدى، وشريعة، وبيان حق، ودعوة إليه على ألسنة رسلي، فمن تبع هداي الذي أرسلت به رسلي، واستمسك بالشرائع التي أتوا بها، وراعى ما يحكم العقل بصحته، بعد النظر في الأدلة التي في الآفاق والأنفس، فلا خوف عليهم في الآخرة من العذاب، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا؛ أي: إن المهتدين بهدي الله لا يخافون مما هو آت، ولا يحزنون على ما فات، فإن من سلك سبيل الهدى، سهل عليه كل ما أصابه، أو فقده؛ لأنه موقن بأن الصبر والتسليم مما يرضي ربه، ويوجب مثوبته، فيكون له من ذلك خير عوضٍ عما فاته، وأحسن عزاء عما فقده، فمثله مثل التاجر الذي يكدُّ ويسعى، وتنسيه لذة الربح آلام التعب.

والأديان قد حرَّمت بعض اللذات، التي كان في استطاعة الإنسان أن يتمتع بها، لضررها إما بالشخص، أو بالمجتمع، فمن تمثلت له المضارُّ التي تعقب

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

اللذة المحرمة، وتصوَّر ما لها من تأثير في نفسه، أو في الأمة، فرَّ منها فرار السليم من الأجرب، إلا أن المؤمن بالله واليوم الآخر يرى في انتهاك حرمات الدين، ما يدنس النفس ويبعدها عن الكرامة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

والخلاصة: أن من جاءه الهدى على لسان رسول بلغه إياه واتبعه، فقد فاز بالنجاة، وبعد عنه الحزن، والخوف يوم الحساب، والجزاء والعرض على الملك الديان يوم يقوم الناس لرب العالمين.

قرأ الأعرج[1]: (هداي) بسكون الياء، وفيه الجمع بين الساكنين كقراءة من قرأ (محياي)، وذلك من إجراء الوصل مجرى الوقف. وقرأ عاصم الجحدري، وعبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن أبي عمر ﴿هُدَيَّ﴾ بقلب الألف ياء، وإدغامها في ياء المتكلم، إذ لم يمكن كسر ما قبل الياء؛ لأنه حرف لا يقبل الحركة، وهي لغة هذيل يقلبون ألف المقصور ياء، ويدغمونها في ياء المتكلم، وقال شاعرهم:

سبقوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهم ... فَتُخُرِّموا ولكل قوم مصرع

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بالرفع والتنوين، وقرأ الزهري، وعيسى الثقفي، ويعقوب بالفتح في جميع القرآن، وقرأ ابن محيصن باختلاف عنه بالرفع من غير تنوين. وجه قراءة الجمهور، مراعاة الرفع في ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فرفعوا للتعادل. قال ابن عطية: والرفع على إعمالها عمل ليس، ولا يتعين ما قاله، بل الأولى أن يكون مرفوعاً بالابتداء لوجهين:

أحدهما: أنَّ إعمال (لا) عمل ليس قليل جداً.

والثاني: حصول التعادل بينهما، إذ تكون لا قد دخلت في كلتا الجملتين على مبتدأ، ولم تعمل فيهما. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا برسلنا المرسلة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

إليهم، معطوف[1] على من تبع. إلخ قسيم له، كأنه قيل: ومن لم يتبعه. الخ، وإنما أوثر عليه ما ذكر؛ تفظيعاً لحال الضلالة؛ وإظهاراً لكمال قبحها، وإيراد الموصول بصيغة الجمع؛ للإشعار بكثرة الكفرة.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المنزلة عليهم، أو كفروا بالآيات جَناناً، وكذبوا بها لساناً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، باعتبار إتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ملازموها وملابسوها بحيث لا يفارقونها، وفي الصحبة معنى الوصلة، فسموا أصحابها لاتصالهم بها وبقائهم فيها، فكأنهم ملكوها فصاروا أصحابها ﴿هُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: دائمون، والجملة في حيز النصب على الحالية.

وعبارة أبي حيان هنا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[2] قسيم لقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾؛ أي: وهو أبلغ من قوله: (ومن لم يتبع هداي) وإن كان التقسيم يقتضيه؛ لأنّ نفي الشيء يكون بوجوه: منها: عدم القابليَّة بخلقةٍ، أو غفلةٍ. ومنها: تعمد ترك الشيء فأبرز القسيم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في صورة ثبوتية، ليكون مزيلاً للاحتمال الذي يقتضيه النفي، ولما كان الكفر قد يعني به كفر النعمة، وكفر المعصية، بين أن المراد هنا الشرك بقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وبآياتنا متعلق بقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ وهو من إعمال الثاني، إن قلنا إن (كفروا) يطلبه من حيث المعنى، وإن قلنا لا يطلبه، فلا يكون من الإعمال.

والآيات هنا الكتب المنزلة على جميع الأمم، أو معجزات الأنبياء عليه السلام، أو القرآن، أو دلائل الله في مصنوعاته أقوال، وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[3] دلالة على اختصاص من كفر وكذب بالنار، فيفهم أن من اتبع الهدى هم أصحاب الجنة، وكان التقسيم يقتضي أن من اتبع الهدى لا خوف ولا حزن يلحقه، وهو صاحب الجنة، ومن كذب يلحقه الخوف والحزن، وهو صاحب

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

النار، فكأنه حُذف من الجملة الأولى شيءُ أثبت نظيره في الجملة الثانية، ومن الثانية شيء أثبت نظيره في الجملة الأولى، فصار نظير قول الشاعر:

وإنــي لــتــعــرونــي لــذكــراكِ هِــزَّةٌ كمَا انْتفَض العُصفورُ بَلَّله القَطْرُ

انتهى.

وفي هاتين الآيتين[1]، دلالة على أن الجنة في جهة عالية، دل عليه قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ وأن مُتَّبعَ الهُدى مأمون العاقبة، لقوله تعالى فلا خوف. إلخ. وأن عذاب النار دائم، والكافر مخلد فيه، وأن غيره لا يخلد فيه بمفهوم قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فإنه يفيد الحصر. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، وصححه، والبيهقي عن أبي أمامة الباهلي: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أنبيٌّ كان آدم؟ قال: نعم. قال: كم بينه وبين نوح. قال: عشرة قرون. قال: كم بين نوح وبين إبراهيم. قال: عشرة قرون. قال: يا رسول الله! كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قال: يا رسول الله! كم كانت الرسل في ذلك؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو استئنافية ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، والظرف متعلق بمحذوف جوازاً، تقديره: واذكر يا محمد لأمتك قصة إذ قال ربك.. إلخ. والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بقال ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، إن حرف نصب وتوكيد مبني بفتحة مقدرة على الأخير منع

---

(١) روح البيان.

من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة؛ لأن ما قبل الياء لا يكون إلا مكسوراً، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها ﴿جَاعِلٌ﴾ خبرها، وجملة إن في محل النصب مقول قال: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بجاعل إن كان بمعنى خالق، أو في محل المفعول الثاني إن كان من الجعل بمعنى التصيير ﴿خَلِيفَةً﴾ مفعول به لجاعل؛ لأنه اسم فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَتَجْعَلُ﴾ الهمزة للاستفهام التعجبيّ المجرد، كأنهم يطلبون اسْتِكْنَاهَ ما خفي عليهم من الحكمة الباهرة ﴿تجعل﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، تقديره: أنت، والجملة في محل النصب مقول قالوا ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق بتجعل إن كان بمعنى تخلق، أو في موضع المفعول الثاني المقدم على الأول، إن كان بمعنى تصيِّر ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به أول لتجعل ﴿يُفْسِدُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على من الموصولة، والجملة الفعلية صلة الموصول؛ والتقدير: أتجعل من يفسد خليفة فيها، كمن كان فيها من قبل، كما ذكره العكبري ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على من الموصولة، والجملة معطوفة على جملة يفسد على كونها صلة لمن.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَنَحْنُ﴾ الواو حالية (نحن) ضمير منفصل لجماعة المتكلمين في محل الرفع مبتدأ ﴿نُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر وجوباً، تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ ﴿بِحَمْدِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل نسبح، والتقدير: ونحن مسبحون إياك ملتبسين بحمدك، والجملة الإسمية حال من مفعول فعل محذوف، تقديره: وتركتنا عن الخلافة حالة كوننا مسبحين إياك بحمدك ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على نسبح ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بنقدس، ويجوز أن تكون زائدة زيدت؛ لبيان المفعول به؛ أي: ونقدسك كاللام في سقياً لك. قال العكبري: ويجوز أن تكون اللام زائدة؛ لتأكيد التخصيص؛ أي: نقدسك. وقال الصاوي: ويحتمل أنها للتعدية والتعليل؛ أي: ننزهك لا طمعاً في عاجل ولا آجل، فتنزيهنا لذاتك فقط. اهـ.

﴿قَالَ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه، إن حرف نصب وتوكيد، والياء في محل النصب اسمها. قال العكبري: والأصل: إنني بثلاث نونات فحذفت النون الوسطى لا نون الوقاية على الصحيح. اهـ. ﴿أَعۡلَمُ﴾ فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنا ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به لأَعْلَمُ، لأن علم هنا بمعنى عرف يتعدى إلى مفعول واحد ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما لا تعلمونه، وجملة أعلم في محل الرفع خبر إن، تقديره: إني عالم ما لا تعلمونه، وجملة إن في محل النصب مقول قال.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَعَلَّمَ﴾ الواو استئنافية ﴿عَلَّم﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿ءَادَمَ﴾ مفعول أول لعلم ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾ مفعول ثان له (كلها) تأكيد للأسماء، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿عَرَضَهُمۡ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قال ﴿عَلَى ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بعرض ﴿فَقَالَ﴾ الفاء عاطفة (قال) فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة عرض ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو ضمير المخاطبين يعود على الملائكة في محل الرفع فاعل، والنون نون الوقاية، والياء ضمير متصل في محل النصب مفعول أول ﴿بِأَسۡمَآءِ﴾ جار ومجرور متعلق بأنبئوني على أنه مفعول ثان له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قال: ﴿أسماء﴾ مضاف ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ ﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿أولاء﴾ اسمُ إشارة للجمع المطلق في محل الجر مضاف إليه مبني على الكسر؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبر كان منصوب بالياء، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين فأنبئوني، وجملة إن الشرطيَّة في محل النصب مقول قال ﴿قَالُواْ﴾ فعل

وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ سبحان منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: نسبحك سبحاناً وهو مضاف، والكاف ضمير متصل في محل الجر مضاف إليه، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول قالوا ﴿لَا﴾ نافية للجنس تعمل عمل إن ﴿عِلْمَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿لَنَآ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا، تقديره: لا علم موجود لنا، وجملة لا في محل النصب مقول قالوا ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع بدل من محل لا واسمها؛ لأن محلهما رفع بالابتداء، أو من الضمير المستتر في خبر لا نظير قولك لا إله إلا الله، أو في محل النصب على الاستثناء ﴿عَلَّمْتَنَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: إلا ما علمتناه، وهو العائد على ما الموصولة، والجملة صلة لما الموصولة و(ما) واقعة على معلوم، وعلم بمعنى معلوم، والمعنى: لا معلوم لنا إلا معلوماً، أو معلوم علمتنا إياه، ويجوز أن تكون (ما) مصدرية؛ أي: لا تعليم لنا إلا تعليمك إيانا ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿أَنتَ﴾ أن ضمير فصل حرفٌ لا محل له، أو حرف عماد، والتاء حرف دال على الخطاب ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر أول، لأنَّ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر ثان له، وجملة إن في محل النصب مقول قالوا مسوقة لتعليل ما قبلها، ويحتمل كون ﴿أَنتَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبره، والجملة الإسمية خبر إن، ويجوز كونه تأكيداً لاسم إن مستعاراً عن إياك.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء للمتوسط ﴿آدم﴾ منادى مفرد العلم في محل النصب على المفعولية مبني على الضم، وجملة النداء في محل النصب مقول قال ﴿أَنۢبِئْهُم﴾ فعل أمر مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على الله، والهاء ضمير متصل في محل النصب مفعول أول ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بأنبئهم على أنه مفعول ثان له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قال. ﴿فَلَمَّآ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قال الرب جل جلاله لآدم، وأردت بيان ما قال للملائكة بعد ذلك فأقول لك لما أنبأهم.

﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم ﴿أَنۢبَأَهُم﴾ أنبأ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على آدم، والهاء ضمير متصل في محل النصب مفعول أول ﴿بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأنبأهم على أنه مفعول ثان له، والجملة الفعلية فعل شرط لِلَمَّا لا محل لها من الإعراب ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة الفعلية جواب شرط للَمَّا لا محل لها من الإعراب، وجملة لما في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري ﴿لم﴾ حرف جزم ﴿أَقُل﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وفاعله ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا يعود على الله ﴿لَّكُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق بأقل، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول قال ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَعۡلَمُ﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب مقول لأقل ﴿غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوف على السموات ﴿وأَعۡلَمُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على أعلم الأول ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أعلم﴾، وجملة ﴿تُبۡدُونَ﴾ صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره ما تبدونه ﴿وَمَا﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على ما الأولى ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكۡتُمُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة لما الموصولة لا محل لها من الإعراب، والعائد محذوف، تقديره: وما كنتم تكتمونه، وإن شئت قلت إن قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ. . .﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لأقل؛ لأن مرادنا لفظه لا معناه، والمقول منصوب بالقول وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الأخير منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

﴿وَإِذۡ﴾ الواو عاطفة أو استئنافية ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد قصة إذ قلنا، والجملة المحذوفة معطوفة على الجملة المحذوفة سابقاً، أو مستأنفة. ﴿قُلۡنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ متعلق بقلنا.

﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل ﴿لِءَادَمَ﴾ اللام حرف جرٍ ﴿ءَادَمَ﴾ مجرور باللام وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف العلمية والعجمة، والجار والمجرور متعلق باسجدوا، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قلنا ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ الفاء حرف عطف وتفريع (سجد) فعل ماض والواو فاعل، والجملة معطوفة على جملة قلنا ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء ﴿إِبْلِيسَ﴾ مستثنى بإلا متصل إن كان إبليس في الأصل من الملائكة، وقيل: منقطع؛ لأنه ليس من الملائكة، وهو منصوب بالفتحة الظاهرة ولم ينون؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف العلمية والعجمة ﴿أَبَىٰ﴾ فعل ماض معتل بالألف مبني بفتحة مقدرة، وفاعله ضمير يعود على إبليس، والجملة الفعلية في محل النصب حال من إبليس؛ أي: حالة كونه آبياً وممتنعاً من السجود ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ فعل وفاعل مستتر معطوف على أبى؛ أي: ومستكبراً ﴿وَكَانَ﴾ الواو عاطفة، أو حالية، أو استئنافية ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على إبليس ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ خبر كان، وجملة كان معطوفة على جملة أبى، أو حالية، أو مستأنفة.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقُلْنَا﴾ الواو استئنافية أو عاطفة ﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو معطوفة على قلنا الأول، واختلاف الزمانين ليس علة مانعة من عطف الفعل على الفعل ﴿يَٰٓـَٔادَمُ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لقلنا، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول قلنا ﴿ٱسْكُنْ﴾ فعل أمر مبني على السكون، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره أنت، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قلنا ﴿أَنتَ﴾ أن ضمير رفع منفصل في محل الرفع مؤكد للضمير المستتر في اسكن، ليصح العطف عليه ﴿وَزَوْجُكَ﴾ معطوف على الضمير المستتر في اسكن، كما قال ابن مالك:

وإن على ضمير رفع متصل   عطفت فافصل بالضمير المنفصل

﴿الْجَنَّةَ﴾ مفعول به وليس بظرف؛ لأنك تقول سكنت البصرة، وسكنت الدار بمعنى: نزلت فهو كقولك: انزل من الدار حيث شئت. ذكره العكبري. ﴿وَكُلَا﴾ الواو عاطفة ﴿كُلَا﴾ فعل أمر للمثنى مبني على حذف النون، والألف ضمير متصل في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة اسكن ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بكُلا ﴿رَغَدًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، لأنه صفة لمصدر محذوف، تقديره: أكلا رغداً. ﴿حَيْثُ﴾ في محل النصب على الظرفية المكانية مبني على الضم؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً ﴿شِئْتُمَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لحيث، والظرف متعلق بكُلا. وقال العكبري: ويجوز أن يكون بدلاً من الجنة، فيكون ﴿حَيْثُ﴾ مفعولا به ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ ناهية جازمة ﴿تَقْرَبَا﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والألف في محل الرفع فاعل ﴿هَٰذِهِ﴾ مفعول به ﴿الشَّجَرَةَ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو صفة له كما مر، والجملة معطوفة على جملة اسكن، أو على جملة كُلا ﴿فَتَكُونَا﴾ الفاء عاطفة سببية ﴿تَكُونَا﴾ فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، والألف ضمير متصل في محل الرفع اسمها ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر تكونا، وجملة تكونا صلة أن المصدرية، وأن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر، متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن قِرْبَانُكما لهذه الشجرة فكَوْنُكُما من الظالمين، ويجوز كون الفاء لمجرد العطف، والفعل مجزوم بالعطف على ما قبله.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه المقام، تقديره: فأكلا من الشجرة التي نهيا عنها، ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ (أزل) فعل ماض، و(الهاء) ضمير متصل في محل النصب مفعول به، ﴿الشَّيْطَانُ﴾ فاعل ﴿عَنْهَا﴾ متعلق بأزلهما، وإن شئت قلت: الفاء فاء الفصيحية؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت قول الله لهما اسكن أنت وزوجك الجنة. الخ. وأردت بيان حالهما بعد

ذلك فأقول لك: أزلهما، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ الفاء عاطفة ﴿أخرجهما﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الشيطان، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة أزلهما ﴿مِمَّا﴾ من حرف جر مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ما ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر بمن، الجار والمجرور متعلق بأخرجا ﴿كَانَا﴾ كان فعل ماض ناقص، والألف ضمير للمثنى الغائب في محل الرفع اسمها ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كان، تقديره: مما كانا كائنين فيه، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد ضمير، فيه ﴿وَقُلْنَا﴾ الواو عاطفة أو استئنافية ﴿قلنا﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿فأزلهما﴾، أو مستأنفة ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والجملة في محل النصب مقول قلنا ﴿بَعْضُكُمْ﴾ مبتدأ ﴿لِبَعْضٍ﴾ متعلق بعدو، أو بمحذوف حال من عدو؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليها و﴿عَدُوٌّ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل اهبطوا، تقديره: اهبطوا حالة كونكم متعادين ﴿وَلَكُمْ﴾ الواو عاطفة أو استئنافية ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بمستقَر و﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ معطوف على مستقر ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ متعلق بمحذوف صفة لمتاع؛ أي: ممتد إلى حين؛ أي: إلى يوم القيامة، أو متعلق بمتاع؛ لأنه اسم مصدر بمعنى التمتع، والجملة الإسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله بعضكم لبعض عدو، على كونها حالاً من فاعل اهبطوا؛ أي: اهبطوا حالة كونكم متعادين، ومستحقين الاستقرار في الأرض والتمتع إلى حين، أو الجملة مستأنفة.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ الفاء استئنافية أو فصيحية؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت قول الله لهم اهبطوا، أو أردت بيان عاقبة أمر آدم بعد ذلك، فأقول: تلقى آدم ﴿تلقى﴾ فعل ماض و﴿ءَادَمُ﴾ فاعل ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتلقى ﴿كَلِمَٰتٍ﴾ مفعول به منصوب بالكسرة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والجملة الفعلية مستأنفة، أو مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. وقُرىء بنصب آدم على المفعولية، ورفع كلمات على الفاعلية، كما مرّ

في مبحث القراءة ﴿فَتَابَ﴾ الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، تقديره: فقالها فتاب عليه ﴿تَابَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بتاب، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، والمحذوفة معطوفة على جملة تلقى ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، أو حرف عمادٍ، ويجوز أن يكون مبتدأ ﴿التَّوَّابُ﴾ خبر أول لإن ﴿الرَّحِيمُ﴾ خبر ثان لها، ويجوز أن يكونا خبرين لهو، والجملة الإسمية خبر لإن، وجملة إن مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾.

﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿اهْبِطُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مقول لقلنا ﴿مِنْهَا﴾ متعلق باهبطوا ﴿جَمِيعًا﴾ حال من فاعل اهبطوا؛ أي: مجتمعين في الهبوط في زمان واحد، أو في أزمنة متفرقة ﴿فَإِمَّا﴾ الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، تقديره: فعاهدنا عليهم، أو فصيحية؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت قول الله لهم اهبطوا، وأردت بيان ما عاهد عليهم بعد الهبوط، فأقول لك: قال الله لهم: إما يأتينكم مني هدى ﴿إن﴾ حرف شرط جازم يجزم فعلين، مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ما الزائدة و﴿مَا﴾ زائدة زيدت: لتأكيد معنى الكلام ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ﴿يأتينَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، مبني على الفتح، الكاف ضمير لجماعة الذكور المخاطبين في محل النصب مفعول به، والميم حرف دال على الجمع ﴿مِنِّي﴾ جار ومجرور متعلق بيأتينكم ﴿هُدًى﴾ فاعل ﴿فَمَنْ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿تَبِعَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بمَن الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير مستتر يعود على من ﴿هُدَايَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿فَلَا﴾ الفاء رابطة لجواب من الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿لَا﴾ نافية ملغاة لا عمل لها لتكررها ﴿خَوْفٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة؛ تقدم النفي عليها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بمحذوف خبر

المبتدأ، ولك أن تُعْمِل لا عمل ليس، فخوف اسمها، وعليهم خبرها، والجملة الإسمية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة من الشرطية في محل الجزم جواب إن الشرطية، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ زائدة؛ زيدت لتأكيد نفي ما قبلها ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل الجزم، معطوفة على جملة قوله فلا خوف، على كونها جواباً لمن الشرطية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ الواو عاطفة ﴿الذين﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول ﴿وَكَذَّبُوا﴾ معطوف على كفروا على كونه صلة الموصول ﴿بِآيَاتِنَا﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بكذبوا لقربه، أو بكفروا لسبقه ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ثان ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره، في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول وخبره في محل الجزم، معطوفة على جملة من الشرطية، على كونها جواباً لأن الشرطية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بخالدون ﴿خَالِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب حال من أصحاب النار، أي: حالة كونهم مقدراً خلودهم فيها. وفي العكبري، وقيل: يجوز أن تكون الجملة حالاً من النار؛ لأن في الجملة ضميراً يعود عليها، ويكون العامل في الحال معنى الإضافة، أو اللام المقدرة. انتهى. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ اسمٌ ثُنائِيُّ الوضع مبني؛ لشبهه بالحرف شبهاً وضعياً، أو افتقارياً، وهو ظرف زمان للماضي، وما بعده جملة اسمية، أو فعلية، وإذا كانت فعلية، قَبُح تقديم الاسم على الفعل، وإضافته إلى المصدرة بالمضارع، وعمل المضارع فيه، مما يجعل المضارع ماضياً، وهو ملازمٌ للظرفية، إلا أن يضاف إليه زمان، ولا يكون مفعولاً به، ولا حرفاً للتعليل، أو للمفاجأة، ولا ظرف مكان، ولا زائدة، خلافاً لزاعمي ذلك. ولها أحكامٌ غير هذا مذكورةٌ في كتب النحو ﴿قَالَ﴾ أصله: قَوَلَ بوزن فعل، تحركت الواو وانفتح

ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار قال: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمع ملك وميمه أصليةٌ، وهو فَعَلٌ من المُلْكِ، وهو القوة ولا حذف فيه، وجمع على فعائلة شذوذاً، قاله أبو عبيدة، وكأنهم توهَّمُوا أنه ملاكٌ على وزن فعال، وقد جمعوا فعالاً المذكر والمؤنث على فعائل قليلاً. وقيل: وزنه في الأصل فعأل، نحو: شمألٍ، ثم نقلوا الحركة وحذفوا. وقيل: غير ذلك مما لا يسعه هذا المختصر. والمَلَك: جسمٌ لطيف قادرٌ على التشكل بأشكالٍ مختلفةٍ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾؛ أي: خالق أو مصيِّرٌ، ولم يذكر الزمخشري غيره ﴿خَلِيفَةً﴾ مفعول به على الأول، وعلى الثاني هو المفعول الأول، وفي الأرض هو الثاني قدم عليه. اهـ. «كرخي» كما مرَّ. وصيغة اسم الفاعل في قوله جاعل بمعنى المستقبل، كما ذكره أبو السعود. والخليفة: من يخلف غيره، وينوب منابه فعيل بمعنى فاعل، والتاء للمبالغة، وهو من خلف من باب كتب، كما في «القاموس».

﴿وَيَسْفِكُ﴾ وفي «المصباح» وسفك الدم أراقه، وبابه ضرب، وفي لغةٍ: من باب قتل، وقرىء بهما كما مرَّ في مبحث القراءة ﴿ٱلدِّمَآءَ﴾ جمع دمٍ، أصله: دمْيٌ، أو دمْوٌ، والهمزة في الدماء: إما مبدلة من واو، أو ياء. والثاني: هو مذهب سيبويه، وظاهر كلام صاحب القاموس. والأول ظاهر كلام الجوهري، حيث صدر به، وعلى كلا التقديرين تطرَّفت الواو، أو الياء إثر ألف زائدة فقلبت همزةً، وهذا أمر مطرد، سواء أكان أصله دماوٌ، أو دماي ﴿ونحن نسبِّح بحمدك﴾ التسبيح تنزيه لله وتبرئَتُهُ عن السوء، ولا يستعمل إلا لله تعالى، وأصله: من السَّبْح وهو الجَرْيُ، والمسبِّح جار في تنزيهِ لله تعالى ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ والتقديس التطهير، ومنه بيت المقدس، والأرض المقدسة، ومنه القدس للسطل الذي يتطهر به، وقال الزمخشري: من قدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد.

وفائدة الجمع بين التسبيح والتقديس، وإن كان ظاهرُ كلامهم تَرادُفَهُما أن التسبيح بالطاعات، والعبادات، والتقديس بالمعارف في ذات الله تعالى، وصفاته، وأفعاله؛ أي: التفكر في ذلك. اهـ. «كرخي».

﴿وَعَلَّمَ﴾ وزنه فعل المضعَّف، منقول من عَلِم التي تتعدَّى لواحد، فرقوا بينها وبين عَلَّم التي تتعدى لاثنين في النقل، فعدوا تلك بالتضعيف، وهذه

بالهمزة، قاله الاستاذ أبو علي الشلوبين ﴿ءَادَمَ﴾ أصله: أأدم بهمزتين مفتوحةٍ وساكنه، فأبدلت الثانية حرف مدٍّ للأولى. وفي «البحر» آدم: اسمٌ أعجمي كآزر، وعابر، ممنوع الصرف للعلمية والعجمة، ومن زعم أنه أفعل مشتق من الأدمة وهي كالسمرة، أو من أديم الأرض وهو وجهها، فغير صواب؛ لأن الاشتقاق من خواص الألفاظ العربية، قد نص التصريفيُّون على أنه لا يكون في الأسماء الأعجمية. وقيل: هو عربيٌّ من الإدام وهو التُّرابُ، ومن زعم أنه فاعل من أديم الأرض، فخَطَؤُهُ ظاهرٌ؛ لعدم صرفه. وأبعد الطبري في زعمه أنه فِعْلٌ رباعي سُمِّي به، ومن هذا الخطإ محاولتهم اشتقاق يعقوب من العقب، وإبليس من الإبلاس، وإذن: يحقُّ لنا أن نتساءل: لِمَ منعت هذه الأعلام من الصرف لولا العلمية والعجمة، فتنبَّه لهذا الفصل.

﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾ وزنه أفعال، والهمزة فيه على الصحيح مبدلة من واو؛ لأنه من السمو، كما مرّ في مبحث البسملة؛ أي: علَّمه الأسماء لفظاً، ومعنى، وحقيقة مفرداً، ومركباً، كأُصول العلم، فإن الاسم باعتبار الاشتقاق علامةٌ للشيء، ودليله الذي يرفعه إلى الذهن؛ أي: يوصله إلى الفطنة. والمراد بالاسم: ما يَدُلُّ على معنًى، ولو كان ذاتاً وجرماً فهو أعمُّ من الاسم، والفعل، والحرف. اهـ. «كرخي».

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ العَرْضُ: إظهار الشيء حتى تعرف جهته ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾ والإنباء: الإخبار، ويتعدى فعله لواحدٍ بنفسه، ولثان بحرف جر، ويجوز حذف ذلك الحرف، ويضمَّن بمعنى أعلم فيتعدى إلى ثلاثة.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ وسبحان: مصدرٌ كغفرانٍ، ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله، كمعاذ الله، ولا يجوز إظهاره ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهما فعيلٌ بمعنى فاعل، وفيهما من المبالغة ما ليس فيه، والحكمة لغةً: الإتقان والمنع من الخروج عن الإرادة، ومنه حكمة الدابة. والحكيم: صفة ذات إن فُسِّر بذي الحكمة، وصفة فعل إن فُسِّر بأنه المحكم لصنعته ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ أصله: أقول، فدخل على الفعل المضارع الجازم وهو لم، فسكن حرفه الأخير لمَّا جُزم، فصار اللفظ أقول، فالتقى ساكنان الواو ولام الفعل، فحذفت الواو فقيل: أقل على وزن أفل، وهكذا كُلُّ ما كان من هذا القبيل ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ أصله: تبديون

بوزن تفعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت فسكنت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء، ثم ضمت الدال لمناسبة الواو ﴿وَمَا كُنتُمْ﴾ أصله: كَوَن بوزن فعل أجوف واويٌّ مفتوحها، أبدلت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، ولمَّا أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، سُكِّن آخره فالتقى ساكنان الألف وآخر الفعل النون، فصار اللفظ كانت، فحذفت الألف؛ لالتقاء الساكنين، فصار اللفظ كنت بوزن فلت، ولحذف عينه احتيج إلى معرفة العين المحذوفة، هل هي واوٌ، أو ياءٌ؟ فحذفت حركة فاء الفعل، وعوِّض عنها حركةٌ مجانسةٌ للعين المحذوفة؛ لتدل عليها وهي هنا الضمة؛ لأنها هي التي تجانس الواو، فقيل: كنتم بوزن فلتم، وهكذا كُلُّ فعل أجوف واوي العين أسند إلى ضمير الرفع المتحرك ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ في «المصباح» وأَبْلَسَ إبلاساً، إذا سكت غمًّا وأبلس أيس، وفي «التنزيل» فإذا هم مبلسون وإبليس أعجمي، ولهذا لا ينصرف للعلمية والعجمة. وقيل: هو عربي مشتق من الإبلاس وهو اليأس. ورد بأنه لو كان عربياً لانصرف كما تنصرف نظائره. اهـ. من «السمين».

﴿أَبَىٰ﴾؛ أي: امتنع وأَنِفَ من السجود لآدم، وأصله: أَبَيَ بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾؛ أي: تكبَّر وتعاظم في نفسه، والسين للمبالغة لا للطلب، وإنما قدم الإباء على الاستكبار، وإن كان متأخراً عنه في الترتيب؛ لأنه من الأفعال الظاهرة بخلاف الاستكبار، فإنه من أفعال القلوب. واقتصر في (سورة ص) على ذِكْر الاستكبار؛ اكتفاءً به، وفي (سورة الحجر) على ذكر الإباء حيث قال: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿وَكُلَا﴾ أمرٌ من أكل، وقياس الثلاثي إذا بني منه الأمر، أن يؤتى قبله بهمزة وصل؛ توصلاً للنطق بالساكن، كما في اضرب، واصبر، لكن فاء الفعل الساكنة، حذفت من هذا الأمر شذوذاً في القياس غالباً، كما حذفت من الأمر من أخذ وأمر، ومعنى قولي شذوذاً في القياس: أنَّ استعمالها فاشٍ ﴿رَغَدًا﴾ الرَّغَدُ: الهَنِيءُ الذي لا عناء فيه، أو الواسع. يقال: رغد عيش القوم، إذا كانوا في رزق واسع كثير، وأرغد القوم: أخصبوا وصاروا في رغد من العيش ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ أصله شَيِءَ بوزن فَعِلَ بكسر العين، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار شاءَ، ثُمَّ أُسْنِد الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، فسكن آخره، فالتقى ساكنان الألف والهمزة آخر الفعل،

فحذفت الألف، فصار اللَّفْظُ شأتُ بوزن فَلْتُ، لحذف عينه، فاحتيج إلى معرفة حركة العين المحذوفة، فحذفت حركة فاء الفعل، ونقلت إليها حركة العين المحذوفة وهي الكسرة، كما تقدم، فقيل: شئتما بوزن فلْتُما ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ في «المصباح» قرب الشيء منا قرباً، وقرابةً، وقُرْبَةً، وقُرْبَى؛ أي دَنَا وقربت الأمر أقربه، من باب تعب، وفي لغةٍ: من باب قتل، قرباناً بالكسر، فعلته، أو دانيته، ومن الأول ولا تقربوا الزنا، ومن الثاني لا تقرب الحِمَى؛ أي: لا تدن منه. اهـ. ﴿فَتَكُونَا﴾ أصله تَكْوُنان بوزن تفعُلان، نقلت حركة الواو إلى الكاف قبلها، فسكنت الواو إثر ضمةٍ فصارت حرف مدٍ، ثم حذفت نون الرفع لما نصب الفعل بأن المضمرة بعد الفاء السببية، فوزنه تفعلا ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: أصدر زلتهما وحملهما على الزلّة بسببها، وفي «المصباح» زلَّ عن مكانه زلاً، من باب ضرب نحى عنه، وزل زللاً من باب تعب لغةً، وزل في منطقه، أو فعله يزل، من باب ضرب زلة أخطأ. اهـ. والزلل: السقوط. يقال: زل في طين، أو منطق، يزل بالكسر زللاً. وقال الفراء: زل يزل بالفتح زللاً، وأصله: أزللهما، نقلت حركة اللام الأولى إلى الزاي، فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. وقرأ حمزة بِمَدِّ الزاي وتخفيف اللام من الإزالة، وأصله: أزولهما، نقلت حركة حرف العلة الواو إلى الساكن الصحيح قبله، ثم قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن.

﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أصله كون، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، ثم أُلحق به ألف الاثنين، فصار كانا ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ والهبوط، كما قال الرّاغب الانحدار على سبيل القهر، ولا يبعد أن تكون تلك الجنة في ربوةٍ، فسُمِّي الخروج منها هبوطاً، أو سُمّي بذلك؛ لأنَّ ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه، أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد، كقوله لبني إسرائيل ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أصله عَدوو بوزن فعول، أدغمت الواو الأولى واو فعول في الواو لام الكلمة، وأفرد لفظ عدوَ إن كان المراد به جمعاً لأحد وجهين: إمَّا اعتباراً بلفظ بعض، فإنه مفرد، وإما لأن عدوّاً أشبه المصادر في الوزن، كالقبول، ونحوه. وقد صرَّح أبو البقاء، بأن بعضهم جعل عدواً مصدراً. اهـ. «سمين» ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ والمستقر: الاستقرار والبقاء، وأصله مستقرر بوزن مستفعل، إما اسم مكان، أو مصدر

ميمي، نقلت حركة الراء الأولى إلى القاف، فسكنت وأدغمت في الراء الثانية ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ والمتاع الانتفاع الذي يمتد وقته ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ والحين: مقدار من الزمن قصيراً كان أو طويلاً ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾ وتلقي الكلمات: هو أخذها بالقبول والعمل بها حين علمها، وأصله تَلَقَّيَ بوزن تفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ أصله تَوَب بوزن فعل واويُّ العين؛ لأنَّ مصدره توبةٌ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ﴿جَمِيعًا﴾ حال من فاعل اهبطوا؛ أي: مجتمعين، إما في زمان واحد، أو في أزمنة متفرقة؛ لأنَّ المراد الاشتراك في أصل الفعل، وهذا هو الفرق بين جاؤا جميعاً، وجاؤوا معاً، فإن قولك معاً يستلزم مجيئهم جميعاً في زمن واحد؛ لما دلَّت عليه من الاصطحاب، بخلاف جميعاً، فإنها إنما تفيد أنه لم يتخلف أحدٌ منهم عن المجيء، من غير تعرض لاتحاد الزمان. اهـ. «سمين».

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ والهدى: الرشد بإرسال رسول بشريعةٍ يأتي بها، وكتاب ينزله ويبلِّغه لكم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ والخوف: ألم الإنسان مما يصيبه من مكروه، أو حرمانه من محبوب، يتمتَّع به أو يطلبه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والحزن: ألمٌ يلمُّ به إذا فقد ما يحب ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ جمع آية، وهي: العلامة الظاهرة، والمراد بها: كلُّ ما يدلُّ على وجود الخالق ووحدانيته، مما أودعه في الكون ونشاهده في الأنفس، وتطلق على كُلِّ قِسْمٍ من أقسام القرآن، التي تتألَّف منها سورة القرآن، ويقف القارىء عندها في تلاوته. والعمدة في معرفة ذلك، على التوقيف المأثور عن النبي ﷺ وسُمِّيت بذلك؛ لأنها دلائل لفظية على الأحكام والآداب، التي شرعها الله سبحانه لعباده. وأصل آية عند الخليل: أيية بوزن فعلة، أبدلت الياء الأولى ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، وكان القياس إبدال الثانية ألفاً وتصحيح الأولى؛ لأن القاعدة المعروفة، أنه إذا استحق حرفان متواليان الإعلال، صحح الأول منهما، وأُعلّ الثاني، ولا يُعلان معا: لئلا يجتمع إعلالان متواليان في كلمة، كما قال ابن مالك:

وإن لِحَرْفَيْنِ ذَا الإِعْلاَلُ اسْتُحِقّ ... صُحِّحَ أَوَّلٌ وعَكْسٌ قَدْ يَحِق

وأشار بقوله: وعكسٌ قد يحق إلى ما هنا في الآية، وكذلك لفظ راية. ومذهب الكسائي: أن آية أصله آيية بوزن فاعلة، حذفت الياء الأولى؛ لئلا تدغم

في الثانية، كما فعلوا في دابَّة، وكافّة. ومذهب سيبويه: أن أصلها أوية، حكاه عن الجوهري، وقيل في أصلها غير ذلك، ومذهب الخليل أصوب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعريض بعنوان الربوبية في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ مع الإضافة إلى الرسول ﷺ للتشريف والتكريم لمقامه العظيم.

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على المقول؛ للاهتمام بما قدم؛ وللتشويق إلى ما أخر.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ﴾.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ لأن المراد بهم هنا، سكان الأرض من الملائكة بعد الجان على ما قيل.

ومنها: عطف الخاص في قوله: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ على العام في قوله: ﴿مَن يُفْسِدُ﴾؛ اهتماماً بشأن الدماء.

ومنها: العطف للتأكيد في قوله: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ لأنه كالتوكيد للتسبيح؛ لأن التقديس هو التطهير، والتسبيح هو التنزيه والتبرئة من السوء، فهما متقاربان في المعنى ذكره في «البحر».

ومنها: الأمر الذي أريد به التعجيز في قوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ مبالغة في التبكيت.

ومنها: إطلاق الأسماء مراداً بها المسميات في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾؛ أي: مسميات الأسماء، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾؛ لأن قبله محذوف، تقديره: فأنبأهم بها، فلما أنبأهم بأسمائهم.

ومنها: تغليب العقلاء على غيرهم في قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛

لأن الميم في هم علامة لجمع الذكور العقلاء، ولو لم يُغلب لقال: ثُمَّ عرضها، أو عرضهن.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأن جوابه محذوف، تقديره: إن كنتم صادقين فأنبئوني، يدل عليه أنبئوني السابق.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

ومنها: إبراز الفعل في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ثُمَّ قال: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ للاهتمام بالخبر، والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، ويسمى هذا بالإطناب.

ومنها: الطباق بين السموات وبين الأرض في قوله: ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبين ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ وبين ﴿مَا تَكْتُمُونَ﴾ في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ هذا وإنَّ الطباق من الألفاظ التي خالفت مضمونها، ولذلك سماه بعضهم بالتضادّ والتكافؤ، وهو الجمع بين معنيين متضادين، ولا مناسبة بين معنى المطابقة لغةً، وبين معناها اصطلاحاً، فإنها في اللغة الموافقة يقال: طابقت بين الشيئين، إذا جعلت أحدهما على حذو الآخر، وابن الأثير يعجب من هذه التسمية؛ لأنه لا يعرف من أين اشتقت هذه التسمية، إذ لا مناسبة بين الاسم ومسماه، وابن قدامة يسميه التكافؤ، ولا فرق بين أن يكون التقابل حقيقياً، أو اعتبارياً، أو تقابل السلب والإيجاب، ومن طباق السلب، قول السموءل اليهوديّ:

وَنُنْكِر إنْ شِئْنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقول

فقد طابق بين نُنْكِر وهو إيجابٌ، وبين ولا ينكرون وهو سلب، وقد يصح الطباق مقابلةً حين يؤتى بمعنيين، أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، كقول البحتري:

فإذا حَارَبُوا أذلُّوا عَزِيزاً   وإذا سَالَمُوا أعزُّوا ذَلِيلاً

ومنها: التعبير بصيغة الجمع في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ للتعظيم؛ لأنه صيغة مكالمة الأكابر، وهي معطوفة على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وفيه التفات من الغائب إلى المتكلم؛ لتربية المهابة؛ وإظهار الجلالة.

ومنها: إفادة الفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ التعقيب؛ لأنها دلت على أنهم سارعوا في الامتثال، ولم يثبِّطوا فيه، وفيه أيضاً: الإيجاز بالحذف؛ لأن التقدير فسجدوا له، وكذلك قوله: ﴿أَبَىٰ﴾ مفعوله محذوف تقديره؛ أي: أبى السجود.

ومنها: التعبير في النهي عن الأكل بالنهي عن القربان في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ لقصد المبالغة في النهي عن الأكل، إذ النهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ فنهى عن القرب من الزنا؛ ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ فإنه أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات، مما لو قيل من النعيم أو الجنة؛ لأنَّ من أعظم أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء وفخامته، أن يعبِّر عنه بلفظٍ مبهم، كما هنا، لتذهب نفس السامع في تصوُّر عظمته إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه.

ومنها: التعبير بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير التوبة واسع الرحمة؛ لأن فعالاً وفعيلاً من صيغ المبالغة.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ تأكيداً لما قبله، وتوطئة لما بعده.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فائدة: قال بعض العارفين: سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجناية، ولا يحطُّ عن رتبة الولاية، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة، لم تخرجه عن حظيرة القدس، ولم تسلبه رتبة الخلافة، بل أجزل الله له في العطية، فقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾.

وقال الشاعر:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

والله أعلم

* * *

قال الله سبحانه جل وعلا:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[١] خطاب المكلفين عموماً في أول السورة، ثم ثنّى بمبدأ خلق آدم عليه السلام، وقصته مع إبليس اللعين، ثلّث هنا بذكر بني إسرائيل، سواء كانوا في زمنه ﷺ أو قبله، وما يتعلق بهم من هنا إلى قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فعدَّد عليهم نعماً عشراً، وقبائح عشراً، وانتقامات عشراً.

والحكمة في ذكر بني إسرائيل[٢]، الذين تقدموا قبل رسول الله ﷺ، مع أنهم لم يخاطبوا بالإيمان برسول الله ﷺ أنَّ من كان في زمنه ﷺ يدَّعي أنه على قدمهم، وأنه متبع لهم، وأن أصولهم كانوا على شيء، فلذلك تبعوهم. فبين

---

(١) الصاوي.
(٢) الصاوي.

سبحانه وتعالى النعم التي أنعم بها على أصولهم، وبين لهم أنهم قابلوا تلك النعم بالقبائح، وبين أنه أنزل عليهم العقاب؛ ليعتبر من يأتي بعدهم.

وحكمة تخصيصهم بالخطاب: أن السورة أول ما نزل بالمدينة، وأهل المدينة كان غالبهم يهوداً، وهم أصحاب كتاب وشوكة، فإذا أسلموا، أو انقادوا، انقاد جميع أتباعهم، لذلك توَجَّه الخطاب لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما ذكر الله سبحانه وتعالى أولاً نعمه على بني إسرائيل إجمالاً، ذكر هنا أنواع تلك النعم على سبيل التفصيل، ليكون أبلغ في ذكرها وأدْعَى لشكرها، فكأنه قال: اذكروا نعمتي، واذكروا إذ نجيناكم، واذكروا إذ فرقنا بكم البحر، واذكروا إذ واعدنا موسى، وإذ آتينا موسى الكتاب، إلى آخر ما عدده من النعم عليهم، وكل هذه النعم تستدعي شكر المنعم جل وعلا، لا كفرانه وعصيانه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الواحدي، والثعلبي من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: (نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره، ولذوي قرابته، ولمن بينه وبينهم رضاع من المسلمين، أثبت على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل، فإنَّ أمره حق، وكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه).

وعبارة أبي حيان هنا قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ الآيات، هذا[2] افتتاح الكلام مع اليهود والنصارى، ومناسبة الكلام معهم هنا ظاهرة، وذلك أن هذه السورة افتتحت بذكر الكتاب، وأن فيه هدى للمؤمنين، ثم أعقب ذلك بذكر الكفار المختوم عليهم بالشقاوة، ثم بذكر المنافقين، وذكر جمل من أحوالهم، ثم أمر الناس قاطبة بعبادة الله تعالى، ثم ذكر إعجاز القرآن إلى غير ذلك مما ذكره،

---

(١) لباب النقول.

(٢) البحر المحيط.

ثم نبههم بذكر أصلهم آدم، وما جرى له من أكله من الشجرة بعد النهي عنها، وأن الحامل له على ذلك إبليس، وكانت هاتان الطائفتان، أعني: اليهود والنصارى أهل الكتاب، مظهرين اتِّباع الرسل والاقتداء بما جاء عن الله تعالى. وقد اندرج ذِكْرُهم عموماً في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ فجرَّد ذِكْرَهم هنا خصوصاً، إذ قد سبق الكلام مع المشركين والمنافقين، وبقي الكلام مع اليهود والنصارى، فتكلَّم معهم هُنا، وذكر ما يَقْتَضِي لهم الإيمان بهذا الكتاب، كما آمنوا بكتبهم السابقة إلى آخر الكلام معهم، على ما سيأتي جملة مفصلة، وناسب الكلام معهم قصة آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، لأنهم بعد ما أوتوا من البيان الواضح، والدليل اللائح، المذكور ذلك في التوراة والإنجيل، من الإيفاء بالعهد، والإيمان بالقرآن، ظهر منهم ضِدُّ ذلك بكفرهم بالقرآن، ومن جاء به وأقبل عليهم بالنداء، ليحرِّكهم لسماع ما يرد عليهم من الأوامر والنواهي، نحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ و﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ انتهى.

وللشوكاني هنا: كلام في الرد على من يبحث عن المناسبة بين السور وبين الآيات فلا يُغتر بكلامه؛ لأنه إذا ثبت أن ترتيب الآيات والسور في وضع المصاحف، على غير ترتيب النزول، والحال أن ذلك وضع توقيفي، فلا بُدَّ من معرفة حكمة تغيير الترتيب النزولي إلى هذا الترتيب الوضعي، ويتوصل إلى معرفتها بالبحث عن المناسبة الموصل إلى معرفة بلاغات القرآن وإعجازه، فحينئذٍ لا بد من البحث عنها ويقال:

وَكَـمْ مِـنْ عَـائِـب بَـحْـثـاً صَـحِـيـحـاً

لعدم اطِّلاعه على ما فيها ولا نطيل الكلام في الرد عليه، كما أطاله وخطَّأ غيره، وحمَّقه، ولا نقول فيه إلا كما قيل:

وهـو بـسـبـق حـائـزٌ تـفـضـيـلاً   مـسـتـوجـب ثـنـائـي الـجـمـيـلا

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: يا أولاد يعقوب، وهذا خطاب مع جماعة اليهود

الذين كانوا بالمدينة في زمن النبي ﷺ وإسرائيل: هو نبي الله يعقوب بن إسحاق، بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، وفي إسرائيل سبع لغاتٌ: إسرائيل بزنة إبراهيم، وإسرائل بمدة مهموزة مختلسة، رواها ابن شَنْبُوذ، عن وَرْشٍ، وإسرائيل بمدّةٍ بعد الياء من غير همزٍ، وهي قراءة الأعمش، وعيسى بن عُمر، وقرأ الحسن من غير همزٍ ولا مدٍّ، وإسرائِل بهمزة مكسورة، وإسراءَلُ بهمزة مفتوحة، وتميم يقولون إسرائين، ذكره الشوكاني وأضافهم[1] إلى لفظ إسرائيل، وهو يعقوب، ولم يَقُلْ: يا بني يعقوب! لما في لفظ إسرائيل من الإضافة المشرفة؛ لأنَّ معناه عبدُ الله، أو صفوة الله، وذلك على أحسن تفاسيره، فهزَّهم بالإضافة إليه، فكأنَّه قيل: يا بني عبد الله أو يا بني صفوة الله، فكان في ذلك تنبيه على أن يكونوا مثل أبيهم في الخير، كما تقول: يا ابن الرجل الصالح! أطع الله، فتضيفه إلى ما يحركه لطاعة الله؛ لأنَّ الإنسان يُحِبُّ أن يقتفي أثر آبائه، وإن لم يكن بذلك محموداً، فكيف إذا كان محموداً ألا ترى إنا وجدنا آباءنا على أمة بل نتَّبع ما ألفينا عليه آباءنا وفي قوله: يا بني إسرائيل! دليل على أنَّ من انتمى إلى شخص، ولو بوسائط كثيرة، يطلق عليه أنه ابنه، وعليه يا بني آدم! ويسمى ذلك أباً، وفي إضافتهم إلى إسرائيل، تشريف لهم بذكر نسبتهم لهذا الأصل الطيب، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

ونقل عن أبي الفرج ابن الجوزي: أنه ليس لأحد من الأنبياء غير نبينا محمد ﷺ اسمان إلا يعقوب، فإنه يعقوب، وهو إسرائيل ونقل الجوهري في «صحاحه»: أن المسيح اسمٌ علم لعيسى لا اشتقاق له. وذكر البيهقيُّ عن الخليل بن أحمد، خمسةٌ من الأنبياء ذوو اسمين: محمد وأحمد نبينا ﷺ، وعيسى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل.

والمراد بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ من كان بحضرة رسول الله ﷺ بالمدينة وما وَالاها من بني إسرائيل، أو من أسلم من اليهود وآمن

(١) البحر المحيط.

بالنبي ﷺ، أو أسلاف بني إسرائيل وقدماؤهم، أقوال ثلاثة: والأقرب الأول؛ لأن من مات من أسلافهم لا يقال له: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ إلا على ضربٍ بعيدٍ من التأويل؛ ولأن من آمن منهم لا يقال له: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ إلا بمجاز بعيد.

ويحتمل قوله: ﴿ٱذْكُرُواْ﴾ الذكر باللسان، والذكر بالجنان، فعلى الأول يكون المعنى: أمرُّوا النِّعم على ألسنتكم ولا تغفلوا عنها، فإن إمرارها على اللسان ومدارستها سبب في أن لا تنسى. وعلى الثاني يكون المعنى تنبَّهُوا للنعم ولا تغفلوا عن شكرها وفي النعمة[1] المأمور بشكرها، أو بحفظها أقوالٌ: ما استودعوا من التوراة التي فيها صفة رسول الله ﷺ أو ما أنعم به على أسلافهم من إنجائهم من آل فرعون، وإهلاك عدوِّهم، وإيتائهم التوراة، ونحو ذلك قاله الحسن، والزجاج، أو إدراكهم مدَّة النبي ﷺ، أو عِلْمُ التوراة، أو جميع النعم على جميع خلقه، وعلى سلفهم وخلفهم في جميع الأوقات على تصاريف الأحوال. وأظهر هذه الأقوال: أنها ما اختصَّ به بنو إسرائيل من النعم لظاهر قوله: ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ونعم الله على بني إسرائيل كثيرةٌ، استنقذهم من بلاء فرعون وقومه، وجعلهم أنبياء وملوكاً، وأنزل عليهم الكتب المعظَّمة، وظلَّل عليهم في التيه الغمام، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى. قال ابن عباس (أعطاهم عموداً من النُّور ليضيءَ لهم باللَّيل) وكانت رءوسهم لا تتشعَّثُ، وثيابُهم لا تَبْلى، وإنما ذُكِّرُوا بهذه النعم؛ لأن في جملتها ما شهد بنبوة محمد ﷺ وهو التوراة، والإنجيل، والزبور. وليحذروا مخالفة ما دُعوا إليه، من الإيمان برسول الله ﷺ، وبالقرآن، ولأنَّ تذكير النعم السالفة يطمع في النعم الخالفة، وذلك الطمع يمنع من إظهار المخالفة، وهذه النعم وإن كانت على آبائهم فهي أيضاً نعم عليهم؛ لأن هذه النعم حصل بها النسل؛ ولأنَّ الانتساب إلى آباءٍ شرِّفوا بنعم، تعظيم في حق الأولاد. قال بعض العارفين: عبيد النعم كثيرون، وعبيد المنعم قليلون، فالله تعالى ذكَّر بني إسرائيل نعمةُ عليهم، ولما آل الأمر إلى أمة محمد ﷺ ذَكَر

---

(١) البحر المحيط.

المنعِم، فقال: ﴿اذكروني أذكركم﴾ فدلَّ ذلك على فضل أمة محمد ﷺ على سائر الأمم. وفي قوله: ﴿نِعْمَتِيَ﴾ نوع التفات، لأنه خروج من ضمير المتكلم المعظم نفسه في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ إلى ضمير المتكلم الذي لا يُشْعِرُ بذلك. وفي إضافة النعمة إليه، إشارةٌ إلى عظم قدرها، وسعة برِّها، وحسن موقعها. وفي قوله[1]: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إشعارٌ بأنهم قد نسوها بالكلية، ولم يُخطروها بالبال، لا أنهم أهملوا شكرها فقط. وتقييد النعمة بكونها عليهم؛ لأن الإنسان غيورٌ حسودٌ بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره، حمله الغيرة والحسد على الكفران والسُّخْطِ، ولذا قيل: لا تنظر إلى من هو فوقك في الدنيا، لئلاَّ تزدري نعمة الله عليك، فإنَّ مَنْ نظر إلى ما أنعم الله به عليه، حمله حُبُّ النعمة على الرضى والشكر؛ أي: احفظوا بالجنان، واشكروا باللسان نعمتي التي تفضَّلْتُ بها عليكم. ويجوز[2] في الياء من نعمتي الإسكان والفتح، والقرّاء السبعة متفقون على الفتح، وأنعمت صلة التي، والعائد محذوف، والتقدير: أنعمتها عليكم ﴿وَأَوْفُوا۟﴾؛ أي: أتمُّوا ﴿بِعَهْدِىٓ﴾ الذي قبلتم يوم الميثاق، ولا تتركوا وفاءه وهو عام في جميع أوامره، من الإيمان، والطاعة، ونواهيه، ووصاياه، فيدخل في ذلك ما عهده تعالى إليهم في التوراة، من اتِّباع محمد ﷺ والعهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً فحالاً، والمراد منه هنا: الموثق. والوصية والعهد هنا مضاف إلى الفاعل ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما ضمنت لكم من الجزاء؛ أي: أُتَمِمْ جزاءَكم بحسن الإثابة، والقبول، ودخول الجنة، والعهد هنا مضافٌ إلى المفعول، فإنَّ العَهْد يضاف إلى المعاهد والمعاهد، فإن الله عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح، بنصب الدلائل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ووعد لهم بالثواب على حسناتهم وأوَّل مراتب الوفاء منَّا: هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومن الله حقن المال والدم، وآخرها منَّا: الاستغراق في بحر التوحيد بحيث نغفل عن أنفسنا فضلاً عن غيرنا، ومن الله الفوز باللِّقاء الدائم.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى[1]: يا أولاد يعقوب! اذْكُروا بألسنتكم وبقلوبكم نعمتي التي أنعمت بها عليكم، وعلى آبائكم، من الإنجاء من فرعون، وفلق البحر، وتظليل الغمام في التيه، وإخراج الماء من الحَجَرِ، وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك من النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحْصى، واشكروا عليها بالإيمان بمحمد ﷺ، وحذف الشكْر؛ إكتفاءً بذكر النعمة ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِيٓ﴾؛ أي: أتموا وأدّوا بما أمرتكم به من الطاعات، واجتنبوا ما نهيتكم عنه من الكفر والعصيان، أو أوفوا العهد الذي جعلنا عليكم في كتبكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾؛ أي: أوف لكم وأتمم بما عاهدته لكم عليّ، وضمنته لكم، من الجزاء بإثابتكم وإدخالكم الجنة ﴿وَإِيَّٰىَ﴾ لا غيري ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾؛ أي: خافوني فيما تأتونه وفيما تذرونه؛ أي: خافوا عقابي في نقض ذلك العهد، فإن عذابي لشديد. ونصب[2] ﴿إياي﴾ بمحذوف، تقديره: وإياي ارهبوا، فارهبوني فيما تأتون وتذرون، وخصوصاً في نقض العهد لا بٱرْهَبونِ فإنه قد أخذ مفعوله، والأصل: ارهبوني، لكن حذفت الياء تخفيفاً؛ لموافقة رؤوس الآي، والفاء الجزائية دالة على تضمن الكلام معنى الشرط، كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئاً فارهبوني لا غيري. والرهبة: خوف معه تحرز، والآية متضمنة للوعد لقوله: ﴿أُوفِ﴾ والوعيد لقوله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ دالة على وجوب الشكر. والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي له أن لا يخاف أحداً إلا الله؛ للحصر المستفاد من تقديم إياي، والمعنى[3]: أي: لا ترهبوا ولا تخافوا إلا من بيده مقاليد الأمور كلها، وهو الله الذي أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى، وهو القادر على سلبها منكم، وعلى عقوبتكم على ترك الشكر عليها، ولا يرهب بعضكم بعضاً خوف فوت بعض المنافع، ونزول بعض الأضرار، إذا أنتم اتبعتم الحق، وخالفتم غيركم من الرؤساء.

وقيل: المراد بالنعمة نعمة النبوة التي اصطفاهم بها زماناً طويلاً، حتى

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

كانوا يسمون شعب الله، وهذه المكرمة التي أوتوها، والنعمة التي اختصوا بها، وكانوا مفضلين بها على الأمم والشعوب، تقتضي ذكرها وشكرها، ومن شكرها الإيمان بكل نبي يرسله الله سبحانه لهداية البشر، لكنهم جعلوا هذه النعمة حجة للإعراض عن النبي ﷺ، والازدراء به، زعماً منهم أن فضل الله محصور فيهم، فلا يبعث الله نبياً إلا منهم؛ ولو نظر بنو إسرائيل إلى العهد العام، أو إلى العهود الخاصة المعروفة في كتابهم الذي أنزل الله إليهم. ومنها: أنه سيرسل إليهم نبياً من بني عمهم إسماعيل، يقيم شعباً جديداً لآمنوا بالنبي ﷺ، واتبعوا النور الذي أنزل معه، وكانوا من الفائزين. أما عهد الله لهم، فأن يمكن لهم في الأرض المقدسة، ويرفع من شأنهم، ويخفض لهم العيش فيها، وينصرهم على أعدائهم الكفرة، ويكتب لهم السعادة في الآخرة.

وقرأ الزهري[1]: ﴿أوَفِّ﴾ بعهدكم مشدداً، ويحتمل أن يراد به التكثير، وأن يكون موافقاً للمجرد. وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿فارهبوني﴾ بالياء على الأصل. ولما كان من مواضع الوفاء بالعهد، خوف بعضهم من بعض، ذكر هنا أن الخوف يجب أن يكون من الله تعالى وحده، فقال: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ وبعد أن ذكر الوفاء بالعهد العام، انتقل إلى العهد الخاص المقصود من السياق، فقال: ﴿وَءَامِنُواْ﴾ يا بني إسرائيل: ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ إفراد الإيمان[2] بالقرآن بالأمر به، بعد اندراجه تحت العهد؛ لَمَّا أنَّه العمدة القصوى في شأن الوفاء بالعهد؛ أي: صدقوا بهذا القرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ أي: حال كون القرآن مصدقاً للتوراة؛ لأنه نازل حسبما نُعِت فيها، وتقييد المنزل بكونه مصدقاً لما معهم؛ لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر، فإن إيمانهم بما معهم، مما يقتضي الإيمان بما يصدقه قطعاً ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ﴾ فريق ﴿كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن، فإن وزر المقتدي يكون على المبتدىء كما يكون على المقتدي؛ أي[3]: لا تسارعوا إلى الكفر به؛

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

فإن وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به؛ لَمَّا أنكم تعرفون شأنه وحقيقته بطريق التلقي، مما معكم من الكتب الإلٰهية، كما تعرفون أبناءَكم، وقد كنتم تستفتحون به وتبشرون، فلا تضعوا موضع ما يتوقع منكم، ويجب عليكم ما لا يتوهم صدوره عنكم، من كونكم أول كافر به. ودلت الآية: على أنه ﷺ قدم المدينة، فكذبه يهود المدينة، ثم بنو قريظة، وبنو النضير، ثم خيبر، ثم تتابعت على ذلك سائر اليهود. وإنما[1] قال: أول كافر به، مع أنه قد تقدمهم إلى الكفر به كفار قريش؛ لأن المراد أول كافر به من أهل الكتاب؛ لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء، وما يلزم من التصديق. وقيل: مفهوم الصفة غير مراد هنا، فلا يرد ما يقال: إن المعنى: ولا تكونوا أول كافر بل آخر كافر، وإنما ذكرت الأولية؛ لأنها أفحش لما فيها من الابتداء بالكفر. وقيل: الضمير في به عائد إلى النبي ﷺ؛ أي: لا تكونوا أول كافر بهذا النبي، مع كونكم قد وجدتموه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، مبشراً به في الكتب المنزلة عليكم. وقيل: عائد إلى التوراة المدلول عليها بقوله: ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾، وإنما قال: أول كافر به بالإفراد، ولم يقل كافرين: حتى يطابق ما قبله؛ لأنه وصف لموصوف محذوف مفرد اللفظ، متعدد المعنى، نحو: فريق، أو فوج. وقال الأخفش، والفراء: إنه محمول على معنى الفعل؛ لأن المعنى أول من كفر، وقد يكون من باب قولهم: هو أظرف الفتيان، وأجمله، كما حكى ذلك سيبويه، فيكون هذا المفرد قائماً مقام الجمع.

والمعنى[2]: وآمنوا يا أهل الكتاب! بما أنزلته على محمد ﷺ، من القرآن، وصدقوا أنه من عندي، حالة كون ذلك المنزل مصدقاً، وموافقاً لما معكم؛ أي: للكتاب الذي معكم من التوراة والإنجيل في التوحيد، وصفة محمد ﷺ، وبعض الشرائع، ولا تكونوا أيها اليهود أول من يكفر بهذا القرآن من أهل الكتاب؛ لأنكم إذا كفرتم به كفر أتباعكم، فتكونوا أئمة في الضلال، أو لا تكونوا أول من جحد مع المعرفة؛ لأن كفر قريش مع الجهل لا مع المعرفة.

---

(١) الشوكاني.

(٢) العمدة.

ومفهوم الأولية معطل[1].

ومعنى الآية: لا تكفروا به، فتكونوا أولاً بالنسبة لمن بعدكم من ذريتكم، فتبوءُوا بإثمكم وإثمهم، فهذا أبلغ من قوله ولا تكفروا؛ لأن فيه إثماً واحداً؛ أي: بل يجب أن تكونوا أول من آمن به، لأنكم أهل نظرٍ في معجزاته وعلمٍ بشأنه ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾؛ أي: لا تأخذوا لأنفسكم بدلاً منها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هي الحظوظ الدنيوية، فإنها وإن جلَّت قليلة مسترذلة بالنسبة إلى ما فاتهم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان. قيل: كانت عامتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم، ويُهْدُون إليهم الهدايا، ويعطونهم الرُّشا على تحريفهم الكلم، وتسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرائع. وكان مُلوكهم يُجْرُونَ عليهم الأموال؛ ليكتموا ويحرفوا، فلما كانت لهم رياسة عندهم، ومآكل منهم، خافوا أن يذهب ذلك منهم؛ أي: من الأحبار لو آمنوا بمحمد واتبعوه، وهم عارفون صفته وصدقه، فلم يزالوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويغيرون نعت محمد ﷺ، كما حكي أن كعب بن الأشرف قال لأَحْبَارِ اليهودِ: ما تقولون في محمد؟ قالوا: إنه نَبِيٌّ. قال لهم: كان لكم عندي صلة وعطية لو قلتم غير هذا. قالوا: أجبناك من غير تفكر، فأمهلنا نتفكر وننظر في التوراة، فخرجوا، وبدَّلوا نعت المصطفى بنعت الدَّجال، ثم رجعوا وقالوا ذلك، فأعطى كلَّ واحد منهم صاعاً من شعير، وأربعة أذرع من الكِرْباس، فهو القليل الذي ذكره الله سبحانه في هذه الآية الكريمة.

والمعنى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾؛ أي: لا تأخذوا بكتمان آياتي؛ أي: بكتمان محمد ﷺ المذكور في كتابكم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا من سفلتكم يعني: لا تكتموها خوف فوات ما تأخذونه من سفلتكم.

وعبارة «الجمل» هُنَا[2]: وذلك أن كعب بن الأشرف، ورؤساء اليهود، وعلماءَهم كانوا يصيبون المآكل من سفلتهم وجهالهم، وكانوا يأخذون منهم في كل سنة شيئاً معلوماً من زرعهم، وثمارهم، ونقودهم، فخافوا أنهم إن بيَّنوا صفة

---

(١) الفتوحات.

(٢) الفتوحات.

محمد وتبعوه تفوتهم تلك الفوائد، فغيروا نعته بالكتابة، فكتبوا في التوراة بدل أوصافه أضدادها، وكانوا إذا سئلوا عن أوصافه كتموها، ولم يذكروها، فأشار إلى التغيير بالكتابة بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ وإلى الكتمان بقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾. اهـ. ﴿وَإِيَّايَ﴾ لا غيري ﴿فَاتَّقُونِ﴾؛ أي: فاخشون في أمر محمد ﷺ، لا ما يفوتكم من الرئاسة؛ أي[1]: فاتقون بالإيمان واتباع الحق، والإعراض عن حطام الدنيا وأعاده؛ لأن معنى الأول اخشوني في نقض العهد، وهذا معناه في كتمان نعت محمد ﷺ، أو لأنَّ الخطاب بالآية الأولى، لمَّا عَمَّ العالِم والمقلِّد أمرهم بالرهبة التي هي مبدأ السُّلوك، وبالثانية لمَّا خصَّ أهل العلم، أمرهم بالتقوى الذي هو منتهاه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾؛ أي: ولا تَخْلُطوا ﴿الْحَقَّ﴾ المنزَّل من عندي في أوصاف محمد ﷺ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ المخترع من عندكم؛ أي: لا تخلطوا الحقَّ الذي أنزلت عليكم في التوراة، من صفة محمد ﷺ بالكذب الذي تكتبونه بأيديكم، من تغيير صفته، وتبديل نعته، وهو معطوف[2] على ما قبله. واللَّبس بالفتح: الخلط؛ أي: لا تخلطوا الحقَّ المنزَّل بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه حتى لا يُميَّز بينهما، أو لا تجعلوا الحقَّ ملتبساً، بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله، أو تذكرونه في تأويله.

وفي «البحر» ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾؛ أي: الصدق[3] بالكذب، قاله ابن عباس، أو اليهودية والنصرانية بالإسلام، قاله مجاهد، أو التوراة بما كتبوه بأيديهم فيها من غيرها، أو بما بَدَّلُوا فيها من ذكر محمد ﷺ، قاله ابن زيد، أو الأمانة بالخيانة؛ لأنهم ائتُمِنُوا على إبداء ما في التوراة، فخانوا في ذلك بكتمانه وتبديله، أو الإقرار بنبوة محمد ﷺ إلى غيرهم، وجحدهم أنه ما بعث إليهم، قاله أبو العالية، أو إيمان منافقي اليهود بإبطان كفرهم، أو صفة النبي ﷺ بصفة

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

الدجال. وظاهر هذا التركيب: أن الباء في قوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ للإلصاق كقولهم: خلطت الماء باللبن، فكأنهم نُهُوا عن أن يخلطوا الحقَّ بالباطل فلا يتميز الحق من الباطل. انتهى.

﴿و﴾ لا ﴿تكتموا الحق﴾ مجزوم[1] عطفاً على تلبسوا، والمعنى: النَّهْيُ عن كل واحد من الفعلين، كما قالوا: لا تأكل السمك وتشرب اللبن بالجزم، نهياً عن كل واحد من الفعلين، أو منصوب بإضمار أن، وعلى الأول يكون كل واحد من اللَّبس والكتم منهياً عنه، وعلى الثاني يكون المنهيُّ عنه هو الجمع بين الأمرين، ومن هذا يظهر رجحان دخوله تحت حكم النهي، وأنَّ كل واحد منهما لا يجوز فعله على انفراده، والمراد: النهي عن كتم حجج الله التي أوجب تبليغها، وأخذ عليهم بيانها. وجملة قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حالية من واو الفاعل في الفعلين؛ أي: حالة كونكم عالمين بأنكم لابسون كاتمون، أو أنتم تعلمون أنه حقٌّ نبيٌّ مرسل، قد أنزل عليكم ذكره في كتابكم، فجحدتم نبوته مع العلم به، أو المعنى: وأنتم تعلمون ما في إضلال الخلق من الضرر العظيم العائد عليكم، وليس إيراد الحال لتقييد المنهي به، بل لزيادة تقبيح حالهم، إذ الجاهل قد يُعْذر.

وقد أبانت الآية طريقهم في الغواية والإغواء، فقد جاء في كتبهم[2]:

١ ـ التحذير من أنبياء كذبةٍ يبعثون فيهم، وتكون لهم عجائب وأفاعيل تدهش الألباب.

٢ ـ أن الله سبحانه يبعث فيهم نبياً من ولد إسماعيل، يقيم به أمةً، وأنه يكون من ولد الجارية هاجر، وبيَّن علاماتٍ واضحةً له لا لَبْس فيها ولا اشتباه، فأخذ الأحبار والرهبان يلبسُّون على العامَّة الحقَّ بالباطل، ويوهمونهم أنَّ النبي ﷺ من أولئك الأنبياء الكذبة، الذين وُصفوا في التوراة بالكذب، ويكتمون ما يعرفونه من أوصافٍ لا تنطبق إلا عليه، وما يعرفونه من نعوت الأنبياء الصادقين؛ وسبيل دعوتهم إلى الله أنهم كانوا يصدونهم عن السبيل القويم، بعدم الإيمان بالنبي ﷺ،

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

بزيادات يتحدَّثُونها، وتقاليد يبتدعونها بضروبٍ من التأويل، والاستنباط من كلام بعض سلفهم وأفعالهم، ويحكِّمونها في الدين، ويحتجُّون بأن الأقدمين كانوا أعلم بكلام الأنبياء وأشدَّ اتباعاً لهم، فعلى مَنْ بعدهم أنَّ يأخذ بكلامهم دون كلام الأنبياء الذي يصعب علينا فهمه بزعمهم، لكن[1] هذه المعذرة لم يتقبَّلها الله منهم، ونسب إليهم اللبس والكتمان للحق الذي في التوراة إلى يومنا هذا، كما لم يتقبَّل ممن بعدهم من العلماء في أيِّ شريعةٍ ودينٍ، أن يتركوا كتابه ويتبعوا كلام العلماء بتلك الحجة عينها، فكل ما يُعلم من كتاب الله، يجب علينا أن نعمل به، وما لا يعلم يُسأل عنه أهل الذكر، ومتى فهمناه وعلمناه عملنا به. قال في «التيسير» ويجوز صرف الخطاب إلى المسلمين، وإلى كل صنف منهم، وبيانه أن يقال: أيُّها السلاطين! لا تخلطوا العدل بالجور، ويا أيها القضاة! لا تخلطوا الحكم بالرشوة، وهكذا كل فريق. وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل، فهي تتناول مَن فعل فعلهم، فمن أخذ رشوة على تغيير حق وإبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه وقد تعيَّن عليه أداؤه، حتى يأخذ عليه أجراً، فقد دخل في حكم الآية. اهـ.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ تعلَّم علماً لا يبتغي به وجه الله، لا يتعلَّمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»؛ أي: ريحها. فمن[2] رهب وصاحَب التقوى، لا يأخذ على علمه عوضاً، ولا على وصيته ونصيحته صفداً، بل يبين الحق ويصدع به، ولا يلحقه في ذلك خوفٌ ولا فزع. وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعن أحدَكم هيبةُ أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان»، وفي التنزيل ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ قال القرطبي: وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والعلم لهذه الآية ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ والفتوى في هذا الزمان، على جواز الاستئجار لتعليم القرآن، والفقه، وغيره؛ لئلا يضيع. وفي الحديث «إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله». والآية في حق من تعيَّن عليه التعليم، فأبى حتى يأخذ عليه

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أجراً، فأما إذا لم يتعيَّن، فيجوز له أخذ الأجرة، بدليل السنة في ذلك، كما إذا كان الغَسَّال في موضع لا يوجد فيه من يغسل الميت غيره، كما في القرى، والنَّواحي، فلا أجر له لتعيُّنه لذلك، وأما إذا كان ثمَّة ناسٌ غيره، كما في الأمصار، والمدن، فله الأجر حيث لم يتعيَّن عليه، فلا يأثم بالترك، وقد يتعيَّن عليه، إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه، ولا على عياله، فلا يجب عليه التعليم، وله أن يقبل على صنعته، وحرفته، ويجب على الإمام أن يُعيِّن له شيئاً، وإلا فعلى المسلمين؛ لأنَّ الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ لمَّا وُلي الخلافة وعُيِّنَ لها، لم يكن عنده ما يقيم به أهله، فأخذ ثياباً، وخرج إلى السوق، فقيل له في ذلك، فقال: ومن أين أنفق على عيالي، فردوه وفرضوا له كفايته. وكذا يجوز للإمام، والمؤذن، وأمثالهما أخذ الأجرة، وبيع المصحف ليس بيع القرآن، بل هو بيع الورق وعمل أيدي الكاتب.

وقالوا في زماننا: تغيَّر الجواب في بعض المسائل، لتغيُّر الزمان، وخوف اندراس العلم والدِّين.

منها: ملازمة العلماء أبواب السلاطين.

ومنها: خروجهم إلى القرى لطلب المعيشة.

ومنها: أخذ الأجرة لتعليم القرآن، والأذان، والإمامة.

ومنها: العزل عن الحُرَّة بغير إذنها.

ومنها: السلام على شربة الخمور، ونحوها، فأُفتي بالجواز فيها، خشية الوقوع فيما هو أشدُّ منها وأضرُّ. كذا في «نصاب الأحساب»، وغيره.

ثم ذكر لزوم الشرائع لهم بعد الإيمان، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خطابٌ[1] لبني إسرائيل؛ أي: اقبلوا يا بني إسرائيل! وجوب الصلوات الخمس المفروضة، واعتقدوا فرضيتها، وأدوها بشرائطها، وأركانها، وآدابها في أوقاتها المحدودة لها، كصلاة المسلمين، فإن غيرها كـ: لا صلاة ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: اعطوا

---

(١) روح البيان.

الزكاة الواجبة في أموالكم، وأدوها إلى مستحقيها، كزكاة المؤمنين، فإن غيرها كـ: لا زكاة. والزكاة: من زكى الزرع إذا نمىٰ، فإنَّ إخراجها يستجلب بركة في المال، ويثمر للنفس فضيلة الكرم، أو من الزكاة بمعنى الطهارة، فإنها تُطهِّر المال من الخبث، والنَّفْس من البُخْل ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ أي: صلوا الصلوات الخمس مع المصلين محمدٍ وأصحابه في جماعتهم، فإنَّ صلاة الجماعة تفضل صلاة الفَذِّ بسبع وعشرين درجة؛ لما فيها من تظاهر النُّفوس، فإن الصلاة كالغَزْو والمحراب كمحل الحرب ولا بد للقتال من صفوف الجماعة، فالجماعة قُوَّةٌ.

وخصَّ الله سبحانه وتعالى الركوع بالذكر؛ تحريضاً لليهود على الإتيان بصلاة المسلمين، فإن اليهود لا ركوع في صلاتهم، فكأنَّه تعالى قال: صلُّوا الصلاة ذات الركوع في جماعة. وقيل: لكونه ثقيلاً على أهل الجاهلية. وقيل: إنه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة، والركوع الشرعيُّ: هو أن ينحني المصلِّي، ويمدَّ ظهره وعنقه، ويفتح أصابع يديه، ويقبض على ركبتيه، ثم يطمئن راكعاً ذاكراً بالذكر المشروع فيه.

والخلاصة(١): أنه سبحانه وتعالى، بعد أن دعا بني إسرائيل إلى الإيمان، أمرهم بصالح عملٍ على الوجه المقبول عند الله، فطلب إليهم إقامة الصلاة؛ لتطهِّر نفوسهم، كما طلب إليهم إيتاء الزكاة التي هي: مظهر شكر الله على نعمه، والصلة العظيمة بين الناس؛ لما فيها من بذل المال لمواساة عيال الله، وهم الفقراء؛ ولما بين الناس من تكافُلٍ عامٍ في هذه الحياة، فالغنيُّ في حاجةٍ إلى الفقير، والفقير في حاجةٍ إلى الغني، كما ورد في الحديث «المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضه بعضاً».

وبعد(٢) إذ أمرهم بالركوع مع الراكعين؛ أي: أن يكونوا في جماعة المسلمين ويصلُّوا صلاتهم، وقد حثَّ على صلاة الجماعة؛ لما فيها من تظاهر النفوس عند مناجاة الله، وإيجاد الألفة بين المؤمنين؛ ولأنه عند اجتماعهم

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

يتشاورون في دفع ما ينزل بهم من البأساء، أو يجلب لهم السرَّاء. ومن ثم جاء في الخبر: «صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة» وعبر عن الصلاة بالركوع؛ ليبعدهم عن الصلاة التي كانوا يصلونها قبلاً، إذ لا ركوع فيها.

والخطاب في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ موجَّهٌ إلى حملة الكتاب من الأحبار والرهبان. فقد روي عن ابن عباس: أنَّ الآية نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرون من نصحوه سراً بالإيمان بمحمد ﷺ، ولا يؤمنون به. وقال السدّيُّ: إنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى، وينهونهم عن معصيته، وهم يفعلون ما ينهون عنه. والاستفهام[1] فيه للتوبيخ، والتقريع لهم على ما فعلوا من أمر الناس، وترك أنفسهم المضمَّن للإنكار والنهي، ونظيره في النهي، قول أبي الأسود الدؤليّ:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتِيَ مِثْلَه عارٌ عليك إذا فعَلْتَ عظيمُ

وقال الآخر:

وابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّها فَإن انْتَهَتْ عَنْهُ فَأنْتَ حَكِيمُ

فيقبح في العقول أن يأمر الإنسان بخير وهو لا يأتيه، وأن ينهى عن سُوءٍ وهو يفعله. وفي تفسير البرِّ هنا أقوالٌ: الثَّبات على دين رسول الله ﷺ، وهم لا يتبعونه، أو اتباعُ التوراة وهم يخالفونها في جحدهم صفته ﷺ. ورُوي عن قتادة، وابن جريج، والسدي: أو على الصدقة ويبخلون، أو على الصِدق وهو لا يصدقون، أو على الصلاة، والزكاة وهم لا يأتونهما. وقال القشيري: أتحرضون الناس على البدار، وترضون بالتخلُّف. وقال: أتدعون الخلق إلينا، وتقعدون عنا، ونحو ذلك.

والأمر[2]: القول لمن دونك افعل، والمراد بالناس سفلتهم. والبِرُّ: التوسع في الخير، من البَرّ الذي هو الفضاء الواسع ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي:[3] تتركونها

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

من البر، كالمنسيَّات، لأنَّ أصل السهو، والنسيان الترك، إلا أن السهو يكون لما علمه الإنسان، ولما لم يعلمه. والنسيان لما عزب بعد حضوره، كانوا يقولون لفقرائهم الذين لا مطمع لهم فيهم بالسرِّ: آمنوا بمحمد، فإنه حقٌّ، وكانوا يقولون للأغنياء: نرى فيه بعض علامات نبي آخر الزمان دون بعضٍ، فانتظروا، استيفاء لما ينالون منهم، ويؤخِّرون أمور أنفسهم، فلا يتبعونه في الحال، مع عزيمتهم أن يتبعوه يوماً، وكذا حال من تمادى في العصيان، وهو يقول: أتوب عند الكبر والشيب، وربَّما يَفجَؤُه الموت، فيبقى في حسرة الفوت ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ﴾؛ أي: والحال أنكم تقرؤون التوراة الناطقة بنعوته ﷺ، الآمرة بالإيمان به ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أتدومون على ذلك، فلا تفهمون أنه قبيحٌ، فترجعون عنه؛ أي: أليس لكم عقل تعرفون به، أنه قبيحٌ منكم عدم إصلاح أنفسكم، والاشتغال بغيركم؟!.

والعقل في الأصل: المنع والإمساك، ومنه العقال الذي يُشَدُّ به وظيف البعير إلى ذراعيه لحبسه عن الحراك، سمي به النور الروحانيُّ الذي به تدرك النفس العلوم الضروريَّة، والنظرية؛ لأنه يحبس عن تعاطي ما يقبح، ويعقل على ما يحسن، ومحله الدماغ؛ لأنَّ الدماغ محلُّ الحسِّ، وعند البعض محلُّه القلب؛ لأنَّ القلب معدن الحياة ومادَّة الحواس، وعند البعض هو نورٌ في بدن الآدمي والله أعلم. والأوَّل أرجح، ثم هذا التوبيخ ليس على أمر الناس بالبر، بل لترك العمل به، فمدار الإنكار والتوبيخ هي الجملة المعطوفة، وهي جملة تنسون أنفسكم، دون ما عطفت هي عليه، وهي أتأمرون الناس بالبر. ولا يستقيم قول: من لا يجوِّز الأمر بالمعروف لمن لا يعمل به لهذه الآية، بل يجب العمل به، ويجب الأمر به، وقد جاء في الخبر «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به، وَانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه»، وذلك؛ لأنه إذا أمر به مع أنه لا يعمل به، وفقد ترك واجباً، وإذا لم يأمر به، فقد ترك واجبين، فالأمر بالحسن حسنٌ وإن لم يعمل به، ولكن قلَّما نفعت موعظة من لم يعظ نفسه. ومن أمر بخير، فليكن أشد الناس مسارعةً إليه، ومن نهى عن شيء، فليكن أشدَّ الناس انتهاءً عنه.

وهذه الآية كما ترى، ناعِيةٌ على من يعظ غيره، ولا يعظ نفسه سوء

صنيعه، وعدم تأثره، وإن فعله فعل الجاهل بالشَّرْع، أو الأحمق الخالي عن العقل. والمراد[1] بها: حثُّ الواعظ على تزكية النفس، والإقبال عليها بالتكميل؛ لتقوم بالحق، وتقيم غيرها، لا منع الفاسق من الوعظ، فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما، لا يوجب الإخلال بالآخر.

ويروى أنه كان عالم من العلماء، مؤثِّر الكلام، قويَّ التصرف في القلوب، وكان كثيراً ما يموت من أهل مجلسه واحدٌ، أو اثنان من شدة تأثير وعظه. وكان في بلده عجوز لها ولدٌ صالح، رقيق القلب، سريع الانفعال، وكانت تحترز عليه، وتمنعه من حضور مجلس الواعظ، فحضره يوماً على حين غفلةٍ منها، فوقع من أمر الله تعالى ما وقع، ثُمَّ إن العجوز لقيت الواعظ يوماً في الطريق فقالت:

أتَهْدِي الأنَامَ ولا تَهْتَدي ... ألا إن ذلك لا يَنْفَعُ
فَيَا حَجَرَ السَّنّ حتى مَتَى ... تَسُنُّ الحَديدَ ولا تَقْطَعُ

وأشدُّ[2] ما قرَّع الله سبحانه في هذا الموضع، مَنْ يأمُرُ بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غَيْرُ عاملين بالعِلْم، فاستنكر عليهم أوَّلاً أمرهم للناس بالبِرِّ، مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع، ونادوا به في المجالس؛ إيهاماً للناس بأنهم مبلغون عن الله ما يتحمَّلُونه من حججه، ومبيِّنون لعباده ما أمرهم ببيانه، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه، وهم أترك الناس لذلك، وأبعدهم من نفعه، وأزهدهم فيه.

وهذا الخطاب[3] وإن كان موجهاً إلى اليهود، فهو عبرة لغيرهم، فلتنظر كل أمة أفراداً وجماعاتٍ في أحوالها، ثم لتحذر أن يكون حالها كحال أولئك القوم، فيكون حكمها عند الله حكمهم، فالجزاء إنما هو على أعمال القلوب والجوارح، لا على صنف خاصٍ من الشعوب والأفراد. وبعد أن بيَّن سبحانه

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

سوء حالهم، وذكر أن العقل لم ينفعهم، والكتاب لم يُذكِّرهم، بيَّن[١] لهم طريق التَّغلُّب على الأهواء والشهوات، والتخلُّص من حب الرئاسة والوجاهات، فقال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾ يا بني إسرائيل! على ترك ما تحبون من الدنيا، وعلى الدخول في دين محمد ﷺ، الذي كان أثقل ثقيلٍ عليكم؛ أي: اطلبوا المعونة والمساعدة على ذلك ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾؛ أي: بحبس النفس عن الشهوات، ومنعها عنها، وبتحَمُّلِ ما يشق عليها من التكاليف الشرعية، كالصوم ﴿وَ﴾ بأداء ﴿الصَّلاةِ﴾ المفروضة التي هي عماد الدين، وجامعةٌ لأنواع العبادات، وناهيةٌ عن الفحشاء والمنكر، أو استعينوا[٢] على قضاء حوائجكم، بانتظار الظفر والفرج، توكُّلاً على الله تعالى، أو بالصوم الذي هو صَبْرٌ عن المفطرات، لما فيه من كسر الشهوة، وتصفية النفس ﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾؛ أي الناهية عن الفحشاء والمنكر. وقدَّم الصبر عليها؛ لأنه مقدِّمة الصلاة، فإنَّ من لا صبر له، لا يقدر على إمساك النفس عن الملاهي حتى يشتغل بالصلاة، فلا يمكن حصولها كاملةً إلا به. اهـ. «كرخي»: أي: استعينوا بالتوسُّل... الخ؛ أي: بالتوسل بالصلاة، والإلتجاء إليها حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب، وجبر المصائب، كأنهم؛ أي: بني إسرائيل، لمَّا أُمروا بما شقَّ عليهم، لما فيه من ترك الشهوة، وترك الرياسة، والإعراض عن المال، عُولجُوا بذلك.

وروى أحمد أنه ﷺ: كان إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة ورُوي أن ابن عباس - رضي الله عنهما - نُعِي له بنت وهو في سفر، فاسترجع وقال: (عورةٌ سترها، ومؤونةٌ كفاها، وأجر ساقه الله، ثم تنحَّى عن الطريق وصلَّى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾).

واعلم: أنَّ الصبر[٣] الحقيقيَّ إنما يكون، بتذكُّر وعد الله بحسن الجزاء، لمن صبر عن الشهوات المحرمة التي تميل إليها النفس، وعمل أنواع الطاعات

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

التي تشق عليها، والتفكر في أن المصائب بقضاء الله وقدره، فيجب الخضوع له، والتسليم لأمره. والاستعانة به تكون باتباع الأوامر، واجتناب النواهي بقمع النفس عن شهواتها، وحرمانها لذاتها، وتكون بالصلاة؛ لما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر؛ ولما فيها من مراقبة الله تعالى في السر والنجوى، وناهيك بعبادةٍ يناجي فيها العبد ربه في اليوم خمس مرات.

﴿وَإِنَّهَا﴾؛ أي: وإن الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾؛ أي: لثقيلة شاقَّةٌ ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾؛ أي: إلا على المتواضعين المستكينين إلى طاعة الله تعالى، الخائفين من سطوته، المصدِّقين بوعده ووعيده. وقال ابن جرير: معنى الآية[1]: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على الخاشعين؛ أي: المتواضعين المستكينين لطاعة الله، المتذللين من مخافته. هكذا قال والظاهر[2]: أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، فإنها عامة لهم ولغيرهم. والله أعلم.

وفي «البحر»: أنَّ الضمير في ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ عائدةٌ على الصلاة، هذا ظاهر الكلام، وهو القاعدة في علم العربية، أن ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل. وقيل: يعود على الاستعانة، وهو المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ فيكون مثل: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ﴾؛ أي: العدل أقرب. وقيل: غير ذلك، وأظهرها ما بدأنا به أولاً. انتهى.

والاستثناء في قوله[3]: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ مفرغ؛ لأن المعنى: وإنها لكبيرة على كل أحد إلا على الخاشعين؛ أي: وإن الصلاة لشاقَّةٌ صعبة الاحتمال، إلا على المخبتين لله، الخائفين من شديد عقابه، وإنما[4] لم تثقل على هؤلاء؛ لأنهم

---

(١) الطبري.
(٢) ابن كثير.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

مستغرقون في مناجاة ربهم، فلا يشعرون بشيء من المتاعب والمشاق. ومن ثم قال ﷺ «وجُعلت قرة عيني في الصلاة»؛ لأنَّ اشتغاله بها كان راحةً له، وكَان غيْرُها من أعمال الدنيا تعباً؛ ولأنهم مترقبون ما ادَّخروا من الثواب، فتَهُون عليهم المشاق. ومن ثم قيل للربيع بن خثيم، وقد أطال صلاته: أتعبت نفسك، قال: راحتها أطلب. وقيل: من عرف ما يطلب، هان عليه ما يبذل، ومن أيقن بالخَلَفِ، جاد بالعطية.

ثُمَّ وصف الخاشعين بأوصاف تقربهم إلى ربهم، وتدعوهم للإخبات إليه، فقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ ويوقنون، ويعلمون، ويعتقدون اعتقاداً جازماً في كل لحظة ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ملاقوا جزائه بالموت. والمفاعلة هنا، ليست على بابها، ولا أرى بأساً في حملها على معناها الأصليِّ من دون تقدير مضاف؛ أي: أنهم معاينوه، وراؤوه، وهو كناية عن شهودهم مشهد العرض والسؤال يوم القيامة، وهو الوجه فيما يروى في الأخبار، نحو: لقي الله وهو عليه غضبان، وما يجري مجراه؛ أي: يعتقدون في كل لحظة اعتقاداً جازماً أنهم يبعثون، ويرون ربهم، ويحاسبون على أعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى ربهم ﴿رَٰجِعُونَ﴾ في الآخرة؛ أي: إلى جزائه إياهم، فيجازيهم بأعمالهم؛ أي: يصدِّقون بالبعث، والحساب، والمجازاة، وأمَّا الذين لا يوقنون بالجزاء، ولا يرجون الثواب، ولا يخافون العقاب، كانت عليهم مشقةٌ خالصة، فتثقل عليهم، كالمنافقين، والمرائين. فالصبر على الأذى والطاعات، من باب جهاد النفس، وقمعها عن شهواتها، ومنعها من تطاولها، وهو من أخلاق الأنبياء، والصالحين. قال يحيى بن اليمان: الصبر: أنَّ لا تتمنَّى حالةً سوى ما رزقك الله، والرضى بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك، وهو بمنزلة الرأس من الجسد. اهـ.

فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ مع قوله: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ مع أن الأول يغني عن الثاني؟.

قلت: لا يغني عنه؛ لأنَّ المراد بالأول: أنهم ملاقو ثواب ربهم على الصبر

والصلاة وبالثاني: أنهم موقنون بالبعث وبحصول الثواب على ما ذكر.

والخلاصة[1]: أي لا تثقل الصلاة على الخاشعين الذين يتوقعون لقاء ربهم يوم الحساب والجزاء، وأنهم راجعون إليه بعد البعث، فيجازيهم بما قدموا من صالح العمل. وعبر بالظن؛ للإشارة إلى أن من ظن اللقاء لا تشقُّ عليه الصلاة، فما ظنك بمن يتيقنه، ومن ثم كان الاكتفاء بالظن أبلغ في التقريع والتوبيخ، فكأنَّ هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، لم يصل إيمانهم بكتابهم إلى درجة الظن الذي يأخذ صاحبه بالأحوط في أعماله، ثم ذكَّرهم سبحانه وتعالى، بنعمه، وآلائه العديدة مرة أخرى، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: يا أولاد العبد الصالح! المطيع لربه، المسمى بإسرائيل؛ أي: بعبد الله ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾؛ أي: اشكروا ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ﴾ بها ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي[2]: على آبائكم بإنزال المنِّ والسلوى، وتظليل الغمام، وتفجير الماء من الحجر، وغيرها. وذكر النعم على الآباء، إلزام الشكر على الأبناء، فإنهم يشرفون بشرفهم، ولذلك خاطبهم، فقال: ﴿أني فضلتكم﴾ ولم يقل: فضلت آباءكم؛ لأن في فضل آبائهم فضلهم، وهذا تأكيدٌ لما تقدَّم، وتمهيدٌ لما عطفه عليه من التذكير بالتفضيل، الذي هو من أجل النعم ﴿و﴾ اذكروا ﴿أني فضلتكم﴾؛ أي: فضَّلْت آباءكم ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من عطف الخاص على العام للتشريف؛ أي: فضلت آباءكم على عالَمي زمانهم؛ بما منحتهم من العلم، والإيمان، والعمل الصالح، وجعلتهم أنبياء، وملوكاً مقسطين، وهم آباؤهم الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام وبعده، قبل أن يغيِّروا، وهذا كما قال في مريم: ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: نساء زَمَانِكِ، فإن خديجة، وعائشة، وفاطمة، أفضل منها، فلم يكن لهم فضْلٌ على أمة محمد ﷺ. قال تعالى في حقهم: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾، كما في «التيسير». فالاستغراق في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عرفيٌّ لا حقيقيٌّ والمعنى؛ أي[3]: وأعطيتكم الفضل والزيادة على

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

غيركم، بإرسال الرسل منكم، وإنزال الكتب عليكم؛ أي: على غيركم من الشعوب والأمم، حتى الأمم ذات الحضارة والمدنية، كالمصريين، وسكان الأراضي المقدَّسة. وقد ناداهم باسم أبيهم؛ لأنه منشأ فخارهم، وأصل عزهم. وأسند النعمة والفضل إليهم جميعاً؛ لشمولهما إياهم، والتفضيل إنما أتاهم؛ لتمسكهم بالفضائل، وتركهم للرذائل، إذ من يرى نفسه مفضلاً شريفاً يترفع عن الدنيا، وذكَّرهم بهذا الفضل؛ لينبِّههم إلى أن الذي فضَّلهم على غيرهم، له أن يفضل عليهم غيرهم، كمحمد ﷺ، وأمته، وإلى أنهم أجدر من جميع الشعوب، بالتأمل فيما أوتيه النبي ﷺ من الآيات، فإنَّ المفضَّل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل عليه، وهذا الفضل إن كان بكثرة الأنبياء، فلا مزاحم له فيه، ولا تقتضي هذه الفضيلة أن يكون كُلُّ فرد منهم، أفضل من كل فرد من غيرهم، ولا تمنع أن يفضلهم أخسُّ الشعوب إذا انحرفوا عن جادَّة الطريق، وتركوا سنة أنبيائهم واهتدى بهديها غيرهم، وإن كان بالقرب من الله باتباع شرائعه، فذلك إنما يتحقَّق في أولئك الأنبياء والمهتدي من أهل زمانهم، ومن تبعهم بإحسان ما داموا على الاستقامة، وسلكوا الطريق الذي استحقوا به التفضيل.

قال القشيري[1]: أشهد الله سبحانه بني إسرائيل فضل أنفسهم، فقال: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وأشهد محمداً ﷺ فضل ربه، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ وشتان بين مَن مشهوده فضل نفسه، وبين مَن مشهوده فضل ربه، وشهوده فضل نفسه، قد يورث الإعجاب، وشهوده فضل ربه، يورث الإيجاب. ثم إن اليهود كانوا يقولون: نحن من أولاد إبراهيم خليل الرحمن، ومن أولاد إسحاق ذبيح الله، والله تعالى يقبل شفاعتهما، فرد الله عليهم، فأنزل هذه الآية وقال: ﴿وَاتَّقُوا﴾؛ أي: واخشوا يا بني إسرائيل! وخافوا ﴿يَوْمًا﴾؛ أي: حساب يوم، أو عذاب يوم، وهو من إطلاق المحل وإرادة الحال، وهو يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي﴾ فيه؛ أي: لا تغني ولا تدفع فيه، أو لا تقضي ولا تؤدِّي فيه، والجملة صفة يوم، والرابط فيه محذوف، كما قدَّرنا ﴿نَفْسٌ﴾ مؤمنة ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْئًا﴾ من

---

(١) روح البيان.

عذاب الله، أو شيئاً مَّا من الحقوق التي لزمت عليها. وإيراده منكراً مع تنكير النفس؛ للتعميم والإقناط الكليّ. قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ﴾ وكيف تنفع وقد قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ الآية.

وقرأ ابن السّماك العدويُّ[1]: ﴿لاَ تُجْزِى﴾ مِنْ أجزأ؛ أي: أَغْنَى. وقيل: جزى، وأجزأ بمعنى واحد ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾؛ أي: من النفس الأولى المؤمنة. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو ﴿ولا تقبل﴾ بالتاء المثناة الفوقية، وهو القياس، والأكثر؛ لأنَّ الشفاعة مؤنثة. وقرأ الباقون بالياء التحتية، فهو أيضاً جائزٌ فصيح، لمجاز التأنيث، وحسنه أيضاً الفصل بين الفعل ومرفوعه. وقرأ سفيان[2]: ﴿وَلاَ يَقْبَلُ﴾ بفتح الياء، ونصب شفاعة على البناء للفاعل، وفي ذلك التفات، وخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب؛ لأن قبله ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ﴾ ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ وبناؤه للمفعول أبلغ؛ لأنه في اللفظ أعمُّ، وإن كان يعلم أن الذي لا يقبل هو الله تعالى؛ أي: ولا يقبل من النفس المؤمنة ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ للنفس الثانية الكافرة، إن شفعت عند الله تعالى، لتخليصها من عذابه؛ أي: لا توجد منها شفاعة فتقبل، ولا يؤذن لها فيها، والشفاعة: طلب الخير من الغير للغير، فلا[3] شفاعة في حق الكافر، بخلاف المؤمن. قال النبي ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فمن كذب بها لم ينلها» والآيات الواردة في نفي الشفاعة خاصَّةٌ بالكافر: وسبب الآية كما مرّ: أن اليهود كانوا يقولون: يشفع لنا آباؤنا الأنبياء فآيسهم الله تعالى عن ذلك، لأن الأصول لا تنفع الفروع، إلا إذا كان مع الفروع إيمان ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾؛ أي: من النفس الكافرة المشفوع لها، وهي الثانية العاصية ﴿عَدْلٌ﴾؛ أي: فداءٌ من عذاب الله من مال، أو رجل مكانها، أو توبةٌ تنجو بها من النار. والعدل بالفتح مثل الشيء من خلاف جنسه، وبالكسر مثله من جنسه، وسُمِّي به

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

الفدية؛ لأنها تساويه، وتماثله، وتجري مجراه ﴿وَلَا هُمْ﴾؛ أي: ولا أصحاب النفوس الكافرة ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ أي: يمنعون من دخول عذاب الله تعالى، ومن أيدي المعذِّبين، فلا نافع، ولا شافع، ولا دافع لهم، والضمير، لما دلَّت عليه النفس الثانية المنكرة، الواقعة في سياق النَّفي من النفوس الكثيرة، والتذكير، لكونها عبارة عن العباد والأناسي. والنصرة ههنا أخصُّ من المعونة؛ لاختصاصها بدفع الضرر.

فإن قلت: ما الحكمة في تقديم الشفاعة على العدل هنا؟ وعكسه فيما يأتي في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾.

قلت: للإشارة هنا إلى من ميله إلى حُبِّ نفسه، أشدُّ منه إلى حب المال، وثم إلى من هو بعكس ذلك والمعنى؛ أي: ليس[١] لهم أنصارٌ يمنعونهم من عذاب الله، ويدفعون عنهم عقابه يعني[٢]: أنهم يومئذٍ لا ينصرهم ناصرٌ، كما لا يشفع لهم شافعٌ، ولا يقبل منهم عدل، ولا فدية. بطلت هنالك المحاباة، واضمحلت الرُّشا، والشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون، وصار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء، والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها، وبالحسنة أضعافها. والخلاصة[٣]: أن ذلك يومٌ تتقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة الحياة الدنيا، من دفع المكروه عن النفس بالفداء، أو بشفاعة الشافعين عند الأمراء، والسلاطين، أو بأنصار ينصرونها بالحق، والباطل على سواها، وتضمحل فيه جميع الوسائل، إلا ما كان من إخلاص في العمل، قبل حلول الأجل، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله تعالى.

وقد كان اليهود كغيرهم من الأمم الوثنية، يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا، فيتوهمون أنه يمكن تخليص المجرمين من العذاب، بفداء يدفع، أو

---

(١) ابن كثير.
(٢) العمدة.
(٣) المراغي.

بشفاعة بعض المقربين إلى الحاكم، فيغيِّر رأيه، وينقض ما عزم عليه، فجاء الإسلام ومحا هذه العقيدة؛ ليعلم المؤمنون أنه لا ينفع في ذلك اليوم، إلا مرضاة الله تعالى بالعمل الصالح، والإيمان الذي يبلغ قرارة النفس، ويتجلَّى في أعمال الجوارح ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾[1] وقرىء ﴿أنجيناكم﴾ والهمزة للتعدية إلى المفعول، كالتضعيف في نجيناكم، ونسبت هذه القراءة إلى النخعي، وذكر بعضهم أنه قرأ ﴿أَنجيتكم﴾ فيكون الضمير فيه موافقاً للضمير في نعمتي، ﴿وإذ﴾ في موضع[2] نصب عطفاً على نعمتي، عطف مفصَّل على مجمل، وكذلك الظروف الآتية في الكلام المتعلق ببني إسرائيل، وينقضي عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ والخطاب للموجودين في زمن النبي ﷺ، تذكيراً لهم بما أنعم الله على آبائهم؛ لأن إنجاء الآباء سببٌ في وجود الأبناء، والمعنى: ويا بني إسرائيل! اذكروا إذ نجينا آباءَكم، وسلمناهم، وخلصناهم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: من بطش فرعون وأتباعه، وأهل دينه؛ أي:[3] واذكروا قصة وقت تنجيتنا آباءَكم فإن تنجيتهم تنجيةٌ لكم، ومن عادة العرب يقولون: قتلناكم يوم عكاظ، أي: قتل آباؤنا آباءَكم. والنجو: المكان العالي من الأرض؛ لأنَّ من صار إليه يخلص، ثم سمي كلُّ فائز ناجياً؛ لخروجه من ضيق إلى سعةٍ؛ أي: جعلنا آباءَكم بمكان حريز، ورفعناكم من الأذى. وفرعون: لقب مَنْ مَلَك العمالقة، ككسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وخاقان لمن ملك الترك، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وتُبَّع لمن ملك اليمن، والعمالقة الجبابرة، وهم أولاد عمليق بن لاود بن إرم، بن سام، بن نوح عليه السلام سكان الشام، منهم سمو الجبابرة. وملوك مصر، منهم سموا بالفراعنة، ولعتوه اشتق منه تفرعن الرجل، إذا عتا وتمرَّد، فليس المراد الاستغراق، بل الذين كانوا بمصر. وفرعون موسى: هو الوليد بن مصعب بن الريان، وكان من القبط، وعُمِّر أكثر من أربعمائة سنة. وقيل: إنه كان عطاراً

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

أصفهانياً، ركبته الديون فأفلس، فاضطر إلى الخروج فلحق بالشام، فلم يتيسَّر له المقام، فدخل مصر، فرأى في ظاهرها حملاً من البطيخ بدرهم، وفي سوقها بطيخة بدرهم، فقال في نفسه: إن تيسَّر لي أداء الديون فهذا طريقه، فخرج إلى السواد فاشترى حملاً بدرهم، فتوجه به إلى السوق، فكل من لقيه من المكاسين؛ أي: العشارين، أخذ بطيخةً، فدخل البلد وما معه إلا بطيخة، فباعها بدرهم ومضى بوجهه، ورأى أهل البلد متروكين سدًى، لا يتعاطى أحد سياستهم، وكان قد وقع بها وباءٌ عظيم، فتوجه نحو المقابر، فرأى ميتاً يدفن، فتعرض لأوليائه، فقال: أنا أمين المقابر، فلا أدعكم تدفنونه حتى تعطوني خمسة دراهم، فدفعوها إليه، ومضى لآخر وآخر، حتى جمع في مقدار ثلاثة أشهر مالاً عظيماً، ولم يتعرَّض له أحدٌ قطُّ، إلى أن تعرَّض يوماً لأولياء ميتٍ، فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم، فأبوا ذلك، فقالوا: من نصبك هذا المنصب، فذهبوا به إلى فرعون؛ أي: إلى ملك المدينة، فقال: من أنت؟ ومن أقامك بهذا المقام؟ قال: لم يقمني أحدٌ، وإنما فعلت ما فعلت؛ ليحضرني أحدٌ إلى مجلسك، فأُنبِّهك على اختلال حال قومك، وقد جمعت بهذا الطريق هذا المقدار من المال، فأحضره، ودفعه إلى فرعون، فقال: ولِّني أمورك ترني أميناً كافياً، فولاه إياها، فسار بهم سيرةً حسنة، فانتظمت مصالح العسكر، واستقامت أحوال الرعيَّة، ولبث فيهم دهراً طويلاً، وترامى أمره في العدل والصلاح، فلما مات فرعون أقاموه مقامه، فكان من أمره ما كان، وكان فرعون يوسف عليه السلام ريَّان، وبينهما أكثر من أربعمائة سنة.

وقد روى المؤرخون: أنَّ أول من دخل مصر من بني إسرائيل، يوسف عليه السلام، وانضم إليه إخوته بعد، وتكاثر نسلهم حتى بلغوا في مدى أربعمائة سنة، نحو: ستمائة ألف، حين خرجوا من مصر باضطهاد فرعون وقومه لهم إذ قد رأى تبسط اليهود في البلاد، ومزاحمتهم للمصريين، فراح يستن لهم، ويكلفهم شاقَّ الأعمال في مختلف المهن، والصناعات، وهم مع ذلك يزدادون نسلاً، ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم، لا يشركون المصريين. في شيء، ولا يندمجون في غمارهم إلى ما لهم من أنانيةٍ، وإباءٍ، وترفع على

سواهم، اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله، وأفضل خلقه؛ فهال المصريين ما رأوا، وخافوا إذا هم كثروا أن يغلبوهم على بلادهم، ويستأثروا بخيراتها، وينتزعوها من بين أيديهم، وهم ذلك الشعب النشيطُ، المُجِدّ، العامل، المفكِّر، فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم، واستحياء بناتهم، فأمر فرعون القوابل أن يقتلن كل ذكر إسرائيلي حين ولادته، فكان من أمرهم ما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ . . .﴾ إلخ.

والعبرة من هذه القصص: أنه كما أنعم على اليهود، ثُمَّ اجترحوا الآثام، فعاقبهم بصنوف البلاء، ثم تاب عليهم وأنجاهم أنعم على الأمة الإسلامية بضروب من النعم، فقد كانوا أعداءً، فألَّف بين قلوبهم، وأصبحوا بنعمته إخواناً، وكانوا مستضعفين في الأرض، فمكَّن لهم وأورثهم أرض الشعوب القوية، وجعل لهم فيها السلطان والقوة، وجعلهم أمة وسطاً لا تفريط لديها ولا إفراط، ليكونوا شهداء على من فرَّطوا، أو قصَّروا.

ثم لما كفروا بهذه النعم[1]، أذاقهم الله تعالى ألواناً من العذاب على يد التَّتار في بغداد، وفي الحروب الصليبية، إذ جاس الغربيون خلال الديار الإسلامية، ولا يزالون ينتقصون بلادهم من أطرافها، ويصبون عليهم العذاب، وهم لاهون ساهون، وكلما حلت كارثة، أو أصابتهم جائحة، أحالوا الأمر فيها على القضاء والقدر، دون أن يتعرَّفوا أسبابها، ويبادروا إلى علاجها، ويكونوا يداً واحدةً على رفع ما يحل بهم من النكبات، ويدهمهم من الويلات. وقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حالٌ من آل فرعون؛ أي: واذكروا قصة وقت تنجيتنا آباءَكم من آل فرعون وقومه، حالة كونهم يذيقونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وأشده، ويكلفونكم أشقَّ الأشغال، وأتعبها، وأصعبها. وقيل: حالٌ من ضمير المفعول في نجيناكم، والمعنى: نجيناكم مسومين منهم أقبح العذاب، كقولك: رأيت زيداً يضربه عمرو؛ أي: حال كونه مضروباً لعمرو. وذلك[2] أنَّ فرعون جعل بني إسرائيل

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

خدماً وخولاً، وصنفهم في الأعمال، فصنف يبنون، وصنفٌ يحرثون ويزرعون، وصنفٌ يخدمونه، ومن لم يكن منهم في عمل، وضع عليهم الجزية، وقال وهبٌ: كانوا أصنافاً في أعمال فرعون، فذو القوة ينحتون السواري من الجبال، ويحملونها حتى قرحت أعناقهم وأيديهم، ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفةٌ ينقلون الحجارة والطين، يبنون له القصور، وطائفة منهم يضربون اللبن، ويطبخون الآجر، وطائفة نجارون، وحدادون، والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج ضريبة، ويؤدونها كل يوم، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته، غلت يمينه إلى عنقه شهراً، والنساء يغزلن الكتان وينسجن. وقيل تفسير قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ أي: يقتلّون أبناءكم الصغار بالذبح، فهو مستأنف استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: ما حقيقة سوء العذاب الذي يذيقونهم، فأجيب بأنهم يذبحون أبناءهم؛ أي: يقتلونهم، والتشديد للتكثير، كما يقال: فتحت الأبواب، والمراد من الأبناء: هم الذكور خاصَّةً، بدليل المقابلة بما بعده، وأن الاسم يقع على الذكور والإناث في غير هذا الموضع، كالبنين في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فإنهم كانوا يذبحون الغلمان لا غير، وكذا أريد به الصغار دون الكبار؛ لأنهم كانوا يذبحون الصغار.

فإن قلت: ما الحكمة في ترك العاطف هنا في قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾؟ وذكره في سورة إبراهيم؟.

قلت: لأن ما هنا من كلام الله تعالى فوقع تفسيراً لما قبله، وما هناك من كلام موسى، وكان مأموراً بتعداد المحن في قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ فعدد المحن عليهم، فناسب ذكر العاطف. انتهى من «فتح الرحمن».

وقرأ الجمهور ﴿يُذَبِّحُونَ﴾(١) بالتشديد، وهو أولى؛ لظهور تكرار الفعل باعتبار متعلقاته. وقرأ الزهريُّ، وابن محيصن ﴿يَذْبَحون﴾ مخففاً مِنْ ذَبَح المجرد؛ اكتفاءً بمطلق الفعل، وللعلم بتكريره من متعلقاته. وقرأ عبد الله

(١) البحر المحيط.

﴿يقتلون﴾ بالتشديد مكان يذبحون، والذبح: القتل، ويذبحون بدلٌ من يسومونكم، بدل الفعل من الفعل، نحو قوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ وقول الشاعر:

مَتَى تَأْتِنا تَلْمُمْ بِنَا فِي دِيارِنا تجد حطباً جزلاً وناراً تأجَّجا

ويحتمل أن يكون ممَّا حذف منه حرف العطف؛ لثبوته في (سورة إبراهيم) وقول من ذهب إلى أنَّ الواو هناك زائدةٌ لحذفها هنا ضعيف، ويجوز أن يكون يذبحون في موضع الحال من ضمير الرفع في يسومونكم، ويجوز أن يكون مستأنفاً كما مرَّ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾؛ أي: يستبقون بناتكم ويتركونهن حيَّات؛ استبقاءً للخدمة، وذكر النساء، وإن كانوا يفعلون هذا بالصغائر؛ لأنه سماهن باسم المآل؛ لأنهم إذا استبقوهن صرن نساء بعد البلوغ؛ ولأنهم كانوا يستبقون البنات مع أمهاتهن، والاسم يقع على الكبيرات، والصغيرات عند الاختلاط. وذلك[1] أنَّ فرعون رأى في منامه، كأنَّ ناراً أقبلت من بيت المقدس، فأحاطت بمصر، وأخرجت كل قبطيٍّ بها، ولم تتعرض لبني إسرائيل، فهاله ذلك، وسأل الكهنة والسحرة عن رؤياه، فقالوا: يولد في بني إسرائيل غلامٌ، يكون على يده هلاكك وزوال ملكك، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل، وجمع القوابل، فقال لهن: لا يسقط على أيديكن غلامٌ يولد في بني إسرائيل إلا قتل، ولا جارية إلا تركت، ووكل القوابل، فكن يفعلن ذلك حتى قيل: إنه قتل في طلب موسى عليه السلام اثنا عشر ألف صبيٍّ، وتسعون ألف وليدٍ، وقد أعطى الله نفس موسى عليه السلام، من القوة على التصرف، ما كان يعطيه أولئك المقتولين لو كانوا أحياءً، ولذلك كانت معجزاته ظاهرةً باهرةً، ثم أسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤوس القبط على فرعون، وقال: إن الموت وقع في بني إسرائيل، فتذبح صغارهم، ويموت كبارهم، فيوشك أن يقع العمل علينا، فأمر فرعون أن يُذبَحوا سنةً، ويتركوا سنة، فولد هارون عليه السلام في السنة التي لا

(١) روح البيان.

يذبح فيها، وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها، فلم يردَّ اجتهادهم من قضاء الله شيئاً، وشمَّر فرعون عن ساق الاجتهاد، وحسر عن ذراع العناد، فأراد أن يسبق القضاء ظهوره، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ إشارة[1] إلى ما ذكر من التذبيح والاستحياء ﴿بَلَآءٌ﴾؛ أي: محنة وبليَّة، وكون استحياء نسائهم؛ أي: استبقائهن على الحياة محنةً، مع أنه عفوٌ، وتركٌ للعذاب، لما أن ذلك كان للاسترقاق والاستعمال في الأعمال الشاقَّة، ولأنَّ بقاء البنات مما يشق على الآباء، ولا سيما بعد ذبح البنين، لما فيه من انقطاع النسل، وفساد أمر معيشتهن ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: من جهته تعالى، بتسليطهم عليكم ﴿عَظِيمٌ﴾ صفةٌ للبلاء، وتنكيرهما للتفخيم، والمعنى على هذا القول: وفي ذلكم المذكور من ذبح الأبناء واستبقاء البنات للخدمة، اختبارٌ وامتحانٌ شديدٌ واقعٌ علكيم من ربكم، ويجوز أن يشار بذلكم إلى الإنجاء من فرعون، ومعنى البلاء حينئذٍ النعمة؛ لأنَّ أصل البلاء الاختبار، والله تعالى يختبر عباده تارة بالمنافع ليشكروا فيكون ذلك الاختبار منحةً؛ أي: عطاء ونعمةً؛ وأخرى بالمضار ليصبروا فيكون محنة، فلفظ الاختبار يستعمل في الخير والشر. قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ ومعنى من ربكم؛ أي ببعث موسى وبتوفيقه لتخليصكم منهم، والمعنى على هذا القول: وفي ذلكم المذكور من تنجيتكم من عذابهم، نعمةٌ عظيمة واقعة لكم من ربكم. وحمل البلاء[2] على النعمة أرجح؛ لأنها هي التي صدرت من الله تعالى؛ ولأن موضع الحجة على اليهود إنعام الله تعالى على أسلافهم. اهـ. «مراح».

وقال أبو حيان:[3] هو أضعف من القول الذي قبله؛ لما فيه من إعادة اسم الإشارة إلى أبعد مذكور، وهو المصدر المفهوم من نجيناكم. والمتبادر إلى الذهن، والأقرب في الذكر، هو القول الأول. اهـ. ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل! أيضاً ﴿إذ فرقنا﴾ وفلقنا، وشققنا، وفصلنا ﴿بِكُمُ﴾؛ أي: بسبب إنجائكم، فالباء

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

للسببية وهو أولى؛ لأنَّ الكلام مسوقٌ لتعداد النعم والامتنان، وفي السببية دلالةٌ على تعظيمهم، وهو أيضاً من النعم. وقيل: الباء بمعنى اللام كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: لأن الله. ﴿ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: فصلنا بعضه عن بعض لأجل أن يتيسر لكم سلوكه، وهو[1] بحر القلزم، بحر من بحار فارس، أو بحر من ورائهم يقال له: إساف، فجعلنا فيه اثني عشر ملكاً، بعدد أسباط بني إسرائيل. والسبط: ولد الولد. والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب، وهم أولاد يعقوب، فخضتم فيها ﴿فأنجيناكم﴾ من الغرق بإخراجكم إلى الساحل ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: فرعون وقومه للعلم به بدخوله فيهم، وكونه أولى به منهم. والغرق: الرسوب في الشيء المائع، ورسب الشيء في الماء رسوباً؛ أي: سفل فيه. والإغراق: الإهلاك في الماء ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ أي: الحال أنكم تنظرون، وتبصرون، وتشاهدون انفراق البحر حين سلكتم فيه، وانطباقه على آل فرعون بعد سلامتكم منه، وتنظرون إليهم أيضاً غرقى موتى، وجثثهم التي رماها البحر إلى الساحل بعد ثلاثة أيام، وفرعون معهم طافين. وفي ذلك آية باهرة من آيات الله سبحانه، حيث أنجى أولياءه، وأهلك أعداءه في زمن يسير، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، كما في الصحيحين، وغيرهما، فصامه موسى شكراً.

قال القرطبي: أن الله تعالى لمَّا أنجاهم وأغرق فرعون، قالوا: يا موسى! إنَّ قلوبنا لا تطمئن أن فرعون قد غرق، حتى أمر الله البحر فلفظه فنظروا إليه. وروي[2] أنه: لما دنا هلاك فرعون، أمر الله سبحانه موسى عليه السلام، أن يسري ببني إسرائيل من مصر ليلاً، فأمرهم أن يخرجوا، وأن يستعيروا الحلي من القبط، وأمر أن لا ينادي أحد منهم صاحبه، وأن يسرجوا في بيوتهم إلى الصبح، ومن خرج لطخ بابه بكف من دم؛ ليعلم أنه قد خرج، فخرجوا ليلاً وهم ستمائة ألف وعشرون ألف مقاتل، لا يعدون فيهم ابن العشرين لصغره، ولا ابن الستين لكبره، والقبط لا يعلمون، ووقع في القبط موت فجعلوا يدفنونهم، وشغلوا عن

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

طلبهم، فلما أرادوا السير ضُرب عليهم التيهُ، فلم يَدْروُا أين يذهبون، فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل وسألهم عن ذلك، فقالوا: إنَّ يوسف لما حضره الموت، أخذ على إخوته عهداً، أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم، فلذلك انسد عليهم الطريق، فسألهم عن موضع قبره، فلم يعلمه أحدٌ غير عجوز قالت: لو دللت على قبره، أتعطيني كُلَّ ما سألتك؟ فأبى عليها، وقال: حتى أسأل ربي، فأمره الله بإيتاء سؤلها، فقالت: إني عجوز كبيرة لا أستطيع المشي، فاحملني، وأخرجني من مصر، هذا في الدنيا، وأمَّا في الآخرة، فأسألك أن لا تنزل في غرفة إلا نزلتها معك. قال: نعم. قالت: إنه في جوف الماء في النيل، فادع الله أن يحسر عنه الماء، فدعا الله أن يؤخر طلوع الفجر إلى أن يفرغ من أمر يوسف، فحفر موسى ذلك الموضع، واستخرجه في صندوق من صنوبر. قالوا: إنَّ موسى استخرج تابوت يوسف من قعر النيل بالوفق، وهو أول علم أوجده الله سبحانه بنفسه، وعلمه آدم عليه السلام، فتوارثه الأنبياء آخراً عن أوَّل. ثم إنه حمله حتى دفنه بالشام، ففتح لهم الطريق فساروا، فكان هارون أمام بني إسرائيل، وموسى على ساقتهم، فلمَّا علم بذلك فرعون، جمع قومه فخرج في طلب بني إسرائيل، وعلى مقدمته هامان في ألف ألفٍ وسبعمائة ألف جواد ذكر ليس فيها رمكةٌ، على رأس كل واحد منهم بيضةٌ، وفي يده حربة، فسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر، والماء في غاية الزيادة، فأدركهم فرعون حين أشرقت الشمس، فقال فرعون في أصحاب موسى: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، فلما نظر أصحاب موسى إليهم، بقوا متحيِّرين، فقالوا لموسى: إنا لمدركون يا موسى! أوذينا من قبل أن تأتينا، ومن بعد ما جئتنا، اليوم نهلك، فإنَّ البحر أمامنا إن دخلناه غرقنا، وفرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا يا موسى! كيف تصنع؟ وأين ما وعدتنا؟ قال موسى: كلا إن معي ربي سيهدين، فأوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام، أن اضرب بعصاك البحر، فضربه، فلم يطعه، فأُوْحِيَ إليه أَنْ كَنِّهِ، فضَرَبه، وقال: انفلِق يا أبا خالدٍ! انفلق، فصار فيه اثنا عشر طريقاً، كل طريق كالجبل العظيم، وكان لكل سبط طريق يأخذون فيه وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبساً، فخاضت بنو إسرائيل البحر، وعن جانبيهم الماء كالجبل الضخم لا يرى بعضهم بعضاً، فقالوا: ما لنا لا ترى إخواننا؟

وقال كل سبط: قد قتل إخواننا. قال: سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتى نراهم، فقال موسى: اللهم! أعني على أخلاقهم السيئة، فأوحى الله إليه، أن قل بعصاك هكذا وهكذا يمنةً ويسرةً، فصار فيها كوى ينظر بعضهم بعضاً، ويسمع بعضهم كلام بعض، فساروا حتى خرجوا من البحر، فلما جاز آخر قوم موسى، هجم فرعون على البحر فرآه منفلقاً. قال لقومه: انظروا إلى البحر، انفلق من هيبتي حتى أُدْرِكَ عبيدي الذين أبَقوا، فهاب قومه أن يدخلوه، وقيل له: إن كنت ربّاً فادخل البحر، كما دخل موسى، وكان فرعون على حصانٍ أدهم؛ أي: ذكر أسود من الخيل، ولم يكن في قوم فرعون فرسٌ أنثى، فجاء جبريل على أنثى وديقٍ، وهي التي تشتهي الفحل، وتقدمه إلى البحر، فشمَّ أدهم فرعون ريحها، فاقتحم خلفها البحر؛ أي: هجم على البحر بالدخول وهم لا يرونه، ولم يملك فرعون من أمره شيئاً، وهو لا يرى فرس جبريل، وتبعته الخيول، وجاء ميكائيل على فرسٍ خلف القوم يعجِّلُهم، ويسوقهم حتى لا يشُذُّ رجل منهم، حتى خاضوا كلُّهم البحر، ودخل آخر قوم فرعون، وجاز آخر قوم موسى، وهمَّ أولهم بالخروج، فأمر الله البحر أن يأخذهم، فانطبق على فرعون وقومه، فأغرقوا، فنادى فرعون: لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين القصة، وقالت بنوا إسرائيل: الآن يدركنا فيقتلنا، فلفظ البحر ستمائةٍ وعشرين ألفاً عليهم الحديد، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾، فلفظ فرعون وهو كأنه ثورٌ أحمر، فلم يقبل البحر بعد ذلك غريقاً إلا لفظه على وجه الماء.

واعلم[1] أنَّ هذه الواقعة، كما أنها لموسى عليه السلام، معجزةٌ عظيمةٌ لأوائل بني إسرائيل، موجبةٌ عليهم شكرها، كذلك اقتصاصها على ما هي عليه من رسول الله ﷺ، معجزةٌ جليلةٌ تطمئن بها القلوب الأبية، وتنقاد لها النفوس الغبية، موجبةٌ لأعقابهم أن يتلقوها بالأذهان؛ لأنه ﷺ أخبرهم بذلك مع أنه كان أُميًّا لم يقرأ كتاباً، وهذا غيبٌ لم يكن له علمٌ عند العرب، فإخباره به دَلَّ على أنه أوحى إليه ذلك، وذلك علامةٌ لنبوته، فما تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها،

---

(١) روح البيان.

حيث اتخذوا العجل إلٰهاً بعد الإنجاء، ثمَّ صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم. فهذه معاملتهم مع ربهم، وسيرتهم في دينهم، وسوء أخلاقهم، ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها، حيث بدلوا التوراة، وافتروا على الله، وكتبوا بأيديهم، واشتروا به عرضاً، وكفروا بنبوة محمد ﷺ، إلى غير ذلك. فيا لها من عصابة ما أعصاها، وطائفةٍ ما أطغاها.

وفي الآية تهديدٌ للكافرين، وتنبيهٌ للمؤمنين ليتعظوا، وينتهوا عن المعاصي في جميع الأوقات، خصوصاً في الزمان الذي أنجى الله فيه موسى مع بني إسرائيل من الغرق، وهو اليوم العاشر من المحرم.

وفي سفر الخروج من التوراة[1]: أنهم خرجوا في شهر أبيبٍ بعد أن أقاموا بمصر أربعمائة وثلاثين سنة من عهد يوسف عليه السلام، ثم اتَّبعهم فرعون وجنوده، فغشيهم من اليَمِّ ما غشيهم، وأنجى الله بني إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه، وقد كان فرق البحر من معجزات موسى عليه السلام، كمعجزات سائر الأنبياء التي يظهرها الله تعالى على أيديهم.

وزعم بعض الناس: أنَّ عبور بني إسرائيل البحر، كان وقت الجزر وفي بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ رقارق يتيسَّر للإنسان أن يعبر بها البحر إذا كان الجزر شديداً، وكانوا لاستعجالهم واتصال بعضهم ببعض، قد جعلوا الماء الرقارق فرقتين عظيمتين ممتدَّين، كالطود العظيم، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ ولم يقل فرقنا لكم وقوله: ﴿فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ تشبيهٌ معروفٌ معهودٌ مثله في مقام المبالغة، كقوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ ألا ترى أنَّ الأمواج والسفن الجواري لا تكون كشواهق الجبال، لكنه يراد بمثل هذا التعبير زيادة البيان، وإرادة التأثير في نفس السامع[2]، ولما اتبعهم فرعون وجنوده، ورآهم قد عبروا البحر، مشى إثرهم، وكان المدُّ قد بدأ، ولم يتم خروج بني

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

إسرائيل إلا وقد علا المد وطغى، حتى أغرق المصريِّين جميعاً، وتحقَّقت نعمة الله على بني إسرائيل، وتمَّ لهم التوفيق، ولعدوِّهم الخذلان. ونعم الله بغير طريق المعجزات، أتمُّ وأكثر، فليس بلازمٍ أن نجعل الامتنان في كونه معجزةً لموسى عليه السلام. انتهى.

ومثل هذا التأويل، ليس بضائرٍ إذا كان أربابه يثبتون صدور خوارق العادات على يد الأنبياء تأييداً من الله لهم، أما إذا أنكروها فلا حاجة إلى الكلام معهم، إذ لا بُدَّ أن نثبت لهم قدرة الله وإرادته، ثم نثبت لهم إمكان الوحي، وإرسال الرسل، وتأييدهم بالمعجزات.

وقرأ الجمهور(١): ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ بالتخفيف. وقرأ الزهري ﴿فرَّقْنا﴾ بالتشديد ويفيد التكثير؛ لأنَّ المسالك كانت اثنتي عشرة مسلكاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ومن قرأ ﴿فَرَقْنَا﴾ مجرداً اكتفى بالمطلق، وفهم التكثير من تعداد الأسباط ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل! ﴿إِذ وَٰعَدْنَا﴾؛ أي: قصة وعدنا ﴿مُوسَىٰٓ﴾ ابن عمران عليه السلام، وقت انقضاء أربعين ليلة لإيتاء التوارة، فصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثي المجرد، فيكون صدور الوعد من واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، أو على أصلها، فإنَّ الوعد وإن كان من الله، فقبوله كان من موسى، وقبول الوعد شبه الوعد، أو أنَّ الله تعالى وعده بالوحي، وهو وعده المجيء للميقات إلى الطور(٢). قرأ الجمهور ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بالألف، وهي قراءة مجاهد، والأعرج، وابن كثير، ونافع، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وقرأ أبو عمرو ﴿ووَعَدْنَا﴾ بغير ألف هنا، وفي (الأعراف) و(طه) وقد رجح أبو عبيد، قراءة من قرأ ﴿وعدنا﴾ بغير ألف، وأنكر قراءة من قرأ ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بالألف، ووافقه على معنى ما قال: أبو حاتم، ومكيٌّ، وقال أبو عبيد: المواعدة لا تكون إلا من البشر. وقال أبو حاتم: أكثر ما تكون المواعدة من المخلوقين المتكافئين، كل واحد منهما يعد صاحبه،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

وقد مرَّ تخريج واعد على تلك الوجوه السابقة، ولا وجه لترجيح إحدى القراءتين على الأخرى؛ لأنَّ كُلاً منهما متواترٌ، فهما في الصحة على حد سواء.

وقوله ﴿مُوسَىٰٓ﴾ مفعولٌ أوَّل لواعدنا. (مو)[1] بالعبرانية الماء. و(شَى) بمعنى الشجر، فقلبت الشين المعجمة سيناً في العربية، وإنَّما سُمِّي به؛ لأنَّ أمَّه جعلته في التابوت حين خافت عليه من فرعون، وألقته في البحر، فدفعته أمواج البحر حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون، فخرجت جواري آسية امرأة فرعون يغسلن، فوجدن التابوت فأخذنه، فسمِّي عليه السلام، باسم المكان الذي أصيب به، وهو الماء والشجر. ونسبه: هو موسى بن عمران، بن يصهر بن قاهث بن لاوَى، بن يعقوب إسرائيل، بن إسحاق، بن إبراهيم خليل الرحمن، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؛ أي: واعدناه تمام أربعين ليلة لإيتاء التوراة، وهو مفعول ثاني لواعدنا، ولكنه على حذف مضاف كما قدرنا أمره الله سبحانه بصوم ثلاثين وهو ذو القعدة، ثم زاد عليه عشراً من ذي الحجة. قاله أبو العالية، وأكثر المفسرين. وقيل ذو الحجة، وعشرٌ من المحرم، وعبَّر[2] عنها بالليالي؛ لأنها غرر الشهور، وشهور العرب وضعت على سير القمر، ولذلك وقع بها التاريخ. فالليالي أُولى الشُّهور، والأيَّام تبعٌ لها، أو لأنَّ الظُّلمة أقدم من الضوء، بدليل ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، أو دلالةً على مواصلته الصوم ليلاً ونهاراً؛ لأنَّه لو كان التفسير باليوم، أمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلمَّا نصَّ على الليالي، اقتضت قوَّة الكلام أنَّه واصل أربعين ليلة بأيامها. وهذه المواعدة للتكليم، أو لإنزال التوراة. قال المهدويُّ: وكان ذلك بعد أن جاوز البحر، وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فخرج إلى الطور في سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل، وصعد الجبل، وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة، فقعدوا فيما ذكره المفسرون عشرين يوماً وعشرة ليال، فقالوا:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

قد أخلفنا، كما سيأتي بسطه في الأعراف.

وقرأ عليٌّ[1]، وعيسى بن عمر، بكسر باء ﴿أَرْبَعِينَ﴾ شاذاً؛ اتباعاً لكسرة العين؛ أي: جعلنا انقضاء أربعين وتمامها، ميعاداً لتكليمه، وإعطاء الكتاب له، لتعملوا به لمَّا عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، والمعنى: واذكروا إذ واعدنا موسى إعطاء الكتاب المسمى بالتوراة، بعد ما تم له أربعون ليلة في الرياضة؛ لأنَّ بعد تمام الخدمة من العبد، تكون العطايا من الرب سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ﴾ وجعلتم ﴿الْعِجْلَ﴾ الذي صاغه السامريُّ من الحلي الذي استعاروه من القبط، بسبب العرس المسمَّى بالبهموت إلٰهاً ومعبوداً لكم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أي: من بعد ذهاب موسى إلى محل المناجاة ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم ظالمون أنفسكم، وضارُّون لها بعبادة العجل، أو واضعون العبادة في غير موضعها؛ أي: بوضع عبادة الله تعالى في غير موضعها بعبادة العجل، والجملة حال من ضمير اتخذتم، وهذا تنبيهٌ على أن كفرهم بمحمد ﷺ ليس بأعجب من كفرهم وعبادتهم العجل زمن موسى.

وأتى بثم في قوله[2]: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ وهو ولد البقرة الذكر؛ لأنه تعالى، لمَّا وعد موسى حضور الميقات لإنزال التوراة عليه، وفضيلة بني إسرائيل، ليكون ذلك تنبيهاً للحاضرين على علوِّ درجتهم، وتعريفاً للغائبين، وتكملةً للدين، كان ذلك من أعظم النعم، فلما أتوا عقب ذلك بأقبح أنواع الكفر والجهل، كان ذلك في محل التعجب، فهو كمن يقول: إنَّني أحسنت إليك، وفعلت كذا وكذا، ثم إنك تقصدني بالسوء والأذى ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾؛ أي: محونا عنكم جريمتكم التي هي عبادة العجل حين تبتم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أي: من بعد الاتخاذ الذي هو متناه في القبح، فلم نعاجلكم بالإهلاك، بل أمهلناكم إلى مجيء موسى، فنبهكم وأخبركم بكفارة ذنوبكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لكي

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

تشكروا نعمة عفوي، وتستمروا بعد ذلك على طاعتي، فإنَّ الإنعام يوجب الشكر. وأصل الشكر: تصوُّر النعمة وإظهارها، وحقيقته العجز عن الشكر، والمعنى؛ أي: ثم محونا تلك الجريمة بقبول التوبة، ولم نعاجلكم، بل أمهلناكم حتى جاءكم موسى، وأخبركم بكفارة ذنوبكم؛ ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر على النعم. قاله الجمهور وفي «البحر» ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي[1]: تثنون عليه تعالى بإسدائه نعمه إليكم، وتظهرون النعمة بالثناء. وقالوا: الشكر باللسان؛ وهو الحديث بنعمة المنعم والثناء عليه بذلك، وبالقلب؛ وهو اعتقاد حق المنعم على المنعم عليه وبالعمل، كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ وبالله؛ أي: شكر الله بالله؛ لأنَّهُ لا يشكره حق شكره إلا هو. وقال بعضهم:

وشُكْرُ ذَوي الإحسانِ بالقولِ تارةً ... وبالقَلْبِ أُخْرَى ثُمَّ بالعملِ الأَسْنَى
وشكري لربّي لا بقلبي وطاعتِي ... ولا بلساني بل بهِ شكره عنَّا

﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل! ﴿إذ آتينا﴾؛ أي: قصة إذ أعطينا ﴿مُوسَى﴾ بن عمران رسولكم ﴿الْكِتَابَ﴾؛ أي: التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾؛ أي: الحكم الفارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وهو من عطف الصفة على الموصوف، لغرض التفسير والبيان لماهية الموصوف؛ أي: قصة إذ أعطينا له التوراة الجامعة بين كونها كتاباً، وحجة تفرق الحق والباطل، كقولك: لقيت الغيث الليث، تريد الشخص الجامع بين الجود والجراءة، فالمراد[2] بالفرقان والكتاب واحد، فكأنه قيل: إذ آتينا له الكتاب الفارق بين الحق والباطل. وقيل: الكتاب التوراة، والفرقان الآيات والمعجزات التي أعطاه الله تعالى، من العصا، واليد، وغيرهما، وهذا أولى وأرجح، ويكون العطف على بابه، والمعنى: وإذ آتينا موسى التوراة والآيات التي أرسلناه بها معجزة له ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لكي تهتدوا بذلك الكتاب من الضلال إلى الحق، وبالعمل به إلى دار الثواب.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وهذا بيان الحكمة دون العلة؛ أي: الحكمة في إنزاله: أن يتدبَّروا فيه، فيعلموا أن الله تعالى لم يفعل ذلك إلا للدلالة على صحة نبوته، فيجتهدوا بذلك في اتِّباع الرشد، وإذا فعلتم ذلك آمنتم بمحمد؛ لأنه قد أتى من المعجزات بما يدلكم إذا تدبَّرتم فيه على صحة دعواه النبوَّة.

والمعنى[1]: واذكروا نعمة إيتاء التوراة والآيات التي أيَّدنا بها موسى، لتهتدوا بالتدبر فيها، والعمل بما تحويه من الشرائع، ليُعدَّكم للاسترشاد بها، حتى لا تقعوا في وثنيَّة أخرى، وأن من كمال الاستعداد لفهم الكتاب، أن تعرفوا أنَّ ما جاء به محمد ﷺ دليلٌ على صحة نبوته، فتؤمنوا به، وتهتدوا بهديه، وتتبعوا سبيل الرشاد الذي سلكه.

واعلم: أنه روي[2]: أن بني إسرائيل، لمَّا أمِنُوا من عدوهم بإغراق الله آل فرعون، ودخلوا مصر، لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها، فوعد الله سبحانه موسى أن ينزل عليه التوراة، فقال موسى لقومه: إني ذاهبٌ لميقات ربي، آتيكم بكتابٍ فيه بيان ما تأتون، وما تذرون، ووعدهم أربعين ليلةً، واستخلف عليهم أخاه هارون، فلما أتى الوعد جاءه جبريل على فرس، يقال له: فرس الحياة، لا يصيب شيئاً إلا حَيِي؛ ليذهب بموسى إلى ربه، فلما رآه السامريُّ، وكان رجلاً صائغاً من أهل باجرمي، واسمه ميحا، ورأى مواضع الفرس تخضرُّ من ذلك، وكان منافقاً، أظهر الإسلام، وكان من قومٍ يعبدون البقر، فلما رأى جبريل على ذلك، قال: إنَّ لهذا شأناً، وأخذ قبضةً من تربة حافر فرس جبريل. وقيل: إنه عرف جبريل، لأنَّ أمه حين خافت عليه أن يُذْبحَ سنةَ ذبحِ فرعون أبناءَ بني إسرائيل، خلفته في غابةٍ، وكان جبريل يأتيه فيغذيه بأصابعه، فكان السامريُّ يمصُّ من إبهام يمينه عسلاً، ومن إبهام شماله سمناً، فلمَّا رآه حين عبر البحر عرفه، فقبض قبضة من أثر فرسه، فلم تزل القبضة في يده حتى انطلق موسى إلى

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

الطور، وكأن السامريَّ سمعهم حين خرجوا من البحر، وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى: اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة، ووقع في نفسه أن يفتنهم من هذا الوجه وكان بنو إسرائيل، استعاروا حُلِيًّا كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر، بعلَّة عرس لهم، فأهلك الله تعالى فرعون، وبقيت تلك الحُلِي في أيدي بني إسرائيل، فلمَّا ذهب موسى إلى المناجاة، عَدَّ بنو إسرائيل اليوم مع الليلة يومين، فلمَّا مضى عشرون يوماً، قالوا: قد تم أربعين ولم يرجع موسى إلينا فخالفنا، فقال السامريُّ: هاتوا الحُلي التي استعرتموها، أو أنَّ موسى أمرهم أن يلقوها في حفرة، حتى يرجع ويفعل ما يرى فيها، فلما اجتمعت الحُلِيُّ صاغها السامريُّ عجلاً في ثلاثة أيام، ثم ألقى فيها القبضة التي أخذها من تراب سنبك فرس جبريل، فخرجت عجلاً من ذهب مرصعاً بالجواهر كأحسن ما يكون، فصار جسداً له خوارٌ؛ أي: صوتٌ كصوت العجل، وله لحم، ودم، وشعر. وقيل: دخل الريح في جوفه من خلفه وخرج من فيه، كهيئة الخوار، فقال للقوم: هذا إلٰهكم وإلٰه موسى، فنسي؛ أي: أخطأ موسى الطريق وربُّه هنا، وهو ذهب يطلبه، فأقبلوا كلهم على عبادة العجل إلا هارون، مع اثني عشر ألفاً اتبعوا هارون، ولم يتبعه غيرهم، وهارون قد نصحهم، ونهاهم، وقال: يا قوم! إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا: لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى. وقيل: كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة، ثمَّ زيدت العشر، وكانت فتنتهم في تلك العشر، فلمَّا مضت الثلاثون ولم يرجع موسى، وظنُّوا أنه قد مات، ورأوا العجل وسمعوا قول السامري، عكفوا على العجل يعبدونه.

قال أبو اللَّيْثِ في «تفسيره»: وهذا الطريق أصحُّ، فلما رجع موسى ووجدهم على ذلك، ألقى الألواح، فرُفع من جملتها ستة أجزاء وبقي جزءٌ واحدٌ، وهو الحلال والحرام وما يحتاجون، وأحرق العجل وذرَّاه في البحر، فشربوا من مائه حُبّاً للعجل، فظهرت على شفاههم صفرةٌ، وورمت بطونهم، فتابوا، ولم تقبل توبتهم دون أن يقتلوا أنفسهم، وهذه حالهم. وأمَّا هذه الأمة فلا يحتاجون إلى قتل النفس للتوبة في مثل هذه الصورة.

الإعراب

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿بني﴾ منادى مضاف منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وقد تغير بناء مفرده، كما سيأتي في مبحث التصريف ﴿بني﴾ مضاف ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة، والواو فاعل، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿نِعۡمَتِيَ﴾ مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة ﴿نعمة﴾ مضاف، و(الياء) ضمير المتكلم في محل الجر مضاف إليه ﴿ٱلَّتِيٓ﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لنعمتي ﴿أَنۡعَمۡتُ﴾ فعل وفاعل و﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أنعمتها ﴿وَأَوۡفُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على اذكروا ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأوفوا ﴿أُوفِ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهي الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنا يعود على الله، والجملة الفعلية جملة طلبية لا محل لها من الإعراب ﴿بِعَهۡدِكُمۡ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأوف ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ الواو عاطفة ﴿إياي﴾ ضمير نصب منفصل في محل النصب مفعول به لفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: وارهبوا إياي ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ ارهبوا فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة اذكروا ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ الفاء واقعة في جواب الأمر المحذوف، تقديره: تنبهوا. فارهبون نظير قولهم: زيداً فاضرب؛ أي: تنبه فاضرب زيداً، ثم حذف تنبه، فصار فاضرب زيداً، ثم قدم المفعول إصلاحاً للفظ؛ لئلا تقع الفاء صدراً؛ وإنما دخلت الفاء لربط هاتين الجملتين؛ أو زائدة لتحسين اللفظ، وكذا يقال في قوله الآتي: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ ارهبون فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة،

اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به مبنية على السكون، والجملة الطلبية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿وَءَامِنُواْ﴾ الواو عاطفة ﴿آمنوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة معطوفة على جملة اذكروا ﴿بِمَآ﴾ الباء حرف جر ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الجر بالباء، والجار والمجرور متعلق بآمنوا ﴿أَنزَلْتُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: بما أنزلته ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من ما الموصولة، أو الضمير المحذوف ﴿لِّمَا﴾ جار ومجرور متعلق بمصدقاً ﴿مَعَكُمْ﴾ مع منصوب على الظرفية المكانية، والكاف مضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف صلة لما، أو صفة لها ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَكُونُوٓاْ﴾ فعل ناقص واسمه، مجزوم بلا الناهية ﴿أَوَّلَ﴾ خبرها منصوب ﴿كَافِرٍۭ﴾ مضاف إليه ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بكافر، وجملة تكونوا معطوفة على جملة آمنوا ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَشْتَرُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية معطوف على جملة آمِنوا ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتشتروا ﴿ثَمَنًا﴾ مفعول به لتشتروا ﴿قَلِيلًا﴾ صفة له ﴿وَإِيَّٰىَ﴾ الواو عاطفة ﴿إياي﴾ ضمير نصب منفصل في محل النصب بفعل محذوف وجوباً، تقديره: واتقوا إياي ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ والجملة المحذوفة معطوفة على جملة آمنوا ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ الفاء رابطة لجواب الأمر، أو زائدة، كما مرت الإشارة إليه (اتقوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية، والياء المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَلْبِسُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مفعول به ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ جار ومجرور متعلق بتلبسوا، والجملة معطوفة على

جملة آمنوا ﴿وَتَكۡتُمُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية عطفاً على تلبسوا، داخلة تحت حكم النهي، ولك أن تجعل، الواو للمعية، و﴿تكتموا﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد واو المعية، الواقعة في جواب النهي، والتقدير: لا يكن منكم لبس الحق بالباطل، وكتمانكم الحق ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ مفعول به. ﴿وَأَنتُمۡ﴾ الواو حالية ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل تكتموا، تقديره: ولا تكتموا الحق حالة كونكم عالمين حقيته. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول به معطوف على آمنوا ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على آمنوا ﴿وَٱرۡكَعُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على آمنوا ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق باركعوا.

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، المضمن للتوبيخ والتعجب من هؤلاء اليهود؛ لأنه ليس هناك أقبح في العقول، من أن يأمر الإنسان غيره بخير، وهو لا يأتيه ﴿تأمرون﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مفعول به ﴿بِٱلۡبِرِّ﴾ متعلق به، والجملة جملة طلبية لا محل لها من الإعراب ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾ الواو عاطفة ﴿تنسون﴾ فعل وفاعل معطوف على تأمرون ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ مفعول به ﴿وَأَنتُمۡ﴾ الواو حالية ﴿أنتم﴾ مبتدأ ﴿تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل تنسون، تقديره: وتنسون أنفسكم حالة كونكم تالين الكتاب ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، تقديره: أتفعلون ذلك فلا تعقلون، والجملة المحذوفة مستأنفة، والفاء عاطفة و﴿لا﴾ نافية ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على الجملة المحذوفة. ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾ الواو استئنافية ﴿استعينوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ متعلق باستعينوا ﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ معطوف على الصبر ﴿وَإِنَّهَا﴾ الواو حالية، على ما قيل، أو استئنافية ﴿إنها﴾ ناصب واسمه ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ اللام حرف ابتداء ﴿كبيرة﴾ خبر إن ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، وشرطه أن يسبق بنفي، فيؤول الكلام هنا بالنفي، تقديره: وإنها لا تخف

ولا تسهل إلا على الخاشعين. والخشوع: حضور القلب، وسكون الجوارح ﴿عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بكبيرة، وجملة إن في محل النصب حال من الصلاة، أو مستأنفة وهو الأصح.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الجر صفة للخاشعين ﴿يَظُنُّونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿أَنَّهُم﴾ ناصب واسمه ﴿مُّلَٰقُوا۟﴾ خبره مرفوع بالواو ﴿رَبِّهِمْ﴾ مضاف إليه، وجملة أن من اسمها وخبرها، في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن، تقديره: الذين يظنون لقاء ربهم بالبعث ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق براجعون و﴿رَٰجِعُونَ﴾ خبر أن، وجملة أن في تأويل مصدر معطوف على المصدر المؤول من أن الأولى، تقديره: ويظنون رجوعهم إلى ربهم للمجازاة. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿نِعْمَتِىَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿ٱلَّتِىٓ﴾ اسم موصول للمفردة المؤنثة في محل النصب صفة لنعمتي ﴿أَنْعَمْتُ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أنعمتها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بأنعمت ﴿وَأَنِّى﴾ ناصب واسمه ﴿فَضَّلْتُكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر أن، تقديره: وأني مفضلكم على العالمين، وجملة أن في تأويل مصدر معطوف على نعمتي على كونه مفعولاً به لاذكروا، تقديره: اذكروا نعمتي عليكم، وتفضيلي إياكم على العالمين.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ الواو عاطفة ﴿اتقوا﴾ فعل، وفاعل مبني على حذف النون، معطوف على اذكروا ﴿يَوْمًا﴾ مفعول به ﴿لَّا﴾ نافية ﴿تَجْزِى﴾ فعل مضارع ﴿نَفْسٌ﴾ فاعل ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ متعلق بتجزي ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل النَّصْب صفة ليوماً، ولكنها صفة سببية، والرابط محذوف، تقديره: فيه ﴿وَلَا﴾

الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿يُقْبَلُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بيقبل ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب، معطوفة على جملة لا تجزي على كونها صفة سببية ليوماً، والرابط محذوف أيضاً، تقديره: فيه ﴿وَلَا يُؤْخَذُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بيؤخذ ﴿عَدْلٌ﴾ نائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة لا تجزي على كونها صفة ليوماً، والرابط محذوف أيضاً، تقديره: ولا يؤخذ منها فيه عدل ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَّا﴾ نافية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿يُنصَرُونَ﴾ فعل ونائب فاعل مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على جملة لا تجزى على كونها صفة سببية ليوماً، والرابط محذوف أيضاً، تقديره: ولا هم ينصرون فيه.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب، معطوف على نعمتي على كونها مفعولاً به لاذكروا مبنية على السكون ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ، تقديره: يا بني إسرائيل! اذكروا نعمتي، وتفضيلي إياكم، ووقت تنجيتي إياكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بنجيناكم و﴿فِرْعَوْنَ﴾ ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به أول ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ مفعول ثاني ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من آل فرعون، والرابط واو الفاعل، تقديره: حالة كونهم سائمين إياكم سوء العذاب، ويحتمل أن تكون مستأنفة ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب بدل من جملة يسومونكم، بدل تفصيل من مجمل على كونها حالاً من آل فرعون، تقديره: حالة كونهم مذبحين أبنائكم، أو جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على يذبحون ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ الواو اعتراضية، أو استئنافية ﴿في ذلكم﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿بَلَآءٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة أولى لبلاء

﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ثانية لبلاء، والتقدير: وبلاء عظيم واقع من ربكم، كائن في ذلكم العذاب، أو في ذلكم الإنجاء، والجملة الإسمية معترضة، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب، معطوف على نعمتي على كونها مفعولاً به لاذكروا مبني على السكون؛ لشبهها بالحرف شبهاً افتقارياً ﴿فَرَقْنَا﴾ فعل، وفاعل ﴿بِكُمُ﴾ متعلق بفرقنا على كونه مفعولاً ثانياً له ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ مفعول أول له، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ، والتقدير: يا بني إسرائيل! اذكروا نعمتي عليكم، وتفضيلي إياكم، ووقت تنجيتي إياكم من آل فرعون، ووقت فرقي بكم البحر ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع ﴿أنجيناكم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة فرقنا بكم البحر، على كونها مضافاً إليه لإذ، تقديره: واذكروا وقت فرقي بكم البحر، فإنجائي إياكم من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَآ﴾ فعل وفاعل معطوف على أنجيناكم، تقديره: وإغراقنا آل فرعون و﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَنظُرُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب حال من آل فرعون، تقديره: حالة كونكم ناظرين إليهم وقت إغراقهم. ﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى في محل النصب، معطوف على نعمتي ﴿وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿أَرْبَعِينَ﴾ مفعول ثان منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون حرف زائد؛ لشبه الجمع ﴿لَيْلَةً﴾ تمييز ذات لأربعين منصوب به، والتقدير: واذكروا وَقْتَ مواعدتنا موسى أربعين ليلة ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾ فعل وفاعل، وهو من أخوات ظن ينصب مفعولين ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ مفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: إلٰهاً ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق باتخذتم، والجملة الفعلية في محل الجر، معطوفة على جملة واعدنا على كونها مضاف إليه لإذ ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل

النصب حال من فاعل اتخذ، تقديره: حالة كونكم ظالمين أنفسكم بعبادته.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ ﴿عَفَوْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَنكُم﴾ متعلق بعفونا ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بعفونا أيضاً، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة اتخذتم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعل حرف نصب وتعليل، والكاف في محل النصب اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ في محل الرفع خبر لعل، تقديره: لعلكم شاكرون نعمتنا عليكم، وجملة لعل جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب حال من ضمير عنكم. ﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب، معطوف على نعمتي على أنه مفعول به لاذكروا ﴿ءَاتَيْنَا﴾ فعل وفاعل، وهو بمعنى أعطينا يتعدى إلى مفعولين ﴿مُوسَى﴾ مفعول أول ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ معطوف على الكتاب عطف صفة على موصوف، كما مر بسط الكلام فيه في مبحث التفسير، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ، تقديره: واذكروا وقت إيتائنا موسى الكتاب والفرقان ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾ في محل الرفع خبره، وجملة لعلَّ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وبني منادى مضاف منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم؛ لأنه شبيه بجمع التكسير لتغير مفرده، ولذلك عاملته العرب بعض معاملة جمع التكسير، فألحقوا بفعله المسند إليه تاء التأنيث، فقالوا: قالت بنو فلان: وهل لامه ياءٌ؟ لأنه مشتق من البناء؛ لأن الابن فرع الأب ومبنيٌّ عليه، أو واو لقولهم: البنوة كالأبوة. والأخوة قولان: الصحيح الأول، وأما البنوة فلا دلالة فيها؛ لأنهم قد قالوا الفتوَّة، ولا خلاف في أنها من ذوات الياء إلا الأخفش. رجح الثاني، بأن حذف الواو أكثر. واختلف في وزنه، فقيل: هو فعل بفتح العين. وقيل: هو بسكونها، وهو أحد الأسماء العشرة التي سكنت فاؤها، وعوِّض من لامها همزة الوصل، وجمع ابن جمع

تكسير، فقالوا: أبناءٌ، وجمع سلامة، فقالوا: بنون وهو جمعٌ شاذٌّ، إذ لم يسلم فيه بناء الواحد، فلم يقولوا: إبنون ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خفض بالإضافة، ولا ينصرف للعلمية والعجمة، وهو مركبٌ تركيب الإضافة، مثل: عبد الله، فإن إسر بالعبرانية هو العبد، وإيل هو الله. وقيل: إسرا مشتق من الأسر وهو القوة، فكأن معناه الذي قواه الله. وقيل: لأنه أسرى بالليل مهاجراً إلى الله تعالى. وقيل: لأنه أسر جنياً كان يطفىء سراج بيت المقدس، فعلى هذا بعض اسم يكون عربياً، وبعضه عجمياً، وقد تصرفت فيه العرب بلغات كثيرة أفصحها، لغة القرآن، وهي قراءة الجمهور ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بوزن إسرافيل.

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ الذِّكر والذُّكر بكسر الذال وضمها بمعنى واحد، يكونان باللِّسان وبالجنان. وقال الكسائي: هو بالكسر للِّسان، وبالضم للقلب، فضدُّ المكسور الصمت، وضد المضموم النسيان، وبالجملة فالذكر الذي محله القلب ضد النسيان، والذي محلُّه اللسان ضد الصمت، سواء قيل: إنها بمعنى واحد، أم لا ﴿والنعمة﴾ اسمٌ لما يُنعَم به، وهي شبيهة بفعل بمعنى مفعول، نحو: ذبحٍ، ورعيٍ، والمراد بها الجمع؛ لأنها اسم جنس. قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ يقال: أوفى ووَفَّى ووَفَى مشدداً، ومخففاً، ثلاث لغات بمعنى واحد. وقيل: يقال: وفيت ووفَّيت بالعهد، وأوفيت بالكيل لا غير، والعهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً فحالاً، والمراد منه الموثق، والوصيَّة، وأصل أوفوا أوفيوا بوزن أفعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء، وضمت الفاء؛ لمناسبة الواو، فصار وزنه أفعوا. وقوله: ﴿أُوفِ﴾ وزنه أفع؛ لمناسبة حذف لام الكلمة، بسبب جزم الفعل الواقع جواباً للطلب ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ وَزْنُ أوَّل أفْعَلُ، فاء الكلمة وعينها معتلاَّن، كلاهما واوٌ، ولم يتصرف من هذا اللفظ فعلٌ، فأصل الكلمة على هذا وولٌ، هذا مذهب سيبويه. وقال غيره: أصله أَوْأَلَ من وَأَلَ إذا نجا، أو طلب النجاة، أبدلت الهمزة الثانية واواً للتخفيف، ثم أدغمت فيها الواو الأولى، فقيل: أوَّل. وقيل: إنه من آل، فهو أأْوَلَ، وقع فيه قلبٌ مكانيٌّ، بجعل العين مكان الفاء، والفاء مكان العين، فصار وزنه أعفل؛ أي: أَوْأَلَ، ثم خفف بإبدال الهمزة الثانية واواً، وإدغام الواو الأولى فيها. انظر «الأشموني».

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى﴾ أَصْلُه تشتريوا من اشترى، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم حذفت الياء؛ لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، وضمت الراء؛ لمناسبة الواو ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وفي «المصباح» لبس الثوب من باب تعب لُبْساً بضم اللام، واللِّبس بالكسر، واللباس ما يلبس، ولَبَسْتُ عليه الأمر لَبْساً، من باب ضرب خلطته. وفي التنزيل ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ والتشديد مبالغةٌ. وفي الأمر لُبْسٌ بالضم، ولبسة أيضاً؛ أي: إشكالٌ، والتبس الأمر أشكل، ولابسته بمعنى خالطته. اهـ.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أصله: أَقْوِموا بوزن أفعلوا، نقلت حركة الواو إلى فاء الكلمة الساكن، فسكنت الواو بعد كسرة، فقلبت ياءً حرف مد ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الألف فيه منقلبةٌ عن واو، فأصله: صَلْوة بوزن فَعْلة، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والألف فيه أيضاً منقلبةٌ عن واو؛ لأنه من زكا يزكو، كنما ينمو وزناً ومعنى، فأصله: زَكْوة بوزن فعلةٍ، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ الأمر طلب إيجاد الفعل، ويطلق على الشأن، والفعل منه أمر يأمر على وزن فعل يفعل، من باب نصر، وتحذف فاؤه في الأمر منه بغير لام، فتقول: مُرْ زيداً، وإتمامه قليلٌ أؤمر زيداً، فإن تقدم الأمر واوٌ، أو فاءٌ، فإثبات الهمزة أجود، وهو مما يتعدى إلى مفعولين أحدهما بنفسه، والآخر بحرف جر. ويجوز حذف ذلك الحرف، وهو من أفعال محصورةٍ يحذف من ثاني مفعوليها حرف الجر جوازاً تحفظ، ولا يقاس عليها. ذكره في «البحر» ﴿بِٱلْبِرِّ﴾ والبر الصلة، وأيضاً الطاعة. قال الراجز:

لاَ هُـــمَّ رَبِّ إنَّ بَـــكْـــراً دُونَـــكَـــا   يَـــبَـــرُّكَ الـــنَّـــاسُ ويـــفْـــجُـــرُوْنَـــكَـــا

والبرُّ: الفؤاد، وولد الثعلب والهِرُّ. وبَرَّ والده: أجلَّه وأعظمه. يَبَرُّهُ على وزن فعل يفعل، ورجلٌ بَارٌّ، وبَرٌّ، وبرَّتْ يمينه، وبرَّ حجُّه، جمع أنواعاً من الخير. اهـ. من «البحر». وفي «البيضاوي» البِرُّ: بالكسر التوسع في الخير، مأخوذ من البَرِّ، وهو الفضاء الواسع. والبُرُّ بالضم: القمح، والواحدة بُرَّةٌ.

والبِرُّ بالكسر ثلاثة أقسام: بِرٌّ في عبادة الله، وبرٌّ في مراعاة الأقارب، وبرٌّ

في معاملة الأجانب. وفي «السمين» والبرُّ سعة الخير من الصلة، والطاعة. والفعل منه برَّ يَبَرُّ، كعلم يعلم. والبَر بالفتح: الإجلال والتعظيم، ومنه ولد بَرٌّ بوالديه؛ أي: يعظِّمهما، والله تعالى برٌّ لسعة خيره على خلقه. اهـ.

﴿وَتَنسَوۡنَ﴾ والنسيان ضد الذكر. وهو: السهو الحادث بعد حصول العلم. ويطلق أيضاً على الترك، وضدُّه الفعل. والفعل نسي ينسى على وزن فعل يفعل، وأصله: تَنْسَيُون بوزن تفعلون، تحركت الياء بعد فتح، فقلبت ألفاً فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف وبقيت الفتحة دالَّةً عليها ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ﴾ من تلا يتلو واويُّ اللام، أسند الفعل إلى واو الجماعة، وحذفت حركة الواو لام الفعل؛ للتخفيف، فسكنت فالتقى ساكنان، فحذفت الواو الأولى لام الكلمة، وأبقيت واو الجماعة للغرض الذي جيء بها له، فصار وزنه تفعون بعد أن كان تفعلون والتلاوة القراءة، وسميت بها؛ لأن الآيات، أو الكلمات، أو الحروف يتلو بعضها بعضاً في الذكر، والتلو التبع، وناقةٌ مُتْلٍ يتْبعها ولدها ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ العقل: الإدراك المانع من الخطأ، ومنه عقال البعير يمنعه من التحرك، والمعقل: مكان يمتنع فيه، والعقل الدية؛ لأن جنسها إبلٌ تعقل في فِناءِ الولي، أو لأنها تمنع من قتل الجاني، والعقل ثوبٌ موشًّى قال الشاعر:

عَقْلاً ورَقْماً تَظَلُّ الطَّيْرُ تَتْبَعُهُ كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الأجوافِ مدموم

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أصله: استَعْوِنوا بوزن استفعلوا، نقلت حركة الواو إلى العين فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد. والصبر: حبس النفس على المكروه، كالاجتهاد في العبادة، وكظم الغيظ، والحلم، والإحسان إلى المسيء، والصبر عن المعاصي. وبما تقرر علم أن الصبر على ثلاثة أقسام: صبرٌ على الشدة والمصيبة. وصبرٌ على الطاعة، وهو أشدُّ من الأول، وأجره أكثر منه وصبر عن المعصية، وهو أشدُّ من الأول والثاني، وأجره أكثر منهما. اهـ. «كرخي» والفعل منه صبر يصبر، من باب نصر. وأصله: أن يتعدَّى لواحد. وقد كثر حذف مفعوله حتى صار كأنه غير متعد.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾؛ أي: إلا على المتصفين بالخشوع والخوف من الله

سبحانه، والخشوع بالجوارح، والخضوع بالقلب، أو الخشوع بالبصر، والخضوع بسائر الأعضاء ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يوقنون؛ لأن الظنَّ هنا بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ فاستعمل الظن استعمال اليقين مجازاً، كما استعمل العلم استعمال الظن، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾. اهـ. «كرخي». وأصل يظنون: يَظْنُنُون بوزن يفعلون، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء، فضمت، وأدغمت النون في النون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ أصله ملاقيوا بضم الياء، استثقلت الحركة على الياء فحذفت فسكنت، فالتقت ساكنةً مع واو الجماعة فحذفت، ثم ضمت القاف؛ لمناسبة الواو، وهذا بعد حذف نون الرفع للإضافة، والملاقاة: مفاعلة تكون من الجانبين؛ لأنَّ من لاقاك فقد لاقيته. قال المهدويُّ، والماوردي، وغيرهما: الملاقاة هنا وإن كانت صيغتها تقتضي التشريك، فهي من الواحد، كقولهم: طارقت النعل، وعاقبت اللص، وعافاك الله. وقد اختلف المفسرون في معنى ملاقاة ربهم: فحمله بعضهم على ظاهره من غير حذف ولا كناية، بأن اللقاء هو رؤية الله تعالى، وإلى اعتقادها ذهب أكثر المسلمون. وقيل: ذلك على حذف مضاف؛ أي: جزاءِ ربهم؛ لأن الملاقاة بالذوات مستحيلة في غير الرؤية. وقيل: ذلك كنايةٌ عن انقضاء أجلهم، كما يقال لمن مات: لقي الله، ومنه قول الشاعر:

غَداً نَلْقَىٰ الأحبه مُحَمَّداً وَصَحْبَهْ

وكنى بالملاقاة عن الموت؛ لأن ملاقاة الله متسبب عن الموت. اهـ. من «البحر» بتصرف ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والفضل: الزيادة واستعماله في الخير، وفعله فعل يفعل من باب نصر، وأصله: أن يتعدى بحرف الجر وهو على، ثم يحذف على، على حَدِّ قول الشاعر، وقد جمع بين الوجهين:

وجَدْنا نَهْشلاً فضَلَتْ فِقَيْماه كفَضْلِ ابنِ المخاض على الفَصيلِ

﴿يَوْمًا لَّا تَجْزِى﴾ الجزاء القضاءُ عن المفضَّل والمكافأةُ. قال الراجز:

يَجْزِيه رَبُّ العَرْش عَنِيّ إذْ جَزَى جَنَاتِ عَدْنٍ في العَلاَليِّ العُلاَ

والإجزاء الإغناء ﴿لا يُقبل﴾ وقبول الشيء التوجه إليه، والفعل قَبِل يَقْبَل

من باب فتح، والقبل ما واجهك ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ والشفاعة. ضمُّ غيره إلى وسيلته. من الشفع ضد الوتر؛ لأن الشفيع ينضمُّ إلى الطالب في تحصيل ما يطلب، فيصير معه شفعاً بعد أَنْ كان وتراً ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ والأخذ ضد الترك، والأخذ: القبض والإمساك، ومنه قيل للأسير: أخيذ، وتحذف فاؤه في الأمر منه بغير لام، وقلَّ الإتمام. والعَدْلُ: الفداء. وأصل العَدل بالفتح: ما يساوي الشيء قيمةً وقدراً، وإن لم يكن من جنسه، وبالكسر المساوي في الجنسِ، والحجم. والعَدْلُ بالفتح: المقبولُ القولِ من الناس ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ والنَّصر العطاء والانتصار: الانتقام. والنصرة أخصُّ من المعونة؛ لأنها مختصةٌ بدفع الضرر ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ والنجاة: التنجية من الهلكة بعد الوقوع فيها. والأصل: الإلقاء بنجوة. والنجو: المكان العالي من الأرض؛ لأنَّ من صار إليه يخلُص وينجو، ثم سُمِّي كلَّ فائز ناجياً؛ لخروجه من الضيق إلى السعة ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ اختلف في أصل آل، فقيل: أصله أهل بوزن فَعْل، أبدلت الهاء همزة؛ ليتوصل إلى إبدالها ألفاً، ثم أبدلت ألفاً، فقيل: آل، لأنها صارت همزةً ساكنةً بعد أخرى مفتوحةٍ، وعلى هذا الأكثر. وقيل: أصله أَوَلٌ بوزن فَعَلٌ بالتحريك، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وهو من آل يئول بمعنى رجع؛ لأنه يرجع إليك في قرابةٍ، أو رَأْيٍ، أو مذهب، وهذا مذهب الكسائي، وإلى ما ذكر أشار الشاطبيُّ في «حرز الأماني» بقوله:

فَـإِبْـدَالُـهُ مِـنْ هَـمْـزَةٍ هَـاءٌ أَصْـلُـهَـا وَقَـدْ قَـالَ بَـعْـضُ ٱلنَّـاسِ مِنْ وَاوٍ ٱبْدِلاَ

ومراده ببعض الناس الكسائيُّ: وقد خصوا آلاً بالإضافة إلى العَلَم ذي الخطر ممن يُعْلَم غالباً، فلا يقال: آل الإسكاف والحجَّام. قال الشاعر:

نـحـن آلُ الـلَّـهِ فـي بَـلْـدَتِـنـا لـم نَـزَل إلاَّ عـلـى عَـهْـدِ إرم

قال الأخفش: لا يضاف آلٌ. إلاَّ إلى الرئيس الأعظم، نحو: آل محمد ﷺ، وآل فرعون؛ لأنَّه رئيسهم في الضلالة. قيل: وفيه نظر، لأنه قد سمع عن أهل اللغة في البلدان، فقالوا: آل المدينة، وآل البصرة. وقال الكسائي: لا يجوز أن يقال: فلانٌ من آل البصرة، ولا من آل الكوفة، بل يقال: من أهل البصرة، ومن

أهل الكوفة. انتهى قوله.

وقد سمع إضافته إلى اسم الجنس، وإلى الضمير. قال الشاعر:

وانصُرّ على آلِ الصليـ ـبِ وعابديه اليوم آلك

وقال هُدْبة:

أَنَا الفَارِسُ الحَامِي حَقِيقةَ وَالِدِي وَآلِي كَمَا تَحْمِي حَقِيقةَ آلِكَا

وجمع بالواو والنون رفعاً، وبالياء والنون جراً ونصباً، كما جمع أهلٌ، فقالوا: آلون. والآل: السراب يجمع على أفعالٍ. قالوا: أَأْوَالٌ. والآل: عمود الخيمة. والآل: الشخص، والآلة الحالة الشديدة. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ من سامه إذا كلَّفه العمل الشاقَّ. قال الشاعر:

إذا ما المَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً أَبَيْنَا أنْ نُقِرَّ الخَسْفَ فِيْنا

وقيل: معناه: يعلِّمونكم من السيماء وهي العلامة، ومنه تسويم الخيل. وقيل: يطالبونكم من مساومة البيع. وقيل: يرسلون عليكم من إرسال الإبل للرعي. وقال أبو عبيدة: يولونكم. يقال: سامه خطَّة خسفٍ؛ أي: أولاه إياها، وأصله يَسْوُمُونكَم بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى السين، فسُكِّنت إثر ضمة، فصارت حرف مد ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ السُّوء: اسم مصدر من أساء الرباعيّ، ومصدر لِسَاءَ الثلاثي. يقال: ساء يسوء وهو متعدٍّ، وأساء الرجل؛ أي: صار ذا سوء. قال الشاعر:

لَئِنْ ساءني أن نِلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ لَقَدْ سَرَّني أنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَا

ومعنى ساءه: أحزنه وهذا أصله. ثُمَّ يستعمل في كل ما يستقبح، ويقال: أعوذ بالله من سوء الخُلُقِ وسوء الفعل، يراد قبحهما. وسوء العذاب: أشدُّه وأفظعه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ والذبح أصله الشقُّ. قال الشاعر:

كأنَّ بَيْنَ فَكِّها والفَكِّ فَأرةَ مِسْكٍ ذُبِحَتْ في سَكِّ

والذَّبْحَةُ: داء في الحلق يقال منه: ذبحه يذبحه ذبحاً، والذِبح المذبوح

﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ الهمزة فيه مبدلةٌ من واو؛ لتطرفها فيها إثر ألف زائدة ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ والاستحياء هنا: الإبقاء حيّاً. واستفعل فيه بمعنى أفعل. استحياه وأحياه بمعنى واحد. وقد تقدم الكلام على استحيا من الحياء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ وأصل يستحيون يَستَحْيِيُون بوزن يستفعلون، عينه ولامه حرفا علةٍ، استثقلت الضمة على الياء التي هي لام الفعل، فحذفت، فسكنت، فالتقت ساكنةً مع واو الجماعة، فحذفت الياء لام الفعل؛ لالتقاء الساكنين، وضمت الياء؛ لمناسبة الواو، فصار وزنه يستفعون ﴿نِسَآءَكُمْ﴾ والنساء: اسمٌ يقع على الصغار والكبار، وهو جمع تكسير لنسوة، ونسوةٌ على وزن فعلة، وهو جمع قلة خلافاً لابن السراج، إذ زعم أنَّ فعلةً اسم جمع لا جمع تكسير، وعلى القولين لم يلفظ له بواحد من لفظه، والواحدة امرأة ﴿بَلَآءٌ﴾ والبلاء الاختبار والامتحان، وهو تارة يكون بما يسر؛ ليشكر العبد ربه، وتارةً بما يضر؛ ليصبر، وتارة بهما؛ ليرغب ويرهب. يقال: بلاه يبلوه بلاء، إذا اختبر، ثم صار يطلق على المكروه والشدة. يقال: أصاب فلاناً بلاءٌ؛ أي: شدَّةٌ، وهو راجعٌ لمعنى البِلى، كأنَّ المُبتلىٰ يؤول حاله إلى البلى وهو الهلاك والفناء، ويقال: أبلاه بالنعمة، وبلاه بالشدة. وقد يدخل أحدهما على الآخر، فيقال: بلاه بالخير، وأبلاه بالشر. قال الشاعر:

جزى الله بالإحسان ما فَعَلاَ بِكُمْ فأَبْلاهُمَا خَيْرَ البَلاءِ الَّذِي يَبْلُو

فاستعملهما بمعنى واحد، ويبنى منه افتعل، فيقال: ابتلى، وأصل بلاء بلاوٌ، فالهمزة فيه مُبْدلة من واوٍ، لأنَّ الواو إذا وقعت متطرِّفة بعد ألفٍ زائدة، قلبت، وكذلك الياء، كما تقدم في سماء، وبناء ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ افتعل من الأخذ. يقال: تَخِذ بكسر الخاء، يَتْخَذ بفتحها في المضارع، كعَلِم يَعْلَم من الأخذ، فهي بمعنى أخذ، أدغمت إحدى التاءين في الأخرى، كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله تعالى. وعليه تكون اتخذ أصلها إئتخذ، أبدلت الهمزة الساكنة ياءً، حرف مد للهمزة المتحركة بالكسر قبلها، ثم أبدلت الياء تاءً وأدغمت في التاء الثانية، ولما كثر استعمال هذا اللفظ من أخذ بصيغة الافتعال، توهموا أصالة التاء، فبنوا منه فعل يفعل. هذا ما ذهب إليه صاحب «القاموس»،

والجوهري في «صحاحه»، ولم يذكر الجوهري مادَّة تخذ، خلافاً لصاحب «القاموس»، فإنه ذكر المادتين أخذ، وتخذ، إلا أنه جعل الثانية من الأولى. وقال ابن الأثير: إنه ليس من الأخذ في شيء، وأشار بذلك إلى أنَّ تخذ مادةٌ مستقلةٌ، وقال: إن الافتعال من الأخذ إتّخذ؛ لأنَّ فاءَه همزةٌ، والهمزة لا تدغم، وغلَّط الجوهريَّ. وقول الجوهري أظهر. والله أعلم.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ لما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، بني على سكون آخره، فوزنه فعلنا لا فعونا ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ آتينا أصله أأتى بوزن أفعل، أبدلت الهمزة الثانية حرف مد مجانساً لحركة الأولى، وسكن آخره حين أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أصله تهتديون بوزن تفتعلون، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فسكنت الياء، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، وضمت الدال؛ لمناسبة الواو ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ في «القاموس» البحر: الماء الكثير، أو الملح، والجمع بحورٌ، وبحار، وأبحر. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة للتعظيم في قوله: ﴿نِعْمَتِيَ﴾ فإن فيها إشارة إلى عظم قدرها، وسعة برها، وحسن موقعها؛ لأن الإضافة إلى العظيم والشريف تفيد التعظيم والتشريف، كما في قولهم: ﴿بيت الله﴾، وقوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: فن التعطُّف في قوله: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ومعناه: إعادة اللفظة بعينها في الجملة من الكلام، ويسميه بعضهم فن المشاركة.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾؛ لأنه على حذف موصوف؛ أي: أوَّل فريق كافر به.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيَّة في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي﴾؛ لأن الاشتراء مستعار للاستبدال بجامع الأخذ في كل، كما تقدم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾.

ومنها: تكرار الحق في قوله: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾؛ لزيادة تقبيح المنهي عنه، إذ في الإظهار ما ليس في الإضمار من التأكيد، ويسمى هذا أيضاً بالإطناب.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ فهو من باب تسمية الكُل باسم الجزء لعلاقة الجزئية؛ أي: صلُّوا مع المصلين.

ومنها: التقديم في قوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾؛ لإفادة الحصر.

ومنها: حذف ياء المفعول فيهما؛ لرعاية رؤوس الفواصل.

ومنها: الاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار في قوله: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

ومنها: التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ مع أنَّ الأمر واقعٌ منهم؛ لإفادة التجدد والاستمرار.

ومنها: التعبير عن تركهم البر بالنسيان في قوله: ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ لإفادة المبالغة في تركهم، فكأنَّ البر لا يخطر ببالهم، ولا يخالج نفوسهم، ولا يدور في خلدهم.

ومنها: إفراد الإيمان بالقرآن في قوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ بالأمر به مع اندراجه في العهد المذكور قبله، لما أنه العمدة القصوى في شأن الوفاء بالعهد.

ومنها: تقييد المُنزَل بكونه مصدقاً لما معهم في قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾؛ لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر، فإنَّ إيمانهم بما معهم مما يقتضي الإيمان بما يصدِّقه قطعاً، ومنه التكرار في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾؛ توطئةً لما بعده.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لبيان الكمال والتشريف؛ لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور، فعطف التفضيل عليها من عطف الخاص على العام؛ لبيان فضلهم وشرفهم على غيرهم من أهل

زمانهم.

ومنها: ذكر المحل وإرادة الحال في قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾؛ أي: عذاب يوم.

ومنها: تنكير شيئاً مع تنكير نفس في قوله: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾؛ لإفادة التعميم والإقناط الكُليّ.

ومنها: الإتيان بالجملة الاسمية في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مع أنَّ الجمل التي قبلها فعليةٌ، للمبالغة، والدلالة على الثبات والديمومية؛ أي: إنهم غير منصورين دائماً، ولا عبرة بما يصادفونه من نجاح مؤقت.

ومنها: الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ أي: يذيقونكم، فإنه استعارةٌ من السوم في البيع.

ومنها: إضافة الصفة إلى الموصوف في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: العذاب السيىء الفظيع.

ومنها: تفسير العذاب السيىء بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ لأنَّ التفصيل بعد الإجمال أوقع في النفس.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿يستحيون﴾؛ لأنه مجازٌ عن الاستبقاء للخدمة.

ومنها: التنكير في كُلٍّ من ﴿بَلَآءٌ﴾، و﴿عَظِيمٌ﴾ للتفخيم والتهويل.

ومنها: التشديد في قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾؛ لإفادة التكثير. يقال: فتَّحت الأبواب.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

فائدة: قال عليٌّ كرم الله وجهه: (قصم ظهري رجلان: عالمٌ متهتِّكٌ، وجاهلٌ متنسِّكٌ، ومن دعا غيره إلى الهدى ولم يعمل به، كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه). قال الشاعر:

ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها فإذا انْتَهَتْ عَنْهُ فأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ إنْ وَعظْتَ ويُقْتَدَى بالرَّأي منك ويَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وقال أبو العتاهية:

وَصفْتَ التُّقَى حتَّى كأنَّكَ ذُو تُقَى وريْحُ الخَطَايَا مِنْ ثِيَابِكَ تَسْطَعُ

وقال آخر:

وغيْرُ تَقِيٍّ يَأْمر النَّاسَ بالتُّقَى طَبِيبٌ يُداوِي النَّاسَ وهو عَلِيلُ

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جل وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (٥٩) ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر في الآيات السالفة أنواعاً من النعم التي آتاها بني إسرائيل، كُلُّها مصدر فخار لهم، ولها تهتزُّ أعطافهم خيلاء وكبراً؛ لما فيها من الشهادة بعناية الله بهم... بَيَّن هنا كبرى سيئاتهم التي بها كفروا أنعُم ربهم، وهي: اتخاذهم العجل إلٰهاً، ثم ختمها بذكر العفو عنهم، ثم قَفَّى ذلك بذكر سيئة أخرى لهم ابتدعوها تعنتاً، وتجبُّراً، وطغياناً، وهي طلبهم من موسى أن يريهم الله سبحانه عِياناً حتى يؤمنوا به، فأخذتهم الصَّاعقة وهم يرون ذلك رأى العين. ثم أردف ذلك ذكر نعمتين أخريين كفروا بهما. أولاهما: تظليل الغمام لهم في التيه إلى أن دخلوا الأرض المقدسة. وثانيتهما: إنزال المن والسلوى عليهم مدة أربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ...﴾ الآيتين، ذكر سبحانه في هاتين الآيتين بعض ما اجترحوه من السيئات، فقد أمرهم أن يدخلوا قريةً من القرى

خاشعين لله، فعصى بعضهم، وخالف أمر ربه، فأنزل عليهم عذاباً من السماء جزاء ما ارتكبوه من المعاصي، واقترفوه من الآثام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى؛ ذكر فيها نعمةً أخرى آتاها بني إسرائيل فكفروا بها. ذلك أنهم حين خرجوا من مصر إلى التيه، أصابهم ظمأ من لفح الشمس، فاستغاثوا بموسى، فدعا ربه أن يسقيهم، فأجاب دعوته. وقد كان من دأب بني إسرائيل، أن يعودوا باللَّوم على موسى إذا أصابهم الضيق، ويمنُّون عليه بالخروج معه من مصر، ويصارحونه بالندم على ما فعلوا. فقد روي أنهم قالوا: من لنا بحر الشمس، فظلل عليهم الغمام. وقالوا: من لنا بالطعام، فأنزل الله عليهم المنّ والسلوى. فقالوا: من لنا بالماء، فأُمِر موسى بضرب الحجر.

التفسير وأوجه القراءة

ثُمَّ بين سبحانه كيفية وقوع العفو المذكور بقوله: ﴿و﴾ اذكروا أيضاً يا بني إسرائيل! وهذا هو الإنعام الخامس ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾؛ أي: قصة وقت قوله: ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ الذين عبدوا العجل، بعد ما رجع من الميعاد الذي وعده ربُّه، فرآهم عبدوا العجل ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ أي: يا قومي! والإضافة فيه للشفقة ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ﴾ وأضررتم ﴿أَنفُسَكُم﴾ بتفويتها الثواب الواجب لها، بالإقامة على عهد موسى ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾؛ أي: بسبب اتخاذكم العجل معبوداً لكم، فقالوا لموسى: فماذا تأمرنا ﴿فـ﴾ قال ﴿توبوا﴾ قلباً وقالباً؛ أي: فاعزموا على التوبة، والفاء للسببية، لأنَّ الظلم سببٌ للتوبة ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾؛ أي: إلى خالقكم الذي خلقكم بريئاً من العيوب، والنقصان، والتفاوت، وميَّز بعضكم من بعض بصور، وهيئات مختلفة، ولو[1] أظهرتم التوبة بالبدن دون القلب فأنتم ما تبتم إلى الله، وإنما تبتم إلى الناس. والتعرُّض[2] لعنوان البارئية؛ للإرشاد إلى أنهم بلغوا من الجهالة أقصاها، ومن الغباوة منتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي خلقهم

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

بلطيف حكمته، بريئاً من التفاوت، والتنافر، إلى عبادة العجل الذي هو مَثَلٌ في الغباوة، وأنَّ من لم يعرف حقوق مُنْعِمِه، حقيقٌ بأن تُستردَّ هي منه، ولذلك أمروا بالقتل، وفكِّ التركيب، فقالوا له: كيف نتوب إلى الله سبحانه ﴿ف﴾ قال لهم ﴿اقتلوا أنفسكم﴾؛ أي: سلِّموا أنفسكم للقتل، وارضوا به، واصبروا عليه، وليقتل البريء منكم المجرم، وإنما قال أنفسكم؛ لأن المؤمنين إخوةٌ، وأخو الرجل كأنَّه نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: ولا تغتابوا إخوانكم من المسلمين. كذا في «التيسير»، و«تفسير أبي الليث»، والفاء في قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ﴾ للتعقيب، وتوبتهم هي قتلهم؛ أي: فاعزموا على التوبة، فاقتلوا أنفسكم. كذا في «الكشاف».

وقال في «التفسير الكبير»: وليس المراد تفسير التوبة بقتل النفس، بل بيان أنَّ توبتهم لا تتمُّ، ولا تحصل إلا بقتل النفس، وإنما كان كذلك؛ لأنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام، أن توبة المرتد لا تتم إلا بالقتل ﴿ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: القتل في التوبة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي أنفع لكم ﴿عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ سبحانه من الامتناع الذي هو إصرارٌ، وفيه عذابٌ، لما أن القتل طهرة من الشرك، ووصلة إلى الحياة الأبدية، والبهجة السرمدية؛ أي: إنَّ التوبة أجرٌ لَكُمْ عند خالقكم، من إقامتكم على عبادة العجل؛ لما فيها من الطهارة من الشرك. وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب منه تعالى، معطوف على محذوف؛ أي: ثم فعلتم ما أمرتم به، فتاب عليكم بارئكم؛ أي: قبل توبتكم، وتجاوز عنكم، وإنما لم يقل: فتاب عليهم، على أنَّ الضمير للقوم؛ لما أن ذلك نعمةٌ أُريد التذكير بها للمخاطبين لا لأسلافهم.

فإن قلت[1]: أنه تعالى أمر بالقتل، والقتل لا يكون نعمةً.

قلت: إن الله سبحانه نبَّههم على عظيم ذنبهم، ثم نبَّههم على ما به يتخلَّصون من ذلك العظيم، وذلك من النعم في الدِّين؛ أي: قَبِلَ توبةَ من قُتل منكم، وغفَرَ لمن لم يُقْتل من بقيةِ المجرمين، وعفا عنهم من غير قتلٍ.

---

(١) روح البيان.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: الذي يُكثِر توفيق المذنبين للتوبة، ويبالغ في قبولها منهم: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير الرحمة للمطيعين أمره حيث جعل القتل كفارة لذنوبهم. روي أنهم لـمَّا أمرهم موسى بالقتل. قالوا: نصبر لأمر الله، فجلسوا في الأفنية محتبين مذعنين. وقيل لهم: من حَلَّ حبوته، أو مدَّ طرفه إلى قاتله، أو اتقاه بيدٍ أو رجلٍ، فهو ملعون مردودٌ توبته، وأصلت القوم عليهم الخناجر؛ أي: حملوا عليهم الخناجر، ورفعوا بها وضربوهم بها، وكان الرجل يرى ابنه، وأباه، وأخاه، وقريبه، وصديقه، وجاره، فلم يمكنهم المضيُّ لأمر الله. قالوا: يا موسى! كيف نفعل؟ فأرسل الله سبحانه ضبابةً، وسحابةً سوداء، لا يبصر بعضهم بعضاً، فكانوا يقتلونهم إلى المساء، فلما كثر القتل، دعا موسى وهارون، وبكيا، وتضرَّعا، وقالا: يا رب! هلكت بنو إسرائيل، البقية، البقية، فكشف الله السحابة، ونزلت التوبة، وأمرهم أن يكفُّوا عن القتل، فقتل منهم سبعون ألفاً، فكان من قتل شهيداً، ومن بقي مغفورةً ذنوبه. وأوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام، إني أدخل القاتل والمقتول الجنة. هذا على رواية أن القاتل من المجرمين، على أن معنى قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بعض المجرمين بعضاً، فالقاتل هو الذي بقي من المجرمين بعد نزول أمر الكف عن القتل، وإلا فالقاتل على الرواية الأخرى هو البريء، كما سبق في تفسير الآية.

ورُوي: أنَّ الأمر بالقتل من الأغلال التي كانت عليهم، وهي المواثيق اللازمة لهم لزوم الغُلِّ، ومن الإصر وهو الأعمال الشاقة، كقطع الأعضاء الخاطئة، وعدم جواز صلاتهم في غير المسجد، وعدم التطهير بغير الماء، وحرمة أكل الصائم بعد النوم، ومنع الطيبات عنهم بالذنوب، وكون الزكاة ربع مالهم، وكتابة ذنب الليل على الباب بالصبح، وكما روي: أن بني إسرائيل إذا قاموا يصلُّون، لبسوا المسوح، وغلُّوا أيديهم إلى أعناقهم، ورُبَّما ثقب الرجل ترقوته، وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية، وحبس نفسه على العبادة. فهذه الأمور رفعت عن هذه الأمة؛ تكريماً للنبي ﷺ. **وحاصل معنى الآية**[1]: أي

(١) المراغي.

واذكر أيها الرسول الكريم! فيما تلقيه على بني إسرائيل، وغيرهم من العظات، قول موسى لقومه الذين عبدوا العجل، حيث كان يناجي ربه: يا قوم! إنكم باتخاذكم العجل إلْها قد أضررتم بأنفكسم، وأنقصتم مالها من الأجر والثواب عند ربكم، لو أنكم أقمتم على عهدي، واتَّبعتم شريعتي وقد فصِّلت هذه القصة في سورتي الأعراف وطه ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ...﴾ إلخ؛ أي: فاعزموا على التوبة إلى من خلقكم، وميَّز بعضكم من بعض بصورٍ، وهيئات مختلفة. وفي قوله: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنهم بلغوا غاية الجهل، إذ تركوا عبادة البارىء، وعبدوا أغبى الحيوان، وهو البقر، وليقتل البرىء منكم المجرم.

وقصة القتل مذكورةٌ في التوراة التي يتدارسونها إلى اليوم، ففيها دعاءُ موسى: من للربِّ فإليَّ، فأجابه بنو لاوى، فأمرهم أن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضاً، ففعلوا، فقتل في ذلك اليوم، نحو: ثلاثة آلاف رجلٍ. والعبرة من القصة، لا تتوقَّف على عددٍ معين، فلنمسك عنه ما دام القرآن لم يتعرَّض له. ذلكم المذكور من التوبة، والقتل، أنفع لكم عند الله من العصيان، والإصرار على الذنوب؛ لما فيه من العذاب، إذ أن القتل يطهِّركم من الرجس الذي دنَّستم به أنفسكم، ويجعلكم أهلاً للثواب ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ﴾؛ أي: ففعلتم ما أمركم به موسى، فقبل توبتكم، وتجاوز عن سيئاتكم، إنه سبحانه هو التواب؛ أي: كثير قبول التوبة ممن تاب إليه. الرحيم: أي كثير الرحمة بمن يُنِيب إليه، ويرجع، ولولا ذلك لعجل بإهلاككم على ما اجترحتم من عظيم الآثام، وكرَّر البارىء باللفظ الظاهر؛ توكيداً؛ ولأنها جملةٌ مستقلةٌ، فناسب الإظهار. وللتنبيه على أنَّ هذا الفعل هو راجح عند الذي أنشأكم، فكما رأى أن إنشاءكم راجحٌ؛ رأي: أنَّ إعدامكم بهذا الطريق من القتل راجحٌ، فينبغي التسليم له في كل حالٍ، وتلقِّي ما يرد من قِبَله بالقبول، والامتثال. ذكره في «البحر».

وقرأ الجمهور[1]: بظهور حركة الإعراب في ﴿بَارِئِكُمْ﴾ وروي عن أبي

(١) البحر المحيط.

عمرو الاختلاس. روى ذلك عنه سيبويه، وروي عنه الإسكان؛ وذلك إجراءٌ للمنفصل من كلمتين مُجرى المتصل من كلمة، فإنه يجوز تسكين مثل إبلٍ، فأُجري المكسوران في بارئكم مجرى إبلٍ. ومنع المبرد التسكين في حركة الإعراب، وزعم أن قراءة أبي عمرو لحنٌ، وما ذهب إليه ليس بشيء؛ لأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بأثر عن رسول الله ﷺ، ولغة العرب توافقه على ذلك، فإنكار المبرد لذلك منكرٌ.

وقرأ الزهري ﴿باريكم﴾ بكسر الياء من غير همز. ورُوي ذلك عن نافع، وليست في المتواترت ولهذه القراءة تخريجان:

أحدهما: أنَّ الأصل الهمزة، وأنه من برأ، فخففت الهمزة بالإبدال المحض على غير قياس، إذ قياس هذا التخفيف، جعلها بين بين.

والثاني: أن يكون الأصل باريكم بالياء من غير همز، فيكون مأخوذاً من قولهم بَرَيْتُ القلم إذا أصلحته، أو من البَرَي وهو التراب، ثم حرَّك حرف العلة، وإن كان قياسه تقدير الحركة في مثل هذا رفعاً وجراً. وقد ذكر الزمخشري[1] في اختصاص ذكر البارىء هنا كلاماً حسناً هذا نصه: فإن قلت: من أين اختصَّ هذا الموضع بذكر البارىء؟

قلت: البارىء: هو الذي خلق الخلق برِيئاً من التفاوت ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ ومميَّزاً بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة، والصُّور المتباينة، فكان فيه تقريعٌ بما كان منهم، من ترك عبادة العالم الحكيم، الذي برأهم بلطيف حكمته، على الأشكال المختلفة، أبرياء من التفاوت، والتنافر، إلى عبادة البقر التي هي مَثَلٌ في الغَبَاوة، والبَلادة. في أمثال العرب: أبلد من ثور. حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله، ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم، وينثر ما نظم من صورهم، وأشكالهم، حين لم يشكروا النعمة في ذلك، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها. انتهى.

---

(١) الكشاف.

ولمَّا فرغ سبحانه من محاورة موسى لقومه.. شرع في محاورتهم له عليه السلام، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ هذا هو الإنعام السادس؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! وقت قول السبعين من أسلافكم، الذين اختارهم موسى حين ذهبوا معه إلى الطور للاعتذار عن عبادة العجل، وهم غير السبعين الذين اختارهم موسى أوَّل مرةٍ، حين أراد الانطلاق إلى الطور بعد غرق فرعون لأخذ التوراة ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾؛ أي: لن نصدِّقك لأجل قولك ودعوتك على أنَّ هذا كتاب الله، وأنك سمعت كلامه، وأنَّ الله تعالى أمرنا بقبوله، والعمل به، ولم يريدوا[1] نَفْيَ الإيمان به بدليل: قولهم لك، ولم يقولوا بك، نحو: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾؛ أي بمصدِّق.

وقيل معناه: لن نُقِرَّ لك بأن التوراة من عند الله ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿جَهْرَةً﴾؛ أي:[2] عياناً لا ساتر بيننا وبينه، كالجهر في الوضوح والانكشاف؛ لأن الجهر في المسموعات، والمعاينة في المبصرات، ونصبها على المصدرية؛ لأنها نوع من الرؤية، فكأنها مصدر الفعل الناصب، أو حال من الفاعل؛ أي: حتى نرى الله مجاهرين، أو من المفعول؛ أي: حتى نرى الله مجاهَراً بفتح الهاء، وذلك أنَّه لمَّا تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل، أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ وقال لهم: صوموا، وتطهَّروا، وطَهِّروا ثيابكم، ففعلوا، وخرج بهم إلى طور سيناء، فقالوا لموسى: أطلب لنا أن نسمع كلام ربنا، فقال موسى: أفعلُ، فلمَّا دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشَّى الجبل كُلَّه، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام. وقعوا سجوداً، فسمعوا الله سبحانه يكلِّم موسى، يأمره، وينهاه، فلمَّا انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نَرَى الله جهرةً، كما بيَّنه تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ وقد عرفت أنَّ هذا الظرف معطوف على الظروف المتقدمة، وأنَّ التقدير فيه: واذكروا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

إذ قلتم يا موسى! إلخ. والقائلون لهذا القول: هم سبعون رجلاً من خيارهم، كما عرفت. وقرأ الجمهور. ﴿جَهۡـرَةً﴾ بسكون الهاء. وقرأ ابن عباس، وسهل بن شعيب، وحميد بن قيس ﴿جَهَرَةً﴾ بفتحها، وتحتمل هذه القراءة وجهين:

أحدهما: يكون جهرةً مصدراً، كالغلبة، فيكون معناها ومعنى جَهْرةً المُسَكَّنَةِ الهاءِ سواءً.

والثاني: أن يكون جمعاً لجاهر، كما تقول فاسق وفسقة، فيكون انتصابه على الحال؛ أي جاهرين بالرؤية. ذكره في «البحر».

والمعنى[1]: واذكروا يا بني إسرائيل! حين خرجتم مع موسى إلى جبل الطور لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل، فسمعتم كلام الله مع موسى، فقلتم لموسى لمَّا أقبل إليكم من المناجاة ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾؛ أي: لن نصدقك في أن المخاطب لنا هو ربنا، وأن ما سمعناه كلامه ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡـرَةً﴾؛ أي: حتى نبصره ونراه رؤيةً جهرةً؛ أي: ظاهرة واضحة عِياناً، لا يستره عنا شيءٌ ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾؛ أي: فأحرقتكم النار النازلة من السماء؛ أي: فأخذت الصاعقة من قال ذلك، والباقون ينظرون بأعينهم. وقد فصَّل ذلك في الأعراف. وقرأ عمر، وعليٌّ ﴿الصَّعْقة﴾ بلا ألف. ذكره في «البحر». والصاعقة[2]: هي نارٌ مُحْرِقة فيها صوتٌ، نازلةٌ من السماء. وقيل: هي كُلُّ أمرٍ مُهْولٍ مُمِيْتٍ، أو مُزيلٍ للعقل والفهم، وتكون صوتاً، وتكون ناراً، وتكون غير ذلك.

وقيل: هي صوت ملكٍ صاح عليهم، وإنما أحرقتهم الصاعقة، لسؤالهم ما هو مستحيلٌ على الله في الدنيا؛ ولفرط العناد والتعنُّت، وإنما الممكن أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية، وذلك للمؤمنين في الآخرة، وللأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا، كما قيل: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ إلى الصاعقة النازلة حين نزولها، فإن كانت ناراً فقد عاينوها، وإن كانت صوتاً هائلاً فقد مات بعضهم

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

أولاً، ورأى الباقون أنهم ماتوا، ويسمَّى هذا رؤية الموت مجازاً. وسيأتي[1] في الأعراف أنهم ماتوا بالرجفة؛ أي: الزلزلة، ويمكن الجمع بينهما، بأنه حصل لهم الجميع. انتهى. من «الفتوحات». وقال الواحديُّ: وإنما[2] أخذتهم الصاعقة؛ لأنهم امتنعوا من الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته حتى يريهم ربهم جهرة، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزتهم، ولا يجوز اقتراح المعجزات عليهم، فلهذا عاقبهم الله تعالى. وهذه الآية موبخة للمعاصرين في زمن الرسول ﷺ، على مخالفة محمد ﷺ مع قيام معجزته، كما خالف أسلافهم موسى، مع ما أَتَىٰ به من المعجزات الباهرة. وفي التوراة: إن طائفةً[3] منهم قالوا: لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله من دوننا، وشاع ذلك في بني إسرائيل، وقالوا لموسى بعد موت هارون: إنَّ نعمة الله على شعب إسرائيل لأجل إبراهيم، وإسحاق، فتعمم الشعب جميعه، وأنت لست أفضل منه، فلا يحقُّ لك أن تسودنا بلا مزيَّةٍ، وإنا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذهم إلى خيمة العهد، فانشقت الأرض، وابتلعت طائفةً منهم، وجاءت نارٌ من الجانب الآخر، فأخذت الباقين. اهـ.

وهكذا كان حال بني إسرائيل مع موسى، يتمرَّدُون، ويعاندون، وسوط العذاب يصبُّ عليهم صباً، فأصيبوا بالأوبئة وأنواع الأمراض، وسُلِّطت عليهم هوام الأرض وحشراتها، حتى فتكت بالعدد العديد، والخلق الكثير، فليس ببدعٍ منهم أن يجحدوا دعوة النبي ﷺ، ويعاندوها ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ وأحييناكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وحرقكم بتلك النار الصاعقة، وموتكم يوماً وليلة، وقاموا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيا! وعاشوا بعد ذلك؛ لأنهم[4] لما ماتوا، جعل موسى يبكي ويتضرع إلى الله، ويقول: يا رب! إنهم خرجوا معي وهم أحياء، لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلاً بعد

---

(١) الفتوحات.

(٢) الواحدي.

(٣) التوراة.

(٤) كرخي.

رجل، بعد ما مكثوا ميِّتين يوماً وليلة؛ وذلك لإظهار آثار القدرة؛ وليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يحيوا إلى يوم القيامة.

وقيَّد البعث بقوله[1]: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ مع أنه إنما يكون بعد الموت، لما أنه قد يكون من الإغماء، أو من النوم. قال قتادة: أحياهم، ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، وكان ذلك الموت بلا أجل، وكانت تلك الموتة لهم، كالسَّكْتَةِ لغيرهم قبل انقضاء آجالهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة. اهـ.

فإن قلت: كيف يجوز أن يكلِّفهم، وقد أماتهم؟ فإن جاز ذلك، فلم لا يجوز أن يكلف أهل الآخرة إذا بعثوا بعد الموت؟.

قلنا: الذي يمنع من تكليفهم في الآخرة، هو الإماتة ثم الإحياء، وإنما منع ذلك من التكليف، لأنه قد اضطرهم يوم القيامة إلى معرفته ومعرفة ما في الجنة من اللذات، وما في النار من الآلام، وبعد العلم الضروري لا تكليف، فإذا كان المانع هو هذا، لم يمتنع في هؤلاء الذين أماتهم الله بالصعقة، أن لا يكون قد اضطرهم، وإذا كان كذلك صحَّ أن يكلفوا من بعد، ويكون موتهم، ثم الإحياء بمنزلة النوم، أو بمنزلة الإغماء ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ أي: لكي تشكروا الله سبحانه وتعالى، نعمة إحيائه لكم بعد موتكم بالصاعقة بالتوحيد والطاعة، أو لعلكم تشكرون وقت مشاهدتكم بأس الله بالصاعقة، نعمة الإيمان التي كفرتموها بقولكم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ فإن ترك النعمة لأجل طلب الزيادة كفرانٌ لها؛ أي: لعلكم تشكرون نعمة الإيمان، فلا تعودون إلى اقتراح شيء بعد ظهور المعجزة.

وفي «المراغي»[2]: يرى بعض المفسرين: أن الله أحياهم بعد أن وقع فيهم الموت بالصاعقة، أو غيرها؛ ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، وكانت تلك الموتة لهم كالسكتة القلبيَّة لغيرهم. ويرى آخرون، أن المراد بالبعث: كثرة النسل؛ أي: إنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتَّى الأسباب، وظُنَّ أنهم ينقرضون، بارك الله في

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

نسلهم؛ ليعدَّ الشعب بالبلاء السابق، للقيام بحقِّ الشكر على النعم التي تمتَّع بها الآباء الذين حلَّ بهم العذاب بكفرهم لها. وإنما قصَّ الله سبحانه علينا هذا القصص، ووجهه إلى من كان من اليهود في عصر التنزيل؛ لبيان وحدة الأمة، وأن ما يبلوها به من الحسنات والسيئات، وما يجازيها به من النعم والنقم، إنما هو لمعنًى فيها يُسوِّغُ أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق، كأنَّه وقع منه، ليعلم الناس أنَّ الأمم متكافلةٌ، سعادة الفرد منها، مرتبطةٌ بسعادة سائر الأفراد، وشقاؤه بشقائهم، ويتوقَّع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب في الأمة، وإن لم يفعلها هو، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ وفي هذا التكافل رُقِيُّ الأمة، وتقدمها في المدنية والحضارة، إذ يحملها على التعاون في البأساء والضراء، فتحوز قصب السبق بين الأمم. وأصل[1] هذه القصة: أنَّ موسى عليه السلام، لمَّا رجع من الطور إلى قومه، فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه والسامري ما قال، وأحرق العجل وألقاه في البحر، وندم القوم على ما فعلوا، وقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أمر الله سبحانه موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين من قومه من خيارهم، فلما خرجوا إلى الطور، قالوا لموسى: سل ربنا حتى يسمعنا كلامه؟ فسأل موسى عليه السلام ذلك، فأجابه الله، ولما دنا من الجبل، وقع عليه عمودٌ من الغمام، وتغشَّى الجبل كله، ودنا من موسى ذلك الغمام حتى دخل فيه، وقال للقوم: ادخلوا، فكلم الله موسى يأمره وينهاه، وكلما كلمه تعالى أوقع على جبهته نوراً ساطعاً، لا يستطيع أحدٌ من السبعين النظر إليه، وسمعوا كلامه تعالى مع موسى، افعل لا تفعل، فعند ذلك طمعوا في الرؤية، وقالوا ما قالوا، فأخذتهم الصاعقة، فخرُّوا صعقين ميتين يوماً وليلة، فلمّا ماتوا جميعاً، جعل موسى يَبْكي ويتضرَّع رافعاً يديه إلى السماء يدعو، ويقول: يا إلٰهي! اخترت من بني إسرائيل سبعين رجلاً ليكونوا شهودي بقبول توبتهم، وماذا أقول لهم إذا أتيتهم، وقد

---

(١) روح البيان.

أهلكت خيارهم، لو شئت أهلكتهم قبل هذا اليوم مع أصحاب العجل، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ فلم يزل يناشد ربَّه حتى أحياهم الله سبحانه، وردَّ إليهم أرواحهم، وطلب توبة بني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا إلا أن يقتلوا أنفسهم.

قالوا: إن موسى[1] عليه السلام، سأل الرؤية في المرة الأولى في الطور، ولم يمت، لأن صعقته لم تكن موتاً، ولكن غشيةً، بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وسأل قومه في المرة الثانية، حين خرجوا للاعتذار وماتوا، وذلك؛ لأنَّ سؤال موسى كان اشتياقاً وافتقاراً، وسؤال قومه كان تكذيباً واجتراءً، ولم يسألوا سؤال استرشاد، بل سؤال تعنُّتٍ، فإنهم ظنُّوا أنه تعالى يشبه الأجسام، وطلبوا رؤيته رؤية الأجسام في الجهات، والأحياز المقابلة للرائي، وهي مَحالٌ. وليس في الآية دليل على نفي الرؤية، بل فيها إثباتها، وذلك أنَّ موسى عليه السلام، لمَّا سأله السبعون لم ينههم عن ذلك، وكذلك سأل هو ربه الرؤية، فلم ينهه عن ذلك، بل قال: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ وهذا تعليقٌ بما يتصوَّر، قال بعض العلماء الحكماء: الحكمة في أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا وجوهٌ:

الأول: أن الدنيا دار أعدائه؛ لأن الدنيا جنة الكافر.

الثاني: لو رآه المؤمن لقال الكافر: لو رأيته لعبدته، ولو رأوه جميعاً لم يكن لأحدهما مزيةٌ على الآخر.

الثالث: أنَّ المحبة على غيبٍ، ليست كالمحبة على عينٍ.

الرابع: أن الدنيا محلُّ المعيشة، ولو رآه الخلق لاشتغلوا عن معاشهم، فتعطلت.

الخامس: أنه جعلها بالبصيرة دون البصر؛ ليرى الملائكة صفاء قلوب المؤمنين.

---

(١) روح البيان.

السادس: ليقدِّر قدرها، إذ كل ممنوع عزيزٌ.

السابع: إنما منعها رحمة بالعباد؛ لما جبلوا عليه في هذه الدار من الغيرة، إذ لو رآه أحد تصدَّع قلبه من رؤية غيره إياه، كما تصدَّع الجبل غيرةً من أن يراه موسى. والله أعلم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ هذا هو الإنعام السابع؛ أي: جعلنا السحاب الرقيق ظلاً عليكم، يحفظكم من حر الشمس، وكان يسير بسيرهم، وكانوا يسيرون ليلاً ونهاراً، وذلك في التِيه، وهو: وادٍ بين الشام ومصر وقدره تسعة فراسخ، وقيل: اثنا عشر فرسخاً، مكثوا فيه أربعين سنة متحيرين، لا يهتدون إلى الخروج منه، وسبب ذلك؛ مخالفتهم أمر الله تعالى إياهم بقتال الجبارين الذين كانوا بالشام؛ أي: جعلنا[1] الغمام ظُلَّة عليكم يا بني إسرائيل. وهذا كما ذكرنا جرى في التيه، وادٍ بين مصر والشام، فإنهم حين خرجوا من مصر وجاوزوا البحر، وقعوا في صحراء لا أبنية فيها، وأمرهم الله تعالى بدخول مدينة الجبَّارين، الذين كانوا في الشام وقتالهم، فقبلوا أمره، فلما قربوا منها سمعوا بأنَّ أهلها جبارون أشدَّاء، قامة أحدهم سبعمائة ذراع، ونحوها، فامتنعوا، وقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ فعاقبهم الله تعالى، بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، وكانت المفازة يعني: التيه، اثني عشر فرسخاً، فأصابهم حرٌّ شديد، وجوع مفرط، فشكوا إلى موسى، فرحمهم الله تعالى، فأنزل عليهم عموداً من نور يدُلَّى له من السماء، فيسير معهم بالليل يضيىء لهم مكان القمر إذا لم يكن قمرٌ، وأرسل غماماً أبيض رقيقاً. أطيب من غمام المطر، يظللهم من حر الشمس في النهار. وسُمِّي السحاب غماماً؛ لأنه يغمُّ السماء؛ أي: يسترها. والغَمُّ: حزن يستر القلب. ولم يكن لهم في التيه شيءٌ يسترهم، ويستظلُّون به، وكانت ثيابهم لا تتسخ، ولا تبلى، ثم سألوا موسى الطعام، فدعا ربه فاستجاب له، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾؛ أي: الترَنْجبين بفتح

---

(١) روح البيان.

الراء وتسكين النون: وهو شيءٌ أبيض مثل الثلج، كالشَّهد المعجون بالسمن. وقيل: هو يشبه العسل الأبيض. وقيل: هو كان يقع على أشجارهم من الفجر إلى طلوع الشمس، لكلِّ إنسان صاعٌ، أو المَنُّ جميع ما منَّ الله به على عباده من غير تَعَب، ولا زرع، ومنه قوله ﷺ: «الكَمْأَةُ مِن المَنّ وماؤُها شفاء للعين»؛ أي: ممَّا منَّ الله به على عباده من غير تعبٍ، ثُمَّ لما مَلُّوا من أكله، قالوا: يا موسى! قتلنا هذا المنُّ بحلاوته، فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم، فأنزل الله عليهم السلوى، وذلك قوله: ﴿وَٱلسَّلْوَىٰٓ﴾؛ أي: وأرسلنا عليكم السلوى، وهو السُّماني، وهو: طائرٌ لذيذ اللحم، ليس له ذَنَبٌ، ولا يطير إلا قليلاً، ويموت إذا سمع صوت الرعد، فيلهمه الله أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون فيها مطرٌ ولا رعدٌ، إلى انقضاء أوان المطر والرعد، فيخرج من الجزائر، وينتشر في الأرض. وخاصِّيَّتهُ: أنَّ أكل لحمه يُليِّن القلوب القاسية، وكانت تحشره عليهم ريح الجنوب، وكانت الريح تقطع حلقومها، وتشق بطونها، وتمعط شعورها، وكانت الشمس تنضجها، فكانوا يأكلونها مع المنِّ. وأكثر المفسرين على أنهم يأخذونها، فيذبحونها،فكان ينزل عليهم المنُّ نزول الثلج، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وتأتيهم السلوى، فيأخذ كل إنسان منهم كفايته إلى الغد، إلا يوم الجمعة يأخذ ليومين؛ لأنه لم يكن ينزل يوم السبت؛ لأنه كان يوم عبادة، فإن أخذ أكثر من ذلك دوَّد وفسد.

وقوله: ﴿كُلُوا﴾ مقولٌ[1] لقول محذوفٍ، معطوفٍ على فعلٍ محذوف، تقديره: أنعمنا عليكم بأنواع النعم من الطعام والشراب، من غير كدٍّ ولا تعبٍ، وقلنا لكم كلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ وحلالات ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وأعطيناكم؛ أي: كلوا من لذائذ ما رزقناكموه من المنِّ والسلوى، ولا ترفعوا منه شيئاً ادخاراً لغدٍ، ولا تعصوا أمري، فرفعوا، وادَّخروا، وجعلوا اللحم قديداً مخافة أن ينفد، فقطع الله عنهم، ودوَّد ما ادّخروه، ولو لم يرفعوا لدام عليهم ذلك. والطيبات: جمع

(١) العمدة.

طيب، والطَّيب: ما لا تعافه طبعاً ولا تكرهه شرعاً. وفي الحديث المتفق عليه. عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بنوا إسرائيل، لم يخبث الطعام، ولم يخنز اللحم»؛ أي: لم ينتن ولم يتغيَّر «ولولا حواء، لم تخن أنثى زوجها الدَّهر». وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ أي: وما نقصونا بما ادخروا، معطوفٌ على محذوف، تقديره: فظلموا بأن كفروا تلك النعمة الجليلة، وادَّخروا بعد ما نهوا عنه، وما ظلمونا؛ أي: ما بخسوا بحقِّنا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: يضرُّون باستيجابهم عذابي، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم، بلا مؤونة في الدنيا، ولا حساب في العقبى، فرفعنا ذلك عنهم؛ لعدم توكلهم علينا.

فإن قلت: ما الحكمة في ذكر كانوا هنا وفي الأعراف، وحذفها في آل عمران؟

فالجواب: أن ما في السورتين إخبارٌ عن قومٍ انْقَرضُوا، وما في (آل عمران) مثلٌ منبِّه عليه بقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ إلخ. اهـ «كرخي». وقوله في الحديث: لم يخنز اللحم ولم تخن أنثى زوجها؛ أي: واستمرَّ نتن اللحم من ذلك الوقت، لأنَّ البادي للشيء كالحامل للغير على الإتيان به، وكذلك استمرت الخيانة من النساء؛ لأنَّ أُمَّ النساء خانت بأن أغواها إبليس قبل آدم حتى أكلت من الشجرة، ثم أتت آدم، فزيَّنت له ذلك حتى حملته على أن أكل منها، فاستمرَّت تلك الخيانة من بناتها لأزواجها.

قال في «الأشباه والنظائر»: الطعام إذا تغيَّر واشتدَّ تغيره تنجَّس، وحرم أكله واللَّبنُ، والزَّيْتُ، والسمنُ، إذا أنتن لا يحرم أكله. انتهى.

وفي سفر الخروج من التوراة[1]: أنهم أكلوا المن أربعين سنةً، وأنَّ طعمه كالرُّقاق بالعسل، وكان لهم بدل الخبز إذ كانوا محرومين من البقول، والخضر. وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ كُلّ ما يطلبه الله من عباده، فإنما نفعه لهم، وما ينهاهم

---

(١) المراغي.

عنه، فإنما ذلك لدفع ضُرٍّ يقع عليهم. وقد جاء في الحديث القدسي: (فكلُّ عمل ابن آدم له أو عليه) وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ هذا هو الإنعام الثامن؛ لأنه تعالى أباح لهم دخول البلدة، وأزال عنهم التيه. ﴿وَإِذْ﴾[1] معطوف على نعمتي على كونها مفعولاً لاذكروا، كما مرَّ مراراً؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! نعمتي التي أنعمت بها علكيم، ووقت قولنا لآبائكم إثر ما أُنقِذْتمُ من التيه ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ منصوبٌ على الظرفية؛ أي: مدينة بيت المقدس، كما قاله مجاهد، أو قرية أريحاء، كما قاله ابن عباس، وهي قريةٌ قريبةٌ من بيت المقدس. وجزم القاضي، وغيره بالأول، ورُجِّح الثاني بأنَّ الفاء في قوله ﴿فَبَدَّلَ﴾ تقتضي التعقيب، فيكون واقعاً عقب هذا الأمر في حياة موسى عليه السلام، وموسى تُوفِّي في التيه، ولم يدخل بيت المقدس. قاله الرازيّ. اهـ. «كرخي».

وعبارة الخازن: قال ابن عباس: القرية هي أريحا قرية الجبارين، بفتح الهمزة وكسر الراء وبالحاء المهملة، قريةٌ بالغور قريبةٌ من بيت المقدس. قيل: كان فيها قومٌ من بقية عاد يقال لهم: العمالقة، ورأسهم عوج بن عُنُقٍ، فعلى هذا يكون القائل يوشع بن نون؛ لأنه الذي فتح أريحا بعد موسى؛ لأن موسى مات في التيه. وقيل: هي بيت المقدس، وعلى هذا فيكون القائل موسى، والمعنى: إذا خرجتم بعد مضيِّ الأربعين سنةً، فادْخلُوا بَيْتَ المقدس. اهـ.

والقَرْية[2]: اسمٌ للمكان الذي يجتمع فيه القوم، وقد تطلق عليهم مجازاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: أهلها، والمعنى؛ أي: واذكروا قصة، إذ قلنا لكم بعد خروجكم من التيه على لسان موسى، أو على لسان يوشع، ادخلوا هذه القرية ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾؛ أي: من ثمارها، وطعامها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ وأنى شئتم أكْلاً ﴿رَغَدًا﴾؛ أي: واسعاً لا حجر فيه، على أنَّ النصب على

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

المصدرية، أو هو حال من الواو في كلوا؛ أي: راغدين متوسعين، وفيه دلالة على أن المأمور به الدخول على وجه الإقامة والسُّكنى. قال في «التيسير»؛ أي: أبَحْنَا لكم، ووسعنا عليكم، فتعيشوا فيها أنَّى شئتم بلا تضييقٍ ولا منعٍ، وهو تمليكٌ لهم بطريق الغنيمة. وذكر الأكل؛ لأنه معظم المقصود ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾؛ أي: باباً من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب، والمراد الباب الثاني من بيت المقدس، ويعرف اليوم بباب حطةٍ، أو باب القُبَّة التي كان يتعبَّد فيها موسى وهارون، ويُصلِّيان مع بني إسرائيل إليها ﴿سُجَّدٗا﴾؛ أي: ركعاً منحنين، ناكسي رؤوسكم بالتواضع، على أن يكون المراد معناه الحقيقيَّ، أو ساجدين شكراً لله تعالى على خلاصكم وإخراجكم من التيه، على أن يكون المراد به معناه الشرعيَّ ﴿وَقُولُواْ﴾ بألسنتكم مسألتنا منك يا ربنا! ﴿حِطَّةٞ﴾؛ أي: حطُّ ذنوبنا عنَّا، وغفرانها لنا بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: مسألتنا من الله أن يحط عنا ذنوبنا، أو بالنصب على المصدرية لفعل محذوف؛ أي: حُطَّ عنا ذنوبنا حطةً وذلك أنهم أصابوا خطيئةً بإبائهم على موسى دخول القرية. وقيل: أريد بها كلمة الشهادة؛ أي: قولوا كلمة الشهادة الحاطَّة للذنوب. والحاصل: أنهم أمروا بأن يدخلوا الباب على وجه الخضوع، وأن يذكروا بألسنتهم التماس حطِّ الذنوب، حتى يكونوا جامعين بين ندم القلب، وخضوع الجوارح، والاستغفار باللسان.

وقرأ الجمهور[1]: (حطة) بالرفع، على أنه خبر مبتدأ محذوف. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة بالنصب، على معنى احطط عنا ذنوبنا حطةً. وقيل معناه: الاستغفار، ومنه قولُ الشاعر:

فَازَ بِالحِطَّةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّـ ... ـهُ بِهَا ذَنْبَ عَبْدِهِ مَغْفُوراً

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ مجزومٌ على أنه جواب الأمر من الغفر، وهو: الستر؛ أي: نستر عليكم ﴿خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾؛ أي: ذنوبكم، فلا نجازيكم بها لما تفعلون من السجود والدعاء، وهم الذين عبدوا العجل ثمَّ تابوا، وهي جمع خطيئة ضدُّ الصواب.

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ نافع بالياء المضمومة مبنياً للمجهول[1]، وذكَّر الفعل؛ لأنَّ الخطايا مؤنث مجازي، أو لوقوع الفصل. وقرأ ابن عامر بالتاء المضمومة مبنياً للمجهول أيضاً. وقرأ الباقون نغفر بنون العظمة، وهي أولى؛ لجريانها على نظام ما قبله من قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وما بعده من قوله: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقرأ أبو بكر من طريق الجعفيِّ يَغفر بالياء المفتوحة، على أنَّ الفاعل ضمير الغائب العائد على الله سبحانه. وقرأت طائفة تَغفر بالتاء الفوقية المفتوحة، فيكون ضمير الفاعل عائداً على الحطة، كأنه تكون سبب الغفران، وليس بجيِّدٍ؛ لأنَّ نفس اللَّفظة بمجردها لا تكون سبباً للغفران، وراوي هذه القراءة هو ابن عطية، وأمال الكسائي ﴿خَطَٰيَٰكُمْۚ﴾ وقرأ الجحدريُّ وقتادة ﴿تُغفر خطيئتكم﴾ بضم التاء، وإفراد الخطيئة. وقرأ الحسن ﴿يَغفر خطيئاتكم﴾ بالياء مفتوحةً، وبالجمع المُسَّلم. وقرأ أبو حَيْوَةَ ﴿تُغفر خطيئاتكم﴾ بالتاء مضمومة، وبالجمع المسلم. وحكى الأهوازي أنه قرأ ﴿خطأياكم﴾ بهمزة الألف، وسكون الألف الأخيرة. وحكى عنه أيضاً العكس. وتوجيه هذا الهمزة؛ أنه استثقل النطق بألفين مع أنَّ الحاجز حرفٌ مفتوحٌ، والفتحة تنشأ عنها الألف، فكأنَّه اجتمع ثلاث ألفات، فهُمِّزت إحدى الألفين، ليزول هذا الاستثقال.

والحاصل[2]: أنَّ من قرأ بضم الياء، أو التاء، كان خطاياكم، أو خطيئاتكم، أو خطيئتكم مفعولاً، لم يُسمَّ فاعله. ومن قرأ بفتح التاء، أو الياء، أو بالنون، كان ذلك مفعولاً به، وجزم هذا الفعل؛ لأنه جواب الأمر. **والمعنى**: أي إذا فعلتم ما ذكر استجبنا دعاءكم، وكفرنا عنكم خطاياكم. ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة والامتثال لأمرنا ثواباً من فضلنا، وهم الذين لم يعبدوا العجل، جمع محسن، والمحسن[3]: من أحسن في فعله، وإلى نفسه، وغيره. وقيل: المحسن من صَحَّح عَقْدَ توحيده، وأحسن سياسة نفسه، وأقبل على أداء

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

فرائضه، وكفَّ شرَّهُ. وقيل: هو الفاعل ما يَجْمُل طبعاً، ويُحمد شرعاً. وأخرج ذلك عن صورة الجواب إلى الوعد؛ إيذاناً بأن المحسن بصدد زيادة الثواب، وإن لم يقل حطةٌ، فكيف إذا قالها، واستغفر، وبأنهُ يقول ويستغفر، لا محالة أمرهم بشيئين: بعملٍ يسيرٍ، وقولٍ صغير، فالعمل الانحناء عند الدخول، والقول التكلُّم بالقول، ثم وعد عليهما غفران السيئات، والزيادة في الحسنات.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: غيَّرَ الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية، ما قيل لهم من التوبة، والاستغفار ﴿قَوْلًا﴾ آخر مما لا خير فيه، فأحد مفعولي بدَّل محذوفٌ ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ غير نعتٌ لقولاً، وإنما صرح به مع استحالة تحقق التبديل بلا مغايرة؛ تحقيقاً لمخالفتهم، وتنصيصاً على المغايرة من كلِّ وجهٍ، والمعنى: أنهم غيروا تلك الكلمة التي أمروا بها، وقالوا قولاً غير الذي قيل لهم، فقالوا: حنطةٌ بدل حطَّةٌ، وكذلك بدلوا الفعل الذي أمروا به من دخولهم سجداً، فدخلوا زحفاً. فالحاصل: أنهم دخلوا الباب زاحفين على أدبارهم، قائلين حنطةً على شعيرةٍ؛ استخفافاً بأمر الله تعالى. وقيل: قالوا[1]: بالنبطية، وهي لغتهم (حَطًّا سَمْقَاناً) يعنون حنطةً حمراء. وقال مجاهد: طُؤطئَ لهم البابُ ليخفضوا رؤوسهم، فأبوا أن يدخلوه سجداً، فدخلوا يزحفون على أستاههم مخالفةً في الفعل، كما بدَّلوا القول، وأما المحسنون ففعلوا ما أمروا به، ولذا لم يقل: فبدَّلوا بصيغة العموم، بل قال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وظاهر نظم القرآن أنَّهم بدَّلوا القول فقط دون العمل، وبه قال جماعة. وقيل: بل بدلوا العمل والقول جميعاً، فمعنى قوله: ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: أمراً غير الذي أمروا به، فإن أمر الله قولٌ، وهو تغيير جميع ما أمروا به ﴿فَأَنزَلْنَا﴾؛ أي: فعقيب ذلك التبديل أنزلنا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بتغيير ما أمروا به قولاً وفعلاً، ولم[2] يقل: عليهم على الاختصار. وقد سبق ذكر الذين ظلموا في الآية؛ لأنه سبق ذكر المحسنين أيضاً، فلو أطلق وأضمر، لوقع احتمال دخول

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الكل فيه، ثم هذا ليس بتكرار؛ لأنَّ الظلم أعمُّ من الصغائر، والكبائر، والفسقُ لا بد وأن يكون من الكبائر، فالمراد بالظلم ههنا: الكبائر بقرينة الفسق، والمراد بالظلم المتقدم: هو ما كان من الصغائر، وقد أضمر ذلك في الأعراف فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن المُضمَر هو المُظهَر. وقال بعضهم: وضع الظاهر موضع المضمر، مبالغةً في تقبيح شأنهم ﴿رِجْزًا﴾؛ أي: طاعوناً، وبلاءً، وعذاباً مقدَّراً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والتنوين فيه للتهويل، والتفخيم، وما في قوله: ﴿بِمَا﴾ مصدرية ﴿كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعتنا. والرجز في الأصل: ما يخاف ويُسْتَكْرَهُ، وكذلك الرجس، والمراد به هنا الطاعون.

روي: أنه مات منهم بالطاعون في ساعةٍ واحدةٍ، أربعةٌ وعشرون ألفاً، ودام فيهم حتى بلغ سبعين ألفاً. وقال أبو حيان[1]: واختلفوا في الرجز هنا، فقال أبو العالية: هو غضب الله تعالى. وقال ابن زيد: طاعونٌ أهلك منهم في ساعة سبعين ألفاً. وقال وهبٌ: طاعونٌ عذبوا به أربعين ليلة، ثُمَّ ماتوا بعد ذلك. وقال ابن جبير: ثلجٌ هلك به منهم سبعون ألفاً. وقال ابن عباس: ظلمةٌ وموتٌ، مات منهم في ساعة أربعة وعشرون ألفاً. وهلك سبعون ألفاً عقوبةً. والذي يدل عليه القرآن: أنه أنزل عليهم عذابٌ، ولم يبين نوعه، إذ لا كبير فائدةٍ في تعيين النوع، فنتركه مبهماً، وإن كان كثيرٌ من المفسرين على أنه الطاعون. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إن فسر الرجز بالثلج، كان كونه من السماء ظاهراً، وإن فسر بغيره، فهو إشارةٌ إلى الجهة التي يكون منها القضاء عليهم، أو مبالغةٌ في علوّه بالقهر والاستيلاء. وقال أبو مسلم: هذا الفسق هو الظلم المذكور في قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾. وفائدة التكرار التأكيد؛ لأنَّ الوصف دالٌّ على العلية، فالظاهر أن التبديل سببه الظلم، وأنَّ إنزال الرجز سببه الظلم أيضاً. وقال غير أبي مسلم: ليس مكرَّراً لوجهين:

أحدهما: أنَّ الظلم قد يكون من الصغائر، كما في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ ومن الكبائر كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ والفسق لا يكون

---

(١) البحر المحيط.

إلا من الكبائر، فلما وصفهم بالظلم أولاً، وصفهم هنا بالفسق الذي هو لا بُدَّ أن يكون من الكبائر.

والثاني: أنه يحتمل أنهم استحقُّوا اسم الظلم بسبب ذلك التبديل، ونزول الرجز عليهم من السماء، لا بسبب ذلك التبديل، بل بالفسق الذي فعلوه قبل ذلك التبديل، وعلى هذا يزول التكرار. انتهى.

وقرأ ابن مُحَيصن[١]: ﴿رِجْزًا﴾ بضم الراء، وقد تقدم أنها لغةٌ في الرجز بكسر الراء. وقرأ النخعي، وابن وثاب، وغيرهما ﴿يَفْسُقُونَ﴾ بكسر السين وهي لغة فيه، واستدل بعضهم بقوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وترتيبِ العذاب على هذا التبديل، على أن ما ورد فيه التوقيف من الأقوال لا يجوز تغييره، ولا تبديله بلفظ آخر. وقال قوم: يجوز ذلك إذا كانت الكلمة تسدُّ مسدها، وعلى هذا جرى الخلاف في قراءة القرآن بالمعنى، وفي تكبيرة الإحرام، وفي تجويز النكاح بلفظ الهبة، والبيع، والتمليك، وفي نقل الحديث بالمعنى.

فائدة: وذكروا أنَّ في الآية سؤالاتٍ[٢]:

الأول: قوله هنا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وفي الأعراف ﴿وإذ قيل﴾ وأجيب: بأنه صرح بالفاعل في البقرة، لإزالة الإبهام، وحذف في الأعراف؛ للعلم به في (سورة البقرة).

الثاني: قال هنا: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ وهناك ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾. وأجيب: بأنَّ الدخول مقدم على السكنى، فذكر الدخول في السورة المتقدمة، والسكنى في المتأخرة.

الثالث: قال هنا: ﴿خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ وهناك ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾. وأجيب: بأنَّ الخطايا جمع كثرة، فناسب حيث قرن به ما يليق بجوده، وهو غفران الكثير. والخطيئات جمعُ قلة، لمَّا لم يضف ذلك إلى نفسه.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

الرابع: ذكر هنا ﴿رَغَدًا﴾ وهناك حذف. وأجيب: بالجواب قبل.

الخامس: قدم هنا دخول الباب على القول، وهناك عكس. وأجيب: بأن الواو للجمع، والمخاطبون بهذا مذنبون، فاشتغاله بحط الذنب، مقدَّم على اشتغاله بالعبادة، فكُلِّفوا بقول حطة أولاً، ثم بالدخول غير مذنبين، فاشتغاله أوَّلاً بالعبادة، ثم بذكر التوبة ثانياً، على سبيل هضم النفس، وإزالة العجب، فلما احتمل الانقسام، ذكر حكم كل واحد منهما في سورةٍ بأيهما بدأ.

السادس: إثبات الواو في ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ هنا، وحذفها هناك. وأجيب: بأنه لما تقدَّم أمران كان المجيء بالواو، مؤذناً بأن مجموع الغفران، والزيادة جزاءٌ واحدٌ لمجموع الأمرين، وحيث تركت أفاد توزع كل واحد على كل واحد من الأمرين، فالغفران في مقابلة القول، والزيادة في مقابلة ادخلوا.

السابع: لم يذكر ههنا ﴿مِنْهُمْ﴾ وذكر هناك. وأجيب: بأنَّ أول القصة في الأعراف مبنيٌّ على التخصيص بلفظ مِنْ قال: ومن قوم موسى أمةٌ، فذكر لفظ من آخراً؛ ليطابق آخره أوله. وهنا لم تبن القصة على التخصيص.

الثامن: قال هنا ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ وهناك ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾. وأجيب: بأنَّ الإنزال مفيدٌ حدوثه في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم، واستئصالهم بالكلية، وهذا إنما يحدث بالآخر.

التاسع: هنا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ وهناك ﴿يَظْلِمُونَ﴾. وأجيب: بأنه لمَّا بين هنا، كون ذلك الظلم فسقاً، اكتفى بذكر الظلم في سورة الأعراف؛ لأجل ما تقدم من البيان هنا. ذكره في «البحر».

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ هذا هو[1] الإنعام التاسع، وهو جامعٌ لنعم الدنيا والدين، أما في الدنيا؛ فلأنه أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء، ولولا هو لهلكوا في التيه، وهذا أبلغ من الماء المعتاد في الإنعام؛ لأنهم في مفازة

(١) البحر المحيط.

منقطعة، وأما في الدين؛ فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع، وقدرته، وعلمه، وعلى صدق موسى عليه السلام. والاستسقاء: طلب الماء عند عدمه، أو قلّته. وتقدَّم[1] غير مرة، أنَّ الظروف كلَّها معطوفة على نعمتي، في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! نعمتي التي أنعمت عليكم، واذكروا حين طلب موسى السقيا لقومه، وقد عطشوا في التيه، فاستغاثوا به، فدعا ربَّه أن يسقيهم ﴿فَقُلۡنَا﴾ له بالوحي أن ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ﴾ وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع، على قدر طول موسى، ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً، حملها آدم معه من الجنة، فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب، فأعطاها موسى ﴿ٱلۡحَجَرَۖ﴾؛ أي: اضرب أيَّ حجر كان تتفجَّر منه العيون بقدرتنا، إن قلنا: إن أل فيه جنسية. أو اضرب الحجر المحمول معك، إن قلنا: إن أل فيه عهديةٌ، وهو الحجر الذي فرَّ بثوبه.

عبارة «الروح» هنا: اللام[2] فيه، إما للعهد، والإشارة بها إلى معلوم. فقد روي أنه كان حجراً طُوْرِياً حمله معه، وكان خفيفاً مربعاً كرأس الرجل، له أربعة أوجه، في كل وجه ثلاث أعين، أو هو الحجر الذي فرّ بثوبه، حين وضعه عليه ليغتسل، وبرأه الله تعالى مما رموه به من الأدرة، فأشار إليه جبريل أن ارفعه، فإن لله فيه قدرة، ولك فيه معجزة. قال رسول الله ﷺ: «كان بنوا إسرائيل ينظر بعضهم إلى سوءة بعض، وكان موسى يغتسل وحده، فوضع ثوبه على حجر، ففرَّ الحجر بثوبه، فجمع موسى بأثره يقول: ثوبي يا حجر! حتى نظرت بنوا إسرائيل إلى سوءة موسى، فقالوا: والله ما بموسى أُدرة» وهي بالمد: نفخةٌ بالخصية، وإما للجنس؛ أي: اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وهو الأظهر في الحجة؛ أي: أبين في القدرة، وأدلُّ عليها. فإنَّ إخراج الماء بضرب العصا من جنس الحجر، أيَّ حجر كان، أدلُّ على ثبوت نبوة موسى عليه السلام، من إخراجه من حجر معهود معين، لاحتمال أن يذهب الوهم إلى تلك الخاصية في ذلك الحجر

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

المعين، كخاصية جذب الحديد في حجر المغناطيس ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ الفاء عاطفة على محذوف، والانفجار[١]: الانكباب. والانبجاس: الترشُّح والرشُّ، فالرشُّ أوَّل، ثم الانكباب. عبَّر بدل ما هنا في الأعراف بقوله: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ والأول أبلغ؛ لأنه انصباب الماء بكثرة، والانبجاس ظهور الماء، فناسبِ ذكْرُ الانفجارِ هنا، الجَمْعَ قَبْلَه بين الأكل، والشرب الذي هو أبلغ من الاقتصار على أحدهما؛ أي: فضربه فانفجرت؛ أي: جرت وسالت ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الحجر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ ماءً عذباً؛ أي اثنا عشر نهراً بعدد قبائل بني إسرائيل، لكلِّ سبطٍ عينٌ، وكان يضربه بعصاه إذا نزل، فيتفجَّر، ويضربه إذا ارتحل، فييبس. وفي هذا الانفجار من الإعجاز، ظهور نفس الماء من حجر لا اتصال له بالأرض، فتكون مادته منها، وخروجه كثيراً من حجر صغير، وخروجه بقدر حاجتهم، وخروجه عند الضرب بالعصا، وانقطاعه عند الاستغناء عنه. والتاء في اثنتا للتأنيث، وفي ثنتا للالحاق، وهذه نظير ابنة وبنت.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾؛ أي: كل سبط من الأسباط الاثني عشر ﴿مشربهم﴾؛ أي: موضع شربهم، ونهرهم من تلك الأنهار التي جرت من الحجر، فكان كل سبط يأتي عينهم الخاصة بهم، لا يدخل سبط على غيره في شربه. والمشرب: إما مصر، أو اسم مكان. والحكمة في ذلك: أن الأسباط كانت بينهم عصبية، ومباهاة، وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر، وكل سبط يريد تكثير نفسه، فجعل الله لكل سبط منهم نهراً على حدة، ليستقوا منها، ويسقوا دوابهم؛ لكيلا يقع بينهم جدال، ومخاصمة. وكان ينبع من كل وجه من الحجر، ثلاث أعين تسيل كل عين في جدول إلى سبط، وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثني عشر ميلاً. ثم إن الله تعالى، قد كان قادراً على تفجير الماء، وفلق البحر من غير ضرب، لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب، حكمة منه للعباد، في وصولهم إلى المراد، ويترتب على ذلك ثوابهم، وعقابهم في المعاد. ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله، وقلة تدبره في عجائب صنعه، فإنه

---

(١) روح البيان.

لمَّا أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلق الشعر، ويُمَقِّر الخلَّ، ويجذب الحديد، لم يمتنع أن يخلق الله حجراً يسخِّره لجذب الماء من تحت الأرض، أو لجذب الهواء من الجوانب، ويصيِّره ماءً بقوة التبريد، ونحو ذلك. قال القرطبي في تفسيره: ما ورد من انفجار الماء، ونبعه من يد نبينا محمد ﷺ، وبين أصابعه، أعظم في المعجزة، فإنا نشاهد الماء يتفجَّر من الأحجار آناء الليل، وأطراف النهار، ومعجزة نبينا ﷺ لم تكن لنبيٍّ قبل، إذ لم يخرج الماء من لحم ودم.

واعلم[1]: أنَّ المعجزات كلها من صنع الله تعالى، وهي سُنَّةٌ جديدة غير ما نشاهد كل يوم، فحركة الشمس، وطلوعها من المشرق مع عظمها، لا تحدث دهشةً؛ لتعودنا إياها، ولكن إذا طلعت من المغرب دون المشرق كان معجزة، وأحدث غرابةً، ودهشةً، مع أن الحركتين من صنع الله تعالى، لا فارق بينهما. ولئلا تحدث الصدمة حين حصول المعجزة، يهيِّىء الله الظروف لتحمُّلها، ويهيِّىء النبيَّ لقبولها، ويهيِّىء الحاضرين لمشاهدتها، وقبولها. فأمر الله موسى بإدخال يده جيبه، وإخراجها بيضاء، تهيئةً لمعجزاته الأخرى. وليس للعقل أن يحكم أيُّ المعجزات أعظمُ من الأخرى؛ لأنه يتكلم عن مجهول هو من صنع الله لا يعرفه، فلا يمكن الإنسانَ مهما ارتقى عقله، أن يصل إلى صنعها، بل هي فوق قدرته. أمَّا[2] المخترعات العلمية، فهي مبنيَّةٌ على السُّنن العلمية مهما ظهرت مدهشة، كالكهرباءِ، والمُسِرَّةِ ـ التليفون ـ وغاية ما هناك: أن العلماء سخروها لأغراضهم، فالذي يتكلم في أوروبا، ويسمع صوته في مكة المكرمة، أو في مصر مثلاً بوساطة الراديو، إنما استطاع ذلك؛ لأنه استخدم الهواء الذي يحمل أمواج الصوت إلى العالم كُلِّه، وهكذا حال سائر المخترعات، إنما هي كشف لناموس إلٰهي، يتكرَّر دائماً على يد كل إنسان، لكن المعجزات تجري على طراز آخر، فهي خلق سنة جديدة في الكون، ولا تتكرر إلا بإذن الله، ولا يعرف الإنسان لها قاعدة، ولا يدرك طريقاً لصنعها. وقوله: ﴿كُلُوا۟﴾ على تقدير القول؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) الطب الحديث.

قلنا[1] لهم، أو قيل لهم: كلوا ﴿وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ الذي يأتيكم من غير كدٍّ منكم، ولا تعبٍ، بل هو من محض فضل الله تعالى، وإنعامه؛ أي: وقلنا لهم: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من الأنهار الاثني عشر كلِّها، فالأكل يتعلَّق بالأولين، والشرب بالثالث. وإنما لم يقل من رزقنا، كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا﴾ إيذاناً بأن الأمر بالأكل، والشرب لم يكن بطريق الخطاب، بل بواسطة موسى عليه السلام. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لا تعتدوا في الأرض حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾؛ أي: متمادين ومبالغين في الإفساد، والطغيان بمخالفة موسى عليه السلام. وقال البيضاوي: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2]؛ أي: لا تعتدوا حال إفسادكم، وإنما قيَّده به؛ لأن العثيَّ وإن غلب في الفساد؛ فإنه قد يكون منه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً، كقتل الخضر عليه السلام الغلام، وخرقه السفينة. انتهى. والأصل في العثيِّ: مطلق التعدِّي، وإن غلب في الفساد، فيكون التقييد بالحال تقييداً للعامل بالخاص. وقوله: ﴿اثنتا عشرة﴾ قرأ الجمهور ﴿عَشْرَةَ﴾ بسكون الشين. وقرأ مجاهد، وطلحة، وعيسى، ويحيى بن وثاب، وابن أبي ليلى، ويزيد بكسر الشين. وروى ذلك، نعيم السعيديُّ، عن أبي عمرو، والمشهور عنه: الإسكان. وتقدم أنها لغة تميم، وكسرهم لها نادرٌ في قياسهم؛ لأنهم يخفِّفون فعلاً، يقولون في نمر: نمرٌ.

وقرأ ابن الفضل الأنصاري[3]، والأعمش بفتح الشين. وروي عن الأعمش الإسكان، والكسر أيضاً. قال الزمخشري: الفتح لغة. وقال ابن عطية: هي لغة ضعيفةٌ. وقال المهدويُّ: فتح الشين غير معروف، وإضافة المشرب إليهم في قوله: ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ لأنه لمَّا تخصص كلٌّ مشرب بمن تخصَّص به، صار كأنه ملكٌ لهم، وأعاد الضمير في مشربهم على معنى كل، لا على لفظها، ولا يجوز أن يعود على لفظها، فيقال: مشربه؛ لأن مراعاة المعنى هنا لازمة؛ لأن كل قد

---

(١) روح البيان.

(٢) البيضاوي.

(٣) البحر المحيط.

أضيفت إلى نكرة، ومتى أضيفت إلى نكرة وجب مراعاة المعنى، فتطابق ما أضيفت إليه في عود ضميرٍ، وغيره. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ وقال الشاعر:

وكُلُّ أناس قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهم ... ونَحنُ حَلَلْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبُ

وقال:

وكُلُّ أُناس سَوْفَ تَدْخُل بينهم ... دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وتقول: كل رجلين يقولان ذلك، ولا يجوز في شيء من هذا مراعاة لفظ كل، وثَمَّ محذوفٌ، تقديره: مشربهم منها؛ أي: من الاثنتي عشرة عيناً، ونصَّ على المشروب؛ تنبيهاً على المنفعة العظيمة التي هي سبب الحياة.

والحكمة في قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أنهم[1] لما أمروا بالأكل، والشرب من رزق الله، ولم يُقيِّد ذلك عليهم بزمان، ولا مكان، ولا مقدار من مأكول، أو مشروب، كان ذلك إنعاماً، وإحساناً جزيلاً إليهم، واستدعى ذلك التبسط في المآكل، والمشارب، وأنه ينشأ عن ذلك القوة الغضبية، والقوة الاستعلائية تنهاهم عمَّا يمكن أن ينشأ عن ذلك، وهو الفساد، حتى لا يقابلوا تلك النعم بما يكفرها، وهو الفساد في الأرض. وقال ابن عباس، وأبو العالية معناه: ولا تسعوا. وقال قتادة: ولا تسيروا. وقيل: لا تتظالموا الشرب فيما بينكم؛ لأن كل سبط منكم قد جعل له شربٌ معلوم. وقيل معناه: لا تتمادوا في فسادكم. وقال ابن زيد: لا تطغوا. وهذه الأقوال كلها متقاربة. وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الجمهور على أنها أرض التيه، ويجوز أن يريدها، وغيرها، ممَّا قدِّر أن يَصِلوا إليها، فينالها فسادهم، ويجوز أن يريد الأرضين كُلَّها. وأل لاستغراق الجنس، ويكون فسادهم فيها، من جهة أن كثرة العصيان والإصرار على المخالفات، والبطر يؤذن بانقطاع الغيث، وقحط البلاد،

---

(١) البحر المحيط.

ونزع البركات، وذلك انتقامٌ يعُمُّ الأرض بالفساد.

وحاصل المعنى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾. أيْ وقلنا لهم[1]: كلوا مما رزقناكم من المن والسلوى، واشربوا ممَّا فجرنا لكم من الماء من الحجر الصَّلْد. وقد عبَّر عن الحال الماضية بالأمر؛ ليستحضر السامع صورة أولئك القوم في ذهنه مرة أخرى، حتى كأنَّهم حاضرون الآن، والخطاب موجَّه إليهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ أي: ولا تنشروا فسادكم في الأرض، وتكونوا قدوةً لغيركم فيه، وقد جاء هذا النهي عقب الإنعام عليهم بطيب المأكل، والمشرب؛ خيفة أن ينشأ الفساد بزيادة التبسط فيهما؛ ولئلا يقابل النعم بالكفران، وقد أراد موسى عليه السلام أن يجتث أصول الشرك التي تغلغلت جذورها في نفوس قومه، ويربأ بهم عن الذُّلِّ الذي ألفته نفوسهم، بتقادم العهد، واستعباد المصريين إياهم، ويعودهم العزة، والشَّمم، والإباء بعبادة الله وحده. وكانوا لا يخطون خطوةً إلا اجترحوا خطيئةً، وكُلَّما عرض لهم شيءٌ من مشاق السفر، برموا بموسى، وتحسَّروا على فراق مصر، وتمنَّوا الرجوع إليها، واستبطئوا وعد الله، فطلبوا منه أن يجعل لهم إلٰهاً غير الله، وصنعوا عجلاً وعبدوه، وحينما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي وعدوا بها، اعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين، كما قصه الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ فضرب الله سبحانه عليهم التيه أربعين سنة، حتى ينقرض ذلك الجيل الذي تأصلت فيه جذور الوثنية، ويخرج جيلٌ جديدٌ يتربَّى على العقائد الحقَّة، وفضائل الأخلاق، فتاهوا هذه المدة، وقضى الله أمراً كان مفعولاً.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

---

(١) المراغي.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب، معطوف على نعمتي ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ متعلق بقال، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ، تقديره: واذكروا وقت قول موسى لقومه ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه، مبنية على السكون، وجملة النداء في محل النصب مقول قال ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، تقديره: إنكم ظالمون أنفسكم، وجملة إن في محل النصب مقول قال، على كونها جواب النداء ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بظلمتم، والباء سببية، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله، وهو من اتخذ المتعدي إلى مفعولين ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ مفعول أول للمصدر، والثاني محذوف، تقديره: إلٰهاً ﴿فَتُوبُوٓاْ﴾ الفاء عاطفة تفريعية ﴿توبوا﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتوبوا، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة إن، على كونها مقولاً لقال ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ﴾ الفاء حرف عطف وتفصيل ﴿اقتلوا﴾ فعل وفاعل ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة توبوا، عطف تفصيل على مجمل، على كونها مقولاً لقال ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب مقول قال ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بخير ﴿عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بخير أيضاً ﴿فَتَابَ﴾ الفاء عاطفة سببية على محذوف، تقديره: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم ﴿تاب﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على البارىء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بتاب، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ على كونها مضافاً إليه لإذ ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ خبر أول، لأن الرحيم خبر ثان لها، أو صفة للتواب، ويجوز أن يكون ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ خبره و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب معطوف على نعمتي، على كونها مفعولاً به لاذكروا، كما مرّ مراراً، تقديره: وقت قولكم يا موسى ﴿قُلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ منادى مفرد العلم في محل النصب على المفعولية، مبني بضم مقدر منع من ظهوره التعذر؛ لأنه اسم مقصور، وجملة النداء في محل النصب مقول لقلتم ﴿لَن﴾ حرف نفي ونصب ﴿نُّؤْمِنَ﴾ فعل مضارع منصوب بلن، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن يعود على قوم موسى ﴿لَكَ﴾ متعلق بنؤمن، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقلتم ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية ﴿نَرَى﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى الجارة، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المحذوفة؛ للتخلص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها التعذر؛ لأنه فعل معتل بالألف، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن يعود على قوم موسى، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به؛ لأن رأى هنا بصرية ﴿جَهْرَةً﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، تقديره: حتى نرى الله رؤية جهرة، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى إلى، تقديره: إلى رؤيتنا الله جهرة، الجار والمجرور متعلق بنؤمن؛ لأنه فعل مضارع ﴿فَأَخَذَتْكُمُ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع ﴿أخذتكم﴾ فعل ومفعول به، والتاء علامة تأنيث الفاعل ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة قلتم، على كونها مضافاً لإذ ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَنظُرُونَ﴾ خبره، ومتعلق النظر محذوف، تقديره: وأنتم تنظرون ما حل بكم، والجملة الإسمية في محل النصب حال من ضمير المخاطبين، تقديره: حال كونكم ناظرين ما حل بكم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿بَعَثْنَٰكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به،

والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة قوله ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾.
﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق ببعثناكم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعل حرف نصب وتعليل بمعنى كي، والكاف في محل النصب اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبرها، تقديره: لعلكم شاكرون، وجملة لعل في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بلعل التعليلية المتعلقة ببعثناكم، تقديره: ثم بعثناكم لشكركم إيانا على نعمة بعثكم. ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَيْكُمُ﴾ متعلق بظللنا ﴿ٱلْغَمَامَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر، معطوفة على جملة بعثنا.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على بعثناكم ﴿عَلَيْكُمُ﴾ متعلق بأنزلنا ﴿ٱلْمَنَّ﴾ مفعول به ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ معطوف عليه ﴿كُلُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية مقول لقول محذوف معطوف على أنزلنا، تقديره: وقلنا لكم كلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلق بكلوا ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ مضاف ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر مضاف إليه ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ما رزقناكموه، وهو العائد على الموصول، والجملة الفعلية صلة الموصول، ورزق هنا بمعنى أعطى يتعدى إلى مفعولين.
﴿وَمَا﴾ الواو عاطفة ﴿مَا﴾ نافية ﴿ظَلَمُونَا﴾ فعل ماض وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على مقدر، تقديره: فظلموا أنفسهم بكفران النعم، وما ظلمونا على كونها مقولاً لمحذوف، تقديره: قال الله تعالى: فظلموا أنفسهم. إلخ. ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك مهمل؛ لتخفيف النون ﴿كَانُوٓا۟﴾ فعل ناقص واسمه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول مقدم ليظلمون، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، تقديره: ولكن كانوا ظالمين أنفسهم، وجملة كان معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا

وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب معطوف على نعمتي، كما مرّ مراراً، تقديره: يا بني إسرائيل! اذكروا نعمتي، ووقت قولنا لكم... إلخ. ﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة إذ إليها ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقلنا ﴿هَٰذِهِ﴾ ها حرف تنبيه، ذه: اسم إشارة في محل النصب على الظرفية عند سيبويه، وعلى المفعول به عند الأخفش، كما في «الفتوحات» ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ نعت لهذه، أو عطف بيان منه، أو بدل عنه. ﴿فَكُلُوا۟﴾ الفاء عاطفة ﴿كلوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ادخلوا ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بكلوا ﴿حَيْثُ﴾ ظرف مكان في محل النصب، مبني على الضم ﴿شِئْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لحيث، والظرف متعلق بمحذوف حال من فاعل كلوا؛ أي كلوا منها حال كونكم متنقلين في أي مكان شئتم ﴿رَغَدًا﴾ مفعول مطلق منصوب بكلوا، لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: أكلا رغداً ﴿وَٱدْخُلُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلْبَابَ﴾ مفعول به على السعة، والجملة معطوفة على كلوا ﴿سُجَّدًا﴾ حال من فاعل كلوا؛ أي: متواضعين متطامين، كحال الساجد ﴿وَقُولُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ادخلوا ﴿حِطَّةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: مسألتنا حطة، أو أمرنا حطة، والجملة الإسمية في محل النصب مقول قولوا، والأصل فيها النصب؛ لأن معناها حط عنا ذنوبنا، ولكنه عدل إلى الرفع؛ للدلالة على ديمومية الحط، والثبات عليه ﴿نَّغْفِرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير مستتر فيه؛ تقديره: نحن يعود على الله، والجملة الفعلية جواب الطلب لا محل لها من الإعراب ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بنغفر ﴿خَطَٰيَٰكُمْ ۚ﴾ مفعول به ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ الواو عاطفة، والسين حرف استقبال ﴿نزيد﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مفعول به منصوب بالياء، والجملة معطوفة على جملة نغفر، على كونها جواب الطلب لا محل لها من الإعراب، وإنما لم يجزم؛ لأن الطلب عامل ضعيف فلا يقوى على العمل في المعطوف، أو الجملة مستأنفة.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿فَبَدَّلَ﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحية؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم أمروا بقول حطة، وأردت بيان ما قالوا، فأقول لك: بَدَّل الذين ظلموا ﴿بَدَّل﴾ فعل ماض ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿ظَلَمُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿قَوۡلًا﴾ مفعول به منصوب ﴿غَيۡرَ﴾ صفة لـ﴿قولاً﴾ منصوب وهو مضاف ﴿ٱلَّذِي﴾ مضاف إليه ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول ﴿لَهُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق بقيل، والجملة صلة الموصول ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾ الفاء عاطفة ﴿أنزلنا﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة بَدَّل، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ متعلق بأنزلنا ﴿ظَلَمُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿رِجۡزًا﴾ مفعول به لأنزلنا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ صفة لرجزاً ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جر وسبب ﴿مَا﴾ مصدرية ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفۡسُقُونَ﴾ خبره، وجملة كان من اسمها وخبرها، صلة (ما) المصدرية، وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بكونهم فاسقين، أو بفسقهم الجار والمجرور متعلق بأنزلنا.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ﴾ أصل قال: قَوَلَ بوزن فعل، تحركت الواو، وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، وهو أجوف واويٌّ. يا قوم! أصله: يا قومي، حذفت ياء المتكلم، وبقيت الكسرة دالَّة عليها، وهكذا حيثما ورد في القرآن. والقوم: اسم جمع لا واحد له من لفظه، وإنما واحده امرؤٌ، وقياسه: أن لا يجمع، وشذَّ جمعه حيث قالوا: أقوام، وجمع جمعه قالوا: أقاويم. قيل: يختصُّ بالرجال. قال تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ ولذلك قابله بقوله: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ وقال زُهير:

وَمَـا أدْرِي وسـوف إخـال أدْرِي أقَـوْمٌ آلُ حِـصْـنٍ أمْ نِـسـاءُ

وقال آخر:

قَــوْمِـي هُــمُ قَــتَـلُــوا أُمَــيْـمَ أخَــي   فَــإِذَا رَمَــيْــتُ يُــصِــيــبُــنِــي سَــهْــمِــي

وقال آخرُ:

لاَ يَــبْــعُــدَنَّ قَــومــي الــذيــنَ هُــمُ   سُــمُّ الــعِــدَاة وآفَــةُ الــجُــزْرِ

وقيل: لا يختصُّ بالرجال، بل يُطلق على الرجال والنساء، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾.

والمرسل إليهم يشمل النساء والرجال، وصاحب هذا القيل يقول: أمَّا إذا قامت قرينةٌ على التخصيص، فيبطل العموم، ويكون المراد ذلك الشيء المخصَّص. والقول الأول أصوب، ويكون اندراج النساء في القوم على سبيل الاستتباع، وتغليب الرجال على النساء، والمجاز خيرٌ من الاشتراك. وسُمِّي الرجال قوماً؛ لأنهم يقومون بالأمور اهـ. من «البحر».

﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ البارىء: هو الخالق. يقال: برأ الله الخلق يبرأُ، إذا خلقهم. وفي الجمع بينهما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ ما يَدُلُّ على التباين، إلا أن يحمل على التوكيد. وقد فرَّق بعض الناس بينهما، فقال: البارىء: هو المبدع المحدث. والخالق: هو المقدِّر الناقل من حال إلى حال. وقال بعض العلماء: برأ، وأنشأ، وأبدع نظائر. وأصل مادة بَرَأ يَدُلُّ على انفصال شيء من شيءٍ، وتميُّزه عنه. يُقَالُ: برأ المريض من مرضه، إذا زال عنه المرض وانفصل، وبرىءَ المَدينُ من دينه، إذا زال عنه الدين وسقط. ومنه البارىء في أوصاف الله تعالى؛ لأنه الذي أخرج من العدم، (وفصلهم عنه إلى الوجود). وفي «المختار»: أَنَّ بَرِىء المريض، من بابَيْ سَلِم، وقَطَع، وأنَّ بَرَأ الله الخلق، من باب قطع لا غير. اهـ.

﴿فَتُوبُوٓا۟﴾ أمرٌ من تاب يتوب، والأمر قطعةٌ من المضارع، وأصل مضارعه يَتْوُبون بوزن يفعُلون، نقلت حركة الواو إلى التاء، فسكنت الواو إثر ضمة، فصارت حرف مد، فلما بني منه الأمر، حذفت نون الرفع، وحرف المضارعة،

ودخل عليه الفاء العاطفة ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ القتل: إزهاق الروح بفعل أحدٍ، من طعنٍ، أو ضربٍ، أو ذبحٍ، أو خنقٍ، أو ما شابه ذلك، وأمَّا إذا كان من غير فعل، فهو موت هلاك ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ﴾ أصله: أَخْيَرُ صيغة تفضيل، ولمَّا كثر استعمال هذه اللفظة على لسان العرب، حذفوا همزها تخفيفاً، وسكَّنوا الياء، ونقلوا حركتها إلى الخاء، وكذلك فعلوا في شر أصله: أَشْرَرُ بوزن أفعل، خففوه لما كثر استعماله، بنقل حركة الراء الأولى إلى الشين، وإدغامها في الراء الثانية، وحذفوا الهمزة، فقالوا: شرٌّ وفي «البحر» ﴿خَيْرٌ﴾ هي أفعل التفضيل، حذفت همزتها شذوذاً في الكلام، فنقص بناؤها، فانصرفت. وقد نطقوا بالهمزة في الشعر، كما في قوله: بلالٌ خير الناس وابن الأَخْيَرِ. وتأتي خير أيضاً لا بمعنى التفضيل، تقول: زيدٌ خيرٌ، تريد بذلك فيه خصلة جميلة، ومخفَّفاً من خير، تقول: رجل خيرٌ؛ أي: فيه خيرٌ، ويمكن أن يكون من ذلك ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أصله؛ تَوَبَ بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ قلتم بوزن فلتم، وذلك أنَّ أصله: قَوَلَ بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم لَّما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك؛ سكن آخره لبنائه على السكون، فالتقى ساكنان الألف ولام الفعل، فحذفت الألف عين الفعل، فصار اللفظ هكذا. قلت: فاحتيج للتنبيه على نوع عين الفعل المحذوفة، هل هي واوٌ؟ أو ياءٌ؟ فحذفت حركة فاء الفعل، وعوض عنها حركة مجانسة للعين المحذوفة التي هي الواو، فضم أول الفعل، فقيل: قلت: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ﴾ أصله: نَرْأَي بوزن نَفْعَل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، ثم نقلت حركة الهمزة عين الفعل إلى الراء فاء الفعل، ثم حذفت الهمزة؛ تخفيفاً، فقيل: نرى، وهذا الحذف لعين هذا الفعل، مطردٌ في الماضي من الرباعي، والمضارع منه، والأمر، كما تحذف من الثلاثي في المضارع، والأمر، وهذا الحذف الذي ذكرناه، هو إذا كان مدلول رأى الإبصار في يقظةٍ، أو منامٍ، أو الاعتقاد، وأمَّا إذا كانت رأى بمعنى أصاب رئته، فلا تحذف الهمزة، بل تقول: رآه يراه؛ أي: أصاب رئته. نقله صاحب كتاب الأمر ﴿جَهْرَةً﴾ الجهرة العلانية، ومنه الجهر ضدُّ السر، وفتح عين هذا النحو مسموعٌ

عند البصريين، مقيسٌ عند الكوفيين، يقال: جهر الرجل الأمر، إذا كشفه، وجَهَرْتَ الركيَّة، إذا أخرجتَ ما فيها من الحمأة، وأظهرت الماء. قال الشاعر:

إذا وَرَدْنَا آجِناً جَهَرْنَا أو خَالِياً مِنْ أَهْلِهِ غَمَرْنا

والجَهْوَريُّ: العالي الصوت، وصوتٌ جهيرٌ عالٍ، ووجهٌ جهيرٌ ظاهر الوضاءة والأجهر: الأعمى. سمّي على الضد ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ البعث: الإحياء، وأصله: الإثارة. قال الشاعر:

أُنِيخُها ما بدا لي ثُمَّ أَبْعَثُها كَأَنَّها كَاسِرٌ فِي الجَوِّ فَتْخَاءُ

وقال آخر:

وفتيان صدقٍ قد بعثت بسحرةٍ فَقَامُوا جمِيعاً بَيْنَ عَانٍ ونَشْوان

وقيل أصله: الإرسال، ومنه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ وتأتي بمعنى الإفاقة من الغَشْي، أو النوم، ومنه ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ ظلّل بوزن فعل المضعف، مشتق من الظل، والظِلُّ أصله: المنفعة. والسحابة: ظُلَّةٌ لما يحصل تحتها من الظل، ومنه قيل: السلطان ظِلُّ الله في الأرض. قال الشاعر:

فَلَوْ كُنْتَ مَولَى الظِلِّ أو فِي ظِلالِهِ ظَلَمْتَ ولَكِنْ لاَ يَدَيْ لَكَ بِالظُّلْمِ

والغمام: اسم جنسٍ يُفرق بينه وبين مفرده هاء التأنيث، تقول: غمامةٌ، وغمامٌ، نحو: حمامةٍ وحَمامٍ، وهو السَّحابُ. وقيل: ما ابْيض من السحاب، وسُمّي غماماً؛ لأنه يَغُمُّ وجه السماء؛ أي: يستره، ومنه: الغَمُّ، والغَمَمُ الأغَمُّ، والغُمَّة، والغُمَّى، والغَمَّاءُ. وغُمَّ الهلال، والنبت الغميم: هو الذي يستر ما يسامته من وجه الأرض ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ والمنُّ مصدر مننت؛ أي: قطعت. والمنُّ: الإحسان. والمَنُّ: صمغةٌ تنزل على الشجر حلوةٌ، وفي المراد به في الآية أقوالٌ: مرّت في مبحث التفسير ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ اسم جنس واحدها سلواةٌ، قاله الخليل، والألف فيه للإلحاق لا للتأنيث، نحو: علقىٰ وعلقاةٍ، إذ لو كانت للتأنيث لما أُنِّث بالهاء. قال الشاعر:

وإنّـي لـتـعـرونـي لِـذِكْـرَاكِ سَـلْـوَةٌ   كَـمَا انْتَفَضَ السَّلواةُ مِنْ بَلَلِ القَطْرِ

وقال الكسائي: السلوى واحدةٌ، وجمعها سلاوى. وقال الأخفش: جمعه وواحده بلفظ واحد. وقيل: جمع لا واحد له من لفظه ﴿كُلُوا﴾ هذا أمرٌ من مادة أكل يأكل، كخرج يخرج، والقياس في بناء الأمر منه حذف حرف المضارعة، وتسكين فائه، واستجلاب همزة الوصل؛ للتوصل إلى النطق بالساكن فاء الكلمة، لكن هذا اللَّفْظُ، ولفظ الأمر من أمر يأمرُ، ولفظ الأمر من أخذ يأخذ، نطقت بها العرب هكذا شذوذاً عن القياس، فسمعت عنهم هكذا، والسماع مانع القياس، كما هو معروف، فوزن الكلمات الثلاث عُلْ. قال ابن مالك في لاميَّة الأفعال:

وشَذَّ بالحَذْفِ مُرْ وخُذ وكُلْ وفَشَا   وأمـر ومُـسْـتَـنْـدر تـمـيـمُ خُـذْ وَكُـلا

﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ جمع طيب، والطيب فيعلٌ، من طاب يطيب، وهو اللذيذ من كل شيء ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾ والدخول معروف، وفعله دخل يدخل، وهو مما جاء على يفعل بضم العين، وكان القياس فيه أن يفتح؛ لأنَّ وسطه حرف حلق، كما جاء الكسر في ينزع، وقياسه أيضاً الفتح. ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ المدينة من قريت؛ أي: جمعت، سميت بذلك؛ لأنها مجتمع الناس على طريق المساكنة. وقيل: إن قَلُّوا قيل لها قرية، وإن كثروا قيل لها مدينة. وقيل: أقل العدد الذي تُسمَّى به قريةٌ ثلاثة فما فوقها، ومنه: قريت الماء في الحوض إذا جمعته فيه. والمقراة الحوض، ومنه القِرَى، وهو الضيافة. ولغة أهل اليمن القرية بكسر القاف، ويجمعونها على قِرًى بكسر القاف، نحو: رشوة ورشا، وأما قرية بالفتح، فجمعت على قرى بضم القاف، وهو جمعٌ على غير قياس ﴿من حيث شئتم﴾ أصله: شَيِئَ بوزن فعِل بكسر العين، يفعل بفتحها، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار شاء، فأسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك فبني على السكون، فصار اللفظ شاءت، فالتقى ساكنان فحذفت الألف، فصار اللفظ شأت، فاحتيج إلى معرفة عين الفعل المحذوفة، فحذفت حركة فاء الفعل، ونقلت إليها حركة العين المحذوفة، وهي هنا الكسرة؛ لأن العين المحذوفة ياء، فقيل: شئت بوزن فِلْت ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ والباب معروف وهو المكان الذي

يدخل منه، وجمعه أبواب، وهو قياس مطرد، وسمع جمعه على أبوبةٍ ﴿سُجَّدًا﴾ جمع ساجد، وهو قياس مطرد في فاعل، وفاعلةٍ، الوصفين الصحيحي اللام ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أمرٌ من قال يقول، والأصل: يَقْوُلون بوزن يفعُلون، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر ضمةٍ، فصارت حرف مد، ولمَّا بني الأمر من المضارع، حذفت حرف المضارعة، ونون الرفع، فقيل: قولوا بوزن فُعْلوا. وقال أبو حيان: كل أمرٍ من ثلاثي، اعتلت عينه فانقلبت ألفاً في الماضي، تسقط تلك العين منه إذا أُسند لمفرد مذكر، نحو: قُلْ، وبِعْ، أو لضمير إنَاث، نحو: قُلْنَ وبِعْن، فإن اتصل به ضمير الواحدة، نحو: قولي، أو ضمير الاثنين، نحو: قولا، أو ضمير الذكور، نحو: قولوا، ثبتت تلك العين، وعلة الحذف والإثبات مذكورة في كتب النحو، والصرف ﴿حِطَّةٌ﴾ بوزن فعلةٍ من حط، وهو مصدر كالحط، وقيل: هو هيئةٌ وحالٌ، كالجِلسة، والقِعدة، والحطُّ: الإزالة، يقال: حططت عنه الخراج أزلته عنه ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ الغفر، والغفران الستر، وفعله غفر يغفر بفتح العين في الماضي، وكسرها في المضارع، ومنه المغفر لستره الرأس، والجمُّ الغفير؛ أي: يستر بعضهم بعضاً من الكثرة ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جمع خطيئة بوزن فعيلة، والياء فيه زائدةٌ في المفرد، فلما جمعت جمع تكسير، أبدلت الياء الزائدة في المفرد همزةً، فصارت خطائىء بهمزتين، الأولى مبدلة من ياء فعيلةٍ الواقعة حرف مدٍ ثالثاً زائداً، كما في صحيفةٍ، وكتيبة، فالقياس إبدال هذه الياء همزةً، على حدِّ قول ابن مالك في «الخلاصة» في باب التصريف:

الـمَـدُّ زِيْـدَ ثَـالِـثـاً فـي الـواحـد هَـمْـزاً يُـرَى فـي مِـثْـل كَـالـقَـلائِـدِ

ثم أبدلت الهمزة الثانية ياء؛ لتطرفها، وانكسار ما قبلها، فصارت خطائي، ثم قلبت كسرة الهمزة فتحة؛ للتخفيف، فصارت خطاءي فأبدلت الياء ألفاً؛ لتحركها، وانفتاح ما قبلها، فصارت خطاءا، ثم أبدلت الهمزة ياء، فقيل: خطايا بعد خمس عمليات تصريفية. وقال أبو حيان: الخطيئة فعيلة من الخطأ، والخطأ: العدول عن القصد، يقال: خطىء الشيء أصابه بغير قصدٍ، وأخطأ إذا تعمَّد، وأما خطايا فجمع خطيَّة مشددة عند الفراء، كهدية، وهدايا، وجمع خطيئة المهموز عند سيبويه والخليل، وعند سيبويه أصله: خطائي، مثل: صحائف وزنه

فعائل، ثم أعلت الهمزة الثانية بقلبها ياءً، ثم فتحت الأولى التي كان أصلها ياء المد في خطيئة، فصار خطأي، فتحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار خطاءا فوقعت همزة بين ألفين، والهمزة شبيهةٌ بالألف، فصار كأنه اجتمع ثلاثة أمثال، فأبدلوا منها ياءً، فصار خطايا، كهدايا، ومطايا. وعند الخليل أصله: خطايىءَ، ثم قلب، فصار خطائي على وزن فعالى المقلوب من فعائل، ثم عمل فيه العمل السابق في قول سيبويه. انتهى.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ التبديل: تغيير الشيء بآخر. تقول: هذا بدل هذا؛ أي: عوضه، ويتعدى لاثنين، الثاني أصلُه حرفُ جر. تقول: بَدَّلت ديناراً بدرهم؛ أي: جعلت ديناراً عوض درهم، وقد يتعدَّى لثلاثةٍ، فتقول: بَدَّلت زيداً ديناراً بدرهم؛ أي: حصلت له ديناراً عوضاً من درهم ﴿قِيلَ﴾ أصله: قُوِلَ بضم أوله وكسر ثانيه، استثقل الانتقال من ضمة إلى كسرة، فحذفت حركة فاء الفعل، ونقلت إليه حركة العين، فسكنت الواو إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مد، وهكذا كُلُّ من شاكل هذا النوع من معتل العين، إلا أن الياء تسلم فيما عينه ياءٌ، كجيىء، وبيع، وتقلب الواو ياء فيما عينه واو، كقيل. ﴿رِجْزًا﴾ الرجز: العذاب، وتكسر راؤه وتضم، والضم لغة بني الصُّعدات.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ والاستسقاء: طلب سقيا الماء، والطلب أحد المعاني التي سبق ذكرها في الاستفعال في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وأصله: استسقَيَ بوزن استفعَلَ، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ أصل قلنا: قولنا، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فلما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، وبني آخره على السكون، التقى ساكنان الألف واللام، فحذفت الألف، وحذفت أيضاً حركة فاء الفعل، وعوض عنها حركةٌ مجانسةٌ للعين المحذوفة، فصار قلنا، كما مر ﴿بِّعَصَاكَ﴾ العصا الألف فيها منقلبةٌ عن واو، لتثنيته على عصوين، وقولهم: عصوته؛ أي: ضربته بالعصا، ويجمع على أفعل شذوذاً، فقالوا: أعص أصله: أعصو، وعلى فعول قياساً. قالوا: عصيٌّ أصله: عصوٌّ، يتبع حركة العين حركة الصاد و﴿ٱلْحَجَرَ﴾ الجسم الصلب المعروف عند الناس، ويجمع على أحجار وحِجار، وهما جمعان مقيسان

فيه، وقالوا فيه: حجارة بالتاء ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ والانفجار: انصداع شيء عن شيء، ومنه الفجر، والفجور، وهو الانبعاث في المعصية، كالماء، وهو مطاوع فعل. يقال: فجر فانفجر، والمطاوعة أحد المعاني التي جاء لها انفعل ﴿ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ﴾ اثنتان تأنيث اثنين، وكلاهما له إعراب المثنى، وليس بمثنى حقيقةً؛ لأنه لا يفرد، فلا يقال: إثنٌ ولا إثنةٌ، ولاَمُهُ ما محذوفة وهي ياء؛ لأنه من ثنيت العشرة بإسكان الشين لغة الحجاز، وبكسرها لغة تميم، والفتح فيها شاذ غير معروف، وهو أول العقود ﴿عَيۡنٗاۖ﴾ والعين لفظٌ مشترك بين منبع الماء، والعضو الباصر، والسحابة تقبل من جهة القِبْلة، والمطر يمطر خمساً، أو ستاً ﴿كُلُّ أُنَاسٖ﴾ والأناس اسم جمع لا واحد له من لفظه، كما مر ﴿مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ والمشرب مفعلٌ من الشراب، يكون للمصدر، والزمان، والمكان، ويطَّرد من كلِّ ثلاثي متصرف مجرد لم تكسر عين مضارعه، سواء صحت لامه، كـ: سرق، ودخل، أو أُعِلَّت، كرمى، وغزا، وشذَّ من ذلك ألفاظٌ ذكرها الصرفيون في باب المفعل، كما بسطنا الكلام عليها في شرحنا «مناهل الرجال على لامية الأفعال».

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ قيل أصل هذه الكلمة: عثى يعثي، كرمى يرمي. وقيل أصلها: عثى يعثىٰ، كسعى يسعىٰ. وقيل أصلها: عثى يعثى، كرضى يرضى. وقيل أصلها: عثا يعثو، كسما يسمو، والموجود في القرآن يوافق الثانية والثالثة من اللغات، وعليه يكون التغيير الذي وقع فيها، أنَّ واو الجماعة اتصل بلام الفعل، سواء أكانت من باب سعى، أم من باب رَضِيَ، تحركت الياء وفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، فحذفت الألف. أمَّا التي من باب رمى وسما، فلا داعي للكلام عليهما، لعدم ورودهما في القرآن، والعثو والعثيُّ أشدُّ الفساد. يقال: عثا يعثو عثواً، وعثياً، وعثى يعثى عثيا، وعثى يعثى عثياً لغةٌ شاذَّةٌ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ للشفقة عليهم.

ومنها: التعرض لعنوان البارئية في قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾؛ للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها، ومن الغباوة منتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي خلقهم بلطيف حكمته، إلى عبادة البقر الذي هو مثلٌ في الغباوة. اهـ. «أبو السعود».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ علاقته اعتبار ما يؤول إليه؛ أي: أسلموها للقتل تطهيراً لها.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ والالتفات هنا من التكلم الذي يقتضيه سياق الكلام إلى الغيبة، إذ كان مقتضى المقام أن يقول: فوفقتكم فتبت عليكم، وفيه أيضاً مجاز بالحذف، تقديره: ففعلتم ما أمرتم به، فتاب عليكم بارئكم.

ومنها: العدول من ضمير الغائبين العائد إلى القوم، إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ حيث لم يقل: فتاب عليهم العائد إلى الأسلاف؛ إشعاراً بأنها نعمة، أريد التذكير بها للمخاطبين لا لأسلافهم.

ومنها: تقييد البعث بكونه من بعد الموت، مع أن البعث لا يكون إلا بعد الموت؛ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي؛ ولدفع ما عساه يتوهم أنَّ بعثهم كان بعد إغماءٍ، أو بعد نومٍ.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ أي: قلنا لهم كلوا، وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، تقديره: فظلموا أنفسهم بكفرهم تلك النعمة، وما ظلمونا بذلك دل على هذا المحذوف قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ومنها: الجمع بين صيغتي الماضي والمضارع في قوله: ﴿ظَلَمُونَا﴾ وقوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ للدلالة على تماديهم في الظلم، واستمرارهم على الكفر.

ومنها: تقديم المفعول على عامله في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ للدلالة على القصر الذي يقتضيه النفي السابق، وفيه أيضاً ضرب تهكم بهم.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولم يقل: فأنزلنا عليهم؛ لزيادة التقبيح، والمبالغة في الذم، والتقريع.

ومنها: تنكير ﴿رِجْزًا﴾؛ لإفادة التهويل والتفخيم.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿كلوا من رزق الله﴾؛ تعظيماً للمنَّة والإنعام، وإيماءً إلى أنه رزقٌ حاصلٌ من غير تعب، ولا مشقةٍ.

ومنها: ذكر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مبالغةً في تقبيح الفساد.

ومنها: الإتيان بالحال؛ لتأكيد معنى عامله في قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾؛ لأنَّ معناها قد فُهِم من عاملها، وحسن ذلك اختلاف اللفظين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جل وعلا:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنها في تعداد قبائحهم، كسوابقها. والحاصل منها: أنهم لما[1] سئموا من الإقامة في التيه، والمواظبة على مأكول واحد لبعدهم عن الأرض التي ألفوها، وعن العوائد التي عهدوها، أخبروا عما وجدوه من عدم الصبر على ذلك، وتشوفهم إلى ما كانوا يألفون، وسألوا موسى أن يسأل الله لهم، وأكثر أهل الظاهر من المفسرين، على أن هذا السؤال كان معصية، قالوا: لأنهم كرهوا إنزال المن والسلوى، وتلك الكراهة معصية؛ ولأن موسى وصف ما سألوه بأنه أدنى، وما كانوا عليه بأنه خير، وبأن قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ هو على سبيل الإنكار. ذكره في «البحر».

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما

---

(١) البحر المحيط.

قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر الكفرة من أهل الكتاب، وما حل بهم من العقوبة، أخبر بما للمؤمنين من الأجر العظيم، دالاً على أنه يجزي كلاً بفعله.

وعبارة المراغي هنا مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر[2] باللائمة على اليهود في الآيات السالفة، وبين ما حاق بهم من الذل والمسكنة، وما نالهم من غضب الله جزاء ما اجترحوه من السيئات، من كفر بآيات الله تعالى، وقتل للنبيين، وعصيان لأوامر الدين، وترك لحدوده، ومخالفة لشرائعه. ذكر هنا حال المستمسكين بحبل الله - الدين المتين - من كل أمة، وكل شعب، ممن اهتدى بهدي نبي سابق، وانتسب إلى شريعة من الشرائع الماضية، وصدق في الإيمان بالله واليوم الآخر، وسطع على قلبه نور اليقين، وأرشد إلى أنهم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ...﴾ الآيتين، ذكر[3] سبحانه في هاتين الآيتين، جناية أخرى حدثت من أسلاف المخاطبين وقت التنزيل، ذاك أنه بعد أن أخذ الله عليهم المواثيق التي ذكرها بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. إلخ. فقبلوها، وأراهم من الآيات ما فيه مقنع لهم؛ رفع الجبل فوقهم كالظلة حتى ظنوا أنه واقع بهم، وطلب إليهم التمسك بالكتاب، والعمل بما فيه بالجد والنشاط كي يُعِدُّوا أنفسهم لتقوى الله ورضوانه، ثم كان منهم أن أعرضوا عن ذلك، وانصرفوا عن طاعته، ولولا لُطف الله بهم لاستحقوا العقاب في الدنيا، وخسروا سعادة الآخرة، وهي خير ثواباً، وخير أملاً، لكن وفقهم الله تعالى بعد ذلك فتابوا، ورحمهم فقبل توبتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ...﴾ الآيتين، وفي هاتين الآيتين وما يتلوهما بعد تعدادٍ لنكث العهود، والمواثيق التي أخذت على بني إسرائيل، الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، وحل بهم جزاء ما عملوا، من

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

مسخهم قردة وخنازير، فأجدر بسلائلهم ـ الذين كانوا في عصر التنزيل تتخلَّل دورهم دور الأنصار ـ أن لا يجحدوا نبوة محمد ﷺ، وأن لا يصرُّوا على كفرهم، وعدم التصديق بما جاء به خوفاً من أن يحل بهم ما حلَّ بأسلافهم، مما لا قبل لهم به من غضب الله تعالى، فمن عهودهم التي نكثوها: أنهم اعتدوا يوم السبت. ذاك أنَّ موسى عليه السلام حظَّر عليهم العمل في هذا اليوم، وفرض عليهم فيه طاعة ربهم، والاجتهاد في الأعمال الدينية، إحياءً لسلطان الدين في نفوسهم؛ وإضعافاً لشرههم في التكالب على جمع حطام الدنيا وادخاره، وأباح لهم العمل في ستة الأيام الأخرى، لكنهم عصوا أمره، وتجاوزوا حدود الدين، واعتدوا في السبت فجازاهم الله تعالى بأشد أنواع الجزاء، فخرج بهم من محيط النوع الإنساني، وأنزلهم أسفل الدركات، فجعلهم يرتعون في مراتع البهائم، وليتهم كانوا في خيارها، بل جعلهم في أخسِّ أنواعها، فهم كالقردة في نزواتها، والخنازير في شهواتها، مبعدين من الفضائل الإنسانية بأنواع المنكرات جهاراً عياناً بلا خجل، ولا حياء، حتى احتقرهم كرام الناس ولم يروهم أهلاً لمعاشرة ولا معاملة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم، والعدني في مسنده من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قال سلمان: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم؟ فذكرت من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ...﴾ الآية إلى قوله: ﴿يَحْزَنُونَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! حين كنتم في التيه تأكلون من المن والسلوى، فمللتم منه، وذكرتم عيشاً كان لكم بمصر، وقلتم لنبيكم عليه السلام ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾؛ أي: على نوع واحد من الطعام الذي هو المن والسلوى، ولن نكتفي به. وهذا[1] تذكير لجناية أخرى لأسلاف بني

---

(١) روح البيان.

إسرائيل، وكفرانهم لنعمة الله عز وجل. خاطبهم تنزيلاً لهم مكان آبائهم؛ لما بينهم من الاتحاد، وكان هذا القول منهم في التيه حين سئموا من أكل المن والسلوى؛ لكونهما غير مبدلين، والإنسان إذا داوم شيئاً واحداً سئمه، وتذكروا عيشهم الأول بمصر؛ لأنهم كانوا أهل فلاحةٍ، فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم، فقالوا: يا موسى! لن نصبر على طعام واحد غير مبدَّلٍ بنوع آخر، والطعام ما يتغذى به. وكنوا عن المن والسلوى بطعام واحد وهما اثنان؛ لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فيصيران طعاماً واحداً، أو أريد بالواحد نفي التبدل والاختلاف، ولو كان على مائدة الرجل ألوانٌ عدَّةٌ يداوم عليها كل يوم لا يبدلها. قيل: لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً.

وفي «تفسير البغوي» والعرب تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من الملح دون العذب. وقيل: المعنى لن نصبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء، فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض، لاستغناء كل واحد بنفسه، وكان فيهم أوَّل من اتخذ العبيد والخدم ﴿فَٱدْعُ لَنَا﴾؛ أي: فاسأَلْ لأَجْلِنا ﴿رَبَّكَ﴾ أن يخرج لنا مِنْ نباتِ الأرض. ولغةُ بني عامر بكسر العين، جَعَلُوا دعا من ذوات الياء، كرمى يرمي؛ والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء؛ أي: إن دَعَوته ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ أي يُظْهر لنا ويوجد شيئاً ﴿مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ ومفعولُ يُخْرِجْ محذوف، كمَا قدَّرْنَا والجزمُ في جواب الطلب، فإنَّ دَعْوَتَه سببُ الإجابة؛ أي: إن تدع لنا ربك يخرج لنا شيئاً مما تنبته الأرض من الحبوب والبقول، فقد سئمنا المن والسلوى وكرهناه، ونريد ما تخرجه الأرض كعادتنا في مصر. وفي قوله: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾[1] إسناد مجازي بإقامة القابل وهو الأرض، مقام الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى، ومِن تبعيضية، وما موصولة، ومن في قوله: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ بيانية واقعة موقع الحال من الضمير العائد إلى ما المحذوف؛ أي: مما تنبته الأرض، أو من ما الموصولة؛ أي: حال كون ذلك النابت من

---

(١) روح البيان.

بقول الأرض وحبوبها؛ أي: من أطايب بقولها. ويجوز أن تكون بدلاً من (ما) الأولى بإعادة الجار، فمِن على هذا تبعيضية، كهي في مما تنبت. والبقل: كل ما تنبته الأرض من الخضر، أو كل نبات لا يبقى له ساق، والمراد أصناف البقول التي يأكلها الناس، كالكراث، والسلق، والخص، والملوخية، والنعناع، والفجل، وشبهها ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ وقرأ[1] يحيىٰ بن وثاب، وطلحة بن مصرف، وغيرهما ﴿وقُثائها﴾ بضم القاف وهي لغة فيه. وقرأ الجمهور بكسرها وهي المشهورة، والقثاء: شيءٌ يشبه الخيار معروف، ولكن المراد به هنا: كلُّ شيء من خضرواتها، كالبطيخ، والخيار، والدباء، والقرع. فالمراد بالبقول؛ ما يؤكل ورقه من البقول، وبالقثاء؛ ما يؤكل ثمره منها، أو هو من عطف الخاص على العام، والبقل: ما ليس له ساق ضدُّ الشجر ﴿وَفُومِهَا﴾؛ أي: حنطتها وهو الأقرب؛ لأن ذكر العدس يدلُّ على أنه المراد؛ لأنه من جنسه. وقيل: هو الثوم، كما هو مرويٌّ عن ابن عباس، ومجاهد، وهو اختيار الكسائي لقراءة ابن مسعود ﴿وثومها﴾ بالثاء المثلثة؛ ولأنَّ ذِكْرَ البَصَلِ يدلُّ على أنه هو المراد فإنه من جنسه. قال ابن التمجيد في «حواشيه». وحمله على الثوم أوفق من الحنطة؛ لاقتران ذكره بالبصل والعدس، فإن العدس يطبخ بالثوم، والبصل. ﴿وَعَدَسِهَا﴾ وهو حب معروف يستوى كيله ووزنه ﴿وَبَصَلِهَاۖ﴾ بقلٌ معروف تُطيب به القدور، وإنما طلبوا[2] هذه الأنواع؛ لأنها تُعين على تقوية الشهوة؛ أو لأنهم مَلُّوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد، وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة.

وقال أبو حيان: وأحوال[3] هذه الخمسة التي ذكروها مختلفة، فذكروا أولاً: ما هو جامع للحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، إذ البقل منه ما هو بارد رطب، كالهندبا، ومنه ما هو حار يابس، كالكرفس والسذاب، ومنه ما هو حار

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

وفيه رطوبةٌ عرضيَّة، كالنعناع. وثانياً: القثاء وهو بارد رطب. وثالثاً: الثوم وهو حار يابس. ورابعاً: العدس وهو بارد يابس. وخامساً: البصل وهو حار رطب، وإذا طبخ صار بارداً رطباً، فعلى هذا جاء ترتيب ذكر هذه الخمسة. انتهى.

وقوله: ﴿قَالَ﴾ كلام مستأنف واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله لهم، أو موسى عليه السلام، فقيل: قال إنكاراً عليهم. إلخ. والظاهر[1] عود الضمير في قال إلى موسى، ويحتمل عوده على الرب تعالى، ويؤيده ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾. والهمزة في قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾؛ للإنكار، والاستبدال: الاعتياض. وقرأ أبيٌّ ﴿أتبدلون﴾ وهو مجاز؛ لأن التبديل ليس لهم إنما ذلك إلى الله تعالى، لكن لما كان حصول التبديل بسؤالهم جعلوا مبدلين، وكان المعنى: أتسألون تبديل ﴿الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾؛ أي: أتأخذون لأنفسكم، وتختارون لها الطعام الذي هو أدنى، وأخسُّ من البقل وما بعدها ﴿بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؛ أي: بدل الذي هو خير وأنفس؛ **لأن الباء تدخل على المتروك** دون المأخوذ، وخيريَّة المن والسلوى في اللَّذاذة، أو سقوط المشقة والسعي في تحصيلها، وغير ذلك. ولا كذلك الفوم، والعدس، والبصل، وأمثالها. قال بعضهم: الحنطة وإن كانت أعلى من المن والسلوى، لكن خساستها هٰهنا بالنسبة إلى قيمتها، وليس في الآية ما يدل على قطعها عنهم على أنهم أرادوا زوال المن والسلوى. وحصول ما طلبوا مكانه؛ لتحقق الاستبدال في صورة المناوبة؛ لأنهم أرادوا بِقَوْلِهِمْ لن نصبر على طعام واحد أن يكون لهم هذا تارة وذاك أخرى. وقرأ زهيرٌ الفَرْقَبِيُّ، ويقال له: زهَير الكسائيُّ ﴿أدنأ﴾ بالهمزة.

والمعنى: أي[2] قال لهم موسى منكراً عليهم ويحكم: أتريدون استبدال الطعام الذي هو أخسُّ، من البقل، والقثاء، والفوم، والبصل، عن الطعام الذي هو أنفس، وأفضل، وأعلى، الذي هو المن والسلوى، فإنه خير في اللذة، والنفع، وعدم الحاجة إلى السعي، فدعا موسى فاستجبنا له وقلنا لهم: ﴿اهْبِطُوا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) العمدة.

﴿مِصۡرًا﴾؛ أي: انحدروا واخرجوا من التيه، وانزلوا إن كنتم تريدون هذه الأشياء مصراً من الأمصار، وانزلوا بلدة من البلدان؛ لأنكم في البرية فلا يوجد فيها ما تطلبون، وإنما يوجد ذلك في الأمصار والبلدان، وليس المراد هنا مصر فرعون؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وإذا وجب عليهم دخول تلك الأرض، فكيف يجوز دخول مصر فرعون وهو الأظهر. وقيل: مصر فرعون الذي خرجتم منه، وصرفه حينئذٍ مع وجود السببين، وهما: العلمية والتأنيث المعنوي لإرادة البلد، أو لسكون وسطه، كنوح، ولوط، وفيها العجمة والتعريف، ويؤيده أنه غير منون في مصحف ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وعبارة «الروح» هنا: والمصر:[1] البلد العظيم من مَصَرَ الشيء يَمْصُرُهُ؛ أي: قطعه سمي به؛ لانقطاعه عن الفضاء بالعمارة، وقد تسمى القرية مصراً، كما تسمى المصر قرية، وهو ينصرف ولا ينصرف، فصرف هٰهنا؛ لأن المراد به غير معين. وقيل: أُرِيْدَ به مصر فرعون، وإنما صرف؛ لسكون وسطه، كهند، ودعد، ونوح؛ أو لتأويله بالبلد دون المدينة، فلم يوجد فيه غير العلمية. انتهى. قال أبو حيان: فتلخَّص من قراءة التنوين أن يكون مصراً غير معين لا من الشام ولا من غيره، أو مصراً غير معين من أمصار الشام، أو معيناً وهو بيت المقدس، أو مصر فرعون، فهذه أربعة أقوال. انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿اهبِطوا﴾ بكسر الباء، لأنه من باب ضرب. وقرىء بضم الباء على أنه من باب دخل وهما لغتان، والأفصح الكسر، والجمهور على صرف مصراً هنا. وقرأ الحسن، وطلحة، والأعمش، وأبان بن تغلب بغير تنوين، وبُيِّن كذلك في مصحف أبي بن كعب، ومصحف عبد الله، وبعض مصاحف عثمان ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ تعليل للأمر بالهبوط؛ أي: فإن لكم فيه ما سألتموه من بقول الأرض ونباتها، ثم قال تعالى منبهاً على ضلالهم، وفسادهم، وبغيهم، وعدوانهم: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾؛ أي: جعلت على فروع بني إسرائيل الذين كانوا في عصر النبي ﷺ ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾؛ أي: الذل والهوان بضرب الجزية عليهم، وإلزامهم

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

إياها إلزاماً لا يبرح ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾؛ أي: الفقر والفاقة، وسمي الفقير مسكيناً؛ لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة؛ أي: جُعِلتا محيطتينَ بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو ألصقتا بهم وجعلتا ضَرْبةَ لازبٍ لا تنفكان عنهم مجازاةً لهم على كفرانهم، كما يضرب الطين على الحائط، فهو استعارة بالكناية، فترى اليهود وإن كانوا مياسير، كأنهم فقراء إما على الحقيقة، أو على التكلف مخافة أن تضاعف عليهم الجزية. والمضروب عليهم الذلة والمسكنة اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ قاله الجمهور، أو الذين كفروا بآيات الله وقتلوا الأنبياء بغير حق، أو القائلون ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ومن تابعهم من أبنائهم أقوالٌ ثلاثةٌ. ذكره في «البحر».

﴿وَبَآءُو﴾؛ أي: رجعوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ وسخطٍ عظيم كائن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: استحقُّوا الغضب واللعنة من الله تعالى بسبب طغيانهم، وكفرهم نعمة الله تعالى. وفي وصف الغضب بكونه من الله تعظيمٌ للغضب، وتفخيمٌ لشأنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من ضَرْبِ الذلة والمسكنة عليهم، ورجوعهم بغضب من الله، وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بِسَبَبِ أن اليهود كانوا يجحدون على الاستمرار بآيات الله الباهرة؛ التي هي المعجزات الساطعة الظاهرة على يدي موسى عليه السلام؛ التي من جملتها ما عُدَّ عليهم من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وانفجار العيون من الحجر، وما لم يُعَدَّ، كاليد، والعصا، والضفادع، والقُمَّل، والجراد، أو بسبب أنهم يجحدون بمحمد ﷺ، وينكرون صفته في التوراة، والإنجيل، وبالقرآن، وآية الرجم التي في التوراة والإنجيل ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عندهم؛ أي: وبسبب قتلهم الأنبياء ظلماً حتى عندهم، كشعياء، وزكريا، ويحيىٰ، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام. وفائدة[1] التقييد مع أن قتل الأنبياء يستحيل: أن يكون بحق الإيذان بأن ذلك عندهم أيضاً بغير الحق، إذ لم يكن أحد معتقداً بحقية قتل أحدهم عليهم السلام، فإن قيل: كيف جاز أن يخلى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل: ذلك كرامة لهم وزيادة في منازلهم، كمثل من يُقْتَلُ في سبيل الله من

---

(١) روح البيان.

المؤمنين، وليس ذلك بخذلان لهم. قال ابن عباس، والحسن ـ رضي الله عنهم ـ: لم يقتل قَطُّ من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكل من أمر بقتال نُصِرَ، فظهر أن لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾: وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ مع أنه يجوز أن يراد به النصرة بالحُجَّة وبيان الحق، وكلهم بهذا المعنى منصور. روي أنهم قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً.

فإن قلت: لِمَ عرّف الحق هنا ونكره في آل عمران والنساء؟

قلت: لأن ما هنا لكونه وقع أولاً إشارة إلى ﴿ٱلْحَقِّۗ﴾ الذي أذن الله أن تقتل النفس به، وهو قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ﴾ فكان التعريف به أولى، وهناك أريد به ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ في معتقدهم ودينهم، فكان بالتنكير أولى انتهى. من فتح الرحمن.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من كفرهم بآيات الله العظام، وقتلهم أنبياء الله الكرام عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾؛ أي: بِسَبَبِ عصيانهم بترك المأمورات ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾؛ أي: وبسبب اعتدائهم ومجاوزتهم الحد بارتكاب المنهيات؛ أي: ذلك بسبب مجاوزتهم أمري وارتكابهم محارمي؛ أي: جرّ بهم العصيان والتمادي في العدوان إلى المشار إليه، فإن صغار الذنوب إذا دووم عليه أدت إلى كبارها، كما أن مداومة صغار الطاعات مؤدية إلى تحري كبارها، وسقم القلب بالغفلة عن الله تعالى منعهم عن إدراك لذاذة الإيمان وحلاوته؛ لأن المحموم ربما وجد طعم السُّكر مرّاً، فالغفلة سمٌّ للقلوب مهلكٌ، فنفرة قلوب المؤمنين عن مخالفة الله نفرتك عن الطعام المسموم و(ما) في قوله: ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾ مصدرية، كما أشرنا إليه في الحل؛ أي: ذلك بعصيانهم، ولم[1] يعطف الاعتداء على العصيان؛ لئلا يفوت تناسب مقاطع الآي؛ وليدل على أن الاعتداء صار كالشيء الصادر منهم دائماً، والمعنى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ

---

(١) البحر المحيط.

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن[1] ما حل بهم من ضروب الذلة والمسكنة، واستحقاق الغضب الإلٰهي، كان بسبب ما استمرأته نفوسهم من الكفر بآيات الله التي آتاها موسى، وهي معجزاته الباهرة التي شاهدوها، فإن إعناتهم له وإحراجهم إياه دليلٌ على أنه لا أثر للآيات في نفوسهم، فهم لها جاحدون منكرون، ويقتلون النبيين بغير الحق، فهم قتلوا شعياء، وزكرياء، ويحيى، وغيرهم بغير الحق؛ أي: بغير شبهة عندهم تسوِّغ هذا القتل، فإن من يأتي الباطل قد يعتقد أنه حق؛ لشبهةٍ تَعِنُّ له، وكتابهم يحرِّم عليهم قتل غير الأنبياء فضلاً عن الأنبياء إلا بحق يوجب ذلك. وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مع أن قتل غير النبيين لا يكون إلا كذلك، مزيد تشنيع بهم، وتصريح بأنهم ما كانوا مخطئين في الفهم، ولا متأوّلين للحكم، بل هم ارتكبوه عامدين مخالفين لما شرع الله لهم في دينهم.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾؛ أي: إن كفرهم بآيات الله، وجرأتهم على النبيين بالقتل إنما كانا بسبب عصيانهم، وتعدِّيهم حدود دينهم، فإن للدين هيبةً في النفس تجعل المتديِّن به يحذر مخالفة أمره، حتى إذا تعدَّى حدوده مرة ضعف ذلك السلطان الدينيُّ في نفسه، وكلما عاد إلى المخالفة كان ضعفه أشد إلى أن تصير المخالفة طبعاً وعادة، وكأنه ينسى حدود الدين ورسومه، ولا يصبح للدين ذلك الأثر العميق الذي كان متغلغلاً في قرارة نفسه، ثم دعا الله سبحانه وتعالى أهل الملل من المؤمنين بألسنتهم، واليهود، والنصارى، والصابئين إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله، وساقه بصيغة الخبر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذه الآية معترضة بين قصص بني إسرائيل؛ أي إنَّ[2] الذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة القلوب، وهم المنافقون بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة، والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق؛ للتصريح بأنَّ تلك المرتبة وإن عبر عنها بالإيمان لا تجديهم نفعاً أصلاً، ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعاً،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

والأولى[١] أن يقال: إن المراد إن الذين صدقوا محمداً ﷺ، وصاروا من جملة أتباعه، وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن[٢] حال هذه الملة الإسلامية، وحال من قبلها من سائر الملل، يرجع إلى شيء واحد، وهو: أنَّ من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، استحقَّ ما ذكره الله من الأجر، ومن فاته ذلك فاته الخير كلُّه، والأجر دقُّه وجلُّه، والمراد بالإيمان ها هنا هو ما بينه رسول الله ﷺ من قوله لمَّا سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره» ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ ولا بالقرآن فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً، ولم يبق يهودياً، ولا نصرانياً، ولا مجوسياً. اهـ. من الشوكاني.

وقيل المعنى[٣]: إن الذين آمنوا بالأنبياء الماضين قبل مبعث محمد ﷺ، كبحيرا الراهب، وورقة بن نوفل، وقُسّ بن ساعدة، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، ووفد النجاشي، وغيرهم ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي: تهودوا وصاروا يهود من هاد إذا دخل في اليهودية، ويهود إما عربي من هاد إذا تاب، سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل، وخُصُّوا به، لما كانت توبتهم توبةً هائلة، وإما معرب من يهوذا بالذال المعجمة اسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، فقلبتها العرب دالاً مهملة. وقيل: إنما سمي اليهود يهوداً؛ لأنهم إذا جاءهم رسول، أو نبيٌّ هادوا إلى ملكهم فدلُّوه عليه فيقتلونه ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ جمع[٤] نصران، كندامى جمع ندمان، سُمّوا بذلك؛ لأنهم نصروا المسيح عليه السلام؛ أو لأنهم كانوا معه في قريةٍ يقال لها: ناصرة، فسموا باسمها، أو لاعْتِزَائِهم إلى نَصْرَةَ، وهي قريةٌ كان ينزلها عيسى عليه السلام، والمعنى؛ أي: والذين كانوا على الدين المحرَّف الباطل الذي كان لليهود والنصارى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾؛ أي: الخارجين من دين إلى دين، وهم قوم من اليهود، أو النصارى صبئوا من دينهم. وقرأ نافع

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.
(٣) العمدة.
(٤) روح البيان.

﴿الصابون﴾ بغير همز جمع صابىء من صبأ إذا خرج من الدين، وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية، والنصرانية، وعبدوا الكواكب، والملائكة، فكانوا كعبدة الأصنام، وإن كانوا يقرؤون الزبور، لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤُهم.

فإن قلت: لِمَ قدم النصارى على الصابئين هنا. وعكس في المائدة والحج؟.

قلت: لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة؛ لأنهم أهل كتاب، فقدموا في البقرة لكونها أولاً، والصابئون مقدمون على النصارى في الزمن، فقدموا في الحج، ورُوعي في (المائدة) المعنيان فقدموا في اللفظ وأخروا في المعنى إذ التقدير: والصابئون كذلك، كما في قول الشاعر:

فَمَنْ يَكُ أمس في المَدِينةِ رَحْلُه ... فَإنِّي وقَيَّارٌ بها لغريبُ

إذ التقدير: فإني لغريبٌ بها وقيَّار كذلك. اهـ. «فتح الرحمن». وروي أنه جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: لِمَ يسمَّى الصابئون صابئين؟ فقال النبي ﷺ: «لأنهم إذا جاءهم رسول أو نبي أخذوه، وعمدوا إلى قدر عظيم فأغلوه، حتى إذا كان محمّى صبُّوه على رأسه حتى ينفسخ». كذا في «روضة العلماء». واختلف القرَّاء فيه، فهمزوه جميعاً إلا نافعاً، فمن همزه جعله من صبأت النجوم إذا طلعت، ومن لم يهمزه جعله من صبا يصبو إذا مال ﴿مَنْ﴾ مبتدأ خبره فلهم أجرهم، والجملة خبر إن؛ أي: من ﴿ءَامَنَ﴾ من هؤلاء الكفرة ﴿بِٱللَّهِ﴾ وبما أنزل على جميع النبيين، ويجوز أن تكون من في موضع نصب بدلاً من الذين أمنوا وما بعده؛ أي: من صدَّق منهم بوحدانية الله سبحانه وتعالى ﴿و﴾ بمجيء ﴿اليوم الآخر﴾ مع ما فيه من البعث، والحساب، والميزان، والمجازاة، وغيرها؛ أي: من أحدث منهم إيماناً خالصاً بالمبدإ والمعاد على الوجه اللائق، ودخل في ملة الإسلام دخولاً حقيقيّاً ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ مرضياً مقبولاً عند الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾؛ لتضمن اسم إنَّ معنى الشرط ﴿أَجْرُهُمْ﴾ الموعود لهم؛ أي: ثواب أعمالهم مدّخراً لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: مالك أمرهم

ومُبْلِغهم إلى كمالهم اللائق بأن يدخلهم الجنة، وعند متعلِّق بما تعلَّق به لهم من معنى الثبوت. أخبر سبحانه أن هؤلاء إذا آمنوا وعملوا الصالحات لم يؤاخذوا بقديم أعمالهم، ولا بفعل آبائهم، ولا يُنَقصون من أجور أعمالهم، وقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة حين يخاف الكفار العقاب، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وقرأ الجمهور ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾ بالرفع والتنوين. وقرأ الحسن ﴿ولا خوف﴾ من غير تنوين ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن المقصِّرون على تضييع العمر وتفويت الثواب، ولا يحزنون على ما خلفوا وراءَهم من الدنيا وعيشها عند معاينتهم النعيم المقيم، والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن عنهم. وخلاصة الكلام: من أخلص إيمانه وأصلح عمله دخل الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ تذكيرٌ[1] لجناية أخرى لأسلاف بني إسرائيل؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! وقت أخذنا لعهد آبائكم على العمل بما في التوراة، وذلك قبل التيه حين خرجوا مع موسى من مصر ونجوا من الغرق؛ أي: واذكروا قصة حين أخذنا وطلبنا من آبائكم العهد المؤكد باليمين على قبول التوراة، والعمل بما فيه، واتباع موسى، وأبيتم من إقراره وقبوله ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ كأنه ظُلَّة حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق. والطور: جبلٌ معروف بفلسطين، والطور معناه: الجبل بالسريانية، وذلك أنَّ موسى عليه السلام جاءهم بالألواح، فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقَّة، فكبرت عليهم، وأبوا قبولها، فأمر جبريل فقلع الطور من أصله، ورفعه، وظلَّله فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا أُلقى عليكم، فلما رأوا أن لا مهرب لهم منها قبلوا، وسجدوا، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجودٌ؛ لئلا ينزل عليهم، فصارت عادةً في اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم، ويقولون بهذا السجود رُفع عنا العذاب، ثم رفع الجبل ليقبلوا التوراة لم يكن جبراً على الإسلام؛ لأن الجبر ما يسلب الاختيار وهو جائز، كالمحاربة مع الكفار ليدخلوا في الإسلام، وأما قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ وأمثاله فمنسوخ بالقتال. قال ابن عطية: والذي لا يصحُّ

---

(1) روح البيان.

سواه، أنّ الله تعالى جبرهم وقت سجودهم على الإيمان؛ لأنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة بذلك، والمعنى؛ أي؛ اقتلعنا جبل الطور، ونتقناه من أصله، ورفعناه فوق رؤوسكم مقدار قامة حتى يكون كالظُلَّة، وقلنا لكم ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾؛ أي: ما أعطيناكم من الكتاب واعملوا بما فيه، فهو على تقدير القول كما قدرنا ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي بجدٍّ، واجتهادٍ، وعزيمةٍ، ومواظبة من غير تقصير ولا توان، والمعنى: خذوا الذي آتيناكموه حال كونكم عازمين على الجِدِّ بالعمل به. اهـ. «كرخي».

﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾؛ أي: وادرسوا ما في الكتاب من الثواب والعقاب، واحفظوا ما فيه من الحلال والحرام، ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي[1] تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى، وإلاَّ رضخت رؤوسكم بهذا الجبل، أو رجاءً[2] منكم أن تكونوا متقين، فلمَّا رأوا ذلك نازلاً بهم قبلوا، وسجدوا، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود، فصار ذلك سنة في سجود اليهود، كما مر آنفاً ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما رفعنا فوقكم وقبلتم الميثاق ﴿تَوَلَّيْتُم﴾؛ أي: أعرضتم عن الوفاء بالميثاق، وتركتم العمل بكل ما أمرتم به ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد أخذ الميثاق منكم على العمل بما في الكتاب، وهذا تأكيد لما يفهم من ثُمَّ ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تفضله سبحانه وتعالى عليكم بتأخير العذاب عنكم ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لكم بقبول التوبة منكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: لصرتم من الهالكين في الدنيا والآخرة، أو من المغبونين بذهابكم، وانعدامكم في الدنيا والعذاب في العقبى، ولكن تفضَّل عليكم حيث رفع الطور فوقكم حتى تُبتم فزال الجبل عنكم، ولولا ذلك لسقط عليكم، والخسران في الأصل: ذهاب رأس المال وهو ههنا هلاك النفس؛ لأنها الأصل.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَٱذْكُرُواْ﴾ أمراً من ذكر الثلاثي. وقرأ أُبيٌّ ﴿واذَّكَّرُو مَا فِيهِ﴾ أمراً من اذَّكَّر، وأصله: واذتكروا، ثم أبدل من التاء دال، ثم أدغم الذال في

---

(١) الخازن.

(٢) نسفي.

(٣) البحر المحيط.

الدال، إذ أكثر الإدغام يستحيل فيه الأول إلى الثاني، ويجوز في هذا أن يستحيل الثاني إلى الأول ويدغم فيه الأول، ويقال: إذكر، ويجوز الإظهار، فتقول: إذ ذكر. وقرأ ابن مسعود ﴿تَذَّكَّرُوا﴾ على أنه مضارع انجزم على جواب الأمر الذي هو خذوا، وذكر الزمخشري أنه قرىء ﴿وتذكَّروا﴾ أمراً من التذكر، ودخول[1] ثُمَّ مشعرٌ بالمهلة، ومن تشعر بابتداء الغاية، لكن بين الجملتين كلام محذوف، تقديره ـ والله أعلم ـ فأخذتم ما آتيناكم، وذكرتم ما فيه، وعملتم بمقتضاه، ثم تولَّيتم من بعد ذلك، وقد علم أنهم بعد ما قبلوا التوراة تولوا عنها بأمور، فحرَّفوها، وتركوا العمل بها، وقتلوا الأنبياء، وكفروا بالله، وعصوا أمره، ومن ذلك ما اختصَّ به بعضهم، وما عمله أوائلهم، وما عمله أواخرهم، ولم يزالوا في التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب يخالفون موسى، ويظاهرون بالمعاصي في عسكرهم حتى خسف ببعضهم، وأحرقت النار بعضهم، وعوقبوا بالطاعون، وكلٌّ هذا مذكور في تراجم التوراة التي يقرؤون بها، ثُمَّ فعل ساحروهم ما لا خفاء فيه حتى عُوقبوا بتخريب بيت المقدس، وكفروا بالمسيح، وهمُّوا بقتله. والإشارة[2] في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾ إلى قبول ما أُوتوه، أو إلى أخذ الميثاق والوفاء به ورفع الجبل، أو خروج موسى من بينهم، أو الإيمان. أقوالٌ، ذكره في «البحر».

والمعنى: أي ثُمَّ توليتم، وأعرضتم، وانصرفتم عن الطاعة بعد أن أخذ عليكم الميثاق، وأراكم من الآيات ما فيه عبرة لمن ادَّكَر، فلولا لطف الله بكم، وإمهاله إياكم، إذ لم يعاملكم بما تستحقون لكنتم من الهالكين بالانهماك في المعاصي. والخلاصة: إنكم بتوليكم استحققتم العقاب، ولكن فضل الله عليكم ورحمته أبعده عنكم، ولولا ذلك لخسرتم سعادتي الدنيا والآخرة، وقد منَّ الله تعالى على أمة محمد ﷺ حيث فرض عليهم الفرائض واحدةً بعد واحدة، ولم يفرض عليهم جملة، فإذا استقرَّت الواحدة في قلوبهم فرض عليهم الأخرى، وأما بنو إسرائيل فقد فرض عليهم بدفعة واحدة، فشق عليهم ذلك، ولذا لم يقبلوا حتى رأوا العذاب، ثُمَّ إن[3] الله تعالى أمر بحفظ الأوامر والعمل، وبعدم النسيان

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

والتضييع، وقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ وهو المقصود من الكتب الإلٰهية؛ لأنَّ العمدة العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان، وترتيلها بالأنغام، فإنَّ ذلك نبذ لها. قال الغزالي: وما مثل ذلك إلا مثل ملك أرسل كتاباً إلى أحد أمرائه، وأمره أن يبني له قصراً في ناحيةٍ من مملكته، فلم يكن حظُّ الكتاب منه إلا أن يقرأه كل يوم دون أن يبني القصر، أفلا يستحق هذا الأمير بعدئذٍ العقاب من الملك الذي أرسل به إليه؟ وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ خطاب لمعاصري النبي ﷺ من اليهود؛ أي: وبالله قد عرفتم يا بني إسرائيل! ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ﴾؛ أي: تجاوزوا الحد ظلماً ﴿مِنكُمْ﴾؛ أي: من أسلافكم، محلُّه نصبٌ على أنه حال ﴿فِى﴾ يوم ﴿ٱلسَّبْتِ﴾؛ أي: جاوزوا ما حدَّ لهم فيه من التجرُّد للعبادة وتعظيمه، واشتغلوا بالصيد، وأصل السبت القطع؛ لأنَّ اليهود أمروا بأن يسبتوا فيه؛ أي: يقطعوا الأعمال، ويشتغلوا بعبادة الله، ويسمَّى النوم سباتاً؛ لأنه يقطع الحركات الاختيارية، وفيه تحذيرٌ وتهديدٌ؛ فكأنَّه يقول: إنكم تعلمون ما أصابهم من العقوبة، فاحذروا كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ قهراً ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ جمع قرد، كالديكة جمع ديك، وهذا أمر تحويل وتكوين، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة؛ لأنهم لم يكن لهم قدرةٌ على التحول من صورة إلى صورة، وهو إشارة إلى قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: لمَّا أردنا ذلك صاروا كما أردنا من غير امتناع ولا لبث ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾؛ أي: ذليلين، هو وقردةٌ خبران لكان؛ أي: كونوا جامعين بين القرديَّة والخسىء، وهو الصغار والطرد.

فإن قلت: كيف أُمروا بذلك مع أنه ليس في وسعهم؟.

قلت: هذا أمر إيجادٍ لا أمر إيجاب، كقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ والمعنى؛ أي[1]: وعزتي وجلالي، لقد عرفتم عقوبة الذين تجاوزوا الحد في الاصطياد باصطيادهم في يوم السبت الذي نهوا عن الاصطياد فيه، وأمروا بالتفرُّغ فيه للعبادة، فقلنا لهم: كونوا وصيروا بقدرتنا قردةً؛ أي: حيواناً معروفاً خاسئين؛

---

(١) العمدة.

أي: ذليلين مطرودين عن الرحمة والشرف.

وأصل هذه القصة[1]: أنهم كانوا في زمن داود عليه السلام بأرض يقال لها: أيلة بين المدينة والشام على ساحل بحر القلزم، فحرَّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، فكان إذا دخل السبت لم يبق حوتٌ في البحر إلا اجتمع هناك، إمَّا ابتلاءً لأولئك القوم، وإما لزيارة السمكة التي كان في بطنها يونس بن متى، في كُل سبت يجتمعن لزيارتها، ويُخْرِجن خَراطِيمَهن من الماء حتى لا يرى الماء من كثرتها، وإذا مضى السبت تفرقن ولَزَمْن مقل البحر فلا يرى شيءٌ منها، ثُمَّ إن الشيطان وسوس إليهم، وقال: إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت، فعمد رجالٌ من أهل تلك القرية فحفروا الحياض حول البحر، وشرعوا منه إليها الأنهار، فإذا كانت عشيَّة الجمعة فتحوا تلك الأنهار، فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض، فلا يقدرن على الخروج؛ لبعد عمقها؛ وقلة مائها، فإذا كان يوم الأحد يصطادونها، فأخذوا، وأكلوا، وملَّحوا، وباعوا، فكثرت أموالهم، ففعلوا ذلك زماناً أربعين سنة، أو سبعين لم تنزل عليهم عقوبةٌ، وكانوا يتخوَّفون العقوبة، فلمَّا لم يعاقبوا استبشروا وتجرَّءوا على الذنب، وقالوا: ما نرى السبت إلا قد أحل لنا، ثم أستنَّ الأبناء سنة الآباء، فلو أنهم فعلوا ذلك مرة أو مرتين لم يضرهم، فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية ـ وكانوا نحواً من سبعين ألفاً ـ ثلاثة أصنافٍ: صنف أمسك ونهى، وصنف أمسك ولم ينه، وصنفٌ انتهك الحرمة، وكان الناهون اثني عشر ألفاً فنهوهم عن ذلك، وقالوا: يا قوم! إنكم عصيتم ربكم وخالفتم سنة نبيكم، فانتهوا عن هذا العمل قبل أن ينزل بكم البلاء، فلم يتعظوا وأبوا قَبُولَ نصحهم، فعاقبهم الله بالمسخ، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ ثُمَّ إنَّ المجرمين لما أبوا قَبُوْل النصح قال الناهون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار وصيَّروها بذلك ثنتين، فلعنهم داود، وغضب الله عليهم؛ لإصرارهم على المعصية، فمسخوا ليلاً، فلما أصبح الناهون أتوا أبوابها فإذا هي مغلقة لا يسمع منها صوتٌ ولا يعلو منها دخان،

---

(١) روح البيان.

فتسوَّروا الحيطان ودخلوا، فرأوهم قد صار الشُّبَّان قردة، والشيوخ خنازير لها أذناب يتعاوون، فعرفت القردة أنسابهم من الإنس، ولم يعرف الإنس أنسابهم من القردة، فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهكم عن ذلك، فكانوا يشيرون برؤوسهم؛ أي: نعم والدموع تفيض من أعينهم، ودلَّ ذلك على أنهم لمَّا مسخوا بقي فيهم الفهم والعقل، ثُمَّ لم يكن ابتداء القردة من هؤلاء، بل كانت قبلهم قردةٌ، وهؤلاء حولوا إلى صورتها؛ لقبحها جزاءً على قبح أعمالهم وأفعالهم، وماتوا بعد ثلاثة أيام، ولم يتوالدوا، والقردة التي في الدنيا: هي نسل قردة كانت قبلهم ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾[1]؛ أي: صيَّرنا مسخة تلك الأمة وعقوبتها ﴿نَكَالًا﴾؛ أي: عبرة تُنكل من اعتبر بها؛ أي: تمنعه من أن يقدم على مثل صنيعهم ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: لما قبلها وما بعدها من الأمم والقرون؛ لأنَّ مسختهم ذكرت في كتب الأولين واعتبروا بها، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين، فاستعير ما بين يديها للزمان الماضي، وما خلفها للمستقبل ﴿وَمَوْعِظَةً﴾؛ أي: تذكرةً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحي قومهم، أو لكل مُتَّق سمعها، فاللام للاستغراق العرفيِّ على كلا التقديرين، وخصَّ المتقين بالذكر؛ لأنهم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾؛ أي[2]: جعلنا تلك العقوبة، والمسخة التي مسخناهم بها ﴿نَكَالًا﴾؛ أي: عقوبة رادعة زاجرة ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾؛ أي: للأمم التي في زمانها، التي ترى تلك الفرقة الممسوخة عن الإتيان بمثل فعلهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: وزاجرة للأمم التي تأتي بعدها إلى يوم القيامة أن يعملوا بمثل ما عملوا، فيمسخوا مثل ما مسخوا ﴿وَمَوْعِظَةً﴾؛ أي: عبرةً وتذكرةً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين من هذه الأمة؛ لئلاً يفعلوا مثل فعلهم؛ فإن كلَّ من سمع تلك الواقعة يخاف أن ينزل به مثل ما نزل بهم إن فعل مثل فعلهم، وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة التسوية بين مؤمن اليهود،

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

والنصارى، والصابئين، ومؤمن غيرهم في كينونة الأجر لهم، وأن ذلك عند من يرى أن إيمانهم في الدنيا أنتج لهم الأمن في الآخرة، فلا خوف مما يستقبل، ولا حزن على ما فات، إذ من استقر له أجره عند ربه فقد بلغ الغاية القصوى من الكرامة. انتهى. من «البحر».

واعلم: أن عقوبة الأمم الماضية بالخسف والمسخ على الأجساد، وعقوبة هذه الأمة على القلوب، وعقوبات القلوب أشدُّ من عقوبات النفوس. قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ...﴾ الآية. ثم علامة[1] مسخ القلوب ثلاثة أشياء: لا يجد حلاوة الطاعة، ولا يخاف من المعصية، ولا يعتبر بموت أحد، بل يصير أرغب في الدنيا كل يوم. كذا في «زهرة الرياض». ورُوي عن عوف بن عبد الله أنه قال: كان أهل الخير يكتب بعضهم بثلاث كلمات: من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته. وقال محمد بن علي الترمذي: صلاح أربعة أصناف في أربعة مواطن: صلاح الصبيان في الكتَّاب، وصلاح القُطَّاع في السجن، وصلاح النساء في البيوت، وصلاح الكهول في المساجد. انتهى.

الإعراب

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب معطوف على نعمتي، تقديره: واذكروا يا بني إسرائيل! إذ قلتم ﴿قُلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿يَـٰمُوسَىٰ﴾ منادى مفرد العلم في محل النصب على المفعولية مبني بضمة مقدرة منع من ظهورها التعذر، وجملة النداء في محل النصب مقول لقلتم ﴿لَن﴾ حرف نصب ونفي واستقبال ﴿نَّصْبِرَ﴾

(١) روح البيان.

فعل مضارع منصوب بلن، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقلتم، وإن شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ إلى قوله ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ مقول محكي لقلتم؛ لأن مرادنا لفظه لا معناه ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ﴾ جار ومجرور متعلق بنصبر ﴿وَٰحِدٍ﴾ صفة لطعام ﴿فَٱدْعُ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع ﴿ادع﴾ فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنت يعود على موسى، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾ على كونها مقولاً لقلتم ﴿لَنَا﴾ جار ومجرور متعلق بادع ﴿رَبَّكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿يُخْرِجْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير مستتر فيه جوازاً، تقديره: هو يعود على ربك، والجملة جواب الطلب لا محل لها من الإعراب ﴿لَنَا﴾ متعلق بيخرج ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بيخرج أيضاً على أنه مفعول به ليخرج، أو مفعول يخرج محذوف؛ تقديره: يخرج لنا شيئاً ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور صفة لذلك المحذوف؛ أي: شيئاً كائناً مما تنبت الأرض و﴿تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: شيئاً مما تنبته الأرض ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ جار ومجرور ومضاف إليه بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ بدل تفصيل من مجمل، أو حال من مفعول تنبت المحذوف، تقديره: حال كونه كائناً من ﴿بَقْلِهَا﴾ و ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ معطوف على ﴿بَقْلِهَا﴾، وكذا قوله: ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ معطوف على بقلها جرياً على القاعدة المشهورة عندهم: أن العطف إذا كان بغير مرتب يكون على الأول ولو كثرت المعطوفات، وإن كان بمرتب، كالفاء، وثم، يكون الكل معطوفاً على ما قبله.

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على موسى، أو على الرب سبحانه، والجملة مستأنفة ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ إلى قوله ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ مقول محكي لقال، لأن مرادنا لفظه لا معناه، وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام الإنكاري المضمن

للتوبيخ، والمعنى: لا ينبغي لكم ذلك الاستبدال ولا يليق بكم ﴿تستبدلون﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿هُوَ أَدْنَىٰ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول ﴿بِٱلَّذِى﴾ متعلق بتستبدلون ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل النصب مقول قول محذوف، تقديره: قلنا لهم ﴿مِصْرًا﴾ مفعول به منصوب بالفتحة الظاهرة على قراءة التنوين وهو خط المصحف؛ لأنه نكرة؛ لأن المعنى انزلوا بلداً من البلدان؛ لأنهم كانوا وقتئذٍ في صحراء التيه. وقيل: معرفة؛ لأن المعنى اهبطوا مصر فرعون، وإنما صرف حينئذٍ، لخفته بسكون وسطه، كهند، ودعد، ونوح، ولوط، ونحوها. وقرأه الحسن وغيره بلا تنوين، كأنهم عنوا مكاناً بعينه، كما سبق ﴿فَإِنَّ﴾ الفاء تعليلية ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿لَكُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم لإن ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محل النصب اسم إن مؤخر ﴿سَأَلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: فإن ما سألتموه من البقول كائن وحاصل لكم في مصر لا في التيه، وجملة إن مستأنفة؛ مسوقة لتعليل الأمر بالهبوط في مصر ﴿وَضُرِبَتْ﴾ الواو استئنافية، أو اعتراضية؛ لأن قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معترض في خلاف القصص المتعلقة بحكاية أحوال بني إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، يدل على هذا قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فإن قتل الأنبياء إنما كان من فروعهم وذريتهم. ذكره في «الجمل». ضرب: فعل ونائب فاعل مغير الصيغة، والتاء علامة تأنيث نائب الفاعل ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق بضربت ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ نائب فاعل ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية مستأنفة، أو معترضة

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

﴿وَبَآءُو﴾ فعل وفاعل معطوف على ضربت ﴿بِغَضَبٍ﴾ متعلق بباؤا ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة لغضب ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة للمفرد البعيد في محل الرفع مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء

حرف جر وسبب متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائنٌ بسبب أنهم كانوا، والجملة الإسمية مستأنفة، أو معترضة ﴿أنهم﴾ ناصب واسمه ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ خبر كان ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بيكفرون، وجملة كان في محل الرفع خبر أنَّ، وجملة أن في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله سبحانه ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على يكفرون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ جار ومجرور متعلق بيقتلون، أو بمحذوف حال من فاعل يقتلون، تقديره: حالة كونهم ملتبسين بغير الحق، أو حالة كونهم ظالمين متنكرين للحق في اعتقادهم، ولو اعترفوا لاتصفوا بالواقع ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جر وسبب متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ تقديره: ذلك كائن بسبب عصيانهم، والجملة الإسمية مستأنفة، أو معترضة ﴿عَصَوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب عصيانهم ﴿وَّكَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْتَدُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان معطوفة على جملة عصوا على كونها صلة لما المصدرية، والتقدير: ذلك كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب معطوف على الموصول الأول وجملة ﴿هَادُوا۟﴾ صلة للموصول الثاني ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ معطوف على اسم إن، وكذلك قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ معطوف على اسم إن ﴿مَنْ﴾ اسمٌ موصول في محل النصب بدلٌ من اسمِ إن، وجملةُ ﴿ءَامَنَ﴾ صلة من الموصولة ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بآمن ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾ صفة لليوم ﴿وَعَمِلَ﴾ معطوف على آمن ﴿صَٰلِحًا﴾ مفعول به لِعَمِل، أو مفعول مطلق لعمل؛ لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: وعمل عملاً صالحاً ﴿فَلَهُمْ﴾ الفاء رابطة الخبر باسم إن؛ لما في الموصول من معنى الشرط، أو رابطة الجواب بالشرط إن قلنا ما شرطية ﴿لهم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿أَجْرُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الإسمية في محل الرفع خبر إن إذا

جعلنا مَن موصولة، أو في محل جزم جواب الشرط إذا جعلناها شرطية، وجملة الشرط مع جوابها في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة، أو معترضة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الأجر، تقديره: فلهم أجرهم حال كونه ثابتاً مدخراً لهم عند ربهم، أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، وأفرد الضمير في آمن وعمل؛ نظراً للفظ من وجمعه في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ نظراً لمعناه ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿خَوْفٌ﴾ مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة؛ تقدم النفي عليها وبطل عمل لا؛ لتكررها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وكذلك جملة قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوفة على جملة الجواب.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب معطوف على نعمتي على أنه مفعول به لاذكروا ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول به ومضاف إليه والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿وَرَفَعْنَا﴾ الواو عاطفة، أو حالية ﴿رفعنا﴾ فعل وفاعل والجملة في محل الجر معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾ أو في محل النصب حال من فاعل ﴿أَخَذْنَا﴾ ولكن بتقدير: قد ﴿فَوْقَكُمُ﴾ فوق منصوب على الظرفية المكانية متعلق برفعنا، والكاف في محل الجر مضاف إليه ﴿الطُّورَ﴾ مفعول به ﴿خُذُوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾ تقديره: وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم، أو حال من فاعل رفعنا، تقديره: ورفعنا فوقكم الطور قائلين خذوا... إلخ: ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول لخذوا ﴿آتَيْنَاكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف؛ لأن آتى بمعنى أعطى، تقديره: آتيناكموه، وهو العائد على ﴿مَا﴾ الموصولة، والجملة صلة لما الموصولة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿خُذُوا﴾ تقديره: ملتبسين بقوة واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿خُذُوا﴾ ﴿مَا﴾ اسم

موصول في محل النصب مفعول به لاذكروا ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة لما الموصولة، تقديره: ما استقر فيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل بمعنى كي، والكاف اسمها، وجملة ﴿تتقون﴾ خبرها، ومفعول التقوى محذوف، تقديره: لكي تتقون عقابي، وجملة لعل جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، والتقدير: واذكروا ما فيه لإتقائكم عقابي.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿تَوَلَّيْتُم﴾ فعل وفاعل معطوف على محذوف، تقديره: فقبلتم الميثاق ثم توليتم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتوليتم ﴿فَلَوْلَا﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أخذ الميثاق منكم، ثم توليكم بعد ذلك وأردتم بيان ما يترتب على ذلك، فأقول لكم: لولا فضل الله ﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود مضمن معنى الشرط ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه وخبره محذوف وجوباً، تقديره: موجود، والجملة الإسمية قائمة مقام الشرط لا محل لها من الإعراب ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بفضل الله ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ معطوف على فضل الله ﴿لَكُنتُم﴾ اللام واقعة في جواب لولا ﴿كنتم﴾ فعل ناقص واسمه ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، وجملة كان جواب لولا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو استئنافية، واللام موطئة لقسم محذوف، تقديره: وعزتي وجلالي ﴿لقد علمتم﴾ ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿عَلِمْتُمُ﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وعلم هنا بمعنى عرف يتعدى لمفعول واحد، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿ٱعْتَدَوْا۟﴾ فعل ماض وفاعل، والجملة

صلة الموصول ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من الضمير في اعتدوا، تقديره: حالة كون المعتدين كائنين منكم ﴿فَقُلْنَا﴾ الفاء عاطفة ﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿اعْتَدَوْا﴾ على كونها صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿لَهُمْ﴾ و﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق باعتدوا ﴿كُونُوا﴾ فعل أمر ناقص مبني على حذف النون، والواو اسمها ﴿قِرَدَةً﴾ خبرها ﴿خَاسِئِينَ﴾ خبر ثان لها، ولا مانع من جعلها صفة لقردة، وقيل: كلاهما خبرها، وإنهما نزلا منزلة كلمة واحدة، كقولهم: هذا حلو حامض، وهو قول جيد وجملة ﴿كُونُوا﴾ في محل النصب مقول ﴿قلنا﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول أول والجملة معطوفة على جملة ﴿قلنا﴾ ﴿نَكَالًا﴾ مفعول ثان لجعلنا ﴿لِمَا﴾ اللام حرف جر و﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر باللام، والجار والمجرور صفة لنكالاً، أو متعلق بنكالاً، لأنه اسم مصدر لنكَّل الرباعي ﴿بَيْنَ﴾ منصوب على الظرفية الاعتبارية ﴿بَيْنَ﴾ مضاف ﴿يَدَيْهَا﴾ مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنه مثنى، ويدي مضاف والهاء مضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف صلة لما الموصولة؛ أي: لما استقر بين يديها ﴿وَمَا﴾ معطوف على ﴿مَا﴾ الأولى ﴿خَلْفَهَا﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلة لما الثانية ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ معطوف على ﴿نَكَالًا﴾ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ جار ومجرور صفة لموعظة، أو متعلق بموعظة، لأنه مصدر ميمي بمعنى عظة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ادع وزنه أفع لحذف لامه لبناء الأمر ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ والبقل: كلُّ ما تنبته الأرض من النجم؛ أي: مما لا ساق له، وجمعه بقول ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ والقثاء: اسم جنس معروف، الواحدة قثاءة، وفيها لغتان: المشهور منهما كسر القاف، وقرىء بضمها، والهمزة أصل بنفسها لثبوتها في قوله: أَقْثَأَتِ الأرضُ؛ أي: كثر قثاؤها، ووزنها فعَّال. اهـ. «سمين». وقال الخليل: وهو الخيار، ويقال: أرض مقثاة؛ أي: كثيرة القثاء ﴿وَفُومِهَا﴾ قال الكسائي، والفراء، والنضر بن شميل، وغيرهم. الفوم هو الثوم، أبدلت الثاء فاءً، كما قالوا في مغفور: مغثور، وفي جدث: جدف، وفي عاشور: عافور. قال أمية بن أبي الصلت:

كَـانَـتْ مَـنـازِلُـهـم إذْ ذاكَ ظـاهـرة فِـيهَـا الـقـرادِيْـسُ والـفُـومَـانُ والـبَـصَـلُ

وأنشد مؤرِّج لحسَّان:

وأنـتـم أُنَـاسٌ لِـئـامُ الأُصُـولِ طَـعَـامُـكُـم الـفُـومُ والـحَـوْقَـلُ

يعني: الفوم والبصل، وهذا كما أبدلوا بالفاء الثاء، قالوا في الأثافي: الأثاثي وكلا البدلين لا ينقاس؛ أعني: إبدال الثاء فاءً والفاء ثاءً، وقال ابن قُتيبة، والزجاج: هي الحبوب التي تؤكل، وقال أبو مالك وجماعة: الفوم: الحنطة، ومنه قول أحيحة بن الجلاَّح:

قَـدْ كُـنْـتُ أحْـسِـبُـنِـي كَـأغْـنَـى واحـد قَـدِمَ الـمَـديـنـة عـن زراعـة فُـوم

قيل: وهي لغة مصر، وهو اختيار المبرد. وقال الفراء: وهي لغةٌ قديمة. وقيل: هي الحبوب التي تخبز. وقيل؛ هو الخبز نفسه. وقيل: إنه الحمص ﴿وَعَدَسِهَا﴾ والعدس معروف، وعدس من الأسماء الأعلام، وعدس زجرٌ للبغل ﴿وَبَصَلِهَا﴾ البصل معروف بـ ﴿ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أصله: أَدْنَيَ بوزن أفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وهو أفعل تفضيل من الدنوّ وهو القُرْبُ. يقال: منه دنا يدنو دنواً، وقال عليُّ بن سليمان الأخفش: هو أفعل من الدناءة وهي الخسَّة والرداءة، خُفِّفت الهمزة بإبدالها ألفاً، وقال أبو زيد في المهموز: دَنُؤ الرجل يدنأ دناءةً ودناءً. ودَنَأ يدنأُ، وقال غيره: هو أفعل من الدون؛ أي: أحطُّ في المنزلة، وأصله: أدون فصار وزنه أفلع؛ نحو: أولى لك؛ لأنه أفعل من الويل أصله: أويل، فقلب. وفي «الفتوحات» ﴿أَدْنَىٰ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو الظاهر، وهو قول الزجاج أن أصله: أَدْنَوْ من الدنو هو القرب، فقلبت الواو ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، ومعنى الدنو في ذلك القرب؛ لأنه أقرب وأسهل تحصيلاً من غيره لخساسته، وقلة قيمته.

والثاني: أصله: أدنأ مهموزٌ من دنأ يدنأ دناءةً، إلا أنه خففت همزته بقلبها ألفاً.

والثالث: أنَّ أصله أدون مأخوذ من الشيء الدون؛ أي: الرديء، نقلت الواو التي هي عين الكلمة إلى ما بعد النون التي هي لامها، فصار أدنو بوزن أفلع، فلما تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً. اهـ. من «السمين».

﴿اهبطوا﴾؛ أي: انزلوا وانتقلوا من هذا المكان إلى مكان آخر فيه ما تطلبون، فالهبوط لا يختص بالنزول من المكان العالي إلى الأسفل، بل قد يستعمل في الخروج من أرض إلى أرض مطلقاً. اهـ. من «الشهاب» وفي «المصباح» وهبطت من موضع إلى موضع من بابي ضرب وقعد، انتقلت وهبطت الوادي هبوطاً نزلته. اهـ. ﴿مِصْـرًا﴾ والمصر في أصل اللغة: الحد الفاصل بين الشيئين، وحكي عن أهل هجر أنهم إذا كتبوا بيع دار، قالوا: اشترى فلانٌ الدار بمصورها؛ أي: حدودها اهـ. «سمين» وفي «الخطيب» المصر البلدة العظيمة. اهـ. وقال عديُّ بن زيد:

وجَاعِلُ الشمس مِصْراً لا خفاء به ... بَيْنَ النهارِ وبَيْنَ الليلِ قَدْ فَصَلا

﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ والسؤال الطلب، ويقال: سأل يسأل سؤالاً والسؤل المطلوب، وسَأْل يَسَأْل على وزن خاف يخاف، ويجوز تعليق فعله وإن لم يكن من أفعال القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ قالوا: لأن السؤال سببٌ إلى العلم فأجري مجرى العلم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾؛ أي: أُلزِموها وقُضِيَ عليهم بها، والذلة بالكسر: الصغار، والهوان، والحقارة، والذُّلُّ بالضم ضدُّ العِزِّ، والذِلَّةُ مصدر ذَلَّ يذلُّ ذُلاً وذِلَّةً. وقيل: الذلة كأنها هيئة من الذُلّ، كالجلسة، والذُّلُّ الخضوع وذهاب الصعوبة ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ المسكنة: مفعلة من السكون، ومنه سمي المسكين؛ لقلة حركاته وفتور نشاطه، فهو مفعيلٌ منه.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وأصل باء بَوَأَ بوزن فعل، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، ثم أسند الفعل إلى واو الجماعة فبني على الضم، فألف باء منقلبةٌ عن واو لقولهم: باء يبوء، مثل: قال يقول، وقال ﷺ: (أبوء بنعمتك) والمصدر البواء، ومعناه: الرجوع. يقال: باء بكذا؛ أي: رجع قاله الكسائيُّ، أو اعترف قاله أبو عبيدة، أو استحقَّ قاله أبو رَوْقٍ، أو نزل وتمكَّن قاله المبرد، أو تساوى قاله الزجاج، وانشدوا لكل قولٍ ما يستدل به من كلام العرب، وحذفنا ذلك. اهـ. من «البحر».

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جمع نبي أصله: فعيل فمن قرأه بالهمز، كنافع لم يحدث فيه تغييراً، على أن آخر الكلمة همزةٌ هي لامها، ومن قرأ بترك الهمز، إما أن يكون أبدلت فيه الهمزة ياء، ثم أدغمت فيها ياء فعيل، ثم جاءت ياء الجمع، وعلى أنَّ لام الكلمة أصلها واو من النبوة، فهو فعيل بمعنى مفعول، اجتمعت الواو والياء؛ لأن الأصل على هذا نبيوٌ، فلمَّا اجتمعتا وسبقت إحداهما ساكنة، قلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء، على حدِّ قول ابن مالك:

إنْ يَسْكُنِ السَّابِقُ مِنْ وَاوٍ وَيا واتَّصَلاَ ومِنْ عُرْوضٍ عَرِيا
فَيَاءَ الواوَ اقْلِبَنَّ مُدْغِما وشذَّ مُعْطًى غَيْرَ ما قُدْ رُسِمَا

قال الكسائيُّ: النَّبيُّ: الطريق، سُمِّي به؛ لأنه يهتدى به. قالوا: وبه سُمي الرسول؛ لأنه طريقٌ إلى الله تعالى ﴿بِمَا عَصَوا﴾ أصله: عَصَيُوا بوزن فعلوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف لكونها أوَّل الساكنين، وبقيت الفتحة دالَّة عليها ﴿وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أصله: يعتديون من اعتدى من باب افتعل، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم حذفت الياء لمَّا سكنت مع واو الجماعة، وضمت الدال؛ لمناسبة الواو، فوزنه يفتعون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أصله: أأمنوا أبدلت الهمزة الساكنة حرف مد للأول، وكذلك القول في ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ من هاد يهود من باب قال إذا تاب ورجع، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، فهو أجوف واويٌّ. وقيل: من هاد يهيد من باب باع إذا تحرَّك، وعليه قلبت الياء ألفاً، فهو أجوف يائي، والأول أولى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ جمع نصران، كندامى جمع ندمان، وألفه للتأنيث، ولذلك منع الصرف في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ﴾ والياء في نصراني؛ للمبالغة، كما في أحمري، سموا بذلك؛ لأنهم نصروا المسيح؛ أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها: نصران؛ أو ناصرة فسموا باسمها، أو باسم من أسسها. اهـ. «بيضاوي» ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ جمع صابىء. وفي «السمين» والصابىء التارك لدينه. اهـ. وفي «المصباح» وصبا يصبو صبواً من باب قعد، وصبوةً أيضاً، مثل شهوة إذا مال وصبأ من دينٍ إلى دين،

يصبأ مهموز بفتحتين خرج فهو صابىء، ثم جعل هذا اللقب علماً على طائفة من الكفار. يقال: إنها تعبد الكواكب في الباطن، وتنسب إلى النصرانية في الظاهر، وهم الصابئة والصابئون، ويدَّعون أنهم على دين صابىء بن شيث بن آدم، ويجوز التخفيف، فيقال: الصابون وقرأ به نافع. اهـ. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والأجر في الأصل مصدر. يقال: أجره الله يأجره أجراً من بابي ضرب وقتل، وقد يعبَّر به عن نفس الشيء المجازَىٰ به، والآية الكريمة تحتمل المعنيين. اهـ. «سمين» ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أصله: مِوْثاقٌ مفعال من التوثيق، سكنت الواو بعد كسرة فقلبت ياءً حرف مد ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ والطُّور: يطلق على أيِّ جبل كان، كما في «القاموس» ويطلق أيضاً: على جبال مخصوصة بأعيانها، وهذا الجبل الذي رفع فوقهم كان من جبال فلسطين، كما في «الخازن» عن ابن عباس. اهـ. «كرخي» ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلَّ تعليلية؛ أي: لكي تتقوا المعاصي، أو رجاءً منكم أن تكونوا متقين. اهـ. «بيضاوي». وأصل تتقون: تَوْتَقِيون بوزن تفتعلون؛ لأن أصل المادة من الوقاية، فأصل التقوى وقيا، أبدلت الواو تاءً والياء واواً، فقيل: تقوى، وبعد هذا الإعلال يصير الإفتعال منه، كما هنا تَوْتَقْوون بواوين، فتبدل الواو الأولى ياءً؛ لكسر ما قبلها وهي في الطرف، واستثقلت الضمة على الياء، فحذفت فسكنت، فالتقى ساكنان الياء، وواو الجماعة، فحذفت الياء، ثم ضمت القاف؛ لمناسبة الواو، وسبب تشديد التاء؛ أنَّ فاء الكلمة التي هي واوٌ، كما مر آنفاً أن المادة من الوقاية، أبدلت تاءً، ثم أدغمت في تاء الافتعال؛ لأنَّ فاء الكلمة إذا كان حرف لين وبني منها افتعال، أبدل تاءً، وأدغم في تاء الافتعال على حدّ قول ابن مالك:

ذُو اللِّيْن فَاتَا في افتعالٍ أبدلا

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التولي تفَعُّلٌ من الوَلْي، وأصلُه: الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والاعتقادات اتساعاً ومجازاً. اهـ. «سمين» ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ علمتم بمعنى عرفتم فيتعدَّى لواحد فقط. والفرق بين العلم والمعرفة: أنَّ العلم يستدعي معرفة الذات، وما هي عليه من الأحوال، نحو: علمت زيداً قائماً، أو ضاحكاً، والمعرفة تستدعي معرفة

الذات فقط، أو يقال في الفرق بينهما: إن المعرفة يسبقها جهل، والعلم قد لا يسبقه جهل، ولذلك لا يجوز إطلاق المعرفة على الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ﴾ أصله: اعتدَيوا؛ لأنه من العدوان واويُّ اللام، أبدلت الواو ياء في الافتعال؛ لوقوعها خامسةً، فاتصل بالفعل واو الجماعة فضمت الياء؛ لمناسبتها، ثم أبدلت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان فحذفت الألف؛ فقيل: اعتدوا بوزن افتعوا ﴿فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ والسبت في الأصل مصدر سبت؛ أي؛ قطع، وقال ابن عطية: والسبت إما مأخوذ من السُّبوت الذي هو الراحة والدعة، وإما من السبت وهو القطع؛ لأن الأشياء فيه سبتت وتمَّ خلقها، ثم سمي به اليوم من الأسبوع، ومنه قولهم: سَبَتَ رأسَه؛ أي حَلَقَه ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ أمرٌ من كان يكون، وأصل يكون: يَكْوُن بوزن يفعُل بضم العين، نقلت حركة الواو إلى الكاف، فسكنت إثر ضمها فصارت حرف مد، فلمَّا بُني الأمر من مضارعه حذف منه حرف المضارعة ونون الرفع، فقيل: كونوا بوزن فعلوا ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ وفي «المختار»: خسأ الكلب طرده من باب قطع، وخسأ هو بنفسه خضع وانخسأ أيضاً، وخسأ البصر حسر من باب قطع وخضع. اهـ. ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا﴾ والنكال المنع، ومنه النكل، والنكل: اسمٌ للقيد من الحديد واللِّجام؛ لأنه يمنع به، وسمي العقاب نكالاً؛ لأنه يمنع به غير المعاقب أن يفعل فعله، ويمنع المعاقب أن يعود إلى فعله الأول، والتنكيل: إصابة الغير بالنكال ليرتدع غيره، ونكل عن كذا ينكل نكولاً من باب قعد إذا امتنع. اهـ. «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿رَبَّكَ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾؛ لما فيه من إسناد ما للفاعل إلى المحل؛ لأن المنبت الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، علاقته

المحلية؛ لأن الأرض لما كانت محلاً للإنبات أسند إليها.

ومنها: الإجمال ثم التفصيل في قوله: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا﴾. إلخ؛ لأنه أوقع في النفس.

ومنها: الاستفهام الإنكاري المضمن للتوبيخ في قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾؛ لأن ضربهما عليهم كناية عن إحاطتهما بهم، كما تحيط القبة بمن ضربت عليه نظير قول الشاعر:

إنَّ السَّماحة والمُروءةَ والنَّدى ... في قُبَّةٍ ضُربت على ابنِ الحَشْرَجِ

ومنها: الأمر للتعجيز والإهانة في قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ على حد قوله: ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً﴾؛ لأنهم لا يمكنهم هبوط مصر لانسداد الطرق عليهم، إذ لو عرفوا طريق مصر لما أقاموا أربعين سنة متحيرين لا يهتدون إلى طريق من الطرق.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ للتعظيم.

ومنها: تقييد قتل الأنبياء بغير الحق في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ للإيذان بأن ذلك عندهم أيضاً بغير الحق، إذ لم يكن أحد منهم معتقداً بحقية قتل نبي من الأنبياء، وإنما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ ...﴾ إلخ. اهـ. من «أبي السعود».

ومنها: تكرير اسم الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾؛ للتأكيد إن قلنا: إن الثاني مشار به إلى ما أشير إليه بالأول.

ومنها: التعبير بالمضارع عن الماضي في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. الخ؛ لإفادة الاستمرار والدوام.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾؛ لأنه على تقدير القول؛ أي: قلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة واجتهاد.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ إذ التولي حقيقة في الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والاعتقادات اتساعاً ومجازاً. اهـ. «سمين».

ومنها: استعمال الأمر في الإهانة والتحقير في قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾؛ لأنه ليس لهم قدرة على تحولهم إلى القردة، بل المراد بالأمر الإخبار عن تعلق القدرة، بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ لأنه استعير فيه ما بين يديها للزمان الماضي، وما خلفها للمستقبل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جل وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ
بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن
لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ
بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] فيما سبق بعض قبائح بني إسرائيل، وجرائمهم، من نقض المواثيق، واعتدائهم في السبت، أردفه بذكر نوع آخر من مساوئهم وقبائحهم، ألا وهو مخالفتهم لأنبيائهم وتكذيبهم لهم، وعدم مسارعتهم لامتثال الأوامر التي يوحيها الله إليهم، مع كثرة اللجاج والعناد للرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وجفائهم في مخاطبة نبيهم موسى عليه السلام.

وعبارة أبي حيان هنا: ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنه تقدم ذكر مخالفتهم لأنبيائهم، وتكذيبهم لهم في أكثر أنبائهم، فناسب ذلك ذكر هذه الآية؛ لما تضمنت من المراجعة، والتعنت، والعناد مرة بعد مرة. اهـ.

---

(١) العمدة. (٢) البحر المحيط.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهذا توبيخ آخر لأخلاقِ بني إسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت من أسلافهم؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! قصة إذ قال موسى عليه السلام، لأسلافكم وأجدادكم الذين نكثوا ميثاقي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾؛ أي: إن ربكم يأمركم أن تذبحوا بقرة حين تدافعوا في القتيل الذي وجد فيهم، ولم يظهر قاتله، فترافعوا إلى موسى، فاشتبه أمر القتيل على موسى، وكان[1] ذلك قبل نزول القسامة في التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله تعالى ليبين لهم بدعائه، فدعاه لهم، فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل ببعضها، فيحيا فيخبرهم بقاتله. واسم القتيل عاميل، وكان القاتل ابن عم المقتول، وكان مسكيناً والمقتول كثير المال، فاستعجل ميراثه. وقيل: كان أخاه. وقيل: ابن أخيه ولا وارث له غيره، فلما طال عليه عمره قتله ليرثه. وقال عطاء: كان تحت عاميل بنت عم لا مثل لها في بني إسرائيل في الحسن والجمال؛ فقتله لينكحها. كذا في «البحر». وأول هذه القصة، قوله سبحانه وتعالى الآتي: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ وإن كان مؤخراً في التلاوة، فحق[2] ترتيبها أن يقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ إلـــخ. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ إلخ. ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ إلخ. وقوم موسى أتباعه وأشياعه.

فإن قلت: إذا كان حق الترتيب هكذا، فما وجه عدول التنزيل عنه؟

قلت: وجهه أنه لما ذكر سابقاً خبائثهم وجناياتهم ووبخوا عليها، ناسب أن يقدم في هذه القصة ما هو من قبائحهم، وهو تعنتهم على موسى، لتتصل قبائحهم بعضها ببعض. اهـ. من «الخازن».

روي عن ابن عباس، وسائر المفسرين[3]: أن رجلاً فقيراً في بني إسرائيل

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

(٣) المراح.

قتل ابن أخيه، أو أخاه، أو ابن عمه لكي يرثه، ثم رماه في مجمع الطريق، ثم شكا ذلك إلى موسى عليه السلام، فاجتهد موسى في تعرف القاتل، فلما لم يظهر قالوا له: سل لنا ربك حتى يبينه؟ فسأله فأوحى الله إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ فتعجبوا من ذلك، ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام حالاً بعد حال، واستقصوا في طلب الوصف، فلما تعينت البقرة لم يجدوها بذلك النعت إلا عند إنسان معين، ولم يبعها إلا بأضعاف ثمنها، فاشتروها فذبحوها، وأمرهم موسى أن يأخذوا عضواً منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فصار المقتول حياً وعين لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية، فقتلوه قوداً، فلم يعط من ماله شيئاً، ولم يُورَثْ قاتلٌ بعده.

وقد روى الحسن مرفوعاً: أن رسول الله ﷺ قال: (والذي نفس محمد بيده، لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم)[1] وإنَّما اختصَّ البقر من سائر الحيوانات، لأنهم كانوا يعظمون البقر ويعبدونها من دون الله، فاختبروا بذلك إذ هذا من الابتلاء العظيم، وهو أن يؤمر الإنسان بقتل من يحبه ويعظمه؛ أو لأن أراد تعالى أن يصل الخير للغلام الذي كان باراً بأمه، كما سيأتي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَأۡمُرُكُمۡ﴾ بضم الراء، وعن أبي عمرو السكون والاختلاس، وإبدال الهمزة ألفاً ﴿قَالُوٓاْ﴾ كلام مستأنف واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا صنعوا؟ هل سارعوا إلى الامتثال أولاً؟ فقيل: قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾؛ أي: أتجعلنا مكان هزء وسخرية، وتستهزىء بنا وتلعب بنا يا موسى؟ حيث نسألك عن أمر القتيل فتأمرنا بذبح بقرة، ولا جامع بينهما، وإنما قالوا ذلك: لأنهم لم يعلموا أن الحكمة هي حياة القتيل بضربه ببعض البقرة، وإخباره بقاتله. قال بعض العلماء: كان ذلك هفوة منهم وجهالة، فما انقادوا للطاعة وذبحها، وقد كان الواجب عليهم أن يمتثلوا أمره ويقابلوه بالإجلال والاحترام، ثم ينتظروا ما يحدث بعد ﴿قَالَ﴾ موسى وهو استئناف أيضاً ﴿أَعُوذُ

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

﴿بِاللَّهِ﴾؛ أي: امتنع بالله تعالى وألتجىء إليه من ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ أي[1]: من المستهزئين بالمؤمنين؛ لأن الهزء والسخرية في أثناء تبليغ أمر الله تعالى جهل وسفه، ودل على أن الاستهزاء بأمر الدين كبيرة، وكذلك بالمسلمين ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل، وصاحبه مستحق للوعيد، وليس المزاح من الاستهزاء. وقال علي - رضي الله عنه - لا بأس بفكاهة يخرج بها الإنسان من حد العبوس. روي أنه قَدِمَ رجل إلى عبيد الله بن الحسين وهو قاضي الكوفة، فمازحه عبيد الله، فقال: جبتك هذه من صوف نعجةٍ، أو من صوف كبش؟ فقال: أتجهل أيها القاضي؟ فقال له عبيد الله: وأين وجدت المزاح جهلاً؟ فتلا هذه الآية، فأعرض عنه عبيد الله؛ لأنه رآهُ جاهلاً لا يعرف المزاح من الاستهزاء، أو المعنى مِنَ المُبلِّغِين عن الله الكذب. اهـ. «صاوي».

وأصل هذه القصة[2]: أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل، وله عِجْلَةٌ أتى بها إلى غَيْضة، وقال: اللهم! إني استودعك هذه العجلة لابني حتى يكبر، ومات الرجل، فصارت العجلة في الغيضة عواناً؛ أي: نصفاً بين المسِنَّة والشابَّة، وكانت تهرب من كل من رآها، فلما كبر الابن كان باراً بوالدته، وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث، يصلي ثلثاً، وينام ثلثاً، ويجلس عند رأس أمه ثلثاً، فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتي به إلى السوق فيبيعه بما شاء الله، ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي والدته ثلثه، فقالت له أمه يوماً: إن أباك قد ورثك عجلة استودعها في غيضة كذا، فانطلق وادع إلٰه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، أن يردها عليك، وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيَّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تلك البقرة تسمَّى المذهبة؛ لحسنها وصفرتها؛ لأن صفرتها كانت صفرة زين، لا صفرة شين، فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها، وقال: أعزم عليك بإلٰه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه، فقبض على عنقها يقودها فتكلَّمت البقرة بإذن الله تعالى، وقالت: أيها الفتى البارُّ لوالدته! اركبني، فإن ذلك أهون عليك، فقال الفتى: إن أُمِّي لم تأمرني بذلك، ولكن قالت: خذ بعنقها، فقالت البقرة: بإله

---

(1) روح البيان.

(2) روح البيان.

بني إسرائيل، لو ركبتني ما كنت تقدر عليَّ أبداً، فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفَعَلَ لبرِّك بأمك، فسار الفتى بها إلى أمه، فقالت له: إنك فقير لا مال لك ويشقُّ عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل، فانطلق فبع هذه البقرة. قال: بكم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي، وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير، فانطلق بها إلى السوق، فبعث الله ملكاً لِيرُيَ خَلْقَهُ قُدْرَتَهَ، وليختبر الفتى كيف برُّه بأمه، وكان الله به خبيراً، فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال بثلاثة دنانير واشترط عليك رضى والدتي، فقال الملك: لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك، فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضى أمي، فردَّها إلى أمه وأخبرها بالثمن، فقالت: ارجع فبعهابستة دنانير على رضىً مني، فانطلق بها إلى السوق فأتى الملك، فقال: أستأمرت أمك؟ فقال الفتى: إنها أمرتني أن لا انقصها من ستة على أن استأمرها، فقال الملك إني أعطيك اثني عشر على أن لا تستأمرها، فأبى الفتى ورجع إلى أمه وأخبرها بذلك، فقالت: إن الذي يأتيك ملك في صورة آدمي؛ ليختبرك، فإذا أتى فقل له: أتأمر أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل، فقال له الملك: اذهب إلى أمك وقل لها: أمسكي هذه البقرة، فإن موسى بن عمران يشتريها منك لقتيلٍ يقتل في بني إسرائيل، فلا تبيعوها إلا بملىء مسكها دنانير، فأَمْسَكوها، وقدر الله تعالى على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها، فما زالوا يستوصفونها حتى وصف لهم تلك البقرة بعينها مكافأةً له على برّه بوالدته، فضلاً منه ورحمة. والوجه في تعيين البقرة دون غيرها من البهائم؛ أنهم كانوا يعبدون البقر والعجاجيل، وحُبِّب إليهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ ثم تابوا وعادوا إلى طاعة الله تعالى وعبادته، فأراد الله تعالى أن يمتحنهم بذبح ما حبب إليهم؛ ليظهر منهم حقيقة التوبة، وانقلاع ما كان منهم في قلوبهم وقيل: كان أفضل قرابينهم حينئذٍ البقر، فأمروا بذبح البقرة؛ ليجعل الله التقرب لهم بما هو أفضل عندهم.

وفي هذه القصة[١] بيان نوع آخر من مساويهم، لنعتبر به ونتعظ، وفيه من

---

(١) المراغي.

وجوه العبر:

١ ـ أن التنطع في الدين والإلحاف في السؤال، مما يَقْضِي التشديدَ في الأحكام، ومن ثم نهينا عن ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ وبما جاء في الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ: «وكره لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

٢ ـ أنهم أمروا بذبح بقرة دون غيرها من الحيوان؛ لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرون من تعظيمه، وليعلم بأجابتهم ما كان في نفوسهم من حب عبادته.

٣ ـ استهزاؤهم بأوامر الأنبياء.

٤ ـ أن يحيا القتيل بقتل حي، فيكون أظهر لقدرته تعالى في اختراع الأشياء من أضدداها.

ثم إن القوم[١] لما علموا أن ذبح البقرة عزمٌ من الله وجدٌّ، استوصفوها من موسى فـ ﴿قَالُواْ﴾ كأنه قيل: فماذا قال قوم موسى بعد ذلك؟ فقيل: توجهوا نحو الامتثال، وقالوا: يا موسى! ﴿ٱدۡعُ لَنَا﴾؛ أي: سل لأجلنا ﴿رَبَّكَ﴾ أن يبين لنا سنَّها إن دعوته ﴿يُبَيِّن﴾ ويوضح ﴿لَّنَا﴾ ويعرِّف ويُعيِّن ﴿مَا هِيَ﴾؛ أي: جواب ما تلك البقرة؛ أي: ما سنُّها؟ أصغيرةٌ أم كبيرة. وهذا تشديد منهم على أنفسهم. و﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿هِيَ﴾ خبره، والجملة في حيز النصب بيبين؛ أي: يبين لنا جوابَ السؤال. وقد سألوا عن حالها وصفتها، لمَّا قرع أسماعهم ما لم يعهدوه من بقرةٍ ميتةٍ يضرب ببعضها ميت فيحييٰ، فما ههنا سؤالٌ عن الحال والصفة. تقول: ما زيد، فيقال: طبيب أو عالم؛ أي: ما سنُّها وما صفتها من الصغر والكبر ﴿قَالَ﴾؛ أي: موسى عليه السلام، بعد ما دعا ربه بالبيان وأتاه الوحي ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾؛ أي: إن البقرة المأمور بذبحها ﴿بَقَرَةٌ لَّا﴾ هي ﴿فَارِضٌ﴾؛ أي: مسنةٌ هرمةٌ من الفرض وهو القطع، كأنها قطعت سنُّها وبلغت

---

(١) روح البيان.

آخره ﴿وَلَا﴾ هي ﴿بِكْرٌ﴾؛ أي: فتية صغيرة، ولم يؤنِّث البكر والفارض؛ لأنهما كالحائض في الاختصاص بالأنثى، والفارض المسنة التي لا تلد، والبكر الفتيَّة التي لم تلد ﴿عَوَانٌۢ﴾؛ أي: وسطٌ نصفٌ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الفارض والبكر ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ به من ذبح البقرة تعرفوا القاتل، ولا تكثروا السؤال فيشدَّد عليكم، وحذف الجار قد شاع في هذا الفعل، حتى لحق بالأفعال المتعدية إلى مفعولين، فأبوا عن الانتهاء فـ ﴿قَالُوا۟﴾ تعنتاً منهم لموسى، وهذا مستأنف أيضاً، كأنه قيل: ماذا صنعوا بعد هذا البيان الثاني والأمر المكرر، فقيل: قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ أي: سَل لنا ربك ما لونها؟ أهي سوداء أم صفراء أم حمراء؟ ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾ جواب ﴿مَا لَوْنُهَا﴾ من الألوان حتى تتبين لنا البقرة المأمور بها، واللون عرض مشاهد يتعاقب على بعض الجواهر.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام، بعد المناجاة إلى الله تعالى ومجيء البيان منه تعالى ﴿إنه﴾ تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾؛ أي: إن البقرة التي أمرتكم بذبحها ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ﴾ والصفرة لون بين البياض والسواد وهي الصفرة المعروفة، وليس المراد بها هنا السواد، كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: سود، والتعبير عن السواد بالصفرة؛ لما أنها من مقدماته؛ وإما لأن سواد الإبل يعلوه صفرة ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾؛ أي: صافية صفرتها لم يخالطها لون آخر، وهو مبتدأ وخبر، والجملة صفة ثانية لبقرة، والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها. يقال في التأكيد: أصفر فاقعٌ، كما يقال: أسود حالك. وفي إسناده إلى اللون مع كونه من أحوال اللون؛ لملابسته به ما لا يخفى من فضل التأكيد، كأنه قيل: صفراء شديدة الصفرة صفرتها، كما في جد جده، وجنونك جنونٌ. قيل: كانت صفراء الكل حتى القرن والظلف ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ إليها وتبهجُّهم، أي: تعجبهم لحسن صورتها، ومنظرها، وهيئتها، وشدة صفرتها لغرابتها وخروجها عن المعتاد، والمعنى: يعجبهم حسنها، وصفاء لونها، ويُفرِّح قلوبهم لتمام خلقتها، ولطافة قرونها وأظلافها، والسرور: لذَّةٌ في القلب عند حصول نفعٍ أو توقعه، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ (من لبس نعلاً صفراء قلَّ همُّه)؛ لأن الله تعالى قال: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ ونهى ابن الزبير، ومحمد بن كثير عن لباس النعال السود؛ لأنها تهمُّ. وذكر أنَّ الخُفَّ الأحمر خُفُّ فرعون، والخفَّ

الأبيض خُفُّ وزيره هامان، والخُفُّ الأسود خفُّ العلماء. وروي أنَّ خُفَّ النبي ﷺ كان أسود؛ أي: إنها بقرةٌ صفراء فاقع لونها فاذبحوها، ولا تكثروا السؤال، فأبوا عن قبول ذلك فـ ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ أي: سَلْ لنا ربك ما حالها؟ أعاملةٌ هي أم سائمة؟ إن دعوته ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾ جواب ﴿مَا هِىَ﴾؛ أي: ما حال تلك البقرة؟ أعاملة أم سائمة؟ وفي «الكشاف» هذا تكريرٌ للسؤال عن حالها وصفتها، واستكشافٌ زائدٌ؛ ليزدادوا بياناً لوصفها، والاستقصاء شؤمٌ. وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرتك أن تعطي فلاناً شاةً، سألتني أضائنٌ أم ماعز؟ فإن بينت لك قلت: أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلت: أسوداء أم بيضاء؟ فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني وفي الحديث: «أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يحرَّم فحرِّم لأجل مسألته».

﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ﴾؛ أي: إن[1] جنس البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فـ ﴿تشابه﴾ أي: تشاكل ﴿عَلَيْنَا﴾؛ أي: فاشتبه أمرها علينا، فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدايتنا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى وصفها، وسنعرف ما التبس علينا من أمرها وتشابه، أو لمهتدون إلى البقرة المراد ذبحها. وعن عطاء: لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد؛ أي: لو لم يقولوا إن شاء الله. وقال الطبري: لما زادوا نبيهم أذًى وتعنتاً، زادهم الله عقوبة وتشديداً، ولو أنَّ بني إسرائيل، كما قال ابن عباس (أخذوا أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شدَّدوا فشدد الله عليهم) والمراد بالاستثناء هنا التعليق بالمشيئة، وسمي التعليق بها استثناء؛ لصرفه الكلام عن الجزم، وعن الثبوت في الحال من حيث التعليق بما لا يعلمه إلا الله تعالى. اهـ. «كرخي» قال أبو عبد الله[2]، محمد بن أبي الفضل المرسيُّ في «ريِّ الظمآن»: وجه الاشتباه عليهم: أنَّ كُلَّ بقرة لا تصلح عندهم أن تكون آيةً؛ لما علموا من ناقة صالح، وما كان فيها من العجائب، فظنُّوا أن الحيوان لا يكون آية إلا إذا كان على ذلك الأسلوب، وذلك لمَّا نُبِّئُوا أنها آيةٌ سألوا عن ماهيتها وكيفيتها، ولذلك لم يسألوا موسى عن ذلك، بل سألوه أن يسأل الله لهم عن ذلك، إذ الله تعالى هو العالم بالآيات، وإنما سألوا عن

---

(١) العمدة. (٢) البحر المحيط.

التعيين وإن كان اللفظ مقتضاه الإطلاق؛ لأنهم لو عملوا بمطلقه لم يحصل التقصِّي عن الأمر بيقينٍ. انتهى كلامه. وقال غيره: لما لم يكن التماثل من كل وجه، وحصل الاشتباه عليهم، ساغ لهم السؤال، فأُخبِروا بسنها فوجدوا مثلها في السن كثيراً، فسألوا عن اللون فأخبروا بذلك، فلم يَزُل اللبس بذلك، فسألوا عن العمل فأخبروا بذلك، وعن بعض أوصافها الخاصِّ بها فزال اللبس بتبيين السن، واللون، والعمل، وبعض الأوصاف، إذ وجود بقرٍ كثيرٍ على هذه الأوصاف يندر، فهذا هو السبب الذي جرَّأهم على تكرار السؤال.

وقرأ الجمهور(١) ﴿تَشَٰبَهَ﴾ جعلوه فعلاً ماضياً على وزن تفاعل مسنداً لضمير البقر على أنَّ البقر مذكر. وقرأ الحسن ﴿تشابهُ﴾ بضم الهاء جعله مضارعاً محذوف التاء، وماضيه ﴿تَشَٰبَهَ﴾ وفيه ضمير يعود على البقر على أنَّ البقر مؤنث. وقرأ الأعرج كذلك، إلا أنه شدَّد الشين جعله مضارعاً وماضيه ﴿تَشَّابَهَ﴾ أصله: تتشابه، فأدغم، وفيه ضمير يعود على البقر. وروي عن الحسن أيضاً. وقرأ محمد المعيطيُّ المعروف بذي الشامة (تَشَبَّه علينا) جعله ماضياً على تفعل. وقرأ ابن مسعود ﴿يَشَّابَهُ﴾ بالياء وتشديد الشين جعله مضارعاً من تفاعل، ولكنه أدغم التاء في الشين. وقرىء ﴿مُتَشَبِّه﴾ اسم فاعل من تشبَّه. وقرأ بعضهم ﴿يَتَشَابَهُ﴾ مضارع تشابه، وفيه ضمير يعود على البقر. وقرأ أُبيٌّ ﴿تَشَابَهَت﴾ وقرأ الأعمش ﴿مُتشابِهٌ﴾ و﴿مُتشابهةٌ﴾ وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿تَشَّابَهَتْ﴾ بتشديد الشين مع كونه فعلاً ماضياً وبتاء التأنيث آخره. فهذه اثنتا عشرة قراءة، وتوجيه هذه القراءات ظاهرٌ إلا قراءة ابن أبي إسحاق ﴿تشابهت﴾، فقال بعض الناس: لا وجه لها، وتبيين ما قاله: أنَّ تشديد الشين إنما يكون بإدغام التاء فيها، والماضي لا يكون فيه تاءان، فتبقى إحداهما وتدغم الأخرى، ويمكن أن توجه هذه القراءة على أن أصله: اشابهت، والتاء هي تاء البقرة، وأصله: إن البقرة اشابهت علينا، فأدغمت التاء في الشين فاجتلبت همزة الوصل. وقد أطال الكلام هنا أبو حيان، فراجعه فإنه لا يليق بمختصرنا هذا.

---

(١) البحر المحيط.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾؛ أي: إلى عين البقرة المأمور بذبحها، أو إلى ما خفي من أمر القاتل، أو إلى الحكمة التي من أجلها أمرنا بذبح البقرة. وفي تعليق هدايتهم بمشيئة الله إنابة، وانقيادٌ، ودلالةٌ على ندمهم على ترك موافقة الأمر. وتوسط الشرط هنا بين اسم إنَّ وخبرها؛ ليحصل توافق رؤوس الآي؛ وللاهتمام بتعليق الهداية بمشيئة الله جاء خبر إن اسماً؛ لأنه أدل على الثبوت، وعلى أن الهداية حاصلة لهم، وأكد بحرفي التأكيد إنَّ واللام، ولم يأتوا بهذا الشرط إلا على سبيل الأدب مع الله تعالى، إذ أخبروا بثبوت الهداية لهم، وأكدوا تلك النسبة ولو كان تعليقاً محضاً لما احتيج إلى تأكيدٍ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾؛ أي: إن البقرة التي أمرتكم بذبحها ﴿بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾؛ أي؛ لا مذللة ذللها العمل. يقال: دابة ذلول بيِّنة الذل بالكسر، وهو خلاف الصعوبة، وهو صفة لبقرة، بمعنى: أنها بقرة غير مذللة بأيِّ عمل، ولا مُهيَّأة لأي خدمة. قال الحسن: كانت البقرة وحشية، ولهذا وصفت بأنها لا تثير الأرض بالحرث، ولا يُسْنَى عليها فتسقي، ولم يقل: ذلولة بالتاء؛ لأن فعولاً إذا كان وصفاً لم تدخله الهاء، كصبور وقوله: ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي تقلب الأرض للزراعة صفة ذلول، كأنه قيل: لا ذلولٌ مثيرةٌ للأرض، وقوله: ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ معطوف على تثير على كونه صفةً لذلول؛ أي: ليست بسانية يسقي عليها بالسواني، ولا الأولى للنفي، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى؛ لأن المعنى: لا ذلولٌ تثير وتسقي على أن الفعلين صفتان لذلول، كأنه قيل: لا ذلولٌ مثيرةٌ وساقيةٌ، كذا في «الكشاف» والمعنى؛ أي: ولا تحمل الماء إلى الأرض المهيأة للزراعة، يعني: أنها فارغة من أي عمل ليست مسخرة لحرث الأرض، ولا لسقاية الزرع، ولا لغيرهما.

قال الإمام أبو منصور ـ رحمه الله تعالى ـ: دلت الآية على أن البقرة كانت ذَكَراً؛ لأن إثارة الأرض وسقي الحرث من عمل الثيران، وأما الضمائر الراجعة إليها على التأنيث فللفظها، كما في قوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾ فالتاء للتوحيد لا للتأنيث خلافاً لأبي يوسف، إلا أن يكون أهل ذلك الزمان يحرثون بالأنثى، كما يحرث أهل هذا الزمان بالذكر ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾؛ أي: سليمة من جميع العيوب، سلمها الله تعالى منها، أو معافاة من العمل وآثاره، سلَّمها أهلها منه، أو مخلصة اللون

صافيته من سلم له كذا إذا خلص له، لم يشب صفرتها شيء من الألوان، ويؤيِّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾؛ أي: لا خَلْط في لونها يخالف لون جلدها، فهي صفراء كُلُّها حتى قرنها وظلفها. قال مجاهد: لا بياض فيها ولا سواد، بل هي صافيةٌ، وأصله: وشيةٌ، كالعدة، والصفة، والزنة. أصلها: وعدٌ ووصفٌ ووزنٌ، واشتقاقها من وشى الثوب وهو استعمال ألوان الغزل في نسجه، وقال بعضهم: الشية بكسر الشين العلامة، والمراد: لا لمعة فيها من لون آخر سوى الصفرة ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال قوم موسى لموسى عندما سمعوا هذا النعوت ﴿الْـَٰٔنَ﴾؛ أي: في هذا الوقت الحاضر الذي أجبت فيه الجواب الأخير ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّۚ﴾؛ أي: بحقيقة وصف البقرة وما بقي إشكالٌ في أمرها. وقرأ الجمهور ﴿الأن﴾ بإسكان اللام والهمزة بعده. وقرأ ورش عن نافع بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وهي في المتواتر وعن نافع ـ في الشاذ ـ روايتان: إحداهما: حذف واو قالوا إذ لم يعتدَّ بنقل الحركة، إذ هو نقلٌ عارض، والرواية الأخرى إثبات الواو اعتداداً بالنقل، واعتباراً لعارض التحريك؛ لأنَّ الواو لم تحذف إلا لأجل سكون اللام بعدها، فإذا ذهب موجب الحذف عادت الواو إلى حالها من الثبوت.

والمعنى: أي في هذا الوقت الحاضر الذي قلت فيه: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ نطقت بالبيان الشافي، وأتيت بالوصف التام الذي تتميَّز به عن أجناسها، فطلبوها فوجدوها عند الفتى البار لأمه، فاشتروها بملىء جلدها ذهباً ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم ما قاربوا أن يذبحوها، لأجل غلاء ثمنها؛ أو لخوف الفضيحة بإظهار الله نبيه موسى على القاتل؛ أي: قاربوا أن يتركوا ذبحها لأجل ذلك، والجملة حال من ضمير ذبحوا؛ أي: فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه. والخلاصة: أنهم ذبحوها بعد توقف وبطءٍ. قيل: مضى من أول الأمر إلى الامتثال أربعون سنة، فعلى العاقل أن يسارع إلى الامتثال، وترك التفحص عن حقيقة الحال، فإن قضية التوحيد تستدعي ذلك، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة، وعمَّا شاهدوه من آيات الله الباهرة، فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ وهذا مؤخر لفظاً مقدَّم معنى؛ لأنه أول القصة؛ لأنَّ أصيل

الكلام وتركيبه أن يقال: وإذ قتلتم نفساً، وأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى، فقال موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ وتضربوا القتيل ببعض البقرة فيُحييٰ فيخبر عن قاتله، وإنما[1] أخَّره ولم يقدِّمه لفظاً؛ لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة؛ للكشف عن القاتل؛ وليواصل قبائح بني إسرائيل بعضها ببعض، كما مر. فهو اعتراضٌ بين المعطوف وهو قول: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ﴾ والمعطوف عليه وهو ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ كما سيأتي في مبحث الإعراب. وأضيف القتل إلى اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ لرضاهم بفعل أولئك الأسلاف، وخوطبت الجماعة بالقتل مع كون القاتل واحداً؛ لوجود القتل فيهم. والقتل: نقضُ البنية الذي بوجوده تنتفي الحياة. واسم القتيل: عاميل بن شراحيل. وقيل: نكَّار بن شراحيل، والمعنى: واذكروا يا بني إسرائيل! قصة إذ قتل أسلافكم نفساً محرَّمة ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾؛ أي: اختلفتم، وتنازعتم، وتخاصمتم ﴿فِيهَاۖ﴾؛ أي: في شأن قتل تلك النفس وبيان قاتلها، وأصبح كلٌّ فريق يدفع أن يكون قاتلها وينسبه إلى غيره من الدرء وهو الدفع؛ أي: تدافعتم وتخاصمتم في شأنها، إذ كُلٌّ واحد من الخصماء يدافع الآخر؛ أي: يدفع الفعل عن نفسه، ويحيله على غيره.

قال أبو حيان[2]: ويحتمل هذا التدارؤ وهو التدافع أن يكون حقيقةً، وهو أن يدفع بعضهم بعضاً بالأيدي لشدة الاختصام، ويحتمل المجاز بأن يكون بعضهم طرح قتله على بعض فدفع المطروح عليه ذلك إلى الطارح، أو بأن دفع بعضهم بعضاً بالتُّهمة والبراءة. اهـ.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾ بالإدغام. أصله: تدارأتم، فأدغمت التاء في الدال فتعذَّر الابتداء بالمدغم الساكن، فاجتلبوا همزة الوصل، فصار ادرأتم. وقرأ أبو حيوة، وأبو السوار الغنويُّ ﴿فادَّرَأْتُم﴾ بغير ألف قبل الراء، وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُخۡرِجٞ﴾؛ أي: مظهر لا محالة ﴿مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ ـه،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

وتخفونه، وتسترونه من أمر القتل لا يتركه مكتوماً مستوراً. جملةٌ معترضة بين المعطوف عليه وهو قوله: ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾ وبين المعطوف وهو قوله: ﴿فَقُلْنَا﴾ لموسى ﴿اضْرِبُوهُ﴾؛ أي: اضربوا هذا القتيل، والضمير راجع إلى النفس بمعنى القتيل، أو بمعنى الشخص، أو بمعنى الإنسان ﴿بِبَعْضِهَا﴾؛ أي: ببعض البقرة أيِّ بعضٍ كان؛ أي: بعضوٍ من أعضائها. قيل: بلسانها؛ لأنه آلة الكلام، أو بعجب الذنب؛ لأنه أوَّل ما يخلق وآخر ما يبلى، ويركَّب عليه الخلق. وقيل: بفخذها الأيمن. وقيل: غير ذلك من الأعضاء، والبعض أقلُّ من النصف، وفي الكلام حذف، تقديره: فضربوه ببعضها، فقام القتيل حياً بإذن الله تعالى وأوداجه تشخب دماً، فقال: قتلني فلان، ثم سقط ومات مكانه، فقتل قاتله، فحرم ميراثه الذي استعجله؛ لأن من استعجل بالشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه. وفي الحديث: «ما وَرِثَ قاتلٌ بعد صاحب البقرة» ثُمَّ إنَّ موسى عليه السلام، أمرهم بضربه ببعضها وما ضربه بنفسه؛ نفياً للتهمة، كيلا ينسب إلى السحر، أو الحيلة. والخطاب في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الإحياء العجيب ﴿يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ يوم القيامة لمنكري البعث في زمنه ﷺ، والحاضرين عند نزول الآية الكريمة، فلا حاجة إلى تقدير القول، كما في القول الآتي، بل تنتهي الحكاية عند قوله: فـ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ وقيل: الخطاب للحاضرين عند حياة القتيل، والكلام حينئذٍ على تقدير القول؛ أي: فضربوه فحيي وقلنا كذلك. إلخ؛ أي: كما أحيا الله سبحانه هذا القتيل بعد موته في الدنيا يحيي الله الموتى في الآخرة من غير احتياج إلى آلةٍ.

فإن قلت: إن بني إسرائيل كانوا مقرين بالبعث، فما معنى إلزامهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾؟.

قلت: كانوا مقرين قولاً وتقليداً، فثبته عياناً وإيقاناً، وهو كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

﴿وَيُرِيكُمْ﴾ أيها الكافرون المكذبون بمحمد ﷺ أو أيها الحاضرون حياة القتيل ﴿آيَاتِهِ﴾؛ أي: دلائله الدالة على أنه تعالى على كل شيء قدير، ويجعلكم مبصرين براهين قدرته وتوحيده، وإحيائه للموتى عند البعث، وصدق رسله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لكي تعلموا وتفهموا قدرة الله، وأن محمداً مُحِقٌّ صادق،

وأن من قدر على إحياء نفس واحدة، قادر على إحياء نفوس كثيرة، فتُصدِّقوا بالبعث بعد الموت. يقال: عقلت نفسي عن كذا؛ أي: منعتها منه؛ أي: لتكمُل عقولكم وتعلموا أنَّ من قدر على إحياء نفس واحدة، قادر على إحياء الأنفس كلها، وتمنعوا نفوسكم عن هواها، وتطيعوا الله فيما يأمركم به. ولعل الحكمة في اشتراط ما اشترط في الإحياء من ذبح البقرة وضربه ببعضها، مع ظهور كمال قدرته على إحيائه ابتداءً بلا واسطة أصلاً؛ لاشتماله على التقرب إلى الله تعالى وأداء الواجب، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة، والتنبيه على بركة التوكل على الله تعالى، والشفقة على الأولاد ونفع بر الوالدين، وأنَّ من حقِّ الطالب أن يُقدِّم قربةً، ومن حق المتقرِّب أن يتحدَّى الأحسن ويغالي بثمنه، كما يروى عن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنه ضحَّى بنجيبة اشتراها بثلاثمائة دينار، وأنَّ المؤثر هو الله تعالى، وإنما الأسباب أماراتٌ لا تأثير لها.

واعلم: أن الضرب كان على جيد القتيل، وذلك قبل دفنه، ومن قال: إنهم مكثوا في طلبها أربعين سنة، أو من يقول: إنهم أمروا بطلبها ولم تكن في صلب ولا رحم، فلا يكون الضرب إلا بعد دفنه. قيل: على قبره. والأظهر أنه المباشر بالضرب لا القبر، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ خطاب لأهل عصر النبي ﷺ من الأحبار، و﴿ثُمَّ﴾؛ لاستبعاد القسوة من بعد ذكر ما يوجب لين القلوب ورقتها. وعبارة «الصاوي» هنا: نزَّل استبعاد قسوة قلوبهم؛ لظهور خوارق العادات العظيمة منزلة التراخي، فأتى بثم، وأكده بالظرف بعده. اهـ. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ والقسوة والقساوة: عبارةٌ عن الغلظ والصلابة، كما في الحجر، ووصف القلوب بالقسوة والغلظ؛ مثلٌ لنبوِّها وتكبرها عن الاعتبار، وأنَّ المواعظ لا تؤثر فيها، أي ثمَّ صَلُبَتْ وغلظت قلوبكم يا كفار بني إسرائيل! فلم تقبل الحق الذي جاء به محمد ﷺ ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد سماع تلك الآيات الباهرة، أو رؤيتها من إحياء القتيل وإخباره بقاتله، والمسخ قردةً وخنازير، ورفع الجبل فوقهم، وانبجاس الماء من حجر، وغيرها من الآيات، والقوارع التي تميع منها الجبال، وتلين بها الصخور ﴿فَهِيَ﴾؛ أي: القلوب ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾؛ أي: مثل الحجارة في

شدتها وقسوتها، والفاء لتفريع مشابهتها لها، على ما ذكر من القساوة تفريع التشبيه على بيان وجه الشبه، كقولك: احمَرَّ خدُّه فهي كالورد؛ أي: فقلوبكم أيها اليهود مثل الحجارة الجامدة في القساوة، والصلابة، واليبس ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ منها ﴿قَسْوَةً﴾؛ أي: بل هي أزيد قساوة وصلابة من الحجارة. وعنى بهذه القسوة. تركهم الإيمان بمحمد ﷺ بعد ما عرفوا صدقه، وقدرة الله على عقابهم بتكذيبهم إياه. وقوله: ﴿قَسْوَةً﴾ تمييز أو بمعنى بل، أو للتخيير؛ أي: إن شئتم فاجعلوها أشدَّ منها، كالحديد، فأنتم مصيبون، وإنما لم تحمل ﴿أَوْ﴾ على معناها الأصلي وهو الشكُّ والتردُّد؛ لَمَّا أنَّ ذلك محال على علام الغيوب.

فإن قلت: لِمَ قيل: ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾؟ وفعل القسوة مما يبنى فيه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟

قلت: لكونه أبين وأدلَّ على فرط القسوة من لفظ أقسى؛ لأن دلالته على الشدة بجوهر اللفظ الموضوع لها مع هيئة موضوعة للزيادة في معنى الشدة، بخلاف لفظ الأقسى، فإن دلالته على الشدة والزيادة في القسوة بالهيئة فقط.

والحكمة في ضرب قلوبهم مثلاً بالحجارة، وتشبيهها بها دون غيرها من الأشياء الصلبة من الحديد، والصفر، وغيرهما؛ لأن الحديد تلينه النار وهو قابلٌ للتليين، كما لان لداود عليه السلام، وكذا الصفر حتى يضرب منها الأواني والحجر لا يلينه نارٌ ولا شيءٌ آخر، فلذلك شُبِّه قلب الكافر بها، وهذا والله أعلم في حقِّ قوم علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون، والمعنى؛ أي: إن قلوبكم صلبت بعد إذ رأيتم الحقَّ وعرفتموه، واستكبرت عن الخضوع والإذعان لأمر الدين، فهي كالحجارة صلابةً ويبساً، بل أشدُّ منها. وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾[1] بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة، وتقريرٌ لقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ و﴿مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ والاسم قوله: ﴿لَمَا﴾ واللام لام الابتداء؛ أي: لأحجاراً ﴿يتفجر﴾؛ أي: يتفتح بكثرة وسعةٍ ﴿مِنْهُ﴾ عائدٌ إلى ما ﴿الْأَنْهَارُ﴾ جمع

---

(١) روح البيان.

نهر وهو المجرى الواسع من مجاري الماء، والمعنى؛ أي: وإن من الحجارة ما فيه خروقٌ واسعةٌ يتدفَّق منها الماء الكثير؛ أي: يتصبَّب؛ أي: وإن من بعض الحجارة الحجر الذي يتصبَّب ويخرج منه الأنهار الكبار. قيل: أراد به جميع الأحجار. وقيل: أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى عليه السلام، ليسقي الأسباط ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾؛ أي: من الحجارة ﴿لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ ويتصدَّع ويتخرَّق طولاً أو عرضاً. أصله: يتشقق، كما سيأتي. والتَّصدُّع جعْلُ الشيء ذا نواحي ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ﴾؛ أي: ينشق إنشقاقاً قليلاً بالطول أو بالعرض ينبع منه الماء؛ ليكون عيناً نابعةً دون الأنهار. وقرأ الجمهور ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ في المواضع الثلاثة مشددة. وقرأ قتادة في كلها مخففة على جعلها مخففة من الثقيلة. ذكره في «البحر».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ بالياء مضارع تفجر. وقرأ مالك بن دينار ﴿ينفجر﴾ بالياء، والنون مضارع انفجر، وكلاهما مطاوعٌ، أمَّا يتفجر فمطاوع فجَّر بالتشديد، وأما ينفجر فمطاوع فجر مخففاً، والتفجُّر التفتُّح بالسعة والكثرة، والانفجار دونه، والمعنى: إن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يندفق منها الماء الكثير الغمر. وقرأ أبيٌّ، والضحاك ﴿منها الأنهار﴾ بتأنيث الضمير. وقرأ الجمهور ﴿مِنْهُ﴾ بتذكيره، فالقراءة الأولى حملٌ على المعنى، وقراءة الجمهور حمل على اللفظ؛ لأنَّ ما، لها هنا لفظٌ ومعنى؛ لأن المراد به الحجارة، ولا يمكن أن يراد به مفرد المعنى فيكون لفظه ومعناه واحداً، إذ ليس المعنى وإن من الحجارة للحجر الذي يتفجر منه الأنهار؛ إنما المعنى وإن من الحجارة للأحجار التي يتفجر منها الأنهار، كما مرَّ. وقرأ الجمهور[2] ﴿يَشَّقَّقُ﴾ بتشديد الشين، وأصله: يتشقق، فبه قرأ الأعمش، فقلبت التاء شيناً وأدغمت الشين في الشين، فصار يشقق. وقرأ الأعمش أيضاً تَشَقق بالتاء والشين المخففة، ورأيتها معزوة لابن مصرف، ورأيت في بعض نسخ تفسير ابن عطية ما نصه: وقرأ ابن مصرف ﴿ينشقق﴾ بالنون وقافين، والذي يقتضيه اللسان بقاف واحدة مشددة، وقد يجيء

---

(١) البحر المحيط.   (٢) البحر المحيط.

الفك في شعر، وهي قراءة شاذة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾؛ أي: من الحجارة ﴿لَمَا يَهْبِطُ﴾ وينزل ويتردى من أعلى الجبل إلى أسفله. وقرأ الأعمش ﴿يَهْبُطُ﴾ بضم الباء، وقد تقدم أنها لغة. ذكره في «البحر» ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾؛ أي من خوف الله سبحانه وتعالى، وانقيادها لأمره. والخشية هي الخوف عن العلم، وهنا مجاز عن انقيادها لأمر الله؛ أي: فخشيتها عبارة عن انقيادها لأمر الله، وأنها لا تمتنع عما يراد منها، وقلوبكم يا معشر اليهود! لا تلين، ولا تخشع، ولا تتحرك من خوف الله تعالى، ولا تفعل ما أمر به، وهذا[1] كله تعليل لتفضيل الحجارة عليهم.

والمعنى: أن الحجارة تتأثر وتنفعل، فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء، ويتفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به، وقلوب هؤلاء اليهود لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِغَٰفِلٍ﴾؛ أي: بساه ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عن العمل الذي تعملونه، أو عن عملكم، فما إما موصول اسمي أو حرفي، وهو وعيد شديد على ما هم عليه من قساوة القلوب، وما يترتَّب عليها من الأعمال السيئة، فقلب الكافر أشدُّ في القساوة في الحجارة، وإنها مع فقد أسباب الفهم والعقل منه، وزوال الخطاب عنها تخضع له تعالى وتتصدع. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وقَلْبُ الكافر مع وجود أسباب الفهم والعقل، وسعة هيئة القبول لا يخضع، ولا يلين، والمعنى[2]؛ أي: وليس الله سبحانه غافلاً عن أفعالكم الخبيثة، ولا ساهياً عنها، بل هو محصٍ لها وحافظٌ إياها، وسيعاقبكم عليها في الآخرة؛ أي: وإن الله لبالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم، وحافظ لأعمالهم حتى يجازيهم عليها في الآخرة.

قرأ الجمهور[3]: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء، وهو الجاري على نَسْقِ قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، ويعقوب، وخلف، وأبو بكر بالياء؛ نظراً

---

(١) البضاوي.

(٢) العمدة.

(٣) البحر المحيط.

إلى ما بعده، ويكون ذلك التفاتاً إذ خرج من الخطاب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿يعملون﴾ وحكمة هذا الالتفات: أنه أعرض عن مخاطبتهم وأبرزهم في صورة من لا يقبل عليهم بالخطاب، وجعلهم كالغائبين عنه؛ لأن مخاطبة الشخص ومواجهته بالكلام، إقبال من المخاطب عليه وتأنيسٌ له، فقطع عنهم مواجهته لهم بالخطاب؛ لكثرة ما صدر عنهم من المخالفات

والخلاصة: إن[1] هذه الحجارة تارة تتأثر تأثراً يعود بمنفعة عظيمة على الناس، والحيوان، والزرع بخروج الأنهار، وأخرى تتأثر تأثراً ضعيفاً يترتب عليه منفعة قليلة، فتنبع منه العيون والآبار، وحيناً تتأثر بالتردِّي والسقوط بلا منفعة للناس، وقلوب هؤلاء لا تتأثر بحال، فلا تجدي فيها الحكم والمواعظ التي من شأنها أن تنفذ في الوجدان، وتصل إلى الجنان، وإن الله تعالى لكم بالمرصاد، فهو حافظ لأعمالكم ومحصيها عليكم، ثم يجازيكم بها وهو يربِّيكم بصنوف النِّقم إذا لم تجد فيكم ضروب النعم، ولا يخفى ما في هذا من شديد التهديد والوعيد.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب معطوف على نعمتي، والمعنى: واذكروا يا بني إسرائيل! نعمتي، وحين قال موسى لقومه ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ متعلق بقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ فعل ومفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول قال. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿تَذْبَحُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بحذف النون ﴿بَقَرَةً﴾ مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بباء محذوفة متعلقة بيأمركم، تقديره: إن الله يأمركم بذبح

---

(١) المراغي.

بقرة ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كما مرت الإشارة إليه ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ﴾ مقول محكي منصوب بقالوا، وإن شئت قلت: ﴿أَتَتَّخِذُنَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿تتخذ﴾ فعل مضارع من أخوات ظن، وفاعله ضمير مستتر يعود على موسى، ونا ضمير لجماعة المتكلمين في محل النصب مفعول أول ﴿هُزُوًاۖ﴾ مفعول ثان، ولكن على تأويله باسم مفعول، تقديره: مهزؤاً بنا، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا ﴿قَالَ﴾ فعل وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿أَعُوذُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على موسى ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قال ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر ﴿أَكُونَ﴾ فعل مضارع ناقص منصوب بأن، واسمها ضمير يعود على موسى ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ خبر ﴿أَكُونَ﴾ وجملة ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: من كوني من الجاهلين، الجار والمجرور متعلق بأعوذ.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ مقول محكي منصوب بقالوا، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْعُ﴾ فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وهي الواو، وفاعله ضمير مستتر يعود على موسى، والجملة في محل النصب مقول قالوا ﴿لَنَا﴾ جار ومجرور متعلق بادع ﴿رَبَّكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿يُبَيِّن﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَّنَا﴾ متعلق بيبين، والجملة جواب الطلب لا محل لها من الإعراب ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿هِيَۚ﴾ ضمير للمفردة المؤنثة الغائبة في محل الرفع خبر لما الاستفهامية، والجملة الإسمية في محل النصب مفعول به ليبين، ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: يبين لنا جواب ما هي ﴿قَالَ﴾ فعلٌ ماضٍ وفاعل مستتر يعود على موسى، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ. . .﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقُولُ﴾ خبره، وجملة إن في محل النصب مقول قال ﴿إِنَّهَا﴾ ناصب واسمه ﴿بَقَرَةٌ﴾

خبره، وجملة إن في محل النصب مقول يقول ﴿لَّا﴾ نافية ﴿فَارِضٌ﴾ صفة لبقرة مرفوع بالضمة الظاهرة، وجوزوا اعتراض لا النافية بين الصفة والموصوف؛ لأنه شائع كثير في كلامهم، كما في قولهم: مررت برجل لا طويل ولا قصير ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَّا﴾ نافية ﴿بِكْرٌ﴾ معطوف على ﴿فَارِضٌ﴾ وتكررت لا؛ لأنها متى وقعت قبل خبر، أو نعت، أو حال وجب تكرارها، كقولهم: زيد لا قائم ولا قاعد، ومررت به لا ضاحكاً ولا باكياً ﴿عَوَانٌ﴾ صفة ثانية لبقرة مرفوع بالضمة الظاهرة ﴿بَيْنَ﴾ منصوب على الظرفية الاعتبارية، وهو مضاف. واسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بعوان؛ لأنه بمعنى متوسط. وجوَّز إضافة بين إلى مفرد كونه بمعنى متعدد؛ لأن اسم الإشارة هنا قائم مقام اثنين، حيث وقعت الإشارة به إلى الفارض والبكر معاً. نظير قول عبد الله بن الزبعري يوم أحد قبل إسلامه:

إنَّ لـلـخَـيْـر ولِـلـشـرِّ مـدَى وكِـلاَ ذلـك وَجْـهٌ وقَـبَـل

﴿فَٱفۡعَلُواْ﴾ الفاء فاء الفصيحة مبنية على الفتح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما يقول الرب تعالى، وأردتم بيان ما هو الأصلح واللازم لكم، فأقول لكم: افعلوا ما تؤمرون ﴿افعلوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به وجملة ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾ صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما تؤمرون به.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿ٱدۡعُ لَنَا﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿ٱدۡعُ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر ﴿لَنَا﴾ متعلق به ﴿رَبَّكَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا. ﴿يُبَيِّن﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الرب ﴿لَّنَا﴾ متعلق بيبين، والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿مَا﴾ اسم استفهام في

محل الرفع مبتدأ ﴿لَوْنُهَا﴾ خبر، والجملة الإسمية في محل النصب مفعول به ليبين ﴿قَالَ﴾ فعل وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ...﴾ إلخ. مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقُولُ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب مقول قال ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة إن في محل النصب مقول يقول ﴿صَفْرَآءُ﴾ صفة لبقرة ﴿فَاقِعٌ﴾ صفة صفراء ﴿لَّوْنُهَا﴾ فاعل فاقع، ويجوز أن يكون ﴿فَاقِعٌ﴾ خبراً مقدماً و﴿لَّوْنُهَا﴾ مبتدأ مؤخراً، والجملة صفة لصفراء ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على البقرة، والجملة صفة ثانية لبقرة، تقديره: سارَّةٌ للناظرين.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ مقول محكي لقالوا، وإن أردت بَسْطَ إعرابه، فقد تقدَّم لك قريباً، فجدِّد به عهداً ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ﴾ ناصب واسمه ﴿تَشَٰبَهَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على البقر ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بتشابه، وجملة تشابه في محل الرفع خبر إن، وجملة إن جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، ولكن في محل النصب مقول قالوا ﴿وَإِنَّآ﴾ ناصب واسمه ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿شَآءَ﴾ في محل الجزم بأن على كونه فعل شرط لها ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، وجواب الشرط محذوف، تقديره: اهتدينا، وجملة إن الشرطية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين إن وخبرها ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ اللام حرف ابتداء ﴿مُهْتَدُونَ﴾ خبر إن مرفوع بالواو وجملة إن معطوفة على جملة قوله ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ على كونها مقولاً لقالوا، وعلى كونها تعليلية.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ (٧١)﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقُولُ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب مقول قال ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول يقول ﴿لَّا﴾ نافية ﴿ذَلُولٌ﴾ صفة لبقرة، وإن شئت قلت ﴿لَّا﴾ اسم بمعنى غير في محل الرفع صفة

لبقرة، ولكن نقل إعرابها إلى ما بعدها؛ لكونها على صورة الحرف ﴿ذَلُولٌ﴾ صفة لبقرة مرفوع بالضمة الظاهرة ﴿تُثِيرُ﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ذلول ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لذلول، تقديره: لا ذلول مثيرة الأرض، ويجوز أن تكون جملة ﴿تُثِيرُ﴾ حالاً من الضمير في ذلول، تقديره: لا تذل في حال إثارتها، وهذه الجملة الفعلية في المعنى مفسرة لذلول، فالنفي مسلط على الموصوف وصفته؛ أي: إنها بقرة انتفى عنها التذليل وإثارة الأرض، وانتفى عنها سقي الحرث أيضاً على ما سيأتي ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ زائدة زيدت؛ لتأكيد نفي لا الأولى ﴿تَسْقِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ذلول ﴿ٱلْحَرْثَ﴾ مفعول به، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة تثير الأرض على كونها صفة ثانية لذلول، تقديره: لا ذلول مثيرة الأرض وساقية الحرث، فالنفي مسلط على الموصوف بصفته ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صفة ثانية لبقرة ﴿لَّا﴾ نافية للجنس تعمل عمل إن ﴿شِيَةَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لَّا﴾ تقديره: لاشية موجودة فيها، وجملة ﴿لَّا﴾ في محل الرفع صفة ثالثة لبقرة، تقديره: موصوفة بعدم وجود شية فيها ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل مستأنف ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ﴾ ظرف للزمان الحاضر في محل النصب على الظرفية مبني على الفتح، لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لتضمنه معنى حرف التعريف، أو معنى حرف الإشارة، كأنه قلت: هذا الوقت والظرف متعلق بجئت، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿جِئْتَ﴾؛ أي: حال كونه ملتبساً بالحق ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ الفاء عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فطلبوها فوجدوها عند فتى بار فذبحوها. ﴿ذبحوها﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، وتلك المحذوفة معطوفة على جملة قالوا ﴿وَمَا﴾ الواو حالية ﴿مَا﴾ نافية ﴿كَادُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، لأنه من أفعال المقاربة، وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ في محل النصب خبر كاد، وجملة كاد في محل النصب حال من فاعل ذبحوها؛ أي: حال كونهم غير مقاربين فعل الذبح؛ يعني؛ قبل زمان الذبح.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة قصة على قصة ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في

محل النصب معطوف على نعمتي، تقديره: واذكروا يا بني إسرائيل! نعمتي وحين قتلتم نفساً ﴿قَتَلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿نَفْسًا﴾ مفعول به ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾ الفاء عاطفة ﴿ادّارأتم﴾ فعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾ متعلق بادارئتم، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿قَتَلْتُمْ﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾ الواو اعتراضية ﴿الله مُخْرِجٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف الذي هو قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ والمعطوف عليه الذي هو قوله ﴿فَذَبَحُوهَا﴾. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿مُخْرِجٌ﴾؛ لأنه اسم فاعل من أخرج يعمل عمل الفعل الصحيح، وفاعله ضمير مستتر فيه، تقديره: هو يعود على الله ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكْتُمُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: تكتمونه.

فإن قلت: كيف أُعْمِل مخرجٌ وهو في معنى المضي؟

قلت: قد حكي ما كان مستقبلاً في وقت التدارُؤِ، كما حكي الحاضر في قوله: ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿فَقُلْنَا﴾ الفاء عاطفة ﴿قلنا﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة قوله: فَذَبَحُوهَا ﴿اضْرِبُوهُ﴾، فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مقول القول ﴿بِبَعْضِهَا﴾ جار ومجرور متعلق باضربوه ﴿كَذَلِكَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف وجوباً؛ لوقوعه صفة لمصدر محذوف، تقديره: يحيي الله الموتى يوم القيامة إحياءً مثل إحياء هذا القتيل ﴿يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين قصتي بني إسرائيل رداً على مشركي العرب المنكرين للبعث، كما سبق في مبحث التفسير ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ الواو عاطفة ﴿يريكم﴾ فعل مضارع ومفعول أول، والفاعل ضمير مستتر يعود على الله ﴿ءَايَاتِهِ﴾ مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله كذلك: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ على كونها معترضة لا محل لها من الإعراب ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعل حرف نصب وتعليل بمعنى كي، والكاف اسمها، وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ خبرها،

وجملة لعل جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها سِيقَتْ لتعليل الإراءة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿قَسَتْ﴾ فعل ماض مبني بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والتاء علامة تأنيث الفاعل ﴿قُلُوبُكُم﴾ فاعل، والجملة معطوفة على مقدر، تقديره: فضربوه فَحَيِيَ القتيل، ثم قست قلوبكم، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ﴾ والأول أوضح وأولى ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقست ﴿فَهِىَ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع ﴿هي﴾ مبتدأ ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، أو الكاف اسم بمعنى مثل في محل الرفع خبر المبتدأ ﴿ٱلْحِجَارَةِ﴾ مضاف إليه، والجملة الإسمية معطوفة مفرَّعة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف بمعنى بل ﴿أَشَدُّ﴾ بالرفع معطوف على الكاف إذا كانت اسماً، أو على ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾؛ لأن الجار والمجرور في موضع رفع. وقرىء أشد بالفتح على أنه معطوف على الحجارة ﴿قَسْوَةً﴾ تمييز نسبةٍ منصوبٌ بأشد ﴿وَإِنَّ﴾ الواو استئنافية ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم لأنَّ ﴿لَمَا﴾ اللام حرف ابتداء ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب اسم إن مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ فعل مضارع ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، وتقدير الكلام: وإن الذي يتفجر منه الأنهار لكائن من الحجارة.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ الواو عاطفة ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿مِنْهَا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها ﴿لَمَا﴾ اللام حرف ابتداء ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر ﴿يَشَّقَّقُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ما، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، وتقدير الكلام: وإن الذي يشقق فيخرج منه الماء لكائن من الحجارة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى

﴿فَيَخْرُجُ﴾ الفاء عاطفة ﴿يخرج﴾ فعل مضارع ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به ﴿الْمَآءُ﴾ فاعل ليخرج، والجملة معطوفة على جملة ﴿يشقق﴾ على كونها مستأنفة ﴿وَإِنَّ﴾ الواو عاطفة ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿مِنْهَا﴾ خبر مقدم لإن ﴿لَمَا﴾ اللام حرف ابتداء ﴿يَهْبِطُ﴾ فعل مضارع. وفاعل مستتر يعود على ما، والجملة صلة الموصول، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بيهبط ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية ﴿مَا﴾ نافية حجازية تعمل عمل ليس ﴿اللَّهُ﴾ اسمها ﴿بِغَافِلٍ﴾ خبرها منصوب بفتحة مقدرة على الأخير منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف جر زائد، والباء زائدة، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية مستأنفة ﴿عَمَّا﴾ ﴿عن﴾ حرف جر ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر بعن، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: عما تعملونه، والجار والمجرور متعلق ﴿بِغَافِلٍ﴾ ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلتها، وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بعن، تقديره: وما الله بغافل عن عملكم، والجار والمجرور متعلق بغافل أيضاً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ الذبح: قطع أعلى العنق. والنحر: طعن أسفله. والبقرة واحد البقر تقع على الذكر والأنثى، نحو: حمامة وحمام، والصفة تُميِّز الذكر من الأنثى. تقول: بقرة ذكر وبقرة أنثى. وقيل: بقرة اسم للأنثى خاصة من هذا الجنس، والذكر الثور، نحو: ناقة وجمل، وأتان وحمار، وسمي هذا الجنس بذلك؛ لأنه يبقر الأرض؛ أي: يشقها بالحرث، أو بقرنه، ومنه: بقر بطنه إذا شقَّه، ومنه سمي محمد الباقر، وهو محمد بن علي، بن الحسين، بن علي بن أبي طالب، وكان هو وأخوه زيد بن علي من العلماء الفصحاء.

وفي «المصباح» وبقرت الشيء بقراً من باب قتل، شققته وبقرته فتحته، والمراد بقرة مبهمة، كما هو ظاهر النظم، فكانوا يخرجون من العهدة بذبح أي بقرة كانت، كما في الحديث السابق، لكن ترتب على تعنتهم فسخ الحكم الأول بالثاني، والثاني بالثالث تشديداً عليهم، لكن لا على وجه ارتفاع حكم المطلق

بالكلية، بل على طريقة تقييده وتخصيصه شيئاً فشيئاً، ولا يصح أن يكون المراد من أول الأمر بقرة معينة، كما قيل: إذ لو كان كذلك لما عُدَّت مراجعتهم المحكية من قبيل الجنايات، بل كانت تُعَدُّ من قبيل العبادات، فإن الامتثال للأمر بدون الوقوف على المأموريَّة مما لا يتيسر. اهـ. من «أبي السعود». والمراد من تذبحوا بقرة؛ أن تذبحوها وتأخذوا بعضها وتضربوا به القتيل فيحيا فيخبركم بقاتله، ففي الكلام اختصار يدل عليه السياق ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وفي «المصباح» هزأت به أهزأ مهموزاً من باب تعب، وفي لغة من باب نفع سخرت منه، واسم المصدر منه الهُزْؤ بضم الزاي وسكونها؛ للتخفيف، وقرىء بهما في السبع. اهـ. أي أتصيرنا هُزُواً، وهزواً مفعول ثاني لتتخذنا، وفي وقوعه مفعولاً ثلاثة أقوال:

أحدها: على حذف مضاف، أي: ذوي هزؤ.

والثاني: أنه اسم مصدر واقع موقع المفعول؛ أي مهزواً بنا.

والثالث: أنهم جعلوا نفس الهزؤ مبالغة وهذا أولى. اهـ. «سمين». ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ والعياذ والمعاذ: الاعتصام والالتجاء، والفعل. منه عاذ يعوذ، وأصل أعوذ: أَعْوُذُ بوزن أفعُل، نقلت حركة الواو إلى العين، فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مد ﴿أَكُونَ﴾ أصله: أَكْوُنُ، نقلت حركة الواو إلى الكاف، فسكنت الواو وضمت الكاف فجعلت الواو حرف مد، كما مر في أعوذ ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الجهل معروف وهو ضد العلم، والفعل منه جَهِل يجهَل. قيل: وقد جمع على أجهال وهو شاذ. قال الشَّنْفَرى:

ولاَ تَزْدَهِي الأجْهَالَ حِلْمِي وَلاَ أرَى سَؤُوْلاً بأطراف الأقاويل أنْمُلُ

ويحتمل أن يكون جمع جاهل، كأصحاب جمع صاحب، وهو أبلغ من قولك: أن أكون جاهلاً، فإنَّ المعنى أن أنتظم في سلك قوم اتصفوا بالجهل ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ﴾ أصله: يَقْوُل بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مد ﴿لَا فَارِضٌ﴾ الفارض: المسنُّ التي انقطعت ولادتها من الكبر. يقال: فرضت من بابي قعد وكرم، والمصدر الفروض، والفرض القطع، ويقال لكل ما قدم وطال أمره: فارضٌ، وكأنَّ المسنة سُمِّيت

فارضة؛ لأنها فرضت سِنَّها؛ أي: قطعتها وبلغت آخرها. قال خفَّافُ بن نُدْبَة:

لَعَمْري لَقَدْ أَعْطَيْتَ ضَيْفَكَ فَارِضاً ... تُسَاقُ إِلَيْهِ ما تَقُومُ عَلَى رِجْلِ

وَلَمْ تُعْطِهِ بِكراً فَيَرْضَى سَمِينَهُ ... فَكَيْفَ تُجازَى بالمَوَدَّةِ والفَضْلِ

وفي «المختار» فرضت البقرة طَعُنت في السِن، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ وبابه جلس وظرف. اهـ. فالمصدر فراضةً وفروضاً، كما في «القاموس» ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ والبكر: الصغيرة التي لم تلد من الصغر. وقال ابن قتيبة التي ولدت ولداً واحداً، والبكر من النساء التي لم يمسَّها الرجل. وقال ابن قتيبة أيضاً: هي التي تحمل، والبكر من الأولاد الأول، ومن الحاجات الأولى. قال الراجز:

يا بِكْرَ بِكْرَين ويَا خَلَبَ الكَبِدْ ... أَصْبَحْتَ مِنّي كَذِراعٍ مِنْ عَضُدْ

والبكر بفتح الباء الفتى من الإبل، والأنثى بَكْرة، وأصله: من التقدم في الزمان، ومنه البكرة والباكورة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ والعوان: النصف وهي التي ولدت بطناً أبو بَطْنَيْنِ. وقيل: التي ولدت مرة. وفي «المصباح» العوان النصف في السن من النساء والبهائم، والجمع عُوْنٌ بضم العين وسكون الواو، والأصل: عُوُنٌ بضم الواو، لكن سُكِّن تخفيفاً. اهـ. و﴿بَيْنَ﴾ ظرف مكان متوسط متصرف. تقول: هو بعيد بين المنكبين، ونقيٌّ بين الحاجبين. قال تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ودخولها إذا كانت ظرفا بين ما تمكن البُينَةُ فيه، والمال بين زيد وبين عمرو مسموعٌ من كلامهم، وينتقل من المكانية إلى الزمانية إذا لحقتها ما، أو الألف فيزول عنها الاختصاص بالأسماء، فيليها إذ ذاك الجملة الإسمية والفعلية، وربما أضيفت بيناً إلى المصدر. ولبين في كتب الكوفيين بابٌ معقودٌ كبيرٌ. ذكره في «البحر».

﴿مَا لَوْنُهَا﴾ واللون: عَرَض مشاهَد يتعاقب على بعض الجواهر، كما مر. وجمعه على القياس ألوان، واللون أيضاً النوع، ومنه ألوان الطعام؛ أي: أنواعه. وقالوا: فلان متلوِّن إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد، ومنه قولهم: يتلون تلون الحرباء، وذلك أن الحرباء لصفاء جسمها أيَّ لون قابلته ظهر عليها، فتنقلب من لون إلى لون ﴿صَفْرَآءُ﴾ والصُّفرة: لونٌ بين البياض والسواد وقياس الفعل من هذا المصدر صَفِرَ فهو أصفر وهي صفراء، كقولهم: شَهِبَ فهو أشهب

وهي شهباء، والهمزة في صفراء مبدلة من ألفٍ، وذلك أن أصلها: صفرى كسكرى، فزيدت ألفٌ قبل الألف الأخيرة؛ للمد كألف كتاب وغلام، فأبدلت الألف الثانية همزة. قال ابن مالك في الكافية:

مِنْ حَرْفِ لِيْنٍ آخرٍ بَعْدَ ألفْ مَزِيْدٍ ابدلْ همزةً وذا أَلِفْ

وهذا أشمل من قوله في الألفية: فأبدل الهمزة من واو ويا؛ لأنه لم يذكر الألف في ألفيته. وذكره في الكافية، حيث ذكر حروف اللين ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾؛ أي: شديد الصفرة. والفقوع بضم الفاء: نصوع الصفرة وخلوصها، فالفاقع شديد الصفرة وقد فقع لونه من بابي خضع ودخل. اهـ. «مختار» والفقوع أشدُّ ما يكون من الصفرة وأبلغه يقال: أصفر فاقعٌ ووارِسٌ، وأسودُ حالِكٌ وحايِكٌ، وأبيضُ نَقَقٌ ولَمَقٌ، وأحمر قانِي وزَنْجِيٌّ، وأخضر نَاضِرٌ ومُدْهَامٌّ، وأزرق خَطْبَانِيٌّ وأَرْمَكُ رَدَانِيٌّ ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أصله: تَسْرُر بوزن تفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى السين، فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. والسرور: لذةٌ في القلب عند حصول نفع، أو توقعه، أو رؤية أمر معجب رائق، ومنه السرير الذي يجلس عليه إذا كان لأولي النعمة، وسرير الميت شَبِيْهاً له به في الصورة وتفاؤلاً بذلك. وقال قوم: السرور، والفرح، والحبورُ، والجذل نظائر، ونقيض السرور الغَمُّ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ شاء أَصْلُهُ: شَيِءَ بوزن فَعِل بكسر العين، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ أصله: مهتديون جمع مهتدٍ اسم فاعل من اهتدى، استثقلت الضمة على الياء فحذفت وسكنت الياء؛ فحذفت لالتقاء الساكنين، وضُمَّت الدال؛ لمناسبة الواو، أو كما يقول بعضهم: نقلت حركة الياء إلى الدال والمؤدّى واحد ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ الذلول: الرِيْضُ الذي زالت صعوبته. يقال: دابةٌ ذلولٌ بيِّنَةُ الذِل بكسر الذال، ورجلٌ ذليلٌ بين الذُلِّ بضم الذال، والفعل ذلَّ يَذِل والذِّل بالكسر ضد الصعوبة، وبالضم ضِدُّ العزّ، والمراد به هنا الأول ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ الإثارة: الاستخراج والقلقلة من مكان إلى مكان قال النابغة:

يُثِرْنَ الحصى حَتَّى يُبَاشِرْنَ تُرْبَهُ إذا الشَّمْسُ مَجَّتْ رِيقَهَا بِالكَلاكِلِ

وأصل تثير: تُثْوِر بوزن تُفعِل واويُّ العين، نقلت حركة الواو إلى الثاء،

فسكنت الواو إثر كسرة فقلبت ياء حرف مد ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ والحرث: مصدر حرث يحرث وهو شقُّ الأرض ليبذر فيها الحبَّ، ويطلق على ما حُرث وزُرع، وهو مجاز في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ والحرث الزرع، والحرث الكسب، والحرائث الإبل الواحدة حريثة. وفي الحديث: (أصدق الأسماء الحارث)؛ لأنَّ الحارث هو الكاسب، واحتراث المال اكتسابه. يقال: حرث من باب نصر وكتب.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ المسلمة: المخلصة المبرأة من العيوب. يقال: سلم له كذا؛ أي: خلَص سلاماً، وسلامة مثل لذاذاً ولذاذة ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ والشِّيَةَ: مصدر وَشِي الثوب يشيه وشْياً وشيةً، إذا حسَّنه وزيَّنه بخطوطٍ مختلفة الألوان، ومنه قيل للساعي في الإفساد بين الناس: واشٍ؛ لأنه يحسِّن كذبه عندهم حتى يُقبل. والشية: اللُّمعة المخالفة للون البدن، كما مر. ومنه ثورٌ موشَّىٰ القوائم، والشيةُ في الأصل: مصدر وشي من باب وعد وشْياً وشيةً، إذا خلط لوناً بلون آخر، والمراد هنا نفس اللون، والتصرُّف فيها كالتصرف في عدة. اهـ. شيخنا. وفي «السمين» وشيةٌ مصدر وشيت الثوب أشيه وشْياً وشِيَةً، فحذفت فاؤها؛ لوقوعها بين ياءٍ وكسرةٍ في المضارع، ثم حمل ما في الباب عليه وعوِّض عنها تاء التأنيث في المصدر، ووزنها علةٌ، ومثلها صِلةٌ وعِدةٌ وزِنةٌ ومنه ثوبٌ موشًى؛ أي: منسوجٌ بلونين فأكثر، وثورٌ موشى القوائم؛ أي: أبلقها، ويقال: ثورٌ أَشْيَه، وفرسٌ أبلق، وكبشٌ أخرج، وتيس أبرق، وغرابٌ أبقع، كلُّ ذلك بمعنى أبلق. اهـ.

﴿ٱلْـَٔـنَ﴾ ظرف زمان يقتضي الحال ويُخلِّص المضارع له عند جمهور البصريين، وهو لازمٌ للظرفية لا يتصرَّف غالباً بُني؛ لتضمنه معنى حرف الإشارة، كأنك قلت: هذا الوقت؛ أو لتضمنه معنى حرف التعريف، كأنك قلت: الوقت الحاضر. واختلف في أل التي فيه، فقيل: للتعريف الحضوريِّ. وقيل: زائدةٌ لازمةٌ. اهـ. «كرخي» وزعم الفراء أنه منقولٌ من الفعل. يقال: آن يئين أيْناً؛ أي: حان ﴿جِئْتَ﴾ أصل الفعل: جَيَأ بوزن فعل من باب ضرب، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فصار جاء، فأسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرِّك فسُكِّن آخره، فصار جاءت، فالتقى ساكنان الألف وآخر الفعل، فحذفت الألف فصار

جأت على وزن فلت، فاحتيج إلى معرفة عين الفعل المحذوفة، هل هي واو أو ياء؟ فحذفت حركة الفعل وعوِّض عنها حركة مجانسة للعين المحذوفة وهي الكسرة، فقيل: جئت بوزن فلت، وهكذا كلُّ ما كان من هذا الباب ﴿كَادُواْ﴾ أصل: كاد كَوِدَ بوزن فعِل بكسر العين يفعل بفتحها، بدليل قولهم: يكاد، تحركت الواو في الماضي وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فقيل: كاد، والدليل على أنَّ أصل العين واوٌ قولهم: كاد يفعل كذا كُوْداً ومكادةً؛ أي: قارب ولم يفعل ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾ والقتل: نقض البنية بوجوهٍ تنتفي الحياة عندها. فادرائتم: من الدرء وهو الدفع، كقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ وادَّارأ تفاعل منه، ولمصدره حكمٌ يخالف مصادر الأفعال التي أوَّلها همزة وصل. ذكر في النحو. اهـ. «بحر». وأصله: تدارأتم بوزن تفاعل من الدرء وهو الدفع؛ أي: تدافعتم، فأدغمت تاء الافتعال في الدال التي هي فاء الفعل بعد أن أبدلت التاء دالاً، ثم استجلبت همزة الوصل؛ للتوصل به إلى النطق بالساكن؛ يعني: الحرف المدغم، فقيل: ادارءتم. وعبارة «السمين» هنا: أصل ادارأتم: تفاعلتم من الدرء وهو الدفع، فاجتمعت التاء مع الدال وهما متقاربان في المخرج، فأريد الإدغام، فقلبت التاء دالاً وسكنت لأجل الإدغام ولا يمكن الابتداء بساكن، فاجتلبت همزة الوصل؛ ليُبْتَدَأ بها، فبقي اددارأتم فأدغم. اهـ.

﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ فيه حذف همزة أفعل من اسم الفاعل، إذ القياس مُؤخرجٌ ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أصله يحيي بوزن يفعل، حذفت منه همزة أفعل وسكنت ياؤه الأخيرة؛ للتخفيف، ثم حذفت لالتقاء الساكنين ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مضارع الرباعي، والرؤية هنا بصرية، فالهمزة للتعدية أكسبت الفعل مفعولاً ثانياً وهو آياته، والمعنى: ويجعلكم مبصرين آياته، والكاف هو المفعول الأول، وأصله: يرئيكم بوزن يفعل، نقلت حركة الهمزة عين الفعل إلى الراء فائه، ثم حذفت الهمزة تخفيفاً، فقيل: يرى، فالعين من أرى الرباعي في الماضي والمضارع محذوفة دائماً ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ القساوة والقسوة: غلظ القلب وصلابته وعدم لينه لقبول الخير. يقال: قسا يقسو من باب عدا قسواً، وقساوة وقسوة، وفيه إعلال بالحذف. أصله: قسو، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فلما اتصلت

بالفعل تاء التأنيث الساكنة التقى ساكنان الألف والتاء، فحذفت الألف ﴿أَشَدُّ﴾ أصله: أَشْدَدُ بوزن أفعل صيغة تفضيل، نقلت حركة الدال الأولى إلى الشين، فسكنت فأدغمت في الدال الثانية ﴿يَشَّقَّقُ﴾ أصله: يتشقق، أبدلت التاء شيناً وأدغمت في الشين. والشقُّ: أن يجعل الشيء شقين وتشقق منه ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ والخشية: الخوف مع تعظيم المخشيِّ. يقال: خشي يخشى، كرضي يرضى ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ الغفلة، والسهو، والنسيان متقاربة. يقال: منه غفل يغفل، ومكانٌ غفلٌ لم يعلم به. اهـ. «بحر».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرير للسؤال والجواب وهو داخل في باب الإطناب، كأنهم يكررون السؤال استكناهاً لحقيقة البقرة.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؛ لأنَّ قبل هذه الجملة جملٌ محذوفة، تقديرها: فطلبوها ووجدوها عند فتى بار لوالدته، فاشتروها فذبحوها.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ لأن هذه الجملة معترضة بين قوله: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ﴾ وقوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ﴾ والجملة المعترضة بين ما شأنهما الاتصالُ، تجَيء تحليةً يزدادُ بها الكلام البليغ حسناً. وفائدة الاعتراض هنا: إشعار المخاطبين بأنَّ الحقيقة ستَنْجَلِي لا محالة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ حيث شبه عدم الإذعان بالقسوة بجامع عدم قبول التأثير في كل، واستعير اسم المشبه به للمشبه، واشتق من القساوة قست بمعنى لم تُذْعن، فلم تقبل المواعظ ولم تؤثر فيها. اهـ. «صاوي» وقيل: فيه الاستعارة المكنية التبعية تشبيهاً لحال القلوب في عدم الاعتبار والاتعاظ بما هو ماثلٌ أمامها، ناطقٌ بلسان الحال بالحجارة النابية التي من خصائصها القسوة والصلابة.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾؛ لأن أداة الشبه مذكورةٌ، ووجه الشبه محذوف، فقد شبَّه قلوبهم في نُبُوِّها عن الحق وتجافيها مع إحكامه بالحجارة القاسية، ثم ترقَّى في التشبيه فجعل الحجارة أكثر ليناً من قلوبهم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ حيث أطلق المحلَّ الذي هو المجرى المسمَّى بالنهر، وأراد الحالَّ فيه وهو الماء، والقرينة حالية؛ لأن التفجر إنما يكون للماء لا للنهر.

ومنها: المجاز العقليُّ في إسناد الخشية إلى الحجارة،؛ لأنه مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى، وأنها لا تمتنع عمَّا يريد منها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد، ولا تلين، ولا تخشع، ولا تفعل ما أُمرت به.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، ومنه يرجى نجاح كل الآراب، لا سيما تفسير أفضل الكتاب[1].

* * *

(١) خاتمة: إلى هنا وقفت الأقلام في ترقيم المجلَّد الأول على الحزب الأول من القرآن الكريم، في تكملته في أوائل الشهر السادس من شهور سنة ألف وأربع مئة وسبع عشرة بتاريخ ١٤١٧/٦/٦ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلَّم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.

انتهى المجلد الأول على الحزب الأول من تفسير حدائق الروح والريحان، ويليه المجلد الثاني وأوَّله قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآية.

تم تصحيح هذا المجلد بيد مؤلفه ليلة السبت بعيد العشاء الموافق تاريخ ١١/ ٤/ ١٤٢٠ هـ.

شعر

الـعَـبْـدُ ذُو ضَـجَـرٍ والـربُّ ذُو قـدَرٍ والـدَّهْـرُ ذُو دُوَلٍ والـعِـلْـمُ مَـقْـسُـوم
والـخَيْرُ أجْمعُ فيما اخْتار خالِقُنَا وفـي اخـتـيـار سـواه الـلُّـومُ والـشُّـوم

آخر

فَـلَـيْـتَـكَ تَـحْـلُـو والـحـيـاةُ مَـرِيْـرَةٌ وَلَـيْـتَـكَ تَـرْضَـى والأنـامُ غِـضَـابُ
ولَـيْـتَ الـذي بَـيْـنِـي وبَـيْـنَـكَ عَـامِـرٌ وبَـيْـنـي وبَـيْـنَ الـعَـالَـمِـيـن خَـرَابُ

آخر

فَـزادِي قَـلِـيـلٌ مـا أُراه مُـبـلِّـغـي عـلـى الزادِ أبـكي أم لِبُعْدِ مَسافَتي
أتَـيْـتُ بـأعـمـالٍ قِـبَـاحٍ رَدِيـئَـةٍ وَمَا في الـوَرى خَلْقٌ جَنَى كَجِنَايتي

الفهرس

مُقَدِّمَةُ التَّفْسِيرِ

المُسَمَّاة

نُزُلِ كِرَامِ الضِّيفَانِ فِي سَاحَةِ حَدَائِقِ الرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ

تأليفُ الشَّيخ العلَّامَة

محمّدِ الأمينِ بن عبدِ اللهِ الأُرَمِيّ العلويّ الهرريّ الشّافِعِيّ

المدرّس بدارِ الحديثِ الخيريَّةِ في مكّةَ المُكرّمَة

ترجم للمُؤلّف وقدّم له تلميذُه

الدكتور هاشم محمّد علي بن حسين مهدي

خبيرُ الدّراسات برابطةِ العالمِ الإسلاميّ

مكّة المُكرّمَة

دارُ طوقِ النّجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

مُقَدّمَة التّفسِير

المُسمّاة

نُزُل كِرَام الضّيفان في سَاحة حدائق الرّوح والرّيحان

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ترجمة وتقديم

الحمد لله واهب النعم ودافع النقم، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على عبده الأكرم سيد العرب والعجم، وعلى آله وصحبه وكل عالم ومتعلِّم.

أما بعد فقد أذن لي مؤلِّف «حدائق الروح والريحان» وهو العالم الجهبذ والعلاَّمة النحرير فريد عصره وأوانه متَّع الله بحياته ونفع بعلومه؛ بأن أرتِّب وأراجع وأحقِّق سفره العظيم. . وأجازني كذلك في جميع مؤلفاته ومروياته من فنون العلم وصنوف المعرفة في هذا الدين التي نقلها العدول من هذه الأمة خير خلف عن خير سلف فللَّه الحمد والمنة.

وإنه ليشرِّفني التعريف بهذا الحجة العَلَم والمقيم بأرض الحرم فأقول هو محمد أمين بن عبد الله بن يوسف بن حسن أبو ياسين الأرمي جنساً، العلوي قبيلة، الأثيوبي دولة، الهرري منطقة، الكري ناحية، البويطي قرية، السلفي مذهباً، السعودي إقامة نزيل مكة المكرمة جوار الحرم الشريف في المسفلة حارة الرشد.

مولده: ولد في الحبشة في منطقة الهرر في قرية بويطه في عصر يوم الجمعة أواخر شهر ذي الحجة، سنة ألف وثلاثمائة وثمان وأربعين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات.

نشأته: تَرَبَّى بيد والده وهو يتيم عن أمه، ووضعه عند المُعَلِّم وهو ابن أربع سنين، وتعلَّم القرآن وختمه وهو ابن ست سنين، ثُمَّ حوَّله إلى مدارس علوم التوحيد والفقه، وحفظ من توحيد الأشاعرة «عقيدة العوام» للشيخ أحمد المرزوقي، و«الصغرى»، و«صغرى الصغرى»، و«الكبرى»، و«كبرى الكبرى» للشيخ محمد بن يوسف السنوسي؛ لأن أهل الحبشة كانوا وقتئذٍ من الأشاعرة، وحفظ من مختصرات فقه الشافعية كثيراً، كـ «مختصر بافضل الحضرمي»، و«مختصر أبي شجاع» مع «كفاية الأخيار»، و«عمدة السالك» لأحمد بن النقيب، «وزُبَد أحمد بن رسلان» وهي ألفية في فقه الشافعية، وقرأ «المنهاج» للإمام النووي مع شرحه «مغني المحتاج»، و«المنهج» لشيخ الإسلام الأنصاري مع شرحه «فتح الوهاب»، وقرأ كثيراً من مختصرات كُتب الشافعية ومبسوطاتها على مشايخ عديدة من مشايخ بُلدانه.

رحلته: ثم رحل إلى شيخه سيبويه زمانه، وفريد أوانه أبي محمد الشيخ موسى بن محمد الأَدَّيلي(١)، وبدأ عنده دراسة الفقه، بدأ بشرح جلال الدين المحلي على «منهاج» النووي، ثم بعد ما

---

(١) الأديلي ـ بفتح الهمزة وتشديد الدال المفتوحة ـ: نسبة إلى أديل من أعمال دردوا.

وصل إلى كتاب (السَّلَم) حوَّله شيخه المذكور ـ رحمه الله تعالى ـ إلى دراسة النحو لما رأى فيه من النجابة والاجتهاد في العلم، وقرأ عليه مختصرات النحو، كـ «متن الأجرومية» وشروحها العديدة، و«متن الأزهرية» و«مُلحة الإعراب» مع شرحه «كشف النقاب» لعبد الله الفاكهي، و«قطر الندى» مع شرحه «مجيب النِّدا» لعبد الله الفاكهي، وقرأ «الألفية» لابن مالك مع شُروحها العديدة، كـ «شرح ابن عقيل»، و«شرح المكودي»، و«شرح السيوطي»، ثم اشتغل بكتب الصرف والبلاغة والعَروض والمنطق والمقولات والوضع، واجتهد فيها وحفظ «ألفية ابن مالك» و«ملحة الإعراب» و«لامية الأفعال» و«السُلَّم» في المنطق، و«الجوهر المكنون» في البلاغة، وكان لا ينام كل ليلة حتى يختم القصائد المذكورة حفظاً، وكان قليل النوم في صغره إلى كبره، حتى أنه كان لا ينام غالباً بعدما كبر إلا أربع ساعات من أربع وعشرين ساعة لكثرة اجتهاده في مذاكرة العلم، وكان يُدرِّسُ هذه الفنون جنب حلقة شيخه، مع دراسته على الشيخ المذكور، ثم رحل من عنده بعد ما لازمه نحو سبع سنوات إلى شيخه خليل زمانه، وحبيب عصره وأوانه الشيخ محمد مديد الأَدَّيلي أيضاً، وقرأ عنده مطولات كتب النحو كـ «مجيب الندا على قطر الندى»، و«مغني اللبيب» كلاهما لابن هشام، و«الفواكه الجَنيَّة على المتممة الآجرومية»، وغير ذلك من مطولات علم النحو، وكان يُدرّس أيضاً جنب حلقة شيخه، وقرأ عليه أيضاً التفسير إلى سورة يسٓ.

ثم رحل من عنده بعدما لازمه ثلاث سنوات، إلى شيخه الشيخ الحاوي، المفسِّر في زمانه، الشيخ إبراهيم بن يس الماجتي[1]، فقرأ عليه التفسير بتمامه والعروض من مختصراته ومطولاته كـ «حاشية الدمنهوري الكبير على متن الكافي»، و«شرح شيخ الإسلام الأنصاري على المنظومة الخزرجية»، و«شرح الصبان» على منظومته في العروض، وقرأ عليه أيضاً مطولات المنطق والبلاغة ولازمه نحو: ثلاث سنوات.

ثم رحل من عنده إلى الشيخ الفقيه الشيخ يوسف بن عثمان الوَرقي[2]، وقرأ عليه مطولات علم الفقه كـ «شرح الجلال المحلى على المنهاج»، و«فتح الوهاب على المنهج» لشيخ الإسلام مع «حاشيته» لسليمان البُجيرمي، و«حاشيته» لسليمان الجمل، و«حاشية التوشيح على متن أبي شجاع»، و«مغني المحتاج» للشيخ الخطيب إلى كتاب (الفرائض)، وقرأ عليه غير ذلك من كتب الفرائض كـ«حواشي الرَّحبية» و«الفُراتُ الفائض في فن الفرائض» وهو كتاب جيد من مطولاتها، ولازمه نحو: أربع سنوات.

ثم رحل من عنده إلى الشيخ إبراهيم المُجّي[3] وقرأ عليه فتح الجواد لابن حجر الهَيْتمِيِّ على متن الإرشاد لابن المقرىء الجزئين الأولين منه.

---

(١) الماجتي: نسبة إلى ماجة من بلاد ولّو.

(٢) الورقيُّ: نسبة إلى ورقة من أعمال مدينة هرر.

(٣) المُجّي: نسبة إلى قبيلة من قبائل نولي.

ثم رحل من عنده إلى شيخ المحدثين الشيخ الحافظ الفقيه الشيخ أحمد بن إبراهيم الكري، وقرأ عليه «البخاري» بتمامه و«صحيح الإمام مسلم» وبعض كُتب الاصطلاح.

ثم رحل من عنده إلى مشايخ عديدة، وقرأ عليهم «السنُّن الأربعة»، و«الموطأ» وغير ذلك من كُتب الحديث مما يطول بذكره الكلام، ثم رحل من عندهم إلى شيخ عبد الله نُوْرُوْ القَرْسِيِّ[1]، فقرأ عليه مطولات كتب البلاغة كـ«شروح التلخيص» لسعد الدين التفتازاني وغيره، ومطولات كتب أصول الفقه كـ«شرح جمع الجوامع» لجلال الدين المحلي، وقرأ عليه من النحو «حاشية الخَضِريِّ على ابن عقيل».

وقرأ على غير هؤلاء المشايخ كتباً عديدة من فنون متنوعة مما يطول الكلام بذكره من كتب السيرة، وكتب الأمداح النبوية كـ «بانت سعاد» و«همزية البوصيري» و«بردته» و«القصيدة الوترية» و«الطرَّاف والطرائف وإضاءة الدُجُنَّة» ألفية في كتب الأشاعرة، وغير ذلك مما يطول الكلام بذكره، وكان يدرِّس مع دراسته جنب حلقة مشايخه ما دَرَس عليهم من أربع عشرة سنة من عمره.

ثم استجاز من مشايخه هؤلاء كلهم التدريس، استقلالاً في ما دَرَس عليهم فأجازوا له، فبدأ التدريس استقلالاً في جميع الفنون، في أوائل سنة ألف وثلاثمائة وثلاثٍ وسبعين، في اليوم

---

(١) القَرْسِي: نسبة إلى قرسا ناحية من أعمال دردوا.

الثاني عشر من ربيع الأول ١٢/ ٣/ ١٣٧٣ من الهجرة النبوية، فاجتمع عنده خلق كثير من طُلاَّب كُلِّ الفنون زُهاءَ ستمائة طالب، أو سبعمائة طالب وكان يُدرس من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء الآخرة نحو: سبع وعشرين حصة من حصص الفنون المتنوعة، وكان يُحيي ليله دائماً بكتابة التآليف وبما قَدَّر الله له من طاعته.

والله أعلم

* * *

ومؤلفاته كثيرة من كل الفنون حتى أوشكت إلى أن لا تحصى، والمطبوع المنتشر منها اثنا عشر كتاباً:

١ ـ «الباكورة الجنية في إعراب متن الآجرومية».

٢ ـ «الفتوحات القيومية في علل وضوابط متن الآجرومية».

٣ ـ «الدرر البهية في إعراب أمثلة الآجرومية».

٤ ـ «جواهرُ التعليمات شرح على التقريظات ومقدمة علم النحو».

٥ ـ «هدية أولي العلم والإنصاف في إعراب المنادى المضاف».

*** ومن الصرف:**

٦ ـ «مناهل الرجال على لامية الأفعال».

٧ ـ «تحنيك الأطفال على لامية الأفعال».

*** ومن المصطلح:**

٨ ـ «الباكورة الجنية على منظومة البيقونية».

٩ ـ «هداية الطالب المعدِم على ديباجة صحيح مسلم».

١٠ ـ «خلاصة القول المفهِم على تراجم رجال صحيح مسلمٍ» مجلدان.

* **ومن كتب الأسماء والصفات:**

١١ ـ «هدية الأذكياء على طيبة الأسماء في توحيد الأسماء والصفات».

١٢ ـ «سُلَّمُ المعراج على خطبة المنهاج» للإمام النواوي.

وغير المطبوع منها من الفنون المتنوعة: من التفسير:

١٣ ـ «حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن» اثنان وثلاثون مجلداً جمع فيه سبعة فنون، بل ثمانية، بل تسعة لم يُسبق له نظير من كُتب التفسير وهو الذي ننشر مقدمته الآن.

* **ومن النحو:**

١٤ ـ «حاشية على كشف النقاب على مُلحة الإعراب».

١٥ ـ «هدية الطلاب في إعراب ملحة الإعراب».

١٦ ـ «الصور العقلية على تراجم الألفية» لابن مالك.

١٧ ـ «التقريرات على حاشية الخضري على الألفية».

١٨ ـ «حاشية على الفواكه الجنية على متمِّمة الآجرومية».

١٩ ـ «التقريرات على مُجيب النِّدا على قطر النَّدىٰ» كلاهما لعبد الله الفاكهي.

*** ومن البلاغة:**

٢٠ ـ «الدُرُّ المصون على الجوهر المكنون» لعبد الرحمن الأخضري.

٢١ ـ «التقريرات على مختصر سعد الدين، على التلخيص».

*** ومن المنطق:**

٢٢ ـ «الكَنْزُ المُكَتَّم على متن السُّلَّم» للأخضري أيضاً.

٢٣ ـ «التذهيب على متن التهذيب في المنطق».

*** ومن العَروض:**

٢٤ ـ «الفتوحات الربانية على منظومة الخزرجية في العروض».

٢٥ ـ «التبيانُ على منظومة الصبان في العروض».

*** ومن الحديث:**

٢٦ ـ «النهر الجاري على تراجم البخاري ومشكلاته».

٢٧ ـ «رفع الصدود على سنن أبي داود» على الربع الأول منه لم يُكَمَّل.

*** ومن الأصول:**

٢٨ ـ «التقريرات على شرح المحلي على جمع الجوامع في الأصول».

* **ومن الفقه:**

٢٩ ـ «التقريراتُ على شرح المحلي وحاشيتي القليوبي وعَميرة عليه على المنهاج» في فقه الشافعية.

٣٠ ـ «حاشية على فتح الجواد على متن الإرشاد» في فقه الشافعية.

٣١ ـ «أضوأ المسالك على عمدة الناسك» لأحمد بن النقيب.

٣٢ ـ «التقريرات على التوشيح على غاية الاختصار».

٣٣ ـ «التقريراتُ على فتح الوهاب مع حاشيته التجريد» لسليمان البجيرمي.

٣٤ ـ «التقريرات على قصيدة زُبَد أحمد بن رسلان».

* **ومن الأمْداح النبوية والسيرة المرضية:**

٣٥ ـ «نيل المراد على متن بانت سعاد» لكعب بن زهير الصحابي الجليل ـ رضي الله عنه ـ.

٣٦ ـ «البيانُ الصريح على بردة المديح» للبوصيري.

٣٧ ـ «البيان الظريف على العُنوان الشريف».

٣٨ ـ «المقاصدُ السَّنيَّةُ على القصائد البُرَعية».

٣٩ ـ «التقريرات على همزية البوصيري».

* **ومنها في المصطلح:**

٤٠ ـ «جوهرة الدُّرر على ألفية الأثر» لعبد الرحمن السيوطي.

٤١ ـ ومنها «نُزُلُ كرام الضيفان مقدمة تفسير حدائق الروح والريحان» وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن.

٤٢ ـ ومنها «مجمع الأسانيد ومظفر المقاصد من أسانيد كل الفنون».

٤٣ ـ «فَتْحُ الملك العلام في عقائد أهل الإسلام على ضوء الكتاب والسنة».

ـ وكانت هجرته من الحبشة إلى هذه المملكة السعيدة في تاريخ سنة ثمان وتسعين بعد ألف وثلاثمائة كما أرَّخهُ بقوله:

هاجرتُ في ثمانٍ وتسعينْ مِنْ بعدِ أَلفٍ وثلاثِ مِئِين

وكان سببُ هجرته؛ اتفاق الشيوعيِّين على قتله، حين أسس في منطقته الجبهة الإسلامية الأرومية، وجاهد بهم وأوقع في الشيوعيين قتلاً ذريعاً، وحاصروه لقتله وخرج من بين أيديهم بعصمة الله تعالى، وكان بعد ما دخل هذه المملكة، وحصل على النظام مدرساً في دار الحديث الخيرية من بداية سنة ألف وأربعمائة، وكان أيضاً مدرساً في المسجد الحرام ليلاً نحو: ثمان سنوات، بإذن رئاسة شئون الحرمين حتى تقرر تكريس وقته لمزيد من التأليف. فتصدى لشرح صحيح مسلم في خمسة عشر جزءاً مجلداً وله أسانيد عديدة من مشايخ كثيرين في

جميع الفنون خصوصاً في التفسير والأمهات الستة فسبحان المنفرد بالكمال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

هذا وبعد التفصيل في ذكر سيرة هذا المفسِّر الجليل يحسن بنا **التمهيد لمقدمة هذا التفسير**، بالثناء على الله الحميد المجيد، الفعَّال لما يريد، الذي اختار صفوة العبيد، سيدنا ونبينا محمد ﷺ وبعثه بمكارم الأخلاق، ونشر فضلَه وذِكْرَه في جميعِ الآفاق، وأَنْزلَ عليه نوراً هُدَى به من الضلالةِ، وأَنْقَذَ بِهِ من وُفِّقَ مِنَ الجَهَالَةِ، وَحكم بالفَوْزِ والفَلاَحِ لِمَنِ اتَّبَعهُ، وبالخسرانِ لِمَنْ أَعْرَضَ عنه، بَعْدَ ما سَمِعَه، عَجَزَ الخلائقُ عن مُعانَدتِهِ، ومُعارضَتِه، حِينَ تحدَّاهُم على أنْ يَأتُو بِسُورةٍ مِنْ مِثْلِهِ، في مُقابلَتِهِ، ثُمَّ سَهَّل على عبادِهِ المؤمِنِينَ مع إِعْجَازِهِ تِلاَوَتَه، ويَسَّر على الأَلْسُنِ قراءتَهُ، ودِراسَتَهُ، أَمَرَ فِيْهِ، وزَجَرَ، وَبشَّر فيه، وأَنْذَرَ، وذَكَرَ فيه المَواعِظَ، لِيُتَذكَّرَ، وضَرَبَ فيه الأَمْثَال، ليُتَدبَّر، وقَصَّ فِيْهِ مِنْ أَخبارِ الماضِينَ؛ لِيُعْتَبَرَ، ودَلَّ فيه على آياتِ التوحيدِ؛ لِيُتَفَكَّر، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ مِنَّا بِسَرْدِ حرُوفِه، دُوْنَ حِفْظِ حُدودِهِ، ولا بإقامةِ كَلماتِه، دُونَ العَملِ بمُحْكماتِه، ولا بِتلاوتِه، دُونَ تدبّر آياتِهِ، في قراءته، ولا بدراسته دون تعلم حقائقه، وتفهم دقائقه ولا حصول لهذه المقاصد منه، إلا بدراية تفسيره وأَحْكَامِهِ، ومعرفةِ حلالهِ وحرامِهِ، وأَسبابِ نُزُولِهِ وأقسامِهِ، والوقوفِ على ناسخِهِ ومنسوخِهِ، ومعرفةِ تَناسُبِ آياتِهِ، خَاصِّهِ وعامِّه، ومُطْلَقِهِ ومُجْمَلِهِ، فإِنَّهُ: أَرْسخُ العُلُوم أصلاً وأَسْبَغُها فرعاً وفَضْلاً، وأَكْرَمُها نتاجاً، وأَنْوَرُها سِراجاً، فلا شَرَفَ إلاَّ وهو السبيلُ

إليه، ولا خَيْرَ إلاّ وهو الدالُّ عليه، وقد قَيَّضَ الله تعالى لَهُ رِجالاً مُوفَّقِين، وبالحقِّ نَاطِقين، حتّى صَنَّفُوا في سائر عُلُومه المصنّفاتِ، وجَمَعُوا سائرَ فُنُونِهِ المُتفرِّقَاتِ، كُلٌّ عَلى قَدْرِ فَهْمِهِ، ومَبْلَغِ عِلْمِهِ، نظراً لِلخَلفِ، واقتداءً بالسَّلَف، فَشَكَر الله سَعْيَهم، ورَحِمَ كَافَّتهم، وأشْهَدُ أن لا إلٰه إلا الله، الفَرْدُ الصمدُ، الواحدُ الأحدُ، الذي لم يَكُنْ له كُفُواً أَحَدٌ، وأشهد أنَّ محمّداً عبده ورسوله، شهادةً تَشْهَدُ لي يومَ الدين، بكامِلِ الإيمانِ واليقينِ، فيا واجبَ الوجود، ويا فَائِضَ الجُود، ويا غايَةَ كلِّ مقصود، صلِّ وسلِّم على حبيبك المحمود، صَاحِب اللِّواءِ المَعْقُود، وعلى آله وصحبه ذَوِي الكَرم والجُود، صلاةً تُوازِي غَنَاءَهُ وتُجازِي عَنَاءَهُ، وكُلِّ مَنْ أَعَانَهُ، وقرَّرَ بُنْيَانَه.

أمّا بَعْد: فلمَّا فرغ واضع هذا التفسير «حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن» منه، حبَّذ له مقدمة وجيزة لتكون سفينة لمن أراد الخوض في بحاره، والمفتاح لمن أراد معالجة قفل أسراره، أسماها «نزل كرام الضيفان في ساحة حدائق الروح والريحان» وقد أشتملت هذه المقدمة على ثلاثين فصلاً.

هاك مقدمة طابت فرعا وطابا أصلها أصلاً أصلاً

* * *

ألا إنما القرآن تسعةُ أحرف سأُنبيكها في بيت شعر بلا خَلَلْ
حلالٌ حرام محكم متشابه بشير نذير قصة عظة مَثَلْ

* * *

ما حوىٰ العلمَ جميعاً أحدٌ   لا ولو مارسه ألف سنهْ

إنما العلم بعيدٌ غوره   فخذو من كل علم أحسَنَهْ

هذا وقد آن أوان شروع القارىء في تفحص هذا الكنز وإلقاء النظر على جواهره الثمينة والفريدة وبالله التوفيق والهداية لأقوم طريق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدكتور/ هاشم بن محمد علي مهدي

الأربعاء ٥/ ٥/ ١٤٢٠ هـ

الفصلُ الأولُ

في فضل القرآن الكريم وتلاوتِه، وتعلُّمِهِ، وتعليمِهِ(١)

فقد وَرَدَ في فضلهِ، وتعلُّمه، وتعليمهِ أحاديثُ كثيرةٌ:

فمنها: ما رَواه الإمامُ مسلمٌ ـ رحمه الله تعالى ـ في «صحيحهِ» عن زيدِ بن أَرْقَم ـ رضي الله عنه ـ قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فِينا خطيباً بِمَاءٍ يُدْعَى: خُمّاً، بَيْنَ مَكَّةَ والمدينةِ، فحَمِدَ الله، وأثنى عليه، ووَعظ وذكَّر، ثمّ قال: «أمّا بعد: ألا أيُّها النَّاسُ! إنّما أنا بشرٌ يوشك أَنْ يأتيني رسولُ ربّي فأُجِيبَ، وإنّي تاركٌ فيكم ثَقلَين، أوَّلُهما كتابُ الله، فيه الهُدى والنورُ، فخُذُوا بكتابِ الله واسْتَمْسَكُوا به»، فَحَثَّ على كتاب الله، ورَغَّبَ فيه، ثُمَّ قال: وأهلُ بَيْتي، أُذكِّركُم اللَّهَ في أَهْلِ بَيْتي». زاد في روايةٍ: «كتابُ الله فيه الهُدى والنورُ، مِنَ اسْتَمْسَكَ به، وأَخَذَ به كَانَ على الهُدى، ومَنْ أَخْطَأَه ضَلَّ». وفي روايةٍ: «كتابُ الله هو حَبْلُ الله مَنِ اتَّبَعه كان على الهدى، ومَنْ تَركَه كان على ضلالةٍ». وفي رواية الترمذي عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي تارِكٌ فيكم ما إنْ تمسَّكْتُم به لَنْ تَضِلُّوا بَعْدي»، أَحْدُهُما أعظمُ من الآخرِ: وهو كتابُ الله؛ «حَبْلٌ ممدودٌ مِنَ السماء إلى الأرض، وعِتْرَتِي أهلُ

---

(١) الخازن.

بيتي، لَنْ يَفْتَرِقَا حتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحوضَ، فَانْظُروا كَيْفَ تَخْلُفوني فِيهما».

ومنها: ما أَخْرَجه مسلمٌ أيضاً: عن عُمر بن الخطاب قال: أَمَا إنَّ نبيَّكُم ﷺ قال: «إنّ الله تعالى يَرْفَعُ بهذا الكتابِ أقواماً، ويَضَعُ به آخرين».

ومنها: ما رُوي عن ابن عبّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الرجلَ الذي ليس في جوفه شيءٌ من القرآن، كالبَيْتِ الخَرِبِ». أخرجه الترمذيُّ، وقال: حديث حسن صحيح.

ومنها: ما أخرجه البخاريُّ، عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُكم مَنْ تعلَّم القرآنَ، وعلَّمه».

ومنها: ما رُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «المَاهِرُ بالقرآن مع السَّفَرَةِ الكرامِ البررة، والذي يَقرأ القرآنَ، وَيَتَعْتَعُ فيه وهو عليه شَاقٌّ له أجرانِ». متّفق عليه. (الماهرُ): الحَاذِق الكاملُ الحفظِ، الجَيِّد التلاوة. (يتعتع)؛ أي: يَتَرَدَّدُ في تلاوتِهِ؛ لِضَعْفِ حفظِه. (له أجران) يعني: أَجْرٌ بسببِ القراءةِ، وأَجْرٌ بسَببِ تَعِبه فيها والمَشَقَّةِ فيها، وليس معناه: أنَّ له أجراً أَكْثَرَ مِنْ أجرِ الماهر، بل الماهرُ أفضلُ منه، وأَكْثَرُ أجراً.

ومنها: ما رُوي عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَثَلُ المؤمنِ الذي يقرأ القرآنَ؛ كمَثل الأُتْرُجَّةِ طَعْمُها طيّبٌ، وريحُها طيّب، ومثلُ المؤمن الذي لا يَقرأُ القرآن،

كمثلِ التمرةِ طَعْمُها طيّب، ولا ريحَ له، ومَثلُ الفاجر الذي يقرأ القرآن، كمثل الريحانةِ ريحُها طيّب، وطَعْمَها مرّ، ومَثلُ الفاجر الذي لا يقرأ القرآن، كمَثلِ الحنظلةِ طَعْمُها مُرٌّ، ولا ريحَ لها». متّفق عليه. فيه دَلِيْلٌ على فضيلةِ حُفَّاظ القرآن، ومَشْروعيَّةِ ضَرْبِ الأمثال؛ لإيضاح المقاصد.

ومنها: ما روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله، فلَهُ حسنةٌ، والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أقولُ: ﴿ألم﴾ حرف، ولكن أَلِفٌ حرفٌ، ولاَمٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ». أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

ومنها: ما رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله! أيُّ الأَعمالِ أَحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: «الحالُّ المرتحِلُ»، قال: وما الحالُ المرتحلُ؟ قال: «الذي يَضْرِبُ مِن أوّل القرآن إلى آخره، كُلَّما حلَّ ارتحَلَ». أخرجه الترمذي.

ومنها: ما روي عن عبد الله بن عَمِرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقْرَأ، وارْقَ، ورَتِّل كما كُنْتَ تُرْتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلَكَ عند الله آخرُ آيةِ تقرؤها» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

ومنها: ما رُوي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يَجِيءُ القرآنُ يوم القيامة، فيقول: يا رَبِّ! حَلِّهِ، فيُلْبَس تاجَ الكَرامةِ، ثُمَّ يقول: يا ربِّ! زدْه، فيُلْبَس حُلَّةَ الكرامةِ، ثُمَّ يقول: يا ربِّ! ارْضَ

عنه، فيَرْضَى عنه، فيُقال: اقرأ، وارْقَ، ويُزادُ بكلّ آية حسنةً».
أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن.

ومنها: ما رُوي عن سهلِ بن معاذ الجُهَنيِّ، عن أبيه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن وعَمِل به، أُلْبِسَ وَالِدَاهُ يومَ القيامة تاجاً، ضَوْءُهُ أحسنُ مِنْ ضَوءِ الشمس في بيوتِ الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنُّكم بالذي عَمِلَ بهذا» أخرجه أبو داود.

ومنها: ما رُوِي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأَ القرآنَ فَاسْتَظْهَرُه، فأَحَلَّ حلالَه، وحرَّم حرامَه، أَدْخَلَه الله الجنَّة، وشفَّعهُ في عَشَرةٍ مِنْ أهلِ بَيْتِهِ، كلُّهم قد وجبَتْ لهم النارُ». أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب، وليس له إسناد صحيح.

ومنها: ما رُويَ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أَذِنَ الله لشيءٍ، كَإِذْنِهِ لِنَبيٍّ يتغنَّى بالقرآن يَجْهَرُ به» متّفقُ عليه. ما أذن الله، أي: اسْتَمَعَ لمن يتغنَّى بالقرآن، أي: يُحسِّن صوتَه به.

ومنها: ما رُوي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس مِنّا من لم يتغنَّ بالقرآن».

ومنها: ما روي عن عُقْبَةَ بن عامر ـ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الجاهرُ بالقرآن كالجاهرِ بالصدقةِ، والمُسرُّ بالقرآن كالمُسرِّ بالصدقة» أخرجه أبو داود، والنسائيُّ، والدارِميُّ، والترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وفي «مُسْنَد أبي داود الطيالِسيِّ: وهو أوّلُ مُسْنَد أُلِّفَ في الإسلام، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ.

قال: «من قام بعشرِ آيات، لم يُكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية، كُتب من القانتين، ومن قام بألفِ آية، كُتب من المُقَنْطِرِينَ». والآثارُ في معنى هذا الفصل كثيرةٌ، وفيما ذكَرْنَاه كفايةٌ، والله المُوفِّقُ للهِدَايةِ.

والله أعلم

* * *

الفصل الثاني

في كيفيةِ التلاوةِ لكتابِ الله تعالى، وما يُكْرَهُ منها، وما يَحْرُم، واخْتِلاَفِ الناس في ذلك[1]

روى البخاري، عن قتادة قال: سأَلْتُ أَنسَاً عن قراءةِ رسول الله ﷺ؟ قال: (يَمُدُّ مدّاً، إذ قَرَأَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾، يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ ويَمُدُّ بالرحمن ويَمُدُّ بالرحيم).

وروى الترمذي، عن أمّ سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يُقطِّعُ قراءته، يقول: «الحمدُ لله ربّ العالمين»، ثُمَّ يقف الرحمن الرحيم، ثُمّ يقف، وكان يَقْرَأُ مالك يوم الدين. قال: حديث غريب. وأخرجه أبو داود بنحوه.

ورُوِي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «أحسنُ الناس صوتاً؛ مَنْ إذا قَرَأَ رَأَيْتَهُ يَخْشَى الله تعالى».

ورُويَ عن زيادٍ النُّمَيْرِي: «أنّه جاء مع القُرَّاءِ إلى أنس بن مالك، فقِيلَ لَهُ: اقْرَأْ، فرَفَعَ صوتَهُ وطرَّبَ؛ وكان رَفيعَ الصَّوْتِ، فَكَشَفَ أنسٌ عن وَجْهِهِ، وكان على وَجْهِهِ خِرْقَةٌ سوداءُ، فقال: (يا هذا ما هكَذا يفعلُون)، وكان إذا رَأَى شيئاً يُنْكِرُه، كَشَفَ عن وَجْهِهِ الخرقةَ.

---

(١) القرطبي.

وروي عن قيسِ بن عبَّاد أنّه قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يَكْرَهُونَ رَفْعَ الصوتِ عند الذِكْرِ، ومِمَّنْ رُوي عنه كراهةُ رفعِ الصوت عند قراءة القرآن: سعيدُ بن المسيِّب، وسعيدُ بن جبير، والقاسمُ بن محمد، والحسنُ، وابنُ سيرين، والنَّخَعِيُّ وغيرُهم، وكَرِهه مالكُ بن أنس، وأحمدُ بن حنبل، كُلُّهم كَرِه رَفْعَ الصوتِ بالقرآن، والتَّطْرِيبَ فيه.

وروي عن سعيد بن المسيب: أنّه سَمع عُمرَ بن عبد العزيز يُؤُمُّ الناسَ، فطرَّبَ في قراءته، فأَرْسَلَ إليه سعيدٌ يقول: أَصْلَحَكَ الله! إنَّ الأمّة لا تَقْرأُ هكذا، فتَرَكَ عُمرُ التَّطْرِيبَ بَعْدُ.

ورُويَ عن القاسم بن محمد: أنّ رجلاً قَرأَ في مسجدِ النبي ﷺ فطرَّب، فأَنكَرَ ذلك القاسمُ وقال: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ الآية.

ورُوي عن مالك: أنَّه سُئل عن النَّبْرِ في قراءةِ القرآن في الصلاةِ، فَأنكر ذلك، وكَرِهَهُ كراهةً شديدة، وأَنْكرَ رَفْعَ الصوتِ به.

ورَوى ابنُ القاسم عنه: أنّه سُئل عَنِ الألْحَانِ في الصلاة؟ فقال: لا يعجِبُني، وقال: إنّما هو غِناءٌ يَتَغَنَّوْنَ بهِ؛ ليَأْخُذُوا عليه الدَّراهِمَ. وأجازَتْ طائفةٌ رَفْعَ الصوتِ بالقرآنِ والتطريبَ به؛ لأنّه إذا حَسُنَ الصوتُ به، كان أَوْقَعَ في النُّفُوسِ وأَسْمَعَ في القلوب، واحْتجُّوا بقوله ﷺ: «زَيِّنوا القرآنَ بأَصْوَاتِكم» رواه البَرَاءُ بن عازبٍ. أخرجه أبو داود والنسائي. وبقوله ﷺ: «ليس منّا من لم

يتغنّ بالقرآن»، أخرجه مسلم. وبقول أبي موسى للنبي ﷺ: (لو أعلم أنّك تستمع قراءتي لَحَبَّرْتُهُ لك تحبيراً). وبما رواه عبد الله بن مغفّل، قال: قَرأَ رسولُ الله ﷺ، عام الفتح في مَسِيرٍ له، (سُورةَ الفتح) على راحلتِهِ، فَرَجَّع في قراءته.

ومِمَّنْ ذَهَبَ إلى هذا أبو حنيفة، وأصحابُه، والشافعيُّ، وابنُ المبارك، والنضرُ بن شُميل، وهو اختيارُ أبي جعفر الطبري، وأبي الحسن بن بَطّالٍ، والقاضي أبي بكرٍ بن العربي، وغيرِهم. قلتُ: القولُ[1] الأولُ أصحُّ لِما ذكَرْناه ويَأْتي، وأمّا ما احتجُّوا به من الحديثِ الأوّل؛ فليس على ظاهرِهِ؛ وإنّما هو من المَقْلُوب، أي: زَيِّنوا أصواتكم بالقرآنِ. قال الخطَّابي، وكذا فسّره غَيْرُ واحدٍ من أئمة الحديث. (زيّنوا أصواتكم بالقرآن) وقالوا: هو من المقلوب، كما قالوا: عَرضْتُ الحوضَ على الناقةِ؛ وإنّما هُو عَرَضْتُ الناقةَ على الحوضِ. قال: ورواه مَعْمَرٌ، عن منصور، عن طلحة، فقدَّم الأصواتَ على القرآن، وهو الصحيح. قلتُ: وهذا الخلافُ ما لم يَمْنَعْ فَهْمَ معنى القرآنِ بتَرْدِيدِ الأصوات، وكثرةِ التَّرْجِيعاتِ، فإنْ زَاد الأَمْر على ذلك حتى لا يُفْهم معناه، فذلك حرامٌ باتفاقٍ، كمَا يفعلُ القُرَّاءُ بالدِيَارِ المِصْريَّةِ، الذين يَقْرَؤُون أمَامَ المُلُوكِ والجَبَابرَةِ، وَيأْخُذون على ذلك الأُجُورَ والجَوائز، ضَلَّ سَعْيُهم وخَابَ عَملُهم، فيَستَحِلُّونَ بذلكَ تَغْيِيرَ كتابِ الله، ويُهوِّنُون على أنفسهم الاجتراءَ على الله، بِأَنْ يَزِيدُوا في تنزيلهِ ما ليس فيه، جَهْلاً

---

(١) الطبري.

بدِيْنِهِم، ومُروقاً عن سنّةِ نبيّهم، ورَفْضاً لِسِيَرِ الصَّالحين فيهِ مِنْ سَلَفِهِم، ونُزُوعاً إلىَ ما يُزَيِّنُ لهم الشيطانُ مِن أعمالهم، وهم يَحْسَبُون أنّهم يُحسنون صُنْعهم، فهم في غَيِّهم يَتردَّدُون، وبكتاب الله يَتَلاعَبون، فإنَا لله وإنّا إليه راجعون. لكن قد أَخْبَرَ الصادق المصدوق: أنّ ذلك يكون، فكان كما أَخْبَرَ النبيُّ ﷺ. ذَكَرَ الإمامُ الحافظُ، أبو الحسن رَزِينٌ، وأبو عبد الله، التِرمذيُّ الحكيمُ في «نوادرِ الأصول»، مِنْ حديثِ حُذيفة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «اقرأُوا القرآنَ بِلُحُونِ العرب، وأَصْواتِها، وإيّاكم ولُحونَ أهلِ الفِسْقِ، ولُحونَ أهلِ الكتابينِ، وسيَجِيءُ بعدي قومٌ يُرَجِّعُون بالقرآنِ ترجيعَ الغِنَاءِ، والنَّوحِ لا يُجاوِزُ حَناجِرَهم، مفتونةً قُلُوبُهم، وقلوبُ الذين يُعْجِبُهم شَأْنُهم».

اللُّحون: جمع لَحْنٍ: وهو التَّطْرِيْبُ، وترجيعُ الصوتِ، وتَحْسِينه بالقِراءةِ، والشعرِ، والغِناءِ، قال عُلَمَاؤُنا: ويُشْبِهُ أن يكون هذا الذي يفعلُهُ قُرَّاءُ زَمَانِنا بَيْنَ يَدَيْ الوُعَّاظِ، وفي المجالِس من اللُّحونِ الأَعْجَمِيَّةِ، الَّتِي يَقْرَؤُون بها، ما نَهَى عنه رسولُ الله ﷺ.

والترجيعُ في القراءةِ: تَرْدِيْدُ الحُرُوف، كقراءةِ النصارى.

والترتيلُ في القراءةِ: هو التَّأنِيّ فيها، والتمهُّلُ، وتَبْيِينُ الحروفِ، والحركاتِ؛ تَشْبيهاً بالثغْرِ المُرتَّلِ، وهو المُشْبِهُ بِنور الأُقْحُوَانِ، وهو المَطْلُوب في قراءةِ القرآن، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾. وسُئِلَتْ أُمُّ سلمة؛ عن قراءةِ رسول الله ﷺ وصلاتِه؟ فقالت: (ما لكم وصَلاَتِهِ)، ثمّ نَعَتَتْ قراءته، فإذا هي تَنْعَتُ قراءةً

مُفسَّرَةً حرفاً حرفاً. أخرجه النسائي، وأبو داود، والترمذي، وقال هذا حديثٌ صحيحٌ غريب.

والله أعلم

* * *

الفصل الثالث

في تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء، وغيره

قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾.

روى مسلم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّل الناس يُقْضَى عليه يومَ القيامة؛ رجلٌ اسْتُشْهِدَ فأُتِيَ به، فَعَرَّفه نِعَمَه، فَعَرَفَهَا، قال: فما عملْتَ فيها؟ قال: قاتلْتُ فيك حتّى اسْتُشْهِدتُ، قال: كذَبْتَ، ولكنَّك قاتلْتَ ليُقالَ: جَرِيءٌ، فقد قِيلَ، ثُمَّ أُمِر به فسُحِب على وَجْهِهِ، حتى أُلْقِي في النار، ورجلٌ تَعَلَّمَ العِلْم، وعلَّمُه، وقرأَ القرآن. فأُتِي به، فعرَّفه نِعَمه، فعَرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمْتُ العلمَ وعلَّمْتُه، وقرأْتُ فيك القرآنَ، قال: كَذَبْتَ، ولكنَّك تعلَّمْتَ العِلْمَ ليُقال: عالمٌ، وقرأْتَ القرآنَ ليقال: هو قارىءٌ، فقد قِيل، ثُمَّ أُمِرَ به فسُحب على وجهه، حتى أُلقي في النار، ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصنافِ المال كلِّه، فأُتي به، فعرَّفه نِعمَه، فعرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تركْتُ فيها مِنْ سبيل تُحبُّ أن يُنْفَق فيها، إلاّ أَنْفَقْتُ فيها لَكَ، قال: كَذَبْتَ، ولكنَّك فعلْتَ لِيُقال: هو

جَوادٌ، فقد قيل، «ثمّ أُمِر به فسُحب على وجهه، حتى أُلقي في النار». وقال الترمذيُّ في هذا الحديث: ثُمَّ ضرَب رسولُ الله ﷺ على ركبتي، فقال: «يا أبا هريرة! أُولئك الثلاثةُ أوّلُ خَلْقِ الله، تُسعَّر بهم النارُ يوم القيامة». قال ابن عبد البرّ: وهذا الحديث، فيمن لم يُرِدْ بعَمَلِهِ، وعِلْمِهِ وَجْهَ الله تعالى.

ورُويَ عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَن طَلب العِلْم لغيرِ الله، أو أراد به غَيْرَ الله، فَلْيَتَبَوَّأْ مقعدَهُ من النار».

وأخرج ابنُ المبارك في «رَقائِقِهِ» عن العباس بن عبدِ المطلّب. قال: قال رسول الله ﷺ: «يَظهرُ هذا الدينُ حتى يُجاوِزَ البحارَ، وحتى تُخاضَ البحار، بالخيلِ في سبيل الله تبارك وتعالى، ثُمَّ يَأْتِي أقوامٌ يَقْرءُون القرآن، فإذا قَرءُوهُ قالوا»: مَنْ أَقْرَأُ مِنّا، مَنْ أَعْلَمُ منّا؟ ثم الْتَفَتَ إلى أصحابه، فقال: «هل تَرُون في أُولئِكم مِنْ خير؟» قالوا: لا، قال: «أولئك منكم، أولئك مِنْ هذه الأُمَّة، وأولئك هم وَقُودُ النَّار».

وروى أبو داود، والترمذي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلّم علماً مِمَّا يُبتغىٰ به وَجْهُ الله، لا يتعلَّمُه؛ إلاّ ليُصِيبَ به عَرَضاً من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنّة يوم القيامة». يعني: ريحها. قال الترمذي: حديث حسن.

وروى الترمذي أيضاً: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعوَّذُوا بالله مِنْ جُبِّ الحُزْنِ»، قالوا: يا رسول الله! وما جُبُّ الحُزن؟ قال: «وادٍ في جَهنَّمَ، تَتَعوَّذُ منه جهنَّمُ في كُلِّ يوم

مائةَ مرّة»، قيل: يا رسول الله! ومَنْ يَدْخُلُهُ؟ قال: «القُرَّاءُ المُراءُون بأَعْمالِهم»، وقال هذا حديث غريب.

وفي كتابِ أَسَد بن موسى: أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ في جهنّم وادياً، إنَّ جهنّمَ تتَعَوَّذُ مِن شرّ ذلك الوادِي، كُلَّ يومٍ سَبْعَ مرّات، وإنّ في ذلك الوادي لَجُبّاً، إنَّ جهنَّمَ، وذلك الواديَ؛ ليتعوّذَانِ بالله مِنْ شرّ ذلك الجُبِّ، وإنّ في الجبّ لَحَيَّةً، وإنّ جهنَّم والواديَ والجُبَّ؛ لَيتعوَّذُون بالله مِنْ شر تلك الحَيَّةِ سبعَ مرات، أعدَّها الله تعالى للأَشْقِياء مِنْ حَمَلَةِ القرآنِ، الذين يَعْصُون الله». فيجبُ على حاملِ القرآن، وطالبِ العلم أن يَتَّقِي الله في نَفْسِهِ، ويُخْلِصَ العملَ لله، فإنْ كان تَقدَّم له شيءٌ مِمَّا يُكْرَهُ؛ فَلْيُبادِرِ التَّوْبَةَ والإنابةَ، وَلَيْبتَدِىء الإخْلاصَ في التوبةِ وعَمَلِهِ، فالذي يَلْزَمُ حاملَ القرآنِ من التحفُّظ، أَكْثَرُ مِمَّا يَلْزَمُ غَيْرَهُ، كما أنَّ له من الأَجْرِ ما ليس لِغيره.

وأخرج الطبريُّ في كتابِ «آدابِ النفوس» قال: حدّثنا أبو كُرَيب، محمدُ بن العلاء، حدثنا المُحاربيُّ، عن عَمرو بن عامر البَجَليِّ، عن ابن صدقة، عن رَجُل مِن أصحاب النبي ﷺ، أَوْ عمَّن حَدَّثه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُخادِعِ الله؛ فإنّه مَنْ يُخادِعِ الله يخْدعه الله، وَنَفْسَه يَخْدَعُ لو يَشْعُر» قالوا يا رسول الله. وكيف يُخادع الله؟ قال: «تعمل بما أَمرَكَ الله به، وتَطْلُب به غَيْرَه، واتقوا الرياء، فإنَّهُ الشِرْكُ، وإنَّ المُرائِي يُدْعَى يومَ القيامة على رؤوس الأشهاد بأربعةِ أسماءٍ، يُنْسَب إليها: يا كافرُ! يا فاجرُ! يا غادِرُ! يا

خاسرُ! ضل عَملُك، وبَطَلَ أَجْرُكَ، فلا خَلاقَ لك اليومَ، فالْتمِسْ أَجْرَكَ مِمَّن كنت تَعْمَلُ لهُ، يا مُخادِع.

وروى علقمة، عن عبدِ الله بن مسعود، قال: (كيف أنتم، إذا لِبسَتْكُم فِتْنَةٌ يَرْبُوا فيها الصغيرُ، ويَهْرِمُ الكَبيرُ، وتُتَّخذ سُنةٌ مُبتدَعَة، يَجْرِي عليها الناسُ؟ فإذا غُيِّر منها شيءٌ)، قِيلَ: قَدْ غُيرتْ السُّنَةُ، قيل: مَتَى ذلك يا أَبا عبدِ الرحمن؟ قال: «إذا كثر قرَّاؤُكم، وقلّ فُقهاؤُكم، وكَثُر أُمراؤُكم، وقَلَّ أُمناؤُكم، وَالْتُمِسَتْ الدنيا بعملِ الآخرةِ، وتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّين). وقال سُفْيانُ بن عُيينة: بَلَغَنا عن ابن عباس أنَّه قال: (لَوْ أنَّ حملَةَ القرآنِ أخذُوهُ بحَقّهِ، وما يَنْبَغي؛ لأَحبَّهم الله، ولكن طَلَبوا به الدنيا، فأَبْغضَهم الله، وهَانُوا على الناس).

ورُوي عن أبي جعفر، محمدِ بن علي في قول الله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾، قال: قومٌ وَصَفُوا الحقَّ والعدلَ بألسنتهم، وخَالَفُوه إلى غيره.

والله أعلم

* * *

الفصل الرابع

في ذِكْر ما ينبغي لصاحب القرآن أن يُلْزِمَ نفسه به، ولا يَغْفَل عنه

فأوَّلُ ذلك أن يُخْلِص في طلبه لله عزّ وجلّ، كما ذكَرْنا، وأن يأخذَ نَفْسه بقراءة القرآن، في ليلهِ، ونهارِه، في الصلاةِ، أو في غيرِ الصلاةِ؛ لئلاَّ يَنْسَاهُ.

رَوى مسلمٌ، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّما مَثَلُ صَاحِبِ القرآن، كَمَثلِ صاحِبِ الإبلِ المُعْقَلةِ، إن عاهَدَ عليها أَمْسَكَها، وإن أَطْلَقَها ذهبَتْ، وإذا قام صاحبُ القرآن، فقَرأَه بالليلِ والنهارِ؛ ذَكَره، وإن لم يَقُم به؛ نَسِيَهُ».

وينبغي له: أن يكون لله حامداً، ولنِعَمِهِ شاكراً، وله ذاكراً، وعليه مُتوكِّلاً، وبه مُستعيناً، وإليه راغباً، وبه مُعتصماً، وللموتِ ذَاكراً، وله مُستعدّاً.

ويَنْبَغِي له: أن يكونَ خائفاً مِنْ ذَنْبِهِ، راجياً عَفْوَ ربّه، ويكون الخوفُ في صِحّته أَغْلَبَ عليه، إذْ لا يَعْلَمُ بِمَ يُخْتَمُ له، ويكون الرَّجَاءُ عِنْدَ حُضورِ أَجلهِ، أَقْوَى في نَفسِهِ؛ لِحُسْن الظنّ بالله تعالى. قال رسول الله ﷺ: «لا يَمُوتَنَّ أحدُكم إلاّ وهو مُحسِّنٌ بالله الظنَّ» أيْ: أنَّه يرحمُهُ، ويغفرُ له.

وينبغي له: أنْ يكونَ عالماً بِأَهْلِ زَمانِهِ، مُتحفِّظاً مِنْ سُلطانِهِ، سَاعياً في خَلاصِ نفسه، ونَجاةِ مُهْجَتِهِ، مُقدِّماً بَيْنَ يدَيه ما يَقْدِرُ عليه مِنْ عَرضِ دُنْيَاهُ، مُجاهِداً لِنَفْسِهِ في ذلك ما اسْتَطَاعَ.

وينبغي له: أَنْ يكون أَهمُّ أموره عنده الوَرَعَ في دِيْنِهِ، واستعمالَ تقوى الله، ومُراقَبتَه فِيْما أَمَرَهُ به، ونهَاهُ عنه. وقال ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (ينبغي لقارىءِ القرآنِ: أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إذا الناسُ نائمون، وبِنَهارِهِ إذا الناسُ مُستَيْقِظُون، وببكائِهِ إذا النَّاسُ يضحكُون، وبِصَمتِهِ إذا الناس يَخُوضُون، وبخُشُوعِهِ إذا الناسُ يَخْتَالُون، وبُحزْنِهِ إذا الناسُ يَفْرَحُون).

وقال عبدُ الله بن عمرو: (لا يَنْبَغِي لحاملِ القرآن أنْ يَخُوضَ مع مَنْ يَخُوض، ولا يَجْهَلَ مع من يَجْهلُ، ولكن يَعْفُو، ويَصْفَحُ لِحَقِّ القرآن؛ لأنَّ في جَوفِهِ كلامَ الله تعالى).

وينبغي له: أن يأخُذ نَفْسَه بالتَّصَاوُنِ مِنْ طُرُقِ الشُّبُهَاتِ، ويُقلِّل الضحكَ، والكلامَ في مجالسِ القرآن، وغيرِها بما لا فائدةَ فيه، ويأْخُذ نَفْسَه بالحِلْم والوَقار.

وينبغي له: أن يتواضَع لِلفُقراء، ويَتَجنَّب التَّكبرَّ والإعْجاب، ويَتجافى عن الدنيا وأَبْنَائِها، إنْ خَافَ على نفسِهِ الفتنةَ، ويَتْرُكَ الجِدالَ والمِراءَ، ويأْخُذَ نَفْسَه بالرِفْقِ والأَدَبِ.

وينبغي له: أن يكُون مِمَّنْ يُؤْمَنُ شَرُّهُ، ويُرْجَى خَيْرهُ، ويُسْلَمُ مِن ضُرِّه، وأَنْ لا يَسْمَعَ مِمَّنْ نَمَّ عنده، ويُصاحِبَ مَنْ يُعاوِنُه على الخيرِ، ويَدُلُّه على الصِدْقِ، ومكارمِ الأخلاق، ويَزِيْنُه ولا يَشِيْنُهُ.

وينبغي له: أنْ يَتعلَّم أحكامَ القرآنِ ، فَيَفْهَمَ عن الله مُرادَه، وما فَرَضَ عليه، فَينتَفِعَ بما يقرأُ، ويعملَ بما يَتْلُوه، فما أَقْبَحَ لِحامِلِ القرآنِ ، أنْ يَتْلُوَ فرائضَهُ، وأحكامَه عن ظَهْرِ قَلْبٍ ، وهُو لا يَفْهَمُ ما يَتْلُوه! فكيف يَعْمَلُ بما لا يَفْهَم معناه؟ وما أَقْبَحَ أَنْ يُسْأَل عن فِقْهِ ما يَتْلُوه، ولا يَدْرِيه! فمَا مَثَلُ مَنْ هذه حالَتُه، إلاّ كَمَثلِ الحمارِ يَحْمِلُ أسفاراً.

ويَنْبَغِي له: أنْ يَعْرِفَ المَكِّيَّ من المَدني؛ لِيُفَرِّقَ بذلك بَيْنَ ما خاطَبَ الله به عبادَه في أوّلِ الإسلام، وما نَدَبَهم إليه في آخرِ الإسلام، وما افْتَرَضَ الله في أوّلِ الإسلام، وما زَادَ عليهم من الفرائضِ في آخرِه، فالمَدِنيُّ: هو الناسخُ للمكِّي في أَكْثرِ القرآن، ولا يُمكِنُ أَنْ يَنْسخَ المكيُّ المدني؛ لأنَّ المنسوخ هو المُتقدّمُ في النزولِ قَبْلَ الناسخ له.

ومِنْ كمالِهِ: أن يَعْرِفَ الإعرابَ والغَرِيبَ، فذَلك مِمَّا يُسهِّلُ عليه معرفةَ مَا يَقْرأُ، ويُزِيلُ عنه الشَكَّ فيما يَتْلُو. وقد قال أبو جعفرٍ الطبريُّ: سمعْتُ الجَرْمِيَّ يقول: أنا مُنْذُ ثلاثين سنة، أُفْتِي الناسَ في الفِقْهِ مِن كتاب سيبويه. قال محمدُ بن يزيد: وذلك أنَّ أبا عُمر الجَرْمِيَّ، كان صاحبَ حديثٍ ، فَلمَّا عَلِمَ كتابَ سيبويه، تَفقَّه في الحَديثِ ، إذْ كانَ كتابُ سيبويه يَتعلَّمُ منه النَّظرَ، والتفسيرَ، ثُمَّ يَنْظُر في السُّنَنِ المأثورةِ، الثابتةِ عن رسول الله ﷺ، فبها يَصِلُ الطالبُ إلى مراد الله عزّ وجلّ في كتابِهِ، وهي تَفْتَحُ له أحكامَ القُرآنَ فتحاً. وقد قال الضَحَاك في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا

رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال: (حَقٌّ على مَنْ تعَلَّم القرآن، أن يكون فَقِيهاً، وذَكَر ابنُ أبِي الحُواريِّ قال: أتَيْنَا فُضيلَ بن عِياض، سنةَ خمسٍ وثمانينَ ومائةٍ، ونحن جماعة، فوقَفْنَا على الباب، فلم يَأْذَنْ لنا بالدُّخُولِ، فقال بعضُ القوم: إن كان خارجاً لشيءٍ، فسَيَخْرُج لِتلاَوةِ القرآن، فأَمَرْنَا قارئاً فَقَرَأَ، فاطَّلع عَلَيْنا مِنْ كُوَّةٍ فقُلْنا: السلامُ عليك ورحمةُ الله، فقال: وعليكم السلامُ، فَقُلنا: كيفَ أنتَ يا أبا عليٍّ؟ كيف حَالُكَ؟ فقال: أنا مِن الله في عافيةٍ، ومنكم في أذًى، وإنَّ ما أنتم فيه حَدَثٌ في الإسلام، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ما هكذا كنّا نَطْلُب العِلْمَ، ولكنّا كُنَّا نَأْتِي المَشْيَخَةَ، فلا نَرى أنْفُسنا أهلاً للجُلُوسِ معهم، فنَجْلِسُ دُونَهم ونَسْتَرِقُ السَّمْعَ، فإذا مَرَّ الحديثُ سَأَلْناهم إعادتَه وقيَّدْنَاهُ، وأنتم تَطلُبون العِلم بالجَهْلِ، وقد ضَيَّعْتُم كتابَ الله، ولو طلَبْتُم كتابَ الله لوجدتُم فيهِ شِفاءً لِمَا تُرِيدُون، قال: قلْنَا قد تَعلَّمْنَا القرآنَ، قال: إنّ في تَعلُّمِكم القرآنَ، شُغْلاً لأعْمَارِكم، وأَعْمارِ أَوْلادِكم، قُلْنَا: كَيْفَ يا أَبا عليّ؟ قال: لَنْ تَعْلَمُوا القرآنَ، حتى تَعرِفوا إعرابه، ومُحْكَمه مِنْ مُتشابهِهِ، وناسخَه مِن منسوخه، فإذا عرفتم ذلك اسْتَغْنَيتم عن كلامِ فُضَيلٍ، وابْنِ عيينة، ثُمَّ قال: أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾.

قلتُ: فإذا حصلَتْ هذه المراتبُ لقارىءِ القرآن، كان ماهراً

بالقرآن، وعالماً بالفُرْقان، وهو قريبٌ على مَنْ قرَّبه الله عليه، ولا ينتَفِعُ بشيءٍ مِمَّا ذَكَرْنا؛ حتى يُخْلِصَ النيّة فيه لله عزّ وجلّ عند طَلَبِه، أو بَعْد طلبِهِ، كما تقدّم. فقد يَبتدِئُ الطالبُ للعلمِ، يُريد بِهِ المُبَاهَاةَ، والشرفَ في الدنيا، فلا يَزالُ به فَهْمُ العِلم، حتى يَتبيَّن له أنَّهُ على خَطأ في اعتقادِهِ، فيتُوبُ من ذلك، ويُخْلِصُ النيَّةَ لله تعالى، فينتفعُ بذلك ويَحْسُنُ حالُه.

قال الحسنُ: كُنّا نَطْلبُ العِلْمَ للدنيا، فجَرَّنا إلى الآخرةِ. قاله سفيانُ الثوري. وقال حبيبُ بن أبي ثابت: طلَبْنَا هذا الأَمْرَ، وليس لنا فيه النيةُ، ثُمَّ جاءَتْ النيّةُ بَعْدُ.

والله أعلم

* * *

الفصل الخامس

في ما جَاءَ في إعراب القرآن، وتعليمِهِ، والحَثِّ عليه، وثوابِ مَنْ قَرَأَ القرآنَ مُعْرَباً

قال أبو بكر الأنباريُّ: جاء عن النبي ﷺ، وعن أصحابه، وتابعِيهم ـ رِضوانُ الله تعالى عليهم أجمعين ـ مِنْ تَفصيلِ إعراب القرآنِ، والحَضِّ على تعليمه، وذمِّ اللَّحْنِ وكَراهِيتِهِ، ما وَجَبَ به على قرّاءِ القرآن، أن يَأْخُذُوا أنفُسَهم بالاجتهادِ في تَعلُّمِهِ.

من ذلك: ما حدّثنا يحيى بن سليمان، الضبّيُّ، قال: حدّثنا محمدٌ يعني: ابنَ سعيد، قال: حدّثنا أبو معاوية، عن عبد الله بن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبيه، عن جدِّه، عن أبي هُريرة: أنَّ النبي ﷺ قال: «أَعْرِبُوا القرآنَ، وَالْتَمِسُوا غَرائِبَه». حدّثني أبي، قال: حدّثنا إبراهيمُ بن الهَيْثم، قال: حدّثنا آدمُ يعني: ابنَ أبي إياسٍ. قال: حدّثنا أبو الطَيْب المَرْوَزِيُّ قال: حدّثنا عبدُ العزيز بن أبي روّاد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ القرآنَ فلم يُعرِبْه، وُكِّل به ملك يكتب له، كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه، وكل به ملكان يكْتُبان له بكُلِّ حَرْفٍ عشرين حسنةً، فإنْ أَعْربَه، وُكّل به أربعةُ أَمْلاكٍ يَكْتُبون له بكُلِّ حرفٍ سبعين حسنةً».

ورَوَى جُوَيْبرٌ عن الضحاك قال: قال عبدُ الله بن مسعود: (جَوِّدوا القرآن، وزَيِّنُوهُ بأحْسنِ الأَصْوَاتِ، وأَعْرِبُوهُ، فإنّه عَرَبِيٌّ، والله يُحِبُّ أَنْ يُعْرَب به).

وعن مجاهد، عن ابن عمر قال: (أعرِبوا القرآن). وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد قال: قال أبو بكر، وعُمر ـ رضي الله عنهما ـ: (إعْرَابُ القرآنِ، أحبُّ إلينا مِنْ حفظِ حُروفه). وعن الشَّعْبِيّ قال: قال عُمر ـ رضي الله عنه: (مَنْ قرأَ القرآن فأَعرَبَهُ، كان له عندَ الله أجر شهيد). وقال مكحولٌ: بَلَغَنِي أنَّ مَنْ قَرَأَ بإعْرابٍ، كانَ لَهُ مِن الأَجْرِ ضِعْفانِ ممَّنْ قَرَأَ بغَيْرِ إعرابٍ.

ورَوَى ابن جُريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحِبُّ العَرَبَ لثلاثٍ، لأنّي عربيٌّ، والقرآنَ عربيٌّ، وكلامَ أهل الجنّة عربيّ».

ورَوَى سفيانُ، عن أبي حمزة قال: قيل للحسن في قوم يَتعلَّمُون العربيةَ، قال: (أَحْسَنُوا)، يتعلَّمُون لغةَ نبيّهم ﷺ. وقيل للحسنِ: إنَّ لنا إماماً يَلْحَنُ، قال: (أَخِّرُوهُ). وعن ابن أبي مُليكة قال: قَدِمَ أعرابيٌّ في زمانِ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: مَنْ يُقْرِئُني مِمَّا أنزل الله على محمد ﷺ؟ قال: فأَقْرأَهُ رجلٌ (براءةُ) فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ بالجرّ، فقال الأعرابيُّ: أو قَدْ برىء الله مِن رسوله؟ فإن يكن الله بَرِىءَ مِنْ رسوله، فأَنَا أَبْرَأُ مِنه، فبَلَغَ عمرَ مقالةُ الأعرابي فَدَعَاه، فقال: يا أعرابيُّ! أَتَبْرأُ مِن رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين! إنّي

قدمتُ المدينةَ، ولا عِلْمَ لي بالقرآن، فسأَلْتُ: مَنْ يُقرئني؟ فأقرأني هذا (سورةَ براءةُ)، فقال: إنّ الله بريءٌ من المشركين ورسوله، فقُلْتُ: أَوَ قَدْ بَرِىءَ الله مِنْ رسولهِ؟ إنْ يكُن الله بَرِىءَ مِن رسولِهِ، فأنا أَبْرَأُ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابيُّ! قال: فَكَيْفَ هي يا أمير المؤمنين؟ قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، فقال الأعرابيُّ: وأنا والله أَبْرأُ مِمّا برىء الله ورسولُهُ منه، فأمر عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أَنْ لا يُقْرِىءَ الناسَ إلاَ عالِمٌ باللُّغة، وأمَرَ أبا الأسود فوَضع النَّحْوَ.

وعن عليّ بن الجَعْدِ، قال: سمعتُ شعبةَ يقول: مَثَلُ صاحِب الحديث الذي لا يَعرِفُ العربيةَ؛ مَثلُ الحِمار عليه مِخْلاةٌ لا علف فيها. وقال حمادُ بن سلمة: مَنْ طَلَبَ الحديث، ولم يتعلَّم النَّحْوَ، أو قال العربيةَ ـ فهو كَمَثلِ الحمار، تُعلَّقُ عليه مخلاةٌ ليس فيها شعير. قال ابنُ عطيّة: إعرابُ القرآنِ أَصْلٌ في الشريعة؛ لأنَّ بذلك تَقومُ مَعَانِيه التي هي الشَّرْعُ. قال ابنُ الأنباري: وجاء عن أصحاب النبي ﷺ، وتابعيهم ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ من الاحتجاجِ على غَرِيب القرآن، ومُشْكِلِهِ باللغةِ والشِعرِ، ما بَيَّن صِحَّة مذهبِ النحويين في ذلك، وأَوْضَح فسادَ مذاهِب مَنْ أَنْكَر ذلك عليهم.

مِنْ ذلك: ما حدّثنا عُبيدُ بن عبد الواحد بن الشريف البَزَّازُ، قال: حدّثنا ابنُ أبي مريم، قال: أنبأنا ابن فَرُّوخ، قال: أخبرني أُسامة، قال: أخبرني عكرمة أنَّ ابنَ عباس قال: (إذا سَأَلْتَمُوني

عن غريبِ القرآن، فَالْتَمِسوه في الشعر؛ فإنَّ الشعرَ دِيوانُ العرب).

وحدّثنا إدريسُ بن عبد الكريم، قال: حدّثنا خَلَفٌ، قال: حدّثنا حمّاد بن زيد، عن عليٍّ بن زيد بن جُدعان، قال: سمعتُ سعيدَ بن جبير، ويوسفَ بن مِهران يَقُولان: سَمِعنا ابن عباس يُسأَلُ عن الشيء فيقولُ فيه: (هكذا وهكذ، أَمَا سَمِعْتُم الشاعرَ يقولُ: كذا، وكذا). وعن عكرمة، عن ابن عباس، وسأله رجل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قال: (لا تَلْبَسْ ثيابك على غَدْرٍ) وتَمثَّل بقولِ غيلان الثقفيِّ:

فَإنِّي بِحَمْدِ الله لاَ ثَوْبَ غَادِرٍ لَبِسْتُ وَلا مِنْ سَوْءَةٍ أَتَقَنَّعُ

وسَألَ رجلٌ عكرمةَ عن الزَّنيم، قال: هو وَلَدُ الزِنا، وتمثَّل ببَيْتِ شعر:

زَنِيمٌ لَيْسَ يُعْرَفُ مَنْ أَبُوهُ بَغِيُّ الأُمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمِ

وعنه أيضاً: الزَّنِيمُ: الدَّعِيُّ الفاحشُ اللئيمُ، ثُمَّ قال:

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِجَالُ زِيَادَةً كَما زِيْدُ فِي عُرْضِ الأَدِيمِ أَكَارِعُهْ

وعنه في قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾ قال: (ذوَاتا) ظِلٌّ وأغصانٍ، أَلَمْ تَسْمَعَ إلى قولِ الشاعر:

مَا هَاجَ شَوْقَكَ مِنْ هَدِيْلِ حَمَامَةٍ تَدْعُو عَلَى فَنَنِ الغُصُونِ حَمَامَا
تَدْعُو أَبا فَرْخَيْنِ صَادَف طَائِراً ذَا مِخْلَبَينِ مِنَ الصُّقُورِ قُطامَا

وعن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم

﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ قال: (الأرضُ). وقال أُميّة بن أبي الصلت: عندهم لَحْمُ بَحْرٍ، ولَحْمُ سَاهِرَة، قال ابنُ الأنباري: والرُّواة يَرْوُون هذا البيتَ:

وَفِيْهَا لَحْمُ سَاهِرَةٍ وَبَحْرٍ   وَمَا فَاهُوْا بِهِ لَهُمُ مُقِيمُ

وقال نافعُ بن الأَزْرَقِ لابن عباس: أَخْبرْني عن قولِ الله جَلَّ وعزَّ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ما السِنَةُ؟ قال: (النُّعاسُ) قال زُهير بن سَلْمَى:

لاَ سِنَةٌ فِي طُوَالِ اللَّيْلِ تَأْخُذُهُ   وَلاَ يَنَامُ وَلاَ فِي أَمْرِهِ فَنَدُ

والله أعلم

* * *

الفصل السادس

فيما جاء في فَضْل تفسير القرآن، وأَهْلِهِ

قال علماؤنا ـ رحمهم الله تعالى ـ: وأمّا ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة، والتابعين.

فمِنْ ذلك: أنَّ عليَّ بِنَ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ذَكَرَ جابرَ بن عبد الله، ووصفَه بالعلم، فقال له رجلٌ: جُعلْتُ فداءَك، تَصفُ جابراً بالعلم، وأنت أنت، فقال: (إنّه كان يَعرِفُ تفسيرَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾). وقال مجاهد أحبُّ الخلق إلى الله تعالى، أَعْلَمُهم بما أُنْزِلَ. وقال الحسن (والله ما أَنزل الله آيةً، إلاّ أحبَّ أن يُعْلَم فيما أُنزلت، وما يُعنى بها). وقال الشعبي: رَحَلَ مَسْرُوق إلى البصرة في تفسير آية، فقيلَ له: إنّ الّذِي يفسِّرها رَحَلَ إلى الشام، فتَجهَّز ورَحَل إلى الشام، حتى عَلِمَ تفسيرَها. وقال عكرمةُ في قوله جلّ وعزّ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ طلَبْتُ اسمَ هذا الرجلِ أربعَ عشرة سنة، حتى وَجدْتُه. وقال ابنُ عبد البر: هو ضمرةُ بن حَبيب، وسيأتي. وقال ابنُ عباس: (مَكَثْتُ سنتَين، أُريد أَنْ أسألَ عُمر، عن المرأتين اللّتين تظَاهَرتا على رسول الله ﷺ، ما يَمْنَعُنِي إلاّ مهَابَتهُ، فسأَلْتُه، فقال: هما حفصةُ، وعائشة). وقال إياس بن

معاوية: مَثَلُ الذين يقرؤون القرآن، وهم لا يعلمون تفسيرَهُ، كَمَثلِ قومٍ جاءهم كتابٌ مِنْ مَلِكهم لَيْلاً، وليس عندهم **مِصْبَاحٌ**، فتَداخلَهم رَوْعَةٌ، ولا يَدْرُون ما في الكتاب، ومثلُ **الذي يَعِرف** التفسيرَ، كمثلِ رجلٍ جاءَهم بمصباحٍ، فقرؤُوا ما في **الكتاب**.

والله أعلم

* * *

الفصل السابع

في بيان مَبْدأ التفسيرِ، ووَضْعهِ

وأوّلُ ما بُدئَتْ دِراساتُ القرآن وتفسيرُه، زَمَنَ الرسول ﷺ، ففي عَهْدِهِ نَرَى أعرابياً يسألُه عن معنى بعض ألفاظِ القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قائلاً: وأيُّنَا لم يَظْلِم نفسَه، وفسَّرَه النبيُّ ﷺ بالشِرْك، واستَشْهَد عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ورُوي عن النبي ﷺ في كُتب الحديث، كالبخاري، ومسلم، وغيرِهما، كثيرٌ من الأحاديثِ التي تتعلّق بتفسيرِ القرآن، وبعضُها ينحصرُ في ذكر فضائِله، وتفسيرِ بعضِ كلماته تفسيراً مختصراً، يُبيِّن وَجْهَ التشريعِ، أو الموعظَةِ في الآية.

ورُوي عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «وإنّه ليَأْتي الرجلُ العظيمُ، السمينُ، يومَ القيامة، فلا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة، اقْرَءُوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾» عَلَى أنَّه قد لا يُوضَعُ الاعْتِبَار، كُلُّ ما جاء من الحديثِ في التفسيرِ، فأَحْمَدُ ابن حَنْبلٍ في القَرْنِ الثالثِ الهجري يقولُ: ثلاثةُ أَشْيَاء لا أَصْلَ لها: التفسيرُ، والمَلاحمَ، والمغازي، ولعلَّهُ يَقْصِدُ بالتفسيرِ الذي خَلَّط فيه الناسُ بَيْنَ الصحيحِ، وغَيْرِ الصحيح من الحديث.

على أنَّ الصحابةَ وَقَفُوا في صَدْرِ الإسلام مَوقِفَيْن:

قسمٌ: متحرِّجٌ من القول في القرآن، ومِنْ هؤلاءِ: أبو بكر الصديقُ، وعُمر بن الخطاب، وعبدُ الله بن عمر، وغَيْرُهم، وكان عبدُ الله بن عمر يأخُذُ على ابن عباس تَفْسِيره القرآنَ بالشعرِ.

والقسمُ الثاني: الذين لم يتَحرَّجُوا، وفسَّرُوا القرآن حَسَبَ ما فَهِمُوا مِن الرسول ﷺ، أو حَسَبَ فهمهم الخَاصّ، بالمُقارنةِ إلى الشعرِ العربيّ، وكلامِ العرب، ومِن هؤلاء القِسم: عليُّ بن أبي طالب، وعبدُ الله بن عباس، وابنُ مسعود، وأُبَيُّ بن كعب وغَيْرُهم، وتَبِعَهم: الحسنُ البصريُّ، وسعيدُ بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة والسدّيُّ وغَيْرُهم مِمَّن لا يُحْصَون.

والله أعلم

* * *

الفصل الثامن

فيما جاء من الوعيد في تفسيرِ القرآن بالرَّأْيِ، والجُرْأةِ على ذلك، وبيانِ مَراتب المُفسِّرين

فَمِنْ ذلك: ما رُوي عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالَت: (ما كان رسول الله ﷺ يُفسِّرُ مِن كتابِ الله، إلاّ آياً بعدد ما علَّمه إيّاهُنَّ جبريلُ). قال ابنُ عطيّة: ومعنى هذا الحديثِ في مُغيَّباتِ القرآن، وتَفْسِير مُجْمَلِهِ، ونَحْوُ هذا، مِمَّا لا سبيلَ إليه إلاّ بتوفيقٍ من الله تعالى، ومِن جملةِ مُغيباتهِ ما لم يُعْلِمِ الله به؛ كوَقْتِ قيامِ الساعةِ، ونحوها، مِمّا يُقْرأُ مِن ألفاظِه، كعَددِ النَّفَخَاتِ في الصُّورِ، وكَرُتْبَةِ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ.

ومنه ما روَى الترمذي، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «اتّقُوا الحديثَ عليَّ إلا ما عَلِمْتُم، فمَنْ كَذب عليّ متعمّداً، فليتبوَّأ مقعدَه من النار. ومَن قال في القرآنِ برَأْيِهِ، فليتبوَّأْ مقعده من النار».

ورَوى أيضاً: عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أَخْطَأ». وقال: هذا حديثٌ غريب، وأخرجه أبو داود، وتُكلِّمَ في أحدِ رُواتِه. وزاد رَزِيْنٌ «ومَنْ قال برَأْيِهِ فأَخْطَأَ فقد كَفَرَ». قال أبو بكر، محمدُ بن القاسم بن بشار بن

محمد الأنباريُّ، النحويُّ، اللغويُّ، في كتاب «الردّ»؛ فُسِّر حديث ابن عباس بتفسيرَين :

أحدهما: مَنْ قال في مُشكل القرآن، بما لا يُعْرَف مِنْ مَذَاهِب الأوائل من الصحابةِ، والتابعين؛ فهو مُتعرِّض لِسخَط الله .

والجوابُ الآخرُ: وهو أَثْبتُ القولين، وأصحُّهما مَعْنًى: مَنْ قال في القرآن قولاً، يعلَمُ أنّ الحقَّ غَيْرُهُ؛ فليتبوَّأْ مقعدَه من النار. ومعنى يتبوّأُ: يَنْزِلْ ويَحْلِلْ. وقال في حديث جندب: فحَملَ بعضُ أهل العلم هذا الحديث: على أنَّ الرَّأْيَ مَعْنِيٌّ به الهوَى، أي: مَنْ قال في القرآن قولاً يُوافِقُ هواه، لم يَأْخُذْهُ عن أئمّة السلف، ولا اقتضَتْهُ قوانينُ العِلْم، كالنحوِ، والأُصول، فأصاب؛ فقد أَخْطأَ؛ لحكُمه على القرآن برأيه، وليس يَدْخُل في هذا الحديث، أنْ يُفسِّرَ اللغويون لُغتَه، والنحويون نَحْوَه، والفقهاءُ معانيه، ويقولُ كلُّ واحد باجتهادِه المَبْنِي على قوانينِ علمٍ، ونَظَرٍ، فإنَّ القائلَ على هذه الصفةِ، ليس قائلاً لِمُجرَّدِ رَأْيِهِ.

قلت: هذا صحيحٌ وهو الذي اختاره غَيْرُ واحد من العُلماء، فإنّ مَنْ قال فيه بما سَنَحَ في وَهْمِه، وخَطَرَ على باله مِن غيرِ استدلال عليه بالأُصول فهو مُخطِئٌ، وإنَّ من استنبَطَ معناه، بحَمْلِهِ على الأُصول المُحْكَمةِ، المتَّفَق على معناها فهو مَمْدُوحٌ.

وقال بعضُ العلماء: إنّ التفسير موقوفٌ على السماع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وهذا قولٌ فاسد؛ لأنَّ النَّهْيَ عن تفسيرِ القرآن لا يَخْلُو: إمَّا أن يكونَ المرادُ به

الاقتصارَ على النقلي، والمسموعِ، وتَرْكَ الاستنباطِ، أو المرادُ به: أمرًا آخرَ، وباطلٌ أن يكون المرادُ به أن لا يتكلَّم أحدٌ في القرآن إلاّ بما سَمِعَه، فإنَّ الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ قد قَرؤُوا القرآنَ، واختلفُوا في تفسيرِه على وُجُوهٍ، وليس كُلُ ما قالوه سَمِعُوه من النبي ﷺ، فإنَّ النبيَّ ﷺ دعَا لابنِ عباس، وقال: «اللهمّ فقّهْهُ في الدين، وَعلِّمه التأويلَ»، فإن كان التأويل مَسْمُوعاً، كالتنزيلِ، فما فائدة تخصيصهِ بذلك، وهذا بيِّنٌ لا إشكالَ فيه؛ وإنّما النهي يُحْمَلُ على وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رَأْيٌ، وإليه مَيْلٌ مِنْ طَبْعِه وهَوَاهُ، فيتأوّل القرآن على وَفْقِ رَأيِهِ، وهَواهُ، لِيحتَّج على تصحيحِ غرَضهِ، ولو لم يكن له ذلك الرأيُ، والهوى، لكان لا يَلُوح له من القرآن ذلك المعنى، وهذا النوعُ يكون تارةً مع العلم، كالذي يحتجّ ببعضِ آيات القرآن على تصحيحِ بِدْعَتِه، وهو يعلم أنْ ليس المرادُ بالآية ذلك، ولكن مقصودُه أن يُلبِّس على خَصْمه، وتارةً يكون مع الجهلِ، وذلك: إذا كانت الآية محتمَلةً فيَمِيلُ فَهْمُهِ إلى الوجه الذي يُوافِقُ غَرضَه، ويُرجِّح ذلك الجانبَ برَأْيِهِ وهواه، فيكون قد فَسَّر برأيهِ أي رَأْيهُ حَمَلَه على ذلك التفسيرِ، ولولا رَأْيهُ لَمَا كان يترجَّحُ عنده ذلك. ذَكَرَهُ القرطبيُ.

والثاني: وقال ابنُ عطيّة: وكان جملةٌ من السَّلفِ ـ كثيرٌ عددُهم ـ يُفسِّرون القرآنَ، وهم أَبْقوا على المسلمين ذلك ـ رضي الله عنهم ـ فأمَّا صَدْرُ المفسِّرين والمُؤيَّد فيهم، فعَلِيُّ بنُ أبي طالب

ـ رضي الله عنه ـ ويَتْلُوه عبدُ الله بن عباس، وهو بَحْرٌ فيه، وتَبِعه العُلماءُ عليه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرِهما. والمحفوظُ عنه في ذلك، أَكْثَرُ من المحفوظِ عن عليٍّ. وقال ابنُ عباس: (ما أخذتُ من تفسيرِ القرآن، فمنْ عليّ بن أبي طالب). وكان عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ يثني على تفسير ابن عباس، ويَحُضُّ على الأَخْذِ عنه. قال ابنُ عطيّة: وكان جملةٌ من السلف، كسعيدِ بن المسيب، وعامرِ الشعبي، وغيرهما، يُعظِّمُون تفسيرَ القرآن؛ ويتوقَّفُون عنه؛ تورُّعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكِهم، وتقدِّمهم. قال أبو بكر الأنباريُّ: وقد كان الأئمّةُ من السلفِ الماضي، يتورَّعُون عن تفسير المُشْكِل من القرآن، فبَعْضٌ يُقدِّر أنَّ الذي يُفسِّرُه لا يُوافِقُ مرادَ الله جَلَّ وعزَّ، فيُحْجِمُ عن القول، وبعضٌ يُشْفِقُ مِنْ أنْ يُجْعَل في التفسير إماماً يُبْنَى على مَذْهبِه، ويُقْتفَى طريقهُ، فلعلَّ متأخراً أنْ يُفسِّر حرفاً برأيه، ويُخْطِىءَ فيه، ويقول: إمامي في تفسير القرآن بالرأي، فلانٌ الإمامُ من السلفِ.

وعن ابن أبي مُليكة قال: سُئل أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ عن تفسير حرفٍ من القرآن، فقال: (أيُّ سَماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرض تُقِلُّني، وأَيْنَ أَذْهَبُ وكيفَ أَصنع إذا قُلْتُ في حَرْفٍ مِن كتاب الله بغَيْرِ ما أراد تبارك وتعالى بما لا يُعْرَفُ أَصْلُه، ولا يَقِفُ على مذاهبِ أهلِ الأثرِ، والنَّقْلِ فيه). وقال ابنُ عطية: ومعنى هذا: أنْ يُسْأل الرجل عن معنى مِن كتاب الله جلّ وعزّ، فيتَسوَّرَ عليه برأيه، دُونَ نَظَرٍ فيما قال العلماءُ عنه. وكان ابنُ مسعود يقول:

(نعم تُرجمان القرآن عبدُ الله بن عباس). وقال عَنْهُ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: (ابن عباس: كأنَّما يَنْظُر إلى الغَيْبِ مِن سِتْرٍ رَقيقٍ). ويَتْلُوهُ عبدُ الله بن مسعود، وأُبيُّ بن كعب، وزيدُ بن ثابت، وعبدُ الله بن عمرو بن العاص.

وكُلُّ ما أُخذ من الصحابة فحسنٌ مقدَّم؛ لشهودِهم التنزيلَ، ونزولِه بلُغَتِهم. وعن عامر بن واثلة قال: (شهدتُ عليَّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يَخْطُب، فسَمِعْتهُ يقولُ في خطبتهِ: سَلُوني، فوالله، لا تسألُوني عن شيء يكُون إلى يوم القيامة، إلاّ حدَّثْتُكم به، سلوني عن كتابِ الله، فوالله ما من آيةٍ إلاّ أنا أَعْلَم أَبِلَيلٍ نزلَتْ، أم بنهارٍ، أم في سهلٍ نزلَتْ، أم في جبلٍ، فقَامَ إليه ابنُ الكَوَّاءِ، فقال: يا أميرَ المؤمنين! ما الذارياتُ ذَرْواً؟) وذَكَر الحديثَ. وعن المِنْهَالِ بن عَمْرٍو قال: قال عبدُ الله بنُ مسعود: (لو أَعْلَمُ أحداً أَعْلَمَ بكتاب الله منّي تَبْلُغه المُطِيُّ، لأتيتهُ، فقال له رجل: أما لَقِيتَ عليَّ ابنَ أبي طالب؟ فقال: بلى قد لَقيتهُ). وعن مسروق قال: وجدتُ أصحابَ محمد ﷺ مِثْلَ الإخاذِ يُرْوِي الواحد، والإخَاذِ يُرْوِي الاثنَين، والإخاذِ لَوْ وَرَدَ عليه الناسُ أجمعون لأَصْدَرَهم، وإنّ عبد الله بن مسعود مِن تلك الإخاذ. ذكَر هذه المناقبَ: أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردّ»، وقال: الإخَاذُ عند العربِ: الموضعُ الذي يَحْبِسُ الماءَ كالغَدِير.

قال أبو بكر: حدّثنا أحمد بن الهَيْثَم بن خالد، حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا سلاَّمٌ، عن زيدٍ العميِّ، عن

أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْحَمُ أمّتي بها أبو بكر، وأقْواهم في دينِ الله عُمر، وأصدقُهم حياءً عثمانُ، وأقْضاهم عليٌّ، وأفرضُهم زيدٌ، وأقرؤُهم لكتابِ الله جلّ وعزّ أُبيُّ بن كعب، وأَعْلمهم بالحلالِ والحرامِ معاذُ بن جبل، وأمينُ هذه الأُمةِ أبو عُبيدة بن الجَرَّاح، وأبو هريرة وِعَاءٌ مِنْ العلمِ، وسَلْمَانُ بَحْرٌ مِنْ علمٍ لا يُدْرك، ومَا أظلَّتْ الخضراءُ، ولا أَقلَّتْ الغَبْراءُ ـ أو قال البَطْحَاءُ ـ من ذي لهَجْةٍ، أَصْدَقَ من أبي ذرّ ـ رضي الله عنهم ـ قال ابنُ عطية: ومِنَ المُبرِّزِيْنَ في التابعين: الحسَنُ البصريُّ، ومجاهد، وسعيدُ بن جُبير، وعلقمةُ. قرأ مجاهدٌ على ابن عباس قراءةَ تفهُّمٍ، ووُقوفٍ عند كُلِّ آية. ويَتْلُوهم: عكرمةُ، والضحَّاك، وإن كان لم يَلْقَ ابنَ عباس، وإنّما أخَذَ عن ابن جبير، وأمّا السُدّيُّ: فكان عامرٌ الشعبيُّ يَطْعَن عليه، وعلى أبي صالح؛ لأنّه كان يَراهُما مُقصِّرين في النَّظرِ.

قلتُ: وقال يحيى بن مَعِين: الكلبيُّ ليس بشيءٍ. وعن يحيىٰ بن سعيد القطّان، عن سُفيان قال: قال الكَلْبِيُّ: قال أبو صالح: كُلُّ ما حدَّثْتُك كَذِبٌ، وقال حَبِيبُ بن أبي ثابت: كُنَّا نُسَمِّيهِ: الذَّرْوَغْزَنَ يعني: أبا صالح مولَى أُمّ هانىء، والذَّرْوَغْزَنْ: هو الكَذَّابُ بِلُغةِ الفُرْسِ.

ثُمَّ حَمَلَ تفسيرَ كتاب الله تعالى: عُدُولُ كُلِّ خَلَفٍ، كما قال ﷺ: «يَحْمِلُ هذا العلْمَ مِنْ كل خلفٍ عُدولُه، يَنْفُون عنه

تحريفَ الغَالِينَ، وانْتِحَالَ المُبطِلين، وتأويلَ الجاهلين». خَرَّجه أبو عُمَر وغَيْرُهُ. قال الخطيبُ أبو بكر، أحمدُ بن علي البغدادِيُّ: وهذه شهادةٌ مِنْ رسولِ الله ﷺ بأَنَّهم أعلامُ الدِيْن، وأئمَّةُ المسلمين؛ لِحِفْظِهم الشَّريعةَ من التحريفِ والانتحالِ للباطِل، وَردٌ تأويلِ الأَبْلهِ الجَاهلِ، وأنَّه يجب الرجوعُ إليهم، والَمُعوَّلُ في أمرِ الدين عليهم ـ رحمهم الله تعالى ـ. قال ابنُ عطية: وألَّف الناسُ فيه، كعبدِ الرزاق، والمُفضَّل، وعليٍّ بن أبي طلحة، والبخاريِّ، وغيرِهم، ثُمَّ إنّ محمدَ بن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ جَمَعَ على الناس أَشْتَاتَ التفسيرِ، وقرَّب البعيدَ منها، وشَفَى في الإِسْنادِ، ومِنَ المُبرِّزِيْنَ مِنَ المُتأخّرِينَ: أبو إسحاق الزجَّاج، وأبو علي الفَارِسيُّ، وأمَّا أبو بكر النقاش، وأبو جعفر النحَّاس: فكثيراً ما اسْتَدْركَ الناسُ عليهما، وعلى سَننِهِما، مَكِيُّ بن أبي طالب ـ رحمه الله ـ، وأبو العباس المَهْدَوِيُّ مُتْقِنُ التأليفِ، وكُلُّهم مجتهدٌ مأجورٌ ـ رحمهم الله تعالى ـ ونضَّر وُجوهَهم.

تتمّةٌ في بيانِ الفَرْق بين التفسيرِ، والتأويل

والتفسيرُ لغةً: الكَشْفُ والإبانة.

والتأويلُ لغةً: الرجوعُ والكَشْفُ.

والتفسيرُ اصطلاحاً: علم يُبحث فيه، عن أحوال القرآن المَجيد مِنْ حَيْثُ دلالتُه، على مرادِ الله ـ تعالى بحسبِ الطاقةِ البشريّة، ثُمَّ هذا العِلْمُ قسمان:

تفسيرٌ: وهو ما لا يُدْرك إلاّ بالنقل، كأسبابِ النزول، والناسخِ والمنسوخ.

وتأويلٌ: وهو ما يُمْكن إدراكُه بالقواعدِ العَربية، ويُسمّى الأول روايةً، وهذا دِرايةً. والسِرُّ في جَوازِ التأويل بالرَّأْيِ بشُروطه، كما تقدّم دون التفسير: أنَّ التفسيرَ كشهادة على الله، وقَطْعٍ بأنَّه عَنَى بهذا اللفظِ هذا المَعْنَى، ولا يجوز إلاّ بتَوْقيفٍ، ولذا جَزَمَ الحاكمُ أنَّ تفسيرَ الصحابيِّ مطلقاً في حكمِ المرفوع، والتأويلُ: ترجيحٌ لأحدِ المُحتملاتِ بلا قطعٍ فَاغْتُفِر.

والله أعلم

* * *

الفصل التاسع

في بيان ما جاء في حاملِ القرآن، ومَنْ هو، وفيمَنْ عاداه

قال أبو عُمر: روي مِن وُجوهٍ فيها لِيْنٌ: عن النبي ﷺ أنّه قال: «ومن تعظيمِ جلالِ الله إكرامُ ثلاثةٍ، الإمام المُقسط، وذِي الشَّيْبَةِ المُسلمِ، وحامِلِ القرآن غَيْرِ الغالي فيه، ولا الجَافِي عنه». وقال أبو عُمر: وحَملةُ القرآن: هم عالمون بأحكامِه، وحَلالِهِ، وحرامه، والعاملُون بما فيه.

ورَوَى أنسٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «القرآنُ أفضلُ مِنْ كُلِّ شيء، فمَنْ وَقَّر القرآنَ، فَقَدْ وَقَّر الله، ومن اسْتَخَفّ بالقرآن، استخفَّ بحقِّ الله تعالى، حملةُ القرآنِ: هم المَحْفُوفون برحمةِ الله، المُعظِّمُون كلامَ الله، المُلْبَسُون نُورَ الله، فمَنْ وَالاهُمْ فقد والى الله، ومَنْ عادَاهم، فقد استخفَّ بحقِّ الله تعالى.

والله أعلم

* * *

الفصل العاشر

في بيان ما يلزم قارئَ القرآن، وحاملَه من تعظيم القرآن وحُرمتِه

قال الترمذي الحكيم، أبو عبد الله في «نوادر الأصول»: فمن حرمة القرآن: أن لا يمسَّه إلاّ طاهراً.

ومن حرمتِه: أن يَقْرأه وهو على طهارةٍ.

ومِن حرمته: أن يَسْتَاكَ، ويتَخلَّلَ، فيُطيِّبَ فاه إذْ هو طريقُه. قال يزيدُ بن أبي مالك: إنَّ أَفْواهَكم طُرُقٌ مِنْ طُرُق القرآنِ، فطهِّرُوْها، ونظِّفُوها ما اسْتطعْتُم.

ومِن حُرمتِه: أن يتلبَّس كما يتَلبَّسُ للدخولِ على الأَمير؛ لأنّه مُناج.

ومِنْ حُرْمتِهِ: أن يستقبلَ القبلة لقراءته، وكان أبو العالية: إذا قَرَأَ اعْتمَّ، ولَبِسَ، وارْتَدَى، واستقبلَ القبلةَ.

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ يَتمضْمَضَ كُلَّما تَنخَّعَ. روى شعبةُ عن أبي حمزة، عن ابن عباس: أنّه كان يكونُ بَيْنَ يدَيْه تَوْرٌ، إذا تنخَّعَ مَضْمَضَ، ثُمَّ أَخَذَ في الذِكرْ، وكان كُلَّما تَنخَّعَ مَضْمَضَ.

ومِنْ حُرمتهِ: إذا تَثَاءَبَ، أَنْ يُمْسِكَ عن القراءةِ؛ لأنَّه إذا قَرَأَ فهو مخاطِبٌ ربَّه، ومُناجٍ، والتَّثَاؤُبُ مِن الشيطانِ. قال مجاهد:

إذا تثَاءَبْتَ، وأنتَ تقرأ القرآن، فأَمْسِكْ عن القرآنِ تعظيماً، حتى يَذْهبَ تَثاؤُبُك. قال عكرمة: يريدُ أنَّ في ذلك الفعلِ إجلالاً للقرآن.

ومِنْ حُرمته: أن يَستعِيذَ بالله عند ابتدائِه للقراءةِ من الشيطان الرجيم، ويَقْرأَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ إن كان ابتداءُ قراءته من أوَّلِ السورة، أو مِنْ حَيْثُ بلغَ.

ومِنْ حُرمتهِ: إذا أخَذَ في القراءةِ لم يَقْطَعْها ساعةً فساعةً بكلامِ الآدميِّين من غير ضرورة.

ومِنْ حُرمتهِ: أن يَخْلُو بقراءته، حتَّى لا يَقْطعَ عليه أحدٌ بكلامٍ، فيَخْلُطَه بجوابِه؛ لأنَّه إذا فَعَلَ ذلك، زَالَ عنه سُلْطانُ الاستعاذةِ الذي استعاذ في البَدْءِ.

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ يَقْرأَ على تُؤْدَةٍ، وتَرسِيْلٍ، وتَرتيلٍ.

ومِنْ حُرمتهِ: أن يَسْتَعْمِلَ فيه ذِهْنه، وفَهْمه، حتى يَعقِلَ ما يُخاطَبُ به.

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ يَقِفَ على آيةِ الوَعْدِ، فيَرْغَب إلى الله تعالى، ويَسْأله مِن فضلهِ، وأَنْ يَقِفَ على آيةِ الوعيد، فيستَجيرَ بالله منه.

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ يَقِفَ علَى أَمثالِه، فيتمثَّلها.

ومِنْ حُرمتهِ: أن يَلْتَمِسَ غرائبَه.

ومِنْ حُرمتهِ: أن يؤدِّي لكل حرفٍ حقَّه من الأداءِ، حتى يُبْرِزَ الكلامَ باللفظِ تماماً، فإنَّ له بكُلِّ حرفٍ عَشْرَ حسنات.

ومِنْ حُرمتهِ: إذا انتهَتَ قراءته، أَنْ يُصدِّق ربَّه، ويَشْهَدَ بالبلاغِ لرسوله ﷺ، ويَشْهدَ على ذلك أنَّه حقٌّ، فيقول: صدَقْتَ ربَّنا، وبَلَّغَ رسولك إلينا ونَحْنُ على ذلك من الشاهدين، اللهمّ! اجْعَلْنَا مِنْ شُهداء الحقِّ القائمين بالقسطِ، ثُمَّ يَدْعُو بدعواتٍ.

ومِنْ حُرمتهِ: إذا قَرأَه أنْ لا يَلْتَقِطَ الآيَ مِنْ كُلِّ سورةٍ فيقرأ؛ فإنّه رُوي لَنا: عن رسول الله ﷺ: أنَّه مَرَّ ببلالٍ وهو يَقرأُ مِنْ كل سُورةٍ شيئاً، فأَمَرَهُ أنْ يَقْرأ على السُّوَر، أو كما قال.

ومِنْ حُرمتهِ: إذَا وَضَع الصحيفَة أَنْ لا يَتْرُكَه مَنْشُوراً، وأن لا يضعَ فوقَه شيئاً من الكُتُبِ، حتى يكونَ أبداً عالياً، لسائرِ الكُتبِ عِلْماً كانَ، أو غَيْرَه.

ومِنْ حُرمتهِ: أن يَضعه في حِجْرِهِ إذا قَرأه، وعلى شيءٍ بَيْن يديه، ولا يَضعَه بالأرضِ.

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يَمْحُوَه من اللَّوحِ بالبُصَاقِ ولكن يَغْسِلُهُ بالماءِ.

ومِنْ حُرمتهِ: إذا غَسَله بالماء، أن يتَوقَّى النجاساتِ من المواضعِ التي تُوطأُ، فإنّ لِتلْك الغُسالةِ حرمةً، وكان مَنْ قَبْلَنا من السلفِ منهم: مَنْ يَسْتَشْفى بغسالتِهِ.

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يتَّخِذَ الصحيفةَ إذا بَلِيَتْ ودَرَسَت، وِقايةً للكُتُب، فإنّ ذلك جَفَاءٌ عَظِيمٌ، ولكن يَمْحُوها بالماءِ.

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يُخلِّي يوماً مِنْ أيَّامهِ مِنَ النظر في

المِصْحَفِ مرّةً، وكان أبو موسى يقولُ: (إنّي لأَسْتَحْيِيَ أَنْ لا أَنْظُرَ كُلَّ يومٍ في عَهدِ رَبِّي مرّةً).

ومِنْ حُرمتهِ: أن يُعْطِيَ عَيْنَيْهِ حَظَّهما مِنه، فإنّ العَيْنَ تُؤدِّي إلى النَّفْسِ، وبَيْنَ النَّفْسِ والصدرِ حجابٌ، والقرآنُ في الصَّدْرِ، فإذا قرأه عن ظَهْرِ القَلْب، فإِنَّما يُسْمِعُ أُذنه فتؤدِّي إلى النَّفْسِ، فإذا نَظَرَ في الخَطِّ، كانَتْ العَيْنُ، والأُذُنُ قد اشْتَرَكَتا في الأداءِ، وذلك أَوفر للأداءِ، وكان قد أخَذَتِ العَيْنُ حَظَّهَا كالأُذُنِ. رَوَى زيدُ بن أسلم، عن عطاءِ بن يسار، عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَعْطُوا أَعينكم حظّها من العبادة»، قالوا يا رسولَ الله: وما حَظُّها من العبادة؟ قال: «النَّظَرُ في المصحف، والتَّفكُّر فيه، والاعتبارُ عند عجائبِهِ». ورَوى مكحولٌ، عن عُبادةِ بن الصامت قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَفْضَلُ عبادةِ أُمَّتي قراءةُ القرآن نظراً».

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ لا يتأوَّلَهُ عند ما يَعْرِضُ له شيءٌ مِنْ أمرِ الدنيا. حدَّثنا عُمر بن زياد الحَنْظَليُّ قال: حدثنا هُشَيْمُ بن بَشِير، عن المُغيرة عن إبراهيم قال: كان يَكْرَهُ أَنْ يُتَأوَّلَ شيءٌ مِن القرآنِ، [عِنْد ما] يَعْرض له شيءٌ مِنْ أَمْر الدنيا، والتأويلُ مِثْلُ قولِك للرجل: إذا جَاءَكَ، جِئْتَ على قَدَرٍ يا موسى.

ومِثْلُ قولهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ هذا عند حُضُور الطعام، وأَشْبَاهُ هذا.

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يقال سورة كذا.

كقولك: سورةُ النحل وسورة البقرة وسورةُ النساء، ولكن يُقال: السورةُ الَّتي يُذْكَر فيها كذا.

قُلْتُ: هذا يُعارِضُه قوله ﷺ: «الآيتَان مِنْ آخرِ سورةِ البقرة، مَنْ قَرأَ بهما في ليلةٍ كَفَتاهُ» أَخْرجَه البخاريُّ، ومسلمٌ مِنْ حديثِ عبدِ الله بن مسعود.

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ لاَ يُتْلَى مَنْكُوساً، كفِعْلِ مُعلِّمي الصِبْيَانِ، يَلْتَمِسُ أحدهُم بذلك أَنْ يُرِيَ الحِذْقَ مِنْ نفسِه، والعبارة، فإنَّ تلك مخالفة.

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ لا يُقَعِّرَ في قراءته كفِعْلِ هؤلاءِ المهمزين، المُبتدِعِينَ، المُتَنطِّعِينَ، في إبْرازِ الكلامِ مِنْ تلك الأَفْواهِ المُنْتِنَةِ تَكلُّفاً، فإنَّ ذلك مُحْدَثٌ أَلْقَاهُ إليهم الشَّيْطان، فَقَبِلُوهُ مِنْهُ.

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ لا يَقْرأَهُ بأَلْحَانِ الغِنَاءِ، كَلُحُونِ أَهْلِ الفِسْق، ولا بتَرْجِيْع النَّصارى، ولا بِنَوْح الرَّهْبانِيَّةِ، فإنَّ ذلك كُلَّه زَيْغ كَما تقدَّم.

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ يُجَلل تَخْطيطَه إذا خَطَّه، وعن أبي حَكِيْمَةَ: أنَّه كان يَكْتُبُ المَصاحِفَ بالكُوفة، فمرَّ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ فنَظَرَ إلى كتابه فقال له: (أَجِلَّ قَلَمَكَ)، فأَخَذْتُ القَلَمَ، فَقَطَطتُهُ مِنْ طرفِهِ قَطًّا، ثُمَّ كَتَبْتُ وعليٌّ ـ رضي الله عنه ـ قَائِمٌ يَنْظُر إلى كِتابَتِي فقال: (هكذا نَوِّرْهُ كمَا نَوَّرَهُ الله جَلَّ وعزَّ).

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ لا يَجْهَر بعضٌ على بَعْض في القراءةِ فيُفْسِدَ

عليه، حتى يُبْغَضَ إليه ما يَسْمَعُ، ويكونَ كهيئةِ المُغالبة.

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يُماري، ولا يُجادِل فيه في القراءاتِ، ولا يقولَ لصاحِبهِ: ليس هكذا هو، ولعلَّه أن تكون تلك القراءةُ صَحِيحةً جائزةً مِن القرآن، فيكون قَدْ جَحَدَ كتابَ الله.

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يَقْرأَ في الأَسْوَاقِ، ولا في مَواطِن اللَّغَطِ، واللَّغْوِ، ومَجْمَع السُّفهاء.

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يتوسَّدَ المُصحف، ولا يَعتمِد عليه، ولا يَرْمِي به إلى صاحبهِ إذا أَرَادَ أَنْ يُناوِلَه.

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ لا يُصغَّرَ المصحفُ. رَوَى الأَعْمشُ، عن إبراهيم، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: (لا يُصغَّر المصحفُ). قلتُ: وروي عن عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أنّه رَأى مصحفاً صغيراً في يدِ رجلٍ فقال: (مَنْ كَتبَه) قال: أنا، فضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ، وقال: (عَظِّمُوا القرآن). ورُوي عن رسول الله ﷺ: أنّه نَهى أنْ يُقال: مُسَيْجِدٌ، أو مُصَيْحِفٌ.

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يَخْلُطَ فيه ما ليس منه.

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يُحلَّى بالذهب، ولا يُكْتبَ بالذهب أو يُعلَّم عند رُؤوسِ الآي، أو يُصْمر.

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زَخْرَفْتم مساجدَكم، وحَلَّيْتُم مصاحفكم فالدَّمارُ عليكم». وقال ابنُ عباس، ورَأى مصحفاً قد زُيِّن بفضةٍ: (تُغْرُونَ بهِ السَّارقَ، وزِيْنَته في جوفه).

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يُكْتَبَ على الأرض، ولا على حَائطٍ، كما يُفْعَل بهذه المساجدِ المُحْدَثةِ. حدّثنا محمدُ بن عليٍّ الشَّقِيْقِيُّ، عن أبيه، عن عبدِ الله بن المبارك، عن سفيان، عن محمدٍ بن الزبير قال: سمعتُ عُمر بن عبد العزيز يُحدِّث قال: مرَّ رسول الله ﷺ بكتابٍ في أرضٍ، فقال لِشَابٍّ من هُذيل: ما هذا؟ قال: مِن كتابِ الله كَتَبه يهوديٌّ، فقال: «لَعَنَ الله مَنْ فَعَل هذا، لا تَضَعُوا كتابَ الله إلاَّ موضعَه». قال محمدُ بن الزبير: رأى عمر بن عبد العزيز ابْناً لَهُ يَكْتُب القرآنَ على حائطٍ، فضَرَبه.

ومِنْ حُرمتهِ: أنّه إذا اغْتَسَلَ بِكِتابَتِهِ مُسْتَشْفِياً مِنْ سَقَمٍ، أَنْ لا يَصُبَّه على كُنَاسَةٍ، ولا في موضع نجاسة، وعلى موضعٍ يُوْطَأُ، ولكن ناحيةً من الأرض في بُقْعَةٍ لا يَطؤُه الناسُ، أو يَحْفِرُ حَفيرةً في موضعٍ طاهرٍ، حتى يَنْصَبَّ مِنْ جَسدِهِ في تلك الحَفيرةِ، ثُمَّ يكبسها، أو في نَهْرٍ كَبِيرٍ يَختَلِطُ بمائِه فيَجْري.

ومِنْ حُرمتهِ: أَنْ يَفْتَتِحه كُلَّما خَتَمه، حتى لا يكون كهيئةِ المَهْجُور، ولذلك كان رسولُ الله ﷺ، إذا خَتَمَ، يَقْرأُ مِنْ أوّلِ القرآن قَدْرَ خَمْسِ آياتٍ، لئلاّ يكون في هَيْئَةِ المهجور.

ورَوَى ابنُ عباس قال: (جاء رجلٌ، فقال يا رسولَ الله! أيُّ العملِ أفضلُ؟ قال: «عليك بالحالِّ المرتحل» قال: وما الحَالُّ المرتحلُ؟ قال: «صاحبُ القرآنِ يَضْرِبُ مِنْ أوَّله، حتى يَبْلُغَ آخرَه، ثُمّ يَضْرِبُ مِنْ أوّلهِ كُلَّما حلَّ ارْتَحَل». قلتُ: «ويُسْتَحبُّ لَهُ إذا خَتَمَ القرآنَ أن يَجْمع أَهْله». ذَكَرَ أبو بكر الأَنْبَارِيُّ، أنبأنا

إدريسُ، حدَّثنا خَلَفٌ، حدَّثنا وكيعٌ عن مِسْعَرٍ، عن قتادة أنَّ أنسَ بن مالك: كان إذا خَتَمَ القرآن جَمَع أهلَه ودَعَا. وأخبرنا إدريسُ، حدّثنا خَلَفٌ، حدّثنا جريرٌ عن منصور، عن الحَكَم قال: كان مجاهد، وعبدةُ بن أبي لُبابة، وقومٌ يَعْرِضُون المصاحفَ، فإذَا أرادُوا أَنْ يَخْتِمُوا، وَجَّهُوا إلينا أحْضُرونَا، فإنّ الرحمةَ تَنزل عند خَتْمِ القرآن: وأَخْبَرَنَا إِدْرِيسُ، حدثنا خَلَفٌ، حدثنا إبراهيم عن التَّيْمِي، قال: مَنْ خَتَمَ القرآنَ أوَّلَ النهار، صَلَّتْ عليه الملائكةُ حتى يُمْسِيَ، ومَنْ خَتَمَ أوّلَ الليل، صلَّتْ عليه الملائكةُ حتى يُصْبح قال: فكانُوا يَسْتَحِبُّون أَنْ يَخْتِمُوا أوّلَ الليلِ، وأوَّل النهار.

ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يَكْتُبَ التعاويذَ منه، ثُمَّ يَدْخُلَ به الخلاءَ، إلاّ أن يكون في غِلاَفٍ مِنْ أَدَمٍ، أو فِضّةٍ، أو غَيْرِهِ، فيكونُ كأنَّه في صَدْرِك.

ومِنْ حُرمتهِ: إذا كَتَبَه، وشَرِبه سَمَّىٰ الله على كُل نَفَسٍ، وعظَّم النيةَ فيه، فإنَّ الله يُؤتيه على قَدْر نيَّتِهِ. رَوَى لَيْثٌ، عن مُجاهد: لا بأَسَ أن تَكْتُبَ القرآن، ثُمَّ تَسْقِيَه المريضَ. وعن أَبِي جعفر قال: مَنْ وَجَدَ في قَلْبِهِ قَساوَةً، فَلْيَكْتُب يس في جَامٍ بزَعْفرانٍ، ثُمَّ يَشْرَبْهُ.

قُلْتُ: ومِنْ حُرمتهِ: أن لا يُقال سورةٌ صغيرةٌ، وكَرِههُ أبو العالية أن يُقال: سورةٌ صغيرةٌ، أو كبيرةٌ، وقال لِمَنْ سَمِعَه قَالَها: أنتَ أَصْغَرُ منها، وأمَّا القرآنُ فكُلُّه عظيم. ذَكَرَهُ مَكِيٌّ ـ رحمه الله ـ. قلتُ: وقد رَوَى أبو داود ما يُعارِض هذا، مِنْ حديث عَمْرو بن

شُعيب، عن أبيه، عن جدّه أنّه قال: (ما مِنَ المفصَّلِ سورةٌ صغيرةٌ، ولا كبيرةٌ، إلاّ قَدْ سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَؤُمُ بها الناسَ في الصلاةِ).

والله أعلم

* * *

الفصل الحادي عشر

في بيان الكتاب بالسُّنّة

وَاعْلَم: أنَّ بيانَه ﷺ، الكتابَ بالسُّنة على ضَرْبَيْنِ:

الأَوَّلُ: بيانُ ما أُجْمِلَ في الكتاب، كبيانِهِ للصلواتِ الخَمْسِ مواقيتِها، وسُجودِها، ورُكوعِها، وسائرِ أحكامها، وكبيانِهِ لِمقْدَارِ الزكاة، ووَقْتِهَا، وما الذي تُؤخَذ منه من الأموال، وبيانِهِ لِمَناسِكِ الحج، وقد قال ﷺ إذ حَجَّ بالناسِ: «خُذُوا عنّي مناسكَكُم» وقال: «صَلُّوا كما رَأَيْتمُوني أُصلِّي» أخرجه البخاري.

ورَوى ابنُ المبارك، عن عِمران بن حُصين أنّه قال لرجلٍ: إنَّك رجل أَحْمَقُ، أَتَجِدُ الظُّهْرَ في كتابِ الله أربعاً لا يُجْهَر فيها بالقراءةِ؟ ثُمَّ عدَّد عليه الصلاةَ، والزكاةَ، ونَحْوَ هذا، ثُمَّ قال: أتَجِدُ هذا في كتابِ الله تعالى مُفسَّراً؟ إنَّ كتابَ الله تعالى أَبْهَمَ هذا، وإنَّ السُّنَّةَ فسَّرَتْهُ، وبَيَّنَتْهُ.

ورَوَى الأوزاعيُّ، عن حَسَّان بن عطية قال: كان الوَحْيُ يَنْزِلُ على رسولِ الله ﷺ، ويَحْضرُه جبريلُ بالسُّنةِ التي تُفسِّرُ ذلك.

ورَوَى سعيدُ بن منصور، حدّثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعي، عن مَكْحُولٍ قال: القرآنُ أَحْوَجُ إلى السُّنةِ من السُّنةِ إلى القرآن. وبه عن الأوزاعي قال: قال يحيى بن أبي كثير: السُّنةُ

قاضيةٌ على الكتاب، وليس الكتابُ بِقاضٍ على السُّنةِ. قال الفضلُ بن زياد: سمعتُ أبا عبد الله يعني: أحمدَ بن حنبل، وسُئل عن هذا الحديثِ الذي رُوي أنَّ السُّنةَ قاضيةٌ على الكتاب فقال: ما أَجْسُرُ على هذا أنْ أقوله، ولكنّي أقولُ: إنَّ السُّنَّةَ تُفسِّرُ الكتابَ، وتُبَيِّنُهُ.

والثاني: بَيانُ الزيادةِ على حُكم الكتاب، كتحريمِ نكاح المرأةِ على عَمَّتِها، وخالتِها، وتحريمِ الحُمر الأهليَّة، وكُلِّ ذِي نابٍ من السباع، والقَضاءِ باليَمِينِ مع الشاهد، وغيرِ ذلك.

ورَوَى أبو داود، عن المِقْدَام بن معد يكرب، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ألا وإنّي أُوتِيتُ الكتابَ ومِثْلَه معه، ألا يُوشِكُ رجلٌ شَبْعَانُ على أَرِيْكَتِهِ يقولُ: عليكم بهذا القرآنِ، فما وَجدتُم فيه من حلال فأَحِلُّوه، وما وَجدتم فيه من حرام فحرِّمُوه، ألا لا يَحِلُّ لكم الحمارُ الأهليُّ، ولا كُلُّ ذي نابٍ من السباع، ولا لُقَطَةُ مُعاهدٍ، إلاَّ أنْ يَسْتَغْنِيَ عنها صاحبُها، ومَنْ نَزَل بقومٍ فعليهم أن يُقْرُوْهُ، فإنْ لم يُقْروهُ فله أن يُعقِّبهم بمِثْلِ قِراهُ) أي: له أنّ يُعاقِبهم وَيغْلِبَهم؛ بأنْ يَأْخُذَ مِنْ أموالهم بقدرِ قِراه، ويُعقِّبهم يُرْوَى مشدَّداً، ومخفَّفاً.

والله أعلم

* * *

الفصل الثاني عشر

في بيان كيفيةِ التعلُّم، والفقهِ لكتاب الله، وسنةِ رسوله ﷺ. وما جَاءَ أنَّهُ يَسْهلُ على مَنْ تقدَّم العملُ به، دُونَ حِفْظِهِ

ذَكر أبو عَمرو الدانيُّ في كتابِ «البيان» له بإسناده عن عثمان، وابنِ مسعود، وأُبيٍّ ـ أنَّ رسول الله ﷺ: كان يُقرِئهُم العَشْرَ آياتٍ فلا يُجاوِزُونَها إلى عَشْرٍ أُخْرى، حتى يَتعلَّمُوا ما فيها من العَملِ، فيعَلِّمُنا القرآنَ، والعملَ جَمِيعاً: وذكر عبدُ الرزَّاق، عن مَعْمَرٍ، عن عَطاءِ بن السَّائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَميِّ قال: كُنَّا إذا تَعَلَّمْنَا عَشْرَ آيات من القرآن، لم نَتعلَّمْ العَشْرَ الَّتِي بعدها، حتى نَعرِفَ حلالَها، وحرامَها، وأَمْرَها، ونَهْيَها.

وفي «الموطَّأ» للإمام مالك: أنّه بَلَغَهُ أنَّ عبد الله بن عمر، مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلّمها. وذكر أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت الحافظ في كتابِه المُسمَّى: «ذِكْرُ أسماءِ مَنْ رَوَى عن مالك»؛ عن مِرْدَاسِ بن محمد بن بلال الأشعري، قال: حدّثنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر، قال: (تعلّم عُمرُ البقرةَ في اثنَتَيْ عَشْرة سنة، فلَمَّا ختَمَهَا نَحَرَ جزوراً). وذكر أبو بكر الأنباريُّ: حدّثني محمد بن شَهْرَبَازْ، حدّثنا حُسين بن الأسود، حدّثنا عبد الله بن موسى، عن زياد بن أبي مُسْلِم أبي عَمرو، عن زياد بن مِخْراق قال: قال عبد الله بن مسعود: (إنَّا يَصْعُب علينا

حفْظُ لَفْظِ القرآن، ويَسْهلُ علينا العملُ به، وإنَّ مَنْ بَعْدَنا يسهلُ عليهم حفظُ ألفاظِ القرآن، ويَصْعُب عليهم العملُ به). حدّثنا إبراهيم بن موسى، حدّثنا يوسفُ بن موسى، حدّثنا الفَضلُ بن دُكَيْن، حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم بن المُهاجر، عن أبيه، عن مجاهد، عن ابن عُمر قال: (كان الفاضلُ من أصحابِ رسول الله ﷺ في صَدْرِ هذه الأمّة، لا يَحْفَظُ من القرآن إلاّ السورةَ، أو نَحْوَها، ورُزقُوا العملَ بالقرآن، وإنّ آخرَ هذه الأمّةِ، يَقْرَؤُون القرآنَ منهم الصبيُّ، والأَعْمَى، ولا يُرزَقُون العملَ به). حدّثني حسنُ بن عبد الوهاب؛ أبو محمد بن أَبي العنبريِّ، حدّثنا أبو بكر بن حمّاد المُقرىءُ قال: سمعتُ خَلَفَ بن هشام البزَّارِيُّ يقول: ما أَظنُّ القرآن إلاّ عارِيَّةً في أيدينا، وذلك إنَّا رُوينا: أنَّ عُمر بن الخطاب حَفِظَ البقرةَ في بضعَ عشرَ سنة، فلمَّا حَفِظَها نَحَرَ جزوراً؛ شُكْراً لله سبحانه، وإنَّ الغلامَ في دَهْرِنا هذا، يَجْلِسُ بَيْنَ يديَّ، فيقرأ ثُلُث القرآن لا يُسْقِطُ منه حَرْفاً، فَما أَحْسِبُ القرآنَ، إلاّ عَارِيةً في أيدينا.

وقال أهلُ العِلْم بالحديث: لا ينبغي لطالبِ الحديث أن يَقْتَصِرَ على سَماع الحديثِ وكَتْبِهِ، دون معرفتهِ، وفَهْمِهِ، فيكون قد أَتْعَبَ نفسه من غير أن يَظْفَرَ بطائلٍ، وليكن تحفُّظُه للحديث على التَّدْرِيجِ قليلاً قليلاً، مع اللَّيالي، والأيّامِ، ومِمَّنْ وَرَدَ عنه ذلك مِنْ حُفَّاظ الحديث: شُعبة، وابنُ عُلَيَّة ومَعْمرٌ، قال معمرٌ: سمعتُ الزهريَّ يقول: مَنْ طلبَ العلم جملةً فاتَهُ جُمْلَةً، وإنّما يُدْرَكُ العِلْمُ

حديثاً وحديثين، والله أعلم. وقال مُعاذُ بن جبل: (اعْلَمُوا مَا شِئْتُم أن تَعلَمُوا، فلَنْ يَأْجُرَكم الله بعِلْمِهِ حتى تَعْمَلُوا). قال ابنُ عبد البرّ: ورُوي عن النبي ﷺ: مِثْلُ قولِ معاذ مِنْ روايةِ عبادِ بن عبدِ الصمد، وفيه زِيادةٌ: أنَّ العُلماءَ هِمَّتُهم الدِرايةُ: وأنَّ السفهاءَ هِمَّتُهم الرِوايةُ، ورُوي موقوفاً، وهو أَوْلَى مِن رواية مَنْ رَواه مرفوعاً، وعبَّادُ بن عبد الصمد: ليس مِمَّنْ يُحتجُّ به. ولَقَدْ أَحْسَنَ القائلُ في نَظْمِهِ في فضلِ العلم، وشَرف الكِتاب العزيز والسُّنَّةِ الغرَّاءِ:

إنَّ العُلُومَ وإنْ جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا ... فَتاجُهَا مَا بِهِ الإيْمانُ قد وَجَبَا
هُوَ الكِتَابُ العَزِيْزُ اللَّهُ يَحْفَظُهُ ... وبَعْدَ ذَلِكَ عِلْمٌ فَرَّجَ الكُرَبَا
فَذَاكَ فاعْلَمْ حَدِيْثُ المُصْطَفَى فَبِهِ ... نُورُ النُّبُوَّةِ سَنَّ الشَّرْعَ وَالأَدَبَا
وَبَعدَ هَذَا عُلُوْمٌ لاَ انْتِهَاءَ لَهَا ... فَاخْتُرْ لِنَفْسِكَ يَا مَنْ آثَرَ الطَّلَبَا
وَالعِلْمُ كَنْزٌ تَجِدْهُ فِي مَعَادِنِهِ ... يا أيهَا الطَّالِبُ ابْحَثْ وَانْظُرِ الكُتُبَا
وَاتْلُ بِفَهْمٍ كِتابَ الله فِيْهِ أَتَتْ ... كُلُّ العُلُومِ تَدَبَّرْهُ تَرَ العَجَبَا
وَاقْرَأْ هُدِيْتَ حَدِيْثَ المُصْطَفَى وَسَلِ ... مَوْلاَكَ مَا تَشْتَهِي يَقْضِي لَكَ الأَرَبَا
مَنْ ذَاقَ طَعْماً لِعِلْمِ الدِّيْنِ سُرَّ بِهِ ... إِذا تَزَيَّدَ مِنْهُ قَالَ وَاطَرَبَا

والله أعلم

* * *

الفصل الثالث عشر

في معنى قول النبي ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ أُنزل على سبعة أحرف فَاقْرءُوا ما تيسَّر منه»

روى مسلم، عن أُبيٍّ بن كعب: أنَّ النبيَّ ﷺ كان عند إِضَاةِ بَني غفار، فأتَاهُ جبريل عليه السلام. فقال: إنّ الله يأمرُك أَنْ تُقْرِىءَ أُمَّتك القرآن على حَرفٍ. فقال: «أَسْأَلُ الله معافاتَه ومغفرته، وإنَّ أُمَّتِي لا تُطِيقُ ذلك». ثُمَّ أَتَاه الثانيةَ. فقال: إنّ الله يأمُرُكَ أنْ تُقْرِىءَ أمَّتك القرآن على حرفَيْنِ. فقال: «أسأَلُ الله معافاتَه ومغفرته، وإنَّ أُمَّتِي لا تُطِيْقُ ذلك. ثُمَّ جَاءَه الثالثةَ. فقال: إنَّ الله يَأْمُركَ أنْ تُقْرِىءَ أُمَّتك القرآنَ على ثلاثةِ أحرف. فقال: أسألُ الله معافاتَه ومغفرتَه، وإنّ أمّتي لا تُطِيقُ ذلك» ثُمَّ جَاءه الرابعةَ. فقال: إنّ الله يَأْمُركَ أن تُقرِىءَ أُمَّتك القرآنَ على سبعةِ أَحْرُفٍ، فأيُّما حَرْفٍ قَرءُوا عليه فقد أَصَابُوا.

ورَوى الترمذيُّ عنه قالَ: لَقِيَ رسولُ الله ﷺ جبريلَ. فقال: «يا جبريلُ! إني بُعثتُ إلى أمّةٍ أُميَّةٍ، منهم العجوزُ، والشيخُ الكبيرُ، والغلامُ، والجاريةُ، والرجلُ الذي لا يَقْرَأُ كتاباً قطُّ، فقال لي: يا محمدُ! إنّ القرآن أُنزل على سبعةِ أحرف». وقال: هذا حديث حسن صحيح. وثبَتَ في الأُمّهاتِ البخاري، ومسلمٍ،

«والمُوَطَّأ»، وأبي داود، والنسائي، وغيرها مِن المُصنَّفات، والمُسندات، قِصَّةُ عمر مع هشامِ بن حكيم، وسيأتي بكماله مفصلاً إن شاء الله تعالى.

وقد اختلف العلماءُ في المراد بالأحرف السبعةِ على خمسةٍ وثلاثين قولاً، ذكَرها أبو حاتم، محمدُ بن حيّان البَسْتِيُّ، نَذْكُر منها هُنا خمسةَ أقوال:

الأوّلُ: وهو الذي عليه أكثرُ أهل العلم، كسفيان بن عيينة، وعبدِ الله بن وهب، والطبري، والطحاوي، وغَيْرهم، أنَّ المرادَ بها: سبعةُ أَوْجُهٍ من المعاني المُتقاربةِ، بِأَلْفاظٍ مختلفةٍ، نحوُ: أَقْبِلْ، وتعالَ، وهَلُمَّ. قال الطحاوي: وأبين ما ذُكر في ذلك حديثُ أبي بَكْرة قال: جَاء جبريلُ إلى النبي ﷺ، فقال: اقرأْ على حرفٍ. فقال ميكائيل: اسْتَزِدْه. فقال: اقْرأْ على حرفينِ. فقال ميكائيل: اسْتَزِدْهُ حتى بَلَغَ إلى سبعةِ أحرفٍ. فقال: اقرأْ فكُلٌّ شَافٍ كافٍ، إلاّ أَنْ تَخْلُط آيةَ رحمة بآية عذاب، أو آيةَ عذاب بآية رحمة على نحو: هَلُمَّ، وتَعَال، وأَقْبِلْ، وَاذْهَبْ، وأَسْرِعْ، وَعَجِّلْ، وبَادِرْ.

ورَوَى وَرْقَاءُ، عن ابنِ أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبيٍّ بن كعب: أنّه كان يَقْرأُ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ ﴿للذين آمنوا أَمْهِلُونا﴾ ﴿للذين آمَنُوا أَخِّرُونَا﴾، وبهذا الإسنادِ عن أُبيٍّ: كان يَقْرأُ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ ﴿مَرُّوا فِيهِ﴾ ﴿سَعَوْا فيه﴾. وفي البخاريِّ، ومُسلمٍ قال الزهريُّ: إنّما هذه الأَحْرُفُ في

الأَمْرِ الواحدِ ليس يَخْتلِفُ في حلالٍ، ولا حرامٍ. قال الطحاويُّ: إنّما كانت السبعةُ للناس في الحروفِ؛ لعَجْزِهم عن أَخْذِ القرآن على غير لُغاتهم؛ لأنّهم كانوا أُمِّيِّيْنَ لاَ يَكْتُب إلاّ القليلُ منهم، فلمَّا كان يَشُقُّ عَلى كُلِّ ذي لُغةٍ أَنْ يَتَحوَّلَ إلى غَيْرِهَا من اللُّغاتِ ـ ولو رامَ ذلكَ لَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُ إلاّ بمشقَّةٍ عظيمةٍ ـ وُسِّعَ لهم في اختلافِ الألفاظِ، إذا كان المعنى متَّفقاً، فكانوا كذلك حتى كثر منهم مَنْ يكْتبُ، وعادَتْ لُغاتُهم إلى لسانِ رسول الله ﷺ، فَقَدَرُوا بذلك على تحفُّظِ ألفاظِه، فَلَمْ يَسَعْهم حينئذٍ أن يَقْرءُوا بخلافها. قال ابنُ عبد البرّ: فَبَانَ بِهَذا أنَّ تلك السبعةَ الأحْرف، إنّما كَانَ في وَقْتٍ خَاصٍّ لضرُورةٍ دَعَتْ إلى ذلك، ثُمَّ ارتفعَتْ تلك الضَرورةُ، فارَتفع حكم هذه السبعةِ الأَحْرفِ، وعادَ ما يُقْرأُ به القرآنُ على حَرفٍ واحدٍ.

رَوَى أبو داود، عن أُبيٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبيُّ! إنّي أُقْرِئْتُ القرآنَ فَقِيلَ لي: على حرفٍ أو حرفَينِ، فقال الملكُ الذي معي: قُلْ على حَرْفَينِ، فقيل لي: على حرفَينِ أو ثلاثةٍ، فقال الملَكُ الذي معي: قُلْ على ثلاثةٍ، حتى بَلَغَ سبعةَ أَحْرفٍ»، ثُمّ قال: ليس منها إلاّ شَافٍ كافٍ، إنْ قُلْتَ سميعاً عليماً، عزيزاً حكيماً، ما لم تَخْلُط آيةَ عذاب برحمة، أو آيةَ رحمة بعذاب. وأَسْنَدَ ثابتُ بن قاسم نَحْو هذا الحديث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وذَكَر من كلامِ ابن مسعود نَحْوَهُ. قال القاضي ابنُ الطيِّب: وإذا ثبتت هذه الروايةُ ـ يريدُ حديثَ أُبيٍّ ـ حُمِلَ عَلى أنَّ

هذا كان مطلقاً، ثُمَّ نُسِخَ، فلا يَجُوزُ للنَّاس أن يُبدِّلُوا اسماً لله تعالى في مَوْضعٍ بغيرِهِ، مِمَّا يُوافِقُ معناه، أو يُخَالف.

القولُ الثاني: قال قومٌ: هي سبعُ لُغاتٍ في القرآن على لغاتِ العرب كلها، يَمَنِها ونِزارِها؛ لأنَّ رسول الله ﷺ لم يَجْهَلْ شيئاً منها، وكان قد أُوْتِيَ جَوامعَ الكلم، وليس معناه: أن يكونَ في الحرفِ الواحدِ سبعةُ أوجه، ولكن هذه اللُّغاتُ السبعُ متفرّقةً في القرآن، فبعْضُه بلُغةِ قُريش، وبعضُه بلغةِ هُذَيل، وبَعضُه بِلُغَةِ هوَازن، وبعضُه بلغةِ اليَمنِ. قال الخَطَّابيُّ: على أنَّ في القرآن ما قد قُرِىءَ بسبعةِ أوجهٍ وهو قولهُ: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ وقوله: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ وذَكَرَ وُجوهاً، كأنَّه يَذْهَبُ إلى أنَّ بعضَه أُنْزِل على سبعةِ أحْرُفٍ لا كُلَّه. وإلى هذا القولِ: بأنَّ القرآنَ أُنزل على سبعةِ أحرفٍ على سَبعِ لُغات، ذَهب أبو عُبيد، القاسم بن سلاَّم، واختاره ابنُ عطيّة، قال أبو عُبيد، وبَعْضُ الأَحْياءِ أَسْعَدُ بها، وأَكْثَرُ حظاً فيها مِنْ بَعْضٍ، وذَكَرَ حديثَ ابن شهاب، عن أنسٍ: أنَّ عثمان قال لهم حين أمَرهُم أن يَكْتُبوا المصاحفَ: «ما اختلَفْتمُ أنتم وزيد فَاكْتبوه بلُغَةِ قُريش، فإنّه نَزَلَ بلُغتِهم». ذكره البخاريُّ. وذَكَرَ حديثَ ابن عباس قال: (نزلَ القرآنُ بِلُغةِ الكَعْبَيْنِ: كَعْبِ قُريش، وكَعْبِ خُزاعةَ، قِيل: وكَيْفَ ذلك؟ قال: لأنَّ الدَّار واحدةٌ). قال أبو عُبيدة يَعْني: أنَّ خُزاعَة جيرانُ قريشٍ، فأَخذُوا بلُغتِهم.

قال القاضي ابنُ الطيِّب ـ رحمه الله تعالى ـ: معنى قولِ

عثمان، فإنَّهُ نزَل بلُغة قريش: يُريد مُعْظمَه، وأَكْثرَه، ولم تَقُم دِلالةٌ قاطعةٌ على أنَّ القرآن بأَسْرِهِ مُنزَّلٌ بلُغةِ قُريش فقط، إذ فيه كلماتٌ، وحُروفٌ هي خِلاف لُغةِ قُريشٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ولم يَقُلْ قُرشِيًّا، وهَذا يَدلُّ على أنَّه مُنَّزل بجميعِ لُغاتِ العرب، وليس لأحد أن يَقولَ إنّه أراد قريشاً من العرب دون غَيْرِها، كما أنّه ليس له أن يَقُولَ أرادَ لُغةَ عدنان دُوْنَ قحطان، أو ربيعةَ دُون مُضر؛ لأنَّ اسمَ العرب يتناوَلُ جميعَ هذه القبائل تَناولاً واحداً.

وقال ابنُ عبد البرّ: قَولُ مَنْ قال: إنّ القرآن نَزَلَ بلُغَةِ قريش معناه عندي: في الأغْلب، والله سبحانه أعلم؛ لأنّ غَيْرَ لُغةِ قريش موجود في صَحِيح القِراءاتِ، مِنْ تَحقيقِ الهَمَزاتِ، ونَحْوِها، وقُريش لا تُهْمزُ. وقال ابنُ عطيّة: معنى قَوْلِ النبي ﷺ: «أُنزِلَ القرآن على سبعةِ أحرف». أي: فيه عبارةُ سبعِ قبائلَ بلُغةِ جُمْلَتِهَا نَزَلَ القرآنُ، فيُعبَّر عن المعنى في مرَّةٍ بعبارةِ قُريشٍ، ومرّةً بعبارة هُذَيلٍ، ومرّةً بغير ذلك بِحَسبِ الأفْصَحِ. الأَوْجَز في اللفظ، ألا ترى أنَّ (فَطَرَ) معناه عند غير قُريش: ابْتَدأَ، فجَاءَتْ في القرآن، فلم تَتَّجِهِ لابنِ عباس، حتى اخْتَصَمَ إليه أَعْرابيان في بئرٍ، فقال أحدُهما: أنا فَطَرْتُها، قال ابنُ عباس: (فَفَهِمْتُ حينئذٍ مَوقِعَ قولهِ تعالى): ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال أيضاً: (ما كنتُ أَدْري معنى قوله تعالى): ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ (حتى سَمِعْتُ بنتَ ذي يَزَنٍ تقولُ لزوجُها: تَعال أُفاتِحْك، أي: أُحاكِمْكُ): وكذلك قال

عُمر بن الخطاب. وكان لا يَفْهَم معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: على تَنقُّصٍ لهم. وكذلك اتَّفق لِقُطْبةَ بن مالكٍ، إذْ سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقرأُ في الصلاة: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾. ذَكَرَهُ مسلم في بابِ القراءة في صلاةِ الفجر، إلى غير ذلك من الأمثلة.

القولُ الثالث: إنّ هذه اللغاتِ السبع إنّما تكون في مُضَر، قاله قومٌ، واحتجُّوا بقول عثمان: نَزَلَ القرآنُ بلغةِ مُضر، وقالوا: جَائِزٌ أن يكونَ منها لقُريش، ومنها لِكنانة، ومنها لأَسد، ومنها لِهُذيل، ومنها لتميم، ومنها لِضَبَّة، ومنها لقَيْسٍ، قالوا: فهذه قبائلُ مُضرَ تَسْتَوْعِبُ سبعَ لغات على هذه المَراتِب، وقَدْ كان ابنُ مسعود، يُحِبُّ أن يكون الذين يَكْتُبون المصاحفَ من مُضر، وأنكر آخرون أن تكون كُلُّها في مُضر، وقالوا: في مُضر شَواذٌّ لا يجوزُ أن يُقْرأُ القرآنُ بها، مِثْلُ: كَشْكَشةِ قَيْسٍ، وتَمْتَمةِ تَميمٍ فأمَّا كشكشةُ قيس: فإنّهم يجعلون كافَ المؤنثِ شِيْناً، فيقولون في: ﴿جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جَعَلَ رَبُّشِ تَحْتَش سريّاً، وأمَّا تمتمةُ تميم، فيقولُون في الناس: النَّاتِ، وفي أَكْياسٍ: أَكْيَاتٍ، قالوا: وهذه لُغاتٌ يُرْغَبُ عن القرآن بها، ولا يُحفَظ عن السلف فيها شيءٌ. وقال آخرون: أمَّا إبدالُ الهمزة عيناً، وإبدالُ حروف الحَلْق بعضِها من بعض، فمشهورٌ عن الفُصحاء، وقد قَرأَ بها الجلَّة، واحتجُّوا بقراءةِ ابنِ مسعود: ﴿لَيَسْجُنُنَّه عَتَّى حين﴾ ذكرها أبو داود.

وبقولِ ذي الرمَّةِ:

فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيْدُكِ جِيْدُها ... ولَـوْنُـكِ إلاَّ أَنَّـهَـا غَـيْـرُ طَـائِـلِ

القول الرابع: ما حكاه صاحبُ «الدلائل» عن بَعْضِ العلماءِ، وَحَكَى نَحْوه القاضي ابنُ الطيب قال: تدبَّرْتُ وجوهَ الاختلافِ في القراءةِ فوجَدتُها سَبْعاً:

منها: ما تَتَغيَّرُ حركتهُ، ولا يَزولُ معناه، ولا صُوْرَتهُ، **مِثْلُ**: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وأَطْهَرَ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ ويُضيِّقَ.

ومنها: ما لا تتغيَّرُ صُورتهُ، ويتغيَّرُ معناه بالإعراب، **مثلُ**: ﴿ربُّنا باعَدَ بَيْنَ أسفَارِنَا﴾ و﴿بَاعِدْ﴾.

ومنها: ما تَبْقَى صُورتهُ ويتغيَّرُ معناه باختلافِ **الحُروفِ**، مِثْلُ قوله: ﴿نُنشِزُهَا﴾ و﴿نُنْشِرُها﴾.

ومنها: ما تَتغيَّرُ صُورتهُ ويَبْقَى معناه ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ و(كالصُّوف المنفوش).

ومنها: ما تَتغيَّر صُورتهُ ومعناه، مثلُ: ﴿وَطَلحٍ منضُودٍ﴾ ﴿وطلع منضود﴾.

ومنها: التقديمُ والتأخيرُ، كقوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ و(جاءت سَكْرةُ الحقِ بالموتِ).

ومنها: الزيادةِ والنقصان، **مثلُ** قولهِ: (تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنثَىٰ) وقوله: ﴿وأمّا الغلام فكان كافراً، وكان أبواه مؤمنين﴾، وقولهِ: (فإنَّ الله مِنْ بعدِ إكراهِهنّ لهنّ غفور رحيم).

القولُ الخامسُ: إنّ المرادَ بالأحرفِ السبعةِ معاني كتابِ الله تعالى، وهي أمْرٌ، ونَهْيٌ، ووعد، ووعيد، وقِصَص، ومُجادلة،

وأَمْثالٌ. قال ابنُ عطيّة: وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ هذا لا يُسمَّى أحرفاً. وأيضاً: فالإجماعُ على أنَّ التوسعةَ لم تقع في تحليلِ حلالٍ، ولا في تغييرِ شيءٍ من المعاني. وذَكَر القاضي ابْنُ الطيب في هذا المعنى حديثاً، عن النبي ﷺ، ثُمّ قال: ولكن لَيْسَتْ هذه هي الَّتِي أجاز لهم القراءةَ بها؛ وإنّما الحرفُ في هذه بمعنى الجِهَةِ، والطريقةِ، ومنه قولهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ﴾ فكذلك معنى هذا الحديثِ على سَبْعِ طرائقٍ مِنْ تحليل، وتحريم، وغَيْرِ ذلك. وقد قيل: إنّ المرادَ بقوله ﷺ: «أُنزل القرآنُ على سبعةِ أحرف» القراءاتُ السبعُ التي قرأ بها القُرَّاءُ السبعة؛ لأنّها كُلَّها صحَّتْ عن رسولِ الله ﷺ، وهذا ليس بشيء؛ لظهورِ بُطْلانهِ على ما يأتي.

تنبيهان: الأوّلُ: قال كثيرٌ مِن عُلمائنا كالدَّاوديِّ، وابنِ أبي صُفْرَةَ، وغَيْرهما: هذه القراءاتُ الَّتِي تُنْسَب لهؤلاءِ القُرَّاء السبعةِ، ليسَتْ هي الأحْرفُ السبعةُ التي اتَّسعَتْ الصحابةُ في القراءةِ بها؛ وإنَّمَا هي راجعةٌ إلى حرفٍ واحدٍ مِنْ تلك السبعة، وهو الذي جَمَعَ عليه عثمانُ المصحفَ. ذَكَره ابنُ النحَّاس، وغَيْرهُ. وهذه القراءاتُ المشهورةُ هي اختياراتُ أُولئك الأئمةِ القُراءِ، وذلك أنَّ كلَّ واحد منهم اختارَ فيما رَوَى، وَعلم وَجْهَه من القراءات ما هو الأَحْسَنُ عنده، والأَوْلَى فَالْتَزَمهُ طريقةً، وَرَواهُ، وأَقْرَأَ بِهِ، واشْتَهَرَ عنه، وعُرِفَ به، ونُسِبَ إليه. فقِيلَ: حَرْفُ نافعٍ، وحَرْفُ ابنِ كثير، ولم يَمْنَعْ واحدٌ منهم اخْتِيارَ الآخرِ، ولا أَنْكرَه، بَلْ سَوَّغَهُ،

وجَوَّزَهُ، وكُلُّ واحدٍ مِنْ هؤلاءِ السبعةِ رُويَ عنه اخْتِيارَانِ، أو أَكْثَرُ، وكُلٌّ صحيحٌ، وقد أَجْمَعَ المسلمون في هذه الأعصارِ، على الاعتمادِ على ما صَحَّ مِنْ هؤلاء الأَئِمَّةِ مِمَّا رَوَوْهُ، ورَأَوْهُ مِنَ القراءاتِ، وكتَبُوا في ذلك مُصنَّفاتٍ، فَاسْتَمَرَّ الإجماعُ على الصوابِ. وحَصلَ ما وَعدَ الله به مِنْ حِفْظِ الكتاب. وعلى هذه، الأئمة المُتقدِّمُون، والفُضلاء المُحقّقون، كالقاضي أبي بكرِ بنِ الطيِّب، والطَبَريِّ، وغيرِهما.

قال ابنُ عطيّة: وَمَضتْ الأعصار، والأمصارُ على قراءةِ السبعة، وبها يُصَلَّىٰ؛ لأنّها ثَبَتَتْ بالإجماعِ وأمَّا شَاذُ القِراءاتِ فلا يُصلَّى به؛ لأنّه لم يُجْمِعِ ٱلناسُ عليه، أَمَّا إنَّ المَرْوِيَّ منه عن الصحابةِ ـ رضي الله عنهم ـ، وعَنْ عُلماءِ التابعين فلا نَعْتَقِدُ فيه، إلاّ أنَّهم رَوَوْهُ، وأمَّا ما يُؤْثَرُ عن أَبِي السِّماك؛ ومَنْ قَارنه؛ فلأنّه لا يُوثَق به. وقال غَيرُه: أمَّا شاذُّ القراءةِ عن المصاحفِ المتواترةِ، فَلَيْسَتْ بقُرآنٍ، ولا يُعمل بها على أنّها منه، وأَحْسَنُ مَحَامِلِهِ: أَنْ تكونَ بَيانَ تَأْويلِ مَذْهبِ مَنْ نُسِبَتْ إليه، كقراءةِ ابن مسعود ﴿فصيام ثلاثة أيامٍ متتابعات﴾، فأمَّا لو صَرَّح الرَّاوي بسماعِها، عن رسول الله ﷺ؛ فاختَلَفَ العلماءُ في العملِ بذلك على قولين: النَّفْيُ، والإثباتُ.

ووَجْهُ النفي: أنَّ الراويَ لم يَرْوِ في مَعْرِضِ الخبرِ، بَلْ في مَعْرِض القرآن، ولم يَثْبُتْ، فلا يُثْبَتُ.

والوجه الثَّاني: أنّه وإن لم يَثْبُتْ كونُه قرآناً، فقد ثَبَتَ كونُهُ

سُنّةً، وذلك يُوجِبُ العملَ، كسائِرِ أخبارِ الآحَاد.

والثاني: في ذِكْرِ معنى حَديثِ عُمر، وهِشام، قال ابنُ عطيّة: أباح الله تعالى لِنبيّه ﷺ هذه الحُروفَ السبعةَ، وعارَضَهُ بها جبريلُ عليه السلام في عَرْضاتِه علَى الوَجْهِ الذي فيه الإعْجازُ، وجَوْدَةُ الرَّصْفِ، ولم تَقَعِ الإباحَةُ في قولهِ ﷺ: «فَاقْرَءُوا ما تيسَّر منه»، بأن يكونَ كلُّ واحد من الصحابة، إذا أراد أن يُبدِّلَ اللَّفْظَةَ مِنْ بعضِ هذه اللُّغاتِ.. جَعلَها مِنْ تِلْقاء نَفْسِهِ، ولو كان هذا لَذَهبَ إعْجازُ القرآن، وكان مَعَرَّضاً أنْ يُبَدَّلَ هذا وهذا، حتَّى يكون غَير الَّذِي نزل مِنْ عندِ الله تعالى؛ وإنَّما وَقَعَتْ الإبَاحَةُ في الحُروفِ السبعةِ، للنبي ﷺ؛ ليُوسِّعَ بها على أُمَّتِهِ، فأَقْرَأَ مَرَّةً لِأُبَيٍّ بما عارضه به جبريلُ، ومرّةً لابنِ مسعود بما عارَضَه به أيضاً. وعلى هذا تَجِيءُ قراءةُ عُمر بن الخطاب لسورةِ الفرقان، وقراءةُ هشام بن حكيم لها، وإلاّ فكَيْفَ يَستقِيم أنْ يقولَ النبيُّ ﷺ في كلِّ قراءةٍ منهما، وقد اخْتَلَفَتا: «هكذا أَقْرأَني جبريلُ. هل ذلك إلاّ أنّه أُقْرِىءَ مرّةً بهذه، ومرَّةً بهذه، وعلى هذا يُحْمَلُ قولُ أنس حِيْنَ قَرَأَ: ﴿إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَصْوَبُ قِيلاً﴾ فقِيل له: إنّما يُقْرَأُ: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، فقال أنسٌ: (وَأَصْوَبُ قيلاً) ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، وأَهْيأُ، وَاحِدٌ؛ فإنَّما معنى هذا أنَّها مَرْوِيَّةٌ عن النبي ﷺ، وإلاّ فلو كان هذا لأحدٍ من الناسِ أنْ يضعَه؛ لَبَطَل معنى قولهِ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

رَوى البخاريُّ، ومسلم، وغَيرُهما، عن عُمر بن الخطاب

قال: سَمِعْتُ هشامَ بن حكيم يَقْرأُ سورة الفرقان على غير ما أَقْرؤُها، وكان رسولُ الله ﷺ أَقْرأَنيها، فكدت أن أَعْجَلَ عليه، ثُمَّ أمهلته حتى انْصرفَ، ثم لَبَبْتُهُ بِردَائِهِ، فجئتُ به رسولَ الله ﷺ فقُلْتُ: يا رسولَ الله! إنّي سمعْتُ هذا يَقرأ سورة الفرقان على غير ما أَقْرَأْتَنِيها، فقال رسول الله ﷺ: «أَرْسِلْه، إقْرأ» فقرأ القراءة التي سمعْتُه يقرأْ، فقال رسول الله ﷺ: «هَكَذا أُنزلَتْ» ثُمَّ قال لي: اقرأ، فقرأتُ فقال: «هكذا أُنزلت، إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعةِ أَحْرُف فاقْرءُوا ما تَيسَّر منه».

قُلْتُ: وفي معنى حديثِ عمر هذا ما رَواه مسلمٌ، عن أُبيٍّ بن كعب قال: كنتُ في المسجد، فدَخل رجلٌ يُصلِّي، فقرأ قراءةً أنكَرْتُها عليه، ثُمَّ دخلَ آخرُ، فقرأ قراءةً سِوَى قراءةِ صاحبه، فلمَّا قَضَيْنا الصلاةَ دَخَلْنَا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقُلْتُ: إنَّ هذا قرأَ قراءة أنكْرتُها عليه، ودَخَل آخر، فقرأ سِوَى قراءةِ صاحبِه، فأَمَرهُما النبيُّ ﷺ، فقَرآ، فَحَسَّن النبيُّ ﷺ شَأْنهما، فَسَقَط في نَفْسي من التكذيبِ، ولا إذْ كُنْتُ في الجَاهليّة، فَلمَّا رَأَى النبيُّ ﷺ ما قَدْ غَشِيَني، ضرب في صَدْرِي، فَفِضْتُ عرقاً، وكَأنِّي أَنْظُر إلى الله تعالى فَرَقاً، فقال: «يا أُبَيُّ! أُرْسِلَ إلَيَّ أَنْ أَقْرأَ على حرفٍ، فردَدْتُ عليه: أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتي»، فرَدَّ إليَّ الثانيةَ أَنْ أقرأ على حرفين «فرددتُ إليه أن هَوِّن على أمّتي» فردَّ إليّ الثالثة أن أَقْرأ على سبعةِ أحرف، ولك بكُل رَدّةٍ رَدَدْتُكَها مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا، فقُلْتُ: «اللهمّ اغفر لأُمّتي، وأَخّرْتُ الثالثةَ لِيومٍ يرَغْبُ إليَّ فيه الخَلْقُ

كُلُّهم حتى إبراهيمُ عليه السلام».

قولُه: (فَسَقَطَ في نَفْسِي من التكذيب ولا إذْ كُنتُ في الجاهليّة). معناه: وَسْوسَ إليَّ الشيطانُ تكْذِيباً للنبوَّةِ أَشدَّ ما كُنتُ عليه في الجاهليّة؛ لأنّه كان في الجاهلية غافلاً، ومُشَكِّكاً، فوَسْوسَ إليه الشيطانُ الجَزْمَ بالتكذيب. وقيل معناه: إنَّه اعْتَرَتْه حَيْرَةٌ، ودَهْشَةٌ، ونَزَعَ الشيطانُ في قَلْبه تكذيباً لم يَعْتِقدْه، وهذه الخَواطرُ إذا لم يَسْتَمِرَّ عليها الإنسانُ لا يُؤاخَذُ بها. (وكأنَّما أَنْظُرُ إلى الله تعالى فَرَقاً) الفَرَقُ بالتحريك: الخَوفُ، والخَشْيَةُ.

والمعنى: أنّه غشيه من الهَيْبَة، والخَوْفِ، والعَظَمَةِ حِين ضَرَبهُ، (ما أزال عنه ذلك الخَاطِرَ) يعني: أنَّ النبي ﷺ: لمَّا رأى ما أصَابَه مِن ذلك الخاطِرِ، نَبَّهَه بأَنْ ضَرَبه في صَدْرِهِ، فأَعْقَب ذلك بِأَنْ انْشرَح صَدْرُهُ، وتَنوَّرَ بَاطنهُ حتى آلَ به الكَشْفُ، والشَّرْحُ إلى حَالةِ المُعَاينةِ، ولمَّا ظهر له قُبْحُ ذلك الخاطِر، خَاف مِن الله تعالىٰ، وفاض بالعَرقِ اسْتِحْياءً من الله تعالى، وكان هذا الخَاطرُ مِن قَبيلِ ما قال فيه النبيُّ ﷺ حِينَ سألوهُ: إنَّا نَجِدُ في أنفسنا ما يتعاظَم أحدُنا أنْ يتكلَّم به. قال: «وقد وَجدْتُموه» قالوا: نَعَمَ. قال: «ذلك صَرِيحُ الإيمان». أخرجه مسلم من حديثِ أبي هريرة.

والله أعلم

* * *

الفصل الرابع عشر

في ذِكْرِ جَمْعِ القرآن، وسَبب كَتْب عثمان المصاحفَ، وإحراقِه ما سِوَاه، وذِكْرِ مَنْ حَفظ القرآن من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في زمن النبي ﷺ

كان القرآنُ في حياةِ النبي ﷺ مُتفرِّقاً في صُدُور الرجالِ، وقد كَتَبَ الناسُ منه في صُحُفٍ، وفي جَرِيدٍ، وفي لِخَافٍ، وظُرَرٍ، وفي خَزَفٍ، وغَيْرِ ذلك. قال الأصمعيُّ: اللِّخَاف حِجارةٌ بِيضٌ رِقاقٌ، واحدتُها لَخْفَةٌ. والظُّررَ: حَجرٌ له حَدٌّ كحدّ السِكِّين، والجَمْعُ ظِرارٌ، مثلُ: رُطَبٍ، ورِطَابٍ، ورُبَعٍ، ورِباعٍ، فلمّا اسْتحرَّ القَتْلُ بالقُرَّاءِ يوم اليمامة في زمنِ الصديق ـ رضي الله عنه، ـ وقُتِلَ منهم في ذلك اليومِ فيما قِيلَ: سَبْعُمائةٍ. أَشَارَ عمرُ بن الخطاب على أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ بِجَمْعِ القرآن مَخافَةَ أنْ يَمُوتَ أَشْيَاخُ القُرَّاء، كَأُبَيٍّ، وابنِ مسعود، وزيد بن ثابت، فندَبَا زَيد بن ثابتٍ إلى ذلك، فجَمَعه غَيْرَ مُرتَّبِ السُّور بعد تعَبٍ شديدٍ ـ رضي الله عنه.

رَوَى البخاري، عن زيد بن ثابت قال: (أرْسلَ إليّ أبو بكر مَقْتَلَ أهْل اليمامةِ، وعنده عُمَرُ، فقال أبو بكر: إنَّ عُمرَ أتاني فقال: إنَّ القِتَالَ قَد اسْتَحرَّ يومَ اليمامة بالنَّاسِ، وإنّي أَخْشَى أنْ

يَسْتَحِرّ القَتْلُ بالقُرَّاءِ في المَواطنِ ، فيَذْهبَ كثيرٌ من القرآن إلاّ أنْ تَجْمعُوهُ، وإنّي لأَرَى أن تَجْمَعَ القرآن. قال أبو بكر: فقلْتُ لِعُمَر: كَيفَ أفعلُ شيئاً لم يَفْعلْه رسولُ الله ﷺ؟ فقال: هو والله خَيْرٌ، فلَم يَزل يُراجِعْني حتى شَرَحَ الله لذلك صَدْرِي، ورأَيْتُ الذي رَأَى عُمَرُ. قال زيدٌ: وعنده عُمرُ جالِسٌ لا يَتكلَّمُ، فقال لي أبو بكر: إنّك رجل شَابٌّ عاقلٌ، ولا نتَّهِمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لرسول الله ﷺ، فتتَبَّعِ القرآن، فاجْمَعْهُ، فوالله، لو كلَّفَنِي نَقْلَ جبلٍ من الجِبَال، ما كَان أثْقلَ عليَّ مِمَّا أَمَرنِي به مِنْ جَمْعِ القرآن. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلانِ شيئاً لم يَفْعَلْهُ رسولُ الله ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خَيْرٌ، فلم أزَلْ أُراجِعْه، حتى شَرَحَ الله صدري للَّذِي شَرَحَ له صَدْرَ أبي بكر، وعُمَر، فقُمْتُ فتَتَبَّعْتُ القرآنَ أَجْمَعهُ مِن الرِقَاعِ، والأكْتَافِ، والعُسُبِ، وصُدور الرجال، حتى وجَدْتُ مِن سورة التوبة آيتَين مع أبي خُزيمةَ بنِ أوس بن زيد الأنصاريِّ، لم أَجِدْهما مع غَيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ إلى آخرها. فكانت الصُّحفُ التي جُمع فيها القرآنُ عند أبي بكر حتى تَوَفَّاهُ الله، ثُمَّ عندَ عُمر حتى توفَّاه الله، ثُمَّ عند حَفْصة بنتِ عُمر).

وقال اللَّيْثُ: حدّثني عبدُ الرحمن بن غالب، عن ابن شهاب، وقال: مع أَبِي خُزيمة الأنصاري. وقال أبو ثابت: حدّثنا إبراهيمُ، وقال: مع خُزيمة، أو أبي خزيمة، وهو الصَّوابُ. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾. وقال الترمذيُّ في حديثه عنه: فوجدتُ آخرَ (سورة براءة) مع خُزيمة بن ثابت. ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ

مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ وقال حديثٌ حسن صحيح. وفي «البخاريِّ»، عن زيدِ بن ثابت قال: (لمَّا نَسَخْنَا الصُّحُفَ في المَصاحِف فَقَدْتُ آيةً مِنْ سورة الأحزاب كنت أَسْمَعُ رسول الله ﷺ يقرؤُها، لَم أَجِدْها مع أحدٍ، إلاّ مع خُزيمة بن ثابت الأنصاريّ، الَّذي جعل رسولُ الله ﷺ شهادتَه بشهادةِ رجلين) ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾. وقال الترمذي عنه: فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب، كنتُ أسمعُ رسولَ الله ﷺ يقرؤُها: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾، فَالْتَمسْتُها، فوجدتُها عند خُزيمة بن ثابت، أو أبي خزيمة، والأوّلُ هو الصَّواب، فَأَلْحَقْتُها في سُوْرتِها.

قُلْتُ: فسقَطَتْ الآيةُ الأولى من آخر (براءة) في الجَمْع الأوّلِ على ما قاله البخاري، والترمذي، وفي الجمع الثاني فُقِدت آيةٌ مِن سورة الأحزاب.

وحكى الطبريُّ: أنَّ آية (بَراءةُ) سقطَتْ في الجمعِ الأخير، والأوّلُ أصحُّ، والله أعلم. فإنْ قيل: فما وَجْهُ جَمْعِ عثمان الناسَ على مُصحفهِ، وقد سَبقه أبو بكر إلى ذلك، وفرَغَ منه. قيل له: إنّ عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ لم يَقْصِدْ بما صَنَعَ جَمْعَ الناس على تأليفِ المصحف، ألا تَرَى كَيْفَ أَرسَلَ إلى حفصة أن (أَرسِلِيْ إِلَيْنا بالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا في المصاحِف، ثُمَّ نَرُدُّها إليكِ) عَلَى ما يَأْتي، وإنَّما فَعَلَ عثمانُ ذلك؛ لأنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا في القراءات؛ بسبب

تَفرُّق الصحابةِ في البُلْدَانِ، واشْتدَّ الأمر في ذلك، وعَظُم اختلافُهم، وتَشَبُّهُهُمْ، وَوَقَعَ بَيْنَ أهلِ الشامِ، والعِراق، ما ذَكَره حُذيفةُ ـ رضي الله عنه ـ وذلك: أنّهم اجْتمعُوا في غَزْوةِ أَرْمِيْنيَةَ، فقرأتْ كُلُّ طائفةٍ بِمَا رُوِيَ لها، فاخْتَلفُوا، وتنازَعُوا، وأظْهرَ بعضُهم إكْفارَ بَعْضٍ، والبَرَاءَةَ منه، وَتَلاعَنُوا، فأَشْفَق مِمَّا رأى منهم، فلمَّا قَدِمَ حُذيفة المدينةَ فيما ذَكَرَ البخاريُّ، والترمذيُّ، دَخَلَ إلَى عثمان قبل أنْ يَدْخُل إلى بيته فقال: (أَدْرِكَ هذه الأُمَّةَ قبل أن تَهْلِكَ قال: فِيْما ذا؟ قال: في كتابِ الله. إنّي حَضَرْتُ هذه الغَزْوةَ، وجَمعَتْ ناساً من العِرَاقِ، والشَّامِ، والحجاز، فوَصَفَ له ما تقدَّم، وقال: إنّي أَخْشَى عليهم، أنْ يَخْتَلِفُوا في كتابهم، كما اخْتلف اليهودُ والنصارىٰ).

قُلْتُ: وهذا أدلُّ دليلٍ على بُطلاَن قولِ مَنْ قال: إنَّ المُرادَ بالأحْرُفِ السبعةِ قِراءَاتُ القُرَّاءِ السبعةِ؛ لأنَّ الحَقَّ لا يُخْتَلَفُ فيه.

وقَدْ رَوَى سُويدُ بن غَفَلة، عن علي بن أبي طالب: أنَّ عثمان قال: (ما تَرَوْن في المصاحف، فإنّ الناسَ قد اخْتلفَوا في القِراءةِ، حتى إنَّ الرجل ليقول: إنّ قراءتي خَيْرٌ مِنْ قراءتك، وقراءتي أَفْضلُ من قراءتك، وهذَا شَبِيْهٌ بالكُفر). قُلْنَا: ما الرَّأيُ عندك؟ يا أمير المؤمنين قال: (الرَّأيُ عندي: أَنْ يَجْتَمِعَ الناسُ على قراءةٍ، فإنَّكم إذا اخْتَلفتم اليومَ، كان مَنْ بعدَكم أشدَّ اختلافاً. قُلْنا: الرَّأْيُ رَأْيُك يا أَمِيرَ المؤمنين!) فأَرْسَلَ عثمانُ إلى حَفْصة (أنَّ أَرْسِلِيْ إِلَيْنا بِالصُّحُفِ، نَنْسَخُها في المَصاحِفِ، ثُمَّ نردُّها إليكِ) فأَرْسلتْ بها

إليه، فأمر زَيْدَ بن ثابتٍ، وعبدَ الله بن الزبير وسعيدَ بن العَاص، وعبدَ الرحمن بن الحارثِ بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرَهْط القُرَشِيين: (إذا اختلفتم أنتم، وزيدُ بن ثابت في شيءٍ من القرآن، فاكتبوه بِلسانِ قُرَيشٍ؛ فَإنَّما نَزَل بلسانِهم) ففَعلُوا، حتى إذا نَسخُوا الصُّحُف في المصاحِف، رَدَّ عثمانُ الصُّحفَ إلى حفصة، وأرسل إلى كُلِّ أُفُقٍ بمُصحفٍ مِمَّا نَسخُوا، وأَمَرَ بما سِوَى ذلك من القرآنِ في كُلِّ صحيفةٍ، أو مصحفٍ أن يُحرَّقَ، وكان هذا مِن عثمان ـ رضي الله عنه ـ بعد أنْ جَمَعَ المُهاجرين، والأنصار، وجِلَّةَ أهلِ الإسلام، وشَاوَرهم في ذلك فاتَّفقوا على جمعهِ بما صحَّ، وثبتَ من القراءات المشهورةِ عن النبي ﷺ، واطِّراحِ ما سواها، واستصوبوا رَأْيَه، وكان رأياً سديداً ـ رَحْمةُ الله عليه وعليهم أجمعين ـ. وقال الطبري فيما رَوَى: أنَّ عثمان قَرَن بزيدٍ، أبَانَ بن سعيد بن العاصِ وحده، وهذا ضعيفٌ. وما ذكره البخاريُّ، والترمذي، وغيرُهما أصحُّ.

وقال الطبريُّ أيضاً: إنّ الصُّحف التي كانت عند حفصة، جُعِلَتْ إماماً في هذا الجمعِ الأخير، وهذا صحيح. قال ابن شِهاب: وأخبرني عُبيد الله بن عبد الله أنّ عبد الله بن مسعود، كَرِهَ لزيدِ بن ثابت نَسْخَ المصاحف، وقال: (يا معشر المسلمين، أُعْزَلُ عن نَسْخِ المصاحفِ، ويتوَلاَّهُ رجلٌ، والله لقد أسلَمْتُ، وإنّه لفي صُلب رجلٍ كافرٍ ـ يُريد زيدَ بن ثابت ـ ولذلك قال عبدُ الله بن مسعود: (يا أهل العِراق: اكْتُمُوا المصاحِف التي عندكم وغُلُّوها،

فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فَالْقَوُا الله بالمصاحف) أخرجه الترمذي.

قال أبو بكر الأنباري: ولم يكن الاختيار لزيد من جِهة أبي بكر، وعمر، وعثمان على عبد الله بن مسعود في جَمْعِ القرآن، وعبد الله بن مسعود أفضل من زيد، وأَقْدَمُ في الإسلام، وأَكْثَرُ سَوابِقَ، وأَعْظَمُ فضائل؛ إلاّ لأنَّ زيداً كان أَحْفَظَ للقرآن من عبد الله، إذْ وَعاه كُلَّه، ورسولُ الله ﷺ حيٌّ، والذي حَفِظَ منه عبدُ الله في حياةِ رسول الله ﷺ، نَيِّفٌ وسَبْعُونَ سورةً، ثُمَّ تعلَّم الباقيَ بعد وفاةِ رسول الله ﷺ، فالذي خَتَم، وحَفِظَه، ورسولُ الله ﷺ حيٌّ، أَوْلَى بِجَمْعِ المصحفِ، وأحقُّ بالإيثار، والاختيارِ، ولا ينبغي أن يَظُنَّ جاهلٌ، أنَّ في هذا طَعْنَا على عبدِ الله بن مسعود؛ لأنَّ زيداً إذا كان أَحْفظَ للقرآنِ منه، فليس ذلك مُوجِباً لِتَقْدَمَتِهِ عليه؛ لأنَّ أبا بكر، وعُمر ـ رضي الله عنهما ـ كان زَيدٌ أحفظَ منهما للقرآن، وليس هو خيراً منهما، ولا مُساوِياً لهما في الفضائل، والمناقب.

قال أبو بكر الأنباري: وما بَدَا من عبد الله بن مسعود مِنْ نكيرِ ذلك؛ فشيءٌ نَتَجَهُ الغضَبُ، ولا يُعْمَلُ به، ولا يُؤْخَذُ به، ولا يُشَكُّ في أنَّه ـ رضي الله عنه ـ قد عَرَفَ بعد زَوالِ الغضبِ عنه، حُسْنَ اختيارِ عثمان، ومَنْ معه مِن أصحابِ رسول الله ﷺ، وبَقِيَ على موافقتهم، وتَركَ الخِلافَ لهم، فالشَّائعُ، الذَّائِعُ المُتَعالَمُ عند أهلِ الرِوَايةِ، والنَّقلِ، أنَّ عبدَ الله بن مسعود تعلَّم بقيَّة القرآن بعد

وفاةِ رسول الله ﷺ. وقد قال بعض الأئمة: مات عبد الله بن مسعود قبَل أن يختم القرآن. قال زيد بن هارون: المعوِّذتان بمنزلة البقرة وآل عمران ومَنْ زَعَم أنّهما ليستا من القرآن، فهو كافر بالله العظيم. فقيل له: فقولُ عبد الله بن مسعود فيهما، فقال: لا خلاف بَيْنَ المسلمين، في أنَّ عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كُلَّه. وقد قال بعضُ أَهل العلم: مات عبد الله بن مسعود قبل أن يتعلَّم المعوِّذتَينِ فلهذه العلّةِ لم تُوجَدا في مصحفه. وقيل غير هذا على ما يأتي بيانه آخر الكتاب عند ذِكْر المعوذتين إنْ شاء الله تعالى.

وروَى إسماعيلُ بن إسحاق، وغَيْرُه، قال حَمَّاد: أَظُنُّه عن أنسِ بن مالك قال: (كانُوا يختِلفُون في الآية فيقُولون: أقرَأَها رسولُ الله ﷺ فُلانَ بن فلان، فعَسَى أن يكونَ على ثلاث مراحل من المدينةِ، فيُرْسَلُ إليه، فيُجاءُ به، فيقال: كَيْف أَقْرأك رسولُ الله ﷺ آية، كذا وكذا؟ فيَكتُبون كما قال. قال ابنُ شِهاب: واختلَفُوا يَومئذٍ في التابوتِ، فقال زيد: التابُوه، وقال ابن الزبير، وسعيدُ بن العاص: التابوت، فرُفِعَ اختلافُهم إلى عثمان، فقال: (أُكْتُبوه بالتاءِ، فإنّه نَزَلَ بلسانِ قريش). أخرجه البخاري، والترمذي. قال ابنُ عطية: قرأه زيدٌ بالهاء، والقرشيُّون بالتاء، فأَثْبتُوهُ بالتاءِ، وكُتِبَتْ المصاحفُ على ما هو عليه غابر الدَّهْر، ونَسَخَ منها عثمان نُسَخاً. قال غَيره: قِيلَ سبعةً، وقِيل: أربعةً، وهو الأكثر، ووجّه بها إلى الآفَاق؛ فوجَّه للعراق، والشام، ومصر

بأُمّهاتٍ، فاتخَذَها قُرَّاء الأمصار مُعْتمَدَ اخْتِيارَاتهم، ولَمْ يُخالِف أحدٌ منهم مصحفَه على النَّحْو الذي بَلَغه، وما وُجِدَ بَيْنَ هؤلاءِ القُرَّاءِ السبعة من الاختلافِ في حروف يزيدُها بعضُهم، ويَنْقُصها بعضُهم، فذلك؛ لأنَّ كلاً منهم على ما بَلغه في مصحفِه، ورَواه، إذ قد كان عثمانُ كَتَب تلك المواضعَ في بعضِ المواضع، ولم يَكْتُبْها في بعضٍ؛ إشعاراً بأنَّ كُلَّ ذلك صحيحٌ، وأنَّ القراءةَ بكل منها جائزة.

قال ابن عطيّة: ثُمَّ إنّ عثمان أمَرَ بما سِواها من المصاحف أن تُحرقَ، أو تُخْرَق، (تُرْوَى بِالحَاءِ غَيْر مَنْقُوطةٍ، ،وَتُرْوَى بالخَاءِ على معنى)، ثُمَّ تُدْفَنَ، ورِوَايةُ الحاءِ منقوطةً أحسنُ. وذَكَرَ أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردّ» عن سُويد بن غَفَلة قال: سَمِعْتُ عليَّ بن أبي طالب ـ كَرَّم الله وَجْهَه ـ يقول: (يا مَعْشر الناسِ اتقوا الله، وإيّاكم والغُلُوَّ في عثمان، وقولكم حَرَّاقُ المصاحف، فوالله، ما حَرَّقَها إلاّ عن مَلَأٍ مِنّا أصحابَ محمد ﷺ). وعن عُمر بن سعيد قال: قال عَلِيُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: (لو كُنْتُ الوالي وَقْتَ عثمان؛ لفَعلْتُ في المصاحف مِثْلَ الذي فعل عثمانُ) قال أبو الحسن بن بطّال: وفي أمرِ عثمان بتَحْرِيقِ المَصاحفِ، والصُّحفِ حِينَ جَمَعَ القرآن، جوازُ تَحْرِيْقِ الكُتُب التي فيها أسماءُ الله تعالى، وأنَّ ذلك إكرامٌ لها، وصيانةٌ عن الوطءِ بالأَقْدَامِ، وطَرْحها في ضِيَاعٍ من الأرض.

رَوَى معمرٌ، عن ابنِ طاوُسٍ، عن أبِيهِ: أنّه كان يَحْرِقُ

الصُّحُفَ، إذا اجتمعَتْ عنده الرسائلُ فيها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾. وحَرَّق عُروةُ بن الزبير، كُتُبَ نفسِه كانَتْ عنده يومَ الحَرَّة، وكره إبراهيمُ أنْ تُحرق الصحفُ، إذا كان فيها ذِكْرُ الله تعالى. وقولُ مَنْ حَرَقَها أَوْلى بالصَّواب، وقد فَعَله عثمان. وقد قال القاضي أبو بكر: لِسانُ الأُمة: جَائِزٌ للإمامِ تَحْرِيقُ الصُّحُفِ الَّتي فيها القرآنُ، إذا أدَّاهُ الاجتهادُ إلى ذلك.

والله أعلم

* * *

الفصل الخامس عَشر

في ما جاء في ترتيب سُورِ القرآن، وآياتِه

واعلم أنَّ الله تعالى، أنزل القرآن المجيدَ من اللوح المحفوظ جملةً واحدة، إلى سماء الدنيا في مكان يقال له: بيتُ العزّة، في شهر رمضان، في ليلةِ القدر، ثُمَّ كان يُنزِّله مُفرَّقاً على لسانِ جبريل عليه السلام، إلى النبي ﷺ مُدّة رسالته نُجوماً عند الحاجةِ، وبحدوثِ ما يَحْدُث على حَسَبِ ما شاء الله سبحانه وتعالى. وترتيبُ نزولِ القرآن، غَيْرُ ترتيبه في التلاوة، والمُصحفِ، وهو قسمان:

إمّا مكيٌّ: وهو خمسٌ وثمانون سورة.

وإمَّا مدنيّ: وهو: ثمانٌ وعشرون سورة.

فترتيبُ السورِ المكيّة في النزولِ هكذا، يعني: أوّلُ ما نَزلَ بمكة من القرآن: (١) اقرأ (٢) نّ (٣) المزّمل (٤) المدّثر (٥) تبّت (٦) الشمس (٧) الأعلى (٨) الليل (٩) الفجر (١٠) الضحى (١١) ألم نشرح (١٢) العصر (١٣) العاديات (١٤) الكوثر (١٥) التكاثر (١٦) الماعون (١٧) الكافرون (١٨) الفيل (١٩) الفلق (٢٠) الناس (٢١) الإخلاص (٢٢) النجم (٢٣) عبس (٢٤) القدر (٢٥) الضحى (٢٦) البروج (٢٧) التين (٢٨) قريش (٢٩) القارعة (٣٠)

القيامة (٣١) الهُمزة (٣٢) المرسلات (٣٣) قٓ (٣٤) البلد (٣٥) الطارق (٣٦) الساعة (٣٧) صٓ (٣٨) الأعراف (٣٩) الجنّ (٤٠) يسٓ (٤١) الفرقان (٤٢) الملائكة (فاطر) (٤٣) مريم (٤٤) طه (٤٥) الواقعة (٤٦) الشعراء (٤٧) النمل (٤٨) القصص (٤٩) بني إسرائيل (٥٠) يونس (٥١) هود (٥٢) يوسف (٥٣) الحجر (٥٤) الأنعام (٥٥) الصافات (٥٦) لقمان (٥٧) سبإ (٥٨) الزمر (٥٩) المؤمنون (٦٠) السجدة (٦١) الشورى (٦٢) الزخرف (٦٣) الدخان (٦٤) الجاثية (٦٥) الأحقاف (٦٦) الذاريات (٦٧) الغاشية (٦٨) الكهف (٦٩) النحل (٧٠) نوح (٧١) إبراهيم (٧٢) الأنبياء (٧٣) المؤمنون (٧٤) السجدة (٧٥) الطور (٧٦) تبارك (٧٧) الحاقة (٧٨) المعارج (٧٩) النبأ (٨٠) النازعات (٨١) الانفطار (٨٢) الانشقاق (٨٣) الروم (٨٤) العنكبوت (٨٥) المطفّفين.

السور المدنية

(٨٦) البقرة (٨٧) الأنفال (٨٨) آل عمران (٨٩) الأحزاب (٩٠) الممتحَنة (٩١) النساء (٩٢) الزلزلة (٩٣) الحديد (٩٤) القتال (محمد ﷺ) (٩٥) الرعد (٩٦) الرحمن (٩٧) الإنسان (٩٨) الطلاق (٩٩) البيّنة (١٠٠) الحشر (١٠١) النصر (١٠٢) النور (١٠٣) الحج (١٠٤) المنافقون (١٠٥) المجادلة (١٠٦) الحجرات (١٠٧) التحريم (١٠٨) الجمعة (١٠٩) التغابن (١١٠) الصف (١١١) الفتح (١١٢) المائدة (١١٣) براءة.

وفي «الفتوحات»: بعدما ذكر السور التي نزلت بمكة ما

نصه: واختلفوا في آخر ما نزل بمكة فقال ابن عباس: العنكبوت، وقال الضحَّاك، وعطاء: (المؤمنون)، وقال مجاهد: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ فهذا ترتيب ما نزل بمكة، فذلك ثلاث وثمانون سورة على ما استقرت عليه روايات الثقات. وأما ما نزل بالمدينة، فأولها: البقرة ثم الأنفال... إلخ، إلى أن قال، ثم التوبة ثم المائدة. ومنهم من يقدم المائدة على التوبة فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بالمدينة.

وأمّا الفاتحة: فقيل نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، واختلفوا في سور قليلة، فقيل: نزلت بمكة، وقيل نزلت بالمدينة، وسنذكر ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى. اهـ. «خازن».

أما ترتيب المصحف، فقال السيوطي: الإجماع، والنصوص على أنَّ ترتيب الآيات توقيفيٌّ لا شبهة في ذلك، وذلك أن رسول الله ﷺ: كان يدل على مكان كل آية في سورتها، ويؤيد هذا الرأي، قول عثمان بن العاص: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ، إذ شخص ببصره، ثم صوبه، ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضعَ من هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ...﴾ إلى آخرها. وقد التزم عثمان في تدوين المصحف، ما علم أنه رأي رسول الله ﷺ في ترتيب الآيات.

وأمّا ترتيب السور: فهو متروك لاجتهاد المسلمين، ولكنا نثبت رواية عن ابن عباس. روى ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما

حملكم إلى أن عدتم الأنفالَ وهي من المثاني إلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾، ووضعتموها في السبع الطوال؟! فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تُنْزَلُ عليه السورة ذات العدد، فكان إذا أنزل عليه الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا». وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهةً بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنّها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب سطر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ ووَضَعْتُها في السبع الطِوال. اهـ.

وفي «القرطبي»: وقال قوم من أهل العلم: إنّ تأليف سور القرآن على ما هو عليه الآن في مصحفنا، كان عن توقيفٍ من النبي ﷺ، وأمَّا ما رُوي من اختلافِ مصحف أُبيٍّ، وعليٍّ، وعبدِ الله؛ فإنَّما كان قَبْلَ العَرْضِ الأخير، وأنَّ رسول الله ﷺ رَتَّب لهم تأليفَ السورِ، بعد أن لم يكن فَعل ذلك. روى يونسُ، عن ابن وهب قال: سمعتُ مالكاً يقول: (إنَّما أُلِّفَ القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ). وذكر أبو بكر الأنباري: في كتاب «الرد»: أن الله تعالى أنزل القرآن جملةً إلى سماء الدنيا، ثم فُرِّق على النبي ﷺ في عشرين سنة، وكانت السورة تنزل؛ في أمر يحدث، والآية؛ جواباً لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل النبي ﷺ

على موضع السورة، والآية، فاتساق السور، كاتساق الآيات، والحروف، فكله كان من محمد ﷺ خاتم النبيين، عن رب العالمين.

فمن أَخَّر سورةً مقدَّمة، أو قدَّم أخرى مؤخَّرةً، فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغيَّر الحروف والكلمات، ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام قد نزلت قبل البقرة؛ لأن رسول الله ﷺ أُخذ عنه هذا الترتيب، وهو كان يقول: «ضَعُوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن»، وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات.

والحقُّ: أن ترتيب السور، والآيات، والحروف على ما هو في المصحف الآن، كان من ربِّ العالمين، بتعليم جبريل عليه السلام، لمحمد ﷺ.

حدثنا حسن بن الحباب، حدثنا أبو هشام، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: (آخر ما نزل من القرآن): ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾. وقال أبو بكر بن عياش: وأخطأ أبو إسحاق؛ لأنّ محمد بن السائب، حدثنا عن أبي السائب، عن ابن عباس قال: (آخرُ ما نزل من القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾، فقال جبريل للنبي ﷺ: يا محمدُ! ضَعْها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة. قال أبو الحسن بن بطال: ومن قال بهذا القول، لا يقول: إن تلاوة القرآن في الصلاة، والدرس، يجب أن

تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقف عليه في الصلاة، وفي قراءة القرآن، ودرسه، وإنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة، ولا الحج قبل الكهف، ألا ترى قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ للذي سألها: (لا يضرك آيةٌ قرأتَ قَبْلُ، وقد كان النبي ﷺ يقرأُ في الصلاة السورة في ركعةٍ، ثم يقرأ في ركعةٍ أخرى بغير السورة التي تليها).

وأمّا ما رُوِي عن ابن مسعود، وابن عمر، أنّهما كَرِهَا أن يُقرأ القرآنِ منكوساً، وقالا: ذلك مَنْكُوسُ القَلْبِ؛ فإنَّما عَنَيا بذلك مَنْ يَقْرأُ السورةَ منكوسة، ويَبْدَأُ من آخرها إلى أوّلها؛ لأنّ ذلك حرام محظور، ومِن الناس مَنْ يتعاطَى هذا في القرآن، والشعر، لِيُذلّلَ لسانَه بذلك، ويَقْدِرَ على الحفظ، وهذا حَظَره الله، ومنعه في القرآن؛ لأنّه إفسادٌ لسُوَره، ومخالفةٌ لما قصد بها من الإعجاز، ومما يدل على أنّه لا يجب إثباته في المصاحف على تاريخ نزوله؛ ما صح، وثبت: أن الآيات كانت تنزل بالمدينة، فتوضع في السورة المكية، ألا ترى قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ (وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده ﷺ). تعني: بالمدينة، وقد قدمتا في المصحف على ما نزل قبلها من القرآن بمكة، ولو ألَّفُوه على تاريخ النزول، لوجب أن ينتقض آيات السور، وقد قدمنا لك بيان جملة ما نزل بمكة، وجملة ما نزل بالمدينة.

قال أبو بكر: فمن عمل على ترك الأثر، والإعراض عن الإجماع، ونظم السور على منازلها بمكة، والمدينة، لم يدر أين

تقع الفاتحة لاختلاف الناس في موضع نزولها، ويضطر إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة، إلى رأس الأربعين، ومن أفسد نظم القرآن، فقد كفر به، ورد على محمد ﷺ ما حكاه عن ربه سبحانه وتعالى.

وقد قيل: إنَّ علة تقديم المدني على المكي؛ هو أنَّ الله تعالى، خاطب العرب بلغتها، وما يُعرَف من أفانين خطابها، ومحاورتها، فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنياً على تقديم المؤخر، وتأخير المقدَّم، خوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله تعالى، الذي لو فقدوا من القرآن لقالوا: ما باله عرى من هذا الباب الموجود في كلامنا المستحلىٰ من نظامنا.

والله أعلم

* * *

الفصل السادس عشر

في عدد آي القرآن، وكلماته، وحروفه

وأمَّا عدد آي القرآن في المَدني الأوَّل: فقال محمد بن عيسى: جميعُ عدد آي القرآن في المدنيِّ الأول: ستة آلاف. قال أبو عمرو: وهو العدد الذي رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة، ولم يُسمُّوا في ذلك أحداً يُسْنِدونه إليه. وأمّا المدنيُّ الأخير: فهو في قول إسماعيل بن جعفر: ستة آلاف آية، ومائتا آية، وأربع عشرة آيةً. وقال الفَضْلُ: عدد آي القرآن في قولِ المكيِّين ستة آلاف آية، ومائتان وتسع عشرة آية. وقال محمد بن عيسى: وجميع عدد آي القرآن في قول الكوفيين: ستة آلاف آيةٍ وَمِئَتَا آيةٍ، وستٌّ وثلاثون آيةً. وهو العددُ الذي رواه مسلم، والكسائي، عن حمزة، وأسنده الكسائي إلى عليّ ـ رضي الله عنه. قال محمد: وجميع آي القرآن في عدد البصريين: ستّة آلاف ومائتا آية، وأربع آيات، وهو العدد الذي مضى عليه سلفهم حتى الآن. وأمَّا عدد أهل الشام: فقال يحيىٰ بن الحارث الذِّمَّارِيُّ: ستة آلاف، ومائتان، وست وعشرون آية، وفي روايةٍ: ستة آلاف، ومائتان، وخمس وعشرون. نقص آيةً. قال ابن ذكوان: فظننت أن يحيىٰ لم يعد: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ قال أبو عمرو: فهذه الأعداد التي يتداولها الناس تأليفاً، ويعدون بها في سائر الآفاق قديماً،

وحديثاً. وأمّا كلماته: فقال الفضل بن شاذان: جميع كلمات القرآن في قول عطاء بن يسار: سبعة وسبعون ألفاً، وأربعمائة، وثلاثون كلمة، وأمَّا حروفه: فأربعمائة ألف، وثلاثة وعشرون ألفاً، وخمسة عشر حرفاً، وهذا يخالف ما ذكر عن الحِمَّاني فيما سيأتي، من أنَّ جميع حروف القرآن: ثلاثمائة ألف حرف، وأربعون ألف حرف، وسبعمائة حرف، وأربعون حرفاً. وقال عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: هذا ما أحصينا من القرآن وهو: ثلاثمائة ألف حرف، وأحدٌ وعشرون ألف حرف، ومائة وثمانون حرفاً، وهذا أيضاً يخالف ما ذكر، عن الحماني في عدِّ حروفه.

والله أعلم

* * *

الفصل السابع عشر

في أجزائه، وأحزابه، وأرباعه، وأنصافه، وأثلاثه، وأسباعه

رُوِي: أنَّ القرَّاء، لما قسَّموا القرآن في زمن الحجَّاج إلى ثلاثين جزءاً، قسموه أيضاً إلى نصفين، فقال لهم الحجَّاج: أخبروني إلى أيِّ حرف ينتهي نصف القرآن؟ فإذا هو في الكهف ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ في الفاء. قال فأخبروني بأثلاثه؟ فإذا الثلث الأول: رأس مائة من براءة والثلث الثاني: رأس مائة وإحدى وعشرين من ﴿طسٓمٓ ①﴾ الشعراء، والثلث الثالث: ما بقي من القرآن. قال فأخبروني بأسباعه على الحروف؟ فإذا أول سُبْع: في النساء ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ﴾ في الدال، والسُبع الثاني: في الأعراف ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ﴾ في التاء، والسُبع الثالث في الرعد ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ في الألف من آخر أكلها، والسُبع الرابع في الحج ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ في الألف، والسُبع الخامس: في الأحزاب ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ في الهاء، والسُبع السادس: في الفتح ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ في الواو، والسُبع السابع: ما بقي من القرآن.

قال سلامٌ، أبو محمد الحماني: أمرني الحجاجُ بهذه التقسيمات، فعملناها في أربعة أشهر، وكان الحجاج يقرأ كل ليلة

ربعاً؛ فأول رُبعِهِ: خاتمة الأنعام، والربع الثاني: في الكهف ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ والربع الثالث: خاتمة الزمر، والربع الرابع: ما بقي من القرآن، وفي هذه الجُملة خلافٌ مذكورٌ في كتاب «البيان» لأبي عمرو الداني، من أراد الوقوف عليه وجده هناك. وعن السلف الصالحين. من ختم القرآن على هذا الترتيب الذي نذكره، ثم دعا تقبل حاجته، وهو الترتيب الذي كان يفعله عثمان ـ رضي الله عنه ـ يقرأ يوم الجمعة من أوله إلى سورة الأنعام، ويوم السبت من سورة الأنعام إلى سورة يونس، ويوم الأحد من سورة يونس إلى سورة طه، ويوم الاثنين من سورة طه إلى سورة العنكبوت، ويوم الثلاثاء من سورة العنكبوت إلى سورة الزمر، ويوم الأربعاء من سورة الزمر إلى سورة الواقعة، ويوم الخميس من سورة الواقعة إلى آخر القرآن.

وقيل: أحزاب القرآن سبعة:

الحزبُ الأوّل: ثلاث سور.

والثاني: خمس سور.

والثالث: سبع سور.

والرابع: تسع سور.

والخامس: إحدى عشرة سورة.

والسادس: ثلاث عشرة سورة.

والسابع: المفصَّل من قٓ. وفي «فتح الرحمن»: وأحزاب

القرآن ستون حزباً. وعلى هذا الحزب نصف الجزء، وعلى هذا العمل الآن في المصاحف.

والله أعلم

* * *

الفصل الثامن عشر

في تعشيره وتخميسه، والكتابة في فواتح السُّور، أو خواتمها، ووضع النقط في منتهى الآية، وغير ذلك

وأمَّا وضع الأعشار: فقال ابن عطية، مرَّ بي في بعض التواريخ: أن المأمون العباسي، أمر بذلك. وقيل إن الحجَّاج فَعلَ ذلك؛ أي: جَزَّأَ الحجَّاج القرآن عشرة أجزاء، وكتب عند أول كل عُشْرٍ بهامش المصحف (عُشرُ) بضم العين، وكذلك كتب الأسباع. وذكر أبو عمرو الداني في كتاب «البيان» له، عن عبد الله: أنه كره التعشير في المصحف، وأنه كان يحكُّه. وعن مجاهد: أنه كره التعشير، والطيب في المصحف. وقال أشهب: سمعت مالكاً، وسئل عن العُشور التي تكون في المصحف بالحمرة، وغيرها من الألوان؟ فكره ذلك، وقال: (تعشير القرآن لا بأس به).

وسئل عن المصحف؛ يكتب فيها خواتم السور في كل سورة ما فيها من آية؟ قال: إني أكره ذلك في أمهات المصاحف، أن يُكتَب فيها شيءٌ، أو يشكَّل، فأما ما يتعلم فيها الغلمان من المصاحف؛ فلا أرى بذلك بأساً. قال أشهب: ثم أَخرَج إلينا مصحفاً لجِدِّه كتبه: إذ كتب عثمان المصاحف، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة في طول السطر، ورأيته معجوم الآي

بالحبر. وقال قتادة: بدؤوا فنقَّطوا، ثم خمَّسوا، ثم عشَّروا. وقال يحيىٰ بن أبي كثير: كان القرآن مجرَّداً في المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه: النقطة على الباء، والتاء، والثاء، وقالوا: لا بأس به هو نُوْرٌ له، ثم أحدثوا نقطاً عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتح، والخواتم.

وعن أبي جمرة: رأى إبراهيم النخعي في مصحفي فاتحة سورة كذا وكذا، فقال لي: أُمْحُه، فإن عبد الله بن مسعود قال: (لا تخلطوا في كتاب الله ما ليس فيه). وعن أبي بكر السراج قال: قلت لأبي رزين: أأكتب في مصحفي سورة كذا وكذا؟ قال: إني أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه، فيظنونه من القرآن. قال الداني ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذه الأخبار كلها، تؤذن بأن التعشير والتخميس، والتَّثْمين، وفواتح السور، ورؤوس الآي من عمل الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فأدَّاهم إلى عمله الاجتهاد، وأرى: أن من كره ذلك منهم، ومن غيرهم؛ إنما كره أن يعمل بالألوان، كالحُمرة، والصُّفرة، وغيرهما، على أن المسلمين في سائر الآفاق قد أطبقوا على جوازِ ذلك، واستعمالِه في الأمهات، وغيرها. والحَرَجُ، والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله تعالى.

والله أعلم

* * *

الفصل التاسع عشر

في بيان أوَّل من وضع النُّقَط، والشَّكْلَ، والشَّدَّة، والمَدَّةَ، والهمزةَ، وعلامةَ الغُنَّةِ في المصاحف، وأوَّل مَنْ وَضع النَّحْو، وجَعَلَ الإعرابَ فيها

وكانت المصاحف العثمانية مجرَّدة من النقط، والشكل، والشدَّة، والمدَّة، وعلامة الإعراب، فلم يكن فيها إعرابٌ، وسبب ترك الإعراب فيها، والله أعلم؛ استغناؤهم عنه، فإن القوم كانوا عرباً لا يعرفون اللحن، ولم يكن في زمنهم نحوٌ.

وأوَّل من وضع النحو، وجعل الإعراب في المصاحف: أبو الأسود الدُّؤليُّ، التابعيُّ، البصريُّ.

حكى أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ بكسر اللام (في رسولِهِ)، فأعظَمَه ذلك، وقال: عزَّ وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم جعل الإعراب في المصاحف. وكان علامته: نقطاً بالحُمرة غير لون المِداد، فكانت علامة الفتحة: نقطة فوق الحرف وعلامة الضمة: نقطةً في نفس الحرف، وعلامة الكسرة: نقطة تحت الحرف، وعلامة الغنة: نقطتين، ثم أحدث الخليل بن أحمد الفراهيدي بعد هذا، هذه الصور: الشدّة، والمدّة، والهمزة، وعلامة السكون، وعلامة الوصل، ونقل الإعراب من صورة النقطة

إلى ما هو عليه الآن. وأما النقط المميزة بين الحروف، فأوَّل من وضعها في المصحف: نَصْرُ بن عاصم الليثيُّ، بأمر الحجاج بن يوسف، أمير العراق، وخراسان، وسببه: أنَّ الناس كانوا يقرأون في مصحف عثمان، نيّفاً وأربعين سنة إلى يوم عبد الله بن مروان، ثم كثر التصحيف، وانتشر بالعراق، فأمر الحجاج أن يضعوا لهذه الأحرف المشتبهة علامات، فقام بذلك نصر المذكور، فوضع النُّقطة أفراداً، وأزواجاً، وخالف بين أماكنها، وكان يقال له نصر الحروف. وأوَّل ما أحدثوا النقطة على الباء، والتاء، وقالوا: لا بأس به هو نورٌ له، ثم أحدثوا نقطاً عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتح، والخواتم. فأبو الأسود هو السابق إلى إعرابه، والمبتدىءُ به، ثم نصر بن عاصم، وضع النقط بعده، ثم الخليل بن أحمد نقل الإعراب إلى هذه الصُّورة، وكان مع استعمال النُّقط، والشكل يقع التصحيف، فالتمسوا حيلةً، فلم يروا فيها إلا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين، فانتدب جهابذة علماء الأمة، وصناديد الأئمّة، وبالغوا في الاجتهاد، وجمعوا الحروف، والقراءات، حتى بيَّنوا الصواب، وأزالوا الإشكال ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وأوَّل من خطَّ بالعربية: يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية، والسريانية.

وأوَّل من استخرج الخط المعروف بالنسخ: ابن مقلة وزير المقتدر بالله، ثم القاهر بالله، فإنَّه أوَّل من نقل الخطَّ الكوفي إلى

طريقة العربية، ثم جاء ابن البوّاب، وزاد في تعريب الخط، وهذَّب طريقة بن مقلة، وكساها بهجة، وحسناً، ثم ياقوت المستعصي الخطّاطُ، وختم فنّ الخطّ، وأكمله، ثم جاء الشيخ: حمد الله الأماسِيْويُّ، فأجاد الخطّ بحيث لا مزيد عليه إلى الآن، ولله در القائل:

خَطٌّ حَسِينٌ جَمَالُ مَرْأَى إنْ كَانَ لِعَالِمٍ فَأَحْسَنْ
الدُّرُّ مِنَ النَّبَاتِ أَحْلَى وَالدُّرُّ مع النَّبَاتِ أَزْيَنْ

والله أعلم

* * *

الفصل العشرون

في تفصيل حروف القرآن، كم فيه من الحروف الفُلانية

ذكرها الإمام النَّسَفيُّ في كتابه: «مجمع العلوم ومطلع النُّجوم». **الألف**: ثمانيةٌ وأربعون ألفاً وسبعمائة وأربعون. **الباء**: أحد عشر ألفاً وأربعمائة وعشرون، **التاء**: أَلْفٌ وأربعمائة وأربعةٌ، **الثاء**: عشرة آلاف وأربعمائة وثمانون، **الجيم**: ثلاثة آلاف وثلاثمائة واثنان وعشرون. **الحاء**: أربعةُ آلاف ومائةٌ وثمانيةٌ وثلاثون، **الخاء**: ألفان وخمسمائة وثلاثةٌ، **الدالُ**: خمسةُ آلافٍ وتسعمائة وثمانيةٌ وتسعون، **الذال**: أربعةُ آلافٍ وتسعمائة، وأربعة وثلاثون. **الراء**: ألفان ومائتان وستّةٌ، **الزايُ**: ألفٌ وستُّمائة وثمانون، **السين**: خمسة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون، **الشين**: ألفان ومائةٌ وخمسة عشر، **الصاد**: ألفان وسبعمائة وثمانون، **الضاد**: ألفٌ وثمانمائة واثنان وثمانون، **الطاء**: ألفٌ ومائتان وأربعةٌ، **الظاء**: ثمانمائة واثنان وأربعون، **العين**: تسعةُ آلاف وأربعمائة وسبعون، **الغَيْن**: ألفٌ ومئتان وتسعة وعشرون، **الفاء**: تسعة آلاف وثمانمائة وثلاثة عشر، **القاف**: ثمانية آلاف وتسعةٌ وتسعون **الكاف**: ثمانيةُ آلاف واثنان وعشرون، **اللام**: ثلاثةٌ وثلاثون ألفاً وتسعمائة واثنان وعشرون. **الميم**: ثمانيةٌ وعشرون ألفاً وتسعمائة واثنان وعشرون، **النون**: سبعة عشر ألفاً. **الهاء**:

ستّةٌ وعشرون ألفاً وتسعمائة وخمسة وعشرون، **الواو**: خمسةٌ وعشرون ألفاً وخمسمائة وستّةٌ **لام ألف**: أربعة عشر ألفاً وسبعمائة وسبعةٌ. **الياءُ**: خمسة وعشرون ألفاً وسبعمائة وسبعة عشر. اهـ.

وأمَّا جملة حروفه فهي: ألْفُ ألْفٍ، وسبعةٌ وعشرون ألفاً، بإدخال حروف الآيات المنسوخة. ونصفه الأول باعتبار حروفه: ينتهي بالنون من قوله: في سورة (الكهف): ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ والكاف أوّلُ النصف الثاني. وعدد درجات الجنة بعدد حروف القرآن، وبين كل درجتين قدر ما بين السماء، والأرض. وأما جملة عدد آياته فهي: ستّةُ آلافٍ، وخمسمائة. نصفها الأول: ينتهي بقوله في سورة (الشعراء): ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وعدد جلالات القرآن: ألفان، وستمائة، وأربعةٌ وستون. اهـ.

والله أعلم

* * *

الفصل الحادي والعشرون

في بيان معنى القرآن، ومعنى السُّورة، والكلمة، والحرف

والقرآن لغةً: الشيءُ المجموع مِن قَرَأَهُ إذا جمعه.

واصطلاحاً: هو اللفظ المنزَّلُ على محمد ﷺ للإعجاز بأقصر سورة منه، المتعبَّد بتلاوته. ووصفه بالكريم: من حيث ما فيه من الخيرات الكثيرة، والمنافع الغزيرة.

والسورة لغةً: الحائط المرتفع.

واصطلاحاً: طائفةٌ من القرآن لها أوَّلٌ، وآخرٌ، وترجمةٌ باسمٍ خاصٍّ بها، بتوقيف من النبي ﷺ كما سبق: أنَّ الراجح كون ترتيب الآيات، والسُّور، وتسميتها توقيفاً: مأخوذةٌ من سور البلد، لارتفاعِ رُتْبَتِها، كارتفاعه. وفي القرطبي معنى السورة في كلام العرب: الإبانة لها من أخرى، وانفصالها عنها، وسميت السورة القرآنية بذلك، لأنّه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة، قال النابغة:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الله أَعْطَاكَ سُوْرَةً   تَرَى كُلَّ مُلْكٍ دُوْنَهَا يَتَذَبْذَبُ

أي: منزلة شرفٍ ارتفعت إليها عن منزلة الملوك.

وقيل: سُمِّيت بذلك؛ لشرفها، وارتفاعها، كما يقال: لما ارتفع من الأرض سورةً.

وقيل: سميت بذلك؛ لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده، كسور البناء. (كله بغير همز).

وقيل: سميت بذلك؛ لأنها قطعت من القرآن على حدة من قول العرب للبقية سؤرة، وجاء في أَسَآر الناس؛ أي: بقاياهم، فعلى هذا يكون الأصل سؤرة بالهمز، ثم خففت فأبدلت واواً؛ لانضمام ما قبلها.

وقيل: سميت بذلك، لتمامها، وكمالها من قول العرب للناقة التامة: سورةٌ، وجمع سورة: سُوَرٌ بفتح الواو. وقال الشاعر:

سُوْدُ المحاجر لا يُقْرَنَّ بالسُّوَرِ

ويجوز أن يجمع على: سُوْرَاتٍ وسُوُرَاتٍ.

وأمَّا الآية فهي لغةً: العلامةُ.

واصطلاحاً: قطعةٌ من السورة، لها أوّلٌ وآخرٌ، سميت بذلك؛ لأنها علامةٌ على انقطاع الكلام الذي قبلها من الذي بعدها، وانفصاله عنه؛ أي: هي بائنةٌ من أختها، ومنفردةٌ، وتقول العرب: بيني وبين فلان آيةٌ؛ أي: علامةٌ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾، وقال النَّابغة:

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لَهَا فعَرَفْتُهَا ... لِستَّةِ أعوامٍ وَذَا العَامُ سَابِعُ

وقيل: سُمّيت آيةً؛ لأنّها جماعة حروف من القرآن، وطائفةٌ منه، كما يقال: خرج القوم بآيتهم، بجماعتهم. قال زُجُّ بن مسهر الطائيُّ:

خَرَجْنَا مِنَ النَّقْبَيْنِ لاحَيَّ مِثْلُنَا بِآيَتِنَا نُزْجِي اللِّقَاحَ المَطَافِلا

وقيل: سميت آيةً؛ لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها.

واختلف النحويون في أصل آيةٍ:

فقال سيبويه: أَيَيَةٌ على وزن فعلة، مثل: أكمةٍ، وشجرة، فلمَّا تحرَّكت الياء، وانفتح ما قبلها، انقلبت ألفاً، فصارت آيةً بهمزةٍ بعدها مدةٌ.

وقال الكسائيُّ: أصلها آيِيَةٌ بوزن فاعلةٍ، مثل: آمِنَةٍ، فقلبت الياء ألفاً، لتحركها، وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت؛ لالتباسها بالجمع.

وقيل أصلها: آئِيَةٌ بوزن قائلةٍ، فحذفت الهمزة للتخفيف.

وقال الفرَّاءُ: أصلها أَيَّيَةٌ بتشديد الياء الأولى، فقلبت ألفاً؛ كراهة التشديد، فصارت آيةً، وجمعها: آيٌ، وآيَاءٌ، وآيَاتٌ. وأنشد أبو زيد:

لَمْ يُبقِ هذا الدهر من آيائِهِ غَيْرَ أَثَافِيْهِ وأَرْمِدَائِهِ

وأمَّا الكلمة فهي: الصورة القائمة بجمع ما يختلط بها من الشبهات؛ أي: الحروف. وأطول الكلم في كتاب الله عزّ وجل: ما بلغ عشرة أحرفٍ، نحو قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، و﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ وشبههما؛ فأما قوله: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾: فهو عشرة أحرف في الرسم، وأحد عشر في اللفظ.

وأقصرهن: ما كان على حرفين، نحو: ما، ولا، ولك، وله، وما أشبه ذلك.

ومن حروف المعاني: ما هو على كلمة واحدة، كهمزة الاستفهام، وواو العطف، إلا أنه لا ينطق به مفرداً، وقد تكون الكلمة وحدها آيةً تامَّةً، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾، وكذلك ﴿الٓمٓ ۝١﴾ و﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ و﴿طه ۝١﴾ و﴿حمٓ ۝١﴾ في قول الكُوفيين، وذلك في فواتح السور، فأمّا في حشوهن: فلا. قال أبو عمرو الدَّانيُّ: ولا أعلم كلمةً، هي وحدها آيةٌ، إلاّ قوله في الرحمن: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ لا غير، وقد أتت كلمتان متصلتان، وهما آيتان، وذلك في قوله: ﴿حم عسق﴾ على قول الكوفيين لا غير، وقد تكون الكلمة في غير هذا الآية التامَّة، والكلام القائم بنفسه، وإن كان أكثر، أو أقل. قال الله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ﴾ قيل: إنما يعني بالكلمة ههنا: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآيتين. وقال عزّ وجل: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال مجاهدٌ: هي لا إله إلا الله.

وقال النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن (سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم). وقد تُسَمِّي العربُ القصيدة بأسرها، والقصة كلها كلمةً، فيقولون: قال قس في كلمته كذا؛ أي: في خطبته. وقال زهير: في كلمته كذا أي: في قصيدته وقال فلانٌ في كلمته؛ يعني: في

رسالته، فتسمى جملة الكلام، إذ كانت الكلمة منها على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه، وما قاربه، وما جاوره، وكان بسببٍ منه مجازاً، واتساعاً.

وأما الحرف فهو: الشبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمةً، والكلمة حرفاً على ما بيناه من الاتساع، والمجاز. قال أبو عمرو الدانيُّ: فإن قيل: فكيف يسمى ما جاء من حروف الهجاء في الفواتح على حرفٍ واحد، نحو: ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾ حرفاً، أو كلمةً؟.

قلت: كلمةً لا حرفاً؛ وذلك من جهة: أنَّ الحرف لا يُسْكَنُ عليه، ولا ينفرد وحده في الصورة، ولا ينفصل مما يختلط به، وهذه الحروف مسكونٌ عليها، منفصلةٌ، كانفراد الكَلِم، وانفصالها، فلذلك سميت كلماتٍ لا حروفاً. قال أبو عمر: وقد يكون الحرف في غير هذا، المذهبَ والوَجْهَ. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ أي: على وجه، ومذهب. ومن ذلك قول النبي ﷺ: «أُنزل القرآن على سبعة أحرف» أي: سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

في بيان معنى النَّسْخ الذي هو فَرْدٌ من أفرادِ تنزيلِ الوحي، وأقسامه، وشرائطه، والرَّدِّ على مَنْ أنكره، وبيان معنى الناسخ، والمنسوخ، وغير ذلك

أمَّا النَّسْخُ لغةً: فله معنيان: الإزالة، والنَّقل. يقال: نَسَخَتِ الشمس الظل؛ إذا أزالته، وحلت محله، ونَسَخْتُ الكتاب؛ إذا نقلته إلى كتابٍ آخر. وعبارة ابن حزم هُنا: واعلم أن النسخ له اشتقاقٌ عند أرباب اللسان، وحدٌّ عند أصحاب المعاني، وشرائط عند العالِمين بالأحكام. أما أصله: فالنسخ في اللغة: عبارة عن إبطال الشيء، وإقامة آخر مقامه. وقال أبو حاتم: الأصل في النسخ: هو أن يحول العسل في خليةٍ، والنحل في أخرى، ومنه نسخ الكتاب؛ إذا نقلته. وفي الحديث: (ما من نبوَّةٍ إلا وتنسخها فترةٌ)، ثم إن النسخ في اللغة، موضوعٌ بأزاء معنيين:

أحدهما: الإزالة على جهة الانعدام.

والثاني: الإزالة على جهة الانتقال؛ أمّا النسخ بمعنى الإزالة فهو: أيضاً ينقسم إلى:

نسخٍ إلى بدلٍ، نحو: قولهم: نَسَخَ الشَّيْبُ الشبابَ، ونسخت الشمس الظل؛ أي: أذهَبَتْه، وحلَّتْ محله، وإلى:

نسخ ٍ إلى غير بدل؛ بمعنى: رفع الحكم، وإبطاله من غير أن يقيم له بدلاً. يقال: نسخت الريح الديار؛ أي: أَبطَلَتْها، وأَزالَتْها. وأمّا النسخ بمعنى النقل فهو: من قولك: نسخت الكتاب ما فيه؛ إذا نقلته من غير إبطالٍ للأول، وليس المُراد به إعدام ما فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يريد نقله إلى الصحف، أو من الصحف إلى غيرها، غير أن المعروف من النسخ في القرآن هو: إبطال الحكم مع إثبات الخطّ، وكذلك هو في السنة، أو في الكتاب: أن تكون الآية الناسخة، والمنسوخة ثابِتَتَيْنِ في التلاوة، إلا أن المنسوخة لا يُعمَل بها، مثل: عدة المتوفىٰ عنها زوجها كانت سنة؛ لقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

وأمَّا حدُّه: فمنهم من قال: إنه بيان انتهاء مدة العبادة. وقيل: انقضاء العبادة التي ظاهرها الدوام. وقال بعضهم: رفع الحكم بعد ثبوته. ونسخ الآية: بيان انتهاء التعبُّد بتلاوتها، أو بالحكم المستفاد منها، أو بهما جميعاً؛ لمصلحة تقتضي ذلك.

والنسخ أقسامه ثلاثةٌ: إمّا نسخُ التلاوةِ والحكم معاً، كقوله: ﴿عشر رضعات يحرمن﴾ نُسِخ لفظه وحكمه، بخمس رضعاتٍ، وكما روي عن أنس بن مالك قال: (كنّا نقرأ سورةً تعدل (سورة التوبة)، ما أحفظ منها إلا هذه الآية: ﴿لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً ولو أن له ثالثاً لابتغى إليه رابعاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب﴾.

والثاني: نسخ التلاوة دون الحكم كقوله: (الشيخُ والشيخةُ إذا زَنَيَا فارجموهما ألبتة. نكالاً من الله والله عزيز حكيم) معناه: المُحْصنُ والمحصنة، نُسِخَت تلاوته دون حكمه.

والثالث: نسخ الحكم دون التلاوة، كآيةِ الحول في العدّة، نُسِخَ حكمه بآية العدة بأربعة أشهر وعشرة أيام.

وأمَّا شرائطه فأربعةٌ:

الأول: أن يكون النسخ بخطابٍ؛ لأنّه بموت المكلَّف ينقطع الحكم، والموت مزيلٌ للحكم لا ناسخٌ له.

والثاني: أن يكون المنسوخ حكماً شرعياً؛ لأن الأمور العقلية التي مسندها البراءة الأصليّة، لم تُنسخ؛ وإنما ارتفعت بإيجاب العبادات.

والثالث: أن لا يكون الحكم السابق مقيَّداً بزمانٍ مخصوص، نحو قوله ﷺ: «لا صلاةَ بعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا بعد العصر حتى تغرب الشمس، فإن الوقت الذي يجوز فيه أداء النوافل، التي لا سبب لها مؤقتٌ، فلا يكون نهيه عن هذه النوافل في الوقت المخصوص ناسخاً لما قبل ذلك من الجواز؛ لأن التوقيت يمنع النسخ.

والرابع: أن يكون الناسخ متراخياً عن المنسوخ، وبيان النسخ منتهى الحكم؛ لتَبَدُّل المصلحة على اختلاف الأزمنة، كالطبيب ينهى عن الشيء في الصيف، ثم يأمر به في الشتاء،

وذلك كالتوجه إلى بيت المقدس بمكة، وهو اختيار اليهود، وكإيجاب التصدق بالفضل عن الحاجة في الابتداء؛ لنشاط القوم في الصفاء، والوفاء، وكتقدير الواجب بربع العشر الفاضل إلى الانتهاء، تيسيراً للأداء، وصيانة لأهل النسخ من الآباء.

وقد أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخِّرين جواز النسخ، وهم محجوجون بإجماع السلف السابق على وقوعه في الشريعة. وأنكرته أيضاً: طوائف من اليهود، وهم محجوجون أيضاً بما جاء في توراتهم، بزعمهم أن الله تعالى، قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة: (إني جعلت كل دابة مأكلاً لك، ولذريتك، وأطلقت ذلك لكم، كنبات العشب ما خلا الدم، فلا تأكلوه)، ثم قد حرم على موسى، وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوان، وبما كان آدم عليه السلام يزوج، الأخ من الأخت، وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام، وعلى غيره، وبأنَّ إبراهيم الخليل أُمِر بذبح ابنه، ثم قال له: (لا تذبح)، وبأنّ موسى أمر بني إسرائيل، أن يقتلوا مَنْ عَبَدَ منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم، وبأن نبوته غير متعبَّدٍ بها قبل بعثه، ثم تُعُبِّد بها بعد ذلك على غير ذلك. وليس هذا من باب البداءِ الذي هو ظهور المصلحة بعد خفائها؛ بل هو من نقل العباد من عبادة إلى عبادةٍ، وحكمٍ إلى حكمٍ؛ لضرب من المصلحة، وإظهاراً لحكمته، وكمال مملكته. ولا خلاف بين العقلاء: أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينيّةُ، والدنيويّةُ؛ وإنما كان يلزم البداءُ لو لم يكن

عالماً بمآل الأمور، وأما العالم ذلك؛ فإنما تتبدَّل خطاباته بحسب تبدُّل المصالح، كالطبيب المراعي أحوال العليل فراعى ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته، لا إلٰه إلا هو، فخطابه يتبدَّل، وعلمه، وإرادته لا تتغيّر، فإن ذلك محال في حقّه تعالى. وجعلت اليهود النسخ، والبداء شيئاً واحداً، ولذلك لم يجوِّزوه فضَلُّوا.

قال النحَّاسُ: والفرق بين النسخ، والبداء: أن النسخ تحويل العباد من شيء إلى شيء، قد كان حلالاً، فيحرم، أو كان حراماً، فيحلل، وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه، لظهور المصلحة في الترك، كقولك: امضِ إلى فلان اليوم، ثم تقول لا تَمْضِ إليه، فيبدو لك العدول عن القول الأول، وهذا يلحق بالبشر، لنقصانهم. وكذلك إن قلت: إزرع كذا في هذه السنة، ثم قلت: لا تفعل، فهذا هو البداء. واعلم أنَّه لا يمنع جواز النسخ عقلاً لوجهين:

أحدهما: أنّ للآمر أن يأمر بما شاء.

وثانيهما: أنّ النفس إذا مرنتْ على أمرٍ ألِفَته، فإذا نقلت عنه إلى غيره شقَّ عليها؛ لمكان الاعتياد المألوف، فظهر منها بإذعانٍ الانْقِيَادُ لطاعةِ الأمر. وقد وقع النسخ شرعاً؛ لأنه ثبت أنَّ من دين آدم عليه السلام في طائفةٍ من أولاده، جواز نكاح الأخوات، وذوات المحارم، والعمل في يوم السبت، ثم نسخ في شريعة الإسلام، كما مرَّ آنفاً.

واعلم: أنَّ الناسخ في الحقيقة: هو الله سبحانه وتعالى،

ويسمى الخطاب الشرعيُّ: ناسخاً تجوُّزاً، إذ به يقع النسخ، كما قد يُتجوز، فيسمى المحكوم فيه: ناسخاً. فيقال: صوم رمضان ناسخٌ لصوم عاشوراء، فالمنسوخ: هو المزال، والمنسوخ عنه: هو المتعبَّد بالعبادة المْزالةِ، وهو المُكلَّفُ. والمحقِّقون على أنَّ القرآن يُنسخ بالسُّنة، وذلك موجودٌ في قوله ﷺ: «لا وصية لوارث»، وهو ظاهر مسائل مالك، وأبى ذلك الشافعيُّ، وأبو الفرج المالكيُّ، والأوَّلُ أصحُّ، بدليل: أن الكُلَّ حُكم الله تعالى، ومِنْ عنده، وإن اختلفت في الأسماء. وأيضاً: فإن الجَلْد ساقطٌ في حدِّ الزنا عن الثيب الذي يُرجَم، ولا مُسْقِطَ لذلك. إلا السنة فِعْلُ النبي ﷺ ـ وهذا بيِّنٌ. والمحققون أيضاً: على أنَّ السنة تُنسخ بالقرآن، وذلك موجودٌ في القبلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن في كتاب الله تعالى، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فإنَّ رجوعهن إليهم؛ إنما كان بصُلح النبي ﷺ لقريش، وهذا كله في حياة النبي ﷺ، وأمَّا بعد مماته، واستقرار الشريعة: فأجمعت الأمة على أنه لا نسخ، ولهذا كان الإجماع لا يُنسَخ، ولا يُنسَخ به، إذ انعقاده بعد انقطاع الوحي، فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصّاً، فيعلم أن الإجماع استند إلى نصٍّ ناسخٍ لا نعلمه نحن، وأن ذلك النص المخالف متروك العمل به، وأن مقتضاه نُسِخ، وبَقِي يُقْرَأُ، ويُرْوَى، كما أنَّ عدَّة السنة في القرآن تتلى، فتأمل هذا فإنه نفيسٌ، والذي عليه المحققون: أنَّ من لم يبلغه الناسخ، فهو متعبدٌ بالحكم الأول، كما يأتي بيانه في تحويل القبلة، والمحقّقون أيضاً: على جواز نسخ الحكم قبل فعله، وهو موجودٌ في قصة

الذبيح، وفي فرض خمسين صلاةً قبل فِعلها بخمسٍ، على ما يأتي بيانه في الإسراء إن شاء الله تعالى.

واعلم أن لمعرفة الناسخ طرقاً:

منها: أن يكون في اللفظ ما يدل عليه، كقوله ﷺ: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن الأشربة إلا في ظروف الأدَمِ، فأشربوا في كل وعاءٍ غير أن لا تشربوا مسكراً» ونحوه.

ومنها: أن يذكر الراوي التاريخ مثل: أن يقول سمعت عام الخندق، وكان المنسوخ معلوماً قبله، أو يقول: نسخ حكم كذا وكذا.

ومنها: أن تجمع الأمة على حكم أنه منسوخ، وأن ناسخه متقدم، وهذا الباب مبسوطٌ في أصول الفقه، نبَّهْنا منه على ما فيه لمن اقتصر كفاية، والله الموفِّق للهداية.

والله أعلم

* * *

الفصل الثالث والعشرون

في تقسيم السور باعتبار الناسخ، والمنسوخ

واعلم: أنَّ السُّور باعتبار الناسخ، والمنسوخ أربعة أقسام:

قسمٌ: ليس فيه منسوخ، ولا ناسخ وهو: ثلاثٌ وأربعون سورةً: (١) الفاتحة (٢) يوسف (٣) يسّ (٤) الحجرات (٥) الرحمن (٦) الحديد (٧) الصف (٨) الجمعة (٩) التحريم (١٠) الملك (١١) الحاقة (١٢) نوح (١٣) الجنّ (١٤) المرسلات (١٥) النبأ (١٦) النازعات (١٧) الانفطار (١٨) المطفّفين (١٩) الانشقاق (٢٠) البروج (٢١) الفجر (٢٢) البلد (٢٣) الشمس (٢٤) والليل (٢٥) والضحى (٢٦) ألم نشرح (٢٧) والقلم (٢٨) القدر (٢٩) القيامة (٣٠) الزلزلة (٣١) والعاديات (٣٢) القارعة (٣٣) التكاثر (٣٤) الهمزة (٣٥) الفيل (٣٦) قريش (٣٧) أرأيت (٣٨) الكوثر (٣٩) النصر (٤٠) تبت (٤١) الإخلاص (٤٢) الفلق (٤٣) الناس.

وقسمٌ: فيه ناسخ، ومنسوخ وهو: خمس وعشرون سورة: (١) البقرة (٢) آل عمران (٣) النساء (٤) المائدة (٥) الأنفال، (٦) التوبة (٧) إبراهيم (٨) مريم (٩) الأنبياء (١٠) الحج (١١) النور (١٢) الفرقان (١٣) الشعراء (١٤) الأحزاب (١٥) سبإ (١٦)

المؤمن (١٧) الشُورى (١٨) والذاريات (١٩) الطُّور (٢٠) المجادلة (٢١) الواقعة (٢٢) المزّمل (٢٣) المدّثر (٢٤) التكوير (٢٥) والعصر.

وقسمٌ: فيه منسوخ فقط وهو: أربعون: (١) الأنعام (٢) الأعراف (٣) يونس (٤) هود (٥) الرعد (٦) الحِجْر (٧) النحل (٨) الإسراء (٩) الكهف (١٠) طه (١١) المؤمنون (١٢) النمل (١٣) القصص (١٤) العنكبوت (١٥) الروم (١٦) لقمان (١٧) ألم السجدة (١٨) فاطر (١٩) والصافات (٢٠) صَ (٢١) الزمر (٢٢) حم سجدة (٢٣) الزخرف (٢٤) الدخان (٢٥) الجاثية (٢٦) الأحقاف (٢٧) محمد (٢٨) قَ (٢٩) والنجم (٣٠) القمر (٣١) الامتحان (٣٢) المعارج (٣٣) القيامة (٣٤) الإنسان (٣٥) عبس (٣٦) الطارق (٣٧) الغاشية (٣٨) والتين (٣٩) الكافرون (٤٠) نَ.

وقسم: فيه ناسخٌ فقط وهو ستّةٌ: (١) الفتح (٢) الحشر (٣) المنافقون (٤) التغابن (٥) الطلاق (٦) الأعلى. اهـ. من أسباب النزول.

والله أعلم

* * *

الفصل الرابع والعشرون

في ذِكْر جملة الإعراض عن المشركين المنسوخ بآية السيف.

واعلم: أنه ذُكِر الإعراض عن المشركين، في مائة وأربع عشرة آية: (١١٤) هنّ في سبعٍ وأربعين: (٤٧) سورةً:

(١) البقرة ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ نسخ عمومها ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ نسخ معنًى؛ لأنّ تحته الأمر بالصفح ﴿قُلْ قِتَالٌ﴾ ﴿لَآ إِكْرَاهَ﴾.

(٢) آل عمران ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾، ﴿مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

(٣) النساء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ في موضعين ﴿وما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾.

(٤) المائدة ﴿ولا آمّين﴾ ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ﴾ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ أي: أمرتم ونهيتم.

(٥) الأنعام ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ ﴿وَأَعْرِضْ﴾ ﴿وما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ في موضعين ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾.

(٦) الأعراف ﴿وَأَعْرِضْ﴾ ﴿وَأُمْلِى﴾.

(٧) الأنفال ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ يعني: المعاهدين.

(٨) التوبة ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾.

(٩) يونس ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى﴾ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ﴾ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ لأنّ معناه: الإمهال، والصبر.

(١٠) هود ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ معناه: أي: أنت تُنْذِر ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾.

(١١) الرعد ﴿عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

(١٢) الحجر ﴿ذَرْهُمْ﴾ ﴿فَٱصْفَحِ﴾ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾. ﴿أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾ ﴿وَأَعْرِضْ﴾.

(١٣) النحل ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ مختلف فيه.

(١٤) الإسراء ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾.

(١٥) مريم ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ معنًى: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾.

(١٦) طه ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ﴿قُلْ كُلٌّ﴾.

(١٧) الحج ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾.

(١٨) المؤمنون ﴿فَذَرْهُمْ﴾ ﴿ٱدْفَعْ﴾.

(١٩) النُّور ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾.

(٢٠) النمل ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ معنًى.

(٢١) القصص ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾.

(٢٢) العنكبوت ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ معنًى.

(٢٣) الروم ﴿فَٱصْبِرْ﴾.

(٢٤) لقمان ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.

(٢٥) السجدة ﴿وَٱنتَظِرْ﴾.

(٢٦) الأحزاب ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

(٢٧) سبإ ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾.

(٢٨) فاطر ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

(٢٩) يسٓ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ مختلف فيه.

(٣٠) الصافات ﴿فَتَوَلَّ﴾ و﴿تَوَلَّ﴾ وما بينهما.

(٣١) صٓ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ معنًى.

(٣٢) الزمر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ معنًى، ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم﴾ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ﴾ ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ معنى ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾ معنى؛ لأنّه تفويضٌ.

(٣٣) غافر ﴿فَٱصْبِرْ﴾ في موضعين.

(٣٤) حمٓ السجدة ﴿ارفع﴾.

(٣٥) الشُّورى ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾.

(٣٦) الزخرف ﴿فَذَرْهُمْ﴾ ﴿فَٱصْفَحْ﴾.

(٣٧) الدُّخان ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ .

(٣٨) الجاثية ﴿يَغۡفِرُواْ﴾ .

(٣٩) الأحقاف ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ .

(٤٠) محمد ﷺ ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا﴾ .

(٤١) قٓ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ ﴿فَذَكِّرۡ﴾ .

(٤٢) المزّمل ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ﴾ ﴿وَذَرۡنِي﴾ .

(٤٣) الإنسان ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ .

(٤٤) الطارق ﴿فَمَهِّلِ﴾ .

(٤٥) الغاشية ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ .

(٤٦) والتين ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ معنى .

(٤٧) الكافرون ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ نسخ بقوله عزَّ وجلّ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ في سُورة التوبة .

والله أعلم

* * *

الفصل الخامس والعشرون

في بيان قواعد أُصوليَّةٍ لأسباب النزول

والبحث عن قواعدها ينحصر في خمسة مطالب:

الأوَّل: تعريف النزول: وهو منحصر في أمرين:

أحدهما: أن تحدث حادثةٌ، فينزل القرآن بشأنها، **كما في** سبب نزول: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ كما سيأتي في محلِّه.

وثانيها: أن يُسأل الرسول ﷺ عن شيء، فينزل **القرآن ببيان** الحكم فيه، كما في سبب نزول آية اللِّعان.

والثاني: طريق معرفته، أمَّا طريق معرفته: فالعلماء يعتمدون في معرفة سبب النزول، على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ، أو عن الصحابيِّ، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا له حكم الرفع. قال ابن الصلاح في كتابه «علوم الحديث»: وما قيل: إنّ تفسير الصحابي حديثٌ مسندٌ، فإنما ذلك في تفسيرٍ يتعلَّق بسبب نزولِ الآية يُخْبِر به الصحابيُّ، كقول جابر ـ رضي الله عنه: (كانت اليهودُ تقول: من أتى امرأته من دبرها في قُبلها جاء الولدُ أحولَ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ الآية، فأمَّا سائرُ تفاسير الصحابة التي لا تَشْتملُ على إضافةِ الشيء، إلى رسول الله ﷺ، فمَعْدُودٌ في الموقوفات. اهـ. ص (٤٦).

وأمّا قولُ التابعيّ نزلت في كذا: فهو مُرْسَلٌ، فإن تعدَّدَت

طُرُقه قُبِل، وإلا فلا على الراجح عند المحدِّثين.

والثالث: (٣): العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والدليل على ذلك: أن الأنصاري الذي قَبَّل الأجنبية، ونزلت فيه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ الآية، قال للنبي ﷺ: ألي هذا وحدي يا رسول الله!. ومعنى هذا: هل حكم هذه الآية يختصُّ بي، لأني سبب نزولها؟ فأفتاه النبي ﷺ: بأنَّ العبرة بعموم اللفظ، فقال: (بل لأمتي كلهم). أما صورة السبب: فجمهور أهل الأصول أنها قطعية الدخول في العام، فلا يجوز إخراجها منه بمخصص، وهو التحقيق. وروي عن مالك: أنها ظنية الدخول، كغيرها من أفراد العامّ.

والرابع: قد تتعدَّدَ الأسبابُ، والنازلُ واحدٌ، كما في آيةِ اللعان، وغيرها من الآيات، كما ستجده إن شاء الله تعالى في مواضعه، وكذا قد تتعدَّد الآيات النازلة، والسبب واحد، كما في حديث المسيب ـ رضي الله عنه ـ: في شأن وفاة أبي طالب، وقول النبي ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنه» فأنزل الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ ونزل في أبي طالب أيضاً: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ستمرُّ بك إن شاء الله تعالى في مواضعها.

والخامس: صيغة سبب النزول: إمَّا أن تكون صريحةً في السببية، وإمَّا أن تكون محتملةً فتكون نصًّا صريحاً، إذا قال

الراوي: سبب نزول هذه الآية كذا، أو إذا أتى بفاء التعقيب داخلةً على مادَّة النزول، بعد ذكر الحادثة، أو السؤال، كما إذا قال: حدث كذا، أو سئل رسولُ الله ﷺ عن كذا فنزلت.

فهاتان صيغتان صريحتان في السببيَّة، وسيأتي لهما أمثلةٌ إن شاء الله تعالى، وتكون الآية محتملةً للسببيَّة، ولما تضمَّنته الآية من الأحكام إذا قال الراوي: نزلت هذه الآية في كذا، فذلك يراد به تارةً: أنه سبب النزول، وتارةً: أنه داخلٌ في معنى الآية. وكذا إذا قال: أحسب هذه الآية نزلت في كذا، أو ما أحسب هذه الآية إلا نزلت في كذا، فإن الراوي بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب، فهاتان صيغتان تَحتَمِلان السببية، وغيرها، وسيأتي لهما أمثلة إن شاء الله تعالى. اهـ. مختصر مِنْ كتابٍ «مَبَاحِثُ في عُلُومِ القرآنِ» لمنَّاعِ القَطَّان.

واعلم: أنَّ من القرآن ما نزل لسببٍ، ومنه: ما نزل ابتداءً بعقائد الإيمان، وشرائع الإسلام، وليس لكل آيةٍ، أو لكل حديث سببٌ، بل منهما ما له سببٌ خاصٌّ، ومنهما ما ليس له سببٌ، فانتبه لهذه المسألة.

والله أعلم

* * *

الفصل السادس والعشرون

في التنبيه على أحاديث وضعت في فضائل سور القرآن، وغيره، لا التفات لما وضعه الواضعون، واختلقه المختلقون من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة في فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال، وقد ارتكبها جماعةٌ كثيرةٌ اختلفت أغراضهم، ومقاصدهم في ارتكابها.

فمنهم: من الزنادقة، مثل: المغيرة بن سعيد الكوفي، ومحمد بن سعيد الشاميُّ المصلوب في الزندقة، وغيرهما. وضعوا أحاديث، وحدَّثوا بها؛ ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس. فما رواه محمد بن سعيد، عن أنس بن مالك في قوله ﷺ: «أنا خاتم الأنبياء، لا نبيَّ بعدي إلاَّ ما شاء الله» فزاد هذا الاستثناء، لِما كان يدعو إليه من الإلحاد، والزندقة.

قلت: وقد ذكره ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» ولم يتكلم عليه، بل تأوَّلَ الاستثناء على الرؤيا، فالله أعلم.

ومنهم: قومٌ وضعوا الحديث، لهوىً يدعون الناس إليه. قال شيخٌ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: إنّ هذه الأحاديث دِيْنٌ، فانظروا ممن تأخذون دينكم، فإنَّا كُنَّا إذا هَوِيْنا صيرناه حديثاً.

ومنهم: جماعةٌ وضعوا الأحاديث حسبةً، كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال، كما روي عن أبي عِصمة، نوح بن أبي

مريم المَرْوَزيِّ، ومحمد بن عكّاشة الكِرمانيِّ، وأحمد بن عبد الله الجويباريّ، وغيرهم. قيل لأبي عصمة: من أين لك عن عكرمة، عن ابن عباس في فضل سور القرآن سورةً سورةً، فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي محمد بن إسحاق؛ فوضعت هذا الحديث حسبةً.

قال أبو عمرو عثمان بن الصلاح، في كتاب «علوم الحديث» له: وهكذا الحديث الطويل الذي يروىٰ عن أُبَيٍّ بن كعب، عن النبي ﷺ في فضل القرآن سورةً سورةً، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى، إلى من اعترف بأنه، وجماعةً وضعوه، وأن أثر الوضع عليه لبَيِّنٌ. وقد أخطأ الواحديُّ المفسّر، ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم.

قلت: وأنا قد وضعتها في تفسيري، في فضائل بعض السور نقلاً عن البيضاويِّ، وغيره استئناساً بها، ولكن قد بيَّنت وضعها في مواضعها.

ومنهم: قوم من السُّؤَّالِ والمُكِدِّيْنَ، يقفون في الأسواق، والمساجد، فيضعون على رسول الله ﷺ، أحاديث بأسانيد صحاحٍ قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد. قال جعفر بن محمد الطيالسيُّ صلى أحمد ابن حنبل، ويحيى بن معين في مسجد الرصافة، فقام بين أيديهما قاصٌّ. قال: حدثنا أحمد ابن حنبل، ويحيىٰ بن معين قالا: أنبأنا عبد الرزاق، قال: أنبأنا معمرٌ، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال لا إلٰه إلا الله،

يخلق من كل كلمة منها طائرٌ منقاره من ذهبٍ، وريشه مرجانٌ»، وأخذ في قصةٍ نحوٍ من عشرين ورقةً، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال: أنت حدثته بهذا! فقال: والله ما سمعت به إلاّ هذه الساعة. قال: فسكتا جميعاً حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى: من حدّثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، فقال: أنا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ! فإن كان ولا بد من الكذب فعلى غيرنا. فقال: له أنت يحيىٰ بن معين؟ قال: نعم. قال: لَمْ أزل أسمع أنَّ يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة، فقال له يحيى: وكيف علمت أني أحمق؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بن معين، وأحمد ابن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا، قال: فوضع أحمد كُمَّه على وجهه، وقال: دعه يقوم، فقام كالمستهزىء بهما، فهؤلاء الطوائف كذبةٌ على رسول الله ﷺ، ومن يجري مجراهم.

ويُذكَر: أن المهدي كان يعجبه الحمام، واللهو به، فأُهديَ إليه حمامٌ، وعنده أبو البحتريِّ القاصُّ، فقال: روى أبو هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا سبق إلا في خفٍّ، أو حافر، أو جناح فزاده: أو جناحٍ، وهي: لفظةٌ وضعها للمهدي، فأعطاه جائزةً. فلمَّا خرج قال المهدي: والله، لقد علمت أنه كذابٌ، وأمر بالحمام أن يذبح، فقيل له: وما ذنب الحمام؟ قال: من أجله كذب على رسول الله ﷺ، فترك العلماء حديثه ذلك، وغيره من

موضوعاته، فلا يكتب العلماء حديثه بحالٍ.

قلت: فلو اقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح، والمسانيد، وغيرهما من المصنّفات التي تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم في ذلك غنيةٌ. وخرجوا عن تحذيره ﷺ حيث قال: «اتقوا الحديث عليَّ إلاَّ ما علمتم فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار». الحديث، فتخويفه ﷺ أمَّتَه على الكذب، دليلٌ على أنّه كان يعلم أنّه سيُكذَب عليه، فحذار مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين في باب الترغيب، والترهيب، وغير ذلك، وأعظمهم ضرراً؛ أقوامٌ من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الأحاديث حسبة فيما زعموا، فيقبل الناس موضوعاتهم ثقةً منهم بهم، وركوناً إليهم فضلُّوا، وأضلُّوا.

والله أعلم

* * *

الفصل السابع والعشرون

في بيان ما جاء من الحجة، في الردِّ على من طعن في القرآن، وخالف مصحف عثمان بالزيادة، والنقصان

واعلم: أنه لا خلاف بين الأُمّة، ولا بين الأئمّة أهل السنة أنّ القرآن اسم لكلام الله تعالى، الذي جاء به محمد ﷺ، معجزةً له على ما سيأتي، وأنَّه محفوظٌ في الصُّدور، مقروءٌ بالألسنة، مكتوبٌ في المصاحف، معلومةٌ على الاضطرار سوره وآياته، مبرأةٌ من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته، فلا يحتاج في تعريفه بحدٍّ، ولا في حصره بعدٍّ، فمن ادعى زيادةً عليه، أو نقصاناً منه، فقد أبطل الإجماع وبَهَتَ الناسَ، ورَدَّ ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن المنزَّل عليه، ورَدَّ قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ وأبطل آيةَ رسوله ﷺ؛ لأنّه إذْ ذاك يصير القرآن مقدوراً عليه حين شيب بالباطل، ولَمَّا قُدِر عليه لم يكن حجةً، ولا آيةً، وخرج أن يكون معجزاً.

فالقائل: بأن القرآن فيه زيادةٌ، ونقصانٌ ردَّ لكتاب الله، ولِمَا جاء به الرسول، وكان كمن قال: الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوُّج تسعٍ من النساء حلالٌ، وفرض الله أياماً مع شهر

رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت في الدين، فإذا ردَّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد.

قال الإمام أبو بكر، محمد بن القاسم، بن بشار، بن محمد الأنباري: ولم يزل أهل الفضل، والعقل يعرفون من شرف القرآن، وعلوِّ منزلته، ما يوجبه الحقُّ، والإنصاف والديانة، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين، وتحريف الزائفين، حتى نبع في زماننا هذا، زائغٌ زاغ عن المِلَّة، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التي لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسَّها، وينمي فرعها، ويحرسها من معايب أولي الحيف، والجور، ومكايد أهل العداوة، والكفر، فزعم: أن المصحف الذي جمعه عثمانُ - رضي الله عنه - باتفاق أصحاب رسول الله ﷺ، على تصويبه فيما فعل، لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف، قد قرأت بعضها، وسأقرأ بقيتها.

فمنها: ﴿والعصر ونوائبِ الدَّهرِ﴾ فقد سقط من القرآن على جماعةِ المسلمين، ﴿ونوائبِ الدهر﴾.

ومنها: ﴿حتى إذا أخذَتِ الأرضُ زُخرفَها وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهْلُها أنّهم قادرون عليها أتَاهَا أَمْرُنا ليلاً أو نهاراً فجعَلْنَاها حَصِيداً كأَنْ لم تَغْنَ بالأَمْسِ وما كان الله لِيُهلكهم إلاّ بذُنوب أهلِها﴾ فادَّعَى هذا الإنسانُ، أنّه سقط على أهلِ الإسلام من القرآن ﴿وما كان الله ليُهلكهم إلاّ بذنوب أهلها﴾ وذكر مما يدّعي حروفاً كثيرة.

وادعى: أن عثمان، والصحابة - رضي الله عنهم - زادوا في

القرآن ما ليس فيه، فقرأ في صلاة الفرض، والناس يسمعون: ﴿الله الواحد الصمد﴾ فأسقط من القرآن: ﴿قُلْ هُوَ﴾، وغير لفظ أحد، وادعى أنَّ هذا هو الصواب، والذي عليه الناس هو الباطل، والمحال. وقرأ في صلاة الفرض ﴿قُل للذين كفروا لا أعبدُ ما تعبدون﴾ وطعن على قراءة المسلمين. وادَّعى: أنَّ المصحف الذي في أيدينا اشتمل على تصحيف حروفٍ مفسدةٍ مغيِّرة.

منها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ فادَّعى: أنَّ الحكمة، والعزَّة لا يشاكلان المغفرة، وأن الصواب ﴿وإنْ تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم﴾ وترامَى به الغيُّ في هذا، وأشكاله، حتى ادَّعى: أنَّ المسلمين يصحِّفُون ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ والصواب الذي لم يُغَيَّر عنده: ﴿وكان عبد الله وجيهاً﴾ وحتى قرأ في صلاة مفترضة، على ما أخبرنا جماعةٌ سمعوه، وشهدوه: ﴿لا تُحرِّك به لسانك إنّ علينا جمعه ـ وقراءته فإذا قرأناه فاتبع قراءته ثم إن علينا نَبأ بِهِ﴾. وحكى لنا آخرون عن آخرين: أنهم سمعوه يقرأُ: ﴿ولقد نصركم ببدر بسيف عليٍّ وأنتم أذِلَّةُ﴾ وروى هؤلاء أيضاً لنا عنه، قال: ﴿هذا صراط عَلِيٍّ مستقيم﴾ وأخبرونا أنّه: أدخل في آية من القرآن، ما لا يُضاهِي فصاحة رسول الله ﷺ، ولا يدخل في لسان قومه، الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ فقرأ: ﴿أليس قلت للناس﴾ في موضع ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ وهذا لا يُعرف في نحو المُعرِبين، ولا يُحمَل على مذاهب النحويِّين؛ لأنّ

العرب لم تقل: ليس قُمت، فأمَّا: ألست قمت؟ بالتاء، فشاذٌّ، قبيحٌ، خبيثٌ، رَدِيءٌ، لأنَّ ليس لا تجحد الماضي، ولم يوجد مثل هذا إلاّ في قولهم: أليس قد خلق الله مثلهم؟ وهو لغةٌ شاذَّةٌ، لا يُحمل كتاب الله عليها.

وادَّعى: أنَّ عثمان ـ رضي الله عنه ـ: لمَّا أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت لم يُصِب؛ لأنَّ عبد الله بن مسعود، وأُبيَّ بن كعب، كانا أولى بذلك من زيد؛ لقول النبي ﷺ: «اقرأُ أُمتي أبيُّ بن كعب». ولقوله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل فليقرأ بقراءة ابن أُمِّ عبد». وقال هذا القَائِلُ: لي أَنْ أُخالف مصحف عثمان، كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ ﴿إنَّ هَذَيْن﴾ ﴿فأصَدَّقَ وأَكُونَ﴾ ﴿بَشِّر عباديَ الذين﴾ بفتح الياء ﴿فما أَتانِي الله﴾ بفتح الياء، والذي في المصحف: ﴿إِنْ هَٰذَانِ﴾ بالألف ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ بغير واوٍ ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ﴿فما أتان الله﴾ بغير ياءين في الموضعين، وكما خالف ابن كثير، ونافعٌ، وحمزةٌ، والكسائيُّ مصحف عثمان فقرؤوا: ﴿كذلك حقّاً علينا نُنْجِي المؤمنين﴾ بإثبات نونين، يفتح الثانية بعضهم، ويسكِّنُها بعضهم، وفي المصحف نونٌ واحدةٌ، وكما خالف حمزة المصحف، فقرأ: ﴿أَتُمِدُّوْنِيْ بمالٍ﴾ بنونٍ واحدةٍ، ووقفٍ على الياء، وفي المصحفِ نونان، ولا ياء بعدهما، وكما خالف حمزة أيضاً المصحف، فقرأ: ﴿ألا إنّ ثموداً كفروا بربّهم﴾ بغير تنوين، وإثبات الألف يوجب التنوين، وكُلُّ هذا الذي شنَّع به على القرَّاءِ ما يلزمهم به خلاف المصحف. قال أبو

بكر: وذكر هذا الإنسان: أنَّ أبيَّ بن كعب هو الذي قرأ: ﴿كأن لم تَغْنَ بالأمس وما كان الله ليهلكها إلاّ بذُنوبِ أهلِها﴾ وذلك باطلٌ؛ لأنَّ عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد، ومجاهدٌ قرأ على ابن عباس، وابن عباس قرأ القرآن على أُبيّ بن كعب ﴿حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ في روايةٍ، وقرأ أُبيُّ القرآن على رسول الله ﷺ، وهذا الإسناد متّصلٌ بالرسول ﷺ، نقله أهل العدالة، والصيانة، وإذا صح عن رسول الله ﷺ أمرٌ، لم يؤخذ بحديث يخالفه. وقال يحيىٰ بن المبارك: قرأت القرآن على أبي عمروٍ بن العلاء، وقرأ أبو عمرو على مجاهد، وقرأ مجاهد على ابن عباس، وقرأ ابن عباس على أبيٍّ بن كعب، وقرأ أبيٌّ بن كعب على رسول الله ﷺ، وليس فيها، ﴿وما كان الله ليهلكها إلاّ بذنوب أهلها﴾ فمن جحد أنَّ هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيّه ﷺ، فليس بكافرٍ، ولا آثمٍ. ومثل هذه الزيادة: ما رَوَوْا عن ابن عباس أنّه قرأ: ﴿ليس عليكم جناح أن تَبْتَغُوا فضلاً من ربّكم في مواسم الحج﴾. وما حَكَوْه عن عمر بن الخطاب أنّه قرأ: ﴿غير المغضوب عليهم، وغير الضالين﴾ فهذه الزيادات، ونظائرها، لو جحدها جاحد، أنّها من القرآن لم يكن كافراً. والقرآن الذي جمعه عثمان بموافقة الصحابة له، لو أنكر بعضه منكر كان كافراً، حكمه حكم المرتد، يستتاب، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه.

وقال أبو عبيد: لم يزل صنيع عثمان ـ رضي الله عنه ـ في جمعه القرآن يُعتَدُّ له؛ بأنه من مناقبه العظام. وقد طعن عليه فيه

بعض أهل الزيغ، فانكشف عواره، ووضحت فضائحه. وقال أبو عبيد: وقد حدثت عن يزيد بن زريع، عن عمران بن جرير، عن أبي مجلز قال: طَعَنَ قوم على عثمان ـ رضي الله عنه ـ بحمقهم جمع القرآن، ثم قرؤوا ما نُسِخ. قال أبو عبيد: يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذي أسقط بعلمٍ، كما أثبت الذي أثبت بعلمٍ. قال أبو بكر: وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ دلالةٌ على: كفر هذا الإنسان؛ لأن الله عزَّ وجلَّ، قد حفظ القرآن من التغيير، والتبديل، والزيادة، والنقصان، فإذا قرأ قارىء ﴿تبَّتْ يَدَا أبي لهب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب ومُرَيَّتهُ حمالةَ الحطب في جيدها حَبْلٌ من لِيفٍ﴾ فقد كذب على الله جلّ وعلا، وقَوَّلَهُ ما لم يَقُلْ، وبدَّلَ كِتابَه، وحرَّفَه، وحاول ما قد حفظه منه، ومنع عن اختلاطه به، وفي هذا الذي أتاه؛ توطئة الطريق لأهل الإلحاد؛ ليدخلوا في القرآن ما يحلون به عُرَىٰ الإسلام، وينسبونه إلى قومٍ، كهؤلاء القوم، الذين أحال هذا الإنسان بالأباطيل عليهم، وفيه إبطال الإجماع الذي به يُحرَس الإسلام، وبثباته تقام الصلوات، وتؤدَّى الزكوات، وتتحرَّى المتعبدات. وفي قول الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ دلالةٌ على: بدعة هذا الإنسان، وخروجه إلى الكفر، لأن معنى أحكمت آياته: منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها، أو يعارضو بمثلها. وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها: ﴿وكفى اللَّهُ المؤمنين القتالَ بعَلِيٍّ وكان الله قوياً عزيزاً﴾ فقال في القرآن: هُجْراً. وذكر عليًّا في مكانٍ، لو سمعه

يذكره فيه، لأمضى عليه الحدَّ، وحكم عليه بالقتل، وأسقط من كلام الله ﴿قُلْ هُوَ﴾ وغيَّر أحدٌ، فقرأ: ﴿الله الواحد الصمدُ﴾ وإسقاط ما أسقطه نفيٌ، وكفر به، ومن كفر بحرفٍ من القرآن، فقد كفر به، إلى آخر ما أطال به القرطبيُّ رحمه الله تعالى.

والله أعلم

* * *

الفصل الثامن والعشرون

في بيان هل ورد في القرآن كلمات خارجةٌ عن لغات العرب، أم لا؟

واعلم: أنه لا خلاف بين الأمّة: أنه ليس في القرآن كلام مُركَّب على أساليب غير العرب، وأنَّ فيه أسماءً أعلاماً لمن لسانه غير لسان العرب، كإسرائيل، وجبرائيل، وعمران، ونوح، ولوط، واختلفوا: هل وقع فيه ألفاظٌ غيرُ أعلامٍ مفردةٍ من غير كلام العرب؟ فذهب القاضي أبو بكر بن الطيِّب، والطبريُّ، وغيرهما: إلى أنَّ ذلك لا يوجد فيه، وأنَّ القرآن عربيّ صريح، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات؛ إنّما اتَّفق فيها أن تواردتِ اللغات عليها، فتكلَّمَتْ بها العرب، والفرس، والحبشة، وغيرهم، وذهب بعضهم: إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلّتها، لا تُخرِج القرآنَ عن كونه عربياً مبيناً، ولا رسولَ الله ﷺ، عن كونه متكلّماً بلسان قومه. فالمشكاة: الكوَّة، ونشأ: قام من الليل ومنه ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ و﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي: ضعفين، و﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ أي: الأسد كله بلسان الحبشة، والغسَّاق: البارد المنتن بلسان الترك، والقسطاس: الميزان بلغة الروم، والسجِّيلُ: الحجارة، والطين بلسان الفرس، والطَّوْدُ: الجبل، واليَمُّ: البحر بالسريانية والتنور: وجه الأرض بالعجميَّة.

قال ابن عطيّة: فحقيقة العبارة عند هذه الألفاظ؛ أنها في الأصل أعجميةٌ، لكن استعملتها العرب وعربتها، فهي عربية بهذا الوجه، وقد كان للعرب العاربة، التي نزل القرآن بلسانها، بعض مخالطةٍ لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتي قريشٍ، وبغيرهما، كسفر مسافر بن أبي عمرو إلى الشام، وكسفر عمر بن الخطّاب، وكسفر عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسفر الأعْشَى إلى الحِيرة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجةً في اللغة، فعلّقتِ العرب بهذا كُلِّه ألفاظاً أعجميةً غيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها، ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الصحيح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحدِّ نزل بها القرآن، فإن جهلها عربيٌّ ما؛ فكجهله الصريح بما في لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس، معنى فاطر، إلى غير ذلك. قال ابن عطيّة: وما ذهب إليه الطبريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ من أنَّ اللغتيْن اتفقتا في لفظةٍ لفظةٍ فذلك بعيدٌ، بل إحداهما أصلٌ، والأخرى فرعٌ، لا أنا ندفع أيضاً جواز الاتفاق قليلاً شاذًّا. قال غيره: والأوَّلُ أصح. وقوله هي: أصلٌ في كلام غيرهم، دخيلةٌ في كلامهم، ليس بأولى من العكس، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أوَّلاً، فإن كان الأوَّل، فهي من كلامهم، إذ لا معنى للغتهم، وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة.

فإن قيل: هذه الكلمات ليست على أوزان كلام العرب، فلا تكون منه.

قلنا: ومَن سَلَّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم، حتى تخرجوا هذه منها؟ فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب، ورد هذه الأسماء إليها على الطريقة النحويَّة، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها، ولا عرفتها، استحال أن يخاطبهم الله تعالى بما لا يعرفون، وحينئذٍ لا يكون القرآن عربياً مبيناً، ولا يكون الرسول مخاطباً لقومه بلسانهم.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

الفصل التاسع والعشرون

في بيان بعض نكات في إعجاز القرآن، وشرائط المعجزة، وحقيقتها

المعجزةُ: واحدةُ معجزات الأنبياء الدالَّة على صدقهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وسُمِّيت معجزةً؛ لأنَّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها.

وشرائطها: خمسةٌ: فإن اختلَّ منها شرطٌ لا تكون معجزةً.

فالشرط الأوَّلُ: من شروطها: أن تكون مما لا يقدر عليها إلاّ الله تعالى، وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة؛ لأنّه لو أتى آتٍ في زمان مجيء الرُّسل، وادَّعى الرسالة، وجعل معجزته أن يتحرَّك، ويسكن، ويقوم، ويقعد، لم يكن هذا الذي ادَّعاه معجزةً له، ولا دالاً على صدقه؛ لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات مما لا يقدر عليه البشر، كفلق البحر، وانشقاق القمر.

والشرط الثاني: أن تَخِرق العادة، وإنما وجب اشتراط. ذلك؛ لأنّه لو قال المدعي للرسالة: آيتي مجيءُ الليل بعد النهار، وطلوع الشمس من مشرقها، لم يكن فيه ادعاءُ معجزةٍ؟ لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلاّ الله، فلم تفعل من أجله، وقد

كانت قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه، ودعواه في دلالتها على نبوّته كدعوى غيره، فبان أنَّه لا وجه له يَدُلُّ على صدقه، والذي يستشهد به الرسول عليه السلام، له وجهٌ يدُلُّ على صدقه، وذلك أن يقول: الدليل على صدقي: أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواي عليه الرسالة، فيقلب هذه العصا ثعباناً، ويشقُّ الحجر، ويُخرِج من وسطه ناقةً، أو ينبع الماء من بين أصابعي، كما ينبعه من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادة، التي ينفرد بها جبار الأرض، والسموات، فتقوم له هذه العلامات، مقام قول الربِّ سبحانه، لو أسمَعَنا كلامه العزيز، وقال: صدق أنا بعثته. ومثال هذه المسألة، ولله، ولرسوله المثل الأعلى: ما لو كانت جماعةٌ بحضرة ملك من ملوك الأرض، وقال أحد رجاله وهو بمرأى، ومسمعٍ منه، والملك يسمعه: الملك يأمركم أيها الجماعة! بكذا وكذا، ودليل ذلك: أنَّ الملك يصدقني بفعل من أفعاله، وهو أن يُخرِج خاتمه من يده قاصداً بذلك تصديقي، فإذا سمع الملك كلامه لهم، ودعواه فيهم، ثم عمل ما استشهد به على صدقه، قام ذلك مقام قوله، لو قال: صدق فيما ادَّعاه عليَّ، فكذلك إذا عمل الله عملاً لا يقدر عليه إلاّ هو، وخرق به العادة على يدي الرسول، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى، لو أسمَعَناه، وقال: صدق عبدي في دعوى الرسالة، وأنا أرسلته إليكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

والشرط الثالث: هو أن يستشهد بها مدّعي الرسالة على الله

عزّ وجلّ، فيقول: آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماءَ زَيْتاً، أو يُحرِّك الأرض عند قولي لها: تزلزلِي، فإذا فعل الله سبحانه ذلك، حصل المتحدَّى به.

والشرط الرابع: هو أن يقع على وفق دعوى المتحدِّي بها، المستشهِد بكونها معجزةً له، وإنّما وجب اشتراط هذا الشرط؛ لأنّه لو قال: المدعي للرسالة: آيةُ نُبوّتي، ودليل حُجّتي: أن تنطق يدي، أو هذه الدابةُ، فنطقت يده، أو الدابة بأن قالت: كذب، وليس هو بنبيٍّ فإنَّ هذا الكلام الذي خلق الله تعالى، دالٌّ على كذب ذلك المُدَعي للرسالة؛ لأنَّ ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه، وكذلك ما يُرْوىٰ: أنَّ مسيلمة الكذاب لعنه الله تعالى، تفل في بئرٍ؛ ليكثر ماؤُها، فغارت البئر، وذهب ما كان فيها من الماء، فما فعله الله سبحانه من هذا، كان من الآيات المكذِّبة لمن ظهرت على يديه، لأنّها وقعت على خلاف ما أراده المتنبىءُ الكذَّاب.

والشرط الخامس: من شروط المعجزة: أن لا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدِّي على وجه المعارضة. فإن تمَّ الأمر المتحدَّى به، المستشهَد به على النبوّةِ، على هذا الشرط مع الشروط المتقدمة، فهي: معجزة دالَّةٌ على نُبوّة من ظهرت على يده، فإن أقام الله تعالى من يعارضه، حتى يأتي بمثل ما أتى به، ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيًّا، وخرج عن كونه مُعجزاً، ولم يَدُلَّ على صدقه، ولهذا قال المولى سبحانه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ

﴿مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ كأنّه يقول: إن ادعيتم أنَّ هذا القرآن من نظم محمد ﷺ وعمله، فاعملوا عشر سور من جنس نظمه، فإن عجزتم بأسركم عن ذلك، فاعلموا أنه ليس من نظمه، ولا من عمله. لا يقال: إن المعجزات المقيَّدة بالشروط الخمسة، لا تظهر إلا على أيدي الصادقين. وهذا المسيحُ الدجَّال فيما رُوِيتم عن نبيكم ﷺ يظهر على يديه من الآياتِ العظام، والأمور الجسام، ما هو معروفٌ مشهور، فإنّا نقول ذاك، يدَّعي الرسالة، وهذا الدجّال يدَّعي الرُّبوبية، وبينهما من الفُرقان ما بين البصراء، والعميان. وقد قام الدليل العقليُّ: على أنَّ بعْثة بعض الخلق إلى بعضٍ، غير ممتنعة، ولا مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوقٍ أتى عنه بالشرع، والملّة. ودلت الأدلة العقلية أيضاً: على أنّ المسيح الدجال فيه التصوير، والتغيير من حال إلى حال، وثبت أنَّ هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدثات. تعالى رب البريات، عن أن يشبه شيئاً، أو يشبهه شيءٌ. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

والله أعلم

* * *

الفصل الثلاثون

في تقسيم المعجزات

إذا ثبت هذا، فاعلم: أنَّ المعجزات على ضربين:

الأول: ما اشتهر نقله، وانقرض عصره بموت النبيِّ ﷺ.

والثاني: ما تواترت الأخبار بصحَّتِه، وحصوله، واستفاضت بثبوته، ووجوده، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورةً.

ومن شرطه: أن يكون الناقلون خلقاً كثيراً، وجمًّا غفيراً، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علماً ضروريّاً، وأن يستوي في النقل، أوَّلهم، وآخرهم، ووسطهم في كثرة العدد، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب، وهذه صفة نقل القرآن، ونقل وجود النبي ﷺ؛ لأنَّ الأُمَّة ـ رضي الله عنها ـ لم تزل تنقل القرآن خَلَفاً عن سلف، والسلف عن سلفه، إلى أن يتصل ذلك بالنبي ﷺ، المعلوم وجوده بالضرورة، وصدقه بالأدلَّة المعجزات، والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام، وجبريل عن ربّه جَلَّ وعزَّ، فنقل القرآنَ في الأصل رسولان معصومان من الزيادة، والنقصان، ونقله إلينا بعدهم أهل التواتر، الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه، ويسمعونه؛ لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلم الضروريُّ بصدقهم، فيما نقلوه من وجود محمد ﷺ، ومن ظهور القرآن على

يديه وتحدِّيه به، ونظير ذلك من علم الدنيا، علم الإنسان ما نقل إليه من وجود البلدان، كالبصرة والشام، والعراق، وخُراسان، والمدينة، ومكة، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة، الظاهرة، المتواترة. فالقرآنُ: معجزة نبيّنا محمد ﷺ، الباقية بعده إلى يوم القيامة، ومعجزة كلٍّ نبيٍّ انقرضت بانقراضه، أو دخلها التبديل، والتغييرُ، كالتوارة، والإنجيل.

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرةٌ:

منها: النَّظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، وفي غيرها؛ لأنَّ نظمه ليس من نظم الشيء في شيء، وكذلك قال ربُّ العزّة الذي تولَّى نظمه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾. وفي «صحيح مسلم»: أن أُنَيساً أخا أبي ذرّ قال لأبي ذرّ: لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله تعالى أرسله، قلت: فما يقول الناس قال: يقولون شاعرٌ كاهنٌ ساحر، وكان أُنيسٌ أحد الشعراء. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أفراء الشعر، فلم يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنّه شِعْرٌ. والله، إنّه لصادق، وإنّهم لكاذبون، وكذلك أقرَّ عتبة بن ربيعة، أنّه ليس بسحر، ولا شعر، لمَّا قرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿حم فُصِّلت﴾ على ما يأتي بيانه هناك، فإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة، والبلاغة، بأنّه ما سمع مثل هذا القرآن قطُّ، كان في هذا القول مُقرّاً له، ولضربائه من المتحققين بالفصاحة، والقدرة على التكلم بجميع أجناس

القول، وأنواعه.

ومنها: الأسلوب المخالف أساليب العرب.

ومنها: الجزالة التي لا تصحُّ من مخلوقٍ بحال، وتأمَّل ذلك في سورة: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ إلى آخرها، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إلى آخر السورة، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ إلى آخر السورة. قال ابن الحِصَار فمَنْ عَلِم أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الحقُّ، عَلِم أنَّ مثل هذه الجزالة لا تصحّ في خطاب غيره، ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، ولا أن يقول: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.

قال ابن الحصار: وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمةٌ كلَّ سورة، بل هي لازمةٌ كل آيةٍ، وبمجموع هذه الثلاثة يتميَّز مسموع كُلِّ آيةٍ، وكُلِّ سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدِّي، والتعجيز، ومع هذا، فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سورة الكوثر ثلاثُ آياتٍ قصارٍ، وهي أقصر سورةٍ في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين.

أحدهما: الإخبار عن الكوثر، وعظمه، وسعته، وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أنَّ المصدِّقين به أكثر من أتباع سائر الرسل.

والثاني: الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول

الآية ذا مال، وولدٍ على ما يقتضيه قوله الحقُّ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ ثُمَّ أهلك الله سبحانه ماله، وولده، وانقطع نسله.

ومنها: التصرُّفُ في لسان العرب على وجه لا يستقلُّ به عربيٌّ، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمةٍ وحرفٍ موضعه.

ومنها: الإخبار عن الأمور التي تقدَّمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله، من أُمِّيٍّ ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية في دهرها، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحدَّوه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذي القرنين، فجاءهم وهو أُميٌّ من أُمَّةٍ أُميَّةٍ ليس لها بذلك عِلْمٌ بما عرفوا، من الكتب السالفة صِحَّته، فتحقَّقوا صِدْقه. قال القاضي ابن الطيب: ونحن نعلم ضرورةً أنَّ هذا ممَّا لا سبيل إليه إلاّ عن تعلُّمٍ، وإذا كان معروفاً أنّه لم يكن ملابساً لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا متردِّداً إلى المعلِّم منهم، ولا كان ممَّن يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتابٌ فيأخذ منه، عُلِمَ أنّه لا يصل إلى علم ذلك، إلاّ بتأييدٍ من جهة الوحي.

ومنها: الوفاء بالوعد المدرَك بالحِسِّ في العِيان، في كل ما وعد الله سبحانه، وينقسم إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله ﷺ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه، وإلى وعْدٍ مقيَّد،

بشرط قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ و﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ وشبه ذلك.

ومنها: الإخبار عن المغيَّبات في المستقبل التي لا يُطَّلَع عليها إلا بالوحي، فمن ذلك: ما وعد الله سبحانه رسوله ﷺ، أنّه سيُظْهِر دينَه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية، ففعل ذلك، وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إذا أغزى جيوشه عرَّفهم ما وعدهم الله تعالى في إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنجح، وكان عمر يفعل ذلك، فلم يزل الفتح يتوالى شرقاً، وغرباً، برّاً، وبحراً. قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ وقال: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ فهذه كُلُّها أخبارٌ عن الغُيوب التي لا يقف عليها إلاّ ربُّ العالمين، أو من أوقفه عليها ربُّ العالمين، فدلَّ على أنَّ الله تعالى قد أوقف عليها رسوله؛ لتكون دلالةً على صدقه.

ومنها: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قِوام جميع الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام.

ومنها: الحِكَم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في

كثرتها، وشرفها من آدميٍّ.

ومنها: التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً، وباطناً من غير اختلاف. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

قلت: فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا ـ رحمهم الله تعالى ـ، وزاد النظام، وبعض القدرية حادي عشرها، وهو: أنَّ وجه الإعجاز: هو المنع من معارضته، والصَّرفة عند التحدّي بمثله، وأنَّ المنع، والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن، وذلك أنَّ الله تعالى صرف هممهم عن معارضته، مع تحديهم بأن يأتوا بسورةٍ من مثله، وهذا فاسدٌ؛ لأنَّ إجماعَ الأمة قبل حدوث المخالف، على أنَّ القرآن هو المعجز. فلو قلنا: إن المنع، والصرفة هو المعجز، لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً، وذلك خلاف الإجماع، وإذا كان كذلك، علم أنَّ نفس القرآن هو المعجز؛ لأن فصاحته، وبلاغته أمرٌ خارقٌ للعادة، إذ لم يوجد قطُّ كلام على هذا الوجه، فلمَّا لم يكن ذلك الكلام مألوفاً معتاداً منهم، دلَّ على أنَّ المنع، والصرفة لم يكن معجزاً. واختلف من قال بهذه الصرفة على قولين:

أحدهما: أنّهم صُرفوا عن القدرة، ولو تعرضوا له لعجزوا عنه.

الثاني: أنّهم صُرفوا عن التعرّض له مع كونه في مقدورهم، ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه. قال: ابن عطيّة: وجه

التحدّي في القرآن، إنّما هو بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه. ووجه إعجازه: أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كُلِّه علماً، فعلم بإحاطته أيَّ لفظةٍ تصلح أن تلي الأولى، وتُبيِّنُ المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوَّل القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول. ومعلومٌ ضرورةً: أنَّ بشراً لم يكن محيطاً قطُّ، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول من قال: أن العرب كان في قدرتها، أن تأتي بمثل القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، فلمَّا جاء محمدٌ ﷺ صرفوا عن ذلك، وعجزوا عنه. والصحيح: أنَّ الإتيان بمثل القرآن، لم يكن قط في قدرة أحدٍ من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر، في أنَّ الفصيح منهم يضع خطبةً، أو قصيدةً يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً، ثم تعطىٰ لآخر بعده، فيأخذها بقريحةٍ جامّةٍ، فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر، والبدل. وكتاب الله تعالى، لو نُزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب، أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ومن فصاحة القرآن: أنَّ الله جلَّ ذكره، وثناؤه، ذكر في آيةٍ واحدة: أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية، وكذلك فاتحة سورة المائدة أمر بالوفاء، ونهى عن النَكْث، وحلَّل تحليلاً عامّاً، ثم استثنى استثناءً بعد استثناء ثُمَّ أخبر عن حكمته، وقدرته، وذلك مما لا يقدر عليه إلاّ الله سبحانه وتعالى. وأنبأ سبحانه: عن الموت، وحسرة الفوت، والدار الآخرة، وثوابها، وعقابها، وفوز

الفائزين، وتردِّي المجرمين، والتحذير عن الاغترار بالدنيا، ووَصْفِها بالقلّة، بالإضافة إلى دار البقاء، بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ الآية، وأنبأ أيضاً: عن قصص الأوّلين، والآخِرين، ومآل المفترين، وعواقب المهلَكين في شطر آية، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾ وأنبأ جلّ وعزّ: عن أمر السفينة، وإجرائها، وإهلاك الكفرة، واستقرار السفينة، واستوائها، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض، والسماء بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إلى غير ذلك، فلمّا عجزت قريشٌ عن الإتيان بمثله، وقالت: إنّ النبي ﷺ تقوَّله، أنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ثم أنزل تعجيزاً أبلغ من ذلك، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾ فلما عجزوا، حطّهم عن هذا المقدار إلى مثل سورة من السور القصار، فقال جلّ ذكره: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ فأُفحموا عن الجواب، وتقطّعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب، والعناد، وآثروا سبْي الحريم، والأولاد، ولو قدروا على المعارضة لكان أهونَ كثيراً، وأبلغ في الحجة، وأشدَّ تأثيراً، هذا مع كونهم أرباب البلاغة، واللَّحن، وعنهم تؤخذ الفصاحة، واللَّسَن، فبلاغةُ القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز، والبيان، بل تجاوزت حدّ الإحسان،

والإجادة إلى حَيز الإرباء، والزيادة. هذا رسول الله ﷺ مع ما أُوتي من جوامع الكلم، واختُصَّ به من غرائب الحِكَم، إذا تأملت قوله ﷺ في صفة الجنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطّاً عن رتبة القرآن، وذلك في قوله عليه السلام: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» فأين ذلك من قوله عزّ وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. هذا أعدل وزناً، وأحسن تركيباً، وأعذب لفظاً، وأقلُّ حروفاً، على أنه لا يعتبر إلاّ في مقدار سورة، أو أطول آيةٍ؛ لأنَّ الكلام كُلَّما طال اتسع فيه مجال المتصرّف، وضاق المقال على القاصر المتكلّف، وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة، فإنّ الله سبحانه؛ إنّما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير، أبرع ما يكون في زمان النبيّ، الذي أراد إظهاره، فكان السحر في زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطِبُّ في زمان عيسى عليه السّلام، والفصاحةُ في زمان محمد ﷺ.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع، والمآب، ومنه نَرْتَجِي قبول المَتَاب، عن كل ما وقع في السُّطور، والكتاب، والحمدُ لله على ما حبانا، والشكر له على ما أولانا، وأسأله أن يُديم نفعه بين عباده، ويردَّ عنه جدل منكره، وجاحده،

ويطمس عنه عين كائده، وحاسده، والمرجو ممَّن اطَّلع عليه، وصرف وجهه إليه، بعين القبول، والرغبة لديه، أن يصلح خطأه، وسقطته، ويزيل زلله، وهفوته، بعد التأمُّل، والإمعان، لا بمجرّد النظر، والعِيان؛ لأنّ الإنسان مركز الجهل، والنسيان، لا سيما حليف البلاهة والتوان؛ ليكون ممن يدفع السيئة بالحسنة، لا ممنَّ يجازي الحسنة بالسيّئة، علَّمنا الله وإيّاكم علوم السالفين، وجنّبنا وإيّاكم بدع الخالفين، وأدّبنا وإيّاكم بآداب الأخيار، وأذاقنا وإيّاكم كُؤوس المعارف والأسرار.

اللهمّ ربّنا! يا ربّنا! تقبّل منّا أعمالنا، وأصلح أقوالنا وأفعالنا إنّك أنت السميع العليم! وتب علينا يا مولانا إنّك أنت التوّاب الرحيم! وجد علينا ببحار فيضك إنّك أنت الجواد الكريم! وصلى الله وسلَّم على سيّدنا ومولانا، محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين(١).

* * *

(١) قال مؤلّفهُ: لاح بدر تمامه، وفاح مِسْك ختامه، أوائل الساعة العاشرة، وقت السحر، من ليلة السبت المبارك، ليلة عيد الفطر الليلة الأُولى، من شهر شوال من شهور سنة: ألفٍ، وأربع مائة، وسبع عشرة من الهجرة النبويّة، على صاحبها أفضلُ الصلاة، وأزكى التحيّة، آمين آمين، وسلامٌ على المرسلين وجميع الأنبياء، والملائكة المقرّبين، والحمد لله ربّ العالمين.

تمَّ تصحيح هذه النسخة بيد مؤلفه قبيل العشاء من الليلة الخامسة من شهر ربيع الآخر في تاريخ ٥/٤/١٤٢٠ هـ.

شعرٌ

وَمـا مِـن كـاتِـبٍ إلاّ سَـيْـفَـنـى   وَيَـبْـقَـى الـدهـرَ مـا كَـتَـبَـتْ يَـدَاهُ
فـلا تـكْـتُـب بـكـفّـكَ غَـيْـرَ شـيء   يَـسُـرُّكَ فـي الـقِـيـامَـةِ أن تـرَاهُ

آخرُ

أَجَلُّ ما كَسَبَتْ يَدُ الفتى قَلَمٌ   وخَيْرُ ما جمعَتْ يداه الكتب

إلى هنا جفَّت الأقلام، وكلَّت اللِّجام بيد الفقير إلى رحمة ربه القدير، سُمّي محمد الأمين، الهرري، نزيل مكة المكرّمة، جوار الحرم الشريف، أدام الله سبحانه شرفها، وشرَّف من شرَّفها، من جميع الخَدَمِ، والزائرين، آمين يا ربّ العالمين.

* * *

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة
محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي
المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة
الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي
خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة

المجلد الثاني

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

الـصَّـبْـرُ مـفـتـاحُ مَـا يُـرَجَّـى ... وكُـلُّ خَـيْـرٍ بِـهِ يَـكُـونُ
وَرُبَّـمـا نِـيْـلَ بِـاصْـطِـبَـارٍ ... مَـا قِـيْـل هَـيْـهَـاتَ لا يَـكُـونُ

ومِنْ كلام الإمام الشافعيّ ـ رحمه الله تعالى ـ:

إنَّـمـا الـنَّـفْـسُ كـالـزُّجَـاجَـةِ والـعِـلْـ ... ـمُ سِـرَاجٌ وحِـكْـمَـةُ الله زَيْـتُ
فَـإِذَا أَبْـصَـرَتْ فَـإِنَّـكَ حَـيٌّ ... وَإِذَا أَظْـلَـمَـتْ فَـإِنَّـكَ مَـيْـتُ

وقال ابنُ السيد:

أخـو الـعِـلْـم حـيٌّ خـالِـدٌ بَـعْـدَ مَـوْتِـهِ ... وَأَوْصَـالُـه تَـحْـتَ الـتُّـراب رمِـيـمُ
وَذُو الجَهْلِ مَيْتٌ وَهُوَ ماشٍ عَلَى الثَّرَى ... يُـظَـنُّ مِـنَ الأحْـيَـاءِ وَهُـوَ عَـدِيْـمُ

آخرُ

تَـعـلَّـم يـا فَـتَـى فـالـجَـهْـلُ عـارُ ... وَلاَ يَـرْضَـى بِـهِ إلاَّ الـحِـمَـارُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن موعظة وشفاء لما في الصدور، وجعله منهلاً عذباً للورود والصدور، جمع فيه علوم الأوّلين والآخرين، فلا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين. والصلاة والسلام على من أُوحي إليه ذلك القرآن، من لوح الوجوب والأمر والشان، سيدنا محمد، الذي أجرى من مسجله ما يحاكي السلسبيل والرحيق، وأفحم ببلاغته كُلَّ متكلّم مِنطيق، وفسَّر الآيات في الأنفس والآفاق، على مراد الله الملك الخلاّق، وعلى آله وأصحابه المقتبسين من مشكاة أنواره، المغترفين بحار أسراره، ومن تبعهم بإحسان ممَّن تخلَّق بالقرآن في كُلّ آنٍ وزمانٍ، صلاة وسلاماً دائمين بدوام المدى والأوان.

أمَّا بعد: فيقول العُبَيْد المعترف بذنبه وخَطاه، المنادي لربه في عفوه وعطاه، الراجي في إسبال سجاف النَّدى عليه، المناجي في إرسال رسول الهدى إليه، حفظه الله سبحانه وأخلاَّءه، وأعاذه وإيّاهم من الشيطان الرجيم، وجعل يومه خيراً من أمسه إلى الإياس من حياة نفسه، سميُّ محمد الأمين الهرريُّ.

إنّي لمّا فرغْتُ من تفسير المجلّد الأوّل على الحزب الأوّل من القرآن الكريم.. عزمتُ إن شاء الله تعالى على الشروع في المجلّد الثاني على الحزب الثاني، وقد قصدت أن أخُصَّ كلَّ حزب من الأحزاب الستِّين بمجلَّدٍ، فيكون الكتاب ستين مجلّداً، ولكن ما أدري ما سيفعل بي ربّي، وإنْ كان علم التفسير لا يقحم في معاركه كُلُّ ذمير، وإن كان أسداً، ولا يحمل لواءه كُلُّ أميرٍ، وإن مات حسداً، وذلك أظهر من أن يورد عليه دليلٌ، كالنَّيرين لغير كليلٍ، ومع خطر هذا الأمر فالأمد قصير، وفي العبد تقصيرٌ، وكَمْ ترى مِنْ تَحْرِيرٍ كاملٍ في التحرير

والتقرير، قد أصابه سهم القضاء قبل بلوغ الأمل، وذلك بحلول ريب المنون، والأجل، أو بتطاول أيدي الزمان، فإنَّ الدنيا لا تصفو لشاربٍ، وإن كانت ماء الحيوان، وأيُّ وجودٍ لا ينسج عليه عناكب العاهات، وأيُّ نعيم لا يكدِّره الدهر، هيهات هيهات.

اللهم كما وفَّقتني في الأوَّل خيراً كثيراً؛ فيسِّر لي الأمر تيسيراً، واجعل رقيمي هذا سبباً للفوز بجنّات النعيم، بحقِّ كتابك الكريم، فلك الحمد في الأولى والعُقبىٰ على عنايتك الكبرى، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

والله أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر تعنُّت اليهود، وعدم انقيادهم لأمر الله تعالى ومجادلتهم للأنبياء.. أردف ذلك بذكر بعض قبائحهم التي ارتكبوها، كتحريف كلام الله تعالى، وادعائهم بأنّهم أحباب الله، وأنّ النار لن تمسَّهم إلاّ أيّاماً معدودةً، وبدأ ذلك بتيئيس المؤمنين من إيمانهم؛ لأنّهم فُطِروا على الضلال، وجُبِلوا على العناد.

قال أبو حيان: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ...﴾ الآية، مناسبة ارتباط هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله تعالى لمَّا بيَّن أمر الفرقة الضالّة التي حرَّفت كتاب الله، وهم قد عقلوه وعلموا بسوء مرتكبهم، ثُمَّ بيَّن أمر الفرقة الثانية المنافقين، وأمر الثالثة المجادلة.. أخذ يُبيِّن أمر الفرقة الرابعة، وهي العامَّة وهي التي طريقها التقليد وقبول ما يقال لهم، قال أبو العالية، ومجاهد، وغيرهما: ومن هؤلاء

اليهود المذكورون، فالآية مُنبِّهة على عَامَّتِهم وأتباعِهم؛ أي: إنَّهم لا يُطْمَعُ إيمانُهم. انتهى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآية، نزلت في الأنصار[١]، كانوا حلفاء لليهود، وبينهم جوارٌ ورضاعةٌ، وكانوا يودُّون لو أسلموا، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا...﴾ الآية، سبب نزولها[٢]: ما أخرجه ابن جرير، عن السُّدّيّ قال: نزلت في ناسٍ من اليهود آمنوا ثُمَّ نافقوا، وكانوا يأتون المؤمنين من العرب بما تحدَّثُوا به، فقال بعضهم لبعض: أتحدِّثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليقولوا: نحن أحبُّ إلى الله منكم وأكرم على الله منكم، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس قال: نزلت في أحبار اليهود، وجدوا صفة النبي ﷺ، مكتوبةً في التوراة: أَكْحَلُ أَعْيَنُ، رَبْعَةٌ، جَعْدُ الشعر، حَسَنُ الوجه، فَمَسَحُوا ذلك حسداً وبغياً، وقالوا: نجده طويلاً، أزرق، سَبِطَ الشعرِ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ...﴾ الآية، سبب نزولها[٣]: ما أخرجه ابن جرير من طريق الضحاك، عن ابن عباس قالوا: لن ندخل النار إلاّ تَحِلَّة القسم الأيام التي عبدنا فيها العجل أربعين ليلةً، فإذا انقضت انقطع عنّا العذاب، فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) لباب النقول.
(٣) لباب النقول.

أنّه[1] لمَّا كان النبي ﷺ، وأصحابه شديدي الحرص على دخول اليهود في ساحة الدين الجديد، طامعين في انضوائهم تحت لوائه؛ لأنَّ دينهم أقرب الأديان إلى دينهم، في تعاليمهم، ومبادئه، وأغراضه، فهم شركوهم في الاعتقاد بالتوحيد، والتصديق بالبعث والنشور، وكتابهم مصدّقٌ لما معهم.

قصَّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات على المؤمنين من أنبائهم، ما أزال به أَطْماعهم وإياسهم منِ إيمانهم، بذكر ما يحدث من أسلافهم مع نبيِّهم موسى عليه السلام بَيْنَ آنٍ وآخر، من تمرُّدٍ وعنادٍ، وجحود وإنكار، فتأتيهم الآية تِلْو الآية، ويحلُّ بهم من العقاب ما هم له أهلٌ، فيطلبون من موسى أن يدعو الله، ليرفع عنهم العذاب ويستجيبوا لدعوته، حتى إذا ما رفعه عنهم عادوا سيرتهم الأولى معاندين جاحدين، وقد بلغ من عنادهم أن قالوا له: لا نصدِّق بك، ولا نطيع أوامرك حتى نسمع كلام الله، ومناجاته إيّاك، فاختار موسى بأمر الله تعالى، سبعين رجلاً منهم لسماع الوحي، ومصاحبته حيث يناجي ربَّه، فسمعوا كلامه بطريقٍ نحن لا نعرفها، ولا ندرك كنهها، واستيقنوا مناجاته ربَّه، وسمعوا أوامره ونواهيه.

ثمَّ كان منهم أن حرَّفوا كلام الله الذي حضروا وحيه، وصرفوه عن وجهه بالتأويل والتحريف، وهذا مثبتٌ عندهم في التوراة، وهي كتابهم المقدَّس. فلا عجب إذاً في إعراض الحاضرين عن هدى الله الذي جئتَ به، فالمعارضة والاستكبار دأبهم، ورثوهما من أسلافهم الذين كانوا يحرِّفون، ويبدّلون، ويكابرون وهم يشاهدون الدلائل الحسّية تَتْرى بين يدي موسى عليه السلام، فأَحْرِ بهم أن يَجْحَدُوا ديناً دلائله عقليَّةٌ، وآياته الكبرى معنويَّةٌ، وهو القرآن الكريم، بِمَا اشتمل عليه من تشريعٍ فيه سهولةٌ وتيسيرٌ للناس، وفيه فصاحةٌ أعجزت فُصحاءَ العرب عن محاكاته، لجأُوا إلى السيف والسِّنان، بعد أن أعجزتهم الحجَّة والبرهان، ثم ذكر حالاً أخرى لعلمائهم هي: أنَّ علماءهم وقعوا في الحيرة

(١) المراغي.

والاضطراب حين مجيء الدين الجديد، أيتَّبعونه؟ ولكن رُبّما خذله أتباعه، أم يحتفظون بالقديم، ولكن رُبّما كسدت سوقه وقلّ أنصاره، وقالوا: من الخير كلِ الخير أن نُوافق كُلَّ حزبٍ نَخْلُو به، ونعَتِذرَ إلى الحزبِ الآخر إذا عَرَف ما كان منَّا، حتى يَتبيَّنَ اتّجاهُ ريحِ السفينة.

أمَّا عامَّتهم: فلا علم لهم بشيء من الكتاب، وما عندهم من الدين إلاّ ظُنونٌ أخذوها عن أسلافهم، دون أن يكون لديهم دليلٌ على صحتها أو فسادها، ومثل هذا لا يسمَّى عِلْماً، إنّما العلم ما كان عن حجّة وبرهان، ولا يقبل الله إلاّ العلم الصحيح في عقائد الأديان.

التفسير وأوجه القراءة

والخطاب في قوله[1]: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ للنبي ﷺ وأصحابه، وكان ﷺ، شديد الحرص على الدعاء إلى الحق، وقبول الناس الإيمانَ منه، وكان يضيق صدره بسبب عنادهم وتمرّدهم، فقصَّ الله تعالى عليه أخبار بني إسرائيل في العناد العظيم مع نبيّهم، مع مشاهدة الآيات الباهرة منه؛ تسليةً لرسوله ﷺ فيما يظهر من أهل الكتاب، في زمانه، من قلّة القبول، والاستجابة. والطَّمَعُ: تَعلُّقُ النفس بإدراك ما تُحِبُّ تعلُّقاً قويّاً، وهو أشدُّ من الرجاء. والهمزة فيه للاستفهام الإنكاريِّ الاستبعاديِّ، وهو حمل المخاطب على الإنكار، بأمر علم عنده نفيه مع استبعاده؛ أي: لإنكار الواقع واستبعاده، كما في قولك: أتضرب أباك، لا لإنكار الوقوع، كما في قولك: أأضرب أبي، داخلةٌ على محذوف يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير؛ أي: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، فتطمعون بعد ذلك في إيمانهم. ومآل المعنى: أي: أَبَعْدَ أَنْ علمتم تفاصيلَ شؤونِهم المُؤْيِسَة، من إيمانهم تطمعون في: ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ جميع اليهود أو علماؤهم، فإنّهم متماثلون في شدّة الشَّكيمة والأخلاق الذميمة، لا يتأتّى من

---

(١) روح البيان.

أخلافِهم إلاّ مِثْلُ ما أتى من أسلافهم، فلا تحزنوا على تكذيبهم، واللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لتضمين معنى الاستجابة؛ أي: أتطمعون في إيمانهم مستجيبين لكم، أو للتعليل؛ أي: في أن يُحْدِثُوا الإيمانَ لأجل دعوتكم إيّاهم، والمعنى[١]: أي: أتعلمون وتسمعون أخبارهم، فتطمعون، وترجون أيُّها النبيُّ والمؤمنون في أن يؤمن هؤلاء اليهود بواسطتكم، ويستجيبوا لكم، ويصدِّقوا بما جاء به محمدٌ ﷺ، ﴿و﴾ الحال أنَّه ﴿قد كان فريق﴾ كائنٌ ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: طائفةٌ ممن سلف من اليهود. والفريق: اسم جمع، لا واحد له من لفظه، كالرهط؛ أي: والحال أنَّ جماعة منهم، وهم أحبارهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يسمعون كلام الله في التوراة من موسى عليه السلام، ويقرؤونه بأنفسهم ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾؛ أي[٢]: يغيِّرونه ويبدِّلون معناه؛ أي: يغيِّرون ما فيها من الأحكام، كتغييرهم صفة محمد ﷺ وآية الرجم. وقيل: كان قومٌ من السبعين المختارين، سمعوا كلام الله حين كلَّم موسى بالطور، وما أمر به ونهى عنه، ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره: (إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم أن لا تفعلوا فلا بأس).

قال في «التيسير»: الصحيحُ أنهم لم يسمعوا كلام الله بلا واسطةٍ، فإنَّ ذلك كان لموسى عليه السلام على الخصوص، لم يشركه فيه غيره في الدنيا. ومعنى يسمعون كلام الله؛ أي: التوراة من موسى بقراءته، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾؛ أي: من بعدما فهموه وضبطوه بعقولهم، ولم يبق لهم شبهةٌ في صحته؛ أي: يحرِّفونه من بعد تعقُّلهم، ومعرفتهم تأويله ومعناه بعقولهم؛ أي: لم يفعلوا[٣] ذلك عن خطأ ونسيان، بل فعلوه عن تعمُّد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنّهم يعلمون أنّهم مبطلون، ومفترون كاذبون، وذلك كنعت محمد ﷺ، فكانت صفته ﷺ في التوراة: أكحل العين، ربعة القامة، جعد الشعر، حسن

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

(٣) العمدة.

الوجه، فكتبوا بدلها: طويلاً، أزرق العين، سبط الشعر، وكآية الرَّجْم بدَّلوها بالجَلْد، وغير ذلك.

يقول سبحانه: كيف يؤمن هؤلاء وهم يقلّدون أولئك الآباء، فهم من أهل السوء الذين مضوا بالعناد، فلا تطمعوا في الإيمان منهم، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟﴾ أي اليهود ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أصحاب محمد ﷺ ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: منافقوهم ﴿ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم، وأنَّ محمداً هو الرسول المُبشَّر به؛ أي: إذا رأى منافقوا اليهود المؤمنين قالوا لهم: آمنَّا وصدَّقنا بما جاء به محمد ﷺ، وبأنَّكم على الحق، وأنّ رسولكم هو المُبشَّر به في التوراة، وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَقُوا۟﴾ من لقى الثلاثي. وقرأ ابن السميقع: ﴿لاقَوا﴾ من باب فاعل الرباعي الذي هو بمعنى المجرد، فمعنى القراءتين هنا واحد.

قال أبو حيان: ويحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفةً مُنْبئةً عن نوع آخر من قبائح اليهود، الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ، وكاشفةً عمَّا أكنُّوه من النفاق، ويحتمل أن تكون جملةً حاليةً معطوفةً على قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ الآية؛ أي: كيف يطمع في إيمانهم، وقد كان من أسلافهم من يحرِّف كلام الله، وهؤلاء سالكوا طريقتهم، وهم في أنفسهم منافقون يظهرون موافقتكم إذا لقوكم، وأنَّهم منكم، وهم في الباطن كفارٌ، فمن جمع بين هاتين الحالتين، من اقتدائهم بأسلافهم الضُّلاَّل، ومنافقتهم للمؤمنين، لا يطمع في إيمانهم، والذين آمنوا هنا هم: أبو بكر، وعمر، وجماعةٌ من المؤمنين. قاله جمهور المفسّرين، وقال بعضهم: المؤمنون هنا: جماعة من اليهود، آمنوا وأخلصوا في إيمانهم، والضمير في: ﴿لَقُوا۟﴾ لجماعةٍ من اليهود غير معيَّنة، باقين على دينهم، أو لجماعةٍ منهم أسلموا ثُم نافقوا، أو لليهود الذين أمرهم رؤساؤهم من بني قريظة أن يدخلوا المدينة، ويتجسَّسُوا أخبار النبي ﷺ، قالوا: ادخلوا المدينة، وأظهروا الإيمان، فإنّه نهى أن يدخل المدينة إلا مؤمنٌ. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَإِذَا خَلَا﴾ أي: إذا مضى وذهب ورجع ﴿بَعْضُهُمْ﴾ الذين نافقوا؛ أي: إذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين، ورجعوا من عندهم متوجِّهين ومنضمِّين ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: إلى رؤسائهم الذين لم ينافقوا، بحيث لم يبق معهم غيرهم؛ أي: رجع(١) هؤلاء المنافقون من عند المؤمنين إلى رؤسائهم الذين لم ينافقوا، ولم يؤمنوا ظاهراً، ككعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، وغيرهما.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال الرؤساء للمنافقين الذين جاءوا من عند المؤمنين موبِّخين، وعاتبين لهم على ما صنعوا ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أي: أتحدّثون أيّها المنافقون، وتخبرون لأصحاب محمد ﷺ، والهمزة للاستفهام الإنكاري المضمَّن للنهي؛ أي: لا تحدِّثوهم، يعني: المؤمنين. ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، وبيَّنه لكم في التوراة خاصّةً، من نعت النبيِّ المَبشَّر به في التوراة، والتعبير عنه بالفتح؛ للإيذان بأنَّه سرّ مكنون، وبابٌ مُغْلَقٌ لا يقف عليه أحدٌ، واللام في قوله: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾ متعلقة بالتحديث(٢)، لا بالفتح كما توهَّمه بعضهم، والضمير في به، لما فتح الله؛ أي: ليجادلوكم ويخاصموكم بما أخبرتموهم، مما فتح الله عليكم، ويحتجُّوا عليكم به، ويبكتوكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ في الآخرة، أو في حكمه وكتابه، كما يقال: هو عند الله كذا؛ أي: في كتابه وشرعه، والمحدِّثون به، وإن لم يحوموا حول ذلك الغرض، وهو المحاجَّة، لكن فعلهم ذلك لمَّا كان مستتبعاً له ألبتة، جُعلوا فاعلين للغرض المذكور إظهاراً لكمال سخافة عقلهم وركاكة آرائهم؛ أي(٣): أتحدِّثون أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليكم في التوراة.

وبيَّنه لكم، ليخاصموكم ويحتجّوا عليكم بإخباركم، فيقولوا لكم: قد أقررتم أنّه نبيٌّ حقٌّ في كتابكم، فلم لا تتبعونه، وذلك: أنَّ اليهود قالوا لأهل المدينة، حين مشاورتهم في اتّباع محمد ﷺ: آمنوا به، فإنّه نبيّ حقّ، ثُمَّ لام بعضهم بعضاً، فقالوا: أتحدِّثونهم بما فتح الله عليكم، لتكون لهم الحجَّة عليكم، عند

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن بتصرف.

ربّكم في الدنيا والآخرة. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخيّ العتابيّ، داخلةٌ على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تلاحظون فلا تعقلون الخطأ الفاحش، وهو أنَّ ذلك حجّة لهم عليكم، فالمنكَر عدم التعقُّل ابتداءً، أو تفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه، حتى تحتاجون إلى التنبيه عليه، فالمُنْكر حينئذٍ عدم التعقّل بعد الفعل.

قال أبو حيان: قوله: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿مَا﴾[1] موصولة، والضمير العائد عليها محذوف، تقديره: بما فتحه الله عليكم، وقد جوَّزوا في ﴿مَا﴾: أن تكون نكرةً موصوفة، وأن تكون مصدريَّة؛ أي: بفتح الله عليكم، والوجه الأوَّل هو الأولى، والذي تحدثوا به هو ما تكلَّم به جماعةٌ من اليهود من صفة رسول الله ﷺ، قاله أبو العالية وقتادة، أو عُذِّب به أسلافهم، قاله: السدّيُّ، وقال مجاهد: إنّ رسول الله ﷺ، قال لبني قريظة: «يا إخوة الخنازير والقردة»، فقال الأحبار لأتباعهم: ما عُرِفَ هذا إلاّ عندكم.

وقال ابن زيد: كانوا إذا سئلوا عن شيء قالوا: في التوراة كذا وكذا، فكره ذلك أحبارهم، ونهوا عن الخلوة عنه. فعلى ما قاله أبو العالية: يكون الفتح بمعنى: الإعلام والإذكار؛ أي: أتحدِّثونهم بما أعلمكم الله به من صفة نبيّهم. ورواه الضحاك، عن ابن عباس. وعلى قول السدي يكون بمعنى: الحكم والقضاء؛ أي: أتحدِّثونهم بما حكم الله به على أسلافكم وقضاه من تعذيبهم. وعلى قول ابن زيد: يكون بمعنى: الإنزال؛ أي: أتحدِّثونهم بما أنزل الله عليكم في التوراة. وقال الكَلْبِيُّ: المعنى: بما قضى الله عليكم، وهو راجع لمعنى الإنزال. وقيل المعنى: بما بيَّن الله لكم من أمر محمد ﷺ وصفته، وشريعته، وما دعاكم إليه من الإيمان به، وأخذ العهود على أنبيائكم بتصديقه ونصرته.

وقيل المعنى: بما مَنَّ الله عليكم من النصر على عدوّكم، ومن تأويل كتابكم. واللام في قوله: ﴿ليحاجوكم﴾ لام كي، والنصب بأن مضمرةٍ بعدها،

---

(١) البحر المحيط.

وهي جائزة الإضمار، إلاّ إن جاء بعدها لا، فيجب إظهارها، وهي متعلّقةٌ بقوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ فهي لام جرٍّ، وتُسمَّى لام كي، بمعنى: أنّها للسبب، كما أنَّ كي للسبب، ولا يعنون أنَّ النصب بعدها بإضمار كي، وإن كان يصحّ التصريح بكي، فتقول: لكي أكرمك؛ لأنّ الذي يضمر إنَّما هو أنْ، لا كَيْ، وقد أجاز ابن كيسان، والسيرافي: أن يكون المضمر بعد هذه اللام كي، أو أن، وذهب الكوفيون: إلى أنَّ النصب بعد هذه اللام؛ إنّما هو بها نفسها، وأنَّ ما يظهر بعدها من كيْ، وأن؛ إنَّما ذلك على سبيل التأكيد، وتحرير الكلام في ذلك مذكورٌ في مبسوطات كتب النحو فراجعها. انتهى. وذهب بعض المعربين: إلى أنَّ اللام تتعلَّق بقوله: فتح، وليس بظاهرٍ؛ لأنَّ المُحَاجَّة ليست علةً للفتح، إنّما المحاجة ناشئةٌ عن التحديث، والضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ[1] إلى ما في قوله: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ﴾، وبهذا يبعد قول من ذهب إلى أنَّ ﴿مَا﴾ مصدريّة؛ لأنَّ المصدريّة لا يعود عليها ضمير، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ معمولٌ لقوله ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ والمعنى: ليحاجُّوكم به في الآخرة، فكنى بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ عن اجتماعهم بهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، وقيل: معنى ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ في ربّكم، فيكونون أحقَّ به، فتكون عند بمعنى: في، وقيل: هو على حذف مضاف؛ أي: ليحاجُّوكم عند ذكر ربّكم، وقيل معناه: أنّه جعل المحاجَّة في كتابكم محاجَّةً عند الله، ألا تراك تقول هو في كتاب الله كذا، وهو عند الله كذا بمعنى واحدٌ، وقيل: هو معمولٌ لقوله: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ عند ربّكم؛ أي: من عند ربّكم ليحاجُّوكم، وهو بعث النبي ﷺ، وأخذ ميثاقهم بتصديقه. قال ابن أبي الفضل: وهذا القول هو الصحيح؛ لأنّ الاحتجاج عليهم هو بما كان في الدنيا. انتهى.

والأولى: حمل اللفظ على ظاهره من غير تقديمٍ ولا تأخيرٍ إذا أمكن ذلك، وقد أمكن حمل قوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ على بعض المعاني التي ذكرنا.

---

(١) البحر المحيط.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: ظاهره أنّه مندرج تحت قول من قال: أتحدّثونهم بما يكون حجّةً لهم عليكم؟ أفلا تعقلون! فلا تحدّثونهم بذلك. وقيل: هو خطابٌ من الله للمؤمنين؛ أي: أفلا تعقلون! أنَّ هؤلاء اليهود لا يؤمنون، وهم على هذه الصفات الذميمة من اتّباعِ أسلافهم المحَرِّفين كلامَ الله، والتقليدِ لهم فيما حرَّفوه، وتظاهرهم بالنفاق، وغير ذلك مما نُعِيَ عليهم ارتكابُهُ.

وفي «الخازن»[1]: نزلت هذه الآية في اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: ـ (إنّ منافقي اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لهم: آمنّا بالذي آمنتم به، وإنّ صاحبكم صادقٌ، وقوله حق، وإنّا نجد نعته في كتابنا)، قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: اللائمون، أو المنافقون، أو كلاهما ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾؛ أي: ما يخفون من التكذيب بمحمّد ﷺ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: وما يظهرون من التصديق له ﷺ، أو من إخفاء ما فتح الله عليهم وإظهار غيره، فيرتدعوا عن ذلك. والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ للاستفهام التقريري، داخلةٌ على مقدّر ينساق إليه الذهن. والواو عاطفة ما بعدها على ذلك المقدَّر[2]، وضمير الفاعل للموبِّخين، والتقدير: أيلومونهم على التحديث بما ذكر مخافة المحاجة، ولا يعلمون أنَّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؛ أي: بجميع ما يسرّونه وما يعلنونه، ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان، فحينئذٍ يظهر الله للمؤمنين ما أرادوا إخفاءه بواسطة الوحي إلى النبي ﷺ، فتحصل المحاجَّة والتبكيت، كما وقع في آية الرجم، وتحريم بعض المحرّمات عليهم، فأيُّ فائدةٍ في اللوم والعتاب؟

قال أبو حيان: قوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ توبيخ من الله تعالى لهم[3]؛ أي: إذا كان علم الله محيطاً بجميع أفعالهم، وهم عالمون بذلك، فكيف يسوغ لهم أن

---

(١) الخازن.

(٢) جمل.

ينافقوا، ويتظاهروا للمؤمنين بما يعلم الله منهم خلافه؟ فلا يجامع حالة نفاقهم بحالة علمهم بأنّ الله عالم بذلك، والأولى حمل ما يسرّون وما يعلنون على العموم إذ هو ظاهر اللفظ. وقيل: الذي أسرُّوه الكفر، والذي أعلنوه الإيمان. وقيل: العداوة والصداقة. وقيل: قولهم لشياطينهم ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وقولهم للمؤمنين ﴿ءَامَنَّا﴾ وقيل: صفة النبي ﷺ، وتغيير صفته إلى صفة أخرى حتى لا تقوم عليهم الحُجّة. وقرأ ابن محيصن[1] (أو لا تعلمون) بالتاء، قالوا: فيكون ذلك خطاباً للمؤمنين، وفيه تنبيه لهم على جهلهم بعالم السر والعلانية، ويحتمل أن يكون خطاباً لهم، وفائدته: التنبيه على سماع ما يأتي بعد، ثُمَّ أعرض عن خطابهم، وأعاد الضمير إلى الغيبة إهمالاً لهم، فيكون ذلك من باب الالتفات، ويكون حكمته في الحالتين ما ذكرناه.

﴿وَمِنْهُمْ﴾؛ أي: ومن اليهود رهْطٌ ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يحسنون الكتْب، ولا يقدرون على القراءة جمع أمّيّ، والأُمّيُّ: من لا يكتب ولا يقرأ، منسوبٌ إلى أمّة العرب، وهي الأمة الخالية عن العلم والقراءة، فاستعير لمن لا يعرف الكتابة والقراءة أو إلى الأُمّ؛ لأنّه على حالة ولادة أُمّه، وظاهر الكلام أنّها نزلت في اليهود المذكورين في الآية التي قبل هذه الآية، قاله ابن عباس. وقيل: في المجوس، قاله عليُّ بن أبي طالب. وقيل: في اليهود والمنافقين، وقال عكرمة، والضحاك: في نصارى العرب، فإنَّهم كانوا لا يحسنون الكتابة. وقيل: في قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها، فصاروا أُمّيِّين؛ لجحودهم الكتاب، فصاروا بمنزلة من لا يحسن شيئاً، والقول الأوّل هو الأظهر؛ لأنَّ سياق الكلام إنّما هو مع اليهود، فالضمير لهم، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة: ﴿أُمِيُّونَ﴾ بتخفيف الميم؛ أي: ومن[2] اليهود جهلةٌ لا يكتبون ولا يقرؤون، ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: لا يعرفون التوراة بكتابةٍ ولا قراءةٍ، وطريقتهم التقليد،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾؛ أي[١]: إلا ما هم عليه من أمانيَّ وأكاذيب، وأحاديث مُختلقَةٍ يسمعونها من كبرائهم، والأمانيُّ جمع أُمنيَّةٍ بتشديد الياء فيهما وبتخفيفها فيهما، وهي في الأصل: ما يُقدِّره الإنسان في نفسه من مُنًى إذا قدَّر، ولذلك تطلق على الكذب، وعلى ما يتمنَّى، وعلى ما يقرأ، والاستثناء[٢] فيه منقطعٌ؛ لأنّها ليست من جنس الكتاب؛ أي: لكن الشهوات الباطلة ثابتةٌ عندهم، وهي المفتريات من تغيير صفة محمد ﷺ، وأنَّهم لا يعذَّبون إلاّ أيامّاً معدودة، وأنَّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنّ الله لا يؤاخذهم بخطاياهم ويرحمهم، ولا حُجَّة لهم في ذلك، والمعنى؛ أي: لكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المحرّفين، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم، من أنّ الجنّة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً، إلى غير ذلك. وقيل المعنى: إلاّ ما يقرؤون قراءة عارية من معرفة المعنى، وتقدّم لك قريباً أنّ الاستثناء هنا منقطع؛ لأنّ الأماني ليست من جنس الكتاب، ولا مندرجة تحت مدلوله، وهو[٣] أحد قسمي الاستثناء المنقطع، وهو الذي يتوجَّهُ عليه العامل. ألا ترى أنّه لوقيل: لا يعلمون إلاّ أمانّي لكان الكلام مستقيماً، وهذا النوع من الاستثناء يجوز فيه وجهان:

أحدهما: النصب على الاستثناء وهي لغة أهل الحجاز.

والوجه الثاني: الاتباع على البدل بشرط التأخُّر وهي لغة تميم، فنصب أمانيّ هنا يصحُّ من الوجهين.

والمعنى: إلاّ ما هم عليه من أمانيِّهم، وأمانيُّهم أنّ الله يعفو عنهم، ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، إلى غير ذلك مما مرّ، أو ما يُمنِّيهم أحبارهم من أنَّ النار لا تمسُّهم، إلاّ أيّاماً معدودة، أو لا يعلمون إلاّ أكاذيب مختلقةً سمعوها من علمائهم نقلوها على التقليد، قاله ابن عباس، ومجاهد، واختاره

---

(١) العمدة.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

(٤) البحر المحيط.

الفرَّاء. وقيل معناه: لا يعلمون إلاّ تلاوةً؛ أي: لا يعلمون فقه الكتاب، ومعناه: إنّما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم. قال أبو مسلم: حمله على تمنّي القلب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَمَانِيَّ﴾ بالتشديد. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج، وابن جمَّاز عن نافع، وهارون عن أبي عمرو: ﴿أَمَانِيَ﴾ بالتخفيف، جمعه على أفاعل، ولم يعتدَّ بحرف المدّ الذي في المفرد. قال أبو حاتم: كُلُّ ما جاء من هذا النحو واحده مشددٌ فلك فيه التشديد والتخفيف، مثل: أثافي، وأغاني، وأماني، ونحوها. قال الأخفش: هذا كما يقال: في جمع مفتاح مفاتيح ومفاتح. وقال النحَّاس: الحذف في المعتل أكثر، كما قال:

وَهَلْ رَجَّعَ التَّسْلِيمَ أَوْ يَكْشِفُ العَمَى ... ثَلاثُ الأثافِي والرُّسُومُ البَلاقِعُ

﴿وَإِنْ هُمْ﴾[2]؛ أي: وما هم في جحد نبوّة محمد ﷺ، وغيره ممَّا يختلقونه ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: إلاّ ظانُّون ظنّاً وتوهُّماً لا أصل له فيجحدون نبوته بالظنّ، وليسوا على يقين، إلاّ ما سمعوا من المحرِّفين أحبارهم، والمعنى؛ أي: ما هم إلاّ قومٌ قصارى أمرهم الظنُّ والتقليد من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم، فأنَّى يُرْجَى منهم الإيمان المُؤسَّسُ على قواعد اليقين.

قال أبو حيان: و﴿إِنْ﴾[3] هنا هي: النافية بمعنى ما، و﴿هُمْ﴾ مرفوع بالابتداء، و﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ في موضع الخبر وهو من الاستثناء المفرَّغ، وإذا كانت إن نافية فدخلت على المبتدأ والخبر لم تعمل عمل ما الحجازيّة؛ لانتقاض نفيها هنا بإلا الاستثنائيّة، ومن أجاز شَرَطَ نَفْيَ الخبرِ وتأخيرَهُ، والصحيح أنّه لا يجوز إعمالها؛ لأنّه لم يحفظ من ذلك إلا بيتٌ نادرٌ، وهو قوله:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

إنْ هُــو مُــسْــتَــوْلِــيــاً عَــلَــى أحــدِ   إلاَّ عَــلَــى أضْــعَــفِ الــمَــجَــانِــيــن

وأتى بالخبر فعلاً مضارعاً ولم يأت باسم الفاعل؛ لأنّه يدلُّ على حدوث الظنّ وتجدده لهم شيئاً فشيئاً، فليسوا ثابتين على ظنّ واحد، بل يتجدَّد لهم ظنونٌ دالةٌ على اضطراب عقائدهم، واختلاف أهوائهم.

وفي هذه الآية[1]: دليلٌ على أنَّ المعارف كسبيَّةٌ، وعلى بطلان التقليد، وعلى أنّ المغترَّ بإضلال المُضِلّ مذمومٌ، وعلى أنَّ الاكتفاء بالظنّ في الأصول غير جائز، وعلى أنَّ القول بغير دليل باطلٌ، وعلى أنَّ ما تساوى وجوده وعدمه لا يجوز المصير إلى أحدهما إلاّ بدليل سمعيّ، وتمسَّك بها أيضاً منكروا القياس وخبر الواحد؛ لأنَّهما لا يفيدان العلم. ثُمَّ ذكر الله سبحانه وتعالى، جريمة هؤلاء الرؤساء المُضلين الذين أضلُّوا العوامَّ، فقال: ﴿فَوَيْلٌ﴾؛ أي: عذابٌ شديد، أو وادٍ في جهنّم، والويل كلمةٌ يقولها كُلُّ مَنْ وقع في هلكة بمعنى الدعاء على النفس بالعذاب؛ أي: عقوبةٌ عظيمةٌ وهلكةٌ شديدة، أو هو وادٍ في جهنّم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً، قبل أن يبلغ قعره، كما روي عن أبي سعيد الخدريِّ. وقال سعيد بن المسيّب إنّه وادٍ في جهنّم لو سُجّرت فيه جبال الدنيا، لذابت من شدّة حرّه، رواه الترمذي وغيره مرفوعاً. وهو مبتدأ خبره ما بعده، وسوَّغ الابتداء به مع كونه نكرة؛ ما فيه من معنى الدعاء، إذ الدعاء أحد المسوغات للابتداء بالنكرة، وهي تقارب ثلاثين مسوّغاً، كما هو مبسوط في كتب النحو؛ أي: فعذابٌ شديدٌ وعقوبةٌ عظيمة كائنة ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: يُحرِّفون التوراة عمَّا أنزلت عليه، ويكتبونه كتابةً مختلقةً من عند أنفسهم موافقةً لهواهم، وهم أحبار اليهود، وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدٌ؛ لأنَّ الكتابة لا تكون إلاّ بالأيدي؛ أو لأنّه يحتمل أن يأمر غيره بأن يكتب، فقال: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ لرفع هذه الشُّبهة، والمراد[2] بالذين يكتبون الكتابَ اليهودُ، وذلك أنَّ رؤساء اليهود خافوا ذهاب مآكلهم، وزوال رياستهم حين قدم النبيُّ ﷺ المدينة، فاحتالوا في تعويق سفلتهم عن

---

(١) البحر المحيط.   (٢) خازن وأبو سعود.

الإيمان به، فعمدوا إلى صفته في التوراة فغيَّرُوها، وكانت صفته فيها: حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، ربعةً؛ أي: متوسِّط القامة، فغيروا ذلك وكتبوا مكانه: طويلٌ أزرق العينين، سبط الشعر؛ أي: جعده، وكانوا إذا سألتهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا، فيجدونه مخالفاً لصفته ﷺ فيكذبونه. والكتابة معروفة ويقال: أوّل من كتب بالقلم إدريس عليه السلام. وقيل: آدم أبو البشر عليه السلام. وقيل: كتبوا في التوراة ما يدلُّ على خلاف صفة رسول الله ﷺ، وبثُّوها في سفهائهم، وفي العرب وأخفوا تلك النسخ التي كانت عندهم بغير تبديل، وصار سفهاؤهم ومن يأتيهم من مشركي العرب إذا سألوهم عن صفة رسول الله ﷺ يقولون: ما هو هذا الموصوف عندنا في التوراة المبدَّلة المغيَّرة، ويقرؤونها عليهم، ويقولون: هذه التوراة التي أنزلت من عند الله ليشتروا بها ثمناً قليلاً. وقيل: خاف ملوكهم على ملكهم إذا آمن الناس كُلُّهم، فجاؤوا إلى أحبار اليهود فجعلوا لهم عليهم وضائع ومآكل، وكشطوها من التوراة وكتبوا بأيديهم كتاباً، وحلَّلوا فيه ما اختاروا، وحرَّموا ما اختاروا.

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال أبو حيان: تأكيدٌ يَرْفَعُ توهُّمَ المجاز؛ لأنّ قولك: زيد يكتب، ظاهره أنّه يباشر الكتابة، ويحتمل أن يُنسب إليه على طريقة المجاز، ويكون آمراً بذلك، كما جاء في الحديث: (إن رسول الله ﷺ كتب)، وإنّما المعنى أمر بالكتابة؛ لأنّ الله تعالى قد أخبر أنّه النبيُّ الأمّيُّ، وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ونظير هذا التأكيد ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ و﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ وقوله:

نظَرْتَ فلم تَنْظُر بَعْينيك مَنْظراً

فهذه كلَّها أُتى بها؛ لتأكيد ما يقتضيه ظاهر اللفظ؛ ولرفع المجاز الذي كان يحتمله، وفي هذا التأكيد أيضاً تقبيحٌ لفعلهم إذ لم يكتفوا بأن يأمروا بالاختلاق والتغيير، حتى كانوا هم الذين تعاطوا ذلك بأنفسهم واجترحوه بأيديهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ لأتباعهم(1) وسفلتهم الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قُرىء لهم، ومعمول

القول هذه الجملة التي هي قوله: ﴿هَٰذَا﴾ المحرَّف هو الذي أنزل ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى في التوراة، وقوله: ﴿لِيَشْتَرُواْ﴾ علةٌ في القول وهي لام كي، وهي مكسورة؛ لأنّها حرف جرّ فيتعلَّق بيقولون. وبنو العنبر يفتحون لام كي، قاله مكّيٌّ في «إعراب القرآن» له، وقد أبعد من قال: إنّها متعلِّقة بالاستقرار، وقوله: ﴿بِهِۦ﴾ متعلّق بقوله: ﴿لِيَشْتَرُواْ﴾، والضمير عائد على الذي أشاروا إليه بقولهم: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو المكتوب المحرَّف؛ أي: يقولون هذا المحرَّف من عند الله، ليأخذوا لأنفسهم بمقابلة المحرف من سفلتهم، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: عوضاً يسيراً لا يُعْبأ به من الدنيا، وهو ما أخذوه من الرُّشَا في مقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل الزائغ. وإنّما عبَّر عن[1] المشترى الذي هو المقصود بالذات في عقد المعاوضة، بالثمن الذي هو وسيلةٌ فيه؛ إيذاناً بتعكيسهم، حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلة، والوسيلة مقصودة بالذات، وإنّما وصفه بالقلّة؛ إمّا لفنائه وعدم ثوابه، وإمّا لكونه حراماً؛ لأنّ الحرام لا بركة فيه، ولا يربو عند الله تعالى. كذا في «تفسير القرطبي».

وقد جمعوا[2] في هذا الفعل أنّهم ضلوا وأضلُّوا، وكذبوا على الله، وضمُّوا إلى ذلك حُبَّ الدنيا، وهذا الوعيد مرتَّب على كتابة الكتاب المحرَّف، وعلى إسناده إلى الله تعالى وكلاهما منكرٌ، والجمع بينهما أنكر، وهذا يدلُّ على تحريم أخذ المال على الباطل، وإن كان برضا المعطي ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾؛ أي: العقوبة العظيمة ثابتةٌ لهم ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: من أجل كتابهم إيّاه ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم﴾؛ أي: عذابٌ شديد حاصلٌ لهم ﴿مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: من أجل كسبهم وأخذهم الرشوة، وعملهم المعاصي، وأصل الكسب: الفعل لجر نفعٍ أو دفع ضرّ، ولهذا لا يوصف به سبحانه وتعالى.

وكتابتهم[3] مقدَّمةٌ نتيجتها كسب المال الحرام، فلذلك كرَّر الويل في كل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

واحد منهما؛ لئلاّ يتوهم أنَّ الوعيد هو على المجموع فقط، فكل واحد من هذين متوعَّد عليه بالهلاك، وظاهر الكسب هو ما أخذوه على تحريفهم الكتاب من الحرام، وهو الأليق بمساق الآية، وقيل المراد: بما يكسبون الأعمال السيّئة، والمعنى: فويلٌ لهم لأجل ما كتبته أيديهم من الكتاب المحرَّف، وويل لهم لأجل ما يصيبونه ويأخذونه من سفلتهم، ومن الرُّشا والحرام على تحريفهم.

وفي الآيات إشاراتٌ[1]:

الأولى: أنَّ علم الرجل، ويقينه، ومعرفته، ومكالمته مع الله لا يفيده الإيمان الحقيقيَّ، إلاَّ أن يتداركه الله سبحانه بفضله ورحمته، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ وأنَّ الله تعالى كلَّم إبليس وخاطبه بقوله: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وما أفاده ذلك الإيمانُ الحقيقيُّ، إذ لم يكن مؤيَّداً من الله بفضله ورحمته، ولم يبق على الإيمان بعد العيان، فكيف يؤمن بالبرهان.

والثانية: أنَّ العالم المعاند، والعاميَّ المُقلِّد سواءٌ في الضلال؛ لأنَّ العالم عليه أن يعمل بعلمه، وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكنٌ من العلم، وأنَّ الدين ليس بالتَّمَنِّي، فالذين ركنوا إلى التقليد المحض واغترُّوا بظنونٍ فاسدةٍ، وتخميناتٍ مبهمةٍ، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلاّ قراءتها دون معرفة معانيها، وإدراك أسرارها وحقائقها، وهذا حال أكثر أهل زماننا من مدّعي الإسلام بلا معرفة قواعده، وامتثال مأموراته واجتناب منهيّاته، فالمدَّعي والمُتمنِّي عاقبتهما خسرانٌ وضلالٌ، وحسرةٌ وندامة، ووبال وأنكال.

والثالثة: أنَّ من بدَّل، أو غيَّر، أو ابتدع في دين الله ما ليس منه فهو داخلٌ في الوعيد المذكور، وقد حذَّر رسول الله ﷺ أمته عن ذلك؛ لما علم ما يكون في آخر الزمان، فقال: «ألا إنّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنين

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، كلّها في النار إلاّ واحدةً».

فحذَّرهم أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله، أو سنّة رسوله ﷺ، أو سنّة خلفائه، فيضلُّوا به الناس، وقد وقع ما حذره، وشاع، وكثر، وذاع، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

فعلى العاقل أن يجتهد في الوصول إلى الحق، ويتخلَّص من الموهوم الباطل، ولا يغترَّ بظواهر الحالات غافلاً عن بطون الاعتبارات، فإنَّ طريق الحق أدقُّ من كُلِّ دقيقٍ، وماءٍ عَمِيقٍ، وفجٍّ سحيقٍ، وأجهلُ[1] الناس من يترك يقين ما عنده من صفات نفسه التي لا شكّ فيها، لظنِّ ما عند الناس من صلاحية حاله. قال الحارث المحاسبيُّ رحمه الله تعالى: الراضي بالمدح الباطل كمن يهزأ به، ويقال له: إنّ العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحةٌ كرائحة المسك، وهو يفرح ويرضى بالسُّخرية به، فالعاقل لا يغترُّ بمثله، بل يجتهد إلى أن يصل إلى رضا ربّه، ويفتح له باب قربه بأن يكون سمعه، وبصره، ولسانه، ورجله، ويده التي يبطش بها، فويلٌ لواعظٍ تكبر وافتخر بتقبيل الناس يده، ورأى نفسه خيراً من السامعين، ويتقيَّد بالمدح والذمّ، اللهم إلاّ أن يخرج ذلك من قلبه، والمعيار مساواة المقبِّل، واللاَّطم عنده، بل رجحان اللاطم والضارب عنده. قال الجُنيد البغداديُّ في مجلس وعظه: لو لم أسمع قول النبي ﷺ: «إنّ الله يؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر» لما اجترأت على الوعظ، فأنا ذلك الرجل الفاجر. اهـ. ولمَّا أوعدهم رسول الله ﷺ بالنار عند تكذيبهم إيّاه ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قالت اليهود زعماً منهم ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾؛ أي: لن تصيبنا النار، ولن تصل إلينا في الآخرة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾؛ أي: أياماً قلائل محصورةً يسهل عدُّها قدر سبعة أيّام، فإنّهم يقولون: إنّ أيّام الدنيا سبعة آلاف سنة، فنعذَّب مكان كُل ألف سنةٍ يوماً واحداً، أو قدر أربعين يوماً مقدار عبادة آبائهم العجل، ثم يزول عنّا العذاب.

---

(١) روح البيان.

قال أبو منصور ـ رحمه الله تعالى ـ: تُصرف الأيام المعدودة إلى العمر الذي عصوا فيه، وهم لم يروا التعذيب إلاّ على قدر وقت العصيان، أو كانوا لا يرون التخليد في النار كالجهميّ، أو لأنّهم كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحبّاؤه فلا نعذَّب أبداً، بل نُعذَّب تعذيب الأب ابنه، والحبيب حبيبه في وقت قليل ثم يرضى. وهذا منهم باطل، وعقوبة الكفر مؤبَّدة، وثواب الإيمان كذلك؛ لأنَّ من اعتقد ديناً إنّما يعتقده للأبد، فعلى ذلك جزاؤه للأبد. وروي أنَّ سبب[1] نزول هذه الآية: أنّهم زعموا أنّهم وجدوا في التوراة مكتوباً: إنَّ ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، قالو: إنّما نعذّب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم، فتذهب جهنّم وتهلك. روي ذلك عن ابن عباس. وقيل: إنّ النبي ﷺ قال: «إنّ اليهود من أهل النار» فقالوا: نحن، ثُمَّ تخلفوننا أنتم، فقال: «كذبتم لقد علمتم أنَّا لا نخلفكم» فنزلت هذه الآية.

والضمير في قوله[2]: ﴿وَقَالُوا۟﴾ عائد على الذين يكتبون الكتاب، جمعوا إلى تبديل كتاب الله وتحريفه، وأخذهم به المال الحرام، وكذبهم على أنّه من عند الله، الإخبار بالكذب البحت عن مدّة إقامتهم في النار.

فإن قلت[3]: لِمَ قال هنا ﴿مَّعْدُودَةً﴾ بالإفراد، وفي آل عمران ﴿معدودات﴾ بالجمع؟.

قلت: إشارةً إلى الجمع بين الأصل والفرع، إذ الأصل في الجمع بالألف والتاء: إذا كان واحده مذكّراً أن يقتصر في الوصف على تأنيثه مفرداً، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ وقد يقال: (سرر مرفوعات) على الجمع، فهو فرعٌ عن الأول، فذكر في البقرة على الأصل؛ لكونها أوّل، وفي آل عمران على الفرع؛ لكونها آخراً، ثُمَّ قال تعالى رَدّاً عليهم وتكذيباً لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد!

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) فتح الرحمن.

تبكيتاً لهم وتوبيخاً ﴿أَتَّخَذتُمْ﴾ بقطع الهمزة؛ لأنّها همزة استفهام للتوبيخ، والهمزة المجلوبة للوصل حذفت للدرج. وفي «البيضاوي»: قرأ ابن كثير، وحفصٌ: بإظهار الذال، والباقون بإدغامها. انتهى؛ أي: اتّخذتم وجعلتم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿عَهْدًا﴾ وموثقاً ووعداً بما تزعمون، فإنّما تدَّعون لا يكون إلاّ بناءً على وعد قويٍّ، ولذلك عبَّر عنه بالعهد؛ أي: هل جعلتم عند الله موثقاً أن لا يعذبكم إلاّ هذه المدة، ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾؛ أي: فإذاً لن يخلف الله وعده إيّاكم على ذلك؛ لأنَّ الله لا يخلف الميعاد. وعبارة «الروح» هنا قوله: ﴿فَلَن﴾ الفاء[1] فصيحةٌ معربة عن شرط محذوف؛ أي: إن اتخذتم عند الله عهداً وأماناً، فلن يخلف الله عهده الذي عهده إليكم؛ يعني: ينجز وعده ألبتة؛ والإخلاف نقض العهد، فتكون جملة الشرط معترضة بين المعطوف الذي هو قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الخ، والمعطوف عليه الذي هو قوله: ﴿أَتَّخَذتُمْ﴾ قال الإمام أبو منصور: لهذا الكلام وجهان:

أحدهما: هل عندكم خبرٌ عن الله تعالى؟ أنّكم لا تعذَّبون أبداً لكن أياماً معدودة، فإن كان لكم هذا فهو لا يخلف عهده ووعده.

والثاني: ألكم عند الله أعمالٌ صالحةٌ، ووعدكم بها الجنة؟ فهو لا يخلف وعده ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ ذلك مفترين ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعه؛ أي: أم لم تتّخذوا من الله عهداً، بل تتقولون على الله الباطل والكذب، وأم معادلةٌ لهمزة الاستفهام، بمعنى: أيُّ الأمرين المتساويين كائنٌ على سبيل التقرير؟ لأنَّ العلم واقعٌ بكون أحدهما. خلاصته: إن لكم عنده عهد فلا ينقض، ولكنّكم تخرصون وتكذبون. روي أنهم إذا مضت تلك المدة عليهم في النار، يقول لهم خزنة جهنّم: يا أعداء الله! ذهب الأجل وبقي الأبد، فأيقنوا بالخلود. انتهت.

والمعنى: قل لهم يا محمد[2] أعَهِد إليكم ربُّكم بذلك، ووعدكم به وعداً حقّاً؟ إن كان كما تقولون، فلن يخلف الله وعده، أم أنتم تقولون على الله شيئاً لا

---

(١) روح البيان.

علم لكم به، فإنَّ مثله لا يكون إلاّ بوحي يبلِّغه الرسل عنه، وبدون هذا يكون افتياتاً على الله وجراءةً عليه؛ لأنَّه قولٌ بلا علم، فهو كفر صراحٌ.

وخلاصة هذا[1]: إنّ مثل ذلك القول لا يصدر إلاّ عن أحد أمرين: إمّا اتخاذ عهدٍ من الله، وإمّا افتراءٌ وتقوُّلٌ عليه، وإنْ كان اتخاذُ العهد لم يحصل، فأنتم كاذبون في دعواكم، مفترون بأنسابكم حين تدَّعون أنَّكم أبناء الله وأحبّاؤه.

ثُمَّ ردَّ الله سبحانه وتعالى على اليهود قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ تمسُّكم النار، وتخلدون فيها أبداً، و﴿بَلَىٰ﴾[2] إثباتٌ لما بعد النفي، فهو جواب النفي، ونعم: جواب الإيجاب؛ أي إنّكم قلتم: لن تمسَّنا النار سوى الأيام المعدودة، بلى تمسُّكم أبداً بدليل ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وبيَّن ذلك بالشرط والجزاء، وهما قوله: ﴿مَن...﴾ إلخ. ومن يحتمل أن تكون موصولة، ودخلت الفاء حينئذٍ في الخبر، لما في المبتدأ من العموم؛ لشبه الموصول بالشرط في العموم ﴿كَسَبَ﴾ وعمل وارتكب ﴿سَيِّئَةً﴾ من السيّئات يعني: كبيرةً من الكبائر، والمراد بالسيئة هنا: الكفر والشرك، قاله ابن عباس، ومجاهد. والكسب: استجلاب النفع، والاكتساب: استجلاب الضرّ. واستعمال الكسب هنا في استجلاب الضرّ، كالسيئة، على سبيل التهكُّم، ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ تلك واستولت عليه من جميع جوانبه، من قلبه، ولسانه، ويده، كما يحيط العدوُّ، وهذا إنّما يتحقَّق في الكافر، ولذلك فسَّر السلف السيئة بالكفر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات، وإحاطة خطاياهم بهم، أشير إليهم بعنوان الجمعيَّة؛ مراعاةً لجانب المعنى في كلمة ﴿مَن﴾ بعد مراعاة جانب اللفظ في الضمائر الثلاثة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ملازموها في الآخرة حسب ملازمتهم في الدنيا؛ لما يستوجبها من الأسباب التي من جملتها ما هم عليه من تكذيب آيات الله، وتحريف كلامه، والافتراء عليه، وغير ذلك، وهو خبر أولئك، والجملة خبر للمبتدأ ﴿هُمْ

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

﴿فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: دائمون، فأنى لهم التَفَضِّي منها بعد سبعة أيّام، أو أربعين يوماً كما زعموا، والجملة في حيِّز النصب على الحالية؛ لورود التصريح به في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ﴾، ولا حُجَّة في الآية على خلود صاحب الكبيرة؛ لما عرفت من اختصاصها بالكافر، والمراد بأصحاب النار: الذين هم أهلها حقيقةً لا مَن دخلها، ثُمَّ خرج منها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ بالإفراد، ونافع: ﴿خطيئاته﴾ جمع سلامة، وقرأ بعض القرَّاء: ﴿خطاياه﴾ جمع تكسير. وقرىء: ﴿خطيَّته﴾ و﴿خطيَّاته﴾ على القلب والإدغام فيهما، والمعنى: أنَّها أخذته من جميع جوانبه، ومعنى الإحاطة به: أنّه يوافي على الكفر والإشراك، هذا إذا[2] فسرت الخطيئة بالشرك، ومن فسَّرها بالكبيرة، فمعنى الإحاطة به: أن يموت وهو مُصِرٌّ عليها، فيكون الخلود على القول الأوّل، المراد به الإقامة لا إلى انتهاء، وعلى القول الثاني المراد به: الإقامة دهراً طويلاً؛ إذ مآله إلى الخروج من النار. قال الكلبيُّ: أوثقته ذنوبه. وقال ابن عباس: أحبطت حسناته. وقال مجاهد: غشيت قلبه. وقال مقاتل: أصرَّ عليها. وقال الربيع: مات على الشرك. وقال الحسن: كل ما توعَّد الله عليه بالنار، فهو الخطيئة المحيطة.

ومعنى الآية: ليس[3] الأمر كما ذكرتم، بل تمسُّكم النار وتمسُّ غيركم دهراً طويلاً، فكلُّ من أحاطت به خطيئته، وأخذت بجوانب إحساسه ووجدانه، واسترسل في شهواته، وأصبح سجين آثامه، فجزاؤه النار خالداً فيها أبداً؛ لما اقترف من أسبابها بانغماسه في الشهوات التي استوجبت ذلك العقاب.

وعبارة «العمدة»[4]: ﴿بَلَىٰ﴾ تمسُّكم النار، وتخلدون فيها أبداً ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي عمل شركاً ﴿وَأَحَٰطَتْ﴾؛ أي: أحدقت ﴿بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ وذنوبه،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

وغمرته من جميع جوانبه، وسدَّت عليه مسالك النجاة بأن مات على شركه، فأمَّا إذا مات مؤمناً، فأعظم الطاعات وهو الإيمان معه، فلا يكون الذنب محيطاً به، فلا يتناوله نصُّ الآية، فحينئذٍ فالمراد بالخطيئات: أنواع الكفر المتجدِّدة في كلّ وقتٍ، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الذين كسبوا السيئات، وأحاطت بهم خطيئاتهم، ﴿أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ أي: ملازموها في الآخرة، كما أنَّهم ملازمون أسبابها في الدنيا ﴿هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾؛ أي: دائمون فيها، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله تعالى، وصدَّقوا بما جاء به محمد ﷺ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾؛ أي: وأطاعوا الله تعالى بأداء فرائضه، واجتناب محارمه ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾؛ أي: ملازموا الجنّة ﴿هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾؛ أي: مخلَّدون فيها، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها أبداً.

والمعنى[1]: أي وأمَّا الذين صدَّقوا الله ورسله، وآمنوا باليوم الآخر، وعملوا صالح الأعمال، فأدُّوا الواجبات، وانتهوا عن المعاصي، فأولئك جديرون بدخول الجنّة؛ جزاءً وفاقاً على إخباتهم لربّهم، وإنابتهم إليه، وإخلاصهم له في السرّ والعلن.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ دخول الجنّة منوطٌ بالإيمان الصحيح، والعمل الصالح معاً، كما روي: أنَّ النبي ﷺ، قال لسفيان بن عبد الله الثقفي - رضي الله عنه - وقد قال له: يا رسول الله؛ قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» رواه مسلم. وقد جرت سنّة الله في القرآن، أن يَشْفَع الوعد بالوعيد؛ مراعاةً لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد من الترغيب تارةً، والترهيب أخرى، والتبشير مرّة، والإنذار أخرى؛ إذ باللُّطف والقهر يَرْقَى الإنسان إلى درجة الكمال، ويفوز برضوان الله، وحسن توفيقه ورضوان الله أكبر. وأتى[2] في الشقّ الأوّل؛ أعني: أصحاب النار، بالفاء دون

---

(١) العمدة.

(٢) المراغي.

الشقّ الثاني؛ أعني: أصحاب الجنّة؛ إيذاناً بتسبُّب الخلود في النار عن الشرك، وعدم تسبّب الخلود في الجنّة عن الإيمان، بل بمحض فضل الله تعالى.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في التوراة، والميثاق: العهد المؤكَّد باليمين، وهو قسمان: عهد خلقة وفطرةٍ، وعهد نبوّةٍ ورسالةٍ، وهو المراد هنا، وهذا العهد أخذ عليهم وجعل على لسان موسى، وغيره من أنبيائهم. قال أبو السعود: وهذا شروع في تعداد بعضٍ آخر من قبائح أسلاف بني إسرائيل، مما ينادي بعدم إيمان أخلافهم. وكلمة ﴿إِذْ﴾ نصبت بإضمار فعل خوطب به اليهود الموجودون في عهد النبي ﷺ؛ توبيخاً لهم بسوء صنيع أسلافهم، تقديره: واذكروا يا بني إسرائيل! الموجودين في عهد محمد ﷺ إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل الموجودين في زمن موسى عليه السلام، الذين هم أسلافكم وأصولكم، أو خوطب به النبيُّ ﷺ والمؤمنون؛ ليؤدِّيهم التأمُّل في أحوالهم إلى قطع الطمع في إيمان أخلافهم، لأنَّ قبائح أسلافهم ممَّا يؤدِّي إلى عدم إيمانهم، ولا تلد الحيّة إلاّ الحيَّة، ومن ههنا قيل: إذا طاب أصل المرء طابت فروعه؛ أي: واذكروا يا أيها الرسول والمؤمنون! حين جعلنا عليهم الميثاق.

ثم بيَّن الميثاق، فقال: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: بأن لا تعبدوا إلاّ الله تعالى، ولا تشركوا به شيئاً؛ أي: فاعبدوه دون غيره؛ لأنّه المستحقّ للعبادة، فلمّا أسقط (أن) رفع تعبدون لزوال الناصب، أو على أن يكون إخباراً بمعنى النهي؛ أي: لا تعبدوا إلاّ الله، ولا تجعلوا الألُوهيَّة إلاّ لله، كأنَّ المخاطب سيمتثل النهي حتماً، ويسارع إلى الترك، فيخبر به الناهي. وقيل: إنّه جواب قسم دلَّ عليه المعنى، كأنَّه قيل: واستحلفناهم، أو قلنا بالله لا تعبدون إلاّ الله، وقد نهوا عن عبادتهم غير الله تعالى، مع أنّهم كانوا يعبدون الله خوفاً من أن يشركوا به سواه، من ملك، أو بشر، أو صنم بدعاء، أو غيره من أنواع العبادات، ودين الله على ألسنة الرسل جميعاً، فيه الحثُّ على عبادة الله وعدم

---

(١) الفتوحات.

الشرك بعبادة أحد سواه ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، فالتوحيد عماده الأمران معاً، وعبادة الله إثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه. وقرأ نافع[١]، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف العاشر، بالتاء؛ حكايةً لما خوطبوا به. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي بالياء على الغيبة؛ لأنَّ[٢] بني إسرائيل اسم ظاهر، والأسماء الظاهرة من قبيل الغيب، ومعناه: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل أن لا يعبدوا، فلمَّا حذفت أن رفع الفعل، كما مرّ.

وقرأ عبدُ الله، وأُبيٌّ: ﴿لا تعبدوا﴾ بصريح النهي، وهذه قراءة شاذة، ﴿و﴾ تحسنون ﴿بالوالدين إحساناً﴾ على لفظ تعبدون؛ لأنّه إخبارٌ، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً على معناه؛ لأنه إنشاءٌ؛ أي: وأحسنوا بالوالدين، وإنْ عَلَيا إحساناً كثيراً؛ أي[٣]: برّاً، وعطفاً، ورحمةً لهما، ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى، ويوصل إليهما ما يحتاجان إليه ولا يؤذيهما ألبتة، وإن كانا كافرين، بل يجب عليه الإحسان إليهما، ومن الإحسان إليهما. أن يدعوهما إلى الإيمان بالرفق واللين، وكذا إن كانا فاسقين، يأمرهما بالمعروف بالرفق واللين من غير عُنْفٍ.

وإنّما عطف[٤] برّ الوالدين على الأمر بعبادة الله تعالى، لأنَّ شكر المنعم واجبٌ، ولله على عبده أعظم النعم؛ لأنه أوجده بعد العدم، فيجب تقديم شكره على شكر غيره، ثُمّ إنّ للوالدين على الولد نعمةً عظيمة؛ لأنّهما السبب في وجوده، ولهما عليه حقُّ التربية أيضاً، فحقُّهما يلي حقّ المنعم بالوجود الحقيقيِّ. وقد جاء في التوراة: أنَّ من يسبَّ والديه يقتل. والحكمة في البرّ بهما: أنّهما قد بذلا للولد وهو صغير كُلَّ عنايةٍ وعطفٍ، بتربيته، والقيام بشؤونه حين كان عاجزاً

---

(١) البيضاوي.

(٢) النسفي.

(٣) الخازن.

(٤) جمل.

ضعيفاً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، مع الشفقة التي لا مزيد عليها، أفلا يجب عليه بعدئذٍ مكافأتهما جزاءً وفاقاً لما صنعا؟! ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.
ولِحُبِّ الوالدين لولدهما أسبابٌ:

١ ـ الحنان الفِطريُّ الذي أودعه الله فيهما، إتماماً لحكمته في بقاء الأنواع إلى الأمد الذي قدَّره في سابق علمه.

٢ ـ التفاخر بالأبناء، كما قال ابن الرُّوميّ:

وَكَمْ أبٍ قَدْ عَلاَ بابْنٍ ذُرَىٰ شَرَفٍ   كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ الله عَدْنَانُ

٣ ـ الأمل في الاستفادة منهما مالاً وعوْناً على المعيشة، وهذا الحبُّ لا يحتاج إلى ما يُقَرِّبُهْ، ويُوثِقُ صلتَهَ، ومن ثَمَّ ترك القرآن النصَّ عليه ﴿و﴾ أحسنوا بـ﴿ذي القربى﴾ أو وتحسنون بـ ﴿ذي القربى﴾؛ أي: بصاحب القرابة لكم، والقربى مصدر، كالرُّجعى بمعنى القرابة، بأن تصلوا رحمه، وتعرفوا حقَّه؛ لأنَّ الإحسان إليهم ممَّا يُقوِّي الروابط بينهم.

أحسن إلى الناسِ تَسْتَعْبِدِ قُلُوبهم   فَطالَمَا اسْتَعْبَدَ الإنْسَانَ إحسانُ

فما الأُمةُ إلاّ مجموعة الأُسَر والبُيوت، فصلاحُهَا بصلاحها، وفسادها بفسادها، ومن لا بيت له لا أُمَّة لَهَ، ومَنْ قطع لُحمة النَّسب، فكيف يصل ما دونها؟ وكيف يكون جُزْءاً من الأمّة؟ يسرُّه ما يسرُّها، ويؤلمه ما يؤلمها، ويرى في منفعتها منفعته، وفي مضرّتها مضرّته.

ونظام الفطرة[1] قاضٍ بأنَّ صلة القرابة أَمْتَنُ الصِلات، وجاء الدين حاثًا عليها، مؤكِّداً لأوَاصِرها، مقوِّياً لأركانها، مقدِّماً لحقوقها على سائر الحقوق بحسب درجات القرابة، وعَطَف على برِّ الوالدين بر ذوي القربى؛ لأنَّ حقَّ القرابة تابعٌ لحقّ الوالدين، والإحسان إليهم إنّما هو بواسطة الوالدين ﴿و﴾ أحسنوا بـ﴿اليتامى﴾ أو وتحسنون إلى ﴿اليتامى﴾، بأن[2] تتعطَّفوا عليهم بالرأفة والرحمة

---

(١) المراغي.   (٢) العمدة

ذكوراً كانوا أو أناثاً، جمع يتيم، كنديمٍ وندامى، واليتيم من الآدميين: من فقد أباه، ومِن غيرهم من فقد أُمَّه وهو صغيرٌ، فإذا بلغ الحلم زال عنه اليُتْمُ، فالإحسانُ إلى اليتيم بحسن تربيته، وحفظ حقوقه من الضِياع، والكتابُ والسنة مليئان بالوصيّة به، وحسبك من ذلك قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين» وأشار بالسَّبابة والوسطى، ويجب رعاية حقوق اليتيم لثلاثة أمورٍ: لصغره، ويتمه، ولخلوّه عمَّن يقوم بمصلحته، إذ لا يقدر هو أن ينتفع بنفسه، ولا يقوم بحوائجه.

والحكمة في وجوب الإحسان إلى اليتيم: أنّه لا يجد في الغالب من تبعثه العاطفة على تربيته، والقيام بشؤونه، وحفظ أمواله، والأُمُّ وإن وُجدت، تكون في الغالب عاجزةً عن تنشئته وتربيته التربيةَ المُثْلى، إلى أنَّ الأيتام أعضاءٌ في جسم الأمة، فإذا فسدت أخلاقهم، وساءت أحوالهم، تسرَّب الفساد إلى الأُمَّة جمعاء، إذ يُصْبِحُون قُدْوَةَ سيّئةً بينَ نَشْئها، فيدِبُّ فيها الفساد، ويتطرَّقُ إليها الانحلال، وتأخذ في الفناء ﴿و﴾ أحسنوا بـ﴿المساكين﴾ أو وتحسنون إلى ﴿المساكين﴾ المتذلّلين من الفاقة والحاجة، وعجزوا عن الكسب بأن تُواسوهم، وتؤتوهم حقوقَهم التي فُرض لهم في أموالكم، جمع مسكين بوزن مفعيل من السكون، كأنَّ الفقر أسكنه عن الحراك؛ أي: الحركة، وأثقله عن التقلّب، والمراد بهم[1]: ما يشمل الفقراء، فإنّ الفقير والمسكين متى اجتمعا افترقا، ومتى افترقا اجتمعا، وإنّما تأخَّرت درجة المساكين عن اليتامى؛ لأنّه قد يُمْكِن أن ينتفع بنفسه، وينفع غيره بالخدمة، بخلاف اليتيم، فإنّ الصغر مانعٌ له من ذلك، والحاصل: أنَّ الإحسان إلى المساكين يكون بالصدقة عليهم، ومواساتهم حين البأس والضراء. روىٰ مسلم، عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتر، والصائم لا يفطر» ﴿و﴾ قلنا لهم ﴿قولوا للناس﴾ عموماً قولاً ﴿حُسْنًا﴾ ونَحْوُه الحديثُ: «وخالق الناس بخلق حسن» وسمَّاه حسناً بفتحتين مبالغةً، لفرط حسنه؛ أي: هو حسنٌ في

(١) العمدة.

نفسه، وأمر سبحانه بالإحسان بالمال في حقّ أقوامٍ مخصوصين، وهم الوالدان، والأقرباء، واليتامى، والمساكين، ولمَّا كان[1] المال لا يسع الكُلَّ، أمر بمعاملة الناس كلهم بالقول الجميل الذي لا يعجز عنه العاقل؛ يعني: وألينوا لهم القول بحسن المعاشرة وحسن الخلق، ومروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، إن كان المراد بالمخاطبين الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام، كما هو الظاهر، والقول الحسن: هو الذي يحصل انتفاعهم به.

وقيل المعنى: قولوا للناس صدقاً وحقّاً في شأن محمد ﷺ، فمن سألكم عنه فاصدقوه وبيِّنوا صفته، ولا تكتموها، كما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إن كان الخطاب للحاضرين في زمن النبي ﷺ، وفي القيام بهذه الفرائض إصلاحُ لحال المجتمع، وسعيٌ في رُقيّه وتقدُّمه حتى يبلغ ذروة المجد والشرف. وقرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب[2]: ﴿حَسَناً﴾ بفتحتين على أنّه صفة مشبهة لمصدر محذوف، تقديره: وقولوا للناس قولاً حسناً. وقرأ الباقون: ﴿حُسْنًا﴾ بضمّ الحاء وسكون السين على أنّه مصدر وصف به مبالغةً. وقرأ عطاء بن أبي رباح، وعيسى بن عمر: ﴿حُسُناً﴾ بضمّهما، فضمّة السين اتباع بضمّة الحاء، وهي قراءة شاذة. وقرأ أبي، وطلحة بن مصرف: ﴿حُسْنَىٰ﴾ على وزن فُعْلى على أنّه مصدر كالرُّجْعَى، والعُقْبَى، والبشرى. وقرأ الجحدريّ: ﴿إحساناً﴾ على أنّه نعت لمصدر محذوف؛ أي: قولاً إحساناً، وإحساناً مصدرٌ من أحسن الذي همزته للصيرورة؛ أي: قولاً ذا حسنٍ، كما تقول أعشبت الأرض إعشاباً؛ أي: صارت ذات عُشْبٍ.

وبعد أن أمرهم سبحانه بعبادته وحده على سبيل الإجمال، فصَّل بعضاً من ذلك ممَّا لا يُهتدىٰ إليه إلاّ بهُدًى إلٰهيّ، ووحيٍ سماويٍّ، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أدّوا الصلاة التي فرضت عليكم في ملتكم وشريعتكم، فقبلتم

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط بتصرف.

الميثاق المذكور إن كان الخطاب مع الأسلاف، كما هو ظاهر السياق، أو أدّوا الصلاة المفروضة كاملةً بالركوع والسجود، والتلاوة والخشوع، إن كان الخطاب مع الحاضرين في عصر النبيِّ ﷺ.

وذكر الصلاة والزكاة مع دخولهما في عموم العبادة المذكور أوّلاً، من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ؛ إظهاراً لمزيته وفضله على غيره؛ لأنَّ الصلاة أفضل عبادات البدن، والزكاة أفضل عبادات المال؛ لأنّ الصلاة هي التي تصلح النفوس، وتنقّيها من أدران الرذائل، وتحلّيها بأنواع الفضائل، وروحها هو الإخلاص لله، والخشوع لعظمته وسلطانه، فإن فقدته كانت صوراً ورسوماً لا تغني فتيلاً، وهم ما تولّوا ولا أعرضوا عن تلك الصُّور والرسوم إلى عصر التنزيل ﴿وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: وأعطوا الزكاة المفروضة عليكم في ملّتكم، أو ادفعوا زكاة أموالكم إلى المُسْتَحقّين؛ لما[1] في الزكاة من إصلاح شؤون المجتمع، وقد كان لهم ضروبٌ من الزكاة:

منها: مالٌ خاصٌّ يؤدَّى لآل هارون، وهو إلى الآن في اللاَّوِيِّين ـ سبطٌ من أسباطهم ـ.

ومنها: مالٌ للمساكين.

ومنها: ما يؤخذ من ثمرات الأرض.

ومنها: سَبْتُ الأرض، وهو تركها في كلِّ سبع سنين مرَّةً بلا حرث ولا زرعٍ، وكل ما يخرج منها في تلك السنة فهو صدقةٌ.

ولمَّا أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لهم المنزلة عنده بما التزموا به، أخبر عنهم أنّهم ما وَفَوا بذلك بقوله: ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قبلتم الميثاق أوّلاً ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم، ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾؛ أي: إلاّ قليلاً من أسلافكم، وهم الذين أقاموا اليهوديَّة على طريقتها قبل النسخ، أو من أخلافكم،

---

(١) المراغي.

وهم الذين آمنوا منهم، كعبد الله بن سلام وأضرابه، فإنّهم وفوا بالعهد فآمنوا بمحمد ﷺ، ورُوي عن أبي عمرو أنّه قرأ ﴿إلا قليلٌ﴾ بالرفع. وقرأ بذلك أيضاً قومٌ، قال ابن عطية: وهذا على إبدال قليلٌ من الضمير في تولّيتم. اهـ. من «البحر» تلخيصه: أخذنا عهدكم يا بني إسرائيل! بجميع المذكور، فقبلتم وأقبلتم عليه، ثمّ أعرضتم عن المُضِيِّ على مقتضى الميثاق ورفضتموه، إلاّ قليلاً من أسلافكم وأخلافكم ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ عمّا عهد إليكم، كأوائلكم، وهذا خطابٌ للفروع؛ أي: أنتم مكذّبون للحقِّ والهدى، وتاركون له حيث أتاكم به محمدٌ ﷺ، وهذه[1] الجملة مؤكدّة لعاملها؛ لأنَّ توليتم يغني عنه. وقيل المعنى: تولّيتم بأبدانكم وأنتم معرضون بقلوبكم، فعلى هذا فهي حال منتقلة.

وقيل هذه الجملة: تذييليَّةٌ[2]؛ أي: وأنتم قومٌ عادتكم الإعراض عن الطاعة، ومراعاة حقوق الميثاق، وليس الواو للحال؛ لاتحاد التولِّي والإعراض، فالجملة اعتراضٌ؛ للتأكيد في التوبيخ، وأصل الإعراض: الذهاب عن المواجهة، والإقبال إلى جانب العرض. وعبارة المراغي: وفي قوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ مبالغةٌ[3] في الترك المستفاد من التولّي؛ لأنّ الإنسان قد يتولَّى عن شيء وهو عازمٌ على أن يعود إليه، ويؤدِّي ما يجب عليه، فليس كُلُّ من تولَّى عن شيء يكون معرضاً عنه، وقد كان من تولّيهم وإعراضهم، أن تخذوا الأحبار والرهبان أرباباً مشرِّعين، يُحِلُّون، ويحرّمون، ويبيحون، ويحظرون، ويزيدون، ما شاءوا من الشعائر والمناسك الدينيَّة، فكأنّهم شركاء لله، يشرِّعون لهم ما لم يأذن به الله، كما كان من تولّيهم أن بخلوا بالمال في الواجبات الدينيَّة، كالنفقة على ذوي القربى، وأداء الزكاة، وتركوا النهي عن المنكر، إلى نحو ذلك مما يدل على الاستهتار بأمور الدين.

وفائدة ذكر قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾؛ إفادة عدم بخس العاملين حقَّهم،

---

(١) عكبري.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

والإشادة بذكرهم، والإشارة إلى أنَّ وجود القليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب إذا فشا فيها الفساد، وعمَّ البلاء، وقد جرت سنّة الله، بأنَّ بقاء الأمة عزيزةً مرهوبة الجانب ذات سطوة وبأسٍ، إنّما يكون بمحافظة السواد الأعظم فيها على الأخلاق الفاضلة، والدأب على العمل الذي به تستحقُّ العزَّ والشرف. بعد هذا[١]، لا عجب فيما ترى من حلول الكرب والبلاء بالمسلمين، الذين فتنوا في دينهم ودنياهم، وهم غافلون لاهون لا يعتبرون، ولا يذكرون.

فصلٌ فيما يتعلَّق بهذه الآية

واعلم: أنَّ في هذه الآية عدَّة أشياء[٢]:

منها: العبادة، فمِنْ شَرْط العُبودية: تفَرُّد العبد لعبادة المعبود، وتجرُّده عن كل مقصود، فمن لاحظ خلقاً، أو استحلى ثناءً، أو استجلب بطاعته إلى نفسه حظّاً من حظوظ الدنيا والآخرة، أو داخله بوجهٍ من الوجوه مزجٌ، أو شوبٌ، فهو ساقطٌ عن مرتبة الإخلاص برؤية نفسه.

ومنها: الإحسان إلى الوالدين، وقد عظَّم الله حقَّ الوالدين، حيث قرن حقَّه بحقّهما في آياتٍ من القرآن؛ لأنَّ النَّشْأة الأولى من عند الله سبحانه، والنشأة الثانية وهي التربية من جهة الوالدين، ويقال: ثلاث آيات أنزلت مقرونةً بثلاث آيات، ولا تقبل إحداها بغير قرينتها إحداها، قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ والثانية: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ والثالثة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ والإحسان إلى الوالدين معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، والامتثال إلى أمرهما، وصلة أهل وُدِّهما، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما. وفي «التأويلات النجمية»: إنّ في قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أعزَّ الخلق على الولد والداه، لأجل أنّهما سُدَا وجوده في الظاهر، ولكن ينبغي أن يحسن

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

إليهما بعد خروجه من عهدة عبوديّة ربّه، إذ هو موجد وجوده، ووجود والديه في الحقيقة، ولا يختار على أداء عبوديّته إحسان والديه، فكيف الالتفات لغيرهما، وفي الحديث: «ما قعد يتيمٌ مع قوم على قصعتهم، فلا يقرب قصعتهم الشيطان»، وفي الحديث أيضاً: «مَنْ ضمَّ يتيماً من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله سبحانه، غفرت له ذنوبه ألبتة، إلاّ أن يعمل عملاً لا يغفر، ومن أذهب الله كريمته، فصبر واحتسب غفرت له ذنوبه» قالوا: وما كريمته؟ قال: «عيناه»، ومن كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، فأنفق عليهنّ، وأحسن إليهنّ حتى يكبرن، أو يمتن، غفرت له ذنوبه ألبتةَ، إلاّ أن يعمل ما لا يغفر، فناداه رجل من الأعراب ممَّن هاجر، فقال: يا رسول الله! أو اثنتان، فقال ﷺ: «أو اثنتان».

وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة». وأشار بالسبابة والوسطى، والسبابة من الأصابع هي التي تلي الإبهام، وكانت في الجاهليّة تدعى بالسبَّابة؛ لأنّهم كانوا يسبُّون بها، فلمَّا جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الاسم، فسمَّوها بالمشيرة؛ لأنّهم كانوا يشيرون بها إلى الله بالتوحيد، والمُشيرة من أصابع رسول الله ﷺ كانت أطول من الوسطى، ثم الوسطى أقصر منها، ثمّ البنصر أقصر من الوسطى، فقوله ﷺ: «أنا وهو كهاتين في الجنّة» وقوله في الحديث الآخر: «أُحْشر أنا، وأبو بكر، وعمر يوم القيامة هكذا». وأشار بأصابعه الثلاث، فإنّما أراد ذكر المنازل والإشراف على الخلق، فقال: نحشر هكذا، ونحن مشرفون، وكذلك كافل اليتيم يكون له منزلةٌ رفيعةٌ، فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله ﷺ حمل تأويل الحديث على الانضمام، واقتراب ـ بعضهم من بعض في محل القربة، وهذا معنى بعيد؛ لأنّ منازل الأنبياء، والمرسلين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين، مراتب متباينةٌ، ومنازل مختلفةٌ. كذا في «تفسير القرطبي».

ومنها: البِرُّ إلى المساكين، وهم الذين أسكنتهم الحاجة وذلّلتهم، وهذا يتضمَّن الحضَّ على الصدقة، والمواساة، وتفقد أحوال المساكين والضعفاء، وفي الحديث: «السَّاعي على الأرملة والمساكين، كالمجاهد في سبيل الله» وكان طاووسٌ يرى السعي على الأخوات، أفضل من الجهاد في سبيل الله.

ومنها: القول الحسن، ولمّا خرج العبد من عهدة حقِّ العبوديّة، وعمت رحمته وشفقته الوالدين، وغيرهما، لَزِمَ له أن يقول للناس حسناً، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الله تعالى، ويهديهم إلى طريق الحقِّ، ويخالقهم بحسن الخلق، وأن يكون قوله ليّناً، ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر، والسُّنِّيِّ والمبتدع، من غير مداهنةٍ، ومن غير أن يتكلَّم معه بكلام يُظَنُّ أنَّه يرضى مذهبه؛ لأنَّ الله تعالى قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فليس بأفضل من موسى وهارون عليهما السلام، والفاجر ليس بأخسَّ من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه، فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى، فكيف بالمبتدع.

الإعراب

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الاستبعاديّ، وتدخل على ثلاثة من حروف العطف، الفاءُ كما هنا، والواو كقوله الآتي: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾، وثُمَّ كقوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾. واختلف في مثل هذه التراكيب بين الجمهور والزمخشري، فذهب الجمهور: إلى أنّ الهمزة مقدّمة من تأخير؛ لأنّ لها الصدر، ولا حذف في الكلام، والفاء زائدة عندهم، والتقدير: . . . (أَتُطْمَعُون) و(أَلاَ يعلمون)، و(ثُمَّ إذا ما وقع). وذهب الزمخشري: إلى أنها داخلة على محذوف دلَّ عليه سياق الكلام، والتقدير هنا: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، فتطمعون في إيمانهم. انتهى من «أبي السعود». ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاريِّ، المضمّن للنهي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف؛ أي: أتسمعون، وتعلمون أحوالهم فتطمعون ﴿تطمعون﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة على كونها إنشائيّة، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب، والمعنى: لا تطمعوا في إيمان هؤلاء العتاة الجفاة القاسية قلوبهم، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب

بأن المصدريّة ﴿لَكُمْ﴾ جارّ ومجرور متعلّق بيؤمنوا على تضمينه معنى الانقياد، أو اللام زائدة، والكاف في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المصدريّة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جَرٍّ محذوف متعلّق بتطمعون، تقديره: أفتطمعون في إيمانهم إيّاكم؛ أي: لا تطمعوا في ذلك فإنّه بعيد عقلاً ﴿وَقَدْ﴾ الواو حالية ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿كَانَ فَرِيقٌ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿مِّنْهُمْ﴾ جارّ ومجرور صفة لفريق ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب خبر كان، وجملة كان في محل النصب حال من الواو في ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾، تقديره: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم حالة كون فريق منهم سامعين كلام الله ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة يسمعون على كونها خبر لكان، تقديره: ثمّ محرّفين إيّاه ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور متعلّق بيحرّفون، و﴿مَا﴾ مصدريّة ﴿عَقَلُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، وضمير المفعول في ﴿عَقَلُوهُ﴾ عائد إلى كلام الله، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدريّة. و﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد عقلهم وفهمهم إياه؛ أي: كلام الله، ويجوز أن تكون موصولاً اسمياً في محل الجرّ بإضافة الظرف إليه، وجملة ﴿عَقَلُوهُ﴾ صلة لها، والعائد ضمير ﴿عَقَلُوهُ﴾؛ أي: يحرّفون الكلام من بعد المعنى الذي عقلوه وعرفوه، وفهموه ﴿وَهُمْ﴾ الواو حالية ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبر المبتدأ، ومفعول العلم محذوف، تقديره: وهم عالمون أنّهم مبطلون، والجملة الإسمية حال من الواو، في يحرّفون؛ تقديره: ثمّ يحرّفونه حالة كونهم عالمين أنّهم مبطلون معاندون.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟﴾ الواو استئنافية أو عاطفة ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان في محل النصب على الظرفية متعلّق بالجواب الآتي ﴿لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجرّ مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا

محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ مستأنفة، أو في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ والتقدير: كيف تطمعون في إيمانهم وحالهم كيت وكيت. ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لقالوا ﴿وَإِذَا﴾ الواو عاطفة ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان متعلّق بالجواب الآتي ﴿خَلَا بَعْضُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجرّ مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ جار ومجرور متعلق بخلا ﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟﴾ على كونها مستأنفة، أو حالاً ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ الهمزة، للاستفهام الإنكاري، ﴿تحدّثونهم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول قالوا. ﴿بِمَا﴾ (الباء) حرف جر (مَا) اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل الجر بالباء، والجار والمجرور متعلّق بتحدثونهم ﴿فَتَحَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، أو صفة للموصوفة، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: فتحه الله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بفتح ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ اللام حرف جرّ وتعليل. ﴿يحاجوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً، بعد لام كي، والكاف مفعول به ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بيحاجوكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بيحاجوا، والجملة الفعلية صلة أنّ المصدرية، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم لمحاجتهم إيّاكم به عند ربّكم يوم القيامة، واللام متعلقة بتحدثونهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَعْقِلُونَ﴾ فعل وفاعل، والمفعول محذوف، تقديره: أنّ ذلك يكون عليكم حجّة لهم عند ربّكم، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: أتغفلون عن ذلك فلا تعقلونه، والجملة المحذوفة مع المعطوفة في محل النصب مقول قالوا.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَوَلَا﴾ الهمزة للاستفهام التقريريّ المضمّن للتوبيخ داخلة على محذوف، والاستفهام التقريري: هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عنده ثبوته، مع التوبيخ والتقريع له، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره:

أيلومونهم على التحديث بما ذكر ولا يعلمون. الخ، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿لا﴾ نافية ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ من الفعل والفاعل المستتر في محل الرفع خبر أنّ، تقديره: أنّ الله عالم، وجملة أنّ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي يعلمون إن كانت يقينيّة، أو مسدّ مفعول يعلمون إن كانت عرفانية، تقديره: أو لا يعرفون علم الله ما يسرّون وما يعلنون ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول يعلم، أو مصدريّة ﴿يُسِرُّونَ﴾ فعل وفاعل صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: أنّ الله يعلم الأمر الذي يسرّونه في قلوبهم، أو صلة لما المصدرية، تقديره: أنّ الله يعلم إسرارهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ معطوف على ما يسرّون، يجري فيه ما جرى فيه من أوجه الإعراب.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ الواو عاطفة أو استئنافية منهم جار ومجرور خبر مقدّم ﴿أُمِّيُّونَ﴾ مبتدأ مؤخّر مرفوع بالواو؛ لأنّه جمع مذكر سالم، تقديره: وأمّيون كائنون منهم، والجملة الإسمية مستأنفة، أو في محل النصب على الحالية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وقال أبو السعود: هذه الجملة معطوفة على الجمل الثلاث الحالية؛ لمشاركتها لهنّ، فإنّ مضمونها مناف لرجاء الخير منهم، وإن لم يكن فيها ما يحسم مادة الطمع في إيمانهم، كما هو مضمون الجمل الثلاث، فإن الجهل بالكتاب في منافاة الإيمان ليس بمثابة تحريف كلام الله تعالى، ولا بمثابة النفاق، ولا بمثابة النهي عن إظهار ما في التوراة. اهـ. ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع صفة لأمّيون، تقديره: ومنهم أمّيون عادمون علم الكتاب ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء منقطع بمعنى لكن ﴿أَمَانِيَّ﴾ منصوب على الاستثناء، ولكن بعامل محذوف، تقديره: لكن يعتقدون أمّاني، كما أشار إليه البيضاوي في «الحلّ»، ولا يصحّ نصبه بيعلمون؛ لأنّ إدراك الأماني؛ أي: الأكاذيب ليس علماً، بل هو جهل مركّب، أو اعتقاد ناشىء عن تقليد. اهـ. «جمل». ﴿وَإِنْ﴾ الواو استئنافية، أو حالية ﴿إِنْ﴾ نافية لا عمل لها عند الجمهور؛

لانتقاض نفيها بإلاّ، وعاملة عمل ليس عند سيبويه مستدلاً بقول الشاعر:

إن هـو مـسـتـولـيـاً عـلـى أحـد   إلاّ عـلـى أضعـف الـمـجـانـيـن

﴿هُمْ﴾ مبتدأ عند الجمهور، واسم ﴿إن﴾ نافية عند سيبويه، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ ﴿يَظُنُّونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ عند الجمهور، أو في محل النصب خبر ﴿إنْ﴾ النافية، وحذف مفعولي ظنّ؛ للعلم بهما، أو اقتصاراً، والتقدير: وما هم إلاّ ظانون أكاذيب باطلة لا أصل لها، أو ما هم إلاّ ظانّين أكاذيب باطلة، والجملة الإسمية مستأنفة، أو حال من الواو في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ تقديره: ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتاب حالة كونهم ظانّين ومعتقدين أكاذيب باطلة.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾.

﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: إذا عرفت هؤلاء اليهود يسمعون كلام الله، ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه، وأردت بيان عاقبة من فعل ذلك، فأقول لك: ويل للذين يكتبون الكتاب ﴿ويل﴾ مبتدأ مرفوع، وسوّغ الابتداء بالنكرة ما فيه من معنى الدعاء ﴿لِلَّذِينَ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بيكتبون ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يَكْتبونَ﴾ على كونه صلة الموصول ﴿هَذَا﴾ مبتدأ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلقّ بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ليقولون ﴿لِيَشْتَرُوا﴾ اللام حرف جرّ وتعليل ﴿يشتروا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي ﴿به﴾ جار ومجرور متعلق بيشتروا ﴿ثَمَنًا﴾ مفعول به ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لثمنا، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لاشترائهم به ثمناً قليلاً، الجار والمجرور

متعلق بيكتبون ﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء عاطفة كرّرها للتأكيد ﴿ويل﴾ مبتدأ ﴿لَّهُم﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ ﴿مِّمَّا﴾ جارّ ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ﴿كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما كتبته أيديهم ﴿وَوَيْلٌ﴾ الواو عاطفة ﴿ويل﴾ مبتدأ ﴿لَّهُم﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على ما قبلها ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ﴿يَكْسِبُونَ﴾ فعل وفاعل صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ممّا يكسبونه، ويصحّ أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريّة في الموضعين، وإنّما كرّر الويل؛ ليفيد أنّ الهلاك مرتّب على كل واحد من الفعلين على حدته لا على مجموع الأمرين، وأخّر ﴿يَكْسِبُونَ﴾؛ لأنّ الكتابة مقدّمة، ونتيجتها كسب المال، فالكَتْب سبب، والكسب مسبب عنه، فجاء النظم على هذا الترتيب اهـ. «كرخي». وقال أبو السعود: قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ومع ذلك فيه نوع مغايرة؛ لأنّ قوله: ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وقع تعليلاً، فهو مقصود، وقوله فيما سلف: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وقع صلة، فهو غير مقصود، وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ الكلام فيه كالذي فيما قبله من جهة أنّ التكرير للتأكيد. انتهى.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو استئنافية ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لَن﴾ حرف نفي ونصب ﴿تَمَسَّنَا﴾ فعل مضارع ومفعول به منصوب بلن ﴿ٱلنَّارُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرّغ ﴿أَيَّامًا﴾ منصوب على الظرفية الزمانيّة بالفعل المذكور قبله متعلق به، والتقدير: لن تمسّنا النار أبداً إلاّ في أيام قلائل يحصرها العدّ؛ لأنّ العدّ يحصر القليل ﴿مَّعْدُودَةً﴾ صفة ﴿أَيَّامًا﴾ ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ،

والجملة الفعلية مستأنفة ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لقل، وإن شئت قلت: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري مبنية على الفتح، وحذفت همزة الوصل المتصلة بالماضي الخماسي؛ لاستثقال اجتماع همزتين ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ فعل وفاعل بمعنى جعلتم المتعدّية إلى مفعول واحد، كما في العكبري، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق باتخذ ﴿عَهْدًا﴾ مفعول به ﴿فَلَن﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر وجوباً لكونه مقروناً بلن، تقديره: إن جعلتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ﴿لَن﴾ حرف نفي ونصب واستقبال ﴿يُخْلِفَ﴾ فعل مضارع منصوب بلن ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل ﴿عَهْدَهُۥٓ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة من الفعل والفاعل في محل الجزم جواب للشرط المقدّر، وجملة الشرط المقدّر مع جوابه في محل النصب مقول لقل ﴿أَمْ﴾ حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام فهي متّصلة، أو منقطعة بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي ﴿تَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بالنون، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ على كونها مقولاً لقل، أو في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿تَقُولُونَ﴾ ﴿مَا﴾ اسم موصول، والعائد محذوف، تقديره: ما لا تعلمونه، وعلم هنا بمعنى عرف يتعدّى لمفعول واحد ﴿لا﴾ نافية ﴿تعلمون﴾ فعل مضارع والواو فاعل والجملة لا محل لها من الإعراب صلة الموصول.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿بلىٰ﴾ حرف جواب يجاب بها النفي، فيصير إثباتاً بخلاف نعم، وجير، وأجل، وإيْ، فإنها لتقرير ما قبلها إثباتاً أو نفياً ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ أوّل، ويصحّ كونها شرطيّة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿كَسَبَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر صلة لمن الموصولة، أو في محل الجزم بمن الشرطيّة على كونها فعل شرط لها ﴿سَيِّئَةً﴾ مفعول به ﴿وَأَحَٰطَتْ﴾ الواو عاطفة ﴿أحاط﴾ فعل ماض،

والتاء علامة تأنيث الفاعل ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بأحاطت، ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ فاعلٌ ومضافٌ إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَسَبَ﴾ على كونها صلةً لمن الموصولة، أو فعل شرطٍ لِمَنِ الشرطية ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً لما في المبتدأ من العموم، لشبه الموصول بأسماء الشرط في الإبهام على كون ﴿مَن﴾ موصولة، أو رابطة الجواب بالشرط وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية على كون ﴿مَن﴾ شرطيّة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أولاء اسم إشارة يشار به للجمع المطلق في محل الرفع مبتدأ ثان، على كون ﴿مَن﴾ موصولة أو في محل الرفع مبتدأ، والكاف حرف دال على الخطاب ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، أو خبر المبتدأ ﴿ٱلنَّارِۖ﴾ مضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول وخبره جملة جوابية لا محل لها من الإعراب، على كون ﴿مَن﴾ موصولة، أو جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في محل الجزم بمن الشرطيّة على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطيّة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿هُمۡ﴾ ضمير لجماعة الذكور الغائبين في محل الرفع مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بخالدون و﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب حال من أصحاب النار، تقديره: حالة كونهم خالدين فيها ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية، الذين مبتدأ أوّل ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ خبر له ﴿ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ مضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول وخبره معطوفة على جملة قوله: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ على كونها جملة جوابية لا محل لها من الإعراب، أو مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تقدم إعرابها.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾.

﴿وَإِذۡ﴾ الواو عاطفة ﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ لما مضى من الزمان في محل النصب معطوفة على ﴿نِعۡمَتِيَ﴾ كالظروف السابقة ﴿أَخَذۡنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل

الجرّ مضاف إليه لإذ، والتقدير: واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ حين أخذنا ميثاق أسلافكم. ﴿مِيثَٰقَ﴾ مفعول به ﴿بَنِيٓ﴾ مضاف إليه مجرور بالياء، وهو مضاف ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة جملة مفسّرة للميثاق لا محل لها من الإعراب ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلاَّ أداة استثناء ولفظ الجلالة مفعول به ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ الواو عاطفة ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ متعلق بمحذوف معطوف على جملة ﴿لَا تَعۡبُدُونَ﴾ على كونها جملة مفسّرة، تقديره: وأحسنوا بالوالدين ﴿إِحۡسَانٗا﴾ منصوبٌ على المفعولية المطلقة ﴿وَذِي﴾ الواو عاطفة ذي معطوف على الوالدين مجرور بالياء؛ لأنّه من الأسماء الستّة ذي مضاف ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ مضاف إليه ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ معطوف على الوالدين، وكذلك ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ معطوف على الوالدين ﴿وَقُولُواْ﴾ الواو عاطفة ﴿قولوا﴾ فعل أمر وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ﴾ على كونها مفسّرة للميثاق ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بقولوا ﴿حُسۡنٗا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنّه صفة لمصدر محذوف، تقديره: قولاً حسناً ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على جملة ﴿لَا تَعۡبُدُونَ﴾ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجرّ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على كونها مضافاً إليه لـ ﴿إذ﴾، أو معطوفة على محذوف، تقديره: فقبلتم الميثاق، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿أَخَذۡنَا﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿قَلِيلٗا﴾ منصوب على الاستثناء ﴿مِّنكُمۡ﴾ صفة لقليلاً، تقديره: قليلاً كائناً منكم ﴿وَأَنتُم﴾ الواو حالية ﴿أنتم معرضون﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ﴾ الطمع: تعلق النفس بإدراك مطلوب تعلقاً قوياً، وهو أشدّ من الرجاء؛ لأنّه لا يحدث إلاّ عن قوّة رغبة، وشدّة إرادة، وإذا اشتدّ صار طمعاً، وإذا ضعف كان رغبة ورجاء، يقال: طمع يطمع طمعاً وطماعة وطماعية مخفّفاً، كطواعية، كقول الشاعر:

طَمَاعِيَةَ أَنْ يَغْفِرَ الْذَنْبَ غَافِرُهُ

واسم الفاعل طَمِعٌ وطامعٌ، ويعدَّى بالهمزة، ويقال: طامعه مطامعةً، ويقال: طمُع بضم الميم كثر طمعه، وضِدُّ الطمع اليأس، قال كُثيِّرٌ:

لاَ خَيْرَ في الحُبِّ وَقْفاً لا يُحرِّكُهُ   عَوَارِضُ اليَأْسِ أوْ يَرْتَاجُهُ الطَّمَعُ

ويقال: امرأةٌ مِطماعٌ؛ أي: تَطْمَعُ ولا تُمكِّنُ، وقد توسّع في الطمع، فسمِّي به رزقُ الجند، يقال: أمر لهم الأمير بأطماعهم؛ أي: أرزاقهم وهو من وضع المصدر موضع المفعول. اهـ. «بحر».

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ والفريق: اسم جمع لا واحد له من لفظه، كرهط، وقوم. اهـ. «سمين».

﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ والكلام: هو القول الدالُّ على نسبةٍ إسناديَّةٍ مقصودةٍ لذاتها، ويطلق أيضاً على الكلمة، ويُعبَّر به أيضاً عن الخَطِّ والإشارة، وما يفهم من حال الشيء، وهل يطلق على المعاني القائمة بالذهن التي يعبّر عنها بالكلام في ذلك خلاف، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ والتحريف: إمالة الشيء من حال إلى حال، والحرف الحدُّ المائل. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ والتحديث: الإخبار عن حادث، ويقال منه: يُحدِّث، وأصله: من الحدوث، وأصل فعله أن يتعدَّى إلى واحد بنفسه، وإلى آخر بعن، وإلى ثالثٍ بالباء، فقال: حدثت زيداً عن بكر بكذا، ثم إنه قد يضمَّن معنى أعلم المنقولة من علم المتعدّية إلى اثنين، فيتعدَّى إلى ثلاثة، ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ والفتح: القضاء بلغة اليمن، ومنه الفتَّاح العليم والإِذْكَار، ومنه فتَحَ على الإمام والظفَرُ، فمنه ﴿فقد جاءكم الفتح﴾. قال الكلبي: وبمعنى القصص. قال الكسائي: وبمعنى التبيين. قال الأخفش: وبمعنى المنِّ، وأصل الفتح: خرق الشيء، والسدُّ ضدُّه.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أصلُ لقوا: لقيوا بوزن فعلوا، استثقلت الحركة على الياء فحذفت للتخفيف، فسكنت الياء لمَّا حذفت حركتها، فالتقت ساكنةً مع واو الجماعة فحذفت، ثُمَّ ضُمّت القاف؛ لمناسبة الواو، فصار وزنها فَعُوا بعد أن كان فعلوا، كما مرّ ﴿خَلَا﴾ أصله: خلَوَ من الخلوة فعلٌ ناقصٌ، واويُّ اللام، قُلبت الواو ألفاً؛ لتحرّكها بعد فتح، ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أصله يحاجِّجونكم حذفت نون الرفع لمَّا دخلت لام التعليل على الفعل، ونصب بأن

مضمرة بعدها، ثُمَّ أدغمت الجيم الأولى في الثانية، والمُحاجَّة من الاحتجاج وهو القصد للغلبة، يقال: حاجَّهُ قَصَد أن يغلب، والحُجَّة الكلام المستقيم، مأخوذٌ من محجَّة الطريق ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ أصله: يُسْرِرون بوزن يفعلون، نقلت حركة الراء الأُولى إلى السين، فلما سُكِّنت أدغمت في الثانية، يقال: أسرَّ الشيء إذا أَخْفاه، وأعلنه إذا أظهره.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ جمع أُمِّي، والأمّيُّ: هو الذي لا يقرأ في كتاب ولا يكتب، نسب إلى الأُمّ؛ لأنّه ليس من شغل النساء أن يكتبن، أو يقرأن في كتاب، أو لأنّه بحال ولدَتْه أُمُّه لم ينتقل عنها، أو نسب إلى الأمّة وهي القامة والخلقة، كأنَّ الذي لا يكتب ولا يقرأ قائمٌ على الفطرة والجِبلَّة، أو إلى الأُمَّة، إذ هي سَاذجَةٌ قبل أن تَعِرف المعارف ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ الأماني: جمع أُمنيَّة بضم الهمزة، وكسر النون، وتشديد الياء، وأصلها: أُمْنُوية بوزن أُفعولة، اجتمعت الواو والياء، وسُبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، وكسرت النون؛ لمناسبة الياء، فجمعت على أفاعيل، وما روي من تخفيفها فجَمْعُه على أفاعِل، كما يقال: في جمع مفتاح مفاتِح، وكأنَّ من قرأ بالتخفيف لم يعتد بحرف المدّ الذي في المفرد، كما مرّ مِن مَنَىٰ إذا قدَّر؛ لأنّ المُتَمنِّي يقدِّر في نفسه، ويَحْزَرُ ما يتمنَّاه، أو من تمنَّى إذا كذب، قال أعرابي لابن دأبٍ في شيء حدَّث به: أهذا شيء رويته أم تمنيته؟ أي: اختلقته، وقال عثمان رضي الله عنه: ما تمنيت ولا تغنيت منذ أسلمت، أو من تمنَّى إذا تلا، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾؛ أي: إذا تلا وقرأ، وقال الشاعر:

تَــمَــنَّــى كِــتَــابَ الله أوَّل لَــيْــلــهِ ... وآخِــرَه لاقَــى حِــمَــامَ الــمَــقَــادِرِ

والتلاوة والكذب راجعان لمعنى التقدير، فالتقدير أصله، قال الشاعر:

وَلاَ تَـقُـولَـنَّ لـشـيءٍ سَـوْف أَفْـعَـلُـه ... حتَّى تَبَيَّنَ ما يُمْنِى لَكَ المَانِي

أي: يقدِّر وجمعها بتشديد الياء؛ لأنّه أفاعيل، وإذا جمع على أفاعل خففت الياء، والأصل التشديد؛ لأنّ الياء الأولى في الجمع هي: الواو التي كانت في المفرد التي انقلبت فيه ياءً، ألا ترى أنَّ جمع أُمْلُوْدْ أماليد. اهـ. من «البحر».

والمراد أنّهم لا يعلمون الكتاب إلاّ كما حَدَسوه، أو تخيَّلُوه في هواجسهم من أنهم شعب الله المختار، وأنَّ الله يعفو عنهم، وأنَّ آباءَهم الأنبياء يشفعون لهم، وما ذلك كلُّه إلاّ أكاذيب مُنَمَّقة لفّقها لهم أحبارهم، فتناقلوها من غير تمحيصٍ، أو رويَّةٍ ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أصله: يَظْنُنُون بوزن يفعلون، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء، فسكنت فأدغمت في النون الثانية ﴿فَوَيْلٌ﴾ الويل: مصدر لا فعل له من لفظه، وما ذكر من قولهم، وَأَلَ مصنوعٌ، ولم يجيء من هذه المادة التي فاؤها واوٌ وعينها ياء إلاّ وَيْل، وويح، وويس، وويب، ولا يثنى ولا يجمع، ويقال: ويله، ويجمع على ويلاتٍ. قال امرؤ القيس:

ويَـوْمَ دَخَـلْـتُ الـخِـدْرَ خِـدْرَ عُـنَـيـزةٍ   فـقـالَـتْ لـك الـوَيْـلاَتُ إنّـك مُـرْجِـلِ

وإذا أضيف ويْلٌ فالأحسن فيه النصب على المفعولية المطلقة، لأنَّه مصدرٌ لفعل أماته العرب، قال تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وزعم بعضٌ أنَّه إذا أضيف لا يجوز فيه إلاّ النصب، وإذا أفردته اختير الرفع على الابتداء قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ﴾ ويجوز النصب أيضاً. قال الشاعر:

فَويْلاً لِتَيْمٍ مِنْ سَرابِيْلها الخُضْرِ

والوَيْلُ معناه: الفضيحة والحسرة، وقال الخليل: الوَيْلُ: شِدَّةُ الشرِّ، وقال غيره: الويل: الهلكة، وكُلُّ مَنْ وقع في هلكةٍ دعا بالوَيْلِ، وقال الأصمعيُّ: هي كلمة تفجُّعٍ، وقد يكون ترحُّماً، ومنه قوله:

وَيْلَ أُمِّه مِسْعَرُ حَرْبِ

﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ والأيدي جمع يدٍ، ويدٌ مما حذف منه اللام، كدم، ووزنه فعلٌ، وقد صرح بالأصل، فقالوا يَدْيٌ، وقد أبدلوا من الياء الأولى همزة، قالوا: قطع الله أَدْيَهُ، وأبدلوا منها أيضاً جيماً، قالوا: لا أفعل ذلك جَدَ الدهر، يريدون يد الدهر، وهي حقيقةٌ في الجارحة مجازٌ في غيرها، وأمَّا الأيادي فجمع الجمع، وأكثر استعمال الأيادي في النعم، وأَصْلُ الأيْدي أيْدُي، استثقلت الضمّةُ على الياء، فحذفت، فسكنت الياء، وقبلها ضمّةٌ، فانقلبت واواً، فصار الأَيْدُوُ، كما قيل: في مِيقنٍ موقِنٌ، ثمّ إنّه لم يوجد في لسانهم واوٌ ساكنةٌ قبلها ضمَّةٌ في اسم، وإذا أدَّى القياسُ إلى ذلك قُلِبَت تلك الواو ياءً، وتلك الضمَّةُ قبلها

كسرةً، فصار: الأيدي ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ أصله: يقْوُلون بوزن يفعُلون، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر ضمّة، فصارت حرف مدّ ﴿لِيَشْتَرُواْ﴾ أصله: يشتريون بوزن يفتعلون، حذفت منه نون الرفع لمَّا نصب الفعل بأن المضمرة بعد لام التعليل، ثُمّ استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فسكّنت، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، وضُمَّت الراء؛ لمناسبة واو الجماعة. ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ والكسب أصله: اجتلاب النفع، وقد جاء في اجتلاب الضرِّ، ومنه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ والفعل منه يجيء متعدّياً إلى واحد، تقول: كسبت مالاً، وإلى اثنين تقول: كسبت زيداً مالاً، وقال ابن الأعرابي: يقال: كسب هو نفسه، وأكسب غيره. وأنشد:

فأكْسَبَني مَالاً وأكْسبته حمداً

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ المَسُّ: الإصابة، المسُّ: الجمع بين الشيئين على نهاية القرب، واللَّمْسُ مثله لكن مع الإحساس، وقد يجيءُ المسُّ مع الإحساس، وحقيقة المسِّ واللَّمس باليد، ونقل من الإحساس إلى المعاني، مثل: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ كـ﴿ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ ومنه سمّي الجنون مسّاً. وقيل: المسُّ واللَّمْسُ والجسُّ متقاربٌ، إلاّ أنّ الجسَّ عامٌ في المحسوسات، والمسُّ فيما يخفى ويدقُّ، كنَبْضِ العروق، والمسُّ واللَّمْسُ بظاهر البشرة، والمَسُّ كنايةٌ عن النكاح وعن الجنُون، وقد تقدّم أنَّ ﴿ٱلنَّارُ﴾ ألفها منقلبةٌ عن واو؛ بدليل تصغيرها على نويرة، وأصل أيَّام: أيوامٌ بوزن أفعال، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء فصار أيَّاماً. المعدود: اسم مفعول من عدَّ بمعنى حَسَب، والعدد هو الحساب.

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ ﴿قُلْ﴾ فيه إعلال بالحذف، أصله: قُوْلْ، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ حذفت منه همزة الوصل؛ للاستغناء عنها بهمزة الاستفهام؛ لأنّها إنّما جيء بها للتوصُّل إلى النُّطق بالساكن، وهمزة الاستفهام حصل بها ذلك، وتقدَّم الكلام على مادَّة الاتخاذ عند الآية: (٥١)، والإخلاف عدم الإيفاء بالشيء الموعود.

فائدة: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ بلى حرف جواب، مثل: نعم، وجير، وأجل، وإي، والفرق بينها وبين بلى: أنَّ بلى جواب لنفي متقدّمٍ، أي: إبطالٍ،

ونقْض ٍ، وإيجاب ٍ له، سواءٌ دخله استفهامٌ أم لا، فتكون إيجاباً له، نحو: قول القائل: ما قام زيد؟ فتقول: بلى؛ أي: قد قام، وقوله: أليس زيد قائماً؟ فتقول: بلى؛ أي: هو قائم، قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ويُروىٰ عن ابن عباس: (أنّهم لو قالوا: نعم لكفروا). اهـ. «سمين». ومما وقعت فيه جواباً للاستفهام، قول الجَحَّاف بن حكيم:

بَلَى سَوْفَ نُبْكِيْهِمْ بِكُلِّ مُهَنَّدِ ... وَنُبْكِي نُمَيْراً بالرِّمَاحِ الخَواطِرِ

وقعت جواباً للذي، قال له الأخطل:

ألا فَاسْأَل الجَحَّافَ هَلْ هُوَ ثَائِرٌ ... بِقَتْلَى أُصِيْبَتْ مِنْ نُمير بن ِ عَامِرِ

وبلى عندنا ثلاثيُّ الوضع وليس أصله بل، فزيدت عليها الألف خلافاً للكوفيين. اهـ. من «البحر» ﴿سَيِّئَةً﴾ أصله: سَيْوَأَةٌ بوزن فيعلةٍ، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت فيها الياء، كما في سيّد وميّت؛ لأنَّ المادّة واويُّ العين، يقال: ساءه يسوءهُ سوءاً ومساءةً إذا أحزنه الأمر، وساء زيدٌ إذا حزن، والسيئة تسوء صاحبها عاجلاً وآجلاً، وهي تأنيث السيء ﴿مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تقدَّم أنَّ أصله موثاقٌ، قلبت الواو ياء؛ لسكونها إثر كسرة ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ﴾ أمرٌ من قال يقول، وأصل يقول: يَقْوُل بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر ضمَّةٍ، فصارت حرف مدّ، فلمَّا بُنِيَ الأمر منه، حُذفت حرف المضارعة ونون الرفع، فقيل: قولوا. ﴿حُسْنًا﴾ في «القاموس»: الحسن بضمّ الحاء، وسكون السين الجمال، والجمع محاسن على غير قياس، وقياسه أن يكون جمعاً لمحسن ٍ، كمسجد ومساجد، وحسن ككرم ونصر، فهو حاسِنٌ وحَسَنٌ، بفتحتين وحَسِينٌ كأمير، وحُسَانٌ كغُراب، وحسَّان كرُمَّان. اهـ.

وأمَّا حَسَنٌ بفتحتين على قراءة حمزة والكسائي، فهو صفة مشبَّهة لا مصدرٌ، كما فهم من عبارة «القاموس»، فسقط ما للكرخي هنا.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أصله: أَقْوِمُوا بوزن أَفْعِلُوا، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ آتوا أصله: أَأْتِيوا، أمرٌ من آتى الرباعيّ، حذفت منه نون الرفع لبناء الأمر، ثُمَّ أبدلت الهمزة الثانية الساكنة حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى، ثُمَّ استثقلت الضمة على الياء،

فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، ثُمَّ ضمَّت التاء؛ لمناسبة الواو، ﴿الزكاة﴾ تقدَّم أنَّ ألفه منقلبةٌ عن واو؛ لأنّه من: زكا يَزْكُو، كنما ينمو.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ استبعاداً لعدم قبولهم الإيمان مع مشاهدة الآيات الباهرة، وتسليةً للنبي ﷺ، وللمؤمنين؛ لأنّهم كانوا شديدي الحرص على إيمانهم.

ومنها: الإتيان بالجملة الحالية في قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إفادةً لكمال قُبْحِ صنيعهم، وأنَّ تحريفهم للتوراة كان عن قصدٍ وتصميمٍ، لا عن جهل ونسيانٍ، ومن يرتكب المعصية عن علم يستحقُّ الذمَّ والتوبيخ، أكثر ممن ارتكبها وهو جاهل.

ومنها: الاستفهام بمعنى النهي في قوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾؛ لأنَّ المعنى: لا تحدِّثوهم يعنون المؤمنين.

ومنها: التعبير بالفتح في قوله: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ للإيذان بأنّه سِرٌّ مكنون، وبابٌ مغلقٌ لا يقف عليه أحدٌ.

ومنها: التوبيخ والعتاب في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يسرون ويعلنون﴾ حيث قابل بين لفظتي يسرّون ويعلنون، وهو نوع طباق الإيجاب.

ومنها: ذكر الأيدي في قوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ مع أنَّ الكتابة لا تكون إلاّ بالأيدي؛ لدفع توهمُّ المجاز بأنَّ المراد أَمْلَوْهُ لغيرهم، وللتأكيد بأنَّ الكتابة باشروها بأنفسهم، كما يقول القائل: كتبته بيميني وسمعته بأذني، وفيه الإطناب أيضاً لتصوير حالة الكتابة في النفس، كما وقعت، وتجسيدها أمام السامع حتى يكاد يكون مشاهداً لها، ولتسجيل الأمر عليهم، كما تقول لمن ينكر معرفته: ما كتب ووقع أنت كتبته بيمينك.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ﴾؛ لأنّ الاشتراء مستعارٌ عن الاستبدال.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ للتوبيخ، والتقريع، ولبيان أنَّ جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى.

ومنها: التهكُّم في قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾؛ لأنّ الكسب حقيقةٌ في استجلاب النفع، فاستعماله في استجلاب الضُرّ، كالسيئة على سبيل التهكّم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ حيث شبَّه الخطايا بعدوٍ نزل بقوم، وأحاطوا بهم من كل الجوانب إحاطة السِوَار بالمعصم، واستعار لفظة الإحاطة؛ لغلبة السيّئات على الحسنات، فكأنّها أحاطت بها من جميع الجهات.

ومنها: الإشارة بعنوان الجمع في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ مراعاةً لجانب المعنى في كلمة (مَنْ) بعد مراعاة جانب اللفظ في الضمائر الثلاثة قبله.

ومنها: المقابلة بين فريقي الأشقياء والسعداء في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ﴾.

ومنها: الإتيان بالفاء في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ دون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ﴾ إشارة إلى أنَّ خلود النار تسبَّب عن الكفر، بخلاف خلود الجنّة، فلا يتسبَّب عن الإيمان، بل بمحض فضل الله تعالى كذا قاله بعض الأشياخ. اهـ. «صاوي».

ومنها: الإتيان بالجملة الخَبَريَّه في قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ مراداً بها النهي؛ لأنّها أبلغ من صريح النهي؛ لما فيه من الاعتناء بشأن المنهي عنه، وتأكُّد طلب امتثاله حتى كأنّه امتثل وأخبر عنه.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على قراءة التاء؛ لأن ذكر بني إسرائيل إنّما وقع بطريق الغيبة، ومن فوائد الالتفات: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والإملال؛ لما جبلت عليه النفوس من حبّ التنقُّلات، والسآمة

من الاستمرار على مِنْوال واحدٍ، كما هو مقرَّرٌ في محلّه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ
وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ
تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ
مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ
مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا
كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ
أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ
أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ
ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لمّا ذكر بني[1] إسرائيل في الآية السابقة بأهمّ ما أُمروا به، من إفراده تعالى بالعبادة، والإحسان إلى الوالدين وذي القربى، ثُمَّ بيَّن أنّهم لم يأتمروا بذلك. ذكّرهم في هذه الآيات بأهم المنهيات التي أخذ عليهم العهد باجتنابها، ثم نقضوا الميثاق

---

(١) المراغي.

ولم ينتهوا. والخطاب هناك للذين كانوا في عصر موسى عليه السلام، وهو هنا للحاضرين في عصر التنزيل؛ إرشاداً إلى أنَّ الأمَّة كالفرد يصيب خلفها أثر ما كان عليه سلفها إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ، ما داموا على سنتهم يحتذون بحذوهم، ويجرون على نهجهم، كما أنَّ ما يفعله الشخص حين الصغر يؤثِّر في قواه العقليَّة، وأخلاقه النفسية حين الكبر، والمشاهدة أكبر برهان على ذلك.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[١]: ما أخرجه الحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «الدلائل» بسند ضعيف، عن ابن عباس قال: (كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلّما التقوا هزموا يهود، فعاذت يهود بهذا الدعاء: اللهمّ! إنّا نسألك بحقّ محمدٍ النبيّ الأمّي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلاّ نصرتنا عليهم، فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا فيهزمون غطفان، فلمَّا بعث النبيُّ ﷺ كفروا به، فأنزل الله سبحانه ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيدٍ، أو عكرمة عن ابن عباس: (أنَّ يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلمَّا بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء، وداود بن سلمة: يا معشر اليهود! اتَّقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمدٍ ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنَّه مبعوثٌ، وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أحد بني نضير: ما جاءنا بشيءٍ نعرفه، وما هو بالذي كنَّا نذكر لكم) فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ. . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ وهذا شروع في بيان ما فعلوا بالعهد المتعلِّق بحقوق

---

(١) لباب النقول.

العباد، بعد بيان ما فعلوا بالعهد المتعلّق بحقوق الله، فخانوا كُلّاً من العهدين، وهي متضمنةٌ لأربعة عهود[١]:

الأوّل: لا يسفك بعضهم دماء بعضٍ.

الثاني: لا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم.

الثالث: لا يتظاهر بعضهم على بعض بالإثم والعدوان.

الرابع: إن وجد بعضهم بعضاً أسيراً فداه ولو بجميع ما يملك. والخطاب[٢] هنا لليهود المعاصرين له ﷺ، والمراد أسلافهم المعاصرون لموسى عليه السلام، على سنن التذكيرات السابقة.

أي: واذكروا أيّها اليهود المعاصرون لمحمد ﷺ وقت أن أخذنا الميثاق، وجعلنا العهد على آبائكم في التوراة، وقلنا لهم: ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ ولا تريقون ﴿دِمَآءَكُمْ﴾ أي: لا يُرِقْ بعضكم دم بعض، ولا يقتله ظلماً وعدواناً، فهو إخبارٌ بمعنى النهي، كأنّه سورع إلى الانتهاء فهو يخبر عنه، وإنّما جعل[٣] قتل الرجل غيره قتل نفسه؛ لاتصاله به نسباً أو ديناً؛ أو لأنَّ من أراق دم غيره فكأنّما أراق دم نفسه؛ لأنّه يوجب قصاصاً.

وقرأ الجمهور[٤]: ﴿تَسْفِكُونَ﴾ بفتح التاء، وسكون السين، وكسر الفاء، وقرأ طلحة، وشعيب بن أبي حمزة كذلك، إلاّ أنهما ضَمَّا الفاء، وقرأ أبو نهيك، وأبو مجلز بضمّ التاء، وفتح السين، وكسر الفاء المشدّدة، وقرأ ابن أبي إسحاق كذلك، إلاّ أنّه سكّن السين وخفف الفاء. قال أبو حيان: وظاهر قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾؛ أي: لا تفعلون ذلك بأنفسكم لشدَّةِ تُصِيبكُم، وحَنَق يَلْحَقُكم،

---

(١) الصاوي.

(٢) الفتوحات.

(٣) الخازن.

(٤) البحر المحيط.

وقد جاء في الحديث: أَمْرُ الذي وضع نصل سيفه في الأَرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، وإخبارُ رسول الله ﷺ: «إنّه من أهل النار»، وصحَّ: «من قتل نفسه بحديدةٍ فحديدته في يده يتوجَّأ بها في بطنه في نار جهنّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً»، وتظافرت على تحريم قتل النفس المِلَلُ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

وقيل معناه: لا تسفكوا دماءَ الناس، فإنَّ من سَفك دماءهم سُفك دمه، قال الشاعر:

سَقَيْنـاهُـمُ كَـأْسـاً سَقُـونَـا بِـمِـثْـلِـهَـا   وَلَكِنَّـهـم كـانـوا عـلـى الـمـوت أصـبـرا

وقيل معناه: لا تقتلوا أنفسكم بارتكابكم ما يوجب ذلك، كالإرتداد والزنا بعد الإحصان، والمحاربة وقتل النفس بغير حق، ونحو ذلك مما يُزيل عصمةَ الدماء. وقيل معناه: لا يسفكْ بعضكم دماء بعض، وإليه أشار بقوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»، وكُلُّ أهل دين كنفس واحدة. قاله قتادة، واختاره الزمخشريُّ. اهـ. «ابن عطيّة».

قال ابن عطيّة: إنّ الله أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا ينفيه، ولا يسترقّه، ولا يدعه يُسترق، إلى غير ذلك من الطاعات. اهـ. ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ وأوطانكم، والديار: جمع دار، وهو المنزلة الذي فيه أبنية المقام، بخلاف منزل الارتحال؛ أي: لا يخرج[1] بعضكم بعضاً من منزله ووطنه، أو لا تسيئوا جوار من جاوركم، فتلجئوهم إلى الخروج من دياركم، أو لا تفعلوا ما تخرجون به أنفسكم من الجنّة التي هي داركم، أو لا تخرجون أنفسكم؛ أي: إخوانكم؛ لأنّكم كنفسٍ واحدةٍ، أو لا تفسدوا فيكون سبباً لإخراجكم من دياركم، كأنَّه يشير إلى تغريب الجاني، أو لا تفسدوا وتشاقوا الأنبياء والمؤمنين، فيكتب عليكم الجلاء، أقوالٌ ستّةٌ.

وفي اقتران الإخراج من الديار بالقتل[2]، إيذان بأنّه بمنزلة القَتْلِ.

---

(١) البحر المحيط.   (٢) روح البيان.

والمعنى: أي[1] واذكروا إذ أخذنا عليكم العهد، لا يريق بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم، وأوطانهم، وقد جعل غير الرجل، كأنّه نفسه، ودمه كأنَّه دمه، إذا اتصل به دِيناً، أو نسباً، إشارةً إلى وحدة الأُمّة وتضامنها، وأنَّ ما يصيب واحداً منها فكأنَّما يصيب الأمّة جَمْعَاءَ، فيجب أن يشعر كُلُّ فرد منها بأنَّ نفسه نفس الآخرين، ودمه دمهم، فالروح الذي يحيا به، والدم الذي يَنْبِضُ في عرقه هو كدم الآخرين وأرواحهم، لا فرق بينهم في الشريعة التي وحَّدت بينهما في المصالح العامة، وهذا ما يؤمىء إليه الحديثُ: «إنّما المؤمنون في تراحمهم، وتعاطفهم، بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسَّهر»، وقد يجوز أن يكون المعنى لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل قصاصاً، أو بالإخراج من الديار، فتكونون كأنّكم قد قتلتم أنفسكم؛ لأنّكم فعلتم ما تستحقُّون به القتل، كما يقول الرجل لآخر، قد فعل ما يستحقُّ به العقوبة: أنت الذي جنى على نفسه.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ ذلك الميثاق، وقبلتموه، واعترفتم بلزومه، وبوجوب المحافظة عليه، يعني: قَبِلَ ذلك الميثاق، وأقرّ به أسلافكم ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيّها المعاصرون لمحمدٍ ﷺ ﴿تَشْهَدُونَ﴾ على أسلافكم قَبُولَهم ذلك الميثاقَ والعهدَ، وتعلمون ذلك، أو المعنى؛ أي: ثمّ أقررتم بهذا الميثاق أيها الحاضرون المخاطبون، واعترفتم به، ولم تنكروه بألسنتكم، بل شهدتم به وأعلنتموه، فالحجة قائمةٌ عليكم، وقد يراد وأنتم أيها الحاضرون تشهدون على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق وقبوله، وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى عليه السلام، إمَّا بالنقل المتواتر، وإمّا بما تتلونه في التوراة، وإن كان معنى الشهادة الحضور، فيتعيَّن أن يكون الخطاب لأسلافهم. وقال بعض المفسرين: ثمّ أقررتم عائدٌ إلى الخلق، وأنتم تشهدون عائد إلى السَّلفِ؛ لأنّهم عاينوا سَفْكَ دماءِ بعضهم بعضاً، وقال: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾؛ لأنَّ الأوائل والأصاغر صاروا كالشيء الواحد، فلذلك أطلق عليهم خطاب الحضرة. وقيل: إنَّ قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تأكيدٌ للإقرار،

(١) المراغي.

كقولك: فلان مقرٌّ على نفسه بكذا شاهدٌ عليها.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ خبرٌ، أي: ثم بعد ذلك الإقرار والشهادة، أنتم أيها المعاصرون لمحمد ﷺ! هؤلاء المشاهدون، الحاضرون، الناقضون، الذين يخالفون ما أخذه الله تعالى عليهم في التوراة، فتقتلون أنفسكم وأهل دينكم مع المشركين إلى آخر الآية؛ يعني: أنكم ـ أيُّها المعاصرون لمحمد ﷺ ـ قومٌ آخرون غير أولئك المقرّين الذين هم أسلافكم، وكأنّهم قالوا: كيف نحن، فقيل لهم: إنّكم ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: أهل دينكم مع حلفائكم من المشركين؛ أي: تقتلون الفريق الجارين مجرى أنفسكم باتحادكم في الدين، وهذا وما بعده من الإخراج، والمظاهرة، والمفاداة بيانٌ لقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ لأنّ معنى قوله: ﴿أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أنّكم على حالة أسلافكم من نقض الميثاق، وقال الزجاج: هؤلاء بمعنى الذين؛ أي: ثمّ أنتم الذين تقتلون أنفسكم... إلخ.

وقيل: ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منادى، حذف منه حرف النداء، وجملة ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وما بعده خبرٌ له، والمعنى عليه، ثُمَّ بعد إقرار أسلافكم الميثاق، وشهادتكم على أسلافكم بقبول الميثاق، أنتم ـ يا هؤلاء المعاصرون لمحمد ﷺ ـ تقتلون أنفسكم؛ أي: أهل دينكم مع المشركين، أي: ثُمَّ أنتم بعذ ذلك التوكيد في الميثاق تنقضون العهد، فتقتلون أنفسكم؛ أي: يقتل بعضكم بعضاً، كما كان يفعل مَن قبلكم، مع أنّكم معترفون بأن الميثاق أخذ عليكم كما أخذ عليهم، ومن أمثلة ذلك: أنَّ بني قينقاع من اليهود كانوا حلفاء الأوس، وأعداءً لإخوانهم في الدين بني قريظة، كما كان بنو النضير حلفاء الخزرج، وكان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء يقتتلون، ومع كلٍّ حلفاؤه، وهذا ما نعاه الله على اليهود بقوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ كما سيأتي بسط هذه القصة عن السدّي.

وقرأ الجمهور ﴿تَقْتُلُونَ﴾ مخففاً من قَتَلَ الثلاثي. وقرأ الحسن ﴿تُقَتِّلونَ﴾ مشدَّداً من قَتَّل الرباعيِّ، هكذا في بعضِ التفاسير، وفي تفسير المهدويِّ: إنّها قراءة أبي نَهِيْك، قال: والزهريِّ والحسنِ ﴿تقتِّلُوْنَ أَنبِيَاءَ ٱللهِ﴾ من قتَّلَ؛ يعني: مشدّداً. والله أعلم بصواب ذلك.

﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ أنتم - أيها المعاصرون لمحمد ﷺ - ﴿فَرِيقًا﴾ وطائفةً ﴿مِّنكُم﴾ أي: من أهل دينكم مساعدين للمشركين ﴿مِّن دِيَـٰرِهِمْ﴾؛ أي: من ديار أولئك الفريق وأوطانهم، غير مراعين لميثاق الله سبحانه عليكم في التوراة، وقوله: ﴿تَظَـٰهَرُونَ﴾ وتتعاونون بحلفائكم من المشركين، ﴿عَلَيْهِم﴾ أي: على إخراج أولئك الفريق من ديارهم، حالٌ من فاعل ﴿تُخْرِجُونَ﴾ أو من مفعوله مبيِّنةٌ لكيفية الإخراج، رافعةٌ لتوهُّم اختصاص الحرمة بالإخراج بطريق الأصالة والاستقلال، دون المظاهرة والمساعدة للغير، والمعنى: تُقوون ظُهوركَم بالمشركين للغلبة عليه، وقوله: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ حال من فاعل ﴿تَظَـٰهَرُونَ﴾؛ أي: حال كونكم ملتبسين بالإثم، وهو الفعل الذي يستحقُّ فاعله الذمَّ واللَّوم، ﴿و﴾ ملتبسين بـ ﴿العدوان﴾؛ أي: بالتجاوز للحد في الظلم. وفي «النهر»: الإثم: ما يستحق متعاطيه الذمَّ، أو ما تنفر منه النَّفس، ولا يطمئن إليه القلب، كالقتل ظلماً. والعدوان: مجاوزة الحدِّ في الظلم، كالإخراج من الديار، وأخذ الأموال، وسبْي الذراريِّ. وقرأ عاصمٌ، وحمزة، والكسائي: ﴿تَظَـٰهَرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين وتخفيف الظاء، وأصله: تتظاهرون، فحذفت إحدى التاءين وهي عندنا الثانية، لا الأولى خلافاً لهشامٍ، إذ زعم أنَّ المحذوف هي التي للمضارعة الدالَّة في مثلِ هذا المثال على الخطاب، وكثيراً جاء في القرآن، حذف التاء، وقال الشاعر:

تَعاطَسُون جَميعاً حولَ دارِكُمُ ... فكلُّكُمْ يا بني حمدانَ مزكومُ

يريد تتعاطسون. وقرأ باقي السبعة بتشديد الظاء؛ أي: بإدغام التاء في الظاء. وقرأ أبو حيوة ﴿تَظَـٰهَرُونَ﴾ بضمّ التاء، وكسر الهاء. وقرأ مجاهدٌ، وقتادة باختلافٍ عنهما ﴿تَظَّهَّرُوْنَ﴾ بفتح التاء والظاء والهاء مشدّدين دون ألف، ورويت عن أبي عمرو. وقرأ بعضهم: ﴿تتظاهرون﴾ على الأصل، فهذه خمس قراءات، ومعناها كُلِّها: التعاون والتناصر ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ﴾؛ أي: وإن أتاكم هؤلاء الفريق الذين تظاهرون على إخراجهم، وجاءُوكم، ووقعوا في أيديكم حال كونهم ﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ أي: مأسورين في يد حلفائكم المشركين، معنى إتيانهم لهم: وقوعهم في يد حلفائهم المشركين الأوس، أو الخزرج، فيتمكّنون من افتدائهم منهم

بالمال، والأسارى: جمع أسرى بفتح الهمزة وسكون السين، والأسرى: جمع أسير، فالأسارى بضمّ الهمزة والقصر: جمع الجمع، كما ذكره أبو النجا في «حاشيته على متن الأجرُّوميَّة».

والأسير: من أُخذ قهراً، فهو فعيل بمعنى مفعول من الأسر بمعنى الشدِّ والإيثاق، كما سيأتي بسط الكلام فيه في مبحث اللغة. وقرأ الجمهور[1] ﴿أُسَٰرَىٰ﴾ بضمّ الهمزة بوزن فعالى. وقرأ حمزة أسرى بفتح الهمزة بوزن فَعْلَى، وقوله: ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾ جواب إن الشرطيّة؛ أي: تخرجوهم من الأسر بأعطاء الفداء، والمفاداة تجري بين الفادي وبين قابل الفداء. وقرأ عاصم[2]، ونافع، والكسائي ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾ بضمّ التاء وفتح الفاء، من فادى الرباعي. وقرأ الباقون ﴿تَفْدُوهُم﴾ بفتح التاء وسكون الفاء من فدى، ومعنى تفادوهم: تفدوهم إذ المفاعلة تكون من اثنين ومن واحدٍ، ففاعل بمعنى فعل المجرد وهو أحد معانيه وقيل: معنى فادى بادل أسيراً باسير، ومعنى فدى: دفع الفداء، ويشهد للأوّل قول العباس: (فادَيْتَ نَفسي وفاديت عقيلاً) ومعلوم أنّه ما بادل أسيراً بأسير. وقيل: معنى تفدوهم بالصلح، وتفادوهم بالعنف. وقيل: تفادوهم: تطلبوا الفدية من الأسير، الذي في أيديكم من أعدائكم، ومنه قوله:

قِفِي فَادِيْ أَسِيْرَكِ إنَّ قَوْمِي ... وَقَوْمَكِ ما أَرَى لَهُمُ اجْتِمَاعَا

وتفدوهم: تعطوا فديتهم. وقال أبو عليّ: معنى تفادوهم في اللغة: تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً، وفاديت نفسي؛ أي: أطلقتها بعد أن دفعت شيئاً، وفادى وفدى يتعدَّيان إلى مفعولين، الثاني بحرف جرّ وهو هنا محذوف، تقديره: تفادوهم به؛ أي: بالمال، ذكره في «البحر».

والمعنى: أي وإن يقع ذلك الفريق الذي تخرجونه من دياره وقت الحرب حال كونه أسيراً في يد حلفائكم المشركين، تُخلِّصونه من الأسر بدفع مال الفداء

---

(١) البحر.

(٢) البحر المحيط.

عنهم، وقوله: ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ؛ أي: الشأن ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ متعلّق[1] بقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ﴾ وما بينهما اعتراضٌ، والضمير للشأن، كما ذكرنا في الحلِّ، أو مبهمٌ يفسِّره إخراجهم، أو راجعٌ إلى ما دلَّ عليه ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ من المصدر، وإخراجهم بدلٌ منه، أو عطف بيان، وقال في «الروح» ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿مُحَرَّمٌ﴾ فيه ضمير قائم مقام الفاعل وقع خبراً عن ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾، والجملة خبر لضمير الشأن. اهـ.

والمعنى[2]: أي وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، والحال أنَّ الشأن محرَّم عليكم إخراجهم من ديارهم أوّل مرّةٍ، وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى، أخذ على بني إسرائيل في التوراة أربعة عهودٍ: ترك القتل؛ أي: أن لا يقتل بعضهم بعضاً، وترك الإخراج؛ أي: لا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وترك المظاهرة على أهل دينهم مع أعدائهم، وفك أسراهم من أيدي أعدائهم، وأيما عبدٍ، أو أمةٍ، وجدتموه من بني إسرائيل، فاشتروه، وأعتِقوه، فأَعْرَضوا عن الكلِّ إلاّ الفداء.

وكان النضير[3]، وقريظة أخوين، كالأوس والخزرج، فافترقوا، فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج حين كان بينهما ما كان من العداوة، فكان كُلُّ فريق يقاتل مع حلفائه، فإذا غلبوا خرَّبوا ديارهم، وأخرجوهم من ديارهم، ثُم إذا أُسِرَ رجلٌ من الفريقين فدوه، كما لو أُسِرَ واحدٌ من النضير، ووقع في يد الأوس، افتدته قريظة منهم بالمال، وهكذا يقال في عكس ذلك، وكانت الأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنّةً ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامةً، ولا كتاباً، ولا حلالاً، ولا حراماً، يُعيِّرون قريظة والنضير، ويقولون لهم: كيف تقاتلونهم أوّلاً ثم تفادونهم؟ فيقولون: أُمِرْنَا أن نفديهم، وحُرِّم علينا قتالهم، ولكن نستحي أن تُذَلَّ حلفاؤنا، فذمَّهم الله تعالى بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ﴾ ما في ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ والتوراة، وتصدِّقونه، وتمتثلونه وهو

---

(١) البيضاوي.

(٢) العمدة.

(٣) المراح.

المفاداة ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ما فيه، وتجحدونه ولا تمتثلونه، وهو ترك القتل، والإخراج، والمظاهرة، والذي في الكتاب فعل جميع الواجبات، وترك جميع المحرمات، فهم فعلوا الواجب الذي هو المفاداة، ولم يتركوا المحرَّم الذي هو القتل، والإخراج، والمظاهرة، وذلك منتهى ما يكون من الحماقة، فإنَّ الإيمان لا يتجزأ، والغرض من ذلك؛ التوبيخ لهم؛ لأنّهم جمعوا بين الكفر والإيمان، والكفرُ ببعض آيات الله كفرٌ بالكتاب كِلّه، فلهذا عقب ذلك بقوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَالِكَ . . .﴾ إلخ.

والهمزة في قوله[1]: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي المضمَّن للإنكار، داخلةٌ على محذوف يستدعيه المقام، والفاء عاطفةٌ على ذلك المحذوف، والتقدير: أتفعلون ذلك، فتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعضٍ، مع أنَّ قضيَّة الإيمان، الإيمان بالباقي؛ لكون الكل من عند الله تعالى داخلاً في الميثاق، فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض مع إيمانهم بالبعض ﴿فَمَا جَزَآءُ﴾ نفي؛ أي: ليس جزاء ﴿مَن يَفْعَلُ ذَالِكَ﴾؛ أي: الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان بالبعض ﴿مِنكُمْ﴾ يا معشر اليهود: حالٌ من فاعل يفعل، ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ استثناءٌ[2] مفرَّغ وقع خبراً للمبتدأ؛ أي: ذُلٌّ وهوانٌ مع الفضيحة، وهو قتل بني قريظة، وأسرهم، وإجلاء بني النضير إلى أذرعات، وأريحا من الشام، وقيل: هو أخذ الجزية ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ صفة خزيٌ، ولعلَّ بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر؛ لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب، وإظهار أنَّه لا أثر له أصلاً مع الكفر بالبعض ﴿وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: ويوم تقام فيه الأجزية، وهو عبارةٌ عن زمانٍ مُمْتَدٍّ إلى أن يفصل بين العباد، ويدخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار، ﴿يُرَدُّونَ﴾؛ أي: يرجعون، والردُّ: الرَّجع بعد الأخذ ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ وهو التعذيب في جهنّم، وهو أشدُّ من خزيهم في الدنيا، وأشدُّ من كل عذاب كان قبله، فإنَّه ينقطع وهذا لا ينقطع، وفي الحديث: «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة»، وإنّما كان أشدَّ؛ لما أنَّ معصيتهم كانت أشدَّ المعاصي.

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ أي: بساهٍ ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من القبائح التي من جملتها هذا المنكر؛ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، فيجازيهم بها يوم البعث، وهذا تهديدٌ شديدٌ، وزجرٌ عظيمٌ عن المعصية، وبشارةٌ عظيمةٌ على الطاعة؛ لأنّ الغفلة إذا كانت ممتنعة عليه تعالى، مع أنّه أقدر القادرين وصَلَتِ الحُقوقُ إلى مستحقِّيها، فهو مجازيكم على ما اجترحتم من السيّئات.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُرَدُّونَ﴾ بالياء، وهو مناسب لما قبله من قوله: ﴿مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ﴾ ويحتمل أن يكون التفاتاً، فيكون راجعاً إلى قوله: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ﴾ فيكون قد خرج من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة. وقرأ الحسن، وابن الهرمز باختلافٍ عنهما (تُردُّون) بالتاء، وهو مناسبٌ لقوله: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ﴾ ويحتمل أن يكون التفاتاً بالنسبة إلى قوله: ﴿مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ﴾ فيكون قد خرج من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب، وأشدُّ العذاب الخلود في النار، وأشديته من حيث إنه لا انقضاء له، أو أنواع عذاب جهنّم؛ لأنّها دركاتٌ مختلفةٌ، وفيها أوديةٌ، وحَيَّاتٌ، أو العذاب الذي لا فرح فيه ولا رَوح مع اليأس من التخلُّصِ، أو الأشدِّية بالنسبة إلى عذاب الدنيا، أو الأشدِّية بالنسبة إلى عذاب عامَّتهم؛ لأنّهم الذين أضلُّوهم ودلَّسُوا عليهم، أقوالٌ خمسةٌ. وقرأ نافع[2]، وابن كثير، وأبو بكر: (عمّا يعملون) بالياء، والباقون بالتاء من فوق، فبالياء ناسب ﴿يُرَدُّونَ﴾ قراءة الجمهور، وبالتاء تُناسب قراءةَ ﴿تُردُّون﴾ بالتاء، فيكون المخاطب بذلك من كان مخاطباً في الآية قبل، ويحتمل أن يكون الخطاب لأمّةِ محمد ﷺ، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (إنَّ بني إسرائيل قد مضوا، وأنتم الذين تُعنَوْن بهذا يا أُمّة محمدٍ! وبما يجري مجراه). وهذه الآية من أوعظ الآيات إذ المعنى: إنّ الله بالمرصاد لكل كافر وعاصٍ، ثُمّ أكَّد عظيم حماقتهم وسيىء إجرامهم، ثم شديد نكالهم على ما اجترحوا، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة التي منها الجمع بين

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الإيمان والكفر، هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: استبدلوا الحياة الدنيا ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ أي: عن الآخرة، وأعرضوا عن الآخرة مع تمكّنهم من تحصيلها؛ أي[1] اختاروا لذَّات الحياة الدنيا على لذات الآخرة اختيار المشتري المبيع بدل الثمن؛ لأنّ الجمع بين لذَّات الدنيا ولذات الآخرة غير ممكنٍ، فمن اشتغل بتحصيل لذات الدنيا فاتته لذات الآخرة، أي: أولئك الذين آثروا الحياة الدنيا، واستبدلوها بالآخرة، فقدَّموا حظوظهم في هذه الحياة على حظوظهم في الحياة الآخرة، بما أهملوا من الشرائع، وتركوا من أوامرها التي يعرفونها كما يعرفون أبناءَهم، كالانتصار للحليف المشرك، ومظاهرته على قومه الذين تجمعهم وإيّاه رابطة الدين، والنسب، وإخراج أهله من دياره ابتغاءَ مرضاته ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ دنيويًّا، أو أخرويًّا، فلا يُهَوَّن عليهم العذاب، ولا يُقلَّل بنقص[2] الجزية عنهم في الدنيا، والتعذيب في الآخرة. وقيل: نفس التخفيف مختصٌّ بالآخرة، والمعنى حينئذٍ: فلا يخفَّف عنهم العذاب في الآخرة بالانقطاع، ولا بالقلَّة في كل وقت، أو في بعض الأوقات ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا هم يمنعون من عذاب الله؛ أي: ليس[3] لهم ناصرٌ يدفع عنهم العذاب، وينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمديِّ، ويجيرهم منه.

وهذا[4] إخبار من الله سبحانه وتعالى، بأنَّ اليهود لا يزالون في عذاب موفَّر، لازم لهم بالجزية، والصغار، والذلّة، والمهانة، فلا يُخفَّف عنهم ذلك أبداً ما داموا، ولا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم، ولا يثبت لهم نصر في أنفسهم على عدوِّهم.

واعلم: أن الجمع بين تحصيل لذات الدنيا ولذات الآخرة ممتنعٌ غير

---

(١) العمدة.

(٢) البيضاوي.

(٣) ابن كثير.

(٤) الشوكاني.

ممكن، والله سبحانه مكَّن المكلَّف من تحصيل أيّتهما شاء وأراد، فإذا اشتغل بتحصيل أحدهما، فقد فوَّت الأخرى على نفسه، فجعل الله ما أعرض اليهود عنه من الإيمان بما في كتابهم، وما حصل في أيديهم من الكفر ولذات الدنيا، كالبيع والشراء، وذلك من الله نهاية الذمِّ لهم؛ لأنَّ المغبون في البيع والشراء في الدنيا مذمومٌ، فأنْ يُذَمَّ مشتري الدنيا بالآخرة أولى، فعلى العاقل أن يرغب في تجارة الآخرة، ولا يركن إلى الدنيا ولا يسفك دمه بامتثال أوامر الشيطان في استجلاب حظوظ النفس، ولا يخرج من ديار دينه التي عليها في الأصل الفطرة، فإنَّه إذاً يضِلُّ ويشقى.

قال أبو حيان: وقد تضمّنت[1] هذه الآيات الكريمة من قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى هنا، إخبار الله تعالى، أنّه أخذ الميثاق على بني إسرائيل بإفراد العبادة لله تعالى، والإحسان إلى الوالدين، وإلى ذي القربى، واليتامى، والمساكين، وبالقول الحسن للناس، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأنّهم نقضوا الميثاق بتولِّيهم، وإعراضهم، وأنه أخذ عليهم أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وأنهم أقروا، والتزموا ذلك، فإن الميثاق الأول يتضمَّن الأوامر، والميثاق الثاني يتضمَّن النواهي؛ لأنَّ التكاليف الإلٰهيّة مبنيَّةٌ على الأوامر والنواهي، وكان البدء بالأوامر آكد؛ لأنّها تتضمَّن أفعالاً. والنواهي. تتضمَّن تُروكاً، والأفعال أشقُّ من التروك، وكان من الأوامر: الأمر بإفراد الله بالعبادة وهو رأس الإيمان، إذ مُتعلَّقه أشرف المتعلَّقات، فكان البدء به أولى، ثمَّ نعى عليهم التباسهم بما نهوا عنه، وإن كان قد تقدَّم إخباره أنَّهم خالفوا في الأوامر بقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ لأنَّ فعل المنهيات أقبح من ترك المأمورات؛ لأنَّها تروك، كما ذكرنا.

ثمّ قرَّعهم بمخالفة نواهي الله، وأنّهم مستعينون في ذلك بغير الحق، بل بالإثم والعدوان، ثمَّ ذكر تناقض آرائهم، وسخف عقولهم بفداء من أتى إليهم

(١) البحر المحيط.

منهم، مع أنَّهم هم السبب في إخراجهم وأسرهم مع علمهم بتحريم إخراجهم، وبذكر أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، هذا مع أنَّه كُلَّه حَقٌّ وصِدْقٌ، فلا يناسب ذلك الكفر ببعض والإيمان ببعض، ثم ذكر أنَّ الجزاء لفاعل ذلك هو الخزيُ في الدنيا، وأشدُّ العذاب في الآخرة، وأنَّ الله تعالى لا يغفل عمَّا عملوه فيجازيهم على ذلك. ثم أشار إلى أنَّ من تحلَّى بهذه الأوصاف الذميمة، وخالف أمر الله ونهيه، هو قد اشترى عاجلاً تافهاً بآجلٍ جليلٍ، وآثر فانياً مكدَّراً على بَاقٍ صافٍ، وأنَّ نتيجة هذا الشراء أن لا يخفَّف عنهم ما حلَّ بهم من العذاب، ولا يجدوا ناصراً يدفع عنهم سوء العذاب، وشديد العقاب، لقد خسروا تجارةً، وبدَّلُوا بالنعيم السرمديِّ ناراً وقودها الناس والحجارة، وإذا كان التخفيف قد نفي، فالرفع أولى، وهل هذا إلاّ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؟!. انتهى.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾؛ أي: بالله لقد أعطينا يا بني إسرائيل ﴿مُوسَى﴾ بن عمران؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد أعطينا موسى بن عمران ﴿الْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة جملةً واحدةً.

ومناسبة هذه الآية لِمَا قبلها[1]: أنّ إيتاء موسى الكتاب هو نعمة لهم، إذْ فيه أحكامهم وشرائعهم، ثُمَّ قابلوا تلك النعمة بالكفران، وذلك جَرْيٌ على ما سبق من عادتهم، إذ قد أمروا بأشياء ونهوا عن أشياء، فخالفوا أمر الله ونهيه، فناسب ذكْرُ هذه الآية ما قبلها، والإيتاء[2]: الإعطاء، فيحتمل أن يراد به الإنزال؛ لأنَّه أنزله عليه جملةً واحدةً، ويحتمل أن يراد آتيناه: أفهمناه ما انطوى عليه من الحدود، والأحكام، والأنباء، والقصص، وغير ذلك ممَّا فيه، فيكون على حذف مضاف؛ أي: آتينا موسى علم الكتاب، أو فهم الكتاب، وموسى هو نبيُّ الله موسى بن عمران صلى الله على نبيّنا وعليه وسلّم، وهو لغةٌ عبرانيةٌ، قد سبق عند قوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ...﴾ الآية. والكتاب هنا: التوراة في قول الجمهور، والألف واللام فيه للعهد إذ قرن بموسى، وانتصابه على أنّه مفعول ثان

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

لآتينا، وقال السهيليُّ: إنّه مفعول أوّل له، وموسى هو المفعول الثاني ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ يقال: قفاه به إذا أتبعه إيّاه؛ أي: أتبعنا، وأردفنا، وجئنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد موسى بن عمران ﴿بِٱلرُّسُلِ﴾ زمن عيسى عليهم السلام، متواترةً يظهر بعضهم إثر بعضٍ، والشريعة واحدة، وكانوا يحكمون بشريعة موسى إلى أن بعث الله عيسى عليه السلام، وجاءهم بشريعةٍ جديدةٍ، وغيَّر بعض أحكام التوراة. وقيل إنَّ مدَّة ما بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة وخمسٌ وعشرون سنةً. ذكره السيوطي في «التَّحْبِير».

قيل[1]: إنّ الرسل بعد موسى هم: يوشع بن نون، وشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان، وشعياء، وأرميا، وعزيرٌ، وحزقيلٌ، وإلياسُ، واليسعُ، ويونسُ، وزكريا، ويحيىٰ، وغيرهم، ومنْ في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ لابتداء الغاية وهو ظاهرٌ؛ لأنَّه يُحْكَى: أنَّ موسى لم يَمُتْ حتى نُبِّيء يوشعُ، والباء في قوله: ﴿بِٱلرُّسُلِ﴾ متعلقةٌ بقفينا، والألف واللام يحتمل أن تكون للجنس الخاص، ويحتمل أن تكون للعهد؛ لما استفيد من القرآن وغيره، أنَّ هؤلاء بعثوا من بعده، ويحتمل أن تكون التقفية هي كونهم يتَّبعون في العمل بالتوراة، وأحكامها، ويأمرون باتباعها والبقاء على التزامها. وقرأ الجمهور[2]. ﴿بِٱلرُّسُلِ﴾ بضمّ السين. وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر بتسكينها، وهما لغتان فيه، ووافقهما أبو عَمْرو إن أُضيف إلى ضمير جمع، نحو: (رُسْلهم ورُسْلكم ورُسْلنا)؛ استُثقل توالي أربع متحركات، فسُكِّن تخفيفاً ﴿وَءَاتَيْنَا﴾؛ أي: أعطينا ﴿عِيسَى﴾ بالسريانة[3] اليسوع، ومعناه: المبارك، والأصحّ: أنّه لا اشتقاق له ولأمثاله في العربية، وأضافه إلى مريم أمّه؛ ردّاً على اليهود فيما أضافوه إليه. ﴿ٱبْنَ﴾ بإثبات الألف، وإن كان واقعاً بين العلمين؛ لندرة الإضافة إلى الأمّ ﴿مَرْيَمَ﴾ بالسريانية بمعنى الخادمة والعابدة، قد جعلتها أمّها محرّرة لخدمة المسجد، ولكمال عبادتها

---

(١) أبو السعود والخازن.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

لربّها، سمّاها الحقّ تعالى في كتابه الكريم مع الأنبياء عليهم السلام سبع مرّات، وخاطبها كما خُوطِب الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فشاركها مع الرجال.

وقد أجمل[1] الله سبحانه ذكر الرسل، وفصل ذكر عيسى؛ لأنّ من قبله كانوا متّبعين شريعة موسى، وأمّا عيسى فنسَخَ شَرْعُه كثيراً من شرع موسى؛ أي: وآتينا عيسى ابن مريم ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: الحجج الواضحات والمعجزات الباهرات الدَالَّة على نُبوّته، فيشمل كلَّ معجزة أوتيها عيسى عليه السلام، وهذا هو الظاهر. وقيل: الإنجيل. وقيل: الحجج التي أقامها الله على اليهود، كإحياء الموتى وهو أربعةٌ: سامُ بن نوح، والعازِرو ابنُ العَجوز، وبنتُ العَشَّار، ومن الطير الخفاش. قيل: لم يكن مِنْ قَبْلِ عيسى، بل هو صوَّرهُ، والله نفخ فيه الروح، وقيل: كان قَبْلَهُ، فوضَع عيسى على مثاله. قالوا: وإنّما اختصَّ هذا النوع من الطير؛ لأنّه ليس شيءٌ من الطير أشدَّ خلقاً منه؛ لأنه لحمٌ كلُّه، وكإبراء الأكمه سواء كان كمهه خلقيّاً، أو طارئاً، وإبراء الأبرص، والإخبار بالمغيّبات.

فائدة: ولفظ عيسى[2] لغةٌ عبرانيةٌ معناه: السَّبُوح بفتح السين وضمّ الباء المخفّفة بمعنى: السَّابح، وهو من الخيل السريعُ الجري، وبالسريانية اسمه: أيشوع، ومعناه: المبارك، ولفظ مريم لغةَ سريانية معناه: خادمة الله، وفي كتاب «لسان العرب» هي: المرأة التي تكره مخالطة الرجال، وإنّما خصَّ عيسى بالذكر مع دخوله في قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾؛ إشعاراً بفضله، ومزيَّته على غيره لكونه رسولاً مستقلاً بشرع يخصه: لأنّه نسخ بعض ما في التوراة، وردّاً على اليهود حيث ادَّعوا أنهم قتلوه، وما بين موسى وعيسى: أربعة آلاف نبيٍّ، وقيل: سبعون ألف نبيٍّ، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ أي: قوّينا عيسى عليه السلام. وقرأ الجمهور[3] على

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

(٣) البحر المحيط.

وزن فعَّلناه. وقرأ مجاهد، والأعرج، وحميد، وابن محيصن، وحسين عن أبي عمرو ﴿أأْيَدْناه﴾ على وزن أفعلناه. وقرأ ابن كثير ﴿آيَدْنَاه﴾ بمد الهمزة وتخفيف الياء، وهاتان القراءتان من الشواذ والأصحّ أنّها كلها بمعنى: قوَّيناه، وكُلُّها من الأيد وهو القوّة؛ أي: قوَّيناه، وآنسْنَاه، وشدَدْناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة؛ أي: بالروح المُقدَّس؛ أي: المطهَّر الذي هو جبريل عليه السلام، وذلك لأنّه بشَّر مريم بولادتها له، وكان من نفخه في جيبها، وهو الذي ربَّاه في جميع الأحوال، وكان يسير معه حيث سار، وكان معه حين صعد به إلى السماء وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة، وسُمِّي جبريل روحاً؛ لأنَّ به حياة القلوب بسبب وحيه إلى الأنبياء، كما أنَّ الروح المعروفة بها حياة الأبدان، ووصف بالقدس بمعنى الطُّهرِ؛ لطهارته من المعاصي، والمخالفات، والأقذار، وقد مدحه تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فمعنى تقويته به: أنّه عصمه من أوّل حاله إلى كبره، فلم يدن منه الشيطان عند الولادة، ورفعه إلى السماء حين قصد اليهود قتله. وقيل[1]: أيدناه بالروح المقدَّسة المطهرة، وهي روح عيسى عليه السلام، وُصِفَت بالقدس؛ للكرامة؛ لأنَّ القدس هو الله سبحانه وتعالى، كالقدُّوس. وقرأ الجمهور[2] بضمّ القاف والدال. وقرأ مجاهد، وابن كثير بسكون الدال حيث وقع في القرآن، وفيه لغةٌ: فتحها. وقرأ أبو حيوة: ﴿القُدُوْس﴾ بواوٍ.

قال أبو حيان: والرُّوح هنا: اسم الله الأعظم الذي كان به عيسى عليه السلام يُحيي الموتى. قاله ابن عباس، أو الإنجيل، كما سَمَّى الله تعالى القرآن روحاً في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ قاله ابن زيد، أو الروح الَّتي نفخها الله تعالى في عيسى عليه السلام، أو جبريل عليه السلام. قاله قتادة، والسديّ، والضحاك، والربيع، ونسب هذا القول لابن عباس. قاله ابن عطيّة. وهذا أصحُّ الأقوال، وقد قال النبيُّ ﷺ لحسَّان بن ثابت: «أُهْجُ قُريشاً وروح القدس معك» ومرَّةً قال له: «وجبريل معك». انتهى كلامه.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

قالوا ويُقوّي ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وقال حسان بن ثابت ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

وجبريلُ رسولُ اللهِ فينا ... وروحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

وتسمية جبريل بذلك؛ لأنَّ الغالب على جسمه الرُّوحانيَّة، وكذلك سائر الملائكة؛ أو لأنّه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح، فإنَّه هو المتولِّي لإنزال الوحي؛ أو لتكوينه روحاً من غير ولادةٍ، وتأييد الله عيسى بجبريل عليهما السلام؛ لإظهار حجته وأمر دينه؛ أو لدفع اليهود عنه إذ أرادوا قتله، أو في جميع أحواله، قالوا: وإطلاق الروح على جبريل، وعلى الإنجيل، وعلى اسم الله الأعظم مجازٌ؛ لأنَّ الرُّوح هو الريح المتردّدُ في مخارق الإنسان، أي: في منافذه، ومعلومٌ أنَّ هذه الثلاثة ما كانت كذلك. اهـ. من «البحر».

وخلاصة معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ...﴾ إلخ؛ أي[1]: ولقد أعطينا موسى الكتاب المقدس وهي التوراة، ثمّ أتبعنا من بعده رسولاً بعد رسول مقتفين إثره، فلم يمض زمنٌ إلاّ كان فيه نبيٌّ، أو أنبياء، يأمرون وينهون، فلا عذر لهم في نسيان الشرائع، أو تحريفها، وتغيير أوضاعها، ثُمَّ خصَّ من أولئك الرسل عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.. الخ؛ أي: وأعطينا عيسى المعجزات الباهرة التي تدلُّ على صدق نُبوّته، وأنّه مُوحًى إليه من ربّه، وأيّدناه بروح الوحي الذي يُؤيِّد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم، ومعارفهم، وأرسلناه بعد ظهور كثيرٍ من الرسل، ولم يكن حظّهُ بينهم أحسن من حظِّ سابقيه، ثُمَّ بين ماذا كان حظُّ الرسل من بني إسرائيل، فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾ خاطب بهذا أهل عصر محمد ﷺ، وقد فعله أسلافهم؛ يعني: لم يوجد منهم القتل، وإن وجد منهم الاستكبار؛ لأنّهم يتولَّونهم ويرضون بفعلهم، والراضي بفعل الغير كفاعله، وقد كذَّبوا رسول الله ﷺ فيما جاء به، وسقوه السُمَّ ليقتلوه، وسحروه. ويجوز أن[2] يكون الخطاب عامًّا لجميع بني إسرائيل،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

إذ كانوا على طبق واحد من سوء الأخلاق، وتكذيب الرسل، وكثرة سؤالهم لأنبيائهم، والشكِّ، والارتياب فيما أتوهم به، ويحتمل أن يكون الخطاب لأسلافهم الذين فعلوا ذلك، وسياق الآيات يدلُّ عليه. والهمزة[1] فيه للاستفهام التوبيخيّ داخلةٌ على محذوف، والفاء عاطفة لجواب كلّما على ذلك المحذوف؛ لأنَّ حقَّ الهمزة والفاء أن يدخلا على الجواب؛ أي: ألم تطيعوهم؟ فكلّما جاءكم رسول ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ ولا تريد ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ ولا يوافق هواكم من الحق الذي لا انحراف عنه ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ أي: تكبرّتم، وتعظَّمتم عن الاتباع له، والإيمان بما جاء به من عند الله، واستفعل هنا بمعنى: تفعَّل، وهو أحد معاني استفعل، وفسَّر رسول الله ﷺ الكِبْرَ بأنَّه: «دَفْعُ الحقِ، وغَمْطُ الناس»؛ أي: إنكار الحقِّ، واحتقار الناس.

والمعنى: أدمتم يا معشر اليهود! على التكذيب، فاستكبرتم عن الإيمان كُلَّما جاءكم رسولٌ من الرسل بما لا تهوى، ولا تُحِبُّ أنفسكم؛ أي: استكبرتم عن الإيمان، ودمتم على التكذيب كُلَّ وقتٍ جاءكم رسولٌ منهم بالحقِّ الذي لا يوافق هواكم. ﴿فَفَرِيقًا﴾؛ أي: طائفةً منهم ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى، ومحمدٍ عليهما السلام، والجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ أي: فنشأ عن الاستكبار مبادرتهم فريقاً من الرسل بالتكذيب فقط، حيث لا يقدرون على قتله، ولم يتمكَّنوا منه ﴿وَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا، ويحيىٰ، وغيرهما عليهم السلام؛ أي: وفريقاً منهم بادروه بالقتل إذ قدروا على قتله، وتهيَّأ لهم ذلك، ومعلوم[2] أنَّ من قتلوه فقد كذَّبوه، واستغنى عن التصريح بتكذيبه؛ للعلم بذلك، فذكر أقبح أفعالهم معه، وأجاز أبو القاسم الراغب أن يكون ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ ويكون قوله: أفكُلَّمَا مع ما بعده اعتراضاً بينهما على سبيل الإنكار، والأظهرُ في ترتيب الكلام الأوّلُ، وهذا أيضاً محتملٌ. وقدَّم المفعول وأخّر العامل في قوله: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ ليتَواخى رؤُوسُ الآي، وثَمَّ محذوف،

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

تقديرُهُ: ففريقاً منهم كذبتم، وبدأ بالتكذيب؛ لأنَّه أوّل ما يفعلونه من الشرِّ؛ ولأنه المشترك بين الفريقين المكذِّبِ والمقتولِ، وأَتى بفعلِ القتل مضارعاً؛ لحكاية الحال الماضية؛ ولِمَا فيه من مناسبةِ رؤوس الآي التي هي فواصلُ، وإمَّا لكونه مستقبلاً، لأنّهم يَرُومُونَ قَتْلَ رسولِ الله ﷺ، ولذلك سَحَرَوه وسَمُّوه. اهـ. من «البحر».

والمعنى: إنَّه نشأ من استبكارهم مبادرتهم لفريق من الرسل بالتكذيب، ومبادرتهم لآخرين بالقتل. وعبارة «الروح» هنا: وقدَّم[1] فريقاً في الموضعين؛ للاهتمام، وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم، لا للقصر، ولم يقل قتلتم، وإن أريد الماضي؛ تفظيعاً لهذه الحالة، فكأنَّها ـ وإن مضت ـ حاضرةٌ لشناعتها، ولثبوت عارها عليهم، وعلى ذرِّيتهم بعدهم، أو يراد: وفريقاً تقتلونهم بعد، وإنّكم على هذه النيَّة؛ لأنّكم حاولتم قتل محمد ﷺ، لولا أنّي عصمته منكم، ولذلك سحرتموه، وسممتم له الشاة حتى قال ﷺ عند موته: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني»؛ أي: يراجعني أثر سُمِّها في أوقاتٍ معدودة: «فهذا أوان قَطعَتْ أبهري» وهو عرقٌ منبسطٌ في القلب، إذا انقطع مات صاحبه. وقصته: أنّه لمّا فتحت خيبر وهو موضع بالحجاز قرب المدينة، أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «إنّي سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيّ فيه» قالوا: نعم يا أبا القاسم! قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا» قالوا: نعم، قال: «فما حملكم على ذلك» قالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت صادقاً لم يضرَّك.

واعلم: أنَّ اليهود أَنِفُوا من أن يكونوا أتباعاً، وكانت لهم رئاسةٌ، وكانوا متبوعين، فلم يؤمنوا مخافة أن تذهب عنهم الرئاسة، فما دام لم يخرج حُبُّ الرئاسة من القلب، لا تكون النَّفس مؤمنةً بالإيمان الكامل.

وللنفس صفاتٌ سبعٌ مذمومةٌ: العجب، والكبر، والرياء، والغضب، والحسد، وحُبُّ المال، وحبّ الجاه. ولجهنَّم أيضاً أبوابٌ سبعةٌ: فمن زكى نفسه

---

(١) روح البيان.

عن هذه السبع، فقد أغلق سبعة أبواب جهنم، ودخل الجنّة. وأوصى إبراهيم بن أدهم بعض أصحابه، فقال: كُنْ ذَنباً ولا تكن رأساً، فإنَّ الرأس يهلك، والذنب يسلم. ومعنى قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ...﴾ إلخ؛ أي: أَبَلَغَ[1] الأمر بكم أنَّكم كُلَّما جاءكم رسولٌ من رسلي بغير الذي تهوى نفوسكم أعرضتم، فاستكبرتم عليه تجبُّراً وبغياً في الأرض، فبعضاً منهم تكذِّبون، وبعضاً تقتلون، فلا عجب بعد هذا إن لم تؤمنوا بدعوة محمدٍ ﷺ، فإنَّ العناد والجحود من طبعكم، وسجيَّةٌ عرفت عنكم، ولا غرابة في صدور ما صدر منكم. قال ابن عطيّة: روي أنَّ بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم تقوم سُوقهُم آخرَ النهار. وروي: قتلوا سبعين نبياً، ثمّ تقوم سُوقُ بَقْلِهم آخرَ النهار، فضلا عن سوق الأقمشة النفيسة.

ثُمّ أخبر سبحانه وتعالى عن اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ وبيَّن ضلالهم في اقتدائهم بأسلافهم، فقال حكايةً عنهم: ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: اليهود المعاصرون لمحمد ﷺ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع أغلف، كحمر جمع أحمر، مستعارٌ من الأغلف الذي لم يختن؛ أي: قلوبنا مغشّاة مغطّاة بأغشيةٍ جِبِلِيَّةٍ، وأغطية خِلْقية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد ﷺ، ولا تفقهُهُ، ولا تفهمُهُ. وقرأ الجمهور[2] ﴿غُلْفٌۢ﴾ بإسكان اللام، واختلف في سكون اللام، أهو سكونٌ أصليٌّ، فيكون جمع أغلف، كحمر وأحمر؟ أم هو سكون تخفيف، فيكون جمع غلاف؟ وأصله: الضُمُّ، كحمار وحمر. وقرأ ابن عباس، والأعرج، وابن هرمز، وابن محيصن ﴿غُلُف﴾ بضمّ اللام وهي مرويّةٌ عن أبي عمرو ـ وليست في المتواتر عنه ـ وهو جمع غلاف، ولا يجوز أن يكون في هذه القراءة جمع أغلف؛ لأنّ تثقيل فُعَّل الصحيح العين لا يجوز إلاّ في الشعر، يقال: غلفت السيف، جعلت فيه غلافاً، وأمّا من قرأ ﴿غُلْفٌۢ﴾ بالإسكان، فمعناه: أنّها مستورة عن الفهم والتمييز، وقال مجاهد؛ أي: عليها غشاوة. وقال عكرمة: عليها طابعٌ. وقال الزجاج: ذوات غلفٍ؛ أي: عليها غُلْفٌ لا تصل إليها الموعظة.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وقيل معناه: خُلِقَتْ غُلفاً لا تتدبَّر ولا تعتبر. وقيل: محجوبةٌ عن سماع ما تقُولُ، وفهمِ ما تُبيِّن، ويحتمل على هذه القراءة أن يكون قولهم هذا على سبيل البَهْتِ والمدافعة حتى يُسْكِتوا رسول الله ﷺ، ويحتمل أن يكون ذلك خبراً منهم بحال قلوبهم؛ لأن الأوّل فيه ذَمُّ أنفسهم بما ليس فيها، وكانوا يدفعون بغير ذلك، وأسباب الدفع كثيرةٌ.

وأمّا من قرأ بضمّ اللام[1]، فمعناه: أنّها أوعيةٌ للعلم، أقاموا العلم مقام شيءٍ مجسَّدٍ، وجعلوا الموانع التي يمنعهم غلفاً له؛ ليستدلّ بالمحسوس على المعقول، ويحتمل أن يريدوا بذلك أنَّها أوعية للعلم، فلو كان ما تقوله حقّاً وصدقاً لوَعَتْهُ، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، ويحتمل أنّ يكون المعنى: أنَّ قلوبنا غُلُفٌ؛ أي: مملوءة علماً فلا تسع شيئاً، ولا تحتاجُ إلى علم غيرِه، فإنَّ الشيء المغلق لا يسع غلافه غيره، ويحتمل أن يكون المعنى: إنّ قلوبهم غُلْفٌ على ما فيها من دينهم وشريعتهم واعتقادهم؛ أي: أنَّ دوامَ ملَّتهم إلى يوم القيامة، وهي لصلابتها، وقوّتها، تمنع أن يصل إليها غير ما فيها، كالغلاف الذي يَصُونُ المُغَلَّف أن يصل إليه ما يغيِّره. وقيل المعنى: كالغلاف الخالي الذي لا شيء فيه. اهـ. من «البحر».

والغرض[2]: إقناطه ﷺ من إيمانهم، رَدَّ الله تعالى أن تكون قلوبهم مخلوقةً كذلك؛ لأنها خلقت على الفطرة، والتمكّن من قبول الحق، وأضرب وقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ﴾ وطردهم وأبعدهم ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى عن رحمته ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: بسبب كفرهم وضلالهم: أي: ليس عدم قبولهم لخللٍ في قلوبهم، ولكنَّ الله سبحانه أبعدهم عن رحمته، وخَذلَهم، وخلاَّهُم وشَأنَهم بسبب كفرهم العارض، وإبطالهم لاستعدادهم بسوءِ اختيارهم بالمرَّةِ. وقال أبو حيَّان[3]: و﴿بَل﴾ هنا للإضراب الإبطاليّ عن النسبة التي تضمَّنها قولهم: إنّ قلوبهم غُلفٌ، وليس

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) البحر المحيط.

إضراباً عن اللفظ المقول؛ لأنّه واقعٌ لا محالة، فلا يضرب عنه، وإنَّما الإضراب عن النسبة المفهومة من قولهم: قلوبنا غلفٌ؛ لأنّها خُلقت متمكنة من قبول الحق، مفطورةً لإدراك الصواب، فأخبروا عنها بما لم تُخْلق عليه، ثمّ أخبر تعالى أنّهم لُعِنُوا بسبب ما تقدّم من كفرهم، وجازاهم بالطرد الذي هو اللَّعن المتسبَّب عن الذنب الذي هو الكفر، فانتصاب ﴿قليلاً﴾ في قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ على المصدرية على أنّه نعت لمصدر محذوف، و﴿مَا﴾ مزيدةٌ؛ لتأكيد القلّة، والفاء لسببية[1] اللعن؛ لعدم الإيمان؛ أي: فَبسبَبِ ذلك اللعنِ يؤمنون إيماناً قليلاً في غاية القلّة، قاله قتادة؛ أي: يؤمنون بالقليل مِمَّا كلفوا به؛ لأنّهم يؤمنون بالله، ويكفرون بالرسل، وبما جاؤوا به؛ أي: إيمانهم قليلٌ جدّاً، أو على الظرفية على أنّه نعت لزمان محذوف؛ أي: فيؤمنون زماناً قليلاً في غاية القلة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ﴾ أو على الحالية من فاعل يؤمنون حال كونهم جمعاً قليلاً؛ أي: المؤمن منهم قليلٌ، كعبد الله بن سلام، وأضرابه، وقال هذا المعنى ابن عباس، وقتادة أيضاً، وهو مذهب سيبويه، والأحسن من هذه المعاني كلِّها هو الأول؛ لأنّ دلالة الفعل على مصدره، أقوى من دلالته على الزمان، وعلى الهيئة، وعلى المفعول، وعلى الفاعل؛ ولموافقته ظاهر قوله تعالى: ﴿فلا يؤمنون إلاّ قليلاً﴾ اهـ. من «البحر».

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: ولما جاء اليهود المعاصرين لمحمدٍ ﷺ ﴿كِتَٰبٌ﴾ وقرآن نازلٌ ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ووصفه بقوله: من عند الله؛ للتشريف؛ وللدلالة على أنَّه جديرٌ بأن يقبل، ويُتّبع ما فيه، ويعمل بمضمونه، إذ هو واردٌ من عند خالقهم، وإلٰهِهم الذي هو ناظرٌ في مصالحهم، ﴿مُصَدِّقٌ﴾؛ أي: موافقٌ ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: لكتابهم؛ أي: للتوراة التي في أيديهم في التوحيد، وبعض الشرائع، وصفة محمد ﷺ، وهو صفةٌ ثانيةٌ، وقُدّمت[2] الأولى عليها؛ لأنّ الوصف بكينونته من عند الله آكد، ووصفه بالتصديق ناشىءٌ عن كونه

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

من عند الله تعالى، لا يقال: إنّه يحتمل أن يكون من عند الله متعلِّقاً بجاءهم، فلا يكون صفة؛ للفصل بين الصفة والموصوف بما هو معمولٌ لغير أحدهما. وفي مصحف أُبَيٍّ ﴿مصدقاً﴾ وبه قرأ ابن أبي عبلة، ونصبه على الحال من كتاب وإن كان نكرة، وقد أجاز ذلك سيبويه بلا شرطٍ، فقد تخصَّص هنا بالصفة فقرَّبَتْهُ من المعرفة، وقوله: ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ هو التوراة والإنجيل، وتصديقه إمّا بكونهما من عند الله، أو بما اشتملا عليه من ذكر بعث الرسول ونعته.

قال ابن التمجيد: المصدَّق به: ما يختصُّ ببعثة محمد ﷺ، وما يدلُّ عليها من العلامات لا الشرائع والأحكام؛ لأنَّ القرآن نسخَ أكثرها.

وجواب[1] ﴿لَمَّا﴾ محذوفٌ دلَّ عليه جواب ﴿لَمَّا﴾ الثانية تقديره: ولمَّا جاءهم كتابٌ من عند الله مصدّق لما معهم كذّبوه. وقيل: جوابها جملة قوله الآتي: ﴿كَفَرُوا بِهِۦ﴾ كما سيأتي قريباً. ﴿و﴾ قد ﴿كانوا﴾؛ أي: اليهود ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل مبعث محمد ﷺ، ونزول القرآن، وبُني لقطعِه عن الإضافة إلى معرفة ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ ويستنصرون؛ أي: يطلبون من الله الفتح والنصر ﴿عَلَى﴾ أعدائهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا بالله؛ أي: يستنصرون به على مشركي العرب، وكفار مكة من أَسَدٍ، وغَطَفَانَ، ومُزَيْنَةَ، وجُهَيْنَةَ، ويقولون: اللهمّ! انصرنا عليهم بالنبيِّ الأميّ المبعوث في آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة، فكانوا يُنصَرون عليهم، وكانوا يقولون: لأعدائهم المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قَتْلَ عاد وإرم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ وظهر لهم ﴿مَّا عَرَفُوا﴾ وما سبق لهم تعريفه للمشركين؛ أي: الحقُّ الذي عرفوه أوّلاً من كتابهم حقَّ المعرفة، وأخبروه للمشركين من بعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن: لأنَّ معرفة من أنزل هو عليه معرفةٌ له، والفاء[2] للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلَّل بينهما مدّةٌ مَنْسِيَّةٌ ﴿كَفَرُوا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الحق؛ أي:

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

جحدوا، وأنكروا برسالته ﷺ وبِكَوْنِ القرآن من عند الله تعالى حسداً، وخوفاً على الرئاسة، وحرصاً عليها، وغيَّروا صفته، وهو جواب ﴿لمَّا﴾ الأولى، والثانية تكريرٌ لها، كما مرت الإشارة إليه؛ أي: فيكون قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ تكريراً لقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ للتأكيد؛ ولطول الفصل بين لمّا الأولى، وجوابها الذي هو جملة قوله: ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: إبعادُ الله سبحانه، وطَرْده من خيرات الدنيا والآخرة عليهم؛ أي: على اليهود، ففيه[1] وَضْعُ الظاهر موضع المضمر؛ إشعاراً بأنّهم استحقُّوا اللعنة لكفرهم، والفاء للدلالة على ترتيب اللعنة على الكفر، واللام في الكافرين للعهد، أو للجنس، ودخلوا فيه دخولاً أوّلياً؛ لأنّ الكلام فيهم.

واعلم: أنّ[2] اللعنة في حقّ الكفار: الطرد والإبعاد من الرحمة، والكرامة، والجنّة على الإطلاق، وفي حقّ المذنبين من المؤمنين: الإبعاد عن الكرامة التي وعد بها من لم يَخُضْ في ذلك الذنب، ومنه قوله ﷺ: «مَن احتكر فهو ملعون»؛ أي: من ادّخر ما يشتريه وقت الغلاء لبيعه وقت زيادة الغلاء، فهو مطرودٌ من درجة الأبرار لا من رحمة الغفار.

واعلم: أن الصفات المقتضية للعن ثلاثٌ: الكفر، والبدعة، والفسق، وله في كل واحدة ثلاث مراتب:

الأولى: اللعن بالوصف الأعم، كقولك: لعنة الله على الكافرين، أو المبتدعة والفسقة.

والثانية: اللعن بأوصافٍ أخصَّ منه، كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى، أو على القدريّة، والخوارج، والروافض، أو على الزُّناة والظلمة، وآكل الربا، وكُلٌّ ذلك جائزٌ.

والثالثة: اللعن على الشخص، فإن كان ممن ثبت كفرهم شرعاً، يجوز لعنه

---

(١) النسفي.

(٢) روح البيان.

إن لم يكن فيه أذًى على مسلم، كقولك: لعنة الله على فرعون، وقارون، وهامان، وأبي جهل؛ لأنّه ثبت أنَّ هؤلاء ماتوا على الكفر، وعُرف ذلك شرعاً، وإن كان ممن لم يثبت كفره شرعاً كلعنة الله على زيدٍ، أو عمرٍو، أو غيرهما بعينه، فهذا فيه خطرٌ؛ لأنَّ حال خاتمته غير معلوم، ورُبَّما يسلم الكافر، أو يتوب المذنب، فيموت مقرَّباً عند الله تعالى، فكيف يحكم بكونه ملعوناً؟ ألا ترى أنَّ وحشيًّا قتَلَ عمَّ النبي ﷺ أعني حمزة رضي الله عنه ـ ثُمَّ أسلم على يد النبي ﷺ، وبشَّره الله بالجنّة، وهذا حجةُ مَنْ لم يلعن يزيد بن معاوية؛ لأنّه يحتمل أن يتوب ويرجع عمَّا عليه، فمع هذا الاحتمال لا يُلْعنُ.

قال بعضُهم: لَعْنُ يزيد على اشتهارِ كفره، وتواترِ فظاعةِ شرّه؛ لَمَّا أنَّه كفَرَ حين أمر بقتل الحُسين ـ رضي الله عنه ـ ولِمَا قال في الخمر:

فإنْ حُرِّمَتْ يوماً علىٰ دينِ أحمدٍ فخُذْهَا على دينِ المسيحِ ابنِ مريمِ

واتَّفقوا على جواز اللَّعن على من قتل الحُسَيْن ـ رضي الله عنه ـ أو أمر به، أو أجازه، أو رضي به، كما قال سعد الدين التفتازانيُّ: الحقُّ إنَّ رِضَى يزيد بقَتْلِ الحسين، واستبشاره به، وإهانَته أهلَ بيت النبي ﷺ ممَّا تواتر معناه، وإن كانت تفاصيله آحاداً، فنحن لا نتوقَّف في شأنه، بل في إيمانه لعنة الله عليه، وعلى أنصاره وأعوانه. انتهى.

ثم اعلم(١): أنَّ اللعنة ترتدُّ على اللاعن إن لم يكنْ الملعون أهلاً لذلك، ولعن المؤمن كقتله في الإثم، وربَّما يلعن شيئاً من ماله، فتنزع منه البركة، فلا يلعن شيئاً من خلق الله تعالى، لا للجماد ولا للحيوان، ولا للإنسان، قال ﷺ: «إذا قال العبد لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربّه» فالأولى أن يترك، ويشتغل بدله بالذكر والتسبيح، إذ فيه ثوابٌ، ولا ثواب في اللعن، وإن كان يستحقُّ اللعن.

---

(١) روح البيان.

قال أبو حيان[1]: وظاهر قوله: ﴿مَّا عَرَفُواْ﴾ أنّه الكتاب؛ لأنّه أتى بلفظ ما، ويحتمل أنّه يراد به النبيُّ ﷺ فإنَّ ﴿مَا﴾ قد يعبَّر بها عن صفات من يعقل، ويجوز أن يكون المعنى: ما عرفوه من الحق، فيندرج فيه معرفة نبوّته، وشريعته، وكتابه، وما تضمنه، وقوله: ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لمَّا كان الكتاب جائياً من عند الله إليهم فكذَّبوه، وستروا ما سبق لهم عرفانه، فكان ذلك استهانةً بالمُرْسَلِ، والمُرسَل به، قابلهم الله تعالى بالاستهانة والطَّرد، وأضاف اللعنة إلى الله تعالى على سبيل المبالغة؛ لأنَّ من لعنه الله تعالى هو الملعون حقيقةً ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾، ثمّ إنّه لم يكتف باللعنة حتى جعلها مستعليةً عليهم، كأنّه شيءٌ جاءهم من أعلاهم فجلَّلهم بها، ثُمَّ نبَّه على علّة اللَّعنة وسببها وهي الكفر، كما قال قبل: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ و﴿مَا﴾[2] في قوله: ﴿بِئۡسَمَا﴾ نكرةٌ موصوفة منصوبةٌ على التمييز، مفسّرةٌ لفاعل بئس المحذوف وجوباً، تقديره: بئس وقبح الشيء شيئاً ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾ صفة لما، واشترى بمعنى: باع وابتاع، والمراد هنا الأوّل ﴿بِهِۦٓ﴾ عائد إلى ﴿مَا﴾؛ أي: بذلك الشيء ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ المرادُ[3] بها الإيمان، وإنّما وضع الأنفسَ موضع الإيمان؛ إيذانا بأنّها إنّما خُلقت للعلم، والعملِ به المُعبَّر عنه الإيمان، ولمّا بدّلوا الإيمان بالكفر كانوا كأنّهم بدَّلُوا الأنفس به؛ أي: بئس الشيء شيئاً باعوا به أنفسهم؛ أي: إيمانَهم، والمخصوص بالذمِّ ما ذكره بقوله: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على محمد ﷺ؛ أي: بالكتاب المصدِّق لما معهم بعد الوقوف على حقيقته؛ أي: والمخصوص بالذمّ كفرهم بالقرآن الذي أنزل الله سبحانه على محمد ﷺ، المصدّق للتوارة التي معهم ﴿بَغۡيًا﴾ علّة[4] لأنْ يَكْفُروا أي: حسداً وطلباً لما ليس لهم، كما أنّ الحاسد يطلب ما ليس له لنفسه مما للمحسود من

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

جاه، أو منزلةٍ، أو خصلة حميدة، والباغي: هو الظالم الذي يفعل ذلك عن حسده، والمعنى: بئس الشيء شيئاً باعوه به إيمانَهم كُفْرُهم المعلَّلُ بالبغي الكائن لأجل ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ أي حسداً على أن ينزّل، فإنَّ الحسد يستعمل بعلى؛ أي: حسداً على أن ينزّل الله سبحانه وتعالى وحْياً وكتاباً ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، ويختاره، ويصطفيه ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وخلقه المستأهلين لتحمُّل أعباء الرسالة. وهو محمدٌ ﷺ، وطلباً لما أُنزل عليه لأنفسهم، وذلك أنَّ كفر اليهود لم يكن من شكٍ واشتباهٍ، وإنّما كان حسداً حيث صارت النبوة في ولد إسماعيل، وذلك أنَّ اليهود كانوا يعتقدون نبيَّ آخر الزمان، ويتمنَّون خروجه، وهم يظنُّون أنَّه من ولد إسحاق، فلمَّا ظهر أنّه من ولد إسماعيل حسدوه، وكرهوا أن يخرج الأمر من بني إسرائيل، فيكون لغيرهم من العرب، وعِزُّ النبوّة من يعقوب إلى عيسى عليهما السلام، كان في إسحاق فختم في عيسى، ولم يكن من ولد إسماعيل نبيٌّ غير نبينا محمد ﷺ، فختمت النبوَّة على غيرهم، وعدموا العزّة، والشرف، والفضل، فحسدوا لذلك.

وقرأ أبو عمرو[1]، وابن كثير: جميع المضارع مخفَّفاً من أنزل، إلاّ ما وقع الإجماع على تشديده وهو في الحِجْرِ ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ إلاّ أن أبا عمرو شدَّد ﴿على أن ننزل﴾ آيةٌ في الأنعام، وابن كثير شدد، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ و﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ وشدَّد الباقون المضارع حيثما وقع إلاّ حمزة، والكسائي فخفَّفا ﴿وينزل الغيث﴾ في آخر لقمان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في الشورى والهمزة والتشديد كُلٌّ منهما للتعدية.

﴿فَبَآءُو﴾ أي: رجعوا وانصرفوا من الله ملتبسين ﴿بِغَضَبٍ﴾ كائنٍ ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي: احتملوا بلعنةٍ من الله بسبب كفرهم بمحمد ﷺ، وبالقرآن مع غضبٍ استحقُّوه، أوّلاً بتضييع التوراة وبتبديله، وبالكفر بعيسى؛ أي: استحقُّوا غضباً لاحقاً مع غضبٍ سابقٍ لهم، فاستحقُّوا لعنةً بعد لعنةٍ لأمور صدرت منهم،

---

(١) البحر المحيط.

فصاروا مستحقين غضباً مترادفاً، ولعنةً إثر لعنةٍ لعله: بما اقترفوا من كُفْر على كُفْر، فإنّهم كفروا بنبي الحق، وبغوا عليه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلها، والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ. وقيل: الأوّل بعبادتهم العجل، والثاني: بكفرهم بمحمد ﷺ. وقيل: الأوّل بكفرهم بعيسى والإنجيل، والثاني: بمحمد ﷺ، والقرآن ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ولهم، والإظهار[1] في مقام الإضمار؛ للإشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: ذو إهانة وإذلالٍ؛ أَيْ: وللجاحدين بنبوَّة محمد ﷺ من الناس كُلِّهم ﴿عَذَابٌ﴾ شديدٌ ﴿مُّهِينٌ﴾؛ أي: مُذِلٌّ لهم؛ أي: ذو إهانة وإذلال لهم، ولا يوصف بذلك إلاّ عذاب الكافرين؛ لأنَّ كفرهم سببه التكبُّر والحسد، فقوبلوا بالإهانة والصغار، وأمّا ما يقع للعصاة في الدنيا من المصائب، وفي الآخرة من دخول النار، فهو تطهيرٌ لهم.

ودلَّت الآية على أنَّ عذاب المؤمنين تأديبٌ وتطهيرٌ، وعذاب الكافرين إهانةٌ وإذلالٌ، وأنّ المراتب الدُّنيويَّة والأخرويَّة كُلَّها من فيض الله وفضله، فليس لأحدٍ أن يعترض عليه، ويحسده على الألطاف الإلٰهيَّة، فإنَّ الكمالات، مثل: النبوّة والولاية، ليست من الأمور الاكتسابيَّة التي يصل إليها العبد بجهد كثير، وكمال اهتمامٍ.

والمعنى: أي[2] ولهم بسبب كفرهم عذابٌ يصحبه إهانةٌ وإذلالٌ في الدنيا والآخرة، أمّا في الدنيا فيما يصيبهم من الخزي، والنكال، وسوء الحال، ليكونوا عبرة لمن يخلفهم من بعدهم، وأمّا في الآخرة فبخلودهم في جهنَّم وبئس المصير. ثمَّ ذكر ما يكون منهم لدى الحوار مع رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: وإذا قال المسلمون لليهود الموجودين في عصر النبي ﷺ في المدينة وما حولها، ومعنى اللام: الإنهاء، والتبليغ. وإسناد ﴿قِيلَ﴾ إلى ﴿ءَامِنُوا﴾ إسنادٌ له إلى لفظه، كأنّه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول، كقولك: أُلِّف (ضَرَبَ) من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

ثلاثة أحرف ﴿ءَامِنُواْ﴾ وصدِّقوا ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: بالقرآن الذي أنزل الله على محمد ﷺ، أو بكُلِّ ما أنزل الله من الكتب الإلٰهيّة جميعاً ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قالت اليهود في جواب هذا القيل: ﴿نُؤْمِنُ﴾؛ أي: نستمر على الإيمان ﴿بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ يعنون به التوارة، وما أنزل على أنبياء بني إسرائيل لتقرير حكمها، ويدسُّون فيه، أنَّ ما عدا ذلك غير منزل عليهم، وأسندوا الإنزال على أنفسهم؛ لأنّ المنزَّل على نبيٍّ، منزلٌ على أُمّته معنًى؛ لأنّه يلزمهم؛ أي: نؤمن ونصدِّق بما أنزل على أنبيائنا من التوراة، وكتب سائر الأنبياء الذين أتوا بتقرير شريعة موسى عليه السلام؛ أي: يكفينا الإيمان به دون غيره ﴿و﴾ هم ﴿يكفرون بما وراءه﴾؛ أي: سوى ما أنزل عليهم؛ أي: بما بعد ما أنزل عليهم من الإنجيل والقرآن ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أنَّ ما وراء التوراة؛ أي: أنّ ما أنزل عليهم من القرآن ﴿الحق﴾ أي: الصدق الثابت من الله تعالى؛ أي: المعروف بالحقيقةِ، الحَقِيقُ بأن يُخَصَّ به اسمُ الحق على الإطلاق حال كونه ﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقاً في التوحيد ﴿لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ من التوراة غير مخالف له حالٌ مؤكّدةٌ من الحق، والعامل فيها ما في الحق من معنى الفعل، وصاحب الحال ضميرٌ دَلَّ عليه الكلام: أي: أُحِقُّه مصدّقاً؟ أي: حال كونه موافقاً لما معهم، وفيه ردٌّ لمقالتهم؛ لأنّهم إذا كفروا بما يوافق التوراة، فقد كفروا بها فلا يصحّ دعواهم الإيمان بالتوراة.

ثمَّ اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع إِدِّعَائهم الإيمانَ بالتوراة[1]، والتوراة لا تسوِّغ قتل نبي بقوله: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد! تبكيتاً لهم من جهة الله تعالى، ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم؛ أي: إلزاماً وبياناً لكفرهم بالتوراة التي ادَّعوا الإيمان بها، إذا كان إيمانكم بالتوراة صحيحاً ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي فلم قتلتم أنبياء الله ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل نزول القرآن، كزكريَّا ويحيىٰ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بالتوراة حقّاً، فإنَّ في التوراة تحريمَ القتل بغير حقّ، فأيُّ كتاب جوَّز لكم قتلهم؟ والمعنى: أنّهم لو آمنوا بالتوراة لما قتلوا الأنبياء، فآلَ أمْرُهم إلى كفرهم بجميع ما أنزل الله تعالى، لا بالبعض فقط كما ادَّعوه.

---

(١) روح البيان.

قوله: ﴿فَلِمَ﴾ أصله: (لما) لامه للتعليل، دخلت على ما الاستفهامية، وسقطت الألف؛ فرقاً بين الاستفهامية والخبريّة. وصيغة الاستقبال في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾؛ لحكاية الحال الماضية، وهو جواب شرط محذوف، تقديره: قُلْ لهم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون، فلأيٍّ شيءٍ تقتلون أنبياء الله من قبل وهو فيها حرام؟.

فإن قلت: الخطاب[1] مع الموجودين في زمن النبي ﷺ، فلم خوطبوا بالقتل مع أنَّ قتل الأنبياء ليس واقعاً منهم، بل من أسلافهم؟.

قلتُ: خوطبوا بذلك؛ لأنّهم رضوا بفعل أسلافهم، والرضا بالكفر كفرٌ؛ أو لأنّهم أصرُّوا على قتل محمدٍ ﷺ، وقد تسبَّبُوا في ذلك مراراً، كما مرّ. وعبارة «الروح»: وأسند فعل الآباء وهو القتل إلى الأبناء؛ للملابسة بين الآباء والأبناء. اهـ.

قال أبو الليث: وفي الآية دليل على أنّ من رضي بالمعصية، فكأنَّه فاعلٌ لها؛ لأنّ اليهود راضون بقتل آبائهم، فسمَّاهم الله تعالى قاتلين، حيث قال: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ الآية. وقرأ نافع وحده ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ مهموزاً في جميع القرآن، ووقف[2] البزّيُّ (فَلِمَهْ) بالهاء، ووقف غيره بغير هاء، ولا يجوز هذا الوقف إلا للاختبار، أو لانقطاع النفس. وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط جوابه محذوف؛ لدلالة ما قبله عليه؛ أي: إن كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم، وهو تكريرٌ للاعتراض؛ لتأكيد الإلزام، وتشديد التهديد. وقيل: ﴿إِن﴾ نافية؛ أي: ما كنتم مؤمنين؛ لأنَّ من قتل أنبياء الله لا يكون مؤمناً، فأخبر تعالى: أنَّ الإيمان لا يجامع مع قتل الأنبياء؛ أي ما اتَّصف بالإيمان مَنْ هذه صفته. قيل: والأظهر أنَّ ﴿إِن﴾ شرطية، والجواب محذوف كما مرَّ آنفاً

ثمّ ذكر سبحانه: أنّهم كفروا بالله مع وضوح الآيات في زمن موسى عليه

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ﴾ وهذا من [1] تمام التبكيت والتوبيخ، داخلٌ تحت الأمر بالقول، واللام موطِّئةٌ للقسم؛ أي: وعزّتي وجلالي: لقد جاءكم وأتاكم موسى بن عمران عليه السلام، حالة كونه ملتبساً ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحة الظاهرة الدالّة على صدقه، وصحّة نبوّته؛ يعني: الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام، المذكورةَ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ وهي العصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات، والدم، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، وفلق البحر ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلٰهاً وعبدتموه ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد مجيئه بها، أو من بعد ذهاب موسى إلى جبل الطور لأخذ التوراة، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة، والدلالة على نهاية قبح ما فعلوا، وجملة قوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ أنفسكم بعبادته، حال من فاعل ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾؛ أي: عبدتم العجل، والحال أنّكم واضعون العبادة في غير موضعها، أو حال كونكم ظالمين أنفسكم بعبادته، وهذه الآية توبيخ لليهود على كفرهم، وعبادتهم العجل بعدما رأوا آيات موسى، وبيان أنّهم كفروا بمحمد ﷺ، فليس بأعجب من كفرهم في زمن موسى؛ لقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب قدرة الله تعالى التي أجراها على يد موسى عليه السلام، ومع ذلك عبدوا العجل وكرّرت هذه الجملة ـ أعني: جملة اتخاذ العجل ـ لدعواهم أنّهم يؤمنون بما أنزل عليهم وهم كاذبون في ذلك، ألا ترى أنّ اتخاذ العجل ليس في التوراة؛ بل فيها أن يفرد الله سبحانه بالعبادة؛ أو لأنّ عبادة غير الله أكبر المعاصي، فكرّر عبادة العجل؛ تنبيهاً على عظيم جرمهم؛ ولأنّ ذكر ذلك أعقبه تعداد النعم بقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ و﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ وهنا أعقبه التقريع والتوبيخ، ولأنّ في قصّة الطور ذكر توليهم عما أمروا به من قبول التوراة، وعدم رضاهم أحكامها اختياراً حتى أُلْجِئُوا إلى القبول اضطراراً، فدعواهم الإيمان بما أنزل إليهم غير مقبولة، ثمّ في قصّة الطور تذييلٌ لم يتقدّم ذكره، والعرب متى أرادت التنبيه على تقبيح شيء، أو تعظيمه كرَّرته، وفي هذا ـ التكرار أيضاً من الفائدة: تذكارهم

---

(١) البحر المحيط.

بتعداد نعم الله عليهم، ونقمه منهم؛ ليزدجر الأخلاف بما حلّ بالأسلاف. اهـ. من «البحر».

الإعراب

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجرّ بإضافة ﴿إذ﴾ إليها، والظرف في محل النصب معطوف على الظروف السابقة المعطوفة على ﴿نِعْمَتِيَ﴾ تقديره: واذكروا يا بني إسرائيل! وقت أخذنا ميثاقكم ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جملة مفسّرة للميثاق لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وإذ أخذنا ميثاقكم وقلنا: لا تسفكون دماءكم ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتخرجون، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجرّ معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَشْهَدُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب حال من تاء ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾، تقديره: حالة كونكم شاهدين على آبائكم قبول ذلك الميثاق.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ها حرف تنبيه ﴿أولاء﴾ اسم إشارة للجمع المطلق في محل النصب منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء للتخفيف، مبني بضمّ مقدّر على الأخير منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة البناء الأصلي، وجملة النداء جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المبتدأ والخبر ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به

ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: ثمّ أنتم يا هؤلاء! قاتلون أنفسكم، والجملة الإسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ الواو عاطفة ﴿تُخْرِجون فريقاً﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿مِّنكُم﴾ جار ومجرور صفة لفريقاً ﴿مِنْ دِيارهم﴾ جار ومجرور متعلّق بتخرجون، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾. ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ فعل مضارع وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿تخرجون﴾؛ أي: تخرجونهم من ديارهم حالة كونكم مُتعَاوِنيْن ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلّقٌ بتظاهرون ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ والباء للملابسة ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ معطوف على الإثم، والتقدير: تظاهرون عليهم حالة كونكم ملتبسين بالإثم والعدوان ﴿وَإِن﴾ الواو استئنافية، أو اعتراضية إنْ حرف شرط وجزم ﴿يَأْتُوكُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل ومفعول به مجزوم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون ﴿أُسَٰرَىٰ﴾ حال من فاعل ﴿يَأْتُوكُمْ﴾؛ أي: حالة كونهم مأسورين لحلفائكم ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل ومفعول به مجزوم بإن الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف النون، وجملة إن الشرطية مستأنفة، أو معترضة؛ لاعتراضِها بين المعطوف وهو قوله: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ...﴾ الخ، والمعطوف عليه وهو جملة ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾. أو في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية ﴿هو﴾ ضمير الشأن في محل الرفع مبتدأ، ويسمّى ضمير القصّة، ولا يرجع إلاّ على ما بعده، إذ لا يجوز للجملة المفسِّرة له أن تقدَّم هي، ولا شيءٌ منها عليه، وفائدته: الدلالة على تعظيم المخبَر عنه وتفخيمه، وهذا هو الظاهر من الوجوه المنقول فيه، فيكون في محل رفع بالابتداء، قال في «المغني»: خالف القياس في خمسة أوجه:

أحدها: عوده على ما بعده لزوماً، إذ لا يجوز للجملة المفسِّرة له أن تتقدَّم عليه، ولا شيءٌ منه.

الثاني: أنَّ مفسِّره لا يكون إلاّ جملةً.

الثالث: أن لا يتبع بتابع فلا يؤكَّد، ولا يعطف عليه، ولا يبدل منه.
الرابع: أنّه لا يعمل فيه إلاّ الابتداء، أو ناسخٌ.
الخامس: أنّه ملازم للإفراد، ومن أمثلته: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. اهـ. «كرخي».

﴿مُحَرَّمٌ﴾ خبر مقدّم، وفيه ضمير قائم مقام الفاعل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بمحرّم. ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة الإسمية في محل الرفع خبرٌ لضمير الشأن، ولم يحتج هنا إلى عائدٍ على المبتدأ؛ لأنَّ الخبر نفس المبتدأ وعينه. اهـ. «كرخي»، والجملة الإسمية من المبتدأ الأول وخبره في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ على كونها حالاً من فاعل ﴿تخرجون﴾، تقديره: وحالة كونكم محرّماً عليكم إخراجهم، ولكنّها حالةٌ سببيّةٌ، أو من مفعوله، أو منهما، وما بينهما اعتراض.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف، تقديره: أتفعلون ذلك، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف ﴿تؤمنون﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة ﴿بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتؤمنون ﴿وَتَكْفُرُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تؤمنون﴾ ﴿بِبَعْضٍ﴾ متعلق بتكفرون ﴿فَمَا﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: إذا عرفتم قبح صنيعكم، وأردتم بيان جزاء من يفعل ذلك، فأقول لكم: ما جزاء ﴿مَا﴾ نافيةٌ مهملةٌ؛ لانتقاض نفيها بإلاّ ﴿جَزَآءُ﴾ مبتدأ، وهو مضاف ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الجرّ مضاف إليه ﴿يَفْعَلُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفعول به، والجملة صلةُ ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد ضمير الفاعل ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوفٍ حالٍ من فاعل ﴿يَفْعَلُ﴾، تقديره: حالة كونه كائناً منكم ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ ﴿خِزْىٌ﴾ خبر

المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿فِي الْحَيَوٰةِ﴾ جار ومجرور متعلق بخزيٌ، أو بمحذوفٍ صفةٍ لخزي ﴿الدُّنْيَا﴾ صفة للحياة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ﴾ الواو عاطفة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرفٌ ومضاف إليه متعلّق بيردُّون ﴿يُرَدُّونَ﴾ فعل مغيّر الصيغة ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ عطف فعليّة على إسميّة ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلِّق بيردّون، ﴿وَمَا اللَّهُ﴾ الواو عاطفة مَا نافية حجازيّة ولفظ الجلالة اسمها مرفوع ﴿بِغَـٰفِلٍ﴾ خبرها منصوب بفتحة مقدّرة والباء زائدة، وجملة مَا الحجازيّة من اسمها وخبرها في محلِّ النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾. ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بغافل مَا موصولة، أو موصوفة، أو مصدريّة في محل الجرّ بعن، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة للموصولة، أو صفة للموصوفة، أو صلةٌ لما المصدريَّة؛ أي: عن عملكم، وعائد الموصولة محذوف، تقديره: عمّا تعملونه.

﴿أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

﴿أُولَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾ خبره، والجملة مستأنفة ﴿اشْتَرَوُا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد واو الفاعل ﴿الْحَيَوٰةَ﴾ مفعول به ﴿الدُّنْيَا﴾ صفة للحياة ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ متعلّق باشتروا ﴿فَلَا﴾ الفاء حرف عطف وتفريغ، ﴿لَا﴾ نافية ﴿يُخَفَّفُ﴾ فعل مضارع مغيَّر الصيغة ﴿عَنْهُمُ﴾ متعلق به ﴿الْعَذَابُ﴾ نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿اشْتَرَوُا﴾ على كونها صلة الموصول ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ خبره، تقديره: ولا هم منصورون، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾ عطف إسميةٍ على فعليّة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا

﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو استئنافية ﴿لقد﴾ اللام موطِّئةٌ للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿ءَاتَيْنَا﴾ فعل وفاعل، وهو بمعنى، أعطينا يتعدَّى لمفعولين ﴿مُوسَى﴾ مفعول أوّل ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محلٌ لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ الواو عاطفة قفينا فعل وفاعل معطوفٌ على آتينا وهو بمعنى جئنا يتعدّى إلى المفعول بواسطة حرف الجر ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقفَّيْنا، أو متعلقٌ بمحذوفٍ حالٍ من الرُّسل ﴿بِٱلرُّسُلِ﴾ جار ومجرور متعلِّق بقفينا أيضاً ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى﴾ فعل وفاعل ومفعول أوّل معطوف على ﴿قفينا﴾. ﴿ٱبْنَ﴾ بدل أو صفة لعيسى ﴿مَرْيَمَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة للعَلَميَّة والعجمية، أو التأنيث المعنوي ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مفعول ثان منصوب بالكسرة ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿آتينا﴾. ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأيدناه ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة لجواب كلّما على ذلك المحذوف؛ لأنّ حقَّ الهمزة والفاء أن يدخلا على الجواب؛ لأنّه المستفهم عنه، والموبَّخ عليه، والمعيَّر به، والتقدير: أدمتم على التكذيب يا معشر اليهود! واستكبرتم عن الإيمان كلّما ﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾. ﴿كلّما﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبنيٌّ على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلِّق بالجواب ﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾ فعل ومفعول به وفاعل، و﴿جاء﴾ هنا بمعنى: أتى يتعدَّى إلى المفعول بلا واسطة حرف جرٍّ، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿كلّما﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بجاءكم ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَهْوَىٰٓ﴾ فعل مضارع ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ فاعل، والجملة صِلةٌ لما الموصولة لا محل لها من الإعراب، والعائد محذوف، تقديره: بما لا تهواه أنفسكم ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿كلّما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كلّما﴾ من فعل شرطها وجوابها، جملةٌ إنشائيّة لا محل لها من الإعراب ﴿فَفَرِيقًا﴾ الفاء عاطفة ﴿فَرِيقًا﴾ مفعول به مقدَّم لكذبتم؛ قُدِّم للاهتمام به ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾

على كونها جواباً لكلّما ﴿وَفَرِيقًا﴾ الواو عاطفة ﴿فريقا﴾ مفعول مقدّم لتقتلون؛ لرعاية الفواصل ﴿تَقْتُلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَذَّبْتُمْ﴾.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو استئنافية ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿بَل﴾ حرف إضراب وعطف، للإضراب الإبطالي ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ماض ومفعول مقدّم وفاعل مؤخر وجوباً ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ مُتعلّق بلعنهم، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالُواْ﴾، ﴿فَقَلِيلًا﴾ الفاء استئنافية، أو عاطفة ﴿قليلا﴾ منصوب على المصدرية بيؤمنون، قدّم عليه؛ لرعاية الفاصلة؛ لأنّه صفة لمصدر محذوف؛ أي: يؤمنون إيماناً قليلاً، أو منصوب على الظرفية بيؤمنون أيضاً؛ لأنّه صفة لزمان محذوف، تقديره: أي يؤمنون زماناً قليلاً، أو على الحالية من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: حال كونهم جمعاً قليلاً و﴿مَّا﴾ زائدة؛ زيدت لتأكيد القلّة، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أو مستأنفة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو استئنافية ﴿لـمَّا﴾ حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَهُمْ﴾ فعل ومفعول به ﴿كِتَٰبٌ﴾ فاعل، والجملة فعل شرطٍ للمَّا لا محل لها من الإعراب ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة أولى لكتاب، تقديره: منزَّلٌ من عند الله ﴿مُصَدِّقٌ﴾ صفة ثانية لكتاب، وفي قراءة: بالنصب على الحال من ﴿كِتَٰبٌ﴾ كما مرّ ﴿لِّمَا﴾ اللام حرف جرٍ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجرّ باللام متعلّق بمصدق ﴿مَعَهُمْ﴾ (مع) منصوب على الظرفية، والهاء ضمير الغائبين في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوفٍ صلة ﴿لِمَا﴾ الموصولة، وجواب ﴿لِمَا﴾ محذوف؛ لعلمه من جواب ﴿لمَّا﴾ الآتية، تقديره: كذّبوه وأنكروه، وجملة ﴿لِمَا﴾ مع جوابها المحذوف مستأنفة ﴿وَكَانُواْ﴾ الواو حالية ﴿كانوا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿مِن﴾ حرف جر ﴿قَبْلُ﴾ ظرف زمان في محل الجر بمن، مبني على الضمّ؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ لافتقاره إلى المضاف إليه

المحذوف لنية معناه، والجار والمجرور متعلق بيستفتحون، أو بكانوا ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، وجملة كان في محل النصب حال من فاعل الجواب المحذوف ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بيستفتحون، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ الفاء عاطفة بمعنى الواو ﴿لَمَّا﴾ حرف شرط غير جازم جَاءَهُم فعل ومفعول به ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿عَرَفُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما عرفوه، وجملة ﴿جَآءَهُم﴾ فعل شرط لِلَمَّا لا محل لها من الإعراب ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بكفروا، وجملة ﴿لَمَّا﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفةٌ على جملة ﴿لَمَّا﴾ الأولى، ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ الفاء استئنافيّة، أو فصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت صنعهم القبيح، وأردت بيان ما يستحقون به، فأقول لك: لعنة الله على الكافرين ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿بِئْسَمَا﴾ ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذمّ، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ لشبهه بالمثل، تقديره: يعود على شيء ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة بمعنى شيء في محل النصب تمييز لفاعل ﴿بئس﴾. ﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق باشتروا، والجملة صفة لما، والرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لما، ولكنّها سببية، والتقدير: بِئْسَ الشيء شيئاً مشترًى به أنفسهم ﴾ ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يَكْفُرُوا۟﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والواو فاعل ﴿بِمَآ﴾ جار - ومجرور متعلق بيكفروا ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد محذوف، تقديره: بما أنزل الله به، وجملة ﴿يَكْفُرُوا۟﴾ صلة ﴿أَن﴾ المصدرية و﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، على كونه

مخصوصاً بالذمّ لبئس، وجملة ﴿بئس﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبرٌ عنه، والتقدير: كفرهم بما أنزل الله به، بئس شيئاً باعوا به أنفسهم، والجملة من المبتدأ والخبر جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، أو مرفوعٌ على أنّه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: والمخصوص بالذمّ كفرهم بما أنزل الله، كما قال: ابن مالك في «خلاصته»:

وَيُعْرَبُ المَخْصُوص بَعْدَ مُبْتَدَا   أوْ خَبَر اسْمٍ لَيْسَ يَبْدُو أبَدَا

﴿بَغْيًا﴾ مفعول لأجله منصوب بيكفروا ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن المصدرية، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: بغياً وحسداً على إنزال الله من فضله على من يشاء، والجار المحذوف متعلِّقٌ ببغياً؛ لأنّه بمعنى حسداً ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لموصوف محذوف معمول لـ﴿يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾، تقديره: أنّ ينزّل الله وحْياً كائناً من فضله وإحسانه ﴿عَلَىٰ مَن﴾ جار ومجرور متعلق بينزّل ﴿يَشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: على من يشاؤهُ ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير المحذوف العائد على ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿فَبَآءُو﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر، تقديره: إذا عرفت بغيهم الشنيع، وحسدهم الفظيع، وأردت بيان جزائهم، فأقول لك: باءوا بغضبٍ ﴿باءوا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿بِغَضَبٍ﴾ متعلِّق بباءوا، أو حال من فاعل ﴿باءوا﴾؛ أي: حال كونهم ملتبسين بغضب ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ صفة لغضب ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ الواو استئنافية ﴿للكافرين﴾ خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة العذاب، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ الواو استئنافية ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بقيل ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ نائب فاعل محكي لقيل مرفوع بضمّة مقدّرة على لفظ الجلالة الممنوعة بحركة الحكاية، والجملة من الفعل المُغيَّر ونائب فاعله، في محل الجر بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، وإن شئت قلت: ﴿ءَامِنُواْ﴾ فعل أمر وفاعله، والجملة في محل الرفع نائب فاعل ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بآمنوا ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، والعائد محذوف، تقديره: بما أنزله الله ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَآ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ مقول محكي لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿نُؤْمِنُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على اليهود، تقديره: نحن، والجملة في محل النصب مقول لقالوا ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بنؤمن ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَا﴾ تقديره: هو، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بـ﴿أنزَلَ﴾ ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ الواو حالية ﴿يكفرون﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُواْ﴾ تقديره قالوا ذلك حال كونهم كافرين بما وراءه ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بيكفرون ﴿وَرَآءَهُۥ﴾ منصوب على الظرفيّة، والهاء مضاف إليه، والظرف متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب حالٌ من ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ والعامل فيها ﴿يكفرون﴾ تقديره: ويكفرون بما وراءه حالة كونه حقاً ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال ثانية من ﴿مَا﴾ أيضاً مؤكّدة لمضمون الجملة؛ لأنّ تصديق القرآن لازم له، لا ينتقل عنه؛ لأنّ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ قد تضمّن معناها، وصاحبها ضمير دلّ عليه الكلام، وعاملها فعل مضمر، تقديره: أحقّه مصدّقاً ﴿لِمَا﴾ جار ومجرور متعلّق بمصدّقاً ﴿مَعَهُمْ﴾ ظرف ومضاف إليهم متعلق بمحذوف صلة ﴿لِمَا﴾، أو صفة لها ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَلِمَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط

مقدّر، تقديره إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله، اللام حرف جرّ ﴿مَا﴾ اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة؛ فرقاً بينها وبين الموصولة؛ لشبهها بالحرف شبهاً معنويّاً، وقد تحمل الاستفهامية على الخبريّة فتثبت ألفها، وقد تحمل الخبريّة على الاستفهامية فتحذف ألفها. انتهى. «سمين». الجار والمجرور متعلق بتقتلون ﴿تَقْتُلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بأن الشرطيّة على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية المحذوفة في محل النصب على كونها مقولاً لقل ﴿أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلق بتقتلون ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بإن الشرطية على كونها فعل شرط لها ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ خبرها، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم مؤمنين، فلم فعلتم ذلك، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لقل.

وفي «الفتوحات الإلٰهية» قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في ﴿إِن﴾ قولان:

أحدهما: أنّها شرطيّة، وجوابها محذوف، تقديره: إن كنتم مؤمنين، فَلِم فعلتم ذلك، ويكون الشرط وجوابه قد ذكر مرتين، فحذف الشرط من الجملة الأولى، وبقي جوابها وهو فلِمَ تقتلون، وحذف الجواب من الثانية، وبقي شرطه، فقد حُذف من كل واحدٌ ما أثبت في الأخرى، فيُسمَّى هذا احتباكاً، عند البديعيين، وقال ابن عطيّة: جوابها متقدّم وهو قوله: ﴿فَلِمَ﴾ وهذا إنّما يتأتّى على قول الكوفيين، وأبي زيد.

والقول الثاني: أنّ ﴿إِن﴾ نافية بمعنى (ما)؛ أي: ما كنتم مؤمنين لمنافاة ما صدر منكم للإيمان. اهـ. «سمين».

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو عاطفة جملة القسم على جملة قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ على كونها مقولاً لقل، أو استئنافية، واللام موطّئة للقسم ﴿قَدْ﴾ حرف

تحقيق ﴿جَآءَكُم مُّوسَىٰ﴾ فعل ومفعول به وفاعل، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ فهو داخل تحت الأمر السابق، والتقدير: وقل لهم: لقد جاءكم موسى بالبينات، كما في «الجمل». ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من موسى، تقديره: حالة كونه متلبساً بالبينات ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ في الرتبة، والدلالة على نهاية قبح ما صنعوا ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ مفعول أوّل، والثاني محذوف، تقديره: إلٰهاً، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قد جاءكم﴾ على كونها جواب القسم ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق باتخذتم ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾، تقديره: ثمّ اتخذتم العجل من بعده حالة كونكم ظالمين؛ أي: واضعين العبادة في غير موضعها، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ السفك: الصبُّ والإراقة، وفي «المصباح»؛ سفكت الدمع والدمّ سَفْكاً من باب ضرب، وفي لغةٍ من باب قتل، أَرَقْتُه، والفاعل السَّافِكُ وسَفَّاكٌ مبالغةٌ. اهـ. وفي «السمين»: وقرىء: ﴿لَا تَسْفُكُون﴾ بضم الفاء، وتُسْفِكُون من أسفك الرباعيّ. اهـ.

﴿دِمَآءَكُمْ﴾ جع دم، والدم معروفٌ وهو محذوف اللام، وهي ياءٌ لقول الشاعر:

لَقَدْ جَرَى الدَّمْيانِ بِالخَبرِ اليْقِينِ

أو واوٌ لقولهم: (دَمَوان) ووزنه فَعْلٌ، وقيل: فَعَلٌ، وقد سمع مقصوراً، قال:

غَفَلَتْ ثُمَّ أَتَتْ تَطْلُبُهُ ... فَإذا هِيَ بِعِظَامٍ وَدَمَا

وقال: آخر

وَلَكِنْ عَلَى أعْقَابِنَا يَقْطُرُ الدَّمَا

في رواية من رواه كذلك، وقد سمع مشددَّ الميم، قال الشاعر:

أَهَـانَ دَمَّـكَ فَـرْغـاً بَـعْـدَ عِـزَّتِـهِ   يَا عَمْرُو نَعْيُكَ إصْراراً عَلَى الحَسَدِ

قال سيبويه: أصله: دَمْيٌ على وزن فَعْل بالتسكين؛ لأنّه يجمع على دماء نظير ظَبْي وظِبَاءٍ، ولو كان مثل قفا وعصا لما جمع هذا الجمع، وعلى هذا فلامه الذاهبة ياءٌ، وقال المبرّد: أَصْلُهُ: دَمَيٌ بوزن فَعَلٍ بالتحريك، وجاء جمعه مخالِفاً لنظائره، ويثنَّى: على دَمَيان، وقال الجوهري: في «صحاحه»: الدم أصله: دَمَوٌ بالتحريك، وإنّما قالوا: دَمِيَ يَدْمَى؛ لحال الكسرة التي قبل الياء، كما قالوا: رضي يرضى وهو من الرضوان، وعلى كُلِّ حالٍ، فالهمزة في قوله: ﴿دِمَآءَكُمْ﴾ إمّا بدلٌ من واوٍ، كما هو رأيُ الجوهري ومن وافقه، أو بدلٌ من ياءٍ، كما هو رأي سيبويه، والمبرد، وصاحب «القاموس» ومن وافقهم، تطرَّف حرف العلة بعد ألف زائدةٍ، فقلبت همزةً ﴿مِّن دِيَـٰرِهِمْ﴾ جمع دار، وأصل دار: دَوَرٌ، تحرَّكت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فلمّا أُعِلَ اللفظُ في المفرد حُمل عليه الجمعُ، فأُعِلَّ بإبدال الواو ياءً، إذ الأصل في الجمع أن يقال: دِوَارٌ، ولمَّا وقعت الواو بين كسرةٍ وألفٍ قلبت ياءً، كما سيأتي نظائره في المصادر، كالصيام، والقيام، وعبارة «السمين» هنا: وديار جمع دار والأصل: دِوار؛ لأنّها من دار يدور، وإنّما قلبت الواو ياء؛ لانكسار ما قبلها، واعتلالها في الواحد. اهـ. وقال أبو حيان: الديار: جمع دار وهو قياسٌ في فَعَلٍ الاسم إذا لم يكن مضاعفاً، ولا معتلَّ لامٍ، نحو: طَلَلٍ، وفتى، والياء في هذا الجمع منقلبةٌ عن واو، إذ أصله: دِوَارٌ وهو قياسٌ ـ أعني: هذا الإبدال ـ إذا كان جمعاً لواحدٍ معتل العين، كثوب، وحوض، ودار بشرط أن يكون فعالٌ صحيح اللام، فإن كان معتلّه لم يبدل، نحو: رَاوٍ، وقالوا في جمع طويل: طِوالٌ، وطِيالٌ. اهـ.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أقرَّ الشي اعترف به، والإقرار: شهادة المرء على نفسه وهو مجازٌ عن القبول، والرضا بالشيء. ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ تتعاونون عليهم كأنَّ المتظاهرين يسند كُلُّ واحد منهم ظهره إلى صاحبه، والظهر المعين، قرىء

بتخفيف الظَّاء على حذف إحدى التاءين، والأصل: تتظاهرون على حدِّ قول ابن مالك في «الخلاصة» في باب الإدغام:

وَمَا بِتَاءَيْنِ ابْتُدِي قَدْ يُقْتَصَرْ   فِيهِ عَلَى تَا كَـ (تَبَيَّنُ) العِبَرْ

الأصل: تتبيَّنُ العبر، ولم يكن هناك سبيلٌ إلى الإدغام لاستدعائه همزة الوصل، وهمزة الوصل لا تدخل على المضارع، ومذهب سيبويه، والجمهور: أنَّ المحذوفة الأخيرة؛ لأنَّ الثقل وقع بها؛ ولعدم دلالتها على معنى المضارعة، ومذهب الكوفيين: أنَّ المحذوفة الأولى، ولا طائل تحت هذا الخلاف. وقرىء: ﴿تَظَّاهَرُون﴾ بالتشديد، ووُجِّه ذلك أنَّ التاء الثانية أبدلت ظاءً وأدغمت في الظاء، وكذلك ما سيأتي في سورة التحريم من قوله: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ وصلة الفعل محذوفةٌ، والمعنى: تظاهرون بحلفائكم من العرب حال كونكم مُلْتَبسين بالإثم والعدوان. اهـ. شيخنا. والإثم في الأصل: الذَّنْبُ، وجمعه آثام، ويطلق على الفعل الذي يستحقُّ به صاحبه الذم واللَّوْم، وقيل: هو ما تنفر منه النفس، ولا يطمئن إليه القلب، فالإثم في الآية يحتمل أن يكون مراداً به ما ذكرتُ من هذه المعاني، ويحتمل أن يتجوَّز به عمّا يوجب الإثم إقامة للسبب مقام المسبب، والعدوان: التجاوز في الظلم وهو مصدرٌ، كالغفران، والكفران، والمشهور: ضمُّ فائه، وفيه لغةٌ بالكسر. اهـ. «سمين».

﴿أُسَٰرَىٰ﴾ وفي «المصباح»: أنَّ كُلاًّ من أسرى، وأُسارى جمع أسير، وفي «السمين»: يحتمل أنَّ أُسارى جمع أسرى، وأسرى جمع أسير. اهـ. وفي «البحر»: الأسرى: جمع أسير، وفعلى مقيسٌ في فعيلٍ بمعنى: مُمْسَكٍ، أو مُوجَعٍ، كقتيلٍ، وجريحٍ، وأمّا الأُسارى فقيل: جمع أسير، وسمع الأَسارى بفتح الهمزة، وليست بالعالية، وقيل أُسارى: جمع أسرى، فيكون جمع الجمع، قاله المفضَّلُ. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى من في اليد، والأسارى من في الوِثاقِ، والأسير هو المأخوذ على سبيل القهر والغلبة ﴿تُفَٰدُوهُمۡ﴾؛ أي: تنقذوهم. من الأسر بالمال، وفي «المختار»: فاداه، وفداه: أعطى فداءه من المال، أو الرجال، فأنقذه. اهـ. وفي «البحر» الفداء بالكسر فيُمدُّ، كما قال النابغة:

مَـهْـلاً فِـدَاءً لَـكَ الأقْـوَامُ كُـلُّـهُـم   وَمَـا أثْـمَـرُوا مِـنْ مَـالٍ وَمِـنْ وَلَـدِ

ويقصر قال:

فِـداً لله مِـنْ رَبٍّ طَـرِيْـفِـي وَتـالِـدِي

وإذا فُتح أوّلهُ قصر يقال قُمْ فَداً لَكَ أَبِي قاله الجوهري، ومعنى: فَدَى فلانٌ فلاناً أي أعطى عوضه.

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ المحرَّم: اسم مفعول من حرَّم، وهو راجع إلى معنى المنع، تقول: حرَّمه يحرِّمه إذا منعه ﴿فَمَا جَزَآءُ﴾ الجزاء: المقابلة، ويطلق في الخير والشرّ، والهمزة فيه مبدلة من ياء؛ لتطرّفها إثر ألفٍ زائدة، فالأصل: جزايُ ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ الخزي: الهوان، قال الجوهري: خَزِي بالكسر يخزَىٰ خِزْياً، وقال ابن السكيت: وقع في بليّةٍ، وأخزاه الله أيضاً، وخزِي الرجل في نفسه، يخزى خزايةً إذا استحيا وهو خزيانٌ، وقومٌ خَزَايا، وامرأةٌ خَزْيا، وفي «المصباح»: خَزِي خِزْياً من باب علم، إذا ذَلَّ وهان، وأخزاه الله أذلَّه وأهانه، وخَزِي خَزايةً بالفتح وهو الاستحياء، فهو خَزْيانٌ. اهـ. ﴿فِي الْحَيَوٰةِ﴾ تقدَّم أن ألف الحياة منقلبةٌ عن واو ﴿الدُّنْيَا﴾ وصفٌ جاء على وزن فعلى هو من الدُّنُوِّ بمعنى: القرب، والمعروف أنَّ فُعلىٰ إذا كانت وصْفاً، وكانت لامُها واواً أُعِلَّت؛ أي: أبدلت ياءً، كما في الدنيا، أصلها: الدُّنْو، أبدلت الواو ياءً، وسلمت في الاسم فلم تُبْدَل، ولم يأت ذلك في القرآن، ولكن ورد في «لسان العرب»، قال ذُو الرُّمَّةِ:

أَدَارٌ بِـحُـزْوَى هُـجْـتِ لِـلْـعَـيْـنِ عَـبْـرَةً   فَـمَـاءُ الـهَـوَى يَـرْفَـضُّ أوْ يَـتَـرَقْـرَقُ

فَتراهُ قال: حُزْوَى، ولم يَقُلْ حُزْيا؛ لأنه اسمٌ لا وَصْفٌ، وعلى العَكْسِ من ذلك إذا كانَتْ وَصْفاً، أمَّا عَدمُ إعلالِ قُصْوَى في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ فهو فصيحٌ في الاستعمال نادرٌ في القياس، وقد بَيَّن ابنُ مالك هذه الأحكام، فقال:

مِنْ لاَمِ فَعْلَى اسْماً أتَى الـوَاوُ بَدَلْ   يَـاءٍ كَـتَـقْـوَى غَـالِـباً جَـا ذَا الـبَـدَلْ
بِـالـعَـكْـسِ جَـاءَ لاَمُ فُـعْـلَـى وَصْـفـاً   وَكَـوْنُ قُـصْـوَى نَـادِراً لا يَـخْـفَـى

قال أبو حيان: والألف في الدنيا للتأنيث، ولا تحذف منها الألف واللام إلاّ في شعرٍ:

فِـي سَـعْـيِ دُنْـيَـا طَـالَـمَـا قَـدْ سُـدَّت

والدنيا تارةً تستعمل صفةً، وتارة تستعمل استعمال الأسماء، فإذا استعملت صفةً، فالياء مُبْدَلة من واوٍ إذْ هي مشتقَّةٌ من الدُّنُوّ، وذلك نحو: العليا، ولذلك جَرَتْ صفةً على الحياة في قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فأمَّا القصوى والحلوى: فشاذٌّ، وإذا استعملت استعمال الأسماء فكذلك، وقال أبو بكر بن السرَّاج في «المقصور والممدود» له: الدُّنيا مؤنّثةُ الأدنى، مقصورةٌ تكتب بالألف، هذه لغة نجدٍ، وتميمٍ خاصَّةً، إلاّ أنَّ أهل الحجاز، وبني أسد يلحقونها ونظائرها بالمصادر ذوات الواو، فيقولون: دُنْوَى، مثل: شُرْوَى، وكذلك يستعملون بكل فُعْلى موضع لامها واواً يفتتحون أوّلها، ويقلبون الواوَ ياءً؛ لأنّهم يستثقلون الضمّة والواو. انتهى. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ القيامة فيه إعلال بالقلب، فالياء فيه منقلبة عن واو؛ لأنّه من قام يقوم، واويّ العين، أعلَّت عين المصدر حملاً له على الفعل قام، فالأصل: القوامة، أبدلت الواو ياءً؛ لوقوعها إثر كسرةٍ وبعدها ألفٌ ﴿يُرَدُّونَ﴾ أصله: يردد، نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ﴾ أصله: أشدد، نقلت حركة الدال الأولى إلى الشين فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أصله: اشتريوا من اشترىٰ بوزن افتعل من الشراء، تحرّكت الياء وانفتح ما قبلها، فَقُلِبَتْ ألفاً، فالتقى ساكنان الألف، وواو الجماعة، فحذفت الألف ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ آتينا أصله: أأْتينا بوزن أَفْعلنا، أبدلت الهمزة الساكنة حرف مدّ للأولى ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ﴾ يقال: قفوت الأثر اتَّبعته، والأصل: أن يجيء الإنسان تابعاً لقفا الذي اتَّبعه، ثُمَّ تُوسّع فيه حتى صار لمطلق الاتباع، وإنْ بَعُد زمان المتبوع من زمان التابع، وقال أُميَّةُ:

قَـالَـتْ لأخْـتٍ لَـهُ قُـصِّـيْـهِ عَـنْ جُـنُـبٍ وَكَـيْـفَ تَـقْـفُـو ولا سَـهْـلَ ولا جُـدَدُ

وفي «السمين»: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ التضعيف فيه للتعدية، إذ لو كان

كذلك لتعدَّى إلى اثنين؛ لأنّه قبل التضعيف يتعدَّى لواحدٍ، نحو: قفوت زيداً، ولكنّه ضُمّن بمعنى جئنا، كأنَّه قيل: وجئنا من بعده بالرسل، وأصله: قفَّونا، ولكن لمَّا وقعت الواو رابعةً قلبت ياء، واشتقاقه من قفوته إذا اتبعت قفاه، ثُمَّ اتسع فيه، فأُطلق على كُلِّ تابع وإن بعد التابع من زمان المتبوع، كما مرّ آنفاً، والقفا: مؤخّر العنق، ويقال له: القافية أيضاً، ومنه قافية الشعر.

﴿بِٱلرُّسُلِۖ﴾ جمع رسول بمعنى: المرسل، ولا ينقاس فُعْلٌ في فعول بمعنى مفعول، وتسكين عينه لغة أهل الحجاز، والتحريك لغة بني تميم ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ عيسى: اسمٌ أعجميٌّ، علم لا يصرف للعجمة والعَلَميَّة، ووزنه عند سيبويه: فِعْلى، والياء فيه مُلْحَقةٌ ببنات الأربعة بمنزلة ياء معزى؛ يعني: بالياء، الألف سمَّاها ياءً؛ لكتابتهم إيّاها ياءً. قال أبو علي: وليست، ألفه للتأنيث، كالتي في ذكرى؛ بدلالة صرفهم له في النكرة، ومن زعم أنّه مشتقٌّ من العيس وهو بياضٌ يخالطه شُقْرةٌ، فغير مُصيب؛ لأنَّ الاشتقاق العربيَّ لا يدخل الأسماء الأعجمية ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ مريم باللُّغة السريانية، معناه: الخادم، وسُمّيت به أمُّ عيسى، فصار علماً، فامتنع الصرف للتأنيث والعلمية، ومريم باللِّسان العربي من النساء، كالزِّيْرِ من الرجال، وبه فُسِّر قول رؤْبة:

قُـلْـتُ لِـزِيْـرٍ لَـمْ تَـصِـلْـهُ مَـرْيَـمُـهْ

والزِّيْرُ: الذي يُكْثِرُ خُلطةَ النساء وزيارتَهنّ، والياء فيه مبدلة من واو، كالريح، إذ هما من الزَّوْرِ، والرَّوْحِ، فصار هذا اللفظ مشتركاً بالنسبة إلى اللِّسانين، ووزن مَرْيَم عند النحويِّين مَفْعَلٌ؛ لأنَّ فَعْيَلاً بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية، كما ثبت نحو: عَثْيَرٍ، وعَلْيَبٍ. قاله الزمخشري، وغيره ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ جمع بَيِّنَة بوزن فَيْعِلَة، فأصلها: بَيْيِنَةٌ بوزن فيْعِلَة، أدغمت ياء فيعل في عين الكلمة، وكذلك بَيِّنَاتٌ وَزْنُه فَيْعِلاتٌ، والبَيِّنُ: الواضح من كل شيء من بان إذا وضح وظهر. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ وفي «المختار»: آد الرجل: اشتدَّ وقوى، وبابه: باع، والأيد والآد بالمدِّ: القوَّةُ، تقول: أيَّده تأييداً، والفاعل منه مُؤيِّد بوزن مُكرِّم، وتأيَّد الشيء تقوَّى، ورجلٌ أيِّدٌ بوزن جَيِّدٍ؛ أي: قَوِيٌّ. اهـ. يقال: أيَّد تأييداً من باب

فَعَّل المضعَّف، وآيد إئياداً من باب أفعل، وكلاهما من الأيد، وهو القُوَّة ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾ والرُّوح من الحيوان: اسمٌ للجزء الذي تحصل به الحياة، قال الراغب: واختلف الناس فيه وفي النفس، أهما من المشترك أم من المتباين؟ وفي ماهية الروح والنفس، وقد صُنِّف في ذلك ﴿ٱلْقُدُسِۗ﴾ الطهارة، وقيل البركة ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ﴾ الرسول: فعول، بمعنى: المرسل وهو قليلٌ في كلامهم، ومنه الحلوب، والرَّكُوب بمعنى: المحلوب، والمَرْكُوب ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾؛ أي: تُحِبّ وتختار، ماضيه على فَعِل كرضي، ومصدره الهوى، وفيه إعلالٌ بالقلب، أصله: تَهْوَى بوزن تَفْعَل، تحرَّكت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وفي «الجمل»: وتهوى: مضارع هَوِيَ بالكسر إذا مال وأحبَّ، وفي «المختار»: هَوِيَ أحبَّ، وبابه: صَدِيَ، ويقال: هَوَىٰ يَهْوِي، كرمى يرمي، هَوْيًا بالفتح إذا سقط. اهـ. وهُويًّا بضمّ الهاء وفتحها. انتهى. اهـ. «مصباح».

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ وفي «السمين»: وغُلْفٌ بسكون اللام: جمع أغلف، كأحمر وحُمْرٍ، وأصفر وصفر، وهو الذي لا يفقه، والمعنى على هذا: إنّها خلقت وجبلت مُغشَّاةً لا يصل إليها الحق. اهـ. أو جمع غلافٍ وهو الغشاء، فيكون أصله التثقيل فخفِّف. اهـ. من «البحر» ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ واللَّعْنُ: الطَّرد والإبعاد، يقال: شَأْوٌ لَعِينٌ؛ أي: بعيدٌ، وقال الشَّمَّاخُ:

ذَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنُفَيْتُ عَنْهُ   مَقَامَ الذِئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِيْنِ

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ مضارع شَيِءَ بكسر العين يشاء بفتحها، كعلم يعلم، نقلت حركة الياء إلى الشين في المضارع، فسكنت الياء وفتح ما قبلها، ثُمَّ قلبت ألفاً نظراً إلى حركتها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال، فكأنَّها توفَّرت فيها شروط القلب نظراً لحالها الأوَّل، وحالها الرَّاهن، ولهذا نظائر كثيرةٌ في القرآن، مِثْلُ: يكادُ، ويراد، وفي كلام العرب. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ المعرفة: العلم المتعلق بالمفردات، ويسبقه الجهل، بخلاف أصل العلم، فإنّه يتعلَّق بالنِّسَبِ، وقد لا يسبقه الجهل، ولذلك لم يوصَفِ الله تعالى بالمعرفة، ووُصِفَ بالعلم ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ بئس: فعلٌ وضع للذمِّ، وأصله: فعِل، وله، ولنِعْم باب معقودٌ في النحو ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾.

البَغْيُ: الظلم، وأصله: الفساد، من قولهم: بغى الجرح إذا فسد. قاله الأصمعي. وقيل: أصله: شدة الطلب، ومنه ما نَبْغِي، ومنه سُمِّيت الزانية: بَغِيًّا؛ لشدّة طلبها للزنا ﴿باءوا بغضب﴾ أصله: بَوَأ، تحرَّكت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، ثمّ أسند الفعل إلى ضمير الجماعة، فبني على الضمّ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مهين: اسم فاعل من أهان الرباعي، واشتقاقه من الهوان، فأصله: مُهْوِنٌ على وزن مُفْعِل، نقلت حركة حرف العلة إلى الساكن الصحيح قبله، فسكنت الواو، إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ، والإهانة: الإذلال، ويقال: هان هواناً لم يُحْتَمل به، وهو معنى الذُلّ، وهو كون الإنسان لا يُؤْبَهُ به، ولا يُلْتَفت إليه ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ والوَرَاءُ من الظروفِ المتوسطةِ التصرفِ، وتكون بمعنى: قُدَّام، وبمعنى: خلف، وهو الأشهر فيه.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾؛ أي: لا تُسَبِّبُوا في إراقة دمائكم؛ لأنَّ من أراق دم غيره، فكأنَّما أراق دم نفسه، فهو من باب المجاز بأدنى ملابسةٍ؛ أو لأنّه يوجب قصاصاً، فهو من باب إطلاق المسبَّب وإرادة السبب.

ومنها: الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة في قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾؛ لأنّه استعار الإقرار لقبول الميثاق ورضاه، ثُمَّ اشتقَّ منه أقررتم بمعنى: قبلتم على طريقة الاستعارة التصريحية التبعيَّة.

ومنها: الإسناد العقليُّ في قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾؛ لأنَّ الإقرار إنَّما وقع للأسلاف، فأسنده إلى الأخلاف الذين خوطبوا بهذا الكلام؛ لرضاهم بما فعل أسلافهم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ عبَّر عن قتل الغير

بقتل النفس؛ لأنَّ من أراق دم غيره، فكأنَّما أراق دم نفسه، فهو من باب المجاز لأدنى ملابسة، كما مرّ آنفاً.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ومنها: بيان جزائهم بطريق القصر في قوله: ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات إيمانهم بِبَعْضِ الكتاب، وإظهار أنّه لا أثر له أصلاً مع الكفر ببعض.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾؛ لإفادة التهويل والتفخيم.

ومنها: الاستعارة المكنية التبعية في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ﴾ حيث استعار الشراء للاستبدال تقدّم نظيرها.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإنّه أطلق الملزوم الذي هو الإيمان، وأراد لازمه الشرعي وهو فعل الواجبات، وترك المنهيات، وقد فعلوا بعض الواجبات، وهو الفداء، ولم يتركوا المحرم، وهو القتال والإخراج.

ومنها: تقديم المفعول على عامله في قوله: ﴿فريقا كذّبتم﴾ وقوله: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ للاهتمام به، وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه؛ وللفاصلة.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿فريقا تقتلون﴾ ولم يقل قتلتم، كما قال ﴿كذبتم﴾؛ لأنّ الفعل المضارع كما هو المألوف في أساليب البلاغة، يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً، فكأنّه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السَّامع، وجعله ينظر إليها بعينه، فيكون إنكاره لها أبلغ، واستفظاعه لها أعظم، ويسمَّى هذا عند البلغاء: حكاية الحال الماضية، وصورتها: أن يُقدَّر، ويفرض الواقع في الماضي واقعاً وقت التكلُّم، ويخبرَ عنه بالمضارع الدال على الحال اهـ. من «الفتوحات».

ومنها: إضافة الموصوف إلى الصفة في قوله: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي:

بالروح المقدَّس وهو جبريل، وتسميته روحاً على سبيل الاستعارة، لمشابهته الروح الحقيقيَّ في أنَّ كُلّاً جسمٌ لطيفٌ نورانيٌّ، وأنَّ كلّاً مادّة الحياة، فجبريل تحيا به القلوب والأرواح من إتيانه بالوحي، والعلوم، والروح تحيا به الأبدان والأجساد.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع أغلف مستعارٌ من الأغلف الذي لا يُختَن؛ أي: مغشَّاةٌ بالغشاء المعنويِّ، كما أنَّ الحشفة مُغطَّاةٌ بالقُلْفة.

ومنها: زيادة ما في قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لإفادة المبالغة في القِلَّة.

ومنها: وصف الكتاب بكونه من عند الله في قوله: ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ للتشريف.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث لم يقل: عليهم؛ للدلالة على أنَّ اللَّعنة لحقتهم لكفرهم.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا﴾؛ حكايةً للحال الماضية، واستحضاراً لفعلهم الشَّنيع.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ حيث لم يقل: ولهم؛ للإشعار بعِلِّية كفرهم لما حاق بهم.

ومنها: المجاز العقليُّ في قوله: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ حيث أسند الإهانة إلى العذاب؛ لكونه سببها.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ حيث لم يقل: فلم قتلتم أنبياء الله؛ لحكاية الحال الماضية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا
قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ
إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ
دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ
أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ (٩٦) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا
إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)
وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ
سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى
الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ
أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ
وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾.

المناسبة

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمّا عدَّد(١) في الآيات السالفة ما أنعم به على بني إسرائيل من النعم، وذكر ما قابلوها به من الكفران، ذكر هنا أنَّ الآيات البينات الدالة على صدق دعوة موسى، ووحدانية الله، وعظيم قدرته، لم تزدهم إلاّ انهماكاً في الشرك، وتوغّلاً في ضروب الوثنية، فالنعم التي أسبغها عليهم لم يكن لها من شكر إلاّ اتخاذ العجل إلٰهاً يعبدونه من دون الله، فكيف يعتذرون عن عدم الإيمان بمحمد ﷺ، بأنّهم لا يؤمنون إلاّ بما أنزل إليهم، وهذا دليل على قسوة قلوبهم، وفساد عقولهم، فلا أمل فيهم لهداية، ولا مطمع لفكرٍ وتأمُّلٍ، بعد أن اختلَّ الوجدان، وضعف الجنان، وهذه الآيات البينات التي ذكرت هنا: كانت في مصر قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة، وما ذكر من النعم هناك كان في أرض الميعاد.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر في الآيات السالفة معاذير لليهود اعتذروا بها عن الإيمان بمحمد ﷺ، وما جاء به من الآيات البينات، كقولهم: إنّهم مؤمنون بكتابٍ من ربّهم، فلا حاجة لهم بهداية غيره، فَنَقَض دعواهم، وأَلْزَمَهم الحجة، وقولَهم: إنّهم ناجون حتماً في الآخرة؛ لأنّهم شَعْبُ الله وأبناؤُه، فأبطل مزاعمهم، ودَحضَ حُجَجهم... ذكر(٢) هنا تَعِلَّةً أخرى هي أعجبُ من كل ما تقدَّم، وفنَّدَها كما فنَّد ما قبلها، تلك هي قولهم: إنَّ جبريل الذي يَنزل على محمد ﷺ بالوحي عدوُّهم، فلا يؤمنون بما يجيء به منه، وقد أُثِر عنهم عدَّةُ روايات تشرحُ هذه المقالةَ:

منها: أن أحد علمائهم وهو عبد الله بن صوريا، سأل النبي ﷺ عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي؟ فقال: هو جبريل، فقال ابن صوريا: هو عدو اليهود؛ لأنّه أنذرهم بخراب بيت المقدس، فكان ما أنذر به.

ومنها: أنّ عمر بن الخطاب دخل مِدْراسهم، فذكر جبريل، فقالوا: ذاك

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

عدونا يطلع محمداً على أسرارنا، وأنّه صاحب كل خسف وعذاب، وأنّ ميكائيل ملك الرحمة ينزل بالغيث والرخاء.

ولا شكّ أنّ هذا منهم دليل على خطل الرأي، وعدم التدبُّر، وإنّما ذكره الكتاب الكريم؛ ليستبين للناس حجج أهل الكتابِ، ويعرفوا مِقدارَ مِرائهِم وسخفهم في جَدَلِهِم، وأنهم ضعاف الأحلام، قليلوا التَدبَرِ في عواقب ما يقولون.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذَكَّر فيما سبق ببعض أحوالهم الشَّنيعة، ومقالاتهم القبيحة.. بيَّن في هذه الآيات حالاً من أحوالهم هي عِلَّةُ ما يصدر عنهم من جحود، وعناد، ومعاداةٍ للنبي ﷺ، هي أنَّ فريقاً منهم نبذوا كتاب الله الذي به يَفْخَرُون حين جاء الرسول بكتابٍ مصدِّقٍ لما بين أيديهم، فإنَّ ما في كتابهم من البشارة بنبيٍّ يجيءُ من ولد إسماعيل لا ينطبق إلاّ على هذا النبي الكريم، وليس المراد[1]: أنّهم نبذوا الكتاب جملةً وتفصيلاً، بل نبذوا منه ما يُبشّر بالنبي ﷺ، ويُبيِّن صفاته، وما يأمرهم بالإيمان به واتباعه، ولا شك أنَّ ترك بعضه كترك كله، إذ إنَّه يُذْهِب باحترام، ويفتح البابَ لترك الباقي، وهذا الجحود لم يكن بِضَائِرٍ للنبي ﷺ، ولا لدعوته، وقد قبلها، واهتدى بها كثيرٌ من اليهود، ومن غيرهم، وحين نبذوه اشتغلوا بصناعات، وأعمال صادَّةٍ عن الأديان من صنع شياطين الإنس والجنّ، فاشتغلوا بالسحر، والشَّعوذة، والطلسمات التي نسبوها إلى سليمان، وزعموا أنَّ ملكه كان قائماً عليها، وهذه أباطيل منهم وسوسوا بها إلى بعض المسلمين، فصدَّقوهم فيما زعموا منها، وكذّبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر، ولا يزال حال الدجالين من المسلمين إلى اليوم يتلون العزائم، ويخطُّون خطوطاً، ويعملون طلسمات يسمُّونها خاتم سليمان، وعهوداً يزعمون أنّها تحفظ

---

(١) المراغي.

من يحملها من اعتداء الجنّ، ومسِّ العفاريت. وإنَّما قصَّ القرآن علينا هذا القصص[١]؛ للذكرى؛ وليبيِّن لنا ما افتراه أهل الأهواء على سليمان من أمر السحر، فكان صادًّا عن العمل بالدين وأحكامه لدى اليهود، ومن ثَمَّ لم يهتدوا بالنبيِّ الذي بشَّر به كتابهم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّه سبحانه وتعالى، لما فرغ من الأحاديث الخاصَّة باليهود، انتقل إلى حديثٍ مشترك بينهم وبين المؤمنين، والنصارى في أمرٍ من أمور الدِّين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ. . .﴾ الآية، سبب نزولها[٢]: ما أخرجه ابن جرير عن أبي العالية قال: قالت اليهود: لن يدخل الجنَّة إلاّ من كان هوداً، فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً. . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما روى البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: سمع عبد الله بن سلام، مقدم رسول الله وهو في أرضٍ يخترف، فأتى النبي ﷺ، فقال: إنّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلاّ نبيٌّ ما أوّلُ أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمّه؟ قال: أخبرني بهنّ جبريل آنفاً، قال جبريل: قال نعم، قال: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ. . .﴾.

قال شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانيُّ في «فتح الباري»: ظاهر السياق: أنَّ النبي ﷺ قرأ الآية ردّاً على اليهود، ولا يستلزم ذلك نزولها حينئذٍ، قال: وهذا هو المعتمد: فقد صحَّ في سبب نزول الآية: قصّةٌ غير قصّة عبد الله بن سلام، فأخرج أحمد، والترمذي، والنسائي من طريق بكر بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

ابن عباس قال: (أقبلت اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم! إنَّا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنّ عرفنا أنّك نبيٌّ) فذكر الحديث، وفيه أنَّهم سألوه عمَّا حرَّم إسرائيل على نفسه، وعن علامة النبي، وعن الرَّعد وصوته، وكيف تذكر المرأة وتؤنث، وعمَّن يأتيه بخبر السماء؛ إلى أن قالوا: فأخبرنا عن صاحبك، قال: جبريل، قالوا: جبريل، ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب، عدوُّنا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر، لكان خيراً، فنزلت.

وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده، وابن جرير عن طريق الشعبي: أنَّ عمر كان يأتي اليهود فيسمع من التوراة، فيتعجَّب كيف تُصدِّق ما في القرآن، فمرَّ بهم النبيُّ ﷺ، فقلت: نشدتكم بالله، أتعلمون أنّه رسول الله؟ فقال عالمهم: نعم نعلم أنّه رسول الله، قلت: فلم لا تتبعونه؟ قالوا: سألناه عمَّن يأتيه بنبوّته، فقال: عدوُّنا جبريل؛ لأنّه ينزل بالغلظة، والشدّة، والحرب، والهلاك، قلت: فمن رسلكم من الملائكة؟ قالوا: ميكائيل ينزل بالقطر، والرحمة، قلت: وكيف منزلتهما من ربّهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه، والآخر عن الجانب الآخر قلت: فإنّه لا يحلُّ لجبريل أن يعادي ميكائيل، ولا يحلُّ لميكائيل أن يسالم عدوَّ جبريل، وإنّني أشهد أنَّهما وربَّهما سِلْمٌ لمن سالموا، وحَرْبٌ لمن حاربوا، ثمَّ أتيت النبيَّ ﷺ، وأنا أريد أن أخبره، فلمَّا لقيته قال: ألا أخبرك بآياتٍ ـ أنزلت عليَّ؟ فقلت: بلى يا رسول الله! فقرأ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ حتى بلغ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ قلت: يا رسول الله! والله ما قمت من عند اليهود إلاّ إليك، لأخبرك بما قالوا لي وقلت لهم، فوجدت الله سبقني. وإسناده صحيح إلى الشعبي، لكنّه لم يدرك عمر، وقد أخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم من طريق آخر عن الشعبي، وأخرجه ابن جرير من طريق السدي، عن عمر، ومن طريق قتادة عن عمر، وهما أيضاً منقطعان.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق آخر، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى: أنَّ يهودياً لقي عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم هو عدوّ لنا، فقال عمر: من كان عدواً لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكائيل فإنَّ الله عدوُّه، قال: فنزلت على لسان عمر، فهذه طرقٌ يقوّي بعضها بعضاً. وقد نقل ابن جرير الإجماع على أنَّ سبب الآية ذلك؛ أي: أنّها نزلت جواباً لليهود، إذْ زعموا

أنَّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيل وليٌّ، فيكون الإجماع مؤيِّداً للحديث على ما به من الضعف؛ لأنّ بكير بن شهاب قد خولف فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال ابن صوريا للنبيِّ ﷺ: يا محمد! ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة، فأنزل في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ الآية. وقال: مالكُ بن الصيف حِينَ بُعِثَ رسول الله ﷺ، وذكَرَ ما أُخذ عليهم من الميثاق، وما عُهد إليهم في محمد، والله ما عُهِدَ إلينا في محمدٍ، ولا أُخذَ علينا ميثاق، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ...﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير، عن شهر بن حوشب، قال: قالت اليهود: انظروا إلى محمد يخلُط الحقَّ بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، أفما كان ساحراً يركب الريح؟! فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية: أنَّ اليهود سألوا النبيَّ ﷺ: زماناً عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلاّ أنزل الله عليه ما سألوا عنه، فلمَّا رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل إلينا منّا، وأنَّهم سألوا عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر[2]، عن السدي قال: كان رجلان من اليهود مالك ابن الصيف، ورفاعة بن زيد، إذا لقيا النبي ﷺ قالا وهما يكلِّمانه: راعنا سمعك، واسمع غير مسمع، فظنَّ المسلمون أنّ هذا اللفظ كان أهل الكتاب يعظِّمون به أنبيائهم، فقالوا للنبي ﷺ ذلك، فأنزل تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) لباب النقول. (٢) لباب النقول.

﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ﴾.

وأخرج أبو نعيم في «الدلائل» من طريق السدي الصغير، عن الكلبي، عن ابن عباس قال: راعنا بلسان ـ اليهود: السَّبُّ القبيح، فلمَّا سمعوا أصحابه يقولون، أعلنوا بها له، فكانوا يقولون ذلك، ويضحكون فيما بينهم، فنزلت هذه الآية، فسمعها منهم سعد بن معاذ، فقال لليهود: يا أعداء الله! لئن سمعتها من رجل منكم بعد هذا المجلس لأضربنَّ عنقه. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك قال: كان الرجل يقول: أرعني سمعك، فنزلت الآية.

وأخرج عن عطية قال: كان أناسٌ من اليهود يقولون: أرعنا سمعك، حتى قالها أناسٌ من المسلمين، فكره الله لهم ذلك، فنزلت الآية. وأخرج عن قتادة قال: كانوا يقولون: راعنا سمعك؛ فكان اليهود يأتون، فيقولون مثل ذلك، فنزلت الآية. وأخرج عن عطاء قال: كانت لغة الأنصار في الجاهليّة، فنزلت. وأخرج عن أبي العالية قال: إنّ العرب كانوا إذا حدَّث بعضهم يقول أحدهم لصاحبه: أرعني سمعك، فنهوا عن ذلك.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾؛ أي: العهد منكم؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! قصّة حين أخذنا العهد المؤكَّد باليمين منكم، على العمل بما في التوراة ﴿وَرَفَعۡنَا﴾ أي: قلعنا وحبسنا ﴿فَوۡقَكُمُ﴾؛ أي: فوق رؤوسكم ﴿ٱلطُّورَ﴾ أي: جبله ليسقط عليكم حين أبيتم، وامتنعتم من قبول التوراة قائلين لكم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾؛ أي: اعملوا بما أعطيناكم من الكتاب ﴿بِقُوَّةٖ﴾؛ أي: بجدٍّ واجتهادٍ ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ ما أمرتم به في الكتاب سماع قبول وطاعةٍ ﴿قَالُواْ﴾ كلام مستأنف واقع في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿سَمِعۡنَا﴾ قولك بآذاننا، ولكن لا سماع طاعةٍ وقبولٍ ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ وخالفنا أمرك بقلوبنا، ولولا مخافة الجبل ما قبلنا في الظاهر، فإذا كان حال أسلافهم هكذا فكيف يتصوَّر من أخلافهم الإيمان؟ وقيل: إنّهم يقولون ذلك بألسنتهم، ولكن لَمَّا سمعوه وتلقَّوه، تلقوه بالعصيان، فنسب ذلك إليهم. وقيل كأنَّهم يقولون: لولا

الجبل لسمعنا ذلك، وعصينا أمرك، وجملة قوله: ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ والحال أنَّهم أشربوا وسُقوا ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ بيانٌ لمكان الإشراب، كقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ ﴿الْعِجْلَ﴾ أي: حبَّ عبادة العجل، فهو على حذف مضافين، يقال: أشرب قلبه كذا؛ أي: حلَّ محلَّ الشراب، أو اختلط، كما خلط الصبغ بالثوب.

وحقيقة[١] أُشربَه كذا جعله شارباً لذلك، فالمعنى: جُعلوا شاربين حبَّ العجل نافذاً فيهم نفوذ الماء فيما يَتغَلْغَلُ فيه. قال الراغب: من عاداتهم إذا أرادوا محاصرة حبٍّ، أو بغضٍ في القلب، أن يستعيروا لها اسم الشراب، إذ هو أبلغ مساغاً في البدن، ولذلك قالت الأطباء: الماء مطيَّة الأغذية والأدوية ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم السابق لهم في مصر من الوثنية الموجب لذلك، والمعنى: حُبّب إليهم العجل، وخالط حبُّه قلوبهم، كما يخالط الشراب أجزاء البدن الباطنة. قيل: كانوا مُجسِّمةً، أو حُلُوليَّةً، ولم يروا جسماً أعجب منه، فتمكَّن في قلوبهم ما سوَّل لهم السامريُّ، وجَعَل حلاوةَ عبادةِ العجل في قلوبهم مجازاةً لكفرهم. وفي القصص: أنَّ موسى عليه السلام، لمَّا خرج إلى قومه أمَرَ أَنْ يُبْرَدَ العجل بالمِبْرد ثم يُدرَّىٰ في النهر، فلم يبق نهرٌ يجري يومئذٍ إلاّ وقع فيه منه شيءٌ، ثم قال لهم: اشربوا منه فمن بقي، في قلبه شيءٌ من حبّ العجل ظهَرَتْ سُحَالة الذَهب على شاربه؛ أي: خَرَجت بُرادَتُهُ على شاربه، وهذا[٢] قولٌ يردُّهُ قولهُ: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ وروي أنَّ الذين تبيَّن لهم حُبُّ العجل أصابهم من ذلك الماء الجُبْنُ، وبناؤه للمفعول في قوله: ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ دليلٌ على أنَّ ذلك فُعِل بهم، ولا يفعلُه إلاّ الله تعالى. وقال أبو حيان: ومعناه: أنَّه داخلهم حبُّ عبادته، كما داخل الصبغُ الثوبَ، وأنشدوا:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

إذا مَـا الـقَـلْـبُ أُشْـرِبَ حُـبَّ شـيءٍ   فَـلاَ تَـأْمَـلْ لَـهُ عَـنْـهُ انْـصِـرَا فـا

وقال ابن عرفة: يقال: أُشرب قلْبُه حبَّ كذا؛ أي: حلَّ محلَّ الشراب، ومازَجَهُ. انتهى كلامه. وإنّما عبَّر عن حبّ العجل بالشرب دون الأكل؛ لأنَّ شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها، ولهذا قال بعضهم:

جَرَى حُبُّها مَجْرَى دَمِي في مَفَاصِلِي   فَأَصْبَحَ لِي عَنْ كُلِّ شُغْلٍ بهَا شُغْلُ

وأمّا الطعام[1]، فقالُوا: هو مجاور لها غير متغلغلٍ فيها، ولا يصل إلى القلب منه إلاّ يسيرٌ، وقال:

تَـغَـلْـغَـلَ حُـبُّ عَـثْـمَـةَ فِـي فُـؤَادِيْ   فَـبَـادِيْـه مَـعَ الـخَـافِـي يَـسِـيـرُ

والظاهر: أنَّ الباء في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ للسبب؛ أي: الحامل لهم على عبادة العجل هو كفرهم السابق لهم في مصر. وقيل ويجوز أن تكون الباء بمعنى مع متعلِّقة بمحذوف وقع حالاً؛ أي: وأشربوا في قلوبهم حبَّ العجل حال كونه مصحوباً بكفرهم السابق من الوثنية ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! توبيخاً[2] لحاضري اليهود، إثر ما بُيِّنَ أحوال رؤسائهم الذين بهم يقتدون في كُلِّ ما يأتون ويذرون ﴿بِئْسَمَا﴾ أي: بئس الشيء شيئاً ﴿يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ﴾؛ أي: بذلك الشيء ﴿إِيمَٰنُكُمْ﴾ بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدَّعون، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: ما ذكر من قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وعبادتهم العجل، وفي إسناد الأمر إلى الإيمان تهكّم بهم، وإضافة الإيمان إليهم؛ للإيذان بأنّه ليس بإيمانٍ حقيقةً، كما ينبيء عنه قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة، إذ لم يُسوِّغ الإيمان بها مثلَ تلك القبائح، فلستم بمؤمنين بها قطعاً، فقد علم أنَّ من ادَّعى أنّه مؤمن ينبغي أن يكون فعله مصدِّقاً لقوله: وإلاّ لم يكن مؤمناً؛ أي: بئس الشيء شيئاً يأمركم به إيمانكم بما أنزل عليكم من التوراة، والمخصوص بالذمّ قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وعبادتُهم العجل، والمعنى: بئس الإيمان إيمانٌ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

يأمركم بعبادة العجل إن كنتم مؤمنين بالتوارة كما زعمتم، والمعنى: لستم بمؤمنين؛ لأنَّ الإيمان لا يأمركم بعبادة العجل، وهذا تكذيبٌ لقولهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ وذلك أنّ آباءهم ادَّعوا الإيمان ثُمَّ عبدوا العجل، فقيل: لهم بئس الإيمان إيمانٌ يأمر بالكفر.

والخلاصة: لو كنتم مؤمنين ما عبدتم العجل؛ يعني آباءهم، وكذلك كذبهم في قولهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ حيث قال: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد! أيضاً: ﴿إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾؛ أي: نعيمها وهي الجنة مُدَّخرةً ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ظَرْفٌ للاستقرار في الخير؛ أعني: لكم حالة كونها ﴿خَالِصَةً﴾؛ أي: خاصَّةً بكم منصوبٌ على الحالية من الدار؛ أي: إن كانت لكم الدار الآخرة حالة كونها سالمةً لكم خاصَّةً بكم ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ في محل النصب بـ﴿خَالِصَةً﴾؛ أي: من دون محمد وأصحابه، فاللام في الناس للعهد، وتستعمل هذه اللفظة للاختصاص، يقال: هذا إليَّ من دون الناس؛ أي: أنا مختصٌّ به؛ أي: ليس لأحد سواكم فيها حقٌّ بأن صحَّ قولكم ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾.

والمعنى: إن صحّ قولكم لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هوداً ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾؛ أي: أَحِبُّوه، واسألوه بالقلب واللسان، وقولوا: اللهم! أمتنا، فإنَّ من أيقن بدخول الجنّة اشتاق إليها، وتمنَّى سرعة الوصول إلى النعيم، والتخلُّص من دار البوار، وقرارة الأكدار، ولا سبيل إلى دخولها إلاّ بعد الموت، فاستَعْجِلُوه بالتَّمنِّي ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إنّ الجنة خاصَّةٌ لكم فتمنَّوه، وأصل التمنّي: تقدير شيء في النفس، وأكثر ما يستعمل فيما لا حقيقة له. قوله: ﴿إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ فسَّروا الدار الآخرة بأنّها هي موضع الإقامة بعد انقضاء الدنيا، وسميت آخرة؛ لأنّها متأخّرة عن الدنيا، أو هي آخر ما يسكن، فتشمل الجنة والنار، ولكن الكلام هنا على تقدير مضاف؛ أي: نعيم الآخرة.

وقرأ الجمهور ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ بضمّ الواو، وهي اللغة المشهورة في مثل: اخشوا القوم، ويجوز الكسر؛ تشبيهاً لهذه الواو بواو لو استطعنا، كما شبَّهوا واو

لو بواو اخشوا، فضمُّوا، فقالوا: لو استطعنا. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿فَتَمَنَّوِا الْمَوْتَ﴾ بالكسر، وحكى أبو علي الحسن بن إبراهيم بن يَزْداد، عن أبي عمرو، أنّه قرأ ﴿فَتَمَنَّوَا الْمَوْتَ﴾ بفتح الواو وحركها بالفتح؛ طلباً للتخفيف؛ لأنَّ الضمة والكسرة في الواو يثقلان، وحكي أيضاً عن أبي عمرو إختلاس ضمّة الواو وكلها شاذة باستثناء ما عليه الجمهور وجواب الشرط في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ محذوفٌ، تقديره: إن كنتم صادقين في دعواكم أنَّ الجنّة لكم دون غيركم، فتمنوا الموت، وعلَّق تمنِّيهم على شرطٍ مفقودٍ وهو كونهم صادقين، وليسوا بصادقين في أنَّ الجنة خالصةٌ لهم دون الناس، فلا يقع التمنِّي، والمقصود من ذلك التحدِّي، وإظهار كذبهم، وذلك أنَّ من أيقن أنه من أهل الجنة اختار أن ينتقل إليها، وأن يخلص من المقام في دار الأكدار، وأن يصل إلى دار القرار، كما روي عمن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، كعثمان، وعلي، وعمّار، وحذيفة، أنّهم كانوا يختارون الموت، وكذلك الصحابة كانت تختار الشهادة.

وقد روي عن كثير من الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ تمنّي الموت عند القتال، معبِّرين بألسنتهم عمّا يجول في صدورهم من صدق الإيمان بما أعدَّ الله للمؤمنين في الدار الآخرة، فقد جاء في الأخبار: أنَّ عبد الله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم:

يَا حَبَّذَا الجَنَّةُ واقْتِرابها
طَيِّبَةٌ وَبارِدٌ شَرابُها
والرُّومُ رُوْمٌ قَدْ دَنَا عَذابُهَا

وأنَّ عمَّار بن ياسر في حرب صفين قال:

غَداً نَلْقَى الأحِبَّهْ مُحَمَّداً وَصَحْبَه

وروي عن حذيفة أنّه كان يتمنَّى الموت، فلما احتُضِر قال: (حبيبٌ جاء على فاقةٍ). وعن علي أنّه كان يطوف بين الصفين بغلالةٍ، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزيِّ المحاربين، فقال: يا بني! لا يبالي أبوك، أعلى الموت سقط أم عليه سقط الموت. وفي قصتي قتل عثمان، وسعيد بن جبير ما يدلُّ على اختيارهما

الشهادة، وذلك أنّ عثمان جاءه جماعة من الصحابة، فقالوا له: نقاتل عنك، فقال لهم: وكان له قريبٌ من ألف عبد، فشهروا سيوفهم لمَّا هُجِمَ عليه، فقال: من أغمد سيفه فهو حرّ، فصبر حتى قتل، وأمَّا سعيد بن جبير، فإنَّ الموكَّلين به لمَّا طلبه الحجاج لمَّا شاهدوا من لياذ السباع به، وتمسُّحها به، قالوا: لن ندخل في إراقة دم هذا الرجل الصالح، قالوا له: طَلَبك لِيَقْتلَك، فاذهب حيث شئت، ونحن نكون فداءك، فقال: لا والله، إنّي سألت ربّي الشهادة، وقد رزقنيها، والله لا بِرَحْتُ.

وروي عن النبي ﷺ[1]: لو تمنَّوا الموت ـ يعني: اليهود ـ لغص كل إنسانٍ منهم بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهوديٌّ، وذلك: أنَّ الله سبحانه، أمر نبيه أن يدعوهم إلى تمنّي الموت، وأن يعلمهم أنَّه من تمنَّاه منهم مات، ففعل النبيُّ ﷺ فعلم اليهود صدقه، فأحجموا عن تمنيه فرقاً من الله سبحانه، وهذا من المعجزات؛ لأنّه إخبارٌ بالغيب، وكان كما أخبر به ولو وقع من أحد منهم تمني موته لنقل واشتُهر.

وحاصل معنى الآية: أي إن صدق[2] قولكم وصحت دعواكم: أنَّ الجنة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً، وفي أنّكم شعب الله المختار، وأنَّ النار تمسُّكم أياماً معدودات، فتمنَّوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم، الخالص، الدائم، الذي لا ينازعكم فيه أحدٌ، إذ لا يرغب الإنسان عن السعادة، ويختار الشقاء، فإن لم تتمنَّوه، بل كنتم شديدي الحرص على هذه الحياة، فما أنتم بصادقي الإيمان، وهذه حجةٌ تنطبق على الناس عامَّةً، فيجب على المسلمين أن يجعلوها ميزاناً يزنون بها دعواهم اليقين بالإيمان، والقيام بحقوق الله، فإن ارتاحت نفوسهم لبذل أرواحهم في سبيل الله، والذود عن الدين، كانوا مؤمنين حقّاً، وإن ضنُّوا بها وكانوا شديدي الحرص على الحياة إذا جدَّ الجِدُّ، ودعا الداعي، كانوا بعكس ما يدَّعون.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾؛ أي: الموت ﴿أَبَدًا﴾ أي: في جميع الزمن المستقبل؛ لأنّ

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

أبداً اسم لجميع مستقبل الزمان، كقطُّ لماضيه، وفيه[1] دليلٌ على أنَّ (لن) ليس للتأبيد؛ لأنّهم يتمنّون الموت في الآخرة، ولا يتمنّوه في الدنيا؛ أي: لن يسألوا الموت، ولن يطمعوا فيه أبداً ما عاشوا ﴿بـ﴾ سبب ﴿ما قدمتـ﴾ـه وعملته واجترحته ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي الموجبة لدخول النار، كالكفر بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزل عليه، وتحريف نعت محمد ﷺ المذكور في التوراة؛ لأنّهم عرفوا أنهم كفرةً، ولا نصيب لهم في الجنّة.

فإن قلت: لِمَ قال هنا (لن) وفي الجمعة (لا)؟

قلت: لأنَّ (لن) أبلغ في النفي من (لا) حتى قيل: إنّها لتأبيد النفي، ودعواهم في (البقرة) بالغةٌ قاطعةٌ، وهي كون الجنة لهم بصفة الخلوص، فناسب ذكر (لن) فيها، ودعواهم في الجمعة قاصرةٌ مردودة، وهي زعمهم أنّهم أولياء لله، فناسب ذكر (لا) فيها. انتهى من «فتح الرحمن».

والمعنى: أي ولن يقع منهم هذا التمنّي بحالٍ؛ لأنّهم يعرفون ما اجترحته أنفسهم من المعاصي، والذنوب التي يستحقون بها العقوبة، كتحريف التوراة وتبديلها، وتكذيب محمد ﷺ مع البشارة به في كتابهم.

وخصَّ الأيدي بالذكر[2]؛ لأنّ الأعمال غالباً تكون بها، وهي من بين جوارح الإنسان مناط عامّة صنائعه، ومدار أكثر منافعه، ولذا عبَّر بها تارةً عن النفس، والشخص، كما هنا، والأخرى عن القدرة ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: بالكافرين من اليهود، والنصارى، وغيرهم؛ أي: محيط علمه بهم، وبما صدر عنهم، وسيجازيهم عليه، ففيه معنى التهديد، والتخويف لهم، وإنّما[3] خصَّهم بالظلم؛ لأنّه أعمّ من الكفر عموماً وخصوصاً مطلقاً؛ لأنّ كلَّ كافر ظالم، وليس كل ظالم كافراً، فلهذا كان أعم، وكانوا أولى به.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ من الوجدان العقليِّ وهو جار مجرى العلم، خلا أنّه مختصٌّ بما وقع بعد التجربة، ونحوها، واللام لام قسم؛ أي: وعزّتي وجلالي، لتجدنَّ يا محمد! اليهود ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ﴾ أي: أشدَّ الناس حرصاً ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾؛ أي: على بقاء في الدنيا، وأشدَّهم كراهيةً للموت، والتنكير[1] للنوع، وهي الحياة المخصوصة المتطاولة، وهي حياتهم التي هم فيها؛ لأنّها نوعٌ من مطلق الحياة. وقرأ أُبيٌّ: ﴿على الحياة﴾ بالتعريف، قال الزمخشريُّ: التنكير أبلغ من قراءة أُبيٍّ لعمومه، وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ عطفٌ على ما قبله بحسب المعنى، المعنى: كأنّه قيل: أي: ولتجدنّهم أحرص من جميع الناس، وأحرص من الذين أشركوا؛ أي: وأحرص من مشركي العرب المنكرين للبعث على الحياة؛ لعلمهم بأنّ مصيرهم إلى النار دون المشركين؛ لإنكارهم له؛ أي: فهم أكره للموت من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث.

فإن قلت: الذين أشركوا قد دخلوا في الناس في قوله: ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ﴾ ولِمَ أفردهم بالذكر؟

قلت: أفردهم بالذكر؛ لشدَّة حرصهم على الحياة، وفيه توبيخٌ عظيم لليهود؛ لأنَّ الذين أشركوا لا يؤمنون بالمعاد، ولا بالمجازاة، ولا يعرفون إلاّ الحياة الدنيا، فلا يستبعد حرصهم عليها؛ لأنّها جنّتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتابٌ، وهو مقرٌّ بالبعث والجزاء، كان حقيقاً بالتوبيخ العظيم.

فإن قلت: لِمَ زاد حرصهم على حرص المشركين؟

قلت: لأنّهم علموا لعلمهم بحالهم أنّهم صائرون إلى النار لا محالة، والمشركون لا يعلمون ذلك. وقيل: إنّ الواو في قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ استئنافية، تقديره: ومن الذين أشركوا أُناسٌ يودُّون تعميرهم ألف سنة، أو أُناسٌ

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

حريصون على حياةٍ ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف؛ أي: يحبُّ ويتمنَّى أحد هؤلاء اليهود، وأحد المشركين ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي؛ تعميره[1]، وعيشه، وحياته، وبقاءه في الدنيا ألف سنة؛ لأنّه يعلم أنَّ آخرته قد فسدت عليه، وليس المراد بألف سنة: خصوص هذا العدد، ولا قول الأعاجم: عشر ألف سنةٍ، بل المراد: التكثير والمبالغة.

وقوله: ﴿أَحَدُهُمْ﴾؛ أي: واحدٌ[2] منهم، وليس أحدٌ هنا هو الذي في قولهم: (ما قام أحدٌ)؛ لأنَّ هذا مستعملٌ في النَّفْي، أو ما جرى مجراه، والفرق بينهما: أنَّ أحداً هذا أصوله همزةٌ وحاءٌ ودالٌ، وأصول ذلك واو وحاء ودال، فالهمزة في أحدهم بدلٌ من واو، والإتيان[3] بالمضارع في ﴿يَوَدُّ﴾ حكايةٌ لودادهم و﴿لَوْ﴾ مصدريَّةٌ فيه معنى التمنِّي، كأنَّه قيل: ليتني أُعمَّر، إلاّ أنَّه جرى على لفظ الغيبة لقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ كقولك: حلف بالله ليفعلنّ، ومحلُّه النصب على أنّه معمول ليودُّ إجراءً له مجرى القول؛ لأنّه فعلٌ قلْبيٌّ، والمعنى: تمنَّى أحدهم أن يعطى البقاء والعمر ألف سنة، وهي للمجوسي، وخصَّ هذا العدد؛ لأنّهم يقولون ذلك فيما بينهم عند العُطَاس والتحية: عشر ألف سنةٍ وألف نورٍ، وصحَّ إطلاق المشركين على المجوس؛ لأنّهم يقولون بالنور والظلمة، ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: وما طول عمره وتعميره ألف سنة، ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ أي: بمبعده، ومنجيه ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: من عذاب الله؛ لأنّه لا بدَّ للعمر، وإن طال من الفناء، والعمر: مدَّةٌ أجلها الله تعالى لعباده في دار الفناء، وجملة قوله: ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ بدلٌ من الضمير الذي فسَّرناه سابقاً بالتعمير، ويحتمل عود الضمير على أحدهم، وهو اسم ﴿مَا﴾ ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ خبر ﴿مَا﴾ والباء زائدة، و﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ فاعلُ بمزحزحه.

والمعنى عليه: وما أحدهم بمن يزحزحه ويبعده من العذاب والنار تعميره

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

ألف سنة ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ﴾، أي: عالم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، والبصير في كلام العرب: العالم بكنه الشيء، الخبير به؛ أي: عالمٌ بخفيَّات أعمالهم من الكفر، والمعاصي، لا يخفى عليه شيءٌ منها، فهو مجازيهم عليها لا محالة بالخزي، والذلِّ في الدنيا، والعقوبة في العقبى، وهذه الحياة العاجلة تنقضي سريعةً، وإن عاش المرء ألف سنةٍ، أو أزيد عليها، فمن أحبَّ طول العمر للصلاح فقد فاز، وفي الحديث: «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله» ومن أحبَّه للفساد فقد ضلَّ، ولا ينجو ممَّا يخاف، فإن الموت يجيءُ ألبتة، واجتمعت الأمَّة على أنَّ الموت ليس له سِنٌّ معلومٌ، ولا أجلٌ معلومٌ، ولا مرضٌ معلومٌ، وذلك ليكون المرء على أهبةٍ من ذلك، وكان مستعداً لذلك بعض الصالحين ينادي بالليل على سور المدينة: الرحيل الرحيل! فلمَّا توفِّي فقد صوته أمير تلك المدينة، فسأل عنه، فقيل له: إنّه مات.

مَا زَالَ يَلْهَجُ بِالرَّحِيْلِ وذِكْرِهِ حَتَّى أناخَ بِبَابِهِ الجَمَّالُ
فأصَابَهُ مُسْتَيْقِظاً مُتَسَمِّراً ذَا أُهْبَةٍ لَمْ تُلْهِهِ الآمَالُ

فإصابةُ الموت حقٌّ وإن كان العيش طويلاً، والعمر مديداً، وهو ينزل بكل نفسٍ، راضيةً كانت، أو كارهةً. وقرأ الجمهور(١) ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء على نسق الكلام السابق. وقرأ الحسن، وقتادة، والأعرج، ويعقوب: بالتاء على سبيل الالتفات، والخروج من الغيبة إلى الخطاب، وأتى بصيغة المضارع، وإن كان علمه تعالى محيطاً بأعمالهم السالفة، والآتية؛ لتواخي الفواصل.

وقد تضمَّنت هذه الآية الكريمة: الامتنان على بني إسرائيل، وتذكارهم بنعم الله تعالى، إذ أتى موسى التوراة المشتملة على الهدى والنور، ووالى بعده بالرسل؛ لتجديد دين الله وشرائعه، وأتى عيسى الأمور الخارقة للعادة من إحياء الأموات، وإبراء الأكمه والأبرص، وإيجاد المخلوق، ونفخ الروح فيه، والإنباء بالمغيَّبات، وغير ذلك، وأيَّده بمن ينزل الوحي على يديه وهو جبريل عليه

---

(١) البحر المحيط.

السلام، ثُمَّ مع هذه المعجزات والنعم، كانوا أبعد الناس عن قبول ما يأتيهم من عند الله تعالى، وكانوا بحيث إذا جاءهم رسولٌ بما لا يوافقهم، بادروا إلى تكذيبه، أو قتلوه وهم غير مكترثين بما يصدر منهم من الجرائم، حتى حكي أنَّهم في إثر قتلهم الجماعة من الأنبياء، تقوم سوق البقل بينهم التي هي أردأ الأسواق، وأرذلها، فكيف بالأسواق التي تباع فيها الأشياء النَّفيسة؟ ثُمَّ نعى تعالى عليهم أنَّهم باقون على تلك العادة، من تكذيب ما جاء من عند الله، وإن كانوا من قبل مجيئه يذكرون أنّه يأتيهم من عند الله، فحين وافاهم ما كانوا ينتظرونه، ويعرفونه كفروا به، فختم الله عليهم باللعنة، وأنَّ سبب طردهم عن رحمة الله؛ هو ما سبق من كفرهم، وأنَّ إيمانهم كان قليلاً، إذ كانوا قبل مجيء الكتاب يؤمنون بأنّه سيأتي كتابٌ، ثُمّ أخذ في ذكر ذمهم، أن باعوا أنفسهم النفيسة بما يترتَّب لهم على كفرهم بآيات الله، من المآكل، والرياسات المنقضية في الزمن اليسير؛ وأنَّ الحامل على ذلك هو البغي والحسد؛ لأن الله اختصَّ بفضله من شاء من عباده، فلم يرضوا بحكمه، ولا باختياره، فباؤا بالغضب من الله، وأَعَدَّ لهم في الآخرة العذاب الذي يذلُّهم، ويهينهم، إذ كان امتناعهم من الإيمان إنّما هو للتكبُّر، والحسد، وعدم الرضا بالقدر، فناسب ذلك أن يعذَّبوا العذاب الذي فيه صغارٌ لهم، وذلَّةٌ، وإهانةٌ، ثُمَّ أخبر تعالى عنهم أنّهم إذا عُرِضَ عليهم الإيمان بما أنزل الله، أجابوا بأنَّهم يؤمنون بالتوراة، وأنّهم يكفرون بما سوى هذا، والكتب المنزَّلة من عند الله تعالى، سواءٌ إذ كُلُّها حقٌّ يُصدِّق بعضها بعضاً، فالكفر ببعضها كفرٌ بجميعها.

ثُمَّ أخبر تعالى بكذبهم في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وذلك بأنّهم قتلوا الأنبياء، والتوراة ناطقةٌ باتِّباع الأنبياء، والاقتداء بهم، فقد خالف قولهم فعلهم، ثُمَّ كرَّر عليهم؛ توبيخاً لهم أنَّ موسى الذي أنزل عليه التوراة، وأنّهم يزعمون أنّهم آمنوا بها، قد جاءهم بالأشياء الواضحة، والمعجزات الخارقة، من نجاتهم من فرعون، وفلق البحر، وغير ذلك، ومع ذلك اتخذوا من بعد ذهابه إلى مناجاةِ ربِّه إلٰهاً من أبعد الحيوان ذهناً، وأبلدها، وهو العجل المصنوع من حُليِّهم، المشاهد إنشاؤهُ وعمله، وموسى لم يَمُتْ بَعْدُ، وكتاب الله طريٌّ نزولُه عليهم، لم

يتقادم عهده، وكرَّر تعالى: ذكر رفع الطور عليهم؛ ليقبلوا ما في التوراة، وأمروا بالسمع والطاعة، فأجابوا بالعصيان هذا، وهم ملجؤون إلى الإيمان، أو كالملجئين؛ لأنَّ مثل هذا المزعج العظيم من رفع جبل عليهم لينشد جوابه، جديرٌ بأن يأتي الإنسان ما أُمِر به، ويقبل ما كُلِّف به من التكاليف، وإِباؤُهم لذلك، وعدمُ قبولهم؛ سببَهُ أنَّ عبادة العجل خامرَتْ قلوبهم، ومازَجَتها حتى لم تسمح قبولاً لشيءٍ من الحق، والقلب إذا امتلأ بحبِّ شيءٍ لم يسمع سواه، ولم يُصْغِ إلى مَلاَم، وأنشدوا:

مَـلأْتُ بِـبَـعْـضِ حُـبِّـكَ كُـلَّ قَـلْـبِـي ... فَـإِنْ تُـرِدْ الـزِيَـادَة هَـاتِ قَـلْـبَـا

ثمَّ ذمَّهم تعالى على ما أمرهم به إيمانهم، ولا إيمان لهم حقيقةً، بل نسب ذلك إليهم على سبيل التهكُّم من عبادة العجل، واتخاذه إلٰهاً من دون الله، ثُمَّ كذَّبهم في دعواهم أنَّ الجنّة هي خالصةٌ لهم لا يدخلها أحدٌ سواهم، فأمرهم بتمنِّي الموت؛ لأنَّ من اعتقد أنّه يصير إلى سرور، وحبور، ولذّةٍ دائمةٍ لا تنقضي، يؤثر الوصول إلى ذلك، وانقضاء ما هو فيه من الذلَّة، والنَّكدِ. وأخبر تعالى أنَّ تمنِّي الموت لا يقع منهم أبداً، وأنَّ امتناعهم من ذلك هو بما قدَّمت أيديهم من الجرائم، فظهر كذبهم في دعواهم بأنَّهم من أهل الجنة، ثُمَّ ذكر ترشيحاً لما قبله من عدم تمنيهم الموت، أنّهم أشدُّ الناس حرصاً على حياةٍ، حتى إنّهم أحرص من الذين لا يؤمنون بالدار الآخرة، ولا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً، ثُمَّ ذكر أنَّ أحدهم يودُّ أن يُعَمَّر ألف سنة ومع ذٰلك فتعميره وإن طال ليس بمنجيه من عذاب الله.

ثُمَّ ختم الآيات بأنَّ الله تعالى، مطلع على قبائح أفعالهم، ومجازيهم عليها، وتبيَّن بمجموع هذه الآيات ما جبل عليه اليهود من فرط كذبهم، وتناقض أفعالهم وأقوالهم، ونقص عقولهم، وكثرة بهتهم، أعاذنا الله من ذلك، وسلك بنا أنهج المسالك ﴿قُلْ﴾ يا محمد! لهؤلاء اليهود الذين زعموا أنَّ جبريل عدوٌّ لهم من بين الملائكة؛ لأنّه ينزل بالعذاب والشدّة ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ بِسَبَبِ نزوله بالقرآن المشتمل على سبِّهم وتكذيبهم، فليمت غيظاً؛ لأنَّ من عاداه فقدَ

عادى الله؛ لأنَّ الله تعالى جعله واسطةً بينه وبين رسله ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإنَّ جبريل الأمين ﴿نَزَّلَهُۥ﴾؛ أي: نزَّل هذا القرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد! وإنَّما خصَّ القلب بالذكر؛ لأنّه محلُّ الحفظ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمر الله تعالى، وإذا كان نزوله بإذن الله تعالى، فلا وجه للعداوة، وإنّما كان لها وجهٌ لو كان النزول برأيه، فالضمير[1] في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ الأول لجبريل، والثاني للقرآن، وإضماره في الثاني مع عدم سبق المرجع يدلُّ على فخامة شأن القرآن؛ كأنَّه لتعينه؛ وفرط شهرته لم يحتج إلى سبق ذكره؛ ولدلالة[2] المعنى عليه، ألا ترى إلى قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذه كلُّها من صفات القرآن، ولقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فإنَّ جبريل نزَّل القرآن على قلبك. وقيل: الضمير في ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ عائدٌ على الله، وفي ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ عائدٌ على جبريل، والتقدير: فإن الله نزَّل جبريل بالقرآن على قلبك، وفي كل من هذين التقديرين إضمارٌ يعود على ما عليه سياق المعنى، لكن التقدير الأوَّل أولى لما ذكرناه آنفاً؛ وليكون موافقاً لقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ويُنْظَر للتقدير الثاني قراءةُ مَنْ قرأ ﴿نَزَّل﴾ بالتشديد و﴿الروحَ﴾ بالنصب. وأتى بلفظ على في قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ لأنَّ القرآن مستعلٍ على القلب، إذ القلب سامعٌ له، ومُطيعٌ يمتثل ما أمر به، ويجتنب ما نهى عنه، وكانت أبلغ من إلى؛ لأنَّ إلى تدلُّ على الانتهاء فقط، و(على) تدلُّ على الاستعلاء، وما استعلى على الشيء يُضمَّنُ الانتهاء إليه.

وخصَّ القلب ولم يقل عليك؛ لأن القلب هو محلُّ العقل، والعلم، وتلقِّي الواردات؛ أو لأنَّه صحيفته التي يرقم فيها، وخزانته التي يحفظ فيها؛ أو لأنَّه سلطان الجسد. وفي الحديث: «إنَّ في الجسد مضغةً، ثُمَّ قال أخيراً: ألا وهي القلب»؛ أو لأنَّ القلب خيار الشيء وأشرفه، أو لأنّه بيت الله؛ أو لأنّه كنى به عن العقل إطلاقاً للمحلِّ على الحالِّ؛ أو عن الجملة الإنسانية، إذ قد ذكر الإنزال عليه في أماكن ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾

---

(١) البيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

أو يكون إطلاقاً لبعض الشيء على كلّه أقوالٌ سبعة.

وأضاف القلب إلى الكاف التي للخطاب، ولم يُضفه إلى ياء المتكلم، وإن كان نظم الكلم يقتضيه ظاهراً؛ لأنَّ قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ هو معمولٌ لقول مضمر، التقدير: قل يا محمد! قال الله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمر الله[1] اختاره في المنتخب، ومنه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وقد صرَّح ذلك في قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، أو بعلمه وتمكينه إيّاه من هذه المنزلة، قاله ابن عطيّة، أو باختياره، قاله الماوردي، أو بتيسيره وتسهيله، قاله الزمخشري.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ من الضمير المنصوب في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ إن كان يعود على القرآن، والمعنى: أي: حالة كون القرآن مصدِّقاً وموافقاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما قبله من الكتب الإلٰهية في التوحيد وبعض الشرائع، وإن قلنا: إنّ ضمير ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ عائد على جبريل، فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون حالاً من المجرور المحذوف لفهم المعنى، والمعنى: فإنّ الله نزّل جبريل بالقرآن حال كون القرآن مصدِّقاً لما بين يديه.

والثاني: أن يكون حالاً من جبريل، وما في قوله: ﴿لِّمَا﴾ موصولةٌ، وعنى بها الكتب التي أنزل الله على الأمم قبل إنزاله، أو التوراة والإنجيل. والهاء في ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يحتمل أن تكون عائدةً على القرآن، ويحتمل أن تعود على جبريل، فالمعنى: مصدّقاً لما بين يديه من الرسل والكتب ﴿و﴾ حالة كون القرآن ﴿هُدًى﴾؛ أي: هادياً للناس من الضلالة إلى دين الحق ﴿و﴾ حالة كونه ﴿بشرى﴾؛ أي: مبشِّراً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: للموحِّدين بالجنة، فلا وجه لمعاداته، فلو أنصفوا لأحبُّوه، وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم، ويَنْصَحُ المُنزَّل عليهم.

---

(١) البحر المحيط.

وهذا[1] ردٌّ على اليهود حين قالوا: إنَّ جبريل ينزل بالحرب والشدّة، فقيل لهم: إنْ كان ينزل بالحرب والشدة على الكافرين، فإنّه ينزل بالهدى والبشرى للمؤمنين، وقوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾[2] معطوفان على ﴿مُصَدِّقًا﴾ فهما حالان، فيكون من وضع المصدر موضع اسم الفاعل، كأنَّه قال: وهادياً ومبشِّراً أو من باب المبالغة، كأنّه لمَّا حصل به الهدى والبشرى، جُعِل نفس الهدى والبشرى، والألف في بشرى للتأنيث، كهي في رجعى وهو مصدر.

والخلاصة: أنَّه وصف القرآن بتصديقه لِمَا تقَّدمه من الكتب الإلٰهية، وأنّه هدى، إذ فيه بيان ما وقع التَّكْليف به من أعمال القلوب والجوارح، وأنّه بشرى لمن حصل له الهدى، فصار هذا الترتيب اللفظيُّ في هذه الأحوال؛ لكون مدلولاتها ترتبت ترتيباً وجودياً:

فالأوّل: كونه مصدِّقاً للكتب، وذلك؛ لأنَّ الكتب كلَّها من ينبوع واحد.

والثاني: أنَّ الهداية حصلت به بعد نزوله على هذه الحال من التصديق.

والثالث: أنَّه بشرى لمن حصلت له به الهداية، وقوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّ الهدى والبشرى بالمؤمنين؛ لأنَّ غير المؤمنين لا يكون لهم هُدًى به ولا بشرى، كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾؛ ولأنَّ المؤمنين هم المبشَّرون، كما قال: ﴿فبشِّر عبادي﴾ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾. ودلَّت هذه الآية على تعظيم جبريل، والتنويه بقدره، حيث جعله الواسطة بينه تعالى وبين أشرف خلقه، والمنزَّل بالكتاب الجامع للأوصاف المذكورة، ودلت على ذم اليهود حيث أبغضوا من كان بهذه المنزلة الرفيعة عند الله تعالى.

وهذه الآية[3] تعلَّقت بها الباطنية حيث قالوا: إنّ القرآن إلهامٌ، والحروف

---

(١) الواحدي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

عبارة الرسول. ورُدَّ عليهم: بأنَّه معجزةٌ ظاهرةٌ بنظمه، وأنَّ الله سمَّاه وحياً، وكتاباً وعربياً، وأنَّ جبريل نزل به، والملهم لا يحتاج إلى جبريل، ثُمَّ عمَّم الشرط والجزاء ردّاً عليهم بقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ بمخالفته أمر الله عناداً، وخروجه عن طاعته مكابرةً، أو بمعاداة المقرَّبين من عباده، وصدَّر[1] الكلم بذكر الله؛ تفخيماً لشأنهم ﴿و﴾ لـ﴿ملائكته﴾ ﴿و﴾ لـ﴿رسله﴾ ﴿و﴾ لـ﴿جبريل و﴾ لـ﴿ميكال﴾ أفردهما بالذكر مع كونهما داخلين في جملة الملائكة؛ لبيان شرفهما؛ وإظهار فضلهما؛ وعلوِّ منزلتهما، فكأنَّهما جنسٌ آخر أشرف ممَّا ذكر تنزيلاً؛ للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الجنس، وللردّ على اليهود حيث قالوا: جبريل عدوُّنا، وميكال وليُّنا. قال عكرمة: جبرَ، وميك، وإسراف، معناها: العبد بالسُّريانية، وإيل، وآيل، معناهما: الله، ومعنى هذه الأسماء: عبد الله، أو عبد الرحمن، وحكى الماوردي عن ابن عباس: أن جبر بمعنى: عبد بالتكبير، وميكا بمعنى: عبيدٍ بالتصغير، فمعنى جبريل: عبد الله، ومعنى ميكائيل: عبيد الله، قال: ولا نعلم لابن عباس في هذا مخالفاً. اهـ. «سمين».

أي: من عادى هؤلاء المذكورين، فقد كفر، والكافر عدوُّ لله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جواب الشرط[2]، ولم يقل: فإنَّه؛ لاحتمال أن يعود إلى جبريل، أو ميكال ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: عدوٌّ لهؤلاء اليهود، وغيرهم من الكفرة، وأظهر في موضع الإضمار؛ لأنَّ مقتضى السياق، فإنَّ الله عدوٌّ لهم؛ ليدلَّ على أنَّ الله إنّما عاداهم لكفرهم، والمعنى: من عاداهم عاداه الله، وعاقبه أشدَّ العقاب، أي: فإنّ الله سبحانه تولّى بنفسه عداوة ذلك الكافر بالانتقام منه، وكفى رسله، وملائكته عن أمر من عاداهم.

قال الواحديُّ: والمعنى: أنَّ من كان عدوّاً لأحد من هؤلاء، فإنَّ الله عدوٌّ له؛ لأنَّ عَدُوَّ الواحد منهم عدوٌّ للجمع، وعدوُّ محمدٍ ﷺ عدوُّ الله، وليس

---

(١) العمدة

(٢) روح البيان.

المراد: مَنْ جَمَعَ عداوة الجميع فالله عدوُّهُ، والواو هنا بمعنى أوْ، وليست للجمع، وقال بعضهم: الواو للتفصيل.

وليس المراد[1]: من كان عدوّاً لجميع الملائكة، وجميع الرسل، بل هذا من باب التعليق على الجنس بصورة الجمع، كقوله: (إنْ كلَّمْتِ الرجال فأنتِ طالق) لا يريد بذلك إن كلمت كُلَّ الرجال، ولا أقلَّ ما ينطلق عليه الجمع، وإنّما علَّق بالجنس، وإن كان بصورة الجمع، فلو كلَّمَتْ رجلاً واحداً طلقتْ، فكذلك هذا الجمع في الملائكة والرسل.

فالمعنى: أن من عادى الله، أو ملكاً من ملائكته، أو رسولاً من رسله، فالله عدوٌّ له، والعداوة بين الله والعبد لا تكون حقيقةً، وعداوة العبد لله تعالى مجازٌ. ومعناها: مخالفة أمره، وعداوة الله للعبد مجازاته على مخالفته. وقرأ حمزة[2]، والكسائي: جبرائيل بفتح الجيم والراء وهمزةٍ مكسورةٍ بعد الراء. وقرأ شعبة كذلك، إلاّ أنه حذف الياء بعد الهمزة وكسر الراء، والباقون بكسر الجيم والراء من غير همزٍ بعد الراء، إلاّ أنَّ ابن كثير: فتح الجيم. وقرأ أبو عمرو، وحفصٌ: ﴿ميكال﴾ بغير همزة، ولا ياءٍ بين الألف واللام. وقرأ نافع بهمزةٍ بعد الألف، ولا ياء بعد الهمزة، والباقون بهمزةٍ بعد الألف وياءٍ.

والخلاصة: أي إنَّ[3] من عادى الله وعادى هؤلاء المقرَّبين عنده، فالله عدوٌّ له؛ لأنَّه كافرٌ به ومعادٍ له، وهو الظالم لنفسه حين دعاه فلم يجب، وفي هذا من شديد الوعيد ما لا يخفى، إذ فيه تصريحٌ بأنّهم أعداء الحق، وأعداء كلِّ من يدعو إليه، ومعاداة القرآن، كمعاداة سائر الكتب السماويّة؛ لأنَّ المقصد من الجميع واحدٌ، وهو هداية الناس، وإرشادهم إلى سبيل الخير، ومعاداة محمد ﷺ، كمعاداة سائر الأنبياء؛ لأنَّ رسالتهم واحدة، والمقصد واحدٌ. والواو في قوله:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ استئنافية، واللام فيه للقسم؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد أنزلنا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد! ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾ من القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿بَيِّنَٰتٍۖ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على معانيها، وعلى كونها من عند الله تعالى، مفصّلاتٍ بالحلال والحرام، والحدود، والأحكام ﴿وَمَا يَكْفُرُ﴾ ويجحد، وينكر، ويكذّب ﴿بِهَآ﴾؛ أي: بالآيات التي توضِّح الحلال والحرام، وتفصِّل الحدود، والأحكام ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن طاعتنا، وما أمروا به، المتمرِّدون في الكفر من سائر الكفرة، فإنّ من لبس على تلك الصفة لا يجترىءُ على الكفر بمثل هاتيك الآيات البينات، فاللام فيه للجنس، والأحسن جعلها للعهد إشارةً إلى أهل الكتاب؛ لأنَّ الكلام فيهم، والمعنى حينئذٍ، إلاّ الخارجون عن دينهم المحرِّفون لكتابهم؛ لأن اليهود خرجت بالكفر بمحمد ﷺ عن شريعة موسى عليه السلام.

واعلم: أنَّ القرآن هو النور الإلٰهيُّ الذي كشف الله به الظُّلمات، واليهود أرادوا أن يُطفِئُوا نور الله، والله متم نوره، وليس لهم في ذلك إلا الفضاحة والخزي، كما إذا دخل الحمام ناسٌ في ليلٍ مظلم، وفيهم الأصحاء وأهل العيوب، فجاء واحدٌ بسراج مضيءٍ لا يسارع إلى إطفائه إلاّ أهل العيوب، مخافة أن يُظهر عيوبهم للأصحَّاء، ويلحق بهم مذمَّةً (أو) الهمزة[1] فيه للاستفهام الإنكاري، داخلةٌ على محذوف معلوم من السياق، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، كما هو مذهب الزمخشري، والتقدير: أكفروا بهذه الآيات البيِّنات مع كونها في غاية الوضوح؟ ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ﴾؛ أي: أعطوا ﴿عَهْدًا﴾ لله سبحانه في حقِّ محمد ﷺ وهو مصدرٌ مؤكِّد لعاهدوا من غير لفظه بمعنى: معاهدةً. وقرأ أبو السمال العدويُّ[2]، وغيره ﴿أوْكُلَّما﴾ بسكون الواو، وخرَّج ذلك الزمخشري على أن يكون للعطف على الفاسقين وقدَّره: وما يكفر بها إلاّ الذين فسقوا، أو

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

نقضوا عهد الله مراراً كثيرةً، وخرَّجه المهدوي، وغيره على أنَّ (أو) للخروج من كلامٍ إلى غيره بمنزلة أمْ المنقطعة، فكأنَّه قال: بل كُلَّما عاهدوا عهداً. الخ. وهذا التخريج على مذهب الكوفيين، إذْ تكون ﴿أو﴾ عندهم بمعنى بل، ويحتمل أن تكون ﴿أو﴾ على هذه القراءة الشاذة بمعنى: الواو، كأنَّه قيل: وكلَّما عاهدوا عهداً. وقرأ الحسن، وأبو رجاء ﴿أو كلّما عوهدوا﴾ على البناء للمفعول، وهي قراءةٌ شاذة تخالف رسم المصحف. وقرىء ﴿أو كلما عهدوا عهداً﴾ ويكون ﴿عهداً﴾ مصدراً لفظياً؛ أي: نبذ ذلك العهد، وطرحه، أو نقضه، أو ترك العمل به، أو اعتزله، أو رماه، أقوالٌ خمسةٌ، هي متقاربة المعنى، ونسبة النبذ إلى العهد مجازٌ؛ لأنَّ العهد معنى من المعاني، والنَّبْذُ إنّما هو حقيقةٌ في المتجسدات، كقوله: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وقوله: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؛ أي: من اليهود، والفريق: الطائفة، وهم اسم جنس يصدق على القليل والكثير، ولا واحد له من لفظه، وإسناد النبذ إلى فريق منهم؛ لأنَّ منهم من لم ينبذه. وقرأ عبد الله (نقضه فريقٌ منهم) وهي قراءة تخالف سواد المصحف، فالأولى حملها على التفسير.

أي: أكفروا[1] بتلك الآيات البينات؟ وكلَّما عاهدوا وأعطوا عهد الله في حق محمد ﷺ نقضه، ورماه جماعةٌ منهم، وقوله: ﴿نَّبَذَهُۥ﴾ جواب ﴿كلما﴾ وهو محلُّ الاستفهام الإنكاري، والمعنى: أنقضوا العهد كُلَّما عاهدوا عهداً، ولا ينبغي ولا يليق بهم ذلك النقض، وذلك[2] العهد، كقولهم قبل مبعث محمد ﷺ: لئن خرج نبيٌّ آخر الزمان لنؤمننَّ به، ولنخرجنَّ المشركين من ديارهم، وككونهم عاهدوا الله على أن لا يعينوا عليه ﷺ أحداً من المشركين، ثم أعانوا عليه قريشاً يوم الخندق.

وفي «المراغي»: والمراد بالعهود هنا: هي عهودهم للنبي ﷺ، ولمَّا كان لفظ الفريق يُوهم قلّةَ العدد، مع أن الناقِضينَ للعهد هم أكثر، أَضْرَبَ عنه،

---

(١) العمدة. (٢) المراح.

وقال: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنّهم لا عهود لهم؛ أي: بل أكثر اليهود لا يصدِّقون ربَّك أبداً؛ لحَسَدِهم.

وقيل المعنى: بل أكثر اليهود لا يؤمنون بالتوراة، وليسوا من الدين في شيء، فلا يعتدُّون ـ نقض العهد والمواثيق ذنباً، ولا يبالون، وهذا ردٌّ لما يتوهَّم من أنَّ الفريق النابذين هم الأقلُّون، أو أنّ من لم ينبذ جهاراً فهم مؤمنون به خفاءً. وهذا من[1] إخبار الغيب، إذ أنَّ أكثر اليهود ما آمنوا بالنبي ﷺ ولن يؤمنوا به، فمثل هذا الحكم لا يصدر إلاّ ممَّن يعلم خفيَّات الأمور.

والخلاصة: أنَّ الله سبحانه وتعالى، بيَّن في هذه الآية حالين لأهل الكتاب.

أولاهما: أنّه لا يوثق بهم في شيء؛ لما عرف عن كثير منهم من نقض العهود في كل زمان.

ثانيتهما: أنّه لا يرجى إيمان أكثرهم؛ لأنّ الضلال قد استحوذ عليهم، وجعلهم في طغيانهم يعمهون.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ﴾؛ أي: ولمَّا أتى اليهود ﴿رَسُولٌ﴾ هو محمد ﷺ ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بجاء ﴿مُصَدِّقٌ﴾؛ أي: مُقرِّرٌ ﴿لِّمَا مَعَهُمۡ﴾؛ أي: لما مع اليهود من التوراة من[2] حيث إنّه ﷺ قرَّر صحتها، أو حقَّق حقيقة نبوّة موسى عليه السلام بما أنزل الله تعالى عليه، أو من حيث إنّه ﷺ جاء على وفق ما نعت له فيها ﴿نَبَذَ﴾؛ أي: طرح ورمى جواب ﴿لَمَّا﴾ ﴿فَرِيقٌ﴾؛ أي: طائفةٌ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ وأعطوا ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة، وتمسَّكوا به أوَّلاً، يعني: علماء اليهود وأحبارهم ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي أوتوه وهو مفعول نبذ؛ أي: التوراة؛ أي، طرح

---

(١) النسفي.
(٢) المراغي.
(٣) كرخي.

أحبارهم، ورمى علماؤهم التوراة ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وأعرضوا عنها بالكلّية، وتركوا العمل بما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ، وجحدوا به، وأصرُّوا على إنكار نبوّته؛ لأنّهم لمَّا كفروا بالرسول المصدِّق لما معهم، فقد نبذوا التوراة التي فيها أنَّ محمداً رسول الله، وقد علموا أنها من الله تعالى، مثل تركهم وإعراضهم عنه بالكلية بما يرمى به وراء الظهر استغناءً، وقلَّة التفاتٍ إليه، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: كأنَّ هؤلاء الفريق لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ، وتصديقه، أو مما بينته من نعوته ﷺ، جملةٌ حاليةٌ من فريقٌ؛ لتخصيصه بالوصف؛ أي: نبذوه وراء ظهورهم حال كونهم متشبِّهين بمن لا يعلمه أنّه كتاب الله.

والنبذُ[1]: كناية عن عدم الالتفات إليها، وعدم الاعتناء بما فيها؛ لأنّ النبذ الحقيقيَّ لم يحصل منهم؛ لأنّها بين أيديهم يقرؤونها. وقال سفيان بن عيينة: أدرجوها في الحرير والديباج، وحلَّوه بالذهب والفضة، ولم يُحِلُّوا حلالها، ولم يحرّموا حرامها، فذلك النَّبذ، وهذه الآية تنطبق على كُلِّ من يقرأ القرآن، ولم يعمل بما فيه، وفَّقنا الله تعالى بالعمل بما فيه، وإنَّما عبَّر عنها بكتاب الله، تشريفاً لها، وتعظيماً لحقّها عليهم، وتهويلاً لما اجْترؤُوا عليه من الكفر بها.

قيل[2]: أصل اليهود: أربع فرقٍ: فرقةٌ آمنوا بالتوراة، وقاموا بحقوقها، كمؤمن أهل الكتاب، وهم الأقلّون المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وفرقةٌ جاهروا بنبذ العهود تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيُّون بقوله عزّ وجلّ ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ﴾ وفرقةٌ لم يجاهروا بنبذها، ولكن نبذوها لجهلهم، وهم الأكثرون، وفرقةٌ تمسَّكوا بها ظاهراً، ونبذوها خفيةً وهم المتجاهلون. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ فَعَل فِعْل الجاهل، وتعمَّدَ الخلافَ مع علمه، يلتحقُ بالجُهَّال، وهو والجاهل سواءٌ، فكما أنَّ الجاهلَ لا يجَيءُ منه خيرٌ، فكذا العالم لا يعمل بعلْمِه، ولذا قال النبي ﷺ: «واعظُ اللِّسان ضائعٌ كلامه، وواعظ القلب نافذٌ

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

سهامه» فالأوّل: هو العالم غير العامل، والثاني: هو العالم العامل الذي يُؤثِّر كلامه في القلوب، وتُنْتِج كلمته ثمراتِ الحكمَة، والعبرةَ، والفكرةَ.

ومعنى الآية(١): أيْ: إنّه حين جاء النبيُّ ﷺ بكتابٍ مصدِّقٍ للتوراة التي بين أيديهم بما فيه من أصول التوحيد، وقواعد التشريع، وروائع الحكم والمواعظ، وأخبار الأمم الغابرة، نبذ فريقٌ من اليهود كتابهم وهو التوراة؛ لأنّهم حين كفروا بالرسول المصدِّق لما معهم، فقد نبذوا التوراة التي فيها أنَّ محمد رسول الله، وأهملوها إهمالاً تاماً كأنَّهم لا يعلمون أنها من عند الله تعالى، وقد جعل تركهم إيَّاها، وإنكارهم لها إلقاءً لها وراء الظهر؛ لأنَّ من يلقي الشيء وراء ظهره لا يراه فلا يتذكَّره.

فعلى العاقل(٢): أن يسارع إلى الامتثال خوفاً مِنْ بطشِ يدِ ذي الجلال، ويقال: الندامةُ أربعٌ: ندامةُ يومٍ: وهي أنْ يَخْرُج الرجلُ من منزله قبل أن يتغدَّى، وندامةُ سنة: وهي تَرْكُ الزراعةَ في وقتها، وندامةُ عُمْر: وهو أن يتزوَّج امرأة غير موافقة، وندامةُ الأبَدِ: وهي أن يترك أَمْرَ الله، ومجرَّدُ قراءة الكتاب بِتِرْياقِ الظاهر لا يدفع سُمَّ الباطن، فلا بدّ من العمل بما علم، كما أنَّ من كان ينظر إلى كُتُب الطبّ، وكان مريضاً، فما دام لم يباشر العلاج لا يفيد نظره بالأدوية، وكان خُلقه ﷺ: القرآن؛ يعني: يعملُ بأوامره، وينتهي عن نواهيه. وقال السدي(٣) لمَّا جاءهم محمدٌ ﷺ خاصموه بالتوراة، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة لموافقة القرآن لها، وأخذوا بكتابِ آصفِ بن بَرْخِيَا، وسِحْر هاروت وماروت، فلم يوافق ذلك القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ معطوف على نَبَذ؛ أي: ولَّما جاءهم كتاب مِنْ عند الله، نبذ فريق من أهل الكتاب كتاب الله وراءَ ظهورهم واتَّبعوا؛ أي: واتبع أولئك الفريق؛ يعني: علماءَهم وأحبارَهم ﴿مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾؛ أي: تَلَتْهُ الشياطين وقرأَتْهُ، والإتيان(٤) بصيغة المضارع في تَتْلُوا؛

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

(٤) روح البيان.

لحكاية الحال الماضية، والمراد بالإتّباع: التوغُّل والتمحُّض فيه، والإقبالُ عليه بالكلّية. وقرأ الحسن[1]، والضحَّاك: ﴿الشياطون﴾ بالرفع بالواو وهو شاذٌّ، قاسه على قول ـ العرب: بستان فلانٍ حوله بساتون، رواه الأصمعي، قالوا: والصحيح: أنَّ هذا لحنٌ فاحشٌ، وقال أبو البقاء: شبَّه فيه الياء قبل النون بياء جمع الصحيح، وهو قريبٌ من الغلط، وقال السَّجَاوَنْدِيُّ: خَطَّأَهُ الخَازَرَبَجِيُّ.

أي: واتَّبعوا ما كانت الشياطين تتلوه وتقرؤه ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ بن داود عليهما السلام؛ أي: في عهده وزمان ملكه من السحر، وتكذيبه على سليمان، والكلام على حذف مضاف، وعَلَى بمعنى: في، وكانت الشياطين دفنتهُ تحت كرسيه لمَّا نُزِع ملكه، فلم يشعر بذلك سليمان، فلمَّا مات استخرجوه، وقالوا للناس: إنّما مَلككم سليمان بهذا، فتعلَّموه، وأقبلوا على تعلُّمه، ورفضوا كتب أنبيائهم، وفشَتْ الملامةُ على سليمان، فلم تزل هذه حالَهم حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ وأنزل الله عليه براءةَ سليمان، فقال: وما كفر سليمان الخ.

قال السديُّ[2]: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت، وغيره، ويأتون الكهنة ويُخلِّطون بما سمعوا في كُلِّ كلمة سبعين كذبةً، ويخبرونهم بها، فاكتتبت الناس ذلك، وفشا في بني إسرائيل: أنَّ الجنّ تعلم الغيب، وبعث سليمان في الناس، وجمع تلك الكتب، وجعلها في صندوق، ودفنه تحت كرسيه، وقال: لا أسمع أحداً يقول: إنّ الشيطان يعلم الغيب إلاّ ضرَبْتُ عنقهَ، فلمَّا مات سليمان، وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أَمْرَ سليمان، ودَفْنَه الكُتبَ، وخَلفَ من بعدهم خلفٌ تمثَّل الشيطان على صورة إنسان، فأتى نفراً من بني إسرائيل، فقال: هل أدلُّكم على كنزٍ تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: تحت الكرسي، وذهب معهم، فأراهم المكان، وقام ناحيةً، فقالوا: أُدْنُ، قال: لا ولكني ههنا، فإنْ لم تجدوه، فاقتلوني، وذلك أنَّه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

لم يكن أحدٌ من الشياطين يَدْنُو من الكرسي إلاّ احترق، فحفروا، وأخرجوا تلك الكتب، قال الشيطان: إنّ سليمان كان يضبط الجنَّ، والإنس، والشياطين، والطير بهذه، ثمّ ـ طار الشيطان، وفشا في الناس أنَّ سليمان كان ساحراً، وأخذ بنو إسرائيل تلك الكُتب، فلذا أكثر ما يُوجَدُ السحرُ في اليهود، فلمَّا جاء محمد ﷺ بَرَّأ الله سليمان عليه السلام من ذلك، وأنزل عُذْر سليمان، بقوله واتبعوا ما تتلوا الشياطين في زمن ملك سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ بالسحر وعمله؛ يعني: لم يكن ساحراً؛ لأنَّ الساحر كافرٌ، والتعرُّض لكونه كفراً؛ للمبالغة في إظهار نزاهته عليه السلام، وكذب باهتيه بذلك.

أي: ما كتب سليمان السحر، وما عمل به؛ لأنّ عمل السحر كفر في شريعته، وأمّا في شريعتنا[1]، فإن اعتقد فاعله حِل استعماله كَفَر، وإلاّ فلا، وأمّا تعلّمه، فإن كان ليعمل به فحرام، أو ليتوقّاه فمباح أولاً، ولا، فمكروه، والسحرُ[2]: كُلُّ ما دَقَّ ولَطُفَ، يقال: سحره إذا أبدى له أمراً يَدِقُّ عليه، ويَخْفَى. وعرَّفه ابنُ العربي[3]: بأنّه كلام مؤلَّف يُعظَّم به غير الله، وتُنْسَب له المقادير، فعليه فهو كفر، حتى في شَرْعِنا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ باستعمال السحر، وتعليمِه، وتدوينِه، وإمّا بتكفيرهم سليمانَ به، ويحتمل كفرهم بغير ذلك، واستعمالُ لكن هنا حَسَنٌ؛ لأنّها بين نفي وإثبات. وقرىء ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بالتشديد، فيجب إعمالها، وهي قراءة نافع، وعاصم، وابن كثير، وأبي عمرو. وقرىء بتخفيفِ النون، ورفعِ ما بعدها بالابتداء والخبر، وهي قراءة ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وإذا خُفِفت، فهل يجوز إعمالُها؟ مسألةُ خلافٍ: الجمهورُ على المنع، وقال الكسائي، والفراء: الاختيارُ التشديد إذا كان قبلها واو، والتخفيف إذا لم يكن معها واو؛ ذلك لأنّها مخفّفة تكون عاطفة، ولا تحتاجُ إلى واو كبَلْ، وإذا كانت قبلها واوٌ لم تشبه بل؛ لأنَّ بل لا تدخل عليها الواو،

(١) المراح.

(٢) الفتوحات.

(٣) الصاوي.

فإذا كانت لكن مشدَّدةً عملت عمل إن، ولم تكن عاطفة. إنتهى الكلام. أي: ولكنَّ الشياطين من الإنس والجنِ الذين نسَبَوُا إلى سليمان عليه السلام، ما انتحلوه من السحر، وكتبوه، ودوَّنوه، وعلَّموه الناس، هم الذين كفروا حالة كون الشياطين ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ إغواءً لهم، وإضلالاً؛ أي: يقصدون بتعليمهم إياه إضلالهم عن طريق الحق، فعلَّموهم حتى فشا أمر السحر بين الناس وكَثُر.

واعلم: أنَّهُ[1] قد جاء ذِكرُ السحر في القرآن في مواضع كثيرة، ولا سيما في قِصَص موسى وفرعون، ووصفه بأنه خداعٌ، وتخييلٌ للأعين، حتى ترى ما ليس بكائنٍ كائناً، كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ والآية نصٌّ صريحٌ على أنَّ السحر يُعلَّم، ويُلقَّن، والتاريخ يؤيِّد هذا.

والسحر[2]: إمَّا حيلةٌ وشعوذةٌ، وإما صناعةٌ، وعلمٌ خفيٌّ يعرفه بعض الناس، ويجهله الكثير منهم، ومن ثَمَّ يسمُّون العمل به سحراً؛ لخفاء سببه عليهم، وقد روى المؤرِّخون: أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحِبَال والعِصى بصُوَر الحيَّاتِ والثَّعابِين، حتى خُيِّل إلى الناس أنَّها تَسْعى. وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعةً للمعاش، أن يتكلَّموا بأسماءٍ غريبةٍ، وألفاظ مبهمةٍ اشتهر بين الناس أنها من أسماءِ الشياطين، وملوكِ الجن، لِيوهموُهم أنَّ الجنَّ يَسْتَجيبون دُعاءهَم، ويُسخرّون لهم، وهذا هو منشأ اعتقاد العامَّة أنَّ السحر عملٌ يستعان عليه بالشياطينِ، وأرواحِ الكواكب، ولمثل هذا تأثيرٌ في إثارة الوهم دلَّت التجربة على وجوده، وهو يُغْنِي مُنتحِلَ السحر عن توجيهِ هِمَتِه، وتأثير إرادته فيمن يُعملُ له السحرُ، وسيأتي بَسْطهُ أواخرَ هذه الآيات ﴿و﴾ حالة كونهم يعلِّمونهم أيضاً ﴿ما أنزل على الملكين﴾ فهو معطوف على السحر؛ أي:[3] ويُعلِّمون الناسَ

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) الواحدي.

الأمر الذي أنزل على الملكين؛ أي: ما أُلْهِمَ الملكان، وقُذِفَ في قلوبهما من علم التفرقة، وهو رُقيْةٌ وليس بسحر، قال «المراغي»: وظاهر الآية يدلُّ ـ على أنَّ ما أنزل على الملكين غَيْرُ السحر، لكنه من جنسه، وقد أُلهماه، واهتديا إليه بلا أستاذٍ، ولا معلِّمٍ، وقد يُسمَّى مثل هذا وحياً، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

وقيل: معطوفٌ على تتلو الشياطين، والمعنى عليه، وكما اتَّبع رؤساء اليهود السحر، كذلك اتَّبعوا ما أنزل على الملكين، وقرىء في الشواذ المَلِكيَنِ بكسر اللام، قيل: هما رجلان ساحران كانا ببابل، وقيل: عِلْجَان، والقراءة[1] المشهورة بفتح اللام، وهما ملكان من الملائكة، وقرأ ابن عباس، والحسن، وأبو الأسود الدؤلي، والضحَّاك، وابن أبزي المَلِكين بكسر اللام، فقال ابن عباس: هما رجلان ساحران ببابل، واعلم أنَّ الملكيَنِ أنزلا لتعليم السحر امتحاناً من الله تعالى للناس، هل يتعلَّمونه أم لا؟ كما امتحن قوم طالوت بالشرب من النهر، فمَنْ تعلَّمه منهم وعَمِلَ به كان كافراً، ومن تَجنَّبه أو تعلَّمه لا يعمل به، ولكن ليتوقَّاه كان مؤمناً، كما قيل:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا للشَّرِّ ولكن لِتوَقِّيه

وهذا كما إذا أتى عرَّافاً فسأله عن شيء؛ لِيَمْتَحِن حالَه؛ ويختبر باطنَ ما عنده، وعنده ما يَميَّزُ بِهِ صدقُه من كذبه، فهذا جائزٌ. قال الإمام فخر الدين الرازيُّ: كانت الحكمة في إنزالهما: أنَّ السَّحرة كانوا يسترقُون السمعَ من الشياطين، ويُلقُون ما سمعوا بين الخلق، وكانوا بسببِ ذلك يُثْبِتُون لأنفسهم الوَحْي النازلَ، على الأنبياء، فأَنْزلَهما إلى الأرضِ ليعلِّما الناسَ كيفيةَ السحر، ليظهر بذلك الفَرْقُ بين كلام الله، وكلام السحرة؛ لئلا يغترَّ الناس بالسحر؛ لأنَّ السحرةَ كثُرُوا في ذلك الزمن، واستنبطوا أبواباً ـ غريبةً من السحر، وكانوا يدَّعون النبوة، فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلِّما الناس أبواب السحر، حتّى يتمكنوا

---

(١) البحر المحيط.

من معارضة أولئك الكذَّابين، وإظهار أمرهم على الناس.

﴿بِبَابِلَ﴾ الباء[1] بمعنى في، وهي متعلقةٌ بأنزل، أو بمحذوف وقع حالاً من الملكين، وهي: بابل العراق، أو بابل أرض الكوفة، ومنع الصرف للعجمة والعلمية، وأحسن ما قيل في تسميتها ببابل: أنَّ نوحاً عليه السلام، لمَّا هبط إلى أسفل الجوديِّ، بَنَى قريةً وسمَّاها ثمانين، فأصبح ذات يوم، وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغةً، إحداها اللسان العربيُّ، وكان لا يفهم بعضهم من بعض. كذا في «تفسير القرطبي»، واختصت بابل بالإنزال؛ لأنّها كانت أكثر البلاد سحراً ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ عطف بيان للملكين؛ لأنَّهما علمان لملكين نَزَلا من السماء، كما أخرجه ابن جرير، عن ابن عباس، ومُنع صرفهما للعلمية والعجمية، وما روي في قصتهما من أنَّها شربا الخمر، وسفكا الدم، وزنيا، وقتلا نفساً، وسجدا للصنم، فَمِمَّا لا تعويل عليه؛ لأنَّ مداره رِوايةُ اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلَّة النقل والعقل.

يقول الفقير: قد تصَفَّحْتُ كتبَ أرباب الخبر والبيان، وأصحاب الشهود والعيان، فوُجدتُ عامَّتَها مشحونةً بذكر ما جرى من قصتهما، وكيف يجوز الاتِّفاق من الجمِّ الغفير على ما مداره ـ روايةُ اليهود، خُصوصاً في مثل هذا الأمر الهائل، فأقول: وَصْفُ الملائكةِ بأنَّهم لا يعصون، ولا يستكبرون، يسبِّحون الليل والنهار، لا يفتُرون، ويفعلون ما يؤمرون، دليلُ تصوُّرِ العصيان منهم، ولولا ذلك لما مدحوا به، إذ لا يُمْدَح أحدٌ على الممتنع، لكن طاعتهم طبعٌ، وعصيانهم تكلُّفٌ، على عكس حال البشر، كما في «التيسير»، فهذا يقتضي جوازُ الوقوع مع أنَّ فيما روي في سبب نزولهما ما يزيل الإشكال قطعاً، وهو أنَّهم لمَّا عيَّروا بني آدم بقلّة الأعمال، وكثرة الذنوب في زمن إدريس عليه السلام، قال الله تعالى: (لو أنزلتكم إلى الأرض وركَّبت فيكم ما ركَّبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا)، فقالوا: سبحانك ربَّنا، ما كان ينبغي لنا أن نعصيك، قال الله تعالى:

---

(١) روح البيان.

فاختاروا ملكين من خياركم أَهْبِطْهمُا إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة، وأعبدهم، فأُهبِطا بالتركيب البشريِّ، فحكما بين الناس، وافتتنا بامرأةٍ تسمَّى بالعربية الزهرة، وبالفارسية: مِيْذَخْتَ، فطَلَباها وامتنعت إلاّ أن يعبدا صنماً، ويَشْرَبا خمراً، ويقتلا نفساً، ففعلا ما فعلا، فخافا على أمرهما، فعلَّماها ما تَصْعَدُ به إلى السماء، وما تنزلُ به، فصعدت ونَسِيَتْ ما تنزلُ به، فمُسخت بالكوكب المضيء في السماء الثانية، وأنَّهما تشفعا بإدريس عليه السلام إلى الله تعالى، فخيَّرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا؛ لأنَّه مؤقَّتٌ وعذاب الآخرة مؤبَّدٌ، فهما في بئر بابل مُعلَّقان فيه بشُعورهما إلى يوم القيامة، قال مجاهد: مُلِىءَ الجُبُّ ناراً فجُعلاً فيه، وقيل: معلَّقان بأرجلهما، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلاّ أربع أصابع، فهما يعذَّبان بالعطش، وهذا الذي رُوي فيهما ليس ببعيدٍ، إذْ ليس مجرَّدُ هُبوط الملك ممَّا يقتضي العِصْيانَ، وذلك ظاهرٌ، وإلاَّ لظهر من جبريل، وغيره، ألا ترى أنَّ إبليس له الشهوة والذريَّة مع أنّه كان من الملائكة على أحدِ القولين؛ لأنّها ممَّا حدثَتْ بعد أن مُحي من ديوانهم، فيجوز أن تَحْدُثَ الشهوة في هاروت وماروت، بعد أن أهبطا إلى الأرضِ؛ لاستلزام التركيب البشريِّ ذلك، وقد قال في «آكام المرجان»: إنّ الله تعالى باين بَيْنَ الملائكة، والجنِّ، والإنس في الصورة، والأشكال، فإنْ قلَبَ الله الملك إلى صورة الإنسان ظاهراً وباطناً، خرج عن كونه ملكاً، وكذلك لو قلب الشيطان إلى بِنْيةِ الإنسان، خرج بذلك عن كونه شيطاناً.

وفي الحديث: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الدُّنيا، فوالذي نفسي بيده، إنَّها لأَسْحَرُ من هاروت وماروت» قال العلماء: إنّما كانت الدنيا أسحر منهما؛ لأنّها تدعوك إلى التَّحارص عليها، والتَّنافس فيها، والجمع لها، والمنع حتى تُفرِّق بينك وبين طاعة الله تعالى، وتُفرِّق بينك وبين رؤية الحق ورعايته، وسحر الدنيا محبتها، وتلذُّذك بشهواتها، وتمنِّيك بأمانيها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «حُبُّك الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ» أَرادَ النبيُّ ﷺ: أنَّ من الحُبِّ ما يعمي عن طريق الحقّ والرَّشدِ، ويُصِمُّكَ عن استماع الحق، وإنَّ الرجل إذا غلب الحُبُّ على قلبه، ولم يكن له رادعٌ من عقلٍ، أو دِيْنٍ أصمَّهُ حُبُّه عن

العذل، وأعماه عن الرشد، أو يعمي العين عن النظر إلى مساويه، ويُصِمُّ الأذن عن استماع العذل فيه، أو يعمي، ويُصِمُّ عن الآخرة، وفائدته: النَّهي عن حُبِّ ما لا ينبغي الإغراق في حُبِّه، ثُمَّ في هذه[1] القصة إشارةٌ إلى أنّه لا يجوز الاعتماد إلاّ على فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته، فإنَّ العصمة من آثار حفظ الله تعالى. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ قرأ الجمهور بالتشديد من علَّم المُضعَّف، وقرأ طلحة بن مصرِّف: ﴿وما يُعْلِمَان﴾ من أعلم، وقالت طائفةٌ: بالتضعيف وبالهمزة بمعنًى واحدٍ ذكره في «البحر»؛ أي: وما يُعلِّم الملَكان أحداً من الناس السحر، فمن[2] مزيدةٌ في المفعول به؛ لإفادة تَأْكيد الاستغراقِ الذي يفيده أحدٌ، والمعنى: ولكن الشياطين كفروا يعلِّمون الناس ما أنزل على الملكين، ويحملونهم على العمل به؛ إغواءً وإضلالاً، والحال أنَّ الملكين ما يُعلِّمان ما أنزل عليهما من السحر أحداً من طالبيه ﴿حَتَّىٰ﴾ يَنْصَحاه أوَّلاً، ويَنْهَيَاه عن العمل به، والكفر بسببه، و﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ وابتلاءٌ من الله تعالى، فمن عمل بما تعلَّم مِنَّا، واعتقد حقيته كفر، ومن توقَّى عن العمل به، أو اتخذه ذريعةً للاتقاء عن الإغترار بمثله بقي على الإيمان، والفتنةُ: الاختبارُ والامتحانُ، يقال: فتنت الذهب، كالبَليَّةِ، والمعصيةِ، والقتل، والعذاب، وغير ذلك من الأفعال الكريهة، وقد تكون الفتنة في الدين مثل الارتداد والمعاصي، وإكراه الغير على المعاصي، وأُفردت الفتنةُ مع تعدُّد الملكين؛ لكونها مصدراً، وحَمْلُها عليهما؛ مُوَاطأةٌ للمبالغةِ، كأنَّهما نفس الفتنة، والقَصْرُ؛ لبيان أنّه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأنٌ سِواهُ؛ لينصرف الناس عن تعلُّمه ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بتعلُّمِه، واعتقادِ حقيته مع أنّه ليس بباطلٍ شرعاً، وجوازِ العمل به، ويقولان ذلك سَبْع مراتٍ، فإن أبى إلاّ التعلُّم علَّماه.

أي: فلا تتعلَّم السحر[3]، ولا تعمل به؛ لأنَّ عمله كفرٌ بالله؛ أي: لا يصفان السحر لأحدٍ حتى يبذلا ـ النصيحةَ له أوَّلاً، فيقولا لَهُ: هذا الذي نَصِفُه

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) عمدة التفاسير.

لك، وإن كان الغرض منه أن يتميَّز به الفرقُ بين السحر والمعجزة، ولكنَّه يمكنك أن تتوصَّل به إلى المفاسد والمعاصي. فإيَّاك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نُهِيت عنه، أو تتوصَّل به إلى شيءٍ من الأغراض العاجلة.

وفي هذا[١] إيماءٌ إلى أنَّ تعلُّم السحر، وكُلِّ ما لا يجوز اتباعه، والعمل به ليس محظوراً، وإنّما الذي يحظر ويمنع هو العمل به فحَسْبُ. وإنما كانا يقولان ذلك إبْقاءً على حسن اعتقاد الناس فيهما، إذ كانا يقولان: إنّهما ملكان، كما نسمع الآن من الدجالين يحترفون مثل ذلك، لمن يعلِّمونهم الكتابة للحبِّ، والبغض، نوصيك بأن لا تكتب هذا لجلب امرأةٍ إلى حبِّ غير زوجها، ولا تكتب لأحد زوجين أن يبغض الآخر، بل تجعل ذلك للمصلحة العامَّة، كالحُبِّ بين الزوجين، والتفريق بين عاشقين فاسقين، وهذا منهم إيهامٌ بأنَّ علومهم إلٰهِيَّةٌ، وقرأ الجمهور ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ بفتح التاء، وهما بدلٌ من الملكين، وتكون الفتحة علامةً للجر؛ لأنّهما ممنوعان من الصرف لما مرَّ. وقرأ الحسن، والزهريُّ: ﴿هاروتُ وماروتُ﴾ بالرفع، فيجوز أن يكونا خبر مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هما هاروت وماروت ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ عطف[٢] على الجملة المنفيَّة، فإنَّها في قوَّة المثبتة، كأنّه قيل: يعلِّمانهم بعد قولهما، إنما نحن فتنة... الخ، والضمير لأحد حملاً على المعنى، والمراد به: السحرة؛ أي: فالنَّاس يتعلَّمون ﴿مِنْهُمَا﴾؛ أي: من الملكين، أو من السحرِ، والمنزَّلِ على الملكين، أو من الفتنة والكفر؛ أي: فيأتي السحرة من الناس الملكين، فيتعلَّمون من الملكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بسببهِ واستعمالهِ ﴿بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾؛ أي: يتعلَّمون منهما من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين ببغض كل واحدٍ منهما إلى الآخر، فبعد أن كانت المودَّة، والمحبة بينهما، يُصبح الشقاق، والفراق، والخِلاف بينهما، عند ما فعلوا من السحر، كالتَّمويه، والتَّخييل، والنَّفث في العقد، ونحو ذلك ممَّا يُحدث الله عنده البغضاء، والنشوز، والخلافَ بين الزوجين، ابتلاءً من الله تعالى؛ لأنَّ

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

السحر هو المؤثِّر في ذلك، بل بحَسَب جري العادة الإلهية، من خلق المسبَّبات عقيب حصول الأسباب العاديَّة ابتلاءً منه تعالى، كما يدلُّ عليه قوله سبحانه الآتي: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، قوله: ﴿وَزَوْجِهِۦ﴾ ظاهره أنه يريديه امرأة الرجل، وقيل: الزوج هنا: الأقارب والإخوان، وهم الصنف الملائم للإنسان، ومنه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ ذكره في «البحر».

قال السدي[١]: كانا يقولان لمن جاءهما: إنّما نحن فتنة فلا تكفر، فإن أبى أنّ يرجع قالا له: ائت الرّماد فَبُلْ فيه، فإذا بال فيه خرج نورٌ يَسْطَعُ إلى السماء، وهو الإيمان، والمعرفةُ، وينزل شيءٌ أسود شِبهُ الدُّخان، فيدخل في أذنيه، ومسامعه، وهو الكفر، وغضبُ الله، فإذا أخبرهما بما رآه من ذلك، علَّماه ما يفرِّق به بين المرء وزوجه، ويقدر الساحر على أكثر ممَّا أخبر الله عنه من التفريق؛ لأنَّ ذلك خُرِّج على الأغلب. قيل: يُؤخذ الرجلُ عن المرأة بالسحر لا يقدر على الجماع. قال في نصابِ الاحتساب: إنَّ الرجل إذا لم يَقْدِر على مجامعة أهله، وأطاق ما سواها، فإنّ ـ المُبْتلى بذلك يأخذ حُزْمَة قصباتٍ، ويطلب فأساً ذا فقارين، ويضعه في وسط تلك الحزمة، ثم يؤجِّجُ ناراً في تلك الحزمة، حتى إذا أُحمي الفأس استخرجه من النار، وبال على حدّه، يبرأ بإذن الله تعالى. انتهى.

والآية[٢] لا ترشد إلى حقيقة ما يتعلَّمونه من السحر أمؤثرٌ بطبعه، أو بسببٍ. خفيٍّ، أو بخارقٍ من خوارق العادات، أم غير مؤثّر؟ كما أنَّها لم تُبيِّن نوعَ ما يتعلَّمونه، أتمائمٌ وكتابةٌ هو، أم تلاوةُ رُقًى وعزائمَ، أم أسَاليب سِعَايةٍ، أم دسَائِسُ تنفيرٍ ونكايةٍ، أم تأثيرٌ نفسانيٌّ أم وسواسٌ شيطانيٌّ؟ فأيُّ ذلك أثبته العِلْمُ، كان تفصيلاً لما أَجْملَه القرآن، ولا نتَحكَّم في حَمْله على نوعٍ منها، ولو علم الله الخَيْر في بيَانهِ لبينه، ولكنَّه وَكَل ذلك إلى بُحُوث الناس، وارتقائهم في العلم، فهو الذي يُجلِّي الغوامضَ، ويكشف الحقائق ﴿وَمَا هُم﴾؛ أي: ليس السَّاحرون

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾؛ أي: بما تعلَّموه من السحر ﴿مِنۡ أَحَدٍ﴾؛ أي: أحداً ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: إنَّ هؤلاء لم يُعْطَوا شيئاً من القوى الغيبيَّة فوق ما أعطي سائر الناس، بل هي أسبابٌ ربط بها مسبَّباتها، فإذا أُصيب أحدٌ بضررٍ بعمل من أعمالهم، فإنَّما ذلك بإذنه تعالى، فهو الذي يوجد المسبَّبات عند حصول الأسباب، والاستثناء[1] في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ مفرَّغٌ، والباء متعلِّقةٌ بمحذوف وقع حالاً من ضمير ﴿ضارِّين﴾ أو من مفعوله، وإنْ كان نكرةً؛ لاعتمادها على النَّفي، أو الضمير المجرور في ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: ما يضرُّون به أحداً إلاّ مقروناً بعلم الله تعالى، وإرادته، وقضائه لا بأمره؛ لأنّه لا يأمر بالكفر، والإضرار، والفحشاء، ويقضي على الخلق بها، فالسَّاحر يسحر، والله يكوِّن، فقد يُحدث عِنْد استعمالِهم السحر فعلاً من أفعاله ابتلاءً، وقد لا يحدثه، وكُلُّ ذلك بإرادته، ولا يُنْكَر أنَّ السحر له تأثيرٌ في القلوب، بالحُبِّ والبغض، وبإلقاءِ الشرور، حتى يَحُولَ بين المرء وقلبه، وذلك بإدخال الآلام، وعظيم الأسقام، وكُلُّ ذلك مُدْرَكٌ بالحس والمشاهدة، وإنكاره معاندةٌ.

وإن أردت التفصيلَ وحقيقةَ الحال[2]، فاستمع لما نَتْلُو عليك من المقال، وهو أنَّ السحر: إظهار أمرٍ خارقٍ للعادة، من نفسٍ شِرِّيرةٍ خِبَيثةٍ، بمباشرة أعمالٍ مخصوصةٍ، يَجْرِي فيه التعلُّم والتعليم، وبهذين الاعتبارين يُفارق المعجزة، والكرامة؛ وذلك لأنَّ المعجزة: أمرٌ خارق للعادة، يظهر على يد من يدَّعي النبوة والرسالة عند ردِّ الملحدة، والكرامة: أمرٌ خارق للعادة، يظهر على يد عبدٍ من عباد الله الصالحين، والسِّحر: أمرٌ خارقٌ للعادة، يظهر على يد نفسٍ شريرةٍ خبيثةٍ، بمباشرة أعمالٍ مخصوصة.

فَصْلٌ في بيان حقيقة السحر

واختلف العلماء في حقيقة السحر بمعنى ثبوته في الخارج:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

فذهب الجمهور: إلى ثبوته في الخارج، وقالت المعتزلة: لا ثبوت له، ولا وجود له في الخارج، بل هو تمويهٌ وتخييلٌ، ومجرَّد إراءة ما لا حقيقة له، يرى الحبال حيَّاتٍ بمنزلة الشعوذة التي سببها: خِفَّة حركات اليد، إو إخفاء وجه الحيلة، وتمسّكوا بقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ولنا وجهان: الأوّل: يدل على الجواز، والثاني يدلّ على الوقوع، أمّا الأول: فهو إمكان الأمر في نفسه، وشمول قدرة الله سبحانه وتعالى له، فإنّه الخالق، وإنما الساحر فاعلٌ وكاسبٌ، وأمّا الثاني: فهو قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾، وفيه إشعارٌ بأنّه ثابتٌ حقيقة ليس مجرد إراءةٍ وتمويهٍ، وبأنَّ المؤثّر والخالق هو الله تعالى وحده، وأمّا الشَّعوذة، وما يجري مجراها من إظهار الأمور العجيبة بواسطة ترتيب الأدلَّة الهندسية، وخفّة اليد، والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار، فإطلاق السحر عليها مجازٌ، أو لما فيها من الدِقَّة؛ لأنّه في الأصل عبارةٌ عن كل ما لطف مأخذه، وخفي سببه، ولذا يقال: سحرٌ حلالٌ، وأكثرُ من يتعاطى السحر النساء، وخاصةً حالَ حيضهنّ، والأرواحُ الخبيثةُ تُرى غالباً للطبائعِ المغلوبةِ، والنفوسِ الرذيلة، وإن لم يكن لهم رياضةٌ، كالنساء، والصبيان، والمُخنثين، والإنسان إذا فَسَد نفسه، أو مزاجه يشتهي ما يضرُّه، ويتلذَّذ به، بل يعشق ذلك عشقاً يفسد عقلَه، ودينَه، وخلقه، وبدنه، وماله، والشياطين خبيثةٌ، فإذا تقرَّب صاحبُ العزائم، والإقسام، وكَتْبِ الرُّوحانيات السحرية، وأمثال ذلك إليهم، بما يحبُّونه من الكفر، والشرك صار ذلك كالرَّشوة والبَرْطِيْلِ لهم، فيقضون بعض أغراضهم، كمن يعطي رجلاً مالاً ـ ليقتل من يريد قتله، أو يعينه على فاحشةٍ، أو ينال منه فاحشةً، ولذلك يكتب السحرة، والمُعْزِمُون في كثيرٍ من الأمور، كلامَ الله تعالى بالنَّجاسة، والدماء، ويتقرَّبون بالقرابين، ومن حيوانٍ ناطقٍ، وغير ناطق، والبُخور، وتَركِ الصلاة، والصومِ، وإباحات الدماء، ونكاح ذوات المحارم، وإلقاء المصحف في القاذورات، وغيرِ ذلك مما ليس فيه رضا الله تعالى، فإذا قالوا كفراً، أو كتبوه، أو فعلوه أعانتهم الشياطين؛ لأغراضهم، أو بعضها، إمَّا بتَغْوِيرِ مَاءٍ، وإمّا بِأَنْ يُحْمَلَ في الهواء إلى بعض الأمكنة، وإمّا بأنْ يأتيه بمالٍ من أموال الناس، كما

يسرقه الشياطينُ من أموالِ الخائِنين، وأموال من لم يذكر اسم الله عليه، ويأتي به، وإمّا بغير ذلك، من قتل أعدائهم، أو إمراضهم، أو جَلْبِ من يهوونه وكثيراً ما يتصوَّر الشيطان بصورة الساحر، ويقف بعرفاتٍ ليظنَّ مَنْ يُحسِن الظنَّ به أنّه وقف بعرفات، وقد زيَّن لهم الشيطان أنَّ هذا كرامات الصالحين، وهو من تلبيس الشيطان، فإنَّ الله تعالى لا يُعبد إلاّ بما هو واجبٌ، أو مستحبٌّ، وما فعلوه ليس بواجبٍ، ولا مستحبٍ شرعاً، بل هو منهيٌّ عنه حرامٌ، ونعوذ بالله من اعتقاد ما هو حرامٌ عبادةً، ولأهل الضلال الذين لهم عبادةٌ على غير الوجه الشرعيّ، مكاشفاتٌ أحياناً، وتأثيراتٌ يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التي نهي عن الصلاة فيها، كالحمَّام، والمزبلة، والمقبرة، وأعطان الإبل، وغير ذلك مما هو من مواضع النجاسات؛ لأنَّ الشياطين تنزل عليهم فيها، ويخاطبهم ببعض الأمور، كما يخاطبون الكفار، وكما كانت تدخل في الأصنام وتكلّم عُبَّاد الأصنام.

قال العلماء: إن كان في السحر ما يخل شرطاً من شرائط الإيمان، من قول، وفعل، كان كفراً، وإلا لم يكن كفراً، وعامَّة ما بأيدي الناس من العزائم، والطَّلاسم، والرُّقي التي لا تفهم بالعربية، فيها ما هو شِرْكٌ وتعظيمٌ للجن، ولهذا نهى علماء المسلمين عن الرُّقي التي لا يفهم معناها بالعربية؛ لأنَّها مظنَّة الشرك، وإن لم يعرفِ الرَّاقي أنّها شركٌ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: أنَّه رخّص في الرُّقي ما لم تكن شركاً، وقال «مَن استطاع أن ينفع أخاه فليفعل» ولذا نقول: إنه يجوز أن يكتب للمصاب، وغيره من المرضى شيءٌ من كتاب الله تعالى، وذكره. بالمداد المباح، ويُسقىٰ، أو يعلَّق عليه، وفي أسماء الله تعالى، وذكره خاصَّةً قمع الشياطين، وإذلالهم، ولأنفاس أهل الحق تأثيراتٌ عجيبةٌ؛ لأنّهم تركوا الشهوات، ولزموا العبادات على الوجه الشرعيِّ، وظهر لهم حكم قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولذا يطيعهم الجنُّ والشياطين، ويستعبدونهم، كما استعبدها سليمان عليه السلام، بتسخير من الله تعالى، وإقداره.

واعلم: أنَّ حكم الساحر القتل ذكراً كان أو أنثى، إذا كان سعيه بالإفساد، والإهلاك في الأرض، وإذا كان سعيه بالكفر، فيقتل الذكر دون الأنثى، فتضرب، وتحبس؛ لأنَّ الساحرة كافرةٌ، والكافرةُ ليست من أهل الحرب، فإذا كان الكفر

الأصليُّ يدفع عنها القتل، فكيف الكفر العارض؟ والساحر إن تاب قبل أن يؤخذ تقبل توبته، وإن أُخِذ ثم تاب لا تقبل، كما قال في «الأشباه»: كُلُّ كافر تاب فتوبته مقبولةٌ في الدنيا والآخرة، إلاّ الكافر بسبِّ نبيٍّ، أو بسبِّ الشيخين، أو أحدهما، وبالسحر ولو امرأةً، وبالزندقة إذا أُخِذَ قبل توبتِهِ، والزنديق: هو الذي يقولُ بقدمِ الدهر، وإسنادِ الحوادث إليه مع اعتراف النبوَّةِ، وإظهارِ الشرع. هذا، وأكثر المنقول إلى هنا من كتاب آكام المرجان، وهو الذي ينبغي أن يكتب على الأحداق لا على القراطيس والأوراق.

قوله بين ﴿ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ قرأ الجمهور[1] بفتح الميم وسكون الراء والهمزة. وقرأ الحسن، والزهري، وقتادة ﴿المَرِ﴾ بغير همز مخففاً. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿المُرءُ﴾ بضمّ الميم والهمزة. وقرأ الأشهب العقيلي ﴿المِرْءِ﴾ بكسر الميم والهمزة، ورُويت عن الحسين. وقرأ الزهري أيضاً ﴿المَرِّ﴾ بفتح الميم وإسقاط الهمزة وتشديد الراء، فأمَّا فتح الميم وكسرها وضمُّها، فلغاتٌ، وأمَّا المرِ بكسر الراء، فوجهه أنّه نقل حركة الهمزة إلى الراء، وخفَّف الهمزة، وأمّا تشديدها بعد الحذف، فوجهه أنّه نوى الوقف فشدَّد، كما روي عن عاصم مستطرّ بتشديد الراء في الوقف، ثُمَّ أُجري الوصل مجرى الوقف، فأقرَّها على تشديدٍ فيه، قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾ قرأ الجمهور بإثبات النون في ﴿بِضَآرِّينَ﴾ وقرأ الأعمش بحذفها، وخرج ذلك على وجهين: أحدهما: أنّها حذفت تخفيفاً، والثاني: أنَّ حذفها لأجل الإضافة إلى أحد، وفصل بين المضاف والمضاف إليه بالجار والمجرور الذي هو ﴿بِهِۦ﴾ كما قال:

هما أخوا في الحرب من لا أخا لَهُ

وكما قال:

كما خُطَّ الكتابُ بِكَفّ يَوْماً يَهُودِيٍّ

وهذا التخريج ليس بجيد؛ لأنَّ الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف

(١) البحر المحيط.

والجار والمجرور من ضرائر الشعر، وأقبح من ذلك أن لا يكون ثَمَّ مضافٌ إليه؛ لأنّه مشغولٌ بعاملٍ جارٍ، فهو المؤثّر فيه لا الإضافة، وأمَّا جعل حرف الجر جُزْءاً من المجرور، فهذا ليس بشيءٍ؛ لأنّه مؤثّر فيه، وجزء الشيء لا يؤثر في الشيء، والأجود التخريج الأوّل؛ لأنَّ له نظيراً في نظم العرب ونثرها، فمن النثر قول العرب:

قَطَاقِطَا بَيْضُكِ ثِنْتَا وَبَيْضِي مائتا

يُريدُون ثِنْتَان ومِائتَانِ ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ منهما ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ولا ينفعهم، صرَّح[1] بذلك؛ إيذاناً بأنّه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضَّرر، بل هو شرٌّ بحتٌ وضررٌ محضٌ، لأنّهم لا يقصدون به التخلُّصَ عن الاغترار بأكاذيب من يدَّعي النبوَّة مثلاً من السحرة، أو تخليصَ النَّاس منه حتى يكون فيه نفعٌ في الجملة. وعبارة أبي حيان: لمَّا ذكر أنّه يحصل به الضرر لمن يفرِّق بينهما، ذكر أيضاً أنَّ الضرر لا يقتصر على من يُفعل به ذلك، بل هو أيضاً يضرُّ مَن تعلَّمه، ولمَّا كان إثبات الضرر بشيء لا ينفي النَّفع؛ لأنّه قد يوجد الشيء فيحصل به الضرر، ويحصل به النفع، نَفَى النفع عنه بالكليَّة وأتى بلفظ لا؛ لأنّها يُنفىٰ بها الحال والمستقبل، والظاهر أنَّ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ معطوفٌ على ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ وكلا الفعلين صلةٌ لما، فلا يكون لها موضعٌ من الإعراب، وجوَّز بعضهم أن يكون ﴿لا ينفعهم﴾ على إضمار هو؛ أي: وهو لا ينفعهم فيكون في موضع رفعٍ، وتكون الواو للحال، وتكون جملةً حاليَّةً، وهذا الوجه ضعيفٌ، وقد قيل: الضرر وعدم النفع مختصٌّ بالآخرة.

وقيل: هو في الدنيا والآخرة، فإنَّ تعلُّمه إن كان غير مباح، فهو يجرُّ إلى العمل به، وإلى التنكيل به إذا عُثِر عليه، وإلى أنَّ ما يأخذه عليه حرامٌ، هذا في الدنيا، وأمَّا في الآخرة فلِمَا يترتَّب عليه من العقاب. انتهى. قال المراغي: وهذا مِمّا يعاقبُ الله عليه، ومَنْ عُرِف بإيذاء الناس أبغضوه، واجتنبوه، ولا نفع لهم فيه، فإنَّا نرى منتحلي هذه المِهَنِ مِنْ أفقر الناس وأَحْقِرهم، وذلك حالُهم في

---

(١) روح البيان.

الدنيا، فما بالك بهم في الآخرة يوم يُجزى كلُّ عامل بما عمل. انتهى.

وفي الآية: إيماءٌ إلى أنَّ الاجتناب عما لا يؤمن غوَائِلِهُ واجبُ، كتعلُّم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرَّ إلى الغَواية، وإن قال مَنْ قال:

عرفت الشرَّ لا للشرِّ لكنْ لِتَوَقِّيهِ   ومَنْ لا يعرف الشرَّ مِنَ الناسِ يَقَعْ فيهِ

وذكَر في «التَّجْنيس»: أنَّ تعلُّم النجوم حرام إلاّ ما يُحتاج إليه للقبلة، ولمعرفة فصول السنة وحسابها، ومعرفة فيء الزوال من المنازل الثمانية والعشرين، ومِنْ أحاديث «المصابيح»: (مَنِ اقتبس ـ علماً من النجوم، اقتبس شعبةً من السحر) وإذا لم يكن في تعلُّم مثل هذه العلوم خيرٌ، فكذا إمساكُ الكتب التي اشتملت عليها من كتب الفلاسفة وغيرها، بل لا يجوز النظر إليها، كما في «نصابِ الاحتساب» ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾؛ أي: لقد علم هؤلاء اليهود في التوراة، واللام فيه للقسم؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد علم اليهود الذين أخذوا السحر، واتَّبعوا الشياطين بدل متابعة رسول الله ﷺ، والإيمان به.

وقال أبو حيان[1]: الضمير في علموا قيل: عائدٌ على اليهود الذين كانوا في عهد سليمان بن داود عليه السلام، وكانوا حاضرين استخراجَ الشياطين السحرَ ودفنه، أو أَخْذَ سليمان السحر ودفنه تحت كرسيّه، ولمَّا أخرجوه بعد موته، قالوا: والله ما هذا مِن عمل سليمان، ولا من ذخائره، وقيل: عائدٌ على من بحضرة رسول الله ﷺ من اليهود، وقيل: يعود على اليهود قاطبةً؛ أي: علموا ذلك في التوراة، وقيل: عائدٌ على علماء اليهود، وقيل: عائدٌ على الشياطين، ـ وقيل: على الملكين؛ لأنَّهما كانا يقولانِ لمن يتعلَّم السحر فلا تكفر، فقد علموا أنَّه لا خَلاق له في الآخرة وأتى بضمير الجمع على قول: مَنْ يرى ذلك وعَلِم هنا يحتمل أن تكون المتعدية لمفعولين وعُلِّقت عن الجملة، ويحتمل أن تكون المتعدية لمفعول واحد، وعلقت أيضاً كما علقت عرفتُ، والفرق بين هذين التقديرين يظهر في العطف على موضعها. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

واللام في قوله: ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ هي لام الابتداء، وهي المانعة من عمل علم وأخواتها، وهي أحد الأسباب المُوجبة للتعليق، وأجازوا حَذْفَها، وهي باقيةٌ على منع العمل، وخرَّجُوا على ذلك قوله:

كَذاكَ أُدِّبْتُ حتَّى صَارَ مِنْ خُلُقِي إنّي وجدتُ مِلاكُ الشِيمةِ الأَدبُ

يريد لَمُلاكُ الشيمة، و﴿مَنِ﴾ هنا موصولة، وهي مرفوعة بالابتداء، والجملة من قوله: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ في موضع خبرها؛ أي: لقد[1] علموا أنَّ من اشترى السحر، واختاره، واستبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله تعالى، ما له في الآخرة من خلاق ونصيبٍ من دار الكرَمة؛ لأنّه من أهل النار؛ أي: ليس لذلك المشتري، والآخذ بالسحر في الآخرة خلاقٌ، وحظٌّ، ونصيبٌ من الجنة، بل هو من أهل النار.

والمعنى[2]: أي إنَّهم عالمون بأنَّ من اختار هذا، وقدَّمه على العلم بأصول الدين وأحكام الشريعة التي توصل إلى السعادة في الدارين، فليس له حظٌّ في الآخرة؛ لأنّه خالف حكم التوراة التي حظَرت تعلُّم السحر، وجعلت عقوبة من اتبع الجنَّ، والشياطين، والكهان، كعقوبة عابدي الأصنام والأوثان، واللام في قوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ موطئةٌ[3] لقسم محذوف، والشراء هنا بِمَعْنَى: البيعِ؛ لأنَّ الشراء من الأضداد، والمخصوص بالذمّ مِحذوف.

والمعنى[4]: وعزّتي وجلالي: لبئس وقَبُح الشيء شيئاً باعوا به حظوظ أنفسهم في الآخرة، والمخصوص بالذمّ تعلُّم السحر، أو الكفر حيث اختاروا السحر ونبذوا كتاب الله تعالى؛ يعني: أنَّ اليهود لمَّا نبذوا كتاب الله تعالى وراء ظهورهم، وأقبلوا على التَّمسُّكِ بما تتلو الشياطين، فكأنَّهم قد اشتروا ذلك السحر بكتاب الله تعالى.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) العمدة.

وعبَّر عن إيمانهم بأنفسهم[1]؛ لأنّ النَّفس خلقت للعلم والإيمان، وجواب لو في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ محذوف، تقديره: لو كانوا يعلمون عاقبة أمرهم، وما يصيرون إليه من العذاب، لَما فعلوا ما فعلوا من تعلُّم السحر، والعمل به، أثبت لهم العلم أوّلاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾، ثُمَّ نفى عنهم بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنّهم لمَّا لم يعملوا بعلمهم، فكأنَّهم لم يعلموا، فهذا في الحقيقة نفي الانتفاع بالعلم لا نفي العلم.

وعبارة «الخازن» هنا: فإن قلت[2]: كيف أثبت الله لهم العلم أوّلاً في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ على ـ التوكيد القسميّ، ثُمَّ نفاه آخراً في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، ففيه تناقضٌ؟

قلتُ: إنّهم قد علموا أنَّ من اشترى السحر ماله في الآخرة من خلاق، ثُمَّ مع هذا العلم خالفوا واشتغلوا بالسحر، وتركوا العمل بكتاب الله تعالى، وما جاءت به الرسل؛ عناداً منهم وبغياً، وذلك على معرفةٍ منهم بما لِمَنْ فعَلَ ذلك منهم من العقاب، فكأنَّهم حين لم يعملوا بعلمهم كانوا منسلخين منه، والمعنى هنا: لو كانوا يَعْمَلُون بعلمهم ذلك ما تعلَّموه؛ فالمثبت أوّلاً العلم، والمنفيُّ هنا العمل به. انتهى. وهذا هو ما يفعلُ مِثْلَهَ بعضُ المسلمين اليوم، إذْ يَنْتَهِكون بعض حرماتِ الدين بمثل تلك التأويلات، فيمنعون الزكاة بحيلةٍ، ويأكلون أموال الناس بحيلةٍ أخرى ويشهدون الزور بحيلةٍ ثالثة، وهكذا. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي ولو أنَّ اليهود الذين اتَّبعوا ما تتلوا الشياطين، وتعلَّموا السحر ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بمحمدٍ ﷺ وبالقرآن ﴿وَاتَّقَوْا۟﴾؛ أي: واجتنبوا اليهوديَّة، والسحر، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف دَلَّ عليه قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، تقديره: لأُثيبوا ما هو خيرٌ لهم من الكسب بالسحر، والمثوبةُ مَفْعُلةٌ[3] من الثواب، مِنْ ثاب يثوب إذا رجع، وسُمِّي الجزاء

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

ثواباً؛ لأنّه عوضُ عمَلِ المحسن يرجع إليه، والتنكير فيه للتقليل؛ أي: شيءٌ قليلٌ من الثواب كائنٌ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ مبتدأ خبره ﴿خَيْرٌ﴾ لهم من السحر وما اكتسبوا به، واسم التفضيل ليس على بابه، بل المراد بيان أنَّ المثوبة فاضلة على السحر، كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ بضم الثاء، كالمَشُورة. وقرأ قتادة، وأبو السمال، وعبد الله بن بريدة بسكون الثاء، كمَشْوُرةٍ، ومعنى قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾؛ أي: لثَوابٌ وهو الجزاء، والأَجر على الإيمان، والتقوى بأنواع الإحسان. وقيل: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ لرجعةٌ إلى الله خيرٌ، والجارُّ والمجرور في قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الصفة؛ أي: كائنةٌ من عند الله تعالى، وهذا الوصف هو المسوِّغ لجواز الابتداء بالنكرة، وفي وصف المثوبة بكونها من عند الله تفخيمٌ وتعظيمٌ لها، ولمناسبة الإيمان والتقوى لذلك كان المعنى: إنّ الذي آمنتم به، واتقيتم محارمه هو الذي ثوابكم منه على ذلك، فهو المُتكفِّل بذلك لكم، وحذف المفضَّل عليه؛ إجلالاً للمفضَّل من أن ينسب إليه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ خيريةَ ثوابِ الله وجزاءه، وجواب ﴿لَّوْ﴾ محذوف، تقديره: ما اختاروا السحر على الإيمان بمحمد ﷺ.

فإن قلت[٢]: قد علموا ذلك من كتابهم، فكيف جهَّلهم؟.

قلت: جهَّلهم لعدم عملهم بعلمهم، فإنَّ من لم يعمل بما علم، فهو كمن لم يعلم، ومجرد العلم باللسان لا ينفع بدون أن يصل التأثير إلى القلب، ويظهر ذلك التأثير بالمسارعة إلى الأعمال الصالحة، والاتباع للكتاب والسنة، فمن أمَّر السُّنَّة على نفسه أخذاً وتركاً، حُبًّا وبغضاً، نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. قال بعض[٣] العلماء: زيادة العلم في الرجل السوء، كزيادة الماء في أصول الحنظل، كلما ازداد، ريّاً ازداد مرارةً ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا، وتحصيل الرفعة فيها، كمثل من رفع العذرة بملعقة من الياقوت،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

فما أشرف الوسيلة، وما أخسَّ المتوسَّل إليه، والذي يَحْملُ على تعلُّم ما لا يليق، وذِكْر ما يجبُ صَوْنُه عنه، إنما هو إيثار الدنيا على الآخرة، والله يقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾. وإن أردت معرفة قدرك عند الله تعالى، فانظر إلى أعمالك؛ لأنّ الأعمال علاماتٌ على ذلك، وقد جاء في الخبر: «من سرَّه أن يعرف منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله في قلبه، فإن الله يُنزل العبد عنده حيث أنزله العبد من نفسه».

ومعنى الآية: أي ولو أنَّهم آمنوا الإيمان الحق بكتابهم، وفيه البشارة بمحمد ﷺ، والأمر باتّباعه، واتقوا الله بالمحافظة على أوامره واجتناب نواهيه، لكان هذا الثواب العظيم الذي ينتظرونه من الله جزاءً على أعمالهم الصالحة، خيراً لهم من كُلِّ ما يتوقَّعُون من المنافع، والمصالح الدنيوية. ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إنّهم[1] ليسوا على شيء من العلم الصحيح، إذْ لو كان كذلك لظهرت نتائجه في أعمالهم، ولآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوه، وصاروا من المفلحين، لكنهم يتَّبعون الظنَّ، ويعتمدون على التقليد، ومن جرّاء هذا خالفوا الكتاب، وساروا وراء أهوائهم وشهواتهم، فوقعوا في الضلال البعيد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ، وبما جاء به[2]، وهذا النداء وقع في القرآن في ثمانية وثمانين موضعاً، وهذا أوّل خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليه، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين، يذكرهم بأنَّ الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقَّى أوامر الله تعالى ونواهيه، ويحسن الطاعة والامتثال. قال أبو حيان[3]: إنَّ أوّل نداءٍ أتى عاماً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ وثاني: نداء أتى خاصّاً ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟﴾ وهي الطائفة العظيمة، اشتملت على الملّتين اليهودية والنصرانية، وثالث نداءٍ لأمّة محمد ﷺ المؤمنين، فكان أوّل نداء عامًّا أمروا فيه بأصل الإسلام، وهو عبادة الله، وثاني نداء ذُكّرُوا فيه بالنعم الجزيلة، وتُعِبِّدُوا بالتكاليف الجليلة، وخُوّفوا من حلول النقم الوبيلة، والتخويف

---

(١) روح البيان.
(٢) العمدة.
(٣) روح البيان.
(٤) العمدة.

من النقم والاتعاظ بمن سبق من الأمم، فلم يبق إلاّ ما أمروا به على سبيل التكميل، من تعظيم من كانت هدايتهم على يديه، والتبجيل، والخطاب بيا أيها الذين آمنوا، متوجِّهٌ إلى من في المدينة من المؤمنين. قيل: ويحتمل أن يكون إلى كل مؤمن في عصره، وروي عن ابن عباس: أنّه حيث جاء هذا الخطاب، فالمراد به أهل المدينة، وحيث ورد يا أيها الناس، فالمراد أهل مكة. انتهى.

﴿لَا تَقُولُوا﴾[1] لنبيّكم محمد ﷺ، إذا ألقى عليكم شيئاً من العلم، وأكثر عليكم في الإلقاء وتابع فيه، وصَعُب عليكم الأَخْذُ منه مع الموالاة، وطلبتم منه الإمهال والتأنّي في الإلقاء؛ لِيُحفَظَ لكم ما سمعتم منه أوَّلاً، قبل الإلقاء الثاني ﴿رَاعِنَا﴾ يا رسول الله!؛ أي: أمهلنا وانظرنا في الإلقاء، وتأنَّ، ولا تتابعه علينا؛ لنحفظ ما سمعنا منك أوَّلاً قبل أن تُلْقي علينا ثانياً؛ لأنَّ هذه الكلمة وإن كان معناها في لغة العرب هكذا، فإنَّها توَافق في اللفظ كلمةً عبرانيةً، أو سريانيَّةً، وضعت للمَسبَّة كانت اليهود يتسابُّون بها فيما بينهم؛ لأنَّ معنى ﴿رَاعِنَا﴾ عندهم: اشملَنْا بحُمْقِك، وأَفِدْنا ولَهَك، وخاطِبْنَا بكلامك الخسيس، فإنَّ اليهود إذا سمعت مخاطبتكم للنبي ﷺ بهذ الكلمة، وأنتم تريدون معناها العربيَّ، فإنَّهم يخاطبون النبيَّ بهذه.

روي: أنَّ[2] المسلمين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: إذا تلا عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله! أي: تأنَّ بنا، وأمهل في الإلقاء حتى نفهم كلامك، واليهود كانت لهم كلمةٌ عبرانيةٌ يتسابُّون بها فيما بينهم، فلمَّا سمعوا المؤمنين يقولون: ﴿رَاعِنَا﴾ خاطبوا به النبيَّ ﷺ، وهم يريدون بها تلك المسبَّة، ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ منهم، وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده: لئن سمعتها من أحد منكم يقولها: لرسول الله ﷺ، لأضربنَّ عنقه، قالوا: أو لستم تقولون بها؟ فنهي المؤمنون عنها، فأُمِروا بلفظةٍ أخرى؛ لئلا يجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتم

---

(١) المراح.

النبيِّ ﷺ، وذلك قوله الآتي: ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ وهو إمَّا مأخوذٌ من الرعاية، والمراعاة: المبالغة في الرعي، وهو النظر في مصالح الإنسان، وتدبير أموره، وتدارك مصالحه، أو من الرُّعونة، والرَعْنُ: الجَهْلُ، والهَوَجُ، والحُمْقُ، والخِسَّة. وبُدِءَ بالنهي؛ لأنّه من باب التُّروك فهو أسهل، ثُمَّ أتى بالأمر بعده الذي هو أشقُّ؛ لحصول الاستئناس قَبْلَ النهي، ثُمَ لم يكن نهياً عن شيء سبق تحريمه، ولكن لمّا كانت لفظةُ المُفاعلة تقتضي الاشتراكَ غالباً صار المعنى: لِيقع منك رَعْيٌ لنا، ومِنّا رَعْيٌ لك، وهذا فيه ما لا يخفى مع مَنْ يُعظَّم؛ نُهوا عن هذه اللفظة لهذه العلةِ، وأُمروا بأن يقولوا: ﴿انظُرْنَا﴾ إذ هو فعلٌ من النبي ﷺ لا مشاركة لهم فيه معه. وقرأ الجمهور[1]: ﴿رَاعِنَا﴾ وفي مصحف عبد الله وقراءته، وقراءة أبيّ ﴿راعونا﴾ خاطبوه بذلك؛ إكباراً؛ وتعظيماً إذْ أقاموه مُقامَ الجمع، وتضمَّن هذا النهيُ النَّهْيَ عن كُلِّ ما يكون فيه استواءٌ مع النبي ﷺ.

وقرأ الحسن، وابن أبي ليلى، وأبو حيوة، وابن مُحيصن: ﴿رَاعِناً﴾ بالتنوين جعله صفةً لمصدر محذوف؛ أي: لا تقولوا قولاً راعناً، وهو على طريق النسب، كلابن، وتامر، وقال الحسنُ: الراعن من القول، السُّخريُّ منه. اهـ. ولمّا كان القول سبباً في السَّبِّ اتَّصف بالرَّعْنِ، فنهوا في هذه القراءة أن يخاطبوا الرسولَ بلفظٍ يكون، أو يوهم شيئاً من الغَضِّ والنَّقص، ممَّا يستحقُّه ﷺ من التعظيم، وتلطيفِ القول وأدَبِهِ، مأخوذٌ من الرُّعونة وهو الحُمْقُ، وكذا قيل: في ﴿راعونا﴾ إنّه فاعولا من الرعونة، كعاشورا. وقيل: إنّ اليهود تقول: راعنا؛ أي: رَاعِي غنمنا ﴿وَقُولُوا﴾ أيها المؤمنون عند طلب الإمهال منه، والتأني في الإلقاء ﴿انظُرْنَا﴾؛ أي: انتظرنا وأَمْهِل لنا، ولا تُوال في الإلقاء من نظره إذا انتظره.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿انظُرْنَا﴾ موصولَ الهمزة مضمومَ الظاء من النظرة وهي التأخير؛ أي: انتظرنا وتأنَّ علينا، نحو قوله:

فإنَّكُمَا إنْ تَنْظُرَانِي سَاعَةً ... مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

أو من النَّظَرِ واتُّسِعَ في الفِعْلِ، فعدِّي بنفسه، وأصله: أن يتعدَّى بإلَى، كما قال الشاعر:

ظَاهِراتُ الجَمَالِ والحُسْنِ يَنْظُرْ نَ كَمَا يَنْظُرُ الأَرَاكَ الظِّبَاءُ

يريد إلى الأراك، ومعناه: تَفَقَّدْنا بنظرك، وقال مجاهد معناه: فَهِّمْنَا وبيِّنْ لنا، فسَّر باللازم في الأصل وهو أَنظِرَ؛ لأنّه يلزمُ من الرفقِ والإمهالِ على السائل، والتأنِّي أن يَفْهَم بذلك. وقيل: هو من نَظَرِ البصيرة بالتَّفكُّرِ والتدبُّرِ فيما يَصْلُح للمنظور فيه، فاتُّسِعَ في الفعل أيضاً، إذ أصله: أن يتعدَّى بفي، ويكون أيضاً على حذف مضاف؛ أي: انظر في أمرنا. قال ابن عطيّة: وهذه لفظةٌ مُخلصِةٌ لتعظيم النبيِّ ﷺ، وقرأ أبي[1]، والأعمش: ﴿أَنْظِرْنَا﴾ بقطع الهمزة وكسر الظاء من الإنظار، ومعناه: أَخِّرنا وأمهلنا حتى نتلقَّى عنك، وهذه القراءة تشهد للقول الأوّل في قراءة الجمهور، ومنه قول الشاعر:

أبا هند فلا تَعْجَلْ علينا وأَنظِرنا نُخَبِّرْكَ اليقينا

ثُمَّ أمرهم بعد هذا النَّهي والأمر الأول، بأمرٍ آخر بقوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أيُّها المؤمنون ما يقوله النبيُّ ﷺ؛ أي أحسنوا[2] سماعه بآذانٍ واعيةٍ، وأذهانٍ حاضرةٍ، حتى لا تحتاجوا إلى الاسْتعادة، وطلب المراعاة، أو المعنى: واسمعوا ما تؤمرون به في مخاطبته ﷺ وأطيعُوا. نَهَىٰ الله سبحانه وتعالى، عباده المؤمنين أن يقولوا للنبيِّ ﷺ راعنا؛ لئلا يتطرَّق أحدٌ إلى شَتْمِه، وأمرهم بتوقيره وتعظيمه، وأن يتخيَّروا لخطابه ﷺ من الألفاظ أحسنَها، ومن المعاني أدقَّها، وإن سألوه يسألوه بتبجيلٍ، وتعظيمٍ، ولينٍ، ولا يخاطبوه بما يَسُرُ اليهود.

ولمَّا نهى أوّلاً، وأمر ثانياً، وأمر بالسمع وحضَّ عليه إذ في ضِمْنِهِ الطاعةُ، أخذَ يُذَكِّرُ لِمَنْ خالَف أَمْرَه بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ولليهود الذين سبُّوا رسول الله ﷺ، وتهاونوا بأمر الرسول، وظاهره العموم، فيدخل فيه اليهود دخولاً أوّليًّا

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجعٌ يخلص وجعه إلى قلوبهم، ونحو الآية قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي التعبير بالكافرين الذين هم اليهود هنا:[1] إيماءٌ إلى أنَّ ما صدر منهم من سوء الأدب في خطابه ﷺ، كُفْرٌ لا شكَّ فيه؛ لأنَّ من يصف النبيَّ ﷺ، بأنّه شريرٌ، فقد أنكر نبوّته، وأنّه مُوحًى إليه من قبل ربّه، ومتى فعل ذلك فقد كفر واستحقَّ العذاب الأليم.

قال الأستاذ الإمام[2]: إنَّ هذا التأديب ليس خاصًّا بمن كان في عصره ﷺ من المؤمنين، بل يعم من جاء بعدهم أيضاً، فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم، وكان يجب عليهم الاستماع له، والإنصات لتدبره، هو الذي يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شيءٌ، وهو كلام الله الذي به كان الرسول رسولاً تجب طاعته، والاهتداء بهديه، فما هذا الأدب الذي يقابله به الأكثرون، إنهم يلغطون في مجلس القرآن، فلا يستمعون، ولا ينصتون، ومن أنصت، واستمع؛ فإنَّما ينصت طرباً بالصوت، واستلذاذاً بتوقيع نغمات القارىء، وإنّهم ليقولون في استحسان ذلك، واستجادته ما يقولون في مجلس الغناء، ويهتزُّون للتلاوة، ويصوِّتون بأصواتٍ مخصوصة، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق، ولا يلتفتون إلى شيءٍ من معانيه إلاّ ما يرونه مدعاةً لسرورهم في مثل قصة يوسف عليه السلام، مع الغفلة عمَّا فيها من العبرة، وإعلاء شأن الفضيلة، ولا سيما العِفَّةُ والأمانة، أليس هذا أقربَ إلى الاستهانة بالقرآن، منه بالأدب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة، وأمثالها؟ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

﴿مَّا يَوَدُّ﴾ ويحبُّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وأنكروا بما جاء به محمدٌ ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، ككعب بن الأشرف ﴿وَلَا﴾ من

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

﴿الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: مشركي العرب عبدة الأوثان، كأبي جهل وأصحابه، وكان فريقٌ من اليهود يُظهرون للمؤمنين محبَّةً، ويزعمون أنَّهم يودُّون لهم الخير، فنزل تكذيباً لهم. والودُّ[1]: حُبُّ الشيء مع تمنيه، ونفي الودِّ كنايةٌ عن الكراهة؛ أي: ما يحبُّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، ومِن للتبيين؛ لأنَّ الذين كفروا جنسٌ تحته نوعان: أهل الكتاب والمشركون، فكأنَّه قيل: ما يودُّ الذين كفروا وهم أهل الكتاب والمشركون، فبيَّن أنَّ الذين كفروا باقٍ على عمومه، وأنَّ المراد كلا نوعيه جميعاً، والمعنى: أنَّ الكفَّار جميعاً لم يُحِبُّوا ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾؛ أي: على نبيكم؛ لأنّ المُنزَّل عليه منزَّلٌ على أُمَّته، وهو في موضع المفعول بيودُّ، وبناؤه للمفعول؛ وحذف للعلم به؛ وللتصريح به في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولو بني للفاعل لم يظهر في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

فائدةٌ: وقرأ أبو عمرو بالتخفيف.

﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ هو قائم مقام فاعله، و﴿مِّنْ﴾ مزيدةٌ لاستغراق الخير، والخير الوحي، والقرآن، والنصرة كائنٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: أن ينزَّل عليكم وحيٌ من ربّكم؛ لأنّهم يحسدونكم فيه، و﴿مِّنْ﴾ هنا لابتداء الغاية، كما تقول: هذا الخير من زيد، ويجوز[2] أن تكون، للتبعيض، والمعنى: من خير كائن من خيوركم، فإذا كانت لابتداء الغاية تعلَّقت بقوله: ﴿يُنَزَّلَ﴾، وإذا كانت للتبعيض تعلَّقت بمحذوف، وكان ذلك على حذف مضافٍ، كما قدَّرناه آنفاً. ذكره في «البحر».

والمعنى[3]: إنّهم يرون أنفسهم أحقَّ بأن يوحى إليهم، فيحسدونكم، ويكرهون أن يُنزَّل عليكم شيءٌ من الوحي، أمَّا اليهود فَبِناءً على أنّهم أهلُ الكتاب وأبناءُ الأنبياء النَّاشِئُون في مَهابِطِ الوحي، وأنتم أميُّون، وأمَّا المشركون فإدْلالاً بما كان لهم من الجاه والمال، زعماً منهم أنَّ رياسة الرسالة كسائر الرياسات

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

الدنيويّة، منوطةٌ بالأسباب الظاهرة، ولذا قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهم كانوا يتمنَّون أن تكون النُبوَّة في أحد الرجلين: نعيم بن مسعودٍ الثقفيّ بالطّائف، والوليد بن المغيرة بمكّة، ثُمَّ أجاب عن قول من يقول: لِمَ لَمْ يُنزِّل عليهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَخْتَصُّ﴾؛ أي: يخصُّ ﴿بِرَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: بوحيه، ونبوّته، وبالهداية ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ويختار من عباده؛ أي: من كان أهلاً لذلك وهو محمدٌ ﷺ والمؤمنون.

يقال: خصَّه بالشيء. واختصه، إذا أفرده به دون غيره، ومفعول المشيئة محذوفٌ، تقديره: من يشاء تخصيصه بفضله، والرحمة[1] هنا عامَّةٌ بجميع أنواعها، أو النبوة، والوحي، والحكمة، والنصرة، اختصَّ بها محمدٌ ﷺ قاله عليٌّ، والباقر، ومجاهدٌ، والزجّاجُ، أو الإسلام، قاله ابن عباس، أو القرآن، أو النبيُّ ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو نبيُّ الرحمة أقوالٌ خمسةٌ أظهرها الأول.

والمعنى: يفرد[2] سبحانه برحمته من يشاء إفراده بها، ويجعَلها مقصورة عليه؛ لاستحقاقه الذاتيّ الفائض عليهِ بحُبِّ إرادته عزّ وجلّ، لا تتعدَّاهَ إلى غيره، لا يجب علِيه شيءٌ، وليس لأحدٍ عليه حقٌّ، وسبب[3] عدم ودهم ذلك، أمَّا في اليهود، فلِكون النبوة كانت في بني إسماعيل؛ ولخوفهم على رئاستهم، وأمَّا النصارى؛ فلتكذيبهم في ادعائهم ألوهيَّة عيسى، وأنّه ابنُ الله؛ ولخوفهم على رئاستهم، وأمَّا المشركون؛ فلسبِّ آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، ولحسدهم أن يكون رجلٌ منهم يختصُّ بالرسالة، واتباع الناس له. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: صاحب المَنِّ الكبير، والعطاء الكثير بالوحي على محمدٍ ﷺ، وبالإسلام بلا غرض، ولا علّةٍ؛ يعني[4]: أنَّ الله تعالى يخصُّ بنبوّته ورسالته من يشاء من عباده، ويتفضّل بالإيمان والهداية على من أحبَّ من خلقه

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) العمدة.

رحمةً منه لهم، فكُلُّ خيرٍ ناله عباده في دينهم ودنياهم، فإنَّه منه ابتداءً، وتفضّلاً عليهم من غير استحقاق أحدٍ منهم لذلك، بل له الفضل والمنَّة على خلقه، وفي الآية تعريضٌ بأهل الكتاب في حسدهم للنبيِّ ﷺ، والمؤمنين.

فائدةٌ: قال بعض الحكماء: بارز الحاسد ربَّه من خمسة أوجهٍ:

أولها: أنّه أبغض كُلَّ نعمةٍ ظهرت على غيره.

والثاني: أنّه يتسخَّطُ قسمته تعالى، ويقول لربّه: لِمَ قسمت هكذا.

والثالث: أنَّ فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضله.

والرابع: أنّه خذل وليَّ الله تعالى، لأنّه يريد خذلانه، وزوال النعمة عنه.

والخامس: أنّه أعان عدوَّه؛ يعني: إبليس اللعين.

واعلم: أنَّ حسدك لا ينفذ على عدوِّك، بل على نفسك، بل لو كوشفت بحالك في يقظةٍ، أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي حجراً إلى عدوّه ليصيب به مقلته، فلا يصيبه، بل يرجع إلى حدقته اليُمْنى فيقلعها، فيزيد غضبه ثانياً، فيعود ويرمي أشدَّ من الأولى، فيرجع على عينه اليسرى فيعميها، فيزداد ـ غضبه ثالثاً، فيعود ويرميه، فيرجع الحجر على رأسه فيشُجُّه، وعدوُّه سالمٌ في كُل حال، وهو إليه راجعٌ كرَّةً بعد أُخرى، وأعداؤه حواليه يفرحون ويضحكون، وهذا حال الحسود، وسخرية الشياطين.

وقال بكر بن عبد الله: كان رجل يأتي بعض الملوك، فيقوم بحذائه ويقول: أَحْسِنْ إلى المحسنِ بإحسانه، فإنَّ المسيء يكفيه إساءته، فحسده رجلٌ على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك، وقال: إنّ هذا الرجل يَزْعُم أنَّ الملك أبْخَرُ، فقال الملك: وكيف يصحُّ ذلك عندي؟ قال: تدعو به إليك فانظر، فإنّه إذا دنا منك وضع يده على أنفه أن لا يشمّ ريح البخر، فخرج من عند الملك، فدعا الرجل إلى منزله، فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده، فقام بحذاء الملك، فقال على عادته مثل ما قال، فقال له الملك: ادن منّي، فدنا منه واضعاً يده على فيه مخافة أن يشمَّ الملك منه ريح الثوم، فصدَّق الملك في نفسه قول

الساعي، قال: وكان الملك لا يكتب بخطّه إلاّ لجائزة، فكتب له كتاباً بخّطه إلى عامل له، إذا أتاك الرجل فاذبحه واسلخه، واحش جلده تبناً، وابعث به إليّ، فأخذ الكتاب وخرج، فلقيه الرجل الذي سعى به، فاستوهب منه ذلك الكتاب، فأخذه منه بأنواع التضرّع والامتنان، ومضى إلى العامل، فقال له العامل: إنَّ في كتابك أن أذبحك، وأسلخك، قال: إنَّ الكتاب ليس هو لي، الله الله في أمري حتى أراجع الملك، قال: ليس لكتاب الملك مراجعةٌ، فذبحه،وسلخه، وحشا جلده تبناً، وبعث به، ثمَّ عاد الرجل كعادته، فتعجب منه الملك، فقال: ما فعلت بالكتاب؟ قال لقيني فلانٌ فاستوهبه منّي، فوهبته، قال الملك: إنّه ذكر لي أنَّك تزعم أنَّي أبخر، فقال كلاَّ، قال: فلم وضعت يدك على أنفك؟ قال: كان أطعمني طعاماً فيه ثومٌ، فكرهت أن تشمَّه منّي، قال: ارجع إلى مكانك، فقد كفى المسيءَ إساءتُه، اللهمّ! احفظنا من مساوىء الأخلاق، فإنَّها بئس الوثاق، وأكرمنا بمكارم الأخلاق، فإنّها نعم الرفاق. ذكره في «روح البيان».

وخلاصة معنى الآية[1]: أي إنَّ الذين عرفتم شأنهم مع أنبيائهم من أهل الكتاب حسدةٌ لكم، لا يودُّون أن ينزَّل عليكم خيرٌ من ربّكم، والكتاب الكريم أعظم الخيرات، فهو الهداية العظمى، به جمع الله شملكم، ووحَّد شعوبكم، وقبائلكم، وطهَّر عقولكم من زيغ الوثنية، وأقامكم على سنن الفطرة، وكذلك المشركون، إذ يرون في نزول القرآن على طريق التتابع الوقت بعد الوقت قوَّةً للإسلام، ورسوخاً لقواعده، وتثبيتاً لأركانه، وانتشاراً لهديه، وهم يودُّون أن تدور عليكم الدَّوائر، وينتهي أمركم، ويزول دينكم من صفحة الوجود. وحسد الحاسد يدلُّ على أنَّه ساخطٌ على ربّه معترضٌ عليه؛ لأنَّه أنعم على المحسود بما أنعم، والله لا يضيره سخط الساخطين ولا يحول مجاري نعمته حسد الحاسدين، فهو يختص من يشاء برحمته متى شاء، وهو ذو الفضل العظيم على من اختاره للنبوة، وهو صاحب الإحسان والمنَّة، وكُلُّ عباده غارقٌ في بحار نعمته، فلا ينبغي لأحدٍ أن يحسد أحداً على خيرٍ أصابه، وفضلٍ أوتيه من عند ربه.

---

(١) المراغي.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو استئنافية ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب، معطوف على ﴿نِعْمَتِيَ﴾ كما مرّ مراراً ﴿أَخَذْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ، والتقدير: واذكروا يا بني إسرائيل! نعمتي عليكم، وحين أخذنا ميثاقكم ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿وَرَفَعْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿فَوْقَكُمُ﴾ ظرف مكان ومضاف إليه، والظرف متعلق برفعنا ﴿ٱلطُّورَ﴾ مفعول به ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ۖ﴾ مقول محكي لقول محذوف معطوف على ﴿رفعنا﴾، تقديره: ورفعنا فوقكم الطور فقلنا خذوا ما آتيناكم، وإن شئت قلت: ﴿خُذُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل النصب مقول لقلنا المحذوف ﴿مَآ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به لخذوا ﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أوّل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ما آتيناكموه؛ لأنّ آتى بمعنى: أعطى يتعدى إلى مفعولين، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد المفعول الثاني المحذوف ﴿بِقُوَّةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير المخاطبين، تقديره: حال كونكم ملتبسين بقوّة وعزيمة ﴿وَٱسْمَعُوا۟ۖ﴾ الواو عاطفة ﴿اسمعوا﴾ فعل أمر وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿خُذُوا۟﴾. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ مقول محكي لقالوا منصوب بفتحة مقدّرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية، وإن شئت قلت: ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، تقديره: سمعنا قولك، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿وَعَصَيْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿سَمِعْنَا﴾، ومفعوله محذوف، تقديره: وعصينا أمرك ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾ الواو حالية ﴿أشربوا﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعل ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأشربوا ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ مفعول به ثان لأُشربوا؛ لأنّ الأول كان نائب فاعل، والجملة

من الفعل المغيّر، ونائب فاعله في محل النصب حال من الواو في ﴿قَالُوا﴾، ولكن بتقدير قد لتقرب الماضي إلى الحال، والتقدير: قالوا سمعنا وعصينا حاله كونهم مشْرَبين في قلوبهم حُبَّ عبادة العجل، ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على ﴿قَالُوا﴾ على كونها مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأُشربوا، والباء فيه سببية، ويجوز أن يكون حالاً من الحبّ المحذوف؛ أي: حال كون ذلك الحبّ مختلطاً بكفرهم، كما ذكَره العكبري ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ...﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لقل منصوب بفتحة مقدّرة، وإن شئت قلت: ﴿بئس﴾ فعل ماض جامد من أفعال الذمّ مبني على الفتح، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ لشبهه بالمثل، تقديره: هو يعود على الشيء المبهم ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة بمعنى شيء في محل النصب تمييز لفاعل ﴿بئس﴾. ﴿يَأْمُرُكُم﴾ فعل ومفعول به ﴿بِهِۦٓ﴾ جار ومجرور متعلق بيأمركم ﴿إِيمَٰنُكُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب صفة لما، ولكنها صفة سببية، والرابط ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾ وجملة ﴿بئس﴾ في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف يسمى المخصوص بالذمّ، تقديره: عبادة العجل، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإنْ على كونه فعل شرط لها ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ خبر كان منصوب بالياء، وجواب الشرط معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم مؤمنين بالتوراة، فلم عبدتم العجل، والمعنى: لو كنتم مؤمنين ما عبدتموه.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿كَانَتْ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بإن الشرطية، والتاء علامة تأنيث اسمها ﴿لَكُمُ﴾ جار ومجرور خبر لكان، مقدّم على اسمها ﴿ٱلدَّارُ﴾ اسمها مؤخّر، ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾ صفة للدار ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف مكان ومضاف إليه، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، والتقدير: إن كانت الدار الآخرة كائنة

لكم عند الله تعالى، ﴿خَالِصَةً﴾ حال من الدار تقديره حالة كونها خاصة بكم ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال مؤكّدة للحال المذكور قبلها؛ لأنّ دون تستعمل للاختصاص، يُقال هذا لي دونك؛ أي: من دونك؛ أي: لا حقَّ لك فيه، كما في «الشهاب»، وفي «السمين» في خبر كان هنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ﴿خَالِصَةً﴾ فيكون ﴿عِندَ﴾ ظرفاً لخالصةً، وللاستقرار الذي في ﴿لَكُمُ﴾.

والثاني: أنَّ الخبر ﴿لَكُمُ﴾ فيتعلَّق بمحذوف، ونصب ﴿خَالِصَةً﴾ حينئذٍ على الحال.

والثالث: أنَّ الخبر هو الظرف و﴿خَالِصَةً﴾ حال أيضاً. انتهى.

وفي «الكرخي»: ﴿خَالِصَةً﴾ مصدرٌ جاء على وزن فاعلة، كالعافية، والعاقبة، وهو بمعنى الخلوص. اهـ. ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ الفاء رابطةٌ لجواب ﴿إِن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية ﴿تمنّوا﴾ فعل أمر في محل الجزم بإنْ الشرطية على كونها جواباً لها مبني على حذف النون، والواو فاعل ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ مفعول به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مع جوابها في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإنْ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبر كان منصوب بالياء، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلومٌ مما قبلها، تقديره: إن كنتم صادقين فتمنَّوا الموت، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محلِّ النصب مقول ﴿قُلْ﴾ أيضاً.

فائدة: ولا تدخل ﴿إِن﴾ الشرطية على فعلٍ ماض في المعنى إلاّ على كان؛ لكثرة استعمالها، وأنّها لا تدلّ على حدث. ذكره العكبريُّ.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَلَن﴾ الواو استئنافية ﴿لن﴾ حرف نفي ونصب واستقبال ﴿يَتَمَنَّوْهُ﴾ فعل مضارع منصوب بلن، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والهاء مفعول به ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان متعلق بيتمنوه ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بيتمنوه أيضاً، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فعل وفاعل صلة لما الموصولة، والعائد

محذوف، تقديره: بما قدّمته أيديهم، ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية (ولفظ الجلالة) مبتدأ ﴿عَلِيمٌۢ﴾ خبر، والجملة الإسمية مستأنفة ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بعليم.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم ﴿لتجدنّ﴾ فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، والهاء ضمير الغائبين في محل النصب مفعول أوّل، وفاعله ضمير مستتر وجوباً تقديره أنت يعود على محمد ﷺ، أو على أيِّ مخاطب ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ مفعول ثاني لتجد ومضاف إليه ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ جار ومجرور متعلقٌ بأحرص، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة ﴿من الذين﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف دل عليه السياق، معطوف ذلك المحذوف على ﴿أَحْرَصَ﴾ لغرض التخصيص بعد التعميم، والتقدير: ولتجدنّهم أحرص من جميع الناس على حياةٍ متطاولة، وأحرص من الذين أشركوا ﴿أَشْرَكُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد واو الفاعل ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه ﴿لَوْ﴾ حرف مصدر ﴿يُعَمَّرُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة مرفوع، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدُهُمْ﴾. ﴿أَلْفَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بيعمّر، وهو مضاف ﴿سَنَةٍ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿يُعَمَّرُ﴾ صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية و﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية ليودّ، تقديره: يودّ أحدهم تعميره ألف سنة، وجملة ﴿يَوَدُّ﴾ من الفعل والفاعل في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿تجدنّهم﴾، تقديره: لتجدّن اليهود أحرص الناس على حياة حالة كون أحدهم وادّاً تعميره ألف سنة، أو مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب ﴿وَمَا﴾ الواو حالية ﴿مَا﴾ حجازيّة ﴿هُوَ﴾ ضمير يعود على التعمير المفهوم من السياق، في محل الرفع اسم ﴿مَا﴾ الحجازيّة ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ الباء زائدة في خبر ﴿مَا﴾ الحجازيّة ﴿مزحزحه﴾ مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنّه خبر ﴿مَا﴾ وهو مضاف،

والضمير مضاف إليه ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُعَمَّرَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة منصوب بأن المصدرية، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدُهُمْ﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية. و﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على البدليّة من اسم ﴿مَا﴾ الحجازيّة، تقديره: وما هو تعميره بمزحزحه من العذاب، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية في محل النصب حال من مفعول ﴿يَوَدُّ﴾ المؤوّل من ﴿لَوْ﴾ المصدريّة مع فعلها، تقديره: يودّ أحدهم تعميره ألف سنة حالة كون تعميره عادم الزحزحة، والإبعاد له من العذاب، وفي المقام أوجه من الإعراب ضربنا عنها صفحاً؛ خوفاً من الإطالة، فراجع المطوَّلات؛ لأنّ كتابنا مختصرٌ، ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿بَصِيرُۢ﴾ خبر، والجملة مستأنفة ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق ببصير، و﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة، أو مصدرية ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد محذوف، تقديره: يعملونه، أو صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، تقديره: بعملهم.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ...﴾ إلخ مقول محكي لقل، وإن شئت قلت: ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، وفي خبره ثلاثة أقوال: قيل: فعل الشرط وهو الراجح، كما في «أبي النجا على الأجرومية»، وقيل: جوابه، وقيل: هما معاً ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بمن على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿عَدُوًّا﴾ خبرها ﴿لِّجِبْرِيلَ﴾ اللام حرف جرّ ﴿جبريل﴾ مجرور بالفتحة للعلمية والعجمية، والجار والمجرور متعلق بعدوّاً؛ لأنّه بمعنى معادياً، وجواب الشرط محذوف جوازاً، تقديره: فليمت غيظاً، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ الفاء تعليلية للجواب المحذوف ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، والهاء اسمها، وهو عائد على جبريل ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ فعل ومفعول، والهاء عائد على القرآن، وفي إضماره على ما لم يسبق ذكره؛ تفخيم لشأن صاحبه، كأنّه يدلُّ على نفسه، وفاعله ضمير مستتر يعود على جبريل، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ جار ومجرور

ومضاف إليه متعلق بنزّله، والجملة الفعلية خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجرّ بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف، تقديره، وإنّما قلنا: فليمت غيظاً لتنزيله إيّاه بإذن الله تعالى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ضمير الفاعل، في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ العائد على جبريل، تقديره: حالة كونه ملتبساً بإذن الله، أو مأذوناً ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الهاء في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ العائد على القرآن ﴿لِّمَا﴾ اللام حرف جرّ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بمصدّقاً ﴿بَيْنَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف صلة لما الموصولة ﴿بَيْنَ﴾ مضاف ﴿يَدَيْهِ﴾ مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنّه مثنّى، أو ملحق به، وهو مضاف، والهاء مضاف إليه ﴿وَهُدًى﴾ معطوف على ﴿مُصَدِّقًا﴾ منصوب على الحالية، ولكنّه في تأويل مشتقّ؛ أي: هادياً ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ معطوف أيضاً على ﴿مُصَدِّقًا﴾ كذلك؛ أي: مبشّراً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور، تنازع فيه هدى وبشرى

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، خبره جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، كما مرّ آنفاً. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بمن على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿عَدُوًّا﴾ خبرها منصوب ﴿لِّلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بعدوّاً ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة، وهو مضاف، والضمير مضاف إليه، وكذلك ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة، وكذلك ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ معطوفان على الجلالة مجروران بالفتحة للعلمية والعجمة، وذكرهما من بعد الملائكة من ذكر الخاص بعد العام؛ إظهاراً لمزيّته، كما مرّ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الفاء رابطة لجواب مَن الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية ﴿إنّ الله﴾ ناصب واسمه، وأُظهِر في موضع الإضمار؛ دفعاً لإيهام أنّه يعود إلى جبريل ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق به، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، والرابط موجود، وهو الاسم الظاهر؛ أعني: لفظ الجلالة؛ لقيامه مقام الضمير، لأنّ الأصل من كان عدواً لله، وملائكته، ورسله، فإنّ الله عدوّ له، أو لهم، وقيل: الرابط العموم، وله في القرآن

نظائر كثيرة ستمر بك إن شاء الله تعالى، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية وجوابها مستأنفة، أو في محل النصب معطوفة بعاطف مقدّر على جملة قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ على كونها مقولاً لقل.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿أَنزَلْنَآ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾ مفعول به ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ صفة لآيات، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، تقديره: وعزّتي وجلالي، لقد أنزلنا إليك... الخ. وجملة القسم مستأنفة ﴿وَمَا يَكْفُرُ﴾ الواو حالية ﴿مَا﴾ نافية ﴿يَكْفُرُ﴾ فعل مضارع ﴿بِهَآ﴾ متعلق بيكفر ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فاعل مرفوع بالواو، والجملة الفعلية في محل النصب حال من آيات، وسوّغ مجيء الحال من النكرة وصفها بما بعدها ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿كلما﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لتضمّنه معنى إن الشرطية، والظرف متعلق بالجواب ﴿عَٰهَدُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لكلما لا محل لها من الإعراب ﴿عَهْدًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، أو منصوب على أنّه مفعول به ثان لعاهدوا، إذا كان ﴿عَٰهَدُوا۟﴾ بمعنى أعطوا، والأوّل محذوف، تقديره: عاهدوا الله عهداً ﴿نَّبَذَهُۥ﴾ فعل ومفعول ﴿فَرِيقٌ﴾ فاعل ﴿مِّنْهُم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لفريق، والجملة جواب ﴿كلما﴾ لا محل لها من الإعراب، وهذه الجملة هي محل الاستفهام الإنكاري، وجملة ﴿كلما﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على الجملة المحذوفة على كونها مستأنفة ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية معطوفة على الجملة السابقة. أو مستأنفة، إن قلنا: إنّ بَلْ حرف ابتداء.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو عاطفة (لَمَّا) حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَهُمْ﴾ فعل ماض ومفعول به ﴿رَسُولٌ﴾ فاعل، والجملة الفعلية فعل شرط للمَّا لا محل لها من الإعراب ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، صفة أولى لرسول، تقديره: رسول مرسل من عند الله ﴿مُصَدِّقٌ﴾ صفة ثانية لرسول ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ اللام حرف جرّ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بمصدّق ﴿مَعَهُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لما الموصولة، تقديره: مصدّق للذي استقرّ معهم ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ معطوفة على جملة ﴿كلما﴾ أو مستأنفة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور صفة لفريق ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، والواو نائب فاعل والكتاب مفعول ثانٍ لأوتوا، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به لنبذ ﴿وَرَآءَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية متعلق بنبذ، وهو مضاف ﴿ظُهُورِهِمْ﴾ مضاف إليه ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ كأنّ حرف نصب وتشبيه، والهاء اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿كأنّ﴾ في محل النصب حال من فريق؛ لتخصّصه بالوصف، تقديره: حالة كونهم مشبهين بمن لا يعلم.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ﴾.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة قوله: نَبَذَ فَرِيق على كونها جواباً للمّا، وفي «الفتوحات»: والأولى أن تكون هذه الجملة معطوفة على مجموع الجملة السابقة من قوله: وَلَمَّا جَاءَهُمْ إلى آخرها؛ لأنّ عطفها على نَبَذَهُ يقتضي كونها جواباً لقوله: وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ. واتّباعهم لما تتلو الشياطين ليس مترتّباً على مجيء الرسول، بل كان اتباعهم لذلك قبله ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول اتبعوا ﴿تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ فعل مضارع معتلّ

بالواو وفاعل، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما تتلوه الشياطين ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جرّ بمعنى: في ﴿مُلْكِ﴾ مجرور بعلى ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة، وزيادةُ الألف والنون موقوفةٌ على معرفة الاشتقاق، الجار والمجرور متعلق بتتلوا ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية، أو اعتراضية ﴿مَا﴾ نافية ﴿كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو اعتراضية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف الذي هو قوله: وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ وبين المعطوف عليه الذي هو قوله: ﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ إن قلنا: إنّ ﴿ما أنزل على الملكين﴾ معطوف على ﴿تَتْلُوا۟﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو عاطفة ﴿لَٰكِنَّ﴾ حرف نصب واستدراك ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ اسمها منصوب بالفتحة؛ لأنّه جمع تكسير، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ في محل الرفع خبر لَكِنِ وجملة لَكِنِ معطوفة على جملة قوله: وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ على كونها مستأنفة، أو معترضة ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مفعول أوّل ﴿ٱلسِّحْرَ﴾ مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الشَّيَاطِينَ، أو من فاعل كَفَرُوا أو خبر ثان لـ﴿لكن﴾.

وفي «الفتوحات»: واختلفوا في هذه الجملة على خمسة أقوال:

أحدها: أنها حال من فاعل ﴿كَفَرُوا۟﴾؛ أي: كفروا معلمين الناس.

الثاني: أنّها حال من ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ وردّه أبو البقاء بأن ﴿لَٰكِنِ﴾ لا تعمل في الحال، وليس بشيء، فإنّ ﴿لَٰكِنِ﴾ فيها رائحة الفعل.

الثالث: أنها في محل الرفع على أنّها خبر ثان للشياطين.

الرابع: أنها بدل من ﴿كَفَرُوا۟﴾ أبدل الفعل من الفعل.

الخامس: أنّها استئنافية أخبر عنهم بذلك.

هذا إذا أعدنا الضمير من ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ على ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، أما إذا أعدناه على الدين اتبعوا ما تتلو الشياطين، فتكون حالاً من فاعل اتبعوا، أو استئنافية فقط. انتهى. ﴿وَمَآ﴾ الواو عاطفة ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب معطوفة على

السحر، تقديره: ويعلمونهم ما أنزل عليهما، وسوّغ عطفه عليه مع كون هذا سحراً أيضاً؛ تغايرهما لفظاً، أو المراد ﴿بما أنزل على الملكين﴾ نوع أقوى من السحر، فالتغاير بالحقيقة لا بالاعتبار. ذكره «الكرخي» ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، والجملة الفعلية صلة لما الموصولة على الملكين متعلق بأنزل ﴿بِبَابِلَ﴾ الباء حرف جر بمعنى في ﴿بابل﴾ مجرور بالباء، وجره بالفتحة للعلمية والعجمية، أو التأنيث المعنوي؛ لأنّه بمعنى: البلدة، الجار والمجرور متعلق بأنزل، أو الباء على معناها متعلقة بمحذوف حال من ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾. ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ بدل من ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ أو عطف بيان لهما، وجرّهما بالفتحة للعلمية والعجمية ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية ﴿مَا﴾ نافيه ﴿يُعَلِّمَانِ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية مستأنفة، ولا تغترّ بما قال في «الفتوحات» هنا، من أنّ الجملة معطوفة على ما قبلها؛ لأنّ عطفها عليه لا يصحّ، تأمّل ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿أَحَدٍ﴾ مفعول أوّل، والثاني محذوف، تقديره: وما يعلمان أحداً السحر حتى يقولا ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية بمعنى إلى ﴿يَقُولَآ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن المضمرة بعد حتّى، والجملة صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، تقديره: وما يعلمان أحداً إلى قولهما له نصيحة ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ مقول محكي ليقولا منصوب بفتحة مقدرة على الأخير، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ ﴿فِتْنَةٌ﴾ خبر، والجملة في محل النصب مقول ليقولا ﴿فَلَا﴾ الفاء حرف عطف وتفريع ﴿لَا﴾ ناهية جازمة ﴿تَكْفُرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وفاعله ضمير مستتر يعود على أحد، تقديره: أنت، والجملة الفعلية معطوفة مفرّعة على الجملة الإسمية قبلها على كونها مقولاً ليقولا.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحة، مبني على الفتح؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن الملكين لا يعلمان أحداً حتى

يقولا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وأردت بيان حال الناس هل ينجزون أم لا؟ فأقول لك: يتعلمون ﴿يتعلمون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة ﴿مِنْهُمَا﴾ جار ومجرور متعلق بيتعلمون ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿يُفَرِّقُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بيفرقون، والعائد ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿بَيْنَ ٱلْمَرْءِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بيفرقون أيضاً ﴿وَزَوْجِهِۦ﴾ معطوف على المرء ﴿وَمَا﴾ الواو حالية، أو اعتراضية ﴿مَا﴾ حجازية ﴿هُم﴾ اسمها ﴿بِضَآرِّينَ﴾ خبرها، والباء زائدة ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بِضَآرِّينَ﴾. ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ مفعول ضارين منصوب بفتحة مقدّرة، لأنّه اسم فاعل، و﴿من﴾ زائدة، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية في محل النصب حال من واو ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾، تقديره: يتعلمون منهما حالة كونهم غير ضارين به من أحد، أو معترضة؛ لاعتراضها بين المعطوف عليه ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الضمير المستتر الفاعل لضارين، أو من المفعول به، الذي هو أحد.

وفي «الفتوحات»: وفي صاحب هذه الحال أربعة أوجه:

أحدها: أنّه الفاعل المستكن في ﴿بِضَآرِّينَ﴾ والتقدير: وما هم بضارين به أحداً إلاّ حالة كونهم ملتبسين بإذن الله.

والثاني: أنّه المفعول وهو أحد، وسوّغ مجيء الحال من النكرة اعتمادها على النفي، والتقدير: وما هم بضارين به أحداً إلاّ حالة كونه ملتبساً بإذن الله.

والثالث: أنه الهاء في ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالسحر، والتقدير: وما هم بضارين به أحداً إلاّ حالة كون ذلك السحر مقروناً بإذن الله، وإرادته.

والرابع: أنّه المصدر المعرف وهو الضرر، إلاّ أنّه حذف؛ للدلالة عليه، والتقدير: وما هم بضارين به أحداً الضرر إلاّ حالة كون ذلك الضرر واقعاً بإذن الله وقدرته ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا﴾ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر

ومفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَنفَعُهُمْ﴾ فعل ومفعول، والفاعل ضمير مستتر يعود على ﴿مَا﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ على كونها صلة الموصول، قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ...﴾ الخ وفي «الفتوحات» هذا الكلام في المعنى راجع لقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ فهو معطوف عليه في المعنى

﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو استئنافية مسوقة للشروع في بيان حالهم بعد تعلم السحر، واللام موطئة لقسم محذوف ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿عَلِمُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ اللام حرف ابتداء مُعلِّقَةٌ لما قبلها عن العمل فيما بعدها لفظاً ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾ فعل ومفعول، والفاعل ضمير مستتر يعود على ﴿مَنِ﴾ والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿مَا﴾ نافية ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلق بمحذوف حال مقدمة على صاحبها الذي هو ﴿خَلَٰقٍ﴾. ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿خَلَٰقٍ﴾ مبتدأ مؤخّر، والتقدير: ما خلاق كائن له حال كونه في الآخرة، والجملة الإسمية في محل الرفع خبر ﴿لَمَنِ﴾ الموصولة.

وجملة ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ من المبتدأ والخبر في محل النصب سادّة مسدّ مفعولَيْ ﴿عَلِمُواْ﴾ إن كان متعدياً لاثنين، ومسد مفعوله إن كان متعدياً لواحد. ﴿وَلَبِئْسَ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة، واللام موطئة لقسم محذوف ﴿بئس﴾ فعل ماض جامد من أفعال الذم وفاعله ضمير مستتر وجوباً يعود على الشيء المبهم ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة بمعنى شيء في محل النصب على التمييز مفسّرة لفاعل ﴿بئس﴾. ﴿شَرَوْاْ﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق بشروا، وهذا الضمير هو الرابط بين جملة الصفة والموصوف ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول به لشروا، والتقدير: ولبئس الشيء شيئاً شروا به أنفسهم، وجملة ﴿بئس﴾ من الفعل والفاعل جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، أو معطوفة على جملة

قوله: ﴿عَلِمُواْ﴾، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: السحرُ والكفرُ وهو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو السحر ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم ﴿كَانُواْ﴾ فعل ماض ناقص، والواو اسمها، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، تقديره: لو كانوا عالمين عاقبة ما تعلَّموا، وجملة كان فعل شرط للو لا محلَّ لها من الإعراب، وجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية محذوف دَلَّ عليه السياق، ـ تقديره: لو كانوا يعلمون عاقبة ما تعلَّموا، لما أقدموا على ما اجترحوه من عمل السحر، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو استئنافية ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿وَاتَّقَوْاْ﴾ معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ والتقدير: ولو أنّهم مؤمنون بالله ومتّقون إيّاه، وجملة أنّ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف جوازاً؛ لأنَّ لَوْ الشرطية لا يليها إلاّ الفعل، والتقدير: ولو ثبت إيمانهم وتقواهم ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ اللام رابطة لجواب لَّوْ الشرطية، وقيل: هي لام الابتداء مثوبة مبتدأ ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ وهذا الوصف سوّغ الابتداء بالنكرة، والتقدير: لمثوبة كائنة من عند الله ﴿خَيْرٌ﴾ لهم خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب لَّوْ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة لَّوْ الشرطية مستأنفة ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، وجملة كان من اسمها وخبرها فعل شرط للو لا محل لها من الإعراب، وجواب لَّوْ محذوف دلّ عليه ما قبلها، تقديره: لو كانوا يعلمون خيرية الثواب من عند الله لما اختاروا السحر عليه، وجملة لَّوْ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء؛ أي: منادى نكرة مقصودة مبني على الضمّ، ها حرف تنبيه زائد تعويضاً عمّا فات؛ أي: من الإضافة، كما عوضوا عنها ما الزائدة في نحو: أياً تدعوا، وخصّت ها بالنداء؛ لأنّه محل تنبيه، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من أي، أو عطف بيان له، أو صفة ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿لَا﴾ ناهية ﴿تَقُولُواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿رَٰعِنَا﴾ مقول محكي لتقولوا، ولو شئت قلت: ﴿راع﴾ فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وهي الياء، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنت يعود على محمد ﷺ، ونا ضمير المتكلمين في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لتقولوا ﴿وَقُولُواْ﴾ فعل وفاعل مبني على حذف النون، والجملة معطوفة، على جملة ﴿لَا تَقُولُواْ﴾ على كونها جواب النداء ﴿ٱنظُرْنَا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱنظُرْنَا﴾ فعل أمر، ومفعول به، وفاعل مستتر فيه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُولُواْ﴾. ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ فعل أمر وفاعل معطوف على ﴿قُولُواْ﴾ والمفعول محذوف، تقديره: واسمعوا ما يُكلِّمُكم به الرسول، ويُلْقِي عليكم من المسائِل المُؤدِّيةِ إلى فَلاَحِكُمْ دينا، ودنيا، ومعاداً ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ﴾ الواو استئنافية ﴿للكافرين﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخّر ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة لعذاب، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً مسوقة للإجمال بعد التفصيل.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿مَّا﴾ نافية، ﴿يَوَدُّ﴾ فعل مضارع مرفوع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الواو في كَفَرُوا ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على أَهْلِ الكِتَابِ وزيدت لا هنا؛ لتأكيد النفي السابق، ولو كان في غير القرآن لجاز حذفها ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُنَزَّلَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة منصوب بأن المصدرية

﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق بينزّل ﴿مِّنْ﴾ زائدة ﴿خَيْرٍ﴾ نائب فاعل لينزل ﴿مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾ صفة لخير، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية ليودّ، تقديره. ما يودّ الذين كفروا تنزيل خير كائن من ربّكم عليكم ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿يَخْتَصُّ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿بِرَحْمَتِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بيختّص ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُۚ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: من يشاؤه؛ أيْ: يشاء تخصيصه ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿ذُو﴾ خبر مرفوع بالواو المحذوفة؛ لالتقاء الساكنين؛ لأنّه من الأسماء الستة، وهو مضاف ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ مضاف إليه ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة للفضل، والجملة الإسمية مستأنفة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ تقدّم أنّ أصل الميثاق مِوْثاق، قلبت الواو ياءً لَمَّا سُكِّنت بعد كسرةٍ ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أمر من أخذ، والقياس أن يسكن فاؤه، ويؤتى بهمزة وصل؛ للتوصل بها إلى النطق بالساكن، كما قالوا: اضرب، اصبر، ولكن قدَّمنا أنَّ هذا الفعل وهو أخذ، وكذلك أكَلَ، وأَمَر، أنَّ الأمر منها دائماً، هكذا: خُذ، كُل، مُر ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أصله: أأتيناكم بهمزتين، أبدلت الثانية ألفاً حرف مدٍّ للأولى ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ وبئس فعلٌ، وضع لإنشاء الذمّ، وأصله. فعِلَ، ولكنّهم خفَّفوا بسكون الوسط وله ولِنِعْمَ باب معقود في النحو، وأصل إيمانكم: إئمانكم بهمزتين، أبدلت الثانية الساكنة حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى.

﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ﴾ الدار فيه إعلال بالقلب، فألفه منقلبة عن واو، وأصله: دَوَرٌ تحركت الواو بعد فتح فقلبت ألفاً، ولذلك يصغر على دويرة ﴿خَالِصَةً﴾ الخالص: الذي لا يشوبه شيء، يقال: خلص يخلص خلوصاً، إذا

سلم من شائبة الغير، فالخالصة مصدر جاء على وزن فاعلة، كالعافية، والعاقبة، وهو بمعنى الخلوص، كما ذكره «الكرخي» ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ أصله: تمنّيوا بوزن تفعلوا من التمنّي، يقال: تمنّى يتمنّى تمنياً، وأمرُ الجماعة منه تمنّوا، وذلك أنّ المضارع لمّا بني منه الأمر، حذف حرف المضارعة ونون الرفع، فصار تمنّيوا، فتحركت الياء فقلبت ألفاً فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف، ثمّ حركت الواو بالضمّ؛ لالتقائها ساكنة مع لام ال بعده؛ لأنّ همزة الوصل ساقطة في الدرج، ومعنى تمنوا الموت: تشوفوا، واجعلوا نفوسكم ترتاح إليه، وتودُّ المصير إليه ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ والعجل: هو الذي صنعه لهم السامري من حليهم، وجعلوه إلْهاً وعبدوه، ويقال: أشرب قلبه كذا؛ أي: حُلَّ محلَّ الشراب، كأنَّ الشيء المحبوب شراب يُساغُ، فهو يسري في قلب المحب، ويمازجه كما يسري الشراب العذب البارد في اللَّهاة، وحقيقة أُشْرِبَه كذا جعله شارِباً له.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ تجدنهم مضارع وجَدَ، وأصله: يَوْجِدُ من فَعَل بفتح العين في الماضي يفعِل بكسرها في المضارع، فهو مثالٌ وقعت الواو بين عدوَّتيها الياء المفتوحة والكسرة فحذفت، ثُمَّ بني الفعل على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد المباشرة، وقس على هذا ما شابهه، ومادَّة. وجد مشتركٌ بين الإصابة، والعلم، والغنى، والحرج، ويختلف بالمصادر، كالوجدان، والوجد، والموجدة، والحرص شدَّة الطلب، وفي «المصباح»: وحَرَص عليه حرصاً من باب ضرب إذا اجتهد، والاسم الحِرص بالكسر، وحرص على الدنيا من باب ضرب أيضاً، وحَرِص حرصاً من باب تعب إذا رغب رغبةً مذمومةً. اهـ.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ من الود وهو المحبَّة للشيء والإيثار له، وهو مضارع وَدِدَ بكسر العين في الماضي، يَوْدَدُ بفتحها في المضارع من باب فَعِلَ يَفْعَلَ، نقلت حركة الدال إلى الواو، فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ من عمَّر المضعَّف، والتضعيف فيه للنقل، إذ هو من عَمَّر الرجل إذا طال عمره، وعمَّره الله إذا أطال عمره، والعمر مدَّةُ البقاء ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ والألف عشر من المئين، وقد يتجاوز فيه فيدلُّ على الشيء الكثير وهو من الألفة، إذ هو ما لَفَّ أنواعَ الأعداد، إذ العشرات ما لَفَّ الآحاد، والمئون ما لفَّ العشرات، والألف ما لفَّ المِئين

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ من الزحزحة: وهي الإزالة والتنحية عن المقرِّ، وزحزح يستعمل متعدِّياً كما هنا، ولازماً، كقول الشاعرِ:

خَلِيْلَيَّ ما بَالُ الدُّجَى لا يُزَحْزَحُ   وَمَا بَالُ ضَوءِ الصُّبْحِ لا يتَوضَّحُ

والمعنى: بمنجيه من العذاب، وقيل: من بمعنى عن؛ أي: بمبعده عن العذاب، وتكرار الحروف يشابه تكرار العمل ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ والعدوُّ ضِدُّ الصديق، يستوي فيه المذكر والمؤنث، والواحد والمثنى والجميع، وأصله: عَدُوْوٌ بوزن فَعولٍ، أدغمت وَاوُ فَعول في لام الكلمة ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ نَبْذُ الشيءِ طَرحُهُ وإلقاؤهُ، والفريق: العدد القليل، وأصل أوتوا: أؤتيوا مبنياً للمجهول، وفيه همزتان الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، فأبدلت الثانية حرف مدٍّ للأولى من جنس حركتها على حدِّ قول ابن مالك:

وَمَدّاً ابْدِل ثَانِيَ الهَمْزَيْنِ مِنْ   كِلْمَةٍ إنْ يَسْكُنْ كَآثِرْ وائتُمِنْ

ثمّ استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فسكنت، فحذفت لالتقاء الساكنين ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿اتبعوا﴾ افتعلوا من الاتباع، أدغمت فاء الفعل في تاء الافتعال، فقيل: اتبعوا بعد أن استجلبت همزة الوصل، للتوصّل إلى النطق بالساكن ﴿تَتْلُوا۟﴾ أَصلُهُ: تَتْلُوُ بوزن تَفعُلُ من تلا يتلو، كسما يسمو ناقصٌ واويٌّ، ولمَّا تطرفت الواو إثر ضمة سكنت، وجعلت حرف مدّ ﴿بضارِّين﴾ أَصْلُه: بضارِرِين، أدغمت الراء الأولى بعد تسكينها في الثانية ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ أصله: يَضْرُرْهم بوزن يفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى الضاد، فسكنت، فأُدغمت في الراء الثانية ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ علمان أعجميان بدليل منع الصرف، ولو كانا من الهَرْتِ والمَرتِ؛ أي: الكُسْرِ كما زعَمَ بعضهم لانَصْرَفَا ﴿بِبَابِلَ﴾ وبابلُ مدينة قديمة مُنع من الصرف للعلمية والعجمة، وتقعُ انْقاضُها على الفُراتِ قُرْبَ الحُلَّةِ شرقيَّ بغدادَ ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أصله: اشتَرَيَ بوزن افتَعَلَ، قُلبت الياءُ لامُ الفعل ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فهي مِنْ شرَاه يَشْرِيهِ إذا باعه، أو ملَكَه بشراءٍ، ودليلُ ذلك قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ ﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾ بالفتح بمعنى نصيب ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟﴾ أصل: شروا كما تقدّم قريباً شَرَيُوا، تحركت الياء وانفتح ما

قبلها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، فحذفت الألف.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ أصله: أأمنُوا، أبدلت الهمزة الثانية ألفاً حرف مَدٍّ للأولى ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أصله: أوْتَقيُوا، أبدلت الواو التي هي فاء الكلمة تاء، وأدغمت في تاء الافتعال، ثم أبدلت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان الألف والواو، فحذفت الألف، وبقيت الفتحة دالةً عليها ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ وَزْنُهُ مَفْعُلَةً بضمّ العين من الثواب، نقلت حركة الواو إلى الفاء، فسكنت الواو إثر ضمة، فجعلت حرف مدّ. ونقل الواحديُّ: أنَّ المثوبة فيها قولان:

أحدهما: أنّ وزنها مَفْعُولة، والأصلُ: مَثْوُوْبةٌ بواوين، فثقلت الضمةُ على الواو الأولى، فنقلت إلى الساكن قبلها، فالتقى ساكنان، فحذف أوّلهما الذي هو عين الكلمة، فصار مثوبة على وزن مفولة، ومحوزة، ومصونة، ومشوبة، وقد جاءت مصادر على وزن مفعول، كالمعقود، فهي مصدر نقل ذلك الواحديُّ.

والثاني: أنها مفعُلةٌ بضم العين، وإنما نُقلت الضمة منها إلى الثاء، وكان من حقّها الإعلال، فيقال: مَثابة، كمَقالة، إلاّ أنّها صحَّحوها. اهـ. «سمين». ﴿تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ يقال: تلا يتلو إذا تبع، وتلا القرآن؛ قرأه. وتلا عليه؛ كذَب. قاله أبو مسلم، وقال أيضاً: تلا عنه؛ صدف. فإذا لم يذكر الصِلَتَين احتمل الأمرين ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾؛ أي: في زمنه، وسليمان: اسم أعجمي، وامتنع من الصرف للعلمية والعجمة، ونظيره من الأعجمية في أنَّ آخرُهُ ألفاً ونوناً هامان، وماهان، وسامان، وليس امتناعه من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون كعثمان؛ لأنَّ زيادة الألف والنون موقوفةٌ على الاشتقاق، والتصريف، والاشتقاق، والتصريف العربيان لا يدخلان الأسماء العجمية ﴿ٱلسِّحْرَ﴾ مصدر سَحَر يَسْحَر سِحْراً على وزن فِعْلٍ، ولا يوجد مصدرٌ على وزن فِعْلٍ إلاّ سِحْرٌ وفِعْلٌ، قاله بعض أهل العلم، قال الجوهري: كُلُّ ما لَطَفُ ودقَّ فهو سِحر، يقال: سحَرَهَ؛ أَبْدَىٰ، له أمراً يَدِقُّ عليه ويَخْفَى. انتهى. وقال الشاعر:

أَدَاءٌ عـرَانِـي مِـنْ حَـيـائِـكَ أمْ سِـحْـرُ

ويقال: سحَرَه إذا خدَعه، ومنه قولُ امرىء القيس:

أرانَا موضعَيْنِ لأمْرِ غيْبٍ   وَنُسْحَرُ بالطَّعَامِ وَبالشَّرَابِ

أي نُعَلَّلُ ونُخْدَعُ ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ اسمان أعجميَّان ممنوعان من الصرف، ومن نظائرهما طالوتُ وجالوتُ، ويجمعان على هواريت، ومواريت. ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ﴾ والفتنة: الابتلاءُ والاختبار، يقال: فتن يفتن فتوناً، وفتنةً ﴿مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾ والضُرُّ والنفع معروفان، ويقال: ضرَّ يضُرُّ بضمّ الضاد، وهو قياس المضعَّف المتعدِّي، ومصدره: الضُرُّ والضَرُّ والضرر، ويقال: ضار يضير، قال:

يَقُولُ أُناسٌ لا يَضِيْرُكَ نَابُهَا   بَلَى كُلُّ مَا شَفَّ النُّفُوسَ يضيْرُهَا

ويقال: نفع ينفع نفعاً، قيل: لا يقال منه اسم مفعول، نحو: منفوع، والقياس النحويُّ يقتضيه ﴿مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾ الخلاق في اللغة: النصيب، قاله الزجَّاج، قال لكنه أكثر ما يستعمل في الخير، قال:

يَدْعُوْنَ بالوَيْلِ فِيْهَا لا خَلاَقَ لَهُمْ   إلاَّ السَّرَابِيْلُ مِنْ قَطْرٍ وأغلاَلُ

والخلاقُ أيضاً: القَدْرُ، قال الشاعر:

فَمَا لَكَ بَيْتٌ لَدَى الشَّامِخَاتِ   وَمالَكَ فِي غَالِبٍ مِنْ خَلاقْ

﴿لَمَثُوبَةٞ﴾ مفعلة من الثواب كما مرّ، نقلت حركة الواو إلى الثاء، ويقال: مثوبةٌ، وكان قياسه الإعلال، فتقول: مثابةٌ، ولكنهم صحَّحُوه كما صحَّحُوا في الأعلام مَكْوُرة، ونظيرهُما في الوزنِ من الصحيح مَقْبَرة ومَقْبُرة ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾ قال الراغبُ: العداوةُ: التجاوز، ومُنافاة الالتئام. فبالقَلْبِ يقال: العداوة. وبالمَشْيِ يقال: العَدْوُ. وبالإخلال في العدل يقال: العُدْوان. وبالمكان أو النَّسب، يقال: قومٌ عِدَي؛ أي: غُرباء. ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ وهذا مثلٌ يضُرب لمن أعرض عن الشيء جملةً، تقول العرب: جعل هذا الأمر ورَاءَ ظهرِه ودُبُرَ أُذنه، وقال الفرزدق:

تَمِيمُ بنُ مُرٍّ لا تَكُونَنْ حَاجَتِي   بِظَهْرٍ وَلاَ يَعْيَا عَلَيْكَ جَوَابُهَا

وقالت العرب ذلك. لأنَّ ما جُعل وراء الظهر لا يمكن النظرُ إليه، ومنه ﴿واتَّخذتُموه ظهريا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ راعنا وزنه فاعنا،

أُعلّ بحذف لامه؛ لمناسبة باء الأمر؛ لأنّه من الرعاية، يقال: راعىٰ يراعي مراعاة، إذا نظر في مصالح الإنسان، وتدبير أموره.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ حيث شبَّه حبَّ عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب، وطوى ذكر المشبَّه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية، قال في «تلخيص البيان»، وهذه استعارةٌ، والمراد: وصف قلوبهم بالمبالغة في حُبِّ العجل، فكأنَّها تشرَّبَتْ حُبَّه، فمازجها ممازجة المشروب، وخالطها مخالطة الشيء الملذوذ، وقال بعضهم فيه: التشبيه البليغ؛ أي: جعلت قلوبهم لتَمَكُّن حب العجل منها، كأنَّها تشرب، ومثله قول زهير:

فصحوتَ عَنْهَا بَعْدَ حُبٍّ داخِلٍ وَالْحُبُّ يَشْرَبُهُ فُؤَادُكَ دَائِماً

وإنما عبَّر عن حُبّ العجل بالشرب دون الأكل؛ لأنَّ شُرْبَ الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصلِ إلى باطنها، والطعامُ لا يتغلغل فيها.

ومنها: التهكُّم في قوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ حيث أسند الأمر إلى إيمانهم، وكذلك إضافةُ الإيمان إليهم، أمَّا الثاني فظاهرٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ تحقيراً ودلالة على أنَّ مثل هذا لا يليق أن يسمَّى إيماناً إلاّ بالإضافة إليكم، وأمَّا الأوّل؛ فلأنَّ الإيمان إنّما يأمر ويدعو إلى عبادة من هو في غاية العلم والحكمة، فالإخبار بأنَّ إيمانهم يأمر بعبادة ما هو في غاية البلادة، في غاية التهكم والاستهزاء، سواءٌ جعل يأمر به بمعنى يدعو إليه أم لا. انتهى. من «الكرخي».

ومنها: التنكير في قوله: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾؛ للتنبيه على أنَّ المراد بها حياةٌ مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص ألوفاً من السنين.

ومنها: تخصيص هذا العدد في قوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ لأنّهم يقولون ذلك فيما بينهم عند العطاس والتحيّة عِشْ ألفَ سنة، وألف نَوَّرُوزْ، وأَلْفِ مهرجان.

ومنها: الإتيانُ بالجملة الإسمية في جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لزيادة التقبيح والتشنيع؛ لأنّها تُفِيدُ الثباتَ والدوامَ.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث لم يقل: عدوٌّ لهم؛ لتسجيل صفة الكفر عليهم، وأنّهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين.

ومنها: الإظهار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ حيث لم يقل: فإنه؛ دفعاً لاحتمال أن يعود الضمير إلى جبريل، أو ميكائيل.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾، إظهاراً لمزيّتِهِ وشرفه.

ومنها: إسناد النبذ إلى فريق منهم في قوله: ﴿نبذ فريق منهم﴾؛ إشعاراً بأنَّ منهم من لم ينبذ.

ومنها: خُروج الأمر عن معناه الأصليِّ إلى معنى التعجيز، في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ لأنَّ ذلك ليس من سِماتهم، ولا من ظواهرهم المألوفة، فإنَّ تمني الموت من شأن الأبرار المقرَّبين؛ لأنَّ من أيقن بالشهادة اشتاق إليها، وبكى حنيناً إليها، وقد رُوي عن علي بن أبي طالب (أنّه كان يطوف بين الصفَّين، في غلالة، فقال ابنه الحسن: ما هذا بزيِّ المحاربين؟ فقال: يا بنيّ! لا يبالي أبوك سقط على الموت أم سقط عليه الموت)، ولمَّا احتضر خالد بن الوليد بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: (والله ما أُبالي إشفاقاً من الموت، ولكن لأنّي حضرت كذا وكذا معركةً، ثمّ أموت هكذا، كما تموت العنز، فلا نامت أعين الجبناء) وعن حذيفة أنّه كان يتمنّى الموت، فلمَّا احتضر قال: (حبيبٌ جاء على فاقةٍ لا أفلح من ندم) يعني: على التمنّي، وعن النبي ﷺ: (لو تمنَّوا الموت لغَصَّ كُلُّ إنسان منهم بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهوديٌّ).

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ ففي تنكير حياة فائدةٌ عجيبة، فحواها: أنَّ الحريص لا بُدَّ أن يكون حياً، وحرصه لا يكون على الحياة الماضية والراهنة، فإنّهما حاصلتان، بل على الحياة المستقبلة، ولمَّا لم يكن الحرص متعلّقاً بالحياة على الإطلاق، بل بالحياة في بعض الأحوال، وجب التنكير، وفي الحذف توبيخٌ عظيمٌ لليهود؛ لأنَّ الذين لا يؤمنون بالمعاد، ولا يعرفون إلاّ الحياة، لا يستبعد حرصهم عليها، فإذا زاد أهل الكتاب عليهم في الحرص، وهم مُقِرُّون بالبعث والجزاء، كانوا أحرى باللَّوم والتوبيخ.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ لأنّه كنايةٌ عن الكثرة، فليس المراد خصوص الألف.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿رَسُولٌ﴾؛ للدلالة على التفخيم والتعظيم.

ومنها: وصفه بقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأنَّه آتٍ من عند الله، إفادةً لمزيد التعظيم.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ كناقة الله وبيت الله.

ومنها: التمثيل في قوله: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ لأنّه تمثيل لتركهم وإعراضهم عن كتاب الله بالكلية، حيث رموه بالعناد، ولم يعملوا به بما يرمى به وراء الظهر استغناءً عنه، وقلَّة التفاتٍ إليه.

ومنها: حكاية حالٍ ماضيةٍ في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ حيث لم يقل تلت الشياطين؛ لأنَّ تلاوتهم من الأمور الماضية فعبَّر عنها ـ بالمستقبل حكايةً لها.

ومنها: زيادة مِنْ في المفعول في قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾؛ لإفادة تأكيد الاستغراق المستفاد من أحد.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأنٌ سواها؛ لِنَصْرِفَ الناسَ عن تعلُّمِه.

ومنها: الطباق بين الضرِّ والنفع في قوله: ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ لأنَّ بينهما طباق السَّلْب.

ومنها: فنٌّ رفيعٌ في فنون البلاغة في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾؛ الخ. وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وهو تنزيل العلم منزلة الجاهل، فإنَّ صدر الآية يدلُّ على ثبوت العلم في أنّه لا نفع لهم في اشتراء كتب السحر والشعوذة، واختيارها على كتب الله تعالى، وآخر الآية ينفي عنهم العلم، فإنَّ لو تدلُّ على امتناع الثاني لامتناع الأول، إلا أنَّ نفي العلم عنهم لأمرٍ خطابيٍّ، نظراً إلى أنَّهم لا يعملون على مقتضى العلم، ولكن في ذلك مبالغةٌ من حيث الإشارة، إلى أنَّ علمهم بعدم الثواب كافٍ في الامتناع، فكيف العلم بالذمِّ والرداءة.

ومنها: الإتيان بالجملة الاسمية في جواب لو الشرطية في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ بدل الجملة الفعلية؛ للدلالة على الثبوت والاستمرار.

ومنها: تنكير مثوبة في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾؛ لإفادة التقليل؛ أي: شيءٌ قليلٌ من الثواب كائنٌ من عند الله خيرٌ.

ومنها: حذف المفضَّل عليه في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ إجلالاً للمفضَّل من أن ينسب إليه، وهو السحر.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأنَّ نفي الودِّ عنهم كنايةٌ عن الكراهة؛ أي: ما يحب الذين كفروا الخ.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ومنها: تصدير الجملتين بلفظ الجلالة في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ﴾ للإيذان بفخامة الأمر.

ومنها: فنُّ التهذيب في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ وهو ترداد النظر فيما يكتبه الكاتب، وينظمه الشاعر، فقد خلصت هذه الآية من الإيهام، ودلَّتْ على آداب المخاطبة ليكون الكلام بريئاً من المطاعن، بعيداً عن الملاحن.

ومنها: زيادة لا النافية في قوله: ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيداً للنفي المستفاد ممَّا قبلها؛ لأنَّ المعنى ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، بغير زيادة لا. اهـ. «سمين».

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه، لمَّا بيَّن حقيقة الوحي(١)، وردَّ كلام الكارهين له جملةً.. بيَّنَ سرَّ نسخه، وأبطل مقال الطاعنين فيه، بأنّه تعالى يأمر بالشيء لما يعلم فيه من المصلحة، ثمَّ ينهى عنه لما يرى في ذلك من الخير حينئذٍ، فأطيعوا أمره، واتَّبعوا رسله في تصديق ما به أخبروا، وترك ما عنه زجروا.

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا نهى في الآيات السابقة عن الاستماع لنصح

(١) المراغي.

اليهود، وعدم قبول آرائهم في شيء من أمور دينهم، ذكر هنا وجه العلة في ذلك، وهي أنَّ كثيراً منهم يودون لو ترجعون كفاراً حسداً لكم ولنبيّكم، فهم لا يكتفون بكفرهم بالنبي ﷺ، والكيد له بنقض ما عاهدهم عليه، بل يحسدونكم على نعمة الإسلام، ويتمنون أن تحرموا منها.

وقد كان لأهل الكتاب حيلٌ في تشكيك المسلمين في دينهم، فقد طلب بعضهم من بعض أن يؤمنوا أوّل النهار، ويكفروا آخره كي يتأسَّى بهم بعض ضعاف الإيمان من المسلمين، وكانوا يلقون بعض الشبه على المؤمنين، ليشككوهم في دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها من حيث إنَّ هذه الآيات في بيان أباطيل أخر لأهل الكتاب وقبائحهم، حيث ادَّعى كلٌّ من الفريقين اليهود والنصارى أنَّ الجنّة خاصَّةٌ به، وطعن في دين الآخر، فأكذب الله الفريقين، وبيَّن أنّ الجنّة إنّما يفوز بها المؤمن التقيُّ الذي عمل الصالحات.

واعلم: أنّ الله سبحانه ذكر في هذه الآية حالين من أحوال اليهود[1]:

أولاهما: تضليل من عداهم، وادعاؤهم أنَّ الحق لا يعدوهم، وأنّ النبوة مقصورةٌ عليهم.

وثانيهما: تضليل اليهود للنصارى، وتضليل النصارى لهم، كذلك مع أنَّ كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى، وكتاب النصارى متمِّمٌ لكتاب اليهود.

والعبرة من هذا القصص: أنَّهم قد صاروا إلى حال من اتباع الأهواء، لا يعتدُّ معها بقول أحد منهم، لا في نفسه، ولا في غيره، فطعنهم في النبي ﷺ، وإعراضهم عن الإيمان به، لا يثبت دعواهم في أنّه مخالف للحق، فاليهود قد كفروا بعيسى، وقد كانوا ينتظرونه، والنصارى كفروا بموسى ورفضوا التوراة، وهي حجتهم على دينهم، فكيف بعدئذٍ يعتدُّ برأيهم في محمدٍ ﷺ؟ وهو من غير

(١) المراغي.

شعبهم، وجاء بشريعةٍ نسخت شرائعهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ سبحانه الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر افتراء اليهود والنصارى وقولهم: إنّ الجنّة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً أو نصارى، وإنّها خاصة بهم.. أردف ذلك بذكر بعض قبائحهم، وقبائح المشركين في ادّعائهم: أنّ لله ولداً، حيث زعمت اليهود: أنَّ عزيراً ابن الله، وزعمت النصارى: أنّ المسيح ابن الله، وزعم المشركون: أنّ الملائكة بنات الله، فأكذبهم الله وردَّ عليهم دعواهم الباطلة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس قال: (كان ربما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه في النهار، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ الآية).

وروي أنَّ هذه الآيات نزلت حين قال المشركون، أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمرٍ، ثُمَّ ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول: اليوم قولا ويرجع عنه غداً، فقد أمر في حد الزنا بإيذاء الزانيين باللِّسان حيث قال: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ ثُمَّ غيَّره وأمر بإمساكهن في البيوت، حيث قال: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ ثمَّ غيَّره بقوله: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ فما هذا القرآن إلاّ كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، يناقض بعضه بعضاً، ومقصدهم من ذلك الطعن في الدين؛ ليضعِّفوا عزيمة من يريد الدخول فيه، وينضوي تحت لوائه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رفيع بن خزيمة، ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد! ائتنا بكتابٍ تنزله علينا من السماء نقرؤه، أو فجر لنا أنهاراً نتَّبعك ونصدِّقك، فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وما أخرجه ابن جرير، عن مجاهد قال: سألت قريشٌ محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فقال: «نعم، وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم» فأبوا، ورجعوا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ...﴾ الآية، سبب نزولها: أنّه كان حُييُّ بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب، من أشدّ اليهود حسداً، للعرب، إذْ خصّهم الله تعالى برسوله، وكانوا جاهدين في رد الناس عن الإسلام، فأنزل ـ الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعن الزهري، عن عروة، عن أسامة بن زيد أنّه أخبره: أنَّ رسول الله ﷺ ركب على حمار، فقال لسعد: «ألم تسمع ما قال أبو الحباب» يريد عبد الله بن أبي؟ قال: «كذا وكذا»، فقال سعد بن عبادة: اعف عنه واصفح، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يعفو عن أهل الكتاب والمشركين، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: لمَّا قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار اليهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة من اليهود: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى، وبالإنجيل، وقال: رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى، وكفر بالتوراة، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية، ما أخرجه ابن جرير، عن ابن زيد قال: نزلت هذه الآية في المشركين حين صدُّوا رسول الله ﷺ، عن مكة يوم الحديبية، وأخرج ابن جرير من طريق سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس قال: إنّ قريشاً منعوا النبيَّ ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

ولمَّا حرَّم الله سبحانه وتعالى قولهم: ﴿رَاعِنَا﴾ بعد حلِّه، وكان ذلك من باب النسخ، قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ بغير عطف؛ لشدّة ارتباطه بما قبله. و﴿مَا﴾ شرطية جازمة لننسخ، منتصبةٌ به على المفعولية؛ أي: أي شيء ﴿نَنسَخْ﴾! ومحلُّ قوله: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ النَّصب تمييزاً لما الشرطيَّة، والنسخ في اللُّغة: الإزالة والنقل، يقال: نسخت الريح الأثر؛ أي: أزالته، ونسخت الشمس الظلَّ إذا أزالته، ونسخت الكتاب؛ أي: نقلته من نسخةٍ.

واصطلاحاً: بيان انتهاء حكم التعبُّد بتلاوة الآية، وقراءتها، أو انتهاء التعبُّد بالحكم المستفاد منها، أو بهما جميعاً.

فالأوَّل: أعني: نسخ التلاوة دون الحكم، كأية الرجم، كما روي أنَّ مما يتلى عليكم في كتاب الله (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتَةَ) فهو منسوخ التلاوة دون الحكم، ومعنى النسخ في مثلها: انتهاء التكليف بقراءتها عند نسخ تلاوتها، وهذا القسم قليلٌ، وهو المراد بقوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾.

والثاني: أعني: نسخ الحكم دون التلاوة، فكآية عدّة الوفاة بالحول، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ نسخت بأربعة أشهر وعشراً، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة، كالآيات التي نسخت بآية السيف، وكمصابرة الواحد لعشرة في القتال، نسخت بمصابرة الواحد للاثنين، فهو منسوخ الحكم دون التلاوة، وهو المعروف الكثير من النسخ في القرآن، فتكون الآية الناسخة والمنسوخة ثابتتين في التلاوة، إلاّ أنَّ المنسوخة لا يعمل بها، ومعنى النسخ في مثلها: بيان انتهاء التكليف بالحكم المستفاد منها عند نزول الآية المتأخِّرة عنها، وحسن بقاء التلاوة مع نسخ الحكم ورفعه؛ ليبقى حصول الثواب بقراءتها، فإنّ القرآن كما يتلى لحفظ حكمه لتيسير العمل به، يتلى أيضاً؛ لكونه كلام الله تعالى، فيثاب عليه.

والثالث: أعني: نسخ الحكم والتلاوة جميعاً، فكما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّها قالت: (كان مما يتلى في كتاب الله ﴿عَشْرُ رضعات يُحَرِّمْنَ﴾ ثُمّ نسخ بـ﴿خمسُ رضعاتٍ يُحرِّمن﴾) فهو منسوخ الحكم والتلاوة جميعاً، ومعنى النسخ في مثلها: بيان انتهاء التكليف بقراءتها وبالحكم المستفاد منها عند نسخها.

وهذان القسمان هما المذكوران بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ فدخل تحت قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ قسمان من أقسام النسخ، وهما: نسخ الحكم واللفظ معاً، أو الحكم فقط، وتحت قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قسمٌ واحد، وهو نسخ اللفظ دون الحكم. قال القرطبي: الجمهور على أنَّ النسخ إنّما هو مختصٌّ بالأوامر، والنواهي، والخبر لا يدخله النسخ؛ لاستحالة الكذب على الله تعالى.

والمعنى: أيَّ شيء من الآيات ننسخ ونرفع حكمها مع بقاء لفظها؟ كآية عدّة الوفاة بالحول بآية أربعة أشهر وعشرة أيام، أو ننسخ ونرفع لفظها وحكمها جميعاً، كنسخ عشر رضعات بخمس رضعات ﴿أو ننسأها﴾؛ أي: نؤخّر ونبق حكمها مع رفع تلاوتها، كآية الرجم؛ لأنّه إمّا من النَّسيء إنْ قرأنا بفتح النون والسين، أو من الإنساء إن قرأنا بضمّ النون وكسر السين، وكلاهما بمعنى التأخير، والمراد: تأخير حكمها وإبقاؤه مع نسخ تلاوتها، أو تأخيرها في اللوح المحفوظ عن الإنزال إلى وقتٍ أراد الله سبحانه إنزالها فيه، وفي «الروح» قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾؛ أي: نذهبها عن قلوبكم، فإنساء الآية إذهابها من القلوب، كما روي إنَّ قوماً من الصحابة قاموا ليلةً ليقرؤوا سورةً، فلم يذكروا منها إلاّ البسملة، فغدوا إلى النبي ﷺ وأخبروه، فقال ﷺ: «تلك سورةٌ رفعت بتلاوتها وأحكامها» ﴿نَأْتِ﴾؛ أي: نرسل جبريل ﴿بِخَيْرٍ﴾ أي: بآيةٍ هي خيرٌ وأسهل على العباد؛ أي: من المنسوخة؛ أي: نرسله[1] بما هو أنفع لكم، وأسهل عليكم، وأكثر لأجوركم، وليس معناه: أنَّ آيةً خيرٌ من آية؛ لأنَّ كلام الله تعالى واحدٌ، وكلُّه

(١) الخازن.

خيرٌ، فلا يتفاضل بعض الآيات على بعض في أنفسها من حيث إنّه كلام الله تعالى، ووحيه، وكتابه، بل التفاضل فيها إنّما هو بحَسَب ما يحصل منها للعباد، والخيريَّة: إمَّا في السُّهولة، كنسخ وجوب مصابرة الواحد لعشرة، بوجوب مصابرته لاثنين، أو في كثرة الأجر، كنسخ التخيير بين الصوم والفدية، بتعيين الصوم، فالأول من النسخ بالبدل الأخفّ، والثاني من النسخ بالبدل الأثقل ﴿أَوْ﴾ نرسله بـ ﴿مِثْلِهَآ﴾؛ أي: بمثل المنسوخة في النفع، والثواب، والعمل، وذلك كنسخ وجوب استقبال صخرة بيت المقدس، بوجوب استقبال الكعبة، فهما متساويان في الأجر.

والمعنى: إنّ كُلَّ آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة، والمصلحة من إزالة لفظها، أو حكمها، أو كليهما معاً إلى بدلٍ، أو إلى غير بدل، كما في إنسائها، وإذهابها عن القلوب بالكلية، كما روي عن قومٍ من الصحابة ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾؛ أي: نوح إليك غيرها مما هو خيرٌ للعباد، بحسب الحال من الذاهبة، أو ممَّا هو مثلها في النفع والثواب. فكلُّ ما نسخ إلى أيسر، فهو أسهل في العمل، وما نسخ إلى الأشقّ، فهو في الثواب أكثر، أمَّا الأول: فكنسخ الاعتداد بحولٍ، ونقله إلى الاعتداد بأربعة أشهر وعشر، وأمَّا الثاني: فكنسخ ترك القتال بإيجابه، وقد يكون النسخ بمثل الأول لا أخفَّ ولا أشقَّ، كنسخ التوجُّه إلى بيت المقدس، بالتوجه إلى الكعبة، وهذا الحكم غير مختصٍّ بنسخ الآية التامَّة فما فوقها، بل جارٍ فيما دونها أيضاً، وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب.

واعلم: أنَّ الناسخ على الحقيقة هو الله تعالى، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخاً تجوّزاً في الإسناد، بناءً على أنَّ النسخ يقع به، والمنسوخ هو الحكم المزال، والمنسوخ عنه: هو المُتعبِّدُ بالعبادةِ المُزالَةِ وهو المكلَّف، والحكمة[1] في النسخ: أنّ الطبيبَ المباشرَ لإصلاح البدن، يُغيِّر الأغذية، والأدوية، بحسب اختلاف الأمزجة، والأزمنة، كذلك الأنبياء المباشرون لإصلاح النفوس، يغيِّرون الأعمال الشرعية، والأحكام الخلقيَّة التي هي للنفوس بمنزلة العقاقير، والأغذية

---

(١) روح البيان.

للأبدان، فإنَّ أغذية النفوس، وأدويتها: هي الأعمال الشرعية، والأخلاق المرضية، فيغيِّرها الشارع على حسب تغيُّر مصالحها، فكما أنَّ الشَّهْدَ يكون دواءً للبدن في وقتٍ، ثمّ قد يكون داءً في وقتٍ آخر، كذلك الأعمال قد تكون مصلحةً في وقت، ومفسدة في وقت آخر، وخلاصة[1] المعنى: ما نغير حكم آيةٍ، أو نُنْسِيْكَهُ، إلاّ أتينا بما هو خيرٌ منه لمصلحة العباد بكثرة الثواب، أو بمثله فيه.

قال الاستاذ الإمام: والمعنى الصحيح الذي يَلْتَئِمُ مع السياق: أنَّ الآية هنا ما يؤيِّد الله تعالى به الأنبياء، من الدلائل على نبوتهم؛ أي: ما ننسخ من آية نقيمها دليلاً على نبوّة نبيّ من الأنبياء؛ أي: نزيلها، ونترك تأييد نبيٍّ آخر بها، أو ننسها الناس؛ لطول العهد بمن جاء بها، فإنَّا بما لنا من القدرة الكاملة، والتصرّف في الملك؛ نأت بخير منها في قوّة الإقناع، وإثبات النبوة، أو بمثلها في ذلك، ومن كان هذا شأنه في قدرته، وسعة ملكه، فلا يتقيَّدُ بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه. اهـ. وقد سبقه إلى مثله محي الدين ابن العربي في «تفسيره». وقرأ الجمهور[2] ﴿مَا نَنسَخْ﴾ من نسخ الثلاثي بمعنى: أزال. وقرأت طائفة، وابن عامر من السبعة ﴿ما نُنسِخ﴾ بضمّ النون الأولى من أنسخ الرباعي، وهو بمعنى: نسخ الثلاثي.

وقرأ عُمر وابن عباس، والنخعيُّ، ومجاهد، وعطاء، وعبيد بن عمير، ومن السبعة ابن كثير، وأبو عمرو ﴿أو نَنْسَأْهَا﴾ بفتح نون المضارعة والسين، وسكون الهمزة. وقرأ طائفة كذلك، إلاّ أنّه بغير همز، وذكر أبو عبيد البكريُّ في كتاب «اللآلي» ذلك، عن سعد بن أبي وقاص، وأراه وَهِمَ، وكذا قال ابن عطية، قال: وقرأ سعد بن أبي وقاص: ﴿تَنْسَاها﴾ بالتاء المفتوحة وسكون النون وفتح السين من غير همز، وهي قراءة الحسن، وابن يعمر، وقرأت فرقة كذلك، إلاّ أنهم همَّزوا. وقرأ أبو حيوة كذلك، إلاّ أنّه ضمَّ التاء. وقرأ سعيدٌ كذلك، إلاّ أنه بغير همز، وقرأ باقي السبعة ﴿نُنْسِها﴾ بضمّ النون وكسر السين من غير همزت، وقرأ

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

فرقةٌ كذلك إلاّ أنَّها همزت بعد السين. وقرأ الضحاك، وأبو رجاء بضمّ النون الأولى وفتح الثانية، وتشديد السين وبلا همزٍ. وقرأ أُبيٌّ: ﴿أو نُنْسِكَ﴾ بضمّ النون الأولى وسكون الثانية، وكسر السين من غير همز، وبكاف الخطاب بدل ضمير الغيبة، وفي مصحف سالم مولى أبي حذيفة كذلك، إلاّ أنّه جمع بين الضميرين، وهي قراءة أبي حذيفة. وقرأ الأعمش: ﴿ما نُنْسِكَ مِنْ آيةٍ أو نُنْسِخْهَا نَجِىءْ بِمِثْلِها﴾ وهكذا ثبت في مصحف عبد الله، فتحصَّل من هذه القراءات دون قراءة الأعمش إحدى عشرة قراءةً، فمعنى هذه اللفظة في الآية: نُؤخّر نسخها، أو نُزُولُها، قاله عطاء، وابن أبي نجيح، أو نمحها لفظاً، وحكماً، قاله ابن زيد، أو نمضها فلا ننسخها، قاله أبو عبيدة، وهذا يضعّفه قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾؛ لأنّ ما أمضى وأُقِرّ لا يقال فيه نأت بخير منها.

ثمّ أقام الدليل على إمكان النسخ، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد! الخطاب للنبي ﷺ، والمراد[1] غيره من المؤمنين الذين ربّما كان يؤذيهم ما كان يعترض به اليهود، وغيرهم على النسخ، وضعيف الإيمان يؤثّر في نفسه أن يعاب ما يأخذ به، فيخشى عليه من الرُّكونِ إلى الشُّبهة، أو تدخل في قلبه الحيرة، فجاء ذلك؛ تثبيتاً لهم؛ وتقويةً لإيمانهم ببيان أنَّ القادر على كل شيء، لا يستنكر عليه نسخ الأحكام؛ لأنّها ممَّا تتناولها قدرته. والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: إنك تعلم يا محمد! ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فمنه النسخ والتبديل ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، فيقدر على النسخ، والإتيان بمثل المنسوخ، وبما هو خير منه.

والمعنى[2]: ألم تعلم يا محمد؟ أني قادر على تعويضك ممَّا نسخت من أحكامي، وغيرته من فرائضي التي كنت افترضتها عليك ما أشاء مما هو خيرٌ لك، ولعبادي المؤمنين، وأنفع لك ولهم عاجلاً، أو آجلاً، وسبق لك آنفاً أنَّ الهمزة للاستفهام التقريري، والمعنى: أي: أَقرَّ واعترفْ يا محمد! بكون الله

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

قديراً على كُلِّ شيء. وفي هذه الجملة تنبيهٌ للنبيِّ ﷺ، وغيره، على قدرته تعالى، وأنّه القادر المتصرِّف في شؤون الخلق، يحكم بما شاء، ويأمر بما شاء، وأنّه لا دافع لما أراد، ولا مانع لما اختار. ثُم أقام دليلاً آخر، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد! الخطاب للنبي ﷺ، والمراد: هو وأمّته، بدليل قوله: ﴿وَمَا لَكُم﴾ وإنّما أفرده هنا؛ لأنّه أعلمهم، ومبدأ علمهم ومأخذه. قال بعضهم: وإنّما[1] خصَّه ﷺ بالخطاب، مع أنَّ غيره داخلٌ في الخطاب أيضاً حقيقةً، بناءً على أنَّ المقصود من الخطاب تقرير علم المخاطب بما ذكر، ولا أحد من البشر أعلم بذلك منه ﷺ، إذ قد وقف من أسرار ملكوت السموات والأرض، على ما لا يطَّلع عليه غيره، وعِلْمُ غيره بالنسبة إلى علمه ﷺ، مُلْحَقُ بالعدم؛ لأنّ علم الأولياء من علم الأنبياء، بمنزلة قطرةٍ من سبعة أبحر، وعلم الأنبياء من علم نبيِّنا محمد ﷺ بهذه المنزلة، وعلم نبينا من علم الحقِّ سبحانه بهذه المنزلة. انتهى.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَهُۥ﴾ لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما، وما بينهما، أي: سلطنتهما، فهو المتصرِّف فيهما دون غيره، يحكم فيهما، وفيما فيهما بما شاء من أمر، ونهي، ونسخ، وتبديل، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو كالدليل على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والملك: تمام القدرة واستحكامها، وتخصيص السموات والأرض بالذكر، وإن كان الله تعالى له ملك الدنيا والآخرة جميعاً؛ لكونهما أعظم المصنوعات المحسوسة، وأعجبها شأناً. وهذا الخبر[2]، وإن كان خطاباً للنبيِّ ﷺ، لكن فيه تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا النسخ، وجحدوا نبوّة عيسى، ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام، فأخبرهم أنَّ الله سبحانه وتعالى، له ملك السموات والأرض، وأنَّ الخلق كُلَّهم عبيده، وتحت تصرُّفه، يحكم فيهم ما يشاء، وعليهم السمع والطاعة، فعلم أنَّ هذه الجملة، كالدليل على قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما مرَّ، أو على جواز النسخ، ولذلك ترك العاطف ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

سبحانه، أي: سوى الله، وهو في حيِّز النصب على الحالية من الوليِّ؛ لأنّه في الأصل صفةٌ له، فلمّا قدِّم انتصب حالاً ﴿مِن﴾ زائدة للاستغراق ﴿وَلِيٍّ﴾؛ أي: قريبٌ وصديقٌ يلي أمركم، وقيل: والٍ، وهو القيِّم بالأمور ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: معينٌ ومانع ينصركم على أعدائكم؛ أي: ناصركم ومعينكم هو الله وحده، فلا تبالوا بمن ينكر النسخ، أو يعيِّبكم به، وليس في استطاعته أن يلحق بكم أذًى، والفَرْقُ بين الولي والنصير: أنَّ الولي قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور، فبينهما عموم وخصوص من وجهٍ، والمقصود: التسكين لقلوب المؤمنين، بأنَّ الله وليُّهم، وناصرهم دون غيره، فلا يجوز الاعتماد إلاّ عليه ولا يصحُّ الالتجاء إلاّ إليه.

والمعنى: إن قضيَّة العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة وهو العلم بـ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والعلمُ بـ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والعلمُ بأنْ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ هو الجَزْمُ والإيقان، بأنّه تعالى لا يفعل بهم في أمرٍ من أمور دينهم، أو دنياهم إلاّ ما هو خيرٌ لهم، والعمل بموجبه شيءٌ من الثقة والتوكّل عليه، وتفويض الأمر إليه من غير إصغاءٍ إلى أقاويلِ الكفرة، وتشكيكاتهم التي هي من جملتها ما قالوا في أمر النسخ. وقيل: المعنى: ﴿وَمَا لَكُم﴾ يا معشر اليهود والكفار! عند نزول العذاب ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ممَّا سوى الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾؛ أي: قريبٍ وصديقٍ يحميكم من عذاب الله، وقيل: والٍ يلي أمركم ويقوم به ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: ولا ناصر يمنعكم من عذاب الله، وإنما هو الذي يملك أموركم، ويجريها على ما يصلح لكم، وفي هذا تحذيرٌ من عذاب الله، إذ لا مانع منه.

ولمَّا قالت اليهود: يا محمدا! ائتنا بكتابٍ من السماء جملةً، كما أتى موسى بالتوراة، نزل قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ وأمْ هنا[1] منقطعةٌ تقدَّر ببل والهمزة، ويكون إضراب انتقالٍ من قصّةٍ إلى أخرى، لا إضراب إبطالٍ،

---

(١) العمدة.

والخطاب لليهود؛ أي: بل أتريدون يا معشر اليهود! الذين كانوا في عهد محمدٍ ﷺ ﴿أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ﴾؛ أي: الرسول الذي جاءكم؛ أي: محمداً ﷺ؛ لأنّه رسول الخلق أجمعين، أن يأتيكم بكتاب من السماء جملةً ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام؛ أي: سأله أسلافكم وآباؤكم رؤية الربِّ، وسماع كلامه، وغير ذلك حيث قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا الرسول محمد ﷺ، فتضلُّوا كما ضلُّوا؛ وذلك لأنَّ السؤال بعد قيام البراهين كفرٌ.

وقيل[1]: أم في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ معادِلةٌ للهمزة في ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ والخطاب للمؤمنين؛ أي: ألم تَعْلَموا؟ أيها المؤمنون! أنّه سبحانه مالك الأمور، وقادرٌ على الأشياء كلِّها، يأمر وينهىٰ كما أراد، أم تعلمون، وتقترحون بالسؤال، كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام، والمراد: توصية المؤمنين بالثقة به، وترك الاقتراح عليه، وهو المفاجأة بالسؤال من غير رويَّةٍ وفكرٍ ﴿أَن تَسْـَٔلُوا﴾ وأنتم مؤمنون ﴿رَسُولَكُمْ﴾ محمداً ﷺ، وهو في تلك المرتبة من علوِّ الشأن، وتقترحوا عليه ما تشتهون، غير واثقين بأموركم بفضل الله تعالى، حسبما يوجبه قضيّةُ علمكم بشؤونه تعالى. قيل: لعلَّهم كانوا يطلبون منه ﷺ، تفاصيل الحِكَمِ الداعية إلى النسخ ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ مصدر تشبيهيٌّ! أي: نعت لمصدر مؤكّد محذوف، وما مصدرية؛ أي: تسألون رسولكم سؤالاً مشبهاً لله سؤال موسى عليه السلام، حيث قيل له: اجعل لنا إلٰهاً، وأرنا الله جهرةً، وغير ذلك. وقرىء (سِيْلَ بالياء) ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل محمد ﷺ متعلق بسئل؛ جيء به للتأكيد ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ﴾؛ أي: من يختر الكفر لنفسه، ويأخذه، ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: بدل الإيمان؛ أي: أخذه في مقابلة الإيمان بدلاً عنه؛ أي: ومن يختر الكفر على الإيمان، ويأخذه لنفسه بدل الإيمان.

وحاصله: من يترك الثقة بالآيات البينة المنزَّلة، بحسب المصالح التي من جملتها الآيات الناسخة التي هي خيرٌ محضٌ، وحقٌّ بحتٌ، واقترح غيرها ﴿فَقَدْ

---

(1) روح البيان.

ضَلَّ﴾؛ أي: عدل وجار من حيث لا يدري ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى، وتاه في تيه الهوى، وتردَّى في مهاوي الردى.

ومعنى ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: قصد الطريق السويّ، ووسطه الذي هو بين الغلوّ والتقصير وهو الحق، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: قد أخطأ الطريق المستوي؛ أي: المعتدل الحقَّ. وقرىء ﴿يُبْدِلْ﴾ من أبدل الرباعيِّ. وقد قرىء ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ بالإدغام، وبالإظهار في السبعة، والمعنى: ومن ترك الثقة بالآيات البينات المنزَّلة، وشكّ فيها، واقترح غيرها، فقد ضَلَّ الطريق المستوي حتى وقع في الكفر بعد الإيمان، وحاصل معنى الآية: لا تقترحوا فتضِلُّوا وسط السبيل وقصده، ويؤدِّي بكم إلى البعد عن المقصد، وتبديل الكفر بالإيمان.

وأكثر المفسرين[1]: على أنَّ سبب نزول الآية اليهود حين قالوا: يا محمد! ائتنا بكتاب من عند الله جملةً، كما جاء موسى بالتوارة جملةً، فنزلت هذه الآية كما قال في آية أخرى ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿جهرةً﴾ فالمخاطبون بقوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ هم اليهود، وإضافة الرسول إليهم في قوله: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ باعتبار أنّهم من أمة الدعوة، ومعنى تبدُّل الكفر بالإيمان، ترك صرف قدرتهم إليه مع تمكنهم من ذلك، وإيثارهم للكفر عليه. قال الإمام: وهذا القول أصحُّ؛ لأنَّ الآية مدنيَّةٌ؛ ولأنّ هذه السورة من أوّل قوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ حكايةٌ عنهم، ومحاجَّةٌ معهم، وفي الآية إشارة إلى حفظ الآداب، فمن لم يتأدَّب بين يدي مولاه، ورسوله، وخلفائه، فقد تعرَّض للكفر، وحقيقة الأدب: اجتماع خصال الخير، وعن النبي ﷺ قال: «حقُّ الولد على والده أن يحسن اسمه، ويحسن مرضعه، ويحسن أدبه، فإنّه مسؤولٌ عنه يوم القيامة، ومؤاخذٌ بالتقصير فيه». وسئل ابن سيرين: أيُّ الأدب أقرب إلى الله؟ فقال: معرفة ربوبيته، والعمل بطاعته، والحمد على السراء، والصبر على الضرّاء. انتهى كلامه. ﴿وَدَّ﴾ أي: تمنَّى وأحبَّ ﴿كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛

---

(١) روح البيان.

أي: من أحبار اليهود، ككعب بن الأشرف، وحيّي بن أخطب ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾؛ أي: أن يردّوكم أيها المؤمنون، فإنّ ﴿لَوْ﴾ من حروف المصادر، إذا جاء بعد فعلٍ يفهم منه معنى التمني، كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾؛ أي: ودّوا أن يصرفوكم عن التوحيد والإسلام ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين! بمحمد ﷺ، وبالقرآن ﴿كُفَّارًا﴾؛ أي: مرتدّين، حال من ضمير المخاطبين في ﴿يَرُدُّونَكُم﴾ ويحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً ليردُّونكم على تضمينه معنى يصيِّرونكم، وقوله: ﴿حَسَدًا﴾ علةٌ، لقوله: ﴿وَدَّ﴾ كأنَّه قيل: ودَّ كثير منهم ذلك من أجل الحسد، وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ يجوز أن يتعلَّق بودَّ على معنى: أنّهم تمنَّوا ارتدادكم من عند أنفسهم، وقِبَلِ شهوتهم وأهوائهم، لا من قِبَل التديُّنِ، والميل مع الحق، ولو على زعمهم؛ لأنّهم ودُّوا ذلك، فكيف يكون تمنّيهم من قبل الحق؟ ويجوز أن يتعلَّق بحسداً؛ أي: حسداً منبعثاً من أصل نفوسهم، بالغاً أقصى مراتبه، وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وعلموا في كتابهم التوارة، أنَّ ما جاء به محمدٌ ﷺ ودينه، ونعته، وصفته، هو الحقُّ لا يشكُّون فيه، فكفروا به حسداً وبغياً، متعلِّقٌ بقوله: ﴿وَدَّ﴾؛ أي: ودُّوا ذلك بعد ظهور الحق عندهم، وأولئك الكثير هم رهطٌ من أحبار اليهود. روي أنَّ فنحاص بن عازوراء، وزيد بن قيس، ونفراً من اليهود، قالوا لحذيفة بن اليمان، وعمّار بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ بعد وقعة أحد: ألم تروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا، فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلاً، فقال عمَّارٌ: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديدٌ، قال: فإنّي قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت، فقالت اليهود: أمَّا عمَّارٌ فقد صبأ؛ أي: خرج عن ديننا بحيث لا يرجى منه الرجوع إليه أبداً، فكيف أنت حذيفة؟ ألا تبايعنا؟ قال حذيفة: رضيت بالله ربّاً، وبمحمد نبيّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً، فقالوا: وإلٰه موسى، لقد أشرب في قلوبكما حبُّ محمد، ثُمَّ أتيا رسول الله ﷺ، وأخبراه، فقال: أصبتما خيراً، وأفلحتما، والمعنى أحبَّ وأراد كثيرٌ منهم ردَّكم عن دينكم من بعد إيمانكم، حالة كونكم كفاراً مرْتدين، من بعد ما ظهر لهم الحقُّ من

أجل حسدهم إيّاكم حسداً ناشئاً من قبل أنفسهم، وأهوائهم، لا بأمر الله إيّاهم بذلك، وأصل[1] الحسد: تمنّي زوال النعمة عمَّن يستحقُّها، ربّما يكون مع ذلك سعيٌ في إزالتها، والحسد مذمومٌ من الكبائر؛ لما رُوِي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «إياكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب» أخرجه أبو داود، فإذا أنعم الله على عبده نعمةً فتمنّى آخر زوالها عنه، فهذا هو الحسد، وهو حرامٌ، فإن استعان بتلك النعمة على الكفر والمعاصي، فتمّنى آخر زوالها عنه فليس بحسدٍ، ولا يحرم ذلك؛ لأنّه لم يحسده على تلك النعمة من حيث إنّها نعمةٌ، بل من حيث إنّه يتوصَّل بتلك النعمة إلى الشرِّ والفساد.

﴿فَٱعۡفُواْ﴾ واسمحوا عنهم أيها المؤمنون! إساءتهم، أي: اتركوهم، فلا تؤاخذوهم بهذه المقالة بالانتقام الفعلي، كالقتل والضرب ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾؛ أي: أعرضوا عنهم، فلا تلوموهم على أخلاقهم، وكلامهم السيء، ولا تقابلوهم بالانتقام القولي؛ أي: فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عمّا يكون منهم من الجهل، والعداوة. وأصل[2] العفو: ترك عقوبة المذنب، يقال: عفت الريح المنزل درسته، وعفا المنزل يعفو درس، ويتعدّى، ولا يتعدّى، ومن ترك المذنب، فكأنّه درس ذنبه من حيث إنّه ترك المكافأة والمجازاة، وذلك لا يستلزم الصفح، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ فإنّه قد يعفو الإنسان ولا يصفح. والصفح: ترك التقريع باللسان والاستقصاء، يقال: صفحت عن فلانٍ، إذ أعْرضْتَ عن ذنّبه بالكلية، وقد ضربت عنه وتركته، وليس المراد بالعفو والصفح المأمور بهما: الرضى بما فعلوا؛ لأنّ ذلك كفرٌ، والله تعالى لا يأمر به، بل المراد بهما: ترك المقاتلة والإعراض عن الجواب عن مساويّ كلامهم. انتهى من «الروح».

والفرق بين العفو والصفح: أنّ العفو: ترك عقوبة المذنب، والصفح: ترك

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

تقريعه ولومه بالكلام، فبينهما مغايرة، كذا ذكره البيضاوي، وفي «الصاوي»: أنّهما متحدان، ومعناهما: عدم المؤاخذة، ولم يؤمر النبي ﷺ بقتالهم، مع أنّهم ناقضون للعهد بتلك المقالة؛ لأنَّ الواقعة كانت بعد غزوة أحد، فكان الإذن في القتال حاصلاً، فالجواب: أنَّ القتال المأذون فيه كان للمشركين، وأمّا أهل الكتاب، فلم يؤمروا بقتالهم إلاّ في غزوة الأحزاب، قيل: قبلها، وقيل: بعدها، فقتَلَ بني قريظة، وأجلَىٰ بني النضير، وغزا خيبر. وقال ابن كثير[1]: عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وبقوله: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ فنسخ هذا عفوه عن المشركين، وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة والسدي: إنّها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فيهم؛ أي: فاعفوا واصفحوا عنهم حتى يبيِّن الله سبحانه حكمه فيهم؛ أي: بقتل قريظة، وسبيهم، وإجلاء بني النضير، وإذلالهم، بضرب الجزية عليهم، أو بإذنه في القتال.

والمعنى[2]: حتى يحكم الله بحكمه الذي هو الإذن في قتالهم، وضرب الجزية عليهم، أو قتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير. روي أنَّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ استأذنوا رسول الله ﷺ، في أن يقتلوا هؤلاء اليهود الذين كفروا بأنفسهم، ودعوا المسلمين إلى الكفر، فنزلت الآية بترك القتال، والإعراض عن المكافأة إلى أن يجيء الإذن من الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم بالقتل والإجلاء، وينتقم منهم إذا جاء أوانه، ففيه وعيدٌ وتهديدٌ لهم. والمعنى: أنّه تعالى قويٌّ قادرٌ على كل شيء، إن شاء انتقم منهم، وإن شاء هداهم. له الخلق والأمر. ولمّا أمر الله سبحانه وتعالى، المؤمنين بالعفو والصفح عن اليهود، أمرهم بما فيه صلاحُ أنفسهم من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، الواجبتين، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

---

(١) ابن كثير.
(٢) روح البيان.

أي: أدُّوا الصلاة المفروضة عليكم بشروطها وأركانها، وادفعوا زكاة أموالكم عن طيب نفسٍ منكم إلى مصارفها، فهو معطوف على قوله: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ كأنّه أمرهم بالصبر والمخالفة، واللجوء إلى الله تعالى بالعبادة والبرِّ، فالمراد: الأمر بملازمة طاعة الله تعالى من الفرائض، والواجبات، والتطوّعات، بقرينة قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾ و﴿مَا﴾ شرطية؛ أي: أيَّ شيء تفعلوه، وتسلفوه (لـ) مصلحة ﴿أنفسكم من خير﴾؛ أي: عملٍ صالحٍ، كصلاة، وصدقة، وصيام، لمصلحة أنفسكم ﴿تَجِدُوهُ﴾؛ أي: تجدوا ثوابه وجزاءه لا عينه؛ لأنَّ عين تلك الأعمال لا تبقى؛ ولأنَّ وجدان عينها لا يرغب فيه؛ أي: تجدوه مدَّخراً لكم ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ سبحانه وتعالى، محفوظاً عنده في الآخرة، فتجدوا التمرة واللُّقمة فيها مثل أُحُدٍ، فالخير المذكور في الآية يتناول[1] أعمال البر كُلَّها، إلاّ أنّه تعالى خصَّ من بينها إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، بالذكر؛ تنبيهاً على عظم شأنهما، وعلوِّ قدرهما عند الله تعالى، فإنَّ الصلاة قربةٌ بدنيةٌ، ليكون عمل كل عضوٍ شكراً لما أنعم الله عليه في ذلك، والزكاة قربةٌ مالية، ليكون شكراً للأغنياء الذين فضَّلهم الله في الدنيا بالاستمتاع بلذيذ العيش؛ بسبب سعتهم في صنوف الأموال. وقرىء ﴿تُقْدِمُوا﴾ من أقدم الرباعي. ذكره البيضاوي، ولفظ التقديم في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المقصود الأصليَّ، والحكمة الكلية في جميع ما أنعم الله تعالى به على المكلفين في الدنيا، أن يقدّموه إلى معادهم، ويدَّخروه ليومهم الآجل، كما جاء في الحديث: «إنّ العبد إذا مات قال الناس: ما خلَّف، وقالت الملائكة ما قدَّم» وما أحسن قول بعضهم:

سَابِقْ إلى الخير وبَادِر به ... فإنَّما خَلْفَكَ ما تَعْلَمُ
وقدِّمَ الخَيْرَ فكُلُّ امرىءٍ ... عَلَى الَّذي قدَّمَهُ يَقْدُمُ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الخيرات، وما تنفقون من الصدقات ﴿بَصِيرٞ﴾؛ أي: عليم بنياتكم، لا يخفى عليه شيء من قليل الأعمال

---

(١) روح البيان.

وكثيرها، ولا يضيع عنده عمل عامل، ففيه ترغيبٌ في الطاعات، وأعمال البرّ، وزجرٌ عن المعاصي؛ أي: فالعمل المذكور في الآية، غير مقيَّد بالخير، أو الشرِّ، فهو عام شامل للترغيب والترهيب، فالترغيب من حيث إنّه يدلُّ على أنّه تعالى يجازي علىٰ القليل من الخير، كما يجازي على الكثير منه، والترهيب من حيث إنّه يجازي على القليل من الشرّ والكثير منه أيضاً، فلا يضيع عنده عمل عامل خيراً أو شرّاً. وقرىء ﴿يعملون﴾ بالياء، فيكون وعيداً. ذكره البيضاوي.

وعن عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنّه مرَّ ببقيع الغرقد، فقال: (السلام عليكم أهل القبور أخبار ما عندنا، إنَّ نساءكم قد تزوَّجْنَ، ودوركم قد سكنت، وأموالكم قد قسمت، فأجابه هاتفٌ: يا ابن الخطاب! أخبار ما عندنا: إنّ ما قدَّمناه وجدناه، وما أنفقناه فقد ربحناه، وما خلَّفناه فقد خسرناه). ولقد أحسن هذا القائل:

قَدِّم لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَوْتِك صَالِحاً   واعْمَلْ فَلَيْسَ إلَى الخُلُودِ سَبِيلُ

ومن مواعظ عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ أنّه كان إذا دخل المقبرة قال: (السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة، والمحالِّ المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات، ثُمَّ قال: أمّا المنازل فقد سكنت، وأمّا الأموال فقد قسمت، وأمّا الأزواج فقد نكحت، فهذا خبر ما عندنا، فليت شعري ما عندكم، والذي نفسي بيده، لو أنَّ لهم في الكلام لقالوا: إنّ خير الزاد التقوى) وفي الحديث الصحيح «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له» والأوّل يشمل بناء المساجد، ومعاهد العلم، والمستشفيات، والملاجىء، والأَحْبَاسَ على المُعْوزِينَ والمحتاجين، والثاني: يَنْضَوِي تحته ما يُخْلِفهُ الإنسان من تصنيف علمٍ، أو تَعليمٍ للعلوم الدينية، وما يحتاج إليه في تعلُّمِها، كالنحو، والصرف، وما كان آلة لها، وقيَّد الولد بكونه صالحاً؛ لأنَّ الأجر لا يحصل من غيره، وأمّا الوزر، فلا يلحق الأب سيئة ابنه إذا كانت نيّته في تحصيله الخَيْرَ، وإنَّما ذكر الدعاء له؛ تحريضاً للولد على الدعاء لأبيه، لا لأنَّه قيدٌ؛ لأنَّ الأجر يحصل للوالد بولدِهِ الصالح كُلّما عمل عملاً صالحاً، سواء

دعا لأبيه، أم لا، كمن غرس شجرة يحصل له مِن أكْلِ ثمرتها ثوابٌ، سواء دعا له مَنْ أكَلَها، أم لم يدع، وكذلك الأمُّ ﴿وَقَالُوا۟﴾ معطوف[1] على ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والضمير لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتقدّم لك في الأسباب: أنَّ هذه المحاورة وقعت بين يهود المدينة ونصارى نجران، حينما اجتمعوا عند رسول الله ﷺ ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ لم يقل كانوا؛ حملاً للاسم على لفظ من، وجمع الخبر؛ حملاً على معناه، واليهود: جمع هائدٍ، اسم فاعل من هاد إذا تاب، نظير قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ وكأنَّه في الأصل: اسم مدح لمن تاب من عبادة العجل، ثمّ صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لجماعتهم، كالعَلَم لهم، والنصارى: جمع نصران كسكران، والمعنى: أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلاّ من كان يهودياً، ولا دين إلاّ دين اليهودية، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلاّ من كان نصرانياً، ولا دين إلاّ دين النصرانية، و﴿أَوْ﴾ هنا للتفصيل.

وقدّمت اليهود على النصارى[2]؛ لفظاً لتقدّمهم زماناً ﴿تِلْكَ﴾ المقالة الباطلة وهي: أنّ الجنة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً أو نصارى. ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ أي: متمنّياتهم الكاذبة التي تمنّوها من الله من غير حجة ولا برهان، وشهواتهم الباطلة التي لا أصل لها، وخيالاتهم العاطلة التي لا وجود لها، والأمانيُّ: جمع أمنيَّةٍ أفعولةٌ من التَّمنِّي وهي: ما يتمنَّى، كالأضحوكة، والأعجوبة، والتَّمنِّي: التشهِّي، والعرب تُسمِّي الكلام العاري عن الحجة تمنِّياً، وغروراً، وضلالاً، وأحلاماً مجازاً، وجمع[3] الأمانيّ باعتبار صدورها عن الجميع من اليهود والنصارى، وعبارة «الصاوي» هنا: وإنّما جمع الخبر مع كون المبتدأ مفرداً؛ لأنّه في المعنى جمعٌ؛ لأنّه عائد على القولة، وهي بمعنى: المقالات باعتبار القائلين. اهـ.

---

(١) البيضاوي.

(٢) كرخي.

(٣) روح البيان.

ثُمّ أومأ الله سبحانه إلى بطلان مقالاتهم بقوله لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد! لهؤلاء الحَمْقى المتقاولين ﴿هَاتُواْ﴾؛ أي: أحضروا، وقرِّبوا، وهو أمرٌ تعجّبيٌّ ﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ أي: حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة، ولم يقل براهينكم؛ لأنَّ الدعوى كانت واحدة وهي: نفي دخول غيرهم الجنّة، والحجة على تلك الدعوى واحدة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مقالتكم هذه، فإنَّ كُلَّ قولٍ لا دليل عليه غير ثابت ﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما نفوه من دخول غيرهم الجنّة؛ لأنَّ بلى لإثبات النفي؛ أي: يدخلها غيركم، وعبارة «الروح»: اعلم أنَّ قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ...﴾ إلخ. مشتملٌ على إيجاب ونفي، أمّا الإيجاب: فهو أن يدخل الجنّة اليهود والنصارى، وأمّا النفي: فهو أن لا يدخل الجنة غيرهم، فقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه في كلامهم، فكأنّهم قالوا: لا يدخل الجنة غيرنا، فأجيبوا بقوله: بلى يدخل الجنة غيركم، وليس الأمر كما تزعمون ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ وبذل ﴿وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: نفسه (لـ)طاعة ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وأخلص إيمانه لا يشرك به شيئاً، وانقاد لأمره، وأخلص عبادته من شوائب الرياء والسمعة، فإنَّ إسلام[1] شيءٍ لشيٍ جعله سالماً بأن لا يكون لأحد حقٌّ فيه، لا من حيث التخليق والمالكية، ولا من حيث استحقاق العبادة والتعظيم، عبَّر عنها بالوجه؛ لكونه أشرف الأعضاء من حيث إنَّه معدن الحواس، والفكر، والتخيُّل، فهو مجاز من باب ذكر الجزء، وإرادة الكل، ومنهم قولهم: كرَّم الله وجهك، ويحتمل أن يكون إخلاص الوجه كنايةً عن إخلاص الذات؛ لأنَّ من جاد بوجهه لا يبخل بشيء من جوارحه، ويكون الوجه بمعنى العضو المخصوص، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ حالٌ من ضمير ﴿أَسْلَمَ﴾؛ أي: وهو مع إخلاصه وتسليم النفس إلى الله بالكلية بالخضوع والانقياد، محسنٌ في جميع أعماله، بأن يعملها على وجهةٍ يستصوبها، فإنَّ إخلاصها لله لا يستلزم كونها مستحسنة بحسب الشرع، وحقيقة الإحسان: الإتيان بالعمل على الوجه اللائق، وهو حسنه الوصفيُّ التابع لحسنه الذاتيِّ، وقد فسره ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنّك تراه، وإن لم تكن تراه فإنّه يراك» وهذا

---

(١) روح البيان.

المعنى حقيقة الإيمان، وظاهره الإحسان، وأمَّا باطنه، فمرتبةُ، كنتُ سمعه وبصره؛ أي: بلى يدخل الجنة غيركم؛ لأنّه من أَسْلَمَ وَجْهَه لله سبحانه، وهو محسن؛ أي: موحِّد مصدِّق بما جاء به محمد ﷺ ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية؛ أي: فلذلك المسلم المحسن ثوابه، وأجره على انقياده الظاهريِّ، وتصديقه الباطنيِّ: أي: ثوابه الذي وعد له على عمله، وهو عبارةٌ عن دخول الجنّة، وتصويره[1] بصورة الأجر؛ للإيذان بقوّة ارتباطه بالعمل، واستحالة نيله بدونه حال كون ذلك الأجر ثابتاً مدَّخراً له ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ومالك أمره، ومدبِّر شؤونه، ومبلِّغه إلى كماله، لا يضيع ولا ينقص؛ والعندية للتشريف، والجملة جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، كما مرّ آنفاً إن كانت شرطيّة، وخبرها إن كانت موصولة، والفاء حينئذٍ؛ لتضمنها معنى الشرط، وعبارة «الخازن» هنا: وإنّما خصَّ الوجه بالذكر؛ لأنّه أشرف الأعضاء، وإذا جاد الإنسان بوضع وجهه على الأرض في السجود، فقد جاد بجميع أعضائه، قال عمرو بن نفيل:

وأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الأرضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالاَ
وأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلاَلاَ

يعني بذلك: استسلمت لطاعته الأرض والمزن ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة بالخلود في النار، أمَّا في الدنيا، فالمؤمنون أشدُّ خوفاً وحزناً من غيرهم من أجل خوفهم من العاقبة، فإنَّهم يخافون من أن يصيبهم الشدائد، والأهوال العظام قُدَّامَهم، ويحزنون على ما فاتهم من الأعمال، والطاعات، المؤدِّية إلى الفوز بأنواع السعادات، فإنَّ المؤمن، كما لا يقنط من رحمة الله، لا يأمن من غضبه وعقابه، كما قيل: لا يجتمع خوفان ولا أمنان، فمن خاف في الدنيا أمن في الآخرة حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر، وتفويت الثواب، فإنَّ الخوف إنّما يكون مما يتوقَّع في المستقبل، كما أنَّ الحزن على ما وقع سابقاً، ومن أَمِنَ في الدنيا خاف في الآخرة. . . وجمع الضمير هنا؛

---

(١) روح البيان.

اعتباراً لمعنًى مِن ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا في الدنيا، والمعنى: أي: إنّ[1] الذين أسلموا وجوههم لله، وأحسنوا العمل، لا تُساوِرُ نفوسَهم مخاوفُ، ولا أحزانٌ، كما تختلج صدور الذين أشرب قلوبهم حبُّ الوثنية، وأعرضوا عن الهداية، إذ من طبيعة المؤمن أنّه إذا أصابه مكروهٌ بحث عن سببه، واجتهد في تلاوته، فإن لم يمكنه دفعه، فوَّض أمره إلى ربه، ولم يضطرب، ولم تهن له عزيمةٌ، علماً منه بأنَّه قد ركن إلى القوة القادرة على دفع كُلِّ مكروه. وتوكَّل على من بيده دفع كُلِّ محظور.

أمَّا عابدوا الأوثان والأصنام، فهم في خوف مما يستقبلهم، وحزن مما ينزل بهم، فإذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، داخلهم الهلع، ولم يستطيعوا صبراً على البأساء، وهم يَسْتَخْذُون للدجَّالين، والمُشَعْوِذين، ويعتقدون سَلْطَنةً غيبيَّة لكل من يعمل عملاً لا يهتدون إلى معرفة سببه. والآية[2] ترشد إلى أنَّ الإيمان الخالص لا يكفي وحده للنجاة، بل لا بدّ أن يقرن بإحسان العمل، وقد جَرَتْ سنة القرآن، إذا ذكر الإيمان أردفه عمل الصالحات، كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ ثُمَّ ذكر مقال كلٍ من الفريقين في الآخرة بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ...﴾ إلخ. بيان لتضليل كل فريق من اليهود والنصارى صاحبه بخصوصه، إثر بيان تضليله كُلَّ من عداه على وجه العموم؛ أي: وقالت اليهود ﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ في دينهم ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ أي: على أمر يصحُّ، ويعتدُّ به عند الله؛ أي: ليسوا على صواب، فكفروا بعيسى ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ في دينهم ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ أي: على أمر يصحُّ، ويعتدُّ به عند الله تعالى، أي: ليسوا على صواب، فكفروا بموسى، وهذه المقالة منهما أصدق مقالةٍ قالتها اليهود والنصارى، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

﴿ٱلْكِتَٰبَۗ﴾ حال من فاعل قالوا؛ أي: قال كُلٌّ[1] من الفريقين ما قالوا، والحال أن كُلاً من الفريقين يقرؤون الكتاب المنزَّل عليهم من التوراة والإنجيل، ويقولون: ما ليس فيه، فكان حقُّ كُلِّ فريق منهم أن يعترف بحقيقة دين صاحبه حسبما ينطق كتابه، فإنّ كتب الله تعالى متصادقةٌ، واللام في ﴿ٱلْكِتَٰبَۗ﴾ للجنس؛ أي: قالوا ذلك، وهم من أهل العلم والكتاب، والتلاوة للكتب، فحقُّ من تلا كتاباً من كتب الله تعالى، وآمن به، أن لا يكفر بالباقي؛ لأنّ كل واحد من كتب الله يصدِّق ما عداه، وليس في كتابهم هذا الاختلاف، فدلَّت تلاوتهم الكتاب، ومخالفتهم لما فيه على كفرهم، وكونهم على الباطل ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك القول الذي قالته اليهود والنصارى بعينه، لا قولاً مغايراً له، أي: مثل ذلك القول الذي سمعته من هؤلاء الضالَّة، على أنَّ الكاف في موضع النصب على أنّه مفعول، قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كتاب الله، من عبدة الأصنام، والمعطّلة، ونحوهم من الجهلة؛ أي: قال المشركون من العرب، وغيرهم ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ﴾؛ أي: مثل قول اليهود والنصارى، فهذا تأكيدٌ وبيانٌ لمعنى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: قالت الجهلة الذين لا علم عندهم، ولا كتاب، من عبدة الأوثان، والمعطّلة، مثل قول اليهود والنصارى؛ أي: قالوا لأهل كل دين ليسوا على شيء ودينٍ صحيحٍ؛ أي: قالوا ليست اليهود ولا النصارى على شيء، ولا محمدٌ ﷺ على شيء، بل كلُّهم على أباطيل مفترياتٍ، فالغرض من ذلك تسلية رسول الله ﷺ على ما وقع من المشركين، فإنَّ اليهود والنصارى كفروا وضلُّوا مع علمهم بالحق، فكيف بمن لا علم عنده؟! فلا تَسْتَغْرِبْ ذلك منهم، وقوله: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ﴾ بدلٌ من محل الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وفيه توبيخٌ عظيمٌ، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم أصلاً.

﴿فَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحْكُمُ﴾ ويَفْصِلُ، ويقضى ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين هؤلاء الفرق الثلاثة، وغيرهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يوم الجزاء، سُمِّي يوم القيامة؛ لأنّه يوم يقوم الناس فيه لربّ العالمين ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ﴾ متعلِّقٌ بيختلفون، قدم عليه؛ للمحافظة على رؤوس الآي؛ أي: يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا

---

(١) روح البيان.

﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه من أمر الدين، فيقسم لكل فريق منهم من العقاب ما يستحقُّه، ويليق به. وقال الحسن؛ أي: فالله يكذبهم جميعاً، ويدخلهم النار.

وقيل[1]: معنى ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين الفرق المذكورة اليهود، والنصارى، ومشركي العرب، ومن أسلم وجهه لله وهو محسن، فيُدْخِل المحقَّ الجنة، والمبطل النار، وهذا المعنى الذي يقتضيه السياق؛ أي: فهو العليم بما عليه كُلُّ فريق من حقٍّ وباطل، فَيُحِقّ الحقَّ، ويجعل أهله في النعيم، ويبطل الباطل، ويُلْقيَ أهلَه في سواء الجحيم. وفِعْلُ الحُكْم يتعدَّى بجارّين، الباء، وفي، كما يقال: حكم الحاكم في هذه القضية بكذا، وفي الآية قد ذكر المحكوم فيه دون المحكوم به. واعلم أنَّ كُلَّ حزب بما لديهم فرحون، وليس ذلك في الفرق الضالة خاصَّةً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ﴿مَنْ﴾ للاستفهام الإنكاري المضَمَّن للنفي، مبتدأ، و﴿أظلم﴾ خبره، أي: وأيُّ امرىءٍ أشدُّ ظلماً وتعدِّياً على الله تعالى ﴿مِمَّن مَّنَعَ﴾؛ أي: من امرىءٍ منع ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾؟ والمراد بالمساجد: بيت المقدس، والمسجد الحرام، على الخلاف في سبب النزول، كما سيأتي، وصيغة الجمع؛ لكون حكم الآية عامًّا لكل من فعل ذلك في أيِّ مسجد كان، كما تقول: لمن - آذى صالحاً واحداً، ومن أظلم ممَّن آذى الصالحين؛ لأنّه لا عبرة بخصوص السبب، كما هو القاعدة في الأسباب، وقوله: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ثاني مفعولَيْ مَنَع، فإنَّه يقتضي ممنوعاً وممنوعاً عنه، فتارةً يتعدى إليهما بنفسه، كما في قَوْلِك: مَنَعْتُه الأمر، وتارة يتعدى إلى الأول بنفسه، وإلى الثاني بحرف الجرّ، وهو كلمة عن، أو من مذكورةً كانت كما في قولك: منعته من الأمر، أو محذوفةً، كما في الآية؛ أي: من أن يسبَّح ويقدَّس ويصلَّى له فيها ﴿وَسَعَىٰ﴾؛ أي: عمل واجتهد ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾ بالهدم، والخراب: اسم مصدرٍ للتخريب، كالسلام للتسليم، وأصله: الثَّلْمُ والتفريقُ؛ أي: لا أحد من المانعين عن الخيرات أشدُّ ظلماً وتعدياً على الله سبحانه ممن منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه،

---

(١) الصاوي.

بالصلاة، والتسبيح، والأذان، ومدارسة العلوم الدينية، وتدريسها من التفسير، والحديث، والفقه، والتوحيد، وما يحتاج إليه فيها من علوم القواعد العربية، كالنحو، والصرف، والبلاغة، فهذا المانع أشدُّ ظلماً، وأقبح جرماً، لما فيه من الجراءة على الله، وقطع دينه، ومعاداته، فإنَّ الاشتغال بالعلم من أفضل الطاعات، وأولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات؛ أي: لا أحد أظلم ممن منع الناس أن يعبدوا الله تعالى في المساجد، بالصلاة، والأذكار، وغيرها، بغلقها، وتعطيلها عن العبادة، ومنع الوصول إليها، كما فعل المشركون حين صدُّوا النبيَّ ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن البيت عام ستٍّ من الهجرة ﴿وَسَعَىٰ﴾؛ أي: عمل واجتهد ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾ أي: في أسباب تخريبها بالهدم، وإلقاء الجيف، والقاذورات فيها، قال قتادة: أولئك أعداء الله النصارى خرَّبوا بيت المقدس.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (أنَّ فَلَيْطَيُوسَ الرُّوميّ مَلِكَ النصارى، وأصحابَهُ غزوا بني إسرائيل، فقتلوا مقاتلتهم، وسَبَوْا ذرارِيَّهم، وأحرقوا التوراة، وخرَّبوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف، وذبحوا فيه الخنازير، ولم يزل خراباً حتى بناه المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ) وذلك لمَّا استولى عُمر رضي الله عنه على ولاية كِسرى، وغنم أموالَهم، عَمَّر بها بَيْتَ المقدس، ثم صار في أيدي النصارى من الإفرنج أكثر من مائة سنة، حتى فتحه، واستخلصه من أيديهم، الملك الناصر صلاح الدين من آل أيوب، سنة خمسمائة وخمس وثمانين بعد الهجرة. وقيل: نزلت الآية في مشركي العرب الذين منعوا رسول الله عن الدعاء إلى الله تعالى بمكة، وألجؤوه إلى الهجرة، فصاروا بذلك مانعين له ﷺ، ولأصحابه أن يذكروا اسم الله في المسجد الحرام، وأيضاً: أنّهم صدُّوا رسول الله ﷺ، وأصحابه عن المسجد الحرام حين ذهب إليه من المدينة عام الحديبية، وهي السنة السادسة من الهجرة، والحديبية: موضعٌ على طريق مكة، فعلى هذا يكون المسجد الذي نزلت الآية فيه المسجد الحرام، فالمراد بالخراب في قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ تعطيلهم المسجد الحرام عن الذكر والعبادة، دون تخريبه وهدمه حقيقةً، ويجعل تعطيل المسجد عنهما تخريباً؛ لأنَّ المقصود من بنائه إنما هو الذكرُ والعبادةُ فيه، فما دام لم يترتَّب عليه هذا

المقصود من بنائه صار كأنه هُدِّم وخُرِّب، أو لم يُبْنَ من أصله، فإنَّ عمارة المسجد كما تكون ببنائه، وإصلاحه، تكون أيضاً بحضوره، ولزومه، يقال: فلان يعمر مسجد فلانٍ، إذا كان يحضره ويلزمه، ويقال لسكان السموات من الملائكة: عُمَّارها. وفي الحديث: عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان» وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ فجعل حضور المساجد عمارةً لها، وعن عليٍّ - رضي الله عنه - (سِتٌّ من المروءة: ثلاثٌ في الحضر، وثلاثٌ في السفر، فأمَّا اللاَّتي في الحضر فتلاوة كتاب الله، وعمارة مساجد الله، واتخاذ الإخوان في الله، وأمَّا اللاتي في السفر فبذل الزاد، وحسن الخلق، والمزاح في غير معاصي الله). وعدَّ من علامات الساعة: تطويل المنارات، وتنقيش المساجد، وتزيينها، وتخريبها عن ذكر الله تعالى، فتعطيل المساجد عن الصلاة والتلاوة، وإظهار شعائر الإسلام، أقبح سيئةٍ لا سيَّما إذا اقترن بفتح أبواب بيوت الخمر، وإغلاق أبواب المكاتب، وغير ذلك، ولقد شوهد في أكثر البلاد الروميَّة، وغيرها في هذا الزمان، فلنبك على غربة الدين أيها الإخوان، فيا لها مصيبةً، أيَّ مصيبة؟! إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

فإن قلت: إنّ هذه الآية تقتضي: أنَّ من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، لا يساويه أحدٌ في الظلم، فهي تعارض مع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ومع قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ المقتضي كُلُّ آيةٍ منها بأنّه لا أحد أظلم ممن ذكر فيها؟

قلت: إنّ معنى المفاضلة في كل منها يعتبر بالنظر إلى صلته، فكأنّه قال: لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولاأحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد من الكذابين أظلم ممن كذب على الله سبحانه وتعالى، وهكذا كُلُّ ما جاء من أمثالها، وقد يجاب عنه بأجوبة أخرى، فليرجع إليها في المطولات.

فإن قلتَ: إنّ[1] الممنوعَ بَيْتُ المقدس على قول، أو المسجد الحرام على قول آخر، فكيف التعبير بالجمع هنا؟

أجيب عنه: بأنَّ من خرَّب مسجداً من هذين، فكأنّما خرَّب مساجد كثيرة بالقوَّة؛ لأنَّهما أفضل المساجد، وغيرهما تبعٌ لهما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المانعون الذين يسعون في تخريب بيوت الله ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾؛ أي: أن يدخلوا المساجد ﴿إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ من المسلمين أن يبطشوا بهم فضلاً عن أن يمنعوهم منها، وهذا الحكم عامٌّ لكل من فعل ذلك في أيِّ مسجدٍ كان ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المانعين ﴿فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ أي: هوان بالقتل، والسبي، وضرب الجزية عليهم ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديدٌ أشدَّ مما لهم في الدنيا؛ بسبب كفرهم، وظلمهم، وهو عذاب النار.

الإعراب

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدّم وجوباً؛ لأنّه من أسماء الشروط لننسخ ﴿نَنسَخْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بما الشرطية ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لاسم الشرط، واسم الشرط ليس معرفة، فلا يجوز أن يكون الجار والمجرور حالاً منه، والتقدير: أي شيء كائناً من الآيات ننسخه، فهو مفردٌ وقع موقع الجمع، وهذا مطردٌ بعد الشرط؛ لما فيه من معنى العموم، وعلى هذا يخرَّج كُلُّ ما جاء من هذا التركيب، كقوله: ما يفتح الله للناس من رحمة وما بكم من نعمة فمن الله، وأجاز بعضهم أن تكون من آية في موضع نصب على التمييز والمُميَّز ﴿مَا﴾ وليس ببعيدٍ أيضاً، وأعربها ابن هشام في موضع نصب على الحال، وليس ببعيدٍ أيضاً ﴿أَوْ﴾ حرف

(١) العمدة.

عطف وتنويع ﴿نُنسِهَا﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به معطوفٌ على نسخ مجزومٌ بما الشرطية على كونه فعل الشرط، وعلامة جزمه سكون الهمزة المحذوفة للتخفيف، والأصل: ننسئها؛ أي: نرجئها، أو سكونٌ ظاهر على الهمزة على قراءة ﴿نَنسَأها﴾. ﴿نَأْتِ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بما الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهي الياء؛ لأنّه من أتى يأتي، وجملة ﴿مَا﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب ﴿بِخَيْرٍ﴾ جار ومجرور متعلق بنأت ﴿مِّنْهَآ﴾ جار ومجرور متعلق بخير، لأنّه اسم تفضيل، ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أَوْ حرف عطف وتفصيل ﴿مثل﴾ معطوف على خير وهو مضاف، والهاء مضاف إليه. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري ﴿لم﴾ حرف نفي وجزم ﴿تَعْلَمْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ مجزوم بلم، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقدير، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر أنّ المفتوحة، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر سادّ مسدَّ مفعولَيْ علم؛ أي: ألم تعلم كون الله قادراً على كلّ شيء.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري ﴿لم تعلم﴾ جازم وفعل مجزوم وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخّر ومضاف إليه ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على السموات، والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر أَنَّ وجملة أَنَّ من اسمها وخبرها سادة مسد مفعولي ﴿تَعْلَمْ﴾. ﴿وَمَا لَكُم﴾ الواو عاطفة مَا نافية لَكُم جار ومجرور خبر مقدّم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، أو متعلق بمحذوف حال من قوله: ﴿وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. ﴿مِن﴾ زائدة ﴿وَلِىٍّ﴾ مبتدأ مؤخّر ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على ﴿وَلِىٍّ﴾، والتقدير: وما وليّ ولا نصير كائنان لكم من دون الله، أو حالة كونهما كائنين من دون الله، والجملة من المبتدأ والخبر في

محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية، والهمزة الاستفهامية أعني: الإضراب الانتقالي ـ؛ أي: الانتقال من قصّة إلى أخرى، ولم تجعل متّصلة؛ لفقد شرطها وهو تقدم همزة الاستفهام، أو التسوية ﴿تُرِيدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿تَسْـَٔلُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بأن ﴿رَسُولَكُمْ﴾ مفعول أوّل ومضاف إليه، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: إنزال الكتاب جملةً، أو الإتيان بالله والملائكة قبيلاً، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية و﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعوليَّة لتريدون، تقديره: بل أتريدون سؤال رسولكم محمدٍ ﷺ إنزال الكتاب جملةً مثلاً ﴿كَمَا سُئِلَ﴾ الكاف حرف جرّ وتشبيه ﴿مَا﴾ مصدرية ﴿سُئِلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة ﴿مُوسَىٰ﴾ نائب فاعل، وهو المفعول الأول لسئل، والثاني محذوف، تقديره: رؤية الربّ جهرةً ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلّق بسئل، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، و﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كسؤال أسلافكم موسى رؤية الربّ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف، تقديره: أم تريدون أن تسألوا رسولكم سؤالاً كائناً، كسؤال أسلافكم موسى عليه السلام، ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ﴾ الواو استئنافية ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، والأول أصحُّ ﴿يَتَبَدَّلِ﴾ فعل مضارع مجزوم بِمَنْ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ مفعول به ﴿بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ جار ومجرور متعلق بيتبدل، وهو المتروك ﴿فَقَدْ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقترانه بقد ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿ضَلَّ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿سَوَآءَ﴾ مفعول به على التوسُّع، وهو مضاف ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ مضاف إليه وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: السبيل المستوي، والجملة الفعلية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة

استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه صفة لكثير ﴿لَوْ﴾ حرف مصدر ﴿يَرُدُّونَكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أوّل مرفوع بثبات النون ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بيردّون ﴿كُفَّارًا﴾ مفعول ثان ليردّونكم؛ لأنّه من أفعال التصيير، والجملة الفعلية صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية، و﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لودَّ؛ تقديره: ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب ردَّكم كفاراً من بعد إيمانكم ﴿حَسَدًا﴾ مفعولٌ لأجله منصوب بودَّ ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلّق بمحذوف صفةٍ لحسداً، تقديره: حسداً كائناً من عند أنفسهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور متعلّق بودَّ ﴿ما﴾ مصدرية ﴿تَبَيَّنَ﴾ فعل ماض ﴿لَهُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد تبيُّن الحق، وظهوره لهم ﴿فَٱعْفُوا۟﴾ الفاء فاء الفصيحة، مبنيةٌ على الفتح، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حسدهم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم، فأقول لكم ﴿اعْفُوا﴾ فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والجملة في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة ﴿وَٱصْفَحُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿فَٱعْفُوا۟﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية بمعنى إلى ﴿يَأْتِىَ﴾ فعل مضارع منصوب بأنْ مضمرة بعد حتى (ولفظ الجلالة) فاعل ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلّق بيأتي، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، تقديره: إلى إتيان الله بأمره، الجار والمجرور تنازع فيه كُلٌّ من الفعلين، فاعفوا واصفحوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلّق بقدير، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة؛ مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿فَٱعْفُوا۟﴾. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ﴾ معطوف على ﴿فَٱعْفُوا۟﴾.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية ﴿مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدّم وجوباً ﴿تُقَدِّمُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بها على كونه فعل الشرط ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتقدّموا ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لاسم الشرط، تقديره: أيَّ شيء كائناً من خيرٍ تقدِّموه لأنفسكم، أو حال من اسم الشرط، ولكنَّه ضعيفٌ، كما مرّ في نظيره ﴿تَجِدُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بما على كونه جواب الشرط ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من المفعول، ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: تجدوا ثوابه حال كونه مدّخراً عند الله، أو متعلق بتجدوا، وجملة ﴿مَا﴾ الشرطيّة مع معموليها مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق ببصير ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل صلة لما إن قلنا: إنها موصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما تعملونه، ويصحّ كونها مصدرية؛ أي: بعملكم و﴿بَصِيرٌ﴾ خبر إنّ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مع معموليها مستأنفة؛ مسوقة لتعليل ما قبلها، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ الواو عاطفة ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والضمير لأهل الكتاب ﴿لَن يَدْخُلَ﴾ ناصب ومنصوب ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ مفعول به على السعة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرَّغ ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر، تقديره: هو يعود على ﴿مَن﴾، ﴿هُودًا﴾ خبرها منصوب ﴿أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ معطوف على ﴿هُودًا﴾، والجملة صلة لِمَنْ الموصولة ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة الإسمية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الدعوى، وهي قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، ودليلها وهو قوله: ﴿قُلْ...﴾ إلخ. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿هَاتُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل ﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾ مفعول به، والجملة مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فعل

ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم، وجملة الشرط مع جوابه في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لإثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، وهو الأصحّ، أو الجواب، أو هما، كما مرّ مراراً ﴿أَسْلَمَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بمن على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿وَجْهَهُۥ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بأسلم، ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿أَسْلَمَ﴾. ﴿فَلَهُۥٓ﴾ الفاء رابطة لجواب مَنْ الشرطية وجوباً ﴿له﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿أَجْرُهُۥ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الإسمية في محل الجزم بمن على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مع معموليها جملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف حال من أجره؛ أي: فله أجره حال كونه مدّخراً له عند ربّه ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية؛ مهملة لتكرّرها ﴿خَوْفٌ﴾ مبتدأ، وسَوَّغَ الابتداء بالنكرة، تقدُّمُ النفي عليه ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ على كونها جواب الشرط لمن، تقديره: بلى من أسلم وجهه لله فلا خوف عليهم ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية مهملة ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ﴾ الواو استئنافية ﴿قالت اليهود﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة؛ مسوقة لبيان حالة من حالات جهالتهم المتأصّلة في نفوسهم ﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ جار ومجرور خبره، وجملة ليس في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قالت

اليهود﴾ ﴿لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ خبره، وجملة ليس في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾ ﴿وَهُمْ﴾ الواو حالية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب حال من اليهود والنصارى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف منصوب بقال الآتي، مقدّم عليه؛ لإفادة الحصر، تقديره: قولاً كائناً، كقول اليهود والنصارى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ومفعول العلم محذوف، تقديره: لا يعلمون شيئاً من المعلومات ﴿مِثْلَ﴾ منصوب على كونه بدلاً من ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بدل كل من كل، وهو مضاف ﴿قَوْلِهِمْ﴾ مضاف إليه وهو مضاف، والهاء مضاف إليه ﴿فَٱللَّهُ﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحة، مبنية على الفتح؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قال كل فريق، وأردت بيان عاقبة أمرهم، فأقول لك: ﴿الله يحكم بينهم﴾ ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿يَحْكُمُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهُ﴾ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بيحكم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بيحكم أيضاً، وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فِيمَا﴾ ﴿فِي﴾ حرف جرّ ﴿مَا﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل الجر بفي، والجار والمجرور متعلق بيحكم ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه ﴿فِيهِ﴾ متعلق بيختلفون، قدّم عليه؛ لرعاية الفاصلة، وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة لما الموصولة، أو صفة لما الموصوفة، والعائد أو الرابط ضمير فيه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ الواو استئنافية ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة ﴿مِمَّن﴾ ﴿مِن﴾ حرف جرّ ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل

الجر بمن، والجار والمجرور متعلق بأظلم ﴿مَّنَعَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد ضمير الفاعل ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُذْكَرَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة منصوب بأن ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿ٱسْمُهُۥ﴾ نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية من الفعل المغيّر ونائب فاعله صلة ﴿أَن﴾ المصدرية. و﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لمنع، ولكنه على تقدير ﴿مِن﴾ الجارة؛ لأنّه يتعدى إلى الثاني بواسطة ﴿مِن﴾ الجارة، تقديره: ممن منع مساجد الله من ذكر اسمه فيها، أو منصوب على كونه مفعولاً لأجله، ولكنه على حذف مضاف، تقديره: منع مساجد الله كراهية ذكر اسمه فيها، أو منصوب على كونه بدل اشتمال من مساجد، تقديره: منع مساجد الله ذكر اسمه فيها، والأوّل أرجح، كما أشرنا إليه في مبحث التفسير ﴿وَسَعَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على مَن معطوف على ﴿مَّنَعَ﴾. ﴿فِى خَرَابِهَآ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بسعى، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ نافية ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لَهُمْ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يَدْخُلُوهَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول به على التوسّع، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخّراً، تقديره: أولئك ما كان دخولهم إيّاها كائناً لهم، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ﴿خَآئِفِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَدْخُلُوهَآ﴾، أي: ما كان لهم دخولها في جميع الأحوال إلا في حالة الخوف. اهـ. «سمين» ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿خِزْىٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿خِزْىٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الإسمية مستأنفة ﴿وَلَهُمْ﴾ خبر مقدّم ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلق بمحذوف حال من عذاب ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخرّ ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة لعذاب، والجملة الإسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ على كونها مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ النسخ: الإزالة والنقل، يقال: نسخت الريح الأثر، أي: أزالته، ونسختَ الكتاب إذا نقلتَه من كتاب إلى آخر ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قرىء بغير همز من أنسى ينسى إنساء، يقال: أنسى الشيء جعله منسيًّا، فهو من النسيان الذي هو ضِدُّ الذكر، وهو ذهاب الشيء من الذاكرة؛ أي: نمحها من القلوب، وقرىء ﴿نَنْسَأها﴾ بفتح النون والسين، وبالهمز من قولهم: نَسَأْتُ هذا الأمر إذا أخَّرته، وأنسأ الله أجلك أخَّره وأطاله، والإنساء: تأخير الشيء أو إذهابه عن الذاكرة، والإنساء: إذهاب الآية من ذاكرة النبي ﷺ بعد تبليغه إيّاها ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ الوليّ: القريب والصديق، وأصله: ولِيْيٌ على وزن فعِيْل، أدغمت ياء فعيل في ياء لام الكلمة، والنصير: المعين، وتقدم الفرق بينهما في مبحث التفسير.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ وأصل تريدون: تُرْوِدون بوزن تُفْعِلون؛ لأنّه من راد يرود، نقلت حركة الواو إلى الراء قبلها، فسكِّنت الواو بعد كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ فصار تريدون، والسؤال: الاقتراح المقصود به التعنت ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ﴾ بدَّل وتبدَّل واستبدل: جعل شيئاً موضع آخر. بعد الإيمان، أصله: إءمان بوزن إفعال، أبدلت الهمزة الساكنة حرف مد مجانساً لحركة الأولى ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾؛ أي: عَدَلَ وجار، أصله: ضَلَلَ بوزن فعل، أدغمت اللام الأولى في الثانية بعد أن سكنت ﴿سَوَآءَ﴾ تقدم أن الهمزة فيه مبدلة عن ياء ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ أصل ودَّ: وَدِدَ بكسر العين في الماضي، ومضارعه ودد، أدغمت الدال الأولى بعد تسكينها في الثانية، أمَّا في المضارع، فنقلت حركة الدال إلى الواو، ثمّ أدغمت الدال في الدال، فقيل: يَودُّ ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أصله: يَرْدُدُونكم بوزن يفعُلُون، نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء، فسكنت فأدغمت في الدال الثانية.

﴿فَٱعْفُوا۟﴾ أمر من عفا يعفو، كصفا يصفو من باب فعل بفتح العين في الماضي، يفعُلُ بضمّها في المضارع، ولام الفعل واوٌ، وإذا أسند المضارع إلى واو الجماعة، صار يفعوون بوزن يفعلون، حذفت منه نون الرفع؛ لبناء الأمر على ما يجزم به مضارعه، ثُمّ استثقلت الحركة على الواو، فحذفت فسكنت فالتقى ساكنان، لام الكلمة وواو الجماعة، فحذفت الأولى التي هي لام الكلمة، فصار

اعْفُوا بوزن أفعوا. والعفو: ترك العقاب على الذنب، كما قال تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾، والصَّفح: الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، وهو يشمل ترك العقاب، وترك اللوم والتثريب. وفي «المصباح»: عفا الله عنك؛ أي محا ذنوبك، وعفوت عن الحق: أسقطته، كأنّك محوته عن الذي هو عليه، وعافاه الله: محا عنه الأسقام. اهـ.

وفيه أيضاً: صفحت عن الذنب صفحاً من باب نفع: عفوت عنه، وصفحت عن الأمر: أعرضت عنه وتركته اهـ.

فعلى هذا يكون العطف في الآية للتأكيد، وحسَّنه تغاير اللفظين، وقال بعضهم: العفو: ترك العقوبة على الذنب، والصفح: ترك اللوم والعتاب عليه ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أصله: أَقْوِموا بوزن أَفْعِلوا، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أصله: أأتيوا بوزن أفعلوا، أمر من أتى الرباعي، أبدلت الهمزة الثانية حرف مدٍّ مجانساً لحركة الأولى، ثم استثقلت الضمة على الياء؛ فحذفت للتخفيف، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء كما حذفت نون الرفع، ثمَّ ضُمَّت التاء؛ لمناسبة الواو ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تقدَّم أنَّ ألفه منقلبة عن واوٍ؛ لأنّه من زكا يزكو زكاءً إذا نما.

﴿كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ والهود: جمع هائد على أظهر القولين فيه، نحو: بازلٍ وبُزْلٍ، وعائذٍ وعوذ، وحائل وحول، وبائر وبور، وهائدٌ من الأوصاف الفارق بين مذكَّرها ومؤنثها تاء التأنيث. اهـ. «سمين» والعوذ بالذال المعجمة، قال الجوهري: الحديثات النتاج من الظباء، والإبل، والخيل واحدها: عائذ. اهـ. زكريا، وفي «المختار»: هاد إذا تاب ورجع، وبابه قال، فهو هائد، وقومُ هود. قال أبو عبيدة: التهوُّد: التوبة والعمل الصالح، يقال أيضاً: هاد وتهوَّد؛ أي: صار يهوديًّا، والهود بوزن العود: اليهود. اهـ. ﴿أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ وفي «المختار»: جمع نصران، ونصرانة كالندامى جمع ندمان، وندمانة، ولم يستعمل نصران إلا بياء النسب. اهـ. وفي «المصباح»: والنصارى. جمع نصرى، كمهرى ومهارى، فتلخص أنّ نصارى له مفردان: نصرى ونصران ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمع

أمنيَّة: وهي ما يُتمنَّى على وزن أفعولة، كأعجوبة، وأضحوكة، وتقدم بسط الكلام عليها في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ هاتوا: أمرٌ للجماعة، أصله: هاتيوا، حذفت الضمة؛ لثقلها، ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين، فصار هاتوا؛ لأنّه من هاتى يهاتي على وزن رامي يرامي، وأميت تصريفها إلاّ في الأمر، ويقال للمفرد المذكر: هات، والمؤنث: هاتي. وفي «الفتوحات»: واختلف في هات على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه فعل أمر، وهذا هو الصحيح؛ لاتصاله بالضمائر المرفوعة البارزة، نحو: هاتوا هاتي هاتيا هاتين.

الثاني: أنّه اسم فعل بمعنى أحضروا.

والثالث: وبه قال الزمخشري: أنّه اسم صوت بمعنى ها الَّتي بمعنى أحضروا. اهـ. «سمين».

وقيل: الهاء فيه بدل من الهمزة في آتوا. وقيل: تنبيهٌ، وحذفت همزة آتى لزوماً، كذا في «تفسير ابن عطية» ﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾ واختلف في برهان على قولين:

أحدهما: أنّه مشتق من البره وهو القطع، وذلك أنّه دليلٌ يفيد العلم القطعيَّ، ومنه برهة الزمان؛ أي: القطعة منه، فوزنه فعلان.

والثاني: أنَّ نونه أصلية؛ لثُبُوتها في برهن يبرهن برهنةً، والبرهنة: البيان، فبرهن من باب فعلل لا من فعلن؛ لأنّ فعلن غير موجود في أبنيتهم، فوزنه فعلان، وعلى هذين القولين يترتَّب الخلاف في صرف برهان وعدمه، إذا سُمِّي به. اهـ. «سمين».

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ وليس فعل ماض ناقص أبداً من أخوات كان، ولا يتصرّف، ووزنه على فَعِل بكسر العين. اهـ. «سمين». وهو بناءٌ نادر في الثلاثي اليائي العين ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أصله: يتلوون بوزن يفعلون، الواو الأولى لام الكلمة، والثانية واو الجماعة، استثقلت الحركة على الواو، فحذفت فسكنت فالتقى ساكنان، فحذفت الواو الأولى، فوزنه يفعون ﴿يَوْمَ

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تقدّم أنَّ الياء فيه منقلبة عن واو؛ لأنّه من قام يقوم قياماً، أصله: قواما ﴿مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ جمع مسجد: اسم لمكان السجود، وكان قياسه أن يكون على وزن مَفْعَلٍ بالفتح؛ لانضمام عين مضارعه، نظير مدخل من دخل يدخل، ولكنه شذَّ كسره كما شذَّتْ ألفاظٌ أخر في كتب الصرف، كالمشرق، والمغرب، والمطلع، والمنِسك، والمجزِر، والمنِبت، والمسقِط، ويجوز فيها الفتح والكسر، ولكن السماع أفصح. كما بسطنا الكلام في شرحنا «مناهل الرجال على لاميّة الأفعال» وقد سمع مسجَد بالفتح على الأصل، وقد تبدل جيمه ياءً، ومنه: المَسْيِد في لغةٍ. اهـ. «سمين». ﴿وَسَعَىٰ﴾ أصله: سَعَيَ بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها ﴿خَآئِفِينَ﴾ أصله: خاوفين لأن مادته خوفَ واوي العين أعلت عين فعله فقلبت ألفاً. فقيل: خاف، فحمل الوصف على فعله في الإعلال، فأُعلّ بإبدال الواو همزةً، إذ القياس أن يقال: خاوفين، وقس عليه ما شابهه، فقالوا: قائل بدل قاول، وقالوا بائع بدل بايع ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ تقدّم أنَّ الياء في الدنيا منقلبة عن واوٍ، فأصله: الدنو، وتقدّم علَّةُ هذا القلب.

البلاغة

وقد تضمَّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التقريريُّ، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما عُلِم عنده ثبوته، أو نفيه في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: إنّك علمت.

ومنها: تخصيصه ﷺ بالخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع أنَّ غيره داخلٌ في الخطاب أيضاً، بدليل قوله فيما بعد: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ إيذاناً بأنَّ المقصود من الخطاب تقرير علم المخاطب، وهو ﷺ أعلم الخلق.

ومنها: تخصيص السموات والأرض بالذكر مع أنّه تعالى له ملك الدنيا

والآخرة؛ لكونهما أعظم المصنوعات، وأعجبها شأناً.

ومنها: وضع الاسم الجليل موضع الضمير في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومقتضى السياق أن يقال: ألم تعلم أنّه، من دونه؛ لسبق المرجع؛ لتربية الرَّوعة، والمهابة في النفوس.

ومنها: المصدر التشبيهي في قوله: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ لتأكيد الكلام؛ أي: سؤالاً مشبهاً بسؤال موسى عليه السلام.

ومنها: الإتيان بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ لتأكيد الكلام؛ لأنّ كون سؤال موسى من قبل محمد ﷺ من المعلوم، فالإتيان به؛ لتأكيد الكلام.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

ومنها: إضافة الصفة إلى الموصوف في قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: الطريق المستوي، وفي التعبير به نهاية التَّبكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق، فعدل عنه إلى الباطل.

ومنها: الاعتراض بين الدعوى ودليلها في قوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ فإنّها جملة اعتراضية اعترض بها بينهما؛ لغرض بيان بطلان الدعوى، وأنّها دعوى كاذبة.

ومنها: الأمر للتعجيز والتبكيت في قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.

ومنها: التعريض بكذبهم، وبطلان دعواهم في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وفيه أيضاً: الإيجاز بالحذف؛ لأنّه حُذف فيه جواب الشرط؛ لعلمه من السابق؛ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم، فهاتوا برهانكم.

ومنها: تخصيص الوجه بالذكر في قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ لكونه أشرف أعضاء الإنسان؛ لكونه مركز الحواس، ففيه إمّا استعارة تصريحية؛ لأنّه استعار الوجه للنفس، أو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: العنديَّة؛ للتشريف في قوله ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ وفيه أيضاً: وضع

اسم الربّ مضافاً إلى ضمير ﴿مَنْ أسلم﴾ موضع ضمير الجلالة؛ لإظهار مزيد اللُّطف به.

ومنها: تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر مع كونهما داخلين في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ تنبيهاً على عظيم شأنهما، وعلوّ قدرهما عند الله تعالى؛ لأنّ الصلاة قربةٌ بدنية، والزكاة قربة مالية، كما مرّ في مبحث التفسير.

ومنها: التعبير بلفظ التقديم في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ إشارةً إلى أنّ المقصود الأصليّ، والحكمة الكلية في جميع ما أنعم الله تعالى به على المكلفين في الدنيا، أن يقدِّموه إلى معادهم، ويدّخروه ليومهم الآجل.

ومنها: تقديم المعمول على عامله؛ لإفادة الحصر في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: قال الذين لا يعلمون الكتاب قولاً مثل ذلك القول بعينه، لا قولاً مغايراً له اهـ. «أبو السعود». وفيه أيضاً: توبيخ عظيم، وتقريع لأهل الكتاب، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم أصلاً.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ محافظةً على رؤوس الآي.

ومنها: الاستفهام الإنكاري المضمَّن معنى النفي في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ أي: لا أحد أظلم منه.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾؛ للتهويل؛ أي: خزي هائل فظيع، لا يوصف لهوله.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ...﴾ الآية، قال أبو حيان(١): مناسبة هذه الآية لِمَا قبلها: هو أنَّه تعالى لمَّا ذكر منع المساجد من ذكر الله، والسعي في تخريبها.. نبَّه على أنّ ذلك لا يمنع من أداء الصلوات، ولا من ذكر الله تعالى، إذ المشرق والمغرب كلاهما لله تعالى، فأيُّ جهةٍ أدَّيتم فيها العبادة فهي لله يثيب على ذلك، ولا يختص مكان التأدية بالمسجد، والمعنى:

---

(١) البحر المحيط.

ولله بلاد المشرق والمغرب وما بينهما، فيكون على حذف مضافٍ. انتهى.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لمَّا ذكر أنَّه مالكٌ لجميع من في السموات والأرض، وأنَّ كُلَّهم قانتون له، وهم المظروف للسموات والأرض، ذكر الظرفين، وخصَّهما بالبداعة؛ لأنّهما أعظم ما نشاهده من المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر ما دلَّ على الاختراع، ذكر ما يدلُّ على طواعية المخترع، وسرعة تكوينه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لِمَا قبلها: أنّه تعالى لمَّا ذكر[2] فيما سلف الردَّ على من أنكر الوحدانية، واتخذ لله ولداً، ذكر هنا من أنكر نبوَّة محمد ﷺ، وطعن في الآيات التي جاء بها، وتجنَّى بطلب آيات أخرى؛ تعنُّتاً وعناداً؛ كما جاء في نحو قوله حكايةً عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ وقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر فيما سلف أنَّ اليهود والنصارى لن ترضى عنك حتى تتَّبع ملَّتهم، وحذَّر رسوله ﷺ، من اتباع أهوائهم، وأعلمه بأنّ هدى الله هو الهدى الذي أعطاه، وبعثه به، ذكر هنا أنَّ فريقاً منهم يرجى إيمانهم، وهم الذين يتدبَّرون كتابهم، ويُمَيِّزُونَ بين الحق والباطل، ويفهمون أسرار الدِّين، ويعلمون أنّ ما جئت به هو الحقُّ الذي يتَّفِق مع صالح البشر، فهو الذي يهذِّب نفوسهم، ويصفِّي أرواحهم، ويُنظِّم معايشهم، وبه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

وبعد أنَّ أقام عليهم الحجة دعاهم وناداهم بقوله: ﴿يَبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ...﴾ إلخ. وطلب إليهم أن يتركوا الغرور المانع لهم من الإيمان بمحمد ﷺ، إذ لا ينبغي لمن كرَّمه الله تعالى، وفضّله على غيره من الشعوب، أن يكون حظه من كتابه، كحظّ الحمار يحمل أسفاراً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[١]: أنّه لما جرى ذكر الكعبة والقبلة، وأنَّ اليهود عيَّروا المؤمنين بتوجُّههم إلى الكعبة، وترك بيت المقدس، كما قال: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ ذَكَر حديث إبراهيم، وما ابتلاه الله، واستطرد إلى ذكر البيت، وكيفية بنائه، وأنَّهم لمَّا كانوا من نسل إبراهيم، كان ينبغي أن يكونوا أكثر الناس اتباعاً لشرعه، واقتفاءً لآثاره فكان تعظيم البيت لازماً لهم، فنبَّه الله بذلك على سوء اعتقادهم، وكثرة مخالفتهم، وخروجهم عن سنن من ينبغي اتباعه من آبائهم، وأنّهم وإن كانوا من نسله لا ينالون لظلمهم شيئاً من عهده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[٢]: ما أخرجه مسلم، والترمذي، والنسائي، وأحمد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (كان رسول الله ﷺ، يصلي على راحلته تطوّعاً أينما توجّهت به، وهو مقبل من مكّة إلى المدينة، ثم قرأ ابن عمر ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ وقال: في هذه نزلت هذه الآية). وعن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: (أنّ رسول الله ﷺ، لمّا هاجر إلى المدينة، أمره الله سبحانه أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها بضعة عشر شهراً، وكان يحبّ قبلة إبراهيم، وكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله تعالى: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾

---

(١) البحر المحيط.

(٢) لباب النقول.

فارتاب في ذلك اليهود، قالت: ما ولآهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ إسناده قويّ، والمعنى: أيضاً يساعده فليُعتمدْ، وفي الآية رواياتٌ أُخر ضعيفةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما رواه البخاري، وغيره، عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: (وافقت ربّي في ثلاثٍ، قلت: يا رسول الله! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًّى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قلت: يا رسول الله! إنّ نساءك يدخل عليهنّ البرُّ والفاجر، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله ﷺ نساءه في الغَيرة، فقلت لهنَّ: عسى ربُّه إن طلَّقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ، فنزلت كذلك، وللحديث طرقٌ كثيرةٌ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾؛ أي: مكان شروق الشمس ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ أي: مكان غروبها، يريد[1] بهما ناحيتي الأرض إذ لا وجه لإرادة موضعي الشروق والغروب بخصوصهما؛ أي: له الأرض كلُّها لا يختصُّ به من حيث الملك والتصرف ولا من حيث المحلية، لعبادته مكان منها دون مكان، فإن مُنعتم أن تصلُّوا في المسجد الحرام، أو الأقصى، فقد جعلت لكم الأرض كلَّها مسجداً.

والمعنى: أي له[2] سبحانه وتعالى جميع نواحي الأرض شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً؛ لأنّه خالقها، فإن مُنعتم أن تصلوا في المسجد الحرام، أو المسجد الأقصى، فقد جعلت لكم الأرض كلّها مسجداً، فهذه الجملة مرتبطة بقوله: ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ يعني: أنّه إن سعى ساع في المنع من ذكره تعالى، وفي خراب بيوته، فليس ذلك مانعاً من أداء العبادة في غيرها؛

---

(١) روح البيان.　　(٢) العمدة.

لأنَّ المشرق والمغرب وما بينهما له تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ وقرىء بفتح التاء واللام؛ أي: ففي أي مكانٍ فعلتم تولية وجوهكم القبلة.

قال الإمام الراغب: ولَّى: إذا أقبل، ولَّىٰ إذا أدبر، وهو من الأضداد، والمراد ههنا: الإقبال. اهـ. ﴿فَثَمَّ﴾؛ أي: هناك ﴿وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: هناك[1] جهته التي أمر بها، ورضيها لكم قبلةً، فإنَّ إمكان التولية غير مختصٍ بمسجدٍ دون مسجدٍ، أو مكانٍ دون آخر، أو فثمَّة ذاته تعالى، بمعنى: الحضور العِلْميِّ، فيكون الوجه مجازاً من قبل إطلاق اسم الجزء على الكل، والمعنى عليه: ففي أيِّ مكان فعلتم التولية، فهو سبحانه موجودٌ فيه، ويمكنكم الوصول إليه، إذْ ليس هو جوهراً، ولا عرضاً حتى يكون بكونه في جانب مفرِّغاً جانباً، ولمَّا امتنع عليه أن يكون في مكانٍ، أريد أنَّ علمه محيطٌ لما يكون في جميع الأماكن والنواحي؛ أي: فهو عالم بما يُفعل فيه، ومثيب لكم على ذلك. اهـ. من «الروح».

واعلم[2]: أنَّ ﴿أين﴾ اسم شرط في المكان، وهو ههنا منصوب بتُوَلُّوا؛ لأنّه فعل شرطه، و﴿ما﴾ مزيدةٌ؛ للتأكيد، و﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكانٍ بمنزلة هناك، تقول لِمَا قَرُب من المكان هنا، ولِمَا بَعُد ثَمَّ وهناك، وهو خبر مقدَّمٌ، و﴿وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ مبتدأٌ مؤخَّر، والجملة الاسمية في محل الجزم على أنّها جواب الشرط، كما سيأتي في مبحث الإعراب.

والمعنى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾؛ أي[3]: ففي أيِّ مكانٍ وبقعةٍ، تحوّلوا، وتوجّهوا فيه وجوهكم في الصلاة إلى القبلة التي أمرتم بالاستقبال إليها ﴿فَثَمَّ﴾؛ أي: هناك في الجهة التي أمرتم بالاستقبال إليها ﴿وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: جهته التي ارتضاها لكم قبلةً، وأمر بالتوجُّه إليها، فإن إمكان التولية والتحوّل لا

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) العمدة.

يختصُّ بمكانٍ ولا مسجدٍ، فإنَّها ممكنةٌ في كُلِّ مكانٍ. وفي «المختار»: الوجه والجهة بمعنًى، والهاء عوضٌ من الواو.

ومعنى الآية[1]: إنَّ لله المشرق والمغرب وما بينهما خلقاً وملكاً، وإنّما خصَّ المشرق والمغرب؛ اكتفاءً بهما عن جميع الجهات؛ لأنَّ له تعالى كُلَّها، وما بينهما خلقه وعبيده، وإنَّ على جميعهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه، فالجهة التي أمرهم باستقبالها، فهي القبلة، فإنَّ القبلة ليست قبلةً لذاتها؛ بل لأنَّ الله سبحانه جعلها قبلةً، وأمر بالتوجُّه إليها، فإن جعل الكعبة قبلةً، فلا تنكروا ذلك؛ لأنّه تعالى يُدبِّر عباده كيف يريد ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾؛ أي: فَهُنَالِكَ قبلة الله التي وَجَّهَكُمْ إليها.

وقيل معناه: فثَمَّ وجه الله سبحانه وتعالى بلا تأويلٍ، والوجه صفةٌ ثابتة لله تعالى، نثبتها، ونعتقدها من غير تشبيه ولا تمثيل، وهذا القول هو الصحيح الأسلم الذي ينبغي الاعتماد عليه. وقيل: المعنى: فثَمَّ رضا الله؛ أي: يريدون بالتوجه إليه رضاه تعالى. وقال ابن العربي: مقتضى التوحيد أنَّ الصلاة لأيِّ جهةٍ تصحُّ، وإنّما أُمِرنا بجهةٍ مخصوصةٍ؛ تعبداً، ولم نعقل له معنى. وقال ابن عباس[2] ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: (لمَّا حُوِّلت القبلة عن بيت المقدس، أنكر اليهود ذلك، فنزلت هذه الآية ردًّا عليهم). وقال أبو مسلم: إنَّ اليهود إنّما استقبلوا بيت المقدس؛ لأنّهم اعتقدوا أنَّ الله تعالى صعد السماء من الصخرة، والنصارى استقبلوا المشرق؛ لأنَّ عيسى عليه السلام ولد هناك، فردَّ الله سبحانه عليهما بهذه الآية.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَاسِعٌ﴾ بفضله، ورحمته، جميع الخلائق، يريد التوسعة على عباده في القبلة، وغيرها، أو واسعٌ بإحاطته بالأشياء ملكاً وخلقاً، فيكون تذييلاً لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وكذا إن فسرت السعة بسعة الرحمة، فإنَّ قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ لمَّا اشتمل على معنى قولنا: لا

---

(١) الخازن.

(٢) المراح.

تختصُّ العبادة والصلاة ببعض المساجد، بل الأرض كلُّها مسجدٌ لكم، فصلُّوا في أيِّ بقعة شئتم من بقاعها فُهِم منه أنَّه واسع الشريعة بالترخيص والتوسعة على عباده في دينهم، لا يضطرُّهم إلى ما يعجزون عن أدائه، والمقصود: التوسعة على عباده والتيسير عليهم في كُلِّ ما يحتاجون إليه، فيدخل فيه التوسعة في أمر القبلة دخولاً أوّلياً، وهذا التعليم مستفادٌ من إطلاق ﴿وَاسِعٌ﴾، حيث لم يقيَّد بشيء دون شيء. قال الغزاليُّ في «شرح الأسماء الحسنى»: الواسع مشتقٌّ من السعة، والسَّعة تضاف مرَّةً إلى العلم إذا اتَّسع، وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف مرة أخرى إلى الإحسان، وبسط النعم، وكيفما قُدِّر، وعلى أيِّ شيءٍ نزِّل، فالواسع المطلق هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنّه إن نُظِر إلى علمه، فلا ساحل لبحر علمه، بل تنفد البحار لو كانت مداداً لكلماته، وإن نظر إلى إحسانه ونعمه، فلا نهاية لقدرته، وكُلُّ سعةٍ وإن عظمت، فتنتهي إلى طرفٍ، والذي لا يتناهى إلى طرف، فهو أحقُّ باسم السعة، والله تعالى هو الواسع المطلق؛ لأنَّ كُلَّ واسع بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيِّقٌ، وكُلُّ سعة تنتهي إلى طرف، فالزيادة عليها متصوَّرة، وما لا نهاية له ولا طرف، فلا يتصوَّر عليه زيادةٌ، فهو تعالى الواسع المطلق الذي ليس لسعته نهايةٌ ولا طرفٌ. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ونياتهم في جميع الأماكن والجهات كلِّها، وهذا لا يخلو عن إفادة التهديد؛ ليكون المصلِّي على حذر من التفريط، والتساهل، كما أنَّه يتضمَّن الوعد بتوفية ثواب المصلِّين في جميع الأماكن.

فقد ظهر أنَّ هذه الآية مرتبطةٌ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآية، وأنَّ المعنى: إنَّ بلاد الله تعالى أيها المؤمنون! تسعكم، فلا يمنعكم تخريب من خرَّب مساجد الله، أن تُولُّوا وجوهكم نحو قبلة الله تعالى أينما كنتم من أرضه.

فائدةٌ فقهيَّةٌ تتعلَّق بحكم الآية وهي: أنَّ المسافر إذا كان في مفازة، أو بلاد الشرك، واشتبهت عليه القبلة، فإنّه يجتهد في طلبها بنوع من الدلائل، ويصلّي إلى الجهة التي أدَّى إليها اجتهاده، ولا إعادة عليه، وإن لم يصادف القبلة، فإنّ جهة

الاجتهاد قبلته، وكذا الغريق في البحر إذا بقي على اللوح، فإنَّه يصلي على حسب حاله، وتصحُّ صلاته، وكذلك المشدود على جذع، بحيث لا يمكنه الاستقبال. اهـ. «خازن». قالوا: وكذلك راكب الطائرة إذا علم أنه لا يدرك الوقت بعد نزوله من الطائرة، يجتهد، ويصلِّي إلى أيِّ جهة ظنَّها قبلةً، ولا إعادة عليه إن لم يدرك الوقت بعد نزوله منها.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ أي: له[1] تعالى هاتان الجهتان المعلومتان لكل أحد، والمراد ربُّ الأرض كلِّها، فهو كقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أي مكانٍ تستقبلونه في صلاتكم، فهناك القبلة التي يرضاها الله لكم، ويأمركم بالتوجُّه إليها، فأينما توجه المصلِّي في صلاته، فهو متوجِّه إلى الله لا يقصد بصلاته غيره، والله تعالى راضٍ عنه، مقبلٌ عليه، والحكمة في استقبال القبلة: أنَّه لما كان من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود، وهو بهذه الطريقة محال على الله تعالى، شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إيّاه، وجعل استقباله كاستقبال وجهه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إنّه تعالى لا يُحْصَر، ولا يتحدَّد، فيصحُّ أن يُتوجَّه إليه في كل مكان، وهو عليم بالمتوجِّه إليه أينما كان، فاعبدوه حيثما كنتم، وتوجَّهوا إليه أينما حللتم، ولا تتقيدوا بالأمكنة، والمعبود غير مقيَّد، وقد نزلت هذه الآية قبل الأمر بالتوجه إلى استقبال الكعبة في الصلاة، وفيها إبطالٌ لما كان يعتقده أرباب الملل السابقة، من أنَّ العبادة لا تصحُّ إلاّ في الهياكل، والمعابد، وإزالةٌ لما قد يتوهَّم من أنَّ الوعيد إنّما كان على إبطالها في الأماكن المخصوصة، فأبان بها أنَّ الوعيد إنما كان لإبطالها مطلقاً؛ لأنَّ الله تعالى لا تحدِّده الجهات، ولا تحصره الأمكنة. انتهت. وروي[2] عن ابن عباس ومقاتل: أنّه عبَّر عن الذات بالوجه، كقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وقيل المعنى: العمل

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

لله، قاله الفرَّاء، قال:

أسْتَغْفِرُ الله ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيهِ   رَبَّ العِبَادِ إلَيْه الوَجْهُ والعَمَلُ

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت في اليهود، إذ قالوا: عزير ابن الله، أو في النصارى، إذ قالوا: المسيح ابن الله، أو في المشركين، إذ قالوا: الملائكة بنات الله، أو في النصارى والمشركين أقوالٌ أربعة، والأخير قاله الزجاج، ولاختلافهم في سبب النزول، اختلفوا في مرجع الضمير في ﴿قالوا﴾ على من يعود، فقيل: عائدٌ على الجميع من غير تخصيص، فإنَّ كلّاً منهم قد جعل لله ولداً، قاله ابن إسحاق، فحينئذٍ ضمير ﴿قالوا﴾ راجع إلى الفرق الثلاثة المذكورة سابقاً، أمَّا اليهود والنصارى، فقد ذُكِروا صريحاً، وأمّا المشركون، فقد ذُكِروا بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

وقرأ الجمهور[1]. ﴿وَقَالُوا﴾ بواو العطف، وهو آكد في الربط، فيكون عطف جملة خبرية على جملة مثلها؛ أي: معطوفاً على قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾، أو على منع، أو على مفهوم قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ أي: على معناه، وكأنّه قيل: لا أحد أظلم ممَّن منع مساجد الله، ولا ممَّن قال: اتخذ الله ولداً، وإن كان الثاني أظلم من الأول. وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ فيكون معطوفاً على معطوف على الصلة، وفصل بينهما بالجمل الكثيرة، وهذا بعيدٌ جدّاً ينزَّه القرآن عن مثله. وقرأ ابن عباس، وابن عامر، وغيرهما: ﴿قالوا﴾ بغير واو، استئنافاً وملحوظاً فيه معنى العطف، واكتفى على هذا بالضمير، والربط به عن الربط بالواو. وقال الفارسيُّ: وبغير واوٍ هي في مصاحف أهل الشام، فالقراءتان سبعيتان، وأمَّا آية يونس، فبترك الواو لا غير؛ لعدم ما يناسب العطف؛ أي: وقالت اليهود، والنصارى، ومشركوا العرب ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ﴾؛ أي: صنع الله، وجعل لنفسه ﴿وَلَدًا﴾ ذكراً أو أنثى، والاتخاذ[2]: إمّا بمعنى الصنع والعمل، فلا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

يتعدَّى إلاّ إلى واحد، وإمّا بمعنى: التصيير، والمفعول الأول محذوف؛ أي: صيَّر بعض مخلوقاته ولداً، وادَّعى أنَّه ولده، لا أنّه ولده حقيقةً، وكما يستحيل عليه تعالى أن يلد حقيقةً، كذا يستحيل عليه التبني واتخاذ الولد؛ أي: قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله، فنزَّه تعالى نفسه عمّا قالوا في حقه، فقال ردّاً عليهم ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عمَّا يقول هؤلاء الكفرة، فهي كلمة تنزيه، نزَّه الله تعالى بها نفسه عن اتخاذ الولد، ومن قولهم، وافترائهم عليه؛ أي: منزَّهٌ[1] سبحانه عن السبب المقتضي للولد، وهو الاحتياج إلى من يعينه في حياته، ويقوم مقامه بعد مماته، وعمّا يقتضيه الولد وهو التشبيه، فإنّ الولد لا يكون إلاّ من جنس والده، فكيف يكون للحقّ سبحانه ولدٌ وهو لا يشبهه شيءٌ؟

روى البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: قال الله عزّ وجلّ: (كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له، فأمَّا تكذيبه إيَّاي، فزعم أنِّي لا أقدر أن أعيده كما كان، وأمَّا شتمه إيَّاي، فقوله: لي ولدٌ، فسبحاني أن أتَّخذ صاحبةً أو ولداً) ولا فارق بين أن يكون هذا القول قد صدر من جميع أفراد الأمَّة، أو من بعضها، فإنَّ أفرادها متكافلون في كلِّ ما يعملون، وما يقولون ممَّا يعود أثره من خيرٍ أو شرٍّ إلى الجميع ﴿بَل﴾ ليس الأمر كما زعموا ﴿لَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى عبيداً وملكاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما فيهما، والملكية تنافي الولدية، فكيف ينسب إليه الولد، وهو داخل فيهما؟ بل هو خالق جميع الموجودات علويّاً وسفليّاً، التي من جملتها عزيرٌ، والمسيح، والملائكة، وهذا ردٌّ لما قالوه، واستدلالٌ على فساده، فإنَّ الإضراب عن قول المبطلين معناه: الردُّ، والإنكار، وفي «الوسيط» ﴿بَل﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعموا، والمعنى: إنّه خالق ما في السموات والأرض جميعاً، الذي يدخل فيه الملائكة، وعزيرٌ، والمسيح، دخولاً أوّليّاً، فكان المستفاد من الدليل، امتناع أن يكون شيءٌ ما مما في السموات والأرض ولداً، سواءً كان ذلك ما زعموا أنّه

(١) روح البيان.

ولدٌ، أم لا ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كُلٌّ ما فيهما من أولي العلم، وغيرهم ﴿لَّهُۥ﴾؛ أي: لله سبحانه وتعالى ﴿قَـٰنِتُونَ﴾ جمع الخبر اعتباراً لمعنى كلٍّ؛ أي: منقادون، ولا يمتنع شيءٌ منهم، ولا يستعصي على مشيئته، وتكوينه، وتقديره، ومطيعون له طاعة تسخير وقهرٍ، فالجماد مسخَّر لما أراد الله منه، فالطاعة هنا: طاعة الإرادة والمشيئة، لا طاعة العبادة، أو مقروٌّن له بالعبوديَّة والتوحيد، وكل ما كان بهذه الصفة لم يجانس مكوِّنه الواجب لذاته، فلا يكون له ولدٌ؛ لأنّه من حقّ الولد أن يجانس والده، وإنّما عبَّر عن[1] جميع الموجودات أوّلاً بما يعبَّر به عن غير ذوي العلم، وعبَّر عنه آخراً بما يختصُّ بالعقلاء وهو لفظ ﴿قَـٰنِتُونَ﴾؛ تحقيراً لشأن العقلاء الذين جعلوا ولداً لله سبحانه ﴿قَـٰنِتُونَ﴾ خبرٌ[2] عن كلٌّ؛ وجمع حملاً على المعنى، وكلٌّ إذا حذف ما تضاف إليه جاز فيها مراعاة المعنى فتجمع، ومراعاة اللفظ فتفرد، وإنّما حسنت مراعاة الجمع هنا؛ لأنّها فاصلة رأس آية؛ ولأنَّ الأكثر في لسانهم؛ أنّه إذا قطعت عن الإضافة، كان مراعاة المعنى أكثر وأحسن. قال: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقد جاء إفراد الخبر، كقوله: كلٌّ يعمل على شاكلته، وسيأتي هناك إن شاء الله تعالى، ذكر ما حسَّن إفراد الخبر.

والخلاصة[3]: أي ليس الأمر كما زعموا، بل جميع ما في السموات والأرض ملك له، قانت لعزته، خاضع لسلطانه، منقاد لإرادته، فما وجه تخصيص واحد منهم بالانتساب إليه، وجعله ولداً مجانساً له ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ ثمَّ إن الله سبحانه، يخصُّ من يشاء من عباده بما شاء من الفضل، كالأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ولكن هذا لا يرتقي بالمخلوق إلى أن يصل إلى مرتبة الخالق.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: هو سبحانه وتعالى مبدعهما، وموجدهما،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

وخالقهما، ومنشئهما على غير مثال سبق، ولم يكونا شيئاً، على أنّ[١] البديع بمعنى: المبدع وهو الذي يبدع الأشياء؛ أي: يحدثها، أو ينشئها، على غير مثال سبق، والإبداع: اختراع الشيء لا عن شيء دفعةً؛ أي: من غير مادّةٍ ومُدّةٍ، أو المعنى: بديع سمٰواته وأرضه؛ أي: بدعت لمجيئهما على شكلٍ فائقٍ، حسنٍ غريبٍ، فعلى الأول: من أبدع، والإضافة معنويةٌ، وعلى الثاني: من بدع إذا كان على شكلٍ فائق، وحسنٍ رائقٍ، والإضافة لفظيةٌ، فهو من باب إضافة الصفة إلى منصوبها الذي كان فاعلاً في الأصل؛ لأنَّ الأصل بديعٌ سمٰواته وأرضه.

وهذه حجة أخرى لإبطال مقالتهم الشنيعة[٢]، تقريرها: إنّ الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادّته عنه، والله تعالى مبدع الأشياء كلها على الإطلاق، منزَّهٌ عن الانفعال، فلا يكون والداً، ومن قدر على خلق السموات والأرض من غير شيء، كيف لا يقدر على خلق عيسى من غير أب؟! والمعنى: هو سبحانه وتعالى، موجدهما اختراعاً وابتكاراً لا على مثال سابق، وإذا كان هو المبدع لهما، والموجد لجميع من فيهما، فكيف يصحُّ أن ينسب إليه شيءٌ منهما على أنّه مجانسٌ له؟! تعالى عن ذلك علوّا كبيراً.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقرأ المنصور بالنصب على المدح، وقرىء بالجر على أنه بدل من الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: وإذا أراد سبحانه وتعالى إيجاد أمر من الأمور، وإحداث شيء من الأشياء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ﴾ سبحانه ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الذي أراد إيجاده ﴿كُن﴾؛ أي: احْدُث ﴿فيكون﴾؛ أي: فذلك الأمر المأمور، يكون، ويحدث من غير توقُّفٍ، ولا إباءٍ، وبلا مهلةٍ، وتأخُّرٍ، وأصل القضاء: الإحكام، أطلق هنا على الإرادة الإلٰهيَّة المتعلِّقة بوجود الشيء؛ لإيجابها إيّاه ألبتة، والأمر واحد الأمور، و﴿كُن﴾ و﴿يكون﴾ هنا: من كان التامة بمعنى:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط بتصرف.

أحدث يحدث. ففي هذه الجملة: تقرير[1] معنى الإبداع، وذلك أنَّ اتخاذ الولد ممَّا يكون بأطوار، ومهلةٍ، وفعله تعالى يستغني عن ذلك، وقوله ﴿كُن﴾ تمثيلٌ لسهولة حصول المقدورات بحسب تعلُّق مشيئته تعالى، وتصويرٌ لسرعة حدوثها من غير توقُّفٍ، ولا تأخُّرٍ، كطاعة المأمور المطيع للأمر القويِّ المطاع، ولا يكون من المأمور الإباء.

والمعنى: أي[2] وإذا أراد سبحانه إحداث أمرٍ وإيجاده، فإنَّما يأمره أن يكون موجوداً، فيكون والكلام تمثيلٌ وتشبيهٌ؛ لتعلُّق إرادته بإيجاد الشيء، فيعقبه وجوده بأمرٍ يصدر، فيعقبه الامتثال، والإيجاد، والتكوين من أسرار الألوهية عبَّر عنهما بما يُقَرِّبُهما من الفهم، وهو أن يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. وقرأ ابن عامر[3] ﴿كن فيكونَ﴾ بالنصب في كُلِّ القرآن إلاّ في موضعين: في أوّل آل عمران في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وفي الأنعام في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ فإنّه رفعه فيهما، وقرأ الكسائي بالنصب في النحل ويسّ، وبالرفع في سائر القرآن، والباقون بالرفع في كُلِّ القرآن، أمَّا النصب فعلى جواب الأمر، وأمّا الرفع فإمّا على أنّه خبر مبتدأ محذوفٍ؛ أي: فهو يكون، أو معطوفٌ على ﴿يَقُولُ﴾ أو معطوفٌ على ﴿كُن﴾ من حيث المعنى، كما هو قول الفارسي.

واعلم: أنَّ[4] أهل السنة لا يرون تعلُّق وجود الأشياء بهذا الأمر وهو ﴿كُن﴾ بل وجودها متعلِّق بخلقه، وإيجاده وتكوينه، وهو صفةٌ أزليةٌ، وهذا الكلام عبارةٌ عن سرعة حصول المخلوق بإيجاده، وكمال قدرته على ذلك، لكن لا يتعلق علم أحدٍ بكيفية تعلُّق القدرة بالمعدومات، فيجب الإمساك عن بحثها، وكذا عن بحث كيفية وجود الباري سبحانه، وكيفية العذاب بعد الموت، وأمثالها، فإنّها من الغوامض، والأمور المغيبة عنّا.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

(٤) روح البيان.

ثمّ اعلم: أنَّ السبب في هذه الضلالة، وهي نسبة الولد إلى الله تعالى، والقول بأنّه اتخذ ولداً؛ أنَّ أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون على الباري تعالى اسم الأب، وعلى الكبير منهم اسم الإله، حتى قالوا: إنَّ الأب هو الربُّ الأصغر، وإنّ الله تعالى هو الأب الأكبر، وكانوا يريدون بذلك أنّه تعالى هو السبب الأوّل في وجود الإنسان، وأنَّ الأب هو السبب الأخير في وجوده، فإنَّ الأب هو معبود الابن من وجهٍ؛ أي: مخدومه، ثم ظنت الجهلة منهم أنَّ المراد به: معنى الولادة الطبيعية، فاعتقدوا ذلك تقليداً ولذلك كفر قائله، ومنع منه مطلقاً؛ أي: سواءٌ قصد به معنى السببية، أو معنى الولادة الطبيعية؛ حسماً لمادة الفساد. واتخاذ الحبيب أو الخليل جائزٌ من الله تعالى، لأنّ المحبّة تقع على غير جوهر المحبِّ، قالوا: أوحى[1] الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: ولَّدتك، أي أوجدتك بلا والدٍ، وأنت نبيٌّ، فخفَّف النصارى التشديد الذي في ولَّدتك؛ لأنّه من التوليد وصحفوا بعض إعجام النَّبيِّ بتقديم الباء على النون، فقالوا: ولدتك وأنت بُنيَّ، تعالى الله عمّا يقول الظالمون؟! وقال تعالى: يا أحباري! ويا أبناء رسلي! فغيَّره اليهود، وقالوا: يا أحبائي! ويا أبنائي! فكذَّبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فـــالله سبحانه منزَّه عن الحدود والجهات، ومتعالي عن الأزواج، والبنين والبنات، ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السموات، وفي الحديث الصحيح كما مرَّ لك، قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: (كذَّبني ابن آدم)، أي: نسبني إلى الكذب (ولم يكن له ذلك)؛ أي: لم يكن التكذيب لائقاً به، بل كان خطأً (وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إيّايَ، فزعم أن لا أقدر أن أعيده كما كان، وأمَّا شتمه إيّاي، فقوله: لي ولدٌ، فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً) وإنّما كان هذا شتّماً؛ لأنّ التولُّد هو انفصال الجزء عن الكل بحيث ينمو، وهذا إنّما يكون في المركَّب، وكُلُّ مركّب محتاجٌ.

فإن قلت: قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ تكذيبٌ أيضاً؛ لأنّه تعالى أخبر أنّه لا

---

(١) روح البيان.

ولد، وقولهم: لن يعيدنا، شتمٌ أيضاً؛ لأنّه نسبةٌ له إلى العجز؛ فَلِمَ خصَّ أحدهما بالشتم، والآخر بالتكذيب؟.

قلت: نفي الإعادة نفي صفة كمالٍ، واتخاذ الولد إثبات صفة نقصانٍ له، والشتم أفحش من التكذيب، والكذب على الله فوق الكذب على النبي ﷺ.

وفي الحديث: «إنّ كذبا عليَّ ليس ككذب على أحد»؛ يعني: الكذب على النبي ﷺ، أعظم أنواع الكذب سوى الكذب على الله؛ لأنّ الكذب على النبي ﷺ يؤدِّي إلى هدم قواعد الإسلام، وإفساد الشريعة والأحكام. وفي الصحيح أيضاً: (من كذب عليّ متعمّداً، فليتبوَّأ مقعده من النار).

فعلى المؤمن أن يتجنب عن الزيغ والضلال، وأشنع الفعال، وأسوإِ المقال، وأن يداوم على التوحيد في الأسحار والآصال، إلى أن لا يبقى للشرك الخفي أيضاً مجالٌ. وفي الحديث: «لو يعلم الأمير ماله في ذكر الله لترك إمارته، ولو يعلم التاجر ماله في ذكر الله لترك تجارته، ولو أنَّ ثواب تسبيحة قسم على أهل الأرض لأصاب كُلَّ واحد منهم عشرة أضعاف الدنيا» ولكن لا أصل له. وفي الحديث: «للمؤمن حصونٌ ثلاثة: ذكر الله، وقراءة القرآن، والمسجد» والمراد بالمسجد: مُصلاَّه، سواء كان في بيته، أو في الخارج، ولا بُدَّ من الصدق والإخلاص حتى يظهر أثر التوحيد في الملك والملكوت، اللهمّ! أوصلنا إلى اليقين، وهيِّىءْ لنا مقاماً من مقامات التمكين! آمين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ توحيد الله؛ أي: جهلة المشركين من كفار مكة لمحمد ﷺ؛ أي: قال مشركوا العرب الجاهلون حقيقةً، وأهل الكتاب المتجاهلون ونفى عنهم العلم؛ لعدم انتفاعهم بعلمهم؛ لأنَّ المقصود هو العمل ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ مشافهةً بأنّك رسوله؛ أي: هلا يكلِّمنا مشافهةً من غير واسطة بالأمر والنهي، كما يُكلِّم الملائكة، أو موسى، وهلاّ يَنُصُّ لنا على نبوّتك، وهذا منهم استكبارٌ. و﴿لَوۡلَا﴾[1] هنا: للتحضيض، وحرف التحضيض إذ دخلت على

---

(١) روح البيان.

الماضيّ كان معناها التوبيخ، واللوم على ترك الفعل بمعنى: لِمَ لَمْ يفعله، ومعناها في المضارع: تحضيض الفاعل على الفعلِ، والطلبِ له في المضارع بمعنى: الأمر، والمعنى: هلاَّ يُكلِّمنا الله عياناً بأنّك رسوله، كما يُكلِّم الملائكة بلا واسطة، أو يرسل إلينا ملكاً، ويكلِّمنا بواسطة ذلك، إنّك رسوله، كما كلَّم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على هذا الوجه، وهذا القول من الجهلة استكبارٌ يعنون به: نحن عظماء، كالملائكة، والنبيين، فلم اختصُّوا به دوننا ﴿أَوْ﴾ هلاّ ﴿تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ﴾ وحجةٌ، ومعجزةٌ، تدلُّ على صدقك مما اقترحناه من الأمور الأربعة المذكورة في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا...﴾ الآيات. و﴿أَوْ﴾ هنا: للتخيير؛ أي: فإن كان الله لا يكلِّمنا، فلم لا يخصك بآيةٍ ومعجزةٍ تأتينا بها، وهذا جحودٌ منهم لأن يكون ما آتاهم به من القرآن، وسائر المعجزات آيات، لأنهم لو أقروا بكونه معجزة، لاستحال أن يقولوا ذلك، والجحود: هو الإنكار مع العلم، والعجب أنّهم عظَّموا أنفسهم وهي أحقر الأشياء، واستهانوا بآية الله وهي أعظمها، ثم أجاب الله عن هذه الشبهة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل قول هؤلاء الشنيع الصادر عن عنادهم واستكبارهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ﴾؛ أي: شبه قول هؤلاء لمحمد ﷺ في التشديد، وطلب الآيات المقترحة، فقالت اليهود لموسى عليه السلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ وقالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ﴾ وقالت النصارى لعيسى عليه السلام: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ ونحو ذلك ممَّا اقترحوه من أنبيائهم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ مع قوله: ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ﴾ على[1] تشبيهين، تشبيه المقول بالمقول في المؤدَّى، والمحصول، وتشبيه القول بالقول في الصدور بلا رويّةٍ، بل بمجرد التشهي، واتباع الهوى، والاقتراح على سبيل التعنّت والعناد، لا على سبيل الإرشاد، وقصد الجدوى، والكاف في كذلك منصوب

---

(١) روح البيان.

المحل على أنّه مفعول ﴿قَالَ﴾ وقوله: ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ مفعول مطلق؛ أي: قال كفار الأمم الماضية، مثل ذلك القول الذي قالوه قولاً مثل قولهم فيما ذكر، فظهر أنَّ أحد التشبيهين لا يغني عن الآخر ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تماثلت قلوب هؤلاء ومَن قبلهم في العمى، والقسوة، والعناد، وهو استئنافٌ على وجه تعليل، تشابه مقالتهم بمقالة مَن قبلهم، فإنَّ الألسنة ترجمان القلوب، والقلب إن استحكم فيه الكفر، والقسوة، والعمى، والسفه، والعناد، لا يجري على اللسان إلاّ ما ينبىء عن التَّعلُّل، والتَّباعد عن الإيمان. وقرأ ابن إسحاق[1]، وأبو حيوة ﴿تشَّابهت﴾ بتشديد الشين وقال: أبو عمرو الدانيُّ، وذلك غير جائز؛ لأنّه فعل ماض، يعني: أنّ اجتماع التائين المزيدتين لا يكون في الماضي، إنّما يكون في المضارع، نحو: تتشابه، وحينئذٍ يجوز فيه الإدغام، أمّا الماضي، فليس أصله: تتشابه، وقد مرَّ نظير هذه القراءة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ وخرَّجنا ذلك على تأويلٍ لا يمكن هنا؛ فليطلب تأويلٌ لهذه القراءة.

والمعنى[2]: أي تشابهت، وتماثلت، وتوافقت، قلوب هؤلاء المكذبين لك يا محمد! مع قلوب كفار الأمم الماضية المكذِّبين لأنبيائهم؛ أي: أشبهت قلوبهم بعضها بعضاً في الكفر، والقسوة، وطلب المحال، وإلاّ لما تشابهت أقاويلهم الباطلة، وفي هذا تسليةٌ له ﷺ ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ ووضَّحنا ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: الدلالات والمعجزات الدالَّة على صدقك، وصدق ما جئت به من الآيات القرآنية، والمعجزات الباهرة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لقوم ينصفون، فيوقنون، ويصدِّقون أنّها آياتٌ يجب الاعتراف بها، والإذعان لها، والاكتفاء بها عن غيرها، أو المعنى ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي[3]: قد نزلناها بيّنة بأن جعلناها كذلك في أنفسها، كما في قولهم: سبحان من صغر البعوض، وكبَّر الفيل، لا أنّا بيّناها بعد أن لم تكن بينةً ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لقوم يطلبون اليقين، واليقين أبلغ العلم،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

وأوكده بأن يكون جازماً؛ أي: غير محتمل للنقيض، وثابتاً؛ أي: غير زائل بالتشكيك بعد أن يكون مطابقاً للواقع، فالإيقان هنا مجازٌ عن طلب اليقين على طريق ذكر السبب وإرادة المسبَّب، ولا بُعْد في نصب الدلائل لطلاَّب اليقين ليحصِّلوه بها، وإنّما حمل على المجاز؛ لأنّ الموقن بالمعنى المذكور لا يحتاج إلى نصب الدلائل، وبيان الآيات، فبيان الآيات له طلبٌ لتحصيل الحاصل.

وفي الآيات[1]: إشارةٌ إلى أنَّهم ما قالوا ذلك لخفاء في الآيات، أو لطلب مزيد اليقين، وإنّما قالوه؛ عتوّاً وعناداً، وحاصل[2] الجواب من الله تعالى: إنّا قد أيَّدْنا نبوة محمد ﷺ بالمعجزات، وبَيَّنَّا صدق ما جاء به بالآيات القرآنية، والمعجزات الباهرة، فكان طلب هذه الزوائد من باب التَّعنُّت، فإذا كان كذلك لم تجب إجابتها ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد! كافَّةً للناس حالة كونك ملتبساً ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالدِّين الحق، والهدى المستقيم، والقرآن العظيم، وحالة كونك ﴿بَشِيرٗا﴾؛ أي: مبشِّراً للمؤمنين بالثواب الجسيم، وجنات النعيم ﴿وَنَذِيرٗاۖ﴾؛ أي: ومنذراً ومخوِّفاً للكافرين من العقاب الأليم، وعذاب الجحيم، فلا بأس عليك إن أصرُّوا، أو كابروا.

والمعنى: إنَّ شأنك بعد إظهار صدقك في دعوى الرسالة بالدلائل، والمعجزات، ليس إلاّ الدعوة والإبلاغ، والتبشير والإنذار، لا أنْ تجبرهم على القبول والإيمان، فلا عليك إن أصرُّوا على الكفر والعناد، فإنَّ الأحوال أوصافٌ لذي الحال، والأوصاف مقيّدةٌ للموصوف ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ما لَهُمْ يؤمنوا بعد أن بَلَّغْتَ، والجحيم: المكان الشديد الحرِّ، والمتأجِّجُ من النار؛ أي: ولست يا محمد! بمسؤولٍ عن أصحاب النار؛ أي: وليس عليك عهدةٌ وتبعةٌ في عدم إيمانهم بعد ما بلَّغت ما أرسلت به، وبذلت جهدك في دعوتهم، إنَّما عليك البلاغ، وعلينا الحساب، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لو أنَّ الله عزَّ وجلّ أنزل بأسه باليهود لآمنوا» فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) البيضاوي.

(٢) المراح.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَا تُسْئَلُ﴾ بضمّ التاء واللام. وقرأ أُبيٌّ ﴿وما تُسألُ﴾ بضمّ التاء واللام. وقرأ ابن مسعود: ﴿ولن تُسأَل﴾ وهذا كُلّه على الخبر والنفي، فالقراءة الأولى، وقراءة أُبيٍّ، يحتمل أن تكون الجملة فيهما مستأنفةً، وهو الأظهر، ويحتمل أن تكون في موضع الحال، وأمَّا قراءة ابن مسعود، فيتعيَّن فيها الاستئناف، والمعنى: على الاستئناف إنَّك لا تسأل عن الكفار ما لهم لم يؤمنوا؛ لأنَّ ذلك ليس إليك ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ وفي ذلك تسليةٌ له ﷺ، وتخفيف ما كان يجده من عنادهم، فكأنَّه قيل: لست مسؤولاً عنهم، فلا يحزنك كفرهم، وفي ذلك دليلٌ: على أنَّ أحداً لا يسأل عن ذنب أحدٍ، ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى، وأمَّا الحال، فعطفٌ على ما قبلها من الحال، أي: وغير مسؤول عن الكفار ما لهم لا يؤمنون، فيكون قيداً في الإرسال بخلاف الاستئناف.

وقرأ نافعٌ، ويعقوبٌ ﴿ولا تَسْأَلْ﴾ بفتح التاء وجزم اللام على النهي؛ أي:[2] لا تسأل يا محمد! عن حال كفار أهل الكتاب التي تكون لهم يوم القيامة، ولا يمكنك في هذه الدار الاطلاع عليها، وذلك إعلامٌ بكمال شدّة عقوبة الكفار، فلا يستطيع السامع أن يسمع خبرها، ولا يصبر على استماعه لشدّتها ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ﴾ يا محمد! ﴿ٱلْيَهُودُ﴾ ولن تحب دينك، ولو خلَّيتهم وشأنهم حتى تتبع دينهم وقبلتهم ﴿وَلَا﴾ ترضى يا محمد! ﴿ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ ولن تحبّ دينك، ولو تركتهم ودينهم ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وتصلِّي إلى قبلتهم. قال الواحديُّ: الآية نزلت في تحويل القبلة، وذلك أنّ اليهود والنصارى كانوا يرجون أن يرجع محمدٌ ﷺ إلى دينهم، فلمَّا صرف الله القبلة إلى الكعبة، شقَّ عليهم، وأيسوا منه أن يوافقهم، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ يعني: دينهم وتُصلِّي إلى قبلتهم، وفي الآية مبالغةٌ في إقناط الرسول ﷺ، من طمعه في إسلامهم، حيث علَّق رضاهم عنه بما لا سبيل إليه، وما يستحيل وجوده، فإنَّهم إذا لم يرضوا عنه حتّى يتّبع ملتهم، فكيف يتّبعون ملّته؟ أي: دينه، فكأنَّهم قالوا:

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

لن نَرْضى عنك، وإن أبلغْتَ في طلب رضانا حتى تتَّبعَ ملتنا إقْناط منهم لرسول الله ﷺ دخولهم في الإسلام، فذكر الله سبحانه كلامهما، والمعنى: أي: لن ترضى عنك اليهود إلاّ بالتهوُّد والصلاة إلى قبلتهم وهي المغرب، ولا النصارى إلاّ بالتنصُّرِ والصلاة إلى قبلتهم وهي المشرق، ووحَّدَ الملّة؛ لأنّ الكفر ملّةٌ واحدةٌ.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! ردّاً لقولهم لك: لن نرضى عنك حتىٰ تَتَّبع ملّتنا، وتصلي إلى قبلتنا، بطريق قصر القلب ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنّ دين الله الذي هو الإسلام، وقبلته التي هي الكعبة ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: هو الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ليس وراءه هدى، والذي تدعون إلى اتباعه ما هو هدى، إنّما هو هوى، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي: لئن اتبعت، وسايرت يا محمد! على سبيل الفرض والتقدير ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الفاسدة، وآراءَهم الزائغة، ومللهم الباطلة، وقبلتهم العاطلة، وهي التي عبَّر عنها فيما قَبْلُ بملّتهم، إذ هي التي ينتمون إليها، وأمّا ما شرعه الله تعالى من الشرعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي المعنى الحقيقيُّ للملَّة، فقد غيروها تغييراً، والأهواء: جمع هوًى: وهو رأيٌ عن شهوة داعٍ إلى الضلال، وسُمِّي بذلك؛ لأنّه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهيةٍ، وفي الآخرة إلى الهاوية.

وإنّما قال: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ بلفظ الجمع، ولم يقل: هواهم؛ تنبيهاً على أنَّ لكل واحد هوًى غير هوى الآخر، ثم هوى كُلٍّ واحد منهم لا يتناهى، فلذلك أخبر سبحانه أنّه لا يرضى الكُلُّ إلاّ باتباع أهواء الكل.

واعلم: أنّ الطريقة المشروعة تسمَّى ملّة باعتبار أنَّ الأنبياء الذين أظهروها قد أملوها، وكتبوها لأُمّتهم، كما أنّها تسمَّى ديناً باعتبار طاعة العباد لمن سنَّها، وانقيادهم لحكمه، وتسمَّى أيضاً شريعة باعتبار كونها مورداً للمتعطّشين إلى زُلاَلِ ثوابه ورحمته.

﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ والبيان بأنَّ دين الله هو الإسلام، وأنَّ ما هم عليه ضلالٌ، أو بعد ما ظهر لك الحقُّ بالبراهين الساطعة، والحجج القاطعة، أو بعد القرآن الموحى إليك، وهو حالٌ من فاعل جاءك ﴿مَا لَكَ﴾ يا محمد! ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛

أي: من عذاب الله، أو من جهته العزيزة، وهو جواب لئن ﴿مِن وَلِيٍّ﴾؛ أي: قريب ينفعك ويحفظكَ منْ عَذَابِه، من الولي، وهو القرب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: ولا ناصر ينصرك ويدفع عنك عذابه، وتقدَّم لك، أنَّ الفرق بين الولي، والنصير: العموم والخصوص من وجهٍ؛ لأنَّ الوليَّ قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور، كما يكون من آقرباء المنصور، وهو مادَّة اجتماعهما، وقوله: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مرفوع على الابتداء، و﴿لَكَ﴾ خبره، و﴿مِنَ﴾ صلةٌ، وقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ منصوب المحلِّ على أنه حال؛ لأنّه لما كان متقدِّماً على قوله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ امتنع أن يكون صفةً له، ونظيره قوله:

لِــمَــيَّــة مــوحــشــاً طــلــلُ

والخطاب في قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ متوجِّهٌ إلى النبي ﷺ في الحقيقة، وقيل: المراد به: أمّته، والمعنى: حينئذٍ إيّاكم أُخاطب، ولكم أُؤَدِّب وأنهى، فقد علمتم أنَّ محمداً ﷺ قد جاءكم بالحق والصدق، وقد عصمته، فلا تتبعوا أنتم أهواء الكافرين، ولئن اتبعتم أهواءَهم بعد الذي جاءكم من العلم والبيان، ما لكم من الله من وليّ ولا نصير، وما قيل على القول الأوّل[1]: من أنّه تعالى حكم بعصمة الأنبياء، وعلم منهم أنّهم لا يعصون له، ولا يخالفون، ولا يرتكبون ما نهى عنه، فكانت عصمتهم واجبةً، فلا وجه لتحذيرهم عن اتباع هوى الكفرة، فوجب أن يكون التحذير متوجِّهاً إلى الأمّة لا إلى أنفسهم، فالجواب عنه: أنّ التكليف والتحذير؛ إنّما يعتمد على كون المكلف به محتملاً، ومتصوَّراً في ذاته من حيث تحقُّق ما يتوقف عليه وجوده من الآلات، والقوى، والامتناع الحاصل من حكمه تعالى، بعصمتهم، وعلمه بها، امتناعٌ بالغير، وهو لا ينافي الإمكان الذاتي الذي هو شرط التكليف، والتحذير، فثبت أنّ الخطاب متوجِّهٌ إليه ﷺ حقيقةً، فلا اعتراض.

ولمَّا ذكر سبحانه قبائح المتعنِّتين الطالبين للرِّئاسة من اليهود والنصارى،

---

(١) روح البيان.

أتبع ذلك بمدح من ترك طريق التعنت وحبَّ الرئاسة منهم، وطلب مرضاة الله تعالى، وحسن ثواب الآخرة، وآثره على الحظوظ العاجلة الفانية، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من قبلك يا محمد! من مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه، وبحيرا الراهب وأصحابه، والنجاشيِّ وأصحابه، من الذين أسلموا من اليهود والنصارى، وإنّما خصَّهم بذكر الإيتاء؛ لأنّهم هم الذين عملوا به فخُصُّوا به، والكتاب التوراة والإنجيل، واسم الموصول مبتدأ أول، خبره جملة قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل حال كونهم ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾؛ أي: يتلون ذلك الكتاب ويقرؤونه ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ بمراعاة لفظه عن التحريف، وبالتدبُّر في معانيه، والعمل بما فيه، وهو حال مقدَّرةٌ من الضمير المنصوب في آتيناهم، أو من الكتاب؛ لأنّهم لم يكونوا تالين له وقت الإيتاء، وقوله[1]: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ نعتٌ لمصدر محذوف دلَّ عليه الفعل المذكور؛ أي: يتلونه تلاوةً حقَّ تلاوته، واختار الكواشيُّ كونه منصوباً على المصدرية على تقدير تلاوةً حقّاً، فإنَّ نعت المصدر إذا قدم عليه، وأضيف إليه نصب المصادر، نحو: ضربت أشدَّ الضرب، بنصب أشدَّ على المصدرية، والمعنى: أي: يقرؤونه قراءةً حقَّةً، كما أنزل، لا يغيّرونه، ولا يحرّفونه، ولا يبدّلون ما فيه من نعت محمد ﷺ.

وقيل المعنى: أي يتبعونه حقَّ اتباعه، فيحلُّون حلاله، ويحرِّمون حرامه، ويبيِّنون أمره ونهيه لمن سألهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين يتلونه حقَّ تلاوته هو مبتدأٌ ثان، خبره قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بكتابهم المستلزم إيمانهم به الإيمان بمحمد ﷺ دون المحرِّفين، فإنّ بناء الفعل على المبتدأ، وإن كان اسماً ظاهراً يفيد الحصر، مثل: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أو يؤمنون بمحمد ﷺ، وبالقرآن المنزَّل عليه ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾؛ أي: بالكتاب المؤتى له بأن يغيِّره، ويحرِّفه، ويجحد ما فيه من فرائض الله، ونبوَّة محمدٍ ﷺ؛ أي: سواءٌ كان كفرهم بنفس التحريف، أو بغيره، كالكفر بالكتاب الذي يصدِّقه، أو يكفر بمحمد ﷺ، وبالقرآن ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين كفروا بكتابهم، أو بمحمدٍ ﷺ ﴿هُمُ﴾ لا غيرهم ﴿الْخَاسِرُونَ﴾؛ أي: الهالكون، المغبونون

---

(١) روح البيان.

الذين خسروا في الدنيا والآخرة، حيث اشتروا الكفر بالإيمان؛ لمصيرهم إلى النار المؤبَّدة عليهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ لمّا صدر[1] قصّتهم بالأمر بذكر النعم، والقيام بحقوقها، والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأهوالها، كرَّر ذلك وختم به الكلام معهم؛ مبالغةً في النصح لهم؛ وإيذاناً بأنّه فذلكة القصة، والمقصود من القصة، والمعنى: يا بني إسرائيل! اذكروا أياديَّ لديكم، وصنعي بكم، واستنقاذي إيّاكم من أيدي العدو في نعم كثيرة أنعمت بها عليكم، ومن جملة النعم: التوراة، وذكر النعمة إنّما يكون بشكرها، وشكرها الإيمان بجميع ما فيها، ومِنْ لازم الإيمان بها الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأنَّ نعت النبي ﷺ من جملة ما فيها ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: واذكروا تفضيلي إيّاكم على عالمي زمانكم بكثرة الأنبياء فيكم، وإعطاء التوراة لكم.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾؛ أي: واخشوا، وخافوا عذاب يوم رهيب، وهو يوم القيامة ﴿لَّا تَجۡزِي﴾ ولا تدفع فيه، تقول: جزى عنّي هذا الأمر يجزي، كما تقول: قضى عنّي يقضي وزناً، ومعنى؛ أي: لا تقضي في ذلك اليوم ﴿نَفۡسٌ﴾ من النفوس، أو نفسٌ مؤمنةٌ ﴿عَن نَّفۡسٖ﴾ أخرى أو كافرةٍ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الحقوق التي لزمتها؛ أي: لا تقضي نفسٌ ليس عليها شيءٌ شيئاً من الحقوق التي وجبت على نفسٍ أخرى؛ أي: لا تؤخذ نفسٌ بذنب أخرى، ولا تدفع شيئاً، وأمّا إذا كان عليها شيءٌ، فإنّها تجزي وتقضي بغير اختيارها، بما لها من حسناتها ما عليها من الحقوق، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرض، أو غيره، فليستحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عملٌ صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحمل عليه».

﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا﴾؛ أي: من النفس الأولى أو الكافرة ﴿عَدۡلٞ﴾؛ أي: فداءٌ، وهو بفتح العين: الفدية، وهي ما يماثل الشيء قيمةً، وإن لم يكن من جنسه، والعِدْل بالكسر: ما يساوي، الشيء في الوزن والجرم من جنسه.

والمعنى: لا يؤخذ منها فديةٌ تنجو بها من النار، ولا تجد ذلك لتفتدي به،

---

(١) العمدة.

وسميت الفدية عدلاً؛ لأنّها تعادل ما يقصد انقاذه وتخليصه، يقال: فداه إذا أعطى فداءه فأنقذ ﴿وَلَا يَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ شافع؛ لأنّها كفرت بالله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: يمنعون من عذاب الله تعالى؛ أي: ولا الكفار ينصرون فيه؛ أي: يمنعون فيه ممَّا يريد الله بهم من الانتقام الأليم؛ أي: لا يدفع عنهم أحدٌ عذاب الله، ولا يجيرهم من سطوة عذابه.

والمعنى: أي: واتقوا يا معشر بني إسرائيل! المبدِّلين كتابي، المحرِّفين له عن وجهه، المكذِّبين برسولي محمد ﷺ عذاب يوم لا تقضي فيه نفسٌ عن نفس شيئاً من الحقوق التي لزمتها، فلا تؤخذ نفسٌ بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئاً. وفي «الصحيحين»: «يا فاطمة بنت محمد! سليني من مالي ما شئت! لا أغني عنك من الله شيئاً» ولا يؤخذ فيه من نفسٍ فديةٌ تنجو بها من النار، إذ هي لا تجد ذلك لتفتدي به، ولا يشفع فيما وجب عليها من حقٍّ شافع، وقد كانوا يعتقدون بالمكفرات تؤخذ فديةٌ عمَّا فرَّطوا فيه، وبشفاعة أنبيائهم لهم، فأخبرهم الله تعالى أنّه لا يقوم مقام الاهتداء به شيءٌ آخر، وأنّهم لا يأتيهم ناصر ينصرهم، فيمنع عذاب الله عنهم إذا نزل بهم، وهذا ترهيبٌ لمن سلفت عظتهم في الآية قبلها.

﴿و﴾ اذكر يا محمد! لقومك قصّة ﴿إذ ابتلى﴾ واختبر وكلَّف ﴿إبراهيم﴾ عليه السلام، وهو اسم أعجميٌّ معناه: أبٌ رحيمٌ، قال السهيليُّ: وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي، أو تقاربه في اللفظ ألا ترى: أن إبراهيم تفسيره: أب رحيمٍ؛ لمرحمته بالأطفال ﴿رَبُّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى، والضمير لإبراهيم، وقُدّم المفعول لفظاً وإن كان مؤخّراً رتبةً؛ لاتصال الفاعل بضميرٍ يعود عليه؛ وللاهتمام به، فإنّ الذهن يتشوَّق، ويطلب معرفة المبتلى، والابتلاء في الأصل: الامتحان والاختبار، والتكليف بالأمر الشاقِّ؛ ليُعلم ما جُهل من حال الإنسان، من جودته، أو رداءته، ولكن ابتلاء الله سبحانه لعباده ليس ليعلم ما خفي عليه من أحوالهم؛ لأنّه عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد؛ ولكن ليعلم العباد أحوالهم من ظهور جودة أو رداءة، فالمراد هنا: عامله معاملة المختبر؛ ليظهر ذلك للخلق، فاختبر إبراهيم، فظهر صدقه، وإبليس، فظهر كذبه؛ أي: واذكر وقت اختباري إبراهيم، والمقصود من ذكر

الوقت، ذكرما وقع فيه من الحوادث؛ لأنَّ الوقت مشتملٌ عليها، فإذا استحضر كانت حاضرةً بتفاصيلها، كأنّها مشاهدةٌ عياناً ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾؛ أي: اختبره، وكلَّفه بأوامر ونواهٍ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ إبراهيم، وأدَّاهُنَّ أحسن التأدية، وقام بهنّ حقَّ القيام من غير تفريط، ولا تقصير، ولا توان، ولذا قيل: لم يُبْتَلَ أحدٌ بهذا الدين، فأقامه كلَّه إلا إبراهيم، فكتب الله له البراءة، فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ والقرآن الكريم لم يعيِّن تلك الكلمات، ولذلك اختلف المفسّرون في تفسير تلك الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام، فقال عكرمة عن ابن عباس: هي ثلاثون من شرائع الإسلام: عشرٌ في براءة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ. . .﴾ إلخ. وعشرٌ في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ. . .﴾ إلخ. وعشرٌ في المؤمنون إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وفي سأل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾. وقال طاووس عن ابن عباس: ابتلاه الله بعشرة أشياء هي: الفطرة: خمسٌ في الرأس الشامل للوجه: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وخمس في الجسد: تقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء بالماء؛ أي: غسل مكان الغائط والبول بالماء، وأمَّا بالحجر، فهو من خصائص هذه الأمّة. كانت فرضاً في شرعه، وهي سنة في شرعنا، وقال قتادة: هي مناسك الحج؛ أي: فرائضه، وسننه، كالطواف، والسعي، والرَّمى، والإحرام، والتعريف، وغيرهنَّ.

وقال الحسن: ابتلاه الله بذبح ولده، فصبر على ذلك، وابتلاه بالنظر في الكواكب، والشمس والقمر، إقامةً للحجة على قومه، فأحسن النظر في ذلك، وعرف أنّ ربّه دائم لا يزول، ثمّ ابتلاه بالهجرة من وطنه، فخرج مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالإلقاء في النار، فصبر عليها، وبالختان بعد الكبر، فصبر عليه، وهذا القول الأخير أرجح ما قيل هنا، وفي الخبر: أنّ إبراهيم أوّل من قصّ الشارب، وأوّل من اختتن، وأوّل من قلّم الأظفار، وأوّل من رأى الشيب، فلمّا رآه قال: يا ربّ! ما هو؟ قال: الوقار، قال: يا ربّ! زدني وقاراً.

وقرأ الجمهور ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بالألف والياء. وقرأ ابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان في البقرة بألفين، زاد هشام أنّه قرأ كذلك في إبراهيم والنحل ومريم

والشورى والذاريات والنجم والحديد وأول الممتحنة وثلاثةٍ آخر النساء وآخر التوبة وآخر الأنعام والعنكبوت وقرأ المفضّل إبراهام بألفين إلاّ في التوبة والأعلى. وقرأ ابن الزبير (إبراهام) أيضاً، وقرأ أبو بكرة (إبراهم) بألفٍ وحذف الياء وكسر الهاء.

وقرأ الجمهور: بنصب ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ورفع ﴿رَبُّهُۥ﴾، وقرأ ابن عباس، وأبو الشعثاء، وأبو حنيفة: برفع ﴿إبراهيمُ﴾ ونصب ﴿ربَّهُ﴾، والمعنى حينئذٍ: وإذا دعا إبراهيم ربَّه بكلمات؛ أي: بدعواتٍ، فأتّمهنّ الله تعالى؛ أي: فأجابهنّ، وأعطاه إياهنّ، وتلك الدعوات، كقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وقولهُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ وقوله ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، وإبراهيم الخليل عليه السلام، هو الجد الحادي والثلاثون لنبيّنا محمد ﷺ، وهو خليل الله بن تارخ، وهو آزر بن ناخور، بن شاروخ بن أرغو، بن فالغ، بن عابر، وهو هود النبيّ ﷺ، بن شالح، بن أرفَخْشَذْ، بن سام، بن نوح عليه السلام، ومولده بأرض الأهواز، وقيل: بكوثى، وقيل: ببابل، وقيل: بنجران، ونقله أبوه إلى بابل أرض نمروذ بن كنعان، وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ﴾ كلام مستأنف أيضاً واقعٌ في جواب سؤال مقدّر، كأنّه قيل: فماذا قال له ربُّه حين أتمَّ الكلمات؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبراهيم بعدما أتمهنَّ ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ ومُصَيِّرُكَ ﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يأتمون به في هذه الخصال، ويقتدى به الصالحون، فهو نبي في عصره، ومقتدًى به لكافة الناس إلى يوم القيامة؛ أي: جاعلك قدوة لهم في الدين إلى يوم القيامة، إذ لم يبعث بعده نبيٌّ إلاّ كان من ذريته مأموراً باتباعه في الجملة، والمعنى: أي؛ ثُمّ قال له ربّه: يا إبراهيم! إنّي مصيِّرك إماماً للناس في الخيرات، يقتدون بأفعالك، ويهتدون بهديك، ويستنون بسنتك، فلذلك اجتمعت أهل الأديان كلُّهم على تعظيمه، وجميع أمّة محمد ﷺ يقولون في آخر صلاتهم: اللهمّ صلّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

وقوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ كلام مستأنف أيضاً واقعٌ في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: فماذا قال إبراهيم عنده؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿و﴾ اجعل يا ربّ! ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ أي: من بعض أولادي أئمّةً يقتدى بهم في الدين؛ أي: أنبياء وملوكاً عدولاً، وعلماء يقتدى بهم، وتخصيص البعض بذلك؛ لبداهة استحالة

إمامة الكل، وإن كانوا على الحق، وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ عطفٌ على الكاف في ﴿جَاعِلُكَ﴾ و﴿من﴾ تبعيضية متعلِّقة بجاعل؛ أي: وجاعل بعض ذريتي إماماً يقتدى به؛ أي: اجعل، لكنَّه راعى الأدب بالاحتراز عن صورة الأمر. وقرأ زيد بن ثابت ﴿ذِرِّيَّتِيۖ﴾ بكسر الذال. وقرأ أبو جعفر بفتحها وليست في المتواتر عنه. وقرأ الجمهور بالضمّ، وهي لغاتٌ فيها، وقوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ﴾ كلام مستأنف أيضاً واقعٌ في جواب سؤال مقدّر، كأنّه قيل: فماذا قال الربُّ جلَّ جلاله؟ فأجيب: ﴿قال﴾ الله سبحانه وتعالى لإبراهيم ﴿لَا يَنَالُ﴾ ولا يصيب ﴿عَهۡدِي﴾؛ أي: لا يصل ما عهدته، ووعدته لك من الإمامة، والنبوة في أولادك إلى ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ والكافرين منهم، يعني: أنّ أولادك منهم مسلمون، وكافرون، فلا تصل الإمامة والاستخلاف بالنبوة الذي عهدت إليك من كان ظالماً من أولادك، وغيرهم، وإنما ينال عهدي من كان بريئاً من الظلم؛ لأنَّ الإمام لمنع الظلم، فكيف يجوز أن يكون ظالماً؟! وإن جاز، فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب الغنم ظلم.

ودلَّت الآية بمفهومها على أنّه ينالها ويصيبها غير الظالم؛ يعني: من كان ظالماً من أولادك، لا يكون إماماً وقدوة للناس؛ لأنّ الإمامة في أوليائه لا في أعدائه. وقرأ قتادة والأعمش وأبو رجاء ﴿الظالمون﴾ بالرفع على الفاعلية و﴿عَهۡدِي﴾ مفعول به؛ لأنّ العهد يَنال كما يُنال، أي: عهدي لا يصل إلى الظالمين، أو لا يصل الظالمون إليه، ولا يُدْرِكُونَهُ، ومعنى: عهدي نبوّتي، وفي هذا دليلٌ على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر. وفي[1] ذكر الظلم مانعاً من الإمامة، تنفيرٌ لذرية إبراهيم منه، وتبغيضٌ لهم فيه ليتحاموه، ويُنَشِّئُوا أولادهم على كراهته كيلا يَقَعُوْا فيه ويُحرَموا من هذا المنصب العظيم الذي هو أعلى المناصب وأشرفها، كما هو تنفيرٌ من الظالمين، وعن مخالطتهم، فالإمامة الصالحة لا تكون إلاّ لذوي النفوس الفاضلة التي تَسوق صاحبهَا إلى خير العمل، وتَزَعُهُ عن الشرورِ والآثام، ولاحظَّ للظالمين في شيء من هذا.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أنَّ الإمامة والنبوة لا ينالها من دنس نفسه، ودسّاها بالظلم، وقبيح الخلال، وإنّما ينالها من شرفت خلاله، وكملت أخلاقه، وصفت نفسه؛ لأنَّ أهمَّ أعمال الإمام رفع الظلم والفساد، حتى ينتظم العمران، وتَسُوْد السكينةُ بين الناس. ﴿و﴾ اذكر يا محمد! لقومك قصة ﴿إذ جعلنا البيت﴾؛ أي: الكعبة، أو جميع الحرم، فإنَّه تعالى وصفه بكونه آمناً، وهذا صفة جميع الحرم ﴿مَثَابَةً﴾ أي: مرجعاً ومعاداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ يعودون إليه، ويقضون منه وطراً، كلما انصرفوا اشتاقوا إليه، فإنّهم يثوبون إليه كل عام بأعيانهم، وبأمثالهم، كما قاله الحسن، أو المراد: لا ينصرف عنه أحد إلاّ وهو يتمنّى العود إليه، كما قاله ابن عباس ومجاهد، أو المعنى: جعلنا الكعبة موضع ثواب، يثابون بحجِّهِ واعتماره، وعبارة «الروح» هنا: أي:[1] واذكر يا محمد! لقومك قصة وقت تصييرنا الكعبة المعظَّمة ﴿مَثَابَةً﴾ كائنةً للناس؛ أي: مباءةً، ومرجعاً للحجَّاج والمعتمرين، يتفرَّقون عنه، ثم يثوبون إليه؛ أي: يرجع إليه أعيان الذين يزورونه بأن يحجوه مرّةً بعد أخرى، أو يرجع أمثالهم وأشباههم في كونهم وفد الله، وزوار بيته، فإنَّهم لما كانوا أشباهاً للزائرين أوّلاً، كان ما وقع منهم من الزيارة ابتداءً بمنزلة عود الأوّلين، فتعريف الناس؛ للعهد الذهنيِّ، وهم الزوار؛ أو للاستغراق، كما سيأتي، والتاء في ﴿مثابة﴾؛ للمبالغة لكثرة ما يثوب إليه، قاله الأخفش؛ أو لتأنيث المصدر؛ أو لتأنيث البقعة، كما يقال: مقامٌ ومقامةٌ، قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الأَرْضَ رَحْبٌ فَسِيحَةْ فَهَلْ يُعْجِزَنِّي بُقْعَةٌ مِنْ بِقَاعِهَا

ذكَّرَ رَحْباً على مراعاة المكان، وأنث فسيحةً على اللفظ، وقرأ الأعمش، وطلحة: ﴿مثاباتٍ﴾ على الجمع، وقال ورقة بن نوفل:

مَثَاباً لأفناء القبائل كُلِّها تَخِبُّ إِلَيْهَا اليَعْمُلاتُ الطَّلائِحُ

ويروى الذَّوابل، ووجه قراءة الجمع: أنَّه مثابةٌ لكلٍ من الناس لا يختصُّ

---

(١) روح البيان.

به واحدٌ منهم، سواء العاكف فيه والباد. وقال مجاهد وابن جبير معناه: يثوبون إليه من كل جانب؛ أي: يحجونه في كل عام، فهم يتفرقون، ثم يثوبون إليه أعيانهم، أو أمثالهم، ولا يقضي أحدٌ منهم وطراً، وقال الشاعر:

جَعَلَ البَيْتَ مَثَابَاً لَهُمُ   لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرَ يَقْضُونَ الوَطَرْ

وقال ابن عباس: معاذاً وملجأً، وقال قتادة والخليل: مجمعاً، والألف واللام في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ إمّا لاستغراق الجنس على مذهب من يرى أنَّ الناس كلهم مخاطبون بفروع الإيمان، وإمَّا للجنس الخاص على مذهب من لا يرى ذلك. ﴿وَأَمْنًا﴾؛ أي: محلَّ أمنٍ لمن يسكنه ويلجأ إليه من الأعداء، والخسف، والمسخ، فإنّ المشركين كانوا لا يتعرَّضون لسكان الحرم، ويقولون: البيت بيت الله، وسكَّانه أهل الله، بمعنى: أهل بيته، وكان الرجل يرى قاتل أبيه في الحرم، فلا يتعرَّض له، ويتعرَّضون لمن حوله، وهذا شيء توارثوه من دين إسماعيل عليه السلام، فبقوا عليه إلى أيام النبي ﷺ، أو يأمن لمن حجَّه من عذاب الآخرة من حيث إنّ الحج يجبُّ ما قبله؛ أي: يقطع ويمحو ما وجب قبله من حقوق الله تعالى غير الماليَّة، مثل: كفارة اليمين، وأمَّا حقوق العباد، فلا يجبُّها الحجُّ. ﴿و﴾ قلنا ﴿اتخذوا﴾؛ أي: اجعلوا يا أمّة محمد! لأنفسكم ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ عليه السلام؛ أي: عند مقام إبراهيم ﴿مُصَلًّى﴾؛ أي: موضع صلاة، فمن هنا بمعنى: عند، والعندية تصدق بجهاته الأربع، والتخصيص بكون المصلى خلفه، إنّما استفيد من فعله ﷺ، وفعل الصحابة بعده؛ أي: واذكر إذ جعلنا البيت مثابةً، وقلنا لكم: اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فهو على تقدير القول؛ لئلا يلزم عطف الإنشاء على الإخبار، ومقام إبراهيم: الحجر الذي قام عليه إبراهيم عند بناء البيت، وفيه أثر قدميه، أو الموضع الذي كان فيه حين قام عليه، ودعا الناس إلى الحج، أو حين رفع بناء البيت، والذي يسمى اليوم مقام إبراهيم هو موضع ذلك الحَجَر.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والجمهور ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ بكسر الخاء على صيغة الأمر، فلا بدّ على هذه القراءة من تقدير

القول، كما مرّ آنفاً. وقرأ نافع، وابن عامر ﴿واتَّخذُوا﴾ بفتحها، جعلوه فعلاً ماضياً عطفاً على ﴿جَعَلْنَا﴾؛ أي: واتَّخذ الناس مقامه الموسوم به؛ يعني: الكعبة قبلةً يصلُّون إليها، فهو إخبار عن قوم إبراهيم أنّهم اتخذوا من مقامه مصلى. وفي «الفتوحات» قرأ نافع، وابن عامر: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ فعلاً ماضياً على لفظ الخبر، والباقون على صيغة الأمر، فأمَّا قراءة الخبر، ففيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾ المخفوض بإذ تقديراً، فيكون الكلام جملة واحدة.

الثاني: أنّه معطوف على مجموع قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ فيحتاج إلى تقدير: إذ؛ أي، وإذ اتخذوا، ويكون الكلام جملتين.

الثالث: ذكره أبو البقاء: أن يكون معطوفاً على محذوف، تقديره: فثابوا واتخذوا.

وأمّا قراءة الأمر ففيها أربعة أوجه:

أحدها: أنّه عطف على ﴿اذْكروا﴾ إذ قيل إنَّ الخطاب هنا لبني إسرائيل؛ أي: اذكروا نعمتي، واتخذوا.

الثاني: أنها عطفٌ على الأمر الذي تضمنه قوله ﴿مَثَابَةً﴾ كأنَّه قال: ثوبوا، واتخذوا، ذكر هذين الوجهين المهدويّ.

الثالث: أنّه معمولٌ لقول محذوف؛ أي: وقلنا اتخذوا بأن قيل: إنّ الخطاب لإبراهيم وذرّيته، أو لمحمد ﷺ وأمّته.

الرابع: أن يكون مستأنفاً. اهـ. «سمين».

وروي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (أنّ إبراهيم عليه السلام كان يبني البيت، وإسماعيل يناول الحجارة، ويقول: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾! فلمَّا ارتفع البنيان، وضعف إبراهيم عن وضع الحجارة، قام على حجرٍ وهو مقام إبراهيم عليه السلام فبناء البيت كان متأخّراً من بناء مكة، وكُلّ منهما في زمن إبراهيم، أمّا الأول، فبناء إبراهيم، وأمّا الثاني، فبناء طائفة من جرهم، كما في تاريخ مكة.

وروي: أنّه لمَّا أتى إبراهيم بإسماعيل وهاجر، ووضعهما بمكة، وأتت على ذلك مُدّةٌ، ونزلها الجرهميُّون، وتزوَّج إسماعيل منهم امرأة، وماتت هاجر، استأذن إبراهيم سارة في أن يأتي هاجر، فأذنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فقدم إبراهيم، وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيَّد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم، فيصيد، فقال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليست عندي، وسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن في ضيق وشدّةٍ، فشكت إليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: فليغيِّر عتبة بابه، والمراد: ليطلِّقكِ، فإنّك لا تصلحين له امرأةً، وذهب إبراهيم، فجاء إسماعيل، فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحدٌ؟ قالت: جاءني شيخٌ صفته كذا وكذا، كالمستخفَّة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال: أقرئي زوجك السلام وقولي له: فليغيِّر عتبة بابه، قال: ذلك أبي، وقد أمرني أن أُفارقك، ألحقي بأهلك، فطلَّقها وتزوَّج منهم أخرى، فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثُمَّ استأذن سارة في أن يزور إسماعيل، فأذنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيَّد، وهو يجيء الآن إن شاء الله، فانزل رحمك، قال: هل عندك ضيافةٌ؟ قالت: نعم، فجاءت باللبن، واللحم، وسألها عن عيشهم؟ قالت: نحن في خير وسعة، فدعا لهما بالبركة، ولو جاءت يومئذٍ بخبز بُرٍّ، أو شعيرٍ، أو تمرٍ لكانت أكثر أرض الله بُرّاً، أو شعيراً، أو تمراً، وقالت له: انزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءت بالمقام فوضعته على شقِّه الأيمن، فوضع قدمه عليه وهو راكبٌ، فغسلت شقَّ رأسه الأيمن، ثمّ حوَّلته إلى شقه الأيسر، فغسلت شقَّ رأسه فبقي أثر قدميه عليه، وقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: قد استقامت بابك، فلمَّا جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، جاء شيخٌ أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً، فقال لي: كذا وكذا، وغسلت رأسه، وهذا موضع قدميه، فقال: ذلك إبراهيم، وأنت عتبة بابي، أمرني أن أمسكك، ثُمَّ لبث عنهم ما شاء الله، ثُمَّ جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً تحت دوحة قريبة من زمزم، فلمَّا رآه قام

إليه، فصنع كما يصنع الولد بالوالد، ثمّ قال: يا إسماعيل! إنّ الله أمرني بأمرٍ، أتعينني عليه؟ قال: أعينك عليه، قال: أمرني أن أبني ههنا بيتاً، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، فلمّا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام إبراهيم على حجر المقام وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجر، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ثمَّ لمَّا فرغ من بناء الكعبة قيل له: أَذِّنْ في الناس بالحج، فقال: أنادي وأنا بين الجبال! ولم يحضرني أحدٌ! فقال الله: عليك النداء، وعليَّ البلاغ، فصعد أَبَا قُبيسٍ، وصعد هذا الحجر، وكان قد خُبىءَ في أبي قُبيسٍ أيامَ الطوفان، فارتفع هذا الحجر حتى علا كُلَّ حجر في الدنيا، وجمع الله له الأرض كالسفرة، فنادى: يا معشر المسلمين! إنّ ربّكم بنى لكم بيتاً، وأمركم أن تحجُّوه، فأجابه الناس من أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، فمن أجابه مرّةً حجَّ مرة ومن أجابه عشراً حج عشراً. وفي الحديث: «إنَّ الركنَ والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، ولولا مماسة أيدي المشركين لأضاءتا. ما بَيْنَ المشرقِ والمغربِ» والمرادُ منهما: الحجر الأسود والحجر الذي قام عليه إبراهيم عند بناء البيت.

﴿و﴾ اذكر يا محمد! لأمّتك قصّة إذ ﴿عهدنا﴾ وأوصينا ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ وأمرناهما بـ﴿أن﴾ أسّسا بيتي على التقوى و﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ من الأوثان والأنجاس كُلِّها؛ يعني: الكعبة وأضافه إليه؛ تشريفاً له؛ أي: عهدنا إليهما، وأمرناهما أمراً مؤكَّداً، ووصَّينا إليهما، فإنَّ العهد قد يكون بمعنى الأمر والوصيّة، يقال: عهد إليه؛ أي: أمره ووصَّاه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ وسمَّاه بيته؛ لأنه جعله معبداً للعبادة الصحيحة، وأمر المُصلِّين بأن يتوجَّهُوا إليها، وفي إبراهيم[1] سبع لغات: أشهرها إبراهيم بألفٍ وياءٍ، وإبراهام بألفين، والثالثة: إبراهم بألف بعد الراء وكسر الهاء دون ياء، الرابعة: كذلك إلاّ أنّه بفتح الهاء، والخامسة: كذلك إلاّ أنّه بضمّ الهاء، السادسة: أبْرَهَم بفتح الهاء

---

(١) الفتوحات.

من غير ألف وياء، السابعة: أبراهوم بالواو. اهـ. «سمين». وإسماعيل: اسم أعجمي، وفيه لغتان: اللام والنون، ويجمع على سماعلة، وسماعيل، وأساميع، ومن أغرب ما نقل في تسميته: أنَّ إبراهيم لما دعا الله تعالى أن يرزقه ولداً، كان يقول في دعائه: اسمع إيل! اسمع إيل! وإيل: اسم الله تعالى بالسريانية، فلمَّا ولد سمَّاه بذلك؛ أي: أمرناهما، وألزمناهما، وأوجبنا عليهما أن طهِّرا بيتي؛ أي: أن أسساه وابنياه على التوحيد، وطهِّراه من الأوثان والأنجاس، وعن كُلِّ ما لا يليق به من كُلِّ رجسٍ حسيٍّ ومعنوي، كاللغو، والرَّفث، والتنازع فيه حين أداء العبادات، كالطواف، والسعي بين الصفا والمروة، والعكوف فيه، وكالشرك، والرياء، والسمعة، إلى غير ذلك، والمراد: احفظاه من أن ينصب حوله شيءٌ منها، وأقراه على طهارته، وإلاّ لم يكن هناك إذ ذاك أوثانٌ عند البيت حتى يطهَّر منها، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ فإنّهنّ لم يُطهَّرن من نجس، بل خلقهن طاهراتٍ، كقولك للخياط: وسِّع كم القميص، فإنّك لا تريد أن تقول: أزل ما فيه من الضِّيْق، بل المراد: اصنعه ابتداءً واسع الكمّ.

والحكمة في جعل الله سبحانه معبداً لعباده، وهو هذا البيت؛ لأنَّ الخلق في حاجةٍ إلى التوجه إلى خالقهم بشكر، والثناء عليه، والتوسّل إليه لاستمداد رحمته، ومعونته، وهم يعجزون عن التوجه إلى موجودٍ غيبيٍّ، لا يتقيَّد بمكان، ولا ينحصر في جهة، فعيَّن لهم مكاناً نسبه إليه رمزاً إلى أنَّ ذاته المقدَّسة تحضره والحضور الحقيقيُّ مَحالٌ عليه، فالمراد: أنَّ رحمته الإلٰهية تحضره، ومن ثَمَّ كان التوجُّه إلى هذا المكان، كالتوجُّه إلى تلك الذات العليَّة لو وجد العبد إلى ذلك سبيلاً، وانظر حكمة تخصيص هذه البقعة من بين بقاع الأرض باتخاذه معبداً، فإنَّه من الذخائر المدفونة في قلوب خواص عباده.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ أي: للزائرين الدائرين حوله ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾؛ أي: المقيمين عنده، والمعتكفين فيه؛ أي: المجاورين الذين عكفوا عنده؛ أي: أقاموا عنده لا يرجعون، ولا يذهبون، ولا يرتحلون منه، وهذا في أهل الحرم، والأول؛ أعني: الطائفين في الغرباء القادمين إلى مكة للزيارة والطواف، وإن كان الطواف لا

يختصُّ بهم، إلاّ أن له مزيد اختصاص بهم من حيث إن مجاوزة الميقات لا تجوز لهم إلاّ بالإحرام ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: المصلِّين إليه من سائر البلدان جمع راكعٍ وساجدٍ؛ لأن القيام، والرُّكوع، والسجود من هيئات المصلِّي، ولتقارب الركوع والسجود ذاتاً وزماناً، ترك العاطف بين موصوفيهما، والجلوس في المسجد الحرام ناظراً إلى الكعبة من جملة العبادات الشريفة المرضية، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنّ لله تعالى في كُلِّ يوم مائةً وعشرين رحمةً، تنزل على هذا البيت ستون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين».

واعلم: أنّه تعالى لمّا قال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ دخل فيه بالمعنى: جميع بيوته تعالى، فيكون حكمها حكمه في التطهير، والنظافة، وإنّما خصَّ الكعبة بالذكر؛ لأنّه لم يكن هناك غيرها، وفي الآية: إيماء إلى أنَّ إبراهيم كان مأموراً هو ومن بعده بهذه العبادات، ولكن لا دليل إلى معرفة الطريق التي كانوا يؤدُّونها بها. فالمراد بالطائفين: من يقصد البيت حاجّاً، أو معتمراً، فيطوف به، وبالعاكفين: من يقوم هناك ويجاور فيه، وبالركع السجود: من يصلّي إليه الصلوات الخمس، وغيرها. وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء: إنّ الطواف لأهل الأمصار أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل ﴿و﴾ اذكر يا محمد! لأمّتك قصّة ﴿إذ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ عليه السلام؛ أي: قصّة إذ دعا إبراهيم ربَّه، فقال: في دعائه يا ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ الوادي الأقفر الخالي عن الأنيس، الذي ليس فيه زرعٌ، ولا ماءٌ، ولا بناءٌ ﴿بَلَدًا﴾ مَسْكناً ﴿ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمنٍ يأمن فيه أهله من القحط، والجدب، والخسف، والمسخ، والزَّلازل، والجذام، والبرص، ونحو ذلك من المَثُلاَتِ التي تَحُلُّ بالبلاد غيرها، فهو من باب النَّسب؛ أي: بلداً منسوباً إلى الأمن، كلابن، وتامر، فإنّهما لنسبة موصوفهما إلى مأخذهما، كأنّه قيل: لبنيٌّ وتمريٌّ، فالإسناد حقيقيٌّ، أو المعنى: بلداً آمناً أهله، فيكون من قبيل الإسناد المجازي؛ لأنَّ الأمن الذي هو صفةٌ لأهل البلد حقيقةً، قَدْ أُسْنِدَ إلى مكانهم للملابسة بينهما. وكان هذا الدعاء في أوَّلِ ما قَدِم إبراهيم عليه السلام مكة؛ لأنّه لما أسكن إسماعيلِ وهاجر هناكِ، وعاد مُتوجِّهاً إلى الشام تبعته هاجر، فجعلت تقول: إلى مَنْ تكلنا في هذا البَلْقَعِ؛ أي: المكانِ الخالي من الماء، والنبات،

وهو لا يردُّ عليها جواباً، حتى قالتَ: آلله أمرك بهذا؟ فقال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيِّعنا، فرضِيَتْ، ومضَى، حتى إذا استوى على ثنية كداء، أقبل على الوادي، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ...﴾ إلى آخر الآية، وإنما[1] دعا إبراهيم له بالأمن؛ لأنّه ليس فيه زرع، ولا ثمرٌ، فإذا لم يكن آمناً، لم يجلب إليه شيءٌ من النّواحي، فيتعذَّر المقام فيه، فأجاب الله تعالى دعاء إبراهيم، فجعله بلداً آمناً لا يُسْفَك فيه دم إنسان، ولا يظلم أحد، ولا يصاد صيده، ولا يُخْتَلَى خلاه، فما قُصده جَبَّارٌ إلاّ قصَمَه الله تعالى، كما فعل بأصحاب الفيل، وغيرهم من الجبابرة.

فإن قُلْتَ: ما الفائدة في قول إبراهيم ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ مع قوله تعالى أوّلاً: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا﴾؟

قلت: المراد من الأمن المذكور: أوّلاً الأمن من الأعداء، والخسف، والمسخ، ومن المذكور في دعاء إبراهيم: الأمن من القحط، والجوع، وقيل: معنى بلداً آمناً؛ أي: كثير الخصب، يؤمن فيه من الجوع، والقحط، فإنّ الدنيا إذا طلبت ليُتقوَّى على الدين، كان ذلك من أعظم أركان الدين، فإذا كان البلد آمناً، وحصل فيه الخصب تفرَّغ أهله لطاعة الله، وأيضاً إنَّ الخصب مما يدعو الناس إلى تلك البلدة، فهو سبب اتصاله في الطاعة.

والمعنى[2]: أي قال إبراهيم: ربّ اجعل هذا الوادي من البلاد الآمنة! وهذا دعاء منه أن يكون البيت آمناً في نفسه من الجبابرة، وغيرهم، أن يسلَّطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله، كما تنال سائر البلدان من خسف، وزلزال، وغرق، ونحو ذلك ممَّا يُنْبِىءُ عن سخط الله، ومثلاته التي تصيب سائر البلاد، وقد استجاب الله دعاءه، فلم يقصده أحدٌ بسوءٍ إلا قصم ظهره، ومن تعدَّى عليه لم يطل زمن تعدِّيه، بل يكون تعدّياً عارضاً ثمَّ يزول.

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

﴿وارزق﴾ يا ربّ! ﴿أَهْلَهُ﴾؛ أي: أهل هذا البلد وسُكّانه مواطناً كان، أو مقيماً ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾؛ أي: من أنواع الثمرات، وحمل الشجر: جمع ثمرة وهي المأكولات مما يخرج من الأرض والشجر، فهو سؤال الطعام والفواكه، وقيل: هي الفواكه، وإنّما خصَّ هذا بالسؤال؛ لأنّ الطعام المعهود مما يكون في كُل موضع، وأمّا الفواكه، فقد تندر، فسأل لأهله الأمن، والسعة، مما يطيب العيش، ويدوم، وقد تحصل في مكّة الفواكه الربيعيَّة، والصيفيَّة، والخريفيَّة في يوم واحد، فاستجاب له في ذلك؛ لما روي أنّه لما دعا هذا الدعاء، أمر الله سبحانه جبريل بنقل قرية من قرى فلسطين كثيرة الثمار إليها، فأتى جبريل فقلعها، وجاء بها، وطاف بها حول البيت سبعاً، ثم وضعها على ثلاث مراحل من مكة وهي الطائف، ولذلك سُمِّيت به، ومنها أكثر ثمرات مكة، ويجيءُ إليها أيضاً من الأقطار الشَّاسِعَة، والبلاد النَّائية، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، خصوصاً في هذا الزمان بالطائرات، والباخرات، والسيَّارات، وهذا آيةٌ من آيات الله، فسبحانه فعالاً لما يريد، وخصّ الثمرات حيث لم يقل من الحبوب؛ لما في تحصيلها من الذلّ الحاصل بالحرث، وغيره، فاقتصاره على الثمرات؛ لتشريفهم، ثم أبدل قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من أهله بدل بعض من كل؛ مراعاة لحسن الأدب، وترغيباً لقومه في الإيمان؛ أي: وارزق المؤمنين بالله وباليوم الآخر من أهله خاصة ﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: أي: ارزق من آمن منهم ومن كفر أيضاً.

قاس إبراهيم عليه السلام الرزق على الإمامة، حيث سأل الرزق لأجل المؤمنين خاصة، كما خصّ الله تعالى الإمامة بهم في قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فلمّا ردّ سؤال الإمامة في حقّ ذرّيته على الإطلاق، حسب أن يردَّ سؤاله الرزق في حقّ أهل مكة على الإطلاق، فلذلك قيد بالإيمان تأدُّباً بالسؤال الأول، فنبَّه سبحانه على أنَّ الرزق رحمةٌ دنيويَّةٌ تعمُّ المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدُّم؛ أي: وأَرْزُقُ أيضاً من كفر بالله واليوم الآخر ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾؛ أي: أمدُّ له ليتناول من لذات الدنيا؛ إثباتاً للحجة عليه، وأمتعه تمتيعاً ﴿قَلِيلًا﴾ فإنّ الدنيا بكليتها قليلةٌ، وما يتمتَّع الكافر به منها قليلٌ من القليل، فإنَّ نعمته تعالى في الدنيا

وإن كانت كثيرة بإضافة بعضها إلى بعض، فإنّها قليلةٌ بإضافتها إلى نعمة الآخرة، وكيف لا يقلُّ ما يتناهى بالإضافة إلى ما لا يتناهى، فقليلاً: صفة لمصدر محذوف، كما قدَّرنا، ويجوز أن يكون صفة لظرف محذوف؛ أي: أُمتِّعُه زماناً قليلاً، وهو مدَّة حياته ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾؛ أي: ثمّ بعد تمتيع ذلك الكافر مدّة حياته أضطرُّه؛ أي: ألجئه، وأرجعه، وأسوقه في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ فلا يجد عنها محيصاً، والاضطرار في اللُّغة: حمل الإنسان على ما يضرُّه، وهو في المتعارف: حمل الإنسان بكفره على أن يفعل ما أكره عليه باختياره، فلا يكون اضطرارهم إلى عذاب النار مستعملاً في معناه العرفي، فهو مستعارٌ لِلَزِّهِمْ، وإلصاقِهِم به، بحيث يتعذَّر عليهم التخلّصُ منه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فإنَّه صريحٌ في أن لا مدخل لهم في لحوق عذاب الآخرة بهم، ولا اختيار إلاّ أنّهم سُمُّوا مضطرين إليه مختارين إيّاه على كُره، تشبيهاً لهم بالمضطر الذي لا يملك الامتناع عمَّا اضطرّ إليه، فالمعنى: أَلُزُّهُ إليه لَزَّ المضطرِّ لكُفْرِه، وتضييعهِ ما متَّعتُهُ به من النِعَم بحيث لا يمكن الامتناعَ منه ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: قَبُح المرجع مرجعُه المخصوص بالذمّ محذوف؛ أي: بئس المرجع الذي يرجع إليه للإقامة فيه النارُ، أو عذابها، فللعبد في هذه الدنيا الفانية الإمهالُ أيّاماً لا لإهمالٍ، إذ كُلُّ نفس تُجزى بما كسبت، ولا تغرَّنك الزخارف الدنيوية، فإنَّ للمطيع والعاصِي نصيباً منها، وليس ذلك من موجبات الرفعة في الآخرة، فعلى العاقل أن لا يغترَّ بالزخارف الدُّنيوية، بل لا يفرح بشيء سوى الله تعالى، فإنَّ ما خلا الله باطلٌ وزائلٌ، والاغترار بالزائل الفاني ليس من قضيّة كمال العقل، والفهم، والعرفان.

وقرأ الجمهور[1] من السبعة ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ مشدَّداً على الخبر. وقرأ ابن عامر ﴿فأمتعه﴾ مخفَّفاً على الخبر. وقرأ هؤلاء ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ خبراً، وقرأ يحيىٰ بن وثاب: ﴿فأُمْتِعهُ﴾ مخفَّفاً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ بكسر الهمزة، وهما خبران. وقرأ ابن محيصن ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ بإدغام الضاد في الطاء خبراً. وقرأ يزيد بن أبي حبيب ﴿ثُمَّ

---

(١) البحر المحيط.

أَضۡطَرُّهُۥٓ﴾ بضمّ الطاء خبراً. وقرأ أبيُّ بن كعب ﴿فنُمتِّعُه ثمّ نضطرُّه﴾ بالنون فيهما. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: ﴿فأَمْتِعْهُ قليلاً ثم اضْطرَّه﴾ على صيغة الأمر فيهما، فأمَّا على هذه ـ القراءة، فيتعيَّن أن يكون الضمير في ﴿قَالَ﴾ عائداً على إبراهيم لمَّا دعا للمؤمنين بالرزق، دعا على الكافرين بالإمتاع القليل، والإلزاز إلى العذاب، ومَنْ على هذه القراءة يحتمل أن تكون في موضع رفع بالابتداء على أن تكون موصولة، أو شرطية، وفي موضع نصب على الاشتغال على الوصل أيضاً وأمّا على قراءة الباقين، فيتعيَّن أن يكون الضمير في قال عائداً على الله تعالى، ومَنْ يحتمل أن يكون في موضع نصب على إضمار فعل، تقديره: قال الله: وأرزق مَنْ كفر فأمتعه، ويكون ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ معطوفاً على ذلك الفعلِ المحذوف الناصب لِمَنْ، ويحتمل أن تكون ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع على الابتداء إمّا موصولاً، وإمّا شرطاً، والفاء فاءُ جواب الشرط، أو الداخلة في خبر الموصول؛ لشبهه باسم الشرط. انتهى. ملخصاً من «البحر».

وحاصل مَعنى الآية: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. الخ. أي: وارزق[1] أهله من أنواع الثمار، إمّا بزرعها بالقرب منه، وإمّا بأن تجبى إليه من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما استجابةً لدعوة إبراهيم، كما هو مشاهدٌ، وقد جاء في سورة القصص ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وخصَّ إبراهيم بدعائه المؤمنين، وإن كان سبحانه لواسع رحمته، جعل رزق الدنيا عاماً للمؤمنين والكافرين ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾؛ لأنَّ تمتيع الكافرين قصيرٌ محدودٌ بذلك العمر القصير، ثمَّ إلى النار وبئس المصير، وهذا ما بيَّنه عزَّ اسمه بقوله: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ...﴾ إلخ. أي: قال الله سبحانه: يا إبراهيم! قد أجبت دعوتك، ورزقت مؤمن أهل البلد من الثمرات، ورزقت كفارهم أيضاً، وأمتعهم بهذا الرزق أمداً قليلاً، وهو مدّة وجودهم في الدنيا، ثم أسوقهم إلى عذاب النار سوقاً اضطرارياً لا اختيار لهم فيه، ولا يعلمون أنَّ عملهم ينتهي بهم إليه.

---

(١) المراغي.

ذاك أنَّ أعمال البشر التي تقع باختيارهم، لها آثارٌ وغاياتٌ اضطراريَّةٌ تنتهي بهم إليها، وتكون نتيجةً لها، بحسب ما وضعه الله سبحانه في نظام الكون، من وجود المسببات عقب وجود أسبابها، فالإسراف في الشهوات يفضي إلى بعض الأمراض في الدنيا، كذلك الكفار، والفساق، مختارون في كفرهم، وفسوقهم، وتكون نتيجة ذلك سوقهم إلى عذاب النار بمقتضى السُّنن الموضوعة. وكُل أعمال الإنسان النفسانية، والبدنية، لها الأثر الذي يفضي بصاحبها إلى السعادة، أو الشقاء، وهي أعمال كسبية اختيارية، فالإنسان متمكّن من اختيار الحق، وترك الباطل، وترك الخبيث، وفعل الطيّب بما أعطاه الله من العقل، وبما نزَّل عليه من الوحي، فإذا حاد عن ذلك يكون قد ظلم نفسه، وعرَّضها للعذاب، والشَّقاء بأعماله التي مبدؤها كسبي، وأثرها اضطراريٌّ، وهذه السُّنن بقضاء الله وتقديره، ومن ثَمّ يصحُّ أن يقال: إنَّ الله قد اضطرّ الكافر إلى العذاب، وأَلْجَأَهُ إليه، وجعل الأرواح المدنَّسة بالأخلاق الذميمة، أو بالعقائد الفاسدة محلَّ سخطه، وموضع انتقامه في الآخرة، كما جعل أصحاب الأمراض القذرة عرضةً للأمراض في الدنيا.

الإعراب

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ الواو استئنافية ﴿لله﴾ خبر مقدّم ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾ مبتدأ مؤخّر ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾ والجملة الإسمية مستأنفة، ولكنّها مرتبطة من حيث المعنى بقوله: ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ يعني: أنّه إن سعى ساع في المنع من ذكره تعالى، وفي خراب بيوته، فليس ذلك مانعاً من أداء العبادة في غيرها؛ لأنّ المشرق والمغرب وما بينهما له تعالى. ذكره في «الفتوحات» ﴿فَأَيْنَمَا﴾ الفاء فاء الفصيحة، مبنية على الفتح؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن المشرق والمغرب لله تعالى، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم، فأقول لكم: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ ﴿أين﴾ اسم شرط جازم يجزم فعلين في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الفتح، والظرف متعلق بفعل الشرط؛ أعني:

تولّوا ﴿ما﴾ زائدة زيدت، لإفادة العموم ﴿تُوَلُّواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بأين على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون، والواو ضمير لجماعة المخاطبين في محل الرفع فاعل ﴿فَثَمَّ﴾ الفاء رابطة لجواب أين الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿ثَمَّ﴾ اسم إشارة يشار به للمكان البعيد في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الفتح، والظرف متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه خبراً مقدّماً ﴿وَجْهُ اللَّهِ﴾ مبتدأ مؤخّر ومضاف إليه، والجملة الإسمية في محل الجزم بأين على كونها جواباً لها، وجملة أين الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿وَاسِعٌ﴾ خبر أوّل له ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها.

﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾:

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾. ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ و﴿اتَّخَذَ﴾ هنا بمعنى: صنع، يتعدّى إلى مفعول واحد ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ﴿سبحان﴾ مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبّح سبحانه؛ أي: أنزّه الله تعالى عن اتخاذ الولد تنزيهاً، والهاء ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة في محل الجر مضاف إليه، وجملة التسبيح معترضة، فهو تعالى نزّه نفسه بنفسه ﴿بَل﴾ حرف عطف وإضراب، أو حرف ابتداء وإضراب ﴿لَّهُ﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخّر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ متعلق بمحذوف صلة الموصول ﴿وَالْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ والجملة الإسمية معطوفة على جملة ﴿قالوا﴾ عطف اسمية على فعلية، أو مستأنفة ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ وسوّغ الابتداء بالنكرة؛ ما فيه من العموم، والتنوين عوض عن مضاف إليه محذوف؛ أي: كل فرد من أفراد المخلوقات ﴿لَّهُ﴾ متعلق بقانتون، و﴿قَانِتُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة

الإسمية مستأنفة، وجمع الخبر؛ مراعاة لمعنى كل، وجمعه جمع العقلاء؛ تغليباً لهم على غيرهم ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو بديع السموات، والجملة مستأنفة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مضاف إليه ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على السموات، وهو من باب إضافة الصفة المُشبَّهة إلى فاعلها، والأصل: بديعٌ سمواته ﴿وَإِذَا﴾ الواو استئنافية ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه متعلّق بالجواب ﴿قَضَىٰٓ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿أَمْرًا﴾ مفعولٌ به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذا على كونها فعل شرط لها ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء رابطة لجواب إذا جوازاً ﴿إنما﴾ أداة حصر ﴿يَقُولُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور متعلّق بيقول، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة ﴿كُن﴾ مقولٌ محكي ليقول منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بسكون الحكاية، وهو أمر من كان التامة، بمعنى: أُحْدُثْ، وكذلك قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾؛ أي: يحدث ﴿فَيَكُونُ﴾ الفاء استئنافية ﴿يكون﴾ فعل مضارع تام، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَمْرًا﴾ والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو يكون، والجملة الإسمية مستأنفة أيضاً، ويعزى هذا القول إلى سيبويه، وقال الزجاج، والطبري: إنّ جملة قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ معطوف على جملة ﴿يَقُولُ﴾ والفاء حينئذٍ عاطفة، وقال الفارسي: معطوفة على ﴿كُن﴾ من حيث المعنى. ذكره في «الفتوحات».

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة قوله: ﴿وقالوا﴾ أو مستأنفة، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ﴾ مقول محكي، لقال، منصوب بفتحة مقدرة على الأخير، وإن شئت قلت: ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض بمعنى: هلاّ، والتحضيض: الطلب بحثّ وازعاج ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿أَوْ﴾

حرف عطف وتفصيل، ﴿تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ﴾ فعل ومفعول وفاعل والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يُكَلِّمُنَا﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف اسم بمعنى: مثل، في محل النصب على أنّه صفة لمصدر محذوف قدّم على عامله؛ لإفادة الحصر، تقديره: قولاً مثل قول الذين لا يعلمون، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة الموصول، تقديره: قال الذين كانوا من قبلهم ﴿مِّثْلَ﴾ بدل من الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بدل كل من كل، جيء به؛ لتأكيد معنى المثلية، وهو مضاف ﴿قَوْلِهِمْ﴾ مضاف إليه مجرور ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة؛ لتقرير ما قبلها ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿لِقَوْمٍ﴾ متعلق ببينا، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ صفة لقوم.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، والجملة الإسمية مستأنفة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من المفعول في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ أي: حال كونك ملتبساً بالحق، أو من الفاعل؛ أي: حالة كوننا ملتبسين بالحق، والأوّل أولى؛ لموافقة ما بعده ﴿بَشِيرًا﴾ حال ثانية من الكاف أيضاً، تقديره: حالة كونك مبشراً بالجنة لمن اتبعك ﴿وَنَذِيرًاۖ﴾ معطوف على ﴿بَشِيرًا﴾؛ أي: وحالة كونك منذراً لمن خالفك بالعذاب ﴿وَلَا﴾ الواو استئنافية على الأرجح، أو عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿تُسْـَٔلُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بالضمّة، ونائب فاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة الفعلية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿إن﴾ ﴿عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتسأل.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَلَن﴾: الواو استئنافية ﴿لن﴾ حرف نصب ونفي ﴿تَرْضَىٰ﴾ فعل مضارع منصوب بلن ﴿عَنكَ﴾ متعلق بترضى، ﴿ٱلْيَهُودُ﴾ فاعل ﴿وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ معطوف على

﴿ٱلْيَهُودُ﴾ والجملة مستأنفة ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جرّ وغاية بمعنى: إلى ﴿تَتَّبِعَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، منصوب بأن مضمرة وجوباً، بَعْدَ حتى بمعنى: إلى ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه، وجملة أن المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى: إلى، تقديره إلى اتباعك ملّتهم، الجار والمجرور متعلق بترضى ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ مقول محكي لقل، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَلَئِنِ﴾ الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم ﴿إِنْ﴾ حرف شرط ﴿ٱتَّبَعْتَ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ مفعول به، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه جواب القسم، تقديره: إن اتبعت أهواءهم فما لك من ولي ولا نصير، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق باتبعت ﴿جَآءَكَ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ حال من فاعل ﴿جاءَكَ﴾ ﴿مَا﴾ نافية ﴿لَكَ﴾ خبر مقدم، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور تنازع فيه، كل من ولي ونصير ﴿مِن﴾ زائدة ﴿وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخّر ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على ﴿وَلِيٍّ﴾، والتقدير: ما ولي ولا نصير من عذاب الله كائنان لك، والجملة الإسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب؛ جرياً على القاعدة المشهورة عندهم: من أنّه إذا اجتمع شرط وقسم، يحذف جواب المتأخر منهما، كما قال ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقَسَمْ   جواب ما أخرّت فهو ملتَزَمْ

وجملة القسم مع جوابه مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ أول ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ ولكنّها حال

مقدّرة؛ لأنّهم لم يكونوا تالين حال إبتائه، تقديره: حالة كونهم تالين إياه ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثانٍ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بالنون ﴿بِهِۦۗ﴾ متعلق بيؤمنون، والجملة الفعلية خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول، وجملة الأول مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿وَمَن﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿يَكْفُرْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على مَن مجزوم بمَن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بيكفر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط وجوباً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، أو معطوفة على ما قبلها ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يا حرف نداء ﴿بني إِسْرَائيلَ﴾ منادى مضاف منصوب بالياء ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱذْكُرُواْ﴾ فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والجملة الطلبية جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿نِعْمَتِيَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿ٱلَّتِيٓ﴾ اسم موصول صفة لنعمتي، ﴿أَنْعَمْتُ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: التي أنعمتها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بأنعمت ﴿وَأَنِّي﴾ الواو عاطفة ﴿أني﴾ ناصب واسمه ﴿فَضَّلْتُكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق بفضّلت، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر أن، وجملة أن في تأويل مصدر معطوف على ﴿نِعْمَتِيَ﴾ تقديره: اذكروا نعمتي التي أنعمتها عليكم، وتفضيلي إياكم على العالمين.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ فعل أمر معطوف على ﴿ٱذْكُرُواْ﴾ على كونها جواب النداء ﴿يَوْمًا﴾ مفعول به ﴿لَّا﴾ نافية ﴿تَجْزِى نَفْسٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة ليوماً، ولكنّها سببية، والرابط محذوف، تقديره: لا تجزي فيه نفس ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ متعلق بتجزي ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به لتجزي ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ زائدة زيدت؛ لتأكيد نفي ما قبلها ﴿يُقْبَلُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بيقبل

﴿عَدۡلٞ﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة لا تجزي، والرابط أيضاً محذوف، تقديره: فيه ﴿وَلَا تَنفَعُهَا﴾ فعل ومفعول به ﴿شَفَٰعَةٞ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّا تَجۡزِي﴾. ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَّا﴾ نافية مهملة ﴿هُمۡ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ من الفعل المغيّر، ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَّا تَجۡزِي﴾.

﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾.

﴿وَإِذِ﴾ الواو استئنافية ﴿إِذِ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد! لأمتك قصة إذ ابتلى إبراهيم، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿ٱبۡتَلَىٰٓ﴾ فعل ماض ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ مفعول مقدّم على فاعله وجوباً؛ لاتصال الفاعل بضميره، فلو قدم الفاعل عليه لزم عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة، قال ابن مالك:

وشاع نحو خاف ربَّه عمرْ وشذّ نحو زان نوره الشجر

﴿رَبُّهُۥ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ، وهذا على القراءة المشهورة، وأمّا على القراءة غير المشهورة فـ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ فاعل و﴿رَبَّهُۥ﴾ مفعول به، والتركيب جار على أصله ﴿بِكَلِمَٰتٖ﴾ متعلق بابتلى ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ الفاء عاطفة ﴿أتمهن﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، ومفعول به معطوف على ابتلى، ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الربّ، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: فماذا قال ربّه حين أتمّ الكلمات؟ فقيل: قال: ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه ﴿جَاعِلُكَ﴾ خبره ومضاف إليه، وهو من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله الأول ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بجاعلك، أو بمحذوف حال من ﴿إِمَامٗاۖ﴾؛ لأنّه صفة نكرة قدمت عليها، والأصل إماماً كائناً للناس ﴿إِمَامٗاۖ﴾ مفعول ثانٍ لجاعلك، وجملة إنّ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة واقعة

في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: فماذا قال إبراهيم بعد قول الربّ: إني جاعلك للناس إماماً. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ الواو عاطفة في المعنى على معنى ﴿جَاعِلُكَ﴾ عطفاً تلقينياً ﴿من ذريتي﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف، تقديره: واجعل من ذرّيتي إماماً للناس، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر أيضاً، كأنّه قيل: ماذا قال ربّه؟ فقيل: قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي...﴾ الخ؛ ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَنَالُ﴾ فعل مضارع ﴿عَهۡدِي﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾.

﴿وَإِذۡ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد! قصة ﴿إذ قال ربّك﴾، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ أو مستأنفة ﴿جَعَلۡنَا﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾ مفعول أول ﴿مَثَابَةٗ﴾ مفعول ثان ﴿لِّلنَّاسِ﴾ متعلق بجعلنا، أو محذوف صفة لـ﴿مَثَابَةٗ﴾. ﴿وَأَمۡنٗا﴾ معطوف على ﴿مَثَابَةٗ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ الواو عاطفة لقول محذوف، تقديره: وقلنا لهم، قلنا: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿جَعَلۡنَا﴾. ﴿اتخذوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف ﴿مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق باتخذوا ﴿مُصَلّٗىۖ﴾ مفعول ﴿اتخذوا﴾. ﴿وَعَهِدۡنَآ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿جَعَلۡنَا﴾. ﴿إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ متعلق بعهدنا ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ معطوف على ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾. ﴿أَن﴾ مفسرة، بمعنى: أي، مبني على السكون ﴿طَهِّرَا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والألف فاعل ﴿بَيۡتِيَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ متعلق بطهّراً ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾ معطوف على ﴿الطائفين﴾ ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾ معطوف أيضاً على ﴿الطائفين﴾ ﴿ٱلسُّجُودِ﴾ معطوف عليه أيضاً، ولما كان الركوع

والسجود بمثابة كلمة واحدة؛ لأنّ الركوع والسجود ركنان متّصلان، أسقط حرف العطف من بينهما، ونزّلهما منزلة الكلمة الواحدة، ولو عطف السجود بالواو، ولأوهم أنهما عبادتان منفصلتان.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد! قصة ﴿إذ قال إبراهيم﴾، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي لقال إبراهيم، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱجْعَلْ﴾ فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباري سبحانه، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة في محل النصب مفعول أوّل لأجعل ﴿بَلَدًا﴾ مفعول ثان ﴿ءَامِنًا﴾ صفة لبلداً، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾ فعل دعاء وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به معطوف على ﴿ٱجْعَلْ﴾. ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلق بارزق ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب بدل من ﴿أَهْلَهُۥ﴾ بدل بعض من كل، والرابط ضمير ﴿مِنْهُم﴾ ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿مِنْهُم﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بآمن ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿وَمَن كَفَرَ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿وَمَن﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة عطفاً تلقينياً على محذوف، تقديره: من آمن أرزقه من الثمرات، ومن كفر أمتعه قليلاً، والجملة المحذوفة مع ما عطف عليها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول، أو اسم شرط في محل الرفع مبتدأ ﴿كَفَرَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ في محل الجزم بمن الشرطية على كونه فعل شرط لها، إن قلنا:

﴿مَنۡ﴾ اسم شرط، وجملة الشرط في محل الرفع خبر ﴿مَنۡ﴾ الشرطية، أو الخبر جملة الجواب، أو هما. إن قلنا: ﴿مَنۡ﴾ شرطية، أو الجملة الفعلية صلة ﴿مَنۡ﴾ الموصولة إن قلنا: ﴿مَنۡ﴾ موصولة، والعائد ضمير الفاعل في ﴿كَفَرَ﴾ ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿مَنۡ﴾ الشرطية جوازاً. إن قلنا: ﴿مَنۡ﴾ شرطية، أو زائدة في خبر المبتدأ، لما في المبتدأ من شبه الشرط إن قلنا ﴿مَنۡ﴾ موصولة ﴿أمتّعه﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به ﴿قَلِيلٗا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: تمتيعاً قليلاً، أو على الظرفية، أي: زماناً قليلاً، والجملة الفعلية في محل الجزم بمن الشرطية. إن قلنا: إنّها اسم شرط، أو خبر المبتدأ. إن قلنا: إنها موصولة، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿أَضۡطَرُّهُۥٓ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أمتّعه﴾ ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأضطّره ﴿وَبِئۡسَ﴾ الواو استئنافية، ولا يصحّ هنا كونها عاطفة؛ لئلاّ يلزم علينا عطف الإنشاء على الإخبار، كما في المغني ﴿بئس﴾ فعل ماض لإنشاء الذمّ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ فاعل بئس، والجملة مستأنفة لإنشاء الذمّ، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: النار أو عذابها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ هما من الألفاظ الشاذة التي انفردت بالكسر على الشذّوذ، لما علم عند الصرفيين أنّه إذا لم تكسر عين المضارع، فحق اسم المصدر، والمكان، والزمان، فتح العين قياساً لا تلاوة ﴿أينما تولوا﴾ أصل تولّوا: تُولِّيُون، حذفت منه نون الرفع للجازم، ثم استثقلت الضمة على الياء؛ فحذفت تخفيفاً، فسكنت فالتقى ساكنان، الياء، والواو، فحذفت الياء، وصُحِّحت حركة اللام بجعلها ضمة، لتناسب الواو، فصار تولّوا ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ وثَمَّ: اسم إشارة للمكان البعيد خاصَّةً، مثل: هَنَّا وهِنَّا بتشديد النون، وهو مبني؛ لتضمّنه معنى حرف الإشارة، وفي «المختار»: الوجه والجهة بمعنًى، والهاء عِوضٌ عن الواو؛ أي: فثمّ جهته التي ارتضاها قبلةً، وأمر بالتوجه نحوها ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ واتخذ افتعَلَ من تَخِذَ بكسر العين يَتْخَذُ، بفتحها، في المضارع،

فأدغمت فاءُ الفعلِ التي هي التاء الأولى في تاء الافتعال، والمادةُ معناها بمعنى: أخذ، فتَخِذَ وأخذ بمعنى واحدٍ، خلافاً لابن الأثير القائل: بأنّها مادّة مستقلّة، وليست من الأخذ في شيء محتجّاً بأنّ فاء الأخذ همزة، والهمزة لا تدغم في التاء؛ يعني: أنّ افتعل من أخذ قياسه ائتخذ.

قلت: قول ابن الأثير: إنّ فاء الكلمة إذا كان همزة لا يبدل تاء إن كان يعني قياساً، فمسلَّمٌ، وإلاّ فإبدال الهمزة ياءً، وإبدال الياء تاءً، وإدغامها في تاء الافتعال واردٌ، لكنّه شاذٌّ كما عقد ذلك ابن مالك في باب التصريف بقوله:

ذو اللِّيْنِ فَاتَا في افْتِعالٍ أُبْدِلا وَشذّ في ذي الهمز نَحْوُ ائْتَكَلا

يعني: أنَّ فاء الكلمة إذا كان همزةً شذَّ إبدالها تاءً، كما قالوا: اتكل، واتَّزَرَ بإبدال الياء المبدلة من الهمزة تاءً، ولكن الأشمونيَّ وافق ابن الأثير، ونسب الجوهريَّ إلى الوهم في دعواه أنّها من الأخذ، كما نسبه ابن الأثير في النهاية، أمّا صاحب «القاموس»: فقد وافق الجوهري في مذهبه مصدِّراً به كلامه، ثم ذكر كلام ابن الأثير الذي نقَلْتُه، وعلى كل حالٍ اتخذ وزنه افتعل، سواء أكان من الأخذ، أو من تخذ، وذهب بعض المتأخّرين إلى أنَّ اتخذ أصله: وخذ واويُّ الفاء، وعليه يكون إبدالها تاءً جاء على اللغة الفصحى من إبدال فاء الكلمة تاء إذا كان حرف لين، وبني منها افتعالٌ، والله أعلم.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من باب الصفة المشبهة التي أضيفت إلى منصوبها الذي كان فاعلاً في الأصل، والأصل: بديعٌ سمواته؛ أي: بدعت لمجيئها على شكلٍ فائق حسنٍ غريب، ثمّ شبّهت هذه الصفة باسم الفاعل، فتنصب ما كان فاعلاً، ثُمَّ أضيفت إليه تخفيفاً، وهكذا كل ما جاء من نظائره بالإضافة لا بدّ، وأن تكون من نصبٍ؛ لئلا يلزم إضافة الصفة إلى فاعلها، وهو لا يجوز، كما لا يجوز في اسم الفاعل الذي هو الأصل. اهـ. «سمين». وفي «القاموس»: وبَدُعَ، ككرم بداعةً وبدوعاً. اهـ.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أصله: قَضَيَ بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، والقضاء له معانٍ كثيرةٌ، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، فيكون

بمعنى خلق، نحو: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ وبمعنى: أعلم، نحو: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وبمعنى: أمر، نحو: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وبمعنى: وفى، نحو: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ وبمعنى: ألزم، نحو: قضى بكذا، وبمعنى: أراد، نحو: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ وبمعنى: قدر وأمضى تقول: قضى يقضي قضاء. اهـ. من «السمين». ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ أمرٌ من كان التامة، فأصل كن: يَكْوُن بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الكاف، فسكنت فالتقى ساكنان، الواو، وآخر الفعل المسكن لبناء الأمر، فحذفت الواو، فصار كن بوزن فل ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أصله: ييقنون من اليقين، أبدلت الياء واواً؛ لسكونها إثر ضمة، كما قال ابن مالك في باب الإبدال من «الخلاصة»:

ووجب:

إبــدالُ واوٍ بَــعْــدَ ضــمٍ مِــنْ أَلِــفْ وَيــا كَـمُــوقِــنٍ بِــذَالِــهــا اعْــتَــرِفْ

بمعنى: أنَّ الألف إذا كانت قبلها ضمَّة أبدل واواً، كوارى إذا بُني للمجهول، يقال: وُوري، وأنَّ الياء إذا سُكِّنت بعد ضمٍّ أُبدلت واواً، كما في يوقنون، يُيْقنون من اليقين، وكذلك موسرٌ، أصله: مُيْسِرٌ من اليسار ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وفي «القاموس»: الجحيم: النار الشديدة التأجُّج، وكُلُّ نار بعضها فوق بعض، وجحمها كمنعها أوقدها، فَجَحُمَت، ككَرُمت جحوماً، وجَحِمت، كفَرِح جحماً وجحماً وجحوماً اضطرمت، والجاحم: الجمر الشديد الاشتعال، ومن الحرب معظمها. اهـ.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ﴾ أصل ترضى: ترضَي بوزن تفعَل، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، والرضا ضدُّ الغضب، وهو من ذوات الواو لقولهم: الرضوان، والمصدر رِضًى ورضاءً بالقصر والمدّ، ورضوانٌ بكسر الراء وضمّها، وقد يضمَّن معنى عطف، فيتعدَّى بعلى، كقوله:

إذا رَضِـيَـتْ عـلـيَّ بـنـو قـشـيـر لـعـمـر الله أعـجـبـنـي رضـاهـا

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يتلون مضارع من تلا يتلو واويُّ اللام، وأصل يتلون: يتلوون بواوين الأولى لام الكلمة، والثانية واو الجماعة، فحذفت حركة الواو

الأولى لام الكلمة؛ للتخفيف، فسكنت فالتقى ساكنان، فحذفت لام الكلمة، وبقيت واو الجماعة، فوزنه يفعون.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أصله: ابتلَيَ بوزن افتعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أصله: أتممهنَّ بوزن أفعل، نقلت حركة الميم الأولى إلى التاء، فسكنت فأدغمت في الميم الثانية ﴿جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ جاعلك: اسم فاعل من جعل بمعنى صيَّر، فيتعدَّى لاثنين أحدهما الكاف، وفيها الخلاف المشهور، والإمام: اسمٌ لكل ما يُؤْتَمُّ به؛ أي: يقصد ويتَّبع، كالإزار: اسمٌ لما يؤتزر به، ومنه قيل لخيط البناء: إمام. اهـ. «سمين».

﴿يَنَالُ عَهْدِى﴾ أصله: يَنْيَل بوزن يفعل؛ لأنَّ نال أصله نيل بكسر العين في الماضي يائيُّ العين، نقلت حركة الياء إلى النون، ثمّ قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن. فقيل: ينال. ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أصله: مَثْوُبةٌ بوزن مفعلة: اسم مكان من ثاب يثوب، نقلت حركة الواو إلى الثاء، فسكنت الواو، وتحركت الثاء بالفتح، لكن الواو قلبت ألفاً؛ نظراً لتحركها في الأصل، ونظراً إلى فتح ما قبلها في الحال، ويحتمل أن تكون من الثواب، لأنَّ الناس يثابون عند البيت على الطواف به، والصلاة حوله، أمَّا على المعنى الأول، فلأنَّ الناس يثوبون إلى البيت؛ أي: يرجعون إليه لا يقضون وطرهم منه ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ اسم مكان من قام يقوم ووزنه مفعلٌ بفتح العين، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت ثمّ أبدلت ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن ﴿مُصَلًّى﴾ أصله: مصلوٌ، لأنّ ألفه منقلبةٌ عن واو؛ لأنّ الصلاة من ذوات الواو ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أصله: للطاوفين من طاف يطوف، وأصل طاف: طَوَف، أعِلَّت بقلب الواو في الفعل ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، ولمّا أُعلّ الفعل حمل عليه الوصف، فأُعِلَّ بإبدال الواو همزةً، وهو جمع طائف اسم فاعل من طاف يطوف، ويقال: أطاف رباعيًّا، وهذا من باب فعل وأفعل بمعنًى ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ جمع عاكف من العكوف، وهو لغة: اللزوم واللُّبْث، يقال: عكف يعكف، ويعكف بالفتح في الماضي، والضمّ والكسر في المضارع ﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أصله: اضطرره بوزن افتعل، أبدلت تاء الافتعال طاء، ثمّ أدغمت الراء الأولى في الثانية ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصدرٌ ميميٌّ من صار،

أصله: مَصْيِر بوزن مَفْعِل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الصاد، فسكنت الياء إثر كسرة فصارت حرف مدّ، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمَّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجملة الاعتراضية في قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، لغرض بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا أن لله ولداً.

ومنها: تغليب العقلاء على غيرهم في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؛ لأنَّ غيرهم لا يجمع هذا الجمع؛ لأن التغليب من المحسنات البديعيَّة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بأن شبِّهت الحال التي تتصوَّر من تعلق إرادته تعالى بشيءٍ من المكوَّنات، وسرعة إيجاده إياه بحالة أمر الآمر النافذ تصرُّفه في المطيع، لا يتوقَّف في الامتثال، فأطلق على هذه الحالة ما كان يستعمل في تلك، من غير أن يكون هناك أمر ولا قولٌ.

ومنها: التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة أصحاب الجحيم في قوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ إيذاناً بأنَّ أولئك المعانِدِيْنَ من المطبوع على قلوبهم، فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال، إلى الإيمان والإذعان.

ومنها: إيراد الهدى معرَّفاً باللام، مع اقترانه بضمير الفصل في قوله؛ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ لإفادة القصر؛ أي: قصر الهداية على دين الله، فهو من باب قصر الصفة على الموصوف، فالإسلام هو الهدى كلُّه، وما عداه فهو هوًى وعمًى.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ. حيث كرَّره في أوّل السورة وهنا؛ لإفادة التوكيد، وتذكيراً للنعم.

ومنها: التعرض بعنوان الربوبية في قوله: ﴿إذ ابتلى إبراهيم ربُّه﴾؛ إيذاناً بأنّ ذلك الابتلاء تربيةٌ له، وترشيحٌ لأمرٍ خطيرٍ، إذ المعنى: عامله معاملة

المختبر، كلَّفه بأوامر ونواهي يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿رَبُّهُۥ﴾؛ لتشريف المضاف إليه الذي هو ضمير الخليل عليه السلام.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَمْناً﴾؛ أي: ذا أمْنٍ، وهو أظهر من جعله بمعنى: اسم الفاعل؛ أي: آمنا على سبيل المجاز.

ومنها: الإضافة لتشريف المضاف في قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ نظير ناقة الله.

ومنها: عطف أحد الوصفين على الآخر في قوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾؛ إفادةً لتباين ما بينهما.

ومنها: ترك عطف إحدى الصفتين على الأخرى في قوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ إفادةً بأنَّ المراد منهما شيءٌ واحدٌ وهو الصلاة، إذ لو عطف لتوهّم أنَّ كلا منهما عبادةٌ مستقلة.

ومنها: جمع الصفتين الأوليين جمع سلامة، والأخريين جمع تكسير؛ لغرض المقابلة، وهو نوع من الفصاحة.

ومنها: تأخير صيغة فُعول عن فعَّلٍ؛ لكونها فاصلةً.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ حيث أسند الأمن إلى البلد؛ للمبالغة، مع أنّ المقصود: أمن المتلجىء إليه من إسناد ما للحال إلى المحل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ حيث شبه حالة الكافر المذكور، بحالة من لا يملك الامتناع مما اضطر إليه، فاستعمل في المشبَّه ما استعمل في المشبه به.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال سبحانه جل وعلا:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا
مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ
رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا[1] ذكر العرب بما أنعم عليهم من بناء البيت، وجَعْلِهِ مثابةً للناس وأمْناً، وبدعاء إبراهيم عليه السلام لقاطن هذا البلد الحرام باستجابته تعالى دعاءَه، إذ جعله بلداً آمناً تجبى إليه الثمرات من شاسع الأقطار؛ ليتمتَّع بها أهله، وبعهده إلى إبراهيم وإسماعيل بأن طهّرا بيته للطائفين، والعاكفين، والركّع السجود؛ تنبيهاً لهم إلى أنّه لا ينبغي أن يعبد فيه غيره، فيجب تنزيهه عن الأصنام، والتماثيل، وعبادتها الفاسدة انتقل بهم إلى التذكير بأنَّ الذي بنى البيت هو أبوهم إبراهيم الخليل، بمعونة ابنه إسماعيل عليهما السلام؛ ليجذبهم بذلك إلى الاقتداء بسلفهم الصالح الذي ينتمون إليه، ويفاخرون به، وقد كانت قريشٌ تنتسب إلى إبراهيم وإسماعيل، وتدَّعي أنها على ملّة إبراهيم، وسائر العرب في ذلك تَبَعٌ لقريش.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر[1] أنّه ابتلى إبراهيم بكلمات فأتمَّهنّ، وأنّه عهد إليه ببناء البيت، وتطهيره للعبادة، فصدع بما أمر.. أردف ذلك بذكر أنَّ ملّة إبراهيم التي كان يدعو إليها، وهي التوحيد، وإسلام القلب لله، والإخلاص له في العمل لا ينبغي التحوُّل عنها، ولا يرضى عاقلٌ أن يتركها إلاَّ إذا ذلَّ نفسه، واحتقرها، وبها وصَّى يعقوب بنيه، ووصَّى بها من قبله إبراهيم بنيه، ثم ردَّ على شُبْهةٍ لليهود، إذْ قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ يعقوب كان يهوديًّا وكذَّبهم بما قال له بنوه حين موته: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ... إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ...﴾ الآية، قد روي في سبب نزول هذه الآية: أنَّ عبد الله بن سلام، دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، قال لهما: قد علمتما أنَّ الله تعالى قال في التوراة: إنّي باعثٌ من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد، من آمن به فقد اهتدى، ومن لم يؤمن فهو ملعون، فأسلم سلمة، وأبَىٰ مهاجرٌ الإسلام، فنزلت فيه هذه الآية، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هي القاعدة، عندهم وفيه تعريضٌ لليهود، والنصارى، ومشركي العرب.

التفسير وأوجه القراءة

ثُمَّ قال تعالى: حكايةً عن قصة بناء البيت العتيق: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ فيه[2] حكاية حالٍ ماضيةٍ، حيث عبَّر بلفظ المضارع عن الرفع الواقع في الزمان المتقدِّم على زمان نزول الوحي، بأن يقدَّر ذلك الرفع السابق واقعاً في الحال، كَأَنَّكَ تُصَوِّرُه للمخاطب، وتُرِيْهِ على وَجْهِ المشاهدةِ والعِيان ﴿ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ جمع

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

قاعدة، وهي في الأصل: صفةٌ بمعنى الثابتة، ثُمَّ صارت بالغلبة من قبيل الأسماء بحيث لا يذكر لها موصوفٌ، ولا يقدَّر، ولعل لفظ القعود حقيقةٌ في الهيئة: المقابلة للقيام، ومستعارٌ للثبات والاستقرار؛ تشبيهاً له بها في أنَّ كُلاً منهما حالةٌ مباينةٌ للانتقال والنزول، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ حالٌ من القواعد، وكلمة من ابتدائية لا بيانية؛ لعدم صحّة أن يقال: الَّتي هي البيت.

فإن قلت: رفع الشي أن يفصل عن الأرض، ويجعل عالياً مرتفعاً، والأساس أبداً ثابتٌ على الأرض، فما معنى رفعه؟

قلت: المراد برفع الأساس: البناء عليه، وعبَّر عن البناء على الأساس برفعه؛ لأنَّ البناء ينقله عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، فيوجد الرفع حقيقةً إلاّ أنَّ أساس البيت واحدٌ، وعبَّر عنه بلفظ القواعد باعتبار أجزائه، كأنَّ كُلَّ جزء من الأساس أساسٌ لما فوقه، والمعنى: واذكر يا محمد! وقت رفع إبراهيم أساس البيت؛ أي: الكعبة ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ ولده، وكان له أربعة بنين: إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، ومدين، ومداين من امرأة أخرى، وهو عطفٌ على إبراهيم، وتأخيره عن المفعول مع أنَّ حقَّ ما عطف على الفاعل أنْ يُقدَّم على المفعول؛ للإيذان بأنَّ الأصل في الرفع هو إبراهيم وإسماعيل تبعٌ له. قيل: إنّه كان يناوله الحجارة وهو يبنيها.

واعلم: أنَّ رفع الأساس الذي هو البناء عليه، يدلّ على أنَّ البيت كان مؤسَّسا قبل إبراهيم، وأنّه إنما بنى على الأساس الموجودة قبله، واختلف الناس فيمن بنى البيت أوّلاً، وأسَّسَه؟ فقيل: هو الملائكة، وذلك أنَّ الله تعالى لما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فغضب عليهم، فعاذوا بعرشه، وطافوا حوله سبعة أطواف يسترضون ربهم حتى رضي عنهم، وقال لهم: (ابْنُوا لي بيتاً في الأرض، يتعوَّذ به من سخطت عليه من بني آدم، ويطوف حوله كما طفتم حول عرشي، فأرضى عنهم) فبنوا هذا البيت. وقيل: إنّ الله بنى في السماء

بيتاً وهو البيت المعمور، ويسمَّى ضراحاً، وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة في الأرض بحياله على قدره ومثاله. وقيل: أوّل من بنى الكعبة: آدم، واندرست زمن الطوفان، ثُمَّ أظهرها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال: (لمّا أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض، قال له: (يا آدم! اذهب فَابْنِ لي بيتاً، وطف به، واذكرني عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي) فأقبل آدم يتخطّى، وطويت له الأرض، وقيِّضت له المفاوز، فلا يقع قدمه على شيء من الأرض إلاّ صار عامراً، حتى انتهى إلى موضع البيت الحرام، وأنَّ جبريل ضرب بجناحه الأرض، فأبرز عن الأسِّ الثابت على الأرض السابعة السفلى، وقدَّمت إليه الملائكة بالصخر، فما يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلاً، وأنَّه بناه من خمسة أجبل: طور سيناء، وطور زيتاء، ولبنان وهو جبلٌ بالشام، والجوديّ هو جبلٌ بالجزيرة، وحراء وهو جبلٌ بمكة، وكان رَبَضُهُ من حراء؛ أي: الأساس المستدير بالبيت من الصخر، فهذا بناء آدم) وروي أنَّ الله خلق موضع البيت قبل الأرض بألفي عام، وكانت زُبَيْدَةً بيضاء على الماء، فدحيت الأرض من تحته، فلما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض استوحش، فشكا إلى الله، فأنزل الله البيت المعمور من ياقوتةٍ من يواقيت الجنة، له بابان من زمرد أخضر، بابٌ شرقيٌّ، وبابٌ غربيٌّ، فوضعه على موضع البيت، وقال (يا آدم! إنّي أهبطت لك بيتاً، فطف به كما يطاف حول عرشي، وصلّ عنده كما يُصلَّى عند عرشي، وأنزل الحجر، وكان أبيض، فاسودَّ من لمس الحيَّض في الجاهلية. فتوجَّه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشياً، وقيَّض الله له ملكاً يدله على البيت، قيل لمجاهد: لِمَ لَمْ يركب قال: وأيُّ شيء كان يحمله إنَّ خُطْوَتَهُ مسيرة ثلاثة أيام، فأتى مكة، وحجَّ البيت، وأقام المناسك، فلمَّا فرغ تلقَّته الملائكة، فقالوا: برَّ حجُّك يا آدم! لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (حَجَّ آدم أربعين حجةً من الهند إلى مكة على رجليه، فبقي البيت يطوف به هو والمؤمنون من ولده إلى أيام الطوفان، فرفعه الله تعالى في تلك الأيام إلى السماء الرابعة، يدخله كُلَّ يوم سبعون ألف ملك، ثمّ لا يعودون إليه، وبعث الله جبرائيل حتى خبأ الحجر الأسود في جبل

أبي قبيس؛ صيانةً من الغرق، وكان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم عليه السلام، ثُمَّ إنّ الله تعالى أمر إبراهيم ببناء بيت يذكر فيه، فسأل الله تعالى أن يُبيِّن له موضعه، فبعث الله السكينة لتدلَّه على موضع البيت، وهي ريحٌ حجوجٌ لها رأسان شبه الحيَّة، وأمر إبراهيم أن يبني حيث استقرَّت السكينة، فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة، فتطوَّت السكينة على موضع البيت؛ أي: تحوت، وتجمَّعت، واستدارت، كتطوِّي الحجفة، ودورانها، فقالت لإبراهيم: ابن على موضعي الأساس، فرفع البيت هو وإسماعيل حتى انتهى إلى موضع الحجر الأسود، فقال لابنه: يا بني! ائتني بحجرٍ أبيض يكون للناس علماً، فأتاه بحجر، فقال: ائتني بأحسن من هذا، فمضى إسماعيل يطلبه، فصاح أبو قبيسٍ، يا إبراهيم! إنّ لك عندي وديعةً، فخذها، فإذا هو بحجرٍ أبيض من ياقوت الجنة، كان آدم قد نزل به من الجنة، كما وجد في بعض الروايات، أو أنزله الله تعالى حين إنزال البيت المعمور، كما مرَّ، فأخذ إبراهيم ذلك الحجر فوضعه مكانه، فلمَّا رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت، جاءت سحابة مربَّعة فيها رأسٌ فنادت: أن ارفعا على تربيعي، فهذه بناء إبراهيم عليه السلام.

وروي أنَّ إبراهيم وإسماعيل لمَّا فرغا من بناء البيت، أعطاهما الله تعالى الخيل جزاء معجَّلاً على رفع قواعد البيت، وكان الخيل قبل ذلك وحشيَّةً كسائر الوحوش، فلمَّا أذن الله لإبراهيم وإسماعيل برفع القواعد، قال الله تعالى: (إنّي معطيكما كنزاً ادّخرته لكما، ثُمّ أوحى إلى إسماعيل أن أخرج إلى أجياد، فادع يأتك الكنز) فخرج إلى أجياد ولا يدري ما الدعاء ولا الكنز، فألهمه الله تعالى، فدعا، فلم يبق على وجه الأرض فرسٌ بأرض العرب إلاّ جاءته، فأمكنه من ناصيتها، وذلَّلها له وقال النبي ﷺ: «فاركبوها واعلفوها، فإنّها ميامين، وهي ميراث أبيكم إسماعيل» وإنّما سمّي الفرس عربيًا؛ لأنَّ إسماعيل هو الذي أمر بدعائه، وهو أتى إليه، والعربيُّ: نسبةٌ إلى عربة بفتحتين، وهي باحة العرب؛ لأنَّ أباهم إسماعيل نشأ بها. قيل: كان إبراهيم يتكلَّم بالسريانية، وإسماعيل بالعربية، وكُلُّ واحد منهما يفهم ما يقوله صاحبه، ولا يمكنه التَّفوُّه به. وأمَّا بنيان قريش إياه فمشهور، فخبر الحيَّة في ذلك مذكور، وكانت تمنعهم من هدمه إلى أن

اجتمعت قريش، فعجُّوا إلى الله تعالى؛ أي: رفعوا أصواتهم، وقالوا: لم تراع وقد أردنا تشريف بيتك وتزيينه، فإنْ كنت ترضى بذلك، وإلاّ فما بدا لك فافعل، فأُسمِعوا خوّاتاً في السماء، والخوَّات: دَوِيُّ جناح الطير الضَّخم؛ أي: صوته، فإذا هم بطائر أعظم من النَّسر، أسود الظهر، أبيض البطن والرجلين، فغمز مخالبه في قفا الحيَّة، ثمّ انطلق بها تَجُرُّ ذَنبَها أَعْظَمَ مِنْ كذا وكذا، حتى انطلق بها إلى أجياد، فهدمتها قريش، وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي، تحملها قريشٌ على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعاً. وذكر عن الزهري: أنّهم بنوها حتى إذا بلغوا موضع الركن، اختصمت قريشٌ في الرُّكْن، أيُّ القبائل تلي رفعه؟ حتى شجر بينهم، فقالوا: حتى نحكِّم أوّل من يطلع علينا من هذه السكَّة، فاصطلحوا على ذلك، فاطَّلع عليهم رسول الله ﷺ، فحكَّموه، فأمر بالركن، فوضع في ثوب، ثُمّ أمر سيّد كُلِّ قبيلة، فأعطاه ناحيةً من الثوب، ثمّ ارتقى هو على البناء، فرفعوا إليه الركن، فأخذه من الثوب، فوضعه في مكانه.

قيل: إنّ قريشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريانية، فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجلٌ من اليهود، فإذا فيه: أنا الله ذو مكة، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض، وصوَّرت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاكٍ احتفاءً لا يزول حتى يزول أخشباها، مبارك لأهلها في الماء، واللبن. وعن أبي جعفر: كان باب الكعبة على عهد العماليق، وجرهم، وإبراهيم بالأرض، حتى بنته قريش. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سألت رسول الله ﷺ عن الجدار، أمن البيت هو؟ قال: «نعم» قلت: فلم لَمْ يدخلوه؟ قال: «إنّ قومك قصرت بهم النفقة» قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك، ولو حِدْثَانُهُمْ بالجاهليَّة لهدمت الكعبة، فأُلزِقُ بابها بالأرض، وجعلت له باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدت فيه ستَّ أذرع من الحِجْر، فإنَّ قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة، فهذا بناء قريش. ثُمَّ لمّا غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير، ووهنت الكعبة من حريقهم، هدَّمها ابن الزبير وبناها على ما أخبرته عائشة، فجعل لها بابين باباً يدخلون منه، وباباً يخرجون منه، وزاد فيه مما يلي الحجر ستَّ أذرعٍ، وكان طولها قبل ذلك ثماني أذرع، ولمَّا زاد في البناء مما يلي الحجر، استقصر ما كان من طولها تسع أذرع، فلمّا

قتل ابن الزبير، أمر الحجَّاج أن يُقرِّر ما زاده ابن الزبير في طولها، وأن يُنَقص ما زاده من الحجر، ويردَّها إلى ما بناها قريشٌ، وأن يسدَّ الباب الذي فتحه إلى جانب الغرب. وروي: أنَّ هارون الرشيد ذكر لمالك بن أنس، أنَّه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة، وأن يردَّها إلى بناء ابن الزبير، لِمَا جاء عن النبي ﷺ، وامتثلَهَ ابن الزبير، فقال له مالكٌ: ناشدتُك اللَّهَ يا أمير المؤمنين! أن لا تجعل هذا البيت ملعبةً للملوك، لا يشاء أحدٌ منهم إلاّ نقض البيت بناءه، فتذهب الهيبة من صدور الناس. وفي «القسطلاني على البخاري»: ما نصُّه: وبنيت الكعبة عشرة مرات.

الأول: بناء الملائكة. روي أنّ الله أمرهم أن يبنوا في كل سماء بيتاً، وفي كل أرض بيتاً. قال مجاهد: هي أربعة عشر بيتاً. روي أنَّ الملائكة حين أسست الكعبة، انشقت الأرض إلى منتهاها، وقذفت الملائكة فيها حجارة، كأمثال الإبل، فتلك القواعد من البيت التي وضع عليها إبراهيم وإسماعيل بناءهما.

الثاني: بناء آدم. روي أنّه قيل له: أنت أوّل الناس، وهذا أوّل بيتٍ وضع للناس.

الثالث: بناء ابنه شيثٍ بالطين والحجارة، فلم يزل معموراً به، وبأولاده، ومَن بعدهم حتى كان زمن نوح، فأغرقه الطوفان، وغيَّر مكانه.

الرابع: بناء إبراهيم، وقد كان المُبلِّغ له ببنائه جبريل من الملك الجليل، ومن ثمَّ قيل: ليس ثمَّ في هذا العالم بيت أشرف من الكعبة؛ لأنَّ الآمر ببنائها الملك الجليل، والمبلِّغ، والمهندس جبريل، والباني الخليل، والمعين إسماعيل.

الخامس: بناء العمالقة.

السادس: بناء جرهم، والذي بناه منهم هو الحارث بن مضَّاض الأصفر.

السابع: بناء قصيٍّ خامس جدِّ النبي ﷺ.

الثامن: بناء قريش وحضره النبيُّ ﷺ وهو ابن خمسٍ وثلاثين سنة.

التاسع: بناء عبد الله بن الزبير، وسببه: توهين الكعبة من حجارة المنجنيق

التي أصابتها، حين حوصر ابن الزبير بمكة في أوائل سنة أربعٍ وستين، بمعاهدة يزيد بن معاوية، فهدمها بعد أن استخار واستشار، وكان يوم السبت منتصف جمادى الآخرة سنة أربعٍ وستين، وبلغ بالهدم قامةً ونصفاً حتى وصل قواعد إبراهيم، فوجدها كالإبل المسنَّمة، وبعضها متصلٌ ببعضٍ، حتى إن من ضرب بالمعول طرف البناء تحرَّك طرفه الآخر، فبناها على قواعد إبراهيم، وأدخل فيها ما أخرجته منها قريشٌ من الحجر بكسر الحاء، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض، أحدهما: بابها الموجود الآن، والآخر: المقابل له المسدود، وكان ابتداء البناء في جمادى الآخرة، وختمه في رجب سنة خمسٍ وستين، ثمَّ ذبح مائة بدنةٍ للفقراء وكساهم.

العاشر: بناء الحجاج، وكان بناؤه للجدار الذي من جهة الحجر بكسر الحاء، والباب الغربيُّ المسدود عند الركن اليماني، وما تحت عتبة الباب الشرقيّ، وهو أربع أذرع وشبر، وترك بقية الكعبة على بناء ابن الزبير، واستمرَّ بناء الحجاج إلى الآن. انتهى ملخصاً. وهذا بحسب ما اطلع عليه رحمه الله تعالى، وإلاّ فقد بناه بعد ذلك بعض الملوك سنة ألفٍ وتسعٍ وثلاثين، كما نقله بعض المؤرِّخين. اهـ. وقد نظم العشرة الأولى بعضهم، فقال:

بَنَى بَيْتَ ربِّ العَرْشِ عَشْرٌ فخذْهُمُ   ملائكةُ الله الكِرامِ وآدَمُ
فَشِيثٌ فَإبْرَاهِيمُ ثُمَّ عَمَالِقٌ   قُصَيٌّ قُرَيْشٌ قَبْلَ هَذَينِ جُرْهُمُ
وَعَبْدُ الإلٰهِ ابْنُ الزُّبَيْرِ بَنَى كَذَا   بِنَاءٌ لِحَجَّاجٍ وَهَذَا مُتَمِّمُ

والمعنى: أي واذكر يا محمد! لأمّتك قصّة إذ يرفع ويبني إبراهيم الخليل، وولده إسماعيل على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، القواعد، والأساس، والجدار المستتر في الأرض التي هي من بعض جدران البيت الموجودة قبله، والمراد برفعهما: البناء عليها، فإنَّها كانت موجودةً من قبل بنائه، غائصةً في الأرض إلى منتهاها، وإنما بنى عليها ورفع البناء فوقها؛ لأنَّها إذا بُنِيَ عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتطاولت بعد التقاصر، وبناؤهما أنَّ إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة، ولكنَّه لمّا كان له دخلٌ في البناء عطف

عليه، وقيل كانا يبنيان في طرفين، أو على التناوب يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ وقد أظهر عبد الله (يقولان) في قراءته؛ أي: يرفعانها حالة كونهما قائلين ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ الدعاء، وغيره من القرب، والطاعات التي من جملتها ما هما بصدده من البناء؛ أي: حالة كونهما قائلين: ربّنا واقبل منّا ما عملنا لك! وطاعتنا إياك، وعبادتنا لك، وبناءَنا بيتك، وفُرِّق[1] بين القبول والتقبُّل: بأنَّ التَّقبُّل لكونه على بناء التكلُّف، إنّما يطلق حيث يكون العمل ناقصاً لا يستحق أن يقبل إلا على طريق التفضُّل، والكرم، ولفظ القبول لا دلالة فيه على هذا المعنى، فاختيار لفظ التقبُّل اعتراف منهما بالعجز، والانكسار، والقصور في العمل ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات التي من جملتها دعاؤُنا، وتضرُّعنا إليك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل المعلومات التي من زُمْرَتها نياتنا في جميع أعمالنا، ودلَّ هذا القول، على أنّه لم يقع منهما تَقْصِير بوجه في إتيان المأمور به، بل بذلا في ذلك غاية ما في وسعهما، فإنّ المقصّر المتساهل كيف يتجاسر على أن يقول بأطلق لسانٍ، وأرقِّ جنانٍ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؟!

ودلت الآية أيضاً[2] على أنَّ الواجب على كُلِّ مأمور بعبادةٍ وقربةٍ إذا فرغ منها، وأدَّاها كما أمر بها، وبذل في ذلك ما في وسعه أن يتضرَّع إلى الله سبحانه، ويبتهل ليتقبَّل منه، ولا يردَّ عليه، فيضيع سعيه، وأن لا يقطع القول بأنَّ من أدَّى عبادةً وطاعةً تقبل منه لا محالةٍ، إذ لو كان هكذا لما كان لدعائهما بطريق التضرع ليقبل منهما معنًى، فالقبول والردُّ إليه تعالى، ولا يجب عليه شيءٌ ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾؛ أي: منقادين لحكمك مخلصين ﴿لَكَ﴾ بالتوحيد والعبادة، لا نعبد إلاّ إياك فالمراد بالمسلم: من يجعل نفسه وذاته خالصاً لله تعالى، بأن يجعل التذلُّلَ، والتعظيم الواقع منه لِلِّسانِ، والأركانِ، والجَنَان خالصاً له تعالى، ولا يُعظِّم معه تعالى غيره، ويعتقد بأنَّ ذاتَه، وصفاتِه، وأفعالَه خالصةٌ له تعالى، خلقاً، وملكاً، لا مدخل في شيءٍ منها لأحدٍ سواه، أو المعنى: واجعلنا

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

مستسلمين لك، منقادين بالرضى بكل ما قدَّرت، وبترك المنازعة في أحكامك، فإنّ الإسلام إذا وصل باللام الجارة يكون بمعنى الاستسلام والانقياد، والرضا بالقضاء.

فإنْ قلت[1]: لا شكَّ أنَّهما كانا مخلصين، ومستسلمين في زمان صدور هذا الدعاء منهما.

قلت: المراد طلب الزيادة في الإخلاص، والإذعان، أو الثبات عليه، فهذا تعليمٌ منهما الناس الدعاء؛ للتثبيت على الإيمان، فإنّهما لمّا سألا ذلك مع أمنهما من زواله عنهما، فكيف غيرهما مع خوفه، وسألا أيضاً الثبات على الانقياد، فأجيبا إلى ذلك حتى أسلم إبراهيم للإلقاء في النار، وإسماعيل للأمر بالذبح. ﴿و﴾ اجعل ﴿من ذرّيتنا﴾؛ أي: بعض أولادنا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ أي: جماعةً منقادة لأمرك، مخلصةً لك بالتوحيد، والطاعة، والعبادة، خاضعةً لعظمتك؛ وإنَّما خصَّا الذريَّة بالدعاء مع أنَّ الأنسب بحال أصحاب الهمم، لا سيما الأنبياء أن لا يخصُّوا ذرّيَّتهم بالدعاء، لكنهما خصّاهم لوجهين:

الأول: كونهم أحقَّ بالشفقة، كما في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ فدعوا لأولادهما؛ ليكثر ثوابهما بهم، وفي الحديث: «ما مِن رجلٍ من المسلمين، يخلف من بعده ذريةٌ يعبدون الله تعالى، إلاَّ جعل الله له مثل أجورهم ما عبد الله منهم عابدٌ حتى تقوم الساعة».

والثاني: إنّه وإن كان تخصيصاً صورةً، إلاّ أنّه تعميمٌ معنى؛ لأنَّ صلاح أولاد الأنبياء سببٌ وطريقٌ لصلاح العامَّة، فكأنَّهما قالا: وأصلح عامة عبادك بإصلاح بعض ذريّتنا.

وخصَّا البعض من ذريّتهما[2]؛ لما علما أنَّ من ذريّتهما محسنٌ، وظالمٌ

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

لنفسه مبينٌ، وطريق علمهما بذلك أمران، تنصيص الله تعالى بذلك بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والاستدلال بأنَّ حكمته تعالى تقتضي أن لا يخلو العالم عن أفاضل، وأواسط، وأراذل، فالأفاضل: هم أهل الله الذين أخلصوا أنفسهم لله تعالى، بالإقبال الكليِّ عليه. والأواسط: هم أهل الآخرة الذين يجتنبون المنكرات، ويواظبون على الطاعات؛ رغبةً في نيل المثوبات. والأراذل: هم أهل الدنيا الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، جُلُّ همَّتهم عمارة الدنيا، وتهيئة أسبابها.

وقد قيل: عمارة الدنيا بثلاثة أشياء: أحدها: الزراعة والغرس، والثاني: الحماية والحرب، والثالث: جلب الأشياء من مصرٍ إلى مصرٍ، ومن أكبَّ على هذه الأشياء، ونسي الموت، والبعث، والحساب، وسعى لعمارة الدنيا سعياً بليغاً، ودقَّق في إعمال فكره تدقيقاً عجيباً، فهو متوغِّلٌ في الجهل، والحماقة، ولهذا قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا. ﴿وَأَرِنَا﴾ أي بصرنا، أو عرفنا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾؛ أي: مواضع نسكنا، أو أعمال نسكنا، والمناسك: جمع منسكٍ بفتح السين وكسرها، ويحتمل أن يكون المراد به: اسم مكان، فتكون الرُّؤية حنيئذٍ بصريةً، والمعنى: بصّرنا مواضع نسكنا؛ أي: المواضع التي يتعلَّق بها النسك؛ أي: أفعال الحج، نحو: المواقيت التي يحرم منها، والموضع الذي يوقف بعرفة، ومزدلفة، وموضع الطواف، والصفا والمروة، وما بينهما من المسعى، وموضع رمي الجمار، ويحتمل أن يكون المراد به: مصدراً لا اسم مكان؛ أي: أفعال الحج نفسها لا مواضعها، ويكون جمعه حينئذٍ لاختلاف أنواعه، وتكون الرُّؤية حينئذٍ علميَّةً؛ لأنَّ نفس الأفعال لا تدرك بالبصر بل ترى بعين القلب، والمعنى حينئذٍ: وعرِّفنا أفعال حجنا، وكيفيتها من الطواف، والوقوف، والرمي، والنُّسُك: كُلُّ ما يُتعبَّد به إلى الله تعالى، وشاع في أعمال الحج؛ لكونها أشقَّ الأعمال بحيث لا تتأتَّى إلاّ بمزيد سعيٍ واجتهادٍ، فأجاب[1]

---

(١) الخازن.

الله تعالى دعاءَهما، فبعث جبريل، فأراهما المناسك في يوم عرفة، فلمَّا بلغ عرفات قال: عرفت يا إبراهيم! قال إبراهيم: نعم، فَسمِّي ذلك الوقت عرفة، والموضع عرفات. وفي قراءة ابن مسعود ﴿وأرهِم مناسكَهم﴾ بإعادة الضمير إلى الذرية. وقرأ[1] ابن كثير، والسُّوسيُّ عن أبي عمرو، ويعقوب ﴿أَرْنَا﴾ بإسكان الراء قياساً على فخذ في فخذٍ، ولكن أبو عمرو يُشِمُّ الكسرة، وقد سمع الإسكان في هذا الحرف نصًّا عن العرب، قال الشاعر:

أَرْنَـا إِدَاوَةَ عَـبْـدِ اللهِ نَـمْـلَـؤُهَـا مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ إِنَّ الـقَـوْمَ قَـدْ ظَـمِـئُـوا

ولا اعتبار بإنكار من أنكرها؛ لأنّها قراءةٌ متواترةٌ، فإنكارها ليس بشيءٍ ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ عمَّا فَرَط منا سَهْواً من الصغائر، ومن ترك الأولى، ولعلهما قالا ذلك؛ هضماً لأنفسهما، وإرشاداً لذريتهما؛ أي: سامح لنا تقصيرنا في طاعتك، وتجاوز عنَّا، فإنّ العبد وإن اجتهد في طاعة ربّه، فإنّه لا ينفكُّ عن التقصير من بعض الوجوه، إمّا على سبيل السهو، أو على سبيل ترك الأولى، والأفضل، فكان هذا الدعاء لأجل ذلك لا لذنبهما؛ لأنّهما معصومان، أو المعنى: وتب على ظلمة أولادنا حتى يرجعوا إلى طاعتك، فيكون ظاهر الكلام الدعاء لأنفسهما، والمراد به ذريتهما، فإنّهما لمَّا بنيا البيت أرادا أن يَسنَّا للناس، ويعرِّفاهم أنَّ ذلك البيت، وما يتبعه من المناسك، والمواقف، أمكنة التفصِّي من الذنوب، وطلب التوبة من علام الغيوب ﴿إِنَّكَ﴾ يا ربّنا ﴿أَنتَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: كثير القبول لتوبة من تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير الرحمة والإنعام على عباده. وأصل التوبة: الرجوع، وتوبة الله على العبد قبوله توبته، وأن يخلق الإنابة والرجوع في قلب المسيء، ويزيِّن جوارحه الظاهرة بالطاعات، بعد ما لوَّثها بالمعاصي والخطيئات، وتوّابٌ: من صيغة المبالغة، أُطلق عليه تعالى في صدور الفعل منه، وكثرة قبوله توبة المذنبين؛ لكثرة من يتوب إليه يا ﴿رَبَّنَا﴾ ﴿و﴾ يا مَالِكَ أمرِنا ﴿ابعث﴾ وأرسل ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في جماعة الأمة المسلمة من أولادنا، وهم

---

(١) البيضاوي.

العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ﴿رَسُولًا﴾ ونبيًّا ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من أنفسهم ونسبهم، ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ، فهو المجاب به دعوتهما، كما قال ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أُمي التي رأت حين وضعتني، وقد خرج لها نور ساطع أضاءت لها منه قصور الشام» أخرجه أحمد من حديث العرباض بن سارية. وقال: ﴿مِّنْهُمْ﴾ ولم يقل: فيهم؛ لأنَّ البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم، بل يكون منهم، ومن غيرهم. وجملة قوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يقرأ عليهم ﴿ءَايَٰتِكَ﴾؛ أي: آيات القرآن صفةٌ لرسولاً؛ أي: رسولاً يملي عليهم آياتك القرآنية ليأخذوها منه، ويتعلَّموها، أو يأمرهم بتلاوة القرآن، وحفظ ألفاظه، أو يقرؤها عليهم ويبلِّغها إياهم بلا كتمان شيءٍ منها.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ معطوف على يتلو؛ أي: يعلِّمهم بحسب قوَّتهم النظريَّة معاني الكتاب والقرآن، بتعليمهم ما فيه من دلائل التوحيد، والنبوة، والأحكام الشرعية، فلمَّا ذكر الله تعالى أوَّلاً أمر التلاوة، وهي حفظ القرآن، ودراسته؛ ليبقى مصوناً من التحريف والتبديل، وفيه إشارةٌ إلى فنِّ القراءة، وما يتعلَّق به، ذكر بعده تعليم معانيه، وحقائقه، وأسراره، وفيه إشارةٌ إلى فنِّ التفسير، وما يتعلَّق به ﴿و﴾ يعلمهم ﴿الحكمة﴾؛ أي: السنة والحديث، وفهم ما في القرآن، قاله قتادة، وفيه إشارةٌ إلى فنِّ الحديث، وما يتعلَّق به درايةً وروايةً، أو يعلِّمهم ما يُكمّل به نفوسهم من المعارف الحقّة، والأحكام الشرعيَّة. قال أبو بكر ابن دريد: وكُلُّ كلمةٍ وَعَظَتْك، أودعتك إلى مكرمةٍ، أو نَهَتْك عن قبيحٍ، فهي حكمةٌ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بحسب قوّتهم العمليَّة؛ أي: يطهِّرهم عن دنس الشرك والوثنيَّة، وفنون المعاصي، سواء كانت بترك الواجبات، أو بفعل المنكرات، وفيه إشارةٌ إلى علم العقائد. ثمَّ إنّ إبراهيم لمَّا ذكر هذه الدعوات الثلاث، ختمها بالثناء على الله تعالى؛ لأنّه أرجى للقبول، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا ربَّنا! ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يغالب ويقهر على ما يريد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلاّ ما تقتضيه الحكمة البالغة، والمصلحة العامَّة لعباده، فهو سبحانه عزيزٌ حكيمٌ بذاته، وكُلُّ ما سواه ذليلٌ جاهلٌ في نفسه.

فائدة: فإن قلت[1]: ما الحكمة في ذكر إبراهيم، وآله مع محمد ﷺ في باب الصلاة حيث يقال: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صلَّيت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم دون سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟.

قلت: أجيب عنها بأجوبة كثيرة:

منها: أنّ إبراهيم دعا لمحمد بهذه الدعوات، فأجرى الله سبحانه ذكر إبراهيم على ألسنة أمَّة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، أداءً لحقٍّ واجبٍ على محمد لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

ومنها: أنَّ إبراهيم سأل ربَّه بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: أبق لي ثناءً حسناً في أمّة محمد ﷺ.

ومنها: أنّ إبراهيم كان منادي الشريعة في الحجِّ، ومحمداً كان منادي الإيمان، فجمع الله بينهما في الذكر الجميل إلى غير ذلك من الأجوبة.

ومَن في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخيِّ، فهو بمعنى: النفي؛ أي: لا يرغب، ولا يعرض ﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ عليه السلام، ولا يترك دينه، وشريعته التي منها ما أرسل به محمدٌ ﷺ ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: إلا من استخفَّ، وأذلَّ، وامتهن نفسه، وأهلكها، وخسَّرها، وجهل قدرها بأن لم يعلم أنّها مخلوقةٌ لله، يجب عليها عبادة خالقها؛ لأن من عبد غير الله فقد جهل نفسه؛ لأنّه لم يعترف بأنَّ الله خالقها، وقد ورد: (من عرف نفسه فقد عرف ربّه). وعنى بذلك اليهود، والنصارى، ومشركي العرب لاختيارهم اليهوديَّة، والنصرانيَّة، والوثنية، على الإسلام.

فائدة: فالمِلَّة والدِّين والشريعة بمعنى واحد، وهي: الأحكام التي شرعها الله تعالى لعباده للتَّعبُّد بها، فمن حيث إملاء الرسول إيَّاها علينا تسمَّى ملَّةً، ومن حيث إنَّها شرعها الله على لسان رسوله تسمَّى شريعةً، ومن حيث إنّا نتديَّن بها

---

(١) المراح.

تسمى ديناً، كما مرَّ لك ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد اصطفينا إبراهيم واخترناه ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ من بين سائر الخلق، للرسالة والخلَّة، وعرَّفناه الملة التي هي جامعة للتوحيد، والعدل، والشرائع ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنّ إبراهيم ﴿فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾؛ أي: في اليوم الآخر ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: لمن الفائزين بالرضا والكرامة مع الأنبياء، والمرسلين، وسائر عباد الله الصالحين، ففيه بيان[1] الخطأ من رغب عن ملَّته؛ لأنَّ من جمع كرامة الدارين لم يكن أحدٌ يرغب عن طريقته إلا من سفيه.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ متعلق[2] بقوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: لمن المشهود لهم بالثبات على الاستقامة، والخير، والصلاح، فمن كان صفوة العباد في الدنيا، مشهوداً له في الآخرة بالصلاح، كان حقيقاً بالاتباع، لا يرغب عن مِلَتِهِ إلاّ سفيهٌ؛ أي: في أصل الخلقة، أو متسفِّهٌ يتكلَّف السَّفاهة بمباشرة أفعال السفهاء باختياره، فيذلُّ نفسه بالجهل، والإعراض عن النظر، والتأمُّل، وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بشارةٌ عظيمةٌ له في الدنيا بصلاح الخاتمة، ووعد له بذلك، وكم من صالحٍ في أوَّل حاله ذهب صلاحه في ماله، وكان في الآخرة لعذابه، ونكاله، كبلعم بن باعوراء، وبرصيصا، وقارون. والمعنى[3]: أي: إنّ ملتكم هي ملة أبيكم إبراهيم الذي إليه تنسبون، وبه تفخرون، فكيف ترغبون وتحتقرون عقولكم، وتدعون أولياء من دون الله لا يملكون لكم ضرّاً ولا نفعاً؟! ولقد اجتبيناه من بين خلقنا، وجعلنا في ذريته أئمةً يهدون بأمرنا، وجعلناه في الآخرة من المشهود لهم بالخير، والصلاح، وإرشاد الناس للعمل بهذه الملّة، ولا شكّ[4] أنَّ ملّةً هذا شأنها، وبها كانت له المكانة عند ربّه، لا يرغب عنها إلاّ سفيهٌ يعرض عن التأمل في ملكوت السموات والأرض، ورؤية الآثار الكونية

---

(١) النسفي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

(٤) المراغي.

والنفسية الدالَّة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، والظرف في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ﴾ متعلّق باصطفيناه، وتعليلٌ له؛ أي: اصطفيناه واخترناه ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾؛ أي: أخلص دينك لربّك، واستقم على الإسلام، واثبت عليه، وذلك حين كان في السُّرب، ونظر إلى الكواكب، والقمر، والشمس، فألهمه الله الإخلاص ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أخلصت ديني له، كقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية. وقد امتثل ما أمر به من الإخلاص والاستسلام، وأقام على ما قال، فسلَّم القلب، والنفس، والولد، والمال، ولمَّا قال له جبريل حين ألقي في النار: هل لك من حاجة؟ فقال: أمَّا إليك فلا، فقال: ألا تسأل ربَّك؟ فقال: حسبي بسؤالي علمه بحالي.

وقيل: الظرف متعلق بمحذوف، كنظائره، تقديره: واذكر يا محمد! لأمَّتك قصة ﴿إذ قال له﴾؛ أي: لإبراهيم ﴿رَبُّهُۥٓ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَسْلِمْ﴾؛ أي: أخلص دينك وعملك لله ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أخلصت ديني وعملي لمالك الخلائق، ومدبِّرها، ومحدثها، ويقال: قال له ربُّه حين ألقي في النار: أسلم نفسك إليَّ. قال: أسلمت نفسي لله ربِّ العالمين؛ أي: فوَّضْتُ أمري إليه، وقد حقَّق ذلك حيث لم يستعن بأحدٍ من الملائكة حين ألقي في النار.

قال أهل التفسير[1]: إنّ إبراهيم ولد في زمن النمروذ بن كنعان، وكان النمروذ أوّل من وضع التاج على رأسه، ودعا الناس إلى عبادته، وكان له كُهَّانٌ ومنجِّمون، فقالوا له: إنّه يولد في بلدك في هذه السنة غلامٌ يغيِّر دين أهل الأرض، ويكون هلاكك، وزوال ملكك على يديه. قالوا: فأمر بذبح كُلِّ غلام يولد في ناحيته في تلك السنة، فلمَّا دنت ولادة أُمّ إبراهيم، وأخذها المخاض خرجت هاربةً مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها، فولدته في نهرٍ يابسٍ، ثُمَّ لفَّته في خرقةٍ، ووضعته في حلفاء، وهو نبتٌ في الماء، يقال له بالتركي: حَصِير قَمشَي، ثُمَّ رجعت فأخبرت زوجها بأنَّها ولدت، وأنَّ الولد في موضع كذا، فانطلق أبوه، فأخذه من ذلك المكان، وحفر له سُرْباً؛ أي: بيتاً في الأرض

(١) روح البيان.

كالمغارة، فواراه فيه، وسدَّ عليه بابه بصخرةٍ مخافة السباع، وكانت أمُّه تختلف إليه فترضعه، وكان اليوم على إبراهيم في الشباب والقوّة، كالشهر في حقّ سائر الصبيان، والشهر كالسنة، فلم يمكث إبراهيم في المغارة إلاّ خمسة عشرة شهراً، أو سبع سنين، أو أكثر من ذلك فلمَّا شبَّ إبراهيم في السرب قال لأمّه: من ربّي؟ قالت: أنا. قال: فمن ربّك؟ قالت: أبوك. قال: فمن ربُّ أبي؟ قالت: أسكت. ثمَّ رجعت إلى زوجها، فقالت: أرأيت الغلام الذي كنَّا نحدَّث أنّه يغيِّر دين أهل الأرض؟ فإنَّه ابنك، ثُمَّ أخبرته بما قال، فأتى أبوه، وقال له إبراهيم: يا أبتاه! من ربي؟ قال: أمُّك. قال: فمن ربُّ أمي؟ قال: أنا. قال فمن ربُّك؟ قال: النمروذ. قال: فمن ربُّ نمروذ؟ فلطمه لطمةً، وقال له: اسكت، فلمَّا جنَّ عليه الليل، دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة، فرأى السماء، وما فيها من الكواكب، ففكَّر في خلق السموات والأرض، فقال: إنَّ الذي خلقني ورزقني، وأطعمني وسقاني، ربّي الذي مالي إلٰهٌ غيره، ثمّ نظر في السماء، فرأى كوكباً، فقال: هذا ربّي، ثُمّ أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب، فلمَّا أفل قال: لا أحبُّ الآفلين، ثم رأى القمر، ثمّ الشمس، فقال فيهما كما قال في حقِّ الكواكب، وقد نشأ إبراهيم في قومٍ عبدة أصنام وكواكب، فأنار الله بصيرته، وألهمه الحق والصواب، فأدرك أنَّ للعالم ربّاً واحداً يدبِّره في شؤونه، وإليه مصيره، وحاجَّ قومه في ذلك، وبهرهم بحجته، فقال: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ الخ.

والحاصل(١): أنّ إبراهيم مستسلم للربّ الكريم، وأنّه على الصراط المستقيم، لا يرغب عن طريقته إلاّ من سفه نفسه؛ أي: لم يتفكّر فيها كما تفكّر إبراهيم في الأنفس، والآفاق، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ والسَّفاهة: الجهل وضعف الرأي، وكلُّ سفيه جاهلٌ، وذلك أنَّ من عبد غير الله فقد جهل نفسه؛ لأنّه لم يعرف الله خالقها، ولمَّا كمل إبراهيم في نفسه كمَّل غيره بالتوصية المذكورة في قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾. قرأ نافع وابن عامر ﴿وأوصى﴾ بالهمزة

---

(١) روح البيان.

المفتوحة. وقرأ الباقون ﴿وَوَصَّىٰ﴾ وبها متعلق بوصَّى، والضمير عائدٌ على الملَّة المذكورة في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وبه قال الزمخشري، أو الكلمة التي هي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والتوصية: هي التقديم إلى الغير بما فيه خيرٌ وصلاحٌ من قول، أو فعل على وجه التفضُّل والإحسان، سواءٌ كان أمراً دينيًّا، أو دنيوياً، وأصلها: الوصل، يقال: وصَّاه إذا أَوْصَلَه، وهي أبلغ من الإيصاء؛ أي: وأوصى إبراهيم عليه السلام بالملّة المذكورة في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أو بكلمة: أسلمت لله ربّ العالمين، أو بكلمة: لا إله إلاّ الله ﴿بَنِيهِ﴾؛ أي: أولاده الذُّكور، وقد سبق أنّهم كانوا أربعة: إسماعيل، وإسحاق، ومدين، ومدائن. وقيل[1]: هم ثمانية: إسماعيل وهو أكبر أولاده، وأُمُهُ هاجر القبطية، وإسحاق وأمّه سارةُ، ومدين، ومداين، وبُقْشَانُ، وزُمْرَانُ، وشَبقٌ، ونُوحٌ، وأمُّهم قنَطُوراءُ بنتُ يَقْطَنَ الكنعانيةُ، تزوَّجها إبراهيم بعد وفاة سارة. وقيل أولادهُ: أربعة عشرة، والذي بقي نسله من هؤلاء الثمانية: إسماعيل، وإسحاق والمعنى: أي: أمر إبراهيم عليه السلام بنيه عند موته باتباع هذه الملة الحنيفية، وإنّما خصَّهم بهذه الوصية؛ لأنّ شفقة الرجل على بنيه أكثر من شفقته على غيرهم، وقيل: لأنّهم كانوا أئمّة يقتدى بهم، وكان صلاحهم صلاحاً لغيرهم. ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ بن إسحاق بالرفع عطفاً على إبراهيم؛ أي: ووصّى يعقوب بنيه عند موته بهذه الملة، كوصيّة إبراهيم، وقرىءَ بالنصب عطفاً على بنيه، والمعنى: ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب نافلته بهذه الملة عند موته. وقرأ الجمهور ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ بالرفع. وقرأ إسماعيل بن عبد الله المكيُّ الضرير، وعمر بن فائد الأسواريُّ بالنصب، فأمَّا قراءة الرفع فتحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون معطوفاً على إبراهيم، ويكون دَاخِلاً في حكم توصية بنيه؛ أي: ووصى يعقوب بنيه.

الثاني: أن يكون مرفوعاً على الابتداء، وخبره محذوف، تقديره: ويعقوب

---

(١) المراغي.

قال يا بَنيّ: إنّ الله اصطفى لكم الدين، والأوّل أظهر.

وأمّا قراة النصب فيكون عليها معطوفاً على بنيه؛ أي: ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب نافلته؛ أي: ابن ابنه إسحاق، وكان[1] جملة أولاد يعقوب اثني عشر: روبين، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، وشنوخون، وزبولون، وزَوَابِي، ونَفْتُونِي، وكُوْدا، وأوشيز، وبنيامين، ويوسف، وسُمّي يعقوب؛ لأنّه مع أخيه عَيْصُو كانا توأمين، فتقدَّم عيصو في الخروج من بطن أمِّه، وخرج يعقوب على أثره آخذاً بعقبه، وذلك أنَّ أُمَّ يعقوب حملَتْ في بطنٍ واحد بولدين توأمين، فلمَّا تكامل عدَّةُ أشهر الحمل، وجاء وقت الوضع تكلّما في بطنها وهي تسمع، فقال: أحدهما للآخر: طرِّق لي حتى أخرج قبلك، وقال الآخر: لئن خرجت قبلي لأشُقَّن بطنها حتى أخرج من خصرها، فقال الآخر: اخرج قبلي، ولا تقتل أمي. قال: فخرج الأول فسمَّته عيصو؛ لأنَّه عصاها في بطنها، وخرج الثاني وقد أمسك بعقبه فسمَّته يعقوب، فنشأ عيصو بالغلظة والفظاظة، صاحب صَيْدٍ وقَنَصٍ، ويعقوب بالرحمة واللين، صاحب زرع وماشية.

وروي: أنّهما ماتا في يوم واحد، ودُفنا في قبر واحد. قيل: عاش يعقوب مائةً وسبعاً وأربعين سنة بمصر، وأوصى أن يحمل إلى الأرض المقدَّسة، ويدفن عند أبيه إسحاق، فحمله يوسف فدفنه عند أبيه. وقال المؤرِّخون: نقل إبراهيم ولده إسماعيل إلى مكة وهو رضيعٌ، وقيل: ابن سنتين، وقيل: ابن أربع عشرة سنة، وولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة، ومات إسماعيلُ وله مائةٌ وثلاثون سنة، وكان لإسماعيل حين مات أبوه إبراهيم تسعٌ وثمانون سنةً، وعاش إسحاق مائةً وثمانين سنةً، ومات بالأرض المقدَّسة، ودفن عند أبيه، وكان بين وفاة إبراهيم الخليل ومولد محمد ﷺ نحوٌ من ألف سنةٍ وستمائة سنة، على ما قيل واليهود تنقص من ذلك نحواً من أربعمائة سنة، وقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ على إضمار القول عند البصريين، تقديره: ووصّى بها بنيه، وقال ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ الخ. وذلك؛ لأنّ يا بني

---

(١) البيضاوي.

جملةٌ، والجملة لا تقع مفعولاً إلاّ لأفعال القلوب، أو فعل القول، وأمّا عند الكوفيين فمنصوبٌ بفعل الوصية؛ لأنّها في معنى القول على رأيهم. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿يَـٰبَنِيَّ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنّه مقول إبراهيم، وذلك على القول بعطف يعقوب على إبراهيم، وهو الأظهر كما مرّ، ومقول يعقوب محذوفٌ؛ لدلالة مقول إبراهيم عليه، والتقدير: ووصَّى بها إبراهيم بنيه، وقال: ﴿يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ الخ. ووصَّى بها يعقوب بنيه، وقال: ﴿يَـٰبَنِيَّ﴾ الخ.

والثاني: أنه من مقول يعقوب؛ إن قلنا رفعه بالابتداء، ومقول إبراهيم محذوف؛ لدلالة مقول يعقوب عليه، والتقدير: ووصَّى بها إبراهيم بنيه، وقال: ﴿يَـٰبَنِيَّ...﴾ الخ. ويعقوب وصَّى بها بنيه، وقال: ﴿يَـٰبَنِيَّ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱصْطَفَىٰ﴾ واختار ﴿لَكُمُ﴾ من بين الأديان ﴿ٱلدِّينَ﴾؛ أي: دين الإسلام الحنيفي الذي هو صفوة الأديان، ولا دين عنده غيره، والألف واللام في الدين للعهد؛ لأنّهم كانوا قد عرفوا، كما في «الكرخي» ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾؛ أي: لا يصادفنكم الموت في الظاهر، وفي الحقيقة: نهى عن ترك الإسلام؛ لأنَّ الموت ليس في أيديهم، فكأنَّه قال: لا تموتوا على حالةٍ غير حالة الإسلام، فليس فيه نهيٌ عن الموت الذي هو قَهْريٌّ، والاستثناء مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محلِّ النصب على الحال، والعامل فيها ما قبل ﴿إِلَّا﴾، كأنّه قال: لا تموتنَّ على حالٍ من الأحوال إلاّ على هذه الحالة التي هي اتصافكم بالإسلام.

والمعنى: أي فاثبتوا على الإسلام حتى تموتوا مسلمين مخلصين له تعالى بالتوحيد والعبادة، والمراد: نهيهم عن ترك الإسلام، وأمرهم بالثبات عليه إلى مصادفة الموت، وإلاَّ فالموت قهريٌّ ليس باختيارهم. وذلك حين دخل يعقوب مصر، فرأى أهلها يعبدون الأصنام، فأوصى بنيه بأن يثبتوا على الإسلام، فإنَّ موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موتٌ لا خير فيه، وأنَّه ليس بموت السعداء، وأنَّ من حقّ هذا الموت أن لا يحلَّ فيهم. وتخصيص الأبناء بهذه

الوصية مع أنّه معلومٌ من حال إبراهيم إنَّه كان يدعو الكُلَّ أبداً إلى الإسلام والدين؛ للدلالة على أنَّ أمر الإسلام أولى الأمور بالاهتمام، حيث وصَّى به أقرب الناس إليه، وأحراهم بالشفقة، والمحبَّة، وإرادة الخير، مع أنَّ صلاح أبنائه سببٌ لصلاح العامَّة؛ لأنَّ المتبوع إذا صلح في جميع أحواله صلح التابع. وروي أنَّ اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألست تعلم أنَّ يعقوب أوصى بنيه باليهوديَّة يوم مات؟ فنزلت هذه الآية: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ وأم فيه منقطعةٌ مقدَّرةٌ ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري. قال في «التيسير»: أم إذا لم يتقدَّمها ألف الاستفهام كانت بمنزلة مجرَّد الاستفهام، ومعنى الهمزة فيها الإنكار، والشهداء: جمع شهيد بمعنى حاضر؛ أي: بل كنتم يا معشر اليهود! حاضرين وصيّة يعقوب، ﴿إِذْ حَضَرَ﴾ وقرىء بكسر[1] الضاد ﴿يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ وقرأ الجمهور[2] بنصب يعقوب، ورفع الموت، وقرىء بالعكس، والمعنيان متقاربان؛ أي: أكنتم حاضرين يعقوب حين حضره أسباب الموت ومقدّماته؟ أي:[3] إنّكم لم تحضروا ذلك فلا تدَّعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل، وتنسبوهم إلى اليهوديَّة، فإنّي ما ابتعثت خليلي إبراهيم، وولده، وأولاده إلا بدين الإسلام، وبذلك وصّوا أولادهم، وبه عهدوا إليهم.

ثُمَّ بيَّن ما قال يعقوب لبنيه بقوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ﴾ يعقوب، ﴿إِذْ﴾ بدلٌ من إذ الأولى بدل اشتمال، والعامل فيهما شهداء، أو ظرفٌ لحضر؛ أي: أكنتم حاضرين وصيّته؟ إذ قال: ﴿لِبَنِيهِ﴾؛ أي: لأولاده الاثني عشر ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أيَّ شيء تعبدونه؟ ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾؛ أي: من بعد موتي، أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما؛ أي: فأنتم لم تحضروا وصيته، فكيف تنسبونه إلى اليهودية؟ قيل: إنّ الله تعالى لم يقبض نبياً حتى يخيِّره بين الحياة والموت، فلمَّا خيِّر يعقوب، وكان قد رأى أهل مصر يعبدون الأوثان والنيران، قال: أنظروني حتى أسأل أولادي، وأوصيهم، فأمهل، فجمع أولاده،

---

(١) البيضاوي.

(٢) العكبري.

(٣) الخازن.

وأولاد أولاده، وقال لهم: قد حضر أجلي، ما تعبدون من بعدي؟ قال الراغب: لم يَعْنِ بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ العبادة المشروعة فقط، وإنّما عنى أن يكون مقصودهم في جميع الأعمال وجه الله تعالى ومرضاته، وأن يتباعدوا عمّا لا يتوسَّل به إليهما، وكأنّه دعاهم إلى أن لا يتحرَّوا في أعمالهم غير وجه الله تعالى، ولم يَخَفْ عليهم الاشتغالَ بعبادة الأصنام، وإنّما خاف أن تشغلهم دنياهم، ولهذا قيل: ما قطعك عن الله فهو طاغوتٌ، ولهذا قال في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؛ أي: أن نخدم ما دون الله تعالى. قال النحرير التفتازانيُّ: و(ما) عامٌّ؛ أي: يصحُّ إطلاقه على ذي العقل، وغيره عند الإبهام، سواءٌ كان للاستفهام، أو غيره، وإذا علم أنَّ الشيء من ذي العقل والعلم، فُرِّقَ (بمَنْ) و(ما)، فيخُصُّ (مَنْ) بذي العلم، و(ما) بغيره، وبهذا الاعتبار يقال: إنَّ (ما) لغير العقلاء. انتهى كلامه.

وتمَّ الإنكار عليهم عند قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ ثُمَّ استأنف وبيَّن أنَّ الأمر قد جرى على خلاف ما زعموا، فقال: و﴿قَالُواْ﴾ كأنَّه قيل: فماذا قال أولاد يعقوب؟ فقيل: قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ ربَّ العالمين ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ معبود الأولين والآخرين، وأعيد ذكر الإله؛ لئلاً يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار. وقرأ الجمهور ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾. وقرأ أُبيٌّ ﴿وإلٰه إبراهيم﴾ بإسقاط آبائك. وقرأ ابن عباس، والحسن، وابن يعمر، والجحدريُّ وأبو رجاء ﴿وإلٰه أبيك﴾ وقوله: ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لآبائك، أو بدل تفصيل له؛ أي: نعبد الإلٰه المتفق على وجوده، وإلٰهيته، ووجوب عبادته، وقدَّم إسماعيل؛ لأنّه كان أكبر من إسحاق، وجعله من جملة آبائه مع كونه عمًّا له؛ تغليباً للأب والجدِّ؛ ولأنَّ العمَّ أبٌ، والخالة أُمٌّ؛ لانْخِرَاطِهما في سلكٍ واحدٍ، وهو الأخوَّة لا تفاوت بينهما، ولقوله ﷺ في العباس: «هذا بقيَّة آبائي» وفي «الصحيحين»: «عمُّ الرجل صنو أبيه»؛ أي: مثله في أنَّ أصلهما واحدٌ؛ أي: لا تفاوت بينهما، كما لا تفاوت بين صنوي النخلة. وقوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بدلٌ من ﴿إلٰه آبائك﴾ كقوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ وفائدته: التصريح بالتوحيد، ودفع التوهُّم الناشىء من تكرار المضاف لتعذّر العطف على المجرور، والتأكيد، أو

منصوبٌ على الاختصاص، كأنّه قيل: نريد ونعني بإله آبائك إلٰهاً واحداً، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى وحده ﴿مُسْلِمُونَ﴾ حالٌ من فاعل نعبد؛ أي: مقرُّون له بالتوحيد وبالعبادة، منقادون. قال تعالى: مشيراً إلى تلك الذرية الطيبة ﴿تِلْكَ﴾ الجماعة المذكورة التي هي إبراهيم، ويعقوب، وبنوهما المُوحِّدون ﴿أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعةٌ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت وسلفت بالموت، والأمَّة في الأصل: المقصود، كالعهدة بمعنى: المعهود، وسمّي بها الجماعة؛ لأنَّ فِرَقَ الناس تؤمُّها؛ أي يقصدونها، ويقتدون بها، وهي خبر تلك، وجملة قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ نعتٌ لأمّةٍ؛ تلك الجماعة المذكورة أمّةٌ قد خلت ومضت بالموت، وانفردت عمَّن عداها، وأصله: صارت إلى الخلاء، وهي الأرض التي لا أنيس بها ﴿لَهَا﴾؛ أي: لتلك الأمة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: جزاء ما عملت من الخيرات، ودَعُوا يا معشر اليهود والنصارى! ذِكْرهم، ولا تقولوا عليهم ما ليس فيهم، وتقديم المسند؛ لقصره على المسند إليه؛ أي: لها كسبها لا كسب غيرها ﴿وَلَكُم﴾ يا معشر اليهود والنصارى ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ لا كسب غيركم؛ أي: جزاء ما كسبتموه من العمل، أي: إنَّ أحداً من الناس لا ينفعه كسب غيره متقدِّماً كان أو متأخراً، فكما أنَّ أولئك لا ينفعهم إلاّ ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلاّ ما اكتسبتم، فلا ينفعكم الانتساب إليهم، بل إنّما ينفعكم موافقتهم واتباعهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لا تؤاخذون بسيئات الأمّة الماضية، كما أنّهم لا يؤاخذون بسيئاتكم، بل كُلُّ فريق يسأل عن عمله لا عن عمل غيره، ففي الكلام حذفٌ، تقديره ولا يسألون عما كنتم تعملون، ودلَّ على المحذوف قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ وذلك لمَّا ادعى اليهود أنَّ يعقوب عليه السلام مات على اليهودية، وأنّه عليه السلام، وصَّى بها بنيه يوم مات، ورُدُّوا بقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ...﴾ الآية، قالوا: هب أنَّ الأمر كذلك، أليسوا آباءنا، وإليهم ينتمي نسبنا؟ فلا جرم ننتفع بصلاحهم، ومنزلتهم عند الله تعالى. قالوا ذلك: مفتخرين بأوائلهم، فرُدُّوا بأنّهم لا ينفعهم انتسابهم إليهم، وإنَّما ينفعهم اتباعهم في الأعمال، فإنَّ أحداً لا ينفعه كسب غيره، كما روي عن النبي ﷺ: «يا صفية عمة محمد! يا فاطمة بنت محمد! ائتوني يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم، فإنّي لا أغني عنكم من الله

شيئاً» وقال ﷺ أيضاً: «مَنْ أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» يعني: من أخره في الآخرة عمله السيىء، أو تفريطه في العمل، لم ينفعه شرف نسبه، ولم تنجبر نقيصته به.

قال الشاعر:

أَتَفْخَرُ باتّصالِكَ مِنْ عَلِيٍّ وَأَصْلُ البَوْلَةِ الماءُ القَراحُ
وَلَيْسَ بِنَافِعٍ نسَبٌ زكّي يُدَنِّسُهُ صَنَائِعُكَ القِبَاحُ

والأبناء وإن كانوا يتشرَّفون في الدنيا بشرف آبائهم، إلاّ أنّه إذا نفخ في الصور فلا أنساب، والافتخار بمثل هذا، كالافتخار بمتاع غيره، وإنّه من الجنون، فلا بُدَّ من كسب العمل والإخلاص فيه، فإنَّه المنجي بفضل الله تعالى، فالقربى لا تغني شيئاً إذا فسد العمل، وأمَّا قول من قال:

إذا طَابَ أَصْلُ المَرْءِ طَابَتْ فُرُوعُهُ

فباعتبار الغالب، فمن عادته تعالى أن يخرج الحيَّ من الميت، والميت من الحيّ.

الإعراب

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾:

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد! قصّة ﴿إذ يرفع إبراهيم﴾، والجملة معطوفة على جملة: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾. ﴿يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾. ﴿وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ معطوف على إبراهيم ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء وما بعدها في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: يقولان: ربّنا تقبّل منا، وجملة القول المحذوف حال من إبراهيم وإسماعيل، كما أشرنا إليه في الحلّ ﴿تَقَبَّلْ﴾ فعل دعاء وفاعل مستتر يعود على الله سبحانه ﴿مِنَّآ﴾ جار

ومجرور متعلق بتقبل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المحذوف ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿أَنتَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبر أوّل؛ لأنَّ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿إنّ﴾ مسوقة؛ لتعليل ما قبلها على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾:

﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول للقول المحذوف ﴿وَٱجْعَلْنَا﴾ الواو عاطفة ﴿اجعلنا﴾ فعل ومفعول أوّل، وفاعل مستتر يعود على الله ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾ مفعول ثان ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بمسلمين، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على المفعول الأول في قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا﴾؛ أي: على كونه متعلقاً بمحذوف، تقديره: واجعل من ذرّيتنا أمّة مسلمة، وإن شئت قلت: الواو عاطفة ﴿مِنْ﴾ اسمٌ بمعنى بعض في محل النصب معطوفٌ على المفعول الأول في قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا﴾ ﴿منْ﴾ مضافٌ ﴿ذريّة﴾ مضافٌ إليه ﴿ذريةِ﴾ مضافٌ (نا) مضاف إليه، ﴿أُمَّةً﴾ مفعول ثانٍ ﴿مُّسْلِمَةً﴾ صفةٌ لأمة ﴿لَّكَ﴾ متعلِّق بمسلمة ﴿وَأَرِنَا﴾ الواو عاطفة ﴿أرنا﴾ فعل ومفعول أوّل، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مناسكنا﴾ مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿تقبل﴾ على كونها مقولاً للقول المحذوف، ﴿وَتُبْ﴾ الواو عاطفة ﴿تب﴾ فعل دعاءٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تقبل﴾، ﴿عَلَيْنَآ﴾ جار ومجرور متعلق بتب ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿أَنتَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ خبر أول، لـ﴿إنَّ﴾ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف، ﴿وَٱبْعَثْ﴾ الواو عاطفة ﴿ابعث﴾ فعل دعاء سُلُوكاً مسلك الأدب مع الباري جلَّ

وعلا، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تقبل﴾ ﴿فِيهِمْ﴾ متعلق بابعث ﴿رَسُولًا﴾ مفعول به ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة أولى لرسولاً ﴿يَتْلُواْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على رسولاً ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به ﴿ءَايَٰتِكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿يَتْلُواْ﴾ في محل النصب صفة ثانية لرسولاً ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ فعل ومفعول أوّل، وفاعل مستتر يعود على ﴿رَسُولًا﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَتْلُواْ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يتلو﴾ ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿أَنتَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ خبر أول؛ لأنَّ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر ثان له، وجملة ﴿إن﴾ مسوقة؛ لتعليل ما قبلها على كونها مقولاً للقول المحذوف ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ الواو استئنافية ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿يرغب﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة ﴿عن ملّة إبراهيم﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بيرغب.

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع بدل من فاعل ﴿يَرْغَبُ﴾، أو في محل النصب على الاستثناء ﴿سَفِهَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿نَفْسَهُۥ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَلَقَدِ﴾ الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ جار ومجرور متعلق باصطفينا ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية ﴿إنّه﴾ ناصب واسمه ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلق بالصالحين، أو حال من الضمير المستكن في الظرف الخبري ﴿لَمِنَ﴾ اللام حرف ابتداء ﴿من الصالحين﴾ جار ومجرور خبر ﴿إنّ﴾؛ أي: وإنّه لكائن من الصالحين؛ أي: الفائزين في الآخرة، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، أو معطوفة على جملة القسم المذكور قبلها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ

وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿قَالَ﴾ فعل ماض ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بقال ﴿رَبُّهُۥٓ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿أَسْلِمْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر والجملة في محل النصب مقول قال (قال) فعل ماضي وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾، والجملة مستأنفة ﴿أَسْلَمْتُ﴾ فعل وفاعل ﴿لِرَبِّ﴾ متعلق بأسلمت، ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿أَسْلَمْتُ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَوَصَّىٰ﴾ الواو استئنافية ﴿وصّى﴾ فعل ماض ﴿بِهَآ﴾ متعلق بوصى ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ فاعل ﴿بَنِيهِ﴾ مفعول به منصوب بالياء؛ لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم، والهاء ضمير متصل في محل الجر مضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ بالرفع معطوف على إبراهيم وهو الأظهر، ومفعوله محذوف، تقديره: ووصّى يعقوب بنيه أيضاً، أو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: ويعقوب قال: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ ومفعول ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ محذوف؛ لعلمه ممَّا بعده، والجملة الإسمية معطوفة على جملة ﴿وصَّى بها إبراهيم﴾، وبالنصب معطوفٌ على ﴿بَنِيهِ﴾ كما سبق في مبحث التفسير ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ مقول محكي للقول المحذوف الواقع حالاً من فاعل ﴿وصى﴾ والتقدير: ووصى بها إبراهيم حال كونه قائلاً يا بني إنّ الله. الخ. وإن شئت قلت: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿بني﴾ منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه الياء المدغمة في ياء المتكلم؛ لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم؛ لأنّ أصله يا بنين لي ﴿بني﴾ مضاف، وياء المتكلم في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول لقال المحذوفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿ٱصْطَفَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ ﴿لَكُمُ﴾ متعلق باصطفى، ﴿ٱلدِّينَ﴾ مفعول به وجملة ﴿ٱصْطَفَىٰ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول لقال المحذوفة ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾، الفاء عاطفة تفريعية ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَمُوتُنَّ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والنون المشددة حرف توكيد، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة مفرعة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على

كونها مقولاً لقال المحذوفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿وَأَنتُم﴾ الواو حالية ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تموتنّ﴾، والرابط ضمير المبتدأ، والتقدير: فلا تموتّن في حال من الأحوال إلاّ حالة كونكم مسلمين. .

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿شُهَدَآءَ﴾ خبره، وجملة كان مستأنفة ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بشهداء ﴿حَضَرَ﴾ فعل ماض ﴿يَعْقُوبَ﴾ مفعول به ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، فيكون متعلّقاً بشهداء، أو متعلّقٌ بحضر ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير ﴿يَعْقُوبَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذْ ﴿لِبَنِيهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقال ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل النصب مفعول مقدّم وجوباً لتعبدون، ﴿تَعْبُدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلّق بتعبدون، أو بمحذوف حال من فاعل ﴿تعبدون﴾، ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ إلى آخر الآية، مقولٌ محكيٌّ لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿نَعْبُدُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على أولاد يعقوب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِلَٰهَكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿وَإِلَٰهَ﴾ الواو عاطفة ﴿إلٰه﴾ معطوف على ﴿إِلَٰهَكَ﴾ ﴿إلٰه﴾ مضاف ﴿ءَابَآئِكَ﴾ مضاف إليه ﴿آباء﴾ مضاف، والكاف مضاف إليه ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بدل من ﴿ءَابَآئِكَ﴾ بدل تفصيل من مجمل تبعه بالجر، وعلامة جره الفتحة ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ معطوفان على ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وإنّما كرَّر إله؛ ليصحَّ عطف ﴿ءَابَآئِكَ﴾ على ضمير المخاطب المجرور بإضافة ﴿إلٰهِ﴾ إليه؛ أعني: ﴿إِلَٰهَكَ﴾ كما قال ابن مالك:

وعَـوْدُ خَـافـضٍ لَـدَى عَـطْـفٍ عَـلَـى   ضَـمِـيـرِ خَـفْـضٍ لاَزِمـاً قَـدْ جُـعِـلاَ

ولمَّا كان رُبَّما يتوهَّم من ظاهر هذا العطف تعدُّد الإله أبدل منه، قوله: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ لدفع هذا التوهُّم، كما مر في مبحث التفسير ﴿إِلَهًا﴾ بدلٌ من ﴿إِلَهِ﴾ الأول بدل كل من كل، ويجوز أن يكون حالاً موطئةً منه، كقولك: رأيت زيداً رجلاً صالحاً ﴿وَاحِدًا﴾ صفة ﴿إِلَهًا﴾، ﴿وَنَحْنُ﴾ الواو عاطفة ﴿نحن﴾ مبتدأ ﴿له﴾ متعلق بمسلمون ﴿مُسْلِمُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿نعبد إلٰهك﴾ على كونها مقولاً لقالوا، أو حال من فاعل ﴿نعبد﴾.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾ تي: اسم إشارة يشار به للمفردة المؤنثة البعيدة في محل الرفع مبتدأ، مبنيٌّ بسكون على الياء المحذوفة، للتخلُّص من التقاء الساكنين، لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لأنَّ أصله: تِي كذِي، فالياء جزء الكلمة عند البصريين، وقال الكوفيون: التاء وحدها هي اسم الإشارة، والياء زائدةٌ، وعلى كلا المذهبين حذفت الياء؛ لالتقاء الساكنين مع اللام؛ لسكونها وسكون اللام بعدها، واللام لبعد المشار إليه، والكاف حرف دال على الخطاب ﴿أُمَّةٌ﴾ خبر، والجملة مستأنفة ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿خَلَتْ﴾ فعل ماض مبني بفتحة مقدّرة على الألف المحذوفة؛ للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنّه فعل معتلٌّ بالألف، والتاء علامة تأنيث الفاعل، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أُمَّةٌ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع صفةٌ أولى لأمَّةٍ ﴿لَهَا﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخّر، والجملة الإسمية في محل الرفع صفة ثانية لأمّة، أو في محل النصب حالٌ من الضمير في ﴿خَلَتْ﴾ أو مستأنفة وهو أولى، وجملة ﴿كَسَبَتْ﴾ صلةٌ لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما كسبته ﴿وَلَكُم﴾ الواو استئنافية ﴿لكم﴾ خبر مقدّم ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿كَسَبْتُمْ﴾ صلةٌ لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما كسبتموه ﴿وَلَا﴾ الواو استئنافية ﴿لا﴾ نافية ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ فعل

مضارع مغيَّر الصيغة مرفوع بثبات النون والواو في محل الرفع نائب فاعله، والجملة مستأنفة ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بتسألون ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان صلةٌ لما الموصولة لا محلَّ لها من الإعراب، والعائد محذوف، تقديره: عمّا كانوا يعملونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال الكسائي، والفراء: القواعد: الجدر جمع جدار، ككتاب، وكتب: الحائط. وقال أبو عبيدة: القواعد: الأساس، وأساس البناء أصله الثابت في الأرض. وقال بعضهم: القواعد: جمع قاعدةٍ، والقاعدة: هي ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس، أو من السَّافات (طاقات البناء)، ورفُعها إعلاءُ البناء عليها، قال الشاعر:

فـي ذِرْوَةٍ مِـنْ بِـقَـاعٍ أوَّلِـهِـم   زَانَـتْ عَـوالِـيـهَـا قَـواعِـدُهَـا

والقواعد من النساء: جمع قاعد، وهي التي قعدت عن الولد، وسيأتي الكلام على كون قاعدٍ لم يأت بالتاء في مكانه إن شاء الله تعالى: ﴿تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ تقبل الله العمل: قَبِلَه ورضي به ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾ أي: منقادين لك، يقال: أسلم واستسلم إذا خضع وانقاد ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ والذرِّية: النسل، مشتقَّةٌ من ذروت، أو ذريت، أو ذرأ الله الخلق، أو الذرَّ، ويضم ذالها أو يكسر أو يفتح، فأمَّا الضمُّ فيجوز أن تكون ذُرِّيَّة فُعَيلة من ذرأ الله الخلق. وأصله: ذريئةٌ، فخفّفت الهمزة بإبدالها ياءً، كما خفَّفوا همزة النَّسِيءَ، فقالوا: النَّسِيْيَ، ثُمَّ أدغمُوا الياء التي هي لام الفعل في الياء التي هي للمد، ويجوز أن تكون فُعُولةً من ذروت، الأصلُ: ذُرُوْوَةٌ، أبدلت لام الفعل ياءً، اجتمعت فيه واوٌ وياءٌ، واوُ المدّ، والياء المنقلبة عن الواو التي هي لام الفعل، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت واو المدِّ ياءً، وأدغمت الياء في الياء وكُسر ما قبلها؛ لأنَّ الياء تطلب الكسر، وقد أطال الكلام في هذه المادَّة أبو حيان، فراجع «البحر».

﴿وَأَرِنَا﴾ أصلُه: أَرْءِيْنا، أمرٌ من أرى الرباعيِّ، فالهمزة الثانية عين الكلمة، والياء لامها، فحذفت الياء؛ لأجل بناء الفعل، فصار أرئنا بوزن أَفْعِنا، ثُمَّ نقلت

حركة الهمزة إلى الراء الساكنة قبلها، وهي فاءُ الكلمة، ثمّ حذفت الهمزةُ؛ للتخفيف، فصار أرنا بوزن أَفِنَا، فلم يبق من الفعل إلا فاؤُهُ، وهي إمَّا بصريَّةٌ بمعنى: بصِّرنا، أو عرفانيةٌ بمعنى: عرِّفنا، تتعدَّى في أصلها إلى واحد، وتعدَّت هنا للثاني بواسطة همزة النقل ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ جمع منسكٍ بفتح السين وكسرها، وقد قرىء بهما، والمفتوح هو المقيس؛ لانضمام عين مضارعه ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ يقال: تاب العبدُ إلى ربّه إذا رجع إليه؛ لأنّ اقتراف الذنب إعراضٌ عن الله وعن موجبات رضوانه، وتاب الله على العبد رحمه وعطف عليه ﴿وَتُبْ﴾ أمرٌ من تاب يتوب، ووزنه فل، وأصل يتوب: يتوب بوزن يفعل؛ نقلت حركة الواو إلى التاء، فسكنت إثر ضمٍّ، فصارت حرف مدّ، فلمَّا بُنِي منه الأمر حذف حرف المضارعة وسكن آخره، فقيل: تُبْ، فالتقى ساكنان فحذفت الواو، ويقال: رغب في الشيء إذا أحبَّه، ورغب عنه كرهه (وسفه) نَفْسه أذلَّها واحتقرها. ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أصله: اصْتَفَوَ بوزن افتَعَلَ من الصفوة لامه واوٌ، لكنَّها أبدلت ياءً؛ لمجيئها خامسةً، ثُمَّ بُنِيَ الفعل على السكون؛ لاتصاله بضمير الرفع (نا) ثُمّ أبدلت تاء الافتعال طاءً؛ لوقوعها بعد حرفٍ من حروف الإطباق، كما قال ابن مالك:

طاتا افْتِعَالٍ رُدَّ إثر مُطْبَقِ ... فِي ادَّان وازْدَدْ وادَّكِر دالاً بَقِي

وعبارة «العمدة» هنا: واصطفيناه؛ أي: جعلناه صافياً من الأدناس الظاهرة والباطنة، مشتقٌّ من الصفوة، ومعناه: تخيير الأصفى، فأصله: اصتفيناه، قلبت تاء الافتعال طاء؛ لوقوعها بعد حرف الإطباق، فصار اصطفى، وألف اصطفى بدلٌ من الياء التي هي بدلٌ من الواو؛ لأنَّ أصله: اصْطَفَوَ؛ لأنَّه من الصفوة، يقال: صفا يصفو صفوةً، فقلبت الواو ياءً؛ لأن الواو إذا وقعت رابعةً فصاعداً قلبت ياءً، فصار اصطفى، فتحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فصار اصطفى ﴿وَوَصَّىٰ﴾ أصله: وَصَّيَ بوزن فَعَّلَ المضعَّف قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وقرىء وأوصى بوزن أفعل وأصله: أَوْصَيَ تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً ﴿يَٰبَنِىَّ﴾ أصله: يا بنين لي، حذفت النون واللام للإضافة، ثُمَّ أدغمت ياء الجمع في ياء المتكلم المضاف إليها الجمع، فقيل: يا بنيَّ بفتح الياء المشددة.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ أصله: تموتونن بثلاث نونات، الأولى علامة الرفع، والثانية

المشدَّدة للتوكيد، فحذفت نون الرفع للجازم، فالتقى ساكنان الواو والنون الأولى المدغمة من نوني التوكيد، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين؛ لأنَّ نون التوكيد أولى بالبقاء؛ لدلالتها على معنى مستقلٍّ، وبقيت ضمّةُ التاء لتدلَّ على الواو المحذوفة، فصار تموتُنَّ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ والشهداء: جمع شهيد بمعنى حاضر، وحضور الموت حضور أماراته، وأسبابه، وقرب الخروج من الدنيا ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ جمع أبٍ على أفعال، أصله: أأباوٌ، أبدلت الهمزة الثانية حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى وهو الألف، ثم أبدلت الواو همزةً؛ لتطرُّفها إثر ألفٍ زائدةٍ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ فعلٌ ماض مؤنّثٌ لإسناده إلى ضمير المؤنَّث، وأصله: خلو بوزن فعل بفتح العين، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فلحقت بالفعل تاء التأنيث الساكنة فالتقى ساكنان، حيث صار اللفظ خَلاْت، فحذفت الألف؛ لالتقاء الساكنين، فصار خلت بوزن فعت.

البلاغة

وقد تضمَّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير بصيغة الاستقبال في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾؛ لحكاية الحال الماضية، ومعنى حكاية الحال الماضية: أن يفرض ويقدَّر الواقع الماضي واقعاً وقت التكلم، ويخبر عنه بالمضارع الدال على الحال، وفي ذلك غرضٌ معروفٌ عند أهل المعاني، وهو استحضار الصورة الماضية، كأنّها مشاهدة بالعيان، فكأنَّ السامعُ ينظرُ إلى الْبُنيانِ وهو يرتفعُ، والبَنَّاءِ وهو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾؛ لأنّه على تقدير القول؛ أي: يقولان: ربّنا تقبَّل منّا.

ومنها: الاستفهام الإنكاري الذي يراد به التقريع، والنفي في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ لأنَّ الجملة واردةٌ مورد التوبيخ والتقريع للكافرين، كما

مرَّ في مبحث التفسير.

ومنها: التأكيد بإنَّ واللام معاً في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مع أنَّه أكَّد باللام فقط فيما قبله؛ أعني: قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ إشعاراً بأنَّ الجملة الثانية محتاجةٌ لمزيد التأكيد دون الأولى، وذلك أنَّ كونه في الآخرة من الصالحين أمرٌ مغيَّبٌ، فاحتاج الإخبار عنه إلى زيادة تأكيد، وأمَّا اصطفاء الله تعالى له في الدنيا، فأمر مشاهدٌ نقله جيلٌ عن جيل.

ومنها: الالتفات من التكلم في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾؛ لأنَّ الأسماء الظاهرة من قبيل الغيبة، إذ مقتضى السياق أن يقال: إذ قلنا له أسلم، وكذا قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ مقتضاه أن يقال: أسلمت لك؛ لأنَّ الالتفات من المحسِّنات البديعة، ولهم فيه غرضٌ، والغرض من الالتفات في الأوَّل؛ إظهار مزيد اللُّطف به، والاعتناء بتربيتِهِ بذكر عنوان الربوبية، وفي الثاني: الإيذان بكمال قوّة إسلامه، والإشارة إلى أنَّ من كان ربًّا للعالمين لا يليق به إلاّ أن يُتلقَّى أمره بالقبول، والإذعان، والخضوع...

ومنها: التعبير بما الموضوعة لغير العاقل دون مَن الموضوعة للعاقل في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؛ لأنَّ المعبودات في ذلك الوقت كانت من غير العقلاء، كالأوثان، والأصنام، والشمس، والقمر، فاستفهم بما التي لغير العاقل، فَعرَف بَنوُهُ ما أَرَادَ، فأجابوه بالحق، إذ الجواب على وَفْقِ السؤال، ففيه مطابقة الكلام لمقتضَى الحال.

ومنها: فنُون البلاغة التي تضمَّنها قولُه: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ إلى آخره.

ومنها: الاطراد وهو: أن يذكر المتكلم أسماء آباء المخاطب مرتَّبةً على طبق ترتيبها في الميلاد، فقد تجاوز جدَّهم الأدنى إلى جدِّهم الأعلى؛ لكونه المبتدأ بالملة المتبعة.

ومنها: فنُّ المساواة؛ لأنَّ ألفاظ هذه الأسماء لا فضل فيها لبعضٍ على بعض.

ومنها: حسن البيان؛ لأنَّ فيها بياناً عن الدين بأحسن بيانٍ، لا يتوقَّف أحدٌ في فهمه.

ومنها: الاحتراس؛ لأنّه لو وقف عند آبائك ولم يذكر ما بعده لاختلَّت صحة المعنى؛ لأنَّ مطلق الآباء يتناول من الأب الأدنى إلى آدم، وفي آباء يعقوب عليه السلام من لا يجب اتباع ملّته، فاحترس بذكر البدل عمَّا يرد على المبدل منه، لو كان وقع الاختصار عليه، فتأمَّل واعجب، وفيه أيضاً التغليب؛ لأنّ قوله: ﴿ءَابَآئِكَ﴾ شمل العمَّ الذي هو إسماعيل، والجدَّ الذي هو إبراهيم والأب الذي هو إسحاق، فغلَّب الأب على غيره، فعبَّر عن الكل بالآباء من المجازات المعهودة، في فصيح الكلام.

ومنها: النهي عن الموت في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مع أنَّ الموت ليس من الأمور التي تدخل تحت إرادة الإنسان؛ إشعاراً بأنَّ الموت على خلاف الإسلام هو موتٌ لا خير فيه، وأنّه ليس بموت السعداء.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا[1] ذكر أنَّ ملة إبراهيم هي الملة الحنيفية السمحة، وأنَّ من لم يؤمن بها، أو رغب عنها، فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة.. ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة، من زعمهم أنَّ الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية، وبيَّن أنَّ تلك الدعاوي لم تكن عن دليلٍ، أو شبهةٍ، بل هي مجرَّد جحود وعناد، ثُمَّ عقَّب ذلك بأنَّ الدين الحق هو التمسك بالإسلام دين جميع الأنبياء والمرسلين.

قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ الآية، قال أبو حيان: وارتبطت[2] هذه الآية بما قبلها؛ لأنّه لمَّا ذكر في قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ جواباً إلزاميًّا، وهم ما

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

أُمروا باتباع اليهودية والنصرانية، وإنما كان ذلك منهم على سبيل التقليد، وكُلُّ طائفةٍ منهم تكفِّر الأخرى، أجيبوا بأنَّ الأولى في التقليد اتباع إبراهيم؛ لأنهم أعني: الطائفتين المختلفتين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذُ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف فيه، إن كان الدين بالتقليد، فلما ذكر هنا جواباً إلزامياً ذكر بعده برهاناً في هذه الآية، وهو ظهور المعجزة عليهم بإنزال الآيات، وقد ظهرت على يد محمد ﷺ، فوجب الإيمان بنبوَّته، فإنَّ تخصيص بعض بالقبول وبعض بالردِّ يوجب التناقض في الدليل، وهو ممتنعٌ نقلاً. انتهى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لمَّا بيَّن[1] سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أنَّ الملَّة الصحيحة هي ملة إبراهيم، وليست هي باليهودية والنصرانية، بل هي صبغة الله التي لا دخل لأحد فيها، وهي بعيدةٌ عن اصطلاحات الناس وأوضاعهم، ولكن نشأت بعد ذلك أوضاعُ الرؤساء، فطمست ما جرى عليه الأنبياء، حتى خفيت أوامرهم فيها إلى أن أرسل الله سبحانه محمداً ﷺ، ودعا الناس إلى الرجوع إليها، وأرشد إلى الحق الذي عليه صلاح المجتمع في دينه ودنياه.. شرع هنا يُبطل الشبهاتِ التي تعترض سبيل الحق، فلقَّن نبيَّه الحجج التي يدفع بها تلك المفتريات.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ قال: (قال ابن صُوريا للنبي ﷺ: ما الهدى إلاّ ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد! تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله فيهم ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ. . .﴾ الآية.

---

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ...﴾ الآيات، روي أنَّ سبب نزول هذه الآيات: أنَّ اليهود والنصارى قالوا: يجب أن يكون الناس لنا تبعاً في الدِّين؛ لأنَّ الأنبياء منا، والشريعة نزلت علينا، ولم يعهد في العرب أنبياء ولا شرائع، فردَّ الله عليهم بهذه الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ في المعنى معطوف على قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾. الخ. وهو بيان فن آخر من فنون كفرهم، وإضلالهم لغيرهم إثر بيان ضلالتهم في أنفسهم قبل، نزلت هذه الآية في رؤساء يهود المدينة، وفي نصارى نجران، والضمير في ﴿قالوا﴾ لأهل الكتابين، وأو في قوله: ﴿أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾؛ لتفصيل القول المجمل بقوله: ﴿قالوا﴾؛ أي: قالت اليهود للمؤمنين: ﴿كُونُواْ هُودًا﴾؛ أي: اتَّبعوا اليهوديَّة تهتدوا من الضلالة، وتصلوا إلى الخير، وتظفروا بالسعادة، فإنّ نبيَّنا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفروا بعيسى والإنجيل، وبمحمدٍ والقرآن، وقالت النصارى للمؤمنين: كونوا نصارى؛ أي: اتبعوا النصرانية تهتدوا، فإنّ نبينا عيسى أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفروا بموسى والتوراة، وبمحمدٍ والقرآن؛ أي: قال كُلُّ واحدٍ من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا، فلا دين إلاّ ذلك، وقوله: ﴿تَهْتَدُواْ﴾ جوابٌ للأمر؛ أي: إن تكونوا كذلك تجدوا الهداية من الضلالة، فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! على سبيل الردِّ، ببيان ما هو الحقُّ لا نتَّبعُ دينكم ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ودينه.

وقرأ الجمهور(١): بنصب (مِلَّةَ) بإضمار فعل، إمّا على المفعول؛ أي: بل نتبع ملة إبراهيم؛ لأنَّ معنى قوله: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ اتَّبعوا اليهوديَّة والنصرانيَّة، وإمَّا على أنَّه خبر كان؛ أي: بل نكون ملة إبراهيم؛ أي: أهل ملة

(١) البحر المحيط.

إبراهيم، وإمّا على أنَّه منصوب على الإغراء؛ أي: الزموا ملَّة إبراهيم، وإمَّا على أنّه منصوبٌ على إسقاط الخافض؛ أي: نقتدي ملّة إبراهيم؛ أي: بملة إبراهيم، ويحتمل أن يكون الخطاب للكفار، فيكون المضمر اتبعوا، أو كونوا، ويحتمل أن يكون من كلام المؤمنين، فيقدَّر نتَّبع، أو نكون، أو نقتدي على ما تقدم تقديره.

وقرأ ابن هرمز الأعرج، وابن أبي عبلة: ﴿بَلْ مِلَّةُ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ برفع ملَّة وهو خبر مبتدإٍ محذوف؛ أي: بل الهدى ملة إبراهيم، أو أمْرُنا ملَّتُه، أو نحن ملَّتُه؛ أي: أهل ملته، أو مبتدأ محذوف الخبر؛ أي: بل ملة إبراهيم حنيفاً ملَّتنا؛ أي: بل نتبع ملة إبراهيم حالة كون إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة كُلِّها من اليهودية، والنصرانية، والوثنية، إلى الدين الحق السَّمح الذي هو التوحيد، وهو حالٌ من المضاف إليه، وهو إبراهيم، كما في قولهم: رأيت وجه هندٍ قائمةً، لأنَّ رؤية وجه هندٍ يستلزم رؤيتها، فالحال هنا تبين هيئة المفعول، أو من المضاف وهو المِلَّة، وتذكير حنيفاً حينئذٍ بتأويل الملة بالدين؛ لأنّهما متَّحدان ذاتاً، والتغاير بالاعتبار، وإنَّما خصَّ[1] إبراهيم دون غيره من الأنبياء، وإن كان كُلُّهم مائلين إلى الحق مستقيمين في الطريقة حنفاء؛ لأنّ الله تعالى اختصَّ إبراهيم بالإمامة؛ لِمَا سنَّه من مناسك الحج، والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام ممَّا يقتدى به إلى قيام الساعة ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله تعالى؛ أي: وما كان على دينهم، والمراد بالإشراك: مطلق الكفر، وفي هذا تعريضٌ بهم، وإيذانٌ ببطلان دعاويهم اتباع إبراهيم عليه السلام مع إشراكهم، فإشراك اليهود بقولهم: عزير ابن الله، وإشراك النصارى بقولهم: المسيح ابن الله وإشراك غيرهما بعبادة الأوثان، والشمس، والقمر، والكواكب، والملائكة، وغيرها.

وفي الآية: إرشاد[2] إلى اتباع دين إبراهيم، وهو الدين الذي عليه نبيُّنا محمدٌ ﷺ وأصحابه، وأتباعه، وبعد أن أمر الله سبحانه نبيَّه ﷺ أن يدعو الناس إلى اتّباع ملة إبراهيم، أمر المؤمنين بمثل ذلك، فقال: (قُولُوا) أيُّها المؤمنون!

---

(١) العمدة. (٢) روح البيان.

لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم ذلك ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وحده، وصدَّقنا بوحدانيَّته ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ أي: آمنا بالقرآن الذي أنزل على نبينا، والإنزال إليه إنزالٌ إلى أمته؛ لأنَّ حكم المنزل يَلْزَمُ الكُلَّ؛ لأنّهم المخاطبون فيه بتكالفيه من الأوامر، والنواهي، وغير ذلك.

أخرج البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذِّبوهم، ولكن قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا، فإن كان حقاً لم تكذبوه، وإن كان كذباً لم تصدقوه». وروى ابن أبي حاتم عن معقل مرفوعاً: (آمِنُوا بالتوارة والإنجيل، وليسعكم القرآن) ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ من صحفه العشر، قال تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ وكرَّر الموصول؛ لأنّ المنزل إلينا وهو القرآن غير تلك الصحائف التي أنزلت على إبراهيم، فلو حذف الموصول لأوهم أنَّ المنزل إلينا هو المنزل إلى إبراهيم، وعطف قوله: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ على إبراهيم مع أنَّه لم ينزل إليهم شيءٌ؛ لأنّهم كلِّفوا العمل بما أنزل إلى إبراهيم، والدعاء إليه، فأضيف الإنزال إليهم كما أضيف إلينا في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ والأسباط: جمع سبِط وهو في الأصل شجرةٌ واحدةٌ لها أغصانٌ كثيرةٌ، والمراد هنا: أولاد يعقوب من صلبه اثنا عشر، كما مر، سُمُّوا بذلك؛ لأنّه وُلِد لكلٍ منهم جماعةٌ، وسبط الرجل: حافده؛ أي: ولد ولده، وحينئذٍ تسمية أولاد يعقوب بالأسباط بالنظر، لكونهم أولاد أولاد إسحاق وإبراهيم، وقيل: المراد: أولاد أولاد يعقوب وتسميتهم أسباطاً ظاهرةٌ، والأسباط من بني إسرائيل، كالقبائل من العرب، والشعوب من العجم، وهم جماعةٌ من أبٍ وأمٍ، وكان في الأسباط أنبياء ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾؛ أي: وآمنَّا بالذي أوتي، وأعطي موسى بن عمران، كليم الله من التوراة، والآيات ﴿وَ﴾ ما أوتى ﴿عيسى﴾ ابن مريم من الإنجيل، والآيات، ونصَّ على موسى وعيسى؛ لأنّهما متبوعا اليهود والنصارى بزعمهم، والكلام هنا معهم، ولم يكرِّر الموصول في عيسى؛ لأنه إنّما جاء مصدِّقاً لما في التوراة، ولم ينسخ منها إلاَّ نزراً يسيراً، فالذي أوتي عيسى هو ما أوتي موسى، وإن كان قد

خالف في نزرٍ يسيرٍ، وتعبيره أوّلاً بأنزل، وثانياً بأوتي مع كون المعنى واحداً؛ للتفنُّن، ولمَّا[1] ذكر في الإنزال خاصّاً عطف عليه جمعاً، فكذلك لمَّا ذكر في الإيتاء خاصاً عطف عليه جمعاً، ولمَّا أظهر الموصول في الإنزال في العطف أظهره في الإيتاء، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: وبجميع ما أعطى النبيون المذكورون، وغيرهم من الكتب، والمعجزات، والمعنى: آمنَّا أيضاً بالتوراة والإنجيل، والكتب التي أوتي جميع النبيين، وصدَّقنا أنَّ ذلك كُلَّه حق، وهدى، ونور، وأنَّ الجميع من عند الله تعالى، وأنَّ جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى، وحقٍّ، وذكر ما أوتي هنا، وحذفه في آل عمران؛ اختصاراً، كما هو الأنسب بالآخر، وقال هنا: أوتي موسى، ولم يقل: وما أنزل إلى موسى، كما قال قبل: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ للاحتراز عن كثرة التكرار.

﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ في الإيمان لا في الأفضليَّة ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: بين أحدٍ من الأنبياء؛ أي: لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضٍ، كما فعلت اليهود والنصارى، فاليهود كفرت بعيسى ومحمد ﷺ، وأقرَّت ببعض الأنبياء، بل نؤمن نحن بكلِّ الأنبياء، وأنَّ جميعهم كانوا على حقّ وهدى؛ لأنَّ تصديق الكُل واجبٌ، والدليل الذي أوجب علينا أن نؤمن ببعض الأنبياء، وهو تصديق الله إياه بخلق المعجزات على يديه، يوجب الإيمان بالباقين، فلو آمنَّا ببعضهم، وكفرنا بالبعض لناقضنا أنفسنا، والجملة حال من الضمير في آمنا، ولفظ أحد[2]؛ لوقوعه في سياق النفي عامٌّ، فساغ أن يضاف إليه (بين) من غير تقدير معطوفٍ، نحو: المال بين الناس، ووجَّهَهُ في «الكشاف» بقوله: وأحدٌ في معنى الجماعة بحسب الوضع، وعلَّله التفتازانيُّ بقوله: لأنّه اسمٌ لمن يصلح أن يخاطب يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمثنى والمجموع، ويشترط أن يكون استعماله مع كُلٍّ، أو في كلام غير موجب، وهذا غير الأحد الذي هو أوَّل العدد في مثل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وليس كونه في معنى الجماعة من جهة كونه نكرةً في سياق النفي على

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

ما سبق إلى كثيرٍ من الأذهان، ألا ترى أنَّه لا يستقيم لا نُفرِّق بين رسولٍ من الرسل إلاَّ بتقدير العطف؛ أي: بين رسولٍ ورسولٍ. اهـ. «كرخي».

﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون خاضعون بالطاعة، مذعنون له بالعبودية؛ أي: آمنَّا بالله، والحال أنَّا مخلصون لله تعالى جميع أعمالنا، ومذعنون له، وله متعلِّقٌ بمسلمون، وتأخَّر عنه العامل؛ لرعاية الفواصل، أو قدَّم له؛ للاعتناء بالضمير العائد على الله تعالى.

فائدةٌ: وابتدأ أوّلاً بالإيمان بالله[1]؛ لأنَّ ذلك أصل الشرائع، وقدَّم ما أنزل إلينا، وإن كان متأخِّراً في الإنزال عن ما بعده؛ لأنّه أولى بالذكر؛ لأنَّ الناس بعد بعثة محمدٍ ﷺ مدعوون إلى الإيمان بما أنزل إليه جملةً وتفصيلاً، وقدَّم ما أنزل إلى إبراهيم على ما أوتى موسى وعيسى؛ للتقدم في الزمان؛ أو لأنَّ المنزل على موسى ومن ذكر معه هو المنزل إلى إبراهيم، إذ هم داخلون تحت شريعته، وأنزل[2] يتعدَّى بعلى، وإلى، فلذا أورد بإلى، وفي آل عمران بعلى.

فائدة أخرى: وظاهر قوله[3]: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ يقتضي التعميم في الكتب، والشرائع، وعن أبي سعيد الخدري قال: قلت: يا رسول الله! كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيثٍ خمسين صحيفة، وأنزل على أخنوخ ثلاثين صحيفة، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، ثُمَّ أنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان»، وأمَّا عدد الأنبياء: فروي عن ابن عباس، ووهب بن منبه أنّهم مائة ألف نبيٍّ وأربعة وعشرون ألف نبي، كُلُّهم من بني إسرائيل إلاّ عشرين ألف نبيٍّ، وعدد الرسل: ثلاثمائة وثلاثة عشر، كُلُّهم من ولد يعقوب إلاّ عشرين رسولاً، ذُكِر منهم في القرآن خمسةٌ وعشرون، نصَّ على أسمائهم وهم: آدم، وإدريس،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) النفي.

(٣) البحر المحيط.

ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وهارون، واليَسع، ويونس، وأيوب، وداود، وسليمان وذو الكفل، وإلْياس، وزكريا، ويحيىٰ، وعيسى، ومحمد صلى الله تعالى عليهم أجمعين، وفي روايةٍ عن ابن عباس: (أنَّ الأنبياء كُلَّهم من بني إسرائيل إلاّ عشرةً: نوحاً، وهوداً، وشعيباً، وصالحاً، ولوطاً، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل ومحمداً صلى الله عليهم أجمعين ولمَّا نزل قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ الآية، قرأها رسولُ الله ﷺ على اليهود والنصارى، وقال: «الله أمرني بهذا»، فلمَّا سمعوا بذكر عيسى أنكروا وكفروا، وقالت النصارى: إنّ عيسى ليس بمنزلة سائر الأنبياء، ولكنَّه ابن الله تعالى، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: اليهود والنصارى ﴿بِمِثْلِ مَآ﴾؛ أي: بمثل الدين الذي ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ هذا من[1] باب التعجيز والتبكيت؛ أي: إلزام الخصم، وإلجائه إلى الاعتراف بالحق بإرخاء عنانه، وسدِّ طرق المجادلة عليه، والمثل مقحمٌ هنا، كما تدلُّ عليه القراءتان الآتيتان.

والمعنى: فإن آمنوا بما آمنتم به وهو الله تعالى، فإنَّه ليس لله تعالى مثلٌ، وكذا دين الإسلام. وقرأ عبد الله بن مسعود، وابن عباس: ﴿بما آمنتم﴾ وقرأ أُبيٌّ ﴿بالذي آمنتم به﴾ وقرأ الجمهور ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ ومثل على هذه القراءة مقحمٌ كما ذكرناه آنفاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾؛ أي: عليه، وتشهد له قراءة من قرأ ﴿بما آمنتم به﴾ ﴿وبالذي آمنتم به﴾؛ لئلاّ يلزم علينا ثبوت المثل لله تعالى، وللقرآن.

وهذا مُرتب على قوله[2]: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ إلخ. أي: وإذا قلتم ما ذكر فحال اليهود، إمَّا مساواتكم فيما ذكر، أو مخالفتكم فيه، والمعنى: أي: فإن آمنت اليهود والنصارى، وغيرهم، بجميع ما آمنتم به من سائر كتب الله تعالى، وجميع رسله ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ من الضلالة إلى الحق، وأصابوه، كما اهتديتم، وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق؛ أي: فقد صاروا مهتدين مسلمين مثلكم، وقيل:

---

(١) روح البيان.
(٢) العمدة.

المعنى: فإن آمنوا بالتوراة من غير تصحيفٍ، ولا تحريفٍ، كما أنّكم آمنتم بالقرآن من غير تصحيف، ولا تحريف، فقد اهتدوا؛ لأنّهم يتوصّلون بذلك إلى معرفة نبوة محمد ﷺ وقال في: «الكشَّاف»: إنّه من باب التبكيت والتعجيز، كما مرّ آنفاً؛ لأنَّ دين الحق واحدٌ لا مثل له، وهو دين الإسلام، قال: أي[١]: فإن حصّلوا ديناً آخر مثل دينكم، مساوياً له في الصحة والسَّداد، فقد اهتدوا ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أعرضوا عن الإيمان بالنبيين وكتبهم؛ أي: أعرضوا عن الدخول في الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلُّوا بشيءٍ من ذلك، كأن آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض، كما هو دينهم وديدنهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ﴾ مستقرُّون ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ وخلافٍ عظيمٍ بعيدٍ عن الحق، وعداوةٍ شديدةٍ لكم.

وهذا[٢] لدفع ما يتوهَّم من احتمال الوفاق بسبب إيمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون، فقوله: ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ خبرٌ لقوله: ﴿هم﴾ وجَعْلُ الشقاقُ ظرفاً لهم، هم مظروفون له مبالغةً في الإخبار باستيلائه عليهم، فإنَّه أبلغُ من قولك هم مشاقُّون، والشِقاقُ: مأخوذٌ من الشّقِّ وهو الجانب، فكأنَّ كُلَّ واحدٍ من الفريقين في شقٍّ غير شقِّ صاحبه؛ بسبب العداوة، ولمَّا دلَّ تنكير الشقاق على امتناع الوفاق، وأنَّ ذلك ممَّا يؤدِّي إلى الجدال، والقتال لا محالة، عقَّب ذلك بتسلية رسول الله ﷺ وتفريح المؤمنين بوعد النصرة والغلبة، وضمان التأييد، والإعزاز بالسين الموضوعة للتأكيد الدالَّة على تحقُّق الوقوع ألبتة، فقال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: فسيكفيك الله يا محمد! ويقيك شرَّ شقاقهم، ومكر عنادهم، والضميران منصوبا المحلِّ على أنَّهما مفعولان ليكفي، يقال:[٣] كَفَاهُ مؤونَتَهُ كفايةً، وإن كثر استعماله معدًّى إلى واحد، نحو: كفاك الشيء، والظاهر: أنَّ المفعول الثاني حقيقةً في الآية هو المضاف المقدَّرُ؛ أي: فسيكفي الله إياك أَمْر اليهود والنصارى، ويدفع شرَّهم عنك، وينصرك عليهم، فإنَّ الكفاية لا تتعلَّق بالأعيان، بل بالأفعال، وقد

---

(١) الكشاف.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

أنجز الله سبحانه وعده الكريم بالقتل، والسبي في بني قريظة، والجلاء، والنفي إلى الشام، وغيره في بني النضير، والجزية، والذلّة في نصارى نجران، وعَطْفُ الجملةِ بالفاء مشعرٌ بتعقُّب الكفاية عقيب شقاقهم، والمجيءُ بالسين يدلُّ على قربٍ الاستقبال، إذ السينُ في وضعها أقرب من التنفيس من سوف، والذواتُ ليست المكفية، فهو على حذف مضافٍ، كما مرَّ آنفاً؛ أي: فسيكفيك شقاقهم والمكفيُّ به محذوف؛ أي: بمن يهديه الله من المؤمنين؛ أي: بتفريق كلمة المشاقِّين، أو بإهلاك أعينهم، وإذلال باقيهم بنحو: السبي، والقتل، وهذا تسليةٌ وتسكينٌ للمؤمنين، ووعدٌ لهم بالحفظ والنصرة على من عاداهم، وضمانٌ من الله تعالى؛ لإظهار رسول الله ﷺ؛ لأنَّه إذا تكفَّل بشيءٍ أنجزه، وهو إخبارٌ بغيبٍ، ففيه معجزةٌ للنبيِّ ﷺ ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم ونيَّاتهم، يَسْمَعُ جميَع ما ينطقون به، ويعلم جميع ما يُضمِرونه به من الحسد والغلِّ، وهو مجازيهم، ومعاقبهم. وفي «الرُّوح»: وهذه الجملة تذييلٌ لما سبق من الوعد، وتأكيدٌ له، والمعنى: أنَّه تعالى يسمع ما تدعوه، ويعلم ما في نيتك من إظهار الدين، فيستجيب لك، ويوصلك إلى مرادك. اهـ.

وقال أبو حيَّان: ومناسبة هاتين الصفتين هنا[1]: أنَّ كُلّاً من الإيمان وضدِّه مشتملٌ على أقوالٍ وأفعالٍ، وعلى عقائد تنشأ عنها تلك الأقوال والأفعال، فناسب أن يختم ذلك بهما؛ أي: وهو السميع لأقوالكم العليم بنياتكم واعتقادكم، ولمَّا كانت الأقوال هي الظاهرة لنا، الدالَّة على ما في الباطن، قُدِّمت صفة السميع على العليم؛ ولأنَّ العليم فاصلةٌ أيضاً، وتضمنت هاتان الصفتان الوعيد؛ لأنَّ المعنى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيجازيكم بما يصدر منكم. وقرأ الجمهور ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ بالنصب، فيكون إمّا على الإغراء؛ أي: إلزموا يا أهل الكتاب! صبغة الله، ودينه الذي هو دين الإسلام، وتمسَّكوا به واتَّبعوه، لا صبغة أحباركم، ورهبانكم، وسمِّي الدين صبغةً؛ لظهور أثره على صاحبه، كظهور أثر الصبغ على الثوب؛ ولأنَّه يلزمه، ولا يفارقه، كالصبغ في الثوب؛ لأنَّ الصبغ

---

(١) البحر المحيط.

بالكسر: ما يُلوَّن به الثياب، والصَّبغ بالفتح: المصدر، والصبغة: الفعلة التي تبنى للنوع، والحالة مِنْ صبَغَ، كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع الصبغ عليها، وهي؛ أي: الصبغة في الآية؛ مستعارةٌ لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي دينه، شبِّهت الخلقة السليمة التي يستعدُّ بها العبد للإيمان، وسائر أنواع الطاعات بصبغ الثوب من حيث إن كُلَّ واحدة منهما حليةٌ؛ لما قامت هي به وزينة له. وقيل: إنَّ الصبغة: الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام بدلاً من معموديَّة النصارى، إذا ولد لأحدهم مولودٌ، وأتى عليه: سبعةُ أيام، غمسوه في ماءٍ لهم أصفر يُسمُّونه ماء المعموديَّة، وصبغوه به ليطهِّروه به مكان الختان، وكانوا يفعلون ذلك بأولادهم في كنائسهم؛ تشبيهاً للمولود بعيسى عليه السلام. فإذا فعلوا ذلك به قالوا: الآن صار نصرانيًّا حقًّا، وزعموا أنَّ الإنجيل ذكر عيسى بأنَّه الصَّابغ، والمعمودية: هي اسم ماء غُسل به عيسى عليه السلام حين ولادته، فمزجوه بماءٍ آخر، وكُلَّما استعملوا منه جعلوا مكانه ماء آخر. اهـ.

فأخبر الله تعالى: أنَّ دين الإسلام ليس ما تفعله النصارى. وقيل: إنّه منصوب على كونه بدلاً من ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ﴾ وقيل: إنّه منصوبٌ انتصاب المصدر المؤكد عن قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾. وقيل: عن قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾. وقيل عن قوله: ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ والتقدير: قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله صبغةً؛ أي: فطرنا، وخلقنا على استعداد قبول الحق، والإيمان فطرته، فهذا المصدر مفعولٌ مطلق مؤكِّد لنفسه؛ لأنَّه مع عامله المقدَّر بعينه، وقع مؤكّداً لمضمون الجملة المتقدمة، وهو قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، لا محتمل لها من المصادر إلاّ ذلك المصدر؛ لأنَّ إيمانهم بالله يحصل بخلق الله إيّاهم على استعداد اتباع الحق، والتحلِّي بحلية الإيمان. وهذا الوجه؛ أعني: كونه منتصباً انتصاب المصدر المؤكد عن قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أحسنها، وأظهرها، لما سيأتي عند قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ من تنافر آخر الآية لأوَّلها إذ نَصَبْنَا على الإغراء، ولأنَّ نصبه على الإبدال من ملة إبراهيم بعيدٌ؛ لطول الفصل بين البدل والمبدل منه، ويحتمل أن يكون التقدير: طهَّرنا الله تطهيره؛ لأنَّ الإيمان يُطهِّر النفوس من أوضار الكفر، وسمَّاه صبغةً؛ للمشاكلة لما فعلته النصارى، والمشاكلة: هي ذكر الشيء

بلفظ غيره لوقوع ذلك الشيء في صحبة الغير، إمَّا بحسب المقال المحقَّق، أو المقدَّر بأن لا يكون ذلك الغير مذكوراً حقيقةً، ويكون في حكم المذكور لكونه مدلولاً عليه بقرينة الحال، فالمشاكلة تجري بين قولين، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ﴾ فإنَّه عبَّر عن ذات الله تعالى بلفظ النفس؛ لوقوعه في صحبة لفظ النفس، وعبَّر هنا عن لفظ الفطرة بلفظ الصبغة؛ لوقوعه في صحبة صبغة النصارى إذ كانوا يشتغلون بصبغ أولادهم في سابع الولادة مكان الختان، للمسلمين بغمسهم في الماء الأصفر الذي يسمُّونه المعمودية بالدال، أو المعمورية بالراء، على زعم أنَّ ذلك الغمس وإن لم يكن مذكوراً حقيقةً، لكنَّه واقعٌ فعلاً من حيث إنّهم يشتغلون به، فكان في حكم المذكور بدلالة قرينة الحال عليه من حيث اشتغالهم به، ومن حيث إنّ الآية نزلت ردّاً لزعمهم ببيان أنَّ التطهير المعتبر هو تطهير الله عباده، لا تطهير أولادكم بغمسهم في المعمودية، وهي اسم ماءٍ غسل به عيسى عليه السلام حين ولادته، وهو نهرٌ في الأردن، وهو عند النصارى مثل الزمزم عند المسلمين في غسل أولادهم به تبرُّكاً به عندما ينصِّرونهم، فمزجوه بماءٍ آخر، وكُلَّما استعملوا منه جعلوا مكانه ماءً آخر.

وقرأ الأعرج[1]، وابن أبي عبلة: بالرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ذلك الإيمان صبغة الله؛ أي: دين الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾؛ أي: ديناً. وقيل: تطهيراً؛ لأنّه يطهِّر من أوساخ الكفر؛ أي: لا صبغة أحسن من صبغته تعالى؛ لأنّه تعالى يصبغ عباده بالإيمان، ويطهِّرهم به من أوضار الشرك. وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ مبتدأٌ[2] وخبرٌ، والاستفهام فيه للإنكار بمعنى النفي ﴿مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ نصب على التمييز من أحسن، منقولٌ من المبتدأ، والتقدير: ومَنْ صِبْغَتُهُ أحسنُ من صبغته تعالى، فالتفضيل جارٍ بين الصبغتين لا بين فاعليهما، والمعنى: أيُّ شخصٍ تكون صبغته أحسن من صبغة الله تعالى؟ فإنّه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

يصبغ عباده بالإيمان، ويُطهِّرهم به من أوضار الكفر، وأنجاس الشرك، فلا صبغة أحسن من صبغته، فهي جماع كُلِّ خير، وبها تتألَّف القلوب، والشعوب، وتزكو النفوس، أمَّا ما أضافه الأحبار والرُّهبان من أهل الكتاب إلى الدين، فهي من صبغة البشريَّة، والصنعة الإنسانيَّة التي تجعل الدين الواحد مذاهب متفرقَّةً، والأمَّة شيعاً متنافرةً. ﴿وَنَحْنُ﴾ معاشر المسلمين ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لله الذي أعطانا تلك النعمة الجليلة ﴿عَـٰبِدُونَ﴾؛ أي: مطيعون شكراً لها، ولسائر نعمه التي لا تحصى، فإذا كان حرفةُ العبد العبادة، فقد زيّن نفسه بصبغٍ حسنٍ يزيِّنه ولا يشينه. وفيه تعريضٌ لأهل الكتاب؛ أي: لا نشرك به كشرككم، وتقديم الظرف على عامله؛ للاهتمام به؛ ولرعاية الفاصلة، وهو معطوف على آمنَّا داخلٌ تحت الأمر وهو قولوا، وهذا العطف[1] يردُّ قول من زعم أنَّ صبغة الله بدل من ملَّة، أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فكِّ النظم، وإخراج الكلام عن التئامِه واتِّساقِه، وانتصابها يعني: صبغة الله على أنّها مصدرٌ مؤكدٌ، هو الذي ذكره سيبويه، والقول: ما قالت حذام. انتهى. وتقديره: في الإغراء: عليكم صبغة الله ليس بجيدٍ؛ لأنَّ الإغراء إذا كان بالظرف والمجرور، لا يجوز حذف ذلك الظرف، ولا المجرور، ولذلك حينَ ذَكَرنا وَجْهَ الإغراء قدَّرنا: الزموا صبغة الله، ومعنى عابدون: موحِّدون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: لِيُوحّدُون. وقيل: مطيعون، متَّبعون ملَّة إبراهيم عليه السلام، وصبغة الله. وقيل: خاضعون، مستكينون في اتباع ملةِ إبراهيم، غير مستكبرين، وهذه أقوالٌ متقاربة.

والمعنى[2]: أي ونحن معاشر المسلمين له تعالى عابدون، ولا نعبد سواه، فلا نتَّخذ الأحبار والرهبان أرباباً يزيدون في ديننا، وينقصون، ويحلُّون، ويحرِّمون، ويَمْحُون مِنْ نفُوسِنا صبغةَ التوحيد، ويُثْبِتُون مكانَها صبغة البشر التي تُفْضِي إلى الإشراك بالله، واتخاذِ الأنداد له، وفي الآية إيماءٌ إلى أنَّ الإسلام لم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

يشرع أعمالاً خاصَّةً يتميَّز بها المسلم مِنْ سواه، كما شرع النصارى المعمودية، بل المعوَّل عليه ما صبغ الله به الفطرة السليمة من الإخلاص، وحبِّ الخير، والاعتدال، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا﴾ والخطابُ في قل لمحمد ﷺ، أو لكلٍّ من يصلح للخطاب، والهمزة فيه للإنكار، والتوبيخ، والمحاجَّةُ المجادلةُ، ودعوى الحق، وإقامة الحُجَّة على ذلك من كلٍّ واحدٍ، وسبب نزول هذه الآية: أنَّ اليهود والنصارى قالوا: إنَّ الأنبياء كانوا منَّا، وعلى ديننا، وديننا أقدمُ، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد! لليهود والنصارى أتجادلوننا، وتخاصموننا ﴿فِى﴾ شأن دين ﴿ٱللَّهِ﴾ واصطفائه النَّبيَّ من العرب دونكم، وتدَّعون أنَّ دينه الحقَّ هو اليهوديَّة والنصرانيَّة، وتبنون دخول الجنَّة، والاهتداء عليهما، وتقولون تارةً: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ وتارةً: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾، وتقولون: (لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا) وترونكم أحقَّ بالنبوَّة منَّا ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: والحال أنَّه تعالى خالقنا وخالقكم، ومالك أمرنا وأمركم، لا اختصاص له بقومٍ دون قوم، يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده وهو أعلم بتدبير خلقه، وبمن يصلح للرسالة، وبمن لا يصلح لها، فلا وجه للمجادلة، فحينئذٍ لا تعترضوا على خالقكم، فإنَّ العبد ليس له أن يعترض على ربّه، بل يجب عليه تفويض الأمر. بالكلية إليه تعالى ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ فنجازى عليها خيراً أو شراً، ولا يصيبكم منَّا ضررٌ ولا أجرٌ، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ السيئة المخالفة لأمر الله، فلا يرجع علينا من أعمالكم ضررٌ، وإنما مرادنا نصحكم وإرشادكم، فكيف تدعون أنّكم أولى بالله؟! قال البيضاويُّ: كأنَّه ألزمهم على كُلِّ مذهبٍ ينتحلونه إفحاماً وتبكيتاً، فإنّ كرامة النبوة: إمَّا تفضُّلٌ من الله تعالى على من يشاء، والكُلُّ فيه سواءٌ، وإما إفاضة حقّ على مستعدِّين لها بالمواظبة على الطاعة، والتحلّي بالإخلاص، فكما أنَّ لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله في إعظامها، فلنا أيضاً أعمالٌ، فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ تعالى ﴿مُخْلِصُونَ﴾ في تلك الأعمال، لا نبتغي بها إلاّ وجهه، فأنّى لكم المحاجَّة، وادعاء حقيّة ما أنتم

عليه، والطمع في دخول الجنة بسببه، ودعوة الناس إليه، وأنتم به مشركون، ونحن مخلصون الطاعة والعبادة له تعالى، وأنتم به مشركون، والمخلص أحرى بالكرامة، وأولى بالنبوَّة من غيره، وهذه الآية منسوخةٌ بآية السيف، كما سيأتي في آخر السورة، والإخلاص[1]: أن يخلص العبد دينه وعمله لله تعالى، فلا يشرك في دينه، ولا يرائي بعمله، وحقيقة الإخلاص: تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين. قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ ترك العمل من أجل الناس رياءٌ، والعمل لأجل الناس شركٌ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. انتهى.

وحاصل المعنى[2]: أي ومن أين جاءكم هذا القرب من الله دوننا، والله ربُّنا وربُّكم، وربُّ العالمين. فهو الخالق، وجميعنا خلقه، وإنّما يتفاضل الناس بأعمالهم، وآثار أعمالنا عائدةٌ إلينا خيراً أو شرّاً، وآثار أعمالكم كذلك لكم على هذا النحو، ونحن له مخلصون في أعمالنا، لا نبتغي إلاَّ وجهه، أمَّا أنتم فقد اتكلتم على أسلافكم من الصالحين، وزعمتم أنَّهم شفعاء لكم عند ربكم مع انحرافكم عن سيرتهم، إذ هم ما كانوا يتقرَّبون إلاّ بصالح العمل، وصادق الإيمان، فاجعلوهم رائدكم، وانهجوا نهجهم تنالوا الفوز والسعادة.

وخلاصة ما سبق: أنَّ روح الدين هو التوحيد، وملاك أمره الإخلاص المعبر عنه بالإسلام، فإذا زال هذا المقصد، وحفظت الأعمال الصوريَّة، لم يغن ذلك شيئاً، وأهل كتاب أزهقوا هذا الروح، وحفظوا الرسوم والتقاليد، فهم ليسوا على شيء من الدين، ولكنّ محمداً ﷺ جاء بما أحيا ذلك الروح الذي كان عليه جميع الأنبياء، والمرسلين، فهو الذي كمَّل شريعتهم بشريعته التي تصلح لجميع البشر في كلِّ زمان، ومكان. وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ بنونين: إحداهما: نون الرفع، والأخرى ضمير المتكلمين. وقرأ زيد بن ثابت، والحسن،

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

والأعمش، وابن محيصن بإدغام النون في النون، وأجاز بعضهم حذف النون. أمَّا قراءة الجمهور فظاهرةٌ، وأمَّا قراءة زيدٍ، ومن ذكر معه، فوَجْهها: أنه لمَّا التقى مثلان، وكان قبل الأولى حرف مدٍّ ولينٍ جاز الإدغام، كقولك: دار راشدٍ؛ لأنَّ المد يقوم مقام الحركة في نحو: جعل، وأمَّا جواز حذف النون الأولى، فوجَهُهُ: من أجاز ذلك على قراءة من قرأ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ بكسر النون.

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ قرأ حمزة[1]، وابن عامر، والكسائي، وعاصم في روايةِ حفصٍ: بالتاء الفوقية، وعلى هذه القراءة تكون أم هنا متَّصلة معادلةً للهمزة في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أي: أتحاجوننا في الله أم تقولون: إنّ هؤلاء الأنبياء على دينكم، فالاستفهام عن وقوع أحد هذين الأمرين: المحاجَّة في الله، والادِّعاء على إبراهيم، ومن ذكر معه أنَّهم كانوا يهوداً أو نصارى؛ أي: أيُّ الأمرين وقع منكم؟ وقرأ الباقون بالياء التحتية، فعلى هذه القراءة تكون أم منقطعةً تقدَّر ببل، وهمزة الإنكار؛ أي: بل أيقولون: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ وهم حفدة يعقوب، وهم أولاد أولاده الاثني عشر. وعن الزجَّاج أنّه قال: الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل، فولد كل واحدٍ من ولد إسحاق سبطٌ، ومن ولد إسماعيل قبيلةٌ. اهـ.

﴿كَانُوا۟﴾ قبل نزول التوراة والإنجيل ﴿هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ فهم مقتدون بهم، والاستفهام إنكاريٌّ بمعنى: النَّفي؛ أي: لا ينبغي لهم أن يقولوا ذلك؛ لأنَّ اليهوديَّة والنصرانيَّة إنّما حدثت، ووقعت بعدهم في زمن موسى وعيسى، وإبراهيم ومن ذكر معه قبلها بزمانٍ، فكيف يقال فيهم إنَّهم كانوا هوداً أو نصارى؟ كما قال سبحانه في آيةٍ أخرى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ عبارة «السمين». والاستفهام للإنكار والتوبيخ أيضاً، فيكون قد انتقل عن قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ وأخذ في الاستفهام عن قضيةٍ أخرى، والمعنى: على إنكار نسبة اليهودية والنصرانية إلى إبراهيم، ومن ذكر معه. انتهت.

---

(١) البيضاوي.

والمعنى: على أنَّ أم متصلةٌ معادلةٌ للهمزة أتحاجُّوننا في الله أم تقولون إنّ إبراهيم؛ أي: أتقيمون الحجة على حقيَّة ما أنتم عليه، أم تقولون إنّ إبراهيم، ومن ذكر معه كانوا هوداً أو نصارى، فنحن مقتدون بهم، والمراد: إنكار كلا الأمرين، والتوبيخ عليهما؛ أي: كيف تحاجون وكيف تقولون في حقِّ الأنبياء الذين بعثوا قبل نزول التوراة والإنجيل: أنّهم كانوا هوداً أو نصارى؟ ومن المحال أن يقتدي المتقدِّم بالمتأخِّر، ويستنَّ بسنته.

والخلاصة: أي: أتقولون إنَّ اختصاصكم بالقرب من الله دوننا هو من الله، وهو ربُّنا وربُّكم؟ أم تقولون: إنّ امتيازكم باليهودية والنصرانية التي أنتم عليها، إنّما كان بأنَّ هؤلاء الأنبياء كانوا عليها، فنحن مقتدون بهم. فإن كان هذا ما تدَّعون، فأنتم كاذبون فيما تقولون، فإنَّ هذين الإسمين إنّما حدثا فيما بعد، فما حدث اسم اليهودية إلاّ بعد موسى، وما حدث اسم النصرانية إلاّ بعد عيسى، فكيف تزعمون أنَّ إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً وقضيَّة العقل شاهدةٌ بكذبكم؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! ﴿ءَأَنتُمْ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ ﴿أَعْلَمُ﴾ بدينهم ﴿أَمِ اللهُ﴾ أعلم به؛ أي: أأنتم أعلم بدين إبراهيم ومن ذكر معه من الله، أم الله أعلم منكم، حيث نفى عن إبراهيم ومن ذكر معه ما نسبتم إليهم من اليهودية والنصرانية، بل الله أعلم منكم، وخبره أصدق، وقد أخبر سبحانه في التوراة، والإنجيل، وفي القرآن على لسان محمد ﷺ، أنّهم كانوا مسلمين مبرَّئين من اليهودية والنصرانية، حيث قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ والمذكور معه تبعٌ له.

والمعنى: أي أأنتم أعلم بالمرضِيِّ عند الله، أم الله أعلم بما يرضيه وما يتقبَّله، لا شكّ أنَّ الله هو العليم بذلك دونكم، وقد ارتضى للناس ملة إبراهيم، وأنتم تعترفون بذلك، وكتبكم تصدِّقه قبل أن تجيء اليهودية والنصرانية، فلم لا ترضون لأنفسكم هذه الملة. وقال أبو حيان: والقول في القراءة في ﴿ءَأَنتُمْ﴾ كهو في قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وقد توسَّط السؤال عنه هنا، وهو أحسن من تقدُّمه، نحو: أعلم أنتم أم الله، أو تأخُّره، نحو: أأنتم أم الله أعلم، وهذا تهكُّم

بهم؛ لأنّه ليس عندهم علمٌ، والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ لإنكار أن يكون أحدٌ أظلم منه، فهو بمعنى: النفي؛ أي: لا أحد أشدُّ ظلماً ﴿مِمَّن كَتَمَ﴾؛ أي: ستر وأخفى عن الناس ﴿شَهَـٰدَةً﴾ ثابتةً ﴿عِندَهُۥ﴾؛ أي: عند من كائنةً ﴿مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ تعالى، فقوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ و﴿مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ صفتان لشهادة؛ أي: شهادةً حاصلةً عنده، صادرةً من الله تعالى، وهو شهادته تعالى لإبراهيم عليه السلام بدين الإسلام، والبراءة من اليهودية، والنصرانية، وهم اليهود، وفيه تعريضٌ بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوَّة والرسالة في كتبهم، وسائر شهاداته، وتقدَّم الكلام في دفع المعارضة في أفعل التفضيل الجائي بعد الاستفهام، كمن عند قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ فالمراد هنا: لا أحد من الكاتمين أظلم ممن كتم شهادة الله تعالى؛ يعني: يا أهل الكتاب! قد علمتم بشهادةٍ حصلت عندكم، صادرةٍ من الله تعالى، بأنَّ إبراهيم وبنيه كانوا حنفاء مسلمين بأن أخبركم الله بذلك في كتابكم، ثم إنّكم تكتمونها، وتدَّعون خلاف ما شهد الله به في حقِّهم، فلا أحد أظلم منكم، حيث اجترأتم على تكذيب الله تعالى فيما أخبر به في شأن إبراهيم، ومن معه.

وتعليقُ الأظلمية بمطلق الكِتْمَانِ؛ للإِيمْاءَ إلى أنَّ مرتبة مَنْ يَدْرِيها، ويَشْهَدُ بخلافها في الظلم، خارجةٌ عن دائرة البيان. وعن ابن عباس: (أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة) ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ والمراد: مَسْخُ القلبِ، وطَبْعُه، ونعوذ بالله من ذلك ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِغَـٰفِلٍ﴾ أي: بساهٍ ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (ما) موصولة عامّة لجميع ما يكتسب بالجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، ويدخل فيه كتمان شهادة الله دخولاً أوّليًّا؛ أي: هو سبحانه وتعالى محيط بجميع ما تأتون، وما تذرون، فيعاقبكم بذلك أشدَّ عقاب، ويجوز كونها مصدرية؛ أي: بغافلٍ عن عملكم من الكتمان، وغيره، بل محصيه عليكم، ثمّ يعاقبكم عليه في الآخرة، وفيه وعيد شديد، وتهديد ليس عليه مزيدٌ، وإعلامٌ بأنَّ الله سبحانه لا يترك عقوبتهم على الظلم القبيح، والذنب الفظيع. وقرىء ﴿يعملون﴾ بالياء التحتانية؛ يعني: أنَّ الله لا يترك أمركم سُدًى، بل يعذِّبكم أشدَّ العذاب، وهو محيطٌ بما تأتون، وما تذرون.

وخلاصة معنى الآية: لا أحد أشدُّ ظلماً ممن يكتم شهادةً في كتاب الله، تُبشِّرُ بأنَّ الله يبعث فيهم نبيًّا من بَنِي إخوتهم، وهم العرب أبناءُ إسماعيل، وهم لا يزالون يكتمون ذلك، فينكرون على غير المطلع على التوراة، ويحُرِّفُون على المُطَّلع عليها. ﴿تِلْكَ﴾ الجماعة المذكورة من إبراهيم، ومَنْ معه ﴿أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعةٌ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت وسلفت بالموت ﴿لَهَا﴾ جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من الأعمال خيراً أو شرّاً ﴿وَلَكُم﴾ أيُّها اليهود والنصارى جزاء ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من الأعمال، كذلك ﴿وَلَا تُسْئَلُونَ﴾ أيُّها اليهود والنصارى يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، كما أنَّهم لا يسألون عما تعملون.

والمعنى: أنّ جماعة الأنبياء قد مضت بالموت ولها ما كسبت من الأعمال، ولكم ما كسبتم منها، ولا يُسأل أحدٌ عن عمل غيره، بل كُلُّ إنسان يسأل يوم القيامة عن كسبه وعمله، ويجازى به، فلا يضرُّه، ولا ينفعه سواه.

وهذه قاعدةٌ أقرَّتها الأديان جميعاً، وأيَّدها العقل، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ لكن غلبة الجهل جعلت الناس يعتمدون في طلب سعادة الآخرة، وبعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين، وساعدهم على ذلك رؤساء الأديان، فأوَّلوهم نصوص الدين اتِّباعاً للهوى، ومن ثمَّ جاء القرآن يقرِّر ارتباط السعادة بالكتب، والعمل، وينفي الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يقتد بهم في صالح أعمالهم، وقد حاجَّ بذلك أهل الكتاب الذين يفتخرون بأسلافهم، ويعتمدون على شفاعتهم وجاههم، ليقطع أطماعهم في تلك الشفاعة. وعلينا معشر المسلمين أن نجعل نصب أعيننا، ورائدنا في أعمالنا، تلك القاعدة: الجزاء على العمل، ولا نغترَّ بشفاعة سلفنا الصالح ونجعلها وسيلةً لنا في النجاة إذا نحن قصَّرنا في عملنا، فكلٌّ من السلف والخلف مجزيٌّ بعمله، ولا ينفع أحداً عملُ غيره، وفقَّنا الله تعالى لما يحبِّه ويرضاه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

وبالجملة، ففي الآية: وعظٌ لليهود، ولكل من يتكل على فضل الآباء، وشرفهم، أن لا يتَّكلوا على فضل الآباء، فكلٌّ يؤخذ بعمله، ولا ينفعه غيره، وإنّما كُرِّرت هذه الآية؛ لأنّه إذا اختلف مواطن الحِجاج، والمجادلة، حسن

تكريره للتذكير به، وتأكيده، وقيل: إنّما كرَّره؛ تنبيهاً لليهود؛ لئلاّ يغترُّوا بشرف آبائهم وعبارة الكرخي: وكرر تأكيداً وزجراً عمّا هم عليه، من الافتخار بالآباء، والاتكال على أعمالهم؛ أو لأنَّ الأمة في الآية الأولى للأنبياء، وفي الثانية لأسلاف اليهود والنصارى؛ أو لأنَّ الخطاب في تلك الآية لهم، وفي هذه الآية لنا. انتهت. والله أعلم.

الإعراب

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ...﴾ الخ. ﴿كُونُواْ هُودًا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ﴾ مقولٌ محكيٌّ لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿كُونُواْ﴾ فعل أمر ناقص مبني على حذف النون، والواو اسمها ﴿هُودًا﴾ خبرها، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ ﴿أَوْ﴾ حرف عطف وتفصيل ﴿نَصَـٰرَىٰ﴾ معطوف على ﴿هُودًا﴾. ﴿تَهْتَدُواْ﴾ فعل مضارع وفاعل مجزوم بالطلب السابق، والجملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب ﴿مِلَّةَ﴾ مفعول به لفعل محذوف، تقديره: بل نتَّبع ملة إبراهيم، أو منصوب على الإغراء بتقدير الزموا، والجملة المحذوفة معطوفة على جملةٍ مقدّرةٍ قبلها، تقديرها: لا نتبع اليهودية، ولا النصرانية، بل نتّبع ملة إبراهيم، والجملة المقدرة مع ما عطف عليها في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿مِلَّةَ﴾ مضاف ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم، لأنّ الملة كالجزء من إبراهيم، كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

ولا تُجِزْ حالاً من ٱلْمُضَافِ لَه   إِلاَّ إِذَا ٱقْتَضَىٰ ٱلْمُضَافُ عَمَلَه

أو كـانَ جُـزْءَ مَـا لَـهُ أُضِـيفَـا   أو مِـثْـلَ جُـزْئِـهِ فَـلا تَـحِـيفَـا

﴿وَمَا﴾ الواو حالية ﴿ما﴾ نافية ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على إبراهيم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب حال ثانية من إبراهيم.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿قُولُوٓاْ﴾ فعل أمر مبنيٌّ على حذف النون، والواو فاعل، والجملة مستأنفة ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لقولوا، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، والملة في محل النصب مقول ﴿قُولُوٓاْ﴾ ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بآمنَّا، ﴿وَمَآ﴾ الواو عاطفة ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الجر معطوفة على لفظ الجلالة ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل مستترٌ فيه، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد ضمير النائب ﴿إِلَيْنَا﴾ جار ومجرور متعلق بأنزل ﴿وَمَآ﴾ موصول معطوف على لفظ الجلالة، وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلتها ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ متعلّق بأنزل ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ معطوفات على إبراهيم، مجروراتٌ بالفتحة للعلمية والعجمية، والأسباط معطوف أيضاً على إبراهيم مجرور بالكسرة الظاهرة ﴿وَمَآ﴾ معطوف أيضاً على الجلالة ﴿أُوتِىَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة ﴿مُوسَىٰ﴾ نائب فاعل ﴿وَعِيسَىٰ﴾ معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: وما أوتيه موسى ﴿وما﴾ معطوف على لفظ الجلالة أيضاً، ﴿أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ فعل ماض ونائب فاعل، والجملة صلة لما، والعائد محذوف، تقديره: وما أوتيه النبيون ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بأوتي ﴿لَا﴾ نافية ﴿نُفَرِّقُ﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، تقديره: نحن ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بنفرق ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة لأحد، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿ءَامَنَّا﴾، أو مستأنفة ﴿وَنَحْنُ﴾ الواو حالية ﴿نحن﴾ مبتدأ ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بمسلمون، قدّم عليه؛ للاهتمام به ﴿مُسْلِمُونَ﴾ خبر

المبتدأ، والجملة الإسمية حال ثانية من فاعل ﴿آمنا﴾.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿فَإِنْ﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا امتثلتم ما أمرتكم به، وأردتم بيان حال أهل الكتاب، فأقول لكم: إن آمنوا. الخ. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿بِمِثْلِ﴾ الباء حرف جر ﴿مثل﴾ زائدة ﴿ما﴾ موصول في محل الجر بالباء الجار والمجرور متعلق بآمنوا؛ أي: فإن آمنوا بما آمنتم ﴿ءَامَنتُم﴾ فعل وفاعل ﴿به﴾ متعلق بآمنتم، وجملة ﴿ءَامَنتُم﴾ صلةٌ لما الموصولة، والعائد ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿فَقَدِ﴾ الفاء رابطةٌ لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب مقروناً بقد، ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿ٱهْتَدَوا۟﴾ فعل ماض وفاعل في محل الجزم بإنْ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مع جوابها مستأنفة، أو مقولٌ لجواب إذا المقدَّرة وجملة إذ المقدرة مستأنفة ﴿وَّإِن﴾ الواو عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ فعل ماض وفاعل في محلِّ الجزم بإنْ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية، ﴿إنما﴾ أداة حصر ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿فِى شِقَاقٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوفٍ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب؛ لإشعارها بوقوع الكفاية عقب شقاقهم، والسين حرف تنفيس للاستقبال القريب ﴿يكفي﴾ فعل مضارع، والكاف مفعول أوّل، والهاء مفعول ثانٍ ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة على جملة الجواب، ولذا دخلت الفاء الرابطة عليه؛ لاشتماله على حرف التنفيس ﴿وَهُوَ﴾ الواو استئنافية ﴿هو﴾ مبتدأ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبر أول ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر ثان، والجملة الإسمية مستأنفة؛ مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ مصدر مؤكّد لفعله المحذوف، منصوب على المفعولية المطلقة، تقديره: صبغنا الله صبغته، والجملة معطوفة في المعنى على جملة ﴿آمنّا﴾ داخلةٌ تحت حكم الأمر في قوله: ﴿قولوا آمنّا﴾؛ أي: قولوا آمنَّا بالله، وصبغنا الله صبغته، وهذا أحسن الأوجه في إعرابه كما مرّ، وقيل: منصوبٌ على الإغراء؛ أي: الزموا صبغة الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ الواو استئنافية ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَحْسَنُ﴾ خبره والجملة مستأنفة ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بأحسن ﴿صِبْغَةًۖ﴾ تمييزٌ محوَّل عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والأصل: ومن صبغته أحسن من صبغة الله؛ أي: لا أحسن منها ﴿وَنَحْنُ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿نحن﴾ مبتدأ ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿عَٰبِدُونَ﴾، وهو خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على ﴿آمنّا﴾ فهو داخلٌ معه تحت الأمر؛ أي: وقولوا نحن... الخ. وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. انتهى. «أبو السعود».

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿تحاجُّوننا﴾ فعل وفاعل ومفعول به مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بتحاجون ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية ﴿هو﴾ مبتدأ ﴿رَبُّنَا﴾ خبر ومضاف إليه ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ معطوف على ﴿رَبُّنَا﴾، والجملة في محل النصب حالٌ من الواو في ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، وكذا قالوا، أو من ضمير المفعول، أو من الجلالة ﴿وَلَنَآ﴾ الواو حالية ﴿لنا﴾ خبر مقدّم ﴿أَعْمَٰلُنَا﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ ﴿وَلَكُمْ﴾ الواو عاطفة ﴿لكم﴾ خبر مقدّم، ﴿أَعْمَٰلُكُمْ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لنا أعمالنا﴾ ﴿وَنَحْنُ﴾ الواو حالية ﴿نحن﴾ مبتدأ ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بمخلصون ﴿مُخْلِصُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة في محل

النصب حال من ضمير المفعول في ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أو من واو الفاعل، وفي «الجلالين»: والجمل الثلاث؛ يعني قوله: ﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، والثالثة: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أحوالٌ من الواو في ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ والعامل فيها: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾.

﴿أَمْ﴾ عاطفة متصلة معادلة لهمزة ﴿أتحاجون﴾ ﴿تَقُولُونَ﴾ بالتاء فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿تحاجون﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الإنكار ﴿يقولون﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. وقال أبو البقاء: قرىء ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالياء ردّاً على قوله: ﴿فسيكفكهم﴾ وبالتاء ردّاً على قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾؛ انتهى. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ناصب واسمه ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ معطوفاتٌ على إبراهيم ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ماض ناقص واسمه ﴿هُودًا﴾ خبره ﴿أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ معطوف على ﴿هُودًا﴾، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿تَقُولُونَ﴾.

﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿ءَأَنتُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿أنتم﴾ مبتدأ ﴿أَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿أَمِ﴾ عاطفة متّصلة ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿أنتم﴾، ولكنه فصل بين المتعاطفين بالمسؤول عنه ﴿وَمَنْ﴾ الواو استئنافية ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة؛ مسوقة للتعريض بكتمانهم شهادة الله، وهذا دَيْدَنُ اليهود دائماً ﴿مِمَّن﴾ جار ومجرور متعلق بأظلم ﴿كَتَمَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿شَهَٰدَةً﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ﴿عِندَهُۥ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لشهادة ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿ما﴾ حجازية

﴿ٱللَّهُ﴾ اسمها ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ خبرها، والباء زائدة، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: عمّا تعملونه.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿خَلَتْ﴾ فعل ماض مبني بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة؛ لالتقاء الساكنين، والتاء علامة تأنيث الفاعل، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أُمَّةٌ﴾ والجملة في محل الرفع صفةٌ لأُمَّةٌ ﴿لَهَا﴾ خبر مقدم ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخّر، والجملة الإسمية مستأنفة، أو حال من ﴿أُمَّةٌ﴾ أو صفة ثانية لها، والأول أظهر، وجملة ﴿كَسَبَتْ﴾ صلة لما الموصولة، ﴿وَلَكُم﴾ خبر مقدم ﴿مَّا﴾ مبتدأ مؤخّر، وجملة ﴿كَسَبْتُمْ﴾ صلة لما الموصولة، والجملة الإسمية معطوفة على ما قبلها، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، والواو نائب فاعله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ مسوقة؛ لتأكيد ما قبلها ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة لما الموصولة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، يقال: حَنَف حَنْفاً من باب ضرب إذا مال، وحَنِف من باب تعب حَنَفاً، وحَنُف حنافة من باب ظرف اعوجّت رجله إلى داخلٍ، فهي حنفاء، فالحنيف في أصل اللغة الذي تميل قدماه كُلُّ واحدة إلى أختها، وقد يستعمل في اليدين ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ أصله: تهتديوا بوزن تفتعلوا من اهتدى الخماسيّ، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فلمّا سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الدال؛ لمناسبة واو الجماعة، وهذا بعد حذف نون الرفع للجازم، وهو الطلب السابق

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ جمع سبط بكسر السين وسكون الباء، وهو في الأصل: ولد البنت مقابل الحفيد الذي هو ولد الابن، وهو مشتق من السبط؛ أي: الشجرة. وفي «الفتوحات»: وهذا كله بالنظر إلى أصل اللغة في إطلاق السبط على ولد الولد مطلقاً، وإلاّ فالعرف خصَّص السبط بولد البنت، والحفيد بولد الابن. اهـ. ﴿فقد اهتدوا﴾ أصله: اهتديوا بوزن افتعلوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف، وبقيت الفتحة دالَّةً عليها.

﴿فإن تولّوا﴾ أصله: تَوَلَّيُوا أيضاً، فُعِل به ما فعل بـ ﴿اهتدوا﴾ المذكور قبله، فوزن اهتدوا افتعوا، ووزن تَوَلَّوا تفعَّوا ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ الشقاق: المخالفة والعداوة، وأصله: من الشقِّ وهو الجانب؛ لأنّ كل واحد من المتشاققين يكون في شقٍّ غير شق صاحبه؛ أي: في ناحيةٍ منه، وهو مصدر شاقَّ شقاقاً من باب فاعَلَ، وفيما ذكر إشارة إلى بيان المراد بالشقاق هنا؛ لأنَّ له في اللغة ثلاث معان:

أحدها: الخلاف، ومنه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾.

والثاني: العداوة، ومنه قوله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾.

والثالث: الضلال، مثل: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ﴾ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ والصبغ بالكسر: ما يلوَّن به الثياب، وبالفتح: المصدر، والصبغة: الحالة التي تبنى لبيان النوع، كصبغت صِبغةَ الأمير نظير جِلسةَ الإقعاء، والصَبغة بالفتح: المرَّة من الصبغ، كصبغت صبغةً. وفي «المصباح»: صبغت الثوب صبغاً من بابي نفع وقتل، وفي لغة من باب ضرب. انتهى. والصبغة، كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والعرب تسمِّي ديانة الشخص لشيء، واتصافه به صبغةً، قال بعض ملوكهم:

وكُلُّ أُناسٍ لهم صبغةٌ ... وصِبغة همدان خير الصِّبَغْ
صبغنا على ذاك أبناءَنا ... فأكرِم بصبغتنا في الصِّبَغْ

﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أصله: أتحاججوننا، فأدغمت الجيم الأولى في الثانية،

والمحاجَّة: المجادلة ودعوى الحق، وإقامة الحجة، على ذلك من كل واحد من الجانبين.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾؛ أي: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى، وليس المعنى: إنّ الفريقين قالوا ذلك؛ لأنّ كل فريق يعدُّ دين الآخر باطلاً.

ومنها: جعل الشقاق ظرفاً لِهُمْ في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ﴾؛ مبالغةً في الإخبار عن استيلائه عليهم، فإنّه أبلغ من قولك: هم مشاقون.

ومنها: تنكير شقاق؛ دلالةً على امتناع وفاق بينهم أصلاً.

ومنها: التذييل بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لأنه تذييلٌ لما سبق من الوعد، وتأكيدٌ له.

ومنها: الإيجاز بالحذف في ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾؛ لأنّ الأصل: فسيكفيك شرَّهم، وفيه تصدير الفعل بالسين دون سوف؛ إشعاراً بأنَّ ظهوره عليهم واقعٌ في زمن قريبٍ.

ومنها: التعجيز والتبكيت في قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ لأنّ المراد منه إلزام الخصم، وإلجاءَه إلى الاعتراف بالحق بإرخاء عِنانه، وسدّ طرق المجادلة عليه؛ لأنّه ليس لله سبحانه، وكذا لدين الإسلام مثلٌ، فيؤمنون به.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ حيث شبَّه الدين الإسلاميَّ بالصبغة، وحذف المشبَّه، وأبقى المشبه به بجامع أنَّ في كل منهما حليةً وزينةً، لِمَا قام به، وفيه أيضاً: فنُّ المشاكلة: وهو ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوع ذلك الشيء في صحبة الغير، إمّا بحسب المقال المحقَّق، أو المقدَّر بأن لا يكون ذلك الغير مذكوراً حقيقةً، ويكون في حكم المذكور؛ لكونه مدلولاً عليه بقرينة الحال، فسمي الدين هنا صبغةً؛ لوقوعه في مقابلة صبغة النصارى

أولادهم في المعمودية. قال البغوي: إنّ إطلاق مادة لفظ الصبغ على التطهير مجاز تشبيهي، وذلك أنه شبه التطهير من الكفر بالإيمان بصبغ المغموس في الصبغ الحسيِّ، ووجه الشبه ظهور أثر كل منهما على ظاهر صاحبه، فيظهر أثر التطهير على المؤمن حسًّا ومعنًى بالعمل الصالح، والأخلاق الطيبة، كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، ولا ينافي ذلك كونه مشاكلة. انتهى.

وتقرير المشاكلة مبسوط في «التلخيص» وشرحه للسعد التفتازاني، فراجعهما.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾؛ لرعاية الفواصل، وللاعتناء بالضمير المجرور العائد إلى الله سبحانه وتعالى.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ والتوبيخيُّ في قوله: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ والتقريري في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾.

ومنها: التهديد في قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ومنها: تكرير الآية ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ بعينها؛ مبالغةً في الزجر عمَّا هم عليه من الافتخار بالآباء، والاتكال على أعمالهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع(١).

* * *

(١) إلى هنا تمَّ المجلّد الثاني بالتكملة في تاريخ: ١٤١٧/٩/١٧ - هـ، في اليوم السابع عشر قبيل الظهر من شهر رمضان المبارك من شهور سنة: ألف$ وأربعمائة وسبع عشرة سنة من سني الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، ويليه المجلّد الثالث، وأوّله قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾. وصلَّى الله وسلَّم على سيِّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه السادة الغرِّ المحجَّلين، والتابعين ومن تبعهم بأحسان إلى يوم الدين، آمين.

تم تصحيح هذا المجلد بيد مؤلفه يوم الجمعة وقت الضحى من شهر ربيع الآخر في تاريخ ١٧/٤/١٤٢٠ من الهجرة المصطفية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية آمين

شعرٌ

إِذَا رَأيْـــتَ زَلِـــيـــقــاً   كُــنْ سَــاتِــراً وحَــلِــيــمــا
يــا مَــنْ يُــعَــيِّــبُ تَــفْــسِــيــري   لِــمَ لا تَــمُــرُّ كَــرِيــمَــا

(وفَــوْقَ كُــلِّ ذي عِــلْــمٍ عــلــيــم)

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الثالث

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر

وَعَيْنُ ٱلرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ   وَلَكِنَّ عَيْنَ ٱلسُّخْطِ تُبْدِيْ ٱلْمَسَاوِيَا

قَدَّمْتُهُ لِلإِخْوَانِ مُعْتَذِرَا   وَٱلْعُذْرُ مِنْ شِيَمِ ٱلسَّادَاتِ مَقْبُوْلُ

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ الآية، مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها: أن اليهود والنصارى قالوا: إن إبراهيم ومَن ذكر معه كانوا يهوداً أو نصارى، ذكروا ذلك طعناً في الإسلام؛ لأن النسخ عند اليهود باطل، فقالوا: الانتقال عن قبلتنا باطلٌ وسفَهٌ، فرد الله تعالى ذلك عليهم بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ...﴾ الآية، فبين ما كان هداية وما كان سفهاً.

وحاصل ما ذكر في المناسبة: أن اليهود والنصارى زعموا أن إبراهيم والأنبياء الذين ذُكروا معه كانوا يهوداً أو نصارى، وقد كانت قِبْلَةُ الأنبياء بيتَ المقدس، وكان ﷺ وهو بمكة يستقبل بيت المقدس، فلما أمر ﷺ بالتوجه إلى الكعبة المشرفة.. طعن اليهود في رسالته، واتخذوا ذلك ذريعةً للنيل من

(١) البحر المحيط.

الإسلام، وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دين قومه، فأخبر الله رسوله الكريم ﷺ بما سيقوله السفهاء، ولقَّنه الحجة الدامغة؛ ليرد عليهم ويوطن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزةً له عليه الصلاة والسلام.

أسباب النزول

قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ. . .﴾ إلى آخر الآية. قال ابن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويُكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾، فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات قبل أن نُصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا قبل بيت المقدس، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ﴾، وقال السفهاء من الناس: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ. . .﴾ إلى آخر الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ﴾ قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا أبو نعيم، سمع زهيراً، عن أبي إسحاق، عن البراء رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت، وأنه صلى ـ أو صلاها ـ صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه، فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون قال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل البيت رجال قُتلوا، فلم نَدْرِ ما نقول فيهم؛ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

سبب نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ. . .﴾ الآية، أخرج البخاري أيضاً رحمه الله تعالى في «صحيحه» قال: حدثنا عبد الله بن

رجاء، قال: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، قال: (كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس وهم اليهود: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فصلى مع النبي ﷺ رجل، ثم خرج بعدما صلى، فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال هو: يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ، وأنه توجه نحو الكعبة، فتحرف القوم نحو الكعبة).

وأخرج هذا الحديث أيضاً الترمذي، وابن ماجه، والإمام أحمد، والدارقطني، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير»، وابن سعد في «الطبقات»، وعندهما زيادة: (وقال السفهاء من الناس: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟) فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أنس.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ أي: الجهال الذين خفت أحلامهم، وضعفت عقولهم ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من اليهود والمشركين والمنافقين و﴿السُّفَهَاءُ﴾: جمع سفيه، والسفيه[1]: من لا يميز ما له وما عليه، ويعدل عن طريق منافعه إلى ما يضره. ولا شك أن الخطأ في باب الدين أعظم مضرة منه في باب الدنيا، فيكون الكافر أولى بهذا الاسم، فلا كافر إلا وهو سفيه. وقيده[2] بالناس؛ لأن السفه كما يوصف به الناس يوصف به غيرهم من الحيوان والجماد، وكما ينسب القول إليهم حقيقة ينسب إلى غيرهم مجازاً، فرفع المجاز بقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ذكره ابن عطيه وغيره.

(١) جمل. (٢) سمين.

وأتى[1] بسين الاستقبال في ﴿سَيَقُولُ﴾ مع مضي القول المذكور؛ لاستمرارهم عليه؛ بناءً على أن الآية متقدمة في تركيب المصحف متأخرة في النزول عن آية ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كما ذكره ابن عباس وغيره. فمعنى ﴿سَيَقُولُ﴾: أنهم يستمرون على هذا القول إن كانوا قد قالوه. وحكمة الاستقبال أنهم كما قالوا ذلك في الماضي منهم أيضاً من يقوله في المستقبل. وقال البيضاوي كالسيوطي تبعاً لما في «الكشاف». والإتيان[2] بالسين الدالة على الاستقبال من الإخبار بالغيب هو ما عليه أكثر المفسرين.

وفائدة تقدم الإخبار به ـ أي: على المخبر عنه ـ توطين النفس، وإعداد الجواب. وقيل: فائدته أن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد عن الاضطراب إذا وقع، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، فقبل الرمي يراش السهم.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ صرفَ النبي والمؤمنين وحوَّلَهم إلى الكعبة ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾ أولاً وهي بيت المقدس. والقِبْلة: هي الجهة التي يستقبلها الإنسان، وإنما سميت قِبْلةً؛ لأن المصلي يقابلها وهي تقابله. والاستفهام هنا للإنكار؛ أي: أيُّ شيء، وأيُّ سبب اقتضى انصرافهم عن قبلتهم التي كانوا عليها التي هي قبلة الأنبياء والمرسلين؛ أي: لا سبب يقتضي ذلك، وإنما هو من تشهيهم وتصرفهم برأيهم. ومحصل الجواب المذكور بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ﴾ إلخ بيان السبب المقتضي لذلك، وهو: إرادة المالك المختار.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾؛ أي: جميع الجهات من المشارق، والمغارب، وما بينهما كلها لله ملكاً، والخلق عبيده. لا يختص به مكان دون مكان، وإنما العبرة بامتثال أمره، لا بخصوص المكان، يكلف عباده أن يستقبلوا بما شاء منها، وأن تجعل قبلة لهم، فلا اعتراض عليه. ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى طريق قويم، موصل إلى سعادة

(١) جمل. (٢) جمل.

الدارين، وهو ما ترتضيه الحكمة، وتقتضيه المصلحة من التوجه إلى بيت المقدس تارة، وإلى الكعبة أخرى.

والظاهر: أن الصراط المستقيم هو ملة الإسلام وشرائعه، فالكعبة من بعض مشروعاته. والإشارة في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ راجعة إلى مفهوم الآية المذكورة قبله؛ أي: كما جعلناكم معديين إلى الصراط المستقيم، أو هديناكم إلى قبلة هي أوسط القبل، أو جعلنا قِبلتكم أفضل القبل ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ يا أمة محمد ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: أمة خياراً عدولاً ممدوحين بالعلم والعمل. ﴿لِّتَكُونُوا۟﴾؛ أي: لكي تكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: على الأمم الماضية بأن رسلهم قد بلغتهم رسالات ربهم؛ وذلك[1] لأن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ثم يقول لكفار الأمم: ألم يأتكم نذير؟ فينكرون ويقولون: ما جاءنا من نذير، فيسأل الله الأنبياء عن ذلك، فيقولون: كذبوا قد بلغناهم، فيسألهم البينة - وهو أعلم بهم - إقامة للحجة، فيقولون: أمة محمد تشهد لنا، فيؤتى بأمة محمد ﷺ، فيشهدون لهم بأنهم قد بلغوا فتقول الأمم الماضية: من أين علموا وإنما أتوا بعدنا؟ فيسأل الله تعالى هذه الأمة، فيقولون: أرسلت إلينا رسولاً، وأنزلت علينا كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل، وأنت صادق فيما أخبرت، ثم يؤتى بمحمد ﷺ، فيُسأل عن حال أمته، فيزكيهم ويشهد بصدقهم.

وأخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح وأمته يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيسأل أمته هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم، فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾». زاد الترمذي «وسطاً عدولاً». ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: يشهد بعدالتكم، وعلى صدقكم في شهادتكم على الأمم

---

(١) الخازن.

الماضية، فهو معطوف على ﴿لِتَكُونُوا﴾ يعني[1]: أن الرسول يزكيكم في شهادتكم على الأمم السابقة أن أنبياءهم بلَّغوهم، وعلى هذا تكون ﴿عَلَى﴾ بمعنى اللام؛ أي: يكون شاهداً لكم؛ أي: مزكياً لكم شاهداً بعدالتكم.

وأخرت[2] صلة الشهادة أولاً، وقدمت آخراً؛ لأن المراد في الأول: إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر: اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم.

وقيل[3]: معنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أنه ﷺ إذا ادعى على أمته أنه بلغهم.. تقبل منه هذه الدعوى، ولا يطالب بشهيد يشهد له، فسميت دعواه شهادة من حيث قَبولها، وعدمِ توقفها على شيء آخر، بخلاف سائر الأنبياء لا تقبل دعواهم على أممهم إلا بشهادة الشهود، وهم هذه الأمة ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ﴾؛ أي: وما صيرنا لك القبلة الآن بعد الهجرة الجهة ﴿الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: كنت على استقبالها أولاً في مكة قبل الهجرة، وتلك الجهة الكعبة، فـ﴿القبلة﴾: هو المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾ مقدماً، و﴿التي﴾ صفة لموصوف محذوف؛ أي: الجهة التي كنت عليها، وهذا هو المفعول الأول مؤخراً، وجعل: بمعنى صير، والتقدير: وما صيرنا الجهة التي كنت عليها أولاً قبل الهجرة ـ وهي الكعبة ـ القبلة الآن؛ أي: بعد نسخ استقبال بيت المقدس؛ أي: وما جعلنا قبلتك الأولى قبلة لك ثانياً؛ أي: ما حولناك ورجعناك إليها ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: إلا لنعاملهم معاملة مَنْ يمتحنهم، ونعلم حينئذ مَنْ يتبع الرسول محمداً ﷺ في التوجه إلى ما أُمر به ـ وهو الكعبة ـ ويصدقه، ممن ينقلب ويرجع إلى الكفر مرتداً، وراجعاً على عقبيه شكّاً في الدين، وظناً منه أن النبي ﷺ في حيرة من أمره، وكان ﷺ يصلي إلى الكعبة قبل الهجرة، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس تألفاً لليهود، فصلى إليها سبعة عشر شهراً، ثم حول إلى الكعبة، وارتد قوم من المسلمين إلى اليهودية، وقالوا: رجعَ محمد إلى دين آبائه. وقرأ الزهري: ﴿ليُعلَم﴾ بالبناء للمفعول وقرىء: ﴿على

---

(1) كرخي بتصرف.
(2) نسفي.
(3) مراح.

عقْبيه﴾ بسكون القاف، وهي لغة تميم، وكلا القراءتين شاذتان. ﴿وَإِن﴾؛ أي: وإنها ﴿كَانَتْ﴾؛ أي: التولية إلى الكعبة ﴿لَكَبِيرَةً﴾؛ أي: لشاقة على الناس ثقيلة عليهم. وقرأ[1] اليزيدي شذوذاً: ﴿لكبيرةٌ﴾ بالرفع، وخرج ذلك الزمخشري على زيادة ﴿كَانَتْ﴾ والتقدير: وإن هي لكبيرة، وهذا ضعيف؛ لأن كان الزائدة لا عمل لها، وهنا اتصل بها الضمير فعملت فيه، ولذلك استكن فيها وقرأ الجمهور ﴿لَكَبِيرَةً﴾ بالنصب على أن تكون خبر ﴿كَانَتْ﴾.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ منهم؛ أي: هداهم ووفقَّهم لاتّباع الرسول، وهم الثابتون على الإيمان ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾؛ أي: تصديقكم بالقِبْلة الأولى المنسوخة، وصلاتكم إليها؛ أي: لا يجعل صلاتكم إليها ضائعاً غير محسوب لكم، بل يثيبكم عليها؛ لأن سبب نزولها: السؤال عمن مات قبل التحويل. وذلك[2] أن حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس، إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة، فقال المسلمون: إنما الهدى فيما أمر الله به، والضلالة فيما نهى الله عنه. قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قِبْلتنا وكان قد مات قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة: أسعد بن زرارة من بني النجار، والبراء بن مغرور من بني سلمة وكانا من النقبا ورجال آخرون؟ فانطلقت عشائرهم إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾؛ يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس. وقرأ الضحاك ﴿ليضَيِّع﴾ بفتح الضاد، وتشديد الياء، مضاعف ضاع، وهي قراءة شاذة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي: بالمؤمنين ﴿لَرَءُوفٌ﴾؛ أي: لمنعم لهم بجلائل النعم. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم بدقائقها. وهذه الجملة جارية مجرى التعليل لما قبلها؛ أي: للطف رأفته، وسعة رحمته، لا يضيع إيمان من آمن، ولا عمل من عمل صالحاً.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

وقرأ[1] الحِرْمِيَّان وابنُ عامر وحفص ﴿لَرَءُوفٌ﴾ مهموزاً على وزن فَعُول بالمد، حيث وقع في القرآن. قال الشاعر:

نُطِيْعُ رَسُولَنَا وَنُطِيْعُ رَبَّاً   هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رَؤُوْفَا

وقرأ باقي السبعة: ﴿لرؤف﴾ مهموزاً بالقصر على وزن فعل. وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع: ﴿لروف﴾ مثقّلاً بغير همز. و﴿الرءوف﴾: كثير الرأفة، وهي أشد من الرحمة[2]، وقيل: الرأفة أخص من الرحمة، وقيل: الرأفة الرحمة، وقيل في الفرق بين الرأفة والرحمة: أن الرأفة: مبالغة في رحمة خاصة، وهي دفع المكروه، وإزالة الضرر، وأما الرحمة: فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه أيضاً جميع الإفضال والإنعام، فذكر الله الرأفة أولاً؛ بمعنى أنه لا يضيع أعمالهم، ثم ذكر الرحمة ثانياً؛ لأنها أعم وأشمل.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قال القرطبي في «تفسيره»: قال العلماء: هذه الآية مقدمة في النزول على قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ و﴿قد﴾ هنا للتحقيق، أو للتكثير؛ أي: حقاً نرى تحول وجهك إلى السماء، وتردد نظرك في السماء طالباً قبلة غير التي أنت مستقبلها، أو كثيراً نرى تصرف نظرك في جهة السماء انتظاراً وتطلعاً للوحي؛ وذلك أن رسول الله ﷺ كان يترجى من ربه أن يحوله إلى الكعبة؛ لأنها قبلة إبراهيم أبيه، وأَدْعَىٰ للعرب إلى الإيمان؛ لأنها مفخرة لهم، ولمخالفة اليهود، فكان ينتظر نزول جبريل بالوحي بالتحويل، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾؛ أي: فلَنحولنك في الصلاة إلى قِبْلةٍ تحبها وتهواها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها في قلبك ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾؛ أي: فاصرف جملة بدنك ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: تلقاء الكعبة، وفي حرف[3] عبد الله شذوذاً: ﴿فول وجهك تلقاء المسجد الحرام﴾؛ أي: استقبل عينها بصدرك في الصلاة إن كنت قريباً، واستقبل جهتها

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.
(٣) **حرف**: قراءة.

إن كنت بعيداً. وإنما ذكر المسجد دون الكعبة لأنه ﷺ كان في المدينة. والبعيد يكفيه مراعاة الجهة، فإن في استقبال عينها حرجاً عليه بخلاف القريب، وقد حكى القرطبي الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعاين، وعلى أن غير المعاين يستقبل الناحية. والمراد بالمسجد الحرام هنا: الكعبة كما هو في أكثر الروايات، وقال آخرون: المراد بالمسجد الحرام: جميع المسجد الحرام، وقال آخرون: المراد به الحرم كله.

وقال القرطبي: روى ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي».

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي: وفي أي موضع كنتم فيه يا أمة محمد، من بر أو بحر، مشرق أو مغرب، ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ أي: فاصرفوا، وحولوا وجوهكم في الصلاة جهة المسجد الحرام الذي هو بمعنى الكعبة. خص[1] الرسول أولاً بالخطاب تعظيماً له، وإيجاباً لرغبته، ثم عمم تصريحاً بعموم الحكم، وتأكيداً لأمر القبلة، وتحضيضاً للأمة على المتابعة.

وقال[2] ابن كثير: أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيث ما توجه قالبه، وقلبُه نحو الكعبة، وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال، وكذا مَنْ جَهِلَ جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئاً في نفس الأمر؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها. انتهى.

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما دخل النبي ﷺ البيت دعا في نواحيه كلها، ولم يصل حتى خرج منه، ولما خرج ركع ركعتين قبل الكعبة، وقال: «هذه القبلة؛ يعني: أن أمر القبلة قد استقر على هذا البيت، فلا ينسخ بعد اليوم، فصلوا إلى الكعبة أبداً، فهي قبلتكم».

---

(١) بيضاوي.

(٢) ابن كثير.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن النبي ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة) متفق عليه.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من قبلكم؛ يعني: أحبار اليهود، وعلماء النصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾؛ أي: أن التولي والتحويل إلى الكعبة هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الأمر الثابت ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ لمعاينتهم لما هو مسطور في كتبهم من أنه ﷺ يصلي إلى القبلتين، ولكن يكتمونه ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾؛ أي: بساه ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء إما خطاباً للمؤمنين؛ أي: وما الله بساه عما تعملون أيها المسلمون من امتثال أمر القبلة. وقال[1] ابن عباس رضي الله عنهما: يريد: أنكم ـ يا معشر المؤمنين ـ تطلبون مرضاتي، وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم، فأنا أثيبكم على طاعتكم أفضل الثواب، وأجزيكم أحسن الجزاء. وإما خطاباً لأهل الكتاب؛ أي: وما الله بغافل عما تكتمون ـ يا أهل الكتاب ـ خبر الرسول، وخبر القبلة. وقرأ الباقون: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء على أنه راجع لأهل الكتاب؛ يعني: وما أنا بساه عما يفعل هؤلاء اليهود والنصارى، فأنا أجازيهم عليه في الدنيا والآخرة، فهو على هذا القول وعلى القول الثاني: وعد للكافرين، وتهديد لهم بالعقاب على الجحود والإباء، وعلى القول الأول: وعد للمؤمنين بالثواب على القبول والأداء.

الإعراب

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾.

﴿سَيَقُولُ﴾: ﴿السين﴾: حرف تنفيس واستقبال، ﴿يقول السفهاء﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾. ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ...﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَآ﴾: استفهامية في محل الرفع

---

(١) خازن.

مبتدأ، ﴿ولاّهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بولّىٰ، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿سَيَقُولُ﴾، ﴿ٱلَّتِى﴾: اسم موصول في محل الجر، صفة للقبلة. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَيْهَآ﴾ جار ومجرور، خبر (كان)، وجملة (كان) صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿عَلَيْهَآ﴾.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لِّلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من لفظ الجلالة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِى﴾، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: يشاء هدايته. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: جار ومجرور، صفة متعلق بـ﴿يَهْدِى﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف. ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أُمَّةً﴾. مفعول ثان. ﴿وَسَطًا﴾: صفة لـ﴿أُمَّةً﴾، والتقدير: وجعلناكم أمة وسطاً جعلاً كائناً كجَعْلِنا إياكم على صراط مستقيم؛ لأن معنى ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يجعل من يشاء على صراط مستقيم.

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

﴿لِّتَكُونُوا۟﴾: (اللام): لام كي. ﴿تكونوا﴾: فعل ناقص، واسمه منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبر ﴿تكونوا﴾. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شُهَدَآءَ﴾، وجملة (تكونوا): صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في

تأويل مصدر مجرور بلام كي، والجار والمجرور متعلق بـ(جعلنا)، والتقدير: جعلناكم أمة وسطاً لكونكم شهداء على الناس. ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ ﴿وَيَكُونَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يكون﴾: معطوف على (تكونوا). ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: اسمه. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بقوله: ﴿شَهِيدٗاۗ﴾، وهو خبر لـ﴿يكون﴾.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾: نافية ﴿جَعَلۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلۡقِبۡلَةَ﴾: مفعول ثانٍ مقدم. ﴿ٱلَّتِي﴾: اسم موصول في محل النصب، صفة لمحذوف هو المفعول الأول، والتقدير: وما جعلنا الجهة التي كنت على استقبالها أولاً قبل الهجرة ـ وهي الكعبة ـ القبلة لك الآن بعد نسخ بيت المقدس إلا لنعلم. . إلخ. وجملة ﴿جَعَلۡنَا﴾ من الفعل والفاعل مستأنفة. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَيۡهَآ﴾: خبر كان، وجملة (كان): صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿عَلَيۡهَآ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لِنَعۡلَمَ﴾: (اللام)، لام كي. ﴿نعلم﴾: منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على الله، وهو بمعنى (عرف) يتعدى لمفعول واحد، والجملة صلة (أن) المضمرة، (أن) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام؛ تقديره: إلا لعلمنا من يتبع، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جَعَلۡنَا﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿لِنَعۡلَمَ﴾، ﴿يَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على (مَنْ)، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد ضمير الفاعل. ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: مفعول لـ﴿يتبع﴾. ﴿مِمَّن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نعلم﴾، ﴿يَنقَلِبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يَنقَلِبُ﴾.

﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ تقديره: وإنها، أي: القصة. ﴿كان﴾ فعل ناقص واسمها ضمير يعود على

القصة أيضاً. ﴿لَكَبِيرَةً﴾: (اللام): فارقة بين (إن) المخففة والنافية، ﴿كبيرة﴾ خبر كان، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بكبيرة. فإن[1] قلت: لم يتقدم هنا نفي ولا شبهه، وشرط الاستثناء المفرغ تقدم شيء من ذلك.. قلت: إن الكلام وإن كان موجباً لفظاً، فإنه في معنى النفي؛ إذ المعنى إنها لا تخفُّ ولا تسهل إلا على الذين ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف؛ تقديره: هداهم الله.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿لِيُضِيعَ﴾: (اللام): حرف جر وجحود. (يضيع): فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. والجملة الفعلية صلة (أن) المضمرة، (أن) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، ولام الجحود متعلقة بمحذوف خبر كان؛ تقديره: وما كان الله مريداً لإضاعة إيمانكم، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة. وهذا الإعراب على مذهب البصريين ويدل لمذهبهم التصريح بالخبر المحذوف في قوله:

سَـمَـوْتَ وَلَـمْ تَـكُـنْ أَهْـلاً لِـتَـسْـمُـوْ

وأما على مذهب الكوفيين: فالام وما بعدها في محل الخبر، ولا يقدِّرون شيئاً، وإنّ (اللام) للتأكيد. وقد أشبعتُ الكلام على لام الجحود بإعرابها على كلا المذهبين في كتابي «الخريدة البهية في إعراب أمثلة الأجرومية» فراجعه إن شئت.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿بِٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور تنازع فيه ما بعده. ﴿لَرَءُوفٌ﴾ (اللام): لام الابتداء. ﴿رءوف﴾: خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾.

---

(١) جمل.

﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان لها، والجملة مستأنفة بمنزلة التعليل لما قبلها.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق أو تكثير. ﴿نَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وهي بصرية، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿تَقَلُّبَ﴾: مفعول به، وهو مضاف ﴿وَجْهِكَ﴾: (وجه): مضاف إليه وهو مضاف، و﴿الكاف﴾ مضاف إليه، والجملة مستأنفة وهي في المعنى علة ثانية لقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ﴾ إلخ؛ أي: إنما حولنا القبلة؛ لنعلم... الخ، ولأنا نرى... الخ. ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقَلُّبَ﴾، وقال أبو البقاء: ولو جعل حالاً من الوجه لجاز ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾: (الفاء): عاطفة سببية (اللام): موطئة لقسم محذوف جوازاً؛ تقديره: وعزتي وجلالي لنولينك. (نولين): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة قوله ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾ و(الكاف): مفعول أول لـ(نولي) ﴿قِبْلَةً﴾: مفعول ثان. ﴿تَرْضَىٰهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿قِبْلَةً﴾. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾: (الفاء): عاطفة تفريعية. (ولّ): فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة القسم. ﴿وَجْهَكَ﴾: مفعول أول ومضاف إليه. ﴿شَطْرَ﴾: مفعول ثان وهو مضاف. ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: صفة له.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

﴿وَحَيْثُ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿حيث﴾ اسم شرط جازم في محل النصب على الظرفية المكانية، والظرف متعلق بـ﴿كُنتُمْ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿حيثما﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَوَلُّوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب حيثما وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية ﴿ولوا﴾ فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿حيثما﴾ على كونها جواب شرط

لها. وجملة ﴿حيثما﴾ مِنْ فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿وُجُوهَكُمْ﴾: مفعول أول ومضاف إليه. ﴿شَطْرَهُۥ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية: (إن) حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها. ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ماض مغير ونائب فاعل، وهو بمعنى أعطى يتعدى لمفعولين والأول منهما نائب الفاعل. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان، وجملة ﴿أُوتُوا۟﴾: صلة الموصول، والعائد ضمير الغائب. ﴿لَيَعْلَمُونَ﴾: (اللام): لام الابتداء. ﴿يعلمون﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿أَنَّهُ﴾: ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. و﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبرها، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سادّ مسد مفعولي علم؛ تقديره: ليعلمون حقِيَّة التولي. ﴿مِن رَّبِّهِمْ ۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الحق؛ تقديره: حال كونه كائناً من ربهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: حجازية. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: (الباء) زائدة. ﴿غافل﴾: خبر ﴿ما﴾ منصوب ﴿عَمَّا﴾: ﴿عن﴾ حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية، أو موصولة، أو موصوفة. ﴿يَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ(عن)؛ تقديره: عن عملهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿غافل﴾، أو الجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، أو صفة للموصوفة، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: يعملونه، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه، ككرماء جمع كريم، والسفيه: هو الكذاب البهات المعتمد خلاف ما يعلم. كذا قال بعض أهل اللغة، وقال في «الكشاف»: هم خفاف الأحلام، ومثله في «القاموس».

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ يقال: ولاه عن الشيء يوليه إذا صرفه وحوله عنه، من باب فعل

المضاعف، كزكى تزكية. ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ يقال: شرقت الشمس تشرق ـ من باب نصر ـ شرقاً ومشرقاً، وهذا مشرق الشمس؛ أي: مكان شروقها، بالكسر على الشذوذ في المصدر والظرف كليهما، وقياسه: فتح مصدره وظرفه جميعاً، ويقال: غربت الشمس تغرب ـ من باب نصر ـ غرباً ومغرباً، وهذا مغرب الشمس؛ أي: مكان غروبها، بالكسر على الشذوذ فيهما، وقياسه: فتح مصدره وظرفه معاً.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾: الوسط: الخيار أو العدل. وقد ثبت عن النبي ﷺ في حديث رواه الترمذي كما مر في مبحث المناسبة تفسير الوسط هنا بالعدل، فوجب الرجوع إلى ذلك. ومنه قول الراجز:

لاَ تَذْهَبَنَّ فِيْ الأُمُوْرِ مُفْرِطَا ... لاَ تَسْأَلَنَّ إِنْ سَأَلْتَ شَطَطَا

وَكُنْ مِنَ ٱلنَّاسِ جَمِيْعَاً وَسَطَا

والآية تحتمل المعنيين، ومما يحتملها قول الآخر:

هُمْ وَسَطٌ تَرْضَىٰ ٱلأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ ... إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَىٰ ٱللَّيَالِيْ بِمُعَظَّمِ

ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير.. كان محموداً؛ أي: هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في عيسى، ولا قصّروا تقصيرَ اليهود في أنبيائهم.

﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: جمع شهيد من الشهادة. وقد اختص هذا اللفظ في عرف الشرع بمن يخبِر عن حقوق الناس بألفاظٍ مخصوصةٍ على جهات.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: و﴿نَرَىٰ﴾: هنا مضارعٌ بمعنى الماضي، وقد ذكر بعض النحويين أن مما يصرف المضارع إلى الماضي ﴿قَدْ﴾ في بعض المواضع، ومنه ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾، ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾. ويقال: تَقَلَّب تقلُّباً ـ من باب تفعَّل ـ إذا تحول عن وجهه، وتقلب على فراشه إذا تحول من جانبٍ إلى جانبٍ آخر، وتقلب في الأمور إذا تصرف فيها، وانتقل من أمرٍ إلى غيره.

﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾: الشطر يكون بمعنى النصف من الشيء والجزء منه. ومنه

حديث: «الطهور شطر الإيمان»، ويكون بمعنى الجهة والنحوِ كما هنا. ويقال: شطر ـ من باب دخل ـ شطوراً إذا بَعُدَ. وشَطرت الدار إذا بَعُدت، ومنه الشاطر؛ وهو الشابّ البعيد من الجيران الغائب عن منزله يجمع على شطر، والابن الشاطر هو الذي عصى أباه، وعاش في الخلاعة بعيداً عنه، ثم عاد إليه ثانياً، والشطر أيضاً الجهة والناحية، يجمع على أشطر وشطور، ومنه شطر شطره إذا قصد قصده، ومنه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾؛ أي: تلقاءه.

﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾: وأصلُ ولُّوا: وليوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان فحذف أولهما وهو الياء، وضم ما قبله لتجانس الضمير، فوزنه فعوا.

البلاغة

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾؛ أي: على استقبالها، أو على اعتقادها، ففيه إيجازٌ بالحذفِ، والاستعلاء في قوله: ﴿عليها﴾ فيه مجاز بالاستعارة حيث شبه مواظبتهم على المحافظة عليها باستعلاء من استعلى على الشيء.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: خياراً عدولاً، فالوسط مستلزِم للخيار والعدول، فأطلق الملزوم وأراد اللازم، فيكونان استعارةً. وأصل الوسط: مكانٌ تستوي إليه المساحة من سائر الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة، ثم أطلق على المتصِف بها.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾: والالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ مع إيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للإشعار بعلة الإتباع. قاله أبو السعود.

﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾: فيه استعارةٌ تمثيليةٌ حيث مثل لمن يرتدّ عن دينه بمن ينقلب على عقبيه. أفاده الفخر الرازي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: ولما كان نفي الجملة السابقة مبالغاً فيها من حيث لام الجحود.. ناسب إثبات الجملة الخاتمة مبالغاً فيها، فبولغ فيها بإن

وباللام، وبالوزن على فعول وفعيل، كل ذلك إشارةً إلى سَعَة الرحمة، وكثرة الرأفة، وتقدم المجرور اعتناءً بالمرؤوف بهم، وتأَخرَ الوصف بالرحمة رعاية للفاصلة؛ لأنها على الميم، والفاصلة: هي الكلمة آخرَ الآيةِ كقافيةِ الشعرِ، وقرينة السجع، وسميت بالفاصلة أخذاً من قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وهي هنا قوله سابقاً: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهنا: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾: والوجه[1] هنا قيل: أُريد به مدلول ظاهره. قال قتادة والسدي وغيرهما: (كان رسول الله ﷺ يقلب وجهه في الدعاء إلى الله تعالى أن يحوّله إلى قبلة مكة)، وقيل: كُنِّي بالوجه عن البصر؛ لأنه أشرف، وهو المستعمل في طلب الرغائب. تقول: بذلت وجهي في كذا، وهو من الكناية بالكل عن الجزء. وفي قوله: ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ مجازٌ مرسل من إطلاق اسم الكل على الجزء إن قلنا المراد منه الكعبة كما علله الأكثرون.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ...﴾ الآيات، مناسبتها[1] لما قبلها: أنه تعالى لمّا ذكر لنبيه ﷺ ما يقوله السفهاء من اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وأمر رسوله ﷺ بأن يتوجه في صلاته نحو الكعبة، وأعلمه أنهم يعلمون أنه الحق وهم يكتمونه، ولا يرتبون على العلم به مقتضاه.. سلاّه ﷺ عن قبولهم الحق بأنهم قد انتهوا في العناد وإظهار المعاداة إلى رتبةٍ لو جئتهم فيها بجميع المعجزات التي كل معجزة منها تقتضي قبول الحق.. ما تبعوك، ولا سلكوا طريقك، وإذا كانوا لا يتبعونك مع مجيئك لهم بجميع المعجزات.. فأحرى أن لا يتبعوك إذا جئتهم بمعجزةٍ واحدة، والمعنى بكل آيةٍ يدل على أن توجهك إلى الكعبة هو الحق.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ أي: وعزَّتي وجلالتي لَئِن جئتَ يا محمدُ

(١) البحر المحيط بتصرف.

اليهودَ والنصارى الذين أعطوا التوراة والإنجيل ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾؛ أي: بكل حجةٍ قطعيةٍ دالةٍ على صدقك في أنَّ تحولك بأمرٍ من الله، وذلك[1] بأنّهم قالوا: ائتنا بآيةٍ على ما تقول، فأنزل الله هذه الآية: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ الكعبة، وما دخلوا في دينك، والجملة جواب القسم المحذوف، والقسم وجوابه سادٌّ مسدَ جواب الشرط؛ وذلك لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهةٍ تزيلها عنهم بإيراد الحجة والمعجزة عليهم، إنما هو عن مكابرةٍ وعنادٍ، مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق، فهم معاندون جاحدون نبوتك مع العلم بها، ففي الآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ عن إيمانهم، وترويحُ خاطره؛ لأنَّ هؤلاء لا تؤثر فيهم كل آية، ولا يرجعون إلى الحق وإن جاءهم بكل برهانٍ، فضلاً عن برهانٍ واحد ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمدُ ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ وقرىء ﴿بتابعِ﴾ بالإضافةِ إلى ما بعدَه بلا تنوينٍ تخفيفاً؛ لأن اسم الفاعل المستكمِل لشروطِ العمل يجوز فيه الوجهان؛ أي: بتابعٍ قبلةِ اليهود والنصارى، وهذه الجملة خبرية، قيل معناها: النهي، وطلب الدوام على قبلته؛ أي: لا تتبع قبلتهم، ودُمْ على قبلتك التي حولناك إليها - وهي الكعبة - وإلا فهو معصومٌ عن اتِّباع قبلتهم بعدَ ورود الأمر بالتحول، وقيل معناها: بيانُ أن هذه القبلة باقيةٌ غيرَ منسوخةٍ، وقطعٌ لأطماعهم، فإنهم قالوا: لو ثَبَتَّ على قبلتنا لكنّا نرجو أنْ تكون صاحبنا الذي ننتظره تعزيراً له، وطمعاً في رجوعه إلى قبلتهم. وأفردَ القِبلة في قوله: ﴿قِبْلَتَهُمْ﴾ مع أن لهم قبلتين: قبلةً لليهود، وقبلة للنصارى مغايرةً لقبلة اليهود؛ لأنها وإن تعددت فهي في البطلان كالقبلةِ الواحدةِ. ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾؛ أي: وما بعضُ أهلِ الكتاب اليهودِ والنصارى بتابعٍ قبلةَ البعضِ الآخر؛ أي: فإنهم وإن اتفقوا في التظاهر على النبي ﷺ مختلفونَ فيما بينهم، فلا اليهود تتبعُ قبلةَ النصارى، ولا النصارى تتبع قبلة اليهود، فقبلةُ اليهود بيت المقدس، وقبلة النصارى مطلع الشمس، وقبلة النبي ﷺ الكعبة، فلا يرجى توافقهم، كما لا يرجى موافقتهم لك لتصلّب كلِ حزبٍ فيما هو فيه، وذلك إشارةً إلى أن اليهود لا تتنصر، وإلى أنَّ النصارى لا

---

(١) الخازن.

تتهوَّد، وذلك لما بينهما من إفراط العداوة والتباغض، وقد رأينا اليهود والنصارى كثيراً ما يدخلون في ملة الإسلام، ولم نشاهد يهودياً تنصر، ولا نصرانياً تهود.

وفي «بدائع الفوائد» لابن القيم: قبلةُ أهل الكتاب ليست بوحي ولا توقيف من الله تعالى، بل بمشورةٍ واجتهادٍ منهم، أما النصارى: فلا ريب أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيرِه باستقبالِ المشرقِ، وهم يُقرِّون بأنَّ قبلة المسيح عليه السلام قبلةُ بني إسرائيل وهي الصخرة، وإنما وضع لهم أشياخهم هذه القبلةَ وهم يعتذرون عنهم بأنَّ المسيحَ عليه السلام فوَّض إليهمُ التحليلَ والتحريم وشرع الأحكامِ، وأنَّ ما حلّلوه وحرّموه فقد حلّله هو وحرّمه في السماء، فهم واليهود متفقون على أنَ الله تعالى لم يشرع استقبال بيت المقدس على رسوله أبداً، والمسلمونَ شاهدون عليهم بذلك الأمر، وأما قبلة اليهود: فليس في التوراة الأمر باستقبالِ الصخرةِ البتة، وإنما كانوا ينصبون التابوت، ويصلون إليه حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخرةِ وصلّوا إليه، فلما رُفع صلوا إلى موضعه، وهو الصخرة. انتهى.

ووقع في بعض كتب القصص[1]: أن قبلة عيسى عليه السلام كانت بيتَ المقدس، وبَعْد رَفْعِه ظهر بولس ودسَّ في دينهم دسائسَ، منها أنه قال: لقيتُ عيسى عليه السلام فقال لي: إن الشمس كوكبٌ أحبه يبلِّغ سلامي في كل يومٍ فَمُرْ قومي ليتوجهوا إليها في صلاتهم، ففعلوا ذلك.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لَئِن اتبعتَ يا محمدُ ـ فَرَضاً ـ أهواءهم وشهواتهم؛ أي: الأمورَ التي يهوونها، ويحبونها، ويطلبونها منك، ومنها: رجوعك إلى قبلتهم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ والوحي من أمر القبلةِ بأنَّك لا تعود إلى قبلتهم، وأنَّ القبلةَ هي الكعبةُ، وأنَّ دينَ اللّهِ هو الإسلامُ، وقيل[2] معناه: من بعد ما وصل إليك من العلم بأنَّ اليهود والنصارى مقيمون على باطلٍ وعنادٍ للحقِ ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿إِذًا﴾ ولفظ ﴿إذا﴾ هنا

---

(١) جمل. (٢) الخازن.

مؤكدة لجواب ارتبط بمتقدم، ولا عمل لها فهي زائدة بين إن وخبرها؛ أي: ﴿إنك﴾ يا محمد لو فعلتَ ذلك الاتباعَ على سبيلِ تقديرِ المُحال المستحيلِ وقوعه ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسَهم بارتكابِ الظلمِ الفاحش. وأكَّد[1] تهديده وبالغ فيه تعظيماً للحث المعلومِ، وتحريضاً على اقتفائه، وتحذيراً من متابعةِ الهوى، واستفظاعاً لصدورِ الذنبِ عن الأنبياء.

ولزم الوقف على الظالمين؛ إذ لو وصل لصار ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صفة للظالمين، وليس كذلك.

وقال الشوكاني[2]: وفي قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ إلى آخر الآية، من التهديد العظيم، والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود، وترجف منه الأفئدة، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء والملة الشريفة من رسول الله ﷺ الذي هو سيد ولد آدم يوجب عليه أن يكون ـ وحاشاه ـ من الظالمين.. فما ظنك بغيره من أمته؟! وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام وارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب ولم تبق إلا دسيسة شيطانية، ووسيلة طاغوتية؛ وهو ميل بعض من تحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة؛ لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم، أو الجاه لديهم إن كان لهم في الناس دولة، أو كانوا من ذوي الصولة، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل، بل اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب، كما يشبه الماء الماء، والبيضة البيضة، والثمرة الثمرة، وقد تكون مَفْسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهويةِ أهل الملل، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام، ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين ويتبعون أحسنه، وهم على العكس من ذلك والضد لما هنالك، فلا يزالون ينقُلون مَنْ يميل إلى أهويتهم مِن بدعة إلى بدعة، ويدفعونه من شنعة إلى شنعة حتى يسلخوه من الدين، ويخرجوه وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي

(١) النهر.

(٢) بيضاوي.

هو عليه هو الصراط المستقيم، هذا إن كان في عداد المقصرين ومن جملة الجاهلين.

وإن كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل.. كان باتباعه لأهوتيهم ممن أضله الله على علم، وختمَ على قلبه، وصار نقمةً على عباد الله، ومصيبةً صبّها الله على المقصرين؛ لأنهم يعتقدون أنه في علمه وفهمه لا يميل إلاّ إلى الحق، ولا يتبع إلاّ الصواب فيضلّون بضلاله، فيكون عليه إثمه وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة. نسأل الله اللطف والسلامة والهداية. انتهى.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: أعطيناهم علم التوراة والإنجيل ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾؛ أي: يعرفون محمداً ﷺ معرفةً جليةً واضحةً، يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين الذي يجدونه في كتابهم، أو يعرفون القرآن، أو تحويل القبلة. والأول أظهر؛ لقوله: ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾؛ أي: يعرفون أنهم منهم، وأنهم من نسلهم؛ أي: يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءهم، لا يلتبس عليهم بغيره.

روي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام رضي الله عنه: كيف هذه المعرفة المذكورة في هذه الآية؟ فقال عبد الله: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ومعرفتي بمحمدٍ أشد من معرفتي بابني، فقال عمر: فكيف ذلك؟ فقال: أشهد أنه رسول الله ﷺ حقاً، وقد نعته الله تعالى في كتابنا ولا أدري ما تصنع النساء، فقبّل عمر رأسه وقال: وفقك الله يا أبا سلام، فقد صدقت.

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: وإن جماعةً من أهل الكتاب ـ وهم علمائهم ـ ﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾؛ أي: ليخفون الأمر الحق الذي هو نعتُ محمد ﷺ، ولا يعلنونه للناس، أو ما هو أعم منه ﴿وَهُمۡ﴾؛ أي: والحال أنهم ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: يعرفون ذلك الحق بما يجدونه في كتابهم، أو يعلمون أن كتمان الحق معصية.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ﴾ قرأ الجمهور: برفع ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ على أنه مبتدأ، والخبر ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾، و(اللام)[1]: إما للعهد؛ أي: الحق الذي أنت عليه يا محمد، أو الحق

(١) فتح القدير.

الذي يكتمونه كائنٌ من ربك، أو للجنس، والمعنى: أنَّ جنس الحق هو ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه، لا ما لم يثبت أنه منه كالذي عليه أهل الكتاب، أو خبر مبتدأ محذوف؛ تقديره: ﴿هو﴾، والضمير عائد على الحق المكتوم؛ أي: مما كتموه هو الحق كائناً من ربك، ويكون المجرور حينئذٍ في موضع الحال، أو خبراً بعد خبر، وعلى كل التقادير فالجملة مستأنفة.

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بالنصب على أنه بدل من ﴿الحق﴾ المكتوم وهي قراءة شاذة، والتقدير: يكتمون الحق من ربك، أو منصوب على الإغراء؛ أي: الزم الحق، أو مفعول لـ﴿يعلمون﴾ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمدُ ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ أي: من الشَّاكين في أنه الحق من ربك، أو في كتمانهم الحق عالمين به، أو في أن علماء أهل الكتاب علموا صحة نبوءتك وشريعتك. وعلى الأول فالخطاب مع الرسول، والمراد به الأمة؛ أي: لا يكن أحد من أمته من الممترين في ذلك؛ لأنه ﷺ لا يشك في كون ذلك هو الحق من الله سبحانه وتعالى.

وقال أبو العالية[1]: يقول الله سبحانه لنبيه ﷺ: فلا تكونن ـ يا محمد ـ في شكٍّ أن الكعبة هي قبلتك، وكانت قبلة الأنبياء من قبلك.

﴿وَلِكُلٍّ﴾ بحذفِ المضاف إليه؛ لدلالة التنوين عليه؛ أي: ولكل أهل دينٍ سواء كان بحقٍ أو بباطلٍ ﴿وِجْهَةٌ﴾؛ أي: جهة وقبلة يستقبلها؛ أي: أنهم لا يتبعون قبلتك، وأنت لا تتبع قبلتهم. والضمير في قوله: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ راجعٌ إلى لفظ ﴿كل﴾، و(الهاء) في قوله: ﴿مُوَلِّيهَا﴾ عائدُ على الـ﴿وجهة﴾ وهو المفعول الأول. والمفعول الثاني محذوفٌ؛ تقديره: موليها وجهه. والمعنى: أن لكل صاحب ملة قبلةً، صاحبُ تلك القبلة موليها وجهه، أو المعنى: ولكل قومٍ من المسلمين جهة من الكعبة يصلي إليها، جنوبية أو شمالية، أو شرقية أو غربية، إذا كان الكلام في المسلمين. ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ عائداً على الله سبحانه، وإن لم يسبق له ذكر لعلمه من السياق؛ إذ من المعلوم أن الله

---

(١) بيضاوي.

فاعل ذلك، والمعنى حينئذٍ: أن لكل صاحب ملة قبلةٌ، الله موليها إياه؛ أي: أمر بأن يستقبلها، اتبعها من اتبعها، وتركها من تركها؛ يعني: شارعها ومكلِّفهم بها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ منوَّناً: ﴿وِجْهَةٌ﴾ مرفوعاً، ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ بكسر اللام اسم فاعل.

وفي قراءة عبد الله بن عامر النخعي ﴿هوَ مُوَلَّاها﴾ بفتح اللام اسم مفعول، وهي قراءة ابن عباس، وأبي جعفر محمد بن علي الباقر، والمعنى: ﴿هو﴾؛ أي: كل قوم مولًّى لتلك الجهة؛ أي: مأمور باستقبالها، وقرىء شاذاً: ﴿ولكلِّ وجهةٍ﴾ بالإضافة؛ أي: بخفض اللام من ﴿كل﴾ بلا تنوين، ﴿وجهةٍ﴾ بالخفض منوناً على الإضافة، وقال في «الكشاف»: والمعنى عليها: وكل وجهة وقبلة الله موليها، فزيدت اللام لتقدم المفعول، كقولك لزيد ضربت. وقال ابن جرير: هي خطأ لا سيما وهي معزوة إلى ابن عامر أحد القراء السبعة، وقرأ أبي: (ولكل قبلة) وهي قراءة شاذة، وقرأ عبد الله: ﴿ولكل جعلنا قبلة﴾ وهي قراءة شاذة أيضاً.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: فبادروا - يا أمة محمد - إلى الطاعات والأعمال الصالحة، وقبول أوامرها، من التوجه إلى القبلة وغيره مما تنال به سعادة الدارين. ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾؛ أي: في أي موضع تكونوا من برٍّ أو بحرٍ أنتم وأعداءكم من موافق ومخالف، مجتمع الأجزاء ومفترقها ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾؛ أي: يبعثكم الله جميعاً، ويحشركم إلى المحشر يوم القيامة للمجازاة، فيجازيكم على أعمالكم خيراً أو شراً، أو[2] أينما تكونوا من أعماق الأرض، وقلل الجبال يقبض أرواحكم، أو أينما تكونوا من الجهات المتقابلة.. يأت بكم الله جميعاً، ويجعل صلواتكم كأنّها إلى جهةٍ واحدة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه مِنْ جَمْعِكم وغيره ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر يقدر على الإعادة بعد الموت، والإثابة لأهل الطاعة، والعقاب لمستحق العقوبة.

---

(١) شوكاني. (٢) البحر المحيط.

ومعلومٌ[1] أن مثل هذه الجملة المصدّرة بإن تجيء كالعلةِ لِما قبلَها، فكأن المعنى: إتيان الله بكم جميعاً لقدرته على ذلك.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾؛ أي: وفي أي مكانٍ خرجت إليه يا محمد لسفرٍ، أو غزو. وقرأ عبد الله بن عمير: ﴿وَمِنْ حَيْثَ﴾ بفتح المثلثة تخفيفاً، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾؛ أي: فاصرف، وحول، ووجه ذاتك في صلاتك ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: تلقاء المسجد الحرام وجهة الكعبة. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن التولي إلى المسجد الحرام في الصلاة ﴿لَلْحَقُّ﴾؛ أي: للأمر الموافق للحكمة الثابت الذي لا يعرض له نسخ، ولا تبديل حال كونه واقعاً ﴿مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ أبو عمرو: ﴿يعملون﴾ بالياء على الغيبة، وهو راجع للكفار؛ أي: من إنكار أمر القبلة، والباقون: ﴿تعملون﴾ بالتاء على الخطاب؛ أي: ليس هو بساهٍ عن أعمالكم، ولكنه محصيها لكم وعليكم، فيجازيكم بها يوم القيامة.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ في أسفارك ومغازيك من المنازل القريبة والبعيدة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ في الصلاة ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: تلقاءه ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي: وفي أي مكان كنتم فيه - يا أمة محمد - من أقطار الأرض مقيمين، أو مسافرين في برٍّ أو بحرٍ ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾؛ أي: فوِّجهوا وجوهكم في الصلاة من محالكم ﴿شَطْرَهُۥ﴾؛ أي: شطر المسجد الحرام وتلقاءه.

وكرّر[2] الله سبحانه وتعالى أمرَ التولي لشطرِ المسجد الحرام ثلاثَ مرات؛ لتأكيد أمر القبلة، فالثالثة مؤكدةٌ للثانية لا للأولى؛ لأنّا بينّا أن الأولى: في الإقامة، والثانية: في السفر، وأما الثالثة: ففي السفر أيضاً، فهي مؤكدةٌ للثانية، وحكمة هذا التأكيد: تثبيت هذا الحكم، وتقرير نسخ استقبال بيت المقدس؛ لأن النسخ من مظانِّ الفتنة والشبهة، مع أنه تعالى علق بكل آية فائدةً. أما في الآية الأولى فبيّن أن أهل الكتاب يعلمون أن أمر نبوة محمد، وأمر هذه القبله حق؛

---

(١) بيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

لأنهم شاهدوا ذلك في التوراة والإنجيل، وأما في الآية الثانية: فبين أنه تعالى يشهد أن ذلك حق، وشهادة الله بكونه حقاً مغايرةٌ لعلم أهل الكتاب بكونه حقاً، وأما في الآية الثالثة: فبين أنه تعالى قطع حجة اليهود والمشركين، وذلك قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: عرّفناكم وجه الصواب في قبلتكم والحجة لكم؛ لكي لا يكون لليهود والمشركين ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأمة المحمدية ﴿حُجَّةٌ﴾؛ أي: مجادلة ومعارضة في التولي، والمعنى: أن التولية عن الصخرة إلى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن محمداً يجحد ديننا، ويتبع قبلتنا، وذلك مدفوع بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وتدفع احتجاج المشركين بأنه ﷺ يدّعي مِلة إبراهيم ويخالف قبلته. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ قرأ الجمهور: ﴿إِلَّا﴾ بكسر الهمزة جعلوها أداة استثناء متصل، وقرأ ابن عامر، وزيد بن علي، وابن زيد شذوذاً ﴿ألا﴾ بفتح الهمزة وتخفيف اللام جعلوها ﴿ألاَ﴾ التي للتنبيه والاستفتاح. فعلى قراءة هؤلاء يكون إعراب ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مبتدأ خبره جملة ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، ودخلت الفاء؛ لأنه سَلَكَ بـ﴿الَّذِينَ﴾ مسلك الشرط، والفعل الماضي هو مستقبل المعنى. كأنه قيل: من يظلم من الناس فلا تخافوا مطاعنتهم في قبلتكم، واخشوني فلا تخالفوا أمري، وقال أبو عبيدة: إنّ ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى الواو؛ أي: و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فهو استثناء بمعنى ﴿الواو﴾ ومنه قول الشاعر:

وَمَا بِالْمَدِينَةِ دَارٌ غَيْرُ وَاحِدَةٍ   دَارُ الْخَلِيفَةِ إِلاَّ دَارُ مَرْوَانَا

كأنه قال: إلا دار الخليفة ودار مروان، ونقل السجاوندي في قراءة شاذة عن أبي بكر بن مجاهد أنه قرأ: ﴿إلى الذين﴾ جعلها حرف جر، وتأويلها بمعنى (مع) والمعنى على قراءة الجمهور: لكي لا يكون حجة لأحد من اليهود والمشركين إلا للمعاندين منهم، القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وحباً لبلده، ولو كان على الحق.. للزم قبلة الأنبياء ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾؛ أي: فلا تخافوا مطاعنتهم في قبلتكم، فإنهم لا يضرونكم ﴿وَاخْشَوْنِي﴾؛ أي: واحذروا عقابي، فلا تخالفوا أمري. وقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ﴾؛ أي: فهو علة ثانية، وكأن المعنى: عرّفناكم وجه الصواب في

قبلتكم، والحجة لكم لانتفاء حجج الناس عليكم ولإتمام النعمة عليكم، فيكون التعريف معللاً بهاتين العلتين. والفصل بالاستثناء وما بعده كلا فصل؛ إذ هو من متعلق العلة الأولى، وقيل: معطوف على علة مقدرة، كأنه قيل: واخشوني؛ لأوفقكم، ولأتم نعمتي عليكم. وإتمام النعمة الهداية إلى القبلة. وقيل: دخول الجنة. والمعنى: ولكي أتم نعمتي عليكم بهدايتي إياكم إلى قبلة إبراهيم لتتم لكم الملة الحنفية. وقيل: تمام النعمة الموت على الإسلام، ثم دخول الجنة، ثم رؤية الله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: ولكي تهتدوا من الضلالة إلى الحق، فهو علة ثالثة، فإن قلتَ: إن الله تعالى أنزل عند قرب وفاته ﷺ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ فدلّ على أن تمام النعمة إنما حصل ذلك اليوم فكيف قال قبل ذلك بسنين كثيرة في هذه الآية: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾؟

قلنا: تمام النعمة في كل وقتٍ بما يليق به، فلا معارضة بين الآيتين.

الإعراب

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾.

﴿وَلَئِنْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، أو داخلة على مقسم به محذوف، تقديره: وعزتي وجلالي ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿أَتَيْتَ﴾: فعل، وفاعل في محل الجزم بإن على كونه فعل شرط لها. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول به؛ لأن (أتى) هنا بمعنى جاء. ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ماضٍ مُغيَّر ونائب فاعل وهو المفعول الأول. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان؛ لأن (أتى) هنا بمعنى أعطى، والجملة من الفعل المغيَّر ونائب فاعل صلة الموصول، والعائد ضمير الغائب. ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَتَيْتَ﴾. ﴿مَّا تَبِعُوا۟﴾: ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَبِعُوا۟﴾ فعل وفاعل، ﴿قِبْلَتَكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه ساد مسد جواب الشرط، وجملة الشرط مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب، وإنما جعلنا المذكور جواباً للقسم لا للشرط جرياً على القاعدة النحوية: أنه إذا اجتمع شرط وقسم فإنه يحذف جواب المتأخر

منهما، كما قال ابن مالك:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

وأيضاً لا يصلح قوله: ﴿مَّا تَبِعُواْ﴾ أن يكون جواباً للشرط؛ لأنه فعل منفي بـ﴿مَآ﴾ فحقه دخول الفاء عليه، فوجب أن يكون جواباً للقسم لا للشرط، ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً؛ لأنه متى حذف الجواب.. وجبَ كون فعل الشرط ماضياً إلا في ضرورةٍ، كما هو مقرر في محله.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية. ﴿أَنتَ﴾: في محل الرفع اسمها، أو مبتدأ. ﴿بِتَابِعٍ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿تابع﴾: خبر ﴿ما﴾ منصوب، أو خبر المبتدأ مرفوع. ﴿قِبْلَتَهُمْۚ﴾: مفعول لـ﴿تابع﴾ ومضاف إليه، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الشرط وجوابه، لا على الجواب وحده، إذ لا تحل محله؛ لأن نفي تبعيتهم مقيد بشرطٍ لا يصح أن يكون قيداً في نفي تبعيته قبلتهم.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية. ﴿بَعْضُهُم﴾: اسم ﴿ما﴾ ومضاف إليه، أو مبتدأ ﴿بِتَابِعٍ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة ﴿تابع﴾: خبر ما، أو خبر المبتدأ. ﴿قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾: مفعول ﴿تابع﴾، ومضاف إليه، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الشرط وجوابه في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ﴾... إلخ.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَئِنِ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية فيه، أو داخلة على مقسم به محذوف، وتقديره: وعزتي وجلالي. ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿ٱتَّبَعْتَ﴾. فعل وفاعل في محل الجزم بأن على كونه فعل شرط لها. ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق

بـ﴿اتَّبَعْتَ﴾، ﴿بَعْدِ﴾: مضاف. ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ما، والجملة صلةٌ لما، أو صفة لها. ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستتر في جاء. ﴿إِنَّكَ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الكاف﴾ اسمها. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء زائد لتأكيد الكلام، ولا تعمل هنا شيئاً؛ لأن عملها في الفعل، ولا فعل هنا. ﴿لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿من الظالمين﴾: جار ومجرور خبر لـ﴿إن﴾، وجملة إن من اسمها وخبرها جوابُ القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه سادٌّ مسدَ جواب الشرط، وجملة القسم مستأنفة.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿الْكِتَابَ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الغائبين. ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كَمَا﴾ (الكاف): حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾ مصدرية. ﴿يَعْرِفُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿أَبْنَاءَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة (ما) المصدرية. (ما) مع صلتها في تأويل مصدرٍ مجرور بالكاف، تقديره: كمعرفتهم أبناءهم، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: يعرفونه معرفةً كائنةً كمعرفتهم أبناءهم، وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في الآية قبلها، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿الظَّالِمِينَ﴾، فيكون ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ حالاً من الكتاب، ويجوز أن يكون نصباً على تقدير: أعني، ورفعاً على تقديرهم: انتهى. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنائية، ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿فَرِيقًا﴾: اسمها. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿فَرِيقًا﴾، ﴿لَيَكْتُمُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿يكتمون﴾: فعل وفاعل. ﴿الْحَقَّ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية خبر (إن)، تقديره: وإن فريقاً منهم لكاتمون الحق، وجملة (إن) مستأنفة. ﴿وَهُمْ﴾

﴿الواو﴾ حالية، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب حال من فاعل ﴿يكتمون﴾.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾.

﴿ٱلۡحَقُّ﴾: مبتدأ. ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، وقيل: خبرٌ لمبتدأ محذوف؛ تقديره: هو؛ أي: ما كتموه، وقيل: الحق. ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾ جار ومجرور حال من الحق، وقيل: غير ذلك ﴿فَلَا﴾ (الفاء): عاطفة تفريعية ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع ناقص في محل الجزم بـ(لا) مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾: جار ومجرور خبر (تكون)، وجملة (تكون) معطوفة على جملة المبتدأ.

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾.

﴿وَلِكُلّٖ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. (لكل): جار ومجرور خبر مقدم. ﴿وِجۡهَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وسَوَّغ الابتداء بالنكرة وصفه بما بعده، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ﴾: ضمير يعود على (كل) في محل الرفع مبتدأ. ﴿مُوَلِّيهَاۖ﴾: خبر ومضاف إلى المفعول الأول، والضمير عائد على وجهة، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: وَجْهَهُ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع صفةٌ لوجهة. ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ﴾ (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم فأقول ﴿استبقوا﴾ فعل وفاعل، ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾: منصوب بنزع الخافض تقديره: إلى الخيرات والجملة الفعلية في محل النصب مفعول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿أَيۡنَ﴾: اسم شرط جازم في محل النصب على الظرفية مبنية على الفتح، والظرف متعلق بـ﴿تَكُونُواْ﴾. ﴿مَا﴾: زائدة. ﴿تَكُونُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿أَيۡنَ﴾ على كونه فعل شرط لها، وهو من كان التامة، ﴿يَأۡتِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿أَيۡنَ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿بِكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق به.

﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿جَمِيعًاۚ﴾: حال من ضمير المخاطبين، وجملة ﴿أَيۡنَ﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٞ﴾، وهو خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلقة بجواب ﴿أَيۡنَ﴾.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾.

﴿وَمِنۡ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿من حيث﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ولِّ﴾ الآتي. ﴿خَرَجۡتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيۡثُ﴾. ﴿فَوَلِّ﴾: ﴿الفاء﴾: زائدة، ﴿ولِّ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿وَجۡهَكَ﴾: مفعول أول ومضاف إليه. ﴿شَطۡرَ﴾: مفعول ثانٍ وهو مضاف. ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلۡحَرَامِۖ﴾: صفة له، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها ﴿لَلۡحَقُّ﴾: اللام حرف ابتداء، ﴿الحق﴾: خبرها، والجملة مستأنفة. ﴿مِن رَّبِّكَۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الحق. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾ نافية ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ. أو: ﴿ما﴾: حجازية، ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: ﴿الباء﴾ زائدة، ﴿غافل﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿ما﴾، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: تعملونه، أوصلة ﴿ما﴾ المصدرية؛ تقديره: عن عملكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿غافل﴾.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾: تقدم إعرابه آنفاً، فلا عود ولا إعادة، فراجعه إن شئت.

﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾.

﴿وَحَيۡثُ مَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿حيث ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب على الظرفية المكانية، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل وفاعل؛ لأنه من كان التامة في محل الجزم بـ﴿حيث ما﴾ على كونها فعل شرط

لها. ﴿فَوَلُّوا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط، ﴿ولّوا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿حيث ما﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿حيث ما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾. ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ مفعول أول ومضاف إليه. ﴿شَطْرَهُ﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

﴿لِئَلَّا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿أن﴾ حرف مصدري ونصب ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَكُونَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المذكورة في ﴿لِئَلَّا﴾. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿لِيَكُونَ﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿حُجَّةٌ﴾؛ لأنه نعت نكرة قُدِّم عليها. ﴿حُجَّةٌ﴾: اسم ﴿يَكُونَ﴾: مؤخر، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ من اسمها وخبرها صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدرٍ مجرور بلام التعليل؛ تقديره: لعدم كون حجة ثابتة للناس عليكم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ تقديره: عرفناكم وجه الصواب في قبلتكم وكيفية الاحتجاج في القبلة بما بيَّنا في قولنا: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ لإعدام كون حجة للناس عليكم ونفيها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من الناس متصل؛ لأن ما قبل إلا ظالمون أيضاً، والمعنى: لئلا تكون حجةٌ لأحد من الناس ـ أي: اليهود والمشركين ـ عليكم إلا المعاندين منهم القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحباً لبلده، ولو كان على الحق.. للزم قبلة الأنبياء قَبْله عليهم السلام. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء. ﴿ظَلَمُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿ظَلَمُوا﴾.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرطٍ مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أنما فعلنا بكم ذلك لقطع حجة الناس عنكم، وأردتم بيان ما يلزمكم.. فأقول لكم ﴿لا تخشوهم﴾ ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَخْشَوْهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول

مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة معترضة. ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿اخشوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية، والياء مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَلِأُتِمَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿أتم﴾: منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿نِعْمَتِي﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أتم﴾، أو حال من (نعمتي)، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام؛ تقديره: ولإتمام نعمتي عليكم، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، والتقدير: عرفناكم وجه الصواب في قبلتكم لقطع حجة الناس عنكم، ولإتمام نعمتي عليكم بتحويلكم إلى أشرف القبل، قبلة أبيكم إبراهيم عليه السلام. ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لعل﴾: حرف نصب وتعليل بمعنى كي، (الكاف): اسمها، وجملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾ في محل الرفع خبرها، وجملة (لعل) في محل الجر بـ﴿لام﴾ التعليل المقدرة؛ تقديره: ولإرادتي هدايتكم إلى الحق، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، وتقدير الكلام: عرفناكم وجه الصواب في قبلتكم لقطع حجة الناس عنكم، ولإتمام نعمتي عليكم، ولإرادتي هدايتكم إلى الحق، والله أعلم بمعنى كلامه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ الآية: الحجة والعلامة. قيل: أصلها أَيَيَة كتمرة، قلبت عينها ألفاً على غير قياس، وقيل: أصلها آئية كقائلة، حذفت همزتها تخفيفاً، وقيل: غير ذلك.

﴿مَّا تَبِعُوا﴾؛ أي: لا يتبعوا، فهو ماض في معنى المستقبل، ودخلت ﴿مَّا﴾ حملاً على لفظ الماضي، وحذفت الفاء في الجواب مع كونه منفياً بها؛ لأن فعل

الشرط ماض غير مجزوم لفظاً.

﴿أَهْوَآءَهُم﴾: جمع هوى مقصوراً، والهوى: كل ما تحبه النفس وتميل إليه طبعاً. ﴿إِذًا﴾: حرف، والنون فيه أصل، ولا تستعمل إلا في الجواب، ولا تعمل هنا شيئاً؛ لأن عملها في الفعل، ولا فعل هنا، فهي هنا مؤكدةٌ لجواب ارتبط بمتقدم، ولا عمل لها إذا كانت مؤكدة.

﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: اسم فاعل من الامتراء؛ وهو الشك، يقال: امترى في الشيء - من باب افتعل - إذا شك فيه، ومثله: المراء والمرية.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾: وعبارة «السمين» هنا: وفي ﴿وِجْهَةٌ﴾ قولان:

أحدهما: اسم للمكان المتوجه إليه كالكعبة، وعلى هذا يكون إثبات ﴿الواو﴾ قياساً؛ إذ هي غير مصدر.

والثاني: أنها مصدر بوزن فِعْلةٌ، وعلى هذا يكون ثبوت ﴿الواو﴾ شاذاً منبهّاً على الأصل المتروك في عدة ونحوها. انتهت.

وقال أبو البقاء: ﴿وِجْهَةٌ﴾ مصدر جاء على الأصل، والقياس: جهة مثل (عِدَة) و(زِنَه)، و﴿الوجهة﴾: مصدر في معنى المتوجه إليه، كالخلق بمعنى المخلوق، وهي مصدر محذوف الزوائد؛ لأن الفعل تَوجّه أو اتجه، والمصدر التوجه أو الاتجاه؛ لأنه لم يستعمل منه وَجْهٌ كَوْعدٌ.

﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ بكسر اللام على قراءة الجمهور اسم فاعل من ولّى يولّي تولية من باب فَعّل المضاعف المعتل، وأما بفتح اللام: فاسم مفعول منه.

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: والخيرات جمع خيرة، وفيها احتمالان:

أحدهما: أن تكون مخففة من خيِّرة بالتشديد بوزن فيعلة، نحو ميِّت في ميْت.

والثاني: أن تكون غير مخففة من خَيِّرة، بل ثبتت على فَعْلَة بوزن جَفْنَة. يقال: رجل خَيْر وامرأة خَيْرَة، وعلى كلا التقديرين فليستا للتفضيل، والسبق: الوصول إلى

الشيء أولاً، وأصله: التقدم في السير، ثم تجّوز به في كل تقديم. اهـ.

البلاغة

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: فيه وضع اسم الموصول موضع الضمير؛ للإيذان بكمال سوء حالهم من العناد؛ يعني: أنهم قد انتهوا في العناد، وإظهار المعاداة إلى رتبةٍ لو جئتهم فيها بجميع المعجزات.. ما تبعوك، ولا سلكوا طريقك.

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾: وهذه الجملة أبلغ في النفي من قوله: ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ من وجوه: كونها اسميةً، وتكرر الاسم فيها، وكون نفيها مؤكداً بالباء.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: هذا من باب التهييج والإلهاب للثبات على الحق.

﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾: فيه تشبيه مرسل مفصل؛ أي: يعرفون محمداً ﷺ معرفةً واضحةً كمعرفة أبنائهم الذين من أصلابهم، وخصَّ الأبناء دون البنات أو الأولاد؛ لأن الذكور أعرف وأشهر، وهم لصحبة الآباء ألزم، وبقلوبهم ألصق. والالتفات عن الخطاب إلى الغيبة؛ للإيذان بأن المراد ليس معرفتهم له ﷺ من حيث ذاته ونسبه الزاهر، بل من حيث كونه مسطوراً في الكتاب منعوتاً بالنعوت التي من جملتها أنه ﷺ يصلي إلى القبلتين، كأنه قيل: الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه، وبهذا تظهر جزالة النظم الكريم وبلاغة القرآن العظيم

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ...﴾ الآيات، لمّا ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة النعم التي أنعمها على بني إسرائيل التي قابلوها بالجحود والكفران فيما يزيد على ثلث السورة، وعدد جرائمهم؛ ليعتبر ويتعظ بها المؤمنون، وأنهى الكلام عليهم.. بدأ هنا بمخاطبة المؤمنين وتذكيرهم بنعمةِ الله العظمى عليهم ببعثة خاتم المرسلين محمد ﷺ، وبالتشريعات الحكيمة التي بها سعادتهم في الدارين قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنهم سمعوا من طعن الكفار على التوجه إلى الكعبة والصلاة إليها أذى كثيراً، فأمروا عند ذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة. انتهى.

أسباب النزول

قوله تعالى(١): ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، أخرج ابن منده في «**المعرفة**» من طريق السُدِّي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قتل تميم بن الحمام ببدر، وفيه وفي غيره نزلت: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ...﴾ الآية. قال أبو نعيم: اتفقوا على

---

(١) مراح.

أنه عمير بن الحمام، وأنَّ السُدِّي صَحَّفه.

التفسير وأوجه القراءة

والكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ التشبيه المستفاد منها؛ إما عائد[1] إلى ما قبلها، والتقدير: ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، أو في الآخرة كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال رسول من جنسكم ونسبكم فيكم يا معشر العرب، قاله الفراء، ورجّحه ابن عطيه، أو عائد إلى ما بعدها، والتقدير: فاذكروني بالطاعة كما ذكرتكم بإرسال رسولٍ منكم فيكم أذكركم بالثواب والمغفرة، قاله الزجاج. والخطاب[2] في الآية لأهلِ مكة ولجميع العرب، وفي إرساله رسولاً منهم نعمة عظيمة عليهم؛ لما فيه من الشرف لهم، ولأن المعروف من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير، فكان بعثه الرسول منهم وفيهم أقرب إلى قبولِ قوله والانقياد له.

والمعنى: كما أرسلنا فيكم يا معشر العرب رسولاً منكم محمداً ﷺ. ﴿يَتۡلُواْ﴾: أي يقرأ ﴿عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ القرآنية المشتملة على الأوامر والنواهي؛ لتتعبدوا بتلاوتها، وهي من أعظم النعم؛ لأنها معجزة باقية مستمرة على ممر الدهور، وفي هذا احتجاج عليهم؛ لأنهم عرفوا أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، فلما قرأ عليهم القرآن تبين صدقه في النبوة ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾؛ أي: يطهركم من دنس الشرك والمعاصي بالتوحيد والطاعات والصدقات، وقيل: معناه يحملكم على ما إذا فعلتموه صرتم أزكياء مثل محاسن الأخلاق ومكارم الأفعال، وقدّمه[3] هنا باعتبار القصد، وأخره في دعوة إبراهيم عليه السلام باعتبار الفعل. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: يفهمكم معاني القرآن وأحكامه لتعملوا بها، فالتعليم غير التلاوة، فليس بتكرار. ﴿وَ﴾ يعلمكم ﴿الحكمة﴾؛ أي: السنة والفقه في الدين. ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: يعلمكم أموراً لم تكونوا عالمين بها قبل بعثه ﷺ من

---

(١) لباب النقول.

(٢) بيضاوي وشوكاني.

(٣) خازن.

أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية، وقصص الأنبياء، وأخبار الحوادث المستقبلة والمغيبات في الآخرة، وكرر الفعل ليدل على أنه جنس آخر.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ باللسان والقلب والجوارح، فالصلاة مشتملة على الثلاثة:

فالأول: كالتسبيح والتكبير.

والثاني: كالخشوع وتدبر القراءة.

والثالث: كالركوع والسجود.

﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالإحسان والرحمة والنعمة في الدنيا والآخرة ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ بالطاعة ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾؛ أي: لا تتركوا شكرها بكفرانها وجحدها، وعصيان الأمر، فمن أطاع الله فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، يقول الله عز وجل: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه». متفق عليه. وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق المفردون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» أخرجه مسلم، المفردون(١): الذين ذهب القرن الذي كانوا فيه وبقوا، وهم يذكرون الله تعالى، ويقال: تفرد الرجل إذا تفقه واعتزل.

ثم نادى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان؛ ليستنهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلهية، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: صدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿اسْتَعِينُوا﴾؛ أي: أطلبوا المعونة من الله على أمور دنياكم وآخرتكم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على مشقة أداء فرائض الله، وترك المعاصي، وحظوظ النفس وعلى المرازي والمصائب وإذاية الكفار ﴿و﴾ بـ﴿الصلاة﴾؛ أي: وبإكثار صلاة التطوع في الليل والنهار، إنما(٢)

---

(١) بيضاوي. (٢) الخازن.

خصهما بذلك لما فيهما من المعونة على العبادات، أما الصبر: فهو حبس النفس على احتمال المكاره في ذات الله، وتوطينها على تحمل المشاق في العبادات، وسائر الطاعات، وتجنب الجزع، وتجنب المحظورات، ومنهم من حمل الصبر على الصوم، وفسره به، ومنهم من حمله على الجهاد. وأما الاستعانة بالصلاة: فلأنها يجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود، والإخلاص له. وقيل: استعينوا بالصبر على طلب الآخرة، وبالصلوات الخمس في مواقيتها على تمحيص الذنوب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاق التكاليف، والمصائب بالعون والنصر والتأييد؛ أي: معين وحافظ وناصر للصابرين على ذلك. وفي ذلك ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال وإن كانت كالجبال.

ولمَّا قال المنافقون وبعض الناس لشهداء أحد وبدر: مات فلان وفلان، وذهب عنهم نعيم الدنيا ولذاتها.. أنزل الله هذه الآية فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ أيها الناس ﴿لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعة الله في قتال المشركين وجهادهم لإعلاء كلمة الله؛ أي: لا تقولوا للشهداء: إنهم ﴿أَمْوَٰتٌۢ﴾ كسائر الأموات ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَآءٌ﴾ كأحياء أهل الجنة في الجنة يرزقون من التحف؛ أي: بل هم أحياء تصل أرواحهم إلى الجنان، كما ورد: (أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة). أخرجه أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، فهم أحياء من هذه الجهة وإن كانوا أمواتاً من جهة خروج الروح من أجسادهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لا تعلمون بحياتهم وحالهم، وما هم فيه من النعيم والكرامة.

وعن الحسن: أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الروح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً، فيصل إليهم الوجع. وعن مجاهد: يرزقون ثمر الجنة، ويجدون ريحها، وليسوا فيها.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لنصيبنكم أيها المؤمنون إصابه من يختبر أحوالكم، أتصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء أم لا؟ ﴿بِشَيۡءٖ﴾ قليل ﴿مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾؛ أي: خوف العدو. وقرأ الضحاك ﴿بأشياء﴾ فلا حذف على هذه القراءة، وأما على قراءة الجمهور: فلا بد من تقدير حذفٍ؛ أي: شيء من الخوف، وشيءٍ من الجوع، وشيء من نقص الثمراتِ والأنفسِ، والخوف: توقع مكروه يحصل منه ألم في القلب.

وإنما[1] قلله بالإضافة والنسبة إلى ما وقاهم منه؛ ليخفف عليهم ويريهم أن رحمته لا تفارقهم، أو بالنسبة إلى ما يصيب به معانديهم في الآخرة، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه؛ ليوطنوا عليه أنفسهم ﴿و﴾ شيء من ﴿الجوع﴾ بسبب القحط وتعذر حصول القوت ﴿و﴾ شيء من ﴿نقص من الأموال﴾ والمواشي بسبب النقصان والخسران الحاصل في النقود والهلاك في المواشي ﴿و﴾ بشيء من نقص ﴿الأنفس﴾ بالقتل والموت، أو بالمرض والشيب ﴿و﴾ شيء من نقص ﴿الثمرات﴾ والحبوب بالجوائح والآفات.

وقال[2] الشافعي رحمه الله تعالى: الخوف خوف الله، والجوع صيام شهر رمضان، والنقص من الأموال الزكاة والصدقات، والنقص من الأنفس الأمراض، ومن الثمرات موت الأولاد ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على تجرع غصص هذه المصائب والبلايا بجنات النعيم، والأجر الجسيم.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته أقبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم قال: أقبضتم ثمرةَ فؤاده؟ قالوا: نعم، قال: فماذا قال؟ قالوا: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة، وسمّوه بيت الحمد» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. ثم وصف تعالى الصابرين الذين يستحقون تلك البشارة وبيّنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ

---

(١) الخازن.
(٢) بيضاوي.

﴿أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾؛ أي: نائبة وشدة مما ذكر، وحلت بهم؛ أي: بشر الصابرين الذين إذا نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه ﴿قَالُوٓاْ﴾ باللسان والقلب جمعاً، لا باللسان فقط، فإن التلفظ بذلك مع الجزع قبح وسخط للقضاء، وذلك بأن يتصور بقلبه ما خلق لأجله، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكر نعم الله تعالى عليه؛ ليرى أن ما أبقى الله تعالى عليه أضعاف ما استرده منه، فهون عليه، ويستسلم ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبداً؛ أي: نحن عبد الله وأموالنا له، يفعل فينا ما يشاء، لا يسئل عما يفعل ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: إلى لقائه ﴿رَٰجِعُونَ﴾ بالبعث والنشور بعد الموت، وإن لم نرض بقضائه لا يرضى منا أعمالنا. قال أبو بكر الوراق ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرارٌ منا بالملك له تعالى ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار على أنفسنا بالهلاك.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجُرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها.. إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها» أخرجه مسلم. وعن عائشة رضي الله عنها: أن مصباح النبي ﷺ طفىء فاسترجع، فقلت: إنما هو مصباح. فقال: «كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة» رواه أبو داود في مراسله.

قيل: ما أعطي أحد مثل ما أعطيت هذه الأمة يعني الاسترجاع عند المصيبة، ولو أعطيه أحد لأعطي يعقوب عليه السلام، ألا تسمع إلى قوله عند فقد يوسف: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيل: وفي قول العبد ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ تفويض منه إلى الله وأنه راض بكل ما نزل به من المصائب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الصابرون المسترجعون عند المصيبة ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ﴾ ومغفرة ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾؛ أي: نعمة وإنما جمع الصلوات للتنبيه على كثرتها وتنوعها؛ لأنه أراد مغفرة بعد مغفرة، والرحمة من الله إنعامه وإحسانه وإفضاله، وذكر الرحمة بعد الصلاة للتأكيد. وقيل: ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ﴾؛ أي: مغفرة من ربهم في الدنيا، ﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾؛ أي: مغفرة من ربهم في الدنيا، ورحمة؛ أي: سلامة من العذاب في الآخرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ إلى الحق والصواب؛ حيث استرجعوا لمصيبتهم واستسلموا لقضاء الله تعالى، وقيل: المهتدون إلى الجنة الفائزون بالثواب.

فصل

في ذكر أحاديث وردت في ثواب أهل البلاء، وأجر الصابرين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً.. يصب منه» يعني: يبتليه بالمصائب حتى يأجره على ذلك. أخرجه البخاري.

وعن أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المؤمن من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ، ولا حزَنٍ ولا أذىً ولا غمٍ، حتى الشوكة يشاكها.. إلا كفر الله عنه بها خطاياه» متفق عليه.

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى، من مرض فما سواه.. إلا حط الله به عنه من سيئاته كما تحط الشجرة ورقها» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الريح تفيئه، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء. ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزة لا تهتز حتى تحصد» متفق عليه. الأرزة: شجرٍ معروف بالشام، ويعرف في العراق ومصر بالصنوبر، والصنوبر ثمر الأرزة، وقيل: الأرزة الثابتة في الأرض.

وعن أنسٍ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبدٍ خيراً.. عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد شراً.. أمسك عنه حتى يوافى يومِ القيامة» أخرجه الترمذي.

وعن أنس أيضاً رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً.. ابتلاهم، فمن رضي.. فله الرضا، ومن سخط.. فله السخط» أخرجه الترمذي.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا

بالمقاريض» أخرجه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة» أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم أحتسبه إلا الجنة» أخرجه البخاري.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أيّ الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً.. اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة[1].. هون عليه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن.

الإعراب

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ﴾.

﴿كَمَآ﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بأرسلنا. ﴿رَسُولٗا﴾: مفعول به. ﴿مِّنكُمۡ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رَسُولٗا﴾، والجملة الفعلية صلة ما المصدرية، (ما) مع صلتها في تأويل مصدرٍ مجرور بالكاف؛ تقديره: كإرسالنا فيكم رسولاً ﴿مِّنكُمۡ﴾، الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة إتماماً كائناً كإرسالنا رسولاً؛ أي: إتماماً كائناً كإتمامها عليكم بإرسال رسول منكم ﴿يَتۡلُواْ﴾: فعل مضارع معتل بالواو، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَسُولٗا﴾. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق

---

(١) **الرقة** - بكسر الراء وتشديد القاف -: الدقة ورقة الجانب، كناية عن الضعف. اهـ.

بـ﴿يتلوا﴾، ﴿ءَايَٰتِنَا﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿رَسُولًا﴾. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿يزكيكم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على رسولاً، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَتْلُوا﴾ على كونها صفة لـ﴿رَسُولًا﴾.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿يعلمكم﴾: مضارع معطوف على يتلوا. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول به ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوفة على الكتاب ﴿وَيُعَلِّمُكُم﴾ الواو: عاطفة، ﴿يعلمكم﴾: فعل مضارع ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَسُولًا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَتْلُوا﴾ على كونها صفة لـ﴿رَسُولًا﴾. ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة، في محل النصب مفعول ثان لـ﴿علم﴾، ﴿لم﴾ حرف نفي. ﴿تَكُونُوا۟﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، وهو بمعنى (عرف) يتعدى إلى واحد؛ تقديره: تعلمونه، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿تَكُونُوا۟﴾ تقديره: ما لم تكونوا عالمين، وجملة ﴿تَكُونُوا۟﴾: صلة لـ﴿ما﴾ أوصفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف من ﴿تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم إتمام نعمتي عليكم بما ذكر، وأردتم بيان ما هو الواجب عليكم.. فأقول لكم: ﴿اذكروني﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مفعول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾: ﴿أذكر﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، و﴿الكاف﴾: مفعول به، والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱشْكُرُوا۟﴾: الواو: عاطفة، ﴿اشكروا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِى﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكْفُرُونِ﴾: فعل مضارع

مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعل، والنون للوقاية؛ لأنها تقي الفعل عن الكسرة، وياء المتكلم المحذوفة لرعاية الفاصلة في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء؛ ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، تابع للفظه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿اسْتَعِينُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿بِالصَّبْرِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اسْتَعِينُوا﴾. ﴿وَالصَّلَاةِ﴾: معطوف عليه. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها. ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه والظرف متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ تقديره: كائن مع الصابرين، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر بـ﴿لام﴾ التعليل المقدرة.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾

﴿وَلَا تَقُولُوا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقُولُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُولُوا﴾. ﴿يُقْتَلُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة لـ﴿من﴾ الموصولة. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُقْتَلُ﴾. ﴿أَمْوَاتٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف؛ تقديره: هم أموات، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره في محل النصب مقول لـ﴿تَقُولُوا﴾. ﴿بَلْ﴾ حرف ابتداء. ﴿أَحْيَاءٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف؛ تقديره: بل هم أحياء، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَكِنْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَشْعُرُونَ﴾ فعل وفاعل، ومفعوله محذوف؛ تقديره: ولكن لا تشعرون ما هم فيه من الكرامة والنعيم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ على كونها مستأنفة.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، أو حرف جر وقسم داخلة على مقسم به محذوف تقديره: وعزتي وجلالي، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، (نبلون): فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، و﴿الكاف﴾: مفعول به، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مع جوابه مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿بِشَيۡءٖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نبلونكم﴾. ﴿مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿شيء﴾؛ تقديره: بشيء كائن من الخوف، ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾: معطوف على الخوف. ﴿وَنَقۡصٖ﴾: معطوف على شيء. ﴿مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لمحذوف؛ تقديره: وبنقص شيء كائن من الأموال؛ لأن النقص مصدر نقصت؛ وهو متعد إلى مفعول، وقد حذف المفعول، تقديره: وبنقص شيء من الأموال، ﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾: معطوف على الأموال. ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾: معطوف على الأموال أيضاً، عطف خاص على عام. ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب صفة للصابرين، أو منصوب بـ(أعني) ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا محل لها، وجملة إذا صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿نا﴾: اسمها، ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر إن، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَإِنَّآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿إِنَّا﴾ حرف واسمها. ﴿إِلَيۡهِ﴾: متعلق بـ﴿رَٰجِعُونَ﴾؛ وهو خبر إن، والجملة في محل النصب

معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مقول القول.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم للمبتدأ الثاني. ﴿صَلَوَٰتٌ﴾: مبتدأ ثان. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: صفة لـ﴿صَلَوَٰتٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب، كأنه قيل: ما الذي بشروا به؟ فقيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: معطوف على ﴿صَلَوَٰتٌ﴾: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿أولئك﴾ مبتدأ. ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل. ﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾ وشكرٌ يتعدى تارةً بنفسه، وتارةً بحرف جرٍ على حدٍّ سواء على الصحيح، وقال بعضهم: إذا قلت: شكرت لزيدٍ: فمعناه: شكرت لزيد صنيعه، فجعلوه متعدياً لاثنين: **أحدهما**: بنفسه، **والآخر**: بحرف الجر، ولذلك فسر الزمخشري هذا الموضع بقوله: واشكروا لي ما أنعمت عليكم.

وقال ابن عطية: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾ واشكروني بمعنى واحد، و﴿لي﴾ أفصح وأشهر مع الشكر، ومعناه: اشكروا نعمتي وأياديَّ، وكذلك إذا قلت: شكرتك فالمعنى: شكرت لك صنيعك وذكرته. فَحَذَف المضاف؛ إذ معنىٰ الشكر: ذكر اليد وذكر مسديها معاً، فما حذف من ذلك فهو اختصار لدلالة ما بقي على ما حذف انتهى «سمين» وقيل: معنى الشكر هنا: الاعتراف بحق المنعم والثناء عليه، ولذلك قابله بقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ هو من كفر النعمة، وهو على حذف مضاف؛ أي: ولا تكفروا نعمتي، ولو كان من الكفر ضد الإيمان لقال: ولا تكفروا، أو: ولا تكفروا بي، وهذه النون نون الوقاية حذفت ياء المتكلم بعدها تخفيفاً لتناسب الفواصل، وقيل: المعنى واشكروا لي بالطاعة، ولا تكفرون بالمعصية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ جمع صابر، اسم فاعل من صبر على الأمر ـ من باب ضرب ـ إذا جرأ وشجع وتجلد، فهو صابر وصبر وصبور، والصبر من خواص الإنسان؛ لأنه يتعارض فيه العقل والشهوة وهو بدني، وهو إما فعلي كتعاطي الأعمال الشاقة، وإما احتمالي كالصبر على الضرب الشديد، ونفسي وهو قمع النفس عن مشتهيات الطبع فإن كان من شهوة الفرج والبطن سمي عِفَّة، وإن كان من احتمال مكروه اختلفت أساميه باختلاف المكروه ففي المصيبة يقتصر عليه باسم الصبر ويضاده الجزع، وإن كان في الغنى سُميَ ضبط النفس ويضاده البطر، وإن كان في حربٍ سُمي شجاعةً ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مُضجرة سُمي سعة صدر ويضاده الضجر، وإن كان في إخفاء كلام سُمي كتماناً ويضاده الإعلان، وإن كان في فضول الدنيا سُمي زهداً ويضاده الحرص، وإن كان على يسير من المال سمِّي قناعةً ويضاده الشره.

قال القفال: ليس الصبر أن لا يجد الإنسان ألم المكروه، ولا أن لا يكره ذلك، إنما هو حمل النفس على ترك إظهار الجزع وإن ظهر دمع عين أو تغير لون ولو ظهر منه أولاً ما لا يُعد معه صابراً ثُمّ صبر لم يعد ذلك إلا سلواناً.

﴿مُّصِيبَةٌ﴾: اسم فاعل من أصابت، والمصيبة: كل ما أذى المؤمن في نفسٍ أو مالٍ أو أهلٍ، صغرت أو كبرت حتى انطفاء المصباح لمن يحتاجه يُسمى: مصيبة.

البلاغة

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾: والتعبير بصيغة التكلم الدالّة على العظمة بعد التعبير بالصيغة التي لا دلالة لها عليها من قبيل التفنن، وجرياً على سَنَنِ الكبراء. أفاده أبو السعود.

وبين كلمتي ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ و﴿رَسُولٗا﴾ من المحسنات البديعية جناس الاشتقاق؛ وهو توافق الكلمتين في الحروف والأصول مع الاتفاق في أصل المعنى.

قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾: ذكره بعد قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول والعموم، ويسمى مثل هذا عند البلغاء بالإطناب.

﴿أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾: فيه إيجاز بالحذف؛ أي: لا تقولوا: هم أموات، بل هم أحياء وبينهما طباق.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ﴾: والإتيان بالجملة الخبرية مقسماً عليها تأكيدٌ لوقوع الابتلاء، وإسناد الفعل إليه صريح في إضافه أسباب البلايا إليه، وأن هذه المحن من الله تعالى. ﴿بِشَىْءٍ﴾ الباء فيه للإلصاق، وأفرده ليدل على التقليل؛ أي: بشيءٍ قليلٍ؛ إذ لو جمعه فقال: بأشياء.. لاحتمل أن تكون ضروباً من كل واحدٍ مما بعده.

قوله: ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾: ذكره بعد ذكر الأموال من ذكر الخاص بعد العام اهتماماً به؛ لاندراجها تحت الأموال.

قوله: ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾: فيه من المحسنات البديعية التجنيس المغاير؛ وهو أن تكون إحدى الكلمتين اسماً، والأخرى فعلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾، ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، وفي «المنتخب» ما ملخَّصه: إن إسناد الإصابة إلى المصيبة لا إلى الله تعالى؛ ليعم ما كان من الله وما كان من غيره، فما كان من الله فهو داخل تحت قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ لأن في الإقرار بالعبودية تفويضاً للأمور إليه، وما كان في غيره فتكليفه أن يرجع إلى الله في الإنصاف منه، ولا يتعدى. كأنه في الأول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ يدبر كيف يشاء، وفي الثاني: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ﴾ ينصف لنا كيف يشاء انتهى.

﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾: التنوين فيهما للتفخيم، وجمع صلوات؛ ليدل على أن ذلك ليس مطلق صلاة، بل صلاة بعد صلاة، ووصفها بكونها ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ليدل بـ﴿من﴾ على ابتدائها من الله؛ إذ تنشأ تلك الصلوات وتبتدىء من الله تعالى، ويحتمل أن تكون ﴿من﴾ تبعيضية، فيكون ثَمَّ حذف مضاف؛ أي: صلوات من صلوات ربهم، وأتى بلفظ الرب مع إضافته إلى ضميرهم؛ لما فيه من

دلالة التربية والنظر للعبد فيما يصلحه ويربِّيه به.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾: أكّد بقوله: ﴿هُمُ﴾ وبالألف واللام؛ لإفادة الحصر، كأن الهدايةَ انحصرت فيهم، وهو من قَصْرِ الصفة على الموصوف، وأتى باسم الفاعل؛ ليدل على الثبوت؛ لأن الهداية ليست من الأفعال المتجددة وقتاً بعد وقت فيخبر عنها بالفعل، بل هي وصف ثابتٌ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

المناسبة

لما أمر الله سبحانه وتعالى بذكره وشكره، ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، وأثنى على الصابرين، وكان الحج من الأعمال الشاقة المفنية للمال والبدن، وكان أحد أركان الإسلام.. أعقب ذلك ببيان أهمية الحج، وأنه من شعائر دين الله، ثم نبه تعالى على وجوب نشر العلم، وعدم كتمانه، وذكر خطر كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم، فاستحقوا اللعنة والغضب من الله تعالى ومن عباده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ...﴾ قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى في «صحيحه» (ج ٤ ص ٢٤٤): حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري قال عروة: سألت عائشة رضي الله عنها، فقلت لها: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فوالله ما على أحد جناح ألا يطّوف بالصفا والمروة؟ فقالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إن هذه الآية لو كانت كما أوَّلتها عليه كانت لا جناح عليه ألا يتطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار؛ كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها بالمشلل[١]، فكان مَنْ أهلَّ يتحرج أن

(١) **مشلل**: موضع بين مكة والمدينة.

يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى عز وجل ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ...﴾ الآية. قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما، ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمٰن، فقال: إن هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون: أن الناس ـ إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهل بمناة ـ كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن.. قالوا: يا رسول الله كنا نطوف بالصفا والمروة، وإن الله أنزل الطواف بالبيت، فلم يذكر الصفا والمروة، فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ...﴾ الآية. قال أبو بكر: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما؛ في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم يتحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام؛ من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت. والحديث أخرجه مسلم والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود، وأحمد ابن حنبل، ومالك في «الموطأ».

وأخرج البخاري في «صحيحه» ومسلم والترمذي، وصححه عن أنس رضي الله عنه؛ أنه سئل عن الصفا والمروة، فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ...﴾ الآية. ولا مانع من أن الآية نزلت في الجميع.

وأخرج الحاكم(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الشياطين في الجاهلية تطوف الليل أجمع بين الصفا والمروة، وكان بينهما أصنام لهم، فلما جاء الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة، فإنه

---

(١) لباب النقول.

شيء كنا نصنعه في الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى[١]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا...﴾ الآية. أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس قال: سأل معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجة بن زيد نفراً من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة، فكتموهم إياه، وأبوا أن يخبروهم، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾: اسمان للجبلَيْنِ المعروفين بمكة في طرفي المسْعى. ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ لا من شعائر الجاهلية؛ أي: من علامات مواضع عبادة الله تعالى الحج والعمرة، جمع شعيرة وهي العلامة؛ لأن الصفا والمروة كانا حدين وغايتين لطرفي المسعى، أو الكلام على حذف مضافٍ تقديره: إن الطواف والسعي بين الصفا والمروة من شعائر الله؛ أي: من أحكام دين الله وعبادته[٢]، ولما كان الطواف بينهما ليس عبادة مستقلة، بل إنما يكون عبادةً إذا كان بعض حج أو عمرة، بين تعالى ذلك بقوله: ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ﴾؛ أي: قصد الكعبة لعبادة مخصوصة معروفة في الشرع ﴿أَوِ ٱعۡتَمَرَ﴾؛ أي: أو زار الكعبة لعبادة مخصوصة معروفة في الشرع؛ لأن الحج لغة: القصد، والعمرة كذلك الزيارة، وفي الشرع: عبادتان معروفتان. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: فلا ذنب، ولا إثم على ذلك الحاج أو المعتمر ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾؛ أي: أن يدور ويسعى بينهما؛ أي: فلا إثم عليهِ في سعيه بين الصفا والمروة سبعة أشواط.

قال ابن عباس: كان على الصفا صنم اسمه: إساف، وعلى المروة صنم آخر اسمه: نائلة، وكان أهل الجاهلية يطوفون بهما، ويتمسحون بهما، فلما جاء

---

(١) لباب النقول.

(٢) البحر المحيط.

الإسلام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين، فأذن الله تعالى فيه، وأخبر أنه من شعائر الله، لا من شعائر الجاهلية.

وأخرج مسلم[1] عن جابر رضي الله عنه في حديثه الطويل في صفة حجة الوداع قال: ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ «ابدأ بما بدأ الله به»، فبدأ بالصفا، الحديث. فإذا ثبت أن النبي ﷺ سعى وجب علينا السعي؛ لقوله تعالى: ﴿فاتَّبِعُوْه﴾، ولقوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم» والأمر للوجوب.

وأخرج مسلم[2]، وغيره عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لعمري ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ فقال: «إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا».

فائدة[3]: اختلف العلماء في حكم السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، فذهب جماعة إلى وجوبه؛ وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة رضي الله عنهم، وبه قال الحسن، وإليه ذهب مالك والشافعي.

وذهب قوم إلى أنه تطوع؛ وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال ابن سيرين، وذهب الثوري وأبو حنيفة إلى أنه ليس بركن، وعلى من تركه دم. وروي عن ابن الزبير، ومجاهد، وعطاء أنّ من تركه فلا شيء عليه، واختلفت الرواية عن أحمد في ذلك، فروي عنه أن من ترك السعي بين الصفا والمروة لم يُجْزِه حجه ولا عمرته، وروي عنه أنه لا شيء في تركه عمداً ولا سهواً، ولا

---

(١) الخازن.

(٢) شوكاني.

(٣) الخازن.

ينبغي أن يتركه. ونقل الجمهور عنه أنه تطوع.

وسبب هذا الاختلاف أن قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ يصدق عليه أنه لا إثم عليه في فعله، فدخل تحته الواجب والمندوب والمباح، فظاهر هذه الآية لا يدل على أن السعي بين الصفا والمروة واجب، أو غير واجب. فحجة الشافعي ومن وافقه في أن السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة.. ما روى الشافعي وغيره عن حبيبة بنت أبي تَجْرَأَةَ قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه، وهو وراءهم يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي، يدور به إزاره، وهو يقول: «اسعوا فإن الله عز وجل كتب عليكم السعي» ويؤيد ذلك حديث: «خذوا عني مناسككم».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَن يَطَّوَّفَ﴾ أصله: يتطوف، فأدغمت التاء في الطاء، ماضيه تطوف، وقرأ أنس، وابن عباس، وابن سيرين، وشُهِر ﴿أن لا﴾ وكذلك في مصحف أُبي، وعبد الله، وخرج ذلك على زيادة ﴿لا﴾ نظير: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ فتتحد معنى القراءتيين، وقرأ أبو حمزة: ﴿أن يطوُف بهما﴾ مِن طاف، يطوف الثلاثي، وهي قراءة ظاهرة، وقرأ ابن عباس، وأبو السمال ﴿يَطَّاف بهما﴾ أصله يطتوف بوزن يفتعل، وماضيه اطتوف بوزن افتعل، تحركت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، وأدغمت الطاء في التاء بعد قلب التاء طاء، فصارا اطّاف، وجاء مضارعه يطّاف، ومصدره اطيافاً وكل القراءات المذكورة شاذة عدا قراءة الجمهور.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾؛ أي: تبرع وزاد على ما فرض الله عليه من حج وعمرة تطوعاً ونفلاً، فطاف بين الصفا والمروة في ضمن حج تطوع وعمرته، لا استقلالاً، لأن السعي لا يتنفل به. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَاكِرٌ﴾ له على طاعته، وقابل منه، ومجازٍ له عليها. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيته، ويعلم قدر الجزاء، فلا يبخس المستحق حقه، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ ابن كثير[1]، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر ﴿تَطَوَّعَ﴾ فعلاً ماضياً هنا، وفي قوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾. وقرأ حمزة والكسائي في المتواتر: ﴿يطَّوَّع﴾ مضارعاً مجزوماً بـ﴿من﴾ الشرطية، وقرأ ابن مسعود: (يتطوع بخير) ويطوع أصله: يتطوع كقراءه عبد الله، وهذه قراءة شاذة.

ونزل في أحبار اليهود قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾؛ أي: يخفون الناس ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ في التوراة، وهم علماء اليهود. ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: من العلامات الواضحة الدالة على صدق محمد ﷺ ونبوته، من نعوته وأخلاقه وأفعاله. ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: ومن الأحكام التي هدى الله الخلق إليها، ودعاهم لها، وشرعها لهم من الأوامر والنواهي كآية الرجم. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ وأوضحناه. ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لبني إسرائيل ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: في التوراة، والمراد بالكتم هنا: إزالة ما أنزل الله، ووضع غيره في موضعه؛ فإنهم محوا آية الرجم، ونعته ﷺ، وكتبوا مكان ذلك ما يخالفه. ومعلوم أن الكتم والكتمان: ترك إظهار الشيء قصداً مع مسيس الحاجة إليه، وتحقق الداعي إلى إظهاره؛ لأنه متى لم يكن كذلك لا يعد من الكتمان، وذلك قد يكون بمجرد ستره وإخفائه، ويكون بإزالته ووضع شيء آخر مكانه.

وقرأ الجمهور: ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾ مطابقة لقوله: ﴿أنزلنا﴾، وقرأ طلحة بن مصرف شذوذاً: ﴿بينة﴾ بضمير مفرد غائب، ففيه حينئذٍ التفات من التكلم إلى الغيبة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكاتمون لما أنزلنا. ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يبعدهم الله من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ من الملائكة والمؤمنين، أو جميع الخلائق؛ أي: يسألون الله أن يلعنهم ويطردهم من رحمتهم، ويقولون: اللهم العنهم. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾؛ أي: ندموا على ما فعلوا، فرجعوا عن الكفر إلى الإسلام ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما بينهم وبين الله تعالى بالتوحيد والطاعات ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾؛ أي: أوضحوا للناس ما كتموا من العلم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ التائبون المصلحون المبيِّنون ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أقبل منهم

---

(١) البحر المحيط.

توبتهم، وأتجاوز عن سيئاتهم وكتمانهم ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: القابل لتوبة من تاب ﴿الرحيم﴾ المبالغ في نشر الرحمة لمن مات على التوبة، وفي قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ إشارة إلى أركان التوبة الثلاثة؛ لأن معنى تابوا: ندموا، ومعنى أصلحوا: بالعزم على عدم العود إلى المعصية، ومعنى بينوا: بالإقلاع عن الكتمان؛ لأن الإقلاع مفارقة المعصية؛ وهي هنا الكتمان ومفارقتها حاصلة بالبيان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدثت شيئاً أبداً وهما قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ إلى آخر الآيتين. متفق عليه.

وهل[1] إظهار علوم الدين فرض كفاية أو فرض عين؟ فيه خلاف، والأصح أنه إذا ظهر للبعض بحيث يتمكن كل واحد من الوصول إليه لم يبق مكتوماً، وقيل: متى سئل العالم عن شيءٍ يعلمه من أمر الدين يجب عليه إظهاره، وإلا فلا. وفي «الكرخي»: وهذه الآية: تدل على أن من أمكنه بيان أصول الدين بالدلائل العقلية لمن كان محتاجاً إليها، ثم تركها أو كتمها، وكتم شيئاً من أحكام الشرع مع الحاجة إليه لحقه هذا الوعيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالكتمان وغيره ﴿وَمَاتُواْ﴾؛ أي: واستمروا على ذلك حتى داهمهم الموت. ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ بالله ورسوله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المستمرون على كفرهم حتى ماتوا عليه. ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ وطرده لهم من رحمته ﴿و﴾ لعنة ﴿الملائكة والناس﴾ كلهم ﴿أجمعين﴾ حتى أهل دينهم، فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً، وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بالجر عطفاً على لفظ الجلالة، وقرأ الحسن: ﴿والملائكة والناس أجمعون﴾ بالرفع، وخرج على أنه مبتدأ حذف خبره تقديره: والملائكة والناس أجمعون يلعنونهم حالة كونهم

---

(١) الخازن.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مستمرين في اللعنة، أو في النار، وفي إضمارها قبل الذكر تفخيم لشأنها، وتهويل منها، أو أضمرها لدلالة اللعنة عليها ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ طرفة عين ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يمهلون ولا يؤجلون من العذاب، فإذا استمهلوا لا يمهلون، وإذا استغاثوا لا يغاثون، وقيل: لا ينظرون ليعتذروا، وقيل: لا يُنظر إليهم نظر رحمة، وفي «الفتوحات الإلهية» قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ إشارة إلى كم العذاب، وأنه كثير لا ينقطع، وقوله ﴿لَا يُخَفَّفُ...﴾ إلخ إشارة إلى كيفه وشدته.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱلصَّفَا﴾: اسمها. ﴿وَٱلْمَرْوَةَ﴾: معطوف عليه. ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر إن؛ تقديره: كائنان من شعائر الله، وجملة إنّ مستأنفة.

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

﴿فَمَنْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أن الصفا والمروة من شعائر الله، وأردتم بيان حكم السعي بينهما.. فأقول لكم: ﴿مَن حج البيت﴾: ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿حَجَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على (مَن). ﴿ٱلْبَيْتَ﴾: مفعول به. ﴿أَوِ﴾: حرف عطف وتفصيل ﴿ٱعْتَمَرَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم معطوف على ﴿حَجَّ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا، وجملة ﴿لا﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها،

وجملة (مَن) الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَطَّوَّفَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على (مَن). ﴿بِهِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف؛ تقديره: فلا جناح عليه في طوافه بهما، والجار المحذوف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور قبله.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿تَطَوَّعَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿خَيْرًا﴾: منصوب؛ إما على[1] إسقاط حرف الجر؛ أي: تطوع بخيرٍ، فلما حذف الحرف انتصب على حد قوله:

تَـمُـرُّوْنَ ٱلـدِّيَـارَ فَـلَـمْ تُـعَـوِّجُـوا

أو على أن يكون نعت مصدر محذوف؛ أي: تطوعاً خيراً، أو على أن يكون حالاً من ذلك المصدر المقدر معرفةً، وهذا مذهب سيبويه. اهـ «سمين».

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿شَاكِرٌ﴾: خبر أول لها. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان. وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

---

(١) جمل.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها: ﴿يَكۡتُمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مَآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿أَنزَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير المفعول المحذوف؛ تقديره: ما أنزلناه. ﴿مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من ضمير المفعول المحذوف من ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أو حال من ﴿مَآ﴾ ويصح أن يتعلق بـ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ كما ذكره أبو البقاء. ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾: معطوف على البينات. ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَكۡتُمُونَ﴾ ﴿بَعۡدِ﴾: مضاف. ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والضمير عائد على ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَآ﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ تقديره: من بعد تبييننا إياه ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾. ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور متعلق أيضاً بـ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾، فإن تعلق جارين بفعل واحد عند اختلاف المعنى أو اللفظ مما لا خلاف في جوازه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، وجملة إن من اسمها وخبرها جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، ويصح أن يكون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بدلاً من اسم إن، وجملة ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾: خبرها. ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿يلعنهم اللاعنون﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ على كونها خبر إن.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مستثنى من المفعول في قوله: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾. ﴿تَابُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ﴿تَابُواْ﴾ على كونها صلة الموصول، وكذا جملة قوله: ﴿وَبَيَّنُواْ﴾:

معطوفة على ﴿تَابُوا۟﴾. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية؛ لوقوعها بعد الاستثناء. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿أَتُوبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف؛ تقديره: وإنما استثنيتهم لتوبتي عليهم. ﴿وَأَنَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿أنا﴾: مبتدأ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: خبر أول. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿أتوب﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها. ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَمَاتُوا۟﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ماتوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿كَفَرُوا۟﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿كُفَّارٌ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿ماتوا﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار مجرور خبر مقدم. ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ ثان ومضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها: مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، وكذا قوله ﴿وَٱلنَّاسِ﴾: معطوف على لفظ الجلالة. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد للملائكة والناس.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُخَفَّفُ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة. ﴿عَنْهُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْعَذَابُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير المستتر في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أو مستأنفة. ﴿وَلَا هُمْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لَا﴾

نافية ﴿هم﴾ مبتدأ ﴿يُنظَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ؛ تقديره: ولا هم منظرون، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿ولا يخفف﴾ على كونها حالاً من الضمير المستتر في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أو على كونها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلصَّفَا﴾: جمع صفاة، وهي الصخرة الصلبة الملساء، وعبارة «السمين»: وألف الصفا منقلبة عن واو؛ بدليل قلبها في التثنية واواً، فإنهم قالوا في تثنيته: صفوان، والاشتقاق يدل عليه أيضاً؛ لأنه من الصفو، وهو الخلوص، والصفا الحجر الأملس، وقيل: الذي لا يخالطه غيره من طين أو تراب، ويفرق بين واحده وجمعه بتاء التأنيث نحو: صفا كثيرة وصفاة واحدة، وقد يجمع الصفا على فعول وأفعال، فإنهم قالوا: صُفِي بكسر الصاد وضمها كعِصي وأصفاء، والأصل صفوو وأصفاو، فقلبت الواوان في صفوو يائين، والواو في أصفاو همزةً ككساء وبابه.

﴿وَٱلْمَرْوَةَ﴾: الحجارة الصغار، فقيل: اللينة، وقيل: الصلبة، وقيل: البيض، وقيل: السود. انتهت. وجمعها: مرو ومروات، وهذا بالنظر إلى أصلهما وإلا فهما عَلَمان للجبلين المعروفين في مكة.

﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ والشعائر: جمع شعيرة؛ وهي العلامة؛ أي: من أعلام مناسكه، والمراد بها مواضع العبادة التي أشعرها الله تعالى أعلاماً للناس من الموقف والمسعى والمنحر.

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾ يقال: حج يحج حجاً ـ من باب رَدَّ ـ فهو حاجّ، والحج لغةً: القصد، وشرعاً: قصد مكة لنسك مخصوص.

﴿أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾: من باب افتعل، والمصدر الاعتمار، وهو الزيارة، والعمرة مأخوذة منه؛ وهي زيارة مكة لنسك معلوم.

﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: والجناح: الميل إلى الإثم، ثم أطلق على الإثم نفسه، يقال: جنح إلى كذا جنوحاً ـ من بابي قَعَدَ وفَتَحَ ـ إذا مال إليه، ومنه جُنْحُ الليل؛ أي: ميله.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾: تطوع ـ من باب تفعَّل ـ من الطوع؛ وهو الانقياد، ولكن المراد هنا: التبرع بأي طاعة كانت، أو بالحج والعمرة بعد قضاء الواجب عليه.

البلاغة

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾: في هذا التركيب مجازٌ بالحذف؛ إما من الأول تقديره: إن السعي بين الصفا والمروة من أحكام شرع الله التي شرعها لعباده، أو من الآخر تقديره: إن الصفا والمروة من أعلام عباده الله وحدودها.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾: وشكرُ اللّهِ العبدَ بأحد معنيين: إما بالثواب، وإما بالثناء عليه.

قال أبو السعود: عبر عن ذلك بالشكر مبالغةً في الإحسان على العباد، فأطلق الشكر، وأراد به الجزاء بطريق المجاز. وعلمه[1] هنا؛ هو علمه بقدر الجزاء الذي للعبد على فعل الطاعة، أو بنيته وإخلاصه في العمل، وقد وقعت الصفتان الموقَع الحسن؛ لأن التطوع بالخير يتضمن الفعل والقصد، فناسب ذكر الشكر باعتبار الفعل، وذكر العلم باعتبار القصد، وأخرت صفة العلم وإن كانت متقدمة على الشكر، كما أن النية مقدمة على الفعل؛ لتواخي رؤوس الآي. ذكره أبو حيان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا﴾: فيه خروج من ظاهر إلى ضمير متكلم.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ وتبيينه[2] لهم تلخيصه وإيضاحه، بحيث يتلقاه كل واحد منهم من غير أن يكون له فيه شبهة، وهذا عنوان مغاير؛ لكونه بيناً في

---

(١) البحر المحيط.

(٢) أبو السعود.

نفسه، وهدى مؤكد؛ لقبح الكتم أو تفهيمه لهم بواسطة موسى عليه السلام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ وأبرز[1] الخبر في صورة جملتين: توكيداً وتعظيماً، وأتى بالفعل المضارع المقتضي التجدد؛ لتجدد مقتضيه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾، ولذلك أتى بصلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فعلاً مضارعاً ليدل أيضاً على التجدد؛ لأن بقاءهم في الكتمان هو تجدد كتمانٍ، وجاء بالجملة المسند فيها الفعل إلى الله؛ لأنه هو المجازي على ما اجترحوه من الذنب، وجاءت الجملة الثانية؛ لأن لعنة اللاعنين مترتبة على لعنة الله للكاتمين، وأبرز اسم الجلالة بلفظ الله على سبيل الالتفات؛ إذ لو جرى على نسق الكلام السابق.. لكان أولئك نلعنهم، لكن في إظهار هذا الاسم الشريف من الفخامة، وإلقاء الروعة والمهابة في القلب ما لا يكون في الضمير، وفي قوله: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ من المحسنات البديعية التجنيس المغاير؛ وهو أن يكون إحدى الكلمتين اسماً والأخرى فعلاً.

وقوله[2]: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: اعتراض تذييلي محقق لمضمون ما قبله، والالتفات إلى التكلم؛ للتفنن في النظم الكريم، مع ما فيه من التلويح والرمز إلى ما مر من اختلاف المبدأ في فعليه تعالى: السابق وهو اللعن، واللاحق وهو الرحمة.

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾: من الإنظار لا من النظر، فإيثار الجملة الاسمية لإفادة دوام النفي واستمراره. ذكره الكرخي.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

(٢) جمل.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه لما كان كفر معظم الكفار المستحقين اللعنة والخلود في النار؛ لاتخاذهم آلهة مع الله... أخبر تعالى أن الإله واحد لا يتعدد، ولا يتجزأ، ولا مثيل له في صفاته، وحصر الإلهية فيه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمّا ذكر أنه واحد، وأنه منفرد بالإلهية.. لم يكتف بالإخبار حتى أورد دلائل الاعتبار، واستدل على وحدانيته واختصاصه بالإلهية بهذا الخلق الغريب، والبناء العجيب استدلالاً بالأثر على المؤثر، وبالصنعة على الصانع، وعرفهم طريق النظر، وفيم ينظرون، فبدأ أولاً بذكر العالم العلوي فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾، ثم بالعالم السفلي، ثم بتعاقب الليل والنهار، ثم بالسفن التي تمخر أمواج البحار، ثم بالأمطار التي فيها حياة الزروع والنفوس، ثم بما بثّ في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله تعالى

---

(١) البحر المحيط.

لفائدة الإنسان، وختم ذلك بالأمر بالتفكير في بدائع صنع الله، وإعمال العقل في عجيب خلقه؛ ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبر الحكيم، ثم ذكر تعالى بعد ذكر هذه الآيات البينات الواضحات أنّ من الناس متخذي أنداداً، وأنهم يحبونهم مثل محبة الله، ثم ذكر أن من المؤمنين من هو أشد حباً لله من هؤلاء لأصنامهم، ثم خاطب من خاطب بقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوٓا...﴾ حين عاينوا نتيجة اتخاذهم الأنداد لرأيت أمراً عظيماً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ سبب[١] نزول هذه الآية: أن كفار قريش قالوا: يا محمد صف، لنا ربك، وانسبه؟ فأنزل الله هذه الآية وسورة الإخلاص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ...﴾ سبب نزولها: ما روي عن[٢] عطاء قال: نزل على النبي ﷺ بالمدينة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ الآية. فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ روي: أنه كان للمشركين ثلاث مئة صنم يعبدونها من دون الله، فبين الله أنه إلههم، وأنه واحد، فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾؛ أي: معبودكم الذي يستحق العبادة منكم أيها العباد ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾؛ أي: إلٰه منفرد في ألوهيته وربوبيته، ليس له شريك فيهما، ومنفرد في ذاته وصفاته وأفعاله ليس له نظير فيها[٣]، وظاهر الخطاب أنه لجميع المخلوقات المُتصوّر منهم العبادة؛ فهو إعلام لهم بوحدانية الله تعالى، ويحتمل أن يكون خطاباً للمشركين الذين قالوا لرسول الله ﷺ:

---

(١) الخازن.

(٢) لباب النقول.

(٣) البحر المحيط.

صف لنا ربك؟ أو خطاباً لمن يعبد مع الله غيره من صنم ووثن ونار.

وقال في «المنتخب»: لمّا قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ..﴾ أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول: هب أن إلهنا واحد، فلعل إلٰه غيرنا مغاير لإلهنا، فلا جرم أن يزيل ذلك الوهم ببيان التوحيد المطلق، فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ﴾: يقتضي النفي العام الشامل، فإذا قال بعده: ﴿إلا الله﴾ أفاد التوحيد التام المطلق المحقق. انتهى.

﴿لا إلٰه﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: إلا الله الواحد الفرد الصمد، وهذه[1] الجملة توكيدٌ لمعنى الوحدانية، ونفي الإلهية عن غيره، وهي جملة جاءت لنفي كل فرد فرد من الإلهية، ثم حصر ذلك المعنى فيه تبارك وتعالى، فدلت الجملة الأولى على نسبة الوحدانية إليه تعالى، ودلت الثانية على حصر الإلهية فيه.

والمعنى[2]: إلهكم الحقيق بالعبادة إلٰه واحد، فلا تشركوا به أحداً، والشرك به ضربان.

الأول: شرك في الألوهية والعبادة: بأنْ يعتقد المرء أن في الخلق من يشارك الله، أو يعينه في أفعاله، أو يحمله على بعضها، ويصده عن بعض، فيتوجه إليه في الدعاء عندما يتوجه إلى الله ويدعوه معه، أو يدعوه من دون الله؛ ليكشف عنه ضراً، أو يجلب له نفعاً.

الثاني: شرك به في الربوبية: بأنْ يسند الخلق والتدبير إلى غيره معه، أو أخذ أحكام الدين من عبادة وتحليل وتحريم من غير كتبه ووحيه الذي بلغه عنه الرسل استناداً إلى أن من يؤخذ عنهم الدين هم أعلم بمراد الله؛ وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

فواجب على علماء الدين أن يبينوا للناس ما نزله الله ولا يكتموه، لا أن يزيدوا فيه، أو ينقصوا منه كما فعل مَنْ قبلَهم من أهل الكتب المنزلة حين زادوا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) مراغي.

على الوحي أحكاماً كثيرةً من تلقاء أنفسهم، وخالفوا ما نزل بتأويلاتٍ وتعسفات بعيدةٍ عن روح الدين وسره.

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ خبران آخران للمبتدأ؛ أي: وإلهكم هو الرحمٰن؛ أي: كثير الرحمة والإنعام لعباده بحلائل النعم، الرحيم؛ أي: كثير الرحمة والإحسان لعباده بدقائق النعم.

فالله تعالى[1] هو الرحمٰن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فحسب المرء أن يرجوها، ولا يعتمد على رحمة سواه ممن يظن أنهم مقربون إليه؛ إذ كل ما يعتمد عليه من دونه، فليس أهلاً للاعتماد عليه، بل الاعتماد عليه من قبيل الشرك.

والإلٰه الذي بيده أزمة المنافع، والقادر على دفع المضار؛ واحدٌ لا سلطان لأحد على إرادته، ولا مبدل لكلماته، ولا أوسع من رحمته.

وإنما ذكر الوحدة والرحمة دون غيرهما من صفاته؛ لأن الوحدة تذكر أولئك الكافرين الكاتمين للحق بأنهم لا يجدون ملجأ غيرَ الله يقيهم عقوبته ولعنته، والرحمة بعدها ترغبهم في التوبة، وتحول بينهم وبين اليأس من فضله بعد أن اتخذوا الوسطاء والشفعاء عنده.

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ وفاتحة آل عمران ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾» أخرجه أبو داود والترمذي، وقال حديث صحيح.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى بعض ظواهر الكون الدالة على وحدانيته ورحمته؛ لتكون برهاناً على ما ذكر في الآية قبلها فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾ إلى آخر الآية، فذكر من عجائب مخلوقاته ودلائل قدرته ووحدانيته

---

(١) مراغي.

تسعة أنواع، إن جعلنا قوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ معطوفاً على ما أنزل، وهو الظاهر كما قاله في «الكشاف» وإن عطفناه على قوله: ﴿فَأَحْيَا﴾ فتكون الدلائل ثمانية؛ لأنهما أمران متسببان عن إنزال المطر:

الأول والثاني منها ذكره بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إن في إيجادهما على غير مثال سبق مع عظمهما وكثرة أجزائهما، وقيل: الخَلْقُ هنا بمعنى المخلوق؛ إذ الآيات التي تشاهد إنما هي في المخلوق الذي هو السموات والأرض، وحينئذ فإضافته بيانية، وإنما جمع السموات؛ لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، وأفرد الأرض؛ لأنها جنس واحد وهو التراب.

والآيات في السماء هي: سمكها، وارتفاعها بغير عمد ولا علاَّقة، وما يُرى فيها من الشمس والقمر والنجوم، وفي ذلك كله ما يدل على أنه صادر من إله واحد لا شريك له في الخلق والتقدير، والحكمة والتدبير.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ٱلْوَاحِدُ

والآيات في الأرض: مدها، وبسطها على الماء، وما يرى فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والأنهار والأشجار والثمار ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

وذكر الثالث منها بقوله: ﴿و﴾ في ﴿اختلاف الليل والنهار﴾؛ أي: في تعاقبهما بمجيء أحدهما، وذهاب الآخر، واختلافهما في الطول والقصر، والزيادة والنقصان، والنور والظلمة، وإنما قُدِّم الليل على النهار؛ لأن الظلمة أقدم، والآيات في الليل والنهار تعاقبهما بالمجيء والذهاب واختلافهما فيما ذكر، واختلاف انتظام أحوال العباد في معاشهم بالراحة في الليل، والسعي والكسب في النهار.

وذكر الرابع منها بقوله: ﴿و﴾ في ﴿الفلك﴾ والسفن ﴿ٱلَّتِي تَجْرِي﴾ وتسير ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ والماء العميق.

والآياتُ في السفن: جريانها على وجه الماء؛ وهي موقرة بالأثقال والرجال فلا ترسب[١]، وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة، وتسخير البحر لحمل السفن، مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر، فلا يُنجي منه إلا الله تعالى.

فدلالتها[٢] على الوحدانية يحتاج إلى معرفة طبيعة الماء، وقانون الثقل في الأجسام، وطبيعة الهواء والريح والبخار والكهرباء التي هي العمدة في سير السفن الكبرى في هذا العصر، وكل ذلك يجري على سنن مطردة تدل على أنها صادرة عن قوة بديعة النظام؛ هي قدرة الإله الواحد العليم كما قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾.

النوع الخامس منها: ركوب السفن، والحمل عليها في التجارة. وذكره بقوله: ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: ينفعهم في أسفارهم وتجارتهم؛ فهي تحمل أصناف المتاجر من إقليم إلى إقليم، ومن قطر إلى قطر آخر، فتجعل العالم كله مشتركاً في المطاعم والمشارب والملابس وأصناف الأدوية وغيرها، والآيات في ذلك أن الله تعالى لو لم يقوِّ قلوب من يركب هذه السفن.. لما تم الغرض في تجاراتهم ومنافعهم، وأيضاً فإن الله تعالى خص كل قطر من أقطار العالم بشيءٍ معين فصار ذلك سبباً يدعوهم إلى اقتحام الأخطار في الأسفار من ركوب السفن، وخوض البحر، وغير ذلك.

والنوع السادس منها: نزول المطر من السماء، وذكره بقوله: ﴿و﴾ في ﴿ما أنزل الله من السماء﴾؛ أي: من السحاب ﴿مِن مَّآءٍ﴾؛ أي: من المطر الذي به حياة البلاد والعباد، فـ﴿من﴾ الأولى للابتداء، والثانية للبيان. قيل: أراد بالسماء السحاب، سُمي سماء لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء؛ لأنه خلق الله الماء في السحاب، ومنه ينزل إلى الأرض، وقيل: أراد السماء بعينها؛ لأنه خلق الله الماء في السماء، ومنه ينزل إلى السحاب، ثم منه إلى الأرض، ثم عطف على

---

(١) **لا ترسب**: أي لا تذهب سافلة إلى قاع البحر. اهـ.
(٢) مراغي.

أنزل قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾؛ أي: بذلك الماء ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ وأنبتها، وأظهر نضارتها، وحسنها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويبسها وجدبها سماه: موتاً مجازاً؛ لأنها إذا لم تنبت شيئاً، ولم يصبها المطر.. فهي كالميتة، والمعنى: أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار.

والآيات في ذلك: أنّ الله جعل الماء سبباً لحياة جميع الموجودات من حيوان ونبات، وأنه ينزله عند الحاجة إليه بمقدار المنفعة، وعند الاستسقاء، وينزله بمكان دون مكان.

والسابع منها: انتشار كل دابةٍ في الأرض، وذكره بقوله: ﴿و﴾ في ﴿بث﴾ وفرق ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ أي: من كل حيوان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد كل ما دبّ على وجه الأرض من جميع الخلق من الناس وغيرهم، فقوله: ﴿بث﴾ إما معطوف على ﴿أنزل﴾ فتقدر ﴿ما﴾ الموصولة قبلها، فتكون الآيات حينئذ تسعة أنواع، أو معطوف على ﴿أحيا﴾، فتكون الآيات ثمانية كما أشرنا إليه فيما مر، والآيات في ذلك: أن جنس الإنسان مثلاً يرجع إلى أصل واحد وهو آدم، مع ما فيهم من الاختلاف في الصور، والأشكال، والألوان والألسنة، والطبائع، والأخلاق، والأوصاف إلى غير ذلك، ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان.

والثامن منها: الريح وذكره بقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: وفي تقليب الرياح وتحويلها، وتوجيهها مرة جنوباً ومرة شمالاً، وباردةً وحارةً، ولينةً وعاصفةً.

والآيات فيها: أنها جسم لطيف لا يمسك ولا يرى؛ وهي مع ذلك في غاية القوة بحيث تقلع الشجر والصخر، وتخرب البنيان، وهي مع ذلك حياة الوجود، فلو أمسكها طرفة عين.. لمات كل ذي روح، وأنتن ما على وجه الأرض.

والنوع التاسع منها: السحاب وذكره بقوله: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾؛ أي: وفي الغيم المذلل لقدرة الله تعالى يسير ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بواسطة الرياح حيث شاء الله تعالى، وهو يحمل الماء الغزير، ثم يصبه على الأرض قطرات قطرات.

قال كعب الأحبار[1]: السحاب غربال المطر، ولولا السحاب.. لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض، وتسخيره بعثه من مكان إلى مكان، وقيل: تسخيره ثبوته بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه، والآيات في ذلك: أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأدوية الكبيرة يبقى معلقاً بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه، ولا دعامة تسنده.

﴿لَآيَٰتٖ﴾؛ أي: إن في جميع ما ذكر من خلق السموات والأرض إلى هنا لدلائل وبراهين عظيمة دالة على وحدانية الرب الحكيم، ودالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة. قيل: وإنما جمع آيات؛ لأن في كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع آيات كثيرة تدل على أن لها خالقاً مدبراً مختاراً ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون عقولهم، فيعرفون بأن هذه الأمور من صنع إلٰه قادرٍ حكيم، وفيه تعريضٌ بجهلِ المشركين الذين اقترحوا على النبي ﷺ آية تصدقه، وفي الحديث[2]: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها»؛ أي: لم يتفكر فيها.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله تعالى فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ومن الكفار أهل الكتاب، وعبدة الأوثان ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾؛ أي: يعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من غير الله ﴿أَندَادٗا﴾؛ أي: أصناماً وأحباراً أنداداً؛ أي: أمثالاً وأشباه يشبه بعضها بعضاً في العجز، وعدم النفع والضر، والأحسن[3] حمل ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على الطائفتين: من أهل الكتاب وعبدة الأوثان، فالأنداد باعتبار أهل الكتاب هم رؤساؤهم وأحبارهم اتبعوا ما رتبوه وشرعوه لهم من أمر ونهي، وإن خالف أمر الله ونهيه، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والأنداد باعتبار عبدة الأوثان هي الأصنام اتخذوها آلهةً، وعبدوها من دون الله.

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

(٣) بيضاوي.

وقال المراغي: الأنداد قسمان: قسم: يتخذ شارعاً، يؤخذ رأيه في التحليل والتحريم من غير أن يكون بلاغاً من الله ورسوله، وقسمٌ: يعتمد عليه في دفع المضار، وجلب المنافع من طريق السلطة الغيبية، لا من طريق الأسباب.

﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾؛ أي: يود العابدون المعبودين، ويعظمونهم، ويخضعون لهم ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾؛ أي: يحبونهم حباً كائناً كحب الله؛ أي: كحبهم الله تعالى؛ أي: يسوون[1] بينه تعالى وبين الأصنام في الطاعة والتعظيم، ويتقربون إليهم كما يتقربون إليه تعالى إذ هم لا يرجون من الله شيئاً إلا وقد جعلوا لأندادهم ضرباً من التوسط الغيبي فيه، فهم مشركون بهذا الحب الذي لا يصدر من مؤمنٍ موحدٍ، وللمشركين أندادٌ متعددون وأرباب متفرقون، فإذا حزبه أمر، أو نزل به ضرٌّ.. لجأ إلى بشرٍ، أو حجر، فهو دائماً مبلبل البال، لا يستقر من القلق على حال.

وقيل المعنى[2]: يحبون الأصنام كما يحب المؤمنون ربهم عز وجل، ومن قال بالقول الأول.. فقد أثبت للكفار محبةَ اللّهِ تعالى، لكن جعلوا الأصنام شركاء له في الحب، ومن قال بالثاني.. لم يثبت للكفار محبةَ الله تعالى. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾؛ أي: أكثر وأثبت وأدوم على محبتهم لله تعالى من الكفار لأصنامهم؛ لأنهم لا يختارون مع الله غيره والمشركون قد اتخذوا صنماً، ثم رأوا آخر أحسن منه، طرحوا الأول واختاروا الثاني.

وقيل: إن الكفار يعدلون عن أصنامهم في الشدائد، ويقبلون إلى الله تعالى كما أخبر عنهم. ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ والمؤمنون لا يعدلون عن الله تعالى في السرّاء ولا في الضّراء، ولا في الشدة ولا في الرخاء.

وقيل: إن المؤمنين يوحدون ربهم، والكفار يعبدون أصناماً كثيرة؛ فتنقص المحبة لصنم واحد، قال أبو حيان: والمفضل عليه محذوف؛ وهم المتخذون الأنداد، وهذه الجملة كالاستدراك[3]؛ لما يفيده التشبيه من التساوي؛ أي: لكن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

إن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد؛ لأن المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء، والكفار لا يخصون بذلك بل يشركون الله معهم، ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم؛ ليقربوهم إلى الله تعالى.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ قرأ الجمهور: بالياء التحتانية، و﴿إذ﴾ في قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ بمعنى إذا الدالة على المستقبل، وقرأ الجمهور أيضاً قوله: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ بفتح همزة ﴿أن﴾ في الموضعين، و﴿يَرَى﴾ بصرية، وجواب ﴿لو﴾ محذوف، وجملة ﴿أن﴾ معمولة لجواب ﴿لو﴾ المحذوف؛ والمعنى: ولو رأى وشاهد الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، واتخاذ الأنداد في الدنيا وقت رؤيتهم العذاب يوم القيامة.. لعلموا أن القوة لله جميعاً، وأن الله شديد العذاب، وأن الأنداد عاجزة لا تنفع ولا تضر. وعلى قراءة بعض القراء، غير السبع ـ أي في الشواذة ـ بكسر الهمزة من ﴿أن﴾؛ والمعنى حينئذ: ولو يرى الذين ظلموا بعبادة الأصنام عجزها حال مشاهدتهم عذاب الله.. لقالوا: إن القوة لله جميعاً.

وقرأ نافع وابن عامر في المتواتر: ﴿ترى﴾ بالتاء الفوقية مع فتح الهمزة في ﴿أن﴾ على الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يصلح للخطاب؛ والمعنى: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا حالهم إذ يرون العذاب.. لعلمت أن القوة لله جميعاً، ولو كسرت الهمزة.. كان المعنى: ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب.. لقلت: إن القوة لله جميعاً، وقرأ ابن عامر: ﴿إذ يُرون﴾ بضم الياء.

وقال أبو حيان[1]: قال عطاء: المعنى: ولو يرى الذين ظلموا يوم القيامة إذ يرون العذاب حين تخرج إليهم جهنم من مسيرة خمس مئة عام، تلتقطهم كما يلتقط الحمام الحبة.. لعلموا أن القوة لله والقدرة لله جميعاً.

وقيل المعنى: لو يعلمون في الدنيا ما يعلمونه إذ يرون العذاب.. لأقروا

---

(١) شوكاني.

بأن القوة لله جميعاً؛ أي: لتبرؤا من الأنداد، و﴿يرى﴾ الثانية: من رؤية العين. انتهى.

﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: ولو يرى الذين ظلموا حالهم إذ يتبرأ ويتخلص الرؤساء الذين اتبعوا، وأضلوا أتباعهم لعلموا أن القوة لله جميعاً، وأن الله شديد العذاب. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾؛ أي: من السفلة والأتباع الذين اتبعوهم في الضلال، كما قال تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، ﴿و﴾ قد ﴿رأوا العذاب﴾؛ أي: والحال أن الرؤساء والسلفة كلهم قد رأوا العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾؛ أي: وقد انقطعت عنهم الأسباب والمواصلات التي كانت بينهم في الدنيا من الأرحام والمودة على الكفر، وأنكر المتبوعون إضلال الأتباع، وانقلبت مودتهم عداوة.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱتُّبِعُوا۟﴾ الأول مبنياً للمفعول والثاني مبنياً للفاعل، وقرأ مجاهد في الشواذ: بالعكس، ومعنى تبرأ المتبوعين: قولهم إنا لم نضل هؤلاء، بل كفروا بإرادتهم، وعقاب كفرهم عليهم لا علينا، ومعنى تبرأ التابعين: هو انفصالهم عن متبوعيهم، والندم على عبادتهم وطاعتهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾؛ أي: الأتباع ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾؛ أي: ليت لنا رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: نتخلص من المتبوعين في الدنيا إذا رجعنا إليها، فنتبع سبيل الحق، ونأخذ بالتوحيد الخالص، ونهتدي بكتاب الله وسنة رسوله، ثم نعود إلى موضع الحساب، فنتبرأ من هؤلاء الضالين ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾؛ أي: كما تبرأ المتبوعون منا في هذا اليوم العصيب، ونسعد بعملنا حيث هم أشقياء بأعمالهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما أراهم شدة عذابه ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ السيئة من الشرك وغيره حالة كونها ﴿حَسَرَٰتٍ﴾؛ أي: ندامات شديدة ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على تفريطهم فيها؛ لأنهم أيقنوا بالهلاك والعذاب الشديد عليها، والحسرة[1] الغم على ما فاته، وشدة الندم عليه، كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما

---

(١) البحر المحيط.

ارتكبه. والمعنى: أن الله تعالى يريهم السيئات التي عملوها وارتكبوها في الدنيا، فيتحسرون لِمَ عملوها، وقيل: يريهم ما تركوا من الحسنات، فيندمون على تضييعها، وقيل: يرفع لهم منازلهم في الجنة، فيقال لهم: تلك مساكنكم لو أطعتم الله، ثم تقسم بين المؤمنين، فذلك حين يتحسرون ويندمون على ما فاتهم، ولا ينفعهم الندم ﴿وَمَا هُم﴾؛ أي: وما القادة والسفلة ﴿بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بعد دخولها، بل هم فيها دائمون. أصله[1]: وما يخرجون، فعدل به إلى هذه العبارة؛ للمبالغة في الخلود والإقناط عن الخلاص، والرجوع إلى الدنيا.

الإعراب

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿إلٰهكم﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبر. ﴿وَٰحِدٌ﴾: صفة له، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ﴾: نافية. ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر (لا) محذوف جوازاً، تقديره: موجود، وجملة ﴿لَّآ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر ثان لـ﴿إلهكم﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر لا.

وعبارة «السمين» هنا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن يكون بدلاً من ﴿هُوَ﴾ بدل ظاهر من مضمر، إلا أن هذا يؤدي إلى البدل بالمشتقات وهو قليل، ويمكن الجواب عنه: بأن هاتين الصفتين جريا مجرى الجوامد، ولا سيما عند من يجعل الرحمٰن عَلَماً.

الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو الرحمٰن، وحسّن حذفه توالي اللفظ بـ﴿هُوَ﴾ مرتين.

الثالث: أن يكون خبراً ثالثاً لقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ أخبر عنه بقوله: ﴿إِلَٰهٌ

---

(١) الخازن.

﴿وَٰحِدٌ﴾، وبقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وبقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وذلك عند من يرى تعدد الخبر.

الرابع: أن يكون صفة لـ﴿هُوَ﴾ وذلك عند الكسائي؛ فإنه يجيز وصف ضمير الغائب بصفة المدح، فاشترط في وصف الضمير هذين الشرطين: أن يكون غائباً، وأن تكون الصفة صفة مدح. انتهت.

والأرجح أن يكون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: خبراً ثالثاً لقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ﴾، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ خبراً رابعاً.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على السموات. ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ﴾: معطوف على ﴿خَلۡقِ﴾، وهو مضاف. ﴿ٱلَّيۡلِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّيۡلِ﴾. ﴿وَٱلۡفُلۡكِ﴾: معطوف على ﴿خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿ٱلَّتِي﴾: صفة للفلك. ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الفلك، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَجۡرِي﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَجۡرِي﴾ أيضاً، أو حال من الضمير المستتر في ﴿تَجۡرِي﴾؛ تقديره: حالة كونها مصحوبة بالأعيان التي تنفع الناس. ﴿يَنفَعُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الجر معطوفة على ﴿خلق السموات﴾ ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماضٍ. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنزل﴾، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة

لها، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: وما أنزله الله. ﴿مِن مَّآءٍ﴾: جار ومجرور حال من ضمير المفعول المحذوف.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

﴿فَأَحْيَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿أحيا﴾: فعل ماض. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَأَحْيَا﴾. ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزَلَ﴾ على كونها صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَبَثَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿بث﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بث﴾، والجملة من الفعل والفاعل معطوفة على جملة ﴿أَنزَلَ﴾ على كونها صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير محذوف؛ تقديره: وما بث به، وفي «السمين» ما حاصله: أن بعضهم أجاز حذف العائد المجرور بالحرف وإن لم يجر الموصول بمثله كما هنا، وذكر شواهد على ذلك. انتهى. ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من العائد المحذوف. ﴿وَتَصْرِيفِ﴾: معطوف على ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، وهو مضاف. ﴿ٱلرِّيَـٰحِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلسَّحَابِ﴾: معطوف على ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾. ﴿ٱلْمُسَخَّرِ﴾: صفة للسحاب. ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿المسخر﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿آيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر منصوب بالكسرة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾. ﴿يَعْقِلُونَ﴾: جملة فعلية في محل الجر صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، والرابط ضمير الفاعل.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَمِنَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿من الناس﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿يَتَّخِذُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة الموصول، وأفرد الضمير في ﴿يَتَّخِذُ﴾ حملاً على لفظ ﴿مَن﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يتخذ﴾، و﴿دُونِ﴾ هنا: بمعنى (غير)، وأصلها أن يكون ظرف مكان، وهي نادرة التصرف. ﴿أَندَادًا﴾: مفعول به لـ﴿يَتَّخِذُ﴾، وهو يتعدى لمفعول واحد. ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، وأتى هنا بواو الجمع نظراً لمعنى ﴿مَن﴾، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿أنداد﴾. ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف؛ صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: حباً كائناً كحب الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَشَدُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾. ﴿حُبًّا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب بـ﴿أشد﴾. ﴿لِّلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حبا﴾ و﴿من﴾ الداخلة على المفضل عليه محذوفة؛ تقديره: أشد حباً لله من حب هؤلاء لأندادهم.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿يَرَى ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، و﴿يَرَى﴾ هنا بصرية تتعدى لواحد. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، ولكنها مضمنة معنى ﴿إذا﴾ الدالة على المستقبل. ﴿يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، والظرف متعلق بـ﴿يَرَى﴾، ومفعول ﴿يَرَى﴾ محذوف؛ تقديره: ولو رأى الذين ظلموا في الدنيا حالَهم وقت رؤيتهم العذاب في الآخرة، وجواب

﴿لو﴾ محذوف؛ تقديره: لعلموا أن القوة لله جميعاً، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ٱلْقُوَّةَ﴾: اسمها. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية للجواب المحذوف؛ تقديره: لعلموا كون القوة لله وحده، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من الضمير المستكن في خبر ﴿أن﴾؛ أعني الجار والمجرور. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ولفظ الجلالة: اسمها. ﴿شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾: خبرها ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿أن﴾ الأولى على كونها مفعولاً للجواب المحذوف.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، ولكنها بمعنى ﴿إذا﴾. ﴿تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، و﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، ﴿ٱتُّبِعُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير نائب. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَبَرَّأَ﴾. ﴿ٱتَّبَعُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

﴿وَرَأَوُا۟﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿رأوا العذاب﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من الموصولين؛ تقديره: حالة كون المتبوعين والأتباع رائين العذاب. ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾: الواو: عاطفة، ﴿تقطع﴾: فعل ماضٍ. ﴿بِهِمُ﴾: متعلق به، والباء بمعنى (عن). ﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿رأوا﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾.

﴿وَقَالَ﴾: الواو: استئنافية، ﴿قال الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱتَّبَعُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَوْ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾ وإن شئت قلت ﴿لَوْ﴾: حرف تمن. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لَنَا﴾: جار

ومجرور خبر مقدم لـ﴿أن﴾. ﴿كَرَّةً﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لفعلٍ محذوف دل عليه حرف التمني؛ تقديره: وقال الذين اتبعوا: نتمنى كون كرة لنا. ﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿نتبرأ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب التمني، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ تقديره: نحن ﴿منهم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نتبرأ﴾، والجملة من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سَابِقٍ لإصلاح المعنى؛ تقديره: نتمنى كون كرة لنا، فنتبرأ منهم. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿تَبَرَّءُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَّا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف؛ تقديره: كتبرؤهم منا، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: فنتبرأ منهم تبرؤاً كائناً كتبرئهم منا.

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: يريهم الله أعمالهم إراءةً كائنة كإراءتهم العذاب الشديد. ﴿يُرِيهِمُ﴾: فعل ومفعول أول، وهو من (رأى) البصرية تعدى بالهمزة إلى مفعولين. ﴿اللَّهُ﴾: فاعل. ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿حَسَرَاتٍ﴾: حال من أعمالهم. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حَسَرَاتٍ﴾ ﴿وَمَا هُم﴾: الواو: عاطفة. ﴿ما﴾ حجازية، أو تميمية. ﴿هُم﴾ اسمها، أو مبتدأ. ﴿بِخَارِجِينَ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿خارجين﴾: خبر ما، أو خبر المبتدأ. ﴿مِنَ النَّارِ﴾: متعلق بـ﴿خارجين﴾، وجملة ﴿ما﴾ من اسمها وخبرها، أو جملة المبتدأ والخبر معطوفة على جملة ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ على كونها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ والليل: اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء، فيقال: ليل وليلة كتمر وتمرة، والصحيح: أنه مفرد ولا يحفظ له جمع، ولذلك

خطأ الناس مَنْ زعم أن الليالي جمع ليل، بل الليالي جمع ليلة، وقدم الليل على النهار؛ لأنه سابقه. قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ وهذا أصح القولين، وقيل: النور سابق الظلمة، ونبني على هذا الخلاف فائدة وهي: أن الليلة هل هي تابعة لليوم قبلها، أو لليوم بعدها؟ فعلى القول الصحيح: تكون الليلة لليوم بعدها، فيكون اليوم تابعاً لها، وعلى القول الثاني: تكون لليوم قبلها، فتكون الليلة تابعة له، فيوم عرفة على القول الأول: مستثنى من الأصل، فإنه تابع لليلة بعده، وعلى الثاني: جاء على الأصل: ذكره «السمين».

﴿وَٱلْفُلْكِ﴾ ولفظ الفلك يكون مفرداً كقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فهو حينئذٍ مذكر، ويكون جمعاً؛ أي: جمع تكسير كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ فإن قيل: إن جمع التكسير لابد فيه من تغيرٍ ما، وهنا لا تغير.. فالجواب أن تغيره مقدر، فالضمة في حالة كونه جمعاً كالضمة في حُمر وبُدن، وفي حالة كونه مفرداً كالضمة في قُفل، وهو هنا جمع بدليل قوله: التي تجري في البحر.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ تصريف: مصدر صرّف المضاعف، ويجوز أن يكون مضافاً للفاعل، والمفعول محذوف؛ أي: وتصريف الرياح السحاب، فإنها تسوق السحاب، وأن يكون مضافاً للمفعول، والفاعل محذوف؛ أي: وتصريف الله الرياح، والرياح: جمع ريح جمع تكسير، وياء الريح والرياح منقلبة من واو، والأصل روح ورواح؛ لأنه من راح يروح، وإنما قلبت في ريح؛ لسكونها وانكسار ما قبلها، وفي رياح؛ لأنها عين في جمع بعد كسرة، وبعدها ألف، وهي ساكنة في المفرد، وهو إبدال مطرد، ولذلك لمّا زال موجب قلبها.. رجعت إلى أصلها، فقالوا: أرواح.

﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ يتخذ: يفتعل من الأخذ، وهي متعدية إلى واحد، وهو أنداداً، والأنداد: جمع ند كأرطال جمع رطْل، والنِّد بكسر النون: الشبيه والمثل.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا﴾ وأتى بأشد متوصلاً به إلى أفعل التفضيل من مادة الحب؛ لأن حب مبني للمفعول، والمبني للمفعول لا يُتعجب منه، ولا يبنى منه أفعل التفضيل؛ فلذلك أتى بما يجوز ذلك منه، وأما قولهم: ما أحبه إلي.. فشاذٌ. ذكره الكرخي.

قال الراغب: الحب أصله من المحبة، يقال: أحببته، أصبت حبة قلبه، وأصبته بحبة القلب، وهي في اللفظ فعل، وفي الحقيقة انفعال، وإذا استعمل في الله.. فالمعنى: أصاب حبه قلب عبده، فجعلها مصونةً عن الشيطان والهوى وسائر أعداء الله انتهى. وقال عبد الجبار: حب العبد لله تعظيمه والتمسك بطاعته، وحب الله. العبد إرادة الثناء عليه وإثابته. انتهى.

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وجميع: في الأصل فعيل من الجميع، وكأنه اسم جمع، فلذلك يتبع تارة بالمفرد، قال تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، وتارة بالجمع، قال تعالى: ﴿جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وينتصب حالاً، ويؤكد به بمعنى (كل)، ويدل على الشمول كدلالة (كل) عليه.

﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾: جمع سبب، وأصله الحبل، والمراد به: ما يكون بين الناس من الروابط كالنسب والصداقة.

﴿كَرَّةً﴾ الكرة: الرجعة والعودة، وفعلها كر يكر كراً، وفي المختار الكر: الرجوع، وبابه: رَدّ.

﴿حَسَرَٰتٍ﴾: جمع حسرة، وهي أشد الندم على شيء فائت، وفي المصباح: حسرت على شيء حسراً من باب تعب، والحسرة اسم منه، وهي التلهف والتأسف، وحسَّرته بالتشديد أوقعته في الحسرة. انتهى.

البلاغة

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ورد الخبر خالياً من التأكيد تنزيلاً للمنكر منزلة غير المنكر، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة ما لو

تأملوه.. لوجدوا فيه غاية الإقناع. ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿إِلَٰهٌ﴾ خبر المبتدأ؛ ﴿وَاحِدٌ﴾: صفته، وهو ـ أعني لفظ ﴿وَاحِدٌ﴾ ـ الخبر في الحقيقة؛ لأنه محط الفائدة، ألا ترى أنه لو اقتصر على ما قبله لم يفسد، وهو ذا يشبه الحال الموطئة، نحو: مررت بزيد رجلاً صالحاً، فرجلاً حال، وليست مقصودة، إنما المقصود وصفها.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذه الجملة تقرير للوحدانية؛ لأن الاستثناء هنا إثبات من نفي، فهو بمنزلة البدل، والبدل هو المقصود بالنسبة، وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً، ولكن لا يستحق منهم العبادة، ذكره الكرخي.

﴿لَآيَٰتٍ﴾ التنكير في آيات للتفخيم؛ أي: آيات عظيمة دالة على قدرة قاهرة، وحكمة باهرة.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، والجار والمجرورات به خبرها مقدم، واسمها قوله: ﴿لَآيَٰتٍ﴾ بزيادة لام الابتداء فيه، والتقدير: إن آيات لكائنة في خلق السموات... الخ فيفيد هذا التركيب أن في كل واحد من هذه المجرورات آيات متعددة، وهو كذلك كما بيناه فيما مر.

﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: فيه تشبيه مرسل مجمل حيث ذكرت الأداة، وحذف وجه الشبه.

﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ التصريح بالأشدِّية أبلغ أن يقال: أحب لله، كقوله: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ مع صحة أن يقال: أو أقسى.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر، والظاهر أن يقال: ﴿ولو يرون﴾ لإحضار الصورة في ذهن السامع، وتسجيل لسبب في العذاب الشديد، وهو الظلم الفادح.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا...﴾ إلخ في هذه الجمل من أنواع البديع نوع يسمى الترصيع؛ وهو أن يكون الكلام مسجوعاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ وهو في القرآن كثير، وهو في هذه الآية في موضعين:

أحدهما: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾ وهو محسن الحذف

لضمير الموصول في قوله: ﴿اتبعوا﴾ إذ لو جاء اتبعوهم.. لَفاتَ هذا النوع من البديع.

والموضع الثاني: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ وفي استعمال السبب في المواصلة مجازٌ، فإن السبب في الأصل الحبل الذي يُرتقى به للشجرة، ثم أطلق على ما يتوصل به إلى شيء عيناً كان أو معنى.

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الجملة اسمية وإيرادها بهذه الصيغة؛ لإفادة دوام الخلود.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا...﴾ مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لمّا بين التوحيد، ودلائله، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصمين.. أردف ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن؛ ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام؛ لأنه سبحانه وتعالى عام إحسانه لجميع الأنام دون تمييز بين مؤمن وكافر، وبر وفاجر، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم جل وعلا، والأكل من الطيبات التي أباحها الله تعالى، واجتناب ما حرمه الله من أنواع الخبائث.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ...﴾ مناسبته[٢] لما قبله: أنه

(١) بيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

تعالى لمّا أخبر أنه عدو.. أخذ بذكر ثمرة العداوة وما نشأ عنها؛ وهو أمره ـ عليه لعائن الله ـ لمن اتبعه بالسوء والفحشاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً...﴾ مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لمّا ذكر أن هؤلاء الكفار إذا أُمروا باتباع ما أنزل الله.. أعرضوا عن ذلك، ورجعوا إلى ما ألفوه من اتباع الباطل الذي نشؤوا عليه، ووجدوا عليه أباءهم، ولم يتدبروا ما يقال لهم، وصموا عن سماع الحق، وخرسوا عن النطق به، وعموا عن أبصار النور الساطع النبوي.. ذكر هذا التشبيه العجيب في هذه الآية منبهاً على حالة الكافر في تقليده أباه، ومحقراً نفسه إذ صار هو في رتبة البهيمة، أو في رتبة داعيها على الخلاف المذكور في هذا التشبيه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمّا أباح لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيب، وكانت وجوه الحلال كثيرة.. بين لهم ما حرّم عليهم لكونه أقل، فلما بين ما حرم بقي ما سوى ذلك على التحليل حتى يرد منع آخر، وهذا مثل قوله ﷺ لما سئل عمّا يلبس المُحْرِم؟ فقال: «لا يلبس القميص ولا السراويل» فعدل عن ذكر المباح إلى ذكر المحظور: لكثرة المباح، وقلة المحظور، وهذا من الإيجاز البليغ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ...﴾ مناسبته[2] لما قبله: أنه تعالى لمّا أمر بأكل الحلال في الآية السابقة.. فصل هنا أنواع الحرام، وأسند التحريم إلى الميتة وما نسق بعدها وفي المقام حذف، والظاهر أن المحذوف هو الأكل؛ لأن التحريم لا يتعلق بالعين، ولأن السابق المباح هو الأكل في قوله: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فالممنوع هنا هو الأكل، وكذا غيره من سائر الانتفاعات على الراجح.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذه[1] الآية مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى ذكر في الآية قبلها إباحة الطيبات، ثم فصل أشياء من المحرمات، فناسب أن يذكر جزاء من كتم شيئاً من دين الله، وما أنزله على أنبيائه، فكان ذلك تحذيراً أن يقع المؤمنون فيما وقع فيه أهل الكتاب مِن كتمِ ما أنزل الله عليهم، واشترائهم به ثمناً قليلاً.

أسباب النزول

قوله[2] تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟..﴾ الآية، أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، وحذرهم عذاب الله ونقمته، فقال رافع بن حريطة ومالك بن عون: بل نتبع ـ يا محمد ـ ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيراً منا، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ...﴾ الآية).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ ...﴾ الآية، أخرج[3] ابن جرير عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والتي في آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ نزلتا جميعاً في اليهود، وأخرج الثعلبي من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والفضل، وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلما بعث محمد ﷺ من غيرهم.. خافوا ذهاب مأكلتهم وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة محمد ﷺ، فغيروها، ثم أخرجوها إليهم، وقالوا: هذا نعت النبي الذي يخرج في آخر الزمان لا يشبه نعت هذا النبي، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآية.

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

(٣) المراغي والخازن.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قال ابن عباس[1]: نزلت هذه الآية في قومٍ من ثقيف، وبني عامر بن صعصعة، وخزاعة، وبني مدلج، حرموا على أنفسهم ما حرموا من لحرث والبحائر والسوائب والوصائل والحام، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: كلوا بعض ما في الأرض من أصناف المأكولات التي من جملتها ما حرمتموه افتراءً على الله من الحرث والأنعام، فـ﴿كُلُوا۟﴾ أمرُ إباحةٍ وتسويغ؛ لأنه تعالى هو الموجد للأشياء، فهو المتصرف على ما يريد؛ أي: كلوا أكلاً ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، أو حال كونه حلالاً؛ أي: مباحاً طيباً يستطيبه الشرع، أو الطبيعة السليمة، فالحلال[2]: هو المباح الذي أحله الشرع، وانحلت عنه عقدة الحظر، وأصله من الحل الذي هو نقيض العقد. والطيب ما يُستلذ، والمسلم لا يستطيب إلا الحلال، ويعاف الحرام، وقيل: الطيب هو الطاهر؛ لأن النجس تكرهه النفس وتعافه، وقال الحسن: الحلال الطيب هو ما لا يسئل عنه يوم القيامة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الحلال الذي لا تبعة فيه في الدنيا، ولا وَبَال عليه في الآخرة.

وقد بين الله سبحانه وتعالى[3] ما حرّم من المأكل في الآية الكريمة: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ الآية. فما عدا هذا مباح بشرط أن يكون طيباً، وهو ما لا يتعلق به حق الغير؛ وبيانه أن المحرم قسمان:

الأول: محرم لذاته لا يحل إلا للمضطر.

والثاني: محرم لعارض، وهو ما يؤخذ بغير وجه صحيح كما يأخذه الرؤساء من المرؤوسين بلا مقابل، أو يأخذه المرؤوسون بجاه الرؤساء، وكأخذ الربا والرشوة والغصب والسرقة والغش، فكل هذا خبيث غير طيب.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: لا تسلكوا ولا تقتدوا طرق وساوس الشيطان في تحريم الحرث والأنعام، أو لا تقتدوا به في اتباع الهوى، فتحرموا الحلال وتحللوا الحرام، أو لا تتبعوا سيرته في الإغواء ووسوسته في الأمر بالسوء والفحشاء، والمعنى: احذروا أن تتعدوا ما أحل لكم إلى ما يدعوكم إليه الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ أي: بيِّن العداوة وظاهرها عند ذوي البصيرة؛ إذ هو منشأ الخواطر الرديئة، والمحرض على ارتكاب الجرائم والآثام. قال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

فهذا نهي عن اتباع وحي الباطل والشر؛ لأنه من إغواء الشيطان، فإذا عرض للإنسان داعي البذل لمعاونة البائس الفقير، فهمت نفسه بالعمل، ثم جاش في صدره خاطر الاقتصاد والتوفير.. فليعلم أن هذا من وحي الشيطان، ولا ينخدع لما يسّوله له من إرجاء هذا العطاء، ووضعه في موضع أنفع أو بذله لفقير أحوج.

وقرأ ابن عامر(١)، والكسائي، وقنبل، وحفص، وعباس عن أبي عمرو، والبرجمي عن أبي بكر: ﴿خُطُوَاتِ﴾ بضم الخاء والطاء وبالواو، وقرأ باقي السبعة بضم الخاء، وسكون الطاء، وبالواو، وقرأ أبو السمال شذوذاً: ﴿خُطَوات﴾ بضم الخاء وفتح الطاء وبالواو، ونقل ابن عطية، والسجاوندي أن أبا السمال قرأ شذوذاً: ﴿خَطَوات﴾ - بفتح الخاء والطاء وبالواو - جمع خطوة، وهي المرة من الخطو، وقرأ علي، وقتادة، والأعمش، وسلام شذوذاً ﴿خُطُؤات﴾ بضم الخاء والطاء والهمزة.

وقد أظهر الله عدواته بآية السجود لآدم، وبيَّن هنا كيفية عداوته، وفنون شره وإفساده، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ الشيطان ﴿بِالسُّوءِ﴾؛ أي: القبيح من الذنوب التي لا حد فيها، ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾؛ أي: المعاصي التي فيها حد، وقيل: العطف فيه لاختلاف الوصفين؛ فإنه سوء لاغتمام العاقل به، وفحشاء باستقباحه إياه، وقيل:

---

(١) المراغي.

السوء يعم القبائح، والفحشاء ما يجاوز الحد في القبح من الكبائر ﴿و﴾ يأمركم ﴿أن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾؛ أي: بأن تفتروا على الله ما لا تعلمون أن الله تعالى حرمه، أو حلله كقولكم هذا حلال، وهذا حرام بغير علم ويقين.

والمعنى[١]: ويأمركم أن تقولوا على الله في دينه ما لا تعلمون علم اليقين أنه شرّعه لكم من عقائد، وشعائر دينية، أو تحليل ما الأصل فيه التحريم، أو تحريم ما الأصل فيه الإباحة، ففي كل ذلك اعتداء على حق الربوبية بالتشريع، وهذا أقبح ما يأمر به الشيطان، فإنه الأصل في إفساد العقائد وتحريف الشرائع.

ألا ومن هذا زعم الرؤساء أن لله وسطاء بينه وبين خلقه لا يفعل شيئاً إلا بوساطتهم، فحولوا قلوب عباده عنه وعن سننه في خلقه، وهو يقول: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾.

فالذين يتركون الأسباب الطبيعية التي قضت سنة الله بربط المسببات بها اعتماداً على أشخاص من الموتى أو الأحياء يظنون أنَّ لهم نصيباً من السلطة الغيبية، والتصرف في الأكوان بدون اتخاذ الأسباب قد ضلوا ضلالاً بعيداً، واتبعوا أمر الشيطان، ومثلهم من اتخذ رأي الرؤساء حجةً في الدين من غير أن يكون بياناً، أو تبليغاً لما جاء عن الله، فهؤلاء قد أعرضوا عن سنن الله، وأهملوا نعمة العقل، واتخذوا من دون الله الأنداد: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

ثم بين الله سبحانه وتعالى كمال ضلالهم، وعدد جناياتهم فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: لمن اتبع خطوات الشيطان من المشركين ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ وتمسكوا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على رسوله من الوحي، ولا تتبعوا من دونه أولياء.. جنحوا إلى التقليد و﴿قَالُواْ﴾ لا نتبع ما أنزل الله ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾؛ أي: وجدنا ﴿عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ وكبرائنا، وأسلافنا من عبادة الأصنام، وتحريم الطيبات، ونحو ذلك من العقائد

---

(١) البيضاوي.

الزائفة، والمذاهب الفاسدة ﴿أ﴾ يتبعون ما ألفوا عليه آباءهم في كل حال، وفي كل شيء ﴿ولو كان أباؤهم﴾؛ أي: وإن كان أباؤهم الذين يتبعونهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾؛ أي: لا يعلمون شيئاً من أمر الدين وعقائده وعباداته، ولفظ ﴿شَيْئًا﴾ عام ومعناه خاص، وذلك أنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق والصواب؛ أي: أيتبعونهم ولو تجردوا من دليل عقلي أو نقلي في عقائدهم وعباداتهم، فالهمزة فيه للإنكار والتوبيخ، وتعجيب غيرهم من حالهم؛ أي: لا ينبغي ولا يليق أن يتبعوهم، وهم جهلة لا يعقلون شيئاً، ولا يهتدون.

وقال البيضاوي: وجواب[1] ﴿لو﴾ محذوف؛ أي: لو كان أباؤهم جهلة لا يتفكرون في أمر الدين ولا يهتدون.. لاتبعوهم، وقال أبو السعود: أن ﴿لو﴾ في مثل هذا المقام لا تحتاج إلى جواب؛ لأن القصد منها تعميم الأحوال، وهو دليل على المنع من التقليد في أمر الدين لمن قدر على النظر والاجتهاد، وأما إذا اتبع المرء غيره في الدين ممن علم أنه على الحق كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام، فهذا ليس بتقليد، بل اتباعٌ لما أنزل الله، كما قال تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَثَلُ﴾؛ أي: وصفة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وداعيهم إلى الهدى؛ وهو محمد ﷺ ﴿كَمَثَلِ﴾ كصفة الراعي وبهيمته من الإبل والبقر والغنم مثلاً. ﴿ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ ويصيح ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾؛ أي: كالبهيمة التي لا تفهم معنى ما يقول: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ أي: إلا مجرد سماع صوته بلا فهم معناه، شبه راعي الكفار براعي الغنم في مخاطبته من لا يفهم عنه، وشبه الكفار بالغنم في كونهم لا ينتفعون بما دُعوا إليه إلا مجرد سماع صوت، ففيه الحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني؛ وهو الذي ينعق، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول؛ وهو المنعوق به، وقيل التقدير: ومثل الذين كفروا في عدم فهمهم عن الله ورسوله كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفهم من الأمر والنهي غير الصوت، فيراد بـ﴿ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ الذي

---

(١) البيضاوي.

ينعق به؛ أي: المنعوق به، وعلى هذا التقدير فلا حذف.

والفرق بين الدعاء والنداء[1]: أن الدعاء للقريب، والنداء للبعيد، والفرق بين الكافر والضال: أنّ الكافر يرى الحق، ويعرض عنه، ويصرف نفسه عن دلائله؛ فهو كالبهائم يرضى بأن يقوده غيره، ويصرفه كيف يشاء. والضالّ يخطىء الطريق مع طلبه، أو جهله بمعرفته بنفسه، أو بدلالة غيره.

وحاصل المعنى: أن مثل الكافرين في تقليدهم لآبائهم ورؤساهم، وإخلادهم إلى ما هم عليه من الضلال، وعدم تألمهم فيما يُلقى إليهم من الأدلة مثل البهائم التي ينعق عليها الراعي، ويسوقها إلى المرعى، ويدعوها إلى الماء، ويزجرها عن الحمى، فتستجيب دعوته، وتنزجر بزجره، وهي لا تعقل مما يقول شيئاً ولا تفهم له معنى، وإنما تسمع أصواتاً تقبل لسماع بعضها، وتدبر لسماع بعض آخر بالتعود، ولا تعقل سبباً للإقبال والإدبار.

فهم ﴿صُمٌّۢ﴾ عن سماع الحق سماع قبول وانتفاع به. ﴿بُكۡمٌ﴾ عن النطق به. ﴿عُمۡيٌ﴾ عن رؤيته؛ أي: يتصامون عن الحق، ويتباكمون عنه، ويتعامون عنه. ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: لا يفقهون أمر الله، ودعوة النبي ﷺ، كما لا تعقل الإبل والغنم كلام الراعي، قيل: المراد به العقل الكسبي؛ لأن العقل الطبيعي كان حاصلاً فيهم، ثم بيّن أن ما حرّمه المشركون حلال. فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ أي: كلوا من حلالات ما أعطيناكم من الحرث والأنعام. قيل[2]: إن الأمر في ﴿كُلُواْ﴾ يكون للوجوب كالأكل لحفظ النفس، ودفع الضرر عنها، وقد يكون للندب كالأكل مع الضيف، وقد يكون للإباحة إذا خلا من هذه العوارض.

وهذا الذي[3] ذكره هنا تأكيدٌ للأمر السابق في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) شوكاني.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وإنما خص المؤمنين هنا؛ لكونهم أفضل أنواع الناس وقيل: المراد بالأكل الانتفاع، وقيل: المراد به الأكل المعتاد، وهو الظاهر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ثم ذكر رجلاً يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام فأنى يستجاب له»؟ أخرجه مسلم. أَشْعَثُ: هو البعيد العهد بالدهن، أَغْبَرَ: هو البعيد العهد بالغسل والنظافة، ويستفاد من هذا الحديث أن المراد بالطيبات الحلالات.

﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ الذي رزقكموها على جميع نعمه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: إن صح أنكم تخصونه بالعبادة، وتقرون أنه إلهكم لا غيره، وأنه هو مولى جميع النعم لا غيره.. فإن الشكر رأس العبادات، وقيل: معناه: إن كنتم عارفين بالله وبنعمه.. فاشكروه عليها.

وعن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه[1]: «يقول الله تعالى: إنّي والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري».

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ لمّا[2] أباح الله تعالى لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيب، وكانت وجوه الحلال كثيرة لا تنحصر.. بيّن لهم في هذه الآية ما حرم عليهم؛ لكونه أقل، فلما بيّن ما حرم.. بقي ما سوى ذلك على التحليل حتى يرد منع آخر: وهذا مثل قوله ﷺ لما سئل عما يلبس المُحْرِم فقال: «لا يلبس القميص ولا السراويل». فعدل عن ذكر المباح إلى ذكر المحظور؛ لكثرة المباح، وقلة المحظور، وهذا من الإيجاز البليغ. كما مر أنفاً في محل المناسبة.

---

(١) البيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

و﴿إِنَّمَا﴾ كلمة موضوعة؛ للدلالة على إثبات المذكور، ونفي غيره، فهي بمعنى ﴿ما﴾ النافية، و﴿إلا﴾ المثبته؛ أي: ما حرم عليكم شيئاً من الأشياء إلا الميتة؛ أي: إلا أكل الميتة، والانتفاع بها بأي وجهٍ كان؛ وهي التي زالت حياتها بغير ذكاة شرعية، وأُلحق بها بالسُّنة: ما أُبينَ من حيٍّ. رواه أبو داود والترمذي وحسنه بلفظ: «ما قُطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة» وإنما حرم الميتة لما يتوقع من ضررها؛ لأنها إما أن تكون قد ماتت بمرض سابق، أو بعلمة عارضة، وكلاهما لا يؤمن ضرره، ولأن الطباع تستقذرها، وخص منها السمك والجراد في خبر: «أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال» رواه ابن ماجه والحاكم. ﴿و﴾ إلا ﴿الدم﴾ السفوح كما في سورة الأنعام؛ أي: الجاري، وكانت العرب تجعل الدم في المصارين، ثم تشويه وتأكله، فحرم الله الدم. وخص منه بالقيد المذكور الكبد والطحال، وإنما حُرم الدم؛ لأنه قذر وضارّ كالميتة ﴿و﴾ إلا ﴿لحم الخنزير﴾ وجميع أجزائه، وإنما خص اللحم بالذكر؛ لأنه المقصود بالأكل، وإنما حرم لحم الخنزير؛ لأنه ضار، ولا سيما في البلاد الحارة كما دلت على ذلك التجربة. ﴿و﴾ إلا ﴿ما أهل به لغير الله﴾؛ أي: وما حرم عليكم شيئاً من الأشياء إلا ما رفع به الصوت عند ذبحه لغير الله، من صنم أو غيره مما يعبد من دون الله؛ لأنه من أعمال الوثنيين، فـ﴿ما﴾[1] موصولة و﴿به﴾: نائب فاعل لـ﴿أهل﴾ و﴿الباء﴾ بمعنى (في) مع حذف مضاف، والمعنى: وما صيح في ذبحه لغير الله، والمشركون يرفعون الصوت لآلهتهم عند الذبح، فجرى ذلك مجرى أمرهم وحالهم حتى قيل لكل ذابح مهل وإن لم يجهر بالتسمية، وقال الربيع بن أنس، وابن زيد: المعنى: وذكر عليه غير اسم الله، وعلى هذا فـ﴿غير الله﴾ نائب الفاعل، واللام صلة.

وقد نص الفقهاء[2] على أن كل ما ذكر عليه اسم غير الله، ولو مع اسم الله؛ فهو محرم، ومثل ذلك ما يفعله العامة في القرى؛ إذ يقولون عند الذبح: باسم الله، الله أكبر، يا سيد، يا بدوي، يريدون بذلك أن يتقبل منهم النذر، ويقضي حاجة صاحبه.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

وقال العلماء[1]: لو أن مسلماً ذبح ذبيحة، وقصد بذبحها التقرب إلى غير الله صار مرتداً، وذبيحته ذبيحة مرتد لا يحل أكلها.

وإنما قدّم[2] لفظة ﴿بِهِۦ﴾ هنا على قوله: ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ وأخره عنه في المائدة والأنعام والنحل؛ لأن ﴿الباء﴾ للتعدية كالهمزة والتشديد، فهي كالجزء من الفعل، فكان الموضع الأول أولى بها وبمدخولها، وأخّر في بقية المواضع نظراً للمقصود فيها من ذكر المستنكر؛ وهو الذبح لغير الله. ذكره الكرخي.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿حَرَّمَ﴾ مبنياً للفاعل مسنداً إلى ضمير اسم الله، وما بعده منصوب، و﴿ما﴾ في ﴿إِنَّمَا﴾ مهيئة هيأت ﴿إنّ﴾ لدخولها على الجملة الفعلية، وقرأ ابن أبي عبلة شذوذاً: برفع ﴿الميتة﴾ وما بعدها، فتكون ﴿ما﴾ موصولة اسم إن، والعائد عليها محذوف؛ تقديره: إن الذي حرمه الله الميتة، وما بعدها خبر إن، وقرأ أبو جعفر في الشاذ ﴿حُرِّم﴾ مشدداً مبنياً للمفعول، و﴿ما﴾ تحتمل كونها موصولة، أو مهيئة. وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي في رواية شاذة: ﴿إنما حَرُمَ﴾ بفتح الحاء وضم الراء مخففة جعله لازماً ﴿الميتة﴾ وما بعدها مرفوع، وتحتمل ﴿ما﴾ للوجهين من التهيئة والوصل، و﴿الميتة﴾ فاعل بـ﴿حَرُم﴾ إن كانت ﴿ما﴾ مهّيئة، وخبر إنّ إنْ كانت ﴿ما﴾ موصولة، وقرأ أبو جعفر في المتواتر: ﴿الميّتة﴾ - بتشديد الياء - في جميع القرآن.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾؛ أي: أُلجىء وأُحوج إلى أكل شيء مما ذكر بأن أصابه جوع شديد، ولم يجد حلالاً يسد به الرمق، أو أكره على تناول ذلك، وقرأ[4] أبو جعفر في المتواتر: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ بضم النون للاتباع، وبكسرها على أصل حركة التقاء الساكنين، وقرأ ابن محيص شذوذاً بإدغام الضاد في الطاء، وقرأ أبو السمال بكسر الطاء وهي قراءة شاذة أيضاً، والمراد: مَنْ صيرةُ الجوع والعدم إلى

---

(١) المراح.

(٢) الجمل.

(٣) البحر المحيط.

(٤) شوكاني.

الاضطرار والاحتياج إلى الميتة حالة كونه غير مباح؛ أي: غير طالب للذة ﴿وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: متجاوز سد الجوعة، كما نقل عن الحسن، وقتادة، والربيع، ومجاهد، وابن زيد. وقيل: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على الوالي وخارج عن طاعته. ﴿وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: غير متعد على المسلمين بقطع الطريق، فأكله - ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾؛ أي: فلا حرج ولا ذنب على المضطر المذكور في أكل جميع ما ذكر، لترخيص الله سبحانه وتعالى له في ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن أكل في حال الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ﴾ له حيث أباح له في تناول قدر الحاجة.

فخرج بذلك الباغي والعادي، فمن[1] خرج يقطع الرحم، أو يقطع السبيل، أو يفسد في الأرض، أو مفارقاً للجماعة والأئمة، أو خرج في معصية الله كالناشزة والآبق، فاضطر إلى أكل الميتة ونحوها.. لم تحل له ما لم يتب؛ لأن الرخص لا تفعل مع المعصية.

أما الباغي والعادي[2] المقيمان المضطران إلى أكل ما ذكر: فيحل لهما أكله؛ وذلك لأن الترخيص لا يمتنع في حق المقيم العاصي إلا إذا كان مراقَ الدم، وقادراً على توبة نفسه كالمرتد، وتارك الصلاة بشرطه، أما غيره: فتحل له سائر الرخص التي من جملتها أكل الميتة، هكذا يقتضي كلام الرملي في باب الأطعمة.

قلتُ: والظاهر من إطلاق الآية أن الباغي والعادي لا يحل لهما أكل الميتة ونحوها عند الاضطرار مطلقاً؛ أي: سواء كانا مقيمين أو مسافرين.

وعبارة المراغي هنا[3]: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾؛ أي: فمن ألجىء إلى أكل شيء مما حرم الله عليه بأن لم يجد غيره، وخاف على نفسه الهلاك إن لم يأكل منه، ولم يكن راغباً فيه لذاته، ولم يتجاوز قدر الحاجة.. فلا

---

(١) شوكاني.

(٢) جمل.

(٣) مراغي.

إثم عليه؛ لأن الإلقاء بنفسه إلى التهلكة بالموت جوعاً أشد ضرراً من أكل الميتة أو الدم، بل الضرر في ترك الأكل محقق، وهو في فعله مظنون، كما أن من أكل مما أهل به لغير الله مضطراً لم يقصد إجازةَ عمل الوثنية ولا استحسانه.

وإنما ذكر قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾؛ لئلا يتبع الناس أهواءهم في تفسير الاضطرار إذا وكل إليهم تحديده، فيزعم هذا أنه مضطر وليس بمضطر، ويذهب ذلك بشهواته إلى ما وراء الضرورة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: إن الله يغفر لعباده خطأهم في تقدير الضرورة إذ وكل ذلك إلى اجتهادهم، رحيم بهم إذ رخص لهم في تناولها، ولم يوقعهم في الحرج والعسر، وجعل الضرورة تقدر بقدرها. انتهت.

وظاهر قوله[1]: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ نفى كل فرد فرد من الإثم عنه إذا أكل، لا وجوب الأكل. وقال الطبري: ليس الأكل عند الضرورة رخصة، بل ذلك عزيمة واجبة، ولو امتنع من الأكل كان عاصياً.

وقال مسروق: بلغني أنه من اضطر إلى الميتة، فلم يأكل حتى مات.. دخل النار، كأنه أشار إلى أنه قاتل نفسه بتركه ما أباح الله له.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لما بين سبحانه وتعالى فيما سلف إباحة أكل الطيبات على خلاف ما عليه أهل الملل الأخرى وأوجب عليهم شكر ربهم على نعمه التي أسداها إليهم.. ذكر في هذه الآيات أن بعض الرؤساء الذين حرموا على الناس ما لم يحرمه الله وشرعوا لهم ما لم يشرعه، قد كتموا ما شرعه الله بالتأويل أو بالترك، فاليهود والنصارى ومن حذا حذوهم كتموا أوصاف النبي ﷺ، وأوجبوا التقشف في المآكل والمشارب ونحو ذلك مما لهم فيه منفعة، كما قال في آية أخرى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ﴾ فقال: إن الذين يخفون ما أنزل الله على رسله من الكتاب المشتمل على الأحكام من المحللات والمحرمات، وعلى نعت محمد ﷺ، أو يؤولونه ويحرفونه ويضعونه في غير

---

(١) البحر المحيط.

موضعه برأيهم واجتهادهم ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: ويأخذون بسبب كتمانه من سفلتهم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: عوضاً حقيراً يسيراً من حطام الدنيا كالرشوة على الكتمان المذكور، أو الجعل؛ أي: الأجر على الفتاوى الباطلة، أو نحو ذلك مما يستفيده الرؤساء من المرؤوسين، وسمي قليلاً وإن كان كثيراً في ذاته؛ لأن كل عوض عن الحق.. فهو قليل في جنب ما يفوت آخذه من سعادة الحق الدائمة بدوام المحافظة عليه، و المبطل وإن تمتع بثمن الباطل.. فذاك إلى أمد الحياة القصير كما قال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الكاتمون لكتاب الله المتجرون به ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ﴾ من ثمنه ﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ أي: إلا الحرام الذي يكون سبباً لدخولهم النار يوم القيامة، وقد يكون[1] المعنى: إنه لا تملأ بطونهم إلا النار؛ أي: لا يشبع جشعهم إلا النار التي يصيرون إليها، على نحو ما جاء في الحديث: «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب».

وهذا الحكم عام يصدق على علماء المسلمين الذين يعرضون عن السنن، ويظهرون البدع كما يصدق على غيرهم، فسنة الله مطردة في تأييد أنصار الحق، وخذلان أهل الباطل. ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بكلام لطف ورحمة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: إن الله تعالى يعرض عنهم ويغضب عليهم، وقد جرت عادة الملوك إذا غضبوا.. أعرضوا عن المغضوب عليهم، ولم يكلموهم، كما أنهم حين الرضا يلاطفون من يرضون عنه، ويقابلونه بالبشاشة والبشر.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي: ولا يطهرهم من دنس الذنوب بالمغفرة، والصفح عنهم إذا ماتوا وهم مصرون على كفرهم وكتمانهم ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: ولهؤلاء الكاتمين ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديد الألم والإيجاع، يخلص ألمه إلى قلوبهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الكاتمون الذين جزاؤهم ما تقدم، هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾؛ أي: أخذوها واختاروها لأنفسهم في الدنيا ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: بدل الهدى ﴿وَ﴾

---

(١) المراغي.

اختاروا ﴿العذاب﴾ في الآخرة الذي سببه كتمان الحق؛ للأغراض الدنيوية ﴿بِالْمَغْفِرَةِ﴾؛ أي: بدل المغفرة والجنة التي سببها إظهار ما أنزل الله تعالى، والمعنى: إنهم اختاروا الضلالة على الهدى، واختاروا العذاب على المغفرة؛ لأنهم كانوا عالمين بالحق، ولكن كتموه، وأخفوه، وكان في إظهاره الهدى والمغفرة، وفي كتمانه الضلالة والعذاب، فلما أقدموا على إخفاء الحق وكتمانه.. كانوا بائعين الهدى بالضلالة، والمغفرة بالعذاب.

﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: فما[1] الذي صَبَّرهم، وأيُّ شيءٍ جسرهم وأجرأهم وأدومهم على عمل أهل النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل؟ فهو استفهام بمعنى التوبيخ لهم، وقيل: إنه بمعنى التعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم، فلما أقدموا على ما يوجب النار مع علمهم بذلك.. صاروا كالراضين بالعذاب، والصابرين عليه، فتعجب من حالهم بقوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ والمراد[2] تعجيب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار، فكأنهم بهذه المباشرة للأسباب صبروا على العقوبة في نار جهنم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب المذكور مستحق لهم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: بسبب أن الله سبحانه وتعالى ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: أنزل كتابه ـ التوراة ـ ببيان الحق الذي منه نعت محمد ﷺ، فكتموا وحرفوا ما فيه، وأرادوا ستر الحق وغلبته، والحق لا يغالب، فمن غالبه غُلِب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: اختلفوا في تأويله ومعانيه، فحرفوها وبدلوها، وقيل: آمنوا ببعض وكفروا ببعض. ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ﴾؛ أي: خلاف ومنازعة ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق والصواب مستوجب لهم أشد العذاب.

---

(١) الخازن.

(٢) شوكاني.

أو المعنى[1]: أن الذين اختلفوا في الكتاب الذي نزله الله لجمع الكلمة على اتباع الحق، وإزالة الاختلاف ـ وهو القرآن ـ لفي شقاق بعيد عن سبيل الحق، فلا يهتدون إليه، إذ كل منهم يخالف الآخر بما ابتدعه من رأي ومذهب، وينأى بجانبه عن الآخر، فيكون الشقاق بينهما بعيداً.

وهذا وعيد آخر بعد الوعيد الأول على كتمان الحق، فالمختلفون لا يسلكون سبيلاً واحدة كما يدعو إلى ذلك القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فلا يجوز لأهل الكتاب الإلهي أن يكونوا شِيَعاً ومذاهب شتى كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ فإذا وجد خلاف في الفهم ـ وهو ضروري في طباع البشر ـ وجب التحاكم إلى الكتاب والسنة حتى يزول كما قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وليس هناك عذر للمسلمين في الاختلاف في دينهم حيث جعلوه مذاهب وطرائق شتى؛ لأن الله أوجد لكل مشكل مخرجاً على أنّ ما تختلف فيه الأفهام لا يقتضي الشقاق والنزاع، بل يسهل على جماعة المسلمين من أهل العلم أن ينظروا فيما اختلفوا فيه، وما يرون أنه الراجح يعتمدون عليه إذا تعلق بمصلحة الأمة والأحكام المشتركة بينها.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد زيدت تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لـ﴿أيّ﴾ تابع للفظه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿كُلُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كُلُوا۟﴾، أو بمحذوف حال من ﴿حَلَٰلًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، فأعربت حالاً. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَآ﴾، أو صفة لها. ﴿حَلَٰلًا﴾: مفعول به

---

(١) المراغي.

لـ﴿كُلُوا﴾. ﴿طَيِّبًا﴾: صفة مؤكدة لـ﴿حَلَٰلًا﴾؛ لأن معناهما واحد، وهو قول ابن مالك، أو مخصصة له؛ لأن معناه مغاير لمعنى الحلال، وهو المستلذ؛ وهو قول الشافعي وغيره، ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر، وكل ما هو خبيث.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّبِعُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿كُلُوا﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد، والهاء اسمها، وإنما كَسَرَ[1] همزة ﴿إن﴾؛ لأنه تعالى أراد الإعلام بحاله، وهو أبلغ من الفتح؛ لأنه لو فتح الهمزة.. لكان التقدير: لا تتبعوه؛ لأنه عدو لكم، واتباعه ممنوع وإن لم يكن عدواً لنا، ومثله: لبيك إن الحمد لك والنعمة لك، فكسر الهمزة أجود فيه لدلالة الكسر على استحقاقه الحمد في كل حال، والمراد بالشيطان هنا الجنس، فيشمل جميع شياطين الإنس والجن، وليس المراد به واحداً. قاله أبو البقاء. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عدو﴾. ﴿عَدُوٌّ﴾: خبر إن. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة لـ﴿عدو﴾، وجملة إن في محل الجر بـ﴿لام﴾ التعليل المقدرة.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿يَأْمُرُكُم﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي في قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾. بـ﴿ٱلسُّوٓءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾. ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾: معطوف على ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾. ﴿وَأَن﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، و﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَقُولُوا﴾: فعل وفاعل، ومنصوب بأن. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُولُوا﴾، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ تقديره: إنما يأمركم بالسوء والفحشاء، وبقولكم على الله.

---

(١) البحر المحيط.

﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ﴿تَقُولُواْ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، وعلم هنا بمعنى عرف، يتعدى لمفعول واحد، وهو محذوف؛ تقديره: ما لا تعلمونه، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمنة معنى الشرط. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قِيلَ﴾. ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: مقول محكي في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قِيلَ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، وإن شئت قلت ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة من الفعل والفاعل في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿مَآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: أنزل الله. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب الشرط لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿نَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الكفار، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة محذوفة؛ تقديرها: قالوا لا نتبع ما أنزل الله، بل نتبع ما ألفينا عليه أباءنا. ﴿مَآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿نَتَّبِعُ﴾. ﴿أَلْفَيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان لـ﴿ألفى﴾. ﴿ءَابَآءَنَآ﴾: مفعول أول ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير عليه.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿أَوَلَوْ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي، والواو عاطفة على محذوف؛ تقديره: أيتبعونهم ولو كان أباؤهم، أو حالية كما قاله الزمخشري ﴿لو﴾: غائية لا جواب لها، وقال أبو السعود: إن ﴿لو﴾ في مثل هذا التركيب لا تحتاج إلى جواب؛ لأن القصد منها تعميم الأحوال، فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة، بدلالة ما قبلها عليه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص. ﴿ءَابَآؤُهُمْ﴾: اسم كان ومضاف إليه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿يَهْتَدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وجملة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ مع ما عطف عليها في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها معطوفة على جملة محذوفة؛ على كونها مستأنفة لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب حال من مفعول الجملة المحذوفة؛ تقديره: أيتبعون أباءهم حالة كون أبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ﴾: ﴿الواو﴾ استئنائية، ﴿وَمَثَلُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، ولكنه على حذف مضاف؛ إما من الأول تقديره: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق، أو من الثاني تقديره: ومثل الذين كفروا كمثل مواشي الذي ينعق، كما مرت الإشارة إليه في قسم التفسير. ﴿يَنْعِقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَنْعِقُ﴾ ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿دُعَآءً﴾: مفعول به. ﴿وَنِدَآءً﴾: معطوف عليه. ﴿صُمٌّۢ﴾: خبر مبتدأ محذوف؛ تقديره: هم صمّ. ﴿بُكْمٌ﴾: خبر ثان. ﴿عُمْىٌ﴾: خبر ثالث، والجملة الاسمية في محل الجر باللام

المقدرة المعللة للتشبيه المذكور. ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾ تابع للفظه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿كُلُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كُلُوا۟﴾ وهو مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول؛ لأن رَزَقْنا بمعنى: أعطيْنا، يتعدى لمفعولين، والثاني محذوف تقديره: رزقناكموه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف. ﴿وَٱشْكُرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كُلُوا۟﴾. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اشكروا﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿إِيَّاهُ﴾: مفعول مقدم لـ﴿تَعْبُدُونَ﴾، وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾: في محل النصب خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها؛ تقديره: إن كنتم إياه تعبدون.. فاشكروا له، وجملة الشرط جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة؛ لا عمل لها، وهي أداة حصر. ﴿حَرَّمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حرم﴾. ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾: معطوفان عليه. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب معطوف على ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾. ﴿أُهِلَّ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة:

﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿أهل﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أهل﴾.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

﴿فَمَنِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أن الله حرم عليكم الميتة وما بعدها، وأردتم بيان حكم من اضطر إليها.. فأقول لكم. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿ٱضْطُرَّ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿غَيْرَ﴾: منصوب على الحالية من نائب فاعل ﴿ٱضْطُرَّ﴾ ﴿غيرَ﴾: مضاف. ﴿بَاغٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة. ﴿عَادٍ﴾: معطوف على باغٍ. ﴿فَلَآ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، ﴿لا﴾ نافية تعمل عمل إن. ﴿إِثْمَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة؛ لأن هذه الجملة سيقت لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع اسمها. ﴿يَكْتُمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مَآ﴾: اسم موصول، أو

نكرة موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض. ولفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾: فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير المفعول المحذوف؛ تقديره: أنزله الله. ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المحذوف في ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿وَيَشْتَرُونَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿يشترون﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَكْتُمُونَ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة له. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿النَّارَ﴾: مفعول ﴿يَأْكُلُونَ﴾، وجملة يأكلون في محل الرفع خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُكَلِّمُهُمُ﴾. ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَأْكُلُونَ﴾. ﴿وَلَهُمْ﴾: الواو: عاطفة، ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَأْكُلُونَ﴾ على كونها خبر المبتدأ.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿اشْتَرَوُا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿الضَّلَالَةَ﴾: مفعول به. ﴿بِالْهُدَىٰ﴾: متعلق بـ﴿اشْتَرَوُا﴾. ﴿وَالْعَذَابَ﴾: معطوف على ﴿الضَّلَالَةَ﴾. ﴿بِالْمَغْفِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿اشْتَرَوُا﴾ أيضاً. ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء

الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم صنيعهم القبيح وعقوبتهم القبيحة، وأردتم بيان ما يقال فيهم.. فأقول لكم: ﴿ما اصبرهم على النار﴾: (ما) استفهامية، أو تعجبية في محل الرفع مبتدأ. ﴿أصبر﴾: فعل ماض، أو فعل تعجب، وفاعل ضمير يعود على ﴿ما﴾، والهاء مفعول به ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أصبر﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿أنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾، أو حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، وجملة ﴿نَزَّلَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة أن في تأويل مصدر مجرور بالباء المتعلقة بواجب الحذف؛ لوقوعه خبر المبتدأ، تقديره: ذلك العذاب مستحق لهم بسبب تنزيل الله الكتاب، واختلافهم فيه، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، أو عاطفة، ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب اسم إن ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾. ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿في شقاق﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر إن. ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة لـ﴿شِقَاقٍۭ﴾، والتقدير: لكائنون في شقاق بعيد، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة استئنافاً نحوياً، أو معطوفة على جملة قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ على كونها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿خُطُوَٰتِ﴾: الخُطوات ـ بضم الخاء والطاء ـ: جمع خُطوة بضم الخاء، وأما على قراءة فتحهما: فجمع خَطوة بفتح الخاء، والفرق بين الخُطوة بالضم،

والخَطوة بالفتح: أن المضموم اسم لما بين القدمين، كأنه اسم للمسافة، كالغرفة اسم لما يغترف، والمفتوح مصدر دال على المرة، من خطا يخطو إذا مشى، وقيل: إنهما لغتان بمعنى واحد. ذكره أبو البقاء.

﴿أَلْفَيْنَا﴾: من ألفى يلفي الرباعي، ولامه واو لا ياء؛ لأن الأصل فيما جهل من اللامات أن يكون واواً؛ لأنه أوسع وأكثر، فالرد إليه أولى. ذكره السمين.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ يقال: نَعَق ـ بفتح العين ـ ينعِق ـ بكسرها ـ نعيقاً، ونُعاقاً بالضم، ونَعَقَاناً بفتحتين، والنعيق: نداء الراعي وتصويته بالغنم ليزجرها، ولا يقال: نعق إلا لراعي الغنم وحدها، وأما نعق الغراب: فبالمعجمة، وحكى بعضهم بالمهملة.

﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ﴾ جمع أصم وأبكم وأعمى، كحمر جمع أحمر.

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ الأصل في كلوا: أأكلوا، فالهمزة الأولى همزة وصل، والثانية فاء الكلمة، إلا أنهم حذفوا الفاء، فاستغنوا عن همزة الوصل لتحرك ما بعدها، والحذف هنا شاذ ليس بقياس، ولم يأت إلا في (كل) و(خذ) و(مر)، كما قال ابن مالك في لامية الأفعال:

وَشَذَّ بِٱلْحَذْفِ مُرْ وَخُذْ وَكُلْ وَفَشَا   وَأْمُرْ وَمُسْتَنْدَرٌ تَتْمِيْمُ خُذْ وَكُلَا

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ﴾ يقال: أهل يهل إهلالاً إذا صرخ ورفع صوته، ومنه الهلال؛ لأنه يصرخ عند رؤيته، واستهلّ الصبي إذا صرخ عند خروجه.

﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ والباغي: اسم فاعل من بغى يبغي فهو باغٍ، كقاضي فهو ناقص يائي، وهو من البغي وهو الظلم، والعادي: اسم فاعل من عدا يعدو إذا تجاوز الحد، والأصل: عادو، فقلبت ﴿الواو﴾ ياء لانكسار ما قبلها، كغاز من الغزو، فهو ناقص واوي، وهو من العدوان؛ وهو مجاوزة الحد.

﴿فِى بُطُونِهِمۡ﴾ البطن معروف، وجمعه على فعول قياس، ويجمع أيضاً على بطنان، ويقال: بطن الأمر يبطن إذا خفي، وبطن الرجل، فهو بطين إذا كبر بطنه، والبطنة امتلاء البطن بالطعام، ويقال: البطنة تذهب الفطنة.

﴿خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ استعارة[1] عن الاقتداء به واتباع آثاره؛ وهي أبلغ عبارة عن التحذير من طاعته فيما يأمر به، وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ فيه استعارة تصريحية تبعية، وتقريرها أن يقال: شُبِّه تزيِّنه وبعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم، يأمر من يأمر بشيء، ثم اشتق من الأمر بمعنى التزيين، يأمر بمعنى يزين على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

﴿بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ هو من باب عطف الخاص على العام؛ لأن السوء يتناول جميع المعاصي، والفحشاء أقبح وأفحش المعاصي.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه تشبيه مرسل لذكر الأداة فيه، ومجمل لحذف وجه الشبه فيه، فقد شبه الكفار بالبهائم التي تسمع صوت المنادي من غير أن تفقه كلامه وتفهم مراده.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ فيه تشبيه بليغ حذف فيه أداة التشبيه ووجه الشبه؛ أي: هم كالصم في عدم سماع الحق، وكالبكم والعمي في عدم الانتفاع بالقرآن.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة؛ إذ لو جرى على الأسلوب الأول.. لقال: واشكرونا.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ فيه قصر قلب للرد على من استحل هذه الأربعة، وحرم الحلال غيرها كالسوائب، ومع ذلك هو، أي: ما حرم عليكم إلا هذه الأربعة لا غيرها من البحيرة.

وفي قوله: ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ زيادة تشنيع وتقبيح لحالهم، وتصويرهم بمن يتناول رضف جهنم، وذلك أفظع سماعاً وأشد إيجاعاً.

﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فيه استعارة تصريحية تبعية، وتقريرها أن يقال:

---

(١) عكبري.

شبه استبدال الضلالة عن الهدى باشتراء من اشترى شيئاً بشيءٍ، ثم اشتق من الاشتراء بمعنى الاستبدال، اشتروا بمعنى: استبدلوا على طريقة الاستعارة التصريحية.

﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ فيه مجاز بالحذف؛ أي: على عمل أهل النار.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ...﴾ الآية، وجه[١] مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لمّا أمر في الآيات السابقة بتحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، طال خوض أهل الكتاب في ذلك، وأنكروا على المسلمين التحول إلى الكعبة، ووقع الجدال بينهم وبين المسلمين، حتى بلغ أشده، وادعى كل من اليهود والنصارى أن الهدى مقصور على قبلته، وكانوا يرون أن الصلاة إلى غير قبلتهم لا يقبلها الله تعالى، ولا يكون صاحبها متبعاً دين الأنبياء، كما كان المسلمون يرون أن الصلاة لا يقبلها الله إلا إذا كانت إلى المسجد الحرام قبلة إبراهيم أبي الأنبياء جميعاً.. فلأجل هذا بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنّ تولية الوجوه قبلة مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين؛ لأنه إنما شرع لتذكير المصلي بأنه يناجي ربه ويدعوه وحده، ويعرض عن كل ما سواه، وليكون شعاراً لاجتماع الأمة على مقصد واحد، فيكون في ذلك تعويدهم في سائر

(١) تلخيص البيان.

شؤونهم وأغراضهم، وتوحيد جهودهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ سيأتي لك إن شاء الله تعالى بيان مناسبتها لما قبلها في محل تفسيرها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ...﴾ الآية، قال عبد[1] الرزاق: أنبأنا معمر، عن قتادة قال: كانت اليهود تصلي قِبل المغرب، والنصارى قِبل المشرق، فنزلت: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ...﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن البر؛ فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟﴾، فدعا الرجل، فتلاها عليه، وكان في ابتداء الإسلام قبل نزول الفرائض، إذا شهد الرجل أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وصلى إلى أي ناحية كانت، ثم مات على ذلك يرجى له، ويطمع له في خير، فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، وكانت اليهود توجهت قِبَلَ المغرب، والنصارى قِبَلِ المشرق.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ...﴾ الآية، أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: إن حيَّين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، وكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العُدد والأموال، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحرُّ منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم؛ فنزل فيهم: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ قرأ حمزة وحفص بنصب

(١) المراغي بتصرف وزيادة.

﴿ٱلْبِرَّ﴾ على جعله خبر ﴿لَّيْسَ﴾ مقدماً على الاسم، و﴿أَن تُوَلُّوا۟﴾ في موضع الرفع اسم ﴿لَّيْسَ﴾ مؤخر، والمعنى: ليس توليةُ وجوهكم جهة المشرق والمغرب البرَّ كله، وهذه القراءة أولى من وجه، وهو أنه جعل فيها اسم ليس أن تولوا، وجعل الخبر البر، وأن وصلتها أقوى في التعريف من المعرف بالألف واللام، وقرأ الجمهور برفع البر، والمعنى: ليس البرُ والخير الكامل توليةَ وجوهكم إلى المشرق والمغرب، والوجه أن يلي المرفوع لـ﴿لَّيْسَ﴾؛ لأنها بمنزلة الفعل المتعدي، وقراءة الجمهور أولى من وجه، وهو أن توسط خبر ليس بينها وبين اسمها قليل.

وفي مصحف أُبي وعبد الله ﴿ليس البر بأن تولوا﴾ وخرج على زيادة الباء في خبر ﴿ليس﴾ وقال الأعمش في مصحف عبد الله أيضاً: ﴿لا تحسبن البر﴾ وكلاهما شاذ.

وهذا الخطاب[(١)] لأهل الكتاب؛ لأن النصارى تصلي قبل مشرق بيت المقدس، واليهود قبل مغربه، وادعى كل واحد من الفريقين أن البر هو التوجه إلى قبلته، فرد الله تعالى عليهم، وقال: ليس البر ما أنتم عليه فإنه منسوخ، ولكن البر ما بينه الله، واتبعه المؤمنون، وقيل: الخطاب عام لهم وللمسلمين، أي: ليس البر مقصوراً بأمر القبلة، أو ليس البر العظيم الذي يحسن أن تذهلوا بشأنه عن غيره أمرها. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: والبر اسم جامع لكل الطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله الموجبة للثواب، والمؤدية إلى الجنة، فهو معنى من المعاني، فلا يصح الإخبار عنه بالذوات إلا بتجوز، إما بحذف مضاف من الأول تقديره: ولكن ذا البر وصاحبه من آمن بالله، ويؤيده قراءة من قرأ شذوذاً: ﴿ولكن البار﴾ بالألف بعد الباء الموحدة، أو من الثاني تقديره: ولكن البر الذي ينبغي أن يهتم به بر من آمن بالله، وهذا أوفق وأحسن، ويحتمل[(٢)] كون البر اسم فاعل، يقال: بررت أبر، فأنا برّ وبارّ، فبنى اسم فاعله

---

(١) لباب النقول.

(٢) البيضاوي.

تارة على فعل، نحو كهل وصعب، وتارة على فاعل، والأولى ادعاء حذف الألف من البر، ومثله سرّ وقرّ وربّ، أي: سار وقار وراب.

وقرأ نافع وابن عامر: ﴿ولكن﴾ بسكون النون خفيفة، ورفع ﴿البرُّ﴾، وقرأ الباقون بفتح النون مشددةً، ونصب ﴿ٱلْبِرَّ﴾، ومضمون الآية: أن البر لا يحصل باستقبال المشرق والمغرب، بل بمجموع هذه الأمور المذكورة في هذه الآية.

ومعنى الآية: ليس البر والخير العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة، ولكن البر العظيم الذي يجب الاهتمام به بر من آمن بالله فالمراد بالبر هنا الإيمان بالله، والتقوى من الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

والحاصل: أن البر لا يحصل إلا عند مجموع أمور ثمانية.

أحدها: الإيمان بالله، وذكره بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: صَدَّق بوجوده، وقدمه وبقائه، وربوبيته وألوهيته، وسائر صفاته، وإنما قدم الإيمان بالله؛ لأنه أساس كل بر، فأهل الكتاب أخلُّوا بذلك؛ لأن اليهود تقول: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فالإيمان[1] بالله لا يكون إلا إذا كان متمكناً من النفس مصحوباً بالإذعان والخضوع، واطمئنان القلب بحيث لا تبطره نعمة، ولا تؤيسه نقمة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ والإيمان بالله يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطنة الدينية، ودعوى الوساطة عند الله ودعوى التشريع، والقول على الله بلا إذنه، فلا يرضى مؤمن أن يكون عبداً ذليلاً لأحد من البشر، وإنما يخضع لله وشرعه.

وثانيها: الإيمان باليوم الآخر، وذكره بقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾؛ أي: ولكن البرَّ برُّ مَنْ آمن باليوم الآخر؛ أي: صدق بمجيء يوم البعث والجزاء بعلم الموت

---

(١) البحر المحيط.

مع ما فيه من الحساب والميزان، والجنة والنار، فاليهود أخلوا بهذا الإيمان حيث قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، والنصارى أنكروا المعاد الجسماني.

والإيمان باليوم الآخر يعلم الإنسان أن له حياة أخرى في عالم غيبي غير هذا العالم، فلا يقصر سعيه وعمله على ما يصلح الجسد، ولا يجعل أكبر همه لذات الدنيا وشهواتها فحسب.

وثالثها: الإيمان بالملائكة، وذكره بقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: ولكن البرَّ برُّ من آمن بالملائكة؛ أي: صدق بوجودهم، وأنهم عباد الله لا يعصون ما أمرهم، فاليهود أخلوا بذلك حيث أظهروا عداوة جبريل عليه السلام، فالإيمان بالملائكة أصل للإيمان بالوحي، والنبوة، واليوم الآخر، فمن أنكرهم أنكر كل ذلك؛ لأن ملك الوحي هو الذي يفيض العلم بإذن الله على النبي بأمور الدين، كما قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾. وقال أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

ورابعها: الإيمان بكتب الله، وذكره بقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ولكن البرَّ برُّ من آمن وصدق بكتب الله المنزلة من السماء، فاليهود والنصارى قد أخلوا بذلك حيث لم يقبلوا القرآن، فالإيمان بالكتب السماوية التي جاءت بها الأنبياء يستدعي امتثال ما فيها من أوامر ونواه؛ إذ من أيقن أن هذا الشيء حسن نافع.. توجهت نفسه إلى قبوله والعمل به، ومن اعتقد أنه ضار.. ابتعد عنه ونفرت نفسه منه.

وخامسها: الإيمان بالنبيين، وذكره بقوله: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ أي: ولكن البرَّ برُّ من آمن بالنبيين؛ أي: صدق بنبوتهم وصحة ما جاؤوا به عن الله من الشرائع، فاليهود أخلوا بذلك حيث قتلوا الأنبياء، وطعنوا في نبوة محمد ﷺ.

والإيمان بالنبيين يستدعي الاهتداء بهديهم، والتخلق بأخلاقهم، والتأدب بآدابهم.

وقد جاء في «الصحيحين»: أن جماعة من أمته ﷺ يردون الحوض يوم القيامة، فيذادون عنه؛ أي: يطردون دونه، فيقول: «أمتي»، فيقال: إنك لا تدري

ما أحدثوا بعدك، فيقول: «سحقاً لمن بدل بعدي».

وإنما خص الإيمان[1] بهذه الأمور الخمسة؛ لأنه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها.

وقدم الإيمان[2] بالله واليوم الآخر على الإيمان بالملائكة والكتب والرسل؛ لأن المكلف له مبدأ ووسط ومنتهى، ومعرفة المبدأ والمنتهى هو المقصود بالذات، وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخر، وأما معرفة مصالح الوسط: فلا تتم إلا بالرسالة؛ وهي لا تتم إلا بأمور ثلاثة: الملائكة الآتين بالوحي، والموحى به، وهو الكتاب، والموحى إليه، وهو الرسول.

وقدم الإيمان على أفعال الجوارح، وهو إيتاء المال والصلاة والزكاة؛ لأن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح، ولأن أعمال الجوارح النافعة عند الله تعالى إنما تنشأ عن الإيمان، وبهذه الخمسة التي هي متعلق الإيمان حصلت حقيقة الإيمان.

فإن قلتَ: لِمَ قدم هنا ذكر اليوم الآخر وأخَّره في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؟

قلتُ: إنما قدمه هنا وأخره هناك؛ لأجل أن الكافر لا يعرف الآخرة ولا يعتني بها، وهي أبعد الأشياء عن الحقائق عنده، فلذلك أخره هناك، ولما ذكر هنا حال المؤمنين، والمؤمن أقرب الأشياء إليه أمر الآخرة، وكل ما يفعله ويتحراه فإنه يقصد به وجه الله تعالى، ثم أمر الآخرة قدم ذكره هنا تنبيهاً على أن البر مراعاة الله، ومراعاة الآخرة، ثم مراعاة غيرهما.

وسادسها: بذل الأموال على وفق أمر الله تعالى، واليهود أخلوا بذلك؛

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

لأنهم يلقون الشبهات لطلب المال القليل، وذكره بقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ أي: ولكن البرَّ برُّ من أعطى المال على حبه؛ أي: لأجل حب الله ورضاه، أو أعطى مع حب المال، أو أعطى مع حب الإيتاء، يريد أن يعطيه، وهو طيب النفس بالإيتاء، فالضمير إما راجع إلى الله، أو إلى المال، أو إلى المصدر المفهوم من الفعل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان» متفق عليه؛ أي: أعطى المال في حال صحته ومحبته إياه ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: أصحاب قرابة المعطي؛ المحاويج منهم، وآثرهم به على نفسه، وإنما قيدناهم بالفقراء والمحاويج منهم؛ إذ الإعطاء للأغنياء هدية لا صدقة، كما ذكره الكرخي.

وإنما قدمهم على من بعدهم؛ لأنهم أحق بالإعطاء، وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان صدقة وصلة» أخرجه النسائي.

وعن ميمونة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها أنها أعتقت وليدة ـ أي: جارية ـ ولم تستأذن النبي ﷺ، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت: أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي؟ قال: «أوقد فعلت»؟ قالت: نعم. قال: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك» متفق عليه.

والمراد بذوي القربى كل من بينه وبين المعطي قرابة بولادة، ولو كان غير محرم. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾؛ أي: وأعطى يتامى المسلمين؛ يعني: الصغار الفقراء الذين لا والد لهم ولا كاسب؛ لأنهم في حاجة إلى معونة ذوي اليسار من المسلمين كيلا تسوء حالهم، وتفسد تربيتهم، فيكونوا ضرراً على أنفسهم وعلى الناس. ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾؛ أي: وأعطى المحاويج الذين أقعدهم العجز عن طلب ما يكفيهم،

فيجب على المسلمين أن يساعدوهم، ويقدموا لهم المعونة؛ إذ هم أعضاء من جسم الأمة، ومن مصلحة أفرادها التعاون والتآزر؛ حفظاً لكيانها، وإبقاءً على بنيانها من التداعي إلى الهدم والزوال، وهو جمع مسكين سمي بذلك؛ لأنه دائم السكون إلى الناس؛ لأنه لا شيء له. ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: وأعطى المسافر المنقطع عن أهله؛ أي: المنقطع به السفر دون وطنه؛ لذهاب نفقته أو وقوف دابته سمي المسافر ابن السبيل؛ أي: الطريق، لملازمته إياها في السفر، أو لأن الطريق تبرزه، فكأنها ولدته، وفي أمر الشارع بمواساته وإعانته في سفره ترغيب منه في السياحة والضرب في الأرض. ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾؛ أي: وأعطى الطالبين للإحسان الذين اضطروا إلى تكفف الناس لشدة عوزهم، ولو كانوا أغنياء. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اعطوا السائل ولو جاء على فرس» أخرجه أبو داود.

وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطوا السائل ولو جاء على فرسٍ» أخرجه مالك في «الموطأ»، وعن أم نجيد رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، إن المسكين ليقوم على بابي فلم أجد شيئاً أعطيه إياه. قال: «إن لم تجدي إلا ظلفاً محرقاً فادفعيه إليه في يده» أخرجه أبو داود، والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: معطوف على المفعول الأول، وهو ﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: وأعطى المال ودفعه في فك الرقاب وتحريرها وعتقها، ويشمل ذلك ابتياع الأرقاء وعتقهم، ومساعدة الأسرى على الافتداء، وإعانة المكاتبين على أداء نجومهم. والمكاتَب: هو الرقيق الذي يشتري نفسه من مولاه بثمنٍ يجعله منجماً بنجمين فأكثر.

والبذل لهذه الأصناف لا يتقيد بزمن معين، ولا بملك نصاب محدود من المال، ولا بتقدير المال المبذول بمقدار معين كالزكاة الواجبة، بل هو موكول إلى طاقة المعطي وحال المعطى، وقد أغفل الناس أداء هذه الحقوق التي حثَّ عليها الكتاب الكريم، مع ما فيها من التكافل العام بين المسلمين، ولو أدوها. .

لكانوا في معايشهم من خير الأمم، ولدخل كثير من الناس في الإسلام؛ لما يرون فيه من جميل العناية بالفقراء، وأن لهم حقوقاً في أموال الأغنياء، فتتوثق الصلة بين الطوائف المختلفة من المسلمين.

وسابعها: إقامة الصلاة وأداء الزكاة، فاليهود كانوا يمنعون الناس منهما، وذكره بقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة؛ أي: أداها في أوقاتها المحدودة لها. ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: وأعطى الزكاة المفروضة في مصارفها المبينة شرعاً، وقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾ على كونها صلة لـ﴿مَنْ﴾؛ أي: ولكن البرَّ برُّ من آمن بالله، وبر من أقام الصلاة وآتى الزكاة.

والمرادُ بإقامة الصلاة: أداؤها على أقوم وجه، ولا يستحق ذلك بأداء أفعال الصلاة وأقوالها فحسب، بل إنما يكون ذلك بوجود سرِّ الصلاة وروحها، ومن آثاره تحلي المصلي بالأخلاق الفاضلة، وتباعده من الرذائل، فلا يفعل فاحشةً ولا منكراً.

وقلما تجيء[1] الصلاة في القرآن الكريم إلا وهي مقترنة بالزكاة، وذلك لأن الصلاة تهذب الروح، والمال قرين الروح، فبذله ركن عظيم من أعمال البر، ومن ثم أجمع الصحابة على محاربة مانعي الزكاة من العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ لأن مانعها يهدم ركناً من أركان الإسلام، وينقض أساس الإيمان، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه سبعين مرة.

وثامنها: الوفاء بالعهد، واليهود نقضوا العهد، وذكره بقوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ معطوف على ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ على كونه خبر ﴿لَٰكِنَّ﴾؛ أي: ولكن البرَّ المؤمنون بالله، واليوم الآخر، والموفون بعهدهم؛ أي: ولكن البرَّ برُّ المؤمنين بالله، وبر الموفين بعهدهم؛ أي: المتمِّين بعهدهم فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين الناس. ﴿إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ الله أو الناس، يعني: إذا وعدوا أنجزوا، وإذا نذروا أوفوا، وإذا حلفوا برّوا في أيمانهم، وإذا قالوا صدقوا في أقوالهم، وإذا ائتمنوا أدوا.

---

(١) البحر المحيط.

وفي الوفاء بالعهود[1] والعقود حفظ كيان المجتمع من أن ينحل عقده، كما أن الغدر والإخلاف فيها هادم للنظام مفسد للعمران، فما من أمة فقدت الوفاء بالعهد - وهو ركن الأمانة، وقوام الصداق - إلا حل بها العقاب الإلهي، فانتزعت الثقة من بين أفرادها حتى بين الأهل والعيال، فيعيشون متخاذلين، وكأنهم وحوش مفترسة ينتظر كل واحد وثبة الآخر عليه إذا أمكن يده أن تصل إليه، ومن ثم يضطر أفرادها إلى الاستيثاق في عقودهم بكلٍّ ما يقدرون عليه، ويحترس كل منهم من غدر الآخر، فلا يكون هناك تعاون ولا تناصر، بل تباغض وتحاسد، ولا سيما بين الأقارب، ولو شمل الناس الوفاء.. لسلموا من هذا البلاء.

وفي مصحف عبد الله[2]: ﴿والموفين﴾ نصباً على المدح وهي قراءة شاذ شذوذاً، وقرأ الجحدري ﴿بعهودهم﴾ على الجمع، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: مفعول لفعل محذوف؛ تقديره: وأمدح الصابرين. ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾؛ أي: عند الشدة والفقر والفاقة. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ أي: وعند الضر من مرض، وفقد أهل وولد ومال. ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾؛ أي: وفي وقت شدة القتال في سبيل الله، وكثرة الضرب والطعان، ومنازلة الأقران.

وإنما خص هذه المواطن الثلاثة مع أن الصبر محمود في جميع الأحوال؛ لأن من صبر فيها.. كان في غيرها أصبر، وهذا من باب الترقي في الصبر من الشديد إلى أشد، فذكر أولاً الصبر على الفقر، ثم الصبر على المرض؛ وهو أشد من الفقر، ثم الصبر على القتال، وهو أشد من الفقر والمرض.

وقرأ الحسن، والأعمش، ويعقوب شذوذاً: ﴿والصابرون﴾ عطفاً على ﴿الموفون﴾، وعن البراء رضي الله عنه قال: كنا والله إذا احمر البأس.. نتَّقي به، وإن الشجاع منّا الذي يُحاذي به؛ يعني: النبي ﷺ. متفق عليه، قوله: احمر البأس؛ أي: اشتد الحرب، ونتقي به؛ أي: نجعله وقاية لنا من العدو. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

الموصوفون بهذه الصفات السابقة من الاتصاف بالإيمان وما بعده. ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في دعواهم الإيمان، دون الذين قالوا: آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر؛ أي: وأولئك هم الذين جعلوا بينهم وبين سخط الله وقايةً بالبعد عن المعاصي التي توجب خذلان الله في الدنيا، وعذابه في الآخرة.

وقال بعض العلماء: مَنْ عمل بهذه الآية.. فقد كمل إيمانه، ونال أقصى مراتب إيقانه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها: أنه لما حلل ما حلل من قبل، وحرم ما حرم، ثم أتبع بذكر من أخذ مالاً من غير وجهه، وأنه ما يأكل في بطنه إلا النار، واقتضى ذلك انتظام جميع المحرمات من الأموال، ثم أعقب ذلك بذكر من اتصف بالبر، وأثنى عليهم بالصفات الحميدة التي انطووا عليها.. أخذ يذكر تحريم الدماء، ويستدعي بحفظها وصونها، فنبه بمشروعية القصاص على تحريمها، ونبه على جواز أخذ مالٍ بسببها، وأنه ليس من المال الذي يؤخذ من غير وجهه، وكان تقديم تبيين ما أحل الله وما حرم من المأكول على تبيين مشروعية القصاص؛ لعموم البلوى بالمأكول؛ لأن به قوام البنية، وحفظ صورة الإنسان، ثم ذكر حكم متلف تلك الصورة؛ لأن من كان يندر منه وقوع القتل.. فهو بالنسبة لمن اتصف بالأوصاف السابقة بعيد منه وقوع ذلك، وكان تقديم ذكر ما تعم به البلوى أهم، ونبه أيضاً على أنه وإن عرض مثل هذا الأمر الفظيع لمن اتصف بالبر، فليس ذلك مخرجاً له عن البر، ولا عن الإيمان، ولذلك ناداهم بوصف الإيمان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾؛ أي: يا أيها الذين آمنوا، وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ كتب عليكم القصاص في اللوح المحفوظ، وفرض عليكم في سابق علمي استيفاء القصاص من القاتل: ﴿فِي الْقَتْلَى﴾؛ أي: بسبب قتل، القتلى: جمع قتيل بمعنى: مقتول بغير

---

(١) البحر المحيط.

حق، ويكون الخطاب موجهاً إلى الإمام، أو من ينوب منابه؛ أي: كتب عليكم أيها الأئمة استيفاء القصاص من القاتل إذا أراد ولي الدم استيفائه، أو يكون[١] الخطاب موجهاً إلى القاتل، والتقدير: يا أيها القاتلون كتب عليكم تسليم النفس عند مطالبة الولي بالقصاص، وذلك أنه يجب على القاتل إذا أراد الولي قتله أن يستسلم لأمر الله، وينقاد لقصاصه المشروع، وليس له أن يمتنع، بخلاف الزاني والسارق؛ فإن لهما الهرب من الحد، ولهما أن يستترا بستر الله، ولهما أن لا يعترفا، والقصاص: المساواة والمماثلة في القتل والدية والجراح، من قص الأثر إذا اتبعه، فالمفعول به يتبع ما فعل به، فيفعل به مثل ذلك، والمعنى: فرض عليكم المساواة والعدل في القصاص بسبب القتل عند مطالبة الولي بالقصاص، لا كما يفعله الأقوياء مع الضعفاء من المغالاة في قتل الكثير بالقليل، ثم فسر المساواة بقوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾؛ أي: يؤخذ الحر ويقتل بقتل الحر بلا إبطاء ولا جور، فإذا قتل حرٌّ حراً.. قتل هو به لا غيره من سادة القبيلة، ولا عدد كثير منها، ولا يقتل الحر بالعبد. ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾؛ أي: يؤخذ العبد ويقتل بالعبد، وبالحر من باب أولى، وبينت الأحاديث: أنه يقتل أحد النوعين الذكر والأنثى بالآخر، ويعتبر أن لا يفضل القاتل القتيل بالدين، والأصلية، والحرية.

ومعنى الآية[٢]: أنه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين، أو العبيد من المسلمين، أو الأحرار من المعاهدين، أو العبيد منهم: فيُقتل كل صنف إذا قَتَل بمثله؛ الذكر بالذكر وبالأنثى، والأنثى بالأنثى وبالذكر، ولا يقتل مؤمن بكافر، ولا حر بعبد، ولا والد بولد، ويقتل الذمي بالمسلم، والعبد بالحر، والولد بالوالد، هذا مذهب مالك، والشافعي، وأحمد، ويدل عليه ما روى البخاري في «صحيحه» عن جحيفة قال: سألت علياً رضي الله عنه: هل عندكم من النبي ﷺ شيء سوى القرآن؟ قال: لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفك

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

الأسير، وأن لا يقتل مؤمن بكافر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقام الحدود في المساجد، ولا يقتل الوالد بالولد» أخرجه الترمذي.

والخلاصة[1]: أن القصاص على القاتل أياً كان، لا على أحد من قبيلته، ولا على فرد من أفراد عشيرته.

قال البيضاوي في «تفسيره»: كان بين حيّين من العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما طول ـ أي فضل وشرف ـ على الآخر، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد منا، والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ؛ فنزلت الآية، وأمرهم أن يتباروا؛ أي: يتساووا.

وقد جرى العمل من لدن رسول الله ﷺ على قتل الرجل بالمرأة، وبعد أن ذكر وجوب القصاص؛ وهو أساس العدل.. ذكر هنا العفو؛ وهو مقتضى التراحم والفضل، فقال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ﴾؛ أي: فالقاتل الذي ترك له ﴿مِنْ﴾ دم ﴿أَخِيهِ﴾ المقتول ﴿شَيْءٌ﴾ من العفو، ولو يسيراً، كأن عفى بعض أولياء الدم ـ ولو واحد. فيما إذا تعددوا.. سقط عنه القود ووجبت الدية إن حصل العفو عليها ﴿فـ﴾ حينئذٍ وجب على العافي الذي هو ولي الدم ﴿اتباع﴾ القاتل ومطالبته ﴿بـ﴾ الدية على الوجه ﴿المعروف﴾ شرعاً؛ وهو أن يطالبه بالمال من غير تشديد عليه ولا عنف، ولا يطالبه بأكثر من حقه، ويأخذه منه في ثلاث سنين إن كانت دية تامة، أو في سنتين إن كان ثلثي الدية أو نصفاً، وإن كان ثلثها ففي عامه، ﴿و﴾ على القاتل المطلوب بالمال ﴿أداء﴾؛ أي: تأدية المال ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الولي العافي ﴿بِإِحْسَٰنٍۗ﴾؛ أي: بسهولة من غير مماطلة ولا تسويف ولا بخس، بل بطيب نفس، وطلاقة وجه، وقول جميل. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم الذي شرعناه لكم من جواز العفو على الدية ﴿تَخْفِيفٌ﴾؛ أي: تسهيل ورخصة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ﴾ منه للقاتل بسلامته من القتل؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى شرع لهذه الأمة المحمدية

---

(١) المراغي.

العفو من غير عوض أو بعوض، ولم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود؛ فإنه أوجب عليهم القصاص ولا عفو، وكما ضيق على النصارى؛ فإنه أوجب عليهم العفو ولا دية، وهذه الأمة خيِّرت بين القصاص وبين العفو والدية تخفيفاً من الله؛ إذ فيه انتفاع الولي بالدية، وحصول الأجر بالعفو، واستبقاء مهجة القاتل، وبذل ما سوى النفس هيِّنٌ في استبقائها، وأضاف هذا التخفيف إلى الرب؛ لأنه المصلح لأحوال عباده الناظر لهم في تحصيل ما فيه سعادتهم الدينية والدنيوية، وعطف ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ على ﴿تَخْفِيفٌ﴾؛ لأن من استبقى مهجتك بعد استحقاق إتلافها.. فقد رحمك، وأي رحمة أعظم من استبقاء المهجة.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ على القاتل من أولياء الدم، وظلمه باقتصاصه منه ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد عفوه، وأخذه الدية ﴿فَلَهُۥ﴾؛ أي: فلذلك المعتدي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديد الألم في الآخرة بالنار، أو في الدنيا بأن يقتل لا محالة، ولا يقبل منه الدية، كما روي[1] عنه ﷺ أنه قال: «لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية».

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى حكمة العفو والرغبة فيه، وذكر الوعيد على الغدر.. أرشد إلى بيان الحكمة في القصاص؛ لأن ذلك أدعى إلى ثبات الحكم في النفس، وأدعى إلى الرغبة في العمل به، فقال: ﴿وَلَكُمْ فِى﴾ مشروعية ﴿ٱلْقِصَاصِ﴾ والقتل بقاءٌ و﴿حَيَوٰةٌ﴾ هنيئة لكم وصيانة لأنفسكم من اعتداء بعضكم على بعض؛ لأن من علم أنه إذا قتل نفساً يُقتل بها.. يرتدع عن القتل، فيحفظ حياة من أراد قتله وحياة نفسه، والاكتفاء بالدية لا يردع كل أحد عن سفك دم خصمه إن استطاع؛ إذ من الناس من يبذل المال الكثير للإيقاع بعدوه، وعبارة «الخازن»: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ هذا الحكم غير مختص بالقصاص الذي هو القتل، بل يدخل فيه جميع الجروح، والشجاج، وغير ذلك؛ لأن الجارح إذا علم أنه إذا جَرَحَ جُرِح.. لم يَجْرح، فيصير ذلك سبباً لبقاء الجارح، وربما أفضت الجراحة إلى الموت؛ فيقتص من الجارح. انتهى.

---

(١) البيضاوي.

﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: يا أصحاب العقول الكاملة الذين يعرفون المصالح من المفاسد، وخص أرباب العقول بالنداء، للدلالة على أن الذي يفهم قيمة الحياة، ويحافظ عليها هم العقلاء، كما أنهم هم الذين يفقهون سر هذا الحكم وما اشتمل عليه من المصلحة والحكمة، فعليكم أن تستعملوا عقولكم في فهم دقائق الأحكام.

ولما كان القصاص حياةً لكم.. كتبناه عليكم، وشرعناه لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي تتقون الاعتداء، وتكفون عن سفك الدماء، وتنتهون عن القتل مخافةَ القصاص؛ لأن العاقل يحرص على الحياة، ويحترس من غوائل القصاص، ولا يريد إتلاف نفسه بإتلاف غيره.

ولما كان الكلام في الآية السابقة في القصاص في القتل؛ وهو ضَرْبٌ من ضروب الموت.. ناسب أن يذكر ما يطلب ممن يحضره الموت من الوصية، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فرض عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: إذا حضرته ونزلت به أسباب الموت، وعلله، ومقدماته، والأمراض المخوفة ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾؛ أي: مالاً كثيراً كان، أو قليلاً ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ مرفوع بـ﴿كُتِبَ﴾؛ أي: كتب عليكم الإيصاء ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾؛ أي: للأبوين وإن عليا ﴿و﴾ لو ﴿الأقربين﴾ غيرهما، وهو من عطف العام على الخاص.

كانت الوصية في ابتداء الإسلام فريضة للوالدين والأقربين على من مات وله مال، وسبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يوصون للأبعدين طلباً للفخر والشرف والرياء، ويتركون الأقربين فقراء، فأوجب الله تعالى الوصية للأقربين، ثم نسخت هذه الآية بآية المواريث، وبما روي عن عمرو بن خارجة رضي الله عنه قال: كنت أخذ بزمام ناقة النبي ﷺ وهو يخطب فسمعته يقول: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث» أخرجه النسائي، وللترمذي نحوه.

وهي مستحبة في حق من لا يرث، ويدل على استحباب الوصية، والحث عليها ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما حُقّ لامرىء مسلم له شيء يوصي فيه ـ وفي رواية: له شيء يريد أن يوصي به ـ أن

يبيت ليلتين - وفي رواية: ثلاثة ليال - إلا ووصيته مكتوبة عنده». قال نافع: سمعت عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يقول: ما مرت عليَّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا ووصيتي مكتوبة عندي. أخرجه الجماعة.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بالعدل الذي لا وكس فيه ولا شطط، فلا يزيد على الثلث، ولا يوصي للغني ويدع الفقير. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: يا رسول الله إن بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا»، قلت: فالشطر يا رسول الله؟ قال: «لا»، قلت: فالثلث؟ قال: الثلث والثلث كثير - أو قال والثلث كبير - إنك أن تذر ذريتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» متفق عليه. والعالة: الفقراء.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال في الوصية: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع فإن النبي ﷺ قال لسعد: والثلث كثير. متفق عليه.

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: لأن أوصي بالخمس أحب إلي من أو أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث، فمن أوصى بالثلث. . فلم يترك. وقيل: يوصي بالسدس أو بالخمس أو بالربع.

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: حق ذلك الإيصاء حقاً على المؤمنين الذين يتقون الشرك، ويمتثلون أوامري، وثبت ذلك عليهم ثبوت ندب لا ثبوت فرض ووجوب، أو ثبوت وجوب، لكنه منسوخ.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾؛ أي: فمن غيّر ذلك الإيصاء من الأولياء، أو الأوصياء، أو الشهود؛ إما بإنكار الوصية من أصلها، أو بالنقص فيها، أو بتبديل صفتها، أو بكتمان الشهادة، وإنما ذكر الضمير في ﴿بَدَّلَهُۥ﴾ مع أن الوصية مؤنث؛ لأن الوصية بمعنى الإيصاء كقوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾؛ أي: وعظ؛ أي: فمن بدل قول الميت الموصي، أو ما أوصى به ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾؛ أي: بعدما سمع ذلك

الإيصاء من الموصي، وعلمه، وحققه ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ﴾؛ أي: إثم ذلك التبديل وذنبه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾؛ أي: على من بدله وغيَّره أياً كان لا يعود إلا على المبدل. والموصي والموصى له بريئان منه؛ يعني برئت منه ذمة الموصي، وثبت له الأجر عند ربه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سميع﴾ لأقوال المبدلين والموصين ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم فيجازي كلاً على وفق عمله، فيثيب الميت، ويعاقب المبدِّل، ولا يخفى ما في هذه الجملة من الوعيد الشديد للمبدلين، والوعد الحسن للموصين.

ثم استثنى من إثم التبديل حالة ما إذا كان للإصلاح، وإزالة التنازع، فقال: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ﴾ قرأه شعبة وحمزة والكسائي ﴿مُوَصٍّ﴾ بفتح ﴿الواو﴾ وتشديد الصاد من وصَّى المضعَّف، وقرأ الباقون: ﴿مُّوصٖ﴾ من أوصى، وهما لغتان؛ أي: فمن علم من ميت موص ﴿جَنَفًا﴾؛ أي: خطأ في الوصية من غير عمد، وميلٍ عن الحق فيها جهلاً كأن يوصي لبعض ورثته، أو يوصي بماله كله خطأ، وقرأ الجمهور ﴿جَنَفًا﴾ بالجيم والنون، وقرأ علي مشذوذاً ﴿حيفا﴾ بالحاء والياء ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾؛ أي: ميلاً عن الحق في الوصية عمداً وعلِماً ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بعد موت الموصي معطوف على محذوف؛ تقديره: أي فتنازعت الورثة والموصى لهم في المال الموصى به، فتوسط بينهم من علم ذلك، وأصلح بينهم؛ أي: فعل ما فيه الصلاح بينهم بتبديل هذا الجنف أو الأثم برده الوصية إلى الثلث مثلاً. ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾؛ أي: فلا حرج ولا ذنب على هذا المصلح الذي أزال الجنف أو الأثم في هذا التبديل؛ لأنه تبديل باطل بحق، وإزالة مفسدة بمصلحة، فهو ليس بمبدل آثم، بل هو متوسط للإصلاح، وليس عليه إثم بخلاف الأول، وقلما يكون الإصلاح إلا بترك بعض الخصوم شيئاً مما يرونه حقاً لهم، والظاهر[(١)] أن هذا المصلح هو الوصي والشاهد، ومن يتولى بعد موته ذلك من وال، أو ولي، أو من يأمر بالمعروف، فكل هؤلاء يدخل تحت قوله: ﴿فَمَنۡ خَافَ﴾ إذا ظهرت لهم أمارات الجنف أو الأثم، ولا وجه لتخصيص الخائف بالوصي، ودلت[(٢)]

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفخر الرازي.

الآية على جواز الصلح بين المتنازعين إذا خاف من يريد الصلح إفضاء تلك المنازعة إلى أمر محذور في الشرع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للميت إن أخطأ أو جار، أو للوصي إن بدل للإصلاح ﴿رَّحِيمٌ﴾ للوصي حيث رخص له الرد إلى الثلث، والعدل والإصلاح؛ أي: فمن خالف وبدل للإصلاح.. فإن الله يغفر له، ويثيبه على عمله.

ومعنى الآية[1]: أن الميت إذا أخطأ في وصيته، أو جار فيها متعمداً.. فلا إثم على من علم ذلك أن يغيره، ويرده إلى الصلاح بعد موته، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والربيع.

وقيل هذا[2]: في حال حياة الموصي، فالمعنى حينئذ: فمن حضر وصيته فرآه على خلاف الشرع، فنهاه عن ذلك، وحمله على الصلاح.. فلا إثم على هذا الموصي بما قال أولاً.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل والمرأة ليعملان بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت، فيضاران في الوصية، فتجب لهما النار»، ثم قرأ أبو هريرة: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾: إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: أخرجه أبو داود والترمذي، قوله: فيضاران[3] المضارة: إيصال الضرر إلى شخص، ومعنى المضارة: الوصية أن لا تمضي، أو ينقص بعضها، أو يوصي لغير أهلها، أو يحيف في الوصية، ونحو ذلك.

الإعراب

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿ٱلْبِرَّ﴾: بالنصب خبر ﴿لَّيْسَ﴾ مقدم على

---

(١) مراح.
(٢) نسفي.
(٣) الخازن.

اسمها. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تُوَلُّوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿وُجُوهَكُمْ﴾. مفعول به ومضاف إليه. ﴿قِبَلَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية. ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿لَّيْسَ﴾ مؤخراً عن خبرها؛ تقديره: ليس تولية وجوهكم قبل المشرق والمغرب البر كله، وجملة ﴿لَّيْسَ﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿ٱلْبِرَّ﴾: اسمها. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، ولكنه على حذف مضاف كما سبق في محل التفسير. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد ضمير الفاعل وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿لَّيْسَ﴾ على كونها مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على الجلالة ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ معطوفات على ﴿اليوم﴾.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿آتى المال﴾: فعل ومفعول أول، أو ثان مقدم على الأول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَ﴾ على كونها صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿آتى﴾، أو بمحذوف حال من فاعل ﴿آتى﴾. ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: مفعول ثانٍ، أو أول، ومضاف إليه. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، وكذا ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: معطوفات على ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾: جار ومجرور في محل النصب معطوف على ﴿ذَوِى﴾؛ أي[1]: وآتى المال في الرقاب؛ أي: دفعه

(١) الفتوحات الإلهية.

في فكها من الرق، أو الأسر؛ أي: لأجله وسببه، فضمن آتى بالنسبة لهذا المعطوف معنى دفع، فيكون متعدياً لواحد، كما عرفت في محل التفسير.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

﴿وَأَقَامَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿أقام﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَ﴾ على كونها صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة معطوفة أيضاً على جملة ﴿ءَامَنَ﴾.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾.

﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿الموفون﴾: معطوف على ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ على كونه خبر ﴿لكن﴾؛ أي: ولكن البر المؤمنون بما ذكر. ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ تقديره: وهم الموفون ﴿بِعَهْدِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿الموفون﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية. ﴿عَٰهَدُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾، والظرف متعلق بـ﴿الموفون﴾ والتقدير: والموفون بعهدهم وقت معاهدتهم مع الله، أو مع الناس.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: الواو: استئنافية، ﴿الصابرين﴾: منصوب على المدح بفعل محذوف؛ تقديره: وأمدح الصابرين، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿الصابرين﴾. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾. ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾. ظرف ومضاف إليه، والظرف معطوف على الجار والمجرور قبله على كونه متعلقاً بـ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿صَدَقُوا۟ ۖ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الواو: عاطفة، ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير

فصل. ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائدة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿أَيّ﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْقِصَاصُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى ٱلْقَتْلَى﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كُتِبَ﴾. ﴿ٱلْحُرُّ﴾: مبتدأ. ﴿بِٱلْحُرِّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ تقديره: الحر مأخوذ بالحر، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَٱلْعَبْدُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ٱلْعَبْدُ﴾: مبتدأ. ﴿بِٱلْعَبْدِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ؛ تقديره: العبد مأخوذ بالعبد، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾. ﴿وَٱلْأُنثَىٰ﴾: مبتدأ. ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ تقديره: والأنثى مأخوذة بالأنثى، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾.

﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾.

﴿فَمَنْ﴾: ﴿الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أن القصاص مكتوب عليكم، وأردتم بيان حكم ما إذا عفي عنه.. فأقول لكم ﴿من عفي له﴾، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله، ويصح كونها موصولة. ﴿عُفِىَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عُفِىَ﴾. ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال مقدم على صاحبها، وهو ﴿شَىْءٍ﴾؛ لأنه نعت نكرة قدمت عليها، فينصب حالاً. ﴿شَىْءٌ﴾: نائب فاعل لـ﴿عُفِىَ﴾.

﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ﴾.

﴿فَٱتِّبَاعُۢ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، أو رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً إن كانت ﴿من﴾ موصولة ﴿اتباع﴾: خبر لمحذوف جوازاً؛ تقديره: فالواجب اتباع. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلق بـ﴿ٱتِّبَاعٌ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَأَدَآءٌ﴾: معطوف على ﴿اتباع﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أداء﴾. ﴿بِإِحْسَٰنٍۗ﴾: متعلق أيضاً بـ﴿أداء﴾، ويجوز أن يكون حالاً من الهاء كما ذكره العكبري. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿تَخْفِيفٌ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ﴿تَخْفِيفٌ﴾. ﴿وَرَحْمَةٌۗ﴾: معطوف على ﴿تَخْفِيفٌ﴾.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿فَمَنِ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم حكم ما إذا عفي عن القصاص، وأردتم بيان حكم من اعتدى بعد ذلك.. فأقول لكم: ﴿من اعتدى﴾: ﴿من﴾: اسم شرط جازم، أو موصولة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط على الراجح، أو الجملة الآتية إن كانت موصولة. ﴿ٱعْتَدَىٰ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱعْتَدَىٰ﴾. ﴿فَلَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ﴿له﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، أو خبر ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَلَكُمْ﴾ الواو: استئنافية، ﴿لكم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ﴾: جار ومجرور متعلق بما تعلق به الجار والمجرور قبله. ﴿حَيَوٰةٌ﴾:

مبتدأ مؤخر سوغ الابتداء بالنكرة.. تقدم الخبر الظرفي عليه، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً. وقال أبو حيان[1]: وهذه الجملة مبتدأ وخبر، و﴿فِي ٱلْقِصَاصِ﴾: متعلق بما تعلق به قوله ﴿لكم﴾، وهو في موضع الخبر، وتقديم هذا الخبر مسوغ؛ لجواز الابتداء بالنكرة، والمعنى: أنه يكون لكم في القصاص حياةٌ. انتهى.

﴿يَٰٓأُوْلِي﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أولي﴾: منادى مضاف بالياء المحذوفة. ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف نصب وتعليل بمعنى كي، و﴿الكاف﴾: اسمها، وجملة ﴿تَتَّقُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلقة بمعلول محذوف؛ تقديره: وإنما شرعنا لكم القصاص لكي تتقون القتل والاعتداء.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿كُتِبَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط، أو شرطية وجوابها معلوم مما قبلها. ﴿حَضَرَ﴾: فعل ماضٍ. ﴿أَحَدَكُمُ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿ٱلْمَوْتُ﴾: فاعل ﴿حَضَرَ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾، والظرف متعلق بـ﴿كُتِبَ﴾؛ تقديره: كتب عليكم أن يوصي أحدكم وقت حضور الموت له ﴿إِن تَرَكَ﴾ ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿أن﴾: على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدَكُمُ﴾. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها؛ تقديره: إن ترك خيراً.. كتب عليكم الوصية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الفعل ونائبه. ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾: نائب فاعل لـ﴿كُتِبَ﴾، وجملة ﴿كُتِبَ﴾ من الفعل المغيّر ونائب فاعله. مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من

(١) البحر المحيط.

الإعراب. ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ لأنه اسم مصدر لأوصى. ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾: معطوف على الوالدين. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾: أيضاً، أو بمحذوف حال من ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾؛ تقديره: حالة كونها متلبسة بالمعروف، لا جور فيها. ﴿حَقًّا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بعامل محذوف؛ تقديره: حق ذلك الإيصاء حقاً، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف؛ أي: كتباً حقاً، أو إيصاء حقاً. ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حَقًّا﴾.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿فَمَنۢ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أنه كتب عليكم الإيصاء، وأردتم بيان حكم من بدله.. فأقول لكم ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط على الراجح كما مر مراراً ﴿بَدَّلَهُۥ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿بعد﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿بَدَّل﴾. ﴿ما﴾ مصدرية، أو موصولة في محل الجر مضاف إليه. ﴿سَمِعَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، و﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ تقديره: فمن بدل ذلك الإيصاء بعد سماعه ذلك الإيصاء، أو صلة ﴿ما﴾ الموصولة؛ تقديره: فمن بدل ذلك الإيصاء بعد الإيصاء الذي سمعه ﴿فَإِنَّمَآ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿إِثْمُهُۥ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أن من بدله آثم، وأردتم بيان حكم من خاف من موص جنفاً.. فأقول لكم: ﴿من خاف﴾ ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿خَافَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿مِن مُّوصٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خاف﴾ ﴿جَنَفًا﴾: مفعول به. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: معطوف عليه. ﴿فَأَصْلَحَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أصلح﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم، معطوف على خاف، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بأصلح. ﴿فَلَآ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿إِثْمَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْهِۚ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لا﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ﴾: قِبَل ظرف مكان، تقول: زيد قِبَلَك؛ أي: في المكان الذي هو مقابلك، وقد يتوسع فيه، فيكون بمعنى العندية المعنوية، تقول: لي قبل زيد دين؛ أي: عنده.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾ وفي «السمين»[1]: في هذه الجملة أربعة أوجه:

---

(١) جمل.

أحدها: أن ﴿البر﴾ اسم فاعل مِنْ بَرَّ يَبَرُّ، من باب فرح، والأصل بَرِرَ - بكسر الراء الأولى - بوزن بَطِن وفَرِح، فلما أريد الإدغام.. نقلت كسرة الراء إلى الباء بعد سلب حركتها، فعلى هذا لا يحتاج الكلام إلى حذف وتأويل، فكأنه قيل: ولكن الشخص البرّ من آمن، ويؤيد هذا القراءة الشاذة بصيغة اسم الفاعل الصريح.

الثاني: أن الكلام على حذف مضاف من الأول؛ تقديره: ولكن ذا البرِّ مَنْ آمن.

الثالث: أن الكلام على حذف مضاف من الثاني؛ تقديره: ولكن البرَّ برُّ مَنْ آمن.

الرابع: أن المصدر الذي هو البر - بالكسر - بمعنى اسم الفاعل الصريح الذي هو ﴿البار﴾، ويؤيده القراءة الشاذة أيضاً.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ والحب: مصدر حَبه يحِبه - بفتح الباء وكسر الحاء - حباً لغة في أحبه يُحِبه بضم الياء وكسر الحاء، ويجوز أن يكون مصدراً للرباعي على حذف الزوائد، ويجوز أن يكون اسم مصدر لأحب الرباعي، ومصدره الأحباب.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾(١) والرقاب: جمع رقبة، والرقبة مؤخر العنق، واشتقاقها من المراقبة، وذلك أن مكانها من البدن مكان الرقيب المشرف على القوم، ولهذا المعنى يقال: أعتق الله رقبته، ولا يقال أعتق الله عنقه؛ لأنها لما سميت رقبة كانت كأنها تراقب العذاب، ومن هذا يقال للتي لا يعيش لها ولد: رقوب لأجل مراعاتها موت ولدها. قال في «المنتخب»: وفِعال جمعٌ يطَّرد في فَعَلَة سواء كانت اسماً نحو رقبة ورقاب، أو صفة نحو حسنة وحسان، وقد يعبر بالرقبة عن الشخص بجملته.

﴿فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ اسمان مشتقان من ﴿البُؤس﴾ بضم الباء و﴿الضُر﴾

---

(١) البحر المحيط.

بضم الضاد وألفهما للتأنيث، و﴿البؤس﴾ بالضم و﴿البأساء﴾ بالمد: الفقر، يقال: بَئِس الرجل ـ بكسر الهمزة ـ يبأس بالفتح على القياس، ويبئِس بالكسر على الشذوذ بؤساً، وبئيساً، وبؤوساً، وبؤس إذا اشتدت حاجته وافتقر ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ﴾ يقال: بَؤُسَ الرجل ـ من باب كَرُم ـ بأساً بسكون الهمزة إذا شجع.

﴿ٱلْقِصَاصُ﴾: مصدر قاصّ يُقاصّ مُقَاصَّةً وقِصَاصاً، نحو قاتل يقاتل مقاتلةً وقتالاً، والقصاص: مقابلة الشيء بمثله، ومنه قتل من قُتِل بالمقتول. ﴿فِى ٱلْقَتْلَىۖ﴾: جمع ﴿قتيل﴾ بمعنى: ﴿مقتول﴾ يستوي فيه المذكر والمؤنث، كجَرْحَىٰ جمع (جريح)، وفعلى ينقاس في جمع فعيل بمعنى مفعول. ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾: ﴿ٱلْحُرُّ﴾: معروف، تقول: حر الغلام يحر حرية ـ من باب منع ـ إذا عتق، يجمع على أحرار كمر وأمرار، وهو غير مقيس، والأنثى حرة، وتجمع على حرائر.

﴿الأنثى﴾: معروف، وهي فعلى، والألف فيه للتأنيث، وهو مقابل الذكر الذي هو مقابل المرأة، ويقال للخصيتين: أنثيان، وهذا البناء لا تكون ألفه إلا للتأنيث، ولا تكون للإلحاق؛ لفقد فعلل في كلامهم. ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ﴾ و(الأداء): اسم مصدر بمعنى التأدية، يقال: أديت الدين ـ أداء وتأدية ـ إذا قضيته. ﴿أولوا الألباب﴾: ﴿أولو﴾ هو من الأسماء التي هي في الرفع بالواو، وفي الجر والنصب بالياء، ومعنى ﴿أولو﴾: ﴿أصحاب﴾، ومفرده من غير لفظه؛ وهو (ذو) بمعنى صاحب. ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: جمع لُبّ؛ وهو العقل الخالي من الهوى، سمي بذلك؛ إما لبنائه من قولهم: ألب بالمكان ولب به إذا أقام، وإما من اللباب؛ وهو الخالص، وهذا الجمع مطرد، أعني أن يجمع فعل ما على أفعال.

﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ والوصية: تبرع مضاف لما بعد الموت، وهي: إما مصدر سماعي، أو اسم مصدر لوصى توصيةً ووصية، أو أوصى إيصاءً ووصيةً. ﴿جَنَفًا﴾ الجنف: الجور، وهو مصدر لجنف بكسر النون ـ من باب فَرِح ـ يَجْنَف جَنَفاً، فهو جَنِف وجانف، ويقال: أجنف الرجل إذا جاء بالجنف، كما يقال: ألاَمَ الرجل إذا أتى بما يلام عليه، وأخَسَّ الرجل إذا أتى بخسيس.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾ جعل البر نفس من آمن على طريق المبالغة، وهذا معهود في كلام البلغاء، كقولهم السَّخاءُ حاتم، والشِّعرُ زهير؛ أي: إن السخاءَ سخاءُ حاتمٍ، والشعرَ شعرُ زهير.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ فيه إيجاز بالحذف؛ أي: وفي فك الرقاب؛ أي: في فداء الأسرى والمكاتبين، وفي لفظ ﴿الرقاب﴾ مجاز مرسل حيث أطلق الرقبة، وأراد به النفس، وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ منصوب على الاختصاص؛ أي: وأخص الصابرين بالذكر، وإنما لم يؤت به مرفوعاً كقوله: والموفون بأن يقال: والصابرون تنبيهاً على فضيلة الصبر، وهو في الحقيقة معطوف على ما قبله من حيث المعنى. قال أبو علي: إذا ذكرت صفات للمدح أو الذم، وخولف الإعراب في بعضها.. فذلك تفنن، ويسمى قطعاً؛ لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور، ومزيد اهتمام بشأنه.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾: مبتدأ وخبر، وأتى بخبر ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الأول موصولاً، وصل بفعل ماضٍ، إشعاراً بتحقق اتصافهم بالصدق، وإن ذلك قد وقع منهم واستقر، وأتى بخبر ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الثاني موصولاً، وصل بجملة اسمية ليدل على الثبوت، وأنه ليس متجدداً، بل صار كالسجية لهم، ومراعاة للفاصلة أيضاً. ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من باب الإلهاب والتهييج.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ قال أبو السعود: فيه بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لا تنال غايته، حيث جعل الشيء؛ وهو القصاص محلاً لضده؛ وهو الحياة، ونكر الحياة ليدل على أن في هذا الجنس نوعاً من الحياة عظيماً، لا يبلغه الوصف.

وبَيْنَ قوله: ﴿اتباع﴾ و﴿أداء﴾ وكذا بين قوله: ﴿الحر﴾ و﴿العبد﴾ الطباق.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾؛ أي: علم؛ وهو مجاز مرسل، والعلاقة السببية، وهو أن الإنسان لا يخاف شيئاً حتى يعلم أنه مما يخاف منه، فهو من باب التعبير عن السبب بالمسبب.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

المناسبة

مناسبة[1] هذه الآيات لما قبلها: أنه تعالى أخبر أولاً بكتب القصاص؛ وهو إتلاف النفوس، وهو من أشق التكاليف، فيجب على القاتل إسلام نفسه للقتل، ثم أخبر ثانياً بكتب الوصية؛ وهو إخراج المال الذي هو عديل الروح، ثم انتقل ثالثاً إلى كتب الصيام؛ وهو منهك للبدن مضعف له، مانع وقاطع ما ألفه الإنسان من الغذاء بالنهار؛ فابتدأ بالأشق ثم بالأشق بعده ثم بالشاق، فهذا انتقال فيما كتبه الله على عباده في هذه الآية، وكان فيما قبل ذلك قد ذكر أركان الإسلام ثلاثة الإيمان والصلاة والزكاة فأتى بهذا الركن الرابع؛ وهو الصوم، ونادى

---

(١) البحر المحيط.

المؤمنين عند إعلامهم بهذا المكتوب الثالث الذي هو الصيام؛ لينبههم على استماع ما يلقى إليهم من هذا التكليف، ولم يحتج إلى نداء في المكتوب الثاني؛ لانسلاكه مع الأول في نظام واحد؛ وهو حضور الموت بقصاص أو غيره، وتباين هذا التكليف الثالث منها.

أسباب النزول

قوله[1] تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ...﴾ الآية، أخرج ابن سعد في «طبقاته» عن مجاهد قال: هذه الآية نزلت في مولاي قيس بن السائب: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: فأفطر وأطعم لكل يوم مسكيناً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ...﴾ الآية، عن الصلت بن حكيم بن معاوية بن حيدة، عن أبيه، عن جده قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فسكت عنه؛ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ...﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن قال: سأل أصحاب محمد ﷺ النبي ﷺ أين ربنا؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ...﴾ الآية. مرسل، وله طرق أخرى.

وأخرج ابن عساكر عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعجزوا عن الدعاء فإن الله أنزل علي: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾» فقال رجل: يا رسول الله، ربنا يسمع الدعاء، أم كيف ذلك؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾.

روى البخاري رحمه الله عن البراء رضي الله عنه قال: كان أصحاب

---

(١) لباب النقول.

محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وأن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته، فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا ولكن أنطلق، فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فقالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار أغشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾.

وفي لفظ له في كتاب «التفسير»: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخونون أنفسهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

وظاهر الروايتين التغاير، لكن لا مانع من أن تكون نزلت في هؤلاء وفي هؤلاء.

وروى أبو داود، وأحمد، والحاكم من طريق عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كانوا يأكلون ويشربون، ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار ـ يقال له: قيس بن صرمة ـ صلى العشاء، ثم نام، فلم يأكل، ولم يشرب حتى أصبح، فأصبح مجهوداً، وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فأنزل الله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ هذا الحديث مشهور عن ابن أبي ليلى، عن معاذ لكنه لم يسمع من معاذ، وله شواهد كما أخرجه البخاري عن البراء.

وأخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى، فنام.. حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد، فرجع عمر من عند النبي ﷺ، وقد سمر عنده، فأراد امرأته، فقالت: إني قد نمت، قال: ما نمت، ووقع عليها، وصنع كعب مثل ذلك، فغدا عمر إلى النبي ﷺ فأخبره، فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ روى البخاري عن سهل بن سعيد قال: أنزلت ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعني الليل والنهار.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ..﴾ الآية، أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان الرجل إذا اعتكف، فخرج من المسجد: جامع إن شاء، فنزلت: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدَّقوا بما جاء به محمد ﷺ، وناداهم بالإيمان تنبيهاً لهم على استماع ما يلقى إليهم من هذا التكليف. ﴿كُتِبَ﴾؛ أي: فرض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾؛ أي: صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: كتب عليكم كتابته على الذين سبقوا من قبلكم من الأنبياء وأممهم، من لدن آدم إلى عهدكم هذا، لكن لا كصومنا من كل وجه، فالتشبيه في الفرضية لا الكيفية والثواب.

والمعنى: أن الصوم عبادة قديمة؛ أي: في الزمن الأول ما أخلى الله أمة لم يفرضه عليهم كما فرضه عليكم، وأنتم متعبدون بالصيام في أيام كما تَعَبَّد من كان قبلكم به. وحكمة ذكر التشبيه: التأكيد في الأمر والتسلي بمن كان قبلنا، وذلك لأن الصوم عبادة شاقة، والشيء الشاق إذا عمَّ سهل عمله.

والصومُ لغةً: الإمساك عن الشيء، ولو عن الكلام كما في قول مريم: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾؛ أي: صمت، وشرعاً: الإمساك عن المفطرات من الأكل والشرب وغيرهما في وقت مخصوص، وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بنية مخصوصة؛ وهي نية التقرب إلى الله تعالى. قال[1] الراغب: للصوم

---

(١) البحر المحيط.

فائدتان: رياضة الإنسان نفسه عما تدعوه إليه من الشهوات، والاقتداء بالملأ الأعلى على قدر الوسع.

وقيل[1]: إن صيام شهر رمضان كان واجباً على النصارى كما فرض علينا، فصاموا رمضان زماناً، فربما وقع في الحر الشديد والبرد الشديد، وكان يشق ذلك عليهم في أسفارهم ويضرهم في معايشهم، فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم أن يجعلوه في فصل من السنة معتدل بين الصيف والشتاء، فجعلوه في فصل الربيع، ثم زادوا فيه عشرة أيام كفارةً لما صنعوا، فصاموا أربعين يوماً، ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فمه، فجعل لله عليه إن هو برأ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعاً، فبرأ، فزاد فيه أسبوعاً، ثم مات ذلك الملك بعد زمان ووليهم ملك آخر، فقال: ما شأن هذه الثلاثة أيام؟ أتموها خمسين يوماً، فأتموه، وقيل: أصابهم موتان، فقالوا: زيدوا في صيامكم، فزادوا عشراً قبله وعشراً بعده.

وقيل: كان النصارى أولاً يصومون، فإذا أفطروا فلا يأكلون ولا يشربون ولا يطؤون إذا ناموا ثم انتبهوا، وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخ بسبب عمر وقيس بن صرمة كما مر. واختلف[2] المفسرون في وجه التشبيه ما هو، فقيل: هو قدر الصوم ووقته، فإن الله كتب على اليهود والنصارى صوم رمضان، فغيروا، وقيل: هو الوجوب فإن الله أوجب على الأمم الصيام، وقيل: هو الصفة؛ أي: ترك الأكل والشرب، ونحوهما في وقت، فعلى الأول معناه: أن الله كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم، وعلى الثاني: أن الله أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجبه على الذين من قبلهم وعلى الثالث: أن الله سبحانه أوجب على هذه الأمة الإمساك عن المفطرات كما أوجبه على الذين من قبلهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي تخافون عقاب الله بصومكم وترككم للشهوات، فالرغبة في المطعوم والمنكوح أشد من الرغبة في غيرهما، والاتقاء

---

(١) خازن.

(٢) شوكاني.

عنهما أشق، فإذا سهل عليكم اتقاء الله بتركهما.. كان اتقاء الله بترك غيرهما أسهل وأخف، وقيل: لعلكم تتقون المعاصي بالمحافظة على عبادة الصوم؛ فإنه يكسر الشهوة ويضعف دواعي المعاصي، كما ورد في الحديث «ومن لم يستطع - يعني الباءة - فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»؛ أي: قاطع لشهوته كما تنقطع بالخصي، وقيل معناه: لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين؛ لأن الصوم من شعارهم.

صوموا ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾؛ أي: أياماً مقدرات بعدد معلوم ثلاثين يوماً، وهي شهر رمضان، ويقال[1]: إن فريضة رمضان نزلت في السنة الثانية من الهجرة، وذلك قبل غزوة بدر بشهر وأيام، وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة، وشرط وجوبه الإطاقة بأن كان صحيحاً مقيماً.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم﴾ أيها الأمة المحمدية ﴿مَّرِيضًا﴾ مرضاً يشق معه الصوم ويضره، أو يزيد بالصوم ولو في أثناء النهار ﴿أَوْ﴾ كان عازماً ﴿عَلَىٰ﴾ إتمام ﴿سَفَرٍ﴾ ومتلبساً به ولو قصيراً، فلا يبيح[2] السفر الفطر إذا طرأ في أثناء النهار، وهذا سر التعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ في السفر دون المرض؛ أي: فمن كان مريضاً أو عازماً على إتمام السفر، ومتمكناً منه بأن كان متلبساً به وقت طلوع الفجر إن لم يشق معه الصوم، فإن المسافر يباح له الفطر، وإن لم يجهده الصوم، ولا فرق في السفر بين كونه براً أو بحراً أو جواً، والحق[3] أن ما صدق عليه مسمى السفر؛ فهو الذي يباح عنده الفطر، وكذا ما صدق عليه مسمى المرض؛ فهو الذي يباح عنده الفطر، وقد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة، واختلفوا في الأسفار المباحة، والحق أن الرخصة ثابتة فيه، وكذا اختلفوا في سفر المعصية؛ أي: فمن كان منكم مريضاً أو مسافراً، فأفطر في رمضان.. فعليه عدة؛ أي: فواجب عليه

---

(١) خازن.

(٢) جمل.

(٣) شوكاني.

صيام عدد ما أفطر من رمضان للمرض أو للسفر ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ أي: من أيام غير رمضان قضاءً عما أفطر في رمضان، وقرىء ﴿عدةً﴾ بالنصب؛ أي: فليصم عدة من أيام أخر، ولو مفرقاً. وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى لم يرخص لكم في فطره وهو يريد أن يشق عليكم في قضائه إن شئت فَوَاتِر، وإن شئت فَفَرق، وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: علي أيام من رمضان فيجزيني أن أقضيها متفرقة، فقال له: «أرأيت لو كان عليك دين فقضيته الدرهم والدرهمين أما كان يجزيك»؟ قال: نعم، قال: «فالله أحق أن يعفو ويصفح».

وعن عائشة أن حمزة الأسلمي سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، هل أصوم على السفر؟ فقال: «صم إن شئت، وأفطر إن شئت» وروى الشافعي أن عطاء قال لابن عباس: أقصر إلى عرفة؟ فقال: لا، فقال: إلى مر الظهران؟ فقال: لا، لكن أقصر إلى جدة وعسفان والطائف. قال مالك: بين مكة وجدة وعسفان أربعة برد.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾؛ أي: يقدرون على الصوم بأن لم يكن لهم عذر مرضٍ ولا سفر؛ أي: القادرين على الصوم إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾؛ أي: جزاء وضمان قدر ما يأكله مسكين واحد في يوم واحد، يعطيه للمسكين بدل كل يوم من رمضان؛ وهو مدٌّ من غالب قوت بلده.

وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية[1]، هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها منسوخة، وإنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام؛ لأنه شق عليهم؛ لأنهم لم يتعودوا الصيام، فرخص لهم في الافطار، فكان من أطعم كل يوم مسكيناً. . ترك الصوم وهو يطيقه، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وهذا قول الجمهور.

وعن سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى

---

(١) شوكاني.

﴿ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ . .﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي فعل، حتى نزلت هذه الآية التي بعدها فنسختها، وفي رواية حتى نزلت هذه الآية ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ﴾. متفق عليه.

وروي عن بعض أهل العلم أنها لم تنسخ، وأنها رخصة للشيوخ والعجائز خاصةً إذا كانوا لا يطيقون الصوم إلا بمشقة.

والمعنى على هذا: وعلى الذين يقدرون على الصوم مع المشقة فدية. وعن عطاء أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: ﴿وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً، وهو حديث آحاد؛ أي لا يحتج به في إثبات القرآن الكريم.

وقراءة[1] الجمهور: ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ ـ بكسر الطاء وسكون الياء ـ من أطاق، وأصله: يطوقونه، نقلت الكسرة إلى الطاء، وانقلبت ﴿الواو﴾ ياء؛ لانكسار ما قبلها. وقرأ أحمد ﴿يطوقونه﴾ على الأصل من غير إعلال، من أطوق، كقولهم أطول في أطال. وقرأ ابن عباس ﴿يطَوّقونه﴾ بفتح الطاء مخففة وتشديد ﴿الواو﴾ المفتوحة؛ أي: يكلفونه. وروى ابن الأنباري عن ابن عباس ﴿يَطّيَقونه﴾ بفتح الياء وتشديد الطاء والياء المفتوحتين بمعنى: يطيقونه، وما عدا قراءة الجمهور شاذ لا يقرأ به.

وقرأ أهل المدينة والشام: ﴿فديةُ طعامٍ﴾ مضافاً إضافة بيانيةً؛ أي: بإضافة فدية إلى طعام، وعليها يتعين جمع المساكين، وأما على عدم الإضافة: فيصح الجمع والإفراد، فالقرآت ثلاث، وقرؤوا أيضاً: ﴿مساكين﴾ بالجمع، وقرأ ابن عباس: ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍۖ﴾؛ وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وكله في المتواتر.

و﴿الفدية﴾ الجزاء؛ وهو القدر الذي يبذله الإنسان يقي به نفسه من تقصيرٍ

---

(١) شوكاني.

وقَعَ منه في عبادة ونحوها، وقد اختلفوا في مقدار الفدية، فقيل: كل يوم صاع من غير البر ونصف صاع منه، وقيل: مُدّ فقط؛ وهو قول فقهاء الحجاز، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعطي كل مسكين عشاءه وسحوره.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾؛ أي: تبرع ﴿خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية على القدر الواجب، أو صام مع إخراج الفدية، أو أطعم مع المسكين مسكيناً آخر، وقرأ عيسى ابن عمرو، ويحيى بن ثابت، وحمزة، والكسائي ﴿يَطَّوَّع﴾ مشدداً مع جزم الفعل على معنى يتطوع، وقرأ الباقون: بتخفيف الطاء على أنه فعل ماضٍ: ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: فذلك التطوع ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ بالثواب، ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ أيها المرخصون لكم في الإفطار من المرضى والمسافرين والذين يقدرون على الصوم مع المشقة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإفطار والفدية، أو تطوع الخير، أو منهما ومن التأخير للقضاء. وقرأ أبي: ﴿والصوم خير لكم﴾ وهي قراءة شاذة. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة، ومن المعاني المورثة للتقوى، وبراءة الذمة، فإن العبادة كلما كانت أشق.. كانت أكثر ثواباً، وجواب ﴿لو﴾ محذوف دل عليه ما قبله؛ تقديره: اخترتموه. وقد ورد في فضل الصوم أحاديث كثيرة.

وأخرج(١) عبد بن حميد، وابن جرير، والدارقطني، وصححه عن ابن عباس أنه قال لأم ولد له حامل أو مرضعة: أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصوم، عليك الطعام، لا قضاء عليك. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والدارقطني عن ابن عمر أن إحدى بناته أرسلت إليه تسأله عن صوم رمضان، وهي حامل؟ قال: تفطر وتطعم كل يوم مسكيناً، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ أي: تلك الأيام المعدودات التي فرضت صومها عليكم أيها المؤمنون؛ هي شهر رمضان الذي ابتدي فيه إنزال القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في محل من تلك السماء يسمى:

---

(١) شوكاني.

بيت العزة، ثم نزل جبريل بالقرآن على رسول الله ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة ـ مدة النبوة ـ بحسب الحاجة يوماً بيوم، آية وآيتين وثلاثاً، وسورة، وقرأ الجمهور: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ بالرفع. وقرأه بالنصب شاذاً مجاهد وغيره، وفي «القرطبي»[1] ما نصه: قال ابن عباس: أنزل القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى الكتبة في سماء الدنيا، ثم نزل به جبريل عليه السلام نجوماً؛ يعني: الآية والآيتين في إحدى وعشرين سنة. اهـ.

أو المعنى: أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ ورمضان مأخوذ من رمض الصائم يرمض إذا احترق جوفه من شدة العطش، و﴿القرآن﴾ اسم لهذا الكتاب الذي أنزل على رسول الله ﷺ حالة كونه. ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾؛ أي: هادياً للناس من الشرك والضلالة إلى التوحيد والإيمان ﴿و﴾ حالة كونه آيات ﴿بينات من الهدى﴾؛ أي: آيات واضحات من أمر الدين، من الحرام والحلال، والحدود والأحكام، فالهدى الأول: محمول على أصول الدين، والهدى الثاني: على فروع الدين ﴿و﴾ من ﴿الفرقان﴾؛ أي: ومن الفرق بين الحق والباطل، والمعنى: حالة كونها آيات واضحات كائنات مما يهدي إلى الحق، ومما يفرق بين الحق والباطل، وعطف ﴿الفرقان﴾ على ﴿الْهُدَىٰ﴾ من عطف الخاص على العام، فكل أخص مما قبله ﴿الهدى﴾ صادق بالواضح وغيره كان معه دليل أم لا، والـ﴿بينات﴾ من الهدى صادقة بوجود الحجج معها أم لا، ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ هو الآيات البينات التي معها حجج، ﴿فَمَن شَهِدَ﴾؛ أي: حضر ﴿مِنكُمُ﴾ أيها المؤمنون هذا ﴿الشَّهْرَ﴾ يعني شهر رمضان ولم يكن في سفر، بل كان مقيماً صحيحاً؛ أي: فمن كان حاضراً مقيماً غير مسافر، فأدركه الشهر ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾؛ أي: فليصم في هذا الشهر، فالخطاب للمكلف القادر غير المعذور.

وقال جماعة من السلف والخلف[2]: أن من أدركه شهر رمضان مقيماً غير مسافر. لزمه صيامه سافر ذلك أو أقام؛ استدلالاً بهذه الآية. وقال الجمهور:

---

(١) قرطبي.

(٢) شوكاني.

إنه إذا سافر أفطر؛ لأن معنى الآية: إذا حضر الشهر من أوله إلى آخره، لا إذا حضر بعضه وسافر، فإنه لا يتحتم عليه إلا صوم ما حضره، وهذا هو الحق، وعليه دلت الأدلة الصحيحة من السنة، وقد كان يخرج ﷺ في رمضان فيفطر.

وشهود الشهر[1]: إما بالرؤية، وإما بالسماع، فإذا رأى إنسان هلال رمضان، وقد انفرد بتلك الرؤية، ورد الإمام شهادته.. لزمه أن يصوم؛ لأنه قد حصل شهود الشهر في حقه فوجب عليه الصوم، وإذا شهد عدلان على رؤية الهلال.. حكم بهما في الصوم والفطر جميعاً، وإذا شهد عدل واحد على رؤية هلال شوال.. لا يحكم به، أما إذا شهد على هلال رمضان: فيحكم به احتياطاً لأمر الصوم؛ أي: يقبل قول الواحد في إثبات العبادة، ولا يقبل في الخروج منها إلا قول اثنين؛ لكي يصوموا ولا يفطروا احتياطاً.

﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿مَرِيضًا﴾ في شهر رمضان، وإن كان مقيماً ﴿أَوْ﴾ كائناً ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ومتلبساً به وقت طلوع الفجر، وإن كان صحيحاً ﴿فَعِدَّةٌ﴾؛ أي: فعليه صيام قدر ما أفطر من رمضان ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ أي: من أيام غير رمضان، وهذا الكلام تقدم مثله، وإنما كرره[2]؛ لأن الله تعالى ذكر في الآية الأولى تخيير المريض والمسافر والمقيم الصحيح، ثم نسخ تخيير المقيم الصحيح بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فلو اقتصر على هذا.. لاحتمل أن يشمل النسخ الجميع، فأعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر؛ ليعلم أن الحكم باق على ما كان عليه.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾؛ أي: يريد الله سبحانه وتعالى التسهيل عليكم أيها المؤمنون بترخيص الإفطار لكم بعذر المرض والسفر ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾؛ أي: ولم يرد التشديد عليكم بإيجاب الصوم في السفر والمرض، وقرىء بإسكان السينين في اليسر والعسر، وبضمهما.

---

(١) مراح.

(٢) خازن.

ولكون ذلك في معنى العلة عطف عليه قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿ٱلْعِدَّةَ﴾؛ أي: عدة صوم رمضان، والتقدير: وإنما[1] أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار؛ لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم بتدارك ما فات منها بالقضاء ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ولتذكروا الله بالتكبير وغيره عند انقضاء عبادتكم شكراً ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ أي: على هدايته إياكم إلى معالم دينكم وإرشاده إياكم إلى هذه العبادة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: حقٌّ على المسلمين إذا رأوا هلال شوال أن يكبروا، وقال الشافعي: وأحب إظهار التكبير في العيدين، وبه قال مالك، وأحمد، وإسحاق، وأبو يوسف، ومحمد. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على رخصه بالمحافظة على ما أمركم الله به من أداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده.

وإنما ختمت هذه الآية[2] بترجي الشكر؛ لأن قبلها تيسيراً وترخيصاً، فناسب ختمها بذلك، وختمت الآيتان قبلها بترجي التقوى، وهما قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾؛ لأن القصاص والصوم من أشق التكاليف، فناسب ختمها بذلك، وهذا مطرد في القرآن، فحيث ورد ترخيص عقب بترجي الشكر غالباً، وحيث جاء عدم ترخيص عقب بترجي التقوى وشبهها، وهذا من محاسن علم البيان.

ولما سأل الناس رسول الله ﷺ أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ نزل قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ يا محمد ﴿عِبَادِى عَنِّى﴾؛ أي: عن قربي أو بعدي ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾؛ أي: فقل لهم يا محمد: أني قريب منهم، بالعلم والإجابة والإنعام، والقرب هنا عبارة عن سماعه لدعائهم، وقال في «الكشاف»: إنه تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه، وسرعة إنجاحه حاجة من سأله بمن قرب مكانه، فإذا دعي أسرعت تلبيته. ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾؛ أي: أسمع وأقبل دعاء عبدي الداعي

---

(١) ابن كثير.

(٢) جمل.

إذا ﴿دَعَانِۖ﴾: وهذا تقرير للقرب ووعد للداعي بالإجابة.

ثم إجابة الدعاء[1] وعد صدق من الله لا خلف فيه، غير أن إجابة الدعاء تخالف قضاء الحاجة، فإجابة الدعوة أن يقول العبد: يا رب، فيقول الله: لبيك عبدي، وهذا أمر موعود موجود لكل مؤمن، وقضاء الحاجة إعطاء المراد، وهذا قد يكون ناجزاً، وقد يكون بعد مدة، وقد يكون في الآخرة، وقد تكون الخيرة له في غيره.

وقيل[2]: المراد من الدعاء التوبة من الذنوب؛ لأن التائب يدعو الله تعالى عند التوبة، وإجابة الدعاء هو قبول التوبة، وقيل: المراد من الدعاء العبادة، قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة» ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾: وقرأ أبو عمرو، وقالون عن نافع: ﴿الداعي إذا دعاني﴾ بإثبات الياء فيهما مع الوصل، والباقون بحذفها على الوصل في الأولى، وعلى التخفيف في الثانية.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾؛ أي: فليجيبوا إلى دعوتي إذا دعوتهم إلى الإيمان والطاعة، كما أني أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم ومهماتهم، ولينقادوا لي وليستسلموا لأوامري، فالإجابة من العبد الطاعة، ومن الله الإثابة والعطاء ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾؛ أي: وليواظبوا على الإيمان بي وبرسولي، وهذا الترتيب يدل على أن العبد لا يصل إلى نور الإيمان وقوته إلا بتقدم الطاعات والعبادات ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ويهتدون؛ أي: لكي يهتدوا إلى مصالح دينهم ودنياهم إذا استجابو لي، وآمنوا بي وبرسولي.

ثم إنه كانت الشريعة صدرَ الإسلام أنَّ الرجل إذا أمسى.. حلَّ له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة، أو يرقد، فإذا صلاها، أو رقد ولم يفطر.. حَرُمَ عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة، ثم إن عمر رضي الله

(١) نسفي.

(٢) مراح.

عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ وأخبره بما فعل، فقال عليه السلام: «ما كنت جديراً بذلك»؛ فنزلت هذه الآية الآتية ناسخة لتلك الشريعة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾؛ أي: أبيح لكم أيها الصائمون ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾؛ أي: ليالي الصيام ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾؛ أي: إلى حلائلكم من زوجة وأمة؛ أي: المجامعة مع نسائكم والإفضاء إليها بالمباشرة ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: النساء سكن وستر لكم عن الحرام، وهذا الكلام مستأنف سيق تعليلاً لما قبله من الإحلال ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها الرجال ﴿لِبَاسٌ﴾ وستر ﴿لَّهُنَّ﴾ عن الحرام.

قيل[1]: لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر، وسمي كل واحد من الزوجين لباساً؛ لتجردهما عن النوم واجتماعهما في ثوب واحد، وقيل: اللباس اسم لما يواري، فيكون كل واحد منهما ستراً لصاحبه عما لا يحل، كما جاء في الحديث: «من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه».

وإنما قدم[2] قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ على قوله: ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ تنبيهاً على ظهور احتياج الرجل إلى المرأة، وعدم صبره عنها، ولأنه هو البادىء بطلب ذلك، فحاجة الرجل إليها أكثر، لما في الحديث: «لا خير في النساء ولا صبر عنهن، يغلبن كريماً ويغلبهن لئيم، وأحب أن أكون كريماً مغلوباً، ولا أحب أن أكون لئيماً غالباً». وكني باللباس عن شدة المخالطة.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ أيها الصائمون قبل هذا الإحلال لكم ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تظلمون أنفسكم بالجماع في ليالي رمضان وتنقصون حظها من الخير، والاختيان من الخيانة كالاكتساب من الكسب، فيدل على زيادة الخيانة من حيث كثرة مقدمات الجماع؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً.

---

(١) خازن.

(٢) سمين.

ففي هذه الجملة إشارة إلى سبب النزول. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: قبل توبتكم حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور، ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾؛ أي: محا ذنوبكم وما فعلتموه قبل النسخ ولم يعاقبكم على خيانتكم ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ﴾؛ أي: ففي هذا الزمن الحاضر الذي أحل الله لكم فيه الرفث إلى نسائكم ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾: جامعوهن في ليالي الصوم؛ فهو حلال لكم لنسخ التحريم، وهو أمر إباحة، وسميت الجماع مباشرة؛ لالتصاق بشرتيهما عنده. ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: واطلبوا بالمباشرة ما قدر الله وقسمه لكم، وأثبته في اللوح المحفوظ من الولد، وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمباشر أن يكون غرضه الولد، فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرع النكاح: لإقضاء الوطر والشهوة، وقيل: فيه إشارة إلى النهي عن العزل.

قال الشافعي: لا يعزل الرجل عن المرأة إلا بإذنها، ولا بأس أن يعزل من الأمة.

وقيل: معنى ذلك ابتغوا هذه المباشرة من الزوجة والمملوكة، فإن ذلك هو الذي كتب الله لكم؛ أي: قسم الله لكم ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ الليل كله من أوله ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ويتضح ﴿لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾؛ أي: كلوا واشربوا الليل كله من أوله إلى أن يتبين ويظهر لكم بياض النهار من سواد الليل حال كون الخيط الأبيض بعضاً ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ الصادق، وسمي الصبح الصادق فجراً؛ لأنه يتفجر وينتشر منه النور.

وهذا أمر إباحة، وسُمِّيَا[1] خيطين؛ لأن كل واحد منهما يبدو في الأفق ممتداً كالخيط، قال الشاعر:

فَلَمَّا أَضَاءَتْ لَنَا سَدْفَةٌ ... وَلاَحَ مِنَ ٱلصُّبْحِ خَيْطٌ أَنَارَا

السدف: اختلاط الظلام، وأسدف الفجر: أضاء.

واعلم: أن الفجرَ الذي يُحرِّمُ على الصائم الطعامَ والشرابَ والجماعَ هو الفجر الصادق المستطير المنتشر في الأفق سريعاً، لا الفجر الكاذب المستطيل.

---

(١) خازن.

فإن قلتَ: كيف شبه الصبح الصادق بالخيط والخيط مستطيل، والصبح الصادق ليس بمستطيل؟

قلت: إن القدر الذي يبدو من البياض؛ وهو أول الصبح يكون رقيقاً صغيراً ثم ينتشر؛ فلهذا شبه بالخيط، والفرق بين الفجر الصادق والفجر الكاذب: أن الفجر الكاذب يبدو في الأفق فيرتفع مستطيلاً، ثم يضمحل ويذهب، ثم يبدو الفجر الصادق بعده منتشراً في الأفق مستطيراً.

وروى مسلم عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال، ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا». وحكاه حماد بيديه. قال: يعني معترضاً. وفي رواية الترمذي: «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال، ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير في الأفق».

فإذا تحقق طلوع الفجر الثاني وهو الصادق.. حرم على الصائم الطعام والشراب، والجماع إلى غروب الشمس، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: ثم بعد تبين الفجر الصادق أتموا الصيام والإمساك عن المفطرات في جميع النهار إلى دخول أول الليل بغروب الشمس، وهذا أمر إيجابٍ في صوم الفرض، وبيان لآخر وقت الصوم، ولإخراج الليل عنه، فينتفي صوم الوصال، ولمّا بين الله تعالى أن الجماع يحرم على الصائم نهاراً، ويباح ليلاً، فكان يحتمل أن حكم الاعتكاف كذلك؛ لأنه يشارك الصوم في غالب أحكامه.. بين الله بتحريمه على المعتكف ليلاً ونهاراً بقوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾؛ أي: لا تجامعوهن ليلاً ولا نهاراً ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ﴾؛ أي: ماكثون ﴿فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ بنية الاعتكاف للتقرب إلى الله تعالى، ولا تقربوهن ما دمتم معتكفين فيها ليلاً ونهاراً حتى تفرغوا من الاعتكاف. ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة في آيات الصيام من أولها إلى هنا ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أوامره وزواجره، وأحكامه التي شرعها لكم؛ فلا تخالفوا الأوامر منها و﴿لَا تَقْرَبُوهَا﴾ الزواجر والممنوعات ﴿منها﴾؛ أي: من تلك الحدود كالأكل والشرب والجماع في الصوم، والمباشرة في حال الاعتكاف،

والنهي عن القربان بالنظر إلى الزواجر منها، وإلا فالحدود تطلق على الأوامر أيضاً والله أعلم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين الله سبحانه وتعالى أوامره وزواجره في الصوم والاعتكاف ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: معالم دينه وأحكام شريعته من الأوامر والزواجر في غير الصوم ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة على لسان رسوله ﷺ بياناً شافياً وإيضاحاً وافياً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي يتقوا مخالفة الأوامر والنواهي، فينجوا من العذاب.

قيل[1]: نزلت هذه الآية في حق نفر من أصحاب النبي ﷺ: علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر وغيرهما، فكانوا معتكفين في المسجد، فيأتون إلى أهاليهم إذا احتاجوا، ويجامعون نساءهم ويغتسلون، فيرجعون إلى المسجد، فنهاهم الله عن ذلك.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع، أو في محل النصب صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿كُتِبَ﴾ فعل ماض مغيَّر الصيغة. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ٱلصِّيَامُ﴾: نائب فاعل، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية، أو موصولة في محل الجر بالكاف، ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود

---

(١) مراح.

على ﴿ٱلصِّيَامُ﴾. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كُتِبَ﴾، والجملة صلة لما المصدرية، لـ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف؛ تقديره: ككتبه على الذين ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾، الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: كتب عليكم الصيام كتباً كائناً ككتبه على الذين من قبلكم، أو الجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد ضمير الغائب، والجار والمجرور متعلق بواجب الحذف حال من ﴿ٱلصِّيَامُ﴾؛ تقديره: كتب عليكم الصيام حالة كونه كائناً كالصيام الذي كتب على الذين من قبلكم. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه صلة الموصول؛ تقديره: كما كتب على الذين استقروا من قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾. ﴿لعل﴾: حرف ترج وتعليل ونصب، و﴿الكاف﴾ اسمها، وجملة ﴿تَتَّقُونَ﴾: خبرها؛ تقديره: لعلكم متقون، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

﴿أَيَّامًا﴾: منصوب على الظرفية الزمانية. ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾: صفة لـ﴿أياماً﴾، والظرف متعلق بمحذوف جوازاً؛ تقديره: صوموا أياماً، والجملة المحذوفة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم وجوب الصيام عليكم، وأردتم بيان حكم من كان معذوراً بمرض أو سفر.. فأقول لكم: من كان ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط على الراجح، أو جملة الجواب، أو هما. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿من﴾، واسمها ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مِنكُم﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من اسم ﴿كَانَ﴾؛ تقديره: فمن كان حالة كونه كائناً منكم. ﴿مَّرِيضًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتقسيم. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿سَفَرٍ﴾: مجرور بـ﴿عَلَىٰ﴾، الجار والمجرور متعلق بمحذوف معطوف على ﴿مَّرِيضًا﴾؛ تقديره: فمن كان منكم مريضاً أو عازماً على إتمام سفر. ﴿فَعِدَّةٌ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿عدة﴾: مبتدأ، والخبر محذوف؛ تقديره: فصيام **عدة**

واجب عليه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿مِّنْ أَيَّامٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿عدة﴾؛ تقديره: فعدة كائنة من أيام. ﴿أُخَرَ﴾: صفة لـ﴿أَيَّامٍ﴾ مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف: الوصف والعدل؛ لأنه معدول عن الآخر؛ لأن الأصل في فعلى صفة أن تستعمل في الجمع بالألف واللام.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ﴾ الواو: استئنافية. ﴿على الذين﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿فِدْيَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف. ﴿طَعَامُ﴾: مضاف إليه، وهو مضاف. ﴿مِسْكِينٍ﴾: مضاف إليه إذا قرىء بلا تنوين، وأما على قراءة التنوين فـ﴿طَعَامٍ﴾: بدل من ﴿فِدْيَةٌ﴾: بدل كل من كل؛ والتقدير: وفدية طعام مسكين واجب على الذين يطيقونه.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾.

﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة بمعنى الواو. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط على الراجح. ﴿تَطَوَّعَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿خَيْرًا﴾: منصوب بنزع الخافض؛ أي: بخير، أو صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: تطوعاً خيراً. ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿هو﴾: متبدأ. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾.

﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَن﴾الواو: عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَصُومُوا۟﴾: فعل

وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة من الفعل والفاعل صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء؛ تقديره: وصومكم. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر له. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾. ﴿إِن كُنتُمْ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط، أو غائية لا جواب لها. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب، خبر ﴿كان﴾؛ تقديره: إن كنتم عالمين، ومفعول العلم محذوف، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله إن قلنا شرطية لها جواب؛ تقديره: إن كنتم تعلمون خيريته.. فافعلوه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف جوازاً؛ تقديره: تلك الأيام المعدودات شهر رمضان، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. و﴿شَهْرُ﴾ مضاف. ﴿رَمَضَانَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة للعلمية وزيادة الألف والنون. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿شَهْرُ﴾. ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور متعلق بأنزل ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: نائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير فيه. ﴿هُدًى﴾: حال من ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿هُدًى﴾ ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾: معطوف على ﴿هُدًى﴾. ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿بينات﴾ تقديره: كائنات من الهدى. ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر إذا عرفتم أن الأيام المعدودات شهر رمضان، وأردتم بيان حكم من شهده.. فأقول لكم: ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط على

الراجح. ﴿شَهِدَ﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مِنكُمُ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿شَهِدَ﴾؛ تقديره: حال كونه كائناً منكم ﴿ٱلشَّهۡرَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بـ﴿شَهِدَ﴾ ﴿فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية. ﴿اللام﴾: لام الأمر. ﴿يصم﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، و﴿الهاء﴾: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾. الواو: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص في محل الجزم بـ﴿من﴾، واسمها ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مَرِيضًا﴾: خبرها. ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف وتقسيم ﴿عَلَىٰ سَفَرٖ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف معطوف على ﴿مَرِيضًا﴾؛ تقديره: أو عازماً على إتمام سفر. ﴿فَعِدَّةٞ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية. ﴿عدة﴾: مبتدأ، خبره محذوف؛ تقديره: فعدة ما أفطر واجب عليه. ﴿مِّنۡ أَيَّامٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿عدة﴾؛ تقديره: فعدة كائنة من أيام أخر. ﴿أُخَرَۗ﴾: صفة لـ﴿أَيَّامٍ﴾ مجرور بالفتحة للوصفية والعدل، والجملة من المبتدأ والخبر المحذوف في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من شهد منكم الشهر﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ٱلۡيُسۡرَ﴾: مفعول به. ﴿وَلَا يُرِيدُ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾. ﴿بِكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُرِيدُ﴾. ﴿ٱلۡعُسۡرَ﴾: مفعول به. ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لتكملوا﴾: ﴿اللام﴾: لام كي. ﴿تكملوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام

كي. ﴿ٱلْعِدَّةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي تقديره: ولإكمالكم العدة الجار والمجرور معطوف على علة محذوفة لمعلول محذوف؛ تقديره: وإنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر وأمركم بالقضاء؛ لإرادته بكم اليسر، ولإكمالكم عدة شهر رمضان.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟﴾ الواو: عاطفة. ﴿لتكبروا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تكبّروا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل؛ تقديره: ولتكبيركم الله، والجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾. ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾: ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر وتعليل. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿هَدَىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰ﴾ التعليلية تقديره: لهدايته إياكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿كبروا﴾. ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لعل﴾: حرف ترج ونصب ﴿الكاف﴾: في محل النصب اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾: في محل الرفع خبرها تقديره: ولعلكم شاكرون، وجملة ﴿لعل﴾: في محل الجر معطوفة على جملة؛ قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ تقديره: ولتكبيركم إياه لهدايته إياكم، ولشكركم إياه على رخصته.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾ اعتراضية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿سَأَلَكَ﴾: فعل ومفعول ﴿عِبَادِى﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿عَنِّى﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سأل﴾، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها

فعل شرط لها، والظرف بمتعلق بالجواب ﴿فَإِنِّي﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿إن﴾: حرف توكيد ونصب و﴿الياء﴾: اسمها. ﴿قَرِيبٌ﴾: خبر أول لها، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول لمحذوف هو جواب؛ تقديره: فقل لهم: إني قريب أجيب وجملة ﴿إذا﴾ جملة معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين مباحث الصيام. ﴿أُجِيبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة في محل الرفع خبر ثان لـ﴿إني﴾؛ تقديره: مجيب. ﴿دَعْوَةَ﴾: مفعول به وهو مضاف. ﴿ٱلدَّاعِ﴾: مضاف إليه مجرور وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة للتخفيف منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص. ﴿إِذَا دَعَانِ﴾: ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية. ﴿دَعَانِ﴾: ﴿دعا﴾: فعل ماض. و﴿النون﴾: للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة للتخفيف في النصب مفعول به، وفاعله ضمير يعود إلى ﴿ٱلدَّاعِ﴾، والجملة من الفعل والفاعل في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بـ﴿أُجِيبُ﴾؛ تقديره: أجيب دعوة الداعي وقت دعوته إياي. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفت أني أجيب دعوتهم، وأردت بيان ما هو اللازم لهم.. فأقول لك: ﴿اللام﴾: لام الأمر. ﴿يستجيبوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر. ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَلْيُؤْمِنُوا﴾: الواو: عاطفة. ﴿اللام﴾: لام الأمر. ﴿يؤمنوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر. ﴿بِي﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يستجيبوا﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾: ﴿لعل﴾: حرف نصب وتعليل. و﴿الهاء﴾: اسمها، وجملة ﴿يَرْشُدُونَ﴾: خبرها؛ تقديره: لعلهم راشدون، وجملة ﴿لعل﴾: في محل الجر بلام التعليل المقدرة؛ تقديره: وليؤمنوا بي لرشادهم؛ أي: لنيل رشادهم وفوز هدايتهم.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾.

﴿أُحِلَّ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿أُحِلَّ﴾. ﴿ٱلرَّفَثُ﴾: نائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱلرَّفَثُ﴾: ﴿هُنَّ﴾: مبتدأ. ﴿لِبَاسٌ﴾: خبر، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة ﴿لِبَاسٌ﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو: عاطفة. ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿لِبَاسٌ﴾: خبر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾. ﴿لَّهُنَّۗ﴾: جار ومجرور صفة ﴿لِبَاسٌ﴾. ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أنكم﴾: ﴿أنّ﴾: حرف نصب ومصدر و﴿الكاف﴾ في محل النصب اسمها. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تَخْتَانُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿أَنفُسَكُمْ﴾: مفعول ومضاف إليه، والجملة من الفعل والفاعل في محل النصب خبر ﴿كان﴾؛ تقديره: مختانين أنفسكم، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ تقديره: أنكم مختانون أنفسكم، وجملة ﴿أنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر سادٍّ مسد مفعولي علم تقديره: علم الله اختيانكم؛ أي: خيانتكم أنفسكم. ﴿فَتَابَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿تاب﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَلِمَ﴾، أو معطوفة على محذوف؛ تقديره: فتبتم فتاب عليكم. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تاب﴾، ﴿وَعَفَا﴾: الواو: عاطفة. ﴿عَفَا﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تاب﴾ ﴿عَنكُمْۖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عفاً﴾.

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾.

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أن الله تاب عليكم وعفا عنكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول: الآن باشروهن. ﴿الآن﴾: ظرف للزمان الحاضر في محل النصب على الظرفية متعلق بـ﴿بَـٰشِرُوهُنَّ﴾. ﴿بَـٰشِرُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱبْتَغُوا۟﴾: الواو: عاطفة. ﴿وَٱبْتَغُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَـٰشِرُوهُنَّ﴾.

﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: ما كتبه الله لكم.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

﴿وَكُلُوا﴾: الواو: عاطفة. ﴿كلوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾. ﴿وَاشْرَبُوا﴾: الواو: عاطفة. ﴿اشربوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾. ﴿حَتَّى﴾: حرف جر وغاية بمعنى ﴿إلى﴾. ﴿يَتَبَيَّنَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى ﴿إلى﴾. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿الْخَيْطُ﴾: فاعل. ﴿الْأَبْيَضُ﴾: صفة له. ﴿مِنَ الْخَيْطِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَبَيَّنَ﴾. ﴿الْأَسْوَدِ﴾: صفة للخيط. ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾؛ تقديره: حالة كون الخيط الأبيض كائناً من الفجر، وجملة ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ صلة أن المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّى﴾ بمعنى ﴿إلى﴾؛ تقديره: إلى تبين الخيط الأبيض من الفجر من الخيط الأسود، الجار والمجرور تنازع فيه كلوا واشربوا.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾. ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَتِمُّوا﴾. ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾: الواو: استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تُبَاشِرُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ﴾ الواو: حالية. ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿عَاكِفُونَ﴾: خبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تُبَاشِرُوهُنَّ﴾. ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَاكِفُونَ﴾. ﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ. ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: تنبهوا فلا تقربوها ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقْرَبُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بلا الناهية، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: بياناً كائناً كذلك. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُبَيِّنُ﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجٍّ ونصب، و﴿الهاء﴾: اسمها، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: خبرها. وجملة ﴿لعل﴾: في محل الجر بـ﴿لام﴾ التعليل المقدرة المتعلقة بـ﴿يُبَيِّنُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ﴾ الفدية: مصدرُ فدى يفدي فِدْيَةً وفِداءً، والهاء فيها لا تدل على المرة الواحدة، بل هي للتأنيث فقط، وطعام: اسم مصدر لأطعم يطعم إطعاماً وطعاماً، فهو هنا بمعنى الإطعام كالعطاء بمعنى الإعطاء، ويضعف[1] أن يكون الطعام هنا بمعنى المطعوم؛ لأنه أضافه إلى المسكين، وليس الطعام للمسكين قبل تملكه إياه، فلو حمل على ذلك.. لكان مجازاً؛ لأنه يكون تقديره: فعليه إخراج الطعام يصير للمساكين، ولو حملت الآية على هذا.. لم يمتنع؛ لأن حذف المضاف جائز، وتسمية الشيء بما يؤول إليه جائز.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ والشهر[2] لأهل اللغة فيه قولان:

أشهرهما: أنه اسم لمدة الزمان الذي يكون مبدؤها الهلال ظاهراً إلى أن يستتر، سمي بذلك لشهرته في حاجة الناس إليه من المعاملات.

والثاني: قاله الزجاج اسم للهلال نفسه. و﴿رَمَضَانَ﴾ علم لهذا الشهر المخصوص، وهو علم جنس، وفي تسميته رمضان أقوال:

أحدها: أنه وافق مجيئه في الرمضاء، وهي شدة الحر، فسمي به كربيع لموافقته الربيع، وجمادى لجمود الماء فيه.

وثانيها: أنه يرمض الذنوب؛ أي: يحرقها، بمعنى: يمحوها.

---

(١) أبو البقاء.

(٢) جمل.

وثالثها: أن القلوب ترمض؛ أي: تحترق فيه من الموعظة.

﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾: في الأصل مصدر قرأت، ثم صار علماً لما بين الدفتين، وهو من قرأ بالهمزة إذا جمع؛ لأنه يجمع السور والآيات والحكم والمواعظ، والجمهور علي همزة، وقرأ ابن كثير من غير همز بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، ثم حذفها.

﴿دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾؛ أي: دعاء الداعي لا خصوص المرة، فـ(فعلة) ليست هنا للمرة؛ لأن محل كونها للمرة إذا لم يبن المصدر عليها كضربة، وأما إذا بُني المصدر عليها كرحمة ودعوة: فلا تكون للمرة إلا بذكر الواحدة، كما هو مبين في محله.

والياءان[1] من قوله: ﴿ٱلدَّاعِ﴾ و﴿دَعَانِۖ﴾ من الزوائد عند القراء، ومعنى ذلك أن الصحابة لم تثبت لها صورة في المصحف، فمن القراء من أسقطها تبعاً للرسم، وقفاً ووصلاً، ومنهم من يثبتها في الحالين، ومنهم من يثبتها وصلاً ويحذفها وقفاً. ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾ السين والتاء فيه زائدان بمعنى: فليجيبوا لي، ويكون استفعل فيه بمعنى: أفعل الرباعي، وهو كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾، ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾: إلا أن تعديته في القرآن باللام، وقد جاء في كلام العرب معدى بنفسه، قال الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيْبُ إِلَىٰ ٱلنِّدَا فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيْبُ

أي: فلم يجبه، ونظيره من كلام العرب كاستحصد الزرع بمعنى: أحصد، واستعجل الشيء بمعنى: أعجل، واستقر بمعنى أقر، وكون استفعل بمعنى أفعل هو أحد المعاني التي ذكروها لـ(استفعل).

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ يقال: رَشِدَ[2] رشداً من باب تعب، ورشد يرشد من باب قتل، فهو راشد، والاسم الرشاد ويتعدى بالهمزة، والرشد والرشاد

---

(١) جمل.
(٢) مصباح.

الصلاح، وهو خلاف الغي والضلال، وهو إصابة الصواب.

﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ يقال: رفث في منطقه رفثاً من باب طلب، ويرفِث - بالكسر - لغة: إذا أفحش فيه، أو صرح بما يكنى عنه من ذكر النكاح، والمراد بالرفث هنا: الجماع. ﴿نِسَآئِكُمْۚ﴾ والهمزة[1] في نساء مبدلة من واو، لقولك في معناه نسوة، وهو جمع لا واحد له من لفظه، بل واحدته امرأة، وقيل النساء جمع نسوة، والنسوة جمع امرأة فهو جمع الجمع.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ يقال: تبين الشيء وبان وأبان واستبان كله لازم، وقد يستعمل أبان واستبان وتبين متعديةً.

البلاغة

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ التشبيه في الفرضية لا في الكيفية، وهذا التشبيه يسمى عندهم تشبيهاً مرسلاً مجملاً.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ فيه إظهار في مقام الإضمار؛ ليدل على التنويه به والتعظيم له، وفيه من أنواع المجاز: المجاز اللغوي؛ وهو إطلاق اسم الكل على الجزء، حيث أطلق الشهر وهو اسم للكل، وأراد جزءاً منه.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ فيه من المحسنات البديعية: طباق السلب؛ وهو أن يجمع المتكلم في كلامه بين لفظين يتنافى وجود معناهما معاً في شيء واحد في وقت واحد، وخلاصة هذا الكلام أن طباق السلب: هو ما اختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً بحيث يجمع بين فعلين من مصدر واحد أحدهما مثبت مرة والآخر منفي تارةً أخرى في كلام واحد نحو قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ علة للأمر بمراعاة العدد ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ علة للأمر بالقضاء، وبيان كيفيته. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة للترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسالك، لا يكاد يهتدي إلى تبيينه إلا النقاد من علماء البيان.

---

(١) عكبري.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾؛ أي: عن قربي وبعدي، ففيه مجاز بالحذف.

﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾: ﴿الرفث﴾: الجماع، وعداه بإلى وإن كان أصله التعدية بالباء؛ لتضمينه معنى الافضاء، وحسن اللفظ به هذا التضمين، فصار ذلك قريباً من الكنايات التي جاءت في القرآن من قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ مثلاً.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ جمعت[1] هذه الآية ثلاثة أنواع من البيان: الطباق المعنوي بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ فإنه يقتضي تحريماً سابقاً، فكأنه قيل: أحل لكم ما حرم عليكم، أو ما حرم على من قبلكم، والكناية: بقوله: ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ وهو كناية عن الجماع، والاستعارة البديعة بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ فإنه شبه[2] كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق والضم باللباس المشتمل على لابسه؛ أي: كالفراش واللحاف، وحاصله أنه تمثيل لصعوبة اجتنابهن وشدة ملابستهن، أو لستر أحدهما الآخر عن الفجور.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ فيه مجازان[3]؛ لأنه شبه بالخيط الأبيض ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وبالأسود ما يمتد معه من غبش الليل وظلامه، شبها بخيطين أبيض وأسود، وأخرجه من الاستعارة إلى التشبيه قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ كقولك: رأيت أسداً من زيد، فلو لم يذكر من زيد كان استعارة، وكان التشبيه هنا أبلغ من الاستعارة؛ لأن الاستعارة لا تكون إلا حيث يدل عليها الحال أو الكلام، وهنا لو لم يأت من الفجر.. لم يعلم الاستعارة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

(٢) جمل.

(٣) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ
ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ
وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ
ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا
عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا
تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى(١): ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة: وذلك أن من يعبد الله تعالى بالصيام، فحبس نفسه عما تعوده من الأكل والشرب والمباشرة بالنهار، ثم حبس نفسه بالتقييد لها في مكان تعبد الله تعالى صائماً له ممنوعاً من اللذة الكبرى بالليل والنهار، جدير أن لا يكون مطعمه ومشربه إلا من الحلال الخالص الذي ينور القلب، ويزيده بصيرة، ويفضي به إلى الاجتهاد في العبادة.. فلذلك نهى عن أكل الحرام الذي يمضي به إلى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة: وهي أن ما قبلها من الآيات نزلت في الصيام، وأن صيام رمضان مقرون برؤية الهلال، وكذلك الإفطار في شهر شوال، ولذلك قال ﷺ: «صوموا لرؤيته

---

(١) البحر المحيط.

وأفطروا لرؤيته».

وكان أيضاً قد تقدم كلام في شيء من أعمال الحج، وهو الطواف والحج أحد الأركان التي بني عليها الإسلام، وكان قد مضى الكلام في توحيد الله تعالى، وفي الصلاة والزكاة والصيام، فأتى بالكلام على الركن الخامس وهو الحج، ليكون قد كملت الأركان التي بُني الإسلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما ذكر أن الأهلة مواقيت للحج.. استطرد إلى ذكر شيء كانوا يفعلونه في الحج زاعمين أنه من البر، فبين لهم أن ذلك ليس من البر، وإنما جرت العادة به قبل الحج أن يفعلوه في الحج، ولما ذكر سؤالهم عن الأهلة بسبب النقصان والزيادة، وما حكمة ذلك، وكان من المعلوم أنه تعالى حكيم فأفعاله جارية على الحكمة.. رد عليهم بأن ما يفعلونه من إتيان البيوت من ظهورها إذا أحرموا ليس من الحكمة في شيء، ولا من البر، ولما وقعت القصتان في وقت واحد.. نزلت الآية فيهما معاً، ووصل إحداهما بالأخرى.

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمّا أمرهم بالتقوى، وكان أشد أقسام التقوى وأشقها على النفس قتال أعداء الله.. أمر به، فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والظاهر أن المقاتلة في سبيل الله هي الجهاد في الكفار لإظهار دين الله وإعلاء كلمته، وأكثر علماء التفسير أنها أول آية نزلت في الأمر بالقتال، أمر فيها بقتال من قاتل والكف عمن كف، فهي ناسخة لآية الموادعة.

أسباب النزول

قوله تعالى[1]: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟...﴾ أخرج بن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير

(١) لباب النقول.

قال: إن امرىء القيس بن عابس الكندي وعبدان بن الأشوع الحضرمي اختصما في أرض، وأراد امرؤ القيس أن يحلف، ففيه نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ . . .﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ . . .﴾ أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية.

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر من طريق السدي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنم قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق، حتى يعود كما كان، ولا يكون على حال واحد كالشمس؟ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ . . .﴾.

قوله تعالى[1]: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا . . .﴾ روى البخاري عن البراء ـ رضي الله عنه ـ نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجّوا فجاؤوا . . لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه، فكأنه عُيِّر بذلك، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ . . .﴾ أخرج[2] الواحدي من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صُدَّ من البيت الحرام . . صالحه المشركون على أن يرجع عامه ذلك، ثم يرجع من العام المقبل، فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي قريش بذلك، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام . . فأنزل الله ذلك.

---

(١) البخاري.
(٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ . . .﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال: أقبل نبي الله ﷺ وأصحابه معتمرين في ذي القعدة، ومعهم الهدي، حتى إذا كانوا بالحديبية.. صدهم المشركون، وصالحهم النبي ﷺ على أن يرجع من عامه ذلك، ثم يرجع من العام المقبل، فلما كان العام المقبل.. أقبل هو وأصحابه حتى دخلوا مكة معتمرين في ذي القعدة، فأقام بها ثلاث ليال، وكان المشركون قد فخروا عليه حين ردوه، فأقصه الله منهم، فأدخله مكة في مثل ذلك الشهر الذي كانوا ردوه فيه، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ . . .﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ . . .﴾ أخرج البخاري عن حذيفة: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ﴾ قال نزلت في النفقة.

وأخرج أبو داود والترمذي، وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهم، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه.. قال بعضنا لبعض سراً: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ أي: لا يأخذ بعضكم مال بعض بالطريق الحرام شرعاً كالنهب والغصب واللهو كالقمار، وأجرة المغني، وثمن الخمر والملاهي، والرشوة وشهادة الزور، والخيانة في الأمانة، وذلك لأن الله قدر لكلٍّ رزقه، فلا يتسع بالباطل، ولا يضيق بالحق. ﴿و﴾ لا ﴿تدلوا﴾ عطف على المنهي، وقرأ أبي: (ولا تدلوا) بإعادة لا الناهية؛ أي: ولا تلقوا ﴿بِهَآ﴾؛ أي: بحكومتها؛ أي: لا تسرعوا ولا تبادروا بالخصومة على الأموال ﴿إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾؛ أي: إلى الولاة ليعينوكم على إبطال حق، أو تحقيق باطل ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾؛ أي: تأخذوا بالتحاكم إليهم ﴿فَرِيقٗا﴾؛ أي: قطعة وجملة ﴿مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ وسماها

فريقاً؛ لأنها تفرق بين الناس، وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير: لتأكلوا أموال فريق من الناس ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾؛ أي: بالظلم والعدوان، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ باليمين الكاذبة، وقيل: بشهادة الزور ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: حال كونكم عالمين أن ذلك باطل ليس من الحق في شيء فالإقدام على القبيح مع العلم بقبحه أقبح، وصاحبه بالتوبيخ أحق.

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضهم ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها» متفق عليه.

ويستفاد من الآية: أن أكل أموال الناس بالوجه الباطل حرام، فأكله[١] بالباطل على وجوه:

الأول: أن يأكله بطريق التعدي والنهب والغصب.

الثاني: أن يأكله بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغني، وثمن الخمر والملاهي ونحو ذلك.

الثالث: أن يأكله بطريق الرشوة في الحكم، وشهادة الزور.

الرابع: الخيانة، وذلك في الوديعة والأمانة ونحو ذلك، وإنما عبر عن أخذ المال بالأكل؛ لأنه المقصود الأعظم، ولهذا وقع في التعارف: فلان يأكل أموال الناس؛ بمعنى: يأخذها بغير حلها.

ولما سأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريان رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد حتى يمتلىء نوراً، ثم لا يزال ينقص حتى يعود دقيقاً كما بدأ، ولا يكون على حالة واحدة كالشمس؟ نزل قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾؛ أي: يسألك الناس يا محمد ﴿عَنِ﴾ حكمة اختلاف ﴿ٱلۡأَهِلَّةِ﴾ بالزيادة والنقصان لماذا؟ وقرأ[٢] الجمهور ﴿عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ﴾ بكسر النون

---

(١) الخازن.   (٢) البحر المحيط.

وإسكان لام الأهلة بعدها همزة وورش على أصله من نقل حركة الهمزة وحذف الهمزة، وقرىء شاذاً بإدغام نون عن في لام الأهلة بعد النقل والحذف، و﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال، وهو اسم لما يبدو أول الشهر، ويسمى بالهلال ليلتين أو ثلاثاً، وبعد ذلك يسمى: قمراً، وسمي هلالاً؛ لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته، وإنما جمعها نظراً إلى هلال كل شهر، أو كل ليلة تنزيلاً لاختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذوات.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هِيَ﴾؛ أي: الأهلة ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: علامات لأوقات أغراض الناس الدينية والدنيوية ﴿و﴾ علامات لأوقات ﴿الحج﴾؛ يعني أن الحكمة في زيادة القمر ونقصانه: زوال الالتباس عن أوقات أغراض الناس في متاجرهم وآجال ديونهم وعدد نسائهم، وأيام حيضهن، وأجور أجرائهم، ومدد حواملهم، وصومهم وفطرهم، وأوقات زرعهم، ودخول وقت الحج وخروجه، وإنما أفرد الحج بالذكر مع دخوله في بقية الأغراض.. اعتناء بشأنه من حيث أن الوقت أشد لزوماً له من بقية العبادات: وذلك لأنه لا يصح فعله أداء ولا قضاء إلا في وقته المعلوم، وأما غيره من العبادات، فلا يتقيد قضاؤه بوقت أدائه، وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلْحَجِّ﴾ بفتح الحاء، وقرأ ابن أبي إسحاق ـ شذوذاً ـ بكسرها في جميع القرآن.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ﴾ والخير ﴿بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ﴾ وتدخلوا في حال الإحرام. ﴿مِن ظُهُورِهَا﴾ وسطوحها وخلفها كما فعلوا ذلك في الجاهلية وصدر الإسلام، فكان[1] الرجل إذا أحرم بالعمرة أو الحج.. لم يحل بينه وبين السماء شيء، فإن كان من أهل المدر.. نقب نقباً في ظهر بيته يدخل منه، أو يتخذ سلماً ليصعد، وإن كان من أهل الوبر.. دخل وخرج من خلف الخباء، ولا يدخل ولا يخرج من الباب، وكان إذا عرضت له حاجة في بيته.. لا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف الباب مخافة أن يحول بينه وبين السماء شيء، فيفتح الجدار من

---

(١) خازن.

ورائه، ثم يقف في صحن داره، فيأمر بحاجته.

ووجه[1] اتصال هذا الكلام بالسؤال عن الأهلة والجواب عنه: أنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال القمر، وعن حكم دخولهم بيوتهم من غير أبوابها.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ بر ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ محارم الله ومخالفة أمره كالصيد، وتوكل على الله في جميع أموره، وقرأ نافع وابن عامر بتخفيف لكنْ ورفع البرُ، والباقون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ بالتشديد والنصب، ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ﴾ جمع بيت ككعب وكعوب، وقرىء بضم الباء وكسرها؛ أي: وادخلوا بيوتكم في حالة الإحرام ﴿مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾ التي كنتم تدخلونها وتخرجون منها قبل ذلك؛ إذ ليس في العدول عنها بر، فباشروا الأمور من وجوهها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا الله في تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تفوزوا بالخير في الدين والدنيا، والنعيم السرمدي في الآخرة، أو لكي تنجوا من السخط والعذاب.

﴿وَقَٰتِلُواْ﴾؛ أي: جاهدوا أيها المهاجرون، والخطاب للمهاجرين كما قاله ابن جرير ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعته وطلب رضوانه في الحل والحرم لإعلاء كلمته وإعزاز دينه. وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.. فهو في سبيل الله». ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾؛ أي: الذين يبدؤونكم بالقتال من الكفار؛ يعني: قريشاً، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ﴾ عليهم ولا تظلموا بإبتداء القتال في الحرم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: لا يريد الخير بالمتجاوزين الحد بمخالفة أمره ونهيه، وهذا منسوخ بآية براءة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾، أو بقوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: في أي محل وجدتموهم فيه من الحل والحرم وإن لم يبدؤوكم ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ﴾؛ يعني: من مكة، وقد فعل بهم رسول الله ﷺ ذلك

(١) البحر المحيط.

القتل والإخراج بمن لم يسلم منهم عام الفتح.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾؛ أي: شركهم بالله وعبادة الأوثان في الحرم وصدهم لكم عنه ﴿أَشَدُّ﴾؛ أي: أشر وأقبح. ﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾؛ أي: من قتلكم إياهم في الحرم الذي استعظمتموه، وإنما[1] كان الشرك أعظم من القتل؛ لأن الشرك بالله ذنب يستحق صاحبه الخلود في النار، وليس القتل كذلك، والكفر يخرج صاحبه من الأمة، وليس القتل كذلك، فثبت أن الفتنة أشد من القتل، وهذه الجملة جواب عن سؤال مقدر؛ تقديره: إن خفتم أن تقاتلوهم في الشهر الحرام وراعيتم حرمة الشهر والإحرام والحرم.. فالشرك الذي حصل منهم الذي فيه تهاون برب الحرم أبلغ، أو المعنى: والمحن التي يفتتن بها الإنسان كالإخراج من الوطن أشد؛ أي: أصعب من القتل، لدوام تعبها وبقاء تألم النفس بها.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ﴾؛ أي: لا تبدؤوهم بالقتال ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: في الحرم ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: حتى يبدؤوكم بالقتال فيه؛ أي: في الحرم ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾؛ أي: فإن بدؤوكم بالقتال في الحرم ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾؛ أي: فقاتلوهم فيه ولا تبالوا بقتالهم فيه؛ لأنهم الذين هتكوا حرمته، فاستحقوا أشد العذاب، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن قتلوكم﴾ كله بغير ألف؛ والمعنى: حتى يقتلوا بعضكم، كقولهم: قتلنا بنو أسد.

واختلف العلماء في هذه الآية[2] هل هي محكمة أم لا؟ فذهب مجاهد في جماعة من العلماء إلى أنها محكمة، وأنه لا يحل أن يقاتل في المسجد الحرام إلا من قاتل فيه وثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «إن مكة لا تحل لأحد قبلي ولا لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ثم عادت حراماً إلى يوم القيامة». فثبت بهذا تحريم القتال في الحرم إلا أن يُقَاتَلوا فيقَاتِلوا، ويكون دفعاً لهم.

---

(١) خازن.

(٢) خازن.

وذهب قتادة إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله سبحانه: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فأمر بقتالهم في الحل والحرم، وقيل: إنها منسوخة بقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا الجزاء الواقع منكم بالقتل والإخراج ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم من المؤمنين.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ عن قتالكم ودخلوا في الإسلام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ما سلف منهم من الكفر ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بقبول توبتهم وإيمانهم بعد كفرهم وقتالهم.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾؛ أي: وبادئوا المشركين بالقتال في الحل والحرم ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: حتى يسلموا ولا يوجد شرك، ﴿و﴾ حتى ﴿يكون الدين﴾ كله والعبادة خالصاً ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ليس للشيطان فيه نصيب ولا يعبد في الحرم وغيره إلا الله، وترك[1] هنا ﴿كله﴾ وذكره في الأنفال؛ لأن القتال هنا مع أهل مكة فقط، وثم مع جميع الكفار فناسب ذكره، ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ وانزجروا وانكفوا عن الكفر وقتالكم في الحرم.. فلا تعتدوا عليهم، دل عليهم ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾؛ أي: فلا اعتداء بقتل أو غيره؛ أي: فلا سبيل لكم بالقتل ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: على المبتدئين بالقتل، أو المعنى: فإن انتهوا عن الأمر الذي يوجب قتالهم، وهو إما كفرهم، أو قتالهم.. فلا قتل إلا على الذين لا ينتهون عن الكفر، فإنهم بإصرارهم على كفرهم ظالمون أنفسهم، وسمي جزاء الظالمين ظلماً للمشاكلة.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ الذي دخلت فيه - يا محمد - لقضاء العمرة؛ وهو ذو القعدة من السنة السابعة، وسمي بالحرام لحرمة القتال فيه مقابل ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الذي صدوك فيه عن دخول مكة؛ وهو ذو القعدة من السنة السادسة؛ أي: من استحل دمكم من المشركين في الشهر الحرام.. فاستحلوه فيه؛ أي: إن قاتلوكم فيه فقاتلوهم فيه ﴿وَالْحُرُمَاتُ﴾ جمع حرمة؛ وهي ما يجب احترامه، وقرأ الحسن شذوذاً: ﴿والحرْمات﴾ بإسكان الراء على الأصل؛ إذ هو جمع حرمة، والضم في

---

(١) كرخي.

الجمع إتباع؛ أي: الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام. ﴿قِصَاصٌ﴾؛ أي: يجري فيه قصاص وبدل؛ أي: فكما هتكوا حرمة شهركم بالصد والقتال.. فافعلوا بهم مثله، وادخلوا عليهم عنوة فاقتلوهم إن قاتلوكم، ولا تبالوا بالحرمات كما قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾؛ أي: تعدى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالقتال في الحرم أو الإحرام، أو الشهر الحرام ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾؛ أي: جازوه ﴿بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: بعقوبة مثل الجناية التي اعتدى عليكم بها، سمي المجازاة اعتداء للمشاكلة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فمن اعتدى عليكم فقابلوه وجازوه بمثل ما اعتدى عليكم به ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا الله في الانتصار ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لم يرخص لكم فيه. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالنصر والحفظ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

والحاصل: أنه لما أباح لهم الاقتصاص بالمثل، وشأن النفس حب المبالغة في الانتقام.. حذرهم من ذلك فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وابذلوا أموالكم وأنفسكم في طاعة الله ومراضيه سواء الجهاد وغيره، فالإنفاق[1]: صرف المال في وجوه المصالح الدينية، كالإنفاق في الحج والعمرة، وصلة الرحم والصدقة، وفي الجهاد وتجهيز الغزاة، وعلى النفس والعيال وغير ذلك مما فيه قربة إلى الله تعالى؛ لأن كل ذلك مما هو في سبيل الله، لكن إذا أطلقت هذه اللفظة.. انصرفت إلى الجهاد ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: ولا توقعوا ولا تطرحوا أنفسكم ﴿إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾؛ أي: إلى الهلاك، وعبر بالأيدي عن الأنفس اكتفاء بالجزء الأهم؛ لأن بها البطش والحركة؛ أي: لا تلقوا أنفسكم إلى الهلاك بالإسراف وتضييع وجه المعاش، أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه؛ لأن به يقوى العدو، وتكثر المصائب في الدين والذل لأهله كما هو مشاهد، ومن أنفق أمواله ونفسه في سبيل الله.. فقد ألقى نفسه إلى العز الدائم في الدنيا والآخرة.

---

(١) خازن.

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾ أعمالكم وأخلاقكم، أو أحسنوا في الانفاق على من تلزمكم مؤنته بأن يكون ذلك الإنفاق وسطاً، فلا تسرفوا ولا تقتروا، أو أحسنوا الظن بالله في الإخلاف عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: يريد بهم الخير ويثيبهم على إحسانهم.

الإعراب

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١٨٨﴾.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَأۡكُلُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿أَمۡوَٰلَكُم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿بَيۡنَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿تَأۡكُلُوٓاْ﴾، وعبارة[1] «السمين» هنا قوله: ﴿بَيۡنَكُم﴾: في هذا الظرف وجهان:

أحدهما: أن يتعلق بـ﴿تَأۡكُلُوٓاْ﴾ بمعنى لا تتناولوها فيما بينكم بالأكل.

والثاني: أنه متعلق بمحذوف؛ لأنه حال من ﴿أَمۡوَٰلَكُم﴾؛ أي: لا تأكلوها كائنة بينكم.

﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَأۡكُلُوٓاْ﴾، وفي «السمين»[2] قوله ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: تعلقه بالفعل؛ أي: لا تأخذوها بالسبب الباطل.

والثاني: أن يكون حالاً فيتعلق بمحذوف، ولكن في صاحبها احتمالان:

أحدهما: أنه المال، كأن المعنى لا تأكلوها متلبسة بالباطل.

والثاني: أنه الضمير في تأكلوا، كأن المعنى لا تأكلوها مبطلين؛ أي: متلبسين بالباطل.

---

(١) جمل. (٢) جمل.

﴿وَتُدْلُوا﴾: الواو: عاطفة. ﴿تدلوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَأْكُلُوٓا﴾ مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿بِهَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تدلوا﴾. ﴿إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تدلوا﴾ أيضاً. ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تأكلوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿فَرِيقًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ﴿فَرِيقًا﴾؛ تقديره: فريقاً كائناً من أموال الناس، وجملة ﴿تَأْكُلُوٓا﴾ صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿لام﴾ التعليل؛ تقديره: لأكلكم فريقاً ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿تدلوا﴾. ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾، وعبارة «السمين» قوله: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: يحتمل أن تكون ﴿الباء﴾ سببية، فتتعلق بقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾، وأن تكون للمصاحبة؛ فتكون حالاً من الفاعل في ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾، وتتعلق بمحذوف؛ أي: لتأكلوا ملتبسين بالإثم. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: حالية، ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾، وذلك على رأي من يجيز تعدد الحال، وأما من لا يجيز تعدده: فيجعل ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ غير حال.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يسألون﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هِىَ﴾، مبتدأ. ﴿مَوَٰقِيتُ﴾: خبر، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿مَوَٰقِيتُ﴾؛ تقديره: كائنات للناس. ﴿وَٱلْحَجِّ﴾: معطوف على ﴿ٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

﴿وَلَيْسَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿ليس البرُّ﴾. فعل ناقص واسمه. ﴿بِأَن تَأْتُوا۟﴾: ﴿الباء﴾: زائدة. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَأْتُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿ٱلْبُيُوتَ﴾: مفعول به. ﴿مِن ظُهُورِهَا﴾: جار ومجرور

ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَأْتُوا﴾، وجملة ﴿تَأْتُوا﴾ صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿ليس﴾ تقديره: وليس البر إتيانكم البيوت من ظهورها، وجملة ﴿ليس﴾ مستأنفة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لكن﴾ حرف نصب واستدراك. ﴿ٱلْبِرَّ﴾: اسمها ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، ولكنه على حذف مضاف؛ تقديره: ولكن البرَّ برُّ من اتقى كما مر في الحل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ليس البر﴾. ﴿ٱتَّقَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَأْتُوا۟﴾: الواو: عاطفة، ﴿أتوا البيوت﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾. ﴿مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أتوا﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: ﴿لعل﴾: حرف نصب وتعليل، والكاف: اسمها، وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بـ﴿لام﴾ التعليل المقدرة المتعلقة بـ﴿أتقوا﴾؛ تقديره: واتقوا الله؛ لفوزكم وفلاحكم.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿قاتلوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قاتلوا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَعْتَدُوٓا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿قاتلوا﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾

اسمها ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ الواو: استئنافية، ﴿اقتلوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: و﴿وَقَٰتِلُوا۟﴾. ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ﴿اقتلوهم﴾. ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾. ﴿وَأَخْرِجُوهُم﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿أخرجوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾. ﴿مِّنْ حَيْثُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أخرجوا﴾. ﴿أَخْرَجُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾. ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾: الواو: اعتراضية. ﴿الفتنة﴾: مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبر. ﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾: متعلق به، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ﴾: الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تقاتلوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾، مؤكدة لها ومفسرة. ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ﴾: ظرف ومضاف إليه. ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾، والظرف متعلق بـ﴿تُقَٰتِلُوهُمْ﴾. ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾: ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُقَٰتِلُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾؛ تقديره: إلى مقاتلتهم إياكم، الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ﴾.

﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم حكم ما إذا لم يقاتلوكم، وأردتم بيان حكم ما إذا قاتلوكم.. فأقول: إن قاتلوكم، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿قَٰتَلُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿اقتلوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿جَزَآءُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. مضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿فَإِنِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفت حكم ما إذا قاتلوا، وأردت بيان حكم ما إذا انتهوا.. فأقول لك: إن انتهوا، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿ٱنتَهَوْا۟﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل الشرط. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة إنَّ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ الواو: استئنافية، ﴿قاتلوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع تام منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة. ﴿فِتْنَةٌ﴾: فاعل، والجملة صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى المتعلقة بـ﴿قاتلوهم﴾؛ تقديره: وقاتلوهم إلى عدم فتنة وشرك. ﴿وَيَكُونَ﴾: الواو: عاطفة، ﴿يكون﴾: فعل مضارع معطوف على تكون، منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة، ولكن يصح كونها ناقصة وتامة، وعلى كونها ناقصة: ﴿ٱلدِّينُ﴾: اسمها. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق

بمحذوف خبر ﴿يكون﴾؛ تقديره: ويكون الدين خالصاً لله، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿لَا تَكُونَ﴾ تقديره: وقاتلوهم إلى عدم فتنة، وإلى كون الدين خالصاً لله.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَإِنِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفت وجوب مقاتلتهم إلى عدم الفتنة، وأردت بيان حكم ما إذا انتهوا.. فأقول لك: إن انتهوا، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿انتَهَوْا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن وجوباً. ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿عُدْوَانَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾؛ تقديره: فلا عدوان كائن إلا على الظالمين، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

﴿الشَّهْرُ﴾: مبتدأ. ﴿الْحَرَامُ﴾: صفة له. ﴿بِالشَّهْرِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿الْحَرَامِ﴾: صفة للشهر مجرور؛ والتقدير: الشهر الحرام مقابل الشهر الحرام، والجملة مستأنفة. ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ على كونها مستأنفة.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿فَمَنِ﴾: ﴿الفاء﴾: تفريعية، وهي التي كان ما قبلها علة لما بعدها. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط على الراجح. ﴿اعْتَدَىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اعْتَدَىٰ﴾. ﴿فَاعْتَدُوا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية؛ لكون الجواب

جملة طلبية، ﴿اعتدوا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾؛ لأنها مفرعة عليها. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اعتدوا﴾. ﴿بِمِثْلِ﴾: جار ومجرور متعلق أيضاً بـ﴿أعتدوا﴾.

وعبارة «السمين»[1] في هذه ﴿الباء﴾ قولان:

أحدهما: أن تكون غير زائدة، بل تكون متعلقة بـ﴿اعتدوا﴾، والمعنى: بعقوبة مثل جناية اعتدائه.

والثاني: أنها زائدة؛ أي: مثل اعتدائه، فيكون نعتاً لمصدر محذوف، أي: اعتداء مماثلاً لاعتدائه، و(ما) يجوز أن تكون مصدرية، فلا تفتقر إلى عائد، وأن تكون موصولة، فيكون العائد محذوفاً، أي: بمثل ما اعتدى عليكم به، وجاز حذفه؛ لأن المضاف إلى الموصول قد جر بحرف جر، وبه العائد، واتحد المتعلقان. انتهى.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة مستأنفة. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾: الواو: عاطفة، ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿اتقوا﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿ٱللَّهَ﴾. اسمها. ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر سادٌّ مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾؛ تقديره: واعلموا كون الله مع المتقين.

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

﴿وَأَنفِقُوا۟﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿انفقوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أنفقوا﴾. ﴿وَلَا تُلْقُوا۟﴾

---

(١) جمل.

الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُلْقُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَأَنفِقُوا﴾. ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿أيديكم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُلْقُوا﴾.

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿أحسنوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أنفقوا﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾. ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿يُحِبُّ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بـ﴿لام﴾ التعليل المقدرة؛ تقديره: وأحسنوا لمحبة الله المحسنين؛ أي: لطلب محبته إياكم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿الباطل﴾: اسم فاعل من بطل الشيء يبطل بطولاً فهو باطل؛ أي: زائل ذاهب، والمراد هنا الطريق الحرام كالنهب والغصب ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ يقال: أدلى الدلو في البئر إذا أرسلها فيه؛ فهو من الرباعي المزيد، والمراد بالإدلاء هنا: المبادرة إلى الحكام بالخصومة، أو بالرشوة ليحكم له بالباطل.

﴿الْأَهِلَّةِ﴾: جمع هلال، وهو القمر أول ما يراه الناس ليلة أو ليلتين أو ثلاثاً كما مر، ثم يكون قمراً، ثم بدراً حين تكامل نوره، وأصل الأهلة: أهللة، نقلت كسرة اللام الأولى إلى الساكن قبلها، ثم أدغمت في اللام الأخرى، وهو جمع مقيس في فعال المضعف نحو عِنَان وأَعِنَّة، وشذ فيه (فعل) قالوا: عنن في عنان، وحجج في حجاج. ﴿مَوَاقِيتُ﴾: جمع ميقات، أصله: موقات قلبت ﴿الواو﴾ ياء لسكونها إثر كسرة، وهو الوقت كالميعاد بمعنى الوعد، وقيل: الميقات منتهى الوقت.

والفرق[1] بين الوقت والمدة والزمان: أن المدة المطلقة: امتداد حركة

(١) كرخي.

الفلك من مبدئها إلى منتهاها. والزمان: مدة منقسمة إلى الماضي والحال والمستقبل، والوقت: الزمان المفروض لأمر.

﴿بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ﴾ البيوت[1] يقرأ: بضم الباء، وهو الأصل في الجمع على فعول، والمعتل كالصحيح، وإنما ضم أول هذا الجمع ليشاكل ضمة الثاني والواو بعده. ويقرأ بكسر الباء؛ لأن بعده ياء، والكسرة من جنس الباء، ولا يستثقل بالخروج من كسر إلى ضم؛ لأن الضمة هنا في الياء، والياء مقدرة بكسرتين، فكانت الكسرة في الياء كأنها وليت كسرة، وهكذا الخلاف في العيون والجيوب والشيوخ، ومن هنا جاز في التصغير الكسر، فيقال في بيت: بييت.

﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ يقال: ثقُف الرجل ـ من باب ظرُف ـ إذا صار حاذقاً خفيفاً، فهو ثَقف مثل ضخُم فهو ضخم، ومنه الثقافة. وثقف من باب طرب لغةٌ فيه، فهو ثَقِفٌ وثَقُف كعضد، وفي «القاموس»: وثقفه كسمعه إذا أخذه أو ظفر به أو أدركه، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء علماً أو عملاً، وفيه معنى الغلبة.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ وأصل انتهوا: انتهيوا استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان؛ فحذفت الألف وبقيت الفتحة تدل عليها.

﴿وَٱلْحُرُمَـٰتُ﴾: جمع حرمة كالظلمات جمع ظلمة، وإنما جمع الحرمات؛ لأنه أراد الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام، والحرمة ما منع الشرع من انتهاكه.

﴿التهلكة﴾ مصدر[2] لهلك من باب ضرب، وفي «المختار» يقال: هلك الشيء يهلِك ـ بالكسر من باب ضرب ـ هلاكاً وهلوكاً وتهلُكةً بضم اللام، والاسم: الهلك بالضم، قال اليزيدي: التهلكة من نوادر المصادر، ليست مما يجري على القياس، وقيل[3]: التهلكة ما أمكن التحرز منه، والهلاك ما لا يمكنه التحرز منه، وقيل: التهلكة الشيء المهلك، والهلاك حدوث التلف، وقيل:

---

(١) عكبري.

(٢) جمل.

(٣) البحر المحيط.

التهلكة كل ما تصير غايته إلى الهلاك.

البلاغة

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ وقد جعل[1] بعض علماء المعاني هذا الجواب من الأسلوب الحكيم، وهو تلقي المخاطب بغير ما يَترقب مُنَبِّها على أنه الأولى بالقصد، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها، فأجيبوا بالحكمة التي كانت تلك الزيادة والنقصان لأجلها؛ لكون ذلك أولى بأن يقصد السائل، وأحق بأن يتطلع لعلمه. انتهى.

لأنه من الأحكام الظاهرة[2] التي شأن الرسول التصدي لبيانها، وأما سبب اختلافه: فهو من قبيل المغيبات التي لا غرض للمكلف في معرفتها، ولا يليق أن تبين له.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالمراد بالسبيل دين الله؛ لأن السبيل في الأصل الطريق، ففيه استعارة تصريحية أصلية، حيث شبه دين الله بالسبيل بجامع الوصول إلى المقصود في كلٍّ.

﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ المراد به الحرم كله، ففيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء على الكل.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ فيه مجاز بالحذف؛ تقديره: هتك حرمة الشهر الحرام له وقع منكم مقابلٌ بهتك حرمة الشهر الحرام الواقع منهم؛ لأنهم قاتلوا المسلمين في عام الحديبية قتالاً خفيفاً بالرمي بالسهام والحجارة.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ تسمية جزاء العدوان عدواناً من قبيل المشاكلة؛ وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ قال الزجاج: العرب تقول: ظلمني فلان فظلمته؛ أي: جازيته بظلمه.

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فيه مجاز حيث أطلق الأيدي، وأراد الأنفس

---

(١) شوكاني.
(٢) جمل.

من إطلاق الجزء على الكل.

فائدة: وفي تفسير[1] التهلكة أقوال تسعة:

أحدها: ترك الجهاد والإخلاد إلى الراحة وإصلاح الأموال. قاله أبو أيوب.

الثاني: ترك النفقة في سبيل الله خوف العيلة. قاله حذيفة، وابن عباس، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وابن جبير.

الثالث: التقحم في العدو بلا نكاية. قاله أبو القاسم البلخي.

الرابع: التصدق بالخبيث قاله عكرمة.

الخامس: الإسراف بإنفاق كل المال قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾. قاله أبو علي.

السادس: الانهماك في المعاصي ليأسه من قبول توبته. قاله البراء، وعبيدة السلماني.

السابع: القنوط من التوبة. قاله قوم.

الثامن: السفر للجهاد بغير زاد. قاله زيد بن أسلم، وقد فعل ذلك قوم فأداهم إلى الإنقطاع في الطريق، أو إلى كونهم عالة على الناس.

التاسع: إحباط الثواب بالمن والرياء والسمعة، كقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وهذه الأقوال كلها تحتمل هذه الآية، والظاهر أنهم نهوا عن كل ما يؤول بهم إلى الهلاك في غير طاعة الله؛ يعني غير الجهاد.

والله أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ
(١٩٦) ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
(١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (٢٠١) أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٢٠٢) ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

المناسبة

لمّا ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام.. أردف ذلك بذكر أحكام الحج؛ لأن شهور الحج تأتي مباشرة بعد شهر الصيام، وأما آيات القتال التي فصلت بين آيات الصيام وآيات الحج: فقد ذكرت عرضاً لبيان حكم هام؛ وهو بيان الأشهر الحرم، وحكم القتال فيها فيما لو تعرض المشركون للمؤمنين، وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم رد العدو عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم؟ فقد وردت الآيات السابقة تبين حكمة الأهلة وأنها مواقيت للصيام والحج ثم بينت الآيات بعدها موقف المسلمين من القتال في الشهر الحرام،

وذلك حين أراد رسول الله ﷺ العمرة وصده المشركون ومنعوه من دخول مكة، ووقع صلح الحديبية، ثم لما أراد القضاء في العام القابل وخشي أصحابه غدر المشركين بهم، وهم في حالة الإحرام.. نزلت الآيات تبين أنه ليس لهم أن ينتهكوا هذه الحرمات على سبيل الابتداء، بل على سبيل القصاص ودفع العدوان، ثم عاد الكلام إلى أحكام الحج وحكم الإحصار فيه، فهذا هو الارتباط والمناسبة بين الآيات السابقة واللاحقة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن صفوان بن أمية قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ متضمخاً بالزعفران، عليه جبة فقال: كيف تأمرني يا رسول الله في عمرتي، فأنزل الله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فقال ﷺ: «أين السائل عن العمرة؟» قال: ها أنا ذا، فقال له ﷺ: «ألق عنك ثيابك، ثم اغتسل واستنشق ما استطعت، ثم ما كنت صانعاً في حجك فأصنعه في عمرتك».

قوله[1] تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا...﴾ روى البخاري عن كعب بن عجرة رضي الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ قال: حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة» قلت: لا. قال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك»، فنزلت فيّ خاصة، وهي لكم عامة.

قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا...﴾ الآية، روى البخاري، وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ...﴾ الآية، روى البخاري عن ابن عباس قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثموا أن

---

(١) لباب النقول.

يتجروا في الموسم، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ...﴾ أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت العرب تقف بعرفة، وكانت قريش تقف دون ذلك بالمزدلفة، فأنزل الله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ...﴾.

وأخرج ابن المنذر عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: كانت قريش يقفون بالمزدلفة، ويقف الناس بعرفة إلا شيبة بن ربيعة، فأنزل الله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ...﴾ الآية، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، يقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات، ليس لهم ذكر أفعال أبائهم، فأنزل الله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ...﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاء وحسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ويجيء بعدهم آخرون من المؤمنين، فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾؛ أي: أدوهما تامين كاملين بأركانهما وشروطهما وواجباتهما وآدابهما خالصين ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى غير مخلوطين بشيء من الأغراض الدنيوية كالتجارة والاكتساب، أو بشيء مما يحبطهما كالرياء والسمعة والشهرة باسمهما، وفي قراءة ﴿وأقيموا الحج والعمرة لله﴾ واختلف العلماء في معنى إتمامها. قال ابن عباس: إتمامهما: أن يتمهما بمناسكهما وحدودهما

وسننهما، وقيل: إتمامهما: أن يتحرم بهما من دويرة أهلك، وقيل: هو أن تفرد لكل واحد منهما سفراً، وقيل: إتمامهما أن تكون النفقة حلالاً، وتنتهي عما نهى الله عنه، وقيل: إتمامهما أن تخرج من أهلك، لهما لا للتجارة ولا لحاجة، وقيل، إذا شرع فيهما وجب عليه الإتمام.

فصل

واتفقت الأمة على وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلاً. روى مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «أيها الناس، قد فرض عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم.. لوجب ولما استطعتم».

وفي وجوب العمرة قولان للشافعي:

أصحهما: أنها واجبة، وهو قول علي، وابن عمر، وابن عباس، والحسن، وابن سيرين، وعطاء، وطاووس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وإليه ذهب أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين.

وحجتهم على أنها واجبة ما روي في حديث الضبي بن معبد أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين علي، وإني أهللت بهما، فقال: هديت لسنة نبيك محمد ﷺ أخرجه أبو داود، والنسائي بأطول من هذا.

وجه الاستدلال أنه أخبر عن وجوبهما عليه، وصوبه عمر وبين أنه مهتد بما رآه في وجوبهما عليه لسنة النبي ﷺ.

وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنها كقرينها في كتاب الله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

وما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: الحج والعمرة فريضتان، وعنه رضي الله عنه: ليس أحد من خلق الله إلا وعليه حجة وعمرة واجبتان من استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال: العمرة واجبة كوجوب الحج.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والفضة، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة» أخرجه الترمذي والنسائي «وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه» وقال حديث حسن صحيح.

وجه الاستدلال: أنه أمر بالمتابعة بين الحج والعمرة، والأمر للوجوب، ولأنها قد نظمت مع الحج في الأمر بالإتمام، فكانت واجبة كالحج.

والقول الثاني: **أنها سنة**، ويروى ذلك عن ابن مسعود، وجابر، وإبراهيم، والشعبي، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهم.

وحجتهم على أنها سنة: ما روي عن جابر رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن العمرة أواجبة هي؟ قال: «لا وأن تعتمروا خير لكم» أخرجه الترمذي.

وأجيب عنه بأن هذا الحديث يرويه حجاج بن أرطاه، وحجاج ليس ممن يقبل منه ما تفرد به لسوء حفظه، وقلة مراعاته لما يحدث به.

وأجمعت الأمة على جواز أداء الحج والعمرة على إحدى ثلاثة أوجه: إفراد وتمتع وقران.

فصورة الإفراد: أن يحج، ثم بعد فراغه منه يعتمر من أدنى الحل، أو يعتمر قبل أشهر الحج، ثم يحج في تلك السنة.

وصورة التمتع: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج، ويأتي بأعمالها فإذا فرغ من أعمالها أحرم بالحج من مكة في تلك السنة، وإنما سمي تمتعاً؛ لأنه يستمتع بمحظورات الإحرام بعد التحلل من العمرة إلى أن يحرم بالحج.

وصورة القران: أن يحرم بالحج والعمرة معاً في أشهر الحج فينويهما بقلبه، وكذلك لو أحرم بالعمرة في أشهر الحج، ثم أدخل عليها الحج قبل أن يفتتح الطواف فيصير قارناً.

واختلفت الأئمة في الأفضل منها، فذهب مالك والشافعي إلى أن الإفراد أفضل، ثم التمتع، ثم القران، ويدل عليه ما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ أفرد بالحج. أخرجه مسلم.

وله عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أهللنا مع رسول الله ﷺ بالحج مفرداً، وفي رواية أن رسول الله ﷺ أهل بالحج مفرداً. وله عن جابر رضي الله عنه قال: قدمنا مع رسول الله ﷺ، ونحن نصرخ بالحج صراخاً.

وذهب الثوري وأبو حنيفة إلى أن القران أفضل، ويدل عليه ما روي عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يلبي بالحج والعمرة جميعاً، وفي رواية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لبيك عمرة وحجاً». أخرجاه في «الصحيحين».

وذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه إلى أن التمتع أفضل، ويدل عليه ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: تمتع رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فأول من نهى عنها معاوية. أخرجه الترمذي.

واختلفت الروايات في حجة النبي ﷺ: هل كان مفرداً، أو متمتعاً، أو قارناً؟ وهي ثلاثة أقوال للعلماء بحسب مذاهبهم السابقة، ورجحت كل طائفة نوعاً، وادعت أن حجة النبي ﷺ كذلك، وطريق الجمع بين روايات الصحابة واختلافهم في حجته ﷺ أنه كان أولاً مفرداً، ثم أنه ﷺ أحرم بالعمرة بعد ذلك، وأدخلها على الحج، فصار قارناً.

فمن روى أنه كان مفرداً فهو الأصل، ومن روى القِران اعتمد آخر الأمر، ومن روى التمتع أراد التمتع اللغوي؛ وهو الانتفاع والارتفاق، وقد ارتفق بالقِران كارتفاق التمتع وزيادة، وهو الاقتصار على عمل واحد، وبهذا أمكن الجمع بين الروايات المختلفة في صفة حجة الوداع؛ وهو الصحيح.

واختار الشافعي الإفراد واحتج في ترجيحه بأنه صح ذلك من رواية جابر وابن عمر وابن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ وهؤلاء لهم مزية في حجة

الوداع على غيرهم، فأما جابر رضي الله عنه: فهو أحسن الصحابة سياقة لرواية حديث حجة الوداع، فإنه ذكرها من حين خرج النبي ﷺ من المدينة إلى آخرها، فهو أضبط لها من غيره.

وأما ابن عمر رضي الله عنهما: فصح عنه أنه كان آخذاً بخطام ناقة النبي ﷺ في حجة الوداع، وإنما سمعه يلبي بالحج، وأما ابن عباس رضي الله عنهما فمحله من العلم والفقه والدين معروف مع كثرة بحثه عن أحوال رسول الله ﷺ، وأما عائشة رضي الله عنها: فقربها من رسول الله ﷺ معروف، واطلاعها على باطن أمره وظاهره مع كثرة فقهها وعلمها.

ومن دلائل ترجيح الإفراد أن الخلفاء الراشدين أفردوا الحج بعد رسول الله ﷺ، وواظبوا عليه وأركان الحج خمسة: الإحرام والوقوف بعرفة، والطواف والسعي بين الصفا والمروة، وحلق الرأس أو التقصير في أصح القولين.

وأركان العمرة أربعة: الإحرام، والطواف، والسعي، والحلق أو التقصير، وبهذه الأركان يحصل تمام الحج والعمرة.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾؛ أي: منعتم عن إتمام الحج أو العمرة، بعدوّ أو مرض أو كسر أو سجن، وأردتم التحلل من إحرامكم ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾؛ أي: فعليكم ذبح ما تيسر وسهل لكم ﴿مِنَ الْهَدْيِ﴾ من بدنة أو بقرة أو شاة، واذبحوها حيث أحصرتم من حل أو حرم؛ لأنه ﷺ ذبح عام الحديبية بها، وإليه ذهب الشافعي وأحمد ومالك، وقال أبو حنيفة: أنه يقيم على إحرامه، ويبعث بهديه إلى الحرم، ويواعد من يذبحه هناك، ثم يحل في ذلك الوقت، والهدي: هو ما يهدي إلى بيت الله الحرام، أعلاه بدنة، وأوسطه بقرة، وأدناه شاة؛ أي: فعليكم ذبح ما تيسر من هذه الأجناس، ويشترط[1] فيها أن تكون مجزئة في الأضحية، فإن لم يتيسر.. عدل إلى قيمة الحيوان، واشترى به طعاماً، وتصدق به في مكان الإحصار، فإن

---

(١) جمل.

لم يقدر.. صام عن كل مد يوماً حيث شاء، وله التحلل حالاً؛ أي: قبل الصوم وهذا الدم دم ترتيب وتعديل، هكذا قال الفقهاء، وليس لهم عليه حجة.

والظاهر من الآية: أنه إذا لم يتيسر له.. فلا شيء عليه.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾؛ أي: ولا تحللوا من إحرامكم أيها المحصورون بالحلق أو التقصير ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾؛ أي: حتى يصل الهدي المكان الذي يحل فيه ذبحه، وهو الحرم عند أبي حنيفة، ومكان الإحصار عند الشافعي وهو الراجح؛ لأنه ﷺ ذبح عام الحديبية بها، وهي من الحل، فيذبح فيه بنية التحلل، ويفرق على مساكينه، ويحلق أو يقصر وبه يحصل التحلل والخروج من النسك، فبلوغ الهدي محله كناية عن ذبحه في مكان الإحصار، فتفيد الآية وجوب تقديم الذبح على الحلق، وهو كذلك كما هو مقرر في الفروع، و﴿الْهَدْيُ﴾[1] جمع هدية كجدي وجدية، وقرىء ﴿من الهدي﴾ جمع هدية كمطي جمع مطية، والمَحِل - بالكسر - يطلق على المكان والزمان، ويطلق[2] الهدي على الحيوان الذي يسوقه الحاج أو المعتمر هدية لأهل الحرم من غير سبب يقتضيه، وهذا ليس مراداً هنا، ويطلق على ما وجب على الحاج أو المعتمر بسبب، سواء كان محظوراً وهو الواجب بفعل حرام أو ترك واجب، أو لم يكن كالإحصار والتمتع، وهذا هو المراد هنا.

واقتصاره على الهدي[3] دليل على عدم وجوب القضاء، وقال أبو حنيفة: يجب القضاء.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرتب على محذوف؛ تقديره: ولا تحلقوا رؤسكم في حال الإحرام إلا أن تضطروا إلى حلقه لمرض أو أذى كقمل وصداع؛ أي: فمن كان منكم أيها المحرمون مريضاً في بدنه محتاجاً إلى المداواة واستعمال الطيب

---

(١) بيضاوي.
(٢) جمل.
(٣) بيضاوي.

واللباس ﴿أَوْ﴾ كان ﴿بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾؛ أي: ألم في رأسه بسبب الجراحة، أو بسبب القمل والصئبان أو بسبب الصداع، أو كان عنده خوف من حدوث مرض أو ألم، فحلق أو تطيب أو لبس ﴿فـ﴾ عليه ﴿فدية من صيام﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ بثلاثة آصع من غالب قوت مكة على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾؛ أي: ذبح شاة مجزئة في الأضحية، وهذه الفدية على التخيير لأن ﴿أَوْ﴾ في الآية للتخيير، إن شاء ذبح أو صام أو تصدق، وكل هدي أو طعام يلزم المحرم فإنه لمساكين الحرم إلا الهدي المحصر؛ فإنه يذبحه حيث أحصر، وأما الصوم: فله أن يصوم حيث شاء، وقد سبق لك أن هذه الآية نزلت في كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ وقد بين في حديثه مقدار الصيام والصدقة والنسك.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ من العدو أو لم يكن من أول الأمر؛ أي: فإذا كنتم آمنين من العدو بعد ما وقع الإحصار، أو كنتم آمنين من أول الأمر ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ﴾؛ أي: فمن تلذذ بمحظورات الإحرام كالطيب والدهن واللباس والنساء بسبب فراغه من أعمال العمرة ﴿إِلَى ٱلْحَجِّ﴾؛ أي: إلى إحرامه بالحج ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾؛ أي: فعليه ذبح ما تيسر وسهل له من الدم، وهو شاة يذبحها يوم النحر، وهو الأفضل، فلو ذبح قبله بعد ما أحرم بالحج.. أجزأه عند الشافعي كسائر دم الجبرانات، ولا يجزئه ذبحه عند أبي حنيفة قبل يوم النحر.

ولوجوب دم التمتع خمسة شرائط:

الأول: أن يقدم العمرة في أشهر الحج.

الثاني: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج.

الثالث: أن يحج بعد الفراغ من العمرة في هذه السنة.

الرابع: أن يحرم بالحج من جوف مكة، ولا يعود إلى ميقات بلده، فإن رجع إلى الميقات وأحرم منه.. لم يكن متمتعاً.

الخامس: أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام. فهذه الشروط معتبرة

في وجوب دم التمتع، ومتى فُقِد شيء منها لم يكن متمتعاً، ودمُ التمتعِ دمُ جبران عند الشافعي، فلا يجوز أن يأكل منه، وقال أبو حنيفة: هو دم نسك، فيجوز أن يأكل منه. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدي لفقده أو فقد ثمنه ﴿فـ﴾ عليه ﴿صيام ثلاثة أيام في﴾ حال إحرامه بـ﴿الحج﴾؛ أي: في أيام اشتغاله بأعمال الحج؛ يعني: بعد إحرامه وقبل التحلل منه، والأفضل أن يصومها قبل يوم عرفة؛ ليكون مفطراً فيه بأن يصوم خامسه وسادسه وسابعه بعد ما أحرم بالحج في اليوم الرابع مثلاً، وقال أبو حنيفة: يصومها في أشهره بين الإحرامين، ولا يجوز صومها يوم النحر وأيام التشريق عند الأكثرين، وقرىء ﴿صيامَ﴾ - بالنصب - على تقدير: فليصم، والمصدر مضاف إلى ظرفه في المعنى، وهو في اللفظ مفعول به على السعة كما ذكره العكبري. ﴿و﴾ عليه أيضاً صيام ﴿سبعة﴾ أيام ﴿إِذَا﴾ فرغتم من الحج و﴿رَجَعْتُمْ﴾ إلى أهليكم ووطنكم مكة أو غيرها، ففيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وكان مقتضى السياق أن يقول: إذا رجع، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿سبعةَ﴾ - بالنصب - عطفاً على محل ﴿ثلاثة﴾، أو بفعل محذوف تقديره: وصوموا سبعة أيام إذا رجعتم ﴿تِلْكَ﴾ الأيام الثلاثة والسبعة جملتها ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ في الثواب والأجر، أو في مقامها مقام الهدي؛ لأنه قد يحتمل أن يظن ظان أن الثلاثة قد قامت مقام الهدي، فأعلم الله أن العشرة بكمالها هي القائمة مقام الهدي.

وقيل: فائدة ذلك: الفذلكة في علم الحساب؛ وهو أن يعلم العدد مفصلاً، ثم يعلمه جملة؛ ليحتاط به من جهتين، و﴿ذلك﴾ الحكم المذكور من وجوب الهدي أو الصيام على من تمتع ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بأن يكونوا على مرحلتين فأكثر من الحرم عند الشافعي رحمه الله تعالى، أو يكونوا وراء المواقيت الخمسة: ذي الحليفة، والجحفة، وقرن، ويلملم، وذات عرق عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، أو يكونوا من أهل الحل عند طاووس رضي الله عنه، أو يكونوا غير مكيين عند مالك رحمه الله تعالى، فحاضرو الحرم عند الشافعي رحمه الله تعالى من كان وطنه دون مرحلتين منه، ومن كان من أهل المواقيت أو دونها عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وأهل الحرم عند طاووس، وأهل مكة عند مالك رحمه الله تعالى.

والمراد[1] بالأهل: الزوجة والأولاد الذين تحت حجره دون الأباء والأخوة.

ومفهوم الآية: أن من كان من حاضري المسجد الحرام.. فلا هدي ولا صيام عليه وإن تمتع على ما قاله الشافعي ومن وافقه، وألحق بالتمتع في وجوب الدم أو بدله القارن بالسنة، وهو من أحرم بالحج والعمرة معاً، أو يدخل الحج عليها قبل الطواف كما مر.

﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه في الحج وفي غيره. ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره، وتهاون بحدوده، وارتكب مناهيه.

﴿الحَجُّ﴾؛ أي: وقت الحج ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾؛ أي: معروفات بين الناس، وهي شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة إلى طلوع فجر يوم النحر عند الشافعي.

فإن قلتَ: ما وجه جمع الأشهر مع أن الوقت شهران وعشر ليال؟

قلتُ: إنما جمعه؛ لأن المراد بالجمع ما فوق الواحد كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، أو أنه نزل بعض الشهر منزلة كله.

وأما وقت العمرة: فجميع السنة، وهذه الآية مخصصة لعموم آية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ حيث اقتضت أن جميع الأهلة وقت للحج.

تنبيه: واختلفت الأئمة في وقت الحج، وقال[2] الشافعي رحمه الله تعالى: وقت الحج: شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة، فيخرج وقته بطلوع فجر يوم النحر، وبه قال عبد الله بن مسعود، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، ومن التابعين: الحسن، وابن سيرين، والشعبي، وعليه الثوري، وأبو ثور رحمهم الله تعالى.

---

(١) طبري. (٢) الخازن.

وحجة الشافعي رحمه الله تعالى ومن وافقه: أن الحج يفوت بطلوع الفجر الثاني من يوم النحر، والعبادة لا تفوت مع بقاء وقتها، فدل على أن يوم النحر ليس من أشهر الحج، وأيضاً فإن الإحرام بالحج فيه لا يجوز، فدل على أنه وما بعده ليس من أشهر الحج.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشهر الحج: شوال وذو القعدة وعشرة أيامٍ من ذي الحجة آخرها يوم النحر، وبه قال ابن عمر، وعروة بن الزبير، وطاووس، وعطاء، والنخعي، وقتادة، ومكحول، وأبو حنيفة؛ وأحمد بن حنبل، وهي إحدى الروايتين عن مالك، وحجة هذا القول: أن يوم النحر هو يوم الحج الأكبر، ولأن فيه يقع طواف الإفاضة، وهو تمام أركان الحج، وهذا القول شاذ في مذهب الشافعي.

وقيل: إن أشهر الحج: شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله، وهو رواية عن ابن عمر وبه قال الزهري، وهي الرواية الأخرى عن مالك، وحجة هذا القول: أن الله تعالى ذكر أشهر الحج بلفظ الجمع وأقل الجمع المطلق ثلاث، ولأن كل شهر كان أوله من أشهر الحج كان آخره كذلك، وعلى هذا القول: يصح الإحرام في جميع ذي الحجة، وهذا القول أشذ وأبعد.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾؛ أي: فمن أوجب الحج على نفسه بالإحرام في هذه الأشهر عند الشافعي، أو بالتلبية، أو سوق الهدي عند أبي حنيفة؛ لأنه يقول لا يصح الشروع في الإحرام بمجرد النية حتى تنضم إليه التلبية أو سَوْق الهدي، ووجهه: أن الحج عبادة لها تحليل وتحريم، فلا بد من انضمام شيء إلى النية كتكبيرة الإحرام مع النية في الصلاة، وفي الآية: دليل على أن الإحرام بالحج لا ينعقد إلا في أشهره. ﴿فَلَا رَفَثَ﴾؛ أي: فلا جماع، أو فلا فحش من الكلام ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾؛ أي: ولا خروج عن حدود الشرع بالسباب وارتكاب المحظورات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج ولم يرفث ولم يفسق.. رجع كيوم ولدته أمه» متفق عليه. ﴿ولا جدال﴾؛ أي:

ولا مراء ولا خصام مع الخدم والرفقة وغيرهما ﴿في﴾ أيام ﴿الحج﴾ نفي الثلاثة على قصد النهي عنها للمبالغة، وإنما أمر باجتناب ذلك ـ وهو واجب الاجتناب ـ في كل حال؛ لأنه مع الحج أقبح، كلبس الحرير في الصلاة، والتطريب في قراءة القرآن.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿فلا رفثٌ ولا فسوقٌ﴾ بالرفع والتنوين و﴿ولا جدال﴾ بالفتح، والباقون قرؤوا الكل بالفتح، والمعنى على هذا: لا يكونن رفث ولا فسوق ولا خلاف في الحج، وذلك أن قريشاً كانت تخالف سائر العرب، فتقف بالمشعر الحرام، فارتفع الخلاف بأن أمروا بأن يقفوا بعرفات كسائر العرب، واستدل على أن المنهي عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال بقوله ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق.. خرج من ذنبه كيوم ولدته أمه» فإنه ﷺ لم يذكر الجدال.

ويروى عن عاصم برفع الثلاثة والتنوين، والعطاردي ـ شذوذاً ـ بنصب الثلاثة والتنوين. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ كصدقة وكترك المنهي عنه ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يقبله منكم ويجازيكم عليه خير الجزاء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

ونزل في أهل اليمن وكانوا يحجون بلا زاد، فيكونون كلاً على الناس ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾؛ أي: خذوا من الزاد ما يكفيكم لسفركم، واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقيل عليهم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ﴾ وأفضله ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: الاتقاء عن الإبرام، والتثقيل عليهم، والاستعفاف عن سؤالهم؛ أي: فإن خير الزاد ما يعفكم عن سؤال الناس، أو المعنى: تزودوا من التقوى لمعادكم، فإنها خير زاد، وهي فعل المأمورات وترك المنهيات ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: خافوا عقابي بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات يا أصحاب العقول الكاملة الذين يعلمون حقائق الأمور، وقيل معناه: واشتغلوا بتقواي، وفيه: تنبيه على كمال عظمة الله جل جلاله.

واعلم: أن الإنسان لا بد له من سفر في الدنيا ولا بد فيه من زاد، ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب، وسفر من الدنيا إلى الآخرة، ولا بد فيه من

زاد أيضاً، وهو تقوى الله والعمل بطاعته، وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول، فإن زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة، وفي هذا المعنى قال الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقوى ولاقيت بعد الموت مَنْ قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وأنَّك لم ترصد كما كان أرصدا

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ يا أولي الألباب ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: حرج وذنب في ﴿أَن تَبْتَغُوا۟﴾ وتطلبوا ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: رزقاً من ربكم بالتجارة في الحج، وقرأها ابن عباس في الشاذ ﴿فضلاً من ربكم في مواسم الحج﴾.

وسبق لك في أسباب النزول ما روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فلما كان الإسلام فكأنهم تأثموا أن يتَّجروا في المواسم، فنزلت هذه الآية، وعكاظ: سوق معروف بقرب مكة، ومَجِنة - بفتح الميم وكسرها -: سوق بقرب مكة أيضاً. قال الأزرقي: هي بأسفل مكة على بريد منها. وذو المجاز: سوق عند عرفة كانت العرب في الجاهلية يتجرون في هذه الأسواق ولها مواسم، فكانوا يقيمون بعكاظ عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم ينتقلون إلى مجنة فيقيمون فيها ثمانية عشر يوماً، عشرة أيام من آخر ذي القعدة، وثمانية أيام من أول ذي الحجة، ثم يخرجون إلى عرفة في يوم التروية.

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾؛ أي: ذهبتم ورجعتم ﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ وانصرفتم منها بعد الوقوف بها إلى مزدلفة، ففيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة؛ لأن الإفاضة لا تكون إلا بعد الوقوف ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالتلبية والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والثناء والدعوات بعد المبيت بمزدلفة ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو جبل صغير في آخر مزدلفة يقف عليه الإمام وعليه المِيقَدة يسمى قُزَح بوزن عُمَر، وفي الحديث: (أنه ﷺ وقف يذكر الله ويدعو حتى أسفر جداً). رواه مسلم.

وإنما سمي مشعراً؛ لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرام لحرمته، ومعنى ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾: مما يليه ويقرب منه، فإنه أفضل، وإلا فالمزدلفة كلها

موقف إلا وادي محصر، ﴿وَٱذْكُرُوهُ﴾ بالتوحيد والتعظيم ﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ أي: كما ذكركم بالهداية فهداكم لدينه ومناسك حجه، أو المعنى: واذكروه سبحانه وتعالى؛ لأجل هدايته إياكم لمعالم دينه، فالكاف للتعليل، أو[1] نعت لمصدر محذوف؛ أي: اذكروه ذكراً حسناً كهدايته إياكم هداية حسنة، وكرر الأمر بالذكر تأكيداً، وقيل: الأول: أمر بالذكر عند المشعر الحرام، والثاني: أمر بالذكر على حكم الإخلاص، وقيل: المراد بالثاني: تعديد النعمة عليهم ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: وإن الشأن كنتم من قبل هدايته إياكم لمن الجاهلين بالإيمان والطاعة لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه، و﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، وقيل: بمعنى قد؛ أي: وقد كنتم، و﴿الهاء﴾[2] في من قبله عائد إلى الهدى، وقيل: إلى الرسول؛ أي: من قبل إرسال الرسول لمن الضالين، وهو كناية عن غير مذكور، وقيل: يرجع إلى القرآن، والمعنى: واذكروه كما هداكم بكتابه الذي أنزله عليكم، وإن كنتم من قبل إنزاله لمن الضالين.

﴿ثُمَّ﴾ بعد وقوفكم بعرفة وذكركم عند المشعر الحرام ﴿أَفِيضُواْ﴾؛ أي: ارجعوا يا قريش ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ غيركم من سائر العرب وعامة الناس؛ أي: ارجعوا من المزدلفة إلى منى قبل طلوع الشمس للرمي والنحر إن قلنا: إنه خطاب لقريش، وأمرٌ لهم بالإفاضة من حيث أفاض غيرهم[3]، وقرىء شذوذاً: ﴿الناسي﴾ يريد آدم، وهي صفة غلبت عليه كالعباس والحارث، ودل عليه قوله تعالى: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان بدينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكانت سائر العرب يقفون بعرفة، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات فيقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ فعلى هذا القول المراد بالناس:

---

(١) شوكاني.
(٢) خازن.
(٣) عكبري.

جميع العرب سوى الحمس، سموا حمساً جمع أحمس؛ لتشددهم في دينهم من الحماسة؛ وهي الشدة والشجاعة، والقول الثاني: أنه خطاب لسائر المسلمين، والمراد بالناس: إبراهيم وإسماعيل وأتباعهما، والمعنى على هذا القول: ثم بعد ذكركم أيها المسلمون عند المشعر الحرام ارجعوا من المزدلفة إلى منى حيث أفاض الناس؛ أي: ارجعوا إلى منى للرمي والنحر في الوقت الذي أفاض ورجع فيه الناس؛ أي: إبراهيم وإسماعيل وأتباعهما؛ أي: ارجعوا قبل طلوع الشمس كما رجع منها إبراهيم وإسماعيل في ذلك الوقت على ما جاء به الرسول ﷺ، وكان العرب الذين وقفوا بالمزدلفة يرجعون إلى منى بعد طلوع الشمس، وهذا القول اختاره الضحاك، لكن القول الأول هو الأصح الذي عليه جمهور المفسرين.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾؛ أي: واطلبوا من الله باللسان مغفرة ذنوبكم، وتقصيركم في أعمال الحج، مع التوبة بالقلب؛ وهو أن يندم على كل تقصير منه في طاعة الله، ويعزم على أن لا يقصر فيما بعد، ويقصد بذلك: تحصيل مرضاة الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لذنوب المستغفرين ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم بقبول توبتهم، ومنعم عليهم باحساناته.

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم﴾؛ أي: أديتم ﴿مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾؛ أي: أعمال حجكم وعبادتكم، وفرغتم منها بأن رميتم جمرة العقبة، وطفتم واستقررتم بمنى ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتحميد والتمجيد والتهليل والتكبير، وابذلوا جهدكم في الثناء عليه، وذكر نعمائه ﴿كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾؛ أي: كما كنتم تذكرون أبائكم عند فراغ حجكم بالمفاخر، وتبذلون جهدكم في الثناء عليهم ﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾؛ أي: بل اذكروا الله ذكراً أكثر من ذكركم آباءكم؛ لأنه هو المنعم عليهم وعلى الآباء، فهو المستحق للذكر والثناء مطلقاً؛ لأن صفات الكمال لله تعالى غير متناهية.

وسئل ابن عباس عن معنى هذه الآية، فقيل له: قد يأتي على الرجل اليوم ولا يذكر فيه أباه، فقال: ليس المعنى كذلك، ولكن المعنى: أن تغضب لله إذا عصي أشد من غضبك لوالديك إذا شُتِمَا.

قال أهل التفسير(١): كانت العرب في الجاهلية إذا فرغوا من حجهم.. وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل ـ وقيل: عند البيت ـ فيذكرون مفاخر آباءهم ومآثرهم وفضائلهم ومحاسنهم ومناقبهم، فيقول أحدهم: كان أبي كبير الجفنة رحب الفناء يقري الضيف، وكان كذا وكذا، يعدُّ مفاخره ومناقبه، ويتناشدون الأشعار في ذلك، ويتكلمون بالمنثور والمنظوم من الكلام الفصيح، وغرضهم الشهرة والسمعة والرفعة بذكر مناقب سلفهم وآبائهم، فلما مَنَّ الله عليهم بالإسلام.. أمرهم أن يكون ذكرهم لله لا لآبائهم، وقال: اذكروني فأنا الذي فعلت ذلك بكم وبهم، وأحسنت إليكم وإليهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء، وذلك أن الصبي أول ما يفصح الكلام يقول: أبه أمه، لا يعرف غير ذلك، فأمرهم أن يذكروه كذكر الصبيان الصغار الآباء.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ في الموقف وهم المشركون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾؛ أي: أعطنا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ إبلاً وبقراً وغنماً، وعبيداً أو إماء، ومالاً ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾؛ أي: من حظ ولا نصيب في الجنة بِحَجِّه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ في الموقف: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾؛ أي: أعطنا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ أي: علما وعبادة وعصمة من الذنوب، وشهادة وغنيمة وصحة وكفافاً، وتوفيقاً للخير ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾؛ أي: الجنة ونعيمها، وقيل: من آتاه الله الإسلام والقرآن، وأهلاً ومالاً.. فقد أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة؛ يعني: في الدنيا عافية، وفي الآخرة عافية.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ «اللهم آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار». متفق عليه. ﴿وَقِنَا﴾؛ أي: وادفع عنا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ واحفظنا منها بالعفو والغفران.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الداعون بالحسنتين ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ وافر في الجنة

---

(١) الخازن.

﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾؛ أي: لأجل ما عملوا من حجهم ودعائهم، أو بسبب ما كسبوا من أعمالهم الصالحة ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ أي: سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم وعالم بجملة سؤالات السائلين، أو[1] المعنى: سريع المحاسبة والإحصاء، يحاسب العباد على العبادة على كثرتهم، وكثرة أعمالهم في مقدار لمحة، أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس، فبادروا إلى الطاعات واكتساب الحسنات.

وهذا الكلام ذكره في الفريقين تفصيلاً لحال الذاكرين، إلى من لا يطلب بذكر الله تعالى إلا الدنيا، وإلى من يطلب الدارين، والمراد به: الحث على الإكثار من الدعاء والذكر وسائر الطاعات، وطلب الآخرة.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أيها الحجاج وكذا غيرهم بالتكبير والتحميد والتسبيح والتهليل ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾؛ أي: في أيام معلومات العدد أيام التشريق الثلاثة عند رمي الجمرات، وخلف الصلوات، وعلى الأضاحي والهدايا، سميت معدودات لقلتهن، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر.

روى مسلم عن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى، ومن الذكر في هذه الأيام التكبير».

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يكبّر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات وعلى فراشه، وفي فسطاطه، وفي مجلسه، وفي ممشاه في تلك الأيام جميعاً.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾؛ أي: فمن استعجل بالنفر والذهاب من منى في ثاني أيام التشريق قبل الغروب بعد رمي جماره بعد الزوال؛ وهي إحدى وعشرون حصاة يرمي سبعة لكل جمرة يكبر مع كل حصاة، فإن غربت عليه الشمس وهو بمنى.. لزمه المبيت بها؛ ليرمي اليوم الثالث عند الشافعي، وقال أبو حنيفة[2]:

---

(١) بيضاوي.

(٢) خازن.

يجوز له أن ينفر ما لم يطلع الفجر؛ لأنه لم يدخل وقت الرمي بعد ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: فلا حرج عليه بتعجيله النفر ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ بها؛ أي: استمر وبقي بها حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره بعد الزوال عند الشافعي، وقال أبو حنيفة[١]: يجوز تقديم رمية على الزوال ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ بتأخره فهم مخيرون بين التعجيل والتأخير، ومعنى نفي[٢] الإثم بالتعجيل والتأخير: التخيير بينهما، والرد على أهل الجاهلية، فإن منهم من أثّم المتعجل، ومنهم من أثّم المتأخر، وقيل[٣]: إنما قال: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ لمشاكلة اللفظة الأولى، فهو كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾.

ذلك التخيير، ونفي الإثم ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ الله في حجه باجتنابه محظورات الإحرام، وإتيانه بالمأمورات؛ لأنه المنتفع بحجه دون من سواه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في المستقبل في مجامع أموركم بفعل الواجبات، وترك المحظورات ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ﴾ أيها العباد ﴿إِلَيۡهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ وتجمعون يوم القيامة بالبعث من قبوركم، فيجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وفيه حث على التقوى.

فصل

وأجمع العلماء[٤] على أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ هو التكبير عند رمي الجمار، وهو أن يكبر مع كل حصاة يرمي بها في جميع أيام التشريق.

وأجمعوا أيضاً على أن التكبير في عيد الأضحى، وفي هذه الأيام في أدبار الصلوات منه، واختلفوا في وقت التكبير، فقيل: يُبتدأ به من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، فيكون التكبير على هذا القول في خمس عشر صلاة، وهو قول ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وبه قال

---

(١) بيضاوي.
(٢) بيضاوي.
(٣) خازن.
(٤) خازن.

الشافعي في أصح أقواله. قال الشافعي: لأن الناس فيه تبع للحاج، وذكر الحاج قبل هذا الوقت هو التلبية، ويأخذون في التكبير يوم النحر من صلاة الظهر، وقيل: إنه يُبتدأ به من صلاة المغرب ليلة النحر، ويختتم به بعد صلاة الصبح من آخر أيام التشريق؛ وهو القول الثاني للشافعي، فيكون التكبير على هذا القول في ثمانية عشر صلاة.

والقول الثالث للشافعي: أنه يُبتدأ بالتكبير من صلاة الصبح يوم عرفة، يختتم به بعد صلاة العصر من آخر أيام التشريق، فيكون التكبير على هذا القول في ثلاث وعشرين صلاة، وهو قول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ومكحول، وبه قال أبو يوسف ومحمد، وقال ابن مسعود: يبتدأ به من صبح يوم عرفة، ويختم بصلاة العصر من يوم النحر، فعلى هذا القول يكون التكبير في ثمان صلوات، وبه قال أبو حنيفة.

وقال أحمد بن حنبل: إذا كان حلالاً كبرّ عقيب ثلاث وعشرين صلاة، أولها الصبح من يوم عرفة، وآخرها صلاة العصر من آخر أيام التشريق، وإن كان محرماً كبر عقيب سبع عشرة صلاة، أولها الظهر من يوم النحر، وآخرها أيام التشريق.

ولفظ التكبير عند الشافعي ثلاثاً نسقاً: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، وهو قول سعيد بن جبير، والحسن، وهو قول أهل المدينة. قال الشافعي: وما زاد من ذكر الله فحسن، ويروى عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه يكبر مرتين، فيقول: الله أكبر الله أكبر، وهو قول أهل العراق.

فائدة: فإن[1] قلتَ: قوله تعالى: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ فيه إشكال، وهو أن الذي أتى بأفعال الحج كاملة تامة، فقد أتى بما يلزمه، فما معنى قوله: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ إنما يخاف من الإثم من قصر فيما يلزمه؟.

قلتُ: فيه أجوبة:

---

(١) خازن.

أحدها: أنه تعالى لما أذن في التعجيل على سبيل الرخصة، احتمل أن يخطر ببال قوم أن من لم يجر على موجب هذه الرخصة فإنه يأثم.. فأزال الله تعالى هذه الشبهة، وبين أنه لا إثم عليه في الأمرين، فإن شاء عجل، وإن شاء أخَّر.

الجواب الثاني: أن مِنَ الناس مَنْ كان يتعجل، ومنهم مَنْ كان يتأخر، وكل فريق يصوب فعله على فعل الآخر، فبين الله تعالى أن كل واحد من الفريقين مصيب في فعله، وأنه لا إثم عليه.

الجواب الثالث: إنما قال: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ لمشاكلة اللفظة الأولى، فهو كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ومعلوم أن جزاء السيئة ليست سيئة.

الجواب الرابع: أن فيه دلالة على جواز الأمرين، فكأنه تعالى قال: فتعجلوا أو تأخروا فلا إثم في التعجيل، ولا في التأخير. انتهى.

الإعراب

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾.

﴿وَأَتِمُّواْ﴾: الواو: استئنافية، ﴿أتموا الحج﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿لِلَّهِۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أتموا﴾، أو بمحذوف حال من ﴿ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ﴾؛ تقديره: حالة كونهما كائنين لله، وفي قراءة برفع ﴿العمرةُ﴾ على الابتداء، والجار والمجرور خبره؛ تقديره: والعمرة كائنة لله، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية.

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾.

﴿فَإِنۡ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أن الحج والعمرة واجب إتمامهما إذا كنتم غير معذورين، وأردتم بيان حكم ما إذا أحصرتم عنهما، أو كنتم مرضى، أو بكم أذى في الرأس.. فأقول لكم: ﴿إن أحصرتم﴾، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿أحصرتم﴾: فعل ماض

مغيَّر ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱسْتَيْسَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير الفاعل، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير الفاعل، وخبر المبتدأ محذوف جوازاً؛ تقديره: واجب عليكم، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة استئنافية استئنافاً بيانياً.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَحْلِقُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿رُءُوسَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿مَحِلَّهُۥ﴾: ظرف مكان ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿يَبْلُغَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾؛ تقديره: إلى بلوغ الهدي محله، والجار والمجرور متعلق بـ﴿لا تحلقوا﴾.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط على الراجح. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿مِنكُم﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال مقدمة من قوله ﴿مَّرِيضًا﴾. ﴿مَّرِيضًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف معطوف على ﴿مَّرِيضًا﴾؛ تقديره: أو كائناً به. ﴿أَذًى﴾: فاعل للجار والمجرور. ﴿مِّن رَّأْسِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ﴿أَذًى﴾؛ تقديره: أو

كائناً به أذى كائن في رأسه.

وعبارة الكرخي[1] قوله: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى﴾ يجوز أن يكون هذا من باب عطف المفردات، وأن يكون من باب عطف الجمل.

أما الأول: فيكون الجار والمجرور في قوله ﴿بِهِۦٓ﴾ معطوفاً على ﴿مَّرِيضًا﴾ الذي هو خبر ﴿كان﴾، فيكون في محل نصب، ويكون ﴿أَذًى﴾ مرفوعاً به على سبيل الفاعلية؛ لأن الجار إذا اعتمد رفع الفاعل عند الكل، فيصير التقدير: فمن كان كائناً به أذى من رأسه.

وأما الثاني: فيكون ﴿بِهِۦٓ﴾ خبراً مقدماً، ومحله على هذا رفعٌ. ﴿أَذًى﴾: مبتدأ مؤخر، وتكون هذه الجملة في محل نصب؛ لأنها معطوفة على ﴿مَّرِيضًا﴾ الواقع خبراً لـ﴿كان﴾، وهي وإن كانت جملة لفظاً، فهي في محل مفرد؛ إذ المعطوف على المفرد مفرد، لا يقال: إنه عاد إلى عطف المفردات، فيتحد الوجهان لوضوح الفرق. انتهت.

﴿فَفِدْيَةٌ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية، ﴿فدية﴾: مبتدأ خبره محذوف؛ تقديره: واجب عليه، والجملة من المبتدأ والخبر المحذوف في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾. ﴿مِّن صِيَامٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿فدية﴾؛ تقديره: فدية كائنة من صيام واجبة عليه. ﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾: معطوفان على ﴿صِيَامٍ﴾ و﴿أَوْ﴾: فيهما للتخيير.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

﴿فَإِذَآ﴾ ﴿الفاء﴾[2]: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿أَمِنتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها.

---

(١) جمل.
(٢) جمل.

﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم، أو موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿تَمَتَّعَ﴾ فعل ماضٍ في محل الجزم على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿بِٱلْعُمْرَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَمَتَّعَ﴾. ﴿إِلَى ٱلْحَجِّ﴾: جار ومجرور[1] متعلق بمحذوف معطوف على ﴿تَمَتَّعَ﴾؛ تقديره: واستمر تمتعه إلى الحج. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية، ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ، والخبر محذوف؛ تقديره: فما استيسر من الهدي واجب عليه، والجملة من المبتدأ والخبر المحذوف في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ على كونها مقولاً لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة. ﴿ٱسْتَيْسَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير الفاعل، وجملة ﴿ٱسْتَيْسَرَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير الفاعل.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أن من تمتع بالعمرة.. فعليه ما استيسر من الهدي، وأردتم بيان حكم من لم يتيسر له فأقول: ﴿من لم يجد﴾، ﴿من﴾: اسم شرط جازم، أو اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط إن قلنا شرطية، أو جملة قوله ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ إن قلنا موصولة. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَجِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها، أو صلة الموصول، ومفعول ﴿يَجِدْ﴾ محذوف؛ تقديره: فمن لم يجد الهدي؛ لأن (وجد) هنا بمعنى (أصاب)، فيتعدى

(١) جمل.

لواحد. ﴿فَصِيَامُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية، أو رابطة للخبر بالمبتدأ إن قلنا ﴿من﴾ موصولة. ﴿صيام﴾: مبتدأ، والخبر محذوف؛ تقديره: واجب عليه، والجملة في محل الجزم جواب ﴿من﴾ الشرطية، أو خبر ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾ الشرطية، أو المبتدأ والخبر في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿صيام﴾: مضاف. ﴿ثَلَٰثَةِ﴾: مضاف إليه وهو مضاف. ﴿أَيَّامٍ﴾: مضاف إليه. ﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿صيام﴾. ﴿وَسَبْعَةٍ﴾: معطوف على ﴿ثَلَٰثَةِ﴾، وعلى قراءة النصب الشاذة: منصوب بفعل محذوف؛ تقديره: وصوموا سبعة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ﴿صيام﴾ أيضاً. ﴿رَجَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾؛ تقديره: فصيام سبعة وقت رجوعكم إلى وطنكم ﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ. ﴿عَشَرَةٌ﴾: خبر. ﴿كَامِلَةٌ﴾: صفة لـ﴿عَشَرَةٌ﴾، والجملة في محل الجر صفة مؤكدة لـ﴿ثَلَٰثَةِ﴾ و﴿سَبْعَةٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ تقديره: ذلك كائن لمن لم يكن، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَكُنْ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾. ﴿أَهْلُهُۥ﴾: اسم ﴿يَكُنْ﴾، ومضاف إليه. ﴿حَاضِرِي﴾: خبر ﴿يَكُنْ﴾ منصوب بـ﴿الياء﴾ المحذوفة وهو مضاف. ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: صفة للمسجد، وجملة ﴿يَكُنْ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد ضمير ﴿أَهْلُهُۥ﴾. ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾: الواو: استئنافية. ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱعْلَمُوٓا﴾: الواو: عاطفة، ﴿اعلموا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿اتقوا﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿شَدِيدُ﴾: خبرها، وهو مضاف. ﴿ٱلْعِقَابِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر سادٌّ مسد مفعولي

﴿اعلموا﴾؛ تقديره: واعلموا شدة عقاب الله سبحانه وتعالى.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

﴿ٱلْحَجُّ﴾: مبتدأ. ﴿أَشْهُرٌ﴾: خبر، ولكن على تقدير مضاف؛ تقديره: وقت الحج؛ لئلا يلزم علينا الإخبار باسم الزمان عن اسم المعنى، والجملة مستأنفة. ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾: صفة ﴿أَشْهُرٌ﴾. ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفت أن الحج أشهر معلومات، وأردت بيان حكم من أحرم الحج فيها.. فأقول لك: ﴿من فرض﴾، ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، أو موصولة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة قوله ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ إن قلنا: ﴿من﴾ موصولة، ﴿فَرَضَ﴾: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿فِيهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرَضَ﴾. ﴿ٱلْحَجَّ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً، أو رابطة الخبر بالمبتدأ، ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل إنّ ﴿رَفَثَ﴾: في محل النصب اسمها، ومثله في الإعراب قوله ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾. ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾: جار ومجرور تنازع فيه كل من قوله ﴿فَلَا رَفَثَ﴾، ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾، ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ على كونه خبراً لـ﴿لا﴾؛ تقديره: فلا رفث جائز في الحج، ولا فسوق كذلك، ولا جدال كذلك، والجمل الثلاث في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿وَمَا﴾الواو: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، أو في محل النصب مفعول مقدم وجوباً. ﴿تَفْعَلُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿ما﴾ على كونه فعل الشرط لها، والخبر جملة الشرط إن قلنا ﴿ما﴾ مبتدأ. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿ما﴾. ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾: فعل

ومفعول وفاعل مجزوم بـ﴿ما﴾ على كونه جواب الشرط لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ الواو: عاطفة أو استئنافية، ﴿تزودوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ﴾، أو مستأنفة. ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿خَيْرَ ٱلزَّادِ﴾: اسم ﴿إن﴾، ومضاف إليه. ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بـ﴿لام﴾ التعليل المقدرة المدلول عليها بـ﴿الفاء﴾ التعليلية. ﴿وَٱتَّقُونِ﴾ الواو: استئنافية، ﴿اتقوا﴾: فعل وفاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة للتخفيف في محل النصب مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأُوْلِي﴾﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أولي﴾: منادى مضاف منصوب بـ﴿الياء﴾ المحذوفة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وهو مضاف. ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: مضاف إليه، وجملة النداء جواب الطلب السابق.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾.

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَيْسَ﴾. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَبْتَغُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿فَضْلًا﴾: مفعول به. ﴿مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ﴿فَضْلًا﴾؛ تقديره: فضلاً كائناً من ربكم، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف؛ تقديره: في ابتغاء فضل من ربكم، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور قبله.

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿فَإِذَآ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أنه لا جناح عليكم في ابتغاء فضل الله، وأردتم بيان ما هو المطلوب لكم.. فأقول: ﴿إذا أفضتم﴾: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَفَضْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة

في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿فَٱذۡكُرُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿اذكروا اللَّه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة. ﴿عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿اذكروا﴾. ﴿ٱلۡحَرَامِۖ﴾: صفة لـ﴿المشعر﴾. ﴿وَٱذۡكُرُوهُ﴾ الواو: عاطفة، ﴿اذكروه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿اذكروا الله﴾. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتعليل، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿هَدَىٰكُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية و﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الكاف﴾ المتعلقة بـ﴿اذكروا﴾؛ تقديره: واذكروه لهدايته إياكم. ﴿وَإِن﴾ الواو: عاطفة أو استئنافية، ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف؛ تقديره: و﴿إنه﴾. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، أو بمحذوف مماثل له. ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿من الضالين﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كان﴾؛ تقديره: وإنه كنتم لكائنين مع الضالين قبله، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة المخففة معطوفة على جملة ﴿اذكروا﴾، أو مستأنفة.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف بمعنى الواو. ﴿أَفِيضُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ إن جرينا على القول بأن المراد بهذه الإفاضة الإفاضة من مزدلفة إلى منى قبل طلوع الشمس، كما قاله الضحاك. ﴿مِنۡ حَيۡثُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَفِيضُواْ﴾. و﴿حَيۡثُ﴾ إما ظرف زمان أو مكان. ﴿أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مضاف إليه لـ﴿حَيۡثُ﴾. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَفِيضُواْ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر بـ﴿لام﴾ التعليل المقدرة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أحكام مناسككم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم بعد قضائها.. فأقول لكم: ﴿إذا قضيتم﴾. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قَضَيْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿مَّنَاسِكَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿اذكروا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مفعول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة. ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله. ﴿ءَابَآءَكُمْ﴾: مفعول المصدر، ومضاف إليه، الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: فاذكروا الله ذكراً كائناً كذكركم آباءكم. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف بمعنى (بل). ﴿أَشَدَّ﴾: منصوب على الحالية من ﴿ذِكْرًا﴾ المذكور بعده، المنصوب بـ﴿اذكروا﴾؛ لأنه نعت نكرة قدمت عليها، فينصب على الحال. ﴿ذِكْرًا﴾: مفعول مطلق لـ﴿اذكروا﴾ منصوب به؛ لأن القاعدة: أن نعت النكرة إذا تقدم عليها يعرب حالاً، وتعرب النكرة بحسب العوامل، فيكون التقدير: فاذكروا الله ذكراً كائناً كذكركم آباءكم، بل اذكروه ذكراً أشد من ذكركم آباءكم؛ أي: أكثر منه.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

﴿فَمِنَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم من المناسك وما هو الأصلح لكم بعد قضاء

المناسك، وأردتم بيان أحوال الناس في الدعاء.. فأقول لكم: ﴿من الناس﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿من﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب، مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿رَبَّنَا﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف منصوب، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿ءَاتِنَا﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبَّنَآ﴾، والجملة الفعلية جواب النداء في محل النصب مقول القول. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَاتِنَا﴾، ومفعول ﴿ءَاتِنَا﴾ الثاني محذوف؛ تقديره: مطلوبنا. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿خَلَٰقٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والتقدير: وما خلاق كائن له في الآخرة، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾الواو: عاطفة، ﴿منهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وجملة يقول صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾. ﴿ءَاتِنَا﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبَّنَا﴾، والجملة جواب النداء في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَاتِنَا﴾. ﴿حَسَنَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿ءَاتِنَا﴾. ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور معطوف على قوله ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿حَسَنَةً﴾: معطوف على ﴿حَسَنَةً﴾ الأولى، على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿ءَاتِنَا﴾. ﴿وَقِنَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿قِ﴾ فعل أمر مبني

على حذف العلة، وهي الياء، ﴿نا﴾: مفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبَّنَآ﴾. ﴿عَذَابَ﴾: مفعول ثان لـ﴿قنا﴾. ﴿ٱلنَّارِ﴾: مضاف إليه، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ءَاتِنَا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نَصِيبٌ﴾: مبتدأ ثان مؤخر. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبٌ﴾؛ والتقدير: أولئك نصيب مما كسبوا كائن لهم، والجملة مستأنفة. ﴿كَسَبُواْۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف؛ تقديره: مما كسبوه. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: استئنافية، ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ: ﴿سَرِيعُ﴾ خبر. ﴿ٱلْحِسَابِ﴾: مضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾.

﴿وَٱذْكُرُواْ﴾ الواو: استئنافية، ﴿اذكروا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿فِيٓ أَيَّامٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اذكروا﴾. ﴿مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾: صفة لـ﴿أَيَّامٍ﴾. ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم مشروعية الذكر لكم، وأردتم بيان حكم من تعجل ومن تأخر.. فأقول لكم: ﴿من تعجل﴾، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿تَعَجَّلَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تَعَجَّلَ﴾. ﴿فَلَآ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ﴿إن﴾. ﴿إِثْمَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾؛ تقديره: فلا إثم كائن عليه، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: الواو: عاطفة، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط.

﴿تَأَخَّرَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، وجملة فلا إثم عليه في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى.

﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓا۟ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

﴿لِمَنِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف؛ تقديره: ذلك الحكم المذكور كائن لمن اتقى الله، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره مستأنفة. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱعۡلَمُوٓا۟﴾ الواو: عاطفة، ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾. ﴿أَنَّكُمۡ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿الكاف﴾: اسمها. ﴿إِلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُحۡشَرُونَ﴾، ﴿تُحۡشَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾؛ تقديره: أنكم محشورون إليه، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سادٌّ مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾؛ تقديره: واعلموا حشركم إليه للمجازاة بالبعث من القبور. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ استيسر وتيسر بمعنى واحد، مثل صعب واستصعب، وغنى واستغنى، وليست السين للطلب، وذلك لأن العرب لا تزيد حرفاً غالباً إلا للدلالة على معنى زائد لا يدل عليه الأصل كما هو مقرر في التصريف. ﴿ٱلۡهَدۡيِۖ﴾: بتخفيف الياء مصدر في الأصل، وهو بمعنى المهدي، ويقرأ بتشديد الياء، وهو جمع هدية، وقيل: هو فعيل بمعنى مفعول. ﴿مَحِلَّهُۥۚ﴾: وهو بالكسر يطلق على الزمان والمكان، وبالفتح على المكان فقط. ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: من باب إضافة الصفة المشبهة إلى مرفوعها.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾: الرفث: الإفحاش في الكلام، يقال: رفث يرفُث بكسر الفاء وضمها، والفسوق: الخروج عن حدود الشرع،

الجدال:[1] بوزن فِعال مصدر جادل، من باب فاعل الذي هو من مزيد الثلاثي، وهو المخاصمة الشديدة، مشتق من الجدل، وهو الفتل، ومنه قيل: زمام مجدول، وقيل: له جديل لفتله، وقيل للصقر: الأجدل لشدته واجتماع حلقه، كأن بعضه فتل في بعض فقوي. ﴿ٱلزَّادِ﴾[2] معروف؛ وهو ما يستصحبه الإنسان للسفر من مأكول ومشروب ومركوب وملبوس إن احتاج إلى ذلك، وألفه منقلبة عن واو يدل على ذلك قولهم: تزود تفعل من الزاد.

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ وأصل أفضتم: أفيضتم؛ لأنه من فاض السيل يفيض إذا سال، وإذا كثر الناس في الطريق كان مشيهم كجريان للسيل.

﴿عَرَفَٰتٖ﴾: اسم[3] لتلك البقعة؛ أي: موضع الوقوف، وقرأه الجماعة بالتنوين، وليس التنوين فيه للفرق بين ما ينصرف وما لا ينصرف، وإنما هو بمنزلة النون في مسلمين، وسميت عرفات؛ لأن الناس يتعارفون فيها، وقيل: لأن آدم التقى هو وحواء فيها فتعارفا، وقيل: غير ذلك. قال ابن عطية: والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع.

وقال أبو السعود[4]: وعرفات جمع سمي به كأذرعات، وإنما صرف وفيه العلتان لأن تنوينه تنوين المقابلة لا تنوين التمكين، وهذا الاسم من الأسماء المرتجلة إلا على القول بأن أصله جمع.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾ السين و التاء فيه للطلب على بابها، والمفعول الثاني محذوف للعلم به؛ أي: من ذنوبكم التي فرطت منكم، واستغفر يتعدى لاثنين، أولهما بنفسه، والثاني بمن، نحو استغفرت الله من ذنبي، وقد يحذف حرف الجر كقوله:

أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ   رَبَّ ٱلْعِبَادِ إِلَيْهِ ٱلْوَجْهُ وَٱلْعَمَلُ

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾؛ أي: أديتم؛ لأن قضى إذا علق بفعل النفس

(1) البحر المحيط.
(2) البحر المحيط.
(3) شوكاني.
(4) جمل.

فالمراد منه الإتمام والفراغ، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾.

﴿مَّنَاسِكَكُمۡ﴾: جمع[1] منسَك بفتح السين وكسرها، والجمهور على إظهار الكاف الأولى، وأدغمها بعضهم؛ شبه حركة الإعراب بحركة البناء فحذفها.

البلاغة

﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾: فيه مجاز في الفاعل وفي المفعول:

أما في الفاعل: ففي إسناد الحلق إلى الجميع، وإنما يحلق بعضهم رأس بعض، وهو مجاز شائع كثير، تقول: حلقت رأسي والمعنى: أن غيره حلقه له.

وأما المجاز في المفعول: فإنه على حذف مضاف تقديره: شعر رؤوسكم، والخطاب يخص الذكور؛ لأن الحلق مثلةٌ[2] للنساء في الحج وفي غيره، وإنما التقصير سنتهن في الحج.

﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾: كناية عن ذبحه في مكان الإحصار.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾: فيه مجاز بالحذف؛ لأن الأصل فمن كان منكم مريضاً فحلق، أو به أذى من رأسه فحلق.. فعليه فدية.

﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾: فيه من مباحث البلاغة شيئان: أحدهما: الإلتفات، والآخر: الحمل على المعنى.

أما الإلتفات: فإن قبله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾، فجاء بضمير الغيبة عائداً على ﴿من﴾ فلو نسق هذا على نظم الأول.. لقيل: إذا رجع، بضمير الغيبة.

وأما الحمل على المعنى: فلأنه أتى بضمير الجمع اعتباراً بمعنى ﴿من﴾، ولو روعي اللفظ لأفرد، فقيل: إذا رجع.

﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾: فيه إجمال بعد التفصيل، وهذا من باب الإطناب، وفائدته زيادة التأكيد والمبالغة في المحافظة على صيامها وعدم التهاون بها، أو

---

(١) عكبري.

(٢) مَثلةٌ: تشويه.

تنقيص عددها، والتنبيه على أنها كاملة في الثواب؛ يعني: أن ثواب صيام العشرة كثواب الذبح لا ينقص عنه شيئاً.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: فيه إظهار في مقام الإضمار؛ لتربية المهابة في روع السامع.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾: فيه إظهار في مقام الإضمار، ونكتته كمال الاعتناء بشأنه، والإشعار بعلة الحكم، فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها من موجبات ترك الأمور المذكورة، وإيثار النفي للمبالغة في النهي، والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يقع، فإن ما كان منكراً مستقبحاً في نفسه، ففي خلال الحج أقبح كلبس الحرير في الصلاة، لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض العبادة.

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: ومن شر ففيه اكتفاء، وهو ذكر أحد المتقابلين، وحذف الآخر لعلمه من المذكور.

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾: فيه تشبيه تمثيلي، يسمى: مرسلاً مجملاً.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾: فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، ولو جاء على الخطاب.. لكان: فمنكم من يقول ومنكم من يقول. وحكمة هذا الالتفات: أنهم لما وجهوا بهذا الذي لا ينبغي أن يسلكه عاقل، وهو الاقتصار على الدنيا.. أبرزوا في صورة أنهم غير المخاطبين بذكر الله، بأن جعلوا في صورة الغائبين، وهذا من التقسيم الذي هو من جملة ضروب البيان.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ
ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ
ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ
ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

المناسبة

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تطهر القلوب، وتزكي النفوس كالصيام والصدقة والحج، وقسم السائلين له إلى مقتصر على أمر الدنيا وطلبها، وسائل حسنة الدنيا والآخرة والوقاية من النار. أتى هنا بذكر النوعين، فذكر من النوع الأول من هو حلو المنطق مظهر الود، وليس ظاهره كباطنه، وعطف عليه من يقصد رضىٰ الله تعالى، ويبيع نفسه في طلبه، وقدم الأول هنا؛ لأنه هناك هو المقدم بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، وأحال هنا على إعجاب قوله دون غيره من الأوصاف؛ لأن القول هو الظاهر منه أولاً في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ﴾ فكان من حيث توجهه إلى الله تعالى في الدعاء ينبغي أن يكون لا يقتصر على الدنيا، وأن يسأل ما ينجيه من عذابه، وكذلك هذا الثاني ينبغي أن لا يقتصر على حلاوة منطقه، بل كان يطابق في سريرته لعلانيته، ثم حذر تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان، وبين لنا عداوته الشديدة.

أسباب النزول

قوله[1] تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ...﴾ الآية، أخرج ابن جرير عن السدي قال: نزلت في الأخنس بن شريق، أقبل إلى النبي ﷺ، وأظهر له الإسلام، فأعجبه ذلك منه، ثم خرج فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر؛ فأنزل الله الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ...﴾ أخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده، وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: أقبل صهيب مهاجراً إلى النبي ﷺ، فاتبعه نفر من قريش، فنزل عن راحلته وانتشل ما في كنانته، ثم قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أني مِنْ أرماكم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي كل سهم معي في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم منه، وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة، وخليتم سبيلي. قالوا: نعم، فلما قدم على النبي ﷺ المدينة قال: ربح البيع أبا يحيى، ربح أبا يحيى، ونزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً...﴾ الآية. أخرج ابن جرير عن عكرمة قال: قال عبد الله بن سلام، وثعلبة، وابن يامين، وأَسد وأُسد ابنا كعب، وسعيد بن عمرو، وقيس بن زيد، كلهم من يهود: يا رسول الله، يوم السبت يوم نعظمه، فدعنا فلنسبت فيه، وإن التوراة كتاب الله، فدعنا فلنقم بها الليل؛ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ...﴾ إلخ، هذان[2] قسمان يضمان لقوله

---

(١) لباب النقول.

(٢) جمل.

سابقاً: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ . . .﴾ إلخ. **فأول الأربعة**: راغب في الدنيا فقط ظاهراً وباطناً، **والثاني**: راغب فيها وفي الآخرة كذلك، **والثالث**: راغب في الآخرة ظاهراً وفي الدنيا باطناً، **والرابع**: راغب في الآخرة ظاهراً وباطناً معرض عن الدنيا كذلك؛ أي: ومن بعض الناس ـ يا محمد ـ من يعجبك ويحبك، ويشوقك ويعظم في نفسك قوله وكلامه وحديثه ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: يعجبك ما يقوله في أمور الدنيا، وأسباب المعاش وما يتكلم به لطلب مصالح الدنيا؛ لأنه يطلب بادعاء المحبة حظ الدنيا، ولا يريد به الآخرة، هذا إن قلنا: إن الجار والمجرور متعلق بالقول، ويصح تعلقه بـ﴿يعجبك﴾.

والمعنى حينئذ: أي يعجبك كلامه في الدنيا حلاوة وفصاحة، ولا يعجبك في الآخرة لما يعتريه في الموقف من الدهشة والحيرة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام. ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أنه موافق لقوله؛ أي: يحلف بالله على أن ما في قلبه من محبتك أو من الإسلام موافق لكلامه، ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام، وقرأ ابن محيصن[1] شذوذاً ﴿ويَشهدُ اللَّهُ﴾ بفتح حرف المضارعة ورفع الاسم الشريف على أنه فاعل، والمعنى: ويعلم الله منه خلاف ما قال، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ وقراءة الجماعة أبلغ في الذم، وقرأ ابن عباس شذوذاً: ﴿واللَّهَ يُشْهِدُ على ما في قَلْبِهِ﴾، وقرأ أبي، وابن مسعود شذوذاً أيضاً: ﴿وَيَسْتَشْهِدُ اللَّهَ على ما في قلبه﴾.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾؛ أي: والحال أنه شديد الخصومة والعداوة لك وللمسلمين، وهو الأخنس بن شريق الثقفي، واسمه أبي كان منافقاً حسن العلانية خبيث الباطن، أقبل إلى النبي ﷺ وأظهر الإسلام، وحلف بالله إنه يحبه ويتابعه في السر، وكان النبي ﷺ يدنيه من مجلسه، وعن ابن عباس[2] أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع ـ موضع بين مكة والمدينة ـ وعابوهم؛ فأنزل الله في ذم المنافقين، ومدح خبيب وأصحابه.

---

(١) شوكاني.
(٢) ابن كثير.

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» يعني: الشديد في الخصومة. متفق عليه.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ وانصرف وذهب من عندك يا محمد بعد إلانة القول، وإحلاء المنطق ﴿سَعَىٰ﴾ ومشى ﴿فِي﴾ بقاع ﴿ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾؛ أي: ليوقع الفساد فيها بقطع الأرحام، وسفك دماء المسلمين، وإيقاع الاختلاف بينهم وتفريق كلمتهم ﴿و﴾ لـ﴿يهلك﴾ ويعدم ﴿ٱلْحَرْثَ﴾ والزرع بالإحراق ﴿و﴾ يهلك ﴿النسل﴾؛ أي: نسل الدواب والحمر وأولادها بالقتل، فقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِيُفْسِدَ﴾ عطف خاص على عام كما أشرنا إليه في الحل، فإن الأخنس هذا لما انصرف من بدر مر على بني زهرة، وكان بينهم وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلاً، فأحرق زرعهم وأهلك مواشيهم، وقيل: معناه إذا تولى؛ أي: إذا صار والياً وملك الأمر.. سعى في الأرض؛ ليفسد فيها بالظلم والعدوان، كما يفعله ولاة السوء والظلمة، وقيل: يظهر ظلمه حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر، فهلك الحرث والنسل بسبب منع المطر، وهذه الآية وإن نزلت في الأخنس، فهي عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

يُعْطِيْكَ مِنْ طَرَفِ ٱللِّسَانِ حَلاَوَةً ... وَيَرُوغُ عَنْكَ كَمَا يَرُوْغُ ٱلثَّعْلَبُ

وفي[1] قراءة شاذة عن أبيّ ﴿وليهلك﴾، وقرأه قتادة بالرفع، وروي عن ابن كثير ﴿ويَهلكُ﴾ بفتح الياء وضم الكاف ورفع الحرث والنسل، وهي قراءة الحسن وابن محيصن، وما عدا قراءة الجمهور شاذ لا يقرأ به. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾؛ أي: لا يرضى به ويعاقب صاحبه، يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين، وما فيه فساد الدنيا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾؛ أي: لذلك الإنسان ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خَفْ عقاب الله في فعلك ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾؛ أي: حملته الأنفة وحمية الجاهلية ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾؛ أي: على فعل الإثم والفساد الذي أُمر باتقائه، ولزمه التكبر الحاصل بالإثم الذي في قلبه،

---

(١) شوكاني.

فإن التكبر إنما حصل بسبب ما في قلبه من الكفر والجهل، وعدم النظر في الدلائل، ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: كافيه جهنم جزاء وعذاباً، وجهنم: اسم من أسماء النار التي يعذب بها الكفار في الآخرة، وقيل: هي اسم أعجمي، وقيل: بل هي عربي، سميت النار بذلك لبعد قعرها، ﴿وَلَبِئْسَ﴾ وقبح ﴿ٱلْمِهَادُ﴾؛ أي: الفراش جهنم، والمهاد: التوطئة أيضاً، والمعنى: أن العذاب بالنار يجعل تحته وفوقه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله، فيقول: عليك بنفسك.

وروي أنه قيل لعمر: اتق الله، فوضع خده على الأرض تواضعاً لله.

ونزل في صهيب بن سنان الرومي حين أسلم وتعرض له المشركون وأرادوا قتله، فاشترى نفسه منهم بماله وأتى المدينة، أو فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى﴾؛ أي: يشتري ﴿نَفْسَهُ﴾ من الكفار بماله ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لأجل طلب رضا الله سبحانه وتعالى بالهجرة إلى الله ورسوله، وهو صهيب بن سنان، لما آذاه المشركون هاجر إلى المدينة، وترك لهم ماله، فعلى هذا: فالشراء على معناه الأصلي.

وقيل معناه: ومن الناس من يبيع ويبذل نفسه في طاعة الله من صلاة وصيام وجهاد، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، فكان ما يبذله من نفسه كالسلعة، فصار كالبائع، والله تعالى هو المشتري، والثمن هو رضا الله تعالى وثوابه المذكور في قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: محسن إليهم ومكرم لهم بالنعم الجسام، حيث أرشدهم لما فيه رضاه، ومن[1] رأفته أنه جعل النعيم الدائم جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأن المصر على الكفر ولو مئة سنة إذا تاب ولو لحظة... أسقط عنه

---

(١) كرخي.

عقاب تلك السنين، وأعطاه الثواب الدائم، ومن رأفته أن النفس والمال له، ثم إنه يشتري ملكه بملكه فضلاً منه ورحمة وإحساناً، ومن رأفته مضاعفة الحسنات، وعدم مضاعفة السيئات.

ونزل في عبد الله بن سلام وأضرابه حين عظموا السبت، وكرهوا الإبل بعد الإسلام قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ بفتح السين وكسرها الإسلام؛ أي: تلبسوا بالإسلام ﴿كَآفَّةً﴾؛ أي: جميعاً، واعملوا بجميع أحكامه واتركوا ما كنتم عليه من شريعة موسى المخالفة لملة الإسلام؛ لأنها صارت منسوخة، والسلم[1] هنا قرأها بالفتح نافع، والكسائي، وابن كثير، والباقون بكسرها، والتي في (الأنفال) لم يقرأها بالكسر إلا أبو بكر وحده عن عاصم، والتي في القتال، فلم يقرأها بالكسر إلا حمزة، وأبو بكر أيضاً، وقرأ الأعمش السَلَم بفتح السين واللام.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: ولا تتبعوا طرق تزيين الشيطان ووسوسته بتفريق الأحكام بالعمل ببعضها الموافق لشريعة موسى، وعدم العمل بالبعض الآخر المخالف لها كعدم تعظيم السبت، وعدم كراهة الإبل؛ يعني: لا تتبعوا طرق الشيطان التي يزينها بوسوسته لكم، وقيل المعنى: ولا تلتفتوا إلى الشبهات التي يلقيها إليكم أصحاب الضلالة والغواية والأهواء المضلة؛ لأن من اتبع سنة إنسان.. فقد تبع أثره ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشيطان ﴿لَكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيّن العداوة وظاهرها بالنسبة لمن أنار الله قلبه، وأما غيره: فهو حليف له ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ وملتم عن الدخول في كافته وجميعه، وانحرفتم عن الطريق الذي أمرتم به، وقرىء شذوذاً ﴿زللتم﴾ بكسر اللام ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ﴾ وظهرت لكم ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: الدلالات الواضحات من البراهين القطعية، والدلائل النقلية كالمعجزة الدالة على الصدق، وكالبيان الحاصل بالقرآن والسنة.

---

(١) سمين.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: قوي لا يعجزه شيء عن انتقامه منكم، ولا يمنعه مانع عنكم، ولا يفوته ما يريده منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه لا ينتقم إلا بحق، أو حكيم فيما شرعه لكم من الدين.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: ما ينتظر هؤلاء التاركون الدخول في السلم والمتبعون خطوات الشيطان ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة بلا كيف ولا تشبيه، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ﴿فِي ظُلَلٍ﴾؛ أي: في سحاب رقيق ﴿مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾؛ أي: من السحاب الأبيض ﴿و﴾ إلا أن تأتيهم ﴿الملائكة﴾ الموكلون بتعذيبهم، وقيل: إن قوله: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيه تقديم وتأخير بدليل ما في بعض القراءات شاذة: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام﴾ قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية[1] يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيىء فيما يشاء بدليل هذه القراءة.

وقال ابن كثير: وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ههنا حديث الصوَر بطوله من أوله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم، وفيه: «إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات.. تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم، فمن بعده، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ، فإذا جاؤوا إليه قال: أنا لها أنا لها، فيذهب فيسجد لله تحت العرش، ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد، فيشفعه الله، ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا، وينزل من فيها من الملائكة، ثم الثانية، ثم الثالثة إلى السابعة، وينزل حملة العرش والكروبيون[2]، قال: وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة». الحديث.

قال ابن أبي حاتم، وحدثنا أبي قال: حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي،

---

(١) ابن كثير.

(٢) **الكروبيون**: سادة الملائكة «لسان العرب».

حدثنا الوليد قال: سألت زهير بن محمد عن قول الله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ قال: ظلل من الغمام منظوم من الياقوت مكلل بالجواهر والزبرجد، وقال ابن أبي نجيح وعن مجاهد: في ظلل من الغمام قال: هو غير السحاب، ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل في تيه حين تاهوا.

والقول الأسلم[1] الذي عليه سلف الأمة وأعلام أهل السنة في آيات الصفات وأحاديثها: الإيمان والتسليم لما جاء فيها من الصفات، فيجب علينا الإيمان بظاهرها، وأن نؤمن بها كما جاءت، ونكل علمها إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، مع الإيمان والاعتقاد بأن الله تعالى منزه عن سمات الحدوث، وعن الحركة والسكون. قال الكلبي: هذا من الذي لا يفسر، وقال سفيان بن عيينه: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عليه، ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله.

وكان الزهري، والأوزاعي، ومالك، وابن المبارك، وسفيان الثوري، والليث بن سعد وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه يقولون في هذه الآية وأمثالها: اقرؤوها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، هذا مذهب أهل السنة، ومعتقد سلف الأمة، وأنشد بعضهم في المعنى:

عَقِيْدَتُنَا أَنْ لَيْسَ مِثْلُ صِفَاتِهِ ... وَلاَ ذَاتِهِ شَيْءٌ عَقِيْدَةُ صَائِبِ
نُسَلِّمُ آيَاتِ الصِّفَاتِ بِأَسْرِهَا ... وَأَخْبَارَهَا لِلظَّاهِرِ ٱلْمُتَقَارِبِ
وَنُؤْيِسُ عَنْهَا كُنْهَ فَهْمِ عُقُوْلِنَا ... وَتَأْوِيْلُنَا فِعْلُ ٱللَّبِيْبِ ٱلْمُغَالِبِ
وَنَرْكَبُ لِلتَّسْلِيْمِ سُفْنَاً فَإِنَّهَا ... لِتَسْلِيْمِ دِيْنِ ٱلْمَرْءِ خَيْرُ ٱلْمَرْكَبِ

والظلل: جمع[2] ظلة كقلة وقلل، وهي ما أظلك، وقرأ قتادة، ويزيد بن القعقاع ﴿ظلال﴾ كقلال، والغمام: السحاب الأبيض، وقرأ يزيد[3] أيضاً

---

(١) الخازن.
(٢) بيضاوي.
(٣) شوكاني.

﴿والملائكةِ﴾ بالجر عطفاً على ﴿ٱلْغَمَامِ﴾ أو على ﴿ظُلَلٍ﴾. قال الأخفش: والملائكة بالخفض بمعنى: وفي الملائكة، قال: والرفع أجود، وقال الزجاج: التقدير في ظلل من الغمام، ومن الملائكة.

والمعنى: هل ينتظرون إلا أن يأتيهم بما وعدهم من الحساب والعذاب في ظلل من الغمام والملائكة؟.

وقوله: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: معطوف على ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾، داخل في حيز الانتظار، وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه، فكأنه قد كان، أو جملة مستأنفة جيء بها للدلالة على أن مضمونها واقع لا محالة؛ أي: وفرغ من الأمر الذي هو إهلاكهم. وقرأ معاذ بن جبل شذوذاً: ﴿وقضاء الأمر﴾ بالمصدر عطفاً على الملائكة، وقرأ يحيى بن يعمر شذوذاً أيضاً: ﴿وقضىٰ الأمور﴾ بالجمع؛ أي: فهل ينتظرون إلا أن يُقضىٰ الأمر بين الخلائق، ويفصل بينهم بأخذ الحقوق لأربابها، وإنزال كل أحد من المكلفين منزلته، إما في الجنة وإما في النار، وذلك يوم القيامة. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يوم النشور؛ أي: ترد إليه أمور الخلائق وشؤونهم؛ ليقضي بينهم القضاء الفاصل، ويجازي كلاً على عمله.

فإن قلتَ[(١)]: هل كانت الأمور ترجع إلى غيره تعالى؟.

قلت: إن أمور جميع العباد ترجع إليه في الدنيا والآخرة، ولكن المراد من هذا: إعلام الخلق بأنه المجازي على الأعمال بالثواب والعقاب.

وفيه جواب آخر، وهو أنه لمّا عبد قوم غيره تعالى في الدنيا.. أضافوا أفعاله تعالى إلى طاغوتهم، فإذا كان يوم القيامة، وانكشف الغطاء.. ردوا إلى الله ما أضافوه إلى غيره في الدنيا.

وقرأ ابن كثير[(٢)]، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم على البناء للمفعول على أنه بمعنى: ترد، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي على البناء للفاعل بالتأنيث على

---

(١) الخازن. (٢) بيضاوي ومراح.

أنه بمعنى: تصير، وقرىء أيضاً بالتذكير، وبناء المفعول.

﴿سَلْ﴾ يا محمد ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: أولاد يعقوب الحاضرين منهم توبيخاً لهم وتقريعاً ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: أيُّ عدد أعطيناهم ﴿مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ﴾؛ أي: من معجزة واضحة، وحجج باهرة تدل على صدق أنبيائهم؛ أي: سلهم كم من المعجزات أعطينا لموسى نبيهم تدل على صدقه؟ كيَده، وعصاه، وفلقه البحر، وضربه الحجر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى وغير ذلك، فبدلوها كفراً؛ أي: أخذوا بدل موجبها وهو الإيمان كفراً، فاستوجبوا العقاب من الله تعالى، فإنكم لو زللتم عن آيات الله تعالى.. لوقعتم في العذاب كما وقع أسلافكم فيه، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ؛ أي: فلا غرابة في عدم إيمانهم بك، فإننا آتيناهم آيات بينات على يد موسى، فلم يؤمنوا ولم ينقادوا ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن يغير آيات الله الباهرة الدالة على نبوة محمد ﷺ بالكفر؛ أي: بدل موجبها الذي هو الإيمان بها بالكفر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾؛ أي: من بعد ما وصلت إليه وعرفها، أو المعنى: ومن يغير دين الله وكتابه بالكفر من بعد ما جاء به محمد ﷺ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ له فيعاقبه أشد عقوبة؛ لأنه ارتكب أشد جريمة، وفي هذا من الترهيب والتخويف ما لا يقادر قدره.

وقال ابن جرير الطبري[1]: النعمة هنا الإسلام، والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على عبد من عباده كائناً من كان، فوقع منه التبديل لها، وعدم القيام بشكرها، ولا ينافي ذلك كون السياق في بني إسرائيل، أو كونهم السبب في النزول لما تقرر من أن الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: حسنت[2] في أعينهم، وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا فيها، وأعرضوا عن غيرها، والمزين لهم في الحقيقة هو الله تعالى؛ إذ ما من شيء إلا وهو فاعله، ويدل عليه قراءة ﴿زيَّن﴾ بالبناء

---

(١) شوكاني.

(٢) بيضاوي.

للفاعل، وكل من الشيطان والقوة الحيوانية، وما خلقه الله فيها من الأمور البهيمية، والأشياء الشهوية مزين بالعرض، وإنما لم[١] يلحق الفعل علامة التأنيث لكونه مؤنثاً مجازياً، وحسن ذلك الفصل، وقرأ ابن أبي عبلة شذوذاً: ﴿زينت﴾ بالتأنيث مراعاة للفظ، وقرأ مجاهد، وأبو حيوة شذوذاً أيضاً ﴿زَين﴾ - بفتح الزاي مبنياً للفاعل، الحياة مفعول، والفاعل هو الله تعالى، والمعتزلة[٢] يقولون: إنه الشيطان، وهذا تأويل ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يتناول جميع الكفار، فيدخل فيه الشيطان وغواة الجن والإنس، وإن كلهم مزين لهم، وهذا المزين لا بد وأن يكون مغايراً لهم، فثبت بهذا ضعف قول المعتزلة.

وقيل: إن المراد من التزيين أنه تعالى أمهلهم في الدنيا حتى أقبلوا عليها وأحبوها، فكان هذا الإمهال هو التزيين.

قيل: نزلت هذه الآية[٣] في مشركي العرب، أبي جهل وأضرابه؛ لأنهم كانوا يتنعمون بما بسط لهم في الدنيا من المال، ويكذبون بالمعاد، وقيل: نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، وقيل: نزلت في رؤساء اليهود، ويحتمل أنها نزلت في الكل ﴿و﴾ هم ﴿يسخرون من الذين آمنوا﴾ ويستهزؤون بفقراءهم بضيق معيشتهم، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: مثل عبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وصهيب، وبلال، ونظرائهم رضي الله عنهم، وقيل: كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الشرك، وعن الدنيا الشاغلة عن الله تعالى، وهم فقراء المؤمنين ﴿فَوْقَهُمْ﴾؛ أي: فوق الكفار حساً ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ لأن المؤمنين في عليين، والكافرين في سجين، والمعنى: لأنهم في أوج الكرامة، وهم في حضيض المذلة، ولأن سخرية المؤمنين بالكفار يوم القيامة فوق سخرية الكافرين بالمؤمنين في الدنيا.

---

(١) جمل.

(٢) الخازن.

(٣) الخازن.

وعن حارثة بن وهب ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلّ جواظ جعظري مستكبر». متفق عليه. العتل: الفظ الغليظ الشديد في الخصومة، الذي لا ينقاد لخير، والجواظ: الفاجر المختال في مشيته، وقيل: هو القصير البطين، والجعظري: الفظ الغليظ، وقيل: هو الذي يتمدح بما ليس فيه أو عنده.

وعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار، فإذا عامة من دخلها النساء». متفق عليه. الجَد ـ بالفتح ـ: الحظ والغنى وكثرة المال. ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: والله يعطي من يشاء من عباده في الدنيا من مؤمن أو كافر، أو في الآخرة لمؤمن رزقاً واسعاً ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾؛ أي: رزقاً لا حساب فيه، ولا عد ولا ضبط لكثرته، فلا يضبطه عد، ولا كيل، ولا وزن من غير تكلف من المرزوق، ومن حيث لا يحتسب، وقد أغنى الله المؤمنين بما أفاض عليهم من أموال صناديد قريش، ورؤساء اليهود حتى ملكوا كنوز كسرى وقيصر، ولكن البسط في الدنيا لا يخلو: إما من الاستدراج، أو من الابتلاء.

الإعراب

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

﴿وَمِنَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿من الناس﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿يُعۡجِبُكَ﴾: فعل ومفعول. ﴿قَوۡلُهُۥ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿من﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير في ﴿قَوۡلُهُۥ﴾. ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُعۡجِبُكَ﴾، أو بـ﴿القول﴾. ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾.

﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾.

﴿وَيُشْهِدُ﴾ الواو: عاطفة، أو حالية، ﴿يشهد﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُعْجِبُكَ﴾ على كونها صلة الموصول، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿يُعْجِبُكَ﴾. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يشهد﴾. ﴿فِي قَلْبِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها؛ تقديره: على ما استقر في قلبه. ﴿وَهُوَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يشهد﴾ على كونها حالاً من فاعل ﴿يُعْجِبُكَ﴾، أو معطوفة على جملة ﴿يُعْجِبُكَ﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن يُعْجِبُكَ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿سَعَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن يُعْجِبُكَ﴾، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرط وجوابها مستأنفة. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سَعَىٰ﴾. ﴿لِيُفْسِدَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يفسد﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن يُعْجِبُكَ﴾. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾، تقديره: لإفساده فيها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿سَعَىٰ﴾. ﴿وَيُهْلِكَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿يهلك﴾: معطوف على ﴿يفسد﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿ٱلْحَرْثَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْحَرْثَ﴾، والجملة في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من ﴿يفسد﴾؛ تقديره: ولإهلاكه الحرث والنسل.

﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية، ﴿اللَّه﴾: مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿ٱلْفَسَادَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾الواو: عاطفة جملة على جملة، أو استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغيَّرا الصيغة ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، وإن شئت قلت: ﴿ٱتَّقِ﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ تقديره: أنت. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والتاء علامة تأنيث الفاعل. ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾؛ تقديره: حالة كونها ملتبسة بالإثم، أو حال من المفعول؛ تقديره: حال كونه ملتبساً بالإثم، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿يُعْجِبُكَ﴾ على كونها صلة الموصول، أو مستأنفة. ﴿فَحَسْبُهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفت أنه إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم، وأردت بيان عاقبته.. فأقول لك: ﴿حسبه جهنم﴾، ﴿حسبه﴾: ﴿الحسب﴾: مبتدأ، و﴿الهاء﴾: مضاف إليه. ﴿جَهَنَّمُ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الواو: استئنافية، أو حرف قسم، والمقسم به محذوف؛ تقديره ﴿والله﴾، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف؛ تقديره: أقسم والله، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿بئس﴾: فعل ماض من أفعال الذم. ﴿ٱلْمِهَادُ﴾: فاعل، وجملة ﴿بئس﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر للمبتدأ المحذوف وجوباً؛ لكونه مخصوصاً بالذم؛ تقديره:

جهنم، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره جواب القسم، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية، ﴿من الناس﴾: جار ومجرور، خبر مقدم. ﴿مَن﴾اسم موصول، أو موصوف في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ﴾، أو مستأنفة. ﴿يَشۡرِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿نَفۡسَهُ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿مَن﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير الفاعل. ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله، وهو مضاف. ﴿مَرۡضَاتِ﴾: مضاف إليه، وهو مضاف. ﴿ٱللَّهِۗ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿رَءُوفُۢ﴾: خبر. ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾. ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات أي: من الإضافة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿فِي ٱلسِّلۡمِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾. ﴿كَآفَّةً﴾: حال من ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾، و﴿السلم﴾ يذكر ويؤنث؛ فلذلك أنث الحال منها، فقيل كافة، ولم يقل كافاً.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّبِعُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾. ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ﴿إنَّ﴾: حرف نصب

وتوكيد، و﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾ وهو: خبر ﴿إن﴾. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة له، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بـ﴿لام﴾ التعليل المقدرة.

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أمرنا إياكم بالدخول في السلم كافة، ونهينا إياكم عن اتباع خطوات الشيطان، وأردتم بيان حالكم فيما إذا خالفتم الأمر والنهي.. فأقول لكم: ﴿إن زللتم﴾، ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿زَلَلْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿زَلَلْتُم﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، و﴿التاء﴾ علامة تأنيث الفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ تقديره: فإن زللتم من بعد مجيء البينات إياكم.. فاعلموا. ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً، ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر سادٌّ مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾؛ تقديره: فاعلموا كون الله عزيزاً حكيماً.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

﴿هَلْ﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾، والجملة صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع

صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ تقديره: هل ينتظرون إلا إتيان الله إياهم. ﴿فِي ظُلَلٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يأتي﴾. ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿ظلل﴾؛ تقديره: في ظلل كائنة من الغمام. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على لفظ الجلالة. ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ الواو: عاطفة. ﴿قضي الأمر﴾: فعل مغيَّر ونائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يأتي﴾. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ الواو: استئنافية، ﴿إلى الله﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُرْجَعُ﴾. ﴿تُرْجَعُ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة. ﴿ٱلْأُمُورُ﴾: نائب فاعل، والجملة مستأنفة.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿سَلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿بَنِىٓ﴾: مفعول أول لـ﴿سَلْ﴾ منصوب بـ﴿الياء﴾، وهو مضاف. ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة. ﴿كَمْ﴾: استفهامية بمعنى: أي عدد، أو خبرية بمعنى: عدد كثير، معلقة لـ﴿سَلْ﴾ عن العمل فيما بعدها في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أتيناهم﴾ مقدم عليه وجوباً؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام؛ تقديره: أتيناهم أي عدد، أو أتيناهم عدداً كثيراً، وإنما عُلِّق[1] سل عن العمل فيما بعده مع أنه ليس من أفعال القلوب، قالوا: لأنه سبب للعلم، والعلم يعلق، فكذلك سببه، فأجري السبب مجرى المسبب، والتعليق هو إبطال العمل لفظاً لا محلاً، كقولهم: ظننت لزيد قائم وعمراً جالساً. ﴿ءَاتَيْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول؛ لأن أتى بمعنى أعطى، فيتعدى إلى مفعولين، وجملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُم﴾ من الفعل والفاعل سادة مسد المفعول الثاني لـ﴿سَلْ﴾. ﴿مِّنْ﴾: زائدة، زيدت ليعلم أن مدخولها مميز لا مفعول ثانٍ لـ﴿ءَاتَيْنَٰهُم﴾ ﴿ءَايَةٍ﴾: تمييز لـ﴿كَمْ﴾ منصوب بفتحة مقدرة. ﴿بَيِّنَةٍ﴾: صفة له.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

---

(١) كرخي.

﴿وَمَن﴾ الواو: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿يُبَدِّلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُبَدِّلْ﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتْهُ﴾: فعل ومفعول، والتاء علامة تأنيث الفاعل. وفاعله ضمير يعود على ﴿نِعْمَةَ﴾، والجملة من الفعل والفاعل صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف؛ تقديره: من بعد مجيئها إياه. ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ وجوباً، ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد، ﴿اللَّهَ﴾: اسمها. ﴿شَدِيدُ﴾: خبرها. ﴿الْعِقَابِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إنَّ﴾ من اسمها و خبرها في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿الْحَيَوٰةُ﴾: نائب فاعل. ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة له، والجملة من الفعل المغيَّر ونائبه مستأنفة. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿يسخرون﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿زُيِّنَ﴾. ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يسخرون﴾. ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل.

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ الواو: عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿اتَّقَوْا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿فَوْقَهُمْ﴾: ظرف مكان ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف وجوباً، خبر المبتدأ؛ تقديره: والذين اتقوا كائنون فوقهم، والجملة معطوفة على جملة ﴿يسخرون﴾. ﴿يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف زمان ومضاف إليه، والظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف المذكور قبله. ﴿وَاللَّهُ﴾: الواو: استئنافية، ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَرْزُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف؛ تقديره: يشاءه. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَرْزُقُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ﴾ هو من أعجب الرباعي، يقال: أعجبني كذا؛ أي: ظهر لي ظهوراً لم أعرف سببه، والتعجب: انفعال يحدث في النفس عند شعورها بأمر خفي سببُهُ، ولذا يقال: إذا ظهر السبب بطل العجب، والإعجاب: استحسان الشيء والميل إليه والتعظيم له، وقال الراغب: العجب حيرة تعرض للإنسان بسبب الشيء.

﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾. ألدُّ: صفة مشبهة من اللدد، وهو شدة الخصومة، يقال: لددت لدداً ولدادةً، ورجل ألد، وامرأة لداء الخِصَامِ، إما مصدر لخاصم على حد قول ابن مالك:

لِـ(فَـاعَـلَ) ٱلْـفِـعَـالُ وَٱلْـمُـفَـاعَـلاَ   وَٱجْـعَـلْ مَـقِـيْـسَـاً ثَـانِـيَـاً لاَ أَوَّلاَ

وعلى هذا فالإضافة على معنى في والمعنى: شديد في خصومته، وإما جمع خصم كصعب وصعاب، وكلب وكلاب، وبحر وبحار، وكعب وكعاب؛ والمعنى: أشد المخاصمين في الخصومة.

﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ وفي «المختار» الحرث: الزرع، سمي الزرع حرثاً؛ لأنه يرزع، ثم يحرث، يقال: حرث يحرث حرثاً، من باب نصر، والحراث الزراع، وهو هنا بمعنى المحروث ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾ الولد، يقال: نسل نسلاً ـ من باب ضرب ـ إذا كثر نسله، وسمي الولد نسلاً؛ لأنه ينسل؛ أي: يسقط من بطن أمه بسرعة، وهو هنا بمعنى المنسول.

﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾ والعزة: القوة والغلبة، من عزه يعزه إذا غلبه، ومنه ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾. وقيل: العزة هنا الحمية، ومنه قول الشاعر:

أَخَـذَتْـهُ عِـزَّةٌ مِـنْ جَـهْـلِـهِ   فَـتَـوَلَّـىٰ مُـغْـضَـبَـاً فَـعَـلَ ٱلـضَّـجِـرْ

وقيل: العزة هنا المنعة وشدة النفس، ومعنى: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ حملته

العزة على الإثم. ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: جمع المهد، وهو الموضع المهيأ للنوم، ومنه مهد الصبي، وسميت جهنم مهاداً؛ لأنها مستقر الكفار.

﴿مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ﴾؛ أي: يبيع نفسه في مرضاة الله، يقال: شرى المال يشري ـ من باب رمى ـ إذا باع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ وقد يكون يشري بمعنى: يشتري، لا بمعنى يبيع ويبذل، وهو المناسب لسبب نزول الآية. ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ والمرضاة: مصدر ميمي بمعنى الرضا، تقول: رضي يرضى رضا ومرضاة، ضد سخط.

﴿فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ بفتح السين وكسرها مع سكون اللام فيهما قال الكسائي: معناهما واحد الإسلام والمسالمة، وقال أبو عمرو بن العلاء: إنه بالفتح للمسالمة، وبالكسر للإسلام، ورجح الطبري أنه هنا بمعنى الإسلام. ﴿كَآفَّةٗ﴾ بمعنى جميعاً، وهو مشتق من قولهم: كففت؛ أي: منعت؛ أي: لا يمتنع منكم أحد من الدخول في الإسلام، وأصل الكف المنع، ولكن المراد به هنا الجميع كما مر آنفاً. ﴿زَلَلۡتُم﴾ يقال: زل يزل زلا وزللا وزلولا إذا دحضت قدمه، وأصل الزلل في القدم، ثم استعمل في الاعتقادات والآراء، وغير ذلك.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ بالبناء للمفعول وللفاعل، فـ﴿رجع﴾ يستعمل لازماً ومتعدياً، فالمبني للمفعول من المتعدي، ومصدره الرجع كالضرب، وهو الرد، والمبني للفاعل من اللازم، ومصدره الرجوع، على حد قول ابن مالك:

وَفَعَلَ ٱللَّازِمُ مِثْلُ قَعَدَا   لَهُ فُعُوْلٌ بِٱطِّرَادٍ كَغَدَا

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أصله: اسأل نقلت حركة الهمزة الثانية التي هي عين الكلمة إلى الساكن قبلها، ثم حذفت تخفيفاً، وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها، فصار وزنه: فل.

البلاغة

﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِيُفۡسِدَ﴾ من عطف

الخاص على العام؛ لأن الإفساد عام يكون بأنواع من الجور والقتل والنهب والسبي والكفر، ويدخل تحته إهلاك الحرث والنسل، وفائدة هذا العطف: الاهتمام بشأن هذا الخاص؛ لأنهما أعظم ما يحتاج إليه في عمارة الدنيا، فكان إفسادهما غاية الإفساد.

﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ فيه استعارة تصريحية تبعية، وتقريرها أن يقال: شبه حال حمية الجاهل، وحملها إياه على الإثم بحالة شخص له على غريمه حق، فيأخذه به ويلزمه إياه بجامع اللزوم في كل، ثم اشتق من الأخذ بمعنى الحمل أخذ بمعنى حمل على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، وفي قوله: ﴿ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ التتميم، وهو نوع من علم البديع؛ وهو عبارة عن إرداف الكلمة بأخرى ترفع عنها اللبس، وتقربها من الفهم، وذلك أن العزة تكون محمودة ومذمومة، فَمِنْ مجيئها محمودة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولو أطلقت.. لتوهم فيها بعض من لا دراية له أنها المحمودة، فقيل ﴿بالإثم﴾ توضيحاً للمراد. فرفع اللبس بها.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ فهذا من باب التهكم والاستهزاء؛ أي: جعلت لهم جهنم غطاء ووطاء فأكرمهم بذلك كما تكرم الأم ولدها بالغطاء، والوطاء: اللين.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي بدليل مجيء ﴿إِلَّآ﴾ بعدها؛ أي: ما ينظرون، والاستفهام الإنكاري هو حمل المخاطب على الإنكار بأمر عُلِمَ عنده نفيه، والضمير في ﴿يَنظُرُونَ﴾ عائد على المخاطبين بقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، وفائدة هذا الالتفات: الإشعار بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض عنهم، وحكاية جنايتهم لمن عداهم من أهل الإنصاف على طريق المهانة.

﴿فِى ظُلَلٍ﴾ التنكير فيه للتهويل، فهي في غاية الهول والمهابة؛ لما لها من الكثافة التي تغم على الرائي ما فيها. ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فيه وضع الماضي موضع المستقبل، والأصل: ويقضي الأمر، وفائدته: الدلالة على أنه محقَّقٌ، فكأنه قد كان كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هذا السؤال ليس للاستعلام؛ لأن محمداً عالم بجميع الآيات التي أوتوها، فحيئذ لا يحتاج إلى جواب؛ لأن السؤال إذا كان لغير الاستعلام. لا يحتاج إلى الجواب.

﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ﴾ ﴿كَمْ﴾ فيه للاستفهام التقريري، وضابطه هو حمل المخاطب على الإقرار بأمر علم عنده ثبوته، ولا ينافي التبكيت؛ لأن معنى التقرير: الحمل على الإقرار، وهو لا ينافي التقريع والتبكيت.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾؛ أي: من بعد ما عرفها، أو تمكن من معرفتها، وإثبات المجيء للآيات فيه استعارة تصريحية تبعية.

فإن قلتَ: من المعلوم أن تبديل الآية لا يصح إلا بعد مجيئها، فَلِمَ صرح به، وما فائدة التصريح به؟

قلت: إنه ربما يوجد التبديل من غير خبرة بالمبدل، أو عن جهل به، فيعذر فاعله، وهؤلاء على خلاف ذلك، والفائدة في التصريح به: التقريع والتشنيع. ذكره في «الكشاف».

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة، وإدخال الروعة.

﴿زُيِّنَ﴾. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من عطف الجملة الفعلية على الجملة الفعلية، لا من باب عطف الفعل وحده على فعل آخر، فيكون من عطف المفردات؛ لعدم اتحاد الزمان، وأتى بقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ ماضياً؛ للدلالة على أن ذلك قد وقع وفرغ فيه، وبقوله: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ مضارعاً؛ للدلالة على التجدد والحدوث.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾: إيثار الجملة الاسمية؛ للدلالة على دوام مضمونها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً...﴾ مناسبة(١) هذه الآية لما قبلها: هو أن إصرار هؤلاء على كفرهم؛ هو حب الدنيا، وأن ذلك ليس مختصاً بهذا الزمان الذي بعثت فيه، بل هذا أمر كان في الأزمنة المتقادمة؛ إذ كانوا على حق، ثم اختلفوا بغياً وحسداً، وتنازعاً في طلب الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه قال: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، والمراد إلى

---

(١) البحر المحيط.

الحق الذي يفضي اتباعه إلى الجنة، فبين أن ذلك لا يتم إلا باحتمال الشدائد والتكليف، أو لمّا بين أنه هداهم. . بين أنه بعد تلك الهداية احتملوا الشدائد في إقامة الحق، فكذا أنتم أصحابَ محمد لا تستحقون الفضيلة في الدين إلا بتحمل هذه المحن.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ. . .﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الصبر على النفقة وبذل المال هو من أعظم ما يتحلى به المؤمن، وهو من أقوى الأسباب الموصلة إلى الجنة، حتى لقد ورد: «الصدقة تطفيء غضب الرب».

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ. . .﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: هو أنه لمّا ذكر ما مسَّ مَنْ تقدمنا مِنْ أتباع الرسل من البلايا، وأن دخول الجنة معروف بالصبر على ما يبتلى به المكلف، ثم ذكر الإنفاق على مَنْ ذكر، فهو جهاد النفس بالمال. . انتقل إلى أعلى منه، وهو الجهاد الذي يستقيم به الدين، وفيه الصبر على بذل المال والنفس.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ. . .﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما فرض القتال لم يخص بزمان دون زمان، وكان من العوائد السابقة أن الشهر الحرام لا يستباح فيه القتال، فبين حكم القتال في الشهر الحرام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ. . .﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة، وقيل: لمّا أوجب الجهاد بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾، وبين أن تركه سبب الوعيد. . أتبع ذلك بذكر من يقوم به، ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويتبعه وعد.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ. . .﴾ الآية، قال(١) عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن قتادة قال: نزلت هذه الآية في غزوة الأحزاب، وهي غزوة

---

(١) لباب النقول بزيادة من الخازن.

الخندق حين أصاب النبي ﷺ والمسلمين يومئذ ما أصابهم من الجهد والشدة، والخوف والبرد، وضيق العيش الذي كانوا فيه يومئذ.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ...﴾ الآية، أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: سأل المؤمنون رسول الله ﷺ: أين يضعون أموالهم؟ فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾.

وأخرج ابن المنذر عن أبي حيان أن عمرو بن الجموح رضي الله عنه ـ وكان شيخاً كبيراً ذا مالٍ ـ سأل النبي ﷺ: ماذا ننفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ...﴾ الآية، أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «سننه» عن جندب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً، وأمّر عليهم عبد الله بن جحش ـ وهو ابن عمته ـ في جُمادى الآخرة قبل وقعة بدر بشهرين، فلقوا عمرو بن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جُمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ...﴾ الآية. فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزراً ليس لهم أجر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآية. فأثبت الله لأصحاب هذه السرية جهاداً.

التفسير وأوجه القراءة

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ من لدن آدم إلى نوح عليهما السلام ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: متفقين على الحق والتوحيد، فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ويدل على هذا المحذوف ـ أعني قوله: فاختلفوا ـ قراءة ابن مسعود التفسيرية، والتي ليست بقرآن بل بتفسير، فإنه قرأ: ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين﴾.

والمراد[1] بالناس: القرون التي بين آدم ونوح؛ وهي عشرة، كانوا على

(١) البحر المحيط.

الحق حتى اختلفوا، فبعث الله نوحاً فمن بعده. قاله ابن عباس وقتادة.

والمعنى: كان الناس الذين بين آدم ونوح أمة متفقة في الدين قائمة على الحق، ثم اختلفوا بسبب الحسد والتنازع في طلب الدنيا، فآمن بعض وكفر بعض، فبعث الله النبيين؛ أي: نوحاً فمَن بعده حالة كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من آمن بالله بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾؛ أي: مخوِّفين من كفر بالله بالنار، وقدم البشارة؛ لأنها أبهج للنفس، وأقبل لما يُلقي النبي، وقيل[1]: جملة الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلاث مئة وثلاثة عشر، والمذكور في القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون. ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ﴾؛ أي: مع كل واحد منهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: كتابه حال كون ذلك الكتاب ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ببيان الحق والتوحيد، أو متعلق بأنزل؛ أي: وأنزل معهم الكتاب بالعدل والصدق[2]، وقيل: جملة الكتب المنزلة من السماء مئة وأربعة كتب: أنزل على آدم عشر صحائف، وعلى شيث ثلاثون، وعلى إدريس خمسون، وعلى موسى عشر صحائف والتوراة، وعلى داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى محمد صلى اللّه وسلم عليه وعليهم القرآن ﴿لِيَحْكُمَ﴾ اللّه، أو ذلك الكتاب والنبي المبعوث، والحاكم في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، وإسناد الحكم إلى الكتاب والنبي مجاز عقلي. ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: في دين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق عليه أولاً؛ أي: ليحكم الكتاب في الحق الذي اختلف الناس في ذلك الحق، فالكتاب حاكم، والمختلف فيه ـ وهو الحق ـ محكوم عليه. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الحق والدين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾؛ أي: أعطوا الكتاب مع أن المقصود من إنزال الكتاب أن لا يختلفوا، وأن يرفعوا المنازعة في الدين، فعكسوا الأمر، فجعلوا ما أنزل مزيحاً للاختلاف سبباً لاستحكامه، والمراد[3] بالكتاب: التوراة والإنجيل، والذين أوتوه اليهود والنصارى، واختلافهم هو تكفير بعضهم بعضاً

---

(١) البيضاوي والشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) الخازن.

بغياً وحسداً، وقيل: اختلافهم هو تحريفهم: وتبديلهم، وقيل: الضمير في (فيه) راجع إلى محمد ﷺ، والمعنى: وما اختلف في أمر محمد ﷺ بعد وضوح الدلالات على صحة نبوته ﷺ إلا اليهود الذين أوتوا الكتاب بغياً منهم وحسداً، و﴿مِنْ﴾ في قوله[1]: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ متعلقة بـ﴿اختلف﴾، وهي وما بعدها ـ أعني قوله: ﴿بَغْيًا﴾ ـ مقدم على الاستثناء في المعنى، والاستثناء مفرغ، والمستثنى منه محذوف، والمعنى[2]: وما اختلف في الدين والحق أحد من بعد ظهور الحجج الواضحة، لأجل البغي والحسد الواقع منهم إلا الذين أوتوه، وإنما جعل مقدماً على الاستثناء؛ لئلا يكون الاستثناء المفرغ متعدِّداً مع أنه لا يكون كذلك؛ لأنه يصير المعنى حينئذ: إلا الذين أوتوه إلا من بعد ما جاءتهم البينات إلا بغياً بينهم.

وقيل المعنى[3]: وما اختلف في أمر محمد ﷺ بعد وضوح الدلالات الواضحة على صحة نبوة محمد ﷺ لهم بغياً وحسداً إلا اليهود؛ أي: إلا الذين أوتوا الكتاب، وهم علماء اليهود؛ لأن المشركين وإن اختلفوا في أمر محمد ﷺ، فإنهم لم يفعلوا ذلك للبغي والحسد، والحرص على طلب الدنيا، ولم تأتهم البينات في شأن محمد ﷺ كما أتت اليهود، فاليهود مخصوصون من هذا الوجه.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالنبيين ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: إلى الدين والحق الذي اختلف فيه من اختلف، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه، وفي قراءة شاذة تنسب لعبد الله ﴿لما اختلفوا فيه من الإسلام﴾ ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: بإرادته وعلمه ولطفه.

قال ابن زيد: اختلفوا في القبلة فصلت اليهود إلى بيت المقدس، والنصارى إلى المشرق، فهدانا الله إلى الكعبة، واختلفوا في الصيام، فهدانا الله لشهر رمضان، واختلفوا في إبراهيم، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى:

---

(١) الجلالين.

(٢) الصاوي.

(٣) الواحدي.

كان نصرانياً، فقلنا: إنه كان حنيفاً مسلماً، واختلفوا في عيسى، فاليهود فرطوا حيث أنكروا نبوته ورسالته، والنصارى أفرطوا حيث جعلوه إلهاً، وقلنا: قولاً عدلاً، وهو إنه عبد الله ورسوله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله، فغدا لليهود وبعد غد للنصارى». متفق عليه. وفي رواية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له ـ زاد النسائي: يعني يوم الجمعة ـ ثم اتفقا، فالناس لنا تبع: اليهود غداً، والنصارى بعد غد».

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن يوم الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا ليوم الجمعة فجعل الله الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا الأولون يوم القيامة المقضي لهم يوم القيامة قبل الخلائق». رواه مسلم.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم، وله الحكمة[1] والحجة البالغة، وفي «صحيح» البخاري ومسلم: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

ونزل في جهد أصاب المسلمين في غزوة الأحزاب قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ خاطب به النبي ﷺ والمؤمنين بعد ما ذكر اختلاف الأمم على

---

(١) ابن كثير.

الأنبياء من بعد مجيء الآيات تشجيعاً لهم على الثبات مع مخالفيهم، و﴿أَمْ﴾ فيه منقطعة، تفسر بـ﴿بل﴾ وبهمزة الإنكار؛ أي: بل أظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة بمجرد الإيمان بي وتصديق رسولي ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾؛ أي: والحال أنه لم يصبكم شبه ما أصاب الذين مضوا من قبلكم من الأنبياء وأممهم من الشدائد والمحن، ولم تبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النكبات، فتصبروا كما صبروا، فإنهم ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾ جملة مستأنفة مبينة لما قبلها؛ أي: أصابتهم ﴿الْبَأْسَاءُ﴾؛ أي: الخوف والبلايا والشدائد ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾؛ أي: الأمراض والأوجاع والجوع ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ مبني للمجهول حذف الفاعل للعلم به؛ أي: زلزلهم أعداءهم؛ أي: وحركوا بأنواع البلايا والرزايا، وأزعجوا إزعاجاً شديداً، واستمر ذلك ﴿حَتَّىٰ﴾ تناهى الأمر من الشدائد و﴿يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ لتناهي الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر، وقرأ[1] نافع: ﴿يقولُ﴾ بالرفع على أنها حكاية حال ماضية كقولك: مرض حتى لا يرجونه، وقرأ الأعمش شذوذاً: ﴿وزلزلوا ويقول الرسول﴾ بالواو بدل حتى ﴿مَتَىٰ﴾ يأتي لنا ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ الذي وعدناه استبطاء له لتأخره عنهم، ومعناه: طلب النصر، واستطالة زمان الشدة، وذلك لأن الرسل أثبت من غيرهم، وأصبر وأضبط للنفس عند نزول البلاء، وكذا أتباعهم من المؤمنين.

والمعنى: أنه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء، ولم يبق لهم صبر، وذلك هو الغاية القصوى في الشدة، فلما بلغ بهم الحال في الشدة إلى هذه الغاية، واستبطؤوا النصر.. قيل لهم من جهة الله تعالى: ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتبهوا ﴿إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ﴾ لأوليائه على أعدائه و﴿قَرِيبٌ﴾ لهم لا بعيد، إجابة لهم إلى ما طلبوا من نصر عاجل، والمعنى[2]: هكذا كان حالهم لم يغيرهم طول البلاء والشدة عن دينهم إلى أن يأتيهم نصر الله، فكونوا ـ يا معشر المؤمنين ـ كذلك، وتحملوا الأذى والشدة والمشقة في طلب الحق، فإن نصر الله قريب، فاصبروا كما صبروا تظفروا.

---

(١) البيضاوي. (٢) الخازن.

والأحسن[1] أن يقال: إن معنى هذا الكلام: فالذين آمنوا قالوا: متى نصر الله؟ ثم رسولهم قال: ألا إن نصر الله قريب.

روى البخاري عن خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تنصرنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾؛ أي: ما قدره وما جنسه، والمراد نفقة التطوع، فالآية محكمة لا منسوخة؛ أي: يسألك يا محمد أصحابك المؤمنون عن الشيء الذي ينفقونه، هل ينفقون مما تيسر ولو محرماً، أو يتحرون الحلال؟ وفي الآية حذف سؤال آخر دل عليه الجواب، والتقدير: وعلى من ينفقون، والسؤال عن صدقة التطوع، والسائل عمرو بن الجموح، وكان شيخاً ذا مال، فسأل النبي ﷺ عما ينفق، وعلى من ينفق؟ وإنما جمع في الآية؛ لأن التكليف لكل مسلم، فكان هذا السائل ترجماناً عن كل مسلم، وإنما اعتني بذلك السؤال لأن الإنسان يوم القيامة ورد أنه يسأل عن ماله من أين أكتسبه، وفيم أنفقه؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في الجواب ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: من مال قليلاً كان أو كثيراً، وفي هذا: بيان المنفق الذي هو أحد شقي السؤال المذكور في الآية، وأجاب عن المصرف الذي هو الشق الآخر الذي سؤاله مطوي في الآية بقوله: ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾؛ أي: فمصروف لهما، وإن عَلَيا ﴿و﴾ مصروف لـ﴿الأقربين﴾ من الأولاد والأخوة والأعمام والعمات، وعطفه على الوالدين من عطف العام على الخاص، وصرح بذكر الوالدين أولاً، وإن دخلا في الأقربين اعتناءً بشأنهما؛ لوجوب حقهما على

(١) المراح.

الولد؛ لأنهما كانا السبب في إخراجه من العدم إلى الوجود، وإنما ذكر بعد الوالدين الأقربين؛ لأن الإنسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء، فتقديم القرابة أولى من غيرهم ﴿و﴾ مصروف لـ﴿اليتامى﴾ المحتاجين، جمع يتيم، وهو من فقد أباه، وهو دون البلوغ، وإنما ذكر اليتامى بعد الأقربين؛ لصغرهم وعجزهم عن التكسب، ولا لهم أحد ينفق عليهم. ﴿و﴾ مصروف لـ﴿المساكين﴾ المراد بهم ما يشمل الفقراء، وإنما أخرهم؛ لأن حاجتهم أقل من حاجة غيرهم ﴿و﴾ مصروف لـ﴿ابن السبيل﴾؛ أي: الغريب المسافر؛ فإنه بسبب انقطاعه عن بلده قد يقع في الحاجة والفقر، فانظر إلى هذا الترتيب الحسن العجيب في كيفية الإنفاق، فالمراد بهذه الآية: من أحب التقرب إلى الله تعالى في باب النفقة.. فالأولى له أن ينفقه في هذه الجهات، فيقدم الأول فالأول في صدقة التطوع.

ثم لما فصل الله هذا التفصيل الحسن الكامل.. أتبعه بالإجمال، فقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ مع هؤلاء أو غيرهم طلباً لوجه الله تعالى ورضوانه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾؛ أي: عالم به وبنياتكم، فيجازيكم عليه، ويوفي ثوابه لكم.

ثم قال تعالى مبيناً حكمة مشروعية القتال في الإسلام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾؛ أي: فرض وأوجب عليكم ـ أيها المؤمنون ـ الجهاد للكفار في أوقات النفير العام مع النبي ﷺ ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: والحال أن القتال شاق عليكم مكروه لكم طبعاً لنفور الطبع عنه؛ لما فيه من مؤنة المال، ومشقة النفس، وخطر الروح والخوف، لا لأنهم كرهوا أمر الله؛ لأن ذلك ينافي كمال تصديقهم؛ لأن معناه كراهة نفس ذلك الفعل ومشقته، كوجع الضرب في الخد، مع كمال الرضا بالحكم والإذعان له.

وهو ـ أعني كرهاً ـ مصدر أقيم مقام الوصف للمبالغة، أو هو فعل بمعنى مفعول، كالخبز بمعنى المخبوز، وقرىء بالفتح على أنه لغة فيه كالضُعف والضَعف.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾؛ أي: وحق وثبت كراهتكم شيئاً، وهو جميع ما

كلفوا به كالجهاد، فإن الطبع يكرهه ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أن ذلك الشيء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: مناط صلاحكم وسبب فلاحكم، فإنكم تكرهون الغزو وفيه إحدى الحسنين: إما الظفر والغنيمة، وإما الشهادة والجنة. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾؛ أي: وحق وثبت محبتكم شيئاً، وهو جميع ما نهوا عنه كالقعود عن الغزو، فإن النفس تحبه وتهواه ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أن ذلك الشيء ﴿شَرٌّ لَّكُمْ﴾؛ أي: مفضٍ لكم إلى الردى والهلاك الأبدي، فإنكم تحبون القعود عن الغزو، وفيه ذلّكم وفقركم وحرمانكم من الغنيمة والأجر، وطمع العدو فيكم؛ لأنه إذا علم ميلكم إلى الراحة والدعة والسكون.. قصد بلادكم وحاول قتالكم، وإذا علم أن فيكم شهامة وجلادة على القتال.. كفّ عنكم. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه صلاحكم وفلاحكم، فبادروا إلى ما يأمركم به من الجهاد، وإن شق عليكم، ويعلم ما فيه ذلّكم وهلاككم، فانتهوا عما ينهاكم عنه من القعود عن الغزو ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك؛ أي: ما هو خير لكم وما هو شر لكم: لأن عواقب الأمور مغيبة عن علمكم، وفي هذا الكلام: تنبيه على الرضى بما جرت به المقادير، وقال الحسن: لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلربّ أمر تكرهه فيه أربك، ولربّ أمر تحبه فيه عطبك، ونزل في سرية بعثها رسول الله ﷺ ـ فقاتلوا المشركين، وقد أهل هلال رجب وهم لا يعلمون ذلك، فقالت قريش: استحل محمد ﷺ الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف ـ قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: يسألك يا محمد أصحابك عن الشهر الحرام ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتمال من الشهر الحرام، وقرىء ﴿عن قتال فيه﴾ بتكرير العامل، وقرىء أيضاً بالرفع؛ أي: يسألك أصحابك ـ يا محمد ـ عن القتال في الشهر الحرام خطأ، أيحل لهم أم لا؟ ﴿قُلْ﴾ لهم ـ يا محمد ـ في الجواب ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ مبتدأ وخبر، وقد تم الكلام هاهنا، والوقف هنا تام، وما بعده كلام مستأنف، وقرأ عكرمة ﴿قتل فيه قل قتل فيه﴾ بغير ألف فيهما؛ أي: قل لهم في جوابهم: القتال في الشهر الحرام أمره كبير ووزره عظيم، ولكن هناك ما هو أعظم وأخطر منه، وهو ما ذكره بقوله: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومنع المشركين المؤمنين عن دين الله وطاعته ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾؛ أي: وكفرهم بتوحيد الله ﴿وَ﴾ صدهم الناس عن ﴿ٱلْمَسْجِدِ

﴿ٱلۡحَرَامِۖ﴾، يعني: عن مكة، وقرىء شاذاً: ﴿والمسجدُ الحرام﴾ بالرفع ووجهه أنه عطفه على قوله: ﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾، ويكون على حذف مضاف؛ أي: وكفر بالمسجد الحرام ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ﴾؛ أي: أهل المسجد الحرام، وهم النبي ﷺ والمؤمنون ﴿مِنۡهُ﴾؛ أي: من المسجد الحرام، يعني: من مكة، كل ذلك ﴿أَكۡبَرُ﴾ وأعظم وزراً وذنباً ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ تعالى من قتل من قتلتم من المشركين، فإذا استعظموا قتالكم في الشهر الحرام.. فليعلموا أن ما ارتكبوه في حق النبي ﷺ والمؤمنين أعظم وأشنع.

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾؛ أي: وفتنتهم المؤمنين عن دينهم تارة بإلقاء الشبهة في قلوبهم، وتارة بالتعذيب، كفعلهم ببلال وصهيب وعمار بن ياسر، حتى يردوهم إلى الكفر بعد إيمانهم. ﴿أَكۡبَرُ﴾؛ أي: أعظم وزراً وأفظع حالاً عند الله ﴿مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾؛ أي: من قتل من قتلتموه من المشركين في الشهر الحرام.

روي أنه لما نزلت هذه الآية.. كتب عبد الله بن جحش إلى مؤمني مكة: إذا عيركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام.. فعيروهم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكة، ومنع المؤمنين عن البيت الحرام ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾؛ أي: ولا يزال المشركون من أهل مكة وغيرهم ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾؛ أي: يجتهدون في قتالكم أيها المؤمنون ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ﴾؛ أي: كي يردوكم عن دينكم الحق، ويعيدوكم إلى دينهم الباطل ﴿إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾؛ أي: إن أطاقوا وقدروا على ذلك.. يردوكم، ولكن لا يستطيعون ذلك، وهذا استبعاد لاستطاعتهم، وإشارة إلى ثبات المؤمنين على دينهم ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾؛ أي: ومن يرجع منكم عن دينه الحق إلى دينهم الباطل ﴿فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ﴾؛ أي: فيمت على ردته، ولم يرجع إلى الإسلام ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المصرون على الارتداد إلى حين الموت ﴿حَبِطَتۡ﴾ بكسر الباء وقرىء بفتحها، وهي لغة فيه؛ أي: بطلت. ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ الصالحة وردت حسناتهم التي عملوها في حالة الإسلام ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ فلا اعتداد بها في الدنيا، ولا ثواب عليها في الآخرة، فحبوط الأعمال في الدنيا هو أنه يقتل عند الظفر به، ويقاتل إلى أن يظفر به، ولا يستحق من المسلمين نصراً ولا

ثناءً حسناً، وتَبِيْنُ زوجته منه، ولا يستحق الميراث من كل أحد، وحبوط أعمالهم في الآخرة أن الردة تبطل استحقاقهم للثواب الذي استحقوه بأعمالهم السالفة.

أما لو رجع المرتد إلى الإسلام: عادت إليه أعماله الصالحة مجردة عن الثواب، فلا يكلف بإعادتها، وهذا هو المعتمد في مذهب الشافعي، وأما عند أبي حنيفة: فإن الردة تبطل العمل وإن أسلم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المصرون ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ أي: ملازموها ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: مقيمون لا يخرجون ولا يموتون.

وروي أن عبد الله بن جحش رضي الله عنه قال: يا رسول الله، هبْ أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا، فهل نطمع منه أجراً وثواباً؟ فنزلت هذه الآية الآتية؛ لأن عبد الله كان مؤمناً، وكان مهاجراً، وكان بسبب هذه المقاتلة مجاهداً، ثم هي عامة في مَنْ اتصف بهذه الأوصاف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾؛ أي: فارقوا أوطانهم وعشائرهم وأموالهم، وفارقوا مُسَاكنة المشركين في أمصارهم ومجاورتهم في ديارهم، فتحولوا عن المشركين وعن بلادهم إلى غيرها ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ المشركين ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعة الله لإعلاء دين الله، وبذلوا جهدهم في قتل العدو، كقتل عمرو بن الحضرمي الكافر، وكرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد، كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالأوصاف الثلاثة ﴿يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: يطمعون في نيل رحمة الله، وينالون جنة الله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فعلوه خطأً وقلة احتياطٍ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإجزال الأجر والثواب لهم.

الإعراب

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: اسمها. ﴿أُمَّةً﴾: خبرها. ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة ﴿أُمَّةً﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: ﴿الفاء﴾:

عاطفة، ﴿بعث اللَّهُ النبينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: حال من ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَأَنزَلَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿أنزل﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿بعث﴾. ﴿مَعَهُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أنزل﴾. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنزل﴾، أو بمحذوف حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ تقديره: حال كونه ملتبساً بالحق.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

﴿لِيَحْكُمَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يحكم﴾: منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والجملة صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾؛ تقديره: لحكمه ﴿بين الناس﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أنزل﴾. ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿يحكم﴾. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يحكم﴾. ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضميرُ ﴿فيه﴾

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿ما﴾: نافية. ﴿ٱخْتَلَفَ﴾: فعل ماض. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أُوتُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفَ﴾ وهو مضاف. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد مجيء البينات إياهم. ﴿بَغْيًۢا﴾: مفعول لأجله منصوب بـ﴿ٱخْتَلَفَ﴾، وفي

«الفتوحات الإلهية»: أو منصوب على الحال. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ﴿بَغْيًا﴾؛ تقديره: بغياً كائناً بينهم.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾.

﴿فَهَدَى﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿هدى الله الذين﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿هدى﴾. ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضميرُ ﴿فِيهِ﴾. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾. ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿ما﴾؛ تقديره: حالة كون ما اختلفوا فيه كائناً من الحق. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿هدى﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية، ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة خبر المتبدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف؛ تقديره: من يشاءه. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَهْدِى﴾. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة لـ﴿صِرَٰطَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل، والهمزة للإنكار. ﴿حَسِبْتُمْ﴾: فعل وفاعل، وهي من أخوات ﴿ظن﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر سادٍّ، مسد مفعولي ﴿حسب﴾ عند سيبويه؛ تقديره: أم حسبتم دخولكم الجنة، وعند الأخفش: سادة

مسد المفعول الأول، والثاني محذوف؛ تقديره: أم حسبتم دخولكم الجنة واقعاً بمجرد الإيمان. ﴿وَلَمَّا﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿لمّا﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَأْتِكُم﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لما﴾، وجزمه بحذف حرف العلة. ﴿مَّثَلُ﴾: فاعل وهو مضاف. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿حَسِبْتُمْ﴾؛ تقديره: أم حسبتم دخول الجنة حالة كونكم عادمين إتيان ﴿مثل الذين﴾. ﴿خَلَوْا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِن قَبْلِكُم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَلَوْا﴾.

﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾.

﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾: معطوف على ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾. ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَقُولَ﴾: منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة وجوباً بعد ﴿حتى﴾ بمعنى ﴿إلى﴾. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: فاعل. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾، وجملة ﴿يَقُولَ﴾ صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾ بمعنى ﴿إلى﴾؛ تقديره: وزلزلوا إلى قول الرسول والذين آمنوا معه، الجار والمجرور متعلق بـ﴿زلزلوا﴾. ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُ﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَتَىٰ﴾: اسم استفهام في محل الرفع خبر مقدم وجوباً. ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول.

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح وتنبيه. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿نَصْرَ ٱللَّهِ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ ومضاف إليه. ﴿قَرِيبٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب، مقول لقول محذوف؛ تقديره: قال الله لهم: إن نصر الله قريب، وجملة القول المحذوف مستأنفة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول، والجملة مستأنفة. ﴿مَاذَا﴾ ﴿ما﴾: اسم استفهام مبتدأ، ﴿ذا﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر. ﴿يُنفِقُونَۖ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف؛ تقديره: ما الذي ينفقونه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب، مفعول به ثان لـ﴿سأل﴾؛ تقديره: يسألونك أي الشيء الذي ينفقونه؟. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿مَآ﴾: موصولة في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَنفَقْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف؛ تقديره: ما أنفقتموه. ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المحذوف؛ تقديره: ما أنفقتموه حالة كونه كائناً من خير. ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾: ﴿الفاء﴾: زائدة في الخبر، أو رابطة الخبر بالمبتدأ؛ لما في المبتدأ من العموم. ﴿للوالدين﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ تقديره: فمصروف للوالدين، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ويحتمل كون ﴿مَآ﴾ شرطية، والجواب جملة ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾. ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾: معطوفات على ﴿الوالدين﴾.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم وجوباً. ﴿تَفْعَلُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿ما﴾ على كونه فعل الشرط لها. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿ما﴾؛ تقديره: حالة كونه كائناً من خير. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، وهو خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿ما﴾ على كونها جواب الشرط لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ﴾.

﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ٱلْقِتَالُ﴾: نائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ كُرْهٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلْقِتَالُ﴾؛ تقديره: حالة كونه مكروهاً. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كُرْهٌ﴾.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَعَسَىٰٓ﴾: الواو: استئنافية، ﴿عسى﴾: فعل من أفعال الرجاء، ولكن هنا للتحقيق، فنقول في إعرابه ﴿عسى﴾: فعل ماض تام بمعنى حق. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَكْرَهُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية؛ تقديره: حق وثبت كراهتكم شيئاً وهو خير لكم، والجملة مستأنفة. وفي «الفتوحات الإلهية»: ليس معنى ﴿عسى﴾ هنا على الترجي كنظائرها الواقعة في كلامه تعالى، فإن الكل للتحقيق، ويصح الترجي باعتبار حال السامع، وهي هنا تامة على حد قول ابن مالك:

بَعْدَ عَسَى ٱخْلَوْلَقَ أوشَكَ قَدْ يَرِدْ غِنَىً بِـ(أَنْ) يُفْعَلَ عَنْ ثَانٍ فُقِدْ

وفي «السمين» ﴿عسى﴾: فعل ماض نقل إلى إنشاء الترجي والاشتقاق، وهو يرفع الاسم وينصب الخبر، ولا يكون خبرها إلا فعلاً مضارعاً مقروناً بـ﴿أن﴾، وهي في هذه الآية ليست ناقصة فتحتاج إلى خبر، بل تامة؛ لأنها أسندت إلى ﴿أن﴾، وتَقَدم أنها تسد مسد الجزئين بعدها. انتهى.

﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿وَهُوَ خَيْرٌ﴾الواو حالية، أو زائدة، ﴿هو خير﴾: مبتدأ وخبر. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خير﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿شَيْـًٔا﴾ ـ وإن كان مجيء الحال من النكرة التي لا مسوغ لها قليلاً ـ أو في محل النصب صفة لـ﴿شَيْـًٔا﴾، وإنما دخلت ﴿الواو﴾ على الجملة الواقعة صفة لأن صورتها صورة الحال، فكما تدخل ﴿الواو﴾ عليها حالية تدخل عليها صفة، قاله

أبو البقاء. وإنما توسطت ﴿الواو﴾ بين الصفة والموصوف؛ لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.

﴿وَعَسَىٰٓ﴾ الواو: عاطفة، ﴿عسى﴾: فعل ماض تام بمعنى ﴿حق﴾. ﴿أَن﴾: حرف مصدر. ﴿تُحِبُّوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، وجملة ﴿أَن﴾ مع مدخولها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية؛ تقديره: وعسى محبتكم شيئاً، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ جملة اسمية في محل النصب حال من ﴿شَيْـًٔا﴾، أو صفة له، كما مر نظيره قريباً.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية، ﴿اللَّه﴾: مبتدأ. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة خبر المبتدأ؛ تقديره: والله عالم، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو: عاطفة، ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدأ؛ تقديره: وأنتم غير عالمين مصالحكم، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول، والجملة مستأنفة. ﴿عَنِ ٱلشَّهْرِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يسألون﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: صفة لـ﴿الشهر﴾ بمعنى المحرم؛ أي: المعظم. ﴿قِتَالٍ﴾: ـ بالجر ـ بدل اشتمال من ﴿ٱلشَّهْرِ﴾. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قِتَالٍ﴾، أو بمحذوف صفة لـ﴿قِتَالٍ﴾، وعلى قراءة الرفع ﴿قتال﴾: مبتدأ، والجار والمجرور خبره، وسوغ الابتداء بالنكرة فيه همزة الاستفهام؛ لأنه في معنى أقتال كائن فيه؟ وهذه الجملة المستفهم عنها في محل الجر بدل من ﴿ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾، وزعم بعضهم: أنه مرفوع على إضمار اسم فاعل؛ تقديره: أجائز قتال فيه.

﴿قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر فيه يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾: مقول محكي لـ﴿قُلۡ﴾، وإن شئت قلت: ﴿قِتَالٞ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بما بعده. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿قِتَالٍ﴾. ﴿كَبِيرٞۚ﴾: خبر، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾.

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾.

﴿وَصَدٌّ﴾ الواو: استئنافية، أو عاطفة، ﴿صد﴾: مع ما عطف إليه مبتدأ، وجملتها أربعة، فأخبر عنها بقوله ﴿أَكۡبَرُ﴾؛ لأنه أفعل تفضيل، وهو يستوي فيه الواحد والأكثر إذا كان مجرداً من ﴿أل﴾ و﴿الإضافة﴾ على حد قول ابن مالك:

وَإِنْ لِـمَـنْـكُـوْرٍ يُـضَـفْ أَوْ جُـرِّدَا ... أُلْـزِمَ تَـذْكِـيْـرَاً وَأَنْ يُـوَحَّـدَا

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿صَدٌّ﴾. ﴿وَكُفۡرُۢ﴾: معطوف على ﴿صد﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كفر﴾. ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾: معطوف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وللمعطوف حكم المعطوف عليه، تبعه بالجر، واعترض بأنه إذا كان معطوفاً على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.. كان متعلقاً بقوله ﴿وَصَدٌّ﴾؛ إذ التقدير: وصدٌّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، فهو من تمام عمل المصدر، وقد فصل بينهما بقوله ﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾، ولا يجوز أن يفصل بين الصلة والموصول، وأجيب بأن الكفر بالله، والصد عن سبيله متحدان معنىً، فكأنه لا فصل بأجنبي بين ﴿سَبِيلِ﴾ وما عطف عليه. ﴿وَإِخۡرَاجُ﴾: معطوف على ﴿صد﴾ وهو مضاف. ﴿أَهۡلِهِۦ﴾: ﴿أهل﴾: مضاف إليه، وهو مضاف، والضمير: مضاف إليه. ﴿مِنۡهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿إخراج﴾. ﴿أَكۡبَرُ﴾: خبر المبتدأ وما عطف عليه. ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أكبر﴾، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلۡ﴾؛ لأن المعنى: قل لهم: قتال في الشهر الحرام إثم كبير،

وقل لهم: صد عن سبيل الله، وكذا وكذا أكبر من القتال، أو مستأنفة استئنافاً نحوياً؛ لأن المقصود منها مجرد إخبار عن أن الصد عن سبيل الله، وكذا وكذا أكبر عند الله.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾: مبتدأ. ﴿أَكْبَرُ﴾: خبر. ﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾: متعلق بـ﴿أَكْبَرُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَا﴾الواو استئنافية، ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَزَالُونَ﴾: به فعل مضارع ناقص، والواو اسمها. ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب خبر ﴿يزال﴾؛ تقديره: ولا يزالون مقاتلين إياكم، والجملة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة. ﴿عَن دِينِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يردون﴾، وجملة ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى؛ تقديره: إلى ردّهم إياكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يقاتلون﴾. ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾: ﴿إِنِ﴾: حرف شرط وجزم. ﴿ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجوابها محذوف دل عليه السياق؛ تقديره: إن استطاعوا يردوكم عن دينكم، وجملة ﴿إِنِ﴾ الشرطية جملة غائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما. ﴿يَرْتَدِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَرْتَدِدْ﴾. ﴿عَن دِينِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَرْتَدِدْ﴾. ﴿فَيَمُتْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب،

﴿يمت﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَرْتَدِدْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾: مبتدأ وخبر والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يمت﴾. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَبِطَتْ﴾. ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الواو: عاطفة ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ على كونها جواباً لـ﴿من﴾ الشرطية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾، وهو خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب، حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ تقديره: حالة كونهم مقدرين الخلود فيها، أو حال من ﴿ٱلنَّارِ﴾؛ تقديره: حالة كونها مقدراً خلودهم فيها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأول. ﴿هَاجَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾: معطوف على ﴿هَاجَرُواْ﴾. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جَٰهَدُواْ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ؛ تقديره: أولئك راجون رحمت الله، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية، ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: وحَسِب من باب فَعِل المكسور، وفي مضارعه وجهان: الفتح على القياس، والكسر على الشذوذ، ومعناها الظن، وقد تستعمل لليقين كقوله:

حَسِبْتُ ٱلتُّقَىٰ وَٱلْجُودَ خَيْرَ تِجَارَةٍ   رَبَاحاً إِذَا مَا ٱلْمَرْءُ أَصْبَحَ ثَاوِيَاً

وفي «المصباح» يقال: حسبت زيداً قائماً أحسَبه ـ من باب تعب في لغة جميع العرب، إلا بني كنانة فإنهم يكسرون المضارع مع كسر الماضي أيضاً على غير قياس حسباناً بالكسر بمعنى ظننته، وحسبت المال حسباً ـ من باب قتل ـ أحصيته عدداً، وفي المصدر أيضاً حِسْبَةً بالكسر، وحُسباناً بالضم. انتهى.

﴿خَلَوْا﴾: أصله خلووا؛ لأنه من الأفعال المعتلة بالواو كدعا وغزا، تحركت ﴿الواو﴾ وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الألف لبقاء دالها، فصار خلوا.

﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ يقال: زلزل الله الأرض زلزلةً وزلزالاً بالكسر، فتزلزلت إذا تحركت واضطربت، والزلزلة: شدة التحريك يكون في الأشخاص والأحوال، وقال الزجاج: أصل الزلزلة نقل الشيء من مكانه، فإذا قلت: زلزلته.. فمعناه كررت زلله من مكانه، فهو من الثلاثي المزيد بالتضعيف والتكرير؛ لأن أصله زل.

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ قرىء بضم الكاف وفتحها، وهما لغتان بمعنى، وقيل: بالفتح مصدر بمعنى الكراهية، وبالضم اسم مصدر بمعنى المشقة، يقال: كرهت الشيء كُرهاً وكَرهاً، وكَراهةً وكَراهيةً، وأكرهته عليه إكراهاً.

﴿صد﴾ الصد: المنع والطرد، يقال: صده عن الشيء يصده صداً ـ من باب شدّ ـ إذا منعه منه، فهو من المضاعف المعدى الذي لم يسمع فيه إلا القياس الذي هو ضم عين المضارع.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ﴾ بالفك؛ لأنه لما سكنت الدال الثانية للجازم.. تعذر تسكين

الأول؛ لئلا يجتمع ساكنان.

البلاغة

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾: فيه إيجاز بالحذف، والأصل: فاختلفوا، فبعث الله النبيين.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: فيه مجاز عقلي إن عاد الضمير إلى الكتاب من إسناد ما للفاعل إلى المفعول، وقوله ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ إظهار في مقام الإضمار، لزيادة التعيين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: ﴿أَمْ﴾ منقطعة مقدرة بمعنى بل التي في ضمنها الانتقال من أخبار إلى أخبار، وبمعنى الهمزة التي في ضمنها الإنكار والتوبيخ، والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تحسبوا هذا الحسبان، ولم حسبتموه؟ والغرض من هذا التوبيخ تشجيعهم على الصبر، وحضهم عليه.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾: فيه إيجاز بالحذف؛ لأن فيه حذف مضاف وحذف موصوف؛ تقديره: ولما يأتكم مثل محنة المؤمنين الذين خلوا ﴿مِن قَبْلِكُم﴾: متعلق بـ﴿خلوا﴾، وهو كالتأكيد لمعنى ﴿خَلَوْا﴾ فإن القبلية مفهومة من قوله: ﴿خَلَوْا﴾.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ بالنصب على قراءة الجمهور على أن ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، وأن مضمرة بعدها؛ أي: إلى أن يقول الرسول، فهي غاية لما تقدم من المس والزلزال، وحتى إنما ينصب بعدها المضارع إذا كان مستقبلاً، وهذا قد وقع ومضى، والجواب: أنه على حكاية الحال الماضية، وبالرفع: فعلى قراءة نافع على أن الفعل بعدها حال مقارن لما قبلها، والحال لا ينصب بعد حتى ولا غيرها؛ لأن الناصب مخلص للاستقبال فتنافيا، واعلم أن حتى إذا وقع بعدها فعل.. فإما أن يكون حالاً أو مستقبلاً أو ماضياً، فإن كان حالاً.. رفع نحو مرض زيد حتى لا يرجونه؛ أي: في الحال، وإن كان مستقبلاً.. نصب تقول: سرت حتى أدخل البلد، وأنت لم تدخل بعد، وإن كان ماضياً.. فتحكيه ثم

حكايتك له؛ إما أن تكون بحسب كونه مستقبلاً، فتنصبه على حكاية هذا الحال، وإما أن يكون بحسب كونه حالاً، فترفعه على حكاية هذه الحال، فيصدق أن تقول في قراءة الجمهور حكاية حال، وفي قراءة نافع حكاية حال أيضاً، وإنما نبهت على ذلك؛ لأن عبارة بعضهم تخصص حكاية الحال بقراءة الجمهور، وعبارة آخرين تخصها بقراءة نافع.

ومعنى حكاية الحال الماضية: أن يفرض ويقدر الواقع في الماضي واقعاً وقت التكلم، ويخبر عنه بالمضارع الدال على الحال.

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ في هذه الجملة عدة مؤكدات:

الأول: بدء الجملة بأداة الاستفتاح.

الثاني: ذكر إن.

الثالث: إيثار الجملة الاسمية.

الرابع: إضافة النصر إلى رب العالمين القادر على كل شيء.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا﴾ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا﴾ بين الجملتين من المحسنات البديعية ما يسمى عندهم بالمقابلة، فقد قابل بين الكراهية والحب، وبين الخير والشر.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾: فيه طباق بالسلب.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ...﴾ مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أنهم لما سألوا عن ماذا ينفقون، فبين لهم مصرف ذلك في الوالدين وما بعدهما، ثم ذكر تعالى فرض القتال والجهاد في سبيل الله.. ناسب ذكر سؤالهم عن الخمر والميسر؛ إذ هما أيضاً من مصارف المال، ومع مداومتهما قلَّ أن يبقى مال فتتصدق به أو تجاهد به، فلذلك وقع السؤال عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما ذكر السؤال عن الخمر والميسر، وكان تركهما مدعاة إلى تنمية المال، وذكر السؤال عن النفقة، وأجيبوا بأنهم ينفقون ما سهل عليهم.. ناسب ذلك النظر في

---

(١) البحر المحيط.

حال اليتيم وحفظ ماله وتنميته وإصلاح اليتيم بالنظر في تربيته، فالجامع بين الآيتين: أن في ترك الخمر والميسر إصلاح أحوال أنفسهم، وفي النظر في حال اليتامى إصلاحاً لغيرهم ممن هو عاجز أن يصلح نفسه، فيكونون قد جمعوا بين النفع لأنفسهم ولغيرهم، والظاهر أن السائل جمع بين الاثنين بواو الجمع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما ذكر تعالى حكم اليتامى في المخالطة، وكانت تقتضي المناكحة وغيرها مما يسمى مخالطة، حتى أن بعضهم فسرها بالمصاهرة فقط، وكان في اليتامى من يكون من أولاد الكفار.. نهى الله تعالى عن مناكحة المشركات والمشركين، وأشار إلى العلة المسوغة للنكاح؛ وهي الأخوّة الدينية، فنهى عن نكاح من لم تكن فيه هذه الأخوّة، واندرج يتامى الكفار في عموم من أشرك.

وفيها مناسبة أخرى أيضاً وهي: أنه لما تقدم حكم الشرب في الخمر والأكل في الميسر.. ذكر حكم المنكح، فكما حرم الخمر من المشروبات وما يجر إليه الميسر من المأكولات.. حرم المشركات من المنكوحات.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: هو أنه لما نهى عن مناكحة الكفار، وتضمن مناكحة أهل الإيمان وإيثار ذلك.. بين حكماً عظيماً من أحكام النكاح، وهو نكاح في زمان الحيض.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما أمر بتقوى الله تعالى وحذرهم يوم الميعاد.. نهاهم عن ابتذال اسمه، وجعله معرضاً لما يحلفون عليه دائماً؛ لأن من يُتقى ويُحذر تجب صيانة اسمه وتنزيهه عما لا يليق به من كونه يذكر في كل ما يحلف عليه من قليل أو كثير، عظيم أو حقير؛ لأن كثرة ذلك توجب عدم الاكتراث بالمحلوف به.

وفيه مناسبة أخرى أيضاً: وذلك أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالتحرز في أفعالهم السابقة من الخمر والميسر، وإنفاق العفو، وأمر اليتامى، ونكاح من

(١) البحر المحيط.

أشرك، وحال وطيء الحائض.. أمرهم تعالى بالتحرز في أقوالهم، فانتظم بذلك أمرهم بالتحرز في الأفعال والأقوال.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ...﴾ سبب نزولها: أنه جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أفتنا في الخمر والميسر، فإنهما مذهبة للعقل، ومسلبة للمال، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ...﴾ الآية.

قوله تعالى[1]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ...﴾ سبب نزولها: أنه أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله.. أتوا النبي ﷺ، فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا، فما ننفق منها، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ...﴾.

وأخرج أيضاً عن يحيى أنه بلغه أن معاذ بن جبل، وثعلبة رضي الله عنهما أتيا رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، إن لنا أرقاء وأهلين، فما ننفق من أموالنا، فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ...﴾ أخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ...﴾ الآية، انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله، أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم؛ فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ...﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ...﴾ أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والواحدي عن مقاتل قال: نزلت هذه الآية في ابن أبي مرثد الغنوي،

(١) لباب النقول.

استأذن النبي ﷺ في عناق أن يتزوجها، وهي مشركة، وكانت ذات حظ وجمال؛ فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ...﴾ الآية، سبب نزولها: أنه أخرج الواحدي من طريق السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، كانت له أمة سوداء، وأنه غضب عليها فلطمها، ثم إنه فزع، فأتى النبي ﷺ فأخبره وقال: لأعتقنها ولأتزوجنها ففعل، فطعن عليه ناس، وقالوا: ينكح أمه، فأنزل الله هذه الآية، وأخرجه ابن جرير عن السدي منقطعاً.

قوله تعالى[1]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ...﴾ الآية، روى مسلم، والترمذي عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ..﴾ الآية، فقال: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! فجاء أسد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ، حتى ظننا أن قد وجد[2] عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما، فعرفا أن لم يجد عليهما. أخرجه الترمذي ـ وقال: هذا حديث حسن صحيح ـ وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، والطيالسي.

قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ...﴾ الآية، روى الشيخان، وأبو داود، والترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

وأخرج أحمد والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت، قال: «وما أهلكك»؟ قال: حولت

(١) لباب النقول.

(٢) وَجَدَ: من الحزن والغضب.

رحلي الليلة، فلم يزد عليه شيئاً، فأنزل الله هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ...﴾ أقبل وأدبر، واتق الدبر والحيضة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ...﴾ الآية، أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج قال: حدثت أن قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ...﴾ الآية، نزلت في أبي بكر في شأن مسطح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ أي: يسألك أصحابك يا محمد ﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾؛ أي: عن حكم تناولهما وتعاطيهما، وأصل[1] الخمر في اللغة: الستر والتغطية، وسميت الخمر خمراً؛ لأنها تخامر العقل؛ أي: تخالطه، وقيل: لأنها تستره وتغطيه، وشرعاً: عبارة عن عصير العنب النيء الشديد الذي قذف بالزبد، وكذلك نقيع الزبيب والتمر، والمتخذ من العسل والحنطة والشعير والأرز والذرة، وكل ما أسكر فهو خمر، قاله الشافعي. وقال أبو حنيفة: الخمر من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب، فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه.. حل شربه، والمسكر منه حرام، واحتج على ذلك بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى بعض عماله أن أرزق المسلمين من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقي. وفي رواية: أما بعد: فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان، فإن له اثنين ولكم واحد. أخرجه النسائي، والطِلاء ـ بكسر الطاء والمد ـ: الشراب المطبوخ من عصير العنب الذي ذهب ثلثاه، وبقي ثلثه.

وأصل الميسر في اللغة: مصدر ميمي بمعنى اليسر، سمي القمار بالميسر؛ لما فيه من أخذ المال بسهولة من غير تعب، وشرعاً: هو القمار وهو آلات الملاهي التي يعلب بها في نظير مال، فيشمل الطاب والشطرنج والنرد وغيرها، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب، وأما إن كان بغير مال: ففيه خلاف بين العلماء، فقيل: كبيرة، وقيل: صغيرة، وقيل: مكروه، وحدّه بعضهم: هو كل

---

(١) خازن.

لعب تردد بين غُنم وغُرم، وفي مصحف عبد الله وقراءته شذوذاً ﴿أكثر﴾ بالثاء المثلثة، وقال مالك: الميسر ميسران: ميسر اللهو؛ فمنه النرد والشطرنج وآلات الملاهي كلها، وميسر القمار؛ وهو ما يتخاطر الناس عليه، وقال القاسم: كل شيء ألهى عن ذكر الله، وعن الصلاة فهو ميسر. ذكره أبو حيان.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿فِيهِمَآ﴾؛ أي: في تعاطيهما ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: عظيم بعد التحريم، لما يحصل بسببهما من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش وإتلاف المال، ولأن الخمر مسلبة للعقول التي هي قطب الدين والدنيا، وقرأ حمزة والكسائي ﴿كثير﴾ بالثاء المثلثة. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قبل التحريم: بالتجارة فيها، وباللذة والفرج وتصفية اللون، وحمل البخيل على الكرم، وزوال الهم، وهضم الطعام، وتقوية الباءة، وتشجيع الجبان في شرب الخمر، وإصابة المال بلا كد ولا تعب في الميسر والقمار، قيل: بما أن الواحد منهم كان يقمر في المجلس الواحد مئة بعير، فيحصل له المال الكثير، وربما كان يصرفه إلى المحتاجين، فيكسب بذلك الثناء والمدح، وهو المنفعة ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾ بعد التحريم ومفاسدهما بعده ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ قبل التحريم، وقرىء شذوذاً: ﴿أقرب من نفعهما﴾؛ يعني: المفاسد(١) التي تنشأ عنهما أعظم من المنافع المتوقعة منهما. وقيل(٢): إثمهما، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ فهذه ذنوب يترتب عليها آثام كبيرة بسبب الخمر والميسر.

وجملة القول في تحريم الخمر: أن الله عز وجل أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فكان المسلمون يشربونها في أول الإسلام وهي لهم حلال، ثم نزل بالمدينة في جواب سؤال عمر ومعاذ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فتركها قوم لقوله: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وشربها قوم لقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ ثم إن عبد الرحمٰن

---

(١) البيضاوي. (٢) الخازن.

بن عوف ـ رضي الله عنه ـ صنع طعاماً، ودعا إليه ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ، فأطعمهم وسقاهم الخمر، وحضرت صلاة المغرب، فقدموا أحدهم يصلي بهم، فقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون﴾ ـ بحذف حرف لا إلى آخر السورة؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ فحرم الله السكر في أوقات الصلاة، فكان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء، فيصبح وقد زال سكره، فيصلي الصبح ويشربها بعد صلاة الصبح، فيصحوا وقت صلاة الظهر، ثم إن عتبان بن مالك اتخذ صنيعاً ـ يعني: وليمة ـ ودعا رجالاً من المسلمين، وفيهم سعد بن أبي وقاص، وكان قد سوى لهم رأس بعير، فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخذت منهم، فافتخروا عند ذلك وانتسبوا، وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد قصيدة فيها فخر قومه وهجاء الأنصار، فأخذ رجل من الأنصار لحى البعير، فضرب به رأس سعد، فشجه موضحة، فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ، وشكا إليه الأنصاري، فقال عمر: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فأنزل الله الآية التي في المائدة إلى قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقال عمر: انتهينا يا رب، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام.

والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب: أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيراً، فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة.. لشق ذلك عليهم، فلا جرم استعمل هذا التدريج، وهذا الرفق. قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: حرمت الخمر، ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر.

روى الشيخان عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: ما كان لنا خمر غير فضيخكم، وإني لقائم أسقي أبا طلحة، وأبا أيوب، وفلاناً وفلاناً؛ إذ جاء رجل فقال: حرمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر هذا الرجل. الفضيخ ـ بالضاد والخاء المعجمتين ـ: شراب يتخذ من بسر مطبوخ، والإهراق: الصب، والقلال ـ جمع قلة ـ: وهي الجرة الكبيرة.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾؛ أي: يسألك أصحابك يا محمد ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾؛ أي: قدر ما

ينفقونه من أموالهم، وذلك أن رسول الله ﷺ حضهم على الصدقة، فقالوا: ماذا ننفق؟ قيل: سائله أيضاً عمرو بن الجموح، سأل أولاً عن المنفق والمصرف، ثم سأل عن كيفية الإنفاق، وقيل: السائل معاذ بن جبل وثعلبة، وقال الرازي: كان الناس لما رأوا الله ورسوله يحضان على الإنفاق، ويدلان على عظيم ثوابه.. سألوا عن مقدار ما كلفوا به: هل هو كل المال أو بعضه؟ فأعلمهم الله تعالى أن العفو؛ أي: الفاضل عن الكفاية مقبول. ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد في الجواب أنفقوا ﴿ٱلْعَفْوَ﴾؛ أي: المال الفاضل عن حاجة الإنسان في نفسه وعياله، ومن تلزمه مؤنتهم، فكان[1] الرجل منهم بعد نزول هذه الآية يأخذ من كسبه ما يكفيه، وينفق باقيه إلى أن فرضت الزكاة، فنَسخت آية الزكاة التي في براءة هذه الآية، وكل صدقة أمروا بها قبل الزكاة، وقراءة الجمهور بالنصب، وقرأ أبو عمرو وحده ﴿العفوُ﴾ بالرفع.

وقال الشوكاني: والعفو هو ما سهل وتيسر، ولم يشق على القلب، والمعنى على النصب: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تجهدوا فيه أنفسكم، وعلى الرفع: الذي أُمرتم بإنفاقه هو العفو؛ أي: ما فضل عن نفقة العيال ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين الله لكم قدر المنفق، وحكم الخمر والميسر بأن فيهما منافع في الدنيا ومضار في الآخرة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدالة على الأحكام الشرعية ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: لكي تتأملوا ﴿فِى﴾ أحوال ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ فتعرفوا أنها فانية، فتزهدوا فيها ﴿وَ﴾ تتفكروا في أمور ﴿الآخرة﴾ فتعرفوا أنها باقية، فتقبلوا عليها، فإذا تفكرتم في أحوال الدنيا والآخرة.. علمتم أنه لا بد من ترجيح الآخرة على الدنيا؛ لبقاء الآخرة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ كان أهل الجاهلية قد اعتادوا الانتفاع بأموال اليتامى، وربما تزوجوا باليتيمة طمعاً في مالها، ثم إن الله تعالى أنزل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

---

(١) الواحدي.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فعند ذلك ترك القوم مخالطة اليتامى والمقاربة من أموالهم، والقيام بأمورهم، فاختلَّت مصالح اليتامى وساءت معيشتهم، فثقل ذلك على الناس، فقال عبد الله بن رواحة ـ وقيل: ثابت بن رفاعة الأنصاري ـ: يا رسول الله، ما لكلِّنا منازل تسكنها الأيتام، ولا كلنا يجد طعاماً وشراباً يردهما لليتيم، فهل يجوز مخالطة اليتامى بالطعام والشراب والمسكن أم لا؟ فنزلت هذه الآية؛ أي: يسألونك يا محمد عن مخالطة اليتامى في أموالهم، أيخالطونهم أم يعتزلونهم؟ ﴿قُلْ﴾ لهم في الجواب ﴿إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾؛ أي: مخالطة اليتامى وإصلاح أموالهم من غير أخذ أجرة ولا عوض خير لهم من ترك مخالطتهم، وأعظم أجراً لكم ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ في الطعام والخدمة والسكن، وهذا فيه[1] إباحة المخالطة وحث عليها؛ أي: شاركوهم في أموالهم واخلطوها بأموالكم ونفقاتكم ومساكنكم وخدَمكم ودوابكم، فتصيبوا من أموالهم عوضاً من قيامكم بأمورهم، أو تكافئوهم على ما تصيبون من أموالهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ في الدين؛ أي: فهم إخوانكم، والإخوان يعين بعضهم بعضاً، ويصيب بعضهم من مال بعض، على وجه الإصلاح والرخاء. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لمال اليتيم بالمخالطة ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ له، ويعلم الذي يقصد بالمخالطة الخيانة وأكل مال اليتيم بغير حق، والذي يقصد الإصلاح، فيجازي كلاً على قصده، فاتقوا الله في مال اليتيم، ولا تجعلوا مخالطتكم إياهم ذريعةً إلى إفساد مال اليتيم، وأكله بغير حق ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إعناتكم وإحراجكم وتضييقكم، والتشديد عليكم ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾؛ أي: لأوقعكم في العنت والمشقة، وشدد عليكم في شأن اليتامى بتحريم مخالطتهم ومداخلتكم عليهم، ولكن وسع عليكم بتجويزها لكم، فاشكروا هذه النعمة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب يقدر أن يشدد على عباده، ويعنتهم ويكلفهم ما لا يطيقونه، ولكنه ﴿حَكِيمٌ﴾ يحكم ما تقتضيه الحكمة، وتتسع له الطاقة، لا يكلف عباده إلا ما تتسع له طاقتهم.

وفي وصفه تعالى بالعزة[2] ـ وهو الغلبة والاستيلاء ـ: إشارةٌ إلى أنه مختص

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

بذلك لا يُشارك، فكأنه لما جعل لهم ولاية على اليتامى.. نبههم على أنهم لا يقهرونهم ولا يغالبونهم ولا يستولون عليهم استيلاء القاهر، فإن هذا الوصف لا يكون إلا لله تعالى، وفي وصفه تعالى بالحكمة: إشارة إلى أنه لا يتعدى ما أذن هو تعالى فيهم وفي أموالهم، فليس لكم نظر إلا بما أذنتْ لكم فيه الشريعة، واقتضته الحكمة الإلهية؛ إذ هو الحكيم المتقن لما صنع وشرع، فالإصلاح لهم ليس راجعاً إلى نظركم إنما هو راجع لاتّباع ما شرع في حقهم.

ثم قال تعالى محذراً من زواج المشركات اللاتي ليس لهن كتاب: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾؛ أي: ولا تتزوجوا أيها المؤمنون النساء المشركات بالله حتى يؤمن؛ أي: يصدقن بالله ورسوله، وهو الإقرار بالشهادتين، والتزام أحكام المسلمين، نزلت في أبي مرثد الغنوي، سأل النبي ﷺ عن أن يتزوج عناق وهي مشركة، والمشركات هٰهنا عامة في كل من كفرت بالله ورسوله ﷺ حرم الله بهذه الآية نكاحهن، ثم استثنى الحرائر الكتابيات بالآية التي في المائدة، فبقي نكاح الأمة الكتابية على التحريم، وقراءة الجمهور بفتح التاء في قوله ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾، من نَكَح الثلاثي إذا تزوج، وقرىء بضمها، من أنكح الرباعي بمعنى: ولا تزوجوهن من المسلمين.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾؛ أي: ولرقيقة مؤمنة بالله ورسوله ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأنفع وأصلح وأفضل ﴿مِّن﴾ حرة ﴿مُّشْرِكَةٍ﴾ بالله؛ أي: تزوج الأمة خير لكم عند الله من تزوج مشركة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ المشركة؛ أي: أحبتكم وأعشقتكم لجمالها أو مالها أو حسبها أو جاهها، أو غير ذلك، وقد تقدم لك أنها نزلت في عبد الله بن رواحة كانت عنده أمة سوداء الحديث. والواو للحال و﴿لو﴾ بمعنى ﴿إن﴾؛ أي: وإن كان الحال أن المشركة تعجبكم وتحبونها.. فالأمة المؤمنة خير منها.

وفي هذا[1]: دليل على جواز نكاح الأمة المؤمنة، ومفهوم الصفة يقتضي.. أنه لا يجوز نكاح الأمة الكافرة كتابية كانت أو غيرها، وفي هذه الآية: دليل

---

(١) البحر المحيط.

لجواز نكاح القادر على طَول الحرة المسلمة للأمة المسلمة، ووجه الاستدلال أن قوله: ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ معناه: من حرة مشركة، وواجد طول الحرة المشركة واجد لطول الحرة المسلمة؛ لأنه لا يتفاوت الطولان بالنسبة إلى الإيمان والكفر، فقدر المال المحتاج إليه في أهبة نكاحهما سواء، فيلزم من هذا أن واجد طول الحرة المسلمة.. يجوز له نكاح الأمة المسلمة، وهذا استدلال لطيف.

﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ﴾ وهنا خطاب لأولياء المرأة؛ أي: ولا تزوجوا ـ أيها الأولياء ـ النساء المؤمنات من الكفار وثنيين كانوا أو أهل كتاب حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾؛ أي: ولتزويجكم المؤمنات لرقيق مؤمن بالله. ﴿خَيْرٌ﴾ لكم عند الله وأفضل وأصلح ﴿مِّن﴾ تزويجهن لحر ﴿مُّشْرِكٍ﴾ بالله ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ﴾ وأحبكم ذلك المشرك لحسبه أو ماله أو جماله أو جاهه، أو غير ذلك. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من المشركين والمشركات الذين حرمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم ﴿يَدْعُونَ﴾ كُمْ ﴿إِلَى﴾ الشرك والكفر الذي يؤديكم إلى ﴿ٱلنَّارِۖ﴾ في الآخرة فلا يليق بكم مصاهرتهم ومناكحتهم، فإن الزوجية مظنة المحبة، وذلك يوجب الموافقة في الأغراض، وربما يؤدي ذلك إلى انتقال الدين بسبب موافقة المحبوب ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾؛ أي: أولياءه[1] المؤمنون يدعون، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه تفخيماً لشأنهم؛ أي: يدعون إلى الاعتقاد والعمل الموصلَين ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فهم الأَحِقَّاء بالمواصلة دون غيرهم، أو الكلام على ظاهره بلا حذف، والمعنى والله يدعو عباده إلى الجنة والمغفرة يتبيان هذه الأحكام من الإباحة والتحريم، فإن من تمسك بها.. استحق الجنة والمغفرة ﴿بِإِذْنِهِۦۖ﴾؛ أي: بتيسره تعالى، وتوفيقه للعمل الذي يستحق به الجنة والمغفرة، أو بقضائه وإرادته.

يعني: أنه تعالى بين هذه الأحكام، وأباح بعضها، وحرم بعضها، فاعملوا بما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم عنه، فإنه من عمل بذلك.. استحق الجنة

---

(١) البيضاوي والنسفي.

والمغفرة، وقرأ الحسن شذوذاً ﴿والمغفرةُ بإذنه﴾ بالرفع؛ أي: والمغفرة حاصلة بتيسيره تعالى ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: يوضح أدلته وحجته في أوامره ونواهيه وأحكامه في التزوج والتزويج للناس ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويتعظون؛ أي: لكي يتذكروا، فيميزوا بين الخير والشر، والخبيث والطيب؛ فيعرفوا قبح المنهي عنه، وحسن المدعو إليه.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾؛ أي: يسألك أصحابك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض، أيحل ذلك أم يحرم؟ وتقدم لك أن السائل عن ذلك عباد بن بشر وأسيد بن الحضير؛ لأن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجالسوها على فرش، ولم يساكنوها في البيت كفعل اليهود والمجوس، وأما النصارى: فكانوا يجامعوهن ولا يبالون بالحيض.

ولعله سبحانه وتعالى(١) إنما ذكر ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ بغير ﴿واو﴾ ثلاث مرات. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾، وثلاث مرات بـ﴿واو﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ إشارة إلى أن الاسئلة الثلاثة الأولى كانت في أوقات متفرقة، والثلاثة الأخيرة كانت في وقت واحد مع السؤال عن الخمر والميسر، فجاء بحرف الجمع لذلك، كأنه قال: جمعوا لك بين السؤال عن الخمر والميسر، والسؤال عن كذا وكذا وكذا، والله أعلم. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في الجواب ﴿هُوَ﴾؛ أي: الحيض ﴿أَذًى﴾؛ أي: شيء مستقذر مؤذ مَنْ يقربه للرائحة الكريهة التي فيه، واللون الفاسد، وللحدة القوية التي فيه ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ أي: فاجتنبوا معاشرة النساء ومجامعتهن ﴿فِى ٱلْمَحِيضِ﴾؛ أي: في حالة الحيض وزمانه ومكانه؛ لقوله ﷺ: «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم»، وهو الاقتصاد بين إفراط اليهود وتفريط النصارى، فإنهم كانوا يجامعوهن ولا يبالون بالحيض، وإنما وصفه

(١) البحر المحيط والبيضاوي.

بأنه أذى، ورتب الحكم عليه بالفاء إشعاراً بأنه العلة. ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾؛ أي: لا تجامعوهن ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾؛ أي: حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن، وهذا تأكيد لحكم الاعتزال، وبيان لغايته، وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع.

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص، ويعقوب الحضرمي ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بسكون الطاء وضم الهاء بمعنى: حتى ينقطع عنهن الدم، وقرأ شعبة، وحمزة والكسائي ﴿يطهرن﴾ بتشديد الطاء والهاء بمعنى: يغتسلن ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾؛ أي: اغتسلن من حيضهن أو تيممن عند تعذر استعمال الماء ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾؛ أي: جامعوهن ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ﴾؛ أي: في المكان الذي أحله الله لكم؛ وهو القبل الذي هو مكان النسل والولد، ولا تعتدوا إلى غيره؛ وهو الدبر، أو المعنى جامعوهن في المكان الذي أمركم الله بتجنبه في حالة الحيض وهو القبل.

واتفق مالك والأوزاعي والثوري والشافعي أنه إذا انقطع حيض المرأة.. لا يحل للزوج مجامعتها إلا بعد أن تغتسل من الحيض، والمشهور عن أبي حنيفة أنها إن رأت الطهر دون عشرة أيام.. لم يقربها زوجها، وإن رأته لعشرة أيام.. جاز أن يقربها قبل الاغتسال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ ويثيب ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من الذنوب والرجاعين عنها، بالندم على ما مضى منها، والترك في الحاضر، والعزم على أن لا يفعل مثلها في المستقبل ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾؛ أي: المتنظفين بالماء من الأحداث والجنابات والنجاسات، أو المتنزهين عن المعاصي والفواحش، كمجامعة النساء في زمان الحيض، وإتيانهن في الأدبار، وقيل: يحب المستنجين بالماء.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: فروج نسائكم مزرعة لأولادكم ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾؛ أي: مزرعتكم ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾؛ أي: من أي جهة شئتم من أمامها أو ورائها، وعلى أي حال شئتم من قيام أو قعود أو اضطجاع، فهو مخير بين ذلك إذا كان الإتيان في قبلها لا في دبرها.

وفي الآية: دليل على تحريم إتيان النساء في أدبارهن؛ لأن محل الحرث لها والزرع هو القبل لا الدبر، ويؤيد ذلك ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه

ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها». أخرجه أبو داود. ﴿وَقَدِّمُواْ﴾ صالح الأعمال التي تكون ذخراً ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ في الآخرة، وقيل: معناه وقدموا على الجماع ما يكون صلاحاً لأنفسكم ولأولادكم من التسمية والدعاء، وقيل: معناه وقدموا نية الولد أو نية الإعفاف لأنفسكم. أخرج الشيخان عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا.. فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»؛ أي: قدموا ما يدخر لكم من الثواب، ولا تكونوا في قيد قضاء الشهوة. ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله في أدبار النساء، ومجامعتهن في الحيض ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾؛ أي: ملاقوا الله بالبعث وراجعون إليه في الآخرة للمجازاة، فتزودوا ما تنتفعون به فيها ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: الكاملين في الإيمان؛ أي: بشرهم بالفضل الجسيم، والفوز العظيم في جنات النعيم؛ لأنهم تلقوا ما خوطبوا به من الأوامر والنواهي بحسن القبول والامتثال.

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ نزلت في عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كان بينه وبين ختنه بشير بن النعمان شيء، فحلف عبد الله لا يدخل عليه، ولا يكلمه، ولا يصلح بينه وبين خصم له، وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين حلف أن لا ينفق على مسطح حين خاض في حديث أهل الإفك؛ أي: ولا تجعلوا أيها المؤمنون الحلف باسم الله عرضة؛ أي: عارضاً ومانعاً وحاجزاً لكم عن أيمانكم؛ أي: عن أعمالكم الصالحة، فالمراد بالأيمان هنا: الأعمال الصالحة، واللام فيه بمعنى عن وسميت: أيماناً لتعلق الإيمان بها، وقوله: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ بدل من الأيمان بدل تفصيل من مجمل؛ أي: ولا تجعلوه حاجزاً لكم عن أن تبروا وتصلوا الرحم، ولا عن أن تتقوا؛ أي: ولا أن تصلّوا أو تصوموا مثلاً، ولا عن أن تصلحوا بين الناس، فعطف هذا على ما قبله من عطف الخاص على العام، والمعنى: لا تجعلوا الحلف باسم الله مانعاً لكم عن أعمال البر، ولا عن أن تبروا بالوالدين والأرحام، ولا أن تفعلوا ما فيه تقوى الله كالصلاة والصيام، ولا أن تفعلوا

الإصلاح بين الناس، يعني: لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً لكم عن فعل الخير، وعن فعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس؛ فتتعللوا باليمين بأن يقول أحدكم: قد حلفت بالله على أن لا أفعله، وأريد أن أبر بيميني، بل افعلوا الخير، وكفروا عن أيمانكم.

روى مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها.. فليأتها، وليكفر عن يمينه».

وقيل معناه: لا تجعلوا الله عرضة؛ أي: معروضاً ومذكوراً في أيمانكم، وحلفكم على أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس؛ يعني: لا تكثروا الحلف بالله، وإن كنتم بارين متقين مصلحين، فإن كثرة الحلف بالله ضرب من الجراءة عليه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم، وختم الله سبحانه وتعالى[1] هذه الآية بهاتين الصفتين؛ لأنه تقدم ما يتعلق بهما، فالذي يتعلق بالسمع الحلف؛ لأنه من المسموعات، والذي يتعلق بالعلم هو إرادة البر والتقوى والإصلاح؛ إذ هو شيء محله القلب، فهو من المعلومات، فجاءت هاتان الصفتان منتظمتين للعلة والمعلول، وجاءتا على ترتيب ما سبق من تقديم السمع على العلم، كما قدم الحلف على الإرادة.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ﴾ ولا يعاتبكم، أو لا يطالبكم بالتكفير ﴿بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾؛ أي: بما جرى على ألسنتكم من ألفاظ الأيمان من غير قصد الحلف كقول أحدكم: بلى والله، تارة، ولا والله، تارة أخرى، لا يقصد به اليمين ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ ويعاتبكم، أو يطالبكم بالتكفير ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وقصدت به ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ من ألفاظ الأيمان، وكسب القلب: هو العقد والنية.

واختلف العلماء في معنى اللغو من اليمين:

فقال الشافعي: هو ما سبق إليه اللسان من غير قصد اليمين، فلا إثم ولا كفارة له، بخلاف أبي حنيفة فيهما كقول القائل: لا والله، وبلى والله، من غير

---

(١) البحر المحيط.

قصد ولا نية، ويعضده ما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: نزل قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ في قول الرجل: لا والله، بلى والله. أخرجه البخاري موقوفاً، ورفعه أبو داود.

وقال أبو حنيفة ومالك: اللغو من اليمين: هو أن يحلف الرجل على شيء يرى أنه صادق، ثم يتبين له خلاف ذلك، فلا إثم فيه، ولا كفارة له عندهما بخلاف الشافعي فيهما.

ومعنى الآية عند الشافعي: لا يؤاخذكم الله بغير المقصود لقلوبكم، وإنما يؤاخذكم بالمقصود لها، وعند أبي حنيفة ومالك لا يؤاخذكم باللغو؛ أي: بما حلفتم عليه معتقدين حقيقته بحيث يكون اللسان موافقاً للجنان ثم تبين خلافه، ولكن يؤاخذكم بما حلفتم عليه غير معتقدين حقيقته، وهي اليمين الغموس؛ أي: ولكن يؤاخذكم بما كسبته واقترفته قلوبكم من إثم القصد إلى الكذب.

ومذهب الشافعي: هو قول عائشة رضي الله عنهما والشعبي، وعكرمة، ومذهب أبي حنيفة: هو قول ابن عباس رضي الله عنهما والحسن، ومجاهد، والنخعي، والزهري، وسليمان بن يسار، وقتادة، ومكحول.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لعباده فيما لغوا من أيمانهم ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل العقوبة على يمين الجد تربصاً للتوبة، وجاءت هاتان الصفتان تدلان على توسعة الله على عباده حيث لم يؤاخذهم باللغو في الأيمان.

الإعراب

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان. ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْخَمْرِ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾: مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿فِيهِمَآ﴾:

جار ومجرور خبر مقدم. ﴿إِثْمٌ﴾: مبتدأ. ﴿كَبِيرٌ﴾: صفة لـ﴿إِثْمٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: معطوف على ﴿إثم﴾. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿منافع﴾؛ تقديره: كائنات للناس. ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إثمهما﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَكْبَرُ﴾: خبر. ﴿مِن نَّفْعِهِمَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَكْبَرُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿يسئلونك﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾ على كونها مستأنفة. ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾: ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر، والجملة في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ﴿سأل﴾؛ تقديره: يسألونك أي القدر الذي ينفقونه. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ذا﴾ الموصول، والعائد محذوف؛ تقديره: ينفقونه. ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾: ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ ـ بالنصب على قراءة الجمهور ـ: مفعول لفعل محذوف؛ تقديره: أنفقوا العفو، وبالرفع: خبر مبتدأ محذوف؛ تقديره: هو العفو، والجملة المحذوفة على كلا التقديرين في محل النصب مقول القول.

وسبب اختلاف القراءتين[1] الاختلاف في إعراب ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، فمن أعرب ﴿مَاذَا﴾ جميعهما اسم استفهام مركباً معمولاً لـ﴿ينفقون﴾.. فالجملة فعلية، فيكون جوابها كذلك، فقوله: ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ ـ بالنصب ـ معمول لمحذوف؛ تقديره: أنفقوا العفو، والجملة في محل النصب مقول القول؛ لأن القول لا ينصب إلا الجمل أو ما قام مقامها، ومن أعرب ﴿ما﴾ وحدها اسم استفهام مبتدأ، و﴿ذا﴾ اسم موصول خبره، وجملة ﴿يُنفِقُونَ﴾ صلته، والجملة اسمية.. فيكون جوابها كذلك، فالعفوُ ـ بالرفع ـ خبر لمحذوف؛ تقديره: هو العفو، والجملة المحذوفة

(١) الصاوي.

على كل حال مقول القول، وهذا هو الأحسن المناسب للسؤال، وإلا فيصح. . جعل السؤال جملة اسمية، والجواب فعلية، وبالعكس. انتهى.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: تبييناً كائناً كتبيين ما ذكر. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُبَيِّنُ﴾ ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾: مفعول به. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف نصب وتعليل بمعنى كي، والكاف اسمها، وجملة ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ من اسمها وخبرها في محل الجر بـ﴿لام﴾ التعليل المقدرة؛ تقديره: يبين لكم الآيات تبييناً كائناً كتبيين ما تقدم؛ لتفكركم واتعاظكم.

﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾

﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يتفكرون﴾. ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الواو: عاطفة، ﴿يسألونك﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾. ﴿عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جار ومجرور في محل النصب، مفعول ثان لـ﴿سأل﴾.

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ. . .﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِصْلَاحٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء وصفه بالجار والمجرور بعده، أو عمله في الجار والمجرور. ﴿لَّهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿إِصْلَاحٌ﴾، أو متعلق به. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَإِن﴾ الواو: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُخَالِطُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾. ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إخوانكم﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ تقديره: فهم إخوانكم، والكاف مضاف إليه،

والجملة الاسمية في محل الجزم على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو: عاطفة، ﴿اللَّه﴾: مبتدأ. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع بمعنى يعرف، والفاعل ضمير مستتر يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿ٱلْمُفْسِدَ﴾: مفعول به. ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾: متعلق بـ﴿يَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الواو: عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿أعنتكم﴾: فعل ماضٍ ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة جواب لو لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول، أو في محل الجر بـ(لام) التعليل المقدرة.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بلا الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُؤْمِنَّ﴾: فعل مضارع في محل النصب بـ﴿أن﴾ مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى (إلى) مبني بسكون على النون المدغمة في نون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، والجملة صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى إيمانهن، الجار والمجرور متعلق بـ﴿لا تنكحوا﴾. ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ الواو: اعتراضية، ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿أمة﴾: مبتدأ. ﴿مُّؤْمِنَةٌ﴾: صفة له. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر له، وأفعل التفضيل ليس على بابه.

﴿مِن مُّشۡرِكَةٖ﴾: متعلق بـ﴿خَيۡرٞ﴾، والجملة الاسمية جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾: الواو: حالية، ﴿لو﴾: حرف شرط بمعنى إن، ﴿أعجبتكم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُّشۡرِكَةٖ﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف؛ تقديره: ولو أعجبتكم فالمؤمنة خير، وجملة ﴿لو﴾ في محل النصب حال من ﴿مُّشۡرِكَةٖ﴾، وسوَّغ مجيء الحال منها قصد الجنس، والتقدير: ولأمة مؤمنة خير من مشركة حال كونها قد أعجبتكم. وعبارة الكرخي[1]: قوله ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾ الواو: للحال؛ أي: ولأمة مؤمنة خير من مشركة حال كونها قد أعجبتكم، و﴿لو﴾ هنا بمعنى إن، وكذا كل موضع وَلِيَها الفعل الماضي كقوله: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ و«أعطوا السائل ولو جاء على فرس»، ويطرد حذف كان واسمها بعدها، والمعنى: وإن كانت المشركة تعجبكم فالمؤمنة خيرٌ. انتهت.

﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: المؤمناتِ، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُؤۡمِنُواْۚ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، وأن المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾؛ تقديره: إلى إيمانهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿لا تنكحوا﴾. ﴿وَلَعَبۡدٞ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿عبد﴾: مبتدأ. ﴿مُّؤۡمِنٌ﴾: صفة له. ﴿خَيۡرٞ﴾: خبر له، واسم التفضيل ليس على بابه. ﴿مِّن مُّشۡرِكٖ﴾: متعلق بخبر، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَلَوۡ﴾ الواو: حالية، ﴿لو﴾: حرف شرط بمعنى ﴿إن﴾. ﴿أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾: فعل ماضٍ ومفعول به، وجواب ﴿لو﴾ محذوف؛ تقديره: ولو أعجبكم فلا تزوجوه، وجملة ﴿لو﴾ في محل النصب حال من ﴿مُّشۡرِكٖ﴾؛

---

(١) الجمل.

تقديره: ولعبد مؤمن خير من مشرك حال كونه قد أعجبكم، فهذه الجملة موافقة لجملة قوله. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ في الإعراب والمعنى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، فاسم الإشارة هنا واقع على كل من الإناث والذكور؛ لأنه يصلح لهما، كما قال ابن مالك:

وَبِـ(أُولَىٰ) أَشِرْ لِجَمْعٍ مُطْلَقَا وَٱلْمَدُّ أَوْلَىٰ وَلَدَىٰ ٱلْبُعْدِ ٱنْطِقَا

﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، وجملة ﴿يَدْعُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ﴾ في محل الجر بـ(لام) التعليل المقدرة؛ لأنها معللة لقوله ﴿وَلَأَمَةٌ...﴾ إلخ، وقوله: ﴿...وَلَعَبْدٌ﴾ إلخ. ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو: عاطفة، ﴿اللَّه﴾: مبتدأ. ﴿يَدْعُوٓاْ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، وجملة ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ﴾. ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾: متعلق بـ﴿يَدْعُوٓاْ﴾. ﴿وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَدْعُوٓاْ﴾، أو حال من ﴿ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ هذا على قراءة جر ﴿المغفرةِ﴾، وأما على قراءة الرفع الشاذة، فـ﴿المغفرةُ﴾: مبتدأ، والجار والمجرور خبره؛ تقديره: والمغفرة حاصلة بإذنه.

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ﴾: الواو: عاطفة، ﴿يبين﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَدْعُوٓاْ﴾. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يبين﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف نصب وتعليل، والهاء اسمها، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: خبرها. وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾: الواو: عاطفة، ﴿يسألونك﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾: جار ومجرور، متعلقان بمحذوف في محل النصب مفعول ثان لـ﴿سأل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ إلى قوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿أَذًى﴾: خبر، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿اعتزلوا النساء﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿هُوَ أَذًى﴾ على كونها مقول القول. ﴿فِى ٱلْمَحِيضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اعتزلوا﴾. ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَقْرَبُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَطْهُرْنَ﴾: فعل مضارع في محل النصب بـ﴿أن﴾ المضمرة مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾؛ تقديره: إلى طهارتهن، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَقْرَبُوهُنَّ﴾.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

هذا تصريح بمفهوم الغاية، ﴿فَإِذَا﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم النهي عن قربانهن إلى طهارتهن، وأردتم بيان حكم القربان بعد الطهارة.. فأقول لكم: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان خافضة لشرطها منصوبة بجوابها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿تَطَهَّرْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿أتوهن﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة في محل النصب مقول القول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿مِنْ﴾: حرف جر. ﴿حَيْثُ﴾:

ظرف مكان في محل الجر بـ﴿أتوهن﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أتوهن﴾.
﴿أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها جملة معترضة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾؛ لاعتراضها بين المبيَّن وهو: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، وبين البيان وهو ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾. ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ على كونها خبراً لـ﴿إِنَّ﴾.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ﴾: مبتدأ ومضاف إليه وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، وهذه الجملة سيقت لبيان قوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿حَرْثٌ﴾؛ تقديره: حرث كائن لكم. ﴿فَأْتُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿ائتوا حرثكم﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ على كونها مقولا لـ﴿قُلْ﴾. ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم شرط جازم لتعميم الأحوال بمعنى كيف في محل النصب مفعول مقدم وجوباً. ﴿شِئْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿أَنَّىٰ﴾ على كونه فعل الشرط لها، وجواب الشرط محذوف؛ تقديره: أنى شئتم فأتوه، وجملة ﴿أَنَّىٰ﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول القول. ﴿وَقَدِّمُوا۟﴾: الواو: عاطفة ﴿قدموا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ على كونها مقول القول. ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قدموا﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَاتَّقُواْ﴾: الواو: عاطفة، ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾.
﴿وَاعْلَمُوٓاْ﴾: الواو: عاطفة، ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿وَاتَّقُواْ﴾ على كونها مقولا لـ﴿قُلْ﴾. ﴿أَنَّكُم﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، والكاف: اسمها. ﴿مُّلَٰقُوهُ﴾: خبرها ومضاف إليه، وجملة ﴿أنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر سادٌّ مسد مفعولي ﴿اعلم﴾؛ تقديره: واعلموا لقاءكم إياه. ﴿وَبَشِّرِ﴾ الواو: عاطفة أو استئنافية، ﴿بشر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُلْ﴾، أو مستأنفة. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به منصوب بالياء.

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَجْعَلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿ٱللَّهَ﴾: لفظ الجلالة، مفعول أول. ﴿عُرْضَةً﴾: مفعول ثان، والجملة مستأنفة. ﴿لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿عُرْضَةً﴾ أو بـ﴿تَجْعَلُواْ﴾؛ لأن المعنى لا تجعلوا الحلف بالله عارضاً مانعاً لكم عن أيمانكم؛ أي: عن الأعمال الصالحة كما مر في التفسير والحل. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَبَرُّواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾، والجملة من الفعل والفاعل صلة ﴿أَن﴾ و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور على كونه بدلاً من ﴿أيمانكم﴾ وعطف بيان عنه؛ تقديره: مانعاً لكم عن بركم وإحسانكم إلى الأرحام. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَبَرُّواْ﴾، وكذلك ﴿تصلحوا﴾ معطوف عليه على كونهما بدلاً، أو عطف بيان ﴿لأيمانكم﴾؛، والتقدير: ومانعاً لكم عن تقواكم وإصلاحكم بين الناس. وقوله: ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تصلحوا﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: استئنافية، ﴿اللَّه﴾: مبتدأ. ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِٱللَّغْوِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُؤَاخِذُكُمُ﴾. ﴿فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من اللغو، أو صفة له إن قلنا: إن أل فيه جنسية، فهو بمنزلة النكرة، أو متعلق باللغو؛ لأنه مصدر. ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: عاطفة، ﴿لكن﴾ حرف استدراك، ولكن وقعت هنا بين نقيضين باعتبار وجود اليمين؛ لأنها لا تخلو: إما أن لا يعضدها القلب، بل جرت على اللسان وهي اللغو، وإما أن يعضدها وهي المنعقدة. ﴿يُؤَاخِذُكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾. ﴿بما﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة، أو مصدرية في محل الجر بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُؤَاخِذُكُم﴾. ﴿كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: بما كسبته قلوبكم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية، ﴿اللَّه﴾: مبتدأ. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول. ﴿حَلِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ والخمر في الأصل: مصدر خَمرتُ الإناء إذا غطيته بالغطاء، سمي الخمر بذلك؛ لأنه يغطي العقل ويستره. ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ في الأصل مصدر ميمي من يسر، كالموعد من وعد، يقال: يسرته إذا قهرته وغلبته، واشتقاقه: إما من اليسر؛ لأن فيه أخذ المال بسهولة ويسر بلا كد ولا تعب، وإما من اليسار بمعنى الغنى؛ لأنه سبب لتحصيل الغنى، أو لسلبه، وفي «المصباح»: الميسر وزان مسجد، قمار العرب بالأزلام، يقال: منه يسر الرجل ييسر - من باب وعد - فهو ياسر، وبه سمي. ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾ والإثم في الأصل مصدر أثِم يأثَم إثماً ومأثماً - من باب طرب إذا أذنب، والإثم - الذنب يجمع على آثام.

﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ والعفو في الأصل مصدر عفا يعفو عفواً إذا سامح عن الإساءة، وهو هنا اسم للمال الفاضل عن الحاجة. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ العلم هنا بمعنى المعرفة المتعدية إلى واحد، وأتى بـ﴿من﴾ لتضمنه

بمعنى التمييز؛ أي: يعلم من يفسد في أمورهم عند المخالطة، أو من يقصد بمخالطته الخيانة والإفساد مميزاً له ممن يصلح فيها، أو يقصد الإصلاح، فيجازي كلاً منهما بعمله.

﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وأصله يؤمنن، فسكنت النون الأولى التي هي آخر الفعل؛ لدخول نون النسوة، ثم أدغمت الأولى في الثانية.

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بضم التاء هنا وبفتحها في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾؛ لأن الأول: من نكح الثلاثي، وهو يتعدى إلى مفعول واحد، والثاني: من أنكح الرباعي، وهو يتعدى إلى الاثنين. الأول: في الآية ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ والثاني: محذوف، وهو المؤمنات.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ اسم الإشارة راجع إلى المشركات والمشركين، ويدعون خبره، فمن حيث وقوعه على الذكور يكون الفعل مرفوعاً بالنون، والواو فاعل، ويكون وزنه ينعون، أصله يدعوون بواوين، فحذفت أولاهما وهي لام الكلمة، ومن حيث وقوعه على الإناث يكون الفعل مبنياً على السكون، وتكون النون نون النسوة، وتكون ﴿الواو﴾ حرفاً هي لام الكلمة، ووزنه يفعلن.

﴿عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ المحيض: مصدر ميمي يصلح للحدث والزمان والمكان، والحيض في اللغة السيلان، يقال: حاض الوادي إذا سال ماؤه، وشرعاً عند الفقهاء: دم جبلة يخرج من أقصى رحم المرأة في أوقات مخصوصة. ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ وفي «المصباح»: أذي الشيء يَأذى أذىً ـ من باب تعب ـ إذا قذر.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وأصل ائتوا: ائتيوا بوزن اضربوا، فالهمزة الأولى همزة وصل أُتيَ بها للابتداء بالساكن، والثانية فاء الكلمة اجتمع همزتان، فقلبت ثانيتهما ياء على حد إيمان وبابه، واستثقلت الضمة على الياء التي هي لام الكلمة فحذفت، فسكنت الياء وبعدها واو الضمير ساكنة، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، وضمت التاء قبلها للتجانس، فوزن ائتوا افعوا، وهذه الهمزة إنما يحتاج إليها ابتداء أما في الدرج: فإنها يستغنى عنها، وتعود الهمزة التي هي فاء الكلمة؛ لأنها إنما قلبت لأجل الكسر الذي كان قبلها، وقد زال.

﴿عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ عرضة فُعلة بمعنى المفعول، كالقبضة والغرفة؛ بمعنى المقبوض والمغروف، تطلق على ما يعرض دون الشيء، فيصير حاجزاً عنه.

﴿بِاللَّغْوِ﴾ واللغو مصدر لغا يلغو، يقال: لغا يلغو لغواً، مثل غزا يغزو غزواً، ولغي يلغى لغياً، مثل يلقى لقياً.

وفي «الخازن»: اللغو: كل ساقط مطروح من الكلام وما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، واللغو في اليمين: هو الذي لا عقد ولا قصد معه، كقول الإنسان لا والله، وبلى والله.

البلاغة

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾: فيه إيجاز بالحذف؛ أي: يسألونك عن شرب الخمر وتعاطي الميسر؛ أي: أيحل ذلك أم لا؟ ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ هذا من باب التفصيل بعد الإجمال، وهو ما يسمى عند أهل المعاني بالإطناب. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ﴾: فيه تشبيه مرسل مجمل.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾: فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن قبله ﴿ويسألونك﴾ فالواو ضمير الغائبين، وحكمة هذا الالتفات ما في الإقبال بالخطاب على المخاطب ليتهيأ لسماع ما يلقى إليه وقبوله والتحرز فيه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ وتعلق العلم بالمفسد أولاً؛ ليقع الإمساك عن الإفساد، ومن متعلقه بيعلم على تضمين ما يتعدى بمن كان المعنى: والله يميز بعلمه المفسد من المصلح.

وجاءت هذه الجملة بهذا التقسيم؛ لأن المخالطة على قسمين: مخالطة بإفساد، ومخالطة بإصلاح، ولأنه لما قيل: ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ فهم مقابله، وهو أن الإفساد شر، فجاء هذا التقسيم باعتبار الإصلاح ومقابله، ولا يخفى ما في الآية من الطباق بين كلمة المفسد والمصلح، وهو من المحسنات البديعية.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾: تعليل للنهي عن مواصلة المشركات، وترغيب في مواصلة المؤمنات، وصدر بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغة

في الحمل على الإنزجار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ من المعلوم أن المغفرة قبل دخول الجنة، ولذلك قدمت في غير هذه الآية: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ وإنما قدمت الجنة هنا تقديماً للمقابل؛ لتكمل وتظهر المقابلة؛ لأن النار يقابلها الجنة، ولا يخفى ما في الآية من الطباق بين كلمة النار وكلمة الجنة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ كناية عن الجماع ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ هذا تصريح بمفهوم الغاية، والتصريح له، وإن علم مما قبله لمزيد العناية بأمر التطهر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ جملة معترضة بين المبين وهو قوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وبين البيان وهو قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ ونكتة هذا الاعتراض: الترغيب فيما أمروا به، والتنفير عما نهوا عنه، وقدم الذي أذنب على الذي لم يذنب؛ لكيلا يقنط التائب من الرحمة، ولئلا يعجب المتطهر بنفسه كما في آية ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: كالأرض التي تُحرث ليوضع فيها البذر، فشبه النساء بالأرض التي تحرث، وشبه النطفة بالبذر الذي يوضع في تلك الأرض، وشبه الولد بالزرع الذي ينبت من الأرض، فهو من باب التشبيه البليغ، وأنشد ثعلب:

إِنَّمَا ٱلأَرْحَامُ أَرْضُونَ لَنَا مُحْتَرَثَاتْ
فَعَلَيْنَا ٱلزَّرْعُ فِيهَا وَعَلَى ٱللَّهِ ٱلنَّبَاتْ

﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ كناية عن الوطء، وجاء ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ نكرة؛ لأنه الأصل في الخبر، وجاء ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ معرفة؛ لأن في الإضافة حوالة على شيء سبق واختصاصاً بما أضيف إليه، ونظير ذلك أن تقول: زيد مملوك لك فأحسن إلى مملوكك؛ لأن القاعدة عند البلغاء إذا تقدمت نكرة، وأعيدت بلفظها.. فلا بد أن يكون معرفة، إما بالألف واللام كقوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، وإما

بالإضافة كما هنا، كما قال السيوطي في «عقود الجمان»:

ثُمَّ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُشْتَهَرَةْ إِذَا أَتَتْ نَكِرَةٌ مُكَرَّرَةْ
تَغَايَرَتْ وَإِنْ يُعَرَّفْ ثَانِيْ تَوَافَقَا كَذَا ٱلْمُعَرَّفَانِ

وفي قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مع ما فيه من تلوين الخطاب، وجعل المبشر رسول الله ﷺ من المبالغة في تشريف المؤمنين ما لا يخفى.

وقال أبو حيان[1]: وفي قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنبيه على الوصف الذي به يتقى اللَّه، ويقدم الخير، ويستحق التبشير، وهو الإيمان، وفي أمره لرسول الله ﷺ بالتبشير تأنيس عظيم، ووعد كريم بالثواب الجزيل، ولم يأت بضمير الغيبة، بل أتى بالظاهر الدال على الوصف، ولكونه مع ذلك فصل آية: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ في هذا الكلام حذف؛ تقديره: ولكن يؤاخذكم في أيمانكم بما كسبت قلوبكم، فحذف لدلالة ما قبله عليه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ...﴾ الآية، مناسبة(١) هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنه تقدم شيء من أحكام النساء، وشيء من أحكام الأيمان، وهذه الآية جمعت بين الشيئين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة جداً؛ لأنه حكم غالب من أحكام النساء؛ لأن الطلاق يحصل به المنع من الوطء والاستمتاع دائماً، وبالإيلاء منع نفسه من الوطء مدة محصورة، فناسب ذكر غير المحصور بعد ذكر المحصور، ومشروع تربص المولي أربعة أشهر، ومشروع تربص هؤلاء ثلاثة قروء، فناسب ذكرها بعقبها.

قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ...﴾ مناسبتها لما قبلها ظاهرة: وهو أنه لما تضمنت الأية قبلها الطلاق الرجعي، وكانوا يطلقون، ويراجعون من غير حد ولا عد.. بين في هذه الآية أنه مرتان، فحصر الطلاق الرجعي في أنه مرتان؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

يملك المراجعة إذا طلقها، ثم يملكها إذا طلق، ثم إذا طلق ثالثة لا يملكها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما ذكر تعالى الإمساك بمعروف، أو التسريح بإحسان.. اقتضى ذلك أن من الإحسان أن لا يأخذ الزوج من امرأته شيئاً مما أعطاها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ...﴾ عن ابن عباس[1] ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان أهل الجاهلية إذا طلب الرجل من امرأته شيئاً فأبت أن تعطيه.. حلف لا يقربها السنة والسنتين والثلاث، فيدعها لا أيِّما ولا ذات بعل، فلما كان الإسلام.. جعل الله ذلك للمسلمين أربعة أشهر، وأنزل هذه الآية، وقال سعيد بن المسيب: كان الإيلاء ضرار أهل الجاهلية فكان الرجل لا يريد امرأته، ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً فيتركها لا أيِّما ولا ذات بعل، وكانوا عليه في ابتداء الإسلام، فجعل الله تعالى الأجل الذي يعلم به ما عند الرجل في المرأة أربعة أشهر، وأنزل هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ...﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ...﴾ الآية، أخرج[2] أبو داود وابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت: طلقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله العدة للطلاق بقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿الطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ...﴾ الآية، أخرج الترمذي والحاكم وغيرهما، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وهي امرأته إذا ارتجعها، وهي في العدة وإن طلقها مئة مرة وأكثر حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني، ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك، فكلما همتْ عدتك أن تنقضي راجعتك، فذهبت المرأة، فأخبرت

---

(١) الخازن.

(٢) لباب النقول.

النبي ﷺ، فسكت حتى نزل قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ...﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا...﴾ أخرج أبو داود في «الناسخ والمنسوخ» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان الرجل يأكل مال امرأته من نحله الذي نحلها وغيره، ولا يرى أن عليه جناحاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، أخرج البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا مال، ولكني أكره الكفر في الإسلام ـ قال أبو عبد الله: يعني تبغضه ـ قال رسول الله ﷺ له: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» قولها ما أعتب عليه: تعني، ما أجد عليه، والحديقة: البستان من النخل.

قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ...﴾ الآية، أخرج ابن المنذر عن مقاتل بن حيان قال: نزلت هذه الآية في عائشة بنت عبد الرحمٰن بن عتيك، كانت تحت رفاعة بن وهب بن عتيك، وهو ابن عمها، فطلقها طلاقاً بائناً، فتزوجت بعده عبد الرحمٰن بن الزبير القرظي فطلقها، فأتت النبي ﷺ فقالت: إنه طلقني قبل أن يمسني، فأرجع إلى الأول؟ قال ﷺ: «لا حتى يمس» ونزل فيها: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ فيجامعها، فإن طلقها بعد ما جامعها، فلا جناح عليهما أن يتراجعا.

وأخرج الشيخان عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: إني كنت عند رفاعة فطلقني، فبتَّ طلاقي، فتزوجت بعده عبد الرحمٰن بن الزبير، وإنّ ما معه مثل هدبة الثوب، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟» قالت: نعم، قال: «حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته».

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ قرأ عبد الله شذوذاً: ﴿للذين آلوا﴾ بلفظ الماضي، وقرأ أبي وابن عباس شذوذاً: ﴿للذين يقسمون﴾؛ أي: للذين يحلفون أن يبتعدوا ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ وحلائلهم ولا يجامعوهن مطلقاً، أو مدة تزيد على أربعة أشهر كما تقرر في الفروع ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾؛ أي: انتظارهن في أربعة أشهر؛ أي: للمولي حق التلبث والانتظار في هذه المدة، فلا يطالب بفيئة ولا طلاق؛ أي: جعل الله الأجل في ذلك أربعة أشهر، فإذا مضت هذه المدة.. فإما أن يطلق، وإما أن يطأ، فإن أباهما جميعاً.. طلق عليه الحاكم طلقة واحدة، ولها النفقة والكسوة في تلك المدة؛ لأن الامتناع من قبله، وتحسب تلك المدة من يوم الحلف إن كانت صريحة في ترك الوطء، ومن يوم الرفع للحاكم إن لم تكن صريحة، فالإيلاء: لغة مطلق الحلف؛ لأنه مصدر آلى يولي إيلاء إذا حلف، وشرعاً: الحلف بالله أو بغيره، كالعتق والنذر على ترك وطء الزوجة المدخول بها المطيقة للوطء مطلقاً، أو مدة تزيد على أربعة أشهر. ﴿فَإِن فَآءُو﴾ قرأ عبد الله: ﴿فإن فاءوا فيهن﴾ وقرأ أبيّ شذوذاً: ﴿فإن فاؤوا فيها﴾؛ أي: فإن رجع المولون عما حلفوا عليه من ترك جماعهن؛ بأن جامعوا قبل مضي أربعة أشهر، وحينئذ يلزمهم ما يترتب على الحنث من كفارة إن كان اليمين بالله، أو العتق مثلاً إن كان به. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ ليمينهم إن تابوا بفعل الكفارة، أو ما تعرض بالإيلاء من ضرار المرأة بالفيئة التي هي كالتوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم حيث بيَّن كفارتهم.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ قرأ ابن عباس شذوذاً: ﴿وإن عزموا السراح﴾؛ أي: وإن جزموا نية الطلاق، وقصدوا إيقاعه بأن تركوا الفيئة إلى مضي المدة، وجواب الشرط محذوف؛ تقديره: فليوقعوه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لإيلائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم، فليس لهم بعد التربص إلا الفيئة أو الطلاق، فإن بَرَّ المولي يمينه وترك مجامعة امرأته حتى يتجاوز أربعة أشهر.. بانت منه امرأته بتطليقة واحدة، وإن جامعها قبل ذلك.. فعليه كفارة اليمين، كما قاله ابن عباس، كما ذكرناه آنفاً، ففي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ من الوعيد على الامتناع، وترك الفيئة ما لا يخفى.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ الحرائر المدخول بهن، الخاليات من حبال أزواجهن، ذوات الأقراء؛ لأن قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ عام مخصوص بهذه القيود المذكورة، فخرجت الإماء، فعدتهن قُرْآن بالسنة، وغير المدخول بهن فلا عدة عليهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ والحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن كما في سورة الطلاق، والآيسة والصغيرة فعدتهن ثلاثة أشهر، كما في سورة الطلاق أيضاً، والمطلقات جمع مطلقة؛ وهي التي أوقع عليها الزوج الطلاق؛ أي: والواجب في المطلقات المذكورة في عدتهن أن ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾؛ أي: أن ينتظرن ويتأخرن عن الزواج مدة ثلاثة أطهار على قول الشافعي ومالك، أو ثلاث حيض على قول أبي حنيفة وأحمد، ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها، والباء في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ يحتمل كونها زائدة في توكيد النون؛ أي: يتربصن أنفسهن، ويحتمل كونها للتعدية؛ أي: يتربصن بأنفسهن لا بأمر غيرهن، فلا دخل له في أمر العدة، والمراد: أنه لا تتوقف العدة على ضرب قاض بخلاف مدة العنّة، وقرأ الجمهور[1]: ﴿قُرُوٓءٍ﴾ على وزن فعول، وقرأ الزهري ﴿قروّ﴾ بالتشديد من غير همز، وروي ذلك عن نافع، وقرأ الحسن ﴿قَرْو﴾ بفتح القاف وسكون الراء وواو خفيفة، وما عدا قراءة الجمهور شاذ.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾؛ أي: لا يجوز للمطلقات ﴿أَن يَكْتُمْنَ﴾ ويخفين ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ وأوجده ﴿فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الحبل أو الحيض؛ لأجل استعجال انقضاء العدة لإبطال حق الزوج من الرجعة، أو لأجل إلحاق الولد بغير أبيه، وفيه دليل على قبول قولهن في ذلك نفياً أو إثباتاً.

والحاصل: أن المرأة لها أغراض كثيرة في كتمانهما، فإذا كتمت الحبل.. قصرت مدة عدتها، فتتزوج بسرعة، وربما كرهت مراجعة الزوج، وأحبت التزوج بزوج آخر، أو أحبت أن يلتحق ولدها بالزوج الثاني، فلهذه الأغراض تكتم الحبل، وإذا كتمت الحيض.. فقد تحب تطويل عدتها؛ لكي يراجعها الزوج الأول، وقد تحب تقصير عدتها لبطل رجعته، ولا يتم لها ذلك إلا بكتمان بعض

---

(١) البحر المحيط.

الحيض في بعض الأوقات. ﴿إِن كُنَّ﴾ تلك المطلقات ﴿يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ﴾ ورسوله ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وجواب الشرط محذوف، فلا يحل لهن ذلك الكتمان، ولا يجترئن عليه، وهذا وعيد شديد لتأكيد تحريم الكتمان، وإيجاب أداء الأمانة بالإخبار عما في الرحم من الحيض والحبل.

والمعنى: أن هذا من فعل المؤمنات، وإن كانت المؤمنة والكافرة فيه سواء، كقولك: أدِّ حقي إن كنت مؤمناً؛ يعني: أن أداء الحقوق من أفعال المؤمنين. ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾؛ أي: أزواج تلك المطلقات، والبعولة جمع بعل، سمي الزوج بعلاً؛ لقيامه بأمر زوجته، وأصل البعل السيد والمالك ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾؛ أي: بمراجعتهن ولو أبين ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في زمن ذلك التربص الذي أمرن أن يتربصن فيه، وهو زمن الأقراء الثلاثة، فلا حق لغيرهم في ردهن ورجعتهن، فأفعل التفضيل ليس على بابه، فكأنه قال: وبعولتهن حقيقون بردهن، وقرأ مسلمة بن محارب ﴿وبعولتهن﴾ بسكون التاء، فراراً من ثقل توالي الحركات، وقرأ أبي ﴿بردتهن﴾ بالتاء بعد الدال ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾؛ أي: إن أراد الأزواج بالرجعة ﴿إِصْلَٰحًا﴾ لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن بحسن المعاشرة، لا الإضرار بهن، وذلك: أن أهل الجاهلية كانوا يراجعون ويريدون بذلك الإضرار، فنهى الله المؤمنين عن مثل ذلك، وأمرهم بالإصلاح وحسن العشرة بعد الرجعة ﴿وَلَهُنَّ﴾؛ أي: وللزوجات على الأزواج من الحقوق ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى﴾ لهم ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ من الحقوق ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً؛ أي: على الوجه الذي أمر الله تعالى به من حسن العشرة، وترك الضرار؛ يعني: يجب لهن على الأزواج النفقة والكسوة والمهر وحسن العشرة، وترك الضرار، كما يجب للأزواج عليهن امتثال أمرهم، ونهيهم في الاستمتاعات والخدمة، فالمماثلة تكون في وجوب ما يفعله الرجل من ذلك ووجوب امتثال المرأة أمره ونهيه، لا في جنس الواجب على كل منهما؛ لأنه مختلف.

وذلك: أن حق الزوجية لا يتم إلا إذا كان كل واحد منهما يراعي حق الآخر فيما له وعليه، فيجب على الزوج أن يقوم بجميع حقوقها ومصالحها،

ويجب على الزوجة الإنقياد والطاعة له.

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه أنه ذكر خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، وقال فيها: قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانات الله، واستحللتم فرجوهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك.. فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

ومعنى بالمعروف[1]؛ أي: بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس، ولا يكلف أحدهما الآخر من الأشغال ما ليس معروفاً له، بل يقابل كل منهما صاحبه بما يليق به.

وقال ابن جرير[2]: اختلف أصحابنا ـ يعني: أصحاب مالك ـ هل على الزوجة أن تطالب بغير الوطء أم لا؟ فقال بعضهم: ليس على الزوجة أن تطالب بغير الوطء، وقال بعضهم: عليها خدمة مثلها، فإن كانت شريفة المحل ليسار أبوة مثلاً.. فعليها تدبير أمر المنزل وأمر الخادم، وإن كانت متوسطة الحال.. فعليها أن تفرش الفراش ونحوه، وإن كانت من نساء الكرد والديلم في بلدهن.. كلفت ما تكلفه نسائهم.

وقد جرى أمر المسلمين في بلدانهم في قديم الأمر وحديثه بما ذكرنا، ألا ترى أن نساء الصحابة كن يكلفن الطحن والخبيز والطبيخ، وفرش الفراش، وتقريب الطعام، وأشباه ذلك، ولا نعلم امرأة امتنعت من ذلك، بل كانوا يضربون نساءهم إذا قصّرن في ذلك.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾؛ أي: ولكن للأزواج على الزوجات فضيلة ومزية في الحق؛ أي: فعليهن مزيد إكرام واحترام وتعظيم لرجالهن؛ بسبب كونه رجلاً يقالب الشدائد والأهوال، ويسعى دائماً في مصالح زوجته، ويكفيها تعب

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

الاكتساب، فبإزاء ذلك صار عليهن درجة، فللرجل في مبالغة الطوعية، وفيما يفضي إلى الاستراحة عندها.

وقيل[1]: إن فضيلة الرجال عن النساء بأمور منها: العقل، والشهادة، والميراث، والدية، وصلاحية الإمامة، والقضاء، وللرجل أن يتزوج عليها ويتسرى، وليس لها ذلك، وبيد الرجل الطلاق، فهو قادر على تطليقها، وإذا طلقها رجعية.. فهو قادر على رجعتها، وليس شيء من ذلك بيدها.

روى البغوي بسنده عن أبي ظبيان أن معاذ بن جبل رضي الله عنه خرج في غزاة بعثه رسول الله ﷺ فيها، ثم رجع فرأى رجالاً يسجد بعضهم لبعض، فذكر، ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد.. لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله وأحكامه، وفيما حكم بين الزوجين.

وإنما[2] ختم الآية بهذين الاسمين؛ لأنه لما تضمنت الآية ما معناه الأمر في قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، والنهي في قوله ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾، والجواز في قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ﴾، والوجوب في قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾، ناسب وصفه تعالى بالعزة، وهو القهر والغلبة، وهي تناسب التكليف، وناسب وصفه بالحكمة، وهي إتقان الأشياء، ووضعها على ما ينبغي، وهي تناسب التكليف أيضاً.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾؛ أي[3]: عدد الطلاق الذي تثبت فيه الرجعة للأزواج على زوجاتهم إذا كن مدخولاً بهن هو مرتان، أي: الطلقة الأولى والثانية؛ إذ لا رجعة بعد الثالثة، وقيل: معناه التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، ولذلك قالت الحنفية: الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة، وإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَرَّتَانِ﴾ ولم يقل: طلقتان إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرة

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

بعد مرة لا طلقتان دفعة واحدة، كذا قال جماعة من المفسرين، ولما لم يكن بعد الطلقة الثانية، إلا أحد أمرين: إما إيقاع الثالثة التي بها تبين الزوجة، أو الإمساك لها واستدامة نكاحها وعدم إيقاع الثالثة عليها. قال سبحانه: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾؛ أي: فإمساك بعد الرجعة لمن طلقها زوجها طلقتين بمعروف؛ أي: بما هو معروف في الشرع من أداء حقوق النكاح، وحسن المعاشرة. ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾؛ أي: أو إرسال لها بإيقاع طلقة ثالثة عليها ﴿بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾؛ أي: من غير إضرار لها؛ بأن يؤدي إليها جميع حقوقها المالية، ولا يذكرها بسوء بعد المفارقة، ولا ينفر الناس عنها.

وقيل المراد: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾؛ أي: برجعة بعد الطلقة الثانية ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾؛ أي: بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنقضي عدتها، والأول أظهر، وقد اختلف أهل العلم في إرسال الثلاث دفعة واحدة هل يقع ثلاثاً أو واحدة فقط؟ فذهب إلى الأول الجمهور، وذهب إلى الثاني من عداهم؛ وهو الحق. انتهى. من «الشوكاني».

فائدة: قال الفخر الرازي: الحكمة في إثبات حق الرجعة: أن الإنسان ما دام مع صاحبه لا يدري: هل تشق عليه المفارقة أو لا؟ فإذا فارقه.. فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجعة.. لعظمت المشقة على الإنسان؛ إذ قد تظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة.. أثبت تعالى حق المراجعة مرتين، وهذا يدل على كمال رحمته تعالى ورأفته بعباده.

فوائد تتعلق بأحكام الطلاق

الأولى: صريح اللفظ الذي يقع به الطلاق من غير نية ثلاث: الطلاق والفراق والسراح، وعند أبي حنيفة الصريح هو لفظ الطلاق فقط.

الثانية: الحر إذا طلق زوجته طلقة أو طلقتين بعد الدخول بها.. فله مراجعتها من غير رضاها ما دامت في العدة، فإذا لم يراجعها حتى انقضت

عدتها، أو طلقها قبل الدخول بها، أو خالعها.. فلا تحل له إلا بنكاح جديد بإذنها وإذن وليها.

الثالثة: العبد يملك على زوجته الأمة تطليقتين، واختلف فيما إذا كان أحد الزوجين حراً، فالحر يملك على زوجته الأمة ثلاث تطليقات، والعبد يملك على زوجته الحرة تطليقتين، فالاعتبار بحال الزوج في عدد الطلاق، وبه قال الشافعي، ومالك، وأحمد، وذهب أبو حنيفة إلى أن الاعتبار بالمرأة، فالعبد يملك على زوجته الحرة ثلاث تطليقات، والحر يملك على زوجته الأمة تطليقتين.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها[1] الأزواج أو الحكام؛ لأنهم الآمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم الآخذون والمؤتون، والأول أظهر ﴿أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: أعطيتموهن من المهر والثياب وسائر ما تفضل به عليها ﴿شَيْـًٔا﴾ قليلاً فضلاً عن الكثير؛ لأنه استمتع بها في مقابلة ما أعطاها، وتنكير ﴿شَيْـًٔا﴾ للتحقير؛ أي: شيئاً حقيراً، وخص ما دفعوه إليهن بعدم حل الأخذ منه، مع كونه لا يحل للأزواج أن يأخذوا شيئاً من أموالهن التي يملكنها من غير المهر؛ لكون ذلك هو الذي تتعلق به نفس الزوج، وتتطلع لأخذه دون ما عداه مما هو ملكها، على أنه إذا كان أخذ ما دفعه إليها لا يحل له.. كان ما عداه ممنوعاً منه بالأولى.

ثم استثنى الخلع، فقال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾؛ أي: الزوجان، وقرىء ﴿يظنا﴾، وهو يؤيد تفسير الخوف بالظن؛ أي: إلا أن يعلم الزوج والمرأة من أنفسهما عند الخلع ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ أي: عدم إقامة حدود الله التي حدها للزوجين، وأوجب عليهما الوفاء بها من حسن العشرة والطاعة.

وقرأ حمزة: ﴿إلا أن يُخافا﴾ على البناء للمجهول فـ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ بدل اشتمال

---

(١) النسفي.

من الضمير فيه، والتقدير: إلا أن يخافا عدم إقامتهما حدود الله، وأصل[1] الكلام على هذه القراءة إلا أن يخاف ولاة الأمور الرجل والمرأة أن لا يقيما حدود الله، فالولاة فاعل، والرجل مفعول به، والمرأة معطوف عليه، و﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾: بدل اشتمال من المفعول الذي هو الرجل والمرأة، فحذف الفاعل، وبني الفعل لما لم يسم فاعله، وأتى ببدل المفعول به الظاهر بضمير التثنية، وبقي ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ بدل اشتمال على حاله، لكن من الضمير الذي صار نائب الفاعل، فهذا التركيب على حد ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تأمل.

وقرىء شاذاً بالفوقانية في الفعلين مفتوحة في الأول، مضمومة في الثاني مع بنائهما للفاعل، وعلى هذه القراءة: فلا التفات في الكلام ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام، وجاز أن يكون أول الخطاب للأزواج، وآخره للحكام؛ يعني: فإن خشيتم وأشفقتم ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما أوجب الله على كل منهما من طاعته فيما أمر به من حسن الصحبة والمعاشرة.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾؛ أي: لا جناح على الرجل في الأخذ، وعلى المرأة في الإعطاء بأن تفتدي نفسها من ذلك النكاح ببذل شيء من المال يرضى به الزوج، فيطلقها لأجله، وهذا هو الخلع، وقد ذهب الجمهور: إلى جواز ذلك للزوج، وأنه يحل له الأخذ مع ذلك الخوف، وهو الذي صرح به القرآن، وقد تقدم لك أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس، وفي شأن جميلة بنت عبد الله بن أبي، اشترت نفسها من زوجها بمهرها. قال رسول الله ﷺ لثابت: «خذ منها ما أعطيتها وخل سبيلها»، ففعل، فكان ذلك أول خلع في الإسلام.

ثم الخوف المذكور في هذه الآية يمكن حمله على الخوف المعروف، وهو الإشفاق مما يكره وقوعه، ويمكن حمله على الظن كما قرىء شاذاً ﴿إلا أن يظنا﴾ والخوف: إما أن يكون من قبل المرأة فقط، أو من قبل الزوج فقط، أو

---

(١) الجمل.

من قبلهما معاً، أو لا يحصل الخوف من قبل واحد منهما، فإن كان الخوف من قبل المرأة بأن تكون ناشزة مبغضة للزوج.. فيحل له أخذ المال منها، وإن كان من قبل الزوج فقط بأن يضربها ويؤذيها حتى تلتزم الفداء.. فهذا المال حرام، كما إذا كان حاصلاً من قبلهما معاً، فذلك المال حرام أيضاً، وإن لم يحصل الخوف من قبل واحد منهما.. فقال أكثر المجتهدين: إن هذا الخلع جائز، والمال المأخوذ حلال، وقال قوم: إنه حرام.

﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة من قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ إلى هنا ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: ما حدد الله وشرعه، وبينه لعباده في النكاح واليمين والإيلاء والعدة والطلاق والخلع، وغير ذلك ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾؛ أي: فلا تجاوزوها بالمخالفة إلى ما نهى الله تعالى لكم عنه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾؛ أي: يتجاوز ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ أي: أحكام الله إلى ما نهى الله عنه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المعتدون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أنفسهم، والضارون لها بتعريضها لسخط الله، والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه.

ثم رجع إلى قوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾، فقال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾؛ أي: الطلقة الثالثة التي ذكرها سبحانه بقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ بعد الطلقتين، فكأنه قال: فإن[1] سرحها التسريحة الثالثة الباقية من عدد الطلاق، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وغيرهم؛ أي: فإن وقع منه ذلك.. فقد حرمت عليه بالتثليث ﴿فَلَا تَحِلُّ﴾ تلك المطلقة ﴿لَهُ﴾؛ أي: لمطلقها ثلاثاً ﴿مِن بَعْدُ﴾؛ أي: من بعد التطليقة الثالثة ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ﴾؛ أي: حتى تتزوج ﴿زَوْجًا غَيْرَهُ﴾؛ أي: غير الأول بعد انقضاء عدتها من الأول، ويطأها الزوج الثاني، ويطلقها الثاني، وتنقضي عدتها من الثاني، وقد أخذ[2] بظاهر الآية سعيد بن المسيب ومن وافقه، فقالوا: يكفي مجرد العقد؛ لأنه المراد بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾. وذهب الجمهور من السلف والخلف إلى أنه لا بد مع العقد من الوطء؛ لما ثبت عن النبي ﷺ من اعتبار ذلك، وهو زيادة يتعين قبولها، ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب ومن تابعه.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

وفي الآية: دليل على أنه لا بد أن يكون ذلك نكاحاً شرعياً مقصوداً لذاته، لا نكاحاً غير مقصود لذاته، بل حيلة للتحليل وذريعة إلى ردها إلى الزوج الأول، فإن ذلك حرام للأدلة الواردة في ذمه وذم فاعله، وأنه التيس المستعار الذي لعنه الشارع، ولعن من اتخذه لذلك.

واعلم: أن مذهب جمهور السلف والخلف أن المطلقة ثلاثاً لا تحل لذلك المطلق إلا بخمس شرائط: تعتد منه، وتعقد للثاني ويطؤها، ثم يطلقها، ثم تعتد منه.

والحكمة في تشريع التحليل[١]: الردع عن المسارعة إلى الطلاق، وعن العود إلى المطلقة ثلاثاً والرغبة فيها ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني طلاقاً بائناً، وانقضت عدتها منه ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: فلا إثم ولا حرج ﴿عَلَيْهِمَآ﴾؛ أي: على الزوج الأول والمرأة ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾؛ أي: أن يرجع كل من المرأة والزوج الأول إلى الآخر بنكاح جديد ومهر ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر، وأما إذا لم يحصل ظن ذلك بأن يعلما أو أحدهما عدم الإقامة لحدود الله، أو تردد أو أحدهما ولم يحصل لهما الظن.. فلا يجوز الدخول في هذا النكاح؛ لأنه مظنة لمعصية الله، والوقوع فيما حرمه على الزوجين.

وأجمع أهل العلم[٢] على أن الحر إذا طلق زوجته ثلاثاً، ثم انقضت عدتها، ونكحت زوجاً آخر ودخل بها، ثم فارقها وانقضت عدتها، ثم نكحها الزوج الأول.. أنها تكون عنده على ثلاث تطليقات.

﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة من النكاح وغيره ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أحكام شرعه ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ وقرىء ﴿نبينها﴾ بالنون على طريق الالتفات؛ أي: يوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنها من الله ويصدقون بها وخص الذين يعلمون مع عموم الدعوة للعالم وغيره ووجوب التبليغ لكل فرد؛ لأنهم المنتفعون بالبيان المذكور، أما من

---

(١) أبو السعود.

(٢) الشوكاني.

لا يعلم.. فهو أعمى لا يبصر شيئاً من الآيات ولا يتضح له ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾.

الإعراب

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾.

﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿يُؤْلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُؤْلُونَ﴾. ﴿تَرَبُّصُ﴾: مبتدأ مؤخر وهو مضاف. ﴿أربعة﴾: مضاف إليه وهو مضاف. ﴿أَشْهُرٍ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً.

﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿فَإِن﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفت حكم الإيلاء، وأردت بيان حكم ما إذا فاؤوا.. فأقول لك: إن فاءوا. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿فَآءُو﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل الشرط لها. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إنْ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿وَإِنْ﴾ الواو: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية، ﴿إنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول لها. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾: الواو: استئنافية، ﴿المطلقات﴾: مبتدأ. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة في التوكيد. ﴿أنفسهن﴾: مؤكد لنون الفاعل ومضاف إليه، والجملة خبر المبتدأ؛ تقديره: والمطلقات متربصات هن أنفسهن، والجملة مستأنفة. ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ مفعول به ومضاف إليه.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَحِلُّ﴾: فعل مضارع. ﴿لَهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَكْتُمْنَ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية؛ تقديره: ولا يحل لهن كتمانهن، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة قوله ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: ما خلقه اللَّه. ﴿فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنَّ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم على كونه فعل شرط لـ﴿إن﴾. ﴿يُؤْمِنَّ﴾: فعل وفاعل في محل النصب على كونه خبراً لـ﴿كان﴾؛ تقديره: إن كن مؤمنات بالله. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يؤمن﴾، ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾: صفة لليوم، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله؛ تقديره: إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر.. لا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جملة غائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾: الواو: استئنافية، ﴿بعولتهن﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَحَقُّ﴾: خبر، وصح الإخبار بالمفرد عن الجمع؛ لأن الخبر اسم تفضيل، والجملة

مستأنفة. ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَحَقُّ﴾. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ردهن﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَرَادُوٓاْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل الشرط. ﴿إِصْلَٰحًا﴾: مفعول به، وجواب ﴿إنْ﴾ معلوم مما قبله؛ تقديره: فهم أحق بردهن، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية جملة غائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَلَهُنَّ﴾: الواو: استئنافية، ﴿لهن﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِثْلُ﴾: مبتدأ مؤخر، وسوغ الابتداء بالنكرة تقدم الخبر الظرفي عليه، أو تخصصه بالإضافة، والجملة مستأنفة، وهو مضاف. ﴿ٱلَّذِى﴾: مضاف إليه. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾: جار ومجرور[1] متعلق بالاستقرار الذي تعلق به ﴿لهن﴾ أي: استقر ذلك بالمعروف، ويجوز أن يكون في موضع رفع صفة لـ﴿مِثْلُ﴾؛ لأنه لا يتعرف بالإضافة. ﴿وَلِلرِّجَالِ﴾: الواو: عاطفة، ﴿للرجال﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: جار ومجرور[2] متعلق بالاستقرار الذي تعلق به ﴿للرجال﴾، ويجوز أن يكون في موضع نصب حالاً من ﴿دَرَجَةٌۗ﴾؛ والتقدير: درجة كائنة عليهن، فلما قدم وصف النكرة عليها.. صار حالاً. ﴿دَرَجَةٌۗ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: استئنافية. ﴿اللَّه﴾: مبتدأ. ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾.

﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾: مبتدأ، وهو على حذف مضاف؛ تقديره: عدد الطلاق الذي تملك بعده الرجعة؛ ليصح الإخبار. ﴿مَرَّتَانِۖ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿فَإِمْسَاكُۢ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم عدد الطلاق الذي تملك بعده الرجعة، وأردتم بيان مالكم بعد المرتين..

---

(١) العكبري. (٢) العكبري.

فأقول لكم: عليكم إمساك بمعروف، ﴿إمساك﴾: مبتدأ مؤخر، وخبره محذوف مقدر قبله؛ ليصح الابتداء بالنكرة؛ تقديره: عليكم إمساكهن. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿إمساك﴾، أو متعلق به، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾: معطوف على ﴿إمساك﴾. ﴿بِإِحْسَانٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿تَسْرِيحٌ﴾، أو متعلق به.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَحِلُّ﴾: فعل مضارع ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَأْخُذُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن، وصلة لها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية؛ تقديره: ولا يحل لكم أخذكم. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَأْخُذُوا﴾. ﴿آتَيْتُمُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: إياه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط المفعول الثاني المحذوف. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به لـ﴿تَأْخُذُوا﴾. ﴿إِلَّا أَن يَخَافَا﴾: ﴿إِلَّا﴾: أداة[1] استثناء من مفعول له محذوف تقديره: ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً بسبب من الأسباب إلا بسبب أن يخافا. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَخَافَا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة محذوف إليه؛ تقديره: إلا بسبب خوفهما، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تأخذوا﴾. ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُقِيمَا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾، وصلة لها. ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ تقديره: إلا بسبب خوفهما عدم إقامة حدود الله.

---

(١) البحر المحيط.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنه لا يحل الأخذ منهن إلا في حالة الخوف، وأردتم بيان حكمه حينئذ هل معه جناح أم لا؟ فأقول لكم: ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿خِفْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل الشرط، ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يقيما﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾، وصلة لها. ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: فإن خفتم عدم إقامتهما حدود الله. ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ﴿إن﴾. ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْهِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾ تقديره: فلا جناح كائن عليهما، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فِيمَا﴾: جارومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به عليهما. ﴿افْتَدَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على المرأة. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير به.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَعْتَدُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ الواو: استئنافية. ﴿من﴾؛ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿يَتَعَدَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿الظَّالِمُونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم حكم الطلاق مرتين، وأردتم بيان حكم ما إذا طلق الثالثة.. فأقول لكم: ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿طَلَّقَهَا﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾، وفاعله ضمير يعود على المطلق مرتين. ﴿فَلَا تَحِلُّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية جوازاً، ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَحِلُّ﴾: فعل مضارع مرفوع ليشاكل الجواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على المطلقة مرتين. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تحل﴾، وكذا يتعلق به قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ والجملة الفعلية في محل الجزم على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ﴾: ﴿حتى﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَنكِحَ﴾: منصوب بأن المضمرة بعد حتى، وفاعله ضمير يعود على المطلقة ثلاثاً ﴿زَوۡجًا﴾: مفعول به، ﴿غَيۡرَهُۥۗ﴾: بدل من ﴿زَوۡجًا﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿تَنكِحَ﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى تقديره: إلى نكاحها زوجاً غيره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿لا تحل﴾.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾.

﴿فإن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم أنها لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، وأردتم بيان حكم ما إذا نكحت زوجاً آخر.. فأقول لكم ﴿إن طلقها﴾، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿طَلَّقَهَا﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾، وفاعله ضمير يعود على الزوج الثاني. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿عَلَيۡهِمَآ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَتَرَاجَعَآ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ وصلة لها، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف؛ تقديره: فلا جناح عليهما في تراجعهما، والجار المحذوف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به

﴿عَلَيۡهِمَآ﴾. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿ظَنَّآ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُقِيمَا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ وصلة لها، وجملة ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن؛ تقديره: إن ظنا إقامتهما. ﴿حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجواب ﴿إن﴾ محذوف؛ تقديره: إن ظنا أن يقيما حدود الله.. فلا جناح عليهما في تراجعهما، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جملة غائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَتِلۡكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿يُبَيِّنُهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر بعد خبر، أو في محل النصب حال من ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مبينة، والعامل فيها اسم الإشارة ﴿لِقَوۡمٖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يبين﴾، وجملة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿قوم﴾؛ تقديره: لقوم عالمين؛ أي: فاهمين إياها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ﴾ الإيلاء: مصدر آلى الرباعي، يولي إيلاء إذا حلف، فهو لغة: الحلف، وشرعا: حلف الزوج على أن لا يطأ زوجته مطلقاً، أو مدة تزيد على أربعة أشهر.

﴿تَرَبُّصُ﴾ التربص: الانتظار والترقب، وهو مصدر تربص الخماسي، وهو مقلوب التبصر.

﴿فَآءُو﴾ وهو من الأجوف المهموز، يقال: فاء يفيء فيأً إذا رجع، وسمي الظل بعد الزوال فيأً؛ لأنه رجع عن جانب المغرب إلى جانب المشرق.

﴿عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾العزم: ما يعقد عليه القلب ويصمم، يقال: عزم عليه يعزم عزماً وعزيمةً وعزاماً إذا صمم عليه.

﴿ٱلطَّلَٰقَ﴾: انحلال عقد النكاح، يقال: طلقت تطلق فهي طالق وطالقة،

ويقال: طَلُقت بضم اللام. حكاه أحمد بن يحيى، وأنكره الأخفش.

﴿قُرُوٓءٍ﴾ القرء: في اللغة الوقت المعتاد تردده، وقرء المرأة حيضها وطهرها، والقرء فيه لغتان: الفتح ويجمع المفتوح على قُرُؤ وأقرء مثل فلس وفلوس وأفلس، والضم: ويجمع المضموم على أقراء مثل قفل وأقفال.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ البعولة: جمع بعل، فالتاء لتأنيث الجمع، وفي «المصباح» البعل: الزوج، يقال: بعل يبعل ـ من باب قتل ـ بعولةً إذا تزوج، والمرأة بعل أيضاً، وقد يقال فيها: بعلة بالهاء، كما يقال: زوجة تحقيقاً للتأنيث، والجمع البعولة، وفي «القاموس»: أن بعل من باب منع، فيؤخذ منه مع كلام «المصباح» أنه يأتي من باب قتل ومنع، ونص كلام «القاموس» والبعل الزوج، والجمع بعال وبعول وبعولة، والأنثى بعل وبعلة، بعل ـ كمنع ـ بعولةً صار بعلاً، والبعال: الجماع وملاعبة المرأة أهله، والبعل أيضاً الملك، وبه سمي الصنم.

﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ وصيغة[1] التفضيل لإفادة أن الرجل إذا أراد الرجعة، والمرأة تأباها.. وجب إيثار قوله على قولها، وليس معناه أن لها حقاً في الرجعة.

﴿وَلِلرِّجَالِ﴾: جمع رجل، والرجل معروف، وهو مشتق من الرجلة، وهي القوة، يقال: رجل بين الرجولة والرجلة، وهو أرجل الرجلين؛ أي: أقواهما.

﴿دَرَجَةٌ﴾ الدرجة: المنزلة، يقال: درجت الشيء وأدرجته إذا طويته، وأدرجهم الله، فهو كطي الشيء منزلة منزلة، ومنه الدرجة التي يرتقى إليها.

﴿إمساك﴾: مصدر أمسك الشيء إمساكاً إذا حبسه.

﴿تَسْرِيحٌ﴾: مصدر سرح الرباعي، يقال: سرح الماشية تسريحاً إذا أرسلها لترعى، وسرح الشعر إذا خلص بعضه من بعض.

البلاغة

﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾: في إضافة المصدر إلى الظرف تجوز، والأصل

---

(١) الجمل.

تربصهنّ في أربعة أشهر.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: فيه من الوعيد والتهديد على الامتناع وترك الفيئة ما لا يخفى.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾: هذا خبر بمعنى الأمر، والأصل: وليتربصن المطلقات، وإيراده خبراً أبلغ من صريح الأمر؛ لإشعاره بأن المأمور به مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى الإتيان به، فكأنهن امتثلن الأمر بالفعل، فهو يخبر عنه موجوداً، وبناؤه على المبتدأ مما زاده تأكيداً.

﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ﴾: ليس الغرض منه التقييد بالإيمان، بل للتغليظ وتهويل الأمر في نفوسهن حتى لو لم يكن مؤمنات كان عليهن العدة أيضاً.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾: فيه من الإيجاز والإبداع ما لا يخفى على المتمكن في علوم البيان، فقد حذف شيئاً من الأول أثبت نظيره في الآخر، وأثبت شيئاً في الأول حذف نظيره في الآخر، وأصل الكلام: ولهن على أزواجهن من الحقوق مثل الذي لأزواجهن عليهن من الحقوق، وفيه من المحسنات البديعية أيضاً الطباق بين ﴿لهن﴾ و﴿عليهن﴾ وهو طباق بين حرفين.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾: وإيثار لفظ مرتان على لفظ ثنتان؛ للإيذان بأن حقهما أن يوقعا مرة بعد مرة لا دفعة واحدة وإن كانت الرجعة ثابتة أيضاً، وبين لفظ ﴿امساك﴾ ولفظ ﴿تَسْرِيحٌ﴾ طباق. ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾: فيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾: فيه وفيما بعده الإظهار في مقام الإضمار؛ لتربية المهابة وإدخال الروع في ذهن السامع. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: فيه قصر صفة على موصوف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

المناسبة

مناسبة الآيتين لما قبلهما ظاهرة؛ لأن الآيتين تتحدثان عن أحكام الطلاق وتنهيان عن الإيذاء والإضرار، وعن عضل الأولياء موليتهم عن نكاح مطلقها.

أسباب النزول

قوله تعالى[1]: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾ الآية. أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: كان الرجل يطلق امرأته، ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها، ثم يطلقها يفعل ذلك يضارها ويعضلها، فأنزل الله هذه الآية.

وأخرج عن السدي قال: نزلت في رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار، طلق امرأته حتى إذا انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة.. راجعها، ثم طلقها مضارة، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ...﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ...﴾ أخرج ابن أبي عمر في مسنده، وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: كان الرجل يطلق، ثم يقول: لعبت، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ...﴾.

---

(١) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ...﴾ الآية، روى البخاري، وأبو داود، والترمذي وغيرهم عن معقل ابن يسار أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين، فكانت عنده، ثم طلقها تطليقة، ولم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، فخطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إليه، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلما سمعها معقل قال: سمع لربي وطاعة، ثم دعاه وقال: أزوجك وأكرمك، وأخرجه ابن مردوية من طرق كثيرة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ طلاقاً رجعياً ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: قاربن انقضاء عدتهن وشارفن منتهاها، ولم تنقض؛ لأنه لو انقضت.. لم يكن للزوج إمساكها؛ لأنها ليست بزوجة، فلا سبيل له عليها، والأجل: هو الذي[1] ضربه الله للمعتدات من الأقراء والأشهر ووضع الحمل، وأضاف الأجل إليهن؛ لأنه أمس بهن، ولذا قيل: الطلاق للرجال، والعدة للنساء. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾؛ أي: راجعوهن قبل انقضاء العدة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ في الشرع؛ أي: بالقول وبالإشهاد على الرجعة، لا بالوطء كما يجوز عند أبي حنيفة رحمه الله، أو بحسن الصحبة والمعاشرة ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾؛ أي: خلوهن واتركوهن بلا رجعة حتى تنقضي عدتها، وتبين فيملكن أنفسهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: بأداء حقوقهن بلا تخاصم ولا تقابح ولا تشاتم ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ﴾؛ أي: لا تراجعوهن ﴿ضِرَارًا﴾؛ أي: لأجل إضرارها بسوء العشرة، وتضييق النفقة وتطويل العدة، وأنتم لا حاجة لكم إليهن، أو حالة كونكم مضارين لهن بذلك، وهذا النهي[2] كالتوكيد لقوله أولاً: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ نهاهم عن أن يكون الإمساك ضراراً، وحكمة هذا النهي: أن الأمر في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يحصل لإمساكها مرة بمعروف هذا مدلول الأمر، ولا يتناول سائر الأوقات، وجاء بالنهي ليتناول سائر الأوقات ويعمها، ولينبه على ما كانوا يفعلونه من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الرجعة، ثم الطلاق، ثم الرجعة، ثم الطلاق على سبيل الضرار، فنهى عن هذه الفعلة القبيحة بخصوصها تعظيماً لهذا المرتكب السيء الذي هو أعظم إيذاء للنساء حتى تبقى عدتها في ذوات الأشهر تسعة أشهر.

﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾؛ أي: لكي تظلموهن بتطويل العدة عليهن، أو بالإلجاء إلى الافتداء بالمال، واللام متعلق بضراراً؛ إذ المراد تقييده وتعليله، وقيل: غير ذلك كما سنبينه في بحث الإعراب.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الإمساك المؤدي إلى الضرار والعدوان ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: أضر بنفسه بمخالفة أمر الله، وتعريضها لعقاب الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟﴾ أيها الأزواج ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أحكامه التي بينها بوحيه وتنزيله من أمره ونهيه وحلاله وحرامه ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: استهزاء ولعباً؛ أي: مهزوءاً بها، ومتروكاً العمل بها بالإعراض عنها، والتهاون بالعمل بما فيها من قولهم لمن لم يجدّ في الأمر: إنما أنت هازىء، كأنه نهى عن الهزء، وأراد به الأمر بضده؛ أي: جدوا[1] في الأخذ بها والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها، وإلا فقد أخذتموها هزواً ولعباً، فمن وجب عليه طاعة الله وطاعة رسوله، ثم وصل إليه هذه الأحكام التي تقدم ذكرها في العدة والرجعة والخلع وترك المضارة.. فلا يتخذها هزوا، ففيه تهديد عظيم ووعيد شديد.

وعن أبي هريرة[2] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة» أخرجه أبو داود والترمذي.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ يقول: زوجتك ابنتي، ثم يقول: كنت لاعباً، ويقول: قد أعتقت، ويقول: كنت لاعباً، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب فهن جائزات عليه: الطلاق والنكاح والعتاق».

---

(١) الجمل. (٢) الشوكاني.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال. كان الرجل يطلق ثم يقول: لعبت، ويعتق ثم يقول: لعبت، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «من طلق أو أعتق، فقال: لعبت.. فليس قوله بشيء يقع عليه فيلزمه».

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق.

وقرأ حمزة[1]: ﴿هزْءا﴾ بإسكان الزاي، وإذا وقف سهل الهمزة على مذهبه في تسهيل الهمزة كما بين في علم القراءات، وهو من تخفيف فُعْل كعنق، وقرأ أيضاً: ﴿هزُوا﴾ بضم الزاي وإبدال الهمزة واواً وذلك لأجل الضم، وقرأ الجمهور: ﴿هُزُوءا﴾ بضمتين وبالهمز، قيل: وهو الأصل.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: إنعامه عليكم بنعمة الإسلام وبعثة محمد ﷺ، حيث هداكم إلى ما فيه سعادتكم الدينية والدنيوية؛ أي: فاشكروها واحفظوها بالامتثال وترك المخالفة.

﴿و﴾ واذكروا ﴿ما أنزل﴾ الله ﴿عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: القرآن ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ أي: السنة التي علمها رسول الله ﷺ وسنها لكم، وقيل المراد بالحكمة: مواعظ القرآن، وأفردهما بالذكر مع دخولهما في النعمة إظهاراً لشرفهما؛ أي: اشكروهما بالعمل بما فيهما حالة كونه ﴿يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾؛ أي: يذكركم بما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة؛ أي: يأمركم وينهاكم به ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله بالأمتثال فيما أمركم به، وترك المخالفة فيما نهاكم عنه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ يعلم ما أخفيتم من طاعة ومعصية في سر وعلن، فلا يخفى عليه شيء مما تأتون وما تذرون، فيؤاخذكم بأنواع العقاب، وهذا أبلغ وعد ووعيد.

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ والخطاب هنا في قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ إما للأزواج، والمعنى

---

(١) البحر المحيط.

حينئذ: وإذا طلقتم أيها الأزواج النساء، فبلغن أجلهن؛ أي: انقضت عدتهن.. فلا تعضلوهن؛ أي: لا تمنعوهن أيها الأزواج، وتسميتهم أزواجاً حينئذ بالنظر إلى ما كان من أن ينكحن ويتزوجن من يريدون من الرجال أن يتزوجوهن، فإن الأزواج قد يعضلون مطلقاتهم أن يتزوجن ظلماً، وإما للأولياء فنسبة الطلاق إليهم باعتبار تسببهم فيه كما يقع كثيراً أن الولي يطلب من الزوج طلاقها، والمعنى حينئذٍ: وإذا خلصتم أيها الأولياء النساء من أزواجهن بتطليقهن، فانقضت عدتهن.. فلا تمنعوهن أيها الأولياء من أن ينكحن الرجال الذين كانوا أزواجاً لهن، فتسميتهم أزواجاً باعتبار ما كان، والمراد ببلوغ أجلهن هنا: انقضاء عدتهن، وفي ما سبق مقاربة انقضائها. قال الشافعي رحمه الله تعالى: دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين، وفي هذه[1] الآية حجة للشافعي ومن وافقه في أن المرأة لا تلي عقد النكاح، ولا تأذن فيه؛ إذ لو كانت تملك ذلك.. لم يكن عضل، ولا لنهي الولي عن العضل معنى. ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ﴾؛ أي: إذا تراضى الخطاب والنساء ﴿بَيۡنَهُم﴾ واتفقوا تراضيا ملتبسا ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ شرعاً من عقد حلال، ومهر جائز، وذلك بأن يرضى كل منهما مالزمه في هذا العقد لصاحبه، والخطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ للنبي ﷺ، أو لكل أحد؛ أي: ذلك المذكور من النهي عن العضل، أو من جميع الأحكام السابقة ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾؛ أي: يؤمر به ويمتثله؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده ﴿مَن كَانَ مِنكُمۡ﴾ أيها المكلفون.

﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ خص المؤمن بالذكر؛ لأنه هو الذي يتعظ وينتفع بالوعظ.

تنبيه: وإنما قال[2] هنا: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ وقال في الطلاق: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾؛ لأنه لما كانت كاف ذلك لمجرد الخطاب لا محل لها من الإعراب.. جاز الاقتصار على الواحد كما هنا، كما في قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، وجاز الجمع نظراً للمخاطبين كما في الطلاق، فإن قلتَ: لِمَ ذكر منكم هنا، وتركه ثَمَّ؟

---

(١) الخازن. (٢) الجمل.

قلتُ: لتركِ ذكر المخاطبين هنا في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ واكتفى بذكرهم ثَمَّ فيه. اهـ كرخي. ﴿ذَلِكُمْ﴾ الاتعاظ والعمل بمقتضاه، وهو ترك العضل ﴿أَزْكَى﴾؛ أي: أصلح وأنفع لكم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم وقلوبهن من العدواة والتهمة بسبب المحبة بينهما، وذلك أنهما إذا كان في قلب كل واحد منهما علاقة حب لم يؤمن عليهما، أو أزكى وأطهر؛ أي: أفضل لكم وأطيب عند الله، وعبارة أبي حيان: ﴿ذَلِكُمْ﴾؛ أي: التمكين من النكاح ﴿أَزْكَى﴾ لمن هو بصدد العضل؛ لما له في امتثال أمر الله من الثواب ﴿وَأَطْهَرُ﴾ للزوجين؛ لما يخشى عليهما من الريبة إذا مُنعا من النكاح، وذلك بسبب العلاقات التي بين النساء والرجال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه صلاح أموركم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فدعوا رأيكم، وهاتان الجملتان في قوة التعليل لما قبله.

وعبارة(١) أبي السعود: والله يعلم ما فيه من الزكاة والطهر، وأنتم لا تعلمون ذلك، أو الله يعلم ما فيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع التي من جملتها ما بيّنه لكم هنا، وأنتم لا تعلمونها، فدعوا رأيكم وامتثلوا أمره تعالى، ونهيه في كل ما تأتون وما تذرون. انتهت.

وعبارة(٢) أبي حيان: والله يعلم ما تنطوي عليه قلوب الزوجين من ميل كلٍّ منهما إلى الآخر، لذلك نهى الله تعالى عن العضل، قال ابن عباس: معناه أو يعلم ما فيه من اكتساب الثواب وإسقاط العقاب، أو يعلم بواطن الأمور ومآلها، وأنتم لا تعلمون ذلك، إنما تعلمون ما ظهر، أو يعلم من يعمل على وفق هذه التكاليف ومن لا يعمل بها، ويكون المقصود بذلك تقرير الوعد والوعيد. انتهت.

الإعراب

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾.

---

(١) الجمل.

(٢) البحر المحيط.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَبَلَغْنَ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب. ﴿بلغن﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض معطوفة على جملة ﴿طَلَّقْتُمُ﴾. ﴿أَجَلَهُنَّ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿أمسكوهن﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أمسكوهن﴾. ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أمسكوهن﴾ على كونها جواباً لـ﴿إذا﴾ ﴿بِمَعْرُوفٍۚ﴾: متعلق بـ﴿سرحوهن﴾. ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾: الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تمسكوهن﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿أمسكوهن﴾ على كونها جواباً لـ﴿إذا﴾، وفائدة العطف هنا: توكيد المعطوف عليه. ﴿ضِرَارًا﴾: مفعول لأجله، أو حال من الفاعل، ولكن بعد تأويله بمشتق؛ تقديره: ولا تمسكوهن حالة كونكم مضارين. ﴿لِّتَعْتَدُوا۟ۚ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تعتدوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المضمرة بعد لام كي جوازاً، والجملة صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي؛ تقديره: لاعتدائكم وظلمكم إياهن، وهذه[1] اللام إن كان ﴿ضِرَارًا﴾ حالاً.. تعلقت به أو بـ﴿لا تمسكوهن﴾، وإن كان ﴿ضِرَارًا﴾ معفولاً لأجله.. تعلقت اللام به، وكانت علة للعلة.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر فعل الشرط على الراجح. ﴿يَفْعَلْ﴾: مضارع مجزوم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفعول به. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب مقروناً بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ظَلَمَ﴾:

---

(١) البحر المحيط.

فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿نَفْسَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، أو استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّخِذُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة، أو مستأنفة على الجملة التي قبلها. ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول أول ومضاف إليه. ﴿هُزُوٗاۚ﴾ مفعول ثان. ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾: الواو: استئنافية. ﴿اذكروا﴾: فعل وفاعل ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نعمة﴾؛ لأنه اسم مصدر لأنعم الرباعي، أو متعلق بمحذوف حال من ﴿نِعۡمَتَ﴾ تقديره: حالة كونها كائنة عليكم.

﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب معطوفة على ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد محذوف تقديره: أنزله ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿أنزل﴾. ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الهاء المحذوفة من أنزل؛ تقديره: حالة كون ما أنزله كائناً. ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾. ﴿يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾: ﴿يَعِظُكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿به﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿أَنزَلَ﴾ العائد على الله تقديره: حالة كونه واعظاً إياكم به، ويجوز[1] أن يكون حالاً من ﴿ما﴾، والعائد إليها الهاء في به، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مبتدأ، و﴿يعظكم﴾: خبره.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿اتقوا﴾ ﴿أَنَّ﴾:

---

(١) عكبري.

حرف نصب ومصدر وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿عليم﴾، وهو خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: واعلموا علم الله سبحانه وتعالى بكل شيء.

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿بلغن﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾، ﴿أَجَلَهُنَّ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إذا جوازاً ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَعۡضُلُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ التي قبلها، أو مستأنفة. ﴿أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدره ﴿يَنكِحۡنَ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾. ﴿أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف المتعلق بـ﴿لا تعضلوهن﴾ تقديره فلا تعضلوهن من نكاحهن أزواجهن ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿تَرَٰضَوۡاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿ينكحن﴾، أو بلا تعضلوهن. ﴿بَيۡنَهُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تراضوا﴾ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف تقديره: تراضياً كائناً بالمعروف، أو متعلق بـ﴿تراضوا﴾.

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يُوعَظُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُوعَظُ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿مِنكُمۡ﴾: خطاب للمنتهين عن العضل

متعلق بـ﴿كان﴾، أو بمحذوف حال من الضمير المستكن في ﴿يُؤْمِنُ﴾، وخص المؤمنين لأنه لا ينتفع بالوعظ إلا هم، ذكره في «النهر» ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يؤمن﴾، ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على لفظ الجلالة. ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾: صفة لليوم، وجملة ﴿يُؤْمِنُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾ تقديره: من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، وجملة ﴿يُوعَظُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: ذلك متعظ به من كان منكم مؤمناً بالله واليوم الآخر، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ. ﴿أَزْكَىٰ﴾: خبر، والجملة مستأنفة ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿أَزْكَىٰ﴾. ﴿وَأَطْهَرُ﴾ معطوف على أزكى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾. الواو: استئنافية. ﴿اللَّه﴾ مبتدأ وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ هو من باب فعَل يفعُل ـ بفتح العين في الماضي وضمه في المضارع ـ من باب قعد يقال: بلغ يبلغ بلوغاً وبلاغاً وبلغة، ﴿ضِرَارًا﴾ وهو مصدر ضار ضراراً ومضارة ـ من باب فاعل ـ إذا أدخل عليه الضرر.

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ العضل: المنع، يقال: عضلها من الزواج يعضلها ـ بكسر الضاد وضمها ـ من بابي ضرب ونصر إذا منعها من الزواج، ويقال: دجاج معضل إذا احتبس بيضها. قاله الخليل، ويقال: أصله الضيق، ومنه عضلت المرأة إذا نشب الولد في بطنها، وعضلت الشاة وعضلت الأرض بالجيش ضاقت بهم، وأعضل الداء الأطباء إذا أعياهم علاجه، وأعضل الأمر إذا اشتد وضاق.

﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟﴾ أصله: إذا تراضيوا؛ لأنه من باب تفاعل الناقص كترامو‌ا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا، فألتقى ساكنان، ثم حذفت الألف لبقاء دالها، فصار تراضو كترامو‌ا.

﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ الألف في أزكى مبدلة من واو؛ لأنه من زكا الزرع يزكو زكاةً إذا نما بكثرة وبركة. ﴿أطهر﴾ من طهر إذا تنزه عن الأدناس والمعاصي.

البلاغة

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: قاربن انقضاء عدتهن، فهو من المجاز المرسل، أطلق فيه اسم الكل على الأكثر؛ لأنه لو انقضت العدة.. لما جاز إمساكها، والله تعالى يقول: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ هذا قد سبق، وأعاده إعتناء بشأنه، ومبالغة في إيجاب المحافظة عليه ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف، وتوضيح لمعناه، وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه من الإضرار.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ هو من باب عطف الخاص على العام؛ لأن النعمة يراد بها نعم الله، والكتاب والحكمة من أفراد هذه النعم، هذا إن جعلنا النعمة اسماً للمنعم به، وأما إن جعلناه مصدراً بمعنى الإنعام.. فيكون العطف من المغاير؛ لأن النعمة حينئذ المراد بها الإنعام، والكتاب والحكمة من أفراد النعم، لا من أفراد الإنعام.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ كرر لفظ الجلالة؛ لكونه من جملتين، فتكريره أفخم وترديده في النفوس أعظم، وبين كلمة ﴿اعلموا﴾ وكلمة ﴿عَلِيمٌ﴾ من المحسنات البديعية ما يسمى بجناس الاشتقاق.

﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ يراد بأزواجهن المطلقين لهن، فهو من المجاز المرسل، والعلاقة اعتبار ما كان.

وقد تضمنت[1] هاتان الآيتان ستة أنواع من ضروب الفصاحة والبلاغة من علم البيان:

الأول: الطباق، وهو الطلاق والإمساك، فإنهما ضدان، والتسريح طباق

---

(١) البحر المحيط.

ثان؛ لأنه ضد الإمساك، والعلم وعدم العلم؛ لأن عدم العلم هو الجهل.

الثاني: المقابلة في قوله: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا﴾ قابل المعروف بالضرار، والضرار منكر، فهذه مقابلة معنوية.

الثالث: التكرار في قوله: ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ كرر اللفظ لتغيير المعنيين، وهو غاية الفصاحة؛ إذ اختلاف معنى الاثنين دليل على اختلاف البلوغين.

الرابع: الالتفات في قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ ثم التفت إلى الأولياء، فقال: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾، وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إذ كان خطاباً للنبي ﷺ ثم التفت إلى الجمع في قوله: ﴿مِنكُمۡ﴾.

الخامس: التقديم والتأخير، والتقدير: أن ينكحن أزواجهن بالمعروف إذا تراضوا.

السادس: مخاطبة الواحد بلفظ الجمع؛ لأنه ذكر في أسباب النزول أنها نزلت في معقل بن يسار أو في أخت جابر، وقيل: ابنته.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى[(١)]: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمّا ذكر جملة من أحكام النكاح والطلاق والعدة والرجعة والعضل.. أخذ يذكر حكم ما كان من نتيجة النكاح، وهو ما شرع من حكم الإرضاع ومدته، وحكم النفقة والكسوة على ما يقع الكلام فيه في هذه الآية إن شاء الله تعالى؛ لأن الطلاق يحصل به الفراق، فقد يطلق الرجل زوجته، ويكون لها طفل ترضعه، وربما أضاعت الطفل أو حرمته الرضاع انتقاماً من الزوج وإيذاء له في ولده؛ لذلك وردت هذه الآيات: لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية

(١) البحر المحيط.

الأطفال والاهتمام بشأنهم، ثم أعقب ذلك ببيان حكم الفراق، بين الزوجين بالموت، وما يجب على المرأة من العدة فيه رعاية لحق الزوج، كما ذكر تعالى موضوع خطبة المرأة في حالة العدة، وموضوع استحقاق المرأة لنصف المهر، أو كامله بعد الفراق أو الطلاق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ قال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما تقدم ذكر عدة طلاق الحيض، واتصلت الأحكام إلى ذكر الرضاع، وكان في ضمنها قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: وارث المولود له.. ذكر عدة الوفاة؛ إذ كانت مخالفة لعدة طلاق الحيض.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾؛ أي: الأمهات سواء كن مطلقات أو متزوجات ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ وهذا خبر بمعنى الأمر؛ أي: ليرضعن أولادهن ندباً عند استجماع[(١)] ثلاثة شروط: قدرة الأب على الاستئجار، ووجود غير الأم، وقبول الولد للبن الغير، ووجوباً عند فقد واحد منها، كما يجب على كل أحد مواساة المضطر؛ لأن تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من لبن غيرها، ولكمال شفقتها عليه.

ويدل على أنه لا يجب على الوالدة إرضاع الولد عند استجماع تلك الشروط قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ولو وجب عليها الرضاع.. لما استحقت الأجرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾. ﴿حَوْلَيْنِ﴾؛ أي: عامين ظرف الرضاع ﴿كَامِلَيْنِ﴾؛ أي: تامين صفة مؤكدة، وإنما أكده بكاملين؛ لأنه مما يتسامح فيه تقول: أقمت عند فلان حولين، وإن لم تستكملهما، فبين الله تعالى أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهراً من غير نقص ولا زيادة، وهذا رد على أبي حنيفة في قوله: إن مدة الرضاع ثلاثون شهراً، وعلى زفر في قوله: إن مدة الرضاع ثلاث سنين، وهذا التحديد بالحولين

---

(١) الجمل.

ليس تحديد إيجاب، ويدل على ذلك قوله بعده: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾؛ أي: ذلك المذكور من الحولين لمن أراد إتمام الرضاعة الكاملة من الأبوين، فدل على أن إرضاع الحولين ليس حتماً، بل هو التمام، ويجوز الاقتصار على ما دونه، وليس فيما دون ذلك حد، وإنما هو على مقدار إصلاح المولود وما يعيش به، فثبت أن المقصود من هذا التحديد قطع النزاع بين الزوجين في مقدار زمن الرضاعة، فقدر الله تعالى ذلك بالحولين حتى يرجعا إليه عند التنازع.

وقرأ مجاهد[1]، وابن محيصن ﴿لمن أراد أن تتم﴾ بفتح التاء، ورَفع الرضاعة على إسناد الفعل إليها، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة، والجارود بن أبي سبرة بكسر الراء من الرضاعة، وهي لغة، وروي عن مجاهد أنه قرأ: ﴿الرضعة﴾ وقرأ ابن عباس: ﴿لمن أراد أن يكمل الرضاعة﴾، وما عدا قراءة الجمهور شاذ.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾؛ أي: على الأب الذي يولد لأجله وبسببه، وأثر[2] هذا اللفظ دون قوله: وعلى الوالد للدلالة على أن الأولاد للآباء لا للأمهات، ولهذا ينسبون إليهم دونهن، كأنهن إنما ولدن لهم فقط.

قال بعضهم:

وَإِنَّمَا أُمَّهَاتُ النِّسَاءِ أَوْعِيَةٌ   مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلآبَاءِ أَبْنَاءُ

وقيل[3]: إن هذا تنبيه على أن الولد إنما يلتحق بالوالد؛ لكونه مولوداً على فراشه، فكأنه قال: إذا ولدت المرأة الولد لأجل الرجل، وعلى فراشه.. وجب عليه رعاية مصالحه. ﴿رِزْقُهُنَّ﴾؛ أي: طعامهن ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾؛ أي: لباسهن لأجل الإرضاع إذا كن مطلقات من الأب طلاقاً بائناً؛ لعدم بقاء علقة النكاح الموجبة لذلك، فلو لم ترضعهم الوالدات.. لم يجب، فإن كن زوجات أو رجعيات..

---

(١) الشوكاني.

(٢) الكثاف.

(٣) الخازن.

فالرزق والكسوة لحق الزوجية، ولهن أجرة الرضاع إن امتنعن منه وطلبن ما ذكر ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بما يتعارفه الناس من غير إسراف ولا تقتير ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ﴾ بالنفقة على الرضاع ولا تلزم ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: طاقتها وما يسعها وقدر ما أعطاها الله تعالى من المال.

وقوله[1]: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ تقييد لقوله ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: هذه النفقة والكسوة الواجبتان على الأب بما يتعارفه الناس لا يكلف منها إلا ما يدخل تحت وسعه وطاقته لا ما يشق عليه ويعجز عنه.

وقيل: المراد لا تكلف المرأة الصبر على التقتير في الأجرة، ولا يكلف الزوج ما هو إسراف، بل يراعي القصد، وقرأ أبو رجاء شذوذاً: ﴿لا تكلف﴾ - بفتح التاء؛ أي: لا تتكلف، وارتفع نفس على الفاعلية، وحذفت إحدى التائين. وفي هذه الآية[2]: دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد؛ لعجزه وضعفه، ونسبه تعالى إلى الأم؛ لأن الغذاء يصل إليه بواسطتها في الرضاع، وأجمع العلماء على أنه يجب على الأب نفقة أولاده الأطفال الذين لا مال لهم.

﴿لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾؛ أي: بأخذ ولدها منها بعد ما رضيت بما أعطي غيرها على الرضاع مع شدة محبتها له ﴿وَلَا﴾ يضار ﴿مَوْلُودٌ لَّهُ﴾ وهو الأب ﴿بِوَلَدِهِ﴾؛ أي: بطرح الولد عليه بعد إلف أمه، ولا يقبل ثدي غيرها مع أن الأب لا يمتنع عليها من الرزق والكسوة، فقوله: ﴿لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌ﴾ راجع لقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ راجع لقوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ و﴿لا﴾ في قوله: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ يحتمل أن تكون نافية؛ فالفعل مرفوع على أنه بدل من ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ﴾، وأن تكون ناهية، فهو مجزوم.

قوله: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ قرأ[3] أبو عمرو، وابن كثير وجماعة، ورواه أبان عن

---

(١) الشوكاني.

(٢) القرطبي.

(٣) الشوكاني مع زيادة عن العكبري والجمل.

عاصم بالرفع على الخبر. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم في المشهور عنه بفتح الراء المشددة على النهي، وعلى كل من القراءتين يحتمل أن يكون الفعل مبنياً للفاعل أو للمفعول، وأصله لا تُضارر، أو لا تَضارر بالبناء للفاعل أو المفعول، والباء في قوله: ﴿بولدها﴾ أو ﴿بولده﴾ سببية، والمعنى: لا تضارر الأب بسبب الولد بأن تطلب منه ما لا يقدر عليه من الرزق والكسوة، أو بأن تفرط في حفظ الولد، والقيام بما يحتاج إليه، أو لا تضارر من زوجها بأن يقصر عليها في شيء مما يجب عليه، أو ينتزع ولدها منها بلا سبب، وهكذا قراءة الرفع تحتمل الوجهين، فهذه أربع قراءات سبعية.

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿لا تضارَر﴾ على الأصل بفتح الراء الأولى، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿لا تضارْ﴾ بإسكان الراء وتخفيفها، على أنه حذف الراء الثانية فراراً من التشديد في الحرف المكرر، وهو الراء، وروي عنه الإسكان والتشديد، وجاز حينئذ الجمع بين الساكنين؛ إما لأنه أجرى الوصل مجرى الوقف، أو لأن مدة الألف تجري مجرى الحركة، فهاتان قراءتان شاذتان عن أبي جعفر المذكور.

وقرأ الحسن، وابن عباس شذوذاً: ﴿لا تضارِر﴾ بكسر الراء الأولى، فجملة ما في هذه الكلمة من القراءات ثمانية، ويحتمل أن تكون الباء في قوله: ﴿بِوَلَدِهِۦ﴾ صلة لقوله: ﴿تُضَآرَّ﴾ على أنه بمعنى تضر؛ أي: لا تضر والدة ولدها، ولا أب ولده، فتسيء تربيته، أو تقصر في غذائه، وأضيف الولد تارة إلى الأب، وتارة إلى الأم؛ لأن كل واحد منهما يستحق أن ينسب إليه مع ما في ذلك من الاستعطاف، وهذه الجملة تفصيل، وتقرير للجملة التي قبلها؛ أي: لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما لا يطيقه، فلا تضاره بسبب ولده.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ﴾؛ أي[1]: وعلى الصبي الذي هو وارث أبيه المتوفى مثل ما على الأب من النفقة والكسوة، فإنه إن كان له مال.. وجب أجر الرضاعة

(١) المراح.

في ماله، وإن لم يكن له مال.. أجبرت أمه على الرضاعة، ولا يجبر على نفقة الصبي إلا الوالدان؛ وهو قول مالك والشافعي، وقيل: المراد من الوارث الباقي من الأبوين أخذاً من قوله ﷺ: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا واجعلهما الوارث منا».

وقيل[1]: المراد بالوارث وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه؛ أي: فعلى هذا الوارث مثل ما كان على أب الصبي في حال حياته، واختلف في أي وارث هو؟ فقيل: هم عصبة الصبي كالجد والأخ والعم وابنه، وقيل: هو كل وارث له من الرجال والنساء، وبه قال أحمد، فيجبرون على نفقة الصبي كل على قدر سهمه منه، وقيل: هو من كان ذا رحم محرم منه، وبه قال أبو حنيفة لقراءة ابن مسعود رضي الله عنه ﴿وعلى الوارث ذي الرحم المحرم مثل ذلك﴾.

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾؛ أي: الوالدان، وقرىء شذوذاً: ﴿فإن أراد﴾ بلا ألف، ﴿فِصَالًا﴾؛ أي: فطاماً للولد عن اللبن قبل تمام الحولين صادراً ﴿عَن تَرَاضٍ﴾ واتفاق ﴿مِّنْهُمَا﴾ لا من أحدهما فقط ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾؛ أي: مشاورة بينهما؛ أي: تدقيق النظر فيما يصلح للولد؛ أي: يشاوران أهل العلم في ذلك حتى يخبروا أن الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد، والمشاورة استخراج الرأي بما فيه مصلحة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: فلا حرج ولا إثم على الوالدين في الفطام قبل الحولين إذا لم يضر بالولد، وكما يجوز النقص عن الحولين عند اتفاق الأبوين عليه، كذلك تجوز الزيادة عليهما باتفاقهما ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ أيها الأباء ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ﴾؛ أي: أن تطلبوا لأولادكم مراضع غير أمهاتهم إذا أبت أمهاتهم إرضاعهم، أو تعذر ذلك لعلة بهن من انقطاع لبن، أو غير ذلك أو أردن التزويج ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا حرج ولا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في ذلك الاسترضاع ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المراضع المستأجرات ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ بالمد على قراءة الجمهور؛ أي: ما أعطيتم؛ أي: سلمتم إليهن ما أردتم إيتاءه وإعطاءه لهن من الأجرة ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بطيب نفس وسرور

---

(١) الخازن.

وموافقة، أو[1] بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات من دون مماطلة لهن، أو حط بعض ما هو لهن من ذلك، فإن عدم توفير أجرهن يبعثهن عن التساهل بأمر الصبي، والتفريط في شأنه، فليس تسليم الأجرة شرطاً لصحة الإجارة، بل لتكون المرضعة طيبة النفس راضية، فيصير ذلك سبباً لصلاح حلل الصبي، وللاحتياط في مصالحه.

وقرأ ابن كثير وحده في المتواتر: ﴿ما أتيتم﴾ مقصورة الألف؛ أي: ما أتيتم وفعلتم به؛ أي: ما أردتم إتيانه وفعله، ومنه قول زهير:

وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وقيل المعنى: إذا سلمتم إلى أمهاتهم من أجرة الرضاع بقدر ما أرضعن لكم إلى وقت إرادة الاسترضاع، وروى شيبان عن عاصم: ﴿ما أوتيتم﴾ مبنيا للمفعول؛ أي: ما آتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة ونحوها. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا الله فيما فرض عليكم من الحقوق، وفيما أوجب عليكم لأولادكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرها وعلانيتها، فإنه تعالى يراها ويعلمها، فيجازيكم عليها، ولما تقدم[2] أمر ونهي.. أمر بتقوى الله تعالى، ولما كان كثير من أحكام هذه الآية متعلقاً بأمر الأطفال الذين لا قدرة لهم، ولا منعة مما يفعل بهم.. حذر وهدى بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾، وأتى بالصفة التي هي ﴿بَصِيرٌ﴾ مبالغة في الإحاطة بما يفعلونه معهم والاطلاع عليه.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ قرأ الجمهور بضم الياء مبنياً للمفعول؛ أي: يتوفاهم الله ويموتون، وقرأ علي، والمفضل عن عاصم: ﴿يَتوفون﴾ بفتح الياء مبنياً للفاعل؛ أي: يستوفون آجالهم، وهو مبتدأ، ولكنه على حذف مضاف؛ ليصح الإخبار عنه بما بعده؛ أي: وأزواج الذين يموتون من رجالكم ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾؛

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

أي: يتركون زوجات حرائر حائلات سواء كانت مدخولاً بها أو غيرها، وسواء كانت من ذوات الأقراء أو آيسة أو صغيرة، ولو كانت زوجة صبي، لعموم الآية الكريمة لهن. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾؛ أي: ينتظرون ويتصبرن عن النكاح بعد وفاتهم ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾؛ أي: أنفسهن، فالباء زائدة ومدخولها توكيد للنون، أو سببية؛ أي: بسبب أنفسهن لا بسبب ضرب قاضٍ كما تقدم نظيره ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ من الليالي أن يمكثن أربعة أشهر وعشرة أيام من وفاة أزواجهن، إحداداً على أزواجهن وعدة لوفاتهم، وهذه العدة سببها الوفاة عند الأكثرين، لا العلم بالوفاة كما قال به بعضهم، فلو انقضت المدة أو أكثرها، ثم بلغ المرأة خبر وفاة زوجها.. وجب أن تعتد بما أنقضى، والدليل على ذلك: أن الصغيرة التي لا علم لها يكفي في انقضاء عدتها انقضاء هذه المدة.

أما الحوامل: فعدتهن بوضع الأحمال بآية سورة الطلاق، والأمة على النصف من ذلك بالسنة، وإنما قال: ﴿عشراً﴾ بلفظ التأنيث؛ لأن العرب إذا أبهمت في العدد من الليالي والأيام غلبّوا الليالي حتى إن أحدهم ليقول: صمت عشراً من الشهر؛ لكثرة تغليبهم الليالي على الأيام، فإذا أظهروا الأيام.. قالوا: صمنا عشرة أيام.

والحكمة في جعل عدة الوفاة هذا المقدار: أن الجنين الذكر يتحرك في الغالب لثلاثة أشهر، والأنثى لأربعة، فزاد الله سبحانه على ذلك عشراً؛ لأن الجنين ربما يضعف عن الحركة، فتتأخر حركته قليلاً، ولا تتأخر عن هذا الأجل.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: لا حرج ولا إثم ﴿عليكم﴾ يا أولياء الميت، أو أيها الأئمة والحكام، أو أيها المسلمون ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾؛ أي: في تركهن على ما فعلن في أنفسهن من التزين والتطيب، والنقلة من المسكن، والتعرض للخطاب، وغير ذلك مما حرم عليهن في زمن العدة؛ لأجل وجوب الإحداد عليهن حال كونهن ملتبسات ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بما يحسن عقلاً وشرعاً، ومفهومه أنهن لو خرجن عن المعروف شرعاً بأن تبرجن،

وبالغن في الزينة، أو تزوجن في مدة العدة.. فإنه يحرم على الأولياء إقرارهن على ذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بباطنه كظاهره، فيجازيكم عليه.

فائدة: ويجب الإحداد على المتوفى عنها زوجها، وهو ترك الزينة والطيب، ودهن الرأس بكل الدهن والكحل المطيب، فإن اضطرت إلى كحل فيه زينة لرمد.. فيرخص لها فيه، وبه قال مالك وأبو حنيفة، وقال الشافعي: تكتحل به بالليل، وتمسحه بالنهار.

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوجها أربعة أشهر وعشراً».

وروى الشيخان عن أم عطية رضي الله عنها قالت: كنا ننهى أن نحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً، ولا نكتحل ولا نتطيب، ولا نلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب، وقد رخص لنا عند الطهر إذا اغتسلت إحدانا من حيضها في نبذة من كُسْتِ أَظَفَارِ.

تنبيه: وقد أجمع العلماء على أن هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول، وإن كانت هذه الآية مقدمة في التلاوة، وسنذكر تمام الكلام عليه بعد في موضعه إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: لا حرج ولا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها الرجال ﴿فِيمَا عَرَّضْتُم﴾ ولوحتم وأشرتم ﴿بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ المعتدات عن الوفاة، أو عن الطلاق البائن كقولكم لهن: إنك لجميلة ورب راغب فيك، ولعل الله أن ييسر لي امرأة صالحة، والتعريض وكذا التلويح: إفهام المقصود باللفظ الذي لم يوضع له حقيقة، ولا مجازاً كقول الفقير للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، والكناية: إفهام المقصود بذكر لوازمه وروادفه، كقولك للمضياف: كثير الرماد، والتصريح إفهام المقصود باللفظ الدال عليه حقيقة، والخِطبة ـ بكسر الخاء ـ طلب النكاح

والتماسه من المرأة أو الولي.

﴿أَوْ﴾ فيما ﴿أَكْنَنتُمْ﴾ وسترتم به ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ وقلوبكم من نكاحهن، إذا انقضت عدتهن، و﴿أو﴾ هنا للإباحة أو للتخيير أو التفصيل أو الإبهام على المخاطب، أما التصريح بخطبتهن كقوله: أريد نكاحك.. فحرام مطلقاً، وأما الرجعيات: فيحرم التعريض والتصريح بخطبتهن ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ بقلوبكم ولا تصبرون على السكوت عنهن، وعن الرغبة فيهن؛ لأن شهوة النفس والتمني لا يخلو عنه أحد، وهذا كالتعليل لقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: وإنما أباح لكم التعريض؛ لعلمه بأنكم لا تصبرون عنهن، وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ استدراك على محذوف دل عليه قوله: ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾؛ تقديره: فاذكروا خطبتهن تعريضاً، ولكن لا تواعدوهن؛ أي: لا تذكروا خطبتهن سراً؛ أي: صريحاً بأن تذكروا صريح النكاح كقوله: أريد نكاحك، فالمراد بالسر: صريح الخطبة، وقيل: المراد بالسر: الجماع، والمعنى حينئذ: ولكن لا تواعدوهن بذكر الجماع، وهو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: بأن يصف الخاطب نفسه لها بكثرة الجماع، كأن يقول لها: آتيك الأربعة والخمسة، وقيل: المراد بالسر النكاح، والمعنى حينئذ: ولكن لا تأخذوا ميثاقهن على النكاح؛ لكي لا ينكحن غيركم، كأن يقول لها: عاهديني أن لا تتزوجي غيري. ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ﴾ في الشرع، وهو أن تعرضوا لهن بالخطبة، ولا تصرحوا بها، أو المعنى: إلا أن تسارروهن بالقول غير المنكر شرعاً، كأن يعدها الخاطب في السر بالإحسان إليها، و الاهتمام بشأنها، والتكفل بمصالحها حتى يصير ذكر هذه الأشياء الجميلة مؤكداً لذلك التعريض.

﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾؛ أي: ولا تحققوا عقد النكاح، أو لا تجزموا ولا تقطعوا قصد عقد النكاح ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: حتى تبلغ العدة المكتوبة المفروضة ﴿أَجَلَهُۥۚ﴾؛ أي: آخرها ونهايتها، وصارت منقضية ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أيها الرجال ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وقلوبكم من العزم على ما نهيتم عنه ﴿فَٱحْذَرُوهُۚ﴾؛ أي: فخافوا عقابه بالاجتناب عن العزم على ذلك ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ

﴿غَفُورٌ﴾ لمن يقلع عن عزمه خشية منه تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة على ذنوبكم.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: لا تبعة ولا مطالبة عليكم بالمهر، ولا ثقل عليكم بلزومه ﴿إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ أي: إن لم تجامعوهن فـ﴿ما﴾ شرطية بمعنى إن، وهو الأقعد من جعلها مصدرية، وقرأ حمزة والكسائي: بضم التاء وبالألف بعد الميم في جميع القرآن، فهو بمعنى الأول ﴿أَوْ﴾ ما لم ﴿تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾؛ أي: أو لم تبينوا لهن صداقاً معيناً.

وهذا في المفوضة، وهي رشيدة قالت لوليها: زوجني بلا مهر، فزوجها كذلك بأن نفى المهر أو سكت عنه، أو زوج بدون مهر المثل، أو بغير نقد البلد، فلا مهر لها؛ لخلو النكاح عن الوطء والفرض، ولكن لها المتعة كما سيأتي، أما الممسوسة ـ أي: الموطؤة ـ فلها كل المهر، وإن لم يفرض لها، وأما غير الممسوسة: فلها نصف المسمى إن فرض لها، وإن لم يفرض لها.. فلا مهر لها، بل تجب لها المتعة كما ذكره بقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ معطوف على مقدر تقديره: فطلقوهن ومتعوهن؛ أي: أعطوهن من مالكم ما يتمتعن به جبراً لإيحاش الطلاق والمتعة والمتاع، وما يتبلغ به من الزاد، وتقديرها: مفوض إلى رأي الحاكم كما يدل عليه قوله: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ﴾؛ أي: على الغني الذي في سعة من غناه ﴿قَدَرُهُ﴾؛ أي: قدر إمكانه وطاقته، وهو بفتح الدال وكسرها قراءتان سبعيتان ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾؛ أي: وعلى الفقير الذي في ضيق من فقره. ﴿قَدَرُهُ﴾؛ أي: قدر إمكانه وطاقته، وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن ذكوان بفتح الدال، وقوله: ﴿مَتَاعًا﴾ مصدر مؤكد لعامله؛ أي: متعوهن تمتيعاً كائناً ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بالوجه الذي تعرفه وتستحسنه الشريعة والمروءة من غير حيف ولا ظلم، ولا بخس ولا نقص، فلا يزاد على المقتر فوق طاقته، ولا ينقص من الموسع عن طاقته، وقوله: ﴿حَقًّا﴾ صفة ثانية لمتاعاً، أو مصدر مؤكد لعامله؛ أي: حق ذلك حقاً، ووجب وجوباً ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: متاعاً واجباً على[1] المؤمنين الذين يحسنون إلى

---

(١) البيضاوي.

أنفسهم بالمسارعة إلى طاعة الله تعالى، أو إلى المطلقات بتمتيعهن؛ لأن المتعة بدل المهر، وسماهم محسنين قبل الفعل باعتبار المشارفه والقرب له ترغيباً، وتحريضاً لهم على ذلك.

قيل[1]: نزلت هذه الآية في شأن رجل من الأنصار تزوج امرأة ولم يسم لها صداقاً، ثم طلقها قبل أن يمسها، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أمتعتها؟» قال: لم يكن عندي شيء قال: «متعها ولو بقلنسوات».

واعلم:[2] أنه اختلف العلماء في المتعة، فقيل: واجبة نظراً للأمر، ولقوله: ﴿حَقًّا﴾ وبه أخذ الشافعي، وقيل: مندوبة نظراً لقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۖ﴾ ولقوله: ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وبه أخذ مالك.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: طلقتم النساء ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ أي: تجامعوهن ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾؛ أي: والحال أنكم سميتم لهن مهراً مقدراً معلوماً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾؛ أي: فلهن نصف المهر المسمى ونصفه ساقط، وهذا في المطلقة بعد تسمية المهر، وقبل الدخول حكم الله لها بنصف المهر ولا عدة عليها، وقرأ ابن مسعود شذوذاً: ﴿من قبل أن تجامعوهن﴾ أخرجه عنه ابن جرير، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ بلا ألف، وقراءة حمزة والكسائي ﴿تماسوهن﴾ بالألف من المفاعلة. ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾؛ أي: إلا أن يسامحن المطلقات بإبراء حقها، فيسقط كل المهر، وأن والفعل في موضع النصب على الاستثناء؛ أي: فلهن نصف ما فرضتم في جميع الأوقات إلا وقت عفوهن عنكم من حقهن من نصف المهر، ويتركن لكم، فيسقط كل المهر حينئذ لا نصفه ﴿أَوْ﴾ إلا أن ﴿يَعْفُوَا۟﴾ ويسامح الزوج ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ﴾ وسلطنته ﴿عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾؛ أي: عصمة النكاح وعقده؛ أي: يترك الزوج المالك لعقد النكاح وحله حقه من النصف الذي يعود إليه بالتشطير، ويبعث المهر لها كاملاً، فيثبت كل المهر حينئذ لا نصفه.

---

(١) المراح والخازن. (٢) الصاوي.

فرع

لو مات أحد الزوجين بعد التسمية، وقبل المسيس.. فلها المهر كاملاً، وعليها العدة إن كان الزوج هو الميت ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ هذا خطاب للرجال والنساء جميعاً، وإنما غلب جانب التذكير؛ لأن الذكورة هي الأصل والتأنيث فرع عنها، والمعنى: وعفو بعضكم عن بعض أيها الرجال و النساء أقرب إلى حصول التقوى، وطيب النفس من عدم العفو الذي فيه التنصيف، وقيل: هو خطاب للزوج، والمعنى: وليعف الزوج، فيترك حقه الذي ساق من المهر إليها قبل الطلاق، فهو أقرب للتقوى ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ﴾ قرأ الجمهور بالتاء الفوقية، وقرأ أبو نهيك والشعبي بالياء التحتية، فيكون الخطاب مع الرجال ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾؛ أي: ولا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض بأن يسلم الزوج المهر إليها بالكلية، أو تترك المرأة المهر بالكلية، حثهما جميعاً على الإحسان ومكارم الأخلاق.

وقرأ الجمهور ﴿وَلَا تَنسَوُاْ﴾ بضم الواو، وقرأ يحيى بن يعمر شذوذاً بكسرها، وقرأ علي ومجاهد وأبو حيوة وابن أبي عبلة شذوذاً أيضاً: ﴿ولا تناسوا﴾ والمعنى: أن الزوجين لا ينسيان التفضل من كل واحد منهما على الآخر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الفضل والإحسان ﴿بَصِيرٌ﴾ لا يضيع فضلكم وإحسانكم، بل يجازيكم عليه، وإنما ختم هذه الآية بهذه الصفة الدالة على المبصرات؛ لأن ما تقدمه من العفو من المطلقات والمطلقين؛ وهو أن يدفعن شطر ما قبضن، أو يكملون لهن الصداق هو مشاهد مرئي، فناسب ذلك المجيء بالصفة المتعلقة بالمبصرات، ولما كان آخر قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ...﴾ الآية. قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ مما يدرك بلطف وخفاء.. ختم ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وفي ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعد جميل للمحسن، وحرمان لغير المحسن.

الإعراب

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾: مبتدأ. ﴿يُرْضِعْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: والوالدات مرضعات، والجملة مستأنفة. ﴿أَوْلَادَهُنَّ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿حَوْلَيْنِ﴾: منصوب على الظرفية، والظرف متعلق بـ﴿يُرْضِعْنَ﴾. ﴿كَامِلَيْنِ﴾: صفة لـ﴿حَوْلَيْنِ﴾ مؤكدة له. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف؛ تقديره: ذلك المذكور من إرضاع حولين كائن لمن ﴿أَرَادَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَن يُتِمَّ﴾: ﴿أن﴾: حرف مصدر. ﴿يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾: فعل ومفعول منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ تقديره: لمن أراد إتمام الرضاعة.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

﴿وَعَلَى﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿على المولود﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿لَهُ﴾: نائب فاعل لـ﴿المولود﴾. ﴿رِزْقُهُنَّ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾. ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾: معطوف على ﴿رِزْقُهُنَّ﴾. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾، والعامل[1] فيها معنى الاستقرار في على، والتقدير: حالة كونهما ملتبسين بالمعروف.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُكَلَّفُ نَفْسٌ﴾. فعل ونائب فاعل، والجملة معترضة لاعتراضها بين المعطوف الذي هو قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾، وبين المعطوف عليه الذي هو قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾، أو في محل الجر بلام التعليل المقدرة؛ لأنها

---

(١) العكبري.

علة لقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾. ﴿إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿وُسْعَهَاۚ﴾[1]: مفعول ثانٍ ومضاف إليه، وليس بمنصوب على الاستثناء؛ لأن ﴿تُكَلَّفُ﴾ يتعدى إلى مفعولين، ولو رفع الوسع هنا.. لم يجز؛ لأنه ليس ببدل. ﴿لَا تُضَآرَّ﴾: ﴿لَا﴾: نافية، أو ناهية. ﴿تُضَآرَّ﴾: فعل مضارع مبني للمفعول، أو للفاعل مرفوع، أو مجزوم ﴿وَٰلِدَةُۢ﴾: نائب فاعل، أو فاعل، والجملة يجري فيها مثل ما جرى في قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾. ﴿بِوَلَدِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُضَآرَّ﴾. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ﴾: معطوف على ﴿وَٰلِدَةُۢ﴾. ﴿بِوَلَدِهِۦۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تضار﴾. ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾: الواو: عاطفة ﴿على الوارث﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَۗ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ﴾.

﴿فَإِنْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن مدة الرضاع التام حولان كاملان، وأردت بيان حكم ما إذا أرادا النقص عنهما.. فأقول لك ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿أَرَادَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿فِصَالًا﴾: مفعول به. ﴿عَن تَرَاضٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿فِصَالًا﴾ تقديره: فصالاً كائناً عن تراضٍ منهما، أو متعلق بـ﴿أَرَادَا﴾. ﴿مِّنْهُمَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿تراض﴾ تقديره: عن تراض كائن منهما. ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾: معطوف على ﴿تَرَاضٍ﴾. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ﴿إن﴾، ﴿جُنَاحَ﴾ اسمها ﴿عليهما﴾: خبرها، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾.

---

(١) العكبري.

﴿وَإِنۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿أَرَدتُّمۡ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾: مفعول أول ومضاف إليه، والمفعول الثاني محذوف؛ تقديره: مراضع، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ تقديره: وإن أردتم استرضاع أولادكم ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة ﴿لا﴾: نافية. ﴿جُنَاحَ﴾: اسمها. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: خبرها، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا﴾. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿سَلَّمۡتُم﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها تقديره: فلا جناح عليكم وقت تسليمكم. ﴿مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾، والظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿لا﴾ ويحتمل كونها شرطية وجوابها معلوم مما قبلها. ﴿مَّآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿ءَاتَيۡتُم﴾: فعل وفاعل، وهو بمعنى أعطى ينصب مفعولين، ومفعولاه محذوفان تقديره: ما أتيتموهن إياه. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سلمتم﴾، أو بـ﴿أتيتم﴾، أو بمحذوف حال من فاعل ﴿سَلَّمۡتُم﴾، أو من فاعل ﴿ءَاتَيۡتُم﴾ تقديره: متلبسين بالمعروف، وجملة ﴿ءَاتَيۡتُم﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره إياه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ الواو: عاطفة. ﴿اعلموا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱتَّقُواْ﴾. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بصير﴾ الآتي. ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تعملونه. ﴿بَصِيرٞ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر سادٍ مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: واعلموا كون الله بصيراً بما تعملون.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ، ولكنه على تقدير مضاف كما سبق تقديره: وأزواج الذين. ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾: فعل مغيّر ونائب فاعل على قراءة الجمهور، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الغائب. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من ضمير الغائب تقديره: حال كونهم كائنين من رجالكم.

﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

﴿وَيَذَرُونَ﴾ الواو: عاطفة. ﴿يذرون﴾: فعل وفاعل. ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة. ﴿أنفسهن﴾: توكيد لنون الفاعل، أو الباء سببية متعلقة بـ﴿يتربصن﴾ كما مرت الإشارة إليه. ﴿أَرْبَعَةَ﴾: منصوب على الظرفية، وهو مضاف. ﴿أَشْهُرٍ﴾: مضاف إليه ﴿وَعَشْرًا﴾: معطوف على ﴿أَرْبَعَةَ﴾، وجملة ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: أزواج الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً متربصات بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً، والجملة مستأنفة وفيه أوجه كثيرة من الإعراب، وهذا الذي ذكرناه أرجحها.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم مدة تربصهن في العدة، وأردتم بيان حكم ما إذا انقضت المدة.. فأقول لكم. ﴿إذا﴾: ظرف لما استقبل من الزمان. ﴿بَلَغْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿بلغن﴾، ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿جُنَاحَ﴾: اسمها. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبرها، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿لا﴾. ﴿فَعَلْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط

محذوف تقديره: فيما فعلنه. ﴿فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بفعلن ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾: جار ومجرو حال من الضمير المحذوف من ﴿فَعَلۡنَ﴾ تقديره: حال كون ما فعلنه متلبساً بالمعروف. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: استئنافية. ﴿اللَّه﴾. مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾ الآتي ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما تعملونه. ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿جُنَاحَ﴾: اسمها. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: خبرها، والجملة مستأنفة. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿لا﴾. ﴿عَرَّضۡتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾ ﴿مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف وتقسيم ﴿أَكۡنَنتُمۡ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَرَّضۡتُم﴾. ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَكۡنَنتُمۡ﴾. ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَنَّكُمۡ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿الكاف﴾ اسمها. ﴿سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ تقديره: أنكم ذاكرون إياهن، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها سادة مسد مفعولي ﴿عَلِمَ﴾؛ تقديره: علم الله ذكركم إياهن.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾.

﴿وَلَٰكِن﴾ الواو: استئنافية. ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿تُوَاعِدُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿سِرًّا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب استدرك بها عن محذوف تقديره: علم أنكم ستذكروهن فاذكروهن، ولكن لا تذكروا لهن صريح

الخطبة. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء منقطع. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ ﴿قَوْلًا﴾: منصوب على المصدرية. ﴿مَّعْرُوفًا﴾: صفة له، وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر على الاستثناء تقديره: إلا قولكم قولاً معروفاً في الشرع، وهو التعريض. ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ﴾: الواو: استئنافية ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تَعْزِمُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿عُقْدَةَ﴾: مفعول به وهو مضاف. ﴿ٱلنِّكَاحِ﴾: مضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة. ﴿أَجَلَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿يبلغ﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾ بمعنى إلى تقديره، إلى بلوغ الكتاب أجله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿لا تعزموا﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لأنه بمعنى يعرف. ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: واعلموا علم الله ما في أنفسكم. ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿احذروه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿اعلموا﴾. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾: الواو: عاطفة. ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها ﴿حَلِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: واعلموا كون الله غفوراً رحيماً.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

﴿لا﴾: نافية. ﴿جناح﴾: اسمها. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبرها، والجملة مستأنفة

﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن طلقتم النساء.. فلا جناح عليكم ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾، ﴿ما﴾: شرطية بمعنى إن، ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ونفي ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿مَا﴾ الشرطية معلوم من السياق أيضاً تقديره: إن لم تمسوهن.. فلا جناح عليكم إن طلقتموهن، وجعل ﴿ما﴾ شرطية قيداً للشرط الأول أوْلَى من جعلها مصدرية كما مر. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿تَفْرِضُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾، ﴿لَهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿فَرِيضَةً﴾: مفعول به.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿متعوهن﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: فطلقوهن ومتعوهن. ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿قَدَرُهُۥ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الفعل والمفعول المطلق، أو حال من فاعل ﴿متعوهن﴾، ولكن مع تقدير رابط تقديره: ومتعوهن حالة كون قدره كائناً على الموسع منكم. ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾: خبر مقدم، ﴿قَدَرُهُۥ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾. ﴿مَتَٰعًۢا﴾: مفعول مطلق منصوب بـ﴿متعوهن﴾، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿متاعاً﴾ تقديره: متاعاً كائناً بالمعروف. ﴿حَقًّا﴾: صفة ثانية لـ﴿متاعا﴾، أو مصدر مؤكد عامله محذوف تقديره: حق ذلك التمتيع حقاً. ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بالناصب للمصدر.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم على كونه فعل شرط لها. ﴿مِن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور

بإضافة الظرف إليه تقديره: من قبل مسكم إياهن. ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾ الواو: حالية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿فَرَضْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿فَرِيضَةً﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ تقديره: حالة كونكم فارضين لها فريضة. ﴿فَنِصْفُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة، ﴿نصف﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فالواجب عليكم نصف ما فرضتم، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿نصف﴾: مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿فَرَضْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: ما فرضتموه.

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء منقطع، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَعْفُونَ﴾: فعل مضارع في محل النصب بـ﴿أن﴾ مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، والواو فيه لام الكلمة لا واو الجماعة، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، ولكن الكلام على حذف أمرين: حرف الجر ومضاف للمصدر، والتقدير: فنصف ما فرضتم إلا في حال عفوهن، أو عفو الزوج.. فلا تنصيف بل يجب الكل، أو يسقط الكل، فالإستثناء منقطع؛ لأن عفوهن عن النصف، وسقوطه ليس من جنس استحقاقهن له، وقيل[1]: الاستثناء متصل على أنه استثناء من أعم الأحوال؛ أي: فنصف ما فرضتم في كل حال إلا في حال عفوهن، وعفو الذي بيده عقدة النكاح، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ لكن لا يصح على مذهب سيبويه أن تكون أن وصلتها حالا، فتعين أن يكون منقطعاً. اهـ «كرخي». ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ﴾: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿يَعْفُوَاْ﴾. فعل مضارع معطوف على ﴿يَعْفُونَ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾ فاعل. ﴿بِيَدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية صلة الموصول،

---

(١) الجمل.

والعائد ضمير ﴿بِيَدِهِۦ﴾.

﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَأَن﴾ الواو: استئنافية. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿تَعۡفُوٓاْ﴾ فعل مضارع منصوب بحذف النون، والواو فاعل، والفعل مع أن المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء تقديره: وعفوكم. ﴿أَقۡرَبُ﴾: خبره. ﴿لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾: متعلق بـ﴿أقرب﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ﴾: الواو: استئنافية، أو عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَنسَوُاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة. ﴿بَيۡنَكُمۡۚ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿تنسوا﴾، أو حال من ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ تقديره: حال كونه كائناً بينكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿بصير﴾. ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه. ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر. ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة؛ لأنها معللة لما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يُرۡضِعۡنَ﴾: مضارع أرضعته أمه، وهو من مزيد الثلاثي، يقال: رضع يرضع رضعاً ورضاعاً ورضاعةً إذا مص الثدي لشرب لبنه، ويقال للئيم: راضع؛ وذلك لشدة بخله، لا يحلب الشاة مخافة أن يسمع منه الحلب، فيطلب منه اللبن، فيرضع ثدي الشاة حتى لا يفطن به.

﴿حَوۡلَيۡنِ﴾: والحول السنة يجمع على أحوال، ويقال: أحول الشيء إذا مضى له حول.

﴿وَكِسۡوَتُهُنَّ﴾: والكسوة اللباس، يقال منه: كسا يكسو، وفعله يتعدى إلى مفعولين، تقول: كسوت زيداً جبة.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ﴾: هو مضارع كلف الرباعي، يقال: كلف يكلف تكليفاً،

والتكليف الإلزام.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾: الوارث معروف، يقال منه: ورِث يرث بكسر الراء في الماضي والمضارع وقياسها في المضارع الفتح، ويقال في فعله: أرث يرث إرثاً كما يقال: ألده في ولده، والأصل الواو.

﴿فِصَالًا﴾: مصدر فصله يفصله فصلاً وفصالاً إذا فطمه ومنعه عن ثدي أمه.

﴿وَتَشَاوُرٍ﴾: هو مصدر تشاور من باب تفاعل الخماسي، والتشاور في اللغة: التأمل والإمعان للنظر واستخراج الرأي من قولهم: شرت العسل أشوره إذا اجتنيته، فكأن كل واحد من المتشاورين أظهر ما في قلبه للآخر.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾: مأخوذ من توفيت الدين إذا قبضته، يقال: توفيت مالي من فلان واستوفيته إذا أخذته وقبضته، والمعنى هنا: والذين يُقبضون؛ أي: نقبض أرواحهم.

﴿وَيَذَرُونَ﴾: يذر معناه: يترك، ويستعمل منه الأمر، ولا يستعمل منه اسم الفاعل ولا اسم المفعول، وجاء الماضي منه على طريق الشذوذ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: خبير من صيغ المبالغة؛ لأنه على زنة فعيل، من خبرت الشيء إذا علمته، ولهذه المادة يرجع الخبر؛ لأنه الشيء المعلم به، والخبار: الأرض اللينة.

﴿فِيمَا عَرَّضْتُم﴾ من التعريض، والتعريض: الإشارة والتلويح إلى الشيء من غير تصريح وإظهار وكشف، وأصله: إمالة الكلام عن نهجه إلى عُرض منه ـ بضم العين ـ أي: جانب، وقد سبق لك الفرق بين التصريح والتعريض والكناية.

﴿مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ والخِطبة ـ بكسر الخاء كالقِعدة والجلسة ـ: ما يفعله الخاطب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل، فقيل: هي مأخوذة من الخطب؛ أي: الشأن الذي هو خطر؛ لما أنها شأن من الشؤون ونوع من الخطوب، وقيل: من الخطاب لأنها نوع مخاطبة تجري بين جانب الرجل وجانب المرأة، وفي «السمين»: والخطبة في الأصل مصدر بمعنى الخطب، والخطب: الحاجة، ثم خصت بالتماس النكاح؛ لأنه بعض الحاجات، يقال: ما خطبك؛ أي: شأنك اهـ.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ يقال: أكنَّ في نفسه شيئاً؛ أي: أخفاه، وكنّ الشيء بثوب؛ أي: ستره به، فالهمزة في أكن للتفرقة بين الاستعمالين، كأشرقت وشرقت.

﴿عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ العقدة: في الحبل والغصن، يقال: عقدت الحبل والعهد، وأعقدتُ العسلَ من العقد، وهو الشد، قال الراغب: العقدة اسم لما يعقد من نكاح أو يمين أو غيرهما.

﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ والمقتر: المقل اسم فاعل من أقتر الرجل إذا أفقر، ويقال: قتر يقتر ويقتر قتراً وقترةً وقتاراً. ﴿قَدَرُهُۥ﴾ القدَر بالفتح والقدْر بالتسكين لغتان، وقد قرىء بهما في المتواتر، وقيل: القدْر بالتسكين: الطاقة، وبالتحريك المقدار. ﴿مَتَٰعًا﴾: اسم مصدر لمتّع الرباعي، والمصدر التمتيع، واسم المصدر يجري مجرى المصدر. ﴿حَقًّا﴾: مصدر حق الشيء حقاً إذا ثبت.

﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ النصف: هو الجزء من اثنين على السواء، ويقال: بكسر النون وضمها، ونصيف، ومنه حديث: «ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»؛ أي: نصفه، كما يقال: ثمن وثمين وعشر وعشير، ويقال: نصَفَ النهار ينصف ونصفَ الماء القدح، والإزار الساق، والغلام القرآن، وحكى الفراء في جميع هذا أنصف.

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ فعل مسند إلى جماعة الإناث، فالواو فيه لام الكلمة، والنون ضمير النسوة، فوزنه يفعلن نظير يخرجن.

فائدة: والفرق بين قولهم: الرجال يعفون، والنساء يعفون: أن قولهم: الرجال يعفون ﴿الواو﴾ فيه ضمير جماعة الذكور، وحذفت قبلها واو أخرى هي لام الكلمة، فإن الأصل يعفوون بوزن يخرجون فاستثقلت الضمة على ﴿الواو﴾ الأولى، فحذفت الضمة، فبقيت ساكنة وبعدها واو الضمير ساكنة أيضاً، فحذفت ﴿الواو﴾ الأولى؛ لئلا يلتقي ساكنان، فوزنه يفعون، والنون علامة الرفع، فإنه من الأمثلة الخمسة، وأن قولهم: النساء يعفون ﴿الواو﴾ فيه لام الفعل، والنون ضمير جماعة الإناث، والفعل معها مبني على السكون، لا يظهر للعامل فيه أثر، فوزنه يفعلن.

﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وتاء التقوىء مبدلة من واو، وواوها مبدلة من ياء؛ لأنه من وقيت.

البلاغة

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾؛ أي: ليرضعن، فالآية خبر بمعنى الأمر أتى به بلفظ الخبر مبالغة في الحث على تحقيقه، كما مر نظيره في قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾: فيه لطيفة، وهو: أنه لما كلف بمؤن المرضعة لولده من الرزق والكسوة.. ناسب أن يسلي بأن ذلك الولد هو ولد لك لا لأمه، وأنك الذي تنتفع به في التناصر وتكثير العشيرة، وأن لك عليه الطواعية كما كان عليك لأجله كلفة الرزق والكسوة لمرضعته.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ وإنما أتى بالجملتين فعليتين، وأدخل عليهما حرف النفي الذي هو ﴿لا﴾ للموضوع للاستقبال غالباً؛ لأن تكليف النفس فوق الطاقة، ومضارة أحد الزوجين الآخر مما يتجدد كل وقت.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيه مبالغة في المحافظة على ما شرع في أمر الأطفال والمراضع.

وفي هذه الآية ضروب من البيان والبديع[1]:

منها: تلوين[2] الخطاب ومعدوله في قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ فإنه خبر معناه الأمر على قول الأكثر والتأكيد بـ﴿كَامِلَيْنِ﴾، والعدل عن رزق الأولاد إلى رزق أمهاتهم؛ لأنهن سبب توصل-ذلك، والإيجار في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾، وتلوين الخطاب في قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ فإنه خطاب للآباء

(١) البحر المحيط.
(٢) **التلوين**: تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر.

والأمهات، ثم قال: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ وهو خطاب للآباء خاصة.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ﴾ التقدير: مراضع للأولاد، وفي قوله: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ ذكر العزم للمبالغة في النهي عن مباشرة النكاح، فإذا نهى عنه كان النهي عن الفعل من باب أولى.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا...﴾ الآية، تضمنت هذه الآية ضروباً من البديع[1]:

منها: معدول الخطاب: وهو أن الخطاب بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ عام، والمعنى على الخصوص.

ومنها: النسخ: إذ هي ناسخة للحول على قول الأكثرين.

ومنها: الاختصاص: وهو أن يخص عدداً، فلا يكون ذلك إلا لمعنى، وذلك في قوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ كنى بالسر عن النكاح؛ وهي من أبلغ الكنايات.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

ومنها: التهديد بقوله: ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾.

ومنها: الزيادة في الوصف بقوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا
أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ
يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾
وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ...﴾ الآية، والذي[1] يظهر في مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمّا ذكر جملة كثيرة من أحوال الأزواج والزوجات، وأحكامهم في النكاح والوطء والإيلاء، والطلاق والرجعة والإرضاع، والنفقة والكسوة والعدد، والخطبة والمتعة والصداق والتشطير، وغير ذلك، وكانت تكاليف عظيمة تشغل من كلفها أعظم شغل بحيث لا يكاد يسع معها شيء من الأعمال، وكان كل من الزوجين قد أوجب عليه للآخر ما يستفرغ فيه الوقت، ويبلغ منه الجهد، وأمر كلاً منهما بالإحسان إلى الآخر حتى في حالة الفراق، وكانت مدعاة إلى التكاسل عن الاشتغال بالعبادة إلا لمن وفقه الله تعالى.. أمر تعالى بالمحافظة على الصلوات التي هي الوسيلة العظمى بين الله وبين عبده، وإذا كان قد أمر بالمحافظة على أداء حقوق الآدميين.. فلأن يؤمر بأداء حقوق الله تعالى أولى وأحق، ولذلك جاء: فدين الله أحق أن يقضى، فكأنه قيل: لا يشغلنكم التعلق بالنساء وأحوالهن عن أداء ما فرض الله عليكم، فمع

---

(١) البحر المحيط.

تلك الأشغال العظيمة لا بد من المحافظة على الصلاة حتى في حالة الخوف، فلا بد من أدائها رجالاً أو ركباناً، وإن كانت حالة الخوف أشد من حالة الاشتغال بالنساء، فإذا كانت هذه الحالة الشاقة جداً لا بد معها من الصلاة.. فأحرى ما هو دونها من الأشغال المتعلقة بالنساء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى متى ذكر شيئاً من الأحكام التكليفية.. أعقب ذلك بشيء من القصص على سبيل الاعتبار للسامع، فيحمله ذلك على الانقياد، وترك العناد، وكان تعالى قد ذكر أشياء من أحكام الموتى ومن خلفوا، فأعقب ذلك بذكر هذه القصة العجيبة، وكيف أمات الله هؤلاء الخارجين من ديارهم، ثم أحياهم في الدنيا.

وقيل: مناسبة هذه الآية لما قبلها: هو أنه تعالى لمّا ذكر ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.. ذكر هذه القصة، لأنها من عظيم آياته وبدائع قدرته.

قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لمّا ذكر في الآية السابقة قصة الأمم الماضية وفرارهم من الموت.. ذكر هذه الآية مخاطباً لهذه الأمة بالجهاد في سبيل الله، ومنبهاً لهم على أن لا يفروا من الموت كفرار أولئك، وتشجيعاً لهم وتثبيتا.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمّا أمر بالقتال في سبيل الله، وكان ذلك مما يفضي إلى بذل النفوس والأموال في إعزاز دين الله.. أثنى على من بذل شيئاً من ماله في طاعة الله، وكان هذا أقل حرجاً على المؤمنين؛ إذ ليس فيه إلا بَذْلُ المال دون النفس، فأتى بهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة معنى الطلب.

قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ...﴾ الآية، أخرج[1] أحمد والبخاري في «تاريخه» وأبو داود والبيهقي وابن جرير عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي الظهر بالهاجرة، وكانت أثقل الصلاة على أصحابه، فنزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ...﴾.

وأخرج أحمد والنسائي، وابن جرير عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي الظهر بالهجير، فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان، والناس في قائلتهم وتجارتهم، فأنزل الله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ...﴾.

وأخرج الأئمة الستة وغيرهم عن زيد بن أرقم قال: كنا نتكلم على عهد رسول الله ﷺ في الصلاة، يكلم الرجل منا صاحبه، وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كانوا يتكلمون في الصلاة، وكان الرجل يأمر أخاه بالحاجة، فأنزل الله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ...﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا...﴾ الآية، أخرج إسحاق بن راهويه في «تفسيره» عن مقاتل بن حبان: أن رجلاً من أهل الطائف قدم المدينة، وله أولاد رجال ونساء، ومعه أبواه وامرأته، فمات بالمدينة، فرفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأعطى أولاده بالمعروف، ولم يعط امرأته شيئاً غير أنهم أمروا أن ينفقوا عليها من تركة زوجها إلى الحول، وفيه نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ...﴾ الآية، أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: لما نزلت: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال رجل: إن أحسنت فعلت، وإن لم أرد ذلك لم أفعل، فأنزل

(١) لباب النقول.

الله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا..﴾ الآية، روى ابن حبان في «صحيحه»، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ...﴾ إلى آخرها.. قال رسول الله ﷺ: رب زد أمتي فنزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حَٰفِظُوا۟﴾؛ أي: واظبوا وداوموا أيها المؤمنون ﴿عَلَى﴾ أداء ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ الخمس في أوقاتها بأركانها وشروطها وسننها وآدابها، وهذه المحافظة التي هي المفاعلة تكون بين العبد والرب، كأنه قيل له: احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذي أمرك بالصلاة، وتكون أيضاً بين المصلي والصلاة، فكأنه قيل: احفظ الصلاة حتى تحفظك ﴿و﴾ حافظوا على ﴿الصلاة الوسطى﴾؛ أي: الفضلى، تأنيث الأوسط بمعنى الأفضل، وهي من الوسط الذي بمعنى الخيار، وليست من الوسط الذي معناه المتوسط، وأفردها بالذكر اهتماماً بشأنها، لفضلها على غيرها كليلة القدر، فهي أفضل الليالي. وإنما أتى بهذه الآية في خلال ما يتعلق بالأزواج والأولاد تنبيهاً على أنه لا ينبغي للعبد أن يشتغل عن حقوق سيده بأمر الأزواج والأولاد. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾.

وقد اختلف العلماء من الصحابة فمن بعدهم في الصلاة الوسطى على مذاهب:

الأول: أن الصلاة الوسطى هي صلاة الفجر؛ وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس ومعاذ وجابر وعطاء وعكرمة ومجاهد وغيرهم، وبه قال مالك والشافعي رضي الله عنهم أجمعين.

المذهب الثاني: أنها صلاة الظهر؛ وهو قول زيد بن ثابت وأسامة بن زيد وأبي سعيد الخدري، ورواية عن عائشة، وبه قال عبد الله بن شداد، وهو رواية عن أبي حنيفة.

والمذهب الثالث: أنها صلاة العصر وهو قول علي وابن مسعود وأبي أيوب وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس وأبي سعيد الخدري، وعائشة رضي الله عنهم، وهو قول أبي عبيدة السلماني والحسن البصري وإبراهيم النخعي وقتادة والضحاك، وبه قال أبو حنيفة وأحمد وداود وابن المنذر، وقال الترمذي: هو قول أكثر الصحابة فمن بعدهم، وقال الماوردي ـ من أصحاب الشافعية ـ: هذا مذهب الشافعي؛ لصحة الأحاديث فيه قال: وإنما نص الشافعي على أنها الصبح؛ لأنه لم تبلغه الأحاديث الصحيحة في العصر، ومذهبه اتباع الحديث.

ويدل على صحة هذا المذهب: ما روي عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: ـ وفي رواية يوم الخندق ـ «ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» و ذكر نحوه، وزاد في أخرى «ثم صلاها بين المغرب والعشاء». أخرجاه في «الصحيحين» وفي مصحف عائشة وحفصة في قراءة تفسيرية شاذة: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر﴾ وهذا هو المذهب الحق الراجح.

والمذهب الرابع: أنها صلاة المغرب قاله قبيصة بن ذؤيب.

والمذهب الخامس: أنها صلاة العشاء ولم ينقل عن أحد من السلف فيها شيء، وإنما ذكرها بعض المتأخرين.

والمذهب السادس: أنها إحدى الصلوات الخمس لا بعينها، فأبهمها الله تعالى تحريضاً للعباد في المحافظة على أداء جميعها، كما أخفى ليلة القدر في شهر رمضان، وأخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة.

وإذا تقرر لك هذا[١]، وعرفت ما سقناه.. تبين لك أنه لم يرد ما يعارض أن الصلاة الوسطى صلاة العصر، وأما حجج بقية الأقوال: فليس فيها شيء مما ينبغي الاشتغال به؛ لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ في ذلك شيء، وبعض القائلين

---

(١) الشوكاني.

بها عول على أمر لا يعول عليه، فقال: إنها صلاة كذا؛ لأنها وسطى بالنسبة إلى أن ما قبلها كذا من الصلوات، وبعدها كذا من الصلوات، وهذا الرأي المحض والتخمين البحت لا ينبغي أن تسند إليه الأحكام الشرعية على فرض عدم وجود ما يعارضه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكيف مع وجود ما هو في أعلى درجات الصحة والقوة والثبوت عن رسول الله ﷺ، وبالله العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم في علم السنة وإعراضهم عن خير العلوم وأنفعها حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام الله، والتجري على تفسير كتاب الله بغير علم ولا هدى، فجاؤوا بما يضحك منه تارة، ويبكي منه أخرى.

﴿وَقُومُواْ﴾ في الصلاة مخلصين ﴿لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾؛ أي: ساكنين فيها، ويدل لهذا المعنى حديث زيد بن أرقم في «الصحيحين» وغيرهما قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد رسول الله ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت، وقيل: مطيعين لقوله ﷺ: «كل قنوت في القرآن فهو طاعة». رواه أحمد وغيره، وقيل: ذاكرين، وقيل: داعين مواظبين على خدمة الله تعالى، وقد ذكر أهل العلم للقنوت ثلاثة عشر معنى، والمتعين هنا حمله على السكوت؛ للحديث المذكور.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو سبع مثلاً، ولم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين حقوق الصلاة من إتمام الركوع والسجود، والخضوع والخشوع؛ لخوف عدو أو غيره ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾؛ أي: فصلّوا حالة كونكم رجالاً؛ أي: ماشين على أرجلكم، أو حالة كونكم ركباناً؛ أي: راكبين على دوابكم حيثما توجهتم مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وهذا في حال المقاتلة والمسايفة في وقت الحرب.

وصلاة الخوف قسمان:

أحدهما: أن يكون في حال القتال؛ وهو المراد في هذه الآية.

وقسم في غير حال القتال، وهو المذكور في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى في موضعه، وقرأ عكرمة وأبو مجلز ﴿فرجالاً﴾ بضم الراء وتشديد الجيم، وروي

عن عكرمة التخفيف مع ضم الراء، وقرىء ﴿فرُجَّلا﴾ بضم الراء وفتح الجيم مشددة بغير ألف وقرىء: ﴿فرَجْلا﴾ بفتح الراء وسكون الجيم ـ وقرأ بديل بن ميسرة: ﴿فرجالا فركبا﴾ بالفاء جمع راكب وما عدا قراءة الجمهور شاذة: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾؛ أي: فإذا زال عنكم الخوف ورجاء الأمن، أو لم يكن أصلاً ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: فصلّوا الصلوات الخمس تامة بأركانها وشروطها وسننها، وعبر عن الصلاة بالذكر لاشتمالها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لأجل تعليمه إياكم ما لم تكونوا تعلمون قبل بعثة محمد ﷺ من الشرائع. وكيفية الصلاة في حالتي الأمن والخوف، ففيه إشارة إلى إنعام الله تعالى علينا بالعلم، ولولا هدايته وتعليمه إيانا.. لم نعلم شيئاً، ولم نصل إلى معرفة شيء، فله الحمد على ذلك. فالأظهر جعل الكاف في الآية تعليلية، و﴿ما﴾ مصدرية كما أشرنا إليه في الحل.

ثم قال تعالى مبينا أحكام العدة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قرأ: ﴿وَصِيَّةً﴾ ـ بالنصب ـ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم، والمعنى على هذا: والذين قاربوا الموت من رجالكم، ويتركون أزواجاً.. فليوصوا وصية لأزواجهم أن يمتعن بالنفقة والكسوة والسكنى إلى تمام الحول من موت الزوج حالة كونهن غير مخرجات من سكنهن، وقرأ: ﴿وصيّة﴾ بالرفع، وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر والكسائي على أنه مبتدأ محذوف الخبر، والمعنى على هذا: والذين يقربون الوفاة من رجالكم، ويتركون أزواجاً.. فعليهم وصية لأزواجهم ما يمتعن به من النفقة والكسوة والسكنى إلى تمام الحول حالة كونهن غير مخرجات من سكنهن، وقرأ أبّي شذوذاً ﴿متاع لأزواجهم متاعاً إلى الحول﴾. ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ عن منزل الأزواج باختيارهن قبل الحوف ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: فلا حرج ولا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا أولياء الميت ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾؛ أي: بسبب ما فعلن في أنفسهن من التعرض للخطاب والتزين لهم ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾؛ أي: مما هو معروف في الشرع غير منكر، وفي هذا دليل على أن النساء كن مخيرات في سكنى الحول، وليس ذلك بحتم عليهن.

ولرفع الحرج عن الورثة وجهان[1]:

أحدهما: أنه لا جناح عليكم في قطع النفقة عنهن إذا خرجن قبل انقضاء الحول.

والوجه الثاني: لا جناح عليكم في ترك منعهن من الخروج؛ لأن مقامها في بيت زوجها حولاً غير واجب عليها، خيرها الله تعالى بين أن تقيم في بيت زوجها حولاً، ولها النفقة والسكنى، وبين أن تخرج ولا نفقة لها ولا سكنى، ثم نسخ الله ذلك بأربعة أشهر وعشر.

واعلم: أنه دلت هذه الآية على مجموع أمرين:

أحدهما: أن لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة.

والثاني: أن عليها عدة سنة، ثم إن الله تعالى نسخ هذين الحكمين، أما الوصية بالنفقة والكسوة والسكنى: فنسخ بآية الميراث، فجعل لها الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى، ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشر.

فإن قلت: كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟

قلتُ: قد تكون الآية المتقدمة متقدمة في التلاوة متأخرة في النزول، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مع قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

فإن قلت[2]: لِمَ نكَّر ﴿مَّعْرُوفٍ﴾ هنا، وعرَّفه فيما سبق ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؟

قلتُ: لأن ما هنا سابق في النزول، فلم يسبق له عهد حتى يعرف، وما سبق متأخر عن هذا، فسبق له عهد، فعرف فما سبق هو عين ما هنا على القاعدة المشهورة عند البلغاء. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب قوي في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه، وتعدى حدوده.

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع وبين لعباده من الشرائع والأحكام، يراعي مصالحهم في أحكامه.

---

(١) الخازن. (٢) الجمل.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾ اللواتي لم يجب لهن نصف المهر فقط بأن وجب لها كل المهر؛ وهي المدخول بها، ولم يجب لها شيء أصلاً، وهي المزوجة تفويضاً إذا طلقت قبل فرض مهر لها، وقبل الدخول، وهذه هي المذكورة سابقاً بقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ﴾. ﴿مَتَٰعٌۢ﴾؛ أي: متعة مقدرة ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ﴾ شرعاً؛ أي: مقدرة بقدر حال الزوجين وما يليق بهما، وضابطها أن الواجب فيها ما اتفق عليه الزوجان، ولا حد لقدرها، لكن يسن أن لا تنقص عن ثلاثين درهما، فإن اختلفا في قَدْرها، قَدَّرَها القاضي مراعياً في تقديرها حال الزوجين، وإنما كرر قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ﴾ وأعاد حكم المتعة هنا؛ ليعم هنا الموطوءة وغيرها؛ لأن ما سبق في غير الموطوءة فقط، فهو من ذكر العام بعد الخاص ﴿حَقًّا﴾؛ أي: حق ذلك المتاع حقاً؛ أي: وجب وجوباً. ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: على المؤمنين الذين يتقون الشرك، أو عقاب الله بمخالفة أمره؛ أي: واجب عليهم إمتاع المطلقات بقدر استطاعتهم جبراً لوحشة الفراق، فأثبت تعالى بهذه الآية المتعة للمطلقات جميعاً بعد ما أوجبها لواحدة منهن.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين لكم ما ذكر من أحكام المطلقات والعدد ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: يبين الله لكم ما تحتاجون إليه معاشاً ومعاداً من معالم دينه ودلائل أحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لكي تعقلوا وتفهموا ما بينت لكم من الفرائض والأحكام، وما فيه صلاحكم وصلاح دينكم، وتعملوا بموجبها، ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة غزاة بني إسرائيل، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾ وقرأ السلمي: ﴿ألم ترْ﴾ بسكون الراء، قالوا: على توهم أن الراء آخر الكلمة، ويجوز أن يكون من إجراء الوصل مجرى الوقف، وقد جاء في القرآن كإثبات ألف ﴿الظنونا﴾ و﴿السبيلا﴾ و﴿الرسولا﴾؛ أي: ألم ينته ويصل علمك يا محمد، أو أيها المخاطب إلى حال القوم الذين خرجوا ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ وأوطانهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ كثيرة: أربعة أو ثمانية أو عشرة أو ثلاثون أو أربعون أو سبعون ألفاً ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: خوفاً من الموت وفراراً منه، والغرض من هذا الاستفهام: التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ﴾ بعد

ثمانية أيام ﴿أَحْيَٰهُمْ﴾ الله تعالى بدعاء نبيهم حزقيل، فعاشوا دهراً عليهم أثر الموت لا يلبسون ثوباً إلا عاد كالكفن، وبقي ذلك في أولادهم إلى اليوم، وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد، فهربوا خوفاً من الموت، فأماتهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم بدعوة نبيهم حزقيل، فعاشوا بعد ذلك دهراً، وقيل: هم قوم من بني إسرائيل هربوا من الطاعون، فأماتهم الله تعالى وكان[1] في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، وفي هذه القصة: عبرة على أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ وإحسان عظيم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميعاً، أما[2] هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم فلكونه أحياهم ليعتبروا، وأما المخاطبون فلكونه قد أرشدهم إلى الاعتبار والاستبصار بقصة هؤلاء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ هم الكفار ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ استدراك على ما تضمنه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تقديره: إن الله لذو فضل كثير على الناس بالإيجاد والرزق، فيجب عليهم أن يشكروا تفضله وإحسانه، ولكن أكثرهم غير شاكرين فضله تعالى كما ينبغي، أما الكفار فلم يشكروا أصلاً، وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية شكره، وهذه القصة تدل على أن الحذر من الموت لا يفيد، فهذه القصة تشجع الإنسان على الإقدام على طاعة الله تعالى كيف كان، وتزيل عن قلبه الخوف من الموت، فكان ذكر هذه القصة فضلاً وإحساناً من الله تعالى على عبيده؛ لأن ذكر هذه القصة سبب لبعد العبد عن المعصية وقربه من الطاعة.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: هو خطاب للذين أحياهم، فعلى هذا القول في الكلام محذوف تقديره: ثم أحياهم الله، فقال لهم: قاتلوا في سبيل الله، وقيل: هو خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومعناه: لا تهربوا من الموت كما هرب هؤلاء، فلم ينفعهم ذلك؛ أي: قاتلوا في طاعة الله مع عدوكم؛ أي: لإعلاء دينه لا لغنيمة ولإظهار شجاعة، وسميت[3] العبادات سبيلاً إلى الله

---

(١) ابن كثير.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.

تعالى من حيث أن الإنسان يسلكها، ويتوصل إلى الله بها، ومعلوم أن الجهاد تقوية للدين، فكان طاعة، فلا شك أن المجاهد مقاتل في سبيل الله.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكلامكم في ترغيب الغير في الجهاد، وفي تنفير الغير عنه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في صدوركم من البواعث والأغراض، وأن ذلك الجهاد لغرض الدين، أو لغرض الدنيا.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ ويسلفه ﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾؛ أي: إقراضاً حسناً طيباً مقروناً بالإخلاص لا لرياء وسمعة، أو مقرضاً حلالاً طيباً ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾؛ أي: فيضاعف الله جزاءه وأجره له؛ أي: لذلك المنفق ﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ كثرة لا يعلم قدرها إلا الله سبحانه وتعالى. قرأ أبو عمرو ونافع وحمزة والكسائي ﴿فيضاعفُه﴾ بالألف والرفع، وقرأ عاصم: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ بالألف والنصب، وقرأ ابن كثير: ﴿فيضعِّفُه﴾ بالتشديد والرفع بلا ألف، وقرأ ابن عامر: ﴿فيضعِّفَه﴾ بالتشديد والنصب، والمعنى: من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله ولإعلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير، فيكون جزاؤه أن يضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضعافاً كثيرة؛ لأنه قرض لأغنى الأغنياء رب العالمين جل جلاله، وهذا من تنزلات المولى لعباده حيث خاطبهم مخاطبة المحتاج المضطر مع أنه غني عنهم رحمة بهم على حد: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ وسماه هنا قرضاً، وفي آية براءة بيعاً، وفي الحقيقة لا بيع ولا قرض؛ لأن الملك كله له سبحانه، وحينئذ فليست مضاعفته على ذلك رباً؛ لأنه لا تجري أحكام الربابين السيد وعبده الحادثين لملكه له صورة، فأولى بين السيد المالك القديم وعبده الذليل الضعيف الذي لا يملك شيئاً أصلاً، فمن إحسانه عليه خلق ونسب إليه، بل هذا[1] تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغني الحميد، شبه عطاء المؤمن ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَقۡبِضُ﴾؛ أي: يمسك الرزق عمن يشاء، ويضيق عليه ابتلاء هل يصبر أم لا؟ ﴿وَيَبۡصُۜطُ﴾ يقرأ بالسين، وهو الأصل،

(١) الشوكاني.

وبالصاد على إبدالها من السين؛ لتجانس الطاء في الاستعلاء؛ أي: يوسع لمن يشاء امتحاناً هل يشكر أم لا؛ أي: أن الإنفاق لا يقبض الرزق، وعدمه لا يبسطه، بل القابض والباسط هو الله سبحانه وتعالى، أو المعنى: والله يقبض بعض القلوب حتى لا تقدم على هذه الطاعة، ويبسط بعضها حتى يقدم على هذه الطاعة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم، فيثيب المنفق ويعذب الممسك.

الإعراب

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾.

﴿حَافِظُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حافظوا﴾. ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ معطوف على الصلوات. ﴿الْوُسْطَى﴾: صفة لـ﴿لصلاة﴾، ﴿وَقُومُوا﴾: الواو: عاطفة. ﴿قوموا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿حَافِظُوا﴾. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قوموا﴾. ﴿قَانِتِينَ﴾: حال من فاعل ﴿قوموا﴾.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾:

﴿فَإِنْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر؛ تقديره: إذا عرفتم وجوب المحافظة على الصلوات، وأردتم بيان كيفية فعلها في حالة الخوف.. فأقول لكم: ﴿إن خفتم﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿خِفْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط المحذوف تقديره: فصلوا رجالاً، ﴿صلوا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية ﴿رجالاً﴾: حال من فاعل ﴿صلوا﴾. ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر

تقديره: إذا عرفتم كيفية صلاة الخوف، وأردتم بيان حكم ما إذا زال الخوف.. فأقول لكم: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَمِنتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَاذْكُرُوا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿اذكروا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، والظرف متعلق به، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتعليل. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿عَلَّمَكُم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا﴾. ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَكُونُوا﴾: فعل ناقص واسمه مجزوم بـ﴿لم﴾، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿تَكُونُوا﴾ تقديره: ما لم تكونوا عالمين، وجملة ﴿تَكُونُوا﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف من ﴿تَعْلَمُونَ﴾ وجملة ﴿عَلَّمَكُم﴾ صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف التعليلية المتعلقة باذكروا تقديره: فاذكروا الله لتعليمه إياكم ما لم تكونوا تعلمونه قبل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقبل نزول القرآن.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ الواو: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ، ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾: فعل مغيَّر ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الغائب. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من ضمير الغائب. ﴿وَيَذَرُونَ﴾: معطوف على جملة الصلة. ﴿أَزْوَاجًا﴾: مفعول به. ﴿وَصِيَّةً﴾ بالنصب مفعول مطلق لفعل محذوف هو خبر المبتدأ تقديره: فليوصوا وصية، وعلى قراءة الرفع ﴿وصية﴾: مبتدأ خبره محذوف تقديره: فعليهم وصية، والجملة الاسمية خبر المبتدأ الذي هو الموصول أيضاً، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿لِّأَزْوَاجِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿وصية﴾ تقديره: وصية كائنة لأزواجهم.

﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾.

﴿مَتَٰعًا﴾: منصوب إما على إضمار فعل من لفظه؛ أي: متعوهن متاعاً، أو من غير لفظه؛ أي: جعل الله لهن متاعاً، وجوزوا أن يكون ﴿مَتَٰعًا﴾ صفة لـ﴿وصية﴾، أو بدلاً منها، أو حالاً من الموصين؛ أي: ممتعين أو ذوي متاع. ﴿إِلَى ٱلۡحَوۡلِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿متاعا﴾. ﴿غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ﴾: حال من الأزواج ومضاف إليه؛ أي: غير مخرجات، أو حال من الموصين؛ أي: غير مخرجين، وجوزوا أن يكون صفة لـ﴿متاعاً﴾ أو بدلاً منه.

﴿فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

﴿فَإِنۡ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنها غير مخرجات، وأردتم حكم ما إذا خرجن بأنفسهن.. فأقول لكم: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿خَرَجۡنَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل إن، ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فيما﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿لا﴾. ﴿فَعَلۡنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: فيما فعلنه. ﴿فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿فعلن﴾، ﴿مِن مَّعۡرُوفٖۗ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المحذوف من ﴿معلن﴾ أو من ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: استئنافية. ﴿اللَّه﴾: مبتدأ. ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول. ﴿حَكِيمٞ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١﴾.

﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ﴾ الواو: استئنافية. ﴿للمطلقات﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَتَٰعُۢ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿مَتَٰعُۢ﴾. ﴿حَقًّا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: حق ذلك حقاً. ﴿عَلَى

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بعامل المصدر المحذوف.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: تبييناً كائناً كالتبيين الذي ذكر ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يبين﴾، ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف تعليل ونصب بمعنى كي، والكاف اسمها، وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة تقديره: يبين الله لكم آياته تبييناً كائناً كذلك لتدبركم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للإستفهام التعجبي، أو الإقراري، والاستفهام التعجبي: هو إيقاع المخاطب في أمر عجيب غريب. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، وفاعله ضمير مستتر فيه تقديره: أنت يعود على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أو إلى أي مخاطب، وإنما عداه هنا بإلى؛ لأن معناه: ألم ينته علمك إلى كذا، والرؤية هنا بمعنى العلم، والجملة مستأنفة ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تر﴾، ﴿خَرَجُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خرجوا﴾. ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة حال من فاعل ﴿خَرَجُوا۟﴾، ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: مفعول لأجله ومضاف إليه، والعامل فيه ﴿خَرَجُوا۟﴾.

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿فَقَالَ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿قال﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَرَجُوا۟﴾. ﴿مُوتُوا۟﴾: مقول محكي، أو فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿ثُمَّ

أَحْيَـٰهُمْۚ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ومهلة. ﴿أَحْيَـٰهُمْۚ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: فقال لهم الله موتوا، فماتوا ثم أحياهم. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿ذو﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿فَضْلٍ﴾: مضاف إليه وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بمحذوف صفة لـ﴿فضل﴾، أو متعلق بـ﴿فضل﴾، ﴿وَلَـٰكِنَّ﴾: الواو: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿أَكْثَرَ﴾ اسمها. ﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَشْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾ تقديره: ولكن أكثر الناس غير شاكرين، والجملة جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب، استدرك بها عن محذوف تقديره: فيجب عليهم شكره.

﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾.

﴿وَقَـٰتِلُواْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿قاتلوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قاتلوا﴾. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قاتلوا﴾. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: واعلموا كون الله سميعاً عليماً.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ﴾.

﴿مَّن ذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: خبره، أو ﴿مَّن﴾: اسم استفهام مبتدأ، ﴿ذَا﴾: اسم إشارة خبر المبتدأ ﴿ٱلَّذِى﴾: بدل من اسم الإشارة، أو نعت له، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿يُقْرِضُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿قَرْضًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿حَسَنًا﴾: صفته. ﴿فَيُضَـٰعِفَهُۥ﴾ بالنصب: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية ﴿يضاعف﴾: منصوب بأن مضمرة بعد الفاء السببية، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والهاء مفعول به.

﴿لَهُۥٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يضاعف﴾. ﴿أَضۡعَافٗا﴾: حال من ضمير المفعول، أو منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿كَثِيرَةٗۚ﴾: صفة له، وجملة ﴿يضاعف﴾ من الفعل والفاعل صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك تقديره: من ذا الذي يكون منه قرض حسن فمضاعفة من الله له، وبالرفع فهو معطوف على جملة الصلة.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية. ﴿اللَّه﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَقۡبِضُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿وَيَبۡصُۜطُ﴾ في محل الرفع معطوف على جملة ﴿يَقۡبِضُ﴾، ﴿وَإِلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ترجعون﴾، وجملة ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ من الفعل المغيّر ونائبه معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ﴾ على كونها مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿يَقۡبِضُ﴾ على كونها خبر المبتدأ.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ الوسطى: مؤنث الأوسط بمعنى الفضلى مؤنث الأفضل، كما قال أعرابي يمدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

يَا أَوْسَطَ ٱلنَّاسِ طُرّاً فِيْ مَفَاخِرِهِمْ وَأَكْرَمَ ٱلنَّاسِ أُمّاً بَرَّةً وأَبَا

لا من الأوسط بمعنى المتوسط بين شيئين، وذلك لأن أفعل التفضيل لا يبنى إلا مما يقبل الزيادة والنقص، وكذلك فعل التعجب، فكل ما لا يقبل الزيادة والنقص.. لا يبنيان منه.

﴿فَرِجَالًا﴾ جمع راجل، يقال منه: رجل يرجل رجلاً إذا عُدم المركوب ومشى على قدميه، فهو راجل ورجل، ورجل على وزن رجل مقابل امرأة، ويجمع على رجُل ورجْل ورجال وأراجل وأرجيل.

﴿أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾: جمع راكب، قيل: لا يطلق الراكب إلا على راكب الإبل، فأما راكب الفرس: ففارس، وراكب البغل والحمار: فبغّال وحمّار، الأجود صاحب بغل وحمار، وهذا بحسب اللغة، والمراد بهم هنا ما يعم الكل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ الأصل[1] في ترى ترأى مثل يرعى إلا أن العرب اتفقوا على حذف الهمزة في المستقبل تخفيفاً، ولا يقاس عليه، وربما جاء في ضرورة الشعر على أصله، ولما حذف الهمزة.. بقي آخر الفعل ألفاً، فحذفت في الجزم والألف منقلبة عن ياء، وأما في الماضي: فلا تحذف الهمزة.

﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾: جمع ألف، والألف عدد معروف، وجمعه في القلة آلاف، وفي الكثرة ألوف، ويقال آلفت الدراهم، وآلفت هي، وقيل: ألوف جمع آلف كشاهد وشهود.

﴿قَرْضًا﴾ القرض: القطع بالسكين، ومنه سمي المقراض؛ لأنه يقطع به، وقال ابن كيسان: القرض أن تعطي شيئاً ليرجع إليه مثله، ومنه يقال: أقرضت فلاناً؛ أي: قطعت له قطعة من المال، والقرض: اسم مصدر لأقرض، والمصدر الإقراض، ويجوز أن يكون القرض هنا بمعنى: المقروض كالخلق بمعنى المخلوق، فيكون مفعولاً به.

﴿أَضْعَافًا﴾ جمع[2] ضعف، والضعف هو العين، وليس بالمصدر، والمصدر الأضعاف أو المضاعفة، فعلى هذا: يجوز أن يكون حالاً من الهاء في يضاعفه، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً على المعنى؛ لأن معنى يضاعفه يصيره أضعافاً، ويجوز أن يكون جمع ضعف، والضعف اسم وقع موقع المصدر كالعطاء، فإنه اسم للمعطي، وقد استعمل بمعنى العطاء، فيكون انتصاب أضعافاً على المصدر.

البلاغة

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا﴾ وفي إيراد هذه[3] الشرطية بكلمة ﴿إن﴾ المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف وقلته، وفي إيراد الشرطية الثانية بكلمة ﴿إذا﴾ المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى، والإطناب في جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الأبصار.

---

(١) العكبري.

(٢) العكبري.

(٣) أبو السعود.

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: قال أبو حيان[1]: وفي هذه الآيات من بدائع البديع وصنوف الفصاحة:

منها: النقل من صيغة افعلوا إلى فاعلوا؛ للمبالغة، وذلك في قوله: ﴿حَـٰفِظُواْ﴾.

ومنها: الاختصاص بالذكر في قوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

ومنها: الطباق المعنوي في ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾؛ لأن التقدير في ﴿حَـٰفِظُواْ﴾، وهو مراعاة أوقاتها وهيأتها إذا كنتم آمنين.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ العدو، أو ما جرى مجراه، و في قوله: ﴿فَرِجَالًا﴾؛ أي: فصلوا رجالا، وفي قوله: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ سواء رفع، أو نصب وفي قوله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾؛ أي: لهن من مكانهن الذي يعتددن فيه، وفي قوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من بيوتهن من غير رضا منهن، وفي قوله: ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾؛ أي: من ميلهن إلى التزويج أو الزينة بعد انقضاء المدة، وفي قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: عادة أو شرعاً، وفي قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: انتقامه، وفي قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: في أحكامه، وفي قوله: ﴿حَقًّا﴾؛ أي: حق ذلك حقاً، وفي قوله: ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: عذاب الله.

ومنها: التشبيه في قوله ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾.

ومنها: التجنيس المماثل؛ وهو أن يكون بفعلين أو باسمين، وذلك في قوله: ﴿عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، و﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾؛ أي: يقاربون الوفاة.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ ثم قال: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ﴾ فيكون للتأكيد أن كان إياه، ولاختلاف المعنيين إن كان غيره.

---

(١) البحر المحيط.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة من ضروب علم البيان، وصنوف البلاغة:

منها: الاستفهام الذي أجري مجرى التعجب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾.

ومنها: الحذف بين ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾؛ أي: فماتوا ثم أحياهم، وفي قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ملك اللّه بإذنه، وفي قوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يشكرونه، وفي قوله: ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم، وفي قوله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي كلاً بما عمل.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾، وفي ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: التشبيه بغير أداته في قوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ شبه قبوله تعالى إنفاق العبد في سبيله ومجازاته عليه بالقرض الحقيقي، فأطلق اسم القرض عليه.

ومنها: الاختصاص بوصفه بقوله: ﴿حَسَنًا﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا﴾، وجمعه لاختلاف جهات التضعيف بحسب اختلاف الإخلاص، ومقدار القرض واختلاف أنواع الجزاء.

﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ وفي تأخير البسط[1] عن القبض في الذكر إيماء إلى أنه يعقبه في الوجود تسلية للفقراء.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الجمل.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا
نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ
أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ
مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ
إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ
سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ
مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ
بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا
ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ
فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ
وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ
ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ
ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

المناسبة

مناسبة[1] هذه الآيات لما قبلها ظاهرة؛ وذلك أنه لما أمر المؤمنين بالقتال في سبيل الله، وكان قد قدم قبل ذلك قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت إما بالقتال أو بالطاعون على سبيل التشجيع والتثبيت للمؤمنين، والإعلام بأنه لا يُنجي حذرٌ من قدر.. أردف ذلك بأن القتال كان مطلوباً مشروعاً في الأمم

---

(١) البحر المحيط.

السابقة، فليس من الأحكام التي خصصتم بها؛ لأن ما وقع فيه الاشتراك كانت النفس أميل لقبوله من التكليف الذي يكون يقع به الانفراد.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ والاستفهام استفهام تعجيب وتشويق للسامع، والملأ من القوم وجوههم وأشرافهم، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والنفر، ويجمع على أملاء كسبب وأسباب سمّوا بذلك؛ لأنهم يملؤون القلوب مهابة، والعيون حسناً وبهاء؛ أي: ألم ينته علمك يا محمد إلى قصة القوم الذين كانوا من بني إسرائيل حالة كونهم كائنين ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ وفاة ﴿مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾؛ أي: حين قال أولئك الملأ ﴿لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ شمويل كما قاله وهب بن منبه، أو شمعون، أو يوشع بن نون كما قاله قتادة، وهذا القول ضعيف، أو حزقيل كما حكاه الكرماني، أو غيرهم كما قاله غيرهم، ولكن[1] معرفة حقيقة هذا النبي بعينه ليست مرادة من القصة، إنما المراد منها الترغيب في الجهاد، وذلك حاصل بلا معرفة عينه ﴿ٱبْعَثْ لَنَا﴾؛ أي: أقم وعين لنا ﴿مَلِكًا﴾؛ أي: أمير نرجع إليه ونعمل برأيه، ووله وأمره علينا ﴿نُّقَٰتِلْ﴾؛ أي: ننهض معه للقتال ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطاعته ونقاتل بأمره عدونا ﴿نُّقَٰتِلْ﴾ بالنون والجزم على جواب الأمر، وبه قرأ الجمهور، وقرأ الضحاك وابن أبي عبلة شذوذاً ﴿يقاتل﴾ بالياء ورفع الفعل على أنه صفة للملك، وقرىء شذوذاً أيضاً ﴿نقاتلُ﴾ بالنون والرفع على أنه حال، أو كلام مستأنف.

وسبب سؤال بني إسرائيل نبيهم ذلك: أنه لما مات موسى وعظمت الخطايا.. سلط الله عليهم قوم جالوت، وكانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، وغلبوا على كثير من أرضهم، وسبوا كثيراً من ذراريهم، وأسروا من أبناء ملوكهم أربع مئة وأربعين غلاماً، وضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم، ولم يكن لهم حينئذ نبي يدبر أمرهم، وكان سبط النبوة قد هلكوا، فلم

---

(١) الخازن.

يبق منهم إلا امرأة حبلى، فحبسوها في بيت، فولدت غلاماً، فلما كبر كفله شيخ من علمائهم في بيت المقدس، فلما بلغ الغلام أتاه جبريل، فقال له: اذهب إلى قومك، فبلغهم رسالة ربك، فإن الله قد بعثك فيهم نبياً، فلما أتاهم كذبوه، وقالوا استعجلت بالنبوة، فإن كنت صادقاً.. فبين لنا ملك الجيش.

وكان صلاح أمر بني إسرائيل بالإجماع على الملوك وبطاعة الملوك أنبياءهم، فكان الملك هو الذي يسير بالجموع، والنبي هو الذي يقيم أمره ويشير عليه برشده، ويأتيه بالخبر من ربه فـ﴿قال﴾ لهم ذلك النبي ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بفتح السين وكسرها لغتان، وبالثانية قرأ نافع، وبالأولى قرأ الباقون، وهذا الكلام استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قال لهم النبي حينئذ؟ فقيل: قال لهم النبي: هل عسيتم وحسبتم وظننتم ﴿إِن كُتِبَ﴾ وفرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾؛ أي: قال لهم نبيهم: هل ظننتم أن لا تقاتلوا عدوكم إن فرض عليكم القتال مع ذلك الملك؟ فصل بين عسى وخبره بالشرط والاستفهام؛ لتقرير المتوقع به، وإثباته، والمعنى: أتوقع وأخشى جبنكم عن القتال إن كتب عليكم القتال ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا﴾؛ أي: وأي شيء ثبت لنا في ﴿أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطاعته ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾ وأبعدنا ﴿مِن دِيَارِنَا﴾ وأوطاننا ﴿وَأَبْنَائِنَا﴾ وأولادنا، وأفرد الأولاد بالذكر؛ لأنهم الذين وقع عليهم السبي، أو لأنهم بمكان فوق مكان سائر القرابة، ولأجل[1] قولهم هذا لم يتم قصدهم؛ لأنه لم يخلص لحق الله عزمهم، ولو أنهم قالوا: وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله؛ لأنه قد أمرنا وأوجب علينا، لعلهم وفقوا لإتمام ما قصدوا، والمعنى: وأي شيء ثبت لنا في ترك القتال في سبيل الله، والحال أنه قد أخرج وأبعد بعضنا من المنازل والأولاد، والقائلون لنبيهم بما ذكر كانوا في ديارهم، فسأل الله تعالى ذلك النبي، فبعث لهم ملكاً يقاتلون معه، وكتب عليهم القتال مع ذلك الملك ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ وأوجب ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ في سبيل الله ﴿تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أعرضوا عن قتال عدوهم لما شاهدوا كثرة العدو وشوكته ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ثلاث مئة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر، وهم الذين عبروا النهر

(١) البحر المحيط.

مع طالوت، واقتصروا على الغرفة على ما سيأتي، وهذا القليل ثبتوا على نياتهم في قتال أعدائهم، وقرأ أُبي[1]: ﴿تولوا إلا أن يكون قليل منهم﴾ وهو استثناء منقطع؛ لأن الكون معنى من المعاني، والمستثنى ﴿مِّنْهُمْ﴾ جيث ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: عالم من ظلم نفسه حين خالف ربه، ولم يف بما قبل من ربه، وهذا وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد مخالفة لأمره تعالى، فالمراد بالظالمين بقية السبعين ألفاً، وهم من عدا القليل المذكور.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾؛ أي: أخبرهم نبيهم بأن الله تعالى قد بعث لأجل سؤالكم وأمر عليكم طالوت؛ لتكونوا تحت أمرته في تدبير أمر الحرب، واختاره ليكون أميراً عليكم، واسم طالوت بالعبرانية: ساول بن قيس، من سبط بنيامين بن يعقوب، وإنما سمي طالوت لطوله، وكان أطول من جميع الناس برأسه ومنكبيه، وكان طالوت رجلاً دباغاً يدبغ الأديم. قاله وهب ﴿قَالُوٓاْ﴾ لنبيهم معترضين عليه ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ﴾؛ أي: كيف يكون ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ والأمرة لطالوت ﴿عَلَيْنَا﴾ ولم يكن هو من بيت الملك حتى نتبعه لشرفه ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿بِٱلْمُلْكِ﴾ والأمرة ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من طالوت ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾؛ أي: لم يعط غنى من المال يستعين به على إقامة الملك.

والمعنى[2]: كيف يتملك علينا، والحال إنه لا يستحق التملك؛ لوجود من هو أحق بالملك منه، وأنه فقير ولا بد للملك من مال يعتضد به، وإنما قالوا ذلك؛ لأن النبوة كانت في سبط لآوى بن يعقوب عليه السلام، والملك في سبط يهوذا، وهو كان من سبط بنيامين، ولم يكن فيهم النبوة والملك، وكان رجلاً سقاء يستقي الماء على حمار له، أو دباغا فقيراً، وروي أن نبيهم دعا الله حين طلبوا منه ملكاً، فأتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت ﴿قَالَ﴾ نبيهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱصْطَفَىٰهُ﴾ واختاره للملك ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أجابهم نبيهم على ذلك الاعتراض، فقال: إن الله اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: سعة في علوم السياسة والديانة والحروب

---

(١) البحر المحيط. (٢) النسفي.

﴿وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ بالقوة على مبارزة العدو، وبالجمال وبطول القامة، فإنه كان أطول من غيره برأسه ومنكبيه حتى إن الرجل القائم كان يمد يده، فينال رأسه، فكان أعلم بني إسرائيل يومئذ، وأجملهم وأتمهم خلقاً، والعمدة في الاختيار أمران: العلم؛ ليتمكن به من معرفة أمور السياسة، والأمر الثاني: قوة البدن؛ ليعظم خطره في القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء، ومكابدة الشدائد، وقد خصه الله منهما بحظ وافر. قال ابن كثير: ومن هٰهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم، وشكل حسن، وقوة شديدة في بدنه ونفسه ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي﴾؛ أي: يعطي ﴿مُلۡكَهُۥ﴾ وسلطنته في الدنيا ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾، ايتاءه من عباده، وإن لم يكن من سبط الملك، فلا اعتراض عليه ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل والعطاء ﴿عَلِيمٞ﴾ بمن هو أهل للملك، ويليق به، ولما قال القوم لنبيهم: ليس ملكه من الله بل أنت ملكته علينا، وطلبوا منه آية تدل على اصطفاء الله تعالى إياه للملك.. أجابهم إلى ذلك ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾؛ أي: إن علامة ملكه واصطفائه من الله عليكم ﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾؛ أي: يرد الله إليكم الصندوق الذي أخذ منكم، وهو صندوق التوراة، وكانوا يعرفونه، وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى عليه السلام لسخطه على بني إسرائيل لما عصوا وأفسدوا، فلما طلب القوم من نبيهم آية تدل على ملك طالوت.. قال نبي ذلك القوم: إن آية ملك طالوت أن يأتيكم التابوت من السماء إلى الأرض، والملائكة يحفظونه، فأتاهم، والقوم ينظرون إليه حتى نزل عند طالوت، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾ بالتاء، وقرأ أبي وزيد بالهاء وهي لغة الأنصار ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك التابوت ﴿سَكِينَةٞ﴾ وقرأ أبو السماك: ﴿سكّينة﴾ بتشديد الكاف؛ أي: طمأنينة لقلوبكم؛ أي: مودع فيه ما تسكنون إليه؛ وهو التوراة، وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه فسكن نفوسَ بني إسرائيل ولا يفرون، أو الضمير في الإتيان؛ أي: في إتيان ذلك التابوت سكون لكم وطمأنية وبشارات ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ أي: من كتب ربكم المنزلة على موسى وهارون، ومن بعدهما من الأنبياء عليهم السلام بأن الله ينصر طالوت وجنوده، ويزيل عنهم الخوف من العدو ﴿وَبَقِيَّةٞ﴾؛ أي: تركة ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾؛ أي: مما ترك موسى وهارون أنفسهما، والآل مقحم؛ لتفخيم شأنهما

كما في قوله ﷺ لأبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» فالمراد به داود نفسه، وهي رضاض الألواح؛ أي: كسرها، وعصا موسى، وثيابه ونعلاه، وشيء من التوراة ورداء هارون وعمامته، حال كون ذلك التابوت ﴿تَحۡمِلُهُ﴾ وقرأ مجاهد شذوذاً: ﴿يحمله﴾ بالياء من أسفل؛ أي: تسوقه ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ إليكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن في إتيان التابوت ورجوعه إليكم ﴿لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ﴾؛ أي: لعلامة لكم دالة على أن ملكه من الله تعالى، أو لآية[1] لكم على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمر لكم به من طاعة طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: مصدقين بتمليكه عليكم، أو بالله واليوم الآخر.

أو المعنى: أن في هذه الآية من نقل القصة معجزة باهرة دالة على نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بهذه التفاصيل من غير سماع من البشر إن كنتم ممن يؤمن بدلالة المعجزة على صدق مدعي النبوة والرسالة، فلما رد الله عليهم التابوت.. قبلوا وأقروا بملكه، وتسارعوا إلى الجهاد، واختار من الشبان الفارغين من الأشغال ثمانين ألفاً، وقيل: مئة وعشرين ألفاً، وخرجوا معه.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾ بين هذه الجملة والتي قبلها محذوف؛ تقديره: فجاءهم التابوت، وأقروا له بالملك، وتأهبوا للخروج، فلما فصل طالوت؛ أي: خرج من بيت المقدس وتوجه ﴿بِٱلۡجُنُودِ﴾؛ أي: بالجيش التي اختارها إلى جهة العدو، وكان من جملتهم داود عليه السلام كما سيأتي، وكان الوقت قيظاً، وسلك بهم في أرض قفرة، فأصابهم حر وعطش شديد، فطلبوا منه الماء ﴿قَالَ﴾ طالوت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿مُبۡتَلِيكُم﴾؛ أي: مختبركم ﴿بِنَهَرٖ﴾ جارٍ ليظهر منكم المطيع والعاصي؛ وهو بين الأردن وفلسطين، وقرأ الجمهور: ﴿بِنَهَرٖ﴾ بفتح الهاء، وقرأ حميد ومجاهد والأعرج شذوذاً بسكون الهاء، والغرض من هذا الابتلاء: أن يميز الصديق من الزنديق، والموافق من المخالف ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ﴾؛ أي: كرع من ماء النهر، قليلاً كان أو كثيراً ﴿فَلَيۡسَ مِنِّي﴾؛ أي: من أهل ديني، أو من أتباعي المؤمنين، فلا يكون مأذوناً له في هذا القتال ﴿وَمَن لَّمۡ

---

(١) ابن كثير.

﴿يَطْعَمْهُ﴾؛ أي: ومن لم يذقه أصلاً، لا كثيراً ولا قليلاً ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾؛ أي: من أتباعي ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾؛ أي: إلا من أخذ شيئاً قليلاً من الماء بيده؛ فإنه مني ويكون أهلاً لهذا القتال. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿غَرفة﴾ بفتح الغين، وكذلك يعقوب وخلف، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بالضم، فالغُرفة بالضم الشيء القليل الذي يحصل في الكف، والغَرفة بالفتح الفعل؛ وهو الاغتراف مرة واحدة، فكانت تكفيهم هذه الغرفة لشربهم ودوابهم وحملهم؛ أي: قال لهم طالوت: من شرب من النهر وأكثر.. فقد عصى الله، ومن اغترف غرفة بيده.. أقنعته بعد عطش شديد، فوقع أكثرهم في النهر وأكثروا الشرب، فهؤلاء جبنوا عن لقاء العدو، وأطاع قوم قليل عددهم، فلم يزيدوا على الإغتراف، فقويت قلوبهم، وعبروا النهر، فذلك قوله: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ﴾؛ أي: فلما وصلوا إلى النهر.. وقفوا فيه وشربوا منه بالكرع بالفم كيف شاؤوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ثلاث مئةٍ وثلاثة عشر رجلاً، فلم يشربوا إلا قليلاً، وهو الغرفة. روي[1] أن من اغترف غرفة كما أمر الله.. قوي قلبه، وصح إيمانه، وعبر النهر سالماً، وكفته تلك الغرفة لشربه ودوابه وخدمه، وحمله مع نفسه؛ إما لأنه كان مأذوناً في أخذ ذلك المقدار، وإما لأن الله تعالى يجعل البركة في ذلك الماء حتى يكفي لكل هؤلاء، وذلك معجزة لنبي ذلك الزمان، وأما الذين شربوا منه، وخالفوا أمر الله تعالى فقد اسودت شفاههم، وغلبهم العطش، فلم يرووا، وبقوا على شط النهر وجبنوا عن لقاء العدو، وقرىء شذوذاً: ﴿إلا قليل﴾ بالرفع حملاً على المعنى، فإن قوله: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ﴾ في معنى: فلم يطيعوه، وفيه تعسف ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾؛ أي: النهر ﴿هُوَ﴾؛ أي: طالوت ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ والظرف متعلق بـ﴿جاوز﴾ من حيث عمله في المعطوف، وهو الموصول؛ أي: فلما جاوزه وجاز معه الذين آمنوا؛ وهم أولئك القليل الذين اقتصروا على الغرفة، وقال القرطبي: هم الذين لم يذوقوا الماء أصلاً. ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال الذين شربوا وخالفوا أمر الله ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾؛ أي: لا قوة لنا ﴿ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ﴾ هو

(١) المراح.

جبار من العمالقة من أولاد عمليق بن عاد، وكان في بيضته ثلاث مئة رطل من الحديد؛ أي: لا قدرة لنا اليوم بمحاربة جالوت ﴿وَجُنُودِهِۦ﴾ وكانوا مئة ألف رجل شاكي السلاح. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يوقنون ويعلمون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ملاقوا ثواب الله ورضوانه في الدار الآخرة؛ وهم القليل الذين اقتصروا على الغرفة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ وقرأ أبي شذوذاً: ﴿وكأين﴾ وهي مرادفة لـ﴿كم﴾ في التكثير؛ أي: كم من جماعة قليلة من المؤمنين ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾؛ أي: غلبت جماعة كثيرة من الكافرين ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: بنصر الله تعالى إياهم، أو بقضاء الله وإرادته ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر والعون؛ أي: معين الصابرين على الحرب بالنصرة على أعدائهم

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ﴾؛ أي: ولما برزوا طالوت وجنوده المؤمنون، وظهروا ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ الكافرين، ودنوا منهم وصافوا لهم ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال طالوت وجنوده جميعاً متضرعين إلى الله تعالى مستعينين به تعالى؛ أي: قالوا ملتجئين إلى الله بثلاث دعوات ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾؛ أي: أصبب ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ على القتال والمخاوف والأمور الهائلة؛ أي: أفض علينا صبرا يعمنا في جمعنا، وفي خاصة أنفسنا لنقوى على قتال أعدائك، وهذه هي الدعوة الأولى. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾؛ أي: أرسخها حتى لا تفر، أو قو قلوبنا لتثبت أقدامنا على مداحض القتال بكمال القوة عند المقارعة، وعدم التزلزل وقت المقاومة، وهذه هي الدعوة الثانية. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جالوت وجنوده؛ أي: أعنا وأظفرنا بقهرهم وهزمهم، وذلك لأن جالوت وقومه كانوا يعبدون الأصنام، وهذه هي الدعوة الثالثة، وفيها[١] ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب السبب عنه، ثم النصر على العدو والمترتب عليهما غالباً. ﴿فَهَزَمُوهُم﴾؛ أي: هزم طالوت وجنوده جالوت وجنوده؛ أي: كسروهم وغلبوهم وقهروهم وردوهم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بنصره أو بقضائه وإرادته، أو بتمكين الله منهم إجابة لدعائهم ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾

(١) البيضاوي.

ابن إيشا عليه السلام كان من سبط يهودا بن يعقوب، وكان في عسكر بني إسرائيل ﴿جَالُوتَ﴾ الكافر، ولم يبين تعالى كيفية القتل ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وأعطى الله سبحانه وتعالى لداود ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ الكامل سبع سنين بعد موت طالوت؛ أي: ملك بني إسرائيل في مشارق الأرض المقدسة ومغاربها ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوة بعد موت شمويل، وكان موته قبل طالوت، ولم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوة لأحد قبله إلا له، بل كان الملك في سبط والنبوة في سبط آخر، ومع ذلك جمع الله له ولابنه سليمان بين الملك والنبوة، وقيل: الحكمة العلم النافع ﴿وَعَلَّمَهُۥ﴾؛ أي: وعلم الله داود ﴿مِمَّا يَشَآءُ﴾؛ أي: ما يشاء تعليمه من معلوماته كصنعة الدروع من الحديد، وكان يلين في يده وينسجه، وفهم كلام الطير والنمل، وكيفية القضاء، وما يتعلق بمصالح الدنيا، ومعرفة الألحان الطيبة، ولم يعط الله تعالى أحداً من خلقه مثل صوته، كان إذا قرأ الزبور.. تدنو الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها، وتظله الطير ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ قرأ نافع هنا وفي الحج: ﴿دفاع الله﴾؛ أي: ولولا أن يدفع الله ﴿ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم﴾ بدل بعض من الناس، ويكف شرهم، وهم أهل الكفر والمعاصي ﴿بِبَعْضٍ﴾ منهم؛ وهم أهل الإيمان والطاعة ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وخربت بغلبة المشركين، وقتل المسلمين، وتخريب المساجد، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ولولا دفع الله بجنود المسلمين.. لغلب المشركون على الأرض، فقتلوا المؤمنين وخربوا المساجد والبلاد، كما دفع الله جالوت وجنوده بطالوت وجنوده، ومن المعلومات أن لولا حرف امتناع لوجود، والمعنى: امتنع فساد الأرض لأجل دفع الناس بعضهم لبعض، وهذه الآية كالدليل لما ذكر في القصة من مشروعية القتال، ونصر داود على جالوت. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ذُو فَضْلٍ﴾؛ أي: ذو تفضل وإنعام عظيم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كافة بسبب دفع ذلك الفساد؛ يعني: أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام وإفضال عم الناس كلهم، وجه[1] الاستدراك هو أنه لما

(١) البحر المحيط.

قسم الناس إلى مدفوع به ومدفوع، وأنه بدنعه بعضهم ببعض امتنع فساد الأرض، فيهجس في نفس من غلب وقهر عن ما يريد من الفساد في الأرض أن الله تعالى غير متفضل عليه إذا لم يبلغه مقاصده ومآربه، فاستدرك أنه وإن لم يبلغ مقاصده هذا الطالب للفساد أن الله لذو فضل عليه ويحسن إليه.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه الآيات التي قصصناها عليك يا محمد من حديث الألوف وموتهم وإحيائهم تمليك طالوت، وإظهاره الآية؛ وهي التابوت وإهلاك الجبابرة على يد صبي ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المنزلة من عنده تعالى: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾؛ أي: نقرأ تلك الآيات عليك يا محمد بواسطة جبريل حالة كونها ملتبسة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصدق واليقين الذي لا يشك فيه أحد من أهل الكتاب لما يجدونها موافقة لما في كتبهم ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الإنس والجن كافة بشهادة إخبارك عن الأمم الماضية من غير مطالعة كتاب ولا اجتماع على أحد يخبرك بذلك، فدل ذلك على رسالتك، وأن الذي تخبر به وحي من الله تعالى؛ أي: وإنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله تعالى لتبليغ دعوة الله عز وجل.

فائدة: قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]: إن داود عليه السلام كان صغيراً لم يبلغ الحنث راعياً للغنم، وله سبعة إخوة مع طالوت، فلما أبطأ خبر إخوته على أبيهم إيشا ـ بوزن كسرى ـ أرسل ابنه داود إليهم ليأتيه بخبرهم، فأتاهم وهم في المطاف، وبادر جالوت الجبار، وهم من قوم عاد إلى البراز، فلم يخرج إليه أحد، فقال: يا بني إسرائيل، لو كنتم على حق.. لبارزني بعضكم، فقال داود لإخوته: أما فيكم من يخرج إلى هذا الأقلف؟ فسكتوا، فذهب إلى ناحية من الصف ليس فيها إخوته، فمر به طالوت وهو يحرض الناس، فقال له داود: ما تصنعون بمن يقتل هذا الأقلف؟ فقال طالوت: أنكحه ابنتي وأعطيه نصف ملكي، فقال داود: فأنا خارج إليه، وكان عادته أن يقاتل بالمقلاع الذئب والأسد في المرعى، وكان طالوت عارفاً بجلادته، فلما هم داود بأن يخرج إلى جالوت.. مر بثلاثة أحجار، فقلن يا داود: خذنا معك

(١) المراح.

ففينا ميتة جالوت، فلما خرج إلى جالوت الكافر رماه فأصابه في صدره ونفذ الحجر فيه، وقتل بعده ثلاثين رجلاً فهزم الله تعالى جنود جالوت، وخر جالوت قتيلاً، فأخذه داود يجره حتى ألقاه بين يدي طالوت، ففرح بنو إسرائيل وانصرفوا إلى البلاد سالمين غانمين، فجاء داود إلى طالوت، وقال أنجزني ما وعدتني، فزوجه ابنته وأعطاه نصف الملك كما وعده، فمكث معه كذلك أربعين سنة، فمات طالوت، وأتى بنو إسرائيل بداود، وأعطوه خزائن طالوت، واستقل داود بالملك سبع سنين، ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى، فسبحان من لا ينقضي ملكه.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التعجبي التقريري، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على كل مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْمَلَإِ﴾ تقديره: حال كونهم كائنين من بني إسرائيل. ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بما تعلق به الجار والمجرور قبله، ولا يضر تعلق حرفي جر متحدي اللفظ بعامل واحد؛ لاختلاف معناهما، فـ﴿مِّن﴾ الأولى تبعيضية، والثانية لابتداء الغاية. ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، والظرف متعلق بـ﴿تر﴾ أو بمحذوف؛ تقديره: ألم تر إلى قصتهم إذ قالوا: ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿لِنَبِىٍّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قالوا﴾. ﴿لَّهُمُ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿نبي﴾. ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مقول محكي لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿ٱبْعَثْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿نبي﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ابعث﴾. ﴿مَلِكًا﴾: مفعول به. ﴿نُّقَٰتِلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلَإِ﴾، والجملة الفعلية جواب الطلب لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نُّقَٰتِلْ﴾.

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿نَبِيّ﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام ﴿عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ إلى آخره مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿عَسَيْتُمْ﴾ ﴿عسى﴾: من أفعال المقاربة ترفع الاسم وتنصب الخبر، والتاء ضمير المخاطبين في محل الرفع اسمها. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ٱلْقِتَالُ﴾: نائب فاعل، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف تقديره: إن كتب عليكم القتال فلا تقاتلوا، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مع جوابها جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين عسى وخبرها. ﴿أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾: نافية ﴿تُقَٰتِلُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عسى﴾، ولكن لا بد من تقدير وتأويل؛ لأن المصدر معنى من المعاني، فلا يخبر به عن الجثة، والتقدير: هل عسيتم كون حالكم عدم المقاتلة، وجملة ﴿عسى﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا لَنَآ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَبْنَآئِنَا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿وَمَا لَنَآ﴾ الواو: رابطة[1] هذا الكلام بما قبله. ﴿ما﴾: استفهامية في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نُقَٰتِلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود إلى ﴿ٱلْمَلَإِ﴾. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نُقَٰتِلَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿إن﴾ المصدرية، ﴿إن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: وما لنا في عدم قتالنا، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾ الواو: حالية.

---

(١) الجمل.

﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أُخْرِجْنَا﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مِن دِيَـٰرِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أخرجنا﴾، ﴿وَأَبْنَآئِنَا﴾: معطوف على ﴿دِيَـٰرِنَا﴾، وجملة ﴿أُخْرِجْنَا﴾ في محل النصب حال من الضمير المستتر في ﴿نُقَـٰتِلَ﴾ تقديره: حالة كوننا مخرجين من ديارنا وأبنائنا.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قالوا لنبيهم، وما قال النبي لهم، وأردت بيان حالهم بعد ما كتب عليهم القتال.. فأقول لك ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْقِتَالُ﴾: نائب فاعل، والجملة من الفعل المغير ونائبه فعل شرط لـ﴿ما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: فعل وفاعل والجملة جواب لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: استئنافية. ﴿اللَّه﴾: مبتدأ ﴿عَلِيمٌۢ﴾ خبر ﴿بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: متعلق بـ﴿عليم﴾، والجملة مستأنفة.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ﴾.

﴿وَقَالَ﴾ الواو: عاطفة. ﴿قال﴾: فعل ماض، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿نَبِيُّهُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿بَعَثَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، ﴿طَالُوتَ﴾: مفعول به. ﴿مَلِكًا ۚ﴾: حال من ﴿طَالُوتَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ إلى قوله: ﴿قال﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنى كيف في محل النصب حال من ﴿ٱلْمُلْكُ﴾، والعامل[1] فيه ﴿يَكُونُ﴾، ولا يعمل فيه واحد من الظرفين؛ لأنه عامل معنوي، فلا يتقدم الحال عليه. ﴿يَكُونُ﴾: مضارع ناقص، ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿يكون﴾. ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿عَلَيْنَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من[2] ﴿ٱلْمُلْكُ﴾، والعامل فيه ﴿يَكُونُ﴾ أو الخبر، ويجوز أن يكون الخبر ﴿عَلَيْنَا﴾ و﴿له﴾ حال، ويجوز أن تكون تامة، فيكون ﴿لَهُ﴾ متعلقاً بـ﴿يكون﴾ و﴿عَلَيْنَا﴾ حال، والعامل فيه ﴿يَكُونُ﴾؛ أي: كيف يقع أو يحدث له الملك علينا، وفي «السمين»: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾[3] إما تامة أو ناقصة، و﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾؛ لأن مادته تتعدى بعلى، تقول: ملك فلان على بني فلان أمرهم اهـ. ﴿وَنَحْنُ﴾: الواو: حالية. ﴿نحن﴾: مبتدأ. ﴿أَحَقُّ﴾: خبر ﴿بِٱلْمُلْكِ﴾: متعلق بـ﴿أحق﴾ ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَحَقُّ﴾ أيضاً، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿عَلَيْنَا﴾. ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿يُؤْتَ﴾: فعل مضارع مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿طَالُوتَ﴾. ﴿سَعَةً﴾: مفعول ثان. ﴿مِّنَ ٱلْمَالِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿سعة﴾ تقديره: سعة كائنة من المال، والجملة من الفعل المغيّر ونائبه في محل النصب معطوف على جملة قوله: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ﴾ على كونها حالاً من ضمير ﴿عَلَيْنَا﴾.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على نبيهم والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿ٱصْطَفَىٰهُ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾،

---

(١) العكبري. (٢) العكبري. (٣) الجمل.

والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱصْطَفَىٰ﴾ ﴿وَزَادَهُۥ﴾ الواو: عاطفة. ﴿زاده﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱصْطَفَىٰهُ﴾ على كونها خبراً لـ﴿إن﴾، ﴿بَسْطَةً﴾: مفعول ثان. ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بَسْطَةً﴾، أو متعلق بـ﴿بسطة﴾، ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْعِلْمِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: عاطفة، أو اعتراضية ﴿اللَّه﴾ مبتدأ. ﴿يُؤْتِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: واللَّه مؤت ملكه والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾، أو جملة معترضة لا محل لها من الإعراب إن قلنا: إنها من كلام الله لمحمد ﷺ. ﴿مُلْكَهُۥ﴾: مفعول أول ومضاف إليه. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿يُؤْتِى﴾ لأنه بمعنى يعطي. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره يشاءه. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: عاطفة. ﴿اللَّه﴾: مبتدأ، ﴿وَٰسِعٌ﴾: خبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿وَقَالَ﴾ الواو: عاطفة. ﴿قال﴾ فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿نَبِيُّهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾. ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ءَايَةَ﴾: اسمها. ﴿مُلْكِهِۦٓ﴾: مضاف إليه. ﴿إن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿إن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه خبراً لـ﴿إن﴾ تقديره: إن آية ملكه إتيان التابوت إياكم، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿فِيهِ﴾: خبر مقدم. ﴿سَكِينَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿سكينة﴾ تقديره: سكينة كائنة من ربكم،

والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾، ولكنها حالة سببية تقديره: حال كون التابوت موصوفاً بكون السكينة فيه.

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾.

﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ الواو: عاطفة. ﴿بقية﴾. معطوف على ﴿سَكِينَةٌ﴾، ﴿مما﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بقية﴾. ﴿تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه. ﴿وَءَالُ هَٰرُونَ﴾: معطوف على ﴿ءَالُ مُوسَىٰ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما تركه آل موسى. ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل: والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾ تقديره: حالة كونه محمولاً للملائكة، أو الجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إن﴾. ﴿لَءَايَةً﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿آية﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آية﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول قال ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾، ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ محذوف تقديره: إن كنتم مؤمنين؛ أي: مصدقين بأن الله جعل لكم طالوت ملكاً.. فالآية على ملكه حاصلة، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب بمقول قال.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قال لهم نبيهم، وما قالوا، وأردت بيان عاقبة أمرهم.. فأقول لك: ﴿لما فصل﴾، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿فَصَلَ طَالُوتُ﴾: فعل وفاعل ﴿بِٱلْجُنُودِ﴾: متعلق بـ﴿فصل﴾، أو حال من ﴿طَالُوتُ﴾، والجملة الفعلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير

يعود على ﴿طَالُوتُ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها: ﴿مُبْتَلِيكُم﴾: خبر ﴿إن﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿بِنَهَرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُبْتَلِيكُم﴾. ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ ﴿الفاء﴾: تفصيلية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿شَرِبَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَرِبَ﴾. ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، لكون الجواب جملة جامدية؛ لأنه من المواضع السبعة المجموعة في قول بعضهم:

إِسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ وَبِمَا وَلَنْ وَقَدْ وَبِٱلتَّنْفِيْسِ

﴿ليس﴾: فعل ماضٍ ناقص في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، واسمها ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿مِنِّي﴾: جار ومجرور خبر ﴿ليس﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ الواو: عاطفة ﴿من﴾، اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿يَطْعَمْهُ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّهُ مِنِّيٓ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿مِنِّيٓ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة إن في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾، ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ﴾: ﴿إلا﴾: أداة استثناء، ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، وأنت[1] بالخيار إن شئت جعلته استثناء من ﴿من﴾ الأولى، وإن شئت من ﴿مَن﴾ الثانية.

(١) العكبري.

﴿اَغْتَرَفَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿غُرْفَةً﴾ إما مفعول مطلق، أو مفعول به. ﴿بِيَدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أغترف﴾، أو بمحذوف صفة لـ﴿غرفة﴾، ﴿فَشَرِبُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿شربوا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿قليلاً﴾، وجملة ﴿شربوا﴾ معطوفة على محذوف تقديره: فابتلوا بذلك النهر فشربوا منه إلا قليلاً منهم على كونها مستأنفة.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنهم شربوا منه، وأردت بيان عاقبة أمرهم.. فأقول لك. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿جَاوَزَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿طَالُوتُ﴾، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿هُوَ﴾: ضمير مؤكد لضمير الفاعل المستتر، ليعطف عليه. ﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوف على ضمير الفاعل المستتر. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق[1] بـ﴿جاوز﴾ من حيث عمله في المعطوف وهو الموصول؛ أي: فلما جاوزه وجاوز معه الذين آمنوا. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾ إلى قوله: ﴿قال﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: نافية. ﴿طَاقَةَ﴾: اسمها. ﴿لَنَا﴾ خبرها، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿الْيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بالإستقرار الذي تعلق به الخبر، وكذا الجار والمجرور في قوله: ﴿بِجَالُوتَ﴾ متعلق بالإستقرار

(١) الجمل.

المذكور، وجالوت كطالوت ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ﴿وَجُنُودِهِۦ﴾: معطوف على ﴿جالوت﴾ ومضاف إليه.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَظُنُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَظُنُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب، ﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾: خبر ﴿أن﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿يَظُنُّونَ﴾ تقديره: لقاء الله. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿كَم﴾: خبرية بمعنى عدد كثير في محل الرفع مبتدأ مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لتضمنه معنى رب التكثيرية، ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿فِئَةٍ﴾: تمييز لكم منصوب بفتحة مقدرة، وقد تحذف ﴿مِّن﴾؛ فيجر تمييزها بالإضافة، لا بمن مقدرة على الصحيح. ﴿قَلِيلَةٍ﴾: صفة لـ﴿فئة﴾. ﴿غَلَبَتْ﴾ غلب فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِئَةً﴾، والجملة من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر ﴿كَم﴾، كثير من فئة قليلة غالبة فئة كثيرة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فِئَةً﴾: مفعول ﴿غَلَبَتْ﴾. ﴿كَثِيرَةًۢ﴾: صفة لـ﴿فئة﴾، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿فئة﴾؛ لتخصصها بالصفة وإن كانت نكرة، أو متعلق بـ﴿غلبت﴾ ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: عاطفة، أو استئنافية. ﴿اللَّه﴾ مبتدأ. ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿كم من فئة﴾ على كونها من مقولهم، ويحتمل أنها من كلام الله تعالى، أخبر الله تعالى بها عن حال الصابرين، فتكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿بَرَزُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لِجَالُوتَ﴾: متعلق بـ﴿بَرَزُواْ﴾. ﴿وَجُنُودِهِۦ﴾ معطوف على ﴿جالوت﴾ ومضاف إليه. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة. ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿أَفۡرِغۡ﴾: فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباري سبحانه، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿عَلَيۡنَا﴾: متعلق بـ﴿أفرغ﴾. ﴿صَبۡرٗا﴾ مفعول ﴿أَفۡرِغۡ﴾. ﴿وَثَبِّتۡ﴾: الواو: عاطفة. ﴿ثبت﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَفۡرِغۡ﴾، ﴿أَقۡدَامَنَا﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَانصُرۡنَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَفۡرِغۡ﴾، ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ﴾: متعلق بـ﴿انصرنا﴾، ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ صفة لـ﴿لقوم﴾.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾.

﴿فَهَزَمُوهُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هزموهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ﴾. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿هزموا﴾، أو حال من ضمير الفاعل. ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على ﴿هزموهم﴾ ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿ٱلۡمُلۡكَ﴾: مفعول ثان. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡمُلۡكَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿قتل داود﴾. ﴿وَعَلَّمَهُۥ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿قتل﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثانٍ. ﴿يَشَآءُۗ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: مما يشاءه.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَلَوْلَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه وهو من إضافة المصدر إلى فاعله. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول المصدر، ﴿بَعْضَهُم﴾ بدل من ﴿ٱلنَّاسَ﴾، بدل بعض من كل ﴿بِبَعْضٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿دفع﴾، وهو في محل المفعول الثاني، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً؛ لقيام جواب ﴿لولا﴾ مقامه تقديره: موجود. ﴿لَّفَسَدَتِ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿فسدت الأرض﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مع جوابها مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك ونصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿ذُو﴾: خبر ﴿لكن﴾. ﴿فَضْلٍ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿لولا﴾ على كونها مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾: ﴿تِ﴾ اسم إشارة يشار به إلى المفردة المؤنثة البعيدة في محل الرفع مبتدأ مبني بسكون على الياء المحذوفة؛ للتخلص من التقاء الساكنين، ﴿اللام﴾: لبعد المشار إليه، أو لمبالغة البعد حرف لا محل له من الإعراب مبني على السكون، ﴿الكاف﴾: حرف دال على الخطاب. ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿نَتْلُوهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نتلوا﴾، وجملة ﴿نتلوا﴾ يجوز[1] أن تكون حالاً من الآيات، والعامل فيها معنى الإشارة، ويجوز أن تكون مستأنفة، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور يجوز أن يكون متعلقاً بـ﴿نتلوا﴾، وأن يكون حالاً من ضمير الآيات المنصوب؛ أي: متلبسة بالحق، ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل؛ أي: ومعنا الحق، ويجوز أن يكون حالاً من الكاف؛ أي: ومعك الحق، وجملة ﴿تِلْكَ﴾ من المبتدأ والخبر مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من

(١) العكبري.

الإعراب. ﴿وَإِنَّكَ﴾: الواو: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد، والكاف اسمها. ﴿لَمِنَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿من المرسلين﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إن﴾ تقديره: وإنك لكائن من المرسلين، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ على كونها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً﴾ سعة وزنها عَلَةً، أصله وسع حذفت فاء الكلمة، وهي الواو وعوض عنها تاء التأنيث كما في عدة وزنة، وإنما حذفت الفاء في المصدر حملاً له على المضارع، وإنما حذفت في المضارع لوقوعها بين عدوتيها الياء وهي حرف المضارعة والكسرة المقدرة؛ لأن أصله يوسع، وذلك أن وسع مثل وثق، فحق مضارعه أن يجيء على يفعل بكسر العين، وإنما منع ذلك في يسع كون لامه حرف حلق، ففتح عين مضارعه لذلك وإن كان أصلها الكسرة، ولذلك قلنا بين ياء وكسرة مقدرة، فالفتحة عارضة، فأجرى عليها حكم الكسرة، ثم جعلت في المصدر مفتوحة؛ لتوافق الفعل، ويدلك على ذلك أن قولك وعد يعد مصدره عدة بالكسر لما خرج على أصله.

﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع قيل: هو على معنى النسب؛ أي: هو ذو سعة، وقيل: جاء على حذف الزائد، والأصل أوسع فهو موسع، وقيل: اسم فاعل من وسع الثلاثي؛ لأنك تقول: وسع علمه وحلمه.

﴿ٱلتَّابُوتُ﴾: وزنه فاعول مشتق[1] من التوب الذي هو الرجوع، لما أنه لا يزال يرجع إليه ما يخرج منه وتاؤه مزيدة لغير التأنيث كملكوت وجبروت، والمشهور أن يوقف على تائه من غير أن تقلب هاء، ومنهم من يقلبها.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ السكينة: فعيلة من السكون، وهو الوقار، تقول: في فلان سكينة؛ أي: وقار وثبات.

﴿وَبَقِيَّةٌ﴾[2] وأصل بقية بقيية، ولام الكلمة ياء ولا حجة في بقي لانكسار

---

(١) أبو السعود.
(٢) العكبري.

ما قبلها، ألا ترى أن شقي أصلها واو.

﴿وَجُنُودِهِۦ﴾ الجنود جمع جند، وهو معروف واشتقاقه من الجند، وهو الغليظ من الأرض إذ بعضهم يعتصم ببعض، وفي «المصباح» الجند الأنصار والأعوان، والجمع أجناد وجنود، الواحد جندي، فالياء للوحدة مثل روم وروميّ اهـ، والياء في ﴿مُبْتَلِيكُم﴾ بدل من واو؛ لأنه من بلاه يبلوه.

﴿بِنَهَرٍ﴾ فتح الهاء وإسكانها لغتان، والمشهور في القراءة فتحها، وقرأ حميد بن قيس شذوذاً بإسكانها، وأصل النهر والنهار الاتساع، ومنه ما أنهر الدم. ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ﴾ الغُرفة ـ بضم الغين ـ اسم للقدر المغترف من الماء كالأكلة للقدر الذي يؤكل، وبفتح الغين مصدر للمرة الواحدة، نحو ضربت ضربة، والاغتراف الأخذ من الشيء باليد أو بآلته، والغرف مثل الاغتراف، فمعناهما واحد، والغرفة البناء العالي المشرف. ﴿لَا طَاقَةَ﴾ وعين الطاقة واو؛ لأنه من الطوق، وهو القدرة تقول: طوقته الأمر.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾ الفئة القطعة من الناس، وأصل فئة فيئة؛ لأنه من فاء يفيء إذا رجع، فالمحذوف عينها، وقيل: أصلها فيوءة لأنها من فأوت رأسه إذا كسرته، فيكون المحذوف لام الكلمة.

﴿أَقْدَامَنَا﴾ جمع قدم، والقدم الرجل، وهي مؤنثة تقول في تصغيرها قديمة، والاشتقاق في هذه الكلمة يرجع لمعنى التقدم.

البلاغة

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: فيه مجاز بالحذف إذ الأصل إلى قصة الملأ، وهذا المحذوف هو متعلق الظرف في قوله: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾: في الكلام إيجاز وحذف تقديره: فسأل الله ذلك النبي، فكتب عليهم القتال وبعث لهم ملكاً؛ أي: عينه لهم ليقاتل بهم، فلما كتب عليهم القتال.. إلخ.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والظاهر أن هذا من كلام ذلك النبي، قال ذلك لهم لما علم من تعنتهم وجدالهم في الحجج، فأراد

أن يتم كلامه بالقطعي الذي لا اعتراض فيه، وهو أظهر التأويلين، الثاني: أنه من كلام الله تعالى لمحمد ﷺ، وتكون الجملتان معترضتين في هذه القصة للتشديد والتقوية لمن يؤتيه الله الملك؛ أي: فإذا كان الله تعالى هو المتصرف في ملكه.. فلا اعتراض عليه لا يسئل عما يفعل.

﴿ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾: فيه مجاز بالزيادة؛ لأن المراد أنفسهما، فلفظ آل مقحم وفائدة هذه الزيادة تفخيم شأنهما.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ وإفراد[1] حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين بتأويل الفريق أو غيره كما سلف في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ فيه استعارة تمثيلية، فقد شبه حالهم - والله تعالى يفيض عليهم الصبر - بحال الماء يصب ويفرغ على الجسم، فيعمه كله ظاهره وباطنه، فيلقي في القلب برداً وسلاماً وهدوءاً واطمئناناً.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وهو كناية[2] عن تشجيع قلوبهم وتقويتها، ولما سألوا ما يكون مستعلياً عليهم من الصبر.. سألوا تثبيت أقدامهم وإرساخها.

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيه ثلاث تأكيدات.. التأكيد بإن، وباللام، وباسمية الجملة.

اللهم كما وفقتني بابتدائه، فأكرمني بانتهائه، وصلى الله وسلَّم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين[3].

والله سبحانه وتعالى أعلم

---

(١) أبو السعود. (٢) البحر المحيط.

(٣) تم تصحيح هذه النسخة بيد مؤلفه في تاريخ ١٤٠٨/٤/١١ هـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

إلى هنا انتهى المجلد الثالث في تاريخ ١٤٠٧/١/٩ هـ.

الفهرس

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الرابع

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر:

أَخُو ٱلعِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ موتِه   وأَوْصَالُهُ تَحْتَ ٱلتُّرَابِ رَمِيْمُ

شعر:

وعَيْنُ ٱلرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ   ولكِنَّ عَيْنَ ٱلسُّخْطِ تُبْدِي ٱلمَسَاوِيَا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

المناسبةُ

مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لَمَّا ذكر اصطفاءَ طالوت على بني إسرائيل، وتفضيلَ داود عليهم بإيتائِه المُلْكَ والحكمة وتعليمِه، ثم خاطب نبيَّه محمداً ﷺ بأنه من المرسلين، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين المرسلين.. بيّن بأنَّ المرسلين متفاضلون أيضاً، كما كان التفاضل بين غير المرسلين، كطالوت وبني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم...﴾ مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: هو أنه لما ذُكِرَ أن الله تعالى أراد الاختلاف إلى مؤمن وكافر، وأراد الامتثال، وأمر به المؤمنين، وكان الجهاد يحتاج صاحبه إلى الإعانة عليه.. أمر تعالى بالنفقة من بعض ما رَزَقَ، فشَمِلَ النفقةَ في الجهاد، وهي وإن لم ينص عليها مندرجةٌ في قوله: ﴿أَنفِقُوا۟﴾، وداخلة فيها دخولاً أوّلياً؛ إذ جاء الأمرُ بها عقب ذِكْر المؤمنِ والكافرِ، وَاقْتِتَالِهم. قال ابنُ جريج: والأكثرون على أن الآية عَامَّة في كل صدقة واجبة، أو تطوع.

التفسير وأوجه القراءة

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾؛ أي: جماعةُ الرسل المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وأتى بإشارة البعيد إشعاراً ببُعْدِ مرتبتهم في الكمال. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في مراتب الكمال؛ بأن خصصناه بمنقبةٍ لَيْستَ لغيره؛ أيْ: لم نجعَلْهم سواءً في الفَضِيْلَة، وإنْ اسْتَوَوْا في القِيام بالرسالةِ؛ كالمؤمنين مُسْتوون في صفة الإيمان ويتفاوتون في الطاعات بعد الإيمان. فإن قلتَ[1]: هذه الآيةُ يُعارضها ما ورد في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «لا تفضِّلوني على الأنبياء»، وفي لفظ آخر: «لا تُفَضِّلوا بينَ الأنبياءِ» وفي لفظ: «لا تخيَّروا بين الأنبياء»؟

قلتُ: لا تعارض بين القرآن والسُّنّة بوجهٍ من الوجوه؛ فالقرآنُ: فيه الإخبارُ من الله بأنه فضَّل بعضَ أنبيائه على بعضٍ، والسنةُ: فيها النهيُ لعباده أن يُفضّلوا بين أنبيائه، فمَنْ تعرَّض للجمع بينهما زاعماً أنهما متعارضان فقد غَلِطَ غلطاً بيِّناً.

ثُمَّ بيَّن ذلك بقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾. قرأ الجمهور: ﴿كلّم﴾ بالتشديدِ، ورفعِ الجلالة، والعائدُ على: ﴿مَن﴾ محذوفٌ؛ تقديره: مَنْ كلَّمه الله، وقُرىء بنصب الجلالة، والفاعل مستترٌ، يعود على ﴿مَن﴾، وقرأ أبو المتوكل، وأبو نَهْشَلٍ، وابن السُّمَيْفِع شذوذاً: ﴿كالم اللّهُ﴾ بالألف، ونَصْبِ الجلالة مِنَ المُكالمة، وهي: حُدُوْثُ الكلامِ من اثنين، ومنه قيل: كَلِيْمُ الله؛ أيْ: مُكالِمُهُ؛ فعيل بمعنى مُفاعل؛ أي: منهم من كَلَّمهم الله سبحانه وتعالى بلا واسطةٍ، كموسىٰ؛ حيث كَلَّمه ليلةَ الحَيْرَةِ؛ وهي تحيُّره في معرفة طريقِه في مسيره من مَدْينَ إلى مصر، وفي الطور، ومحمدٌ ﷺ؛ حيث كلَّمه ليلة المعراج.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ على بعض ﴿دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: في الدرجات، والفضائِل؛ كما ثبت[2] في حديث الإسراء حين رَأىٰ النَّبِيُّ ﷺ الأنبياءَ في السموات بحسبِ

(١) الشوكاني.

(٢) ابن كثير.

تفاوت منازلهم عند الله عزّ وجلّ. وقال بعضُ المفسرين: أي رَفَع بعضَ الأنبياء والمرسلين على بعضهم الآخر في الدرجات والمنازل كإبراهيم؛ لأنه تعالىٰ اتخذه خليلاً، ولم يُؤْتِ أحداً مِثْلَه هذه الفضيلةَ، وإدريسَ فإنه تعالىٰ رَفَعَهُ مكاناً علياً، وداودَ فإنه تعالىٰ جَمَعَ له المُلْكَ والنُّبوةَ، ولم يَحْصُل هذا لغيره، وسليمانَ فإنه تعالىٰ سخَّر له الإنسَ والجنَّ والطيرَ والرِّيحَ، ولم يكنْ هذا حاصلاً لأبيه داود، ومحمداً ﷺ؛ فإنه تعالى خَصَّه بعُموم رسالته، وبأنَّ شرعه ناسخ لجميع الشرائع، ولكن هذا تفسيرٌ بالرَّأيِ لا بالنَّقْلِ، والأَوْلَىٰ تَرْكهُ مُبْهماً كما أَبْهمَه سبحانه وتعالى، كما ذَكَره الشوكانيُّ.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: أعطيناه الآياتِ الباهرة، والمعجزاتِ الظاهرة الدالة علىٰ صدقه ونبوَّته، كإحياءِ الموتىٰ، وإبراءِ الأكمه، والأبرص، والإخبار بالمغيبات. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾؛ أي: قوَّيْناه. ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، أي: بالروحِ المقدَّس، وأعَنَّاهُ بجبريل عليه السلام في أولِ أمره، وفي وَسطِه، وفي آخره؛ وهو نَفْخُ جبريل الروحَ في عِيْسىٰ، وتعليمهُ العلومَ، وحفظُه من الأعداء، وإعانتُه ورفعُه إلىٰ السماء حين أرادت اليهود قتله، فكان يسيرُ معه حيثُ سار.

فإن قلتَ[1]: لِمَ خُصَّ موسىٰ وعيسىٰ بالذِّكر من بين سائر الأنبياء؟

قلتُ: لَمَّا أوتيا من الآياتِ العظيمة، والمعجزاتِ الباهرة.. خُصَّا بالذكر في باب التفضيل. فعلىٰ هذا: كل مَنْ كان من الأنبياء أعظمَ آياتٍ، وأكثرَ معجزاتٍ.. كانَ أفضلَ؛ ولهذا أَحْرزَ نبيُّنا ﷺ قَصَباتِ السبق في الفَضْل؛ لأنه أعظم الأنبياءِ آياتٍ، وأكثرهم معجزاتٍ، فهو أفضلُهم ﷺ وعليهم أجمعين.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عَدَمَ[2] اقْتِتالِهم، أو هُدىٰ[3] الناس جميعاً؛ أي: ولو أرادَ

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) البيضاوي.

اللّهُ ذلك ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾؛ أي: ما اختلَف الذين من بعدِ مجيءِ الرسل مِنَ الأممِ المختلفةِ اختلافاً مؤدِّياً إلىٰ الاقْتتالِ. فعَبَّرَ بالمُسَبَّبِ الذي هو الاقتتالُ عن السببِ الذي هو الاختلافُ. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: مِنْ بعد ما جاءَتْهم المعجزاتُ الواضحة، والبراهينُ الساطعة التي جاءَتْهم بها رُسلُهم؛ بأَنْ جَعَلهم مُتَّفِقِينَ علىٰ اتباع الرسلِ المتفقةِ علىٰ كلمةِ الحق. ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الدِّين. وهذا الاستدراكُ واضحٌ؛ لأنَّ ما قبلها ضِدٌّ لِمَا بعدها؛ لأن المعنىٰ: لو شاء الاتفاقَ لاتفقوا، ولكنْ شاء الاختلافَ فاختلفوا بمشيئته، ثم بَيَّنَ الاختلافَ فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ بما جاءت به أولئك الرسلُ مِنْ كلِّ كتابٍ، وعملوا به، وثَبَتُوا عليه، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بذلك بإعراضِهِ عنه؛ لخذلانِ اللّهِ إيَّاه؛ كالنصارىٰ بعد المسيح اختلفوا فصاروا فِرَقاً، ثُمَّ تحاربوا. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ قيل: هذه الجملةُ كُرِّرَتْ توكيداً للأُولىٰ، قاله الزمخشري. وقيل: لا توكيدَ، بل كُرِّر ذِكْرُ المشيئة باقتتالهم تكذيباً لِمَنْ زعم أَنَّهم فَعَلوا ذلك من عند أنفسهم، ولم يوجبْه قضاءٌ مِنَ اللّهِ؛ أي: ولو شاء الله عدمَ اقتتالهم بعدَ هذا الاختلافِ ما اقتتلوا. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لا رادَّ لحُكْمه، ولا مُبدِّل لقضائه، فهو يفعلُ ما يشاءُ، ويحكم ما يريد، فيوفِّقُ مَنْ يشاء، ويَخذلُ مَنْ يشاء، لا اعتراضَ عليه في فعله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وصَدَّقوا بما جاء به محمدٌ ﷺ ﴿أَنفِقُوا۟﴾؛ أي: اصرِفُوا وتَصَدَّقُوا ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾؛ أي: مما أعطيناكم من الأموال في الخيرات ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ﴾ أي: من قبل أن يجيء ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ وهو: يوم القيامة؛ أي: لا يُؤْخذ فيه بَدَلٌ، ولا فِداءٌ يَفْتَدي به الإنسانُ نَفْسَه مِنْ عذابِ اللّهِ لو فُرِضَ، وإنما سمَّاه بيعاً؛ لأنَّ الفِداءَ شِراءُ النفس من الهلاك. والمعنىٰ: قَدِّموا لأنفسكم اليوم من أموالكم، من قبل أن يأتي يومٌ لا تجارةَ فيه؛ فيكسبَ الإنسانُ ما يفتدي به من عذاب الله. ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾؛ أي: ولا مَودَّةَ ولا صَداقةَ تنفعُ يومئذٍ. قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾، وقال أيضاً؛ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ للكافرين؛ أي: ولا تنفعهم شفاعةُ الشافعين. وقَرأ ابن كثير،

وأبو عَمْرو ويعقوب: بالفتحِ بلا تنوينٍ في: بيعَ وخلةَ وشفاعةَ. وقرأ الباقون جميعاً: بالرفع.، وهما لغتان مشهورتان متواترتان، ووجهان معروفان عند النحاة.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني[1]: والتاركونَ للزكاةِ هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، أو وضَعُوا المالَ في غير مَوضِعِهِ، وصَرَفُوه علىٰ غير وجهه، فوُضِع الكافرون موضِعَهم تغليظاً عليهم، وتهديداً لهم، كقوله: و﴿مَنْ كفر﴾ مكانَ ومَنْ لم يَحُجَّ، وإيذاناً بأنَّ تَرْك الزكاةِ مِنْ صفاتِ الكُفَّارِ لقوله تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وأخرج[2] عبد بن حميد، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: قد عَلِم اللّهُ أنَّ ناساً يتخاللون في الدنيا، ويشفع بعضهم لبعض، فأمَّا يوم القيامة: فلا خُلَّةٌ إلا خُلَّةُ المتقين. وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، عن عطاءٍ قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

الإعراب

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلرُّسُلُ﴾: بدل منه، أو عطفُ بيانٍ، أو صفةٌ له ﴿فَضَّلْنَا﴾: فعلٌ وفاعلٌ، والجملةُ خبرُ المبتدأ، والجملةُ الاسميةُ مستأنفةٌ. ﴿بَعْضَهُمْ﴾: مفعولٌ به، ومضافٌ إليه. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جارٌ ومجرورٌ متعلق بفَضَّلْنا.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾.

﴿مِّنْهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ فعلٌ وفاعلٌ، والجملةُ صلة الموصول، والعائدُ محذوفٌ:

---

(١) البيضاوي.

(٢) الشوكاني.

تقديره؛ كَلَّمهُ الله، والجملةُ من المبتدأ والخبر مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً، أو في محل الرفع خبر ثانٍ لتلك الرسل. ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ﴾: الواو عاطفة. ﴿رفع﴾: فعلٌ ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله. ﴿بَعۡضَهُمۡ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿دَرَجَٰتٖ﴾: منصوبٌ بنزع الخافض؛ تقديره: في درجات، وجملة ﴿وَرَفَعَ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾.

﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾.

﴿وَءَاتَيۡنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفةٌ. ﴿آتينا﴾: فعل وفاعل، وهو بمعنىٰ أعطينا. ﴿عِيسَى﴾: مفعول أول ﴿ٱبۡنَ﴾: صفةٌ له، وهو مضاف. ﴿مَرۡيَمَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف: العلميةُ والتأنيث المعنوي. ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ علىٰ كونها مستأنفةً. ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفةٌ. ﴿أيدناه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿آتيناه﴾، ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلِّق بأيَّدْنا.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ﴾.

﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا ٱقۡتَتَلَ﴾: ما: نافية. ﴿ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لو﴾ هنا منفيٌّ بما، فالفصيح أنْ لا يدخل عليه اللام كما في الآية، ويجوز في القليل أنْ تدخل عليه اللام فيقول: لو قام زيدٌ لَمَا قامَ عَمْرٌو، وجملة ﴿لو﴾ مِنْ فعلِ شرطها وجوابها مستأنفةٌ. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِم﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلقٌ بمحذوف وجوباً لوقوعه صلة الموصول. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱقۡتَتَلَ﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ المصدرية، و ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدرٍ مجرور بالإضافة تقديره: مِنْ بعدِ مجيء البينات إيَّاهم. ﴿وَلَٰكِنِ

﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾: ﴿وَلَٰكِنِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿لو﴾.

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿فَمِنۡهُم﴾: الفاء: عاطفةٌ تفصيليّة ﴿منهم﴾: جار ومجرور خبرٌ مقدَّمٌ. ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة علىٰ جملة الاستدراك. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنۡ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَمِنۡهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿منهم﴾: خبر مقدم. ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخَّر، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ﴾، ﴿كَفَرَۚ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَن﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لو﴾ حرف شرط. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فعل شرطها. ﴿مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ جوابها، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿لو﴾ الأولى مؤكِّدةٌ لها. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكنَّ﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَفۡعَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة خبر ﴿لكن﴾ وجملة ﴿لكن﴾ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿لو﴾ الثانية. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفةٌ لها، والعائد أو الرابط محذوفٌ؛ تقديره: ما يريده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أيُّ﴾: منادىٰ نكرةٌ مَقْصُودَةٌ ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات أيٌّ: من الإضافة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع، أو في محل النصب صفة لأي. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، وجملة النداء مستأنفةٌ. ﴿أَنفِقُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور

متعلق بأنفقوا. ﴿رَزَقْنَٰكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفةٌ لها، والعائد أو الرابط محذوفٌ؛ تقديره: رزقناكموه. ﴿مِّن قَبْلِ﴾ جار ومجرور متعلق أيضاً بأنفقوا، وجاز تعلُّق حرفين بلفظٍ واحدٍ بفعلٍ واحدٍ لاختلافهما معنىً؛ فإنَّ الأُولىٰ: للتبعيض، والثانية: لابتداء الغاية. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ فعل وفاعل، منصوب بأن، والجملة في تأويل مصدر مجرور بالإضافة؛ تقديره: مِنْ قبل إتْيَانِ يومٍ. ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ ﴿لا﴾: نافيةَ تعمل عمل ليس. ﴿بَيْعٌ﴾: اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾؛ تقديره: لا بيع موجوداً فيه، وجملة ﴿لَّا﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع صفة ليوم تقديره: من قبل أن يأتي يوم موصوفٌ بعدم البيع فيه، وكذلك جملة قوله: ولا خلةٌ فيه، ولا شفاعةٌ فيه، في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ علىٰ كونها صفة ليوم تقديره: موصوف بعدم الخلة وبعدم الشفاعة فيه. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فَصْلٍ، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خبره والجملة مستأنفةٌ.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا﴾ التضعيف فيه للتعدية. ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: جمع درجةٍ، وهي: المنزلة الرفيعة. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جمع بَيِّنَة؛ وهي: المعجزة والحُجَّة. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: هو مِنَ التأييد بمعنى التَّقْوِيَةُ، يُقال: أَيَّد الحقَ ـ من باب فَعَّل المضعَّف ـ يؤيده تأييداً إذا نَصَره وأظهره. ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ البيع معروف: وهو مقابلة مال بمال علىٰ وجه التمليك، والفعل منه: باع يبيع، وهو من الأجوف اليائي. ومَنْ قال: أباعَ في معنىٰ باع.. فقد أَخْطأ؛ لأنه لم يُسْمَع منهم.

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾: الخُلَّة: الصداقة والمودة، سُمِّيتْ بذلك لأنها تتخلل الأعضاء؛ أي: تدخل خِلالَها ومنه الخليل. قال الشاعر:

وَكَانَ لَهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ خُلَّةٌ ... يُسَارِقُ بِالطَّرْفِ الخِبَاءَ المُسَتَّرَا

﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾: من الشَّفْع بمعنىٰ: الضم؛ لانضمام الشافع إلىٰ آخرَ ناصراً

له، وسائلاً عونه، والشفاعة في اصطلاحهم: طلب الخير للغير من الغير.

البلاغة

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾: وأشار بتلك التي للبعيد؛ لبُعْد ما بينهم من الأزمان، وبين النبي ﷺ، أو بُعْد مرتبتهم في الكمال، وأتىٰ بتلك التي للواحدة المؤنثة وإنْ كانَ المشار إليه جمعاً؛ لأنه جمع تكسير، وجمع التكسير حكمهُ حكمُ الواحدة المؤنثة في الوَصْفـِ، وفي عود الضمير، وفي غير ذلك. وكان جمعَ تكسيرٍ هنا لاخْتِصَارِ اللفظِ، ولإزالةِ قلق التكرار؛ لأنه لو قال: أولئك المرسلون فضلنا.. كان في اللفظ طولٌ، وكان فيه التكرارُ.

﴿فَضَّلْنَا﴾: فيه التفات؛ لأنه خروج إلىٰ متكلِّم من غائب؛ إذ قبله ذُكِر لفظُ الله، وهو لفظٌ غائبٌ.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾: هذا تفصيل لذلك التفضيل، ويسمىٰ هذا في البلاغة: التقسيم، وكذلك في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾. وبَيْن لفظِ ﴿ءَامَنَ﴾ و ﴿كَفَرَ﴾ طِباقٌ، وفي قوله: ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أيضاً: التفات؛ إذ هو خروج إلىٰ ظاهرِ غائبـِ منْ ضميرِ متكلمٍ؛ لِمَا في ذِكْر هذا الاسم العظيم من التفخيم والتعظيم، ولزوالـِ قلق تكرار ضمير المتكلم؛ إذ كان التركيب فضَّلْنا وكَلَّمنا ورَفَعْنَا وآتينا.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾: وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله، وإعلاء قدره ما لا يخفىٰ؛ لما فيه من الشهادة علىٰ أنه العَلَمُ الَّذي لا يَشْتَبه، والمتميِّز الذي لا يَلْتَبِسُ. وفي قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾: الإطنابُ حيث كَرَّر جملة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: فيه قصرُ الصفة علىٰ الموصوف، وقد أُكِّدَتْ بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

المناسبة

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ...﴾ الآيات، مناسبةُ[1] هذه الآيات لِمَا قبلها: أنَّه تعالىٰ لَمَّا ذكر أنه فَضَّل بعض الأنبياء علىٰ بعضٍ، وأنَّ منهم من كلَّمه، وفسَّر بموسىٰ عليه السلام، وأنه رفع بعضهم درجاتٍ، وفسَّر بمحمدٍ ﷺ، ونصَّ علىٰ عيسىٰ عليه السلام، وتفضيلُ المتبوعِ يُفهَمُ منه تفضيلُ التابعِ، وكانت اليهود والنصارىٰ قد أحدثوا بعد نبيهم بدعاً، وخرافاتٍ في أديانهم وعقائدهم، ونسبوا الله تعالىٰ إلىٰ ما لا يجوز عليه، وكان رسول الله ﷺ بُعثَ إلىٰ الناس كافَّةً، فكان منهم العرب، وكانوا قد اتخذوا من دون الله آلهةً، وأشركوا، فصار جميع الناس المبعوث إليهم ﷺ علىٰ غير استقامة في شَرائِعِهم وعقائدِهم، وذَكَر تعالىٰ أنَّ ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهم الواضعون الشيءَ في غير موضعه.. أتىٰ بهذه الآية العظيمة الدالة علىٰ إفراد الله بالوحدانية المتضمَّنة بصفاته العليا من الحياة، والاستبداد بالملك، واستحالة كونه مَحَلاً للحوادث، ومُلكِهِ لِمَا في السموات والأرض، وامتناع الشفاعة عنده إلا بإذنه، وسَعَة علمه، وعدم إحاطة أحد بشيءٍ من علمه، وباهر ما خلق من الكرسيِّ العظيم الاتساع، ووصفه

(١) البحر المحيط.

بالمبالغة في العلو والعظمة، إلىٰ سائر ما تَضَمَّنَتْهُ من أسمائه الحسنىٰ، وصفاته العليا، نبههم بها علىٰ العقيدة الصحيحة التي هي محض التوحيد، وعلىٰ طرح ما سواها، وذَكَر أنه لا إكراه في الدين؛ فقد سطع نور الحق، وأشرق ضياؤه، فمَنَ تمسَّكَ به.. فقد أستمسك بالعروة الوثقىٰ، وذَكَر أنه وليُّ المؤمنين، وأن الكافرين لا وليَّ لهم إلا الطاغوت.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ...﴾ روى أبو داود والنَّسائي وابن حبان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تكون المرأة مقلاةً، فتجعل علىٰ نفسها إن عاش لها ولدٌ أنْ تُهوِّده، فلما أُجليتْ بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندعُ أبنائنا، فَأَنْزَلَ اللّهُ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ...﴾.

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت آية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ في رجلٍ من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أَسْتَكْرِهُهُما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله الآية.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ أخرج ابن جرير، عن عبدة، عن أبي لبابة في قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال: هم الذين كانوا آمنوا بعيسى، فلما جاءهم محمدٌ ﷺ.. آمنوا به، وأُنزلت فيهم هذه الآية، وأخرج عن مجاهد قال: كان قومٌ آمنوا بعيسىٰ، وقومٌ كفروا به، فلما بُعث محمدٌ ﷺ.. آمن به الذين كفروا بعيسىٰ، وكفر به الذين آمنوا بعيسى، فأنزل الله هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ ومما ورد في فضل هذه الآية الكريمة:

ما أخرجه مسلم عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ياأبا المنذر، أتدري أيَّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟ قلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فضرب في صدري، وقال: «ليَهْنِكَ العلم يا أبا المنذر».

وما أخرجه أبو داود عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: أن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين، فسأله إنسان: أيّ آية في القرآن أعظم؟ فقال: رسول الله ﷺ: «﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾».

وما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ حين يصبح آية الكرسي، وآيتين من أول: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾.. حُفظ يومه ذلك حتىٰ يُمسي، ومن قرأها حين يمسي.. حُفظ ليلته تلك حتىٰ يُصبح». وقال: حديث غريب.

وما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ شيءٍ سَنَام، وإن سَنَام القرآنِ البقرة، وفيها آيةٌ هي سيدة آيِ القرآن؛ آية الكرسي» والمراد منه: تعظيمُ هذه السورة. وقوله هي سيدة آي القرآن؛ أي: أفضله.

وقال العلماء[1]: إنما تميَّزت آيةُ الكرسيِّ؛ بكونها أعظمَ آية في القرآن؛ لِمَا جَمعتْ من أصول الأسماء والصفات، من الإلهية، والوحدانية، والحياة، والعلم، والقيومية، والملك، والقدرة، والإرادة، فهذه أصول الأسماء والصفات؛ وذلك لأن الله تعالىٰ أعظم مذكور، فما كان ذاكراً له من توحيد وتعظيم.. كان أعظم الأذكار. وفي هذه الأحاديث حُجَّة لمن يقول: بجواز تفضيل بعض القرآن علىٰ بعض، وتفضيله علىٰ سائر كتب الله المنزلة.

وقالوا أيضاً: معنىٰ أن هذه الآية ـ أو هذه السورة ـ أعظمُ، أو أفضلُ هو: أنَّ الثواب المتعلق بها أكثر، وهذا هو المختار.

ومعنى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: الإلٰه الذي يستحق منكم العبادة.. مُخبَرٌ عنه بكونه لا معبودَ بحق في الوجود إلا هو سبحانه وتعالى، فجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبرُ المبتدأ؛ نفىٰ[2] الإلٰهية عن كل ما سواه، وأثبتَ الإلٰهية له

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

سبحانه وتعالى، فهو كقولك: لا كريم إلا زيدٌ، فإنه أبلغ من قولك: زيدٌ كريمٌ.

﴿ٱلْحَىُّ﴾؛ أي: الباقي علىٰ الأبد، الدائم بلا زوال، الذي لاسبيل إليه للموت والفناء، والحيُّ في صفة الله تعالىٰ: هو الذي لم يزل موجوداً، وبالحياة موصوفاً، لم تحدثْ له الحياة بعد موتٍ، ولا يعتريه الموت بعد حياة، وسائر الأحياء سواه يعتريهم الموت والعدم، فكل شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ سبحانه وتعالى.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾؛ أي: القائم[1] علىٰ كُلِّ نفسٍ بما كسبت. وقيل: القائم بذاته، المقيم لغيره. وقال مجاهد[2]: القيوم: القائم علىٰ كلِّ شيءٍ؛ أي: القائم بتدبير خلقه في إيجادهم، وإرزاقهم، وجميع ما يحتاجون إليه. وقيل: هو القائم الدائم بلا زوال، الموجود الذي يمتنع عليه التغيير.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ علىٰ وزن فيعول، وقرأ ابن مسعود وابن عمر وعلقمة والنُّخَعِيُّ والأعمش شذوذاً ﴿القيَّام﴾ بالألف، ورُوي ذلك عن عمر، وقرأ علقمة شذوذاً أيضاً ﴿القيِّم﴾ كما تقول: دَيِّرْ ودَيَّار، ولا خلافَ بين أهل اللغة: أن القَيُّوم أعرف عند العرب، وأصحُّ بناءً، وأثبت عِلَّةً. وقال أمية:

لَـمْ تُـخْـلَـقِ ٱلـسَّـمَـاءُ وَٱلـنُّـجُـوْمُ   وَٱلـشَّـمْـسُ مَـعْـهَـا قَـمَـرٌ يَـعُـوْمُ
قَـدَّرَهَـا ٱلْـمُـهَـيْـمِـنُ ٱلْـقَـيُّـوْمُ   وَٱلْـحَـشْـرُ وَٱلْـجَـنَّـةُ وَٱلـنَّـعِـيْـمُ
إِلاَّ لأَمْـرٍ شَـأْنُـهُ عَـظِـيْـمُ

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾؛ أي: لا تعتريه. ﴿سِنَةٌ﴾؛ أي: نعاسٌ. ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ ثقيلٌ فيشغلَه عن تدبير خلقه وأمره؛ أيْ: لا يأخذه نعاسٌ فضلاً عن أن يأخذه نوم؛ لأن النوم والسهو والغفلة محالٌ علىٰ الله تعالىٰ؛ لأن هذه الأشياء عبارة عن عدم العلم، وذلك نقص وآفة، والله تعالىٰ منزَّهٌ عن النقص والآفات، وأنَّ ذلك تَغَيُّر، والله تعالىٰ مُنَزَّهٌ عن التغيُّر.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط مع الشوكاني.

وفي «الجمل»[1] قوله: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ رتَّبهما بترتيب وجودهما؛ إذ وجود السِّنَة سابق علىٰ وجود النوم، فهو علىٰ حدٍّ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها؛ قصداً إلى الإحاطة والإحصاء. والمعنىٰ: أنه تعالىٰ لا يغفل عن دقيق، ولا عن جليلٍ. عَبَّر بذلك عن الغفلة؛ لأنه سببها فأطلق اسم السبب علىٰ المسبِّب. والسِّنَةُ: ما يتقدَّم النومَ من الفتور مع بقاء الشعور، وهو المسمَّىٰ: بالنعاس. والنومُ: حالةٌ تعرض بسبب استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبة الأبخرة المتصاعدة، فتمنع الحواس الظاهرة من الإحساس رأساً، ويمكن إيقاظ صاحبه. وقيل: النوم مزيل للقوة والعقل، وأمَّا السِّنة: ففي الرأس، والنعاس: في العين. وقيل: السِّنةُ هي: النعاس. وقيل السِّنةُ: ريح النوم تبدو في الوجه، ثم تنبعث إلىٰ القلب، فينعس الإنسان فينام. انتهى.

وقال الشوكاني[2]: وإذا ورد علىٰ القلب والعين دفعةً واحدة، فإنه يقال له: نوم، ولا يقال له: سِنة، فلا يستلزم نفيُ السِّنة نفيَ النوم، وقد ورد عن العرب نفيُهما جميعاً، ومنه قول زهير:

لاَ سِنَـةٌ طِـوَالِ ٱلـلَّـيْـلِ تَـأْخُـذُهُ وَلاَ يَـنَـامُ وَلاَ فِـيْ أَمْـرِهِ فَـنَـدُ

فلم يكتفِ بنفي السِّنةِ.

وأيضاً فإن الإنسان يقدر علىٰ أن يدفع عن نفسه السِّنة، ولا يقدر علىٰ أن يدفع عن نفسه النوم؛ فقد يأخذه النومُ، ولا تأخذه السِّنة. فلو وقع الاقتصار في النظم القرآني علىٰ نفي السِّنة.. لم يُفِدْ ذلك نفيَ النوم، وهكذا لو وقع الاقتصار علىٰ نفي النوم.. لم يُفِدْ نفيَ السِّنة، فكم من ذي سِنة غير نائم، وكُرِّرَ حرف النفي للتنصيص علىٰ شمول النفي لكل واحد منهما. انتهىٰ.

وأخرج مسلم عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بخمس كلماتٍ فقال: «إنَّ الله عزّ وجلّ لا ينام، ولا ينبغي

---

(١) جمل.
(٢) فتح القدير.

له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابُه النور ـ وفي رواية: النار ـ لو كشفه.. لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالىٰ، لا لغيره جميعُ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع من الملائكة ﴿و﴾ جميع ﴿ما في الأرض﴾ من الخلق مَلِكاً ومُلْكاً. ذكر ما فيهما دونهما للردِّ علىٰ المشركين العابدين لبعض الكواكب التي في السماء، والأصنام التي في الأرض؛ أي: فلا تصلح أن تكون معبودة؛ لأنها مملوكةٌ لله، مخلوقةٌ له.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾؛ أي؛ لا يشفع عنده أحدٌ من أهل السموات والأرض يومَ القيامة. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، أي: إلا بأمره وإرادته تعالى، وهذا ردٌّ علىٰ المشركين؛ حيث زعموا أن الأصنام تشفع لهم، فإنه تعالىٰ لا يأذن لأحدٍ في الشفاعة إلا للمطيعين، وهو ما استثناه بقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ يريد بذلك: شفاعة النبي ﷺ، وشفاعة بعض الأنبياء والملائكة، وشفاعة المؤمنين بعضهم بعضاً.

وفي هذا[1] الاستفهام من الإنكار علىٰ مَنْ يزعم: أنَّ أحداً من عباده يَقْدِر علىٰ أن ينفع أحداً منهم بشفاعة أو غيرها، ومن التقريع والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدَّفْع في صدور عُبَّادِ القبور، والصَّدِّ في وجوهم، والفَتِّ في أَعْضَادِهِم ما لا يرتاد قدرهُ، ولا يبلغ مَدَاه. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الضميران لـ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، بتغليب العقلاء علىٰ غيرهم؛ أي: يعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ما هو حاضرٌ مشاهَدٌ لهم، وهو: الدنيا وما فيها. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: قُدَّامهم، وهو: الآخرة وما فيها. وقيل: بعكسه؛ لأنهم يُقْدِمون علىٰ الآخرة، ويُخَلِّفون الدنيا وراء ظهورهم. وقيل: يعلم ما كان قبلهم، وما كان بعدهم. وقيل: يعلم ما قَدَّموه بين أيديهم من خيرٍ أو شرٍّ، وما خَلْفَهم مما هم فاعلوه. والمقصود من هذا: أنه سبحانه وتعالىٰ عالمٌ بجميع المعلومات، لا يخفىٰ عليه شيءٌ من أحوال جميع خلقه، وكَنَّىٰ بهاتين الجهتين عن سائر

(١) فتح القدير.

جهات من أحاط علمه به. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾؛ أي: لا يعلمون شيئاً قليلاً من معلوماته. ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ الله سبحانه وتعالىٰ أن يُعْلِمَهم بها؛ أي: إنَّ أحداً لا يحيط بمعلومات الله تعالىٰ إلا ما شاء هو أن يُعْلِمَهم، أو المعنى: إنهم لا يعلمون الغيب إلا عند إطلاع الله بعض أنبيائه علىٰ بعض المغيبات؛ ليكون ما يُطلِعهم عليه من علمِ غَيْبِهُ دليلاً علىٰ نبوتهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أحاط كرسيُّه، واشتمل عليهما لعظمته. وأصل[1] الكرسيِّ في اللغة: مِنْ تركب الشيء بعضه علىٰ بعضٍ، ومنه: الكُرَّاسة؛ لتركُّب بعض أوراقها علىٰ بعضٍ، والكرسيُّ في العُرْف: اسم لما يُقعد عليه، سُمِّيَ به لتركُّب خشباته بعضها علىٰ بعض.

واختلفوا في المراد بالكرسيِّ هنا علىٰ أربعة أقوالٍ:

أحدها: أنَّ الكرسيَّ: هو العرش.

والقول الثاني: أن الكرسيَّ: غير العرش، وهو أمامه، وهو فوق السموات ودون العرش، فهو جسم عظيم تحت العرش، وفوق السماء السابعة، وهو أوسع من السموات والأرض. وقال ابن كثير: والصحيح: أن الكرسيَّ غيرُ العرش، والعرش أكبر منه، كما دلَّتْ علىٰ ذلك الآثار والأخبار.

والقول الثالث: أنَّ الكرسي: هو الاسم الأعظم؛ لأن العلم يعتمد عليه، كما أن الكرسيَّ يُعتمد عليه.

والقول الرابع: المراد بالكرسيِّ: المُلْك والسلطان والقدرة؛ لأن الكرسيَّ موضع السلطان، فلا يَبْعد أن يُكنىٰ عن الملك بالكرسيِّ على سبيل المجاز.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾؛ أي لا يُثقله، ولا يُجهده، ولا يُتعبه، ولا يَشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾؛ أي: حفظ السموات والأرض، فحَذَفَ الفاعلَ، وأضاف المصدرَ

(١) الخازن.

إلىٰ المفعول ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾؛ أي: الرفيع فوق خلقه، الذي ليس فوقه شيءٌ فيما يجب له أن يوصف به، من صفات الجلال والكمال، فهو العليّ بالإطلاق، المتعالي عن الأشباه والأنداد والأضداد ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: ذو العظمة والكبرياء، الذي لا شيء أعظم منه، أو الذي يستحقر كلَّ ما سواه بالنسبة إليه، فهو تعالىٰ أعلىٰ وأعظم من كلِّ شيء.

ومن فضائلها أيضاً: أنه رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما قُرِئتْ هذه الآيةُ في دارٍ.. إلَّا هَجرتها الشياطينُ ثلاثين يوماً، ولا يدخُلُها ساحرٌ ولا ساحرة أربعينَ ليلةً».

وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: سمعتُ نبيَّكم علىٰ أعواد المنبر وهو يقول: «مَنْ قرأ آية الكرسي في دُبُر كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ.. لم يمنعْهُ من دخول الجنة إلا الموت»؛ أي: فإذا مات دخل الجنة، ولا يواظب عليها إلا صِدِّيقٌ أو عابدٌ، ومَنْ قرأها إذا أخذ مَضجِعه.. أُمِنَهُ علىٰ نفسه، وجاره، وجار جاره، والأبيات التي حوله. ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ أي: لا إجبار علىٰ الدخول في دين الإسلام؛ إذ الإكراهُ في الحقيقة: إلْزَامُ الغيرِ فِعْلاً لا يَرىٰ فيه خيراً يَحْمِلُه عليه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾؛ أي؛ قد تَمَّيز الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهدىٰ من الضلالة؛ بكثرة الدلائل، والبراهين الساطعة. وقُرىء بسكون الشين، وبضمها، وبفتح الراء والشين، وكله عدا قراءة الجمهور شاذ، وقُرىء كذلك وبألف بعد الشين، وقُرىء بإدغام دال ﴿قَد﴾ في تاء ﴿تَّبَيَّنَ﴾ لجميع القراء في المتواتر، وقُرىء بإظهارها شاذاً.

وقال الشوكاني(١): وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية على أقوالٍ:

الأول: أنها منسوخةٌ؛ لأن رسول الله ﷺ قد أكره العرب علىٰ دين الإسلام، وقاتلهم، ولم يرضَ منهم إلا الإسلام، والناسخُ لها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟

---

(١) فتح القدير.

﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾، وقد ذهب إلىٰ هذا كثيرٌ من المفسرين.

القول الثاني: أنها ليست بمنسوخةٍ، وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصةً، وأنهم لا يُكْرَهُون علىٰ الإسلام إذا أَدَّوا الجِزْية، بل الذين يكرهون هم: أهلُ الأوثان، فلا يُقبل منهم إلا الإسلام، أو السيف، وإلىٰ هذا ذهب الشعبي والحسن وقتادة والضحاكُ.

القول الثالث: أنَّ هذه الآية في الأنصار خاصةً، كما سبق لك بيان ما ورد في ذلك.

القول الرابع: أن معناها لِمَنْ أسلمَ تحت السيف؛ أنَّه مكرهٌ، فلا إكراه في الدين، إلىٰ غير ذلك من الأقوال.

والذي ينبغي اعتماده، ويتعيَّن الوقوف عنده: أنها في السَّبَبِ الذي نَزَلتْ لأجله، مُحْكَمةٌ غيرُ منسوخةٍ؛ وهو أن المرأة من الأنصار كانت مقلاةً، لا يكاد يعيش لها ولدٌ إلىٰ آخر ما سبق ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ أي: بالشيطان، أو الأصنام، أو بكلِّ ما عُبد من دون الله ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: ويُصدِّق بالله أنه ربُّه، ومعبودُه من دون كلِّ شيءٍ كان يعبده، وفيه: إشارةٌ إلىٰ أنه لا بد للكافر أن يتوب أولاً عن الكفر، ويستبرأ منه، ثُمَّ يؤمنَ بعد ذلك بالله، فمَنْ فعل ذلك.. صحَّ إيمانه، وناسب ذلك أيضاً اتصاله بلفظ الغيِّ، ولم يَكْتَفِ بالجملة الأُوْلَى؛ لأنها لا تستلزم الجملة الثانية؛ إذ قد يَرْفُض عبادتَها، ولا يؤمن بالله، لكنَّ الإيمان يستلزم الكفر بالطاغوت. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾؛ أي: تَمَسَّكَ ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾؛ أي: بالعقدة ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾؛ أي: المحكمة ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾؛ أي: لاانقطاع لتلك العروة حتىٰ تُوصله إلىٰ الجنة؛ أي: فقد أَخَذَ بالحبل الوثيق، الشديد المحكم المأمون، الذي لا انقطاع له؛ أي: فقد أَخَذ بالثقة بـ ﴿لا إله إلا الله﴾ التي لا انقطاع لصاحبها عن نعيم الجنة، ولا زوال عن الجنة، ولا هلاكَ بالبقاء في النار. وهذا تمثيلٌ للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتىٰ يَتَصَوَّره السامع كأنَّه ينظرُ إليه بعينه، فيُحْكِمُ اعتقاده. والمعنىٰ: فقد عَقَد لنفسه من الدين

عِقداً وثيقاً لا تَحُلُّه شُبْهةٌ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ قول من يتكلم بالشهادتين وقول من يتكلم بالكفر ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلب المؤمن من الاعتقاد الطاهر، وما في قلب الكافر من الاعتقاد الخبيث، أو يقال: والله سميعٌ لدعائك يا محمد، عليمٌ بحرصك علىٰ إسلام أهل الكتاب؛ وذلك لأن رسول الله ﷺ كان يُحِبُّ إسلام أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا حول المدينة، وكان يسأل الله تعالىٰ ذلك سِرّاً وَعلَانِيَةً.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: الذين أرادوا أن يؤمنوا؛ أي: ناصِرُهم، ومعينُهم، ومحبُّهم، ومتولي أمورهم، وهِدَايتهم؛ كعبد الله بن سَلَام وأصحابه ﴿يُخْرِجُهُم﴾ بلطفه وتوفيقه ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: من ظلمات الكفر والضلالة، واتباع الهوىٰ، وقبول الوساوس والشُّبه المؤدية إلىٰ الكفر. وجُمِعَتْ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لاختلاف أنواع الضلالات ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: إلىٰ نور الإيمان والهداية، ووُحِّد النور؛ لأن الإيمان واحدٌ لا يتنوع.

وقال الواقدي[1]: كلُّ شيءٍ في القرآن من الظلمات والنور.. فإنه أراد به: الكفر والإيمان، غير التي في الأنعام، وهو: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ فإنه أراد به: الليل والنهار.

وقال الواسطي: يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلىٰ آدابها؛ كالرضا والصدق والتوكل والمعرفة والمحبة.

وقال أبو عثمان: يُخرجهم من ظلمات الوَحْشة والفرقة إلىٰ نور الوصلة والإلفة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾؛ أي: والذين صَمَّموا علىٰ الكفر أمرَهُم، ككعب بن الأشرف وأصحابه. ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾؛ أي: ولاة أمورهم. ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾؛ أي: الشياطين، وسائر المضلين عن طريق الحق. وقرأ الحسن شذوذاً: ﴿الطواغيت﴾ بالجمع. ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بالوساوس وغيرِها من طرق الإضلال، وأتىٰ بضمير الجمع؛ لأن الطاغوت في معنىٰ الجمع. ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ الفطري؛ أي: الذي جُبل

---

(١) البحر المحيط.

عليه الناس كافةً، أو من نور البينات التي يشاهدونها من جهة النبي ﷺ. ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾؛ أي: إلىٰ ظلمات الكفر، والانهماك في الضلال والشهوات، أو إلىٰ ظلمات الشكوك والشبهات. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من الطَّاغوت والكفار ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ أي: ملابِسُوها ومُلازِمُوها. ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها أبداً لا يموتون، ولا يخرجون بسبب مَا لَهُم من الجرائم.

الإعراب

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوفٌ جوازاً تقديره: موجودٌ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغٌ. ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المُنَزَّه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾ تقديره: لا إلٰه موجودٌ هو إلا هو، وجملة ﴿لَآ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مِنَ المبتدأ والخبر مستأنفةٌ استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: صفةٌ أولىٰ للمبتدأ الذي هو الله، مرفوعٌ. ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾: صفةٌ ثانية له، وقيل[1]: مرفوع علىٰ أنه خبر بعد خبر، أو علىٰ أنه بدل من ﴿هُوَ﴾، أو من ﴿ٱللَّهُ﴾، أو علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو، أو علىٰ أنه مبتدأ، والخبر: لا تأخذه. وأجود هذه الأوجه أولُها؛ أي: جعله صفة للمبتدأ، ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿الحيَّ القيوم﴾ بالنصب، فقطع علىٰ إضمار أمدح، فلو لم يكن وصفاً.. ما جاز فيه القطع، ولا يقال في هٰذا الوجه: الفصل بين الصفة والموصوف بالخبر؛ لأن ذلك جائز حسن، تقول: زيدٌ قائمٌ العاقلُ.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾.

﴿لَا﴾: نافيةٌ ﴿تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ ﴿الواو﴾:

---

(١) البحر المحيط.

عاطفة. ﴿لا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد نفي ما قبلها ﴿نَوْمٌ﴾: معطوف علىٰ ﴿سِنَةٌ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها من الإعراب، ويجوز[1] أن تكون خبراً آخر للفظ الجلالة، أو خبراً لـ ﴿ٱلْحَىُّ﴾، ويجوز أن تكون حالاً من الضمير المستتر في القيوم؛ أي: يقوم بأمر الخلق غير غافل.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو في محل الرفع خبر بعد خبر للفظ الجلالة. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

﴿مَن ذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: خبر له، والجملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿يَشْفَعُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿عِندَهُۥٓ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَشْفَعُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَشْفَعُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.

﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله والجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به؛ لأن عَلِم هنا بمعنىٰ عَرَف. ﴿بَيْنَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها، وهو مضاف. ﴿أيدي﴾: مضاف إليه مجرور بكسرة مقدَّرة، وهو مضاف، والضمير مضاف إليه ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: معطوف علىٰ ﴿مَا﴾ الأولىٰ. ﴿خَلْفَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لا﴾: نافية

---

(١) العكبري.

﴿يُحِيطُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِشَيْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُحِيطُونَ﴾. ﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لشيءٍ؛ أي: بشيء كائن من معلوماته. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُحِيطُونَ﴾، ولا يضر[1] تعلُّق هذين الحرفين المتحدين لفظاً ومعنىً بعامل واحد؛ لأن الثاني ومجرورَه بدل من ﴿شيءٍ﴾ بإعادة العامل بطريق الاستثناء؛ كقولك: ما مررت بأحد إلا بزيد. ﴿شَآءَ﴾ فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد ـ أو الرابط ـ محذوف تقديره: إلا بما شاء.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَـُٔودُهُۥ﴾: فعل ومفعول. ﴿حِفْظُهُمَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿وَسِعَ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾: خبر أول. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: خبر ثانٍ، أو صفة لـ ﴿العلي﴾، والجملة مستأنفة.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾.

﴿لَآ﴾: نافية. ﴿إِكْرَاهَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾ تقديره: لا إكراه كائن في الدين، والجملة مستأنفة ﴿قَد﴾: حرف تحقيق. ﴿تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ﴾: فعل وفاعل ﴿مِنَ ٱلْغَىِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَّبَيَّنَ﴾؛ لأنه بمعنىٰ تميَّز، والجملة في محل الجر بلام التعليل المقدرة؛ لأن هذه الجملة[2] كالعلة لانتفاء الإكراه في الدين، ولا موضع لها من

---

(١) الكرخي.
(٢) النهر والبحر.

الإعراب. ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ ﴿فمن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفتَ أنه لا إكراه في الدين، وأردت بيان حكم مَنْ كفر بالطاغوت.. فأقول لك: (من): اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل شرط مجزوم بـ ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ من. ﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ متعلق بـ ﴿يَكْفُرْ﴾ ﴿وَيُؤْمِنۢ﴾: معطوف علىٰ ﴿يَكْفُرْ﴾ مجزومٌ بـ ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يؤمن﴾.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿فَقَدِ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ وجوباً؛ لاقترانه بقد. ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ علىٰ كونه جواباً له، وفاعله: ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدَّرة مستأنفة. ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾: صفة للعروة. ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ لا: نافية. ﴿ٱنفِصَامَ﴾: في محل النصب اسمها ﴿لَهَاۗ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾ تقديره: لا انفصام كائن لها، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من ﴿العروة﴾، والعامل فيها ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾، أو حال(١) من الضمير المستتر في ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾، أو مستأنفة مُقرِّرةٌ لِمَا قبلها مِنْ وَثَاقة العروة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه. ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿يُخْرِجُهُم﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود علىٰ الله، والجملة خبر(٢) بعد

---

(١) الجمل.

(٢) البيضاوي.

خبر، أو حال من المستكن في الخبر، أو من الموصول، أو منهما، أو استئناف مبيِّن ومُقرِّرٌ للولاية. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: كلاهما متعلق بـ ﴿يُخْرِجُهُم﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ أول. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾: مبتدأ ثانٍ، ومضاف إليه. ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿يُخْرِجُونَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، أو حال[1] من الطاغوت، والعامل فيه معنىٰ الطاغوت؛ لأنه بمعنىٰ المضلِّين، وهو نظير ما قاله أبو علي من نصب: ﴿نَزَّاعَةً﴾ علىٰ الحال، والعامل فيها ﴿لظى﴾. ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾: وهو خبر المبتدأ والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْحَيُّ﴾: عينه ولامه ياءان؛ لأنه من: حَيِيَ بياءين، يحيا ـ من باب رضي ـ فهو حيٌّ.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: علىٰ وزن فيعول؛ لأنه مِن قام بالأمر يقوم به إذا دَبَّره، وأصله: قيووم، اجتمعت الواو والياء، وسُبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأُدغمت الياء فيها، فصار قيوماً.

﴿سِنَةٌ﴾: أصله وَسْنة؛ لأنه من: وسن يسن، من باب: وعد يعد، فلما حُذفت الواو في المضارع حذفت في المصدر.

(١) البحر المحيط.

﴿بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾: العلم هنا: مصدر بمعنىٰ اسم المفعول؛ أي: من معلوماته؛ كالخلق بمعنىٰ: المخلوق، واللفظ بمعنىٰ: الملفوظ.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾: في «المصباح»: آده يؤده أوداً من باب: قال، فـ: انآد بوزن انفعل؛ أي: ثقل به، وآده أوداً إذا عطفه وحَنَاه. ا هـ.

﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ هو فعيل؛ لأن أصله عليو؛ لأنه من: علا يعلو، اجتمعت الواو والياء وسُبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، فأدغمت الياء فيها، فصار علياً.

﴿بِٱلطَّـٰغُوتِ﴾ والطاغوت[1]: بناء مبالغة؛ كالجبروت و الملكوت، واختُلِفَ فيه فقيل: هو مصدر في الأصل، فلذلك يؤنث ويذكر كسائر المصادر الواقعة علىٰ الأعيان، وهذا مذهب الفارسي، وقيل: هو اسم جنس مفرد، فلذلك لزم الإفراد والتذكير، وهذا مذهب سيبويه، وقيل: هو جمع، وقد يؤنث بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾، واشتقاقه من: طغىٰ يطغىٰ، كسعىٰ يسعىٰ، أو من: طغا يطغو علىٰ حسب ما فيه من الخلاف: هل هو من ذوات الواو، أو من ذوات الياء؟ وعلىٰ كلا التقديرين فأصله: طَغْيُوتْ، أو طَغْوُوت؛ لقولهم: طغيان، فقلبت الكلمة: بأن قُدمت اللام وأُخرت العين، فتحرك حرف العلة، وانفتح ما قبله، فقلبت ألفاً، فوزنه الآن: فلعوت، وقيل: تاؤه ليست زائدة، وإنما هي بدل من لام الكلمة، فوزنه: فاعول.

﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: العروة في الأصل: موضع شد اليد، وأصل المادة تدل علىٰ التعلق، ومنه: عروته إذا ألممت به متعلقاً به، واعتراه الهمُّ إذا تعلق به. و ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾: علىٰ وزن فعلىٰ للتفضيل، تأنيث الأوثق؛ كفضلىٰ تأنيث الأفضل، وجمعها علىٰ: وُثَق؛ ككبرىٰ وكُبَر، وأما وُثُق بضمتين: فجمع وثيق. ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الولي: فعيل بمعنىٰ فاعل، وهو الناصر.

---

(١) سمين.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: وتقديم السنّة علىٰ النوم يفيد المبالغة من حيث إن نفي السنّة يدل علىٰ نفى النوم، ففي ذكره ثانياً صريحاً إفادة المبالغة؛ أي: لا تأخذه سنَة فضلاً عن أن يأخذه نوم، وكُررت ﴿لَا﴾ تأكيداً، وفائدتها: انتفاء كل واحد منهما على حِدَتِه؛ إذ لو أُسقطت ﴿لَا﴾.. لاحْتُمل انتفاؤهما بقيد الاجتماع. تقول: ما قام زيد وعمرو، بل أحدهما، ولا يقال: ما قام زيد ولا عمرو، بل أحدهما.

﴿ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: هذا الكلام: إما من[١] باب الاستعارة التمثيلية، مبني علىٰ تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق بالهيئة الحسية المنتزعة من التمسك بالحبل المحكم، وإما من باب الاستعارة المفردة؛ حيث استعيرتْ العروة الوثقى للاعتقاد الحق. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: فيه استعارة تصريحية؛ حيث شبَّه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور. قال في «تلخيص البيان»: وذلك من[٢] أحسن التشبيهات؛ لأن الكفر كالظلمة يتسكع فيها الخابط، ويضل فيها القاصد، والإيمان كالنور الذي يَؤُمه الجائر، ويهتدي به الحائر، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب.

وقال أبو حيان[٣]: وذكروا في هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة، وعلم البيان:

منها: في آية الكرسي حسن الافتتاح؛ لأنها افْتُتِحتْ بأجلِّ أسماء الله تعالىٰ، وتكرار اسمه في ثمانية عشر موضعاً، وتكرير الصفات، والقطع للجمل بعضها عن بعض، ولم يصلها بحرف العطف.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فإن النوم

---

(١) الجمل.

(٢) تلخيص البيان.

(٣) البحر المحيط.

موت وغفلة، و ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ يناقضه، وفي قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ﴾.

ومنها: التشبيه في قراءة من قرأ شذوذاً: ﴿وسْعُ كرسيهِ السمواتُ والأرضُ﴾ بسكون السين وضم العين، والسموات والأرض بالرفع: مبتدأ وخبر؛ أي: كوسع كرسيه، فإن كان الكرسي جُرْماً: فتشبيه محسوس بمحسوس، أو معنىً: فتشبيه معقول بمحسوس.

ومنها: معدول الخطاب في قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ إذا كان المعنىٰ لا تُكرهوا علىٰ الدين أحداً.

ومنها: الطباق في قوله أيضاً: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ وفي قوله: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ و ﴿كَفَرُوٓا۟﴾ وفي قوله: ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

ومنها: التكرار في الإخراج لتباين تعليقهما.

ومنها: التأكيد بالمضمر في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها[١]: أنه تعالىٰ لَمَّا أخبر أنه ولي الذين آمنوا، وأخبر أن الكفار أولياؤهم الطاغوت.. ذكر هذه القصة التي جَرَتْ بين إبراهيم والذي حاجه، وأنه نَاظر ذلك الكافر فغلبه وقطعه؛ إذ كان الله وليَّه، وانقطع ذلك الكافر وبهت؛ إذ كان وليه هو الطاغوت. ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فصارت هذه القصة مثلاً للمؤمن والكافر اللذين تقدم ذكرهما.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ...﴾ وهذا إخبار من الله تعالىٰ بأن الظالم لا يهديه، وظاهره العموم، ومناسبة[٢] هذه الآية بهذا الإخبار ظاهرة؛ لأنه ذكر حال مدعٍ شركة الله في الإحياء والإماتة، مُموِّهاً بما فعله أنه إحياء

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

وإماتة، ولا أحد أظلم ممن يدعي ذلك، فأخبر الله تعالىٰ: أن من كان بهذه الصفة من الظلم، لا يهديه الله إلىٰ اتباع الحق، ومثل هذا محتوم عليه عدم الهداية، مختوم له بالكفر.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها في غاية الظهور؛ إذ كلاهما أتىٰ بها دلالة علىٰ البعث المنسوب إلىٰ الله تعالىٰ في قول إبراهيم لنمروذ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ لكن المار علىٰ القرية أراه الله ذلك في نفسه، وفي حماره وإبراهيم عليه السلام أراه ذلك في غيره وقُدِّمت آية المار علىٰ آية إبراهيم عليه السلام، وإنْ كان إبراهيم عليه السلام مقدَّماً في الزمان علىٰ المار؛ لأنه تعجب من الإحياء بعد الموت وإنْ كان تعجب اعتبار فأشبهَ الإنكار، وإنْ لم يكن إنكاراً.. فكان أقرب إلىٰ قصة النمروذ وإبراهيم عليه السلام. وأما إن كان المار كافراً: فظهرت المناسبة أقوىٰ ظهور، وأما قصة لُبَّة - أي شدة سؤاله - إبراهيم عليه السلام فهي سؤال لإرائه كيفية الإحياء؛ ليشاهد عياناً ما كان يعلمه بالقلب، وأخبر به نمروذ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: هل[2] انتهىٰ إليك يا محمد خبر الذي خاصم إبراهيم في ربه وجادله؛ لأن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كلمة يوقف بها المخاطب علىٰ تعجب منها، فالهمزة لإنكار النفي، ولتقرير المنفي، أي: هل انتهىٰ إليك يا محمد خبر هذا الطاغوت كيف تصدَّىٰ لإضلال الناس، وإخراجهم من النور إلىٰ الظلمات الذي حاج، وخاصم إبراهيم عليه السلام في معارضة ربوبية ربه؟ والهاء في ﴿رَبِّهِۦٓ﴾ يرجع إلىٰ ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، أو إلىٰ ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ﴾ فهو ربهما. وقرأ علي بن أبي طالب شذوذاً: ﴿ألم تَرْ﴾ بسكون الراء، وهو من إجراء

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.

الوصل مجرىٰ الوقف، وهذا استشهاد[1] علىٰ ما ذُكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت، وتقرير له؛ كما أن ما بعده وهو قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ استشهاد علىٰ ولاية الله للمؤمنين، وتقرير لها. وإنما بدأ بهذا؛ لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله، ولأن فيما بعده تعدد، أو تفصيلاً. والذي حاج إبراهيم عليه السلام هو: نمروذ بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح عليه السلام، وهو أول من وضع التاج علىٰ رأسه، وتجبر في الأرض، وادَّعىٰ الربوبية، ملك زمانه، وصاحب النار والعوضة، وكان ابن زنا، وهو أول من صَلَب، وقطع الأيدي والأرجل. ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾؛ أي: طغىٰ، وادَّعىٰ الربوبية، فحاج إبراهيم عليه السلام؛ لأنْ أعطاه الله الملك؛ أي: إنَّ إِيْتَاءَ المُلْك له حَمَلَه علىٰ البطر، وأورثه الكِبْر والعتو، فحاج لذلك. وقال الزمخشري[2]: فإن قلتَ: كيف جاز أن يؤتي الله المُلْك الكافرَ؟

قلتُ: فيه قولان: آتاه ما غلب به وتسلط، من المال والخدم والاتباع، وأما التغليب والتسليط: فلا، وقيل: مَلَّكه امتحاناً لعباده. انتهى.

وقال مجاهد[3]: مَلَك الأرض أربعة؛ مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: فسليمان بن داود، وذو القرنين. وأما الكافران: فنُمروذُ، وبختنصرُ. واختلفوا في وقت هذه المحاجة.

فقيل: لما كَسَر إبراهيم الأصنام سجنه نمروذ، ثم أخرجه ليحرقه فقال له: مَنْ ربك الذي تدعونا إليه؟ قال إبراهيم: الذي يحيي ويميت. وقيل: كان هذا بعد إلقائه في النار، وخروجه منها سالماً. وذلك أن الناس قحطوا علىٰ عهد نمروذ، وكان الناس يمتارون من عنده، فكان إذا أتاه الرجل في طلب الطعام.. سأله: مَنْ ربك؟ فإن قال: أنت، باع منه الطعام. فأتاه إبراهيم، فقال له: مَنْ

---

(١) الجمل.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الخازن.

ربك؟ فقال له إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت؛ كما ذكره تعالىٰ بقوله: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ بفتح ياء ربي. وقرأ حمزة بسكونها، وقرىء شذوذاً بحذفها. و ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ ﴿حَآجَّ﴾؛ أي: ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وفيه إشارة إلىٰ أنه هو الذي أوجد الكافر، ويحيه ويميته؛ كأنه قال: ربي الذي يحيي ويميت، هو متصرف فيك وفي أشباهك، بما لا تقدر عليه أنت ولا أشباهك، من هذين الوصفين العظيمين المشاهدين للعالم، اللذين لا ينفع فيهما حيل الحكماء، ولا طب الأطباء، وفيه إشارة أيضاً إلىٰ المبدأ والمعاد. واختار إبراهيم من آيات الله الإحياء والإماتة؛ لأنهما أبدع آيات الله، وأشهدها وأدلها علىٰ تمكُّن القدرة. ﴿قَالَ﴾ نمروذ اللعين ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ قرأ جمهورُ القُرَّاء[1]: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ﴾ بطرح الألفِ التي بعد النون من ﴿أَنَا۠﴾ في الوصل، وأثبتها نافع وابن أبي أويس. أراد[2] إبراهيم عليه السلام أن الله هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن القتل، فيكون ذلك إحياءً، وعلىٰ أن يقتل، فيكون ذلك إماتة. فكان هذا جواباً أحمق، لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم؛ لأنه أراد غير ما أراده الكافر. فلو قال له: ربُّهُ الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، فهل تقدر علىٰ ذلك؟ لبهت الذي كفر بادىء بدء، وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه إلىٰ حجة أخرىٰ تنفيساً لخناقه وإرسالاً لعنان المناظرة. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ له ائتني ببيان ذلك، فدعا نمروذ برجلين من السِّجْنِ، فقتل أحدهما، وترك الآخر، قال: هذا بيان ذلك. قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾، أي: يطلعها كل يوم من المشرق ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾؛ أي: فأطلعْها ولو يوماً واحداً من المغرب إنْ كنت صادقاً فيما تدعيه من الربوبية، قال له ذلك؛ لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة. وكانوا أهل تنجيم[3]. وحركة الكواكب من المغرب إلىٰ المشرق معلومة لهم. والحركة

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.
(٣) نسفي.

الشرقية المحسوسة لنا قسرية؛ كتحريك الماء النملَ علىٰ الرحىٰ إلىٰ غير جهة حركة النمل، فقال: إن ربي يحرك الشمس قسراً علىٰ غير حركتها، فإن كنت ربّاً فحرِّكْها بحركتها فهو أهون ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾؛ أي: تحير نمروذ وسكت بغير حجة، فبقي مغلوباً لا يجد للحجة مقالاً، ولا للمسألة جواباً، ولم يقل: فبهت الذي حاج؛ إشعاراً بأن تلك المحاجة كُفْر.

قراءة الجمهور[1]: ﴿فبُهت﴾ مبنيّاً للمفعول، والفاعل المحذوف إبراهيم؛ إذ هو المناظِر له، فلما أتىٰ بالحجة.. بهته بذلك وحيره وغلبه. ويحتمل أن يكون الفاعل المحذوف المصدرَ المفهوم من ﴿قَالَ﴾؛ أي: فحيره قول إبراهيم وبهته. وقرأ ابن السميقع شذوذاً: ﴿فبَهت﴾ بفتح الباء والهاء، والظاهر أنه متعدٍ كقراءة الجمهور مبنياً للمفعول؛ أي: فبهَتَ إبراهيمُ الذي كفر، فـ ﴿ٱلَّذِى﴾ في موضع نصب، وقيل المعنىٰ: فبهَتَ الكافرُ إبراهيمَ، أي: سَبَّ وقذف إبراهيم حين انقطعت الحجة، ولم تكن له حيلة. ويحتمل أن يكون لازماً، ويكون الذي كفر فاعلاً، والمعنى فبهت؛ أي: أتىٰ بالبهتان وقرأ أبو حيوة شذوذاً: ﴿فبَهُت﴾ بفتح الباء وضم الهاء، وهي لغة في بَهِت بكسر الهاء، وقرىء شذوذاً أيضاً فيما حكاه الأخفش ﴿فبهِت﴾ بكسر الهاء.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر إلىٰ طريق الحجة؛ أي: لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان. بخلاف أولياؤه المتقين. قيل وعنىٰ بالظالمين: نمروذ، ولكن الظاهر العموم، والذي يظهر أن هذا إخبار من الله بأن من حَكَم عليه وقضىٰ بأن يكون ظالماً، أي: كافراً، وقدَّر أن لا يسلم، فإنه لا يمكن أن تقع هداية من الله له ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ قرأ الجمهور ﴿أَوْ﴾ ساكنة الواو. قيل ومعناها التفضيل، وقيل التخيير في التعجيب من حال من ينشأ منهما. وقرأ[2] أبو

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

سفيان بن حسين شذوذاً ﴿أوَ كالذي﴾ بفتح الواو، وهي حرف عطف دخل عليها ألف التَّقْرِيْرِ، والكاف بمعنىٰ إلىٰ فهو معطوف علىٰ قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ أي: أَلَمْ ينتهِ علمك يا محمد إلىٰ قصة الذي حاج إبراهيم، وإلىٰ قصة الذي مرَّ وجاوز علىٰ قرية وهو عزير بن شرخيا؟ والقرية: هي بيت المقدس حين خربه بُخْتُنَصَّرُ، أو القريةُ التي أَهْلَكَ اللّهُ فيها الذين خَرجُوا مِنْ دِيارَهِم حذَرَ الموتِ، أَيْ: هل انْتَهىٰ إليك يا محمد خَبرُهُ وقصتُه كيف هداه الله وأخرجه من ظلمةِ الاشتباهِ إلىٰ نور العيان؟.

ومقصود القصة[1]: تعريف منكري البعث قدرة الله تعالىٰ علىٰ إحياء خلقه بعد إماتتهم، لا تعريف اسم ذلك المار في هذه القصةِ دلالة عظيمة بنبوة نبينا محمد ﷺ؛ لأنه أخبر اليهود بما يجدونه في كتبهم ويعرفونه، وهو أميٌّ لم يقرأ الكتب القديمة.

﴿وَهِىَ﴾؛ أي: والحال أن تلك القرية ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أي: خالية ساقطة جدرانها علىٰ سقوفها؛ وذلك أن السقوف سقطت أولاً، ثم وقعت الحيطان عليها بعد ذلك. ﴿قَالَ﴾ ذلك المار ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ﴾؛ أي: كيف يحيي ﴿هَٰذِهِ﴾ القرية الخاوية ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: قال كيف يحي الله سبحانه وتعالى أهل هذه القرية بعد موتهم!! تعجباً من قدرة الله تعالىٰ علىٰ إحيائها، واستعظاماً لقدرته، واعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء؛ وذلك[2] لِمَا رأىٰ من دثورها، وشدة خرابها، وبُعدها عن العود إلىٰ ما كانت عليه. ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ مكانه فألبثه ميتاً ﴿مِاْئَةَ عَامٍ﴾ وعمرت القرية بعد مضى سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنوا إسرائيل إليها ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾؛ أي: أحياه في آخر النهار، فلما[3] بعثه الله عزّ وجلّ بعد موته، كان أول شيء أحيا الله فيه: عينيه؛ لينظر بهما إلىٰ صنع الله فيه كيف يحي بدنه، فلما استقل سوياً ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ له بواسطة المَلَك: يا عزيز ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ أي: مكثت هنا بعد الموت؛

---

(١) الخازن.
(٢) ابن كثير.
(٣) ابن كثير.

أي: كم قدر الزمان الذي مكثت فيه هنا ميتاً قبل أن أبعثك من مكانك حياً؟ ﴿قال﴾ عزير ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ واحداً؛ وذلك أن الله تعالىٰ أماته ضحىً في أول النهار، وأحياه بعد مئة سنة في آخر النهار قبل أن تغيب الشمس، فقال: لبثت يوماً، وهو يرىٰ أن الشمس قد غابت، ثم التفت فرأىٰ بقية من الشمس، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ﴾؛ أي: بل لبثت بعض يوم، وظن أن الشمس شمسُ يوم إماتته ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له بواسطة الملك ﴿بَل لَّبِثْتَ﴾؛ أي: مكثت ميتاً هنا ﴿مِاْئَةَ عَامٍ﴾. و ﴿بَل﴾ هذه عاطفة لهذه الجملة علىٰ جملة محذوفة تقديرها: قال ما لبثت هذه المدة، بل لبثت مئة عام. وقرأ نافع وابن كثير وعاصم بإظهار التاء في لبثتَ، وهو أَحْسَنُ لِبُعْدِ مخرج الثاءِ من مخرجِ التاءِ، قاله الشوكاني ولعلهم رأوه أسهل؛ لأن كلا القراءتين متواتر؛ فلا تفاضل بينهما. وقرَأَ الباقون بإدغام الثاءِ في التاء لِتقارُبِهما في المخرجِ.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ أيْ التِّينِ والعِنبِ الذي كان معه قبلَ موته، ﴿وَشَرَابِكَ﴾؛ أي: العصيرِ ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْۖ﴾؛ أيْ: لم يتغيَّرْ، ولم ينضُب في هذه المدةِ المتطاولةِ، فكان التين والعنب كأنه قد قطف من ساعته، والعصير كأنه عُصر مِنْ ساعتِه، واللبن كأنه قد حُلب من ساعته.

وقرأ ابن مسعود: ﴿وهذا طعامك وشرابك لم يتسنه﴾، وقرأ طلحة ابن مصرف ﴿وانظر لطعامك وشرابك لمائة سنة﴾، وروي عن طلحة أيضاً أنه قرأ: ﴿لم يَسَّنَّ﴾ بإدغام التاء في السين، وحذف الهاء، وكل هذه القراءات شاذة عدا قراءة الجمهور. وقراءة الجمهور بإثبات الهاء في الوصل، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف في المتواتر بحذفها وصلاً فقط. والتَّسَنُّهُ: مأخوذ من السَّنَة؛ أي: لم تغيره السنون، أو المعنىٰ علىٰ التشبيه؛ كأنه لم تمرَّ عليه المئة سنة لبقائه علىٰ حاله، وعدم تغيره، وإنْ شككت فانظر إلىٰ طعامك وشرابك لم يتغير بمرور الزمان، وكان معه عنب وتين وعصير، فوجدها علىٰ حالها لم تفسد. ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تقطعت أوصاله، وكيف تلوح عظامه بيضاء، فنظَرَ فإذا هو عظامٌ بِيضٌ، فركَّب الله تعالىٰ العظامَ بعضَها علىٰ بعض، ثم كساها اللحم

والجلدَ، وأحياه وهو ينظر.

فعلنا ذلك - الإحياء - لتُعاين ما ابتعدته من الإحياء بعد دهر طويل ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: ولكي نجعلك علامة للناس في إحياء الموتىٰ، وأنهم يحيون علىٰ ما يموتون لأنه مات شاباً، وبعث شاباً، وعبرة للناس؛ لأنه كان ابن أربعين سنة حين أماته الله، وابنُه ابنُ مئة وعشرين سنة حين بعثه الله. وقيل: إنه أتىٰ قومه راكباً حماره وقال: أنا عزير. فكذبوه، فقال: هاتوا التوراة، فأخذ يقرؤوها عن ظهر قلبه، ولم يحفظها أحد قبله، وقيل: رجع إلىٰ منزله فرأىٰ أولاده شيوخاً وهو شاب.

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾؛ أي: عظام الحمار، أو الأموات الذين تعجب من إحيائهم ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاي المنقوطة؛ أي: كيف نرفع بعضها علىٰ بعض، ونركبه عليه، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿ننشرها﴾ بالراء المهملة؛ أي: كيف نحييها ونخلقها؟ مِنْ أنشر الله الموتىٰ إذا أحياهم. وروىٰ أبان عن عاصم ﴿نَنْشُرُها﴾ بفتح النون الأولىٰ وسكون الثانية وضم الشين والراء، من نشَرَ بمعنىٰ: أَحْيَا وهي قراءة شاذة، وقرأ أُبي شذوذاً: ﴿كيف ننشيها﴾ بالياء؛ أي: نخلقها، وقال بعضهم: العظام لا تحيىٰ علىٰ الانفراد حتىٰ ينضم بعضها إلىٰ بعض، فالزاي أولىٰ بهذا المعنىٰ؛ إذ هو بمعنىٰ الانضمام دون الإحياء. ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾؛ أي: العظام ﴿لَحْمًا﴾؛ أي: ننبت عليها العصب والعروق واللحم والجلد والشعر، ونجعل فيه الروح بعد ذلك. والمعنىٰ: ثم نستر العظام باللحم كما يستر الجلد باللباس.

وفي الآية[1]: تقديم وتأخير، تقديره: وانظر إلى حمارك، وانظر إلىٰ العظام كيف ننشزها، ولنجعلك آية للناس ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾؛ أي: فلما اتضح له عياناً ما كان استغربه أولاً من إحياء القرية، ورآه عياناً في نفسه ﴿قَالَ﴾ عزيرٌ ﴿أَعْلَمُ﴾ علم[2] مشاهدة بعد العلم اليقيني الحاصل بالفطرة والأدلة العقلية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

---

(١) الخازن. (٢) الجمل.

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإماتة والإحياء ﴿قَدِيرٌ﴾ قرأ الجمهور[1]: ﴿تَبَيَّنَ﴾ مبنيّاً للفاعل، وقرأ ابن عباس شذوذاً ﴿تُبيِّن له﴾ مبنيّاً للمفعول، وقرأ ابْنُ السُّميفع شذوذاً أيضاً ﴿بُيِّن له﴾ مبنيّاً للمفعول بغير تاء. وقرأ الجمهور ﴿أَعْلَمُ﴾ مضارعاً، فيه ضمير المار. وقال ذلك علىٰ سبيل الاعتبار، وقرأ حمزة والكسائي[2]: ﴿اعلم﴾ من: عَلِم الثلاثي أمراً من الله، أو من المَلَك عن الله، أو منه لنفسه؛ نزَّلها منزلة الأجنبي المخاطب، وقرىء شذوذاً ﴿أعْلِمْ﴾ أمراً من: أعلَمَ الرباعي؛ أي: قال الله له: أعلِمْ غيرك بما شاهدته من قدرة الله تعالىٰ.

﴿و﴾ اذكر يا محمد قصة ﴿إذ قال إبراهيم﴾ الخليل عليه السلام؛ أي: طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتىٰ، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ سأله عن إراءَة كيفية الإحياء مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان.

قال الحسن[3] والضحاك وقتادة وعطاء وابن جريج: سبب سؤاله: أنه رأى جيفة مطروحة في شط البحر، وقد توزعها دواب البحر والبر، فإذا مدَّ البحر.. أكل منها دواب البحر، وإذا جزر البحر.. جاءت السباع فأكلت، وإذا ذهبت السباع.. جاءت الطيور، فأكلت وطارت، فلما رأىٰ إبراهيم ذلك تعجب منها، وقال: يا رب، إني قد علمت أنك لتجمعها من بطون السباع وحواصل الطيور وأجواف الدواب، فأرني كيف تحييها؛ لأعاين ذلك، فأزداد يقيناً، فعاتبه الله تعالىٰ علىٰ ذلك حيث ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؛ أي: أتسألني عن ذلك، لم توقن وتصدق بقدرتي على الإحياء. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلَىٰ﴾ يا رب آمنت وصدقت أنك قادر على الإحياء، وليس سؤالي لعدم إيماني بذلك ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾؛ أي: ولكن سألتك عن ذلك؛ ليوقن قلبي ويزداد طمأنينةً وبصيرةً بمُضامَّةِ العِيان إلىٰ الوحي والاستدلال، أو سألتك لتسكن حرارة قلبي، وأعلم بأني خليلك مجاب الدعوة والمطلوب من السؤال أن يصير العلم بالاستدلال ضرورياً.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) النهر.
(٣) مراح وخازن.

فإن قلتَ: كيف قال ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؟

قلتُ: ليجيب بما أجابه به؛ لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين. قال الله سبحانه وتعالىٰ: إن أردت ذلك يا إبراهيم ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ أشتاتاً. قال مجاهد: كانت طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً؛ أي: خذ أربعة أنواع من الطيور ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾. قرأ حمزة: ﴿فصِرهن﴾ بكسر الصاد، ومعناه: قطعهن ومزقهن. وقرأ الباقون بضمها، وتخفيف الراء، ومعناه: أضْمُمْهُنَّ وأملهنَّ إليك وأجمعهن عندك؛ أي: خذ أربعة أنواع منها، وأضممهُنَّ إليك، وأجمعهن عندك، ثم اذبحهن، وقطع لحومهن، واخلط بعضهن ببعض حتىٰ يصبحن كتلة واحدة[1]. وقرأ ابن عباس وقوم شذوذاً ﴿فصُرَّهن﴾ ـ بتشديد الراء وضم الصاد وكسرها ـ من: صَرَّه يصُره ويصِره إذا جمعه، نحو: ضرَّه يضِره ويضُره، وعنه أيضاً: ﴿فصَرَّهن﴾ ـ بفتح الصاد وتشديد الراء وكسرها ـ: من الصرِيَةِ.

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾؛ أي؛ ضع علىٰ كل جبل من الجبال التي بحضرتك؛ أي: علىٰ أربعة أجبل من الجبال التي بقربك ﴿مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾؛ أي: جزءاً من لحومهن المجزأة. وقرأ الجمهور ﴿جُزْءًا﴾ بإسكان الزاي وبالهمزة، وضم أبو بكر شعبة الزاي فقرأ: ﴿جزءًا﴾. وقرأ أبو جعفر ﴿جزّا﴾ بحذف الهمزة وتشديد الزاي؛ أي: جزِّىء لحومهن، وفرقهن علىٰ رؤوس الجبال ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾؛ أي: نادهن بأسمائهن، وقل لهن: تعالين بإذن الله تعالىٰ: ﴿يَأْتِينَكَ﴾؛ أي: يجئن إليك مشياً أو طيراناً ﴿سَعْيًاۚ﴾؛ أي؛ حالة كونهن ساعيات مسرعات إليك في مشيهن، أو طيرانهن. وقيل معنىٰ: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ﴾؛ أي: مشياً سريعاً ولم تأتِ طائرة ليتحقق أن أرجلهن سليمة في هذه الحالة. ﴿وَٱعْلَمْ﴾ يا إبراهيم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب علىٰ جميع الممكنات، لا يعجزه شيء عما يريده ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وصنعه، عليم بعواقب الأمور وغايات الأشياء. روي أنه عليه السلام أمر بذبحها، ونتف ريشها، وتقطيعها جزءاً جزءاً، وخلط دمائها

(١) البحر المحيط.

ولحومها، وأن يمسك رؤوسها بيده، ثم أمر بأن يجعل أجزاءها علىٰ الجبال علىٰ كل جبل ربعاً من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله تعالىٰ، ثم أخذ كل جزء يطير إلىٰ الآخر حتىٰ تكاملت الجثث، ثم أقبلت كل جثة إلىٰ رأسها سعياً علىٰ أرجلها، وانضم كل رأس إلىٰ جثته، وصار الكل أحياء بإذن الله تعالىٰ.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾.

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري التعجبي ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، أو علىٰ كل من يصلح للخطاب، والجملة مستأنفة ﴿إِلَى ٱلَّذِى﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تر﴾. ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿فِى رَبِّهِۦٓ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿حَآجَّ﴾. ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ﴾: ﴿أَنْ﴾: مصدرية. ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ مفعول ثانٍ، والجملة صلة ﴿أَنْ﴾ المصدريةُ ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة تقديره: لأجل إيتاء الله إياه الملك، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿حَآجَّ﴾.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بـ ﴿حَآجَّ﴾. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضاف إليه ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مقول محكي، وإن شئتَ قلتَ ﴿رَبِّىَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿ٱلَّذِى﴾: خبر، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿يُحْىِۦ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة له. ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوف علىٰ ﴿يُحْىِۦ﴾.

﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود علىٰ نمروذ اللعين، والجملة

مستأنفة ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾: مقول محكيٌ، وإن شئتَ قلتَ: ﴿أَنَا﴾: ضمير منفصل في محل الرفع مبتدأ، والاسم منه أنْ، والألف زائدة لبيان الحركة في الوقف؛ ولذلك حذفت وصلاً، والصحيح أنَّ فيه لغتين:

إحداهما: لغة تميم وهي إثبات أَلِفِه وصلاً ووقفاً.

والثانية: إثباتها وقفاً، وحذفها وصلاً. وقيل بل ﴿أَنَا﴾ كله ضمير، وفيه لغات: أنا، وأنْ؛ كلفظ أنْ الناصبة وآن، وكأنه قدم الألف علىٰ النون فصار آن مثل آن، المراد به: الزمان، وقالوا: آنه، وهي هاء السكت، لا بدل من الألف. اهـ «سمين». وجملة ﴿أُحْيِۦ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿وَأُمِيتُ﴾: معطوف علىٰ أحي.

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ﴾. الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أَفْصَحتْ عن شرطٍ مقدَّرٍ تقديره: إذا كنت قادراً كقدرة الله.. فأقول لك: ﴿إن الله﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَأْتِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهَ﴾ ﴿بِٱلشَّمْسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَأْتِي﴾ وجملة ﴿يَأْتِي﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ تقديره: فإن الله آتٍ بالشمس، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾: متعلق بـ ﴿يَأْتِي﴾ أيضاً ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿ائت﴾: فعل أمر مبني علىٰ حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود علىٰ الكافر اللعين. ﴿بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾: كلاهما متعلق بـ ﴿ائت﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة إن علىٰ كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾.

﴿فَبُهِتَ﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع. ﴿بهت الذي﴾: فعل وفاعل،

وهذا[1] الفعل من جملة الأفعال التي جاءت علىٰ صورة المبني للمفعول، والمعنىٰ فيها علىٰ البناء للفاعل؛ فلذلك فسَّروه بدَهِش وتَحيَّر. فـ ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: فاعل، لا نائب فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾. ﴿كَفَرَ﴾: فعلٌ ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول والجملة صلة له.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود علىٰ الله. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل وتخيير في التعجب، ﴿الكاف﴾: زائدة، ﴿الذي﴾: في محل الجر معطوف علىٰ الموصول في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، والتقدير: ألم تر إلىٰ الذي حاج إبراهيم، أو الذي مرَّ علىٰ قرية، وإنْ شئت قلت: الكاف حرف جر معنًىٰ، ﴿إِلَى ٱلَّذِى﴾: في محل الجر بالكاف، والجار والمجرور معطوف علىٰ الجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ لأن حروف الجر بعضها يتقارض عن بعض، كما هو كثير في كلامهم، كما أشرنا إلىٰ هذا الوجه الأخير في محل التفسير ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هي﴾: مبتدأ. ﴿خَاوِيَةٌ﴾: خبره، والجملة[2] في محل النصب حال من الفاعل الذي في ﴿مَرَّ﴾، أو من ﴿قَرْيَةٍ﴾، ولكن مجيءَ الحال من النكرة إذا تأخَّرَتْ قليلٌ، وقيل: الجملة في محل الجر صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾، ويُبعِد هذا القولَ الواوُ.

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

---

(١) الجمل.

(٢) البحر المحيط.

﴿قَالَ﴾: فعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مَوْتِهَا﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنىٰ متى في محل النصب علىٰ الظرفية الزمانية، أو بمعنىٰ كيف في محل النصب حال من ﴿هَٰذِهِۦ﴾، وعلى كِلا التقديرين، فالعامل فيه ﴿يُحْىِۦ﴾. ﴿يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُحْىِۦ﴾.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

﴿فَأَمَاتَهُ﴾: الفاء: عاطفة تفريعية، ﴿أماتة الله﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿مِاْئَةَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية الزمانية متعلق بـ ﴿أماته﴾. ﴿عَامٍ﴾ مضاف إليه. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿بَعَثَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿فَأَمَاتَهُ﴾.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة. ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿كَمْ﴾: اسم استفهام في محل النصب علىٰ الظرفية متعلق بـ ﴿لَبِثْتَ﴾؛ أي: كم مدة لبثت. ﴿لَبِثْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة مستأنفة ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَبِثْتُ﴾ فعل وفاعل ﴿يَوْمًا﴾: ظرف متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف بمعنى بل: التي للإضراب ﴿بَعْضَ﴾: معطوف علىٰ ﴿يَوْمًا﴾ وهو مضاف. ﴿يَوْمٍ﴾ مضاف إليه.

﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة. ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿بَل﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿لَّبِثْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾: ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿لَّبِثْتَ﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة محذوفة هي مقول ﴿قَالَ﴾ تقديرها: قال: ما لبثتُ يوماً أو بعض يوم، بل لبثتُ مئة عام. ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿بَل لَّبِثْتَ﴾ علىٰ كونها مقول القول لـ ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿انظر﴾، ﴿وَشَرَابِكَ﴾: معطوف علىٰ طعامك ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ فعل مضارع مجزوم بسكون آخره؛ أعني: الهاء؛ لأنها أصلية، وفاعله ضمير يعود علىٰ الطعام والشراب، والجملة في محل النصب حال من ﴿طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ تقديره: حالة كونهما غير مُتسنِّهَين؛ أي: متغيِّرين. ﴿وَانظُرْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَانظُرْ﴾. ﴿إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿انظر﴾. ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: لام كي، ﴿نجعلك﴾: فعل ومفعول أول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله. ﴿ءَايَةً﴾: مفعول ثانٍ. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: جار ومجرور صفة ﴿لآية﴾، وجملة ﴿نجعلك﴾ صلة أنْ المصدرية، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولجعلنا إياك آية للناس، والجار والمجرور[1] معطوف علىٰ مقدَّر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف، مُقرِّر لمضمون ما سَبَقَ؛ تقديرهُ: فعلْنَا بك ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر؛ لتعاين ما ابتعدته من الإحياء بعد دهر طويل، ولنجعلك آية للناس. ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾. ﴿إِلَى الْعِظَامِ﴾: جار ومجرور متعلق

(١) أبو السعود.

به. ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ ﴿كَيْفَ﴾: في محل النصب علىٰ الحالية، وصاحب الحال مفعول ﴿نُنشِزُهَا﴾، ﴿نُنشِزُهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة في محل الجر بدل من ﴿الْعِظَامِ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء؛ عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماضٍ له متعلق به، وفاعله ضمير يعود علىٰ معلوم من السياق تقديره: فلما تبين له كيفية الإحياء التي استغربها. والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالَ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لَمَّا﴾ ـ من فعل شرطها وجوابها ـ معطوفة علىٰ[1] مقدَّر يقتضيه المقام تقديره: فأنشزها الله تعالىٰ، وكساها لحماً، فنظر إليها، فتبين له كيفية الإحياء، فلما تبين له؛ أي: أتضح له اتضاحاً تاماً.. قال: أعلم.... الآية. ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿أَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿اللَّهَ﴾ اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ ـ من اسمها وخبرها ـ في تأويل مصدر سادٌّ مسد مفعولي ﴿أَعْلَمُ﴾ تقديره: أعلم قدرة الله علىٰ كلِّ شيء.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة قصةً علىٰ قصة، أو استئنافية. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد قصة ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ﴾. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه

---

(١) الجمل.

لـ ﴿إذ﴾، ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾ منادىٰ مضاف حذف منه حرف النداء؛ لكثرة الاستعمال، منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة علىٰ ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَرِنِي﴾: فعل، ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله. وأرىٰ هنا: بصرية[1] متعدية لواحد، وبدخول همزة النقل عليها طلبت مفعولاً آخر هو: جملة الاستفهام. ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب علىٰ الحال بـ ﴿تُحْيِ﴾. ﴿تُحْيِ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: مفعول به، وجملة ﴿تُحْيِ﴾ في محل النصب مفعول ثانٍ لـ ﴿أرني﴾ تقديره: ربِّ أرني كيفية إحيائِك الموتىٰ. وجملة رأىٰ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئتَ قلتَ: الهمزة للاستفهام التقريري؛ كالهمزة في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾. والواو: عاطفة علىٰ محذوف تقديره: أتسأل، و﴿لم تؤمن﴾ ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿تُؤْمِن﴾ مجزوم بلم، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ ذلك المحذوف علىٰ كونها مقولاً لـ ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة مستأنفة ﴿بَلَىٰ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي، ومدخولها محذوف تقديره: بلىٰ آمنت. والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾ اللام: لام كي. ﴿يطمئن﴾: فعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿قَلْبِى﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة صلة أن المضمرة تقديره: ولكن لاطمئنان قلبي، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: ولكن سألتك لاطمئنان قلبي، وجملة الاستدراك معطوفة

---

(١) أبو السعود.

علىٰ محذوف تقديره؛ بلىٰ آمنت، وما سألت عن غير إيمان، ولكن سألتُ ليطمئن.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَخُذْ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط محذوف تقديره: إن أردت ذلك.. ﴿خذ﴾: فعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة في محل الجزم جواب لذلك الشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف مع جوابه في محل النصب مقول قال. ﴿أَرْبَعَةً﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿أربعة﴾. ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿صرهن﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً﴾.

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ٱجْعَلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿صرهن﴾. ﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿اجعل﴾. ﴿مِّنْهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿جُزْءًا﴾؛ لأنه نعت نكرة فلما قُدِّم عليها.. نصب حالاً. ﴿جُزْءًا﴾: مفعول به لـ﴿اجعل﴾؛ لأنه بمعنى ألقِ، فيتعدىٰ لمفعول واحد.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿ٱدْعُهُنَّ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله؛ ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ﴾. ﴿يَأْتِينَكَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول. في محل الجزم بالطلب السابق ﴿سَعْيًا﴾: حال من ضمير الفاعل، أو منصوب علىٰ المصدر النوعي؛ لأنه من الإتيان؛ إذ هو إتيان بسرعة، فكأنه قيل: يأتينك إتياناً سريعاً. ﴿وَٱعْلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اعلم﴾: فعل

أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة في محل النصب، معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ علىٰ كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدرٍ سَادٍّ مسَدَّ مفعولَيْ ﴿اعلم﴾ تقديره: واعلم كون الله عزيزاً حكيماً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: يقال حاجَّهُ محاجة إذا خاصمه وجادله. من باب: فَاعَل. والمحاجة: المغالبة من الجانبين. ومعنى: ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: عارض حجته بمثلها، أو أتىٰ علىٰ الحجة بما يبطلها، أو أظهر المغالبة في الحجة، ثلاثة أقوال.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: علىٰ صورة المبني للمفعول، ومعناه علىٰ البناء للفاعل؛ كما سبق. وفي «القاموس»: والبهت: الانقطاع والحيرة. وفعلُهما كعَلِم ونَصَر وكَرُم وزَهَي. وهو مبهوت، لا باهت ولا باهيت. اهـ. ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾: وأصل القرية من قريت الماء إذا جمعته، فالقرية مجتمع الناس ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وفي «المصباح»: خوت الدار تخوىٰ من باب: ضَرَب خَوْياً إذا خلت من أهلها، أو سقطت. وخواء أيضاً: بالفتح والمد. وخويت خوىً من باب: تعب لغة اهـ. والعُروشُ: جمعُ عرش: وهو سقف البيت، وكذلك كل ما هيىء ليُستظل به. وقيل: هو البنيان نفسه.

﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ واشتقاقه من: السَّنَه، والهاء أصلية إن قدِّرت لامَ السَّنَه هاءً؛ لقولهم في التصغير: سُنَيْهة، وفي الجمع: سَنَهات. وقالوا: سانهتُ وأسنهت عند بني فلان، وهي لغة الحجاز. وهاء السكت إن قُدرت لام الكلمة محذوفة للجازم، وهي ألف منقلبة عن واو عندما يُجعل لام السنه المحذوف واواً؛ لقولهم: سنيته وسنوات، واشتق من الفعل فقيل: سانيت وأسنىٰ وأسنتْ. أبدل من الواو تاء، وقيل أصله لم يتسنن؛ أي: لم يتغير من الحمأ المسنون، فأبدلت النون الثالثة ألفاً فراراً من كراهة اجتماع الأمثال؛ كما قالوا: تَظَنَّىٰ أصله: تظنن.

قال أبو عمرو: وخطَّأه الزجاج.

﴿إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾: الحمار هو الحيوان المعروف، ويجمع في القلة علىٰ أَفْعِلة قالوا: أحمرة، وفي الكثرة علىٰ فُعُل، قالوا: حُمُر. وعلىٰ فعيل، قالوا: حمير.

﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ ـ بالزاي ـ: من أنشز الشيء إذا رفعه؛ أي: كيف نرفعها عن الأرض؟ لنركب بعضها مع بعض ونردَّها إلىٰ أماكنها من الجسد، فنركبها تركيباً لائقاً بها.

﴿وننشرها﴾ ـ بالراء المهملة ـ: من أنشر الله الموتىٰ إذ أحياهم ونشرهم، ونشر الميت إذا حيي، ولكن ليس المراد بالإحياء هنا، معناه الحقيقي الذي هو نفخ الروح؛ لقوله: ثم نكسوها لحماً؛ أي: نسترها به كما يستر الجسد باللباس.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي﴾ وأصل أرني: أرئيني بوزن أكرمني، فحذفت الياء الأولىٰ؛ لأن الأمر كالمضارع في الحذف، فصار أرئي، ثم نقلت حركة الهمزة إلىٰ الراء، وحذفت الهمزة، فصار أَرِني بوزن أَفِني؛ فإنه حُذف منه عينه ولامه، وهي الياء.

﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾: والهمزة في ﴿يطمئن﴾ أصلية، ووزنه يفعلل، ولذلك جاء ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ مثل: اقشعررتم. والطمأنينة مصدر: اطمأن علىٰ غير القياس، والقياس الاطمئنان، وهو السكون.

﴿أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ والطير: اسم جمع كركب، وقيل بل جمع طائر نحو: تاجر وتُجرَ. وهذا مذهب أبي الحسن. وقيل: بل هو مخفف طَيّر بالتشديد، كقولهم: هيْن وميْت في هيِّن وميِّت، وقال أبو البقاء: هو في الأصل مصدر طار يطير، ثم سُميَّ به هذا الجنس.

﴿فَصُرْهُنَّ﴾ وفي «المختار» صاره ـ من باب: قال وباع ـ إذا أمال إليه وقربه منه أمره بإمالتِهن إليه؛ أي: تقريبِهن منه؛ ليتحقق أوصافَهن حتىٰ يعلم بعد الإحياء أنه لم ينتقل منها جزءٌ من موضعه الأول أصلاً، وصار الشيء إذا فعله وقطعه من بابي: قال وباع أيضاً.

﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾: والجبل معروف، ويجمع في القلة علىٰ: أجبال وأجبُل، وفي الكثرة علىٰ: جبال والجزء القطعة من الشيء، يقال: جزأ الشيء إذا جعله قِطعاً.

البلاغة

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: الهمزة فيه للاستفهام التعجبي التَّقْرِيْري.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: التعبير بالمضارع يفيد التجدد، والاستمرار، وفي الجملة دلالةٌ على الاختصاص والقصر؛ لأنهم قد ذكروا أن الخبر إذا كان بمثل هذا.. دلَّ على الاختصاص. فتقول: زيد الذي يصنع كذا؛ أي: المختص بالصنع، وهنا المبتدأ والخبر كانا معرفتين، والمعنى: أنه سبحانه وحده هو الذي يحي ويميت.

وبين كلمتي يحي ويميت من المحسِّنات البديعية: الطباق، وكذلك بين لفظي المشرق والمغرب.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: التعبير بالموصول مع صلته يُشعر بالعلة، وأن سبب الحيرة هو: كفره. ولو قال: فبهت الكافر.. لَمَا أفاد ذلك المعنىٰ الدقيق.

﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وفي نسبة الإحياء والإماتة إلىٰ القرية مجاز بالاستعارة: إنْ أُريد بهما العمارة والخراب، ومجاز مرسل: إن أريد أهلها.. فهو من باب إطلاق المحل، وإرادة الحال علىٰ حدِ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾. ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾؛ أي؛ نسترها به؛ كما يستر الجسد باللباس فاستعار اللباس لذلك، كما استعاره النابغة للإسلام فقال:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي ... حتىٰ اكتسيتُ من الإسلام سربالاً

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ مناسبة(1) هذه الآية لما قبلها هي: أنه تعالىٰ لما ذكر قصة المار علىٰ قرية، وقصة إبراهيم، وكانا من أدلِّ دليل علىٰ البعث.. ذكر هنا ما ينتفع به يوم البعث، وما يجد جدوىٰ هناك؛ وهو: الإنفاق في سبيل الله؛ لأن ثمرة النفقة في سبيل الله، إنما

---

(١) البحر المحيط.

تظهر حقيقةً يوم البعث، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً. واستدعاءُ النفقة في سبيل الله مذكِّر بالبعث، وحاضٌّ علىٰ اعتقاده؛ لأنه لو لم يعتقد وجوده.. لما كان ينفق في سبيل الله، وفي تمثيل النفقة بالحبَّة المذكورة إشارة أيضاً إلى البعث وعظيم القدرة؛ إذ حبة واحدة يُخرج الله منها سبع مئة حبة، فمن كان قادراً علىٰ مثل هذا الأمر العجاب.. فهو قادر علىٰ إحياء الموات.

ويقال: لما ذكر المبدأ والمعاد، ودلائل صحتهما.. أتبع ذلك ببيان الشرائع، والأحكام والتكاليف، فبدأ بإنفاق الأموال في سبيل الله، وأمعن في ذلك، ثم انتقل إلىٰ كيفية تحصيل الأموال بالوجه الذي يجوز شرعاً.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لمّا شرط في الإنفاق أن لا يتبع مناً ولا أذىً.. لم يكتفِ بذلك حتىٰ جعل المن والأذىٰ مبطِلاً للصدقة، ونهىٰ عن الإبطال بهما؛ ليقوىٰ اجتناب المؤمن لهما؛ ولذلك ناداهم بوصف الإيمان. ولما جرىٰ ذكر المن والأذى مرتين.. أعادهما هنا بالألف واللام، ودلت الآية علىٰ أن المن والأذى مبطلان للصدقة، ومعنىٰ إبطالهما: أنه لا ثواب فيهما عند الله تعالى.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها هي: أنه تعالى لما ذكر فضل النفقة في سبيل الله، وحثَّ عليها، وقبَّح المنة، ونهىٰ عنها، ثم ذكر القصد فيها من الرياء، أو ابتغاء مرضات الله.. ذكر هنا وصف المنفَق من المختار الجيد، وسواء كان الأمر في الآية للوجوب، أو للندب، والأكثرون علىٰ أن ﴿طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ هو الجيد المختار، وأن الخبيث هو الرديء.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ قيل[2]: نزلت في

(١) البحر المحيط.
(٢) واحدي.

عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك؛ حيث جهز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها، ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار، فصار رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: «ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم». وأتىٰ عبد الرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم، فقال: يا رسول الله، كان عندي ثمانية آلاف درهم، فأمسكت منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها ربي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكتَ وفيما أعطيت»، فنزلت فيهما الآية.

قوله تعالىٰ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ...﴾ الآية، أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم، قال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: لِرَجل غنيٍّ يعمل لطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل في المعاصي حتىٰ أغرق عمله.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ الآية. روى[1] الحاكم والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن البراء رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا ـ معشرَ الأنصار ـ كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله علىٰ قدر كثرته وقلته، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو، فيه الشيص والحشف، وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ الآية.

ورویٰ أبو داود والنسائي والحاكم عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: كان الناس يتيممون شر ثمارهم، فجاء رجل بتمر ردِيءٍ، فنزل القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ الآية. وروى ابن أبي حاتم عن

---

(١) لباب النقول.

ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يشترون الطعام الرخيص، ويتصدَّقون به، فأنزل الله هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾؛ أي: صفة صدقات الذين يصرفون أموالهم في طاعة الله، ووجوه الخير من الواجب أو النفل كصفة حبة أخرجت ساقاً واحداً، تشعَّب منه سبع شعب، في كل واحدة منها سنبلة ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ فجملة ما فيها من الحبوب سبع مئة، وذلك مشاهد في الذرة والدخن، بل فيهما أكثر من ذلك. هذا إن قلنا: إن في الكلام حذفاً من أوله، ويحتمل كون الحذف في آخره، والمعنى حينئذٍ: مثل الذين ينفقون أموالهم في وجوه الخيرات، كمثل زارع حبة أخرجت ساقاً تشعب منه سبع شعب، في كل واحدة منها سنبلة، في كل سنبلة مئة حبة.

فإن قلتَ: هل[1] رأيت سنبلة فيها مئة حبة حتىٰ يضرب المثل بها؟

قلتُ: ذلك غير مستحيل، وما لا يكون مستحيلاً.. فضرب المثل به جائز وإنْ لم يوجد. والمعنى ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ أن جعل الله ذلك فيها. وقيل: هو موجود في الدخن. وقيل: إن المقصود من الآية: أنه إذا علم الإنسان الطالب للزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبع مئة حبة.. ما كان ينبغي له ترك ذلك، ولا التقصير فيه، فكذلك ينبغي لمن طلب الأجر عند الله في الآخرة، أن لا يترك الإنفاق في سبيل الله إذا علم أنه يحصل له بالواحد عشرة ومئة وسبع مئة؛ أي: فكذلك نفقات هؤلاء تضاعف إلىٰ سبع مئة. ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ أكثر من ذلك؛ أي: أكثر من سبع مئة. ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ لا لكل الناس بل علىٰ حسب حال المنفِقِ من الخصاصة وتعبه؛ ولذلك تفاوتت مراتب الأعمال في مقادير الثواب؛ أي: فالزيادة[2] علىٰ السبع مئة لبعض الناس، بخلاف السبع مئة؛ فإنها لكل

---

(١) الخازن.
(٢) الجمل.

منفِق. وقيل المراد: والله يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء؛ أي: لبعض الناس، لا لكلهم. فالسبع مئة غير مطردة علىٰ هذا، بل المطرد التضعيف إلىٰ عشرة فقط.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فضله، لا يضيق عليه ما يتفضل به من التضعيف ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية المنفِق، وبمن يستحق المضاعفة، وبما يستحقه المنفق من الجزاء والثواب عليه. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ وهذا تقييد[1] لما قبله؛ أي: إن المضاعفة المذكورة مشروطة بعدم المن والأذى. والمعنىٰ: الذين يصرفون أموالهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في وجوه الخيرات واجبة كانت، أم لا. ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾؛ أي: لا يعقبون ما أنفقوا ﴿مَنًّا﴾ علىٰ المنفَق عليه، وتحدثاً بما أعطى له. والمن: أن يعدد إحسانه علىٰ من أحسن إليه؛ كأن يقول له: أعطيتك كذا وكذا، فيعدد نعمه عليه، فيكدرها عليه، وهو من الكبائر، كما ثبت في «صحيح» مسلم وغيره: أن المانّ أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم. وقدم المن علىٰ الأذىٰ؛ لكثرة وقوعه، ووَسَّط كلمة ﴿لَا﴾ بينهما في قوله: ﴿وَلَآ أَذًى﴾؛ للدلالة علىٰ شمول النفي باتباع كل واحد منهما؛ أي: ولا يتبعون نفقاتهم أذىً للمنفَق عليه. والأذىٰ: هو أن يعيِّره، فيقول: كم تسأل، وأنت فقير أبداً، ولا تكتسب، وقد بليت بك، وأراحني الله منك، وأمثال ذلك، كالعبوس في وجهه.

إذا عرفت هذا فنقول: المن: هو إظهار المعروف إلىٰ الناس، والمن عليهم به. والأذى: هو أن يشكو منهم بسبب ما أعطاهم، فحرم الله تعالىٰ علىٰ عباده المن بالمعروف، والأذى فيه، وذم فاعله.

وقال عبد الرحمن بن يزيد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً، ورأيت أن سَلَامك يثقل عليه.. فلا تسلم عليه. والعرب تمدح بترك المن، وكتم النعمة، وتذم على إظهارها، والمن بها. قال قائلهم في المدح بترك المن:

زَادَ مَعْرُوْفَكَ عِنْدِيْ عِظَمَاً   أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتُوْرٌ حَقِيْر

---

(١) الجمل.

تَــتَـنَــاسَــاهُ كَــأَنْ لَــمْ تَــأْتِــهِ   وَهُـوَ فِـيْ ٱلْعَـالَـمِ مَـشْـهُـوْرٌ كَـبِـيْـرْ

وقال قائلهم يذم المنان بالعطاء:

أَتَـيْـتَ قَـلِـيْـلاً ثُـمَّ أَسْـرَعْـتَ مِـنَّـةً   فَـنَـيْـلُـكَ مَـمْـنُـونٌ لِـذَلِـكَ قَـلِـيْـلُ

وقيل المراد بالمن: هو المن علىٰ الله، وهو العُجب والأذى لصاحب النفقة. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ أي: ثواب إنفاقهم مدخراً لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يوم القيامة؛ أي: فلا يخافون فَقْد أجورهم، ولا يخافون العذاب البتة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما خلفوا خلفهم من الدنيا.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: كلام جميل يرد به السائل، من غير إعطاء شيء ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ من المسؤول عن بذاءَة لسان الفقير ﴿خَيْرٌ﴾ للسائل ﴿مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ﴾؛ أي: يعقبها ﴿أَذًى﴾؛ أي: مَنٌّ وتعيير للسائل بالسؤال؛ لكونها مشوبة بضرر التعيير له؛ أي: هذا القول المعروف من المسؤول، والرد الجميل، والمسامحة عن بذاءة لسان السائل خيرٌ للسائل من صدقة يأخذها، ويعقبها المن والتعيير من المسؤول له. وقال الشوكاني[1]: والمعنىٰ: أن القول المعروف من المسؤول للسائل، وهو: التأنيس والترجية بما عند الله، والرد الجميل خير من الصدقة التي يتبعها أذىٰ. وقد ثبت في «صحيح» مسلم عنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم: «الكلمة الطيبة صدقة»، وأن «مِنَ المعروف: أن تلقىٰ أخاك بوجه طلق».
وما أحسن ما قاله ابن دريد:

لاَ تُـدْخِـلَـنَّـكَ ضَـجْـرَةٌ مِـنْ سَـائِـلٍ   فَـلِـخَـيْـرِ دَهْـرِكَ أَنْ تُـرَىٰ مَـسْـؤُوْلاَ
لاَ تَـجْـبَـهَـنْ بِـٱلـرَّدِّ وَجْـهَ مُـؤَمِّـلٍ   فَـبَـقَـاءُ عِـزِّكَ أَنْ تُـرَىٰ مَـأْمُـوْلاَ

والمراد بالمغفرة: الستر للخلة وسوء حالة المحتاج، والعفو عن السائل إذا صدر منه من الإلحاح ما يكدّر صدر المسؤول. انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جاء به محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ﴿لَا

---

(١) فتح القدير.

﴿تُبْطِلُوا﴾؛ أي: لا تحبطوا أجور ﴿صَدَقَٰتِكُم﴾، ولا تفسدوها ﴿بِٱلْمَنِّ﴾ على الفقير ﴿وَٱلْأَذَىٰ﴾ له، أي: لا تبطلوها بالمن والأذى جميعاً، أو بأحدهما إبطالاً كإبطال أجر نفقة ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ في وجوه الخير ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: مُرآةً لهم وسمعة بهم؛ ليروا نفقته، ويمدحوه، ويقولوا: إنه سخي كريم، ولا يريد بإنفاقه رضا الله، ولا ثواب الآخرة. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿رياء﴾ بإبدال الهمزة الأولى ياء لكسر ما قبلها، وهي مروية عن عاصم لكنها شاذة. ﴿و﴾ لإبطال[1] المنافق الذي ﴿لا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾؛ أي: أصلاً بأن يكون كافراً، أو إيماناً كاملاً؛ بأن يكون مسلماً عاصياً، فإن المنافق والمرائي يأتيان بالصدقة، لا لوجه الله تعالىٰ. ومن يقرن الصدقة بالمن والأذى.. فقد أتىٰ بتلك الصدقة، لا لوجه الله أيضاً؛ إذ لو كان غرضه من تلك الصدقة مرضاة الله تعالىٰ.. لما مَنَّ علىٰ الفقير، ولا آذاه. فالمقصود من الإبطال: الإتيان بالإنفاق باطلاً؛ لأن المقصود الإتيان به صحيحاً، ثم إحباطه بسبب المن والأذىٰ ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾؛ أي: فمثل هذا المرائي والمنافق، وصفته في إنفاقه، وحالته ﴿كصفوان﴾؛ أي: كصفة صفوان، وحالته. و﴿الصفْوان﴾ بسكون الفاء: الحجر الكبير الأملس. وقرأ ابن المسيب والزهري ﴿كصفوان﴾ بفتح الفاء ولكنّه شاذٌّ في الأسماء؛ لأن الفتح في المصادر، كالغليان والفوقان؛ أي: كحالة الحجر الأملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾؛ أي: شيء من تراب فظنه الظان أرضاً منبتة طيبة ﴿فَأَصَابَهُۥ﴾؛ أي: أصاب ذلك الصفوان ﴿وَابِلٌ﴾؛ أي: مطر شديد ﴿فَتَرَكَهُۥ﴾؛ أي: فجعلَ المطر ذلك الحجر ﴿صَلْدًا﴾؛ أي: أجرد أملس نقياً من التراب، وأخلف ما ظنه الظان كذلك، هذا المنافق والمرائي يرىٰ الناس أن له أعمالاً؛ كما يرىٰ التراب علىٰ هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة.. اضمحلت وبطلت؛ كما أذهب الوابل ما كان علىٰ الصفوان من التراب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾؛ أي: لا يقدر هؤلاء المراؤون علىٰ ثواب شيء في الآخرة مما أنفقوا في الدنيا رئاءً، فضمير قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ عائد علىٰ المرائي والمنافق، فيكون المعنىٰ: إن الله

---

(١) مراح.

تعالىٰ شبَّه المانّ والمؤذي بالمنافق والمرائي، ثم شبه المنافق والمرائي بالحجر الكبير الأملس. وقيل: الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ عائد علىٰ المان والمؤذي، وأنه شبه بشيئين:

أحدهما: بالذي ينفق ماله رئاء الناس.

والثاني: بصفوان عليه تراب. والمعنىٰ: لا يجد المانُّ والمؤذي ثواب صدقة؛ كما لا يوجد علىٰ الصفوان التراب بعد ما أصابه المطر الشديد. قال القاضي(١) عبد الجبار: ذكر تعالىٰ لكيفية إبطال الصدقة بالمن والأذىٰ مثلين:

فمثله أولاً: بمَنْ ينفق ماله رئاء الناس، وهو مع ذلك كافر لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأن إبطال نفقة هذا المرائي الكافر أظهر من بطلان أجر صدقة مَنْ يتبعها بالمن والأذى.

ثم مثله ثانياً: بالصفوان الذي وقع عليه تراب وغبار، ثم إذا أصابه المطر القوي، فيزيل ذلك الغبار عنه حتىٰ يصير كأنه ما عليه تراب ولا غبار أصلاً.

قال: فكما أن الوابل أزال التراب الذي وقع على الصفوان.. فكذا المن والأذىٰ يجب أن يكونا مبطلين لأجر الإنفاق بعد حصوله، وذلك صريح القول في الإحباط والتكفير. انتهى.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلىٰ الخير والرشاد، وفي هذه الآية: تعريض بأن كلاً من الرياء والمنّ والأذى علىٰ الإنفاق من خصائص الكفار، فلا بد للمؤمنين أن يجتنبوها.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، أي: وصفة الذين يصرفون أموالهم في وجوه الخير طلب رضاء الله تعالىٰ ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: ويقيناً من قلوبهم بالثواب من الله تعالىٰ، وتصديقاً بوعده يعلمون أن ما أنفقوا خير لهم مما تركوا. ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾؛ أي: كمثل بستان

---

(١) البحر المحيط.

في مكان مرتفع مستو، أصابه مطر شديد كثير ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾؛ أي: فأعطت صاحبها ثمرها حال كونه مضاعفاً؛ مثل ما يثمر غيرها بسبب الوابل الكثير، فتحمل من الريع في سنة واحدة ما يحمل غيرها في سنتين. وقيل: أضعفت فحملت في السنة مرتين. وخص الربوة؛ لأن شجرها أحسن منظراً وأزكىٰ ثمراً إذا كان لها ما يرويها من الماء. وقرأ ابن عامر وعاصم: ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ بفتح الراء، وباقي السبعة ﴿برُبوة﴾ بالضم، وكذلك خلافهم في: ﴿قد أفلح﴾. وقرأ ابن عباس شذوذاً بكسر الراء، وقرأ أبو جعفر وأبو عبد الرحمن شذوذاً: ﴿برباوة﴾ علىٰ وزن كراهة، وأبو الأشهب العقيلي أيضاً: ﴿برباوة﴾ علىٰ وزن رسالة، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿أُكْلَها﴾ بضم الهمزة وسكون الكاف تخفيفاً، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿أكُلَها﴾ بتحريك الكاف بالضم. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾؛ أي: فطش يكفيها لجودة منبتها، ولطافة هوائها. والمعنى: إن لم يكن أصابها وابل، وأصابها طلٌّ.. فيكفيها. والطل: المطر الخفيف الضعيف المشدق القطر، والمراد: أن الطل ينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين. يقول سبحانه وتعالىٰ: كما أن هذه الجنة تثمر في كل حال، ولا يُخيب صاحبها، قلَّ المطر أم كثر.. كذلك يضعّف الله ثواب صدقة المؤمن قلَّتْ نفقتهُ أم كثُرَتْ ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عملاً ظاهراً، أو قلبياً ﴿بَصِيرٌ﴾ لا يخفىٰ عليه شيء منه، يجازيكم عليه. يعني: أنه تعالى لا تخفىٰ عليه نفقة المخلص في صدقته الذي لا يمن بها ولا يؤذي، والذي يمن بصدقته ويؤذي. وهذا تحذير من الرياء، وترغيب في الإخلاص. وقرأ شذوذاً ﴿يعملون﴾ الزهري بالياء، فظاهره أن الضمير يعود علىٰ المنافقين، ويحتمل أن يكون عاماً؛ فلا يختص بالمنافقين، بل يعود علىٰ الناس أجمعين، وقرأ الجمهور ﴿تعملون﴾ بالتاء علىٰ الخطاب، وفيه التفات.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ هذه الجملة متصلة بقوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم﴾ الخ. فهو مَثَل آخر لنفقة المرائي والمانّ، والهمزة فيه للإنكار؛ أي: أيحب أحدكم أيها المراؤون في صدقاتكم. أي: لا يحب ذلك. والود: حب الشيء مع تمنيه ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؛ أي: بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خصصهما بالذكر؛ لأنهما

أشرف الفواكه وأحسنها، ولما فيهما من الغذاء والتفكه. ﴿تَجْرِي﴾ وتطرد ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها ومساكنها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والسواقي، فإن جري الأنهار فيها من تمام حسنها، وسبب لزيادة ثمرها ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الأحد ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنة ﴿مِن كُلِّ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والفواكه؛ لأن ذلك من تمام كمال البستان وحسنه ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿أصابه﴾؛ أي: أصاب ذلك الأحد ﴿ٱلْكِبَرُ﴾، أي: كبر السن، فلا يقدر علىٰ الكسب ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿له ذرية ضعفاء﴾، وقرىء شذوذاً ضعاف، وكلاهما جمع ضعيف كظريف وظرفاء وظراف؛ أي: أولاد صغار لا يقدرون علىٰ الكسب بسبب الضعف والصغر. ﴿فَأَصَابَهَآ﴾؛ أي: أصاب تلك الجنة ﴿إِعْصَارٌ﴾؛ أي: ريح شديدة مرتفعة إلىٰ السماء، تستدير في الأرض كأنها عمود، لها صوت شديد ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الأعصار ﴿نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ تلك الجنة بذلك الإعصار، ففقدها أحوج ما كان إليها عند كبر السن، وكثرة العيال، وطفولة الأولاد، فبقي هو وأولاده عجزة متحيرين، لا يقدرون علىٰ حيلة، كذلك يبطل الله عمل المرائي والمنافق؛ حيث لا توبة لهما، ولا إقالة من ذنوبهما.

والمقصود من هذا المثل: بيان أنه يحصل في قلب هذا الإنسان من الغم والحسرة والحيرة ما لا يعلمه إلا الله، فكذلك من أتى بالأعمال الحسنة، إلا أنه لا يقصد بها وجه الله، بل يقرن بها أموراً تخرجها عن كونها موجبة للثواب، فحين يقدم يوم القيامة، وهو حينئذٍ في غاية الحاجة ونهاية العجز عن الاكتساب.. عظمت حسرته، وتناهت حيرته. ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين الله تعالى لكم أمر النفقةِ المقبولة وغير المقبولة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: الدلائل في سائر أمور الدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: لكي تتفكروا في أمثال القرآن، وتفهموها وتنزلوها علىٰ المعاني المرادة منها، وتتعظوا بها. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بما جاء به محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ﴿أَنفِقُوا۟﴾؛ أي: زكوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ أي: من جياد وخيار ما جمعتم من الذهب والفضة وعروض التجارة والمواشي. وقيل من حلالات ما كسبتم بالتجارة والصناعة. وفيه: دليل علىٰ إباحة الكسب وأنه ينقسم إلىٰ: طيب وخبيث. ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا

لَكُم﴾؛ أي: ومن طيبات ما أخرجنا لكم ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ من الحبوب والثمار والمعادن والركاز، فحذف المضاف، لدلالة ما قبله عليه. ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾؛ أي: ولا تقصدوا الرديء من أموالكم للإنفاق منه. وقراءة الجمهور بفتح حرف المضارعة وتخفيف الياء، وقرأ البزّي عن ابن كثير بتشديد التاء لدى وصلها بما قبلها. وقرأ ابن مسعود شذوذاً: ﴿ولا تأمموا﴾، وهي لغة من أَمَمت؛ أي: قصدت. وقرأ أبو مسلم بن خباب شذوذاً أيضاً بضم الفوقية وكسر الميم، وحكىٰ أبو عمرو: أن ابن مسعود شذوذاً أيضاً قرأ ﴿تُيَمموا﴾ بهمزة بعد المضمومة.

وفي الآية[1]: الأمر بإنفاق الطيب، والنهي عن إنفاق الخبيث. وقد ذهب جماعة من السلف: إلىٰ أن الآية في الصدقة المفروضة، وذهب آخرون: إلىٰ أنها تعم صدقة الفرض والتطوع، وهو الظاهر. وتقديم الظرف في قوله: ﴿مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ يفيد التخصيص؛ أي: لا تخصوا الخبيث بالإنفاق، والجملة في محل نصب حال؛ أي: لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الإنفاقَ به، قاصرين له عليه. ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾؛ أي: والحال أنكم لا تأخذونه في معاملتكم في وقت من الأوقات. وقيل معناه: ولستم بأخذيه لو وجد تمره يباع في السوق.

وقيل: إن قوله: ﴿مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ علىٰ تقدير[2] الاستفهام الإنكاري، و ﴿مِنۡهُ﴾: متعلق بالفعل بعده، والمعنى: أمن الخبيث تنفقون في الزكاة، والحال أنكم لستم قابلي الخبيث إذا كان لكم حق علىٰ صاحبكم. ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾؛ أي: إلا بأن تساهلوا في الخبيث، وتتركوا بعض حقكم، كذلك لا يقبل الله الرديء منكم. وفي هذا دلالة علىٰ أن الفقراء شركاء رب المال، والشريك لا يأخذ الرديء من الجيد إلا بالتساهل.

وقال البراء[3] وابن عباس والضحاك وغيرهم: معنى هذا الكلام: ولستم

---

(١) الشوكاني.

(٢) مراح.

(٣) البحر المحيط.

بآخذيه في ديونكم وحقوقكم عند الناس إلا بأن تُساهِلُوا في ذلك، وتتركوا من حقوقكم، وتكرهونه ولا ترضونه؛ أي: فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم.

وقرأ الجمهور: ﴿تُغْمِضُوا﴾ من أغمض، وجعلوه مما حذف مفعوله؛ أي: تغمضوا أبصاركم أو بصائركم. وقرأ الزهري: ﴿تُغَمِّضُوا﴾ بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم المشددة ومعناها كمعنىٰ قراءة الجمهور. وروي عنه ﴿تَغْمِضوا﴾ بفتح التاء وسكون الغين وكسر الميم مضارع غمض، وهي لغة في أغمض. وروي عن اليزيدي: ﴿تَغمُضوا﴾ بفتح التاء وضم الميم، ومعناه: إلا أن يخفىٰ عليكم رأيكم فيه. وروي عن الحسن؛ ﴿تغمَّضوا﴾ مشددة الميم مفتوحة. وقرأ قتادة ﴿تُغْمَضوا﴾ بضم التاء وسكون الغين وفتح الميم مخففاً، ومعناه: إلا أن يغمض لكم، وما عدا قراءة الجمهور شاذ.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن إنفاقكم وصدقاتكم، وإنما يأمركم به لمنفعتكم ﴿حَمِيدٌ﴾؛ أي: محمود علىٰ كل حال، أو مستحق للحمد علىٰ نعمه العظام. وقيل: حامد بقبول الجيد، وبالإثابة عليه.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: إبليس اللعين ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾؛ أي: يخوفكم بالفقر، ويخبركم بأسبابه عند الصدقة، ويقول لكم: أمسكوا أموالكم، فإنكم إذا تصدقتم.. صرتم فقراء، أو المعنىٰ: النفس الأمارة بالسوء توسوس لكم بالفقر. والوعد: يكون في الخير، وفي الشر كما هنا. يقال: وعدته خيراً، ووعدته شراً. والفقر: سوء الحال، وقلة ذات اليد. وأصله من كسر فقار الظهر. وقرىء شذوذاً: ﴿الفُقْر﴾ بالضم والسكون، و﴿الفُقُر﴾ بضمتين، وبفتحتين. وقراءة الجمهور: ﴿الفَقْر﴾ بالفتح والسكون. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: بالبخل ومنع الزكاة والصدقة؛ أي: يوسوس لكم بها، ويحسن لكم إياها، ويغريكم عليها إغراء الآمر للمأمور. والفحشاء: الخصلة الفحشاء، وهي المعاصي والإنفاق فيها، والبخل عن الإنفاق في الطاعات. ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾؛ أي: ستراً لذنوبكم مكافأة علىٰ بذل أموالكم. ﴿وَفَضْلًا﴾؛ أي: خلفاً في الدنيا أفضل مما

أنفقتم، أو وثواباً عليه في الآخرة. فالمغفرة: إشارة إلىٰ منافع الآخرة، والفضل: إشارة إلىٰ منافع الدنيا، وما يحصل من الرزق والخلف. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ بالمغفرة للذنوب، وبإغنائكم وإخلاف ما تنفقونه ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم وصدقاتكم، لا تخفىٰ عليه خافية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً». متفق عليه. وعن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه قال: قال الله تعالىٰ: «أنفق ينفق عليك». وفي رواية: «يد الله ملأىٰ، لا تغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار»، وقال: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يده ـ وفي رواية: فإنه لم يغض ما في يمينه ـ وكان عرشه علىٰ الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع. وفي رواية: وبيده الأخرىٰ الفيض والقبض، يرفع ويخفض» متفق عليه.

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «أنفقي، ولا تحصي فيحصىٰ عليك، ولا توعي فيوعىٰ عليك» متفق عليه.

قوله: «ولا توعي» أي: لا تشحي فيشح الله عليك؛ أي: فيجازيك بالتَّقْتِيْر في رزقك، ولا يخلف عليك، ولا يبارك لك. والمعنى: لا تجمعي وتمنعي، بل أنفقي ولا تعتدي ولا تشحي.

﴿يُؤْتِي﴾؛ أي: يعطي الله سبحانه وتعالىٰ ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: العلم النافع المؤدي إلىٰ العمل الصالح ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ويريد إيتاءَه من عباده. واختلفوا في تفسير الحكمة علىٰ أقوال كثيرة جداً، فقال السّدّيّ: هي النبوة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفهم بالقرآن ناسخِه ومنسوخه، مُحكمهِ ومتشابهه، عامِّه وخاصِّه، إلىٰ غير ذلك. وقال مجاهد: الإصابة في القول. وقال مالك: الحكمة: المعرفة بدين الله، والفقه فيه، والإتباع له، إلىٰ غير ذلك من الأقوال المتلاطمة. وقراءة الجمهور بالياء في الفِعْلين. وقرأ الربيع بن خيثم بالتاء في ﴿يُؤْتِي﴾، وفي ﴿يَشَآءُ﴾

علىٰ الخطاب، وفيه التفات؛ إذ فيه خروج من خطاب إلىٰ غيبة.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: إصابة القول والفعل والرأي. قرأ الجمهور: ﴿يُؤْتَ﴾ مبنيًّا للمفعول. وقرأ يعقوب: ﴿ومن يؤتِ﴾ بكسر التاء مبنيًّا للفاعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله. وقرأ الأعمش شذوذاً: ﴿ومن يؤته الحكمة﴾ بإثبات الضمير الذي هو المفعول الأول، وفاعله ضمير عائد علىٰ الله تعالىٰ؛ أي: ومن يعطِ الحكمة ﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ أي؛ فقد أعطي خير الدارين ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾؛ أي: ما يتفكر في الحكمة ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي؛ إلا أصحاب العقول السليمة من الركون إلىٰ متابعة الهوى، أو المعنى: وما يتعظ بما وعظه الله إلا ذوو العقول الكاملة، الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه، أو: العلماء العمال. والمراد به: الحث علىٰ العمل بما تضمنت الآيُ في معنىٰ الإنفاق.

الإعراب

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾.

﴿مَّثَلُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضاف إليه، ولكن لا بد من تقدير مضاف في أحد الجانبين؛ ليصح الإخبار: إما في الأول تقديره: مثل نفقات الذين ينفقون أموالهم كمثل حبة، أو في الثاني تقديره: مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل باذر حبة. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، ومضاف إليه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُنفِقُونَ﴾، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ تقديره: مثل نفقاتهم كائن كمثل حبة، والجملة مستأنفة. ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾: فعل ومفعول به، ومضاف إليه مجرور بالفتح؛ لأنه علىٰ زنة مفاعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ حبة، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ ﴿حَبَّةٍ﴾؛ تقديره: كمثل حبة منبِّتة سبع سنابل.

﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾.

﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر مقدم

﴿مِاْئَةُ حَبَّةٍ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ ﴿سَنَابِلَ﴾؛ تقديره: موصوفة بكون مئة حبة في كل سنبلة منها؛ أي: من تلك السنابل، ويصح أن يكون مئة حبة فاعلاً للجار والمجرور قبله؛ لاعتماده علىٰ موصوف؛ لوقوعه صفة لسنابل، وهذا الوجه هو أولىٰ من الأول؛ لأن الأصل الوصف بالمفردات دون الجمل، ولكن لا بد من تقدير محذوف، أي: في كل سنبلة منها؛ أي: من السنابل، ويجوز أن تكون الجملة في محل النصب صفة لـ ﴿سَبْعَ﴾، كقولك: رأيت سبعة رجال أحرار وأحراراً. وقرىء شاذاً: ﴿مائة حبةً﴾ بالنصب، وقُدِّر بـ: أخرجت، وقدَّره ابن عطية بـ: أنبتت، والضمير عائد علىٰ الحبة.

﴿وَاللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾: الواو استئنافية. ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُضَٰعِفُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُضَٰعِفُ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول المحذوف؛ تقديره: لمن يشاء. ﴿وَاللَّهُ﴾ الواو عاطفة. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿وَٰسِعٌ﴾: خبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة معطوفة علىٰ الجملة التي قبلها.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب وتراخ[1]، نظراً للغالب من أن وقوع المن والأذى يكون بعد الإنفاق بمدة. وقيل المراد: التراخي في الرتبة، وأن رتبة عدمهما أعظم في الأجر من رتبة الإنفاق. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُتْبِعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة

(١) الجمل.

علىٰ جملة الصلة ﴿مَآ أَنفَقُواْ﴾: ﴿مَآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول أول. ﴿أَنفَقُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَآ﴾، أو صفة، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: ما أنفقوه. ﴿مَنًّا﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿يُتْبِعُونَ﴾. ﴿وَلَآ أَذًىۙ﴾: معطوف عليه، عطف عام علىٰ خاص، ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾: ﴿لَّهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أَجْرُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾، وجملة المبتدأ الأول وخبره مستأنفة، وإنما لم تدخل الفاء هنا في خبر الموصول؛ لعدم تضمنُّه معنىٰ الشرط والتعليق؛ لأن هذه الجملة مفسِّرة لما قبلها، فهي كالشيء الثابت المفروغ منه، فلا تحتاج إلىٰ تضمين تعليق. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف حال من الضمير المستكن في الخبر، أعني قوله: ﴿لَّهُمْ﴾ تقديره: لهم أجرهم حالَ كونه مدخراً لهم عند ربهم. ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾: الواو عاطفة. ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾ اسم ليس. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لا﴾: معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ علىٰ كونها خبر المبتدأ الأول، وكذا جملة قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوفة عليها علىٰ كونها خبراً.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾.

﴿قَوْلٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفهُ بما بعده، والعطف عليها. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: معطوف عليه، وسوغ الابتداء بها العطف، أو الصفة المقدرة؛ إذ التقدير: ومغفرة من السائل، أو من الله ﴿خَيْرٌ﴾ خبر عنهما، والجملة مستأنفة. ﴿مِّن صَدَقَةٍ﴾: متعلق بخبر. ﴿يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر صفة صدقة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿غَنِيٌّ﴾: خبر أول. ﴿حَلِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۖ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: يا: حرف نداء. أيُّ: منادى نكرة مقصودة، ها: حرف تنبيه

زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب أو الرفع صفة لأي. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَا تُبۡطِلُواْ﴾؛ ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تُبۡطِلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿صَدَقَٰتِكُم﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿بِٱلۡمَنِّ﴾: متعلق بـ﴿تُبۡطِلُواْ﴾. ﴿وَٱلۡأَذَىٰ﴾: معطوف علىٰ المن. ﴿كَٱلَّذِي﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر مع تقدير مضاف تقديره: لا تبطلوا إبطالاً كإبطال نفقات الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾: فعل، ومفعول به، ومضاف إليه، والفاعل ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلته ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: مفعول لأجله، ومضاف إليه. ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ﴾: الواو عاطفة. ﴿لا﴾: نافية ﴿يُؤۡمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يُنفِقُ﴾ علىٰ كونها صلة الموصول ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يُؤۡمِنُ﴾. ﴿وَٱلۡيَوۡمِ﴾: معطوف علىٰ لفظ الجلالة ﴿ٱلۡأٓخِرِۖ﴾: صفة لليوم.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ الفاء رابطة لما بعدها بما قبلها جوازاً ﴿مثله﴾: مبتدأ، ومضاف إليه، والضمير عائد علىٰ المرائي. ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: صفته كائنة كصفة صفوان، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَيۡهِ﴾: خبر مقدَّم. ﴿تُرَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الجر صفة لصفوان. ولك[1] أن ترفع تراباً بالجار؛ لأنه قد اعتمد علىٰ ما قبله، ﴿فَأَصَابَهُۥ﴾ الفاء عاطفة علىٰ الجار؛ لأن تقديره: استقر عليه تراب، فأصابه وابل، وهذا أحد ما يقوي شَبَه الظرف بالفعل، ذكره أبو البقاء. ﴿أصابه وابل﴾، فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٌ﴾ ﴿فَتَرَكَهُۥ﴾ الفاء عاطفة ﴿تركه صلداً﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ

(١) العكبري.

﴿وَابِلٌ﴾، ويحتمل كون ترك من أخوات صار الناقصة، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾. ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾: ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَقْدِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه[1] قيل: فماذا يكون مآلهم حينئذٍ؟ فقيل: لا يقدرون، والضمير في ﴿يَقْدِرُونَ﴾ عائد علىٰ الموصول في قوله: ﴿كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾. ومن[2] ضرورة كون مثلهم كما ذكر، كون مثل من يُشْبههم، وهم أصحاب المن والأذىٰ كذلك. ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَقْدِرُونَ﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لشيء؛ تقديره: شيء كائن مما كسبوا ﴿كَسَبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كسبوه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿لَا يَهْدِى﴾: ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة للقوم.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ﴾ الواو استئنافية. ﴿مثل﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه، ولكن علىٰ تقدير مضاف تقديره: ومثل نفقات الذين ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَمْوَٰلَهُمُ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله، وهو مضاف. ﴿مَرْضَاتِ﴾: مضاف إليه، مرضات: مضاف، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَتَثْبِيتًا﴾: معطوف علىٰ ابتغاء. ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تثبيتاً﴾: أي: لأجل الابتغاء والتثبيت، ويصح أن يكونا حالين؛ أي: مبتغين ومثبتين ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ تقديره:

---

(١) الجمل.

(٢) الجمل.

ومثل نفقات الذين ينفقون كائن كمثل جنة، والجملة مستأنفة. ﴿بِرَبْوَةٍ﴾: جار ومجرور صفة أولىٰ لـ﴿جَنَّةٍ﴾ تقديره: كائنة بربوة. ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر صفة ثانية لجنة، ويجوز[1] أن تكون الجملة في موضع نصب علىٰ الحال من الجنة؛ لأنها قد وصفت، ويجوز أن تكون حالاً من الضمير في الجار، وقد مقدرة مع الفعل، ويجوز أن تكون الجملة صفة لربوة؛ لأن الجنة بعض الربوة. ﴿فَآتَتْ﴾: الفاء عاطفة، ﴿آتىٰ﴾: فعل ماض، والتاء علامة التأنيث، وفاعله ضمير يعود علىٰ الجنة، والجملة في محل الجر معطوفة علىٰ جملة ﴿أَصَابَهَا﴾، وأتىٰ يتعدى إلىٰ مفعولين، أولهما محذوف تقديره: صاحبها ﴿أُكُلَهَا﴾: مفعول ثان، ومضاف إليه. ﴿ضِعْفَيْنِ﴾: حال من ﴿أُكُلَهَا﴾؛ أي: حال كونه مضاعفاً. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حالها فيما إذا أصابها وابل، وأردت بيان حالها فيما إذا لم يصبها وابل.. فأقول لك ﴿إن لم يصبها﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونها فعل شرط لها. ﴿فَطَلٌّ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿طلّ﴾: مبتدأ، خبره محذوف تقديره: فطل يكفيها، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، إما صلة لها، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه. ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

---

(١) العكبري.

﴿أَيَوَدُّ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿يود أحدكم﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، أو إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تَكُونَ﴾: فعل ناقص منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿تَكُونَ﴾. ﴿جَنَّةٞ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية؛ تقديره: أيود أحدكم كون جنة له. ﴿مِّن نَّخِيلٖ﴾: جار ومجرور صفة أولىٰ لـ ﴿جَنَّةٞ﴾. ﴿وَأَعۡنَابٖ﴾: معطوف علىٰ ﴿نَّخِيلٖ﴾. ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَجۡرِي﴾. ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ ﴿جَنَّةٞ﴾، ولكنها سببية. ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لمبتدأ محذوف تقديره: رزقٌ كائن من كل الثمرات، كائن له حالة كونه في تلك الجنة، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع صفة ثالثة لـ ﴿جَنَّةٞ﴾.

﴿وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ﴾.

﴿وَأَصَابَهُ﴾: الواو حالية. ﴿أصابه الكبر﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة حال من ﴿أَحَدُكُمۡ﴾ وقد مقدرة فيها. ﴿وَلَهُۥ﴾: الواو حالية. ﴿له﴾: خبر مقدم ﴿ذُرِّيَّةٞ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿ضُعَفَآءُ﴾: صفة لـ﴿ذُرِّيَّةٞ﴾، والجملة في محل النصب حال من الهاء في ﴿أصابه﴾.

﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾.

﴿فَأَصَابَهَآ﴾: الفاء عاطفة ﴿أصابها إعصار﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة علىٰ صفة الجنة، قاله أبو البقاء؛ يعني علىٰ قوله: ﴿مِّن نَّخِيلٖ﴾ وما بعده. ﴿فِيهِ نَارٞ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الرفع صفة الإعصار. ﴿فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾: الفاء عاطفة ﴿احترقت﴾: فعل ماضٍ، وتاء تأنيث، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿جَنَّةٞ﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ﴾ علىٰ كونها صفة لـ ﴿جَنَّةٞ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: تبييناً كائناً كتبيين هذا المثل المذكور. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة.. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾. ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾: مفعول به. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجٍ وتعليل، والكاف: اسمها. ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾ تقديره: لعلكم متفكرون، وجملة لعل في محل الجر بلام التعليل المقدرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، أيُّ: منادىٰ نكرة مقصودة، ها: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب، أو الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَنفِقُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أَنفِقُواْ﴾. ﴿كَسَبْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: كسبتموه. ﴿وَمِمَّآ﴾: جار ومجرور معطوف علىٰ قوله: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾، ولكنه علىٰ تقدير مضاف تقديره: ومن طيبات ما أخرجنا لكم. ﴿أَخْرَجْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: أخرجناه. ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ ﴿أَخْرَجْنَا﴾. ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق أيضاً بـ ﴿أَخْرَجْنَا﴾.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَيَمَّمُواْ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿أَنفِقُواْ﴾. ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ مفعول به. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ ﴿تُنفِقُونَ﴾، وجملة ﴿تُنفِقُونَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿تَيَمَّمُواْ﴾، وهي حال مقدرة؛ لأن الإنفاق منه يقع بعد القصد إليه،

ويجوز أن يكون حالاً من الخبيث؛ لأن في الكلام ضميراً يعود إليه، أي: منفقاً منه.

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾.

﴿وَلَسْتُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لستم﴾: فعل ناقص، واسمه. ﴿بِـَٔاخِذِيهِ﴾: الباء زائدة في خبر ليس ﴿آخذيه﴾: خبر ﴿ليس﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿ليس﴾ مستأنفة. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تُغْمِضُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تُغْمِضُوا۟﴾، وجملة ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بباء محذوفة تقديره: إلا بإغماضكم فيه، والباء المحذوفة متعلقة بـ﴿آخذيه﴾، ومفعول الإغماض محذوف تقديره: أبصاركم؛ أي: بإغماضكم فيه أبصاركم. وجوز أبو البقاء أنْ تكون ﴿أَن﴾ وما في حيزها في محل نصب علىٰ الحال، والعامل فيها ﴿آخذيه﴾، والمعنى: لستم بآخذيه في حال من الأحوال إلا في حال الإغماض.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾: الواو استئنافية. ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿غَنِىٌّ﴾: خبر أول لها. ﴿حَمِيدٌ﴾: خبر ثانٍ لها، والجملة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾ تقديره: واعلموا كون الله غنياً حميداً.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: مبتدأ. ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، وجملة: ﴿يأمركم﴾ معطوفة علىٰ جملة: ﴿يَعِدُكُمُ﴾ ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿يأمركم﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير

يعود علىٰ الله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ﴾ ﴿مِّنۡهُ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾. ﴿وَفَضۡلٗاۗ﴾: معطوف علىٰ مغفرة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿وَٰسِعٌ﴾: خبر أول. ﴿عَلِيمٞ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة أو معطوفة.

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾.

﴿يُؤۡتِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة، وأتىٰ هنا بمعنىٰ: أعطىٰ، يتعدى إلىٰ مفعولين. ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾: مفعول أول له ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثانٍ له. ﴿يَشَآءُۚ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إيتاءه ﴿وَمَن يُؤۡتَ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُؤۡتَ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصِّيغةِ مجزوم، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَن﴾ وهو المفعول الأول. ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾: مفعول ثانٍ. ﴿فَقَدۡ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقترانه بقَدْ. ﴿أُوتِيَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ علىٰ كونه جواباً لها، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَن﴾ وهو المفعول الأول ﴿خَيۡرٗا﴾: مفعول ثانٍ. ﴿كَثِيرٗاۗ﴾: صفة له، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية، إما معطوفة علىٰ جملة ﴿يُؤۡتِي﴾، أو مستأنفة. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ الواو استئنافية ﴿ما﴾: نافية ﴿يَذَّكَّرُ﴾: فعل مضارع. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾: والسنابل: جمع سنبلة علىٰ وزن فُنْعلة، والنون فيه زائدة، والسنبلة معروفة، يدلك علىٰ ذلك قولهم: أسبل الزرعُ إذا أخرج سبله، والسبَلُ مثل السنابل واحدتها سَبَلة، مثل قَصَب وقصَبَة، ويقال: سَنْبل الزرع إذا أخرج

سنبله، وقال[1] بعض أصحابنا: النون أصلية، ووزنه فعلل؛ لأن فنعل لم يثبت، فيكون مع أسبل كسبط وسبطر.

﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾: والأصل في مئة: مئية. يقول: مئيت القوم، إذا كملتهم مئة، ثم حذفت اللام تخفيفاً؛ كما حذفت لام يدٌ و دمٌ.

﴿وَلَآ أَذٗى﴾: ولام[2] الأذىٰ ياء، يقال: أذىٰ يأذي أذىً مثل نصب ينصِب نصباً. ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: والهمزة الأولىٰ في ﴿رِئَآءَ﴾: عين الكلمة؛ لأنه من رئىٰ، والأخيرة بدل من الياء؛ لوقوعها طرفاً بعد ألف زائدة كالقضاء والدماء، ويجوز تخفيف الهمزة الأولىٰ؛ بأن تقلب ياءً فراراً من ثقل الهمزة بعد الكسرة. وقد قرىء به كما مَرَّ، والمصدر هنا مضاف إلىٰ المفعول، وفي «الجمل»: ورئاء[3]: مصدر كقائل قتالاً، والأصل ريايا، فالهمزة الأولى بدل من ياءٍ هي عين الكلمة، والثانية بدلٌ من ياءٍ هي لام الكلمة؛ لأنها وقعت طرفاً بعد ألف زائدة والمفاعلة في ﴿رِئَآءَ﴾ علىٰ بابها؛ لأن المرائي يُري الناس أعماله حتى يروه الثناءَ عليه والتعظيم له.

﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾: الصفوان: الحجر الكبير الأملس كما سبق، وهو جمع صفوانه، والأفصح أن يقال: جنس لا جمع، ولذلك عاد الضمير عليه بلفظ الإفراد في قوله: ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾ وقيل: هو مفرد، وقيل: جمع واحدهُ صفا، ولكن جمعُ فَعَلٍ على فَعْلَان قليلٌ، وحُكي: صِفوان ـ بكسر الصاد ـ وهو أكثر في الجموع. ويقرأ بفتح الفاء، وهو شاذ؛ لأن فعلاناً شاذ في الأسماء، وإنما يجيء في المصادر؛ كالغليان كما مر.

﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾: التراب معروف، ويقال: فيه توراب. وتَرِب الرجل: افتقر. وأترب: استغنىٰ، الهمزة فيه للسلب؛ أي: زال عنه التراب وهو الفقر، وإذا زال

(١) البحر المحيط.

(٢) عكبري.

(٣) جمل.

عنه كان غنياً.

﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾: وألف ﴿أصابه﴾ بَدَلٌ من واو؛ لأنه من: صاب يصوب كقال يقول. وفي «المصباح»: وبلت السماء وبلاً من باب: وعد وبولاً: اشتد مطرها، وكان الأصل: وبل مطر السماء، فحذف للعلم به، ولهذا يقال للمطر: وابل.

فائدة: المطر أوله رشٌّ، ثم طشٌّ، ثم طلٌّ، ثم نضح، ثم هطل، ثم وبل.

﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ وفي «المختار»: حجر صلد؛ أي: صُلْبٌ أملس، وصلد الزند - من باب: جلس - إذا صوَّت، ولم يخرج ناراً، وأصلد الرجل: صلد زنده، ويقال أيضاً: صلِد بكسر اللام يصلَد بفتحها.

﴿طل﴾: الطل: المستدق من القطر الخفيف، وفي «الصحاح»: الطل أضعف المطر، والجمع: طلال، يقال: طلت الأرض، وهي مطلول.

﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ ونخيل فيها قولان:

أحدهما: أنه اسم جمع واحدهُ نخلة.

والثاني: أنه جمع نخل الذي هو اسم جنس، والأعناب جمع عنبٍ الذي هو اسم جنس واحدهُ عنبة، والعنب تمر الكرم، وقال الراغب: سمي النخل؛ لأنه منخول الأشجار وصفوها، وذلك أنه أكرم ما ينبت؛ لكونه مشبهاً للحيوان في احتياج الأنثىٰ للذكر، وأنه إذا قطع رأسه لم يثمر. ﴿يَعِدُكُمُ﴾ أصله: يوعدكم، فحذفت الواو؛ لوقوعها بين عدوتيها الياء والكسرة ﴿يَذَّكَّرُ﴾ أصله: يتذكر فأبدلت التاء ذالاً؛ لتقرب منها فتدغم.

البلاغة

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾: فيه مجاز بالحذف؛ لأنه لا بدَّ من تقدير مضاف في أحد الجانبين؛ أي: مثل نفقاتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾: شبّه سبحانه وتعالىٰ النفقة التي تنفق في سبيله بحبة أنبتت سبع سنابل، فأصبحت سبع مئة حبة، ففيه تشبيه مرسل مجمل؛ لذكر أداة التشبيه،

وحذف وجه الشبه. وهذا[1] التمثيل تصوير للأضْعافِ كأنها ماثلة بين عين الناظر. قالوا: والممثل به موجود، شوهد ذلك في سنبلة الجاروس والذرة والدخن. قيل: واختص هذا العدد؛ لأن السبْع أكثر أعداد العشرة، والسبعين أكثر أعداد المئة، وسبع مئة أكثر أعداد الألف، والعرب كثيراً ما تراعي هذه الأعداد.

﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾: وإسناد الإنبات إلىٰ الحبة إسناد مجازي، ويسمىٰ: المجاز العقلي؛ لأن المنبِت في الحقيقة هو الله تعالىٰ، وإنما نسب الإنبات إليها؛ لأنها كانت سبباً له كما يُنسب ذلك إلىٰ الأرض والماء. ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾: من باب ذِكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول؛ لأن الأذىٰ يشمل المن، وفي توسيط كلمة ﴿لا﴾ دلالة علىٰ شمول النفي.

﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ...﴾ الآية. وفي تكرير الإسناد، وتقييد الأجر بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ من التأكيد والتشريف ما لا يخفىٰ، وفي إخلاء الخبر من الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها إيذانٌ بأن ترتب الأجر علىٰ ما ذكر من الإنفاق، وترك اتباع المن والأذىٰ أمرٌ بَيِّنٌ، لا يحتاج إلىٰ التصريح بالسببية.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾: وهذه الجملة تذييل[2] لما قبلها، مشتملة علىٰ الوعد والوعيد، مقرِّرةٌ لاعتبار الخيرية بالنسبة إلىٰ السائل قطعاً.

﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ﴾ فيه تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدّد، وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: وهذه الجملة تذييل[3] مقرِّر لمضمون ما قبلها، وفيها تعريض بأنَّ كلاً من الرياء، والمن والأذى علىٰ الإنفاق من خصائص

---

(١) البحر المحيط.
(٢) جمل.
(٣) جمل.

الكفار، فلا بدَّ للمؤمنين أن يجتنبوها.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ...﴾ الآية. لم يذكر المشبه، ولا أداة التشبيه، وهذا النوع يسميه البيانيون استعارة تمثيلية، وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبَّه به فقط، وقامت قرائن تدل علىٰ إرادة التشبيه. والهمزة للاستفهام الإنكاري، والمعنىٰ علىٰ النفي والتبعيد؛ أي: ما يود أحد ذلك.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾: هذا مؤكِّد للأمر؛ إذ هو مفهوم من قوله: ﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، وفي هذا طباقٌ بذكر الطيبات، والخبيث.

﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ في الكلام مجاز مرسل واستعارة؛ إذ الإغماض في اللغة: غمض البصر، وإطباق الجفن. والمراد هنا: التجاوز والمساهلة؛ لأن الإنسان إذا رأىٰ ما يكره.. أغمض عينيه؛ لئلا يرىٰ ذلك.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾: وكرر ذكر الحكمة ولم يضمرها؛ لكونها في جملة أخرىٰ، وللاعتناء بها، والتنبيه علىٰ شرفها وفضلها وخصالها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ...﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها ظاهرةٌ؛ لما فيها من بيان أمر كلي شامل لجميع أفراد النفقات، وما في حكمها من النذور، بعد ما بيّن ما كان منها في سبيل الله تعالىٰ. ولا تزال الآيات تتحدَّث عن الإنفاق في وجوه البر والخير، وأعلاها: الجهاد في سبيل الله، والإنفاق لإعلاء كلمة الله، وتُرغِّب في إخفاء الصدقات؛ لأنها أبعد عن الرياء.

قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما ذكر تعالىٰ قوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ الآية. اقتضى أنه ليس أحد آتاه الله الحكمة، فانقسم الناس من مفهوم هذا قسمين: من أتاه الله الحكمة فهو يعمل بها، ومن لم يؤته إياها فهو يخبط عشواء في الضلال، فنبه بهذه الآية أن هذا القسم ليس عليك هداهم، بل الهداية، وإيتاء الحكمة. إنما ذلك إلىٰ الله تعالىٰ ليتسلىٰ بذلك في كون هذا القسم لم يحصل له السعادة الأبدية، ولينبه علىٰ أنهم وإنْ لم يكونوا مهتدين تجوز الصدقة عليهم.

قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا . . .﴾ الآية، قال[1] ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا الحسين بن زياد المحاربي: أخبرنا موسىٰ بن عمير عن عامر الشعبي في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا . . .﴾ الآية، قال: أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالىٰ عنهما أمّا عمر فجاء بنصف ماله حتىٰ دفعه إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فقال له النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ما خلفت وراءك يا عمر؟ قال: خلفت لهم نصف مالي، وأما أبو بكر: فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتىٰ دفعه إلى النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فقال له النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟ فقال: عدة الله وعدة رسوله، فبكى عمر رضي الله عنه وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلىٰ باب خير قط إلا كنت سابقاً.

قال ابن كثير: وإنما أوردنا هذا الحديث هٰهنا لقول الشعبي: إن الآية نزلت في ذلك.

قوله تعالىٰ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ . . .﴾ روىٰ[2] النسائي والحاكم والبزار والطبراني وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا عن ذلك، فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا علىٰ أهل الإسلام حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ . . .﴾ إلىٰ آخرها، فأمر بالصدقة بعدها علىٰ كل من سألك من كل أهل دين.

---

(١) ابن كثير.

(٢) لباب النقول.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...﴾ قال[1] ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم علانية.

وفي رواية عنه قال: لمّا نزل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بعث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بدنانير كثيرة إلىٰ أهل الصفة، وبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الليل بوَسَق من تمر، فأنزل الله فيهما: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني بنفقة الليل نفقة علي، وبالنهار نفقة عبد الرحمن.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ أي: أديتم وبذلتم أيها المؤمنون ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾؛ أي: نفقة كانت في حق أو باطل، سراً أو علانية، قليلة كانت أو كثيرة. ﴿أَوْ﴾ ما ﴿نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾؛ أي: نذر كان في طاعة أو معصية، بشرط أو بغير شرط، متعلقاً بالمال أو بالأفعال؛ كالصيام والحج فوفيتم به. والنذر: أن يوجب الإنسان علىٰ نفسه شيئاً ليس بواجب بأصل شرعي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾؛ أي: يعلم ما أنفقتم أو نذرتم، فيجازيكم عليه، وإنما قال[2]: ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾ ولم يقل: يعلمهما؛ لأنه ردَّ الضمير علىٰ الآخر منهما، فهو كقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾. وقيل: إن الضمير عائد علىٰ ما في قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾؛ لأنها اسم، فهو كقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ ولم يقل: بهما. وقيل: إنما أفرد الضمير؛ لكون العطف بأو، وإذا كان العطف بأو.. كان الضمير مفرداً؛ لأن المحكوم عليه هو أحدهما. ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي للواضعين للنفقات أو النذور في غير موضعها بالإنفاق، والنذر

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

في المعاصي أو بمنع الزكاة، وعدم الوفاء بالنذور، أو بالإنفاق بالخبيث، أو بالرياء والمن والأذى ﴿مِنۡ أَنصَارٍ﴾؛ أي: من أعوان يدفعون عنهم عذاب الله تعالىٰ، ففيه وعيد شديد لكل ظالم.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «من نذر أن يطيع الله.. فليطعه، ومن نذر أن يعصِ الله. فلا يعصه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «من نذر نذراً لم يسمه.. فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً في معصية.. فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً لا يطيقه.. فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً فأطاقه.. فليَفِ به». أخرجه أبو داود.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «لا نذر في معصية، ولا فيما لا يملك ابن آدم». أخرجه النسائي.

﴿إِن تُبۡدُواْ﴾؛ أي: إن تظهروا أيها المؤمنون إعطاء ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾؛ أي: فنعم شيئاً إبداؤها وإظهارها، ولم يكن رياء ولا سمعة. وقيل[1]: فنعمت الخصلة هي. وقيل: فنعم الشيء هي. والصدقات: جمع صدقة، والصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله علىٰ وجه القربىٰ، فيدخل فيه الزكاة الواجبة، وصدقة التطوع. وقرأ ابن عامر[2] وحمزة والكسائي وخلف هنا، وفي النساء: ﴿فنَعِمَّا﴾ بفتح النون وكسر العين، وهذه القراءة علىٰ الأصل؛ لأن الأصل في نَعِمَ أن يكون علىٰ وزن: فَعِل كعلم. وقرأ ابن كثير وورش وحفص ﴿فنِعِمّا﴾ بكسر النون والعين، وإنما كسرت النون إتباعاً لكسرة العين، وهي لغة هذيل. قيل: وتحتمل قراءة كسر العين علىٰ أن يكون أصل العين السكون، فلما وقعت ﴿ما﴾ بعدها، وأدغمت ميم ﴿نعم﴾ فيها.. كُسرت العين لالتقاء الساكنين. اهـ «سمين». وقال الشوكاني: وقرئ بفتح النون وكسر العين،

---

(١) الخازن.
(٢) الجمل.

وبكسرهما، وبكسر النون وسكون العين، وبكسر النون وإخفاء حركة العين. وقد حكىٰ النحويون في: نِعْمَ أربع لغات، وهي هذه التي قرىء بها في المتواتر. انتهىٰ.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾؛ وإن تسروا الصدقات ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾؛ أي؛ وتعطوها الفقراء في السر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: أفضل من إبدائها وإيتائها الأغنياء؛ أي: وإن[1] تخفوها وتصيبوا بها مصارفها من الفقراء، فالإخفاء خير لكم. وقد ذهب جمهور المفسرين: إلىٰ أن هذه الآية في صدقة التطوع، لا في صدقة الفرض، فلا فضيلة للإخفاء فيها، بل قد قيل: إن الإظهار فيها أفضل، وقالت طائفة: إن الإخفاء أفضل في الفرض والتطوع.

وعبارة «الخازن» هنا يعني: أن إخفاء الصدقة أفضل من العلانية، وكلٌّ مقبول إذا كانت النية صادقة، واختلفوا في المراد بالصدقة المذكورة في الآية فقال الأكثرون: المراد بها: صدقة التطوع. واتفق العلماء علىٰ أن كتمان صدقة التطوع أفضل، وإخفاءها خير من إظهارها؛ لأن ذلك أبعد من الرياء، وأقرب إلىٰ الإخلاص؛ ولأن فيه بعداً عما تؤثره النفس من إظهار الصدقة، وفي صدقة السر أيضاً فائدة ترجع إلىٰ الفقير الآخذ، وهي أنه إذا أُعطي في السر.. زال عنه الذل والانكسار، وإذا أُعطي في العلانية.. يحصل له الذل والانكسار. انتهت.

ويدل علىٰ أن صدقة السر أفضل، ما روىٰ الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله تعالىٰ...» الحديث، وفي آخره: «ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ووجه جواز إظهار الصدقة[2] يكون ممن قد أمن علىٰ نفسه من مداخلة الرياء في عمله، أو يكون ممن يُقتدىٰ به في أفعاله، فإذا أظهر الصدقة تابَعه غيره

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.

علىٰ ذلك، وأما الزكاة: فإظهار إخراجها أفضل من كتمانها؛ كالصلاة المكتوبة في الجماعة أفضل، وصلاة التطوع في البيت أفضل، ولكن في إظهار الزكاة نفي التهمة عن المزكي. وقيل: إن الآية واردة في زكاة الفرض وكان إخفاؤها خيراً علىٰ عهد رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم؛ لأنهم كانوا لا يظنون بأحد أنه يمنع الزكاة، فأما اليوم في زماننا: فإظهار الزكاة أفضل حتىٰ لا يساء الظن به. ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ الله، أو يكفِّر الإخفاءُ ﴿عَنكُم﴾ أيها المؤمنون، ويستر شيئاً ﴿مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وذنوبكم يعني: من الصغائر؛ لأن الكبائر لا تكفر إلا بالتوبة، أو بمحض فضل الله تعالىٰ.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة ويعقوب وعاصم في رواية أبي بكر(١): ﴿نكفر﴾ بالنون ورفع الراء. وقرأ نافع وحمزة والكسائي والأعمش وأبو جعفر وخلف: ﴿ونكفرْ﴾: بالنون والجزم؛ أي: ونكفرْ عنكم شيئاً من ذنوبكم بقدر صدقاتكم. وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿ويكفرُ﴾ بالياء والرفع، والمعنىٰ: يكفر الله، أو يكفر الإخفاء. وقرىء قراءة شاذة: بالتاء الفوقية، وبالرفع والجزم، والفاعل راجع للصدقات. وقرأ ابن عباس شذوذاً ﴿تُكفَر﴾: بالتاء الفوقية وفتح الفاء والجزم. وقرأ الحسين بن علي الجعفي شذوذاً أيضاً ﴿نكفَر﴾: بالنون ونصب الراء.

وقال أبو حيان(٢): قرأ الجمهور بالواو في: ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ وقرأ غيرهم بإسقاطها، وبالياء، والتاء، والنون، وبكسر الفاء، وفتحها، وبرفع الراء، وجزمها، ونصبها. فإسقاط الواو رواه أبو حاتم عن الأعمش شذوذاً، ونقل عنه أنه قرأ بالياء، وجَزمَ الراء وهو شاذ أيضاً. ووجهه: أنه بدل علىٰ الموضع من قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأنه في موضع جزم، وكأن المعنىٰ يكن لكم اخفاء خيراً من الإبداء، أو علىٰ إضمار حرف العطف؛ أي: ويكفر. انتهى. ومن قرأ بالنصب.. فعلىٰ تقدير: أن. قال سيبويه: والرفع ههنا هو الوجه الجيد. ﴿وَاللَّهُ﴾

---

(١) الشوكاني ومراح.

(٢) البحر المحيط.

سبحانه وتعالىٰ: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من إظهار الصدقات وإخفائها ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم لا يخفىٰ عليه شيء منه، ففيه ترغيب في الإسرار.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿هُدَىٰهُمْ﴾؛ أي: هدىٰ من خالفك حتىٰ تمنعهم الصدقة؛ لأجل أن يدخلوا في الإسلام، فتصدق عليهم لوجه الله تعالىٰ، ولا توقف ذلك علىٰ إسلامهم، فلا يجب عليك أن تجعلهم مهتدين، وإنما عليك البلاغ والإرشاد والحث علىٰ المحاسن، والنهي عن القبائح، كالمن والأذىٰ وإنفاق الخبيث. فأعلمه الله تعالىٰ أنه إنما بعث بشيراً ونذيراً وداعياً إلىٰ الله بإذنه، فأما كونهم مهتدين: فليس ذلك عليك. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: ولكن الله تعالىٰ يوفق من يشاء هدايته، فيهديه إلىٰ الدخول في الإسلام.

وأراد بالهداية هنا: هداية التوفيق، وأما هداية البيان والإرشاد والدعوة: فكانت علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. فلما نزلت هذه الآية.. أعطوهم وتصدقوا عليهم. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ تصرفونه في وجوه الخير كالفقراء وغيرهم ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: من مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: فثوابه لأنفسكم، لا ينتفع به في الآخرة غيرها، وحينئذٍ فلا تمنوا عليه إن أعطيتموه، ولا تؤذوه بالتطاول عليه، ولا تنفقوا من الخبيث، أو المعنىٰ: وكل نفقة تنفقونها من نفقات الخير، ولو علىٰ كافر فإنما هو يحصل لأنفسكم ثوابه، فلا يضركم كفرهم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ تعالىٰ؛ أي: والحال أنكم لا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله تعالىٰ، وطلب رضوانه، أو المعنىٰ: ولستم في صدقتكم علىٰ أقاربكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله تعالىٰ، فقد علم الله هذا من قلوبكم، فأنفقوا عليهم إذا كنتم تبتغون بذلك وجه الله في صلة رحم، وسد خلة مضطر، وليس عليكم اهتداؤهم حتىٰ يمنعكم ذلك من الإنفاق عليهم. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: من مال علىٰ الفقراء ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: يوفر ويعط لكم ثواب ذلك في الآخرة، والضمير في ﴿يُوَفَّ﴾ عائد علىٰ ﴿ما﴾. ومعنى تَوفيَتِه: إجزال ثوابه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً،

وفي هذا وفيما قبله[1]: قطع عذرهم في عدم الإنفاق؛ إذ الذي ينفقونه هو لهم، حيث يكونون محتاجين إليه فيوفونه كاملاً موفراً، فينبغي أن يكون إنفاقهم علىٰ أحسن الوجوه وأفضلها، وقد جاء قوله تعالىٰ: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ وقوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم في حديث أبي هريرة: «إذا تصدَّق العبد بالصدقة وقعت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فُلوَّه أو فَصِيلَهُ حتىٰ إن اللقمة لتصير مثل أُحد». وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: ذلك الإنفاق المحثوث عليه مصروف للفقراء الذين حبسوا أنفسهم ووقفوها علىٰ الجهاد في سبيل الله، أو للفقراء الذين صفتهم كذا وكذا حق واجب.

نزلت هذه الآية في حق فقراء المهاجرين من قريش[2]، وكانوا نحو أربع مئة، وهم أصحاب الصفة، لم يكن لهم مساكن ولا عشائر بالمدينة، وكانوا ملازمين المسجد، ويتعلمون القرآن، ويصومون، ويخرجون في كل غزوة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾؛ أي: لا يقدرون سيراً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولا سفراً فيها لطلب المعاش، ولا يتفرغون لطلبها، ثم عدم الاستطاعة للسير إما لاشتغالهم بصلاح الدين وبأمر الجهاد، فذلك يمنعهم من الاشتغال بالكسب والتجارة، وإما لخوفهم من الأعداء، كما قاله قتادة وابن زيد؛ لأن الكفار كانوا مجتمعين حول المدينة وكانوا متىٰ وجدوهم قتلوهم، فذلك يمنعهم من السفر، وإمَّا لَمَرضهم بالجروح، كما قاله سعيد بن المسيب رضي الله عنه، فحث الله تعالىٰ الناس علىٰ الإنفاق عليهم، فكان مَن عنده فَضْل أتاهم به إذا أمسىٰ.

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم؛ أي: يظنهم من لم يختبر أمرهم ﴿أَغْنِيَآءَ﴾ غير محتاجين ﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾؛ أي: لأجل تحفظهم عن مسألة الناس وتركها، وإظهارهم التجمل. قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿يحسَبهم﴾ ـ بفتح السين من

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

حَسِبَ حيث وَقع وهو القياس؛ لأن ماضيه علىٰ فَعِل بكسر العين. وقرأ باقي السبعة ﴿يحسِبهم﴾ بكسرها، وهو مسموع ﴿تَعْرِفُهُم﴾ أيها المخاطب ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: بعلامتهم. والسيماء والسيمياء والسمة: العلامة التي يُعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها هنا، فقيل: هي الخضوع والتواضع وآثار الخشوع في الصلاة، وقيل: هي أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقيل: هي صفرة ألوانهم من الجوع ورثاثة ثيابهم من الضر؛ أي: تعرفهم أيها المخاطب بعلامتهم من الهيبة، ووقع في قلوب الخلق، وآثار الخشوع في الصلاة، فكل من رآهم تواضع لهم. ورُوي أنهم كانوا يقومون الليل ويحتطبون بالنهار للتعفف. ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أموالهم أصلاً، ولا يلحفونهم ﴿إِلْحَافًا﴾؛ أي: ولا يلازمونهم ملازمة لطلب المال. والإلحاف[1] وكذا الألحاح هو: أن يُلازِم المسؤولَ حتىٰ يعطيهُ. من قولهم: لحفني من فضل لحافه؛ أي: أعطاني من فضل ما عنده. والمعنى: أنهم لا يسألون وإن سألوا للضرورة لم يلحفوا. وقيل: هو نفي للأمرين: السؤال والإلحاف؛ أي: لا يسألون إلحافاً، ولا غير إلحاف؛ أي: لا سؤال لهم أصلاً، فلا يقع منهم إلحاف؛ أي: كثرة التلطف وملازمة المسؤول؛ أي: أنهم سكتوا عن السؤال، ولا يضمون إلىٰ ذلك السكوت من رثاثة الحال وإظهار الانكسار ما يقوم مقام السؤال علىٰ سبيل الإلحاف، بل يزينون أنفسهم عند الناس، ويتجملون بهذا الخلق، ويجعلون فقرهم وحاجتهم بحيث لا يطلع عليه إلا الخالق. وفي قوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ دلالة علىٰ سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله يحب العفيف المتعفف، ويبغض الفاحش البذيء السَّآل الملحف الذي إن أعطي كثيراً أفرط في المدح وإن أعطي قليلاً أفرط في الذم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم

(١) البيضاوي.

قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنىٰ غنىٰ النفس» متفق عليه. وعنه رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «ليس المسكين الذي تردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىٰ يغنيه عن الناس، ولا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس». متفق عليه.

وعن الزبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب علىٰ ظهره، فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه، أم منعوه». رواه البخاري.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من سأل الناس وله ما يغنيه، جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خُموش ـ أو خدوش أو كدوح ـ قيل: يا رسول الله، وما يغنيه؟ قال: خمسون درهماً، أو قيمتها من الذهب» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: من مال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾، فيجازيكم عليه أحسن جزاء؛ يعني: أن الله تعالىٰ يعلم مقادير الإنفاق، ويجازي عليها، ففيه حث علىٰ الصدقة والإنفاق في الطاعة، خصوصاً علىٰ هؤلاء الفقراء.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم﴾ في الصدقات ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حالان؛ أي: مسرين ومعلنين؛ أي[1]: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله ابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل ونهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهر، ويعممون جميع الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم علىٰ الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج.. عجّلوا قضاءها ولم يؤخروه، ولم يتعللوا بوقت ولا حال، وهذا شروع في بيان صفة الصدقة ووقتها، فصفتها: السر والعلانية، ووقتها:

---

(١) النسفي.

الليل والنهار. وعبارة الكرخي[1]: أي يعممون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة.

ولعل تقديم الليل علىٰ النهار، والسر علىٰ العلانية؛ للإيذان بمزية الإخفاء علىٰ الإظهار. قيل: نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تصدق بأربعين ألف دينار: عشرة آلاف بالليل، وعشرة آلاف بالنهار، وعشرة آلاف بالسر، و عشرة آلاف بالعلانية. وقيل: غير ذلك كما سبق. وكون ما ذكر سبباً لنزولها لا يقتضي خصوص الحكم به، بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فالآية عامة في الذين ينفقون أموالهم في جميع الأوقات، ويعمون بها أصحاب الحاجات والفاقات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً وتصديقاً بوعده.. كان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة». يعني: حسنات. أخرجه البخاري.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خبر للموصول، وأتى بالفاء للدلالة علىٰ سببية ما قبلها لما بعدها، أو لتضمن الموصول معنىٰ اسم الشرط لعمومه؛ أي: فلهم جزاء أعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما فاتهم في الدنيا.

الإعراب

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: شرطية في محل النصب مفعول مقدم وجوباً، أو موصولة في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَنفَقْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿ما﴾ ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾: متعلق بـ﴿أَنفَقْتُم﴾، أو متعلق بمحذوف حال من

(١) الفتوحات الإلهية.

﴿ما﴾ تقديره: حال كونه كائناً من نفقة، وكذا يقال، في قوله: ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع ﴿نَذَرْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم معطوف علىٰ ﴿أَنفَقْتُم﴾. ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ متعلق بـ﴿نَذَرْتُم﴾. وفي قوله[1]: ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ دلالة علىٰ حذف موصول قبل قوله: ﴿نَذَرْتُم﴾ تقديره: أو ما نذرتم من نذر؛ لأن ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ تفسير وتوضيح لذلك المحذوف، وحذف ذلك للعلم به، ولدلالة ما في قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ عليه؛ كما حذف ذلك في قول حسان:

أَمَنْ يَهْجُوْ رَسُوْلَ ٱللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ؟!

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً أو رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً، ﴿إن﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم جواب ﴿ما﴾ الشرطية، أو في محل الرفع خبر المبتدأ، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية، أو جملة المبتدأ مستأنفة، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: الواو استئنافية ﴿ما﴾: نافية. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾: ﴿مِنْ﴾: زائدة ﴿أَنصَارٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والتقدير: وما أنصار كائنون للظالمين، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾.

﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة جامدية. ﴿نِعْمَ﴾: فعل ماض من أفعال المدح، وفاعله ضمير مستتر تقديره: هو يعود علىٰ الشيء المبهم. ﴿ما﴾: نكرة تامة في محل النصب تمييز لفاعل ﴿نِعْمَ﴾. ﴿هي﴾: مخصوص بالمدح خبر لمبتدأ محذوف تقديره: المخصوص بالمدح هي؛ أي: إبداء تلك الصدقات. أو ﴿هي﴾: مبتدأ، والخبر جملة ﴿نعم﴾. وجملة ﴿نعم﴾ في محل الجزم جواب

---

(١) البحر المحيط.

﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُخْفُوهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل الشرط، وجزمه حذف النون. ﴿وَتُؤْتُوهَا﴾: الواو عاطفة ﴿تؤتوها﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف علىٰ تخفوها. ﴿ٱلْفُقَرَآءَ﴾: مفعول ثانٍ. ﴿فَهُوَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿هو﴾: مبتدأ ﴿خَيْرٌ﴾ خبر. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿خَيْرٌ﴾، كما ذكره أبو حيان في «البحر» تقديره: فهو ـ أي: الإخفاء ـ خير كائن لكم، والجملة الاسمية في محل الجزم علىٰ كونها جواب الشرط، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾. ﴿وَيُكَفِّرُ﴾: الواو عاطفة. ﴿يُكفِّر﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، أو علىٰ الإخفاء. ﴿عَنكُم﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ويحتمل كون ﴿مِّن﴾ تبعيضية، والمفعول محذوف تقديره: شيئاً من سيئاتكم، والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ علىٰ كونها جواب الشرط. وقرىء ﴿يكفر﴾ بالجزم عطفاً علىٰ الجواب، وبالنصب علىٰ تقدير أن، والمصدر المؤول من ﴿أن﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿خَيْرٌ﴾، والتقدير: فهو ـ أي الإخفاء ـ خير لكم، وتكفير سيئاتكم ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾ الآتي. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه. ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَّيْسَ﴾.

﴿هُدَىٰهُمْ﴾: اسمها مؤخر، ومضاف إليه، والتقدير: ليس هداهم كائناً عليك، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو عاطفة ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿لَّيْسَ﴾. ﴿مَن يَشَآءُ﴾: ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿يشاء﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: يشاء هدايته. ﴿وَمَا﴾: الواو استئنافية. ﴿ما﴾: شرطية في محل النصب مفعول مقدم وجوباً. ﴿تُنفِقُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿ما﴾ علىٰ كونه فعل الشرط. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿ما﴾. ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾الفاء رابطة. ﴿لأنفسكم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف؛ تقديره: فهو كائن لكم، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿ما﴾ الشرطية، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ﴾ الواو استئنافية ﴿ما﴾: نافية ﴿تُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ إلا أداة استثناء مفرغ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله، وهو مضاف. ﴿وَجْهِ﴾: مضاف إليه، وجه مضاف، ولفظ الجلالة ﴿الله﴾ مضاف إليه والجملة الفعلية مستأنفة، أو معطوفة علىٰ الجملة التي قبلها، وهي خبرية اللفظ إنشائية المعنىٰ قصد بها النهي، والمعنىٰ: لا تنفقوا لغرض من الأغراض إلا لغرض ابتغاء وجه الله تعالىٰ.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَآ﴾ الواو عاطفة. ﴿ما﴾: اسم شرط في محل النصب مفعول مقدم ﴿تُنفِقُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿ما﴾. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: حال من ﴿ما﴾ ﴿يُوَفَّ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿ما﴾، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ما﴾، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، وأتت الواو حالية، أو استئنافية. ﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ خبره،

والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿إِلَيْكُمْ﴾، والعامل فيه ﴿يُوَفَّ﴾، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾.

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف جوازاً؛ تقديره: الصدقات مصروفة للفقراء، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنهم لما أمروا بالصدقات.. قالوا: فلمن هي؟ فأجيبوا: بأنها لهؤلاء الفقراء المذكورين. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول صفة ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾. ﴿أُحْصِرُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير النائب.. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور مضاف إليه، متعلق بـ﴿أُحْصِرُوا۟﴾. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير النائب في ﴿أُحْصِرُوا۟﴾، والعامل فيه ﴿أُحْصِرُوا۟﴾؛ أي: أحصروا عاجزين، ويجوز أن يكون مستأنفاً. ﴿ضَرْبًا﴾: مفعول به. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿ضَرْبًا﴾، أو بمحذوف صفة لـ﴿ضَرْبًا﴾، ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ فعل ومفعول أول وفاعل، ﴿أَغْنِيَآءَ﴾: مفعول ثانٍ. ﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾: جار ومجرور متعلق، بـ﴿يحسب﴾؛ أي: يحسبهم لأجل تعففهم. والجملة في محل النصب حال أيضاً من ضمير النائب في ﴿أُحْصِرُوا۟﴾، ويجوز أن يكون مستأنفاً.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

﴿تَعْرِفُهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ المخاطب، والجملة في محل النصب حال أيضاً، أو مستأنفة. ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَعْرِفُهُم﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: أموالهم، والجملة في محل النصب حال، أو مستأنفة. ﴿إِلْحَافًا﴾: قال السمين: في نصبه ثلاثة أوجه:

أحدها: نصبه علىٰ المصدر بفعل مقدر؛ أي: يلحفون إلحافاً، والجملة المقدرة حال من فاعل ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾.

والثاني: أن يكون مفعولاً لأجله؛ أي: لا يسألون لأجل الإلحاف.

والثالث: أن يكون مصدراً في موضع الحال تقديره: لا يسألون ملحفين. انتهىٰ.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَآ﴾ الواو استئنافية. ﴿ما﴾: اسم شرط في محل النصب مفعول مقدم. ﴿تُنفِقُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿ما﴾، ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: حال من ﴿ما﴾. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية. ﴿إنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها به متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجزم بـ﴿ما﴾ علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَمْوَٰلَهُم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿بِٱلَّيْلِ﴾: الباء بمعنىٰ: في، ﴿الليل﴾: مجرور بها، والجار والمجرور متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾، ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف علىٰ ﴿الليل﴾، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: مصدران في موضع الحال من فاعل ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ أي: مسرين ومعلنين ﴿فَلَهُمْ﴾: الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ؛ لِمَا في المبتدأ من العموم. ﴿لهم﴾: خبر مقدم. ﴿أَجْرُهُمْ﴾: مبتدأ ثانٍ ومضاف إليه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبرٌ للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾: اسمها. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لا﴾ في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ علىٰ كونها خبراً للمبتدأ الأول. ﴿وَلَا هُمْ﴾: الواو عاطفة. ﴿لا﴾: نافية ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في

محل الرفع معطوفة أيضاً علىٰ جملة قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ علىٰ كونها خَبراً للمبتدأ الأول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: أصلها نعم ما، ونعم[1]: فعل جامد ليس له مضارع ولا أمر ولا غيرهما. فليس من مباحث الصرفيين كما هو معلوم، ولكن نذكره هنا لأجل هذا الإدغام، فهو في الأصل من باب فَعِل المكسور كـ: عَلِم كما جاء في الشعر كذلك، إلا أنهم سكنوا العين، ونقلوا حركتها إلىٰ النون ليكون دليلاً على الأصل. ومنهم من يترك النون مفتوحة علىٰ الأصل، ومنهم من يكسر النون والعين إتباعاً. وبكل قد قرىء في المتواتر كما سبق، وفيه قراءة أخرىٰ أيضاً وهي: إسكان العين والميم مع الإدغام. وفيه بُعْدٌ لما فيه من الجمع بين الساكنين، ولكنه متواتر فلا بعد فيه.

﴿مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾: السيئات: جمع سيئة، ووزنها: فيعلة، وعينها واو، والأصل: سيوئة، فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء، فصار سيئة.

﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ التعفف مصدر تعفف، ـ من باب: تفعَّل ـ تعففاً إذا أعرض عن الشيء، وتركه مع القدرة علىٰ تعاطيه. ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: السيما[2] بالقصر: العلامة، ويجوز مدُّها، وإذا مدت.. فالهمزة فيها منقلبة عن حرف زائد للإلحاق، إما واو أو ياء فهي كـ: علياء ملحقة بـ: سرداح، فالهمزة للإلحاق، لا للتأنيث، وهي منصرفة لذلك. وسيما مقلوبة قدمت عينها علىٰ فائها؛ لأنها مشتقة من الوَسْم، فهي من السمة؛ أي: العلامة. فلما وقعت الواو بعد كسره قلبت ياء، فوزن سيما: عُفْلا، كما يقال: اضمحلَّ وامضحل.

﴿إِلْحَافًا﴾ الإلحاف:[3] الإلحاح في المسألة والتمادي فيها، وهو مشتق من اللِّحافِ، سُمِّي بذلك لاشتماله علىٰ وجود الطلب في المسألة، كاشتمال

---

(١) عكبري. (٢) الجمل. (٣) الشوكاني.

اللِّحافُ علىٰ التغطية.

البلاغة

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ بين ﴿أَنفَقْتُم﴾ و ﴿نَّفَقَةٍ﴾: جناس الاشتقاق، وكذلك بين ﴿نَذَرْتُم﴾ و ﴿نَّذْرٍ﴾..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾: فالتعبير بالعلم كناية عن المجازاة، وإلا فهو معلوم، ذكره الكرخي.

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: فيه نوع تفصيل لبعض ما أجمل في الشرطية قبله، وبيان له، ولذا ترك العطف بينهما، وفي الإبداء والإخفاء طباق لفظي، وكذلك بين لفظ الليل والنهار، والسر والعلانية. وهو من المحسنات البديعية.

وفي قوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ طباق معنوي[1]؛ لأنه لا يؤتي الصدقات إلا الأغنياء، فكأنه قيل: إن يبد الصدقات الأغنياء.

وفي قوله: ﴿هُدَىٰهُمْ﴾ طباق معنوي؛ إذ المعنى: ليس عليك هدىٰ الظالمين.

وفي قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ إطناب؛ لوروده بعد قوله: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ الذي معناه يصلْكم وافياً غير منقوص.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذه الآية طباق في موضعين:

أحدهما: في قوله: ﴿أُحْصِرُواْ﴾ و ﴿ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

والثاني: في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ و ﴿أَغْنِيَآءَ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾.

المناسبة

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ...﴾ مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أن ما قبلها وارد في تفضيل الإنفاق والصدقة في سبيل الله، وأنه يكون ذلك من طيبات ما كسب، ولا يكون من الخبيث، فذكر نوعاً غلب عليهم في الجاهلية ـ وهو خبيث ـ وهو: الربا، حتىٰ يُمتنع من الصدقة بما كان من ربا، وأيضاً فتظهر مناسبة أخرىٰ، وذلك أن الصدقات فيها نقصان مال، والربا فيه زيادة مال، فاستطرد من المأمور به إلىٰ ذكر المنهي عنه، لما بينهما من مناسبة ذكر التضاد.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة؛ وذلك أنه لما ذكر حال آكل الربا، وحال من عاد إليه بعد مجيء الموعظة، وأنه كافر أثيم.. ذكر ضد هؤلاء؛ ليبين فرق ما بين الحالين.

---

(١) البحر المحيط.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ. . .﴾ أخرج[1] ابن جرير عن ابن جريج قال: كانت ثقيف قد صالحت النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم على أن ما لَهم من ربا علىٰ الناس، وما كان للناس عليهم من ربا. . فهو موضوع، فلما كان الفتح استعمل عتاب بن أسيد علىٰ مكة، وكانت بنو عمرو بن عوف يأخذون الربا من ابن المغيرة، وكان بنو المغيرة يرابون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير، فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم، فأبىٰ بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد، فكتب عتاب إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ فكتب بها رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم إلىٰ عتاب، وقال: «إن رضوا، وإلا فأذنهم بحرب».

وأخرج أهل السنن وغيرهم عن عمرو بن الأحوص: أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فقال: «ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون، وأول ربا موضوع: ربا العباس».

وأخرج ابن منده عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في ربيعة بن عمرو وأصحابه: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال[2]: آخر آية نزلت من القرآن علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ وقال: وكان بين نزولها وبين موت النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم إحدىٰ وثمانون يوماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه عاش النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم بعد نزولها تسع ليال، ثم مات.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ أي: يأخذونه استحلالاً، ويعاملون به، وإنما خص الأكل؛ لأنه معظم الأمر المقصود من المال لأن المال لا يؤكل، وإنما يصرف في المأكول، ثم يؤكل، فمنع الله التصرف في الربا بما ذكر فيه من الوعيد، ولأن الربا شائع في المطعومات.

وأخرج مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: لعن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: «هم سواء».

وأصل الربا في اللغة: الزيادة. يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد وكثر، فالربا شرعاً: الزيادة في المال. ومنه: ربا الفضل، وربا النسيئة. وغالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه إذا حلَّ أجل الدَّين، قال مَنْ هو له لمن هو عليه: أتقضي أم تربي؟ فإذا لم يقضِ زاد مقداراً في المال الذي عليه، وأَخَّر له الأجل إلىٰ حين، وهذا حرام بالاتفاق.

﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم إذا بعثوا يوم القيامة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾؛ أي: الجنون، فقوله: ﴿مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ إما متعلق بـ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ علىٰ أن: ﴿مِنَ﴾ للتعليل، والمعنى[١]: لا يقومون من قبورهم ـ لأجل المس والجنون والخبل الواقع بهم في الموقف ـ إلا قياماً كقيام الشخص الذي يتخبطه ويصرعه ويسقطه الشيطان والجن في الدنيا إذا مسه بخبل وجنون. ومعنىٰ الآية: أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مثل المصروع المجنون، لا يستطيع الحركة الصحيحة، وذلك ليس لخلل في عقله، بل لأن الربا الذي أكله في الدنيا يربو في بطنه، فلا يقدر علىٰ الإسراع في النهوض، فإذا قام تميل به بطنه. قال سعيد بن جبير: تلك علامة آكل الربا يوم القيامة إذا استحله في الدنيا.

يعني: أن آكل[٢] الربا يُبعث يوم القيامة مجنوناً، وذلك كالعلامة

---

(١) الخازن.

(٢) المراح.

المخصوصة بأكل الربا، فيعرفه أهل الموقف بتلك العلامة أنه أكل الربا في الدنيا، فعلىٰ هذا معنى الآية: أنهم يقومون مجانين كمن أصابه الشيطان بالجنون، وإما متعلق بـ﴿يقوم﴾ أو بـ﴿يتخبط﴾ والخبط: الضرب، والمشي من غير استواء.

وهذا علىٰ ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، وفي الآية[١] دليل علىٰ فساد قول من قال: أن الصرع لا يكون من جهة الجن، وزعم: أنه من فِعْل الطبائع، وقال: إن الآية خارجة علىٰ ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الإنسان، وليس بصحيح. وإن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مسٌّ، وقد استعاذ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم من أن يتخبطه الشيطان، كما أخرجه النسائي وغيره.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العقاب الذي نزل بهم، وهو كون التخبل علامة آكل الربا في الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾؛ أي: بسبب قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ أي:[٢] إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل، كالبيع بزيادة عند حلوله، فإن العرب لا تعرف ربا إلا ذلك، وإنما شبهوا البيع بالربا مع أن الكلام في الربا، وكان مقتضاه: إنما الربا مثل البيع مبالغةً بجعلهم الربا أصلاً في الحل، والبيع فرعاً فيه. أو المعنىٰ[٣]: إنما الزيادة والربح في البيع كالزيادة في الربا؛ أي: اعتقدوا مدلول هذا القول وفعلوا مقتضاه؛ أي: ذلك العذاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلىٰ الربح، فاستحلوا الربا استحلال البيع، وقالوا: يجوز بيع درهم بدرهمين؛ كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين، فجعلوا الربا أصلاً في الحل، وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما، فإن من أعطىٰ درهمين بدرهم.. ضيَّع درهماً، ومن اشترىٰ سلعة بدرهمين تساوي درهماً.. فلعل مساس الحاجة إليها، أو توقع رواجها يجبرُ هذا الغُبْن.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

(٣) أبو السعود.

وذكر بعضهم الفرق بين البيع والربا، فقال: إذا باع ثوباً يساوي عشرة بعشرين، فقد جعل ذات الثوب مقابلاً للعشرين، فلما حصل التراخي علىٰ هذا التقابل.. صار كل واحد منهما مقابلاً للآخر في المالية عندهما، فلم يكن أخذ من صاحبه شيئاً بغير عوض، أما إذا باع عشرة دراهم بعشرين: فقد أخذ العشرة الزائدة بغير عوض، ولا يمكن أن يقال: إن العوض هو الإمهال في مدة الأجل؛ لأن الإمهال ليس مالاً أو شيئاً يُشار إليه حتىٰ يجعله عوضاً عن العشرة الزائدة، فقد ظهر الفرق بين الصورتين. انتهىٰ.

وعبارة «الخازن»: وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حلَّ ماله علىٰ غريمه فيطالبه، يقول الغريم لصاحب الحق: زدني في الأجل حتىٰ أزيدك في المال، فيفعلان ذلك. وكانوا يقولون: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح، أو عند المحل لأجل التأخير، فكذبهم الله تعالىٰ، ورد عليهم ذلك بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ أي: أحل الله لكم الأرباح في التجارة بالبيع والشراء، وحرم عليكم الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل؛ وذلك لأن الله تعالىٰ خلق الخلق فهم عبيده، وهو مالكهم يحكم فيهم بما يشاء، ويستعبدهم بما يريد، ليس لأحد أن يعترض عليه في شيء مما أحل أو حرم، وإنما علىٰ كافة الخلق الطاعة والتسليم لحكمه وأمره ونهيه.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: فمن بلغته موعظةٌ من الله، وزَجْرٌ وتخويفٌ عن الربا. وإنما ذكر الفعل؛ لأن الفاعل مؤنث مجازي، أو لوجود الفاصل. وقرأ أبو الحسن شذوذاً: ﴿فمن جاءته﴾ بالتاء علىٰ الأصل. ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾؛ أي: فامتثل النهي الذي جاءه، وانزجر عن أخذه ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾؛ أي: له ما تقدم، وأكل من الربا قبل النهي، وليس عليه رد ما أخذ وسلف قبل النهي، فلا يؤاخذ به؛ لأنه أخذه قبل نزول التحريم، وأما ما لم يقضِ قبل النهي: فلا يجوز له أخذه، وإنما له رأس ماله فقط. ﴿وَأَمْرُهُۥٓ﴾؛ أي: أَمْر من عامل بالربا مفوض ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يجازيه علىٰ انتهائه إن كان عن قبول الموعظة، وصدق النية، وقيل: يحكم في شأنه يوم القيامة بما شاء، وليس من أمره إليكم شيء، فلا تطالبوه به.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ تحليل الربا بعد التحريم فأخذه، أو إلىٰ القول: بأن البيع مثل الربا ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ العائدون إلىٰ الربا ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها أبداً؛ لأنهم باستحلاله صاروا كافرين؛ لأن من أحل ما حرم الله تعالىٰ فهو كافر؛ فلذا استحق الخلود فيها، فقوله: ﴿أولئك﴾ راجع لـ﴿مَنْ﴾ باعتبار معناها.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا﴾؛ أي: يذهب بركته وإن كان كثيراً، ويهلك المال الذي دخل فيه في الدنيا. وقيل: يمحق بركته في الآخرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالىٰ لا يقبل منه صدقة، ولا جهاداً، ولا حجاً، ولا صلة رحم. ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: يزيدها ويثمرها، ويبارك في المال الذي أخرجت منه في الدنيا، ويضاعف أجرها في الآخرة.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «ما تصدق أحد بصدقة من كَسْب طيِّب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمٰن بيمينه، وإن كانت ثمرة فتربو في كف الرحمٰن حتىٰ تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله». وهذا لفظ مسلم. ولفظ البخاري: «من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيِّب، ولا يصعد إلىٰ الله ـ وفي رواية: ولا يقبل الله ـ إلا الطيِّب ـ فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل».

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾؛ أي: لا يرضىٰ ولا يحب محبته للتوابين؛ يعني: يعاقبه ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾؛ أي: جاحد بتحريم الربا، أو كل مصر علىٰ كفره مقيم عليه مستحل لأكل الربا. ﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: فاجر بأخذه مع اعتقاده التحريم.

فوائد تتعلق في تحريم الربا

الأولىٰ: ذكروا في سبب تحريم الربا وجوهاً:

أحدها: أن الربا يقتضي أخذ مال الغير بغير عوض؛ لأن من باع درهماً

بدرهمين نقداً كان، أو نسيئة.. فقد حصل له زيادة درهم من غير عوض فهو حرام.

الوجه الثاني: إنما حرم عقد الربا؛ لأنه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة؛ لأن صاحب الدراهم إذا تمكن من عقد الربا.. خَفَّ عليه تحصيل الزيادة من غير تعب ولا مشقة، فيفضي ذلك إلى انقطاع منافعِ الناس بالتجارات وطلب الأرباح.

الوجه الثالث: أن الربا هو سبب إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، فلما حرَّم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم للمحتاج، واسترجاع مثله لطلب الأجر من الله تعالى.

الوجه الرابع: أن تحريم الربا قد ثبت بالنص، ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومة للخلق، فوجب القطع بتحريم الربا وإن كنا لا نعلم وجه الحكمة في ذلك.

الثانية: اعلم أن الربا في اللغة: هو الزيادة. وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام، فثبت أن الزيادة المحرمة هو: الربا، وهو علىٰ صفة مخصوصة في مال مخصوص بيَّنه رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «الذهب بالوَرِق رباً إلا هاء وهاء، والبر بالبر رباً إلا هاء وهاء، والشعير بالشعير رباً إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر رباً إلا هاء وهاء، وفي رواية: الوَرِق بالوَرِق رباً إلا هاء وهاء، والذهب بالذهب رباً إلا هاء وهاء» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «الذهب بالذهب وزناً بوزن مثلاً بمثل، والفضة بالفضة وزناً بوزن مثلاً بمثل، فمن زاد واستزاد.. فقد أربىٰ، وفي رواية: التمر بالتمر، والحنطة بالحنطة، والشعير بالشعير، والملح بالملح، مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد واستزاد.. فقد أربىٰ إلا ما اختلف ألوانه» أخرجه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبرُّ بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواءً بسواء يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف.. فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيدٍ». أخرجه مسلم.

الثالثة: الربا نوعان: **ربا فضل**: وهو الزيادة، **وربا نسيئة**: وهو الأجل. فإن باع ما يدخل فيه الربا بجنسه؛ كأن باع الذهب بالذهب، والحنطة بالحنطة.. اشترط في صحة العقد ثلاثة شروط: التقابض، والحلول، والتماثل بمعيار الشرع. فإن كان موزوناً كالذهب فبالوزن، وإن كان مكيلاً كالحنطة والشعير فبالكيل، فإن باع ما يدخل فيه بغير جنسه.. ففيه تفصيل، فإن باع بما لا يوافقه في وصف الربا وعلته؛ كأن باع مطعوماً بأحد النقدين.. فلا ربا فيه؛ كما لو باعه بغير مال الربا.

وإن باعه بما يوافقه في علة الربا ووصفه، لا في الجنس؛ كأن باع الدراهم بالدنانير، أو الحنطة بالشعير.. فلا يثبت فيه ربا التفاضل، فيجوز بيعه متفاضلاً، ويثبت فيه ربا النسيئة، فيشترط في صحة بيعه أمران: التقابض، والحلول.

واختلفوا في علة الربا في النقود والمطعومات علىٰ أقوال كثيرة، والراجح منها: أن علة الربا في النقود: كونها قيم الأشياء وثمنها، وفي المطعومات: الطعم كما هو مقرر في محله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله وكتبه وبتحريم الربا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: فيما بينهم وبين ربهم، وتركوا الربا ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أتموا الصلوات الخمس بما يجب فيها من الأركان والشروط ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أعطوا زكاة أموالهم. نص عليهما وإن كانا داخلين في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لعظم شأنهما ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ أي: أجر أعمالهم وثوابها ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكروه آتٍ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ محبوب فات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: اخشوا الله في الربا، وقوا أنفسكم عقابه. ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾؛ أي: اتركوا طلب ما بقي لكم من الربا والزيادة

علىٰ رأس المال، وخذوا رؤوس أموالكم فقط ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مصدقين بقلوبكم في تحريم الربا، فإن دليله امتثال ما أُمرتم به.

قيل: نزلت في العباس بن عبد المطلب، ورجل من بني المغيرة. كانا شريكين في الجاهلية يسلفان الربا إلىٰ ناسٍ من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله هذه الآية.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أيها المؤمنون ما أمرتم به من التقوىٰ، وترك بقايا الربا، وعدم الفعل، إما مع إنكار حرمة الربا.. فحربهم حينئذٍ حرب المرتدّين، وإما مع اعتقاد حرمتها.. فحربهم حرب البُغاة ﴿فَأْذَنُوا﴾؛ أي: فاعلموا ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ لكم ﴿وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: فاستعدوا للعذاب من الله في الآخرة بالنار، وللعذاب من رسوله في الدنيا بالسيف. قرأ الجمهور: ﴿فَأْذَنُوا﴾ بفتح الذال مع القصر؛ أي: فاعلموا أنتم، وأيقنوا بحربهما لكم. وهو من أذن الثلاثي. يقال أذن بالشيء: إذا علم به. وقرأ حمزة وأبو بكر شعبة عن عاصم ﴿فآذِنوا﴾ بالمد وكسر الذال، أمر من: آذن الرباعي علىٰ معنىٰ: فأعلموا غيركم أنكم علىٰ حربهما وقيل المعنى: فاعلموا أيها المؤمنون من لم ينتهِ عن ذلك بحرب من الله ورسوله. وقرأ الحسن شذوذاً: ﴿فأيقنوا بحرب﴾ وتقوي قراءة الحسن هذه قراءةُ الجمهور بالقصر. وقد دلت هذه الآية علىٰ أن أكل الربا والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك. وتنكير الحرب للتعظيم، وزادها تعظيماً نسبتها إلىٰ اسم الله الأعظم، وإلىٰ رسوله الذي هو أشرف خليقته. ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من معاملة الربا، وتركتموها ورجعتم عنها ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾؛ أي: أصولها دون الزيادة ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ الغريم بطلب الزيادة علىٰ رأس المال ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: بنقصان رأس المال وبالمطل. فلما[1] نزلت هذه الآية.. قال بنو عمرو الثقفي، ومن كان يعامِل بالربا من غيرهم: بل نتوب إلىٰ الله، فإنه لا يُدان لنا؛ يعني: لا قوة لنا بحرب الله ورسوله، ورضوا برؤوس أموالهم، فشكا بنو المغيرة العسرة، ومن كان عليه

---

(١) الخازن.

دين، وقالوا: أخرونا إلىٰ أن تدرك الغلات، فأبوا أن يؤخروهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾؛ أي: وإن وجد من غرمائكم غريم ذو عسرة؛ أي: غريم صاحب إعسار وعجز عن أداء الحق الذي عليه ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾؛ أي: فإنظاره وإمهاله إلىٰ وقت يساره، وقدرته علىٰ أداء حقكم واجبٌ عليكم أيها الدائنون، لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه: إما أن تقضي، وإما أن تربي. ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾؛ أي: وتصدقكم علىٰ المعسر برؤوس أموالكم بالإبراء منها ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من التأخير والأخذ؛ لأنه يحصل لكم الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل التصدق علىٰ الإنظار والقبض فافعلوه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ بالواو: علىٰ أن ﴿كَانَ﴾ تامة. وروي عن أُبي وابن مسعود وعثمان وابن عباس: ﴿ذا عسرة﴾ بالألف علىٰ أن ﴿كَانَ﴾ ناقصة. وقرأ الأعمش: ﴿وإن كان معسرا﴾. وقرىء: ﴿ومن كان ذا عسرة﴾، وهي قراءة أبان بن عثمان، وحكىٰ المهدوي: أن في مصحف عثمان ﴿فإن كان﴾ بالفاء وما عدا قراءة الجمهور شاذ.

وقرأ الجمهور: ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ بوزن: نَبِقَة. وقرأ أبو رجاء ومجاهد والحسن والضحاك وقتادة: ﴿فنظْرة﴾ بسكون الظاء وهي لغة تميمية. يقولون في كَبِد: كَبْد. وقرأ عطاء: ﴿فناظرة﴾ علىٰ وزن فاعلة، وخرَّجه الزجّاج علىٰ أنه مصدر كقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾، وقال: قرأ عطاء ﴿فناظرة﴾ بمعنىٰ: فصاحب الحق ناظرهُ؛ أي: منتظرهُ، وعنه: ﴿فناظِرْهُ﴾ بصيغة الأمر بمعنىٰ: فسامحه بالنظرة، وباشره بها. انتهى. وقرأ عبد الله: ﴿فناظروه﴾؛ أي: فأنتم منتظروه، فهذه ست قرآت كلها شاذة عدا قراءة الجمهور. ومن جعله اسم مصدر أو مصدراً.. فهو يرتفع علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: فالأمر أو الواجب علىٰ صاحب الدَّيْن نظرة منه لطلب الدين من المدين إلىٰ ميسرة منه.

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ نافع وحده ﴿ميسُرة﴾ بضم السين، والضم لغة أهل الحجاز، وهو قليل كمقبرة ومشرفة، والكثير مفعَلة بفتح العين، وقرأ الجمهور: ﴿ميسَرة﴾ بفتح السين علىٰ اللغة الكثيرة، وهي لغة أهل نجد. وقرأ عبد الله شذوذاً: ﴿إلى ميسوره﴾ على وزن مفعول مضافاً إلىٰ ضمير الغريم، وهو عند الأخفش مصدر كالمعقول والمجلود في قولهم: ماله معقول ولا مجلود؛ أي: عقل وجلد. ولم يثبت سيبويه مفعولاً مصدراً. وقرأ عطاء ومجاهد: شذوذاً أيضاً ﴿إلىٰ ميسرِهِ﴾ بضم السين وكسر الراء، بعدها ضمير الغريم. وقرىء كذلك بفتح السين، وخرِّج ذلك علىٰ حذف التاء لأجل الإضافة، وهو مذهب الفراء. وقرأ الجمهور: ﴿وَأَن تَصَّدَّقُواْ﴾ بإدغام التاء في الصاد، وقرأ عاصم: ﴿تصَدقوا﴾ بحذف التاء، وفي مصحف عبد الله شذوذاً: ﴿تتصدقوا﴾ بتائين، وهو الأصل، والإدغام تخفيف، والحذف أكثر تخفيفاً.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في فضل إنظار المعسر، والوضع عنه، وتشديد أمر الدَّين والأمر بقضائه

وعن أبي قتادة رضي الله عنه: أنه طلب غريماً له، فتوارى عنه، ثم وجده فقال: إني معسر، قال: الله الله! فإني سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «من سرَّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة.. فلينفِّس عن معسر، أو يضع عنه». أخرجه مسلم.

وعن أبي اليسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «من أنظر معسراً أو وضع عنه.. أظله الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله». أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم تاجر يداين الناس، فإن رأىٰ معسراً.. قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه». متفق عليه.

وعن أبي موسىٰ رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم

قال: «إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه به عبدٌ بعد الكبائر التي نهىٰ الله عنها: أن يموت رجل وعليه دين، لا يدع له قضاء». أخرجه أبو داود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها.. أدَّىٰ الله عزّ وجلّ عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها.. أتلفه الله». أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «مطل الغني ظلم». زاد في رواية: «وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع». متفق عليه.

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه: أنه تقاضىٰ ابن أبي حدرد دَيناً كان له عليه في عهد رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتىٰ سمعها رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وهو في بيته، فخرج إليهما حتىٰ كشف سجف حجرته، فنادىٰ فقال: «يا كعب»، قلت: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده: أن ضع الشطر من دينك، فقال كعب: قد فعلت يا رسول الله، قال: «قم فأقضه». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان لرجلٍ علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم سِنٌّ من الإبل، فجاءه يتقاضاه فقال: «أعطوه»، فطلبوا سِنَّهُ فلم يجدوا إلا سِناً فوقها، فقال: «أعطوه»، فقال: أوفيتني وفَّاك الله، فقال النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «إن خيركم أحسنكم قضاءً». وفي رواية: أنه أغلظ لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حين استقضاه حتىٰ همَّ به بعض أصحابه، فقال: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً»، ثم أمر له بأفضل من سنه. متفق عليه.

وعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت في سبيل الله.. تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «نعم، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر»، ثم قال رسول الله صلىٰ الله عليه

وآله وسلم: «كيف قلت؟» قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عنى خطاياي؟ فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدَّين، فإن جبريل قال لي ذلك». أخرجه مسلم.

وعن محمد بن جحش رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فرفع رأسه إلىٰ السماء، ثم وضع يده علىٰ جبهته، ثم قال: «سبحان الله ماذا نزل من التشديد!!» فسكتنا وفزعنا، فلما كان من الغد.. سألته: يا رسول الله، ما هذا التشديد الذي نزل؟ فقال: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله، ثم أحيي، ثم قُتل، ثم أحيي، وعليه دين.. ما دخل الجنة حتىٰ يُقضىٰ عنه دينه». أخرجه النسائي.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾؛ أي: وخافوا عذاب يوم ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: تردون فيه إلىٰ حسابه لأعمالكم، وهو يوم القيامة، فتأهبوا لمصيركم إليه. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ وتوفر فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بَرّةٍ وفاجرةٍ جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ وعملت من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك اليوم بنقص حسنة، أو زيادة سيئة، وفي هذه الآية وعيد شديد وزجر عظيم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه آخر آية نزلت علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وعاش بعدها رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أحداً وعشرين يوماً. وقيل: تسع ليال. وقيل: سبعاً. ومات صلىٰ الله عليه وآله وسلم لليلتين خلتا من ربيع الأول في يوم الاثنين سنة إحدى عشرة من الهجرة.

وقرأ[1] يعقوب وأبو عمرو: ﴿تَرجِعون﴾ بفتح التاء الفوقية وكسر الجيم مبنياً للفاعل؛ أي: تصيرون فيه إلىٰ الله. وقرأ باقي السبعة ﴿تُرجَعون﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: تردون إلىٰ الله. وقرأ الحسن شذوذاً: ﴿يَرجِعون﴾ بياء الغيبة مبنياً للمفعول علىٰ معنىٰ: يرجع فيه جميع الناس، وهو من باب الالتفات. وقرأ أُبيّ شذوذاً أيضاً: ﴿تردون﴾ بضم التاء، حكاه عنه ابن عطية، وقال الزمخشري: وقرأ عبد الله

---

(١) البحر المحيط.

﴿يردون﴾ وقرأ أبي شذوذاً أيضاً: ﴿تصيرون﴾ انتهىٰ.

الإعراب

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿يَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: مفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَقُومُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدأ، والرابط ضمير الفاعل ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿الكاف﴾: حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية ﴿يَقُومُ ٱلَّذِى﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: إلا كقيام الذي يتخبطه الشيطان، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: لا يقومون إلا قياماً كائناً كقيام الذي يتخبطه الشيطان من المس. ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول. ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يتخبط﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء حرف جر ﴿أن﴾: حرف نصب، والهاء: اسمها. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء المتعلقة بواجب الحذف؛ لوقوعه خبر المبتدأ تقديره: ذلك كائن بسبب قولهم: إنما البيع، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿أحل الله البيع﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ الواو عاطفة. ﴿حرم﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة أحل الله البيع.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿فَمَن﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصح عن شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفت أن الله حرم الربا، وأردت بيان حكم من انتهىٰ عنه بعد ما بلغه التحريم، وحكم من عاد إليه.. فأقول لك: ﴿مَنْ﴾ إمَّا شرطية في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو موصولة وخبرها جملة قوله: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾، ﴿جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، أو صلة الموصول ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿جاء﴾ ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾: الفاء عاطفة، ﴿انتهىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿جاء﴾. ﴿فَلَهُۥ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، أو رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً؛ لما في المبتدأ من العموم. ﴿فَلَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿من﴾ الشرطية، أو في محل الرفع خبر ﴿مَا﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾ الشرطية، أو الموصولة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿سَلَفَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها، ﴿وَأَمْرُهُۥٓ﴾: الواو عاطفة ﴿أمره﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: وأمره مفوض إلىٰ الله، والجملة الاسمية في محل الجزم، أو في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾.

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَمَنْ﴾ الواو عاطفة. ﴿مَنْ﴾: موصولة في الرفع مبتدأ أول ﴿عَادَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً. ﴿أولئك﴾: مبتدأ ثانٍ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: خبره ومضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر المبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ علىٰ كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾: وهو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في

محل النصب حال مقدرة من أصحاب النار.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَيُرْبِي﴾: الواو عاطفة ﴿يربى الصدقات﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَمْحَقُ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿أَثِيمٍ﴾ صفة لكفار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب اسمها. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿أَجْرُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بما تعلق به الجار والمجرور قبله. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: الواو عاطفة. ﴿لا﴾ نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾ اسمها مرفوع ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور خبر لا، وجملة لا في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، وكذا جملة قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوفة عليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء، أيُّ: منادىٰ نكرة مقصودة، ها: حرف تنبيه زائد.

﴿الَّذِينَ﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿اتَّقُوا۟ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء. ﴿وَذَرُوا۟ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿اتَّقُوا۟﴾. ﴿بَقِىَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿مِنَ الرِّبَوٰٓا۟﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَقِىَ﴾، ﴿إِن كُنتُم﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونهما فعل شرط لها. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم مؤمنين.. فاتركوه، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم النهي من الربا، وأردتم بيان عاقبة من خالف النهي.. فأقول لكم: ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿تَفْعَلُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿فَأْذَنُوا۟﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿أذنوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل جزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِحَرْبٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أذنوا﴾. ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حرب﴾. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوف علىٰ الجلالة. ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تُبْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها فعل شرط لها: ﴿فَلَكُمْ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿لكم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة إن الأولى. ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾: ﴿لَا﴾: نافية ﴿تَظْلِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو في محل

النصب حال من الكاف في ﴿لكم﴾، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾: الواو عاطفة لا: نافية ﴿تُظْلَمُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو استئنافية ﴿وَإِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ تام في محل الجزم بـ﴿إن﴾ ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾: فاعل ومضاف إليه ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. (نظرة): خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فالواجب نَظِرة له، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره: فنظرة عليكم، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾: الواو استئنافية ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَصَدَّقُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع علىٰ الابتداء. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر لذلك المصدر تقديره: والتصدق خير لكم؛ أي: إبراءه أفضل من الإنظار. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿إِن كُنتُمْ﴾: ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿أن﴾ علىٰ كونه جواباً لها. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: فافعلوه.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

﴿وَاتَّقُوا﴾ الواو استئنافية. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿يَوْمًا﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فعل ونائب فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ علىٰ كونها صفة لـ﴿يَوْمًا﴾، ولكن الرابط فيها مقدر تقديره: ثم توفىٰ فيه كل نفس ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾: ﴿مَّا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثانٍ. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾،

والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كسبته. ﴿وَهُمْ﴾: الواو حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ من الفعل المغير ونائبه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، وجمع الضمير هنا اعتباراً بالمعنىٰ، وأعاد الضمير عليها أولاً في كسبت اعتباراً باللفظ، وقدم اعتبار اللفظ؛ لأنه الأصل، ولأنَّ اعتبار المعنى وقع رأس فاصلة، فكان تأخيره أحسن، كذا في «السمين».

التصريف ومفردات اللغة

﴿الرِّبَوٰاْ﴾: الربا الزيادة، يقال: ربا الشيء إذا ازداد، وأرباه غيرهُ، وأربىٰ الرجل: إذا عامل بالربا، ومنه الربوة والرابية، وكتب في القرآن بالواو والألف بعدها، ويجوز أن يكتب بالياء للكسرة، وبالألف وتُبدل الباء ميماً. قالوا: الرِّما، كما أبدلوها في كَتَبَ فقالوا: كَتَمَ. ويُثَنَّىٰ ربوان بالواو ـ وعند البصريين ـ لأن الألف منقلبة عنها. وقال الكوفيون: ويكتب بالياء، وتقول في تثنيته: ربيان.

﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: يقول تخبط ـ من باب: تفعَّل[1] ـ من الخبط، وهو: الضرب علىٰ غير استواءٍ كخَبط العشواء، وخبط البعير الأرض بأخفافه. ويقال للذي يتصرف ولا يهتدي: خبط عشواء، وتورط في عمياء، والمسُّ: الجنون. والأَمَسّ: المجنون، يقال: مسَّ فهو ممسوس إذا جُنَّ، وأصله من المس باليد. كأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه، وسُمي الجنون: مساً كما أن الشيطان يخبطه ويطؤه برجله، فيخبله، فسُمي الجنون: خبطة، فالتخبط بالرجل والمس باليد.

﴿مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: والموعظة[2] والوعظ والعظة كالموعدة والعدة والوعد. مصادر معناها واحد وهو: الزجر والتخويف وتذكير العواقب. والاتعاظ: القبول والامتثال، فقوله: ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ بمعنىٰ: أتعظ؛ أي: قَبِل وامتثل.

﴿سَلَفَ﴾؛ أي: سبق ومضىٰ وانقضى، ومنه سالف الدهر؛ أي: ماضيه.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) مصباح.

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: المحق: نقصان الشيء حالاً بعد حال، ومنه المِحَاقُ في الهلال، يقال: محقه الله فانمحق وامتحق. أنشد الليث:

يَـزْدَادُ حَـتَّـىٰ إِذَا مَـا تَـمَّ أَعْـقَـبَـهُ كَـرُّ ٱلْـجَـدِيـدَيْـنِ نَـقْـصـاً ثُـمَّ يَـنْـمَـحِـقُ

﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ من: أربىٰ المتعدي، يقال: أرباه إذا زاده، كما يؤخذ من «القاموس». ويستعمل أربىٰ لازماً أيضاً، فيقال: أربىٰ الرجل إذا دخل في الربا، كما في «المصباح».

﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾: ذروا بوزن: علوا، فهو فعل أمر مبني علىٰ حذف النون، والواو فاعل، وحذفت فاؤه، وأصله: أوذروا، ماضيه: وذر، ولكن لم يستعمل إلا في لغة قليلة.

﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾: هما من أمثلة المبالغة؛ لأنهما علىٰ وزن فعّال وفعيل، وأتىٰ بصيغة المبالغة فيهما وإن كان الله لا يحب الكافر الأثيم تنبيهاً علىٰ عظم أمر الربا ومخالفة الله تعالى.

البلاغة

﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾: شبهوا البيع الذي هو مجمع علىٰ حلّه بالربا الذي هو محرم، ولم يعكسوا تنزيلاً لهذا الذي يفعلونه من الربا منزلة الأصل المماثل له البيع، وهذا من عكس التشبيه، ويسمىٰ: التشبيه المقلوب، وهو: أن يجعل المشبه مشبهاً به، والمشبه به مشبهاً، وهو أعلىٰ مراتب التشبيه، وهو موجود في كلام العرب، كقولهم: القمر كوجه زيد، البحر ككفه. وكما قال أبو القاسم بن هانيء:

كَـأَنَّ ضِـيَـاءِ ٱلـشَّـمْـسِ غُـرَّةُ جَـعْـفَـرٍ رَأَىٰ ٱلْـقِـرْنَ فَـٱزْدَادَتْ طَـلاَقَـتُـهُ ضِـعْـفَـاً

والأصل في الآية أن يقال: إنما الربا مثل البيع، ولكن لما بلغ اعتقادهم في حل الربا النهاية.. جعلوه أصلاً يقاس عليه، فشبهوا به البيع.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾: بين لفظ: ﴿أحل﴾ و ﴿حرم﴾ طباق، وكذا

بين لفظ: ﴿يَمْحَقُ﴾ و ﴿يربى﴾. وقال أبو حيان[1]: وفي ذكر المحق والإرباء بديع الطباق، وفي ذكر الربا ويربي بديع التجنيس المغاير.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾: وذكر الأثيم علىٰ سبيل المبالغة والتوكيد من حيث إنه اختلف اللفظان.

﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾: التنكير فيه للتهويل؛ أي: بنوع من الحرب عظيم، لا يقادر قدره كائن من عند الله.

﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾: فيه من المحسنات البديعية ما يُسمىٰ: الجناس الناقص؛ لاختلاف المعنىٰ.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾: التنكير للتفخيم والتهويل.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٢٨٢) ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (٢٨٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها(١): أنه تعالىٰ لمَّا أمر بالنفقة في سبيل الله، وبترك الربا، وكلاهما يحصل به تنقيص المال.. نبه علىٰ طريق حلال في تنمية المال وزيادته، وأكد في كيفية حفظه، وبسط في هذه الآية، وأمر فيها بعدة أوامر علىٰ ما سيأتي بيانه، قاله أبو حيان.

وقيل: إنه تعالىٰ لما ذكر الربا، وبيَّن ما فيه من القبح القبيح؛ لأنه زيادة مقتطعة من عرق المدين ولحمه، وهو كسب خبيث يحرمه الإسلام، وذكر ما فيه من الوعيد الشديد.. أتبعه بذكر القرض الحسن بلا زيادة ولا منفعة للمقرض،

---

(١) البحر المحيط.

وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن. وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع، وكون آية الدَّين أطول آيات القرآن علىٰ الإطلاق مما يدل علىٰ عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية.

أسباب النزول

وقد أخرج[1] عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾ قال: نزلت في السلم، في كيل معلوم إلىٰ أجل معلوم.

وأخرج الشافعي وعبد الرازق وعبد بن حميد والبخاري وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أشهد أن السلف المضمون إلىٰ أجل مسمىٰ أن الله أحله، وحرم الربا، وقرأ هذه الآية.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية قال: أمر بالشهادة عند المداينة؛ لكيلا يدخل في ذلك جحود ولا نسيان، فمن لم يُشْهِدْ علىٰ ذلك فقد عصىٰ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾؛ أي: تعاملتم بالدين، وتبايعتم به علىٰ أيّ وجه كان من: سَلَم أو بيع، أو داين بعضكم بعضاً، وعامله نسيئة، معطياً كان أو آخذاً. وإنما قال: ﴿بِدَيۡنٍ﴾ بعد قوله ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾ مع أنه معلوم منه؛ ليعود الضمير عليه في قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾؛ إذ لو ذكر ذلك لوجب أن يقال: فاكتبوا الدَّين، فلا يحسن النظم بذلك. وقيل: إنما ذكره للتأكيد. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ أي: إلىٰ وقت معلوم الأول والآخر بالأيام والأشهر أو نحوهما، مما يرفع الجهالة، لا بالحصاد والدياس، وقدوم الحاج ونحوها مما لا يرفعها.

---

(١) فتح القدير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يسلفون في التمر العام والعامين، فقال لهم: «من أسلف في تمر، ففي كيل معلوم أو وزن معلوم إلىٰ أجل معلوم». متفق عليه. ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ أي: فاكتبوا ذلك الدين الذي تداينتم به وتحملتم به في ذممكم بيعاً كان ذلك التعامل، أو سلفاً بأجله؛ لأنه أوثق وأرفع للنزاع، والأكثرون علىٰ أن أمر هذه الكتابة أمر استحباب، فإن ترك فلا بأس، وهو أمر تعليم ترجع فائدته إلىٰ منافع الخلق في دنياهم، فلا يثاب عليه المكلف إلا إن قصد الامتثال.

قال المفسِّرون: المراد بالمداينة: السلَم، فالله تعالىٰ لما منع الربا في الآية المُتقدِّمَةِ.. أذن في السلَم في هذه الآية مع أن جميع المنافع المطلوبة من الربا حاصلة في السلم، ولهذا قال بعض العلماء: لا لذة ولا منفعة يوصل إليها بالطريق الحرام إلا وضع الله تعالىٰ لتحصيل مثل تلك اللذة طريقاً حلالاً، وسبيلاً مشروعاً. والقرض غير الدين؛ لأن القرض: أن يقرض الإنسان دراهم أو دنانير أو حباً أو ثمراً أو ما أشبه ذلك، ويسترد مثله، فلا يجوز فيه شرط الأجل بخلاف الدين، فيجوز فيه الأجل، فإن ذكر الأجل في القرض، فإن كان للمقرض فيه غرض أفسده، وإلا فلا يفسده، ولا يجب الوفاء به، لكنه يُستحب.

وقال أكثر المفسرين: إن البيوع علىٰ أربعة أوجه:

أحدها: بيع العين بالعين؛ وذلك ليس بمداينة البتة.

والثاني: بيع الدين بالدين، وهو باطل؛ فلا يكون داخلاً تحت هذه الآية.

والثالث: بيع العين بالدين، وهو ما إذا باع شيئاً بثمن مؤجل.

والرابع: بيع الدين بالعين وهو المسمىٰ: بالسلم، وكلاهما داخلان تحت هذه الآية.

﴿وَلۡيَكۡتُب﴾ كتاب الدين ﴿بَّيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: بين الدائن والمديون، والبائع والمشتري. والبيِّنية تقتضي أن لا ينفرد أحد المتعاملين بالكتابة؛ لأنه يتهم فيها، فإذا كانت واقعة بينهما كان كل واحد منهما مطلعاً علىٰ ما سطره الكاتب. ﴿كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾؛ أي: بالحق والإنصاف بحيث لا يكون في قلبه، ولا في

قلمه ميل لأحدهما علىٰ الآخر؛ أي: وليكتب لكم كاتب عادل مأمون، لا يجور علىٰ أحد الطرفين؛ بحيث لا يزيد في المال والأجل، ولا ينقص في ذلك، فهو أمر للمتداينين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة، لا يكون في قلبه ولا في قلمه مساعدة لأحدهما علىٰ الآخر، بل يتحرىٰ الحق بينهم، والعدل فيهم، وقرىء شذوذاً[1] بكسر لام: ﴿ولِيكتبْ﴾ وإسكانها.

قيل: إن فائدة هذه الكتابة هي: حفظ المال من الجانبين؛ لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه مقيد بالكتابة.. تعذَّر عليه طلب زيادة، أو تقديم المطالبة قبل حلول الأجل. ومن عليه الدين إذا عرف ذلك.. تعذر عليه الجحود، أو النقص من أصل الدين الذي عليه، فلَّما كانت هذه الفائدة في الكتابة.. أمر الله تعالىٰ بها.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾؛ أي: ولا يمنع أحد من الكتاب ﴿أَن يَكْتُبَ﴾؛ أي: من أن يكتب كتاب الدين بين الدائن والمديون ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: علىٰ الطريقة التي علمه الله في كتابة الوثائق، من غير أن يبدل ولا يغير؛ ليقضي حاجة أخيه المسلم ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة التي علّمه الله إياها، أو كما علمه الله بقوله: ﴿بِالْعَدْلِ﴾.

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾؛ أي: ولْيبين المديون الذي عليه الحق قدر ما عليه من الدَّين وجنسه ونوعه؛ لأنه المشهود عليه، فلا بد من أن يقر علىٰ نفسه بلسانه ليعلم ما عليه من الدين. ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾؛ أي: ولْيخش المديون ربه بأن يقر بمَبْلغ المال الذي عليه ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾؛ أي: ولا ينقص مما عليه من الدين شيئاً في إلقاء الألفاظ علىٰ الكاتب ﴿فَإِن كَانَ﴾ المديون ﴿الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ والدين ﴿سَفِيهًا﴾؛ أي: ناقص العقل، مبذِّراً يصرف المال في غير مصارفه ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ في البدن، أو في الرأي لصغر، أو جنون، أو كبر مضعف للعقل؛ أي: أو كان صبياً، أو مجنوناً، أو شيخاً هرماً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾؛ أي: أو

(١) النهر.

عاجزاً لا يقدر أن يمل هو بنفسه علىٰ الكاتب، ولا يحسن الإسماع له بنفسه لخرس، أو عيٍّ، أو جهل باللغة، أو بما عليه وما له من الدين، أو حبس، أو غيبة لا يمكنه الحضور عند الكاتب، فهؤلاء كلهم لا يصح إقرارهم فلا بد من أن يقوم غيرهم مقامهم، كما ذكره بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾؛ أي: فليقر علىٰ الكاتب، ويبين له وليُّ كل واحد من هؤلاء الثلاثة: السفيه، والضعيف، وغير المستطيع ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾؛ أي: بالصدق والحق من غير زيادة ولا نقصان؛ لأنه يقوم مقامه في صحة الإقرار. والمراد بالولي لغة: هو من له ولاية عليه بأيِّ طريقٍ كان؛ كوالد ووصيٍّ وقيم ومترجم ووكيل. وقال[1] ابن عباس رضي الله عنهما: أراد بالولي صاحب الدين؛ يعني: إن عجز الذي عليه الحق عن الإملاء.. فليملل صاحب الحق؛ لأنه أعلم بحقه ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ﴾؛ أي: واشهدوا ندباً علىٰ حقوقكم مع كتابتها شاهدين ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾؛ أي: من أهل ملتكم أيها المؤمنون؛ يعني: من الرجال البالغين الأحرار المسلمين زيادة في التوثقة؛ لأن المقصود من الكتابة هو الإشهاد، فالبلوغ مستفاد من لفظ رجال، والإسلام من الإضافة إلى كاف الخطاب، والحرية مستفادة أيضاً من لفظ رجال؛ لأنه ظاهر في الكاملين؛ لأن الأرقاء بمنزلة البهائم، فبقي اشتراط العدالة، المستفادة من قوله: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، وعند[2] شُريح وابن سيرين وأحمد: تجوز شهادة العبيد، وأجاز أبو حنيفة شهادة الكفار بعضهم علىٰ بعض.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾؛ أي: فإن لم يكن الشاهدان رجلين؛ بأن لم يوجد أو لم يقصد إشهادهما ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾؛ أي: فليشهد رجل وامرأتان كائنون ممن ترضونه ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ لدينه وعدالته. وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ علىٰ حذف لام التعليل المتعلقة بمعلول محذوف؛ تقديره: وإنما اشترط التعدد في النساء؛ لأجل أن تنسىٰ إحدى المرأتين الشهادة؛ لنقص عقلهن وقلة ضبطهن، فتذكر إحداهما الذاكرةُ للشهادة المرأة الأخرىٰ الناسية لها. والعلة في

---

(١) الخازن.
(٢) مراح.

الحقيقة التذكير، أي: وإنما اشترط التعدد؛ لأجل أن تذَّكر الذاكرةُ منهما الناسية للشهادة، ولكن لما كان الضلال سبباً له نزل منزلته؛ كقولهم: أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه.

قرأ حمزة والأعمش[1]: ﴿إِنْ تَضِلَّ﴾ بكسر الهمزة، وجعلها حرف شرط. ﴿فتذكرُ﴾ بالتشديد ورفع الراء، وجعله جواب الشرط. وقرأ الباقون: بفتح همزة أن، وهي الناصبة، وفتح راء ﴿فتذكرَ﴾ عطفاً علىٰ ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾، وسَكَّن الذالَ وخفف الكاف ابن كثير، وأبو عمرو ويعقوب. وفَتَح الذال وشدد الكاف الباقون من السبعة. وقرأ الجحدري وعيسىٰ بن عمران شذوذاً ﴿تُضَل﴾ بضم التاء وفتح الضاد مبنياً للمفعول بمعنىٰ: تنسى. كذا حكىٰ عنهما الداني، وحكىٰ النقاش عن الجحدري شذوذاً: ﴿أن تُضِل﴾ بضم التاء وكسر الضاد بمعنى: أن تضل الشهادة. تقول: أضللت الفرس والبعير إذا ذهبا فلم تجدهما. وقرأ زيد بن أسلم شذوذاً: ﴿فتذاكر﴾ من المذاكرة.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾؛ أي: إقامة الشهادة ﴿إِذَا مَا دُعُواْ﴾؛ أي: ولا يمتنع الشهداء إذا دعوا إلىٰ تحمل الشهادة وأدائها عند الحكام، فيحرم الامتناع عليهم؛ لأن تحمل الشهادة فرض كفاية مطلقاً، والأداء كذلك، إن زاد المتحملون علىٰ من يثبت بهم الحق وإلا ففرض عين. ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ﴾؛ أي: ولا تملوا أن تكتبوا الدَّين؛ لكثرة وقوع المداينة علىٰ أي حال كان الدين ﴿صَغِيرًا﴾ كان ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾، قليلاً كان أو كثيراً، وعلىٰ أي حال كان الكتاب مختصراً أو مشبعاً حال كون ذلك الدَّين مستقراً في ذمة المديون ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾؛ أي: إلىٰ وقت حلول أجله الذي أقر به المديون؛ أي: فاكتبوا الدين بصفة أجله، ولا تهملوا الأجل في الكتابة، فقوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾ معطوف علىٰ قوله: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلىٰ ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾؛ أي: ذالكم المذكور من كتابة الدين إلىٰ أجله ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أكثر قسطاً وعدلاً في حكم الله، أو في علمه؛ لأنه أمر به، واتباع

(١) البحر المحيط.

أمره أعدل من تركه. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: أثبت وأحفظ للشهادة، وأعون للشاهد على إقامتها إذا نسي ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾؛ أي: وأقرب إلىٰ أن لا تشكُّوا في جنس الدين وقدره وأجله والشهود ونحو ذلك؛ أي: أقرب إلىٰ انتفاء شككم في ذلك، فإنه قد يقع الشك في المقدار والصفات وإذا رجعوا إلىٰ المكتوب زال ذلك الشك. وقرأ السلَمِيّ شذوذاً: ﴿ألا يرتابوا﴾ بالياء، والمفضل عليه محذوف؛ تقديره: ذلك الكتاب المذكور أقسط وأقوم وأدنى أن لا ترتابوا من عدم الكتابة.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ استثناء من الأمر بالكتابة؛ أي: ولا تسأموا أن تكتبوه في كل المعاملات إلا أن تقع تجارة حاضرة بحضور البدلين؛ أي: معاملة ومبايعة حالة ناجزة تتعاطونها وتقابضونها بينكم يداً بيد بلا أجل؛ أي: إلا أن تتبايعوا بلا أجل يداً بيد، فلا بأس في أن لا تكتبوه لبعده عن التنازع والنسيان. وقرأ عاصم: ﴿تجارةً حاضرةً﴾ بنصبهما علىٰ أن ﴿كان﴾ ناقصة، والتقدير: إلا أن تكون هي؛ أي: المعاملة. وقرأ الباقون ﴿تجارةٌ حاضرةٌ﴾ برفعهما علىٰ أن يكون ﴿تَكُونَ﴾ تامة، و ﴿تِجَٰرَةً﴾: فاعل لـ﴿تَكُونَ﴾، وأجاز بعضهم أن تكون ناقصة، وخبرها جملة قوله: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾؛ أي: ليس عليكم مضرة في ترك الكتابة في المداينة الحاضرة؛ كأن باع ثوباً بدرهم في الذمة بشرط أن يؤدي الدرهم في هذه الساعة؛ أي: لا بأس بعدم الكتابة في ذلك لبعده عن التنازع والنسيان. وعبارة «الخازن» هنا: وإنما رخص الله في ترك الكتابة في هذا النوع من التجارة؛ لكثرة جريانه بين الناس، فلو كلفوا الكتابة فيه لشق عليهم، ولأنه إذا أخذ كل واحد حقه في المجلس.. لم يكن هناك خوف الجحود، فلا حاجة إلىٰ الكتابة انتهى.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هذا التبايع المذكور[1] وهو التجارة الحاضرة؛

(١) الشوكاني.

لأن الإشهاد يكفي فيها عن الكتابة. وقيل معناه: إذا تبايعتم؛ أيَّ تبايع كان حاضراً أو كالئاً؛ لأن ذلك أدفع لمادة الخلاف، وأقطع لمنشأ التشاجر. والأوامر التي في هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة. وقيل: إنها للوجوب، ثم اختلف في أحكامها ونسخها فقيل: إنها منسوخة بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل، فالمعنى على هذا: ولا يضار كاتب صاحب الحق، أو من عليه الحق، فيأبىٰ أن يكتب أو يزيد في الحق أو ينقص فيه، أو يحرِّف ما أملىٰ عليه، ولا يضار شاهد صاحب الحق أو من عليه الحق فيأبىٰ أن يشهد أو يزيد في شهادته أو ينقص، فعلىٰ هذا يكون نهياً للكاتب والشاهد عن إضرار من له الحق أو عليه الحق، ويدل علىٰ ذلك قراءة عمر رضي الله عنه شذوذاً: ﴿ولا يضارِر﴾ بالفك والكسر، واختار الزجاج هذا القول؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾؛ وذلك لأن اسم الفسق بمن يحرف الكتابة، وبمن يمتنع عن الشهادة حتىٰ يبطل الحق بالكليّة أولىٰ منه بمن أبرم الكاتب والشهيد؛ ولأنه تعالىٰ قال فيمن يمتنع من الشهادة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ والآثم والفاسق متقاربان. وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء: بأن يقولا علينا شغل ولنا حاجة.

ويحتمل أن يكون مبنياً للمفعول، فالمعنى علىٰ هذا: ﴿ولا يضارَر﴾ بفتح الراء الأولىٰ ﴿كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ بأن يدعيا إلىٰ ذلك، وهما مشغولان بمهمٍّ لهما ويضيق عليهما في الإجابة، ويؤذيا إن حصل منهما التراخي، أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد، وكأن يكلفا بما لا يليق في الكتابة والشهادة، ولا يعطىٰ الكاتب جُعْله، ولا الشهيد مؤنة مجيئه حيث كانت، فإن لهما طلب الجُعْل، ولا يكلفان الكتابة والشهادة مجاناً، فعلىٰ هذا يكون نهياً لصاحب الحق أو من عليه الحق عن إضرار الكاتب والشاهد، ويدل علىٰ ذلك قراءة ابن مسعود شذوذاً: ﴿ولا يضارَر﴾ بالفك وفتح الراء الأولىٰ، ولو كان هذا نهياً للكاتب والشاهد لقيل: وإن تفعلا فإنه فسوق بكما.

﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ﴾ ما نهيتم عنه من ضرار الكاتب والشهيد، أو من ضرار صاحب الحق ومن عليه الحق؛ أي: وإن تضاروا ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإن الضرار ﴿فُسُوقُۢ﴾؛ أي: خروج عن الطاعة ومأثم ملتبس ﴿بِكُمۡۗ﴾ ولا حق بكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله، واحذروه فيما نهاكم عنه من المضارة وغيرها، أو المعنىٰ: واتقوا الله في جميع أوامره ونواهيه. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ ما يكون إرشاداً واحتياطاً لكم في أمر الدنيا، كما يعلمكم ما يكون إرشاداً لكم في أمر الدين ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من مصالح الدنيا والآخرة ﴿عَلِيمٌ﴾، فلا يخفىٰ عليه شيء من أحوالكم. وكرر لفظة[1] ﴿ٱللَّهُۗ﴾ في الجمل الثلاث لاستقلالها؛ فإن **الأولىٰ**: حث على التقوىٰ، **والثانية**: وعد بإنعامه، **والثالثة**: تعظيم لشأنه؛ ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية، وهذا آخر آية الدين، وقد حث الله سبحانه وتعالىٰ فيها علىٰ الاحتياط في أمر الأموال؛ لكونها سبباً لمصالح المعاش والمعاد.

و﴿علىٰ﴾ في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ بمعنىٰ: في، أو بمعنىٰ: إلىٰ؛ أي: وإن كنتم مسافرين، أو متوجهين إلىٰ السفر، وتعاملتم بالمداينة ﴿وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ أو آلة الكتابة في سفركم ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٌۖ﴾؛ أي: فالوثيقة رهان مقبوضة، أو فرهان مقبوضة بدل من الشاهدين والكتابة، أو فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضةٌ يقبضها صاحب الحق وثيقة لدينه. قال أهل العلم: الرهن في السفر ثابت بنص التنزيل، وفي الحضر بفعل رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم؛ كما ثبت في «الصحيحين»: أنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم: رهن درعا له من يهودي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كَاتِبًا﴾ بالإفراد. وقرأ أُبيّ ومجاهد وأبو العالية شذوذاً: ﴿كتاباً﴾ علىٰ أنه مصدر، أو جمع كاتب كصاحب وصحاب، ونفي الكاتب يقتضي نفي الكتابة، ونفي الكتابة يقتضي أيضاً نفي الكتب.

---

(١) البيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ ابن عباس والضحاك شذوذاً أيضاً: ﴿كُتّاباً﴾ علىٰ الجمع اعتباراً بأن كل نازلة لها كاتب. وروي عن أبي العالية شذوذاً أيضاً: ﴿كُتباً﴾ جمع كتاب، وجمع اعتباراً بالنوازل أيضاً.

وقرأ الجمهور: ﴿فَرِهَٰنٌ﴾ جمع رهن، نحو كَعْب وكِعَاب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿فرُهُن﴾ بضم الراء والهاء. وروي عنهما شذوذاً تسكين الهاء. وقرأ بكل واحدة منهما جماعة غيرهما.

والرهن لغة[1]: الثبوت والدوام، يقال: رهن الشيء إذا دام وثبت. وشرعاً: ما وضع عند الإنسان مما ينوب مناب ما أخذ منه ديناً، يُستوفىٰ منه الدين عند تعذر الوفاء. واتفق العلماء علىٰ جواز الرهن في الحضر والسفر جميعاً، ومع وجود الكاتب وعدمه، والظاهر من قوله: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ اشتراط القبض. وأجمع الناس علىٰ صحة قبض المرتهن وقبض وكيله مِثلاً.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي: فإن أمن الدائن فاستغنىٰ عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾؛ أي: فليدفع المدين الذي اؤتمن علىٰ الدين ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾؛ أي: حق صاحبه.

وحاصل المعنى: فإن وثق رب الدين بأمانة الغريم، فدفع إليه ماله بغير كتاب ولا إشهاد ولا رهن.. فليؤدِ الغريم أمانته؛ أي: ما ائتمنه عليه رب المال. وقرأ أُبي شذوذاً: ﴿فإن أُومن﴾ رباعياً مبنياً للمفعول؛ أي؛ آمِنه الناس، هكذا نقل عن أُبيّ هذه القراءة الزمخشري، وقال السجاوندي: وقرأ أُبي شذوذاً: ﴿فإن ائتمن﴾ افتعل من الأمن؛ أي: وثق بلا وثيقة صك ولا رهن. وقرأ ابن محيصن وورش بإبدال الهمزة ياء، كما أبدلت في بئر وذئب، وذلك شذوذاً أيضاً.

وأصل هذا الفعل: اؤتمن بهمزتين الأولىٰ: همزة الوصل، وهي مضمومة والثانية: فاء الكلمة، وهي ساكنة. وقرأ عاصم في شاذِّه: ﴿اللذتيمن﴾ بإدغام التاء المبدلة من الهمزة قياساً علىٰ أشر في الافتعال من اليسر، ذكره أبو حيان في

(١) الخازن.

«البحر». ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: وليخشَ المدين ربه في أداء الدين عند حلول الأجل من غير مماطلة ولا إنكار، بل يعامل الدائن معاملة حسنةً، كما أحسن هو ظنه فيه ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ عند الحكم إذا دعيتم إلىٰ أدائها بإنكار العلم بتلك الواقعة، أو بالامتناع من أدائها عند الحاجة إلىٰ إقامتها، وفي «الجمل»: الخطاب للشهود والمديونين، وشهادة المديونين علىٰ أنفسهم: إقرارهم واعترافهم بالدين. وقرأ السلمي شذوذاً: ﴿ولا يكتموا﴾ بالياء علىٰ الغيبة. ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾؛ أي: الشهادة ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾؛ أي: فاجر قلبه؛ لأن كتم الشهادة من معارض القلب؛ لأن الشهادة علم قام بالقلب، فلذلك علق الإثم به، وهو من التعبير بالبعض عن الكل؛ كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلحتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب».

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وإقامتها، ومن الخيانة في الأمانة وعدمها ﴿عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم علىٰ ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقرأ السلمي شذوذاً: ﴿بما يعملون﴾ بالياء جرياً علىٰ قراءته الشاذة: ﴿ولا يكتموا﴾ بالياء علىٰ الغيبة.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء، أيُّ: منادىٰ نكرة مقصودة ها: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أيُّ﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿تَدَايَنتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها: ﴿بِدَيْنٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَدَايَنتُم﴾ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَدَايَنتُم﴾، أو متعلق بمحذوف صفة لـ﴿دين﴾ تقديره: مؤجل إلىٰ أجل. ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة لـ﴿أجل﴾. ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً ﴿اكتبوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب

النداء لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾.

﴿وَلْيَكْتُب﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: لام أمر وجزم، مبني علىٰ السكون؛ لوقوعها بعد الواو. ﴿يكتب﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ﴿بَّيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يكتب﴾: ﴿كَاتِبٌۢ﴾: فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: متعلق بقوله: ﴿وَلْيَكْتُب﴾؛ أي: وليكتب كاتب بالعدل، وهذه الجملة مبيِّنة لكيفية الكتابة المأمور بها أولاً ومعينة لمن يتولَّاها إثر الأمر بها إجمالاً، وذكر البَيْن للإيذان بأن الكاتب ينبغي له أن يتوسط في المجلس بين المتداينين.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَأْبَ كَاتِبٌ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿أَن يَكْتُبَ﴾: فعل وناصب، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿كَاتِبٌ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية تقديره: ولا يأب كاتب كتابته. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾ حرف جر وتعليل ﴿ما﴾ مصدرية. ﴿عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: كتابة الوثائق، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدريةُ، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بكاف التعليل تقديره: لتعليم الله إياه كتابة الوثائق، الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ﴾؛ أي: يحرم عليه الإباء والامتناع من الكتابة؛ لأجل تعليم الله تعالىٰ إياه إياها، ويحتمل أن تكون ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة، وجملة ﴿عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والضمير في ﴿عَلَّمَهُ﴾ عائد علىٰ ﴿ما﴾ والكاف صفة لمصدر محذوف تقديره: ولا يأب كاتب أن يكتب كتاباً مثل الكتاب الذي علَّمه الله في كتابة الوثائق.

﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿اللام﴾ لام أمر وجزم. ﴿يكتب﴾:

مجزوم بها، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿كَاتِبٌ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ مؤكِّدة لها، أو معطوفة علىٰ جملة قوله؛ ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ مؤكِّدة للأمر اللازم للنهي. ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: لام الأمر. ﴿يملل﴾: مجزوم بها. ﴿ٱلَّذِى﴾: فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾. ﴿عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول، والعائد الضمير المجرور. ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: لام الأمر ﴿يتقِ الله﴾: فعل ومفعول مجزوم بلام الأمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾. ﴿رَبَّهُۥ﴾: بدل من لفظ الجلالة ومضاف إليه. ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: نافية جازمة. ﴿يبخس﴾: مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود علىٰ: ﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور. إما متعلق بـ﴿يَبْخَسْ﴾، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، والضمير للحق، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقاً بمحذوف حال من شيئاً؛ لأنه في الأصل صفة للنكرة، فلما قدم عليها.. نصب حالاً ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به لـ﴿يَبْخَسْ﴾، أو منصوب علىٰ المفعولية المطلقة لـ﴿يَبْخَسْ﴾؛ أي: ولا يبخس منه بخساً شيئاً.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر تقديره إذا عرفت حكم ما إذا كان المدين رشيداً كاملاً، وأردت بيان حكم ما إذا كان سفيهاً أو ضعيفاً.. فأقول لك ﴿إن كان﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع اسم كان. ﴿عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول. ﴿سَفِيهًا﴾: خبر كان ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾: معطوف علىٰ ﴿سَفِيهًا﴾. ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ﴾: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع. ﴿لَا﴾: نافية

﴿يَسۡتَطِيعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ ﴿سَفِيهًا﴾ علىٰ كونها خبراً لـ﴿كَانَ﴾ تقديره: فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو غير مستطيع. ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾؛ ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُمِلَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، وفاعله ضمير مستتر فيه جوازاً تقديره: هو، يعود علىٰ ﴿ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾، ﴿هُوَ﴾: توكيد للضمير المستتر في ﴿يُمِلَّ﴾، وجملة ﴿يُمِلَّ﴾ صلة ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية لـ﴿يستطيع﴾ تقديره: أو لا يستطيع الإملال. ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجوب جملة طلبية. ﴿اللام﴾: لام أمر وجزم ﴿يملل وليه﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، مجزوم بلام الأمر. ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ متعلق بـ﴿يملل﴾، وجملة ﴿يملل﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿استشهدوا شهيدين﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾، صفة لـ﴿شَهِيدَيۡنِ﴾، أو متعلق بـ﴿استشهدوا﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ في أول الآية ﴿فَإِن﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفت أنه يستشهد الرجلان إن وجدا، وأردت بيان حكم ما إذا لم يوجدا.. فأقول لك: ﴿إن لم يكونا﴾: (إن): حرف شرط، ﴿لَّمۡ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَكُونَا﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾، والألف اسمها، ﴿رَجُلَيۡنِ﴾: خبرها، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونها فعل شرط لها. ﴿فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية، ﴿رجل﴾: مبتدأ، ﴿وَٱمۡرَأَتَانِ﴾: معطوف عليه، والخبر محذوف جوازاً تقديره: فرجل وامرأتان

يشهدون، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾: ﴿مِمَّن﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رجل وامرأتين﴾، وهذا الشرط[1]، وإن كان مشترطاً في الرجُلين أيضاً بالأحاديث والآيات الأُخَر كآية: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، لكن اقتصر علىٰ التنصيص عليه في جانب الرجل والمرأتين؛ لقلة اتصاف النساء به غالباً. وقيل: هو متعلق بـ﴿استشهدوا﴾ المتعلق بالصورتين، ﴿تَرْضَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره ممن ترضونه، ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من العائد المحذوف في ﴿تَرْضَوْنَ﴾ تقديرهُ: ممن ترضونه حال كونه بعض الشهداء.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَضِلَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾: فاعل ومضاف إليه، ﴿فَتُذَكِّرَ﴾: الفاء عاطفة. ﴿تذكر﴾: معطوف علىٰ ﴿تَضِلَّ﴾. ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾: مفعول به، وجملة ﴿تَضِلَّ﴾ من الفعل والفاعل صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة المتعلقة بمعلول محذوف تقديره: وإنما اشترط تعدد النساء؛ لأجل تذكير إحداهما الأخرىٰ إذا ضلت ونسيت تلك الأخرى، والمعول عليه في التعليل: التذكير؛ لأنه المقصود من الجملة، ولكن لما كان الإضلال سبباً فيه.. قدم عليه؛ كقولهم: أعددتُ الخشبة أن يميل الجدار، فأدعمه بها. فالإدعام علة في إعداد الخشبة، والميل علة الإدعام.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾: فعل وفاعل وجازم، ومفعوله محذوف تقديره: إقامة الشهادة، والجملة مستأنفة ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد

---

(١) الجمل.

عن معنى الشرط. ﴿مَا﴾: زائدة ﴿دُعُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بقوله؛ ﴿وَلَا يَأْبَ﴾ تقديره: ولا يأب الشهداء، ويمتنع من إقامة الشهادة وقت دعائهم إليها.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل وجازم، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾. ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول وناصب، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: ولا تسأموا كتابته. ﴿صَغِيرًا﴾: حال من ضمير المفعول. ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾: معطوف عليه. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الهاء في تكتبوه تقديره: حالة كونه مستقراً في الذمة إلى حلول أجله، أو متعلق بـ﴿تَكْتُبُوهُ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿أَقْسَطُ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَقْسَطُ﴾؛ لأن اسم التفضيل يعمل في الظروف والمجرورات. ﴿وَأَقْوَمُ﴾: معطوف على ﴿أَقْسَطُ﴾. ﴿لِلشَّهَٰدَةِ﴾: متعلق به. ﴿وَأَدْنَىٰٓ﴾: معطوف على ﴿أَقْسَطُ﴾. ﴿أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾: نافية ﴿تَرْتَابُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإلى المقدَّرة المتعلِّقة بأدنى تقديره: وأدنى وأقرب إلى عدم ارتيابهم في جنس الدين ونوعه وقدره وشهوده.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من عام الأحوال. ﴿أَن تَكُونَ﴾: ﴿أَن﴾ حرف نصب ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿أَن﴾، واسمها ضمير يعود على المعاملة ﴿تِجَٰرَةً﴾: خبرها منصوب. ﴿حَاضِرَةً﴾: صفة لـ﴿تِجَٰرَةً﴾، وجملة

﴿تَكُونَ﴾ من اسمها وخبرها صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب علىٰ الاستثناء تقديره: ولا تسأموا كتابته في جميع الأحوال إلا حالة كون المعاملة تجارة حاضرة. ﴿تُدِيرُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب صفة ثانية لـ﴿تِجَٰرَةً﴾، ولكنها سببية، ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تديرونها﴾ ﴿فَلَيْسَ﴾: الفاء تعليلية، ﴿ليس﴾: فعل ماضٍ ناقص ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبر مقدم لـ﴿ليس﴾، ﴿جناح﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿ليس﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلقة بمعلول محذوف تقديره: وإنما استثنينا تجارة حاضرة لعدم ثبوت الجناح عليكم في عدم كتابتها، وإنما جعلنا الفاء تعليلية، لأن الفاء بعد الاستثناء للتعليل غالباً. وفي «الجمل»: أنها عاطفة. ولا معنىٰ للعطف هنا. ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ﴿لا﴾: نافية ﴿تَكْتُبُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿في﴾ المحذوفة تقديره: فليس عليكم جناح في عدم كتابتها، والجار المقدر متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿ليس﴾.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿أشهدوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط. ﴿تَبَايَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿أشهدوا﴾؛ أي: وأشهدوا وقت مبايعتكم. ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية. ﴿لا﴾: نافية ﴿يُضَآرَّ كَاتِبٌ﴾: فعل وفاعل، أو فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ﴾ ﴿وَلَا شَهِيدٌ﴾: معطوف علىٰ ﴿كَاتِبٌ﴾: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ الواو استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَفْعَلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿إنه﴾: حرف نصب وتوكيد، والهاء اسمها. ﴿فُسُوقٌۢ﴾: خبرها. ﴿بِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة

لـ﴿فُسُوقُۢ﴾: تقديره: فسوق لاحق بكم، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ الواو استئنافية. ﴿يعلمكم الله﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مصالح أموركم. والجملة مستأنفة. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كان﴾، ﴿وَلَمْ تَجِدُوا﴾: الواو عاطفة. ﴿لم تجدوا﴾: فعل وفاعل وجازم، والجملة معطوفة علىٰ جملة الشرط ﴿كَاتِبًا﴾: مفعول به؛ لأن وجد هنا بمعنىٰ: أصاب، يتعدىٰ لمفعول واحد. وفي «الفتوحات»: في هذه الجملة ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها عطف علىٰ فعل الشرط؛ أي: وإن كنتم لم تجدوا كاتباً. فتكون في محل جزم تقديراً.

والثاني: أن تكون معطوفة علىٰ خبر كان؛ أي: وإن كنتم لم تجدوا كاتباً.

والثالث: أن تكون الواو للحال، والجملة بعدها نصب علىٰ الحال فهي علىٰ هذين الوجهين الأخيرين في محل نصب. اهـ «سمين». ﴿فَرِهَٰنٌ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية ﴿رِهانٌ﴾: مبتدأ، ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ صفةٌ له، والخبر محذوف تقديره: وثيقة لدَينكم، والجلمة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

﴿فَإِنْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم حكم ما إذا كنتم علىٰ سفر، ولم تجدوا كاتباً، ولم يأمن بعضكم بعضاً، وأردتم بيان حكم ما إذا أمن بعضكم بعضاً.. فأقول لكم: ﴿إنْ أمن بعضكم﴾: إن: حرف شرط ﴿أَمِنَ بَعْضُكُم﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به، ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط، اللام: لام أمر وجزم، ﴿يؤدِ الذي﴾: فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿اؤْتُمِنَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير النائب ﴿أَمَانَتَهُ﴾: مفعول به، لـ﴿يؤد﴾، وهو مضاف، والهاء مضاف إليه.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾: الواو عاطفة، واللام لام الأمر، ﴿يتقِ الله﴾: فعل ومفعول به، مجزوم بلام الأمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾. ﴿رَبَّهُ﴾: بدل من لفظ الجلالة، ومضاف إليه، والجملة في محل الجزم معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ علىٰ كونها جواباً لـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾: الواو استئنافية. لا: ناهية ﴿تكتموا الشهادة﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: الواو عاطفة ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب. ﴿يَكْتُمْهَا﴾: فعل ومفعول به مجزوم بـ﴿من﴾ علىٰ كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾، ﴿فَإِنَّهُ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية، ﴿إنّ﴾ حرف نصب، والهاء اسمها، ﴿آثِمٌ﴾: خبرها. ﴿قَلْبُهُ﴾: فاعل ﴿آثِمٌ﴾، ومضاف إليه، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾: الواو استئنافية.

﴿اللهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾: يقال: تداين ـ من باب تفاعل ـ من الدَّين. يقال: داينت الرجل عاملته بدين معطياً أو آخذاً؛ كما يقال: بايعته إذ بعته أو باعك. قال رؤبة:

دَايَنْتُ أَرْوَىٰ وَٱلدُّيُونُ تُقْضَىٰ فَمَطَلَتْ بَعْضاً وَأَدَّتْ بَعْضَا

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وألف ﴿مُّسَمًّى﴾ منقلبة عن ياء؛ لأنه من التسمية، وكذا كل ألف وقعت رابعة فصاعداً.. تكون منقلبة عن ياء ثم ينظر في أصل الياء، فالياء هنا منقلبة عن واو؛ لأنه من: سما يسمو.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾: هو من أبىٰ يأبىٰ؛ كسعىٰ يسعىٰ، إذا امتنع.

﴿وَلْيُمْلِلِ﴾؛ أي: وليسمع ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾: الكاتب الألفاظ التي يكتبها ويلقيها عليه، أملَّ وأملىٰ لغتان فصيحتان معناهما واحد، الأولىٰ: لأهل الحجاز وبني أسد، والثانية: لتميم، يقال: أمليت وأمللت علىٰ الرجل؛ أي: ألقيت عليه ما يكتبه، وأصل المادتين في اللغة: الإعادة مرة بعد أخرىٰ، قال الشاعر:

أَلاَ يَا دِيَارَ ٱلْحَيِّ بِٱلسَّبُعَانِ أَمَلَّ عَلَيْهَا بِٱلْبِلَىٰ ٱلْمَلَوَانِ

وقيل: الأصل: أمللت، أبدل من اللام ياء؛ لأنها أخف، والإدغام في مثل ذلك جائز لا واجب، كما قال في «الخلاصة»:

نَحْوِ حَلَلْتُ مَا حَلَلْتُهُ وَفِي جَزْمٍ وَشِبْهِ ٱلْجَزْمِ تَخْيِيرٌ قُفِي

فلذلك ترك الإدغام هنا، ويأتي الإدغام في ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ﴾.

﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ﴾: والبخس: النقص، يقال منه: بخس زيد عمراً حقه يبخسه بخساً إذا نقصه، وبابه: قطع، وأصله من: بخست عينه، فاستعير لبخس

الحق، كما قالوا: عورت حقه استعارة عن عور العين، ويقال: بخصته بالصاد، ويقال للبيع إذا كان قصداً لا بخس فيه ولا شطط.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾: السأم والسآمة: الملل من الشيء والضجر منه، يقال: سَئِم يسأم من باب: تعب مهموز، ويقال: سَئِمته أسأمه، وسئمت منه، وفي التنزيل: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ فهو يتعدىٰ بنفسه، وبواسطة حرف الجر، ومنه قول الشاعر:

سَئِمْتُ تَكَالِيْفَ ٱلْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِيْنَ حَوْلاً لاَ أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

﴿صَغِيرًا﴾: الصغير اسم فاعل من صغر يصغر، ومعناه: قلة الجرم، ويستعمل في المعاني أيضاً.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: من أقسط الرباعي علىٰ غير قياس، وكذلك قوله: ﴿وَأَقْوَمُ﴾؛ إذ القياس أن يكون بناء أفعل التفضيل من المجرد لا من المزيد. وفي «المختار»: القسوط: الجور والعدول عن الحق، وبابه: جلس، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. انتهى. والقِسط[1] بكسر القاف: العدل، يقال منه: أقسط الرجل إذا عدل، وبفتح القاف: الجور، ويقال منه: قسط الرجل إذا جار. والقسط بالكسر أيضاً النصيب.

﴿فَرِهَٰنٌ﴾: جمع رهن بمعنىٰ مرهون من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، يقال: رهن يرهن رهناً من باب فتح، والرهن: ما دفع إلىٰ الدائن علىٰ استيثاق دينه.

البلاغة

وفي الآية من ضروب الفصاحة[2]:

منها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَلْيَكْتُب

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾، وفي قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ﴾، وفي قوله: ﴿ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ﴾، إذ يفهم من قوله ﴿تداينتم﴾: الدينُ، ومن قوله ﴿فليكتب﴾: الكاتبُ.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ﴾؛ لأن الضلال هنا بمعنىٰ: النسيان، وفي قوله: ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ﴾، وفي قوله: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ﴾، وفي قوله: ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾، وفي قوله: ﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾، وفي قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ كرر الحق للدعاء إلى اتباعه، وأتىٰ بلفظة علىٰ للإعلام أن لصاحب الحق مقالاً واستعلاء.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار أيضاً في قوله: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ لزيادة الكشف والبيان، لا لأن الأمر والنهي لغيره كما ذكره أبو السعود.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وفائدة تكرار لفظ الجلالة في الجمل الثلاث: إدخال الروع في القلب، وتربية المهابة في النفوس، والتنبيه علىٰ استقلال كل منها بمعنىٰ علىٰ حياله، فإن:

الأولىٰ: حثٌّ علىٰ التقوىٰ.

والثانية: وعد بالإنعام بالتعليم.

والثالثة: تعظيم لشأنه تعالىٰ.

وفي علىٰ في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ استعارة تبعية، حيث شبَّه تمكنهم من السفر بتمكن الراكب من مركوبه، وجمع بين الاسم الجليل والوصف الجميل في قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ مبالغة في التحذير.

وفي الآية أيضاً: الإيجاز بالحذف، وذلك كثيرٌ، ومن أمثلته قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ حذف متعلِّق الإيمان، وقوله: ﴿مُّسَمًّى﴾؛ أي: بينكم، وقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: الكتابة والخط، وقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ما عليه من الدين، وقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: في إملائه، إلىٰ غير ذلك من الأمثلة المذكورة في الآية كما بيَّنها أبو حيان في «البحر».

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ..﴾ مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنه لما ذكر أن من كتم الشهادة فإن قلبه آثم.. ذكر ما انطوىٰ عليه الضمير، فكتمه أو ابداه، فإن الله يحاسبه به، ففيه وعيد وتهديد لمن كتم الشهادة، ولما علق الإثم بالقلب.. ذكر هنا الأنفس فقال: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾. وناسب ذكر هذه خاتمة لهذه السورة؛ لأنه تعالىٰ ضمنها أكثر علم الأصول والفروع: من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد والصلاة والزكاة والقصاص والصيام والحج والجهاد والحيض والطلاق والعدة والخلع والإيلاء والرضاعة والربا والبيع وكيفية المداينة، فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالىٰ مالك لما في السموات وما في الأرض، فهو يُلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تعبداته وتكليفاته، ولما كانت هذه التكاليف محل اعتقادها إنما هو الأنفس وما تنطوي عليه من النيات، وثواب ملتزمها وعقاب تاركها إنما يظهر في الدار الآخرة.. نبه علىٰ صفة العلم التي بها تقع المحاسبة في الدار الآخرة بقوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ فصفة الملك تدل

---

(١) البحر المحيط.

علىٰ القدرة الباهرة، وذكر المحاسبة يدل علىٰ العلم المحيط بالجليل والحقير، فحصل بذكر هذين الوصفين غاية الوعد للمطيعين، وغاية الوعيد للعاصين.

قوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ..﴾ إلىٰ آخر السورة، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما نزل قوله: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ...﴾ الآية، أشفقوا منه، ثم أمروا أن يقولوا سمعنا وأطعنا، فرجعوا إلىٰ التضرع والاستكانة، فكشف عنهم ذلك الكرب، ورفع عنهم المشقة في أمر الخواطر.

ولما كان ابتداء هذه السورة بذكر الكتاب المنزل، وأنه هدىٰ للمتقين الموصوفين بما وصفوا به من الإيمان بالغيب، وبما أنزل إلىٰ الرسول، وإلى من قبله.. كان مختتمها بذكر الكتاب، ومن آمن به؛ ليتوافق الابتداء والاختتام، وذلك من أبدع الفصاحة؛ حيث يتلاقىٰ آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادة للعرب في كثير من نظمهم، فبيَّن تعالىٰ في آخر هذه السورة أن أولئك المؤمنين هم أمة محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

أسباب النزول

قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ...﴾ إلىٰ آخر السورة، سبب نزولها: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ الآية، قال: اشتد ذلك علىٰ أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فأتوا رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ثم بركوا علىٰ الركب، فقالوا: أي رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما اقترأها القوم، وذلت بها ألسنتهم.. أنزل الله تعالىٰ في أثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالىٰ عزّ وجلّ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. قال ـ أي تعالىٰ ـ: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: نعم ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: نعم. أخرجه مسلم، وله عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه، وفيه: قد فعلت بدل نعم.

والحديث أخرجه أحمد في «المسند» وابن جرير والبيهقي في «شعب الإيمان».

التفسير وأوجه القراءة

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استدلال علىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فاستدل بسعة ملكه علىٰ سعة علمه؛ أي: له سبحانه وتعالىٰ لا لغيره جميع ما في السموات وما في الأرض، من الأمور الداخلة في حقيقتهما، والخارجة عنهما: من أولي العلم، وغيرهم، فقل غيرهم، فعبَّر ﴿بِمَا﴾؛ لأنهم أكثر؛ أي: له تعالىٰ الكل خلقاً وملكاً وتصرفاً، فالجميع عبيد له وهو مالكهم ﴿وَإِن تُبْدُواْ﴾؛ أي: وإن تظهروا أيها المكلفون ﴿مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: ما في قلوبكم من العزم علىٰ السوء بأن تظهروه للناس بالقول، أو بالفعل ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾؛ أي: تسروه بأن تكتموه منهم ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يؤاخذكم به ويجازكم عليه يوم القيامة، ولا تَدْخل الوساوس وحديث النفس فيما يخفيه الإنسان؛ لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه.

فالخواطر الحاصلة في القلب علىٰ قسمين: ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إدخاله في حيِّز الوجود، وما لا يكون كذلك، بل تكون أموراً خاطرة بالبال مع أن الإنسان يكرهها، ولا يمكنه دفعها عن النفس. فالقسم الأول: يكون مؤاخذاً عليه، والثاني: لا يكون مؤاخذاً به.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالىٰ تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يعملوا به أو يتكلموا به» وفي رواية: «ما وسوست به صدورها» متفق عليه.

﴿فَيَغْفِرُ﴾ بفضله ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ بعدْله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه، وقد يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، وقد يعذب من يشاء علىٰ الذنب الحقير لا يُسأل عما يفعل. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ شاءَه من المحاسبة والمغفرة والتعذيب وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر.

وقرأ ابن[1] عامر وعاصم ويزيد ويعقوب وسهل: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بالرفع فيهما على القطع والاستئناف علىٰ أن يجعل الفعل خبر مبتدأ محذوف؛ أي: فهو يغفر. وقرأ باقي السبعة: بالجزم عطفاً علىٰ الجواب، وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو حيوة شذوذاً: بالنصب فيهما علىٰ إضمار: أن، فينسَبِك منها مع ما بعدها مصدر مرفوع معطوف علىٰ مصدر متوهم من الحساب تقديره: يكن محاسبة فمغفرة وتعذيب، وهذه الأوجه قد جاءت في قول الشاعر:

فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكْ   رَبِيعُ ٱلنَّاسِ وَٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ   أَجَبِّ ٱلظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سِنَامُ

يروى بجزم: ونأخذ، ورفعه ونصبه.

وقرأ الجعفي وخلاد وطلحة بن مصرف شذوذاً أيضاً: ﴿يغفر لمن يشاء﴾، ويرویٰ أنها كذلك في مصحف عبد الله، قال ابن جني: هي علىٰ البدل من ﴿يُحَاسِبۡكُم﴾؛ فهي تفسير للمحاسبة. انتهى. قيل: وليس بتفسير بل هما مترتبان علىٰ المحاسبة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾؛ أي: صدق الرسول محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: بأن هذا القرآن وجملة ما فيه من الشرائع والأحكام منزلٌ عليه

---

(١) البحر المحيط.

﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: من عند الله سبحانه وتعالىٰ ﴿و﴾ صدق ﴿المؤمنون﴾ بذلك أيضاً، فيكون المؤمنون مرفوعاً علىٰ الفاعلية عطفاً علىٰ الرسول، فيكون الوقف عليه، ويدل علىٰ صحة هذا قراءة علي رضي الله عنه: ﴿وآمن المؤمنون﴾، فأظهر الفعل. ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد من الرسول والمؤمنين ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: صدق بوجوده وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾؛ أي: بوجودهم، وبأنهم معصومون مطهرون، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم وسائط بين الله وبين البشر، وأن كتب الله المنزلة إنما وصلت إلىٰ الأنبياء بواسطة الملائكة ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿وكِتَابه﴾ ـ بكسر الكاف وفتح التاء مع الألف ـ بالإفراد علىٰ إرادة الجنس وباقي السبعة: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بضم الكاف والتاء بالجمع، أي: كلٌّ صدق بأن هذه الكتب المنزلة وحي من الله تعالىٰ إلىٰ رسله، وأنها ليست من باب الكهانة، ولا من باب السحر، ولا من باب إلقاء الشياطين والأرواح الخبيثة، وأن الشياطين لا يتمكنون من إلقاء شيء من ضلالتهم في أثناء هذا الوحي الظاهر، وأن هذا القرآن الكريم لم يغيَّر ولم يحرَّف. ﴿رُسُلِهِۦ﴾؛ أي: بأن لله رسلاً من البشر أمناء علىٰ وحيه معصومين من الذنوب، أرسلهم إلىٰ عباده المكلفين بشرائع وتكاليف، من أطاعهم دخل الجنة ومن عصاهم دخل النار. وقرأ يحيىٰ[1] بن يعمر شذوذاً: ﴿وكتْبه ورسله﴾ بإسكان التاء والسين وروي ذلك عن نافع، وقرأ الحسن شذوذاً أيضاً: ﴿ورسْله﴾: بإسكان السين، وهي رواية عن أبي عمرو، وقرأ عبد الله شذوذاً أيضاً: ﴿وكتابه ولقائه ورسله﴾، وقرأ الجمهور ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ بضم السين.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ قرأ الجمهور: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ بالنون؛ أي: حالة كون الرسول والمؤمنين يقولون: لا نفرق بين أحد من رسله في الإيمان بهم كما فعلت اليهود والنصارىٰ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، بل نؤمن بجميع رسله تعالىٰ، ونثبت نبوة جميع الأنبياء، ولا نكفر بأحد منهم. والمقصود من هذا الكلام: إثبات النبوة لكلهم، لا ما ادَّعاه بعضهم من أن المقصود هو عدم

---

(١) البحر المحيط.

التفضيل بينهم.

وقرأ ابن جبير وابن يعمر وأبو زرعة بن عمرو بن جرير ويعقوب: ﴿لا يفرق﴾ بالياء علىٰ لفظ كل. قال هارون: وهي في مصحف أُبي وابن مسعود: ﴿لا يفرقون﴾ وهو شاذ، حملاً علىٰ معنىٰ كل بعد الحمل علىٰ اللفظ.

﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: وقال المؤمنون أيضاً: ﴿سَمِعْنَا﴾؛ أي: أجبنا قولك يا إلٰهنا فيما كلفتنا به ﴿وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: امتثلنا أمرك يا مولانا في ذلك، وقدّم ﴿سَمِعْنَا﴾ علىٰ ﴿وَأَطَعْنَا﴾؛ لأن التكليف طريقهُ السمع، والطاعة بعده، وينبغي للمؤمن أن يكون قائلاً هذا دهره وحياته. ﴿غُفْرَانَكَ﴾؛ أي: نسألك غفرانك لذنوبنا يا ﴿رَبَّنَا﴾ وما قصرنا في حقك يا إلٰهنا ﴿وَإِلَيْكَ﴾ يا إلٰهنا لا إلىٰ غيرك ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع بعد الموت؛ يعني قالوا: إليك يا ربنا مرجعنا ومعادنا، فاغفر لنا ذنوبنا، وفيه إقرار بالبعث والجزاء.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ظاهره أنه إخبار من الله سبحانه وتعالىٰ مستأنف أخبر به أنه لا يكلف العباد من أفعال القلوب والجوارح إلا ما هو في وسع المكلف، والمعنى: أنكم إذا سمعتم وأطعتم ولم تتعمدوا والتقصير، فلو وقع منكم نوع تقصير علىٰ سبيل السهو والغفلة.. فلا تكونوا خائفين منه، فإن الله تعالىٰ لا يكلف نفساً ولا يلزمها من التكاليف والطاعات إلا وسعها وطاقتها؛ أي: إلا ما تسعه قدرتها فضلاً ورحمة منه تعالىٰ، فلا يتعبدها بما لا تطيق.

وقيل: هذا من كلام الرسول والمؤمنين؛ أي: وقالوا: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والمعنى: أنهم لما قالوا: سمعنا وأطعنا.. قالوا: كيف لا نسمع ذلك ولا نطيع وهو تعالىٰ لا يكلفنا إلا ما في وسعنا!.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿إلا وسعها﴾ جعله فعلاً ماضياً، وأوَّلوه علىٰ إضمار ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: إلا ما وسعها. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ وعملت من الخير، أي: للنفس ثواب ما عملته من الخير وأجره ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾؛ أي: وعليها وزر ما عملته من الشر وعقابه؛ أي: لا ينتفع بطاعتها، ولا يتضرر بمعاصيها غيرها. وتخصيص الكسب بالخير والاكتساب بالشرِّ؛ لأن الاكتساب فيه اعتمال واشتهاء

وانجذاب، والشر تشتهيه النفس، وتنجذب إليه، فكانت أجد في تحصيله وأعمل، بخلاف الخير فإنه ثقيل عليها. وجاء في الخير بـ﴿اللام﴾؛ لأنه ما يفرح به ويسر، فأضيف إلىٰ ملكه، وجاء في الشر بـ﴿على﴾ من حيث هو أوزار وأثقال، فجعلت قد عَلَته، وصار تحتها يحملها، وهذا كما تقول: لي مال وعليَّ دين.

وقولوا في دعائكم: يا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾؛ أي: لا تعاقبنا ﴿إِن نَّسِينَآ﴾ طاعتك؛ أي: إن تركنا أمراً من أوامرك نسياناً ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ في أمرك إن تركنا الصواب فيه لا عن تعمد، كتأخير الصلاة عن وقتها في حالة الغيم جهلاً به، وكقتل الخطأ المشهور، وهذا تعليم منه سبحانه وتعالىٰ عباده المؤمنين كيف يدعونه، ومعناه: قولوا في دعائكم: ربنا لا تؤاخذنا؛ أي: لا تعاقبنا بإثم ما يصدر منا من هذين الأمرين.

وقد[1] استشكل هذا الدعاء جماعة من المُفسِّرين وغيرهم قائلين: إن النسيان والخطأ مغفوران غير مؤاخذ بهما، فالدعاء بذلك من تحصيل الحاصل. وأجيب عن ذلك: بأن المراد طلب ترك المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلىٰ النسيان والخطأ من التفريط، وعدم المبالاة، لا من النسيان والخطأ، فإنه لا مؤاخذة بهما، كما يفيد ذلك قوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه ابن ماجه وابن منذر وابن حبان في «صحيحه» والطبراني والدارقطني والحاكم والبيهقي في «سننه» وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: إنه للإنسان أن يدعو بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدامته. وقيل: سؤاله علىٰ سبيل إظهار النعمة والتحدث بها علىٰ حد: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾، والصحيح أنه يختلف ذلك باختلاف الوقائع، فقسمٌ: لا يسقط باتفاق، كالغرامات والدِّيات والصلوات المفروضات، وقسم: يسقط باتفاق، كالقصاص والنطق بكلمة الكفر، وقسم ثالث مختلف فيه: كمن أكل ناسياً في رمضان، أو حنث ساهياً، وما كان مثله مما يقع

---

(١) الشوكاني.

خطأً أو نسياناً، ويعرف ذلك في الفروع. انتهىٰ. ومن هنا إلىٰ آخر السورة سبع دعوات مستجابة.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾؛ أي: وقولوا يا ربنا لا تكلفنا بالأمور الشاقة ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ من بني إسرائيل؛ أي: لا تشدد علينا في التكاليف كما شددت علىٰ من قبلنا من اليهود. وفي قراءة أُبيّ بالتشديد شذوذاً في: ﴿ولا تحمِّل علينا إصراً﴾ إفادةٌ للتكثير.

قال المفسرون[1]: إن الله تعالىٰ فرض عليهم خمسين صلاة في اليوم والليلة، وأمرهم بأداء ربع أموالهم في الزكاة، ومن أصاب ثوبه نجاسة.. أمر بقطعها، وكانوا إذا نسوا شيئاً.. عجلت لهم العقوبة في الدنيا، وكانوا إذا أتوا بخطيئة.. حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالاً لهم، ومن أصاب ذنباً.. أصبح وذنبه مكتوب علىٰ بابه، ونحو ذلك من الأثقال والآصار التي كتبت عليهم، فسأل المسلمون ربهم أن يصونهم عن أمثال هذه التغليظات والعهود الثقيلة، وقد أجاب الله دعائهم برحمته، وخفف عنهم بفضله وكرمه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ﴾؛ أي: قوة ﴿لَنَا بِهِۦ﴾ من البلاء والعقوبة النازلة بمن قبلنا أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية، وهذا أعم من الإصر السابق؛ لتخصيصه بالتشبيه وعموم هذا، والتشديد في ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾: للتعدية. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾؛ أي: أمح أثار ذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: واستر عيوبنا، ولا تفضحنا بالمؤاخذة بين رؤوس الأشهاد ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾؛ أي: تعطف بنا وتفضل علينا ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ أي؛ ناصرنا وحافظنا ولينا ومتولي أمورنا، ونحن عبيدك. ويقال: واعف عنا من المسخ كما مسخت قوم عيسىٰ، واغفر لنا من الخسف كما خسفت بقارون، وارحمنا من القذف كما قذفت قوم لوط، فلما دَعَوا بهذا الدعاء رفع الله عنهم ذنوب حديث النفس والنسيان والخطأ والاستكراه، وعفا عنهم من

(١) مراح خازن.

الخسف والمسخ والقذف. ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: الجاحدين الذين عبدوا غيرك، وجحدوا وحدانيتك؛ أي: انصرنا عليهم في محاربتنا معهم، وفي مناظرتنا بالحجة معهم، وفي إعلاء دولة الإسلام علىٰ دولتهم، فإن من حق المولىٰ أن ينصر مواليه علىٰ الأعداء. روي أنه ﷺ لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة: قد فعلت.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما أُسري برسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم انتهىٰ به إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وهي في السادسة، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها، فيقبض منها. قال: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قال: فراشٌ من ذهب. قال: فأُعطي رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر ـ لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً ـ المقحمات. أخرجه مسلم. المقحمات: الذنوب التي تولج مرتكبها النار، وأصل الاقتحام: الولوج.

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه» متفق عليه. معناه: كفتاه من كل ما يحذر من كل هامة وشيطان، فلا يقربه تلك الليلة. وقيل: كفتاه عن قيام الليل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم عنده جبريل عليه السلام، إذ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع جبريل بصره إلىٰ السماء فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل من السماء إلىٰ الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشرْ بنورين أوتيتَهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته. أخرجه مسلم.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه: عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله كتب لنا كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل فيه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان».

أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب.

ولما مدح الله سبحانه وتعالىٰ المتقين في أول السورة.. بيّن في آخر السورة أنهم أمة محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ وهذا هو المراد بقوله تعالىٰ هناك: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ثم قال ها هنا؛ ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾ وهو المراد بقوله تعالىٰ هناك: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ثم قال هاهنا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهو المراد بقوله هناك: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ثم حكىٰ الله تعالىٰ عنهم هاهنا كيفية تضرعهم إلىٰ ربهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ إلىٰ آخر السورة، وهو المراد بقوله تعالىٰ هناك: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها.

الإعراب

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾.

﴿لِّلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَمَا﴾: الواو عاطفة و ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع معطوفة على ﴿مَا﴾ الأولىٰ: ﴿فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾: جار ومجرور صلة لها، أو صفة لها.

﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿تُبْدُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل ﴿تُخْفُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية؛ لأنه معطوف علىٰ فعل الشرط

﴿يُحَاسِبْكُم﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه جواب الشرط ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿فَيَغْفِرُ﴾ الفاء بمعنىٰ الواو الاستئنافية ﴿يغفر﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فهو يغفر لمن يشاء، والجملة الاسمية مستأنفة. هذا علىٰ قراءة الرفع، وأما علىٰ قراءة الجزم فمعطوفٌ علىٰ يحاسبكم. وقرىء شذوذاً بالنصب كما مر علىٰ إضمار ﴿أن﴾؛ فينسبك منها مع ما بعدها مصدرٌ مرفوع معطوف علىٰ مصدر متصيَّد من ﴿يُحَاسِبْكُم﴾ تقديره: وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يكن محاسبة فمغفرة وتعذيب، وهذه الأوجه الثلاثة قد جاءت في قول الشاعر:

فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكْ رَبِيعُ ٱلنَّاسِ وَٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ أَجَبُّ ٱلظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ

يروى بجزم ونأخذ ورفعه ونصبه كما سبق. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يغفر﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: لمن يشاء مغفرته. ﴿وَيُعَذِّبُ﴾: معطوف علىٰ ﴿يغفر﴾ بالأوجه الثلاثة السابقة ﴿مَن﴾: اسم موصول مفعول ﴿يعذب﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره: يشاء تعذيبه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ءَامَنَ﴾، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود

علىٰ ﴿ما﴾، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير النائب ﴿إِلَيۡهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ أيضاً، ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أنه مرفوع بالفاعلية عطفاً علىٰ الرسول، فيكون الوقف عليه، ويكون قوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ﴾ جملة اسمية مركبة من مبتدأ وخبر مستأنفة استئنافاً بيانياً تدل علىٰ أن جميع من تقدم ذكره آمن بما سيذكر بعدها.

والثاني: أن يكون المؤمنون مبتدأ أول، و ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ ثانٍ، و ﴿ءَامَنَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره: خبر عن المبتدأ الأول، وعلىٰ هذا فلا بد من رابط يربط بين الجملة الصغرىٰ والكبرىٰ، وهو محذوف تقديره: كلٌّ منهم، كقولهم: السَّمْنُ منوان بدرهمٍ، تقديره: منوانٍ منه ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ﴾: معطوف علىٰ الجلالة ومضاف إليه، وكذا قوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوفان علىٰ لفظ الجلالة.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾.

﴿لَا﴾: نافية ﴿نُفَرِّقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر تقديره: نحن، ﴿بَيۡنَ أَحَدٖ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿نُفَرِّقُ﴾، والجملة الفعلية مقول لقول محذوف تقديره: يقولون: لا نفرق بين أحد من رسله، والقول المحذوف حال من الضمير المستتر في ﴿ءَامَنَ﴾ تقديره: كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله حالة كونهم قائلين لا نفرق بين أحد.

﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو عاطفة ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿سَمِعۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، وكذلك جملة ﴿أطعنا﴾: معطوفة علىٰ جملة ﴿سَمِعۡنَا﴾. ﴿غُفۡرَانَكَ﴾: مفعول لفعل محذوف ومضاف إليه تقديره: نسألك غفرانك،

والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿رَبَّنَا﴾: منادىٰ مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿وَإِلَيْكَ﴾: الواو عاطفة ﴿إليك﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿سَمِعْنَا﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قالوا﴾ وفي «الجمل»: أنها معطوفة علىٰ مقدَّر؛ أي: فمنك مبدأنا، وإليك المصير.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

﴿لَا﴾: نافية ﴿يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿نَفْسًا﴾: مفعول أول ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿وُسْعَهَا﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع مبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿نَفْسًا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كسبته ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾: الواو عاطفة ﴿عليها﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾. ﴿ٱكْتَسَبَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿نَفْسًا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما اكتسبته. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ إلىٰ آخر السورة: مقول محكي لقول محذوف تقديره: قولوا في دعائكم: ربنا لا تؤاخذنا، وجملة القول المحذوف مستأنفة، وإن شئت قلتَ: ﴿رَبَّنَا﴾: منادىٰ مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول للقول المحذوف. ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾: ﴿لَا﴾: دعائية جازمة ﴿تُؤَاخِذْنَآ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الدعائية، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف. ﴿إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿نَّسِينَآ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿أَخْطَأْنَا﴾: فعل وفاعل في محل

الجزم معطوف على ﴿نَّسِينَآ﴾ وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله تقديره: إن نسينا أو أخطأنا لا تؤاخذنا بذلك النسيان أو الخطأ، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول للقول المحذوف.

﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تَحْمِلْ﴾: مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: لا تؤاخذنا. ﴿عَلَيْنَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَحْمِلْ﴾. ﴿إِصْرًا﴾: مفعول به ﴿كَمَا﴾: الكاف حرف جر ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿حَمَلْتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَمَلْتَهُۥ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ولا تحمل علينا إصراً حملاً كائناً كحملك على الذين من قبلنا. ﴿مِن قَبْلِنَا﴾: ﴿مِن﴾: حرف جر. ﴿قَبْلِنَا﴾: مجرور ومضاف إليه، الجار والمجرور متعلق بمحذوف صلة الموصول.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾.

﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾: الواو عاطفة ﴿لا﴾: دعائية. ﴿تُحَمِّلْنَا﴾: فعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿لا﴾ الدعائية، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾. ﴿مَا لَا طَاقَةَ﴾؛ ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثانٍ ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل ﴿إن﴾. ﴿طَاقَةَ﴾: اسمها ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لَا﴾ ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿طَاقَةَ﴾؛ لأنه اسم مصدر من: أطاق الرباعي، وجملة ﴿لَا﴾ من اسمها وخبرها صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَٱعْفُ﴾ الواو عاطفة، والجمل الثلاث معطوفات على جملة قوله: ﴿لَا

تُؤَاخِذْنَآ﴾، وكذا جملة قوله؛ ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ معطوفة عليها. ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: الفاء: عاطفة سببية ﴿انصرنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور وصفة، متعلق بـ﴿انصرنا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من أبدىٰ الرباعي، يقال: أبدىٰ ما في ضميره إذا أظهره بفعله أو قوله. ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من أخفىٰ الرباعي، يقال: أخفىٰ الشيء إذا أسره في نفسه، وقدِّم الإبداء هنا علىٰ الإخفاء؛ لأن الأصل في الأمور التي يحاسب عليها هو الأعمال البادية، وأما تقديم الإخفاء في قوله تعالىٰ في آل عمران: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾؛ فلكون العلم يتعلق بالأعمال الخافية والبادية علىٰ السوية، وقدم المغفرة علىٰ التعذيب؛ لكون رحمته سبقت غضبه.

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمصير[1]: مصدرٌ ميميٌّ من صار يصير صيرورة ومصيراً، وهو مبني علىٰ مفعِل بكسر العين، وقد اختلف النحويون في بناء المفعل مما عينه ياء نحو: يبيت ويعيش، فذهب بعضهم إلىٰ أنه كالصحيح نحو: يضرب يكون للمصدر بالفتح، وللمكان والزمان بالكسر نحو ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾؛ أي: عيشاً. والمصير بمعنى الصيرورة علىٰ هذا شاذ، وذهب بعضهم إلىٰ التخيير في المصدر بين أن تبنيه علىٰ مفعِل بكسر العين أو مفعَل بفتحها، وأما الزمان والمكان فبالكسر ذهب إلىٰ ذلك الزجاج، ورده عليه أبو علي، وذهب بعضهم إلىٰ الاقتصار علىٰ السماع، فحيث بنت العرب المصدر على مفعِل أو مفعل اتبعناه، وهذا المذهب أحوط.

﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ والوسع بتثليث الواو كما في «القاموس»: دون المجهود في

---

(١) أبو حيان.

المشقة، وهو ما يتسع له قدرة الإنسان، يقال: وسعه الشيء بالكسر يسعه سعة بالفتح، والسعة بالفتح الجدة والطاقة.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ يقرأ[1] بالهمزة وهو من الأخذ بالذنب، ويقرأ بالواو ويحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من الأخذ أيضاً، وإنما أبدلت الهمزة واو لانفتاحها وانضمام ما قبلها، وهو تخفيف قياسي.

ويحتمل أن يكون من: وَاخَذَهُ بالواو. قاله: أبو البقاء. وجاء هنا بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد وهو الله؛ لأن المسيء قد أمكن من نفسه وطرق السبيل إليها بفعله، فكأنه أعان من يعاقبه بذنبه، ويأخذ به علىٰ نفسه فحسنت المفاعلة، ويجوز أن يكون من باب سافرت وعاقبت وطارقت.

﴿إِصْرًا﴾ الإصر: العناء الثقيل الذي يأصر صاحبه؛ أي: يحبسه مكانه والمراد به التكاليف الشاقة، ذكره أبو السعود. وفي «المختار»: أصره يأصره ـ من باب: ضرب ـ إصراراً إذا حبسه، ويطلق علىٰ كل ما يثقل علىٰ النفس كشماتة الأعداء.

﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾: والطاقة القدرة علىٰ الشيء، وهي في الأصل مصدر جاء علىٰ حذف الزوائد، وكان من حقها إطاقة؛ لأنها من أطاق، ويصح أن تكون اسم مصدر لأطاق الرباعي.

﴿مَوْلَىٰنَا﴾ المولىٰ: مفعل من: ولىٰ يلي، وهو هنا مصدر ميمي يراد به اسم الفاعل ويجوز أن يكون علىٰ حذف مضاف؛ أي: صاحب تولينا؛ أي: نصرتنا.

البلاغة

وقد تضمنت الآية من ضروب البلاغة أنواعاً:

---

(١) الجمل.

منها: الطباق بين قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾، وكذا بين ﴿فَيَغْفِرُ﴾، و ﴿وَيُعَذِّبُ﴾.

ومنها: الطباق المعنوي بين: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾؛ لأن ﴿لَهَا﴾ إشارة إلىٰ ما يحصل به نفع ﴿وَعَلَيْهَا﴾ إشارة إلىٰ ما يحصل به ضرر، وقدم ﴿لَهَا﴾ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ علىٰ الفعلين؛ ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها، وعليها لا علىٰ غيرها، وإنما كرر الفعل وخالف بين التصريفين تحسيناً للنظم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كرر ﴿ما﴾ تنبيهاً وتوكيداً للكلام.

ومنها: الجناس المغاير، ويسمىٰ جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

ومنها: تكرير النداء بين المتعاطفات لإظهار مزيد الضراعة والالتجاء إلىٰ الرب الكريم.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾.

ومنها: الاستعارة المصرحة في قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾؛ لأن الإصر في الأصل: الحمل الثقيل الذي يحبس صاحبه في مكانه، والمراد به هنا: التكاليف الشاقة.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي؛ آمنوا بالله ورسله. وفي مواضع أخرىٰ عديدة.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

تتمة

وخلاصة ما في هذه السورة من أمهات الشريعة خمسة عشر:

الأول: دعوة الناس جميعاً إلىٰ عبادة ربهم.

والثاني: عدم اتخاذ أنداد له.

والثالث: ذكر الوحي والرسالة، والحجاج علىٰ ذلك بهذا الكتاب المنزل علىٰ عبده، وتحدي الناس كافة بالإتيان بمثله.

والرابع: ذكر أُسِّ الدين، وهو توحيد الله.

والخامس: إباحة الأكل من جميع الطيبات.

والسادس: ذكر الأحكام العملية من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأحكام الصيام، والحج والعمرة، وأحكام القتال والقصاص.

والسابع: الأمر بإنفاق المال في سبيل الله.

والثامن: تحريم الخمر والميسر.

والتاسع: معاملة اليتامىٰ ومخالطتهم في المعيشة.

والعاشر: أحكام الزوجية من طلاق ورضاعة وعدة.

والحادي عشر: تحريم الربا والأمر بأخذ ما بقي منه.

والثاني عشر: أحكام الدَّين من كتابة وإشهاد، وشهادة وحكم النساء والرجال في ذلك.

والثالث عشر: وجوب أداء الأمانة.

والرابع عشر: تحريم كتمان الشهادة.

والخامس عشر: خاتمة ذلك كله الدعاء الذي طلب إلينا أن ندعوه به، وعلى الجملة فقد فُصلت فيها الأحكام وضُربت الأمثال وأقيمت الحجج، ولم تشتمل سورة علىٰ مثل ما اشتملت عليه، ومن ثمَّ سمُيت فسطاط القرآن.

خاتمة

قال محمد بن حزم في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: واعلم أن نزول المنسوخ بمكة كثير، والناسخ بالمدينة كثير، وليس في أم الكتاب شيء منهما، فأما سورة البقرة وهي مدنية، ففيها ستة وعشرون آية من المنسوخ.

الأولى منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الآية وهي منسوخة بقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ مدنية ٨٥.

والثانية منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فإنها منسوخة بقوله تعالىٰ في براءة آية السيف: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ مدنية ٥.

والثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فإنها منسوخة بقوله تعالىٰ في براءة: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ مدنية: ٢٩.

والرابعة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ هذا محكم، والمنسوخ منها قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ منسوخ بقوله تعالىٰ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ البقرة مدنية ١٤٤.

والخامسة: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ الآية منسوخة بالاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟﴾ البقرة ١٥٩.

والسادسة: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾ الآية، فنسخ منها بالسنَّة بعض الميتة وبعض الدم بقوله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال». وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، ثم رخص للمضطر إذا كان غير باغٍ ولا عاد بقوله: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

والسابعة: قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وهذا الأخير موضع النسخ منها - أعني - والأنثى بالأنثى، وباقيها محكم وناسخها قوله تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ الآية المائدة ٤٥ وقيل: ناسخها قوله تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ مدنية ٣٣، وقتل الحر بالعبد إسراف، وكذلك قتل المسلم بالكافر.

والثامنة: قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فإنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ «النساء مدنية: ١١».

والتاسعة: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فإنها منسوخة، وذلك أنهم كانوا إذا أفطروا أكلوا وشربوا وجامعوا النساء ما لم يصلوا العشاء الأخيرة أو يناموا قبل ذلك، ثم نسخ الله ذلك بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ البقرة: ١٨٧ في شأن عمر رضي الله عنه والأنصاري؛ لأنهما جامعا معاً ونزل في صرفه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

والعاشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هذه الآية نصفها منسوخ، وناسخها قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ يعني: فمن شهد منكم الشهر حياً بالغاً حاضراً صحيحاً عاقلاً فليصمه.

والحادية عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ فإنّ خصوصها منسوخ بعموم قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ التوبة مدنية: ٣٦.

والثانية عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ فإنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ البقرة مدنية: ١٩١.

والثالثة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ وهذا من الأخبار التي معناها الأمر تأويله: فاغفروا لهم، واعفوا عنهم، ثم أخبار العفو منسوخة بآية السيف بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ التوبة مدنية: ٥.

والرابعة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ نسخ عمومها بخصوص قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن

رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ﴾.

والخامسة عشرة: قوله تعالىٰ: يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ نسخت بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ الآية التوبة مدنية: ٦٠.

والسادسة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ الآية نسخت بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ الآية التوبة مدنية: ٥.

والسابعة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ الآية نسخت بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾، فلما نزلت هذه الآية امتنع قوم عن شربها، وبقي قوم علىٰ شربها، ثم أنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ النساء: ٤٣، وكانوا يشربون بعد العشاء الآخرة، ثم يرقدون، ثم يقومون من غد وقد صحوا، ثم يشربونها بعد الفجر إن شاؤوا فإذا جاء وقت الظهر لا يشربونها البتة، ثم أنزل الله تعالىٰ: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ المائدة مدنية: ٩٠؛ أي: فاتركوه.

والثامنة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾؛ يعني: الفضل من أموالكم منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم﴾ الآية التوبة مدنية: ١٠٣.

والتاسعة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ نسخ عمومها الكتابيات والوثنيات بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ المائدة مدنية: ٥.

والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ هذه الآية جميعها محكم إلا كلاماً في وسطها، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ نسخ بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾.

الحادية والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ نسخ عمومها بالاستثناء بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾.

والثانية والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾

نسخت بالاستثناء بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فصارت هذه الإرادة بالاتفاق ناسخة لحولين كاملين.

والثالثة والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ الآية، نسخت بقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وليس في كتاب الله آية تقدم ناسخها علىٰ منسوخها إلا هذه الآية وآية أخرىٰ في سورة الأحزاب، وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ الآية، نُسخت بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾ الآية.

والرابعة والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الآية، منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية التوبة مدنية: ٥.

والخامسة والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

والسادسة والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا محكم ثم قال: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾، فشق نزولها عليهم فقال النبي ﷺ: «ولا تقولوا كما قالت اليهود سمعنا وعصينا، ولكن قولوا سمعنا وأطعنا»، فلما علم الله تسليمهم لأمره.. أنزل ناسخ هذه بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وخفف الله مع الوسع بقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة مدنية: ١٨٥. انتهى[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) وقد تم بحمد الله تعالىٰ وعونه تفسير سورة البقرة في الساعة الثالثة من اليوم الثامن من شهر ربيع الأول المبارك من شهور سنة سبع وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية.
بقلم مؤلِّفه الراجي من ربه المنعم سبحانه أن يعينه علىٰ تمامه، وينفع به من شاء من عباده، ويجعله ذخيرة له عنده يوم وفوده إلىٰ دار الآخرة: محمد الأمين بن عبد الله الأرمي الأثيوبي الهرري غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وذريته وأحبائه ولجميع المسلمين. آمين يا رب آمين.

سورة آل عمران

مدنية، ومما يدل[1] علىٰ ذلك أن صدرها إلىٰ ثلاث وثمانين آية نزلت في وفد نصارىٰ نجران، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة، كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها.

وآياتها: مئتان باتفاق العادِّين. وكلماتها: ثلاث آلاف وأربع مئة وستون كلمة. وحروفها: أربعة عشر ألفاً وخمس مئة وخمس وعشرون حرفاً.

المناسبة: ومناسبة[2] هذه السورة لما قبلها واضحة؛ لأنه لما ذكر آخر البقرة: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.. ناسب أن يذكر نصره تعالىٰ علىٰ الكافرين؛ حيث ناظرهم رسول الله ﷺ، وردَّ عليهم بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة، فقص تعالىٰ أحوالهم، وردَّ عليهم في اعتقادهم، وذكر تنزيهه تعالىٰ عما يقولون، وبداءةَ خلق مريم وابنها المسيح إلىٰ آخر ما ردَّ عليهم.

ولما كان مفتتح آية آخر البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ فكان في ذلك الإيمان بالله وبالكتب.. ناسب ذكر أوصاف الله تعالىٰ، وذكر ما أنزل علىٰ رسوله، وذكر المنزل علىٰ غيره صلوات الله وسلامه علىٰ نبينا وعليهم.

وذكر المراغي[3] في وجه مناسبة هذه السورة للسورة التي قبلها خمسة أوجه:

الأول منها: أن كلاًّ منهما بدىء بذكر الكتاب وحال الناس في الاهتداء، فقد ذكر في الأولى من آمن به ومن لم يؤمن به والمذبذبين بين ذلك، وفي الثانية

---

(١) شوكاني وابن كثير.
(٢) أبو حيان.
(٣) المراغي.

طائفة الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وطائفة الراسخين في العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ويقولون: كلّ من عند ربنا.

والثاني منها: أن في الأولى تذكيراً بخلق آدم، وفي الثانية تذكيراً بخلق عيسىٰ، وتشبيه الثاني بالأول في أنه جرىٰ على غير سنة سابقة في الخلق.

والثالث منها: أن في كل منهما محاجَّة لأهل الكتاب، لكن في الأولىٰ إسهاب في محاجة اليهود واختصار في محاجة النصارىٰ، وفي الثانية عكس هذا؛ لأن النصارىٰ متأخرون في الوجود عن اليهود، فليكن الحديث معهم تالياً في المرتبة للحديث الأول.

والرابع منها: أن في آخر كلٍّ منهما دعاء إلا أن الدعاء في الأولىٰ ينحو نحو طلب النصر علىٰ جاحدي الدعوة ومحاربي أهلها ورفع التكليف بما لا يطاق، وهذا مما يناسب بداءة الدين، والدعاء في الثانية يرمي إلىٰ قبول دعوة الدين، وطلب الجزاء علىٰ ذلك في الآخرة.

والخامس منها: أن الثانية ختمت بما يناسب بدء الأولىٰ؛ كأنها مُتَمِّمة لها؛ فبدُئت الأولىٰ بإثبات الفلاح للمتقين، وختمت هذه بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

فائدة: قال محمد بن حزم في كتابه «الناسخ والمنسوخ»(١): سورة آل عمران كلها محكمة إلا خمس آيات:

الأولىٰ منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ فإنها منسوخة وناسخها آية السيف في سورة التوبة: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

والثانية والثالثة والرابعة: قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فهذه ثلاثة آيات نزلت في ستة رهط ارتدوا عن الإسلام بعد أن أظهروا الإيمان، ثم استثنىٰ واحداً من الستة وهو سويد بن الصامت، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾ فهذه ـ أعني آية الاستثناء ـ

---

(١) الناسخ والمنسوخ.

ناسخة لتلك الثلاث.

والخامسة قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ لما نزلت.. لم يعلم ما تأويلها، فقالوا يا رسول الله، ما حق تقاته؟ فقال ﷺ: «حق تقاته أن يطاع فلا يعصىٰ، وأن يذكر فلا ينسىٰ، وأن يُشكر فلا يكفر» فقالوا: يا رسول الله، ومَنْ يطيق ذلك؟ فانزعجوا لنزولها انزعاجاً عظيماً، ثم أنزل الله بعد مدة يسيرة آية تؤكد حكمها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ في سورة الحج، فكانت هذه أعظم عليهم من الأولىٰ، ومعناها: اعملوا لله حق عمله، فكادت عقولهم تذهل، فلما علم الله ما قد نزل بهم في هذا الأمر العسير.. خفف فنسخها بالآية التي في التغابن، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وهي مدنية، فكان هذا تيسيراً من التعسير الأول وتخفيفاً من التشديد الأول انتهىٰ.

ومما ورد في فضلها وفضل البقرة: ما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». قال معاوية بن سلام: من رواته بلغني أن البطلة: السحرة.

وروىٰ مسلم أيضاً: عن النواس بن السمعان الكلابي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تَقْدُمه سورة البقرة وآل عمران». وضرب لهم رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعدُ. قال «لأنهما غمامتان أو ظلَّتان سودوان بينهما شرق ـ أي: ضوء ـ أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

المناسبة

المناسبة بين هذه الآيات وبين السورة السابقة: فقد مرَّ بيانها آنفاً، فلا عود.

أسباب النزول

فقد روىٰ ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر أن هذه الآيات وما بعدها إلىٰ نحو ثمانين آية نزلت في نصارىٰ نجران؛ إذ وفدوا علىٰ رسول الله ﷺ، وكانوا نحو ستين راكباً، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم: عبد المسيح أميرهم، والأيهم مشيرهم، وأبو حارثة بن علقمة حبرهم. فقدموا علىٰ النبي ﷺ، وخاصموه، فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه ﷺ، فقالوا تارة: عيسىٰ هو الله؛ لأنه كان يحي الموتىٰ، وتارة هو ابن الله؛ إذ ليس له أب، وتارة إنه ثالث ثلاثة؛ لقوله تعالىٰ: فعلنا وقلنا، ولو كان واحداً لقال: فعلتُ وقلتُ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت، وأن عيسىٰ يموت»؟ قالوا: بلىٰ، قال: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه»؟ قالوا: بلىٰ، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قائم علىٰ كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه، فهل يملك عيسىٰ شيئاً»

من ذلك؟ قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما عُلِّم»؟ قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث، وأن عيسىٰ كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث»؟ قالوا: بلى، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يكون هذا كما زعمتم» فعرفوا الحق وسكتوا، ثم أبوا إلا الجحود، فأنزل الله تعالىٰ من أول السورة ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ . . .﴾ إلىٰ نيف وثمانين آية.

ووجه الرد عليهم فيها: أنه تعالىٰ بدأ بذكر التوحيد لينفي عقيدة التثليث من أول الأمر، ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حياً قيوماً؛ أي: قامت به السموات والأرض، وهي وجدت قبل عيسىٰ، فكيف تقوم به قبل وجوده؟ ثم ذكر أنه تعالىٰ نزَّل الكتاب وأنزل التوراة ليبين أنه قد أنزل الوحي وشرع الشرائع قبل وجوده، كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل علىٰ من بعده، فليس هو المنزل للكتاب علىٰ الأنبياء، وإنما هو نبي مثلهم، ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذي وهب العقل للبشر؛ ليفرقوا بين الحق والباطل، وعيسى لم يكن واهباً للعقول، ثم قال: أنه لا يخفىٰ عليه شيء مطلقاً سواء أكان في هذا العالم أم في غيره من العوالم السماوية، وعيسى لم يكن كذلك، ثم بيَّن أن الإله هو الذي يصوِّر في الأرحام ليرد علىٰ ولادة عيسىٰ من غير أب؛ إذ الولادة من غير أب ليست دليلاً علىٰ الألوهية، فالمخلوق عبدٌ كيفما خلق، وإنما الإله هو الخالق الذي يصور الأرحام كيف يشاء، وعيسىٰ لم يصور أحداً في رحم أمه، ثم صرَّح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالىٰ بالعزة والحكمة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ ۝١﴾ الله أعلم بمراده به، قال القرطبي في «تفسيره»: اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقال الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سرٌّ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا نحب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها وتُمرُّ

كما جاءت. وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

قال: وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر، وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله به عزّ وجلّ.

وذكر سيبويه في «الكتاب»[1]: أن فواتح السور التي لم تكن موازنة لمفرد، طريق التلفظ بها: الحكاية فقط، ساكنة الإعجاز علىٰ الوقف سواء جعلت أسماء أو مسرودة علىٰ نمط التعديد وإن لزمها التقاء الساكنين لما علم أن مغتفر في باب الوقف فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها، ثم يبدأ بما بعدها كما فعله الحسن والأعمش وغيرهما.

وهذه الفواتح إن جعلت مسرودة علىٰ نمط التعديد.. فلا محل لها من الإعراب، وإن جعلت أسماء للسور.. فمحلها إما الرفع علىٰ أنها أخبار لمبتدآت مقدرة قبلها، أو النصب علىٰ تقدير أفعال يقتضيها المقام كاذكر أو اقرأ أو نحوهما، وما بعدها كلام مستأنف. والله أعلم.

﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود المستحق منكم العبادة أيها العباد هو: الإله الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ ولا ربَّ سواه. ﴿ٱلْحَىُّ﴾؛ أي: المتصف بالحياة الدائمة التي لا ابتداء لها ولا انتهاء ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾؛ أي: القائم بنفسه، المستغني عن غيره، أو القائم بتدبير خلقه ومصالحهم فيما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم. وقرأ جماعة[2] من الصحابة كعمر وأُبي بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهم شذوذاً: ﴿القيام﴾، وقال خارجة[3] رحمه الله تعالى في مصحف عبد الله رضي الله عنه: ﴿القيم﴾ وروي هذا أيضاً عن علقمة وهو شاذ.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

وقال الرازي رحمه الله تعالى[١]: مطلع هذه السورة عجيب؛ لأنهم لما نازعوا كأنه قيل: إما أن تنازعوا في معرفة الله، أو في النبوة، فإن كان في الأول: فهو باطل؛ لأن الأدلة العقلية دلت علىٰ أنه حيٌّ قيوم، والحي القيوم يستحيل أن يكون له ولد، وإن كان في الثاني: فهو باطل؛ لأن الطريق الذي عرفتم أن الله تعالىٰ أنزل التوراة والإنجيل هو بعينه قائم هنا، وذلك هو المعجزة. انتهىٰ.

هو سبحانه وتعالىٰ ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن بالتدريج بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة، وإنما فسرنا كذلك؛ لأن فعَّل المضعف يدل علىٰ التكرير، وأتى[٢] هنا بذكر المنزل عليه وهو قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ ولم يأتِ بذكر المنزل عليه في التوراة، ولا في الإنجيل تخصيصاً له وتشريفاً بالذكر، وجاء بذكر الخطاب؛ لما في الخطاب من المؤانسة، وأتىٰ بلفظة ﴿علىٰ﴾ لما فيها من الاستعلاء كأن الكتاب تجلله وتغشاه ﷺ.

فإن قلت[٣]: إن القرآن وقت نزول هذه الآية لم يتكامل نزوله؟

قلت: إما أن يراد بالكتاب ما نزل منه إذ ذلك، أو يقال: الفعل مستعمل في الماضي والمستقبل.

وقرأ الجمهور: ﴿نَزَّلَ﴾ مشدداً ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالنصب. وقرأ النخعي والأعمش وابن أبي عبلة رحمهم الله تعالى شذوذاً: ﴿نزلَ﴾ مخففاً و﴿الكتابُ﴾ بالرفع، وفي هذه القراءة تحتمل الآية وجهين:

أحدهما: أن تكون منقطعة.

والثاني: أن تكون متصلة بما قبلها؛ أي: نزل الكتاب عليك من عنده.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الجمل.

حالة كون ذلك الكتاب ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل فيما خصك به من شرف النبوة، وقيل: بالعدل في أحكامه أو بالصدق في أخباره عن القرون الماضية، وفي وعده ووعيده، وقيل. معنىٰ بالحق: بالبراهين القاطعة والحجج المحققة أنها من عند الله تعالىٰ، أو بالقول الفصل وليس بالهزل ولا بالمعاني الفاسدة المتناقضة.

وحالة كون ذلك الكتاب ﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي؛ لما تقدمه من الكتب السالفة في الدعوة إلىٰ التوحيد والإيمان وتنزيه الله تعالىٰ عما لا يليق بشأنه، وفي الأمر بالعدل والإحسان، وفي أنباء الأنبياء والأمم الخالية، وفي الشرائع التي لا تختلف فيها الأمم، وأما[1] في الشرائع المختلفة فيها فمن حيث أن أحكام كل واردة علىٰ حسب ما تقتضيه الحكمة التشريعية بالنسبة إلىٰ خصوصيات الأمم المكلفة بها مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم.

وفائدة[2] تقييد التنزيل بهذه الحال ـ أعني: ﴿مُصَدِّقًا﴾ ـ حث أهل الكتاب على الإيمان بالمنزل، وتنبيههم علىٰ وجوبه، فإن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه حتماً.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ جملة علىٰ موسىٰ بن عمران ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ جملة علىٰ عيسى بن مريم عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل تنزيل القرآن ﴿هُدًى﴾؛ أي: حال كونهما هاديين من الضلالة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ في زمانهما يعني بني إسرائيل فهو حال من التوراة والإنجيل، ولم يثنَّ؛ لأنه مصدر، ويصح كونه مفعولاً له، والعامل فيه ﴿أنزل﴾؛ أي: أنزل هذين الكتابين لأجل هداية الناس بهما.

وعبر فيهما بـ﴿أنزل﴾، وفي القرآن بـ﴿نَزَّلَ﴾ المقتضي للتكرير؛ لأنهما أنزلا دفعة واحدة بخلاف القرآن، قاله السيوطي رحمه الله تعالى. وقيل هذا التعليل منتقض بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وبقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ

---

(١) أبو السعود.

(٢) الكرخي.

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ وبقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، وحينئذٍ فالأولى أن يقال: اختلاف التعبير في الموضعين للتفنن.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ أي: وأنزل جميع الكتب الفارقة بين الحق والباطل، وذكره بعد ذكر الكتب الثلاثة أولاً ليعم ما عداها من بقية الكتب المنزلة، فكأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل، فيكون من عطف العام على الخاص؛ حيث ذكر أولاً الكتب الثلاثة، ثم عمم الكتب كلها؛ ليختص المذكور أولاً بمزيد شرف، قاله الكرخي رحمه الله تعالى.

وقال ابن عطية رحمه الله تعالى(١): المراد بالفرقان القرآن، وكرر ذكره بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لفضله.

وقيل الفرقان: كل أمر فرق بين الحق والباطل فيما قدم وحدث، فدخل في هذا التأويل طوفان نوح عليه الصلاة والسلام، وفرق البحر لغرق فرعون، ويوم بدر وسائر أفعال الله المفرقة بين الحق والباطل، وقيل الفرقان: النصر.

وقال الفخر الرازي رحمه الله تعالى(٢): المختار أن المراد بالفرقان: هو المعجزات التي قرنها الله تعالى بإنزال هذه الكتب الثلاثة؛ لأنه لما أظهر الله تعالى تلك المعجزات على وفق دعوى الرسل حصلت المفارقة بين دعوى الصادق ودعوى الكاذب، فالفرقان هي المعجزة، وقال ابن جرير: أنزل بإنزال القرآن الفصل بين الحق والباطل فيما اختلفت فيه الأحزاب وأهل الملل، وقيل غير ذلك.

وقال المراغي رحمه الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ أي: وأنزل العقل الذي يفرق به بين الحق والباطل في العقائد، وغيرها، وقال السدي(٣) رحمه الله

---

(١) ابن عطية.

(٢) الفخر الرازي.

(٣) الخازن.

تعالى: في الآية تقديم وتأخير تقديره: وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا وأنكروا وكذبوا ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الناطقة بتوحيده وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل المبشرة بنزول القرآن ومبعث رسول الله ﷺ، فكذبوا بالقرآن أولاً، ثم بسائر الكتب تبعاً لذلك وردوها بالباطل كوفد نصارىٰ نجران وغيرهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: عظيم أليم بسبب كفرهم في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالخلود في النار.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنه تعالىٰ لما قرر أمر الألوهية وأمر النبوة بذكر الكتب المنزلة.. توعَّد من كفر بآيات الله من كتبه المنزلة وغيرها بالعذاب الشديد من عذاب الدنيا؛ كالقتل والأسر والغلبة وعذاب الآخرة؛ كالنار. والذين كفروا عامٌّ داخل فيه من نزلت الآية بسببهم، وهم وفد نصارىٰ نجران، وغيرهم.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: منيع الجناب عظيم السلطان غالب لا يغلب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ أي: ذو عقوبة شديدة لمن كفر بآياته، والانتقام: المبالغة في العقوبة فالعزيز إشارة إلىٰ القدرة التامة علىٰ العقاب، وذو الانتقام إشارة إلىٰ كونه فاعلاً للعقاب.

والمعنىٰ[2]: أن الله بقدرته ينفذ سنته، وينتقم ممن خالفها بسلطانه الذي لا يعارض.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿لَا يَخْفَىٰ﴾ ولا يستتر ﴿عَلَيْهِ﴾ ولا يغيب ولا يعزب عن علمه ﴿شَىْءٌ﴾ من الموجودات ولا أمر من أمور العالم كلّياً كان أو جزئياً إيماناً كان أو كفراً ﴿فِى﴾ جميع نواحي ﴿ٱلْأَرْضِ وَلَا﴾ كائن ﴿فِى﴾ جميع أرجاء ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ فهو مطلع علىٰ كل ما في الكون لا تخفىٰ عليه خافية ﴿يَعْلَمُ

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾، ففيه إشارة إلىٰ كمال علمه المتعلق بجميع المعلومات، فينزل لعباده من الكتب ما فيه صلاحهم إذا أقاموه، ويعلم سرهم وجهرهم، فلا يخفىٰ عليه حال الصادق في إيمانه ولا حال الكافر ولا حال من استبطن النفاق وأظهر الإيمان، ولا حال من أكره علىٰ الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وفي التعبير بعدم خفاء شيء عليه إشارة إلىٰ أن علمه لا يوازن علم المخلوقين، بل هو الغاية في الوضوح وعدم الخفاء.

وعبر[1] عن الكون بالأرض والسماء؛ إذ الحس لا يتجاوزهما وإنما قدم الأرض ترقياً من الأدنىٰ إلىٰ الأعلى؛ ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها، فهو كالدليل علىٰ كونه حياً.

و ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالىٰ الإله ﴿ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ أي: يخلقكم في أرحام أمهاتكم ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ويجعلكم علىٰ صور مختلفة متغايرة، وأنتم في الأرحام من النطف إلىٰ العلق إلىٰ المضغ، ومن ذكورة وأنوثة، ومن حسن وقبح، ومن طول وقصر، ومن سعادة وشقاوة، ومن بياض وسواد، وكمال ونقصان. والمعنى: هو الذي يصوركم في ظلمات الأرحام صوراً مختلفة في الشكل والطبع، وذلك من نطفة، وكل هذا علىٰ أتم ما يكون دِقَّة ونظاماً. ومستحيل أن يكون هذا من قبيل الاتفاق والمصادفة، بل هو من صنع عليم خبير بالدقائق، وهذه الجملة كالدليل علىٰ القيومية. وقرىء شذوذاً[2]: ﴿تصوَّركم﴾، أي: صوَّركم لنفسِه وعبادته، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون

---

(١) البيضاوي.

(٢) البيضاوي.

بينه و بينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها». متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «وكل الله بالرحم ملكاً، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فكتب له ذلك في بطن أمه». متفق عليه.

وقيل[1]: إن هذه الآية واردة في الرد علىٰ النصارىٰ، وذلك أن النصارى ادعوا إلهية عيسىٰ بأمرين: بالعلم، والقدرة. فإن عيسىٰ كان يخبر عن الغيوب، فيقول لهذا: أنت أكلت في دارك كذا، ووضعت في دارك كذا، وكان يحيي الموتىٰ، ويبرِىء الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً، ثم إنه تعالىٰ استدل علىٰ بطلان قولهم في إلهية عيسىٰ، وفي التثليث بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فالإله يجب أن يكون حياً قيوماً، وعيسىٰ لم يكن كذلك، فيلزم القطع بأنه لم يكن إلهاً، ولما قالوا إن عيسىٰ أخبر عن الغيوب.. فوجب أن يكون إلهاً ردَّ عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ والمعنى: لا يلزم من كونه عالماً ببعض المغيبات أن يكون إلهاً؛ لاحتمال أنه علم ذلك بتعليم الله تعالىٰ ذلك، ولما قالوا: إن عيسىٰ كان يحيي الموتىٰ فوجب أن يكون إلهاً ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ والمعنىٰ: إن حصول الإحياء علىٰ وفق قول عيسى في بعض الصور لا يدل علىٰ كونه إلهاً لاحتمال أن الله تعالىٰ أكرمه بذلك الإحياء إظهاراً لمعجزته وإكراماً له.

ولما قالوا: أنتم أيها المسلمون توافقونا علىٰ أن عيسى لم يكن له أب من البشر، فوجب أن يكون ابناً لله.. أجاب الله تعالىٰ عن ذلك أيضاً بقوله: ﴿هُوَ

---

(١) المراح.

﴿ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فإن هذا التصوير إذا كان من الله تعالىٰ إن شاء صوَّره من نطفة الأب، وإن شاء صوَّره ابتداء من غير أب، ولما قالوا للرسول ﷺ: ألست تقول إن عيسىٰ روح الله وكلمته فهذا يدل علىٰ أنه ابن الله؟ أجاب الله عن ذلك: بأن هذا اللفظ من باب المتشابهات، فوجب رده إلىٰ التأويل وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ فظهر بذلك المذكور أن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إشارة إلىٰ أن عيسى ليس بالإله، ولا بابن الإله، وأما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾ . . فهو جواب عن الشبهة المتعلقة بالعلم، وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ جواب عن تمسكهم بقدرة عيسىٰ علىٰ الإحياء ونحوه؛ لأنه لو قدر علىٰ الإحياء لقدر على الإماتة، ولو قدر علىٰ الإماتة لأمات اليهود الذين قتلوه علىٰ زعم النصارىٰ، فثبت أن حصول الإحياء في بعض الصور لا يدل علىٰ كونه إلهاً، وهو جواب أيضاً عن تمسكهم بأن من لم يكن له أب من البشر . . وجب أن يكون ابناً لله، فكأنه تعالىٰ يقول: كيف يكون عيسى ولداً لله وقد صوَّرهُ في الرحم والمصور لا يكون أباً للمصور؟.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ . . .﴾ إلىٰ آخر الآيات . . فهو جواب عن تمسكهم بما ورد في القرآن: أن عيسىٰ روح الله وكلمته، ثم إنه تعالىٰ لما أجاب عن شبهتهم . . أعاد كلمة التوحيد زجراً لسائر النصارىٰ عن قولهم بالتثليث فقال:

﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ ولا رب سواه منفرد بالألوهية والربوبية ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه، فهو المنفرد بالإيجاد والتصوير، العزيز الذي لا يغلب علىٰ ما قضىٰ به علمه، وتعلقت به إرادته، الحكيم المنزه عن العبث، فهو يوجد الأشياء على مقتضىٰ الحكمة ومن ثَمَّ خلقكم علىٰ هذا النمط البديع الذي لا يتصور ما هو أدق منه وأحكم كما قيل: ليس في الإمكان أبدع مما كان.

فالعزيز إشارة إلىٰ كمال القدرة، والحكيم إشارة إلىٰ كمال العلم، وهذا

إثبات لما تقدم من أن علم عيسىٰ ببعض الغيوب وقدرته على الإحياء في بعض الصور لا يكفي في كونه إلهاً فإن الإله لا بد وأن يكون كامل القدرة وهو العزيز وكامل العلم وهو الحكيم.

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالىٰ الإله ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن العظيم منقسماً إلىٰ قسمين: قسم ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾؛ أي: واضحات الدلالة لا التباس فيها علىٰ أحد، أو محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال قطعية الدلالة علىٰ المعنىٰ المراد ﴿هُنَّ﴾؛ أي: تلك المحكمات ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: أصل القرآن الذي يرجع إليه عند الاشتباه، وعمدته التي ترد إليها الآيات المتشابهات، كقوله تعالىٰ في شأن عيسىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ وكقوله فيه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خَلْق من مخلوقات الله وعبد من عباده ورسول من رسل الله ﴿و﴾ قسم منه آيات ﴿أخر﴾ جمع أخرىٰ ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾؛ أي: محتملات لمعانٍ متشابهة لا يتضح مقصودها؛ لإجمال أو مخالفة ظاهرة إلا بنظر دقيق وتأمل أنيق.

أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد؛ كقوله تعالىٰ في شأن عيسىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ أي: ميل عن الحق إلىٰ الأهواء الباطلة وخروج عنه إلىٰ الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾؛ أي: فيتعلقون ويأخذون بالمتشابه من الكتاب الذي يمكنهم أن يحرفوه إلىٰ مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم. عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ إلى ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فقال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه، فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم» ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾؛ أي: طلب الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون علىٰ بدعتهم بالقرآن، وهو

حجة عليهم لا لهم، أو طلب الفتنة في الدين وهي الضلال عنه فإنهم متىٰ أوقعوا تلك المتشابهات في الدين صار بعضهم مخالفاً لبعض، وذلك يفضي إلىٰ الهرج والتقاتل ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾؛ أي: وطلب تأويل المتشابه علىٰ ما ليس في كتاب الله عليه دليل ولا بيان وطلب تحريفه علىٰ ما يريدون.

وذلك كاحتجاج النصارىٰ علىٰ عقيدتهم الفاسدة بأن القرآن قد نطق بأن عيسىٰ روح الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وبقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة علىٰ أنه عبد من عباد الله ورسول من رسله.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾؛ أي: والحال أنه ما يعلم تأويل المتشابه وتفسيره حقيقة ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وحده، ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: تفسير القرآن علىٰ أربعة أنحاء: تفسير لا يسع لأحد جهله، وتفسير تعرفه العرب بألسنتها، وتفسير يعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالىٰ. انتهى.

وقال المراغي قوله[1]: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ معناه: فأما الذين يميلون عن الحق ويتبعون أهواءهم الباطلة، فينكرون المتشابه وينفّرون الناس منه، ويستعينون علىٰ ذلك بما في غرائز الناس وطبائعهم من إنكار ما لم يصل إليه علمهم، ولا يناله حسهم؛ كالإحياء بعد الموت، وجميع شؤون العالم الأخروي، ويأخذونه علىٰ ظاهره بدون نظرٍ إلىٰ الأصل المحكم؛ ليفتنوا الناس بدعوته إلىٰ أهوائهم.. فيقولون: إن الله روح، والمسيح روح منه، فهو من جنسه، وجنسه لا يتجزأ فهو هو، ومعنىٰ ابتغاء تأويله: أنهم يرجعونه إلىٰ أهوائهم وتقاليدهم، لا إلىٰ الأصل المحكم الذي بُني عليه الاعتقاد، فيحولون خبر الإحياء بعد الموت وأخبار الحساب والجنة والنار عن معانيها، ويصرفونها إلىٰ معانٍ من أحوال الناس في الدنيا ليخرجوا الناس

(١) المراغي.

عن دينهم، والقرآن مليء بالرد عليهم من نحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. انتهىٰ.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: والذين رسخوا وثبتوا في العلم وتمكنوا فيه وعضوا فيه بضرس قاطع، وهذا كلام مستأنف عند الجمهور، والوقف عندهم علىٰ قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وفسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وهو مبتدأ عندهم، والخبر قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بالمتشابه أنه من عند الله، ولا نعلم معناه، وعدم التعرض لإيمانهم بالمحكم لظهوره ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾؛ أي: من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه.

والراسخ في العلم[1]: هو الذي عرف ذات الله وصفاته بالدلائل القطعية اليقينية، وعرف أن القرآن كلام الله تعالىٰ بالدلائل اليقينية، وعرف أنه تعالىٰ لا يتكلم بالباطل والعبث، فإذا رأىٰ شيئاً متشابهاً، ودل الدليل القطعي علىٰ أن الظاهر ليس مراداً لله تعالى.. علم حينئذٍ قطعاً أن مراد الله شيء آخر سوىٰ ما دل عليه ظاهره، ثم فوض تعيين ذلك المراد إلىٰ علمه تعالىٰ، وقطع بأن ذلك المعنىٰ علىٰ أيِّ شيءٍ كان فهو الحق والصواب؛ لأنه علم أن ذلك المتشابه لا بد وأن يكون له معنىٰ صحيح عند الله تعالىٰ.

وقيل الراسخ في العلم[2]: من وجد في علمه أربعة أشياء: التقوى فيما بينه وبين الله تعالىٰ، والتواضع فيما بينه وبين الناس، والزهد فيما بينه وبين الدنيا، والمجاهدة فيما بينه وبين النفس. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: وما يتعظ بما في القرآن وما يتيقظ له ويتدبر له إلا أصحاب العقول الكاملة المستنيرة الخالصة عن الركون إلىٰ الأهواء الزائغة، وهذا مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر.

ولما آمن الراسخون في العلم بكل ما أنزل الله تعالىٰ من المحكمات

(١) المراح.

(٢) الخازن.

والمتشابهات. . تضرعوا إلى الله تعالىٰ بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿لَا تُزِغْ﴾ ولا تمل ﴿قُلُوبَنَا﴾ عن الحق والهدىٰ، كما أزغت قلوب الذين في قلوبهم زيغ؛ أي: لا تمل قلوبنا عن دينك. قراءة الجمهور: بضم التاء ونصب القلوب، وقرىء شذوذاً بفتح التاء ورفع القلوب علىٰ نسبة الفعل إليها ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾؛ أي: وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك، أو يقال: يا ربنا لا تجعل قلوبنا مائلة إلىٰ الباطل بعد أن تجعلها مائلة إلىٰ الحق ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾؛ أي: أعطنا من فضلك وكرمك رحمة تثبتنا بها علىٰ دينك الحق والإيمان بكتابك، أو المعنىٰ: أعطنا من عندك نور الإيمان والتوحيد والمعرفة في القلب ونور الطاعة والعبودية والخدمة في الأعضاء، وسهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفافة في الدنيا، وسهولة سكرات الموت عند الموت، وسهولة السؤال والظلمة في القبر، وغفران السيئات وترجيح الحسنات في القيامة. ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ يا ربنا ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ الهبة العظيمة الخالية عن الأعواض والأغراض، فإن هذا الذي طلبنا منك في هذا الدعاء عظيم بالنسبة إلينا، لكنه حقير بالنسبة إلىٰ كمال كرمك وغاية جودك ورحمتك. والوهاب في أسماء الله: هو الذي يعطي كل أحد علىٰ قدر استحقاقه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرِّف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك» أخرجه مسلم.

وهذا الحديث من أحاديث الصفات، يجب الإيمان به وإمراره كما جاء من غير تعرض لتأويل ولا تكييف ولا لمعرفة معناه، بل نؤمن به كما جاء وأنه حق، ونكل علمه إلىٰ مراد الله ورسوله ﷺ، وهذا القول هو مذهب أهل السنة من سلف الأمة وخلفها من أهل الحديث وغيرهم وهو الأعلم الأسلم الذي نعض عليه بالنواجذ ويقولون أيضاً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي؛ يا ربنا إنك تجمع الناس للجزاء في يوم لا شك في وقوعه فجازنا فيه أحسن الجزاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾

سبحانه وتعالىٰ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ أي: لا يترك وفاء ما وعده لعباده، وهذا من بقية كلام الراسخين في العلم؛ وذلك لأنهم لما طلبوا من ربهم أن يصونهم عن الزيغ، وأن يخصهم بالهداية وأنواع الرحمة.. فكأنهم قالوا: ليس غرضنا من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها منقرضة، وإنما غرضنا الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة، فإنا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزاء في يوم القيامة ونعلم أن وعدك بالجزاء والحساب والميزان والصراط والجنة والنار لا يكون خلفاً، فمن زاغ قلبه بقي هناك في العذاب أبد الآباد، ومن أعطيته الهداية والرحمة بقي هناك في السعادة والكرامة أبد الآباد.

تنبيهات

الأول منها: اختلفت عبارة العلماء في تفسير[1] المحكم والمتشابه علىٰ أقوال فقيل: إن المحكم ما عرف تأويله، وفهم معناه وتفسيره. والمتشابه ما لم يكن لأحد إلىٰ علمه سبيل، ومن القائلين بهذا القول: جابر بن عبد الله والشعبي وسفيان الثوري قالوا: وذلك نحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقيل: المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما يحتمل وجوهاً. فإذا ردت إلىٰ وجه واحد وأبطل الباقي.. صار المتشابه محكماً، وقيل: إن المحكم: ناسخة وحرامه وحلاله وفرائضه وما نؤمن به ونعمل عليه، والمتشابه: منسوخه وأمثاله وأقسامه وما نؤمن به ولا نعمل به. ورُوي هذا القول عن ابن عباس، وقيل: المحكم: الناسخ. والمتشابه: المنسوخ وبه قال: ابن مسعود وقتادة والربيع والضحاك. وقيل: المحكم: الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له. والمتشابه: ما فيه تصريف وتحريف وتأويل، وبه قال: مجاهد وابن إسحاق. قال ابن عطية: وهذا أحسن الأقوال. وقيل: إن المحكم ما أطلع الله عباده علىٰ معناه. والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه فلا سبيل لأحد إلىٰ معرفته نحو الخبر عن أشراط الساعة؛ مثل الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول

(١) الشوكاني.

عيسى وطلوع الشمس من مغربها وفناء الدنيا وقيام الساعة، فجميع هذا ما استأثر الله بعلمه.

وبهذا القول اختار القرطبي والطبري، وقيل: إن المحكم: سائر القرآن. والمتشابه: هي الحروف المقطعة في أوائل السور إلىٰ غير ذلك.

والثاني منها: ما قيل[1]: إن الله سبحانه وتعالىٰ قد جعل القرآن هنا محكماً ومتشابهاً، وجعله في موضع آخر كله محكماً، كقوله في أول سورة هود: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وجعله في موضع آخر كله متشابهاً، كقوله في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ فكيف الجمع بين هذه الآيات؟ قلت: حيث جعله كله محكماً أراد به أنه كله حق وصدق، ليس فيه عبث ولا هزل. وحيث جعله متشابهاً أراد أن بعضه يشبه بعضاً في الحسن والحق والصدق. وحيث جعله هنا بعضه محكماً وبعضه متشابهاً فقد اختلفت عبارات العلماء في تفسيرهما آنفاً.

والثالث منها[2]: سؤال يخطر بالبال، وهو: لم كان في القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله، والراسخون في العلم، ولم يكن كله محكماً يتساوىٰ في فهمه جميع الناس، لأنه نزل لإرشاد العباد هادياً لهم، والمتشابه يحول دون الهداية؛ لوقوع اللبس في فهمه وفتح باب الفتنة في تأويله لأهل التأويل؟

أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة:

منها: أن في إنزال المتشابه امتحاناً لقلوبنا، في التصديق به؛ إذ لو كان ما جاء في الكتاب معقولاً لا شبهة فيه لأحد.. لما كان في الإيمان به شيء من الخضوع لأمر الله والتسليم لرسله.

ومنها: أن في وجود المتشابه في القرآن حافزاً لعقول المؤمنين إلىٰ النظر

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

فيه؛ كيلا تضعف وتموت، إذ السهل الجلي لا عمل للعقل فيه، وإذا لم يجد العقل مجالاً للبحث.. مات. والدين أعز شيء علىٰ الإنسان فإذا ضعف عقله في فهمه.. ضعف في كل شيء، ومن ثم قال: والراسخون في العلم، ولم يقل: والراسخون في الدين؛ لأن العلم أعم وأشمل، فمن رحمته أن جعل في الدين مجالاً لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه؛ إذ بحثه يستلزم النظر في الأدلة الكونية والبراهين العقلية ووجوه الدلالة ليصل إلىٰ فهمه ويهتدي إلىٰ تأويله.

ومنها: أن الأنبياء بعثوا إلىٰ الناس كافة، وفيهم العالم والجاهل والذكي والبليد، وكان من المعاني الحكم الدقيقة التي لا يمكن التعبير عنها بعبارة تكشف عن حقيقتها، فجعل فهم هذا من حظ الخاصة، وأمر العامة بتفويض الأمر فيه إلىٰ الله والوقوف عند فهم المحكم؛ ليكون لكل نصيبه علىٰ قدر استعداده فإطلاق كلمة الله، وروح الله علىٰ عيسىٰ يفهم منه الخاصة ما لا يفهمه العامة، ومن ثم فتُن النصارىٰ بمثل هذا التعبير؛ إذ لم يقفوا عند حد المحكم وهو التنزيه واستحالة أن يكون لله أم أو ولد بمثل ما دل عليه قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾.

ومنها: أن القرآن نزل بألفاظ العرب وعلىٰ أسلوبهم وكلامهم علىٰ ضربين:

الأول: الموجز الذي لا يخفىٰ على سامع وهذا هو الضرب الأول.

والثاني: المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات، وهذا الضرب هو المستحسن عندهم، فأنزل القرآن على الضربين ليتحقق عجزهم، فكأنه قال: عارضوه بأي الضربين شئتم. ولو نزل كله محكماً لقالوا؛ هلا نزل بالضرب المستحسن عندنا.

والرابع منها: اختلف في الوقف في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فذهب الجمهور إلى أن الوقف علىٰ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فالواو في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ للاستئناف، وهو قول أبي بن كعب وعائشة وعروة بن الزبير وغيرهم، ويؤيد هذا القول قراءة أبي وابن عباس فيما رواه طاووس عنه شذوذاً: ﴿إلا الله

ويقول الراسخون في العلم آمنا به﴾، وقراءة عبد الله: (ابتغاء تأويله إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون) وهي شاذة ومعناه: إن الله استأثر بعلمه تأويل المتشابه وحينئذٍ فحال الراسخين التصديق به.

وجرىٰ قوم على أن ﴿الراسخون﴾ معطوف علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، ويقولون حال من الراسخون، فالوقف حينئذٍ علىٰ أولو الألباب؛ لتعلق ما قبل ذلك بعضه ببعض، وروي هذا القول: عن ابن عباس أيضاً ومجاهد والربيع بن أنس وغيرهم، والمعنى: إن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم، فالمراد ما للفكر والنظر فيه مجال.

قال البغوي: والقول الأول أقيس بالعربية وأشبه بظاهر الآية، وقال الفخر الرازي: في الثاني لو كان الراسخون في العلم عالمين بتأويله.. لما كان لتخصيصهم بالإيمان وجه، فإنهم لما عرفوه بالدلائل.. صار الإيمان كالإيمان بالمحكم، فلا يكون في الإيمان به بخصوصه مزيد مدح.

الإعراب

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾.

اعلم أن فواتح السور إن جعلت مسرودة علىٰ نمط التعديد.. فلا محل لها من الإعراب، وإن جعلت أسماء للسور.. فمحلها إما الرفع على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة قبلها، أو النصب علىٰ تقدير أفعال يقتضيها المقام؛ كأذكر أو أقرأ أو نحوهما؛ كعليك والزم كما سبق ذلك كله في مبتدأ تفسير هذه السورة، وقد تقدم الكلام في إعرابه أيضاً في أول البقرة فراجعه. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً تقديره: موجود. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة في محل الرفع بدل من الضمير المستتر في خبر ﴿لَآ﴾ بدل الشيء من الشيء، وجملة ﴿لَآ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾: خبران آخران

للاسم الشريف، أو خبران لمبتدأ محذوف؛ أي: هو الحي القيوم. وقيل: إنهما صفتان للفظ الجلالة، أو بدلان منه أو من الخبر.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾.

﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الجلالة ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية إما مستأنفة، أو خبر آخر للفظ الجلالة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الكتاب تقديره: ملتبساً بالحق ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال ثانية من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مؤكِّدة؛ لأنه لا يكون إلا مصدقاً، وبهذا قال الجمهور، وجوز بعضهم كونه منتقلة علىٰ معنىٰ أنه مصدق لنفسه ولغيره. قال أبو البقاء: وإن شئت جعلته بدلاً من موضع قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، وإن شئت جعلته حالاً من الضمير في المجرور. انتهىٰ. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ اللام حرف جر ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر باللام متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾ ﴿بَيْنَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية الاعتبارية، وهو مضاف. ﴿يدي﴾: مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنه ملحق بالمثنى نظير: لبيك، وهو مضاف، والهاء: مضاف إليه، والظرف إما صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: الواو عاطفة. ﴿أنزل﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿نزل﴾، ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: مفعول به ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوف عليه.

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنزل﴾. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ﴿هُدًى﴾: حال من ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، ولم يثنَّ، لأنه مصدر كما مر، ولكنه في تأويل المشتق تقديره: حالة كونهما هاديين. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بهدىٰ، أو صفة له. وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون حالاً من ﴿الإنجيل﴾، ودل علىٰ حال للتوراة محذوف؛ كما يدل أحد الخبرين علىٰ الآخر. ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ الواو عاطفة ﴿أنزل﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿نزل﴾ كالجملة التي قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿شَدِيدٌ﴾: صفة له، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة إن مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول ﴿ذُو﴾: خبر ثانٍ مرفوع بالواو، وهو مضاف، ﴿ٱنتِقَامٍ﴾ مضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾ اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَخْفَىٰ﴾: فعل مضارع ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿شَيْءٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿شَيْءٌ﴾، أو متعلق بـ﴿يَخْفَىٰ﴾ ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: الواو عاطفة ﴿لَا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور معطوف علىٰ الجار والمجرور في قوله ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾.

﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِي﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾: متعلق بـ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾، أو حال من ضمير المخاطبين؛ أي: يصوركم وأنتم في الأرحام مضغ، قاله العُكْبَري. ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: ﴿كَيْفَ﴾: اسم[1] شرط غير جازم لعدم دخول: ﴿ما﴾ عليه في محل النصب علىٰ الحالية بـ﴿يَشَآءُ﴾ ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، ومفعول ﴿يَشَآءُ﴾: محذوف معلوم مما قبله تقديره: كيف يشاء تصويركم، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ فعل شرط ﴿كَيْفَ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط

---

(١) الجمل.

معلوم مما قبله تقديره: كيف يشاء تصويركم يصوركم، وجملة ﴿كَيْفَ﴾ مستأنفة، وإن كانت في المعنىٰ متعلقة بما قبلها نظير قولهم: أنت ظالم إن فعلت، التقدير: أنت ظالم إن فعلت فأنت ظالم، وعند من يجيز تقديم الجزاء علىٰ الشرط الصريح يجعل: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ المتقدم هو الجزاء و ﴿كَيْفَ﴾: منصوب علىٰ الحال بالفعل بعده، والمعنىٰ: على أي حال شاء أن يصوركم صوركم، وقال بعضهم[1]: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ في موضع الحال معمول ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾، ومعنىٰ الحال؛ أي: يصوركم في الأرحام قادراً علىٰ تصويركم مالكاً ذلك، وقيل التقدير: في هذه الحال يصوركم علىٰ مشيئته؛ أي: مريداً، فيكون حالاً من ضمير اسم الله، ذكره أبو البقاء، وجوز أن يكون حالاً من المفعول؛ أي: من كاف المخاطبين؛ أي: يصوركم متقلبين علىٰ مشيئته، وقال الحوفي: يجوز أن تكون الجملة في موضع المصدر، المعنى: يصوركم في الأرحام تصوير المشيئة وكما يشاء.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿لَآ﴾: نافية ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾: محذوف جوازاً تقديره: موجود، وجملة ﴿لَآ﴾ مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾: في محل الرفع بدل من الضمير المستتر في خبر ﴿لَآ﴾ بدل الشيء من الشيء ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ خبران لمبتدأ محذوف، أو بدلان من ﴿هُوَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: خبره، والجملة مستأنفة ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿ءَايَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾: صفة لـ﴿ءَايَٰتٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مبتدأ وخبر مضاف إليه، والجملة في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿ءَايَٰتٌ﴾ وقال الشيخ السمين: وأخبر بلفظ المفرد ـ وهو ﴿أُمُّ﴾ ـ عن

---

(١) البحر المحيط.

الجمع وهو هن، إما لأن المراد أن كل واحدة منهن ﴿أمٌّ﴾، وإما لأن المجموع بمنزلة أم واحدة، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ وإما لأنه مفرد واقع موقع الجمع، وقيل: لأنه بمعنىٰ أصل الكتاب، والأصل يوحد ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾: الواو عاطفة ﴿وَأُخَرُ﴾: معطوف علىٰ ﴿ءَايَٰتٌ﴾، ولكنه علىٰ حذف موصوف تقديره: ومنه آيات أخر ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾: صفة لـ﴿أخر﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ الفاء فاء الفصيحة مبنية علىٰ الفتح؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفت انقسام، الكتاب إلىٰ نوعين، وأردت بيان أقسام من يتبعه.. فأقول لك ﴿أما﴾: حرف شرط، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع مبتدأ. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم ﴿زَيْغٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول، و العائد ضمير الجمع ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها ﴿يتبعون﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: فأما الذين في قلوبهم مرض فيتبعون ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿مَا تَشَٰبَهَ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يتبعون﴾. ﴿تَشَٰبَهَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ما﴾، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير الفاعل ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور حال، من فاعل ﴿تَشَٰبَهَ﴾ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله وهو مضاف ﴿ٱلْفِتْنَةِ﴾: مضاف إليه ﴿وَٱبْتِغَآءَ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ الأول، وهو مضاف ﴿تَأْوِيلِهِۦۗ﴾ مضاف إليه، تأويل مضاف، والهاء: مضاف إليه.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿وَمَا يَعْلَمُ﴾ الواو حالية ﴿ما﴾: نافية ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع ﴿تَأْوِيلَهُۥٓ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ فاعل،

والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير في قوله: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾. ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾: الواو استئنافية ﴿الراسخون﴾: مبتدأ ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾: متعلق به ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، وإن شئت قلت: الواو عاطفة ﴿الراسخون﴾: معطوف علىٰ الجلالة، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من ﴿الراسخون﴾. ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: جار ومجرور ومضافان إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَذَّكَّرُ﴾: فعل مضارع. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فاعل ومضاف إليه مرفوع بالواو، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾ منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول ﴿لَا تُزِغْ﴾: ﴿لَا﴾: دعائية ﴿تُزِغْ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله ﴿قُلُوبَنَا﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول علىٰ كونها جواباً للنداء. ﴿بَعْدَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية متعلق بـ﴿تُزِغْ﴾ ﴿إِذْ﴾: حرف زائد بين المضاف والمضاف إليه لا معنىٰ له ﴿هَدَيْتَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿بَعْدَ﴾ ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ الواو عاطفة، ﴿هب﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿لَا تُزِغْ﴾ علىٰ كونها جواب النداء. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿هب﴾، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾. ﴿مِن﴾ حرف جر، ﴿لدن﴾ ظرف مكان بمعنىٰ: عند في محل الجر بـ﴿مِن﴾ مبني علىٰ السكون لشبهه با لحرف شبهاً افتقارياً. ﴿لدن﴾ مضاف، والكاف: مضاف إليه والظرف متعلق بـ﴿تُزِغْ﴾ ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول به. ﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ حرف نصب، والكاف اسمها. ﴿أَنتَ﴾: ضمير

فصل أو مؤكد لاسم إن ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾: خبر إن، والجملة في محل النصب مقول القول.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف نصب واسمها ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ خبر (إن) ومضاف إليه، وجملة (إن) جواب النداء في محل النصب مقول القول ﴿لِيَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَامِعُ﴾، واللام فيه بمعنىٰ: في ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: ﴿لَّا﴾ نافية ﴿رَيْبَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لَّا﴾ تقديره: لا ريب موجود فيه وجملة ﴿لَّا﴾ من اسمها وخبرها في محل الجر صفة لـ﴿يوم﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها ﴿لَا يُخْلِفُ﴾: ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُخْلِفُ﴾؛ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، ﴿ٱلْمِيعَادَ﴾: مفعول به وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول لـ﴿يَقُولُونَ﴾ أو مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

واختلف في: عمران الذي سميت به هذه السورة، فقيل المراد به: أبو موسىٰ وهارون، فآله: هم موسىٰ وهارون، وقيل المراد به: أبو مريم فالمراد بآله: مريم وابنها عيسىٰ، ويرجح هذا القول ذكرُ قصتهما إثر ذكره وبين عمران أبي موسىٰ وهارون، وعمران أبي مريم ألف وثمان مئة عام.

﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: واختلف الناس في هذين اللفظين هل يدخلهما الاشتقاق والتصريف أم لا لكونهما أعجميين؟ فذهب جماعة إلىٰ الأول، فقالوا: التوراة مشتقة من قولهم: وري الزند يري إذا قدح فخرج منه نار، فلما كانت التوراة فيها ضياء ونور يخرج به من الضلال إلىٰ الهدىٰ كما يخرج بالنار من الظلام إلىٰ النور. . سمي هذا الكتاب بالتوراة. فأصلها[1]: وورية فأبدلت الواو

---

(١) العكبري.

الأولىٰ تاء وأبدلت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها. وقال الفراء: أصلها تورية علىٰ وزن تفعلة كتوصية من وري في كلامه تورية، ثم أبدلت من الكسرة الفتحة، فانقلبت الياء ألفاً كما قالوا في ناصية: ناصاة. ويجوز إمالتها؛ لأن أصل ألفها ياء.

﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: إفعيل من النجل، وهو التوسعة من قولهم نجلت الإهاب إذا شققته ووسعته، ومنه عين نجلاء، أي: واسعة الشق فسمي الإنجيل بذلك؛ لأنَّ فيه توسعة لم تكن في التوراة؛ إذ حلل فيه أشياء كانت محرمة فيها، والصحيح أنهما ليسا مشتقين بل اسمان عبرانيان، وقرأ الحسن شذوذاً: (الأنجيل) ـ بفتح الهمزة ـ ولا يعرف له نظير؛ إذ ليس في الكلام أفعيل إلا أن الحسن ثقة فيجوز أن يكون سمعها.

﴿ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾: فعلان من الفرق وهو في الأصل مصدر، فيجوز أن يكون بمعنىٰ الفارق، أو المفروق، ويجوز أن يكون التقدير: ذا الفرقان.

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ الانتقام: افتعال من النقمة، وهي السطوة والانتصار، وقيل: هي المعاقبة علىٰ الذنب مبالغة في ذلك، ويقال: نقم ونقم إذا أنكر وانتقم إذا عاقبه بسبب ذنب تقدم منه.

﴿يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ يقال: صوَّره إذا جعل له صورة، والصورة الهيئة التي يكون عليها الشيء بالتأليف وهو بناء مبالغة من صاره إلىٰ كذا يصوره إذا أماله إليه، فالصورة مائلة إلىٰ هيئة وشبه مخصوص، وقال المروزي: التصوير ابتداء مثال من غير أن يسبقه نظير.

و ﴿الأرحام﴾: جمع رحم مشتق من الرحمة؛ لأنه مما يتراحم به.

﴿زَيۡغٌ﴾. الزيغ مصدر زاغ يزيغ زيغاً من باب باع، ومعناه: الميل ومنه: زاغت الشمس، وزاغت الأبصار، وقال الراغب: الزيغ الميل عن الاستقامة إلىٰ أحد الجانبين.

﴿ابتغاء تأويله﴾ التأويل مصدر أوَّل من باب: فعَّل المضعف، ومعناه آخر

الشيء ومآله ﴿الراسخون﴾: جمع راسخ اسم فاعل من رسخ ـ من باب خضع ـ يرسخ رسوخاً، والرسوخ: الثبوت.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البلاغة والفصاحة أنواعاً كثيرة[(١)]:

منها: حسن الإبهام؛ وهو فيما افتتحت به لينبه الفكر إلىٰ النظر فيما بعده من الكلام.

ومنها: مجاز التشبيه في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأن حقيقة التنزيل طرح جرم من علو إلىٰ أسفل، والقرآن مثبت في اللوح المحفوظ، فلما أثبت في القلب صار بمنزلة جرم ألقي من علو إلىٰ أسفل، فشبِّه به وأُطلق عليه لفظ التنزيل.

وعبر أيضاً عن القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس إيذاناً بكمال تفوقه علىٰ بقية الكتب السماوية، كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب.

وفي قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ شبَّه القرآن المصدق لما تقدمه من الكتب بالإنسان الذي بين يديه شيء يناله شيئاً فشيئاً.

وفي قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أقام المصدر فيه مقام اسم الفاعل، فجعل التوراة كالرجل الذي يوري عنك أمراً؛ أي: يستره لما فيها من المعاني الغامضة، وشبه الإنجيل لما فيه من اتساع الترغيب والترهيب والمواعظ والخضوع بالعين النجلاء، وجعل ذلك هدىً لما فيه من الإرشاد كالطريق الذي يهديك إلىٰ المكان الذي ترومه.

وفي قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ لأنه شبه الفرقان بالجرم الفارق بين جرمين.

وفي قوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ شبه أمره بقوله: كن، أو تعلق إرادته بكونه جاء

(١) البحر المحيط.

علىٰ غاية من الإحكام والصنع بمصوِّر يمثِّل شيئاً فيضم جرماً إلىٰ جرم ويصور منه صورة.

وفي قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ شبه القلب المائل عن القصد بالشيء الزائغ عن مكانه، وفي غير ذلك، وقيل: هذه كلها استعارات ولا تشبيه فيها؛ لأنه لم يصرح فيها بذكر أداة التشبيه.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ علىٰ تفسير من فسَّره بالزبور، واختص الأربعة دون بقية ما أنزل؛ لأن أصحاب الكتب، إذ ذاك المؤمنون واليهود والنصارى. وفي قوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ خصهما بالذكر؛ لأنهما أكبر مخلوقاته الظاهرة لنا. وفي قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ اختصهم بخصوصية الرسوخ في العلم بهم وفي قوله: ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ لأن العقلاء لهم خصوصية التمييز والنظر والاعتبار وفي قوله: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ اختص القلوب؛ لأن بها صلاح الجسد وفساده وليس كذلك بقية الأعضاء؛ ولأنها محل الإيمان إلىٰ غير ذلك ومنها الالتفات في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ⑨﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

المناسبة

لما حكىٰ الله تعالىٰ عن المؤمنين دعاءهم أن يثبتهم الله علىٰ الإيمان.. حكىٰ عن الكافرين سبب كفرهم وهو: اغترارهم في هذه الحياة الدنيا بكثرة المال والبنين، وبين أنها لن تدفع عنهم عذاب الله كما لم تغنِ عنهم شيئاً في الدنيا. وضرب علىٰ ذلك الأمثال بغزوة بدر حيث التقىٰ فيها جند الرحمن بجند الشيطان، وكانت النتيجة اندحار الكافرين مع كثرتهم وانتصار المؤمنين مع قلتهم، فلم تنفعهم الأموال ولا الأولاد، ثم أعقب تعالىٰ ذلك بذكر شهوات الدنيا، ومُتع الحياة التي يتنافس الناس فيها، ثم ختمها بالتذكير بأن ما عند الله خير للأبرار.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ...﴾ سبب نزوله[1]: ما روىٰ

---

(١) لباب النقول.

أبو داود في «سننه» والبيهقي في «الدلائل» من طريق أبي إسحاق عن محمد ابن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما أصاب قريشاً ببدر ورجع إلىٰ المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال لهم: يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً فقد عرفتم أني نبي مرسل، فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال - يعني: جهالاً لا علم لهم بالحرب - إنك والله لو قاتلتنا.. لعرفت أنا نحن الرجال، وأنك لم تلقَ مثلنا، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ الآية إلىٰ قوله: ﴿لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾.

وأخرج ابن جرير[1] عن ابن مسعود في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ قال هذا يوم بدر نظرنا إلىٰ المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: أنزلت في التخفيف يوم بدر علىٰ المؤمنين كانوا يومئذٍ ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، وكان المشركون مثليهم ست مئة وستة وعشرين، فأيد الله المؤمنين.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا ما قد عرفوه من نبوة محمد ﷺ سواء كانوا من بني إسرائيل، أم من كفار العرب؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لن تدفع عنهم ولن تنجيهم، ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ التي يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضار ﴿وَلَا أَوْلَادُهُم﴾ الذين يتناصرون ويتفاخرون بهم في مهام أمورهم ويعولون عليهم في الخطوب النازلة ﴿مِّنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ شَيْئًا﴾ وقد كانوا يقولون نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الكفرة ﴿هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾؛ أي: حطب النار الذي تسجر

---

(١) الشوكاني.

وتسعر به؛ أي: سيكونون يوم القيامة حطباً لجهنم التي تُسعَّر بهم.

وقيل: المراد بهؤلاء الكفرة: وفد نجران، وذلك لأن أبا حارثة بن علقمة قال لأخيه كرز: إني لأعلم أن محمداً رسول الله حقاً، وهو النبي الذي كنا ننتظره، ولكني إن أظهرت إيماني بمحمد أخذ ملوك الروم مني ما أعطوني من المال الكثير والجاه، فالله تعالىٰ بين أن أموالهم وأولادهم لا تدفع عنهم عذاب الله في الدنيا والآخرة.

وقرأ أبو عبد الرحمٰن ﴿لن يغني﴾ بالياء علىٰ تذكير العلامة، وقرأ علي: (لن تغنيْ) بسكون الياء، وقرأ الحسن ﴿لن يغنيْ﴾ بالياء أولاً وبالياء الساكنة آخراً وذلك لاستثقال الحركة في حرف اللين، وإجراء المنصوب مجرىٰ المرفوع، وبعض النحويين يخص هذا بالضرورة وينبغي أن لا يخص بها إذ كثر ذلك في كلامهم وكل هذه القراءة شاذ عدا قراءة الجمهور ﴿تغنيَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿وَقُودُ﴾ بفتح الواو بمعنىٰ: الحطب الذي توقد به النار، وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف شذوذاً: ﴿وُقُود﴾ بضم الواو وهو مصدر: وقدت النار تقد وقوداً، ويكون على حذف مضاف؛ أي: أهل وقود النار أو حطب وقود النار، أو جعلهم نفس الحطب مبالغة، وقد قيل في المصدر أيضاً: وَقود بفتح الواو، وهو من المصادر التي جاءت علىٰ فعول بفتح الواو فيحتاج إلىٰ تقدير مضاف؛ أي: هم أهل وقود النار.

ولما ذكر سبحانه وتعالىٰ أن من كفر وكذب بالله، مآله إلىٰ النار، ولن يغني عنه ماله ولا ولده.. ذكر أن شأن هؤلاء في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وترتب العذاب علىٰ كفرهم كشأن من تقدم من كفار الأمم الماضية وأخذوا بذنوبهم وعذبوا عليها، ونبه علىٰ آل فرعون؛ لأن الكلام مع بني إسرائيل، وهم يعرفون ما جرىٰ لهم حين كذبوا بموسى من إغراقهم وتصييرهم آخراً إلىٰ النار وظهور بني إسرائيل عليهم وتوريثهم أماكن ملكهم، ففي هذا كله بشارة لرسول الله ﷺ ولمن آمن به: أن الكفار مآلهم في الدنيا إلى الاستئصال، وفي الآخرة إلىٰ النار، كما جرىٰ لآل فرعون؛ أُهلكوا في الدنيا وصاروا إلىٰ النار، فقال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ

﴿فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: شأن هؤلاء الكفرة في تكذيبهم محمداً ﷺ وكفرهم بشريعته وصنيعهم وعادتهم، كدأب آل فرعون، أي: كشأن فرعون وقومه وعادتهم في تكذيبهم موسىٰ وشريعته ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾؛ أي: وكدأب الأمم الذين من قبل قوم فرعون من كفار الأمم الماضية في تكذيبهم أنبياءهم كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم إبراهيم وغيرهم ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: قد كذب آل فرعون ومن قبلهم بآياتنا ومعجزاتنا الدالة علىٰ صدق رسلنا وأنكروها، ومتى كذبوا بها. فقد كذبوا الأنبياء بلا شك ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: عاقب الله آل فرعون ومن قبلهم ﴿بِذُنُوبِهِمْۗ﴾؛ أي: أهلكهم بتكذيبهم المعجزات الدالة علىٰ صدق الرسل، وإنكارها، ونَصَر الرسل ومن آمن معهم ولم يجدوا من بأس الله محيصاً ولا مهرباً؛ إذ عقابه أثر طبيعي لاجتراح الذنوب وارتكاب الموبقات. وجملة ﴿كَذَّبُواْ﴾؛ إلىٰ آخرها تفسير لدأبهم مما فعلوا أو فعل بهم.

وإنما استعمل الأخذ في العقاب؛ لأن من ينزل به العقاب يصير كالمأسور المأخوذ الذي لا يقدر علىٰ التخلص ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: أليم العذاب شديد البطش، والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم، فلما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم.. فكذا لن تنفع هؤلاء، وفي هذه الجملة إشارة إلىٰ شدة سطوة الله علىٰ من كفر بآياته وكذب بها، ثم تهددهم وتوعدهم بالعقاب في الدنيا والآخرة فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: ليهود المدينة ومشركي مكة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾؛ أي: يغلبكم المسلمون عن قريب في الدنيا وقد صدق الله تعالىٰ وعده بقتل بني قريظة، فقد قتل منهم النبي ﷺ في يوم واحد ست مئة، جمعهم في سوق بني قينقاع وأمر السياف بضرب أعناقهم، وأمر بحفر حفيرة ورميهم فيها، وبإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية علىٰ أهلها وبالأسر علىٰ بعض ولله الحمد. ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾؛ أي: تجمعون وتساقون ﴿إِلَىٰ﴾ نار ﴿جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾؛ أي: قبح المهاد والفراش الذي مهدتموه وفرشتموه لأنفسكم، والمخصوص بالذم نار جهنم، ودلت الآية علىٰ حصول البعث في يوم القيامة والنشر والحشر وعلىٰ أن مرد الكافرين النار.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف[1]: ﴿سيغلبون ويحشرون﴾ بالياء علىٰ الغيبة. وقرأ باقي السبعة: بالتاء خطاباً؛ أي: قل لهم في خطابك إياهم ستغلبون وتحشرون. فتكون الجملتان مقولاً لـ ﴿قُل﴾، وعلىٰ قراءة الياء لا تكون الجملة محكية بـ ﴿قُل﴾ بل محكية بقول آخر تقديره: قل لهم قولي: سيغلبون وإخباري أنه يقع عليهم الغلبة والهزيمة.

والفرق بينهما[2]: أنه علىٰ الخطاب يكون الإخبار بمعنىٰ كلام الله تعالىٰ، وعلى الغيبة يكون بلفظه. ثم حذرهم وأنذرهم بأن لا يغتروا بكثرة العَدَد والعُدَّة فلهم مما يشاهدون عبرة فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾. وهذه الجملة جواب قسم محذوف، وهي من تمام القول المأمور به لتقدير مضمون ما قبله، ولم يقل: كانت؛ لأن التأنيث غير حقيقي، وقال الفراء: إنه ذكر الفعل لأجل الفصل بينه وبين الاسم بقوله: لكم، وقال ابن جرير: الخطاب فيه لليهود والمعنىٰ: قل يا محمد لليهود: واللّهِ لقد كانت وحصلت لكم علامة عظيمة دالة علىٰ صدق ما أقول لكم من أنكم ستغلبون ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾؛ أي في فرقتين اجتمعتا يوم بدر للقتال ﴿فِئَةٌ﴾؛ أي: فرقة منهما ﴿تُقَٰتِلُ﴾ وتجاهد ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعة الله؛ لإعلاء كلمته، وهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين، ومئتان وستة وثلاثون رجلاً من الأنصار، وكان صاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة، وكان فيهم سبعون بعيراً بين كل أربعة منهم بعير واحد ومن الخيل فرسان للمقداد بن عمرو ولمرثد بن أبي مرثد، وكان معهم من السلاح ستة دروع وثمانية سيوف. وقراءة العامة: ﴿فِئَةٌ﴾ بالرفع علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: إحداهما. وقرأ الحسن ومجاهد وحميد شذوذاً: ﴿فئةٍ﴾ بالجر علىٰ البدلية من فئتين. وقرأ ابن أبي عبلة شذوذاً أيضاً: ﴿فئة﴾ بالنصب، فيكون نصب الأولى علىٰ المدح، والثاني علىٰ الذم، وكأنه قال: أمدح فئة تقاتل

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

في سبيل الله، وأذم أخرىٰ كافرة. وقرأ الجمهور: ﴿تُقَٰتِلُ﴾ بالتاء علىٰ تأنيث الفئة، وقرأ مجاهد ومقاتل شذوذاً: ﴿يقاتل﴾ بالياء علىٰ التذكير نظراً لكون الفئة بمعنىٰ القوم ﴿و﴾ فرقة ﴿أخرى كافرة﴾ بالله ورسوله وهم مشركوا مكة، وكانوا تسع مئة وخمسين رجلاً من المقاتلة، وفيهم أبو سفيان وأبو جهل، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكان فيهم مئة فرس، وكانت معهم من الإبل سبع مئة وأهل الخيل كلهم كانوا دارعين وكان في الرجال دروع سوىٰ ذلك، وكانت وقعة بدر أول مشهد شهده رسول الله ﷺ بعد الهجرة ﴿يَرَوْنَهُم﴾؛ أي: يرىٰ المشركون المؤمنين بعد ما شرعوا في القتال ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾؛ أي: مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين، أو مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾؛ أي: في رأي العين؛ أي: رؤية ظاهرة محققة بالعين لا بالوهم والخيال، وذلك أنه تعالىٰ كَثَّر المسلمين في أعين المشركين مع قلتهم ليهابوهم فيحترزوا ويجبنوا عن قتالهم ولا يعارض هذا ما قال في سورة الأنفال: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾؛ لأنهم قللوا أولاً في أعينهم حتىٰ اجترؤوا علىٰ قتالهم، فلما اجتمعوا. كثروا في أعينهم حتىٰ غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالتين مختلفتين ونظيره من المجمول علىٰ اختلاف الأحوال قوله تعالىٰ لها: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾، ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرىٰ في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية.

وهذا[١] علىٰ قراءة الجمهور بالياء التحتانية، وقرأ نافع وأبان عن عاصم من السبعة وسهل ويعقوب ﴿ترونهم﴾ بالتاء علىٰ الخطاب، والمعنىٰ: ترون أيها اليهود المشركين مثلي المؤمنين في القوة والشوكة، ومع ذلك غلبهم المؤمنون مع قلتهم جداً، فيكون هذا أبلغ في إكرام المؤمنين وعناية الله بهم، وقرأ ابن عباس وطلحة ﴿تُرَونهم﴾ بضم التاء علىٰ الخطاب، وقرأ السلمي: بضم الباء علىٰ الغيبة.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿يُؤَيِّدُ﴾ ويقوي ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ وعونه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ويريد نصره علىٰ عدوه ولو بدون الأسباب العادية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النصر لمحمد ﷺ وأصحابه يوم بدر مع قلتهم عَدَداً وعُدَدَاً أو رؤية القليل كثيراً، أو في غلبة القليل العديم العدة علىٰ الكثير الشاكي السلاح ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمة؛ أي: لعظة عظيمة ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الكاملة والأفكار السليمة المستقيمة والمعنىٰ: إن في هذا النصر مع قلة عددهم وكثرة عدوهم عظةٌ لمن عقل وتدبر فعرف الحق وثلج قلبه ببرد اليقين.

ووجه[1] نظم هذه الآية أن الآية المتقدمة وهي قوله تعالىٰ: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ نزلت في شأن اليهود وأن رسول الله ﷺ لما دعاهم إلىٰ الإسلام.. أظهروا التمرد، وقالوا: لسنا أمثال قريش في الضعف وقلة المعرفة بالقتال، بل معنا من الشوكة والمعرفة بالقتال ما يغلب كل من ينازعنا، فالله تعالىٰ قال لهم: إنكم وإن كنتم أقوياء وأرباب العدد والعدة.. فإنكم ستغلبون، ثم ذكر الله تعالىٰ ما يجري مجرىٰ الدلالة علىٰ صحة ذلك القول فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾.

وروي أنه ﷺ لما دعا اليهود إلىٰ الإسلام بعد غزوة بدر.. أظهروا من أنفسهم القوة والشدة والاستظهار بالمال والسلاح، فبين الله تعالىٰ أن هذه الأشياء وغيرها من متاع الدنيا زائلة، وأن الآخرة خير وأبقى، فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ أي: حسن لجنس الناس والآدميين. قرأ الجمهور: ﴿زُيِّنَ﴾ بالبناء للمفعول. وقرأ الضحاك: ﴿زَيَّنَ﴾ بالبناء للفاعل، والشهوات: جمع شهوة وهو توقان النفس إلىٰ الشيء المشتهىٰ، وهو من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول؛ أي: حسن لهم حب المشتهيات المذكورة، سماها شهوات مبالغة وإيماء إلىٰ أنهم انهمكوا في محبتها حتىٰ أحبوا شهوتها كقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾، والمزيِّن لها هو الله تعالىٰ عند أهل السنّة لا الشيطان كما قالت المعتزلة؛ لأنه

---

(١) المراح.

تعالىٰ خالق كل شيء ولا شريك له في ملكه، ولعله زينه ابتلاءً، أو لأنه يكون وسيلة إلىٰ السعادة الأخروية إذا كان علىٰ وجه يرتضيه الله تعالىٰ، ولأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع الإنساني. وتزيين الله: عبارة عن جعل القلوب متعلقة بها مائلة إليها، وتزيين الشيطان ووسوسته وتحسينه الميل إليها حالة كون تلك المشتهيات ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، والإماء داخلة فيها وإنما بدأ بذكر النساء؛ لأن الالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، ولأنهن حبائل الشيطان وأقرب إلى الافتتان ﴿و﴾ من ﴿البنين﴾: جمع ابن، وإنما خص البنين بالذكر؛ لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثىٰ؛ لأنه يتكثر به ويعضده، ويقوم مقامه، وقد جعل الله تعالىٰ في قلب الإنسان حب الزوجة والولد لحكمة بالغة، وهي بقاء التوالد. ولولا تلك المحبة لما حصل ذلك ﴿و﴾ من ﴿القناطير﴾؛ أي: ومن الأموال الكثيرة والكنوز الوفيرة ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾؛ أي: المجموعة أو المضروبة المنقوشة حتىٰ صارت دراهم ودنانير، وإنما كانا محبوبين؛ لأنهما جعلا ثمن جمع الأشياء، فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء، وقوله: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطير، أو حال منه، والواو فيه بمعنىٰ: أو المانعة الخلو فتجوز الجمع. قيل: سمُي الذهب ذهباً؛ لسرعة ذهابه بالإنفاق، والفضة فضة لأنها تنفض؛ أي: تتفرق بالإنفاق، والفض: التفرق ﴿و﴾ من ﴿الخيل المسومة﴾؛ أي: المرعية في المروج والمسارح، يقال: سامت الدابة إذا سرحت ورعت، والمقصود أنها إذا رعت زاد حسنها، أو المعلمة بعلامة خلقية بأن تكون غراً محجلة، أو بعلامة طارئة لتتميز عن غيرها كالكي، وقيل: الحسان المعدة للجهاد ﴿و﴾ من ﴿الأنعام﴾ جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم؛ لأن منها المركب والمطعم والزينة ﴿و﴾ من ﴿الحرث﴾؛ أي: ومن المزروع والمغروس وهو مصدر بمعنىٰ: المحروث الشامل للمغروس؛ لأن فيه تحصيل أقواتهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأصناف السابقة ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما يتمتع ويتنعم به مدة الحياة الدنيا، ثم يذهب ولا يبقىٰ ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾؛ أي: المآب الحسن؛ أي؛ المرجع الحسن الدائم الذي لا يفنىٰ في الآخرة وهو الجنة، لمن ترك ذلك. وفيه تزهيد من الدنيا وترغيب في الآخرة، وقيل: فيه إشارة إلىٰ

أن من آتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها فيما يكون فيه صلاحه في الآخرة؛ لأنها السعادة القصوىٰ.

إيضاح معنىٰ الآية: معنىٰ تزيين حب الشهوات للناس: أن حبها مستحسن لديهم، لا يرون فيه قبحاً ولا غضاضة، ومن ثمّ لا يكادون يرجعون عنه، وهذا أقصىٰ مراتب الحب، وصاحبه قلما يفطن لقبحه أو ضرره إن كان قبيحاً أو ضاراً، ولا يحب أن يرجع عنه وإن تأذىٰ به وقد يحب الإنسان شيئاً وهو يراه شيناً لا زيناً، وضاراً لا نافعاً، كما يحب بعض الناس شرب الدخان علىٰ تأذيه منه، ومن أحب شيناً ولم يزين له يوشك أن يرجع عنه يوماً ما، ومن زين له حبه فلا يكاد يرجع عنه.

والمعنىٰ: أن الله تعالىٰ فطر الناس علىٰ حب هذه الشهوات الستة المبينة في الآية وغيرها كآلات الملاهي:

فأولها: النساء: وهي موضع الرغبة ومطمح الأنظار، وإليهن تسكن النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ الآية، وعليهن ينفق أكثر ما يكسب الرجال بكدهم وجدهم، فهم القوامون عليهن لقوتهم وقدرتهم علىٰ حمايتهن، فإسرافهم في حبهن له الأثر العظيم في شؤون الأمة وفي إضاعة الحقوق أو حفظها.

وقدم حب النساء علىٰ حب الأولاد مع أن حبهن قد يزول وحب الأولاد لا يزول؛ لأن حب الولد لايعظم فيه الغلو والإسراف كحب المرأة، فكم من رجل جنىٰ حبه للمرأة علىٰ أولاده، فكثير ممن تزوجوا فوق الواحدة أفرطو في حب واحدة وقلوا أخرىٰ وأهملوا تربية أولاد المبغوضة وحرموهم سعة الرزق، وقد وسعوه على أولاد المحبوبة. وكم من غني عزيز يعيش أولاده عيشة الذل والفقر، وليس لهذا من سبب إلا حب والدهم لغير أمهم، فهو يفعل ذلك للتقرب عندها وابتغاء الزلفىٰ إليها.

وثانيها: البنون: والمراد بهم الأولاد مطلقاً كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ

وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، وفي الحديث: «الولد مجبنة مبخلة».

والعلة في حب الزوجة والولد واحدة: وهي تسلسل النسل وبقاء النوع، وهي حكمة مطردة في غير الإنسان من الحيوانات الأخرىٰ.

وحب البنين أقوىٰ من حب البنات لأسباب كثيرة:

ومنها: أنهم عمود النسب الذي به تتصل سلسلة النسل، وبه يبقىٰ ما يحرص عليه الإنسان من بقاء الذكر وحسن الأحدوثة بين الناس.

ومنها: أمل الوالد في كفالتهم له حين الحاجة إليهم لضعف أو كبر.

ومنها: أنه يرجي بهم من الشرف ما لا يرجي من الإناث كنبوغ في علم أو عمل أو رياسة أو قيادة جيش للدفاع عن الوطن وحفظ كيان الأمة.

ومنها: الشعور بأن الأنثىٰ حين الكبر تنفصل من عشيرتها، وتتصل بعشيرة أخرىٰ.

وثالثها: **القناطير المقنطرة من الذهب والفضة**: والعرب تريد بالقنطار المال الكثير والمقنطرة مأخوذة منه علىٰ سبيل التوكيد، وقد جرت عادتهم بأن يصفوا الشيء بما يشتق منه مبالغة، كما قالوا: ألوف مؤلفة، وظل ظليل، وليل أليل وهذا التعبير يشعر بالكثرة التي تكون مظنة الافتتان، والتي تشغل القلب للتمتع بها وتستغرق في تدبيرها الوقت الكثير حتىٰ لا يبقى بعد ذلك منفذ للشعور بالحاجة إلىٰ نصرة الحق والاستعداد لأعمال الآخرة.

ومن ثمَّ كان الأغنياء في كل الأمم لدىٰ بعثة الرسل أول الكافرين المستكبرين عن تلبية دعوتهم وإن أجابوها وآمنوا.. فهم أقل الناس عملاً وأكثرهم بعداً عن هدي الدين أنظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.

وحب المال مما أودع في غرائز البشر واختلط بلحمهم ودمهم، وسر هذا: أنه وسيلة إلىٰ جلب الرغائب وسبيل إلىٰ نيل اللذات والشهوات، ورغبات الإنسان

غير محدودة، ولذاته لا عد لها ولا حصر، وكلما حصل علىٰ لذة طلب المزيد منها، وما وصل إلىٰ غاية في جمع المال إلا تاقت نفسه إلىٰ ما فوقها حتىٰ يبلغ به النهم في جمعه أن ينسىٰ أن المال وسيلة لا مقصد، فيتفنن في الوصول إليه الفنون المختلفة والطرق التي تعن له، ولا يبالي أمن حلال كسب أم من حرام؟

روىٰ البخاري ومسلم عن ابن عباس قوله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب.. لتمنى أن يكون له ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله علىٰ من تاب» ولقد أعمَّتْ فتنة المال كثيراً من الناس، فشغلتهم عن حقوق الله وحقوق الأمة والوطن، بل عن حقوق من يعاملهم، بل عن حقوق بيوتهم وعيالهم، بل عن أنفسهم، ومنهم من يقصر في النفقة علىٰ نفسه وعياله بالقدر الذي يزري بمروءته، فيظهر بمظهر المسترذل بين الناس في مأكله ومشربه وملبسه، ومنهم من يثلم بشرفه ويفتح ثغره للطاعنين والقائلين فيه بالحق وبالباطل؛ لأجل المال ومن ثم قالوا: المال ميّال.

ورابعها: ﴿الخيل المسومة﴾ التي ترعىٰ في الأودية يقال: سام الدابة: رعاها وأسامها أخرجها إلىٰ المرعىٰ وكل من الخيل الراعية التي تقتنىٰ للتجارة والمعلمة التي يقتنيها العظماء والأغنياء، من المتاع الذي يتنافس فيه الناس ويتفاخرون حتىٰ لقد يتغالىٰ بعضهم في ذلك إلىٰ حد هو أشبه بالجنون.

وخامسها: ﴿الأنعام﴾: وهي مال أهل البادية، ومنها تكون ثروتهم ومعايشهم ومرافقهم، وبها تفاخرهم وتكاثرهم، وقد امتن الله بها علىٰ عباده بقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وسادسها: ﴿الحرث﴾ وعليه قوام حياة الإنسان والحيوان في البدو والحضر والحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الأنواع السالفة، والانتفاع به أتم منها، لكنه أخر عنها لأنه لما عم الارتفاق به.. كانت زينته في القلوب أقلَّ، وقلما يكون الانتفاع به صادراً عن الاستعداد لأعمال الآخرة، أو مانعاً من نصرة الحق.

وهناك ما هو أعم نفعاً وأعظم فائدة في الحياة وهو: الضوء والهواء، فلا

يستغني عنهما حي من الأحياء، ومع ذلك قلما يلتفت الإنسان إليهما، ولا يفكر في غبطته بهما.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: هذا الذي ذكر من الأصناف الستة المتقدمة هو ما يتمتع به الناس قليلاً في هذه الحياة الفانية، ويجعلونه وسيلة في معايشهم وسبباً لقضاء شهواتهم، وقد زين لهم حبها في عاجل دنياهم. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ في الحياة الآخرة التي تكون بعد موتهم وبعثهم، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل بحيث يشغلهم عن الاستعداد لخير الآجل، وفي هذه الجملة دلالة علىٰ أنه ليس فيما عدد عاقبة محمودة، فعلىٰ المؤمن أن لا يفتن بهذه الشهوات ويجعلها أكبر همه، والشغل الشاغل له عن آخرته، فإذا استمتع بها بالقصد والاعتدال، ووقف عند حدود الله.. سَعِد في الدارين، ووفق لخير الحياتين كما قال: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار أو للناس عامة، وهو أمر للنبي ﷺ بتفصيل ما أجمل أولاً في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾. ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: هل أخبركم أيها الناس بشيء أفضل من ذلكم المذكور من النساء والبنين إلىٰ آخره. وجيء بالكلام على صورة الاستفهام التشبيثي لتوجيه النفوس إلىٰ الجواب، وتشويقها إليه. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿أأنبئكم﴾ - بتحقيق الهمزة الأولىٰ، وتسهيل الثانية ـ. والباقون: بالتحقيق فيهما، مع زيادة مد بينهما لبعضهم، وبدون زيادة لبعض آخر فالقراءات ثلاث، وليس في القرآن همزة مضمومة بعد مفتوحة إلا ما هنا، وما في صٓ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، وما في اقتربت: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾. وقوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾ يشعر بأن تلك الشهوات خير في ذاتها، ولا شك في ذلك؛ إذ هي من أجل النعم التي أنعم الله بها علىٰ الناس، وإنما يعرض الشر فيها كما يعرض في سائر نعم الله علىٰ عباده كالحواس والعقول وغيرها، فما مثل المسرف في حب النساء حتىٰ يعطي امرأته حق غيرها، أو يهمل لأجلها تربية أولاده.. إلا مثل من يستعمل عقله في استنباط الحيل ليبتز

حقوق الناس ويؤذيهم فسلوك الناس في الانتفاع بالنعم لا يدل علىٰ أنها هي في ذاتها شرٌّ، ولا كون حبها شراً مع القصد والاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة.
ثم أجاب عن هذا الاستفهام علىٰ نظير قولك: هل أدلك علىٰ تاجر عظيم في السوق يصدق في المعاملة، ويرخص السعر، ويفي بالوعد هو: فلان، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان ما هو خير؛ أي: للذين اجتنبوا الشرك والمعاصي والشهوات النفسانية، وتبتلوا إلىٰ طاعة الله، وأعرضوا عما سواها.. فلا تشغلهم الزينة عن طاعة الله تعالىٰ، بساتينُ مؤبدة، وحدائق منضدة حالة كونها مدخرة لهم عند ربهم. وقرأ يعقوب: ﴿جناتٍ﴾ بالجر بدلاً من قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: تسيل وتطرد من تحت أشجارها ومساكنها أنهار الخمر والعسل واللبن والماء حالة كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مقيمين في الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿و﴾ لهم فيها ﴿أزواج مطهرة﴾؛ أي: زوجات منظفة مهذبة من الحيض والنفاس والبصاق والمني وتشويه الخلقة وسوء العشرة والأخلاق الذميمة وسائر ما يستقذر لا يغوطن ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن ولا يعتريهن ما يعتري نساء الدنيا ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: ولهم فيها رضا ربهم أكبر ما فيهم، فيه من النعيم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزّ وجلّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً». متفق عليه.

وقيل: إن العبد إذا علم أن الله تعالىٰ قد رضي عنه.. كان أتم لسروره وأعظم لفرحه.

وجاء في معنىٰ هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ

أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الآية.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر في جميع القرآن: ﴿رُضوان﴾ بضم الراء ما عدا الثاني في سورة المائدة وهو قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ففيه عنه خلاف. وقرأ باقي السبعة: بالكسر، وهما لغتنان.

وخلاصة المعنى: أن للذين اتقوا وأخبتوا إلىٰ ربهم، وأنابوا إليه نوعين من الجزاء: .

أحدهما: جسماني: وهو الجنات وما فيها من النعيم والخيرات والأزواج المبرأة من العيوب التي في نساء الدنيا خَلْقاً وخُلُقاً.

وثانيهما: روحاني عقلي: وهو رضوان الله الذي لا يشوبه سخط، ولا يعقبه غضب، وهو أعظم اللذات كلها في الآخرة عند المتقين.

وفي الآية إيماء إلىٰ أن أهل الجنة مراتب وطبقات، كما نرىٰ ذلك في الدنيا، فمنهم من لا يفقه لرضوان الله معنىٰ، ولا يكون ذلك باعثاً له علىٰ فعل الخير وترك الشر، وإنما يفقه اللذات الحسية التي جربها في الدنيا ففي مثلها يرغب.

ومنهم من ارتقىٰ إدراكه وعظم قربه من ربه، فيتمنىٰ رضاه، ويجعله الغاية القصوىٰ والسعادة التي ليس وراءها سعادة.

وقد نبه بهذه الآية علىٰ نعمه، فأدناها متاع الدنيا، وأعلاها رضوان الله تعالىٰ؛ لقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، وأوسطها الجنة ونعيمها.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: بصير بأعمالهم مطلع عليها عالم بمن يؤثر ما عنده ممن يؤثر شهوات الدنيا، فيجازي كلاً بعمله، فيثيب ويعاقب علىٰ قدر

الأعمال، فلا تخفىٰ عليه خافية من أمرهم، وهو المجازي كل نفس بما كسبت من خير أو شر.

وقد ختم سبحانه وتعالىٰ هذه الآية بتلك الجملة؛ ليحاسب الإنسانُ نفسه علىٰ التقوىٰ، فليس كل من ادعاها لنفسه أو تحرك بها لسانه يعد متقياً، وإنما المتقي من يعلم منه ربه التقوىٰ، ولما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ أن الجنة للمتقين.. ذكر شيئاً من صفاتهم فبدأ بالإيمان الذي هو رأس التقوىٰ وأساسه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين يقولون في الدنيا ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ وصدقنا بك وبرسولك إجابةً لدعوتك ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ اللهم ﴿لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ واسترها وتجاوز عنا بعفوك عنها وترك العقوبة عليها ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: وادفع عنا عذاب النار بفضلك وكرمك إنك أنت الغفور الرحيم، وقد خصوا هذا العذاب بالمسألة؛ لأن من زحزح عن النار يومئذٍ.. فقد فاز بالنجاة وحسن المآب، ثم ذكر من أوصافهم ما امتازوا به عن غيرهم، وبه استحقوا المثوبة عند ربهم فقال: أمدح ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ علىٰ تكاليف امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وفي البأساء والضراء وحين البأس ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وأقوالهم ونياتهم ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ﴾؛ أي: المطيعين لربهم المواظبين على العبادات وقيل هم المصلون. ﴿المنفقين﴾؛ أي: الباذلين أموالهم في وجوه الخير، ويدخل فيه نفقة الرجل علىٰ نفسه وعلىٰ أهله وأقاربه وصلة رحمه، والزكاة والنفقة في جميع القربات ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾؛ أي: الطالبين من ربهم مغفرة الذنوب في أواخر الليل؛ لأنها وقت إجابة الدعاء، ووقت الخلوة والفراغ. قال لقمان لابنه: يا بني لا يكن الديكُ أكيس منك ينادي بالأسحار، وقيل: المصلين التهجد: في آخر الليل، وهو الوقت الذي يطيب فيه النوم، ويشق فيه القيام، وتكون النفس فيه أصفىٰ، والقلب أفرغ من الشواغل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الأخير، فيقول: مَنْ يدعوني.. فأستجيب له، مَنْ يسألني.. فأعطيه، مَنْ يستغفرني.. فأغفر له» متفق

عليه. وفي لفظ مسلم: «فيقول: أنا الملك أنا الملك مَنْ ذا الذي يدعوني...» الحديث، وله في رواية أخرىٰ: «فيقول: هل من سائل فيُعطىٰ، هل من داعٍ فيستجابَ له، هل من مستغفر فيغفر له؟ حتىٰ ينفجر الصبح». وهذا الحديث من أحاديث الصفات، فمذهب السلف فيه الإيمان به وإجراؤه علىٰ ظاهره ونفي الكيفية عنه، وهو الأسلم الأعلم، وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم.. أقبل علىٰ الدعاء والاستغفار حتىٰ يصبح. رواه ابن أبي حاتم.

وخلاصة الكلام: أن المتقين هم الذين جمعوا هذه الصفات المذكورة التي لكل منها درجة في الفضل وشرف ورفعة، وبها نالوا هذا الوعد وهي خمسة:

إحداها: الصبر، وأكمل أنواعه: الصبر على أداء الطاعات، وترك المحرمات، فإذا هبت أعاصير الشهوات، وجمحت بالنفس إلىٰ ارتكاب المعاصي، فلا سبيل لردعها إلا بالصبر، فهو الذي يثبت الإيمان ويقف بها عند حدودالشرع، وهو الحافظ لشرف الإنسان في الدنيا عند المكاره، ولحقوق الناس أن تغتالها أيدي المطامع، وهو كالشرط في كل ما يذكر بعده من الصدق والقنوت والاستغفار بالأسحار.

ثانيتها: الصدق، وهو منتهىٰ الكمال، وحسبك في بيان فضيلته قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

وثالثتها: القنوت، وهو المداومة علىٰ الطاعة والإخبات إلىٰ الله مع الخشوع والخضوع وهو لبُّ العبادة وروحها وبدونه تكون العبادة جسماً بلا روح وشجرة بلا ثمرة.

ورابعتها: الإنفاق للمال في جميع السبل التي حث عليها الدين سواء أكانت النفقة واجبة أم مستحبة فالإنفاق في وجوه الخير جميعاً مما حث عليه الشارع وندب إليه.

وخامستها: الاستغفار بالأسحار؛ أي: التهجد في آخر الليل، وهو الوقت الذي يطيب فيه النوم ويشق القيام وتكون النفس فيه أصفىٰ والقلب فارغاً والاستغفار المطلوب: هو ما يقرن بالتوبة النصوح والعلم علىٰ ميزان الشرع، ولا يكفي الاستغفار باللسان مع الإدمان علىٰ فعل المنكر، فإن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بربه، ولا يغتر بمثل هذا الاستغفار إلا جاهل بدينه أو غر في معاملته لربه، ومن ثمَّ أثر عن بعضهم قوله: إنَّ استغفارنا يحتاج إلىٰ استغفار.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب اسمها ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿لَن﴾: حرف نصب ونفي. ﴿تُغۡنِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾ ﴿عَنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾: فاعل ومضاف إليه ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ معطوف علىٰ ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من شيئاً؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ الواو استئنافية أو عاطفة. (أولئك): مبتدأ أول ﴿هُمۡ﴾ مبتدأ ثانٍ، أو ضمير فصل، ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة مقررة لعدم الإغناء، أو معطوفة علىٰ خبر (أن) وعلىٰ كلا الاحتمالين ففيها تعيين للعذاب الذي بين أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم منه شيئاً، ذكره أبو السعود.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، آل مضاف، ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾: مضاف إليه، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره: دأبهم كدأب

آل فرعون، والجملة مستأنفة ﴿وَالَّذِينَ﴾ في محل الجر معطوف على ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة الموصول.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿كَذَّبُوا﴾ فعل وفاعل. ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبُوا﴾، والجملة الفعلية جملة مفسِّرة لـ(دأب آل فرعون)، أو في محل النصب حال من ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ولكنه على تقدير: قد، ويحتمل كون ﴿الذين من قبلهم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَذَّبُوا﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ الفاء عاطفة سببية (أخذهم الله): فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا﴾ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ(أخذهم). ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مفيدة لتعليل ما قبلها، والإضافة فيه من إضافة الصفة المشبهة إلى مرفوعها والأصل: والله شديد عقابه.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: جار ومجرور وصلة الموصول متعلق بـ﴿قُل﴾ ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُل﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾: فعل مغير الصيغة، ونائب فاعله، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ جملة فعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: ﴿إِلَىٰ﴾: حرف جر ﴿جَهَنَّمَ﴾: مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث المعنوي؛ لأنه بمعنى: الطبقة، والجار والمجرور متعلق بـ﴿تحشرون﴾. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: الواو عاطفة، أو استئنافية. ﴿بئس﴾: فعل ماضٍ، وهو من أفعال الذم ﴿الْمِهَادُ﴾: فاعل، والجملة في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف هو المخصوص بالذم تقديره: بئس المهاد جهنم، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُل﴾، أو جملة مستأنفة.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص، أو تام ﴿ءَايَةٌ﴾ اسمها مؤخر، أو فاعل ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبرها مقدم علىٰ اسمها أو متعلق بـ﴿كَانَ﴾. ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آية﴾، ولكنه علىٰ تقدير مضاف تقديره: في قصة فئتين، أو متعلق بـ﴿كَانَ﴾، والتقدير علىٰ كونها ناقصة: قد كانت آية حاصلة في قصة فئتين كائنة لكم، وعلى كونها تامة: قد كان وحصل لكم في فئتين آية دالة علىٰ صدق ما أقول لكم من قول: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها، أو من الفعل والفاعل: جواب لقسم محذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾، والتقدير: قل لهم يا محمد: واللّهِ قد كان لكم آية في فئتين. . . إلىٰ آخر الآية. ﴿ٱلْتَقَتَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿فِئَتَيْنِ﴾ تقديره: فئتين ملتقيتين.

﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾

﴿فِئَةٌ﴾: مبتدأ، سوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل، ﴿تُقَٰتِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿فِئَةٌ﴾ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُقَٰتِلُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: فئة مقاتلة في سبيل الله، والجملة الاسمية في محل الجر بدل من ﴿فِئَتَيْنِ﴾ بدل تفصيل من مُجمل، وأما علىٰ قراءة الجر فبدل من ﴿فِئَتَيْنِ﴾، وعلى قراءة النصب فمنصوب علىٰ المدح بفعل محذوف. ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾: الواو عاطفة ﴿أخرى﴾: مبتدأ، ولكنه علىٰ حذف موصوف تقديره: وفئة أخرى. ﴿كَافِرَةٌ﴾: خبره، والجملة في محل الجر معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ علىٰ كونها بدلاً من ﴿فِئَتَيْنِ﴾.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾.

﴿يَرَوْنَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأن رأىٰ بصرية. ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾: حال من مفعول (يرون) منصوب بالياء، والضمير مضاف إليه، ولكنه علىٰ تأويله بمشتق

تقديره: حالة كون الفرقة المسلمة مماثلين للفرقة الكافرة، وجملة (يرون)[1] من الفعل والفاعل خبر ثانٍ لقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أو صفة له، أو نعت لقوله: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذه الاحتمالات علىٰ قراءة الياء التحتية، وأما علىٰ قراءة التاء الفوقية، فتكون الجملة مستقلة ومستأنفة راجعة لقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾، وأياً ما كان. فالقصد من هذا الوصف تقرير الآية التي في الفئتين وفي التقائهما واجتماعهما. تأملْ ذكره في «الفتوحات الآلهية». ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾: مصدر مؤكد لعامله منصوب علىٰ المفعولية المطلقة بـ(يرون) و﴿الْعَيْنِ﴾ مضاف إليه.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَٰرِ﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿يُؤَيِّدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿قَدْ كَانَ﴾ علىٰ كونها مقولاً لـ﴿قُل﴾، ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُؤَيِّدُ﴾ ﴿مَن يَشَآءُ﴾: ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يُؤَيِّدُ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: يشاؤه، وهو العائد علىٰ ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾ مقدم علىٰ اسمها. ﴿لَعِبْرَةً﴾ اللام حرف ابتداء، عبرةً: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَٰرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة ﴿لَعِبْرَةً﴾ تقديره: إن عبرة كائنة لأولي الأبصار لكائنةٌ في ذلك المذكور.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَٰتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَٰمِ وَالْحَرْثِ﴾.

﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق

---

(١) الجمل.

بـ﴿زُيِّنَ﴾ ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾: معطوف علىٰ النساء أيضاً، ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ صفة لـ﴿قناطير﴾ ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿القناطير﴾ ﴿وَٱلْفِضَّةِ﴾: معطوف عليه. ﴿وَٱلْخَيْلِ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: صفة للخيل ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾، وكذا قوله: ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾: معطوف عليه جرياً علىٰ القاعدة المشهورة عند النحاة: أن المعطوفات إذا كثرت، وكان العطف بغير مرتب.. يكون العطف علىٰ الأول لا غير. كما ذكرته في «الباكورة الجنية على متن الآجرومية».

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: خبر ومضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿الحياة﴾، والجملة مستأنفة ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ أول ﴿حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ مبتدأ ثانٍ، ومضاف إليه. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر المبتدأ الثاني تقدير الكلام: والله حسن المآب كائن عنده، والجملة مستأنفة.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة، ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾: الهمزة للاستفهام التقريري مبنية علىٰ الفتح، ولكن ليس[1] المراد هنا بالتقرير: طلب الإقرار والاعتراف من المخاطبين، كما هو معنىٰ الاستفهام التقريري في الأصل، بل المراد به هنا: التحقيق والتثبيت في نفوس المخاطبين؛ أي: تحقيق خيرية ما عند الله وأفضليته علىٰ شهوات الدنيا، (أنبئكم): فعل

(١) الجمل.

مضارع ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾ ﴿بِخَيْرٍ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿نبأ﴾، ونبأ هنا[1] تعدَّتْ إلىٰ مفعولين: أحدهما: بنفسه، والآخر: بحرف الجر، قاله أبو حيان في «النهر» ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بِخَيْرٍ﴾ ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿اتَّقَوْا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ـ أعني قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ـ ويجوز أن يكون الظرف حالاً من ﴿جَنَّاتٌ﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها فتنصب حالاً ﴿جَنَّاتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية جواب للاستفهام السابق في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾.

ويقرأ شذوذاً[2]: ﴿جناتٍ﴾ بكسر التاء، وفيه حينئذٍ وجهان:

أحدهما: هو مجرور بدلاً من (خير)، فيكون: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ علىٰ هذا صفة لـ(خير).

والثاني: أن يكون منصوباً علىٰ إضمار: أعني، أو بدلاً من موضع ﴿بِخَيْرٍ﴾، ويجوز أن يكون الرفع علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو جنات.

﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الآتي، والجملة الفعلية صفة لـ﴿جَنَّاتٌ﴾ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَجْرِي﴾ أو حال من فاعل ﴿تَجْرِي﴾؛ أي: تجري الأنهار حالة كونها كائنة تحتها. ﴿خَالِدِينَ﴾: حال من ﴿الذين اتقوا﴾، والعامل فيها الاستقرار المحذوف. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَالِدِينَ﴾ ﴿وَأَزْوَاجٌ﴾: معطوف علىٰ ﴿جَنَّاتٌ﴾. ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: صفة لـ﴿أزواج﴾، وكذا قوله؛ ﴿وَرِضْوَانٌ﴾: معطوف علىٰ ﴿جَنَّاتٌ﴾. ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رضوان﴾. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: الواو استئنافية ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بَصِيرٌ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿بِالْعِبَادِ﴾ متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾.

---

(١) النهر.

(٢) العكبري.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الجر بدل من (الذين اتقوا)، أو نعت له ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئتَ قلتَ: ﴿رب﴾: منادىٰ مضاف و﴿نا﴾ مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿إِنَّنَآ﴾: (إنَّ) حرف نصب، ونا اسمها، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول القول. ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾: الفاء عاطفة. ﴿اغفر﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنَّا﴾. قال الكرخي: وفي ترتيب هذا السؤال علىٰ مجرد الإيمان دليل علىٰ أنه كافٍ في استحقاق المغفرة، وفيه ردٌّ علىٰ أهل الاعتزال؛ لأنهم يقولون: إن استحقاق المغفرة لا يكون بمجرد الإيمان. انتهىٰ. ﴿ذُنُوبَنَا﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَقِنَا﴾: الواو عاطفة ﴿قِ﴾: فعل دعاء مبني علىٰ حذف حرف العلة، وهي الياء، والكسرة قبلها دليل عليها؛ لأنه من وقىٰ يقي، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله و﴿نا﴾: مفعول أول ﴿عَذَابَ﴾: مفعول ثانٍ ﴿ٱلنَّارِ﴾: مضاف إليه، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: نعت ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾، أو لـ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ مجرور بالياء، وقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ كلها معطوفات علىٰ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. ﴿بِٱلْأَسْحَارِ﴾: متعلق بـ﴿المستغفرين﴾.

التصريف ومفرات اللغة

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾: من أغنىٰ الرباعي يغنىٰ إغناءً، والإغناء: الدفع والنفع، وفلان عظيم الغنىٰ؛ أي: الدفع والنفع. ﴿وَقُودُ﴾: الوقود: بفتح الواو علىٰ قراءة الجمهور اسم لما توقد به النار من الحطب، وبضمها مصدر: وقدت

النار تَقِدُ وقوداً إذا اتقدت.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: والدأب: الاجتهاد، وهو مصدر: دأب الرجل في عمله يدأب ـ من بابي: قطع وخضع ـ دأباً ودؤباً، إذا جدَّ واجتهد وتعب فيه، وغلب استعماله في العادة والشأن والحال، والمراد به هنا: كعادة آل فرعون وشأنهم وحالهم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ﴾: تثنية: فئة، والفئة: الجماعة، ولا واحد لها من لفظها، وجمعها: فئات، وقد تجمع بالواو والنون جبراً لما نقص، وسميت الجماعة من الناس فئة؛ لأنها يفاء إليها عند الشدة؛ أي: يرجع إليها في وقت الشدة.

﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾: هو مصدر مؤكد ورأىٰ هنا بصرية. ﴿يُؤَيِّدُ﴾؛ أي: يقوي، مضارع أيده تأييداً إذا نصره وأعانه. ﴿لَعِبْرَةً﴾: العبرة: الاتعاظ، وهو اسم مصدر لاعتبر اعتباراً، والاعتبار: الانتقال من حالة الجهل إلىٰ حالة العلم، واشتقاقها من العبور، وهي مجاوزة الشيء إلىٰ الشيء ومنه: عبور النهر، وفي «الخازن»: العبرة: الدلالة الموصلة إلىٰ اليقين المؤدية إلىٰ العلم، وأصلها من العبور كالجلسة من الجلوس، كأنه طريق يعبرونه، فيوصلهم إلىٰ مرادهم، وقيل: العبرة: هي التي يعبر عنها من منزلة الجهل إلىٰ منزلة العلم. انتهىٰ.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: والتزيين: تحسين الشيء وتجميله في أعين الناس، والشهوات: جمع شهوة: اسم مصدر من اشتهىٰ اشتهاءً، والشهوة: ثوران النفس وميلها إلىٰ الشيء المشتهىٰ، فالمصدر هنا بمعنىٰ: اسم المفعول، عبر به عنه مبالغة في كونها مشتهاة مرغوباً فيها كأنها نفس الشهوات.

﴿القناطير﴾: جمع قنطار: وهو في الأصل عقد الشيء وإحكامه، يقال: قنطرتُ الشيء إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة؛ أي: المحكمة الطاق، وفي نونه قولان:

أحدهما: وهو قول جماعة أصلية، فوزنه فعلال كقرطاس.

الثاني: أنها زائدة فوزنه: فنعال، والمراد به هنا: المال الكثير، واختلفوا فيه هل هو محدود أم لا؟ علىٰ قولين، وعلىٰ الأول اختلفوا في حده، فقيل: هو مئة رطل، وقيل: ألف ومئتا أوقية، وقيل: اثنا عشر ألف أوقية، وقيل: ألف ومئتا دينار، وكل هذه الأقوال رويت عن النبي ﷺ، وعلى الثاني قال أبو عبيدة: القنطار وزن لا يحد، وقال ابن عطية: القنطار معيار يوزن به كما أن الرطل معيار.

﴿وَٱلْخَيْلِ﴾: والخيل فيه قولان:

أحدهما: أنه جمع لا واحد له من لفظه، بل مفرده: فرس، فهو نظير قوم ورهط ونساء.

والثاني: أن مفرده: خائل، فهو نظير ركب وراكب وتاجر وتجر وطائر وطير، وفي اشتقاقها وجهان:

أحدهما: من الاختيال، وهو العجب سميت بذلك لاختيالها في مشيتها بطول أذنابها.

والثاني: من التخيل، قيل: لأنها تتخيل في صورة من هو أعظم منها.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: جمع نعم، والنعم اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو يذكر ويؤنَّث، ويطلق علىٰ الإبل والبقر والغنم، وجمعه علىٰ: أنعام باعتبار أنواعه الثلاثة ﴿وَٱلْحَرْثِۗ﴾: مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: المحروث، والمراد به المزروع سواء كان جوباً أم بقلاً أم ثمراً، ولم يجمع كما جمعت أخواته نظراً لأصله وهو المصدر يقال: حرث الرجل حرثاً إذا أثار الأرض فيقع علىٰ الأرض والزرع، وقال ابن الأعرابي: الحرث: التفتيش.

﴿حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾: المآب[1]: مفعَل ـ بفتح العين ـ من آب يؤوب من باب: قال؛ أي: رجع، والأصل: المَأْوَب فنقلت حركة الواو إلىٰ الهمزة الساكنة

---

(١) الفتوحات الإلهية.

قبلها، فقلبت الواو ألفاً وهو هنا اسم مصدر بمعنىٰ الرجوع، وقد يستعمل اسم مكان أو زمان تقول: آب يؤوب أوباً وإياباً، فالأوب والإياب مصدرين، والمآب اسم لهما، ذكره السمين.

﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ بكسر الراء وضمها مصدران لـ (رضي) فهما بمعنىٰ واحد، وإن كان الثاني سماعياً، والأول قياسياً، ونظير الكسر كالإتيان والقربان ونظير الضم كالشكران والكفران، فالكسر لغة أهل الحجاز والضم لغة تميم وبكر وقيس وغيلان وقيل الكسر للاسم ومنه: رضوان خازن الجنة، والضم للمصدر.

﴿بِٱلْأَسْحَارِ﴾: جمع سَحَر بفتح الحاء وسكونها، وقال قوم منهم الزجاج: السحر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر، ومنه يقال: سحر إذا أكل في ذلك الوقت، واستسحر إذا سار فيه.

البلاغة

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: فيه مجازٌ بالحذف، والأصل من عذاب الله. ﴿شَيْـًٔا﴾: التنكير فيه للتقليل؛ أي: لن تنفعهم نفعاً ما ولو قليلاً. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: أتى بالجملة الاسمية للدلالة علىٰ ثبوت الأمر وتحققه، وفيها التشبيه؛ لأنه شبههم بالحطب الذي لا ينتفع به إلا في الوقود، وفيها التأكيد؛ لأنه أكدها بلفظة ﴿هُمْ﴾.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فيه التفات من الحاضر إلىٰ الغيبة، والأصل: فأخذناهم.

﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: فيه ذكر العام وإرادة الخاص علىٰ قول عامة المفسرين: إن المراد بهم اليهود، وهذا من تكوين الخطاب.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ الأصل: آية لكم وقدم للاعتناء بالمقدم والتشويق إلىٰ المؤخر والتنكير في آية للتفخيم والتهويل؛ أي: آية عظيمة.

﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ في هذا الكلام من المحسنات البديعية شبه احتباك، وهو أن يحذف من أحد متقابلين نظير ما اشتبه

في الآخر، والأصل[١]: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وفئة أخرىٰ كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، فحذف من الأولى ما أثبت مقابله في الثانية، ومن الثانية ما أثبت نظيره في الأولىٰ، فذكر في الأولىٰ لازم الإيمان وهو: القتال في سبيل الله، وذكر في الثانية ملزوم القتال في سبيل الشيطان: وهو الكفر.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾: فيه من المحسنات البديعية: التجنيس المغاير والاحتراس في ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ قالوا: لئلا يعتقد أنه من رؤية القلب، فهو من باب الحزر وغلبة الظن ومن ضروب البلاغة: الإبهام في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، وفي إيقاع التزيين علىٰ حب مسامحة، لأجل المبالغة. والمزين حقيقة: هو المشتهيات، قال الزمخشري: عبَّر بالشهوات مبالغة، كأنها نفس الشهوات وتبنيها علىٰ خستها؛ لأن الشهوة رذيلة عند الحكماء وفي قوله: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾، من المحسنات: التجنيس المماثل.

﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفته ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال أبو السعود: التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلىٰ ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم. ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: التنكير فيه للتفخيم. ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إدخال الواو في مثل هذه الصفات للتفخيم؛ لأنه يؤذن بأن كل صفة مستقلة يمدح الموصوف بها، وللدلالة علىٰ كماله في كل واحدة منها.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

المناسبة

لما مدح الله تعالىٰ المؤمنين، وأثنىٰ عليهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾. أردفه ببيان أن دلائل الإيمان ظاهرة جلية فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم بيَّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وأمر الرسول بأن يعلن باستسلامه لله، وانقياده لدين الله، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب، واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً، وإعراضهم عن قبول حكم الله.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾ سبب نزول هذه الآية: أن حبرين[1] من أحبار الشام قدما علىٰ النبي ﷺ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا علىٰ النبي ﷺ. عرفاه بالصفة فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالا: وأنت أحمد؟ قال: نعم، قالا: فإنا نسألك عن شيء فإن أنت أخبرتنا به.. آمنا

(١) خازن وقرطبي.

بك وصدقناك، قال: اسألاني، قالا: فأخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عزّ وجلّ، فأنزل الله هذه الآية، فأسلم الحبران.

وقيل[1]: إن هذه الآية نزلت في نصارىٰ نجران فيما ادعوا في عيسى عليه السلام.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ...﴾ سبب نزولها: لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية، وادعت النصارىٰ أنه لا دين أفضل من النصرانية.. ردَّ الله عليهم فقال: إن الدين عند الله الإسلام، وقال الكلبي: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ نزلت في اليهود والنصارىٰ حين تركوا الإسلام.

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ الآية، أخرج[2] ابن أبي حاتم وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس علىٰ جماعة من اليهود، فدعاهم إلىٰ الله عزّ وجلّ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: علىٰ أي دينٍ أنت يا محمد؟ قال: علىٰ ملة إبراهيم ودينه، قالا: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال رسول الله ﷺ: هلموا إلىٰ التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أخبر الله سبحانه وتعالىٰ، وأعلم وبيّن لعباده بالدلائل السمعية والآيات العقلية ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أن الشأن والحال ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿و﴾ شهدت ﴿الملائكة﴾ كلهم وأقرَّت بتوحيد الله تعالىٰ بما عاينوا من عظيم قدرته تعالىٰ

---

(١) الخازن والقرطبي.

(٢) لباب النقول.

﴿و﴾ شهد ﴿أولو العلم﴾؛ أي: أقر أصحاب العلم بذلك التوحيد، وهم الذين عرفوا وحدانية الله تعالىٰ بالدلائل القاطعة؛ لأن الشهادة إنما تكون مقبولة إذا كان الإخبار مقروناً بالعلم، والمراد بهم المؤمنون كلهم، فمعنىٰ شهادة الله لتوحيده: أنه خلق الدلائل الدالة علىٰ توحيده وشهادة الملائكة وأولي العلم هي: إقرارهم بتوحيده تعالىٰ وهذه الآية تدل علىٰ أن الدرجة العالية، والمرتبة الشريفة ليست إلا لعلماء الأصول.

قال القرطبي: في هذه الآية دليل علىٰ فضل العلم وشرف العلماء، فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقَرنه الله تعالىٰ باسمه واسم ملائكته، كما قرن اسم العلماء ويكفي في شرف العلم قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وقوله ﷺ: «أن العلماء ورثة الأنبياء»، ولقد أجاد من قال في بيان فضل العلم:

عِلْمُ ٱلْعَلِيْمِ وَعَقْلُ ٱلْعَاقِلِ ٱخْتَلَفَا ... مَنْ ذَا ٱلَّذِيْ مِنْهُمَا قَدْ أَحْرَزَ ٱلشَّرَفَا
فَٱلْعِلْمُ قَالَ: أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ ... وَٱلْعَقْلُ قَالَ: أَنَا ٱلرَّحْمٰنُ بِيْ عُرِفَا
فَأَفْصَحَ ٱلْعِلْمُ إِفْصَاحاً وَقَالَ لَهُ: ... بِأَيِّنَا ٱللَّهُ فِيْ فُرْقَانِهِ ٱتَّصَفَا
فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ ٱلْعِلْمَ سَيِّدُهُ ... فَقَبَّلَ ٱلْعَقْلُ رَأْسَ ٱلْعِلْمِ وَٱنْصَرَفَا

وقوله: ﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ حال لازمة من لفظ الجلالة، والعامل فيه معنىٰ جملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: تفرد سبحانه وتعالىٰ حالة كونه قائماً ومتصفاً بالقسط والعدل في تدبير أمور خلقه من الأرزاق والآجال والإحياء والإماتة والرفع والخفض والثواب والعقاب، وهذا بيان لكماله تعالىٰ في أفعاله بعد بيان كماله في ذاته، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود إلا هو سبحانه وتعالىٰ، كرره للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد، وقيل: إن الأول: وصف وتوحيد والثاني: رسم تعليم؛ أي: قولوا لا إله إلا هو، وقيل: فائدة تكرارها الإعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه، ففيه حث للعباد علىٰ تكريرها والاشتغال بها، فإنه من اشتغل بها.. فقد اشتغل بأفضل العبادات. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره، فالعزة تلائم الوحدانية، والحكمة تلائم القيام

بالقسط، فأتىٰ بهما لتقرير الأمرين علىٰ ترتيب ذكرهما.

وفي «المدارك»[1]: «من قرأ هذه الآية عند منامه وقال بعدها: أشهد بما شهد الله به، واستودع الله هذه الشهادة وهي عنده وديعة، يقول الله يوم القيامة: إن لعبدي هذا عندي عهداً، وأنا أحق من وفىٰ بالعهد أدخلوا عبدي الجنة».

وعن عبد الله بن مسعود[2]: قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله عزّ وجلّ عبدي عهد إليَّ، وأنا أحق من وفىٰ بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة».

وقرأ أبو الشعثاء[3]: ﴿شُهِد﴾ بضم الشين مبنياً للمفعول، فيكون: ﴿أَنَّهُۥ﴾ في موضع البدل؛ أي: شهد وحدانية الله وألوهيته. وارتفاع الملائكة علىٰ هذه علىٰ الابتداء، والخبر محذوف تقديره: والملائكة وأولو العلم يشهدون، وحذف الخبر لدلالة المعنىٰ عليه.

وقرأ أبو المهلب عم محارب بن دثار: ﴿شهداءَ الله﴾ علىٰ وزن فعلاء جمعاً منصوباً علىٰ الحال من الضمير في المستغفرين، وهو إما جمع شهيد، كظرفاء وظريف، أو جمع شاهد، كعلماء وعالم.

وروي عنه وعن أبي نهيك: ﴿شهداءُ الله﴾ بالرفع؛ أي: هم شهداء الله، وفي هاتين القراءتين: شهداء مضاف إلىٰ لفظ الجلالة.

وذكر الزمخشري أنه قرأ: ﴿شهداءُ لله﴾ برفع الهمزة ونصبها وبلام الجر داخلة علىٰ اسم الله، فوجه النصب علىٰ الحال من المذكورين والرفع علىٰ إضمارهم، ووجه رفع الملائكة علىٰ هاتين القراءتين عطفاً علىٰ الضمير المستكن في شهداء، وجاز ذلك لوقوع الفاصل بينهما.

وروي عن أبي المهلب: ﴿شُهُداً﴾ بضم الشين والهاء جمع شهيد، كنذير

---

(1) المراح.

(2) ابن كثير.

(3) البحر المحيط.

ونذر، وهو منصوب علىٰ الحال، واسم الله منصوب.

وذكر النقَّاش: أنه قرىء كذلك بضم الدال وبفتحها مضافاً لاسم الله في القراءتين.

وقراءة الجمهور: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ على أنه فعل وفاعل فجملة القراءات في: ﴿شهد﴾ تسعة مع قراءة الجمهور، وكلها شاذة عدا قراءة الجمهور.

وقرأ أبو عمرو بخلاف عنه بإدغام واو ﴿هُوَ﴾ في واو ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وذكر ابن جرير[1] أن ابن عباس قرأ: ﴿شهد الله إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم أن الدين عند الله الإسلام﴾ بكسر: إنه، وفتح: أن الدين الإسلام؛ أي: شهد هو والملائكة وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام، وتكون جملة قوله: أنه لا إله إلا هو جملةً معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، وهي قراءة شاذة والجمهور قرؤوها بكسر همزة: إن الدين، وفتح همزة: أنه، وكلا المعنيين صحيح، ولكن المعنىٰ على قراءة الجمهور أظهر والله أعلم.

وقرأ أبو حنيفة: ﴿قَيِّماً بالقسط﴾ وقرأ ابن مسعود: ﴿القائم﴾ علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو القائم بالقسط، وكلا القراءتين شاذتان.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾؛ أي: إن الشرع المرضي المقبول عند الله تعالىٰ هو الإسلام والانقياد لأمر الله ونهيه، واعتقاد ما جاءت به الرسل من صفات الله تعالىٰ والبعث والجزاء، فلا دين مرضياً لله تعالىٰ سوىٰ الإسلام الذي هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة التي عليها الرسل عليهم السلام.

وتقدم لك قريباً أن الجمهور قرؤوا بكسر همزة: أن، علىٰ أن الجملة مستأنفة، وقال الكسائي[2]: أنا أفتحهما جميعاً يعني قوله: ﴿شهد الله أنه﴾،

---

(١) ابن كثير.

(٢) الشوكاني.

وقوله: ﴿أن الدين الإسلام﴾ بمعنىٰ شهد الله أنه كذا، وأن الدين الإسلام. قال ابن كيسان: أن الثانية بدل من الأولىٰ، وهذه رواية شاذة عن الكسائي رحمه الله تعالى.

وخلاصة معنى هذه الجملة[1]: أن جميع الملل والشرائع التي جاءت بها الأنبياء والرسل روحها الإسلام، والانقياد والخضوع. وإن اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال، وبه كان الأنبياء يوصون، فالمسلم الحقيقي مَنْ كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً في أعماله مع الإيمان من أي ملة كان، وفي أي زمان وجد، وهذا هو المراد بقوله جلَّ ذكره: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

وذلك أن الله شرع الدين لأمرين:

أحدهما: تصفية الأرواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بسلطة غيبية للمخلوقات، بها تستطيع التصرف في الكائنات؛ لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها.

وثانيهما: إصلاح القلوب بحسن العمل وإخلاص النية لله.

وأما العبادات فإنما شرعت لتربية هذا الروح الخلقي؛ ليسهل علىٰ صاحبه القيام بسائر التكاليف الدينية.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله وهو: دين الله تعالىٰ الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه، لا يقبل غيره ولا يجزي إلا به.

وخطب علي رضي الله عنه قال: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل، ثم قال: إن المؤمن أخذ دينه عن ربه، ولم يأخذه عن رأيه، إن المؤمن

---

(١) المراغي.

يعرف إيمانه في عمله، والكافر يعرف كفره بإنكاره، أيها الناس دينَكُم دينَكُم، فإن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره؛ إن السيئة فيه تغفر وإن الحسنة في غيره لا تقبل.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ﴾ وتفرق ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾ وأعطوا ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل من اليهود والنصارىٰ في دين الإسلام، وأنكروا نبوة محمد ﷺ، وقالوا: نحن أحق بالنبوة من قريش؛ لأنهم أميون ونحن أهل الكتاب ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ﴾ وحصل لهم ﴿ٱلْعِلْمُ﴾ والمعرفة بصدق محمد ﷺ بما عرفوه في كتبهم من نعته ووصفه قبل بعثته. ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ما خالفوه وأنكروه إلا لأجل الحسد الكائن منهم وطلب الرياسة لا لشُبهةٍ وخفاءٍ في أمره.

وقال الأخفش(١): في الكلام تقديم وتأخير، والمعنىٰ: ما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم، والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم هو: خلافهم في كون نبينا ﷺ نبياً أم لا، وقيل: اختلافهم في دين الإسلام، فقال قوم؛ إنه حق، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون مطلقاً، وقيل: اختلافهم في التوحيد، فثلثت النصارىٰ، وقالت اليهود: عزير ابن الله. وقيل: اختلافهم في نبوة عيسىٰ وقيل: اختلافهم في ذات بينهم حتىٰ قالت اليهود: ليست النصارى علىٰ شيء، وقالت النصارىٰ: ليست اليهودُ علىٰ شيء.

وقيل معنىٰ الآية(٢): وما خرج أهل الكتاب من الإسلام الذي جاء به أنبياؤهم وصاروا مذاهب وشيعاً يقتتلون في الدين، والدين واحد، لا مجال فيه للاختلاف والاقتتال إلا بسبب البغي وتجاوز الحد من الرؤساء، ولولا بغيهم ونصرهم مذهباً علىٰ مذهب وتضليلهم من خالفهم بتفسيرهم نصوص الدين بالرأي والهوىٰ وتأويل بعضه أو تحريفه.. لما حدث هذا الاختلاف، والقصد من إخبار هذا الاختلاف أن نبتعد عن الخلاف في الدين والتفرق فيه إلىٰ شيع ومذاهب، كما فعل مَنْ قبلنا،

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

ولكن واأسفاً وقعنا فيما وقع فيه السالفون، وتفرقنا طرائق قدداً، وأصابنا من الخذلان والذل بسبب هذا التفرق ما لا نَزَال نَئِنُّ منه، ونرجو أن يشملنا الله بعفوه ورحمته ويمدنا بروح من عنده، فيسعىٰ أهل الإيمان الصادق في نبذ الاختلاف والشقاق، والعودة إلى الوحدة والاتفاق حتىٰ يعود المسلمون إلىٰ سيرتهم الأولىٰ في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ومن تبعهم بإحسان.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن ينكر بالآيات الدالة علىٰ أن الدين المرضي عند الله هو الإسلام بأن لم يعمل بمقتضاها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: المجازاة له علىٰ كفره؛ أي: فإنه يحاسبه علىٰ كفره ويجازيه عليه قريباً، ولا يخفىٰ ما فيه من الوعيد والتهديد.

وخلاصة هذا الكلام: ومن يكفر بآيات الله الدالة علىٰ وجوب الاعتصام بالدين ووحدته وحرمة الاختلاف والتفرق فيه ويترك الإذعان لها.. فالله يجازيه ويعاقبه علىٰ ما اجترح من السيئات، والله سريع الحساب. والمراد بآيات الله هنا: هي آياته التكوينية في الأنفس والآفاق، ويدخل في ترك الإذعان لها صرفُها عن وجهها؛ لتوافق مذاهب أهل الزيغ والإلحاد. وآياتُهُ التشريعية التي أنزلها علىٰ رسله. والله أعلم.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾؛ أي: خاصمك يا محمد أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ أو غيرهم في أن الدين عند الله هو الإسلام بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ﴾؛ أي: أسلمت ذاتي من إطلاق الجزء وإرادة الكل، أو أخلصت عملي وعبادتي ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ وحده لا أشرك به في ذلك غيره ﴿وَ﴾ أسلم ﴿من اتبعنِ﴾ وجوهُهم لله تعالىٰ، فهو معطوف علىٰ التاء في ﴿أَسْلَمْتُ﴾، وجاز ذلك لوجود الفصل بالمفعول، والمعنى: أنه ﷺ أسلم وجهه لله، وهم أسلموا وجوههم لله تعالىٰ. وأثبت[1] الياء في: ﴿ٱتَّبَعَنِۗ﴾ نافع وأبو عمرو وصلاً، وحذفاها وقفاً، وأثبتها يعقوب وصلاً ووقفاً، والباقون حذفوها وقفاً ووصلاً

(١) الجمل.

موافقة للرسم، وحسَّن ذلك أيضاً كونها فاصلة ورأس آية نحو: ﴿أكرمن﴾ و ﴿أهانن﴾ وقال بعضهم: حذف هذه مع نون الوقاية خاصة فإن لم تكن نون.. فالكثير إثباتها، ومعنىٰ الكلام: فإن جادلك أهل الكتاب أو غيرهم ـ وقد كان النبي ﷺ يدعوا اليهود في المدينة إلىٰ ترك ما أحدثوه في دينهم، وتعودوه من التحريف والتأويل، والرجوع إلىٰ حقيقة الدين وإسلام الوجه لله، والإخلاص له بعد أن أقيمت عليهم البراهين والبينات ـ وجئتهم بالحق، فقل لهم: أقبلت بعبادتي علىٰ ربي مخلصاً له معرضاً عما سواه أنا ومن اتبعني من المؤمنين.

والخلاصة: أنه لا فائدة في الجدل مع مثل هؤلاء؛ لأنه لا يكون إلا فيما فيه خفاء أما وقد قامت الأدلة وبطلت شبهات الضالين، فهو مكابرة وعناد، ولا يستحق منك إلا الإعراض وعدم إضاعة الوقت سدىٰ.

﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: لليهود والنصارىٰ ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾؛ أي: مشركي العرب الذين لا كتاب لهم، وخص هؤلاء بالذكر مع أن البعثة عامة؛ لأنهم هم الذين خوطبوا أولاً بالدعوة ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾؛ أي: أتسلمون بعد أن أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام كما أسلمت أنا ومن اتبعني، أم تصرون علىٰ كفركم وعنادكم. وهذه الجملة صورته استفهام تقريري، ومعناه: أمر؛ أي: أسلموا، كذا قاله ابن جرير وغيره وقال الزجاج: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ تهديد، والمعنىٰ: أنه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الإسلام فهل علمتم بموجب ذلك أم لا تبكيتاً لهم وتصغيراً لشأنهم في الإنصاف وقبول الحق، وتعييراً لهم بالبلادة وجمود القريحة ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟﴾ كما أسلمتم.. ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ للفوز والنجاة في الآخرة؛ أي: ظفروا بالهداية التي هي الحظ الأكبر، وفازوا بخيري الدنيا والآخرة. ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾، أي: أعرضوا عن الإسلام وقبول الحق والاتباع لدينك.. فلن يضروك شيئاً. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: ما عليك إلا إبلاغ ما أنزل إليك إليهم، وقد أدَّيته علىٰ أتم وجه وأكمله، ولست عليهم بمسيطر، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وهذا قبل الأمر بالقتال، فهو منسوخ بآية السيف. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن، فيجازي كلاً منهم بعمله؛ أي:

فهو تعالىٰ أعلم بمن طمس علىٰ قلبه وجعل علىٰ بصره غشاوة فوقع اليأس من اهتدائه، وبمن يُرجىٰ له الهداية والتوفيق بعد البلاغ.

روي[1] أن رسول الله ﷺ: لما قرأ هذه الآية علىٰ أهل الكتاب قالوا: أسلمنا، فقال ﷺ لليهود: «أتشهدون أن عيسىٰ كلمة الله وعبده، ورسوله»، فقالوا: معاذ الله، وقال ﷺ للنصارىٰ: «أتشهدون أن عيسىٰ عبد الله ورسوله»، فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسىٰ عبداً، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بالقرآن، وبما جاء به محمد ﷺ من اليهود والنصارىٰ وغيرهم. فالآية وإن كانت قد نزلت في فريق من اليهود والنصارىٰ إلا أنها عامة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ أي: بغير جرم ولا شبهة لديهم، وكان دأبهم قتل الأنبياء كزكريا ويحيىٰ عليهما السلام. وقرأ الحسن شذوذاً: (ويقتّلون النبيين) بالتشديد، والتشديد فيه للتكثير وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[2] حال مؤكدة؛ لأن قتل الأنبياء لا يكون حقاً. ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ الدعاة ﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ والعدل وينهونهم عن ارتكاب المعاصي والمنكر حال كون أولئك الدعاة ﴿مِنَ﴾ بعض ﴿ٱلنَّاسِ﴾. وقرأ حمزة[3] وجماعة من غير السبعة: ﴿ويقاتلون الذين يأمرون بالقسط﴾ بالألف. وقرأها الأعمش شذوذاً: (وقاتلوا الذين يأمرون بالقسط). وكذا هي في مصحف عبد الله وقرأ أبي شذوذاً أيضاً: ﴿يقتلون النبيين والذين يأمرون بالقسط﴾.

ومن كرر الفعل فذلك علىٰ سبيل عطف الجمل وإبراز كل جملة في صورة التشنيع والتفظيع، لأن كل جملة مستقلة بنفسها، أو لاختلاف ترتب العذاب بالنسبة لمن وقع عليه الفعل، فقتل الأنبياء أعظم من قتل من يأمر بالقسط من غير الأنبياء، فجعل القتل بسبب اختلاف مرتبته كأنهما فعلان مختلفان، وقيل غير ذلك.

---

(١) أبو السعود. (٢) النسفي. (٣) البحر المحيط.

روي أن اليهود قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً في أول النهار، فقام مئة رجل من عباد بني إسرائيل من أتباع الأنبياء فنصحوهم وذكروهم، فقتلوهم من آخر النهار جميعاً، ففيهم نزلت هذه الآية: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾؛ أي: أخبرهم يا محمد وأعلمهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: بعذاب مؤلم موجع مهين.

وعن[1] أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أيُّ الناس أشد عذاباً يوم القيامة، قال: «رجل قتل نبياً، أو من أمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إلىٰ قوله؛ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، ثم قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مئة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل، فأمروا مَنْ قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ».

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المتصفون بالصفات المذكورة القبيحة هم ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ أي: بطلت محاسن أعمالهم في الدارين. أمَّا بطلانها في الدنيا فبإبدال المدح بالذم، والثناء باللعن، وبما ينزل بهم من القتل والسبي وأخذ المال منهم غنيمةً والاسترقاق لهم إلىٰ غير ذلك من الذل الظاهر فيهم. وأما بطلانها في الآخرة فبإزالة الثواب إلىٰ العقاب، وقيل: بطلان العمل هو أن لا يقبل في الدنيا، ولا يجازىٰ عليه في الآخرة. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ من عذاب الله في إحدىٰ الدارين؛ أي: ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ استفهام تعجيب للنبي، أو لكل من تتأتىٰ منه الرؤية من حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم، وتقرير لما سبق من أن اختلافهم إنما كان بعد ما جاءهم العلم بحقيقته؛ أي: ألم تنظر يا محمد إلىٰ سوء صنيع الذين أوتوا وأعطوا نصيباً من الكتاب؟ أي: حظاً عظيماً من علم التوراة،

---

(١) ابن كثير.

وهم أحبار اليهود. والمراد بذلك النصيب: ما بُيِّن لهم في التوراة من العلوم والأحكام التي من جملتها ما علموه من نعوت النبي ﷺ وحقيقة الإسلام. والتعبير عنه بالنصيب للإشعار بكمال اختصاصه بهم وكونه حقاً من حقوقهم التي تجب مراعاتها والعمل بموجبها حال كونهم ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: التوراة ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ذلك الكتاب ﴿بَيْنَهُمْ﴾ والداعي لهم هو محمد ﷺ، وقرىء شذوذاً: (ليُحكَم) بالبناء للمفعول. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: ثم يُدبر جماعة منهم عن مجلس النبي ﷺ ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم معرضون بقلوبهم عن قبول حكم ذلك الكتاب مكذبون له، وذلك أنهم أنكروا آية الرجم من التوراة، وسألوا النبي ﷺ عن حد المحْصَنَين إذا زنيا، فحكم بالرجم، فقالوا: جُرت يا محمد، فقال: بيني وبينكم التوراة، ثم أتوا بابن صوريا، فقرأ التوراة، فلما أتىٰ علىٰ آية الرجم سترها بكفه عنها، وقرأها علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ اليهود فإذا فيها: «إن المحصن والمحصنة إذا زنيا، وقامت عليهما البينة.. رُجما، وإن كانت المرأة حبلىٰ.. تتربص حتىٰ تضع ما في بطنها». فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين، فرُجما، فغضبت اليهود لذلك وانصرفوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ...﴾ الخ. والقصة مذكورة في «صحيح البخاري» في كتاب التفسير.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التولي والإعراض ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾؛ أي؛ لن تصيبنا النار في الآخرة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾؛ أي: أياماً قلائل ومدة يسيرة ـ أربعين يوماً مدة عبادتهم العجل ـ ثم يخرجون منها ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم﴾؛ أي: في ثباتهم علىٰ دينهم اليهودية ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي؛ يختلقون من الكذب من قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، وإن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنه تعالىٰ وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم.

وخلاصة ذلك: أنهم استخفوا بالعقوبة واستسهلوها اتكالاً علىٰ اتصال نسبهم بالأنبياء، واعتماداً على مجرد الانتساب إلىٰ هذا الدين، واعتقدوا أن هذا كافٍ في نجاتهم. ومن استخف بوعيد الله زعماً منه أنه غير نازل حتماً بمن يستحقه.. تزول من نفسه حرمة الأوامر والنواهي، فيقدم بلا مبالاة علىٰ انتهاك

حرمات الدين، ويتهاون في أداء الطاعات. وهكذا شأن الأمم حين تفسق عن دينها ولا تبالي باجتراع السيئات. وقد ظهر ذلك في اليهود والنصارىٰ، ثم في المسلمين، فإن كثيراً من المسلمين اليوم يعتقدون أن المسلم المرتكب للكبائر والإثم والفواحش؛ إما أن تدركه الشفاعات، أو تنجيه الكفارات؛ وإما أن يمنح العفو والمغفرة إحساناً من الله وفضلاً، فإن فاته ذلك.. عُذِّب علىٰ قدر خطيئته، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة، وأما المنتسبون إلىٰ سائر الأديان فهم خالدون في النار مهما كانت أعمالهم.

والقرآن قد ناط أمر الفوز والنجاة من النار بالإيمان الذي ذكر الله علاماته وصفات أهله، وبالعمل الصالح، والخُلُق الفاضل، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، كما جعل المغفرة لمن لم تحط به خطيئته.

أما الذين صار همهم إرضاء شهواتهم، ولم يبق للدين سلطان علىٰ نفوسهم.. فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿فَكَيْفَ﴾ حالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾؛ أي: جمعنا الخلائق للمجازاة ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ﴾؛ أي: في يوم لا شك في مجيئه ووقوع ما فيه وهو يوم القيامة ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ﴾؛ أي: وتوفىٰ وتنال فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بَرَّةٍ، أو فاجرةٍ جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾؛ أي: عملت من خير أو شر. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يظلمون في المجازاة بزيادة في سيئاتهم ونقصان في حسناتهم، فلا ينقص أحد من ثواب الطاعات، ولا يزاد علىٰ عقاب السيئات. والضمير عائد لكل نفس علىٰ المعنىٰ؛ لأنه في معنىٰ كل إنسان.

وهناك العدل الكامل والقضاء الفاصل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

الإعراب

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑱﴾.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أن: حرف نصب ومصدر، والهاء ضمير الشأن في محل النصب اسمها. ﴿لَآ﴾ نافية تعمل عمل إن ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً تقديره موجود. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر (لا)، وجملة (لا) من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية لشهد تقديره: شهد الله وبين عدم وجود معبود بحق سواه. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف علىٰ لفظ الجلالة ﴿وَأُوْلُواْ﴾: معطوف أيضاً علىٰ الجلالة، وهو مضاف. ﴿ٱلْعِلْمِ﴾: مضاف إليه. ﴿قَآئِمَۢا﴾: حال من الضمير الواقع بعد ﴿إِلَّا﴾ أو من لفظ الجلالة ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ متعلق بـ﴿قَآئِمَۢا﴾. وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدل من جملة قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الأولى بدلُ كلٍّ من كل كرره تأكيداً. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في إعرابه[1] ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه بدل من ﴿هُوَ﴾.

الثاني: أنه خبر مبتدأ محذوف.

الثالث: أنه نعت لـ﴿هُوَ﴾، وهذا إنما يتمشَّىٰ على مذهب الكسائي، فإنه يرىٰ وصف الضمير الغائب.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱلدِّينَ﴾: اسمها. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الدين ﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

---

(١) الجمل.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ﴾ الواو استئنافية. ﴿ما﴾: نافية، ﴿ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ماضٍ مغير، والواو نائب فاعل وهو المفعول الأول؛ لأن آتىٰ بمعنىٰ: أعطىٰ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الغائب ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفَ﴾، ﴿ما﴾: مصدرية ﴿جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿بَعْدِ﴾، ﴿بَغْيًۢا﴾: مفعول لأجله، والعامل فيه ﴿ٱخْتَلَفَ﴾، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لـ﴿بَغْيًۢا﴾.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، وفي خبره[1] الأقوال الثلاثة أعني: فعل الشرط وحده، أو الجواب وحده، أو كليهما، وعلىٰ القول بكونه الجواب وحده لا بد من ضمير مقدَّر؛ أي: سريع الحساب له. والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة، ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَكْفُرْ﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿إنَّ﴾: حرف نصب، ﴿اللَّهَ﴾ اسمها، ﴿سَرِيعُ﴾: خبرها. ﴿ٱلْحِسَابِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وفي الحقيقة: هذه الجملة قائمة[2] مقام الجواب علة، وتقدير الجواب: فإن الله يجازيه ويعاقبه عن قرب فإنه سريع الحساب.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾.

﴿فَإِنْ﴾ الفاء فاء الفصيحة مبنية علىٰ الفتح؛ لأنها أفصحت عن جواب

---

(١) السمين.
(٢) أبو السعود.

شرط مقدر تقديره؛ إذا عرفت أن الدين المرضي عند الله الإسلام، وأردت بيان ما تقول لمن حاجك فيه.. فأقول لك ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم ﴿حَآجُّوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ(إنْ) علىٰ كونه فعل شرط لإنْ. ﴿فَقُلْ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية في محل الجزم بـ(إنْ) علىٰ كونه جواباً لها، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت، يعود علىٰ محمد، وجملة (إنْ) الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا الشرطية المقدرة، وجملة إذا الشرطية مستأنفة. ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِّ﴾: مقول محكي لـ﴿قل﴾ منصوب بفتحة مقدرة، وإن شئت قلتَ: ﴿أَسْلَمْتُ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَجْهِيَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَسْلَمْتُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِّ﴾: الواو عاطفة ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع على الفاعلية معطوف علىٰ تاء ﴿أَسْلَمْتُ﴾، ﴿اتبع﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة ـ تشبيهاً لهذه الكلمة برؤوس الآي: كـ ﴿ربي أكرمنْ﴾، ﴿أهانن﴾ ـ في محل النصب مفعول به.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قل﴾. ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: فعل ماضٍ مغير، ونائب فاعل، ومفعول ثانٍ؛ لأن أتىٰ بمعنى: أعطىٰ، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الغائب. ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾: معطوف علىٰ الموصول. ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾: مقول محكى لـ﴿قل﴾، وإنْ شئت قلت: الهمزة للاستفهام التقريري، ولكن فيه معنىٰ الأمر كما مرَّ ﴿أسلمتم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿فَإِنْ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا امتثلت أمرنا بالقول لهم، وأردت بيان ما يترتب علىٰ ذلك القول.. فأقول لك

﴿إن أسلموا﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿أَسْلَمُواْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها، ﴿فَقَدِ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ٱهْتَدَواْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: الواو عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه شرطاً لها. ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية، ﴿إنما﴾: أداة حصر بمعنىٰ: ما النافية وإلا المثبتة. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدَّم ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ﴾ علىٰ كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ ﴿بَصِيرٌۢ﴾: خبر ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها. ﴿يَكْفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَكْفُرُونَ﴾، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يقتلون﴾؛ أي: حال كونهم ملتبسين بغير حق. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ ﴿يَأْمُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَأْمُرُونَ﴾. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَأْمُرُونَ﴾ تقديره: حالة كونهم كائنين من بعض الناس، فهي حال مؤكدة؛ لأن من المعلوم أنهم من جملة الناس. ﴿فَبَشِّرْهُم﴾: الفاء رابطة لخبر ﴿إن﴾ باسمها

جوازاً؛ لما في الموصول من العموم. وعبارة السمين: ولما ضُمّن هذا الموصول معنىٰ الشرط في العموم.. دخلت الفاء في خبره، وهو قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾. وخالف الأخفش فمنع دخولها، والسماع حجة عليه كهذه الآية. ﴿بشر﴾: فعل أمر ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: جار ومجرور وصفة، متعلق بـ﴿بشرهم﴾.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الجمع ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور ومعطوف، متعلق بـ﴿حَبِطَتْ﴾، ﴿وَمَا لَهُم﴾: الواو عاطفة (ما): حجازية أو تميمية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿ما﴾ أو لمبتدأ مؤخر، ﴿مِّن﴾: زائدة ﴿نَّاصِرِينَ﴾: اسم ﴿ما﴾ مؤخر، أو مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ جملة حبطت علىٰ كونها صلة الموصول.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تر﴾، ورأىٰ هنا علمية مضمنة معنىٰ الانتهاء لتصح التعدية بإلىٰ، والمعنىٰ: ألم تعلم يا محمد منتهياً علمك إلىٰ قصة الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، ذكره السمين. ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿أُوتُوا﴾: فعل مغير ونائب فاعل. ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة صلة الموصول. ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبًا﴾. ﴿يُدْعَوْنَ﴾ فعل مضارع مغير، ونائب فاعل، والجملة في محل النصب حال من ﴿الَّذِينَ﴾. ﴿إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُدْعَوْنَ﴾.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿لِيَحْكُمَ﴾: اللام حرف جر وتعليل. (يحكم): منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام (كي)، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يحكم﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: لحكمه، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يُدْعَوْنَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿فَرِيقٌ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يُدْعَوْنَ﴾، ﴿وَهُم﴾: الواو واو الحال ﴿هم معرضون﴾: مبتدأ وخبر، والجملة حال من ﴿فَرِيقٌ﴾، وصح مجيء الحال منه لوصفه بالجار والمجرور.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء حرف جر، ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، والهاء: اسمها. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، وجملة ﴿قَالُوا۟﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ تقديره: بأنهم قائلون، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: ذلك بقولهم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك التولي والإعراض كائن بسبب قولهم، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة. ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾: مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿لَن﴾: حرف نفي ونصب. ﴿تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، منصوب بـ﴿لَن﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَيَّامًا﴾: منصوب على الظرفية، ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾: صفة لأياماً، والظرف متعلق بـ﴿تَمَسَّنَا﴾، ﴿وَغَرَّهُمْ﴾: الواو عاطفة. ﴿غر﴾: فعل ماضٍ، الهاء: مفعول به. ﴿فِى دِينِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿غرهم﴾، ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كان﴾ تقديره: ما كانوا مفترين، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يفترونه، وجملة (غرهم) في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿قَالُوا۟﴾ علىٰ كونها خبر ﴿أَنَّ﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾: الفاء بمعنىٰ الواو الاستئنافية. (كيف): اسم استفهام في محل الرفع خبر مقدم لمبتدأ محذوف تقديره: فكيف حالهم، مبني علىٰ الفتح؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، حالهم: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد عن الشرط، والظرف متعلق بالمبتدأ المحذوف. ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذا، ﴿لِيَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾. ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَّا﴾، وجملة ﴿لَّا﴾ في محل الجر صفة لـ﴿يوم﴾. وفي «الفتوحات»[1]: قوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ ردٌّ لقولهم المذكور، وإبطال لما غرهم باستعظام ما سيقع لهم، وتهويل لما يحيق بهم من الأهوال. و﴿كيف﴾: خبر مبتدأ محذوف قدَّره بقوله: حالهم. وعبارة السمين: ويجوز أن يكون ﴿كيف﴾ خبراً مقدماً، والمبتدأ محذوف تقديره: فكيف حالهم؟ وقوله: ﴿إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ﴾ ظرف محض من غير تضمين شرط، والعامل فيه هو العامل في ﴿كيف﴾ إن قلنا: إنها منصوبة بفعل، وإن قلنا: إنها خبر لمبتدأ مضمر، وهي منصوبة انتصاب الظرف.. كان العامل في إذا: الاستقرار العامل في ﴿كيف﴾؛ لأنها كالظرف، وإن قلنا: إنها اسم غير ظرف بل لمجرد السؤال.. كان العامل فيها نفس المبتدأ الذي قدرناه؛ أي: كيف حالهم في وقت جمعهم، وقوله: ﴿ليوم﴾ متعلق بـ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾؛ أي: لقضاء يوم أو لجزاء يوم و ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: صفة للظرف. انتهىٰ. ﴿وَوُفِّيَتْ﴾: الواو عاطفة. ﴿وُفي﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، التاء علامة التأنيث؛ لاكتساب الفاعل التأنيث من المضاف إليه. ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجر معطوفة علىٰ جملة ﴿لَّا رَيْبَ﴾ علىٰ كونها صفة لـ﴿يوم﴾، والرابط محذوف تقديره: وتوفىٰ فيه كل نفس. ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾: ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثانٍ

---

(١) الجمل.

لـ﴿وفيت﴾. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: كسبته ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الواو حالية ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حل من قوله: ﴿كل نفس﴾.

وذكر[1] ضمير ﴿هم﴾ وجمعه باعتبار معنىٰ كل نفس؛ لأنه في معنىٰ كل الناس، كما اعتبر المعنىٰ في قولهم: ثلاثة أنفس، بتأويل الأناس.

التصريف ومفردات اللغة

﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾: يقال: شهد الشيء يشهد شهادةً من باب: علم، إذا بين وأعلم وأخبر. قال الزجاج: الشاهد: هو الذي يعلم الشيء ويبيِّنه، فقد دلَّنا الله علىٰ وحدانيته بما خلق وبيَّن.

﴿قَآئِمًا بِالْقِسْطِ﴾: القسط: العدل يُجمع علىٰ أقساط، يقال: قسط قسطاً من باب: ضرب ونصر، وقسط الوالي وأقسط إذا عدل في حكمه.

﴿الْحَكِيمُ﴾ وعدل[2] عن صيغة الحاكم إلىٰ الحكيم؛ لأجل المبالغة، ولمناسبة العزيز. ومعنىٰ المبالغة تكرار حكمه بالنسبة إلىٰ الشرائع أن الدين عند الله هو الإسلام؛ إذ حكم في كل شريعة بذلك.

﴿الدِّينَ﴾: الجزاء، ويطلق علىٰ الملة وهو المراد هنا، وسُميَّ الدِّين دِيناً؛ لأن الشخص يدان به.

﴿الْإِسْلَامُ﴾: الاستسلام والانقياد التام، ويقال: أسلم زيد إذا تدين بدين الإسلام، وأخلص عمله لله. فالإسلام إخلاص العمل والعقيدة لله تعالىٰ.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾؛ أي: جادلوك ونازعوك، يقال: حاجَّة حجاجاً ومحاجَّةً إذا خاصمه.. فحَجَّه وغلبه، ويقال: تحاجَّا إذا تخاصما.

---

(١) الكرخي.

(٢) النهر.

﴿غرهم﴾ فتنهم، يقال: غر يغر غروراً إذا خدع، فهو من المضاعف المعدَّىٰ، والغِرُّ: الصغير، والغريرة: الصغيرة، سميًّا بذلك؛ لأنهما ينخدعان بالعجلة، والغرة منه يقال: أخذه علىٰ غرة؛ أي: تغفل وخداع.

البلاغة

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ قال الزمخشري[1]: شبهت دلالته علىٰ وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحىٰ من آيته الناطقة بالتوحيد، كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما، بشهادة الشاهد في البيان والكشف علىٰ طريق الاستعارة التصريحية، وكذلك إقرار الملائكة وأولي العلم بذلك، واحتجاجهم عليه. انتهىٰ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: كرر التهليل للتوكيد، أو لأن[2] الأول: قول الله، والثاني: حكاية قول الملائكة وأولي العلم، أو لأن الأول جرىٰ مجرى الشهادة، والثاني جرىٰ مجرىٰ الحكم بصحة ما شهد به الشهود. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ الجملة معرفة الطرفين، فتفيد الحصر؛ أي: لا دين إلا الإسلام.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في التعبير[3] عن اليهود والنصارىٰ بقوله: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ زيادة تقبيح لهم وتشنيع عليهم، فإن الاختلاف بعد إيتاء الكتاب أقبح، وقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ﴾ الخ زيادة أخرىٰ فإن الاختلاف بعد العلم أزيدُ في القباحة، وقوله: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ زيادة ثالثة؛ لأنه في حيز الحصر، فكأنه قال: وما اختلفوا إلا بغياً؛ أي: لا لشبهة ولا لدليل، فيكون أزيد في القباحة ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل مع كون المقام للإضمار؛ لتربية المهابة، وإدخال الروعة في النفس.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الكرخي.
(٣) الجمل.

﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾: فيه إطلاق الجزء وإرادة الكل، ففيه مجاز مرسل علاقته الكلية، وإنما خص الوجه؛ لشرفه ولاشتماله علىٰ معظم القوىٰ والمشاعر، ولأنه معظم ما تقع به العبادة من السجود والقراءة، وبه يحصل التوجه إلىٰ كل شيء.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: وضع[1] الموصول موضع الضمير؛ لرعاية التقابل بين وصفي المتعاطفين؛ لأن الأميين يقابلون بالذين أوتو الكتاب.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: الأصل في البشرة أن تكون في الخير، واستعمالها في الشر؛ للتهكم، ويسمَّى هذا: الأسلوب التهكمي؛ حيث نزل الإنذار منزلة البشارة السارة، كقوله تعالىٰ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾، وهو أسلوب مشهور.

قال أبو حيان[2]: ومن ضروب البلاغة في هذه الآيات:

منها: الاستفهام الذي يرد به التقرير أو التوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾.

ومنها: الطباق المقدَّر في قوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ ووجهه أن الإسلام: الانقياد إلىٰ الإسلام والإقبال عليه، والتولي ضد الإقبال، والتقدير: وإن تولوا.. فقد ضلوا، والضلالة ضد الهداية.

ومنها: الحشو الحسن في قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فإنه لم يقتل قطُّ نبي بحق، وإنا أتىٰ بهذه الحشوة؛ ليتأكد قبح قتل الأنبياء ويعظم أمره في قلب العازم عليه.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ﴾ تأكيداً لقبح ذلك الفعل.

ومنها: الزيادة في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ زاد الفاء إيذاناً بأن الموصول ضمن معنىٰ الشرط.

---

(١) أبو السعود.

(٢) البحر المحيط.

ومنها: الاستفهام الذي أريد به التعجيب من حالهم والاستعظام لمقالتهم في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ﴾، وهذا الاستفهام لا يحتاج إلىٰ جواب، وكذا أكثر استفهامات القرآن؛ لأنها من عالم الشهادة، وإنما استفهامه تعالىٰ تقريع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٢)﴾.

المناسبة

لما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة، وصحة دين الإسلام، وحال النبي ﷺ مع المخاطبين بالدعوة من المشركين وأهل الكتاب، فالمشركون كانوا ينكرون النبوة لرجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، كما أنكر ذلك أمثالهم علىٰ الأنبياء من قبل، وأهل الكتاب كانوا ينكرون أن يكون نبي من غير آل إسرائيل.. أردف بذكر هذه الآيات الآتية تسليةً للنبي ﷺ في مقام عناد المنكرين، ومكابرة الجاحدين، وتذكيراً له بقدرته تعالىٰ علىٰ نصره وإعلاء دينه، وكأنه يقول له: إذا تولَّىٰ هؤلاء الجاحدون عنك، ولم يقنعهم البرهان؛ فظل المشركون علىٰ جهلهم، وأهل الكتاب في غرورهم. فعليك أن تلجأ إلىٰ الله تعالىٰ وترجع إليه بالدعاء والثناء، وتتذكر أنه بيده الأمر يفعل ما يشاء.

قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها؛ أنه تعالىٰ لما ذكر ما يجب أن يكون المؤمن عليه من تعظيم الله تعالىٰ والثناء عليه بالأفعال التي يختص بها.. ذكر ما يجب علىٰ المؤمن من معاملة

الخلق، وكانت الآيات السابقة في الكفار، فنهوا عن موالاتهم، وأمروا بالرغبة فيما عنده وعند أوليائه دون أعدائه؛ إذ هو تعالىٰ مالك الملك.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ...﴾ روىٰ[1] الواحدي عن ابن عباس وأنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ: أنه لما افتتح رسول الله ﷺ مكة.. وعد أمته مُلك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمدٍ ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتىٰ يطمع في ملك فارس والروم؟!، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية.

وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ: سأل ربه عزّ وجلّ أن يجعل ملك فارس والروم في أمته، فأنزل الله هذه الآية، وقيل: إن اليهود قالوا: والله لا نطيع رجلاً جاء بنقل النبوة من بني إسرائيل إلىٰ غيرهم فنزلت هذه الآية.

وروي[2] أنه ﷺ: لما خط الخندق في عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون.. خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم، لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلىٰ النبي ﷺ ليخبره، فذهب إليه، فجاء رسول الله، وأخذ المعول من سلمان، فلما ضربها ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها؛ أي: المدينة، كأنه مصباح في جوف ليل مظلم، فكبر وكبّر المسلمون، وقال ﷺ: «أضاء لي منها قصور الحيرة، كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي منها قصور صنعاء، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة علىٰ كلها، فأبشروا»، فقال المنافقون: ألا تعجبون من نبيكم يعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرىٰ، وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

تحفرون من الخوف، فنزلت هذه الآية.

وروي أنها نزلت في شأن قريش لقولهم لرسول الله ﷺ: كسرىٰ ينام علىٰ فرش الديباج، فإن كنت نبياً فأين ملكك؟

قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾ سبب نزولها[1]: ما روىٰ ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحجاج بن عمرو وكهمس بن أبي الحقيق وقيس بن زيد يبطنون بنفرٍ من الأنصار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، لا يفتنوكم عن دينكم، فأبىٰ أولئك النفر إلا مباطنتهم، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ممن كان يظهر لمودة لكفار مكة.

وقيل: نزلت في عبد الله بن أُبي وأصحابه، كانوا يتولون المشركين واليهود، ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر علىٰ رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، ونهىٰ المؤمنين عن مثل ذلك.

وقيل: إن عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود، فقال يوم الأحزاب: يا رسول الله، إن معي خمس مئة من اليهود، وقد رأيت أن استظهر بهم علىٰ العدو، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ...﴾ قيل: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارىٰ؛ حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فنزلت هذه، فعرضها رسول الله ﷺ عليهم، فلم يقبلوها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وقف رسول الله ﷺ علىٰ قريش، وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام، وجعلوا في آذانها الشنوف، وهم يسجدون

---

(١) الخازن.

لها، فقال: يا معشر قريش، والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل، فقالت قريش: إنما نعبدها حباً لله؛ لتقربنا إلىٰ الله زلفىٰ، فنزلت هذه الآية.

وقيل: إنَّ نصارىٰ نجران قالوا: إنما نقول هذا القول في عيسىٰ حباً لله وتعظيماً له، فأنزل: قل يا محمد إن كنتم تحبون الله.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلِ﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه ﴿ٱللَّهُمَّ﴾؛ أي: يا إلهي ويا معبودي ويا ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ ويا صاحب السلطنة والغلبة العامة لجميع الكائنات، وقيل: يا مالك الخلق من العرش إلىٰ الفرش، ومدبرهم ومصرفهم، وقيل: يا مالك الدنيا والآخرة أنت ربنا سبحانك لك السلطان الأعلى، والتصرف التام في تدبير الأمور، وإقامة ميزان النظام العام في الكائنات، فأنت ﴿تُؤۡتِي﴾ وتعطي ﴿ٱلۡمُلۡكَ﴾ الخاص والسلطنة والغلبة ﴿مَن تَشَآءُ﴾ وتريد إيتاءه وإعطاءه له من خلقك، فتملكه وتسلطه علىٰ من تشاء، أو تعطي النبوة من تشاء، كمحمد ﷺ؛ لأنها أعظم مراتب الملك؛ وذلك لأن النبي ﷺ له الأمر علىٰ الخلائق من جهة مالك الملوك، لا بالسياسة والأسباب الاجتماعية بتكوين القبائل والشعوب ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ﴾؛ أي: تسلب الملك ﴿مِمَّن تَشَآءُ﴾ أن تسلبه منه؛ إما بالموت، أو إزالة العقل، أو إزالة القوىٰ والحواس، أو بورود التلف علىٰ الأموال، أو بانحراف الناس عن الطريق السوي الحافظ للملك؛ من العدل، وحسن السياسة، وإعداد القوة بقدر المستطاع؛ كما نزعه من بني إسرائيل وغيرهم؛ بظلمهم وفسادهم، أو تنزع النبوة ممن تشاء، وتؤتيها من تشاء. ومعنى: نَزْعِها: نقلها من قومٍ إلىٰ قومٍ؛ كما نقلها من بني إسرائيل إلىٰ العرب، فأعطاها محمداً ﷺ فإنه لا نبي بعده، ولم يشركه في نبوته ورسالته أحد. ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ إعزازه بإعطائه الملك والسلطنة، وتنصره علىٰ عدوه، أو بالإيمان والحق وبالأموال الكثيرة من الناطق والصامت، وبإلقاء الهيبة في قلوب الناس، أو بالنبوة والرسالة، كمحمد ﷺ ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ إذلاله بسلب ملكه، وتسليط عدوه عليه، أو بالكفر والباطل، أو بنزع النبوة منهم وضرب الجزية عليهم؛ كاليهود، فأنت

المعطي[1] وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلىٰ شكر نعمة الله تعالىٰ علىٰ رسوله محمد ﷺ، وعلىٰ هذه الأمة؛ لأن الله تعالىٰ حول النبوة من بني إسرائيل إلىٰ النبي العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء علىٰ الإطلاق، ورسول الله إلىٰ جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن مَن كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل، في العلم بالله، وشريعته، وإطلاعه علىٰ الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه علىٰ سائر الأديان والشرائع. فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلىٰ يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار.

واعلم: أن للعزة آثاراً وللذل مثلها؛ فالعزيز يكون نافذ الكلمة كثير الأعوان مالكاً للقلوب بجاهه أو علمه، النافع للناس مع بسطة في الرزق، وإحسان إلىٰ الخلق.

والذليل يرضىٰ بالضيم والمهانة، ويضعف عن حماية الحريم، ومقاومة العدو المهاجم، ولا عز أعظم من الاجتماع والاتفاق والتعاون علىٰ نشر دعوة الحق، ومقاومة الباطل، إذا سار المجتمعون علىٰ السنن التي سنها الله لعباده، فأعدوا لكل أمر عدته، ولا عبرة بكثرة عدد الأمة وقلته في تكوين العزة واجتماع القوة، فقد كان المشركون في مكة، واليهود ومنافقوا العرب في المدينة يغترون بكثرتهم علىٰ النبي ﷺ والمؤمنين، ولكن لم يغنِ ذلك عنهم شيئاً كما قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ الآية.

والمشاهدة أكبر دليل علىٰ صدق هذا، انظر إلىٰ الشعوب الأرمية في شرق إفريقيا، علىٰ كثرة عدد كل شعب منها كيف استأمرها، وتحكم فيها ملوك الحبشة، علىٰ قلة عددهم. وما ذلك لا لفشو الجهل، وتفرق الكلمة، والتخاذل في مقاومة الغاصب، بل ممالأة بعضهم له إذا جاش بصدر بعضهم مقاومته،

---

(١) ابن كثير.

والسعي في إزالة طغيانه وتحكمه في الرقاب والبلاد، هذه مصيبة ما أعظمها. فإنا لله وإنا إليه راجعون، فنسأل الله أن ينصر المسلمين علىٰ أعدائهم، ويردَّ إليهم أراضيهم بتوفيقهم كلمة الحق. آمين.

﴿بِيَدِكَ﴾ يا إلهي لا بيد غيرك ﴿ٱلْخَيْرُ﴾ كله من الإعزاز والنصرة والغنيمة، وكذا بيدك الشر من الإذلال والخذلان والهزيمة، فهو من باب الاكتفاء. إلا أنه خص الخير بالذكر؛ لأنه المنتفع به والمرغوب فيه، ولأنه المناسب للمقام، فإنه ما أغرىٰ أولئك الجاحدين وجعلهم يستهينون بالدعوة إلا فقر الداعي، وضعف أتباعه، وقلة عددهم، فأمره الله أن يلجأ إلىٰ مالك الملك الذي بيده الإعزاز والنصر، وأن يذكره بأن الخير كله بيده فلا يعجزه أن يعطي نبيه والمؤمنين من السيادة وبسطة السلطنة ما وعدهم، وأن يؤتيهم من الخير ما لا يدور بخلد أولئك الذين استضعفوهم، كما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾.

واليد صفة ثابتة له تعالىٰ نؤمن بها ولا نكيفها ولا نمثلها، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ كما هو المذهب الأعلم الأسلم الذي عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ﴿إِنَّكَ﴾ يا إلهي ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تريده من إيتاء الملك لمن تشاء ونزعه منه، وإعزاز من تشاء وإذلال من تشاء ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر عليه ولا يقدر على شيء أحد غيرك إلا بإقدارك.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾؛ أي: إنك يا إلهي بقدرتك تدخل بعض ساعات الليل ﴿فِى ٱلنَّهَارِ﴾ فيكون النهار أطول بقدر ما نقص من الليل حتىٰ يكون النهار خمسة عشر ساعة، وذلك غاية طول النهار، ويكون الليل تسع ساعات، وذلك غاية قصر الليل؛ كما يكون في زمن الصيف ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: وتدخل بعض ساعات النهار ﴿فِى ٱلَّيْلِ﴾ فيكون الليل أطول بقدر ما نقص من النهار حتىٰ يكون الليل خمسة عشر ساعة، وذلك غاية طوله، ويكون النهار تسع ساعات، وذلك غاية قصره؛ كما يكون في زمن الشتاء.

وقيل[1]: المراد أنه تعالىٰ يأتي بسواد الليل عقيب ضوء النهار، ويأتي بضوء النهار بعد ظلمة الليل. والقول الأول أصح وأقرب إلىٰ معنىٰ الآية؛ لأنه إذا نقص الليل كان ذلك القدر زيادة في النهار، وبالعكس وهو معنىٰ: الولوج.

والخلاصة: أنك بحكمتك في خلق الأرض مكورة، وجعل الشمس بنظام خاص تزيد في أحد الملوين الليل والنهار ما يكون سبباً في نقص الآخر، فليس بالمنكر بعد هذا أن تؤتي النبوة والملك من تشاء؛ كمحمد وأمته من العرب، وتنزعهما ممن تشاء؛ كبني إسرائيل، فما مثل تصرفك في شؤون الناس إلا مثل تصرفك في الليل والنهار.

﴿و﴾ إنك يا إلهي ﴿تخرج الحي﴾ حياة معنوية ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ موتاً معنوياً؛ كالعالم من الجاهل، والمؤمن من الكافر؛ كعكرمة من أبي جهل؛ لأن المؤمن حي الفؤاد والكافر ميت الفؤاد، أو حياة وموتاً حسيين؛ كالإنسان من النطفة، والطائر من البيضة.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ﴾ موتاً معنوياً أو حسياً ﴿مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ حياة معنوية أو حسية؛ كالجاهل من العالم، والكافر من المؤمن؛ ككنعان من سيدنا نوح عليه السلام، وكالنطفة من الإنسان، والبيضة من الطائر، وكذلك سائر الحيوان.

﴿و﴾ إنك يا إلهي ﴿ترزق﴾ وتعطي ﴿مَن تَشَآءُ﴾ وتريد رزقه رزقاً كثيراً ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ومقدار لا يعرف الخلق عدده، ومقداره لكثرته وإن كان معلوماً عنده تعالىٰ يعني من غير تضييق ولا تقتير، بل تبسط الرزق لمن تشاء وتوسعه عليه.

والخلاصة: أن من قدر علىٰ تلك الأفعال العجيبة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب.. فهو قادر علىٰ أن ينزع الملك من العجم، ويذلهم، ويؤتيه العرب، ويعزهم فإن الأمر كله بيده، وفي بعض الكتب السالفة: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي فإن العباد أطاعوني.. جعلتهم

(١) الخازن.

عليهم رحمة، وإنْ العباد عصوني.. جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشغلوا بسب الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطفهم عليكم. وهو معنىٰ قوله عليه السلام: «كما تكونوا يولىٰ، عليكم» وقيل معنىٰ: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: يرزقه بلا تكلف ولا تعب ولا ضيق؛ أي: ومن غير توقف علىٰ عمل منا، وإلا فلو توقف رزقه علىٰ عمل منا.. لما أعطانا شيئاً أبداً، فسبحان الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة علىٰ من عصاه.

وقال أبو العباس المقري[1]: ورد لفظ الحساب في القرآن علىٰ ثلاثة أوجه: بمعنىٰ: التعب، كما في هذه الآية، وبمعنىٰ: العدد، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وبمعنى: المطالبة؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وشدد حفص ونافع وحمزة والكسائي[2]: ﴿ٱلْمَيِّتَ﴾ في هذه الآية. وفي الأنعام والأعراف ويونس والروم وفاطر زاد نافع تشديد الياء في قوله: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ في الأنعام، ﴿والأرض الميتة﴾ في يونس، و ﴿لحم أخيه ميتاً﴾ في الحجرات، وقرأ الباقون بتخفيف ذلك، ولا فرق بين التشديد والتخفيف في الاستعمال؛ كما نقول: لَيْن ولَيِّن وهيْن وهيّن، ومن زعم أن المخفف لما قد مات، والمشدد لما لم يمت.. فيحتاج إلىٰ دليل.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يجعل المؤمنون ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أصدقاءَ وأنصاراً وأعواناً ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من غير المؤمنين وسواهم؛ أي[3]: لا يوال المؤمنون الكافرين لا استقلالاً ولا اشتراكاً مع المؤمنين، وإنما الجائز لهم قصر الموالاة والمحبة علىٰ المؤمنين بأن يوالي بعضهم بعضاً فقط، فقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الفاعل؛ أي: حال كون المؤمنين متجاوزين بموالاتهم المؤمنين؛ أي: تاركين قصر الولاية عليهم، وذلك الترك يصدق

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراح.

بصورتين كونها مشتركة بين الكفار والمؤمنين، وكونها مخصصة بالكفار؛ أي: لا يصطف[1] المؤمنون الكافرين، فيكاشفوهم بالأسرار الخاصة بالشؤون الدينية، ويقدموا مصلحتهم علىٰ مصلحة المؤمنين؛ إذ في هذا تفضيل لهم عليهم وإعانة للكفر علىٰ الإيمان.

وخلاصة هذا: نهىٰ المؤمنين عن مولاة الكافرين لقرابة أو صداقة جاهلية أو جوار، أو نحو ذلك من أسباب المصادقة والمعاشرة، بل ينبغي أن يراعوا ما هم عليه مما يقتضيه الإسلام من الحب والبغض لمصلحة الدين فحسب. ومن ثَمَّ تكون موالاة المؤمنين أجدىٰ لهم في دينهم من مولاة الكافرين.

فإن كانت الموالاة والمحالفة لمصلحة المؤمنين.. فلا مانع منها، فقد حالف النبي ﷺ خزاعة وهم علىٰ شركهم، كما لا مانع من ثقة المسلم بغيره وحسن معاملته في أمور الدنيا.

واعلم أن كون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون راضياً بكفره ويتولاه لأجله، وهذا ممنوع؛ لأن الرضا بالكفر كفر.

وثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر، وذلك غير ممنوع.

وثالثها: الركون إلىٰ الكفار والمعونة لهم والنصرة، إما بسبب القرابة، أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل، فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهيٌّ عنه؛ لأن المُوالاة بهذا المعنى قد تجره إلىٰ استحسان دينه والرضا بطريقته، وذلك يخرجه عن الإسلام، فهذا هو الذي هَدَّد الله فيه بقوله الآتي: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، وقرأ الضبي شذوذاً: لا يتخذُ برفع الذال على النفي، والمراد به: النهي، وقد أجاز الكسائي فيه الرفع كقراءة الضبي وذلك شذوذاً كما سبق بيانه، قال أبو حيان[2]: وظاهر الآية تقتضي النهي عن موالاتهم إلا ما فسح

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

لنا فيه من اتخاذهم عبيداً، والاستعانة بهم استعانة العزيز بالذليل، والأرفع بالأوضع، والنكاح فيهم، فهذا كله ضرب من الموالاة أذن لنا فيه، ولسنا ممنوعين منه، فالنهي ليس علىٰ عمومه. انتهىٰ.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: اتخاذ الكافرين أولياء بالاستقلال، أو بالاشتراك مع المؤمنين فيما يضر مصلحة الدين؛ بنقل الأخبار إليهم وإظهار عورة المسلمين لهم، أو يودهم ويحبهم ﴿فَلَيْسَ﴾ ذلك الموالي ﴿مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: من ولاية الله ودينه ﴿فِي شَيْءٍ﴾ قليل ولا كثير؛ أي: فليس بمطيع لله ولا ناصر لدينه، وصلة الإيمان بينه وبين ربه تكون منقطعة، ويكون من الكافرين كما جاء في آية أخرىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، وهذا أمر معقول من أن ولاية المولىٰ معاداة أعدائه، وموالاة الله وموالاة الكفار ضدان لا يجتمعان ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾؛ أي: إلا أن تخافوا أيها المؤمنون من الكفار مخافة وضرراً؛ أي: إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه والاحتراز منه؛ بأن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه علىٰ نفسك، أو مالك، فحينئذٍ يجوز إظهار الموالاة وإبطان المعاداة؛ أي: لا تتخذوا الكفار أولياء ظاهراً أو باطناً في حال من الأحوال إلا في حال اتقائكم وخوفكم من جهتهم اتقاءً ومخافةً.

والمعنىٰ: نهىٰ[1] الله سبحانه وتعالىٰ المؤمنين من موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار فيداهنهم بلسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه، من غير أن يستحل دماً حراماً ومالاً حراماً، أو غير ذلك من المحرمات، ومن غير أن يظهر الكفار علىٰ عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل مع صحة النية.

وخلاصة الكلام[2]: أن ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم في كل حال إلا في حال الخوف من شيء تتقونه منهم، فلكم حينئذٍ أن تتقوهم بقدر ما يُتقىٰ ذلك الشيء؛ إذ القاعدة الشرعية أن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح،

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

وإذا جازت موالاتهم لاتقاء الضرر، فأولىٰ أن تجوز لمصلحة المؤمنين، وإذاً فلا مانع من أن تحالف دولة إسلامية دولة غير مسلمة لفائدة تعود إلىٰ الأولىٰ إما بدفع خطر، أو جلب منفعة، وليس لها أن تواليها في شيء يضر بالمسلمين، ولا تخص هذه الموالاة بحال الضعف، بل هي جائزة في كل وقت.

وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية؛ بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق؛ لأجل توقي ضرر من الأعداء يعود إلىٰ النفس أو العرض أو المال.

فمن نطق بكلمة الكفر مكرهاً وقايةً لنفسه من الهلاك، وقلبه مطمئن بالإيمان.. لا يكون كافراً، بل يُعذْر كما فعل عمار بن ياسر حين أكرهته قريش علىٰ الكفر.. فوافقها مكرهاً وقلبه مليء بالإيمان، وفيه نزلت الآية: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

وكما عذر الصحابي الذي قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أني رسول الله؟ فقال: نعم، حين أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم نعم، قال: أفتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فتركه، ودعا الآخر فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أفتشهد أني رسول الله؟ فقال: أني أصمُّ ثلاثاً، فقدمه وقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما هذا المقتول فمضىٰ علىٰ يقينه وصدقه فهنيئاً له، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تَبِعة عليه». وهي من الرخص لأجل الضرورات العارضة، لا من أصول الدين المتبعة دائماً، ومن ثَمَّ وجب علىٰ المسلم الهجرة من المكان الذي يخاف فيه من إظهار دينه ويضطر فيه إلىٰ التقية، ومن كمال الإيمان أن لا يخاف في الله لومة لائم كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

وكان النبي ﷺ وأصحابه يتحملون الأذىٰ في سبيل دعوة الدين، ويصبرون عليه.

ويدخل في التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة، وإلانة الكلام لهم، والتبسم في وجوههم، وبذل المال لهم؛ لكف أذاهم وصيانة العرض منهم، ولا يعد هذا من الموالاة المنهي عنها، بل هو مشروع، فقد أخرج الطبراني قوله ﷺ: «ما وقىٰ به المؤمن عرضه، فهو صدقة».

وعن عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل علىٰ رسول الله ﷺ وأنا عنده، فقال رسول الله ﷺ: «بئس ابن العشيرة، أو أخو العشيرة، ثم أذن له، فألان له القول»، فلما خرج.. قلت: يا رسول الله قلت ما قلت، ثم ألنتَ له القول، فقال: «يا عائشة إن من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه» رواه البخاري وروى قوله ﷺ «إنا لَنَبَشُّ - نبتسم - في وجوه قوم، وإن قلوبنا لتقليهم - تبغضهم» - وقرأ الجمهور: ﴿تُقَىٰةً﴾، وأمال الكسائي: ﴿تُقَىٰةً﴾ و ﴿حق تقاته﴾، ووافقه حمزة هنا. وقرأ ورش بين اللفظين، وفتح الباقون وقرىء: ﴿تقية﴾.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: يخوفكم الله ﴿نَفْسَهُ﴾؛ أي: غضبه وسخطه عليكم؛ بأن ترتكبوا المنهي، أو تخالفوا المأمور، أو توالوا الكفار، فتستحقوا غضبه وعقابه علىٰ ذلك كله، فالكلام علىٰ حذف مضاف، وفائدة ذكر: ﴿نَفْسَهُ﴾ الإيماء إلىٰ أن الوعيد صادر منه تعالىٰ، وهو القادر علىٰ إنفاذه، ولا يعجزه شيء عنه.

وفي ذلك وعيد شديد، وتهديد عظيم لمن تعرض لسخطه بموالاة أعدائه؛ لأن شدة العقاب بحسب قوة المعاقِب وقدرته. ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ لا إلىٰ غيره ﴿الْمَصِيرُ﴾ والمرجع؛ أي: رجوع جميع الخلائق بالبعث من القبور إلىٰ الله، فيجازي كلاً علىٰ عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والمعنىٰ: فاحذروه، ولا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه، وموالاة أعدائه، وهو وعيد آخر أيضاً.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ أي: تسروا وتستروا ما في قلوبكم من موالاة الكفار ومودتهم، أو من البغض والعداوة لمحمد ﷺ إن قلنا: إن الآية نزلت في حق المنافقين واليهود، وإنما ذكر الصدر؛ لأنه وعاء القلب. ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾؛ أي: أو تظهروا ما في قلوبكم من مودة الكفار قولاً وفعلاً، أو تظهروا ما في قلوبكم من بغض محمد وعداوته بالشتم له والطعن والمحاربة له

﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يحفظه الله عليكم، فيجازيكم به ﴿و﴾ هو سبحانه وتعالىٰ ﴿يعلم﴾ جميع ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الخير والشر والسر والعلانية، وهذه الجملة مستأنفة وليست بمعطوفة على جواب الشرط، وهي من إتمام التحذير، يعني: أنه تعالى إذا كان لا يخفىٰ عليه شيء في السموات والأرض.. فكيف يخفىٰ عليه حالكم، وموالاتُكم الكفار، وميلكم إليهم بقلوبكم؟.

والمعنىٰ: أنه تعالىٰ يعلم ما تنطوي عليه قلوبكم إذ توالون الكفار، أو توادونهم، أو تتقون منهم ما تتقون. فإن كان ذلك يميل بكم إلىٰ الكفر.. جازاكم عليه، وإن كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان.. غفر لكم ولم يؤاخذكم علىٰ عمل لا جريمة فيه علىٰ الدين، ولا علىٰ أهله، وهو إنما يجازيكم بحسب علمه المحيط بما في السموات والأرض؛ لأنه الخالق لها، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أهل السموات والأرض وثوابهم وعقابهم ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، فهو يقدر علىٰ عقوبتهم، فلا تجترئوا علىٰ عصيانه وموالاة أعدائه؛ إذ ما من معصية خفيةً كانت أو ظاهرة إلا وهو مطلع عليها، قادر على عقاب فاعلها، وقدرته نافذة في جميع ذلك، وهذا[1] تنبيه منه لعباده علىٰ خوفه وخشيته؛ لئلا يرتكبوا ما نهىٰ عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر مَن أنظر منهم، فإنه يمهل، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾؛ أي: اذكروا واحذروا عقوبته ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾، وتصيب كل نفس فيه جزاء ما عملته وكسبته من خير؛ وهو يوم القيامة حال كونه محضراً؛ أي: مكتوباً في ديوانها لم ينقص منه شيء، وتسر به. وقرأ الجمهور: ﴿مُّحْضَرًا﴾ - بفتح الضاد - اسم مفعول، وقرأ عبيد بن عمير شذوذاً: (محضِراً) - بكسر الضاد - اسم فاعل؛ أي: محضراً للجنة، أو محضراً مسرعاً به إلىٰ الجنة من قولهم: أحضر الفرس إذا جرىٰ وأسرع. ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ مبتدأ، خبره جملة قوله:

---

(١) ابن كثير.

﴿تَوَدُّ﴾؛ أي: والذي عملته وكسبته نفس من سوء وعصيان حالة كونه محضراً ومكتوباً في ديوانها تود وتتمنىٰ وتحب ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾؛ أي: تتمنىٰ كون مسافة بعيدة طويلة بينها وبين ذلك السوء خوفاً من جزائه وعقوبته، قيل: كما بين المشرق والمغرب.

فما رأى[1] من عمله حسناً.. سرَّه ذلك، وأفرحه، وما رأىٰ من قبيحٍ.. ساءَه وغصه وود لو أنه تبرأ منه، وكان بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان قريناً به في الدنيا، وهو الذي جرأه علىٰ فعل السوء: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، ثم قال تعالىٰ مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: يخوفكم عقابه، والمعنىٰ: احذروا من سخط الله؛ بترجيح جانب الخير وعمله علىٰ ما يزينه لكم الشيطان من عمل السوء. ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وكرر هذه الجملة؛ إما للتأكيد، والأحسن ما قاله سعد الدين التفتازاني: إن ذكره أولاً للمنع من موالاة الكافرين، وثانياً للحث علىٰ عمل الخير والمنع من عمل الشر، ثم قال جل جلاله مرجياً لعباده؛ لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: شديد الرحمة بهم؛ حيث قطع عذرهم ببيان ذلك في زمن يسع التوبة والرجوع إليه فيه، ومن جملة رأفته بهم: كثرة التكرار والتأكيد في الكلام؛ لعله يصل إلىٰ قلوب السامعين، فيعملوا بمقتضاه.

قال الحسن البصري: ومن رأفته أن حذرهم نفسه، وعرفهم كمال علمه وقدرته؛ لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة.. دعاهم ذلك إلىٰ طلب رضاه واجتناب سخطه. انتهى.

ومن رأفته أيضاً أن جعل الفطرة الإنسانية ميَّالةً بطبعها إلىٰ الخير، مبغضة لما يعرض لها من الشر، وأن جعل أثر الشرِّ في النفس قابلاً للمحو بالتوبة والعمل الصالح.

---

(١) ابن كثير.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾: مناسبة الآية لما قبلها: لما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ جلال سلطانه، وعظيم كماله، ثم نهىٰ المؤمنين عن موالاة أعدائه، وأكد ذلك بالوعيد الشديد.. ذكر هنا أن طريق محبته متابعة رسوله، وامتثال أوامره التي جاء بها، واجتناب ما نهىٰ عنه، وبذلك يكون المرء أهلاً لمحبته، مستحقاً لغفران ذنوبه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: تريدون محبة الله وطاعته، وترغبون في العمل بما يقرب إليه طلباً للثواب فيما عنده ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾؛ أي: فاقتدوا بي بامتثال ما نزل به الوحي منه إليَّ ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يرضىٰ الله عنكم أعمالكم ويثبكم عليها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي؛ ويتجاوز لكم عما فرط منكم من الأعمال السيئة والاعتقادات الباطلة، فيقربكم من جنات عزِّه، ويبوئكم في جوار قدسه؛ إذ في هذا الاتباع اعتقاد الحق والعمل الصالح، وهما يزيلان من النفس آثار المعاصي والرذائل، ويمحوان منها ظلمة الباطل، وأثر ذلك: المغفرة ورضوان الله.

وهذا حجة علىٰ من يدعي محبة الله في كل زمان، وأعماله تكذب ما يقول؛ إذ كيف يجتمع الحب مع الجهل بالمحبوب، وعدم العناية بأوامره ونواهيه؟ فهو كما قال الورَّاق:

تَعْصِيْ ٱلإِلٰهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِيْ فِيْ ٱلْقِيَاسِ بَدِيْعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقَاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ ٱلْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مَطِيْعُ

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تحبب إليه بطاعته ﴿رَّحِيمٌ﴾ بمن تقرب إليه باتباع نبيه في الدنيا والآخرة؛ إذ في هذا تزكية للنفس بصالح العمل، فيغفر لها ما فرط من زلاتها، ويتجاوز عن سيئاتها.

فائدة: والمحبة[١] ميل النفس إلىٰ الشيء لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها علىٰ ما يقربها ـ أي: النفس ـ إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا

---

(١) الكرخي.

لله عزّ وجلّ، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه، أو من غيره، فهو من الله وبالله وإلىٰ الله.. لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته، والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ في عبادته والحرص علىٰ مطاوعته، قاله القاضي.

وقال بعضهم: إن محبة العبد لله عبارة عن: إعظامه وإجلاله وإيثار طاعته واتباع أمره ومجانبة نهيه، ومحبة الله للعبد عبارة عن: ثنائه عليه ورضاه عنه وثوابه له وعفوه عنه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وقيل[1]: محبة الله: معرفته ودوام خشيته ودوام اشتغال القلب به بذكره ودوام الأنس به. وقيل: علامة المحبة أن يكون دائم التفكر، كثير الخلوة، دائم الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يحزن إذا أُصيب، ولا يصرخ إذا أصاب، ولا يخشىٰ أحداً، ولا يرجوه. وروي أنه لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الآية قال عبد الله بن أبي رئيس المنافقين لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه؛ كما أحبت النصارىٰ عيسىٰ بن مريم. فأنزل الله عزّ وجلّ أمراً لكل أحد من خاص وعام ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: قل لهم يا محمد: أطيعوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأطيعوا رسوله باتباع سنّته، والاهتداء بهديه.

وفي هذا إرشاد إلىٰ أن الله إنما أوجب عليكم متابعته؛ لأنه رسوله، لا كما تقول النصارىٰ في عيسى.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: فإن أعرضوا ولم يجيبوا دعوتك غروراً بدعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم علىٰ ملة إبراهيم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين تصرفهم أهواؤهم عن النظر الصحيح في آياته، وعما أنزله علىٰ رسوله، فلا يرضىٰ عنهم، بل يبعدهم عن جوار قدسه وحظيرة عزته، ويسخط عليهم يوم يرضىٰ عن المؤمنين به، المطيعين لنبيه، المتبعين لما جاء به من عند ربه، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) النسفي.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إقامة الظاهر مقام المضمر، أي: لا يحبهم ولا يرضىٰ فعلهم ولا يغفر لهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ، قالوا: ومن يأبىٰ؟ قال: من أطاعني.. دخل الجنة، ومن عصاني.. فقد أبىٰ» أخرجه البخاري في «صحيحه».

وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني.. فقد أطاع الله، ومن عصاني.. فقد عصى الله، ومن يطع الأمير.. فقد أطاعني ومن يعصِ الأمير.. فقد عصاني» متفق عليه.

وروى مسلم في «صحيحه» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله إذا أحبَّ عبداً.. دعا جبريل، فقال: إني أحب فلاناً، فأحبَّه، قال: فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلاناً، فأحبُّوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً.. دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلاناً، فأبغضْه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء؛ إن الله يبغض فلاناً، فأبغِضُوه، فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿تُحبون﴾ و﴿يحببكم﴾ ـ بضم التاء والياء ـ من: أحبَّ الرباعي، وقرأ أبو رجاء العطاردي شذوذاً: ﴿تَحبون ويَحببكم﴾ ـ بفتح التاء والياء ـ من: حبَّ الثلاثي، وهما لغتان، وذكر الزمخشري: أنه قرىء: ﴿يحبكم﴾ ـ بفتح الياء، والإدغام ـ وهو شاذ أيضاً وقرأ الزهري شذوذاً: ﴿فاتبعونّي﴾ ـ بتشديد النون ـ أَلحق بفعل الأمر نون التوكيد، وأدغمها في نون الوقاية، ولم يحذف الواو؛ شبهاً بـ ﴿تحاجوني﴾، وهذا توجيه شذوذ، وروي عن أبي عمرو إدغام راء ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ في لام ﴿لَكُمْ﴾. وذكر ابن عطية عن الزجاج: أن ذلك خطأ وغلط، ولكن رؤساء الكوفة كأبي جعفر الرؤاسي والكسائي والفراء رووا ذلك عن العرب، ورأسان من أهل البصرة ـ وهما أبو

---

(١) البحر المحيط.

عمرو ويعقوب ـ قرأا بذلك وروياه، فلا التفات لمن خالف في ذلك.

الإعراب

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: منادى مفرد العلم في محل النصب علىٰ المفعولية مبني على الضم؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والميم المشددة عوض عن حرف النداء، ولذلك لا يجتمعان، وهذا التعويض خاص بالاسم الجليل؛ كما اختص بجواز الجمع فيه بين (يا) و(أل) وبقطع همزته ودخول تاء القسم عليه. ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾: منادىٰ مضاف، حذف منه حرف النداء تقديره: يا مالك الملك، وجملة النداء في النصب جزء المقول، وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ فيه[1] أربعة أوجه: **أحدها**: أنه بدل من ﴿ٱللَّهُمَّ﴾. **الثاني**: أنه عطف بيان. **الثالث**: أنه منادىٰ ثانٍ حذف منه حرف النداء، أي؛ يا مالك الملك، وهذا هو البدل في الحقيقة؛ إذ البدل علىٰ نية تكرار العامل إلا أن الفرق أن هذا ليس بتابع. **الرابع**: أنه نعت لقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ علىٰ الموضع؛ فلذلك نُصب. انتهىٰ باختصار. ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾: فعل ومفعول ثانٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ولكنها الآن في محل النصب جزء المقول. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول، ﴿تَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تشاؤه. ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾: الواو عاطفة (تنزع الملك): فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾. ﴿مِمَّن﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تنزع﴾، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) الجمل.

﴿وَتُعِزُّ﴾ الواو عاطفة. ﴿تعز﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾ صلة لها، والعائد محذوف تقديره: من تشاء إعزازه. ﴿وَتُذِلُّ﴾: الواو عاطفة. (تذل): فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُؤْتِي﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾ صلته. ﴿بِيَدِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر مقدم. ﴿ٱلْخَيْرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿تُؤْتِي﴾، ﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ حرف نصب، الكاف اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بقوله: ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو خبر ﴿إن﴾، والجملة مستأنفة.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿تُولِجُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلَّيْلَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُؤْتِي﴾ ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾: متعلق بـ﴿تُولِجُ﴾. ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾: إعرابها مثل ما قبلها. ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: الواو عاطفة. ﴿تخرج﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾. ﴿ٱلْحَيَّ﴾: مفعول به. ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: متعلق بـ﴿تخرج﴾. ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ هذه الجملة مثل ما قبلها إعراباً. ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ﴾: الواو عاطفة. ﴿ترزق﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾ صلته. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، يجوز[1] أن يكون حالاً من المفعول المحذوف تقديره: ترزق من تشاؤه غير محاسب، وأن يكون حالاً من ضمير الفاعل تقديره: غير محاسب له، أو غير مُضيِّق له، ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، أو مفعول محذوف تقديره: رزقاً غير قليل.

---

(١) العكبري.

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾.

﴿لَّا﴾: ناهية جازمة، أو نافية، ﴿يَتَّخِذِ﴾: مرفوع والمعنىٰ: لا ينبغي أن يتخذوهم أولياء ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فاعل ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول أول، والجملة مستأنفة، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثانٍ. ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال[١] من الفاعل؛ أي: حال كون المؤمنين متجاوزين للمؤمنين؛ أي: متجاوزين الاستقلال بموالاة المؤمنين؛ أي؛ تاركين قصر الموالاة علىٰ المؤمنين، وقال[٢] أبو البقاء: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ في موضع نصب صفة لأولياء.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾.

﴿وَمَن يَفْعَلْ﴾ الواو استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر؛ إما جملة الشرط، وهو الراجح، أو جملة الجواب، أو هما كما مرَّ مِراراً. ﴿يَفْعَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(من)، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعول به. ﴿فَلَيْسَ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿مِنَ﴾ الشرطية وجوباً. ﴿ليس﴾؛ فعل ماضٍ ناقص، واسمها ضمير يعود علىٰ ﴿مِنَ﴾ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿شَىْءٍ﴾ الآن؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها فيعرب حالاً. ﴿فِى شَىْءٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿ليس﴾، وجملة ﴿ليس﴾ في محل الجزم بـ﴿مِنَ﴾ علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿مِنَ﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ من المفعول لأجله، والعامل فيه ﴿لَا يَتَّخِذِ﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَتَّقُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَتَّقُوا۟﴾ ﴿تُقَىٰةً﴾: منصوب علىٰ المفعولية المطلقة، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة المتعلقة بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، والتقدير: لا

---

(١) الجمل.

(٢) العكبري.

يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لشيء من الأشياء، ولا لغرض من الأغراض إلا لأجل اتقائكم منهم تقاة. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية. ﴿يحذركم الله﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، ﴿نَفْسَهُۥ﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه. وفي «السمين»: قوله؛ ﴿نَفْسَهُۥ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿يحذر﴾؛ لأنه في الأصل متعدٍ بنفسه إلىٰ مفعول واحد، فازداد بالتضعيف آخر. انتهىٰ، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ الجملة الفعلية، أو مستأنفة.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ إلىٰ آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُخْفُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿فِى صُدُورِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل ﴿تُبْدُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف علىٰ ﴿تُخْفُوا۟﴾ مجزوم علىٰ كونه فعل الشرط. ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، مجزوم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه جواب الشرط لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْلَمُ﴾ الواو استئنافية، ﴿يعلم﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾: أو صفة لها. ﴿وَمَا﴾: الواو عاطفة ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب معطوفة علىٰ ﴿مَا﴾ الأولى. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية أو عاطفة. ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة أو معطوفة علىٰ الجملة الفعلية المذكورة قبلها.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب علىٰ المفعولية بفعل محذوف تقديره: اذكروا يوم، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ﴿تَجِدُ﴾؛ لأن وجد هنا بمعنىٰ: أصاب فيتعدَّىٰ إلىٰ مفعول واحد. ﴿عَمِلَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ النفس، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عملته. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَمِلَتْ﴾، أو حال من ضمير المفعول المحذوف. ﴿مُّحْضَرًا﴾ حال من ﴿مَّا﴾ الموصولة.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾ الواو استئنافية ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ. ﴿عَمِلَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ النفس، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها. ﴿مِن سُوٓءٍ﴾: جار ومجرور حال من ضمير المفعول المحذوف ﴿تَوَدُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ النفس، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَوْ﴾: زائدة. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿بَيْنَهَا﴾: ظرف، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿أَنَّ﴾ مقدَّم علىٰ اسمها. ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾: معطوف عليه ﴿أَمَدًا﴾ اسم ﴿أَنَّ﴾ مؤخر ﴿بَعِيدًا﴾ صفة ﴿لأمداً﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب علىٰ كونه مفعولاً لـ﴿تَوَدُّ﴾ تقديره: وما عملته من سوء تود كون أمد بعيد بينها وبينه. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ تقدم إعرابها قريباً، فلا عود ولا إعادة فراجعه. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿رَءُوفٌ﴾.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِن كُنتُمْ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها، ﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كان﴾ تقديره: محبين الله ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إِن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية. ﴿اتبعوني﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به ونون وقاية، مبني علىٰ حذف النون، والجملة في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل، مجزوم بالطلب السابق، والجملة في محل النصب مقول القول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾: الواو عاطفة ﴿يغفر﴾: معطوف علىٰ ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾ مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله. ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يغفر﴾ ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، لكنها في محل النصب مقول القول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ إلىٰ آخر الآية أو إلىٰ قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلتَ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول. ﴿وَالرَّسُولَ﴾: معطوف علىٰ لفظ الجلالة. ﴿فَإِن﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا أمرتهم بطاعة الله والرسول، وأردت بيان حكم ما إذا تولوا عن طاعة الله.. فأقول لك، ﴿إن تولوا﴾: (إن): حرف شرط جازم. (تولوا): يحتمل أن يكون من تمام مقول القول، فيكون مضارعاً حذفت منه إحدى التاءين؛ أي: تتولوا، فيكون مجزوماً بحذف النون، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالىٰ، فيكون ماضياً في محل الجزم علىٰ كونه فعل الشرط لـ (إنْ)، والواو فاعل، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾: الفاء رابطة

لجواب (إن) الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية (إنَّ): حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ(إن) الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة: (إن) الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب جزء المقول، أو مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تنزع﴾: يقال: نزع الله عنه الشر، أو الملك ينزع ـ من باب ضرب ـ إذا أزاله عنه، وسلبه منه. ونزع الشيء من مكانه: إذا قلعه منه.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: من مزيد عَزَّ يعز عزاً بكسر العين فيهما إذا قوي بعد ذله أو غلب، ومنه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾.

﴿وَتُذِلُّ﴾: من مزيد ذلَّ يذل ـ بالكسر ـ ذلاً وذلةً إذا غلب وقهر. ﴿تُولِجُ﴾: يقال: ولج يلج ـ من باب: وعد ـ ولوجاً ولِجَة كعِدَة، والولوج: الدخول، والإيلاج الإدخال.

﴿تُقَىٰةً﴾: مصدر علىٰ وزن فعلة؛ لأنه مصدر تقَيته ـ بفتح القاف ـ كرميته رمية، وأصله: وقية؛ لأنه من الوقاية، فأبدلت الواو تاء، والياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، وفي «المختار»: تقىٰ يتقي كقضىٰ يقضي، والتقوىٰ والتقىٰ واحد، والتقاة: التقية يقال: اتقىٰ تقية وتقاة، وفي «القاموس»: وتقيت الشيء أتقيه من باب ضرب ا هـ.

﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ جمع: صَدْر، كفَلْس وفُلُوس، والصَّدْر معروف. ﴿أَمَدًا﴾: الأمد: غاية الشيء ومنتهاه، يجمع علىٰ آماد، والفرق بين الأمد والأبد: أن الأبد مدة من الزمان غير محدودة، والأمد مدة لها حد مجهول، والفرق بين الأمد والزمان: أن الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدأ والغاية.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة، وضروباً من البلاغة[1]:

منها: التكرار للتفخيم والتعظيم في قوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ وتكرار: ﴿مَن تَشَآءُ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿تُؤۡتِي﴾، ﴿وَتَنزِعُ﴾، ﴿وَتُعِزُّ﴾ ﴿وَتُذِلُّ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾، وفي قوله: ﴿تُبۡدُوهُ﴾ و﴿تُخۡفُوا۟﴾، وفي: ﴿خَيۡرٍ﴾ و﴿سُوٓءٍ﴾ و﴿مُّحۡضَرًا﴾ و﴿بَعِيدًاۗ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿تُحِبُّونَ﴾ و ﴿يُحۡبِبۡكُمُ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله ﴿تَتَّقُوا۟ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةًۗ﴾ وفي قوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾، و ﴿غَفُورٌ﴾.

ومنها: التعبير بالمحل عن الشيء في قوله: ﴿مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ عبر بها عن القلوب قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ الآية.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ الآية، أشار إلىٰ انسلاخهم من ولاية الله.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾، وفي قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

ومنها: التأنيس بعد الإيحاش في قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع كقوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾؛ أي: من تشاء إيتاءه، ومثله و﴿تنزع﴾. و﴿تعز﴾ و﴿تذل﴾.

ومنها: الخطاب العام الذي سببه خاص في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ

---

(١) البحر المحيط.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ﴾ وفي قوله: ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ﴾، وفي قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ﴾، وفي قوله: ﴿تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ و﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ و﴿ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ وفي قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، وهو عبارة عن إدخال هذا علىٰ هذا، وهذا علىٰ هذا، فما ينقصه من الليل.. يزيده في النهار، والعكس، ولفظ الإيلاج أبلغ؛ لأنه يفيد إدخال كل منهما في الآخر بلطيف الممازجة، وشديد الملابسة.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص تأكيداً له وتقريراً في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد قوله: ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، ولو جرىٰ على سنن الكلام الأول.. لجاء بالكلام غيبة.

فائدة: وروي في الحديث(١): «أن من أراد قضاء دينه، قرأ كل يوم: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلىٰ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ويقول: يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت تعطي منهما من تشاء، فأقضِ عني دَيْني، فلو كان ملء الأرض ذهباً.. لأدّاه الله عنه».

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ (٤١)﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ أن الدين الحق هو دين الإسلام والتوحيد، وأن اختلاف أهل الكتاب فيه إنما هو للبغي والحسد، وأن الفوز والفلاح منوط باتباع الرسول ﷺ وطاعته.. ذكر هنا من أحبهم واصطفاهم، ورفع درجاتهم، وجعل منهم الرسل الذين يبينون للناس طريق محبته وهي: الإيمان به مع طاعته، والعمل بما يرضيه، فبدأ بآدم أولهم، وهو أبو البشر، اصطفاه واجتباه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾، وثنَّىٰ بنوحٍ وهو الأب الثاني للبشر، فقد حدث علىٰ عهده ذلك الطوفان العظيم، فانقرض من السلاسل البشرية من انقرض، ونجا هو وأهله في الفلك العظيم، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين، ثم تفرقت ذريته، وانتشرت في البلاد، وفشت فيهم الوثنية، ثم ثلَّث بآل إبراهيم، فاندرج فيهم رسول الله ﷺ؛ لأنه من ولد إسماعيل، ثم ربَّع بآل عمران، فاندرج فيهم عيسىٰ عليه السلام، وأعقب ذلك

بذكر ثلاث قصص: قصة ولادة مريم، وقصة ولادة يحيىٰ، وقصة ولادة عيسىٰ. وكلها خوارق للعادة تدل علىٰ قدرة العلي القدير.

وقال أبو حيان[1]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما قدم قبل ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وأردفه بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، وختمها بأنه لا يحب الكافرين.. ذكر المصطفين الذين يجب اتباعهم، فبدأ أولاً بأولهم وجوداً وأصلهم، وثنىٰ بنوح عليه السلام؛ إذ هو آدم الأصغر، ليس أحد علىٰ وجه الأرض إلا من نسله، ثم أتىٰ ثالثاً بآل إبراهيم، فاندرج فيهم رسول الله ﷺ المأمور باتباعه وطاعته، وموسىٰ عليه السلام، ثم أتىٰ رابعاً بآل عمران، فاندرج في آله مريم وعيسىٰ عليهما السلام، ونص علىٰ إبراهيم لخصوصية اليهود بهم، وعلىٰ آل عمران لخصوصية النصارىٰ بهم، فذكر تعالىٰ جعل هؤلاء صفوة؛ أي: مختارين نَقاوة[2]، والمعنىٰ: أنه نَقَّاهم من الكَدَر، وهذا من تمثيل المعقول بالمحسوس.

أسباب النزول

قال ابن عباس رضي الله عنهما[3]: قالت اليهود: نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونحن علىٰ دينهم، فأنزل الله هذه الآية، والمعنى: إن الله اصطفىٰ هؤلاء بالإسلام، وأنتم يا معشر اليهود علىٰ غير دين الإسلام.

وقيل[4]: نزلت في نصارىٰ نجران لما غلوا في عيسىٰ، وجعلوه ابن الله تعالىٰ واتخذوه إلهاً.. نزلت رداً عليهم وإعلاماً أن عيسىٰ من ذرية البشر المتنقلين في الأطوار للمستحيلة علىٰ الإله، واستطرد من ذلك إلىٰ ولادة أمه، ثم إلىٰ ولادته هو.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) **نقاوة الشيء** ـ بضم النون ـ: خياره ومختاره.
(٣) الخازن.
(٤) البحر المحيط.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ واختار ﴿ءَادَمَ﴾ أبا البشر عليه السلام بالإسلام والنبوة، وعاش آدم في الأرض تسع مئة وستين سنة، وأما مدة إقامته في الجنة، فلا تحسب ﴿وَ﴾ اختار ﴿نوحاً﴾ الأصل الثاني للبشر، بالتوحيد والنبوة والرسالة، وجعله من أولي العزم، ولقب بنوح؛ لكثرة نوحه بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ. قيل: اسمه عبد الغفار، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس عليه السلام، وعُمِّر ألف سنة إلا خمسين عاماً.

وقيل: اصطفاء آدم عليه السلام بوجوه منها: خلقه أول هذا الجنس الشريف، وجعله خليفة في الأرض، وإسجاد الملائكة له، وإسكانه جنته، إلىٰ غير ذلك مما شرفه الله به.

واصطفاء نوح عليه السلام بأشياء منها: أنه أول رسول بُعث إلىٰ أهل الأرض بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر المحارم، وأنه أبو الناس بعد آدم، إلى غير ذلك.

واصطفاء آل إبراهيم عليه السلام: بأن جعل فيهم النبوة والكتاب.

﴿وَ﴾ اصطفى ﴿آل إبراهيم﴾؛ أي: عشيرته وأقاربه، والمراد بهم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط والأنبياء من أولادهم، ومن جملتهم خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ، وقيل: المراد بـ ﴿آل إبراهيم﴾: نفسه، فلفظ (﴿آل﴾) مُقحم؛ يعني: اختاره بالنبوة والرسالة والخلة، وعُمِّر إبراهيم مئة وسبعين سنة. ﴿وَ﴾ اصطفىٰ ﴿آل عمران﴾؛ أي: أهله، قيل: المراد بعمران هذا: هو عمران بن ماثان من ولد سليمان بن داود، وهو أبو مريم البتول أمِّ عيسىٰ عليه السلام، والمراد بآله: عيسىٰ، وأمه مريم، وقيل: عمران بن يصهر أبو موسىٰ وهارون، والمراد بآله: موسىٰ وهارون، ولكن الأرجح القولُ الأول بقرينة السياق، وبين العمرانين ألف وثمان مئة سنة، وقرأ عبد الله شذوذاً: ﴿وآل محمد﴾. ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: علىٰ عالمي زمانهم. قال القرطبي: وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء؛ لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم، والمعنى: اختارهم واصطفاهم

علىٰ العالمين؛ بما خصهم من النبوة والرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية، ولذلك قووا علىٰ ما لم يقوَ عليه غيرهم. ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾؛ أي: اصطفى الآلين حالة كونهم ذرية بعضها، متناسلون من بعض في النسب، وقيل: بعضها من بعض من التناصر والتعاضد، وقيل: متجانسين في الدين والتقىٰ والصلاح، فكما أن الأصول أنبياء ورسل، وكذلك الذريةَ بل في بعضها ما يفوق الأصول جميعاً كمحمد ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوال العباد ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وضمائرهم وأفعالهم، وإنما يصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً، وقيل: معناه: والله سميع لمقالة اليهود: نحن من ولد إبراهيم ومن آل عمران، فنحن أبناء الله وأحباؤه، وعلىٰ دينه، ولمقالة النصارىٰ: المسيح ابن الله، عليم بعقوبتهم.

واذكر لهم يا محمد قصة ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ حنة بنت فاقوذ، أم مريم حين شاخت، وكانت يوماً في ظل شجرة، فرأت طائراً يطعم فرخاً له ويسقيه، فعطفت، واشتاقت للولد من أجل رؤية ذلك الطائر، فدعت ربها أن يرزقها ولداً، ونذرت أن تهبه لبيت المقدس يخدمه، وكان ما من رجل من أشراف بيت المقدس إلا وله ولد منذور لخدمته، فاستجاب الله دعاءَها، فحملت بمريم، فلما أحسَّت بالحمل.. جددت النذر ثانياً، فقالت: يا ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾؛ أي: أوجبت علىٰ نفسي أن أجعل ما في بطني من الحمل محرراً لك، عتيقاً من أمر الدنيا لطاعتك، ومخلصاً لعبادتك وخادماً لمن يدرس الكتاب ويعلم في بيت المقدس ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾؛ أي: خذ مني ما نذرته لك علىٰ وجه الرضا ﴿إِنَّكَ﴾ يا إلهي ﴿أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لتضرعي ودعائي وندائي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في ضميري وقلبي ونيتي، وكان علىٰ أولادهم فرضاً أن يطيعوهم في نذرهم، فتصدقت بولدها علىٰ بيت المقدس، فلامها زوجها علىٰ ذلك؛ حيث أطلقت في نذرها، ولم تقيد بالذكر، فبقيت في حيرة وكرب إلىٰ أن وضعت ومات زوجها ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾؛ أي: ولدت المنذورة التي في بطنها ﴿قَالَتْ﴾ علىٰ وجه التحسر والاعتذار ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ﴾؛ أي: ولدت المنذورة التي في بطني حالة كونها ﴿أُنثَىٰ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما قالت هذا؛ لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور، قال

الله تعالىٰ تعظيماً لولدها وتجهيلاً لها بقدر ذلك الولد: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ بقدر ﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾؛ أي عالم بأن الذي ولدته وإن كان أنثىٰ أحسنُ وأفضل من الذكر، وهي غافلة عن ذلك، فلذلك تحسرت، وكانت مريم أجمل نساء زمانها وأكملهن، وهذا المعنىٰ علىٰ قراءة من قرأ بسكون التاء، وهي قراءة الجمهور، فيكون من كلام الله تعالىٰ علىٰ جهة التعظيم لما وضعته، والتفخيم لشأنه والتجليل لها؛ حيث وقع منها التحسر والتحزن، مع أن هذه الأنثىٰ التي وضعتها سيجعلها الله وابنها آية للعالمين، وعبرة للمعتبرين، ويخصها بما لم يخص به أحداً.

وقرأ أبو بكر شعبة وابن عامر ويعقوب: ﴿وضعتُ﴾ ـ بضم التاء ـ فيكون من جملة كلامها، ويكون متصلاً بما قبله، وفيه معنىٰ التسليم لله، والخضوع والتنزيه له من أن يخفىٰ عليه شيء، فإنها خافت من قولها: إني وضعتها أنثىٰ أن يظن بذلك القول أنها تخبر الله تعالىٰ.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما في رواية شاذة: ﴿بما وضعتِ﴾ بكسر التاء علىٰ أنه خطاب من الله تعالىٰ لها؛ أي: إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب، وما علم الله فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفهام، وتتضافر عندها العقول من العجائب والآيات. ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ أي: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثىٰ التي وضعت، فإنَّ غاية ما أرادتْ من كونه ذكراً أن يكون نذراً خادماً للكنيسة، وأمر هذه الأنثىٰ عظيم وشأنها فخيم، وهذه الجملة معترضة بين المعطوف الذي هو قوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وبين المعطوف عليه الذي هو قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ﴾ مبيِّنة لما في الجملة الأولى ـ أعني قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ ـ من تعظيم الموضوع ورفع شأنه وعلو منزلته، وفي الكلام تقديم وتأخير، والأصل: وليس الأنثى كالذكر، والمراد منه تفضيل هذه الأنثىٰ على الذكر، كأنها قالت: كان الذكر مطلوبي لخدمة البيت، وهذه الأنثىٰ هي موهبة لله تعالىٰ، وكانت مريم من أجمل النساء وأفضلهن في وقتها كما مر آنفاً، واللام في الذكر والأنثى للعهد.

هذا علىٰ قراءة الجمهور وعلىٰ قراءة ابن عباس، وأما علىٰ قراءة أبي بكر

وابن عامر فيكون قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ من جملة كلامها، ومن تمام تحسرها وتحزنها؛ أي: ليس الذكر الذي أردت أن يكون خادماً صالحاً للنذر، كالأنثىٰ التي لا تصلح للنذر، والمراد منه: تفضيل الذكر علىٰ الأنثى؛ لأن الذكر يصلح لخدمة الكنيسة، ولا تصلح الأنثىٰ لذلك؛ لضعفها وما يعرض لها من الحيض والنفاس؛ ولأنها عورة ولا يجوز لها الحضور مع الرجال، وكأنها أعذرت إلىٰ ربها من وجودها لها علىٰ خلاف ما قصدت، وقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ معطوف علىٰ قوله: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ومقصودها من هذا: الإخبار بالتسمية للتقرب إلىٰ الله سبحانه وتعالى، وأن يكون فعلها مطابقاً لمعنىٰ اسمها، فإن معنىٰ مريم: خادم الرب بلغتهم، فهي وإن كانت غير صالحة لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات، وكأنها أرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالىٰ أن يعصمها من آفات الدين والدنيا؛ لأن المعنىٰ: وإني سميت هذه البنت المولودة لي عابدة الرب.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾؛ أي: وإني يا إلهي أجيرها وأحفظها وأولادها بحفظك وعصمتك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾؛ أي: من ضرر إبليس اللعين المطرود عن رحمتك، ووسوسته، وهذه الجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ﴾ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾.

روىٰ الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مولود يولد من بني آدم إلا نخسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من نخسه إياه، إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وروىٰ البخاري عنه رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعيه حين يولد، غير عيسىٰ ابن مريم، ذهب ليطعن، فطعن في الحجاب».

والمراد: أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم

وابنها، فإن الله سبحانه وتعالىٰ عصمها ببركة هذه الاستعاذة.

وفي المقام إشكال قوي لم أرَ من نبَّه عليه من المفسرين، وحاصله: أن قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ معطوف علىٰ ما قبله، الواقع حيزاً لما وضعتها، فيقتضي أن طلب هذه الاستعاذة إنما وقع بعد الوضع، فلا يترتب عليه حفظ مريم من طعن الشيطان وقت نزولها وخروجها من بطن أمها، فلا يتلاقىٰ الحديث مع الآية، بل مقتضىٰ ظاهر الآية: أن إعاذتها من الشيطان الرجيم إنما كان بعد وضعها، وهذا لا ينافي تسلُّط الشيطان عليها بطعنها ونخسها وقت ولادتها الذي هو عادته، فإن عادته طعن المولود وقت خروجه من بطن أمه، تأمل.

قلتُ: الجواب أنه استعمل المضارع بمعنىٰ الماضي بقرينة السياق، فكأنه قال: وإني أعذتها بك وذريتها، والله أعلم.

وفي «القرطبي»: قال علماؤنا في هذا الحديث: إن الله استجاب دعاءَ أم مريم، وإن الشيطان ينخس جميع بني آدم حتىٰ الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها، قال قتادة: كل مولود يطعنه الشيطان في جنبه حين يولد، غير عيسىٰ وأمه، فإنه جعل بينهما حجاب هو المشيمة التي يكون فيها الولد، فأصابت الطعنة الحجاب، ولم ينفذ لهما منه شيء. وطعن الشيطان للأنبياء غير عيسىٰ ليس فيه نقص لهم، ولا ينافي عصمتهم منه؛ لأنهم معصومون من وسوسته وإغوائه. والطعن من قبيل الأمراض والآلام المتعلقة بظاهر البدن، والأنبياء غير معصومين من مثل هذا، تأمل. انتهىٰ.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾؛ أي: تقبل الله سبحانه وتعالىٰ مريم من أمها قبولاً حسناً، ورضي أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته علىٰ صغرها وأنوثتها، وكان التحرير لا يجوز إلا لغلام عاقل قادر علىٰ خدمة البيت ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: رباها الله سبحانه وتعالىٰ، ونماها بما يصلح أحوالها؛ كما يربي النبات في الأرض الصالحة بعد تعهد الزراع إياه بالسقي، وقلع ما يضعفه من النبات الطفيلي، وهذه التربية تشمل التربية الروحية والجسدية، فقد نمَّىٰ جسدَها، فكانت خير لداتها جسماً وقوة، كما نَمَّاها صلاحاً وعفةً وسداد رأيٍ. قيل: معنىٰ

أنبتها نباتاً حسناً؛ أي: جعل ثمرتها مثل عيسىٰ، وقيل: القبول الحسن: تربيتها علىٰ نعت العِصْمة حتىٰ قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾، والنبات الحسن: الاستقامة علىٰ الطاعة وإيثار رضا الله في جميع الأوقات.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾؛ أي: جعل الله سبحانه وتعالىٰ زكريا مربياً لها، وضامناً لمصالحها، وقائماً بشؤونها؛ أي: كَفَّلها، لا بالوحي، بل بمقتضىٰ القرعة، كما ذكره أبو السعود. قال أهل الأخبار: أن حنة حين وضعت مريم لفتها في خرقة، وحملتها إلىٰ المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم يلون يومئذٍ من بيت المقدس ما تلىٰ الحجبة من الكعبة، وقالت: خذوا هذه النذيرة، فتنافسوا فيها؛ لأنها كانت بنت إمامهم الأعظم في العلم والصلاح، فقال زكريا: أنا أحق بها؛ لأن خالتها عندي، فقالت الأحبار: لا تقل ذلك، فإنها لو تركت لأحق الناس بها.. لتركت لأمها التي ولدتها، ولكنا نقترع عليها، فانطلقوا، وكانوا تسعة وعشرين إلىٰ نهر جار في حلب يقال له: قرمق، فألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون التوراة بها علىٰ أن كل من ارتفع قلمه فوق الماء، وثبت، فهو أولىٰ بها من غيره، وعلىٰ كل قلم اسم صاحبه، ثم ألقوا أقلامهم ثلاث مرات، ففي كل مرة يرتفع قلم زكريا فوق الماء، وترسب أقلامهم، فأخذها زكريا، ولما أخذها.. بنىٰ لها غرفة في المسجد، وجعل بابها في وسطها لا يرقىٰ إليه إلا بالسلم، ولا يصعد إليها غيره، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها.

وقرأ الكوفيون[1]: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ ـ بتشديد الفاء ـ على إسناد الفعل إلىٰ الله تعالىٰ. وباقي السبعة ﴿وكفَلها﴾ بتخفيفها علىٰ إسناد الفعل إلىٰ زكريا بمعنىٰ: ضمها إليه، وقرأ أُبي: ﴿وأكفلها﴾ وهو بمعنىٰ التشديد، وقرأ عبد الله المزني شذوذاً: ﴿وكفِلها﴾ بالتخفيف وكسر الفاء، وهي لغة، يقال: كفل يكفل كنصر ينصر، وكفل يكفل كعلم يعلم، والفعل مسند إلىٰ زكريا، ففيه أربع قراءات ثنتان

---

(١) البحر المحيط.

منها سبعية.

وقرأ مجاهد[1]: ﴿فتقبلْها﴾ بإسكان اللام علىٰ صيغة الأمر والدعاء، ونصب ﴿ربَّها﴾ علىٰ أنَّه منادىٰ مضاف، وقرأ أيضاً: ﴿وأنبتْها﴾ بإسكان التاء، ﴿وكفِّلْها﴾ بتشديد الفاء المكسورة، وإسكان اللام، ونصب ﴿زكرياء﴾ مع المد وذلك كله شذوذاً. وقرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿زَكَرِيَّا﴾ بغير مدٍّ، ومده الباقون مع الهمز هكذا ﴿زكرياء﴾.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ وهو من ذرية سليمان بن داود؛ أي: في أي وقت دخل عليها زكريا المحراب والغرفة التي بنىٰ لها في المسجد ﴿وَجَدَ عِندَهَا﴾؛ أي: رأىٰ عند مريم ﴿رِزْقًا﴾؛ أي: نوعاً من أنواع الطعام غير الذي رآه في المرة الأولىٰ، أو فاكهة في غير وقتها المعتاد. روي أنه كان لا يدخل عليها غيره، وإذا خرج.. أغلق عليها سبعة أبواب، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف؛ مثل القصب، وفاكهة الصيف في الشتاء؛ مثل العنب، ولم ترضع ثدياً قط، بل يأتيها رزقها من الجنة.

وليس لدينا مستند صحيح من كتاب أو سنة يؤيد هذه الروايات الإسرائيلية.

﴿قَالَ﴾ زكريا ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ الرزق؛ أي: من أين لك هذا الرزق الآتي في غير حينه، الذي لا يشبه أرزاق الدنيا والأبواب مغلقة عليك؟ ﴿قَالَتْ﴾ مريم ﴿هُوَ﴾؛ أي: هذا الرزق ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ الذي يرزق الناس جميعاً، أتاني به جبريل من الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغير تقدير لكثرته، أو من غير استحقاق تفضلاً منه، أو من غير مسألة في حينه وفي غير حينه، وهذا يحتمل أن يكون من تمام كلام مريم، أو ابتداء كلام من الله عزّ وجلّ: فلما رأىٰ زكريا ما أوتيت مريم من فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.. قال: إن الذي قدر علىٰ أن يأتي مريم بالفاكهة في غير وقتها وحينها من غير سبب لقادرٌ علىٰ أن يصلح زوجي، ويهب

(١) الشوكاني.

لي ولداً في غير حينه مع الكبر، وطمع في الولد، وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا، وكان زكريا قد كبر وشاخ، وأيس من الولد، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك المكان الذي كان قاعداً فيه عند مريم، وشاهد تلك الكرامات، أو في ذلك الوقت الذي رأىٰ فيه خوارق العادات عندها ﴿دَعَا﴾ وسأل ﴿زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾، سبحانه وتعالىٰ جوف الليل و ﴿قَالَ﴾ في مناجاته يا ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾؛ أي: أعطني من عندك وبمحض قدرتك من غير سبب معتاد ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ أي: ولداً مباركاً تقياً صالحاً رضياً، كما وهبت لحنة العجوز العاقر مريم، وكان شيخاً كبيراً، وامرأته عجوزاً عاقراً، فإنه لما رأىٰ حسن حال مريم ومعرفتها بالله.. تمنىٰ أن يكون له ولد صالح مثلها هبة وفضلاً من عنده، فرؤية الأولاد النجباء مما تشوق نفوس الناظرين إليهم، وتجعلهم يتمنون أن يكون لهم مثلهم، والذرية تطلق علىٰ الواحد والجمع، والذكر والأنثىٰ، والمراد بها هنا: الواحد، وإنما قال: ﴿طَيِّبَةً﴾ لتأنيث لفظ الذرية ﴿إِنَّكَ﴾ يا إلهي ﴿سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ سماع قبول؛ أي: سامع دعاء من دعاه ومجيبه، وهذا الكلام قصة مستأنفة سيقت في غضون قصة مريم لما بينهما من الارتباط؛ لأن فضل بعض الأقارب يدل علىٰ فضل الآخر، وهو حكمة قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾، فأجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه، وبعث إليه الملائكة مبشرين له ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: نادىٰ زكريا جبريل، كما قال به جمهور من المفسرين؛ كابن جرير عن السدي، وإنما أخبر عنه بلفظ الجمع تعظيماً لشأنه، ولأنه رئيس الملائكة، وقلَّ أن يبعث إلا ومعه جمع من الملائكة، أو نادته جماعة من الملائكة؛ كما يروىٰ عن ابن جرير مع جماعة آخرين، إذ لا ضرورة تدعو إلىٰ التأويل، وبهذا القول قال قتادة وعكرمة ومجاهد، قيل: نادته بعد مضي أربعين سنة من دعوته.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فناداه﴾ بالإمالة والتذكير، وبذلك قرأ ابن عباس وابن مسعود، وقرأ الباقون: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أن زكريا ﴿قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾؛ أي: قائم في الموضع العالي الشريف من المسجد مصلياً، والمحراب موقف الإمام من المسجد، والظاهر أن المحراب هو

المحراب المذكور في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾، وهذا يدل علىٰ مشروعية الصلاة في شريعتهم، وقيل: المراد بالصلاة هنا: الدعاء، وفيه أيضاً دليل علىٰ أن المرادات تطلب بالصلوات، وفيه إجابة الدعوات وقضاء الحاجات، وقال ابن عطاء: ما فتح الله تعالىٰ علىٰ عبد حالة سنية إلا باتباع الأوامر، وإخلاص الطاعات، ولزوم المحاريب. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ بولادة ولد يسمىٰ ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ منك ومن امرأتك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تَسمَّىٰ يحيىٰ؛ لأن الله أحيا به عقر أمه، وقيل: لأن الله تعالىٰ أحيا قلبه بالإيمان، وقيل: لأن الله تعالىٰ أحياه بالطاعة حتىٰ لم يهتم بمعصية قط. رويَ أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون، فدعوه إلىٰ اللعب، فقال: ما للعب خُلقت.

وقرأ ابن عامر وحمزة: ﴿إنَّ﴾ بكسر الهمزة علىٰ تأويل النداء بالقول، وقرأ الباقون: ﴿أن﴾ بفتح الهمزة علىٰ تقدير: بأن، وقرأ الجمهور: ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ بالتشديد وقرأ حمزة والكسائي ﴿يَبْشُرك﴾، وفي «المختار»: بَشَره بالتخفيف من البشرىٰ، وبابه نصر ودخل. وقرأ حميد بن قيس المكي شذوذاً: ﴿يُبشِرك﴾ بكسر الشين مع ضم حرف المضارعة، قال الأخفش: هي ثلاثة لغات بمعنىٰ واحد، وقرأ عبد الله بن مسعود في رواية شاذة: ﴿يا زكريا إن الله﴾.

حالة كون يحيىٰ ﴿مُصَدِّقًا﴾ ومؤمنا بعيسى ابن مريم المخلوق بلا واسطة أب، بل ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ كن الواقعة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ، لا بالسنة العامة في توالد البشر، وهي أن يكون الولد من أب وأم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن يحيىٰ كان أكبر سناً من عيسى بستة أشهر، وقيل: بثلاث سنين، وكان يحيىٰ أول من آمن وصدق بأنه كلمة لله، ثم قتل يحيىٰ قبل رفع عيسى بمدة يسيرة. ﴿و﴾ حالة كون يحيىٰ ﴿سيداً﴾؛ أي: رئيساً يسود ويفوق قومه، والناس جميعاً في الشرف والصلاح وعمل الخير، وفي العلم والحلم والورع، وقال ابن عباس: أي: حليماً عن الجهل. وقال مجاهد: كريماً علىٰ الله ﴿و﴾ حالة كونه ﴿حصوراً﴾؛ أي: مانعاً نفسه من النساء للعفة والزهد، لا للعجز عنها ﴿و﴾ حالة كونه ﴿نبياً﴾ مرسلاً يوحىٰ إليه إذا هو بلغ سن النبوة، وحالة كونه ناشئاً ﴿مِّنَ﴾

أصلاب القوم ﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ والمرسلين؛ لكونه من نسل الأنبياء أو كائناً من جملة الصالحين، ولا غرو أنه من جملة الصالحين، وأنه من أصلاب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿قَالَ﴾ زكريا لجبريل حين بشره بالولد ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ﴾؛ أي: يا سيدي: علىٰ أي حال يكون لي ذلك الغلام أتردني وامرأتي إلىٰ حال الشباب، أم مع حال الكبر؟ ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾؛ أي: أدركني كبر السن ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ أي: عقيم لا تلد. قال ابن عباس: كان زكريا يوم بشر بالولد ابن مئة وعشرين سنة، وكانت امرأته أيشاع بنت فاقوذ بنت ثمان وتسعين سنة.

والظاهر[1]: أن هذا الخطاب منه لله سبحانه، وإن كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة الملك، وذلك لمزيد التضرع والجد في طلب الجواب عن سؤاله، وقيل: إنه أراد بالرب جبريل؛ أي: يا سيدي كما فسرنا، كذلك قيل: وفي معنىٰ هذا الاستفهام وجهان:

أحدهما: أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أو من غيرها؟

والثاني: قيل: معناه بأي سبب استوجب هذا، وأنا وامرأتي علىٰ هذه الحال؟ وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيبة ومشاهدته لتلك الآية الكبرىٰ في مريم استعظاماً لقدرة الله سبحانه وتعالى، لا لمحض الاستبعاد، وقيل: إنه قد مرَّ بعد دعائه إلىٰ وقت يشاء ربه أربعون سنة، وقيل: عشرون سنة، فكان الاستبعاد من هذه الحيثية. والله أعلم.

وفي «المراغي»[2]: أن زكريا لما رأى ما رأى من نعم الله على مريم، من كمال إيمانها، وحسن حالها، واعتقادها أن المسخر لها والرازق لما عندها هو من يرزق من يشاء بغير حساب.. أخذ عن نفسه، وغاب عن حسه، وانصرف عن العالم وما فيه، واستفرق قلبه في ملاحظة فضل الله ورحمته، فنطق بهذا الدعاء

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

في حال غيبته، وإنما يكون الدعاء مستجاباً إذا جرىٰ به اللسان بتلقين القلب حال استغراقه في الشعور بكمال الرب.

ولما عاد من سفره في عالم الوحدة إلىٰ عالم الأسباب ومقام التفرقة، وقد أوذن بسماع ندائه، واستجابة دعائه.. سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة، وهي علىٰ غير السنة الكونية، فأجابه بقوله:

﴿قَالَ﴾ جبريل ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمر كما قلت لك من خلق ولد منكما، وأنتما على حالكما من الكبر. ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأفاعيل الخارقة للعادة، فمتىٰ شاء أمراً.. أوجد له سببه، أو خلقه بغير الأسباب المعروفة، فلا يحول دون مشيئته شيء، ففوض الأمر إليه، ولا تسأل عن الكيفية، فلا سبيل لك إلىٰ الوصول بمعرفتها، وإنما قال في حق زكريا: ﴿يَفْعَلُ﴾، وفي حق مريم: ﴿يخلق﴾ مع اشتراكهما في بشارتهما بولد؛ لأن استبعاد زكريا لم يكن لأمر خارق، بل نادر بعيد، فحسن التعبير بـ ﴿يَفْعَلُ﴾، واستبعاد مريم لأمر خارق، أي: لأغربيته؛ لأنه اختراع بلا مادة؛ أي: من غير إحالة علىٰ سبب ظاهر، فكان ذكر الخلق أنسب. ﴿قَالَ﴾ زكريا ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾؛ أي: علامة في حبل امرأتي ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿آيَتُكَ﴾؛ أي: علامتك في حبل امرأتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾؛ أي: أن لا تقدر على تكليم الناس من غير خرسٍ، لا علىٰ غيره من الأذكار وقرأ ابن أبي عبلة؛ ﴿أن لا تكلمُ﴾ برفع الميم علىٰ أنَّ: ﴿أنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة. ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ متوالية بلياليها ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾؛ أي: إلا إيماءً وإشارة بالشفتين والحاجبين والعينين واليدين. وقرأ علقمة بن قيس ويحيىٰ بن وثاب شذوذاً: (رُمُزاً) ـ بضم الراء والميم ـ، وخُرِّج علىٰ أنه جمع: رموز؛ كرسل ورسول وعلىٰ أنه مصدر كرمز جاء علىٰ فُعْل، وأتبعت العين الفاء؛ كاليسر والعسر. وقرأ الأعمش شذوذاً أيضاً: (رمزاً) بفتح الراء والميم، وخُرِّج علىٰ أنه جمع رامزٍ كخادم وخدم وانتصابه إذا كان جمعاً على الحال من الفاعل، وهو الضمير في ﴿تكلم﴾، أو من المفعول، وهو: ﴿الناس﴾؛ أي: مستراً مزيناً؛ كما يكلم الأخرس الناس ويكلمونه، ووجه جعل حبس لسانه عن كلام الناس تلك

المدة آيةً له لتخلصَ تلك الأيام لذكر الله تعالىٰ شكراً علىٰ ما أنعم به عليه؛ قضاء لحق الشكر؛ كما قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ باللسان والقلب في مدة الحبسة عن كلام الدنيا مع الخلق شكراً لله تعالى علىٰ هذه النعمة ﴿كَثِيرًا﴾؛ أي: ذكراً كثيراً علىٰ كل حال ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: صلِّ ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾؛ أي: آخر النهار ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾؛ أي: أوله؛ أي: صلِّ عشياً وبكرة كما كنت تصلي. والعشي هو من زوال الشمس إلىٰ الغروب، وقيل: من العصر إلىٰ نصف الليل. والإبكار من طلوع الفجر إلىٰ وقت الضحىٰ. وقرىء شاذاً: (والأبكار) ـ بفتح الهمزة ـ جمع: بَكَر بفتح الفاء والعين، والعامة علىٰ الإبكار بالكسر اسم مفرد، وخص هذين الوقتين لفرضية الصلاة عليه فيهما، وقيل: المراد بالتسبيح التنزيه له تعالى بالصيغة المعروفة، فعَطْفه علىٰ ما قبله من عطف الخاص علىٰ العام.

الإعراب

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها. ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿ءَادَمَ﴾: مفعول به. ﴿وَنُوحًا﴾: معطوف عليه، وصرِّف مع كونه أعجمياً؛ لخفته بسكون الوسط. ﴿وَءَالَ﴾: معطوف على ﴿ءَادَمَ﴾. ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. ﴿وَءَالَ﴾: معطوف أيضاً ﴿عِمْرَٰنَ﴾: مضاف إليه ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ذُرِّيَّةًۢ﴾: منصوب علىٰ البدلية من نوحٍ وما عطف عليه، كما قاله أبو البقاء، أو بدل من الآلين، كما قاله الزمخشري، أو منصوب علىٰ الحال منهم أيضاً، والعامل فيها ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾ تقديره: حال كونهم متشعباً. ﴿بَعْضُهَا﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿مِنۢ بَعْضٍ﴾: جار ومجرور خبر، والجملة في محل النصب صفة

لـ﴿ذُرِّيَّةً﴾، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد لأمتك قصة إذ. ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾: إلىٰ آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالَتِ﴾، وإنْ شئت قلتَ ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب جزء المقول. ﴿إِنِّي﴾ إنَّ: حرف نصب وتوكيد، وياء المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿نَذَرْتُ﴾: فعل وفاعل ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿نَذَرْتُ﴾ ﴿فِي بَطْنِي﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها. ﴿مُحَرَّرًا﴾: حال من ﴿مَا﴾، والعامل فيه ﴿نَذَرْتُ﴾، أو مفعول ثانٍ لـ(نذر) إن جعلناه بمعنىٰ: جعلت، وجملة ﴿نَذَرْتُ﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول القول، ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾: الفاء عاطفة ﴿تقبل﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود علىٰ الرب ﴿مِنِّي﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿إن﴾ على كونها مقول القول، ﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ حرف نصب، والكاف اسمها ﴿أَنْتَ﴾: ضمير فصل أو مؤكد للضمير المنصوب ﴿السَّمِيعُ﴾: خبر أول لـ﴿إنْ﴾، ﴿الْعَلِيمُ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة في محل النصب مقول القول.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)﴾.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ﴾: الفاء عاطفة علىٰ محذوف تقديره: ووضعتها جارية ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿وضع﴾: فعل ماضٍ، التاء علامة تأنيث الفاعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ المرأة، والهاء مفعول به عائد علىٰ ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾؛ لأنه بمعنىٰ الجارية، ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ

المرأة، وجملة ﴿قَالَتْ﴾ جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة (لما) من فعل شرطها وجوابها معطوفة علىٰ الجملة المحذوفة. وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾، وإن شئتَ قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب جزء المقول ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾: (إن): حرف نصب وتوكيد، وياء المتكلم اسمها. ﴿وَضَعْتُهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿أُنثَىٰ﴾: حال من الهاء مؤكدة؛ لأن كونها أنثىٰ مفهوم من تأنيث الضمير، فجاءت أنثىٰ مؤكدة، أو بدل منها، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة (إنّ) في محل النصب مقول القول. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معترضة لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، ﴿وَضَعَتْ﴾: فعل ماضٍ والتاء علامة التأنيث، وفاعله ضمير يعود علىٰ أم مريم، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما وضعته. ﴿وَلَيْسَ﴾: الواو عاطفة (ليس): فعل ماضٍ ناقص. ﴿ٱلذَّكَرُ﴾: اسمها. ﴿كَٱلْأُنثَىٰ﴾: جار ومجرور خبر (ليس)، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ علىٰ كونها معترضة إن قلنا: إنها من كلام الله تعالىٰ، ويحتمل أنها من كلامها، فتكون حينئذٍ من مقول القول. ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إنَّ﴾: حرف نصب والياء اسمها. ﴿سَمَّيْتُهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿مَرْيَمَ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة (إنَّ) في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إني وضعتها﴾ علىٰ كونها مقول القول ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾: الواو عاطفة ﴿إن﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿أعيذ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ أم مريم، والهاء مفعول به. ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعيذ﴾ ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾: معطوف على ضمير المفعول، والهاء مضاف إليه ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعيذ﴾ ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: صفة الشيطان، وجملة ﴿أُعِيذُهَا﴾ في محل الرفع خبر (إنَّ) وجملة (إنْ) في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: إني وضعتها علىٰ كونها مقول القول.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ الفاء عاطفة تفريعية. ﴿تقبلها﴾: فعل ومفعول، ﴿رَبُّهَا﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ﴾ ﴿بِقَبُولٍ﴾: الباء زائدة، ﴿قبولٍ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿حَسَنٍ﴾: صفة له. ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: الواو عاطفة. ﴿أنبتها﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تقبل﴾ ﴿نَبَاتًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة ﴿حَسَنًا﴾ صفة له. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآ﴾: الواو عاطفة ﴿كفلها﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿زَكَرِيَّآ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

﴿كُلَّمَا﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿دَخَلَ﴾: فعل ماضٍ، ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق به. ﴿زَكَرِيَّا﴾: فاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ مفعول ﴿دَخَلَ﴾. وحق ﴿دَخَلَ﴾ أن يتعدى بفي أو بإلى لكنه اتسع فيه، فأوصل بنفسه إلى المفعول، فهو كقولهم: دخلت الدار، وسكنت الشام كما ذكره أبو البقاء. ﴿وَجَدَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿زَكَرِيَّا﴾، ﴿عِندَهَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿وَجَدَ﴾، ﴿رِزْقًا﴾: مفعول به لـ﴿وَجَدَ﴾؛ لأنه متعد إلى واحد، وجملة ﴿وَجَدَ﴾ جواب ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَا﴾ مستأنفة.

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿زَكَرِيَّا﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فماذا قال زكريا عند مشاهدة هذه الآية؟ فقيل: قال: يا مريم أنى لك هذا؟. وفي «الفتوحات»: والذي[1] يظهر أن جملة قوله: ﴿وَجَدَ﴾

(١) الجمل.

في محل نصب على الحال من فاعل ﴿دَخَلَ﴾، ويكون جواب ﴿كُلَّمَا﴾ هو نفس ﴿قَالَ﴾، والتقدير: كلما دخل عليها زكريا المحراب واجداً عندها الرزق.. قال، وهذا واضح جداً. انتهىٰ ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿مريم﴾ منادىٰ مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنىٰ: أين، في محل النصب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿هَٰذَاۖ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿لَكِ﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف، أو حال من الضمير المستكن في الخبر، ومن المبتدإ على رأي سيبويه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿قَالَتۡ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مريم﴾، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَتۡ﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، وجملة ﴿يَرۡزُقُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿من﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَرۡزُقُ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء رزقه، ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَرۡزُقُ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾: اسم إشارة للمكان البعيد نظراً إلىٰ أصله، وأما في هذا المقام فهي مستعملة في الزمان تجوزاً، والظرف متعلق بدعا الآتي ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. قصة مستقلة سيقت في أثناء قصة مريم كما مرّ، ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿زَكَرِيَّا﴾، والجملة مفسرة لجملة ﴿دَعَا﴾، ﴿رَبِّ هَبۡ لِي﴾ إلىٰ آخر الآية: مقول محكي، وإنْ شئتَ قلتَ: ﴿رَبِّ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول ﴿هَبۡ﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة جواب النداء في محل

النصب مقول القول ﴿لِي﴾ متعلق بـ﴿هَبْ﴾، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿هَبْ﴾ ﴿ذُرِّيَّةً﴾: مفعول ﴿هَبْ﴾، ﴿طَيِّبَةً﴾: صفة لـ﴿ذُرِّيَّةً﴾ ﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ: حرف نصب، والكاف: اسمها. ﴿سَمِيعُ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾ ﴿الدُّعَاءِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة بحسب الأصل، ومقول القول هنا.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَنَادَتْهُ﴾: الفاء عاطفة تفريعية، ﴿نادته الملائكة﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿هُنَالِكَ دَعَا﴾، ﴿وَهُوَ قَائِمٌ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو قائِمٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير المفعول. ﴿يُصَلِّي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿زَكَرِيَّا﴾، ﴿فِي الْمِحْرَابِ﴾: متعلق بـ﴿يُصَلِّي﴾، أو بـ﴿قَائِمٌ﴾، والجملة في محل النصب حال ثانية من مفعول النداء، أو خبر ثانٍ لـ﴿هو﴾. وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ﴾ جملة حالية من مفعول النداء، و﴿يُصَلِّي﴾ يحتمل أوجهاً:

أحدها: أن يكون خبراً ثانياً عند من يرىٰ تعدده مطلقاً نحو: زيد شاعر فقيه.

الثاني: أنه حال ثانية من مفعول النداء، وذلك أيضاً عند من يُجوِّز تعدد الحال.

الثالث: أنه حال من الضمير المستتر في ﴿قَائِمٌ﴾؛ فيكون حالاً من حال.

الرابع: أن يكون صفة لـ﴿قَائِمٌ﴾. «سمين»، انتهىٰ.

﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ﴿إنْ﴾: ـ بكسر الهمزة في قراءة الكسر ـ: حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها. ﴿يُبَشِّرُكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿اللَّهَ﴾، ﴿بِيَحْيَىٰ﴾: متعلق بـ﴿يُبَشِّرُكَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر

---

(١) الجمل.

﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: حال كون الملائكة قائلين له: إن الله يبشرك، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من ﴿يحيىٰ﴾، ﴿بِكَلِمَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كلمة﴾، ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾: معطوفات علىٰ مصدقاً علىٰ كونها حالاً من ﴿يحيىٰ﴾ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نبياً﴾.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود علىٰ زكريا، والجملة مستأنفة، ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ إلىٰ قوله: ﴿عَاقِرٌ﴾: مقول محكي، وإنْ شئت قلتَ: ﴿رَبِّ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء جزء المقول، ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنىٰ: كيف، في محل النصب خبر ﴿يَكُونُ﴾ مقدم عليه، ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿غُلَٰمٌ﴾: اسم ﴿يَكُونُ﴾، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ في محل النصب مقول القول. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ يجوز في كان أن تكون هي الناقصة، وفي خبرها حينئذٍ وجهان:

أحدهما: أنىٰ؛ لأنها بمعنىٰ: كيف، أو بمعنىٰ: من أين، ولي علىٰ هذا تبيين.

والثاني: أن الخبر الجار، وأنىٰ: في محل النصب علىٰ الظرفية، ويجوز أن تكون تامة، فيكون الظرف والجار والمجرور كلاهما متعلقين بمحذوف علىٰ أنه حال من غلام؛ لأنه لو تأخر لكان صفةً له. انتهىٰ.

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: الواو حالية ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: فعل ومفعول، ونون وقاية، وفاعل، والجملة في محل النصب حال من الياء في ﴿لِي﴾ ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: الواو حالية، ﴿وَٱمْرَأَتِي﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿عَاقِرٌ﴾ خبر، والجملة حال؛ إما من الياء في (لي) بناءً على جواز تعدد الحال، وإما من الياء في ﴿بَلَغَنِيَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود علىٰ جبريل، والجملة مستأنفة ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾ إلىٰ آخر الآية: مقول محكي، وإن شئتَ قلت:

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف منصوب بـ﴿يَفۡعَلُ﴾ الآتي، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَفۡعَلُ﴾ خبره، ﴿مَا يَشَآءُ﴾: مفعول ﴿يَفۡعَلُ﴾، والتقدير: الله يفعل ما يشاء فعلاً كائناً كذلك، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿زَكَرِيَّا﴾ والجملة مستأنفة ﴿رَبِّ﴾ منادىٰ مضاف، وياء المتكلم مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾: مقول محكي، وإنْ شئتَ قلت: ﴿ٱجۡعَل﴾: فعل أمر بمعنىٰ صيِّر يتعدىٰ لمفعولين، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، ﴿ءَايَةٗۖ﴾: مفعول أول، ﴿لِّيٓ﴾: مفعول ثانٍ، كما ذكر أبو البقاء، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة. ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿ءَايَتُكَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾: نافية ﴿تُكَلِّمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿زَكَرِيَّا﴾. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة (أن) المصدرية، (أن) مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع علىٰ الخبرية تقديره: آيتك عدم تكليم الناس، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُكَلِّمَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿رَمۡزٗاۗ﴾: منصوب علىٰ الاستثناء، وهو منقطع؛ إذ الرمز لا يدخل تحت التكليم، ومن أطلق الكلام في اللغة علىٰ الإشارة الدالة على ما في نفس المشير، فلا يبعد أن يكون هذا استثناءً متصلاً علىٰ مذهبه.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

﴿وَٱذۡكُر﴾ الواو عاطفة، ﴿اذكر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على

﴿زَكَرِيَّا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة علىٰ الجملة الاسمية علىٰ كونها مقول القول، ﴿رَّبَّكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿كَثِيرًا﴾: صفة مصدر محذوف تقديره: ذكراً كثيراً ﴿وَسَبِّحْ﴾ الواو عاطفة، ﴿سبح﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ زكريا، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿اذكر﴾. ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اذكر﴾، ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: معطوف علىٰ ﴿العشي﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾: من الصفوة أصله: اصتفىٰ من باب افتعل قلبت تاء الافتعال طاءً؛ لوقوعها إثر مُطْبَق.

﴿عَلَىٰ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾ ضمنَّه معنىٰ فضل، فعداه بـ ﴿عَلَىٰ﴾، ولو لم يضمنه معنىٰ فضل لعُدِّي بـ ﴿من﴾.

﴿ذُرِّيَّةً﴾: قيل: مشتق من الذرء، وهو الخلق، فعلىٰ هذا يطلق علىٰ الأصول حتىٰ على آدم، كما يطلق علىٰ الفروع، وقيل: منسوب إلىٰ الذَّرّ؛ لأن الله أخرجهم من ظهر آدم كالذَّرّ؛ أي: صغار النمل، ويكون هذا من النسب السماعي؛ إذ كان القياس فتح الذال.

﴿نَذَرْتُ لَكَ﴾: يقال نذر الشيء؛ إذا التزمه، والنذر لغةً الالتزام، وشرعاً: التزام قربة ليست لازمة في أصل الشرع. ﴿مُحَرَّرًا﴾: اسم مفعول من حَرَّر الرباعي معناه: عتيقاً من كل شغل من أشغال الدنيا، فهو مأخوذ من الحرية.

﴿أُعِيذُهَا﴾: مضارع عاذ بكذا إذا اعتصم به عوذاً وعياذاً ومعاذاً ومعاذةً، ومعناه: التجأ واعتصم، وقيل: اشتقاقه من العَوذ، وهو عوذ يلجأ إليه الحشيش في مهب الريح.

﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: فقيل: من رجم إذا رمىٰ وقذف، ومنه: رجماً بالغيب؛ أي: رمياً به من غير تيقن، والرجيم: يحتمل أن يكون للمبالغة من فاعل؛ أي: أنه يرمي ويقذف بالشر والعصيان في قلب ابن آدم، ويحتمل أن يكون بمعنىٰ:

مرجوم؛ أي: يرجم بالشهب أو يبعدْ ويطردْ.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾؛ أي: قبلها ورضيها مكان الذكر المنذور، فصيغة التفعل ليست هنا للتكلف ولا للمطاوعة، بل بمعنىٰ أصل الفعل؛ كتعجب من كذا بمعنىٰ: عجب وتبرأ من كذا بمعنىٰ برىء منه.

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قال الزجاج: الأصل؛ فتقبلها بتقبُّل حسن؛ لأن قبولاً مصدر لـ ﴿قبل﴾ الثلاثي، يقال: قبل الشيء قبولاً إذا رضيه، والقياس فيه: الضم، كالدخول والخروج، ولكنه جاء بالفتح، فالقبول هنا من المصادر التي حذفت زوائده؛ إذ لو جاء علىٰ تقبل لقيل: تقبلاً حسناً.

﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾: النبات اسم مصدر لأنبت الرباعي، فهو بمعنىٰ إنباتاً حسناً ﴿وَكَفَّلَهَا﴾: الكفالة الضمان، يقال: كفل يكفل من بابي نصر وعلم، فهو كافل وكفيل، وهذا أصله، ثم يستعار للضم والقيام علىٰ الشيء ﴿زَكَرِيَّآ﴾: هو اسم أعجمي شبه بما فيه الألف الممدودة والألف المقصورة، فهو ممدود ومقصور، ولذلك يمتنع صرفه نكرة، وهاتان اللغتان فيه عند أهل الحجاز.

﴿يحيىٰ﴾ فيه قولان:

أحدهما: وهو المشهور عند المفسرين: أنه منقول من الفعل المضارع، وقد سموا بالأفعال كثيراً نحو: يعيش ويعمِّر، وعلىٰ هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل؛ كيزيد ويشكر وتغلب.

والثاني: أنه أعجمي لا اشتقاق له، وهذا هو الظاهر، فامتناعه من الصرف للعلمية والعجمة الشخصية، ويقال في جمعه علىٰ كِلا القولين: يحيون رفعاً، ويحين نصباً وجراً علىٰ حد قوله:

وَٱحْذِفْ مِنَ ٱلْمَقْصُوْرِ فِيْ جَمْعٍ عَلَىٰ ... حَـدِّ ٱلْـمُـثَـنَّـىٰ مَـا بِـهِ تَـكَـمَّـلاَ

ويقال في تثنيته: يحييان رفعاً، ويحيين نصباً وجراً علىٰ حد قوله:

آخِـرَ مَـقْـصُـوْرٍ تُـثَـنِّ ٱجْـعَـلْـهُ يَـا ... إِنْ كَـانَ عَـنْ ثَـلاَثَـةٍ مُـرْتَـقِـيَـا

ويقال في النسب إليه: يحيي بحذف الألف، ويحيوي بقبلها واواً،

ويحياوي بزيادة ألف قبل الواو المنقلبة عن الألف الأصلية علىٰ حد قوله:

وَإِنْ تَكُنْ تَرْبَعُ ذَا ثَانٍ سَكَنْ فَقَلْبُهَا وَاواً وَحَذْفُهَا حَسَنْ

ويقال في تصغيره: يحيِّي بوزن فعيعل علىٰ حد قوله:

فُعَيْعِلٌ مَعَ فُعَيْعِيْلَ لِمَا فَاقَ كَجَعْلِ دِرْهَمٍ دُرَيْهِمَا

﴿وَحَصُورًا﴾: الحصور: فعول محول عن فاعل للمبالغة؛ كضروب محول من ضارب، وهو الذي لا يأتي النساء، إما لطبعه علىٰ ذلك، وإما لمبالغة نفسه، وفي «القاموس»: الحصور: من لا يأتي النساء، وهو قادر علىٰ ذلك، والممنوع منهن، أو: من لا يشتهيهن ولا يقربهن.

﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾: والعاقر من لا يولد له، رجلاً كان أو امرأةً، مشتق من العقر، وهو: القطع، لقطعه النسل، وفي «المصباح»: عقرت الناقة عقراً من باب ضرب، وفي لغة من باب قرب، انقطع حملها فهي عاقر.

﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ - بكسر الهمزة - مصدر لـ﴿أبكر﴾ الرباعي بمعنىٰ: بكر، ثم استعمل اسماً للوقت الذي هو البكرة، هكذا يؤخذ من «المختار»، وبفتح الهمزة جمع بَكَر بفتحتين بمعنىٰ البكرة.

البلاغة

وفي هذه الآيات أنواع من الفصاحة والبلاغة:

منها: العموم الذي يراد به الخصوص في قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿مَا فِى بَطْنِى﴾ لمَّا تعذر عليها الاطلاع علىٰ ما في بطنها.. أتت بلفظ ﴿مَا﴾ الذي يصدق علىٰ الذكر والأنثى والتأكيد في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ومنها: الخبر الذي يراد به الاعتذار في قولها: ﴿وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ في قراءة من سكَّن التاء أو كسرها.

ومنها: تلوين الخطاب ومعدوله في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ في قراءة من كسر التاء، خرج من خطاب الغيبة في قولها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ إلىٰ خطاب المواجهة في قوله: ﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَإِنِّي﴾، ﴿وَإِنِّي﴾، وفي قوله: ﴿زَكَرِيَّآ﴾ و﴿زَكَرِيَّآ﴾، وفي قوله: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

ومنها: الدلالة علىٰ الاستمرار والتجدد في قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾؛ حيث أتىٰ بخبر ﴿إني﴾ فعلاً مضارعاً دلالة على طلب استمرار الاستعاذة دون انقطاعها.

ومنها: الدلالة علىٰ الانقطاع، حيث أتىٰ بالخبرين فعلين ماضيين في قوله: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ﴾، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾.

ومنها: المجاز المرسل أو بالاستعارة في قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ لأنه مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها بطريق ذكر الملزوم وإرادة اللازم، أو بطريق الاستعارة التصريحية التبعية؛ إذ الزارع لم يزل يتعهد زرعه بسقيه، وإزالة الآفات عنه.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا﴾ وفي: ﴿رِزْقًا﴾ و﴿يَرْزُقُ﴾.

ومنها: التعظيم والتفخيم في قوله: ﴿رِزْقًا﴾؛ حيث أتىٰ به منكراً مشيراً إلىٰ أنه ليس من جنس واحد، بل من أجناس كثيرة؛ لأن النكرة تقتضي الشيوع والكثرة.

ومنها: الطباق بين كلمتي: ﴿العشي﴾ و﴿الإبكار﴾.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

المناسبة

لما فرغ[1] الله سبحانه وتعالىٰ من قصة ولادة يحيىٰ بن زكريا من عجوز عاقر وشيخ كبير قد بلغ من الكبر عتياً، وكان قد استطرد من قصة مريم إليها.. رجع إلىٰ قصة مريم، وذكر فيها ما هو أبلغ وأروع في خرق العادات، فذكر قصة ولادة عيسىٰ المسيح من غير أب، وهي شيء أعجب من الأول، وهكذا عادة أساليب العرب، متىٰ ذكروا شيئاً.. استطردوا منه إلىٰ غيره، ثم عادوا إلىٰ الأول إن كان لهم غرض في العود إليه، والغرض من ذكر هذه القصة تبرئة مريم عن ما رمتها به اليهود، والردُّ علىٰ النصارىٰ الذين ادعوا ألوهية عيسىٰ، فذكر ولادته من مريم البتول؛ ليدل علىٰ بشريته، وأعقبه بذكر ما أيده به من المعجزات؛ ليشير إلىٰ

---

(١) البحر المحيط.

رسالته، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله علىٰ أيديهم خوارق العادات، وليس له شيء من أوصاف الربوبية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿و﴾ اذكر يا محمد لأمتك قصة ﴿إذ قالت الملائكة﴾؛ أي: جبريل - ومن معه من الملائكة؛ لأنه نقل أنه لا ينزل لأمر إلا ومعه جماعة من الملائكة - لمريم ابنة عمران مشافهة.

وقرأ ابن مسعود وعبد الله بن عمرو شذوذاً: ﴿وإذ قال الملائكة﴾. ﴿يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾ واختارك أولاً حيث قبلك من أمك، وقبل تحريرك، ولم يسبق ذلك لغيرك من الإناث، وربَّاك في حجر زكريا، ورزقك من الجنة، وقيل: بتفرغك لعبادته وتخصيصك بأنواع اللطف والهداية والعصمة والكفاية في أمر المعيشة، وسماع كلام جبريل شفاهاً ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من المعصية ومسيس الرجال، ومن الأفعال الذميمة، ومن مقالة اليهود وتهمتهم، وقيل: أنجاك من القتل، وقيل: من الحيض والنفاس، فكانت لا تحيض؛ أي: خلقك مطهرة مما للنساء ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾؛ أي: اختارك آخراً بولادة عيسىٰ من غير أب ونطفة حال انفصاله من مريم حتىٰ شهد ببراءتها عن التهمة. ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: عالمَيْ زمانها، وقيل: علىٰ جميع نساء العالمين، والمعتمد[1] أن مريم أفضل النساء علىٰ الإطلاق، كما هو ظاهر الآية، وقد نظم بعضهم ترتيب الأفضلية بينها وبين غيرها فقال:

فُضْلَىٰ ٱلنِّسَا بِنْتُ عِمْرَانَ فَفَاطِمَهْ　　خَدِيْجَةٌ ثُمَّ مَنْ قَدْ بَرَّأَ ٱللَّـهْ

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد». متفق عليه.

قال أبو كريب: وأشار وكيع إلىٰ السماء والأرض، قيل: أراد وكيع بهذه

---

(١) الجمل.

الإشارة تفسير الضمير في قوله: خير نسائها، ومعناه أنهما خير كل النساء بين السماء والأرض، قال النووي: والأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه.

وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة علىٰ النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام». متفق عليه. وليس في هذا تصريح بتفضيلها علىٰ مريم وآسية؛ لاحتمال أن المراد تفضيلها علىٰ نساء هذه الأمة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون» أخرجه الترمذي.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾؛ أي: قالت الملائكة لها شفاهاً يا مريم دومي علىٰ طاعة ربك بأنواع العبادات شكراً لذلك الاصطفاء، وقيل: أطيلي القيام في الصلاة شكراً لربك.

ورویٰ مجاهد[1]: أنها لما خوطبت بهذا.. قامت حتىٰ ورمت قدماها، وقال الأوزاعي: قامت حتى سال الدم والقيح من قدميها، وروي أن الطير كانت تنزل علىٰ رأسها تظنها جماداً؛ لسكونها في طول قيامها. ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾؛ أي: ائتي بالسجود والركوع ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ أي: مع المصلين، فهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ أي: صلي مع المصلين جماعة في بيت المقدس، فإنَّ اقتداء النساء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل من الاقتداء بالنساء، وإنما قدم السجود[2] علىٰ الركوع؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب إنما هي للجمع، كأنه قيل لها: افعلي الركوع والسجود، وقيل: إنما قدم السجود على الركوع؛ لأنه كان

---

(١) البحر المحيط.
(٢) أبو السعود.

كذلك في شريعتهم، أو لكون السجود أفضل الأركان، أو ليقترن ﴿اركعي﴾ بـ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وإنما قال: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، ولم يقل: مع الراكعات؛ لأن لفظ الراكعين أعم، فيدخل فيه الرجال والنساء، والصلاة مع الرجال أفضل وأتم كما مر آنفاً. وقيل: معناه افعلي كفعل الراكعين.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من خبر حنة ومريم وزكريا ويحيى ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: من أخبار ما غاب عنك يا محمد ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾؛ أي: نلقي ذلك الغيب إليك يا محمد بواسطة جبريل الأمين، ونرسله إليك ليعلمكه، والمعنى: هذا الذي قصصناه عليك من أخبار مريم وزكريا من الأخبار التي لم تشهدها أنت ولا أحد من قومك، ولم تقرأها في كتاب، ولا علمكها معلم، بل هي وحي نوحيه إليك علىٰ يد الروح الأمين؛ لتكون دلالة علىٰ صحة نبوتك، وإلزاماً لمن يحاجك من الجاحدين المعاندين.

والوحي في القرآن لأحد معانٍ أربعة[1]:

الأول: لكلام جبريل للأنبياء، كما قال تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

والثاني: للإلهام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾.

والثالث: لإلقاء المعنىٰ المراد في النفس، كما قال تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾.

والرابع: للإشارة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾.

فالوحي: تعريف الموحىٰ إليه بأمر خفي من إشارة أو كناية أو غيرهما.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أي: حاضراً عند الذين تنازعوا في تربية مريم ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾؛ أي: حين يرمون في نهر الأردن أقلامهم التي يكتبون بها التوراة، اختاروها للقرعة تبركاً بها؛ ليعلموا جواب ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾؛ أي: ليعلموا جواب استفهام؛ أي: أحدهم يربي مريم ويقوم بمصالحها.

---

(١) المراغي.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد شاهداً ﴿لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: حاضراً عند المتنازعين ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: حين يتنازعون تنافساً في كفالتها؛ أي: وما كنت عندهم إذ يتقارعون علىٰ تربية مريم، وإذ يختصمون بسببها، فتخبر قومك عن مشاهدة. ولا كنت قارئاً فتخبرهم عن دراسة، فلزم كون ذلك بطريق الوحي الدال علىٰ نبوتك.

وذلك أن حنة لما ولدت مريم.. أتت بها سدنة بيت المقدس، وقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافس فيها الأحبار؛ لكونها بنت إمامهم ورئيسهم، أو لكونها حررت لعبادة الله وخدمة المسجد، فاقترعوا عليها، فخرجت القرعة لزكريا؛ أخذها ورباها كما سبق. قال ابن كثير: وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لها؛ لسعادتها، ولتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً.

وفي «الفتوحات الإلهية»[1]: واعلم أن هذا الكلام ونحوه كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ وإن كان معلوماً انتفاؤه جارٍ مجرىٰ التهكم بمنكر الوحي يعني: أنه إذا علم أنك لم تعاصر أولئك ولم تدارس أحداً في العلم.. فلم يبقَ اطلاعك عليه إلا من جهة الوحي. انتهىٰ.

واذكر يا محمد لأمتك قصة ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: جبريل لمريم وقرأ ابن مسعود وابن عمرو: ﴿إذ قال الملائكة﴾. ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ﴾: سبحانه وتعالىٰ ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: بولد مخلوق بكلمة واقعة من الله سبحانه وتعالىٰ، وهي كلمة: كن؛ أي: من غير واسطة الأسباب العادية، فإن غير عيسىٰ من كل مخلوق، وإن وجد بكلمة: كن، لكنه بواسطة أب، وقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ نعت لـ﴿كلمة﴾ و﴿من﴾ للابتداء؛ أي: كلمة كائنة من الله؛ أي: مبتدأة وناشئة منه تعالىٰ.

واعلم[2]: أن أول المبشر به قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾، وآخره قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ اعتراض في خلال المبشر به، فالمبشر به نحو خمسة عشر شيئاً: كونه ولداً، وكون اسمه كذا، وكونه وجيهاً،

---

(١) الجمل.

(٢) الجمل.

وكونه من المقربين، وكونه يكلم الناس في المهد، وكونه من الصالحين، وكونه يعلم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وكونه رسولاً إلىٰ بني إسرائيل، فهذا كله قاله لها الملك قبل وجود عيسىٰ. تأمل ﴿ٱسۡمُهُ﴾؛ أي: اسم ذلك الولد ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ قدم اللقب على الاسم لشهرته به، وإنما سُمي بالمسيح؛ لأنه يسيح في البلدان، أو لأنه ما مسح بيده ذا عاهة إلا برىء من مرضه، فهو فعيل بمعنىٰ: فاعل، أو لأنه ممسوح القدمين، فليس فيهما خمص، والأخمص ما تجافىٰ عن الأرض من باطن الرِّجْل، وكان عيسىٰ أمسح القدم لا خمص له، أو لمسحه بالبركة، أو لمسحه بالدهن الذي يمسح به الأنبياء حين خرج من بطن أمه، أو لمسح الجمال إياه، وهو ظهوره عليه، أو لمسحه من الأقذار التي تنال المولودين؛ لأن أمه كانت لا تحيض، ولم تدنس بدم نفاس، فعلىٰ هذه الأقوال، فهو فعيل بمعنىٰ: مفعول، وقال أبو عبيد: أصله بالعبرانية مشيخاً، فغير، فعلىٰ هذا يكون اسماً مرتجلاً ليس هو مشتقاً من المسح، ولا من السياحة، فمشيخا معناه: المبارك ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ وعيسىٰ معرب: أيشوع، مشتق من العيس، وهو بياض يعلوه حمرة. فإن قلت: لِمَ قيل اسمه المسيح عيسىٰ ابن مريم، وهذه ثلاثة أشياء الاسم والكنية واللقب؟.

قلتُ: المراد اسمه الذي يتميز به عن غيره، وهو لا يتميز إلا بمجموع الثلاثة، وبهذا تعلم أن الخبر عن اسمه إنما هو مجموع الثلاثة من حيث المعنىٰ، لا كل واحد منها علىٰ حياله، فهذا على حد الرُّمان حلو حامض، وإنما نسبه الله تعالىٰ إلىٰ الأم إعلاماً لها بأنه محدث بغير الأب، فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو درجته، وإنما لم يقل: ابنك كما هو الظاهر إشارةً إلىٰ أنه يكنىٰ بهذه الكنية المشتملة علىٰ الإضافة للظاهر. ﴿وَجِيهًا﴾ حال مقدرة من ﴿كلمة﴾، وكذا قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، وقوله: ﴿من الصالحين﴾ فهذه أربعة أحوال من ﴿كلمة﴾، والتذكير باعتبار معناها، وهي وإن كانت نكرة، لكنها موصوفة، أي: حالة كونه شريفاً رفيعاً ذا جاه وقدر. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالنبوة وبإحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص بسبب دعائه. ﴿و﴾ في ﴿الآخرة﴾ بجعله شفيع أمته، وبقبول شفاعته فيهم، وبعلو درجته عند الله تعالىٰ ﴿و﴾ حالة كونه كائناً

﴿من المقربين﴾ إلىٰ الله في جنة عدن، وهذا الوصف كالتنبيه علىٰ أن عيسىٰ سيرفع إلىٰ السماء، وتصاحبه الملائكة ﴿و﴾ حالة كونه ﴿يكلم الناس في﴾ زمن ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ والطفولة، وهو في حجر أمه إظهاراً لبراءة أمه مما قذفها به المفترون عليها، وحجة علىٰ نبوته؛ حيث قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، كما سيأتي في سورة «مريم»، وبعد ما تكلم بهذا الكلام.. سكت ولم يتكلم حتىٰ بلغ أوان النطق عادة ﴿و﴾ يكلمهم حالة كونه ﴿كهلا﴾؛ أي: بالغاً كبيراً بكلام الأنبياء، والدعوة إلىٰ الله، فهو إشارة إلىٰ نبوته. وزمن الكهولة من الثلاثين سنة إلىٰ الأربعين، وفي وصفه بهذه الصفات المتغايرة إشارة إلىٰ أنه بمعزل عن الألوهية، ففيه ردٌّ علىٰ النصارىٰ، كأنه قال: لو كان إلهاً كما زعمتم.. ما اعتراه هذا التغير من كونه صبياً وكهلاً وغير ذلك.

﴿و﴾ حالة كونه كائناً ﴿من﴾ العباد ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ومعدوداً منهم، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، الذين تعرف مريم سيرتهم؛ مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسىٰ، وغيرهم من الأنبياء.

وإنما ختم[1] أوصاف عيسىٰ عليه السلام بكونه من الصالحين، بعدما وصفه بالأوصاف العظيمة؛ لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات؛ لأنه لا يسمىٰ المرء صالحاً حتىٰ يكون مواظباً علىٰ النهج الأصلح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله، فلما وصفه الله تعالىٰ بكونه وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، وأنه يكلم الناس في المهد وكهلاً.. أردفه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ ليكمل له أعلىٰ الدرجات وأشرف المقامات. ﴿قَالَتْ﴾ مريم لجبريل لما بشرها بالولد، وقيل: تقوله لله عزّ وجلّ. ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾؛ أي: يا سيدي من أين يكون لي ولد ﴿و﴾ الحال أني ﴿لم يمسسني بشر﴾؛ أي: لم يصبني رجل بالحلال ولا بالحرام؟؛ لأن المحررة لا تتزوج أبداً كالذكر المحرر.

أي قالت: كيف يكون لي ولد وليس لي زوج؟ وقد يكون مرادها: أيحدث

(١) الخازن.

ذلك بزواج أم يحصل بقدرتك؟ وقد يكون قصدها: التعجب من قدرة الله واستعظام شأنه. وفي «الفتوحات»: والاستفهام هنا استفهام حقيقي عن كيفية خلقه منها، هل يكون وهي بهذه الحالة عزباء، أو بعد أن تتزوج؟ فأجابها: بأنه يخلقه منها، وهي علىٰ هذه الحالة، كما يدل عليه قولنا الآتي من خلق ولدٍ منك بلا أب. انتهىٰ.

﴿قَالَ﴾ جبريل الأمر ﴿كَذَٰلِكِ﴾؛ أي: كما قلت لكِ من خلق ولد منك بلا أب ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ كيف شاء بسبب، وبلا سبب.

أو المعنىٰ[1]: مثل هذا الخلق العجيب، والإحداث البديع ـ وهو خلق الولد بغير أبٍ ـ يخلق الله ما يشاء، فالكاف صفة لمصدر محذوف علىٰ هذا المعنى.

فإن قلت[2]: لِمَ عبَّر هنا بالخلق، وفي قصة يحيىٰ بالفعل؟

قلت: لأن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر، أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير، فكأن الخلق المنبيء عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل كما سبق.

أي: هكذا يخلق الله منك ولداً من غير أن يمسك بشر، فيجعله آية للناس وعبرة، فإنه ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: إذا أراد خلق شيء من الكائنات ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الأمر ﴿كُن﴾ لا غير، أي: أحدث وأخرج من العدم ﴿فـ﴾ هو ﴿يكون﴾؛ أي: فذلك الأمر يوجد بسرعة من غير تباطؤ، فنفخ جبريل في جيب درعها، فوصل نَفَسه إلىٰ فرجها فدخل رحمها، فحملت منه، وفيه إشارة إلىٰ أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد.. يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك، وهذا تمثيل لكمال قدرته، ونفوذ مشيئته وتصوير لسرعة حصول ما يريد بلا إبطاء بصورة آمر مطاع لمأمور قادر علىٰ العمل مطيع يفعل ما يطلب منه

---

(١) المراغي.

(٢) الجمل.

على الفور.

وهذا الأمر يسمى أمر تكوين، وهناك أمر آخر هو أمر تكليف، يعرف بوحي الله لأنبيائه، والجاحدون لآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب وقوفاً عند العادة، وذهولاً عن كيفية بدء العالم، ولكن ليس لهم دليل عقلي ينبىء بالاستحالة، وإنا نشاهد كل يوم حدوث شيء في الكون لم يكن معتاداً من قبل، بعضه له أسباب معروفة، فيسمونه: استكشافاً أو اختراعاً، وبعضه ليس بمعروف له سببٌ، ويسمونه: فلتات الطبيعة.

والمؤمنون يقولون: إن مثل هذا الذي جاء على غير الأسباب المعروفة يجب أن يهدي العاقل إلى أن الأسباب ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً.

وإن أبناء الجيل الحاضر الذين رأوا من الغرائب ما لو رآه السابقون.. لعدوه سحراً، أو خرافة، أو أضافوه إلى الجن، ليس لهم عذر في إنكار الأشياء التي لم يعرفوا لها أسباباً، وقد قرر فلاسفة العصر إمكان توالد الحيوان من غير حيوان، إذاً فتوالد الحيوان من حيوان واحد أقربُ إلى العقول، وأدنى إلى الإمكان.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قرأ نافع وعاصم: ﴿يعلمه﴾ بالياء ويكون معطوفاً على الحال، أعني: قوله: وجيهاً، فكأن جبريل قال: حالة كونه وجيهاً ومعلماً الكتاب، وما بعده بفتح اللام، أو على: ﴿يُبَشِّرُكِ﴾، وقرأ الباقون: ﴿ونعلمه﴾ ـ بالنون ـ فيكون معمولاً لقول محذوف من كلام الملك تقديره: ويقول الله نعلمه إلخ، ويكون في المعنى معطوفاً على الحال أيضاً تقديره: وجيهاً ومقولاً فيه نعلمه، أو على ﴿يُبَشِّرُكِ﴾؛ أي: إن الله يبشرك بعيسى، ويقول: نعلمه الكتاب، ويصح كونه مستأنفاً سيق تطييباً لقلبها، وإزاحة لما أَهَمَّها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير زوج.

أي: ويعلمه الكتاب؛ أي: الكتابة والخط باليد، وكان أحسن الناس خطاً في زمانه، وقيل: يعلمه كتب الأنبياء ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: العلم المقترن بالعمل، وتهذيب الأخلاق ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ التي أنزلت على موسى ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الذي أنزل عليه،

وإنما أفردهما بالذكر علىٰ تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة؛ لزيادة فضلهما علىٰ غيرهما، فكان يحفظهما علىٰ ظهر قلبه.

وهذا إخبار من الله تعالىٰ لمريم ما هو فاعل بالولد الذي بشرها به، من الكرامة وعلو المنزلة. ﴿و﴾ حالة كونه ﴿رسولاً إلى بني إسرائيل﴾ كلهم، وتخصيص[1] بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم أو للرد علىٰ من زعم أنه مبعوث إلىٰ غيرهم.

وقرأ اليزيدي شذوذاً: ﴿ورسولٍ﴾ ـ بالجر ـ وخرجه الزمخشري علىٰ أنه معطوف علىٰ قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، وهي قراءة شاذة في القياس؛ لطول البعد بين المعطوف والمعطوف عليه.

والمعتمد عند الجمهور[2]: أن عيسىٰ إنما نبيء علىٰ رأس الأربعين، وأنه عاش في الأرض قبل رفعه مئة وعشرين سنة، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل كما أن أولهم يوسف بن يعقوب، وسيأتي بسط ذلك عند قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إن شاء الله تعالى.

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ ـ بفتح الهمزة ـ علىٰ قراءة الجمهور، فيكون مجروراً بباء الملابسة المقدرة المتعلقة بمحذوف حال من رسول المقدر؛ لما فيه من معنىٰ النطق، والتقدير: فلما جاءهم.. قال: إني رسول الله إليكم حالة كوني ملتبساً بمجيئي إياكم بآية وعلامة تدل علىٰ صدق رسالتي، وتلك الآية: أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير إلخ، وهذا التقدير أحسن[3]؛ لأن قصة البشارة قد تمت، وهذا شروع في قصة ما وقع له بعد وجوده في الخارج.

وقرىء بكسر همزة ﴿إني﴾ وهي شاذة، فيكون مفعولاً لقول محذوف تقديره: فلما جاءهم.. قال لهم: إني قد جئتكم بآية. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: بعلامة دالة علىٰ صدقي كائنة من ربكم، وإنما قال: ﴿بِآيَةٍ﴾، وقد جاء بآيات

---

(١) البيضاوي.

(٢) الجمل والمراح.

(٣) الجمل.

كثيرة؛ لأن الكل دال علىٰ شيء واحد، وهو صدقه في الرسالة. قرأ الجمهور: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ بالإفراد، وفي مصحف عبد الله شذوذاً: (بآيات) بالجمع في الموضعين، فلما قال ذلك عيسى لبني إسرائيل.. قالوا: ما تلك الآية؟ قال هي ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾ وأصور وأقدر ﴿لَكُم﴾؛ أي: لأجل هدايتكم وتصديقكم بي ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ﴾؛ أي: من التراب الرطب ﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾؛ أي: شيئاً مثل صورة الطير.

قرأ الجمهور: ﴿أَنِّيٓ﴾ ـ بفتح الهمزة ـ علىٰ كونه خبر مبتدأ محذوف كما قدرنا، أو علىٰ كونه بدلاً من آية، فيكون في محل جر. وقرأ نافع ﴿إني﴾ بالكسر علىٰ الاستئناف، أو علىٰ إضمار القول. وقرأ الجمهور ﴿كَهَيۡـَٔةِ﴾ بفتحتين بينهما ياء ساكنة. وقرأ الزهري شذوذاً: (كهِيَّة) بكسر الهاء وياء مشددة مفتوحة بعدها تاء التأنيث. وقرأ الجمهور: ﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع في المتواتر: ﴿كهيَّة الطائر﴾.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾؛ أي: في فم ذلك الشيء المماثل للطير، فالضمير للكاف. وقرأ بعض القراء شذوذاً؛ (فأنفخ فيها) بالتأنيث كما هو كذلك في المائدة، فالضمير للهيئة. ﴿فَيَكُونُ﴾؛ أي: فيصير ذلك المماثل الذي أنفخ فيه ﴿طَيۡرَۢا﴾ حياً يطير بين السماء والأرض ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: بأمر الله وتكوينه وتخليقه، وفيه إشارة إلىٰ أن إحياءَه من الله تعالىٰ، لا منه، وهذه هي المعجزة الأولىٰ. وقرأ نافع ويعقوب هنا وفي المائدة: ﴿طائراً﴾، وقرأ الباقون: ﴿طيرا﴾.

روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه قال لهم: ماذا تريدون؟ قالوا: الخَفَّاش، وإنما طالبوه بخلق الخفاش؛ لأنه أكمل الطير خلقاً، وأبلغ دلالة على القدرة؛ لأن له ناباً وأسناناً، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويطير بغير ريش، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرىٰ في ساعتين: ساعة بعد المغرب، وساعة بعد طلوع الفجر، والأنثىٰ منه لها ثدي وتحيض وتطهر وتلد.

وخلاصة الكلام: أن من علامات نبوتي ـ إن كنتم فيه تمترون ـ أني أقتطع من الطين جزءاً مصوراً بصورة طير من الطيور التي تريدون، ثم أنفخ فيه، فيصير

طيراً حياً يحلق في جو السماء، كما تفعل بقية الطيور.

وقد روي أنه عليه السلام لما أعلن النبوة، وأظهر المعجزات.. طالبوه بخلق خَفَّاش، فأخذ طيناً، وصوره، ونفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم.. سقط ميتاً؛ ليتميز عن خلق الله تعالىٰ.

وقد جرت سنّة الله أن تجرى الآيات علىٰ أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها، وجعل الإيمان موقوفاً عليها، فإن كانوا سألوه شيئاً من ذلك.. فقد فعل، ولا حاجة بنا إلىٰ تعيين نوع الطير؛ إذ لم يرد عندنا نص من كتاب أو سنّة يعينه، فنقف حينئذٍ عند لفظ الآية.

فلما صور لهم خفاشاً.. قالوا: هذا سحر، فهل عندك غيره؟ قال: نعم. ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾؛ أي: وأشفي الذي ولد أعمىٰ، أو الممسوح العينين، وأصححه من عماه ﴿و﴾ أشفي ﴿الأبرص﴾ وأصححه من مرضه؛ وهو الذي في جلده بياض شديد، وهذه هي المعجزة الثانية، ولم يقل في هذه المعجزة، وفي المعجزة الرابعة: بإذن الله؛ لأنهما ليس فيهما كبير غرابة بالنسبة إلىٰ الآخرين، فتوهم الألوهية فيهما بعيد، فلا يحتاج للتنبيه علىٰ نفيه خصوصاً وكان فيهم أطباء كثيرون، وإنما خُصَّا بالذكر؛ لأن مداواتهما أعيت الأطباء، وقد كان الطب متقدماً جداً في زمن عيسىٰ، فأراهم الله المعجزة من ذلك الجنس، وقد جرت السنّة الإلهية أن تكون معجزة كل نبي من جنس ما اشتهر في زمنه؛ فأعطى موسىٰ العصا، وابتلعت ما كانوا يأفكون؛ لأن المصريين في ذلك العصر كانوا مشهورين بالسحر؛ وأعطى عيسىٰ من المعجزات ما هو من جنس الطب الذي حذقه أطباء عصره؛ وأعطى محمداً ﷺ معجزة القرآن؛ لأن التفاخر في ذلك العصر كان بالفصاحة والبيان.

فلما فعل ذلك قالوا: هذا سحر، فهل عندك غيره؟ قال: نعم. ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وأحيي بعض الأموات بإرادة الله ودعائه، وكان يدعو لإحيائهم باسم الله الأعظم، وهو يا حي يا قيوم، وهذه هي المعجزة الثالثة.

وإنما كرر[1]: بإذن الله هنا وفيما مرَّ؛ لنفي توهم الألوهية في عيسىٰ، فهو ردٌّ علىٰ النصارىٰ؛ لأن الإحياء والخلق ليس من جنس الأفعال البشرية، وأما إبراء الأكمه والأبرص، فهو من جنس أفعالهم، فلذا لم يذكر بإذن الله بعده، وذكر في المائدة أربعاً بلفظ: إذني؛ لأنه هنا من كلام عيسىٰ، وثم من كلام الله تعالىٰ، وأتىٰ بهذه الأربع بلفظ المضارع دلالة على تجدد ذلك كل وقت طلب منه.

روي أنه أحيا أربعة أنفس: أحيا عازَر بوزن هاجر بعد موته بثلاثة أيام حتىٰ عاش، وولد له، وأحيا ابن العجوز وهو ميت محمول علىٰ السرير، فنزل عن سريره حياً، ورجع إلىٰ أهله، وعاش وولد له، وأحيا بنت العاشر؛ أي: الذي يأخذ العشور من الناس بعد يوم من موتها، فعاشت، وولد لها، فقالوا لعيسىٰ: إنك تحيي من كان قريب العهد من الموت، فلعلهم لم يموتوا حقيقة، بل أصابهم سكتة، فأحي لنا سام بن نوح، وهو قد مضىٰ من موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقام علىٰ قبره، فدعا الله باسمه الأعظم، فقام من قبره، وقال للقوم: صدقوه فإنه نبي الله، ومات في الحال، فآمن به بعضهم، وكذبه آخرون، فقالوا: هذا سحر فهل عندك غيره؟ قال: نعم. ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي؛ وأخبركم بما تطعمون وتشربون غدوة وعشية ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾؛ أي: وأخبركم ما ترفعون وتخبئون في بيوتكم من غداء لعشاء، ومن عشاء لغداء لتأكلوه فيما بعد ذلك. قيل: كان عيسىٰ عليه السلام يخبر الرجل بما أكل البارحة، وبما يأكله اليوم، وبما يدخره للعشاء، وقال قتادة: إنما كان هذا في نزول المائدة، وكان خواناً ينزل عليهم أينما كانوا، فيه من طعام الجنة، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغدٍ، فخانوا وادخروا، فكان عيسىٰ عليه السلام يخبرهم بما أكلوا من المائدة، وما ادخروا منها، فمسخهم الله خنازير، وهذه هي المعجزة الرابعة، وفي هذا دليل قاطع علىٰ صحة نبوة عيسىٰ عليه السلام، ومعجزة عظيمة له، وهي: إخباره عن المغيبات مع ما تقدم له من الآيات الباهرات من: إبراء الأكمه

---

(١) الجمل.

والأبرص، وإحياء الموتىٰ بإذن الله تعالىٰ، وإخباره عن الغيوب بإعلام الله إياه ذلك، وهذا مما لا سبيل لأحد من البشر إليه إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي قلته لكم من خلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتىٰ، والإخبار عن المغيبات ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لمعجزة قوية دالة علىٰ صحة رسالتي دلالة واضحة ﴿لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ومصدقين للحق غير معاندين انتفعتم بهذه الآيات. وقرأ الجمهور: ﴿تَدَّخِرُونَ﴾ بدال مشددة. وقرأ مجاهد والزهري وأيوب السختياني: ﴿تذخرون﴾ بذال ساكنة وخاء مفتوحة. وقرأ أبو شعيب السوسي: ﴿وما تذدخرون﴾ بذال ساكنة ودال مفتوحة من غير إدغام، وهذا الفك جائز، وقراءة الجمهور بالإدغام أجود، وما عداه شاذ.

وتقدم أن في مصحف عبد الله بن مسعود: ﴿لآيات﴾ بالجمع، فمن أفرد أراد الجنس، وهو صالح للقليل والكثير. ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطف ومصدقاً علىٰ قوله: بآية؛ إذ الباء فيه للحال، ولا تكون للتعدية؛ لفساد المعنىٰ، فالمعنىٰ: وجئتكم مصحوباً بآية من ربكم، ومصدقاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾؛ أي: لما قبلي ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ ومؤيداً لها، ومعنى تصديقه للتوراة: الإيمان بها وإن كانت شريعته تخالفها في أشياء، وبين موسىٰ وعيسىٰ ألف سنة وتسع مئة سنة وخمس وسبعون سنة.

والخلاصة: أي وجئتكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة، لا ناسخاً لها، ولا مخالفاً شيئاً من أحكامها إلا ما خفف الله عن أهلها في الإنجيل مما كان مشدداً عليهم فيها، وهو الذي ذكره بقوله ﴿و﴾ جئتكم ﴿لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾؛ أي: ولأحل لكم بعض الطيبات التي حرمت عليكم في شريعة موسىٰ بسبب ظلمكم، وكثرة سؤالكم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ من الشحوم والشروب، وهي شحم الكرش والأمعاء رقيق للبقر والغنم ولحوم الإبل، ومما لا صيصية له؛ أي: شوكة يؤذي بها من السمك والطير، ومن العمل في يوم السبت، وهذا لا يقدح في كونه مصدقاً للتوراة؛ لأن النسخ تخصيص في الأزمان.

قرأ الجمهور: ﴿حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ بالبناء للمفعول مع التشديد، وقرأ عكرمة شذوذاً: (حَرّم عليكم) بالتشديد مبنياً للفاعل، والفاعل ضمير يعود علىٰ ﴿ما﴾ في قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾، أو يعود علىٰ الله منزل التوراة، أو علىٰ موسىٰ صاحب التوراة، والظاهر الأول؛ لأنه مذكور، وقرأ إبراهيم النخعي شذوذاً أيضاً: (حَرُم) بوزن: كَرُم. ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾؛ أي: وقد جئتكم بآية بعد آية من ربكم دالة علىٰ صدق مقالتي، وشاهدة علىٰ صحة رسالتي مما ذكرت لكم: من خلق الطير، وإبراء الأكمه والأبرص، والإحياء والإنباء بالمغيبات إلىٰ نحو ذلك[1]، وقرىء شذوذاً: ﴿بآيات﴾ بلفظ الجمع، وكرر هذا ليرتب عليه الأمر الذي ذكره بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله يا بني إسرائيل في عدم قبولها ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: امتثلوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه عن الله تعالىٰ، ثم ختم مقاله بالإقرار بالتوحيد، والاعتراف بالعبودية، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: خالقي وخالقكم، ومالكي ومالككم، وتكرار: ﴿رَبِّي﴾ ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ أبلغ في التزام العبودية من قوله: ربنا، وأدل علىٰ التبري من الربوبية، وأقر بالعبودية لئلا يتقولوا عليه الباطل، فيقولوا: إنه إله وابن إله؛ لأن إقراره بالعبودية لله يمنعُ مما تدعيه جهال النصارىٰ عليه ﴿فَٱعْبُدُوهُۗ﴾؛ أي: وحدوه ولازموا طاعته التي هي الإتيان بالأوامر، والانتهاء عن المناهي ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: الجمع بين التوحيد والعبادة ﴿صِرَٰطٞ مُّسْتَقِيمٞ﴾؛ أي: دين قويم يرضاه الله تعالىٰ، وهو الإسلام الموصل إلىٰ خيري الدنيا والآخرة.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: الواو استئنافية ﴿إذ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان. ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾،

(١) قوله إلى نحو ذلك: كولادتي من غير أب، وكلامي في المهد ا هـ.

والظرف متعلق بمحذوف تقديره: واذكر وقت قول الملائكة لمريم، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتِ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿مريم﴾ منادى مفرد علم، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾ اسمها، ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول (قال)، وجملة قوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾، وكذا قوله: ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ الثاني. ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾: منادىٰ مفرد العلم، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿ٱقۡنُتِي﴾: فعل وفاعل ﴿لِرَبِّكِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱقۡنُتِي﴾، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَٱسۡجُدِي﴾: فعل وفاعل، وكذا قوله: ﴿وَٱرۡكَعِي﴾، والجملتان في محل النصب معطوفتان علىٰ جملة ﴿ٱقۡنُتِي﴾. ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿اركعي﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿نُوحِيهِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الله﴾ ﴿إِلَيۡكَ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة[1] الفعلية مستأنفة، والضمير في ﴿نُوحِيهِ﴾ عائد علىٰ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: الأمر والشأن أنا نوحي إليك الغيب، ونعلمك به، ونظهرك علىٰ قصص من تقدمك مع عدم مدارستك لأهل العلم و الأخبار ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾: الواو استئنافية ﴿ما﴾:

---

(١) الجمل.

نافية ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص، واسمه. ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بخبر ﴿كان﴾، والجملة مستأنفة. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضىٰ. ﴿يُلْقُونَ﴾ فعل وفاعل، ﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾ مفعول ومضاف إليه، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، والظرف متعلق بـ﴿كان﴾، أو بالاستقرار الذي وقع خبراً لـ﴿كان﴾، والتقدير: وما كنت لديهم وقت إلقائهم أقلامهم. ﴿أَيُّهُمْ﴾ اسم استفهام مبتدأ مرفوع. ﴿يَكْفُلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿أي﴾. ﴿مَرْيَمَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: أيهم كافل مريم، والجملة الاسمية في محل النصب معمول لمحذوف، ولكنه علىٰ تقدير مضاف تقديره: إذ يلقون أقلامهم ليعلموا جواب أيهم يكفل مريم. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ إعرابه مثل إعراب قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ، ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، والظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد قصة وقت قول الملائكة ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ منادىٰ مفرد العلم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: حرف نصب، واسمها ﴿يُبَشِّرُكِ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول ﴿بِكَلِمَةٍ﴾: متعلق بـ﴿يُبَشِّرُكِ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كلمة﴾. ﴿ٱسْمُهُ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ خبره ﴿عِيسَى﴾ بدل منه، أو عطف بيان. ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ بدل ثانٍ، أو عطف، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ﴿كلمة﴾، والرابط ضمير اسمه، وقال أبو البقاء: ولا يجوز أن يكون ﴿عِيسَى﴾ خبراً آخر؛ لأن تعدد الأخبار يوجب تعدد المبتدأ، والمبتدأ هنا مفرد، وهو قوله: ﴿ٱسْمُهُ﴾، ولو كان ﴿عِيسَى﴾ خبراً آخر لكان التقدير: أسماؤه، وأجاز أيضاً أن يكون ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ خبر

مبتدأ محذوف؛ أي: هو ابن مريم ﴿وَجِيهًا﴾: حال من ﴿كلمة﴾، والتذكير باعتبار معناها؛ لأنها بمعنىٰ: مولود، وجاز مجيء الحال منها مع كونها نكرة لوصفها بالجار والمجرور بعدها ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَجِيهًا﴾ ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: جار ومجرور معطوف علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾ علىٰ كونه حالاً من ﴿كلمة﴾.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَيُكَلِّمُ﴾ الواو عاطفة ﴿يكلم الناس﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿كلمة﴾؛ لأنها بمعنىٰ: مولود ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾: متعلق بـ﴿يكلم﴾، أو حال من الضمير في ﴿يكلم﴾؛ أي: يكلمهم صغيراً. ﴿وَكَهْلًا﴾: يجوز أن يكون حالاً معطوفة علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾، وأن يكون معطوفاً علىٰ موضع ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ إذا جعلناه حالاً، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾ علىٰ كونها حالاً من ﴿كلمة﴾. ﴿وَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾: جار ومجرور، ومعطوف علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾ علىٰ كونه حالاً من ﴿كلمة﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿قَالَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مريم﴾، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ إلىٰ قوله: ﴿بَشَرٌ﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنىٰ: من أين في محل النصب علىٰ الظرفية متعلق بـ﴿يَكُونُ﴾. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص ﴿لِي﴾: جار ومجرور خبرها، ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾، وتقدم مثل هذا الكلام في قصة زكريا، فراجعه ﴿وَلَمْ﴾: الواو حالية ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ونون وقاية، والجملة في محل النصب حال من ياء المتكلم في قوله: ﴿لِي﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ جبريل، والجملة مستأنفة ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكيٌّ، وإن شئت قلتَ: ﴿كَذَٰلِكِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الأمر كذلك،

والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿يَخْلُقُ﴾ ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يشاؤه.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمنة معنى الشرط ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به، والجملة في محل الخفض فعل شرط لإذا، والعامل[1] في ﴿إِذَا﴾ محذوف يدل عليه الجواب من قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾، والتقدير: إذا قضى أمراً.. يكون ويحصل، فلفظ: يكون المقدر، هو العامل في ﴿إِذَا﴾ ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ جوازاً، ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية دالة على جواب ﴿إِذَا﴾ ﴿كُن﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿كُن﴾: فعل أمر بمعنى: أُحدث من كان التامة، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَمْرًا﴾. ﴿فَيَكُونُ﴾: الفاء عاطفة ﴿يكون﴾: فعل مضارع بمعنى يحصل من كان التامة، وفاعله ضمير يعود على أمراً، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَقُولُ﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول ﴿قال﴾. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ الجمهور[2] على رفعه فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون مستأنفاً؛ أي: خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: فهو يكون، ويعزى لسيبويه.

---

(١) الجمل جـ ١ ص ٩٩.

(٢) الجمل جـ ١ ص ٩٩ .

الثاني: أن يكون معطوفاً علىٰ ﴿كُن﴾ من حيث المعنىٰ، وهو قول الفارسي، وقرأ ابن عامر بالنصب هنا، وفي البقرة. انتهىٰ.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ الواو عاطفة ﴿يعلمه﴾: فعل مضارع ومفعول أول ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثانٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾ علىٰ كونها حالاً من ﴿كلمة﴾ علىٰ قراءة الياء، وأما علىٰ قراءة النون، فالجملة مستأنفة. وقال أبو البقاء[1]: ﴿ونعلمه﴾ يقرأ بالنون حملاً علىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ويقرأ بالياء حملاً علىٰ ﴿يُبَشِّرُكِ﴾، وموضعه حال معطوفة علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾ انتهىٰ. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوفات علىٰ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿وَرَسُولًا﴾: حال معطوف علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾. ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿رسولاً﴾؛ لأنه بمعنىٰ مرسلاً. ﴿أَنِّى﴾: أن: حرف نصب ومصدر، والياء اسمها ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿جِئْتُكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلق به، أو في موضع الحال؛ أي: محتجاً بآية، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: متعلق بمحذوف صفة لآية، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (أن)، وجملة (أن) في تأويل مصدر مجرور بباء الملابسة المقدرة، المتعلقة بمحذوف حال من رسول المقدر تقديره: فلما جاءهم.. قال: إني رسول الله إليكم حالة كوني ملتبساً بمجيئي إياكم بآية من ربكم، وعلى قراءة الكسر: تكون مقولاً لقول محذوف تقديره: فلما جاءهم.. قال لهم: إني قد جئتكم بآية من ربكم، كما مرت الإشارة إلىٰ ذلك كله في مقام التفسير وأوجه القراءة.

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾.

---

(١) العكبري.

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، والياء اسمها، ﴿أَخۡلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ عيسىٰ ﴿لَكُم﴾: متعلق به، وكذا ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مرفوع علىٰ الخبرية لمبتدأ محذوف تقديره: وهي؛ أي: تلك الآية خلقي لكم من الطين، والجملة مستأنفة استئنافاً بياناً. وقال أبو البقاء[1]: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾ يقرأ بفتح الهمزة، وفي موضعه حينئذٍ ثلاثة أوجه:

أحدها: الجر بدلاً من ﴿آية﴾.

والثاني: الرفع؛ أي: هي أني.

والثالث: أن يكون بدلاً من ﴿أَنِّيٓ﴾ الأولىٰ. ويقرأ بكسر الهمزة علىٰ الاستئناف، أو على إضمار القول. انتهىٰ. ﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لمحذوف تقديره: أني أخلق لكم من الطين هيئةً كائنة كهيئة الطير؛ أي: صورة كصورة الطير.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾.

﴿فَأَنفُخُ﴾: الفاء عاطفة ﴿أنفخ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ عيسىٰ. ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿أَخۡلُقُ﴾. ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾: الفاء عاطفة ﴿يكون﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود علىٰ الشيء المصوَّر ﴿طَيۡرَۢا﴾ خبرها، والجملة في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿أنفخ﴾. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يكون﴾. ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾: معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود علىٰ عيسى، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿أَخۡلُقُ﴾ ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: فعل ومفعول. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾: متعلق به، وفاعله

---

(١) العكبري.

ضمير يعود علىٰ عيسىٰ، والجملة في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿أَخْلُقُ﴾.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود علىٰ عيسى. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور في موضع المفعول الثاني. ﴿تَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تأكلونه، وجملة ﴿أنبئكم﴾ في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿أَخْلُقُ﴾ ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾: معطوف علىٰ قوله: ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾. ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَدَّخِرُونَ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لإنَّ ﴿لَآيَةً﴾: اسمها مؤخر، واللام فيه لام الابتداء، ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور صفة ﴿لآية﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ محذوف تقديره: انتفعتم بهذه الآيات، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ الواو عاطفة ﴿مصدقاً﴾: حال معطوفة علىٰ قوله: ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: وجئتكم حال كوني محتجاً بآية من ربكم، وحالة كوني مصدقاً لما بين يدي ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مصدقاً﴾ ﴿بَيْنَ يَدَيَّ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف؛ إما صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾: جار ومجرور في موضع نصب[1] علىٰ الحال من الضمير المستتر في الظرف، وهو ﴿بَيْنَ﴾، والعامل فيها الاستقرار، أو نفس الظرف، ويجوز أن يكون حالاً

(١) العكبري.

من ﴿ما﴾، فيكون العامل فيه ﴿مصدقاً﴾. ﴿وَلِأُحِلَّ﴾: الواو عاطفة. ﴿لأحل﴾: اللام حرف جر وتعليل، (أحل): فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود علىٰ عيسىٰ. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿بَعْضَ﴾: مفعول به وهو مضاف ﴿ٱلَّذِى﴾ مضاف إليه، ﴿حُرِّمَ﴾ ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائبه ضمير يعود علىٰ الموصول ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿حُرِّمَ﴾، وجملة حُرِّم صلة الموصول، وجملة ﴿أحل﴾ صلة إن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المتعلقة بمعلول محذوف تقديره: وجئتكم لإحلالي لكم بعض الذي حرم عليكم، وهذا المحذوف معطوف في المعنىٰ علىٰ قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: الواو عاطفة ﴿جئتكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله السابق؛ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فهذه مؤكدة للسابقة لاتحادهما لفظاً ومعنًىٰ. ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلق بمحذوف حال من تاء الفاعل تقديره: وجئتكم حالة كوني ملتبساً بآية، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آية﴾. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم مجيئي لكم بآية من ربكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم: اتقوا الله. ﴿اتقوا﴾: فعل وفاعل، ولفظ الجلالة مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: الواو عاطفة ﴿أطيعون﴾: فعل وفاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة للفاصلة، أو استغناء عنها بكسر نون الوقاية، في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة ﴿اللَّه﴾ اسمها. ﴿رَبِّى﴾: خبرها ومضاف إليه، وكذلك قوله: ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ معطوف عليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾. مستأنفة ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم كون معبودي ومعبودكم واحداً، وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم.. فأقول

لكم فاعبدوه. (اعبدوه): فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ ﴿صِرَٰطٌ﴾: خبره ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾: صفة لـ﴿صِرَٰطٌ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالعبادة. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾: الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر الهام، وهو اسم مصدر لأنبأ ينبىء إنباءً إذا أخبر بالخبر الذي يعتنىٰ به. ﴿نُوحِيهِ﴾: الوحي: إلقاء المعنىٰ في النفس في خفاء، فقد يكون بالمَلَك للرسل، وبالإلهام كما في النحل، والإشارة كما في زكريا وهو في المحراب، وهو اسم مصدر لأوحىٰ يوحي إيحاءً ووحياً إذا ألهم وأعلم.

﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾: جمع قلم، والقلم معروف، وهو الذي يكتب به، ويُطلق علىٰ السهم يقترع به، وهو فعل بمعنىٰ مفعول؛ لأنه يقلم، أي: يبرى ويسوى، وقيل: هو مشتق من القلامة، وهي نبت ضعيف لترقيقه.

﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾: المهد: ما يمهد للصبي ويوطأ له لينام فيه، والكلام علىٰ حذف المضاف؛ أي: في زمان المهد.

﴿وَكَهْلًا﴾: الكهل: اسم من اكتهل النبات إذا قوي وعلا، ومنه: الكاهل، وقال ابن فارس: اكتهل الرجل إذا خطه الشيب، من قولهم: اكتهلت الروضة إذا عمها النور، ويقال للرجل: كهل، وللمرأة: كهلة، والكهل: هو الذي بلغ سن الكهولة، وآخرها ستون، وقيل: خمسون، وقيل: اثنان وخمسون، ثم يدخل سن الشيخوخة، واختلف في أول سن الكهولة، فقيل: ثلاثون، وقيل: اثنان وثلاثون، وقيل: ثلاثة وثلاثون، وقيل: خمسة وثلاثون، وقيل: أربعون عاماً.

فائدة: ونقل عن[1] الأئمة في ترتيب سن المولود وتنقل أحواله، أنه في

---

(١) البحر المحيط.

الرحم جنين، فإذا ولد فوليد، فإذا لم يستتم الأسبوع فصديع، وإذا دام يرضع فرضيع، وإذا فطم ففطيم، وإذا لم يرضع فجحوش، فإذا دبَّ ونما فدارج، فإذا سقطت رواضعه فمثغور، فإذا نبتت بعد السقوط فمتغر بالتاء والثاء، فإذا كان يجاوز العشر فمترعرع وناشيء، فإذا كان يبلغ الحلم فيافع ومراهق، فإذا احتلم فمحزور، وهو في جميع هذه الأحوال غلام، فإذا اخضر شاربه وسال عذاره فباقل، فإذا صار ذاقناً ففتىٰ وشارخ، فإذا أكملت لحيته فمجتمع، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب، ثم هو كهل إلىٰ أن يستوفي الستين. هذا هو المشهور عند أهل اللغة.

﴿ٱلطِّينِ﴾: معروف، يقال: طانه الله علىٰ كذا وطامه بإبدال النون ميماً، إذا جبله وخلقه علىٰ كذا، ومطينٌ لقبٌ لمحدِّث معروف.

﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾: الهيئة: الشَّكْل والصورة، وأصله مصدر، يقال: هاء الشيء يهاء ـ من باب هاب ـ هيئاً وهيئةً إذا ترتب واستقر علىٰ حال ما، وتعدِّيه بالتضعيف، فتقول: هيَّأته. قال تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾.

﴿ٱلطَّيْرِ﴾: اسم جمع والطائر مفرده.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾: الإبراء: إزالة العلَّة والمرض، وفي «المصباح» برأ من المرض يبرأ من بابي نفع وتعب، وبروء برءاً من باب: قرب لغة فيه، وفيه أيضاً: كمه كمهاً من باب تعب فهو أكمه، والمرأة كمهاء مثل أحمر وحمراء، وهو العمىٰ يولد عليه الإنسان، وربما كان عارضاً.

وفيه أيضاً: برص الجسم من باب تعب فالذكر أبرص، والأنثىٰ برصاء، والجمع برص مثل: أحمر وحمراء وحمر، وفي «السمين»: والبرص: داء معروف، وهو بياض يظهر علىٰ الجلد، ولم تكن العرب تنفر من شيء نُفْرتَها منه.

﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾: يقال: ذخر الشيء يذخره إذا خبأه، والذُّخر: المذخور،

ويقال؛ إذ تخر من الذخر، أبدلت التاء دالاً، فصار: إذ دخر، ثم أدغمت الذال في الدال فقيل: ادّخر كما قيل: ادّكر في: اذدكر، فأصل تدخرون: تذدخرون؛ لأنه من باب افتعل كما مر في مقام التفسير.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البلاغة:

منها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إذا أريد بالملائكة جبريل، فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيماً له، فهو مجاز مرسل علاقته العموم.

ومنها: التكرار المسمىٰ بالإطناب في قوله: ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾، وفي ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾.

ومنها: التقديم والتأخير في ﴿وَٱسْجُدِى﴾ ﴿وَٱرْكَعِى﴾ علىٰ بعض الأقوال.

وقال «أبو السعود»[1]: وتكرير النداء في قوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى﴾ للإيذان بأن المقصود بهذا الخطاب ما يرد بعده، وأن الخطاب الأول من تذكير النعمة تمهيداً لهذا التكليف وترغيباً في العمل به. انتهىٰ. وقال أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ﴾ لا يخفىٰ ما فيه من التهكم؛ إذ هو تقرير لكون ما ذكر وحياً علىٰ طريقة التهكم بمنكريه، فإن طريق هذه الأمور الغريبة؛ إما المشاهدة، وإما السماع، وعدمه محقق عندهم، فبقي احتمال المعاينة المستحيلة باعترافهم، فنفيت تهكماً بهم. انتهىٰ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: التكرير فيه مع تحقيق المقصود بعطف ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ علىٰ؛ ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره إلقاء الأقلام، وعدم حضوره عند الاختصام، مستقل بالشهادة علىٰ بنوته.

---

(١) الجمل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾؛ لأنه سمىٰ الولد كلمة؛ لوجوده بكلمة: كن، فهو من باب إطلاق السبب علىٰ المسبَّب.

ومنها: العموم[1] الذي أريد به الخصوص في قوله: ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومنها: الاستعارة عند من قال: القنوت والسجود والركوع ليس كناية عن الهيئات التي في الصلاة.

ومنها: الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾ إذا قلنا: إنه أراد القداح؛ أي: السهام.

ومنها: إسناد الفعل للآمر به لا لفاعله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾؛ إذ هم المشافهون بالبشارة، والله الآمر بها، ومثله: نادىٰ السلطان في البلد بكذا.

ومنها: الاحتراس في قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ من ما جرت به العادة أن من تكلم في حال الطفولة.. لا يعيش.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ كنَّت بالمس عن الوطء، ما كني عنه بالحدث واللباس والمباشرة.

ومنها: السؤال والجواب في قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وفي قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ وفي قوله: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾ وفي قوله: ﴿ٱلطَّيْرِ﴾، وفي قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، ﴿ما﴾ وفي قوله: ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا﴾.

ومنها: التعبير عن الجمع بالمفرد في الآية: ﴿ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾، وفي قوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿لأحل﴾ و﴿حُرِّمَ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿ونعلمه﴾ عند من قرأ بالنون.

ومنها: التفسير بعد الإبهام فيمن قال: الكتاب مبهم غير مُبين، والتوراة والإنجيل تفسير له.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ
فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ
يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ
عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ
ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ
فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

المناسبة

لما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ قبل هذه بشارة الملائكة لمريم بعيسىٰ عليه السلام، وكلامه الناس في المهد، وإيتائه الكتاب والحكمة والنبوة، وإرساله رسولاً إلىٰ بني إسرائيل، وذكر براءة أمه التي تقدم ذكرها.. ذكر هنا خبره مع قومه، وما لاقاه منهم من الصد والإعراض، ومقاساة الأهوال، وهمهم بقتله، وإنجاء الله إياه، ووعيد الكافرين به، وعذابهم في الدنيا والآخرة، وطوىٰ ذكر ما بينهما من خبر ولادته وبعثته مؤيداً بتلك الآيات التي تقدمت اكتفاءً بحكاية الملائكة، وثقة بما فصل في المواضع الأخرىٰ.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ[1]: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ...﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: «أتىٰ رسول الله ﷺ راهبان من نجران، فقال أحدهما: من أبو عيسى؟ وكان رسول الله ﷺ لا يعجل حتىٰ يؤامر ربه، فنزل عليه: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ إلىٰ ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

وأخرج[2] ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رهطاً من أهل نجران قدموا علىٰ النبي ﷺ، وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ قال: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبد الله قالوا: فهل رأيت مثل عيسىٰ، وأنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل، فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ إلىٰ آخر الآية، وقد رويت هذه القصة علىٰ وجوه عن جماعة من التابعين.

وقد أخرج[3] البخاري ومسلم وغيرهما من حديث حذيفة رضي الله عنه: أن العاقب والسيد أتيا رسول الله ﷺ، فأراد أن يلاعنهما، فقال: أحدهما لصاحبه: لا نلاعنه، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح أبداً نحن ولا عقبنا من بعدنا، فقالوا له: نعطيك ما سألت فابعث معنا رجلاً أميناً، فقال: قم يا أبا عبيدة، فلما قام قال: هذا أمين هذه الأمة.

وأخرج[4] البيهقي في «الدلائل» من طريق سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ كتب إلىٰ أهل نجران - قبل أن ينزل عليه طس سليمان باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب - «من محمد النبي...» الحديث، وفيه: بعثوا إليه شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي، وجباراً الحرثي، فانطلقوا، فأتوه، فسألهم وسألوه، فلم يزل به وبهم المسألة حتىٰ قالوا: ما تقول في عيسى؟ قال: ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتىٰ أخبركم،

---

(١) لباب النقول.

(٢) الشوكاني.

(٣) الشوكاني.

(٤) لباب النقول.

فأصبح الغد، وقد أنزل الله هذه الآيات: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وأخرج[1] ابن سعد في «الطبقات» عن الأزرق بن قيس قال: قدم علىٰ النبي ﷺ أسقفُ نجران والعاقب، فعرض عليهما الإسلام، فقالا: إنا كنا مسلمين قبلك، قال: كذبتما، إنه منع منكما الإسلام ثلاث: قولكما اتخذ الله ولداً، وأكلكما لحم الخنزير، وسجودكما للصنم، قالا: فمن أبو عيسىٰ؟ فما درىٰ رسول الله ﷺ ما يرد عليهم حتىٰ أنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فدعاهما إلىٰ الملاعنة فأبيا، وأقرا بالجزية، ورجعا.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾؛ أي: فلما علم عيسىٰ من قومه بني إسرائيل التصميم علىٰ الكفر، والاستمرار علىٰ الضلال والعناد، وقصد الإيذاء، فقد صح أنه لقي من اليهود شدائد كثيرة، فقد كانوا يجتمعون عليه، ويستهزئون به ويقولون له: يا عيسىٰ ما أكل فلان البارحة، وما ادخر في بيته لغد، فيخبرهم فيسخرون منه، حتىٰ طال ذلك به وبهم، وطلبوا قتله؛ لأنهم كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به في التوراة، وأنه ينسخ دينهم، فخافهم واختفىٰ عنهم، وخرج هو وأمه يسيحان في الأرض.

وفي هذا عبرةٌ وتسلية للنبي ﷺ، وبيان بأن الآيات الكونية مهما كثرت لا تفضي إلىٰ الإيمان إلا إذا كان للمدعو استعداد للقبول، ومن الداعي حسن بيان.

فلما رأىٰ منهم ذلك ﴿قَالَ﴾ عيسىٰ للحواريين: ـ كما تدل عليه آية الصف ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ـ ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ﴾ حالة كوني ملتجئاً ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ومتوجهاً إليه، أو ذاهباً إليه أو في الدعوة إلىٰ الله ﴿قَالَ

(١) لباب النقول.

﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾؛ أي: قال الأصفياء من أتباعه وخواصهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نحن أنصار دين الله والباذلون كل ما في الوسع في تأييد دعوتك، والآخذون بتعاليمك، والمنصرفون عن التقاليد السالفة، وهذا النصر لا يستلزم القتال، بل يكفي فيه العمل بالدين والدعوة إليه.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: صدقنا بوحدانية الله، وبما جئتنا به، وهذا جارٍ مجرىٰ بيان السبب في نصر دينه، والمعنىٰ: يجب علينا أن نكون من أنصار الله لأجل أننا آمنا بالله، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله، والذبَّ عن أولياء الله، والمحاربة لأعدائه ﴿وَٱشْهَدْ﴾ لنا يا عيسىٰ يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: أي مخلصون منقادون لأوامره، وفي هذا دليل على أن الإسلام دين الله على لسان كل نبي، وإن اختلفت الأنبياء في بعض صوره وأشكاله وأحكامه وأعماله، وإنما طلبوا شهادته؛ لأن الرسل يشهدون لأممهم يوم القيامة، وإنما قال هنا: ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وفي المائدة: ﴿بأننا﴾؛ لأن ما فيها أول كلام الحواريين، فجاء علىٰ الأصل، وما هنا تكرار له بالمعنىٰ، فناسب فيه التخفيف؛ لأن كلاً من التخفيف والتكرار فرع، والفرع بالفرع أولىٰ، وإنما طلبوا منه عليه السلام الشهادة بذلك يوم القيامة إيذاناً بأن غرضهم السعادة الأخروية.

والحواريون: جمع حواري، وحواريُّ الرجل: صفوته وخلاصته، والحواري أيضاً: الناصر، ومنه قوله ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواريي الزبير» أخرجه الشيخان. وهذا المعنىٰ هو الصحيح، قاله ابن كثير. وقد اختلف في سبب تسميتهم بذلك، فقيل: لبياض ثيابهم، وقيل: لخلوص نياتهم، وقيل: لأنهم خاصة الأنبياء، وكانوا اثني عشر رجلاً، وقيل: تسعة وعشرين رجلاً آمنوا بعيسىٰ عليه السلام واتبعوه، وكانوا إذا جاعوا.. قالوا: جعنا يا روح الله، فيضرب بيده الأرض ليخرج لكل واحد رغيفان، وإذا عطشوا.. قالوا: عطشنا، فيضرب بيده الأرض، فيخرج منها الماء، فيشربون، فقالوا: من أفضل منا، نأكل من حيث شئنا، قال عليه السلام: أفضل منكم من يعمل بيده، ويأكل من كسبه، فصاروا يغسلون الثياب للناس بالأجرة، فسموا حواريين.

فلما أشهدوا عيسى علىٰ إيمانهم وإسلامهم. . تضرعوا إلىٰ الله تعالىٰ، وقالوا مبالغة في إظهار أمرهم يا ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا ﴿ءَامَنَّا﴾ وصدقنا ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ علىٰ عيسىٰ من كتابك الإنجيل ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: وامتثلنا أمر رسولك عيسىٰ فيما أتانا به من عندك ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: فاكتبنا في جملة من شهد لك بالوحدانية، ولرسلك بالرسالة بتصديقهم واتباعهم؛ أي: فثبِّت أسماءنا مع أسمائهم، واجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فاكتبنا في زمرة الأنبياء؛ لأن كل نبي شاهد لقومه، أو فاكتبنا مع محمد وأمته؛ لأنهم هم المخصوصون بآداء الشهادة يوم القيامة، فإنهم يشهدون للرسل بالبلاغ، وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين الذين سأل الحواريون أن يكونوا معهم مزيد فضل عليهم.

﴿وَمَكَرُواْ﴾؛ أي: ومكر أولئك القوم الذين علم عيسىٰ ـ عليه السلام ـ كفرهم من اليهود، واحتالوا في قتله بأن وكلوا به من يقتله غيلة ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أبطل الله مكرهم، فلم ينجحوا فيه، ورفع عيسىٰ عليه السلام إلىٰ السماء، وألقىٰ شبهه علىٰ من قصد اغتياله حتىٰ قتل ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾؛ أي: أقواهم مكراً، وأنفذهم كيداً، وأقدرهم علىٰ إيصال الضر إليهم من حيث لا يحتسبون؛ حيث جعل تدميرهم في تدبيرهم، فتدبيره الذي يخفىٰ على عباده إنما يكون لإقامة سننه، وإتمام حكمته، وكلها خير في نفسها، وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم.

واعلم: أن مكر الله استدراجه للعباد من حيث لا يعلمون، قاله الفراء وغيره، وقال الزجاج: مكر الله: مجازاتهم علىٰ مكرهم فمعنىٰ: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: جازاهم على مكرهم، فحيث أضمروا علىٰ أخذ عيسى من حيث لا يحتسب. . جازاهم علىٰ ذلك وأخذهم من حيث لم يحتسبوا؛ حيث ألقىٰ شبه عيسىٰ عليه السلام علىٰ قاصد قتله فقتل، ورفع عيسىٰ فسُمي الجزاء باسم الابتداء، كقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وأصل المكر: الاغتيال والخدع، حكاه ابن فارس، وهو إيصال الضرر إلىٰ الغير بطريق خفي، وعلىٰ هذا فلا يطلق

علىٰ الله إلا علىٰ طريق المشاكلة، فمعنىٰ المشاكلة؛ الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى؛ إذ لا يجوز أن يوصف الله تعالىٰ بالمكر إلا لأجل ما ذكر معه من لفظ آخر مسند لمن يليق به، هكذا قيل. وقد جاء إسناد المكر إلىٰ الله تعالىٰ من غير مقابلة في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾. وفي الحديث: «اللهم أمكر لي ولا تمكر عليّ». قال أبو حيان: سأل رجل الجنيد، فقال: كيف رضي الله سبحانه لنفسه المكر، وقد عاب به غيره؟ فقال: لا أدري، ولكن أنشدني فلان الظهراني شعراً:

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ ٱلْفِعْلُ عِنْدِيْ   فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

ثم قال: قد أجبتُك إن كنت تعقل. والمذهب الأسلم الذي عليه سلف الأمة إثبات المكر لله سبحانه وتعالى، فإذاً فالمكر صفة ثابتة لله تعالىٰ نؤمن بها ونعتقدها ونثبتها من غير تمثيل ولا تعطيل، وهذا هو الذي نلقىٰ الله عليه.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ملك بني إسرائيل اسمه: يهوذا، لما قصد قتل عيسىٰ عليه السلام.. أمره جبريل أن يدخل بيتاً فيه روزنة ـ والروزنة: فرجة في سقف البيت ـ فرفعه جبريل من تلك الروزنة إلىٰ السماء، فقال الملك لرجل خبيث منهم يقال له تطيانوس: أدخل عليه فاقتله، فدخل البيت فلم يرَ عيسى، فألقىٰ الله تعالىٰ شبه عيسى عليه السلام عليه، فخرج يخبرهم أنه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه، ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى، وبدنه يشبه بدن صاحبنا، فإن كان هذا عيسىٰ فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسىٰ؟ فوقع بينهم قتال عظيم.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله؛ أي: مكر الله سبحانه وتعالى بهم حين قال لنبيه ورسوله عيسىٰ عليه السلام: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ ابن مريم ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾؛ أي: مستوفي أجلك المسمىٰ، ومؤخرك إلىٰ تمامه، وعاصمك من أن يقتلك الكفار، أو[1] قابضك من الأرض من توفيت مالي، أو متوفيك نائماً؛ إذ رُوي أنه

---

(١) البيضاوي.

رفع نائماً، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلىٰ عالم الملكوت، وقيل: أماته الله سبع ساعات، ثم رفعه إلىٰ السماء، وإليه ذهبت النصارىٰ، والله أعلم بحقيقة الحال. ﴿وَرَافِعُكَ﴾ من الأرض ﴿إِلَيَّ﴾؛ أي: إلىٰ سمائي ومحل كرامتي، ومقر ملائكتي. ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: مخرجك من بينهم، ومنجيك منهم؛ أي: مما كانوا يريدونه بك من الشر، أو مما كانوا يرمونه به من القبائح، ونسبة السوء إليه، وفي هذا بشارة بنجاته من مكرهم، واستيفاء أجله، وأنهم لا ينالون منه ما كانوا يريدونه بمكرهم وخبثهم.

وللعلماء في تأويل هذه الآية رأيان[1]:

الأول: أن فيها تقديماً وتأخيراً، والأصل إني رافعك إليَّ ومتوفيك؛ أي؛ إني رافعك الآن، ومميتك بعد النزول من السماء في الحين الذي قدر لك، وعلى هذا فهو قد رفع حياً بجسمه وروحه، وأنه سينزل آخر الزمان، فيحكم بين الناس بشريعتنا، ثم يتوفاه الله تعالىٰ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد»، زاد في رواية: «حتىٰ تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أخرجه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس بيني وبينه - يعني: عيسىٰ - نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه، فاعرفوه؛ فإنه رجل مربوع إلىٰ الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين - أي: ثوبين مصبوغين بالممصرة، الممصرة: تراب أحمر يصبغ به - كأن رأسه يقطر ماءً، وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الملل في زمانه كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجالَ، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة،

---

(١) المراغي.

ثم يتوفىٰ، ويصلي عليه المسلمون» أخرجه أبو داود.

والقول الثاني: أن الآية علىٰ ظاهرها، وأن التوفي هو الإماتة العادية، وأن الرفع بعده للروح، ولا غرابة في خطاب الشخص وإرادة روحه، فالروح هي حقيقة الإنسان، والجسد كالثوب المستعار يزيد وينقص ويتغير، والإنسان إنسان؛ لأن روحه هي هي.

والمعنىٰ: إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي، كما قال تعالى في إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾، وحديث الرفع والنزول آخر الزمان حديث آحاد، يتعلق بأمر اعتقادي، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل القاطع من قرآن أو حديث متواتر، ولا يوجد هنا واحد منهما.

أو أن المراد بنزوله وحكمه في الأرض: غلبة رُوحه، وسرد رسالته علىٰ الناس بالأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها، والتمسك بقشورها دون لبابها.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾؛ أي: وجاعل الذين آمنوا بأنك عبد الله ورسوله، والذين صدَّقوا بنبوتك وادعوا محبتك كالنصارىٰ ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ومكروا بك، وهم اليهود بالحجة والسيف والقهر والسلطان والاستعلاء والنصرة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: إن هذه الفوقية مستمرة لهم ما دامت السموات والأرض، وبعدئذٍ يفعل بهم ما يشاء، وهذه الفوقية؛ إما فوقية دينية روحانية، وهي فضلهم عليهم في حسن الأخلاق، وكمال الآداب، والقرب من الحق، والبعد من الباطل، وإما فوقية دنيوية، وهي كونهم أصحاب السيادة عليهم، وفي هذا إخبار عن ذل اليهود ومسكنتهم إلىٰ يوم القيامة، وقد تحقق ذلك؛ فإن مُلك اليهود قد ذهب، فلم تبق لهم قلعة ولا سلطان ولا شوكة في جميع الأرض، فلا يرىٰ ملك يهودي، ولا بلد مستقل لهم، بل يكونون مقهورين أين ما كانوا بالذلة والمسكنة، وملك النصارىٰ باقٍ قائم إلىٰ قريب من قيام الساعة، فإنا نرىٰ أن دولة النصارىٰ في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود، ولكن هذا لم يتحقق زمن المسيح لأتباعه، بل كان اليهود يغلبونهم علىٰ أمرهم، فالوجه الأول أولى بالاعتبار.

وقيل: إن الخطاب في قوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ لنبينا محمد ﷺ، فيكون الوقف علىٰ قوله من الذين كفروا تاماً، والابتداء بما بعده، وجاز هذا لدلالة الحال عليه؛ أي: جاعلهم قاهرين لهم إلىٰ يوم القيامة يعني: أنهم ظاهرون علىٰ اليهود وغيرهم من الكفار بالغلبة في الدنيا؛ فأما يوم القيامة.. فيحكم الله بينهم، فيدخل الطائع الجنة، والعاصي النار، وليس المعنىٰ علىٰ انقطاع ارتفاع المؤمنين علىٰ الكافرين بعد الدنيا وانقضائها؛ لأن لهم استعلاء آخر غير هذا الاستعلاء.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء الدنيا، وقيام الساعة ﴿إِلَيَّ﴾ لا إلىٰ غيري ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم ومصيركم إليَّ بالموت والبعث، والخطاب لعيسىٰ ومن آمن معه ومن كفر به، وغلب المخاطبين علىٰ الغائبين. ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يومئذٍ ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: فيما اختلفتم فيه من أمور الدين.

ثم بيَّن جزاء المحق والمبطل وكيفيته فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وكذبوك، وهم اليهود ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بإذلالهم بالقتل والأسر والجزية وتسليط الأمم عليهم ﴿و﴾ في ﴿الآخرة﴾ بالنار، ولعذاب الآخرة أشد وأنكىٰ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ أي: مانعين من عذاب الله في الدنيا والآخرة. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله والكتاب، وبنبوة عيسىٰ، وبنبوة محمد ﷺ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيما بينهم وبين ربهم؛ بأن امتثلوا الأوامر، واجتنبوا النواهي ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: يعطيهم الله تعالىٰ أجور أعمالهم وثوابها في الجنة موفراً كاملاً غير منقوص.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يريد إيصال الخير إلىٰ المشركين، أو المعنى: والله لا يحب من ظلم غيره حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه، فكيف بظلم عباده له؟ فهو يجازيه بما يستحق، وفي هذا وعيد منه للكافرين به وبرسله، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله، وفي هذه(١) الآية قال: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء علىٰ قراءة حفص ورويس وذلك على سبيل الالتفات والخروج من ضمير المتكلم

---

(١) البحر المحيط.

إلىٰ ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة. وقرأ الجمهور: ﴿فنوفيهم﴾؛ أي: نعطيهم أجورهم كاملة موفرة ـ بالنون الدالة على المتكلم المعظم نفسه ـ، ولم يأت بالهمزة كما في تلك الآية؛ ليخالف في الإخبار بين النسبة الإسنادية فيما يفعله بالكافر، وبالمؤمن؛ كما خالف في الفعل؛ ولأن المؤمن العامل للصالحات عظيم عند الله، فناسبه الإخبار عن المجازي بنون العظمة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي ذكرته لك من خبر عيسىٰ، وأمه مريم، وأمها، وزكريا، وابنه يحيىٰ، ومن خبر الحواريين واليهود. ﴿نَتْلُوهُ﴾؛ أي: نقرأه ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد علىٰ لسان جبريل الأمين، وإنما أضاف ما يتلوه جبريل إلىٰ نفسه سبحانه وتعالىٰ؛ لأنه من عنده وبأمره من غير تفاوت أصلاً، فأضافه إليه حالة كونه ﴿مِنَ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: من العلامات الدالة علىٰ نبوتك يا محمد؛ لأنها إخبار لا يعلمها إلا من يقرأ ويكتب، أو نبي يُوحىٰ إليه، وأنت أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب، فثبت أن ذلك من الوحي السماوي الذي أنزل عليك ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ أي: القرآن المحكم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

وقد روي ـ كما مر لك ـ: أنه حضر وفد نصارىٰ نجران علىٰ رسول الله ﷺ، فقالوا له: ما شأنك تذكر صاحبنا ونسبه؟ فقال: مَنْ هو؟ قالوا: عيسىٰ، قال: وما أقول؟ قالوا: تقول إنه عبد، قال: أجل هو عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول. فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ ومن لا أب له فهو ابن الله، ثم خرجوا من عنده ﷺ، فجاءه جبريل فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾؛ أي: إن شأن عيسىٰ وصفته في خلق الله تعالىٰ إياه علىٰ غير مثال سابق؛ أي: من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أبي البشر؛ أي: كشأن آدم وصفته، ثم فسر هذا المثل وفصل ما أجمله فقال: ﴿خَلَقَهُۥ﴾؛ أي: خلق آدم وأوجده وكوَّن جسمه ﴿مِن تُرَابٍ﴾ ميت؛ حيث أصابه الماء، فكان طيناً لازباً لزجاً؛ أي: خلقه بلا أب وأم ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما كوَّن جسمه من التراب ﴿قَالَ﴾ الله ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لآدم ﴿كُن﴾ بشراً حساساً بنفخ الروح فيه ﴿فَيَكُونُ﴾؛ أي: فكان بشراً حساساً ناطقاً ضاحكاً، والتعبير بالمضارع علىٰ حكاية الحال الماضية، أو

للفاصلة، وكذلك قال له: كن من غير أب.. فكان ولداً بلا أب، فإذا كان آدم كذلك، ولم يكن ابناً لله.. فكذلك عيسىٰ، فمن لم يقرَّ بأن الله خلق عيسىٰ من غير أب مع إقراره بخلق آدم من غير أب ولا أم، فهو خارج عن طور العقلاء، وأيضاً: إذا جاز أن يخلق الله آدم من التراب.. فيجوز خلق الله تعالىٰ عيسىٰ من دم مريم من باب أولىٰ، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقربُ إلىٰ العقل من تولده من التراب اليابس.

ثم أكد الله سبحانه وتعالى صدق هذا القصص، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الحق؛ أي: ما قصصنا عليك يا محمد في شأن عيسى وأمه مريم، هو الخبر الحق، والقول الصدق، والأمر الثابت الذي لا شك فيه حالة كونه موحىٰ إليك من ربك، لا ما تعتقده النصارىٰ في المسيح من أنه إله، أو ابن الله، ولا ما تزعمه اليهود من رمي مريم بيوسف النجار. ﴿فَلَا تَكُن﴾ يا محمد ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ أي: من الشاكين فيما بينت لك في شأن عيسىٰ وأمه، وهو كونه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم؛ أي: فلا تشكن في أمرهما بعد أن جاءك العلم اليقيني به، وهذا الخطاب للنبي ﷺ، ولكن المقصود به نهي غيره لعصمته عن مثل ذلك الامتراء.

وفي النهي للنبي ﷺ مع استحالة وقوع الامتراء منه فائدة من وجهين:

الأول: إذا سمع ﷺ مثل هذا الخطاب.. ازداد رغبة في الثبات علىٰ اليقين، واطمئنان النفس.

والثاني: إذا سمعه غيره ازدجر ونزع عما يورث الامتراء؛ إذ أنه ﷺ علىٰ جلالة قدره خوطب بمثل هذا، فما بالك بغيره.

وخلاصة ذلك: دم على يقينك يا محمد، وعلىٰ ما أنت عليه من الاطمئنان إلىٰ الحق، والتنزه عن الشك فيه. ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ وخاصمك وجادلك ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في شأن عيسىٰ، وهم النصارى الذين وفدوا إلىٰ رسول الله ﷺ من نجران، كما مر في مقام أسباب النزول. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ﴾؛ أي: بعد الذي جاءك وأوحي إليك ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: من الآيات البينات التي تفيد العلم واليقين، بأن

عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم.

﴿فَقُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿تَعَالَوْا﴾؛ أي: هلموا وأقبلوا إليّ. قرأ الجمهور: ﴿تَعَالَوْا﴾ بفتح اللام وهو الأصل والقياس. وقرأ الحسن وأبو واقد وأبو السَّمَال شذوذاً بضم اللام علىٰ أن أصله: تعاليوا، فنقلت الضمة إلىٰ اللام، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، وهذا تعليل شاذ. ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا﴾؛ أي: نخرج أبناءنا ﴿وَأَبْنَآءَكُمْ﴾؛ أي: أخرجوا أنتم أبناءكم ﴿وَنِسَآءَنَا﴾؛ أي: نخرج نساءنا ﴿وَنِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: وأخرجوا أنتم نساءكم ﴿وَأَنفُسَنَا﴾؛ أي: نخرج بأنفسنا ﴿وَأَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: اخرجوا أنتم بأنفسكم. ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾؛ أي: نتضرع ونجتهد ونبالغ في الدعاء ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ﴾ وغضبه فيما بيننا ﴿عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ منا ومنكم في شأن عيسىٰ؛ أي: فقل لهم أقبلوا، وليدعُ كل منا ومنكم أبناءه ونساءه للمباهلة، وليقل: لعنة الله علىٰ الكاذبين منا ومنكم، أو اللهم العنْ الكاذب منا في شأن عيسىٰ.

وفي تقديم هؤلاء على النفس في المباهلة مع أن الرجل يخاطر بنفسه لهم إيذانٌ بكمال أمته ﷺ، وتمام ثقته بأمره، وقوة يقينه بأنه لن يصيبهم في ذلك مكروه، وهذه الآية تسمىٰ: آية المباهلة.

وروى أن النبي ﷺ: اختار للمباهلة علياً، وفاطمة، وولديهما رضي الله عنهم، وخرج بهم، وقال: إن أنا دعوت.. فأمنوا أنتم.

وأخرج ابن عساكر عن جعفر عن أبيه: أنه لما نزلت هذه الآية.. جاء بأبي بكر وولده، وبعمر وولده، وبعثمان وولده، ولا شك أن الذي يفهم من الآية أن النبي ﷺ أمر أن يدعو المحاجين والمجادلين في شأن عيسىٰ من أهل الكتاب إلىٰ الاجتماع رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويجمع هو المؤمنين رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويبتهلوا إلىٰ الله تعالىٰ بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسىٰ.

وهذا الطلب يدل علىٰ قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول، كما يدل امتناع من دُعوا إلىٰ ذلك من أهل الكتاب من نصارىٰ نجران وسواهم علىٰ امترائهم في حجاجهم، وكونهم علىٰ غير بيّنة فيما يعتقدون.

وفي الآية عبرة لمن ادَّكر؛ لأنه طلب فيها مشاركة النساء للرجال في الاجتماع للمفاضلة الدينية، وفي هذا دليل على أن المرأة كالرجل، حتىٰ في الأمور العامة، إلا في بعض مسائل؛ ككونها لا تباشر الحرب بنفسها، بل تشتغل بخدمة المحاربين ومداواة الجرحىٰ، ولا تتولى القضاء في الجنايات ونحوها، وأين هذا من حال نساء المسلمين اليوم، في جهلهن بأمور الدين، وعدم مشاركتهن للرجال في عمل من الأعمال الدينية، أو الشؤون الاجتماعية، ولا هَمَّ لنساء الأغنياء في المدن إلا الزينة، والتنوق[1] في المطاعم والمشارب والملابس، والتفرج بآلات الملاهي المحرمة، والأغاني الخبيثة، وإضاعة الأوقات فيها، كما لا عمل لنساء الفقراء في القرىٰ والدساكر إلا الخدمة في الحقول والمنازل، فهن كالأُتن الحاملة، والبقر العاملة، وكان من جزاء هذا أن صغُرتْ نفوسهن، وضعفت آدابهن، وصرن كالدواجن في البيوت، أو السوائم في الصحراء، وساءت تربية البنين والبنات، وسرىٰ الفساد من الأفراد إلىٰ الجماعات، وعمَّ الأُسَر والعشائر والشعوب والقبائل.

وقد قام في هذا العهد الأخير جماعات من العقلاء في كثير من البلاد الإسلامية يطالبون بتحرير المرأة، ومشاركتها الرجل في العلم والأدب وشؤون الحياة، وصادفت هذه الدعوة آذاناً صاغية، فبدأ المسلمون يعلِّمون بناتهم، ولكن ينبغي أن يصحب هذا التعليم شيء كثير من التربية الدينية، والإصلاح في الأخلاق والعادات.

وقد كان هذا عاملاً من عوامل الانقلاب الاجتماعي الذي لا ندري ما تكون عاقبته في إصلاح الأسر الإسلامية، ولا ما سينتج منه من نفع للإسلام والمسلمين، أو تتبع للنصارىٰ والمشركين.

فائدة: وأتىٰ[2] بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ تنبيهاً لهم علىٰ خطئهم في

---

(١) **التنوق**: يقال تنوق في المطعم والمشرب إذا أخذ أجوده وأحسنه ا هـ.

(٢) الجمل.

مباهلته، كأنه يقول لهم: لا تعجلوا، وتَأَنَّوا؛ لعله أن يظهر لكم الحق، فلذلك أتىٰ بحرف التراخي.

قوله: ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾ هذه[1]، والتي في النور في قوله: ﴿والخامسة أن لعنت الله عليه﴾، يكتبان بالتاء المبسوطة، وما عداهما بالهاء علىٰ الأصل.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور الذي ذكرته لك يا محمد من الدلائل التي دلت علىٰ أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم ولم يكن إلهاً، ولا ولده، ولا شريكه، ومن الدعاء إلىٰ المباهلة مع وفد نجران ﴿لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾؛ أي: لهو الخبر الصدق، والقول الحق الذي لا شك فيه دون أكاذيب النصارىٰ، وافتراء اليهود ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ﴾ بلا شريك، ولا ولد، ولا زوجة ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ سبحانه وتعالىٰ. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يُمنع، القادر علىٰ جميع المقدورات ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: العالم بجميع المعلومات، وبجميع عواقب الأمور، فذكر العزيز الحكيم ها هنا إشارة إلىٰ الجواب عن النصارىٰ في الشبهتين لعيسىٰ: القدرة علىٰ الإحياء ونحوه، وإخبار الغيوب؛ أي: لا أحد سواه يساويه في القدرة التامة، والحكمة البالغة، ليشاركه في الإلهية.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ أي: فإن أعرضوا عن اتباعك وتصديقك، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد التي جئت بها، ولم يجيبوك إلىٰ المباهلة.. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عليم بـ﴾ حال ﴿المفسدين﴾ في الدين، ونياتهم، وأغراضهم الفاسدة، فيجازيهم بخبيث سرائرهم وسيىء أعمالهم.

وخلاصة المعنى: فإن أبوا عن قبول الحق، وأعرضوا عما وصفت من أن الله هو الواحد، وأنه يجب أن يكون عالماً قادراً علىٰ جميع المقدورات، عالماً بالنهايات، محيطاً بالمعلومات، مع اعترافهم بأن عيسى لم يكن كذلك، ومع قولهم: إن اليهود قتلوه.. فاعلم أن إباءهم وإعراضهم ليس إلا على سبيل العناد، فاقطع كلامك عنهم، وفوض أمرهم إلىٰ الله، فإن الله عليم بفساد المفسدين،

---

(١) الجمل.

مطلّع علىٰ ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة، قادر علىٰ مجازاتهم.

الإعراب

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾ الفاء استئنافية (لما): حرف شرط غير جازم ﴿أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنۡهُمُ﴾: متعلق بـ﴿أَحَسَّ﴾، أو حال من ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾ تقديره: أحسَّ الكفر حال كونه صادراً منهم، كما قاله أبو البقاء. ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾: مفعول به لأحس، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿عِيسَىٰ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة، ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلتَ: ﴿مَنۡ﴾: اسم استفهام مبتدأ، ﴿أَنصَارِيٓ﴾: خبر ومضاف إليه ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾: جار ومجرور حال من ياء المتكلم متعلق بمحذوف تقديره: حالة كوني ملتجئاً إلىٰ الله، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾: الواو عاطفة ﴿اشهد﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿عِيسَىٰ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ علىٰ كونها مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿بِأَنَّا﴾: الباء حرف جر، أن: حرف نصب ومصدر، ونا: ضمير المتكلمين اسمها. ﴿مُسۡلِمُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء المتعلقة بـ﴿أشهد﴾ تقديره؛ وأشهد بكوننا مسلمين.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾ منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿أَنزَلْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما أنزلته. ﴿وَٱتَّبَعْنَا﴾: الواو عاطفة، (اتبعنا) فعل وفاعل. ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنَّا﴾ علىٰ كونها مقول القول. ﴿فَٱكْتُبْنَا﴾: الفاء عاطفة تفريعية، ﴿اكتبنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿اكتبنا﴾، أو حال من ضمير المفعول.

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ الواو استئنافية، ﴿مكروا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مكروا﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ، والظرف متعلق بـ﴿مكر الله﴾؛ أي: مكرهم الله وقت قوله لعيسى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾: منادىٰ مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّى﴾: إنَّ: حرف نصب وتوكيد، والياء اسمها، ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: خبرها ومضاف إليه ﴿وَرَافِعُكَ﴾: معطوف علىٰ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ ﴿إِلَىَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿رافعك﴾، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: معطوف علىٰ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾:

متعلق بـ﴿مطهرك﴾ ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَجَاعِلُ﴾: معطوف علىٰ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾، وهو مضاف ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضاف إليه ﴿ٱتَّبَعُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف مفعول ثانٍ لـ﴿جاعل﴾ تقديره: ظاهرين فوقهم. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿جاعل﴾ يعني: أن هذا الجعل مستمر إلىٰ ذلك اليوم، ويجوز أن يتعلق بما تعلق به الظرف؛ أعني: فوق الذين كفروا.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب وتراخٍ، ﴿إِلَيَّ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لإفادة الحصر. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ علىٰ كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَحْكُمُ﴾: الفاء: حرف عطف وتعقيب، ﴿أحكم﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، فالجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ علىٰ كونها مقول القول، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿أحكم﴾، ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أحكم﴾، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمها ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: خبر كان، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير فيه، والتقدير: فأحكم بينكم فيما كنتم مختلفين فيه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت رجوعكم إليّ وحكمي بينكم، وأردت بيان كيفية ذلك الحكم.. فأقول لك ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾: الفاء

رابطة لجواب ﴿أما﴾ ﴿أعذبهم﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق. ﴿شَدِيدًا﴾ صفة ﴿عَذَابًا﴾. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ(أعذبهم) ﴿وَالْآخِرَةِ﴾: معطوف علىٰ ﴿الدُّنْيَا﴾، وجملة (أعذبهم) في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكنها خبر سيِّئ تقديره: فأما الذين كفروا.. فمعذب أنا إياهم، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة (أما) من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿وَمَا لَهُم﴾: الواو عاطفة، (ما): حجازية أو تميمية (لهم): جار ومجرور خبر (ما) الحجازية، أو خبر المبتدأ المؤخر. ﴿مِن﴾: زائدة ﴿نَاصِرِينَ﴾: اسم (ما) الحجازية، أو مبتدأ مؤخر تقديره: وما ناصرون كائنين أو كائنون لهم، والجملة معطوفة علىٰ جملة (ما) علىٰ كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ﴾ الواو عاطفة (أما): حرف شرط ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿آمَنُوا﴾، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾: الفاء رابطة لجواب (أما) (يوفيهم): فعل مضارع ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الله﴾ ﴿أُجُورَهُمْ﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكنه خبر سيِّىء، والجملة الاسمية جواب (أما) لا محل لها من الإعراب، وجملة (﴿أما) في محل النصب معطوفة علىٰ جملة (أما) الأولىٰ ﴿وَاللَّهُ﴾: الواو عاطفة ﴿الله﴾: مبتدأ ﴿لَا﴾: نافية ﴿يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ جملة (أما).

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ ﴿نَتْلُوهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الله﴾،

والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلقان بـ﴿نتلوه﴾ ﴿مِنَ ٱلْآيَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من ضمير ﴿نَتْلُوهُ﴾ ﴿وَٱلذِّكْرِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: صفة لـ﴿ذكر﴾.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿مَثَلَ﴾: اسمها، ﴿عِيسَىٰ﴾: مضاف إليه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إِنَّ﴾ الآتي، وقال أبو حيان[1]: والعامل في ﴿عِندَ﴾ العاملُ في كاف التشبيه. ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿خَلَقَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله ﴿مِن تُرَابٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ(خلق)، والجملة الفعلية جملة مفسرة لـ﴿مثل آدم﴾ لا محل لها من الإعراب، وقيل: حال من ﴿ءَادَمَ﴾ علىٰ تقديره: قد، قال أبو حيان[2]: وهذه الجملة تفسيرية لـ﴿مثل آدم﴾، فلا موضع لها من الإعراب. وقيل: هي في موضع الحال، وقد مع ﴿خَلَقَهُۥ﴾ مقدرةٌ، والعامل فيها معنىٰ التشبيه. قال ابن عطية؛ ولا يجوز أن يكون ﴿خَلَقَهُۥ﴾ صفة لآدم، ولا حالاً منه إذ الماضي لا يكون حالاً أنت فيها، بل هو كلام مقطوع منه، مُضَمَّنه تفسير المثل. انتهىٰ كلامه، وفيه نظر اهـ.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قَالَ﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿خَلَقَهُۥ﴾، ﴿كُن﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿كُن﴾: فعل أمر من كان التامة، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ءَادَمَ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

﴿قَالَ﴾ ﴿فَيَكُونُ﴾ الفاء استئنافية ﴿يكون﴾ فعل مضارع تام مرفوع بالضمة والفاعل هو والجملة مستأنفة.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾.

﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا هو الحق، والجملة مستأنفة ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾ تقديره: حال كونه كائناً من ربك. ﴿فَلَا تَكُن﴾: الفاء عاطفة تفريعية ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿تَكُن﴾ تقديره: فلا تكن كائناً من الممترين، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾.

﴿فَمَنْ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن هذا المذكور في شأن عيسىٰ هو الحق من ربك، وأردت بيان كيفية المعارضة مع من حاجك فيه.. فأقول لك ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما، أو موصولة بمعنىٰ الذي في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾، ودخلت الفاء في خبره لشبه الموصول بالشرط في العموم ﴿حَآجَّكَ﴾: فعل ماضٍ ومفعول في محل الجزم بـ(مَنْ) الشرطية، وفاعله ضمير يعود علىٰ (من) ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَآجَّكَ﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿حَآجَّكَ﴾. ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿جَآءَكَ﴾ تقديره: حال كونه كائناً من العلم. ﴿فَقُلْ﴾: الفاء رابطة لجواب (من) الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية (قل): فعل أمر في محل الجزم بـ(من) الشرطية علىٰ كونه جواباً لها مبني علىٰ السكون، وفاعله ضمير يعو دعلىٰ محمد، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا الشرطية، وجملة إذا الشرطية مستأنفة. ﴿تَعَالَوْا۟﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي، وإن شئت

قلتَ: ﴿تَعَالَوْا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾.

﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

﴿نَدْعُ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود علىٰ النبي، ومن يخاصمه من النصارىٰ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾ ﴿أَبْنَآءَنَا﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿وَأَبْنَآءَكُمْ﴾: معطوف علىٰ ﴿أَبْنَآءَنَا﴾، وكذلك معطوف عليه قوله: ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخٍ. ﴿نَبْتَهِلْ﴾: فعل مضارع معطوف علىٰ ﴿نَدْعُ﴾ علىٰ كونه مجزوماً بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود علىٰ النبي، ومن يخاصمه من النصارىٰ ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ فعل مضارع ومفعول أول ومضاف إليه، معطوف علىٰ ﴿نَدْعُ﴾ علىٰ كونه مجزوماً بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود علىٰ النبي، ومن يخاصمه ﴿عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿نجعل﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿هَٰذَا﴾: اسمها ﴿لَهُوَ﴾: اللام حرف ابتداء ﴿هو﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْقَصَصُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿ٱلْحَقُّ﴾: صفة لـ﴿قصص﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: الواو عاطفة أو استئنافية ﴿ما﴾: نافية، ﴿مِنْ﴾: زائدة زيدت لإفادة الاستغراق والعموم ﴿إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة تقدم النافي عليه ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة عاطفة علىٰ جملة ﴿إِنَّ﴾، أو مستأنفة. وفي «الفتوحات الإلهية» قوله[1]: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أن ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ، و ﴿مِنْ﴾ مزيدة فيه، وإلا الله خبره تقديره: ما إله إلاالله، وزيدت ﴿مِنْ﴾ للاستغراق والعموم.

---

(١) الجمل.

الثاني: أن يكون الخبر مضمراً تقديره: وما من إله لنا إلا الله و ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: بدل من موضع ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾؛ لأن موضعه رفع بالابتداء ا هـ. «سمين». انتهىٰ. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: الواو عاطفة أو استئنافية (إن): حرف نصب ﴿اللَّهَ﴾: اسمها ﴿لَهُوَ﴾: اللام حرف ابتداء ﴿هو﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر أول لـ﴿إن﴾ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثانٍ لها، والجملة مستأنفة أو معطوفة علىٰ جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولىٰ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفت كيفية المحاجة معهم، وأردت بيان حكم ما إذا تولوا عن قبول الحق بعد المحاجة.. فأقول لك. ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل ماضٍ، وفاعل، في محل الجزم بـ(إن) علىٰ كونه فعل شرط لها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء رابطة لجواب (إن) الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية (إن): حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبرها. ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌۢ﴾، وجملة (إنَّ) في محل الجزم بـ(إن) الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة (إنْ) الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾: الإحساس: الإدراك ببعض الحواس الخمس، وهي: الذوق والشم واللمس والسمع والبصر، يقال: أحسست الشيء وبالشيء وحسست به، ويقال: حسيت به بإبدال سينه الثانية ياءً، وأحست بحذف سينه الأولىٰ، وقال سيبويه: وما شذَّ من المضاعف ـ يعني: في الحذف ـ فشبيه بباب أقمت، وذلك قولهم: أحست وأحسن، يريدون أحسست وأحسسن، والمراد بالإحساس هنا: الإدراك القوي الجاري مجرىٰ المشاهدة.

﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: والأنصار جمع: نصير، نحو شريف وأشراف.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: جمع حواري، وهو الناصر، وهو مصروف وإن ماثل المفاعل؛ لأن ياء النسب فيه عارضة، وهو مشتق من الحور، وفعله من باب طَرِب يقال: حورت العين إذا صفا بياض بياضها وسواد سوادها، فسموا حواريين لخلوص بياض ألوانهم ونياتهم وسرائرهم، فعلىٰ هذا القول الحَوَر وهو البياض قائمٌ بذواتهم وقلوبهم، وقيل: مأخوذ من التحوير وهو: التبييض؛ لأنهم يحورون الثياب، ويقصرونها؛ أي: يبيضونها. ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ والمكر[1]: الخداع والخبث، وأصله: الستر، يقال: مكر الليل وأمكر إذا أظلم، واشتقاقه من: المكر، وهو: شجر ملتف، فكأن الممكور به يلتف به المكر ويشتمل عليه، ويقال: امرأة ممكورة إذا كانت ملتفة الخلق، والمكر أيضاً ضرب من النبات، وفسره بعضهم بأنه: صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان:

محمود: وهو أن يتحرىٰ به فعلَ جميلَ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾.

ومذموم: وهو أن يتحرىٰ به فعل قبيحٍ؛ نحو: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾. ا هـ. «سمين».

﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾: العامة علىٰ فتح اللام؛ لأنه أمر من: تعالىٰ يتعالىٰ؛ كترامىٰ يترامىٰ، وأصل ألفه ياء، وأصل هذه الياء واو؛ وذلك لأنه مشتق من العلو وهو: الارتفاع، والواو متىٰ وقعت رابعة فصاعداً قلبت ياءً، فصار: تعالىٰ فتحرك حرف العلة ـ وهو الياء ـ، وانفتح ما قبله، فقُلب ألفاً، فصار: تعالىٰ كترامىٰ، فإذا أمرتَ منه الواحد.. قلت: تعالَ يا زيد؛ بحذف الألف؛ لبناء الأمر علىٰ حذفها، وكذا إذا أمرت الجمع المذكر.. قلت: تعالَوا؛ لأنك لما حذفت الألف لأجل الأمر.. أبقيتَ الفتحة مشعرة بها، وإنْ شئت قلتَ: الأصل: تعاليوا، وأصل هذه الياء واو ـ كما تقدم ـ، ثم استثقلت الضمة علىٰ الياء، فحذفت، فالتقى ساكنان، فحذف أولهما ـ وهو الياء ـ لالتقاء الساكنين، وتركت الفتحة علىٰ حالها، وإنْ

(١) الجمل.

شئت قلت: لما كان الأصل: تعاليوا.. تحرك حرف العلة، وانفتح ما قبله ـ وهو الياء ـ، فقلبت ألفاً، فالتقىٰ ساكنان، فحذف أولهما ـ وهو الألف ـ وبقيت الفتحة دالة عليها.

والفرق بين هذا وبين الوجه الأول: أن الألف في الوجه الأول حذفت لأجل الأمر، وإن لم يتصل به واو ضمير، وفي هذا حُذفت لالتقائها ساكنة مع واو الضمير، وكذلك إذا أمرت الواحدة.. تقولُ لها: تعالي، فهذه الياء هي ياء الفاعلة من جملة الضمائر، والتصريف فيه كما تقدم في أمر جماعة الذكور، فتأتي هنا الوجوه الثلاثة، فيقال: حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع ياء المخاطبة، وبقيت الفتحة دالة عليها، أو يقال: استثقلت الكسرة علىٰ الياء التي هي من أصل الكلمة، فحذفت، فالتقى ساكنان، وهما الياءَان فحذفت الأولىٰ، أو يقال: تحركت الياء الأولى وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، وأما إذا أمرت المثنىٰ.. فإن الياء تثبت فتقول: يا زيدان تعاليا، ويا هندان تعاليا أيضاً؛ يستوي فيه المذكران والمؤنثان، وكذلك أمر جماعة الإناث، تثبت فيه الياء فتقول: يا نسوة تعالَين، قال تعالىٰ: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾؛ إذ لا مقتضىٰ للحذف، ولا للقلب، وهو ظاهر بما تمهد من القواعد الصرفية.

وقرأ الحسن شاذاً: ﴿تعالُوا﴾ بضم اللام، والذي يظهر في توجيه هذه القراءة أنهم تناسوا الحرف المحذوف، حتىٰ كأنهم توهموا أن الكلمة بُنيت علىٰ ذلك، وأن اللام هي الآخر في الحقيقة، فلذلك عوملت معاملة الآخر حقيقة، فضمت قبل واو الضمير، وكسرت قبل يائه. وتعال: فعل أمر صريح، وليس باسم فعل؛ لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة به.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾: والابتهال: افتعال من البهلة ـ بفتح الباء وضمها ـ وهي: اللعنة، هذا أصله، ثم استعمل في كل دعاء مجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً، وفي «القاموس»: والبهل: اللعن، والترك، والاجتهاد في الدعاء، وإخلاصه. وفي «المصباح»: بهله بهلاً من باب نفع إذا لعنه، واسم الفاعل باهل، والأنثىٰ: باهلة، وبها سميت قبيلة، والاسم البُهْلة بالضم وزان: الغرفة، وباهله مباهلةً من

باب قاتل إذا لَعَن كل واحد منهما الآخر، وابتهل إلىٰ الله إذا تضرع إليه. ا هـ.

﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ﴾: والقصَص: مصدر قولهم: قصَّ فلانٌ الحديثَ، يقصه قصاً وقصصاً، وأصله: تتبع الأثر، يقال: فلان خرج يقص أثر فلان؛ أي: يتبعه ليعرف أين ذهب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾؛ أي: اتبعي أثره، وكذلك القاص في الكلام؛ لأنه يتتبع خبراً بعد خبر.

البلاغة

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾: فيه استعارة تصريحية تبعية؛ إذ لا يحس إلا ما كان متجسداً، والكفر ليس بمحسوس، وإنما يعلم ويفطن به، ولا يدرك بالحس، إلا إذا كان أحس بمعنىٰ: رأىٰ أو سمع منهم كلمة الكفر، فيكون أَحسَّ لا استعارة فيه؛ إذ يكون المعنىٰ: أدرك ذلك منهم بحاسة البصر، أو بحاسة الأذن.

ومن ضروب البلاغة أيضاً في هذه الآيات:

منها: السؤال والجواب في قوله: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، وقوله: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ و ﴿ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين لفظ ﴿مكروا﴾ و ﴿ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

ومنها: إسناد الفعل إلىٰ غير فاعله في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾، والله لم يشافهه بذلك، بل بإخبار جبريل أو غيره من الملائكة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾، وفي قوله: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

ومنها: التفصيل لِمَا أجمل في قوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ بقوله: ﴿فَأَمَّا﴾، ﴿وأما﴾.

ومنها: مقابلة الجمع بالجمع في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ﴾، ﴿وَأَمَّا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ علىٰ قراءة الياء من ضمير المتكلم، وفي قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ إلىٰ ضمير الغيبة.

ومنها: التعبير بالمضارع عن الماضي في قوله: ﴿نَتْلُوهُ﴾، وفي قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾.

ومنها: تشبيه الغريب بالأغرب في قوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾؛ لأن فاقد الأبوين أغرب من فاقد الأب، فكان أشد خرقاً للعادة من الموجود من غير أب، وأقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته، والجامع: كون كل منهما من غير أب.

ومنها: الإلهاب والتهييج في قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾. إلىٰ غير ذلك من ضروب البلاغة.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ
بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ
(٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ۚ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ
تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ
تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ (٧٤)﴾.

المناسبة

لما[١] بين الله سبحانه وتعالى فيما سلف أحوال عيسىٰ عليه السلام، وما يعتوره من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر دعوته ﷺ الناس إلىٰ التوحيد والإسلام، وظهور عناد أهل الكتاب حتىٰ اضطر إلىٰ دعوتهم إلىٰ المباهلة فأعرضوا، وبذلك انقطعت حججهم، ودلَّ ذلك علىٰ أنهم ليسوا علىٰ يقين من اعتقاد ألوهية المسيح، ومن يفقد اليقين يتزلزل حينما يدعىٰ إلىٰ شيء مما يخاف عاقبته.. دعاهم هنا إلىٰ أمر آخر هو أصل الدين، وروحه الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعاً، وهو سواء وعدل بين الفريقين لا يرجح فيه طرف على طرف،

(١) المراغي.

وهو عبادة الله وَحْده لا شريك له، فلما أعرضوا.. أمر بأن يقول لهم: ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

ولما بين أيضاً أن من دأب أهل الكتاب أن يعرضوا عن الحق بعد ما تبين لهم، ولا يجدي معهم الدليل ولا البرهان، فدعوتهم إلىٰ دين الإسلام الذي كان عليه إبراهيم والأنبياء بعده، لا تجد منهم أذناً صاغية، ولا قلوباً واعية.. ذكر شأناً آخر لهم، وهو أنهم كانوا أشد الناس حرصاً علىٰ إضلال المؤمنين، فلا يَدعون فرصة إلا انتهزوها بالتفنن في إلقاء الشبه في نفوس المؤمنين، وقد كان النزاع بالغاً أشده بين الفريقين، فإذا تمسكنا نحن وأنتم بها، وصدَّقناها.. كنا علىٰ السواء والاستقامة، وفي قراءةٍ شاذةٍ لابن مسعود: ﴿إلى كلمة عدل بيننا وبينكم﴾.

ثم فسر الكلمة بقوله هي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: تلك الكلمة: عدم عبادتنا سوىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ أي: وعدم إشراكنا به سبحانه وتعالى شيئاً من المخلوقات في العبادة ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وعدم اتخاذ وجعل بعضٍ منا بعضاً آخر منا ربّاً ومعبوداً ومطاعاً من دون الله سبحانه وتعالى؛ أي لا يطع أحد منا أحداً من الرؤساء في معصية الله، وفيما أحدثوا من التحريم والتحليل، ولا نقول عُزيرٌ ابنُ الله ولا المسيح ابن الله؛ لأنهما بشران مثلنا، ولا نطيع الأحبار والرهبان فيما أحلوا أو حرموا.

روي أنه لما نزلت هذه الآية.. قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، فقال ﷺ: «أما كانوا يحلون لكم، ويحرمون عليكم، فتأخذون بقولهم»؟ قال: نعم، فقال النبي ﷺ: «هو ذاك».

وتفسير الكلمة بهذه الجمل؛ لأن العرب تسمي كل قصة أو قصيدة لها أول وآخر: كلمة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: فإن أعرضوا عن التوحيد، ورفضوا قبول تلك الكلمة العادلة، وأبَو إلا الإصرار علىٰ الشرك.. ﴿فَقُولُواْ﴾ أنتم؛ أيها النبي والمؤمنون

لأهل الكتاب ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾؛ أي: اعترفوا لنا يا معشر أهل الكتاب بأنَّنا منقادون لأوامر الله، مُقِرُّون لله بالوحدانية، مخلصون لهُ بالعبادة دُونكم، فقد لزمتكم الحجة، فوجب عليكم أن تعترفوا بذلك، وبأنكم كافرون بما نطقت به الكتب، وتطابقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وفي قوله[1]: ﴿بَعۡضُنَا بَعۡضًا﴾ إشارة لطيفة وهي أنَّ البعضية تنافي الإلهية؛ إذ هي تماثل في البشرية، وما كان مثلك استحال أن يكون إلهاً لك، وإذا كانوا قد استبعدوا اتباع من شاركهم في البشرية للاختصاص بالنبوة في قولهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فادعاء الإلهية فيهم ينبغي أن يكونوا أشد استبعاداً فيه، وهذه الأفعال الداخل عليها أداة النفي متقاربة في المعنى، يؤكد بعضها بعضاً؛ إذ اختصاص الله بالعبادة يتضمن نفي الاشتراك، ونفي اتخاذ الأرباب من دون الله، ولكن الموضع موضع تأكيد وإسهاب ونشر كلام.

والنصارىٰ جمعوا بين الأفعال الثلاثة: عبدوا عيسى، وأشركوا بقولهم: ثالث ثلاثة، واتخذوا أحبارهم أرباباً في الطاعة في تحليل وتحريم، وفي السجود لهم.

وروىٰ الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أبا سفيان أخبره: أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهو بإلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دِحية الكلبي إلىٰ عظيم بصرىٰ، فدفعه إلىٰ هرقل، فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، ولا غرابة في ذلك فإن الدعوة إلىٰ هذا الدين الجديد وجدت مقاومة من أهل الكتاب، ومن المشركين.

أما أهل الكتاب: فلأن فيه هدماً لدينهم كما يزعمون، وأما المشركون؛ فلأن للإلف والعادة سلطاناً علىٰ النفوس، وهذه الدعوة دكت حصون المعتقدات

---

(١) البحر المحيط.

التي توارثوها عن أسلافهم الغابرين، ووجدوا عليها آباءهم من قبل، كما حكىٰ الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ. . .﴾ قيل[1]: نزلت هذه الآية في شأن نصارىٰ نجران كما قاله ابن عباس، وقيل: نزلت في شأن الفريقين اليهود والنصارى، وذلك أنه لما قَدِم وفد نجران المدينة،، والتقوا مع اليهود.. اختصموا في دين إبراهيم، فزعمت النصارىٰ أنه كان نصرانياً، وأنهم علىٰ دينه، وأولىٰ الناس به، وقالت اليهود: بل كان يهودياً، ونحن علىٰ دينه، وأولىٰ الناس به، فقال النبي ﷺ: «كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه، بل كان إبراهيم حنيفاً مسلماً، وأنا علىٰ دينه، فاتبعوا دينه الإسلام»، فقالت اليهود: يا محمد، ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارىٰ عيسى، وقالت النصارىٰ: يا محمد، ما تريد إلا أن نقول فيك كما قالت اليهود في عزير، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ. . .﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ. .﴾ الآية[2]، روى ابن إسحاق بسنده المتصل إلىٰ ابن عباس قال: اجتمعت نصارىٰ نجران، وأحبار اليهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارىٰ: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾. الآية أخرجه البيهقي في «الدلائل».

قوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ. . .﴾ الآية، روىٰ ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل علىٰ محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية، حتىٰ نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع،

(١) المراح. (٢) لباب النقول.

فيرجعون عن دينهم، فأنزل الله فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن أبي مالك قال: كانت اليهود تقول أحبارهم للذين من دونهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فأنزل الله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: يا معشر اليهود والنصارىٰ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾؛ أي: أقبلو وهلموا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام في قراءة العامة، وقرأ أبو السمال: (كَلْمة) كضَربة، و (كِلْمة) كسِدْرة وكلتاهما شاذتان؛ أي: أقبلوا إلىٰ كلمة ﴿سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: إلىٰ كلمة مستوية بيننا وبينكم، وحكم حق لا تختلف فيه الأنبياء والرسل، ولا يختلف فيه التوراة والإنجيل والقرآن.

«من محمد عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم: سلامٌ علىٰ من اتبع الهدىٰ، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم.. تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت.. فإنما عليك إثم الأريسين، و ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾» هذا لفظ إحدىٰ روايات البخاري، وقد أخرجه بأطول من هذا، وفيه زيادة، وفي رواية: الأريسين، والأريس: الأكار: وهو الزراع والفلاح.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: يا معشر اليهود والنصارىٰ ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ أي: لِمَ تجادلون وتنازعون في إبراهيم، وتزعمون أنه علىٰ دينكم ﴿و﴾ الحال أنه ﴿ما أنزلت التوراة﴾ علىٰ موسىٰ ﴿وَٱلۡإِنجِيلُ﴾ علىٰ عيسىٰ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾؛ أي: إلا من بعد إبراهيم بزمن طويل، أي: والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلا من بعده بقرون كثيرة، فكيف يكون من أهلها؟.

والمعنىٰ[1] أن اليهودية والنصرانية حدثتنا بنزول التوراة والإنجيل علىٰ موسى وعيسىٰ عليهما السلام، وكان إبراهيم قبل موسىٰ بألف سنة، وعيسىٰ بألفين، فكيف يكون عليهما؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أتدَّعون أن إبراهيم منكم، وعلىٰ دينكم، فلا تعقلون بطلان قولكم، وفساد دعواكم يا معشر اليهود والنصارىٰ حتىٰ لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال؟

وأورد[2] علىٰ هذا التأويل أن الإسلام أيضاً إنما حدث بعد إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ بزمان طويل، وكذلك إنزال القرآن، إنما نزل بعد التوراة والإنجيل، فكيف يصح ما ادعيتم في إبراهيم أنه كان حنيفاً مسلماً؟ وأجيب عنه: بأن الله عزّ وجلّ أخبر في القرآن بأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً، وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، فصح وثبت ما ادعاه المسلمون، وبطل ما ادعاه اليهود والنصارىٰ.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يقرأ إما بألف وبعدها همزة إما محققة أو مسهلة، أو بدون ألف، والهمزة إما محققة أو مسهلة، أو بألف فقط بدون همزة أصلاً، فالقراءات خمسٌ، وكلها سبعية متواترة، أي: انتبهوا أنتم يا معشر اليهود والنصارىٰ. ﴿حَٰجَجْتُمْ﴾ وخاصمتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: فيما وجدتم في كتبكم، وأنزل عليكم بيانه في أمر موسىٰ وعيسىٰ، وادعيتم أنكم علىٰ دينهما، وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم. ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ﴾ وتخاصمون ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: فيما ليس في كتابكم من أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما كان عليه إبراهيم من الدين ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ثم صرَّح بما فهم من قبل تلويحاً، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾؛ أي: ما كان إبراهيم علىٰ دين اليهودية، ولا علىٰ دين النصرانية، فإن اليهودية ملة محرفة عن شرع موسىٰ، وكذلك النصرانية ملة محرفة عن شرع عيسىٰ. ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة كلها إلىٰ الدين الحق القويم ﴿مُّسْلِمًا﴾؛ أي: منقاداً

---

(1) البيضاوي. (2) الخازن.

لأوامر الله التي ألزم بها في شريعته، لا على ملة الإسلام الحادثة ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله؛ أي: لم يكن مشركاً، وفي هذا تعريض بأنهم كانوا مشركين في قولهم: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وردٌّ على المشركين في ادعائهم أنهم علىٰ ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أقربهم وأحقهم ﴿بِإِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: بالانتساب إلىٰ إبراهيم ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾؛ أي: لأتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده؛ كإسماعيل وإسحق ويعقوب وأولادهم، ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد ﷺ؛ لموافقته له في أكثر شرعه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ، فهم الذين يليق بهم أن يقولوا: نحن علىٰ دينه؛ لأن غالب شرع محمد ﷺ موافق لشرع إبراهيم؛ أي: في الأصول، أو في الفروع من حيث السهولة، فإن شريعة محمد ﷺ سهلةٌ نهلةٌ كشريعة إبراهيم، لا كشريعة موسىٰ فإنها صعبة التكاليف بسبب عناد بني إسرائيل.

والحاصل: أن أحق الناس بدين إبراهيم فريقان:

أحدهما: من اتبعه من أمته.

وثانيهما: النبي وسائر المؤمنين من أصحابه ﷺ.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي ولاةً من النبيين، وإن وَليي: أبي وخليل ربي إبراهيم، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾» أخرجه الترمذي.

والخلاصة: أنَّ أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته والانتساب إليه هم الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره، فوحدوا الله مخلصين له الدين، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين، وهذا النبي محمد ﷺ، والذين آمنوا معه، فإنهم أهل التوحيد المخلصون لله في أعمالهم دون شرك ولا رياء.

وهذا هو روح الإسلام، والمقصود من الإيمان، ومن فاته ذلك.. فقد فاته الدين كله، ثم ذكر أنهم مع نصرتهم لإبراهيم، فالله ناصرهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: ناصرهم وحافظهم ومكرمهم، فهو يتولىٰ أمورهم بالنصرة والتأييد، والتوفيق والتسديد، ويصلح شؤونهم، ويثيبهم بحسب تأثير الإسلام في قلوبهم، ويجازيهم بالحسنىٰ.

ونبَّه علىٰ الوصف الذي يكون به الله ولياً لعباده، وهو الإيمان فقال: ﴿وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولم يقل: وليهم، وهذا وعد لهم بالنصر في الدنيا، وبالفوز بالآخرة، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وقرىء شاذاً[1]: ﴿وهذا النبي﴾ - بالنصب - عطفاً علىٰ الهاء في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، فيكون مُتَّبْعاً لا مُتَّبِعاً؛ أي: أحق الناس بإبراهيم من اتبعه هو، ومحمداً ﷺ، ويكون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطفاً علىٰ خبر ﴿إِنَّ﴾ فهو في موضع رفع، وقرىء: ﴿وهذا النبيِّ﴾ بالجر، ووُجِّه علىٰ أنه عطف علىٰ إبراهيم؛ أي: إنَّ أولىٰ الناس بإبراهيم، وبهذا النبي للذين اتبعوا إبراهيم. قالوا: والنبي بدل من ﴿هذا﴾، أو نعت، أو عطف بيان منه.

ولما دعت اليهود معاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر من دين الإسلام إلىٰ دين اليهودية.. نزلت هذه الآية: ﴿وَدَّت﴾؛ أي: أحبَّت وتمنَّت ﴿طَّآئِفَةٞ﴾؛ أي: جماعة ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم أحبارهم ورؤساؤهم كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾؛ أي: وَدُّوا أن يضلوكم عن دينكم الإسلام ويوقعوكم في الضلال بإلقاء الشبهات التي تشككم في دينكم، وتردكم إلىٰ ما كنتم عليه أولاً من الكفر. ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿ما يضلون﴾ عن دين الإسلام ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾، أو أمثالهم، وما يعودُ وبالُ الإضلال إلا عليهم؛ لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم، فالمؤمنون لا يقبلون قولهم، فيحصل عليهم الإثم بتمنيهم إضلال المؤمنين، وهم صاروا خائبين عن مرادهم؛ حيث اعتقدوا شيئاً، وظهر لهم أن الأمر بخلاف ما قصدوه. ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ أي: ما يعلمون أن هذا التمني يضرهم ولا يضر المؤمنين؛ لأن العذاب يضاعف لهم بسبب ضلالهم،

(١) البحر المحيط.

وتمني إضلال المسلمين، وفي نفي الشعور عنهم نهاية الذم والاحتقار لهم.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: يا معشر اليهود والنصارىٰ ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لأيِّ سبب تنكرون وتجحدون بآيات الله الورادة في التوراة والإنجيل، من البشارة بمحمد ﷺ، والإخبار بأن الدين هو الإسلام، وبأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً ﴿وَأَنتُمۡ﴾؛ أي: والحال أنكم ﴿تَشۡهَدُونَ﴾ وتعترفون صحتها إذا خلا بعضكم ببعض، وتنكرون اشتمال التوراة والإنجيل علىٰ الآيات الدالة علىٰ نبوة محمد ﷺ عند حضور عوامكم، وعند حضور المسلمين.

أو المعنىٰ: لِمَ تكفرون بالقرآن، فإنكم تنكرون عند العوام كونه معجزاً، وأنتم تشهدون بقلوبكم وعقولكم كونه معجزاً؟

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ﴾ وتخلطون ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ المنزل في التوراة من نعت محمد ﷺ ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ المحرف من عندكم، كما نقل عن الحسن وابن سيرين، أو لِمَ تشككون الناس بإظهار الإسلام بالتواضع أولَ النهار، ثم الرجوع عنه في آخره؟ كما نقل عن ابن عباس وقتادة. ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ الموجود في التوراة من نبوة محمد ﷺ ونعته، ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم تعلمون أنه رسول من عند الله، وأن دينه حق، وإنما كتمتم الحق عناداً وحسداً، وأنتم تعلمون ما تستحقون علىٰ ذلك الكتمان من العقاب.

وقرأ يحيىٰ بن وثاب شاذاً: ﴿تَلبَسون﴾ - بفتح الباء - مضارعُ لَبِس الثوب، جعل الحق كأنه ثوب لبسوه، والباء في ﴿بالباطل﴾ علىٰ هذه القراءة للحال؛ أي: مصحوباً بالباطل، وقرأ أبو مجلز شذوذاً: ﴿تُلبِسون﴾ - بضم التاء وكسر الباء المشددة - والتشديد هنا للتكثير، وقرأ عبيد بن عمير شذوذاً أيضاً: ﴿لم تلبسوا﴾ و ﴿تكتموا﴾ بحذف النون فيهما للجزم، قالوا: ولا وجه له إلا ما ذهب إليه من شَذّ من النحاة في إلحاق ﴿لِمَ﴾ بلَمْ في عمل الجزم، والثابت في «لسان العرب»: أن لِمَ لا ينجزم ما بعدها، ولم أرَ أحداً من النحويين ذكر أن: لِمَ تجري مجرىٰ ﴿لَمْ﴾ في الجزم إلا ما ذكره أهل التفسير هنا، وإنما هذا عندي من باب حذف النون حالة الرفع في لغة بعض العرب، كما في قول الراجز:

أَبِيْتُ أَسْرِيْ وَتَبِيْتِيْ تُدَلِّكِيْ   شَعْرَكِ بِٱلْعَنْبَرِ وَٱلْمِسْكِ ٱلذَّكِيْ

ثم ذكر نوعاً آخر من تلبيسات اليهود، فقال:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: جماعة منهم، وهم اثنا عشر حبراً من أحبار يهود خيبر، منهم: عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، وكعب بن الأشرف، وأصحابه من الرؤساء؛ أي: قال بعضهم لبعض فيما بينهم: ﴿ءَامِنُواْ﴾ وصدِّقوا ظاهراً ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: بالقرآن الذي أنزل عليهم، وامتثلوا بما أمر به محمد ﷺ، وصلُّوا معهم إلىٰ قبلتهم الكعبة ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ وأوله وهو صلاة الفجر ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ﴾ به وارجعوا عنه ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾؛ أي: في آخر النهار، وهو صلاة الظهر، وصلُّوا إلىٰ بيت المقدس ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل العوام من أصحابه ﴿يَرْجِعُونَ﴾ ويرتدون عن دينه وقبلته معكم.

وقيل: هذا في شأن القبلة، وذلك أنه لما صرفت إلىٰ الكعبة.. شق ذلك علىٰ اليهود، فقال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بالذي أُنزل علىٰ محمد في أمر الكعبة، وصلوا إليها أول النهار، ثم اكفروا وارجعوا إلىٰ قبلتكم آخر النهار؛ لعلهم يرجعون، فيقولون هؤلاء أهل كتاب، وهم أعلم، فيرجعون إلىٰ قبلتنا، فأطلع الله رسوله ﷺ علىٰ سرهم، وأنزل هذه الآية حتىٰ لا تُؤَثِّر هذه الحيلة في قلوب ضعفاء المؤمنين؛ ولأنهم إذا افتضحوا فيها.. لا يقدمون علىٰ أمثالها، ويكون هذا وَازِعاً لهم، وفي هذا إنباء بالغيب، فيكون معجزةً لمحمد ﷺ.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: معطوف علىٰ قوله ﴿ءَامِنُواْ﴾؛ أي: وقالت طائفة من أهل الكتاب: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ جملة معترضة من كلام الله سبحانه، وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ معمول لتؤمنوا؛ أي: وقالت جماعة من أهل الكتاب في تلبيساتهم علىٰ المؤمنين؛ أي: قال بعضهم لبعض: لا تظهروا إيمانكم واعترافكم؛ بأن يؤتىٰ ويعطىٰ أحد مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة، أو يحاجكم أحد ويغالبكم عند ربكم يوم القيامة، إلا لمن وافىٰ دينكم، بل أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، وبأنهم يحاجونكم

عند ربكم يوم القيامة، ولا تفشوه إلا إلىٰ أشياعكم وجماعتكم وحدهم دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ذلك ثباتاً علىٰ دينهم، ودون المشركين؛ لئلا يدعوهم ذلك إلىٰ الإسلام. قل لهم يا محمد: ليست الهداية بأيديكم، وإنما الهدىٰ هدىٰ الله، يهدي من يشاء إلىٰ الإيمان، ويثبته عليه، كما هدىٰ المؤمنين.

وهذا التفسير علىٰ كون اللام في قوله: ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ﴾ أصلية متعلقة بـ ﴿تُؤْمِنُوٓاْ﴾، ويحتمل كونها زائدة، و ﴿من تبع دينكم﴾: استثناء مقدَّم و ﴿أَحَدٌ﴾ في قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾ مستثنىٰ منه مؤخر، والمعنىٰ على هذا: وقالت طائفة من أهل الكتاب لا تؤمنوا ولا تصدقوا أن يؤتىٰ أحد من الناس مثل ما أوتيتم من النبوة والكتاب، أو يغالبكم عند ربكم يوم القيامة إلا من تبع دينكم؛ أي: إلا إن كان ذلك الأحد من أهل دينكم.. قل لهم يا محمد: إن الهدىٰ بيد الله، يؤتيه من يشاء، وليس مخصوصاً بكم؛ أي: ليس الهدىٰ مقصوراً علىٰ شعب معين، أو واحد بذاته، بل الله سبحانه يهدي من يشاء من عباده علىٰ لسان من يريد من أنبيائه، ومن يهد الله فلا مضل له، فكيدهم لا يضير من أراد الله به الخير، بل يحبط تدبيرهم له.

وقيل: في الكلام تقدير مضاف منصوب علىٰ كونه مفعولاً لأجله، والمعنى: قالت طائفة من أهل الكتاب بعضهم لبعض: لا تصدقوا كل من يدعي النبوة حتىٰ تنظروا في أمره، فإن كان متبعاً لدينكم.. فصدقوه، وإلا فكذبوه، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحد بالنبوة إلا إذا كان علىٰ دينكم؛ خشية أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم، وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم، فإذا أقررتم بنبوة محمد، ولم تدخلوا في دينه.. تكون له الحجة عليكم يوم القيامة، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ.

وعبارة «الخازن»: قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هو كلام متصل بالأول، وهو من قول اليهود، يقول بعضهم لبعض: ولا تؤمنوا؛ أي: ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم؛ أي: وأفتىٰ ملتكم التي أنتم عليها، وهي: اليهودية، واللام في ﴿لِمَن﴾: زائدة، كقوله تعالى: ﴿ردف لكم﴾؛ أي ردفكم. ﴿قُلْ إِنَّ

﴿ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن الدين دين الله، والبيان بيانه، وهذا خبر من الله تعالىٰ، ثم اختلفوا فيه فمنهم من قال: هذا كلام معترض بين كلامين، وما بعده متصل بالكلام الأول، وهو إخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض، ومعنىٰ الآية: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والآيات، من فلق البحر، وإنزال المن والسلوىٰ عليكم، وغير ذلك من الكرامات، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم؛ لأنكم أصح ديناً منهم، فلما أخبر الله تعالىٰ ذلك عن اليهود.. قال في أثناء ذلك ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

والمعنىٰ: إن الذي أنتم عليه إنما صار ديناً بحكم الله وأمره، فإذا أمر بدين آخر.. وجب اتباعه والانقياد لحكمه؛ لأنه هو الذي هدىٰ إليه وأمر به.

وقيل: إن المعنىٰ: قل لهم يا محمد: إن الهدىٰ هدىٰ الله، وقد جئتكم به، ولن ينفعكم في دفعه هذا الكيد الضعيف.

وقرأ الحسن والأعمش شذوذاً: ﴿إن يؤتي﴾ ـ بكسر الألف ـ فيكون قول اليهود تاماً عند قوله: إلا لمن تبع دينكم، وما بعده من قول الله تعالى.

والمعنىٰ: قل يا محمد: ﴿إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾، وتكون ﴿أنْ﴾ بمعنىٰ الجحد والنفي؛ أي: ما يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم يا محمد من الدين والهدىٰ، و ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ بمعنىٰ: إلا؛ أي: إلا أن يحاجوكم؛ أي: اليهود بالباطل، فيقولوا: نحن أفضل منكم عند ربكم؛ أي: عند فعل ربكم وجزائه، وقيل: ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ﴾ بمعنىٰ: حتى، ومعنىٰ الآية: ما أعطىٰ الله أحداً مثلَ ما أعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجة، حتىٰ يحاجوكم عند ربكم.

وقرأ ابن كثير: ﴿أأن يؤتى﴾ بهمزتين: الأولى محققة والثانية مسهلة، وذلك علىٰ الاستفهام التوبيخي، وحينئذٍ يكون في الكلام اختصار تقديره: إن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم يا معشر اليهود من الكتاب والحكمة.. تحسدونه ولا تؤمنون به. هذا قول قتادة والربيع، قالا هذا من قول الله تعالىٰ يقول:

قل لهم يا محمد: إن الهدىٰ هدىٰ الله إلا إن أنزل الله كتاباً مثل كتابكم، وبعث نبياً مثل نبيكم حسدتموه وكفرتم به ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾ علىٰ هذه القراءة رجوع إلىٰ خطاب المؤمنين، وتكون ﴿أَوْ﴾ بمعنىٰ إنْ الشرطية، لأنهما حرفا شرط وجزاء، يوضع أحدهما موضع الآخر.

والمعنىٰ: وإن يحاجوكم يا معشر المؤمنين عند ربكم.. فقل يا محمد: إن الهدىٰ هدىٰ الله، ونحن عليه، ويحتمل أن يكون الجميع خطاباً للمؤمنين، ويكون نظم الآية.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾؛ أي: ما يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم يا معشر المؤمنين، فإن حسدوكم.. فقل: إن الفضل بيد الله، وإن حاجوكم.. فقل: إن الهدىٰ هدىٰ الله.

ويحتمل أن يكون الخبر عن اليهود قد تم عند قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ من كلام الله تعالىٰ، ثبَّت به قلوب المؤمنين؛ لئلا يشكوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم. يقول الله عزّ وجلّ: ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم، ولا تصدقوا أن يؤتىٰ أحدٌ مثل ما أوتيتم من الدين والفضل، ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم، أو يقدروا علىٰ ذلك، فإن الهدىٰ هدى الله، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع، فتكون الآية كلها خطاباً للمؤمنين عند تلبيس اليهود؛ لئلا يرتابوا ولا يشكُّوا. انتهت.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن ذلك في الآخرة.

والثاني: عند كتب ربكم الشاهدة عليكم ولكم، وأضاف ذلك إلىٰ الرب تشريفاً، وكأن المعنىٰ: أو يحاجوكم عند الحق، ذكره أبو حيان.

وقال الشوكاني: وقد قيل: إن هذه الآية أعظم آي هذه السورة إشكالاً، وذلك صحيح. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ بالرسالة والنبوة والإسلام وقبلة إبراهيم مثلاً

﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ فإنه مالك له ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده؛ أي: يعطيه محمداً وأصحابه.

والله تعالىٰ حكىٰ عن اليهود أمرين:

أحدهما: أنهم آمنوا وجه النهار وكفروا آخره؛ ليصير ذلك شبهة للمسلمين في صحة الإسلام، فأجاب الله عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن مع كمال هداية الله وقوة بيانه، لا يكون لهذه الشبهة الركيكة قوة ولا أثر.

وثانيهما: أنهم استنكروا أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتوا من الكتاب والحكمة والنبوة، فأجاب الله عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل وكامل القدرة، فيقدر أن يتفضل علىٰ أي عبد شاء بأي تفضل شاء ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: كامل العلم، فلا يكون شيء من أفعاله إلا علىٰ وجه الحكمة والصواب. ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾، أي: يخص برحمته من النبوة والرسالة والدين، أي: برحمته التي بلغت في الشرف وعلو المرتبة إلىٰ أن تكون أعلىٰ وأجل من أن تقاس، أي: يجعل رحمته مقصورة علىٰ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده؛ أي: محمداً وأصحابه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والمنّ الجسيم، فلا نهاية لمراتب إعزاز الله وإكرامه لعباده، والله أعلم بمعنىٰ كلامه، وهو ولي التوفيق لأقوم العبارة والتحقيق، وهذا من المواضع التي تشاك فيها الأقدام، وتكل فيها الأقلام، وارتابت فيها الأفهام، وارتبكت فيها الأعلام إلا من مُنح بمنح العالم العلَّام. قال الواحدي: وهذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبه تفسيراً وإعراباً، ولقد تدبرت أقوال أهل التفسير والمعاني في هذه الآية، فلم أجد قولاً يطرد في الآية من أولها إلىٰ آخرها مع بيان المعنىٰ، وصحة النظم.

الإعراب

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول ﴿تَعَالَوۡاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلۡ﴾. ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ﴾: متعلق بـ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ ﴿سَوَآءِۭ﴾: صفة لـ ﴿كَلِمَةٖ﴾؛ لأنه في تأويل مستوية، ﴿بَيۡنَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿سَوَآءِۭ﴾. ﴿وَبَيۡنَكُمۡ﴾: معطوف عليه. ﴿أَلَّا﴾: ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾ نافية. ﴿نَعۡبُدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن)، وفاعله ضمير يعود علىٰ النبي ومن معه من أهل الكتاب ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾: منصوب علىٰ الاستثناء، والمستثنى منه محذوف تقديره: أحداً إلا الله، والجملة الفعلية صلة (أنْ)، (أنْ) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بدل من ﴿كَلِمَةٖ﴾، أو مرفوع علىٰ كونه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي عدم عبادتنا غير الله.

﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿نُشۡرِكَ﴾: معطوف علىٰ ﴿نَعۡبُدَ﴾، منصوب بـ ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ النبي ومن معه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿نُشۡرِكَ﴾ ﴿شَيۡـٔٗا﴾: مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿نَعۡبُدَ﴾ علىٰ كونها في تأويل مصدر مجرور أو مرفوع ﴿وَلَا﴾: الواو عاطفة ﴿لا﴾: نافية ﴿يَتَّخِذَ﴾: معطوف علىٰ ﴿نَعۡبُدَ﴾، ﴿بَعۡضُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه ﴿بَعۡضًا﴾: مفعول أول ﴿أَرۡبَابٗا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿نَعۡبُدَ﴾ علىٰ كونها في تأويل مصدر مجرور أو مرفوع ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ﴿أرباباً﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿فَإِن﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا قلت لهم ما أمرتك به، وأردت بيان حكم ما إذا أعرضوا.. فأقول لك (إن): حرف شرط جازم ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿أن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها. ﴿فَقُولُواْ﴾: الفاء رابطة لجواب (إن) وجوباً. ﴿قولوا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ (إنْ) علىٰ كونه جواباً لها، وجملة (إن) الشرطية في محل

النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.
﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: مقول محكي لـ ﴿قولوا﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿اشْهَدُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قولوا﴾. ﴿بِأَنَّا﴾: الباء حرف جر (أنا): حرف نصب، واسمها. ﴿مُسْلِمُونَ﴾: خبرها، وجملة (أن) في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بكوننا مسلمين، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿اشْهَدُوا﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء مستأنفة، أو في محل النصب معطوفة بعاطف مقدَّر علىٰ جملة ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الأولىٰ. ﴿لِمَ﴾: اللام حرف جر ﴿م﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري التوبيخي أو التعجبي في محل الجر وباللام مبني بسكون علىٰ الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين (ما) الموصولة - الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تُحَاجُّونَ﴾ المذكور بعده. ﴿تُحَاجُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب مقول القول علىٰ كونها معطوفة ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾: متعلق بـ ﴿تُحَاجُّونَ﴾. ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ﴾: الواو حالية ﴿ما﴾: نافية، ﴿أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿وَالْإِنْجِيلُ﴾: معطوف علىٰ ﴿التَّوْرَاةُ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أُنْزِلَتِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من إبراهيم تقديره: لم تحاجون في إبراهيم، والحال أن التوراة والإنجيل متأخران عنه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة علىٰ مقدَّر هو المعطوف عليه بهذا العاطف المذكور - أعني: الفاء - تقديره: ألا تتفكرون. ﴿فلا تعقلون﴾: الفاء عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ألا تتفكرون المقدرة علىٰ كونها جملة استفهامية لا محل لها من الإعراب.

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ

﴿يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦﴾.

﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿أنتم هؤلاء﴾: أنتم: مبتدأ، ها: حرف تنبيه، أولاء: اسم إشارة للجمع المذكر في محل النصب منادىٰ نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء، مبني بضم مقدر، منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة البناء الأصلي، وجملة النداء معترضة لاعتراضها بين المبتدأ والخبر ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾. ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم ﴿عِلۡمٞ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿عِلۡمٞ﴾؛ إذ لو تأخر.. لصح جعله نعتاً، ولا يجوز أن يتعلق بـ ﴿عِلۡمٞ﴾؛ لأنه مصدر، والمصدر لا يتقدم معموله عليه، والجملة الاسمية صلة لـ (ما)، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾ ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ﴾: الفاء عاطفة، اللام: حرف جر، (م): اسم استفهام في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تُحَآجُّونَ﴾ المذكور بعده، ﴿تُحَآجُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾، ﴿فِيمَا﴾، جار ومجرور متعلق بـ ﴿تحاجون﴾. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿بِهِۦ﴾: حال من علم؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليه. ﴿عِلۡمٞ﴾: اسم ﴿لَيۡسَ﴾ مؤخر، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية (الله): مبتدأ، ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الله﴾، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.. ﴿وَأَنتُمۡ﴾: الواو عاطفة ﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾.

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧﴾.

﴿مَا﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص ﴿إِبۡرَٰهِيمُ﴾: اسمها، ﴿يَهُودِيّٗا﴾: خبرها، ﴿وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾: الواو اعتراضية ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص،

واسمها ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾، ﴿حَنِيفًا﴾: خبر أول لها، ﴿مُّسْلِمًا﴾ خبر ثانٍ، وجملة ﴿كَانَ﴾ جملة استدراكية معترضة لاعتراضها بين المتعاطفين. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: الواو عاطفة، (ما) نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ، واسمها ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾: اسمها ومضاف إليه ﴿بِإِبْرَٰهِيمَ﴾: متعلق بـ ﴿أَوْلَى﴾، ﴿لَلَّذِينَ﴾: اللام حرف ابتداء (الذين): اسم موصول في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿وَهَٰذَا﴾ في محل الرفع معطوف على الموصول. ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾: صفة لاسم الإشارة، أو بدل، أو عطف بيان منه ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على الموصول الأول ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو عاطفة (الله): مبتدأ ﴿وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾، ﴿لَوْ﴾: حرف مصدر ﴿يُضِلُّونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية ﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: وَدَّتْ طائفة من أهل الكتاب إضلالهم إياكم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾: الواو حالية (ما): نافية ﴿يُضِلُّونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة حال من فاعل ﴿لو يضلون﴾، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: الواو عاطفة ﴿ما﴾: نافية ﴿يَشْعُرُونَ﴾:

فعل وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء مستأنفة ﴿لِمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَكْفُرُونَ﴾. ﴿تَكْفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿تَكْفُرُونَ﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو حالية، ﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَشْهَدُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَكْفُرُونَ﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء معطوفة علىٰ جلة النداء الأولىٰ ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ﴾: ﴿لِمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَلْبِسُونَ﴾، ﴿تَلْبِسُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿الْحَقَّ﴾: مفعول به ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ متعلق بـ ﴿تَلْبِسُونَ﴾: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف علىٰ ﴿تَلْبِسُونَ﴾. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الواو حالية ﴿أنتم﴾: مبتدأ، ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تكتمون﴾.

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَقَالَت﴾ الواو استئنافية، ﴿قالت طائفة﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ ﴿طَّائِفَةٌ﴾، ﴿آمِنُوا﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿آمِنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿بِالَّذِي﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿آمِنُوا﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿آمَنُوا﴾ فعل وفاعل، الجملة صلة الموصول ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بقوله ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ﴾. ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾: الواو عاطفة ﴿اكفروا﴾: فعل وفاعل ﴿آخِرَهُ﴾:

ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ ﴿اكفروا﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِيَ أُنزِلَ﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجٍ وتعليل، والهاء اسمها، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلقة بـ ﴿اكفروا﴾.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾: ناهية ﴿تُؤْمِنُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِيَ أُنزِلَ﴾ علىٰ كونها مقولاً لـ ﴿قالت﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿لِمَن﴾: اللام زائدة (من): اسم موصول في محل النصب علىٰ الاستثناء مقدَّم علىٰ المستثنى منه ﴿تَبِعَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على (من)، والجملة صلة الموصول ﴿دِينَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة معترضة؛ لاعتراضها بين العامل والمعمول. ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿الْهُدَىٰ﴾ اسمها ﴿هُدَى اللَّهِ﴾: خبرها ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يُؤْتَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بـ ﴿أَن﴾ ﴿أَحَدٌ﴾: نائب فاعل، وهو المفعول الأول لـ (أتىٰ)؛ لأنه بمعنىٰ: أعطى، وهو المتثنى منه ﴿مِّثْلَ مَا﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه ﴿أُوتِيتُمْ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: أوتيتموه، وهو العائد على (ما)، وجملة ﴿أُوتِيتُمْ﴾ صلة لـ (ما) أو صفة لها، وجملة ﴿يُؤْتَىٰ﴾ صلة ﴿أَن﴾ المصدرية. ﴿أن﴾: مع صلتها في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية لقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ تقديره: ولا تؤمنوا إيتاء أحد من الناس مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم، أي: إلا إيتاءه. ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾: أو: حرف عطف، ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف علىٰ ﴿يُؤْتَىٰ﴾، ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ آخر الآية التالية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلْفَضْلَ﴾: اسمها. ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿يُؤْتِيهِ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثانٍ، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إيتاءه، وجملة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ في محل الرفع خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو يؤتيه. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿وَٰسِعٌ﴾: خبر أول ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة ﴿يَخْتَصُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة ﴿بِرَحْمَتِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَخْتَصُّ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَخْتَصُّ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾. والله سبحانه وتعالى أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾: أصل تعالوا: تعاليوا، فقلبت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع الواو ـ كما مر ـ، وسواء: اسم مصدر بمعنىٰ؛ الاستواء، ويوصف به علىٰ أنه بمعنىٰ: مستو، فيحتمل حينئذٍ ضميراً، ويرفع الظاهر، ومنه قولهم: مررت برجل سواء والعدم ـ برفع العدم ـ، علىٰ أنه معطوف علىٰ الضمير المستكن في سواء، ولا يثنىٰ، ولا يجمع، إما لكونه في الأصل مصدراً وإما للاستغناء عن تثنيته بتثنية نظيره، وهو سيّ بمعنىٰ مثل، تقول: هما سِيَّان؛ أي: مثلان، وليس هو الظرف الذي يستثنىٰ به في قولهم: قاموا سواء زيد وإن شاركه لفظاً.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾: وأولىٰ: اسم تفضيل من ولىٰ يلي، وألفه منقلبة عن

ياء؛ لأن فاءه واو، فلا تكون لامه واواً؛ إذ ليس لنا في كلام العرب ما فاؤه ولامه واو إلا واو التهجي، فمعنى ﴿أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾: أخصهم به وأقربهم منه؛ لأنه من الوَلي بمعنىٰ: القرب.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾: يقال: وددتُ لو تفعل كذا ـ من فَعِل المكسور المضاعف ـ يَوَد بفتح العين علىٰ القياس وُداً بضم أوله وفتحه ووِداداً ووَدادة بالفتح فيهما؛ أي: تمنيت وودِدت لو أنك تفعل كذا مثله، وودِدت الرجل بالكسر وُداً بضم أوله: أحببته، والود ـ بضم الواو وفتحها وكسرها ـ: المودة ذكره في «المختار» ﴿والطائفة﴾ من الشيء: القطعة منه وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الواحد فما فوقه. انتهى. «مختار».

﴿تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ﴾: اللبس الخلط، يقال: لبس الأمر عليه إذا اشتبه واختلط عليه يلبِس من باب: ضَرَب.

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾: منصوب علىٰ الظرفية الزمانية، وناصبة ﴿ءَامَنُواْ﴾ ـ كما مر، ومعناه أوَّلَ[1] النهار. شُبِّه بوجه الإنسان؛ لأنه أول ما يواجه من النهار، وقال الربيع بن زياد العبسي في مالك بن زهير بن خزيمة العبسي:

مَنْ كانَ مَسْرُوراً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنا بِوَجْهِ نَهَارِ

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾: يقال: اختصه بكذا إذا خصه به، وهو من باب: افتعل فبناؤه لمبالغة الثلاثي، والله أعلم.

البلاغة

وقد جمعت هذه الآية من ضروب البلاغة أنواعاً كثيرة[2]:

فمنها: المجاز في قوله: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾؛ حيث أطلق اسم الواحد علىٰ الجمع.

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿إلا الله﴾ ﴿وإن الله﴾، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ﴾، وفي قوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ و ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ و ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿أَرْبَابًا﴾ لما أطاعوهم في التحليل والتحريم، وأذعنوا إليهم.. أطلق عليهم أرباباً تشبيهاً لهم بالرب المستحق للعبادة والربوبية.

ومنها: الإجمال في الخطاب في قوله: ﴿تَعَالَوْا۟﴾، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾؛ كقول إبراهيم. ﴿يا أبت﴾، ﴿يا أبت﴾، وكقول الشاعر:

مَهْلاً بَنِي عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالِيْنَا لاَ تَنْبُشُوْا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُوْنَا

وقول الآخر:

بَنِي عَمِّنَا لاَ تَنْبُشُوْا ٱلشَّرَّ بَيْنَنَا فَكَمْ مِنْ رَمَادٍ صَارَ مِنْهُ لَهِيْبُ

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿أَوْلَى﴾ و﴿وَلِيُّ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

ومنها: الطباق المعنوي في قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾، ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾؛ لأن الشهادة إقرار وإظهار، والكفر ستر.

ومنها: الجناس التام في قوله: ﴿يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل والتكرار في قوله: ﴿ءَامِنُوا۟﴾ و ﴿ءَامَنُوا۟﴾، وفي ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ و ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾، وقوله؛ ﴿يُؤْتَىٰٓ﴾ و ﴿أُوتِيتُمْ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ و﴿ذُو ٱلْفَضْلِ﴾.

ومنها: التكرار أيضاً في اسم الله في أربعة مواضع.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ءَامِنُوا۟﴾ ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟﴾ وفي قوله: ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ و ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ لأنه وقت اجتماعهم بالمؤمنين يراؤونهم و ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾؛ لأنه وقت خلوتهم بأمثالهم من الكفار والحذف في مواضع.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تبكيت[1] لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير، وإشارة إلىٰ أن هؤلاء من جنس البشر وبعض منهم، وإزراء علىٰ من قلد الرجال في دين الله، فحلل ما حللوه له، وحَرَّم ما حرموه عليه، فإنَّ من فعل ذلك.. فقد اتخذ من قلده رباً، ومنه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الشوكاني.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

المناسبة

لمَّا بين الله سبحانه وتعالى خيانة أهل الكتاب في الدين وقبائحهم وكيدهم للمسلمين ليرجعوا عن دينهم، وصدهم عن الدعوة لذلك الدين الجديد بكل وسيلة يستطيعونها، زعماً أنَّهم شعب الله المختار، وأنَّ الدين الحق خاص بهم، لا يعدوهم إلى شعب آخر، ولا إلى أمة أخرى.. أردف ذلك بذكر أوصاف طائفة أخرى منهم تخون الأمانات، وتستحل أكل أموال الناس بالباطل، تأويلاً للكتاب وغروراً في الدين، وهم اليهود خاصة، فهم خائنون من جهة الدين والمال فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن شقيق، عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين يقتطع بها مال امرىء هو عليها فاجر.. لقي الله وهو

عليه غضبان»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ الآية، فجاء الأشعث فقال: ما حدثكم أبو عبد الرحمن، فيَّ أنزلت هذه الآية؟ كانت لي بئر في أرض ابن عم لي، فقال لي: شهودك؟ قلت: مالي شهود، قال: فيمينه، قلت: يا رسول الله، إذاً يحلف، فذكر النبي ﷺ هذا الحديث، فأنزل الله ذلك تصديقاً له.

وأخرج البخاري أيضاً من حديث عبد الله بن أبي أوفى: أن رجلاً أقام سلعة في السوق، فحلف فيها: لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا...﴾ الآية.

قال الحافظ ابن حجر في «شرح البخاري»، ولا منافاة بين الحديثين، بل يحمل على أنَّ النزول كان بالسببين معاً، ولفظ الآية أعم.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة[1]: أنَّ الآية نزلت في حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وغيرهما من اليهود الذين كتموا ما أنزل الله في التوراة، وبدّلوه، وحلفوا أنَّه من عند الله، قال الحافظ ابن حجر: الآية محتملة، لكن العمدة في ذلك ما ثبت في «الصحيح».

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ...﴾ الآية، أخرج[2] ابن إسحاق والبيهقي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو رافع القرظي ـ حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام ـ: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟ قال ﷺ: «معاذ الله». فأنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إلى قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

وأخرج عبد الرزاق في «تفسيره» عن الحسن قال: بلغني أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله؛ فإنَّه لا ينبغي أنْ يُسجَد لأحد من دون الله»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إلى قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

---

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ شروع في بيان خيانتهم في الأموال بعد بيان خيانتهم في الدين، وفي «الخازن»؛ نزلت هذه الآية في اليهود، أخبر الله عزّ وجلّ أنَّ فيهم أمانة وخيانة، وقسمهم قسمين، فقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ومن اليهود ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾؛ أي: مَنْ إذا جعلته أميناً علىٰ مال كثير، وأودعته عنده ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾؛ أي: يدفع ذلك القنطار ويرده ﴿إِلَيْكَ﴾ بلا خيانة فيه ولا تعب، لشدة أمانته، وكمال وثوقه؛ كعبد الله بن سلام، استودعه رجل من قريش ألفاً ومئتي أوقية من ذهب، فأداه إليه ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن اليهود ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾؛ أي: من إذا جعلته أميناً علىٰ مال قليل، فضلاً عن كثير ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾؛ أي: لا يدفع ذلك الدينار، ولا يرده ﴿إِلَيْكَ﴾ بل يستحله ويخون فيه،؛ كفنحاص بن عازوراء، استودعه رجل من قريش ديناراً، فجحده وخانه ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾؛ أي: لا يرده إليك في جميع المُدَدَ والأزمنة، إلا مدة دوامك يا صاحب الحق قائماً على رأسه، ملازماً له، مبالغاً في مطالبته بالتقاضي والترافع، وإقامة البنية عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد: تقوم عليه، وتطالبه بالإلحاح والخصومة والملازمة. وقيل: أراد أنَّه إنْ أودعته شيئاً، ثمَّ استرجعته منه في الحال،وأنت قائم علىٰ رأسه لم تفارقه.. رده عليك، وإنْ أخرت استرجاع ما أودعته.. أنكره ولم يرده عليك.

وقيل: أهل الأمانة هم النصارى، وأهل الخيانة هم اليهود؛ لأنَّ مذهبهم: أنْ يحل قَتل من خالفهم في الدين، وأخذ ماله بأي طريق كان ﴿تَأْمَنْهُ﴾ هذه[1] قراءة الجمهور، وقرأ ابن وثاب والأشهب العقيلي شذوذاً: (تيمنه) بكسر التاء الفوقية على لغة بكر وتميم، ومثله قراءة من قرأ شذوذاً: ﴿نِستعين﴾ بكسر النون.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ بكسر الهاء ووصلها بياء، وقرأ قالون باختلاس الحركة، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والأعمش: بالسكون، وقال الفراء:

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

مذهب بعض العرب يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها، فيقولون: ضربته ضرباً شديداً، كما يسكنون ميم أنتم وقمتم، وما ذهب إليه أبو إسحاق من أن الإسكان غلط، ليس بشيء؛ إذ هي قراءة في السبعة، وهي متواترة.

وقرأ أبو المنذر سلام والزهري شذوذاً[1]: ﴿يؤده﴾ بضم الهاء بغير واو، وقرأ قتادة وحمزة ومجاهد شذوذاً أيضاً: بواو في الإدراج.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي[2]، ويحيى بن وثاب، والأعمش وابن أبي ليلى، والفياض بن غزوان، وطلحة وغيرهم شذوذاً: (دِمت) بكسر الدال، وهي لغة تميم.

وخلاصة الكلام: أنّ أهل الكتاب طائفتان:

الأولى: طائفة تُؤَمَّن علىٰ الكثير والقليل، ؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه، استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقية من ذهب، فأداها إليه كما مرَّ.

والثانية: طائفة أخرىٰ تخون الأمانة، فلو استودعتها القليل جحدته، ولا تؤديه إليك إلا إذا أدمت الوقوف علىٰ رأسها، ملحاً في المطالبة، أو لاجئاً إلى التقاضي والمحاكمة، ومن هؤلاء: كعب بن الأشرف، استودعه قريش ديناراً فجحده.

ثمَّ بيَّن السبب في فعلهم هذا فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخيانة وترك أداء الأمانة، واستحلال أموال الناس، مستحق لهم ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنَّهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾؛ أي: بسبب أنهم يقولون: ليس علينا فيما أخذنا من أموال المشركين من العرب سبيل؛ أي: مؤاخذة، وتبعة، وإثم عند الله تعالىٰ؛ لأن أموال العرب حلال لنا؛ لأنهم ليسوا على ديننا، ولا حرمة لهم في كتابنا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم، أو المعنى: ليس علينا فيما أصبنا

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

من أموال العرب سبيل؛ أي: قدرة علىٰ المطالبة والإلزام؛ فإنَّهم قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا، وقيل: إنهم قالوا: أنَّ الأموال كلها كانت لنا، فما في يد العرب فهو لنا، وإنَّما هم ظلمونا وغصبوها منا، فلا سبيل علينا في أخذها منهم بأي طريق كان.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾؛ أي: يفترون علىٰ الله الكذب بادعائهم أنَّ ذلك في كتابهم. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم كاذبون في ذلك؛ أي: أنَّهم قالوا: إنَّ جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة، وكانوا كاذبين في ذلك، وعالمين بكونهم كاذبين فيه، ومَنْ كان كذلك.. كانت خيانته أعظم، وجرمه أفحش.

لكنهم لمَّا لم يكتفوا بالكتاب، ولجؤوا إلىٰ التقليد، وعدّوا كلام أحبارهم ديناً، وهؤلاء قالوا في الدين بالرأي والهوىٰ، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، ليؤيدوا آرائهم.. وجدوا من هذه الأقوال ما يساعدهم علىٰ ما يدَّعون.

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ قال النبي ﷺ: «كذب أعداء الله، ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين، إلا الأمانة؛ فإنَّها مؤداة إلىٰ البرِّ والفاجر».

﴿بَلَىٰ﴾: حرف يجاب به النفي، فيصير إثباتاً لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين؛ أي: بلىٰ علىٰ اليهود في العرب سبيل، فعلىٰ هذا يَحسن الوقف عليها، ثم يبتدىء بما بعده، وقوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ جملة مستأنفة مقررة للجملة التي سدت ﴿بَلَىٰ﴾ مسدها، والضمير في ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ يرجع إلى الله تعالىٰ؛ أي: ولكن من أوفى بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة، من الإيمان بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزل عليه، أو بأداء الأمانة إلىٰ من ائتمنه عليها، وقيل: الهاء في قوله: ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ عائد إلىٰ الموفي؛ أي: بعهده فيما بينه وبين الله، أو فيما بينه وبين الناس.

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾؛ أي: خاف عقاب الله بالكفر والخيانة، ونقض العهد ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك والخيانة؛ أي: يثيبهم علىٰ

تقواهم ويكرمهم في الدنيا والآخرة، وعموم المتقين قائم مقام العائد إلى ﴿مَنْ﴾؛ أي: فإنَّ الله يحبه، أخبر تعالى: بأن من أوفى بالعهد، واتقى الله في نقضه.. فهو محبوب عند الله.

وهذه الآية[1] دالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد، وذلك لأنَّ الطاعات محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معاً؛ لأن ذلك سبب لمنفعة الخلق، فهو شفقة على خلق الله، وذلك أمر الله، فالوفاء بالعهد تعظيم لأمر الله، ثم الوفاء كما يكون في حق الغير، يكون في حق النفس، فالوافي بعهد النفس هو الآتي بالطاعات، والتارك للمحرمات.

وخلاصة المعنى: بلى عليكم يا معشر اليهود في الأميين سبيل، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات، فمن أقرضك مالاً إلى أجل، أو باعك بثمنٍ مؤجل، أو ائتمنك على شيء.. وجب عليك الوفاء به، وأداء الحق له في حينه، دون حاجة إلى الإلحاف في الطلب، أو إلى التقاضي، وبذلك قضت الفطرة، وحتمت الشريعة، وفي هذا إيماء إلى أنَّ اليهود لم يجعلواالوفاء بالعهد حقاً واجباً لذاته، بل العبرة عندهم المعاهِد، فإنَّ كان إسرائيلياً.. وجب الوفاء له، ولا يجب الوفاء لغيره.

والعهد ضربان:

الأول: عهد المرء لأخيه في العقود والأمانات كما تقدم.

والثاني: عهد الله تعالى، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه، من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله. واليهود لم يفوا بشيء منهما، إذ لو وفوا بعهد الله.. لآمنوا بالنبي ﷺ، واتبعوا النور الذي أنزل معه، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى عليه السلام.

---

(١) المراح.

وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد، المتقين بالإخلاف والغدر، محبته تعالى ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا إيماء إلى أنَّ الوفاء بالعهود، واتقاء الإخلاف فيها، وفي سائر المعاصي والخطايا، هوالذي يقرب العبد من ربه، ويجعله أهلاً لمحبته، أما الانتساب إلى شعب بعينه، والافتخار والترفع به على غيره، كما كثر في عصرنا هذا والعياذ بالله، فلا قيمة له عند الله تعالى.

وفي هذا أيضاً تعريض بأنَّ أصحاب هذا الرأي من اليهود ليسوا على حظ من التقوى، وهي الدعامة الأساسية في كل دين قويم، رزقنا الله إياها وجميع المسلمين.

وأخرج الشيخان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر» وفي رواية «إذا حدث كذب، وإذ وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ الباء فيه داخلة على المتروك؛ أي: إنَّ الذين يأخذن بنقض عهد الله عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ، والأداء بالأمانات ﴿وبـ﴾ ـحنث ﴿أيمانهم﴾ وحلفهم من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا، والمراد بالثمن القليل متاع الدنيا من الرشا والتراؤس ونحو ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿لَا خَلَٰقَ﴾؛ أي: لا نصيب ﴿لَهُمۡ فِي﴾ خير ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ونعيمها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة أي: يشتد غضب الله عليهم ﴿وَلَا يَنظُرُ﴾ الله ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ بالإحسان والرحمة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾، أي: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ أي: وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم.

والمعنىٰ: إنَّ الذين يستبدلون بعهد الله إلى الناس في كتبه المنزلة، بأن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه ويتعاقدون، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ويتقوه في جميع الأمور، وبما حلفوا

عليه من قولهم: لنؤمنن به ولننصرنه، أي: يأخذون بدل وفاء عهدهم وبَرّ أيمانهم ثمناً قليلاً هو العوض أو الرشا أولئك لا نصيب لهم في منافع الآخرة ونعيمها، ويغضب عليهم ربهم، ولا ينظر إليهم ولا يثنى عليهم يوم القيامة، ولهم عذاب أليم، هو الغاية في الألم.

قال القفال: هذه الكلمات يراد بها بيان شدة سخط الله عليهم؛ لأن من منع غيره كلامه في الدنيا.. فإنَّما ذلك لسخطه عليه، وقد يأمره بحجبه عنه ويقول؛ لا أكلمك ولا أرى وجهك، وإذا جرى ذكره.. لم يذكره بالجميل ا هـ.

وخلاصة القول: إنَّ الله توعد الناكثين للعهد، المخلفين للوعد بالحرمان من النعيم، وبالعذاب الأليم، وبأنَّهم يكونون في غضب الله، بحيث لا ترجى لهم رحمة، ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة، ولم يتوعد الله تعالى مرتكبي الكبائر من الزناة وشاربي الخمر، ولاعبي الميسر، وعاقي الوالدين، بما توعد به ناكثي العهود، وخائني الأمانات، لأنَّ مفاسدهما أعظم من جميع المفاسد، التي لأجلها حرمت تلك الجرائم.

فالوفاء بهما آية الدين البينة، والمحور الذي تدور عليه مصالح العمران، فمتى نكث الناس في عهودهم.. زالت ثقة بعضهم ببعض، والثقة روح المعاملات، وأساس النظام.

والإيمان بالله لا يجتمع مع الخيانة، والنكث بالعهد، ألا ترى أنَّ النبي ﷺ جعله علامة النفاق فقال: «آية النفاق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» كما مر آنفاً.

وروى الطبراني في «الأوسط» عن أنس رضي الله عنه قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

فما بال كثير من المسلمين ـ حتى المتدينين منهم ـ استهانوا بالعهود، وأصبحوا لا يحفظون الأيمان، ويرون ذلك شيئاً صغيراً، مع كل ما رأوا من شديد التهديد والوعيد، ويكبرون أمر المعاصي التي لم يتعودوها لعدم الإلف

والعادة فقط، مع أنَّها دون ذلك عند الله، كما تدل عليه هذه الآية.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، رجل حلف على سلعة: لقد أعطي بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر، ليقتطع بها مال امرىء مسلم، ورجل منع فضل ماله فيقول الله له: اليوم أمنعك فضلي ما منعت فضل ما لم تعمل يداك».

وروى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل، والمنَّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

وروى مسلم أيضاً عن أبي أمامة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه.. حرم الله عليه الجنة، وأوجب له النار، فقالوا: يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: وإنْ كان قضيباً من أراك».

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾؛ أي: وإنَّ من اليهود ﴿لَفَرِيقًا﴾؛ أي: لطائفة ﴿يَلْوُونَ﴾؛ أي: يفتلون ويعطفون ﴿أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: بقراءة الكتاب، فيميلونها عن المنزل إلى المحرف، ويبدلون المحرف عن المنزل، كتحريفهم حركات الإعراب في آية الرجم، واللفظة الدالة على نبوة محمد ﷺ، تحريفاً يتغير به المعنى ﴿لتحسبوه﴾؛ أي: لتظنوا أيها المسلمون أنَّ ذلك المحرف ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من كلام الله وتنزيله، يعني من التوراة ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: والحال أنَّ ذلك المحرف ليس من التوراة المنزل من عند الله، ولكنَّه من عند أنفسهم.

والمعنى(١): يلوون ألسنتهم ويعطفونها عن اللفظ المنزل إلى المحرَّف؛ لكي يظن السفلة أو المسلمون أنَّ المحرف من التوراة، وما هو من الكتاب؛ أي: والحال أن المحرف ليس من التوراة في نفس الأمر، وفي اعتقادهم ﴿وَيَقُولُونَ

---

(١) المراح.

﴿هُوَ﴾؛ أي: المحرف ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: موجود في كتب سائر الأنبياء، مثل شعياء وأرخياء وحيفوف ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فالأغمار الجاهلون بالتوراة نسبوا ذلك المحرف إلى أنَّه من التوراة، والأذكياء زعموا أنَّه موجود في كتب سائر الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى عليهم السلام، وعلم من هذا التفسير المغايرة بين اللفظين، فإنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله، فإنَّ الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب، وتارة بالسنّة، وتارة بالإجماع وتارة بالقياس، والكل من عند الله.

وفي «الخازن» قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وإنَّما كرر هذا بلفظين مختلفين مع اتحاد المعنى.. لأجل التأكيد؛ أي: إنَّهم[1] كاذبون فيما يقولون، وفي هذا تشنيع عليهم، بأن الجرأة قد بلغت بهم حداً عظيماً، فهم لم يكتفوا بالتعريض والتورية، بل يصرحون بنسبته إلى الله كذباً، لعدم خوفهم منه، واعتقادهم أنَّه يغفر لهم جميع ما يجترحون من الذنوب؛ لأنَّهم من أهل ذلك الدين.

وليس ذلك بالغريب عليهم، فإنَّا نرى كثيراً من المسلمين اليوم يعتقدون أنَّ المسلم من أهل الجنة حتماً، مهما أصاب من الذنوب؛ لأنَّه إنْ لم تدركه الشفاعة. أدركته المغفرة، ويجلِّي اعتقادهم ذلك قولهم: أمة محمد بخير.

فالمسلم في نظرهم من اتخذ الإسلام ديناً، وإنْ لم يعمل بما جاء في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، من صفات المسلمين الصادقين، بل ولو فعل فِعْل الكافرين والمنافقين.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم كاذبون؛ أي: يتعمدون ذلك الكذب مع العلم، وهذا تأكيد وتسجيل عليهم بأنَّ ما افتروه على الله.. كان عن عمد لا عن خطأ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما[2]: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

الأشرف، وغيروا التوراة، وكتبوا كتاباً بدلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثم أخذت قريظة ما كتبوا، فخلطوه بالكتاب الذي عندهم، وقد جاء في كتب السيرة والحديث: أنَّ اليهود كانوا إذا سلَّموا على النبي ﷺ يمضغون كلمة السلام، فيخفون اللام ويقولون: السام عليكم غير مفصحين بالكلمة؛ لأنَّهم يريدون معنى السام وهو الموت، وجاء في سورة النساء قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ فهؤلاء وضعوا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ مكان «لا أسمعت مكروها» التي تقال عادة عند الدعاء و ﴿راعنا﴾ مكان انظرنا التي يقولها الناس لمن ينتظرون معونته ومساعدته، وإنَّما قالوا: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ لأنَّها قد تستعمل في الدعاء على المخاطب، بمعنى لا سمعت، وقالوا: ﴿راعنا﴾ لأنَّ هذه الكلمة عبرانية أو سريانية، كانوا يَتَسابون بها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَلْوُۥنَ﴾ مضارع لوى الثلاثي، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح، وأبو حاتم عن نافع شذوذاً: ﴿يلوّون﴾ بالتشديد، مضارع لوّى مشدداً، ونسبها الزمخشري إلى أهل المدينة، والتضعيف للمبالغة والتكثير، لا للتعدية، وقرأ حميد شاذاً: (يلُوُن) بضم اللام، ونسبها الزمخشري إلى أنَّها رواية عن مجاهد وابن كثير، ووجهت على أنَّ الأصل يلوون، ثمَّ أبدلت الواو همزة، ثم نقلت حركتها إلى الساكن قبله، وحذفت هي.

وقرأ الجمهور: ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ والمخاطب المسلمون وقرىء شاذاً: ﴿ليحسبوه﴾ بالياء وهو يعود على المسلمين أيضاً، كما هم المراد بالمخاطبين في قراءة العامة، والمعنى: ليحسب المسلمون أنَّ المحرف من التوراة.

ولمَّا بيَّن الله سبحانه وتعالى فيما سلف افتراء اليهود على الله الكذب، ونسبتهم إليه ما لم يقله.. أردف ذلك بذكر افترائهم على الأنبياء صلوات الله وسلامه علهيم أجمعين فقال:

---

(١) البحر المحيط.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، أي: لا ينبغي ولا يليق لأحد من البشر، ولا لأحد من الأنبياء، كعيسى وموسى ومحمد عليهم السلام ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا يعطيه الله ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة أو الإنجيل أو القرآن ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾؛ أي: الفهم لذلك الكتاب ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾؛ أي: الرسالة ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلك البشر المشرف بالصفات الثلاثة ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا﴾ كائنين ﴿لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين لله، أشراكاً أو أفراداً والنفي في مثل هذه الصيغة ﴿مَا كَانَ﴾ إنَّما يؤتى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلاً ثبوته، والغرض أنَّه لا يصح أصلاً، ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط، أعطاه الله النبوة والشريعة، فضلاً على أنْ يحصل ذلك بالفعل، لأنَّ الرسول سفير بين الله وخلقه، ليرشد الناس على عبادة الله، فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه؟!

والمعنىٰ: أي لا ينبغي لأحد من البشر أن ينزل الله عليه كتابه ويعلمه فقه دينه، ومعرفة أسراره، ويعطيه النبوة، ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله؛ لأنَّ من أتاه الله ذلك؛ فإنَّما يدعوهم إلى العلم به، ويحثهم على شرائع دينه، وأن يكونوا القدوة في طاعته وعبادته، ومعلمي الناس الكتاب.

ومعنىٰ قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين ما يجب من إفراده؛ فإنَّ العبادة الصحيحة لا تتحقق إلا إذا أخلصت له وحده، ولم تشبها شائبة، من التوجه إلى غيره كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ ومن دعا إلى عبادة نفسه.. فقد دعا الناس إلى أن يكونوا عابدين له من دون الله، وإنْ لم ينههم عن عبادة الله، بل وإنْ أمرهم بعبادة الله، وفي هذه الآية دلالة على عصمة الأنبياء.

وقال ﷺ: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري.. تركته وشركه» وفي رواية «فأنا منه بريء، هو للذي عمله» رواه مسلم وغيره.

وقال ﷺ: «إذا جمع الله الناس يوم القيامة.. نادى مناد: من أشرك في عمل عمله لله أحداً.. فيطلب ثوابه من عند غير الله؛ فإنَّ الله أغنى الشركاء عن

الشرك» رواه أحمد.

وقرأ الجمهور ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿أَن يُؤْتِيَهُ﴾ وقرأ شبل عن ابن كثير ومحبوب، عن أبي عمرو: بالرفع على القطع؛ أي: ثم هو يقول، وقرأ الجمهور عباداً لي بتسكين ياء المتكلم، وقرأ عيسى بن عمر بفتحها ﴿وَلَٰكِن﴾ يقول ذلك البشر المشرف بالكتاب والحكم والنبوة للناس ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، أي: علماء عالمين ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: بسبب كونكم معلمين الناس الكتاب ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، أي: وبسبب كونكم دارسين قارئين الكتاب؛ فإنَّ فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير، للاعتقاد والعمل به فدلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً، فمن اشتغل بالعلم والتعليم لا لهذا المقصود.. ضاع علمه، وخاب سعيه، وقال ابن عباس معنى: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾؛ أي: حكماء علماء حلماء.

والمعنى: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي، ولكن أدعوكم إلى أنْ تكونوا علماء فقهاء، مطيعين لله بتعليمكم الناس الكتاب، ودراستكم إياه.

قرأ عبد الله وابن كثير وأبو عمرو ونافع[1]: ﴿تعلمون﴾ بفتح التاء وسكون العين والباقون ﴿تُعَلِّمُون﴾ بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة، وقرأ مجاهد والحسن شذوذاً (تَعَلّمون) بفتح التاء والعين واللام المشددة، وهو مضارع حذفت منه التاء والأصل: (تتعلمون).

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَدْرُسُونَ﴾ من درس، من باب نصر، وقرأ أبو حيوة شاذاً (تدرِسون) بكسر الراء وروى عنه (تُدَرِّسون) بضم التاء وفتح الدال وكسر الراء المشددة؛ أي: تدرسون غيركم العلم، ويحتمل أن يكون التضعيف للتكثير لا للتعدية، وقرىء: (تدرسون) من أدرس بمعنى درس، نحو: أكرم وكرم، وأنزل ونزل، ويحتمل أنْ تكون القراءة المشهورة بهذا المعنى على تقدير: وبما كنتم تدرسونه على الناس.

---

(١) البحر المحيط ومراح.

(٢) البحر المحيط.

وخلاصة المعنى: ولكن يأمرهم هذا البشر، والنبي الذي أوتي الكتاب والحكم والنبوة، بأنْ يكونوا منسوبين إلى الرب مباشرة، وإنَّما يهديهم إلى الوسيلة الحقيقية الموصلة إلى ذلك، وهي تعليم الكتاب ودراسته، فبعلم الكتاب، وتعليمه، والعمل به، يكون الإنسان ربانياً مرضياً عند الله، إذ العلم الذي لا يبعث على العمل لا يعد علماً صحيحاً، ومن ثمَّ استغنى بذكره عن التصريح بالعمل، فالعلم بسبب للعمل، فقبيح على العالم تركه العمل، وأقبح منه أن يرشد الناس ويهديهم مع كونه هو غير مهتد في نفسه، فمثل العالم الذي يعلم الناس - وهو غير عامل - كشمعة موقودة تضيء للناس وتحرق نفسها، وفي هذا المعنى قال بعضهم:

أَتَنْهَىٰ ٱلنَّاسَ وَلاَ تَنْتَهِيْ ... مَتَىٰ تُلْحَقُ ٱلْقَوْمَ يَا أَكْوَعُ
فَيَا حَجَرَ ٱلسَّنِّ حَتَّىٰ مَتَىٰ ... تَسُنُّ ٱلْحَدِيْدَ وَلاَ تَقْطَعُ

وكفى به[١] دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه، وكد روحه في جمع العلم، ثمَّ لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان كمن غرس شجرة حسناء تؤنقه بمنظرها، ولا تنفعه بثمرها.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ قرأ[٢] عاصم وحمزة وابن عامر ويعقوب وخلف العاشر ﴿يأمركم﴾ بفتح الراء عطفاً على يقول، والفاعل ضمير يعود على البشر، و﴿لا﴾ مزيدة لتأكيد معنىٰ النفي؛ أي: ما كان لبشر أن يجعله الله نبياً، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه، أو باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، وقرأ الباقون برفع الراء على سبيل الاستئناف، كما يدل على ذلك ما روي شاذاً عن ابن مسعود أنه قرأ؛ ﴿ولن يأمركم﴾ والفاعل حينئذٍ ضمير يعود على الله، كما قاله الزجَّاج، أو على محمد، كما قاله ابن جريج، أو إلى عيسى، أو إلى كل نبي من الأنبياء، كما قيل بكل؛ أي: ولا يأمركم محمد يا معشر قريش، أو موسى يا معشر اليهود، أو عيسى يا معشر النصارى مثلاً، بأنْ تتخذوا الملائكة والنبيين

---

(١) النسفي.
(٢) المراح.

أرباباً، كما اتخذت الصابئة وقريش الملائكة، واليهود عزيراً، والنصارى المسيح ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾؛ أي: كيف يأمركم ذلك البشر أو الله بالكفر ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: لا يأمركم، بل يأمركم بالإسلام، والهمزة فيه للاستفهام التعجبي؛ لأنه خطاب للمؤمنين على طريق التعجب من حال غيرهم.

وإنَّما خص[1] الملائكة والنبيين بالذكر؛ لأنَّ الذين وصفوا بعبادة غير الله عزّ وجلّ من أهل الكتاب، لم يحك عنهم إلا عبادة الملائكة، وعبادة المسيح، وعزير، فلهذا المعنىٰ خصهم بالذكر.

والمعنىٰ: أيأمركم بعبادة الملائكة، والسجود للأنبياء بعد توحيدكم لله، والإخلاص له إذ لو فعل ذلك لكفر، ونزعت منه النبوة والإيمان، ومن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يكون أعلم الناس بالله، فإنَّ الله لا يؤتي وحيه إلا نفوساً طاهرة، وأرواحاً طيبة، فلا تجتمع نبوة ودعاء إلى عبادة غير الله.

وأُثِرَ عن علي رضي الله عنه أنَّه قال: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك؛ لأنَّ العالم ينفِّر الناس عن العلم بتهتكه، والجاهل يرغب الناس في الجهل بتنسكه، وقال رسول الله ﷺ: «نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع».

الإعراب

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾.

﴿وَمِنْ﴾ الواو استئنافية ﴿من أهل الكتاب﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه خبر مقدم من اسم موصول، أو: نكرة موصوفة، في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَأْمَنْهُ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على المخاطب. ﴿بِقِنطَارٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تأمن﴾

---

(١) الخازن.

والباء فيه بمعنى على، ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ فعل ومفعول، مجزوم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية علىٰ كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تؤده﴾، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أو في محل الرفع صفة لـ ﴿مَنْ﴾، إن قلنا إنَّها نكرة موصوفة تقديره: ومن أهل الكتاب شخص مؤد أمانته إنْ تأمنه علىٰ قنطار.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ الواو عاطفة، ﴿منهم﴾: خبر مقدم، ﴿مَّنْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿تَأْمَنْهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المخاطب ﴿بِدِينَارٍ﴾: متعلق بـ ﴿تَأْمَنْهُ﴾ ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ ﴿لَّا﴾: نافية ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إِن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنْ﴾ ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية. صلة لـ ﴿مَّنْ﴾ الموصولة، أو صفة لها ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ من الظرف العام، إذ التقدير: لا يؤده إليك في جميع المدد والأزمنة إلا في مدة دوامك قائماً عليه، ﴿مَا﴾: مصدرية ظرفية ﴿دُمْتَ﴾: فعل ناقص، واسمه ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿قَآئِمًا﴾، و ﴿قَآئِمًا﴾: خبر دام، وجملة دام من اسمها وخبرها صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه تقديره: إلا مدة دوامك قائماً عليه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء حرف جر، أنَّ: حرف نصب ومصدر والهاء اسمها، وجملة ﴿قَالُوا۟﴾ خبرها، وجملة أنَّ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بالباء، المتعلقة بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك الاستحلال مستحق بقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ مقول محكى لـ ﴿قَالُوا۟﴾ وإنْ شئت قلت ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص، ﴿عَلَيْنَا﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدم على اسمها ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور قبله، أو

صفة لسبيل، قدمت عليه فصارت حالاً، وذهب قوم إلى عمل ليس في الحال، فيجوز على هذا أنْ يتعلق بها، ذكره أبو البقاء، ﴿سَبِيلٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر عن خبرها، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل النصب مقول لـ ﴿قَالُوا﴾.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الواو استئنافية ﴿يقولونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يقولون﴾: لأنَّه بمعنى يفترون ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول به، ﴿وَهُمْ﴾: الواو حالية ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: خبره، ومفعول العلم محذوف تقديره: أنَّه كاذبون، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يقولون﴾.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب يجاب بها النفي فيصير إثباتاً، داخلة على جملة محذوفة تقديرها: بلى عليهم سبيل في الأميين ﴿مَنْ﴾: موصولة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أو شرطية في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿أَوْفَىٰ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾: الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَوْفَىٰ﴾، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: معطوف على ﴿أَوْفَىٰ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء رابطة لجواب (من) الشرطية، أو رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً ﴿إنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة (إنَّ): في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة مقررة للجملة المحذوفة بعد ﴿بَلَىٰ﴾. وفي «الفتوحات» والربط من الجملة الجزائية أو الخبرية هو العموم في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وعند من يرى الربط بقيام الظاهر مقام المضمر يقول، ذلك هنا، وقيل: الجزاء أو الخبر محذوف تقديره: يحبه الله، ودل على هذ المحذوف قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾. ا هـ «سمين».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها ﴿يَشْتَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَشْتَرُونَ﴾، ﴿وَأَيْمَـٰنِهِمْ﴾: معطوف على ﴿عهد الله﴾ ومضاف إلى الضمير ﴿ثَمَنًا﴾ مفعول به ﴿قَلِيلًا﴾: صفة له، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿لَا﴾: نافية، ﴿خَلَـٰقَ﴾: اسمها ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾ ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، وجملة ﴿لَا﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾: نافية، ﴿يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع، معطوف على جملة قوله: ﴿لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الواو عاطفة (لا): نافية ﴿يَنظُرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَنظُرُ﴾ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَنظُرُ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا خَلَـٰقَ﴾ على كونها خبر المبتدأ، وكذلك جملة قوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَا خَلَـٰقَ﴾ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الواو عاطفة ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ﴾ على كونها خبر المبتدأ.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ الواو استئنافية ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿لأنَّ﴾ على اسمها، ﴿لَفَرِيقًا﴾: اللام لام الابتداء ﴿فريقاً﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر ﴿يَلْوُنَ﴾: فعل وفاعل ﴿أَلْسِنَتَهُم﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلق بمحذوف حال من الألسنة تقديره: ملتبسة بالكتاب، أو ناطقة بالكتاب، وجملة ﴿يَلْوُنَ﴾: في محل النصب صفة ﴿لَفَرِيقًا﴾ وجمع الضمير نظراً إلى المعنى؛ لأنَّه اسم جمع كالرهط والقوم، وجملة ﴿إِنَّ﴾: من اسمها وخبرها مستأنفة ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾: اللام حرف جر وتعليل، (تحسبوا): فعل مضارع منصوب بأنْ مضمرة جوازاً بعد لام كي، والواو فاعل، والهاء مفعول أول ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلق بـ (تحسبوه) وهو في موضع المفعول الثاني، والجملة الفعلية صلة أنْ المضمرة، أنْ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لحسبانهم إياه ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَلْوُنَ﴾ ﴿وَمَا هُوَ﴾: الواو حالية ﴿ما﴾ نافية ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من الهاء في ﴿تحسبوه﴾.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الواو عاطفة ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿يَلْوُنَ﴾ ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿وَمَا هُوَ﴾: الواو حالية، ﴿ما﴾: نافية ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في الخبر، أعني قوله: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: الواو عاطفة ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَلْوُنَ﴾ أيضاً ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ أو متعلق بـ﴿يقولون﴾؛ لأنَّه بمعنى يفترون، ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول لـ (يقولون) ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل (يقولون) كما مر نظيره.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾.

﴿مَا﴾: نافية ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص ﴿لِبَشَرٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ﴾: حرف ناصب، وفعل ومفعول أول وفاعل ﴿الْكِتَابَ﴾ مفعول ثانٍ ﴿وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ معطوفان على ﴿الْكِتَابَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾، مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسماً لكان تقديره: ما كان إيتاء الله بشراً الكتاب والحكم والنبوة، ثم قوله للناس كونوا عباداً لي لائقاً لبشر، وممكناً منه. وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿يَقُولَ﴾: معطوف على ﴿يؤتي﴾ منصوب بأنْ المصدرية، وفاعلة ضمير يعود على ﴿بشر﴾ ﴿لِلنَّاسِ﴾ جار ومجرور متعلقان لـ﴿يقول﴾ ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مقول محكي وإنْ شئت قلت: ﴿كُونُوا﴾ فعل أمر ناقص واسمه ﴿عِبَادًا﴾: خبره ﴿لِّي﴾: صفة لـ﴿عِبَادًا﴾ وجملة ﴿كُونُوا﴾: في محل النصب مقول ليقول ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق[1] بمحذوف حال من الواو في ﴿كُونُوا﴾ تقديره: كونوا عباداً لي حال كونكم متجاوزين الله، إشراكاً أو إفراداً.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

﴿وَلَٰكِن﴾ الواو اعتراضية ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿كُونُوا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾: خبر ﴿كُونُوا﴾ وجملة ﴿كُونُوا﴾: في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: ولكن يقول كونوا ربانيين، والجملة جملة استدراكية معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾: الباء حرف جر (ما) مصدرية، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ثانٍ، والأول محذوف تقديره: غيركم، وجملة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ خبر (كان)، وجملة (كان) صلة (ما) المصدرية (ما): مع صلتها في تأويل مصدر

(١) الصاوي.

مجرور بالياء تقديره: بسبب كونكم معلمين غيركم الكتاب، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿كُونُوا﴾ أو بـ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ ﴿وَبِمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الباء﴾ حرف جر، ﴿ما﴾ مصدرية، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿تَدْرُسُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف تقديره: الكتاب، وجملة ﴿تَدْرُسُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾: صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾: مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: وبسبب كونكم دارسين الكتاب، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾: زائدة زيدت لتأكيد معنى النفي في قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ﴿يَأْمُرَكُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَقُولَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿بشر﴾ ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول منصوب بأنْ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ﴿أَرْبَابًا﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿تَتَّخِذُوا﴾، وجملة ﴿تَتَّخِذُوا﴾: صلة أنْ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ ﴿يأمركم﴾ تقديره: ولا يأمركم اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، وجملة ﴿يأمركم﴾: في تأويل مصدر معطوف على مصدر ﴿يَقُولَ﴾ والتقدير؛ ما كان إيتاء الله البشر الكتاب والحكم والنبوة، ثم قوله للناس: كونوا عباداً لي من دون الله، وأمره الناس باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً لائقاً به ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿يأمركم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿البشر﴾، أو على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، أي: لا يأمركم بالكفر ﴿بَعْدَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿يَأْمُرَكُمْ﴾ أو ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ ﴿بَعْدَ﴾: مضاف، ﴿إِذْ﴾ مضاف إليه، ولا يضاف ﴿إِذْ﴾ إلا إلى ظرف زمان، و ﴿إِذْ﴾: مضاف وجملة ﴿أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مضاف إليه؛ أي: لا يأمركم بالكفر بعد إسلامكم، ولا قبله، سواء كان الآمر الله، أم الذي استنبأه الله والله أعلم.

﴿بِدِينَارٍ﴾ والدينار أصله دنّار بنونين، فاستثقل توالى مثلين، فأبدلوا أولهما حرف علة تخفيفاً لكثرة دورانه على ألسنتهم، ويدل على ذلك رده إلى النونين تكسيراً وتصغيراً في قولهم؛ دنانير ودنينير، ومثله قيراط، أصله قراط، بدليل قولهم: قراريط وقريريط، والدينار معرب، قالوا: ولم يختلف وزنه أصلاً، وهو أربعة وعشرون قيراطاً، كل قيراط، ثلاث شعيرات معتدلة، فالمجموع اثنتان وسبعون شعيرة.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ﴾ ﴿دُمْتَ﴾ بضم الدال، من دام يدوم، من باب قال يقول، قال الفراء: هذه لغة الحجاز وتميم، تقول: دمت بكسر الدال، قال: ويجتمعون في المضارع يقولون: يدوم، وأصل هذه المادة الدلالة على الثبوت والسكون، يقال: دام الماء إذا سكن وفي الحديث «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم»؛ أي: الذي لا يجري ﴿قَآئِمًاۗ﴾ والمراد بالقيام هنا الملازمة؛ لأنَّ الأغلب أنَّ المطالب يقوم على رأس المطالب، ثمَّ جعل عبارة عن الملازمة، وإنْ لم يكن ثَمَّ قيام.

﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ جمع أمي، وأصل الأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، والمراد بهم العرب، لأنَّهم كانوا كذلك ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾ يقال: لوى الحبل والتوى إذا فتله، ثم استعمل في الإزاغة في الحجج والخصومات، ومنه ليان الغريم، وهو دفعه ومطله، ومنه خصم ألوى؛ أي: شديد الخصومة، شبهت المعاني بالأجرام، والمراد أنَّهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرفة.

﴿أَلْسِنَتَهُم﴾ جمع لسان، واللسان الجارحة المعروفة، قال أبو عمرو: اللسان يذكَّر ويؤنث، فمن ذكَّر جمعه على ألسنة، ومن أنَّث جمعه على ألسن، كذراع وأذرع، وكراع وأكرع وقال الفراء: اللسان بعينه لم نسمعه من العرب إلا مذكراً. انتهى. ويعبر باللسان عن الكلام، وهو أيضاً يذكر ويؤنث إذا أريد به ذلك.

﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ جمع رباني، والرباني إما منسوب إلى الرب، والألف والنون فيه

زائدتان في النسب دلالة على المبالغة، كما قالوا: رقباني وشعراني ولحياني، للغليظ الرقبة، والكثير الشعر، والطويل اللحية، ولا تفرد هذه الزيادة عن النسب، أمَّا إذا نسبوا إلى الرقبة والشعر واللحية من غير مبالغة قالوا: رقبي وشعري ولحوي، هذا معنى كلام سيبويه، وإمَّا منسوب إلى الربان، والربان هو المعلم للخير، ومن يسوس الناس ويعرفهم أمر دينهم، فالألف والنون دالان على زيادة الوصف، كهي في عطشان وريان وجوعان، وتكون النسبة على هذا للمبالغة في الوصف كما قالوا: أحمري، في أحمر، وكلا القولين شاذ لا يقاس عليه.

واختلف في معناه فقيل: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلوم وكبارها، وقيل: هو العالم الذي يعمل بعلمه، وقيل هو العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي، وقيل: هو الذي جمع بين علم البصيرة، والعلم بسياسة الناس.

ولما مات ابن عباس رضي الله عنهما قال محمد ابن الحنفية: اليوم مات رباني هذه الأمة، وقيل: الربانيون هم ولاة الأمر والعلماء، وهما الفريقان اللذان يطاعان، ومعنى الآية على هذا التأويل: لا أدعوكم إلى أنْ تكونوا عباداً لي، ولكن أدعوكم إلى أنْ تكونوا ملوكاً، وعلماء، ومعلمين الناس الخير، ومواظبين على طاعة الله وعبادته، وقال أبو عبيدة: أحسب أن هذه الكلمة ليست عربية، وإنَّما هي عبرانية أو سريانية، وسواء كانت عربية أو عبرانية، فهي تدل على الذي علم وعمل بما علم، وعلَّم الناس طريق الخير ﴿تَدْرُسُونَ﴾ يقال: درس الكتاب يدرسه أدمن قراءته وكرره، ودرس المنزل، إذا عفا، وطلل دارس عاف.

البلاغة

وذكروا في هذه الآيات أنواعاً من البلاغة[1]:

منها: الطباق في قوله: ﴿بِقِنطَارٍ﴾ و ﴿بِدِينَارٍ﴾ إذا أريد بهما معنىٰ القليل والكثير وفي قوله: ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ و ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾؛ لأنَّ الأداء معناه الدفع وعدمه معناه المنع، وهما ضدان، وفي قوله: ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ و ﴿مُّسْلِمُونَ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الإشارة بالبعيد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ إيذاناً بكمال غلوهم في الشر والفساد.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾؛ أي: ليس علينا في أكل أموال الأميين سبيل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿اتقىٰ﴾ و ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ الأصل: فإنَّ الله يحبهم اعتناء بشأن المتقين، وإشارة إلى عمومه لكل تَقي.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ و﴿أَيَأْمُرُكُم﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وفي قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اختصه بالذكر لأنَّه اليوم الذي تظهر فيه مجازاة الأعمال.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ و ﴿لا يؤده﴾ وفي اسم: ﴿ٱللَّهِ﴾ في مواضع، وفي: ﴿ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿بِقِنطَارٍ﴾ وقوله: ﴿بِدِينَارٍ﴾؛ لأنَّ القنطار كناية عن المال الكثير، والدينار كناية عن المال القليل كما مر.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ أكدت الجملة بإنَّ، واللام إشارة إلى أنَّ ذلك محقق منهم.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾؛ لأنَّه مجاز عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم، وكذلك في الآتي بعدها: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزمخشري: مجاز عن الاستهانة بهم، والسخط عليهم؛ لأنَّ من اعتد بإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها[(١)]: أنَّه تعالى لما حكى عن أهل الكتاب قبائح أقوالهم وأفعالم، وكان مما ذكر أخيراً اشتراءهم بآيات الله ثمناً قليلاً، وما يؤول أمرهم إليه في الآخرة، وإنَّ منهم مَنْ بَدل في كتابه، وغير وصف رسول الله ﷺ المذكور في كتبهم حتى لا يؤمنوا به، ونزه رسوله عن الأمر بأن يعبد هو أو غيره، بل تفرد تعالى بالعبادة.. أخذ تعالى يقيم الحجة على أهل الكتاب وغيرهم ممن أنكر نبوته ودينه، فذكر أخذ الميثاق على أنبيائهم، بالإيمان برسول الله ﷺ، والتصديق له، وبأن يكونوا من أتباعه

(١) البحر المحيط.

وأنصاره إنْ أدركوا زمنه، وذكر إقرارهم بذلك، وشهادتهم على أنفسهم، وشهادته تعالى عليهم بذلك، وهذا العهد مذكور في كتبهم، وشاهد بذلك أنبياؤهم، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد: أنْ يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه.. فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته ﷺ، ثم ذكر تعالى أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان، وبيَّن أنَّ الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه، فالغرض من هذه الآيات: إثبات نبوة محمد ﷺ، بتعداد أشياء معروفة عند أهل الكتاب قطعاً لعذرهم، وإظهاراً لعنادهم، ودحضاً لمزاعمهم، وإزالةً لشبهات من أنكر منهم بعثة نبي من العرب.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ...﴾ قيل سبب نزولها: أنَّ[1] أهل الكتاب اختلفوا، فادعى كل فريق منهم أنَّه على دين إبراهيم عليه السلام، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم، فغضبوا وقالوا: لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سبب نزولها[2]: ما رواه النسائي وابن جرير وابن حبَّان والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما كان رجلٌ من الأنصار أسلم ثم ارتدَّ ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه: أرسلوا إلى رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فنزلت ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الحديث رجاله رجال الصحيح.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ سبب نزولها[3]: ما رواه ابن كثير في تفسيره، عن

---

(١) الخازن.
(٢) لباب النقول.
(٣) المسند الصحيح.

عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ قوماً أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم؟ فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ هكذا رواه، وإسناده جيد.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ قرأ جمهور السبعة: ﴿لَمَآ﴾ بفتح اللام وتخفيف الميم، وعلى هذه القراءة يُقرأ: ﴿أتيناكم﴾ بنون العظمة، وهي قراءة نافع وجعفر، ويُقرأ ﴿أتيتكم﴾ بالإفراد، وهو الموافق لما قبله وما بعده؛ لأنَّه تقدم قبله ﴿إذ أخذ الله﴾ وجاء بعده: ﴿إِصْرِىۖ﴾؛ وهي قراءة الباقين من العشرة، وعلى هذه القراءة، أعني قراءة الجمهور بفتح اللام وتخفيف الميم، فاللام للابتداء وتوكيد معنى القسم الذي في أخذ الميثاق، و ﴿ما﴾ شرطية منصوبة على المفعولية بالفعل المذكور بعدها، ﴿وأتيتكم﴾: فعل شرط لها، وقوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ معطوف على فعل الشرط وقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾: جواب القسم ودال على جواب الشرط.

والمعنىٰ على هذه القراءة: واذكر يا محمد لأهل الكتاب قصة إذ جعل الله سبحانه وتعالى العهد المؤكد باليمين على جميع النبيين المرسلين في عالم الذرة، أوفى كتبهم بقوله لمهما أعطيتكم به من كتاب منزل، أو حكمة وعلم نافع ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ من عندي، وهو محمد ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾؛ أي: موافق وصفه ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ أي: لوصفه المذكور في الكتاب الذي معكم من التوراة والإنجيل ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾؛ أي: لتصدقن أنتم وأممكم برسالته ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ على أعدائه، قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث الله محمداً وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته.

وقيل: إنَّ ﴿ما﴾ موصولة مبتدأ، وصلتها ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾، والعائد محذوف تقديره أتيتكموه، و ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ معطوف على الصلة، فهو صلة العائد منه قيل: مقدر؛ أي: جاءكم به، وقيل: الربط حاصل بإعادة الموصول بمعناه في

قول ما معكم.

وقوله: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾ جواب قسم مقدر، وهذا القسم المقدر وجوابه خبر المبتدأ الذي هو ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾ والهاء في ﴿بِهِۦ﴾ تعود على المبتدأ، ولا تعود على ﴿رَسُولٌ﴾ لئلا يلزم خلو الجملة الواقعة خبراً من رابط يربطها بالمبتدأ، وقيل: إنَّ ﴿لَمَآ﴾ مخفف لما، والتقدير: حين آتيتكم، ويأتي توجيه قراءة التشديد.

وقرأ حمزة: بكسر اللام مع تخفيف الميم في ﴿لما﴾ وعلى هذه القراءة يقرأ ﴿آتيتكم﴾ بالتاء فقط، فاللام في هذه القراءة للتعليل، متعلقة بـ ﴿أَخَذَ﴾ و ﴿ما﴾ موصولة و ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾ صلته والعائد محذوف، و ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ﴾ معطوف على الصلة، والرابط لها بالموصول إمَّا ضمير محذوف، وإمَّا هذا الظاهر الذي هو بمعنى الموصول، أعني قوله: ﴿لِمَا مَعَكُمۡ﴾ كما مر آنفاً.

والمعنىٰ على هذه القراءة: واذكر يا محمد لأهل الكتاب، قصة إذ أخذ الله ميثاق النبيين لرعاية الذي آتيتكم من الكتاب والحكمة. الخ، ففي هذه القراءة تقدير مضاف بعد لام التعليل.

وأجاز الزمخشري[١] في قراءة حمزة أنْ تكون (ما) مصدرية، وقال: معنى الكلام حينئذٍ لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة، ثم لمجيء رسول مصدق لِمَا معكم لتؤمنن به، قالوا: فهو مخالف لظاهر الآية، لأنَّ ظاهر الآية يقتضي أنْ تكون تعليلاً لأخْذِ الميثاق، لا لمتعلقه، وهو الإيمان، فاللام متعلقة بـ ﴿أَخَذَ﴾، وعلى ظاهر تقدير الزمخشري تكون متعلق بقوله: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾ ويمتنع ذلك من حيث إن اللام المتلقى بها القسم، لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، وقال النسفي: والمعنى على كونها مصدريّة: أي أخذ الله ميثاقكم لتؤمنن بالرسول، ولتنصرنه، لأجل أنّي آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته، موافق لكم غير مخالف. انتهىٰ.

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ سعيد بن جبير والحسن شذوذاً: ﴿لمّا﴾ بتشديد الميم، على أنَّها ظرف بمعنى حين، متعلق بـ﴿تؤمنن﴾، والمعنى: اذكر يا محمد لأهل الكتاب، قصة إذ جعل الله العهد المؤكد باليمين على النبيين في عالم الأرواح بقوله: حين أعطيتكم الكتاب والحكمة في عالم الأشباح، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، لتؤمنن به ولتنصرنه.

وقرأ أبي وعبد الله شذوذاً: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ بدل النبيين، وكذا هو في مصحفيهما، وقرأ عبد الله شذوذاً: ﴿رسول مصدقاً﴾ بالنصب على الحال من النكرة المتقدمة، وهو جائز، وإن كان قليلاً، وقد ذكروا أن سيبويه قاسه، ويحسن هذه القراءة أنَّه نكرة في اللفظ معرفة من حيث المعنىٰ؛ لأن المعني: به محمد ﷺ على قول الجمهور.

والمقصود من الآية[1]: أنَّ الله تعالى، أخذ الميثاق من النبيين خاصة، قبل أن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى عباده: أنْ يصدق بعضهم بعضاً، وأخذ العهد على كل نبي: أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه، وإنْ لم يدركه: أن يأمر قومه بنصرته إنْ أدركوه، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسىٰ، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ، وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاووس.

وقيل: إنَّما أخذ الله الميثاق من النبيين في أمر محمد ﷺ بأنَّ يبين بعضهم لبعض صفة محمد وفضله، وهو قول علي، وابن عباس، وقتادة، والسدي، وقال علي بن أبي طالب: ما بعث الله نبياً، آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد ﷺ، وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه.

وقيل: إن المراد من الآية أنَّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يأخذون الميثاق على أممهم، بأنَّه إذا بعث محمد ﷺ يؤمنون به وينصرونه، وهذا قول كثير من المفسرين، والمراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ هو محمد ﷺ، والمراد بكونه مصدقاً لما معهم: أن صفاته ونعوته وأحوله مذكورة في

---

(١) المراح.

التوراة والإنجيل، فلمَّا ظهر على نعوت وأحوال مطابقة لما كان مذكوراً في تلك الكتب. . كان نفس مجيئه تصديقاً لما كان معهم.

وصفوة القول: إنكم يا أهل الكتاب ملزمون باتباع محمد ﷺ، والتصديق بشريعته، بمقتضى الميثاق الذي أخذ على كل من موسى وعيسى عليه السلام، أنَّه إذا جاء نبي بعده، وصدق بما معه، يؤمن به، وينصره.

وإيمانكم بموسى أو عيسى عليه السلام يقتضي التصديق بكل ما يؤمن به كل منهما.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى للنبيين ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين، مع إدخال ألف بينهما وتركه، وبتسهيل الثانية مع إدخال ألف بينهما، وبين الأولى المحققة وتركه، وبإبدال الثانية ألفاً ممدودة، فالقراءات خمسٌ كما في «الخطيب»؛ أي: هل اعترفتم بالإيمان به والنصرة له ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾؛ أي: قبلتم ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من الإيمان به والنصر له ﴿إِصْرِي﴾؛ أي: عهدي، وسمي العهد إصراً؛ لأنَّه مما يؤصر؛ أي: يشد ويعقد والإصر في الأصل الحمل الثقيل، وقرىء شاذاً بضم الهمزة (أُصري) وهي مروية عن أبي بكر، عن عاصم شذوذاً، ويحتمل أن يكون لغة فيه، ويحتمل أن يكون جمعاً لأصار، كإزار وأزر ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال النبيون جواباً للرب جل جلاله ﴿أَقْرَرْنَاۚ﴾؛ أي: اعترفنا بذلك العهد وقبلناه، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى للنبيين ﴿فَاشْهَدُواْ﴾؛ أي: على أنفسكم وعلى أتباعكم؛ أي: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار، وقبول العهد ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم بعضاً، من الشاهدين معكم، لا يعزب عن علمي شيء.

وهذا الحوار لتثبيت المعنى وتوكيده، على طريق التمثيل، وليست الآية نصاً في أنَّ هذه المحاورة وقعت، وهذه الأقوال قيلت، وله نظائر كثيرة في الأساليب العربية.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فمن أعرض عن الإيمان بهذا الرسول ونصرته

بعد قبول الميثاق والعهد ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ المعرضون ﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن طاعة الله وميثاقه.

وخلاصة المعنى: فمن أعرض بعد أخذ الميثاق على هذه الوحدة، واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان، ولم يؤمن بالنبي المتأخر المصدق لمن تقدمه، ولم ينصره.. فأولئك الجاحدون هم الفاسقون، فأهل الكتاب الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ خارجون عن ميثاق الله، ناقضون لعهده، وليسوا من الدين الحق في شيء.

وبعد أنْ بين الله سبحانه وتعالى أنَّ دين الله واحد، وأنَّ رسله متفقون فيه، ذكر حال منكري نبوة محمد ﷺ فقال:

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري، والتنبيه على الخطأ في التولي والإعراض، وهي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف، والتقدير: أيتولون ويعرضون عن الحق بعد ما تبين لهم، ويطلبون غير دين الله وهو، الإسلام، والإخلاص له في العبادة في السر والعلن ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: والحال أنَّه قد خضع له تعالى، وإنقاذ لحكمه أهل السموات والأرض حالة كونهم ﴿طَوۡعٗا﴾؛ أي؛ طائعين راضين، يعني: الملائكة والمسلمين ﴿و﴾ حالة كونهم ﴿كرهاً﴾؛ أي: كارهين، يعني الكفار في حالة البأس، ورؤية العذاب.

فالطَّوْع[1]: الانقياد والاتباع بسهولة، والكره: ما كان من ذلك بمشقة وإباء من النفس، واختلفوا في معنى قوله: ﴿طوعاً أو كرهاً﴾، فقيل: أسلم أهل السموات طوعاً، وأسلم بعض أهل الأرض طوعاً، وبعضهم كرهاً من خوف القتل والنبي، وقيل: أسلم المؤمن طوعاً، وانقاد الكفار كرهاً، وقيل: هذا في يوم أخذ الميثاق حين قال: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ فمن سبقت له السعادة.. قال ذلك طوعاً، ومن سبقت له الشقاوة. قال ذلك كرهاً، وقيل: أسلم المؤمن

---

(١) الخازن.

طوعاً، فنفعه إسلامه يوم القيامة، والكافر يسلم كرهاً عند الموت في وقت اليأس، فلم ينفعه ذلك في القيامة، وقيل: أنَّه لا سبيل لأحد من الخلق إلى الامتناع على الله في مراده، فأمَّا المسلم فينقاد لله، فينفذ أمره أو نهاه طوعاً، وأمَّا الكافر فينقاد لله كرهاً في جميع ما يقضى عليه، ولا يمكنه دفع قضائه وقدره عنه.

وحاصل معنى الآية[1]: أنَّ هذا الميثاق لمَّا كان مذكوراً في كتبهم، وهم كانوا عارفين بذلك، فقد كانوا عالمين بذكر محمد ﷺ في النبوة، فلم يبق لكفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد، فصاروا كإبليس الذي دعاه الحسد إلى الكفر، فأعلمهم الله أنَّهم متى كانوا كذلك.. كانوا طالبين ديناً غير دين الله، ومعبوداً سوىٰ الله تعالى، ثمَّ بين أنَّ الإعراض عن حكم الله تعالى مما لا يليق بالعقلاء، فقال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لجلال الله تعالى لا لغيره انقاد في طرفي وجوده وعدمه؛ لأنَّ كل ما سوى الله تعالى ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاده، ولا يعدم إلا بإعدامه، سواء كان عقلاً، أو نفساً، أو روحاً، أو جسماً، أو جوهراً، أو عرضاً، ونظير هذه الآية في الدلالة على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعاً فيما يتعلق بالدين، وينقادون له كرهاً فيما يخالف طباعهم، من الفقر، والمرض، والموت، وما أشبه ذلك، أمَّا الكافرون.. فهم مناقدون لله تعالى كرهاً على كل حال؛ لأنَّهم لا ينقادون فيما يتعلق بالدين، ويخضعون له تعالى في غير ذلك كرهاً؛ لأنَّه لا يمكنهم دفع قضائه تعالى، وقدره أيضاً، كل الخلق منقادون لإلهيته تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ومنقادون لتكاليفه، وإيجاده للآلام كرهاً.

﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يرجع الخلائق كلهم للمجازاة يوم القيامة، ففيه وعيد شديد لمن خالفه في الدنيا؛ أي: أيبتغون غير

---

(١) المراح.

دين الله، مع أن مرجعهم إليه تعالى.

وقرأ أبو عمرو وحفص وعياش ويعقوب وسهل[1]: ﴿يبغون﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ الباقون ﴿تبغون﴾ بالتاء على الخطاب، فالياء على نسق ﴿هُمُ الفَسِقُونَ﴾، والتاء على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأ الأعمش شاذاً: (كُرهاً): بضم الكاف والجمهور بفتحها.

وقرأ حفص وعياش ويعقوب وسهل ﴿يرجعون﴾ بالياء على الغيبة، فيحتمل أن يكون عائداً على ﴿من أسلم﴾، ويحتمل أن يكون عائداً على ضمير ﴿يَبْغُونَ﴾، فيكون على سبيل الالتفات على قراءة من قرأ: ﴿تبغون﴾ بالتاء، إذ يكون قد انتقل من خطاب إلى غيبة، وقرأ الباقون بالتاء، فإن كان الضمير عائداً على ﴿من أسلم﴾.. كان التفاتاً، أو على ضمير ﴿تبغون﴾ كان التفاتاً على قراءة من قرأ: ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء، إذ يكون قد انتقل من غيبة إلى خطاب.

ولمَّا ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة، أنَّه إنَّما أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق الرسول الذي يأتي مصدقاً لما معهم.. بين الله تعالى من صفة محمد ﷺ، كونه مصدقاً لما معهم فقال تعالى:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وإنَّما وحد الضمير في قوله: ﴿قُلْ﴾ وجمع في قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إشعاراً بأنَّه لا يبلغ هذا التكليف من الله تعالى إلى الخلق إلا هو، فلذلك وحد الفعل في قوله: ﴿قُلْ﴾ وتنبيهاً على أنه وافقه حين قال هذا القول أصحابه فلذا حسنا الجمع في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾.

ومعنىٰ الآية: قل يا محمد ﴿ءَامَنَّا﴾؛ أي: صدقت أنا ومن معي ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بوجود الله ووحدانيته، وتصرفه في الأكوان كلها، وأنَّه ربنا وإلهنا، لا إله لنا غيره، ولا رب سواه، والمراد؛ آمنا بالله وحده، لا كما آمن أهل الكتاب به على وجه التثليث؛ وإنَّما قدم الإيمان بالله على غيره لأنَّه الأصل ﴿و﴾ قل يا محمد

(١) البحر المحيط.

أيضاً صدقنا بـ ﴿ما أنزل علينا﴾ من وحيه وتنزيله؛ وإنَّما قدم ذكر القرآن لأنَّه أشرف الكتب المنزلة؛ لأنَّ المعيار عليه؛ ولأنَّه لم يحرف ولم يبدل، وغيره حرف وبدل؛ أي: آمنا بالقرآن المنزل عليه ﷺ أولاً، وعلى أمته بتبليغه إليهم.

وإنَّما عدي الإنزال هنا بعلى، وفي البقرة بإلى؛ لأنَّه يصح تعديته بكل منهما، فله جهة علو باعتبار إبتدائه، وجهة انتهاء باعتبار آخره، وهو باعتبار ابتدائه متعلق بالنبي، وباعتبار انتهائه متعلق بالمكلفين، ولمَّا خص الخطاب هنا بالنبي.. ناسب الاستعلاء، ولما عمم هناك جميع المؤمنين.. ناسبه الانتهاء ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾؛ أي: وقل يا محمد أيضاً: صدقنا بأنَّ الله أنزل على هؤلاء وحياً لهداية أقوامهم، وأنَّه موافق في أصوله لما أنزل علينا؛ أي: آمنا بما أنزل على هؤلاء من الصحف والوحى، والأسباط هم بطون بني إسرائيل، المتشعبة من أولاد يعقوب، وإنَّما خص هؤلاء بالذكر؛ لأنَّ أهل الكتاب يعترفون بفضلهم وبنبوتهم، ولم يختلفوا فيهم ﴿و﴾ صدقنا بـ ﴿ما أوتي﴾ وأعطي ﴿مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل، وسائر المعجزات الظاهرة على أيديهم، كما ينبىء عنه إيثار الإيتاء على الإنزال الخاص بالكتاب، وإنَّما أفرد هذين النبيين بالذكر؛ لأنَّ الكلام مع اليهود والنصارى، ثم جمع جميع الأنبياء فقال: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾؛ أي: وما أعطى النبيون ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ كداود، وسليمان، وأيوب، وغيرهم ممن لم يقص الله سبحانه علينا قصصهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ تعالى بالتصديق والتكذيب، فنصدق بالبعض، ونكفر بالبعض، كما فعل اليهود والنصارى، بل نؤمن بالكل.

فما مثل الأنبياء إلا كمثل الأمراء الأمناء الصادقين، يرسلهم السلطان على التعاقب للقيام بشؤون ولاية من ولاياته، وإصلاح أحوال أهلها، وعمل القوانين النافعة لحكمها، فقد يغير التالي بعض القوانين السابقة، بحسب ما يرى من تبدل طباع أهلها وعاداتهم، من شراسة إلى لين، ومن جهل إلى علم، ومن بداوة إلى مدينة وحضارة، وما المقصد من كل هذا إلا عمرانها، وبذل الوسع في سعادة أهلها، وإيصال الخير إليهم.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون له بالطاعة، مخلصون له في العبادة، مقرون بالألوهية والربوبية، لا نشرك به أحداً أبداً، ولا نبتغي بذلك إلا التقرب إليه، بإصلاح نفوسنا، وتزكية أرواحنا وتطهيرها من أدران الذنوب والخطايا.

وقد افتتحت الآية بالإيمان واختتمت بالإسلام والخضوع، وهو الثمرة والغاية من كل دين أرسل به نبي.

ثم أخبر تعالى: بأنَّ كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾؛ أي: ومن يطلب ديناً غير التوحيد والانقياد لحكم الله ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ أي من سلك شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة محمد ﷺ، وتدين بها، لن يقبل الله منه؛ يعني: إنَّ الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، وإن كل دين سواه غير مقبول عنده؛ لأنَّ الدين الصحيح ما يأمر الله به، ويرضى عن فاعله، ويثيبه عليه ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: ذلك المبتغي ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: من الواقعين في الخسران، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا.. فهو رد». والمعنى: أنَّ المعرض عن الإسلام، والطالب لغيره، فاقد للنفع، واقع في الخسران، بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها، محروم من الثواب، واقع في العقاب، متأسف على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح، وعلى ما تحمله من التعب في الدنيا، في تقرير الدين الباطل.

فائدة: قوله: ﴿يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ العامة[1] على إظهار هذين المثلين؛ لأنَّ بينهما فاصلاً، فلم يلتقيا في الحقيقة، وذلك الفاصل هو الياء التي حذفت للجازم، وروي عن أبي عمرو فيها الوجهان: الإظهار على الأصل ولمراعاة الفاصل الأصلي، والإدغام لمراعاة اللفظ، إذ يصدق أنَّهما التقيا في الجملة؛ لأن ذلك الفاصل مستحق الحذف لعامل الجزم، وليس هذا مخصوصاً بهذه الآية، بل كلما التقى فيه مثلان بسبب حذف حرف العلة اقتضت ذلك، يجرى فيه الوجهان،

(١) الجمل.

نحو ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، وإن يأت كاذباً، وقد استشكل على هذا نحو ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾، فأنَّه لم يرد من أبي عمرو خلاف في إدغامهما، وكان القياس يقتضي جواز الوجهين؛ لأنَّ ياء المتكلم فاصلة تقديراً. اهـ «سمين».

ولفظ ﴿دِينًا﴾ إما مفعول و ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ حال منه مقدم عليه، أو تمييز، أو بدل من غير، كما سيأتي ذلك في مباحث الإعراب.

﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ نزلت[1] في إثني عشر رجلاً ارتدوا عن الإسلام، وخرجوا من المدينة، وأتوا مكة كفاراً، منهم الحارث بن سويد الأنصاري، وطعمة بن أبيرق، وحجوج بن الأسلت، كما أخرجه عن عكرمة ابن عساكر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في اليهود والنصارى، وذلك أنَّ اليهود كانوا قبل مبعث النبي ﷺ يستفتحون به على الكفار، ويقرون به ويقولون: قد أظل زمان نبي مبعوث، فلما بعث محمد ﷺ.. كفروا به بغياً وحسداً.

والاستفهام هنا[2] للإنكار، ويجوز أن يكون للتعجب والتعظيم لكفرهم بعد الإيمان، أو للاستبعاد والتوبيخ؛ فإنَّ الجاحد عن الحق بعد ما وضح له.. منهمك في الضلال، بعيد عن الرشاد، فليس للإنكار، حتى. يستدل به على عدم توبة المرتد، وإنْ كان إنكاراً فالاستشهاد يمنعه.

ومعنى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ﴾ كيف يرشد الله للصواب ويوفق للإيمان ﴿قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾؛ أي: جحدوا نبوة محمد ﷺ ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: تصديقهم إياه بالقلب، وإذعانهم به، وبما جاء به من عند ربه ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾؛ أي: وبعد أنْ شهدوا وأقروا بلسانهم أنَّ محمداً رسول الله إلى خلقه، وأنَّه حق وصدق ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: والحال أنَّه قد جاءهم الحجج والبراهين، والمعجزات

---

(١) الخازن.

(٢) الجمل.

الدالة على صحة نبوته، وصدقه ﷺ؛ أي: لا يوفق القوم الكافرين الأصليين والمرتدين طريق الهدى والرشاد، لما سبق في علمه تعالى أنَّهم ظالمون، وقيل: لا يهديهم في الآخرة إلى الجنة والثواب، فإنْ قلت[1]: كيف قال في أول الآية: ﴿كَيْفَ يَهْدِى﴾ وفي آخر الآية: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا تكرار؟

قلتُ: ليس فيه تكرار؛ لأن قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ إنَّما هو مختص بأولئك المرتدين عن الإسلام، ثمَّ إنَّه تعالى عمم ذلك الحكم في آخر الآية فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني جميع الكفار، المرتدين عن الإسلام والكافر الأصلي، وإنَّما سمى الكافر ظالماً لأنَّه وضع العبادة في غير موضعها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين كفروا بعد إيمانهم ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ على كفرهم ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: سخطه وغضبه، وإبعاده لهم عن رحمته ﴿و﴾ أنَّ عليهم لعنة ﴿الملائكة والناس أجمعين﴾؛ أي: يستحقون غضب الله وسخطه، وسخط الملائكة والناس كلهم، إذ هم متى عرفوا حقيقة حالهم لعنوهم؛ لأنَّها مجلبة للَّعن بطبعها لكل من عرفها.

وهذا يدل[2] بمنطوقه على جواز لعنهم، وبمفهومه ينفي جواز لعن غيره، ولعل الفرق أنَّهم مطبوعون على الكفر، ممنوعون عن الهدى، آيسون عن الرحمة رأساً، بخلاف غيرهم، والمراد بالناس المؤمنون، أو العموم؛ فإنَّ الكافر أيضاً يلعن منكر الحق، والمرتد عنه، ولكن لا يعرف الحق بعينه حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مقدرين الخلود في اللعنة أو العقوبة، أو النار، وإنْ لم يجر ذكرهما لدلالة الكلام عليهما ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: لا ينقصون من العذاب شيئاً ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: ولا هم يمهلون لمعذرة يعتذرون بها؛ لأنَّ سببه ماران على قلوبهم من ظلمات الجحود والعناد، وسخط الله وغضبه، وهو معهم لا يفارقهم أينما كانوا، ثمَّ استثنى سبحانه وتعالى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ ورجعوا

---

(١) الخازن.

(٢) البيضاوي.

من الكفر إلى الإيمان ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد ارتدادهم وكفرهم، وذلك أن الحارث بن سويد الأنصاري لما لحق بالكفار ندم على ذلك، فأرسل إلى قومه: أن سلوا رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ ففعلوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ الآية. فبعث إليه أخوه الجلاس مع رجل من قومه، فأقبل إلى المدينة تائباً، وقبل رسول الله ﷺ توبته، وحسن إسلامه ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾؛ أي: عملوا الأعمال الصالحة، وقيل: معناه وأصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات، وظاهرهم مع الخلق بالعبادات والطاعات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٞ﴾ لقبائحهم في الدنيا بالستر لها ﴿رَّحِيمٌ﴾ في الآخرة بالعفو عنها، وقيل: غفور بإزالة العذاب، رحيم بإعطاء الثواب، وفي هذا الاستثناء وما بعده إشارة إلى أنَّ الكفار تنقسم ثلاثة أقسام:

قسم: تاب توبة صادقة فنفعته، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

وقسم: تاب توبة فاسدة فلم تنفعه، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾.

وقسم: لم يتب أصلاً ومات على الكفر، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾.

وخلاصة المعنى: أي إلا الذين تابوا من ذنوبهم، وتابوا إلى ربهم، وتركوا ذلك الكفر، الذي دنسوا به أنفسهم، نادمين على ما أصابوا منه، وأصلحوا نفوسهم بصالح الأعمال التي تغذي الإيمان، وتمحو من صفحة القلب ما كان قدْ ران عليها، من ذميم الأخلاق والصفات. وفي هذا إيماء إلى أنَّ التوبة التي لا أثر لها في العمل، لا يعتد بها في نظر الدين، إذ كثير من الناس يظهرون التوبة بالندم، والاستغفار، والرجوع عن الذنب، ثم لا يلبثون أنْ يعودوا إلى مثل ما كانوا قد اجترحوا من السيئات؛ لأنَّ التوبة لم يكن لها أثر في نفوسهم، ينبههم إذا غفلوا، ويهديهم إلى اتخاذ الطرق الموصلة لإصلاح شؤونهم، وتقويم المعوج من أمورهم، فإذا هم فعلوا ذلك.. نالهم من مغفرة ربهم ما يؤهلهم لدخول

جنته، والفوز برحمته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى والإنجيل ﴿بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ بموسى والتوراة، وهم اليهود ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا غرغروا أو ماتوا كفاراً، وقيل: نزلت في اليهود والنصارى جميعاً، وذلك أنَّهم آمنوا بمحمد ﷺ قبل مبعثه، وشهدوا أنَّه حق لما رأوا في كتبهم من نعته ووصفه، ثم كفروا به بعد بعثته، ثم ازدادوا كفراً بالإصرار والعناد، والصد عن سبيل الله، وبالحرب، فهؤلاء لا تقبل توبتهم ما أقاموا على ذلك؛ لأنَّ نفوسهم قد توغل فيها الشرك، وتمكن فيها الكفر، وأحاطت بها خطيئتها، وضلت على علم، وقرأ عكرمة شاذاً: ﴿لن نقبل﴾: بالنون ﴿توبتَهم﴾: بالنصب.

﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الذين كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً ﴿هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾؛ أي: المتناهون في الضلال، الذين ضلوا عن سبيل الحق، وأخطأوا منهاجه.

وما مثل ذلك إلا مثل الثوب الأبيض، تصيبه بعض الأوساخ، فيبادر صاحبه إلى غسله، فينظف، ويزولُ أثر ذلك الدنس، ولكن إذا تراكمت عليه الأقذار مدة طويلة، حتى تخللت جميع خيوطه وتمكنت منها.. تعذر تنظيفه، وإعادته إلى حاله الأولى، وبين هذه الحال وما قبلها مراتب متفاوتة.

وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وبمحمد ﷺ ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ بهما ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مقدار ما يملأ الأرض مشرقها ومغربها ﴿ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ﴾ نفسه ﴿بِهِۦٓ﴾؛ أي: بذلك الملء، قال الزجاج: إن الواو للعطف والتقدير: لو تقرب إلى الله في الدنيا بملء الأرض ذهباً.. لم ينفعه ذلك مع كفره، ولو افتدى من العذاب في الآخرة بملء الأرض ذهباً.. لم يقبل منه، أو المراد بالواو التعميم في الأحوال، كأنَّه قيل: لن يقبل من الكفار الفداء في جميع

الأحوال، ولو في حال افتدائه نفسه في الآخرة، وقيل: هي زائدة، كما قرىء شاذاً بإسقاطها، ومفعول افتدى محذوف؛ أي: ولو افتدى نفسه. وقرأ عكرمة شاذاً ﴿فلنْ نقبل﴾: بالنون، و﴿وملء﴾: بالنصب، وقرىء شاذاً: ﴿فلن يَقبل﴾ بالياء مبنياً للفاعل؛ أي: فلن يقبل الله و﴿ملء﴾ بالنصب، وقرأ أبو جعفر وأبو السمال شذوذاً: ﴿مل الأرض﴾ بدون همز، ورويت عن نافع، ووجهه أنَّه نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبل - وهو اللام - وحذفت الهمزة، وهو قياس في كل ما كان نحو هذا، وقرأ الأعمش شذوذاً أيضاً: ﴿ذهبٌ﴾: بالرفع، وحمل على أنَّه بدل من (ملء)، وقرأ ابن أبي عبلة شذوذاً أيضاً: ﴿لو افتدى به﴾: بدون واو.

فإن قلت[1]: الكافر لا يملك شيئاً في الآخرة فما وجه قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾؟.

قلتُ: الكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير، والمعنى: لو أنَّ للكافر قدر ملء الأرض ذهباً يوم القيامة.. لبذله في تخليص نفسه من العذاب، ولكن لا يقدر على شيء من ذلك.

وقيل معناه: لو أنَّ الكافر أنفق في الدنيا ملء الأرض ذهباً، ثم مات على كفره.. لم ينفعه ذلك؛ لأنَّ الطاعة مع الكفر غير مقبولة، لأنَّ الكفر يحبط أعماله، ويمحو كل حسناته، فمن لم تزك نفسه في الدنيا، وتسمُ عما يكدرها من ظلمات الكفر، وأوضار الشرك.. فلن ينفعها يوم مناقشة الحساب عمل وإنْ جَلَّ، ولا فضيلة وإن عظمت، إذ المعول عليه في ذلك اليوم هو الإيمان الصحيح بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح الذي يرقى بصاحبه إلى حظيرة القدس في جوار الرب الرحيم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفار الذين ماتوا على الكفر ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ أي: مانعين يدفعون عذاب الله

(١) الخازن.

عنهم، أو يخففونه عنهم، كما كانوا ينصرونهم في الدنيا إذا حاول أحد أذاهم، أو إيقاع المكروه بهم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عزّ وجلّ: لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، لو أن لك ما في الأرض من شيء، أكنت تفتدى به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم، أنْ لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا الشرك». متفق عليه وهذا لفظ رواية مسلم.

الإعراب

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى، والظرف متعلق بمحذوف تقديره: أذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾ ﴿لَمَآ﴾ اللام: حرف زائد لتوطئة معنى القسم الآتي ﴿ما﴾: شرطية في محل النصب على كونه مفعولاً ثانياً لآتي ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾: فعل وفاعل، ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿مِّن كِتَٰبٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لاسم الشرط، أو حال منه ﴿وَحِكْمَةٍ﴾: معطوف على ﴿كِتَٰبٍ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم معطوف على ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ صفة لـ ﴿رَسُولٌ﴾. ﴿لِّمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، ﴿مَعَكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة ﴿لِّمَا﴾. أو صفة لها ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ اللام موطئة للقسم ﴿تؤمنن﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، لعدم مباشرة نون التوكيد، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه في محل

الجزم جواب لما الشرطية، وجملة الشرط مع جوابه في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين بقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾. ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: موطئة للقسم ﴿تنصرن﴾: فعل مضارع مرفوع لتوالي الأمثال لعدم مباشرة نون التوكيد، والواو المحذوفة فاعل، والهاء مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب، كما أشرنا إليها في مقام التفسير، لا نطيل الكلام بذكرها؛ لأنَّها تحتاج إلى أوراق كثيرة، تكون رسالة نفردها بالتأليف إنْ شاء الله تعالى.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة مستأنفة ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾: إلى ﴿قَالُوٓا۟﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت الهمزة: للاستفهام التقريري ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أخذتم﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أخذتم﴾ ﴿إِصْرِى﴾: مفعول به، ومضاف إليه، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَقْرَرْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾ الفاء عاطفة[1] على محذوف تقديره: قال: أأقررتم فاشهدوا، فالفاء دخلت للعطف، ونظير ذلك قولك: ألقيت زيداً؟ قال: لقيت، قلت فأحسن إليه، التقدير: لقيت زيداً فأحسن إليه، فما فيه الفاء بعض المقول، ولا يجوز أن يكون كل المقول لأجل الفاء، ذكره أبو حيان ﴿اشهدوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب، معطوفة على ذلك المحذوف على كونها مقولاً لـ ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَنَا۠

(١) البحر المحيط.

﴿مَعَكُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو حالية ﴿أنا﴾: مبتدأ. ﴿مَعَكُم﴾: ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أو حال من الضمير المستكن في الخبر، ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: جار ومجرور، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿اشهدوا﴾ ولكنها سببية.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما ذكر من إقراركم، وشهادتكم، وشهادتي معكم، وأردتم بيان حكم من تولى بعد ذلك.. فأقول لكم. (مَنْ): اسم شرط جازم، أو اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط فقط، أو جملة الجواب فقط، أو هما إن كانت شرطية، أو جملة (أولئك) إنْ كانت موصولة، ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ (من) الشرطية، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ أو الجملة الفعلية صلة من الموصولة إنْ قلنا: ﴿من﴾: موصولة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، لكون الجواب جملة اسمية، أو رابطة الخبر بالمبتدأ، لما في المبتدأ من العموم إنْ كانت موصولة، (أولئك): مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم على كونها جواباً لـ ﴿من﴾ الشرطية، أو خبر لـ ﴿من﴾ الموصولة، والجملة الشرطية، أو الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿أَفَغَيْرَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخله على محذوف تقديره: أيتولون.. فيبتغون غير دين الله، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿غير﴾ مفعول مقدم لـ ﴿يَبْغُونَ﴾ وهو مضاف ﴿دِينِ﴾: مضاف إليه وهو مضاف، ولفظ الجلالة مضاف إليه، ﴿يَبْغُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة جملة إنشائية مستأنفة،

﴿وَلَهُۥٓ﴾: الواو حالية ﴿له﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَسْلَمَ﴾ ﴿أَسْلَمَ﴾: فعل ماضٍ. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ ﴿مَنْ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من لفظ الجلالة، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ حالان من فاعل ﴿أَسْلَمَ﴾ تقديره: حالة كونهم طائعين وكارهين ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، (إليه): جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُرْجَعُونَ﴾ ﴿يُرْجَعُونَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ على كونها حالاً من الجلالة، أو مستأنفة.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾. إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لقل. ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر، معطوفة على لفظ الجلالة، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير النائب، ﴿عَلَيْنَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُنزِلَ﴾، ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ معطوف على ﴿ما أنزل علينا﴾ ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُنزِلَ﴾ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: معطوفات على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: معطوف على لفظ الجلالة، ﴿أُوتِيَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ﴿مُوسَىٰ﴾: نائب فاعل، وهو المفعول الأول لأوتي، والثاني محذوف تقديره: أوتيه موسى، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف، ﴿وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾: معطوفان على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿مِن

﴿رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ضمير المفعول المحذوف ﴿لَا﴾: نافية، ﴿نُفَرِّقُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على النبي ومن معه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿ءَامَنَّا﴾ تقديره: آمنا بما أوتي النبيون حالة كوننا لا نفرق ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾ ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ ﴿نُفَرِّقُ﴾. ﴿مِّنْهُمْ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾. ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿نحن﴾ مبتدأ، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ ﴿مُسْلِمُونَ﴾: وهو خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ على كونها حالاً من فاعل ﴿ءَامَنَّا﴾ تقديره: آمنا بالله حالة كوننا منقادين له.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط فقط، أو الجواب فقط، أو هما معاً، ﴿يَبْتَغِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿من﴾؛ على كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿دِينًا﴾: تمييز، ويجوز أن يكون ﴿دِينًا﴾: مفعولاً، و ﴿غَيْرَ﴾ صفة له، قدمت عليه فصارت حالاً، ويجوز أن يكون ﴿دِينًا﴾ بدل من ﴿غَيْرَ﴾ ﴿فَلَن﴾ الفاء: رابطة لجواب (من) الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بـ (لن)، (لن): حرف نصب ﴿يُقْبَلَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بـ (لن)، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة، ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلق بـ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الآتي، على أن الألف واللام ليست موصولة، بل للتعريف، كهي في الرجل، أو على أنَّها موصولة، وتُسومِح في الظرف والمجرور؛ لأنَّه يتسع فيهما ما لا يتسع في غيرهما، ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، أو في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ﴾ على كونها جواباً لـ ﴿من﴾ الشرطية.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾.

﴿كَيْفَ﴾: اسم للاستفهام الإنكاري لتعميم الأحوال، في محل النصب حال، أو ظرف والعامل فيها ﴿يَهْدِي﴾ ﴿يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صفة لـ ﴿قَوْمًا﴾ ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة (شهدوا): فعل وفاعل في محل النصب بـ ﴿أَنَّ﴾ مضمرة وجوباً بعد الواو العاطفة على المصدر الصريح، والجملة الفعلية صلة أنْ المضمرة، أنْ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على قوله: ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ تقديره: كفروا بعد إيمانهم، وبعد شهادتهم أنَّ الرسول حق، ويجوز أن تكون جملة (شهدوا) حالاً من ضمير ﴿كَفَرُوا﴾ وأنْ تكون معطوفة على ﴿كَفَرُوا﴾ كما ذكره أبو البقاء، ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب، ﴿الرَّسُولَ﴾: اسمها، ﴿حَقٌّ﴾: خبرها، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿شهدوا﴾ تقديره: وشهدوا حقية الرسول ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الواو حالية، ﴿جاءهم البينات﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿كَفَرُوا﴾، ولكنه على تقدير، قد، تقديره: كيف يهدي الله قوماً كفروا وقد جاءهم البينات؟ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الله﴾ مبتدأ، ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَهْدِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿الْقَوْمَ﴾: مفعول به ﴿الظَّالِمِينَ﴾: صفة له.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ أول، ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾: مبتدأ ثانٍ، ومضاف إليه، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لأنَّ. ﴿لَعْنَةَ اللَّهِ﴾: اسم ﴿أَنَّ﴾ مؤخر عن خبرها، ولفظ الجلالة مضاف إليه ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ﴾ معطوفان على لفظ الجلالة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيد للناس، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في

تأويل مصدر خبر للمبتدأ الثاني تقديره: جزاؤهم كون لعنة الله عليهم، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والعامل فيها الجار والمجرور، أو ما يتعلق به ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ فعل ونائب فاعل، و ﴿لَا﴾ نافية عنهم، متعلق بـ ﴿يُخَفَّفُ﴾، والجملة في محل النصب حال ثانية من ضمير ﴿عَنْهُمْ﴾ ولكنها حال سببية ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة (لا): نافية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُنظَرُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾ على كونها حالاً من ضمير ﴿عَنْهُمْ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء ﴿تَابُوا۟﴾، فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَابُوا۟﴾ ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَابُوا۟﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الفاء: تعليلية لقولهم: إنَّ الفاء بعد الاستثناء للتعليل (إنَّ): حرف نصب ولفظ الجلالة اسمها ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها، ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، والجملة في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلقة بمعلول محذوف تقديره؛ وإنَّما استثنيناهم لكون الله غفوراً رحيماً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾: ظرف زمان، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿كَفَرُوا۟﴾ ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟﴾ عطف وفعل وفاعل ﴿كُفْرًا﴾: مفعول به منصوب وفي «الفتوحات» قوله: ﴿كُفْرًا﴾: تمييز محول عن الفاعل، والأصل: ثم ازداد كفرهم، كذا أعربه أبو حيان، وفيه نظر، إذ المعنى على أنَّه مفعول به، وذلك أن الفعل المتعدي إلى اثنين، إذا جعل مطاوعاً.. نقص مفعولاً، وهذا من ذلك، كقولهم: زدت زيداً خيراً فازداده، وكذلك أصل الآية

الكريمة: زادهم الله كفراً فازدادوه، ﴿لَّن﴾: حرف نفي ونصب ﴿تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: فعل ونائب فاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾، مستأنفة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أولئك﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿لَّن تُقْبَلَ﴾: على كونها خبراً لـ﴿إنَّ﴾ أو معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول ﴿وَمَاتُوا۟﴾: معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾ ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿ماتوا﴾. ﴿فَلَن﴾ الفاء: رابطة لخبر ﴿إن﴾ باسمها لشبه الذين بالشرط في العموم، وإيذاناً بتسبب عدم القبول عن الموت على الكفر، الذي هو معطوف على الصلة، فهو من جملة المبتدأ، ولما لم يقع مثل هذا العطف في الآية التي قبلها.. لم يقترن خبر إنَّ بالفاء؛ لأنَّ الكفر في حد ذاته ليس سبباً في عدم قبول التوبة، بل السبب مجموعه، هو والموت عليه، كذا ذكره في «الفتوحات» ﴿لن﴾: حرف نصب ﴿يُقْبَلَ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿مِنْ أَحَدِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يُقْبَلَ﴾. ﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ نائب فاعل ومضاف إليه ﴿ذَهَبًا﴾ تمييز لـ ﴿مِّلْءُ﴾ منصوب، والجملة من الفعل المغير ونائبه في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة كما قاله الزجاج ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿ٱفْتَدَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدِهِم﴾، ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿ٱفْتَدَىٰ﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: لم يقبل منه، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على محذوف تقديره: لو تقرب إلى الله في الدنيا بملء الأرض ذهباً.. لم ينفعه ذلك مع كفره، ولو افتدى من العذاب في الآخرة بملء الأرض ذهباً.. لم يقبل منه. وقيل: الواو زائدة و (لو): غائبة لا جواب لها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة، ﴿وَمَا لَهُم﴾: الواو عاطفة ﴿ما﴾: نافية ﴿لَهُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: من: زائدة ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. وفي «الفتوحات»: يجوز أن يكون ﴿لَهُم﴾ خبراً لاسم الإشارة، و ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل به، وعمل لاعتماده على ذي خبر، أي: أولئك استقر لهم عذاب، وأن يكون ﴿لَهُم﴾: خبراً مقدماً و ﴿عَذَابٌ﴾؛ مبتدأً مؤخراً، والجملة خبر عن اسم الإشارة، والأول أحسن؛ لأنَّ الإخبار بالمفرد أقرب من الإخبار بالجملة، والأول من قبيل الإخبار بالمفرد. ا هـ. «سمين».

وفيها أيضاً قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يجوز أن يكون ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: فاعلاً وجاز عمل الجار لاعتماده على حرف النفي؛ أي: وما استقر لهم من ناصرين، والثاني: أنَّه خبر مقدم، و ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، و ﴿مِّن﴾: زائدة على الإعرابين، وأتى بـ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ جمعاً لرعاية الفواصل.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الميثاق: العهد الموثق المؤكد باليمين، وهو أنْ يلتزم المعاهِد ـ بكسر الهاء ـ للمعاهَد ـ بفتحها ـ أنْ يفعل شيئاً، ويؤكد ذلك بيمين، أو بصيغة مؤكدة من ألفاظ المعاهدة أو المواثقة، يجمع على مواثق، ومياثق، ومواثيق، ومياثيق، وأصله موثاق، قلبت الواو ياء لوقوعها إثر كسرة؛ لأنَّه من وثق يثق.

﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أصله؛ أقر، بالإدغام، وإنَّما فك هنا؛ لأنَّه إذ اتصل بالفعل المدغم عينه في لامه ضمير رفع سكن آخره. فيجب حينئذٍ الفك، نحو: حللت وحللنا، كما قال في الخلاصة:

وَفُكَّ حَيْثُ مُدْغَمٌ فِيْهِ سَكَنْ   لِكَوْنِهِ بِمُضْمَرِ ٱلرَّفْعِ ٱقْتَرَنْ
نَحْوِ حَلَلْتُ مَا حَلَلْتُهُ وَفِيْ   جَزْمٍ وَشِبْهِ ٱلْجَزْمِ تَخْيِيْرٌ قُفِيْ

وهو من قر الشيء إذا ثبت مكانه ﴿أخذتم﴾ بمعنى قبلتم؛ لأنَّه من أخذ الشيء إذا قبل، يأخذ من باب نصر ينصر، كما جاء نحوه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾.

﴿إِصْرِى﴾ الإصر ـ بكسر الهمزة ـ: العهد المؤكد الذي يمنع صاحبه من التهاون فيما التزمه وعاهد عليه، وهمَّ، اسم من أصره إذا حبسه، من باب ضرب، وهو أيضاً الذنب والثقل كما في «المختار».

﴿طَوْعًا﴾ الطوع: مصدر لطاع لفلان يطوع طوعاً، من باب قال، إذا انقاد له وامتثل أمره.

﴿كرهاً﴾ الكره: مصدر كره الشيء يكره، من باب علم، كرهاً وكرهاً وكراهة وكراهية ضد أحبه، وفي «السمين» ﴿طَوْعًا﴾ ﴿وَكَرْهًا﴾ مصدران في موضع الحال، والتقدير: طائعين وكارهين.

﴿الأسباط﴾ جمع سبط، والمراد بهم الأحفاد، وهم أبناء يعقوب الاثني عشر وذراريهم، ولكن المراد بالأسباط هنا قبائل بني إسرائيل، المتشعبة من أولاد يعقوب.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ وهو مضارع ابتغى الشيء يبتغي ابتغاء، إذا طلبه، من باب التفعل، وبناؤه لمبالغة ثلاثيه يقال: بغى الشيء من باب رمى بغياً وبغاء، وبغى وبغية وبغية إذا طلبه.

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اسم فاعل من الظلم، والظلم هو العدول عن الطريق الذي يجب سلوكه للوصول إلى الحق ﴿لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ واللعن: الطرد والإبعاد على سبيل السخط.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ الإنظار، الإمهال والتأخير.

﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ والملء ـ بكسر الميم وسكون اللام ـ وهو ما يؤخذه الإناء إذا امتلأ، يقال: إنه ينام ملء جفنه، إذا نام خالياً من الغم والهم، ويقال: فلان ملء كسائه؛ أي: سمين، ويجمع على أملأ.

البلاغة

وذكروا في هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة:

فمنها: الالتفات في قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾، ففيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، إذ قبله ميثاق النبيين، وهو لفظ غائب.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿أَقْرَرْنَاۚ﴾ لأن الظاهر في الجواب أن يقال: أقررنا وأخذنا إصرك، فلم يذكر الثاني اكتفاء بالأول.

ومنها: جناس الاشتقاق بين لفظ: ﴿اشهدوا﴾ و ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وكذلك بين لفظ: ﴿كَفَرُواْ﴾ و ﴿كُفْرًا﴾، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الطباق بين ﴿طَوْعًا﴾ ﴿وَكَرْهًا﴾ وبين لفظ الكفر والإيمان في قوله: ﴿كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ في موضعين.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَهْدِى﴾ و ﴿لَا يَهْدِى﴾، وفي قوله: ﴿كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾ و ﴿كُفْرًا﴾.

ومنها: التأكيد بلفظ هم في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

ومنها: قصر صفة على موصوف في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ومثله قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ شبه تماديهم على كفرهم وإجرامهم، بالأجرام التي يزاد بعضها على بعض، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس.

ومنها: العدول من مفعل إلى فعيل؛ لإفادة المبالغة في قوله: و ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لما في فعيل من المبالغة

ومنها: الحذف في مواضع إلى غير ذلك[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا انتهى المجلد الرابع من الشرح على الجزء الثالث من القرآن الكريم في تاريخ ٢٤/ ١٢/ ١٤٠٧ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلّامة

محمّد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرّس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمّد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكّة المكرّمة

المجلد الخامس

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر

إنْ أَخْـــرَجُـــونِـــي مِـــنْ بِـــلاَدِي فَـــإِنَّ مَـــعِـــيَ رَبَّ ٱلْـــعِـــبَـــادِ

فِـــي قَـــلْـــبِـــي إِيْـــمَـــانٌ وتَـــصْـــدِيْـــقُ وَفِـــي جِـــسْـــمِـــيَ ٱمْـــتِـــثَـــالٌ وَتَـــطْـــبِـــيْـــقُ

وَلاَ أَقُـــولُ أَهْـــلِـــي وِلاَدِي ولا مَـــالِـــي وَلاَ تِـــلاَدِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا، ومولانا محمد خاتِم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) ۞
كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ
قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ
أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن
دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ
الْعَالَمِينَ (٩٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ
هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ
(١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾ مناسبةُ[1] هذه الآية لِما قبلها: هو أنه تعالى لما أخبر عمن مات كافراً، أنه لا يقبل منه ما أنفق في

(١) البحر المحيط.

الدنيا أو ما أحضره لتخليص نفسه في الآخرة.. حض المؤمن على الصدقة، وبيَّن أنه لن يدرك البر حتى ينفق مما يحب.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. مناسبة هذه الآية لما قبلها، والجامع بينهما: أنه تعالى أخبر أنه لا ينال المرء البر إلا بالإنفاق مما يحب.

ونبيُّ الله إسرائيل، روي في الحديث أنه مرض مرضاً شديداً؛ فطال سقمه؛ فنذر لله نذراً إن عافاه الله من سقمه، أن يحرم، أو ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل، وأحب الشراب ألبانها. ففعل ذلك تقربا إلى الله تعالى. فقد اتفقت هذه الآية، والتي قبلها في أنَّ كلاً منهما في ترك ما يحبه الإنسان، وما يؤثره على سبيل التقرب به لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة: وهو أنه لما أمر تعالى باتباع ملة إبراهيم، وكان حج البيت من أعظم شعائر ملة إبراهيم، ومن خصوصيات دينه.. أخذ في ذكر البيت وفضائله، ليبني على ذلك ذكر الحج ووجوبه. وأيضاً، فإن اليهود حين حولت القبلة إلى الكعبة؛ طعنوا في نبوة رسول الله ﷺ، وقالوا: بيت المقدس أفضل وأحق بالاستقبال؛ لأنه وضع قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقبلة جميع الأنبياء، فأكذبهم الله في ذلك بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾، كما أكذبهم في دعواهم قبل: إنما حرم عليهم ما كان محرماً على يعقوب من قبل أن تنزل التوارة. وأيضاً: فإن كل فرقة من اليهود والنصارى، زعمت أنها على ملة إبراهيم، ومن شعائر ملته حج الكعبة، وهم لا يحجونها، فأكذبهم الله في دعواهم تلك.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ...﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: أن اليهود قالوا للنبيِّ محمد ﷺ: إنَّك تزعم أنك على ملة إبراهيم،

---

(١) الخازن.

وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها، وأنت تأكل ذلك كلّه، فلست على ملته. فقال النبي ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم». قالوا: كل ما نحرمه اليوم، كان ذلك حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وهو يعقوب ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ يعني: ليس الأمر على ما تدعيه اليهود من تحريم لحوم الإبل، على إبراهيم، بل كان ذلك حلالاً على إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وإنما حرَّمه يعقوب بسببٍ من الأسباب، وبقيت تلك الحرمة في أولاده، فأنكر اليهود ذلك، فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة، وطلب منهم أن يستخرجوا منها: أنَّ ذلك كان حراماً على إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا...﴾ سبب نزول هذه الآية: أنَّ اليهود قالوا للمسلمين، بيت المقدس، قبلتنا، وهو أفضل من الكعبة، وأقدم، وهو مهاجر الأنبياء وقبلتهم، وأرض المحشر، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل هذه الآية.

وقيل: لما ادَّعَتِ اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم أكذبهم الله تعالى، وأخبر أن إبراهيم كان ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وأمرهم باتباعه فقال تعالى في الآية المتقدمة: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ وكان من أعظم شعائر ملة إبراهيم الحج إلى الكعبة، ذكر في هذه الآية فضيلة البيت ليفرع عليها إيجاب الحج.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ...﴾ سبب نزولها: ما أخرجه سعيد بن منصور عن عكرمة قال: لما نزلت آية ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله فرض على المسلمين حج البيت»، فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا فأنزل الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه ابن إسحاق، وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مرَّ

شاس بن قيس اليهودي ـ وكان عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم ـ على نفر من الأنصار الأوس والخزرج، وهم في مجلس يتحدثون، وقد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام، فشق ذلك على اليهودي، فجلس إليهم، وذكرهم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك في بعاث، وهو موضع في المدينة، وكان يوم بعاث يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج قبل مبعثه ﷺ بمئة وعشرين سنة، وكان الظفر فيه للأوس.

وقرأ عليهم بعض ما قيل في تلك الحروب من الأشعار، فتنازع القوم وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح، فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم، فوصل الخبر إلى النبي ﷺ؛ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، وقال: أترجعون إلى أحوال الجاهلية، وأنا بين أظهركم، وقد أكرمكم الله بالإسلام، وألف بين قلوبكم! فعرف القوم أن ذلك كان من عمل الشيطان، ومن كيد ذلك اليهودي، فألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ. فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

قال الواحدي: اصطفوا للقتال، فنزلت الآية إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: فجاء النبيُّ ﷺ حتى قام بين الصفين فقرأهن ورفع صوته، فلما سمعوا صوت النبي ﷺ أنصتوا له وجعلوا يستمعون له، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً، وجعلوا يبكون.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾؛ أي: لن تصيبوا، ولن تظفروا بثواب البر والخير وهو الجنة. والبر اسم جامع لكل خير، والكلام على حذف مضاف كما قدرنا، أو لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى الذي هو الرحمة والرضا، والجنة، أو لن تكونوا أبراراً ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟﴾ وتصرفوا وتخرجوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ من أموالكم وجاهكم وعلمكم في معاونة الناس، وبدنكم في طاعة الله، ومهجتكم في سبيله؛ يعني من جيد أموالكم، وأنفسها عندكم، قال

تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ وقيل: هو أن تنفق من مالك ما أنت محتاج إليه، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وقال أبو بكر الوراق: معنى الآية: لن تنالوا بري لكم إلا ببركم بإخوانكم، والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم، وقيل: المعنى لن تنالوا درجة الكمال من فعل البر حتى تكونوا أبراراً إلا بالإنفاق المضاف إلى سائر أعمالكم. قاله ابن عطية. ومن في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ للتبعيض، ويدل على ذلك قراءة عبد الله الشاذة: ﴿حتى تنفقوا بعض ما تحبون﴾ ﴿وَمَا﴾: موصولة. خاطبهم هنا بأن آية الإيمان وميزانه الصحيح هو الإنفاق في سبيل الله من المحبوبات مع الإخلاص، وحسن النية، ولكنكم أيها المدعون لتلك الدعاوي آثرتم شهوة المال على مرضاة الله، ولو أنفق أحدكم شيئاً من ماله، فإنما ينفق من أردأ ما يملك، وأبغضه إليه؛ لأن محبة المال في قلبه تفوق محبة الله تعالى، والرغبة في ادخاره، تعلو الرغبة فيما عند ربه من الرضا والثواب، فكيف ترجون أن تكونوا من المؤمنين الصادقين، وأنتم لا تنفقون ما تحبون؟ والمعنى: لن تصلوا إلى بر الله تعالى بأهل طاعته، برضاه عنهم، وتفضله برحمتهم، ونيلهم مثوبته، ودخولهم جنته، وصرف عذابه عنهم، حتى تنفقوا ما تهواه نفوسكم من كرائم أموالكم. وقد أثر عن السلف الصالح: أنهم إذا أحبوا شيئاً.. جعلوه لله تعالى.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماءٍ فيها طيبٍ، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله عز وجل، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت، فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ ـ كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء) ـ ذاك مال رابح، أو قال: ذلك مال رابح، أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه، متفق عليه، وفي رواية لمسلم:

فجعلها بين حسان بن ثابت وأبي بن كعب.

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر قال: لما نزلت هذه الآية.. جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها: (سبل) لم يكن له مال أحب إليه منها، فقال: هي صدقة، فقبلها رسول الله ﷺ وحمل عليها ابنه أسامة فكأن زيداً وَجِدَ ـ حزن ـ في نفسه، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك منه قال: «أما إن الله قد قبلها».

فهذا الأثر وما قبله دلائل واضحات على حسن السياسة الدينية لرسول الله ﷺ ومعرفة ما يختلج في القلوب، فقد رأى أن أبا طلحة وزيداً قد خرجا عن أحب أموالهما إليهما بعاطفة الدين، فجعل ذلك في الأقربين، ليثبت قلوبهما، ويكمل إيمانهما، ولا يجعل للشيطان سبيلاً ينفذ به إلى ما بين الجوخ[١] فيندمان إذا هما رأيا أموالهما في أيدي الغرباء، إذ كثيراً ما يفارق المرء شيئاً محبوباً لديه باختياره لعاطفة الدين، أو للجود به على غيره، ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى يعاوده الحنين إليه، ومن ثم كان النبي ﷺ: يأمر عمال الصدقة بإبقاء كرائم الأموال والبعد عنها حين جباية الصدقات.

وهناك من الشواهد ما يدل على هذا أيضاً، فقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عمر رضي الله عنه قال: حضرتني هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ الآية، فذكرت ما أعطاني الله تعالى، فلم أجد أحب، إلي من مرجانة ـ جارية رومية ـ فقلت: هي حرة لوجه الله، فلو أني أعود في شيء جعلته لله تعالى.. لنكتحها فأنكحتها نافعاً (مولى له كان يحبه كأحد أولاده).

فتأمل وانظر تر أن نفسه قد راودته بعد عتقها على أن يستبقيها له، ولا يفارقها، لولا أن كان مما عود نفسه عليه.. ألا يرجع في شيء جعله لله، ومع ذلك جعلها لأحب الناس إليه، وهو مولاه. وعلى الجملة فآثار السلف في

---

(١) **الجوخ**: نسيج من الصوف يجمع على أجواخ.

الإيثار، وبذل المال ابتغاء مرضاة الله كثيرة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً كان أحوج مني إليه؛ فبعث به إليه، فلما وصل إليه، قال: إنَّ فلاناً كان أحوج مني إليه، فلم يزل يبعث به كل واحد منهم إلى آخر حتى تناوله سبعة أبيات، ورجع إلى الأول. وفي هذه الآثار وأمثالها ما ينبغي أن يكون عظة لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فيقتدي بأولئك الأبرار الطاهرين، ويجعلهم المثل العليا للبذل في سبيل الله.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: وأي شيء تنفقونه في سبيل الله سواء كان من طيب تحبونه، أو من خبيث تكرهونه، وسواء، كان إنفاقكم له لوجه الله أو لمدح الناس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِهِۦ﴾، أي: بذلك الشيء المنفق وبنياتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم عليه بحسبه، وبحسب نياتكم، وهذا تعليل للجواب المحذوف، أي: فيجازيكم بحسبه جيداً كان أو رديئاً، فإنه تعالى عالم بكل شيءٍ، تنفقونه من ذاته وصفاته علماً كاملاً بحيث لا يخفى عليه شيء.

فرب منفق مما يحب لا يسلم من الرياء، ورب فقير معدم لا يجد ما يحب فينفق منه، ولكن قلبه يفيض بالبر ولو وجد ما أحبه.. لأنفقه أو أكثره.

وفي هذه الآية ترغيب وترهيب، وحث على إخفاء الصدقة، كي لا يكون للشيطان منفذ إلى قلوب الأبرار الصالحين.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾؛ أي: كل طعام حلال لمحمد ﷺ وأمته، فخرج ما حرم عليهم، وعلى من قبلهم كالميتة والدم. ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: كان حلالاً أكله لأولاد يعقوب عليه السلام ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾؛ أي: يعقوب عليه السلام ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ بالنذر ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ على موسى، وذلك بعد إبراهيم بألف سنة.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ يعقوب مرض مرضاً شديداً، فنذر لئن عافاه الله.. ليحرمن أحب الطعام والشراب عليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها» قال، الأصمّ: لعل

نفسه كانت مائلة إلى أكل تلك الأنواع، فامتنع من أكلها قهراً للنفس، وطلباً لمرضاة الله تعالى، كما يفعله كثير من الزهاد، فعبر عن ذلك الامتناع بالتحريم، وذلك بعد إبراهيم بألف سنة، ولم تكن الإبل حراماً على عهد إبراهيم كما زعموا.

والمعنى: كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة إلا ما حرمه يعقوب على نفسه، وهو لحم الإبل ولبنها ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة الشحوم وغيرها عقوبة لهم على معاصيهم، أو المراد[(١)] بإسرائيل: الشعب كله، كما هو شائع في الاستعمال عندهم لا يعقوب فقط، كما أن المراد بتحريم الشعب ذلك على نفسه: أنه اجترح من السيئات، وارتكب من الموبقات ما كان سبباً في هذا التحريم كما تدل عليه آية ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

وخلاصة هذا الجواب: أنَّ الأصل في الأطعمة الحلُّ، وما كان تحريم ما حرم على إسرائيل إلا تأديباً لهم على جرائم ومخالفات وقعت منهم، وكان سبباً فيما نالهم من التحريم لها، والنبي ﷺ وأمته لم يجترحوا هذه السيئات، فلا تحرم عليهم هذه الطيبات.

ومعنى قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أنه قبل نزول التوراة كان حلاً لبني إسرائيل كل أنواع المطعومات، أما بعد نزولها: فقد حرم عليهم أنواع كثيرة بسبب الذنوب التي اقترفوها، وقد بينتها التوراة وبينت أسباب التحريم وعلله.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، هذا هو الحق لا زعمكم يا معشر اليهود ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ أي: أحضروها، ﴿فَٱتْلُوهَآ﴾؛ أي: فاقرؤوها عليَّ لتحكم بيني وبينكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم بأن التحريم قديم. وفي استدعاء[(٢)] التوراة منهم وتلاوتها، الحجة الواضحة على صدق رسول الله ﷺ؛ إذ كان عليه السلام

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

النبي الأمي الذي لم يقرأ الكتب، ولا عرف أخبار الأمم السالفة، ثم أخذ يحاجهم ويستشهد عليهم بما في كتبهم، ولا يجدون من إنكاره محيصاً. وروي أنهم لم يتجاسروا على الإتيان بالتوراة لظهور افتضاحهم بإتيانها، بل بهتوا، وذلك كعادتهم في كثير من أحوالهم.

وفي الآية: دليل على جواز النسخ في الشرائع، وهم ينكرون ذلك ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرماً على الأنبياء السابقين كإبراهيم، ونوح، وعلى أممهم قبل نزول التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما ظهرت الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب، لا على عهد إبراهيم، أو من جهة ما ارتكب الشعب من الذنوب والخطايا.

ومن بعد أن طولب المدعون بالإتيان بالتوراة وتلاوتها، فامتنعوا لئلا يظهر كذبهم، وأن الله لم يحرم شيئاً قبل نزولها، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المصرون على الافتراء بعد ما ظهرت لهم حقيقة الحال ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم، ولمن أضلوه عن الدين من بعدهم الذين لا ينصفون من أنفسهم، ويكابرون الحق بعد ما وضح لهم؛ لأنهم قد حولوا الحق عن وجهه، ووضعوا حكم الله في غير موضعه، فضلوا، وأضلوا أشياعهم بإصرارهم على الباطل، وعدم تصديقهم رسول الله ﷺ. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ فيما أنبأني به من أن سائر الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل، وأنها إنما حرمت على اليهود جزاء أفعالهم القبيحة، وبذلك قامت عليكم الحجة، وثبت أني مبلغ عنه إذ ما كان في استطاعتي، لولا الوحي أن أعرف صدقكم من كذبكم فيما تحدثون عن أنبيائكم، والجمهور على إظهار في ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ وهو الأصل، وقرأ أبان بن تغلب شذوذاً بإدغام اللام في الصاد. ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ التي هي ملة الإسلام التي أنا عليها حالة كون إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق. ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: من الذين أشركوا بالله غيره، وعبدوا سواه، كما فعله العرب من عبادة الأوثان، وفعله اليهود من ادعائهم أن عزيراً ابن الله، وفعله النصارى من اعتقادهم أن المسيح ابن الله.

وخلاصة هذا: أنَّ محمداً ﷺ على دين إبراهيم في جزئيات الأحكام

وكلياتها، فأحل ما أحله هو من أكل لحوم الإبل وألبانها، ودعا إلى التوحيد والبراءة من كل معبود سوى الله، وما كان إبراهيم صلوات الله على نبينا وعليه إلا على هذا الدين.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾؛ أي: بنى متعبداً ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: بني لعبادات الناس ربهم سبحانه وتعالى ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾؛ أي: للبيت الذي هو ببكة؛ أي: بمكة، سميت مكة بكة؛ لأنه يبك بعضهم فيها بعضاً؛ أي: يزدحمون في الطواف. وسميت مكة؛ لأنها تمك من ظلم فيها؛ أي: تهلكه؛ والمعنى: إن أول بيت وضعه الله، وجعله موضعاً للطاعات، والعبادات، وقبلة للصلاة، وموضعاً للحج وللطواف، تزداد فيه الخيرات، وثواب الطاعات هو الذي بمكة.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض، قال: «المسجد الحرام قلت: ثم أيٌّ؟ قال: المسجد الأقصى. قال: قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً، ثم الأرض لك مسجد، فحيثما أدركت الصلاة فصلِّ». متفق عليه، زاد البخاري: «فإن الفضل فيه»؛ أي: إنَّ آدم بنى الكعبة، ثم بني بيت المقدس، وبين بنائهما أربعون سنة.

وهذه الآية[1] ردٌّ لشبهة اليهود، أنَّ بيت المقدس أفضل من الكعبة، وأحق بالاستقبال، فهو قد وضع قبلها، وهو أرض المحشر. وقيل: المعنى: إن البيت الذي نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وضع متعبداً للناس، بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام للعبادة، ثم بني المسجد الأقصى بعد ذلك بعدة قرون، بناه سليمان عليه السلام سنة (١٠٠٥) قبل الميلاد، فكان جعله قبلة أوْلى. وبذا يكون النبي ﷺ على ملة إبراهيم، ويتوجه بعبادته إلى حيث كان يتوجه إبراهيم وإسماعيل صلوات الله عليه وعليهما.

والخلاصة: أنَّ أول بيوت العبادة الصحيحة التي بناها الأنبياء هو البيت الحرام، فليس في الأرض موضع بناه الأنبياء أقدم منه فيما يؤثر من تواريخهم،

(١) المراغي.

ويتبع هذا أولوية الشرف والتعظيم. ثم ذكر فضائل أربعة:

الأول منها ذكره بقوله: ﴿مُبَارَكًا﴾؛ أي: حالة كونه ذا بركة، وخير كثير؛ لأنه قد أفيض عليه من بركات الأرض، وثمرات كل شيء مع كونه بواد غير ذي زرع، كما قال تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فترى الأقوات والثمار في مكة كثيرة جيدة، وأقل ثمناً من كثير من البلاد ذوات الخيرات الوفيرة، كمصر والشام، وكل هذا ببركة دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ الآية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا، أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام». متفق عليه.

وذكر الثاني منها بقوله: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: وحالة كونه هدى؛ أي: قبلة لكل نبي، ورسول وصديق، ومؤمن يهتدون بذلك البيت إلى جهة صلاتهم، ويولون وجوههم شطره في صلاتهم، وربما لا تمضي ساعة من ليل أو نهار إلاَّ وهناك ناس يتوجهون إليه، ويأتون إليه مشاة وركباناً من كل فج عميق، لأداء المناسك الدينية من الحج والعمرة، ولاشك أنَّ هذه الهداية من أشرف أنواع الهدايات. وكونه قبلة لكل نبي؛ لأن تكليف الصلاة كان لازماً في دين جميع الأنبياء عليهم السلام بدليل قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾. فدلت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام، كانوا يسجدون لله، والسجدة لا بد لها من قبلةٍ، فلو كانت قبلة شيث، وإدريس، ونوح، عليهم السلام موضعاً آخر سوى الكعبة.. لبطل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ فوجب أن يقال: إن قبلة أولئك الأنبياء المتقدّمين: هي الكعبة. فدل هذا على أن هذه الجهة كانت أبداً مشرفة مكرمة.

وذكر الثالث منها بقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾؛ أي: وحالة كونه فيه؛ أي: في ذلك البيت آيات بينات؛ أي: دلائل وعلامات واضحات تدل على حرمته، ومزيد

فضله، وعظيم قدرته تعالى:

منها: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: الحجر الذي يقوم عليه إبراهيم عند بناء البيت، وكان فيه أثر قدمي إبراهيم، فاندرس من كثرة المسح بالأيدي، وفيه دلالة على قدرة الله تعالى ونبوة إبراهيم؛ لأن تأثير قدميه في الصخرة الصماء، وغوصهما فيها إلى الكعبين، وإلانة بعض الصخرة دون بعض، وإبقاءها ألوفاً من الأعوام معجزةٌ عظيمة، وسبب هذا الأثر أنه: لما ارتفع بنيان الكعبة.. قام على هذا الحجر، ليتمكن من رفع الحجارة، فغاصت فيه قدماه.

ومنها: انحراف الطيور عن موازاة البيت، فلا تعلوا فوقه بل إذا قابل هواه في الجو.. انحرف عنه يميناً أو شمالاً، ولا يستطيع أن يقطع هواه إلا إذا حصل له مرض فيدخل هواه للتداوي. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن الطير يعاين يعلوه، وقد علته العقاب التي أخذت الحية المشرفة على جداره.

ومنها: مخالطة ضواري السباع، الصيود في الحرم من غير تعرض لها.
ومنها: إهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا تخريبه، وما قصده جبار بسوء إلا أهلكه، ومن الآيات التي فيها الحجر الأسود، والملتزم والحطيم، وزمزم، ومشاعر الحج التي فيها كالصفا والمروة.

ومنها: أنَّ الآمر ببناء هذا البيت هو المولى الجليل، والمهندس له جبريل عليه السلام، والباني هو إبراهيم الخليل عليه السلام، والمساعد في بنيانه هو اسماعيل عليه السلام، فهذه كلها فضيلة عظيمة لهذا البيت.

وقرأ الجمهور: ﴿وُضِعَ﴾ بالبناء للمفعول، وقرأ عكرمة، وابن السميقع شذوذاً ﴿وضع﴾ مبنياً للفاعل، فاحتمل أن يعود على الله، واحتمل أن يعود على إبراهيم، وهو أقرب في الذكر، وأليق بالمقام. وقرأ الجمهور: ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ على صيغة الجمع، وقرأ أبي، وعمر وابن عباس، ومجاهد، وأبو جعفر، في رواية قتيبة: ﴿آية بينة﴾ على الإفراد وهي قراءة شاذة أيضاً.

وذكر الرابع منها بقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾؛ أي: ومن دخل البيت كان

آمناً من ذنوبه. وعن ابن[1] عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَخَلَ البَيْتَ.. دَخَل في حسنةٍ، وخَرَجَ من سيئة، وخرج مغفوراً له» ولكن تفرد به عبد الله بن المؤمل، وليس بالقوي.

وقيل: من دخل الحرم للنسك تقرباً إلى الله تعالى.. كان آمناً من النار يوم القيامة، وإن الله أودع في قلوب الخلق الشفقة على كل من التجأ إليه. وعبارة أبي السعود: ومعنى أمن داخله: أمنه من التعرض له كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وكان الرجل إذا أجرم كل جريمة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضي الله عنه: «لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب.. ما مسسته حتى يخرج منه». ولذلك قال أبو حنيفة رحمه الله: «من لزمه القتل في الحل بقصاصٍ أو ردةٍ أو زنا، فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له إلا أنه لا يؤوى، ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يبايع، حتى يضطر إلى الخروج».

وقيل: المراد أمنه من النار، وعن النبي ﷺ: «من مات في أحد الحرمين، بعث يوم القيامة آمناً». وعن النبي ﷺ «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما، وينثران في الجنة»؛ وهما مقبرتا مكة والمدينة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه وقف رسول الله ﷺ على ثنية الحجون، وليس بها يومئذٍ مقبرةٌ، فقال: «يبعث الله تعالى من هذه البقعة، ومن هذا الحرم سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر».

وعن النبي ﷺ: «من صبر على حر مكة ساعة من نهار.. تباعدت عنه جهنم مسيرة مئتي عام» انتهت بالحرف، ولكن هذه الأحاديث أكثرها ضعاف.

وفتح مكة بالسيف؛ كان لضرورة تطهير البيت من الشرك وتخصيصه للعبادة فقط، حلت للنبي ﷺ ساعةً من نهار، لم تحل لأحد قبله، ولن تحل لأحد بعده، كما جاء في الحديث.

---

(١) ابن كثير.

على أنَّ حِلَّ مكة وما يتبعُها من أرباضها للنبي ﷺ ساعة من نهار أمر زائد على أمن البيت، فإن النبي ﷺ لم يستحل البيت ساعة، وما دونها، بل كان مناديه ينادي: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق باب بيته فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وقد أخبر أبو سفيان النبيَّ ﷺ بقول سعد بن عبادة الأنصاري حامل اللواء له في الطريق: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال ﷺ: «كذب سعد، هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة».

وما فعله الحجاج من رمي البيت بالمنجنيق فهو فعل السياسة التي قد تحمل صاحبها على مخالفة ما يعتقد حرمته، ويقع به في الظلم والإلحاد؛ إذ هو وجنده لم يكونوا معتقدين حلَّ ما فعلوا.

﴿وَلِلَّهِ﴾ واجب ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: قصد البيت للعبادة المخصوصة المعروفة ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾؛ أي: على من أطاق، وقدر إلى حج البيت سبيلاً؛ أي: طريقاً وبلاغاً إليه بوجود الراحلة، والزاد، والنفقة للعيال إلى الرجوع، لأنه ﷺ: فسَّره بالزاد والراحلة، رواه الحاكم وغيره. وكذا أمن الطريق. والحج أحد أركان الإسلام.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان». متفق عليه. فعد النبيُّ ﷺ الحج من أركان الإسلام الخمسة.

والمعنى: أنه يجب الحج على المستطيع من هذه الأمة، وفي هذا تعظيم للبيت أيما تعظيم، وما زال الناس من عهد إبراهيم إلى عهد محمد صلوات الله عليهما يحجون عملاً بسنة إبراهيم، جروا على هذا جيلاً بعد جيل، لم يمنعهم من ذلك شركهم، ولا عبادتهم للأوثان والأصنام، فهي آية متواترة على نسبة هذا البيت إلى إبراهيم.

واستطاعة السبيل إلى الشيء إمكان الوصول إليه، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ وتختلف الاستطاعة باختلاف الأشخاص، واختلاف البعد عن البيت والقرب منه، وكل مكلف أدرى بنفسه في ذلك. وقد اختلف في تفسيرها، فقال بعضهم إنها القدرة على الزاد والراحلة مع أمن الطريق. وقال بعضهم: إنها صحة البدن، والقدرة على المشي. وقال آخرون: هي صحة البدن، وزوال الخوف من عدو أو سبع مع القدرة على المال الذي يشتري منه الزاد والراحلة وقضاء جميع الديون، والودائع، ودفع النفقة التي تكفي لمن تجب عليه نفقته حتى العودة من الحج.

وخلاصة ذلك: أنَّ هذا الإيجاب مشروط بالاستطاعة، وهي تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: أي: ومن جحد، وأنكر كون هذا البيت أول بيت وضعه الله للعبادة، وأنكر ما فرضه الله من حجه، والتوجه إليه بالعبادة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَنِيٌّ﴾؛ أي: مستغنٍ ﴿عَنِ﴾ إيمانه وإيمان جميع ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والخلق، وعن حجهم وعبادتهم.

وفسر بعضهم الكفر بترك الحج، وعبر عنه بالكفر تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه، والمعنى حينئذٍ: ومن لم يحج مع استطاعته.. فإن الله غني عن حجه، وحج العالمين كلِّهم. قال الضحاك: لما نزلت آية الحج جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان الستة: المسلمين والنصارى، واليهود، والصابئين، والمجوس، والمشركين، فخطبهم، وقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا، فآمن به المسلمون، وكفرت به الملل الخمس، وقالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ومن ترك اعتقاد وجوب الحج.. فإن الله غني عنه.

فقد روي أنه ﷺ قال: «من مات ولم يحج.. فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً».

وروي عن عليّ كرم الله وجهه أنَّ النبي ﷺ قال في خطبة له: «أيها الناس،

إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً، ومن لم يفعل. . فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً».

وأثر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فلينظروا كل من كان له جدة ـ سعةٌ ـ ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين. ولهذه الأدلة قال كثير من الفقهاء: إن الحج واجب على الفور، وقال آخرون: إنه واجب على التراخي. وهذه الجملة تأكيد لما سبق من الوجوب، فإنه بدأ الآية بأن قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. فأفاد أنَّ ذلك ما كان لجر نفع، ولا لدفع ضر، بل كان لعزة الإلهية ولكبرياء الربوبية. وختمها بهذه الجملة المؤكدة لذلك لبيان أنَّ فاعل ذلك مستأهل للنعمة برضا الله عنه، وأن تاركه يسخط عليه سخطاً عظيماً.

وحسب البيت شرفاً وفضلاً أنه حرم آمن ومثابة للناس ومبارك وهدى للعالمين، وما جاء عن رسول الله ﷺ في حرمته وفضله من أنه لا يسفك فيه دم، ولا يعضد شجره، ولا يختلى خلاه ـ لا يقطع نباته ـ وأنَّ قصده مكفر للذنوب ماح للخطايا، وأن العبادة التي تؤدى فيه لا تؤدى في غيره، وأن استلام الحجر الأسود، فيه رمز إلى مبايعة الله تعالى على إقامة دينه، والإخلاص له وأن الصلاة فيه بمائة ألف ضعف في غيره. وكتب الأحاديث والسيرة مليئة ببيان فضله ومشيدة بذكره.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في فضل البيت وفضل الحج والعمرة

عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول بيت وضع للناس مباركاً يصلى فيه: الكعبة، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً». متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن، وإنما سودته خطايا بني آدم».

أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر «والله ليبعثنّه الله يوم القيامة، وله عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به، يشهد على من استلمه بحق». أخرجه الترمذي.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «إن الركن، والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله نورهما، ولو لم يطمس نورهما.. لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب». أخرجه الترمذي، وقال: هذا الحديث يروى عن ابن عمر موقوفاً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس، قد فرض عليكم الحج فحجوا، فقال له رجل في كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم». أخرجه مسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ. فقال يا رسول الله ما يوجب الحج؟ قال: «الزاد والراحلة». أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن. وإبراهيم بن يزيد الجوزي المكي، قد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». متفق عليه.

وفي رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج لله عز وجل ـ وفي لفظ من حج هذا البيت ـ فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه». أخرجه

الترمذي، وقال: «غفر له ما تقدم من ذنبه».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الذنوب، والفقر كما ينفي الكير خبث الحديد، والذهب والفضة، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه». أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من مسلم يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله، من حجر، أو شجر، أو مدر، حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا». أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من طاف بالبيت خمسين مرةً خرج من ذنوبه، كيوم ولدته أمه». أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

فصل في ذكر بعض أحكام تتعلق بالحج

قال العلماء: الحج واجب على كل مسلم، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة، ولوجوبه خمس شرائط: الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة. ولا يجب على الكافر والمجنون ولو حجا.. لم يصح حجهما؛ لأن الكافر ليس من أهل العبادة، ولا حكم لقول المجنون، ولا يجب على الصبي والعبد، ولو حج صبي مميزٌ، أو حج عبد صح حجهما تطوعاً، ولا يسقط فرض الإسلام. فإذا بلغ الصبي وعتق العبد، واجتمع فيهما شرائط الحج.. وجب عليهما أن يحجا ثانياً، ولا يجب على غير المستطيع؛ لقوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ فلو تكلف غير المستطيع الحج، وحج: صح حجه، وسقطت عنه حجة الإسلام.

والاستطاعة نوعان: **أحدهما**: أن يكون مستطيعاً بنفسه. **والآخر**: أن يكون مستطيعاً بغيره.

فأما المستطيع بنفسه: فهو أن يكون قوياً، قادراً على الذهاب؛ واجداً للزاد والراحلة، لما تقدم من حديث ابن عمر في الزاد والراحلة.

وقال ابن المنذر: واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقالت طائفة: الآية على العموم، إذ لا نعلم خبراً ثابتاً عن النبي ﷺ، ولا إجماعاً لأهل العلم يوجب أن نستثني من ظاهر الآية بعضاً. فعلى كل مستطيع للحج يجد إليه السبيل ـ بأي وجه كانت الاستطاعة ـ الحج على ظاهر الآية.

قال ابن المنذر: وروينا عن عكرمة أنه قال: الاستطاعة: الصحة. وقال: الضحاك: إذا كان شاباً صحيحاً.. فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يقضي نسكه».

وقال مالك: الاستطاعة تختلف باختلاف الناس، الرجل يجد الزاد والراحلة، ولا يقدر على المشي، وآخر يقدر على المشي على رجليه.

وقال الشافعي: الاستطاعة وجهان:

أحدهما: أن يكون الرجل مستطيعاً ببدنه، واجداً من ماله ما يبلغه الحج، فتكون استطاعته تامة، فعليه فرض الحج.

والثاني: لا يقدر أن يثبت على الراحلة، وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه، أو قادر على مال، ويجد من يستأجره فيحج عنه، فيكون هذا ممن لزمه فرض الحج.

أما حكم الزاد والراحلة: فهو أن يجد راحلة تصلح له، ووجد من الزاد ما يكفيه لذهابه ورجوعه، فاضلاً عن نفقته ونفقة من تلزمه نفقتهم وكسوتهم، وعن دَيْنٍ إن كان عليه، ووجد رفقة يخرجون في وقت جرت العادة بخروج أهل البلد في ذلك الوقت، فإن خرجوا قبله، أو أخروا الخروج إلى وقت لا يصلون إلا بقطع أكثر من مرحلة في يوم لا يلزمه الخروج معهم، ويشترط أن يكون الطريق آمناً، فإن كان فيه خوف من عدو مسلم، أو كافر، أو رصدي يطلب الخفارة لا يلزمه الحج. ويشترط أن تكون منازل الماء مأهولة معمورة يجد فيها ما جرت به العادة بوجوده من الماء والزاد، فإن تفرق أهلها لجدب، أو غارت مياهها، فلا يلزمه الخروج. ولو لم يجد الراحلة وهو قادر على المشي، أو لم يجد الزاد وهو قادر على الاكتساب لا يلزمه الحج عند من جعل وجدان الزاد والراحلة شرطاً

لوجوب الحج، ويستحب له أن يفعل ذلك ويلزمه الحج عند مالك.

هذا كله في الزمن القديم، وأما الآن فالشرط القدرة على تحصيل جواز السفر، وعلى أجرة الطائرة، أو الباخرة، أو السيارة مع مؤونة سفره مطعماً ومشرباً وملبساً ومسكناً، ذهاباً وإياباً، والقدرة على ما تطلب منه الحكومة التي يسافر منها، والتي يسافر إليها فاضلاً عن مؤونة من تلزمه نفقتهم ذهاباً، وإياباً، وعن دين حالٍّ أو مؤجل يحل أجله قبل رجوعه من الحج.

وأما المستطيع بغيره: فهو أن يكون الرجل عاجزاً بنفسه، بأن يكون زَمِناً، أو به مرض لا يرجى برؤه، وله مال يمكنه أن يستأجر به من يحج عنه، وإن لم يكن له مال، وبذل ولده أو أجنبي الطاعة في أن يحج عنه.. لزمه الحج، إن كان يعتمد على صدقه؛ لأن وجوب الحج متعلق بالاستطاعة.

وعند أبي حنيفة: لا يجب الحج ببذل الطاعة، وعند مالك: لا يجب الحج على من غصب ماله أو سرق. وحُجَّةُ من أوجب الحج ببذل الطاعة ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها، وتنظر إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر قالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركَتْ أبي شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: «نعم» وذلك في حجة الوداع. أخرجه الشيخان في «الصحيحين».

وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿حِجُّ﴾ بكسر الحاء، والباقون بفتحها، وهما لغتان: الكسر لغة نجد، والفتح لغة أهل العالية، ثم أخذ يبكت أهل الكتاب على كفرهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لليهود والنصارى ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لأي سبب تنكرون آيات الله التي دلتكم على صدق نبوة محمد ﷺ فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره، ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: والحال أن الله شهيد مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجترئوا على الكفر بآياته، ولا ينفعكم التحريف والاستسرار. ولا يخفى ما في هذا من

التوبيخ والإيماء إلى تعجيزهم عن إقامة العذر على كفرهم، كأنه قيل: هاتوا عذركم، إن كان ذلك في مكتتكم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد أيضاً ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ وتصرفون وتمنعون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودينه الحق الموصل إلى السعادة الأبدية، وهو ملة الإسلام ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بالله وبمحمد وبالقرآن بإضلالكم ضعفة المسلمين، وإلقاء الشبهة والشكوك في قلوبهم، وذلك بإنكارهم صفة محمد ﷺ المذكورة في كتبهم ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: حالة كونكم تطلبون لسبيل الله اعوجاجاً وميلاً عن القصد، والاستقامة بقولكم: إن النسخ ممنوع، لأنه يدل على البداء، وبقولكم: ورد في التوراة أن شريعة موسى باقية إلى الأبد، وبتغيير صفة رسول الله ﷺ. والمعنى: لم تطلبون الزيغ والميل في سبيل الله بإلقاء الشبه في قلوب الضعفاء.

وخلاصة المعنى: لِمَ تتركون السبيل المعتدلة، وتطلبون السبيل المعوجة؟! ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾؛ أي: والحال أنكم تشهدون أن محمداً ﷺ وصفته مكتوبة في التوراة، وأن دين الله الذي لا يقبل غيره: هو الإسلام. وقيل: معناه: وأنتم تشهدون المعجزات التي تظهر على يد محمد ﷺ الدالة على نبوته، وأنها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضال مضل.

وحاصل المعنى: لأي سبب تصرفون من آمن بمحمد ﷺ واتبعه عن الإيمان الذي يرقى عقل المؤمن بما فيه من طلب النظر في الكون، ويرقى روحه بتزكيتها بالأخلاق الطيبة، والأعمال الصالحة، وتكذبون بذلك كفراً، وعناداً، وكبراً، وحسداً، وتلقون الشبهات الباطلة في قلوب الضعفاء من المسلمين بغياً وكيداً للنبي ﷺ تبغون لأهل دين الله، ولمن هو على سبيل الخير عوجاً، وضلالاً، وزيغاً عن الاستقامة على الهدى والمحجة، وأنتم عارفون بتقدم البشارة به، عالمون بصدق نبوته، ومن كان كذلك. فلا يليق به الإصرار على الباطل والضلال والإضلال؟!.

قرأ الجمهور ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ من صد الثلاثي، وهو متعدّ، ومفعوله من آمن، وقرأ الحسن شذوذاً ﴿تُصِدُّون﴾ من أصد الرباعي عدى صد اللازم بالهمز،

وهما لغتان.

قال الراغب:[1] وقد جاء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بدون ﴿قُلۡ﴾ وجاء هنا مع ﴿قُلۡ﴾، فبدون ﴿قُلۡ﴾: هو استدعاء منه تعالى لهم إلى الحق، فجعل خطابهم منه استلانة للقوم؛ ليكونوا أقرب إلى الانقياد، ولما قصد الغض عنهم.. ذكر ﴿قل﴾ تنبيهاً على أنهم غير مستأهلين أن يخاطبهم بنفسه، وإن كان كلا الخطابين. وصل إليهم على لسان النبي ﷺ. انتهى.

﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ أي بساه ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من هذا الصد وغيره من الأعمال، فمجازيكم عليه، ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد الشديد كما يقول الرجل لعبده، وقد أنكر عليه اعوجاج أخلاقه: لا يخفى علي ما أنت عليه، وما أنا بغافل عن أمرك.

وإنما ختم هذه الآية بنفي الغفلة؛ لأن صدهم عن الإسلام. كان بضرب من المكر، والكيد، ووجوه الحيل، وختم الآية السابقة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ لأن العمل الذي فيها، وهو الكفر ظاهر مشهود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾.

مناسبة[2] هذه الآية لما قبلها: لما أنكر تعالى عليهم صدهم عن الإسلام المؤمنين.. حذر المؤمنين من إغواء الكفار وإضلالهم، وناداهم بوصف الإيمان تنبيهاً على تباين ما بينهم وبين الكفار، ولم يأت بلفظ ﴿قل﴾ ليكون ذلك خطاباً منه تعالى لهم، وتأنيساً لهم، وأبرز نهيه عن موافقتهم، وطواعيتهم في صورة شرطية؛ لأنه لم يقع طاعتهم لهم، والإشارة بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: إلى الأوس والخزرج بقرينة سبب النزول كما مر.

والمعنى: يا أيها الذين صدقوا بمحمد ﷺ إن تطيعوا، وتوافقوا فريقاً،

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

وجماعة من الذين أوتوا الكتاب فيما يدعونكم إليه، وأصغيتم لهم، واستجبتم لما يدعونكم إليه مما يثير الفتنة بينكم كما مر في سبب النزول، وهم: شاس بن قيس، وعمرو بن شاس، وجبار بن صخر، وغيرهم ﴿يَرُدُّوكُم﴾ أي: يصيروكم بعد إيمانكم كافرين؛ أي: يردوكم إلى الكفر بعد الإيمان، والكفر: يوجب الهلاك في الدنيا والدين. أما في الدنيا فبوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة المؤدي إلى سفك الدماء. وأما الدين فلا حاجة إلى بيانه. ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام إنكار واستبعاد لوقوع الكفر منهم في هاتين الحالتين، وهما تلاوة كتاب الله عليهم، وهو القرآن الظاهر الإعجاز، وكينونة الرسول فيهم الظاهر على يديه الخوارق ووجود هاتين الحالتين تنافي الكفر، ولا تجامعه، فلا يتطرق إليهم كفر مع ذلك، أي: وكيف يوجد منكم الكفر ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: والحال أنكم تقرأ عليكم آيات الله القرآنية التي فيها بيان الحق من الباطل على لسان نبيكم غضاً طرياً ﴿وَفِيكُمْ﴾؛ أي: ومعكم ﴿رَسُولُهُۥ﴾ تعالى محمد ﷺ الذي يبين لكم الحق، ويدفع عنكم الشبه.

قال قتادة(١): في هذه الآية علمان بينان: كتاب الله، ونبي الله. فأما نبي الله: فقد مضى، وأما كتاب الله: فأبقاه الله بين أظهرهم رحمةً منه ونعمة، فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته انتهى.

وقال الزمخشري(٢): ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ معنى الاستفهام فيه: الإنكار، والتعجب، والمعنى: من أين يتطرق إليكم الكفر، والحال أن آيات الله، وهي القرآن المعجز تتلى عليكم على لسان الرسول غضة طرية وبين أظهركم رسول الله ينبهكم ويعظكم، ويزيح شبهكم، ولكم في سنته خير أسوة تُغَذِّي إيمانكم، وتنير قلوبكم، فلا ينبغي لمثلكم أن تلتفتوا إلى قولهم، بل الواجب عليكم أن ترجعوا عند كل شبهة تسمعونها من هؤلاء اليهود إلى الرسول ﷺ حتى يكشف عنها، ويزيل ما علق بقلوبكم منها.

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور ﴿تُتْلَىٰ﴾ بالتاء وقرأ الحسن والأعمش شذوذاً: (يتلى) بالياء؛ لأجل الفصل ولأن التأنيث غير حقيقي؛ ولأن الآيات هي القرآن.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾؛ أي: ومن يستمسك بدين الله وكتابه، وهو القرآن وبرسوله محمد ﷺ؛ ويحتفظ به عن الوقوع في الهلاك الأبدي ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ وأرشد ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾ وطريق ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: مستو قويم موصل إلى الجنة، وهو طريق دين الإسلام.

وقيل المعنى[1]: ومن يجعل ربه ملجأ ومفزعاً عند الشبه.. يحفظه عن الشبه.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيباً بماء يدعى خما بين مكة والمدينة، فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ الناس، وذكر، ثم قال: أما بعد: «ألا أيها الناس: إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم ثقلين؛ أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به، فحث على كتاب الله، ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي». أخرجه مسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما بين الله سبحانه وتعالى ضلال الكفار في أنفسهم، وإضلالهم لغيرهم.. شرع في بيان تكميل المؤمنين لأنفسهم بهذه الآية، ولغيرهم بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ الخ؛ أي: يا أيها الذين صدقوا بما جاء به محمد ﷺ اتقوا الله، وخافوه ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾؛ أي: نهاية تقواه وكاملها، وأبلغها، وأدومها، وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجبات، والاجتناب عن المحرمات كقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، والذي يصدر عن العبد على سبيل السهو والنسيان، غير قادح فيه؛ لأن التكليف في تلك الحال مرفوع عنه. وقيل: هو أن ينزه الطاعة عن

---

(١) النسفي.

الالتفات إليها، وعن توقع المجازاة عليها، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب، وقيل: هو ألا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه.

وقال قتادة،[١] والسدي، وابن زيد، والربيع: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أمروا أولاً بغاية التقوى حتى لا يقع إخلال بشيء، ثم نسخ، وقال ابن عباس، وطاووس: هي محكمة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ بيان لقوله: و﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وقال ابن عباس: المعنى: جاهدوا في الله حق جهاده. وقال[٢] الماتريدي، وفي حرفِ حفصةَ ﴿واعبدوا الله حق عبادته﴾ ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: ولا يأتينكم الموت إلا وأنتم ملتبسون بالإسلام، أي: [٣] حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم؛ لتموتوا عليه، فيا عياذاً بالله من خلاف ذلك، والاستثناء فيه مفرغ من عام الأحوال؛ أي: ولا تموتن على حال من الأحوال إلا على حالة الإسلام.

والخلاصة: استمروا على الإسلام، وحافظوا على أداء الواجبات، وترك المنهيات حتى الموت. وقد جاء ولا تغيروا، ولا تبدلوا، لئلا يصادفكم الموت في حالة التغيير هذا في مقابلة قوله: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾.

وعن جابر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل» رواه مسلم.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾؛ أي: تمسكوا بدين الله الذي هو الإسلام، أو بكتابه الذي هو القرآن، أو عهده الذي عهد به إليكم الذي هو التوحيد حالة كونكم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين على الاعتصام والتمسك بحبل الله وعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض».

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) ابن كثير.

وروي عنه ﷺ أنه قال: «القرآن حبل الله المتين، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم». ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾؛ أي: لا تتفرقوا، ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى، أو لا تتفرقوا تفرقكم الجاهلي يحارب بعضكم بعضاً، ويقتل بعضكم بعضاً، وقيل: معناه لا تحدثوا بينكم ما يكون عنه التفرق، ويزول معه الاجتماع، والألفة التي أنتم عليها كالعصبية، والجنسية، ففيه النهي عن التفرق والاختلاف، والأمر بالاتفاق، والاجتماع؛ لأن الحق لا يكون إلا واحداً، وما عداه يكون جهلاً وضلالاً، وإذا كان كذلك.. وجب النهي عن الاختلاف في الدين، وعن الفرقة؛ لأن كل ذلك كان عادة أهل الجاهلية فنهوا عنه.

وبالجملة فحبل الله في هذه الآية هو صراطه المستقيم، كما أن أنواع التفرق هي السبل التي نهي عنها فيها، ومن السبل المفرقة في الدين إحداث الشيع، والفرق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾.

ومنها: العصبية الجنسية كما بين الأوس والخزرج، وقد روى أبو داود عن مطعم بن جبير «ليس منا من دعا إلى عصبية». وقد سار على هذا النهج أهل أوربا في العصر الحديث، فاعتصموا بالعصبية الجنسية كما كانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية، وسرى ذلك إلى بعض البلاد الإسلامية، بل عم جميعها، وفشا فيها، فحاول أهلها أن يجعلوا في المسلمين جنسيات وطنية، ومفاخرات عصبية.

وكانت كل دولة تتفاخر بجنسيتها ظناً منهم أن ذلك مما ينهض بالوطن، ويزيدهم شرفاً، وليس الأمر كما يظنون، فإن الوطن لا يرقى إلا باتحاد كل المقيمين فيه لإحيائه، لا في تفرقهم وعصبيتهم، فإن ذلك مما يورث الشحناء والبغضاء بينهم، خصوصاً، التقدم بالجنسية والعصبية في التعليم والتدريس والإفتاء، بل التقدم في ذلك بالعلم والتقوى، وما لهم في ذلك سند إلا الاقتداء

بالنصارى، والعياذ بالله من ذلك. فالدين يأمر باتحاد كل قوم، تضمهم أرض واحدة، وإن اختلفت أديانهم وأجناسهم، ويأمر بالاعتصام بحبل الله المتين بين جميع الأقوام.

﴿وَٱذۡكُرُوا﴾؛ أي: تذكروا يا معشر الأوس والخزرج ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: إنعامه سبحانه وتعالى عليكم نعمة دنيوية، وأخروية التي من جملتها: الهداية والتوفيق للإسلام المؤدي إلى التآلف، وزوال الغل ﴿إِذۡ كُنتُمۡ﴾: ظرف لقوله: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: اذكروا إنعامه عليكم إذ كنتم في الجاهلية ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ متقاتلين يبغض بعضكم بعضاً ويحارب بعضكم بعضاً ﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾ بالإسلام؛ أي: قذف الله تعالى فيها المحبة بتوفيقكم للإسلام ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ وصرتم ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ﴾ بسبب إنعامه عليكم بنعمة الإسلام ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾ في الدين: أي: متحابين مجتمعين على الأخوة في الله سبحانه وتعالى، وقيل: كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين، فوقع بين أولادهما العداوة، وتطاولت الحروب بينهم مائة وعشرين سنة، حتى أطفأها الله بالإسلام، وألف بينهم برسوله ﷺ، وقيل: الخطاب على العموم، والمعنى حينئذٍ؛ واذكروا أيها المؤمنون النعمة التي أنعم الله عليكم بها حين كنتم أعداءً يقتل بعضكم بعضاً، ويأكل قويكم ضعيفكم، فجاء الإسلام، فألف بينكم وجمع جمعكم، وجعلكم إخواناً، حتى قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم، وديارهم، وكان بعضهم يؤثر غيره على نفسه، وهو في خصاصة وحاجة إليه، وأطفأ الحروب التي تطاولت بين الأوس والخزرج مائة وعشرين سنة وأنقذهم مما هو أدهى وأمر، وهو عذاب الآخرة. ﴿وَكُنتُمۡ﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ﴾؛ أي: على طرف وهدة ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ الأخروية مثل شفا البئر؛ أي: وكنتم قريبين من الوقوع في النار بسبب كفركم، ليس بينكم، وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على كفركم ﴿فَأَنقَذَكُم﴾؛ أي: فأنجاكم ﴿مِّنۡهَا﴾؛ أي: من تلك الحفرة أو النار، بأن هداكم للإسلام.

والخلاصة: أي وكنتم بوثنيتكم وشرككم بالله كأنكم على طرف حفرة، يوشك أن ينهار، ويسقط بكم في النار، فليس بين الشرك، والهلاك في النار إلا

الموت، والموت أقرب غائب ينتظر؛ فأنقذكم الإسلام منها.

وفي هذه الآيات جماع المنن التي أنعم الله بها عليهم، فقد أخرجهم بالإسلام من الشرك ومخازيه، وألف بين قلوبهم حتى صاروا سادة البشر، حين كانوا يعملون بكتابه، وأنقذهم بذلك من النار فسعدوا بالحسنيين. فانظر إلى آيات الله، ودلائل قدرته كيف حول قوما متخاذلين تملأ قلوبهم الإحن والعداوات، ويتربص كل منهما بالآخر ريب المنون إلى جماعات متعافية القلوب مليئة بالحب والإخلاص، وجهتهم جميعاً واحدة هي حكم الله ورفعة دينه ونشره بين البشر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين لكم ربكم في هذه الآيات ما تضمره لكم اليهود من غشكم، وبين لكم ما أمركم به، وما نهاكم عنه، وبين لكم الحال التي كنتم عليها في الجاهلية، وما صرتم إليه في الإسلام ليعرفكم في كل ذلك مواقع نعمه ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: يفصل الله تعالى لكم ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: سائر حججه في تنزيله على لسان رسوله. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لكي تهتدوا من الضلالة، وتستعدوا للاهتداء الدائم حتى لا تعودوا إلى عمل الجاهلية من التفرق والعدوان؛ والمعنى يزيدكم بيان ذلك ما دام رسول الله فيكم.

فائدة: والاختلاف(١) الذي يقع بين البشر ضربان:

الأول: ضرب لا يسلم منه الناس، ولا يمكن الاحتراس منه، وهو الخلاف في الرأي والفهم، وهو مما فطر عليه البشر، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إذ أن العقول والأفهام ليست متساوية، فالأسرة الواحدة تختلف أفهام أفرادها في الشيء الواحد كما يختلف حبهم له؛ وميلهم إليه، وهذا ضرب لا ضرر فيه.

والثاني: ضرب جدت الشرائع في هدمه ومحوه، وهو تحكيم الرأي والهوى في أمور الدين وشؤون الحياة، وهاك مثلاً يتضح لك به ما تقدم. قد اختلف الأئمة المجتهدون في فهم كثير من نصوص الدين من كتاب وسنة، وما

---

(١) المراغي.

كان في ذلك من حرج، فمالكٌ نشأ في المدينة، ورأى ما كان عليه أهلها من صلاح وسلامة قلب فقال: إن عمل أهلها أصل من أصول الدين؛ لأنهم لقرب عهدهم من النبي ﷺ لا يتفقون على غير ما مضت عليه السنة في العمل. وأبو حنيفة نشأ في العراق وأهلها أهل شقاق ونفاق؛ فلم يجعل عملهم ولا عمل غيرهم حجة، ولو اجتمع هذان الإمامان. لعذر كل منها صاحبه فيما رأى؛ لأنه بذل جهده في بيان وجه الحق مع الإخلاص لله تعالى، وإرادة الخير والطاعة لأمره. ولكن جاءت بعد هؤلاء فرق من المسلمين قلدتهم فيما نقل عنهم، ولم تقلدهم في سيرتهم، وحكموا الرأي والهوى في الدين، وتفرقوا شيعاً كل فريق يتعصب لرأي فيما وقع من أوجه الخلاف، ويعادي المخالف له حتى حدث من ذلك ما نرى، وما ذاك إلا لأن الحق لم يكن هو مطلب المتعصبين، فليس من المعقول أن أبا حنيفة أصاب في كل ما خالف فيه غيره من الأئمة، وأن الشافعي ومالكاً أخطآ في جميع ما خالفا فيه أبا حنيفة.

وإذاً فكيف يمضي نحو أربعة عشر قرناً، ولا يستبين لفقهاء مذهبه وجه الصواب في بعض المسائل الخلافية! فيرجحون بعض آراء المذاهب الأخرى على مذهبه في تلك المسائل، ويرجعون إلى الصواب فيها!.

وهذا الضرب من الخلاف، وهو تحكيم الرأي والهوى كان مصدر شقاء أمم كثيرة، فهوت بعد رفعتها وذلت بعد عزتها وضعفت بعد قوتها.

وقد حدث مثل هذا في الفرق الإسلامية في علم العقائد، فإن أبدى أحدهم رأياً في مسألة بادر مخالفه إلى الرد عليه، وتفنيد مذهبه وتضليله، ويقابله الآخر بمثل صنيعه، ولو حاول كل منها محادثة الآخر والإطلاع على أدلته، ووزنها بميزان الإنصاف والحق. لما حدث مثل هذا الخلاف، بل اقتنع كل واحد منهما بما رأى مخالفه.

والمسلم ما دام محافظاً على نصوص دينه، لا يخل بواحد منها مع احترامه لرسوله المفسر لكتابه، لا يخرج من جماعة المسلمين لمخالفته سواه.

فإذا تحكم الرأي والهوى، ولعن بعضهم بعضاً، وكفر بعضهم بعضاً؛ فقد

باء بها من قالها، كما ورد في الحديث، وكذلك الحال في الاختلاف في المعاملة في المسائل السياسية والدينية، لا ينبغي أن يكون مفرقاً بين جماعة المسلمين، بل عليهم أن يرجعوا من النزاع إلى حكم الله، وآراء أولي العلم منهم، وبذلك نتقي غائلة الخلاف، ونكون في وفاق، ونصير ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

الإعراب

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾.

﴿لَن﴾: حرف نصب ﴿تَنَالُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿لَن﴾. ﴿ٱلْبِرَّ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية. ﴿تُنفِقُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة بعد ﴿حتى﴾، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تَنَالُواْ﴾. ﴿مِمَّا﴾: من حرف جر وتبعيض ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر بـ ﴿من﴾. الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تنفقوا﴾. قال أبو البقاء: ولا يجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، لأن المحبة لا تنفق، فإن جعل المصدر بمعنى المفعول.. فهو جائز على رأي أبي عليّ الفارسي انتهى. ﴿تُحِبُّونَۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: مما تحبونه.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم. ﴿تنفقوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿ما﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِن شَيْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿تُنفِقُواْ﴾. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بعليم. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾: مبتدأ، ومضاف إليه ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها

ضمير يعود على ﴿كُلُّ﴾. ﴿حِلًّا﴾: خبرها. ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿حِلًّا﴾؛ لأنه مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ لأنه بمعنى جائزاً، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء؛ لأنه استثناء من اسم ﴿كَانَ﴾ والعامل فيه ﴿كَانَ﴾. ﴿حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾: فعل وفاعل. ﴿على نفسه﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿حَرَّمَ﴾. والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط ضميرٌ محذوف تقديره: حرمه.

﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾.

﴿مِن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿حرَّم﴾، قاله أبو البقاء، وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ﴾ متعلق بقوله ﴿كَانَ حِلًّا﴾ ولا ضَيْرَ في توسط الاستثناء بينهما إذ هو فصل جائز، وذلك على مذهب الكسائي، وأبي الحسن في جواز أن يعملَ ما قبل إلاّ فيما بعدَها؛ إذا كان ظرفاً أو جاراً ومجروراً أو حالاً، وقيل: متعلّق بـ ﴿حَرَّمَ﴾. وفيه: أنَّ تقييد تحريمه ـ عليه السلام ـ بقبلية تنزيل التوراة ليس فيه مزيد فائدة، إذ كان ما عدا المستثنى حلالاً لهم قبل نزولها، مشتملة على تحريم أمور أخر؛ حرمت بسبب ظلمهم وبغيهم كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الآية. أبو السعود انتهت. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ فعل ونائب فاعل منصوب بـ ﴿أَن﴾ والمصدر المؤول بـ ﴿أنْ﴾ مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره: من قبل تنزيلها.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة، ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، لِ ﴿قُلْ﴾ وإن شئتَ: قلت ﴿فَأْتُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف تقديره: هذا هو الحق لا زعمكم يا معشر اليهود،

كما أشرنا إليه في مقام التفسير. ﴿أتوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على ذلك المحذوف على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ متعلق بـ﴿أتوا﴾. ﴿فَٱتْلُوهَآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿اتلوها﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿فَأْتُوا۟﴾ ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعلَ شرط لها. ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبرُ ﴿كان﴾، وجواب إن معلوم مما قبله تقديره: إن كنتم صادقين.. فاتلوها، وجملة إن الشرطية في محل النصب: مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿فَمَنِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة أو استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط فقط، أو الجواب فقط، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ فعل ماض في محل الجزم بِ ﴿منْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿افترى﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿افترى﴾ أو بـ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ كما ذكره أبو البقاء. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: خبر والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، والجملة الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأْتُوا۟﴾ بالتوراة على كونها مقولاً لِ﴿قُلْ﴾ أو مستأنفة.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت.. قلت ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿فَٱتَّبِعُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا تبين لكم صدقي وصدق ما جئت به، وأردتم بيان ما هو المصلحة لكم.. فأقول لكم: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟﴾: ﴿اتبعوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفةٌ على جملة قوله ﴿صَدَقَ﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾ أو مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

مفعول به، ومضاف إليه ﴿حَنِيفًاۖ﴾: حال من ﴿إبراهيم﴾. ﴿وَمَا كَانَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب معطوفة على ﴿حَنِيفًاۖ﴾ على كونها حالاً من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ تقديره: حالة كونه عادماً كونه من المشركين.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾، ومضاف إليه ﴿وُضِعَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿بَيْتٍ﴾. ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بـ ﴿وُضِعَ﴾ والجملة صفة لِـ ﴿بَيْتٍ﴾. ﴿لَلَّذِى﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداءٍ. ﴿الذي﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿بِبَكَّةَ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿مُبَارَكًا﴾: حال من الضمير المستتر في الصلة، أو المستتر في ﴿وُضِعَ﴾. ﴿وَهُدًى﴾: معطوف على ﴿مُبَارَكًا﴾. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور تنازع فيه كل من ﴿مُبَارَكًا﴾ و﴿هدى﴾ أو متعلق بـ ﴿هدى﴾ فقط.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾.

﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ءَايَٰتٌۢ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل النصب حال ثالثة، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب؛ لأنها لبيان وتفسير بركته وهداه كما في «السمين». ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ﴾ بدل من ﴿ءَايَٰتٌۢ﴾ بدل تفصيل من مجمل و ﴿إِبْرَٰهِيمَۖ﴾ مضاف إليه، والرابط محذوف تقديره ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ﴾ منها ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: ﴿وَ﴾ استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط فقط، أو جملة الجواب، أو هما معاً ﴿دَخَلَهُۥ﴾ فعل ومفعول في محل الجزم بِـ ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ، ناقص في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿ءَامِنًاۗ﴾: خبرها، وجملة من الشرطية: مستأنفة استئنافاً بيانياً سيقت لبيان تلك الآيات البينات، أو في محل الرفع معطوفة على ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ﴾ على كونها بدلاً

من ﴿ءَايَٰتُۢ﴾، والمعنى: فيه آيات بينات. منها: مقام إبراهيم، **ومنها**: أمن داخله.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لله﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بما تعلَّق به الجار والمجرور قبله. ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، والتقدير: ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: واجب لله على الناس. ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل الجر بدل ﴿من الناس﴾ بدل بعض من كل، والرابط محذوف تقديره: منهم. ﴿ٱسْتَطَاعَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱسْتَطَاعَ﴾. ﴿سَبِيلًاۚ﴾: مفعول به لـ﴿استطاع﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم على كونه فعلَ شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إنْ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿غَنِيٌّ﴾: خبرها. ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بغني، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة (من) الشرطية: مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محلَّ لها من الإعراب، ويجوز أن تكون ﴿مَنْ﴾ موصولة، ودخلت الفاء تشبيهاً للموصول باسم الشرط، وقد تقدم نظيره غير مرة.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لِ ﴿قُلْ﴾. وإن شئت قلت: ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر. ﴿مَ﴾: اسم استفهام في

محل الجر باللام مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تَكْفُرُونَ﴾. ﴿تَكْفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَكْفُرُونَ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿شَهِيدٌ﴾: خبر. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿شَهِيدٌ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَكْفُرُونَ﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه، ويصح كون ﴿ما﴾ مصدرية كما مر نظيره مراراً.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: في محل النصب مقول محكي لِـ﴿قُلْ﴾. ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر. ﴿م﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تصدون﴾. ﴿تصدون﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿تَصُدُّونَ﴾. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تَصُدُّونَ﴾. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿تَبْغُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من الضمير في ﴿تَصُدُّونَ﴾ أو من ﴿السبيل﴾؛ لأنَّ في هذه الجملة ضميرين راجعين إليهما؛ فلذلك صح أن تجعل حالاً من كل واحد منهما؛ كما ذكره أبو البقاء، أو الجملة مستأنفة. ﴿عِوَجًا﴾: حال من ﴿الهاء﴾ في ﴿تَبْغُونَهَا﴾ بتأويله بمشتق تقديره: معوجة. ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أنتم﴾: مبتدأ ﴿شُهَدَآءُ﴾: خبر، والجملة في محل النصب: حال إما من فاعل ﴿تَصُدُّونَ﴾ وإما من فاعل ﴿تبغون﴾. ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿ما﴾:

حجازية أو تميمية. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها، أو مبتدأ. ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة ﴿غافل﴾: خبر لـ ﴿ما﴾ أو خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَصُدُّونَ﴾. ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿غافل﴾ وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة؛ كما مر مراراً، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول: في محل الرفع صفة لـ ﴿أي﴾: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تُطِيعُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَرِيقًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿فَرِيقًا﴾. ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، صلة الموصول. ﴿يَرُدُّوكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها؛ لأنه من أفعال التصيير. ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يردون﴾. ﴿كَٰفِرِينَ﴾: مفعول ثان ﴿يَرُدُّوكُم﴾ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جواب النداء لا محل لها من الإعراب.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿كيف﴾: اسم استفهام في محل النصب، على الحالية. ﴿تَكْفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَنتُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغيّر الصيغة. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَكْفُرُونَ﴾. ﴿وَفِيكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿فيكم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿رَسُولُهُۥ﴾: مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ﴾ على كونها حالاً من فاعل ﴿تَكْفُرُونَ﴾. ﴿وَمَن يَعْتَصِم﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب أو هما. ﴿يَعْتَصِم﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿من﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَعْتَصِم﴾. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب من الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بـ ﴿قد﴾ لأنه من المواضع التي يجب فيها إقتران الجواب بالفاء المجموعة في قول بعضهم:

إسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وبِجَامِدِ وَبِمَا وَلَنْ وَبِقَدْ وَبِالتَّسْوِيْفِ

﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿هُدِيَ﴾: فعل ماضٍ مغيّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب الشرط، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ ﴿هُدِيَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أيُّ﴾، وجملة النداء، مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب النداء. ﴿حَقَّ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، وهو مضاف ﴿تُقَاتِهِۦ﴾: مضاف إليه، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ التقاة الحق، أي: الثابتة. ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية ﴿تَمُوتُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم ﴿بلا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأن أصله تَمُوتُونَنَّ والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من عام الأحوال. ﴿وَأَنتُم﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿مُّسْلِمُونَ﴾: خبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَمُوتُنَّ﴾ تقديره، ولا تموتن على حالةٍ من الأحوال إلاَّ حالة كونكم مسلمين.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿اعتصموا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿اعتصموا﴾. ﴿جَمِيعٗا﴾: حال من فاعل ﴿اعتصموا﴾ تقديره: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ﴾ الله حالة كونكم مجتمعين عليه. ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية ﴿تَفَرَّقُواْۚ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اذكروا﴾ ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿نعمة الله﴾ لأنه بمعنى إنعامه عليكم.

﴿إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾.

﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى مجرد عن معنى الشرط، والظرف متعلق بـ ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾. ﴿كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿فَأَلَّفَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ألَّف﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿كان﴾. ﴿بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ألَّف﴾. ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿أصبحتم﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أصبح﴾. ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾: خبر ﴿أصبح﴾ وجملة ﴿أصبح﴾ في محل الجر معطوفة على جملة ﴿ألَّف﴾.

﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾.

﴿وَكُنتُمۡ﴾ ﴿الواو﴾ عاطف. ﴿وَكُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر ﴿كان﴾ تقديره؛ وكنتم كائنين على شفا حفرة، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾. ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿حُفۡرَةٖ﴾. ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ الفاء عاطفة. ﴿أنقذكم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ﴾. ﴿مِّنْهَا﴾ متعلق بـ ﴿أنقذكم﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: يبين لكم بياناً كائناً كذلك؛ أي: كائناً مِثْلَ البيان المذكور هنا. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق ﴿يُبَيِّنُ﴾. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ مفعول به، ومضاف إليه﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل بمعنى كي، و﴿الكاف﴾ اسمها. وجملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾ خبرها وجملة ﴿لعل﴾ من اسمها وخبرها في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلِّقة بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾ تقديره: كذلك بين لكم آياته لاهتدائكم أي لإرادة اهتدائكم. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ يقال: ناله من فلان معروف يناله نيلاً إذا وصل إليه. والنوال: العطاء من قولك: نولته تنويلاً إذا أعطيته. والنيل: إدراك الشيء ولحوقه، وقيل: هو العطية، وقيل: هو تناول الشيء، باليد يقال: نلته أناله نيلاً قال تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾. وأما النول بالواو فمعناه: التناول يقال: نلته أنوله: أي: تناولته وأنلته زيداً أنيله إياه؛ أي ناولته إياه. والبر اسم جامع لوجوه الخير، والمراد به هنا الجنة. ﴿حِلًّا﴾ الحل لغة: في الحلال، كما أن الحرم لغة: في الحرام، والحلال، وكذا الحل مصدر يستوي فيه الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث. ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فيه مراعاة لفظ ﴿مَنْ﴾ وفي قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مراعاة معناها، والإفتراء اختلاق الكذب وهو من باب افتعل أصله: من: فرى الأديم إذا قطعه؛ لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود.

﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ هي مكة بقلب الميم باء، وبكة علم للبلد الحرام، وكذا مكة، وهما لغتان: وقيل: إن بكة اسم لموضع البيت، ومكة اسم للبلد الحرام، وقيل: بكة للمسجد، ومكة للحرم كله، يقال: بك يبك من باب رد إذا دق

الشيء، وسميت بكة؛ لأنها تبك أعناق الجبابرة، وبكها لأعناقهم كناية عن إهلاكهم، وإذلالهم ويقال: بك القوم إذا ازدحموا؛ لأنهم يزدحمون فيها في الطواف. وأما تسميتها مكة فقيل: سميت بذلك؛ لأنها قليلة الماء تقول العرب: مك الفصيل ضرع أمه، وأمكه إذا امتص كل ما فيه من اللبن. وقيل: لأنها تمك المخ من العظم بما ينال ساكنها من المشقة، ومنه مككت العظم، إذا أخرجت ما فيه، وقيل: سميت بذلك؛ لأنها تمك من ظلم فيها؛ أي: تهلكه. وقد اختلف في الباني له في الابتداء، فقيل: الملائكة، وقيل: آدم، وقيل: إبراهيم، ويجمع بين ذلك؛ بأن أول من بناه الملائكة ثم جدده آدم ثم إبراهيم.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ والعوج ـ بكسر أوله وفتحه ـ: الميل، ولكن العرب فرقوا بينهما، فخصوا المكسور بالمعاني، والمفتوح بالأعيان، تقول: في دينه وكلامه عوج بالكسر، وفي الجدار عوج بالفتح. قال أبو عبيدة العوج بالكسر الميل في الدين، والكلام والعمل، وبالفتح في الحائط والجذع. وقال أبو إسحاق بالكسر فيما لا ترى له شخصاً، وبالفتح فيما له شخص، وقال صاحب المجمل: العوج بالفتح في كل منتصب كالحائط، وبالكسر ما كان في بساط أو دين أو أرض أو معاشٍ، فقد فرق بينهما بغير ما تقدم، يقال: عوج من باب: طرب فهو أعوج، والاسم: العوج كما ذكره في «المختار». ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها كما تقول: ضربت زيداً شديد الضرب أي؛ الضرب الشديد فكذلك ما هنا، والتقدير: اتقو الله الإتقاء الحق؛ أي: الواجب الثابت. ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ في «المصباح»، وشفا كل شيء حرفه، مثل النوى، وفي «السمين»: الشفا: طرف الشيء، وحرفه، وهو مقصور من ذوات الواو يثنى بالواو نحو شفوان، ويكتب بالألف، ويجمع على أشفاء، ويستعمل مضافاً إلى أعلى الشيء، وإلى أسفله، فمن الأول ﴿شَفَا جُرُفٍ﴾ ومن الثاني هذه الآية، وأشفى على كذا إذا قاربه، ومنه أشفى المريض على الموت.

البلاغة

وذكروا في هذه الآيات من فنون البلاغة والفصاحة أنواعاً:

منها: التبكيت والتوبيخ، حيث أمرهم بالإتيان بالتوراة للدلالة على كمالِ القبح.

ومنها: الهزء في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأنه خرج مخرج الممكن وهو معلوم كذبهم، وذلك على سبيل الهزء بهم كقولك: إن كنت شجاعاً فالقني، ومعلوم عندك أنه ليس بشجاع، ولكن هزأت به؛ إذ جعلت هذا الوصف مما يمكن أن يتصف به.

ومنها: التفخيم في قوله: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ حيث حذف الموصوف، وذكر الصفة؛ لأن أصل الكلام للبيت الذي ببكة. ومنها: التأكيد والتشديد في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ حيث وضع هذا اللفظ موضع، ومن لم يحج تأكيدا لوجوبه، وتشديداً على تاركه. قال أبو السعود: ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات ما لا مزيد عليه، وهي قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق، وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه وتعالى في ذمم الناس، وسلك بهم مسلك التعميم، ثم التخصيص والإبهام، ثم التبيين والإجمال، ثم التفصيل.

وقال أبو حيان[١]: وذكروا في هذه الآيات من فنون البلاغة والفصاحة:

منها: الاستفهام الذي يراد به الإنكار في قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وفي اسم الله في مواضع، وفي ما يعملون.

ومنها: الطباق في الإيمان والكفر، وفي الهداية والكفر، إذ هو ضلال، وفي العوج والاستقامة، والتجوز بإطلاق اسم الجمعِ في قوله: ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فقيل: هو يهودي غير معين، وقيل: هو شاس بن قيس وإطلاق العموم

---

(١) البحر المحيط.

الذي أريد به الخصوص في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على قول الجمهور إنه خطاب للأوس والخزرج.

ومنها: الحذف في مواضع. انتهى.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ حيث شبه الدين أو القرآن بالحبل، واستعير اسم المشبه به، وهو الحبل للمشبه، وهو الدين أو القرآن على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، والجامع بينهما التوصل للمقصود في كل، وإضافته للفظ الجلالة قرينة مانعة، والاعتصام ترشيح.

وفيه أيضاً: استعارة تصريحية تبعية حيث شبه الوثوق بالاعتصام، واستعار الاعتصام للوثوق، واشتق من الاعتصام ﴿وَٱعْتَصِمُواْ﴾ بمعنى ثقوا.

والحاصل: [1] أنَّ في الآية استعارتين: استعارة الحبل للدين، أو للكتاب فتكون استعارة مصرحة أصلية تحقيقية، والقرينة الإضافة إلى الله تعالى، واستعارة الاعتصام للوثوق به، والتمسك به، فتكون استعارة مصرحة تبعية تحقيقية، والقرينة اقترانها بتلك الاستعارة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية حيث شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية، بحال من كان مشرفاً على حفرة عميقة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) جمل.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
(١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ
الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا
يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ
اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾.

المناسبة

لما حذر الله سبحانه[1] وتعالى المؤمنين فيما سلف من مكايد أهل الكتاب، وأمرهم بتكميل أنفسهم، وتزكيتها مما يشوبها من الأدناس، والأرجاس بالعمل بتقوى الله، والمحافظة على إخلاص العمل له حتى الممات، وأمرهم بالاعتصام بحبل الله المتين باتباع كتابه، والتمسك بسنة رسوله ﷺ إذا اختلفت الأهواء وتضاربت الآراء.. أمرهم هنا بتكميل غيرهم من أفراد الأمة بدعوتهم إلى الله تعالى، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر تثبيتاً لهم جميعاً على مراعاة ما في الشريعة من الأحكام، والمحافظة على ما فيها من التكاليف، وبذلك تكون بينهم رابطة تجمعهم في طلاب الخير لهم جميعاً حتى تكون الأمة كأنها جسد واحد كما رود في الحديث: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل

---

(١) المراغي.

الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» رواه مسلم.

وروى البخاري غيره: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

والحفاظ لوحدة الأمة، ومناط بقاء جامعتها أمر بعض أفرادها بعضاً بالاستمساك بالخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ثم ذكر ما حل باليهود من الذل والصغار بسبب البغي والعدوان.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾؛ أي: ولتوجد منكم يا معشر المؤمنين ﴿أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعةٌ متميزةٌ يقتدي بها فرق الناس ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ ويحثونهم على ما فيه صلاح معاشهم، ومعادهم، فأفضل الدعوة، الدعوة إلى توحيد الله وإلى إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات، وإلى تقديسه عن الأنداد والشركاء، وعن مشابهة المخلوقات في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ لأنها أساس الدين ومبنى الإيمان.

﴿وَيَأْمُرُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً، والمعروف كلُ ما استحسنه الشرع والعقل، والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجباً.. فواجب، وإن كان مندوباً.. فمندوب ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ شرعاً، والمنكر ضد المعروف، وهو ما عرف بالعقل، والشرع قبحه. فالنهي عن الحرام واجب كله، لأن تركه واجب. وهذه الأمور من فروض الكفاية؛ لأنها لا تليق إلا من العالم بالحال، وسياسة الناس حتى لا يوقع المأمور، أو المنهي في زيادة الفجور، فإن الجاهل ربما دعا إلى الباطل، وأمر بالمنكرَ، ونهى عن المعروف، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة.

وقوله[1] ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ إظهاراً لترفهما، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه كما قيل، في عطف جبريل وميكال على الملائكة، وحذف مفعول

(١) الشوكاني.

الأفعال الثلاثة إيذاناً بالعموم؛ أي: كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك.

وقرأ الجمهور[1] ﴿وَلْتَكُن﴾ بإسكان اللام، وقرأ أو عبد الرحمن، والحسن، والزهري، وعيسى بن عمر، وأبو حيوة، بكسرها، وعلة بنائها على الكسر مذكورةٌ في كتب النحو، وسنبينها لك في مقام الإعراب إن شاء الله تعالى.

وقرأ عثمان وعبد الله بن الزبير ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم﴾ قال أبو بكر ابن الأنباري: وهذه الزيادة تفسيرٌ من ابن الزبير، وكلام من كلامه، غلط فيه بعض الناقلين عنه، فألحقه بألفاظ القرآن، وقد روي عن عثمان كما مر آنفاً أنه قرأها كذلك، ولكن لم يكتبها في مصحفه، فدل على أنها ليست من القرآن.

وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع مقامها.

فائدة[2]: ويشترط فيمن يقوم بهذه الدعوة شروط أربعةٌ؛ ليؤدي وظيفته خير الأداء، ويكون مثلاً صالحاً يحتذى به في علمه وعمله:

الأول: أن يكون عالماً بالقرآن والسنة وسيرة النبي ﷺ والخلفاءِ الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

الثاني: أن يكون عالماً بحال من توجه إليهم بالدعوة في شؤونهم واستعدادهم وطباعهم وأخلاقهم، أي: معرفة أحوالهم الاجتماعية.

والثالث: أن يكون عالماً بلغة الأمة التي يراد دعوتها، وقد أمر النبيُّ ﷺ بعض الصحابة بتعلم العبرانية لحاجته إلى محاورة اليهود، الذين كانوا يحاورونه ومعرفة حقيقة حالهم.

والرابع: معرفة الملل ومذاهب الأمم، وبذلك يتيسر له معرفة ما فيها من

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

باطلٍ، فإن الإنسان إن لم يتبين له بطلان ما هو عليه، لا يلتفت إلى الحق الذي عليه غيره، وإن دعاه إليه، وبالجملة فلا يقوم بهذه الدعوة إلا خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام، وحكمة التشريع، وفقهه، وهم الذين أشار إليهم الكتاب الكريم بقوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وهؤلاء يقومون بتطبيق أحكام الله تعالى على مصالح العباد في كل زمان ومكان على مقدار علمهم في المساجد، والمعابد، والمنتديات العامة، وفي المحافل عند سنوح فرصةٍ. فإذا هم فعلوا ذلك كثر في الأمة الخير، وندر فيها وقوع الشر، وائتلفت قلوب أهاليها، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، وسعدوا في دنياهم وآخرتهم. وأمة هذه حالها تسود غيرها من الأمم باجتماع كلمتها، واتفاق أهوائها إذ لا مطمع لها إلا رفعة شأن دينها، وعزة أبنائها وسيادتها العالم كله. ولن يتم ذلك إلا إذا أعد أهلها للأمر عدته، وكملوا أنفسهم بالمعارف والعلوم التي تحتاج إليها الأمم التي تبغي السعادة والرقي، وتخلقوا بفاضل الأخلاق، وحميد الصفات حتى يكونوا مثلاً عليا يحتذى بها، ويشار إليهم بالبنان.

وإن ما أودع في ديننا من هذا، وما خلفه لنا السلف الصالح من الكنوز والثروة العلمية، فيه غنية لمن يريد الخير والفلاح، وقد روي أن رسول الله ﷺ سئل عن خير الناس، فقال: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم للرحم».

وعنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم».

وعن علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن غضب لله غضب الله له. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع

فبلسانه، فإن لم يستطيع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» أخرجه مسلم.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً». أخرجه البخاري.

واختلف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقيل: يجبان على كلٍّ مكلف، فمعنى الآية على هذا القول: كونوا أمةً دعاةً إلى الخير، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر. وصاحب هذا القول يقول: هما فرض كفاية إذا قام بهما واحد سقط الفرض عن الباقين.

وقيل: هنا يختصان بالعلماء وولاة الأمر، فعلى هذا يكون معنى الآية ليكن بعضكم آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدعاة الآمرون الناهون ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: المختصون بالفلاح الكامل، والنجاح الواصل. روي أنه ﷺ قال: «من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر.. فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله وخليفة كتابه».

وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. بين ما يجب أن تكون عليه الأمة الداعية الآمرة الناهية من وحدة المقصد، واتحاد الغرض؛ لأن الذين سبقوهم من الأمم، لم يفلحوا لاختلاف نزعاتهم، وتفرق أهوائهم؛ لأن كلاً منهم يذهب إلى تأييد رأيه وإرضاء هواه.

أما المتفقون في القصد: فاختلافهم في الرأي لا يضر بل ينفعهم إذ هو أمر طبيعيٌّ، لا بدَّ منه لتمحيصه، وتبين وجه الصواب فيه فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾؛ أي: كاليهود والنصارى الذين تفرقوا بالعداوة ﴿وَٱخْتَلَفُواْ﴾ في الدين، وكانوا شيعاً تذهب كل شيعة منها مذهباً يخالف مذهب الآخر، وتنصر مذهبها وتدعو إليه، وتخطىء ما سواه ولذا تعادوا واقتتلوا، أو

المعنى تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل واحد من أولئك الأحبار رئيساً في بلد، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق، وأن صاحبه على الباطل، قال الفخر الرازي: إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان، صاروا موصوفين بهذه الصفة، فنسأل الله العفو والرحمة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾، أي: تفرقوا، واختلفوا من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه، وإتحاد الكلمة. ولو كان فيهم أمة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر وتعتصم بحبل الله وتتجه إلى غايةٍ واحدةٍ لما تفرقوا واختلفوا فيه. ولما تعددت مذاهبهم في أصوله وفروعه، وما قاتل بعضهم بعضاً: فلا تكونوا مثلهم؛ فيحل بكم ما حل بهم.

قالوا: وهذا الاختلاف المنهي عنه يختص بالمسائل الأصولية، وأما المسائل الفروعية الاجتهادية: فالاختلاف فيها جائزٌ. وما زال الصحابة فمن بعدهم من التابعين وتابعيهم مختلفين، في أحكام الحوادث لقوله ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة» ولقوله ﷺ: «من اجتهد.. فأصاب؛ فله أجران، ومن أخطأ فله أجرٌ واحدٌ».

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». وزاد الحاكم في رواية: «كلها في النار إلاّ ملة واحدة». وزاد أحمد في روايةٍ عن أنس «قيل يا رسول الله: من تلك الفرقة؟ قال: «الجماعة». وإنما قال: ﴿جَآءَهُمُ﴾، ولم يقل: جاءتهم لجواز حذف علامة التأنيث من الفعل عند وجود الفاصل، أو عند كون الفاعل مؤنثاً مجازياً كما هنا.

ثم ذكر سبحانه وتعالى عاقبة المختلفين وعظيم نكالهم فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين تفرقوا واختلفوا في الدين ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ في الدنيا والآخرة؛ بسبب تفرقهم واختلافهم. وفيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والاختلاف. وهذا العذاب يشمل خسران الدنيا، وخسران الآخرة، أما في الدنيا: فلأن بأسهم يكون بينهم شديداً، فيشقى بعضهم ببعض، ويبتلون بالأمم التي تطمع في الضعفاء

وتذيقهم الخزي والنكال. وأما في الآخرة: فعذاب الله أشد وأبقى. وهذا الوعيد المذكور في هذه الآية يقابل الوعد المذكور في الآية السابقة، وهو قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فالفلاح فيها يشمل الفوز بخيري الدنيا والآخرة.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً.. فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه». أخرجه أبو داود. ربقة الإسلام: عقدة الإسلام وحبله وعراه.

وروى البغويُّ بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَرَّه أن يسكن بحبوحة الجنة.. فعليه بالجماعة؛ فإن الشيطان مع الفذِّ، وهو من الاثنين أبعد». بحبوحة الجنة: وسطها، والفذ: هو الواحد.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى زمان ذلك العذاب فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ الظرف منصوب بمحذوف تقديره: أذكروا يوم تبيض وتستنير، وتلألأ فيه وجوه كثيرة من المؤمنين بسبب ما تراه من الفرح والسرور بحسناتها، ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ كثيرة من الكافرين بسبب ما تراه من الحزن والكآبة والغمّ بسيئاتها، وهو يوم القيامة حين[1] يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة، ووجوه الكافرين مسودة، ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب إذ قرأ المؤمن كتابه.. رأى حسناته، فاستبشر وأبيض وجهه، وإذا قرأ الكافر كتابه.. رأى سيئاته؛ فحزن واسود وجهه.

وفي بياض[2] الوجوه وسوادها قولان:

أحدهما: البياض كناية عن الفرح، والسرور، والسواد: كناية عن الغم والحزن، واستعمال البياض في السرور والسواد في الحزن عرف شائع لدى كل ناطق بالضاد على سبيل التجوز.

والقول الثاني: بياض الوجوه وسوادها حقيقة تحصل في الوجه، فيبيض وجه المؤمن، ويكسى نوراً، ويسود وجه الكافر ويكسى ظلمة؛ لأن لفظ البياض والسواد حقيقة فيهما.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.

والحكمة في بياض الوجوه وسوادها: أن أهل الموقف إذا رأوا بياض وجه المؤمن، عرفوا أنه من أهل السعادة، وإذا رأوا سواد وجه الكافر.. عرفوا أنه من أهل الشقاوة. ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ وقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ وفي الحديث: «إن أمتي يحشرون غراً محجلين من أثر الوضوء».

وخلاصة الكلام: أنَّ هؤلاء المختلفين المتفرقين لهم عذاب عظيم في هذا اليوم، كما تظاهرت على ذلك الآيات والأحاديث، كما يكون لهم مثل ذلك في الدنيا؛ إذ هم لاختلاف مقاصدهم لا يتناصرون، ولا يتعاونون، ولا يأبهون بالأعمال التي فيها شرف الملة وعز الأمة، فتسود وجوههم بالذل والكآبة حين يجنون ثمار أعمالهم، وعواقب تفرقهم، واختلافهم بقهر الغاصب لهم، وانتزاعه السلطة عن أيديهم، والتاريخ والمشاهدة شاهدا صدق على هذا.

أما المتفقون الذين اعتصموا، واتفقوا على الأعمال النافعة لخير الأمة وعزها، وأصبح كل واحد منهم عوناً للآخر، وناصراً له، فأولئك تبيض وجوههم، وتتلألأ بهجة وسروراً حين تظهر لهم آثار اتفاقهم، واعتصامهم بوجود السلطان والعزة والشرف وارتفاع المكانة بين الأمم.

وقرأ[1] الجمهور ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ﴾ بفتح التاء، وقرأ يحيى بن وثاب، وأبو رزين العقيلي، وأبو نهيك ﴿تبيض﴾ و﴿تسود﴾ بكسر التاء فيهما، وهي لغة تميم. وقرأ الحسن، والزهري، وابن محيصن، وأبو الجوزاء ﴿تبياض﴾ و﴿تسواد﴾ بألف فيهما، ويجوز كسر التاء في ﴿تبياض وتسواد﴾، ولم ينقل أنه قرىء ذلك.

ثم فصل سبحانه وتعالى أحوال الفريقين فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ﴾ وأظلمت ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ بسبب تفرقهم واختلافهم فيلقون في النار، وتقول الزبانية توبيخاً لهم ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، أي: هل كفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب

---

(١) البحر المحيط.

الإيمان؟ وهو الدلائل التي نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوة. وقال عكرمة، والأصم، والزجاج: أي أكفرتم يا أهل الكتاب بعد بعثة محمد ﷺ بعد إيمانكم به قبل مبعثه؟.

وابتدأ[1] بالذين اسودت وجوههم، للاهتمام بالتحذير من حالهم، ولمجاورة قوله وتسود وجوه، وليكون الابتداء بالمؤمنين والاختتام بحكمهم فيكون مطلع الكلام ومقطعه شيئاً يسر الطبع، ويشرح الصدر.

فإن قلت[2]: كيف قال؟ أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين، فمن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم؟

قلت: اختلف العلماء في ذلك، فروي عن أبيّ بن كعب أنه قال: أراد به الإيمان يوم أخذ الميثاق حين قال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى فآمن الكل، فكل من كفر في الدنيا.. فقد كفر بعد الإيمان، وقال الحسن: هم المنافقون؛ وذلك أنهم تكلموا بالإيمان بألسنتهم، وأنكروه بقلوبهم. وقال عكرمة: هم أهل الكتاب؛ وذلك أنهم آمنوا بمحمد ﷺ قبل مبعثه، فلما بعث.. أنكروه وكفروا به كما مر آنفاً. وقيل: هم الذين ارتدوا في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهم أهل الردة.

ذكر الأحاديث المناسبة للآية

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن إليّ رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأنالهم، اختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك». متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ليردن علي الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا دوني فلأقولنَّ: أي رب أصحابي أصحابي فيقال لي: لا تدري ما أحدثوا بعدك». زاد في رواية «فأقول سحقا لمن

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

بدل بعدي». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يرد علي يَوْمَ القيامة رهط من أصحابي، أو قال: من أمتي، فيجلون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى». متفق عليه.

وقيل: هم الخوارج الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب، وقتلهم، وهم الحرورية. وقيل: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة كالقدرية، ونحوهم، فكفرهم بعد إيمانهم على هذا القول هو خروجهم من الجماعة ومفارقتهم في الاعتقاد.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: باشروا العذاب وادخلوه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفركم بالله وبرسوله وبكتابه، والأمر بذوق العذاب على طريق الإهانة لهم، والاستهزاء بهم.

وقد جرى عرف القرآن أن يعد المتفرقين في الدين من الكفار والمشركين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾.

كذلك يعد الخروج عن مقاصد الدين الحقيقية من الكفر؛ لأن الإيمان اعتقادٌ، وقولٌ، وعملٌ، وهو ذو شعبٍ كثيرة، من أجلها تحري العدل، واجتناب الظلم، فمن استرسل في الظلم.. كان كافراً كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وكذلك من ترك الإتحاد، والوفاق، والاعتصام بحبل الدين كان من الكافرين بعد الإيمان.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ﴾ واستنارت ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ بالفرح والسرور؛ بما رأوا من حسناتهم التي من جملتها اتحاد الكلمة، وعدم التفرق ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي:

فيكونون في رحمة الله وجنته، وعبر عنها بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن، وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى، فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: هم دائمون في رحمته وجنته، لا يظعنون عنها ولا يموتون، قيل: إنما كرر ﴿في﴾ لأن في كل واحدة منها معنى غير الأخرى المعنى أنهم في رحمة الله، وأنهم في الرحمة خالدون، وقرأ أبو الجوزاء، وابن يعمر (فأما الذين اسوادت وأما الذين ابياضت﴾ بألف.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار وتعذيب الكفار ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ القرآنية، ودلائله الدالة على صدقك يا محمد ﴿نَتْلُوهَا﴾، أي: نقرؤها بواسطة جبريل ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد حالة كونها ملتبسة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والعدل في مجازاة المحسن، والمسيء بما يستوجبانه، أو حالة كوننا ملتبسين بالحق والصدق.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: وما يريد الله فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقت من الأوقات فضلاً عن أن يفعله، وأما ظلم بعضهم لبعض فواقع كثيراً، وكل واقع فهو بإرادته تعالى، والمعنى لا يشاء أن يظلم هو عباده، فيأخذ أحداً بغير جرم أو يزيد في عقاب مجرم، أو ينقص من ثواب محسن.

والحاصل: أن كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه فإنما يريد به هدايتهم، إلى ما يكمل فطرتهم ويتم به نظام جماعتهم، فإذا هم فسقوا عن أمره حل بهم البلاء، وكانوا هم الظالمين، لأنفسهم بتفرقهم، واختلافهم إلى نحو ذلك من الذنوب التي تفسد نظم المجتمع، وتجعل أهله في شقاء، ولا يحل عذاب بأمة إلا بذنب فشا فيها، فزحزحها عن الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

ثم ذكر ما هو كالبرهان لنفي الظلم عنه تعالى فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولله سبحانه وتعالى لا لغيره جميع ما في السموات، وما في الأرض ملكاً، وخلقاً، إحياءً وإماتة، وإثابةً، وتعذيباً.

لما ذكر الله تعالى أنه لا يريد ظلماً للعالمين، لأنه لا حاجة به إلى الظلم،

وذلك أن الظالم إنما يظلم غيره ليزداد مالاً أو عزاً أو سلطاناً أو يتم نقصاً فيه بما يظلم به غيره، ولما كان الله عز جل مستغنياً عن ذلك، وله صفة الكمال أخبر أن له ما في السموات وما في الأرض، وأن جميع ما فيهما ملكه وأهلهما عبيده، وإذا كان كذلك يستحيل في حقه سبحانه وتعالى أن يظلم أحداً من خلقه؛ لأنهم عبيده وفي قبضته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؛ ولأن الظلم ينافي الحكمة، والكمال في النظام، وفي التشريع، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: إلى حكمه تصير أمور الخلائق، وشؤونها في الآخرة المؤمن، والكافر، والعاصي، والطائع، فيجازي الكل على قدر استحقاقهم، ولا يظلم أحداً منهم فلا مفر منه، ولا محيص عنه. وقرىء ﴿ترجع﴾ بالبناء للفاعل، أو المفعول، وبالتاء المثناة من فوق على القراءتين. ﴿كُنتُمْ﴾ يا أمة محمد في سابق علمه تعالى ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: أفضل أمة ﴿أُخْرِجَتْ﴾ وأظهرت بفضلها وشرفها ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: عرف فضلها وشرفها للناس حتى تميزت عنهم بما فيها من الخصال الآتية، أو المعنى أخرجت، وأظهرت في عالم الوجود في الدنيا، لنفع الناس كما أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة في الآية قال: خير الناس للناس يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، وفي الآخرة بالشهادة للأنبياء على أممهم، وقال ابن عباس: أخرجت من مكة إلى المدينة، وقيل: اللام فيه بمعنى من، والمعنى: كنتم يا أمة محمد في سابق علمي خير أمة أخرجت: أي: اختيرت من الناس لنفعها لهم في الدنيا والآخرة.

ثم بين وجه خيريتها بقوله: ﴿تَأْمُرُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: بالتوحيد واتباع محمد ﷺ ﴿وَتَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: عن الشرك ومخالفة الرسول محمد ﷺ ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وتصدقون بالله وتخلصون له التوحيد والعبادة، أو المعنى تؤمنون بالله إيماناً متعلقاً بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول، وكتاب، وحساب، وجزاء، وغير ذلك. وقال قتادة: هم أمة محمد ﷺ لم يؤمر نبي قبله بالقتال؛ فهم يقاتلون الكفار، فيدخلونهم في الإسلام فهم خير أمة أخرجت للناس.

فإن قلت[1]: لِمَ قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر، مع أن الإيمان يلزم أن يكون مقدماً على جميع الطاعات، والعبادات لأنه أساسها؟

قلت: إنَّ الإيمان بالله أمر يشترك فيه جميع الأمم المؤمنة، وإنما فضلت هذه الأمة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سائر الأمم، فكأنهما هما المقصودان هنا وإن كان الإيمان بالله شرطاً فيهما؛ فلهذا السبب حسن تقديم ذكرهما على ذكر الإيمان، فهذه الأمة لها شبه بالأنبياء من حيث إنها مهتدية في نفسها هادية لغيرها.

فصل في ذكر الأحاديث الدالة على خيرية هذه الأمة

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، «ثم إن بعدهم قوماً يشهدون، ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن». زاد في رواية «ويحلفون ولا يستحلفون». متفق عليه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته». متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛ فلو أنَّ أحداً أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم، ولا نصيفه». متفق عليه. النصيف: النصف.

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «أنتم تتمون سبعين أمة أنتم

(١) الخازن.

خيرها، وأكرمها على الله تعالى».

أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». أخرجه البخاري.

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله لا يجمع أمتي، أو قال: أمة محمد ﷺ على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار». أخرجه الترمذي.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الأخرة، عذابها في الدنيا، الفتن والزلازل والقتل». أخرجه أبو داود.

وعن أنس رضي الله عنه: «مثل أمتي كمثل المطر، لا يدرى آخره خير أم أوله». أخرجه الترمذي.

وله عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومئة صف، ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أمتي من يشفع في الفئام من الناس، ومنهم من يشفع في القبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم من يشفع للواحد». أخرجه الترمذي.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً، أو سبع مئة ألف سماطين[1] متماسكين، آخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر». أخرجه البخاري.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ولو آمنت اليهود والنصارى بمحمد ﷺ

---

(١) **سماطين**: أي صفين.

وبما جاء به من الدين إيماناً كاملاً كإيمانكم ﴿لَكَانَ﴾ ذلك الإيمان ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مما هم عليه من اليهودية والنصرانية، وإنما حملهم على ذلك حب الرياسة، واستتباع العوام، ولو أنهم آمنوا.. لحصلت لهم الرياسة في الدنيا، والثواب العظيم في الآخرة، وهو دخول الجنة، فكان ذلك خيراً لهم مما قنعوا به ﴿مِّنْهُمُ﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود، والنجاشي، وأصحابه الذين أسلموا من النصارى ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾؛ أي: أكثر أهل الكتاب ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ في أديانهم، فيكونون مردودين عند الطوائف كلهم؛ لأن المسلمين لا يقبلونهم لكفرهم، والكفار لا يقبلونهم، لكونهم فاسقين، فيما بينهم؛ فليسوا بمن يجب الاقتداء بهم ألبتة عند أحد من العقلاء ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾؛ أي: لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود ﴿إِلَّا أَذًى﴾؛ أي: إلا ضرراً يسيراً باللسان، لا نكاية فيه، ولا إجحاف لكم إما بطعنهم في دينكم أو نبيكم، وإما بإظهار كلمة الكفر كقولهم عزير ابن الله، وإما بإلقاء الشبه في الأسماع، وإما بتخويف الضعفة من المسلمين فلا يصل إليكم منه شيء، وإنما هو مجرد لقلقة اللسان. قيل: سبب نزول هذه الآية أن رؤساء اليهود عمدوا إلى من آمن منهم مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، فآذوهم لإسلامهم، فأنزل الله تعالى ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾.

والمعنى: أن هؤلاء الفاسقين لا يقدرون على إيقاع الضرر عليكم، بل غاية جهدهم أن يؤذوكم بالهجو القبيح، والطعن في الدين، وإلقاء الشبهات، وتحريف النصوص التي في التوراة، والخوض في النبيّ ﷺ ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ﴾؛ أي: وإن يقابلوكم في ميدان القتال ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾؛ أي: يجعلوا أدبارهم وظهورهم مولى إلى جهتكم، وينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء، والمنهزم من شأنه أن يحول ظهره إلى جهة مقاتله، ويستدبره في هربه منه، فيكون قفاه إلى وجه من انهزم منه ﴿ثُمَّ﴾ بعد انهزامهم من قتالكم ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ عليكم أبداً؛ أي: لا يجدون الشوكة والقوة والنصرة عليكم أبداً ما داموا على فسقهم ودمتم على خيرتكم، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾؛ أي: جعلت الذلة والصغار والهوان على اليهود، بأن يحاربوا ويقتلوا وتغنم أموالهم، وتسبى ذراريهم، وتملك أراضيهم، وقيل: الذلة ضرب الجزية عليهم؛ لأنها ذلة وصغار، وقيل: ذلتهم أنك لا ترى في اليهود ملكاً قاهراً، ولا رئيساً معتبراً، بل هم مستضعفون في جميع البلاد، ﴿أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾؛ أي: حيثما وجدوا وصودفوا؛ فلا يقدرون أن يقوموا مع المؤمنين ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي؛ إلا بعهد من الله، وهو أن يسلموا؛ فتزول عنهم الذلة ﴿وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أو بعهد من المؤمنين ببذل الجزية، والمعنى: ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله، وحبل الناس، وهو ذمة الله، وعهده، وذمة المسلمين وعهدهم، لا عز لهم أبداً إلا في هذه الحالة الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من بذل الجزية وإنما سمي العهد حبلاً؛ لأنه سبب يوصل إلى الأمن، وزوال الخوف.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: استوجبوا، واستحقوا غضباً من الله، ولعنة منه، وغضب الله تعالى ذمه إياهم في الدنيا، وعقوبته لهم في الآخرة ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾ كما يضرب البيت على أهله، فهم ساكنون في المسكنة غير خارجين منها، يعني: جعل عليهم زي الفقر، واليهود في غالب الأحوال مساكين، تحت أيدي المسلمين والنصارى. فاليهودي، وإن كان غنيا موسراً يظهر من نفسه الفقر. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من ضرب الذلة، والمسكنة، وغضب الله ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ينكرون آيات الله الناطقة بنبوة محمد ﷺ يحرفونها، وسائر الآيات القرآنية ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ﴾؛ أي: بلا جرم، فإن الذين قتلوا الأنبياء، أسلافهم، وهؤلاء المتأخرون كانوا راضين بفعل أسلافهم، فنسب إليهم، كما أن التحريف من أفعال أحبارهم، ينسب إلى كل من يتبعهم، والتقييد بغير حق، مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً، وللتشنيع عليهم، وللدلالة على أن ذلك حدث منهم عن عمد لا عن خطأ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر والقتل ﴿بِمَا عَصَواْ﴾؛ أي: بسبب كثرة عصيانهم، ومخالفتهم لأوامر الله تعالى، وغشيانهم لمعاصي الله، كالاصطياد في يوم السبت مثلاً ﴿و﴾ بما ﴿كانوا يعتدون﴾؛ أي: يتجاوزون

حدود الله باستحلال المحارم؛ أي؛ ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم ومجاوزتهم حدود الله تعالى؛ فنزل بهم ما نزل.

وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها، فالعصيان والاعتداء هو عين الكفر، وقتلهم الأنبياء، ويحتمل أنها ليست مؤكدة بل هي علة للعلة؛ أي: فعلة ضرب الذلة، والمسكنة، والغضب من الله: كفرهم، وقتلهم الأنبياء، وعلة الكفر، والقتل: عصيانهم أمر الله وتجاوزهم الحد.

وقال بعض العارفين: من ابتلي بترك الآداب.. وقع في ترك السنن ومن ابتلي بترك السنن.. وقع في ترك الفريضة، ومن ابتلي بترك الفريضة.. وقع في اسحقار الشريعة، ومن ابتلى بذلك.. وقع في الكفر.

الإعراب

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلْتَكُن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ لام الأمر، مبنية على السكون لسبقها بعاطف والأصل فيها: البناء على الكسر كما في قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾ وإنما حركت حينئذٍ؛ لكونها على حرف واحد، ولتعذر الابتداء بالساكن، وكانت الحركة كسرة للفرق بينها وبين لام القسم، والالتباس بينها وبين لام الجر يندفع بالمقام؛ لأن هذه لا تدخل إلا على الفعل، وتلك إلا على الاسم، كما ذكرته في «الفتوحات القيومية على متن الآجرومية» ﴿تكن﴾ فعل مضارع تام، أو ناقص مجزوم باللام. ﴿مِّنكُمْ﴾ متعلق به، أو خبر لـ﴿تكن﴾ إن قلنا ناقصة. ﴿أمة﴾ فاعل، أو اسمٌ لها، والجملة مستأنفة. ﴿يَدْعُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾ متعلق به، والجملة صفة لـ﴿أمة﴾، وجملة ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وكذلك جملة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ معطوفتان على جملة ﴿يَدْعُونَ﴾ على كونهما صفة لـ﴿أمة﴾. ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿أولئك﴾ مبتداء. ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل. ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ خبر، والجملة مستأنفة.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، أو عاطفة. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَكُونُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور خبره، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾. ﴿تَفَرَّقُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. وجملة قوله: ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ معطوفة على جملة ﴿تَفَرَّقُوا۟﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور تنازع فيه كل من ﴿تَفَرَّقُوا۟﴾ ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾. ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد مجيء البينات إياهم. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿أولئك﴾ مبتدأ أول ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ ثانٍ مؤخر، وسوغ الابتداء، تقدم الخبر الظرفي عليه ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ﴾

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف تقديره: أذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة، ويجوز: أن يكون الظرف متعلقاً بـ ﴿عَظِيمٌ﴾، أو للاستقرار في ﴿لَهُمْ﴾ كما ذكره أبو البقاء. ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. وجملة ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ معطوفة على جملة ﴿تَبْيَضُّ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الناس في القيامة فريقان: فرقة تبيض وجوههم، وفرقة تسود وجوههم، وأردت بيان مأوى الفريقين فأقول لك ﴿أما الذين﴾ ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، وخبر المبتدإ، محذوف تقديره: فيلقون في النار، أو يكونون في النار، والجملة من المبتدإ، والخبر جواب ﴿أمَّا﴾ لا محل لها من

الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقولٌ لجواب، إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي، وقال أبو حيان: الاستفهام، فيه للتقرير والتوبيخ والتعجيب ﴿كفرتم﴾ فعل وفاعل. ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق ﴿بكفرتم﴾، وجملة الاستفهام في محل النصب مقول لقول محذوف معطوف على الخبر المحذوف تقديره؛ ويقال لهم توبيخاً: أكفرتم بعد إيمانكم. ﴿فَذُوقُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية. ﴿ذوقوا العذاب﴾ فعل وفاعل ومفعول، فالجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَكَفَرْتُم﴾ على كونها مقولاً لقول محذوف. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب. ﴿ما﴾ مصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَكْفُرُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾؛ وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿لما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور ﴿بالباء﴾ تقديره: بسبب كفركم، الجار والمجرور متعلق ﴿بذوقوا﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿أمَّا﴾ حرف شرط. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها. ﴿في رحمة الله﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: فكائنون في رحمة الله والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾، وجملةُ ﴿أما﴾ في محل النصب معطوفة على جملة، ﴿أما﴾ الأولى ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ المذكور بعده. ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة دالةٌ على أنَّ الاستقرار في الرحمة على سبيل الخلود، فلا تعلقَ لها بالجملة قَبلها من حيث الإعراب كما ذكره في «الفتوحات».

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿نَتْلُوهَا﴾

فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلِّق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من آيات الله، ولكنّها حالةٌ سببيةٌ تقديره: حالة كوننا تالِينَ إياها. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿نَتْلُوهَا﴾ أو مِنْ مفعوله. ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ حجازية، أو تميمة. ﴿ٱللَّهُ﴾ اسمها أو مبتدأ. ﴿يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿اللام﴾ زائدة زيدت لتقويةِ معنى العامل كاللام في قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، أو خبر لِمَا، والجملة الاسمية مستأنفة، ولكنها مرتبطة في المعنى بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لله﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ما﴾ في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور صلةٌ لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ معطوفة على ﴿ما﴾ الأولى. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ صلةٌ ﴿لما﴾ أو صفة لها. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إلى الله﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية المذكورة قبلها، أو مستأنفة.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ خبر كان ومضاف إليه، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة ﴿أُخْرِجَتْ﴾ فعلٌ ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾؛ والجملة الفعلية صفة لـ﴿أمة﴾. ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بـ ﴿أُخْرِجَتْ﴾. ﴿تَأْمُرُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب خبر ثان لـ ﴿كان﴾، أو مستأنفة اسْتِئْنافاً بَيَانِياً ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿تأمرون﴾، وكذلك معطوفة عليها جملة قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ على كونها خبراً لـ﴿كان﴾ أو مستأنفة.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لَوۡ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَكَانَ﴾ اللام رابطة لجواب ﴿لَوۡ﴾. ﴿كان﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر فيه تقديره: هو يعود على الإيمان. ﴿خَيۡرًا﴾ خبر لـ ﴿كان﴾. ﴿لَّهُمۚ﴾ متعلق بـ ﴿خَيۡرًا﴾ وجملة ﴿كان﴾ جواب ﴿لوَ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة لو مستأنفة. ﴿مِّنۡهُمُ﴾ خبر مقدم. ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ جملة اسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾.

﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ﴾ حرف نصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء مفرغ قال أبو حيان: والظاهر أن قوله: ﴿إِلَّآ﴾ استثناء متصل، وهو استثناء مفرغ من المصدر المحذوف، والتقدير: لن يضروكم ضرراً إلاّ ضرراً يسيراً، هو الأذى لا نِكايةَ فيه، ولا إِجْحافَ لكم. انتهى. ﴿أَذٗىۖ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بـ ﴿يَضُرُّوكُمۡ﴾ لأنه مصدر معنوي له. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، أو عاطفة. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم ﴿بإنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿أن﴾ على كونه جواب شرط لها ﴿ٱلۡأَدۡبَارَۖ﴾ مفعول ثان، وجملة الشرط مستأنفة أو معطوفة على ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف بمعنى ﴿الواو﴾ الاستئنافية. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يُنصَرُونَ﴾ فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ مستأنف، ولم يجزم عطفاً على جواب الشرط؛ لأنه يلزم عليه تغيير المعنى؛ وذلك؛ لأنَّ الله أخبر بعدم نصرتهم مطلقاً، ولو عطفناه على جواب الشرط.. للزم تقييده بمقاتلتهم لنا، مع أنهم غير منصورين مطلقاً قاتلوا أو لم يقاتلوا. انتهى. ويصح أن تكون ﴿ثم﴾ للترتيب الذكري. والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية، لا على الجواب فقط. وقال أبو البقاء: هو كلام مستأنف أستؤنف به ليدل على أنَّ الله لا ينصرهم

قاتلوا، أو لم يقاتلوا انتهى.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿ضُرِبَتْ﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ نائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَيْنَ﴾ اسم شرط جازم في محل النصب على الظرفية المكانية، والظرف متعلق بالجواب المحذوف. ﴿مَا﴾ زائدة. ﴿ثُقِفُوٓا۟﴾ فعل ونائب فاعل مجزوم بـ ﴿أَيْنَ﴾ على كونه فعلَ شَرْطٍ لها، وجوابها معلوم مما قبلها تقديره أينما ثقفوا ضُرِبَت عليهم الذلة، أو يقال: إنَّ ﴿أَيْنَ﴾ ظرف مجرَّدٌ عن معنى الشرط متعلق بـ ﴿ضُربت﴾ فلا جوابَ لها، وجملة ﴿ثُقِفُوٓا۟﴾ مضاف إليه لـ﴿أين﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ من عام الأحوال. ﴿بِحَبْلٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿واو﴾ ﴿ثُقِفُوٓا۟﴾ تقديره: ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال إلاَّ في حالة كونهم مُتمسكين بحبل من الله، وحبل من الناس. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿حبل﴾ تقديره: حبل كائن من الله. ﴿وَحَبْلٍ﴾. معطوف على ﴿حبل﴾ ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ صفة لحبلِ الثاني.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾.

﴿وَبَآءُو﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿باءوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ضُربت﴾. ﴿بِغَضَبٍ﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿باءوا﴾ والباء للملابسة؛ أي: رجعوا مغضوباً عليهم، وليس مفعولاً به كمررت بزيد. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿غضب﴾. ﴿وَضُرِبَتْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفةٌ. ﴿ضربت﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿أن﴾ حرف نصب وتوكيد و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر ﴿كان﴾ تقديره: كانوا كافرين، وجملة ﴿كان﴾ في

محل الرفع خبر أنَّ تقديره: بأنهم كافرون، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور ﴿بالباء﴾ تقديره بسبب كفرهم. ﴿بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَكْفُرُونَ﴾. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنبِيَآءَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ على كونها خبراً لـ ﴿كان﴾. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الضمير في ﴿يقتلون﴾، والتقدير: يقتلونهم مبطلين، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف تقديره قتلاً بغير الحق، وعلى كِلاَ الوجهين هو توكيد.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر ﴿ما﴾ مصدرية. ﴿عَصَوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ المتعلقة بخبر محذوف، تقديره: ذلك كائن بسبب عصيانهم، والجملة مستأنفة، ومؤكدة للجملة التي قبلها كما مَر في بحث التفسير ﴿وَّكَانُوا۟﴾ الواو عاطفة ﴿كانوا﴾ فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْتَدُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿عصوا﴾ على كونها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ تقديره: ذلك كائنٌ بسبب عصيانهم واعتدائهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أُمَّةٌ﴾ الأمة بضم الهمزة: الجماعة دينهم وأمرهم متفق، والطريقة يجمع على أمم. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المعروف: هو ما استحسنه الشرع والعقل. والمنكر: ما استقبحه الشرع، والعقل، أو المعروف ما وافق الكتاب والسنة، والمنكر ما خالفهما أو المعروف الطاعة، والمنكر المعاصي. والدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال، والتروك وما عطف عليه خاص. ﴿ابيضت اسودت﴾ ابيض اسود من باب[1] إفعل أصله إفعلل، يدل على ذلك قولهم: اسوددت واحمررت، وشرطه: أن يكون للون أو عيب حسي، كاسود واعوجَّ،

---

(١) البحر المحيط.

واعْورَّ، وأن لا يكون مضعفاً كأَحَمَّ الرجل إذا صار محموماً ولا معتل لامٍ كألمى الرجل إذا حسنت شفته سمرة، وأن لا يكون للمطاوعة، وندر نحو انقاضَّ الحائط وابهار الليل، واشعار الرجل إذا فرق شعره، وشذ ارعوى؛ لكونه معتل اللام بغير لون ولا عيب، مطاوعاً لرعوته بمعنى كففته، وأما زيادة الألف على افعل بأن يقال: افعال كابياضَّ واسواد، فالأكثر أن يقصد به عروض المعنى إذا جيء بها؛ وقد يكون العكس؛ فمن قصد اللزوم مع ثبوت الألف قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ من ادهام، ومن قصد العروض مع عدم الألف قوله تعالى: ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ واحمر خجلاً.

وَابْيِضَاضُ الوجوه عبارة عن المسرة، واسودادها عبارة عن المساءة، وعلى هـذا جـاء قـولـه تـعـالـى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالأمر الذي له ثبوت وتحقق، ولا مجال فيه للشبهات و﴿الظلم﴾: لغة وعرفاً، وضع الشيء في غير موضعه، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه. ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ ﴿ضرب﴾ مبني للمفعول، و﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ قائم مقام الفاعل. ومعنى ﴿ضُرِبَتْ﴾ ألزموها، وقضي عليهم بها، والذلة بكسر أوله الصغار، والهوان، والحقارة، والذل بالضم: ضد العز.

﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ مفعلة من السكون، لأن المسكين قليل الحركة والنهوض لما به من الفقر. والمسكين مفعيل منه. ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾ ألف باء منقلبة عن واو لقولهم باء يبوء مثل: قال، يقول. قال عليه السلام: «أبوءُ بنعمتك» والمصدر البواءُ ومعناه الرجوع.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ وأصل ﴿عَصَواْ﴾ عصيوا تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان هي والواو، فحذفت لكونها أول الساكنين، وبقيت الفتحة تدل عليها. وأصل العصيان: الشدة يقال: اعتصت النواة، إذا اشتدت. ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ وأصل ﴿يَعْتَدُونَ﴾ يعتديون ففعل به ما فعل بِـ ﴿يتقون﴾، من الحذف والإعلال، فوزنه يفتعون. والاعتداء المجاوزة من عدا يعدو، فهو افتعال منه، ولم يذكر متعلق العصيان. والاعتداء ليعم كل ما يعصى، ويعتدى فيه.

وواو ﴿عَصَواْ﴾ واجبة الإدغام، ومثله فقد اهتدوا، وإن تولوا. وهذا بخلاف ما إذا انضم ما قبل الواو، فإن الضم يقوم مقام الحاجز بين المثلين؛ فيجب الإظهار نحو ﴿آمنوا﴾ ﴿وعملوا﴾ ومثله ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾.

البلاغة

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فيه مجازٌ بالحذف، لأنه حذف من الأفعال الثلاثة المفعول؛ لأن الأصل يدعون الناس، ويأمرونهم وينهونهم، حذفه للإيذان بظهوره، أو للقصد إلى إيجادِ نفس الفعل كما في قولك: فلان يعطي؛ أي: يفعلون الدعاء إلى الخير. وقوله: يأمرون الخ من عطف الخاص على العام، لإظهار فضلهما على سائر الخيرات. وفي يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فيه من مباحث المعاني قصر صفة على موصوف، حيث قصر الفلاح عليهم.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيه من أنواع البلاغة: التفصيل بعد الإجمال؛ لأنه تفصيلٌ لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالاً، وتقديم بيان حال الكفار؛ لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم، مع ما فيه من الجمع بين الإجمال، والتفصيل، والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين، كما بدىء بذلك عند الإجمال. ففي الآية من المحسنات البديعية حسن الابتداءِ، وحسن الاختتام حيث بدأ الآية بالبشرى وختمها كذلك.

قال أبو حيان[1]: تضمنت هذه الآيات أنوعاً من البلاغة والفصاحة:

منها: الطباقُ بين كلمتي ﴿تبيض﴾ و﴿تسود﴾، وبين ﴿ٱسْوَدَّتْ﴾ و﴿ٱبْيَضَّتْ﴾، وفي ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ و﴿ظُلْمًا﴾.

ومنها: التفصيل في قوله: ﴿فأما﴾ و﴿أمَّا﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ و﴿تَكْفُرُونَ﴾.

(١) البحر المحيط.

ومنها: تأكيد المظهر بالمضمر في قوله: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لأنه أطلق الحال، وأريد المحل أي: ففي الجنة؛ لأنها مكان تنزل الرحمة.

ومنها: التكرار في لفظ الله، ومحسنه أنه في جمل متغايرة المعنى، والمعروف في لسان العرب إذا اختلفت الجمل.. أعادت المظهر لا المُضْمَرَ، لأنَّ في ذكره دلالة على تفخيم الأمر، وتعظيمه، وليس ذلك نظيره.

لاَ أَرىٰ ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

لاتحاد الجملة لكنه قد يؤتى في الجملة الواحدة بالمظهر قصداً للتفخيم.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾ بالنون لما في إسناد التلاوة للمعظم نفسه من الفخامة والشرف.

ومنها: تلوين الخطاب في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾.

ومنها: التشبيه والتمثيل في قوله: ﴿تَبْيَضُّ﴾ و﴿وَتَسْوَدُّ﴾ إذا كان ذلك عبارةً عن الطلاقة، والكآبة.

ومنها: الحذف في مواضع.

ومنها: الاستعارة التبعية التخييلية في قوله: ﴿فَذُوقُوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ حيث شبه العذاب بشيء مر يدرك بحاسة الذوق تصوراً بصورة ما يذاق، وطوى ذكر المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الذوق، فإثباته تخييل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ
(١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ
أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولَاءِ
تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ
مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن
تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾.

المناسبة

لمَّا وصف الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب فيما تقدَّم بذميم الصفات، وقبيح الأعمال، وذكر الجزاء الذي استحقوه بسوء عملهم؛ ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة واحدة، وليسوا جميعاً على تلك الشاكلة، بل فيهم من هو متصفٌ بحميد الخصال، وجميل الصفات، لأن فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر. ثم ذكر تعالى عقاب الكافرين، وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم يوم القيامة شيئاً، وأعقب ذلك بالنهي عن اتخاذ أعداء الدين أولياء، ونبه إلى ما في ذلك من الضرر الجسيم في الدنيا والدين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه أحمد، وغيره عن ابن مسعود قال: أخَّر رسول الله ﷺ صلاةَ العشاءِ، ثم خرج إلى

المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحدٌ يذكر الله هذه الساعة غيركم، قال: وأنزل الله هذه الآيات ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حتى بلغ ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

هذا، وقد ورد للآية سبب آخر، ففي «مجمع الزوائد» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيه، وأسيد بن سعيه، وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود، فآمنوا، وصدقوا، ورغبوا في الإسلام، قالت أحبار يهود أهل الكفر: ما آمن بمحمد وتبعه إلاّ شرارنا، ولو كانوا من خيارنا.. ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ رواه الطبراني، ورجاله ثقات، ويقال: لا مانع من نزول الآية في الجميع، أو أنه تعدَّد سبب نزولها.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَيْسُوا﴾؛ أي: ليس جميع أهل الكتاب ﴿سَوَآءً﴾، أي: مستوين، في المساوىء والصفات القبيحة، بل منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون، أي؛ فليس من آمن منهم كمن لم يؤمن.

وفي قوله(١): ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ قولان:

أحدهما: إنه كلام تام يوقف عليه، والمعنى: أنَّ أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾. وقيل: معناه: لا يستوي اليهود، وأمة محمد ﷺ القائمة بأمر الله الثابتة على الحق.

والقول الثاني: إن قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ متعلق بما بعده، ولا يوقف عليه. وقوله عز وجل: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ فيه اختصار، وإضمار، والتقدير: ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ، ومنهم أمةٌ مذمومةٌ غير قائمة، فترك ذكر الأمة الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين.

---

(١) الخازن.

وخلاصة الكلام: ليس أهل الكتاب متساوين في تلك الصفة القبيحة، بل منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون، وهذه الجملة كالتأكيد لتلك أعني قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾.

وبعد أن وصف الفاسقين، وذكر سوء أفعالهم.. وصف المؤمنين، ومدحهم بثمانية أوصاف، كلٌّ منها منقبةٌ ومفخرةٌ، يستحق فاعلها الثواب عليها:

الأول منها: ما ذكره بقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾؛ أي: منهم جماعةٌ مستقيمة على الحق متبعة للعدل، لا تظلم أحداً، ولا تخالف أمر الدين. وكان من تمام الكلام أن يقال: ومنهم: أمة مذمومة كما مر آنفاً، إلا أن العرب قد تذكر أحد الضدين، وتستغني به عن ذكر الآخر، كما قال الشاعر:

دَعَانِيْ إِلَيْهَا ٱلْقَلْبُ إِنِّيْ لِأَمْرِهَا مُطِيْعٌ فَمَا أَدْرِيْ أَرُشْدٌ طِلَابُهَا

يريد: أم غيٌّ، وهذه الجملة مبينة لعدم التساوي مزيلةٌ لإبهامه، والمراد بهذه الأمة: جماعةٌ من اليهود، أسلموا كعبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيه، وأسيد بن سعيه، وأضرابهم، كما رواه ابن جرير عن ابن عباس وقال في تفسير الآية: الأمة القائمة: أمة مهتدية قائمةٌ على أمر الله، لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه.

وهذه الآية حجة على أن دين الله واحدٌ على ألسنة جميع الأنبياء، وأن من أخذه مذعناً وعمل به مخلصاً، وأمر بمعروفٍ ونهى عن منكر فهو من الصالحين.

واستقامة بعضهم على الحق من دينهم لا ينافي ضياع بعض كتبهم، وتحريف بعضهم لما في أيديهم منها، ألا ترى أن من يحفظ بعض الأحاديث، ويعمل بما علم، ويستمسك به مخلصاً فيه يقال: إنه قائم بالسنة عاملٌ بالحديث.

والثاني والثالث: ما ذكره بقوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾؛ أي: يقرؤون القرآن ساعات الليل، وهم يصلون التهجد في الليل، وخص السجود بالذكر من بين أركان الصلاة لدلالته على كمال الخضوع، والخشوع، ودلَّت هذه الآية على الترغيب في قيام الليل، وقد جاء في كتاب الله ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ

ٱلَّيْلَ﴾. وفي الحديث: «يا عبد الله لا تَكُنْ مثلَ فلان كان يقوم الليل فتركه إلى غير ذلك».

وذكر الرابع والخامس بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ أي: يؤمنون إيمان إذعانٍ بهما على الوجه المقبول عند الله، ومن ثمراتِ ذلك الخشية والخضوع والاستعداد لذلك اليوم لا إيماناً لا حظَّ لصاحبه منه إلا الغرور والدعوى، كما هو حال سائر اليهود؛ إذ يؤمنون بالله واليوم الآخر لكنه إيمان هو والعدم سواءٌ، لأنهم يقولون: عزيرُ ابن الله، ويكفرون ببعض الرسل، ويصفون اليوم الآخر بخلاف صفته.

ولمَّا كان كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته، والخير للعمل به، وكان أفضل الأعمال الصلاة، وأفضل الأذكار ذكر الله، وأفضل العلوم معرفة المبدإ، والمعاد، وصفهم الله بقوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ للدلالة على أنهم يعملون صالح الأعمال، وبقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ للإشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم.

وذكر السادس بقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: إنهم بعد أن كمَّلُوا أنفسهم علماً وعملاً كما تقدم يسعون في تكميل غيرهم، إما بإرشادهم إلى ما ينبغي بأمرهم بالمعروف، أو بمنعهم عمَّا لا ينبغي بالنهي عن المنكر.

وفي هذا تعريضٌ باليهود المداهنين الصادين عن سبيل الله.

وذكر السابع بقوله: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: يبادرون فيها، ويعملون صالح الأعمال راغبين فيها غير متثاقلين علماً منهم بجلالة موقعها وحسن عاقبتها، وإنما يتباطأُ الذين في قلوبهم مرضٌ كما وصف الله المنافقين بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ فالمسارعة في الخير ناشئةٌ عن فرط الرغبة فيه؛ لأن من رغب في أمر بادر إليه، وإلى القيام به، وآثر الفور على التراخي، وجاء في الحديث: «اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك». وهذه الصفة جماع الفضائل الدينية والخلقية، وفي ذكرها تعريض باليهود

الذين يتثاقلون عن ذلك، وعبر بالسرعة، ولم يعبر بالعجلة، لأن الأولى: التقدم فيما ينبغي تقديمه وهي محمودةٌ وضدها الإبطاء، والثانية: التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام: «العجلة من الشيطان، والتأنّي من الرحمن» وضدها الأناة، وهي محمودةٌ.

وذكر الثامن بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: وأولئك الموصوفون بالصفات السبعة السابقة، هم من الذين صلحت أحوالهم، وحسنت أعمالهم؛ فرضيهم ربهم، وفي هذا رد على اليهود الذين قالوا فيمن أسلم منهم: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره. والوصف بالصلاح: هو غاية المدح، ونهاية الشرف والفضل، فقد مدح الله به أكابر الأنبياء كإسماعيل وإدريس، وذي الكفل فقال: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وقال حكاية عن سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ولأنه ضد الفساد، الذي لا ينبغي في العقائد، والأفعال، فهو حصول ما ينبغي في كل منهما، وذلك منتهى الكمال ورفعة القدر وعلو الشأن.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وعبد الوارث عن أبي عمرو بالياء في الفعلين؛ لأن الكلام متصلٌ بما قبله من ذكر مؤمني أهل الكتاب؛ فإن جهال اليهود لما قالوا لعبد الله بن سلام وأصحابه: إنكم خسرتم بسبب هذا الإيمان.. قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟﴾؛ أي: عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: إيمان وطاعة، وقيل: من إحسان إلى محمد وأصحابه ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: فلن يحرموا ثوابه بل يثابوا عليه، وهذه قراءة ابن عباس. وقرأ نافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبو بكر بالتاء فيهما، على الخطاب لجميع المؤمنين الذين من جملتهم هؤلاء أي: وما تفعلوا معاشر المؤمنين من خير.. فلن تمنعوا ثوابه وجزاؤه بل تجازُوا عليه.

وهذه الجملة جاءت ردًّا على اليهود الذين قالوا لمن أسلم منهم: أنتم خسرتم بسبب هذا الإيمان، وإشارةً إلى أنهم فازوا بالسعادة العظمى، والدرجات العليا، وفيها تعظيمٌ لهم ليزيل من صدورهم أثر كلام أولئك الأوغاد.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فهو يجزي العاملين بحسب ما يعلم من أحوالهم، وما تنطوي عليه سرائرهم، فمن كان إيمانه صحيحاً، واتَّقى الله.. فازَ بالسعادة، وفيه بشارةٌ لهم بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده تعالى إلاّ أهل التقوى.

وهذه الجملة كالدليل لما قبلها؛ لأن عدم الإثابة المعبَّر عنه بالكفر، إمَّا للسهو والنسيان، وإما للجهل، وذلك ممتنع في حقه تعالى؛ لأنه عليم بكل شيء، وإما للعجز أو البخل أو الحاجة، وكل ذلك محال عليه؛ لأنه خالق جميع الكائنات، وهو القادر على كل شيء. ولما انتفى كل هذا.. كان المنع من الجزاء محالاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ الآيـــة، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا بيَّن فيما سلف أحوال الكافرين، وما يحيق بهم من العقاب وأحوال المؤمنين، وما أعدَّ لهم من الثواب جامعاً بين الزجر والترغيب، والوعد والوعيد، ثم وصف من آمن من الكفار بتلك الخلال الحسنة، والمفاخر التي عددها لهم.. أتبع ذلك بوعيد الكفار، وتيئيسهم بأنهم لن يجدوا يوم القيامة ما يدفع عنهم عذابه، ثم أردفه ببيان أن ما ينفقونه في هذه الحياة الدنيا في لذاتهم وجاههم، وتأييد كلمتهم لا يفيدهم شيئاً كزرع أصابته ريح فيها صر فأهلكته فلم يستفد أصحابه منه شيئاً.

والمعنى: إن الذين كفروا من أهل الكتاب ومشركي مكة، وغيرهم ممن كانوا يعيرون النبيَّ ﷺ وأتباعه بالفقر، ويقولون: لو كان محمد على الحق.. ما تركه ربه في هذا الفقر الشديد، ويتفاخرون بكثرة الأموال، والأولاد كما حكى الله تعالى عنهم ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لن تدفع عنهم هذه الأموال، والأولاد يوم القيامة شيئاً من عذاب الله، ولن تنفعهم في الآخرة. واقتصر على ذكرهما؛ لأنهما من أعظم النعم ومن كان يرتع في بحبوحة هذه النعم فقلما يوجه نظره إلى طلب الحق، أو يصغي إلى الداعي إليه، ومن ثم تراه يتخبط في ظلام دامس حتى يتردَّى في الهاوية، ويقع في المهالك، ولا ينفعه مال

ولا ولد يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت يوم يوضع الميزان ويحاسب كل امرىءٍ، على النقير والقطمير ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفار.

المذكورون هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وملازموها ﴿هُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: دائمون لا يخرجون منها ولا يموتون.

وقيل: إنما خصَّ الله سبحانه وتعالى الأموال والأولاد بالذكر؛ لأن أنفع الجمادات هو الأموال، وأنفع الحيوانات هو الولد. ثم بين تعالى أن الكافر لا ينتفع بهما البتة في الآخرة وذلك يدل على عدم انتفاعه بسائر الأشياء بطريق الأولى.

وبعد ما بين سبحانه وتعالى: أن أموالهم لا تغنى عنهم شيئاً... ذكر أن ما ينفقونه من المال في سبيل الخير لا يجديهم ليزيل ما ربما علق بالبال من أنهم ينتفعون به، وضرب لذلك مثلاً فقال: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي: صفة ما ينفقه الكفار ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في المفاخر والمكارم، وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس، أو ينفقونه في سبيل الخيرات كبناء الرباطات والقناطر والإحسان إلى الضعفاء والأيتام والأرامل. وقرأ ابن هرمز[1] الأعرج ﴿تنفقون﴾ بالتاء على معنى: قل لهم قيل[2]: أراد نفقة أبي سفيان، وأصحابه ببدر، وأحد في معاداة النبيّ ﷺ وقيل: أراد نفقة اليهود على علمائهم، ورؤسائهم، وقيل: أراد نفقات جميع الكفار، وصدقاتهم في الدنيا، وقيل: أراد نفقة المرائي الذي لا يريد بما ينفق وجه الله تعالى؛ وذلك لأنَّ إنفاقهم المال إما أن يكون لمنافع الدنيا، أو لمنافع الآخرة، فإن كان لمنافع الدنيا.. لم يبق له أثر في الآخرة في حق المسلم، فضلاً عن الكافر، وإن كان لمنافع الآخرة كمن يتصدق، ويعمل أعمال البر، فإن كان كافراً.. فإنَّ الكفر محبط لجميع أعمال البر؛ فلا ينتفع بما أنفق

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

في الدنيا لأجل الآخرة، وكذلك المرائي الذي لا يريد بما أنفق وجه الله تعالى؛ فإنه لا ينتفع بما ينفقه في الآخرة.

ثم ضرب مثلاً لذلك الإنفاق فقال: ﴿كَمَثَلِ﴾ مصاب ﴿رِيحٍ﴾ شديدٍ ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الريح ﴿صِرٌّ﴾؛ أي: حر شديد ويسمى بالسموم أو برد شديدٌ ويسمى بالزمهرير ﴿أَصَابَتْ﴾ تلك الريح ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾؛ أي: زرع قوم، وسمي الزرع حرثاً لأنه يحرث عند زرعه ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي؛ خسروا أنفسهم بالكفر، والمعاصي، ومنع حق الله تعالى فيه ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾؛ أي: فأحرقت تلك الريح الزرع، كذلك الشرك يهلك النفقة كما أهلكت الريح الزرع.

ومعنى الآية(١): مثل نفقات الكفار في ذهابها، وقت الحاجة إليها كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته، أو نار فأحرقته، فلم ينتفع به أصحابه.

وقيل المعنى(٢): مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للزرع، أو مثل الكافر الذي أنفق أمواله في الخيرات، كبناء الرباطات كمثل من زرع زرعاً، وتوقع منه نفعاً كثيراً، فأصابته ريح فأحرقته، فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف.

والخلاصة(٣): أن الجوائح قد تنزل بأموال الناس من حرث ونسل عقوبةً لهم على ذنوب اقترفوها؛ إذ لا يستنكر على القادر الحكيم الذي وضع السنن، وربط الأسباب بمسبباتها في عالم الحسِّ أن يوفِّقَ بينها وبين سننه الخفية في إقامة ميزان القسط بين الناس، لهدايتهم إلى ما به كمالهم من طريق العلوم الحسية التي تستفاد من النظر، والتجربة، ومن طريق الإيمان بالغيب الذي يرشد إليه الوحي الإلهيُّ.

ونحن نسمي ما يترتب عليه حدوث الشيء سبباً له وما يلابس السبب من النفع لبعض والضر لآخرين حكمة له، وكل مقصودٌ للفاعل الحكيم.

---

(١) الخازن.
(٢) مراح.
(٣) مراغي.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ تعالى بعدم انتفاعهم بنفقاتهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: ولكن الكفار المنفقين ظلموا أنفسهم بإنفاق الأموال في السبل التي تؤدي إلى الخيبة والخسران على النهج الذي سنه الله تعالى في أعمال الإنسان؛ لأنّ الآية نزلت فيما ينفقه أهل مكة أو ينفقه اليهود في عداوة النبي ﷺ ومقاومته، لأنهم هم الذين اختاروا ذلك لأنفسهم، ولم يضروا النبيَّ ﷺ ومن معه بل كان ذلك سبب سيادته عليهم وتمكنه منهم.

أو المعنى[1]: وما ظلمهم الله بذهاب منفعة زرعهم ونفقاتهم، ولكن أنفسهم يظلمون بالكفر، ومنع حق الله تعالى من الزرع.

وقرىء[2] شاذا ﴿ولكنَّ﴾ بالتشديد، واسمها ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ والخبر ﴿يَظْلِمُونَ﴾، والمعنى: يظلمونها هم، وحسن حذف هذا الضمير وإن كان الحذف في مثله قليلاً كون ذلك فاصلة رأس آية؛ فلو صرح به لزال هذا المعنى، ولا يجوز أن يعتقد أن اسم ﴿لكن﴾ ضمير الشأن، وحذف، و﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعولٌ بـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ لأنَّ حذف هذا الضمير يختص بالشعر ذكره أبو حيان. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزلت هذه الآية في شأن رجال من المؤمنين يشاورون اليهود في أمورهم، لما كان بينهم من الرضاع، والحلف ظناً منهم أنهم ينصحون لهم في أسباب المعاش، فنهاهم الله تعالى بهذه الآية عنه كما قاله ابن عباس، أو في رجال من المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوال المنافقين فيفشون إليهم الأسرار، ويطلعونهم على الأحوال، فالله تعالى منعهم عن ذلك كما قاله مجاهد.

أي: يا أيها الذين آمنوا وصدقوا بمحمد ﷺ وما جاء به ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ وتجعلوا لأنفسكم ﴿بِطَانَةً﴾؛ أي: خواصَّ، وأصفياء، وأصدقاء تباطنونهم في الأمور وتطلعونهم على سركم كائنين ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾؛ أي: من غيركم أي: من غير أهل ملتكم من الكفار والمنافقين ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛ أي: لا يقصرون لكم ولا يتركون جهدهم، وطاقتهم في مضرتكم، وفسادكم، وعداوتكم؛ أي: ليس عندهم

---

(١) تفسير ابن عباس.
(٢) البحر المحيط.

تقصيرٌ في ذلك بل هو شأنهم وديدنهم ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: أحبوا وتمنوا عنتكم ومشقتكم وضرركم في دينكم، ودنياكم أشد الضرر أي؛ فإن الكفار لا يقصرون لكم في إفساد دينكم، فإن عجزوا عنه أحبوا بقلوبهم إلقاءكم في أشد أنواع الضرر ﴿قَدْ بَدَتِ﴾ وظهرت ﴿ٱلْبَغْضَآءُ﴾ والعداوة لكم ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وألسنتهم بالوقيعة في أعراضكم والشتيمة لكم، والتكذيب لنبيكم وكتابكم، والنسبة لكم إلى الحمق والجهل لأنهم لا يتمالكون ضبط أنفسهم مع مبالغتهم في ضبطها، ومع ذلك يتفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغض المسلمين، فهم لا يكتفون ببغضكم، وقرأ عبد الله ﴿قَدْ بَدَا﴾ لأنَّ الفاعل مؤنث مجازاً، أو على معنى البغض ﴿وَمَا تُخْفِى﴾ وتستر وتضمر ﴿صُدُورُهُمْ﴾ وقلوبهم من الحقد والبغض والعداوة والغيظ لكم ﴿أَكْبَرُ﴾؛ أي: أعظم وأشد مما يظهرون لكم على ألسنتهم، لأنَّ فلتات اللسان أقل مما تجنه الصدور بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما في الصدور قليلةٌ جداً. ثم إنه سبحانه وتعالى امتنَّ عليهم ببيان الآيات، والعلامات الدالة على عداوتهم كما قال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: أوضحنا وأظهرنا لكم العلامات الدالة على عدواتهم وحسدهم لكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون تلك العلامات أي: إن كنتم من أهل العقول المدركة لذلك البيان.

وذكر(١) سبحانه وتعالى في هذه الآية من تلك العلامات أربعاً:

الأولى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛ أي: لا يقصرون في مضرتكم وإفساد الأمر عليكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

والثانية: يتمنون ضركم في دينكم، ودنياكم أشد الضرر.

والثالثة: يبدون البغضاء بأفواههم، ويظهرون تكذيب نبيكم وكتابكم، وينسبونكم إلى الحمق والجهل.

والرابعة: كون ما يظهرونه على ألسنتهم من علامات الحقد أقل مما في قلوبهم منه.

---

(١) المراغي.

فهذه الأوصاف شروط في النهي عن اتخاذ البطانة من غير المسلمين فإذا اعتراها تغير وتبدلٌ كما وقع من اليهود، فبعد أن كانوا في صدر الإسلام أشد الناس عداوةً للذين آمنوا انقلبوا؛ فصاروا عوناً للمسلمين في فتوح الأندلس، وكما وقع من القبط إذ صاروا عوناً للمسلمين على الروم في فتح مصر؛ فلا يمنع حينئذٍ اتخاذهم أولياء وبطانة للمسلمين، فقد جعل عمر بن الخطاب رجال دواوينه من الروم وجرى الخلفاء من بعده على ذلك.

وقيل: معنى قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: قد أظهرنا لكم الدلالات الواضحة التي يتميز بها الولي من العدو ومن يصح أن يتخذ بطانة، ومن لا يصح أن يتخذ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته إن كنتم تدركون حقائق هذه الآيات التي تفرق بين الأعداء والأولياء، وتعلمون قدر مواعظ الله، وحسن عواقبها.

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخرَ من التحذير عن مخالطة الكافرين، واتخاذهم بطانةً، وفيه تنبيهٌ للمسلمين على خطئهم في ذلك، وقد ضمنه أموراً ثلاثة كل منها يستدعي الكف عن مخالطتهم:

الأول منها: ما ذكره بقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾؛ أي: انتبهوا أنتم يا معشر المؤمنين المخطئين في موالاتهم تحبونهم، وتودونهم بسبب ما بينكم وبينهم من الرضاعة، والمصاهرة، وبسبب أنهم أظهروا لكم الإيمان ومحبة الرسول محمد ﷺ، وذلك بأن تفشوا إليهم أسراركم ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بسبب المخالفة في الدين، وبسبب أن الكفر مستقر في باطنهم أي: لا يفشون أسرارهم إليكم.

والمعنى[1]: إنكم يا معشر المؤمنين تحبون هؤلاء ـ الكفار ـ الذين هم أشد الناس عداوةً لكم، ولا يقصرون في إفساد أمركم وتمني عنتكم، ويظهرون لكم العداوة والغش، ويتربصون بكم ريب المنون، فكيف توادونهم وتواصلونهم.

---

(١) المراغي.

والثاني منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: وإنكم تؤمنون بجميع ما أنزل الله من الكتب سواءٌ منها ما نزل عليكم، وما نزل عليهم فليس في نفوسكم جحدٌ لبعض الكتب الإلٓهية، ولا للنبيين الذين جاءوا بها حتى يحملكم ذلك على بغض أهل الكتاب، أما هم: فيجحدون بعض الكتب، وينكرون بعض النبيين.

وخلاصة الكلام: أنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابهم وكتابكم، فما بالكم لو كنتم لا تؤمنون بكتابهم كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم؛ فأنتم أحرى، ببغضهم، ومع هذا تحبونهم ولا يحبونكم. قال ابن جرير[1]: في الآية، إبانةٌ من الله عز وجل عن حال الفريقين، أعني: المؤمنين، والكافرين، ورحمة أهل الإيمان، ورأفتهم بأهل الخلاف لهم، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الإيمان، انتهى.

وقال قتادة: فوالله إنَّ المؤمن ليحب المنافق، ويأوي إليه ويرحمه، ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأَبادَ خضراءه وأفناه وأهلكه.

وفي هذا: توبيخٌ للمؤمنين بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم.

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ﴾؛ أي: وإذا لقيكم يا معاشر المؤمنين هؤلاء المنافقون من اليهود وغيرهم، واجتمعوا معكم في المجالس ألانوا لكم القول حذراً على أنفسهم منكم، و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ وصدقنا بما جاء به محمدٌ ﷺ فإن نعته في كتابنا ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ﴾؛ أي: وإذا خلا بعضهم ببعضٍ، وانفردوا عنكم، ورجعوا، وصاروا في مكان خال، بحيث لا يراهم المؤمنون ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾؛ أي: عضوا الأنامل لأجل الغيظ والغضب عليكم. ففي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: أكلوا أطراف أصابعهم؛ لأجل شدة غيظهم وغضبهم عليكم.

---

(١) طبري.

والمعنى: وإذا رجع بعضهم إلى بعض أظهروا شدة العداوة على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة إلى عض الأنامل كما يفعل ذلك أحدنا إذا اشتد غيظه، ولما كثر هذا الفعل من الغضبان، صار ذلك كنايةً عن الغضب، حتى يقال في الغضبان: إنه يعضُّ يده غيظاً، وإن لم يكن هناك عضٌّ. والعرب تصف المغتاظ، والنادم بعضِّ الأنامل، والبنان، وإنما فعلوا ذلك لما رأوا من ائتلاف المؤمنين، واجتماع كلمتهم، وصلاح ذات بينهم ونصر الله إياهم حتى عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلاً إلى التشفي منهم، فاضطروا إلى مداراتهم.

﴿قُلْ﴾ لهم: يا محمد ﴿مُوتُوا﴾ ملتبسين ﴿بِغَيْظِكُمْ﴾ وغضبكم، وهذا أمرٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يدعو عليهم بدوام ما يوجب هذا الغيظ، وهو قوة الإسلام، وأن يدعو عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمنون، وليس أمراً بالإقامة على الغيظ؛ فإن الغيظ كفرٌ، والأمر بالكفر غير جائز، ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أنه تعالى أمر رسوله بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله إياه أنهم يهلكون غيظاً بإعزاز الإسلام، وإذلالهم به كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: عالمٌ بما في القلوب؛ فيعلم ما تنطوي عليه صدوركم أيها المنافقون من البغضاءِ، والحقدِ، والحسد، ولا يخفى عليه ما تقولون في خلواتكم، وما يبديه بعضكم لبعضٍ من تدبير المكائد، ونصب الحيل للمؤمنين، وما تنطوي عليه صدور المؤمنين من حب الخير والنصح لكم، ويجازي كلا على ما قدم من خير أو شر، واعتقد من إيمان أو كفر.

ومعنى قوله: ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بالمضمرات ذوات الصدور، وجعلت صاحبة للصدر لملازمتها لها، وعدم انفكاكها عنها نحو أصحاب الجنة، وأصحاب النار ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: إن تصبكم منفعة الدنيا كانتصاركم على أعدائكم المقاومين المعارضين لدعوتكم، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وكصحة البدن، وحصول الخصب، والفوز بالغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾؛ أي:

تحزنهم تلك الحسنة ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: مضرة كمرض، وفقر، وانهزام من عدو، وقتل، ونهب، وغارة وحدوث اختلاف بين جماعتكم ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا﴾؛ أي: بإصابتها إياكم؛ أي: يسر المنافقون من اليهود، وغيرهم بتلك المصيبة التي أصابتكم، فإنهم متناهون في عداوتكم فاجتنبوهم. فالحسنة[١] هنا: ما يسر من رخاءٍ، وخصبٍ، ونصرة، وغنيمة، ونحو ذلك من المنافع، والسيئة ضد ذلك.

قال[٢] قتادة في بيان ذلك: فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعةً وظهوراً على عدوهم غاظهم ذلك، وساءهم، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقةً واختلافاً، أو أصيب طرف من أطراف بلاد المسلمين سرهم ذلك، وأعجبوا به، وابتهجوا، وهم كلما خرج منهم قرن، أكذب الله أحدوثته، وأوطأ محلته، وأبطل حجته، وأظهر عورته، وذلك قضاء الله تعالى فيمن مضى منهم، وفيمن بقي إلى يوم القيامة انتهى.

﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على عداوتهم، وإذايتهم، وقيل: إن تصبروا على مشاق التكاليف فتمتثلوا الأوامر ﴿وَتَتَّقُواْ﴾؛ أي: تخافوا موالاتهم، وتتوكلوا في أموركم على الله أو تتقوا كل ما نهيتم عنه وحظر عليكم، ومن ذلك اتخاذ الكافرين بطانة ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ أيها المؤمنون، ولا ينقصكم ﴿كَيْدُهُمْ﴾؛ أي: كيد الكفار ومكرهم وحيلتهم التي دبروها لأجلكم ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر بفضل الله عز وجل، وحفظه الموعود للصابرين، والمتقين؛ لأنكم قد وفيتم الله بعهد العبودية فهو يفي لكم بحق الربوبية، ويحفظكم من الآفات، والمخافات كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ والكيد: احتيال الشخص ليقع غيره في مكروه. قال بعض الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك، فاجتهد في اكتساب الفضائل. وقد جرت سنة الله في القرآن أن يذكر الصبر في كل مقامٍ يشق على النفس احتماله، ولا شك أن حبس الإنسان سره عن وديده، وعشيره، ومعامله، وقريبه، مما يشق عليه، فإن من لذات النفوس أن تفضي بما

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

في الضمير إلى من تسكن إليه وتأنس به.

ولمَّا نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم، من خلطائهم، وعشرائهم، وحلفائهم، لما بدا منهم من البغضاء والحسد، حسن أن يذكرهم بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم، واتقاء ما يجب اتقاءه للسلامة من عواقب كيدهم.

وفي الآية عبرة للمسلمين في معاملة الأعداء؛ فإنَّ الله أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكافرين، واتقاءِ شرهم، ولم يأمرهم بمقابلة الشر بمثله؛ إذ من دأب القرآن أن لا يأمر إلا بالمحبة، والخير، ودفع السيئة بالحسنة كما قال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾.

فإن تعذر تحويل العدو إلى محب بدفع سيئاته بما هو أحسن منها.. جاز دفع السيئة بمثلها من غير بغي، كما فعل النبيُّ ﷺ مع بني النضير؛ فإنه حالفهم، ووادَّهم فنكثوا العهد، وخانوا، وأعانوا عليه عدوه من قريش وسائر العرب، وحاولوا قتله، فلم يكن هناك وسيلةٌ لعلاجهم إلا قتالهم وإجلاؤهم من ديارهم.

وقرأ الجمهور(١) ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ﴾ بالتاء، وقرأ السلمي بالياء معجمة من أسفل؛ لأن تأنيث الحسنة مجازيٌّ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة في رواية عنه: ﴿لا يَضِرْكُم﴾ بفتح الياء وكسر الضاد، وسكون الراء من ضار يَضِير، ويقال: ضار يضور، وكلاهما بمعنى ضَرَّ. وقرأ الكوفيون، وابن عامر ﴿لا يضُرُّكم﴾ بضم الضاد والراء المشددة على الجزم بسكون مقدر للإتْباع من ضر يضر. وقرأ عاصم فيما روى أبو زيد عن المفضل عنه بضم الضاد، وفتح الراء المشددة للتخفيف، وهي أحسن من قراءة ضم الراء نحو لم يرد زيد. والفتح: هو الكثير المستعمل. وقرأ الضحاك بضم الضاد، وكسر الراء المشددة على أصل التقاء الساكنين. وقرأ أُبي ﴿لا يضرركم﴾ بفك الإدغام، وهي لغة أهل الحجاز: وعليها في الآية ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ﴾ ولغة سائر العرب الإدغام في هذا كله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ بـ﴿الياء﴾ باتفاق القراء

---

(١) البحر المحيط.

العشرة؛ أي: بما يعمل المنافقون من عداوتهم ومكرهم، وإذايتهم إياكم ﴿مُحِيطٌ﴾ فيعاقبهم عليه، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وهي قراءة شاذة بـ﴿التاء﴾ الفوقية، والمعنى عليها: إنه تعالى عالم بما تعملون من الصبر والتقوى وغيرهما، فيفعل بكم أيها المؤمنون ما أنتم مستحقون له.

والمعنى(١): إنه تعالى عالم بعمل الفريقين، ومحيط بأسباب ما يصدر من كل منهما، ومقدماته، ونتائجه، وغاياته، فهو الذي يعتمد على إرشاده في معاملة أحدهما للآخر، ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه ما يعلمه ذلك المحيط بعمله، وعمل من يناهضه ويناصبه العداوة، فهداية الله للمؤمنين خير وسيلةٍ للوصول إلى أغراضهم، ومآربهم. وهذه الجملة كالعلة لكون الاستعانة بالصبر، والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح.

وخلاصة المعنى: أن الله قد دلكم على ما ينجيكم من كيد أعدائكم، فعليكم أن تمتثلوا، وتعلموا أنه محيط بأعمالهم، وهو القادر على أن يمنعهم مما يريدون بكم فثقوا به، وتوكلوا عليه.

الإعراب

﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾.

﴿لَيْسُوا﴾ فعل ناقص، واسمه ﴿سَوَآءً﴾ خبرها، وجملة ﴿ليس﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿أُمَّةٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿قَآئِمَةٌ﴾ صفة له. والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً. وفي «الفتوحات» قوله(٢): ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ استئنافٌ مبين لكيفية عدم تساويهم، ومزيلٌ لما فيه من الإبهام كما أن ما سبق من قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الخ مبين لقوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الخ. انتهى.

﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) جمل.

﴿يَتۡلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية صفة ثانية لـ﴿أمة﴾. ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يتلون﴾ ﴿وَهُمۡ﴾ ﴿الواو﴾ حالية ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَسۡجُدُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَتۡلُونَ﴾.

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤﴾.

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَٱلۡيَوۡمِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة. ﴿ٱلۡأٓخِرِ﴾ صفة لليوم. والجملة الفعلية في محل الرفع بدل من جملة ﴿يتلون﴾ على كونها صفة ثانية لـ﴿أمة﴾. وقال أبو البقاء:[(١)] إن شئت.. جعلتها حالاً، وإن شئت.. جعلتها مستأنفةً انتهى. وقال أبو حيان[(٢)]: والظاهر في ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ أن يكون صفة، أي: تاليةٌ مؤمنةٌ، وجوَّزوا أن تكون الجملة مستأنفةً، أو في موضع الحال من الضمير في ﴿يَسۡجُدُونَ﴾، وأن تكون بدلاً من السجود. قيل: لأنَّ السجود بمعنى الإيمان ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿يأمرون﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ينهون﴾ فعل وفاعل ﴿عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يسارعون﴾ فعل وفاعل. ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿أولئك﴾ مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٍ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾.

﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿ما﴾ اسم شرط جازم يجزم فعلين في

---

(١) أبو البقاء.

(٢) البحر المحيط.

محل النصب مفعول مقدم وجوباً. ﴿يفعلوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بما على كونه فِعْلَ شرط لها. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ متعلق بـ﴿يَفْعَلُوا﴾ أو حال من ما ﴿فَلَن﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بـ ﴿لَنْ﴾. ﴿لن﴾: حرف نفي ونصب. ﴿يُكْفَرُوهُ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة منصوب بـ﴿لن﴾، و﴿الواو﴾ نائب فاعل له، وهو المفعول الأول، و﴿الهاء﴾ في محل النصب مفعول ثان له؛ لأنه ضُمِّن معنى حُرم فيتعدى إلى مفعولين، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ما الشرطية من فعل شرطها، وجوابها مستأنفة. ﴿وَاللَّهُ﴾ الواو استئنافية ﴿الله﴾ مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾ خبره ﴿بِالْمُتَّقِينَ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿الَّذِينَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَن﴾ حرف نفي ونصب. ﴿تُغْنِيَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾ ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَا أَوْلَادُهُم﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿أَوْلَادُهُم﴾ معطوف على ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿شَيْئًا﴾ لأنه صفة نكرة، قدمت عليها، فيعرب حالاً ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به منصوب بـ ﴿تُغْنِيَ﴾.

﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿أولئك أصحاب النار﴾ مبتدأ وخبر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَالِدُونَ﴾ وهو خبر عن المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾.

﴿مَثَلُ﴾ مبتدأ، وهو مضاف و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الجر

مضاف إليه. ﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لِـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد محذوف تقديره: ينفقونه ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عنه. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ ﴿الحياة﴾ ﴿كَمَثَلِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿مثل﴾ مضاف. ﴿رِيحٍ﴾ مضاف إليه ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿صِرٌّ﴾ مبتدأ، والجملة في محل الجر صفة لـ ﴿رِيحٍ﴾. وفي «الفتوحات»[1] ويجوز أن يكون فيها وحده هو الصفة و﴿صِرٌّ﴾ فاعل به، وجاز ذلك لاعتماد الجار على الموصوف، وهذا أحسن؛ لأن الأصل في الأوصاف الإفراد، وهذا قريب منه انتهى.

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿أَصَابَتْ﴾ فعل ماض، و﴿التاء﴾ علامة التأنيث، وفاعله ضمير يعود على ﴿رِيحٍ﴾ والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿رِيحٍ﴾. ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿ظَلَمُوٓا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول به؛ ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿قوم﴾ ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿أهلكته﴾ فعل ومفعول. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية ﴿ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنْ﴾ الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول به مقدم على عامله، ومضاف إليه ﴿يَظْلِمُونَ﴾ فعل وفاعل، وجملة الاستدراك معطوفة على جملة النفي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة في محل النصب مبني على الضم. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زِيدَت تعويضاً عمَّا فاتَ ﴿أيُّ﴾ من الإضافة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع، أو النصب صفة لـ﴿أيُّ﴾ وجملة النداء مستأنفة

---

(١) جمل.

﴿ءَامَنُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ ﴿لا﴾ ناهية. ﴿تَتَّخِذُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم ﴿بلا﴾ الناهية، والجملة، جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿بِطَانَةً﴾ مفعول به. ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه صفة أولى لـ ﴿بِطَانَةً﴾ ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَأْلُونَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول. و﴿يَأْلُو﴾ يتعدى لمفعول واحد، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ﴿بطانة﴾ ﴿خَبَالًا﴾ منصوب على التمييز، أو على نزع الخافض تقديره: ﴿لا يألونكم﴾ في تخبيلكم، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال ﴿وَدُّوا﴾ فعل وفاعل. ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ﴿مَّا﴾ مصدرية. ﴿عَنِتُّمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلةٌ لـ﴿ما﴾ المصدرية. ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره؛ ودوا عنتكم، وجملة ﴿وَدُّوا﴾ من الفعل والفاعل مستأنفة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير، في ﴿يَأْلُونَكُمْ﴾، و﴿قد﴾ مقدرةٌ معه حينئذٍ.

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿يَأْلُونَكُمْ﴾ ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿بَدَتِ﴾ أو حال من ﴿البغضاء﴾، تقديره: حالة كون البغضاء ظاهرةً من أفواههم ﴿وَمَا تُخْفِى﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ موصولة في محل الرفع مبتدأ. ﴿تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وما تخفيه. ﴿أَكْبَرُ﴾ خبر المبتدأ والجملة مستأنفة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿بَيَّنَّا﴾ فعل وفاعل ﴿لَكُمُ﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿إِن كُنتُمْ﴾ إن حرف شرط. ﴿كنتم﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بأن على كونه فعل شرط لها. وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إنْ﴾ معلوم ممَّا قبلها تقديره: إن كنتم تعقلون فلا توالوهم، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾.

﴿ها﴾ حرف تنبيه لتنبيه المؤمنين المخاطبين على خطئهم في موالاة الكفار. ﴿أنتم﴾ مبتدأ. ﴿أُوْلَآءِ﴾ منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء في محل النصب على المفعولية مبني على الكسر لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ وإنما حُرِّك فراراً من التقاء الساكنين، وكانت الحركة كسرةً لأنها الأصل في حركة التخلص، وجملة النداء معترضةٌ لاعتراضها بين المبتدأ والخبر. ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ الواو حالية ﴿لا﴾ نافية. ﴿يُحِبُّونَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من الهاء في ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ متعلق بـ﴿تؤمنون﴾ ﴿كُلِّهِۦ﴾ توكيد لـ﴿الكتاب﴾ ومضاف إليه.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾ الواو عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿لَقُوكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، والظرف متعلق بالجواب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها، وجوابها في محل الرفع معطوفة على جملة قوله ﴿تحبونهم﴾ على كونها خبر المبتدأ ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿خَلَوْاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرطٍ لها. ﴿عَضُّواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا في محل الرفع معطوفة على جملة قوله ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ على كونها خبر المبتدإ ﴿عَلَيْكُمُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿عضوا﴾. ﴿ٱلْأَنَامِلَ﴾ مفعول به منصوب بـ﴿عضوا﴾. ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿عضوا﴾ أيضاً. وفي «الفتوحات»

قوله ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ خبر عن المبتدإ، وكذلك قوله ﴿وتؤمنون﴾ الخ. وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ وقوله: ﴿إن يمسسكم﴾ الخ انتهى شيخنا.

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مُوتُوا﴾ فعل وفاعل. ﴿بِغَيْظِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ضمير الفاعل تقديره: ملتبسين بغيظكم، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿اللَّهَ﴾ اسمها. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبرها ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليها متعلق بعليم، وجملة إن مستأنفة أو مقول القول لـ﴿قل﴾.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

﴿إِن﴾ حرف شرط جازم. ﴿تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواب شرط لها، والفاعل ضمير يعود على حسنة، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ فعل ومفعول، وفاعل مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ على كونها فِعْلَ شرط لها. ﴿يَفْرَحُوا﴾ فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿بِهَا﴾ متعلق به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

﴿وَإِنْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿تَصْبِرُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فِعْل شرط لها. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الواو عاطفة ﴿تتقوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تصبروا﴾ ﴿لا يضركم﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿يضركم﴾ فعل مضارع ومفعول مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه جواب الشرط لها. ﴿كَيْدُهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿شَيْئًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة مصدر محذوف

تقديره: ضرراً شيئاً، وجملة إن الشرطية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿مُحِيطٌ﴾ الآتي. ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: يعملونه. ﴿مُحِيطٌ﴾ خبر إن مرفوع وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ سواء: اسم مصدر بمعنى الاستواء، ويوصف به على أنه بمعنى مستوٍ، فيحتمل حينئذ ضميراً، ويرفع الظاهر. ومنه قولهم: مررت برجلٍ سواءٍ والعدم، برفع العدم على أنه معطوف على الضمير المستكن في سواء، ولا يثنى ولا يجمع، إما لكونه في الأصل مصدراً، وإما للاستغناء عن تثنيته بتثنية نظيره، وهو سِيٌّ بمعنى مثل تقول: ما سيَّان، أي؛ مثلان ويستعمل للواحد، والمثنى، والجمع بلفظ واحد، فيقال: هما سواء وهم سواءٌ.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ الآناء: الساعات، وفي مفردها: لغاتٌ خمسٌ: إنىً كـ(معىً)، وأنىً كـ(فتىً)، وإنيٌ كـ(نحيٌ)؛ وأنيٌ كـ(ظبيٌ)؛ وإنو كجرو. فالهمزة في آناء منقلبة عن ياء على اللغات الأربعة الأولى كرداء، وعن واوٍ على اللغة الأخيرة نحو كساء، وكل واحد من هذه المفردات الخمس يطلق على الساعة من الزمان كما يؤخذ من «القاموس».

﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ الأمة الجماعة، ويجمع على أمم. قائمة: أي مستقيمة عادلة من قولك: أقمت العود فقام أي: استقام ﴿يَتْلُونَ﴾ التلاوة القراءة، وأصلها: الاتباع فكأنها إتباع اللفظ اللفظ.

﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾ من سارع ـ من باب فاعل ـ يسارع مسارعة، ولكن المفاعلة ليست على بابها، بل للمبالغة في معنى الثلاثي. والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه؛ لأن من رغب في الأمر يسارع في توليه والقيام به، والمعنى يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات القاصرة والمتعدية.

﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ الصر البرد الشديد المحرق، قاله ابن عباس، وأصله من الصرير الذي هو الصوت من قولهم: صر الشيء إذا صوت، ويراد به الريح الشديدة الباردة.

﴿بِطَانَةً﴾: بطانة الرجل، وكذا وليجته من يعرفه أسراره ثقة به، مشبهٌ ببطانة الثوب يقال: بطن فلان من فلان بطوناً، وبطانة إذا كان خاصاً به داخلاً في أمره. وفي «الفتوحات» بطانة الرجل خاصته الذين يباطنهم في الأمور، ولا يظهر غيرهم عليها مشتقةٌ من البطن انتهى.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يألونكم من ألا في الأمر يألو من باب دعا وسما إذا قصر فيه، ويقال: لا آلوك نصحاً أي: لا أمنعك نصحاً، ولا آلوك جهداً أي لا أنقصك جهداً، ويقال: آلوت في الأمر إذا قصرت فيه. والخبال والخبل: الفساد الذي يلحق الحيوان، يقال في قوائم الفرس؛ خبل وخبال، أي: فسادٌ من جهة الاضطراب؛ والخبال أيضاً النقصان، ومنه رجلٌ مخبول ومخبلٌ، ومختبلٌ إذا كان ناقصَ العقلِ ويقال: خَبَل من باب ضرب فهو خابل، وخبله بالتشديد فهو مخبل. ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ يقال: ود الشيء إذا أحبه. والعنت المشقة، وشدة الضرر. وقال الراغب: هنا المعاندة والمعانتة متقاربان، لكن المعاندة هي الممانعة، والمعانتة هي: أن يتحرى مع الممانعة المشقة، ويقال: عنت الأمر إذا شق من باب فرح. ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ﴾ البغضاء مصدر كالسراء، والضراء يقال: منه بغض الرجل، فهو بغيض كالظريف كظرف فهو ظريف.

﴿والأفواه﴾ معروفة، وهو جمع فم، وأصله فوه فلامه هاء يدل على ذلك جمعه على أفواه، وتصغيره على فويه، والنسب إليه فوهي، وهل وزنه فعل بسكون العين، أو فعل بفتحها؟ خلاف للنحويين انتهى. سمين. وفي الفم تسع لغات، ذكرت في بعض كتب النحو ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ والعض: وضع الأسنان على الشيء بقوة، والفعل منه على فعل بكسر العين، يقال: عضضت بكسر العين في الماضي: أعض بالفتح في المضارع عضاً وعضيضاً. والعض كله بالضاد إلا في قولهم: عظ الزمان إذا اشتد، وعظت الحرب إذا اشتدت، فإنهما

بالظاء أخت الطاء. والأنامل جمع أنملة، وهي رؤوس الأصابع، وقال ابن عيسى: أصلها النمل المعروف، وهي مشبهة به في الدقة، والتصرف بالحركة ومنه رجل نمل أي: نمام.

وعض الأنامل كناية عن شدة الغيظ والغضب ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ والغيظ: مصدر غاظه يغيظه إذا أغضبه، وفسره الراغب: بأنه أشد الغضب، قال: وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من نوازف دم قلبه. ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بالخواطر القائمة بالقلب، والدواعي التي تدعو إلى الأفعال. فذات هنا تأنيث ذي بمعنى صاحبة الصدور، وجعلت صاحبة الصدور لملازمتها لها، وعدم انفكاكها عنها.

﴿كَيْدُهُمْ﴾ الكيد المكر، وهو مصدر: كاده يكيده إذا مكربه، وهو الاحتيال بالباطل. قال ابن قتيبة: وأصله المشقة من قولهم: فلان يكيد بنفسه؛ أي: يعالج مشقات النزع وسكرات الموت.

البلاغة

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أتى بالجملة الاسمية لتدل على الدوام والاستمرار، كما أتى بالجملة الفعلية في قوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿يَسْجُدُونَ﴾ للدلالة على التجدد والحدوث.

والإشارة بالبعيد في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ فيه تشبيه تمثيلي حيث شبه ما كانوا ينفقونه في المفاخر، وكسب الثناء بالزرع الذي اصابته الريح العاصفة الباردة فدمرته وجعلته حطاماً.

﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ فيه استعارة حيث شبه الأصفياء ببطانة الثوب الملتصقة به، واستعير اسم المشبه به للمشبه على طريقة الاستعارة الأصلية، والجامع شدة الالتصاق على حد: «الناس دثارٌ والأنصار شعارٌ».

وقال أبو حيان: تضمنت هذه الآيات ضروباً من أنواع الفصاحة والبلاغة:

منها: التكرار في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ﴾ والاكتفاء بذكر بعض الشيء

عن كله إذ كان فيه دلالة على الباقي في ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ﴾ ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾، وفي قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ و﴿ٱلْمُنكَرِ﴾ ويجوز أن يكون طباقاً معنوياً، وفي قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ و﴿سَيِّئَةٌ﴾ و﴿تَسُؤْهُمْ﴾ و﴿يَفْرَحُوا۟﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾، و﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾، و﴿بِطَانَةً﴾ و﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، و﴿تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ و﴿تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شبه حصولهما بالمس والإصابة، وهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿ظَلَمَهُمُ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾.

ومنها: تسمية الشيء باسم محله في قوله: ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ عبر بها عن الألسنة، لأنها محلها.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الأعداء الذين كاشفوهم بالعداوة، ثم أعلمهم ببغضهم إياهم، ثم أمرهم بالصبر والتقوى، وأنهم إذا فعلوا ذلك لا يضرهم كيدهم شيئاً.. ذكرهم في هذه الآيات بوقعة أحد، وما كان فيها من كيد المنافقين، إذ أذاعوا عن المؤمنين من قالة السوء ما أذاعوا، ثم خرجوا معهم، وانشقوا عنهم في الطريق، ورجعوا بثلث الجيش، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، واتبعه في الانخذال، والرجوع ثلاث مئة رجل من المنافقين، وغيرهم من المؤمنين، ليوقع الفشل بين صفوف المسلمين، ويخذلوهم أمام عدوهم، وما كان من كيد المشركين، وتألبهم عليهم، ولم يكن لذلك من واق إلا الصبر - حتى عن الغنيمة التي طمع فيها الرماة فتركوا مواقعهم - وإلا تقوى الله ومن أهم دعائمها طاعة الرسول فيما به أمر وعنه نهى، وذكرهم أيضاً بما كان يوم بدر من نصرهم على عدوهم على قلتهم؛ إذ جعلوا الصبر جنتهم، وتقوى الله عدتهم، فأصابوا من

عدوهم ما أصابوا، وكان لهم الفلج والنصر عليهم مما لا يزال مكتوباً في صحيفة الدهر مثلاً خالداً لصدق العزيمة، والبعد عن مطامع هذه الحياة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا . . .﴾ الآية، أخرج البخاري رحمه الله تعالى عن جابر رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ بني سلمة من الخزرج، وبني حارثة من الأوس، وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول، والله وليهما، وأخرجه مسلم أيضاً.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الأولى من الفجر يقول: «اللهم العن فلاناً، وفلانا بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد، فأنزل الله عز وجل ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أخرجه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أخرجه مسلم، وأخرجه أيضاً أحمد في مسنده، والترمذي في جامعه. وقد أخرج البخاري، ومسلم، وأحمد، وابن جرير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «اللهم العَن فلاناً، وفلاناً لأحياء من العرب حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

استطراد دعت إليه الحاجة

من هذه الآيات إلى ستين آية بعدها، نزلت في غزوة أحد، فوجب ذكر طرف من أخبار هذه الوقعة، ليستعين به القارىء على فهمها، ويعرف مواقع أخبارها ويستيقن من حكمها وأحكامها، ولكن عليك أن تعرف قبل هذا أن قريشاً اغتاظت من هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وحقدوا على أهلها إيواءهم

للمسلمين، وتهددوهم، فكان لا بد من الاستعداد للدفع وقد صار النبي ﷺ داعية للدين ورئيساً لحكومة المدينة وقائداً لجيشها.

هذا، وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الغزوات؛ بها انتشر الإسلام بسرعة لم تعهد في التاريخ، وقد اشترك النبيُّ ﷺ في تسع منها أشهرها.

وقعة بدر

كانت قريش ترى أن محمداً وأصحابه شرذمة من الثوار يجب أن تقتل، ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة في المدينة، وهي على طريق التجارة إلى الشام، فجد المسلمون في مهاجمة قوافل مكة، ونالوا أول انتصارٍ لهم في السنة الثانية من الهجرة في غزوة بدر بئر بين مكة والمدينة كانت لرجل يسمى بدراً، فسميت باسمه، وكانت هذه الوقعة نصراً مؤزراً للمسلمين، وكارثة كبرى على المشركين، وكان لها دوي عظيم في أرجاء البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها.

وقعة أحد

أحدٌ: جبل على نحو ميل من المدينة إلى الشمال. سمي أحداً لتوحده عن الجبال. ولما خذل المشركون في وقعة بدر، ورجع فلُّهم إلى مكة مقهورين أخذ أبو سفيان يؤلب المشركين على رسول الله ﷺ، إذ كان هو الرئيس بعد مقتل من قتل من صناديد قريش، فاجتمعوا للحرب، وكانوا نحو ثلاثة آلاف، فيهم سبع مئة دارع، ومعهم مئتا فرس، وقائدهم: أبو سفيان بن حرب، ومعه زوجه هند بنت عتبة، وكانت جملة النساء اللاتي معهم خمس عشرة امرأة، ومعهن الدفوف يضربن بها، ويبكين على قتلى بدر، ويحرضن المشركين على حرب المسلمين، وساروا من مكة حتى نزلوا مقابل المدينة في شوال سنة ثلاث من الهجرة. وكان رأي رسول الله ﷺ المقام في المدينة، وقتالهم بها، ورأى باقي الصحابة الخروج لقتالهم، فخرج في ألف من الصحابة إلى أن صار بين المدينة وأحدٍ، فانخذل عنه عبد الله بن أبي بن سلول في ثلث الناس ونزل رسولُ الله ﷺ الشعب من أحد،

وجعل ظهره إلى الجبل، وكان عدة أصحاب رسول الله ﷺ سبع مئة فيهم مئة دارع، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين، وكان لواء رسول الله ﷺ مع مصعب بن عمير، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل، ولواؤهم مع بني عبد الدار. ولما التقى الجمعان قامت هند زوج أبي سفيان، ومعها النسوة يضربن بالدفوف وهي تقول:

وِيْهَا بَنِيْ عَبْدِ ٱلدَّارِ وِيْهَا حُمَاةَ ٱلأَدْبَارِ ضَرْباً بِكُلِّ بَتَّارِ

وقاتل حمزة قتالاً شديداً. ولما قتل مصعب بن عمير أعطى النبيُّ ﷺ الراية لعليّ بن أبي طالب. ولما انهزم المشركون طمعت الرماة في الغنيمة، وفارقوا المكان الذي أمرهم النبيُّ ﷺ بملازمته. فأتى خالد بن الوليد مع خيل المشركين من خلف المسلمين، ووقع الصراخ أن محمداً قد قتل، وانكشف المسلمون، وأصاب العدو منهم. وكان يوم البلاء على المسلمين، وكان عدة الشهداء من المسلمين سبعين رجلاً وعدة قتلى المشركين اثنين وعشرين رجلاً. ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ وأصابته حجارتهم حتى وقع، وأصيبت رباعيته، وشج في وجهه، وكلمت شفته وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم». وجعل يدعوهم إلى ربهم فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجه رسول الله ﷺ في الشجة، ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه ﷺ فسقطت ثنية من ثنياته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى، وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته، وطمع فيه المشركون، وأدركوه يريدون منه ما الله عاصمه منه كما قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وأصابت طلحة يومئذٍ ضربة شديدة شلت يده منها، وهو يدافع عن رسول الله ﷺ.

ومثلت هند وصواحبها بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، فجدعن الأنوف، وصلمن الآذان، واتخذن منها قلائد، وبقرت هند عن كبد حمزة ولاكتها ولم تستسغها وضرب أبو سفيان شدق حمزة بزج الرمح، وصعد الجبل، وصرخ

بأعلى صوته الحرب سجال يوم بيوم بدر، أعل هبل ـ صنم في الكعبة ـ أي؛ ظهر دينك.

ولما انصرف أبو سفيان، ومن معه.. نادى إن موعدكم بدر العام القابل. فقال النبي ﷺ: «قولوا له: هو بيننا وبينكم». ثم سار المشركون إلى مكة، وبحث رسول الله ﷺ عن عمه حمزة فوجده مبقور البطن مجدوع الأنف مصلوم الأذن فقال: «لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين منهم». ثم أمر أن يسجى عمه ببردته، ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات، ثم أتي بالقتلى فوضعهم إلى جانب حمزة واحداً بعد واحدٍ حتى صلى عليهم ثنتين وسبعين صلاة، ثم أمر بحمزة فدفن، واحتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة، فدفنوهم بها ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: «ادفنوهم حيث صرعوا». إذا علمت ما تقدم.. سهل عليك فهم هذه الآيات، وما بعدها مما له صلة بهذه الوقعة الهامة في تاريخ الإسلام، وما فيها من عظة وعبرة للمسلمين، فقد كانت نبراساً لهم في كل حروبهم وأعمالهم في حياة النبي ﷺ وبعده.

إذ علموا أن مخالفة القائد الأعظم لها أسوأ الآثار، وأن كل ما حدث فيها، إنما جر إليه الطمع في الغنيمة وجمع حطام الدنيا، وهو ظل زائل، وعرض مفارق.

التفسير وأوجه القراءة

﴿و﴾ اذكر يا محمد: لأصحابك قصة ﴿إذ غدوت﴾ وخرجت بعد صلاة الجمعة خامس عشر من شوال سنة ثلاثٍ من الهجرة ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ أي: من منزلك الذي فيه أهلك من المدينة، وهو حجرة عائشة إلى أحد ليتذكروا ما وقع لهم في ذلك اليوم من الأحوال الناشئة من عدم الصبر، فيعلموا أنهم لو لزموا الصبر؛ لا يضرهم كيد الكفرة، وعبر عن الخروج بالغدوّ الذي هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة، لأنه قد يعبر بالغدو عن الخروج من غير نظر إلى أصل معناه، كما يقال: أضحى، وإن لم يكن في وقت الضحى، وفي

قوله: ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ منقبةٌ عظيمةٌ لعائشة رضي الله عنها؛ لأنه تعالى نصَّ على أنها من أهله.

حالة كونك ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: تقصد أن تبوئهم وتنزلهم وتهيء لهم ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾؛ أي: أماكن ومراكز ومثابت يثبتون فيها لقتال عدوهم المشركين، مراكز للرماة، ومراكز للفرسان، ومراكز لسائر المؤمنين، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم؛ أي: لما يقول المؤمنون لك فيما شاورتهم فيه من موضع لقائك عدوك وعدوهم، كقول من قال: اخرج بنا إليهم حتى نلقاهم في خارج المدينة، وقول من قال: لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا، وسميع لما تشير به أنت عليهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأصلح تلك الآراء لك ولهم، وبنية كل قائل، من أخلص منهم في قوله، وإن أخطأ في رأيه كالقائلين بالخروج إليهم، ومن لم يخلص في قوله، وإن كان صواباً كعبد الله بن أبي، وأصحابه من المنافقين.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾؛ أي: واذكر يا محمد أيضاً حين همت وقصدت جماعتان منكم أيها المؤمنون بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج، وكانا جناحي عسكر رسول الله ﷺ وأدغم السبعة تاء التأنيث في الطاء، وعن قالون خلافٌ في ذلك ﴿أَن تَفْشَلَا﴾، أي: بأن تضعفا وتجبنا وترجعا عن القتال حين رأوا انخذال عبد الله بن أبي، ومن معه عن رسول الله ﷺ؛ وذلك أنه ﷺ خرج من المدينة مع تسع مئة وخمسين، ووعدهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا عند جبل أحد انعزل ابن أبي المنافق، مع ثلاثمائة من أصحابه المنافقين، وقال: يا قوم: لأي شيء نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاريُّ وأبو جابر السلمي، وقالا: نسألكم بالله في حفظ نبيكم وأنفسكم أي فإنكم إن رجعتم فاتتكم نصرة نبيكم وفاتتكم وقاية أنفسكم من العذاب لتخلفكم عن نبيكم، فقال عبد الله بن أبي: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فهم الطائفتان باتباع عبد الله بن أبي، فعصمهم الله، فثبتوا مع رسول الله ﷺ.

وهذا الهم لم يكن عزيمةً ممضاة، ولكنها كانت حديث النفس، وقلما تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، فإن ساعدها صاحبها ذم، وإن ردها إلى

الثبات والصبر فلا بأس بما فعل، ومما يدل على أن ذلك الهم لم يصل إلى حد العصيان قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾؛ أي: ولي الطائفتين أي متولي أمورهما، وعاصمهما عن اتباع تلك الخطوة، وحافظهما عنه لصدق إيمانهما، ولذلك صرف الفشل عنهما، وثبتهما فلم يجيبا داعي الضعف الذي ألم بهما عند رجوع المنافقين، وكانوا نحو ثلث العسكر، بل تذكروا ولاية الله للمؤمنين، فوثقا به، وتوكلا عليه.

وقرأ[1] عبد الله ﴿والله وليهم﴾ أعاد الضمير على المعنى، لا على لفظ التثنية كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ و﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمدوا عليه وليثقوا به في أمورهم؛ أي: إن المؤمنين ينبغي لهم أن يدفعوا ما يعرض لهم من جزع أو مكروه، بالتوكل على الله لا بحولهم وقوتهم، ولا بأنصارهم وأعوانهم، بعد أخذ الأهبة والعدة تحقيقاً لسنن الله في خلقه إذ جعل الأسباب مفضية إلى المسببات، وهو الخالق للسبب والمسبب، والموجد للصلة بينهما، فبقدرته تعالى ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، كما نصر المؤمنين يوم بدر على قلة منهم في العدد والعُدد والسلاح، وفي سائر عتاد الجيش، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أيها المؤمنون ﴿بِبَدْرٍ﴾؛ أي: في وقعة يوم بدر ـ موضعٌ بين مكة والمدينة معروف ـ الذي انبنى فيه الإسلام وظهر، وقتل فيه صناديد قريش، وكان يوم الجمعة السابع عشر من رمضان لثمانية عشر شهراً من الهجرة ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾؛ أي: والحال أنكم ذليلون ضعفاء بقلة العدد، والعدد، والسلاح، وقلة المال، وضعف الحال، وعدم القدرة على مقاومة العدو، فإن المؤمنين كانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، وما كان فيهم إلا فرس واحد، والكفار كانوا قريبين من ألف مقاتل، ومعهم مئة فرس مع الأسلحة الكثيرة، والعدة الكاملة، أي: نصركم يوم بدر مع قلتكم وكثرة العدو، ولتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعدد. وأتى بجمع القلة في قوله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ليدل على أنهم قليلون في ذواتهم، وعددهم.

---

(١) البحر المحيط.

وخلاصة الكلام: أنكم إن تصبروا وتتقوا.. لا يضركم كيدهم شيئاً، وينصركم ربكم كما نصركم على أعدائكم، وأنتم يومئذٍ في قلة من العدد، وفي غير منعة من الناس حتى أظهركم على عدوكم مع كثرة عددهم، وعظيم منعتهم، فأنتم اليوم أكثر عدداً منكم يومئذٍ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم، كما نصركم في ذلك اليوم، ولا ضير في الذل إذا لم يكن عن قهر من البغاة والظالمين، ولم يكن المؤمنون بمقهورين، ولا بمستذلين من الكفار، وإنما كانت قوتهم أول تكونها.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أيها المؤمنون وخافوه في أمر الحرب بالثبات فيها مع الرسول ﷺ وعدم مخالفة أميركم فيها ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ أي: لكي تشكروا نعمته تعالى عليكم ونصرته لكم على أعدائكم، والمعنى: فاتقوا الله ربكم بطاعته، واجتناب محارمه، لتهيؤوا أنفسكم لشكره على ما منَّ به عليكم من النصر على أعدائكم؛ وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضل عنه مخالفوكم؛ إذ من لم يروض نفسه بالتقوى يغلب عليه الهوى، واتباع الشهوات فلا يرجى منه الشكر لأنعم الله بصرفها فيما خلقت لأجله من الحكم والمنافع.

والظرف في قوله: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ متعلق بـ﴿نصركم﴾ و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾ للاستفهام الإنكاري؛ أي: لإنكاره ﷺ عليهم عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة. ومعنى الكفاية سد الخلة والقيام بالأمر.

والمعنى: ولقد نصركم الله ببدر في الوقت الذي تقول فيه للمؤمنين تطميناً لقلوبهم، وبشارة لهم: ألن يكفيكم ويغنيكم عن مساعدة الغير ﴿أَن يُمِدَّكُمۡ﴾ ويساعدكم ويعينكم ﴿رَبُّكُم﴾ على عدوكم ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ من السماء لنصركم.

وذلك القول[1] حين أظهروا العجز عن المقاتلة، لما بلغهم أن كرز بن جابر يريد أن يمد المشركين، فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾ الخ.

---

(١) جمل.

أخرج[1] ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وغيرهما عن الشعبي، أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فبلغته هزيمة المشركين، فلم يمد أصحابه، ولم يمدوا بالخمسة آلاف.

وقرأ[2] الحسن ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ يقف على الهاء، وكذلك ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ قال ابن عطية: ووجه هذه القراءة ضعيفٌ، لأن المضاف والمضاف إليه يقتضيان الاتصال؛ إذ هما كالاسم الواحد. انتهى. والذي يناسب توجيه هذه القراءة الشاذة أنها من إجراء الوصل مجرى الوقف، أبدلها هاءً في الوصل كما أبدلوها هاءً في الوقف.

وقرىء شاذا ﴿بثلاثة آلافٍ﴾ بتسكين التاء في الوصل إجراءً له مجرى الوقف.

وقرأ الجمهور ﴿مُنزَلِينَ﴾ بالتخفيف مبنياً للمفعول، وابن عامر بالتشديد مبنياً للمفعول أيضاً، والهمزة، والتضعيف للتعدية فهما سيان.

وقرأ بن أبي عبلة ﴿منزلين﴾ بتشديد الزاي، وكسرها مبنياً للفاعل، وبعض القراء بتخفيفها، وكسرها مبنياً للفاعل أيضاً، والمعنى ينزلون النصر.

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجابٌ لما بعد لن، أي: بلى يكفيكم الإمداد بهم. ثم وعدهم بالزيادة بشرط الصبر، والتقوى حثاً لهم عليهما، وتقويةً لقلوبهم فقال: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟﴾ مع نبيكم على لقاء العدو، ومناهضتهم، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ معصية الله، ومخالفة نبيه ﷺ ﴿وَيَأْتُوكُم﴾؛ أي: ويجئكم المشركون ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: من ساعتهم هذه من جهة مكة ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾؛ أي: ينصركم ربكم على عدوكم في حال إتيانهم من غير تراخٍ، ولا تأخير ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ليعجل نصركم، ويسهل فتحكم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم بكسر الواو؛ أي: معلِّمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات. ورجح ابن جرير هذه القراءة وقال كثير من

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

المفسرين: مرسلين خيلهم في الغارة. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، ونافع ﴿مسومين﴾ بفتح الواو أي: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب، وأذنابها، أو مجذوذة أذنابها، أو مرسلين.

قال ابن جرير[1]: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ثم وعدهم بعد الثلاثة آلاف بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم، واتقوا، ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف، ولا بالخمسة الآلاف، ولا على أنهم لم يمدوا بهم، وقد يجوز أن يكون الله أمدَّهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم، وقد يجوز أن يكون الله لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف، ولا بالخمسة الآلاف، وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به، ولا خبر فنسلم لأحد الفريقين قوله.

غير أن في القرآن دلالةٌ على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألفٍ من الملائكة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

أما في أحد: فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا، وذلك أنهم لو أمدوا، لم يهزموا، وينل منهم ما نيل انتهى.

والإمداد بالملائكة يصح أن يكون من قبيل الإمداد بالمال الذي يزيد في قوة القوم، وأن يكون من الإمداد بالأشخاص الذين ينتفع بهم، ولو نفعاً معنوياً، وذلك أن الملائكة أرواح تلابس النفوس، فتمدها بالإلهامات الصالحات التي تثبتها وتقوي عزيمتها.

فإن قلت: أي حاجة إلى ذلك العدد الكثير، فإن جبريل وحده، أو أي ملك كافٍ في قتال الكفار؟

---

(١) طبري.

أجيب: بأن النصر في ذلك ينسب للرسول ﷺ والمؤمنين لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ فلو هلكوا بشيء مما هلك به الأمم السابقة.. لم يكن في ذلك مزيد فخر للمؤمنين، ولا شفاء لغيظهم لكونه خارجاً عن اختيارهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: ما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة، أو ما جعل[١] الله ذلك القول الذي قاله الرسول لكم ﴿ألن يكفيكم﴾ الآية. ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ أي: إلاّ بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتاً على لقاء العدو أي؛ وما جعل الله ذلك الإمداد إلا ليبشركم به ﴿و﴾ إلا ﴿لتطمئن﴾ وتثبت ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الإمداد، وتسكن إليه من الخوف الذي طرقها من كثرة عدد عدوكم، وعظيم استعداده لكم. وفي هذا إشارة إلى أن في ذكر الإمداد فائدتين:

إحداهما: إدخال السرور في القلوب.

والثانية: حصول الطمأنينة ببيان أن معونة الله ونصرته. معهم فلا يجبنوا عن المحاربة مع العدوّ ﴿وما النصر﴾ على الأعداء حاصل من عند أحدٍ غير الله لا من عند الملائكة، ولا من كثرة العدد ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي؛ القوي الذي لا يغالب في أقضيته وأحكامه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يعطي النصر لأوليائه، ويبتليهم بجهاد أعدائه، أو الذي يدبر الأمور على خير السنن، وأقوم الوسائل، فيهدي لأسباب النصر الظاهرة، والباطنة من يشاء، ويصرفهما عمن يشاء.

والمراد[٢]: أنه يجب توكلكم على الله لا على الملائكة، فيجب على العبد أن لا يتكل على الأسباب فقط، بل يقبل على مسبب الأسباب؛ إذ هو الذي لا يعجز عن إجابة الدعوات، فعليكم ألا تتوقعوا النصر إلا من رحمته، ولا المعونة إلا من فضله وكرمه؛ لأن من لم ينصره الله فهو مخذول، وإن كثرت أنصاره، فإن حصل الإمداد بالملائكة، فليس ذلك إلا جزءاً من أسباب النصر، وهناك أسباب

(١) المراغي.

أخرى كإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، ومعرفة المواقع، والمكامن كما فعل النبيُّ ﷺ، إذ سلك إلى أحد أقرب الطرق، وأخفاها على العدو، وعسكر في أحسن موضع، وهو الشعب أي: الوادي وجعل ظهره إلى الجبل، وجعل الرماة من ورائهم.

فإن قلت: لم أمد الله المؤمنين يوم بدر بملائكته يثبتون قلوبهم، وحرمهم من ذلك يوم أحد حتى أصاب العدو منهم ما أصاب؟

فالجواب: إن المؤمنين كانوا يوم بدر في قلة وذلةٍ، من الضعف والحاجة؛ فلم يكن لهم إعتمادٌ إلا على الله، وما وهبهم من قوة في أبدانهم ونفوسهم، وما أمرهم به من الثبات، والذكر إذ قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولم يكن في نفوسهم تطلع إلى شيء سوى النصر، وإقامة الدين، والدفاع عن حوزته، وكانت أرواحهم بهذا الإيمان مستعدة لقبول الإلهام من أرواح الملائكة، والتقوي بالاتصال بها.

وروى أحمد ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ كان يدعو يوم بدر «اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة.. فلن تعبد في الأرض أبداً» وما زال يستغيث ربه، ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فرداه به، ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك لربك، فإنه ينجز لك ما وعدك. وأنزل الله يومئذٍ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ الآية.

أمَّا في يوم أحد: فقد كان بعضهم في أول القتال قريباً من الافتتان بما كان من المنافقين، ومن ثم همت طائفتان منهم أن تفشلا، ولكن الله ثبتهما، وباشروا القتال مع بقية المؤمنين حتى انتصروا، وهزموا المشركين، ثم خرج بعضهم عن التقوى، وخالفوا أمر الرسول ﷺ وطمعوا في الغنيمة، وتنازعوا في الأمر فقتلوا، وضعف استعداد أرواحهم، فلم ترتق إلى الاستمداد من أرواح الملائكة، فلم يكن لهم منهم مدد في ذلك اليوم.

وحكمة ما حصل بهم في ذلك اليوم تمحيص المؤمنين كما سيأتي في قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾ الآية. وتربيتهم بالفعل على إقامة سنن الله تعالى في ارتباط الأسباب بالمسببات، ومعرفة أن هذه السنن حاكمة حتى على الرسول، وأن قتل الرسول أو موته لا ينبغي أن يثبط الهمم، ولا يدعو إلى الانقلاب على الأعقاب، وأن كل ما يصيب العباد من مصائب فهو نتيجة عملهم، وعقوبة طبيعية على أفعالهم.

واللام في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾، أي: وعزتي وجلالي، لقد نصركم الله سبحانه وتعالى، وأعزكم على عدوكم يوم بدر مع قلة عددكم وعددكم بأمداد الملائكة؛ ليقطع، ويهلك طرفاً وجماعة من صناديد الذين كفروا، وأشركوا بالله، ويهدم ركناً من أركان الشرك، يعني مشركي مكة بقتل سبعين منهم، وأسر سبعين آخرين منهم. وعبر بالطرف؛ لأنه أقرب إلى المؤمنين من الوسط، فهو أول ما يوصل إليه من الجيش ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾؛ أي: أو ليكبت، ويذل، ويخزي الطرف الآخر منهم، والجماعة الباقية منهم، ويغيظهم بالهزيمة ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾، ويرجعوا إلى مكة حال كونهم ﴿خَآئِبِينَ﴾، أي: غير ظافرين بمرادهم من استئصال المؤمنين والظفر لهم.

وقد فعل الله تعالى ذلك بهم في بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين، وأسروا سبعين، وأعز الله المؤمنين، وأذل الشرك والمشركين.

وقرأ الجمهور(١): ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ بالتاء، وقرأ لاحق بن حميد ﴿أو يكبدهم﴾ بالدال مكان التاء، والمعنى: أو يصيب الحزن كبدهم.

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها؛ لبيان أن الأمر كله بيد الله فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: من أمر عبادي وتدبيرهم وحسابهم ﴿شَيْءٌ﴾ بل إنما عليك البلاغ والدعوة لهم إلى توحيدي، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم، وأحكم بالذي أشاء من التوبة، أو عاجل العذاب

---

(١) المراغي.

بالقتل، والنقم، أو آجله بما أعددت لأهل الكفر من العذاب في الآخرة.

وروى أحمد ومسلم، عن أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كيف يفلح قوم فعلوا بنبيهم هذا، وهو يدعوهم إلى ربهم»؟ فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

قيل: أراد النبيُّ ﷺ أن يدعو عليهم بالاستئصال، فنزلت هذه الآية، وذلك لعلمه أن أكثرهم يسلمون. فمعنى الآية: ليس لك مسألة هلاكهم والدعاء عليهم، لأنه تعالى أعلم بمصالحهم، فربما تاب على من يشاء منهم. وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿ليقطع طرفا﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كلامٌ معترض بين المعطوف والمعطوف عليه كما مر آنفاً.

وتقدير الكلام: ولقد نصركم الله أيها المؤمنون في يوم بدر، ليقطع طرفاً من الذين كفروا بالقتل، أو يكبتهم بالهزيمة، أو يتوب عليهم بالإسلام، إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ على الكفر إن أصروا؛ فإنهم ظالمون، ليس لك من الأمر شيء، بل الأمر أمري في ذلك كله، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ هو كالتعليل لعذابهم، والمعنى: إنما يعذبهم؛ لأنهم ظالمون أنفسهم بالإصرار على الكفر مستحقون للتعذيب.

قال بعض العلماء[1]: والحكمة في منعه ﷺ من الدعاء عليهم، ولعنهم أن الله تعالى علم من حال بعض الكفار أنه سيسلم فيتوب عليه، أو سيولد من بعضهم ولد يكون مسلماً براً تقياً. فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من الدعاء عليهم؛ لأن دعوته ﷺ مستجابة، فلو دعا عليهم بالهلاك هلكوا جميعاً، لكن اقتضت حكمة الله، وما سبق في علمه إبقائهم ليتوب على بعضهم، وسيخرج من بعضهم ذرية صالحة مؤمنة، ويهلك بعضهم بالقتل والموت.

وفي هذا الكلام تأديب من الله لرسوله ﷺ وإعلامٌ له بأن الدعاء على

---

(١) البحر المحيط ج٢ ص ٥٢.

المشركين، ولعنهم مما لم يكن ينبغي منك. إذ الأمر كله لله، وليس لأحد من أهل السموات والأرض شركة معه، ولا رأيٌ ولا تدبير فيهما، وإن كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً إلا من سخره الله للقيام بشيء من ذلك؛ فيكون خاضعاً لذلك التسخير لا يستطيع الخروج فيه عن السنن العامة التي قام بها نظام الكون، ونظام الاجتماع.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾، أي: جميع ما في السموات، وما في الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مغفرته بفضله ورحمته ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ تعذيبه بعدله وتقديم المغفرة على التعذيب للإعلام بأنَّ رحمته تعالى سبقت غضبه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن مات على التوبة.

قال ابن جرير[1]: أي لله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها، دونك ودونهم، يحكم فيهم بما شاء، ويقضي فيهم بما أحب فيتوب على من شاء من خلقه العاصين أمره ونهيه ثم يغفر له ويعاقب من شاء منهم على جرمه، فينتقم منه، فهو الغفور يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه، من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح، وهو الرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلاً على عظيم ما يأتون من المآثم انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما[2] نهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ البطانة من اليهود، وأمثالهم من المشركين، ثم بين لهم أن كيدهم لا يضرهم ما اعتصموا بتقوى الله، وطاعته وطاعة رسوله، ثم ذكرهم بما يدل على صدق ذلك بما حدث لهم حين صدقوا الله ورسوله من الفوز والفلاح في وقعة بدر، وبما حدث لهم حين عصوا الله، وخالفوا أمر القائد، وهو الرسول ﷺ في وقعة أحد، وكيف حل بهم من البلاء ونزلت من المصائب مما لم يكونوا ينتظرون القليل منها.. نهاهم هنا عن شر

---

(١) الخازن. (٢) الطبري.

عمل من أعمال اليهود، ومن اقتدى بهم من المشركين، وهو الربا مع بيان أن الربح المتوقع منه ليس هو السبب في السعادة، بل السعادة، إنما تكون في تقوى الله، وامتثال أوامره، وفي ذلك حث على بذل المال في سبيل الله كالدفاع عن الملة، وتنفير من البخل، والشح، والكلب على جمع المال بكل وسيلة مستطاعة، وشر تلك الوسائل أكل الربا أضعافاً مضاعفةً.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ لا تأخذوا الزيادة على رؤوس أموالكم، وذكر الأكل ليس قيداً بل إنما ذكره لكونه معظم منافعه حالة كون تلك الزيادة أضعافاً مضاعفة، أي؛ زياداتٍ مكررةً عاماً بعد عام بسبب تأخير أجل الدين الذي هو رأس المال، وزيادة المال إلى ضعف ما كان كما كنتم تفعلون في الجاهلية، فإن الإسلام لا يبيح لكم ذلك لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته.

وذكر الأضعاف[1] ليس لتقييد النهي لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حل الأجل.. زادوا في المال مقداراً يتراضون عليه، ثم يزيدون في أجل الدين، فكانوا يفعلون ذلك مرةً بعد مرةٍ، حتى يأخذ المرابي أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء.

قال ابن جرير[2] معنى الآية: لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً في إسلامكم بعد إذ هداكم الله كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم، وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم: أن الرجل منهم يكون له على الرجل مالٌ إلى أجل، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول له، الذي عليه المال: أخر دينك عني وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة، فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه انتهى.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

وقال الرازي[1]: كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل فإذا جاء الأجل، ولم يكن المديون واجداً لذلك المال، قال الدائن: زد في المال حتى أزيد لك في الأجل، فربما جعله مائتين ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك ثم إلى آجال كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ انتهى.

وربا[2] الجاهلية هو ما يسمى في عصرنا: بالربا الفاحش، وهو ربح مركب وهذه الزيادة الفاحشة كانت بعد حلول الأجل، ولا شيءَ منها في العقد الأول، كأن يعطيه المائة بمائة وعشرة أو أكثر، أو أقل، وكأنهم كانوا يكتفون في العقد الأول بالقليل من الربح، فإذا حل الأجل، ولم يقض الدين، وهو في قبضتهم اضطروه إلى قبول التضعيف في مقابلة الإنساء، وهذا هو ربا النسيئة. قال ابن عباس رضي الله عنه إن نص القرآن الحكيم ينصرف إلى ربا النسيئة الذي كان معروفاً عندهم انتهى.

وعلى الجملة فالربا نوعان:

الأول: ربا النسيئة؛ وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وهو أن يؤخر دينه، ويزيده في المال، وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المائة آلافاً مؤلفة، وفي الغالب لا يفعل مثل ذلك إلا معدمٌ محتاجٌ، فهو يبذل الزيادة ليفتدي من أسر المطالبة، ولا يزال كذلك حتى يعلوه الدين، فيستغرق جميع موجوده، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له، ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه، فيأكل مال أخيه بالباطل، ويوقعه في المشقة والضرر. فمن رحمة الله، وحكمته وإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا، ولعن آكله، ومؤكله، وكاتبه، وشاهده، وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله، ولم يجيء مثل هذا الوعيد في كبيرةٍ غيره، ولهذا كان من أكبر الكبائر.

والنوع الثاني: ربا الفضل، كأن يبيع قطعة من الحلي كسوار بأكثر من وزنها

---

(١) الطبري. (٢) الرازي.

دنانير، أو يبيع كيلة من التمر الجيد بكيلة وحفنةً من التمر الردىء مع تراضي المتبايعين، وحاجة كل منهما إلى ما أخذه، ومثل هذا لا يدخل في نهي القرآن، ولا في وعيده، ولكنه ثبت بالسنة، فقد روى ابن عمر قوله ﷺ: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، إلا مثلاً بمثلٍ، ولا تبيعوا الورق بالورق، إلا مثلاً بمثلٍ، سواءً بسواءٍ، ولا تشفوا بعضه على بعض، إني أخشى عليكم الرماء» الربا.

وهذه الآية[1]: هي أولى الآيات نزولاً في تحريم الربا، وآيات البقرة نزلت بعد هذه، بل هي آخر آيات الأحكام نزولاً.

وقد يقول بعض المسلمين الآن: إنا نعيش في عصر ليس فيه دولٌ إسلاميةٌ قوية تقيم أحكام الإسلام، وتستغني عمن يخالفها في أحكامه بل زمام العالم في أيدي أمم ماديةٍ تقبض على الثروة، وبقية الشعوب عيالٌ عليها، فمن جاراها في طرق الكسب ـ والربا من أهم أركانه ـ أمكنه أن يعيش معها، وإلا كان مستعبداً لها. أفلا تقضي ضرورةٌ كهذه على الشعوب الإسلامية التي تتعامل مع الأوربيين كالشعب المصري مثلاً أن تتعامل بالربا كي تحفظ ثروتها؛ وتنميها وحتى لا يستنزف الأجنبي ثروتها، وهي مادة حياتها؟.

وجواباً عن هذا نقول: إن الحرمات في الإسلام ضربان:

١ ـ ضرب محرمٌ لذاته لما فيه من الضرر: ومثل هذا لا يباح إلا لضرورة كأكل الميتة وشرب الخمر، والربا المستعمل الآن هو ربا النسيئة، وهو متفق على تحريمه، فإذا احتاج المسلم إلى الاستقراض، ولم يجد من يقرضه إلا بالربا؛ فالإثم على آخذ الربا دون معطيه؛ لأن له فيه ضرورةً.

٢ ـ وضرب محرم لغيره: وهو ربا الفضل، لأنه ربما كان سبباً في ربا النسيئة، وهو يباح للضرورة والحاجة أيضاً.

والمسلم يبحث عن حاله، هل كان مضطراً إلى الربا أم لا؟. فإن كان

---

(١) المراغي.

مضطراً حلَّ له تناوله، ويكون مثل أكل الميتة، وشرب الخمر ونحوهما، وإلا لم يحلَّ ذلك.

إذ الربا يضر بإيمان المؤمنين، وإن كان زيادةً في مال الرابي؛ فهو في الحقيقة نقصانٌ: لأنَّ الفقراء الذين يأخذ أموالهم بهذا التعامل؛ إذا شاهدوه، يلعنونه ويدعون عليه، وبذلك يسلب الله الخير من يديه عاجلاً أو آجلاً في نفسه وماله، وتتوجه إليه المذمة من الناس لقساوة قلبه وغلظ كبده. وقد ورد في الأثر «إنَّ آخذ الربا لا يقبل منه صدقةٌ، ولا جهادٌ ولا حج ولا صلاة». وقرأ ابن كثير، وابن عامر ﴿أضعافاً مضعَّفة﴾ بتشديد العين بلا ألف قبلها. ثم أكد النهي فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله أيها المؤمنون فيما نهيتم عنه من أكل الربا، وغيره فلا تأكلوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تنجوا من عذابه وسخطه، وتظفروا بثوابه في الآخرة. لأن الفلاح يتوقف على التقوى، فلو أكل، ولم يتق؛ لم يحصل الفلاح. وفيه دليل على أنَّ أكل الربا من الكبائر، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ۝١٣١﴾؛ أي: واخشوا أيها المؤمنون النار الأخروية التي هيئت للكافرين بالتحرز عن متابعتهم، وتعاطي أفعالهم؛ فلا تستحلُّوا شيئاً مما حرم الله، فإن من استحل شيئاً مما حرم الله.. فهو كافر بالإجماع، ويستحق النار بذلك.

وفيه[1] تنبيه على أن النار بالذات معدة للكفار، وبالعرض للعصاة.

قال أبو حنيفة[2]: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين، إن لم يتقوه في اجتناب محارمه، وقد أمدَّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته، وطاعة رسوله بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وامتثلوه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه من أخذ الربا وغيره ﴿و﴾ أطيعوا ﴿الرسول﴾ محمداً ﷺ أيضاً، فإن طاعته طاعة الله. قال محمد ابن إسحاق[3]:

---

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.
(٣) النسفي.

في هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسولَ الله ﷺ يوم أحد ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لكي ترحموا، ولا تعذبوا، إذا أطعتم الله ورسوله فإن طاعة الله مع معصية رسوله ليست بطاعة، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

والمعنى[1]: وأطيعوا الله ورسوله فيما نهيا عنه من أكل الربا، وما أمرا به من الصدقة كي ترحموا في الدنيا بصلاح حال المجتمع، وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم. وقد ورد في الأثر «الراحمون يرحمهم الرحمن» رواه أبو داود، والترمذي.

الإعراب

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره؛ واذكر يا محمد لأصحابك قصة إذ غدوت. ﴿غَدَوْتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه ﴿لإذ﴾. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿غَدَوْتَ﴾ ﴿تُبَوِّئُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مفعول أول، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿غَدَوْتَ﴾: وهي حال مقدرة أي: قاصداً تبويىء المؤمنين. ﴿مَقَٰعِدَ﴾ مفعول ثان. ﴿لِلْقِتَالِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿مَقَٰعِدَ﴾ أو متعلق بـ ﴿تُبَوِّئُ﴾. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ الواو استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿سَمِيعٌ﴾ خبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية، والظرف بدل من الظرف قبله، وهو المقصود بالسِّياق. ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور صفة لـ

---

(١) الخازن.

﴿طَآئِفَتَانِ﴾. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿تَفْشَلَا﴾: فعل وفاعل منصوب ﴿بأن﴾ ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بالفشل، والباء متعلق بـ ﴿هَمَّت﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿وَلِيُّهُمَا﴾ خبر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. قال أبو حيان[1]: وهذه الجملة لا موضع لها من الإعراب، بل جاءت مستأنفة لثناء الله على هاتين الطائفتين انتهى.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿على الله﴾ جار ومجرور متعلق، بـ ﴿يتوكل﴾ قدم عليه للاهتمام به. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ ﴿الفاء﴾ زائدةٌ، زيدت لتوهم معنى الشرط. و﴿اللام﴾ لام الأمر. ﴿يتوكل﴾ مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة. وقال العكبري[2]: دخلت ﴿الفاء﴾ لمعنى الشرط، والمعنى إن فشلوا فتوكلوا أنتم، وإن صعب الأمر فتوكلوا انتهى.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. و﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿بِبَدْرٍ﴾ الباء حرف جر بمعنى في ﴿بدر﴾ مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نصر﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية. ﴿أنتم﴾ مبتدأ. ﴿أَذِلَّةٌ﴾ خبر، والجملة الاسمية حال من ضمير المخاطبين. ﴿فَٱتَّقُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية، لكون ما قبلها علةً لما بعدها. ﴿اتقوا الله﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَصَرَكُمُ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾ حرف جر، وتعليل بمعنى ﴿كي﴾. و﴿الكاف﴾ اسمها. وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة تقديره، فاتقوا الله لشكركم إياه.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان. ﴿تَقُولُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها، والظرف متعلق بـ ﴿نَصَرَكُمُ﴾. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَقُولُ﴾. ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ الخ مقول محكي لـ﴿تَقُولُ﴾ وإن شئت. قلت: الهمزة للاستفهام التقريري. ﴿لن﴾ حرف نفي ونصب. ﴿يَكْفِيَكُمْ﴾ فعل ومفعول به منصوب بـ ﴿لن﴾. ﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾ ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يُمِدَّكُمْ﴾ فعل مضارع، ومفعول به منصوب ﴿بأن﴾ المصدرية. ﴿رَبُّكُم﴾ فاعل، ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية تقديره: ألن يكفيكم إمداد ربكم إياكم، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿تَقُولُ﴾ ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُمِدَّكُمْ﴾ ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة أولى لـ ﴿ثلاثة آلاف﴾ تقديره: كائنات ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾. ﴿مُنزَلِينَ﴾ صفة ثانية لـ ﴿ثلاثة آلاف﴾.

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿بَلَىٰٓ﴾ حرف جواب، وهو إيجاب للنفي في قوله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿تَصْبِرُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم ﴿بإِنْ﴾ على كونه جواب الشرط لها. ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تَصْبِرُوا۟﴾. ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تَصْبِرُوا۟﴾. ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يأتوكم﴾. ﴿هَٰذَا﴾ صفة لـ ﴿فَوْرِهِمْ﴾ وهو جامد مؤول بمشتق تقديره من وقتهم الحاضر. ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم ﴿بإِنْ﴾ على كونه جواب الشرط لها. ﴿رَبُّكُم﴾ فاعل ومضاف إليه، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية من فعل شرطها، وجوابها جملةٌ جوابيةٌ لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ ﴿خمسة﴾ مضاف. ﴿ءَالَٰفٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جار ومجرور صفة أولى لـ ﴿خمسة﴾ ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ صفة ثانية لها.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ

﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول أول. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿بُشۡرَىٰ﴾ مفعول ثان لـ ﴿جعل﴾ على أنه بمعنى صير، ويجوز أن يكون مفعولاً له على أن يكون ﴿جعل﴾ متعدياً لواحد، كما ذكره العكبري ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿بُشۡرَىٰ﴾ أو متعلق بـ ﴿بُشۡرَىٰ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة.

وعبارة[1] «السمين» قوله: ﴿إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول لأجله، وهو استثناء مفرغ إذ التقدير، وما جعله لشيء من الأشياء إلا للبشرى، وشروط نصبه موجودةٌ، وهي اتحاد الفاعل والزمان، وكونه مصدراً سيق للعلة.

والثاني: أنه مفعول ثان لجعل على أنه بمعنى صير.

والثالث: أنه بدل من ﴿الهاء﴾ في ﴿جَعَلَهُ﴾ قاله الحوفي، وجعل ﴿الهاء﴾ عائدةً على الوعد بالمدد. انتهى.

﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ فيه[2] وجهان:

أحدهما: أنه معطوف على ﴿بُشۡرَىٰ﴾ هذا إذا جعلنا مفعولاً لأجله، وإنما جر باللام لاختلال شرط من شروط النصب، وهو عدم اتحاد الفعل، فإن فاعل الجعل هو الله تعالى، وفاعل الاطمئنان القلوب، فلذلك نصب المعطوف عليه لاستكمال الشروط، وجر المعطوف باللام لاختلال شرطه، وقد تقدَّم، والتقديرُ: وما جعله إلا للبشرى وللطمأنينة.

والثاني: أنه متعلق بفعل محذوف تقديره؛ وفعل ذلك الإمداد لتطمئن قلوبكم به. وقال الشيخ: و﴿تطمئنّ﴾ منصوب بإضمار أن بعد لام كي فهو من عطف الاسم على توهم موضع آخر. ثم نقل عن ابن عطية أنه قال: واللام في

---

(١) العكبري.　　(٢) الجمل.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه ﴿جَعَلَهُ﴾ ومعنى الآية وما كان هذا الإمداد إلا لتستبشروا به وتطمئن به قلوبكم. انتهى، «سمين».

وعلى ما قاله ابن عطية: فنقول في إعرابه: ﴿الواو﴾ عاطفة لمحذوف. ﴿لتطمئن﴾ اللام حرف جر وتعليل. ﴿تطمئن﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام كي. ﴿قُلُوبُكُم﴾ فاعل، ومضاف إليه ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تطمئن﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام المتعلقة بفعل محذوف معطوف على جملة قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ تقديره: وما جعله الله إلا لطمأنينة قلوبكم به ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: وما النصر إلا كائنٌ من عند الله تعالى، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ صفة أولى للجلالة. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ صفة ثانية له.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿لِيَقْطَعَ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يقطع﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿طَرَفًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿ولقد نصركم﴾ تقديره: ولقد نصركم الله ببدر ليقطع طرفٍ. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿طَرَفًا﴾. ﴿كَفَرُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ معطوف على ﴿لِيَقْطَعَ﴾ وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿الهاء﴾ مفعول به. ﴿فَيَنقَلِبُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿ينقلبوا﴾ معطوف على ﴿يكبت﴾. و﴿الواو﴾ فاعل. ﴿خَآئِبِينَ﴾ حال من فاعل ﴿ينقلبوا﴾.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿لَكَ﴾ خبرها مقدم. و﴿شَىْءٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ حال ﴿من شيء﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها فتعرب حالاً منها، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ من اسمها وخبرها جملة معترضة لاعتراضها بين المعطوف

والمعطوف عليه. ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ معطوفان على ﴿يقطع﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ الفاء تعليلية. ﴿إن﴾ حرف نصب. و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ خبرها، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية تقديره: أو لتعذيبهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لله﴾ جار ومجرور خبر مقدم: ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الواو عاطفة: ﴿مَا﴾ في محل الرفع معطوفة على ﴿ما﴾ الأولى. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جار ومجرور صلةٌ لما أو صفة لها. ﴿يَغْفِرُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة. ﴿لِمَن﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَغْفِرُ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾ صلة لمن، والعائد محذوف تقديره: لمن يشاء غفرانه. ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يعذب﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَغْفِرُ﴾. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يشاء﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره: من يشاء تعذيبه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة. و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد، زيد تعويضاً عمَّا فات ﴿أيُّ﴾ من الإضافة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿أيُّ﴾ وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَا تَأْكُلُوا۟﴾ ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَأْكُلُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية. ﴿ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ مفعول به، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿أَضْعَٰفًا﴾ حال من الربا، ولكن بتأويله بمشتق؛

لأنه مصدر جامد تقديره: حال كونه مضاعفات. ﴿مضاعفة﴾ صفة مؤكدة لـ﴿أضعافا﴾. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الواو عاطفة. ﴿اتقوا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَأْكُلُوا﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعلَّ حرف نصب وتعليل. و﴿الكاف﴾ اسمها. وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾ في محل الرفع خبرها، وجملة ﴿لعلَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة تقديره؛ واتقوا الله لأجل قصد فَلاحِكُم.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿وَاتَّقُوا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿أتقوا النار﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿الَّتِي﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لـ ﴿النَّارَ﴾. ﴿أُعِدَّتْ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على النار. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُعِدَّتْ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير النائب.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَأَطِيعُوا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿أطيعوا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿وَالرَّسُولَ﴾: معطوف على الجلالة ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل. و﴿الكاف﴾ اسمها. وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾ من الفعل المغير، ونائبه في محل الرفع خبر ﴿لعلَّ﴾، وجملة ﴿لَعَلَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة تقديره، وأطيعوا الله والرسول لطلب رحمتكم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ يقال: غدا الرجل[1] يغدو من باب سما، أي: خرج غدوةً. والغدوة، والغداة ما بين طلوع الفجر، وطلوع الشمس، ويستعمل غدا ناقصاً بمعنى صار عند بعضهم، فيرفع الاسم وينصب الخبر، وعليه قوله عليه الصلاة والسلام: «لو توكلتم على الله حق توكله.. لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصاً وتروح بطاناً».

(١) الجمل.

وهذا المعنى الثاني: ممكن هنا، فالمعنى عليه، وإذ غدوت؛ أي صرت تبوىء المؤمنين؛ أي: تنزلهم في منازل، وهذا أظهر من المعنى الآخر، لأنَّ المذكور في القصة أنه سار من أهله بعد صلاة الجمعة، وبات في شعب أحد، وأصبح ينزل أصحابه في منازل القتال، ويدبرهم أمر الحرب.

﴿تُبَوِّئُ﴾؛ أي: تهيء وتبوىء وتنزل مضارع بوأ من باب فعل المضاعف، وأصله من المباءة، وهي المرجع، فالمباءة مكان البوء، والبوء الرجوع، وهو هنا المقرُّ؛ لأنه يبوءُ إليه صاحبه. ويقال: بوأته منزلاً، وبوأت له منزلاً؛ أي؛ أنزله فيه فأصل التبوّؤ اتخاذ المنزل.

﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِۗ﴾ جمع مقعد؛ وهو مكان القعود، والمراد: المراكز، والمواطن، والمواقف، وعبر عنها بالمقاعد، إشارةً إلى طلب ثبوتهم فيها، وإن كانوا وقوفاً كثبوت القاعد في مكانه.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ يقال: هممت بكذا، أهم به، بضم الهاء من باب: رد إذا قصده، وأراد فعله، فالهم حديث النفس، وتوجهها إلى الشيء بلا عزم عليه.

وقال أبو حيان: وأوّل ما يمر الشيء على القلب يسمى خاطراً، فإذا تردد صار حديث نفسٍ فإذا ترجح فعله صار همًّا، فإذا قوى وأشتد صار عزماً، فإذا قوى العزم واشتدَّ حصل الفعل أو القول.

﴿أَن تَفْشَلَا﴾ يقال فشل يفشل فشلا من باب فرح إذا ضعف وجبن عن الحرب، وقال بعضهم: الفشل في البدن الإعياء وعدم النهوض وفي الحرب الجبن والخور، وفي الرأي العجز والفساد، والفعل منه فشل بكسر العين من باب تعب وتفاشل الماء إذا سال.

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ التوكل تفعل من وكل فلان أمره إلى فلان إذا فوضه إليه، واعتمد عليه في كفايته، ولم يتوله بنفسه. وقال ابن فارس[1]: التوكل: إظهار

---

(١) البحر المحيط.

العجز، والاعتماد على غيرك، يقال: فلان وكلةٌ أي: عاجزٌ يكل أمره إلى غيره، وقيل: هو من الوكالة، وهو تفويض الأمر إلى غيره ثقةً بحسن تدبيره. ﴿بدر﴾ علم لموضع بين مكة والمدينة، سمي باسم صاحبه بدر بن كلدة، وقيل: غير ذلك ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ جمع ذليل كرغيف، وأرغفة كما قال ابن مالك:

فِيْ ٱسْمِ مُذَكَّرٍ رُبَاعِيٍّ بِمَدّ   ثَالِثٍ ٱفْعِلَةُ عَنْهُمُ ٱطَّرَدْ

والذليل هو من لا منعة له ولا قوة وقد كانوا قليلي العدة من السلاح والدواب والزاد.

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ من الكفاية، وهي سد الحاجة، وفوقها الغنى ﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾ من أمد الرباعي، والإمداد إعطاء الشيء حالاً بعد حال ﴿بَلَىٰٓ﴾ حرف جواب كنعم لكنها لا تقع إلا بعد النفي، وتفيد إثبات ما بعده ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: من ساعتهم هذه بلا إبطاء ولا تراخٍ، فالفور الحال التي لا بطء فيها، ولا تراخي وأصله[1] من فارت القدر إذا اشتدَّ غليانها، وبادر ما فيها إلى الخروج، ويقال: فار غضبه إذا جاش وتحرك، وتقول: خرج من فوره أي، من ساعته لم يلبث.

﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ الخمسة مرتبة من العدد معروفةٌ، ويشتق منها الفعل، يقال: خمست الأربعة، إذا صيرتهم في خمسة ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بكسر[2] الواو من قولهم، سومَّ على القوم إذا أغار عليهم، ففتك بهم، وقيل: من التسويم بمعنى إظهار سيما الشي وعلامته، أي؛ معلمين أنفسهم وخيلهم.

﴿بُشْرَىٰ﴾ اسم مصدر على فعلى لبشر المضاعف كالرجعى بمعنى البشارة، والبشارة إذا أطلقت لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا قيدت به كقوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿طَرَفًا﴾ والطرف جانب الشيء الأخير ثم يستعمل للقطعة من الشيء وإن لم يكن جانباً أخيراً، والمعنى هنا أي: طائفةً وقطعةً منهم ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ الكبت:

---

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.

الهزيمة والإهلاك، وقد يأتي بمعنى الغيظ، والإذلال، أو الوهن، الذي يقع في القلب ﴿خَآئِبِينَ﴾ اسم فاعل من خاب خيبة كهاب هيبة، والخيبة عدم الظفر بالمطلوب.

البلاغة

قال أبو حيان[1]: وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة والبلاغة:

فمنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ فإن الجمهور قالوا: أراد به بيت عائشة.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. وفي قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ و﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ خص نفسه بذلك كقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ فأشبه من قتل، وتفرق بالشيء المقتطع الذي تفرقت أجزاؤه، وانخرم نظامه، وفي قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم﴾ شبه زوال الخوف عن القلب وسكونه عن غليانه باطمئنان الرجل الساكن الحركة، وفي قوله: ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ شبه رجوعهم بلا ظفر، ولا غنيمة بمن أمل خيراً من رجل فأمه فأخفق أمله وقصده.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ لأن النصر إعزازٌ، وهو ضد الذل، وفي قوله: ﴿يَغْفِرُ﴾ و﴿يُعَذِّبُ﴾ لأن الغفران ترك المؤاخذة، والتعذيب المؤاخذة بالذنب.

ومنها: التجوز بإطلاق التثنية على الجمع في قوله: ﴿أَن تَفْشَلَا﴾، وبإقامة اللام مقام إلى في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ﴾؛ أي: إليك أو مقام على أي؛ ليس عليك.

ومنها: الاعتراض والحذف في مواضع اقتضت ذلك.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾.

ومنها: تسمية الشيء بما يؤول إليه في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟﴾ سمي الأخذ أكلاً لأنه يؤول إليه فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون. انتهى.

وجملة قوله[1]: وما النصر إلا من عند الله تذييلٌ، أي: كل نصر هو من الله لا من الملائكة. وإجراء وصفي العزيز الحكيم هنا، لأنهما أولى بالذكر في هذا المقام، لأن العزيز ينصر من يريد نصره، والحكيم يعلم من يستحق نصره كيف يعطاه.

﴿طَرَفًا﴾ والطرف بالتحريك يجوز أن يكون بمعنى الناحية، ويخص بالناحية التي هي منتهى المكان كما في قول أبي تمام:

كَانَتْ هِيَ ٱلْوَسَطُ ٱلْمَحْمِيُّ فَٱتَّصَلَتْ بِهَا ٱلْحَوَادِثُ حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ طَرَفاً

فيكون استعارةً لطائفة من المشركين كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾. ويجوز أن يكون بمعنى الجزء المتطرّف من الجسد كاليدين، والرجلين، والرأس، فيكون هنا مستعاراً لأشراف المشركين وتنوين ﴿طَرَفًا﴾ للتفخيم.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) التحرير والتنوير في علم التفسير.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت
للمتقين (١٣٣) الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله
يحب المحسنين (١٣٤) والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم
ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون (١٣٥) أولئك جزاؤهم
مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين (١٣٦) قد
خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١٣٧) هذا بيان
للناس وهدى وموعظة للمتقين (١٣٨) ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين
(١٣٩) إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس
وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين (١٤٠) وليمحص الله الذين
آمنوا ويمحق الكافرين (١٤١) أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم
ويعلم الصابرين (١٤٢) ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون (١٤٣)
وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن
ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين (١٤٤) وما كان لنفس أن
تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة
نؤته منها وسنجزي الشاكرين (١٤٥) وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما
أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين (١٤٦) وما كان قولهم إلا أن
قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (١٤٧)
فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين (١٤٨)﴾.

المناسبة

لما حث الله تعالى المؤمنين على الصبر والتقوى، ونبهم على إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة بدر، أردفه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أحد، وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول ﷺ، ثم بين أن الابتلاء، سنة الحياة، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن

يدخل الوهن في قلوب المؤمنين، ثم توالت الآيات الكريمة في بيان الوقائع والعبر من غزوة أحد.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر في الآيات السابقة قصة أحد، وأهم أحداثها، ثم ذكرهم بوقعة بدر، وما كتب لهم فيها من النصر على قلة عددهم، وعددهم ذكرهم هنا بسنن الله في خليقته، وأن من سار على نهجها أدى به ذلك إلى السعادة، ومن حاد عنها ضل وكانت عاقبته الشقاء والبوار، وأن الحق لا بد أن ينصر على الباطل مهما كانت له أول الأمر من صولةٍ، كما وعد الله بذلك على ألسنة رسله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها أنه سبحانه وتعالى لما أرشدهم في الآيات السابقة إلى أنه لا ينبغي لهم أن يحزنوا، أو يضعفوا، وأن ما أصابهم من المحنة والبلاء جار على سنن الله في خليقته من مداولة الأيام بين الناس، وفيه تمحيص له الحق؛ فإن الشدائد محك الأخلاق. وفيه هديٌ وإرشادٌ وتسليةٌ للمؤمنين حتى يتربوا على الصفات التي ينالون بها الفوز والظفر في جميع أعمالهم.

بين لهم هنا أن سبيل السعادة في الآخرة منوط بالصبر والجهاد في سبيل الله؛ كما أن طريق السعادة في الدنيا يكون بإقامة الحق، وسلوك طريق الإنصاف، والعدل بين الناس، فسنة الله هنا كسنته هناك.

أسباب النزول

قوله تعالى[١]: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما

(١) لباب النقول.

أخرجه ابن أبي حاتم من طريق العوفي، عن ابن عباس أنَّ رجالاً من الصحابة كانوا يقولون: ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر، أو ليت لنا يوماً كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، فنفوز فيه بالشهادة والجنة، أو الحياة والرزق، فأشدهم الله أحداً، فلم يلبثوا إلا من شاء الله منهم فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ الآية، أخرج ابن المنذر عن عمر قال: تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد فصعدتُ الجبلَ، فسمعتُ يهود تقول: قتل محمد فقلت: لا أسمع أحداً يقول: قتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون، فنزلت: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: لما أصابهم يوم أحدٍ ما أصابهم من القرح، وتداعوا نبيَّ الله قالوا: قد قتل فقال أناسٌ: لو كان نبياً ما قتل، وقال أناس: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى يفتح الله عليكم، أو تلحقوا به، فأنزل الله ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ الآية.

وأخرج البيهقي في «الدلائل» عن ابن أبي نجيح أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه فقال: أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال: إن كان محمدٌ قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم فنزلت.

وأخرج ابن راهويه في مسنده عن الزهري، أن الشيطان صاح يوم أحد: إنَّ محمداً قد قتل، قال كعب ابن مالك: أنا أول من عرف رسولَ الله ﷺ رأيت عينيه من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي هذا رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ قرأ الجمهور بالواو عطفاً تفسيرياً على وأطيعوا الله كمصاحفهم، فإنها ثابتة في مصاحف مكة والعراق، ومصحف عثمان. وقرأ ابن عامر، ونافع، وأبو جعفر ﴿سارعوا﴾ بدون واو كرسم المصحف الشامي، والمدني، على الاستئناف، كأنه قيل: كيف نطيعهما؟ فقيل: سارعوا إلى ما يوجب المغفرة، وهو

الطاعة بالإسلام، والتوبة والإخلاص، وأمال الدوري في قراءة الكسائي ﴿وسَارِعُوا﴾ لكسرةِ الراء.

وقرأ أُبيٌّ وعبدُ الله ﴿وسابقوا﴾ وهي شاذَّةٌ.

أي: وسابقوا وبادروا ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: إلى ما يوجب[(١)] المغفرة من ربكم، وهي الأعمال الصالحة المأمور بفعلها. قال ابن عباس رضي الله عنهما إلى الإسلام، ووجهه أنَّ الله تعالى ذكر المغفرة على سبيل التنكير، والمراد منه المغفرة العظيمة، وذلك لا يحصل إلا بسبب الإسلام؛ لأنه يَجُبُّ ما قبله. وعن ابن عباس أيضاً إلى التوبة من الرّبا والذنوب؛ لأنَّ التوبة من الذنوب توجب المغفرة. وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إلى أداء الفرائض لأنَّ اللفظ مطلق فيعم الكل.

وروي عن أنس بن مالك، وسعيد بن جبير، أنها التكبيرة الأولى يعني تكبيرة الإحرام، وقيل: إلى الإخلاص في الأعمال، كما قاله عثمان بن عفان؛ لأنَّ المقصود من جميع العبادات هو الإخلاص. وقيل: إلى الهجرة، وقيل: إلى الجهاد، كما قاله الضحاك، ومحمد بن إسحاق. وينبغي[(٢)]: أن تحمل هذه الأقوال على التمثيل، لا على التعيين والحصر. ﴿وَجَنَّةٍ﴾؛ أي: وسارعوا إلى جنة موصوفة بما سيأتي، وأنما فصل بين المغفرة والجنة؛ لأن معنى المغفرة إزالة العقاب، ومعنى الجنة إيصال الثواب، فلا بد للمكلف من تحصيل الأمرين فجمع بينهما للإشعار؛ بأنه لا بدَّ من المسارعة إلى التوبة الموجبة للمغفرة، وذلك بترك المنهيات، ومن المسارعة إلى الأعمال الصالحة المؤدية إلى الجنة.

﴿عَرْضُهَا﴾؛ أي: عرض تلك الجنة وسعتها ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: كعرض السموات السبع والأرضين السبع وسعتهما، بمعنى لو جعلت السموات والأرض طبقاً طبقاً، ووصلت تلك الطبقات بعضها ببعض كالثياب، وجعلت طبقاً

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

واحداً. . لكان ذلك مثل عرض الجنة، وهذا غايةٌ في السعة، فإذا كان عرضها كذلك فكيف بطولها؛ لأن الغالب أنَّ الطول يكون أكثر من العرض. وإنما مثل عرض الجنة بعرض السموات والأرض؛ لأنهما أوسع مخلوقات الله تعالى فيما يعلمه الناس. وإنما جمعت السموات وأفردت الأرض؛ لأن السموات أنواع قيل: بعضها فضة وبعضها غير ذلك، والأرض نوع واحد.

وقال أبو مسلم[(١)]: إن العرض هنا ما يعرض من الثمن في مقابلة المبيع؛ أي: ثمنها، لو بيعت كثمن السموات والأرض، والمراد بذلك عظم مقدارها وجلالة خطرها، وإنه لا يساويها شيء وإن عظم ﴿أُعِدَّتْ﴾؛ أي: هيئت تلك الجنة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشرك، والمعاصي بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات. وفي الآية دليلٌ على أنَّ الجنة مخلوقةٌ الآن، وأنها خارجةٌ عن هذا العالم؛ إذ أنها تدل على أن الجنة أعظم، فلا يمكن أن يكون محيطاً بها.

ويدل على[(٢)] ذلك حديث رؤيا النبي ﷺ؛ وهو الحديث الطويل الذي فيه قوله ﷺ إن جبريل وميكائيل قالا له: «ارفع رأسك فرفع، فإذا فوقه مثل السحاب، قالا: هذا منزلك قال: فقلت دعاني أدخل منزلي قالا: إنه بقي لك عمرٌ لم تستكمله، فلو استكملت. . أتيت منزلك».

والأدلة الدالة على أنها مخلوقةٌ من الكتاب والسنة كثيرةٌ شائعة خلافاً للمعتزلة.

وخلاصة[(٣)] **المعنى**: أي وبادروا إلى العمل لما يوصلكم إلى مغفرة ربكم، ويدخلكم جنةً واسعة المدى، أعدها الله تعالى لمن اتقاه، امتثل أوامره، وترك نواهيه فاعملوا الخيرات، وتوبوا عن المعاصي والآثام كالربا مثلاً، وتصدقوا على ذوي البؤس والفاقة.

---

(١) المراغي.

(٢) التحرير والتنوير في علم التفسير.

(٣) المراغي.

رُويَ أنَّ رسول هرقل ملك الروم، قدم على النبي ﷺ بكتاب هرقل، وفيه أنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار»، يريد أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم، والليل في ضد ذلك الجانب، فكذا الجنة في جهة العلو، والنار في جهة السفل.

ثم وصف الله تعالى المتقين بجملة أوصافٍ كلها مناقب ومفاخر، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ ويصرفون أموالهم في مصارف الخير ﴿فِى﴾ حالة ﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾ والغنى، والسعة، والفرح، والرخاء ﴿وَ﴾ في حالة ﴿الضراء﴾ والفقر، والضيق، والحزن، والشدة، فينفقون في كل حال بحسبها، ولا يتركون الإنفاق في كلتا الحالتين لا في حال غنى وفقر، ولا في حال حزن وسرور، ولا في رخاءٍ وشدةٍ، ولا محنةٍ وبلاء، وسواء كان الواحد منهم في عرس أو حبس، فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس في جميع الأحوال. وأثر عن عائشة رضي الله عنها أنها تصدقت بحبة عنب وأثر عن بعض السلف أنه تصدق ببصلة. وفي الحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، وردوا السائل ولو بظلف محرق».

وإنما بدأ الله سبحانه وتعالى وصف المتقين بالإنفاق لأمرين:

الأول: أنه جاء في مقابلة الربا الذي نهى عنه في الآية السابقة؛ إذ أن الصدقة إعانة للمعوز المحتاج، وإطعام له ما لا يستحقه، والربا استغلال الغني حاجة ذلك المعوز لأكل أمواله بلا مقابل فهي ضده. ومن ثم لم يرد في القرآن ذكر الربا إلاّ ذم وقبح، ومدحت معه الزكاة والصدقة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ وقوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ﴾.

والأمر الثاني: أنَّ الإنفاق في حالي، اليسر والعسر أدل على التقوى، لأن المال عزيز على النفس، فبذله في طرق الخير والمنافع العامة التي ترضى الله يشق عليها أما في السراء؛ فلما يحدثه في السرور والغنى من البطر والطغيان وشدة الطمع، وبعد الأمل، وأما في الضراء؛ فلأن الإنسان يرى أنه أجدر أن يأخذ لا

أن يعطي، ولكنه مع هذه الحال لا يعدم وقتاً يجد فيه ما ينفقه في سبيل الله، ولو قليلاً. وحب الخير هو الذي يحرك في الإنسان داعية البذل لإنفاق هذا العفو القليل، فإن لم توجد تلك الداعية بحسب الفطرة فالدين ينميها، ويقويها، إذ هو قد جاء لتعديل الأمزجة المعتلة وإصلاح الفطر المعوجة.

وقد أرشدنا هذا الدين إلى أن النفوس يجب أن تكون كريمةً في ذاتها مهما ألح عليها الفقر، وأن تتعود الإحسان بقدر الطاقة لتسمو عن الرذائل التي قد تجرها إليها الحاجة، فتبعد بقدر الإمكان عن ذل السؤال، ومد الأيدي إلى الناس لطلب الإحسان، وإراقة ماء الوجه أمام بيوت الأغنياء، لما في ذلك من الذلة والصغار، وهي ما لا يرضاها مؤمن لنفسه يعتقد أن الأرزاق في قبضة الله، وهو الذي يعطي ويمنع، وقد جعل لكسب المال أوجهاً كثيرة يستطيع المرء أن يسعى إليها ليحصل عليه.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الحض على اكتساب المال من كل طريق حلال، والبعد عن ذل السؤال. إلا أن بذل القليل من الأفراد والجماعات إذا اجتمع صار كثيراً، ومن ثم كانت الأمم الراقية تقيم مشروعاتها النافعة للأمة في الزراعة، والصناعة، أو في بناء الملاجىء والمستشفيات بالتبرعات القليلة التي تؤخذ من أفرادها، وبذا تقدمت في سائر فنون المدنية، والحضارة. ولذا حث الله تعالى على بذل الخير ولو قليلاً بقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

ومن هذا ترى: أنَّ الله جعل من أهم علامات التقوى بذل المال؛ كما أن الشحَّ به علامة عدم التقوى. والتقوى: هي السبيل الموصل إلى الجنة. فانظر إلى أهل الثراء الذين يقبضون أيديهم عن بذل المعونة للأفراد، والجماعات، ويكنزون في صناديقهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة هل تغنيهم صلاتهم وصومهم شيئاً مع هذا الشح البادي على ووجههم؟!. فما هي إلاّ حركات وأعمال مرنوا عليها دون أن يكون لها الأثر الناجع في نفوسهم إذ الصلاة التي يقبلها الله، والصوم الذي يرضاه الله هو ما ينهى عن الفحشاء والمنكر، وأيُّ منكر أشد من

الضن بالمال حين الحاجة إليه لنفع أمة أوفرد؟.

ولو جاد المسلمون بأموالهم عند الحاجة إلى البذل؛ لكان لنا شأن آخر بين أرباب الديانات الأخرى، ولكنا من ذوي العزة والمكانة بينها.

ولكنا صرنا إلى ما ترى عسى الله أن يغير من نفوس المسلمين، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم باتباع أوامر كتابهم، واجتناب نواهيه التي ابتلوا بها من جهة الأوروبيين من الملاهي العصرية، والملاعب الفاضية، من المنافع الحربية التي ينفقون فيها أموالاً كثيرةً، وملايين عديدةً تشبهاً باليهود والنصارى، فإنا لله وإنّا إليه راجعون.

فصل في ذكر بعض الأحاديث الواردة في الحث على الإنفاق

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق: فلا ينفق إلا سبغت أو وفت على جلده حتى تخفى ثيابه، وتعفو أثره، وأما البخيل: فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقةٍ مكانها؛ فهو يوسعها فلا تتسع». «الجنة الدرع من الحديد متفق عليه.

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «السخي قريبٌ من الله، قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، بعيدٌ من الجنة، قريب من النار، ولجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله تعالى من عابدٍ بخيل» أخرجه الترمذي.

وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلاّ وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً». متفق عليه.

وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من أنفق زوجين في سبيل الله تعالى دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب، أي فل: هلم، فقال أبو بكر رضي الله: عنه يا رسول الله، ذاك الذي لا توى عليه، قال رسول الله ﷺ: «إني

لأرجو أن تكون منهم». متفق عليه. قوله: أي فل: يعني يا فلان، وليس بترخيم والتوى الهلاك: يعني ذاك الذي لا هلاك عليه.

وعنه أيضاً رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنفق ينفق عليك». متفق عليه.

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ﴾؛ أي: الجارعين ﴿ٱلۡغَيۡظَ﴾ والغضب عند امتلاء نفوسهم منه، والممسكين ما في أنفسهم من الغيظ بالصبر، والكافين لها عن الانتقام مع القدرة عليه، ولا يظهرون أثره. والكظم حبس الشيء عند امتلائه، وكظم الغيظ: هو أن يمتلىء غيظاً فيرده في جوفه، ولا يظهره بقولٍ ولا فعلٍ، ويصبر عليه ويسكن عنه.

ومعنى الآية[1]: أنهم يكفون غيظهم عن الإمضاء، ويردون غيظهم في أجوافهم، وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم كما في آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾.

ومن أجاب داعي الغيظ وتوجه بعزيمةٍ إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال، ولا يكتفي بالحق بل يتجاوزه إلى البغي، ومن ثم كان من التقوى كظمه.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أن خادماً لها غاظها فقالت: لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاءً، وقال ﷺ: «ما من جرعتين أحب إلى الله من جرعة موجعة يجرعها صاحبها بصبر وحسن عزاءٍ، ومن جرعة غيظٍ كظمها».

وعن سهل بن معاذ عن أنس الجهني عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء». أخرجه الترمذي، وأبو داود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد

---

(١) الخازن.

بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». متفق عليه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً، وإيماناً» وقال[1] مقاتلٌ بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: «إنَّ هذه في أمتي لقليل، وقد كانوا أكثر في الأمم الماضية». وأنشد أبو القاسم بن حبيب:

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُوراً كَاظِمَا لِلْغَيْظِ تُبْصِرُ مَا تَقُوْلُ وَتَسْمَعُ
فَكَفَىٰ بِهِ شَرَفاً تَصَبُّرُ سَاعَةٍ يَرْضَىٰ بِهَا عَنْكَ ٱلإِلَهُ وَيَدْفَعُ

﴿وَٱلْعَافِينَ﴾؛ أي: التاركين المسامحين الإساءة والمظالم ﴿عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ الجناة والمسيئين عليهم؛ أي: الذين يتجاوزون عن ذنوب الناس، ويتركون عقوبة من استحقوا مؤاخذته مع القدرة عليه، وتلك منزلة من ضبط نفسه وملك زمامها قل من يصل إليها، وهي أرقى من كظم الغيظ إذ ربما كظم المرء غيظه على الحقد والضغينة. وأخرج الطبراني عن أبيٍّ بن كعب أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «من سره أن يشرف له البنيان، وترفع له الدرجات، فليعف عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه».

وفي الآية: إيماءٌ إلى حسن موقع عفوه ﷺ عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة أمره، وإرشادٌ له إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين بما فعلوه بحمزة رضي الله عنه حتى قال حين رآه: «قد مثل به لأمثلن بسبعين منهم».

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ﴾ ويثيب ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالإخلاص، والأعمال الصالحة، وبالإحسان إلى غيرهم على إحسانهم، ومحبة الله للعبد أعظم درجات الثواب.

أي: والله سبحانه وتعالى يحب الذين يتفضلون على عباده البائسين، ويواسونهم ببعض ما أنعم الله به عليهم شكراً له على جزيل نعمائه.

---

(١) البحر المحيط.

أخرج البيهقي: أنَّ جاريةً لعليٍّ بن الحسين رضي الله عنهما جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها، فشجه، فرفع رأسه فقالت: إن الله يقول: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: قد عفا الله عنك، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى.

واعلم: أن الإحسان إلى الغير إما بإيصال النفع إليه، وهو الذي عناه الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ فيدخل فيه إنفاق العلم بأن يشتغل بتعليم الجاهلين، وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات.

وإما بدفع الضرر عنه، فهو إما في الدنيا بأن لا يقابل الإساءة بإساءة أخرى، وهو ما عناه الله بقوله: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ وإما في الآخرة بأن يعفو عما له عند الناس من التبعات، والحقوق، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ ومن ثم كانت هذه الآية جامعة لوجوه الإحسان إلى الغير.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ هذا[1] مبتدأٌ خبره ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ وقيل: معطوف على ﴿المتقين﴾ والأول أولى، وهؤلاء هم صنف دون الصنف الأول، ملحقون بهم، وهم التوابون. أي: والذين إذا فعلوا وارتكبوا فاحشةً أي: ذنباً قبيحاً، وهو ما يتعدى أثره إلى الغير كالغيبة ونحوها ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: ارتكبوا ذنباً يكون مقصوراً عليهم، كشرب الخمر ونحوه، وقيل: المراد بالفاحشة الكبائر وبالظلم الصغائر.

وقال ابن عباس[2]: الفاحشة الزنا، وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة. ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ذكروا وعده ووعيده، وأمره ونهيه، بألسنتهم وعظمته وجلاله وعقابه بقلوبهم ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: فرجعوا إليه تعالى طالبين مغفرته راجين رحمته علماً منهم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو، فهو الفعال

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

لما يشاء بمقتضى حكمته وعلمه الواسع. وقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ معترضة بين ماقبلها وما بعدها، أعني بين جملة ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾، وجملة ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ تصويباً لفعل التائبين، وتطييباً لقلوبهم، وبشارةً لهم بسعة الرحمة، وقرب المغفرة وإعلاءً لقدرهم بأنهم علموا أن لا مفزع للمذنبين إلا فضله، وكرمه، وأن من كرمه أن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأن العبد إذا التجأ إليه، وتنصل عن الذنب بأقصى ما يقدر عليه عفا عنه، وتجاوز عن ذنوبه، وإن جلت، فإن عفوه أجل، وكرمه أعظم؛ كما أن فيها تحريضاً للعباد على التوبة وحثاً لهم عليها، وتحذيراً من اليأس والقنوط.

والاستفهام فيه للإنكار، أي: لا يغفر ذنوب التائبين أحدٌ إلا الله.

ومعنى: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: أتوا بالتوبة على الوجه الصحيح؛ لأجل ذنوبهم، وهو الندم على فعل ما مضى مع العزم على ترك مثله في المستقبل، ومع الإقلاع عنه في الحال، وهذا هو حقيقة التوبة. فأما الاستغفار باللسان؛ أي: مجرد قول استغفر الله باللسان والقائل ملتبس بالذنوب، فذاك لا أثر له في إزالة الذنب، بل يجب إظهار هذا الاستغفار لإزالة التهمة، ولإظهار انقطاعه إلى الله تعالى. وقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾ معطوف على جواب إذا.

﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ معطوف على ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: ولم يقيموا، ولم يدوموا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ وارتكبوا من الفواحش واللمم من غير استغفار منها، ورجوع إلى الله بالتوبة بل أقروا واستغفروا. وقد قال ﷺ: «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار». يريد ﷺ أن الصغيرة مع الإصرار كبيرةٌ. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذه الجملة حال من فاعل ﴿يُصِرُّواْ﴾ أي؛ والحال أنهم يعلمون أن ما فعلوه معصية الله، وأنه منهيٌّ عنه قبيحٌ ورد الوعيد عليه، أو يعلمون أن الله يتوب على من تاب.

والفائدة من ذكر هذه الجملة: بيان أنه إذا لم يعلم أنه معصية الله.. يعذر في فعله.

والمؤمن المتقي لا يصر على الذنب، وهو يعلم نهي الله عنه، ووعيده عليه

إذ يعلم أن الذنب فسوق وخروج عن نظام الفطرة السليمة، واعتداء على حقوق الشريعة.

فالآية: تؤمِىءُ إلى أن المتقين الذين أعدَّ الله لهم الجنة لا يصرون على ذنب يرتكبونه صغيراً كان أو كبيراً؛ لأن ذكرهم لله يمنعهم أن يقيموا على الذنوب، إذ الإصرار على الصغائر يجعلها كبائر. ورب كبيرة أصابها المؤمن بجهالةٍ، وبادر إلى التوبة منها، فكانت مذكرة له بضعفه البشري، ودليلاً على أن للغضب عليه سلطاناً تكون دون صغيرةٍ يقترفها مستهيناً بها، مصرا عليها، مستأنساً بها، فتزول من نفسه هيبة الشريعة، ويتجرأ بعد ذلك على ارتكاب الكبائر فيكون من الهالكين.

وروي أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام: «ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عملٍ، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي». وقال عبد الله بن المبارك شعراً:

تَرْجُو ٱلنَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ ٱلسَّفِيْنَةَ لاَ تَجْرِي عَلَىٰ ٱلْيَبَسِ

قال ثابت البناني: بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ إلى آخرها.

فصلٌ فيما وَرَد في فضل الاستغفار من الأحاديث الصحيحة

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «إني كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ نفعني الله منه ما شاء أن ينفعني، وإذا حدَّثني أحد من الصحابة استحلفته، فإذ حلف لي صدقته، وأنه حدثني أبو بكرٍ، وصدق أبو بكر أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من عبد مؤمن أو قال: ما من رجل يذنب ذنباً فيقوم ويتطهر، ثم يصلي، ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر الآية. أخرجه أبو داود، والترمذي، وقال: هذا حديث قد رواه غير واحد عن عثمان بن المغيرة فرفعوه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَزِمِ الاستغفارَ.. جَعَلَ الله له من كل ضيقٍ مخرجاً، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب». أخرجه أبو داود.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال، رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا.. لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم». أخرجه مسلم.

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى قال: «إذا أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، قال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد، فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال، تبارك وتعالى: إن عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال: تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب». وفي رواية اعمل ما شئت قد غفرت لك». قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة اعمل ما شئت؛ متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك، ولا أُبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم لو اتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرةً». أخرجه الترمذي. وعنان السماء بفتح العين السحاب، وقيل: ما ظهر لك منها. وقراب الأرض بضم القاف، وروي كسرها، والضم أشهر، وهو ما يقارب ملأها.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من قال: «استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفرت ذنوبه، وإن كان قد فر من الزحف». أخرجه أبو داود، والترمذي والحاكم، وقال: حديث حسن صحيح على شرط البخاري ومسلم.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسَى أن يغفره الله إلا من مات مشركاً، ومن قتل مؤمناً متعمداً». أخرجه أبو داود. انتهى الفصل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات السابقة، والمستغفرون من ذنوبهم ﴿جَزَآؤُهُم﴾ على أعمالهم الحسنة ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ كائنة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لذنوبهم ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾؛ أي: بساتين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها، وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: أنهار الماء، واللبن، والخمر، والعسل حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: مقدرين الخلود ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة دائمين فيها لا يموتون، ولا يخرجون منها ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾؛ أي: وحسن جزاء المطيعين الله بالصفات السابقة، وبالاستغفار من ذنوبهم. والمخصوص بالمدح المغفرة، والجنات.

وخلاصة ذلك: نِعْمَ هذا الأجر الذي ذكر من المغفرة، والجنات أجراً للعاملين تلك الأعمال الصالحة، وللمستغفرين من ذنوبهم. وذكر تعالى(١) ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ بـ ﴿واو﴾ العطف هنا، وتركها في العنكبوت لوقوع مدخولها هنا بعد خبرين متعاطفين بالواو، فناسب عطفه بها ربطاً بخلاف ما في العنكبوت؛ إذ لم يقع قبل ذلك إلا خبر واحد كنظيره في الأنفال في قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ ونظير الأول قوله في الحج: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾؛ وإن كان العطف فيه بالفاء.

ولا يلزم(٢) من إعداد الجنة للمتقين، والتائبين جزاءً لهم أن لا يدخلها المصرون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم.

والتعبير عن المغفرة، والجنات بالأجر المشعر بأنهما يستحقان في مقابلة العمل، وإن كان بطريق التفضل، لمزيد الترغيب في الطاعات، والزجر عن المعاصي.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وهذا رجوع إلى تفصيل بقية قصة أحد بعد تمهيد مبادىء الرشد، والصلاح وأولها قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) الجمل.

(٢) كرخي.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ إلى قوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ اعتراضٌ في خلال القصة.

أيْ: قد[1] مضت من قبل زمانكم أيها المؤمنون سنن الله تعالى وعاداته في الأمم الماضية المكذِّبة لرسلهم بإهلاكهم، واستئصالهم لأجل مخالفتهم الرسل، إن لم يتوبوا، وبالمغفرة إن تابوا، فرغب الله تعالى أمة محمد ﷺ في تأمل أحوال هؤلاء الماضين؛ ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان بالله ورسله، والإعراض عن الرياسة في الدنيا، وطلب الجاه.

والخلاصة: أن النظر في أحوال من تقدمكم من الصالحين والمكذبين يهديكم إلى الطريق المستقيم، فإن أنتم سلكتم سبيل الصالحين، فعاقبتكم كعاقبتهم، وإن سلكتم سبيل المكذبين، فحالكم كحالهم. وفي الآية تذكير لمن خالف أمر النبي ﷺ يوم أحد، وإرشادٌ لهم إلى أنهم بين عاملي خوف ورجاءٍ، فهي على أنها بشارةٌ لهم بالنصر على عدوهم إنذار بسوء العاقبة إذ هم حادوا عن سننه، وساروا في طريق الضالين ممن قبلهم. وعلى الجملة، فالآية خبر وتشريع، وتتضمن وعداً ووعيداً وأمراً ونهياً.

والمسلمون الصادقون أولى الناس بمعرفة تلك السنن في الأمم، وأجدر الناس بأن يسيروا على هديها. لذلك لم يلبث أصحاب النبي ﷺ أن ثابوا إلى رشدهم يومئذٍ، ورجعوا إلى الدِّفاع عن نبيهم، وثبتوا حتى انجلى المشركون عنهم، ولم ينالوا ما كانوا يقصدون.

وقد جرت سنة الله بأن للشماهدة في تثبيت الحقائق ما ليس للقول وحده؛ إذ المقول قد ينسى، ويقل الاعتبار به من قبل هذا، أرشدهم إلى الاعتبار، وقياس ما في أنفسهم على ما كان لدى غيرهم من قبلهم، ومن ثم قال: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

ومعنى الآية: قد مضت وسلفت مني سنن فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بإمهالي، واستدراجي إياهم حتى يبلغ الكتاب أجله الذي أجلته

---

(١) مراح.

لإهلاكهم، فإن أردتم معرفة ذلك فامشوا أيها المؤمنون في نواحي الأرض وأرجائها، ثم انظروا، وتأملوا كيف صار آخر أمر المكذبين بالرسل الذين لم يتوبوا من تكذيبهم. وفي الآية[1] دلالةٌ على أهمية علم التاريخ، لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل وأسباب صلاح الأمم وفسادها. قال ابن عرفة: السير في الأرض حسي ومعنوي. والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض، لعجز الإنسان وقصوره. وإنما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب، لأن في المخاطبين من كانوا أميين، ولأن المشاهدة تفيد من لم يقرأ، علماً، وتقوي علم من قرأ التاريخ، أو قص عليه.

والمعنى: فسيروا في الأرض، وتأملوا فيما حل بالأمم قبلكم؛ ليحصل لكم العلم الصحيح المبني على المشاهدة وتسترشدوا بذلك إلى أن المصارعة قد وقعت بين الحق والباطل في الأمم السالفة وانتهى أمرها إلى غلبة أهل الحق لأهل الباطل، وانتصارهم عليهم ما تمسكوا بالصبر والتقوى. والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم نعم العون على معرفة تلك السنن والاعتبار بها. وقد نستفيد هذه الفائدة بالنظر في كتب التاريخ التي دونها من ساروا في الأرض، ورأوا آثار الذين خلوا، فتحصل لنا العظة والعبرة، ولكنها تكون دون اعتبار الذين يسيرون في الأرض بأنفهسم، ويرون الآثار بأعينهم، لأن النظر إلى آثار المتقدمين له أثرٌ في النفس كما قيل:

إِنَّ آثَارَنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَٱنْظُرُوْا بَعْدَنَا إِلَىٰ ٱلآثَارِ

والحاصل: أنه تعالى رغب أمة محمد ﷺ في تأمل أحوال الأمم الماضية ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان بالله ورسوله، والإعراض عن الدنيا ولذاتها. وفيه أيضاً زجر للكافر عن كفره؛ لأنه إذا تأمل في أحوال الكفار الماضين، وإهلاكهم صار ذلك داعياً له إلى الإيمان.

---

(١) التحرير والتنوير في علم التفسير.

وفي هذه الآية أيضاً تسليةٌ لأصحاب محمد ﷺ على ما جرى لهم في غزوة أحد، وحينئذٍ فلا عجب في أن ينهزم المسلمون في وقعة أحد، وأن يصل المشركون إلى النبيّ ﷺ فيشجوا رأسه، ويكسروا سنه، ويردوه في حفرةٍ. وفيها أيضاً دلالةٌ[1] على جواز السفر في فجاج الأرض للاعتبار، ونظر ما حوت من عجائب مخلوقات الله تعالى، وزيارة الصالحين، وزيارة الأماكن المعظمة، كما يفعله سياح هذه الأمة. وجواز النظر في كتب المؤرخين، لأنها سبيل إلى معرفة سير العالم، وما جرى عليهم من المثلات. والأمر في قوله: ﴿فَسِيرُوا﴾ أمر ندب لا وجوب، بل المقصود تعرف أحوال الماضين. وفي هذه الآية دلالةٌ على أن الاشتغال بعلم التواريخ مندوب ندباً كفائياً، أو عينياً كما مرت الإشارة إليه.

﴿هَٰذَا﴾ القرآن الذي أنزل عليك يا محمد، وقيل: اسم الإشارة عائد إلى ما تقدم من أمره، ونهيه، ووعده، ووعيده ﴿بَيَانٌ﴾ وإيضاحُ لأحكام الدين ﴿لِّلنَّاسِ﴾ عامة أي: مبينٌ لهم لأحكام دينهم من الحلال، والحرام، وغيرهما. ﴿وهدى﴾ للمتقين منهم خاصة ورشاد لهم؛ أي: هادٍ لهم من الضلالة إلى طريق الرشاد ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ ونصيحةٌ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الله خاصة بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، أي واعظٌ وزاجرٌ لهم عن المنهيات والمنكرات. وقيل[2]: في الفرق بين البيان، والهدي، والموعظة؛ لأن العطف يقتضي المغايرة. إن البيان هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلةً. والهدي هو: طريق الرشد المأمور بسلوكه دون طريق الغيّ. والموعظة هي: الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين.

فالحاصل: أن البيان جنس تحته نوعان:

أحدهما: الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين، وهو الهدى.

والثاني: الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين، وهو الموعظة. وإنما خص المتقين بالهدى والموعظة؛ لأنهم المنتفعون بهما دون غيرهم.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

والمعنى:[(١)] أنَّ هذا الذي تقدم بيان للناس كافةً، وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصةً، فالإرشاد عام للناس، وحجة على المؤمن، والكافر التقي منهم والفاجر.

وذلك يدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة بنحو قولهم: لو كان محمدٌ رسولاً حقاً لما غلب في وقعة أحدٍ. فهذا الهدي والبيان يرشد إلى أن سنن الله حاكمة على الأنبياء والرسل كما هي حاكمةٌ على سائر خلقه. فما من قائدٍ يخالفه جنده، ويتركون حماية الثغر الذي يؤتون من قبله، ويخلون بين عدوهم وظهورهم، والعدو مشرف عليهم، إلا كان جيشه عرضةً للإنكسار؛ إذا كر العدو عليه قطع خط الرجعة، ولا سيما إذا كان بعد فشل وتنازع، ومن ثم كان هذا البيان لجميع الناس كلٌّ على قدر استعداده للفهم وقبول الحجة.

وأما كونه هدى وموعظةً للمتقين خاصَّةً، فلأنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقائق، ويتعظون بما ينطبق عليها من الوقائع، فيستقيمون، ويسيرون على النهج السوي، ويتجنبون نتائج الإهمال التي تظهر لهم مضرة عاقبتها. فالمؤمن حقًّا، هو الذي: يهتدي بهدي الكتاب، ويسترشد بمواعظه كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فالقرآن يهدينا في مسائل الحرب، والتنازع مع غيرنا، إلى أن نروض أنفسنا ونعرف كنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا، فنسير على سنن الله في طلبه، وفي حفظه، وأن نعرف كذلك حال خصمنا، ونضع الميزان بيننا وبينه وإلا كنا غير مهتدين ولا متعظين.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾؛ أي: ولا تضعفوا عن الجهاد مع عدوكم لما أصابكم من الهزيمة يوم أحد ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما فاتكم من الغنائم فيه، ولا على ما أصابكم من القتل، والجراحة، وكان قد قتل منهم يومئذٍ سبعون رجلاً خمسةٌ من المهاجرين، حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، صاحب راية رسول الله ﷺ، وعبد الله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ، وشماس بن عثمان، وسعدٌ

---

(١) المراغي.

مولى عتبة، وباقيهم من الأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾؛ أي: الغالبون في آخر الأمر بالنصرة لكم دون عدوكم، فإن مصير أمرهم إلى الدَّمار حسب ما شاهدتم من أحوال أسلافهم، أي لكم العاقبة المحمودة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ حقاً بصدق وعد الله نبيه بالنصر، وهذا إما منصبٌّ بالنهي أو بوعد النصر والغلبة؛ أي: إن كنتم مؤمنين.. فلا تهنوا، ولا تحزنوا، فإن الإيمان يوجب قوة القلب، والثقة بصنع الله تعالى، وقلة المبالاة بالأعداء، أو إن كنتم مؤمنين. فأنتم الأعلون؛ فإن الإيمان يقتضي العلو بلا شكٍّ.

والمعنى: ولا تضعفوا عن القتال، وما يتبعه من التدبير بسبب ما أصابكم من الجروح والفشل في يوم أحد، ولا تحزنوا على من فقد منكم في هذا اليوم، وكيف يلحقكم الوهن والحزن وأنتم الأعلون؛ فقد مضت سنة الله أن يجعل العاقبة للمتقين، الذين لا يحيدون عن سنته، بل ينصرون من ينصره، ويقيمون العدل فهم أجدر بذلك من الكافرين الذين يقاتلون لمحض البغي، والانتقام، أو للطمع فيما في أيدي الناس.

فهمة الكافر على قدر ما يرمي إليه من غرض خسيسٍ، ولا كذلك همة المؤمن الذي يرمي إلى إقامة صرح العدل في الدنيا، والسعادة الباقية في الآخرة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ومصدِّقين بصدق وعد الله بنصر من ينصره، وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسنته في نظم الاجتماع حتى صار ذلك الإيمان وصفاً ثابتاً لكم حاكماً على نفوسكم وأعمالكم.

وإنما نهى عن الحزن على ما فات؛ لأن ذلك مما يفقد الإنسان شيئاً من عزيمته، وبالعكس صلته بما يحب من مالٍ أو متاع أو صديقٍ تكسبه قوة، وتوجد في نفسه سروراً. والمراد بالنهي عن مثل ذلك معالجة النفس بالعمل ولو تكلفاً.

وخلاصة ذلك الأمر: بأخذ الأهبة وإعداد العدة، مع العزيمة الصادقة، والحزم والتوكل على الله حتى يظفروا بما طلبوا، ويستعيضوا مما خسروا.

وفي قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ تبشيرٌ لهم بما يقع لهم في المستقبل من النصر، فإن من اخترق الإيمان الصحيح فؤاده، وتمكن من سويداء قلبه يكون على يقينٍ من العاقبة بعد مراعاة السنن والأسباب المطردة للظفر والفلاح ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾؛ أي: إن أصابكم أيها المؤمنون جرح في يوم أحد ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ﴾؛ أي: فقد أصاب كفار مكة يوم بدر ﴿قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، أي: جرح مماثلٌ لما أصابكم في يوم أحد، بل هو أعظم مما أصابكم؛ لأنه أسر منهم سبعون، وقتل سبعون والمسلمون في أحدٍ قتل منهم سبعون، وأسر عشرون، ومع ذلك فلم يضعف ذلك قلوبهم، فأنتم أحق بأن لا تضعفوا.

وقيل: إن المعنى إن نالكم يوم أحد قرحٌ وانهزامٌ.. فقد نال كفار مكة في ذلك اليوم، أعني يوم، أحد قرحٌ مماثلٌ لما نالكم، فإن المسلمين نالوا من الكفار قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ قتلوا منهم نيفاً وعشرين رجلاً، منهم صاحب لوائهم، وجرحوا عدداً كثيراً، وعقروا عامة خيلهم بالنبل، وقد كانت الهزيمة عليهم أول النهار.

والخلاصة: أنه لا يسوغ لكم التقاعد عن الجهاد، وليس لكم العذر فيه؛ لأجل أن مسكم قرحٌ، فإن أعداءكم قد مسهم مثله قبلكم وهم على باطلهم لم يفتروا في الحرب، ولم يهنوا فأنتم أجدر بصدق العزيمة لمعرفتكم بحسن العاقبة وتمسككم بالحق.

وقرأ حمزة[1] والكسائي، وابن عيَّاش عن عاصم، والأعمش في طريقةٍ ﴿قرحٌ﴾ بضم القاف وباقي السبعة بالفتح. والسبعة كلهم على تسكين الراء. قال أبو علي: والفتح أولى انتهى. ولا أولوية إذ كلاهما متواترٌ فهما لغتان كالضعف والضعف. وقيل: هو بالفتح الجراح، وبالضم ألمها. وقرأ أبو السمال، وابن السميقع ﴿قرحٌ﴾ بفتح القاف والراء، وهي لغة: كالطرد والطرد والشل والشلل. وقرأ الأعمش ﴿إن تمسسكم﴾ بالتاء من فوق ﴿قروحٌ﴾ بالجمع.

---

(١) البحر المحيط والبيضاوي.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾؛ أي: أيام الغلبة والظفر والنصر ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ ونناقلها، ونحاولها، ونناوبها، ونصرفها من قديم الزمان إلى آخره ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ على وفق ما أردناه أزلاً تارةً لهؤلاء، وتارةً لهؤلاء، فلا تبقى الناس على حالة واحدةٍ، ولا يدوم[1] مسارها ومضارها فيومٌ يحصل فيه السرور للمؤمنين، والغم للأعداء، ويومٌ آخر بالعكس، ولكن العاقبة للمؤمنين، وليس المراد من هذه المداولة أنَّ الله تعالى تارةً ينصر المؤمنين، والأخرى ينصر الكافرين. وذلك؛ لأن نصرة الله منصبٌ شريفٌ، فلا يليق بالكافر بل المراد من هذه المداولة أنه تارةً يشدد المحنة على الكفار، وأخرى على المؤمنين، ولو شدَّد المحنة على الكفار في جميع الأوقات.. لحصل العلم الضروري بأن الإيمان حقٌّ، وما سواه باطلٌ، ولو كان كذلك.. لبطل التكليف والثواب، وأيضاً إن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي؛ فيشدد الله المحنة عليه في الدنيا تأديباً له. وأمَّا تشديد المحنة على الكافر، فإنه غضبٌ من الله عليه، وأيضاً: إن لذات الدنيا وآلامها غير باقية، وإنما السعادات المستمرة في دار الآخرة.

ورُوي أنَّ أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعةً، ثم قال: أين ابن أبي كبشة؟ يعني محمداً ﷺ وأبو كبشة زوج حليمة السعدية، وهو أبوه من الرضاع أين ابن أبي قحافة؟ يريد أبا بكر أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسولُ الله ﷺ وهذا أبو بكر وها أنا ذا عمر فقال أبو سفان: يومٌ بيوم، والأيام دولٌ، والحرب سجالٌ، فقال عمر: لا سواء قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار، فقال: إن كان الأمر كما تزعمون.. فقد خبنا إذاً وخسرنا.

والخلاصة[2]: أن مداولة الأيام، وأوقات الغلبة، والنصر بين الناس سنةٌ من سنن الله تعالى في المجتمع البشري، فمرةً تكون الدولة، والغلبة للمبطل، وأخرى للمحق، ولكن العاقبة دائماً لمن اتبع الحق.

وإنما تكون الدولة لمن عرف أسباب النجاح، ورعاها حق رعايتها،

---

(١) مراح. (٢) المراغي.

كالإتفاق، وعدم التنازع، والثبات، وصحة النظر، وقوة العزيمة، وأخذ الأهبة، وإعداد ما يستطاع من القوة.

فعليكم أيها المؤمنون: أن تقوموا بهذه الأعمال، والأسباب وتحكموها أتم الإحكام حتى تظفروا، وتفوزوا، ولا يكن ما أصابكم من الفشل مضعفاً لعزائمكم؛ فإن الدنيا دولٌ كما قال:

فَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرّ

ومن أمثال العرب: الحرب سجالٌ. وقرىء[1] شاذاً ﴿يداولها﴾ بالياء، وهو جار على الغيبة قبله وبعده، وقراءة النون فيها التفاتٌ وإخبارٌ بنون العظمة المناسبة لمداولة الأيام.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معطوف على محذوف تقديره وتلك الأيام نداولها بين الناس ليقوم بذلك العدل، ويستقر النظام، ويعلم الناظر في السنن العامة، والباحث في الحكم الإلٓهية، أنه لا محاباة في هذه المداولة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾؛ أي: وليرى الله صبر الذين آمنوا منكم على مناجزة الجهاد وملاقاة الأعداء. قال ابن كثير[2]: قال ابن عباس في مثل هذا: لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء. انتهى أو المعنى: وليميِّز الله الذين أخلصوا في إيمانهم من المنافقين إذا أصابتهم المشقة كما وقع في أحد. وقال الشوكانيُّ[3]: فعلنا فعل من يريد أن يعلم؛ لأنه سبحانه لم يزل عالماً، أو ليعلم الذين آمنوا بصبرهم علماً يقع عليه الجزاء والثواب، كما علمه علماً أزليًّا انتهى. وإنما فسرنا كذلك، لأنَّ الله سبحانه وتعالى علمهم أزلاً فلم يزل عالماً بهم. ﴿وَيَتَّخِذَ﴾؛ أي: وليكرم بعضكم باتخاذهم شهداء في سبيل لله، وهم شهداء أحد، وذلك أن قوماً من المسلمين فاتهم يوم بدر، وكانوا يتمنون لقاء العدو، ويلتمسون فيه الشهادة. والشهداء جمع شهيد، وهو من قتل من المسلمين بسيف

---

(١) البحر المحيط.

(٢) ابن كثير.

(٣) فتح القدير.

الكفار في المعركة؛ سمي بذلك لكونه مشهودا له بالجنة، أو جمع شاهد لكونه كالمشاهد للجنة. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جملةٌ معترضةٌ بين العلل المتعاطفات؛ لتقرير مضمون ما قبلها؛ أي: لبيان أنَّ الشهداء يكونون ممن أخلصوا في إيمانهم، وأعمالهم، ولم يظلموا أنفسهم بمخالفة أوامر الله ونواهيه، والخروج عن سننه في خلقه.

أي: يعاقب المشركين، وإنما يظفرهم في بعض الأحيان استدارجاً لهم وابتلاءً للمؤمنين. والمعنى: إن الله لا يصطفي للشهادة الظالمين ما داموا على ظلمهم. وفي ذلك بشارةٌ للمتقين بمحبة الله لهم، وإنذارٌ للمقصرين بأنه لا يحبهم الله. وتعريضٌ لأعدائهم المشركين بأن الله لا يحبهم، لأنهم ظلموا أنفسهم، وسفهوها بعبادة المخلوقات، وظلموا سواهم بالفساد في الأرض؛ والبغي على الناس، وهضم حقوقهم. ومن المعلوم أن الظلم لا تدوم له سلطةٌ، ولا تثبت له دولةٌ، بل تكون دولته سريعة الزوال، قريبة الانحلال. ثم عطف على قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: وليطهر الذين آمنوا من ذنوبهم، ويصفيهم منها بما يصيبهم في الجهاد إن كانت الغلبة للكافرين على المؤمنين.

أي: ونداول تلك الأيام ليميز المؤمنين الصادقين من المنافقين، ويطهر نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدورتها، فتصير تبراً خالصا لا كدورة فيه، فإن الإنسان كثيراً ما يشتبه عليه أمر نفسه، ولا تتجلى له حقيقتها إلا بالتجربة الكثيرة، والامتحان بالشدائد العظيمة، فهي التي تمحصها، وتنفي خبثها، وزغلها، كما أن تمحيص الذهب يميز بهرجه من خالصه.

فالمعتقد في دين أنه الحق قد يخيل إليه وقت الرخاء، أنه يسهل عليه بذل ماله، ونفسه في سبيل الله؛ ليرفع راية ذلك الدين، ويدفع عنه كيد المعتدين، فإذا جاء البأس ظهر له من نفسه غير ما كان يتصور له أولاً، أنظروا إلى الذين خالفوا أمر النبيّ ﷺ يوم أحد، وطمعوا في الغنيمة، وإلى الذين انهزموا وولوا الأدبار كيف محصهم الله تعالى بتلك الشدائد.

فعلموا أن المسلم ما خلق للهو واللعب، ولا للكسل، والتواكل، ولا لنيل الظفر، ونيل السيادة، بخوارق العادات، وتبديل سنن الله في المخلوقات، بل خلق ليكون أكثر الناس جداً في العمل، وأعظمهم تفانياً، في أداء الواجب إتباعاً للنواميس، والسنن التي وضعها الله في الخليقة.

وقد تجلّى أثر هذا التمحيص في الغزوات التي تلت هذه الوقعة ففي «غزوة حمراء الأسد» أمر النبي ﷺ ألا يتبع المشركين فيها إلا من شهد القتال بأحد، فامتثل المؤمنون أمره بقلوب مطمئنةٍ، وعزائم صادقةٍ، وهم على ما هم عليه من الجراح المبرحة، والقلوب المتكسرة.

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ أي: وليهلك الكافرين في الحرب، ويستأصلهم شيئاً فشيئاً، إن كانت الغلبة للمؤمنين على الكافرين. ويجعل اليأس يسطو على قلوبهم، وفقد الرجاء يذهب بعزائمهم، فلا يبقى لديهم شجاعةٌ، ولا بأسٌ، ولا قلٌّ[1]، ولا كثرٌ من عزة النفس، فيكون وجودهم كالعدم، لا فائدة فيه، ولا أثر له فالكافرون المبطلون، لا يثبت لهم حالٌ مع المؤمنين الصادقين، وإنما يظهرون إذا لم يوجد من أهل الحق والعدل من ينازعهم ويقاوم باطلهم، كما هو مشاهد في عصرنا هذا. لأن الإسلام راح إلا الاسم، فهذه مصيبةٌ، ما أعظمها، فإنا لله، وإنا إليه راجعون.

وأم في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ منقطعةٌ عند الأكثرين تقدَّر ببل، وهمزة الإنكار، والخطاب فيه للذين انهزموا يوم أحد أي أظننتم[2] أن تدخلوا الجنة وتفوزوا بنعيمها، والحال أنه لم يجتمع فيكم الجهاد في سبيل الله، والصبر فيه على مشاقه؟ أي: لا تحسبوا دخولها ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾. أي؛ والحال: أنه لم ير الله المجاهدين منكم في سبيل الله

---

(١) وَقُلُّ الشيء: عُلُوَّهُ وارتفاعه، يقال: قَلَّ الشي يَقِلُّ - من باب ضرب - قِلًّا وقَلاً إذا علا وكُثْرُ الشيء عظمته. اهـ مؤلفه.

(٢) مراح.

يوم أحد، ولم ير الصابرين على قتال عدوّهم مع نبيهم؛ أي: لا تحسبوا[1] أن تدخلوا الجنة بدون أن تجاهدوا وتصبروا على عواقب الجهاد من جراحٍ، وألم، وكل مكروه، وأريد بحالة نفي علم الله بالذين جاهدوا، والصابرين الكناية عن حالة نفي الجهاد، والصبر عنهم. لأن الله إذا علم شيئاً فذلك المعلوم محقق الوقوع، فكما كنى بعلم الله عن التحقق في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كنى بنفي العلم عن نفي وقوع اجتماع الجهاد والصبر فيهم، فكأنه، قال: لا تحسبوا دخول الجنة مع أنكم لم تجاهدوا، ولم تصبروا على شدائد الحرب. وقال الطبريُّ[2] المعنى: أظننتم يا معشر أصحاب محمد: أن تنالوا كرامة ربكم، ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل الله، والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألمٍ ومكروه. انتهى.

وفي هذه[3] الآية معاتبةٌ لمن انهزم يوم أحد، والمعنى: أم حسبتم أيها المنهزمون أن تدخلوا الجنة كما دخلها الذين قتلوا، وبذلوا مهجهم لربهم عز وجل، وصبروا على ألم الجراح، والضرب، وثبتوا لعدوهم يوم بدر من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم.

والخلاصة: لا تحسبوا دخول الجنة والحال أنه لم يقع منكم الجهاد مع الصبر على مكابده، وذلك بعيدٌ، وإنما استبعد هذا؛ لأن الله تعالى لما أوجب الجهاد قبل هذه الوقعة، وأوجب الصبر على تحمل متاعبه، وبين وجوه المصالح فيه في الدين والدنيا، كان من البعيد أن يظن الإنسان أنه يصل إلى السعادة، والجنة مع إهمال هذه الطاعة.

وجهاد[4] النفس على أداء حقوق الله، وحقوق العباد مما يشق عليها احتماله، ويحتاج إلى مجاهدتها وترويضها حتى تذلل، ويسهل عليها أداء تلك الحقوق. وربما فضل هذا الجهاد جهاد الأعداء في ميدان القتال، وخوض غمار الوغى وأصعب من هذا، وأشق دعوة الأمة إلى خيرٍ لها في دينها ودنياها، أو بث

---

(١) التحرير والتنوير.
(٢) تفسير الطبري.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

فكرةٍ صالحةٍ تغير بعض أخلاقها، وعاداتها، أو مقاومة بدعةٍ فاشيةٍ بين أفرادها، فإنها تجد مقاومةً من الخاصة بله العامة، فتراهم يرفعون راية العصيان في وجه الداعي، ويشاكسونه بكل الوسائل، ولا سيما إذا تعلق بتغيير بعض عادات مرنوا عليها جيلاً بعد جيل، ووجدوا من أشباه العلماء من يؤازرهم، ويناصرهم في باطلهم.

وكثيراً ما يحدث للداعي التلف والهلاك، أو ثلم العرض أو الإخراج من حظيرة الدين.

وقرأ الجمهور[1] ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ بكسر الميم لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن وثاب، والنخعي بفتحها. وخُرِّج على أنه إتباعٌ لفتحة اللام، أو على إرادة النون الخفيفة، وحذفها كقول الشاعر:

لاَ تُهِيْنَ ٱلْفَقِيْرَ عَلَّكَ أَنْ تَرْ ... كَعَ يَوْمَاً وَٱلدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

وقرأ الجمهور ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بفتح الميم فقيل: هو مجزومٌ وأتبع الميم اللام في الفتح كقراءة من قرأ ﴿ولما يعلم﴾ بفتح الميم على أحد التخريجين السابقين. وقيل: هو منصوب فعلى مذهب البصريين بإضمار أن بعد واو المعية نحو: ما تأتينا وتحدثنا. وعلى مذهب الكوفيين بواو الصرف. وتقرير المذهبين في علم النحو وقرأ الحسن، وابن يعمر، وأبو حيوة، وعمرو بن عبيد، بكسر الميم عطفاً على ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ المجزوم. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو وبن العلاء ﴿ويعلم﴾ برفع الميم، وفي تخريجه وجهان:

أظهرهما: أنه مستأنف، أي وهو يعلم الصابرين.

وثانيهما: أن الواو للحال كأنه قيل: ولما تجاهدوا، وأنتم صابرون. قاله الزمخشري.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ خوطب به الذين لم يشهدوا بدراً، وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ لينالوا كرامة الشهادة.

---

(١) البحر المحيط.

أي: وعزتي وجلالي، لقد كنتم يا أصحاب محمد ﷺ تطلبون الموت بالشهادة في الحرب من قبل أن تشاهدوا أسباب الموت وشدائده من الجهاد، والقتال يوم أحد، أو من قبل أن تلقوا العدو فيه حيث قلتم ليت لنا يوماً كيوم بدر لننال ما نال شهداؤه من الكرامة، كانوا قد ألحوا على رسول الله ﷺ يوم أحد في الخروج إلى المشركين في أحد، وكان رأيه ﷺ في الإقامة بالمدينة حتى يدخلها عليهم المشركون. ثم ظهر منهم خلاف ذلك. وقراءة الجمهور بكسر اللام ﴿مِن قَبْلِ﴾ لأنها معربة لإضافتها إلى ﴿أن﴾ وما في حيزها؛ أي: من قبل لقائه. وقرأ مجاهد بن جبر ﴿من قبلُ﴾ بضم اللام قطعها عن الإضافة كقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ وعلى هذا، فـ﴿إن﴾ وما في حيزها في محل نصب على أنها بدل اشتمال من الموت أي: تمنون لقاء الموت كقولك رهبت العدو لقاءه.

وقرأ الزهري والنخعيُّ ﴿تلاقوه﴾ ومعناه متحدٌ مع معنى تلقوه، لأن لقي يستدعي أن يكون بين اثنين بمادته، وإن لم يكن على المفاعلة.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: فقد رأيتم الموت وأسبابه وأبصرتموه يوم أحد إن كنتم صادقين في تمنيكم الحرب ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: والحال أنكم تنظرون، إلى سيوف الكفار، والأعداء حين قتل أمامكم من قتل من إخوانكم فلم انهزمتم منهم، ولم تثبتوا مع نبيّكم؛ وهذه الجملة تأكيدٌ لما قبلها، أي: والحال أنكم بصراء ليس بأعينكم علّةٌ.

وقال الشوكاني: وقيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معناهما للمبالغة. انتهى.

وقرأ طلحة بن مصرف ﴿فلَقَدْ رأيْتَمُوه﴾ باللام.

فمعنى[1] قوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أنكم شاهدتم أسبابه من ملاقاة الشجعان بعدتهم، وأسلحتهم، وكرهم وفرهم مشاهدةً لا خفاء فيها، ولا شبهة، وكان لها الأثر العميق في نفوسكم.

---

(١) المراغي.

ومعنى تمني الموت: تمني الشهادة في سبيل الله، والقتال لنصرة الحق، ولو ذهبت نفوسكم دونه.

وصفوة القول: لقد كنتم تتمنون الموت قبل أن تلاقوا القوم في الميدان، فها أنتم أولاء قد رأيتم ما كنتم تتمنونه، وأنتم تنظرون إليه، لا تغفلون عنه، فما بالكم دهشتم عندما وقع الموت فيكم، وما بالكم تحزنون وتضعفون عند لقاء ما كنتم تحبون وتتمنون به، ومن تمنى الشيء، وسعى إليه لا ينبغي أن يحزنه لقاؤه ويسوءَه.

وفي الآية الكريمة: تنبيهٌ لكل مؤمن إلى اتقاء الغرور بحديث النفس، والتمنّي، والتشهّي، وهديه إلى اختبار نفسه بالعمل الشاقّ، وعدم الثقة منها بما دون الجهاد، والصبر على المكاره في سبيل الحق حتى يأمن الدعوى الخادعة التي يتوهم فيها أنه صادق فيما يدعي مع الغفلة، أو الجهل بعجزه عنه.

وكثيراً ما يتصور بعض الناس أنه يحب ملته ووطنه، ويفكر في خدمتهما، ويتمنى لو يتاح له أن يساهم في تلك الخدمة بنفسه، أو بماله، حتى إذا احتيج إليه وجد من نفسه الضعف، فأعرض عن العمل قبل الشروع، أو بعد أن ذاق مرارته، وكابد مشقته.

ولكن المؤمن حقاً من وصل الأمر به إلى حد اليقين فيما يعتقد أنه حقٌّ، وذلك يستدعي العمل مهما كان شاقًا، والجهاد مهما كان عسيراً، والصبر على المكاره، وإيثار الحق على الباطل. وقد كان في الذين خوطبوا بهذه الآية جماعةٌ ممن كانوا في المرتبة العليا من صدق الجهاد، والصبر على المكاره، وأولئك هم المجاهدون الذين ثبتوا مع النبي ﷺ ثبات الجبال الراسيات، وهم نحو ثلاثين رجلاً؛ لكنه جعل الخطاب عاماً ليكون الإرشاد والنصح عاماً للجميع، فيتهم ذوو المراتب العالية أنفسهم بالتقصير فيزدادوا كمالاً على كمالهم، ويرعوي المقصرون، وينزعوا عن خداع أنفسهم لهم، وهذا من التمحيص العظيم الذي له أجمل العواقب في تهذيب الأنفس.

وقد ظهر أثر ذلك في نفوس أولئك القوم فيما بعد، ورباهم تربيةً كانت بها

عزائمهم ماضيةً، وهممهم صادقةً فلم يهنوا، ولم يضعفوا، ولم يستكينوا فيما حاولوه من جسيم الأمور. ثم نزل[1] في مقالتهم لرسول الله ﷺ بلغنا يا نبيَّ الله أنك قتلت فلذلك انهزمنا فقال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾ ﷺ ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾؛ أي: إلا بشر مرسل إلى كافة الناس ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِ﴾، أي من قبل محمد ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ عليه وعليهم صلوات الله وسلامه أجمعين. فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم، وسنتهم بعد خلوهم. فعليكم يا أمة محمد أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه؛ لأن المقصود من بعثةِ الرسل تبليغ الرسالة، وإلزام الحجة، لا وجوده وخلوده بين أظهر قومه.

ومحمدٌ اسم[2] علم لرسول الله ﷺ وفيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه، وهو الذي كثرت خصاله الحميدة، والمستحق لجميع المحامد المخلوقية؛ لأنه الكامل في نفسه ﷺ؛ أي: في خلقه وخلقه، فسماه باسمين مشتقين من اسمه المحمود سبحانه وتعالى، فسمَّاه محمداً، وأحمد.

وفي ذلك يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـلَّـهَ أَرْسَـلَ عَـبْـدَهُ ... بِـبُـرْهَـانِـهِ وَٱلـلَّـهُ أَعْـلَـىٰ وَأَمْـجَـدُ

أَغَـرُّ عَـلَـيْـهِ لِـلـنُّـبُـوَّةِ خَـاتَـمٌ ... مِـنَ ٱلـلَّـهِ مِـنْ نُـوْرٍ يَـلُـوْحُ وَيَـشْـهَـدُ

وَضَـمَّ ٱلإِلٰـهُ ٱسْـمَ ٱلـنَّـبِـيِّ إِلَـىٰ ٱسْـمِـهِ ... إِذَا قَـالَ فِـيْ ٱلْـخَـمْـسِ ٱلْـمُـؤَذِّنُ أَشْـهَـدُ

وَشَـقَّ لَـهُ مِـنْ إِسْـمِـهِ لِـيُـجِـلَّـهُ ... فَـذُوْ ٱلْـعَـرْشِ مَـحْـمُـوْدٌ وَهَـذَا مُـحَـمَّـدُ

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». متفق عليه. والعاقب الذي ليس بعده نبيٌّ، وسماه الله رؤوفاً رحيماً.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا

---

(١) تنوير المقياس. (٢) الخازن.

نفسه أسماءً: فقال: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا المقفى، ونبي التوبة، ونبي الرحمة». رواه مسلم. والمقفى هو آخر الأنبياء الذي لا نبي بعده.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ للاستفهام[1] الإنكاري، والفاء للعطف ورتبتها التقديم، لأنها حرف عطف. وإنما قدمت الهمزة، لأن لها صدر الكلام. وقال ابن الخطيب: الأوجه: أن يقدر محذوف بعد الهمزة، وقبل الفاء، وتكون الفاء عاطفة، ولو صرح به لقيل أتؤمنون به مدة حياته؛ فإن مات كما مات موسى، وإبراهيم وغيرهما ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ كما قتل زكريا، ويحيى ﴿انقَلَبْتُمْ﴾ ورجعتم ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ وأدباركم، وارتددتم راجعين عن دينكم، فتخالفوا سنن أتباع الأنبياء قبلكم في ثباتهم على ملل أنبيائهم بعد موتهم، والرسول ليس مقصوداً لذاته، بل المقصود ما أرسل به من الهداية التي يجب على الناس أن يتبعوها.

أي: لا ينبغي منكم الارتداد حينئذٍ؛ لأنَّ محمداً ﷺ مبلغ لا معبودٌ، وقد بلَّغكم والمعبود باقٍ، فلا وجه لرجوعكم عن الدين الحق لو مات من بلغكم إياه.

روي[2] أنه لما رمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسولَ الله ﷺ بحجرٍ فكسر رباعيته، وشج وجه، فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحب راية رسول الله ﷺ يومئذٍ حتى قتله ابن قميئة، وهو يرى أنه قتل النبيَّ عليه الصلاة والسلام فقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ أن محمداً قد قتل، فانكفأ الناس، وجعل الرسول عليه السلام يدعو «إليَّ عبادَ الله» فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه، وحموه حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرق الباقون، وقال بعضهم: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي، فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناسٌ من المنافقين: لو كان محمدٌ نبياً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم، ودينكم الأول، وقال أنس بن النضر؛ عم أنس بن مالك في تلك الساعة التي زاغت فيها الأبصار والبصائر، وبلغت فيها القلوب الحناجر، يا قوم إن كان محمدٌ قد قتل، فإن رب

---

(١) الفتوحات الإلهية.　　(٢) البيضاوي.

محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم إنّي أعتذر إليك مما قال هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل رضي الله عنه فنزلت ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ أي: ومن يرجع ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: إلى دينه الأول، وهو الشرك ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: فلن ينقص الله رجوعه شيئاً، وإنما يهلك نفسه بإقباله على العذاب، أو المعنى؛ ومن يرجع عن جهاده ومكافحته الأعداء فلن يضر الله شيئاً بما فعل، بل يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب وحرمانها من الثواب، فالله قد وعد بنصر من ينصره ويعز دينه، ويجعل كلمته هي العليا، وهو لا محالة منجزٌ وعده، ولا يحول دون ذلك ارتداد الضعفاء، والمنافقين على أعقابهم فهو سيثبت المؤمنين، ويمحصهم حتى يكونوا كالتبر الخالص، فيقيموا دينه وينشروا دعوته، ويرفعوا شأنه وتنشر على الخافقين رايته، وهو الذي بيده الخلق، والأمر، وهو القادر على كل شيء ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ له نعمه عليهم بالإيمان، والهداية إلى أقوم السبل الثابتين على دين الإسلام، الذي هو أجل نعمةٍ وأعز معروفٍ كأنس بن النضر وأمثاله، أي: يجازيهم في الدنيا والآخرة بما يستحقون من النصر على أعدائهم، والثواب الجسيم.

وفي الآية إرشادٌ إلى أن المصائب التي تحل بالإنسان لا مدخل لها في كونه على حق أو باطل، فكثيراً ما يبتلى صاحب الحق بالمصائب والرزايا، وصاحب الباطل بالنعم والعطايا.

وفيها إيماءٌ إلى أنا لا نعتمد في معرفة الحق والخير على وجود العلم بحيث نتركهما عند موته بل نسير على منهاجهما حين وجوده وبعد موته.

والخلاصة: أن الله أوجب علينا أن نستضيء بالنور الذي جاء به الرسولُ ﷺ، أمَّا ما يصيب جسمه من جرحٍ أو ألمٍ، وما يعرض له من حياةٍ أو موت، فلا مدخل له في صحة دعوته، ولا في إضعاف النور الذي جاء به، فإنما هو بشرٌ مثلكم خاضعٌ لسنن الله كخضوعكم.

والخلاصة: أن قتل محمد ﷺ لا يوجب ضعفاً في دينه، لأمرين:

أحدهما: أن محمداً ﷺ بشرٌ كسائر الأنبياءِ، وهؤلاء قد ماتوا أو قتلوا.

والثاني: أن الحاجة إلى الرسول هي تبليغ الدِّين، فإذا تَمَّ له ذلك.. فقد حصل الغرض، ولا يلزم من قتله فساد دينه.

وفي الآية هداية وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يكون استمرار الحرب أو عدم استمرارها، ذا صلة بوجود القائد، بحيث إذا قتل انهزم الجيش، أو استسلم للأعداء بل يجب أن تكون المصالح العامة جاريةً على نظام ثابت، لا يزلزله فقد الرؤساء، وعلى هذا تجري الحكومات، والحروب في عصرنا هذا.

ومن توابع هذا النظام أن تعد الأمة لكل أمرٍ عدته، فتوجد لكل عملٍ رجالاً كثيرين حتى إذا فقدت معلماً أو مرشداً أو قائداً أو حكيماً أو رئيساً أو زعيماً وجدت الكثير ممن يقوم مقامه، ويؤدِّي لها من الخدمة ما كان يؤدِّيه، وحينئذ يتنافس أفرادها، ويحفزون عزائمهم للوصول إلى ما يمكن أن يصل إليه كسب البشر، وينال كلٌّ منه بقدر استعداده وسعيه وتوفيق الله له.

وقرأ الجمهور ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ في قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ بالتعريف على سبيل التفخيم للرسل والتنويه بهم على مقتضى حالهم من الله. وفي مصحف عبد الله ﴿رسل﴾ بالتنكير، وبها قرأ ابن عباس وقحطان بن عبد الله. وقرأ الجمهور ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ بالتثنية، وقرأ ابن أبي إسحاق على ﴿عقبه﴾ بالإفراد. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾؛ أي: وليس من شأن النفوس، ولا من سنة الله فيها ﴿أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلاّ بأمر الله وقضائه وقدره، وعلمه، وإرادته، ومشيئته التي بها يجري نظام الحياة، وترتبط فيها الأسباب بالمسببات.

وذلك أنَّ الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح، فلا يموت أحدٌ إلا بإذن الله تعالى وأمره، ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ منصوب بعامل محذوف تقديره: كتب الله الموت على عباده كتاباً مقروناً بأجلٍ معين لا يتغير، ومؤقتاً بوقت لا يتقدم، ولا يتأخر، فكثيرٌ من الناس يتعرضون لأسباب المنايا بخوض غمرات الحروب أو يتعرضون لعدوى الأمراض، أو يتصدون لأفاعيل الطبيعة، وهم مع ذلك لا يصابون بالأذى، فالشجاع المقدام قد يسلم في الحرب، ويقتل الجبان المتخلف،

ويفتك المرض بالشاب القوي، ويترك الضعيف الهزيل وتغتال عوامل الأجواء الكهل المستوي وتتجاوز الشيخ الضعيف فللأعمار آجالٌ، وللآجال أقدارٌ لا تخطوها. والأقدار هي السنن التي عليها تقوم نظم العالم، وإن خفيت على بعض الناس، وإذا كان محيانا ومماتنا بإذن الله فلا محل للخوف والجبن، ولا عذر في الوهن والضعف. وقيل: الكتاب اللوح المحفوظ؛ لأن فيه آجال جميع الخلق، وفي الآية تحريض المؤمنين على الجهاد، وتشجيعهم على لقاء العدو، فإنه إذا كان الأجل محتوماً ومؤقتاً بميقاتٍ، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله، وإن خاض المعارك واقتحم المهالك.. فلا فائدة إذاً للخوف والجبن والحذر.

وفي الآية أيضاً إشارة إلى كلاءةً الله وحفظه لرسوله ﷺ مع غلبة العدو له والتفافهم عليه، وإسلام أصحابه له فرصةً للمختلس، فلم يبق سببٌ من أسباب الهلاك إلا قد حصل، ولكن لما كان الله حافظاً له لم يضره شيٌ. وفيها أيضاً: إشارةٌ إلى أن قومه قد قصروا في الذَّبِّ عنه ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ ويقصد بعمله الصالح ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾، وحظها ومنفعتها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ أي: نعطه من الدنيا ما يكون جزاء لعمله مما نشاء أن نعطيه إياه على ما قدرنا له، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾. نزلت في الذين تركوا المركز يوم أحد، وطلبوا الغنيمة ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ ويقصد بعمله الصالح ﴿ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ونعيمها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ نعطه من حظوظ الآخرة، ونعيمها ما يريد مما نشاء من الأضعاف على حسب ما جرى به الوعد الكريم. نزلت في الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم أحد.

واعلم: أن هذه الآية، وإن نزلت في الجهاد خاصة لكنها عامةٌ في جميع الأعمال؛ وذلك لأنَّ الأصل في ذلك كله يرجع إلى نية العبد، فإن كان يريد بعمله الدنيا.. فليس له جزاء إلا فيها، وكذلك من أراد بعمله الدار الآخرة فجزاؤه أيضاً فيها.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمالُ بالنياتِ». الحديث متفق عليه.

وروى البغوي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: «من كانت نيته طلب الآخرة، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا راغمة ومن كانت نيته طلب الدنيا، جعل الله الفقر بين عينيه، وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها إلا ما كتب الله له».

وذلك[1] لأن المؤثر في جلب الثواب والعقاب الدواعي والقصود، لا ظواهر الأعمال كما في الحديث المذكور، فإن من وضع الجبهة على الأرض مثلاً في صلاة الظهر والشمس قدامه، فإن قصد بذلك السجود عبادة الله تعالى.. كان ذلك من أعظم دعائم الإسلام، وإن قصد به عبادة الشمس، كان ذلك من أعظم دعائم الكفر ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾؛ أي: سنثيب الثابتين على شكر نعمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، الذين يعرفون أنعم الله عليهم من القوى، ويصرفونها إلى ما خلقوا لأجله من طاعة الله تعالى، ويستعملوها فيما يرقى بهم إلى مراقي الكمال، فيعملون صالح الأعمال التي ترفع نفوسهم، وتنفع أمتهم كأنس بن النضر، وأمثاله الذين جاهدوا، وصبروا مع النبي ﷺ بما كان لهم من الإرادة القوية التي كانت السبب في انجلاء المشركين عن المسلمين.

وقرأ الجمهور[2] ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ في الموضعين بالنون، وكذلك قرؤوا ﴿سنجزي﴾ بالنون أيضاً، وهو إلتفاتٌ إذ هو خروج من غيبةٍ إلى تكلمٍ بنون العظمة، وقرأ الأعمش ﴿يُؤْتِه﴾ بالياء فيهما، وفي ﴿سيجزي﴾ وهو على ما سبق من الغيبة.

وأدغم[3] أبو عمرو وحمزة والكسائي، وابن عامر، بخلاف عنه دال ﴿يرد﴾ في الثاء والباقون بالإظهار. وقرأ أبو عمرو بالإسكان في هاء ﴿نؤتِهْ﴾ في الموضعين وصلاً ووقفاً، وقالون وهشامٌ بخلاف عنه بالاختلاس وصلاً، والباقون بالإشباع وصلاً. فأما السكون فقالوا: إنَّ الهاء لما حلت محل ذلك المحذوف أعطيت ما كان تستحقه من السكون، وأما الاختلاس فلأستصحاب ما كانت عليه الهاء قبل حذف لام الكلمة، فإن الأصل نؤتيه فحذفت الياء للجزم، ولم يعتد

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الفتوحات.

بهذا العارض فبقيت الهاء على ما كانت عليه، وأما الإشباع فنظراً إلى اللفظ، لأن الهاء بعد متحرك في اللفظ، وإن كانت في الأصل بعد ساكن، وهو الياء التي حذفت للجزم اهـ «سمين».

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾؛ أي: وكثيرٌ من نبي قاتل لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، والحال أن معه في القتال جماعاتٌ كثيرةٌ من العلماء العاملين، والعُبَّاد الصالحين، فأصابهم من عدوهم قرحٌ ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾؛ أي: جبنوا وفتروا عن الجهاد، لأن الذي أصابهم إنما هو في طاعة الله، وإقامة دينه ونصرة رسوله، ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾؛ أي: عجزوا عن قتال عدوهم لما أصابهم من جرح أو قتل، حتى ولو كان المقتول هو نبيهم نفسه، لأنهم يقاتلون في سبيل الله، لا في سبيل نبيّهم علماً منهم بأن النبي ما هو إلا مبلِّغٌ عن ربِّه، وهادٍ لأمته، ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾. ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾؛ أي: ما ذلوا وما تواضعوا لعدوهم، كما فعلتم أنتم حين قيل قتل نبيكم، وأردتم أن تعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان، ولا ولوا الأدبار، ولكنهم صبروا على أمر ربهم، وطاعة نبيهم، وجهاد عدوهم، إذ هم على يقين من ربهم في أن الجهاد في السبيل التي يرضاها من تقرير العدل في الأرض، وحماية الحق ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على شدائد التكاليف، ومشاق الجهاد، في طلب الآخرة، أي: يكرمهم ويعظمهم ويثيبهم، ومحبة(١) الله تعالى للعبد عبارةٌ عن إرادة إكرامه وإعزازه، وإيصال الثواب له، وإدخاله الجنة مع أوليائه وأصفيائه.

والخلاصة(٢): عليكم أن تعتبروا بحال أولئك الربيين وتصبروا كما صبروا، فإن دين الله واحدٌ وسنته في خلقه واحدةٌ، ومن ثم طلب إليكم أن تعرفوا عاقبة من سبقكم من الأمم، وتقتدوا بعمل الصادقين الصابرين منهم، وتقولوا مثل قول أولئك الربيين.

﴿وَكَأَيِّن﴾ عبارة السمين قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ هذه اللفظة قيل: مركبة من

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

كاف التشبيه، ومن أيٍّ الاستفهامية، وحدث فيها بعد التركيب معنى التكثير المفهوم من كم الخبرية، وهي كناية عن عدد مبهم، ومثلها في التركيب، وإفهام التكثير كذا في قولهم: عندي كذا كذا درهماً، والأصل كاف التشبيه، وذا الذي هو اسم إشارة فلما ركبا حدث فيهما معنى التكثير فكم الخبرية، وكأين وكذا كلها بمعنى واحدٍ.

وهل هذه الكاف الداخلة على أيّ تتعلق بشيء كغيرها من حروف الجر أم لا؟. والصحيح أنها لا تتعلق بشيء، لأنها مع أي صارتا بمنزلة كلمةٍ واحدةٍ، وهي ككم فلا تتعلق بشيء، ولذلك هجر معناها الأصليُّ، وهو التشبيه.

وفي كأيّن[1] خمس لغاتٍ:

إحداها: ﴿كَأَيّن﴾ بتشديد الياء والتنوين، وبها قرأ الجماعة إلا ابن كثير.

والثانية: ﴿كَائنٌ﴾ بوزن فاعن وبها قرأ ابن كثير، وجماعةٌ، وهي أكثر استعمالاً من كأيّن وإن كانت تلك الأصل.

والثالثة: ﴿كئين﴾ بوزن كريم بياء خفيفة بعد همزة مكسورة، وبها قرأ ابن محيصنٍ، والأشهب العقيليُّ.

والرابعة: ﴿كيئن﴾ بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة، وهذه مقلوبة عن القراءة التي قبلها وقرأ بها بعضهم.

والخامسة: ﴿كأن﴾ مثل كعن، وبها قرأ ابن محيصن أيضاً. وقرأ الحسن[2] ﴿كَيً﴾ بكافٍ بعدها ياءٌ مكسورة منونة. وقرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عمرو ﴿قتل﴾ مبنياً للمفعول، وقتادة كذلك إلا أنه شدد التاء، وضمير النائب على هذه القراءة يعود على المبتدأ، والجملة خبر المبتدأ، وجملة ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ من المبتدأ، والخبر في محل النصب حال من ضمير الفعل، و﴿كَثِيرٌ﴾ صفة لـ ﴿رِبِّيُّونَ﴾، والمعنى على هذه القراءة، وكثيرٌ من الأنبياء قتلوا، وبعدهم الذين بقوا من جماعتهم. وقال الحسن البصريُّ، وجماعةٌ من العلماء لم يقتل نبيُّ في حرب قط، ولهذا ضعفت هذه القراءة من جهة المعنى.

---

(١) الجمل.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ باقي السبعة ﴿قَـٰتَلَ﴾ بوزن فاعل، وهي القراءة المشهورة التي جرينا عليها في تفسيرنا سابقاً. وقرأ الجمهور ﴿رِبِّيُّونَ﴾ بكسر الراء جمع ربِّي، وهو العالم منسوب إلى الرب، وإنما كسرت راؤه تغييراً في النسب، نحو: إمسي بالكسر منسوب إلى أمس، وقرأ عليٌّ وابن مسعود وابن عباس والحسن ﴿ربيون﴾ بضم الراء، وهو من تغيير النسب إن قلنا: هو منسوب إلى الرب. وقرأ ابن عباس في رواية قتادة بفتح الراء على الأصل إن قلنا: منسوبٌ إلى الرب، وإلا فمن تغيير النسب إن قلنا: إنه منسوبٌ إلى الربة بمعنى الجماعة.

وقرأ الجمهور ﴿وَهَنُواْ﴾ بفتح الهاء وقرأ الأعمش، والحسن، وأبو السمال، بكسرها، وهما لغتان، وهن يهن كوعد يعد، ووهن يوهن، كوجل يوجل. وقرأ عكرمة، وأبو السمال أيضاً بإسكان الهاء على تخفيف المكسور، كما قالوا: نعم في نعم، وشهد في شهد، وتميمٌ تسكن عين فعل وقرىء ﴿ضعفوا﴾ بفتح العين وبإسكانها[1].

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾؛ أي: قول الربيين عند لقاء العدو، واقتحام مضايق الحرب، وإصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والأهوال، أو عند قتل نبيهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ هذا الدعاء الآتي، وقولهم بالنصب خبرٌ لكان واسمها أن وما بعدها، أي: وما كان قولهم إلا قولهم هذا الدعاء أي هو دأبهم وديدنهم، وهذه قراءة الجمهور.

وقرأ[2] ابن كثير، وعاصم في رواية عنهما برفع قولهم على أنه اسم كان والخبر جملة أن وما في حيزها. وقراءة الجمهور أولى، لأنه إذا اجتمع معرفتان: فالأولى أن تجعل الأعرف منهما اسماً، وأن وما في حيِّزها أعرف قالوا: لأنها تشبه المضمر من حيث إنها تضمر، ولا توصف، ولا يوصف بها. وقولهم: مضاف للمضمر فهو في رتبة العلم، فهو أقل تعريفاً اهـ سمين.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، أي: صغائرنا وكبائرنا ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾؛ أي: إفراطنا وتجاوزنا الحد في أمر ديننا، بارتكاب الكبائر، والظاهر أن الذنوب تعم

---

(١) الشوكاني.
(٢) الجمل.

كل ما يسمى ذنباً من صغيرة، أو كبيرة والإسراف ما فيه مجاوزةٌ للحدِّ، فهو من عطف الخاص على العام. وإنما أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين برآء من التفريط في جنب الله تعالى هضماً لها، واستقصاراً لهم وإسناداً لما أصابهم إلى أعمالهم. وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن الحرب بالتقوية والتأييد من عندك أو بإزالة الخوف من القلوب وإزالة الخواطر الفاسدة من الصدور أو ثبتنا على دينك الحق ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بالمصابرة والمجاهدة تقريباً له إلى حيز القبول، فإن الدعاء، المقرون بالخضوع الصادر عن ذكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة.

والمعنى: لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر منهم قولٌ يوهم شائبة الجزع والتزلزل في مواقف الحرب، ومراصد الدِّين، وفيه من التعريض للمنهزمين عن النبيِّ ﷺ يوم أحد ما لا يخفى، ذكره، أبو السعود.

والخلاصة: أن هؤلاء الربّيين لم يكن لهم من قولٍ عند اشتداد الخطوب، ونزول الكوارث إلا الدعاء، لربهم بأن يغفر لهم بجهادهم، ما كانوا ألموا به من الذنوب، وتجاوزوا حدود الشرائع، وأن يثبت أقدامهم على الصراط القويم، الذي هداهم إليه حتى لا تزحزحهم الفتن، ولا يعروهم الفشل، والوهن حين مقابلة الأعداء، وأن ينصرهم على القوم الكافرين الذين يجحدون الآيات، ويعتدون على أهل الحق، فلا يمكنونهم من إقامة ميزان القسط، فما النصر إلا من عند الله يؤتيه من يشاء بمقتضى السنن التي هدى إليها خلقه، وألهمها عباده.

وفي هذا إيماءٌ إلى أن الذنوب والإسراف في الأمور من عوامل الخذلان والطاعة والثبات والاستقامة من باب النصر والفلاح، ومن ثم سألوا ربهم أن يمحو من نفوسهم أثر الذنوب، وأن يوفقهم إلى دوام الثبات حين تزل الأقدام.

وفي طلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التي دلَّ عليها قوله: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ إعلامٌ بأنهم لا يعولون على كثرة العدد بل يطلبون العون والمدد الروحاني من الله تعالى بثبات الأقدام والتمسك بأهداب الحقِّ.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ الجحدري ﴿فأثابهم﴾ من الإثابة؛ أي: أعطاهم الله تعالى بسبب هذا الدعاءِ جزاء الدنيا بالنصر على الأعداء والظفر بالغنيمة، والسيادة في الأرض، والكرامة، والعزة، وحسن الأحدوثة، والثناء الجميل، وانشراح الصدر بنور الإيمان، وزوال ظلمات الشبهات، وكفارة المعاصي، والسيئات، وإنما سمي ذلك ثواباً لأنه جزاءٌ على الطاعة وامتثال أوامر الله تعالى.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن بنيل رضوان الله ورحمته، والقرب منه في دار الكرامة، وقد فسر بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وبقوله: في الحديث: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر» وما حصلوا على ذلك إلا بما قدموا من صالح العمل الذي كان له أحسن الأثر في نفوسهم، فارتقت به إلى حظيرة القدس. والمعنى: حكم الله لهم بحصول الجنة، وما فيها من المنافع واللذات وأنواع السرور والتعظيم في الآخرة.

وإنما خصَّ ثواب الآخرة بالحسن إيذاناً بشرفه وفضله، لأنه غير زائل وثوابٌ لا يشوبه أذى ولا تنغيصٌ، وبأنه المعتدُّ به عند الله تعالى بخلاف ثواب الدنيا؛ فإنه قليلٌ سريع الزوال، وعرضة للأذى والمنغصات وترغيباً في طلب ما يحصله من العمل الصالح، ومناسبة لآخر الآية.

وإنما جمع الله لهم بين الثوابين؛ لأنهم أرادوا بعملهم هاتين السعادتين سعادة الدنيا، وسعادة الآخرة كما هو شأن المؤمن ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: من عمل لدنياه أضر بآخرته، ومن عمل لآخرته أضر بدنياه، وقد يجمعهما الله تعالى لأقوامٍ.

وهذه الآية وأشباهها حجة على الغالين في الزهد الذين يتحرجون عن الاستمتاع بشيء من لذات الدنيا، ويعدون ذلك منافياً للتقوى ومبعداً عن رضوان الله تعالى.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: المعترفين بكونهم مسيئين مقصِّرين، فلما اعترفوا بذلك سماهم الله محسنين، كأنه تعالى يقول لهم: إذا اعترفتم بإساءتكم وعجزكم.. فأنا أصفكم بالإحسان، وأجعلكم أحباء لنفسي حتى تعلموا أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى رضا الله تعالى، إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز.

وقال أبو حيان: وفسَّر المفسرون ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هنا بأحد معنيين:

الأول: من أحسن ما بينه وبين ربه بلزوم طاعته.

والثاني: من ثبت في القتال مع نبيه حتى يقتل أو يغلب؛ لأنهم هم الذين يقيمون سننه في أرضه، ويظهرون أعمالهم، وأنهم جديرون بخلافة الله فيها، ولا تكون أعمالهم إلا بما يرضى الله تعالى، فهي من الله ولله. وفي هذا تعليمٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقولوا مثل هذا: عند لقاء العدو، وفيه دقيقةٌ لطيفةٌ، وهي أنهم لمَّا اعترفوا بذنوبهم، وكونهم مسيئين سماهم الله تعالى محسنين.

الإعراب

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، أو عاطفة. ﴿سارعوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ عطفاً تفسيرياً ﴿إِلَىٰ﴾ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿سارعوا﴾. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ تقديره: كائنة من ربكم. ﴿وَجَنَّةٍ﴾ معطوف على مغفرة. ﴿عَرْضُهَا﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ خبر. ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ معطوف عليه، ولكنه على حذف مضاف تقديره: مثل عرض السموات والأرض، والجملة الاسمية في محل الجر صفة ﴿أُوْلَى﴾ لـ ﴿جنة﴾ ﴿أُعِدَّتْ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿جنة﴾. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿جنة﴾. ويجوز[1] أن تكون حالاً

(١) العكبري.

منها؛ لأنها قد وصفت، وأن تكون مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الجر صفة للمتقين، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني، وأن يكون مرفوعاً بإضمار هم، فيجوز فيه الأوجه الثلاثة. ﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ﴾ متعلق بـ ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿الكاظمين﴾ معطوف على الموصول مجرور على كونه صفةً لـ ﴿المتقين﴾، ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره: أمدح، وهو اسم فاعل يعمل عمل الفعل الصحيح يرفع الفاعل، وفاعله مستتر فيه تقديره: هم. ﴿ٱلْغَيْظَ﴾ مفعوله منصوب ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿العافين﴾ معطوف على الموصول أيضا على كونه صفة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ويجوز نصبه بفعل محذوف. ﴿عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ متعلق به ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿الواو﴾ اعتراضية ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية معترضة لاعتراضها بين المتعاطفين.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿الذين﴾ اسم موصول للجمع المذكر معطوف على الموصول قبله، فيجوز فيه الأوجه الثلاثة السابقة، الجر على كونه صفة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، والقطع إلى النصب والرفع، ويجوز[1] أن يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ مرفوعاً بالابتداء و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان و﴿جَزَآؤُهُم﴾ مبتدأ ثالث

---

(١) الفتوحات.

و﴿مَّغۡفِرَةٌ﴾ خبر الثالث والثالث وخبره خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول، ﴿إِذَا فَعَلُواْ﴾ ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَعَلُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٰحِشَةً﴾ مفعول به. ﴿أَوۡ﴾ حرف عطف: ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة في محل الخفض معطوفة على جملة فعلوا على كونها فعل شرط لـ﴿إذا﴾ ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها صلة الموصول. ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿استغفروا﴾ فعل وفاعل، واستغفر يتعدى إلى مفعولين، وكلاهما هنا محذوف تقديره؛ فاستغفروا الله ذنوبهم. ﴿لِذُنُوبِهِمۡ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿استغفروا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿ذَكَرُواْ﴾ على كونها جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ ﴿الواو﴾ اعتراضية. ﴿مَن﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿مَن﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناءٍ مفرغ. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ بدل من الضمير المستتر في ﴿يَغۡفِرُ﴾ والجملة الاسمية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المتعاطفين أعني: قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾، وقوله الآتي ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾. ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لم يصروا﴾ جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾ على كونها جواب ﴿إِذَا﴾. ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُصِرُّواْ﴾. ﴿فَعَلُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لِما، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: على ما فعلوه. ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ فعل وفاعل والمفعول محذوف لعلمه تقديره: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ المؤاخذة بها أو عفو الله عنها، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: وهم عالمون بها، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿يصروا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ أول. ﴿جَزَآؤُهُم﴾ مبتدأ ثان، ومضاف إليه ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ خبر للمبتدأ الثاني. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول، وخبره مستأنفة، وقد سبق لك قريباً ما في هذه الجملة من أوجه الإعراب غير ما ذكرناه هنا فراجعه. ﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾ معطوف على مغفرة. ﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بتجري. ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ ﴿جنات﴾. ﴿خَـٰلِدِينَ﴾[1] حال من الضمير في ﴿جَزَآؤُهُم﴾ لأنه مفعول به في المعنى، لأن المعنى يجزيهم الله جنات في حال خلودهم، وتكون حالاً مقدرة، ولا يجوز أن تكون حالاً من ﴿جنات﴾ في اللفظ، وهي لأصحابها في المعنى؛ إذ لو كان كذلك.. لبرز الضمير لجريان الصفة على غير من هي له. ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خالدين﴾. ﴿وَنِعْمَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿نعم﴾ فعل ماض؛ وهو من أفعال المدح. ﴿أَجْرُ﴾ فاعل. ﴿ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ مضاف إليه، والجملة من الفعل، والفاعل في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف وجوباً، يسمى المخصوص بالمدح تقديره ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ الجنة، والجملة من المبتدأ المحذوف، وخبره في محل الرفع معطوفة على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ على كونها خبراً للمبتدأ الثاني: تقديره: أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم، ومقولٌ في جزائهم نعم أجر العاملين.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾ فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿خَلَتْ﴾. ﴿سُنَنٌ﴾ فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت

---

(١) الفتوحات.

عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنه قد خلت من قبلكم سننٌ، وشككتم فيها، وأردتم تيقنها، والاعتبار بها.. فأقول لكم: سيروا في الأرض لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم؛ ويجوز أن تكون الفاء عاطفة. ﴿سيروا﴾ فعل وفاعل. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ وعبارة[1] الكرخي هنا، ودخلت الفاء لأن المعنى على الشرط؛ أي: إن شككتم فسيروا في الأرض لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم، وهذا مجازٌ عن إجالة الخاطر. **والحاصل**: أن المقصود تعرف أحوالهم فإن تيسر بدون السير في الأرض.. كان المقصود حاصلاً انتهت. ﴿فَانْظُرُوا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿انظروا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿سيروا﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام عن الحال في محل النصب خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾. ﴿كَانَ﴾، فعل ماضٍ ناقص. ﴿عَاقِبَةُ﴾ اسمها. ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول لـ﴿انظروا﴾ تقديره: فانظروا حال عاقبة المكذبين.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾.

﴿هَذَا﴾ مبتدأ. ﴿بَيَانٌ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿بَيَانٌ﴾ أو متعلق به. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ معطوفان على ﴿بَيَانٌ﴾ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ تنازع فيه كل من ﴿هدى﴾ و﴿موعظة﴾ على أنه متعلق بهما، أو صفة لهما.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية. ﴿تَهِنُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة، وفي «الجمل» قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ هذا وما عطف عليه معطوفان في المعنى على قوله ﴿فَسِيرُوا﴾ في الأرض الخ. انتهى. وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة

---

(١) الجمل.

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾. ﴿وَأَنتُمُ﴾ الواو حالية. ﴿أَنتُمُ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ خبر مرفوع بالواو، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَهِنُوا﴾ أو ﴿تَحْزَنُوا﴾. ﴿إِن كُنتُم﴾ ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إِنْ﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

﴿إِن﴾ حرف شرط جازم. ﴿يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ فعل ومفعول، وفاعل مجزوم بإن الشرطية. ﴿فَقَدْ مَسَّ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب مقروناً بقد. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل. ﴿مِّثْلُهُۥ﴾ نعت لقرح ومضاف إليه، والجملة في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة، وفي «الجمل»: قوله[1]: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ جواب الشرط محذوف؛ أي: فتأسوا، ومن زعم أن جواب الشرط ﴿فَقَدْ مَسَّ﴾ فهو غالط؛ لأن الماضي معنى يمتنع أن يكون جوابا للشرط، وللنحويين في مثل هذا تأويلٌ، وهو أن يقدروا شيئاً مستقبلاً، لأنه لا يكون التعليق إلا في المستقبل، كما مرت الإشارة إليه. اهـ كرخي، وذلك التأويل هو التبيين؛ أي: فقد تبين مس القرح للقوم اهـ سمين.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَتِلْكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿تلك﴾. مبتدأ. ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾ بدل أو عطف بيان أو نعت لاسم الإشارة. ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿نداول﴾، الجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) الجمل.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة على محذوف تقديره: نداولها بين الناس ليتعظوا، وليعلم الله، وقيل: إن الواو زائدة. ﴿اللام﴾ لام كي. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به لأن، ﴿علم﴾ هنا بمعنى عرف، يتعدى إلى مفعول واحد ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، والجملة من الفعل والفاعل، صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولعلم الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور المحذوف المتعلق بقوله ﴿نداولها﴾ تقديره: وتلك الأيام نداولها بين الناس لاتعاظهم، ولعلم الله الذين آمنوا. ﴿وَيَتَّخِذَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يتخذ﴾ فعل مضارع معطوف على قوله: ﴿ليعلم﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿مِنكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يتخذ﴾. على كونه مفعول أول لـ﴿يتخذ﴾ ﴿شُهَدَآءَ﴾ مفعول ثان ﴿لِيَتَّخِذَ﴾ والمعنى ويتخذ بعضكم شهداء ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾ اعتراضية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يُحِبُّ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين العلل المتعاطفات.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ليمحص﴾ ﴿اللام﴾ لام كي. ﴿يمحص﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به. وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿يمحص﴾ صلة أن المضمرة وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور تقديره: ولتمحيص الله. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. ﴿وَيَمْحَقَ﴾ معطوف على ﴿يمحص﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مفعول به.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل التي للإضراب الانتقاليّ، والهمزة التي للاستفهام الإنكاريِّ، والمعنى[1]: لا تظنوا أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة مع السابقين بمجرد الإيمان من غير جهاد، ولا صبر بل مع الجهاد، والصبر، وهو خطاب لأهل أحدٍ حيث أمروا بالقتال مع كونهم جرحى، وشدد عليهم في ذلك، والمقصود من ذلك تعليم من يأتي بعدهم، وإلا فهم قد جاهدوا في الله حق جهاده وصبروا صبراً جميلاً. ﴿حَسِبْتُمْ﴾ فعل وفاعل. ﴿أنْ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ ﴿أن﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر سادٍ مسدَّ مفعولي حسب، والتقدير: لا تحسبوا دخولكم الجنة. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. ﴿لما﴾ حرف نفي وجزم تفيد توقع الجهاد منهم في المستقبل، فلذا عبر بها دون لم. ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لما﴾ وعلامة جزمه سكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل، بحركة التخلص من التقاء الساكنين، وجملة ﴿يعلم﴾ من الفعل والفاعل في محل النصب حال من فاعل ﴿تَدْخُلُوا۟﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به. ﴿جَٰهَدُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿جَٰهَدُوا۟﴾. ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة معية. ﴿يَعْلَمَ﴾ منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد واو المعية الواقعة في جواب النفي. ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، ،أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، والتقدير: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، ولما يكن علم الله الذين جاهدوا منكم، وعلمه الصابرين: أي: لا تحسبوا ذلك.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. و﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ فعل وفاعل ومفعول،

---

(١) الصاوي.

والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها، جواب القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿مِن قَبْلِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَمَنَّوْنَ﴾. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿تَلْقَوْهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من قبل لقائكم إياه. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. قد حرف تحقيق. ﴿رأيتموه﴾ فعل وفاعل ومفعول، لأن ﴿رأى﴾ بصرية، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَمَنَّوْنَ﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. ﴿أنتم﴾ مبتدأ وجملة ﴿تَنظُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿رَأَيْتُمُوهُ﴾.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿رَسُولٌ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾ فعل وتاء تأنيث. ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿خلت﴾ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ فاعل ﴿خَلَتْ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع صفةٌ لـ ﴿رَسُولٌ﴾.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾.

﴿أَفَإِيْن﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف تقديره: أتؤمنون به مدة حياته؟ ﴿الفاء﴾ عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف، ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿مَّاتَ﴾ فعل ماضي في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ فعل ماضي مغير الصيغة معطوف على ﴿مَّاتَ﴾ ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مُحَمَّدٌ﴾. ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿انقلب﴾ أو حال من فاعل ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ أي: راجعين على أعقابكم، كما ذكره العكبري. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية من فعل شرطها، وجوابها معطوفة على الجملة المحذوفة على كونها مستأنفة كما مر آنفاً، وجملة الجواب هي محل الاستفهام الإنكاري، أي: إنكار انقلابهم وارتدادهم

عن الدين، ﴿فالهمزة﴾ داخلة عليها في المعنى، والتقدير: أأنقلبتم على أعقابكم إن مات، أو قتل أي لا ينبغي منكم الانقلاب والارتداد حينئذٍ كما بيناه في بحث التفسير.

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَنقَلِبْ﴾ فعل مضارع مجزوم بمن على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، وخبر ﴿من﴾ الشرطية إما جملة الشرط أو الجواب، أو هما معاً. ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَنقَلِبْ﴾. ﴿فَلَن﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب من الشرطية وجوباً لاقترانه بـ ﴿لن﴾. ﴿يَضُرَّ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَنْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الجزم على كونها جواباً لها، وجملة من الشرطية مستأنفة. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به. ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة أي؛ ضرراً شيئاً. ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿لِنَفْسٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها. ﴿أَن﴾ حرف نصب. ﴿تَمُوتَ﴾ منصوب بـ﴿أن﴾ وفاعله ضمير يعود على نفس، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع، على كونه اسم ﴿كان﴾ مؤخراً، تقديره؛ وما كان الموت إلا بإذن الله كائناً لنفس. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَمُوتَ﴾. ﴿كِتَٰبًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بعامل محذوف تقديره: كتب الله الموت على كل نفس ﴿كتاباً﴾. ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ صفة لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ والجملة المحذوفة مؤكدة لمضمون الجملة المذكورة قبلها.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يُرِدْ﴾ مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ جواب الشرط مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ والهاء مفعول أول. ﴿مِنْهَا﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني، لأنّ أتى هنا بمعنى: أعطى وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ الواو عاطفة. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ فعل ومفعول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. والهاء مفعول أول. ﴿مِنْهَا﴾ في محل المفعول الثاني، وجملة ﴿من﴾ معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿سنجزى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ مفعول به، والجملة مستأنفة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿كأين﴾ اسم بمعنى كم الخبرية التكثيرية في محل الرفع، مبتدأٌ مبنيٌّ بسكون على النون المدغمة في ميم من لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً لتضمنه معنى رب التكثيرية. ﴿مِّن﴾ زائدة. ﴿نَّبِيٍّ﴾ تمييز له. ﴿قَٰتَلَ﴾ فعل ماض، وفعله ضمير يعود على كأيّن، والجملة في محلِّ الرفع خبر المبتدأ والتقدير: وكثير من الأنبياء مقاتل، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿مَعَهُۥ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿كَثِيرٌ﴾ صفة له، والجملة في محل النصب حال من فاعل قاتل، والتقدير حال كون الربيين معه في القتال.

﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿وَهَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿وَهَنُوا۟﴾. ﴿أَصَابَهُمْ﴾ فعل ومفعول

والفاعل ضمير يعود على ﴿ما﴾ والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَصَابَهُمْ﴾. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ ﴿ما﴾ نافية. ﴿ضَعُفُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَهَنُوا﴾. وكذلك جملة ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ معطوفة على جملة ﴿وَهَنُوا﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماضٍ ناقص. ﴿قَوْلَهُمْ﴾ خبر ﴿كان﴾ مقدم على اسمها، ومضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿قَالُوا﴾ فعل وفاعل في محل النصب بأن المصدرية، وجملة ﴿قال﴾ من الفعل والفاعل، صلة ﴿أن﴾ المصدرية و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كان﴾، والتقدير: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ إلا قولهم هذا الدعاء، وهذا الوجه أولى من عكسه، كما سبق تعليله في بحث التفسير، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء مقول القول. ﴿اغْفِرْ﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿لَنَا﴾ متعلق به. ﴿ذُنُوبَنَا﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾ معطوف على ﴿ذُنُوبَنَا﴾ ﴿فِي أَمْرِنَا﴾ متعلق بـ﴿إسْرافَنا﴾ ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله والجملة معطوفة على جملة ﴿اغْفِرْ﴾ على كونها جواب النداء ومقول القول ﴿وَانصُرْنَا﴾ فعل ومفعول والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿اغفر﴾ ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ جار ومجرور، وصفة متعلق بـ ﴿انصرنا﴾.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة سببية. ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ مفعول ثان ومضاف إليه؛ لأن آتى بعنى أعطى، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ لأن هذه الجملة مسببة عن تلك الجملة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿حسن﴾ معطوف على ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو مضاف. ﴿ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ مضاف إليه، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف كما مر ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جملة فعلية في محل الرفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ من باب فاعل والمفاعلة ليست على بابه، بل المراد منه أصل الفعل، والمسارعة إلى المغفرة والجنة؛ المبادرة إلى الأسباب الموصلة إليهما من الأعمال الصالحة، كالإقبال على الصدقات، وعمل الخيرات، والتوبة عن الآثام كالربا، ونحوه ﴿عَرْضُهَا﴾ والعرض: السعة بقطع النظر عن مقابل له، فليس العرض في مقابلة الطول، بل المراد به مطلق السعة، والعرب تقول: دعوى عريضة؛ أي: واسعة عظيمة. ولفظ العرض يطلق على هذا المعنى وعلى ما يقابل الطول، وهو أقصر الامتدادين، وكل من الإطلاقين حقيقيٌّ كما ذكره «القاموس».

﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾ الحالة التي تسر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الحالة التي تضر ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، وهو اسم فاعل من كظم من باب: ضرب يقال: كظم القربة أي ملأها وشد رأسها، وكظم الباب سدَّه، وكظم البعير جرته إذا ازدردها وكف عن الاجترار. والكظم الحبس يقال: كظم غيظه إذا حبسه فهو كاظمٌ وكظمه الغيظ، والغم إذا أخذ بنفسه فهو مكظومٌ وكظيم. قال تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وأخذ فلانٌ بكظم فلان، إذا أخذ بمجرى نفسه. والغيظ ألم يعرض للنفس إذا هضم حقٌّ من حقوقها المادية، كالمال أو المعنوية كالشرف والعرض، فيزعجها ذلك، ويحفزها على التشفِّي والانتقام.

﴿وَٱلْعَافِينَ﴾ اسم فاعل من عفا يعفو من باب دعا. والعفو عن الناس: التجاوز عن ذنوبهم، وترك مؤاخذتهم مع القدرة على ذلك ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ من أصر

الرباعي يصر إصراراً. والإصرار اعتزام الدوام على الشيء، وترك الإقلاع عنه من صر الدنانير إذا ربط عليها، ومنه صرة الدنانير لما يربط منها ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أصل ﴿تَهِنُوا﴾ توهنوا حذفت الواو لوقوعها بين ياءٍ وكسرة في الأصل، ثم أجريت حروف المضارعة مجرى الياء، في ذلك يقال: وهن بالفتح في الماضي يهن بالكسر في المضارع، ونقل أنه يقال: وهن ووهن بضم الهاء وكسرها في الماضي، ووهن يستعمل لازماً ومتعدياً، يقال: وهن زيدٌ إذا ضعف قال تعالى: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ ووهنته إذا أضعفته. ومنه الحديث: «وهنتهم حمى يثرب»؛ أي: أضعفتهم، والمصدر على الوهن، والوهن بفتح العين وسكونها.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ جمع أعلى، والأصل: أعليون فتحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فانقلبت ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، وبقيت الفتحة لتدل عليها، وإن شئت قلت: استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فالتقى ساكنان أيضاً، الياء، والواو، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، وإنما احتجنا إلى ذلك؛ لأن واو الجمع لا يكون ما قبلها إلاّ مضموماً لفظاً أو تقديراً، وهذا مثال التقدير اهـ سمين.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ داول من باب فاعل، والمداولة المناوبة على الشيء، والمعاودة وتعهده مرةً بعد أخرى، يقال: داولت بينهم الشيء فتداولوه، كأن المفاعلة بمعنى أصل الفعل. وعبارة «الخازن»: المداولة نقل الشيء من واحد إلى واحد آخر، يقال: تداولته الأيدي إذا انتقل من واحد إلى آخر، والمعنى: إنَّ أيام الدنيا دول بين الناس، يوم لهؤلاء، ويوم لهؤلاء، فكانت الدولة للمسلمين يوم بدر، وللكفار يوم أحد. انتهى.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ أصل المحص كالفحص في اللغة: التنقية، والإزالة، لكن الفحصُ يقال: في إبراز الشيء عن خلال أشياء منفصلة عنه، والمحص في إبرازه عن أشياء متصلة به. وفي «القاموس»: محص الذهب بالنار ـ من باب منع ـ أخلصه مما يشوبه، والتمحيص الابتلاء، والاختبار: انتهى. وأصل المحق نقص الشيء قليلاً قليلاً.

﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ أصل هذا الفعل: استكن من السكون؛ لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليصنع به ما يريد. والألف تولدت من إشباع الفتحة، وعبارة السمين في هذا الفعل ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه استفعل من السكون والسكون، الذل وأصله: استكون، فنقلت حركة الواو على الكاف ثم قلبت الواو ألفاً.

والثاني: قال الأزهري: وأبو عليّ ألفه: من ياء، والأصل استكين ففعل بالياء ما فعل بالواو.

والثالث: قال الفراء: وزنه افتعل من السكون، وإنّما أشبعت الفتحة فتولد منها ألف كقوله:

أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلْعَقْرَابِ ٱلشَّائِلَاتِ عُقَدَ ٱلْأَذْنَابِ

يريد: العقرب الشائلة. انتهت.

البلاغة

﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ فيه مجازٌ مرسلٌ؛ لما فيه من إطلاق المسبب، وإرادة السبب، أي: بادروا إلى سببهما، وهو الأعمال الصالحة.

﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: كعرضهما، فيه تشبيه بليغ، وهو ما حذفت فيه الأداة ووجه الشبه.

﴿ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ فيه من المحسنات البديعية: الطباق ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ والعدول فيه إلى صيغة الفاعل؛ للدلالة على الاستمرار والدوام. وأما الإنفاق، فلما كان أمراً متجدداً؛ عبر عنه بما يفيد التجدد والحدوث.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الاستفهام فيه إنكاريٌّ: بمعنى النفي، ولذلك وقع بعده الاستثناء، والمعنى لا يغفر الذنوب إلا الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم﴾ الإشارة بالبعيد للإشعار ببعد منزلتهم، وعلو طبقتهم في الفضل.

﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليس المراد خصوص السير، بل المراد استعلام ما وقع للأمم الماضية بسيرٍ أو غيره، بل هو مجازٌ عن إجالة الخاطر في ذلك، ثم التأمل للتسلي والاتعاظ.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ فيه التفات من التكلم إلى الغيبة، والسر في هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ونفي المحبة فيه كنايةٌ عن البغض، وفي إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ فيه توبيخٌ لهم على أنهم تمنوا الحرب، وتسببوا فيها، ثم جبنوا وانهزموا عنها، أو توبيخٌ لهم على الشهادة، فإن في تمنيها تمني غلبة الكافرين، وفي إيثار الرؤية على الملاقاة، وتقييدها بالنظر مزيد مبالغةٍ في مشاهدتهم له.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ القصر فيه قصر قلب، للرد عليهم في اعتقادهم؛ أنه معبودٌ، وهم وإن لم يعتقدوا ذلك حقيقةً لكن نزلوا منزلة من اعتقد ألوهيته لا رسالته؛ حيث رجعوا عن الدين الحق؛ لما سمعوا بقتله فكأنهم اعتقدوه معبوداً، وقد مات فرجعوا عن عبادته.

﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ وهذا كنايةٌ عن الرجوع للكفر، لا حقيقة الانقلاب على الأعقاب الذي هو السقوط إلى خلف. قال في «تلخيص البيان»: هذه استعارةٌ، والمراد به الرجوع عن دينه، فشبه سبحانه الرجوع في الإرتياب بالرجوع على الأعقاب.

وقال أبو حيان(١): وقد تضمنت هذه الآيات فنوناً من الفصاحة والبديع والبيان:

من ذلك: الاعتراض في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَن

(١) البحر المحيط.

يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ومنها: تسمية الشيء باسم سببه في قوله: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، وقيل: هذه استعارة.

ومنها: الإضافة إلى الأكثر في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وهي معدَّة لهم، ولغيرهم من العصاة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ و﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ لأن الوهن والعلو ضدان، وفي قوله: ﴿ءَامَنُوا﴾ و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لأن الظالمين هم الكافرون، وفي قوله: ﴿ءَامَنُوا﴾ ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: العامُّ الذي يراد به الخاصُّ في قوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: من ظلمهم أو المماليك.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ﴾ ﴿ذَكَرُوا ٱللَّهَ﴾ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، و﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، و﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، و﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، و﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، و﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، و﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، و﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَسِيرُوا﴾، على أنه من سير الفكر لا من سير القدم. و﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ إذ لم تكن من علو المكان، و﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾، و﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ و﴿يمحق﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ﴾، وفي قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾.

ومنها: إدخال حرف الشرط في الأمر المحقق في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، إذا علق عليه النهي.

ومنها: الاستفهام الذي معناه الإنكار في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾، و﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾.

ومنها: تسمية الشيء باسم سببه في قوله: ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: الجهاد في سبيل الله. وفي قوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فيمن فسَّر ذلك بالقلوب؛ لأنَّ ثبات الأقدام متسبَّب عن ثبات القلوب.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ ﴿ويعلم﴾ لاختلاف المتعلَّق، أو للتنبيه على فضل الصابر. وفي قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ لأنَّ العرف في الموت خلاف العرف في القتل، والمعنى مفارقة الروح الجسد فهو واحد، و﴿مَنْ﴾ في ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ﴾ الجملتين، وفي قوله: ﴿ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا﴾ في قول من سوى بينهما.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ...﴾ مناسبتها لما قبلها ظاهرةٌ، فإنه سبحانه وتعالى لمَّا رغَّب المؤمنين في الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان مالهم من الفضل، وعظيم الأجر، وحسن العاقبة.. نهاهم عن متابعة الكفار ببيان سوء عاقبتها في دينهم، ودنياهم،

والخطاب فيها موجهٌ إلى كل من سمع من المؤمنين مقالة أولئك القائلين من المنافقين: ارجعوا إلى إخوانكم، ودينكم فإن الكفار لما أرجفوا أن النبيَّ ﷺ قد قتل، دعا المنافقون بعض ضعفة المسلمين إلى الكفر، فنهاهم الله عن الالتفات إلى كلامهم.

فبالجملة لا تزال الآيات الكريمة تنادي بذكر أحداث غزوة أحد، وما فيها من العظات، والعبر فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة، وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة، وتآمرهم على الدعوة الإسلامية بتثبيط عزائم المؤمنين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ...﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظي[1]: لمَّا رجع رسولُ الله ﷺ وأصحابه من أحد إلى المدينة، وقد أصابهم ما أصابهم قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ يعني بالنصر، والظفر؛ وذلك أنّ الظفر كان للمسلمين في الابتداء، وقيل: إنَّ الله وعد المؤمنين النصر بأحد فنصرهم، فلما خالفوا أمر رسول الله ﷺ، وطلبوا الغنيمة هزموا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنهما قال: رفعت رأسي يوم أحد، فجعلت أنظر، وما منهم يومئذٍ من أحدٍ إلا يميد تحت حجفته من النعاس، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ وقال: هذا حديث حسن صحيح. وروى أيضاً عن هشام ابن عروة عن الزبير مثله، وقال: حديث حسن صحيح، وحديث الزبير هذا، أخرجه ابن راهويه ولفظه: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين اشتدَّ علينا الخوف، وأرسل علينا النوم فما منا أحدٌ إلا وذقنه أو قال: ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا

(١) الخازن.

﴿هَٰهُنَا﴾ فحفظتها، فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ إلى قوله: ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ لقول معتب بن قشير قال: ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ حتى بلغ ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالله، وصدقوا بما جاء به محمدٌ ﷺ ﴿إِن تُطِيعُوا۟﴾، وتمتثلوا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وجحدوا، نبوة نبيكم محمد ﷺ فيما يأمرونكم به، وتقبلوا رأيهم، ونصيحتهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون، حيث قالوا لكم يوم أحد: إرجعوا إلى دين آبائكم، ولو كان محمد نبياً.. ما قتل ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾؛ أي: يرجعوكم عما كنتم عليه من الإيمان بالله ورسوله ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، وأدباركم؛ أي: على ما كنتم عليه أولاً من الكفر والشرك بالله: أي: يحملوكم على الردة بعد الإيمان، والكفر بالله وآياته ﴿فَتَنقَلِبُوا۟﴾؛ أي: ترجعوا ﴿خَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة، وتكونوا مغبونين في الدين والدنيا، أما خسران الدنيا فبخضوعكم لسلطانهم، وذلتكم بين يديهم وحرمانكم من السعادة، والملك والتمكين في الأرض كما وعد الله المؤمنين الصادقين، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ فإن أشقَّ الأشياء على العقلاء في الدنيا الانقياد إلى العدو، وإظهار الحاجة إليهم.

وأما خُسران الآخرة: فبالحرمان من الثواب المؤيد، والوقوع في العذاب المخلد.

والمراد بالذين كفروا المنافقون كما تقدم. وقال السديُّ وغيره: المراد بهم أبو سفيان بن حرب؛ لأنه شجرة الكفر، وكبير القوم في ذلك اليوم. ومعنى الآية حينئذٍ: إن تخضعوا لأبي سفيان وأشياعه، وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل: المراد عبد الله بن أبي، وأتباعه من المنافقين؛ لأنهم قالوا: لو كان محمد ﷺ نبياً.. ما وقعت له هذه الواقعة، فارجعوا إلى دينكم الذي كنتم فيه. وقال ابن عباس: المراد بهم اليهود كعبٌ وأصحابه، والمراد بالذين آمنوا حذيفة وعمار.

و﴿بل﴾ في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ إضرابٌ عن مفهوم الجملة الأولى؛ أي: إن تطيعوا الكافرين يخذلوكم، ولا ينصروكم بل الله مولاكم، وناصركم، ووليكم، وحافظكم، فاستعينوا به لا غيره.

وقرأ[1] الحسن بنصب الجلالة على تقدير، بل أطيعوا الله، لأن الشرط السابق يتضمن معنى النهي؛ أي: لا تطيعوا الكفار، فتكفروا، بل أطيعوا الله مولاكم ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾؛ أي: أقواهم وأفضلهم؛ فلا يحتاج معه إلى نصرة أحد، ولا إلى ولاية غيره، فاكتفوا به عن ولاية غيره ونصره. وفي هذا دلالةٌ على أن من قاتل لنصر دين الله لا يخذل ولا يغلب، لأنَّ الله مولاه وناصره، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾، ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾.

والمعنى[2]: لا تفكروا في ولاية أبي سفيان وشيعته، ولا عبدِ الله بن أُبَيٍّ وحزبه، ولا تأبهوا - لا تلتفتوا - لإغوائهم فإنهم لا يستطيعون لكم نصراً، وإنما الله هو الذي ينصركم بعنايته التي وعدكم بها، في قوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ فقد جرت سنته أن يتولى الصالحين، ويخذل الكافرين كما قال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾.

ولما انصرف المشركون من أحدٍ.. هموا بالرجوع لاستئصال المسلمين، وخاف المسلمون ذلك، فوعدهم الله تعالى خذلان أعدائهم بقوله: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾؛ أي: سنقذف في قلوب كفار مكة الخوف منكم حتى لا يرجعوا إليكم، وذلك أنَّ أبا سفيان، ومن معه ارتحلوا يوم أحد متوجهين إلى مكة، فلما بلغوا بعض الطريق ندموا، وقالوا: بئسما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد.. تركناهم ارجعوا إليهم فاستأصلوهم؛ فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب، يعني الخوف الشديد، حتى رجعوا عما هموا

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

به. فعلى هذا القول: يكون الوعد بإلقاء الرعب في قلوب الكفار مخصوصاً بيوم أحد. وقيل: إنه عام، وإن كان السبب خاصاً لقوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر». فكأنه قال: سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب منكم حتى تقهروهم، ويظهر دينكم على سائر الأديان، وقد فعل الله ذلك بفضله وكرمه، حتى صار دين الإسلام ظاهراً على جميع الأديان والملل كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

وقرأ[1] الجمهور ﴿سَنُلْقِى﴾ بالنون، وهو مشعرٌ بعظم ما يلقى إذ أسنده إلى المتكلم بنون العظمة. وقرأ أيوب السختياني ﴿سيلقى﴾ بالياء جرياً على الغيبة السابقة في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ وقدم لفظ ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ وهو مجرور على المفعول، وهو الرعب للاهتمام بالمحل الملقى فيه قبل ذكر الملقى. وقرأ ابن عامر، والكسائي ﴿الرعب﴾ بضم العين، والباقون بسكونها فقيل: هما لغتان، وقيل: الأصل السكون، وضم إتباعاً كالصبح والصبح. وقيل: الأصل الضم، وسكن تخفيفاً كالرسل والرسل. والباء في قوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾ سببية، و﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: سنلقي في قلوبهم الرعب بسبب إشراكهم بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾؛ أي: آلهةً ومعبوداً لم ينزل الله تعالى بعبادته ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: برهاناً، وحجة، وكتاباً، وتسليط النفي على الإنزال، والمقصود نفي السلطان؛ أي: آلهةً لا سلطان في إشراكها، فينزل. وقال الشوكاني[2]: والنفي: يتوجه إلى القيد، والمقيد؛ أي: لا حجة، ولا إنزال، والمعنى: أنَّ الإشراك بالله لم يثبت في شيء من الملل انتهى.

وكان[3] الإشراك بالله سبباً لإلقاء الرعب؛ لأنهم يكرهون الموت، ويؤثرون الحياة، إذ لم تتعلق آمالهم بالآخرة، ولا بثوابٍ فيها، ولا عقابٍ، فصار اعتقادهم ذلك مؤثراً في الرغبة في الحياة الدنيا، كما قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) فتح القدير.
(٣) البحر المحيط.

ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ وفي قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًاۖ﴾ دليلٌ على إبطال التقليد؛ إذ لا برهان مع المقلد.

والمعنى: أنه سبحانه وتعالى سيحكم في أعدائكم الكافرين سننه، ويلقي في قلوبهم الرعب بسبب إشراكهم بالله أصناماً، ومعبوداتٍ لم يقم برهانٌ من عقلٍ، ولا نقل على ما زعموا من ألوهيتها، وكونها واسطة بين الله وبين خلقه، وإنما قلدوا في ذلك آباءهم الذين ضلوا من قبل، ومن ثم كانوا عرضة لاضطراب القلب، واتباع خطوات الوهم، فهم يعدون الوساوس أسباباً، والهواجس مؤثرات وعللاً، ويرجون الخير مما لا يرجى منه الخير، ويخافون مما لا يخاف منه الضير.

وفي الآية: إيماءٌ إلى بطلان الشرك وسوء أثره في النفوس، إذ طبيعته تورث القلوب الرعب باعتقادِ؛ أن لبعض المخلوقات تأثيراً غيبياً وراء السنن الإلهية، والأسباب العادية، فالمشركون الذين جاهدوا الحق وأثروا مقارعة الداعي، ومن استجاب له بالسيف بغياً، وعدواناً يرتابون فيما هم فيه، ويتزلزلون إذا شاهدوا الذين دعوهم ثابتين مطمئنين، ولا يزال ارتيابهم يزيد حتى تمتلىء قلوبهم رعباً.

والخلاصة: أن طبيعة المشركين إذا قاوموكم أيها المؤمنون: أن تكون نفوسهم مضطربةً، وقلوبهم ممتلئةً رعباً وهلعاً منكم، فلا تخافوهم ولا تبالوا بقول من يدعوكم إلى موالاتهم، والالتجاء إليهم.

وبعد أن بين أحوال هؤلاء المشركين في الدنيا من وقوع الخوف، والهلع في قلوبهم . ذكر أحوالهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾؛ أي: مسكنهم، ومنزلهم، ومقرهم ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ في الآخرة بسبب إشراكهم، ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، أي: وقبح مسكن الذين ظلموا أنفسهم، بالإشراك، ومقرهم الذي يستقرون به، ويقيمون فيه، والمخصوص بالذم محذوفٌ تقديره: وبئس مثوى الظالمين النار، وفي جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم، رمزٌ إلى خلودهم فيها. فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث، وأما المأوى: فهو المكان الذي

يأوي إليه الإنسان. وقدم المأوى على المثوى؛ لأنه على الترتيب الوجودي؛ لأنَّ الإنسان يأوي إلى المكان ثم يثوي فيه.

والمعنى: إنَّ مسكنهم النار بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والجحود، ومعاندة الحق، ومقاومة أهله، وظلمهم للناس بسوء المعاملة، وفي التعبير بالمثوى المنبىء عن المكث الطويل دليلٌ على الخلود فيها كما مرَّ آنفاً.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد وفى الله سبحانه وتعالى، وحقق يوم أحد ما وعده لكم أيها المؤمنون على لسان رسوله محمدٍ ﷺ من النصر على أعدائكم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾؛ أي: حين تقتلونهم قتلاً ذريعاً كثيراً في أوّل الحرب ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: بإرادته وتيسيره ومعونته، وكان رسول الله ﷺ وعدهم النصر يومئذٍ إن انتهوا إلى أمره.

وهذا جواب لمن رجع إلى المدينة من المؤمنين، قالوا: وعدنا الله بالنصر، والإمداد بالملائكة، فمن أيِّ وجه أُتينا؟ فنزلت إعلاماً أنه تعالى صدقهم الوعد، ونصرهم على أعدائهم أوّلاً، وكان الإمداد مشروطاً بالصبر والتقوى، واتفق من بعضهم من المخالفة ما نصَّ الله تعالى عليه في كتابه هنا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ وجبنتم عن قتال العدو ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾؛ أي: اختلفتم في أمر الحرب بالثبات في المركز وعدمه، ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر الرسول ﷺ؛ أي: ولقد صدقكم وعده بالنصر في أول الحرب إلى وقت أن وقع منكم الفشل، والتنازع والعصيان، وإذا مجردةٌ عن معنى الشرط، وقيل: وهو الصحيح فيها معنى الشرط، وجوابها محذوف تقديره: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم في أول الحرب، حتى إذا فشلتم، وتنازعتم في أمر الحرب، وعصيتم أمر الرسول ابتلاكم الله، وامتحنكم بالهزيمة، ومنعكم النصر ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ الله سبحانه وتعالى في أول الحرب ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر، والغنيمة، وانهزام العدو.

والمعنى: صدقكم الله وعده حتى ضعفتم في الرأي والعمل، فلم تقووا على حبس أنفسكم عن الغنيمة، وتنازعتم فقال بعضكم: ما بقاؤنا هنا، وقد انهزم المشركون، وقال آخرون: لا نخالف أمر الرسول ﷺ وعصيتم رسولكم وقائدكم؛

بترك أكثر الرماة للمكان الذي أقامهم فيه، يحمون ظهور المقاتلة بدفع المشركين بالنبل من بعد ما أراكم ما تحبون من النصر، والظفر، فصبرتم على الضراء، ولم تصبروا على السراء.

وخلاصة القول: إنَّ الله نصركم على عدوكم إلى أن كان منكم الفشل، والتنازع، وعصيان أمر قائدكم صلى الله عليه وسلم، فانتهى النصر لأن الله تعالى: إنما وعدكم النصرة بشرط التقوى والصبر على الطاعة.

وفي قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ تنبيهٌ على عظم المعصية، لأنه كان من حقهم حين رأوا إكرام الله لهم بإنجاز الوعد أن يمتنعوا من عصيانه، فلما أقدموا عليه لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام، وأذاقهم وبال أمرهم، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ بجهاده ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: الغنيمة، وهم الذين تركوا مقعدهم الذي أقعدهم فيه رسول الله ﷺ في الشعب من أحد، وذهبوا وراء الغنيمة، وكان الرماة أولاً خمسين، ذهب منهم نيف على أربعين للنهب، وعصوا أمر الرسول ﷺ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ بجهاده ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾؛ أي: ثوابها، وهم الذين ثبتوا من الرماة مع قائدهم عبد الله بن جبير، وهم نحو عشرة قتلوا جميعاً، والذين ثبتوا مع النبي ﷺ، وهم ثلاثون رجلاً، وممن أراد الآخرة من ثبت بعد تخلخل المسلمين، فقاتل حتى قتل كأنس بن النضر، وغيره ممن لم يضطرب في قتاله ولا في دينه.

وهاتان الجملتان معترضتان بين المعطوف عليه الذي هو جواب إذا المقدر، والمعطوف الذي هو قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: ابتلاكم بالهزيمة، ثم صرفكم، وردكم، وكفكم أيها المؤمنون عن الكفار، وألقى الهزيمة عليكم، وسلط الكفار عليكم حتى تحولت الحال من النصرة إلى ضدها، ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾؛ أي: ليمتحن صبركم على المصائب، وثباتكم على الإيمان عندها.

والخلاصة: أنَّ الله سبحانه وتعالى صدقكم وعده، فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حسٍ واستئصالٍ، ثم صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم، وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك؛ أي: ليكون ذلك ابتلاءً واختباراً

لكم يمحصكم به، ويميز الصادقين من المنافقين، والصابرين من الجازعين ﴿وَلَقَدْ عَفَا﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿عَنكُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد غفر الله لكم أيها المخالفون أمر الرسول ﷺ ما ارتكبتموه من المخالفة والهزيمة تفضلاً منه لما علم من ندمكم على المخالفة ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ وطول، وإحسان ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: على أهل الإيمان به، وبرسوله، فيعفو عن كثير مما يستوجبون به العقوبة من الذنوب، ولا يذرهم على ما هم عليه من تقصيرٍ يهبط بنفوس بعض، وضعف يلم بآخرين، بل يمحص ما في صدورهم حتى يكونوا من المخلصين الطائعين المخبتين.

وفي الآية: دليلٌ[1] على أنَّ صاحب الكبيرة مؤمنٌ، وأنَّ الله تعالى يعفو بفضله وكرمه إن شاء؛ لأنه سمَّاهم مؤمنين مع ما ارتكبوه من مخالفة أمر رسول الله ﷺ وهي كبيرةٌ، وعفا عنهم بعد ذلك. والظرف في قوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ إما متعلق بصرفكم، وهو أجود من جهة المعنى، أو بعفا، وهو أحسن من جهة القرب أو بعصيتم، أو تنازعتم أو باذكروا محذوفاً؛ أي: ثم صرفكم عنهم حين تبالغون في الذهاب في صعيد الأرض، والإبعاد في نواحيها، منهزمين منهم هاربين في الجبل، والإصعاد الذهاب في صعيد الأرض. ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ﴾؛ أي: ولا تلتفتون ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ وراءكم؛ أي: لا يلتفت بعضكم إلى بعض، ولا ينتظره لشدة الدهشة التي عرتكم، والخوف الذي فجأكم ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾؛ أي: والحال أنَّ الرسول محمدا ﷺ يناديكم من ورائكم و﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾؛ أي: في[2] ساقتكم أو جماعتكم الأخرى، أي: واقفٌ في آخركم يقول: «إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، أنا رسول الله من كَرَّ - رجع - فله الجنة» وأنتم لا تسمعون، ولا تنظرون، وقد كان لكم أسوةٌ بالرسول، فتقتدون به في الصبر والثبات.

وقرأ الجمهور[3] ﴿تُصْعِدُونَ﴾ بضم التاء مضارع أصعد الرباعي، والهمزة

---

(١) الخازن.

(٢) البيضاوي.

(٣) البحر المحيط.

في أصعد للدخول؛ أي: دخلتم في الصعيد ذهبتم فيه كما تقول: أصبح زيدٌ؛ أي: دخل في الصباح، فالمعنى: إذ تذهبون في الأرض، وتبين ذلك قراءة أبي ﴿إذ تصعدون في الوادي﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن، والحسن، ومجاهد، وقتادة، واليزدي ﴿يَصعَدونَ﴾ من صعد في الجبل إذا ارتقى إليه.

والجمع بين القراءتين: أنهم أوَّلاً أصعدوا في الوادي، فلما ضايقهم العدو صعدوا في الجبل، وهذا على رأي من يفرق بين أصعد وصعد. وقرأ أبو حيوة ﴿تصعدون﴾ من تصعد في السلم، وأصله تتصعدون، فحذفت إحدى التائين على الخلاف في ذلك، أهي تاء المضارعة أم تاء تفعل؟.

وقرأ ابن محيصن، وابن كثير في رواية شِبْلٍ ﴿يَصْعَدُون﴾ ﴿ولا يلوون﴾ بالياء على الخروج من الخطاب إلى الغيبة. وقرأ الجمهور[1] ﴿تَلْوُنَ﴾ بفتح التاء، وضم الواو الأولى من لوى الثلاثي، وقرىء ﴿تَلْؤُون﴾ بإبدال الواو الأولى همزةً كراهية اجتماع واوين، وليس بقياس. وقياس هذه الواو المضمومة أن لا تبدل همزةً لأن الضمة فيها عارضةٌ.

وقرأ الأعمش وورش عن عاصم ﴿تُلْوون﴾ بضم التاء من ألْوى الرباعي، وهي لغةٌ ففعل، وأفعل بمعنى.

وقرأ الحسن ﴿تَلُوْنَ﴾ بواو واحدةٍ، وخرَّجُوها على أنه أبدل الواو همزة، ثم نقلت حركة الهمزة على اللام، ثم حذفت الهمزة على القاعدة، فلم يبق من الكلمة إلا الفاء، وظاهر قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ بفتح الهمزة على قراءة الجمهور العموم، وقيل: المراد به النبيُّ ﷺ وعبر بأحد عنه تعظيماً له، وصوناً لاسمه أن يذكر عند ذهابهم عنه، قاله ابن عباس، والكلبيُّ، وقرأ حميد بن قيس ﴿على أحد﴾ بضم الهمزة، والحاء، وهو الجبل قاله ابن عطية، والقراءة المشهورة أقوى؛ لأنَّ النبي ﷺ لم يكن على الجبل إلا بعد ما فرَّ الناس عنه، وهذه الحال من إصعادهم، إنما كانت وهو يدعوهم انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ عطفٌ[1] على صرفكم؛ أي: ثم صرفكم عنهم فجازاكم غمًّا حصل لكم بسبب الانهزام، وقتل الأحباب، وفوت الغنائم بسبب غمٍّ حصل للرسول ﷺ بسبب عصيانكم أمره؛ أي: أذاقكم غمًّا بسبب غمٍّ، أذقتموه رسول الله ﷺ بسبب فراركم عنه ﴿لِّكَيۡ﴾ تتمرنوا على تجرع الغموم وتتعودوا الصبر في الشدائد فـ ﴿لا تحزنوا﴾؛ أي: لا تتأسفوا فيما بعد ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ من الظفر والغنيمة ﴿وَلَا﴾ تحزنوا على ﴿مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ ونالكم من القتل والجراح والهزيمة.

وقيل: الجار والمجرور متعلِّقٌ بـ ﴿عفا﴾ عنكم، والمعنى: ولقد عفا عنكم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم، ولا ما أصابكم؛ لأن عفوه يذهب كلَّ هم وحزن، وقيل: المعنى: فأثابكم غمًّا متواصلاً أنساكم الحزن على ما فاتكم، ولا ما أصابكم. وقد روي أنهم لما سمعوا بأن النبيَّ ﷺ قد قتل نسوا ما أصابهم، وما فاتهم. هذا على القول بأنَّ ﴿لا﴾ أصليةٌ. والقول الثاني: أنَّ ﴿لا﴾ زائدة، واللام متعلِّقة بـ﴿أثابكم﴾ أي: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ وأصابكم عقوبة لكم على مخالفتكم قال ابن عباس رضي الله عنهما الذي فاتهم الغنيمة، والذي أصابهم القتل والهزيمة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: عالم بجميع أعمالكم، ومقاصدكم والدواعي التي حملتكم عليها قادرٌ على مجازاتكم عليها إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ، وفي هذه الجملة ترغيبٌ في الطاعة وترهيبٌ عن الإقدام على المعصية.

وخصَّ[2] العمل بالذكر، وإن كان تعالى خبيراً بجميع الأحوال من الأعمال والأقوال والنيَّات تنبيهاً على أعمالهم من تولية الأدبار والمبالغة في الفرار، وهي أعمال تخشى عاقبتها وعقابها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾ الله سبحانه وتعالى وأرسل ﴿عَلَيۡكُم﴾ يا معشر المسلمين ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ﴾ الذي أصابكم بسبب الجراح والقتل والهزيمة ﴿أَمَنَةٗ﴾؛ أي: أمناً من

---

(١) البيضاوي. (٢) البحر المحيط.

العدو، وطمأنينةً في القلب وقوله: ﴿نُّعَاسًا﴾ بدلٌ من ﴿أمنة﴾ بدل كل من كل؛ أي: ثم وهبكم من بعد الغم الذي اعتراكم أمناً أزال عنكم الخوف الذي كان بكم، حتى نعستم، وغلبكم النوم لتستردوا ما فقدتم من القوة بما أصابكم من القرح، وما عرض لكم من الضعف. والنوم نعمةٌ كبرى لمن يصاب بمثل تلك المصائب، وعنايةٌ من الله يخص بها بعض عباده في مثل تلك المحن، ليخفف وقعها على النفوس. ومعنى الآية: امتنان الله عليهم بأمنهم بعد الخوف والغم بحيث صاروا من الأمن ينامون، وذلك أن شديد الخوف والغم لا يكاد ينام. قرأ الجمهور ﴿أَمَنَةً﴾ بفتح الميم على أنه بمعنى الأمن، أو جمع آمنٍ كبارٍ وبررة. وقرأ النخعيُّ، وابن محيصن ﴿أمنةً﴾ بسكون الميم بمعنى الأمن ﴿يَغْشَىٰ﴾؛ أي: يغطي، ويأخذ ذلك النعاس ﴿طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ﴾؛ أي: جماعة منكم أيها المسلمون، قال ابن عباس: هم المهاجرون وعامَّةُ الأنصار، الذين كانوا على بصيرةٍ في إيمانهم. قرأ الجمهور ﴿يَغْشَىٰ﴾ بالياء إسناداً إلى ضمير النعاس، أي: يغشى هو، وقرأ حمزة، والكسائيُّ تغشى بالتاء إسناداً إلى ضمير، أمنة؛ أي: تغشى هي.

روى البخاري عن أنس عن أبي طلحة رضي الله عنهما قال: كنت فيمن يغشاهم النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه ويسقط فآخذه.

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾؛ أي: وجماعةٌ من المنافقين كعبد الله بن أبيٍّ، ومعتِّب بن قشير، وأصحابهما ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾؛ أي: قد أوقعتهم نجاة أنفسهم وخلاصها في الهموم فلا ينامون، لأن أسباب الخوف، وهي قصد العدو كانت حاصلةً لهم، والدافع لذلك، وهو الوثوق بوعد الله ورسوله غير معتبر عندهم؛ لأنهم كانوا مكذبين بالرسول في قلوبهم، فلذلك عظم الخوف في قلوبهم.

وخلاصة هذا: أنَّ المسلمين بعد انتهاء الموقعة صاروا فريقين:

الأول: فريقٌ ذكروا ما أصابهم، فعرفوا أنه كان بتقصير من بعضهم، وذكروا وعد الله بنصرهم فاستغفروا لذنوبهم، ووثقوا بوعد ربهم، وأيقنوا أنهم إن

غلبوا هذه المرة بسبب ما أصابهم من الفشل والتنازع وعصيان الرسول، فإن الله سينصرهم بعد، فأنزل الله عليهم النعاس أمنةً حتى يستردوا ما فقدوا من قوة، ويذهب عنهم ما عرض لهم من ضعف.

والثاني منهما: فريقٌ أذهلهم الخوف حتى صاروا مشغولين عن كل ما سواهم؛ إذ الوثوق بوعد الله، ووعد رسوله لم يصل إلى قرارة نفوسهم؛ لأنهم كانوا مكذِّبين بالرسول في قلوبهم، لا جرم عظم الخوف لديهم، وحقَّ عليهم ما وصفهم الله به من قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾، وهذه الجملة حالٌ من ضمير أهمتهم، أي: أهمتهم أنفسهم حالة كونهم يظنون، ويعتقدون في الله سبحانه وتعالى ظنًّا، سيئاً، فاسداً، وهو عدم نصر الله محمداً ﷺ ﴿غَيْرَ﴾ الظن ﴿ٱلْحَقِّ﴾ أي غير الصدق الذي يجب اعتقاده، وهو نصره محمداً ﷺ وقوله: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدلٌ من غير الحق؛ أي: يظنون في الله ظن أهل الملة الجاهلية؛ إذ كانوا يقولون في أنفسهم: لو كان محمدٌ نبياً حقاً.. ما سلط الله عليه الكفار، وهذا ظن فاسدٌ، وقولٌ باطلٌ لا يقوله إلا أهل الجهل، والشرك بالله تعالى، والله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحدٍ عليه، فإن النبوة خلعةٌ من الله تعالى يشرف بها عبده، وليس يجب في العقل أنَّ الله تعالى إذا شرف عبداً بخلعةٍ أن يشرفه بخلعة أخرى بل له الأمر والنهي، كيف يشاء بحكم الإلهية.

وجملة قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ بدلٌ من ﴿يَظُنُّونَ﴾، والاستفهام فيه للإنكار، ومن زائدة، أي: يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار: هل لنا من النصر، والفتح، والظفر الذي وعدنا به محمدٌ نصيبٌ، يعنون أنه ليس لهم من ذلك شيء، قط لأن الله تعالى لا ينصر محمداً ﷺ.

فهم قد فهموا أنَّ النصر وحقيّة الدِّين متلازمان، فما حدث في ذلك اليوم دليلٌ على أنَّ هذا الدين ليس بحق، وهذا خطأٌ كبيرٌ، فإن نصر الله رسله لا يمنع أن تكون الحرب سجالاً، ولكن العاقبة للمتقين.

ثم أتى بجملةٍ معترضةٍ بين ما قبلها، وما بعدها، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ النصر، والغلبة، والظفر، والقضاء،

والقدر جميعه ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وبيده يصرفه كيف يشاء، ويدبره كيف يريد، فكل أمرٍ يقع في العالم فهو بحسب سننه تعالى في الخليقة، ووفق النظام الذي وضعه أولاً، وربط فيه الأسباب بالمسببات، ومن ذلك نصر من ينصره من المؤمنين كما وعد ذلك في قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾. وهذه معترضةٌ كما مر آنفاً. وقرأ الجمهور[1] ﴿كله﴾ بالنصب تأكيداً للأمر، وقرأ أبو عمرو، ويعقوب ﴿كله﴾ بالرفع على أنه مبتدأ، ويجوز أن يعرب توكيداً للأمر على الموضع على مذهب من يجيز ذلك، وهو الجرميُّ والزجاج والفراء. قال ابن عطية: ورجح الناس قراءة الجمهور، لأن التأكيد أملك بلفظة كلٍّ انتهى. ولا ترجيح إذ كل من القراءتين متواترٌ، والابتداء بكلٍّ كثيرٌ، في لسان العرب، وجملة قوله: ﴿يُخۡفُونَ﴾ حال من ضمير يقولون، أي: يقولون: هل لنا من الأمر شيء حالة كونهم يخفون، ويضمرون ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾، أي: ما لا يستطيعون إعلانه، وإظهاره لك، فهم يظهرون أنهم يسألون مسترشدين طالبين النصر بقولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ ويبطنون الإنكار والتكذيب. وجملة قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً لما يخفون واقعاً في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ما الذي يخفونه؛ فأجاب بقوله: يقول هؤلاء المنافقون في أنفسهم أو بعضهم لبعضٍ ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ والتدبير والرأي والاختيار ﴿شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾؛ أي: ما قتل من قتل منا في هذه المعركة، وما غلبنا، يعنون أنهم أخرجوا كرهاً، ولو كان الأمر بيدهم ما خرجوا، أو المعنى يقولون: لو كان أمر النصر والظفر بأيدينا، كما ادَّعى محمد أنَّ الأمر كلَّه لله، ولأوليائه، وأنهم الغالبون لما غلبنا، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة. وهذا منهم تقريرٌ لرأيهم، واستدلالٌ عليه بما وقع لهم، وقد غفلوا عن أنَّ الآجال محدودةٌ، والأعمار موقوتة بوقت لا تعدوه، ومن ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يجيبهم ويرد عليهم بقوله: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ﴾ ومكثتم ﴿فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ ومنازلكم ولم تخرجوا من المدينة إلى أحدٍ للقتال كما تقولون ﴿لَبَرَزَ﴾

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٨٨.

وظهر وخرج من بينكم ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ في اللوح المحفوظ، وانتهت آجالهم، وثبت في علم الله أنهم يقتلون بسببٍ من الأسباب الداعية إلى البروز والخروج ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ وأماكنهم التي ماتوا فيها عند أحد ومصارعهم ومساقطهم ومقاتلهم التي قدر الله تعالى أنهم يقتلون فيها فتكون لهم مصارع ومضاجع وقتلوا هناك ألبتةَ، ولم تنفع العزيمة على الإقامة بالمدينة قطعاً، فإن قضاء الله لا يرد وحكمه لا يعقب.

والخلاصة: [(١)] أنَّ الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير، فالذين قدر عليهم القتل لا بد أن يقتلوا على كل حال، وإلا انقلب علم الله جهلاً، وذلك محال فقتل من قتل إنما جاء لانتهاء آجالهم، كما قدر ذلك في اللوح المحفوظ، وكتب مع ذلك أنهم هم الغالبون، وأن العاقبة لهم، وأن دين الإسلام سيظهر على الدين كلِّه. وقرأ الجمهور ﴿برز﴾ بالفتح والتخفيف ويقرأ بالتشديد على ما لم يسم فاعله؛ أي: أخرجوا بأمر الله تعالى ذكره أبو البقاء. وقوله: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ معطوف على علةٍ محذوفةٍ لمعلول محذوف تقديره: فرض الله عليكم القتال، ولم ينصركم يوم أحد وفعل بكم فيه ما فعل لحكمةٍ باهرة، ومصالح جمةٍ، وليبتلى الله سبحانه وتعالى، ويختبر ما في صدوركم من الإخلاص، والنفاق، ويظهر ما فيها من السرائر والاعتقادات، ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ الله سبحانه وتعالى ويصفي ويطهر ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ من وساوس الشيطان، والشك والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه في إلقاء الأَمَنَةِ وصرف العدو عنكم.

وخلاصة الكلام هنا: فعل الله سبحانه وتعالى بكم ما أصابكم يوم أحد من القتل والجراح ليكون القتل عاقبة من انتهت آجالهم، وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص وعدمه، فيظهر ما انطوت عليه من ضعف وقوة، ويمحص ما في قلوبهم من الوساوس، ويطهرها حتى تصل إلى الغاية القصوى من الإيقان، وفي المثل المشهور: «لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين». ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ﴾

---

(١) المراغي ج ٢ ص ١٠٥.

سبحانه وتعالى ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: عالم بالسرائر والضمائر الخفية التي لا تكاد تفارق الصدور، بل تلازمها وتصاحبها، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وفي هذا ترغيبٌ، وترهيبٌ، وتنبيهٌ، إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن الابتلاء، والامتحان، وإنما يظهر ذلك على هذه الصورة لحكم يعلمها كتمرين المؤمنين على الصبر، وتحمل المشاق وإظهار حال المنافقين؛ لأنَّ الحقائق قد تخفى على أربابها، فينخدعون للشعور العارض بدون تمحيص، ولا ابتلاء كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقوه كما تقدم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾ وأدبروا، وهربوا، وانهزموا، ﴿مِنكُمۡ﴾ أيّها المسلمون ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى﴾ والتحم، وتقاتل ﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾؛ أي: جمع المسلمين، وجمع الكفار، وهو يوم أحد فهو خطاب لمن كان مع النبي ﷺ من المؤمنين يوم أحد بأحدٍ، وكان قد انهزم أكثر المسلمين، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا ثلاثة عشر رجلاً، وقيل: أربعة عشر من المهاجرين سبعةٌ ومن الأنصار سبعةٌ، فمن المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم والباقون من الأنصار، وهم سبعة: الحباب بن المنذر، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصَّمَّةِ، وسهل بن حنيف، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ.

﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ أي: إنما أوقعهم الشيطان في الزلل والخطيئة، بإلقاء الوسوسة في قلوبهم، لا أنه أمرهم بها ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾؛ أي: بسبب بعض ما كسبوا، وعملوا من الذنوب، والعصيان، وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ بترك المركز والحرص على الغنيمة.

وخلاصة الكلام[1]: أنَّ الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ أن يثبتوا في أماكنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين ما تركوا هذه المراكز إلا بإيقاع الشيطان لهم في الزلل، واستجراره لهم بالوسوسة؛ فإن الخطيئة الصغيرة إذا

---

(١) المراغي ج ٢ ص ١٠٦.

ترخص فيها الإنسان سهلت استيلاء الشيطان على نفسه، فهم قد انحرفوا عن أماكنهم بتأولٍ؛ إذ ظنوا أنه ليس للمشركين رجعةٌ من هزيمتهم؛ فلا يترتب على ذهابهم وراء الغنيمة فوات منفعة، ولا وقوعٌ في ضرر، ولكن هذا التأوُّل كان سبباً في كل ما جرى من المصائب التي من أجلها ما أصاب الرسول ﷺ والذنب يجر إلى الذنب، كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة، وعلى هذا فالزلل الذي أوقعهم فيه الشيطان هو ما كان من الهزيمة والفشل بعد توليهم عن مكانهم طمعاً في الغنيمة، وهذا التولي هو بعض ما كسبوا.

وفي هذا إيماءٌ إلى سنة من سنن الله تعالى في أخلاق البشر، وأعمالهم وهي أن المصائب التي تعرض لهم في خاصة أنفسهم أو في شؤونهم العامة إنما هي آثارٌ طبيعية لبعض أعمالهم، ولكن الله قد يعفو عن بعض الأعمال التي لا أثر لها في النفس، وليست ملكةً ولا عادةً لها، بل صدرت هفوة غير متكررة، وهي التي عناها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾.

فهذه المصائب والعقوبات سواء: أكانت في الدنيا أم في الآخرة آثارٌ طبيعيةٌ للأعمال السيئة، ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد عفا الله سبحانه وتعالى، وسامح، وتجاوز عن تولي هؤلاء المتولين المنهزمين، وعقوبتهم عليه لتوبتهم واعتذارهم.

والمعنى: أنَّ ما صدر منهم من الذنوب في هذا اليوم، يستحق أن يعاقبوا عليه في الدنيا والآخرة، ولكن عفا الله عن عقوبتهم الأخروية، وجعل عقوبتهم في الدنيا تربية وتمحيصاً، وفي هذا دفعٌ لاستيلاء اليأس على نفوسهم، وتحسين لظنونهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب يغفر الذنوب جميعاً صغيرها وكبيرها بعد التوبة والإعتذار ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل عقوبة من عصاه، وهذه الجملة كالعلة للعفو عن هؤلاء المتولِّين، وقد كانوا أكثر المقاتلين، فإنه لم يبق مع النبي ﷺ يومئذٍ إلا ثلاثة عشر أو أربعة عشر كما مر. وقد بالغ بعض المنهزمين في الفرار حتى إنَّ بعضهم لم يرجعوا إلى رسول الله ﷺ إلاّ بعد ثلاثة أيام،

وبعضهم رجع في ذلك اليوم، واجتمعوا على الجبل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا بين فيما سبق لعباده المؤمنين أن الهزيمة التي حلَّت بهم يوم أحد، كانت بوسواسٍ من الشيطان استزلهم به، فزلوا، حذرهم هنا من مثل هذه الوسوسة التي أفسد بها الشيطان قلوب الكافرين، فقال: يا أيها الذين آمنوا، وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ لا تكونوا كالمنافقين الذين كفروا في نفس الأمر، كعبد الله بن أبي وأصحابه، وقالوا في شأن إخوانهم وأصدقائهم في النفاق ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾ وسافروا ﴿فِى﴾ نواحي ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للتجارة، والكسب فماتوا ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾؛ أي: غزاةً في وطنهم، أو في بلاد أخرى فقتلوا ﴿لَّوْ كَانُواْ﴾ مقيمين ﴿عِندَنَا﴾ في المدينة ﴿مَا مَاتُواْ﴾ في سفرهم، ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾ في غزواتهم لما تقدم من قول المنافقين[1] ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وأخبر الله عنهم أنهم قالوا ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾، وكان قولاً باطلاً، واعتقاداً فاسداً نهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مثلهم في هذه المقالة الفاسدة، والاعتقاد السيء، وهو أن من سافر في تجارة ونحوها، فمات، أو قاتل، فقتل، لو قعد في بيته لعاش، ولم يمت في ذلك الوقت الذي عرض نفسه للسفر فيه أو للقتال، وهو معتقدُ الكفار والمنافقين.

والمراد[2] بالأخوة هنا: أخوة النسب؛ إذ كان قتلى أحدٍ من الأنصار، وأكثرهم من الخزرج، ولم يقتل من المهاجرين إلا أربعةٌ، وقيل: خمسةٌ، ويكون القائلون منافقي الأنصار جمعهم أب قريبٌ أو بعيدٌ، أو المراد أخوة المعتقد، والنفاق كما مر.

وقرأ الجمهور ﴿غُزًّى﴾ بتشديد الزاي، وقرأ الحسن والزهري بتخفيف الزاي، ووجه على حذف أحد المضعفين تخفياً، وعلى حذف التاء، والمراد غزاةً.

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٩٢.

(٢) البحر ج ٣ ص ٩٢.

وقرأ الجمهور ﴿وَمَا قُتِلُوا۟﴾ بتخفيف التاء، وقرأ الحسن بتشديدها للتكثير في المحال، لا بالنسبة إلى محل واحد؛ لأنه لا يمكن التكثير فيه.

واللام في قوله: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ لام كي، متعلِّقة بمعلول محذوف دلَّ عليه السياق تقديره: أوقع الله ذلك القول، والمعتقد في قلوبهم ليجعل الله ذلك؛ أي: ظنهم أن إخوانهم لو لم يسافروا، ولم يحضروا القتال لعاشوا ﴿حَسْرَةً﴾ وندامةً ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾، وحزناً وغماً، وتأسفاً على فوات إخوانهم، والحسرة: الندامة على فوت المحبوب. والمعنى: لا تكونوا كالذين كفروا، وقالوا فيمن ماتوا، أو قتلوا ما قالوا؛ أي: لا تقولوا، ولا تعتقدوا، مقتضى هذا القول المذكور، فالمقصود النَّهْيُ عن هذا القول، واعتقاد مضمونه، فإنكم إذا كنتم مثلهم في ذلك يصيبكم من الحسرة مثل ما يصيبهم، وتضعفون عن القتال كما يضعفون، فلا يكون لكم ميزةٌ عنهم بالعقل الراجح الذي يهدي صاحبه إلى أنَّ الذي وقع كان لا بد أن يقع، فلا يتحسَّر عليه، ولا بالإيمان الصادق الذي يزيد صاحبه إيقاناً وتسليماً بكل ما يجري به القضاء.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ لقولهم: إن القتال يقطع الآجال، فالأمر بيده سبحانه وتعالى، فهو المؤثر وحده في الحياة والموت بمقتضى سننه في أسبابهما، وليس للإقامة والسفر مدخل فيهما؛ فإنَّ الله تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع تعرضهما لأسباب الهلاك، ويميت المقيم والقاعد، وإن كان تحت ظلال النعيم. وقد أثر عن خالد بن الوليد أنه قال، عند موته: ما فيَّ موضع شبرٍ إلاَّ وفيه ضربة سيفٍ أو طعنة رمح، وها أنا ذا أموت كما يموت العير ـ الحمارُ ـ فلا نامت أعين الجبناء.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر ﴿بَصِيرٌ﴾؛ أي: مطلع عليه، فلا يخفى عليه شيءٌ مما تكنون في أنفسكم من المعتقدات التي لها أثرٌ في أقوالكم، وأفعالكم، فيجازيكم عليه، فاجعلوا نفوسكم طاهرةً من وساوس الشيطان حتى لا يصدر منها ما يصدر من الكفار.

وفي هذا تهديدٌ للمؤمنين حتى لا يماثلوا الكفار في أقوالهم، وأفعالهم،

وهذا على قراءة التاء في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خطاباً للمؤمنين، وهي قراءة غير ابن كثير، وحمزة، والكسائي.

والمعنى: فلا تكونوا أيها المؤمنون مثل المنافقين في قولهم المذكور؛ لأنَّ مقصدهم تنفير المؤمنين عن الجهاد بقولهم؛ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فإن الله تعالى هو المحيي والمميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد، ومن قدر له الموت لم يبق، وإن أقام ببيته عند أهله، فلا تقولوا أنتم أيها المؤمنون لمن يريد الخروج إلى الجهاد: لا تخرج فتقتل، فلأن يموت في الجهاد فيستوجب الثواب، خيرٌ له من أن يموت في بيته بلا فائدة. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي ﴿يعملون﴾ بالياء على الغيبة على أنه وعيدٌ للمنافقين؛ أي: مطلعٌ على عملهم فيجازيهم عليه.

ثم بشر سبحانه وتعالى من قتل، أو مات في سبيل الله بحسن المآل، فقال: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن قتلتم أيها المؤمنون ﴿فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في الجهاد ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ في سفركم للغزو مع الكفار، أو في بيوتكم، وكنتم مخلصين من النفاق. قرأ نافع، وحمزة، والكسائي بكسر الميم من مات يمات كخاف يخاف، وقرأ الباقون بضم الميم من مات يموت كقال يقول، والضم أقيس وأشهر، والكسر مستعملٌ كثيراً. ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ لذنوبكم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ منه لكم ﴿خير مما تجمعون﴾ بالتاء خطاباً للمؤمنين؛ أي: مما تجمعونه، أنتم، لو لم تموتوا من الأموال التي تعد خيرات، وهذه قراءة الجمهور. وقرأ حفصٌ عن عاصم ﴿يَجْمَعُونَ﴾ بياء الغيبة؛ أي: خير مما يجمعه هؤلاء الكفرة من منافع الدنيا، وطيباتها مدة أعمارهم.

أي: إن مغفرة الله ورحمته لمن يموت أو يقتل في سبيل الله، خير لكم من جميع ما يتمتع به الكفار من المال، والمتاع، في هذه الدار الفانية، فإن هذا ظلٌّ زائلٌ، وذاك نعيم خالد.

والخلاصة: أن ما ينتظره المؤمن المقاتل في سبيل الله من المغفرة التي تمحو ما كان من ذنوبه، والرحمة التي ترفع درجاته، خيرٌ له مما يجمع هؤلاء

الحريصون على الحياة الذين يتمتعون باللذات والشهوات.

فما أجدّ المؤمنين أن يؤثروا مغفرة الله ورحمته على الحظوظ الفانية، وأن لا يتحسروا على من يقتل منهم، أو يموت في سبيل الله، فإن ما يلقونه بعدهما خيرٌ لهم مما كانوا فيه قبلهما، ثم حثهم على العمل في سبيل الله تعالى، لأن المآل إليه فقال.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ﴾ في حضرٍ أو سفر، ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في الجهاد أو غيره ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ معبودكم الذي توجهتم إليه وبذلتم مهجتكم لوجهه الرحيم الواسع الرحمة والمغفرة المثيب العظيم الثواب لا إلى غيره، لا محالة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وتجمعون أيها المؤمنون في الحالين، فيوفى جزاءكم، ويعظم ثوابكم، فجميع العالمين يوقفون في عرصة القيامة، وبساط العدل، فيجتمع المظلوم مع الظالم، والمقتول مع القاتل والله تعالى يحكم بين عباده بالعدل.

والمعنى: أنكم بأيّ سببٍ كان هلاككم فإنكم إلى الله تحشرون، لا إلى غيره، فيجازي كلاً منكم بما يستحق من الجزاء، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، ولا يرجى من غيره ثوابٌ، ولا يتوقع منه دفع عقاب، فآثروا ما يقربكم إليه، ويجلب لكم رضاه من العمل بطاعته، وعليكم بالجهاد في سبيله، ولا تركنوا إلى الدنيا ولذاتها، فإنها فانيةٌ، وتلك الحياة الأخرى باقيةٌ، خالدة، فقوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إشارة: إلى من يعبده خوفاً من عقابه، وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ إشارةٌ إلى من يعبده لطلب ثوابه، وقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ إشارة: إلى من يعبده لمجرد الربوبية، والعبودية، وهذا أعلى المقامات، وأبعد النهايات في العبودية، في علو الدرجة، فهؤلاء الذين بذلوا أنفسهم وأبدانهم في طاعة الله، ومجاهدة عدوه يكون حشرهم إليه واستئناسهم بكرمه، وتمتعهم بشروق نور ربوبيته.

قال بعضهم:

لَيْسَ قَصْدِيْ مِنَ ٱلْجِنَانِ نَعِيْمَا   غَيْرَ أَنِّيْ أُرِيْدُهَا لأَرَاكَا

فائدة: وهنا ثلاثة مواضع ذكر الموت فيها، قدَّم الموت في الأول: منها: على القتل، وهو قوله: ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ لمناسبة ما قبله من قوله: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ فرجع الموت لمن ضرب في الأرض، والقتل لمن غزا، وقدم القتل على الموت في الثاني منها، وهو قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ لأنه محل تحريض على الجهاد، فقدم الأهم الأشرف، وقدَّم الموت على القتل في الثالث منها، وهو قوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ لأنه الأغلب.

الإعراب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة. و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائدٌ، تعويضاً عمَّا فات ﴿أيُّ﴾ من الإضافة، وجملة النداء مستأنفة. ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول، في محل النصب صفةٌ لـ﴿أيُّ﴾. ﴿آمَنُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم. ﴿تُطِيعُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إِن﴾. ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به. ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ فعل، وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إِن﴾ على كونه جواب الشرط، وجملة الشرط مع جوابه جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾. ﴿فَتَنقَلِبُوا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿تنقلبوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ على كونه جواب الشرط. ﴿خَاسِرِينَ﴾ حالٌ من ضمير الفاعل، أو خبر ﴿انقلب﴾ إن قلنا إنه من أخوات صار.

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)﴾.

﴿بَلِ﴾ حرف إضراب عن محذوف معلوم من السياق، كما مر في بحث التفسير، تقديره: فليسوا أولياء لكم حتى تطيعوهم، بل الله الخ. ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة أو

حالية. ﴿هو﴾ مبتدأ. ﴿خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة الإضراب أو حال من الجلالة.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿سَنُلْقِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿سَنُلْقِى﴾. ﴿كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب. (ما) مصدرية. ﴿أَشْرَكُوا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة صِلةٌ لـ ﴿ما﴾ المصدرية وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب إشراكهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿سَنُلْقِى﴾. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول لـ﴿أشركوا﴾. ﴿لَمْ يُنَزِّلْ﴾ فعل مضارع وجازم، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يُنَزِّلْ﴾ والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿سُلْطَٰنًا ۖ﴾ مفعول به لـ ﴿يُنَزِّلْ﴾. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿مأواهم﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿ٱلنَّارُ ۚ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذم. ﴿مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاعل ومضاف إليه، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً، تقديره: النار، وهو مبتدأٌ خبره جملة ﴿بئس﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ﴾ على كونها مستأنفةٌ، وفي المخصوص بالذم، أوجهٌ كثيرةٌ مذكورة في كتب النحو فراجعها إن شئت.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول. ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ مفعول ثانٍ ومضاف إليه، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم

مستأنفة. وتعدَّت[1] كلمة ﴿صَدَقَ﴾ هنا إلى اثنين، ويجوز أن تتعدى إلى الثاني بحرف جر، تقول: صدقت زيداً الحديث، وصدقت زيداً في الحديث، ذكرها بعض النحويين في باب ما يتعدَّى إلى اثنين، ويجوز أن يتعدّى إلى الثاني بحرف الجر، فيكون من باب استغفر، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى مبني على السكون والظرف متعلق بـ ﴿صدق﴾، ويجوز أن يتعلَّق بـ ﴿وعده﴾ كما ذكره أبو البقاء. ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتحسونهم، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ والتقدير: ولقد صدقكم الله وعده وقت حسكم، وقتلكم إياهم بإذنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية بمعنى إلى. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان خافضة لشرطها منصوبة بجوابها. ﴿فَشِلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب المحذوف الذي سنبينه. ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض معطوفة على جملة ﴿فَشِلْتُمْ﴾. ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تنازعتم﴾. ﴿وَعَصَيْتُم﴾ فعل وفاعل في محل الخفض معطوفة على جملة ﴿فَشِلْتُمْ﴾ أيضاً. ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور، تنازع فيه الأفعال الثلاثة المذكورة قبله. ﴿مَآ﴾ مصدرية. ﴿أَرَىٰكُم﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ورأى هنا بصرية تعدَّت إلى مفعولين بالهمزة. ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ ﴿مَّا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لأرى. ﴿تُحِبُّونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلةٌ لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: من بعد إراءته إياكم ما تحبون، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف تقديره: منعكم النصر، وانهزمتم، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ﴿حتى﴾ بمعنى إلى المتعلِّقة بـ ﴿صدقكم﴾ والتقدير: ولقد صدقكم ﴿وعده﴾ إذ تحسونهم بإذنه،

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٧٨.

واستمر نصركم إلى منعه تعالى إياكم النصر، وانهزامكم وقت فشلكم، وتنازعكم في الأمر، وعصيانكم أمر الرسول ﷺ من بعد إراءته تعالى إياكم ما تحبون من النصر والظفر. وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب لا طائل تحتها، فراجع كتب المفسرين إن شئت.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

﴿مِنكُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر. ﴿يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، والعائد ضمير الفاعل، والجملة من المبتدأ والخبر جملة معترضة، لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَمِنكُم﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿منكم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ ﴿مَّن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ صلة الموصول، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ على كونها معترضة لا محل لها من الإعراب.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿صَرَفَكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنْهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة على جواب ﴿إذا﴾ المقدَّر المذكور سابقاً على كونها جملةً جوابيةً لا محل لها من الإعراب ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يبتلي﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرةً جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿والكاف﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره: لابتلائه إياكم الجار والمجرور متعلقٌ بـ ﴿صَرَفَكُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿عَفَا﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق بعفا، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم

المحذوف مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ خبر، ومضاف إليه. ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور، متعلق بفضل، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان. ﴿تُصْعِدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها، والظرف متعلق بـ ﴿صرفكم﴾، وهو أجود من جهة المعنى، أو بـ ﴿عفا﴾ وهو أحسن بالنظر إلى قربه كما مر في بحث التفسير. ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَلْوُۥنَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُصْعِدُونَ﴾. ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تلوون﴾. ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال ﴿الرسول﴾ مبتدأ. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الرسول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، أو الجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَلْوُۥنَ﴾. ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ العائد إلى ﴿الرسول﴾.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿أثابكم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿غَمًّۢا﴾ مفعول ثان. ﴿بِغَمٍّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أثابكم﴾ و﴿الباء﴾ فيه سببية، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿ثم صرفكم﴾. وقال الزمخشري(١): ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ عطف على ﴿صرفكم﴾ انتهى. وفيه بعد لطول الفصل بين المتعاطفين، والذي يظهر أنه معطوف على ﴿تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ﴾ لأنه مضارع في معنى الماضي، لأنَّ إذ تصرف المضارع إلى الماضي إذ هي ظرفٌ لما مضى، والمعنى إذ صعدتم، ومالويتم على أحد فأثابكم. ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟﴾ ﴿اللام﴾ حرفُ جر وتعليل. ﴿كي﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾ نافية

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٨٤.

أو زائدة. ﴿تَحْـزَنُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿كي﴾. ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَحْـزَنُوا۟﴾. ﴿فَاتَكُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، وجملة ﴿فات﴾ صلةٌ لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾ زائدة. ﴿مَآ﴾ موصولة أو موصوفة في محل الجر معطوفة على ﴿مَآ﴾ الأولى. ﴿أَصَٰبَكُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، وجملة أصاب صلة لـ ﴿مَآ﴾، أو صفة لها، وجملة ﴿تَحْـزَنُوا۟﴾ صلة كي المصدرية، وكي مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المتعلقة بـ ﴿أثابكم﴾ والتقدير: فأثابكم غماً بغمٍ لتمرينكم على تجرع الغموم، وعدم حزنكم فيما بعد على ما فاتكم، ولا ما أصابكم. هذا إن قلنا إنَّ ﴿لا﴾ أصلية نافية، أو المتعلقة بـ ﴿عفا عنكم﴾، إن قلنا إنَّ ﴿لا﴾ زائدة، والتقدير: ولقد عفا عنكم لحزنكم على ما فاتكم، وما أصابكم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿خَبِيرٌۢ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَبِيرٌۢ﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلةٌ لـ ﴿مَآ﴾ أو صفةٌ لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿أَنزَلَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿أثابكم﴾. ﴿عَلَيْكُم﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿أَمَنَةً﴾ مفعول به لـ﴿أنزل﴾. ﴿نُّعَاسًا﴾ بدل منه. ﴿يَغْشَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿نُّعَاسًا﴾ والجملة صفة لـ ﴿نُّعَاسًا﴾. ﴿طَآئِفَةً﴾ مفعول ﴿يَغْشَىٰ﴾. ﴿مِّنكُمْ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿طَآئِفَةً﴾. ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، أو حالية. ﴿طائفةٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾ فعل ومفعول. ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدإ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿يَظُنُّونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور

متعلق بـ ﴿يَظُنُّونَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً. ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ مفعول أول لـ ﴿يَظُنُّونَ﴾، ومضاف إليه. ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ مفعول مطلق، ومضاف إليه.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب بدل من ﴿يظنون﴾ بدل كل من كل. ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ مقول محكي لـ ﴿يَقُولُونَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿هل﴾: حرف للاستفهام الإنكاري. ﴿لَّنَا﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ جار ومجرور حال ﴿مِن شَيْءٍ﴾ المذكور بعده. ﴿مِن شَيْءٍ﴾ ﴿من﴾ زائدة. ﴿شَيْءٍ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُونَ﴾. وفي «الفتوحات» قوله ﴿مِن شَيْءٍ﴾ إما مبتدأ خبره ﴿لَّنَا﴾، أو فاعل بـ ﴿لَّنَا﴾ لاعتماده على الاستفهام و﴿مِنْ﴾ عليهما زائدةٌ، و﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ حال من المبتدأ، لأنه لو تأخر عن شيء.. لكان نعتاً له فيتعلق بمحذوف.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾ وإن شئت قلت ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ اسمها. ﴿كُلَّهُۥ﴾ على قراءة النصب توكيد للأمر، وعلى قراءة الرفع مبتدأ. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور، خبر ﴿إن﴾، أو خبر المبتدأ وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقولٌ لقل.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

﴿يُخْفُونَ﴾، فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُخْفُونَ﴾. ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يُخْفُونَ﴾. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يُبْدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفةٌ لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما لا يبدونه. ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ

﴿يُبْدُونَ﴾.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، بيّن بها ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، وهذا هو الأجود من جعلها بدلاً من ﴿يُخْفُونَ﴾ كما ذكره في «الكشّاف». ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿لَنَا﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾ على اسمها. ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿شيء﴾، لأنه نعت نكرة قُدّم عليها، فيعرب حالاً. ﴿شَىْءٌ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، وجملة كان من اسمها وخبرها فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾ ﴿مَّا﴾ نافية. ﴿قُتِلْنَا﴾ فعل ماض مغير، ونائب فاعله. ﴿هَٰهُنَا﴾ اسم إشارة للمكان القريب في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ ﴿قُتِلْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقولٌ لـ ﴿يَقُولُونَ﴾.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قُل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر ﴿كان﴾ أو متعلق بـ ﴿كان﴾ إن قلنا: إنها تامة، وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَبَرَزَ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿برز الذين﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية من فعل شرطها، وجوابها في محل النصب مقول لـ ﴿قُل﴾. ﴿كُتِبَ﴾ فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِمُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿كُتِبَ﴾. ﴿ٱلْقَتْلُ﴾ نائب فاعل لـ ﴿كُتِبَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير عليهم. ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يبتلي اللّه﴾.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ليبتلى﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يبتلى اللَّه﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول لـ﴿يبتلي﴾. ﴿فِى صُدُورِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلةٍ لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿يبتلي اللَّه﴾ صلة أن المضمرة وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره: ولابتلاء الله ما في صدوركم، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور المتعلق بمعلول محذوف تقديره: فعل الله بكم ما فعل بكم يوم أحد لحكمة باهرةٍ، ولابتلاء الله ما في صدوركم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ليمحص﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يمحّص﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿يمحّص﴾ صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولتمحيص الله ما. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿عَلِيمٌۢ﴾ خبره. ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بعليم، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها. ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ فعل، وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿تَوَلَّوْا۟﴾. ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، بمعنى ما النافية، وإلا المثبتة. ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة. ﴿بِبَعْضِ مَا﴾ جار ومجرور،

ومضاف إليه متعلق بـ ﴿استزل﴾. ﴿كَسَبُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره ببعض ما كسبوه.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول، لـ﴿إنَّ﴾. ﴿حَلِيمٌ﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَا تَكُونُوا۟﴾ ﴿لَا﴾ ناهية. ﴿تَكُونُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية. ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿تَكُونُوا۟﴾، وجملة ﴿تَكُونُوا۟﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَقَالُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قالوا﴾. ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط، ولكنها بمعنى إذْ. ﴿ضَرَبُوا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بـ ﴿قالوا﴾ والتقدير: وقالوا لإخوانهم وقت ضربهم في الأرض. ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ ﴿أَوْ﴾ حرف عطف وتفصيل. ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿غُزًّى﴾ خبره، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ في محل الجر معطوفة على جملة ﴿ضَرَبُوا۟﴾. ﴿لَوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ مقول محكي لـ ﴿قالوا﴾. وإن شئت: قلت ﴿لَوْ﴾

حرف شرط غير جازم. ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿عِندَنَا﴾ ظرف، ومضاف إليه خبر ﴿كَانُوا۟﴾، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿مَا مَاتُوا۟﴾ ﴿مَا﴾ نافية. ﴿مَاتُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَّوْ﴾ من فعل شرطها، وجوابها في محل النصب مقول لـ ﴿قالوا﴾: وجملة قوله: ﴿وَمَا قُتِلُوا۟﴾ معطوفة على جملة ﴿مَا مَاتُوا۟﴾ على كونها جواباً لـ﴿لو﴾.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾.

﴿لِيَجْعَلَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وعاقبة. ﴿يجعل الله﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرةً، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام العاقبة، تقديره: لجعل الله عاقبة ﴿ذلك حسرة في قلوبهم﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿قالوا﴾؛ أي: قالوا ذلك ليجعل عاقبة أمرهم الحسرة، والندامة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفعول أول لجعل؛ لأنه بمعنى صير. ﴿حَسْرَةً﴾ مفعول ثان له. ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يجعل﴾ وهو أبلغ في المعنى، أو صفةٌ لـ ﴿حَسْرَةً﴾ كما في «الفتوحات». ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. وجملة ﴿يُحْىِۦ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. وجملة قوله: ﴿وَيُمِيتُ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُحْىِۦ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ الآتي. ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما تعملونه. ﴿بَصِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ على كونها مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿قُتِلْتُمْ﴾ فعل، ونائب فاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قُتِلْتُمْ﴾. ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ معطوف على ﴿قُتِلْتُمْ﴾. ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء. ﴿مغفرة﴾ مبتدأ. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿مغفرة﴾. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ معطوف على مغفرة. ﴿خَيْرٌ﴾ خبر المبتدأ. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿يَجْمَعُونَ﴾ فعل، وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يجمعونه، والجملة من المبتدإ والخبر جواب القسم لا محل لها من الإعراب. وأما جواب الشرط فمحذوف على القاعدة المشهورة عندهم، كما قال ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وقَسَم جَوَابَ مَا أَخَّرَتْ فَهُوَ مُلْتَزَمُ

وجملة القسم مع جوابه مستأنفة.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿مُّتُّمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ معطوف على ﴿مُّتُّمْ﴾. ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب القسم. ﴿إلى اللَّه﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تُحْشَرُونَ﴾. ﴿تُحْشَرُونَ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم، وجواب الشرط محذوف معلوم من جواب القسم تقديره: تحشرون إلى الله. وجملة القسم مع جوابه معطوفة على جملة القسم الأول.

وقال أبو البقاء(١) قوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿اللام﴾ جواب قسم محذوف، ولدخولها على حرف الجر.. جاز أن يأتي ﴿تُحْشَرُونَ﴾ غير مؤكد بالنون، والأصل: لتحشرن إلى الله.

قال أبو حيان(٢): ولم يؤكد الفعل الواقع جواباً للقسم المحذوف؛ لأنه فصل بين اللام المتلقى بها القسم وبينه بالجار والمجرور، ولو تأخَّر.. لكان لتحشرن إليه. قال أبو عليٍّ: الأصل دخول نون التوكيد فرقاً بين لام اليمين،

---

(١) العكبري.   (٢) البحر المحيط.

ولام الابتداء. ولام الابتداء لا تدخل على الفضلات، فبدخول لام اليمين على الفضلة؛ ؛ وقع الفصل، فلم يحتج إلى النون، وبدخولها على سوف كقوله: ﴿فلسوف تعلمون﴾ وقع الفرق فلم يحتج إلى النون؛ لأن لام الابتداء لا تدخل على الفعل، إلا إذا كان حالاً أما إذا كان مستقبلاً.. فلا.

وإنما قُدِّمَ الجار والمجرور اهتماماً باسم الله تعالى، ولرعاية الفاصلة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الرُّعب بضمتين، وبإسكان الثاني شدة الخوف التي تملأ القلب، وفي «المصباح». رعبت رعباً من باب: تفع خفت، ويتعدى بنفسه، وبالهمزة أيضاً يقال: رعبته فهو مرعوب، وأرعبته، والاسم الرعب بالضم، وبضم العين للإتباع، ورعبت الإناء إذا ملأته، ورعبت الحوض ملأته، وسيلٌ راعبٌ؛ أي: ملأ الوادي.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ السلطان[1]: الحجة والبرهان، ومنه قيل للوالي: سلطان، وقيل: اشتقاق السلطان من السليط، وهو ما يضيء به السراج من دهن السمسم، وقيل: السليط: الحديد، والسلاطة: الحدة، والسلاطة من التسليط، وهو القهر والسلطان من ذلك، فالنون زائدةٌ، والسليطة المرأة الصخابة، والسليط الرجل الفصيح اللسان.

﴿مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ المثوى: مفعلٌ من ثوى يثوي ثوياً إذا أقام، يكون للمصدر، والزمان، والمكان، والثواء الإقامة بالمكان الثابتة، أما المأوى: فهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان كما مر في بحث التفسير.

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ الحسُّ: القتل الذريع يقال: حسَّه يحسه من باب: رد حسًّا، إذا قتله قتلاً ذريعاً قال الشاعر:

حَسَسْنَاهُمْ بِٱلسَّيْفِ حَسّاً فَأَصْبَحَتْ   بَـقِـيَّـتُـهُـمْ قَـدْ شُـرِّدُوْا وَتَـبَـدَّدُوْا

---

(١) البحر المحيط.

وجراد محسوسٌ قتله البرد، وسنةٌ حسوس إذا أتت على كل شيء. وفي «المختار» ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تستأصلونهم قتلاً، وبابه: ردَّ، فكأن القاتل أبطل حسه بالقتل، كما يقال: بطنه إذا أصاب بطنه، ورأسه إذا أصاب رأسه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ في «المصباح» فشل فشلاً، فهو فشلٌ من باب: تعب وهو الجبان الضعيف القلب.

﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ التنازع الإختلاف، وهو من النزع وهو الجذب يقال: نزع ينزع إذا جذب، وهو متعدٍّ إلى واحد؛ ونازع متعدٍ إلى اثنين وتنازع متعدٍ إلى واحد. قال الشاعر:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ بضم أوله على قراءة الجمهور من أصعد الرباعيّ، يقال: أصعدنا من مكة إلى المدينة، أي: ذهبنا، وبفتحه على قراءة غيرهم من صعد في الجبل إذا رقىٰ. وقال المفضل: صعد وأصعد بمعنى واحدٍ.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾؛ أي: لا تلتفتون إلى أحد من شدة الهرب، يقال: فلانٌ لا يلوي على شيء؛ أي: لا يعطف عليه، ولا يبالي به، وأصل تلوون تلويون استثقلت الحركة على الياء ثم حذفت، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الياء، ثم ضمت واو عين الكلمة لمناسبة واو الضمير فصار تلوون.

﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ يقال: فات الشيء، أعجز إدراكه، وهو متعد، ومصدره فوتٌ وهو قياس فعل المتعدِّي.

﴿نُّعَاسًا﴾ النعاس[1]: النوم الخفيف، يقال: نعس ينعس من باب فتح، ونصر نعاساً، فهو ناعسٌ، ولا يقال: نعسان. وقال الفراء: قد سمعتها، ولكني لا أشتهيها، ويقال: نعس الرجل نعساً إذا أخذته فترةٌ في حواسه، فقارب النوم، فهو ناعسٌ.

﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ جمع مضجع، والمضجع: المكان الذي يتكأ فيه للنوم،

---

(١) البحر المحيط.

ومنه: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ والمضاجع المصارع، وهي أماكن القتل، سميت بذلك لضجعة المقتول فيها.

﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ جمع[1] غاز، على حدِّ قوله:

وفُـعَّـلٌ لِـفَـاعِـلٍ وفَـاعِـلَـهْ وَصْـفَـيْـنِ نَـحْـوُ عَـاذِلٍ وعَـاذِلَـهْ
ومِـثْـلُـهُ الـفُـعَّـالُ فِـيْـمَـا ذُكِـرَا وَذَانِ فِـيْ الـمُـعَـلِّ لامَـاً نَـدَرَا

وهو منصوبٌ بفتحة مقدرة على الألف المنقلبة عن الواو، وحذفت لالتقاء الساكنين، وأصله غزو تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، ثم حذفت لما ذكر. وفي «السمين» والجمهور على ﴿غزاً﴾ بالتشديد جمع غازٍ، وقياسه: غزاةٌ كـ: رامٍ، ورماةٍ، وقاضٍ وقضاةٍ، ولكنهم حملوا المعتل على الصحيح في نحو ضاربٍ، وضُرَّب، وصائمٍ، وصُوَّم. وقرأ الحسن ﴿غُزاً﴾ بالتخفيف، وفيه وجهان **أحدهما**: أنه خفَّف الزاي كراهية التثقيل في الجمع، **والثاني**: أن أصله غزاةٌ كقضاةٍ ورماة، ولكنه حذف تاء التأنيث؛ لأنَّ نفس الصيغة دالَّةٌ على الجمع، فالتاء مستغنى عنها.

﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ بضم الميم من مات يموت من باب قال يقول، وأصل مات: موت تحركت الواو، وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فصار مات. وأصل يموت يموت نقلت حركة الواو إلى الساكن قبلها فصار يموت. وأما بكسرها فمن: مات يمات كخاف يخاف، أصله في الماضي موت كخوف، تحركت الواو، وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فصار مات فهو من باب علم وأصله في المضارع يموت بوزن يعلم نقلت فتحة الواو إلى الساكن قبلها، ثم قلبت ألفاً، فصار يمات مثل يخاف، فيقال في الماضي، عند إسناده لتاء الضمير: متم كما يقال: خفتم، وأصله موتم بوزن علمتم، نقلت كسرة الواو إلى الميم بعد سلب حركتها، ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين.

وأما ﴿مُتُّم﴾ بالضم؛ فلأنَّ فَعَلَ بفتح العين من ذوات الواو، فقياسه إذا

---

(١) الفتوحات.

أسند إلى تاء المتكلم، وأخواتها: أن تضم فاؤه، إما من أوَّل وهلة، وإما أن تبدل الفتحة ضمةً، ثم تنقلها إلى الفاء على اختلافٍ بين الصرفيين.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة:

منها: الطّباق في لفظ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾، و﴿كَفَـرُواْ﴾، وكذلك بين ﴿يخفون﴾ و﴿يبدون﴾، وبين ﴿فاتكم﴾ و ﴿أصابكم﴾، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾، شبه الرجوع عن الدين بالراجع القهقرى؛ والذي حبط عمله بالكفر بالخاسر الذي ضاع ربحه، ورأس ماله، وبالمنقلب الذي يروح في طريق، ويغدو في أخرى، وفي قوله: ﴿سَنُلْقِى﴾، وقيل هذا كله استعارة.

ومنها: الالتفات[1] إلى التكلم في قوله: ﴿سَنُلْقِى﴾ من الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ وذلك للتنبيه على عظم ما يلقيه تعالى، وقرأ أيوب السختيانيُّ سيلقي بالغيبة جرياً على الأصل، وقدم المجرور على المفعول به اهتماماً بذكر المحل قبل ذكر الحال، والإلقاء هنا مجازٌ؛ لأنَّ أصله في الأجرام فاستعير هنا.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ حيث لم يقل، وبئس مثواهم بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ، وللإشعار بأنهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه.

ومنها: التفخيم في قوله: ﴿ذُو فَضْـلٍ﴾ حيث نكره.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتشريف، وللإشعار بعلة الحكم حيث لم يقل عليكم.

ومنها: الإبهام[2] في قوله: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ فمن قال: هو

---

(١) الفتوحات. (٢) البحر المحيط.

الرسول أبهمه تعظيماً لشأنه؛ ولأن التصريح فيه هضمٌ لقدره.

ومنها: التجنيس المماثل في ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

ومنها: التفسير بعد الإبهام في قوله: ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ﴾.

ومنها: الاحتجاج النظريُّ في قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾، وهو أن يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضروب من المعقول نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ﴾ وبعضهم يسميه المذهب الكلامي، ومنه قول الشاعر:

جَرَى الْقَضَاءُ بِمَا فِيهِ فَإِنْ تَلُمِ فَلاَ مَلاَمَ عَلَى مَا خُطَّ بِالْقَلَمِ

ومنها: الاعتراض في ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

ومنها: الاختصاص في ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وفي ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً﴾.

ومنها: الاستعارة في ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ تشبيهاً[1] للمسافر في البرِّ بالسابح الضارب في البحر؛ لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقًّا لها، واستعانةً على قطعها.

ومنها: التكرار في ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ وما بعدهما

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تلخيص البيان ص ٢٢.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ
وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن
يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ
قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ
ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟
لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى
قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ
أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لمَّا أرشد[1] الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين في الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم في معاشهم، ومعادهم، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم.. زاد في الفضل والإحسان إليهم، في هذه الآيات بأن مدح الرسول ﷺ على عفوه عنهم، وتركه التغليظ عليهم، وقد نزلت هذه الآيات عقب وقعة أحد، التي خالف فيها النبيَّ ﷺ بعض أصحابه، وكان من جراء ذلك ما كان من الفشل، وظهور المشركين عليهم، حتى أصيب النبيُّ ﷺ مع من أصيب، فصبر، وتجلَّدَ، ولان في معاملة أصحابه، وخاطبهم بالرِّفْقِ، ولم

(١) المراغي.

يعاتبهم اقتداء بكتاب الله تعالى؛ إذ أنزل في هذه الواقعة آيات كثيرةً بيَّن فيها ما كان من ضعف بعض المسلمين، وعصيانهم، وتقصيرهم حتى ذكر الظنون والهواجس النفسية، لكن مع العتب المقترن بذكر العفو والوعد بالنصر وإعلاء الكلمة.

والآيات تتحدَّث عن أخلاق النبوَّةِ، وعن المِنَّةِ العظمى ببعثةِ الرسولِ الرحيم، والقائد الحكيم، وعن بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ...﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها[1]: من حيث إنها تضمَّنت حكماً من أحكام الغنائم في الجهاد، وهو من المعاصي المتوعَّد عليها بالنار، كما جاء في قصة مُدْعِمٍ[2] فحذَّرهم عن ذلك.

قوله تعالى:[3] ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمَّا ذكر الفريقين فريق الرضوان، وفريق السخط، وأنهم درجاتٌ عند الله مجملا من غير تفصيل، فصل أحوالهم. وبدأ بالمؤمنين وذكر ما امتن عليهم به من بعث الرسول إليهم تالياً لآيات الله، ومبيِّناً لهم طريق الهدى، ومطهِّراً لهم من أرجاس الشرك، ومنقذاً لهم من غمرة الضلالة بعد أن كانوا فيها، وسلاَّهم عمَّا أصابهم يوم أحد من الخِذلان، والقتل، والجراح، لما أنالهم يوم بدر من الظفر والغنيمة، ثم فصَّل حالَ المنافقين الذين هم أهل السخط بما نصَّ عليه تعالى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ...﴾ الآية، أخرج[4] أبو داود والترمذي وحسَّنه، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في قطيفةٍ حمراء، فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس لعلَّ رسولَ الله ﷺ أخذها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن

(١) البحر المحيط.
(٢) مدعم: اسم عبد للنبي ﷺ وهبه له رجل من بني جذام يدعى رفاعة بن زيد كما سيأتي بيانه في أحاديث الغلول. اهـ مؤلفه.
(٣) البحر المحيط.
(٤) لباب النقول.

يَغُلَّ...﴾ إلى آخر الآية.

وأخرج[1] الطبراني في الكبير بسندٍ رجاله ثقات، عن ابن عباس قال: بعث رسولُ الله ﷺ جيشاً، فردت، رايته ثم بعث، فردت، ثم بعث فردت بغلول رأس غزال من ذهب، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ...﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما رواه الإمام أحمد رحمه الله /ج ١ ص ٣٠/) عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، قال: نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاث مئة ونيف، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبيُّ ﷺ القبلة، ثم مد يديه، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام.. فلا تعبد في الأرض أبداً، قال: فما زال يستغيث ربَّه عز وجل، ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبيَّ الله، كفاك مناشدتك ربَّك، فإنه سينجز لك ما وعدك، وأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فلما كان يومئذٍ، والتقوا، فهزم الله عز وجل المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، فاستشار رسولُ الله ﷺ أبا بكرٍ وعلياً، وعمر رضي الله عنهم فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله: هؤلاء بنو العم، والعشيرة، والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوةً لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؛ قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنّي أرى أن تمكنني من فلان قريباً لعمر، فأضرب عنقه، وتمكِّن عليًّا رضي الله عنه عن عقيل، فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادَّةٌ للمشركين،

---

(١) لباب النقول. (٢) مسند أحمد.

هؤلاء صناديدهم، وأئمتهم، وقادتهم، فهوى رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فلما أن كان من الغد، قال عمر رضي الله عنه: غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعدٌ، وأبو بكر رضي الله عنه: وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، فإن لم أجد تباكيت لبكائكما، قال: فقال النبي ﷺ: الذي عرض عليَّ أصحابك من الفداء، لقد عُرِضَ عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة، لشجرةٍ قريبةٍ، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ثم أحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ وكسرت رباعيته، هشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ بأخذ الفداء».

الحديث رجاله رجال الصحيح، وقد عزاه ابن كثير، والسيوطي لابن أبي حاتم مختصراً، وإنما سقته بتمامه لما فيه من العبر.

التفسير وأوجه القراءة

والباء في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ سببيةٌ، وما زائدة؛ أي: فسبب رحمةٍ عظيمةٍ من الله، لنت وسهلت[1] لهم أخلاقك، وكثرت احتمالك إياهم، ولم تسرع إليهم بتعنيف على ما وقع منهم يوم أحد. ومعنى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: هو توفيق الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ للرفق، والتلطُّف بهم، وأنَّ الله تعالى ألقى في قلب نبيه ﷺ داعية الرحمة، واللطف حتى فعل ذلك معهم.

وقال[2] أبو حيان: متعلّق الرحمة المؤمنون، فالمعنى فبرحمة من الله عليهم، لِنْتَ لهم، فتكون الرحمة امْتَنَّ بها عليهم؛ أي: سهلت أخلاقك، ولان

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط ج ٣ ص ٩٧.

جانبك لهم بعد ما خالفوا أمرك، وعصوك في هذه الواقعة، وذلك برحمة الله إياهم. وقيل: متعلق الرحمة المخاطب ﷺ؛ أي: برحمة الله إياك، جعلك لين الجانب، موطأ الأكناف، فرحمتهم، ولنت لهم، ولم تؤاخذهم بالعصيان، والفرار وإفرادك للأعداء، ويكون ذلك امتناناً على رسول الله ﷺ.

والخلاصة: أنه قد كان من أصحابك ما يستحق الملامة والتعنيف بمقتضى الطبيعة البشرية؛ إذ صدروا عنك حين اشتداد الأهوال، وشمروا للهزيمة، والحرب قائمة على قدم وساق، ومع ذلك لنت لهم، وعاملتهم بالحسنى بسبب الرحمة التي أنزلها الله على قلبك، وخصك بها؛ إذ أمدَّك بآداب القرآن العالية، وحكمه السامية حتى هانت عليك المصائب، وعلمتك مالها من المنافع، وحسن العواقب، وقد مدح الله نبيَّه ﷺ بحسن الخلق في مواضع من كتابه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾، وقال ﷺ: «لا حِلْمَ أحبَّ إلى الله تعالى من حِلْمِ إمامٍ ورِفْقِهِ، ولا جَهْلَ أَبْغَضَ إلى الله من جَهْلِ إمامٍ وخُرْقِهِ».

﴿وَلَوْ كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فَظًّا﴾؛ أي: سيىء اللِّسان بذيّه ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾، أي: جافيه، وقاسيه ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾؛ أي: ولو لم تكن كذلك، وكنت فظًّا غليظاً ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾؛ أي: لتفرقوا من عندك، ونفروا عنك، ولم يسكنوا إليك حتى لا يبقى أحدٌ منهم عندك، ولا يتم أمرك من هدايتهم وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، إذا انفضوا من عندك. وذاك أنَّ المقصود من بعثة الرسل تبليغهم شرائع الله إلى الخلق، ولا يتم ذلك إلاّ إذا مالت قلوبهم إليهم، وسكنت نفوسهم لديهم، وذلك إنما يكون إذا كان الرسول رحيما كريماً، يتجاوز عن ذنب المسيء، ويعفو عن زلاته، ويخصه بوجوه البر، والمكرمة، والشفقة.

﴿فَٱعْفُ﴾ يا محمد ﴿عَنْهُمْ﴾ وسامح لهم ما وقع منهم يوم أحد فيما يختصُّ بك، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ أي: واطلب المغفرة لهم من الله سبحانه وتعالى فيما يختص بحقوق الله تعالى إتماماً للشفقة عليهم، وإكمالاً للبر لهم، ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ يا

محمد ﴿فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ الذي يرد[1] عليك، أي أمر كان مما يشاور في مثله، أو في أمر الحرب خاصَّةً، كما يفيده السِّياقُ، لما في ذلك من تطييب خواطرهم، واستجلاب مودَّتهم، فإن المشاورة تقتضي شدَّة محبتهم له ﷺ؛ لأنها تدل على رفعة درجتهم، فترك المشاورة معهم أهانة لهم، وروي أنه ﷺ قال: «ما شاور قومٌ قطُّ إلا هدوا لأرشد أمورهم» وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيت أحداً أكثر مشاورةً من أصحاب النبي ﷺ ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لا يأنف منه أحدٌ بعدك، وقرأ ابن عباس ﴿في بعض الأمر﴾.

فائدة: وللمشاورة فوائد جمة[2]:

منها: أنها تبين مقادير العقول والأفهام، ومقدار الحب والإخلاص للمصالح العامة.

ومنها: أن عقول الناس متفاوتة وأفكارهم مختلفةٌ، فربما ظهر لبعضهم من صالح الآراء ما لا يظهر لغيره، وإن كان عظيماً.

ومنها[3]: أن الآراء فيها تقلب على وجوهها، ويختار الرأي الصائب من بينها.

ومنها: أنه يظهر فيها اجتماع القلوب على إنجاح المسعى الواحد، واتفاق القلوب على ذلك مما يعين على حصول المطلوب، ومن ثم شرعت الاجتماعات في الصلوات، وكانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة.

ومنها: أنه قد يعزم الإنسان على أمرٍ فيشاور فيه، فيتبين له الصواب في غيره، فيعلم بذلك عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي ج ٢ ص ١١٤.

(٣) النسفي.

ومنها: أنه إذا لم ينجح أمره.. علم أن امتناع النجاح محض قدرٍ، فلم يلم نفسه. وقال بعضهم: يجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا، ومشاورة وجه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها. وحكى القرطبيُّ عن ابن عطية: أنه لا خلاف في عزل من لا يستشير بأهل العلم، والدِّين. ذكره الشوكاني. وقال بعضهم في مدح المشاورة:

وَشَاوِرْ إِذَا شَاوَرْتَ كُلَّ مُهَذَّبٍ لَبِيبٍ أَخِيْ حَزْمٍ لِتَرْشَدَ فِيْ ٱلأَمْرِ
وَلاَ تَكُ مِمَّنْ يَسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ فَتَعْجَزَ أَوْ لاَ تَسْتَرِيْحَ مِنَ ٱلْفِكْرِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ قَالَ لِعَبْدِهِ وَشَاوِرْهُمْ فِيْ ٱلأَمْرِ حَتْماً بِلاَ نُكْرِ

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ وجزمت، وصممت نفسك بعد المشاورة على شيء من أمورك، وقصدت إمضاءه ﴿فَتَوَكَّلْ﴾، واعتمد ﴿عَلَى﴾ معونة ﴿اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى واستعن به في إمضائه لا على المشاورة، والمقصود: أن لا يكون للعبد اعتمادٌ على شيء إلا على الله تعالى، في جميع أموره، فالمشورة لا تنافي التوكل، فإنه ليس التوكل هو إهمال التدبير بالكلية، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل، بل التوكل هو: أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول بقلبه على عصمة الله ومعونته فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ﴾، ويثيب ﴿الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ والمعتمدين عليه في جميع أمورهم الواثقين به، فينصرهم، ويرشدهم إلى ما فيه خيرٌ لهم وصلاحٌ. فالتوكل: هو الاعتماد على الله، والتفويض في الأمور إليه. وقال ذو النون: التوكل: خلع الأرباب، وقطع الأسباب، والصحيح: أن التوكل إنما يكون مع الأخذ في الأسباب، وبدونها يكون دعوى التوكل جهلاً بالشرع، وفساداً في العقل.

وقرأ الجمهور[1] ﴿عزمْت﴾ على الخطاب كالذي قبله، وقرأ عكرمة، وجابر بن زيد، وأبو نهيك، وجعفر الصادق، ﴿عَزَمْتُ﴾ بضم التاء على أنها

---

(١) البحر المحيط.

ضميرٌ لله تعالى، والمعنى: فإذا عزمت لك على شيء؛ أي: أرشدتك إليه، وجعلتك تقصده، فتوكل على الله، ويكون قوله: على الله من باب الالتفات؛ إذ لو جرى على نسق ضم التاء.. لقال فتوكل عليَّ. ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إن يعطكم الله النصر ويعنكم بنصره، ويمنعكم من عدوكم كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ﴾ وقاهر لكم من الناس؛ أي: فلا أحد يغلبكم، وإنما يدرك نصر الله من تبرأ من حوله وقوته، واعتصم بربه، وقدرته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويترك نصركم، ووكلكم إلى أنفسكم، لمخالفتكم أمره وأمر رسوله ﷺ كما فعل بكم يوم أحد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾؛ أي: فمن الذي ينصركم ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد خذلانه إياكم؛ أي: فلا أحد يملك لكم نصراً، ويدفع عنكم الخذلان فالذي وقع لكم من النصر كما في يوم بدر، أو من الخذلان كما في يوم أحد بمشيئته سبحانه وتعالى، فالأمر كلُّه لله بيده العزَّة، والنصرة، والإذلال، والخذلان. وقرأ الجمهور ﴿يَخْذُلْكُمْ﴾ من خذل الثلاثي، وقرأ عبيد بن عمير ﴿يَخْذِلْكُم﴾ من أخذل الرباعي، والهمزة فيه للجعل؛ أي: يجعلكم مخذولين. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ القاهر الغالب سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليخصوه بالتوكل؛ لأنه لا ناصر لهم سواه.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، فقام آخر، فقال: يا نبيَّ الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة». رواه الشيخان وأحمد.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لو أنكم تتوكَّلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً». أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ قرأ ابن عباس، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم

بفتح الياء، وضم الغين؛ أي: وما[1] كان لنبيٍّ أن يخون؛ أي: ما جاز له أن يخون أمته في شيء من الغنائم؛ لأن النبوة، والخيانة لا يجتمعان؛ لأنَّ منصب النبوة أعظم المناصب، وأشرفها وأعلاها، فلا تليق به الخيانة؛ لأنها في نهاية الدناءة والخسة، والجمع بين الضدين محال، فثبت بذلك أن النبي ﷺ لم يخن أمته في شيء، لا من الغنائم، ولا من الوحي. وقيل: المراد به: الأمة؛ لأنه قد ثبت براءة ساحة النبي ﷺ من الغلول، والخيانة، فدلَّ ذلك على أن المراد بالغلول غيره. وقيل: اللام فيه منقولة معناه ما كان النبيُّ ليغل على نفي الغلول عن الأنبياء. وقيل: معناه ما كان لنبي الغلول يعني ما غل نبيٌّ قط، فنفى عن الأنبياء الغلول. وقيل: معناه، وما كان يحل لنبي الغلول، وإذا لم يحل له... لم يفعله. وحجة هذه القراءة أنهم نسبوا النبي ﷺ إلى الغلول في بعض الروايات، فبين الله تعالى بهذه الآية، أنَّ هذه الخصلة، لا تليق به، ونفى عنه ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

وقرأ ابن مسعود، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، ويعقوب ﴿يغل﴾ بضم الياء وفتح الغين بالبناء للمفعول، ولها معنيان:

أحدهما: أن يكون من الغلول أيضاً، ومعناه: وما كان لنبي أن يخان؛ أي: ما جاز له أن تخونه أمته، لأن الوحي يأتيه حالا فحالاً، فمن خانه.. فربما نزل الوحي فيه، فيحصل له مع عذاب الآخرة فضيحة الدنيا؛ ولأن الخيانة في حقه ﷺ أفحش؛ لأنه أفضل البشر، ولأن المسلمين في ذلك كانوا في غاية الفقر.

والثاني: أن يكون من الإغلال، ومعناه: وما كان لنبي أن يخون؛ أي: ينسب إلى الخيانة والغلول، أو ما صحَّ له أن يوجد غالاً.

ومعنى الكلام: أيْ ما كان[2] من شأن، أي نبيٍّ، ولا من سيرته أن يغلَّ؛ لأنَّ الله تعالى عصم أنبياءه منه، فهو لا يليق بمقامهم، ولا يقع منهم؛ لأن النبوة أعلى المناصب الإنسانية، فصاحبها لا يرغب فيما فيه دناءةٌ، وخسةٌ. ﴿وَمَن

(١) الخازن.
(٢) المراغي.

﴿يَغْلُلْ﴾؛ أي: ومن يأخذ من الغنيمة خفية، وخيانة ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾؛ أي: يجيء بالذي غله وأخذه من الغنيمة بعينه يحمله على عنقه ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فضيحةً له على رؤوس الأشهاد، وزيادة له في تعذيبه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾؛ أي: ثم بعد جمع الخلائق في عرصات القيامة، والحال أن الغال فيهم حاملاً بما غل على عنقه، تعطي، وتوفر وتجازى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ غالةٍ وغيرها جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ واقترفت من خير أو شر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أن الخلائق لا يظلمون في جزاء أعمالهم بنقص ثواب عنهم، أو زيادة عقاب عليهم.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في الغلول ووعيد الغال

والغلول: لغة: أخذ الشيء خفية، والخيانة فيه. وشرعاً: الخيانة في الغنيمة، وبهذا وردت الأحاديث.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره حتى قال: «لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاء يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرسٌ له حمحمةٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفسٌ لها صياحٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاعٌ تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامتٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك». متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

الرغاء: صوت البعير، والثغاء. صوت الشاة، والرقاع: الثياب، والصامت: الذهب والفضة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر،

ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهباً، ولا ورقاً غنمنا المتاع، والطعام، والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي، يعني وادي القرى، ومع رسول الله ﷺ عبدٌ له وهبه رجلٌ من جذام يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب، فلما نزلنا الوادي، قام عبدُ رسول الله ﷺ يحل رحله، فرمي بسهم فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئاً له، شملته الشهادة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: كلا، والذي نفس محمد بيده، إن الشملة لتلتهب عليه ناراً، أخذها من الغنائم يوم خيبر، لم تصبها المقاسم قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك، أو شراكين، فقال: أصبتها يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ شراكٌ من نارٍ، أو شراكان من نار». متفق عليه.

وفي رواية نحوه، وفيه «ومعه عبدٌ يقال له: مدعمٌ أهداه له أحد بني الضبيب، وفيه إذ جاءه سهمٌ عائر.

والشراك: سير النعل الذي يكون على ظهر القدم، ومثله شسع النعل، والسهم العائر، هو: السهم الذي لا يدرى من رماه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كان على ثِقَل رسول الله ﷺ رجل، يقال له: كركرة، فمات، فقال رسول الله ﷺ، «هو في النار» فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءة قد غلَّها». رواه البخاري.

وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ توفِّي، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم، فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: إن صاحبكم غل في سبيل الله»، ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز اليهود، لا يساوي درهمين. أخرجه أبو داود، والنسائي.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ غَلَّ فأحرقوا متاعه، واضربوه». أخرجه أبو داود، والترمذي.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ، وأبا بكر، وعمر أحرقوا متاع الغال، وضربوه. زاد في رواية، ومنعوه سهمه. أخرجه أبو داود.

وقد أردف الله سبحانه وتعالى توفية ما كسبته كل نفس بالتفصيل الآتي ليبين

أن جزاء المطيعين ليس كجزاء المسيئين، فقال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أفمن اتبع كتاب الله ورسوله، وسعى في تحصيل رضا الله سبحانه وتعالى بفعل الطاعات، وترك الغلول، وغيره من الفواحش والمنكرات ﴿كَمَنۢ﴾ غلَّ و ﴿بَآءَ﴾ ورجع ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بغضب شديد كائن من الله سبحانه وتعالى ﴿و﴾ كمن كان ﴿مأواه﴾ ومسكنه، ومنزله ﴿جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وقبح وساء المرجع مرجعه. والاستفهام هنا: إنكاري، أي: ليس جزاء من اتقى، وسعى في تحصيل مرضات الله تعالى بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، وترك الغلول كجزاء من غل، وارتكب الفواحش والمحرمات، وانتهى أمره إلى سخط الله تعالى، وعظيم غضبه، وكان مأواه الذي يأوي إليه جهنم، ولا مرجع له غيره؛ لأن مأوى الأول الجنة، ومأوى هذا: النار، فيا بوناً بائناً بين المنزلين.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

﴿هُمْ﴾، أي: الفريقان المذكوران ﴿دَرَجَٰتٌ﴾؛ أي: أصحاب درجات وطبقات، أي: إنَّ كلا ممن اتبع رضوان الله، ومن باء بسخط من الله أصحاب طبقات ومراتب مختلفة عند الله، ومنازل متفاوتة في حكمه، وبحسب علمه بشؤونهم، وبما يستحقون من الجزاء، فهم مختلفون في درجات الثواب، والعقاب في حكم الله وعلمه باختلاف مراتب الطاعات والمعاصي.

والخلاصة: أنَّ الناس يتفاوتون في الجزاء عند الله كما يتفاوتون في الفضائل، والمعرفة في الدنيا، وما يترتب على ذلك من الأعمال الحسنة، أو السيئة، وهذا التفاوت على مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضاً من الرفيق الأعلى الذي طلبه النبيُّ ﷺ في مرض موته إلى الدرك الأسفل.

وقرأ الجمهور ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ بالجمع، فهي مطابقة للفظ هم، وقرأ النخعي ﴿درجةٌ﴾ بالإفراد. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عالم بأعمالهم، ودرجاتها، فمجازيهم على حسبها.

وبعد أن نفى الغلول والخيانة عن النبي ﷺ على أبلغ وجه، أكد ذلك بهذه الآية ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد منَّ الله سبحانه وتعالى وأنعم ﴿على المؤمنين﴾، وأحسن إليهم، وتفضَّل عليهم نعمة عظيمة التي هي بعثة محمد ﷺ إليهم، ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ وأرسل إليهم ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وجنسهم عربياً مثلهم، ولد ببلدهم، ونشأ بينهم يفهمون كلامه بسهولة، ويعرفون حاله بالصدق، والأمانة من أول العمر إلى آخره، ولو كان من غير جنسهم بأن كان ملكاً أو جنًّا لم يتأنسوا به، ولو كان من غير نسبهم بأن كان أعجمياً لم يفهموا كلامه بسهولة.

وهو صار شرفاً للعرب، وفخراً لهم، وذلك لأن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركاً فيه اليهود، والنصارى، والعرب، ثم إن اليهود يفتخرون بموسى، والتوراة، والنصارى يفتخرون بعيسى، والإنجيل، فما كان للعرب ما يقابل ذلك، فلما بعث الله محمداً ﷺ؛ وأنزل القرآن صار شرف العرب بذلك زائداً على شرف الجميع، فهذا وجه الفائدة في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وخص المؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بمبعثه ﷺ بالإيمان بما جاء به. وقرىء شاذاً[(١)] ﴿لِمَنْ مَنِّ الله على المؤمنين﴾ بمن الجارة، و﴿منّ﴾ مجرورٌ بها بدل ﴿قد من﴾ والمعنى لمن من الله على المؤمنين منه، أو بعثه إذ بعث فيهم، فحذف المبتدأ لدلالة السياق عليه. وقرأ الجمهور ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ بضم الفاء، جمع نفس، وقرأت فاطمة، وعائشة، والضحاك، وأبو الجوزاء ﴿مِنْ أَنْفَسِهِم﴾ بفتح الفاء من النفاسة، والشيء النفيس. وروي عن أنس رضي الله عنه أنه سمعها كذلك، من رسول الله ﷺ. وروى عليٌّ عنه عليه السلام «أنا من أنفسكم نسباً، وحسباً، وصهراً، ولا في أبائي من آدم إلى يوم ولدت سفاحٌ، كلها نكاح والحمد لله».

وقال ابن عباس: ما خلق الله نفساً هي أكرم على الله من محمد رسوله ﷺ وما أقسم بحياة أحد غيره، فقال: ﴿لعمرك﴾.

والخلاصة: أن هذا الرسول ولد في بلدهم، ونشأ بين ظهرانيهم، ولم يروا

---

(١) البحر المحيط.

منه طول حياته، إلا الصدق، والأمانة، والدعوة إلى الله، والإعراض عن الدنيا، فكيف يظن بمن هذه حاله خيانةٌ وغلولٌ، وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بأوصافٍ كل منها يقتضي عظيم المنة وجسيم النعمة:

الأول: أنه من أنفسهم؛ أي: إنه عربي من جنسهم، وبذا يكونون أسرع الناس إلى فهم دعوته، والاهتداء بهديه، وأقرب إلى الثقة به من غيرهم.

والثاني: أنه ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: يقرأ عليهم كتابه، وقرآنه الذي أنزل عليه بعد أن كانوا أهل جاهلية، لم يطرق أسماعهم شيءٌ من الوحي السماوي.

والثالث: أنه ﴿يزكيهم﴾ ويطهرهم من العقائد الزائغة، ووساوس الوثنية، وأدرانها إذ أن العرب وغيرهم قبل الإسلام كانوا فوضى في أخلاقهم، وعقائدهم، وآدابهم، فكان محمد ﷺ يقتلع منهم جذور الوثنية، ويدفع عنهم العقائد الباطلة كاعتقادهم أن وراء الأسباب الطبيعية التي ارتبطت بها المسببات منافع ترجى ومضار تخشى من بعض المخلوقات، فيجب تعظيمها، والالتجاء إليها دفعاً لشرها، وجلباً لخيرها، وتقرباً إلى خالقها، ولا شك أن من يعتقد مثل هذا يكون أسير الأوهام، وعبيد الخرافات يخاف في موضع الأمن، ويرجو حيث يجب الحذر والخوف.

والرابع: أنه ﴿يعلمهم الكتاب﴾؛ أي: يعلمهم معاني القرآن وتفسيره ﴿و﴾ يعلمهم ﴿الحكمة﴾؛ أي: السنة، والحديث، فتعليم الكتاب[1] اضطرَّهم إلى تعلم الكتابة، وأخرجهم من الأمية إلى نور العلم، والعرفان، فقد طلب إليهم كتابة القرآن، واتخذ كتبة للوحي وكتب كتباً دعا بها الملوك، والرؤساء إلى الإسلام، في سائر الأقطار، المعروفة، فانتشرت الكتابة بينهم، وعظمت مدينتهم، وامتدت سلطتهم، فملكوا الأمم التي كان لها السلطان، والصولة، والنفوذ في تلك الحقبة.

وكذلك علمهم الحكمة وأرشدهم إلى البصر بفهم الأشياء، ومعرفة أسرارها وفقه أحكامها، وبيان ما فيها من المصالح، والحكم، وهداهم إلى طريق

---

(١) المراغي.

الاستدلال، ومعرفة براهينها، فكان ذلك من أكبر البواعث على العمل بها، والتمسك بأهدابها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

والخلاصة: أن تعليم الكتاب إشارةً إلى معرفة ظواهر الشريعة، وتعليم الحكمة إشارة إلى فهم أسرارها، وعللها، وبيان منافعها.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: والحال أنهم كانوا من قبل بعثة محمد ﷺ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾، وغيٍّ وجهل ﴿مُّبِينٍ﴾: أي: بين واضحٍ بعيدٍ عن الحق، ولا ضلال أظهر من ضلال قوم يشركون بالله، ويعبدون الأصنام ويسيرون وراء الأوهام، وهم على ذلك أميون، لا يقرؤون، ولا يكتبون حتى يعرفوا حقيقة ما هم فيه من الضلال. وإنما جعلها منة لكونها وردت بعد محنةٍ، فكان موقعها أعظم إذ أن بعثة الرسول جاءت بعد جهلٍ، وبُعدٍ عن الحق، فكانت أعم نفعاً وأتم وقعاً.

وهذا على كون إن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف، واللام فارقةٌ بين المخففة، والنافية، وهو مذهب سيبويه. وقال الكوفيون: إنها النافية، واللام بمعنى إلا، والمعنى(١): وما كانوا من قبل مجيء محمد، ونزول القرآن، إلاّ في ضلال بيّن، وذلك لأنَّ دين العرب قبل ذلك كان أرذل الأديان، وهو عبادة الأوثان، وأخلاقهم أرذل الأخلاق، وهو الغارة والنهب، والقتل، وأكل الأطعمة الرديئة، ثم لما بعث الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ إليهم انتقلوا ببركته من تلك الدرجة التي هي أخس الدرجات إلى أحسنها، وصاروا أفضل الأمم في العلم، والزهد والعبادة، وعدم الالتفات إلى الدنيا، وطيباتها، ولا شك أن هذا أعظم المنة.

وبعد أن حكى الله سبحانه وتعالى عن المنافقين أنهم نسبوا إلى النبي ﷺ الغلول، والخيانة، ثم برأه منه وبين ما بعث لأجله عاد هنا إلى كشف الشبهات التي عرضت للغزاة قبل الواقعة وبعدها، وبين خطأهم، وضلالهم في أقوالهم، وأفعالهم فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ الهمزة فيه:

---

(١) المراح.

للاستفهام الإنكاري، داخلةٌ على محذوف، والواو عاطفة لـ﴿قلتم﴾ الآتي على ذلك المحذوف ولما حينية متعلقة بـ ﴿قُلْتُمْ﴾، وجملة ﴿أَصَٰبَتْكُم﴾ مضاف إليه، لـ ﴿لَمَّآ﴾ كما سيأتي لك في بحث الإعراب.

والمعنى: أنسيتم فضل الله عليكم، ونصره لكم يوم بدر، وقلتم متعجِّبين حين أصابتكم مصيبةٌ يوم أحد قد أصبتم مثليها، وضعفها يوم بدر من المشركين، أنّى هذا؟ أي: أقلتم متعجبين كيف حصل لنا هذا الخذلان من القتل والهزيمة، ونحن مسلمون، ورسول الله ﷺ فينا، ونحن ننصر دين الإسلام الحقَّ، وهم ينصرون دين الشرك الباطل فكيف صاروا منصورين علينا، ونحن أحقُّ بالنصر!.

والمراد بالمصيبة: ما أصاب المسلمين يوم أحد من ظهور المشركين عليهم، وقتل سبعين منهم. والمراد بمثليها ما أصاب به المسلمون من المشركين يوم بدر بقتل سبعين منهم، وأسر سبعين.

أي: لا ينبغي لكم أن تعجبوا مما حل بكم في هذه الواقعة؛ فإن خذلانكم فيها لم يبلغ مبلغ ظفركم في بدر، فقد كان نصركم في تلك الواقعة ضعف انتصار المشركين في هذه.

فلماذا نسيتم فضل الله عليكم في بدر، فلم تذكروه، وأخذتم تعجبون مما أصابكم في أحد، وتسألون عن سببه.

وفائدة قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ التنبيه على أن أمور الدنيا لا تدوم على نهج واحدٍ، فأنتم هزمتموهم مرتين، فكيف تستبعدون أن يهزموكم مرة واحدة.

وقد أجاب الله سبحانه وتعالى عن شبهة تعجبهم بجوابين: أحدهما: قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾، والثاني قوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هُوَ﴾؛ أي: إنَّ هذا الخذلان الذي وقع بكم يوم أحد، وتعجبتم منه، وسألتم عن سببه، ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: إنما وقع بشؤم معصيتكم، ومخالفة أنفسكم أمر الرسول ﷺ؛ لأنكم عصيتم الرسول في أمور كثيرة:

منها: أن الرسول ﷺ قال: المصلحة في البقاء في المدينة، فلا نخرج إلى أحد فأبيتم إلا الخروج، وكان الرأي ما رآه الرسول، حتى إذا ما دخلها

المشركون قاتلوهم على أفواه الأزقة، والشوارع، وترميهم النساء، والصبيان بالأحجار من سطوح المنازل.

ومنها: أنكم فشلتم وضعفتم في الرأي.

ومنها: أنكم تنازعتم، وحصلت بينكم مهاترة[1] كلاميةٌ.

ومنها: أنكم عصيتم الرسول ﷺ وفارقتم المكان الذي أمركم بالوقوف فيه، لحماية ظهوركم بنضح عدوكم بالنبل إذا أرادوا أن يكونوا من ورائكم، ولا شك أن العقوبات آثارٌ لازمةٌ للأعمال، والله إنما وعدكم النصر بشرط ترك المعصية، كما قال: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده (قدير)؛ أي: قادرٌ، فإنه قادر على نصركم، لو ثبتم وصبرتم كما هو قادرٌ على التخلية بينكم وبين عدوكم إذا خالفتم، وعصيتم، وهو سبحانه وتعالى قد ربط الأسباب بالمسببات، ولا يشذ عن ذلك مؤمنٌ، ولا كافرٌ، فوجود الرسول بينكم وأنتم قد خالفتم سنن الله في البشر، لا يحميكم مما تقتضيه هذه السنن. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾؛ أي: وكل ما أصابكم، ونالكم أيها المؤمنون من القتل والجراحة والهزيمة ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾؛ أي: يوم تقابل وتقاتل فيه جمع المسلمين، وجمع المشركين، وهو يوم أحد ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فهو واقعٌ بكم بإذن الله، وإرادته، وقضائه، السابق بجعل المسببات نتائج لأسبابها، فكل عسكر يخطىء الرأي، ويعصى قائده، ويخلي بين العدو وظهره، يصاب بمثل ما أصبتم به، أو بما هو أشد، وأنكى منه، وفي ذلك تسليةٌ للمؤمنين بما حصل لهم يوم أحد من القتل والهزيمة، ولا تقع التسلية إلا إذا علموا أن ذلك واقعاً بقضاء الله تعالى، وقدره، وحينئذٍ يرضون بما قضى الله عليهم.

وقوله ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف[2] على قوله ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عطف مسببٍ على سببٍ. وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ عطفٌ على ما قبله قيل: أعاد الفعل

---

(١) فتح القدير. (٢) المراغي.

لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند إليهم، وإلى المنافقين واحداً.
والمعنى؛ أي: وما أصابكم يوم التقى الجمعان فكائنٌ بإذن الله تعالى، وإرادته، وكائن ليظهر الله صبر الذين آمنوا، وصبروا، وثبتوا، ولم يتزلزلوا، وقوة إيمانهم، وليظهر نفاق الذين نافقوا كعبد الله بن أبيٍّ، وأصحابه الذين انخذلوا يوم أحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا، كانوا نحواً من ثلاث مئة رجل ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: قال لهم بعض المسلمين قيل: هو عبد الله بن عمرو بن حرام، والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ﴿تَعَالَوْا﴾ معنا إلى أحد، و﴿قَاتِلُوا﴾ معنا المشركين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾؛ أي: أو قاتلوا المشركين دفعاً عن أنفسكم، وأهليكم، وأموالكم، وبلدكم إن لم تكونوا مؤمنين؛ أي: كونوا إمَّا من المجاهدين في سبيل الله، أو من الدَّافعين عن الأنفس والأموال والبلاد.

والخلاصة: قاتلوا ابتغاء مرضاة الله وإقامة دينه أو قاتلوا للدنيا ودافعوا عن أنفسكم وأهليكم ووطنكم لكنهم راوغوا وقعدوا وتكاسلوا.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال المنافقون للمؤمنين ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾؛ أي: لو نعرف قتالاً، ونحسنه ونقدر عليه ﴿لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾؛ أي: لذهبنا معكم إلى أحد، وقاتلنا معكم، ولكنا لا نقدر على ذلك، ولا نحسنه. وقيل: معناه لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتالٍ، ولكنه إلقاءٌ بالنفس إلى التهلكة لعدم القدرة منا ومنكم، على دفع ما ورد من الجيش بالبروز إليهم، والخروج من المدينة. وقيل: المعنى لو نعلم أنكم تلقون قتالاً في خروجكم.. ما أسلمناكم، بل كنا نتبعكم، لكنا نرى أن الأمر سينتهي بدون قتال، ولا شك أن هذا الجواب منهم يدل على كمال النفاق، وأنه ما كان غرضهم منه إلا التلبيس والاستهزاء إذ ذهاب المشركين وهم مدججون بسلاحهم إلى أحد من أقوى الأمارات على أنهم يريدون قتالاً ﴿هُمْ﴾؛ أي: هؤلاء المنافقون ﴿لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾؛ أي: هم يوم إذ قالوا فيه ما قالوا، وانخذلوا فيه عن المؤمنين أقرب للكفر من قربهم إلى الإيمان عند من كان يظن أنهم مسلمون؛ لأنهم قد بينوا حالهم وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك، فإنهم كانوا

قبل هذه الواقعة يظهرون الإيمان من أنفسهم، وما ظهرت منهم أمارةٌ تدل على كفرهم، فلما رجعوا عن عسكر المسلمين تباعدوا بذلك عن أن يظن بهم كونهم مؤمنين، وأيضاً: قولهم ذلك يدل على كفرهم؛ لأنه إما على السخرية بالمسلمين، وإما على عدم الوثوق بقول النبي ﷺ وكل واحد منهما كفرٌ. وقيل[1]: المعنى: أنهم لأهل الكفر يومئذٍ أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ جملةٌ مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدمها؛ أي: يظهرون بألسنتهم الإيمان الذي ليس في قلوبهم، بل الذي في قلوبهم الكفر، والنفاق، هذه صفة المنافقين لا صفة المؤمنين؛ لأن صفة المؤمن المخلص مواطأة القلب اللسان على شيء واحد، وهو التوحيد. وقال ابن عطية: ذكر الأفواه للتأكيد مثل قوله: يطير بجناحيه.

والمعنى: أنهم أظهروا أمرين ليس في قلوبهم واحدٌ منهما:

أحدهما: عدم العلم بالقتال.

والآخر: الاتباع على تقدير العلم به، وقد كذبوا فيهما، فإنهم عالمون بالقتال غير ناوين للاتباع، بل كانوا مصرين على الانخذال عازمين على الارتداد.

ثم أكد كفرهم ونفاقهم، وبين اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد، فقال: ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾؛ أي يعلم ﴿بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من تفاصيل الأحوال ما لا يعلمه غيره من الكفر، والكيد للمسلمين، وتربص الدوائر بهم، فهو في كل حين يبين مخبآت أسرارهم، ويكشف أستارهم ثم يعاقبهم على ذلك في الدنيا والآخرة.

والخلاصة: أنه لا ينفعهم النفاق، فالله أعلم بما تكنه سرائرهم، وقلوبهم. وبعد أن ذكر قولاً قالوه قبل القتال، وبين بطلانه، أردفه قولاً قالوه بعده، وبين فساده وقال: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾؛ أي: هم الذين قالوا لأجل إخوانهم الذين قتلوا في هذه الواقعة، يعني من قتل يوم أحد من أقاربهم المؤمنين، أو من

---

(١) الشوكاني.

أمثالهم المنافقين ﴿وَقَعَدُواْ﴾؛ أي: والحال أن المنافقين القائلين قد قعدوا وجلسوا عن الخروج للقتال مع النبي ﷺ ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾؛ أي: لو أطاع المقتولون إيانا فيما أمرناهم به من القعود، ووافقونا في ذلك، ولم يخرجوا للقتال كما لم نخرج ﴿مَا قُتِلُواْ﴾؛ أي: لما قتلوا يومئذٍ كما أنا لم نقتل.

وقرأ الحسن وهشام: ﴿قُتِّلوا﴾ بتشديد التاء، وفي هذا إيماءٌ إلى أنهم أمروهم بالانخذال، حين انخذلوا.

أخرج ابن جرير عن السدي قال: خرج رسول الله ﷺ في ألف رجلٍ وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أبي في ثلاث مئة، فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم، فقالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، ولئن أطعتنا لترجعن معنا فنعى الله عليهم ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ الآية.

وقد دحض الله تعالى حجتهم، وأبان لهم كذبهم، ووبخهم على ما قالوا، فقال لنبيه ردًّا عليهم. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين القائلين ذلك ﴿فَٱدْرَءُواْ﴾؛ أي: فادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أن القعود ينجي من الموت.

يعني أن[1] صدور هذا القول الجازم منكم يدل على أنكم قد أحطتم علماً بأسباب الموت في هذه الواقعة، وإذا جاز فيها جاز في غيرها، وحينئذٍ يمكنكم درء الموت ودفعه عن أنفسكم، فادفعوا عنها إن كنتم صادقين.

والخلاصة: أنكم إن كنتم صادقين في أن الحذر يغني عن القدر، وأن سلامتكم كانت بسبب قعودكم عن القتال لا بغيره من أسباب النجاة، فادفعوا سائر صنوف الموت عن أنفسكم، فإنه أحرى بكم.

والمعنى[2]: أن القعود غير مغنٍ عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرةٌ، وكما أن القتال يكون سبباً للهلاك، والقعود يكون سبباً للنجاة قد يكون الأمر بالعكس، فلا تغتروا بما قلتم.

---

(١) المراغي. (٢) البيضاوي.

وروي[1] أنه أنزل الله بهم الموت، فمات منهم يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً، من غير قتال، ومن غير خروج، لإظهار كذبهم، والله أعلم.

الإعراب

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾.

﴿فَبِمَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت مما سبق لك أنهم يستحقون الملامة، والتعنيف، ولا يستحقون اللين، والسهولة، وأردت بيان سبب لينك لهم فأقول لك: ﴿بما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم﴾. ﴿الباء﴾ حرف جر. ﴿ما﴾ زائدة. ﴿رَحْمَةٍ﴾ مجرور بـ﴿الباء﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿لِنتَ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿رَحْمَةٍ﴾. ﴿لِنتَ﴾ فعل وفاعل. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلّق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿فَظًّا﴾ خبرٌ أول لـ ﴿كان﴾. ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ خبر ثان لها، ومضاف إليه، وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ ﴿اللام﴾ رابطةٌ لجواب ﴿لو﴾. ﴿انفضوا﴾ فعل وفاعل. ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلّق به، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لِنتَ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.

﴿فَٱعْفُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم يستحقون الملامة والعتاب، وأردت بيان ما هو الأصلح لهم

(١) المراح بالنسفي.

فأقول لك: أعف عنهم. ﴿أعف﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً يعود على محمد ﷺ. ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ جملة فعلية معطوفة على جملة ﴿فَٱعْفُ﴾ وكذلك جملة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ معطوفة عليها على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن المشاورة معهم عزيمةٌ عليك ليقتدي بك، وأردت بيان ما هو اللائق بك بعد المشاورة، والعزم على شيء فأقول لك ﴿إذا عزمت﴾. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿عَزَمْتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلّق بالجواب، وهو قوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطةٌ لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿توكَّل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا من فعل شرطها، وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿يُحِبُّ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية ﴿فَلَا غَالِبَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية. ﴿لا﴾ نافية للجنس تعمل عمل ﴿إنَّ﴾ ﴿غَالِبَ﴾ في محل النصب اسمها. ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿يَخْذُلْكُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إن﴾ وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى﴾ ﴿الفاء﴾ رابطةٌ لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿من ذا﴾ ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام إنكاريٌّ في محل الرفع مبتدأ. ﴿ذَا﴾ اسم إشارة في محل الرفع خبر ﴿مَنْ﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾ نعت لـ ﴿ذا﴾ أو بدل منه، أو عطف بيان. ﴿يَنصُرُكُم﴾ فعل ومفعول مرفوع؛ وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ينصر﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. قال أبو البقاء: ولا يجوز أن يكون من وذا بمنزلة اسم واحد، كما كانت ماذا؛ لأنَّ ما أشدُّ إبهاماً من من إذا كانت مَنْ لمن يعقل. انتهى. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ على كونها مستأنفة.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَعَلَى﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿على الله﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ ﴿الفاء﴾ زائدة و﴿اللام﴾: حرف طلب وجزم ﴿يتوكل﴾ فعل مضارع مجزوم ﴿باللام﴾. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿لِنَبِيٍّ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾ على اسمها. ﴿أَن يَغُلَّ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يَغُلَّ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿نبي﴾ وجملة ﴿يَغُلَّ﴾ صلة ﴿أن﴾. ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً تقديره؛ وما كان الغلول لائقاً لنبي، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما كما مَرَّ مراراً. ﴿يَغْلُلْ﴾ فعل مضارع

مجزوم بمن على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿يَأْتِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿من﴾ بحذف حرف العلة على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ وجملة من الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾. ﴿بِمَا غَلَّ﴾ ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَأْتِ﴾. ﴿غَلَّ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَأْتِ﴾ وجملة ﴿غَلَّ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما غلَّه.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الشرط. ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان. ﴿كَسَبَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على كل نفس، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كسبته. ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. ﴿هم﴾ مبتدأ. وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ لأنها بمعنى الخلائق.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري داخلةٌ على محذوف على مذهب الزمخشري، تقديره: هل عرفت الفرق بين الضالّ، والمهتدي؟ والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿فمن﴾ ﴿اتبع﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿من﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿كَمَنۢ﴾ جار ومجرور خبر ﴿من﴾ الموصول، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة. وعلى مذهب الجمهور الفاء استئنافية، والجملة مستأنفة. ﴿بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿بَآءَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، الجملة صلة الموصول. ﴿بِسَخَطٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَآءَ﴾ أو حال

من ضمير الفاعل تقديره: حالة كونه ملتبساً بسخط من الله. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لسخط. ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿مأواه﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿جَهَنَّمُ﴾ خبر له، والجملة معطوفة على جملة الصلة، عطفاً للجملة الاسمية على الجملة الفعلية؛ أي: وكمن مأواه جهنم فيكون قد وصل الموصول بجملتين: فعلية، واسمية، ويحتمل كونها مستأنفة، وعلى كلا الاحتمالين لا محل لها من الإعراب. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذم. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر للمخصوص بالذم المحذوف، تقديره: هي، يعود على جهنم، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف، ومضاف إليه صفة لـ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ تقديره: هم أصحاب درجات كائنات عند الله. وقال أبو[1] البقاء عند الله ظرف لمعنى درجات، كأنه قال: هم متفاضلون عند الله، ويجوز أن يكون صفة لـ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ انتهى. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿بَصِيرٌۢ﴾ خبر له، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَصِيرٌۢ﴾. ﴿يَعْمَلُونَ﴾ جملة فعلية صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما يعملونه. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿مَنَّ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة جوابٌ لقسم محذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿مَنَّ﴾.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى متعلّقٌ بـ ﴿مَنَّ﴾. ﴿بَعَثَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه. ﴿فِيهِمْ﴾: جار ومجرور

(١) العكبري.

متعلقان بالفعل ﴿بَعَثَ﴾. ﴿رَسُولًا﴾ مفعول به. ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ جار ومجرور صفة أولى لـ ﴿رَسُولًا﴾. ﴿يَتْلُوا۟﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على رسولاً. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَتْلُوا۟﴾، وجملة ﴿يَتْلُوا۟﴾ في محل لنصب صفة ثانية لـ ﴿رَسُولًا﴾ تقديرها: رسولاً كائناً، منهم تالياً عليهم. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يزكيهم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَسُولًا﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَتْلُوا۟﴾ على كونها صفة لـ ﴿رَسُولًا﴾، وكذلك جملة قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ معطوفة على جملة ﴿يَتْلُوا۟﴾ على كونها صفة ثانية وثالثة لـ ﴿رَسُولًا﴾. ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ الواو حالية. ﴿إن﴾ مخففة، من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره: وإنهم. ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَانُوا۟﴾. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿اللام﴾ لام الابتداء فارقة بين إن المخففة، وإن النافية. ﴿في ضلال﴾ جار ومجرور خبر ﴿كان﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ وجملة ﴿كان﴾ الناقصة في محل الرفع، خبر إن المخففة تقديره: وإنهم لكائنون في ضلال مبين، وجملة ﴿إن﴾ المخففة في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿يعلمهم﴾.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾.

﴿أَوَ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة في التقدير على قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾. و﴿الواو﴾ استئنافية على مذهب الجمهور. وقال الزمخشري: ﴿الهمزة﴾ داخلة على محذوف تقديره: أنسيتم فضل الله عليكم يوم بدر، ونصره لكم فيه. و﴿الواو﴾ عاطفة لجملة ﴿قُلْتُمْ﴾ على ذلك المحذوف. ﴿لَمَّآ﴾ ظرف بمعنى حين في محل النصب على الظرفية مبنية على السكون، والظرف متعلق بـ ﴿قُلْتُمْ﴾. ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه. ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ قد حرف تحقيق. ﴿أَصَبْتُم﴾ فعل وفاعل. ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ مفعول به ومضاف إليه والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿مُّصِيبَةٌ﴾. ﴿قُلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة على مذهب الجمهور، ومعطوفة على محذوف على مذهب الزمخشري كما مرَّ آنفاً. ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ ﴿أَنَّىٰ﴾ اسم استفهام في محل الرفع خبر مقدم. ﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل

النصب مقول لـ ﴿قُلْتُمْ﴾ والمعنى على مذهب الزمخشري: أنسيتم فضل الله عليكم يوم بدر، وقلتم حين أصابتكم يوم أحد مصيبةٌ قد أصبتم مثليها يوم بدر، كيف أصابتنا هذه المصيبة، ومن أين لنا هذا الخذلان، والجملة المحذوفة على مذهبه مستأنفة، كما أن المذكورة مستأنفة على مذهبهم.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿هو﴾ مبتدأ. ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضافان إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقولٌ لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾. ﴿قَدِيرٌ﴾ خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ موصولة في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَصَٰبَكُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، الجملة صلة الموصول. ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿أَصَٰبَكُمْ﴾. ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً لشبه المبتدأ بالشرط في الإبهام نحو قولهم: الذي يأتيني فله درهم. ﴿بإذن الله﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، ولكنه على إضمار تقديره: فهو بإذن الله، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يعلم﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام ﴿كي﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مفعول به؛ لأن علم هنا بمعنى أظهر يتعدى إلى مفعول واحد، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولعلمه المؤمنين الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ على كونه خبر المبتدأ، تقديره: وما أصابكم يوم التقى الجمعان، فكائنٌ بإذن الله، وكائنٌ

لإظهاره صبر المؤمنين.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يعلم﴾ منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به ليعلم. ﴿نَافَقُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، وجملة يعلم في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره، ولعلمه الذين نافقوا، الجار والمجرر معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿قيل﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ نائب فاعل محكي لقيل، وجملة ﴿قيل﴾ معطوفة على جملة ﴿نَافَقُوا۟﴾ على كونها صلة الموصول، وإن شئت قلت ﴿تَعَالَوْا۟﴾ فعل أمر، وفاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لِـ ﴿قيل﴾. وكذلك جملة ﴿قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَـٰتِلُوا۟﴾. ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ ﴿أَوِ﴾ حرف عطف، وتفصيل. ﴿ٱدْفَعُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قَـٰتِلُوا۟﴾. وقال أبو حيان[1]: و﴿أَوْ﴾ على بابها من أنها لأحد الشيئين. وقيل: يحتمل أن تكون بمعنى الواو، فطلب منهم الشيئين القتال في سبيل الله، والدفع عن الحريم والأهل، والمال، فكفار قريش لا تفرق بين المؤمن، والمنافق في القتل، والسبي، والنهب. والظاهر أن قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ كلامٌ مستأنف قسم الأمر عليهم فيه بين أن يقاتلوا للآخرة أو يدفعوا عن أنفسهم وأهليهم، وأموالهم، حكى الله عنهم ما يدل على نفاقهم في هذا السؤال، والجواب، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ معطوفاً على ﴿نَافَقُوا۟﴾ فيكون من الصلة انتهى.

وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟﴾ هذه الجملة[2] تحتمل وجهين:

---

(١) البحر المحيط. (٢) الجمل.

أحدهما: أن تكون استئنافية، أخبر الله أنهم مأمورون إما بالقتال، وإما بالدفع؛ أي: تكثير سواد المسلمين.

والثاني: أن تكون معطوفة على ﴿نَافَقُواْۚ﴾ فتكون داخلة في حيز الموصول؛ أي: ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ الذين حصل منهم النفاق، والقول المذكور و﴿تَعَالَوۡاْ﴾ و﴿قَٰتِلُواْ﴾ كلاهما قائم مقام الفاعل، لـ ﴿قيل﴾؛ لأنه هو المقول. قال أبو البقاء:[1] وإنما لم يأت بحرف العطف بين ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ و﴿قَٰتِلُواْ﴾ لأنه أراد أن تكون كل من الجملتين مقصودةً بنفسها، ويجوز أن يقال: إن المقصود هو الأمر بالقتال، و﴿تَعَالَوۡاْ﴾ ذكر ما لو سكت عنه.. لكان في الكلام دليلٌ عليه، وقيل: الأمر الثاني حالٌ انتهى.

﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالُواْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿نَعۡلَمُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المنافقين. ﴿قِتَالٗا﴾ مفعول به؛ لأن علم بمعنى عرف. ﴿لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب لو. ﴿اتبعناكم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لَوۡ﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة لو من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾

﴿هُمۡ﴾ مبتدأ. ﴿لِلۡكُفۡرِ﴾ جار ومجرور متعلِّقٌ بأقرب الآتي. ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلِّقٌ بأقرب أيضاً كما ذكره أبو حيان. ﴿أَقۡرَبُ﴾ خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿مِنۡهُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق بأقرب. ﴿لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَقۡرَبُ﴾ أيضاً، و﴿أَقۡرَبُ﴾ تعلقت به هنا أربع ظروفات.

فإن قلت: من المعلوم أنه لا يتعلق حرفا جرٍّ متحدان لفظاً ومعنًى بعامل واحد، إلا أن يكون أحدهما معطوفاً على الآخر، أو بدلاً منه؛ فكيف تعلقا هنا بـ ﴿أَقۡرَبُ﴾؟

---

(١) العكبري.

قلتُ: هذا من خواصِّ أفعل التفضيل، فإنه يتعلق به حرفا جر من جنس واحد، وليس أحدهما معطوفاً على الآخر، ولا بدلاً منه بخلاف سائر العوامل؛ فإنه لا يتعلق به حرفا جر من جنس واحد، إلا بالعطف أو على سبيل البدل.

وقال أبو البقاء:(١) وجاز أن يعمل أقرب فيهما لأنهما يشبهان الظرف، وكما عمل أطيب في قولهم: هذا بسرا أطيب منه رطباً في الظرفين المقدرين؛ لأن أفعل يدل على معنيين: على أصل، وزيادته، فيعمل في كل واحد منهما بمعنى غير الآخر، فتقديره يزيد قربهم إلى الكفر على قربهم إلى الإيمان. واللام هنا على بابها، وقيل هي بمعنى إلى. انتهى.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿أقرب﴾، أي قربوا إلى الكفر قائلين قاله أبو البقاء. ﴿بِأَفْوَاهِهِم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَّا﴾. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر ﴿لَيْسَ﴾، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلةٌ لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ﴿لَيْسَ﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾. وجملة ﴿يَكْتُمُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يكتمونه.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ في إعرابه أوجه: الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم الذين قالوا، والجملة مستأنفة أو على أنه بدل من الذين نافقوا، أو نعت له، أو على أنه مبتدأ خبره ﴿قل﴾ الآتي، تقديره: الذين قالوا لإخوانهم، قل لهم: فادرؤوا الخ والنصب على الذم، والجر بدلاً من المجرور في ﴿أفواههم﴾ أو

---

(١) العكبري.

﴿قُلُوبِهِمْ﴾. ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَقَعَدُواْ﴾ فعل، وفاعل يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿قَالُواْ﴾ على كونه صلة الموصول معترضاً بين ﴿قَالُواْ﴾ ومعموله، وهو قوله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿قَالُواْ﴾ وقد مقدرة، أي: وقد ﴿قعدوا﴾ ومجيء الماضي حالاً مقترناً بالواو وقد أو بدونهما ثابت في «لسان العرب». ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ مقولٌ. محكي لـ ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت ﴿لو﴾ حرف شرط. ﴿أَطَاعُونَا﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿قُتِلُواْ﴾ فعل مغير ونائب فاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾ وإن شئت.. قلت ﴿فَادْرَءُواْ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط محذوف معلوم من السياق تقديره: إن كنتم رجالاً دفاعين لأسباب الموت ﴿فَادْرَءُواْ﴾ جميع أسبابه عن أنفسكم حتى لا تموتوا. ﴿ادرؤوا﴾ فعل وفاعل. ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ادرءوا﴾. ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ مفعول به وجملة ﴿ادرؤوا﴾ في محل الجزم على كونها جواباً لشرط محذوف، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقولٌ لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿صَـٰدِقِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ على كونها فعل شرط لها وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله تقديره: إن كنتم صادقين في دعواكم أن التحيل والتحرز ينجي من الموت، ﴿فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، ولن تجدوا إلى ذلك سبلاً، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب، مؤكدةٌ للشرط المحذوف على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾ والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ﴾ من لان يلين ليناً من باب باع، واللين في المعاملة الرفق والتلطف فيها.

﴿فَظًّا﴾ يقال: فظَّ يَفظُّ، ويَفِظُّ فظاً وفظاظةً وفِظاظاً: إذا كان فظاً، والفظ: الغليظ السيء الخلق، الخشن الكلام، يجمع على فظاظٍ، وفظوظ ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ يقال: غلظ وغلظ بالكسر، والضم، والغلظة ضد الرقة فالفظاظة الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلاً، والغلظة التكبر ثم تجوز به عن عدم الشفقة وكثرة القسوة في القلب، فغلظ القلب عبارة عن كونه خلق صلباً لا يلين، ولا يتأثر ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ الانفضاض التفرق من الأجزاء، وانتشارها يقال: نفض القوم إذا تفرقوا، وهو من باب انفعل الخماسيّ من مزيد الثلاثي، وبناؤه للمطاوعة يقال: فضضتهم فانفضوا؛ أي: فرقتهم فتفرقوا، وأصل الفض الكسر، ومنه قولهم: لا يفضض الله فاك.

والمعنى[1]: لو كنت فظاً غليظ القلب لا ترفق بهم لتفرقوا من حولك هيبةً لك واحتشاماً منك بسبب ما كان من توليهم، وإذا كان الأمر كما ذكر فاعف عنهم الخ ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ قال أهل اللغة: الاستشارة مأخوذةً من قول العرب شرت الدابة، وشورتها إذا علمت خبرها، وقيل من قولهم: شرت العسل إذا اجتنيته، واستخرجته، وأخذته من موضعه، وثلاثيه أجوف واوي من باب قال.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التوكل: إظهار العجز، والاعتماد على غيرك، والاكتفاء به في فعل ما تحتاج إليه.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ في «المصباح» خذلته وخذلت عنه من باب قتل، والاسم: الخذلان إذا تركت نصرته وإعانته وتأخرت عنه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ يقال: غل الشي يغله غلاً وغلولاً، من باب شد إذا أخذه خفيةً، ودسَّهُ في متاعه، فهو من المضاعف المعدى، فقياسه: ضم مضارعه. والغل: الأخذ خفية كالسرقة، ثم غلب استعماله في السرقة من المغنم قبل القسمة، ويسمى الغلول أيضاً.

﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ السخط بفتحتين: مصدر قياسي لسخط من باب فرح، والسخط بضم فسكون، مصدر سماعيٌّ له، قال ابن مالك:

---

(١) الشوكاني.

وَفَــعِــلَ ٱلــلاَّزِمُ بَــابُــهُ فَــعَــلْ   كَــفَــرِحٍ وَكَــجَــوَىً وَكَــشَــلَــلْ

ثم قال:

وَمَــا أَتَــىٰ مُــخَــالِــفَــاً لِــمَــا مَــضَــىٰ   فَــبَــابُــهُ ٱلــنَّــقْــلُ كَــسُــخْــطٍ وَرِضَــا

والسخط على كلا الضبطين الغضب الشديد.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقال: من يمن بالضم منٌّ، ومنيني عليه بكذا إذا أنعم عليه به من غير تعب، فهو من المضاعف، اللازم فقياسه: الكسر فالضم فيه شاذ، ولم يأت فيه إلاّ الضمّ.

﴿فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ يقال: درأه يدرؤُهُ بالفتح، من باب منع درءاً، ودرأةً إذا دفعه دفعاً شديداً، ودرأ السيل عليه اندفع، ودرأ الرجل علينا إذا طرأ فجأة، تدارأ القوم إذا تدافعوا في الخصومة.

البلاغة

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه مجازٌ بالزيادة؛ لأن ﴿ما﴾ زائدةٌ للتأكيد.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ﴾ ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ فيهما من المحسنات البديعية: المقابلة والالتفات؛ إذ هو خروج من الغيبة إلى الخطاب، وتنويع الكلام؛ لأنه جاء في جواب ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ بصريح النفي العام حيث قال: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وفي جواب ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ بالنفي المضمن في الاستفهام حيث قال: فمن ذا الذي ينصركم، وإفادة الحصر في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بتقديم المعمول على العامل.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه استعارةٌ بديعية، حيث جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به، وجعل العاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع شيئاً، فنكص عن اتباعه، ورجع بدونه.

﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ التنكير فيه للتهويل؛ أي: بسخط عظيم لا يكاد يوصف ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ فيه مجازٌ بالحذف؛ أي: ذَوُو درجات متفاوتةٍ متخالفةٍ.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ بين الكفر والإيمان الطباق.

﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ فيه من المحسنات البديعية: جناس الاشتقاق.

وقال أبو حيان[1]: وتضمنت هذه الآيات من صنوف البلاغة والفصاحة:

منها: الطباق في قوله: ﴿يَنصُرۡكُمُ﴾ و﴿يَخۡذُلۡكُمۡ﴾ وفي قوله: ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿بِسَخَطٖ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَنصُرۡكُمُ﴾ و﴿يَنصُرُكُم﴾؛ وفي الجلالة في مواضع.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿يَغُلَّۚ﴾، وما ﴿غَلَّ﴾.

ومنها: الاستفهام الذي معناه النفي في قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ الآية.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾، وفي ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ خص العمل دون القول؛ لأن العمل جل ما يترتب عليه الجزاء.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ الآية، إذ التقدير من الله عليهم بالهداية، فيكون في هذا المقدر، وفي قوله: ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ وفي ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم﴾ والقول ظاهر و ﴿يَكۡتُمُونَ﴾، وفي قوله: ﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ﴾ إذ التقدير حين خرجوا، وقعدوا هم.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ لاختلاف متعلق العلم.

ومنها: الاستفهام الذي يراد به الإنكار في قوله: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم﴾.

ومنها: الاحتجاج النظري في قوله: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع، لا يتم المعنى إلا بتقديرها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ
ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ
ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾
وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى
ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟
وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ
بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

المناسبة

لمَّا ذكر[1] الله سبحانه وتعالى تثبيط المشركين للراغبين في الجهاد بتحذيرهم عواقبه، وأنه مفضٍ إلى القتل، كما حدث يوم أحد، والقتل بغيضٌ إلى النفوس مكروه لها، ثم أردفه بيان أن القتل إنما يحدث بقضاء الله وقدره، كما يحدث الموت، فمن كتب عليه أن يقتل، لا يمكنه أن يبتعد من القتل، ومن لم يقدر له لا خوف عليه من الجهاد.. ذكر هنا ما يحبب الجهاد في سبيل الله،

---

(١) المراغي.

فأبان أن المقتولين شهداء أحياءٌ عند ربهم، قد خصَّهم الله بالقرب منه والكرامة لديه، وأعطاهم أفضل أنواع الرزق، وأوصلهم إلى مراتب الفرح والسرور.

وأخرج الامام أحمد في جماعة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله هؤلاء الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ..﴾ الآيات، لمَّا كان من فوز المشركين في أُحد ما كان، وأصاب النبيَّ ﷺ والمؤمنين شيءٌ كثير من الأذى أظهر بعض المنافقين كفرهم، وصاروا يخوفون المؤمنين، ويؤيسونهم من النصر، والظفر بعدوهم، ويقولون لهم: إنَّ محمداً طالب ملك، فتارة يكون الأمر له، وتارةً عليه، ولو كان رسولاً من عند الله.. ما غلب إلى نحو هذه المقالة، مما ينفر المسلمين من الإسلام، فكان الرسول يحزن لذلك، ويسرف في الحزن فنزلت هذه الآيات تسليةً له كما سلاه عما يحزن من إعراض الكافرين عن الإيمان، أو طعنهم في القرآن، أو في شخصه ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ﴾، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ..﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: لمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى فيما سبق ما يحرض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله، وبذل أنفسهم فيه بذكر ما يلاقيه المجاهدون من الكرامة عند ربهم في جنات النعيم، شرع هنا يحث على بذل المال في الجهاد، والمال شقيق الروح، فذكر أشد أنواع الوعيد لمن يبخل بماله في هذه السبيل، وأرشد إلى أن المال ظل زائلٌ، وأن مدى الحياة قصيرٌ، وأن الوارثين والموروثين سيموتون، ويبقى الملك لله وحده.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ . . .﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه الإمام أحمد. (ج ١ ص ٢٦٥) حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني إسماعيل بن أمية، عن أبي الزبير المكي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتهوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم، ومأكلهم، وحسن منقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله بنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ . . .﴾.

وأخرج الترمذي وحسَّنه (ج ٤ ص ٨٤) عن جابر رضي الله عنه قال: لقيني رسولُ الله ﷺ فقال يا جابر «مالي أراك منكسراً» فقلت يا رسول الله: استشهد أبي وترك عيالاً، وديناً، فقال: «ألا أبشرك بما لقي الله به أباك»، قال: بلى يا رسول الله، قال: «ما يكلم الله أحداً قط إلا من وراء حجابه، وأحيا أباك، فكلَّمه كفاحاً[١] فقال: تمن عليَّ أعطيك قال: يا رب تحييني، فأقتل فيك ثانيةً، قال الربُّ تعالى علواً كبيراً: إنه قد سبق أنهم لا يرجعون»، قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ . . .﴾ قال الشوكاني في «تفسيره»: وعلى كلِّ حال، فالآية باعتبار عمومها تعم كل شهيد.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ سبب نزولها: ما روي[٢] عن ابن عباس قال: لما انصرف أبو سفيان، والمشركون من

---

(١) **كفاحاً**: أي مواجهةً بدون حجاب ولا رسول.

(٢) مجمع الزوائد ولباب النقول.

أحد، وبلغوا الروحاء، قال أبو سفيان: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب الناس فانتدبوا حتى بلغوا حمراء[1] الأسد، أو بئر أبي عتبة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ وذلك أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ: موعدك موسم بدر، حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبان: فرجع، وأما الشجاع: فأخذ أهبة القتال والتجارة، فأتوه، فلم يجدوا به أحداً، وتسوقوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ رواه الطبراني.

وأخرج[2] ابن مردويه عن أبي رافع، أنَّ النبيَّ ﷺ وجه علياً في نفر معه في طلب أبي سفيان، فلقيهم أعرابيٌّ من خزاعة، فقال: إن القوم قد جمعوا لكم، قالوا ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فنزلت فيهم هذه الآية.

وأخرج[3] ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: إن الله قذف الرعب في قلب أبي سفيان يوم أحد بعد الذي كان منه، فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: إن أبا سفيان، قد أصاب منكم طرفا، وقد رجع، وقذف الله في قلبه الرعب، وكانت وقعة أحد في شوال، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة، فينزلون ببدر الصغرى، وأنهم قدموا بعد وقعة أحد، وكان أصاب المؤمنين القرح، واشتكوا ذلك فندب النبيُّ ﷺ لينطلقوا معه، فجاء الشيطان فخوف أولياءه، فقال: إن الناس قد جمعوا لكم، فأبى عليه الناس أن يتبعوه، فقال: «إني ذاهب»، وإن لم يتبعني أحد فانتدب معه أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وطلحة، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وأبو عبيدة بن الجراح، في سبعين رجلاً، فساروا في طلب أبي سفيان، فطلبوه حتى بلغوا الصفراء فأنزل الله ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ. . .﴾ الآية.

---

(١) **حمراء الأسد**: مكان على ثمانية أميال من المدينة المنورة.

(٢) لباب النقول.

(٣) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ولا تظنن يا محمد، أو أيها السامع لقول المنافقين الذين ينكرون البعث، أو يرتابون، فيؤثرون الدنيا على الآخرة، كون الذين استشهدوا في سبيل الله، لإعلاء دينه، ﴿أَمۡوَٰتَۢا﴾ قد فقدوا الحياة، وصاروا عدماً لا يحسون، ولا يتنعمون ﴿بَلۡ﴾ هم ﴿أَحۡيَآءٌ﴾ في عالم آخر غير هذا العالم هو خيرٌ للشهداء، لما فيه من الكرامة، والشرف مكرمون ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ من نعيم الجنة غدوّاً وعشيا، كما روى عن النبي ﷺ «أنَّ أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم يرزقون، ويتنعمون من ثمار الجنة يجدون ريحها، وليسوا فيها» وهذه الحياة[1] التي أثبتها القرآن الكريم للشهداء حياة محققة غيبية عنا لا ندرك حقيقتها، ولا نزيد على ما جاء به الوحي. قوله: ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ تأكيد لكونهم أحياءً، وتحقيق لهذه الحياة.

وقرأ الجمهور[2] ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ بالتاء، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل سامع، وقرأ حميد بن قيس، وهشام بخلاف عنه ﴿ولا يحسبن﴾ بالياء؛ أي: لا يحسبن حاسبٌ أيًا كان.

وقد اختلف[3] أهل العلم في الشهداء المذكورين في هذه الآية، من هم؛ فقيل: شهداء أحد، وقيل: شهداء بدر، وقيل: شهداء بئر معونة، وعلى فرض أنها نزلت في سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. وقرأ الحسن[4] وابن عامر ﴿قُتِّلوا﴾ بالتشديد، وروي عن عاصم ﴿قاتلوا﴾ وقرأ الجمهور ﴿قُتِلُواْ﴾ مخففاً، وقرأ الجمهور ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: بل هم أحياء. وقرأ ابن أبي عبلة ﴿أحياءً﴾ بالنصب على تقدير فعل؛ أي: بل أحسبهم أحياءً، كما قاله الزمخشري، وتبعه الزجاج.

قوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ حالٌ من الضمير في ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ و﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

﴿فَضْلِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿فَرِحِينَ﴾ وقرأ ابن السميفع ﴿فارحين﴾ وهُما لغتان: كالفره، والفاره، والحذر، والحاذر. والمراد ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ما ساقه الله إليهم من الكرامة بالشهادة، وما صاروا فيه من الحياة، وما يصل إليهم من رزق الله سبحانه وتعالى، والمعنى: مسرورين بما أعطاهم الله تعالى من قربه، ودخول جنته، ورزقهم فيها إلى سائر ما أكرمهم به. ولا تعارض[1] بين فرحين، وبين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ في قصة قارون؛ لأن ذاك بالملاذ الدنيوية، وهذا بالملاذ الأخروية ولـذلـك جـاء ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾، وجـاء ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

والمراد بفضل الله شرف الشهادة، والفوز بالحياة الأبدية، والزلفى من الله تعالى، والتمتع بالنعيم المخلد عاجلاً، والواو في قوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ عاطفة على قوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾؛ أي: يرزقون، ويستبشرون، ويسرون (بـ) ما تبين لهم من حسن حال إخوانهم المجاهدين ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ في القتل، والشهادة، ولم يقتلوا إذ ذاك وتركوهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ ووراءهم في الدنيا، بل سيلحقون بهم من بعد؛ أي: إنهم بقوا في الدنيا بعدهم، وهم قد تقدموهم يعني من إخوانهم الذين تركوهم أحياءً في الدنيا على منهج الإيمان، والجهاد، فعلموا أنهم إذا استشهدوا لحقوا بهم، ونالوا من الكرامة مثلهم.

وقيل[2]: المراد بإخوانهم هنا جميع المسلمين الشهداء وغيرهم؛ لأنهم لما عاينوا ثواب الله، وحصل لهم اليقين بحقية دين الإسلام؛ استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين هم أحياء لم يموتوا، وهذا أقوى؛ لأن معناه أوسع، وفائدته أكثر، واللفظ يحتمله، بل هو الظاهر، وبه قال الزجاج، وابن فورك.

وقوله[3]: ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ إشارة إلى أنهم وراءهم، يقتفون أثرهم، ويحذون حذوهم قدماً بقدمٍ، وفي ذكر حال الشهداء، واستبشارهم بمن خلفهم حث

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

للباقين بعدهم على زيادة الطاعة، والجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء، وإصابة فضلهم كما فيه إخمادٌ لحال من يرى نفسه في خير، فيتمنى مثله لإخوانه، في الدين، وفيه بشرى للمؤمنين بالفوز بالمآب.

وقوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدلٌ من ﴿الَّذِينَ﴾؛ أي: يستبشرون بعدم الخوف، والحزن على إخوانهم الذين تركوهم أحياءً، وأنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية، لا يكدرها خوفٌ من وقوع مكروه من أحوالها، ولا حزنٌ من فوات محبوب من نعيمها.

والمعنى[1]: يستبشرون بأن لا خوف من المتخلِّفين على أنفسهم، فهم آمنون، ولا هم يحزنون، فهم فرحون هذا ما أدركه لهم إخوانهم المتقدمون، وليس المراد أنهم؛ أي: المتقدمين لا يخافون على المتخلِّفين كما هو ظاهر.

والحاصل[2]: أن الشهداء المتقدمين: يقول بعضهم لبعض: تركنا إخواننا فلاناً وفلاناً في صف المقاتلة مع الكفار، فيقتلون إن شاء الله، فيصيبون من الرزق والكرامة ما أصبنا؛ أي: يفرحون بحسن حال إخوانهم الذين تركوهم في الدنيا، بدوام انتفاء الخوف والحزن، وبلحوقهم بهم؛ لأن الله تعالى بشَّرهم بذلك.

والخوف: غم[3] يلحق الإنسان بما يتوقعه من السوء، والحزن غمٌّ يلحقه من فوات نافع، وحصول ضار، فمن كانت أعماله مشكورةٌ.. فلا يخاف العاقبة، ومن كان متقلِّباً في نعمة من الله، وفضل.. فلا يحزن أبداً.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ لمَّا[4] بيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ الشهداء يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ذكر أنهم أيضاً يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم والفضل، فالاستبشار الأول كان لغيرهم، والاستبشار الثاني

---

(١) الجمل.
(٢) مراح.
(٣) كرخي.
(٤) الخازن.

لأنفسهم خاصة؛ أي: يفرحون بنعمة من الله؛ أي: بثواب أعمالهم وفضل؛ أي: زيادة عظيمة من الكرامة على ثواب أعمالهم، نظير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وتنكيرها للتعظيم فالنعمة هي الثواب الذي يلقاه العامل جزاءً على عمله، والفضل هو التفضل الذي يمن الله به على عباده الطائعين المخبتين إليه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ويفرحون بأن الله تعالى لا يبطل، ولا يبخس أجر المؤمنين من الشهداء، وغيرهم. قرأ الكسائي[1] بكسر الهمزة من ﴿إنَّ﴾ على أنه مستأنف. وفيه دلالة على أن الله لا يضيع أجر شيء من أعمال المؤمنين، ويؤيده قراءة ابن مسعود، ومصحفه ﴿والله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ وقرأ باقي السبعة، والجمهور بفتح الهمزة عطفاً على فضل، فهو داخل في جملة ما يستبشرون به، قال[2] أبو علي يستبشرون: بتوفير ذلك عليهم، ووصوله إليهم؛ لأنه إذا لم يضعه وصل إليهم، ولم يبخسوه، ولا يصح الاستبشار بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين؛ لأن الاستبشار إنما يكون بما لم يتقدم به علم، وقد علموا قبل موتهم أنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين، فهم يستبشرون بأنَّ الله ما أضاع أجورهم، حتى اختصهم بالشهادة ومنحهم أتم النعمة، وختم لهم بالنجاة، والفوز، وقد كانوا يخشون على إيماهم، ويخافون سوء الخاتمة المحبطة للأعمال، فلما رأوا ما للمؤمنين عند الله من السعادة، وما اختصَّهم به من حسن الخاتمة التي تصح معها الأجور، وتضاعف الأعمال استبشروا؛ لأنهم كانوا على وجل من ذلك. انتهى كلامه، وفيه تطويلٌ شبيهٌ بالخطابة.

وفي ذلك كله تحريضٌ للمؤمنين على الجهاد، وترغيبٌ لهم في الشهادة، وحث على ازدياد الطاعة، وبشرى للمؤمنين بالفوز العظيم.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

فصلٌ في ذكر الأحاديث الواردة في فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمَّن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً وتصديقاً برسلي، فهو عليَّ ضامن ـ أي: مضمون ـ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجرٍ، أو غنيمةٍ، والذي نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين يكلم، لونه لون دم، وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده، لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعةً فأحملهم، ولا يجدون سعةً، ويشق عليهم أن يتخلَّفوا عني، والذي نفسُ محمد بيده، لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل» متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

وعن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَغَدْوَةٌ في سبيل الله، أو رَوْحَةٌ خير من الدنيا وما فيها» متفق عليه.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله، خير من الدنيا، وما عليها، وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا، وما عليها». متفق عليه.

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر». أخرجه أبو داود، والترمذي.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قاتل في سبيل الله فواق ناقةٍ، وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل في سبيل الله صادقاً من نفسه، ثم مات أو قتل؛ كان له أجر شهيد، ومن جرح جرحاً في سبيل الله، أو نكب نكبةً.. فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها لون الزعفران، وريحها ريح المسك، ومن خرج به خراج في سبيل الله، فإن عليه

طابع الشهداء». أخرجه أبو داود، والنسائي، وأخرجه الترمذي مفرقاً في موضعين.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ رسول الله ﷺ فقال: «أيُّ الناس أفضل؟ قال: مؤمن مجاهد بنفسه، وماله في سبيل الله، قال: ثم من؟ قال: رجل في شعب من الشعاب يعبد الله»، وفي رواية: «يتقي الله ويدع الناس من شره». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً، واحتساباً، وتصديقاً بوعده.. فإن شبعه، وريه، وروثه، وبوله، في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات». أخرجه البخاري. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما أحدٌ يدخل الجنة فيحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة»، وفي رواية «لما يرى من فضل الشهادة». متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين». أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من القرصة». أخرجه الترمذي وللنسائي نحوه.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يَشْفَعُ الشهيد في سبعين من أهل بيته». أخرجه أبو داود.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ مبتدأ خبره، قوله الآتي ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾؛ أي: هؤلاء المؤمنون الذين أجابوا دعوة الله، ورسوله إياهم للخروج إلى الغزو ثانياً في اليوم التالي ليوم أحد ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ﴾، ونالهم ﴿ٱلۡقَرۡحُ﴾، والجراح في يوم أحد، ولبوا نداءهما من غير توانٍ ولا تباطؤ. وكان هذا الدعاء في يوم الأحد التالي ليوم أحد الذي هو يوم السبت لست عشرة مضت، أو لثمان

عشرة خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة، كما في المواهب. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بإجابة الرسول إلى الخروج للغزو ثانياً على ما هم عليه من جراح، وآلام أصابتهم يوم أحد ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ مخالفة الرسول، وعاقبة تقصيرهم، وأتوا بالعمل على أكمل وجوهه ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وثواب جزيل، وهو الجنة على ما أتوا به من جليل الأعمال، وصالح الأفعال.

وفي قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أن من دعوا لبوا، واستجابوا له ظاهراً، وباطناً، ولكن عرض لبعضهم موانع في أنفسهم أو أهليهم فلم يخرجوا، وخرج الباقون.

روي أن أبا سفيان وأصحابه لمَّا رجعوا من أحد، فبلغوا الروحاء موضع بين مكة والمدينة، ندموا، وهموا بالرجوع حتى يستأصلوا، من بقي من المؤمنين، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم، ويريهم من نفسه وأصحابه قوةً، فندب أصحابه للخروج في إثر أبي سفيان، وقال: «لا يَخْرُجَنَّ معنا يومنا إلا من حضر بالأمس»، فخرج رسولُ الله ﷺ مع جماعة من أصحابه يوم الأحد اليوم التالي، يوم أُحد حتى بلغوا حمراء الأسد ـ موضعٌ على ثمانية أميال من المدينة، على يسار الطريق لمن أراد ذا الحليفة ـ وكان بأصحابه الجراح والآلام، فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا إلى مكة مسرعين، وأقام بها رسول الله ﷺ الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة يوم الجمعة، وقد غاب عنها خمساً، فنزلت هذه الآية وتسمي هذه الغزوة غزوة حمراء الأسد، وهي متصلة بغزوة أحد.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: أمدح المؤمنين الذين قال لهم الناس: أي؛ قال لهؤلاء المؤمنين نعيم ابن مسعود الأشجعي، ومن وافقه، وهم أربعة؛ أي: قالوا للمؤمنين تثبيطاً لهم ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: إن أبا سفيان، وكفار قريش ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أي: لقتالكم واستئصالكم، أيها المؤمنون في مجنة، وهي سوق بقرب مكة جموعاً كثيرةً، وأعواناً عديدةً ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾، أي: فخافوا أيها المؤمنون هؤلاء الجموع، واحذروهم ولا تخرجوا

إليهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، وقلنا لكم ذلك نصيحةً لكم أيها المؤمنون، فإنا رأينا تلك الجنود المجندة لكم.

روي عن[1] ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة أن الآية نزلت في غزوة بدر الصغرى، وذلك أن أبا سفيان، قال: حين أراد أن ينصرف من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر القابل، إن شئت، فقال النبي ﷺ: «ذلك بيننا وبينك إن شاء الله تعالى». فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مِجنَّة من ناحية مر الظهران، فألقى الله الرعب في قلبه فبدا له الرجوع، فلقي نعيم ابن مسعود، وقد قدم معتمراً، فقال له أبو سفيان: إني واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جدب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي أن أرجع، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرأةً، فالحق بالمدينة، فثبطهم ولك عندي عشرةٌ من الإبل، أضعها في يدي سهيل بن عمرو. فأتى نعيم المدينة، فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان، فقال لهم: ما هذا الرأي؟ أتوكم في دياركم، وقراركم، ولم يفلت منكم إلا شريد، فتريدون أن تخرجوا إليهم، وقد جمعوا لكم الجموع عند الموسم، فوالله لا يفلت منكم أحد، فكان لكلامه وقع شديد في نفوس قوم منهم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن، ولو وحدي فخرج، ومعه سبعون راكباً يقولون: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ حتى وافى بدراً الصغرى - بدر الموعد - فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان، فلم يلق أحداً؛ لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة، وكان معه ألفا رجلٍ، فسماه أهل مكة جيش السويق، وقالوا لهم: إنما خرجتم لتشربوا السويق». ووافى المسلمون سوق بدرٍ، وكانت معهم نفقاتٌ وتجاراتٌ، فباعوا، واشتروا أدماً، وزبيباً، فربحوا، وأصابوا بالدرهم درهمين، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين كما قال تعالى.

﴿فَزَادَهُمْ﴾؛ أي: فزاد المؤمنين ذلك القول والتثبيط ﴿إِيمَٰنًا﴾ وتصديقاً

(١) المراغي.

بوعده، وثقةً به، وقوةً في دينهم، وثبوتاً على نصر نبيهم ﷺ ولم يلتفتوا إلى تخويفهم، بل حدث في قلوبهم عزمٌ وتصميمٌ على محاربة هؤلاء الكافرين، وطاعة للرسول في كل ما يأمر به، وينهى عنه، وإن أضناهم ذلك، وثقل عليهم لما بهم من جراحات عظيمة، وقد كانوا في حاجة إلى قسط من الراحة، وشيء من التداوي، لكن وثوقهم بنصر الله وتغلبهم على عدوهم، أنساهم كل هذه المصاعب، فلبوا الدعوة سراعاً.

والخلاصة: أن هذا القول الذي سمعوه زاد شعورهم بعزة الله، وعظمته وسلطانه، ويقينهم بوعد الله، ووعيده، وتبع ذلك زيادةٌ في العمل، ودأبٌ على إنفاذ ما طلب الرسول ﷺ، ولولا ذلك ما أقدموا على الاستجابة إلى ما كاد يكون وراء حدود الإمكان.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

﴿وقالوا﴾؛ أي: قال المؤمنون معبرين عن صادق إيمانهم، ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافينا ومحسبنا الله، فهو الذي يكفينا ما يهمنا، من أمر هؤلاء الذين جمعوا لنا الجموع العديدة، فهو سبحانه وتعالى لا يعجزه أن ينصرنا على قلتنا، وكثرتهم، أو يلقي في قلوبهم الرعب، فيكفينا شر بغيهم، وكيدهم، وقد كان الأمر كما ظنوا، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان، وجيشه، على كثرة عددهم، وتوافر عُددهم، فولوا مدبرين، وكان النصر في ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ أي: ونعم وحسن الموكول إليه أمورنا، كلها ديناً، ودنيا، ونصراً على أعدائنا، والمخصوص بالمدح الله سبحانه وتعالى.

وأخرج البخاري عن ابن عباس ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم جموعاً.

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إذا وقعتم في الأمر العظيم، فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». وأخرج ابن أبي الدنيا، عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ كان إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه، ولحيته، ثم تنفس الصعداء، وقال: «حسبي الله ونعم الوكيل».

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ «حسبي الله ونعم الوكيل، أمان كل خائف». وقوله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ معطوف على محذوف تقديره: أي: فخرجوا للقاء عدوهم، ولم يلقوا منه كيداً، ولا همًّا، وانقلبوا؛ أي: رجعوا إلى أهليهم حالة كونهم ملتبسين ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ وسلامةٍ وثواب ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَفَضْلٍ﴾؛ أي: وزيادةٍ، وربح في تجارتهم، وهو ما أصابوا في سوق بدر من الربح، وقيل: النعمة منافع الدنيا، والفضل ثواب الآخرة، وحالة كونهم ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ﴾؛ أي: لم يصبهم في الذهاب، والإياب ﴿سُوٓءٌ﴾؛ أي: قتل ولا جراحٌ من عدوهم.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾؛ أي: وامتثلوا رسول الله في كل ما به أمر ونهى عنه لينالوا ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى في كل ما أتوا به من قول أو فعل؛ أي: ليفوزوا برضا الله الذي هو وسيلة النجاة، والسعادة في الدنيا، والآخرة، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ومَنٍّ جسيم عليهم إذ تفضل عليهم بزيادة الإيمان، والتوفيق بالمبادرة إلى الجهاد والجرأة على العدو وحفظهم من كل ما يسوءهم.

وفي هذا إلقاء للحسرة في قلوب المتخلِّفين منهم، وإظهارٌ لخطأ رأيهم، إذ حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ المخوف المثبط القائل لكم: إن الناس قد جمعوا لكم، وهو نعيم بن مسعود هو ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ سماه الله شيطاناً؛ لأنه كان تابعاً للشيطان، ولوسوسته ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾؛ أي: يخوفكم أيها المؤمنون عن لقاء أوليائه، ومقاتلتهم، وعن الخروج إليهم؛ أي: ليس ذلك الذي قال لكم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم إلا الشيطان يخوفكم أيها المؤمنون، عن قتال أوليائه وأنصاره، وأحزابه المشركين، ويوهمكم أنهم عدد كثر، وأولو قوة، وبأس شديد، وأن من مصلحتكم أن تقعدوا عن لقائهم، وتجبنوا عن مدافعتهم.

قرأ ابن عباس وابن مسعود ﴿يخوفكم أولياءَه﴾ وقرأ أبي بن كعب، والنخعي ﴿يخوفكم بأوليائه﴾.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾؛ أي: فلا تخافوا أولياء الشيطان، ولا تقعدوا عن قتالهم، ولا تجبنوا عنهم، ولا تحفلوا بقولهم ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري بالجلوس، فجاهدوا في سبيلي، مع رسولي؛ لأنكم أوليائي، وأنا وليكم وناصركم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مصدقين بوعدي لكم النصر، والظفر، أو راسخي الإيمان قائمين بحقوقه، فإن من حقه إيثار خوف الله تعالى على خوف غيره، والأمن من شر الشيطان، وأوليائه وأثبت أبو عمرو ياء ﴿وَخَافُونِ﴾ وهي ضمير المفعول، والأصل الإثبات، ويجوز حذفها للوقف على نون الوقاية بالسكون، فتذهب الدلالة على المحذوف.

وخلاصة ذلك: أنه إذا عرضت لكم أسباب الخوف فاستحضروا في نفوسكم قدرة الله الذي بيده كل شيء، وهو يجير، ولا يجار عليه، وتذكروا وعده بنصركم، وإظهار دينكم على الدين كله، وأن الحق يدمغ الباطل، فإذا هو زاهق، واذكروا قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ثم خذوا أهبتكم، وتوكلوا على ربكم، فإنه لا يدع لخوف غيره مكاناً في قلوبكم.

ولما نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان، وأمرهم بخوفه وحده تعالى نهى رسوله ﷺ عن الحزن لمسارعة من سارع في الكفر، فقال: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾؛ أي: لا يهمنك أيها الرسول مسارعة ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِي﴾ نصرة دين ﴿الْكُفْرِ﴾، والشرك، ومظاهرة أهله على النبي ﷺ قيل: هم كفار قريش، وقيل: هم المنافقون، وقيل: هو عام في جميع الكفار، والمعنى: ولا يحزنك من يسارع في الكفر بنصرته بأن يقصد جمع العساكر لمحاربتك، وإبطال هذا الدين وإزالة هذه الشريعة، وهذا المقصود لا يحصل لهم، بل يضمحل أمرهم، وتزول شوكتهم، ويعظم أمرك، ويعلو شأنك فـ ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾؛ أي: إن هؤلاء المسارعين لن يضروا دين الله ورسوله بهذا الصنيع

﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر، وإنما يضرون أنفسهم بأن لا حظ لَّهم في الآخرة، ولهم عذاب عظيم.

قرأ نافع[1] ﴿يُحزِنك﴾ بضم الياء وكسر الزاي، من أحزن الرباعي هنا، وفي جميع القرآن حيثما وقع إلا قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ في سورة الأنبياء فقرأه بفتح الياء، وضم الزاي من حزن الثلاثي كباقي القراء في جميع ما في القرآن، فإنهم قرؤوه بفتح الياء وضم الزاي حيثما وقع، وهما لغتان: يقال حزنني الأمر، وأحزنني، والأول أفصح وقرأ ابن محيصن بضم الياء، والزاي من أحزن على النفي.

وقرأ [2] طلحة بن مصرف النحويُّ ﴿يسرعون﴾ من أسرع الرباعي في جميع القرآن، قال ابن عطية، وقراءة الجمهور أبلغ؛ لأن من يسارع غيره أشد اجتهاداً من الذي يسرع وحده.

وفي ضمن قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ دلالةٌ على أن وبال ذلك عائد عليهم ولا يضرون إلا أنفسهم، وفي توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ تسليةٌ له، وإيذان بأنه الرئيس المعتنى بشؤونه، ثم علل هذا النهي، وأكمل التسلية بتحقيق نفي ضررهم أبداً بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: إنهم لن يضروا أولياء الله، وهم النبي وصحبه شيئاً من الضرر، فعاقبة هذه المسارعة في الكفر، وبالٌ عليهم لا عليك، ولا على المؤمنين، فإنهم لا يحاربونك، فيضروك، وإنما هم يحاربون الله تعالى، ولا شك أنهم من أن يفعلوا ذلك عاجزون، فهم إذاً لا يضرون إلا أنفسهم، وفي جعل مضرتهم؛ أي: المؤمنين مضرة لله تعالى تشريف لهم، ومزيد مبالغة في تسليته ﷺ.

ثم بين أنهم لا يضرون إلاّ أنفسهم فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: إنما سارعوا في الكفر؛ لأن الله سبحانه وتعالى أراد ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾؛ أي: نصيباً ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: في الجنة؛ فلذلك خذلهم حتى سارعوا في

(١) مراح وفتح القدير.
(٢) البحر المحيط.

الكفر، وانهمكوا فيه، وقضى الله بذلك حرمانهم من نعيم الآخرة على وفق ما تقتضيه سنة الله، وإرادته، وفي تعبيره بصيغة الاستقبال دلالةٌ على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر.

﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المسارعين مع حرمانهم من الثواب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد في النار بسبب مسارعتهم في الكفر، فكان ضرر كفرهم عائداً عليهم جالبا لهم عدم الحظ في الآخرة، ومصيرهم في العذاب العظيم.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى حكم أولئك المسارعين إلى نصرة الكفر، والدفاع عنه، ومقاومة المؤمنين لأجله، وأرشد أنه لا يؤبه بهم، ولا يهتم بشأنهم، فهم إنما يحاربون الله، والله غالب على أمره، أشار إلى أن هذا حكم عام يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان، واستبدله به فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾؛ أي: الذين أخذوا الكفر بدلاً عن الإيمان، رغبة فيما أخذوا وإعراضاً عما تركوا ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ باستبدالهم الكفر عن الإيمان ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر، ولن ينقصوه شيئا باختيارهم الكفر، وإنما يضرون أنفسهم بما لهم من العذاب الأليم، كما قال: ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المشترين الكفر بالإيمان في الأخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم وفي هذا الكلام إيماء إلى شيئين:

أحدهما: تأكيد عدم إضرارهم بالنبي ﷺ.

وثانيهما: بيان سخافة عقولهم، وغباوة آرائهم إذ هم كفروا أوَّلاً، ثم آمنوا، ثم كفروا، بعد ذلك، وهذا دليل على شدة اضطرابهم، وعدم ثباتهم ومثل هؤلاء لا يخشى منهم شيء مما يحتاج إلى أصالة الرأي، وقوة التدبير.

ثم بين سبحانه وتعالى أن رغبة الكافرين عن الجهاد حباً في الحياة ليس من الخير لهم فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾؛ أي: ولا يظنن هؤلاء الكافرون أن إمهالنا لهم بتأخير الأجل، وإطالة أعمارهم ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ فإنه لا يكون كذلك إلا إذا ازدادوا فيه عملاً صالحاً ينتفعون به في أنفسهم، بتزكيتها، وتطيهرها من شوائب الأدران، وسيء الأخلاق، وينتفع به الناس في تهذيبهم،

وتحسين معاشهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِي﴾ ونمهل ﴿لَهُمْ﴾ في أعمارهم ونعطيهم الأموال والأولاد ﴿لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا﴾ وذنباً وطغياناً في أنفسهم، وإضلالاً لغيرهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: ذو إهانة، وإذلال لهم يهانون به يوماً فيوماً وساعة بعد ساعة.

والخلاصة[1]: أن هذا الإمهال والتأخر ليس عنايةً من الله بهم، وإنما هو قد جرى على سننه في الخلق بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر، فإنما هو ثمرة عمله، ومن مقتضى هذه السنة أن يكون الإمهال للكافر علة لغروره، وسبباً لاسترساله في فجوره، ونتيجة ذلك الإثم الذي يكتسبه: العذاب المهين.

وفي الآية من العبرة شيئان:

أحدهما: أن من شأن الكافر أن يزداد كفراً بطول عمره، ويتمكن من العمل بحسب استعداده.

وثانيهما: أن من شأن المؤمن إذا أنسأ الله أجله أن تكثر حسناته، وتزداد خيراته، فليجعل المؤمن هذا دستوراً فيما بينه وبين ربه، ويحاسب نفسه على مقتضاه، فإذا فقهه وعمل به خرج من الظلمات إلى النور، وكان من ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

قال[2] الفخر الرازي: بين الله تعالى في هذه الآية أن بقاء هؤلاء المتخلِّفين عن القتال، ليس خيراً من قتل أولئك الذين قتلوا في أحد، لأن هذا البقاء صار وسيلة إلى الخزي في الدنيا، والعقاب الدائم في الآخرة، وقتل أولئك الذين قتلوا في أحد صار وسيلةً إلى الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة فترغيب أولئك المثبطين في مثل هذه الحياة، وتنفيرهم عن مثل ذلك القتل لا يقبله إلا جاهل انتهى.

وروى[3] البغوي بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي الله

---

(١) المراغي.
(٢) الفخر الرازي.
(٣) الخازن.

عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره، وحسن عمله»، قيل: فأي الناس شر؟ قال: «من طال عمره، وساء عمله».

قرأ[١] ابن كثير، وأبو عمرو في الأربعة ﴿ولا تحسبن الذين كفروا﴾ ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون﴾ ﴿ولا تحسبن الذين يفرحون﴾ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ بتاء الخطاب، وضم الباء في قوله ﴿تَحْسَبُنَّهُم﴾ وقرأ نافع وابن عامر بالياء إلا قوله فلا ﴿تحسبنهم﴾ فإنه بالتاء. وقرأ حمزة كلّها بالتاء، وقرأ[٢] يحيى بن وثاب ﴿إنما نملي﴾ بكسر النون في الموضعين، وهي قراءة ضعيفة في العربية. وقال أبو حيان:[٣] قرأ يحيى بن وثاب ﴿ولا يحسبن﴾ بالياء ﴿وإنما نملي﴾ بالكسر انتهى. قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ كلام مستأنف بين فيه أن الشدائد هي محك صدق الإيمان، والخطاب[٤] فيه عند جمهور المفسرين للكفار، والمنافقين؛ أي: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر، والنفاق ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمنافقين، **والمعنى**: أي: ما كان الله سبحانه وتعالى ليترك المؤمنين المخلصين على الحال التي كنتم عليها أيها الناس في غزوة أحد من اختلاط المنافقين بالمخلصين، وإظهارهم أنهم من أهل الإيمان ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ ويفرق ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾، والمنافق ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، والمؤمن ويظهر حال كل منهما بإلقاء المحن والمصائب والقتل والهزيمة، لأن الشدائد هي التي تميز قوي الإيمان من ضعيفه وتزيل الالتباس بين الصادقين، والمنافقين فمن كان مؤمناً ثبت على إيمانه، وتصديق الرسول ﷺ ومن كان منافقاً ظهر نفاقه وكفره أو بالقرائن، فإن المؤمنين كانوا يفرحون بنصرة الإسلام وقوته، والمنافقون كانوا يغتمون بذلك.

أمَّا تكليف ما لا مشقة فيه، كالصلاة، والصدقة، القليلة، وغيرهما، فيقبلها المنافق كما يقبلها صادق الإيمان لما فيها من حسن الأحدوثة، والتمتع بمزايا الإسلام.

---

(١) مراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الشوكاني.

وفي الشدائد من الفوائد أشياء كثيرة:

منها: إتقاء المنافق إذا علم نفاقه، فقد يفضى صادق الإيمان ببعض أسرار الملة إلى المنافق لما يغلب عليه من حسن الظن به، حين يراه يؤدي الواجبات الظاهرة، ويشارك الصادقين في سائر الأعمال، فإذا هو أفشاها عرف حاله، وحذره الصادقون.

ومنها: أن تَزوَرَ الجماعة حالها إذ بتكشف أمر المنافقين تعرف أنهم عليها لا لها، وكذلك تعرف حال ضعاف الإيمان، الذين لم تربهم الشدائد.

ومنها: أنها تدفع الغرور عن النفس إذ قد يغتر المؤمن الصادق فلا يدرك ما في نفسه من ضعف في الاعتقاد والأخلاق حتى تمحصه الشدائد، وتبين له حقيقة أمره.

وقرأ الأخوان[1]: حمزة والكسائي ﴿يميز﴾ من ميز، وباقي السبعة ﴿يَمِيزَ﴾ من ماز، وفي رواية عن ابن كثير ﴿يُمِيْزَ﴾ من أماز، والهمزة ليست للنقل كما أن التضعيف ليس للنقل، بل أفعل، وفعل بمعنى الثلاثي المجرد، كحزن وأحزن وقدر الله وقدَّر.

ولمَّا كان يدور بخلد بعض الناس أن أقرب وسيلةٍ لتمييز المؤمن الصادق من المنافق أن يطلع المؤمنين على الغيب، حتى يعرفوا حقائق أنفسهم، وحقائق الناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم، فيعرفوا أن فلاناً من أهل الجنة، وفلاناً من أهل النار، أجاب الله تعالى عن هذا فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾ ويظهركم أيها الناس، وقيل: الخطاب فيه لكفار قريش فقط، ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، أي: على ما شأنه أن يغيب ويختفي عنكم حتى تميزوا بين الخبيث والطيب، فإن الله سبحانه وتعالى هو المستأثر بعلم الغيب لا يظهر على غيبه أحداً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَجْتَبِى﴾، ويختار ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ويريد إطلاعه على الغيب، فيطلعه على ما يشاء من بعض المغيبات كما وقع لنبينا

---

(١) البحر المحيط.

محمد ﷺ من تعيين كثيرٍ من المنافقين، فإن ذلك كان بتعليم من الله له، لا لكونه يعلم الغيب. وقيل[1] المعنى. وما كان الله ليطلعكم على الغيب في من يستحق النبوة، حتى يكون الوحي باختياركم. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي﴾ الخ هذا استدراكٌ على معنى الكلام، المتقدم؛ لأنه لما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ توهم أنه لا يطلع أحداً على غيبه لعموم الخطاب، فاستدراك بالرسل إزالةً لذلك الوهم، كأنه قال: إلا الرسل فإنه يطلعهم على الغيب.

والحاصل: أنه لم يكن[2] من شأنه تعالى أن يطلع عامة الناس على الغيب؛ إذ لو فعل ذلك.. لأخرج الإنسان من طبيعته، فإنه تعالى خلقه يحصل رغائبه، ويدفع المكاره عنه بالعمل الكسبيّ، الذي تهدي إليه الفطرة، وترشد إليه النبوة.

ومن ثم جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس، ويميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد، والتضحية بالنفس، وبذل المال في سبيل الحق، والخير، كما ابتلي المؤمنون في وقعة أحد بخروج العدو بجيش عظيم لمقاتلتهم، وابتلي الرماة منهم بالمخالفة، وإخلاء ظهور قومهم لعدوّهم وابتلوا بظهور العدو عليهم جزاء ما فعلوا من المخالفة، فظهر نفاق المنافقين، وزلزل ضعفاء المؤمنين زلزالاً شديداً، وثبت كملة المؤمنين، وصاروا كالجبال الرواسي التي لا تزعزعها الرياح والأعاصير.

ولكن الله يختار من رسله من يشاء فيطلعه على ما في قلوب المنافقين من كفر ونفاق، وعلى ما ظهر منهم من أقوال وأفعال.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

وفي التعبير بالاجتباء إشارة إلى أنَّ الوقوف على أسرار الغيب منصبٌ جليلٌ تتقاصر عنه الهمم، ولا يؤتيه الله إلا لمن اصطفاه لهداية الأمم.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وبعد أن رد الله على ما طعن به المنافقون في نبوة محمد ﷺ من وقوع الحوادث التي حصلت في أحد، وبين أن فيه كثيراً من الفوائد كتمييز الخبيث من الطيب، أمرهم بالإيمان به وبرسله فقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾؛ أي: إذا ثبت أنه تعالى يختار من رسله من يشاء، فيطلعه على بعض المغيبات، ومنهم محمد ﷺ إذ ثبتت نبوته بإطلاع الله تعالى له على بعض المغيبات، وإخباره لكم بها في غير ما موطنٍ، فآمنوا بالله ورسله الذين ذكرهم الله في كتابه، وقص علينا قصصهم؛ لأنه هو المطلوب منكم، ودعوا الاشتغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم الله سبحانه وتعالى، ومعنى الإيمان بالله: بأن تقدروه حق قدره، وتعلموا أنه وحده هو العالم بالغيوب، ومعنى الإيمان بالرسل: أن تنزلوهم منازلهم، بأن تعلموا أنهم عبادٌ مجتبون، لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى، ولا يخبرون إلا بما أخبر الله به من الغيوب، وليسوا من علم الغيب في شيء. قاله الزمخشري. وعمم الأمر بالإيمان بالرسل جميعاً، مع أن سوق الكلام في الإيمان بالنبي ﷺ للإيماء إلى أن الإيمان به يقتضي الإيمان بهم؛ لأنه ﷺ مصدق لما بين يديه من الرسل، وهم شهداء على صحة نبوته.

﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ بما جاؤوا به من أخبار الغيب ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿فَلَكُمْ﴾ أيها المؤمنون بما ذكر ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وثواب جسيم، لا يستطاع الوصول إلى معرفة قدره.

وقل أن ذكر القرآن الإيمان، إلا قرن به التقوى؛ كما قل أن ذكر الصلاة إلا قرن بها الزكاة حثاً على عمل البرّ، والرأفة بالفقراء والبائسين، وإشارة إلى أن الإيمان لا يكمل إلا بهما.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ﴾ الموصول فيه فاعل على قراءة الياء التحتانية والمفعول الأول محذوف لدلالة يبخلون عليه، والمعنى: ولا يظنن الذين يبخلون بما أعطاهم الله من فضله، وعطائه، بخلهم إياه هو خيراً لهم ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: بخلهم إياه ﴿شَرٌّ لَّهُمْۖ﴾ وضررٌ عليهم، لأن أموالهم ستزول عنهم، ويبقى عليهم، وبال البخل، والمعنى: لا

يحسبن البخلاء أن جمعهم المال، وبخلهم بانفاقه ينفعهم بل هو مضرةٌ عليهم في دينهم ودنياهم. وأما على قراءة من قرأ بالتاء الفوقانية، فالفعل مسند إلى ضمير النبي ﷺ والمفعول الأول محذوف أيضاً، والمعنى: ولا تحسبن يا محمد بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، بل هو شر، وضرر لهم.

وحاصل المعنى: ولا يظنن أحدٌ أن بخل الباخلين بما أعطاهم من فضله ونعمه هو خيراً لهم؛ لأنهم مطالبون بشكران النعم، والبخل بها كفرانٌ، لا ينبغي أن يصدر من عاقل، وقال القرطبي: والبخل في اللغة: أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه، فأما من منع ما لا يجب عليه.. فليس ببخيل.

وقال المراغي: والمراد من البخل بالفضل البخل به في أداء الزكاة المفروضة، وفي الأحوال التي يتعين فيها بذل المال كالإنفاق لصد عدو يجتاح البلاد، ويهدد استقلالها، ويصبح أهلها أذلة بعد أن كانوا أعزةً أو إنقاذ شخصٍ من مخالب الموت جوعاً.

ففي كل من هذه الأحوال يجب بذل المال؛ لأنه يجري مجرى دفع الضرر عن النفس.

وليس الذم والوعيد على البخل بما يملك الإنسان من فضل ربه، إذ أن الله أباح لنا الطيبات؛ لنستمتع بها، ولأن العقل قاضٍ بأن الله لا يكلف الناس، ببذل كل ما يكسبون، ويبقون عراةً جائعين، ومن ثم قال في حق المؤمنين المهتدين: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وجاءت الآية بطريق التعميم ترغيباً في بذل المال بدون تحديد، ولا تعيين، ووكل أمر ذلك إلى اجتهاد المؤمن الذي يتبع عاطفة الإيمان التي في قلبه، وما تحدثه في النفس من بذل الواجب، والزيادة عليه إذا هو تذكر أن في ماله حقاً للسائل والمحروم. وقرأ حمزة ﴿تحسبن﴾ بالتاء الفوقانية، وقرأ باقي السبعة بالياء كما مرّ. وقرأ الأعمش بإسقاط ﴿هو﴾ من قوله: ﴿هُوَ خَيْرًا﴾.

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾، أي: هو شر عظيم لهم، وقد نفى أوّلاً أن يكون خيراً، ثم أثبت كونه شراً؛ لأن المانع للحق إنما يمنعه؛ لأنه يحسب أن في

منعه خيراً له لما في بقاء المال، في يده من الانتفاع به، في التمتع باللذات، وقضاء الحاجات، ودفع الغوائل، والآفات.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «إيّاكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشحّ، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا». أخرجه أبو داود.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق»، أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تفسير لقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾؛ أي: سيجعل ما بخلوا به من المال طوقاً في أعناقهم، يوم القيامة، ويلزمهم ذنبه، وعقابه، ولا يجدون إلى دفعه سبيلاً، أو المعنى سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق.

وقال مجاهد: إن المعنى سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا من أموالهم يوم القيامة عقوبةً لهم، فلا يستطيعون ذلك، ويكون ذلك توبيخاً لهم على معنى: هلا فعلتم ذلك حين كان ممكناً ميسوراً، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وقال بعضهم: إن التطويق حقيقي وأنهم يطوقون بطوق يكون سبباً لتعذيبهم؛ فتصير تلك الأموال حيات تلتوي في أعناقهم، فقد روى البخاري، والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالاً.. فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع ـ أي: ثعباناً عظيماً ـ له زبيبتان ـ نكتتان سوداوان فوق عيني الحية ـ فيأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية».

وقيل: المراد البخل: بالعلم؛ وذلك لأن اليهود كانوا يكتمون نعت

محمد ﷺ فكان ذلك الكتمان بخلاً، فحينئذٍ يكون معنى سيطوقون أنَّ الله تعالى يجعل في رقابهم طوقاً من نار، قال ﷺ: «من سئل عن علم يعلمه، فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار». والمعنى: أنهم عوقبوا في أفواههم، وألسنتهم بهذا اللجام؛ لأنهم لم ينطقوا بأفواههم، وألسنتهم بما يدل على الحق.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده، لا لأحد سواه ﴿مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: جميع ما يتوارث به أهل السموات والأرض، بعضهم من بعض من مال أو غيره، كجاه، وعلم، وقوة، فينقل من واحد إلى آخر لا يستقر في يد واحد، ولا يسلم التصرف فيه لأحد إلى أن يفنى الوارثون، والموروثون، ويبقى مالك الملك رب العالمين، فما لهؤلاء القوم البخلاء يبخلون بملكه عليه، ولا ينفقونه في سبيله وابتغاء مرضاته، وهو لله تعالى لا لهم، وإنما كان عندهم عاريةً مستردةً، والميراث في الأصل هو: ما يخرج من مالك إلى آخر، ولم يكن مملوكاً لذلك الآخر قبل انتقاله إليه بالميراث، ومعلوم أن الله تعالى هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته.

وفي الآية إيماء إلى أنَّ كل ما يعطاه الإنسان من مال، وجاه، وقوة، وعلم، فإنه عرض زائل، وصاحبه فان غير باق، فلا ينبغي أن يستبقي الفاني ما هو مثله في الفناء، بل عليه أن يضع الأشياء في مواضعها، التي تصلح لها، وبذا يكون خليفة الله في أرضه محسناً للتصرف فيما استخلف فيه ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من البخل والسخاء ﴿خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، أو فيجازيهم عليه، أي: والله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية من أعمالكم، ولا ما تنطوي عليه جوانحكم، فيجازي كل عامل بما عمل بحسب تأثير عمله في تزكية نفسه، أو تدسيسها ونيته في فعله كما في الحديث «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى».

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ﴿يعملون﴾ بالياء على الغيبة جرياً على ﴿يَبْخَلُونَ﴾ و﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتاء على الالتفات، فيكون ذلك خطاباً للباخلين.

الإعراب

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم ﴿بلا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بـ﴿نون﴾ التوكيد، و﴿نون﴾ التوكيد حرف لا محل له من الإعراب مبني على الفتح، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنت يعود على محمد، أو على كل مخاطب، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول أول لـ﴿تحسبن﴾. ﴿قُتِلُوا۟﴾ فعل مغير ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿قتلوا﴾. ﴿أَمْوَٰتًۢا﴾ مفعول ثان لـ﴿حسب﴾. ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ ﴿بَلْ﴾ حرف عطف واضراب. ﴿أَحْيَآءٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم أحياء، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يرزقون﴾. وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فيه خمسة أوجه:

أحدها: أن يكون خبراً ثانياً لـ﴿أحياء﴾ على قراءة الجمهور.

الثاني: أن يكون ظرفاً لـ﴿احياء﴾ لأن المعنى يحيون عند ربهم.

الثالث: أن يكون ظرفاً لـ﴿يرزقون﴾، أي: يقع رزقهم في هذا المكان الشريف.

الرابع: أن يكون صفة لـ﴿أحياء﴾ فيكون في محل رفع على قراءة الجمهور، ونصب على قراءة ابن أبي عبلة.

الخامس: أن يكون حالاً من الضمير المستكن في ﴿أَحْيَآءٌ﴾، والمراد بالعندية المجاز عن قربهم بالتكرمة انتهى. ﴿يُرْزَقُونَ﴾ فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿أحياء﴾، ويجوز أن تكون حالاً من الضمير، في

---

(١) الجمل.

﴿أَحْيَاءٌ﴾، أي: يحيون مرزوقين.

﴿فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

﴿فَرِحِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿يُرْزَقُونَ﴾. وفي «الجمل»[1] قوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ فيه خمسة أوجه:

أحدها: أن يكون حالاً من الضمير في ﴿أَحْيَاءٌ﴾.

الثاني: أن يكون حالاً من الضمير في الظرف.

الثالث: أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يُرْزَقُونَ﴾.

الرابع: أنه منصوب على المدح.

الخامس: أنه صفة لـ﴿أحياء﴾ وهذا يختص بقراءة ابن أبي عبلة. ﴿فَرِحِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرِحِينَ﴾. ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: آتاهموه؛ لأن أتى هنا بمعنى أعطى. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه حال من ضمير المفعول الثاني المحذوف، والجملة الفعلية صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير المفعول المحذوف.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ الواو عاطفة. ﴿يستبشرون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على ﴿فَرِحِينَ﴾ على كونها حالاً من ضمير ﴿يُرْزَقُونَ﴾ لأن ﴿فَرِحِينَ﴾ اسم فاعل يشبه الفعل المضارع فيجوز عطف الفعل عليه. ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يستبشرون﴾ ﴿لَمْ يَلْحَقُوا۟﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿بِهِم﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يَلْحَقُوا۟﴾ تقديره: حال كونهم

---

(١) الجمل.

متخلفين عنهم في الزمان أو متعلق بـ﴿يلحقوا﴾. ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره أنه. ﴿لا﴾ نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾ اسمها مرفوع. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾، تقديره: أنه لا خوف موجوداً عليهم، وجملة لا من اسمها، وخبرها في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر مجرور على كونه بدلاً من الموصول في قوله ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ بدل اشتمال تقديره، يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم بعدم خوفهم. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿يَحْزَنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لا﴾ الأولى على كونها خبراً؛ لـ﴿أن﴾ المخففة، والتقدير: يستبشرون بعدم وجود خوفهم، وبعدم حزنهم.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة مكررة لتأكيد الجملة السابقة. ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ جار، ومجرور متعلق بـ﴿يستبشرون﴾. ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿نعمة﴾ تقديره: بنعمة كائنة من الله. ﴿وَفَضْلٍ﴾ معطوف على ﴿نعمة﴾. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ الواو عاطفة. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿اللَّهَ﴾ اسمها. ﴿لَا يُضِيعُ﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿يضيع﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾. ﴿أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور على كونه معطوفاً على ﴿نعمة﴾ تقديره: يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وبعدم إضاعة الله أجر المؤمنين.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل الجر صفة لـ﴿المؤمنين﴾، أو في محل النصب على إضمار أعني، أو في محل الرفع على إضمارهم، أو على كونه مبتدأ خبره جملة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾. ﴿اسْتَجَابُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة

الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿استجابوا﴾. ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ معطوف على الجلالة. ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ جار ومجرور متعلق باستجابوا. ﴿مَآ﴾ مصدرية. ﴿أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية صلة ما المصدرية وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد إصابة القرح إياهم. ﴿لِلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً. ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنۡهُمۡ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿أَحۡسَنُواْ﴾. ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَحۡسَنُواْ﴾. ﴿أَجۡرٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة له، والجملة من المبتدأ المؤخر، والخبر المقدم، مستأنفة لا محل لها من الإعراب، أو في محل الرفع خبر لقوله ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ إن قلنا إنه مبتدأ.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول لفعل محذوف، تقديره: أمدح الذين قال لهم الناس، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير لهم. ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾ وإن شئت قلت ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱلنَّاسَ﴾ اسمها. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَمَعُواْ﴾ فعل وفاعل. ﴿لَكُمۡ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾. ﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية. ﴿اخشوهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿قَدۡ جَمَعُواْ﴾. ﴿فَزَادَهُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿زادهم﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير مستتر فيه، تقديره: هو يعود على القول المذكور ﴿إِيمَٰنٗا﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿وَقَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾. ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ مقول محكي لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ

مؤخر. ﴿حَسْبُنَا﴾ خبر مقدم، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قالوا﴾. ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف وجوباً تقديره: هو يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف تقديره: وخرجوا مع النبي ﷺ إلى سوق بدر، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ ﴿انقلبوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف. ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ جار ومجرور حال من ﴿واو﴾ ﴿انقلبوا﴾ تقديره حالة كونهم ملتبسين بنعمة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿نعمة﴾. ﴿وَفَضْلٍ﴾ معطوف على ﴿نعمة﴾. ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ جازم وفعل، ومفعول، وفاعل والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿انقلبوا﴾ ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ الواو عاطفة. ﴿اتبعوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ أو في محل النصب حال من فاعل ﴿انقلبوا﴾. ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ خبر ومضاف إليه. ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة لـ﴿فضل﴾، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ونفي بمعنى ما النافية، وإلا المثبتة حرف لا محل له من الإعراب. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ فعل ومفعول ثان، ومضاف إليه، وفاعله ضمير مستتر يعود على اسم الإشارة، أو على الشيطان، والمفعول الأول محذوف، تقديره: يخوفكم أولياءه؛ أي: أصحابه الكفار، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من ﴿الشيطان﴾، والعامل فيه اسم الإشارة. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن ذلك المخوف هو الشيطان، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول: ﴿لا تخافوهم﴾ ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَخَافُوهُمْ﴾ فعل وفاعل

ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَخَافُونِ﴾ الواو عاطفة. ﴿خافوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل. و﴿النون﴾ للوقاية، ﴿وياء﴾ المتكلم المحذوفة اجتزىء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به. وفي «الفتوحات»: هذهِ الياء التي بعد النون اختلف القراء السبعة في إثباتها لفظاً، واتفقوا على حذفها في الرسم؛ لأنها من ياءات الزوائد، وكلها لا ترسم، وجملتها في القرآن اثنان وستون اهـ شيخنا. والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فلا تخافوا﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿إِن كُنتُم﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بإن على كونه فعل شرط لها. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ محذوف معلوم مما قبله تقديره: إن كنتم مؤمنين، فخافون، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو استئنافية. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَحْزُنكَ﴾ فعل، ومفعول به. ﴿الَّذِينَ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يُسَارِعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿فِي الْكُفْرِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يسارعون﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب. و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول. ﴿شَيْئًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، أي: ضرراً شيئاً، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَّا يَجْعَلَ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَجْعَلَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المصدرية، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الأول لـ﴿جعل﴾. ﴿حَظًّا﴾ مفعول ثان لـ﴿جعل﴾. ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ صفة لـ﴿حظاً﴾ أو متعلق بـ﴿جعل﴾، وجملة ﴿جعل﴾ صلة أن المصدرية وأن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يريد﴾ تقديره: يريد الله عدم جعل حَظّهم في

الآخرة. ﴿ولهم﴾ الواو استئنافية. ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها. ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ متعلق بـ﴿اشتروا﴾. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول به. ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿وَلَهُمْ﴾ الواو استئنافية. ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾، مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد، و﴿نون﴾ التوكيد حرف لا محل له، مبني على الفتح، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿ما﴾ مصدرية، فهي كلمة مستقلة، وكان المناسب أن تكتب مفصولة من ﴿أن﴾ لكن طريقة المصحف كتابتها موصولة. ﴿نُمْلِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة ما المصدرية ما مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه اسم ﴿أن﴾ تقديره أن إملاءنا. ﴿خَيْرٌ﴾ خبر ﴿أن﴾. ﴿لِّأَنفُسِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بخير، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها، في تأويل مصدر ساد مسدّ مفعولي ﴿حسب﴾، تقديره: ولا يحسبن الذين كفروا خيرية إملائنا لهم، أو ساد مسد المفعول الثاني على قراءة التاء في ﴿تحسبن﴾، والمفعول الأول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ والفاعل ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ أو غيره، والتقدير: ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا خيرية إملائنا لهم. ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾ ﴿إنما﴾ أداة حصر. ﴿نُمْلِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة

استئنافاً بيانياً كأنه قيل: ما بالهم يحسبون الإملاء خيراً، فقيل: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾. ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي. ﴿يزدادوا﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي والواو فاعل. ﴿إِثْمًاۚ﴾ مفعول به والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المضمرة. وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره: إنما نملي لهم لإرادة ازديادهم إثماً، الجار والمجرور متعلق بنملي، ﴿وَلَهُمْ﴾ الواو استئنافية. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة له والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾.

﴿مَّا﴾ نافية. ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿لِيَذَرَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وجحود. ﴿يذر﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، تقديره: ما كان الله ليترك المؤمنين على ما أنتم عليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة، وإنما أولنا كذلك، لأن ﴿يذر﴾ فعل جامد، لا مصدر له فأخذنا مصدر ما هو بمعناه، وهو ترك. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه ﴿اللام﴾: تسمى لام الجحود، وينصب المضارع بعدها بإضمار أن، ولا يجوز إظهارها، والفرق بينها وبين لام كي أن هذه على المشهور شرطها أن تكون بعد كون منفي بما، إن كان ماضياً، أو بلم إن كان مضارعاً، وعرفها بعضهم في بيت واحد فقال:

وَكُلُّ لاَمٍ قَبْلَهُ مَا كَانَا ... أَوْ لَمْ يَكُنْ فَلِلْجُحُودِ بَانَا

وفي خبر ﴿كَانَ﴾ في هذا الموضع، وما أشبهه قولان، أحدهما: وهو قول البصريين، أنه محذوف، وأن اللام مقوية لتعدية ذلك الخبر المقدر لضعفه، والتقدير: ما كان الله مريداً، لأن ﴿يذر﴾، فأن يذر، هو مفعول مريداً، والتقدير: ما كان الله مريداً ترك المؤمنين على ما أنتم عليه. والثاني: قول الكوفيين أن ﴿اللام﴾ زائدة لتأكيد النفي، وأن الفعل بعدها هو خبر ﴿كَانَ﴾ و﴿اللام﴾ عندهم هي العاملة النصب في الفعل بنفسها، لا بإضمار أن، والتقدير: عندهم: ما كان

الله يذر المؤمنين. وضعف أبو البقاء مذهب الكوفيين؛ لأن ما بعدها قد انتصب، فإن كان النصب باللام نفسها فليست زائدة، وإن كان النصب بأن فسد المعنى؛ لأن أن وما في حيزها في تأويل مصدر، والخبر في باب كان هو الاسم في المعنى، فيلزم أن يكون المصدر الذي هو معنى من المعاني صادقاً على اسمها، وهو محال، انتهت بتصرف وزيادة. وقد أشبعنا الكلام في لام الجحود على كلا المذهبين بما لا مزيد عليه في كتابنا «الخريدة البهية في إعراب أمثلة الآجرومية» فراجعه.

﴿عَلَىٰ مَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يذر﴾ ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿عَلَيْهِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿عليه﴾. ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر، وغاية. ﴿يَمِيزَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حتى﴾ بمعنى إلى، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ مفعول به. ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ متعلق بـ﴿يميز﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى ميزه أو تمييزه الخبيث من الطيب، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يذر﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وجحود. ﴿يطلعكم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ متعلق بـ﴿يطلع﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: وما كان الله لإطلاعكم الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً لـ﴿كان﴾ تقديره: وما كان الله مريداً لإطلاعكم على الغيب، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك على ما فهم من قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ من أنه لا يطلع أحداً على الغيب حتى الأنبياء؛ لعموم الخطاب فيه. ولفظ الجلالة اسمها. ﴿يَجْتَبِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿مِن رُّسُلِهِۦ﴾ جار

ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يجتبى﴾. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿يَشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة من الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء اجتباءه، وجملة ﴿يَجْتَبِى﴾ في محل الرفع خبر لكن، وجملة لكن معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن الله لا يطلع على غيبه إلا من اجتبى من رسله، وأردتم بيان ما الأصلح لكم؛ فأقول ﴿أمنوا﴾. ﴿أمنوا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بأمنوا﴾. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ الواو استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾. ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ معطوف عليه. ﴿فَلَكُمْ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿لكم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل الجزم بأن على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ الواو استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية. ﴿يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَبْخَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يبخلون﴾. ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل، ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إياه، لأن آتى بمعنى: أعطى يتعدى إلى مفعولين. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه حال من الضمير المحذوف، وجملة ﴿آتى﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط الضمير المحذوف، ﴿هُوَ خَيْرًا﴾ هو ضمير فصل. ﴿خَيْرًا﴾ مفعول ثان لـ﴿حسب﴾؛ والمفعول الأول محذوف تقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من

فضله بخلهم هو خيراً لهم. ﴿لَّهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خيراً﴾ هذا على قراءة الياء، وأما على قراءة التاء: فالفاعل ضمير المخاطب يعود على النبي ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول أول، ولكنه على تقدير مضاف تقديره: ولا تحسبن يا محمد بخل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم.

فائدة: وكون ﴿هو﴾ هنا ضمير فصل متعين؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون مبتدأ، أو بدلاً، أو توكيداً، والأول منتف لنصب ما بعده، وهو خيراً، وكذا الثاني؛ لأنه كان يلزم أن يوافق ما قبله في الإعراب، فكان ينبغي أن يقال: إياه لا هو، وكذا الثالث. اهـ «سمين» ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ﴿بَلْ﴾ حرف ابتداء وإضراب، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ. ﴿شَرٌّ﴾ خبر. ﴿لَّهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿طوق﴾. ﴿بَخِلُوا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير به. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يطوقون﴾ ﴿وَلِلَّهِ﴾ الواو استئنافية. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خبير﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما تعملونه. ﴿خَبِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ من باب استفعل من الاستبشار، والاستبشار السرور الحاصل بالبشارة، وأصله: من البشرة؛ لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه، وقال ابن عطية: وليس استفعل هنا بمعنى طلب البشارة، وإنما هو بمعنى الفعل

المجرد، كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ بمعنى غني، ويقال: بشر الرجل بكسر الشين. فيكون استبشر بمعناه، ولا يتعين هذا المعنى بل يجوز أن يكون مطاوعاً لأفعل، وهو الأظهر، أي: أبشره الله فاستبشر، كقولهم: فأكانه فاستكان، وأراحه فاستراح، وإنما كان هذا الأظهر هنا؛ لأنه من حيث المطاوعة يكون منفعلاً عن غيره، فحصلت له البشرى بإبشار الله له بذلك، ولا يلزم هذا المعنى. إذا كان بمعنى المجرد؛ لأنه لا يدل على المطاوعة ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ﴿استجاب﴾ من باب استفعل الـ﴿سين﴾ و﴿التاء﴾ فيه زائدتان، فهو بمعنى ﴿أجابوا﴾ ﴿القرح﴾ بفتح ﴿الفاء﴾، وسكون ﴿العين﴾ مصدر قرح من باب فتح يقال: قرحه إذا جرحه، قرحاً يجمع على قروح، والقرح أثر السلاح بالبدن، والقرحة بضم أوله، وفتحه مع سكون ثانيه فيهما الجراحة المتقادمة التي اجتمع فيها القيح.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ حسب في الأصل مصدر حسبه حسباً إذا كفاه. فهو مصدر أريد به اسم الفاعل، فهو بمعنى المحسب؛ أي: الكافي، وقال في «الكشاف» والدليل على أنه بمعنى المحسب أنه يوصف به، فتقول: مررت برجل حسبك من رجل، أي: كافيك منه، فتصف به النكرة إذ إضافته غيرُ محضة؛ لكونه بمعنى اسم الفاعل غير الماضي المجرد من أل، قال الشاعر:

فَتَمْلأُ بَيْتَنَا أُقْطاً وَسَمْنَا وَحَسْبُكَ مِنْ غِنَىً شِبَعٌ وَرِيُّ

والوكيل فعيل، بمعنى مفعول؛ أي: الموكول إليه الأمور؛ أي: نعم الموكول إليه أمورنا، أو الكافي، أو الكافل.

﴿حَظًّا﴾ ﴿الحظ﴾ النصيب: ويستعمل في الخير، والشر، وإذا أطلق يكون للخير ﴿نُمْلِي﴾ الإملاء التأخير، والإمهال. قال القرطبي: والمراد بالإملاء هنا طول العمر، ورغد العيش. وفي «المصباح» أمليت له في الأمر، أخرت، وأمليت للبعير في القيد، أرخيت له، ووسعت ﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يذر﴾ فعل جامد، لا يتصرف كيدع استغناء عنه بتصرف مرادفه، وهو يترك، ولم يستعمل منه ماض استغناء عنه بترك، وأصل يذر: يوذر، فحذفت الواو منه من غير موجب تصريفي،

تشبيهاً له بيدع إذ لم تقع الواو في ﴿يذر﴾ بين ياء وكسرة، ولا ما هو في تقدير الكسرة؛ إذ الواو فيه، وقعت بين ياء وفتحة أصلية، بخلاف يدع، فإن الأصل فيه يودع، فحذفت الواو، لوقوعها بين الياء، وبين ما هو في تقدير الكسرة، إذ أصله يودع مثل يوعد، وإنما فتحت الدال منه؛ لأن لامه حرف حلقي، فيفتح له ما قبله، ومثله يطأ، ويسع، ويقع، ونحو ذلك.

﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ يقرأ بالتخفيف من ماز يميز، من باب باع، وبالتشديد من ميز من باب فعل، وهما بمعنى واحد، بمعنى فصل الشيء من الشيء، وقيل: لا يكون ماز إلا في كثير من كثير، فأما واحد من واحد، فيتميز على معنى يعزل، ذكره أبو حيان، وليس التشديد لتعدي الفعل مثل فرح، وفرحته، لأن ماز وميز يتعديان إلى مفعول واحد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ ﴿اجتبى﴾ من باب افتعل من جبوت الماء أو المال وجبيته، وهما لغتان؛ فـ﴿ـالياء﴾ في ﴿يَجْتَبِى﴾ تحتمل أن تكون على أصلها، وأن تكون منقلبة من واوٍ لانكسار ما قبلها. ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أصل ﴿ميراث﴾ موراث فقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، والميراث مصدر ميمي كالميعاد. قال ابن الأنباري: يقال ورث فلان إذا انفرد به بعد أن كان مشاركاً فيه، و قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ لأنه انفرد بذلك بعد أن كان داود مشاركاً له فيه.

البلاغة

قال أبو حيان(١): وقد تضمنت هذه الآيات فنوناً من البلاغة والبديع:

منها: الاختصاص في قوله: ﴿أجر المؤمنين﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ و﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ وفي اسمه في عدة مواضع، و﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وفي ذكر الإملاء.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ و﴿لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الاستعارة في ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ و﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ و﴿نُمۡلِي﴾، و﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾، و﴿الخبيث﴾ و﴿الطيب﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أنتم﴾ إن كان خطاباً للمؤمنين، إذ لو جرى على لفظ المؤمنين لقال على ما هم عليه، وإن كان خطاباً لغيرهم. كان من تلوين الخطاب، وفي ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فيمن قرأ بتاء الخطاب.

ومنها: الحذف في مواضع انتهى.

قوله[1]: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾ تعليل للنهي، وتكميل للتسلية بتحقيق نفي ضررهم؛ أي: لن يضروا بفعلهم ذلك أولياء الله ألبتة، وتعليق نفي الضرر به تعالى لتشريفهم، وللإيذانِ بأن مضارتَهم بمنزلة مضارته تعالى، وفيه مزيد مبالغة في التسلية.

ووصف تعالى[2] عذابه في مقاطع هذه الآيات الثلاث بـ﴿عظيم﴾، و﴿أليم﴾ و﴿مهين﴾، ولكل من هذه الصفات، مناسبة تقتضي ختم الآية بها:

أما الأولى: فإن المسارعة في الشيء، والمبادرة في تحصيله، والتحلي به يقتضي جلالة ما سورع فيه، وأنه من النفاسة، والعظم، بحيث يتسابق فيه، فختمت الآية بعظم الثواب، وهو جزاؤهم على المسارعة في الكفر، إشعاراً بخساسة ما سابقوا فيه.

وأما الثانية: فإنه ذكر فيها اشتراء الكفر بالإيمان، ومن عادة المشتري الاغتباطُ بما اشتراه، والسرورُ به عند كون الصفقة رابحةً، وتألمه عند كونها خاسرة فناسبها وصف العذاب بالأليم.

وأما الثالثة: فإنه ذكر الإملاء، وهو الامتاع بالمال، والبنين، والصحة،

---

(١) الجمل.
(٢) الجمل والبحر المحيط.

وكان هذا الإمتاع سبباً للتعزز، والتمتع، والاستطالة، فختمت الآية بإهانة العذاب لهم، وأنّ ذلك الإملاءَ المنتج عنه في الدنيا التعزز، والاستطالة، مآله في الآخرة إلى إهانتهم بالعذاب الذي يهين الجبابرة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة معركة أحد، وما فيها من الأحداث العجيبة، وتناولت تلك الآيات ضمن ما تناولت مكائدَ المنافقين، ودسائسهم، وما انطوت عليه نفوسهم من الكيد للإسلام، والغدر بالمسلمين، وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله.. أعقبَ سبحانه وتعالى ذلك بذكر دسائس اليهود، وأساليبهم الخبيثة في مُحاربة الدعوة الإسلامية، بطريق التشكيك، والبلبلة، والكيد، والدس ليحذر المؤمنين من خطرهم كما حذرهم من المنافقين، والآيات الكريمة، تتحدث عن اليهود، وموقفهم المخزي من الذات الإلهية، واتهامهم لله عز وجل بأشنع الاتهامات بالبخل والفقر، ثم نقضهم للعهود، وقتلهم

للأنبياء، وخيانتهم الأمانة التي حملهم الله تعالى إياها إلى آخر ما هنالك من جرائمَ وشنائعَ اتصف بها هذا الجنسُ الملعونُ.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ...﴾ الآيات، مناسبتُها[١] لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما سلى نبيه ﷺ فيما سلف عن تكذيب قومه له بأن كثيراً من الرسل قبلك، قد كذبوا كما كذبت، ولاَقُوا من أقوامهم من الشدائد مثلَ ما لاقيتَ بل أشد مما لاقيت، فقد قتلوا كثيراً منهم كيحيى، وزكرياء عليهما السلام.. زاده هنا تسلية، وتعزية أخرى، فأبان أن كل ما تراه من عنادهم فهو منته إلى غاية، وكل آت قريب، فلا تضجَرْ ولا تحزَن على ما تَرى منهم، وأنهم سيجازون على أعمالهم في دار الجزاء، كما تجازى، وحسبك ما تصيب من حسن الجزاء، وحسبهم ما أصيبوا به، وما يُصابون به من الجزاء في الدنيا، وسيوفون الجزاء كاملاً يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ الآية، مناسبتها[٢] لما قبلها أن الله سبحانه وتعالى لما حكى عن اليهود شبهاً، ومطاعنَ في نبوة محمد ﷺ وأجاب عنها بما علمتَ فيما سلف.. أردفه هذه الآية لبيان عجيب حالهم، وغريب أمرهم، وأنه لا يليق بهم أن يطعنوا في نبوته، ولا أن يوجهوا شبهاً لدينه ذاك أن اليهود، والنصارى، أمروا بشرح ما في التوراة، والإنجيل، وبيان ما فيهما من الدلائل الناطقة بنبوة محمد ﷺ وصدق رسالته، فكيف يليق بهم بعد هذا إيراد تلك المطاعن، والشبه، وكانوا أجدر الناس بدفعها، وأحقهم بتأييده، والذود عن دينه لما في كتابيهما من البشارة به، وتوكيد دعوته فالعقل قاض بأن يظاهروه ودينهم حاكم بأن يؤيدوه، ومن العجب العاجب أن يطرحوا حكم العقل والنقل وراءهم ظهرياً، وهل مثل هؤلاء يجدي معهم الحجاج والجدال، أو تقنعهم قوة الدليل والحجة.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «دخل أبو بكر بيت المدراس، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص فقال له: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عنا.. ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، فغضب أبو بكر فضرب وجهه، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد أنظر ما صنع صاحبك بي فقال: «يا أبا بكر ما حملك على ما صنعت»؟ قال يا رسول الله، قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء فجحد فنحاص فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتت اليهود النبي ﷺ حين أنزل الله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فقالوا: يا محمد افتقر ربك، يسأل عبادهُ، فأنزل الله ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ...﴾ الآية.

قوله تعالى[2]: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ...﴾ الآيةَ، روى ابن أبي حاتم، وابن المنذر بسند حسن، عن ابن عباس، أنها نزلت فيما كان بين أبي بكر، وفنحاص من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

وأخرج أبو داود[3] رحمه الله (ج ٣ ص ١١٤) بسنده إلى الزهري عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه ـ وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ـ وكان كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبي ﷺ حين قَدِمَ المدينةَ، وأهلها أخلاط منهم المسلمون، والمشركون يعبدون الأوثان، واليهود، وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.
(٣) الصحيح المسند.

بالصبر، والعفو، ففيهم أنزل الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ الآية.

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى النبي ﷺ.. أمر النبي ﷺ سَعْدَ بن معاذ أن يبعث رَهْطاً يقتلونه، فبعث محمدَ بن مسلمة، وذَكَر قصة قتله، فلما قتلوه فزعت يهود، والمشركون، فغدوا على النبيِّ ﷺ فقالوا: طرق صاحبنا، فقتل، فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول، ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه، وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم، وبين المسلمين عامةً صحيفة. الحديث.

وقال المنذري[1]: قوله عن أبيه فيه نظر، فإن أباه عبد الله بن كعب ليست له صحبة، ولا هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، ويكون الحديث على هذا مرسلاً، ويحتمل أن يكون أراد بأبيه جده، وهو كعب بن مالك، فيكون الحديث على هذا مسنداً، إذ قد سمع عبد الرحمٰن من جده كعب بن مالك، وكعب: هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، وقد وَقَع مثل هذا في الأسانيد في غير موضع اهـ من «عون المعبود» بتصرف.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ...﴾ الآية. سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رجالاً من المنافقين على عهد الرسول ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خِلافَ رسول الله ﷺ وإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الحديث، أخرجه مسلم أيضاً.

ولها أيضاً سبب آخر، وهو ما أخرجه البخاري عن ابن أبي مليكة، أن علقمة بن وقاص أخبره، أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل

---

(١) عون المعبود.

له: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً. لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: مالك ولهذه الآية، إنما دعا النبي ﷺ يهود، وسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾.

ويُمكن الجمعُ بين الحديثين بأن تكون الآية نزلَتْ في الفريقين معاً، قاله الحافظ ابن حجر في «الفتح» ولو رجح حديث أبي سعيد، لكان أولى، لأن حديث ابن عباس مما أنتقد على الشيخين، كما في مقدمة «الفتح».

وأخرج(١) عبد الرزاق في تفسيره عن زيد بن أسلم أن رافع بن خديج، وزيدَ بن ثابت كانا عند مروان، فقال مروان: يا رافع في أيِّ شيء نزلَتْ هذه الآية: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ قال رافع: أنزلت في أناس من المنافقين كانوا إذا خرج النبي ﷺ اعتذروا، وقالوا: ما حَبَسَنا عنكم إلا شغل، فلوددنا أنا كنا معكم، فأنزل الله فيهم هذه الآية، وكان مروان أنكر ذلك، فجَزِعَ رافع من ذلك، وقال لزيد بن ثابت: أنشدك بالله هل تعلم ما أقول؟ قال: نعم، قال الحافظ ابن حجر: يجمع بين هذا، وبين قول ابن عباس بأنَّه يمكن أن تكون الآية نزلت في الفريقين معاً. قال: وحَكَى الفراء أنها نزلت في قول اليهود نحن أهلُ الكتاب الأول، والصلاة، والطاعة، ومع ذلك لا يقرون بمحمد، وروى ابن أبي حاتم من طرق عن جماعة من التابعين نحوَ ذلك، ورجحه ابن جرير، ولا مانع أن تكون نزلت في كل ذلك. انتهى.

التفسير وأوجه القراءة

وعزتي، وجلالي ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ وعلم، وأحصى ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ وهو فنحاص بن عازوراء، كما قاله ابن عباس، والسدي أو حيي بن أخطب، كما قاله

---

(١) لباب النقول.

قتادة، أو كعبُ بن الأشرف، كما نقله ابن عساكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى علواً كبيراً عما قالوا ﴿فَقِيرٌ﴾؛ أي: محتاج إلينا يطلب منا القرض على لسان محمد ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ لا نحتاج إلى قرضه، قالوا: هذه المقالة تمويهاً على ضعفائهم؛ لا أنهم يعتقدون ذلك؛ لأنهم أهل الكتاب، بل أرادوا أنه تعالى إن صح ما طلبه منا من القرض على لسان محمد، فهو فقير، ليشككوا على إخوانهم في دين الإسلام، والمقصود من هذا تهديد القائلين ما ذكر، وإعلامهم أنهم لا يفوتهم من جزائه شيء ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ من هذه المقالة الشنيعة في صحائف[1] الملائكة ليقرأوا ذلك يومَ القيامة، أو سنحفظه، ونثبته في علمنا، لا ننساه ولا نهمله، أو المراد: سنكتب عنهم هذا الجهلَ في القرآن حتى يعلم الخلق إلى يوم القيامة شدةَ جهلهم وطعنهم، في نبوة محمد ﷺ بكل ما قدروا عليه، وقيل: إن معنى سنكتب: سنوجب عليهم في الآخرة جزاءَ ما قالوه في الدنيا ﴿و﴾ نكتب ﴿قتلهم﴾؛ أي: قتل آبائهم ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾، وإنما نسِبُ القتل إليهم مع أنه لم يقع منهم، ووعدوا العذابَ عليه لرضاهم بصنع آبائهم، والراضي بشيء، ينسب إليه ذلك الشيء، ويعاقب عليه إن كان شراً.

وإنما[2] جعل ذلك القول قريناً لقتل الأنبياء تنبيهاً على أنه من العظَم، والشناعة بمكان يعدل قتل الأنبياء ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ حتى في اعتقادهم كما في نفس الأمر، فكانوا يعتقدون أن قتلهم لا يجوز، ولا يحل، وحينئذ فيناسب شن الغارة عليهم؛ أي: نكتب عليهم رضاهم بقتل آبائهم الأنبياءَ بغير جرم، أو المعنى: سنحفظ عن الفريقين معاً أقوالهم، وأفعالهم ﴿وَنَقُولُ﴾ معطوف على ﴿سنكتب﴾ أي: نقول لهم عند الموت، أو عند الحشر، أو عند قراءة الكتاب، أو عند الإلقاء في النار؛ أي: ننتقم منهم بعد الكتابة بهذا القول الذي نقوله لهم، ويحتمل أن يكون هذا القول كنايةً عن حصول الوعيد، وإن لم يكن هناك قول ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: باشروا وادخلوا العذابَ المحرق البالغ النهاية في

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.

الحرق، والحريق[1] المحرق فهو فعيل بمعنى مفعل، كأليم بمعنى مؤلم، وقيل: الحريق طبقة من طباق جهنم، وقيل: الحريقُ الملتهبُ من النار، والنار تشمل الملتهبة، وغير الملتهبةِ، والملتهبة: أشدها. وإطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة.

وقرأ الجمهور: ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ ﴿وَقَتۡلَهُمُ﴾ بالنصب و﴿نقول﴾ بنون المتكلم المعظم، أو تكون للملائكة، وقرأ الحسن، والأعرج، ﴿سيكتب﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ حمزة ﴿سيكتب﴾ بالياء مبنياً للمفعول، ﴿وقتلهم﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ما﴾ إذ هي مرفوعة بـ﴿سيكتب﴾ و﴿يقول﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ طلحة بن مصرف ﴿سنكتب ما يقولون﴾. وحكى الداني عنه ﴿ستكتب ما قالوا﴾ بتاء مضمومة على معنى مقالتهم. وقرأ ابن مسعود ﴿ويقال ذوقوا﴾ ونقلوا عن أبي معاذ النحوي أن في حرف ابن مسعود ﴿سنكتب ما يقولون، ونقول: لهم ذوقوا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب المحرق الذي تذوقون حَرارَتَهُ ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ أي: بسبب ما اقترفتموه، وعملتموه في الدنيا من الأفعال القبيحة، والأقوال الشنيعة كقتل الأنبياء، ووصف الله بالفقر وجميع ما كان منكم من ضروب الكفر، وفنون الفسق، والعصيان ﴿و﴾ بسبب ﴿أن الله ليس بظلام للعبيد﴾؛ أي: بذي ظلم لعباده، فيعذبهم بغير ذنب؛ أي: إن ذلك العذاب الذي أصابكم بسبب عملكم، وبسبب كونه تعالى عادلاً في حكمه، وفعله لا يجور، ولا يظلم، فلا يعاقب غير المستحق للعقاب، ولا يجعل المجرمين كالمتقين، والكافرين كالمؤمنين، وإنما أضاف العمل إلى الأيدي؛ لأن أكثر أعمال الإنسان تزاول باليد، وليفيدَ أن ما عذبوا عليه هو من عملهم على الحقيقة، لا أنهم أمروا به، ولم يباشروه.

والخلاصة[2]: أن ترك عقاب أمثالكم مساواة بين المحسن والمسيء ووضع للشيء في غير موضعه، وهو ظلم كبير لا يصدر إلا ممن كان كثيرَ الظلم مبالغاً فيه ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ إما منصوب على الذم، أو مجرور على أنه نعت ﴿للذين﴾

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

قبله، أي: لقد سمع قول الذين قالوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾؛ أي: أمرنا في التوراة وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ﴾؛ أي: بأن لا نصدق ﴿لِرَسُولٍ﴾؛ أي: رسول كان في دعواه الرسالة ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۚ﴾؛ أي: حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل، وهي أن يقرب بقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار سماوية، فتأكله، أي: تحرقه، والقربان كل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البر من نسك، وصدقة، وذبح، وكل عمل صالح. وقرأ عيسى بن عمر ﴿بقربان﴾ بضم الراء قال ابن عطية: إتباعاً لضمة القاف، وليس بلغة، لأنه ليس في الكلام فعلان بضم الفاء والعين.

وكانت[1] القرابين، والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قربوا قرباناً، أو غنموا غنيمة جمعوا ذلك، وجاءت نار بيضاء من السماء، لا دخان لها، ولها دوي فتأكل ذلك القربان، أو الغنيمة، وتحرقه فيكون ذلك دليلاً، وعلامة على القبول، وإذا لم يقبل بقي على حاله، ولم تنزل نار.

والمعنى: لن نؤمن لك يا محمد حتى تأتينا بنار تأكل القربان، كما كانت في زمن الأنبياء الأول، فإن جئتنا بها صدقناك في رسالتك.

قال ابن عباس[2]: نزلت هذه الآية في حق كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذ، وزيد بن التابوت، وفنحاص بن عازوراء، وحييّ بن أخطب، وغيرهم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: تزعم أنك رسول الله، وأنه تعالى أنزل عليك الكتاب، وقد عهد الله إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون لها دوي خفيف تنزل من السماء، فإن جئتنا بهذا صدقناك فنزلت الآية، لكن دعواهم هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم، وأكل النار للقربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزةً فهوَ وسائر المعجزات سواء، وما مقصدهم من تلك المفترَيات إلا عدمَ الإيمان برسول الله ﷺ؛ لأنه لم يأت بما قالوه، ولو أتى به لآمنوا فرد الله عليهم بقوله:

---

(1) الخازن. (2) المراح.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد موبخاً لهم، ومكذباً ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ وأتاكم يا معشر اليهود ﴿رُسُلٌ﴾ كثير ﴿مِّن قَبْلِى﴾ كزكريا، ويحيى، وغيرهما ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم، وبكل ما تقترحونه منهم ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾؛ أي: وبالقربان الذي تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مقالتكم إنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه، فإن زكريا ويحيى، وعيسى، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام قد جاؤوكم بما قتلم في معجزات أخرَ، فما بالكم لم تؤمنوا بهم بل اجترأتم على قتلهم، وهذا دليل على أنكم قوم غلاظ الأكباد ـ وبذلك وصفوا في التوراة ـ قساة القلوب لا تفقهون الحق، ولا تذعنون له، وإنكم لم تطلبوا هذه المعجزة استرشاداً، بل تعنتاً وعناداً.

وقد نسب هذا الفعل إلى ما كان في عصر النبي ﷺ وقد وقع من أسلافهم؛ لأنهم راضون بما فعلوه، معتقدون أنهم على حق في ذلك، والأمة في أخلاقها العامة، وعاداتها كالشخص الواحد، وقد كان هذا معروفاً عند العرب، وغيرهم، يلصقون جريمةَ الشخص بقبيلته، ويؤاخذونها بها.

والخلاصة: أن أسلافكم كانوا متعنتين، وما أنتم إلا كأسلافكم، فلم يكن من سنة الله إجابتكم إلى ملتمسكم بالإتيان بالقربان، إذ لا فائدة منه.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد في أصل النبوة والشريعة بعد أن جئتَهم بالبينات الساطعة، والمعجزات الواضحة، والكتاب الهادي إلى سواء السبيل مع استنارة الحجة، والدليل ﴿فـ﴾ تسل يا محمد على تكذيبك، ولا تأس عليهم، ولا تحزن لعنادهم وكفرهم، ولا تعجب من فساد طويتهم، وعظيم تعنتهم فتلكَ سنة الله في خليقته؛ لأنه ﴿قد كذب رسل من قبلك﴾؛ أي: كذبتهم أممهم حينما ﴿جَآءُو﴾ هم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحات، ﴿و﴾ بـ﴿الزبر﴾؛ أي: وبالصحف المشتملة على الترغيب، والترهيب، والزواجرَ، والعظات كصحف إبراهيم، وموسى، وغيرهما، والزبر: جمع زبور، وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرت الشيء إذا حبسته، وسمي الكتاب الذي فيه الحكمة زبوراً، لأنه يزبر عن الباطل، ويدعو إلى الحق ﴿و﴾ بـ﴿الكتاب المنير﴾؛ أي: المضيء الذي أضاء،

وأنار سبيل النجاة، وهو التوراة، والزبور، والإنجيل، وإنما عطف الكتاب المنير على الزبر لشرفه، وفضله باشتماله على الأحكام.

والمعنى: فقد كذب رسل من قبلك جَاءُوا بمثل ما جئت من باهر المعجزات، وهزوا القلوبَ بالزواجر، والعظات، وأناروا بالكتاب سبيلَ النجاة، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً، فصبروا على ما نالهم من الأذى، وما نالهم من السخرية، والاستهزاء، فلك أسوة بهم. وفي هذا تسلية للنبيّ ﷺ وبيان بأن طباع البشر في كل الأزمنة سواء، فمنهم من يتقبل الحق، ويقبل عليه بصدر رحب ونفس مطمئنة، ومنهم من يقاوم الحقَ، والداعي إليه ويسفه أحلام معتنقيه؛ فليس بالعجيب منهم أن يقاوموا دعوتك، ولا أن يفندوا حجتك، فإن نُفُوسَهم منصرفة عن طلب الحق، وتحري سبل الخير.

وقر الجمهور[1] ﴿والزبور والكتاب﴾ بغير الباء فيهما، وقرأ ابن عامر، ﴿وبالزبر﴾ بإعادة ﴿الباء﴾ كقراءة ابن عباس، للدلالة على أنها مغايرة للبينات بالذات، وكذا هي في مصاحف أهل الشام، وقرأ هشام بخلاف عنه، ﴿وبالكتاب﴾ بإعادة ﴿الباء﴾ وإعادة حرف الجر في المعطوف للتأكيد.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: كل روح من حيوان حاضر في دار التكليف ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾؛ أي: ذائقة موت[2] أجسادها إذ النفس بمعنى الروح، لا تموت، ولو ماتت لما ذاقت الموت في حال موتها؛ لأن الحياة شرط في الذوق، وسائر الإدراكات. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: حين موت أجسادها، والمعنى كل نفس تذوق طعمَ مفارقة البدن، وتحس به. وقرأ الجمهور[3] ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ بالإضافة، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وابن أبي إسحاق، ﴿ذائقةٌ الموتَ﴾ بالتنوين، ونصب الموت، وقرأ الأعمش فيما نقله الزمخشري ﴿ذائقة﴾ بغير تنوين الموت بالنصب، وخرج على حذف التنوين لالتقاء

(١) البحر المحيط.
(٢) الجمل.
(٣) البحر المحيط والشوكاني.

الساكنين، كقراءة من قرأ ﴿هل هو الله أحد الله الصمد﴾ بحذف التنوين من أحد، وقرىء أيضاً شاذاً ﴿ذائقة الموت﴾ على جعل الهاء ضمير ﴿كلٍ﴾ على اللفظ، وهو مبتدأ وخبر كما ذكره أبو البقاء ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾؛ أي: وإنما تعطون جزاء أعمالكم كاملاً، وافياً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: يوم قيام الخلق من القبور، وذلك عند النفخة الثانية، وفي ذكر لفظ التوفية إشارة إلى أن بعض أجورهم يصل إليهم قبل يوم القيامة، ويؤيده ما أخرجه الترمذي، والطبراني مرفوعاً «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران» ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ وأبعد ﴿عَنِ ٱلنَّارِ﴾ يوم القيامة ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ أي: فقد ظفر بالمحبوب، ونجا من المكروه؛ أي: فمن نجا، وخلص من العذاب والنار يوم القيامة، ووصل إلى الثواب والجنة، فقد ظفر بالمقصد الأسنى، والغاية القصوى، التي لا مطلبَ بعدها.

وقد روي[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتدركه منيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه». رواه وكيع بن الجراح في تفسيره، عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقد رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن وكيع بسنده.

والخلاصة[2]: أن هناك جنة وناراً، وإن من الناس من يلقى في هذه، ومنهم من يلقى في تلك، وإن هوَل النار عظيم، وعبر عن النجاة عنها بالزحزحة، كأن كلَّ شخص كان مشرفاً على السقوط فيها؛ لأن أعمالهم سائقةٌ لهم إلى النار؛ لأنها أعمال حيوانية، تسوق إليها، ولا يدخل الجنة أحدٌ إلا إذا زحزح، فالزحزحة عنها فوز عظيم، فأولئك المزحزحون هم الذين غلبت صفاتهم الروحية على الصفات الحيوانية، فأخلصوا في إيمانهم، وجاهدوا في الله حق جهاده، ولم يبق في نفوسهم شائبة من إشراك غير الله معه في عمل من أعمالهم.

والمعنى: فمن بعد عن النار يومئذ ونحي عنها. فقد فاز؛ أي: ظفر بما يريد، ونجا مما يخاف، وهذا هو الفوز الحقيقي الذي لا فوزَ يقاربه، فإن كل

---

(١) ابن كثير. (٢) المراغي.

فوز وإن كان بجميع المطالب دون الجنة، ليس بشيء بالنسبة إليها، اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة، ولا عيش إلا عيشها، ولا نعيم إلا نعيمها، فاغفر ذنوبنا، واستر عيوبنا، وارض عنا رضاً لا سخط بعده أبداً، واجمع لنا بين الرضا منك علينا والجنة.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾؛ أي: وما حياتنا القربى إلى الزوال، أو الدنيئة التي نحن فيها، ونتمتع بلذاتها الحسية من مأكل، ومشرب، أو المعنوية كالجاه والمنصب، والسيادة ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ ومواعين الخداع؛ لأنَّ صاحبَها دائماً مغرور بها، مخدوع لها تشغله كل حين بجلب لذاتها، ودفع آلامها، فهو يتعب لما لا يستحق التعب به، ويشقى لتوهم السعادة فيها.

والمتاع: كل ما يتمتع به الإنسان، وينتفع به، ثم يزول، ولا يبقى، والغرور ما يغرُّ الإنسان مما لا يدوم، وقيل: الغرور الباطل الفاني، الذي لا يدوم.

ومعنى الآية[1] أن منفعةَ الإنسان بالدنيا كمنفعته بهذه الأشياء التي يستمتع بها، ثم تزول عن قريب، وقيل: هي متاع متروك، يوشك أن يضمحل ويزولَ، فخذوا من هذا المتاع، واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم. قال سعيد بن جبير: هي متاع الغرور، لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، وأما من اشتغل بطلب الأخرة فهي له متاع، وبلاغ إلى ما هو خير منها.

والخلاصة: أن الدنيا ليست إلا متاعاً من شأنه أن يغرَ الإنسانَ، ويشغله عن تكميل نفسه بالمعارف، والأخلاق التي ترقى بروحه إلى سعادة الآخرة. فينبغي له أن يحذر من الإسراف في الاشتغال بمتاعها عن نفسه، وإنفاق الوقت فيما لا يفيد إذ ليس للذاتها غاية تنتهي إليها، فلا يبلغ حاجةً منها إلا طلب أخرى.

فَمَا قَضَىٰ أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ وَلاَ انْتَهَىٰ أَرَبٌ إلاَّ إِلَىٰ أَرَبِ

فعليه أن يسعى لكسب علم يرقى به عقله، أو عمل صالح ينتفع به، وينفع عباده مع إصلاح السريرة، وخلوص النية، وقد قال بعضهم: عليك بنفسك إن لم

---

(١) الجمل.

تشغلها شغلتك.

ولما سلى الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بما سبق آنفاً.. زاد في تسليتهم بهذه الآية فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وأبان لهم أنه كما لقي هو ومن معه من الكفار أذى يوم أحد، فسيلقون منهم أذى كثيراً بقدر ما يستطيعون من الإيذاء في النفس أو في المال.

والمقصود من هذا الإخبار: أن يوطنوا أنفسَهم على الصبر، وترك الجزع حتى لا يشق عليهم البلاء عند نزوله بهم. والمعنى: وعزتي، وجلالي لتمتحنن، ولتختبرن في أموالكم بذهابها بالمهلكات، والآفات، كالغرق، والحرق والبرد، وبالتكاليف كالزكاة، والإنفاق في الجهاد، وبذلِها في جميع وجوه البر، التي ترفع شأنَ الأمة الإسلامية وتدفع عنها أعداءها، وترد عنها المكارهَ، وتدفع عنها غوائلَ الأمراض والأوبئة، ولتختبرَن في أنفسكم بما يصيبها من البلايَا كالأمراض، والأوجاع، والقتل، والضرب، ومن التكاليف كالصلاة وبذلها في الجهاد في سبيل الله، والصبر فيهما، وبموت من تحب من الأهل، والأصدقاء ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لتسمعن أيها المؤمنون ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: من اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ أي: ومن مشركي العرب، والمراد بهم سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾؛ أي: أنواعاً كثيرةً من الإيذاء كالطعن في أعراضكم، والطعن في الدين الحنيف، والقدح في أحكام الشرع الشريف، وصد من أراد أن يؤمن وتخطئة من آمن، وما كان من كعب بن الأشرف، وأضرابه من هجاء المؤمنين، وتشبيب[1] نسائهم وتحريض المشركين على معاندة رسول الله ﷺ ونحو ذلك مما لا خير فيه.

وفائدة الابتلاء[2]: تمييز الخبيث من الطيب وفائدة الإخبار كما مر آنفاً، أن

(١) تشبيب: هو ذكر أوصاف الجمال للنساء بالقصائد والمسجعات، وكان كعب بن الأشرف يفعل ذلك بنساء المؤمنين.

(٢) المراغي.

نعرف السننَ الإلهيةَ، ونهيىءَ أنفسَنا لمقاومتها، فإن من تقع به المصيبة فجأةً على غير انتظار يعظم عليه الأمر، ويحيط به الغمُّ حتى كاد ليقتله في بعض الأحايين، لكنه إذا استعد لها اضطَلَع بها وقويَ على حملها.

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ أيها المؤمنون على ما سيحل ويقع بكم من البلاء في أموالكم، وأنفسكم، وعلى ما تسمعون من أهل الكتاب، والمشركين من الأذى ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ما يجب اتقاؤه، وتحترزوا عما لا ينبغي كالمداهنة مع الكفار، والسكوت عن إظهار الإنكار ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبرَ والتقوى ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ أي: من معزومات الأمور؛ أي: من الأمور الواجبة التي ينبغي أن يعزمَها ويفعلَها كل أحد لما فيه من كمال المزية والشرف، أو مما عزم الله تعالى عليه، وأمر به، وبالغ فيه، وأوجب، يعني أن ذلك عزمة من عزمات الله، وواجب من واجبات الله التي أوجبها على عباده.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة إذ أخذ الله العهدَ المؤكدَ باليمين من الذين أوتوا الكتاب؛ أي: من علماء اليهود، والنصارى على لسان أنبيائهم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ بالتاء حكاية لمخاطبتهم؛ أي: لتبينن ذلك الكتاب الذي أوتيتم للناس، ولتظهرن جميع ما فيه من الأحكام، والأخبار التي من جملتها نبوة محمد ﷺ للناس ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾؛ أي: والحال أنكم لا تكتمون، ولا تخفون ذلك الكتاب عن الناس، ولا تؤولونه، ولا تلقون الشبه الفاسدة، والتأويلات المزيفة إليهم، وذلك بأن يوضحوا معانيه كما هي، ولا يؤولوه ولا يحرفوه عن مواضعه التي وضع لتقريرها، ويذكروا مقاصده التي أنزل لأجلها حتى لا يقع اضطراب ولا لبس في فهمه.

فإن لم يفعلوا ذلك.. فإما أن يبينوه على غير وجهه، ولا يكون هذا بياناً، ولا كشفاً لأغراضِه ومقاصده، وأما أن لا يبينوه أصلاً، ويكون هذا كتماناً له.

وتبيين الكتاب على ضربين:

الأول: تبيينه لغير المؤمنين به لدعوتهم إليه.

الثاني: تبيينه للمؤمنين به لهدايتهم، وإرشادهم بما أنزل إليهم من ربهم،

وكل منهما واجب على العلماء لا هوادة[1] فيه، وكفى بهذه الآية حجة عليهم، وهي آكد من قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ الآية.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾؛ أي: نبذ علماؤهم ذلك الكتابَ، أو الميثاقَ وطرحوه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ أي: خَلْفَ ظهورهم، فلم يعملوا به، ولم يبالوا به، ولم يهتموا بشأنه، وقد كان من الواجب عليهم أن يجعلوه نصب أعينهم، لا شيئاً ملقى مرمياً وراء الظهور، لا ينظر إليه، ولا يفكر في أمره، فقد كان منهم الذين لا يستفيدون منه شيئاً، ويحملونه كما يحمل الحمار الأسفار، ومنهم الذين يحرفونه عن مواضعه، ومنهم الذين لا يعلمونه إلا أماني يتمنونها، وقراءة يقرؤونها.

وإن هذا والله لينطبق على المسلمين اليوم أتمَ الانطباق، فهم قد اتبعوا سنن من قبلهم، ونهجوا نهجهم حذو القذة بالقذة، فما بالهم عن التذكرة معرضين، وكتاب الله بين أيديهم شاهد عليهم، وهو يتلى بين ظهرانيهم، فإنهم مع حفظهم لكتابهم، وتلاوتهم إياه في كل مكان في الشوارع، والأسواق، ومجتمعات الأفراح والأحزان، تركوا تبيينه للناس والعمل به، ففقدوا هدايته وعميت عليهم عظاته، وزواجره وحكمه وأسراره، واعترفوا بأنهم انحرفوا عنه، وصار القابض على دينه بينهم كالقابض على الجمر، والضمير في قوله: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾ عائد إلى الكتاب الذي أمروا ببيانه، ونهوا عن كتمانه؛ أي: وأخذوا بكتمانه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وعوضاً يسيراً من حطام الدنيا، وأغراضها من المآكل والمشارب، والرشا التي كانوا يأخذونها من عوامهم، وسفلتهم يعني أخذوا عوضاً منه فائدة دنيويةً حقيرة، فغبنوا في هذا البيع والشراء، وهذا الثمن هو ما كان يستفيده الرؤساء من المرؤسين من حطام الدنيا، ليتمتعوا بلذاتها الفانية، وشهواتها الفاسدة، وكانوا يؤولون الكتابَ، ويحرفونه، لأغراض كثيرة كالخوف من الحكام، أو الرجاء فيهم، فيصرفون نصوصه إلى معان توافق هوى الحاكم ليأمنوا شره، أو لإرضاء

---

(١) **الهوادة**: الرفق واللين والمحاباة، ومنه قوله: لأبعثن إلى رجل لا تأخذه فيك هوادة؛ أي: إلى رجل يحابيك الرخصة. اهـ.

العامة، أو الأغنياء بموافقة أهوائهم لاستفادة جاههم ومالهم، وهذا كله أيضاً مما ابتلي به علماء المسلمين الآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾؛ أي: قبح ذلك الثمن شيئاً يشترونه، والمخصوص بالذم ذلك الثمن فكل من لم يبين الذي علم للناس، وكتم شيئاً منه لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطييب قلوبهم، أو لجر منفعة، أو لحياء، أو لبخل للعلم، فهو داخل تحت هذا الوعيد. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «من سئل علماً يعلمه، فكتمه، ألجم بلجام من نار». أخرجه الترمذي، ولأبي داود «من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة». وقال قتادة: طوبى لعالم ناطق، ومستمع واع، هذا علم علماً فبذله، وهذا سمع خيراً فقبله ووعاه.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخَذَ على أهل العلم أن يُعلِّموا، وقال أبو هريرة: لولا ما أخذ الله تعالى على أهل الكتاب ما حدثتكم، وتلا هذه الآية. وعن الحسن أنه قال: لولا الميثاقُ الذي أخَذَه الله تعالى على أهل العلم، ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه.

وقرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، وأبو عمرو بالياء على الغيبة في الفعلين أعني ﴿ليبيننه﴾ ﴿ولا يكتمونه﴾ إسناداً لأهل الكتاب إذ قبله الذين أوتوا الكتاب وبعده، فنبذوه. وقرأ باقي السبعة بالتاء للخطاب حكايةً لمخاطبتهم. وقرأ عبد الله ﴿ليبنونه﴾ بغير نون التوكيد، وقرأ ابن عباس ﴿ميثاق النبيين لتبيننه للناس﴾ فيعود الضمير في ﴿فنبذوه﴾ على الناس، إذ يستحيل عوده على النبيين، أي: فنبذه الناس المبين لهم الميثاق.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا﴾؛ أي: لا تظنن يا محمد أو أيها المخاطب اليهودَ الذين يسرون بما فعلوا من تحريف نصوص التوراة، وتفسيرها بتفسيرات باطلة ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا﴾، ويُوصفوا ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾؛ أي: بقول الناس لهم علماء، وليسوا بأهل علم؛ أي: يحبون أن يصفهم الناس ويمدحوا لهم بما ليس فيهم من الصدق، والعفاف، والفضل، والدين؛ أي: لا تحسبنهم

ناجينَ من العذاب الدنيوي، وهو العذاب الذي يصيب الأمم التي فسدت أخلاقها، وساءت أعمالها، وألفت الفسادَ، والظلمَ وهو ضربان[1]:

الأول: عذاب هو أثر طبيعي للحال التي يكون عليها المبطلون بحسب سنة الله في الاجتماع البشري بخذلان أهل الباطل، والإفساد وذهاب استقلالهم، ونصرة أهل الحق عليهم، وتمكينهم من رقابهم، وديارهم وأموالهم ليحل الإصلاح محل الإفساد، والعدل مكان الظلم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

والضرب الثاني: عذاب يكون سخطاً سماوياً، كالزلازل، والخسف، والطوفان وغير ذلك من الجوائح المدمرة التي نزلت ببعض أقوام الأنبياء الذين كفروا بربهم، وكذبوهم، وآذوهم عند اشتداد عتوهم، وإيذائهم لرسلهم.

روي أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء في التوراة فكتموا الحق، وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوا، واستحمدوا إليه، وفرحوا بما فعلوا، فأطلع الله رسوله على ذلك، وسلاه بما أنزل من وعيدهم. وهذا المعنى على قراءة التاء، فالمفعول الأول عليها الموصول، والثاني قوله الآتي: ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾. وقرىء بالياء فعلى هذه القراءة يكون الموصول فاعلاً، والمفعول الأول محذوف، وهو فَرحهم، والمفعول الثاني ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾. والمعنى: عليها لا يحسبن الفارحون فرحَهم منجياً لهم من العذاب وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيد للفعل الأول على القراءتين. وقد عهد هذا في الأساليب العربية من إعادة الفعل، إذا طال الفصل بينه وبين معموله. قال الزجاج: العرب إذا أطالت القصة تعيد حسبت، وما أشبهها إعلاماً بأن الذي جرى متصل بالأول، فتقول: لا تظنن زيداً إذا جاءك، وكلمك بكذا، وكذا، فلا تظننه صادقاً، فيفيد لا تظنن توكيداً، وتوضيحاً والفاء زائدة كما في قوله:

فَإِذَا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَاْجْزَعِيْ

---

(١) المراغي.

وقوله: ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ مفعول ثان على القراءتين، أي: فلا تظنهم بمنجاة؛ أي: فائزين بالنجاة من العذاب الذي أعده الله لهم في الدنيا من القتل، والأسر، وضرب الجزية، والذلة، والصغار، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع في الآخرة. وناسبَ وصفه بـ﴿أليم﴾ لأجل فرحهم، ومحبتهم المحمدة على ما لم يفعلوا.

وهذه الآية[1] وإن كانت قد نزلت في اليهود، أو المنافقين خاصةً فإن حكمَها عام في كل من أحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والصلاح، ويُنسَب إلى العلم، وليس كذلك، فيفرح به فَرح إعجاب، ويود أن يمدحه الناس بما هو عار منه من سَدَاد السيرة، واستقامة الطريقة، والزهد والإقبال على طاعة الله.

وفي الحديث الصحيح: «المتشبع بما ليس فيه، كلابس ثوبي زور». وقرأ حمزة، وعاصم[2]، والكسائي ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ ﴿وتحسبنهم﴾ بالتاء الفوقية، وكلاهما إما بفتح الباء، والتقدير: لا تحسبن يا محمد، أو أيها المخاطب، وإما بضم الباء، والخطاب للمؤمنين، والمفعول الأول: ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾، والثاني: ﴿بِمَفَازَةٍ﴾. وقوله ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيد، والفاء مقحمة، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر بالياء التحتية، وكلاهما إما بفتح الباء والفاعل للرسول، وإما بضمها، والفاعل من يتأتى منه الحسبان، أو بفتح الباء في الأول، وضمها في الثاني، وهي قراءة أبي عمرو. والفاعل: هو الموصول، والمفعول الأول محذوف، والتقدير ولا يحسبن الذين يفرحون أنفسهم بمفازة من العذاب. ويجوز أن يحمل الفعل الأول على حذف المفعولين معاً اختصاراً لدَلاَلة مفعولي الفعل الثاني عليهما، أي: لا يحسبن هؤلاء أنفسهم فائزين، أو على أن الفعل الأول مسند للرسول، أو لكل حاسب، ومفعوله الأول الموصول، والثاني محذوف لدلالة مفعول الفعل الثاني عليه، والفعل الثاني مسندٌ إلى ضمير الموصول، والفاء للعطف لظهور تفرع عدم حسبانهم على عدم حسبانه ﷺ، ومفعولاه ما بعده. وقرأ النخعي، ومروان بن الحكم، والأعمش ﴿بما آتوا﴾ بالمد، أي: يفرحون بما

(١) الخازن. (٢) المراح.

أعطوا. وقرأ جمهور القراء السبعة وغيرهم ﴿أَتَوا﴾ بالقصر. وقرأ ابن جبير، والسلمي ﴿بما أُوتُوا﴾ مبنياً للمفعول. ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ وتدبيرهما، وخزائنهما فكيف يكون من له ملك السموات والأرض فقيراً، وفيه تكذيب لمن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه، ومنه عقاب هؤلاء الكفرة ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر على تعجيل العقوبة لهم على ذلك القول؛ لكنه تفضل على خلقه بإمهالهم، وعلى إظهار دينكم ونصركم عليهم.

والمعنى: لا تحزنوا[1] أيها المؤمنون، ولا تضعفوا، وبينوا الحق، ولا تكتموا منه شيئاً، ولا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ولا تفرحوا بما عملتم، فإن الله يكفيكم ما أهمكم، ويغنيكم عن هذه المنكرات التي نهيتم عنها، فإن لله ملك السموات والأرض، يعطي من يشاء، وهو على كل شيء قدير، لا يعز عليه نصركم على من يؤذونكم بأيديهم، وألسنتهم من أهل الكتاب والمشركين.

وفي هذا إيماء إلى أن الخير في اتباع ما أرشد إليه، وفيه تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين، ووعد له بالنصر، وفيه تعريض بذم أولئك المخالفين، ووصفهم بأنهم لا يؤمنون إيماناً صحيحاً يظهر أثره في أخلاقهم وأعمالهم؛ إذ لو كانوا كذلك، ما تركوا العمل بكتابه، وآثروا عليه ما يستفيدونه من حطام الدنيا.

الإعراب

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

﴿لَّقَدْ﴾ اللام موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوفة مستأنفةٌ. ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾ وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾

---

(١) المراغي.

اسمها منصوب ﴿فَقِيرٌ﴾ خبرها مرفوع، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قالوا﴾. ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

﴿سَنَكْتُبُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿ما﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما قالوه، ويصح كون ﴿ما﴾ مصدرية، والمصدر المؤول منها مفعول به لـ﴿نكتب﴾ تقديره: سنكتب قولهم ذلك. ﴿وَقَتْلَهُمُ﴾ بالنصب معطوف على ﴿ما﴾ أو على المصدر المؤول منها على كونه مفعولاً لـ﴿نكتب﴾. وبالرفع معطوف على ﴿ما﴾ أيضاً على كونه نائب فاعل لـ﴿كتب﴾ على قراءة الياء ﴿قتل﴾ مضاف. والهاء مضاف إليه، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله. ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ مفعول المصدر أعني ﴿قتلهم﴾ منصوب به. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿قتلهم﴾ أو حال منه.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿وَنَقُولُ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿نقول﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿نكتب﴾. ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ مقول محكي لـ﴿نقول﴾، وإن شئت قلت ﴿ذُوقُواْ﴾: فعل، وفاعل. ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿نقول﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر بالباء، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائن بسبب الذي قدمته أيديكم، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿قَدَّمَتْ﴾: فعل ماض، وتاء تأنيث. ﴿أَيْدِيكُمْ﴾: فاعل، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما قدمته أيديكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: الواو

عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿بِظَلَّامٍ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة في خبر ﴿لَيۡسَ﴾. ﴿ظلام﴾ خبر ﴿لَيۡسَ﴾: منصوب بفتحة مقدرة. ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بِظَلَّامٍ﴾ وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر معطوف على ﴿ما﴾ في قوله ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾ تقديره: ذلك العذاب كائن بسبب الذي قدمته أيديكم، وبسبب عدم كون الله ظلاماً للعبيد.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٍ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت[1] للذين في قوله: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾. فالسماع مسلط عليه، والتقدير: لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله عهد إلينا إلخ، أو منصوب على الذم بفعل محذوف تقديره: أذم الذين قالوا إن الله عهد إلينا إلخ. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ إلى قوله ﴿تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾. وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿عَهِدَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿إِلَيۡنَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿عهد﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قالوا﴾. ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، ويجوز أن تكتب أن مفصولة وموصولة، ومنهم من يحذفها في الخط اكتفاءً بالتشديد. قاله العكبري. ﴿لا﴾ نافية. ﴿نُؤۡمِنَ﴾ منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على الكفار القائلين. ﴿لِرَسُولٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿نؤمن﴾ والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: بعدم إيماننا لرسول، والجار المحذوف متعلق بـ﴿عهد﴾. ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية بمعنى إلى ﴿يأتي﴾ فعل

---

(١) الخازن.

مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى. بمعنى: إلى. و﴿نا﴾ ضمير المتكلمين في محل النصب مفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿رسول﴾. ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يأتي﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾، بمعنى إلى تقديره: إلى إتيانه إياناً. ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿نؤمن﴾. ﴿تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة في محل الجر، صفة لـ﴿قربان﴾ ولكنها صفة سببية.

﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُمْ رُسُلٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾ ﴿مِّن قَبْلِي﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ﴿رسل﴾. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿جاء﴾. ﴿وَبِٱلَّذِى﴾ جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾. ﴿قُلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره، قلتموه، والخطاب في قوله ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ وبقوله: ﴿قُلْتُمْ﴾ وبقوله: ﴿قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ وبقوله: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ لمن في عصر نبينا ﷺ، وإن كان الفعل لأجدادهم، لرضاهم به. ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ الفاء زائدة. ﴿لم﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر. ﴿م﴾ اسم استفهام في محل الجر باللام مبني، بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ما الموصولة. الجار والمجرور متعلق بما بعده، أعني ﴿قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، ﴿قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿إِن كُنتُمْ﴾ إن حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم ﴿بإن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إن﴾ معلوم ما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين، فلم قتلتموهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا قلت لهم يا محمد ما أمرتك به، وكذبوك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿إن كذبوك﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿كَذَّبُوكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بإن على كونه فعلَ شرط لها، وجواب الشرط محذوف جوازاً دل عليه السياق تقديره: فاصبر، وتسل على تكذيبهم إياك، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فَقَدْ كُذِّبَ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿كُذِّبَ رُسُلٌ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿رسل﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف تقديره: وإنما أمرتك يا محمد بالصبر على تكذيبهم لتكذيب رسل من قبلك، وصبرهم على إذاية قومهم. ﴿جَآءُو﴾ فعل وفاعل. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿جاؤوا﴾. ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ معطوف على البينات. وكذلك ﴿والكتاب﴾ معطوف عليه. ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ صفة للكتاب، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿رُسُلٌ﴾ وصح مجيء الحال منه لتخصصه بالصفة أعني الجار والمجرور، أو في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿رسل﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ خبر ومضاف إليه، وإنما أُنث الخبر لاكتساب المبتدأ التأنيث من المضاف إليه والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ﴾ الواو استئنافية. ﴿إنما﴾ أداة حصر بمعنى ﴿ما﴾ النافية وإلاّ المثبتة، والمعنى: وما توفون أجوركم إلا يوم القيامة. ﴿تُوَفَّوْنَ﴾ فعل مغير، ونائب فاعل. ﴿أُجُورَكُمْ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه، والمفعول الأول جعل نائباً عن الفاعل، والأصل: وإنما يوفيكم الله. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿توفون﴾. ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن توفية الأجور يوم

القيامة، وأردتم بيان من فاز فيه، ومن لم يفز.. فأقول لكم: من زحزح. ﴿من زحزح﴾ ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما. ﴿زُحْزِحَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم، بـ﴿من﴾ الشرطية، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿عَنِ ٱلنَّارِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿زحزح﴾. ﴿وَأُدْخِلَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿أدخل﴾ فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم معطوف على ﴿زُحْزِحَ﴾ على كونه فعل شرط لمن، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿أدخل﴾ أو منصوب على التوسع بإسقاط الخافض. ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب من الشرطية وجوباً لكون الجواب مقروناً بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿فَازَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة من الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾ صفة له. ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ إلا أداة استثناء مفرغ. ﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ خبر، ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿تبلون﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وإنما أعرب مع اتصال نون التوكيد به لِعَدَمِ مباشَرَتِها له لفصلها عنه بضمير الفاعل، والواو ضمير لجماعة الذكور المخاطبين في محل الرفع نائب فاعل. و﴿نون التوكيد﴾ الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، وسيأتي الإعلال الجاري فيه في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى. والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تبلون﴾. ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ معطوف على ﴿أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. و﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿تسمعن﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين مع نون التوكيد في محل الرفع فاعل ونون التوكيد الثقيلة: حرف لا محل لها من الإعراب، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، والقسم المحذوف معطوف على جملة القسم المحذوف في قوله: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ﴾. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تسمعن﴾ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾. ﴿أُوتُواْ﴾ فعل، ونائب فاعل. ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان لـ﴿أوتوا﴾ لأنه بمعنى أعطوا. ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿أوتوا﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول لا محلَ لها من الإعراب.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾. ﴿أَشۡرَكُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿أَذٗى﴾ مفعول ﴿تسمعن﴾ منصوب بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين ﴿كَثِيرٗاۚ﴾ صفة لـ﴿أذى﴾.

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ الواو استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿تَصۡبِرُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تَصۡبِرُواْ﴾. ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية. ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿ذَٰلِكَ﴾ في محل النصب اسمها. ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل: فإن ذلك من الأمور المعزومة؛ أي: المفروضة. الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إن﴾، وجملة إن في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ الواو استئنافية. ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد قصة إذا أخذ الله. ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، والتقدير: واذكر يا محمد لأمتك قصة وقت أخذ الله ميثاق الذين ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿أُوتُواْ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان لـ﴿أوتوا﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ ﴿اللام﴾ واقعة في جواب قسم دل عليه أخذ الميثاق؛ لأن الميثاق العهد المؤكد باليمين، تقديره: وعزتي وجلالي لتبيننه للناس. ﴿تبينن﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل؛ لأن أصله لتبينوننه كما سيأتي لك في بحث التصريف إن شاء الله تعالى. و﴿الهاء﴾ ضمير الغائب في محل النصب مفعول به. ﴿لِلنَّاسِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تبينن﴾، والجملة الفعلية جواب للقسم المقدر لا محلَ لها من الإعراب، وجملة القسم المقدر جملة معترضة لا محلَ لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَكْتُمُونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ على كونها جوابَ القسم المقدر. ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿نبذوه﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ﴾ على كونها مضافاً إليه. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ﴿وَرَآءَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿نبذوه﴾، وهو مضاف. ﴿ظهور﴾ مضاف إليه ﴿ظهور﴾ مضاف. و﴿الهاء﴾ ضمير الغائبين في محل الجر مضاف إليه. ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ﴾ الواو عاطفة. ﴿وَٱشْتَرَوْاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به. ﴿ثَمَنًا﴾ مفعول به لـ﴿اشتروا﴾. ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لـ﴿ثمنا﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿نبذوه﴾. ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿فَبِئْسَ﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية. ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه، وجوباً لشبهه بالمثل تقديره: هو يعود على الثمن القليل. ﴿ما﴾ نكرة موصوفة في محل النصب تمييز لفاعل ﴿بئس﴾. ﴿يَشْتَرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صفة لما، والرابط محذوف، تقديره: فبئس هو أي ذلك

الثمن شيئاً يشترونه. وجملة ﴿بئس﴾ في محل الرفع خبر للمخصوص بالذم المحذوف وجوباً، تقديره: فبئس شيئاً يشترونه، هو، أي: ذلك الثمن، والجملة الاسمية مستأنفة، ويحتمل كون ﴿مَا﴾ مصدرية، وجملة ﴿يَشْتَرُونَ﴾ صلتها، و﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لبئس تقديره: فبئس شراؤهم، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: شراؤهم هذا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿لَا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ فعل مضارع. في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ونون التوكيد: حرف لا محل له من الإعراب، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت: يعود على محمد ﷺ، أو على كل من يصلح للخطاب، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿حسب﴾ والثاني: محذوف دل عليه قوله الآتي ﴿بِمَفَازَةٍ﴾؛ تقديره: لا تحسبن الذين يفرحون فائزين ناجينَ من العذاب ﴿يَفْرَحُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يَفْرَحُونَ﴾. ﴿أَتَوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما أتوه، وفعلوه. ﴿وَّيُحِبُّونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَفْرَحُونَ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿أَن يُحْمَدُوا۟﴾ ﴿أن﴾ حرف مصدر. ﴿يُحْمَدُوا۟﴾ فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة صلة ﴿أن﴾ المصدرية و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ويحبون حمد الناس إياهم. ﴿بما﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يحمدوا﴾. ﴿لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ فعل وفاعل وجازم، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صلة لها، والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: بما لم يفعلوه. ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ ﴿الفاء﴾ زائدة. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّهُم﴾ فعل ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ. ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول ثان لـ﴿حسب﴾ تقديره: فلا تحسبنهم كائنين بمنجىً من العذاب، والجملة الفعلية

مؤكدة لجملة حسب الأولى. ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿مفازة﴾. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿تحسبن﴾ الأولى، وهنا أوجه كثيرة من الإعراب، تتعدد بتعدد القراءات، أعرضنا عنها صفحاً؛ لئلا يطول الكلام، وفيما ذكرنا كفاية لمن له عناية.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿للَّه﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مُلْكُ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على السموات والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو عاطفة. ﴿اللَّه﴾ مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾ وهو خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على كونها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ يقال: ذاق الطعام، إذا أدرك طعمه من حلاوة، أو حموضة، أو مرارة. وأصل الذوق: وجود الطعم في الفم، ثم استعمل في إدراك سائر المحسوسات. ﴿ٱلْحَرِيقِ﴾ المحرق، فهو فعيل بمعنى: مفعل، كأليم بمعنى مؤلم، وإضافة العذاب إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة، كمسجد الجامع. ﴿بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: بذي ظلم، فـ﴿ظلام﴾ من صيغ النسب على حد قول ابن مالك:

ومع فاعل وفعال وفعل ... في نسب أغنى عن اليا فقبل

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ يقال: عهد إليه بكذا، إذا أمره به، وأوصاه إليه. ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ و﴿القربان﴾: مصدر بمعنى اسم المفعول، وهو ما يتقرب به إلى الله من حيوان، ونقد، وغيرهما. ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور[1] كرسول ورسل، وهو

(١) البحر المحيط.

الكتاب مأخوذ من الزبر، وهو الكتابة يقال: زبرت بكذا إذا كتبته، فالزبور فعول بمعنى مفعول؛ أي: مزبور بمعنى مكتوب، كالركوب بمعنى المركوب، وقال امرؤ القيس:

لِمَـنْ طَـلَـلٌ أَبْـصَـرْتُـهُ فَـشَـجَـانِـيْ   كَـخَـطِّ زَبُـوْرٍ فِـيْ عَـسِـيْـبِ يَـمَـانِ

ويقال: زبرته إذا قرأته، وزبرته إذا حسنته، وتزبرته إذا زجرته، وقال الزجاج: الزبور كل كتاب ذي حكمة. وقيل: أصله[1] من الزبر بمعنى الزجر، وسمي الكتاب الذي فيه الحكمة زبوراً؛ لأنه يزبر أي يزجر عن الباطل ويدعو إلى الحق. وفي المختار الزبرُ الزجرُ والانتهار، وبابه نَصَر والزبرُ أيضاً الكتابة، وبابه ضرب انتهى.

﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾؛ أي: الواضح المعنى من أنار الشيء إذا وضح.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تطلق النفس على الروح، وعلى مجموع الجسد، والروح الذي هو الحيوان، وهذا المعنى الثاني هو الأقرب المتبادر هنا. وفي المختار: النفس الروح، يقال: خرجت نفسه، والنفس الجسد، ويقولون: ثلاثة أنفس فيذكرونه لأنهم يريدون به الإنسان انتهى. وفي المصباح أن النفس تطلق على جملة الحيوان والنفس إن أريد بها الروح تؤنث وإن أريد بها الشخص تذكر انتهى. والموت أمر وجودي يضاد الحياة.

﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ الزحزحة الإبعاد والتنحية وهو من ملحق الرباعي على وزن فعلل أصله من الزح وهو الجذب بعجلة ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ يقال: فاز فوزاً من باب قال إذا ظفر، والفوز: النجاة مما يحذر والظفر بما يؤمل.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ العيش، وهي المعيشة. والمعيشة: كسب الإنسان، وتحصيله ما يعيش به من مطعم ومشرب وملبس وغيرها. ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾: بمعنى القربى، وهي صفة مؤنث مذكره أدنى؛ لأنه من دنا يدنو دنواً فهو أدنى، وهي دنيا بوزن فعلى. ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ والمتاع: كل ما استمتع به الإنسان من مال وغيره، وفي «السمين» يجوز أن يكون الغرور فعولاً بمعنى مفعول؛ أي: متاع

---

(١) الخازن.

المغرور؛ أي: المخدوع. وأصل الغرور الخِداع انتهى. والغرور في الأصل: إما مصدر غره يغره غروراً إذا خدعه، وإما جمع غار.

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أصله لتبلوونن بواوين أولاهما لام الكلمة؛ لأنه من بلا يبلو من باب غزا، وثانيهما: واو الضمير فحذفت النون الأولى التي هي علامة الرفع، لتوالي الأمثال مع نون التوكيد، وتحركت الواو الأولى التي هي لام الكلمة، وانفتح ما قبلَها، فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، الألف وواو الضمير، فحذفت الألف لئلا يلتقيَ ساكنان، وضمت الواو دلالةً على المحذوف، وإن شئت قلت استثقلت الضمة على الواو الأولى، فحذفت فالتقى ساكنان، وهما: الواوان فحذفت الواو الأولى، وحركت الواو الثانية التي هي واو الضمير بحركة مجانسة دلالةً على المحذوف، فعلم من مجموع هذين التصريفين: أن الواوَ المحذوفةَ هي لام الكلمة، وأن هذه الواوَ الموجودةَ هي ضمير الجمع، وهي نائب الفاعل.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ أصله لتسمعونن حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، وواو الضمير لالتقاء الساكنين مع نون التوكيد ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ والصبر تلقي المكروه بالاحتمال، وكظم النفس عليه مع دفعه بروية، ومقاومة ما يحدث من الجزع، والتقوى الابتعاد عن المعاصي ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ مأخوذ من قولهم: عزمت عليك أن تفعل كذا؛ أي: ألزمتك إياه على وجه لا يجوز الترخص فيه، وهو هنا مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: المعزوم عليه بمعنى أنه يجب العزم عليه، والتصميم للقلب عليه، وأصله ثبات في الرأي على الشيء إلى إمضائه ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الميثاق العهد المؤكد باليمين، وأصله: موثاق قلبت الواو ياء لوقوعها بعد كسرة؛ لأنه من وثق يثق وثوقاً وميثاقاً ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ المفازة المفعلة من فَازَ بمعنى مكان الفوز؛ أي: النجاة من المكروه، وأصلها مفوزة تحركت الواو بحسب الأصل، وانفتح ما قبلها بحسب الآن، فقلبت ألفاً فصار مفازةً. ﴿لله ملك﴾ الملك بضم الميم ما يملكه الإنسان، ويتصرف به، والعظمة، والسلطَة يجمع على أملاك، وملوك.

البلاغة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ أكدت اليهود الجملة التي نسبوها إلى الله بـ﴿إن﴾ واسمية الجملة، مبالغةً في نسبة الفقر إلى الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولم يؤكدوا في الجملة التي نسبوها إلى أنفسهم، كأنهم خرجوا تلك الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد، كأن الغنى وصف لازم لهم، لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى تأكيد، وهذا دليل على تعنتهم وتعمقهم في الكفر والطغيان.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ فيه مجاز عقلي من الإسناد إلى الآمر، لأنه تعالى لا يكتب ذلك بنفسه، بل يأمر الملائكة بالكتابة.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء على الكل لعلاقة الجزئية.

﴿تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ فيه استعارة تصريحية تبعية؛ لأنه شبه الإحراق بالأكل، لأن الأكل إنما يكون في الإنسان والحيوان. ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فيه استعارة تبعية؛ لأن حقيقة الذوق ما يكون بحاسة اللسان.

﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ قال الزمخشري: شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام، ويغر به حتى يشتريه، والشيطان هو المدلس الغرور فهو من باب الاستعارة.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فيه استعارة تصريحية تبعية؛ لأنه شبَّه عدمَ التمسك، والعمل به، بإلقاء شيء مرمي خَلْفَ ظهر الإنسان. وفي «الفتوحات» نَبَذَ الشيء وراء الظهر مثل في الاستهانة به، والإعراض عنه بالكلية، وشبه أيضاً أخذ عوض حقير من حطام الدنيا على كتم آيات الله باشتراء ثمنٍ قليلٍ على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

وقال أبو حيان[1]: لقد تضمنت هذه الآياتُ من ضروب الفصاحة والبلاغة

(١) البحر المحيط.

والمحسنات البديعية:

منها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿قَالُوٓا۟﴾، و﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ و﴿كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَقِيرٌ﴾ و﴿أَغْنِيَآءُ﴾، و﴿ٱلْمَوْتِ﴾ و﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ و﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ و﴿نَقُوْل﴾ و﴿أجوركم﴾، إذ تقدمه كل نفس.

ومنها: التكرار في لفظ الجلالة، وفي البينات.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ على قول من لم يجعل الكتابة حقيقةً، و﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ و﴿تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾، و﴿ذوقوا﴾ ﴿وذائقة﴾.

ومنها: المذهب الكلامي في قوله: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿أيديكم﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿ذلك﴾ والشرط المتجوز فيه.

ومنها: الزيادة للتوكيد في قوله: ﴿بالزبر﴾ و﴿بالكتاب﴾ في قراءة من قرأ كذلك.

ومنها: الحذف في مواضع انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها واضحة؛ لأنه تعالى لما ذكر أنه مالك السموات والأرض، وذكر قدرتَه، ذكرَ أن في خلقهما دلالات واضحةً لذوي العقول.

قال الرازي: واعلم أنه لما كان المقصود من هذا الكتاب الكريم جَذبَ القلوب، والأرواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الإله الحق، وطال الكلامُ في تقرير الكلام، والجواب عن شبهات المبطلين، عاد إلى إثارةِ

(١) لباب النقول.

القلوب بذكر ما يدلُّ على التوحيد، والألوهية والكبرياء والجلال، فذكر هذه الآية.

وأيضاً في ختم هذه السورة بهذه الأية مناسبة لمبدئها؛ لأنه سبحانه وتعالى لمَّا بَدأَ هذه السورةَ الكريمة بذكر أدلة التوحيد، والألوهية، والنبوة.. خَتَمَها بذكر دلائل الوحدانية، والقدرة ودلائل الخلق، والإيجاد؛ ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور، فكان ختامها مسكاً، كابتدائها، فيتأمل الإنسان في كتاب الله المنظور ـ الكون الفسيح ـ بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور القرآن العظيم.

قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾. مناسبتها لما قبلها: أنه لما وعد الله المؤمنين بالثواب العظيم، وكانوا في الدنيا في غاية الفقر، والشدة، والكفار كانوا في رخاء ولَيْنِ عيش ذَكر في هذه الآية ما يسليهم، ويصبرهم على تلك الشدة، فبين لهم حقارةَ ما أُوتيَ هؤلاء من حظوظ الدنيا، وذَكَر أنها متاعٌ قليل زائل، فلا ينبغي للعاقل أن يوازن بينه وبين النعيم الخالد المقيم، قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر أحوالَ الكفار وأحوالَ أهل الكتاب، وأن مصيرهم إلى النار، ذَكَرَ حَالَ من آمن من أهل الكتابِ، وأنَّ مصيرَهم إلى الجنة فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الطبراني، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: أتت قريش اليهودَ فقالوا بمَ جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا: عصاه، ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى، فقالوا: كيف كان عيسى؟ قالوا: كان يبرىء الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى، فأتوا النبيَّ ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، فدعا ربَّه فنزلت الآية ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ والمعنى: تفكروا واعتبروا أيها الناس: فيما خلقته وأنشأته من

السموات، والأرض لمعاشكم، وأرزاقكم.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ...﴾ الآية[1]، سبب نزولها: ما أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والترمذي والحاكم، وابن أبي حاتم، عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله: لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ...﴾ إلى آخر الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما روى النسائي عن أنس قال: لما جاء نعي النجاشي قال رسول الله ﷺ «صلوا عليه، فقالوا: يا رسول الله نصلي على عبد حبشي، فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ...﴾ الآية. وروى ابن جرير نحوه عن جابر. وفي المستدرك عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت في النجاشي هذه الآية ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ وقيل[2]: نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام فآمنوا بالبني ﷺ وصدقوه. وقيل: نزلت في عبد الله بن سلام، وأصحابه الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ. وقيل: نزلت في جميع مؤمني أهل الكتاب، وهذا القول أولى وأشمل.

قوله تعالى[3]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟...﴾ أخرج ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن عن أبي هريرة قال: أما إنه لم يكن في زمن النبي ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجدَ، يصلون الصلوات في مواقيتها، ثم يذكرون الله فيها.

وقد ثبت في «الصحيح» وغيره من قول النبي ﷺ «ألا أخبركم بما يمحوا الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات، إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا

---

(١) لباب النقول.

(٢) الخازن.

(٣) الشوكاني.

إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباطُ فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: إن فيما خلقَ في السموات من الملائكة، والشمس والقمر، والنجوم، والسحاب ﴿و﴾ فيما خلق في ﴿الأرض﴾ من الجبال، والبحور، والشجر، والدواب، هذا إن جعلنا ﴿خَلْقِ﴾ مصدراً بمعنى اسم المفعول، والمعنى: إن في مخلوقات السموات، والأرض، ويصح إبقاؤه على مصدريته، والمعنى حينئذ: إن في إيجاد السموات والأرض، وإنشائهما على ما هما عليه في ذواتهما، وصفاتهما من إبداع وإحكام، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ وبالجملة:

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ٱلْوَاحِدُ

﴿و﴾ في ﴿اختلاف الليل والنهار﴾ وتعاقبهما في وجه الأرض بكون كل منهما خلفة عن الآخر، بمجيء الليل عقبَ النهار، والنهار عقبَ الليل، فليس أحد يقدر على الإتيان بالليل في النهار، ولا العكس أو في اختلافهما بزيادة أحدهما بقدر ما نَقَصَ من الآخر بحسب اختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قرباً، وبعداً ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ واضحةً وبراهينَ قطعيةً ودلالات دالة على وجوده تعالى، وباهر قدرته، ووحدانيته، وعظيم علمه، وسلطانه.

﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الكاملة الخالصة عن شوائب النقص الذين[1] خلص عقلهم عن الهوى خلوص اللب عن القشر، فيرون أن العرض المحدث في الجواهر يدل على حدوث الجواهر؛ لأنَّ جوهراً ما لا ينفك عن عرض حادثٍ؛ وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث، ثم حدوثها يدل على محدثها، وذا قديم، وإلا لاحتاج إلى محدث آخر إلى ما لا يتناهى، وحسن

---

(١) النسفي.

صنعه يدل على علمه، وإتقانه يدل على حكمته، وبقاؤه يدل على قدرته، وروي أنه ﷺ قال: «ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها».

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ نعت ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ويجوز قطعه إلى الرفع، أو إلى النصب، بتقدير أمدح مثلاً؛ أي: أولو الألباب هم الذين يكررون ذكر الله من التهليل، والتسبيح، والتحميد، مثلاً بألسنتهم، ويستحضرون عظمة الله في قلوبهم، ويتذاكرون حكمته وفضله وجليلَ نعمه في جميع أحوالهم في حال كونهم ﴿قِيَٰمًا﴾؛ أي: قائمين ﴿و﴾ في حال كونهم ﴿قعوداً﴾؛ أي: قاعدين، ﴿و﴾ في حال كونهم مضطجعين ﴿على جنوبهم﴾ جمع جنب ومستلقين على ظهورهم

والخلاصة: أنهم هم الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم باطمئنان قلوبهم بذكره، واستغراق سرائرهم بمراقبته. وفي الحديث «من أحب أن يرتعَ في رياض الجنة، فليكثر ذكرَ الله».

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله عز وجل في كل أحيانه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه، كانت عليه من الله ترةً، وما مشى أحد ممشىً لا يذكر الله فيه، إلا كانت عليه من الله ترة». أخرجه أبو داود. والترة: النقص، وقيل: هي هنا: التبعة.

وقال(١) علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم، وقتادة: هذا في الصلاة؛ يعني هم الذين يصلون قياماً، فإن عجزوا فقعوداً، فإن عجزوا.. فعلى جنوبهم، والمعنى: أنهم لا يتركون الصلاةَ في حال من الأحوال، بل يصلون في كل حال، ويدومون عليها.

وأخرج البخاري عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: كانت بي

---

(١) الخازن.

بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». وأخرجه الترمذي، وقال فيه: سألته عن صلاة المريض، وذكر نحوه.

وذكر الله وحده لا يكفي في الاهتداء، بل لا بد معه من التفكر في بديع صنعه، وأسرار خليقته، ومن ثَمَ قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَذْكُرُونَ﴾. وأصل الفكر: إعمالُ الخاطر في الشيء، وتردد القلب في ذلك الشيء، وهو قوة متطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكُّر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل، ولا يمكن التفكر إلا فيما له صورة في القلب، ولهذا قيل: تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذات الله تعالى، إذ الله منزه أن يوصف بصورة؛ أي: ويتفكرون إستدلالاً، واعتباراً في بديع صنعهما، وإتقانهما، مع عِظَمِ أجرامهما، وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعاته، وغرائب مبتدعاته، ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى، ويعلموا أن لهما خالقاً، قادراً، مدبراً، حكيماً؛ لأن عظم آثاره، وأفعاله، تدل على عظم خالقه سبحانه وتعالى.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ٱلْوَاحِدُ

وإنما ذَكَرَ[1] التفكرَ في خلق الله؛ لورود النهي عن التفكر في الخالق؛ لعدم الوصول إلى حقيقة ذاته، وصفاته، فقد أخرج الأصبهاني، عن عبد الله بن سلام، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يتفكرون، فقال: «تفكروا في الخلق، ولا تفكروا في الخالق».

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «تفكروا في آلاءِ الله، ولا تفكروا في الله تعالى». وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ هو على تقدير القول؛ أي: يقولُ الذاكرون المتفكرون: ربنا ما خلقت هذا الذي نشاهده من العوالم العلوية، والأرضية باطلاً، ولا أبدعته عبثاً سبحانك رَبَّنا، تنزهت عن

(١) المراغي.

الباطل والعبث، بل كل خلقك حق مشتمل على حكَم جليلةٍ، ومصالحَ عظيمة، والإنسان بعض خلقك، لم يخلق عبثاً، فإن لحقه الفناءُ، وتفرقت منه الأجزاء بعد مفارقة الأرواح للأبدان. فإنما يهلك منه كونه الفاسدَ؛ أي: الجسم، ثم يعود بقدرتك في نشأة أخرى، كما بدأته في النشأة الأولى، فريق أطاعَكَ، واهتدى، وفريقٌ حقت عليه الضلالة، فالأول يدخل الجنة؛ بصالح أعماله، والآخر يكب في النار، بما اجترح من السيئات، وما عمل من الموبقات جزاءً وفاقاً.

وقيل معناه[1]: ويتفكرون في خلق السموات والأرض قائلينَ ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿مَا خَلَقْتَ﴾، وأوجدت ﴿هَٰذَا﴾ الخلق، وأخرجته إلى الوجود من العدم ﴿بَٰطِلًا﴾ وعبثاً ضائعاً بلا حكمة بل خلقتَهُ دليلاً على وحدانيتك، وكمال قدرتك ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك عن أن تخلق شيئاً عبثاً لغير حكمة، وهو اعتراض، وقوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الفاء[2] دخلت فيه لمعنى الجزاء، تقديره: إذا نزهناك. فقنا عذاب النار؛ لأنه جزاء من عصى، ولم يُطع، والمعنى: فوفقنا بعنايتك لصالح العمل بما فهمنا من الدلائل، حتى يكون ذلك وقايةً لنا من عذاب النار. والمقصود من قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ تعليم عباده كيفيةَ الدعاء، فمن أراد أن يدعو.. فليقدم الثناء على الله أولاً، ويدل عليه قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، وبعد ذلك الثناء يأتي بالدعاء، ويدل عليه قوله: ﴿فَقِنَا﴾ ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

واعلم[3]: أنه تعالى لما حَكَى عن هؤلاء العباد المخلصين أن ألسنتهم مستغرقة بذكر الله... وأبدانَهم في طاعة الله، وقلوبهم في التفكر في دلائل عظمة الله؛ ذكَر أنهم مع هذه الطاعة يطلبون من الله أن يقيهَم عذاب النار؛ لأنه يجوز على الله تعذيبهم؛ لأنه لا يقبحُ من الله شيء أصلاً.

واعلم[4]: أن دلائلَ التوحيد في خلق هذا العالم محصورة في قسمين: دلائل الآفاق، ودلائلُ الأنفس، ولا شك أن دَلائل الآفاق أعظمُ وأعجب، فلو أن الإنسان نظَر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة. رأى في تلك الورقة عرقاً

---

(١) الخازن.
(٢) النسفي.
(٣) مراح.
(٤) مراح.

واحداً ممتداً في وسطها، ثم يتشعب من ذلك العرق، عروق كثيرة إلى الجانبين، ثم يتشعب منها عروق دقيقة، ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق أخرى حتى تصير في الدقة بحيث لا يراها البصرُ، وعند هذا يعلم أن للخالق في تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكماً بالغة، وأسراراً عجيبة، ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة.. لعجز، فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقه تلك الورقةَ الصغيرة، فإذا قاس تلك الورقة إلى السموات مع ما فيها من الشمس، والقمر، والنجوم، وإلى الأرض مع ما فيها من البحار، والجبال، والمعادن، والنبات والحيوان.. عَرفَ أن تلك الورقةَ بالنسبة إلى هذه الأشياءِ كالعدم، فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشيء الحقير.. عرف أنه لا سبيل له إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض، وإذا عرف بهذا البرهان قصور عقله.. لم يبقَ معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل من أن يحيط به، وصف الواصفين، ومعارف العارفين، بل يسلم أن في كل ما خلقه الله تعالى حكماً بالغةً، وأسراراً عظيمةً، ولا سبيل له إلى معرفتها، فعند هذا يقول ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ الخلق العجيب ﴿بَٰطِلًا﴾؛ أي: بغير حكمة بل خلقته بحكمة عظيمة، وهي أن تجعلها مساكنَ للمكلفين الذين اشتغلوا بطاعتك، وتحرزوا عن معصيتك، ومداراً لمعايش العباد، ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وهذا إقرار بعجز العقول عن الإحاطة، بآثار حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض؛ أي: إن الخلق إذا تفكروا في هذه الأجسام العظيمة. لم يعرفوا منها إلا هذا القدر، وهو أن خالِقَها ما خلقَها باطلاً، بل خلقها لحكم عجيبةٍ، وأسرار عظيمةٍ، وإن كانت العقول قاصرةً عن معرفتها ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للإخلال[1] بالنظر فيه، والقيام بما يقتضيه، وفائدة هذه الفاء: هي الدلالة على أن علمهم بما لأجله خلقتَ السموات والأرض، حملهم على الاستعاذة.

ثم إنهم بعد أن يدعو ربهم أن يقيهم دخولَ النار يتوجهون إليه قائلين:

---

(١) البيضاوي.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾ وأهنته بياناً للسبب الذي حملهم على دعائه، بأن يقيهم عذاب النار، وهو أن من أدخله النار. . فقد أخزاه؛ أي: أذله، وأهانه غايةَ الإذلال، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين ﴿مِنۡ أَنصَارٖ﴾ يمنعونهم من عذاب الله تعالى. والظالم: هو الذي يتنكب الطريقَ المستقيم، وقد وصف الله سبحانه وتعالى من يدخل النار بالظلم؛ للدلالة على أن سبب دخوله إياها: هو جوره، وظلمه، وللتشنيع عليه بهذا العمل القبيح؛ أي: إن هؤلاء المتفكرين الذاكرين، ينظرون إلى هيبة ذلك الرب العلي الذي خلق تلك الأكوان المملوءة بالأسرار، والحكم، فيعلمون أنه لا يمكن أحداً أن ينتصر عليه، وأن من عاداه. فلا ملجأ له إلا إليه، ويقولون: ﴿رَّبَّنَآ﴾؛ أي: يا مالك أمرنا ﴿إِنَّنَا سَمِعۡنَا﴾، وأصغينا ﴿مُنَادِيٗا﴾؛ أي: نداء مناد ﴿يُنَادِي﴾، ويدعو ﴿لِلۡإِيمَٰنِ﴾؛ أي: إلى الإيمان والتوحيد ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾؛ أي: ينادي بأن آمنوا وصدقوا، ووحدوا بمتولي أموركم، وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾؛ أي: سمعنا نداءه فأجبناه، وصدقناه، واتبعناه فيما دعانا إليه من التوحيد والطاعة.

قال ابن عباس(١) وأكثر المفسرين: المنادي هو محمد ﷺ ويدل على صحة هذا القول. قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: المنادي هو القرآن، قال: إذ ليس كل أحد لقي النبي ﷺ. ووجه هذا القول أنَ كل أحد يسمع القرآن، ويفهمه فإذا وفقه الله تعالى للإيمان به. فقد فاز به، وذلك لأن القرآن مشتمل على الرشد، والهدى، وأنواع الدلائل الدالة على الوحدانية فصار كالداعي إليها.

وفي توطئة الدعاء بالنداء إشارة إلى كمال توجههم إلى مولاهم، وعدم غفلتهم عنه مع إظهار كمال الضراعة، والابتهال إلى من عودهم الإحسانَ والأفضالَ.

﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ﴾؛ أي: فاسترلنا ﴿ذُنُوبَنَا﴾ الكبائرَ، أو الماضية، ولا تفضحنا

---

(١) الخازن.

بها ﴿وَكَفِّرْ﴾؛ أي: وغط وامح بفضلك ورحمتك ﴿عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ الصغائر، أو المستقبلة. وقيل: المراد[1] بالأول ما يزول بالتوبة، وبالثاني ما تكفره الطاعة العظيمة، وقيل: المراد بالأول ما أتى به الإنسان مع العلم بكونه معصيةً، وبالثاني ما أتى به الإنسان مع جهله بذلك. والظاهر[2]: عدمُ اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين، والآخر بالآخر، بل يكون المعنى في الذنوب والسيئات واحداً، والتكرير للمبالغة، والتأكيد كما أن معنى الغفر، والتكفير واحد. والغفران: الستر، والتغطية، يقال: رجل مكفر بالسلاح؛ أي: مغطى به، قال لبيد:

فِيْ لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُوْمَ ظَلامُهَا

وكذلك التكفير معناه الستر، فهما بمعنى واحد، وإنما ذكرَهما للتأكيد؛ لأن الإلحاحَ في الدعاء، والمبالغةَ فيه مندوب إليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾؛ أي: أمتنا مصاحبين وملتبسينَ بأعمال الأبرار والأخيار المتمسكين بالسنة والطريقة المستقيمة من الأنبياء، والمرسلين، والصديقين، والصالحين، حتى نكون في درجاتهم يوم القيامة، أو المعنى: وتوفنا على الإيمان، واجمعنا مع أرواح النبيينَ والصالحين.

والحاصل: أنهم طلبوا من الله تعالى في هذا الدعاء ثلاثةَ أشياء: غفرانَ الذنوب المتقدمة، وتكفيرَ السيئات المستقبلة، وأن تكون وفاتهم مع الأبرار؛ بأن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا في درجاتهم يوم القيامة، كما يقال: فلان في العطاء مع أصحاب الألوف؛ أي: هو مشارك لهم في أنه يعطي ألفاً، قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ وفي هذا رمز إلى أنهم كانوا يحبون لقاء الله، ومن أحب لقاء الله. أحب الله لقاءه.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا﴾؛ أي: أعطنا ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ من حسن الجزاء كالنصر في الدنيا، والنعيم في الآخرة جزاءَ ﴿عَلَى﴾ تصديق ﴿رُسُلِكَ﴾ واتباعهم، فالجار والمجرور، إمَّا متعلق بوعدتنا؛ أي: وعدتنا على تصديق رسلك، أو متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف مؤكد للعامل، تقديره: وعدتنا وعداً كائناً على ألسنة رسلك.

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

وخلاصة ذلك[1]: أنهم قالوا: أعطنا ذلك بتوفيقنا للثبات على ما نستحق به ذلك، إلى أن تتوفانا مع الأبرار. وفي هذا استشعار بتقصيرهم، وعدم الثقة بثباتهم، إلا بتوفيق الله، ومزيد عنايته. وقرأ الأعمش على ﴿رسْلك﴾ بإسكان السين. ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾؛ أي: لا تهنا، ولا تفضحنا، ولا تهتك سترنا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإدخالنا النارَ التي يخزى من دخلها، ﴿إِنَّكَ﴾ يا إلهي ﴿لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ أي: لا تخلف ما وعدتَ به على الإيمان، وصالح العمل، فقد وعدتَ المؤمنين بسيادة الدنيا في قولك: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقلت: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ ووعدت بسعادة الآخرة، فقلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

فإن قلتَ[2]: كيف سألوا الله إنجازَ ما وَعَد، والله لا يخلف الميعاد؟

قلتُ: معناه أنهم طلبوا من الله تعالى التوفيقَ فيما يحفظ عليهم أسبابَ إنجاز الميعاد، وقيل: هو من باب اللجاء إلى الله تعالى، والتذلل له، وإظهار الخضوع والعبودية؛ كما أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون الله مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التذللَ لربهم سبحانه وتعالى، والتضرعَ إليه، واللجاء إليه، الذي هو سيما العبودية. وقيل: معناه ربنا، واجعلنا ممن يستحق ثوابكَ، وتؤتيهم ما وعدتَهم على ألسنة رسلك؛ لأنهم لم يتيقنوا استحقاقَهم لتلك الكرامة؛ فسألوه أن يجعلَهم مستحقين لها. وقيل: إنما سألوه تعجيلَ ما وعدهم من النصر على الأعداء، قالوا: قد علمنا أنك لا تخلف الميعاد، ولكن لا صَبْرَ لنا على حلمِك فعجل هلاكهم، وأنصرنا عليهم.

قال العلماء[3]: ويستحب لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر آيات، اقتداء بالنبي ﷺ ثبت ذلك في «الصحيحين»، وغيرهما ثم يصلي ما كتب له، فيجمع بين التفكر والعمل. وفي الآثار عن جعفر الصادق: من حزبه أمرٌ فقال: ربنا خمس مرات أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

(٤) البحر المحيط.

أراد، واستدل بهذه الآية: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾؛ أي: أجاب لهم ربهم سبحانه وتعالى دَعاءهم بـ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾، ولا أبطل، ولا أحبط ﴿عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ أيها المؤمنون، سواء كان ذلك العامل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ بل أثيبكم على ما فعلتم من الخيرات؛ فلا تفاوت في الإجابة، وفي الثواب بين الذكر والأنثى إذا كانا في التمسك بالسنة والعمل بالطاعة على السواء ﴿بَعۡضُكُم﴾ أيها المؤمنون والمؤمنات ﴿مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾؛ أي: كبعض في الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية؛ لأن تكليفي عام لكل من النوعين. وقيلَ: بعضُكم من بعض في الدين، والنصرة، والموالاة. وقيل: الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، فكلكم من آدَمَ وحواء.

وهذه الجملة معترضة، بيَّن الله سبحانه وتعالى بها شركةَ النساءَ الرجالَ فيما وعده الله عبادَه العاملين.

وقرأ الجمهور[1] ﴿أَنِّي﴾ بفتح الهمزة، وإسقاط الباءِ، أي: بأني، وهو مطرد إذا أمن اللبس كما قال ابن مالك:

نَقْلاً وَفِيْ أَنَّ وَأَنْ يَطَّرِدُ ... مَعْ أَمْنِ لَبْسٍ كَعَجِبْتُ أَنْ يَدُوْا

وقرأ أبي ﴿بأنى﴾ بإثبات الباء، وهي للسببية؛ أي: فاستجاب لهم ربهم؛ بسبب أنه لا يضيع عملَ عامل منهم، والمراد بالإضاعة تركُ الإثابة، وقرأ عيسى بن عمر ﴿إنّي﴾ بكسر الهمزة، فيكون على إضمار القول على قول البصريين، أو على الحكاية بقوله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ لأن فيه معنى القول على طريقة الكوفيين. وقرأ الجمهور ﴿أُضِيعُ﴾ من أضاع الرباعي، وقرأ بعضهم ﴿أُضيِّع﴾ بالتشديد من ضيع المضعف، والهمزة، والتشديد فيه: للنقل.

ويستنبط من هذه الآية أمور كثيرة:

منها: أن الاستجابة يصح أن تكون بغير ما طلبَ، فقد سألوه غفرانَ الذنوب وتكفيرَ السيئات، والوفاةَ مع الأبرار، فأجابهم بأن كل عامل سيوفَى جزاءَ

---

(١) المراغي.

عمله، وفي ذلك تنبيه على أن العبرةَ في النجاة من العذاب والفوز بحسن الثواب إنما تكون بإحسان العمل، والإخلاص فيه.

ومنها: أن الذكر والأنثى متساويان عند الله في الجزاء متى تساويَا في العمل، حتى لا يغتر الرجل بقوته، ورياسته على المرأة، فيظن أنه أقربُ إلى الله منها.

ومنها: أن الله قد بين علة هذه المساواة بقوله: بعضكم من بعض، فالرجل مولود من المرأة، والمرأة مولودة من الرجل، فلا فرق بينهما في البشرية، ولا تفاضل إلا بالأعمال.

ومنها: أنها رفعَتْ قَدْر النساء المسلمات في أنفسهن، وعند الرجال المسلمين.

ومنها: أن هذا التشريع قد أصلح معاملةَ الرجل للمرأة، واعترَفَ لها بالكرامة، وأنكرَ تلك المعاملةَ القاسيةَ التي كانت تعاملها بها بعض الأمم، فقد كان بعضها يعدها كالبهيمة المسخرة لمصلحة الرجل، وبعضُها يعدها غير أهل للتكاليف الدينية؛ إذ زعموا أنه ليس لها روح خالد، فما زعمه الإفرنج من أنهم السباقون إلى الاعتراف بكرامة المرأة، ومساواتها للرجل؛ ليس مبنياً على أساس صحيح، فالإسلام هو الذي سبق كل الشرائع في هذا، ولا تزال شرائعهم الدينيةُ، والمدنية تميز الرجل من المرأة، نعم إن المسلمين قصروا في تعليم النساء، وتربيتهن، لكن هذا لا يصلح حجةً على الدين نفسه.

ومنها: أن ما يفضل به الرجالُ النساء من العلم والعقل، وما يقومون به من الأعمال الدنيوية التي جرى عرف المجتمع على إسنادها إلى الرجال، وجعل حظ الرجل في الإرث مثلَ حظ الانثيين؛ لأنه يتحمل نفقة امرأته؛ فلا دخل لشيء منه في التفاضل عند الله بثواب ولا عقاب.

ثم فصل الله سبحانه وتعالى العملَ الذي أجمله في قوله: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ﴾ بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ وارتحلوا معه ﷺ أو بعده من مكة إلى

المدينة، وفارقوا أوطانَهم التي ولدوا فيها طلباً لرضا الله ورسوله ﷺ ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾؛ أي: ألجأهم الكفار إلى الخروج من منازلهم التي تربوا فيها ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ وديني، وطاعتي؛ أي: آذاهم وأضرهم المشركون بسبب إيمانهم بالله، وعملهم بما شرعه الله تعالى لعباده، وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة، فهاجر طائفة إلى الحبشة، وطائفة إلى المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ وبعد هجرته. فلما استقر رسول الله ﷺ في المدينة رجع إليه من كان هاجر إلى الحبشة من المسلمين ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ الكفار أعداءَ الله، وجاهدوهم لإعلاء كلمة الله، ونصر دينه مع رسوله ﷺ ﴿وَقُتِلُواْ﴾ بالبناء للمفعول؛ أي: واستشهدوا في جهاد الكفار.

وقرأ[1] جمهورُ السبعة ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي ﴿وقتلوا وقاتلوا﴾ يبدآنِ بالمبني للمفعول، ثم بالمبني للفاعل فتتخرَج هذه القراءة على أن الواو لا تدل على الترتيب، فيكون الثاني وقع أولاً، ويجوز أن يكون ذلك على التوزيع، فالمعنى قتل بعضهم، وقاتل باقيهم. وقرأ عمر بن عبد العزيز ﴿وقتلوا وقتلوا﴾ ببناء الأول للفاعل، وبناء الثاني للمفعول، وهي قراءة حسنة في المعنى مستوفية للحالين على الترتيب المتعارف، وقرأ محارب بن دثار ﴿وقتلوا﴾ بفتح القاف ﴿وقاتلوا﴾ وقرأ طلحة بن مصرف ﴿وقتلوا وقاتلوا﴾ بضم القاف الأولى، وتشديد التاء، وهي في التخريج كالقراءة الأولى. وقرأ أبو رجاء والحسن ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ بتشديد التاء، والبناء للمفعول؛ أي: قطعوا في المعركة.

واللام في قوله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ جواب قسم محذوف، والقسم وجوابه خبر عن قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾؛ أي: لأمحون عنهم ذنوبهم، ولأغفرنها لهم؛ أي: وعزتي وجلالي، لأسترن ذنوبَ هؤلاء الموصوفين بالصفات السابقة بمحض فضلي ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ وبساتينَ ﴿تَجۡرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ أي من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ أي: أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من

---

(١) البحر المحيط.

لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر لذة للشاربين. وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمعنى قوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ والمعنى: ولأثيبن هؤلاء المذكورين بالثواب المذكور إثابةً كائنةً من عند الله؛ أي: من فضل الله وإحسانه إليهم، لا وجوباً عليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾؛ أي: الثواب الحسن، والجزاء الموفر، وهي الجنة التي فيها ما لاعين رأت، ولا أذن سمعَت، ولا خطرَ على قلب بشر، وهذا تأكيد لكون ذلك الثواب الذي أعطاهم من فضله، وكرمه؛ لأنه جواد كريم.

وقد وعد[1] الله تعالى هؤلاء الموصوفينَ بالصفات السابقة بأمور ثلاثة:

الأول: محو السيئات، وغفران الذنوب، ودل على ذلك بقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ وذلك ما طلبوه بقولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾.

الثاني: إعطاء الثواب العظيم، وهو قوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ وهذا ما طلبوه بقولهم ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

والثالث: أن يكون هذا الثواب عظيماً مقروناً بالتعظيم والإجلال، وهو قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهذا ما طلبوه بقولهم، ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. والمعنى: لأكفرن عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم الجنات، ولأثيبنهم بذلك ثواباً من الله لا يقدر عليه غيره. ولما قال بعض المؤمنين: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، والسعة، والتمتع، والتقلب في البلاد في أسفارهم للتجارة، والمكاسب، ونحن في الجهد، والضيق، والفقر، والجوع.. نزل قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾، والخطاب فيه لرسول الله ﷺ والمراد غيره من الأمة؛ لأنه ﷺ معصوم عن الاغترار بذلك، والمعنى: لا يخدَعَنَّك، ولا يغرنك أيها المخاطب ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: تنقلهم وضَرْبهُم في البلاد، وأرجاء الأرض، وأَمْنهم في تقلباتهم للتجارات، وطلب الأرباح، والمكاسب وتَبَسُّطهم في المعاش والملاذ.

وخلاصة المعنى: لا يغرنكم أمنهم على أنفسهم وتصرفهم ﴿فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ كيف

---

(١) المراغي.

شاؤوا، وأنتم معاشرَ المؤمنين خائفون محصورون، فإنَّ ذلك لا يبقى إلا مدةً قليلة، ثم ينتقلون إلى أشدِّ العذاب؛ فعلى المؤمن أن يجعل مرمى طرفه ذلك الثواب الذي وعده الله، فهو النعيم الحقيقي الباقي.

وقرأ[١] ابن أبي إسحاق، ويعقوب لا يغرنك، ولا يصدنك، ولا يصدنكم، ولا يغرنكم، وشبهه بالنون الخفيفة ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر لمحذوف تقديره؛ ذلك التقلب، والتبسط شيء قليل، متعوا به، ومنفعة يسيرة زائلة، لا تدوم لا قدرَ لها في مقابلة ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، قال ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعَه في اليم، فلينظر بم يَرجع». رواه مسلم. ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: ثم المكان الذي يأوون إليه، وينزلون فيه إنما هو ﴿جَهَنَّمُ﴾، وعبر بالمأوى إشعاراً بانتقالهم عن الأماكن التي تقلبوا فيها، وكان البلاد التي تقلبوا فيها إنما كانت لهم أماكن انتقال من مكان إلى مكان لا قرارَ لهم، ولا خلودَ، ثم المأوى الذي يأوون إليه، ويستقرون فيه هو جهنم ﴿وَبِئْسَ﴾ وقبح ﴿ٱلْمِهَادُ﴾ والفراش لهم، والمخصوص بالذم جهنم ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ لما تضمن[٢] ما تقدم أن ذلك التقلب والتصرف في البلاد، هو متاع قليل، وإنهم يأوون بعد إلى جهنم، فدل على قلة ما متعوا به؛ لأن ذلك منقض بانقضاء حياتهم، ودل على استقرارهم في النار.. استدركَ بلكن الإخبارَ عن المتقين بمقابل ما أخبر به عن الكافرين، وذلك شيئان:

أحدهما: مكان استقرار، وهي الجنات.

والثاني: ذكر الخلود فيها، وهو الإقامة دائماً، والتمتع بنعيمها سرمداً فقابل جهنم بالجنات، وقابل قلة متاعهم بالخلود. الذي هو الديمومة في النعيم، فوقعت لكن هنا أحسن موقع؛ لأنه آل معنى الجملتين إلى تعذيب الكفار، وإلى تنعيم المتقين فهي واقعة بين الضدين. وقرأ الجمهور ﴿لكن﴾ خفيفةَ النون، وقرأ أبو جعفر بالتشديد، ولم يظهر لها عمل؛ لأن اسمها مبني؛ أي: لكن المؤمنون

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الذين اتقوا، وخافوا عقاب ربهم بفعل المأمورات، واجتناب المنهيات، وإن أخذوا في التجارات، والمكاسب لهم جنات وبساتين ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من الماء، واللبن، والخمر، والعسل حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات أبداً لا يموتون، ولا يخرجون منها، فلا يضرهم التبسط في الدنيا، إذا كان على الوجه المعروف في الشرع، فذم الدنيا ومعيشتها للكافر خاصة كما قال بعضهم:

مَا أَحْسَنَ ٱلدِّيْنَ وَٱلدُّنْيَا إِذَا ٱجْتَمَعَا لاَ بَارَكَ ٱللَّهُ فِيْ دُنْيَا بِلاَ دِيْنِ

حالة كون تلك الجنات ﴿نُزُلًا﴾؛ أي: جزاء وثواباً، وعطاءً، وإكراماً، واقعاً لهم ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ضيافة معدةً لهم من فضله، وكرمه سبحانه وتعالى. والنزل في الأصل ما يهيأ للضيف النازل من القِرَى والطعام، والشراب النفيس، وفي الآية: إيماء إلى أن النازلينَ فيها ضيوف عند ربهم، يحفهم بلطفه، ويخصهم بكرمه، وجوده، وهذه الجنات نعيم جسماني لهم، وهناك نعيم روحاني أعطاه الله بمحض الفضل والإحسان، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى من الكرامة فوق ما تقدم كرؤية الله عز وجل، أو من الثواب الدائم ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿لِّلْأَبْرَارِ﴾؛ أي: للموحدين مما يتقلب فيه الكفار، والفجار في الدنيا من المتاع القليل السريع الزوال.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جئت رسول الله ﷺ فإذا هو في مشربة، وإنه لعلَى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم، حشوها ليف، وعند رجليه قرظ مصبور، وعند رأسه أُهَبٌ معلقة، فرأيت أثَر الحصير في جنبه، فبكيت فقال: «ما يبكيك»؟ قلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت رسول الله. فقال: «أمَا ترضَى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة». متفق عليه. وهذا لفظ البخاري. والمشربة الغرفة والعليةُ والمشاربُ العلالي.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: وإن من اليهود والنصارى ﴿لَمَن يُؤْمِنُ﴾ ويصدق ﴿بِـ﴾ وحدانية ﴿الله﴾ تعالى كعبد الله بن سلام، وأصحابه، والنجاشي، وأصحابه ﴿و﴾ يؤمن بـ﴿ما أنزل إليكم﴾ من القرآن ﴿و﴾ يؤمن بـ﴿ما أنزل إليهم﴾

من التوراة، والإنجيل، والزبور حالةَ كونهم ﴿خَٰشِعِينَ﴾؛ أي: متواضعين ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات ﴿لَا يَشۡتَرُونَ﴾ أي: لا يأخذون (بـ) كتمان ﴿آيات الله﴾ من أمر محمد ﷺ ونعته من سَفَلتهم ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾؛ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا؛ كما يفعله غيرهم من أهل الكتاب، يعني لا يغيرون كتبهم، ولا يحرفونها، ولا يكتمون صفة محمد ﷺ لأجل الرئاسة، والمآكل، والرشا كما يفعلُه رؤساء اليهود.

والحاصلُ[(١)]: أنه سبحانه وتعالى لما بين حال المؤمنين، وما أعد لهم من الثواب، وحالَ الكافرين، وما هيأ لهم من العقاب.. ذكر هنا حالَ فريق من أهل الكتاب يهتدون بهذا القرآن، وكانوا من قبله مهتدين بما عندهم من هديِ الأنبياءِ، وقد وصفهم الله تعالى بصفات كلها تستحق المزيَّةَ والشرفَ:

الأولى: الإيمان بالله إيماناً لا تشوبه نزعات الشرك، ولا يفارقه الإذعانُ الباعثُ على العمل، لا كمن قال الله فيهم: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾.

الثانية: الإيمان بما أنزل إلى المؤمنين، وهو ما أوحاه الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ.

الثالثة: الإيمان بما أنزل إليهم، وهو ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائهم، والمراد به: الإيمان به إجمالاً وما أرشد إليه القرآن تفصيلاً فلا يضيرُ في ذلك ضياع بعضه، ونسيان بعضه الآخر.

الرابعة: الخشوع، وهو الثمرة للإيمان الصحيح؛ فإن الخشوع أثر خشية الله في القلب، ومنه تفيض على الجوارح والمشاعر، فيخشعُ البصر بالانكسار، ويخشع الصوت بالخفوت والتهدج[(٢)].

---

(١) المراغي.

(٢) **تهدج الصوت**: تقطُعه في ارتعاش.

الخامسة: عدم اشتراء شيء من متاع الدنيا بآيات الله، وهذا أثر لما قبله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الحميدة المذكورة ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾؛ أي: لهم ثواب أعمالهم، وأجر طاعتهم حالَ كونه مدخراً لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ الذي رباهم بنعمه، وهداهم إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ أي: سريع لإيصال الأجر الموعود إليهم من غير حاجة إلى تأمل؛ لكونه عالماً بجميع الأشياء، فيعلم ما لكل واحد من الثواب والعقاب، فهو يحاسب الناسَ جميعَهم في وقت قصير، فيتمثل لهم ما كسبته أيديهم، وانطوت عليه جوانحهم، وهو مكتوب في صحائف أعمالهم، فما أحرانا أن نشبهها بالصور المتحركة الأفلام التي تعرض فيها الحوادث والوقائع في عصرنا الحاضر، وقد ختم الله سبحانه وتعالى هذه السورةَ بوصية للمؤمنين، إذا عملوا بها كانوا أهلاً لاستجابة الدعاء، وأحق بالنصر في الدنيا وحسن المثوبة في الآخرة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ على[1] شدائد الدنيا وآلامها من مرض، وفقر، وخوف، أو على تكاليف دينكم، وأدائها، وعلى مشقة الاحتراز عن المنهيات ﴿وَصَابِرُواْ﴾؛ أي: تحملوا المكارهَ التي تلحقكم من غيركم، ويدخل في ذلك احتمالُ الأذى من الأهل والجيران، وترك الانتقام ممن يسيء إليكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ وايثار غيركم على أنفسكم كما قال تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ والعفو عمن ظلمكم كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ ودفع شبه المبطلين، وحل شكوكهم، والإجابة عن شبههم.

﴿وَرَابِطُواْ﴾؛ أي: اربطوا خيلكم في الثغور كما يربط العدو خيله استعداداً للقتال، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ ويدخل في هذا كل ما ولده العلم في هذا العصر من وسائل الدفاع من طائرات، وقاذفات للقنابل، ودبابات، ومدافع رشاشة، وبنادق، وأساطيل بحرية، ونحو

---

(١) المراغي

ذلك مما صار الآن ضرورياً من آلات الحروب الحديثة، وصار من فقدها يشبه أن يكون أعزلَ من السلاح، وإن كان مدججاً به، ويلزم هذا أن يكونوا عالمين بفنون الحرب، والخطط العسكرية بارعين في العلوم الطبيعية، والرياضية، فكل ذلك واجب على المسلمين في هذا العصر؛ لأن الاستعدادَ المأمور به في الآية لا يتم إلا به.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها». متفق عليه.

وعن سلمان الخير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم وليلة، خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه. جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان». رواه مسلم.

وفي سنن أبي داود قال: «كل الميت يختم على عمله، إلا المرابط، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتاني القبر». وقيل: المراد بالمرابطة: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قال أبو سلمة بن عبد الرحمٰن: لم يكن في زمن النبي ﷺ غزو يرابط فيه، ولكنه انتظار الصلاة خلف الصلاة.

ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». أخرجه مسلم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره ونهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تظفروا السعادةَ الأبديةَ في الدنيا والآخرة، قال[1] محمد بن كعب القرظي يقول الله عز

---

(١) الخازن.

وجل: واتقوا الله فيما بيني وبينكم، لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني. وقال[1] بعضهم في معنى هذه الآية: يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائي، وصابروا على نعمائي، ورابطوا على مجاهدة أعدائي، واتقوا محبة سوائي لعلكم تفلحون بلقائي. وقيل: اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء، والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء، لعلكم تفلحون في دار البقاء. وقيل: اصبروا على الدنيا ومحنها، رجاءَ السلامة، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة، ورابطوا على مجاهدة النفس اللوامة، واتقوا ما يعقبكم الندامةَ لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

ولقد[2] أكثر الله تعالى في كتابه من ذكر التقوى، ويراد بها الوقاية من سخط الله وغضبه، ولا يكون هذا إلا بعد معرفته، ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه، ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله، وعَرَفَ سنةَ نبيه وسيرة السلف الصالح من الأمة الإسلامية، ومن فعل كل ما تقدم فصبرَ، وصابَرَ، ورابطَ لحماية الحق، وأهله، ونشَرَ دعوته، واتقى ربه في سائر شؤونه فقد أفلح، وفاز بالسعادة عند ربه.

الإعراب

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً لـ﴿إن﴾ تقديره: إن آيات دالات على وحدانية الله لكائنة لأولي الألباب في خلق السموات ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿وَٱخْتِلَٰفِ﴾ معطوف على ﴿خَلْقِ﴾، وهو مضاف. ﴿ٱلَّيْلِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

معطوف على الليل. ﴿لَآيَٰتٍ﴾ اللام حرف ابتداء. ﴿آيات﴾ اسم ﴿إنَّ﴾ مؤخر منصوب بالكسرة. ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة ﴿لَآيَٰتٍ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الجر صفة ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿قِيَٰمًا﴾ حال من فاعل ﴿يذكرون﴾. ﴿وَقُعُودًا﴾ معطوف عليه. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الواو عاطفة. ﴿على جنوبهم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف معطوف على ﴿قِيَٰمًا﴾ على كونه حالاً من فاعل ﴿يَذْكُرُونَ﴾، تقديره: وحالة كونهم مضطجعين على جنوبهم، ففي الآية عطف الحال المؤولة على الحال الصريحة عكسَ قوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾، و﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿يَذْكُرُونَ﴾ على كونه صلة الموصول. ﴿فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يتفكرون﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ مقول محكي لقول محذوف تقديره: يقولون: ربنا ما خلقت هذا باطلاً، وجملة القول المحذوف حال من فاعل ﴿يتفكرون﴾، تقديره: ويتفكرون في خلق السموات والأرض حالةَ كونهم قائلينَ ربنا ما خلقت هذا باطلاً. ﴿رَبَّنَا﴾ رب منادى مضاف. ﴿نا﴾ مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول للقول المحذوف كما سبق آنفاً. ﴿مَا خَلَقْتَ﴾ ﴿ما﴾ نافية. ﴿خَلَقْتَ﴾ فعل وفاعل. ﴿هَٰذَا﴾ مفعول به ﴿بَٰطِلًا﴾ حال من اسم الإشارة، وهو الأحسن في إعرابه، وهي حال لا يستغنى عنها إذ لو حذفت للزم نفي الخلق، وهو لا يصح أو مفعول من أجله؛ أي: ما خلقت هذا للباطل، والعبث، والجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المذكور. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: سبحناكَ، ونزهناك عن كل ما لا يليق بك

سبحانك، وجملة التسبيح جملة معترضة بين قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ وبين قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. ﴿فَقِنَا﴾ الفاء حرف عطف وسبب؛ لأن ما بعدها متسبب عن قوله ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾؛ لأن المعنى فحيث وحدناك، ونزهناك عن النقائص فقنا عذاب النار؛ لأن النار جزاء من عَصَى، ولم يوحد. ﴿قنا﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾ ﴿ربَّ﴾ منادى مضاف و﴿نا﴾ مضاف إليه. ﴿إِنَّكَ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿الكاف﴾ في محل النصب اسمها. ﴿مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ من اسم شرط في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تدخل﴾ وجوباً لكونه مما يلزم الصدارة. ﴿تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ فعل ومفعولٍ ثان في محل الجزم على كونه فعل شرط لمن، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فَقَدْ﴾ الفاء رابطة لجواب من وجوباً لكونه مقروناً بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿أَخْزَيْتَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول للقول المحذوف. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الواو عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ ﴿من﴾ زائدة. ﴿أَنصَارٍ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾.

﴿رَّبَّنَآ﴾ ﴿ربَّ﴾ منادى مضاف و﴿نا﴾ مضاف إليه. ﴿إِنَّنَا﴾ إن حرف نصب و﴿نا﴾ اسمها. ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿مُنَادِيًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿سَمِعْنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول للقول المحذوف على كونها جواب النداء ﴿يُنَادِي﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المنادي، والجملة في محل النصب صفة ﴿مُنَادِيًا﴾. ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ جار ومجرور

متعلق بـ﴿ينادي﴾. ﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾ أن تفسيرية بمعنى؛ أي: ﴿ءَامِنُوا﴾ فعل وفاعل. ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿آمنوا﴾ والجملة الفعلية جملة مفسرة لـ﴿ينادي﴾ لا محل لها من الإعراب، وإن شئت قلت: ﴿أن﴾ مصدرية. ﴿ءَامِنُوا﴾ فعل وفاعل في محل النصب، وجملة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة المتعلقة بـ﴿ينادي﴾ تقديره. ينادي بطلب إيمانكم. ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب. ﴿آمنا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿سَمِعْنَا﴾ على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف ومضاف إليه. ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الفاء حرف عطف وترتيب. ﴿اغفر﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَنَا﴾ متعلق بـ﴿اغفر﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أمنا﴾. ﴿ذُنُوبَنَا﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿وَكَفِّرْ﴾ فعل دعاء معطوف على ﴿فَٱغْفِرْ﴾. ﴿عَنَّا﴾ متعلق به. ﴿سَيِّـَٔاتِنَا﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: فعل ومفعول به وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿فاغفر﴾. ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿توفنا﴾، أو بمحذوف حال من ضمير المفعول تقديره: حالة كوننا مصاحبينَ للأبرار.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ١٩٤﴾.

﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف ومضاف إليه. ﴿وَءَاتِنَا﴾ الواو عاطفة ﴿آتنا﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱغْفِرْ﴾، ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان ﴿لآتنا﴾ لأنه بمعنى أعطنا. ﴿وَعَدتَّنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: وعدتناه. ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بوعدتنا؛ ولكنه على حذف مضاف تقديره: على ألسنة رسلك كما مر في بحث التفسير. ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ ناهية.

﴿تُخْزِنَا﴾ فعل ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱغْفِرْ﴾. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تخزنا﴾. ﴿إِنَّكَ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب ومصدر و﴿الكاف﴾ اسمها. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿تُخْلِفُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْمِيعَادَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول للقول المحذوف على كونها معللة لقوله ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة[1] إما على مقدر، تقديره: دعوا ربهم بهذا الدعاء، فاستجاب لهم، والجملة المحذوفة مستأنفة، وإما على قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿استجاب﴾ فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿رَبُّهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف. ﴿أَنِّى﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، والياء اسمها. ﴿لَآ أُضِيعُ﴾ لا نافية. ﴿أُضِيعُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿مِّنكُم﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿عامل﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر ﴿أن﴾؛ وجملة ﴿أن﴾. في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة، تقديره: بعدم إضاعة عمل عامل. ﴿مِّنكُم﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿استجاب﴾ هذا على قراءة فتح الهمزة، وأما على قراءة كسرها، فمقول لقول محذوف تقديره: فاستجاب لهم ربهم بقوله: أني لا أضيع عمل عامل منكم. ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله ﴿مِّنكُم﴾ بدل تفصيل من مجمل بإعادة العامل، أو بدل ﴿من﴾ لفظ ﴿عامل﴾ على جعل ﴿من﴾ زائدة، كأنه قال: لا أضيع عمل ذكر. ﴿أَوْ أُنثَىٰ﴾ معطوف على ذكر. ﴿بَعْضُكُم﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿مِّنۢ بَعْضٍ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، فالجملة معترضة لاعتراضها بين المجمل أعني قوله: ﴿عَمَلَ

(١) الشوكاني.

عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾، وبين ما فصل به عمل العاملين من قوله ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾. ولذلك قال الزمخشري ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم. وقيل[1]: هي في محل التعليل للتعميم في قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ فكأنه قيل: إنما سوى بين الفريقين في الثواب لاشتراكهم في الأصل، والدين، والمعنى: كما أنكم من أصل واحد، وأن بعضكم مأخوذ من بعض، فكذلك أنتم سواء في ثواب العمل، لا يثاب رجل عامل دونَ امرأة.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنّي لا أضيع عمل عامل منكم، وأردت بيانَ كيفية عدم الإضاعة، فأقول لك. ﴿الذين﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿هَاجَرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَأُخۡرِجُواْ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿هَاجَرُواْ﴾. ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أخرجوا﴾. ﴿وَأُوذُواْ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿هَاجَرُواْ﴾ أيضاً. ﴿فِي سَبِيلِي﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق ﴿بأوذوا﴾. ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿هاجروا﴾. و﴿وَقُتِلُواْ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿هَاجَرُواْ﴾. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة لقسم محذوف تقديره: وعزتي وجلالي لأكفرن. ﴿أكفرن﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، ونون التوكيد: حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنۡهُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أكفرن﴾. ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً مفصلة لعملِ العاملين المجمل أولاً.

(١) الجمل.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لأدخلنهم﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿أدخلن﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح، لاتصاله بـ﴿نون التوكيد﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. و﴿الهاء﴾ ضمير الغائبين في محل النصب مفعول أول. ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول ثان، وجملة القسم المحذوف في محل الرفع معطوفة على جملة القسم في قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾. ﴿تَجْرِي﴾ فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية صفة لـ﴿جنات﴾ ولكنها سببية. ﴿ثَوَابًا﴾ حال من ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ولكنها مؤولة بمشتق تقديره: حالة كونها مثاباً بها، أو حال من ضمير المفعول في قوله: ﴿لأدخلنهم﴾ تقديره، حالة كونهم مثابين. ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه صفة لـ﴿ثواباً﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿عِندَهُۥ﴾ ظرف، ومضاف إليه خبر مقدم للمبتدأ الثاني. ﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ مبتدأ ثان، ومضاف إليه، والتقدير: والله الثواب الحسن كائن عنده، والجملة الاسمية مستأنفة. وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ الأحسن: أنه فاعل بما تعلق به ﴿عِندَهُۥ﴾؛ أي: مستقر عنده؛ لأن الظرف قد اعتمد بوقوعه خبراً، والإخبار بالمفرد أولى.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿لَا﴾ ناهية. ﴿يغرن﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد: حرف لا محل له من الإعراب، مبني على الفتح. ﴿الكاف﴾ ضمير المخاطب في محل النصب مفعول به مبني على الفتح. ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل.

---

(١) الجمل.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾.

﴿مَتَٰعٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو متاع يعود على تقلبهم. ﴿قَلِيلٞ﴾ صفة لـ﴿متاع﴾ والجملة مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، وترتيب مع تراخ. ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿جَهَنَّمُۚ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ الواو استئنافية. ﴿بئس المهاد﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر للمبتدأ المحذوف وجوباً، الذي هو المخصوص بالذم تقديره، هي يعود على جهنم، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره، جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾.

﴿لَٰكِنِ﴾ حرف استدراك. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿رَبَّهُمۡ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَهُمۡ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿جَنَّٰتٞ﴾ مبتدأ ثان مؤخر عن خبره، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره، في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول، وخبره جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب. ﴿تَجۡرِي﴾ فعل مضارع. ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به. ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿جنات﴾، ولكنها سببية. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير في قوله ﴿لَهُمۡ﴾، والعامل فيه معنى الاستقرار. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خالدين﴾. ﴿نُزُلٗا﴾ حال من ﴿جَنَّٰتٞ﴾ لتخصصه بالصفة، والمعنى حال كون تلك الجنات ضيافةً وإكراماً من الله لهم، أعدها كما يعد القرى للضيف إكراماً له. ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه صفة لـ﴿نزلا﴾. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿ما﴾ مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف، ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿خَيۡرٞ﴾ خبر للمبتدأ. ﴿لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ صفة لـ﴿خير﴾ أو متعلق به، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿مِنۡ أَهۡلِ

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر مقدم لـ﴿إِنْ﴾.
﴿لَمَن﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتدأ. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب، اسم إن مؤخر، والتقدير: وإن من يؤمن بالله.. لكائن من أهل الكتاب، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿يُؤْمِنُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، وفيه مراعاة للفظ ﴿من﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يؤمن﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الجر معطوف على لفظ الجلالة. ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿إِلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ﴿أنزل﴾.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الجر معطوف على لفظ الجلالة. ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿خَٰشِعِينَ﴾ حال من ضمير ﴿يُؤْمِنُ﴾ في قوله: ﴿لَمَن يُؤْمِنُ﴾ وفيه مراعاة لمعنى ﴿من﴾ لأنه راعى معنى ﴿من﴾ في سبعة مواضع أولها ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وآخرها ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خاشعين﴾ ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَشْتَرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال ثانية من ضمير ﴿يُؤْمِنُ﴾. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يشترون﴾ ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به لـ﴿يَشْتَرُونَ﴾. ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لـ﴿ثمنا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ أول ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم للمبتدأ الثاني. ﴿أَجْرُهُمْ﴾ مبتدأ ثان مؤخر، ومضاف إليه، والتقدير: أولئك أجرهم كائن لهم، والجملة مستأنفة. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من أجرهم تقديره: حال كونه مدخراً لهم عند ربهم ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ خبرها، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة بمنزلة التعليل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أي﴾. منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿لأي﴾ وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. وكذلك ﴿وَصَابِرُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾. وكذلك جملة ﴿وَرَابِطُواْ﴾ معطوف عليه. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾. ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ ﴿لعل﴾ حرف نصب وترج وتعليل بمعنى كي. ﴿والكاف﴾ اسمها ﴿تُفۡلِحُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة لعل في محل الجر بلام التعليل المقدرة المعللة لجمل الأفعال المذكورة قبلها، والمعنى: اتصفوا بالصبر، وما بعده لطَلب فلاحكم ورجائه والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الخلق: مصدر قياسي لخلق من باب فَعل المفتوح المعدَّى، وهو إما باق على مصدريته، فيكون بمعنى التقدير، والترتيب الدال على النظام، والإتقان، أو بمعنى اسم المفعول؛ أي: مخلوقهما، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمع سماء، وهو ما علاك مما ترى فوقك، والأرض ما تعيش عليه.

﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ﴿والألباب﴾: جمع لب، كأقفال جمع قفل، وهو العقل.

﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ جمعان لقائم، وقاعد، وأجيز[1] أن يكونا مصدرين، وحينئذ يتأولان على ذوي قيام وقعود، ولا حاجة إلى هذا ﴿بَٰطِلًا﴾ الباطل: العبث الذي لا فائدة فيه، والشيء الزائل الذاهب، ومنه قول لبيد:

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ ٱللَّهَ بَاطِلُ

---

(١) جمل.

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ اسم مصدر لسبح الرباعي، وهو من الأسماء التي تلزم النصب على المصدرية، ومعناه تنزيهاً لك عما لا يليق بك ﴿فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ من أخزى الرباعي، من باب: أفعل من مزيد الثلاثي ﴿ذُنُوبَنَا﴾ جمع ذنب، وهو[1] التقصير في المعاملة بين العبد وربه ﴿سَيِّـَٔاتِنَا﴾ جمع سيئة، وهي التقصير في حقوق العباد، ومعاملة الناس بعضهم بعضاً.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ جمع بار، كصاحب وأصحاب، وهو المحسن في العمل، أو جمع بر أصله برر، ككتف وأكتاف اهـ سمين ﴿لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾: مصدر ميمي، بمعنى الوعد، لا بمعنى المكان، والزمان ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾ ﴿استجاب﴾ من باب: استفعل، فالسين والتاء فيه زائدتان، لأنه بمعنى أجاب الرباعي، ويتعدى بنفسه، وباللام ﴿أُضِيعُ﴾ من أضاع الرباعي، فهو من مزيد الثلاثي، لأن ثلاثيه ضاع من باب باع ﴿ثَوَابًا﴾ الثواب اسم مصدر، لأثاب الرباعي، يقال: أثابه إثابة، وثواباً، والثواب. هنا بمعنى الإثابة، التي هي المصدر فهو مصدرَ معنوي مؤكد لمعنى لأكفرن، ولأدخلنهم، فمعنى المجموع لأثيبنهم إثابةً، وإن كان في الأصل إسماً لما يثاب به كالعطاء اسم لما يعطى به.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ من غر الثلاثي المضاعف المعدي يقال: غرني ظاهره؛ أي: قبلته على غفلة عن امتحانه، ويقال في الثوب إذا نشر، ثم أعيد إلى طيه: رددته على غره ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والتقلب: مصدر لتقلب الخماسي الذي هو من باب تفعل؛ أي: تصرفهم في التجارات، وتنقلهم في البلاد آمنين لطلب المكاسب ﴿مَتَٰعٌ﴾ اسم مصدر من أمتع الرباعي؛ أي: ذلك الكسب والربح الحاصل لهم متاع ﴿قَلِيلٌ﴾ وإنما وصفه بالقليل؛ لأنه قصير الأمد ﴿ومأواهم جهنم﴾، والمأوى اسم مكان من أوى يأوي، من باب رمي يقال: أوى الرجل البيتَ يأوي إواءً ومأوى بالفتح على القياس؛ إذا نزل فيه، والمأوى مكانُ النزول. وجهنم اسم لطبقة من طباق النار يجازي بها الكافرون في الأخرة، ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ اسم للمكان

---

(١) المراغي.

الموطأ كالفراش والنزلُ بضمتين ما يهيأ للضيف النازل. وفي «السمين»: النزل ما يهيأ للضيف، هذا أصله ثم اتسع فيه، فأطلق على الرزق والغذاء، وإن لم يكن ضيف، ومنه ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وفيه قولان: هل هو مصدر، أو جمع نازل. انتهى ﴿لِّلْأَبْرَارِ﴾ جمع بار، وهو المتصف بالبر؛ أي: الإحسان كما مر ﴿وَصَابِرُوا﴾؛ أي: غالبوا أعداءكم بالصبر على شدائد القتال والحرب، وهو من باب: فاعل الرباعي فيدل على المفاعلة ﴿وَرَابِطُوا﴾؛ أي: أقيموا في الثغور رابطين خُيولَكم حابسينَ لها، مترصدينَ للغزو، فهو من باب: فاعل دال على المفاعلة أيضاً. وأصل[(١)] المرابطة: أن يربط هؤلاء خيولَهم، وهؤلاء خيولَهم بحيث يكون كل من الخصمين مستعداً لقتال الآخر، ثم قيل لكل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابط، وإن لم يكن له مركوب مربوط. والتقوى: اسم من اتقى يتقى إتقاء ثلاثيه تقى يتقي، كقضى يقضي، والتقوى أن تقي نفسك وتحفظها من غضب الله وسخطه. والفلاح: اسم مصدر من أفلح، وهو الفوز، والظفر بالبغية المقصودة من العمل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع أنواعاً[(٢)]:

منها: الاختصاص في قوله: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، و﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، و﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، و﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وما لهم، أو وما له، مراعاةً لمعنى ﴿من﴾ أو لفظها.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿أن آمنوا فآمنا﴾، و﴿عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾.

ومنها: المغايرُ في قوله: ﴿مُنَادِيًا يُنَادِي﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾.

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط بتصرف.

ومنها: التنكير للتفخيم في قوله: ﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ودخلت اللام في خبر إن لزيادة التأكيد.

ومنها: الالتفات إلى التكلم والخطاب في قوله: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فالسماء جهة العلو، والأرضُ جهة السفل، والليل عبارة عن الظلمة، والنهار: عبارة عن النور، و﴿قِيَٰمٗا﴾ و﴿قعوداً﴾ و﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿رَبَّنَآ﴾ حيث كرر خمس مرات، والغرض منه: المبالغة في التضرع، وفي ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ إن كان المعنى واحداً، وفي ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ وفي ﴿ثَوَابٗا﴾ و﴿حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾؛ أي: على ألسنة رسلك، وكذلك في قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: قائلين ربنا.

والاستعارة بسماع المنادى إن كان القرآن عن ما تلقوه من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وبالاستجابة عن قبول مسألتهم، وبانتفاء التضييع عن عدم مجازاته على يسير أعمالهم، وبالتقلب عن ضربهم في الأرض لطلب المكاسب، وبالمهاد عن المكان المستقر فيه، وبالنزل عما يعجل الله لهم في الجنة من الكرامة، وبالخشوع الذي هو تهدم المكان، وتغير معالمه عن خضوعهم، وتذللهم بين يديه، وبالسرعة التي هي حقيقة في المشي عن تعجيل كرامته.

قيل: ويحتمل أن يكون الحساب أستعير للجزاء كما استعير ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦﴾؛ لأن الكفار لا يقام لهم حساب كما قال تعالى: ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾.

ومنها: الحذف في مواضع.

فإن قلت[1]: ما الفائدة في الجمع بين ﴿مُنَادِيٗا﴾ و﴿يُنَادِي﴾؟

---

(١) جمل.

قلتُ: أجاب الزمخشري بأنه ذكر النداء مطلقاً، ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان، وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإطفاء السائرة، أو لإغاثة الملهوف، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض المنافع، فإذا قلت ينادي للإيمان فقد رفعت شأنَ المنادي وفخمته ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ وأتى هنا بالصلة مستقبلةً، وإن كان ذلك قد مَضَى دلالةً على الاستمرار والدوام[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) هذا آخر ما أوردناه على سورة آل عمران من التفاسير، وفرغنا منه في تاريخ: ١٤٠٨/٨/٢٦ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

سورة النساء[1]

سورة النساء: مدنية كلها على الصحيح، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما نزلت سورة النساء، إلا وأنا عند رسول الله ﷺ وقد بَنَى النبي ﷺ بعائشة في المدينة، في شوال من السنة الأولى من الهجرة.

وآياتُها مئة وخمس أو ست أو سبع وسبعون آية، وكلماتها ثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة، وحروفها ستةَ عشرَ ألف حرف، وثلاثون حرفاً.

التسمية: وسميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور، ولذلك أطلق عليها سورةُ النساء الكبرى في مقابلة سورة النساء الصغرى التي عرفت في المصحف بسورة الطلاق.

مناسبتها: والمناسبة بينها وبين سورة آل عمران من أوجه[2]:

منها: أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى، وافتتحت هذه السورة بذلك، وهذا من آكد المناسبات في ترتيب السورة.

ومنها: أن في السابقة ذكرَ قصة أحد مستوفاة، وفي هذه ذيل لها، وهو قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ فإنه نزل في هذه الغزوة على ما ستعرفه بعد.

ومنها: أنه ذكر في السالفة الغزوة التي بعد أحد، وهي غزوة حمراء الأسد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ وأشير إليها هنا في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية.

وقال أبو حيان[3]: مناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر أحوال

---

(١) بدأت تفسير هذه السورة في تاريخ: ٢٨/٨/١٤٠٨ هـ

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

المشركين، والمنافقين، وأهل الكتاب، والمؤمنين أولي الألباب، ونبه تعالى بقوله: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ على المجازاة، وأخبر أن بعضهم من بعض في أصل التوالد، نبه تعالى في أول هذه السورة على إيجاد الأصل، وتفرع العالم الإنساني منه ليحث على التوافق، والتوادد، والتعاطف، وعدم الاختلاف، ولينبه بذلك على أن أصل الجنس الإنساني، كان عابداً لله مفردَه بالتوحيدَ والتقوى، طائعاً له، فكذلك ينبغي أن تكون فروعه التي نشأت منه، فنادى تعالى دعاءً عاماً للناس، وأمرهم بالتقوى التي هي ملاك الأمر، وجعل سبباً للتقوى تذكاره تعالى إياهم بأنه أوجدهم، وأنشأهم من نفس واحدة، ومن كان قادراً على مثل هذا الإيجاد الغريب الصنع، وإعدام هذه الأشكال، والنفع، والضر.. فهو جدير بأن يتقى انتهى.

ذكر ما حوته هذه السورة من الموضوعات(١)

١ ـ الأمر بتقوى الله تعالى في السر والعلن.

٢ ـ تذكير المخاطبين بأنهم خلقوا من نفس واحدة.

٣ ـ أحكام القرابة والمصاهرة.

٤ ـ أحكام الأنكحة والمواريث.

٥ ـ أحكام القتال.

٦ ـ الحجاج مع أهل الكتاب.

٧ ـ بعض أخبار المنافقين.

٨ ـ الكلامُ مع أهل الكتاب إلى ثلاث آيات في آخرها.

وبالجملة: اشتملت هذه السورة على ذكر حقوق النساءِ والأيتام، وخاصةً اليتيمات اللاتي في حجور الأولياء، والأوصياء، فقررت حقوقَهن في الميراث،

---

(١) المراغي.

والكسب، والزواج، واستنقذتهن من أسر الجاهلية، وتقاليدها الظالمة المهينة.

وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتَها، وحفظت كيانها، ودعت إلى إنصافها بإعطائها، حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر، والميراث وإحسان العشرة.

وتعرضت لأحكام المواريث على الوَجْهِ الدقيق العادلِ الذي يكفل العدالةَ، ويحقق المساواة، وأفصحت عن المحرمات من النساء بالنسب، والرضاع، والمصاهرة.

واشتملت على تنظيم العلاقات الزوجية، وبينت أنها ليست علاقةَ جسد، وإنما هي علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً، وإنما هو عطاء يوثق المحبةَ، ويديم العشرةَ ويربط القلوبَ.

وذكرت حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها، وأرشدَتْ إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية عندما يبدأ الشقاقُ، والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى قوامة الرجل، وأنها ليست قوامةَ استعباد، وتسخير، وإنما هي قوامة نصح، وتأديب التي تكون بين الراعي ورعيته.

ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى دائرة المجتمع، فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبينت أن أساس الإحسان التكافل، والتراحم والتناصح، والتسامح، والأمانة، والعدل حتى يكون المجتمع راسخَ البنيان قوي الأركان، ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجيّ الذي يحفظ على الأمة استقرارها، وهدوءها، فأمرت بأخذ العدة لمكافحة الأعداء.

ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين، والدول الأخرى المحايدة، أو المعادية، واستتبع الأمر بالجهاد جملةً ضخمةً على المنافقين، فهم نابتة السوء، وأصول الشر التي ينبغي الحذر منها، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكايدهم وخطرهم، كما أومأت إلى خطر أهل الكتاب، وخاصة اليهود وموقفهم من رسل الله الكرام.

ثم ختمت السورة ببيان ضلالات النصارى، في أمر المسيح عيسى ابن مريم، حيث غالوا فيه حتى عبدوه، ثم صلبوه؛ أي: جعلوه صليباً مصوراً معبوداً لهم مع اعتقادهم بألوهيته، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيين، وقد دعتهم الآيات إلى الرجوع عن تلك الضلالات إلى العقيدة السمحة الصافية عقيدة التوحيد، وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

قيل[1]: وجعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين إحداهما: هذه، وهي الرابعة من النصف الأول، والثانية: سورة الحج، وهي الرابعة من النصف الثاني، وعلل هنا الأمر بالتقوى بما يدل على معرفة المبدأ، وهناك بما يدل على معرفة المعاد.

فضلها: وقد ورد[2] في فضل هذه السورة ما أخرجه الحاكم في «مستدركه» عن عبد الله بن مسعود قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، و﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآيـــة، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآيـــة، و﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية. ثم قال: هذا إسناد صحيح، إن كان عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه، وقد اختلف في ذلك.

الناسخ والمنسوخ منها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم[3]: سورة النساء مدنية تحتوي على أربع وعشرين آية منسوخة:

الأولى منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ مدنية النساء نسخت بأية المواريث وهي قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ الآية ١١ مدنية النساء.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) الناسخ والمنسوخ.

والثانية منها: قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ الآية ٩ النساء نسخت بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ الآية ١٨٢ مدنية البقرة.

والثالثة منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ ١٠ مدنية النساء، وذلك أنه لما نزلت هذه الآية امتنعوا من أموال اليتامى، وعزلوهم فدخل الضررُ على الأيتام، ثم أَنْزَلَ[1] الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ ٢٢٠ البقرة. من المخالطة ركوب الدابة، وشرب اللبن فرخص في المخالطة، ولم يرخص في أكل الأموال بالظلم ثم قال عز وجل: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ٦ النساء، فهذه الآية نسخت الأولى، والمعروف هنا: القرض فإذا أيسر رده، فإن مات قبل ذلك. فلا شيءَ عليه.

والرابعة منها: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ الآية ١٥ مدنية النساء. كانت المرأة إذا زنت، وهي محصنة حبست في بيت، فلا تخرج منه حتى تموت، قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني قد جعل الله لهن السبيلَ الثيبُ بالثيب الرجمُ، والبكر جلد مائة، وتغريب عام» فهذه الآية منسوخة بعضها بالكتاب، بقوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ ١٥ مدنية النساء. وبعضها بالسنة، وكني فيها بذكر النساء عن ذكر النساء والرجال.

والخامسة منها: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ ١٦ مدنية النساء. كان البكران إذا زنيا عيرا وشتما فنسخ الله ذلك بالآية التي في سورة النور، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ ٢ مدنية النور.

---

(١) وفي «الخازن»: وقد توهم بعضهم أن قوله: ﴿وإن تخالطوهم﴾ ناسخ لهذه الآية، وهذا غلط ممن توهمه؛ لأن هذه الآية واردة في المنع من أكل أموال اليتامى ظلماً وهذا لا يصير منسوخاً لأن أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وقوله ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ وارد على سبيل الاصلاح في أموال اليتامى والإحسان إليهم وهو أعظم القرب. اهـ منه.

والسادسة منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ الآية. ١٧ مدنية النساء، وذلك أن الله تعالى ضمن لأهل التوحيد أن يقبلَ قبل أن يغرغروا، وقال رسول الله ﷺ: «كل من كان قبل الموت» ثم استثنى في الآية بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فصارت ناسخة لبعض حكمها لأهل الشرك، ثم قال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلى آخرها ١٨ النساء.

والسابعة منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ إلى قوله: ﴿بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ ١٩ النساء، ثم نسخت بالاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ١٩ النساء.

والثامنة منها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ نسخت بالاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ٢٢ النساء؛ أي: من أفعالهم فقد عفوت عنه.

والتاسعة منها: قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ ٢٣ النساء، نسخت بالاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني عفوت عنه.

والعاشرة: قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ٢٤ مدنية النساء. نسخت بقوله ﷺ: «إني كنت أحللت هذه المتعةَ، ألا وإن الله ورسوله قد حرمَاها، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»، ووقع ناسخها من القرآن موضعَ ذكر ميراث الزوجة الثمنَ، أو الربعَ فلم يكن لها في ذلك نصيب.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: موضع تحريمها في سورة المؤمنين، وناسخها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ٥ مكية المؤمنون، وأجمعوا على أنها ليست بزوجة، ولا ملك اليمين، فنسخها الله بهذه الآية.

والحادية عشرة منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الآية ٢٩ مدنية النساء. نسخت بقوله تعالى في سورة النور:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ٦١ مدنية النور، وكانوا يجتنبونهم في الأكل، فقال تعالى: ليس على من أكل مع الأعرج والمريض حرج، فصارت هذه الآية ناسخة لتلك الآية.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ الآية ٣٣ مدنية منسوخة، وناسخها قوله تعالى في آخر الأنفال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ الآية ٧٥ مدنية الأنفال.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ الآية ٦٣ مدنية نسخت بآية السيف.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ الآية ٦٤ مدنية النساء. نسخت بقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية ٨٠ مدنية التوبة.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ الآية ٧١ مدنية النساء. نسخت بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ ١٢٢ مدنية التوبة.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ الآية ٨٠ مدنية النساء. نسختها آية السيف.

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ٨١ مدنية النساء. نسخ الأعراض عنهم بآية السيف.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ ٩٠ مدنية النساء. نسخها الله بآية السيف.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ ١٩١ النساء. نسخها الله بأية السيف.

العشرون منها: قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ الآية ٩٢ مدنية

النساء. نسخها الله تعالى بقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ١ مدنية التوبة.

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ الآية. ٩٣ مدنية النساء. نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ٤٨، ١١٦ النساء. وبالآية التي في الفرقان، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ ٦٨ مدنية. الفرقان.

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ١٤٥ النساء. نسخ الله بعضها بالاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟﴾ الآية ١٤٦ النساء.

الثالثة والعشرون، والرابعة والعشرون. قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ ٨٨ النساء. وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ٨٤ النساء نسخهما آية السيف، فتكون مع هاتين أربعاً وعشرين آية. انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا
وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا
تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا
فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤) وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ
قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا
تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا
دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ
وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ
الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ
الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ مناسبتها للآية التي في آخر السورة السابقة - أعني قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ - ظاهرةٌ؛ لأن كلا الآيتين آمرة بالتقوى كما سبق.

قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها[1] لما قبلها: أنه لما وصل الأرحام.. أتبع بالأيتام؛ لأنهم صاروا بحيث لا كافلَ لهم، ففارق

(١) البحر المحيط.

حالهم حال من له رحم. ذكره أبو حيان.

وقيل: مناسبتها أنه سبحانه وتعالى لما[1] افتتح السورة بذكر ما يجب على العبد أن ينقادَ له من التكاليف؛ ليبتعد عن سخطه وغضبه في الدنيا والآخرة.. شرع يذكر أنواعها، وأولها: إيتاء اليتامى أموالهم، وثانيها: حكم ما يحل عدده من الزوجات، ومتى يجب الاقتصار على واحدة؛ ثم أوجب إيتاء الصداق لهن.

قوله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها أنه سبحانه وتعالى، لما أمر في الآيات السالفة بإيتاء اليتامى أموالهم، وبإيتاءِ النساء مهورهن.. أتى في هذه الآية بشرط للإيتاء يشمل الأمرين معاً، وهو أن لا يكون كل منهما سفيهاً مع بيان أنهم يرزقون فيها، ويكسون ما دامت في أيديهم مع قول المعروف لهم، حتى تحسن أحوالهم، وأنه لا تسلم إليهم الأموال إلا إذا أونس منهم الرشد، وأنه لا ينبغي الإسراف في أكل أموال اليتامى، فمن كان من الأولياء غنياً.. فليعف عن الأكل من أموالهم، ومن كان فقيراً.. فليأكل بما يبيحه الشرع، ويستجيزه أرباب المروءة.

قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ..﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها، أنه سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات السابقة حرمة أكل أموال اليتامى، وأمر بإعطائهم أموالَهم إذا رشدوا، ومنع أكل مهور النساء أو تزويجَهن بغير مهر.. ذكر هنا أن المال الموروث الذي يحفظه الأولياء لليتامى، يشترك فيه الرجال والنساء، وقد كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء، والأولاد الصغار، ويقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرماح، وحاز بالغنيمة، ثم أمر بإحسان القول إلى اليتامى؛ لأن اليتيم مرهف الحس، يألم للكلمة تهينه، ولا سيما ذكر أبيه، وأمه بسوء، وقلما يوجد يتيم لا يمتهن، ولا يقهر بالسوء من القول، ثم طلب الإشفاقَ عليهم ومعاملتَهم بالحسنى، فربما يترك الميت ذريةً ضعافاً يود أن غيره

---

(١) المراغي.

يعاملهم بمثل هذه المعاملة، وبعد ذلك شدد في الوعيد، ونفر من أكل أموال اليتامى ظلماً، وجعل أكله كأكل النار.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما روى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالُها، فيريد وليها أن يتزوجَها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيَها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن ذلك، إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طَابَ لهم من النساء سواهن، وإن الناس استفتوا رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ...﴾ الآية. أخرجه البخاري ومسلم.

وأخرج البخاري، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها أنّ رجلاً كانت له يتيمة، فنكحها، وكان لها عذق، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت فيه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله. الحديث أخرجه ابن جرير في تفسيره بنحوه، وأخرجه مسلم أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ...﴾ سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج ابنتَه أَخذَ صداقها، دونها، نهاهم الله عن ذلك فأنزل ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ...﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إنها نزلت في مال اليتيم إذا كان

---

(١) لباب النقول.

فقيراً، فإنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف. أخرجه البخاري ومسلم.

قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ...﴾ سبب نزولها: ما أخرجه(١) أبو الشيخ، وابن حبان في كتاب الفرائض من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، ولا الصغار من الذكور، حتى يدركوا، فمات رجل من الأنصار، يقال له: أوس بن ثابت، وترك ابنتين وابناً صغيراً، فجاء ابنا عمه خالد، وعرفطة، وهما عصبة، فأخذا ميراثه كله، فأتت امرأته رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال: ما أدري ما أقول: فنزلت ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ...﴾ الآيةَ.

وقال المراغي(٢): وقد روي في سبب نزول هذه الآية ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ...﴾ أن أوس بن الصامت الأنصاري توفي وترك امرأته أم كحلة، وثلاث بنات له منها، فزوى ابنا عمه سويد، وعرفطة ميراثه عنهن، على سنة الجاهلية، فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيخ مسجد بالمدينة كان سكنه أهل الصفة ـ فشكت إليه أن زوجها أوساً قد مات وخلف ثلاث بنات، وليس عندها ما تنفق عليهن منه، وقد ترك أبوهن مالا حسناً عند ابني عمه لم يعطياها منه شيئاً، وهن في حجري لا يطعمنَ ولا يسقينَ، فدعاهما رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلا، ولا ينكأُ عدوا نكسب عليها، ولا تكسب، فنزلت الآية فأثبتت لهن الميراث فقال رسول الله ﷺ: لا تفرقا من مال أوس شيئاً، فإن الله جعل لبناته نصيباً مما ترك، ولم يبين فنزلتْ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ إلخ فأعطى زوجتَه الثمن، والبنات الثلثين، والباقي لبني العم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا...﴾ سبب نزولها(٣) ما روي عن مقاتل بن حيان أن رجلاً من غطفان يقال له مرثد بن زيد، ولي مال يتيم

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

(٣) القرطبي.

صغير، وكان اليتيم ابن أخيه، فأكله فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

افتتح الله سبحانه وتعالى سورةَ النساء بخطاب الناس جميعاً، ودعوتهم إلى تقواه وعبادته وحده منبهاً على قدرته، ووحدانيته، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يا بني آدم ﴿ٱتَّقُوا۟﴾ وخافوا ﴿رَبَّكُمُ﴾؛ أي: عقاب من رباكم بإحسانه، وتفضل عليكم بجوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه في حقه، وحق بعضكم على بعض، والخطاب فيه عام للمكلفين الموجودين، وقت نزول الآية ذكوراً وإناثاً، والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة بدليل خارجي، وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون، أو تغليب الموجودين على من لم يوجد كما غلب الذكور على الإناث في قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ لاختصاص ذلك بجمع المذكر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ وأنشأكم، وأوجدكم بطريق التناسل والتوالد ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم، قرأ الجمهور واحدة بالتاء على تأنيث لفظ النفس، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿واحد﴾ بغير هاء على مراعاة المعنى، إذ المراد به آدم، فالتأنيث باعتبار اللفظ، والتذكير باعتبار المعنى، وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك النفس الواحدة التي هي آدم ﴿زَوْجَهَا﴾؛ أي: أمكم حواء قيل[1]: هو معطوف على مقدر يدل عليه المقام؛ أي: خلقكم من نفس واحدة خلقها أولاً، وخلق منها زوجها ثانياً، وقيل: على خلقكم فيكون الفعل الثاني مع الأول داخلاً في حيز الصلة.

وخلقها منه لم يكن بتوليد كخلق الأولاد من الآباء، فلا يلزم منه ثبوت حكم البنتية له، والأختية لنا فيها، فلا يقال: إذا كانت مخلوقةً من آدم، ونحن مخلوقون منه أيضاً تكون نسبتها إليه نسبة الولد، فتكون أختاً لنا لا أماً، روي[2] أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم عليه السلام، ألقى عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى، وهو قصير، فلما استيقظ رآها جالسة عند رأسه

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

فقال لها: من أنت؟ قالت: امرأة. قال: لماذا خلقت؟ قالت: خلقت لتسكن إلي؟ فمال إليها، وألفها؛ لأنها خلقت منه.

واختلفوا في أي وقت خلقت حواء، فقال كعب الأحبار، ووهب، وابن إسحاق: خلقت قبل دخولها الجنة، وقال ابن مسعود، وابن عباس - رضي الله عنهم -: إنما خلقت في الجنة بعد دخوله إياها، والله أعلم.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾؛ أي: نشر من تلك النفس الواحدة، وزوجها بطريق التوالد؛ أي: أظهر وفرق من آدم وحواء ﴿رِجَالًا كَثِيرًا﴾، وذكوراً عديداً، ﴿وَنِسَآءً﴾ كثيرةً، ونشرهم في أقطار الأرض على اختلاف أصنافهم، وصفاتهم، وألوانهم، ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. إنما وصف الرجال بالكثرة دون النساء؛ لأن حال الرجال أتم، وأكمل، وهذا كالتنبيه على أن اللائق بحال الرجال الظهور، والاشتهار، وبحال النساء الاختفاء، والخمول، وإنما أمرهم بتقوى خالقهم الذي خلقهم على هذا النظام؛ لأن خلقه تعالى لهم على هذا النمط البديع من أقوى الداعي إلى الاتقاء من موجبات نقمته، ومن أتم الزواجر عن كفران نعمته، وذلك لأنه ينبىء عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التي من جملتها عقابهم، وعن نعمة كاملة لا يقدر قدرها.

فالتقوى نوعان: تقوى في حقه تعالى، وتقوى فيما بينهم من الحقوق، وقوله: ﴿الَّذِى خَلَقَكُم﴾ استدعاء للتقوى الأولى، وقوله ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ استدعاء للتقوى الثانية، فالناس جميعاً من أصل واحد، وهم أخوة في الإنسانية، والنسب، ولو أدرك الناس هذا.. لعاشوا في سعادة، وأمان، ولما كان بينهم حروب طاحنة مدمرة تلتهب الأخضر واليابس وتقضي على الكهل والوليد. وقرىء[1] ﴿وخالق منها زوجها وباث منهما﴾ على صيغة اسم الفاعل، وهو خبر مبتدأ محذوف تقديره: وهو خالق ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله الذي تتحالفون، وتتناشدون به؛ أي: يناشد، ويسأل بعضكم بعضاً به حيث

---

(١) البحر المحيط.

يقول: أسألك بالله، وأنشدك بالله؛ أي: أقسم وأحلف عليك به، والتساؤل[1] بالله هو كقولك: أسألك بالله، وأحلف عليك بالله، واستشفع إليك بالله.

وإنما كرر[2] الأمر بالتقوى؛ لأجل بيان بعض آخر من موجبات الامتثال؛ لأن سؤال بعضهم لبعض بالله يقتضي الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه. وقرأ الجمهور من السبعة ﴿تَسَآءَلُونَ﴾ قرأ أهل الكوفة منهم: بحذف التاء الثانية، تخفيفاً لاجتماع المثلين، وأصله: تتساءلون، وقرأ أهل المدينة، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بالتشديد بإدغام التاء الثانية في السين.

وقرأ عبد الله ﴿تسألون به﴾ مضارع سأل الثلاثي، وقرىء ﴿تسلون﴾ بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى السين. قال ابن عباس: معنى تساءلون به؛ أي: تتعاطفون، وقال الضحاك، والربيع، تتعاقدون، وتتعاهدون، وقال الزجاج: تتطلبون به حقوقكم.

﴿و﴾ اتقوا ﴿الأرحام﴾؛ أي: خافوا عقاب قطيعة مودة الأرحام، فإني قد أوجبت عليكم صلَتَها، فإن قطع الأرحام من أكبر الكبائر وصلتَها باب لكل خير، فتزيد في العمر، وتبارك في الرزق وقطعها سبب لكل شر، ولذلك وصل تقوى الرحم بتقوى الله، وصلة الرحم تختلف باختلاف الناس، فتارةً تكون عادته مع رحمه الصلةَ بالإحسان، وتارةً بالخدمة، وقضاء الحاجة، وتارةً بالمكانية، وتارة بحسن العبارة وغير ذلك، ولا فرق في الرحم؛ أي: القريب بين الوارث وغيره، كالخالة والخال والعمة وبنتها، والأم والجد والجدة، وفي الآية دليل على تعظيم حق الرحم والنهي عن قطعها، ويدل على ذلك أيضاً، الأحاديث الواردة في ذلك، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله». متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سره أن يبسط عليه من رزقه، وينسأ في أثره، فليصل رحمه»، متفق عليه. قوله: يُنسأ في أثره؛ أي:

---

(١) الخازن. (٢) الجمل.

يؤخر له في أجله.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع». قال سفيان في روايته: يعني قاطع رحم. متفق عليه.

وعن الحسن قال: من سألك بالله.. فأعطه، ومن سألك بالرحم. فأعطه..

وعن ابن عباس قال: الرحم معلقة بالعرش، فإذا أتاها الواصل.. بشت به، وكلمته، وإذا أتاها القاطع.. احتجبت عنه.

وقرأ جمهور[1] السبعة ﴿وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾ بالنصب على أن يكون معطوفاً على لفظ الجلالة؛ أي: اتقوا الله، واتقوا الأرحام فصلوها، ولا تقطعوها، أو معطوفاً على محل الجار والمجرور كقولك: مررت بزيدٍ وعمراً. وقرأ حمزة بالجر، وهي قراءة النخعي، وقتادة، والأعمش عطفاً على الضمير المجرور، والمعنى عليه: واتقوا الله الذي تساءلون به وبالأرحام؛ لأن العادة جرت في العرب بأن أحدهم قد يستعطف غيره بالرحم، فيقول: أسألك بالله، والرحم، وربما أفرد ذلك فقال: أسألك بالرحم، وهو ضعيف عند البصريين؛ لأنه كالعطف على بعض الكلمة؛ لأن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة خافض، وإن كان لغةً فصيحةً فهو خلاف الكثير، كما أشار إلى ذلك ابن مالك بقوله:

وَعَوْدُ خَافِضٍ لَدَىٰ عَطْفٍ عَلَىٰ ... ضَمِيْرِ خَفْضٍ لَازِماً قَدْ جُعِلَا
وَلَيْسَ عِنْدِيْ لَازِماً إِذْ قَدْ أَتَىٰ ... فِيْ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ٱلصَّحِيْحِ مُثْبَتَا

وأشار بالنثر الصحيح إلى الآية، وبالنظم إلى قول الشاعر:

فَٱلْيَوْمَ قَدْ بِتَّ تَهْجُوْنَا وَتَشْتِمُنَا ... فَٱذْهَبْ فَمَا بِكَ وَٱلْأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ

وقرأ عبد الله بن يزيد بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره: والأرحام كذلك؛ أي: مما يتقى أو يتساءل به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾؛ أي: حافظاً مطلعاً على جميع ما يصدر عنكم من الأفعال والأقوال،

---

(١) البحر المحيط.

وعلى ما في ضمائركم من النيات مريداً لمجازاتكم على ذلك.

والرقيب في صفته هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء من أمر خلقه، فبين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أنه يعلم السر وأخفَى، ومن كان كذلك.. فهو جدير بأن يخاف ويتقى.

ثم ذكر تعالى اليتامى فأوصى بهم خيراً، وأمر بالمحافظة على أموالهم فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾؛ أي: وأعطوا اليتامى والصغارَ الذين لا أب لهم، أموالهم التي في أيديكم، إذا بلغوا رشداء، والخطاب فيه للأولياءِ، والأوصياء واليتامى الصغار الذين مات آباؤهم، وإن كان لهم أجداد وأمهات.

وإطلاق[1] اسم اليتامى عليهم عند إعطائهم أموالَهم، مع أنهم لا يعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتيم عنهم بالبلوغ مجاز باعتبار ما كانوا عليه، ويجوز أن يراد باليتامى: المعنى الحقيقي، وبالإيتاء ما يدفعه الأولياء والأوصياء إليهم من النفقة، والكوسة لا دفعها جميعها، وهذه الآية مقيدة بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ ولا يكون مجرد ارتفاع اليتم بالبلوغ مجوزاً لدفع أموالهم إليهم، حتى يؤنَسَ منهم الرشد.

وقال أبو السعود[2]؛ أي: لا تتعرضوا لأموال اليتامى بسوءٍ حتى تأتيَهم، وتصلَ سالمةً، سواء أريد باليتامى الصغار، أو ما يعم الصغارَ والكبارَ، ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾؛ أي: لا تتبدلوا الحرامَ الذي هو مال اليتامى ﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾؛ أي: بالحلال الذي هو مالكم الذي أبيح لكم من المكاسب، بأن تتركوا أموالكم الطيبَ لكم، وتأكلوا أموالَ اليتامى من الخبيث عليكم لجودتها على أموالكم، واختلفوا[3] في هذا التبدل، فقال سعيد بن المسيب، والنخعي، والزهري، والسدي: كان أولياء اليتامى يأخذون الجيدَ من مال اليتيم، ويجعلون مكانَه الرديء، فربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة، ويجعل مكانَها الهزيلةَ، ويأخذ

---

(١) الشوكاني.
(٢) أبو السعود.
(٣) الخازن.

الدرهمَ الجيدَ، ويجعل مكانَه الزيف، ويقول: شاة بشاة، ودرهم بدرهم، فذلك تبديلهم فنهوا عنه، وقال عطاء: هو الربح في مال اليتيم، وقيل: هو أكل مال اليتيم عوضاً عن أكل أموالهم فنهوا عنه.

وخلاصة ذلك[1]: واحفظوا أيها الأولياء والأوصياء أموالَ اليتامى، ولا تتعرضوا لها بسوءٍ، وسلموها لهم متى آنستم منهم رشداً ولا تتمتعوا بأموالهم في المواضع، والحالات التي من شأنكم أن تتمتعوا فيها بأموالكم، فإذا فعلتم ذلك.. فقد جعلتم مالَ اليتيم بدلاً من مالكم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أموال اليتامى مخلوطةً ومضمومةً ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ حتى لا تفرقوا بين أموالهم وأموالكم في الانتفاع بها؛ لأن في ذلك قلة مبالاة بما لا يحل، وتسوية بين الحرام والحلال، فإنه لا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الأقل من أجرتكم ونفقتكم.

والمراد بالأكل هنا: سائر التصرفات المهلكة للأموال، وإنما ذكر الأكلَ؛ لأن معظم ما يقع من التصرفات؛ فهو لأجله ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن أكل أموال اليتامى بغير حق ﴿كَانَ﴾ عند الله تعالى ﴿حُوبًا﴾؛ أي: ذنباً ﴿كَبِيرًا﴾؛ أي: عظيماً، وإثماً شديداً.

والمعنى[2]: أن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم، وخطأٌ كبير فاجتنبوه.

فإن اليتيم ضعيفٌ لا يقدر على حفظ ماله، والدفاع عنه، فهو في حاجة إلى رعاية، وحماية، وظلم الضعيف عند الله عظيم. وقرأ الجمهور[3] ﴿حُوبًا﴾ بضم الحاء، وقرأ الحسن ﴿حَوبا﴾ بفتح الحاء، وهي لغة تميم، وغيرهم وقرأ أبي بن كعب ﴿حَاباً كَبيراً﴾ بالألف، وكلها مصادر كقال قولاً وقالاً. ثم أرشد تعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر أمثالها فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يا أولياء

---

(١) المراغي.
(٢) ابن كثير.
(٣) البحر المحيط.

اليتامى وعلمتم من أنفسكم ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾؛ أي: أن لا تعدلوا ﴿فِي الْيَتَامَىٰ﴾ إذا نكحتموهن ﴿فَانكِحُوا﴾؛ أي: فاتركوهن، وتزوجوا ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ الأجنبيات؛ أي: فتزوجوا من استطابتها، وأحبتها أنفسكم، ومالت إليها قلوبكم من الأجنبيات، أو فانكحوا ما حل لكم من النساء؛ لأن منهن ما حرم الله تعالى كاللاتي في آية التحريم، وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ بدل من ﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ والواو فيه بمعنى، أو التي للتخيير؛ أي: فانكحوا اثنين اثنين من النساء الأجنبيات، أو ثلاثةً ثلاثةً منها، أو أربعةً أربعةً منها، ولا تزيدوا على أربع؛ أي: فيجوز لكل أحد أن يختار لنفسه قسماً واحداً من هذه الأقسام بحسب حاله، فإن قدر على نكاح اثنين فاثنتان، وإن قدر على ثلاث فثلاث، وإن قدر على أربع فأربع، لا أنه يضم عدداً منها إلى عدد آخر، وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة، وأن الزيادة على أربع من خصائص النبي ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد من الأمة، ويدل على أن الزيادة على أربع غير جائزة، وأنها حرام ما روي عن الحارث بن قيس أو قيس بن الحارث قال: أسلمت، وعندي ثمان نسوة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اختر منهن أربعاً». أخرجه أبو داود.

وعن ابن عمر: أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم، وله عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره رسول الله ﷺ أن يختار منهن أربعاً. أخرجه الترمذي.

قال العلماء[1]: فيجوز للحر أن يجمع بين أربع نسوة حرائر، ولا يجوز للعبد أن ينكح أكثر من امرأتين، وهو قول أكثر العلماء؛ لأنه خطاب لمن ولي وملك، وذلك للأحرار دون العبيد، وقال مالك في إحدى الروايتين عنه، وربيعة: يجوز للعبد أن يتزوج بأربع نسوة، واستدل بهذه الآية. وأجاب الشافعي بأن هذه الآية مختصة بالأحرار، ويدل عليه آخر الآية، وهو قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا

---

(١) الخازن.

﴿فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ والعبد لا يملك شيئاً، فثبت بذلك أن المراد بحكم الآية الأحرار دون العبيد ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾؛ أي: خشيتم، وقيل: علمتم ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين الأزواج الأربع أو ما دونها من هذه الأعداد في القسمة، والنفقة ﴿فـ﴾ تزوجوا ﴿واحدة﴾ واقتصروا عليها، ولا تزيدوا ﴿أَوْ﴾ استفرشوا ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وأيديكم من الإماء من غير حصر؛ لأنه لا قسمة لهن عليكم، ولكن لهن حق الكفاية في نفقات المعيشة بما يتعارفه الناس، والمراد استفراشهن بطريق الملك لا بطريق النكاح، وإسناد الملك إلى اليمين لكونها المباشرةَ لقبض الأموال، وإقباضها، ولسائر الأمور التي تنسب إلى الشخص في الغالب ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الاقتصار على الواحدة، أو على التسري بالإماء ﴿أَدْنَىٰٓ﴾، وأقرب إلى ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ ولا تميلوا من الحق، ولا تجوروا؛ أي: اختيار الواحدة، أو التسري أقرب من عدم الجور والظلم.

والخوف(١) من عدم العدل يصدق بالظن والشك في ذلك، فالذي يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو من يثق من نفسه بالعدل ثقةً لا شك فيها.

والخلاصة: أن البعد من الجور سبب في تشريع الحكم، وفي هذا إيماء إلى اشتراط العدل، ووجوب تحريه، وإلى أنه عزيز المنال كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

والعدل إنما يكون فيما يدخل تحت طاقة الإنسان، كالتسوية في المسكن، والملبس، ونحو ذلك، أما ما لا يدخل في وسعه من ميل القلب إلى واحدة دون أخرى، فلا يكلف الإنسان بالعدل فيه، وقد كان النبي ﷺ في آخر عهده يميل إلى عائشة أكثر من سائر نسائه، لكنه لا يخصها بشيءٍ دونهن إلا برضاهن، وإذنهن وكان يقول: «اللهم إنّ هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك» يريد ميل القلب، وقد استبان لك مما سبق أن إباحة تعدد الزوجات مضيق فيها أشد التضييق، فهي ضرورة تباح لمن يحتاج إليها بشرط الثقة بإقامة العدل،

---

(١) المراغي.

والأمن من الجور.

وصفوة القول[1]: أن تعدد الزوجات يخالف المودة، والرحمة، وسكون النفس إلى المرأة، وهي أركان سعادة الحياة الزوجية؛ فلا ينبغي لمسلم أن يقدم عليه إلا لضرورة مع الثقة بما أوجبه الله تعالى من العدل، وليس وراء ذلك إلا ظلم المرء لنفسه، وامرأته وولده وأمته.

وأن من يرى الفساد الذي يدب في الأسر التي تتعدد فيها الزوجات.. ليحكم حكماً قاطعاً؛ بأن البيت الذي فيه زوجتان أو أكثر لرجل واحد لا تستقيم له حال، ولا ينتظم له نظام.

فإنك ترى إحدى الضرتين تغري ولدها بعداوة إخوته، وتغري زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها، وكثيراً ما يطيع أحب نسائه إليه فيدب الفساد في الأسرة كلها.

وربما جر ذلك إلى السرقة، والزنا، والكذب، والقتل فيقتل الولد والدَه، والوالد ولده، والزوجة زوجَها، والعكس بالعكس كما دونت سجلات المحاكم.

فيجب على رجال القضاء والفتيا الذين يعلمون أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وأن من أصول الدين منع الضرر والضرار، أنْ ينظروا إلى علاج ذلك، ويضعوا من الزواجر ما يكفل منع هذه المفاسد على قدر المستطاع.

مزايا تعدد الزوجات وفوائده عند الحاجة إليه

الأصل في السعادة الزوجية: أن يكون للرجل زوج واحدة، وذلك منتهى الكمال الذي ينبغي أن يربى عليه الناس، ويقنعوا به، لكن قد يعرض ما يدعو إلى مخالفة ذلك لمصالح هامة تتعلق بحياة الزوجين، أو حاجة الأمة؛ فيكون التعدد ضربة لازب لا غنى عنه، ومن ذلك:

---

(١) المراغي.

١ ـ أن يتزوج الرجل امرأةً عاقراً، وهو يود أن يكون له ولد، فمن مصلحتها أو مصلحتهما معاً أن تبقى زوجاً له، ويتزوج بغيرها، ولا سيما إذا كان ذَا جاه وثروة كأن يكون ملكاً أو أميراً.

٢ ـ وأن تكبر المرأة، وتبلغ سن اليأس، ويرى الرجل حاجتَه إلى العقب، وهو قادر على القيام بنفقة غير واحدة، وكفاية الأولاد الكثيرين، وتعليمهم.

٣ ـ وأن يرى الرجل أن امرأةً واحدةً لا تكفيه لإحصانه؛ لأن مزاجه الخاص يدفعه إلى الحاجة إلى النساء، ومزاجها بعكس هذا، أو يكون زمن حيضها طويلاً، يأخذ جزءاً كبيراً من الشهر، فهو حينئذ أمامَ أحد أمرين: إما التزوج بثانية، وإما الزنا الذي يضيع الدين، والمال، والصحة، ويكون هذا شراً على الزوجة من ضم واحدة إليها مع العدل بينهما، كما هو شرط الإباحة في الإسلام.

٤ ـ وأن تكثر النساء في الأمة كثرةً فاحشة، كما يحدث عقب الحروب التي تجتاح البلاد، فتذهب بالألوف المؤلفة من الرجال فلا وسيلة للمرأة في التكسب في هذه الحال إلا بيع عفافها، ولا يخفى ما بعد هذا من شقاء على المرأة التي تقوم بالإنفاق على نفسها، وعلى ولد ليس له والد يكفله، ولا سيما عقبَ الولادة ومدة الرضاعة، والمشاهد أن اختلاط النساء بالرجال في المعامل، ومحال التجارة وغيره من الأماكن العامة قد جر إلى كثير من هتك الأعراض، والوقوع في الشقاء والبلاء، فهذه مصيبة أي مصيبة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

حكمة تعدد زوجات النبي ﷺ(١)

راعى النبي ﷺ النصيحة في اختيار كل زوجة من زوجاته، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم، وعلم أتباعه احترامَ النساء وإكرام كرائمهن، والعدلَ بينهن. وترك من بعده تسعَ أمهات للمؤمنين، يعلمن نساءَهم الأحكامَ الخاصة بالنساء،

---

(١) المراغي.

مما ينبغي أن يعلمنه منهن لا من الرجال، ولو كان قد ترك واحدة ما كان فيها الغناء، كما لو ترك التسعَ.

وقصارى القول: إنه عليه السلام، ما أراد بتعدد الزوجات ما يريده الملوك والأمراء، والمترفون من التمتع بالنساء، إذ لو كان قد أراد ذلك لأختارهن من حسان الأبكار، لا من الكهلات الثيبات، كما قال لمن اختار ثيباً: «هلا بكراً تلاعبها، وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك». رواه الشيخان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ بضم التاء من أقسط الرباعي بمعنى عدل، وقرأ النخعي، وابن وثاب تقسطوا بفتح التاء من قسط الثلاثي، بمعنى جار ويقال: قسط بمعنى أقسط؛ أي: عدل، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿من طاب﴾ وقرأ الجمهور ﴿مَا طَابَ﴾ فقيل ﴿ما﴾ بمعنى من، وقيل عبر بـ﴿ـما﴾ عن النساء؛ لأن إناثَ العقلاء لنقصان عقولهن يجرين مجرى غير العقلاء.

وقرأ ابن أبي إسحاق، والجحدري، والأعمش ﴿طاب﴾. بالإمالة، وفي مصحف أبي. ﴿طيب﴾ بالياء، وهو دليل الإمالة وقرأ النخعي، ويحيى بن وثاب ﴿ثلث وربع﴾ بغير ألف، وقرأ الحسن، والجحدري، وأبو جعفر، وابن هرمز ﴿فواحدة﴾ بالرفع، ووجه ذلك ابن عطية على أنه مرفوع بالابتداء، والخبر محذوف تقديره: فواحدة كافية وقرأ ابن أبي عبلة ﴿أو من ملكت أيمانكم﴾ وقرأ الجمهور ﴿أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾؛ أي: تجوروا من عال الرجل يعول إذا مال، وجار، وقرأ طلحة بن مصرف ﴿أن لا تعيلوا﴾ بفتح التاء؛ أي: لا تفتقروا من العيلة، وقرأ طاووس ﴿أن لا تعيلوا﴾ من أعال الرجل إذا كثر عياله.

ولما أذن الله سبحانه وتعالى في نكاح الأربع، وما دونها أمر الأزواج باجتناب ما كانوا عليه في الجاهلية، قيل: كان الرجل منهم يتزوج بلا مهر، ويقول: أرثك وترثيني، فتقول: نعم، فأمروا بأن يسرعوا إعطاء المهور، فقال: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ أي: وأعطوا أيها الأزواج النساء اللواتي تعقدون عليهن

---

(١) البحر المحيط.

﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾؛ أي: مهورهن حالة كونها ﴿نِحۡلَةٗ﴾؛ أي: عطية من الله سبحانه وتعالى فرضها لها بلا مقابلة مال؛ ليكون رمزاً للمودة التي ينبغي أن تكون بينكما، وآية من آيات المحبة، ودليلاً على وثيق الصلة، والرابطة التي تجب أن تكنفكما، وتحيط بسماء المنزل الذي تحلان فيه، وقد جرى عرف الناس بعدم الاكتفاء بهذا العطاء، فتراهم يردفونه بأصناف الهدايا والتحف من مآكل، وملابس، ومصوغات إلى نحو ذلك مما يعبر عن حسن تقدير الرجل للمرأة التي يريد أن يجعلها شريكته في الحياة.

وسمي[1] الصداق نحلة من حيث أنه لا يجب في مقابلته غير التمتع دون عوض مالي، وقيل[2]: معناه: فريضة كما قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، وإنما فسروا النّحلة بالفريضة، لأن النحلة في اللغة معناها: الديانة، والملة، والشرعة، والمذهب فقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾؛ أي: أعطوهن مهورهن؛ لأنها شريعة، ودين، ومذهب، وما هو كذلك، فهو فريضة ﴿فَإِن طِبۡنَ﴾ النساء المتزوجات ﴿لَكُمۡ﴾ أيها الأزواج ﴿عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾؛ أي: من الصداق المعين فوهبن لكم شيئاً منه بطيب نفس من غير أن يكون السبب فيه شكاسة أخلاقكم معهن، أو سوء معاشرتكم معهن؛ أي: فإن طابت نفوسهن بإعطائكم شيئاً من الصداق من غير ضرار، ولا خديعة ﴿فَكُلُوهُ﴾؛ أي: فخذوا ذلك الشيء وتصرفوا فيه، وانتفعوا به، وهو أمر إباحة، وعبر بالأكل؛ لأنه معظم الانتفاع؛ أي: ﴿فَكُلُوهُ﴾ أكلاً ﴿هَنِيٓـٔٗا﴾؛ أي: حلالاً لا إثم عليه في الدنيا ﴿مَّرِيٓـٔٗا﴾؛ أي: طيباً لا مؤاخذة عليه في الآخرة.

ومن ثم[3]: لا يجوز للرجل أن يأكل شيئاً من مال امرأته، إلا إذا علم أن نفسها طيبة به، فإذا طلب منها شيئاً وحملها الخوف أو الخجل على إعطاء ما طلب، فلا يحل له، ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى نهى عن أخذ شيء، من المرأة، في طور المفارقة فقال: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ

---

(١) الخازن.
(٢) مراح.
(٣) المراغي.

﴿إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ فالتحذير من أخذه في طور الرغبة والتحبب وإظهار القدرة على ما يجب عليه من أعباء الزوجية من كفالة المرأة، والإنفاق عليها يكون أشد، وآكد، ولكن حب المال جعل الرجال يماكسون في المهر كما يماكسون في سلع التجارة، وصار حبهم للمحافظة على الشرف والكرامة دون حبهم للدرهم والدينار. وذهب الأوزاعي[1] إلى أنه لا يجوز تبرعها ما لم تلد، أو تقم في بيت زوجها سنة، فلو رجعت بعد الهبة فقال شريح، وعبد الملك بن مروان: لها أن ترجع، وروى مثله عن عمر بن الخطاب، فقد روي عنه أنه كتب إلى قضاته: أن النساء يعطين رغبة ورهبة، فأيما امرأة أعطت زوجها، ثم أرادت أن ترجع فلها ذلك، قال شريح: لو طابت نفسها لما رجعت.

قال الشوكاني[2]: فإذا ظهر منها ما يدل على عدم طيبة نفسها لم يحل للزوج، ولا للولي، وإن كانت قد تلفظت بالهبة، أو النذر، أو نحوهما، وما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار ما يصدر من النساء من الألفاظ المفيدة للتمليك بمجردها لنقصان عقولهن، وضعف إدراكهن وسرعة انخداعهن، وانجذابهن إلى ما يراد منهن بأيسر ترغيب أو ترهيب انتهى.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ بفتح الصاد، وضم الدال جمع صدقة على وزن سمرة، وقرأ قتادة وغيره، بإسكان الدال وضم الصاد جمع صدقة على وزن غرفة، وقرأ مجاهد، وموسى بن الزبير، وابن أبي عبلة، وفياض بن غزوان، وغيرهم: ﴿صدقاتهن﴾ بضمهما، وقرأ النخعي، وابن وثاب: ﴿صدقتهن﴾ بضمهما، وبالإفراد، وهو تثقيل صدقة، كظلمة في ظلمة.

وقرأ الحسن، والزهري ويزيد، وكذا حمزة في الوقف ﴿هنيا مريا﴾ بلا همزة، أبدلوا الهمزة التي هي لام الكلمة ياءً، وأدغموا فيها ياء المد، وهمزهما الباقون.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) فتح القدير.

(٣) البحر المحيط.

ولما أمر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة بإيتاء اليتامى أموالهم، وبإيتاء النساءِ مهورهن.. أتى في هذه الآية بشرط للإيتاء يشمل الأمرين جميعاً، وهو: أن لا يكون كل منهما سفيهاً مع بيان أنهم يرزقون فيها، ويكسون ما دامت في أيديهم مع قول المعروف لهم حتى تَحسن أحوالُهم، وأنه لا تسلم إليهم الأموال إلا إذا أونس منهم الرشد، وأنهم لا ينبغي الإسراف في أكل أموال اليتامى، فمن كان من الأولياء غنياً. فليعف عن الأكل من أموالهم، ومن كان فقيراً.. فليأكل بما يبيحه الشرع، ويستجيزه أهل المروءة، كما مر هذا الكلام بعينه في بحث المناسبة، فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا﴾؛ أي: ولا تعطوا أيها الأولياء ﴿السُّفَهَاءَ﴾؛ أي: الضعفاء العقول المبذرين للأموال بصرفها في غير مصارفها ﴿أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمْ قِيَامًا﴾؛ أي: حياة ومعيشة تنتعشون بها، وتقومون بها، وهذا نهي للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رشد لهم أموالهم، فيضيعوها، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء في قوله: ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾، ولم يقل: أموالهم مع أن الخطاب للأولياء، والمال مال السفهاء الذين في ولايتهم؛ لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم ولينبهنا إلى أنه إذا ضاع هذا المال وجب على الولي أن ينفق عليه من مال نفسه، فإضاعته مفضية إلى إضاعة شيء من مال الولي، فكأن ماله عين ماله، وإلى أن الأمة متكافلة في المصالح، فمصلحة كل فرد فيها، كأنها مصلحة للآخرين، والحاصل: أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، والمراد بالسفهاء: الصغار، والبالغون المبذرون من الأولاد، وهذا القول هو الملائم للآيات المتقدمة والمتأخرة.

وقيل[1]: المراد بالسفهاء: امرأتك، وابنك السفيه. قال ابن عباس: لا تعمد إلى مالك الذي خوله الله لك، وجعله لك معيشةً فتعطيه امرأتَك، وابنك فيكونوا هم الذين يقومون عليك، ثم تنظر إلى ما بين أيديهم، أمسك مالك، وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم في رزقهم، ومؤونتهم.

---

(١) الخازن والبيضاوي.

وقال الكلبي: إذا علم الرجل أن امرأته سفيهةٌ مفسدة، وأن ولده سفيهٌ مفسد، لا ينبغي له أن يسلط واحداً منهما على ماله، فيفسده، وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقلهم، واستهجاناً لجعلهم قواماً على أنفسهم، وعلى هذا فالإضافة في قوله ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ على ظاهرها وحقيقتها.

ومعنى جعل الأموال قياماً للناس[١]: أن بها تقوم وتثبت منافعهم، ومرافقهم، فمنافعُهم الخاصة ومصالحهم العامة، لا تزال قائمة ثابتة ما دامت أموالهم في أيدي الراشدين المقتصدين منهم، الذين يحسنون تثميرها، وتوفيرَها، ولا يتجاوزون حدودَ المصلحة في الإنفاق.

وفي هذا حث عظيم على الاقتصاد بذكر فوائده، وتنفير من الإسراف والتبذير ببيان مغبته[٢]، فإن الأموال إذا وقعت في أيدي السفهاء المسرفين، فات ما كان من تلك المنافع قائماً، ومن ثم وصف الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ وقد ورد في السنة النبوية حث كثير على الاقتصاد من ذلك: ما رواه أحمد عن ابن مسعود «ما عال من اقتصد» وما رواه الطبراني والبيهقي عن ابن عمر «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن العقل نصف العلم».

وإن من أشد العجب أن يكون حال المسلمين اليومَ ما نرى من الإسراف والتبذير، بإنفاق أموالهم في غير مصارفها، من المغنيات، والملاهي، وسائر وجوه المحرمات، وكتابهم يهديهم إلى ما للاقتصاد من فوائد، وما للتبذير من مضار، أنظر إلى ما للمال في هذا الزمن من المنزلة التي لا يقدر قدرها حتى صارت جميع المرافق موقوفة على المال، وأصبحت الأمم الجاهلة بطرق الاقتصاد، وليس في أيديها المال مستذلة مستعبدة للأمم الغنية ذات البراعة في الكسب والإحسان في الاقتصاد، وجمع المال، ولا سبب لهذا إلا أنا نبذنا هدي

---

(١) المراغي.

(٢) مغبته ـ بتشديد الباء المفتوحة ـ: أي عاقبته اهـ م.

القرآن وراء ظهورنا، وأخذنا بآراء الجاهلين الذين لبسوا على الناس ونفثوا سمومهم، وبالغوا في التزهيد، والحث على إنفاق ما تصل إليه الأيدي، مع أن السلف الصالح كانوا من أشد الناس محافظةً على ما في أيديهم، وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الكسب الحلال، وليت هذا التزهيد أتى بالغرض المسوق لأجله من الترغيب في الآخرة، والعمل لها، لكنهم زهدوهم في الدنيا وقطعوهم عن الآخرة، فخسروهما معاً، وما ذاك إلا لجهلهم بهدي الإسلام، وهو السعي للدنيا، والعمل للآخرة كما ورد في الأثر «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» وكانوا يقولون: اتجروا، فإنكم في زمان، إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه.

وقرأ الحسن[1]، والنخعي ﴿اللاتي جعل الله لكم قياماً﴾ وهو في المعنى جمع التي، وقرأ الجمهور ﴿ٱلَّتِى﴾ بالإفراد، قال ابن عطية: والأموال جمع لا يعقل، فالأصوب فيه قراءة الجماعة انتهى كما قال بعضهم:

وَجَمْعُ كَثْرَةٍ لِمَا لاَ يَعْقِلُ الأَفْصَحُ الإِفْرَادُ فِيْهِ يَا فُلُ

وقرىء شاذاً ﴿اللواتي﴾، وهو أيضاً في المعنى جمع التي.

وقرأ نافع، وابن عامر ﴿قيماً﴾ وجمهور السبعة ﴿قِيَمًا﴾ ولما انكسرت القاف في قوام، أبدلوا الواو ياءً. وعبد الله بن عمر ﴿قواماً﴾ بكسر القاف، والحسن، وعيسى بن عمر ﴿قواماً﴾ بفتحها، ورويت عن أبي عمرو، وقرىء شاذاً ﴿قوماً﴾ فأما ﴿قيماً﴾ فمصدر كالقيام، والقوام، قاله الكسائي، والفراء، والأخفش، وليس مقصوراً من قيام، وقيل: هو مقصور منه. قالوا: حذفت الألف كما حذفت في خيم وأصله خيام.

﴿وَٱرْزُقُوهُمْ﴾؛ أي: وأطعموا السفهاء، واليتامى ﴿فِيهَا﴾؛ أي: من أموالهم التي في أيديكم، وأنفقوا عليهم منها ﴿وَٱكْسُوهُمْ﴾؛ أي: ألبسوهم منها، وإنما قال الله ﴿فِيهَا﴾ ولم يقل: منها. كما هو ظاهر السياق، لئلا يكون ذلك أمراً بجعل

---

(١) البحر المحيط.

بعض أموالهم رزقاً لهم، بل أمرهم بأن يجعلوا أموالَهم مكاناً لرزقهم، وكسوتهم بأن يتجروا فيها، ويثمروها، فيجعلوا أرزاقَهم من الأرباح لا من أصول المال، فيأكلها الإنفاق.

والمعنى: أيها الأولياء الذين عهد إليكم حفظ أموال اليتامى والسفهاء، وتثميرها حتى كأنها أموالكم، عليكم أن تنفقوا عليهم فتقدموا لهم كفايتَهم من الطعام، والثياب وغير ذلك.

والرزق[1] من الله تعالى: هو العطية من غير حد، ولا قطع، ومعنى الرزق من العباد: هو الأجر الموظف المعلوم لوقت معلوم محدود.

والرزق يعم وجوه الإنفاق كلها، كالأكل، والكسوة، والسكن، والزواج، وإنما خص الكسوةَ بالذكر؛ لأن الناس يتساهلون فيها أحياناً ﴿وَقُولُوا﴾: أيها الأولياء ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لليتامى، والسفهاء ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: جميلاً، حسناً، شرعاً، وعقلاً وهو كل ما سكنت إليه النفس، واطمأنت به؛ لأن القول الجميل يؤثر في القلب، ويزيل السفَهَ، كأن يقول الولي له: إذا كان صغيراً المال مالك، وأنا أمين عليه، وخازن له لك، وإذا كبرت ورشدتَ سلمت إليك أموالك، وإذا كان سفيهاً وعظه، ونصحه، ورغبه في ترك التبذير والإسراف، وعرفه أن عاقبةَ ذلك الفقر والاحتياج إلى الخلق إلى نحو ذلك، كما يعلمه كل ما يوصله إلى الرشد، وبذا قد تحسن حاله، فربما كان السفه عارضاً لا فطرياً، فبالنصح والإرشاد، والتأديب يزول ذلك العارض، ويصبح رشيداً.

وأين هذا مما يفعله الأولياء والأوصياء من أكل أموال السفهاء ومدهم في غيهم، وسفههم حتى يحولوا بينهم وبين أسباب الرشد. وما مقصدهم من ذلك إلا بقاء الأموال تحت أيديهم يتمتعون بها، ويتصرفون فيها بحسب أهوائهم وشهواتهم!.

وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بإيتاء اليتامى أموالَهم، وكان هذا مجملاً

---

(١) الخازن.

ذكر كيفية ذلك الإيتاء، ووقته فقال: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ الآية[1] نزلت في ثابت بن رفاعة، وفي عمه، وذلك أن رفاعة مات، وترك ابنه ثابتاً، وهو صغير فجاء عمه إلى النبي ﷺ وقال له: إن ابن أخي يتيم في حجري فما يحل لي من ماله، ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.. ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾؛ أي: واختبروا أيها الأولياءُ الصغارَ الذين لا أب لهم قبل البلوغ، في عقولهم، وأديانهم، وتصرفهم في أموالهم بما يليق بحالهم، بأن تجربوا ولد التاجر بالبيع والشراء، والمماكسة فيهما، وولد الزراع بالزراعة، والنفقة على القوام بها، والأنثى فيما يتعلق بالغزل، والقطن، وصون الأطعمة عن الهرة ونحوها، وحفظ متاع البيت، وولد الأمير ونحوه بالإنفاق مدة في خبز وماء ولحم ونحوها.

قال أبو حنيفة رحمه الله[2]: تصرفات الصبي العاقل المميز بإذن الولي صحيحة؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أمر للأولياء بأن يأذنوا لهم في البيع والشراء قبل البلوغ، وذلك يقتضي صحة تصرفاتهم، وقال الشافعي: ولا يصح عقد الصبي المميز بل يُمتحن في المماكسة، فإذا أراد العقد.. عقد الولي؛ لأنه لا يجوز دفع المال إليه حال الصغر، فثبت عدمُ جواز تصرفه حالَ الصغر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾؛ أي: اختبروهم في عقولهم، وجربوهم في تصرفاتهم إلى وقت بلوغهم زمن صلاحية النكاح، والزواج، والوطء بأن يبلغ بالاحتلام، أو باستكمال خمس عشرة سنة، عند الشافعي، أو ثماني عشرة سنة عند أبي حنيفة، وبلوغ النكاح كناية عن البلوغ؛ لأنه يصلح للنكاح عنده، فإذا بلغوا، ووصلوا زمنَ صلاحية النكاح ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم﴾ وعلمتم ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: من اليتامى الذين وصلوا زمن النكاح والزواج ﴿رُشۡدٗا﴾؛ أي: هداية في التصرفات، وصلاحاً في المعاملات من غير تبذير، وعجز عن خديعة الغير، وقيل: معنى رشداً؛ أي: عقلاً، وصلاحاً في الدين، وحفظاً للمال، وعلماً بما يصلحه ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾، وسلموا ﴿إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ التي عندكم من غير تأخير عن وقت البلوغ، وإنما تدفع إليهم أموالهم بعد بلوغهم، وإيناس الرشد منهم.

---

(١) الخازن. (٢) مراح.

وقال ابن سيرين[1]: لا يدفع إليه المال بعد الإيناس والاختبار المذكورين حتى تمضيَ عليه سنة كاملة، وتداوله الفصول الأربع، وظاهر الآية أنه إن لم يؤنس منه رشد، بقي محجوراً عليه دائماً، ولا يدفع إليه المال، وبه قال الجمهور. وقال النخعي، وأبو حنيفة: ينتظر به خمس وعشرون سنة، ويدفع إليه ماله، أُونس منه الرشد أو لم يؤنس، وظاهر الآية يدل على استبداد الوصي بالدفع والاستقلال به، وقالت طائفة: يفتقر إلى أن يدفعه إلى السلطان، ويثبت رشدَه عنده.

وظاهر عموم اليتامى اندراج البنات في هذا الحكم، فيكون حكمهن حكم البنين في ذلك، فقيل: يعتبر رشدها، وإن لم تتزوج بالبلوغ.

وقال المراغي[2] والمعنى: أيها الأولياء، ابتلوا اليتامى إلى ابتداء البلوغ، وهو الحد الذي يبلغون فيه سن النكاح، فإن آنستم منهم بعد البلوغ رشداً، فادفعوا إليهم أموالهم، وإلا فاستمروا على الابتلاء حتى تأنسوه منهم، ويرى أبو حنيفة دَفعَ مال اليتيم إليه، إذا بلغ خمساً وعشرين سنةً، وإن لم يرشد. انتهى.

وقرأ[3] ابن مسعود ﴿فإن أحستم منهم رشداً﴾ يريد أحسستم فحذف عين الكلمة، وهذا الحذف شذوذ، لم يرد إلا في ألفاظ يسيرة، وحكى غير سيبويه أنها لغة سليم، وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمٰن، وأبو السمال، وعيسى الثقفي ﴿رشداً﴾ بفتحتين، وقرىء شاذاً ﴿رشداً﴾ بضمتين، قيل: هما لغتان، وقيل: هو بالضم مصدر رشد، من باب: قعد، وبالفتح مصدر رَشِدَ من باب: طرب، وقراءة الجمهور ﴿رُشْدًا﴾ بضم الراء، وسكون الشين.

فصل في بيان البلوغ

البلوغ يحصل بأربعة أشياء: اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء، واثنان

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

يختصان بالنساءِ. أما اللذان يشترك فيهما الرجال والنساءِ:

فأحدهما: السن، فإذا استكمل المولود خمس عشرة سنةً حكم ببلوغه غلاماً كان أو جاريةً، ويدل عليه ما روي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: عرضت على رسول الله ﷺ عام أحد، وأنا ابن أربع عشرة سنة، فردني ثم عرضت عليه عام الخندق، وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني. أخرجه الشيخان في «الصحيحين».

وهذا قول أكثر أهل العلم، وقال أبو حنيفة: بلوغ الجارية باستكمال سبع عشرة سنة، وبلوغ الغلام باستكمال ثماني عشرة سنة.

والثاني: الاحتلام، وهو إنزال المني الدافق سواء أنزل باحتلام أو جماع؛ فإذا وجد ذلك من الصبي أو الجارية حكم ببلوغه، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ ولقوله ﷺ لمعاذ: «خذ من كل حالم ديناراً» أما إنبات الشعر الخشن حول الفرج، فهو يدل على البلوغ في أولاد المشركين، لما روي عن عطية القرظي قال: كنت من سبي قريظة، فكانوا ينظرون، فمن أنبت الشعر قتل، ومن لم ينبت لم يقتل، فكنت ممن لم ينبت، وهل يكون ذلك علامة على البلوغ في أولاد المسلمين؟ فيه قولان:

أحدهما: أنه يكون بلوغاً كما في أولاد المشركين.

والثاني: لا يكون ذلك بلوغاً في حق أولاد المسلمين؛ لأنه يمكن الوقوف على مواليد أولاد المسلمين، والرجوع إلى قول آبائهم بخلاف الكفار، فإنه لا يوقف على مواليدهم، ولا يقبل في ذلك قول آبائهم لكفرهم فجعل الإنبات الذي هو أمارة البلوغ بلوغاً في حقهم.

وأما الذي يختص بالنساء: فهو الحيض والحبل، فإذا حاضت الجارية بعد استكمال تسع سنين، حكم ببلوغِهَا، وكذلك إذا ولدت حكم ببلوغها، قبل الوضع بستة أشهر؛ لأنها أقل مدة الحمل. قيل[1]: ومن علامات البلوغ الحيض

(١) صاوي.

كما ذكر، وكبر الثدي للإناث، ونبات العانة، ونتن الإبط، وفرق الأرنبة، وغلظ الحنجرة للذكور، فإذا وجدت تلك العلامات حكم ببلوغه عند مالك، وأما عند الشافعي فلا يحكم بالبلوغ إلا بالاحتلام، أو الحيض، أو كمال خمس عشرة سنة، وما عدا ذلك علامة على البلوغ، ولا يحكم عليه به.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾؛ أي: ولا تأكلوا أيها الأولياء، والأوصياء أموالَ اليتامى حالةَ كونكم ﴿إِسْرَافًا﴾؛ أي: مسرفين، ومجاوزين الحد الشرعي، في الإنفاق، ولو على اليتيم نفسه ﴿و﴾ حالة كونكم ﴿بداراً﴾؛ أي: مبادرينَ ومسرعين إلى إنفاقها ﴿أَن يَكْبَرُوا﴾؛ أي: مخافة كبرهم، رشداءَ فيمنعوكم عن ذلك، ويلزمكم تسليمها إليهم، وتقولون: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى، فينزعوها من أيدينا.

ولما كانت هاتان الحالتان الإسراف ومسابقة كبر اليتيم ببعض التصرف من مواطن الضعف التي تعرض للإنسان نهى الله عنهما، ونبه الأولياء إلى خطرهما حتى يراقبوا ربهم إذا عرضتا لهم، أما الأكل من مال اليتيم بلا إسراف ولا مبادرة خوفَ أخذها عند البلوغ، فقد ذكر الله تعالى حكمه بقوله: ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم أيها الأولياء ﴿غَنِيًّا﴾؛ أي: غير محتاج إلى شيء ممن مال اليتيم الذي تحت ولايته ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾؛ أي: فليعف نفسه عن الأكل من ماله، وليتنزه عن أكله، وليقنع بما آتاه الله من الرزق، إشفاقاً على اليتيم، وإبقاءً على ماله، ولا ينقص منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿فَقِيرًا﴾؛ أي: محتاجاً لا يستغنى عن الانتفاع بشيء من مال اليتيم الذي يشغل بعض وقته في تشميره، وحفظه ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ منه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً، وعند الناس وهو ما يبيحه الشرع، ولا يستنكره أرباب المروءة، ولا يعدونه خيانةً، وطمعاً، وقيل[1]: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بقدر أجرة خدمته لليتيم، وعمله في ماله، وقيل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بالقرض، ثم إذا أيسر قضاه، وإن مات، ولم يقدر على القضاءِ، فلا شيء عليه، وهذا قول سعيد بن

---

(١) المراح.

جبير، ومجاهد، وأبي العالية، وهذا القرض في أصول الأموال، أما نحو ألبان المواشي، واستخدام العبيد، وركوب الدواب، فمباح لنحو الوصي، إذا كان غير مضر بالمال، وهذا قول أبي العالية وغيره، وإنما خص الأكل بالذكر، لأنه أعم و جوه الانتفاعات، ومحل ذلك في غير الحاكم، أما هو: فليس له ذلك لعدم اختصاص ولايته بالمحجور عليه، بخلاف غيره، حتى أمينه كما صرح به المحاملي، وله الاستقلال بالأخذ منه من غير مراجعة الحاكم، ومعلوم أنه إذا نقصت أجرة الأب، أو الجد، أو الأم إذا كانت وصية عن نفقتهم، وكانوا فقراء يتمونها من مال محجورهم؛ لأنها إذا وجبت بلا عمل فمعه أولى، ولا يضمن المأخوذَ؛ لأنه بدل عمله. قال ابن جرير: إن الأمة مجمعة على أن مال اليتيم ليس مالاً للولي؛ فليس له أن يأكل منه شيئاً، ولكن له أن يستقرض منه عند الحاجة، كما يستقرض له، وله أن يؤاجر نفسَه لليتيم بأجرة معلومة، إذا كان اليتيم محتاجاً إلى ذلك، كما يستأجر له غيره من الأجراء غير مخصوص بها حالَ غنى، ولا حالَ فقر، وهكذا الحكم في أموال المجانين، والمعاتيه: جمع معتوه ناقص العقل من غير جنون.

وقد روى أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: ليس لي مال وإني ولي يتيم، فقال: «كل[1] من مال يتيمك، غير مسرف، ولا متأثل مالاً، ومن غير أن تقي مالك بماله».

والحكمة في هذا: أن اليتيم يكون في بيت الولي كولده، والخير له في تربيته أن يخالط الولي وأهله في المؤاكلة والمعاشرة، فإذا كان الولي غنياً لا طمع له في ماله، كانت المخالطة مصلحة لليتيم، وإن كان ينفق فيها شيء من ماله فبقدر حاجته، وإن كان فقيراً.. فهو لا يستغني عن إصابة بعض ما يحتاج إليه من مال اليتيم الغني الذي في حجره، فإن أكل من طعامه ما جرى به العرف بين الخلطاء غير مصيب من صلب المال شيئاً، ولا متأثل لنفسه منه عقاراً، ولا مالاً

---

(١) المراغي.

آخر، ولا منفق مالَه في مصالحه ومرافقه كان بعمله هذا آكلاً بالمعروف.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾ وسلمتم أيها الأولياء، والأوصياء ﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى اليتامى ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ بعد البلوغ، والرشد، ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على استلامهم إياها، منكم بإقباضكم إياهم، وبراءة ذممكم منها كي لا يكون نزاع بينكم، فإنه أنفى للتهمة، وأبعد من الخصومة.

وهذا[1] الإشهاد واجب عند الشافعية، والمالكية؛ إذ أن تركه يؤدي إلى التخاصم، والتقاضي كما هو مشاهد، وجعله الحنفية مندوباً، لا واجباً ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾؛ أي: وكفى الله سبحانه وتعالى محاسباً، ومجازياً للمحسنين، والمسيئين، وشاهداً عليهم، فعليكم بالتصادق، وإياكم والتكاذب فإنه يحاسبكم على ما تسرون، وما تعلنون، فلا تخالفوا ما أمرتم به، ولا تتجاوزوا ما حَدَّ لكم.

وقد جاء بهذا بعد الأمر بالإشهاد، ليرشدنا إلى أن الإشهاد، وإن أسقط الدعوى بالمال عند القاضي فهو لا يسقط الحق عند الله، إذا كان الولي خائناً. فإن الله لا يخفى عليه ما يخفى على الشهود، والحُكّام، وعلى الجملة فإنك ترى أن الله تعالى حاط أموالَ اليتامى بضروب من الصيانة، والحفظ، فأمر باختبار اليتيم، قبل دفع ماله إليه، ونهى عن أكل شيء منه بطرق الإسراف، ومبادرة كبره، وأمرَ بالإشهاد عليه عند الدفع، ونبه إلى مراقبة الله تعالى في جميع التصرفات الخاصة به.

﴿لِلرِّجَالِ﴾؛ أي: للذكور من أولاد الميت، وأقربائه صغاراً أو كباراً ﴿نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾؛ أي: من الميراث الذي تركه ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ المتوفون ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾؛ أي: وللإناث من بنات الميت، وقراباته، ﴿نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ المتوفون قيل: سبب نزول هذه الآية: خبر أم كحلة زوجة أوس بن ثابت الأنصاري، وقد تقدم في أسباب النزول.

---

(١) المراغي.

قال المروزي[1]: كان اليونان يعطون جميع المال للبنات؛ لأن الرجال لا يعجز عن الكسب، والمرأة تعجز، وكانت العرب لا يعطون البنات، فرد الله على الفريقين، والمعنى بالرجال الذكور، وبالنساء الإناث، وقال الشوكاني[2]: لما ذكر الله سبحانه وتعالى حكم أموال اليتامى وصله بأحكام المواريث، وكيفية قسمتها بين الورثة، وأفرد سبحانه ذكر النساء بعد ذكر الرجال، ولم يقل للرجال والنساء نصيب، للإيذان بأصالتهن في هذا الحكم، وللاعتناء بأمرهن، ودفع ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء، ولم يستفد من الآية الرد عليهم في حرمان الزوجة؛ لأن الزوج ليس والداً، ولا قريباً لها، فكأن حكمها أستفيد مما سيأتي، ومن السنة، وفي ذكر القرابة بيان لعلة الميراث مع التعميم لما يصدق عليه مسمى القرابة من دون تخصيص، وقوله ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ أي مما تركوه أي من المال المخلف من الميت ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ منه بدل من قوله ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بإعادة الجار، والضمير في قوله ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى المبدل منه، وأتى بهذا البدل لتحقيق أن لكل من الفريقين حقاً من كل ما جل ودق، ولدفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل، وآلات الحرب للرجال حالة كون نصيب كل من الفريقين ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾؛ أي: حظا مقدراً لهم مقطوعاً بتسليمه إليهم؛ فلا يسقط بإسقاطهم، ففي الآية[3] دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه بالإعراض.

وقد أجمل الله سبحانه وتعالى في هذه الآية قدر النصيب المفروض ثُمَّ أنزل قوله ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ فبين ميراث كل فرد، ومعنى الآية[4] أنه إذا كان لليتامى مالُ مما تركه لهم الوالدان والأقربون، فهم فيه سواء لا فرق بين الرجال والنساء، ولا فرق بين كونه كثيراً أو قليلاً، وأتى بقوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ لبيان أنه حق معين مقطوع به، ليس لأحد أن ينقص منه شيئاً، ولا أن يحابى فيه.

﴿وَإِذَا حَضَرَ﴾ وجاء ﴿الْقِسْمَةَ﴾؛ أي: محل قسمة التركة بين الورثة ﴿أُولُوا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) فتح القدير.
(٣) البيضاوي.
(٤) المراغي.

﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ أي: أصحاب قرابة الميت ممن لا يرث، لكونه عاصباً، محجوباً كالأخ لأب مع الأخ الشقيق، والعم مع الأب، أو لكونه من ذوي الأرحام، كالخال والخالة، ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾؛ أي: يتامى المؤمنين الأجانب ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾؛ أي: مساكين المؤمنين الأجانب ﴿فَٱرۡزُقُوهُم﴾؛ أي: فأعطوا ندباً أيها الورثة الكاملون هؤلاء الأصناف الثلاثة الحاضرين محل القسمة ﴿مِّنۡهُ﴾؛ أي: من المال المقسوم بينكم قبل القسمة شيئاً، ولو قليلاً؛ أي: إذا حضر قسمة التركة أحد من هؤلاء الأصناف الثلاثةِ المذكورينَ فأعطوهم أيها الورثة الكاملون بشيء من الرزق الذي أتاكم من غير كد ولا نصب، فلا ينبغي أن تبخلوا به على المحتاجين من ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وتتركوهم يذهبون منكسري القلب مضطربي النفس، ﴿وَقُولُواْ﴾ أيها الورثة الكاملون مع الإعطاء المذكور ﴿لَهُمۡ﴾؛ أي: لهؤلاء الأصناف الحاضرين محل القسمة ﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾؛ أي: قولاً ليناً طيباً تطيب به نفوسهم عندما يعطون، حتى لا يثقل على أبيِّ النفس منهم ما يأخذ، ويرضي الطامع في أكثر مما أخذ بما أخذ بالتودد، والتلطف في القول، وعدم التغليظ فيه.

وقيل: الخطاب في الآية على التوزيع، فالخطاب في الرزق للورثة الكاملين، وفي القول لأولياء الورثة غير الكاملين، والمعنى حينئذ. فارزقوهم أيها الورثة الكاملون من المال المقسوم شيئاً من الرضخ، وقولوا: يا أولياء الورثة غير الكاملين لهؤلاء الأصناف الحاضرين قولاً معروفاً جميلاً كأن يقول الولي لهم: هذا المالُ لهؤلاء الضعفاء، الذين لا يعقلون، وليس لي فيه حق فأعطيكم، ولكن إذا كبروا فيعرفون حقوقكم، فيعطوكم، أو يقول: سأوصيهم ليعطوكم شيئاً إذا كبروا.

والسر في إعطائهم شيئاً من التركة: أنه ربما يسري الحسدُ إلى نفوسهم، فينبغي التودد إليهم، واستمالتهم باعطائهم قدراً من هذا المال هبةً، أو هدية، أو إعداد طعام لهم يوم القسمة، ليكون في هذا صلة للرحم، وشكر للنعمة.

قال سعيد بن جبير: هذا الأمر أعني أمر الإعطاء للوجوب، وقد هجره الناس كما هَجروا العملَ بالاستئذان عند دخول البيوت، والمعتمد أنه ندبٌ.

وقال الحسن، والنخعي، إن الذي أمرنا أن نرزقهم منه عند القسمة هو الأعيانُ المنقولة كالذهب، والفضة، وأما الأرضون، والرقيق، وما أشبه ذلك فلا يجب أن يعطوا منها شيئاً، بل يكتفي حينئذ بقول المعروف، أو بإطعام الطعام. قوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ هو خطاب[1] مع الذين يجلسون عند المريض فيقولون له: إن ذريَتك وورثتَك لن يغنوا عنك من عذاب الله شيئاً، فأوص مالَك لفلان، ولفلان، ولا يزالون يأمرونه بالوصية إلى الأجانب إلى أن لا يَبْقَى من ماله للورثة شيءٌ أصلاً.

وحاصل الكلام: أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك، فلا ترضه لأخيك المسلم، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ «لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

والمعنى: وليخف الله تعالى الذين يجلسون عند المريض، ويأمرونه بإيصاء كل ماله، وليَتّقُوا الضياعَ والفقرَ على أولاد ذلك المريض، الذي أمروه بإيصاء كل ماله؛ كما أنهم يخافون الضياع، والفقر على أولاد أنفسهم، لو أوصوا بجميع مالهم، وتركوا من بعد موتهم ذريةً ضِعافاً، وقوله: ﴿ضِعَٰفًا﴾ بمعنى صغاراً لا يقومون بأمرهم، يقرأ بالتفخيم على الأصل، وبالإمالة لأجل الكسرة، وجاز ذلك مع حرف الاستعلاء؛ لأنه مكسور مقدم، ففيه انحدار، وقوله: ﴿خَافُوا۟﴾ يقرأ بالتفخيم على الأصل، وبالإمالة؛ لأن الخاء تنكسر في بعض الأحوال، وهو خفت، وهو جواب لو، ومعناها إن. ذكره أبو البقاء. ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: فليخافوا عقابَ الله في أمر ذلك المريض بإيصاء كل ماله، وترك أولاده عالة يتكففون الناسَ ﴿وَلْيَقُولُوا۟﴾ لذلك المريض ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: قولاً عدلاً صواباً بأن يقولوا له: إنك إن تذَر ورثتَك أغنياء خيرُ لك من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس، فالقول السديد: هنا أن يأمروه أن يخلفَ ماله لولده، ويتصدق بما دون الثلث، أو الثلث، ويأمروه أن يتخلص من حقوق الله، وحقوق العباد، وأن

---

(١) المراح.

يُوصي بالقرب المقربة إلى الله سبحانه وتعالى.

قال[1] ابن كثير: قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يحضره الموتُ فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب، فينظرَ لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته، إذا خشي عليهم الضيعةَ، وهكذا قال مجاهد، وغير واحد، وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده، قال: يا رسول الله، إني ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثيْ مالي، قال: لا قال: فالشطر، قال: لا. قال: فالثلث. قال: «الثلثُ والثلثُ كثير»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إنك تذرَ ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس» انتهى.

والمعنى[2]: كما أنكم تكرهون بقاءَ أولادكم في الضعف والجوع من غير مال، فاخشوا الله، ولا تحملوا المريضَ على أن يحرم أولادَه الصغارَ من ماله.

وحاصل الكلام: كما أنك لا ترضى مثلَ هذا الفعل لنفسك، فلا ترضه لأخيك المسلم. قيل: الآية تحتمل أن تكون خطاباً لمن حضر أجله، ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية، لئلا تبقى ورثته فقراءَ ضعافاً ضائعينَ بعد موته، والمعنى على هذا القول؛ أي: وليخش الله سبحانه وتعالى في تكثير الوصية: المُوصُونَ الذين يخافون على أولادهم الضياعَ والفقرَ لو تركوهم من خلفهم ذريةً، ضعافاً صغاراً بلا مال، فليتقوا عقابَ الله في حرمانهم، وليقولوا في إيصائهم قولاً سديداً، بأن اقتصروا في إيصائهم على الثلث، أو نَقَصُوا عنه.

وقيل: الآية[3] خطاب لأولياء اليتامى، والمعنى: وليخش من خاف على ولده من بعد موته أن يضيع مال اليتيم الضعيف الذي هو ذرية غيره، إذا كان في حجره، والمقصود من الآية: من كان في حجره يتيم فليحسن إليه، سواءً كان

---

(١) ابن كثير.
(٢) الخازن.
(٣) الخازن.

وليه أو وصيه، وليفعل به ما يحب أن يفعلَ بأولاده من بعده، ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾ عقاب ﴿اللَّهَ﴾ في أمر اليتامى ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ لهم: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: سهلاً ليناً بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة والتأديب، ويخاطبونهم بقولهم: يا ولدي يا بني.

وعبارة البيضاوي هنا: قوله تعالى[1]: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً﴾ الآية. أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى، فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم، الضعاف بعد وفاتهم، أو أمر للحاضرين المريضَ عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم، أو يخشوا على أولاد المريض، ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم، فلا يتركوه أن يضر بهم بصرف المال عنهم، أو أمر للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى، والمساكين متصورينَ أنهم لو كانوا أولادَهم بقوا خلفهم ضِعَافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم؟ أو أمر للموصين بأن ينظروا للورثة، فلا يسرفوا في الوصية انتهت. فالقول[2] السديد من الجالسين عند المريض هو أن يأمروه أن يتصدق بدون الثلث، ويترك الباقيَ لولده وورثته، وأن لا يحيف في وصيته، والقول السديد من الأوصياء، وأولياء اليتامى أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم، ولا يؤذوهم بقول ولا فعل. وقرأ الزهري والحسن، وأبو حيوة، وعيسى بن عمر بكسر لام الأمر في ﴿وليخش﴾، وفي ﴿فلِيتقوا﴾، وفي ﴿وليقولوا﴾ وقرأ الجمهور بالإسكان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾، وينتفعون بها ﴿ظُلْمًا﴾؛ أي: حالةَ كونهم ظالمينَ، أو على سبيل الظلم وهضم الحقوق لا أكلاً بالمعروف عند الحاجة إلى ذلك، أو تقديراً لأجرة العمل ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي﴾ ملء ﴿بُطُونِهِمْ نَارًا﴾؛ أي: حراماً يكون سبباً لعذاب النار. ونبه بقوله: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ على نقصهم، ووصفهم بالشره في الأكل، والتهافت في نيل الحرام بسبب البطن ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾؛ أي: وسيدخلون يوم القيامة ﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً متقدة ذات لهب

---

(١) البيضاوي. (٢) الخازن.

شديد، لا يعرف قدر حرارتها إلا الله تعالى يحترقون فيها.

وإنما خص الأكل بالذكر، وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات، وجميع التصرفات الرديئة المتلفة للمال؛ لأن الضررَ يحصل بكل ذلك لليتيم، فعبر عن جميع ذلك بالأكل؛ لأنه معظم المقصود، وإنما ذكر البطون للتأكيد؛ فهو كقولك رأيت بعيني، وسمعت بأذني.

وروى السدي[١]: يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة، ولهبُ النار يخرج منْ فيه، ومن مسامعه، وأنفه، وعينيه يعرفه كل من رآه بآكل مال اليتيم.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية: انطلق من كان عنده يتيم فعزلَ طعامَه من طعامه، وشرابَه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكلَه، أو يفسدَ فاشتدَ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم.

وقرأ الجمهور ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ مبنياً للفاعل من الثلاثي، من صلي النار يصلاها من باب رضي، والصلي هو التسخن بقرب النار، أو مباشرتها، وقرأ[٢] ابن عامر، وأبو بكر، وعاصم بضم الياء وفتح اللام مبنياً للمفعول من الثلاثي. وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو حيوة بضم الياء وفتح الصاد، واللام مشددةً، مبنياً للمفعول من التصلية بكثرة الفعل مرة بعد أخرى.

وعبر بالصلي بالنار عن العذاب الدائم بها؛ إذ النار لا تذهب ذواتَهم بالكلية، بل كما قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، وهذا وعيد عظيم على هذه المعصية، والسعير: الجمر المشتعل.

---

(١) ابن كثير.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد، تعويضاً عما فات ﴿أي﴾ من الإضافة. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ تابع للفظه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱتَّقُواْ﴾ فعل وفاعل والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿رَبَّكُمُ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿ربكم﴾. ﴿خَلَقَكُم﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة له، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِّن نَّفْسٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خلق﴾. ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ صفة لـ﴿نفس﴾.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾.

﴿وَخَلَقَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿خلق﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُم﴾. ﴿منها﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خلق﴾. ﴿زَوْجَهَا﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَبَثَّ﴾ الواو عاطفة. ﴿بث﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُم﴾. ﴿مِنْهُمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿بث﴾. ﴿رِجَالًا﴾ مفعول به. ﴿كَثِيرًا﴾ صفة له ﴿وَنِسَآءً﴾ معطوف على ﴿رِجَالًا﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿اتقوا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿اتقوا ربكم﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة للجلالة. ﴿تساءلون﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تساءلون﴾، وهو العائد على الموصول. ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالنصب معطوف على الجلالة، والمعنى: اتقوا الله بطاعته، واتقوا الأرحامَ التي تساءلون بها بصلتها، فإنها مما أمر الله تعالى أن يوصلَ، وقيل: معطوف على محل الجار والمجرور، في قوله ﴿بِهِۦ﴾ كقولك مررت بزيد وعمراً، والمعنى: اتقوا الله الذي تساءلون به، وتتساءلون بالأرحام،

وبالجر عطفاً على الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ كما مر في بحث التفسير. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾ اسمها، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿رقيباً﴾. ﴿رَقِيبًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ ناهية. ﴿تَتَبَدَّلُوا۟﴾ فعل، وفاعل مجزوم. بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ مفعول به. ﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَءَاتُوا۟﴾. ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ ناهية. ﴿تَأْكُلُوٓا۟﴾ فعل، وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿آتوا﴾ ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ تقديره: حالة كونها مضافة ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿الهاء﴾ ضمير عائد على المصدر المفهوم من ﴿لا تأكلوا﴾ تقديره: إن أكلها في محل النصب اسمها ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾. ﴿حُوبًا﴾ خبرها. ﴿كَبِيرًا﴾ صفته، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ الواو استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿خِفْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لـ﴿إن﴾ ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تقسطوا﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿في اليتامى﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: وإن خفتم عدم

إقساطكم في اليتامى. ﴿فَٱنكِحُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، لكون الجواب جملة طلبية. ﴿انكحوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ على كونه جواب الشرط. ﴿مَا طَابَ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿انكحوا﴾. ﴿طَابَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿لَكُم﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿طاب﴾ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿طَابَ﴾. ﴿مَثْنَىٰ﴾ حال من ﴿ما﴾ في قوله ﴿مَا طَابَ﴾ منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف منع مع ظهورها التعذر؛ لأنه اسم مقصور، ولم ينون؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف: علتان، فرعيتان، معتبرتان، من علل تسع، ترجع إحداهما إلى اللفظ، والأخرى إلى المعنى، وهما العدل، والوصف، وهو جامد مؤول بمشتق تقديره، حالة كونه معدوداً باثنين اثنين. ﴿وَثُلَٰثَ﴾ ﴿وَرُبَٰعَ﴾ معطوفان على ﴿مَثْنَىٰ﴾ معدولان من ثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، والأصل: فانكحوا ما طاب لكم من النساء اثنين اثنين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾.

﴿فَإِنْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم جواز نكاح مثنى وثلاث ورباع، وأردتم بيانَ حكم ما إذا خفتم أن لا تعدلوا بينهن.. فأقول لكم ﴿إن خفتم﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿خِفْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ أن حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تعدلوا﴾ فعل وفاعل منصوب بإن، وجملة ﴿أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ عدم عدلكم فيما فوق الواحدة ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية المحذوف تقديره: ﴿فانكحوا﴾ واحدة. ﴿واحدة﴾ مفعول لذلك المحذوف، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾.

﴿أَوْ﴾ حرف عطف. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب معطوف على واحدة، أو منصوب بعامل محذوف تقديره: أو تسروا ما ملكت أيمانكم على حد علفتها تبناً، وماءً بارداً. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: أو ما ملكته أيمانكم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿أن﴾ حرف مصدر. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَعُولُوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإلى محذوفاً، تقديره: ذلك الاقتصار على الواحدة، أو على ما ملكت أيمانكم أقرب إلى عدم عولكم وجوركم في الاثنتين، وما فوقهما.

﴿وَءَاتُوا النِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

﴿وَءَاتُوا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿آتوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿النِّسَآءَ﴾ مفعول أول. ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه. ﴿نِحْلَةً﴾ حال من صدقاتهن أو منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه مصدر معنوي لـ﴿آتوا﴾. ﴿فَإِن طِبْنَ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم وجوب إيتاء الصداق للنساء، وأردتم بيان حكم ما إذا وهبن لكم فأقول لكم: ﴿فَإِن طِبْنَ﴾ إن حرف شرط ﴿طِبْنَ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿طبن﴾ ﴿عَن شَىْءٍ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿مِّنْهُ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿شيء﴾. ﴿نَفْسًا﴾ تمييز محول عن فاعل ﴿طِبْنَ﴾ منصوب به. ﴿فَكُلُوهُ﴾ الفاء رابطة الجواب. ﴿كلوه﴾ فعل وفاعل، ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ حالان من ضمير المفعول، أو منصوبان على المفعولية المطلقة تقديره أكلا هنيئاً مريئاً، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تُؤْتُوا﴾ فعل وفاعل. ﴿السُّفَهَآءَ﴾ مفعول أول. ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿الَّتِي﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿أموالكم﴾. ﴿جَعَلَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به. ﴿قِيَمًا﴾ مفعول ثان. لـ﴿جعل﴾، والأول محذوف تقديره جعلها الله لكم قياماً، والجملة صلة الموصول، والعائد الضمير المحذوف.

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

﴿وَارْزُقُوهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ارزقوهم﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿ارزقوا﴾ و﴿في﴾ بمعنى من الابتدائية. ﴿وَاكْسُوهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على ﴿وَلَا تُؤْتُوا﴾. ﴿وَقُولُوا﴾ الواو عاطفة. ﴿قولوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿وَلَا تُؤْتُوا﴾. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قولوا﴾. ﴿قَوْلًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿مَعْرُوفًا﴾ صفة لـ﴿قولا﴾.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.

﴿وَابْتَلُوا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ابتلوا اليتامى﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿حَتَّى﴾ حرف ابتداء لدخولها على الجملة، فلا عمل لها، وإنما دخلت على الكلام لمعنى الغاية، كما تدخل على المبتدأ، أو حرف جر وغاية لكون ما بعدها غايةً لما قبلها، و﴿إذا﴾ حينئذ مجردة عن معنى الشرط. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط. ﴿بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إذا لكون الجواب جملة شرطية ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿آنَسْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق به. ﴿رُشْدًا﴾ مفعول به. ﴿فَادْفَعُوا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية. ﴿ادفعوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق به. ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه، وجملة إن الشرطية من فعل شرطها وجوابها جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب على القول بأن ﴿حَتَّى﴾ حرف ابتداء، أو في محل الجر بـ﴿حتى﴾ على القول بأن ﴿حتى﴾ حرف جر

وغاية، والمعنى على الأول: أعني كونها حرف ابتداء إذا بلغوا النكاحَ راشدينَ، فادفعوا إليهم أموالهم. والمعنى على الثاني: أعني كونها حرف جر وغاية، وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم، واستحقاقهم دفع أموالهم بشرط إيناس الرشد.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَأْكُلُوهَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ حالان من الفاعل، ولكن بتأويلهما بمشتق؛ أي: حالة كونكم مسرفينَ، ومبادرينَ إلى أكلها، أو مفعولان لأجله؛ أي: لأجل الإسراف، والمبادرة لهم إلى أكلها. ﴿أَن يَكْبَرُوا۟﴾ فعل، وفاعل منصوب ﴿بأن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر، تقديره: مَخَافة كبرهم، والمصدر المقدر منصوب على المفعولية لأجله، أو الجملة في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعول ﴿وَبِدَارًا﴾ تقديره: ومبادرين كبرهم. ﴿وَمَن﴾ الواو استئنافية. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بمن على كونه فعل شرط لها، واسمه ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿غَنِيًّا﴾ خبرها. ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ الفاء رابطة لجواب من الشرطية، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿من﴾ اسم شرط مبتدأ. ﴿كَانَ فَقِيرًا﴾ فعل شرط لها ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ في محل الجزم جوابها، والجملة معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بـ﴿يأكل﴾ أو صفة لمصدر محذوف تقديره؛ أي: أكلاً ملتبساً بالمعروف. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم وجوبَ الدفع إليهم عند إيناس الرشد منهم، وأردتم بيانَ ما ينبغي لكم عند الدفع فأقول: ﴿إذا دفعتم﴾ إذا ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿دَفَعْتُمْ﴾ فعل وفاعل. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق به. ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه،

والجملة في محل الخفض بـ﴿إذا﴾ على كونها فعلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَأَشْهِدُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿اشهدوا﴾ فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾ لا محل له من الإعراب. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ الواو استئنافية. ﴿كفى﴾ فعل ماض. ﴿بِٱللَّهِ﴾ الباء[1] زائدة. ولفظ الجلالة فاعل، ودخلت عليه ﴿الباء﴾؛ لتدل على معنى الأمر، إذ التقدير اكتف بالله، وقيل: إن الفاعل مضمر، والتقدير: كفى الإكتفاء بالله، فبالله على هذا في موضع نصب مفعولاً به. ﴿حَسِيبًا﴾ حال، وقيل: تمييز، وكفى يتعدى إلى مفعولين، وقد حذفا هنا، والتقدير: كفاك الله شرهم، ونحو ذلك، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ذكره أبو البقاء.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ⑦﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نَصِيبٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿نصيب﴾. ﴿تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ فعل وفاعل. ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ معطوف عليه، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: مما تركه الوالدان. ﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾ الواو عاطفة. ﴿للنساء﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نَصِيبٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾. ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ صفة لـ﴿نصيب﴾. ﴿مِمَّا قَلَّ﴾ جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ﴾ بإعادة الجار، وجملة ﴿قَلَّ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط ضمير الفاعل. ﴿والهاء﴾ في ﴿مِنْهُ﴾ عائد إلى ﴿ما﴾ في قوله: ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾، وهذا البدل مقدر أيضاً في الجملة الأولى، أعني قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ محذوف لعلمه من المذكور، ويجوز[2] أن يكون الجار والمجرور في قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ﴾ حالاً من الضمير

---

(١) عكبري. (٢) عكبري.

المحذوف في ﴿تَرَكَ﴾؛ أي: وللنساء نصيب مما تركه الوالدان، والأقربون حالة كونه قليلاً. أو كثيراً، أو مستقراً مما قلَّ ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ معطوف على ﴿مما قلّ﴾ منصوب على المصدرية بعامل محذوف تقديره: نصبهم نصيباً؛ أي: أعطاهم الأنصباء عطاءً مقدراً بما لا يزيد، ولا ينقص، وقيل: هو حال مؤكدة، والعامل فيها: معنى الاستقرار في قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ وقيل: هو حال من الفاعل في ﴿قَلَّ﴾ ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ وقيل: هو مفعول لفعل محذوف تقديره: أوجب لهم نصيباً، وقيل: هو منصوب على إضمار أعني، ذكره أبو البقاء. ﴿مَّفْرُوضًا﴾ صفة لـ﴿نصيبا﴾.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فعل ومفعول وفاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ معطوف على ﴿أُوْلُوا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ معطوف عليه أيضاً ﴿فَٱرْزُقُوهُم﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿ارزقوهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿مِّنْهُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿ارزقوهم﴾. ﴿وَقُولُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ارزقوهم﴾ ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور، متعلق به. ﴿قَوْلًا﴾ منصوب على المصدرية. ﴿مَّعْرُوفًا﴾ صفة له.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلْيَخْشَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ حرف أمر وجزم مبني على السكون، تخفيفاً لاتصالها بالواو. ﴿يخشى الذين﴾: فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر، والجملة مستأنفة، ومفعول[1] الخشية محذوف تقديره: وليخش الله الذين

(١) الجمل.

لو تركوا، ويجوز أن تكون المسألة من باب التنازع، فإن قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ يطلب الجلالة، وكذلك ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾، ويكون من أعمال الثاني للحذف من الأول. اهـ «سمين». ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم بمعنى ﴿إن﴾. ﴿تَرَكُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تركوا﴾، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿ذُرِّيَّةً﴾ كما ذكره أبو البقاءِ. ﴿ذُرِّيَّةً﴾ مفعول به لـ﴿تركوا﴾. ﴿ضِعَافًا﴾ صفة لـ﴿ذرية﴾. ﴿خَافُوا﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾. لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ من فعل شرطها، وجوابها صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل في ﴿تَرَكُوا﴾. ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. و﴿اللام﴾ لام الأمر، مبني على السكون تخفيفاً لاتصالها بـ﴿الفاء﴾ ﴿يتقوا اللَّه﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بلام الأمر، والجملة معطوفة على جملة ﴿يخش﴾. ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يتقوا﴾. ﴿قَوْلًا﴾ منصوب على المصدرية. ﴿سَدِيدًا﴾ صفة له.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10)﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ فعل وفاعل ومفعول، ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿ظُلْمًا﴾ مفعول لأجله، وشروط النصب موجودة فيه، أو منصوبٌ على الحالية من فاعل ﴿يَأْكُلُونَ﴾، ولكن بتأويله بمشتق تقديره: يأكلونه حالَ كونهم ظَالِمينَ. ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر. ﴿يَأْكُلُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يأكلون﴾ أو بمحذوف حال من ﴿نَارًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليه، فانتصب حالاً. ﴿نَارًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وفي ذلك[1] دلالة على وقوع خبر

(١) الجمل.

﴿إن﴾ جملة مصدرةً بـ﴿إن﴾، وفي ذلك خلاف، وحسنه هنا وقوع اسم إن موصولاً فطال الكلام بصلة الموصول، فلما تباعد ما بينهما لم يبال بذلك.

﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾ الواو عاطفة. ﴿سيطلون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَأۡكُلُونَ﴾. ﴿سَعِيرٗا﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يصلون﴾، وجاء[1] ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ بالمضارع دون سين الاستقبال، ﴿سيصلون﴾ بالسين، فإن كان الأكل للنار حقيقةً فهو مستقبل، واستغنى عن تقييده بالسين بعطف المستقبل عليه، وإن كان مجازاً فليس بمستقبل؛ إذ المعنى يأكلون ما يجر إلى النار، ويكون سبباً إلى العذاب بها، ولما كان لفظ ﴿نَارٗاۖ﴾ مطلقاً، في قوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ قيد في قوله: ﴿سَعِيرٗا﴾ إذ هو الجمر المتقد. ذكره أبو حيان.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ﴿ٱلنَّاسُ﴾[2] اسم للجنس البشري، وهو الحيوان الناطق، المنتصب القامة، الذي يُطلَق عليه اسم إنسان ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾.

بحث في حقيقة النفس والروح على اختلاف آراء الناس فيها

اختلف المسلمون في حقيقة النفس، أو الروح الذي يحيا به الإنسانُ، وتتحقق به وحدة جنسه على اختلاف أصنافه، وأشهر آرائهم في ذلك الرأي القائل: إنها جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحةً لقبول الآثارِ التي تفيض عليها من هذا الجسم اللطيف، وجد الحس والحركةَ الإراديةَ والفكر وغيرها، وإذا فسدت هذه الأعضاء، وعجزت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدنَ وانفصل إلى عالم الأرواح.

ومما يثبت ذلك أن العقلَ، والحفظَ، والتذكر وهي أمور ثابتة قطعاً. ليست

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

من صفات هذا الجسد، فلا بد لها من منشأ وجوديّ عبرَ عنه الأقدمون بالنفس، أو الروح.

وما مثلها إلا مثل الكهرباء، فالماديون الذين يقولون: لا روحَ إلا هذه الحياة يكون مثل الجسد عندهم مثل المستودع الكهربائي، فهو بوضعه الخاص، وبما يودع فيه من المواد تتولد فيه الكهرباء، فإذا زال شيءُ مما أودع فيه أو أزيل تركيبه الخاص فقد الكهرباء، وهكذا حال الجسم تتولد فيه الحياة بتركيب مزاجه بكيفية خاصة، وبزوالها تزول الحياة.

والذين يقولون: إن للأرواح استقلالاً عن الجسد يكون مثلُ الجسد مثل الآلة التي تدار بكهرباء تأتي إليها من المولد الكهربائي، فإذا كانت الآلة على وضع خاص في أجزائها، وأداوتها كانت مستعدة لقبول الكهرباء التي توجه إليها، حتى تؤدي وظيفتَها، وإن فقدت منها بعض الأجزاء الرئيسية، أو اختل وضعها الخاص تصبح غير قابلة للكهرباء، ومن ثم لا تؤدي وظيفتَها الخاصة بها. ذكره المراغي.

﴿وَبَثَّ﴾ بمعنى نشَرَ وفرق، ومنه ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ فهو من المضاعف المتعدي فقياسه ضم عين مضارعه، ﴿وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾ جمع رحم، والرحم: القرابة، وإنما استعير اسم الرحم للقرابة؛ لأن الأقارب يتراحمون، ويعطف بعضهم على بعض، والرحم في الأصل: مكان يكون فيه الجنين في بطن أمه، ثم أطلق على القرابة. ﴿رَقِيبًا﴾ الرقيب: فعيل بمعنى فاعل؛ أي: بمعنى المراقب، وهو المشرف من مكان عال، والمرقب مفعل بمعنى المكان الذي يشرف منه الإنسان على ما دونه، والمراد بالرقيب هنا الحافظ المطلع على الأعمال؛ لأن ذلك من لوازمه.

﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ جمع يتيم، لغة من مات أبوه مطلقاً، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، وفي «المصباح»[1] يتم ييتم من باب تعب، وضرب يتماً بضم الياء وفتحها، لكن اليتم في الناس من قبل الأب: فيقال: صغير يتيم،

---

(١) الفتوحات الإلهية.

والجمع أيتام، وصغيرة يتيمة، والجمع يتامى، وفي غير الناس من قبل الأم، وأيتمت المرأة أيتاماً، فهي مؤتم، صار أولادها يَتَامَى، فإن مات الأبوان فالصغير لطِيم، وإن ماتت الأم فقط فهو عَجَمي انتهى.

﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: هو مال اليتيم، وإن كان جيداً، فهو خبيث لكونه حراماً ﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾ وهو مال الولي، فهو طيب لكونه حلالاً، وإن كان رديئاً ﴿حُوبًا﴾ الحوب الذنب، والإثم فهو مصدر: حاب يحوب حوباً من باب قال: وفي «المصباح» حاب حوباً من باب قال: إذا اكتسب الإثم، وبضم الحاء أيضاً.

﴿أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ من أقسط الرباعي بمعنى عدل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، وفي «المصباح» قسط يقسط من باب: ضرب قسطاً، وقسوطاً إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، ويأتي بمعنى عدل أيضاً، فهو حينئذ من الأضداد، قاله ابن القطاع. ويقال: أقسط بالألف إذا عدلَ، والاسم منه: القِسط بالكسر، وقرىء هنا بفتح التاء من قسط الثلاثي، إذا جار، فتكون هذه القراءة محمولة على تقدير زيادة لا، كأنه قال: وإن خفتم أن تقسطوا.

﴿مَا طَابَ لَكُم﴾؛ أي: ما مال إليه القلب منهن ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ واعلم[1] أن هذه الألفاظَ المعدولةَ فيها خلاف، وهل يجوز فيها القياس، أو يقتصر فيها على السماع؛ قولان. قول البصريين: عدم القياس، وقول الكوفيين، وأبي إسحاق: جوازه، والمسموع من ذلك أحدَ عشرَ لفظاً أحاد، وموحد، وثناء، ومثنى، وثلاث، ومثلث، ورباع، ومربع، ومخمس، وعشار، ومعشر، ولم يسمع خماس، ولا غيره من بقية العقد، واختلفوا أيضاً في صرفها، وعدمه فجمهور النحاة على منعه، وأجاز الفراء صرفَها، وإن كان المنع عنده أولى ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ اسم تفضيل من دنا يدنو دنواً إلى الشيء إذا قرب إليه، ودنا يتعدى بإلى، وباللام وبمن تقول: دنوت إليه، وله، ومنه ﴿تَعُولُوا۟﴾ من عال يعول من باب: قال إذا مال عن الحق، وجار فيه، والمصدر العول، والعيالة، وعال الحاكم إذا جار.

(١) الفتوحات الإلهية.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾؛ أي: أعطوا[1] من آتى الرباعي إيتاء بمعنى أعطاه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لا من أتى بالقصر إتياناً إذا جاء، ﴿صَدُقات﴾ جمع صدقة بفتح الصاد، وضم الدال اسم للمهر، وله أسماء كثيرة منها صَدَقة بفتحتين، وبفتح فسكون، وصَدَاق بالفتح والكسر ﴿نِحْلَةً﴾ مصدر من غير لفظ الفعل بل من معناه؛ لأن معنى آتوهن بمعنى أنحلوهن، فهو على حد جلست قعوداً وقمت وقوفاً، وفي «المصباح» ونحله بفتحتين نحلاً مثل قفل إذا أعطيته شيئاً من غير عوض عن طيب نفس، ونحلت المرأة مهرها نحلةً بالكسر أعطيتها ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ الهنيء هو ما يستلذه الآكل، والمريء، ما تُحمَد عاقبته، كأن يسهلَ هضمه، وتحسُنَ تغذيته، وقيل: ما ينساغ في مجراه الذي هو المريء، وهو ما بين الحلقوم إلى فم المعدة، سمي بذلك لمرور الطعام فيه؛ أي: انسياغه ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾[2] مصدر جاء على وزن فعيل، وهو نعت لمصدر محذوف؛ أي: أكلاً هنيئاً، وقيل: هو مصدر في موضع الحال من الهناء، والتقدير: مهنأ أو طيباً ومثله ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ والمريء، فعيل بمعنى مفعل؛ لأنك تقول: أَمْرَأني الشيء رباعياً إذا لم تستعمله مع هَنَاني، فإن قلت هَنَانِي ومَراني لم تأت بالهمزة في مَرَاني؛ لتكون تابعةً لهناني ثلاثياً. ذكره أبو البقاء.

وقال أبو حيان[3]: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، ويقال: هَنَا يهنا بغير همز قيل: واشتقاق الهنيء من هناء البعير، وهو الدواء الذي يطلى به من الجرب، ويُوضع في عقره، والمريء ما يساغ في الحلق كما مر آنفاً انتهى.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ وأصل: ﴿تُؤْتُوا۟﴾ تؤتيوا بوزن تكرموا أستثقلت الضمة على الياء، فحذفت الضمة، فالتقى ساكنان الياء وواو الضمير، فحذفت الياء؛ لئلا يلتقي ساكنان. والسفهاء[4] جمع سفيه، وهو المبذر للمال المنفق له فيما لا ينبغي، وأصل السفه الخفة والاضطراب، ومنه قيل: زمان سفيه؛ إذا كان كثير

---

(1) كرخي.
(2) عكبري.
(3) البحر المحيط.
(4) المراغي.

الاضطراب، وثوب سفيه رديء النسج، ثم استعمل في نقصان العقل، وهو المراد هنا ﴿قِيَمًا﴾؛ أي: تقوم بها أمور معايشكم، وتمنع عنكم الفقر؛ قال الراغب: القيامُ والقوامُ ما يقوم به الشيء، ويثبت كالعماد، والسناد ما يعمد، ويسند به.

و﴿قِيَمًا﴾ بالياء، والألف مصدر قام، والياء بدل من الواو، وأبدلَت منها لما أعلت في الفعل، وكانت قبلها كسرة ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، والقول المعروف هو ما تطيبُ به النفوسُ، وتألفه كإفهام السفيه أنَّ المال مَالُه لا فضلَ لأحد عليه، ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾؛ أي: علمتم منهم حسن التصرف في الأموال، وفي «المصباح»، وآنستُ الشيء بالمد، علمته، وآنسته أبصرته. انتهى، وفيه أيضاً الرشد: خلاف الغيّ والضلال، وهو إصابةُ الصواب، ورشد رشداً من باب تعب، ورشد يَرْشُد من باب قتل، فهو راشد، والاسم: الرشاد اهـ. ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ الإسراف: مجاوزة الحد في التصرف في المال، والبدار المبادرة والمسارعة إلى الشيء، يقال: بادرت إلى الشيء، وبدرت إليه، وهو من باب المفاعلة التي تكون بين اثنين؛ لأن اليتيم مار إلى الكبرَ، والولي مار إلى أخذ ماله فكأنهما يستبقان، ويجوز أن يكون من واحد، وفي «المصباح»: كبر الصبي، وغيره يكبر من باب: تعب مكبراً مثلَ مسجد، وكبراً وزانَ عِنب، فهو كبير، وجمعه كبار، والأنثى كبيرة ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾؛ أي: فليعف نفسَه عن مال اليتيم، فـ﴿السين﴾ و﴿التاء﴾ فيه زائدتان، والعفة تركُ ما لا ينبغي من الشهوات، وفي «المختار»: عفَّ عن الحرام يَعِفُّ بالكسر عِفةً وعَفّاً، وعفا إذا كف عنه، فهو عف، وعفيف، والمرأة عفة، وعفيفة ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾؛ أي: سهماً مقدراً مَحْتُوماً لا بد لهم أن يأخذوه ﴿وَلْيَخْشَ﴾ الخشية: الخوف في محل الأمن ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ والسديد: العدل، والصواب، والسداد بالكسر: ما يسد به الشيء كالثغر موضع الخوف من العدو، والقارورة ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ يقال: صلى اللحم صلياً، إذا شواه، فإذا أراد إحراقه يقال: أصلاه إصلاءً، وصلاه تصليةً وصلى يده بالنار - من باب رضي - أدفأها، واصطلى استدفأ، وفي «المختار» صليت اللحم وغيره، من باب: رمَى شويته، ويقال: صليت الرجلَ ناراً؛ أي: أدخلته النار، وجعلته يصلاها. اهـ. والسعير: النار المستعرة المشتعلة، يقال: سَعرت النار، وسعرتُهَا، أوقدتُها.

البلاغة

قال أبو حيان[1]: وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والفصاحة:

منها: الطباق في قوله: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ و﴿زَوْجَهَا﴾ و﴿غنيا﴾ و﴿فقيراً﴾ و﴿قل﴾ ﴿أو كثر﴾ و﴿رِجَالًا﴾ ﴿وَنِسَآءً﴾ و﴿ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾.

ومنها: التكرار المسمى بالإطناب عندهم في قوله: ﴿**اتقوا**﴾، و﴿**خلق**﴾، و﴿خِفْتُمْ﴾، و﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، و﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ منه جهة المعنى و﴿اليتامى﴾، و﴿النساء﴾، و﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ و﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾، وفي قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ و﴿خافوا﴾ من جهة المعنى على قول من جعلهما مترادفين.

ومنها: اطلاق اسم المسبب على السبب في قوله: ﴿ولا تأكلوا﴾ لأن الأخذَ سبب للأكل.

ومنها: تسمية الشيء باسم ما كان عليه في قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ سماهم يتامى بعد البلوغ.

ومنها: التأكيد بالإتباع في قوله: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

ومنها: تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه في قوله: ﴿نصيب مما ترك﴾، و﴿نارا﴾ على قول من زعم أنها حقيقة كقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾؛ أي: عنباً يؤول إلى خمر.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟﴾ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾ والمغاير في قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا﴾.

ومنها: الزيادة للزيادة في المعنى في قوله: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾.

ومنها: إطلاق اسم الكل على البعض في قوله: ﴿الأقربون﴾ إذ المراد أرباب الفرائض.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: إقامة الظرف المكاني مقام الزماني في قوله: ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: من بعد وفاتهم.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿بُطُونِهِمْ﴾ خصها دون غيرها؛ لأنها محل للمأكولات.

ومنها: التعريضُ في قوله: ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ عرض بذكر البطون لخستهم، وسقوط هممهم، والعرب تذم بذلك قال شاعرهم:

دَعِ ٱلْمَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَٱقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلطَّاعِمُ ٱلْكَاسِيْ

ومنها: تأكيد الحقيقة بما يرفع احتمالَ المجاز في قوله: ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ رفع المجازَ العارضَ في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ على قول من حمله على الحقيقة، ومَنْ حملَه على المجاز فيكون عنده من ترشيح المجاز، ونظيره في كونه رافعاً للمجاز قوله ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، وقوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ والحذف في عدة مواضعَ مثل قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾؛ أي: كثيراً.

ومنها: المقابلة اللطيفة بَيْنَ ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

فائدة: وفي قوله تعالى: ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إشارة إلى ترك المفاخرة، والكبر لتعريفه إياهم، بأنهم من أصل واحد، ودلالة على المعاد؛ لأن القادر على إخراج أشخاص مختلفينَ من شخص واحد، فقدرته على إحيائهم بطريق الأولى، و﴿زَوْجَهَا﴾ هي حواء، وظاهر منها ابتدأ خلق حواء من نفسه، وأنه هو أصلها الذي اخترعت، وأنشئت منه، ويدل عليه الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن ذهبت تُقِيمُها كسرتها، وكسرها طلاقها» انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾.

المناسبة

لما(١) بين الله سبحانه وتعالى حُكمَ الميراث مجملاً في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ ذكر هنا تفصيلَ ذلك المجمل فبيَّن أحكامَ المواريث، وفرائضها، لإبطال ما كان عليه العربُ من نظام التوارث في الجاهلية من منع الأنثى، وصغار الأولاد، وتوريث بعض مَنْ حَرَمه الإسلامُ من الميراث. وقد كانت أسبابُ الإرث في الجاهلية ثلاثةً:

الأول: النّسبُ، وهو لا يكون إلا للرجال الذين يركبون الخيلَ، ويقاتلون

---

(١) المراغي.

العدوَّ، ويأخذون الغنائم، وليس للضعيفَيْنِ المرأة والطفل من ذلك شيء.

والثاني: التبني فقد كان الرجلُ يتبنَّى ولدَ غيره، فيكون له أحكام الولد في الميراث وغيره.

والثالث: الحِلْفُ والعهدُ، فقد كان الرجل يقول لآخرَ: دمي دمك، وهدمي هدمك؛ أي: إذا أهدر دمي أهْدِر دمك، وترثني وأرثك، وتطلَبُ بي وأطلَبُ بك، فإذا فعلاَ ذَلك، ومات أحدهما قبل الآخر كان للحيّ ما اشترط من مال الميت.

فلما جاء الإسلام أقرهم على الأول، والثالث دون الثاني، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ والمراد به: التوارث بالنسب، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ والمراد به التوارثُ بالعهد، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ والمراد به: التوارث بالتبني، وزاد شيئين آخرين:

الأول: الهجرةُ، فكان المهاجر يرثُ من المهاجر، وإن كان أجنبياً عنه، إذا كان بينهما مخالطة، وود، ولا يرثه غير المهاجر، وإن كان من أقاربه.

والثاني: المؤاخاةُ كان رسول الله ﷺ يؤاخي بين كل اثنين من الرجال، وكان ذلك سبباً للتوارث، ثم نسخ التوارثُ بهذين السببين بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾. ثم استقر الأمر بعد نزول أحكام الفرائض على أن أسباب الإرث ثلاثة: النسب، والنكاح، والولاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ مناسبتهالما قبلها[1]: لما بين الله سبحانه وتعالى حدوده التي حدها لعباده، قَسَمَ الناس إلى عامل بها، مطيع، وإلى غير عامل بها، عاص، وبدأ بالمطيع؛ لأن الغالبَ على مَنْ كان مؤمناً بالله تعالى الطاعة، إذ السورة مفتتحة بخطاب الناس عامةً، ثم أردف بخطاب من يتصف بالإيمان إلى آخر المواريث، وبدأ بالمطيع؛ لأن قسم الخير ينبغي أن يبتدأ

---

(١) البحر المحيط.

به، وأن يعتنى بتقديمه، وحَمَل أوّلاً على لفظ ﴿من﴾ في قوله: ﴿يُطِعِ﴾ و﴿يُدْخِلْهُ﴾ فأفرد، ثم حملَ على المعنى في قوله: ﴿خالدين﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾، مناسبتها لما قبلها: لمَّا ذكر ثَوابَ مراعي الحدود.. ذَكَرَ عقابَ من يتعداها، وغلظ في قسم المعاصي، ولم يكتف بالعصيان بل أكَّدَ ذلك بقوله: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ وناسب الختم بالعذاب المهين؛ لأن العاصيَ المتعديَّ للحدود؛ برز في صورة من اغترَّ، وتجاسرَ على معصية الله تعالى، وقد تقل المبالاة بالشدائد، ما لم ينضمَّ إليها الهوانُ، ولهذا قالوا: المنية ولا الدنيَّةُ.

قيل: وأفرد خالداً هنا، وجمع في خالدين فيها؛ لأن أهلَ الطاعةِ، أهل الشفاعة، وإذا اشفع في غيره دخلها، والعاصي لا يدخل النار به غيره، فبقي وحيداً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ...﴾ الآية، سبب[1] نزولها: ما أخرجه الأئمة الستة وغيرُهم عن جابر بن عبد الله، قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة، مَاشِيينْ فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماءٍ فتوضأ، ثم رش علي فأفقت، فقلتُ ما تأمرني أن أصنع في مالي؟ فنزلت ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

وللآيةِ سببُ آخر: وهو ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وأن عمهما أخَذَ مالهما، فلم يَدَعْ لهما مالاً، ولا تنكحَان إلا ولهما

---

(١) لباب النقول.

مالٌ، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآيَةَ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: أعط بنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمنَ، وما بقي فهو لك، قالوا وهذه أول تركة قسِمَتْ في الإسلام.

وقصة جابر أصح؛ لأنها متفق عليها، وأما قصة بنات سعد بن الربيع ففيها عبدُ الله بن محمد بن عقيل، وهو صدوق ضعيفُ الحفظ على أنه لا تنافيَ بين القصتين، فيحتمل أنها نزلت فيهما معاً.

قال الحافظ بن حجر في «الفتح»: تمسَّك بهذا الحديث الأخير مَنْ قال: إن الآية نَزلت في قصة ابنتي سعد، ولم تنزل في قصة جابر خصوصاً أنَّ جابراً لم يكن له يومئذ ولد، قال الحافظ: والجواب أنها نزلت في الأمرين معاً، ويحتمل أن يكون: نزولُ أولها في قصة البنتين، وآخرها، وهو قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ في قصة جابر، ويكون مراد جابر بقوله: فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾؛ أي: ذكر الكلالة المتصلُ بهذه الآية، والله أعلم. انتهى.

وأقولُ في كلام الحافظ رحمه الله: نظر، فإنَّ قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ في ميراث الإخوة لأم، فالأوْلى أن يقال: لا مانع من نزول الآية في الأمرين معاً كما قرره هو قبل، والله أعلم.

وقد ورد[1] في الآية سببُ ثالثٌ: وهو ما أخرجه ابن جرير، عن السدي قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواريَ ولا الضعفاء من الغلمان، لا يرث الرجلَ منْ ولده إلا من أطاق القتالَ، فمات عبد الرحمٰن أخو حسَّان الشاعر، وترك امرأة يقال لها: أم كحلة، وخمسَ بنات، فجاء الورثة يأخذون مالَه، فشكَتْ أمَّ كحلة ذلك إلى النبيِّ ﷺ فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ثم قال في أمّ كحلةَ ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ﴾.

---

(١) لباب النقول.

فصول في فضل علم الفرائض وذكر نبذة من أحكامه

وقبل الشروع في تفسير هذه الآيات الكريمة، نقدم فصولاً تتضمن أحكامَ الفرائض، وأصولَ قواعدها.

الفصل الأول: في فضله والحث على تعلمه وتعليمه

اعلم أن علم الفرائض من أعظم العلوم قدراً، وأشرفها ذخراً، وأفضلها ذكراً، وهي ركن من أركان الشريعة، وفرع من فروعها في الحقيقة، اشتغل الصدر الأول من الصحابة بتحصيلها، وتكلموا في فروعها، وأصولها، ويكفي في فضلها أن الله عز وجل تَولَّى قسمتَها بنفسه، وأنزلها في كتابه مبينةً من فوق سمواته، وقد حث رسول الله ﷺ على تعليمها فيما رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائضَ والقرآنَ، وعلموا الناسَ، فإني مقبوض» أخرجه الترمذي، وقال: فيه اضطراب، وأخرجه أحمد بن حنبل، وزاد فيه «فإني امرؤ مقبوض» والعلمُ مرفوع، ويوشك أن يختلف اثنان في الفريضة فلا يَجِدَانِ أحداً يخبرهما». وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلّموها، فإنه نصف العلم، وهو أول علم يُنْسَى، وهو أول شيء يُنْزَعُ من أمتي». أخرجه ابن ماجه والداقطني.

الفصل الثاني: في بيان الورثة وأقسامها

إذا مات الميت، وله مال يبدأ بتجهيزه من ماله، ثم تُقضى ديونه، إن كان عليه دين، ثم تنفَّذ وصايَاه، وما فَضَل بعد ذلك من ماله يقسم بين ورثته. والوارثون من الرجال عشرة بالاختصار، الابن وابن الابن، وإن سفل، والأب، والجد وإن علا، والأخ سواء كان لأب وأم، أو لأب فقط، أو لأم فقط، وابن الأخ للأب والأم، أو للأب وإن سفل، والعم للأب والأم، أو للأب فقط، وابناهما، وإن سفلوا، والزوج، والمعتق.

والوارثات من النساء سبع بالاختصار: البنت، وبنت الابن وإن سفلت، والأم والجدة وإن علت، والأخت من كل الجهات، والزوجة، والمعتقة.

وستة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير، وهم: الأبوان، والولدان، والزوجان، لأنه ليس بينهم، وبين الميت واسطة.

ثم الورثة ثلاثة أصناف: صنف يرث بالفرض فقط، وهم الزوجان، والبنات، والأخوات، والأمهات، والجدات، وأولاد الأم، وصنف يرث بالتعصيب فقط، وهم البنون والإخوة الأشقاء أو لأب وبنوهم والأعمام وبنوهم وصنف يرث بالتعصيب تارة وبالفرض أخرى وهما الأب والجد، فيرث بالتعصيب إذا لم يكن للميت ولد، فإن كان له ابن، ورث الأب بالفرض السدس، وإن كانت بنت ورث السدس بالفرض، وأخذ الباقيَ بالتعصيب والعصبة: هو من يأخذ جميع المال إذا انفرد، ويأخذ ما فَضَل عن أصحاب الفروض إذا كان معهم.

الفصل الثالث: في أسباب الإرث وموانعه

وأسباب الإرث ثلاثة: نسب، ونكاح، وولاء، فالنسب القرابةُ يرث بعضهم بعضاً، والنكاح هو أن يرث أحد الزوجين من صاحبه بسبب النكاح، والولاء هو أن المعتقَ وعصباته يرثون المعتقَ.

والأسباب التي تمنع الإرث أربعة:

الأول: اختلاف الدين، فالكافر لا يرث المسلم، والمسلم لا يرث الكافر؛ لما روي عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم». أخرجاه في «الصحيحين». فأما الكفار فيرث بعضهم بعضاً مع اختلاف مللهم، وأديانهم؛ لأن الكفر كله ملة واحدة، وذهب بعضهم إلى أن اختلاف الملل والكفر يمنع التوارث أيضاً، حتى لا يرث اليهودي من النصراني، ولا النصراني من المجوسي، وإلى هذا ذهب الزهري، والأوزاعي، وأحمد، وإسحاق، لما روي عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا توارث بين أهل ملتين». أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ

قال: «لا يتوارث أهل ملتين شتى». أخرجه أبو داود، وحمله الآخرون على الإسلام والكفر؛ لأن الكفر عندهم ملة واحدة، فتوريث بعضهم من بعض لا يكون فيه إثبات التوارث بين ملتين شتى.

والثاني: الرق، فإنه يمنع الإرث، لأن الرقيق ملك، ولا ملك له، فلا يرث، ولا يورث.

والثالث: القتل، فإنه يمنع الإرث مطلقاً عمداً كان القتل، أو خطأً؛ لما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «القاتل لا يرث». أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث لا يصح، والذي العمل عليه عند أهل العلم أن القاتل لا يرث، سواءً كان القتل عمداً أو خطأً. وقال بعضهم: إذا كان القتل خطأً. فإنه يرث، وهو قول مالك.

والرابع: إبهام الموت، وهو أن يخفى موت المتوارثين، وذلك بأن غرقا أو انهدم عليهما بناء، فلم يدر أيهما سبق موته، فلا يرث أحدهما الآخر، بل يكون إرث كل واحد منهما لمن كانت حياته يقيناً بعد موته من ورثته.

الفصل الرابع: في بيان الفروض وأهلها

والسهام المقدرة في المواريث المذكورة في كتاب الله عز وجل ستة: النصف، والربع، والثمن، والثلثان، والثلث، والسدس:

فالنصف: فرض الزوج عند عدم الولد الوارث، وفرض البنت الواحدة للصلب، أو بنت الابن عند عدم بنت الصلب، وفرض الأخت الواحدة للأب والأم، وفرض الأخت الواحدة للأب إذا لم يكن ولد لأب وأم.

والربع: فرض الزوج مع الولد، وفرض الزوجة مع عدم الولد.

والثمن: فرض الزوجة مع الولد.

والثلثان: فرض البنتين فصاعداً، أو بنات الابن عند عدم بنات الصلب، وفرض الأختين فصاعداً للأب والأم، أو للأب.

والثلث: فرض ثلاثة: فرض الأم إذا لم يكن للميت ولد، ولا اثنان من لإخوة والأخوات إلا في مسألتين: تسمى بالغراوين: إحداهما زوج، وأبوان، والأخرى: زوجة وأبوان، فإن للأم فيهما ثلث الباقي بعد نصيب الزوج، أو الزوجة، وفرض الاثنين فصاعداً من أولاد الأم ذكرهم وأنثاهم فيه سواء، وفرض الجد مع الإخوة إذا لم يكن في المسألة صاحب فرض، وكان الثلث خيراً له من المقاسمة مع الإخوة.

والسدس: فرض سبعة: فرض الأب إذا كان للميت ولد، وفرض الأم إذا كان للميت ولد، أو ولد ابن أو اثنان من الإخوة، والأخوات، وفرض الجد إذا كان للميت ولد، ومع الإخوة إذا كان في المسألة صاحب فرض، وكان السدس خيراً له من المقاسمة مع الإخوة، وفرض الجدة والجدات، وفرض الواحد من أولاد الأم ذكراً كان أو أنثى، وفرض بنات الابن مع بنت الصلب تكملةَ الثلثين، وفرض الأخوات للأب مع الأخت للأب والأم تكملةَ الثلثين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر». متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المال للولد، والوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فَجَعَلَ للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما: السدس، أو الثلث، وجعل للمرأة الثمن، أو الربع، وللزوج الشطر أو الربع، رواه البخاري.

الفصل الخامس: في الحجب

روي عن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال: ولَدُ الأبناء بمنزلة الأبناء، إذا لم يكن دونه ابن، ذكرهم كذكرهم، وأنثاهم كأنثاهم، يرثون ويَحجبون كما يَحجبون، ولا يرث ولد ابن مع ابن ذكر، فإن ترك بنتاً، وابن ابن.. كان للبنت النصف، ولابن الابن ما بقي لقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائضَ بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر». ففي هذا الحديث دلالة على أن بعض الورثة يحجب البعض،

والحجب قسمان: حجبُ نقصان، وحجبُ حرمان:

أمَّا الأول: وهو حجب النقصان: فهو أن الولد وولد الابن يحجب الزوجَ من النصف إلى الربع، والزوجةَ من الربع إلى الثمن، والأم من الثلث إلى السدس، وكذلك الاثنان من الإخوة والأخوات يحجبون الأم من الثلث إلى السدس.

وأما الثاني: وهو حجب الحرمان. فهو أن الأم تسقط الجدات، وأولاد الأم، وهم الإخوة للأم يسقطون بأربعة: بالأب، والجد، وإن علا، وبالولد، وولد الابن، وأولاد الأب والأم، وهم الإخوة للأب والأم يسقطون بثلاثة: بالأب، والابن، وابن الابن وإن سفلوا، ولا يسقطون بالجد على مذهب زيد بن ثابت، وهو قول عمر، وعثمان، وعلي وابن مسعود، وبه قال مالك، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد وأولاد الأب يسقطون بهؤلاء الثلاثة، وبالأخ للأب والأم. وذهب قوم إلى أن الإخوة يسقطون جميعاً بالجد كما يسقطون بالأب، وهو قول أبي بكر الصديق، وابن عباس، ومعاذ، وأبي الدرداء، وعائشة، وبه قال الحسن، وعطاء، وطاووس، وأبو حنيفة.

الفصل السادس: في العصبات

والأقرب من العصبات يسقط الأبعدَ منهم، فأقربُهم الابن، ثم ابن الابن، وإن سفل، ثم الأب، ثم الجد، وإن علا، فإن كان مع الجد أحد من الإخوة، والأخوات للأب والأم أو للأب يشتركان في الميراث، فإن لم يكن جد فللأخ للأب والأم، ثم الأخ للأب، ثم بنوا الأخوة يقدم أقربهم، سواء كان لأب وأم، أو لأب، فإن استويا في الدرجة، فالذي هو لأب وأم أولى، ثم العم لأب، وأم، ثم لأب ثم بنوهم على ترتيب بني الإخوة، ثم عم الأب، ثم عم الجد على الترتيب السابق في الإخوة، فإن لم يكن أحد من عصبات النسب، وعلى الميت ولاء، فالميراث للمعتق، فإن لم يكن حياً فلعصبات المعتق، وأربعة من الذكور يعصبون الإناث: الابن، وابن الابن، والأخ للأب والأم، والأخ للأب، فلو مات عن ابن، وبنت، أو عن أخ، وأخت لأب وأم، أو لأب، يكون المال

بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا يفرض للبنت والأخت وكذلك ابن الابن يعصب من في درجته الإناث، ومن فوقه إذا لم يأخذ من الثلثين شيئاً حتى لو مات عن بنتين وبنت ابن، فللبنتين الثلثان، ولا شيءَ لبنت الابن، فإن كان في درجتها ابن ابن، أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقي بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين، والأخت للأب والأم، أو للأب تكون مع البنت عصبة حتى لو مات عن بنت وأخت كان للبنت النصف، والباقي: وهو النصف للأخت، ولو مات عن بنتين، وأخت، كان للبنتين الثلثان، والباقي للأخت.

ويدل على ذلك ما روي عن هذيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى عن بنت، وبنت ابن، وأخت، فقال: للبنت النصف، وللأخت النصف، وأتت بنت الابن ابن مسعود، فسئل ابن مسعود، وأخبر بقول أبي موسى فقال ابن مسعود: لقد ضللت وما أنا من المهتدين، ثم قال: أقضي فيها بقضاء رسول الله ﷺ للبنت النصف، ولبنت الابن السدس. تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت فأخبر أبو موسى بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم. أخرجه البخاري.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ وهذا شروع في تفصيل أحكام المواريث المجملة في قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الخ، وإنما بَدَأَ الله سبحانه وتعالى بإرث الأولاد، لأنهم أقرب الورثة إلى الميت، وأكثر بقاء بعد المورث؛ ولأن تعلق قلب الإنسان بولده أشد من تعلقه بغيره. والخطاب فيه للمؤمنين، وقرأ ابن أبي عبلة، والحسن ﴿يوصيكم﴾ بالتشديد، والوصية ما تعهد به إلى غيرك من العمل، كما تقول: أوصيت المعلم أن يراقب آدابَ الصبي، ويؤدبه على ما يسيء فيه، وهي في الحقيقة: أمر له بعمل ما عهد إليه به.

والمعنى: يأمركم الله سبحانه وتعالى ﴿فِي﴾ إرث ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾ الوارثين الذكور والإناث كباراً كانوا أو صغاراً مما تتركونه من أموالكم، بأن يُعْطَى ﴿لِلذَّكَرِ﴾ الواحد منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾؛ أي: قَدْرُ نصيب اثنتين من إناثهم، إذا كانوا ذكوراً وإناثاً، واختير هذا التعبيرُ، ولم يقل: للأنثى نصف حظ الذكر،

إيماء إلى أنَّ إرثَ الأنثى كأنه مقرر معروف، وللذكر مثله مرتين، وإشارةً إلى إبطال ما كانت عليه العرب في الجاهلية من منع توريث النساء.

والحكمة في جعل حظ الذكر كحظ الأنثيين: أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه، وعلى زوجه فجُعل له سهمان، وأما الأنثى فهي تنفق على نفسها، فحسب، وإن تزوجت كانت نفقتها على زوجها، ويدخل في عموم الأولاد:

١ ـ الكافرُ لكن السنة بينت أن اختلاف الدين مانعٌ من الإرثِ، قال ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين» كما مر.

٢ ـ والقاتل عمداً لأحد أبويه مثلاً، ويخرج بالسنة والإجماع.

٣ ـ والرقيق، وقد ثبت منعه بالإجماع، لأن المملوك لا يملك بل كل ما يصل إلى يده من المال، فهو ملك لسيده، ومالكه فلو أعطيناه من التركة شيئاً، كنا معطين ذلك للسيد فيكون هو الوارث بالفعل.

٤ ـ والميراث من النبي ﷺ فقد استثني بحديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

ولا خلاف في أن ولد الولد يقوم مقامه عند فقده، أو عدم إرثه لمانع كقتل مورّثه، قال شاعرهم:

بَنُونَا بَنُوْ أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا ... بَنُوْهُنَّ أَبْنَاءُ ٱلرِّجَالِ ٱلأَبَاعِدِ

فإذا خلف الميت ذكراً واحداً وأنثى واحدةً فللذكر سهمان، وللأنثى سهم، وإذا كان الوارث جماعةً من الذكور وجماعةً من الإناث كان لكل ذكر سهمان، ولكل أنثى سهم.

وإذا كان مع الأولاد أبوان وأحد الزوجين، فالباقي بعد سهام الأبوين، وأحد الزوجين بين الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين.

﴿فَإِن كُنَّ﴾؛ أي: فإن كانت البنات المتروكات من الأولاد ﴿نِسَآءً﴾؛ أي: إناثاً خلصا ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: بنتَيْنِ فأكثر مهما بَلَغ عددُهن ﴿فَلَهُنَّ﴾؛ أي:

فلتلك البنات سواءً كانت ثنتين فأكثر ﴿ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾؛ أي: ثلثا ما ترك والدُهن المتوفَّى أو والدتُهن.

وأجمعت[1] الأمة على أن للبنتين الثلثين إلا ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه ذهبَ إلى ظاهر الآية، وقال الثلثان فرض الثلاث من البنات؛ لأن الله تعالى قال ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ فجعل الثلثين للنساء إذا زدن على الثنتين، وعنده أن فرض الثنتين النصف كفرض الواحدة، وأجيب عنه بأجوبة فيها حجة لمذهب الجمهور كما ذكروها:

منها: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، والتقدير فإن كن نساءً اثنتين فما فوقهما فلهن الثلثان.

ومنها: أن الجمع يطلق على ما فوق الواحد؛ لأنَّ العرب تطلق الجمع على الاثنين كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

ومنها: أن لفظةَ فوق صلَةُ هنا، والتقدير: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ اثنتين.

﴿وَإِن كَانَتْ﴾ المولودة الوارثةُ بنتاً ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ أي: منفردةً ليس معها أخ، ولا أختَ ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ مما ترك الوالد الميتُ أو الوالدة، والباقي لسائر الورثة بحسب الاستحقاق كما يعلم من أحكام المواريث.

وخلاصة ذلك: أنه إذا كان الأولاد ذكوراً وإناثاً كان للذكر مثل حظ الأنثيين، وإن كان المولود أنثى واحدةً. كان لها النصفُ، وإن كن ثنتين أو ثلاثاً فصاعداً. كان لهن الثلثان. وقد عُلم من ذلك أنَّ البنات لا يستغرق فرضهن التركةَ، والولد الذكر إذا انفرد. يأخذ التركة كلَّها، وإذا كان معه أخ له فأكثرُ. كانت قسمة التركة بينهما، أو بينهم بالمساواة.

قرأ الجمهور[2] ﴿وَٰحِدَةً﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كان﴾؛ أي: وإن كانت هي؛ أي: البنت فذةً ليس معها أخرى، وقرأ نافع ﴿واحدة﴾ بالرفع على أن كان تامة، ﴿وواحدة﴾ فاعلها، وقرأ السلمي النصف بضم النون، وهي قراءةٌ علي وزيد في جميع القرآن.

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

ولما فرغ الله سبحانه وتعالى من ذكر الفروع، ومقدار ما يرثون أخَذَ في ذكر الأصول، ومقدارِ ما يرثون، فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾؛ أي: ولأبوي الميت وقوله: ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ بدل منه بتكرير العامل، وفائدته[١]: التنصيص على استحقاق كل واحد منهما السدسَ والتفصيل بعد الإجمال تأكيد، وأبواه هما أبوه وأمه وغلَّب لفظَ الأب في التثنية كما قيل: القمران، فغلب القمر لتذكيره على الشمس؛ أي: لكل واحد من الأبوين ﴿السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ الميت على السواء في هذه الفريضة، ﴿إِن كَانَ لَهُۥ﴾؛ أي: لهذا الميت ﴿وَلَدٌ﴾ ذكر أو أنثى واحد، أو أكثر، والباقي بعد هذا الثلث أعني سدسيهما يقتسمه الأولاد؛ أي: فإن كان مع الأبوين ولد ذكر، فأكثر أو بنتان فأكثر، فلكل واحدمن الأب والأم السدس، وإن كان مَعهما بنت.. فلها النصف، وللأم السدس، وللأب السدس بحكم هذه الآية، والسدس الباقي للأب أيضاً بحكم التعصيب.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ﴾؛ أي: للميت ﴿وَلَدٌ﴾ ولا ولد ولد ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ فرضاً لها، والباقي للأب كما هو معلوم من انحصار الإرث، فيأخذ السدسَ بالفريضة، والنصفَ بالتعصيب، وإذا انفرد أخذ كل المال كما هو شأنُ العصبة، وإذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين، فللأم ثُلُثُ ما يبقى بعد فرضه، والباقي للأب وتسمى هذه المسألة الغراوين، وقد أشار إليها صاحبُ «الرحبية»:

وَإِنْ يَكُنْ زَوْجٌ وَأُمٌّ وَأَبُ ... فَثُلُثُ ٱلْبَاقِيْ لَهَا مُرَتَّبُ
وَهَكَذَا مَعْ زَوْجَةٍ فَصَاعِدَا ... فَلاَ تَكُنْ عَنِ ٱلْعُلُوْمِ قَاعِدَا

وثلث الباقي في الحقيقة إما ربعٌ أو سدسٌ، وقد انعقد الإجماعُ على ذلك إلا ما شَذَّ عن ابن عباس فإنه قال: يأخذ الزوجُ نصيبه، وتأخذ الأم ثُلُثَ التركة كلَّها، ويأخذ الأب ما بقي، وقال: لا أجدُ في كتاب الله ثلثَ الباقي، والسر في تساوي الوالدين في الميراث مع وجود الأولاد الإشارة إلى وجوب احترامهما على السواء.

---

(١) الخازن.

والحكمة في أن حظ الوالدين من الإرث أقل من حظ الأولاد مع عظم حقهما على الولد: أنهما يكونان في الغالب أقل حاجة إلى المال من الأولاد، إما لكبرهما، وإما لتموُلهما، وإما لوجود من تَجِبَ عليه نفقتهما من أولادهما الأحياء، وأما الأولاد فإما أن يكونوا صغاراً لا يقدرون على الكسب، وإما أن يكونوا على كبرهم محتاجينَ إلى نفقات كثيرة في الحياة، كالزواج، وتربية الأطفال، ونحو ذلك ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ﴾؛ أي: للميت مع أرث أبويه له ﴿إِخْوَةٌ﴾ اثنان فصاعداً ذكور أو إناث أشقاء كانوا أو لأب أو لأم وارثين كانوا أو محجوبين بالأب ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ مما ترك والباقي للأب، ولا شيءُ للإخوة، وأما السدس الذي حجبوها عنه.. فهو للأب عند وجوده، ولهم عند عدمه.

والمعنى: أنه إن كان أب وأم وإخوة.. كان نصيبُ الأم السدسَ وحطها الإخوة من الثلث إلى السدس، وصار الأب يأخذ خمسةَ الأسداس كرجل مات عن أبوين وأخوين، فإن للأم السدس والباقي، وهو خمسةُ أسداس للأب، سدس بالفريضة، والباقي بالتعصيب، فكل جمع منهم يحجب الأم من الثلث إلى السدس، ولا شيء لهم لكونهم محجوبين بالأب. قال صاحبُ «التلمسانية»:

وَفِيْهِمُ فِيْ ٱلْحَجْبِ أَمْرٌ عَجَبُ لِكَوْنِهِمْ قَدْ حَجَبُوْا وَحُجِبُوْا

وإنما حجب الإخوة الأمَّ من غير أن يرثوا مع الأب شيئاً؛ معونة للأب؛ لأنه يقوم بشأنهم، وينفق عليهم دون الأم، ولكن هذا يدلُّ على خستهم.

وعلم مما ذكر في مسألة الغراوين: أن[1] حقوقَ الزوجية في الإرث مقدمة على حقوق الوالدين؛ إذ أنهما يتقاسمان ما بقي بعد أخذ الزوج حصتَه، وسر هذا أن صلة الزوجية أشد وأقوى من صلة البنوة؛ ذاك أنهما يعيشان مجتمعينِ وجودُ كل منهما متمم لوجود الآخر، حتى كأنه نصف شخصه، وهما حينئذ منفصلان عن الوالدين أشد الانفصال؛ فبهذا كانت حقوق المعيشة بينهما آكد، ومن ثم جعل الشارع حق المرأة على الرجل في النفقة هو الحق الأولَ؛ فإذا لم يجد

(١) المراغي.

الرجلِ إلا رغيفَين سد رَمَقهُ بِأَحَدِهِما، ووجب عليه أن يعطيَ الثانيَ لامرأته لا لأحد أبَوَيْه، ولا لغيرهما من أقَارِبِه.

قرأ الجمهور[1]: ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ هنا في الموضعين، وفي قوله: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في الزخرف، وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ في القصص، وفي قوله: ﴿مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ في النحل، والزمر، وفي قوله: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ في النور ﴿مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ في النجم بضم الهمزة من أم، وهو الأصل. وقرأ الأخوان ـ أعني الكسائيَ وحمزة ـ جميعَ ذلك بكسر الهمزة، وانفرد حمزة بزيادة كسر الميم من أمهات في الأماكن المذكورة، هذا كله في الدرج أما في الابتداء بهمزة الأم والأمهات، فإنه لا خلاف في ضمها، أما وجه قراءة الجمهور، فظاهر؛ لأنه الأصل كما تقدم.

وأما قراءة حمزة والكسائي بكسر الهمزة فقالوا: لمناسبة الكسرة، أو الياء، التي قبل الهمزة، فكسرت الهمزة إتباعاً لما قبلها، ولاستثقالهم الخروجَ من كسر أو شبهه إلى ضم، ولذلك إذا ابتدىء بالهمزة ضمَّاها لزوال الكسر، أو الياء، وأما كسرُ حمزةَ الميمَ من أمهات في المواضع المذكورة، فللإتباع، أتبع حركة الميم لحركة الهمزة، فكسرةُ الميم تبع التبع، ولذلك إذا ابتدىءَ بها ضمت الهمزة، وفَتح الميم لما تقدم من زوال موجب ذلك، وكسر همزةِ أم بعد الكسرة، أو الياء، حكاه سيبويه لغةً عن العرب، ونَسَبها الكسائي والفراءُ إلى هوازن، وهذيل اهـ «سمين».

وقرأ الحسن[2] ونعيم بن ميسرة ﴿السدْس﴾ بسكون الدال، وكذلك قرأ ﴿الثلْث﴾ و﴿الربْع﴾ إلى العشر بالسكون، وهيَ لغةُ بني تميم، وربيعة، وقرأ الجمهور بالتحريك ضمًّا، وهي لغة أهل الحجاز، وبني أسد في جميعها.

وقد اختلف العلماء في الجد هل هو بمنزلة الأب فتسقط به الإخوة أم لا؟ فذهب أبو بكر الصديق إلى أنه بمنزلة الأب، ولم يخالفه أحدٌ من الصحابة في أيام خلافته، واختلفوا في ذلك بعد وفاته فقال بقول أبي بكر ابن عباس،

---

(١) الجمل. (٢) الشوكاني.

وعبد الله بن الزبير، وعائشة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب وغيرهم. وذهب علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت، وابن مسعود، إلى توريث الجد مع الإخوة للأبوين، أو لأب، ولا ينقصَ معهم من الثلث، ولا ينقص مع ذوي الفروض من السدس.

وأجمع العلماء على أن للجدة السُّدُسَ إذا لم يكن للميت أم، وأجمعوا على أنها ساقطة مع وجود الأم، وأجمعوا على أن الأبَ لا يُسقِطُ الجدةَ أم الأم، واختلفوا في توريث الجدة وابنها حي.

هذه الأنصباء المذكورة إنما تقسم للورثة ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ تنفيذ ﴿وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ﴾ الميت، وإخراجها من ثلث ما بقي بعد الدين ﴿أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾؛ أي: ومن بعد قضاء دين عليه إن كان، وأو هنا لمطلق الجمع بمعنى الواو، لا تفيد ترتيباً؛ لأن الدين مقدم على الوصية، ولا بد هنا من تقدير محذوف كما يُعلم مما سيأتي، تقديره: حالةَ كونه غير مَضار للورثة بالوصية والدين؛ بأن كان في كل منهما مصلحة، وإنما قدمت الوصية على الدين في الذكر في الآية مع أن الدينَ مقدم عليها في الوفاء، كما قضى به رسول الله ﷺ فيما رواه علي كرم الله وجهه، وأخرجه عنه جماعة قال ـ أعني علياً ـ: إنكم تقرؤون الوصيةَ قبل الدين، وبدأ رسول الله ﷺ بالدين قبل الوصية للاهتمام بها؛ لأنها تؤخذ كالميراث بلا عوض، فيشق على الورثة إخراجها.

وأجمعت الأمة على تقديم الدين، والوصية على الإرث لهذه الآية، وإنما قدما على الإرث؛ لأنَّ الدينَ حق على الميت، والوصية حق له، وهما يتقدمان على حق الورثة.

وإنما عطف[1] الدينَ على الوصية، بـ﴿أو﴾ دون الواو إشارة إلى أنهما متساويان في الوجوب متقدمان على قسمة التركة مجموعين، أو منفردين.

والحاصل:[2] أن أول ما يخرج من التركة مؤونة تجهيزه، ثم الدين، حتى لو استغرق الدين جميعَ التركة.. لم يكن للورثة فيها حق، فأما إذا لم يكن دين

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.

أو كان إلا أنه قضي، وفضل بعده شيء. فإن أوصى الميت بوصية أخرجت من ثلث ما فضل، ثم قسم الباقي ميراثاً على حكم فرائض الله تعالى.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم ﴿يُوصِي﴾ بفتح الصاد، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي بكسر الصاد. ثم أتى بجملة معترضة بين ذكر الوارثين، وأنصبائهم، وبين قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولا تعلق لمعناها بمعنى الآية للتنبيه على جهل المرء بعواقب الأمور فقال: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ﴾، ولا تعرفون ﴿أَيُّهُمْ﴾؛ أي: أي الفريقين ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ وأكثر لكم فائدةً في الدنيا بالإحسان إليكم، وفي الآخرة في الدعاء لكم، والصدقة عنكم كما في الحديث الصحيح، «أو ولد صالح يدعو له»؛ أي: إنكم لا تدرون أي الفريقين أقرب لكم نفعاً هل هم أباؤكم أو أبناؤكم، فمنكم فريق ظان أن ابنَه أنفع له، فيعطيه، فيكون الأب أنفع له في نفس الأمر، ومنكم فريق ظان، ومعتقد أن أباه أنفع له، فيعطيه الميراثَ وحدَه مع كون ابنه في نفس الأمر أنفع له، فلا تتبعوا في قسمة التركة ما كان يتعارفه أهل الجاهلية من إعطائها للأقوياء، الذين يحاربون الأعداء، وحرمان الأطفال، والنساء؛ لأنهم من الضعفاء، بل اتبعوا ما أمركم الله به، فهو أعلم منكم بما هو أقرب لكم نفعاً مما تقوم به في الدنيا مصالحكم، وتعظم به في الآخرة أجوركم، روى الطبراني؛ أن أحد المتوالدين إذا كان أرفعَ درجةً من الآخر في الجنة... سأل أن يرفع الآخر إليه، فيرفع بشفاعته.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فرَضَ الله سبحانه وتعالى ما ذكر من الأحكام ﴿فَرِيضَةً﴾ لا هوادة أي لا مسامحة في وجوب العمل بها، وفي هذا إشارة إلى وجوب الانقياد، لهذه القسمة التي قدرها الشرع، وقضى بها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح، والرتب ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما قضى وقدر؛ أي: لم يزل متصفاً بذلك. قال ابن عباس[1] إن الله ليشفع

---

(١) المراح.

المؤمنين بعضَهم في بعض، فأطوعكم لله تعالى من الأبناءِ، والآباءِ أرفعكم درجةً في الجنة، وإن كان الوالد أرفعَ درجةً في الجنة من ولده، رفع الله إليه ولده بمسألته؛ لتقر بذلك عينه، وإن كان الولد أرفع درجةً في الجنة من والديه، رفع الله إليه والديه، ولذا قال تعالى: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾؛ لأن أحد المتوالدَين لا يعرف أنَّ انْتِفَاعَه في الجنة بهذا أكثر أم بذلك.

وقيل[1]: معناه كانَ عليماً بخلقه قبل أن يخلقهم، حكيماً حيث فرض للصغار مع الكبار، ولم يخص الكبارَ بالميراث، كما كانت العرب تفعل.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى فرائض الأولاد، والوالدين، وقدم الأهمَ منهما من حيث حاجته إلى الأموال المتروكة، وهم الأولاد ذكر هنا فرائض الزوجين، فقال: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾؛ أي: ولكم أيها المؤمنون نصف ما تركته زوجاتكم من المال ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ﴾؛ أي: لتلك الزوجات ﴿وَلَدٌ﴾ سواءُ أكان منكم أم من غيركم، ولو من زنا، فإن ولد الزنا ينسب لأمه، وسواء أكان ذكراً أم أنثى، وسواءٌ أكان واحداً أم أكثر، وسواء أكان من بطنها، أو صلب بنيها، أو بني بنيها، وباقي التركة لأولادها، ووالديها على ما بينه الله في الآية السالفة، ولا يشترط في الزوجة أن تكون مدخولاً بها، بل يكفي مجرد العقد ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ وارث واحد، أو متعدد ﴿فَلَكُمُ﴾ أيها الأزواج ﴿الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾؛ أي: مما تركته الزوجات من المال، والباقي من التركة للأقرب إليها من ذوي الفروض والعصبات، أو ذوي الأرحام، أو لبيت المال، إن لم يكن وارث آخر.

واعلم: أنه لما جعل الله سبحانه وتعالى في الموجب النسبي حظ الرجل مثلَ حظ الأنثيين، جعل الله في الموجب السببي للرجل مثلَ حظ الأنثيين ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾؛ أي: هذه الأنصباء إنما تدفع لكم أيها الأزواج في الحالين من بعد تنفيذ وصية يوصين الزوجات بها غير مضارات بها،

---

(١) الخازن.

ومن بعد قضاء دين عليهن إن كان؛ إذ لا يأخذ الوارث شيئاً من التركة إلا ما فضل عنهما إن وجدا، أو وجد أحدهما، ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾؛ أي: وللزوجات الربع من المال الذي تركتموه أيها الأزواج ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ ذكر، أو أنثى واحد، أو متعدد منهن، أو من غيرهن على التفصيل السابق في أولادهن، فإن كانت واحدةً.. فلها هذا الربع وحدها، وإن كان له زوجان فأكثر.. اشتركتا أو شتركن فيه على طريق التساوي، والباقي يكون لبقية ورثتكم من أصحاب الفروض، والعصبات، أو ذوي الأرحام، أو لبيت المال إن لم يكن لكم وارث آخر أصلاً ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿وَلَدٌ﴾ وارث على التفصيل السابق، ولا فرق بين الولد، وولد الابن، وإن سفل في ذلك، وسواء كان الولد للرجل من الزوجة، أو من غيرها ﴿فَلَهُنَّ﴾؛ أي: لزوجاتكم ﴿ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ من الأموال، والباقي لبقية الورثة.

﴿مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾؛ أي: هذه الأنصباء: إنما تدفع لأزواجكم من بعد تنفيذ وصية توصون بها، أيها الأزواج، حَالَ كونكم غير مضارينَ بها، وبعد قضاء دين عليكم إذا وجدا، أو وجد أحدهما.

وبهذا[1] تعلم أن فرَضَ الرجل بحق الزواج ضعف فرض المرأة كما في النسب، ولم يعط الله تعالى للزوجات في الميراث إلا مثل ما أعطى للزوجة الواحدة؛ لإرشادنا إلى أن الأصل الذي ينبغي أن نسيرَ عليه في الزوجية، أن تكون للرجل امرأة واحدةٌ، وإنما يباح الأكثر بشروط مضيقة، وأن التعدد من الأمور النادرة التي تدعو إليها الضرورة، فلم يراعها الشارع في الأحكام، إذ الأحكام إنما توضع للأصل الذي عليه العمل، والنادرُ لا حكمَ له. وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى حكمَ ميراثِ الأولاد، والوالدين، والأزواج ممن يتصل بالميت مباشرةً شرع يبين من يتصل به بالواسطة، وهو الكلالة فقال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ﴾ من أورث صفة رجل؛ أي: إن كان الميت المورث

---

(١) المراغي.

﴿كَلَٰلَةً﴾ خبر كان، أو يورث خبره و﴿كَلَٰلَةً﴾ حال من الضمير فيه؛ أي: مكللا مكتنفا محاطاً بحواشي النسب، متجرداً خالياً عن أصوله، وفروعه، وذلك بأن كان له أخ أو أخت، وليس له ولد، ولا والد.

و﴿الكلالة﴾ لغةً: الإحاطة، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس، وسمي من عدا الوالد، والولد بالكلالة؛ لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان، وكالإكليل المحيط برأسه، أما قرابة الولادة. ففيها يتفرع بعض من بعض كالشيء الذي يتزايد على نسق واحد، ﴿أَوِ﴾ كانت ﴿ٱمۡرَأَةٞ﴾ تورث ﴿كَلَٰلَةً﴾ ﴿وَلَهُۥٓ﴾؛ أي: لذلك الرجل الموروث ﴿كَلَٰلَةً﴾ أو للمرأة الموروثة ﴿كَلَٰلَةً﴾ ﴿أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ من أم؛ لأن الأخوين من العصبة سيأتي حكمهما في آخر السورة ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ الخ، ويشهد لهذا المعنى قراءة أبي وسعد بن أبي وقاص ﴿وله أخ أو أخت من أم﴾ وإنما استشهدنا بهذه القراءة مع كونها شاذةً؛ لأنها بمنزلة رواية الآحاد، ورواية الآحاد يستدل بها؛ لأنها منقولة عن النبي ﷺ ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾؛ أي: فلكل من الأخ، والأخت المذكورين ﴿ٱلسُّدُسُۚ﴾ من غير تفضيل للذكر على الأنثى، لأنه لا تعصيب فيمن أدلوا به، وهي الأم ﴿فَإِن كَانُوٓاْ﴾؛ أي: فإن كان من يرث من الإخوة للأم ﴿أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من الواحد ﴿فَهُمۡ﴾؛ أي: الزائدون على الواحد، كيفما كانوا ﴿شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ فالذكر والأنثى فيه سواء، والباقي لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات.

وقرأ[1] الجمهور ﴿يُورَثُ﴾ بفتح الراء مبنيا للمفعول من أورثَ مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن بكسرها مبنياً للفاعل من أورث أيضاً، وقرأ أبو رجاء، والحسن أيضاً، والأعمش بكسر الراء وتشديدها من ورث.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ﴾؛ أي: هذه الأنصباء المذكورة للإخوة من الأم، إنما تدفع لهم من بعد تنفيذ وصية يوصي بها الميت حالةَ كونه غير مدخل بها الضرر على ورثته؛ بأن يوصيَ بأكثر من الثلث، أو يوصي بالثلث لغرض

---

(١) البحر المحيط.

تنقيص حقوق الورثة ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾؛ أي: ومن بعد قضاء دين عليه، إن كان حالةَ كونه ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ به؛ أي: غير مدخل الضرر على الورثةِ بذلك الدين؛ بأن يقر على نفسه بدين لا حقيقةَ له لحرمان الورثة.

والحاصل[1]: أن الضرار في الوصية، والدين يقع على وجوه:

الأول: أن يوصي بأكثر من الثلث، وهو لا يصح، ولا ينفذ، وعن ابن عباس: إنّ الضِرَارَ فيها من الكبائر.

الثاني: أن يوصي بالثلث فما دونه، لا لغرض من القربة، والتصدق لوجه الله بل لغرض تنقيص حقوق الورثة.

الثالث: أن يقر بدين لأجنبي يستغرق المالَ كله، أو بعضَه، ولا يريد بذلك إلا مضارة الورثة، وكثيراً ما يفعله المبغضون للورثة، ولا سيما إذا كانوا كلالةً، ومن ثم جاء ذكر هذا القيد ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ في وصية ميراث الكلالة؛ لأن القصد إلى مضارة الوالدَين، أو الأولاد، وكذا الأزواج نادرٌ.

الرابع: أن يقر بأن الدينَ الذي كان له على فلان، قد استوفاه، ووَصَلَ إليه.

الخامس: أن يبيع شيئاً بثمن بخس، أو يشتري شيئاً بثمن غال.

والمعنى: تدفع الأنصباء لأصحابها بعد إخراج وصية، وقضاء دين لم يحصل بهما ضرر للورثة، وإن حصل الضرر بهما، فلا اعتبار بهما. قال الشوكاني[2]: فما صَدَرَ من الإقرارات بالديون، أو الوصايا المنهي عنها له، أو التي لا مقصد لصاحِبِهَا إلا المضارةَ لورثته، فهو باطل مردود، لا ينفذ منه شيء لا الثلث ولا دونه، وإنما كرر الوصية أربعَ مرات لاختلاف الموصين، فالأول: الأولاد؛ والثاني: الزوجة، والثالث: الزوج، والرابع: الكلالة.

قال النخعي: قبض رسول الله ﷺ ولم يوص، وقبض أبو بكر، وقد وصى

---

(١) المراغي.
(٢) فتح القدير.

فإن أوصى الإنسان. فحسن، وإن لم يوص.. فحسن أيضاً، ومن الحسن أن ينظر الإنسان في قدر ما يخلف، ومن يخلف، ثم يجعل وصيته بحسب ذلك، فإن كان ماله قليلاً، وفي الورثة كثرة.. لم يوص، وإن كان في المال كثرة.. أوصى بحسب ماله، وبحسب حاجتهم بعده كثرةً وقلةً، وقد روي عن علي أنه قال: لأن أوصي بالخمس، أحب إلي من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع، أحب إلي من أن أوصي بالثلث.

وقرأ ابن كثير[1] وابن عامر وعاصم ﴿يُوصَىٰ﴾ بفتح الصاد، وقرأ الباقون بكسرها، واختار الكسر أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأنه جرى ذكرُ الميت قبل هذا، قال الأخفش: وتصديق ذلك قوله ﴿يُوصِينَ﴾ و﴿تُوصُونَ﴾ وقرأ الحسن ﴿غير مضار وصية﴾ بالإضافة، وفيه وجهان: أحدهما: تقديره: غير مضار أهل وصية، أو ذي وصية، فحذف المضاف، والثاني تقديره: غير مضار وقتَ وصية، فحذف، وهو من إضافة الصفة إلى الزمان، ويقرب من ذلك قولهم: هو فارس حرب؛ أي: فارس في الحرب، ذكره أبو البقاء ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يوصيكم الله سبحانه وتعالى بذلك، ويأمركم به وصيةً منه عز وجل، فهي جديرة أن يعتنى بها، ويذعن للعمل بموجبها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما ينفعكم، وبنياتِ الموصين منكم، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل بعقوبتكم بمخالفة أحكامه، ولا بالجزاء على مخالفتها عسى أن تتوبوا؛ كما لا يبيح لكم أن تعجلوا بعقوبة من تبغضونه، فتضاروه في الوصية، كما لا يرضى لكم بحرمان النساءِ، والأطفال من الإرث. وفي هذا إشارة إلى أنه تعالى قد فرضها، وهو يعلم ما فيها من الخير، والمصلحة لنا، فمن الواجب أن نذعن لوصاياه، وفرائضه، ونعمل بما ينزلُ علينا من هدايته؛ كما لا ينبغي أن يغر الطامع في الاعتداء، وأكلِ الحقوق تمتع بعض المعتدين بما أكلوا بالباطل، فيظن أنهم بمنجاة من العذاب، فيتجرأ على مثل ما تجرؤوا عليه من الاعتداء، فإنه إمهال يقتضيه الحلم، لا إهمالُ من العجز، وعدم العلم.

---

(١) الشوكاني.

﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة من شؤون الأيتام، وأحكام الأنكحة، وأحوال المواريث يعني من أول السورة إلى هنا ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: أحكام الله سبحانه وتعالى التي حدها، وبينها، وشرَعَها لعباده، وسماها حُدَوداً؛ لكونها لا تجوز مجاوزتها، ولا يحل تعديها ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويمتثلهما في جميع الأوامر، والنواهي التي منها قسمة المواريث ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ نصب على الظرفية عند الجمهور، وعلى المفعولية عِندَ الأخفش؛ أي: يسكنه بساتينَ ﴿تَجْرِي﴾ وتسيلُ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي من تحت قصورِها، وأشجارِها ﴿الْأَنْهَٰرُ﴾ من الماء واللبن، والخمر، والعسل ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ من الهاء في ﴿يُدْخِلْهُ﴾، وهي عائدة على مَنْ، وهو مفرد في اللفظ جمع في المعنى، فلهذا صح الوجهان؛ أي: حالةَ كونهم مقدرين ـ الخلود ـ في تلك الجنات، لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: دخولُ الجنة على وجه الخلود هو: ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم الذي: لا فوزَ وراءه، ولا يذكَرُ بجانبه الفوز بحظوظ الدنيا القصيرة المنغصة بالأكدار، والجنات التي تجري من تحتها الأنهار، نُؤَمن بها، ونعتقد أنها أرفع مما نَرى في هذه الدنيا، وليس لَنَا أن نبحَثَ عن كيفيتها؛ لأنها من عالم الغيب.

واعلم: أن طاعةَ الله هي اتباع ما شرعه من الدين على لسان رسوله ﷺ، وطاعةُ الرسول هي اتباع ما جاءَ به من الدين عن ربه، فطاعته هي بعينها طاعة الله، كما قال في هذه السورة ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ فهو إنما يأمرنا بما يوحيه إليه اللَّهُ بما فيه منافع لنا في الدنيا والآخرة، وإنما ذَكَرَها مع طاعة الله للإشارة إلى أنَّ الإنسان لا يستغني بعقله، وعلمه عن الوحي، وأنه لا بُدَّ له من هداية الدين؛ إذ لم يكن العقل وحده في عَصْر في العصور كافياً لهداية أمة، ولا مرقياً لها بدون معرفة الدين، فاتباعُ الرسل، والعملُ بهديهم هو أساس كلّ مدنية، والارتقاء المعنويُّ هو الذي يَبْعَثُ على الارتقاء الماديّ، فالآداب، والفضائل التي هي أسس المدنيات تستند كلها إلى الدين، ولا يكفي فيها بناؤها على العلم والعقل ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويخالفهما، ولو في بعض الأوامر؛ بأن لم يرض بما قَسَم الله ورسوله ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾؛ أي: يتجاوز أحكامه التي حدها

لعباده بالجور فيها، ولو في بعض النواهي، فالفرق بين العصيان، والتعدِّي: أن العصيان بترك المأمورات كقسمة المواريث، والتعدِّي بفعل المنهيات كالزنا ونحوه ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ عظيمةً هائلةً حالة كونهِ ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ لا يموتُ، ولا يخرج منها، والمراد بالخلود: طولُ المكث إن مات مسلماً، وعلى حقيقته إن مات كافراً ﴿وَلَهُ﴾؛ أي: لذلك العاصي المتعدي حدودَ الله مع عذاب الحريق الجسماني ﴿عَذَابٌ﴾ شديدٌ روحاني ﴿مُّهِينٌ﴾ له أي ذو إهانة وإذلال له، فمعنى المهين: المذل له، وهو عذاب الروح، فللعصاة عذابان عذاب جسماني للبدن العاصي باعتباره، حيواناً يتألم، وعذاب روحاني باعتباره إنساناً يشعر بالكرامة، والشرف، ويتألم بالإهانة والخزي. وحكمة الإفراد في جانب العذاب بقوله: خالداً: الإشارة إلى أنه كما يعذب بالنار، يعذب بالغربة، والوحشة، فإن له من العذاب ما يمنعه من الأنس، فكأنه وحيدٌ لا يجد لذةَ الاجتماع بغيره، ولا أنساً به، وحكمة الجمع في جانب النعيم، بقوله: ﴿خَالِدِينَ﴾ الإشارة إلى أنه كما ينعم بالجنة ينعم باجتماعه مع أحبائه فيها، ويزورهم، ويزورونه، ويتنعَّمُ بذلك الاجتماع.

وقرأ نافع وابن عامر[1]: ﴿ندخله﴾ بنون العظمة، في الموضعين، والباقون بالياء.

واعلم[2]: أن تعديَ الحدود الموجب للخلود في النار، هو الإصرارُ على الذنب، وعدمُ التوبة عنه، فللمذنب حالتان:

الأولى: غلبة الباعث النفسي من الشهوة، أو الغضب على الإنسان حتى يغيبَ عن ذهنه الأمر الإلهي، فهو يقع في الذنب، وقلبه غائب عن الوعيد، لا يتذكره أو يتذكره ضعيفاً كأنه نور ضئيل، يلوح في ظلمة ذلك الباعث المتغلب، ثم لا يلبث أن يزولَ، أو يختفيَ حتى إذا سكنت الشهوة، أو سكن الغضب، وتذكر النهيَ والوعيدَ ندم، وتاب، ولام نفسَه أشد اللوم، ومثل هذا، جدير بالنجاة إذ هو من المسارعين إلى الجنة كما قال تعالى في: أوصافهم ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا

(1) المراح.
(2) المراغي.

عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

الثانية: أن يقدم المرء على الذنب جريئاً عليه، متعمداً فعلَه، عالماً بتحريمه مؤثراً له على الطاعة لا يصرفه عنه تذكر النهي، والوعيد عليه، ومثل هذا أحاطَت به خطيئته، فآثر شهوتَه على طاعة الله ورسوله، فدخل في عموم قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إذ من يصر على المعصية، عامداً عالماً بالنهي، والوعيد، لا يكون مؤمناً بصدق الرسول، ولا مذعناً لشرعه الذي تنال الرحمة والرضا بالتزامه، والعذاب والنكال بتعدي حدوده، فالإصرار على العصيان، وعدم استشعار الخوف، والندم لا يجتمعان في قلب المؤمن الإيمانَ الصحيحَ المصدِّق بوعد الله، ووعيده.

الإعراب

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يوصيكم﴾. ﴿لِلذَّكَرِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِثْلُ﴾. مبتدأ مؤخر وهو مضاف. ﴿حَظِّ﴾ مضاف إليه وهو مضاف. ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ﴿يُوصِيكُمُ﴾. والمعنى: يأمركم الله بإعطاء مثل حظ الأنثيين للذكر الواحد، وقيل: الجملة مستأنفة.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ﴾.

﴿فَإِن كُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفصيلية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كُنَّ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ الشرطية مبني بسكون على النون المدغمة في نون الإناث لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث: في محل الرفع اسم ﴿كان﴾. ﴿نِسَآءً﴾ خبرها. ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ﴿نساء﴾ تقديره: كائنات فوق اثنتين، وهذه الصفة[1] هي التي تحصل فائدة

---

(١) الجمل.

الخبر، ولو اقتصر عليه لم تحصل فائدة. ﴿فَلَهُنَّ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿لهن﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ثُلُثَا﴾ مبتدأ مؤخر، وهو مضاف. ﴿مَا تَرَكَ﴾ ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿تَرَكَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الميت، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تركه، والجملة من المبتدأ والخبر، في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية: معطوفة على جملة قوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ على كونها مفصلَةً لها مستأنفة.

﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَتْ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط، واسمها ضمير يعود على الوارثة. ﴿وَٰحِدَةً﴾ خبرها. ﴿فَلَهَا﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿لها﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلنِّصْفُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ الواو مستأنفة، أو عاطفة. ﴿لأبويه﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿لِكُلِّ﴾ ﴿وَٰحِدٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه بدل من الجار والمجرور قبله، وفائدة هذا البدل أنه لو قيل: ولأبويه السدس. لكان ظاهره اشتراكهما فيه؛ ولأن في الإبدال، والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً، وتقويةً كالذي تراه في الجمع بين المفسر والتفسير. ﴿مِّنْهُمَا﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿واحد﴾. ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور، حال من ﴿السدس﴾ ﴿تَرَكَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الميت، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: مما تركه الميت ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدم

لـ﴿كان﴾ ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها مؤخر وجواب الشرط معلوم مما قبله تقديره: إن كان له ولد فلأبويه السدس، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن لأبويه السدس إذا كان له ولد، وأردت بيان حكم ما إذا لم يكن له ولد.. فأقول لك ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم. ﴿يَكُن﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَّهُۥ﴾ خبر مقدم لـ﴿يكن﴾. ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿يَكُن﴾ في محل الجزم بإن الشرطية على كونها فِعْلَ شرط لها. ﴿وَوَرِثَهُۥٓ﴾ الواو عاطفة. ﴿ورثه﴾ فعل ومفعول. ﴿أَبَوَاهُ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة الشرط. ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ الفاء رابطة الجواب. ﴿لأمه﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلثُّلُثُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مقول لجواب إذا المقدرة وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

﴿فَإِن كَانَ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنهَا أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت فرض الأم مع وجود الولد، وعدمه، وأردت بيان فرضها مع الإخوة.. فأقول لك: ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم. ﴿لَهُۥٓ﴾ خبرها مقدم. ﴿إِخْوَةٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب. ﴿لأمه﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفةٌ. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه حال من السدس تقديره: حال كونه مستحقاً من بعد تنفيذ وصية، ويجوز أن يكون الجار والمجرور خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: وإرث مَن ذكر بما ذُكِرَ مستحقٌ من بعد تنفيذ وصية. ﴿يُوصِى بِهَآ﴾ ﴿يُوصِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الميت. ﴿بِهَآ﴾ جار

ومجرو متعلق بـ﴿يوصى﴾ والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿وصية﴾ ولكنها سببية. ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ معطوف على ﴿وَصِيَّةٍ﴾.

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ معطوف عليه. ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَدْرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَيُّهُمْ﴾ أي اسم استفهام مبتدأ مرفوع. ﴿والهاء﴾ مضاف إليه. ﴿أَقْرَبُ﴾ خبر لـ﴿أي﴾. ﴿لَكُمْ﴾ جار مجرور متعلق بـ﴿أقرب﴾. ﴿نَفْعًا﴾ تمييز محول عن المبتدأ تقديرهُ: نفع أيهم أقرب، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿تَدْرُونَ﴾. وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ وما في حيزه في محل رفع خبر له، و﴿أيهم﴾ فيه وجهان: أشهرهما عند المعربين: أن يكون ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبتدأ وهو اسم استفهام، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، والجملة من هذا المبتدأ والخبر في محل نصب بـ﴿تدرون﴾؛ لأنها من أفعال القلوب فعلقها اسم الاستفهام عن أن تعمل في لفظه، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، والثاني: أنه يجوز أن تكون ﴿أي﴾ اسم موصول بمعنى الذي، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبر مبتدأ محذوف هو عائد على الموصول، وجاز حذفه؛ لأنه يجوز ذلك مع ﴿أي﴾ مطلقاً؛ أي: سواء طالت الصلة أم لم تطل، والتقدير: أيهم هو أقرب، وهذا الموصول وصلته في محل نصب على أنه مفعول به نصبه ﴿تَدْرُونَ﴾، وإنما بني لوجود شرطي البناء، وهما: أن يضاف ﴿أي﴾ لفظاً، وأن يحذف صدر صلتها، وصارت هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ فصار التقدير: لا تدرون الذي هو أقرب. قال الشيخ: ولم أر من ذكر هذا الوجه منهم، ولا مانع منه، لا من جهة المعنى، ولا من جهة الصناعة، فعلى القول الأول: تكون الجملة سادةً مسدَّ

(١) الجمل.

المفعولين، ولا حاجةَ إلى تقدير حذف، وعلى القول الثاني يكون الموصول في محل نصب مفعولاً أول، ويكون الثاني: محذوفاً، تقديره: لا تدرون الذي هو أقرب لكم نفعاً آباؤكم أو أبناؤكم اهـ «سمين» انتهت. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿فَرِيضَةً﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف تقديره: فرض الله ذلك التوريث فريضة، والجملة مستأنفة مؤكدة لمضمون ما قبلها. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿فريضة﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَلِيمًا﴾ خبر أول لـ﴿كان﴾. ﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾.

﴿وَلَكُمْ﴾ الواو استئنافية. ﴿لكم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نِصْفُ﴾ مبتدأ مؤخر وهو مضاف. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما تركه أزواجكم، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة. ﴿إِن لَّمْ يَكُن﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم. ﴿يَكُن﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَّهُنَّ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿يكن﴾. ﴿ولد﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿يَكُن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله تقديره: إن لم يكن لأزواجكم ولد فلكم نصف ما تركن، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم حكم ما إذا لم يكن لهن ولد، وأردتم بيانَ حكم ما إذا كان لهن الولد. فأقول لكم. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿لَهُنَّ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كان﴾. ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿فَلَكُمُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية.

﴿لكم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلرُّبُعُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿أن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مقول لجواب، إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال، من ﴿ٱلرُّبُعُ﴾ تقديره: حالَ كون الربع مأخوذاً ﴿مِمَّا تَرَكْنَۚ﴾. ﴿تَرَكْنَۚ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: مما تركنه.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ﴾.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿النصف﴾ و﴿الربع﴾ تقديره: حالةَ كونهما معتبرين مأخوذين مما بقي بعد تنفيذ وصية، وقضاء دين. ﴿يُوصِينَ﴾ فعل وفاعل؛ لأن ﴿النون﴾ فيه ضمير جماعة الإناث. ﴿بِهَآ﴾ متعلق به والجملة صفة لـ﴿وصية﴾ ولكنها سببية. ﴿أَوْ دَيْنٍۚ﴾ معطوف على ﴿وَصِيَّةٍ﴾

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ﴾.

﴿وَلَهُنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة أو استئنافية. ﴿لهن﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلرُّبُعُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور حال من ﴿ٱلرُّبُعُ﴾. ﴿تَرَكْتُمْ﴾ فعل وفاعل والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: تركتموه. ﴿إِن لَّمْ يَكُن﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿لَّمْ﴾. حرف جزم ﴿يَكُن﴾ مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَّكُمْ﴾ خبر مقدم لـ﴿يكن﴾. ﴿وَلَدٌۚ﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿يَكُن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله تقديره: إن لم يكن لكم ولد: فلهن الربع مما تركتموه، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حكمَ ما إذا لم يكن ولد، وأردتم بيانَ حكم ما إذا كان لكم ولد.. فأقول لكم: ﴿إِن كَانَ﴾ إنْ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور لـ﴿كان﴾ خبر مقدم على اسمها. ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿فَلَهُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة. ﴿لهن﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلثُّمُنُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور حال من ﴿ٱلثُّمُنُ﴾. ﴿تَرَكْتُم﴾ فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: مما تركتموه. ﴿مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلرُّبُعُ﴾ و﴿الثمن﴾ تقديره: حالة كون كل منهما مستحقاً من بعد تنفيذ وصية، ويجوز أن يكون الجار والمجرور خبراً لمحذوف تقديره: واستحقاق ما ذكر كائن بعد تنفيذ وصيةٍ كما أشرنا إليه في مبحث التفسير. ﴿تُوصُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والواو ضمير المخاطبين في محل الرفع فاعل ﴿بِهَآ﴾ متعلق به، والجملة صفة لـ﴿وصية﴾. ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ معطوف على ﴿وَصِيَّةٍ﴾.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿رَجُلٌ﴾ اسمها. ﴿يُورَثُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿رَجُلٌ﴾ والجملة الفعلية صفة لـ﴿رجل﴾. ﴿كَلَٰلَةً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ﴾ الواو حالية. ﴿له﴾ خبر مقدم. ﴿أَخٌ﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة ظاهرة على لغة النقص. ﴿أَوْ أُخْتٌ﴾ معطوف عليه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب حال من رجل، وصح مجيء الحال منه، لوصفه بالجملة المذكورة بعده، والمعنى؛ وإن كان رجل

مورث متكللاً؛ أي: خالياً من ولد، ووالد، والحال أن له أخاً فقط، أو أختاً فقط. ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب. ﴿لكل﴾ ﴿وَاحِدٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مِّنْهُمَا﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿واحد﴾. ﴿ٱلسُّدُسُۚ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها ﴿جواباً﴾ لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، وفي هذا المقام أوجه كثيرة في إعراب الكلالة أعرضنا عنها صفحاً لئلا يطول الكلام.

﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره إذا عرفتم حكمَ ما إذا كان له أخ أو أخت، وأردتم بيانَ حكم ما إذا كانوا أكثرَ.. فأقول لكم: ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانُوٓاْ﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها. ﴿أَكۡثَرَ﴾ خبر ﴿كان﴾. ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ متعلق بـ﴿أكثر﴾. ﴿فَهُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب. ﴿هم شركاء﴾ مبتدأ وخبر. ﴿فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ متعلق بـ﴿شركاء﴾ والجملة الاسمية في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر لمحذوف تقديره: استحقاقهم ما ذكر من السدس، والثلث كائن من بعد تنفيذ وصية. ﴿يُوصَىٰ﴾ بالبناء للفاعل وفاعله ضمير يعود على المحتضر. ﴿بِهَآ﴾ متعلق بـ﴿يوصى﴾ والجملة صفة لـ﴿وصية﴾ ولكنها سببية، أو بالبناء للمفعول والجار والمجرور على هذا نائب فاعل قال ابن مالك:

وَقَابِلٌ مِنْ ظَرْفٍ اَوْ مِنْ مَصْدَرِ أَوْ حَرْفِ جَرٍّ بِنِيَابَةٍ حَرِيْ

والجملة صفة حقيقية لـ﴿وصية﴾ ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ اسم فاعل حال من نائب

فاعل ﴿يُوصَىٰ﴾ على البناء للمفعول، والمعنى حالةَ كون ما ذكر من الوصية، والدين غيرَ مضار بها. ﴿وَصِيَّةً﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف تقديره: يوصيكم الله بقسمة الميراث على الكيفية المبينة لكم، والجملة المحذوفة مستأنفة، أو منصوب على المفعولية المطلقة بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿وصية﴾. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة. ﴿حَلِيمٌ﴾ خبر ثان.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿وَمَن﴾ الواو استئنافية. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول مجزوم بمن وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة. ﴿يُدْخِلْهُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جوابَ الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿والهاء﴾ في محل النصب مفعول أول. ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول ثان. ﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تجري﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿جنات﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ﴿هاء﴾ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ وجمعه نظراً لمعنى ﴿من﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خالدين﴾. ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة للفوز، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة. ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ الواو

عاطفة. ﴿يتعد﴾ معطوف على ﴿يُطِعِ﴾. ﴿حُدُودَهُۥ﴾ مفعول به، ومضاف إليه.

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿يُدْخِلْهُ﴾ فعل مضارع مجزوم بمن على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿والهاء﴾ مفعول أول. ﴿نَارًا﴾ مفعول ثان، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿خَالِدًا﴾ حال من ضمير ﴿يُدْخِلْهُ﴾ وأفرده نظراً للفظ ﴿من﴾ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خالداً﴾. ﴿وَلَهُۥ﴾ الواو عاطفة. ﴿له﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ مضارع أوصى الرباعي، من باب: أفعلَ يقال: أوصى الشيء بالشيء، ووصاه به إذا أوصى له به؛ لأن الموصي أوصل خير عُقْبَاهُ بخير دنياه، وأوصى الله بكذا، إذا أَمرَ به، وأوجبه، والمعنى: هنا يأمركم الله سبحانه وتعالى في إرث أولادِكم بأن يُعطَى الذكرُ الواحد مثلَ حظ الأنثيين.

﴿حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الحظ: النصيب من الخير، والفضل، وقد يطلق على النصيب من الشر، واليسر، والسعادة يجمع على حظوظ، وحظاظ، وأحظ يقال حظ يحظ من باب: فتحَ إذا كان ذا حظ.. فهو حظيٌّ، وحَظِيظ ومَحْظوظ.

﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ مثنى الأنثى، والأنثى خلافُ الذكر، يُجمع على إناث، وأناثي، والمؤنث خلاف المذكر مأخوذة من أَنَثَ الحديدُ يَأْنُثُ أَنْثاً من باب: نصر إذا لاَنَ، وكان غير شَديدٍ وصلبٍ، وسميت المرأة بأنثى للين بشرتها، وجسمها، ولضعفها خلقةً.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقال: فرض الله كذا على عباده، إذا أوجبه عليهم من باب: ضرب، والفريضةُ: الشيءُ الذي أوجبه عليهم، يُجمع على فرائض ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ مضارع درى يدري دريـاً، ودراية من باب: رمى، وهو من أفعال

القلوب، يتعدى إلى مفعولين قال الشاعر:

دَرَيْتَ ٱلْوَفِيَّ ٱلْعَهْدِ يَا عُرْوَ فَٱغْتَبِطْ ... فَإِنَّ ٱغْتِبَاطاً بِٱلْوَفَاءِ حَمِيْدُ

ولكن علقها هنا اسم الاستفهام عن العمل في لفظه، لأن اسمَ الاستفهام لا يعملُ فيه ما قبله، كما هو معلومٌ عندهم.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾، واختلف[1] في اشتقاق ﴿الكلالة﴾، قيل: من الكَلاَل وهو الإعياء، فكأنه يصير الميراث إلى الوارث عن بُعْدٍ واعْيَاءٍ قال الأعشى:

فَآلَيْتُ لاَ أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلاَلَةٍ ... وَلاَ وَجِي حَتَّىٰ تُلاَقِيْ مُحَمَّدَا

قال الزمخشري: والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو: ذهاب القول من الإعياء، فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد، والوالد؛ لأنها بالإضافة إلى قرابتها كالَّة ضعيفة انتهى.

وقيل: هي مشتقة من تكلله النسب إذا أحاط به، فإذا لم يترك والداً، ولا ولداً.. فقد انقطع طرفاه، وهما عمودا نسبه وبقيَ موروثُه لمن يتكلل نسبه أي يحيط به من نواحيه كالإكليل، ومنه روض مكلل بالزهر، وقال الفرزدق:

وَرِثْتُمْ قَنَاةَ ٱلْمَجْدِ لاَ عَنْ كَلاَلَةٍ ... عَنِ ٱبْنَيْ مَنَافٍ عَبْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمِ

وقال الأخفش: الكلالة من لا يرثه أب ولا أم، والذي عليه الجمهور أن الكلالةَ الميت الذي لا والدَ له، ولا مولودَ، وهو قول جمهور أهل اللغة: صاحب «العين»، وأبي منصوب اللغوي، وابن عرفة، وابن الأنباري، والعيني، وأبي عبيدة، وقال الراغب: الكلالَةُ اسم لكل وارث، قال الشاعر:

وَٱلْمَرْءُ يَجْمَعُ لِلْغِنَىٰ ... وَلِلْكَلاَلَةِ مَا يَسِيْمْ

وقال الطبريُّ[2] الصواب: أنَّ الكلالَةَ هم الذين يرثون الميتَ مَنْ عدا ولده ووالدَه لصحة خبر جابر، فقلت: يا رسول الله، إنما يرثني كلالةٌ أفأُوصي بمالي

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

كلّه؟ قال: لا «انتهى».

﴿شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ﴾ جمع شريك ككرماء جمع كريم ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّۚ﴾ اسم فاعل من ضَار يضار ضراراً، ومضاررةً من باب فاعل إذا أدخل عليه الضررَ إن بنيَ يوصى للفاعل، واسمُ مفعول إن بنى للمفعول كما مرت الإشارة إليه ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ حدود الشيء أطرافه التي يمتاز بها من غيره، ومنه حدودُ الدار، سميت بها الشرائع التي أمر الله باتباعها، ونَهَى عن تركها، فمدارُ الطاعة على البقاء في دائرة هذه الحدود، ومَدارُ العصيان على اعتدائها.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من أطاع الرباعي، يقال: أطاع الله يُطيع إطاعةً، وطاعة من باب: أعان: إذا امتثل ما أمرَ به، ونُهيَ عنه، وأطاع الرسولَ. إذا تمسَّك ما أتَى به وبيَّن.

البلاغة

قال أبو حيان[1]: وقد تضمت هذه الآيات من أصناف البديع:

منها: التفصيلُ في الوارث والأنصباء بعد الإبهام في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الآية.

ومنها: العُدول من صيغة يأمركم الله إلى ﴿يُوصِيكُمُ﴾ لما في الوصية من التأكيد، والحرص على اتباعها.

ومنها: الطباقُ في لفظ الذكر والأنثى في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾، وفي ﴿من يطع﴾ و﴿من يعص﴾ وفي ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾.

ومنها: إعادة الضمير على غير مذكور لقوة الدلالة على ذلك في قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾؛ أي: ترك الموروث.

ومنها: التكرارُ في لفظ ﴿كَانَ﴾، وفي قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ﴾

---

(١) البحر المحيط.

و﴿ولد وأبواه﴾ و﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ و﴿وصية من اللَّه إن اللَّه﴾، وفي ﴿نِصۡفُ مَا﴾، وفي ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

ومنها: جناسُ الاشتقاق في قوله: ﴿وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ﴾.

ومنها: المبالغةُ في قوله: ﴿عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾.

ومنها: تلوينُ الخطاب في من قرأ ﴿ندخله﴾ بالنون.

ومنها: الحذف في مواضع انتهى.

فائدة: ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ ﴿أو﴾ هنا[1] لإباحة الشيئين قال أبو البقاء: ولا تدل على ترتيب؛ إذ لا فرق بين قولك: جاءني زيد، أو عمرو، وبين قولك: جاءني عمرو، أو زيد؛ لأن أو لأحد الشيئين، والواحد لا ترتيب فيه، وبهذا يفسد قول من قال: التقدير: من بعد دين أو وصية، وإنما يقع الترتيب فيما إذا اجتمعا، فيقدم الدين على الوصية، وقال الزمخشري فإن قلتَ: فما معنى أو؟

قُلْتُ: معناها للإباحة، وإنه إن كان أحدهما، أو كلاهما قُدِّم على قسمة المواريث، كقوله: جالس الحسنَ، أو ابنَ سيرين، فإن قلتَ لم قدمت الوصية على الدين في الذكر، والدين مقدم عليها في الشريعة؟

قلت: لمَّا كانت الوصية مشبهةً للميراث في كونها مأخوذةً من غير عِوَضٍ كان إخراجها مما يشق على الورثة بخلاف الدين، فإن نفوسَهم مطمئنةٌ إلى أدائه فلذلك قدمَتْ على الدين حثاً على وجوبها، والمسارعةِ إلى إخراجها مع الدين، ولذلك جِيء بكلمة ﴿أو﴾ للتسوية بينهما في الوجوب اهـ «سمين».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الجمل.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ...﴾ الآية، مناسبةُ[(١)] هذه الآيات لما قبلها: أنه تعالى لما أمر بالإحسان إلى النساء، فذكر إيتاءَ صدقاتهن، وتوريثهن، وقد كنَّ لا يورثنَ في الجاهلية.. ذَكَرَ التغليظ عليهن فيما يأتينه من الفاحشة، وفي الحقيقة: هو إحسان إليهن؛ إذ هو نظر في أمر آخرتهن؛ ولئلا يتوهمَ أنَّ من الإحسان إليهن أن لا تُقام عليهن الحدودُ، فيصيرُ ذلك سبباً لوقوعهن في أنواع المفاسد، ولأنه تعالى لمَّا ذكر حدودَه، وأشار بتلك إلى جميع ما وقع من أول السورة إلى موضع الإشارة؛ فكان في مبدأ السورة التحصُّنُ بالتزويج، وإباحةُ ما أباح من نكاح أربع لمن أباح ذلك، استطردَ بعد ذلك إلى

(١) البحر المحيط.

حكم مَنْ خالف ما أمر الله به من النكاح من الزواني، وأفردهنَ بالذكر أولاً؛ لأنهن على ما قيل: أدخلُ في باب الشهوة من الرجال، ثم ذكرهن ثانياً مع الرجال الزانينَ في قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ فصار ذكر النساء الزواني مرتين: مرةً بالإفراد ومرةً بالشمول.

وقال المراغي[1]: المناسبة في هذه الآية: لمَّا أوصى الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى النساء ومعاشرَتهن، بالمعروف، والمحافظة على أموالهنَ وعدَم أخذ شيء منها إلا إذا طابت أنفسهن بذلك؛ ذكَرَ هنا التشديدَ عليهن فيما يأتينه من الفاحشة، وهو في الحقيقة إحسان إليهن، إذ الإحسانُ في الدنيا تارةً يكون بالثواب، وأخرى بالزجر والعقاب لكف العاصي عن العصيان، الذي يوقعه في الدمار والبَوار، ومبنَى الشرائع على العدل، والإنصاف، والابتعاد من طرفي الإفراط والتفريط، ومن أقبح العصيان الزنَا، ولا سيما في النساءِ، لأن الفتنةَ، بهن أكثر، والضرر منهن أخطر؛ لما يفضي إليه من توريث أولاد الزنا، وانتسابهم إلى غير آبائهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ...﴾ الآية، مناسبتها[2] لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لمَّا ذَكَر أن من تاب وأصلح، تركت عقوبته، وأُزيل الأذى عنه، وأنه هو التواب الذي هو يقبل التوبةَ عن عباده.. ذكَرَ هنا وقت التوبة، وشرط قبولها، ورغبتَه في تعجيلها حتى لا يأتيَ الموت، وهو مصر على الذنب، فلا تنفعه التوبة، وأرشَدَ أولياءَ الأمر إلى الطريق الذي يسلكونه مع العصاةَ في معاقبتهم، وتأديبهم، فأمر هنا بالإعراض عن أذى مَن تاب وأصلح العمل، بعد أنْ فرض عقوبةَ مرتكبي الفواحش في الآية السالفة، فهذه شرح لذلك الإصلاح في العمل.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا...﴾ الآيات، هذه الآيات مناسبتها لما قبلها: أنه لما نهى الله سبحانه وتعالى فيما

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

تقدم عن عادات الجاهلية في أمر اليتامَى، وأموالِهم.. أعقبَه بالنهي عن الاستنان بسنتهم في النساء، وأموالهن، وقد كانوا يحتقرون النساءَ، ويعدونَهن من قبيل المتاع، حتى كان الأقربون، يرثون زوجةَ من يموتُ منهم، كما يرثون مالَه؛ فحَرَّم الله عليهم هذا العمل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا...﴾ سبب نزولها[1]: ما روى البخاري وأبو داود، والنسائي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم. تزوَّجها، وإن شاؤوا زوجوها، فهم أحق بها من أهلها؛ فنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم بسند حسن، عن أبي أُمامة أسعد بن سهل بن حُنيف قال: لمَّا تُوفي أبو قيس بن الأصلت أراد ابنُه أن يتزوَّج امرأتَه، وكان لهم ذلك في الجاهلية؛ فنزلت هذه الآية.

وفي «الخازن»[2]: نزلت هذه الآية في أهل المدينة، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية، وفي أول الإسلام، إذا مات الرجل، وخلَّف امرأةً جاء ابنه من غيرها، أو قَرِيبُه من ذوي عصبته، فألقى ثوبَه على تلك المرأة، أو على خبائها، فصار أحقَ بها من نفسها، ومن غيره، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداقَ الأول، الذي أصدقَها الميتُ، وإن شاء زوَّجها غيرَه وأخذ هو صداقها، وإن شاء.. عضلها، ومنعها من الأزواج يُضارُّها بذلك لتفتديَ منه بما ورثت من الميت، أو تموتَ هي فيرثُها، فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقيَ عليها وَلِيُّ زوجها ثوبَه.. كانت أحقَّ بنفسها، وكانوا على ذلك حتى توفّي أبو قيس بن الأصلت الأنصاري، وتَركَ امرأتَه كبُيشة بنتَ مَعْنٍ الأنصارية، فقام ابن له من غيرها، يقال له حصنُ: وقيل: اسمه قيس بن أبي قيس، فطرح ثوبَه عليها؛ فورث نكاحها، ثم تركها، فلم ينفق عليها يُضَارّها بذلك لتفتدي منه، فأتَتْ كبيشة رسول الله ﷺ

---

(١) لباب النقول. (٢) الخازن.

فقالت: يا رسول الله: إن أبا قيس تُوفي، وورث نكاحي ابنه، فلا هو ينفق علي، ولا هو يدخل بي، ولا يخلي سبيلي، فقال: «اقْعُدي في بيتك، حتى يأتي أمر الله فيك»، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ يعني: ميراثَ نكاح النساء، وقيل: معناه أن ترثوا أموالَهن كرهاً، يعني وهن كارهاتٌ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿و﴾ النسوة ﴿اللاتي﴾ جمع التي في المعنى دون اللفظ؛ أي: والنسوة اللاتي ﴿يَأْتِينَ﴾، ويفعلن ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ والزنا حالةَ كونهن كائنات ﴿مِن نِّسَائِكُمْ﴾، وأزواجكم المؤمنات المحصنات، وفي التعبير عن الإقدام على الفواحش بهذه العبارات معنى دقيقٌ، وهو أنَ الفاعلَ لها ذهب إليها بنفسه، واختارَها بطبعه، والفاحشةُ: الفعلة القبيحة والمراد بها هنا: الزنا لزيادتها في القبح على كثير من القبائح.

﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ﴾؛ أي: فأشهدوا أيها المسلمون على فعلهن الفاحشة؛ أي: على العَورتَين ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾؛ أي: أربعة رجال أحرار كائنين منكم أيها المؤمنون، أو المعنى: أطلبوا أربعة رجال منكم يشهدون على زَناهنَ، ويشترط في هذه الشهادة: الذكورة، والعدالة. قال الزهري: مضت السنة من رسول الله ﷺ والخليفتين بعده أنْ لا تُقبل شهادة النساء في الحدود.

والحكمة في هذا[1]: إبعاد النساء عن مواقع الفواحش، والجرائم، والعقاب، والتعذيب رغبةً في أن يكنَّ دائماً غافلات عن القبائح، لا يفكرنَ فيها، ولا يخضنَ مع أربابها، والظاهر: أنه يجوز الاستشهاد لمعاينة الزنا، وأن تعمدَ النظر إلى الفرج، لا يقدَحُ في العدالة؛ إذا كان ذلك؛ لأجل الزنا.

وقرأ عبد الله ﴿واللاتي يأتين بالفاحشة﴾ ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾؛ أي: فإن شهد

---

(١) المراغي.

أربعة رجال منكم على زناهن، برؤية العورتَين يتداخلان كالعُود في المكحلة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾؛ أي: فاحبسوهن في بيوتكم، وامنعوهن من الخروج منها، حتى لا يَعُدْنَ إلى ارتكابها مرة أخرى؛ لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز إلى الرجال، فإذا حُبست في البيت لم تقْدِرُ على الزنا ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: إلى أن يقبض أرواحهن ملك الموت، ويمتن ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾؛ أي: أو إلى أن يبين الله، ويشرع لهن طريقاً، وحكماً، وعقوبةً على ارتكابهن الفواحشَ، وهذا الحكم كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود، كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت، حتى تموت، ثم نسخ الحبسُ بالحدود، وجعل لهن سبيلاً، فقال رسول الله ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً الثيب ترجم، والبكر تجلد، وتنفى».

وفي الآية[1] إشارة إلى أن منعَ النساء عن الخروج عند الحاجة إليه في غير هذه الحالة لمجرد الغيرة، أو لمجرد الهَوى والتحكم من الرجال لا يجَوزُ، وكذلك في الآية إيماء إلى أن هذه العقوبة مقرونة بما يدل على التوقيت، وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: كان نبي الله ﷺ إذا نزل عليه حكم كرب لذلك، وتربد وجهه فأنزل الله عليه ذاتَ يوم، فبقي كذلك فلما سُري عنه قال: «خُذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، الثيبُ بالثيب جلدُ مائة، ورَجْمُ بالحجارة، والبكر بالبكر جلدُ مائة، وتغريب عام». أخرجه مسلم. ومن هذا تعلَمُ أنَّ السبيل كان مجملاً أولاً، فبينه الحديث المذكورُ، وخصص الحديثُ أيضاً، عُمومَ آية الجلد الآتية في سورة النور، ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِأْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ فثبت الجلد على البكر بنص الكتاب، وثبت الرجم على الثيب المحصن بسنة رسول الله ﷺ فقد صح أن رسول الله رَجَم ماعزاً، وكان قد أُحْصِنُ وسواء في هذا الحكم المسلم، واليهودي؛ لأنه ثَبتَ في الصحيح أن النبي ﷺ رَجَم يهوديين زَنَيا، وكانا قد أحصنا. ثم بين عِقابَ كل من الزانيين البكرين فقال: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾؛ أي: والبكران اللذان يفعلان الفاحشةَ

---

(١) المراغي.

من أحراركم، ويرتكبان جريمة الزنا، واللواط ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ بالسب باللسان، والضرب بالنعال بعد ثبوت ذلك بشهادة أربعة رجال منكم، وقيل: بالتهديد والتعيير، كأن يقال: بئس ما فعلتما، وقد تعرضتما لعقاب الله وسخطه، وأخرجتُما أنفسَكما عن اسم العدالة.

وهذا[1] العقاب والإيذاء كان أول الإسلام من قبيل التعزير، وأمره مفوض إلى الأمة في كيفيته، ومقداره، فلما نزلت آية النور التي تقدم ذكرها، وجاء الحديث الشريف السابق، بينا مقدارَ هذا الإيذاءِ، وحدداه، وبهما استبان أن عقاب المرأة الثيب، والرجل المتزوج، الرجم بالحجارة حتى يموتا، وعقابَ المرأة البكر، والرجل الذي لم يتزوج جلد مائة، ونفيُهُ سنةً.

وقرأ الجمهور ﴿واللذان﴾ بتخفيف النون، وقرأ ابن كثير بالتشديد، وقراءة عبد الله ﴿والذين يفعلونه منكم﴾ وهي قراءة مخالفة لسواد مصحف الإمام، ومتدافعة مع ما بعدها؛ إذ هذا جمع وضميرُ جمع، وما بعدهما ضميرُ تثنية، وقرىء ﴿واللذأن﴾ بالهمزة وتشديد النون، وتوجيهُ هذه القراءة: أنه لما شدَّدَ النون التقى ساكنان، ففرَّ القارىء من التقائهما إلى إبدال الألف همزةً تشبيهاً لها بألف فاعل المدغم عينه في لامه، كما قرىء: ﴿ولا الضألين﴾ ﴿ولا جأن﴾.

ثم بين أنَّ هذا الإيذاءَ، والعقاب: إنما يكون إذا لم يتوبَا، فإن تابا وأصلحا. رفع عنهما ذلك فقال ﴿فَإِن تَابَا﴾؛ أي: فإن تاب الزانيان، ورجعا عن فعل الفاحشةِ بعد زواجر الأذيَّةِ ونَدِمَا على ما فعلا ﴿وَأَصۡلَحَا﴾ عملهما فيما بينهما، وبين الله، وغيّرا أحوالَهما كما هو شأن المؤمن، يطهر نفسه بالإقبال على الطاعة، ويزكيها من أدران المعاصي التي فَرطت منه، ويُقوي داعيةَ الخير حتى تغلب داعية الشر ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾؛ أي: فاتركوا إيذاءَهما، وكفوا الأذى عنهما بالقول والفعل، ثم علل الأمرَ بالإعراض عنهما بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ تَوَّابٗا﴾؛ أي: كثير القبول لتوبة من تاب ﴿رَّحِيمًا﴾؛ أي: كثيرَ الرحمة

(١) المراغي.

واسع الغفران، وقيل: ﴿تَوَّابًا﴾؛ أي: رجاعاً بعباده عن معصيته إلى طاعته، ﴿رَّحِيمًا﴾ لهم بترك أذاهم إذا تابوا، وقيل: ﴿التوابُ﴾ هو الذي يعودُ على عبده بفضله، ومغفرته، إذا تاب إليه من ذنبه، ﴿والرحيم﴾ كثير الرحمة والغفران لأرباب العصيان.

وهذه الجملةُ جاءت تعليلاً للأمر بالإعراض، والخطابُ هنا لأولي الأمر والحكام، وقد عُلم مما مر أن الإمساك في البيوت والإيذاءَ باللسان قد نسِخَا برجم المحصن وجلد البكر.

وقال أبو مسلم الأصفهاني بن بحر، والمرادُ بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ السحاقات وحدُّهن الحبس إلى الموت، أو إلى أن يُسهلَ الله لها قضاء الشهوة بطريق النكاح، والمراد بقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ أهل اللواط، وحَدُّهُمَا الأذى بالقول والفعل، والآية التي في سورة النور في الزانية والزاني، وخالف جمهور المفسرين، وبناه أبو مسلم على أصل له، وهو يرى أنه ليس في القرآن ناسخ ولا منسوخ.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ﴾ الواجب قبولُها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ بمقتضى وعده لعباده، وجوبُ تفضل وإحسان، لا وجوبُ استحقاق وإلزام، كائنة ثابتة ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ﴾ ويفعلون ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ والذنب حالةَ كونهم ملتبسين ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾، وسفه، فإنَّ ارتكابَ الذنب، ولومع العلم به سفه وتجاهل، أو المعنى: الذين يعملون المعصيةَ مع عدم علمهم بأنها معصية، لكنه يمكنه تحصيل العلم بأنها معصية ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾، ويرجعون إلى طاعة الله تعالى ﴿مِن قَرِيبٍ﴾؛ أي: في زمن قريب، والزمنُ القريب: هو الوقت الذي تسكن به ثَورةُ الشهوة، أو تنكسر به حدة الغضب، ويثوب فاعلُ السيئة إلى حلمه، ويرجعُ إليه دينه وعقله، وقيل: هو ما قبل معاينة سبب الموت وأهواله، وهذا القولُ ضعيف كما سيأتي الإشارة إليه قريباً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين فعلوا الذنوبَ بجهالة، وتابوا بعد قريب من الزمن ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: يقبل توبتَهم؛ لأن الذنوبَ لم ترسخ في نفوسهم، ولم يصروا على ما فعلوا، وهم يعلمون.

وخلاصة المعنى: أن التوبةَ التي أوجب الله على نفسه قبولَها بوعده الذي هو أثر كرمه وفضله، ليست إلا لمن يجترحُ السيئةَ بجهالة تلابس نفسَه من سورة غضب أو تغلب شهوة، ثم لا يلبث أن يندم على ما فرط منه، وينيبَ إلى ربه، ويتوبَ ويقلع عن ذنبه.

وما رواه أحمد عن ابن عمر من قوله ﷺ: «إن الله يقبل توبةَ العبد ما لم يغرغر»، فالمراد منه: أنه لا ينبغي لأحد أن يَقنط من رحمة الله، وييأس من قبول التوبة ما دام حيًّا، وليس معناه: أنه لا خوف على العبد من التمادي في الذنوب إذا هو تاب قبل الموت بساعة، فإن هذا مخالف لهدي الدين في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ولمثل قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾.

قوله: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ السوء: هو العمل القبيح الذي يسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة، وهذا شاملٌ للصغائر والكبائر ﴿والجهالة﴾ الجهل: وتغلُّب السفه على النفس عند ثورة الشهوة، أو سورة الغضب، حتى يذهبَ عنها الحلم، وتنسى الحقَّ، وكل من عصى اللَّهَ يسمَّى جاهلاً، ويسمَّى فعله جهالةَ كما قال تعالى: إخباراً عن يوسف عليه السلام ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وسر هذا أن العاصي لربه لو استعمل ما معه من العلم بالثواب، والعقاب.. لما أقدم على المعصية؛ إذ هو لا يرتكبها إلا جاهلاً بحقيقة الوعيد، ومنتظراً لاحتمال العفو، والمغفرة، أو شفاعة الشفعاء التي تصد عنه العقابَ، وقيل: معنى الجهالة: أن يأتي الإنسانُ بالذنب مع العلم، بأنه ذنب، لكنه يجهل عقوبتَه، وقيل: معنى الجهالة: هو اختيار اللذة الفانية على اللذة الباقية.

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾؛ أي: يتوبون[1] بالإقلاع عن الذنب بزمان قريب، لئلا يعدَّ في زمرة المصرينَ، وقيل: القريب: أن يتوب في صحته قبل مرض موته، وقيل: قبل موته، وقيل: قبل معايَنةِ ملك الموت، ومعايَنةِ أهوال الموت،

---

(١) الخازن.

كما مَرَّ، وإنما سميت هذه المدة قريبة؛ لأن كلَّ ما هو آت قريب، وفيه تنبيه على أن عمرَ الإنسان، وإن طال. فهو قليل، وأنَّ الإنسانَ يتوقع في كل ساعة ولحظة نزولَ الموت به، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبل توبةَ العبد ما لم يغرغر». أخرجه الترمذي، وقد مرَّ الحديثُ بتأويله فلا تغفل. الغرغرة: أن يجعلَ المشروب في فم المريض، فيردِّدَه في الحَلْق، ولا يَصِلَ إليه، ولا يَقدِر على بلعه، وذلك عند بلوغ الروح الحلقومَ.

وقيل في معنى الآية: إن القريب هو: أن يتوب الإنسانُ قبل أن يحيطَ السوء بحسناته فيحبطَها.

والأصح كما قدمنا أن القريبَ أن يتوب بعدما سكنت ثورة الشهوة، وانكسرت حدَّةُ الغضب؛ إذ مَنْ كان قويَّ الإيمان لا تقع منه المعصية إلا عن بادرة غضبٍ، أو شهوةٍ هفوةً بعد هفوة، ثم لا يلبث أن يبادَر إلى التوبة.

وقد قسموا التوابين إلى أقسام وطبقات(١)

الأول: من هو سليم الفطرة عظيمُ الاستعداد للخير، فهو إذا وقع في خطيئة مرةً كان له منها أكبَرُ عبرة، فيندَمُ بعدها، ويحملُ نفسَه على الفضيلة، ويصرِفُها عن كل رذيلة.

الثاني: مَنْ تكون داعية الشهوة أقوى في نفسه، وأرسخَ في قلبه.. فإذا أطاع نفسَه، وارتكب معصيةً. قامتْ الخواطرُ الإلهية تحاربه، وتوبِّخُه حتى تنتصرَ عليه، وتقهرَهُ قهراً تاماً، فلا يعودُ بعدَها إلى اجتراح إثم، ولا وقوع ذنب.

الثالث: من تقوى نفسُه بالمجاهدة على اجتناب كبار الإثم، والفواحش، لا على صِغَارِ الذنوب والآثام، وهنَاكَ تكون الحربُ في نفوسهم سجالاً بينَ ما يلمون به من الصغائر، وبيْنَ الخواطر الإلهية التي هي جندُ الإيمان.

الرابع: من يقع في الذنب، فيتوبُ ويستغفر، ثم يَعْرُض له مرةً أخرى،

---

(١) المراغي.

فيعودُ إليه، ثم يَلوم نفسه، ويندم، ويستغفر وهلم جراً، وهؤلاء أَدْنَى طبقات التوابين، والنفس الباقية عندهم أرخَصُ من النفس الفانية، وهم مع ذلك محل للرجاء؛ لأن لهم زاجراً من أنفسهم يذكرهم دائماً بالرجوع إلى الله، عَقِب كل خطيئة، وهكذا تكون الحرب سجالاً بينَهم وبينَ أنفسهم، فإما أن تنتصر دواعي الخير.. فتصحَّ توبتُهم، وإما أن تنكسر أمامَ جند الشهوة.. فتحيطَ بهم خطيئتهم، ويكونوا من المصرينَ الهالكينَ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بمن يطيع، ويعصي، ويتوب، ويعرض ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لخلقه بوضع الأشياء في مواضعها، فيقبلُ توبةَ من أناب إليه، لكنه لا يقبل إلا التوبةَ النصوح، دون حركات اللسان بالاستغفار، والإتيان ببعض المكفرات من الصدقات، والأذكار مع الإصرار على الذنوب، والأوزار، ومن ثَمَّ جَمَعَ الله في الآية السابقة بين التوبة وإصلاح العمل.

وقد فعلت الأمم السالفة مثلَ هذا، فاستثقلت التكاليفَ وفسقَت عن أمر ربها، واتبعَتْ هواهَا، وجعلَتْ حظَهَا من الدين مجموعَ حركات لسانيةٍ، وبدنيَةٍ لا تهذِّب خُلقاً، ولا تصلح عملاً، ولا تمنع النفسَ من التمتع بشهواتها، وقد اتبع كثير من المسلمين سنُنَ من قبلهم، وحَذَوا حَذْوَهم شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراع، فكانت الأغاني لهم دثاراً، والملاهي شعاراً فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد أن بينَ حالَ من تقبل توبتهمُ ذَكَرَ حالَ أضدادِهم الذين لا تقبل توبتهم، فقال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: وليس قبولُ التوبة واجباً على الله للذين يفعلون، ويرتكبون الذنوبَ، والمعاصيَ، ويستمرون عليها إلى حضور علامات الموت وقُرْبه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: فإذا حضر أحدهم أوائلُ الموت، وَرَأى أشراطَها، وأيس من الحياة التي يتمتع بها، ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ ورجعت إلى طاعة الله، ولذلك لم يُقْبَل إيمانُ فرعون حين أدركَه الغرقُ؛ أي: إن سنةَ الله قد مضَتْ بأنَّ التوبة لا تكون للذين يعملون السيئات منهمكينَ فيها إلى حضور الموت، وصدور ذلك القول منهم؛ لأن هؤلاء قد أحاطَتْ بهم خطيئَاتُهم، ولم تَدَعْ للأعمال الصالحة مكاناً في نفوسهم، فهم

أصروا عليها إلى أن حضرهم الموت، ويَئِسوا من الحياة التي يتمتعون بها، وحينئذ يقول أحدهم: إني تبتُ الآن، وما هو من التائبين بل من المدعين الكاذبين.

والخلاصة: أنّ التوبةَ لمثل هؤلاء ليست مقبولةً حتماً، فأمرهم مفَوَّضٌ إلى الله تعالى، وهو العليمُ بحالهم، وحديثُ قبول التوبة «ما لم يغرغر» أو تَبلُغ روحه الحلقوم: المرادُ منه حصول التوبة النصوح، بأن يُدركَ المذنبُ قبحَ ما كان قد عمله من السيئات، ويندَمَ على مزاولتها، ويزولَ حبه لها، بحيث لو عاشَ لم يعدْ إليها، وقلَّما يحصل مثل هذا الإدراك للمصر على السيئات المستأنس بها في عامة أيام الحياة، وإنما يَحصل له إدراك العجز عنها، واليأس منها، وكراهةُ ما يتوقعه من قُرْبِ العقاب عليها عندَ الموت.

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؛ أي: وليس قبول التوبة للذين يموتون على الكفر إذا تابوا في الآخرة عند معاينة العذاب؛ أي: لا تقبل توبة لهؤلاء ولا لهؤلاء، فقد سوى الله بين الذين سوفوا توبتَهم إلى أن حضر الموتُ، وبين الذين ماتوا على الكفر، في أنَّ توبتهم لا تقبل، فكما أن المائتَ على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين، كذلك المسوف إلى حضور الموت فكلٌ منهما جَاوَزَ الحد المضروب للتوبة، إذ هي لا تكون إلا عند التكليف والاختيار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من الفريقين ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: مؤلماً موجعاً في الآخرة؛ أي: هذان الفريقان اللذان استعبدَهما سلطان الشهوة، وخرَجَا عن نهج الفطرة، وهُدى الشريعةِ: أعدَدْنا وهيأنا لهم العذابَ الموجعَ في الآخرةِ، جزاءاً وفاقاً لما اكتسَبت أيديهم من السيئات مع إصرارهم عليها حتى المماتِ، إذ أنهم أفسدوا قلوبَهم، ودسوا نفوسَهم، فصارت تهبط بهم خَطَايَاهم إلى الدرك الأسفل من النيران، والهَوَان، وتعجز عن الصعود إلى معاهد الكرامةِ والرضوانِ، وهذه الجملة تأكيدٌ لعدم قبول توبتهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَا يَحِلُّ﴾، ولا يجوز ﴿لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ﴾ عَيْنَ النساء وذاتها بنكاحِهن ﴿كَرْهًا﴾ أي مكرهات غيرَ راضيات له إذا

مات أقاربُكم عنهن؛ أي: لا يحل لكم أيها المؤمنون: أن تسيروا على سنةِ الجاهلية في هضم حقوق النساء، فتجعلوهن ميراثاً لكم، كالأموال، والعبيد، وتتصرفوا فيهن كما تَشاءُون، وهنَّ كارهات لذلك، فإن شاء أحدكم تزوج امرأةَ من يموت من أقاربه، وإن شاء زوجها غيره، وإن شاء أمسكها ومَنَعَها الزواجَ، كما مر بيان ذلك كله في أسباب النزول.

﴿و﴾ كذلك ﴿لا﴾ يحل لكم أيها المؤمنون أن: ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ وتحبسوهن في نكاحكم، وتضيّقوا عليهن بسوء العشرة، حتى أُلْجِئَت إلى الافتداء بمالها ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: لتأخذوا منهن، وتردوا عنهن بعضَ ما أعطيتموهن من المهور بسبب اختلاعهن، ومن باب أولى أَخَذُ الجميع. وقرأ ابن مسعود، ﴿ولا أن تعضلوهن﴾ وهذه القراءة تقوي احتمالَ النصب على احتمال الجزم، وقال ابن عطية: واحتمال النصب أقوى. انتهى؛ أي: لا يحل لكم أيها المؤمنون إرثُ ذاتِ نساءِ أقاربكم، إذاماتوا عنهن بتزوجها كُرَهاً من غير رِضَاهَا، ولا يحل لكم أيضاً العضل، والتضييق على أزواجكم اللاتي في نكاحكم، ومضارتُهن بسوء العشرة لِيُكْرِهْنَكُم، ويَضْطَرِرْنَ إلى الافتداء منكم بالمال، والصداق الذي أَخَذْنَ منكم أو بالمال الذي وَرِثْتْ من زوجها الأول، فقد كانوا يتزوجون من يعجبهم حَسْنُها، ويزوِّجون من لا تعجبهم، أو يمسكونها حتى تفتدِيَ بما كانت وَرِثَتْ من قريب الوارث، أو بما كانت أخذت من صداق ونحوه، أو بكلّ هذا، وربما كلفوها الزيادةَ إن علموا أنها تَسْطِيعها.

أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: كانت قريش بمكة ينكح الرجل منهم المرأةَ الشريفةَ فلعلها، ما توافِقُهُ فيفارقها على أن لا تتزوج إلا بإذنه، فيأتي بالشهود، فيكتب ذلك عليها؛ فإذا خَطَبَها خاطبٌ، فإن أعطَتْه وأَرْضَتْهُ أذِنَ لها، وإلا عَضَلها، وكثيراً ما كانوا يضيّقون عليهن ليفتدِينَ منهم بالمال.

وقرأ حمزة والكسائي ﴿كَرْهًا﴾ بضم الكاف هنا، وكذا في التوبة، وفي الأحقاف، وقرأ عاصم، وابن ذكوان عن ابن عامر في الأحقاف بالضم، والباقون بالفتح، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو بالفتح في جميع ذلك، قال الفراء:

الكره بالفتح: الإكراه، وبالضم: المشقةُ، فما أُكرِه عليه فهو كَرْه بالفتح، وما كان من قِبَلِ نفسه، فهو كُرْهُ بالضم.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم بفتح الياء؛ أي: بينها من يدَّعِيها، ويوضحها والباقون بالكسرة؛ أي: بينةٍ في نفسها، ظاهرة من النشوز وشَكاسة الخلق، وإيذاء الزوج وأهلِه بالبذاء والسلاطة، ويدل عليه قراءة أبي بن كعب إلا أن يفحشن عليكم، وقرأ ابن عباس ﴿مبينة﴾ بكسر الباء وسكون الياء: من أبانَ الشيء فهو مبين؛ أي: لا تعضلوهن في حال من الأحوال، إلا في الحال التي يفعلنَ فيها بالفاحشة، المبينة، الواضحة الظاهرة، الفاضحة دون الظنة والشبهةِ، فإذا نشزن عن طاعتكم وسَاءَتْ عشرتهن، ولم ينفع معهن التأديبُ، أو تبيَّنَ ارتكابهن للزنا، أو السرقة، أو نحو ذلك من الأمور الفاحشة الممقوُتة عند الناس، فلكم حينئذ أن تعضلوهن، وتضيقوا عليهن، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صداق وغيره من المال؛ لأن الفُحْشَ قد أتى من جانبها، فقد عُذِرْتُم حينئذ في طلب الخلع، وإنما اشترِطَ في الفاحشة أن تكونَ مبينةً؛ أي: ظاهرةً فاضحةً لصاحبها؛ لأنه رُبَّما ظلَمَ الرجل المرأةَ بإصابتها الهفوةَ الصغيرةَ، أو بمجرد سوء الظن، والتهمة، فمن الرجال الغَيور السيء الظنّ الذي يؤاخذ بأتفه الأمور، ويعده عظيماً.

وإنما أبيح للرجل أن يضيِّق على امرأته إذا أتت بهذه الفاحشة المبينة، لأنها ربما كَرِهته، ومالَت إلى غيره فتؤذيه بفاحش القول، أو الفعل؛ ليملها، ويسأم معاشرتها؛ فيطلقها؛ فتأخذ ما كان أعطاها، وتتزوج غيره، وتتمتع بمال الأول، وربما فعلت مع الثاني ما فعلت مع الأول، فإذا عَلِمَ النساء أن العضلَ والتضييقَ بيد الرجال، ومما أبيح لهم إذا هن آذينَهُم وأهنَّهم؛ فإن ذلك يكفهن عن ارتكابها، والاحتيالِ بها على أرذلِ أنواعِ الكسب.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾؛ أي: وعاشروا أيها: الأزواج، وساكنوا مع زوجَاتِكم بالوجه المعروف في هذه الشريعة، وبَيْنَ أهلها من حسن المعاشرة؛ أي: وعليكم أيها الأزواجُ أن تحسنوا معاشرةَ نسائِكم فتُخَالِطُوهُنَّ بما تألُفُه

طباعهن، ولا يستنكرهُ الشرعُ، ولا العرفُ، ولا تضيقوا عليهن في النفقة، ولا تؤذوهن بقولٍ ولا فعلٍ، ولا تقابلوهنَ بعبُوسِ الوجه، ولا تقطيب الجَبين، والمعاشرة بالمعروفِ هو: الإنصافُ في الفعل المبيت والنفقة والإجمال في القول، وفي المَثلِ: المرأة تَسْمُنُ مِن أُذنها.

وفي كلمة المعاشرة: معنى المشاركة، والمساواة؛ أي: عاشروهنَ بالمعروف. وليعاشِرْنكم كذلك، فيجب أن يكونَ كل من الزوجين مدْعَاةً لسرور الآخر، وسبب هناءته وسعادته في معيشته، ومنزله، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾أي فإن كرهتم أيها الأزواج صحبةَ زوجَاتكِم لعيب في أخلاقِهن أو دَمامةٍ في خلقهن مما ليس لهن فيه كسب، أو لتقصير في العمل الواجب عليهنَّ كَخِدمةِ البيت، والقيام بشُؤونه مما لا يخلو عن مِثلِه النساء في أعمالهنَ أو لميل منكم إلى غيرهن، فَاصْبِرُوا، ولا تَعْجلُوا بمضارتهن، ولا بمفارقتهن ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ ويؤولَ الأمرُ إلى ما تحبونه من ذهابِ الكراهة وتبدلِها بالمحبة ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك المكروه لكم ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ونفعاً كبيراً لكم، فجواب الشرط محذوف، والفاء في عسى معلِّلَة لذلك المحذوف، وعسَى هنَا للتحقق، لا للرجاء، والمعنَى: فإن كرهتموهن.. فاصبرُوا، ولا تفارقُوهن؛ لأنه قد ثبَتَ وحقَّ كراهتكم شيئاً وجعل الله فيه خيراً كثيراً. وفي «القاموس»[1] عسى للترجي في المحبوبِ، والإشفاق في المكروه، واجتمَعا في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية. وللشك واليقين، وقد تشبه بكاد ومن الله للإيجاب انتهى.

ومن الخير الكثير: الأولادُ الأَنْجابُ فربَ امرأة يملها زوجها، ويَود فراقَها ثم يجيئه منها مَنْ تقرُّ به عَينه من الأولاد النجباء، فيَغْلو قَدْرُها عنده بذلك.

ومن ذلك أن يصلُحَ حالها بصبره وحسن معاشرته فتكون من أعظم أسباب

(١) قاموس.

سعادته، وسروره في انتظام معيشته، وحسن خدمته، ولا سيما إذا أصيب بالأمراض، أو بالفقر، والعَوَزِ فتكون خَيْرَ سلوى وعون في هذه الأحوال، فيجب على الرجل أن يتذكر مثلَ ذلك كما يذكر أنه قلما يخلو من عيب تصبر عليه امرأته في الحال، والاستقبال، وقل[1] أن ترى مُتَعَاشِرَين يرضى كل واحد منهما جميعَ خلق الآخر، ويقال: ما تعاشر اثنان إلا وأحدهما يتغامض عن الآخر، وفي صحيح مسلم «لا يفرك مؤمن مؤمنةً، إن كره منها خلقاً رضيَ منها آخر» وأنشدوا في هذا المعنى:

وَمَنْ لاَ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيْقِهِ وَعَنْ بَعْضِ مَا فِيْهِ يَمُتْ وَهْوَ عَاتِبُ
وَمَنْ يَتَتَبَّعْ جَاهِداً كُلَّ عَثْرَةٍ يَجِدْهَا وَلاَ يَسْلَمْ لَهُ ٱلدَّهْرَ صَاحِبُ

وقد جاء[2] قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ في سِياق حديث النساء دستوراً كاملاً، وحاكماً عادلاً إذا نحن اتبعناه كان له الأثرُ الصالح في جميع أعمالنا، وهَدَانا إلى الرشد في جميع شؤوننا فكثيرٌ ممَّا يكرهُه الإنسانُ يكون له فيه الخَيْرُ، ومتى جاء ذلك الخير.. ظهرَتْ فائدةُ ذلك الشيء المكروه، والتجارب أصدَقُ شاهد على ذلك، فالقتال لأجل حماية الحقِ والدِّفاع عنه، يكرهه الطبع لما فيه من المشقة، لكن فيه إظهار الحق، ونصرُه ورفعة أهله، وخذلان الباطل وحزبه، على أنَّ الصبرَ على احتمالِ المكروه يمرن النفسَ على احتمال الأذى، ويعودها تحملَ المشاق في جسيم الأمور، وبالجملة: فالإحسان إلى النساء من مكارم الأخلاق، وإن وقعَتْ منهن الإساءَةُ لما في الحديث «يغلبن كريماً، ويغلبهن لئيم، فأحب أن أكون كريماً مغلوباً، ولا أحب أن أكون لئيماً غالباً».

والخلاصة: أن الإسلام وصى أهلَه بحسن معاشرة النساء، والصبر عليهن، **إذا كَرِهَهُنَّ** الأزواجُ رجاءَ أن يكون فيهن خير كثير، ولا يبيحُ عضلَهن افتِدَاؤهن أنفسهن بالمال، إلا إذا أتين بفاحشة مبينة بحيث يكون إمساكهن سبباً في مهانة

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الرجل، واحتقاره أو إذا خافا أن لا يقيما حدود الله، وفيما عدا ذلك يجبُ عليه إذا أراد فراقُها أن يعطَيها جميعَ حقوقها، وهذا ما أشار إليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ وقصدتم أيُّها الأزواجُ ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾؛ أي: تزوجَ زوجة جديدة ترغبون فيها، وأخذَها ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾؛ أي: بدلَ زوجة قديمة كرهتموها، وأردتم تطليقَها لعدم طاقتكم الصبرَ على معاشرتها، وهي لم تأت بفاحشة مبينة، ﴿وَ﴾ قد ﴿أتيتم إِحْدَىٰهُنَّ﴾؛ أي: إحدى الزوجات؛ أي: والحال أنكم قد أعطيتم تلك القديمةَ التي تريدون تطليقَها ﴿قِنطَارًا﴾؛ أي: مالاً كثيراً من الصداق ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك القنطار ﴿شَيْـًٔا﴾؛ أي: يسيراً، ولا كثيراً، وقرأ أبو السمال[1] وأبو جعفر ﴿شَيًا﴾ بفتح الياء وتنوينها حذف الهمزة وألقى حركتها على الياء والمعنى[2]: وإذا رغبتم أيها الأزواج في استبدال زوجٍ جديدةٍ مكانَ زوج سابقةٍ كرهتموهَا لِعَدَمِ طاقَتِكم الصبرَ على معاشَرتِها، وهي لم تأت بفاحشة مبينة، وقد آتيتموها المالَ الكثيرَ مقبوضاً، أو ملتزماً دفعه إليها، فصار ديناً في ذمتكم؛ فلا تأخذوا منه شيئاً، بل عليكم أن تدفعوه لها؛ لأنكم إنما استبدلتم غيرهَا بها لأغراضكم ومصالحكم بدون ذَنْب، ولا جَرِيرة تُبيح أَخْذَ شيء منها، فبأي حق تستحلون ذلك، وهي لم تَطْلُب فِراقَكم، ولم تُسيء العشرةَ إليكم، فتحملَكم على طلاَقِها.

وإرادةُ الاستبدال ليسَتْ شرطاً في عدم حل أخذ شيءٍ من مالها، إذا هو كره عشرتها، وأراد الطلاقَ لكنه ذكر لأنه هو الغالب في مثل هذا الحال، ألا ترى: أنه لو طلقها، وهو لا يريد تزوَّجَ غيرها، بأن أراد الوَحْدةَ وعدمَ التقيد بالنساء، ومؤنتهن، فإنه لا يحل له شيء من مالها.

ثم أنكر عليهم هذا الفعلَ، ووبخهم عليه أشد التوبيخ فقال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ استفهام إنكاري فيه معنى التوبيخ؛ أي: هل تأخذون ذلك القنطار منها

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

﴿بُهْتَنًا﴾؛ أي: حالة كونكم باهتينَ وكاذبينَ عليها برميها بالفاحشة، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ أي: وحالة كونكم آثمين إثماً مبيناً؛ أي: ظالمينَ لها ظلماً، بيناً، ظاهراً، بأخذ مالها بغير استحقاق له؛ أي: لا تفعلوا ذلك، وقد كان من دَأبهم أنهم إذا أرادوا تطليقَ الزوجة، رَمَوها بفاحشة، حتى تَخافَ وتشتريَ نَفْسَها منه بالمهر الذي دَفَعه إليها، وأصل البهتان[1] الكذب الذي يواجهُ به الإنسان صاحبَه على جهة المكابرة، فيبْهَتُ المكذوبُ عليه؛ أي: يتحيَّرُ ثُمَّ سميَ كلُّ باطل يتحيّر من بطلانه بُهْتاناً.

ثم زاده إنكاراً آخر مبالغةً في التنفير من ذلك فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾؛ أي: وبأي وجه وسبب تأخذُون ذلك القنطار ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: والحال: أنه قد وَصَلَ، وألصقَ بعضكم أيُّها الأزواجُ والزوجات إلى بعض بالجماع الموجب للمهر، واجتمعتم في لحاف واحدٍ، ولاَبَس بعضكم بعضاً ملابسةً يتكوَّنُ منها الولد، فإنها قد بذلَتْ نفسَها لك، وجعلَتْ ذاتَها مَلاذك ومتمتعك، وحصلَت الألفة التامَّةُ بينكما، فكيف يليق بالعاقل أن يسترد منها شيئاً، فهذا لا يليق بمَنْ له طَبْعٌ سليم، وذوقٌ مستقيم؛ أي: إنَّ حالَ هؤلاء الذين يستحلون أخذَ مهور النساء إذا أرادوا مُفارقتَهن بالطلاق، لا لذنب جَنيْنَهُ، ولا لإثم اجترحنَه من الإتيان بفاحشة مبينة، أو عدم إقامة حدود الله، وإنما هو الرأي والهَوى، وكراهةُ معاشرَتِهن عجيب أيما عجب، فكيف يستطيبون ويجُوزون أخذَ ذلك منهن بعد أن تأكَّدَت الرابطة بين الزوجين بأقوى رباط حيوي بين البشر، ولابس كل منهما الآخر حتى صار كل منهما من الآخر بمنزلة الجزء المتمم لوجوده، فَبعد أن أفضى كل منهما إلى الآخر إفضاء، ولابسه ملابسةً يتكون منها الولد يقطع تلك الصلة العظيمة، ويطمع في مالها وهي المظلومة الضعيفة، وهو القادر على اكتساب المال بسائر الوسائل، التي هدَى الله إليها البشرَ.

وجملة قوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ معطوفة على جملة قوله:

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: وكيف تأخذونه، والحال: أن هؤلاء النساء، يعني زوجاتهم قد أخذن وجعلن عليكم ميثاقاً، وعهداً غليظاً؛ أي: شديداً وعاشرن معكم بذلك العهد. قال ابن عباس، ومجاهد: الميثاق الغليظ: كلمة النكاح المعقودة على الصداق، وهي الكلمة التي تستحلُّ بها الفروجُ، ويدل على ذلك ما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»، وقيل: هو قولُ العاقد عند العقد زوجتكها على ما أَخَذَ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، قاله قتادة.

وهذا الإسناد[1] مجاز عقلي من الإسناد للسبب؛ لأن الآخذ للعهد حقيقة هو الله سبحانه وتعالى، لكن بولغ فيه حتى جَعَل كأنهن الآخذاتُ له، والمعنى فكيف تأخذونه، والحال أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخذ وجعل عليكم أيُّها الأزواج بسببهن ميثاقاً غليظاً، وعهداً شديداً على التقوى في حقوقهن حيث قال: على لسان نبيه محمد ﷺ: «إتقوا الله في النساء» الحديث.

وقيل: الميثاق الغليظُ: المودةُ والرحمةُ المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فالإسناد على هذا حقيقي، والمعنى حينئذ: فكيف تأخذونه وقد أخذنَ وحَمَلْنَ أزواجكم بسببكم مودةً شديدةً وشفقة عجيبة.

فهذه آية من[2] آيات الفطرة الإلهية هي أقوى ما تعتمدُ عليها المرأةُ في ترك أَبوَيْها، وإخوتها وسائر أهلها، والاتصال برجل غريب عنها تَساهِمُهُ السرَّاءَ والضراءَ، وتسكن إليه ويَسْكُن إليها، ويكون بينهما من المودة أقوَى مما يكون بين ذوي القربى ثقةً منها بأنَّ صِلَتَها به أقوى من كل صلة، وعيشتَها معه أَهْنَأُ مِن كلِّ عيشة.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

هذه الثقة، وذلك الشعورُ الفطري الذي أودعَ في المرأة وجعلها تحسُّ بصلة لم تَعْهَدْ من قَبْلُ لا تَجِدُ مثلَها لدى أحد من الأهل، وبها تعتقد أنها بالزواج مقبلة على سعادة ليس وراءَها سعادة في الحياة، هذا هو المركوز في أعماق النفوس، وهذا هو الميثاق الغليظ، فما قيمة مَنْ لا يَفِي بهذا الميثاق، وما هي مَكانتُه من الإنسانية. وقد استدلوا[1] بذكر القنطار على جواز التغالي في المهور، وقد روي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ نهى على المنبر، أن يزاد في الصداق على أربع مائة درهم، ثم نَزلَ فاعترضَتْه امرأةٌ من قريش فقالت: أما سمعْتَ الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ فقال: اللهم عَفْواً كلُّ الناس أُفقَهُ من عُمَر، ثُمَّ رَجَع فركب المنبرَ، فقال إني كنت نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربع مائة درهم، فَمَنْ شاء أن يعطِيَ من ماله، فله ما أحبَّ.

هذا وإن الشريعة لم تحدِّدْ مقدار الصداق، بل تركَتْ ذلك للناس لتفاوتهم في الغنى والفقر، فكل يعطي بحسب حاله، لكن جاء في السنة: الإرشاد إلى اليسْر في ذلك، وعدم التغالي فيه.

فمن ذلك ما رواه أحمد، والحاكم، والبيهقي عن عائشة إنَّ مِنْ يُمْنِ المرأة تيسيرَ خِطْبَتِهَا، وتَيسِيرَ صداقها. وإن التغالِيَ في المُهور الآن، قد صار من أسباب قلة الزواج، وقلَّةِ الزواج: تُفْضِي إلى كثرة الزنا والفساد، والغَبْنُ أخيراً على النساء أكثَرُ، وإنّك لَتَرى هذه العادةَ متمكنة لدى بعض الناس، حتى إن وليَّ المرأة؛ ليمتنع عن تزويج بنته للكفء الذي لا يرجى من هو خيرٌ منه، إذا كان لا يعطيه ما يراه لائقاً بكرامته، ويزوجها لمن هو دونه ديناً وخُلُقاً ومن لا يَرجُو لها سعادة عنده إذا هو أعطاه الكثيرَ الذي يراه محققاً لأغراضه، وهكذا تَتحكم التقاليد والعادات حتى تفسدَ على الناس سعادتَهم، وتقوضَ نَظْمَ بيوتهن، وهم لها منقادون بلاَ تفكير في العواقب، فيالَها مصيبةً في دِيننا، ودُنيانا، وإنَا للَّهِ وإنا إليه راجعون.

---

(١) المراغي.

الإعراب

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾.

﴿وَٱلَّٰتِي﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللاتي﴾ اسم موصول للجمع المؤنث في محل الرفع، مبتدأ مبنى على السكون ﴿يَأۡتِينَ﴾ فعل وفاعل. ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ مفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يَأۡتِينَ﴾ ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر بالمبتدأ، جوازاً على رأي الجمهور لشبه المبتدأ بالشرط في كونه موصولاً عاماً، صلته فعل مستقبل. ﴿استشهدوا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾ متعلق به لـ﴿أَرۡبَعَةٗ﴾ مفعول به ﴿مِّنكُمۡۖ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿أربعة﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة، ويجوز[1] أن يكون الخبر محذوفاً، والتقدير: فيما يتلى عليكم حكم اللاتي فحذف الخبر، والمضاف إلى المبتدأ، للدلالة عليهما، وأقيم المضاف إليه مقامه، وهذا نظير ما فعله سيبويه في نحو ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ﴾ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾؛ أي: فيما يتلى عليكم حكم الزانية، ويكون قوله: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ وقوله ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ وقوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾ دالاً على ذلك المحذوف؛ لأنه بيان له اهـ «سمين».

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾.

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا امتثلتم ما أمرتكم به من الاستشهاد، وأردتم بيانَ حكم ما إذا أشهدوا. فأقول لكم. ﴿إن﴾ ﴿شَهِدُواْ﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿شَهِدُواْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعلَ شرط لها. ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿أمسكوهن﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿فِي

(١) الفتوحات الإلهية.

﴿ٱلۡبُيُوتِ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية من فعل شرطِها وجوابِها في محل النصب، مقول لـجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية. ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ فعل ومفعول وفاعل منصوب بـ﴿إن﴾ مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾ بمعنى إلى، تقديره. فأمسكوهن في البيوت إلى توفي الموت إياهن، والجار والمجرور متعلق بـ﴿أمسكوا﴾. ﴿أَوۡ﴾ حرف عطف بمعنى إلى ﴿أو﴾ بمعنى إلا. ﴿يَجۡعَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد، ﴿أَوۡ﴾ التي بمعنى إلى ﴿أو﴾ بمعنى إلا. ﴿لَهُنَّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يَجۡعَلَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿سَبِيلٗا﴾ مفعول أول لجَعَل، والجملة الفعلية صلةُ أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها، تقديره: فأمسكوهن في البيوت إلى توفي الموت إياهن أو جعل الله لهن سبيلاً.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾.

﴿وَٱلَّذَانِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية أو عاطفة. ﴿اللذان﴾ اسم موصول للمثنى المذكر في محل الرفع مبتدأ، مبني على ﴿الألف﴾ و﴿النون﴾ حرف زائد لشبه التثنية، أو مرفوع بـ﴿الألف﴾ على الخلاف المذكور في محله، هذا على قراءة تخفيف النون على أصل التثنية، ويقرأ[1] بتشديدها على أن إحدى النونين، عوض من اللام المحذوفة؛ لأن الأصلَ اللذيان مثل العَمَيَان والشجَيَان، فحذفت الياء؛ لأن الاسمَ مبهمُ، والمبهمات لا تثنى التثنيةَ الصناعيةَ، والحذف مؤذن بأن التثنيةَ هنا مخالفة للقياس، وقيل: حذفت لطول الكلام بالصلة، ذكره أبو البقاء. ﴿يَأۡتِيَـٰنِهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِنكُمۡ﴾ جار ومجرور حال من ضمير الفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر بالمبتدأ

(١) عكبري.

جوازاً لما في المبتدأ من العموم. ﴿آذوهما﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والرابط ضميرُ المفعول، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿واللاتي﴾ على كونها مستأنفة.

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذَا امتثلتم ما أمرتكم به من الإيذاء لهما، وأردتم بيانَ حكم ما بعد الإيذاء.. فأقول لكم. ﴿إن تابا﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿تَابَا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعلَ شرط لها. ﴿وَأَصْلَحَا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم معطوف على ﴿تَابَا﴾. ﴿فَأَعْرِضُوا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية. ﴿أعرضوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جوابَ الشرط. ﴿عَنْهُمَآ﴾ جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الجلالة. ﴿تَوَّابًا﴾ خبر أول لها. ﴿رَّحِيمًا﴾ خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة معللة للإعراض في محل الجر بلام التعليل المقدرة.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر. ﴿ٱلتَّوْبَةُ﴾ مبتدأ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، تقديره: إنما التوبة ثابتة، وواجبة على الله وجوبَ تفضل منه، وإنجاز وعد منه لا وجوبَ إلزام، وكلفة عليه، ولكن الكلامُ على حذف مضاف، تقديره: إنما قبول التوبة؛ لأن التوبةَ هنا مصدر لتاب عليه إذا قبل توبته، لا مصدر تاب العبد إلى الله، إذا رجعَ إلى طاعته، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لِلَّذِينَ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر، تقديره: إنما التوبة ثابتة، هي على الله حالةَ كونها كائنة للذين يعملون السوء. ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ فعل وفاعل ومفعول،

والجملة صلة الموصول. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ جار ومجرور حال من ضمير الفاعل، تقديره: حالةَ كونهم ملتبسين ﴿بجهالة﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب، ولكن التراخي المفهوم من ﴿ثم﴾ منفي بقوله: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾. ﴿يَتُوبُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يتوبون﴾ قال أبو حيان[1]: و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ تتعلق بـ﴿يتوبون﴾ وفيها وجهان: أحدهما: أنها للتبعيض؛ أي: بعضَ زمان قريب، ففي أي جزء من أجزاء هذا الزمان أتى بالتوبة.. فهو تائب من قريب، والثاني: أن تكون لابتداء الغاية؛ أي: يبتدىء التوبة من زمان قريب من المعصية لئلا يقع في الإصرار. ومفهومُ ابتداء الغاية. أنه لو تاب من زمان بعيد.. فإنه يخرج عن من خص بكرامة حتم قبول التوبة على الله المذكورة في الآية بـ﴿على﴾ بقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ انتهى.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية. ﴿أولئك﴾ مبتدأ. ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْۗ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكنه خبر سببي، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾. ﴿وَكَانَ﴾ الواو استئنافية. ﴿كان الله عليماً﴾ فعل ناقص، واسمه وخبره. ﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثان له، والجملة مستأنفة.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾.

﴿وَلَيْسَتِ﴾ الواو استئنافية. ﴿ليست التوبة﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿لِلَّذِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿ليس﴾ وجملة ﴿ليس﴾ مستأنفة. ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ﴾ ﴿حتى﴾ حرف ابتداء. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿حَضَرَ﴾ فعل ماض. ﴿أَحَدَهُمُ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ فاعل،

(١) البحر المحيط.

والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على أحدهم، وجملة ﴿قَالَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها غاية لما قبل ﴿حَتَّىٰٓ﴾، والتقدير: وليست التوبة لقوم يعملون السيئات، ويستمرون على ذلك، فإذا حضر أحدهم. قال كيتَ وكيتَ، وهذا[1] هو الوجه الحسن، ولا يجوز في ﴿حَتَّىٰٓ﴾ أن تكون جارةً لـ﴿إذا﴾؛ أي: يعملون السيئات إلى وقت حضور الموت من حيث إنها شرطية، والشرط لا يعمل فيه ما قبله، للزومه الصدارةَ، وإذا جعلنا ﴿حتى﴾ جارة تعلقت بـ﴿يعملون﴾ وأدوات الشرط لا يعملُ فيها ما قبلَها، ولأنَّ ﴿إذا﴾ لا تتصرف على المشهور، ذكره في «الفتوحات» ﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾ منصوب بفتحة مقدرة، منع من ظهورها اشتغالُ المحل بحركة الحكاية، وإن شئت قلت ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿والياء﴾ في محل النصب اسمها. ﴿تُبْتُ﴾ فعل وفاعل. ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ ظرف للزمن الحاضر في محل النصب على الظرفية مبني على الفتح لشبهه بالحرف، شبهاً معنوياً، لتضمنه معنى حرف التعريف، والظرف متعلق بـ﴿تبت﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل الجر معطوف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. ﴿يَمُوتُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الواو حالية. ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿كُفَّارٌ﴾ خبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَمُوتُونَ﴾. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ. ﴿أَعْتَدْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿اعتدنا﴾. ﴿عَذَابًا﴾ مفعول به. ﴿أَلِيمًا﴾ صفة له.

---

(١) الجمل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة ﴿والهاء﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع، أو في محل النصب صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، وجملة النداء مستأنفة. ﴿لَا يَحِلُّ﴾ ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يَحِلُّ﴾ فعل مضارع مرفوع. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به. ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لـ﴿يحل﴾ تقديره: لا يحل لكم إرث النساء كرهاً، وجملة ﴿لَا يَحِلُّ﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿كَرْهًا﴾ حال من النساء منصوب، ولكنه بعد تأويله بالمشتق تقديره مكرهات.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تَرِثُوا۟﴾ منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر مرفوع معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها. على كونه فاعلاً لـ﴿يحل﴾ تقديره: لا يحل لكم إرث النساء كرهاً ولا عضلهن. ﴿لِتَذْهَبُوا۟﴾ ﴿اللام﴾ لام كي. ﴿تذهبوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿بِبَعْضِ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وتعدية. ﴿بعض﴾ مجرور بـ﴿الباء﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿تذهبوا﴾، وجملة ﴿تذهبوا﴾ صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تعضلوا﴾ والتقدير: ولا تعضلوهن لذهابكم، وأخذكم بعض ما آتيتموهن من المهور، ﴿بعض﴾ مضاف. ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: ببعض ما آتيتموهن إياه، لأن ﴿آتى﴾ هنا بمعنى أعطى، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط الضمير المحذوف الذي هو المفعول الثاني. ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ﴾ ﴿إلا﴾ أداة استثناء من أعم الأحوال. ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْتِينَ﴾ فعل مضارع في محل النصب بأن المصدرية مبني على السكون لاتصاله ﴿بنون﴾ الإناث، و﴿نون﴾ الإناث في محل الرفع فاعل.

﴿بِفَاحِشَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ صفة لـ﴿فاحشة﴾ والجملة الفعلية صلة أن المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، ولكنه على تقدير مضاف، والتقدير: ولا يحل لكم أن تعضلوهن في حال من الأحوال إلا حالَ إتيانهن بفاحشة مبينة.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿عاشروهن﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ جار ومجرور متعلق به، أو متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿عاشروا﴾ تقديره: حالةَ كونكم ملتبسينَ بالمعروف. ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصَحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما أمرتكم به من المعاشرة بالمعروف، وأردتم بيانَ حكمِ ما إذا كرهتموهن، فأقول لكم. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فعل وفاعل، ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعلَ شرط لها. ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، لكون الجواب جملة جامدة. ﴿عسى﴾ فعل ماض تام. ﴿أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿عسى﴾ تقديره: فعسى وحق كراهتكم شيئاً. ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية؛ لأنه معطوف على ﴿تَكْرَهُواْ﴾. ﴿فيه﴾ جار ومجرور متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾. ﴿خَيْرًا﴾ مفعول أول له. ﴿كَثِيرًا﴾ صفة لـ﴿خَيْرًا﴾ والتقدير: فعسى كراهتكم شيئاً، وجعل الله فيه خيراً كثيراً، وجملة عسى في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿أَرَدتُّمُ﴾ فعل

وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها. ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿استبدال﴾ ﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ الواو واو الحال. ﴿آتيتم﴾ فعل وفاعل. ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ مفعول أول، ومضاف إليه. ﴿قِنطَارًا﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿أَرَدتُّمُ﴾ ولكنه على تقدير قد، كما أشرنا إليه في بحث التفسير. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية جوازاً. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَأْخُذُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به. ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي. ﴿تأخذونه﴾ فعل وفاعل ومفعول مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية، جملة استفهامية لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿بُهْتَـٰنًا﴾ حال من ضمير الفاعل. ﴿وَإِثْمًا﴾ معطوف عليه. ﴿مُّبِينًا﴾ صفة لإثم محذوف تقديره: أتأخذونه حالةَ كونكم باهتينَ آثمينَ إثماً مبيناً، ويجوز نصبهما على المفعول لأجله؛ كما ذكره أبو البقاء.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ﴾ الواو استئنافية. ﴿كيف﴾ اسم استفهام عن الحال في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تأخذون﴾ مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والاستفهام أيضاً للإنكار والتوبيخ. ﴿تَأْخُذُونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والمعنى أتأخذونه حالة كونكم ظالمينَ. قال أبو البقاء[1]: ﴿كيف﴾ في موضع نصب على الحال، والتقدير: أتأخذونه جائرينَ وهذا يتبين لك بجواب ﴿كيف﴾، فإذا قلت: كيف أخذت مال زيد، كان الجواب حالاً تقديره: أخذته ظالماً، أو عادلاً، ونحو ذلك، ويكون موضع كيف في الإعراب مثلَ موضع جوابها أبداً.

---

(١) العكبري.

انتهى. والجملة الفعلية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تأخذون﴾. ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أفضى﴾. ﴿وَأَخَذْنَ﴾ الواو عاطفة. ﴿أخذن﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَفْضَىٰ﴾. ﴿مِنكُم﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أخذن﴾. ﴿مِّيثَٰقًا﴾ مفعول به. ﴿غَلِيظًا﴾ صفة له.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ ﴿اللاتي﴾ جمع[1] التي بحسب المعنى دون اللفظ؛ كما مر في بحث التفسير، وفيه لغات: اللاتي: بإثبات التاء، والياء، واللات: بحذف الياء، وإبقاء الكسرة لتدل عليها، واللائي: بالهمزة، والياء. واللاء: بكسر الهمزة، وحذف الياء، ويقال في جمع الجمع: اللواتي واللوات واللواء والفاحشة الفعلية القبيحة وهي مصدر كالعافية، والعاقبة، وإتيانها فعلها، ومباشرتُها يقال: أتى الفاحشةَ يأتي إتياناً إذا فعلها وبَاشَرها.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾ ﴿الذان﴾[2] تثنية الذي وكان القياس: أن يُقال: اللذَيان كرحَيَان. قال سيبويه: حذفت الياء ليُفرقَ بين الأسماء المتمكنة، وبين الأسماء المبهمة، وقال أبو علي: حُذفت الياء، تخفيفاً، وقرأ ابن كثير ﴿اللذانّ﴾ بتشديد النون، وهي لغة قريش، وفيه لغة أخرى وهي: اللذا بحذف النون ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أمر للجماعة من آذى الرباعي، يقال: آذى الرجلَ يؤذيه إيذاءً أوصلَ إليه الأذى، ثلاثيه أُذِيَ من باب شَجِيَ، يقال: أذِيَ زيد يأذى أذىً، وأذاةً إذا أُصيبَ بأذى، والأذى والأذية والأذاة الضرر اليسير.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التوبة: مصدر تاب الله عليه توبةً إذا قبلَ توبتَه لا مصدر تاب العبد إلى الله بمعنى رجع إلى طاعته ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ يعم الكفر والمعاصيَ وغيرهما سمي بذلك، لأنه تسوء عاقبته ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أصل أعتدنا أعددنا، فأبدلت

---

(١) الشوكاني. (٢) الشوكاني.

الدال الأولى تاء ﴿كَرْهًا﴾ الكُره: بفتح الكاف، وضمها مع سكون الراء فيهما مصدران لكره الثلاثي المكسور العين، معناه الإباءُ والمشقَّة، وما أكره عليه الإنسان، وقيل: هو بالضم ما أكرهت نفسك عليه، وبالفتح ما أكرهَكَ عليه غيرك، ويقال: شيء كره؛ أي: مكروه، ورجلُ كره؛ أي: متكره، ووجه كره، أي: قبيح، وفعله كَرهاً، أي إكراهاً.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ يقال: عضل من باب نصر، والعضل التضييق، والشدة، ومنه: الداء العضال؛ أي: الشديد الذي لا نجاةَ منه، والفاحشةُ الفعلةُ الشنيعةُ الشديدة القبح كما مر آنفاً. والمبينة الظاهرة الفاضحة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقال: عاشرَه معاشرةً وعشرةً وتعاشَروا واعتشَروا عشرةً، والعِشرةُ الصحبةُ، والمخالطة، والمعروف هو مَا تألفه الطباعُ ولا يستنكره الشرعُ ولا العرفُ ولا المروءةُ ﴿قِنطَارًا﴾ القنطار: المالُ الكثيرُ، وقد تقدم الكلام عليه في أول سورة آل عمران فراجعه.

﴿بُهْتَانًا﴾ يقال: بهت يبهت بهتاً وبهتاناً من باب فتح إذا افترى عليه الكذبَ، فهو بهاتٌ، وبَهُوت، والبُهتان الكذب الذي يبهِّتُ المكذوبَ عليه، ويسكته متحيِّراً.

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: وصل إليها الوصول الخاص الذي يكون بين الزوجين، فيلابس كلٌّ منهما الآخرَ حتى كأنهما شيء واحد، والإفضاء[1] إلى الشيء الوصول إلى فضاء منه؛ أي: سعة غير محصورة، كقولهم: الناس فوضَى فَضَى؛ أي: مختلطون يباشر بعضهم بعضاً، ويقال: أفضى إليه إفضاءً، وهو رباعي من الثلاثي المزيد فيه بحرف، يقال: فضا يفضو فضاءً من باب دعا إذا اتسع، فألف أفضى منقلبة عن ياءٍ أصلها واو، والميثاق الغليظ: العهدُ المؤكدُ الذي يربطكم بهن أقوى رباط وأحكمه.

---

(١) البحر المحيط.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البيان والبديع:

منها: التجوزُ[1] باطلاق اسم الكل على البعض في قوله: ﴿يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ لأن أل في الفاحشة تستغرق كل فاحشةٍ، وليس مراداً، وإنما أطلق اسمُ الكل على البعض تعظيماً لقبحة، وفحشه؛ كأنه لا فاحشةَ إلاَّ هو، فإنَّ كان العرف في الفاحشة الزنا، فليس من هذا الباب إذ تكونُ الألفُ واللام فيه للعهد.

ومنها: التجوزُ بأن يُرادَ من المطلق بعض مدلوله في قوله: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ إذا فسر بالتعيير، أو بالضرب بالنعال، أو الجمع بينهما، وبقوله: ﴿سَبِيلًا﴾ والمراد الجلد، أو رجمُ المحصن، وبقوله ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾: أي: اتركوهما.

ومنها: المجاز العقليُّ بإسناد الفعل إلى غير فاعله في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾: والمرادُ يتوفاهن اللَّهُ أو ملائكته، وفي قوله: حَتَى إذا حضر أحدهم الموت؛ أي: علاماتُه ومقدماتُه.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَإِن تَابَا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾.

ومنها: التجنيسُ المماثل في قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا﴾.

ومنها: التكرار - أي: الإطناب - في اسم الله في مواضع، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾ ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾، وفي قوله: ﴿اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾.

ومنها: إطلاق المستقبل على الماضي في قوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ و﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ﴾، و﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ و﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾.

ومنها: الإشارة والإيماء في قوله: ﴿كَرْهًا﴾ فإن تحريمَ الإرث كُرْهاً يومىء إلى جوازه طوعاً، وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾.

ومنها: الإيماء أيضاً في قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾

---

(١) البحر المحيط.

ففيه إشارة إلى أن له أن يَعْضلَها على غير هذه الصفة لمصلحة لها تتعلَّقُ بها، أو بمالها.

ومنها: المبالغةُ في تفخيم الأمر وتأكيده في قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ عظم الأمر حتى يُنتهى عنه.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ استعار الأخذ للوثوق بالميثاق، والتمسك، والميثاق معنى لا يتهيأ فيه الأخذ حقيقةً، وفيه أيضاً استعارة لفظ الميقاق للعقد الشرعي، كما قال مجاهد: الميثاقُ الغليظُ: عُقدةُ النكاح، وفي هذا[1] الإسناد أيضاً مجاز عقلي، لأنَّ الآخِذَ للعهد هو الله؛ أي: وقد أخذ الله عليكم العهد لأجلهن، وبسببهن فهو مجازَ عقلي من الإسناد إلى السبب كما مرَّ.

ومنها: تسمية الشيء بما يؤول إليه في قوله: ﴿أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ سمي تزويجُ النساء أو مَنْعُهن للأزواج إرثاً، لأن ذلكَ سببُ الإرث في الجاهلية.

ومنها: الطباق المعنوي في قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: وقد فسر الخير الكثير بما هو محبوب.

ومنها: الحذف في مواضع لا يتم المعنى إلا بها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ...﴾ مناسبة هاتين الآيتين لِمَا قبلهما: أنه لما بين[١] الله سبحانه وتعالى، وذَكَرَ في أوائل السورة حكم نكاح اليتامَى، وعددَ مَنْ يحل من النساء، والشرطَ في ذلك، وبيَّن حكم استبدال زوج مكان زوج، وما يجبُ من المعروف في معاشرتهن.. أَرْدَف ذلك ببيان ما يحرمُ نكاحه من النساء اللواتي، لا يجوز الزواجُ بهن بسبب القرابة، أو الرضاع، أو المصاهرة، أو بغير ذلك.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[٢] ابن جرير، قال: حَدَّثني محمد بن عبد الله المخرمي قال: حدثنا قراد، قال: حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأةَ الأب والجمعَ بين الأختين، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾.

---

(١) المراغي.

(٢) الطبري.

وأخرج الطبراني[1] أيضاً، وابن أبي حاتم، والفريابي، عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار، قال توفي أبو قيس بن الأصلت، وكان من صالحي الأنصار فَخَطَب ابنُه قيس امرأتَه، فقالت: إنما أعدُك ولداً، وأنت من صالحي قومك، فأتت النبي ﷺ فأخبرته فقال: ارجعي إلى بيتك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ...﴾ سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن جرير، عن ابن جريج قال: قلت لعطاء ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ ما سببها قال: كنا نتحدث أنها نزلت في محمد ﷺ حِينَ نكح امرأةَ زيد بن حارثة، قال: المشركون في ذلك فنزلت: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ ونزلت: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ونزلت ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

التفسيرُ وأوجه القراءة

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾؛ أي: ولا تتزوجوا أيها المؤمنون ﴿مَا نَكَحَ﴾، وتزوج ﴿ءَابَآؤُكُم﴾ من نسب أو رضاع، حقيقةً أو بواسطة، فيشمل الأجدادَ، وإن علوا ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وسَبَقَ منكم في الجاهلية قبل نزول آية التحريم من نكاح زوجات الآباء فإنه معفوٌّ عنه لا مؤاخذةَ عليكم به.

والخلاصة: أنكم تستحقُّون العقابَ بنكاح ما نكح آباءكم إلا ما قد سلف، ومَضَى فإنه مفعو عنه، وهذا شروع[3] منه في بيان من يحرم نكاحها من النساء، ومن لا يحرم، وإنما خَصَّ هذا النكاحَ بالنهي، ولم ينتظم في سلك نكاح المحرمات الآتية مبالغةً في الزجر عنه حيث كانوا مُصِرّينَ على تعاطيه، وكانَ فاشياً في الجاهلية، وقد ذَمَّهُ الله أقبحَ ذم، فسماه فاحشةً، وجَعَلَه مبغوضاً أشدَّ البغض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وجمهور المفسرين كان أهلُ الجاهلية

---

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.
(٣) أبو السعود.

يتزوجون بأزواج آبائهم فنهُوا عن ذلك.

ومن المعلوم أنَّ المحرمات بالمصاهرة أربعُ: زوجةُ الأب، وزوجة الابن، وأم الزوجة، وبنتُ الزوجة، وكلُّها يحصل فيها التحريمُ بمجرد العقد، وإن لم يحصل دخول إلا الربيبةَ، فلا تحرم إلا بشرط الدخول بأمها، وهذا يُستفاد من الآية، فإنها لم تقيد بالدخول إلا في الربيبة على ما سيأتي.

واختلفوا في ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ والظاهر أنها موصولة كما فسَّرْنَا أوَّلاً، والمعنى، ولا تنكحوا المرأةَ التي نَكَحَهَا آباؤكم من النساء، فإنه موجب للعقاب، إلا ما قد مضى قبل نزول آية التحريم، فإنه معفو عنه، وقيل: ﴿ما﴾ مصدرية. والمعنى حينئذٍ: ولا تنكحوا نكاح آبائكم؛ أي: نكاحاً كنكاح آبائكم في البطلان، فإن أنكحتَهم كَانَتْ بِغَيْرِ وليّ وشهود وكانت مؤقَّتة، وعلى سبيل القهر، وهذا الوجه منقول، عن محمد بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية.

وقيل: لا تزوجُوا امرأةً وطِئها أباؤكم بالزنا إلا ما قد سلف من الأب في الجاهلية من الزنا بامرأة، فإنه يجوز للابن تزوجُها كما نُقِل هذا المعنى عن ابن زيد، وكما قال أبو حنيفة: يحرم على الرجل أن يتزوَّجَ بمزنِيَّةِ أبيه، لهذه الآية. وقال الشافعي: لا يحرم؛ لأنه لا اعتبار بوطء الزنا ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: إن نكاح زوجات الآباء وحلائِلهم ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾؛ أي: قبيحاً من أقبح الفواحش لأنَّ زوجةَ الأب بمنزلة الأم، فكانت مباشرتُها كمباشرة الأم، فهي من أقبح المعاصي، وأفحش الفواحش تمجه الأذواقُ السليمةُ، وتقشعرّ منه العقول الصحيحة، ﴿و﴾ كان ﴿مقتاً﴾؛ أي: ممقوتاً مبغوضاً عند الله، وعند ذوي المروءات من الجاهلية وغيرهم، وأنه لم يَزَلْ في حكم الله تعالى، وعلمه موصوفاً بذلك ما رَخَّص فيه لأُمةٍ من الأمم من لدن آدم، وكانت العربُ تقول لولد الرجل من امرأة أبيه. مقتيّ نُسبة إلى المقت، وهو أشدُّ الغضب، وكان منهم[1] الأشعثُ

(١) الخازن.

بن قيس، وأبو معيط ابن أبي عمرو بن أمية، ﴿وَسَآءَ﴾ ذلك النكاح، وقَبُحَ ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً، ومَسْلَكاً تَسْلُكه الجاهليةُ، روى[1] البغوي بسنده عن البراء بن عازب، قال: مر بي خالي، ومعه لواء فقلت أين تذهَب؟ قال: بعثني النبي ﷺ إلى رجل تزوَّج امرأةَ أبيه آتيهِ برأسه.

قيل: مراتب القبح[2] ثلاث: القبح العقلي، والقبح الشرعي، والقبح العادي، وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكل ذلك، فقوله: ﴿فَٰحِشَةً﴾ مرتبة قبحه العقليّ، وقوله: ﴿وَمَقْتًا﴾ مرتبة قبحه الشرعي، وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ مرتبة قبحه العادي، وما اجتمعَتْ فيه هذه المراتبُ. فقد بَلغ أَقْصى مراتب القبح.

ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى المحرمات من النساء فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾؛ أي: نكاحهن، وتلك المحرمات أربعةُ أقسام:

القسمُ الأول: المحرماتُ بالنسب، وهي سبع مذكورة، كُلُّها في الآية الأمهاتُ، والبناتُ، والأخواتُ، والعمَّاتُ، والخالات، وبناتُ الأخ، وبنات الأخت.

والقسم الثاني: المحرمات بالرضاع، وهي السبع المذكورة في النسب لحديث عائشة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ قال: «يحَرمُ من الرضاع ما يحرم من الولادة». أخرجاه في «الصحيحين». ذَكَر منها في هذه الآية اثنتين: الأمهاتُ من الرضاع، والأخوات من الرضاع.

والقسم الثالث: المحرمات بالمصاهرة، وهي أربعة أصناف: ذكر منها في هذه الآية ثلاثةً: أمهاتُ النساء، والربائبُ، وحلائلُ الأبناءِ، والرابعةُ: منها حلائلُ الآباء، وذكرها في الآية قبل هذه بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾.

والقسم الرابع: المحرماتُ بسبب عارض إذا زال السببُ، وهو الجَمْعُ زال التحريمُ، وهي ثلاثة، ذَكَرَ منها في الآية واحدة، وهي الجمعُ بين الأختين،

---

(١) الخازن. (٢) الرازي.

والجمع بين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها.

فجملة المحرمات المذكورة إحدى وعشرون، والثانية والعشرون، أزواجُ النبي ﷺ وذكرها في سورة الأحزاب بقوله جلّ وعلا ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

فجملةُ المحرمات بنصِّ الكتاب خمسةَ عَشَرَ، ذَكَرَ منها أربعةَ عشرَ في هذه الآية، والتي قبلها، وواحدةً في سورة الأحزاب. فقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ وهي جمع أم، والأم[1] هي كل امرأة رجع نسبك إليها، سواء كانت من جهة الأم، أو من جهة الأب، وسواء كانت بدرجة، وهي الأم حقيقةً أو بدرجات، وهن الجدات، وإن عَلَوْنَ فيحرم نكاحُ الأم، وجميع الجدات، وإن لم تكن وارثةً كأم أبي الأم ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ جمع بنت، وهي كل أنثى رَجَعَ نَسَبُها إليكَ بالولادة بدرجة كبنت الصلب، أو بدرجات بإناث خلص، كبنت بنت البنت، وإن سفلت، أو بذكور كبنت ابن الابن، وإن سفل ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ جمع أخت، وهي كل امرأة شاركتك في أصلك، فتدخل فيها الأخوات الأشقاء، والأخوات لأب، والأخوات لأم ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ جمع عمة، وهي كل امرأة شاركَتْ أبَاك في أصله، وإن علا، فتدخل فيها جميع أخوات الأب، وأخوات آبائه، وإن علوا، وقد تكون العمة من جهة الأم أيضاً، وهي أخت أبي الأم ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ جمع خالة، وهي كل امرأة شاركَتْ أمك في أصلها، فيدخل فيها جميع أخوات الأم، وأخوات أمهاتها، وقد تكون الخالةُ من جهة الأب أيضاً، وهي أخت أم الأب ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾، وهي كل امرأة لأخيك عليها ولادة، ويرجع نسبها إلى الأخ، فيدخل فيها جميعُ بنات أولاد الأخ، وإن سفلنَ ﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ وهي كلُّ امرأة لأختك عليها ولادة، ويرجع نسبُها إلى الأخت، فيدخل فيها جميع بنات أولاد الأخت، وإن سفلنَ، فهذه الأصناف السبعة محرمة بالنسب بنص الكتاب، وهي **القسمُ الأول** من الأقسام الأربعة السابقة.

---

(١) الخازن.

والقسم الثاني: المحرماتُ بالرضاع، وهي السبع المذكورة في النسب كما سبق.

وذَكَرَ الأولى منها بقوله: ﴿و﴾ حرمت عليكم ﴿أمهاتكم التي أرضعنكم﴾ في الحولين خمسَ رضعاتٍ متفرقات عند الشافعي، وأحمد بن حنبل، وقال أبو حنيفة ومالك: يحصل التحريمُ بمصة واحدة، وفاقاً للأوزاعي، والثوري، وعبد الله بن المبارك، كما هو مذهب ابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن المسيب.

وأم الرضاع هي[1] كل امرأة أرضعَتْك، أو أرضعت من أرضعتك أو أرضعَتْ من ولدك بواسطة، أو بغيرها، أو ولدت مرضعتَك، أو ذا لبنها، وهو الفحلُ بواسطة أو غيرها.

وذكَرَ الثانيةَ منها بقوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ﴾، وهي كل امرأة أرضعَتْها أمك، أو ارتضعت بلبن أبيك، أو ولدَتْها مرضعتُك أو الفحلُ.

وإنما نص الله سبحانه وتعالى على ذكر الأم، والأخت من الرضاع، ليَدُلَّ بذلك على بقية المحرمات من الرضاع، وتنبيهاً على أن الرضاع يجري مجرى النسب في التحريم كما بينته السنة.

والثالثة من محرمات الرضاع: العمة، وهي[2] أخت الفحل، وأختُ ذكر ولده بواسطة أو بغيرها من نسب أو رضاع.

والرابعة منها: الخالة وهي أختُ المرضعة، وأخت أنثى ولدَتْها بواسطة، أو بغيرها من نسب، أو رضاع.

والخامسة منها: بنت الرضاع، وهي كل من ارتضعَتْ بلبنك، أو بلبن من ولدته بواسطة أو بغيرها.

والسادسة منها: بنت أخ الرضاع، وهي بنت ولد المرضعة، أو الفحل من نسب، أو رضاع، وإن سفلَتْ ومَن ارتضعت بلبن أخيك، وبنتُها بنسب أو رضاع،

---

(١) المحلى على المنهاج.

(٢) المحلى على المنهاج.

وإن سفلَتْ.

والسابعةَ: بنت أخت الرضاع، وهي بنتُ بنت المرضعة، أو الفحل من نسب أو رضاع، وإن سفلت، ومن ارتضعت أختَك، وبنتُها من نسب أو رضاع، وإن سفلت، وكذا بنت أنثى أرضعَتْها أُمُّك أو ارتضعت بلبن أبيك.

وقرأ الجمهور ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ وقرأ عبد الله ﴿اللايَ﴾ بالياء، وقرأ ابن هُرْمُز التي، وقرأ أبو حَيْوة من الرِّضاعة بكسر الراء.

فصل في ذكر نبذة من أحكام الرضاع وأحاديثه

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في بنت حمزة: «إنها لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، وإنها ابنةُ أخي من الرضاعة». متفق عليه. فدل الحديث بمنطوقه على حرمة بنت أخ الرضاع، فكُلُّ مَنْ حرُمت بسبب النسب حُرِّمَ نظيرُها بسبب الرضاعة.

وإنما سمَّى الله تعالى المرضعات أمهات، لأجل الحرمة، فيحرم عليه نكاحُها، ويحلُّ له النظر إليها، والخلوة بها والسفرُ معها، ولا يترتَّبُ عليه جميعُ أحكام الأمومة من كل وَجه، فَلاَ يتوارثان، ولا تَجِبُ على كل واحد منهما نفقةُ الآخر، وغير ذلك من الأحكام وإنما تثبت حرمة الرضاع بشرطين:

أحدهما: أن يكونَ إرضاع الصبي في حال الصغر، وذلك إلى انتهاء سنتين من ولادته لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾.

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاءَ في الثدي، وكان قبل الفطام». أخرجه الترمذي.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لا رضاعةَ إلا ما كان في الحولين. أخرجه مالك في الموطأ بأطْوَل من هذا، وأخرجه أبو داود مختصراً قال: قال عبد الله بن مسعود لا رضاعَ إلا ما شَدَّ اللحم وقال أبو حنيفة: مدة الرضاع

ثلاثون شهراً لقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وحمله الجمهور على أقلّ مدة الحمل، وأكثر مدة الرضاع، لأن مدةَ الحمل داخلة فيه، وأقله ستة أشهر.

والشرط الثاني: أن يوجد خمسُ رضعات متفرقات، رويَ ذلك عن عائشة رضي الله عنها وبه قال عبد الله بن الزبير، وإليه ذهب الشافعي، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، ويدل على ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «لا تحرم المصةُ ولا المصَّتَان». أخرجه مسلم.

وعن أم الفضل رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا تحرم الإملاجَةُ ولا الإملاجَتَان». أخرجه مسلم أيضاً. وفي رواية: إن رجلاً من بني عامر بن صعصعة قال: يا نبي الله، هل تحرّم الرضعة الواحدة، قال: «لا».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن، عشرُ رضعات معلومات، يُحَرِّمْنَ، ثم نُسخت؛ أي: حكمُها بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهنَّ فيما يُقْرأُ من القرآن، أخرجه مسلم.

يحتمل أنه لم يبلغها نسخ تلاوتها، وأجمعوا على أن هذا لا يُتْلَى فهو ممَّا نسخ تلاوتُه، وبقي حُكْمُه وقد غَلَب على الناس التساهلُ في أمر الرضاعة، فيُرضِعُون الولدَ من امرأة، أو من عدة نسوة، ولا يهتمونَ بمعرفة أولاد المرضعة، وأخواتها، ولا أولاد زوجها من غيرها، وإخوته ليعرفوا ما يترتب عليهم في ذلك من الأحكام، كحرمة النكاح، وحقوق القرابة الجديدة التي جعلَها الشارع كالنسب، فكثيراً ما يتزوَّج الرجل أختَه، أو عمَّتَه، أو خالتَه من الرضاعة، وهو لا يَدْرِي.

والقسمُ الثالث من المحرمات: ما يحرم بالمصاهرة، وهي أربعةُ أصناف، كما سبق:

الأولى منها: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ حرمت عليكم ﴿أمهات نسائكم﴾؛ أي: أمهات حلائلكم من نسب، أو رضاع بواسطة، أم بغير واسطة، سواء دخل بزوجته أم لم يدخل بها، بل يكفي مجرد العقد عليها، وبهذا قال جمهور

الصحابة ومن بعدهم، وعليه المذاهب الأربعة.

والثانية منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَ﴾ حُرِّمَت عليكم ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾؛ أي: بَنَاتُ نسائكم ﴿ٱلَّٰتِي﴾ ربيتموهن وأدبتموهن ﴿فِي حُجُورِكُم﴾، وبيوتكم حالةَ كونهن كائنات ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ أي: جامعتموهن سواءٌ كانَ بعقد صحيح، أو فاسد يجب لها به الصداقُ، وتجبُ عليها العدةُ ويَلحَقُ به الولدُ. والربائب جمع ربيبة، وهي بنتُ المرأة من رجل آخر، سُمِّيَتْ رَبيبةً لتربيتِها في حجر الرجل، وقوله: دخلتم بهن كنايةٌ عن الجماع، لا نفسُ العقد، فيحرم على الرجل بناتُ امرأته، وبناتُ أولادها، وإن سَفلْنَ من النسب، أو الرضاع بعد الدخول بالزوجة، فلو فارق زوجتَه قبل الدخول بها، أو ماتَتْ قبل دخوله بِهَا جَازَ له أن يتزوَجَ بنتَها، ولا يجوز أن يتزوجَ أمَّهَا؛ لأنَّ الله أطلق تحريمَ الأمهات، وعلَّق تحريمَ البنات بالدخول بالأم، ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ أي: بنسائكم، كأن عَقَدَ عليها النكاحَ، وفارقها قبل الدخول، أو ماتَتْ كما مر آنفاً ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: لا حَرَجَ ولا منعَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في نكاح الربائب بعد طلاق أمها أو موتها.

والثالثة منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَ﴾ حرمت عليكم ﴿حلائل أبنائكم﴾، أي نساءُ أولادِكم ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾؛ أي: من أولاد فِراشِكم دُونَ نساء الأولاد الأدعياء الذين تبنيتم، وأمَّا حلائل أبناء الرضاع فعلم تحريمهن بالسنة، وإن كان مقتضَى مفهوم الآية تحليلهن، والحلائلُ جمع حليلة، وهي الزوجةُ، والرجل حليلُ سميا بذلك؛ لأن كلَّ واحد منهما يَحِلُّ لصاحبه، وقيل: لأنَّ كل واحد منهما يَحُلَّ إزارَ صاحبه من الحَلِ بفتح الحاء بمعنى الفكّ.

ويدخل في الأبناء أبناءُ الصلب مباشرةً أو بواسطة كابن الابن، وابن البنت، فحلائلُهما تحرم على الجد كما يدخل الابن من الرضاعة، فتحرم حليلته لما تقدم من قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

والرابعة: من هذا القسم حلائل الآباءِ، وذكرها بقوله: في الآية السابقة ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾.

والقسم الرابع من المحرمات: ما يحرم بسبب عَارِض، وقد تقدم لك أنه ثلاثة أصناف:

ذَكَرَ منها واحدة: في هذه الآية بقوله: ﴿و﴾ حرم عليكم ﴿أن تجمعوا بين الأختين﴾؛ أي: وحرم عليكم أيها المؤمنون الجمع بين الأختين بنسب، أو رضاع في الاستمتاع الذي يراد به الولد، وهو الجماع لا في نفس ملك اليمين، والمذاهب الأربعة متفقة على تحريم الاستمتاع بالأختين بملك اليمين، أو بالنكاح، أو بالنكاح والملك كأن يكون مالكاً لأحدهما، ومتزوجاً للأخرى، فيحرم عليه أن يَسْتَمْتِعَ بهما، ويجب عليه أن يحرم إحداهما على نفسه، كأن يعتق المملوكة، أو يهبها. وقال الشافعي: نكاح الأخت في عدة الأخت البائن جائز؛ لأنه لم يوجد الجمع.

والثانية منها: الجمع بين المرأة وعمتها.

والثالثة: الجمع بين المرأة وخالتها. ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها». أخرجاه في «الصحيحين».

والعلة في تحريم جمع هؤلاء إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله تعالى بوصَله من الرّحم، لِمَا يوجد بينهما بسبب الجمع من التباغض، والتحاسُد، كما هو شأن الضرتَينِ كما يدل عليه قوله ﷺ: «فإنكم إن فعلتم ذلك قَطَعْتُمْ أرْحَامَكم».

والضابط لذلك: أنه يحرم الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابةٌ لو كانت إحداهما ذكراً. لحرُمَ عليه بها نكاح الأخرى. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ أي: لكن ما قد مضى، ووقع منكم من الجمع بينهما قبلَ نزول التحريم، فمغفور لكم، لا تؤاخَذون عليه بعد الإسلام، وقد كانوا في الجاهلية يجمعون بين الأختين مثلاً كما يدل على ذلك ما أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه عن الضحاك بن فيروز الديلمي عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، إني أسلمتُ وتحتي أختان، قال: «طَلِّقِ أيتَهما شئتَ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن أهلَ الجاهلية كانوا يحرمونَ ما حرم الله إلا امرأةَ الأب والجَمعُ بين الأختين، كما سبق، ثم علَّل الاستثناء بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لكم بما وقع منكم في الجاهلية من المحرمات المذكورة ﴿رَّحِيمًا﴾ بكم حيث سامَحَ وعَفا لكم ما قد وقع منكم في الجاهلية، فلا يؤاخِذُكم بما سلفَ منكم في زمن الجاهلية، إذا أَنتم عملتم بشريعة الإسلام، ومِن مغفرته أَنْ يمحوَ من نفوسكم آثارَ الأعمال السيئة، ويغفرَ لكم ذنوبَكم إذا أنبتم إليه، ومن رحمته أَنْ شَرَعَ لكم من أحكام النكاح ما فيه المصلحةُ لكم، وتوثيق الروابط بَيْنَكم لتتراحَموا، وتتعاوَنُوا على البرّ والتقوى.

الإعراب

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

﴿وَلَا﴾الواو استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَنكِحُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿مَا نَكَحَ﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره ما نكحه أباؤكم ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ جار ومجرور، حال من ﴿ما﴾ الموصولة ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿إلا﴾ أداة استثناء منقطع، ووجه الانقطاع أن المستثنى ماض، والمستثنى منه مستقبل، لأن[1] النهي للمستقبل، وما سلف ماض، فلا يكون من جنسه، وهو في موضع نصب، ومعنى المنقطع: أنه لا يكون داخلاً في الأول، بل يكون في حكم المستأنف، وتُقدَّرُ إلا فيه بلكن، والتقدير هنا: ولا تتزوجوا مَنْ تزوَّجَه أباؤكم، ولا تطؤوا مَنْ وطئهُ أباؤكم، لكن ما سلف من ذلك فمعفو عنه ذكره أبو البقاء. ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿سَلَفَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على

(١) العكبري.

﴿ما﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب. و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿الهاء﴾ في أنه العائد على نكاح نساء الآباء. ﴿فَٰحِشَةً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة كان في محل الرفع خبر إن، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المعللة للنهي المذكور قبلها ﴿وَسَآءَ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿ساء﴾ فعل ماض من أفعال الذم وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً مبهم يفسره التمييز المذكور بعده تقديره: هو يعود على ﴿سبيل﴾ نكاح نساء الآباء ﴿سَبِيلًا﴾ تمييز له، وجملة ﴿ساء﴾ في محل الرفع خبر مقدم لمبتدأ محذوف الذي هو المخصوص بالذم تقديره: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ ذلك السبيل، والجملة الاسمية، أو جملةُ ﴿ساء﴾ من الفعل، والفاعل في محل الرفع معطوف على جملة ﴿كَانَ﴾ وقيل[1]: إن الضمير في ﴿ساء﴾ عائد على ما عاد إليه الضميرُ قبلَ ذلك، و﴿سَبِيلًا﴾ تمييز منقول من الفاعل والتقدير: ساء سبيله.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿حُرِّمَتْ﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به. ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ نائب فاعل، ومضاف إليه والجملة مستأنفة ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ معطوف على ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ وكذا قوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾: معطوفات على ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾: ﴿ٱلَّٰتِىٓ﴾: صفة ﴿لأمهاتكم﴾: ﴿أَرْضَعْنَكُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿وَأَخَوَٰتُكُم﴾: معطوف أيضاً على ﴿أمهاتكم﴾ الأولى، جرياً على القاعدة المشهورة عندهم: أنه إذا كثرت

(١) الجمل.

المعطوفات، وكان العطف بالواو يكون العطف على الأول منها ﴿مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ﴾: جار ومجرور، حال ﴿من أخواتكم﴾ ﴿وَأُمَّهَـٰتُ﴾: معطوف أيضاً على ﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ الأولى، وهو مضاف ﴿نِسَآئِكُمْ﴾: مضاف إليه ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ﴾: معطوف على ﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ أيضاً، ومضاف إليه ﴿ٱلَّـٰتِى﴾: صفة لـ﴿ربائبكم﴾ ﴿فِى حُجُورِكُم﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة الموصول تقديره: اللاتي رُبِّيْنَ في حجوركم ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه حال من ﴿ربائبكم﴾ وإن شئت قلت: حال من الضمير في الجار والمجرور الذي هو صلة تقديره: اللاتي استقَرَرْنَ في حجوركم كائنات من نسائكم ﴿ٱلَّـٰتِى﴾: صفة لـ﴿نسائكم﴾ المذكور قبله المجرور بـ﴿من﴾ ﴿دَخَلْتُم﴾: فعل وفاعل ﴿بِهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة: صلة الموصول ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حكم الربائب اللاتي دخلتم بأمهاتهن، وأردتم بيانَ حكم الربائب اللاتي لم تدخلوا بأمهاتهن.. فأقول لكم ﴿إن لم تكونوا﴾ إن حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَكُونُوا۟﴾؛ فعل ناقص واسمه مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿دَخَلْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِنَّ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب خبر ﴿تَكُونُوا۟﴾ تقديره: فإن لم تكونوا داخلين بهن وجملة ﴿تَكُونُوا۟﴾: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعْلَ شرط لها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ﴿إن﴾. ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾ وجملة لا من اسمها وخبرها: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿وَحَلَـٰٓئِلُ﴾ معطوف على ﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ الأولى وهو مضاف. ﴿أَبْنَآئِكُمُ﴾: مضاف إليه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل الجر صفة لأبنائكم ﴿مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه صلة الموصول تقديره: الذين كانوا من أصلابكم ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟﴾: الواو عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَجْمَعُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على

﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الأولى تقديره: حرمت عليكم أمهاتكم وجمعكم ﴿بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تجمعوا﴾ ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿سَلَفَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والاستثناء منقطع كما مر نظيره ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الجلالة. ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المعللة للاستثناء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ يقال: سَلَفَ يَسْلُف سلفاً، وسُلوفاً من باب قعد: إذا مضى، وتقدم وسبق يقال سَلَف له عمل صالح إذا تقدم وسَبقَ ﴿فَٰحِشَةً﴾؛ أي: شديدَ القبح ﴿مقتا﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: ممقوتاً مبغوضاً عِندَ ذوي الطباع السليمة، ومن ثَمَّ كانوا يسمونه نكاح المقتِ، ويسمى الولد منه مقيتاً؛ أي: مبغوضاً محتقراً، فالمقت: البغض المقرونُ باستحقار حَصَل بسبب أمر قبيح ارتكبه صاحبه. قاله أبو حيان. ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾: ساء من أفعال الذم بمعنى بئس، والمعنى: بئس طريقاً ذلك الطريقُ الذي اعتادوا سلُوكَهُ في الجاهلية، وبئس مَنْ يسلُكَهُ، لم يَزِدْهُ السيرُ فيه إلا قبحاً.

﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الأمهات[1] جمع أم، فالهاء زائدة في الجمع، فرقا بين العقلاء، وغيرهم. يقالَ في العقلاء: أمهات، وفي غيرهم أمات، وقد يقال: أمات في العقلاء، وأمهات في غيرهم، وقد سمع أمهه في أم بزيادة ﴿الهاء﴾ قبل ﴿هاء﴾ التأنيث، وعلى هذا يجوز أن تكون ﴿أمهات﴾ جمع أمهه المزيد فيها الهاء، والهاء قد أتت زائدة في مواضع ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ لام[2] الكلمة محذوف،

---

(١) الجمل. (٢) العكبري.

ووزنه فعاتكم، والمحذوف واو أو ياء فَأَمَّا بنت. فالتاء فيها بدل من اللام المحذوفة، وليسَت تاءَ التأنيث؛ لأن تاءَ التأنيث لا يسكَّن ما قبلها، وتقلب هاءً في الوقف، فبناتُ ليس بجمع بنت، بل جمع بَنَةٍ، وكسرت الباء تنبيهاً على المحذوف هذا عند الفراء، وقال غيره: أصلها الفتح، وعلى ذلك جاء جمعها ومذكرها. وهو بنون، وهو مذهب البصريين ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ جمع[1] أخت، فالتاء فيها بدل من الواو؛ لأنها من الأخوة؛ فإن قيل: لم ردَّ المحذوف في أخوات، ولم يردَّ في بناتٍ؟

أجيب: بأنه حمل كل واحد من الجمعَين على مذكره، فمذكرُ بنات لم يَرُدَّ فيه المحذوفُ بل جَاءَ نَاقصاً، قالوا: بَنون، وقالوا: في جمع أخ، إخوَةٌ، وإخوانُ فَردَّ المحذوف ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾: جمع عمة، والعمة تأنيث العم، وهي أخت الأب ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾: جمع خالة، والخالة تأنيث الخال، وألفه منقلبة عن واو لقولهم في جمع خال: أخوال، ورجل مخول؛ أي: كريمُ الأخوال ﴿وَرَبَائِبُكُمُ﴾: جمع ربيبة، والربيبة بنت زوج الرجل من غيره ﴿فِي حُجُورِكُم﴾: جمع[2] حِجْرٍ، بفتح الحاء وكسرها، والحجر مقدم ثوب الإنسان، وما بين يديه في حال اللبس، ثم استعملت اللفظة في الحفظ؛ لأن اللابس إنما يحفظ طفلاً، وما أشبهه في ذلك الموضع من الثوب، ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾: جمع[3] حليلة، والحليلة: الزوجة، والحليل: الزوج. قال الشاعر:

أَغْشَىٰ فَتَاةَ ٱلْحَيِّ عِنْدَ حَلِيْلِهَا وَإِذَا غَزَا فِيْ ٱلْجَيْشِ لاَ أَغْشَاهَا

سميت حليلة، لأنها تَحُلُّ مع الزوج حيث حَلَّ، فهي فعيلة، بمعنى فاعلة، وذهب الزجاج وغيره، إلى أنها من لفظ الحلال، فهي حليلة بمعنى مُحلَّله، وقيل: يَحُلُّ كلُّ واحد منهما إزارَ الآخر.

﴿مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾: جمع صلب، والصلب: الظهر، ويقال: صَلُب صلابةً من باب فَعُل المضموم إذا قوي، واشتدَّ، وذكر الفراء في كتاب لغات القرآن، له أنَّ

---

(١) العكبري.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.

الصُّلْبَ، وهو الظهر على وزن قُفْلَ، هو لغة أهل الحجاز، ويقول فيه تميمُ وأسْدَ الصَلَبُ بفتح الصاد واللام.

البلاغة

وقد تضمنت هاتان الآيتان، أنواعاً من البديع والبيان:

منها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ﴾.

ومنها: المغاير في قوله: ﴿أَرْضَعْنَكُمْ﴾ ﴿مِّنَ الرَّضَٰعَةِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ لأن إسناد التحريم إلى الذوات لا يَصح، وإنما يتعلَّق بالفعل، فهو على حذف مضاف، والمعنى: حرمت عليكم نكاح أمهاتكم إلخ، وهذا هو الذي يفهم من تحريمهن كما يفهم من تحريم الخمر، تحريم شربها، ومن تحريم لحم الخنزير، تحريم أكله.

ومنها: الاحتراس[1] في قوله: ﴿الَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ احترز من اللاتي لم يدخل بهن، وفي قوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ الَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ احترز به من اللاتي ليست في الحجور، ولكنَّ هذا القيدَ خَرَجَ مَخْرَج الغالبِ، فلا مفهومَ له.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿الَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ فهو كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها، وضرب عليها الحجابَ.

ومنها: الطباق اللفظي في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾؛ لأنه نَسَق المحرمات أولاً ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

الحمد لله على إفضاله، والشكر له على نواله، والصلاة والسلام على حبيبه محمد وصحبه، وآله ما تطارَدَ الجَدِيدَان وتطاوَلَ المَدى والزمانُ[1].

---

(١) وكان الفراغ من مسوَّدةِ هذا الجزء بالمسفلة حارة الرشد من مكة المكرمة في شهر ذي القعدة، في اليوم الأول منه يوم الأربعاء وقت الضحوة، على رأس الساعة الرابعة من الطلوع من شهور سنة ثمان وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضلُ الصلاة وأزكى التحية بتاريخ: ١/ ١١/ ١٤٠٨ هـ/ في شهر يونية: ١٥/ ١٩٨٨ م.

وكان الانتهاء إلى هذا الموضع في التاريخ المذكور في أعلى الصحيفة بيد مؤلفه محمد أمين بن عبد الله الأثيوبي الهرري الراجي من ربه سبحانه أن يُعينه على تمامه، وييسِّره عليه، ويوفِّقه لما هو المعنى عنده، ويجعلَ في عمره البركة إلى إكماله، ويحفظَ عليه سمَعه وبصرَه وفهمَه وعقله وجِسْمه، وجميعَ قواه إلى انتهائه، وينفع به مَنْ شاء من عباده، ويجعله مَرْجِعاً لهم في علوم كتابه وذخيرةً له عند وفوده إلى دار الآخرة، ويجعله خالصاً مخلصاً لوجهه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين أمين.

تم تصحيح هذه النسخة بيد مؤلفه منتصف الساعة الأولى من يوم السبت بتاريخ ١٧/ ١٢/ ١٤٠٨ هـ والحمد لله أولاً وآخراً.

تم المجلد الخامس من شرح حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ويليه المجلد السادس وأوله قوله سبحانه وتعالى ﴿والمحصنات من النساء﴾ الجزء الخامس من القرآن الكريم.

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد السادس

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر

جَزَى ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ   وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ   وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخر

يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا   كُنْ وَافِياً لَنَا مُرَادَنَا
مِنْ شَرْحِ أَفْضَلِ ٱلْكِتَابِ   قَبْلَ حُلُوْلِنَا تَحْتَ ٱلتُّرَاب
وَأَصْلِحْ لَنَا ٱلأَقْوَالَ وٱلأَعْمَالَ   وَكَمِّلْ لَنَا ٱلْمَقْصُودَ والآمَالَ
يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا   يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا ٱسْتَجِبْ لَنَا

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على إنعامه، والشكرُ له على إحسانه، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله، ما سطر المؤلفون أسطار الحكم بمداد الجود والكرم.

أما بعد: فلما فرغت بحمد الله من شرح الجزء الرابع من القرآن.. أخذت - بعون الله تعالى - في شرح الجزء الخامس منه فقلت:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ...﴾ إلى آخر الآيتين، مناسبتُهما لما قبلهما: أنهما[١] من تتمةِ ما قبلهما من جهة المعنى، فقَدْ ذكَرَ في أولاهما بقية ما

(١) المراغي.

يحرم من النساء، وحل سِوى من تقدم، ووجوب إعطاء المهور، وذكر في الآية الثانية حكم نكاح الإماء، وحُكم حدهن عند ارتكاب الفاحشة. لكن من قسموا القرآن ثلاثين جزءاً جعلوهما أولَ الجزء الخامس مراعاةً للفظِ دون المعنى؛ إذ لو راعوا المعنى.. لجعلُوا أولَ الجزء الخامس قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ لأنه كلام مستأنف.

أسبابُ النزول

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ...﴾ سببُ نزول هذه الآية: ما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري: (أن رسول الله ﷺ يوم حُنين بعث جيشاً إلى أوطاس، فلَقُوا عدواً فقاتَلُوهم فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناساً من أصحاب الرسول ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجْلِ أزواجهن من المشركين، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾؛ أي: فهن لكم حلال إذا انقضَتْ عدتهن. الحديثُ أخرجه الترمذي ـ وقال: حديث حسن صحيح ـ وأبو داود والنسائي والإمامُ أحمد وابن جرير.

وأخرج الطبراني[1] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت يوم حنين، لما فتَحَ الله حنيناً.. أصاب المسلمون نساءً من نساء أهل الكتاب لهن أزواجٌ، وكان الرجل إذا أراد أن يأتيَ المرأةَ قالت: إن لي زوجاً، فسُئِلَ ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ...﴾ الآيةَ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ...﴾ سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن معمر عن سليمان عن أبيه قال: زعم حضرمي أنَّ رجالاً كانوا يفرضون المهر ثُمَّ عسى أن تدرك أحدهم العسرةُ، فنزلت: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾.

---

(١) لباب النقول.

التفسير وأوجهُ القراءة

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ معطوف على قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾؛ أي: وحُرِّم عليكم أيها المؤمنون نكاحُ المتزوجات اللاتي أَحصنَّ أنفسَهن من الزنا بالزواج، أو أزواجَهن من الزنا إن قرىء بكسر الصاد، أو ذاتِ الأزواج اللاتي أَحْصنهن الأزواجُ من الزنا، إنْ قرىء بفتح الصاد حالةَ كونهن من جميع النساء مسلماتٍ كُنّ أو كتابياتٍ. قال الشوكاني[1]: وقد قرىء المحصنات ـ بفتح الصاد وكسرها ـ فالفتح على أن الأزواج حصنوهن، والكسر على أنهن أحصن فروجهن من غير أزواجهن، أو أَحصَن أزواجَهن انتهى. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وأيديكم إما بسبي، فإنَّ المسبيَّات حلال لكم بعد ما استبرأْتُم أرحامَهن بحيضةٍ، وإن كان لهن أزواج في دار الحرب، أو بشراءٍ فإنَّها تحل للمشتري بعد الاستبراء ولو كانت مزوَّجة، وينفسخُ النكاح الذي كان عليها بخروجها عن ملكِ سيدها الذي زوَّجها.

والمعنى: وحُرِّم[2] عليكم نكاحُ المتزوجات إلا ما ملكت الأيمان والأيدي بالسبي في حُروب دينية، تدافعون بها عن دينكم، وأزواجُهن كفارٌ في دار الكفر، وقد رأيتُم من المصلحة أن لا تُعاد السبايا إلى أزواجهن، فحينئذ يَنْحَلُّ عَقْدُ زوجيَّتهنَّ، ويَكُنَّ حلالاً بالشروط المذكورة في كُتب الفقه.

والحكمةُ في حِلّيّة السبايا: أنه لما كان الغالبُ في الحروب أن يُقْتَل بعضُ أزواجهن، ويفر بعضهم الآخر ولا يعود إلى بلاد المسلمين، وكان من الواجب كفالةُ هؤلاء السبايا بالإنفاق عليهن، ومنعهن من الفِسق، كان من المصلحة لهن وللمجتمع أن يكون لكل واحدة منهن أو أكثر كافل يكفيها البحث عن الرزق؛ أيْ: عن طلب المؤنة، أو بذل العرض، وفي هذا ما لا يخفى من الشقاء على النساء. وقال الحنفية: إن من سبي معها زوجها.. لا تَحلُّ لغيره؛ إذْ لا بُدَّ من اختلاف الدار بَيْنَ الزوجين، دارِ الإسلام ودار الحرب.

---

(١) فتح القدير. (٢) المراغي.

والإسلام لم يَفرُض السَّبْيَ، ولم يُحْرِّمه؛ لأنه قد يكون من الخير للسبايا أنفسِهن في بعض الأحوال، كما إذا استأصلَتْ الحرب جميعَ الرجال مِن قبيلة محدودةِ العدد، فإنْ رَأَىْ المسلمون أنَّ من الخير أن تُردَّ السبايا إلى قومهن.. جاز لهم ذلك، عملاً بقاعدةِ «دَرْءُ المفاسد مقدم على جلب المصالح» وإن كانت الحرب لمطامع الدنيا، وحظوظِ المُلُوك.. فلا يباح فيها السبي.

والاسترقاقُ[1] المعروفُ في هذا العصر في بلاد السودان، وبلادِ الحجاز وغيرِها غير شرعي، وهو محرم لأن أولئك اللواتي تسترققن حرائرُ من بناتِ المسلمين الأحرار، فلا يجوز الاستمتاع بهن بغيرِ عقدِ النكاح، والإسلامُ بَريء من هذا.

وقولُه: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قَيْدٌ جِيءَ به لإفادةِ التعميم، وبيانِ أنَّ المرادَ كلُّ متزوجة لا العفيفات والمسلمات، وقد جاء الإِحصان في القرآن لأربعةِ معان[2]:

١ ـ التزوّج كما في هذه الآية.

٢ ـ العفةُ كما في قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾.

٣ ـ الحريةُ كما في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾.

٤ ـ الإسلام كما في قوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾؛ أي: أسلَمْنَ على قراءة البناء للفاعل.

واختلف القراء[3] في كلمةِ ﴿المحصنات﴾ سواء كانت معرَّفة بأل أم نكرة، فقرأ الجمهور بفتح الصاد، والكسائي بكسرها في جميع القرآن، إلا التي في هذه الآية فإنهم أجمعوا فيها على الفتح، والمعنى: أحصنهن الأزواجُ بالتزوج؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

أعفوهن عن الوقوع في الحرام، والأولياءُ أعفُّوهن عن الفساد بالتزويج، وهن يحصن أزواجَهن عن الزنا، ويُحصن فروجَهن من غير أزواجهن بعفافهن.

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ مصدر مؤكد لمضمون قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ منصوب بعامل محذوف؛ تقديره: كَتَبَ الله عليكم تحريمَ هذه الأنواع المذكورة، كتاباً مؤكَّداً، وفرضه فرضاً ثابتاً محكماً لا هَوادَةَ فيه؛ لأنْ مصلحتكم فيه ثابتةً لا يدخلها شك ولا تغيير، أو المعنى: ٱلزموا كتاب الله وحُكْمه المذكور.

وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السميقع اليماني[١]: ﴿كتب الله عليكم﴾ على صيغة الفعل الماضي الرافع ما بعده، وروي عن ابن السميقع أيضاً، أنه قرأ: ﴿كتب الله عليكم﴾ جمعاً ورفعاً؛ أي: هذه كتب الله عليكم؛ أي: فرائضه ولازماته.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ بالبناء للمفعول، عطفاً على قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَأَحَلَّ﴾ بالبناء للفاعل، عطفاً على كتاب الله؛ أي كتب الله عليكم تحريم هذه الأصناف السابقة، وأحل الله لكم ما وراء ذلكم؛ أي: ما سوى تلك المحرمات السابقة.

وظاهر هذه الآية يقتضي[٢] حل ما سوى المذكورات من المحرمات السابقة، لكن قد دل الدليل من السنة أو الكتاب على تحريم أصناف أخرى سوى ما ذكر، فمن ذلك أنه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، ومن ذلك المطلقة ثلاثاً لا تحل لزوجها الأول حتى تنكح زوجاً غيره، ومن ذلك نكاح المعتدة، فلا تحل للأزواج حتى تنقضي عدتها، ومن ذلك أن من كان في نكاحه حرة لم يجز له أن يتزوج بالأمة، والقادر على طول الحرة لم يجز له أن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.

يتزوج بالأمة، ومن ذلك أن من كان عنده أربع نسوة حرم عليه أن يتزوج بخامسة، ومن ذلك الملاعنة فإنها محرمة على الملاعن على التأبيد، ومن ذلك بعض أصناف محرمات الرضاع، فهذه أصناف من المحرمات سوى ما ذكر في الآية، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ورد بلفظ العموم، لكن العموم دخله التخصيص، فيكون عاماً مخصوصاً. وقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُم﴾ في محل رفع على البدل من ما على القراءة الأولى بدل اشتمال.

والمعنى: وأحل لكم ما سوى المحرمات السابقة أن تبتغوه وتطلبوه؛ أي: أحل لكم ابتغاء ذلك السوى وطلبه بأموالكم التي تدفعونها مهراً للزوجة، أو ثمناً للأمة، أو في محل نصب على البدل أيضاً على القراءة الثانية، والمعنى وأحل الله لكم ما سوى تلك المحرمات السابقة، أن تبتغوه بأموالكم؛ أي: أحل لكم ابتغاءَهُ وطلبه بأموالكم المصروفة في المهور، في النكاح وفي الأثمان وفي التسري، حالة كونكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾؛ أي: متعففين أنفسكم من الزنا، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾؛ أي: غير زانين، وهذا تكرير للتأكيد، لأن الإحصان لا يجامع السفاح؛ أي: عافين أنفسكم من الزنا، ومانعين لها من الاستمتاع بالمحرم، باستغناء كل منكما بالآخر؛ إذ الفطرة تدعو الرجل إلى الاتصال بالأنثى، والأنثى إلى الاتصال بالرجل، ليزدوجا وينتجا، وإنما اقتصر هنا على غيرمسافحين، ولم يقل متخذي أخدان؛ لأنه في الحرائر المسلمات، وهنَّ إلى الخيانة أبعد من بقية النساء، وزاد فيما بعد ﴿مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ لأنه في الإماء، وهن إلى الخيانة أقربُ من الحرائر المسلمات، فالإحصان هو هذا الاختصاص الذي يمنع النفس أن تذهب أي مذهب، فيتصلُ كل ذكر بأي امرأة، وكل امرأة بأيِّ رجل، إذ لو فعلا ذلك.. لما كان القصد من هذا إلا المشاركة في سفح الماء الذي تفرزه الفطرة، إيثاراً للذة على المصلحة؛ إذ المصلحة تدعو إلى اختصاص كل أنثى بذكر معين، حتى تتكون بذلك الأسرة، ويتعاون الزوجان على تربية أولادهما.

فإذا انتفى هذا المقصد.. انحصرت الداعية الفطرية في سفح الماء وصبه، وذلك هو البلاء العام الذي تصطلي بناره الأمة كلها، فإن بعض الدول الأوروبية

التي كثر فيها السفاح، وقلّ النكاح بضعف الدين وقلته، وقف نموها، وقلّ نسلها، وضعفت حتى اضطرت إلى الاعتزاز بمحالفة بعض الدول الأخرى.

وفي الآية: دليل على أن الصداق لا يتقدر بشيء، فيجوز على القليل والكثير، لإطلاق قوله تعالى: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾.

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾؛ أي: فأي امرأة انتفعتم بها بالعقد عليها، أو تلذذتم بوطئها من تلك النساء الحلالات لكم، ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: فأعطوهن مهورهن التي فرضتم لهن ﴿فَرِيضَةٗ﴾ وقدرتموها لهن تقديراً، وسميتموها لهن في عقد النكاح، وإنما سمي المهر أجراً لأنه بدل المنافع، لا بدل الأعيان، كما يسمى بدل منافع الدار والدابة أجراً؛ أي: وأي امرأة من النساء اللواتي أُحِلِّن لكم تزوجتموها فأعطوها الأجر، وهو المهر بعد أن تفرضوه في مقابلة ذلك الانتفاع.

وسر هذا: أن الله لما جعل للرجل على المرأة حق القيام، وحق رياسة المنزل الذي يعيشان فيه، وحق الاستمتاع بها.. فرض لها في مقابلة ذلك جزاءاً وأجراً تطيب به نفسها، ويتم به العدل بينها وبين زوجها.

والخلاصة: أن أي امرأة طلبتم أن تتمتعوا وتنتفعوا بتزوجها، فأعطوها المهر الذي تتفقون عليه عند العقد، حالة كونه فريضة فرضها الله عليكم، وذلك أن المهر يفرض ويعين في عقد النكاح، ويسمى ذلك إيتاءً وإعطاءً، فيتعين بفرضه في العقد، ويصير في حكم المعطى، وقد جرت العادة أن يعطى كله أو أكثره قبل الدخول، ولكن لا يجب كله إلا بالدخول، فمن طلق قبله وجب عليه نصفه لا كله، ومن لم يعط شيئاً قبل الدخول وجب عليه كله بعده،وقيل إن هذه الآية واردة في نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام، حيث كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً بثوب أو غيره، ويقضي منها وطره ثم يسرحها. وفي «الخازن»: وقال قوم: المراد من حكم هذه الآية نكاح المتعة، وهو أن ينكح امرأةً إلى مدة معلومة بشيء معلوم، فإذا انقضت تلك المدة.. بانت منه من غير طلاق، وتستبرىء رحمها بحيضة. وفي «القرطبي»: وقال ابن

العربي: وأما متعة النساء: فهي من غرائب الشريعة، لأنها أبيحت في صدر الإسلام، ثم حرمت يوم خيبر، ثم أبيحت في غزوة أوطاس، ثم حرمت بعد ذلك، واستقر الأمر على التحريم، وليس لها أخت في الشريعة إلا مسألة القِبْلَة، فإن النسخ طرأ عليها مرتين، ثم استقرت كما سيأتي ذلك كله مع بيان أدلة تحريمها.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ولا حرج ولا منع ولا تضييق عليكم ولا عليهن، ﴿فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: فيما اتفقتم عليه أيها الأزواج والزوجات من النقص في المهر، أو تركه كله، أو الزيادة فيه؛ أي: اتفقتم عليه، ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾، والتقدير أولاً في عقد النكاح: فلا جناح عليكم في الزيادة، ولا عليهن في الحط؛ أي: لا إثم عليكم في أن تهب المرأة للزوج مهرها، أو يهب الزوج للمرأة المطلقة قبل الدخول تمام المهر، أو فيما تراضيا عليه من النفقة ونحوها، من غير ذكر المقدار المعين في العقد؛ إذ ليس الغرض من الزوجية إلا أن يكونا في عيشة راضية، يستظلان فيها بظلال المودة والرحمة والهدوء والطمأنينة، والشارع الحكيم لم يصنع لكم إلا ما فيه سعادة الفرد والأمة، ورقي الشؤون الخاصة والعامة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرعه لهم، فلا يشرع الأحكامَ إلا على وفق الحكمة، وذلك يوجب التسليم لأوامره، والانقياد لأحكامه، وقد وضع لعباده من الشرائع بحكمته ما فيه صلاحهم ما تمسَّكوا به، ومن ذلك أنه فرض عليهم عقد النكاح الذي يحفظ الأموال والأنساب، وفرض على من يريد الاستمتاع بالمرأة مهراً يكافؤها به على قبولها قيامه ورياسته عليها، ثم أذن للزوجين أن يعملا ما فيه الخير لهما بالرضا، فيحطا المهر كله أو بعضه أو يزيدا عليه.

ونكاح المتعة: وهو نكاح المرأة إلى أجل معين ليوم أو أسبوع أو شهر، فإذا انقضت تلك المدةُ.. بانت منه بغير طلاق، ويستبرىء رحمها وليس بينهما ميراث. وكان مرخصاً فيه في بدء الإسلام، وأباحه النبي ﷺ لأصحابه في بعض

الغزوات؛ لبعدهم عن نسائهم، فرخص فيه مرة أو مرتين خوفاً من الزنا، فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين، ثم نهى عنه نهياً مؤبداً ـ كما مر ـ لأن المتمتع به لا يكون مقصده الإحصانُ، وإنما يكون مقصده المسافحةُ ـ للأحاديث المصرحة بتحريمه تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة:

فمنها: ما أخرجه مسلم عن سَبْرة بن معبد الجهني ـ رضي الله عنه ـ أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإنَّ الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء.. فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً».

ومنها: ما أخرجه الشيخان عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: (نهىٰ رسول الله ﷺ عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية).

ولنهي عمر في خلافته وإشادته بتحريمه على المنبر وإقرار الصحابة له على ذلك. وإلى هذا ذهب جمهور العلماء من الصحابة، فمن بعدهم؛ أي: إنَّ نكاح المتعة حرام. وقال قوم: المراد من حكم الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روي عن النبي ﷺ، أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج إليه، لأن النبي ﷺ أجاز المتعة أولاً ثم منع منها، فحرمها فكان قوله منسوخاً بقوله، وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة، لأنه تعالى قال فيها: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ فدل ذلك على النكاح الصحيح، فليس فيها دلالة على المتعة. ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ﴾؛ أي: ومن لم يقدر منكم أيها الأحرار ﴿طَوْلًا﴾؛ أي: مهراً يكون له وصلة وسبباً إلى ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾؛ أي: إلى نكاح الحرائر ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بأن لم يجد ما يمهره للحرة، أو وجده ولم ترض به، لعيب في خُلقه أو خَلقه، أو عجزٍ عن القيام بغير المهر من حقوق المرأة الحرة، من النفقة وغيرها، فإن لها حقوقاً كثيرة، وليس للأمة مثل هذه الحقوق. ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾؛ أي: فلينكح أمة كائنة من الإماء اللاتي ملكتهن أيمانكم وأيديكم، حالة كونها ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾؛ أي: من إمائكم ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

والمعنى: من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة.. فليتزوج الأمة المؤمنة دون

الكتابية، فلا يجوز نكاحها؛ لأن فيها نقصين: الرق والكفر. وقال الشوكاني: الطَّول: الغنى والسعة، ومعنى الآية: فمن لم يستطع منكم غنىً وسعةً في ماله، يقدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات.. فلينكح من فتياتكم المؤمنات انتهى.

والفتيات جمع فتاة، وهي المرأة الحديثة السنِّ، ويقال للشابة: فتاة، وللغلام فتى، والأمة تسمى فتاة، سواء كانت عجوزاً أو شابة؛ لأنها كالشابة في أنها لا توقر توقير الكبير.

وعبر عن[1] الإماء بالفتيات تكريماً لهن، وإرشاداً لنا إلى أن لا ننادي بالعبد والأمة، بل بلفظ الفتى والفتاة. وقد روى البخاري قوله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: عبدي أمتي، ولا يقل المملوك: ربي، ليقل المالك: فتاي وفتاتي، وليقل المملوك: سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل». ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعۡلَمُ﴾ منكم ﴿بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾؛ أي: بمراتبكم في الإيمان، وهو العليم بحقيقة الإيمان ودرجة قوته وكماله فرب أمة يفوق إيمانها إيمان الحرائر، فتكون أفضل منهن عند الله تعالى، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، فاعملوا على الظاهر في الإيمان، فإنكم مكلفون بظواهر الأمور، والله يتولى السرائر والحقائق. والمعنى: فلا يشترط في نكاحها أن يُعلم إيمانُها علماً يقينياً، فإنَّ ذلك لا يطلع عليه إلا الله تعالى ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾؛ أي: أنتم وأرقائكم متناسبون، نسبكم من آدم ودينكم الإسلام وما أحسن قول عليّ رضي الله عنه:

ٱلنَّاسُ مِنْ جِهَةِ ٱلتَّمْثِيْلِ أَكْفَاءُ ... أَبُوْهُمُ آدَمُ وَٱلأُمُّ حَوَّاءُ

والمعنى: كلكم مشتركون في الإيمان، وهو أعظم الفضائل، فإذا حصل الاشتراك في ذلك.. كان التفاوت فيما وراءه غير معتبر، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء» فلا ينبغي أن تعدوا نكاح الأمة عاراً عند الحاجة إليه، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى قد رفع شأن الفتيات المؤمنات، وساوى بينهن وبين

---

(١) المراغي.

الحرائر. ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾؛ أي: فاخطبوهن بإذن سادتهن، واطلبوا منهم نكاحهن، فقد اتفق العلماء على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها باطل؛ لأن الله تعالى جعل إذن السيد شرطاً في جواز نكاح الأمة.

وقال بعضُ الفقهاء: المرادُ من الأهل من لهم عليهن ولاية التزويج، ولو غير المالكين كالأب والجد والقاضي والوصي، إذ لكل منهم تزويج أمة اليتيم. ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: وأعطوهن مهورهن، وأدوها إليهن بإذن أهلهن، أو أدوها إلى مواليهن، وأجمعوا إلا مالكاً على أن المهر للسيد؛ لأنه ملكه، وإنما أضيف إيتاء المهر إلى الإماء لأنه ثمن بضعهن.

وقال مالك[1]: المهرحق للزوجة على الزوج، وإن كانت أمة فهو لها لا لمولاها، وإن كان الرقيق لا يملك شيئاً لنفسه، لأن المهر حق الزوجة تصلح به شأنها، ويكون تطييباً لنفسها في مقابلة رياسة الزوج عليها، وسيد الأمة مخير بين أن يأخذه منها بحق الملك، أو يتركه لها لتصلح به شأنها، وهو الأفضل الأكمل.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: أعطوهن مهورهن بالمعروف؛ أي: من غير ضرار، ولا مطل ولا نقصان، وقيل: معناه وآتوهن مهور أمثالهن، اللاتي يساوينهن في الحال والحسب. وقوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ حال من مفعول فانكحوهن؛ أي: فانكحوهن حال كونهن محصنات؛ أي: عفائف من الزنا ندباً بناء[2] على المشهور من جواز نكاح الزواني، ولو كن إماء وقيل المعنى: أعطوهن أجورهن حالة كونهن متزوجات لكم، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾؛ أي: غير مجاهرات بالزنا؛ أي: غير مؤجرة نفسها مع أي رجل أرادها كالمومسات، ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾؛ أي: غير متخذات أخلاء معينين يزنون بهنَّ سراً، وهو حال مؤكدة كالذي قبله، لأن الإحصان لا يجامع السفاح كما مر.

والمسافحون[3] هم الزانون المبتذلون، وكذلك المسافحات هن الزواني

---

(١) المراغي.
(٢) خطيب.
(٣) البحر المحيط.

المبتذلات، اللواتي هن سوق الزنا، ومتخذوا الأخدان هم الزناة المتسترون، الذين يصحبون واحدة واحدة، وكذلك متخذات الأخدان هن الزواني المتسترات، اللواتي يصحبن واحداً واحداً، ويزنين خفية، وهذان نوعان كانا في الجاهلية، قاله ابن عباس والشعبي والضحاك وغيرهم. وقد كان الزنا في الجاهلية قسمين: سرياً وعلنياً، فالسري: يكون خاصاً، فيكون للمرأة خدن يزني بها سراً، ولا تبذل نفسها لكل أحد، والعلني: يكون عاماً، وهوالمراد بالسفاح، قاله ابن عباس، وكان البغايا من الإماء ينصبن الرايات الحمر لتعرف منازلهن، ولا تزال هذه العادة متبعةً إلى الآن في بلاد السودان والحبشة والصومال وغيرها، فتوجد بيوت خاصة لشراب المسكر، وفيها البغاء العلني.

وروي عن ابن عباس(١): أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا، ويقولون: إنه لؤم، ويستحلون ما خفي، ويقولون إنه لا بأس، وقد نزل في تحريم النوعين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. وهذان النوعان فاشيان في بلاد الإفرنج، والبلاد التي تقلدهم في شرورهم، كمصر والصومال وجيبوتي وبعض بلاد الهند، بل عم الآن كل من النوعين مشارق الأرض ومغاربها، تقليداً للإفرنج، فيا لها من مصيبة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقصارى القول: أن الله فرض في نكاح الإماء مثل ما فرض في نكاح الحرائر، من الإحصان والعفة لكل من الزوجين، لكن جعل الإحصان وعدم السفاح في نكاح الحرائر من قبل الرجال، فقال: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ لأن الحرائر ولا سيما الأبكار أبعد من الرجال من الفاحشة، وأقل انقياداً لطاعة الشهوة، على أن الرجال هم الطالبون للنساء والقوامون عليهن.

وجعل قيد الإحصان في جانب الإماء، فاشترط على من يريد أن يتزوج أمة أن يتحرى فيها أن تكون محصنة، مصونة في السر والجهر، فقال: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ وذلك أن الزنا كان غالباً في الجاهلية على الإماء،

---

(١) المراغي.

وكانوا يشترونهن للاكتساب ببغائهن، حتى إن عبد الله بن أبيٍّ كان يكره إماءه على البغاء، بعد أن أسلمن، فنزل في ذلك: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ على أنهن لذلهن وضعفهن وكونهن مظنة للانتقال من يد إلى أخرى، لم تمرن نفوسهن على الاختصاص برجل واحد، يرى لهن عليه من الحقوق ما تطمئن به نفوسهن في الحياة الزوجية، التي هي من شؤون الفطرة.

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالبناء للفاعل، ومعناه: حفظن فروجهن، وقيل معناه أسلمن، كما قال عمرو بن مسعود، والشعبي والنخعي والسدي، قالوا: الإحصان هنا[1] الإسلام، والمعنى: أن الأمة المسلمة عليها نصف حد الحرة المسلمة، وقد ضعف هذا القول، بأن الصفة لهن بالإيمان قد تقدمت في قوله من فتياتكم المؤمنات، فكيف يقال في المؤمنات فإذا أسلمن، قاله إسماعيل القاضي. وقرأ الباقون بالبناء للمفعول إلا عاصماً فاختلف فيه ومعناه زُوِّجن. ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ﴾؛ أي: فإن فعلن ﴿بِفَاحِشَةٍ﴾؛ أي: بالزنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾؛ أي: فعلى الإماء اللاتي زنين ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: نصف ما على الحرائر الأبكار، إذا زنين من العقاب؛ أي: من الجلد، فيجلدن خمسين جلدة، ويجلد العبد للزنا إذا زنى خمسين جلدة، ولا فرق في المملوك بين المتزوج وغير المتزوج، فإنه يجلد خمسين مطلقاً، ولا رجم عليه، هذا قول أكثر العلماء.

والمعنى: أنّ الإماء إذا زنين بعد إحصانهن بالزواج.. فعليهن من العقاب نصف ما على المحصنات الكاملات، وهنَّ الحرائر إذا زنين، وهذا العقاب ما بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ فتجلد الأمة المتزوجة خمسين جلدة، وتجلد الحرة مائة، ولا ترجم لأن الرجم لا يتنصف.

والحكمة في ذلك: ما قدمناه فيما سلف، وهو كون الحرة أبعد عن داعية الفاحشة، والأمة ضعيفة عن مقاومتها، فرحم الله ضعفها وخفف العقاب عنها.

---

(١) البحر المحيط.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذاك الذي ذكرنا لكم، من إباحة نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر جائز، ﴿لِمَنْ خَشِيَ﴾ وخاف ﴿ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾؛ أي: خاف الوقوع في الزنا بسبب العزوبة وشدة الشهوة، والمعنى: ذلك لمن خاف أن تحمله شدة الغلمة وشدة الشهوة على الزنا، وإنما سمي الزنا بالعنت لما يعقبه من المشقة، وهو الحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة، فأباح الله تعالى نكاح الأمة بثلاثة شروط: عدم القدرة على نكاح الحرة، وخوف العنت، وكون الأمة مؤمنة. ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾ عن نكاح الإماء متعففين، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من نكاحهن كي لا يكون الولد رقيقاً. والمعنى[1]: وصبركم عن نكاح الإماء خير لكم من نكاحهن، لما في ذلك من تربية قوة الإرادة، وتنمية ملكة العفة، وتغليب العقل على عاطفة الهوى، ومن عدم تعرض الولد للرق، وخوف فساد أخلاقه، بإرثه منها المهانة والذلة؛ إذ هي بمنزلة المتاع والحيوان، فربما ورث شيئاً من إحساسها ووجدانها وعواطفها الخسيسة.

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إذا نكح العبد الحرة.. فقد أعتق نصفه، وإذا نكح الحر الأمة.. فقد أرق نصفه. ورحم الله القائل:

إِذَا لَمْ تَكُنْ فِيْ مَنْزِلِ ٱلْمَرْءِ حُرَّةٌ تُدَبِّرُهُ ضَاعَتْ مَصَالِحُ دَارِهِ

وسر هذا: ما شرحناه من قبل، من أن معنى الزوجية حقيقة واحدة مركبة من ذكر وأنثى، وكل منهما نصفها فهما شخصان صورةً واحدةً، اعتباراً بالإحساس والشعور والوجدان والمودة والرحمة، ومن ثم ساغ أن يطلق على كل منهما لفظ: زوج؛ لاتحاده بالآخر، وإن كان فرداً في ذاته ومستقلاً في شخصه.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾؛ أي: غفار لمن صدرت منه الهفوات، كاحتقار الإماء المؤمنات، والطعن فيهن عند الحديث في نكاحهن، وعدم الصبر على معاشرتهن بالمعروف، وسوء الظن بهن، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده حيث رخص لهم فيما رخص فيه بإباحته لهم نكاح الإماء، وإن كان يؤدي إلى إرقاق الولد، مع أن

(١) المراغي.

هذا يقتضي المنع لاحتياجهم إليه، فكان ذلك من باب المغفرة والرحمة.

وهذه الجملة[1] كالتوكيد لما تقدم، يعني أنه تعالى غفر لكم،ورحمكم حيث أباح لكم ما أنتم محتاجون إليه.

الإعراب

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾: الواو: عاطفة. ﴿المحصنات﴾: معطوف على ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾، من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ على كونه نائب فاعل لـ﴿حُرِّمَ﴾. ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿المحصنات﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ملكته أيمانكم. ﴿كِتَابَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف تقديره: كتب الله ذلك عليكم كتاباً، وهومضاف. ولفظ الجلالة ﴿اللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بالفعل المحذوف، لا[2] بالمصدر المذكور؛ لأن المصدر هنا فضلة، وقيل: هو متعلق بنفس المصدر؛ لأنه نائب عن الفعل، حيث لم يذكر معه، فهو كقولك: مروراً بزيد؛ أي: أمرر به، والجملة المحذوفة مستأنفة، مسوقة لتأكيد مضمون جملة قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾؛ لأنه لمّا قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ..﴾ علم أن ذلك مكتوب، فأكده بهذه الجملة.

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.

﴿وَأُحِلَّ﴾: الواو عاطفة. ﴿أحل﴾: فعل ماض مغيرالصيغة. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾. ﴿وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾: ظرف ومضاف

---

(١) الخازن. (٢) العكبري.

إليه، والظرف صلة لما، أو صفة لها. ﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾: فعل وفاعل وناصب، والمصدر المؤول من الجملة مرفوع على كونه بدل اشتمال من ما الموصولة، ومفعول تبتغوا محذوف، تقديره: أن تبتغوه، عائد على ما الموصولة، والتقدير: أحل لكم ما وراء ذلكم ابتغاؤهُ بأموالكم. ﴿بِأَمۡوَٰلِكُم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَبۡتَغُواْ﴾. ﴿مُّحۡصِنِينَ﴾: حال من فاعل تبتغوا. ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾: حال مؤكدة، ومضاف إليه.

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾.

﴿فَمَا﴾: الفاء: استئنافية. ما: موصولة في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾: فعل، وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير به. ﴿مِنۡهُنَّ﴾ جار ومجرور حال من ضمير به. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾: الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من العموم. ﴿أتوهن﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَرِيضَةٗ﴾: حال من أجورهن، أو مصدر مؤكد؛ أي: فرض الله ذلك فريضة، أو صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: فآتوهن أجورهن إيتاءً مفروضاً.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾: الواو استئنافية. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار والمجرور متعلق بمحذوف خبر لا، وجملة لا من اسمها وخبرها: مستأنفة. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بما تعلق به الجار والمجرو قبله. ﴿تَرَٰضَيۡتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير به. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَرَٰضَيۡتُم﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله.

﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

﴿وَمَن﴾: الواو: استئنافية. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم، أو اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَسْتَطِعْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها، أو صلة الموصول. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَسْتَطِعْ﴾. ﴿طَوْلًا﴾: مفعول به. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَنكِحَ﴾: منصوب بأن، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: مفعول به. ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾: صفة للمحصنات، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام مقدرة، متعلقة بمحذوف صفة ﴿طَوْلًا﴾، تقديره: ومن لم يستطع منكم طولاً ومهراً كائناً لنكاح المحصنات المؤمنات.

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾.

﴿فَمِن مَّا﴾: الفاء: رابطة الجواب، أو رابطة الخبر بالمبتدأ. ﴿من ما﴾: جار ومجرور متعلق بالجواب المحذوف، أو بالخبر المحذوف، تقديره: فلينكح، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مِنْ فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف، تقديره: مما ملكته. ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه حال من الضمير المحذوف في ملكته. ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾: صفة لفتياتكم. ﴿وَاللَّهُ﴾: الواو: استئنافية، أو اعتراضية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿بِإِيمَانِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بأعلم. ﴿بَعْضُكُمْ﴾: مبتدأ،

ومضاف إليه. ﴿مِّنۢ بَعۡضٍۚ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، أومعترضة.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍۚ﴾.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن من لم يستطع طول الحرة ينكح الإماء، وأردتم بيان كيفية نكاحها.. فأقول لكم: انكحوهن وآتوهن. ﴿انكحوهن﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة من محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بانكحوهن. ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة انكحوهن. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾: متعلق بآتوهن، أو حال من أجورهن. ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾: حال من المفعول في فانكحوهن. ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: حال ثانية مؤكدة للأولى. ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍۚ﴾: الواو عاطفة. لا: زائدة، زيدت لتأكيد نفي ﴿غَيۡرَ﴾. ﴿مُتَّخِذَٰتِ﴾: معطوف على ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾، وهو مضاف. ﴿أَخۡدَانٍۚ﴾: مضاف إليه.

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾.

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾: الفاء: فاء الفصحية؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم جواز نكاح الإماء بالشرط المذكور، وأردتم بيان حكم ما إذا أتين بفاحشة.. فأقول لكم: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه. ﴿أُحۡصِنَّ﴾: فعل ونائب فاعل مبني بسكون على النون المدغمة في نون الإناث، ونون الإناث: في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ﴾: الفاء: رابطة لجواب إذا الشرطية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿أَتَيۡنَ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾: متعلق ﴿أَتَيۡنَ﴾.

﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾: الفاء: رابطة لجواب إن الشرطية. ﴿عليهن﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نِصْفُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف. ﴿مَا﴾: في محل الجر، مضاف إليه. ﴿عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: جار ومجرور، صلة لما، أو صفة لها. ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير في الجار والمجرور، العامل[1] فيها هو العامل في صاحبها، ولا يجوز أن يكون حالاً من ما؛ لأنها مجرورة بالإضافة فلا يكون لها عامل لفظي، والجملة من المبتدأ والخبر: في محل الجزم جواب إن الشرطية، وجملة إن الشرطية: جواب إذا الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة، أو معترضة.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور خبر له، والجملة مستأنفة. ﴿خَشِيَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿ٱلْعَنَتَ﴾: مفعول به. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستتر في خشي، والجملة الفعلية صلة من الموصولة، والعائد الضمير المستتر في ﴿خَشِيَ﴾. ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾: فعل وفاعل وناصب، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء؛ تقديره: وصبركم. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر له. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ جمع محصنة بفتح الصاد، يقال: حصنت المرأة ـ بضم الصاد ـ حصناً وحصانة، إذا كانت عفيفة، فهي حاصن، وحاصنة وحَصَان بفتح الصاد، ويقال: أحصنت المرأة إذا تزوجت؛ لأنها تكون في حصن الرجل وحمايته، وأحصنها أهلها زوجوها.

---

(١) العكبري.

والحاصل: أن الفتح في المحصنات على وجهين:

أشهرهما: أنه أُسند الإحصان إلى غيرهن وهو: إما الأزواج أو الأولياء، فإن الزوج يحصن امرأته؛ أي: يعفَّها، والولي يحصنها بالتزويج، والله يحصنها بذلك.

والثاني: أن هذا المفتوح الصاد بمنزلة المكسور، يعني أنه اسم فاعل، وإنما شذ فتح عين اسم الفاعل في ثلاثة ألفاظ: أحصن فهو محصن، وأفلج فهو ملفج، وأسهب فهو مسهب، وأما الكسر فإنه أسند الإحصان إليهن؛ لأنهن يحصن أنفسهن بعفافهن أو يحصن فروجهن بالحفظ، أو يحصن أزواجهن. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ جمع مسافح، اسم فاعل من سافح من باب فاعل، وأصله من السفح وهو الصب، وإنما سمي الزنا سفاحاً لأن الزاني لا غرض له إلا صب النطفة، وقضاء الشهوة فقط. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ جمع أجر، وهو في الأصل الجزاء الذي يعطى في مقابلة شيء ما من عمل، أو منفعة، والمراد به هنا المهر.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ الاستطاعة: كون الشيء في طوعك، لا يتعاصى عليك، والطول: الغنى والفضل، من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب، يقال: طال يطول طولاً، في الأفضال والقدرة، وفلان ذو طول؛ أي: ذو قدرة في ماله. والطول بالضم ضد القصر.

﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ الأخدان: جمع خدن بكسر أوله وسكون ثانيه، وهو الصاحب، ويطلق على الذكر والأنثى، وهو الصديق للمرأة يزني بها سراً، قال أبو زيد: الأخدان الأصدقاء على الفاحشة. وفي «المصباح» و«القاموس» الأخدان: جمع خدن بالكسر، كحمل وأحمال، وعدل وأعدال. ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ﴾ والعنت في الأصل انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر يعتري الإنسان، وأريد به هنا ما يجر إليه الزنا من العقاب الدنيوي والأخروي، يقال: عنت عنتاً من باب طرب إذا ارتكب الزنا، وفي «القاموس»: والعنت محركاً الفساد، والإثم والهلاك ودخول المشقة على الإنسان، ولقاء الشدة والزنا والوهن والانكسار واكتساب المآثم، وأعنته غيره، وعنته تعنيتاً إذا شدد عليه وألزمه ما يصعب عليه.

البلاغة

وقد تضمنت هاتان الآيتان أنواعاً من البلاغة:

منها: التكرار بلفظ المؤمنات في قوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وفي قوله: ﴿فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ﴾، وفي قوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ و﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ﴾، وبلفظ: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، في قوله: ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، وفي قوله: ﴿نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما تقدم من المحرمات، وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ﴾ إشارةً إلى تزويج الإماء.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ﴾؛ أي: فرض الله، استعار للفرض لفظ الكتاب لثبوته وتقريره، فدل بالأمر المحسوس على المعنى المعقول، وفي قوله: ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ استعار لفظ الإحصان، وهو الامتناع في المكان الحصين للامتناع بالعقاب، واستعار لكثرة الزنا السفح، وهو صب الماء في الأنهار والعيون، بتدفق وسرعة. وكذلك: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ استعار لفظ الأجور للمهور، والأجر: هو ما يدل على عمل، فجعل تمكين المرأة من الانتفاع بها كأنه عمل تعمله، وفي قوله: ﴿طَوْلًا﴾ استعارةُ للمهر يتوصل به إلى معالي الأمور.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾؛ لأن المحصن الذي يمنع فرجه، والمسافح الذي يبذله.

ومنها: الاحتراز في قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إذ المحصنات قد يراد بها الأنفس المحصنات، فيدخل تحتها الرجال فاحترز عنه بقوله من النساء.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أحكام النكاح فيما سلف على طريق البيان والإسهاب.. ذكر هنا عللها وأحكامها، كما هو دأب القرآن الكريم أن يعقب ذكر الأحكام التي يشرعها للعباد ببيان العلل والأسباب؛ ليكون في ذلك طمأنينة للقلوب، وسكون للنفوس لتعلم مغبة[2] ما هي مقدمة عليه من الأعمال، وعاقبة ما كلفت به من الأفعال، حتى تقبل عليها وهي مثلجة الصدور، عالمة بأن لها فيها سعادةً في دنياها وأخراها، ولا تكون في عماية من أمرها، فتتيه في أودية الضلالة وتسير قدماً لا إلى غاية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أنه تعالى لمَّا بيّن كيفية التصرف في النفوس بالنكاح.. بيَّن كيفية التصرّف في الأموال الموصلة إلى النكاح، وإلى ملك اليمين، وأن المهور والأثمان المبذولة في ذلك لا تكون مما

(١) المراغي.

(٢) المغبة: العاقبة.

(٣) البحر المحيط.

ملكت بالباطل، والباطل هو: كل طريق لم تُبحه الشريعة فيدخل فيه السرقة، والخيانة والغصب والقمار والملاهي وعقود الربا وأثمان البيوع الفاسدة كما سيأتي.

وقال المراغي[1]: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر فيما سلف كيفية معاملة اليتامى وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد وعدم دفع الأموال إلى السفهاء، ثم بيّن وجوب دفع المهور للنساء، وأنكر عليهم أخذها بوجه من الوجوه، ثم ذكر وجوب إعطاء شيءٍ من أموال اليتامىٰ إلى أقاربهم إذا حضروا القسمة.. ذكر هنا قاعدة عامة للتعامل في الأموال تطهيراً للأنفس في جمع المال المحبوب لها.

قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنه تعالى لمّا ذكر الوعيد على فعل بعض الكبائر.. ذكر الوعد على اجتناب الكبائر، والظاهر أن الذنوب تنقسم على قسمين؛ إلى كبائر وسيئات، وهي التي عبر عنها أكثر العلماء بالصغائر.

وقيل[3]: المناسبة أنه لمّا نهى الله سبحانه وتعالى عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن قتل النفس، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات.. نهى عن جميع الكبائر التي يعظم ضررها، وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها، ووعد من تركها بالمُدخَل الكريم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ هذه الآيات إلى قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ كأنها واقعة في جواب أسئلة مقدرة[4]، تقديرها: ما الحكمة في هذه الأحكام، وما فائدتها للعباد، وهل من كان قبلنا من الأمم السالفة كلف بمثلها، فلم يبح

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

لهم أن يتزوجوا كل امرأة، وهل كان ما أمرنا الله به أو نهانا عنه تشديداً علينا أو تخفيفاً عنا؟

واللام[1] في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ زائدة مؤكدة لإرادة التبيين، كما زيدت في لا أبالك لتأكيد إضافة الأب، والمعنى: يريد الله سبحانه وتعالى بما شرعه لكم من الأحكام أن يبين لكم، ويوضح ما فيه مصالحكم ومنافعكم، وقيل يبين لكم ما يقربكم منه وقيل يبين لكم أن الصبر عن نكاح الإماء خير لكم.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: ويريد الله سبحانه وتعالى أن يرشدكم طرائق من تقدمكم، ومناهجهم من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم وتقتفوا آثارهم، وتسيروا سيرتهم، فكلٌّ ما بيَّن الله تحريمه وتحليله لنا من النساء.. كان الحكم كذلك في جميع الشرائع والملل، فالشرائع والتكاليف وإن اختلفت باختلاف أحوال الاجتماع والأزمان كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.. فهي متفقة في مراعاة المصالح العامة للبشر.

فروح الديانات جميعاً وأساسها توحيد الله تعالى، وعبادته والخضوع له، على صور مختلفة، ومآل ذلك تزكية النفس بالأعمال التي تقوم بها، وتهذيب الأخلاق لتَبْتَعِدَ عن سيء الأفعال والأقوال، ﴿وَ﴾ يريد الله سبحانه وتعالى أن ﴿يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أن يرجعكم عن المعصية التي كنتم عليها إلى طاعته، ويوفقكم للتوبة عنها، قيل: إن الأحكام قبل البعثة لم تثبت فأين المعصية؟

أجيب: بأن المراد المعصية ولو صورةً، والمعنى: ويريد الله تعالى أن يجعلكم بالعمل بتلك الأحكام تائبين، راجعين عما كان قبلها من تلك الأنكحة الضارة التي كان فيها انحراف عن سنن الفطرة؛ إذ كنتم تنكحون ما نكح آباؤكم، وتقطعون أرحامكم، ولا تلتفتون إلى المعاني السامية التي في الزوجية، من تقوية روابط النسب، وتجديد قرابة الصهر، والسعادة التي تثلج قلوب الزوجين، والمودة والرحمة اللتين تعمر بهما نفوسهما. ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾

---

(١) النسفي.

بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لهم من أمورهم؛ أي: فبعلمه المحيط بما في الأكوان شرع لكم من الدين ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم، وبحكمته لم يكلفكم بما يشق عليكم، وبما فيه الأذى والضرر لكم، وبها يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُرِيدُ﴾ بما كلّفكم به من تلك الشرائع ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: أن يطهركم من الذنوب ويزكي نفوسكم من الأدناس، قال ابن عباس: معناه: يريد أن يخركم من كل ما يكرهُ إلى ما يحب ويرضى، وقيل: معناه يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم التي يغفر لكم بها ما سلف من ذنوبكم. ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ المحرمة ويستبيحونها ويفعلونها. قيل: هم[(١)] اليهود والنصارى، وقيل: هم اليهود خاصة؛ لأنهم يقولون: إن نكاح بنت الأخ من الأب حلال، وقيل: هم المجوس؛ لأنهم يستحلون نكاح الأخوات، وبنات الإخوة، فلما حرمهن الله تعالى. . قالوا: إنكم تحلون بنت الخالة، وبنت العمة، والخالة والعمة عليكم حرام، فانكحوا بنات الأخ والأخت، فنزلت هذه الآية، وقيل: هم الزناة يريدون أن تكونوا مثلهم. ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾ وتعدلوا عن الحق، وقصد السبيل ﴿مَيۡلًا﴾ بموافقتهم على اتباع الشهوات، واستحلال المحرمات ﴿عَظِيمًا﴾؛ أي: بيناً بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة، على ندور غير مستحل لها؛ أي: أن تخطئوا خطأً عظيماً بنكاح الأخوات من الأب ونحوها، لقولهم: إنه حلال في كتابنا، وبمشاركتهم في اتباع الشهوات، فإن الزاني يحب أن يشركه في الزنا غيره، ليفرق اللوم عليه وعلى غيره، ومتبعوا الشهوات هم الذين يدورون مع شهوات أنفسهم، وينهمكون فيها، فكأنها أمرتهم باتباعها فامتثلوا أمرها، فلا يبالون بما قطعوا من حقوق الأرحام، ولا بما أزالوا من مودة القرابة، فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة.

وأما الذين يفعلون ما يأمر به الدين: فليس غرضهم إلا امتثال أوامره، لا اتباع شهواتهم، ولا الجري وراء لذاتهم، وقرأ الجمهور أن تميلوا بتاء الخطاب، وقرىء بالياء على الغيبة، فالضمير في ﴿يميلوا﴾ يعود على الذين يتبعون

---

(١) الخازن.

الشهوات. وقرأ الجمهور ﴿ميلاً﴾ بسكون الياء، وقرأ الحسن بفتحها. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾ أيها الأمة المحمدية، ويسَهل عليكم في جميع أحكام الشرع، كإباحة نكاح الأمة عند الضرورة، ونحوه من سائر الرخص، ولم يثقل التكاليف عليكم، كما ثقلها على بني إسرائيل، كما أخبره في كتابه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾، وكما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السهلة السمحة».

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾؛ أي: خلق الله جنس الإنسان حالة كونه ضعيفاً؛ أي: عاجزاً عن مخالفة هواه، غير قادر على مخالفة دواعيه، حيث لم يصبر عن النساء، وعن اتباع الشهوات، ولا يستخدم قواه في مشاق الطاعات، ولذلك خفف الله تكليفه، وقد ورد عن النبي ﷺ: «لا خير في النساء ولا صبر عنهن يغلبن كريماً ويغلبهن لئيم، فأحب أن أكون كريماً مغلوباً ولا أحب أن أكون لئيماً غالباً». وقيل: هو ضعيف في أصل الخلقة؛ لأنه خلق من ماء مهين.

وقد رحم الله عباده[1]، فلم يحرم عليهم من النساء إلا ما في إباحته مفسدة عظيمة، وضرر كبير، ولا يزال الزنا ينتشر حيث يضعف وازع الدين، ولا يزال الرجال هم المعتدين، فهم يفسدون النساء ويغرونهن بالأموال، ويحجر الرجل على امرأته ويحجبها، بينما يحتال على امرأة غيره ويخرجها من خِدرها، وإنه لغِرٌّ جاهلٌ، أفيظن أن غيره لا يحتال على امرأته كما احتال هو على امرأة سواه، فقلما يفسق رجل إلا يكون قدوةً لأهل بيته في الفسق والفجور، وفي الحديث: «عفوا تعف نسائكم وبروا آباءكم تبرّكم أبناؤكم» رواه الطبراني من حديث جابر.

وقد بلغ الفسق في هذا الزمن حداً صار الناس يظنونه من الكياسة، وزالت غيرتهم، وأسلسوا القياد لنسائهم كما يسلسن لقيادتهن، فوهت الروابط الزوجية، ونخر السوس في سعادة البيوت، ووجدت الرذيلة لها مرتعاً خصيباً في أجواء الأسر، حتى أصبح الرجل لا يثق بنسله، وكثرت الأمراض والعلل بشتى مظاهرها.

---

(١) المراغي.

أخرج البيهقي[1] في «شعب الإيمان» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ثماني آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، وعد هذه الآيات الثلاث: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾، والرابعة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، والخامسة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، والسادسة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، والسابعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، والثامنة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.. الآية.

وقال الراغب[2]: ووصف الإنسان بأنه خلق ضعيفاً إنما هو باعتباره بالملأ الأعلى، نحو: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾، أو باعتباره بنفسه دون ما يعتريه من فيض الله ومعونته، أو اعتباراً بكثرة حاجاته، وافتقار بعضهم إلى بعض، أو اعتباراً بمبدئه ومنتهاه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ وأما إذا اعتُبر بعقله، وما أعطاه من القوة التي يتمكن بها من خلافة الله في أرضه، ويبلغ بها في الآخرة إلى جواره تعالى.. فهو أقوى ما في هذا العالم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

وقرأ ابن عباس ومجاهد: ﴿وخَلَقَ الإنسانَ ضعيفاً﴾ مبنياً للفاعل مسنداً إلى ضمير اسم الله، وانتصاب ضعيفاً على الحال.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ شروع في بيان بعض المحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس، إثر بيان المحرمات المتعلقة بالأبضاع، وإنما خَصَّ الأكل بالذكر؛ لأن معظم المقصود من الأموال الأكل، فالمراد: النهي عن مطلق الأخذ، قيل: ويدخل فيه أكل مال نفسه، وأكل مال غيره، فأكل مال نفسه بالباطل إنفاقه في المعاصي.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

أي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدَّقوا بما جاء به محمد ﷺ لا تأكلوا أموالكم المتداولة بينكم بالوجه الباطل الممنوع في الشرع؛ أي: بالطريق الذي يخالف الشرع، كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا وشهادة الزور والحلف الكاذب وجحد الحق، ونحو ذلك كالرُشا، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ منقطع؛ لأن التجارة عن تراضٍ ليست من جنس أكل المال بالباطل، فتكون ﴿إِلَّآ﴾ هنا بمعنى: لكن، والمعنىٰ: لكن أكلها بتجارة صادرة عن تراض منكم، وطيب نفس من المتعاقدين جائزٍ لكم.

وخص التجارة[1] بالذكر دون غيرها كالهبة والصدقة والوصية؛ لأن غالب التصرف في الأموال بها ولأن أسباب الرزق متعلق بها غالباً، ولأنها أرفق بذوي المروءات، بخلاف الإيهاب وطلب الصدقات، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿تِجَٰرَةً﴾ بالنصب على أن ﴿تَكُونَ﴾ ناقصة، واسمها ضمير مستتر يعود على[2] الأموال، تقديره: إلا أن تكون الأموال أموال تجارة صادرة عن تراض منكم، فيجوز أكلها، أو يعود على ﴿تجارة﴾ والتقدير: إلا أن تكون التجارة تجارة عن تراض منكم.

وقرأ الباقون بالرفع على أن تكون تامة، والمعنى: إلا أن توجد تجارة صادرة عن تراض منكم، فيجوز أكل الأموال المكتسبة بها.

واختلف العلماء في التراضي[3]، فقالت طائفة: تمامه، أي: تمام البيع وجوبه بافتراق الأبدان بعد عقد البيع، أو بأن يقول أحدهما لصاحبه اختر، كما في الحديث الصحيح: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا أو يقول أحدهما لصاحبه: اختر» أخرجه الشيخان عن ابن عمر، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين، وبه قال الشافعي والثوري والأوزاعي والليث وابن عيينة وإسحاق وغيرهم. وقال

---

(١) كرخي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

مالك وأبو حنيفة: تمام البيع هو أن يعقد البيع بالألسنة، فيرتفع بذلك الخيار، وأجابوا عن الحديث بما لا طائل تحته.

فائدة: وفي قوله: ﴿بَيْنَكُم﴾ رمز[1] إلى أن المال المحرم يكون عادة موضع التنازع في التعامل بين الآكل والمأكول منه، كل منهما يريد جذبه إليه، والمراد بالأكل الأخذ على أي وجه، وعبر عنه بالأكل لأنه أكثر أوجه استعمال المال وأقواها.

وأضاف الأموال إلى الجميع، ولم يقل: لا يأكل بعضكم مال بعض، تنبيهاً إلى تكافل الأمة في الحقوق والمصالح، كأن مال كل واحد منها هو مال الأمة جميعها، فإذا استباح أحدهم أن يأكل مال الآخر بالباطل.. كان كأنه أباح لغيره أن يأكل ماله، فالحياة قصاص، وإرشاداً إلى أن صاحب المال يجب عليه بذل شيء منه للمحتاج وعدم البخل عليه به، إذ هو كأنما أعطاه شيئاً من ماله، وبهذا قد وضع الإسلام قواعد عادلة للأموال لدى من يعتنق مبادئه:

منها: أن مال الفرد مال الأمة، مع احترام الحيازة والملكية وحفظ حقوقها، فهو يوجب على ذي المال الكثير حقوقاً معينة للمصالح العامة، وعلى ذي المال القليل حقوقاً أخرى للبائسين وذوي الحاجات من سائر أصناف البشر، ويحث على البر والإحسان والصدقات في جميع الأوقات.

وبهذا لا يوجد في بلاد الإسلام مضطر إلى القوت أو عريان، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم؛ لأن الإسلام فرض على المسلمين إزالة ضرورة المضطر، كما فرض في أموالهم حقوقاً للفقراء والمساكين.

وكل فرد يقيم في بلادهم يرى أن مال الأمة هو مالُه، فإذا اضطر إليه.. يجده مذخوراً له، كما جُعل المال المفروض في أموال الأغنياء تحت سيطرة الجماعة الحاكمة من الأمة، حتى لا يمنعه من في قلبه مرض، وحثهم على البذل

---

(١) المراغي.

ورغبهم فيه، وذمهم على البخل، ووكل ذلك إلى أنفسهم؛ لتقوى لديهم ملكة السخاء والمروءة والرحمة.

ومنها: أنه لم يبح للمحتاج أن يأخذ ما يحتاج إليه من أيدي أربابه إلا بإذنهم، حتى لا تنتشر البطالة والكسل بين أفراد الأمة، وتوجد الفوضى في الأموال والضعف والتواني في الأحوال، ويدب الفساد في الأخلاق والآداب.

ولو أقام المسلمون معالم دينهم، وعملوا بشرائعه.. لضربوا للناس الأمثال، واستبان لهم أنه خير شريعة أخرجت للناس، ولأقاموا مدنية صحيحة في هذا العصر، يتأسى بها كل من يريد سعادة الجماعات، ولا يجعلها تَئِنُ تحت أثقال العوز والحاجة، كما هو حادث الآن من التنافر العام، والنظر الشزر من العمال إلى أصحاب رؤوس الأموال. ومعنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾؛ أي: لا تكونوا من ذوي الأطماع الذين يأكلون أموال الناس بغير مقابل لها من عين أو منفعة، ولكن كلوها بالتجارة التي قوام الحل فيها التراضي، وذلك هو اللائق بأهل المروءة والدين، إذا أرادوا أن يكونوا من أرباب الثراء.

وفي الآية إيماء إلى أنواع شتى من الفوائد:

منها: أن مدار حل التجارة على تراضي المتبايعين، فالغش والكذب والتدليس فيها من المحرمات.

ومنها: أن جميع ما في الدنيا من التجارة، وما في معناها، من قبيل الباطل الذي لابقاء له ولا ثبات، فلا ينبغي أن يشغل العاقل بها عن الاستعداد للآخرة، التي هي خير وأبقى.

ومنها: الإشارة إلى أن معظم أنواع التجارة يدخل فيها الأكل بالباطل، فإنَّ تحديد قيمة الشيء، وجعل ثمنه على قدره بالقسطاس المستقيم يكاد يكون مستحيلاً، ومن ثم يجري التسامح فيها إذا كان أحد العوضين أكبر من الآخر، أو إذا كان سبب الزيادة براعة التاجر في تزيين سلعته، وترويجها بزخرف القول من غير غش ولا خداع، فكثيراً ما يشتري الإنسانُ الشيء وهو يعلم أنه يمكنه شراؤه

من موضع آخر بثمن أقلّ، وما نشأ هذا إلاّ من خلابة التاجر وكياسته في تجارته، فيكون هذا من باطل التجارة الحاصلة بالتراضي، فيكون حلالاً، والحكمة في إباحة ذلك الترغيب في التجارة؛ لشدة حاجة الناس إليها، والتنبيه إلى استعمال ما أوتوا من الذكاء والفطنة في اختيار الأشياء، والتدقيق في المعاملة حفظاً للأموال، حتى لا يذهب شيء منها بالباطل؛ أي: بدون منفعة تقابلها.

فإذا ما وجد في التجارة الربح الكثير بلا غشٍ ولا تغرير، بل بتراض من الطرفين.. لم يكن في هذا حرج، ولولا ذلك ما رغب أحد في التجارة، ولا اشتغل بها أحد من أهل الدين، على شدة حاجة العمران إليها، وعدم الاستغناء عنها.

ولما كان المال عديل الروح، وقد نهينا عن إتلافه بالباطل، كنهينا عن إتلاف النفس؛ لكون أكثر إتلافهم لها بالمغامرات؛ لنهب الأموال، وما كان متصلاً بها، وربما أدى ذلك إلى الفتن التي ربما كان آخرها القتل. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾؛ أي: لا تفعلوا ما تستحقون به القتل، من قتل المؤمن بغير حق والردة والزنا بعد الإحصان، أو المعنى: لا يقتل بعضكم بعضاً، وإنما قال: ﴿أَنفُسَكُمْۚ﴾ لأنهم أهل دين واحد، فهم كنفس واحدة، وللإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها، وقد جاء في الحديث: «المؤمنون كالنفس الواحدة»؛ ولأن قتل الإنسان لغيره يفضي إلى قتله قصاصاً أو ثأراً، فكأنه قتل نفسه.

وبهذا علمنا القرآن: أن جناية الإنسان على غيره جناية على نفسه، وجناية على البشر جميعاً، لا على المتصلين به برابطة الدين أو الجنس أو السياسة، كما قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ كما أنه أرشدنا باحترام نفوس الناس بعدها كنفوسنا، إلى أن نحترم نفوسنا بالأولى، فلا يباح بحال أن يقتل أحد نفسه؛ ليستريح من الغم وشقاء الحياة، فمهما اشتدت المصائب بالمؤمن.. فعليه أن يصبر ويحتسب، ولا ييأس من الفرج الإلهي، ومن ثَمَّ لا يكثرُ بَخْعُ النفس والانتحار إلا حيث يقل الإيمان، ويفشو الكفر والإلحاد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ سبحانه وتعالى كان بكم رحيماً حيث نهاكم عن كل ما تستوجبون به مشقة؛ أي: إنه سبحانه وتعالى بنهيكم عن أكل الأموال بالباطل وعن قتلكم أنفسكم كان رحيماً بكم؛ إذ حفظ دماءكم كما حفظ أموالكم، التي عليها قوام المصالح، واستمرار المنافع، وعلمكم أن تتراحموا وتتوادوا، ويكون كل منكم عوناً للآخر، يحافظ على ماله، ويدافع عن نفسه إذا جد الجد، ودعت الحاجة إلى الدفاع عنه.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ المنهي المذكور من أكل الأموال بالباطل، وقتل الأنفس، أو سائر المحرمات المذكورة من أول السورة إلى هنا، ﴿عُدْوَٰنًا﴾؛ أي: تعدياً[1] وعمداً لا خطأً، ﴿وَظُلْمًا﴾؛ أي: بغير حق لا قصاصاً، أو المعنى ﴿عُدْوَٰنًا﴾؛ أي:[2] تعدياً على الغير، ﴿وَظُلْمًا﴾؛ أي: لنفسه بتعريضها للعقاب، لا جهلاً ونسياناً وسفهاً، وقال المراغي[3]: العدوان هو التعدي على الحق، وهو يتعلق بالقصد، بأن يتعمد الفاعل الفعل، وهو عالم أنه قد تعدى الحق وجاوزه إلى الباطل، والظلم يتعلق بالفعل نفسه، بأن لا يتحرى الفاعل عمل ما يحل فيفعل ما لا يحل، والوعيد مقرون بالأمرين معاً، فلا بد من قصد الفاعل العدوان، وأن يكون فعله ظلماً لاحقاً، فإذا وجد أحدهما دون الآخر.. لم يستحق الفاعل هذا التهديد الشديد، فإذا قتل الإنسان رجلاً كان قد قتل أباه أو ابنه.. فهنا قد وجد العدوان ولم يوجد الظلم، وإذا سلب امرؤ مال آخر ظاناً أنه ماله الذي كان قد سرقه أو اغتصبه، ثم تبين أن المال ليس ماله، وأن هذا الرجل لم يكن هو الذي أخذ ماله.. فهاهنا قد وجد الظلم دون العدوان، وقرىء ﴿عِدواناً﴾ بالكسر، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾؛ أي: فسوف ندخله في الآخرة ناراً هائلة شديدة العذاب، يصلى فيها، عقوبة له على جريمته ومدلول[4] ﴿نَارًا﴾ مطلق، والمراد ـ والله أعلم ـ تقييدها بوصف الشدة، أو ما يناسب هذا الجرم العظيم من أكل المال بالباطل وقتل الأنفس.

---

(١) النسفي.

(٢) بيضاوي جمل.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نُصْلِيهِ﴾ بضم النون، وقرأ النخعي والأعمش بفتحها من صلاه الثلاثية، ومنه شاة مصلية، وقرىء أيضاً ﴿نصلّيه﴾ مشدداً، وقرىء ﴿يصليه﴾، والظاهر أن الفاعل ضمير يعود على الله؛ أي: فسوف يصليه هو؛ أي: الله تعالى، وأجاز الزمخشري: أن يعود الضمير على ذلك، قال: لكونه سبباً للمصلي، وفيه بعد.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإصلاء والإدخال في النار ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ أي: يسيراً سهلاً هيناً على الله سبحانه وتعالى لا يمنعه منه مانع، ولا يدفعه عنه دافع، ولا يشفع فيه إلا بإذنه شافع، فلا يغترَّن الظالمون المعتدون بحلمه تعالى عليهم في الدنيا، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، فيظنوا أنهم بمنجاة من عقابه في الآخرة، ولا يكونن كأولئك المشركين الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾ وتتركوا ﴿كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: عظائم ما نهاكم الله عنه من الذنوب، كالشرك والزنا وقتل النفس المحرمة مثلاً، وتفعلوا عزائم ما أمركم الله به، كالصلوات الخمس وصيام رمضان والزكاة والحج، ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾؛ أي: نمحُ عنكم صغائر الذنوب، ونغفرها لكم فلا نؤاخذكم بها، فتصير بمنزلة ما لم يعمل؛ لأن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر وفعل المأمورات، ولا تكفر كبارها إلا بالتوبة والإقلاع عنها، فمعنى تكفير السيئات: إزالة ما يستحق عليها من العقوبات، وجعلها كأن لم تكن، فالمراد بالسيئات هنا الصغائر، لأنهم قسموا الذنوب إلى قسمين: صغائر كالنظرة واللمسة والقبلة مثلاً، وكبائر كالزنا والسرقة، وقالوا: أكبر الكبائر الشرك بالله، وأصغر الصغائر حديث النفس. وإنما زدنا في تفسير الآية قيد وتفعلوا عزائم المأمورات؛ لأنه لابد من تقييد ما في هذه الآية من تكفير السيئات بمجرد اجتناب الكبائر، بما أخرجه النسائي وابن ماجه وابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه»، عن أبي هريرة وأبي سعيد: أن النبي ﷺ جلس على المنبر ثم قال: «والذي نفسي بيده، ما من عبد يصلي الصلوات الخمس،

---

(١) البحر المحيط.

ويصوم رمضان، ويؤدي الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع.. إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة، حتى إنها لتصفق»، ثم تلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، وقيل: لا يشترط ذلك بل تكفر الصغائر باجتناب الكبائر، فإنَّ اجتناب الكبائر من أعظم الطاعات، وهو المعتمد لظاهر الآية. ﴿وَنُدْخِلْكُم﴾ في الآخرة ﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾؛ أي: موضعاً طيباً ومنزلاً حسناً، أو ندخلكم مكاناً لكم فيه الكرامة عند ربكم، وهو الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، ومعنى كونه كريماً أنه لا نكد فيه ولا تعب، بل فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، جعلنا الله سبحانه وتعالى من أهلها.

وقرأ ابن عباس وابن جبير[١]: ﴿إن تجتنبوا كبير﴾ على الإفراد، وقرأ المفضلُ عن عاصم: ﴿يُكفِّر﴾ ﴿ويدخلكم﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ ابن عباس: ﴿من سيئاتكم﴾، بزيادة (من)، وقرأ نافع: ﴿مَدْخَلاً﴾ هنا، وفي الحج بفتح الميم، ورُويت عن أبي بكر، وقرأ باقي السبعة بضمها.

واعلم: أنه قد اختلف العلماءُ في عدد الكبائر، وتحقيق معناها، فقال ابن مسعود: هي ثلاث: القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وروي عنه أيضاً أنها أربع، فزاد الإشراك بالله، وقال عليٌّ: هي سبع، الإشراك بالله، وقتل النفس، وقذفُ المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرارُ يوم الزحف، والتعرب بعد الهجرة، وقال عبيد بن عمير: الكبائر سبع كقول علي في كل واحدة منها آية من كتاب الله، وجعل الآية في التعرب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى...﴾ الآية.

والأحاديث الصحيحة[٢] كما سيأتي مختلفة في عددها، ومجموعها يزيد على سبع، ومن ثم قال ابن عباس: لما قال له رجل: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى سبعين أقرب، وفي رواية عنه: هي إلى سبع مئة أقرب؛ إذ لا صغيرة مع

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار، ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس، من استشاطة غضب أو ثورة شهوة، وصاحبه متمكن من دينه، يخاف الله ولا يستحل محارمه، فهو من السيئات التي يكفرها الله تعالى، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس لم يكن ليجترحه تهاوناً بالدين، إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله، فهو إذ ذاك لأَنْ يتوب عليه ويكفر عنه أقربُ، وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر، وعدم المبالاة بنظر الله إليه، ورؤيته إياه حيث نهاه، فهو مهما كان صغيراً في صورته أو في ضرره يعد كبيراً من حيث الإصرار والاستهتار، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده، والهمز واللمز، وعيب الناس، والطعن في أعراضهم لمن تعوده، كل ذلك كبيرة ولا شك، وكان النبي ﷺ يذكر في كل مقام ما تمس إليه الحاجة ولم يرد الحصر والتحديد.

وأما في تحقيقها فقيل: إن الذنوب كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها: صغيرة بالنسبة إلى ما هو أكبر منها، كما يقال: الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا. وقال ابن عباس: الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، وقال ابن مسعود: الكبائر ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آيةً، وقال سعيد بن جبير: كل ذنب نسبه الله إلى النار فهو كبيرة، وقال جماعة من أهل الأصول: الكبائر كل ذنب رتب عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه، وقيل: كل ذنب عظم قبحه وعظمت عقوبته، إما في الدنيا بالحدود، وإما في الآخرة بالعذاب عليه، وقيل غير ذلك مما لا طائل في ذكره.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في الكبائر

فمنها: ما روي عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزور، وقول الزور»، وكان متكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. أخرجاه في «الصحيحين».

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: ذكر لنا رسول الله ﷺ الكبائر

فقال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس»، وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قول الزور» أو قال: «شهادة الزور» متفق عليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والزنا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» متفق عليه.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قال: قلت: إن ذلك لعظيم، ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» رواه البخاري.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»، وفي رواية، أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله»، قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس»، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مال امرىء مسلم بيمين هو فيها كاذب» رواه البخاري.

وعنه ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم! يسب الرجل أبا الرجل أو أمه، فيسب أباه أو أمه»، وفي رواية: «من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» وذكر الحديث، متفق عليه.

الإعراب

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لتقرير ما سبق من

الأحكام، وكونها جارية على مناهج المهتدين من الأنبياء والصالحين. ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: اللام لام كي، ولكنها زائدة، زيدت لتأكيد إرادة التبيين. ﴿يبينَ﴾: منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريد الله تبيينه لكم. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾: الواو: عاطفة. ﴿يهديكم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يبينَ﴾ على كونها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريد الله بيانه لكم، وهدايته لكم. ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَيَتُوبَ﴾: معطوف أيضاً على ﴿يُبَيِّنَ﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، تقديره: وتوبته عليكم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان والجملة مستأنفة.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو عاطفة. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية؛ أعني: جملة يريد الله. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَتُوبَ﴾: منصوب بـ﴿أن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: والله يريد توبته عليكم. ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ﴾. ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَن تَمِيلُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿مَيْلًا﴾: مفعول مطلق. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يُرِيدُ﴾؛ تقديره: ويريد الذين يتبعون الشهوات ميلكم ميلاً عظيماً.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف مصدر. ﴿يُخَفِّفَ﴾: منصوب بـ﴿أَن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَنكُم﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: يريد الله تخفيفه عنكم، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿ضَعِيفًا﴾: حال من الإنسان، وهي حال مؤكدة، والجملة مستأنفة، بمنزلة التعليل لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ها: حرف تنبيه زائد زيد تعويضاً عما فات أي من الإضافة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع، أو في النصب صفة له، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿بَيْنَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَأْكُلُوٓا۟﴾، أو حال من ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: متعلق بـ﴿تَأْكُلُوٓا۟﴾.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء منقطع بمعنى لكن. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص. ﴿تِجَٰرَةً﴾: خبرها منصوب على قراءة النصب، واسمها ضمير يعود على المعاملة مثلاً، وعلى قراءة الرفع فتكون تامة، ﴿تجارةٌ﴾: فاعلها، وجملة ﴿تَكُونَ﴾ على كلا الإعرابين: صلة أن المصدرية، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف؛ تقديره: لكن كون المعاملة تجارة عن تراض منكم جائز، أو كون تجارة عن تراض منكم جائز، والجملة جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب. ﴿عَن تَرَاضٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿تِجَٰرَةً﴾. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿تَرَاضٍ﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟﴾: جازم وفعل وفاعل معطوف على جملة ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟﴾. ﴿أَنفُسَكُمْۚ﴾:

مفعول به ومضاف إليه. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الجلالة. ﴿بِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿رَحِيمًا﴾، وهو خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: الواو استئنافية. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما. ﴿يَفْعَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعول به. ﴿عُدْوَٰنًا﴾: حال من فاعل يفعل. ﴿وَظُلْمًا﴾: معطوف عليه، ولكن بعد تأويلهما بمشتق؛ تقديره: ومن يفعل ذلك حالة كونه متعدياً على غيره، وظالماً لنفسه، أو منصوبان على المفعول لأجله. ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب مقترناً بـ﴿سوف﴾. ، ﴿سَوْفَ﴾: حرف تنفيس. ﴿نُصْلِيهِ﴾: فعل ومفعول أول. ﴿نَارًا﴾: مفعول ثان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، ولم يجزم لفظه لاقترانه بحرف التنفيس، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسِيرًا﴾ وهو خبر كان، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، مجزوم بحذف النون. ﴿كَبَآئِرَ مَا﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿تُنْهَوْنَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد ضمير عنه. ﴿نُكَفِّرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿أن﴾ على كونه جواب الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله،

وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿عَنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُكَفِّرْ﴾. ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَنُدْخِلْكُم﴾. معطوف على ﴿نُكَفِّرْ﴾ مجزوم على كونه جواب ﴿إنْ﴾: الشرطية، و﴿الكاف﴾: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مُّدْخَلًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بندخل. ﴿كَرِيمًا﴾: صفة له، ويصح نصبه على المصدرية، والمدخول فيه على هذا محذوف، تقديره: وندخلكم الجنة إدخالاً كريماً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، السنن جمع سنة، كغرف وغرفة، والسنة: الطريقة، ويقال: تاب إلى الله توبة وتوباً ومتاباً، من باب قال، إذا رجع من معصيته إلى طاعته، وتاب الله عليه إذا غفر له، ورجع عليه بفضله، والمعنى هنا: ويغفر لكم، ومعناه في الموضع الثاني أعني قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ التوفيق للهداية، والرجوع إلى الطاعة، ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: جمع شهوة، كهفوات جمع هفوة، وهي المستلذات المحرمة، يقال: شها الشيء يشهو من باب دعا، ويقال: شهي يشهى - من باب رضي يرضى - شهوةً إذا أحبه ورغب فيه رغبة شديدة، ﴿أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ يقال: مال يميل من - باب باع - ميلاً وتميالاً وميلاناً وميلولةً إلى المكان عدل إليه، أو إلى الشيء، أو إلى الشخص، إذا رغب فيه أو أحبه، ومال عن الطريق إذا حاد عنه، ومال الحاكم في حكمه إذا جار وظلم، ومال الحائط إذا زال عن استوائه، والمراد هنا الميل عن الطريق المستقيم.

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ والضعيف: صفة مشبهة من ضعف يضعف ضعافة وضعافية ضد قوي، وهو من باب فعل المضموم كشرف، يجمع على ضعاف وضعفاء وضعفة وضعفى مؤنثه ضعيفة. ﴿أموالَكم﴾: جمع مال، والمال هو ما ملكته من جميع الأشياء، وهو عند أهل البادية يطلق على النعم والمواشي كالإبل والغنم، يذكر ويؤنث فيقال: هو المال، وهي المال، سمي به لميل القلب إليه، ويقال: مال يمول مولاً ومؤولاً من باب قال، يقال: مال زيد إذا صار ذا مال أو

كثر ماله، وموَّله إذا صيره ذا مال، ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الباطل: ضد الحق، يجمع على أباطيل، يقال: بطل يبطل ـ من باب نصر ـ بطلاً وبطولاً، إذا ذهب خسراً وضياعاً فهو باطل، وفي «المراغي»: الباطل من البطل، والبطلان وهو الضياع والخسار، وفي الشرع: أخذ المال بدون عوض حقيقي يعتد به، ولا رضى ممن يؤخذ منه، أو إنفاقه في غير وجه حقيقي نافع، فيدخل في ذلك الغصب والغش والربا والغبن وإنفاق المال في الوجوه المحرمة والإسراف بوضع المال فيما لا يرضى به العقلاء، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ﴾: اجتنب من باب افتعل، والاجتناب: ترك الشيء جانباً، والكبائر جمع كبيرة ككريمة وكرماء، وهي المعصية العظيمة، ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ والسيئات: جمع سيئة، وهي الفعلة التي تسوء صاحبها عاجلاً أو آجلاً، والمراد بها هنا الصغائر، كما هو مذهب الجمهور. ﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾: وفي «السمين»: قرأ[1] نافع وحده هنا، وفي الحج ﴿مَدخلاً﴾ بفتح الميم، والباقون بضمها، ولم يختلفوا في ضم التي في الإسراء كما مرَّ.

فأما المضموم الميم فإنه يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه مصدر، وقد علم أن المصدر الميمي من الرباعي فما فوقه، كاسم المفعول منه، والمدخول فيه على هذا محذوف؛ أي: وندخلكم الجنة إدخالاً كريماً.

والثاني: أنه اسم مكان الدخول.

وفي نصبه حينئذ احتمالان:

أحدهما: أنه منصوب على الظرف، وهو مذهب سيبويه.

والثاني: أنه مفعول به، وهو مذهب الأخفش، وهكذا كل مكان مختص بعد دخل، فإن فيه هذين المذهبين، وهذه القراءة واضحة، لأن اسم المصدر والمكان جاريان على فعلهما، وأما قراءة نافع: فتحتاج إلى تأويل، وذلك لأن

(١) الفتوحات.

المفتوح الميم إنما هو من الثلاثي، والفعل السابق لهذا كما رأيت رباعي، فقيل: إنه منصوب بفعل مقدر مطاوع لهذا الفعل المذكور، والتقدير: وندخلكم فتدخلون مدخلاً، ومدخلاً منصوب على ما تقدم إما المصدرية وإما المكانية بوجهيها، وقيل: هو مصدر على حذف الزوائد، نحو أنبتكم من الأرض نباتاً على إحدى القراءتين انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبديع(١):

منها: التكرار في اسم الله وفي قوله: ﴿يُرِيدُ﴾ في أربعة مواضع، وفي قوله: ﴿يَتُوبَ﴾، ﴿أَن يَتُوبَ﴾.

ومنها: إطلاق المستقبل على الماضي في قوله: ﴿يُرِيدُ﴾، وفي قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ لأن إرادة الله وبيانه قديمان؛ إذ تبيانه في كتبه المنزلة، والإرادة والكلام من صفات ذاته وهي قديمة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ﴾، وفي قوله: ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾؛ لأنه استعار الاتباع والميل اللذين هما حقيقة في الإجرام؛ لموافقة هوى النفس المؤدي إلى الخروج عن الحق. وفي قوله: ﴿أَن يُخَفِّفَ﴾ لأن التخفيف أصله من خفة الوزن وثقل الجرم، وتخفيف التكاليف: رفع مشاقها من النفس، وذلك من المعاني. وفي قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ جعله ضعيفاً باسم ما يؤول إليه، أو باسم أصله.

ومنها: الزيادة في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، قال الزمخشري: تقديره: يريد الله أن يبين لكم، فزيدت اللام مؤكدة لإرادة التبيين، كما زيدت في لا أبا لك؛ لتأكيد إضافة الأب كما مر ذلك.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾؛ لأنه مجاز عن

---

(١) البحر المحيط.

مطلق الأخذ؛ لأن المراد النهي عن مطلق الأخذ، وإنما خص الأكل بالذكر؛ لأن معظم المقصود من الأموال الأكل.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ لأنه على تقدير إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه وتفعلوا الطاعات؛ لأن التكفير ليس مرتباً على الاجتناب فقط، بل لا بد معه من فعل الطاعات.

ومنها: قصد الدلالة على الثبوت في جملة، وعلى التجدد في أخرى، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ لأنه جاءت الجملة الأولى اسمية والثانية فعلية، لإظهار تأكيد الجملة الأولى؛ لأنها أدل على الثبوت، ولتكرير اسم الله تعالى فيها على طريق الإظهار والإضمار، وأما الجملة الثانية: فجاءت فعلية مشعرة بالتجدد؛ لأن إرادتهم تتجدد في كل وقت.

ومنها: إطلاق الكل وإرادة البعض في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم﴾ لأن إضافة الأموال إلى المخاطبين معناه أموال بعضكم، كما قال تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[١]: أنه تعالى لما نهى عن أكل المال بالباطل، وعن قتل الأنفس، وكان ما نهى عنه مدعاة إلى التبسط في الدنيا والعلو فيها، وتحصيل حطامها.. نهاهم عن تمني ما فضل الله به بعضهم على بعض؛ إذ التمني لذلك سبب مؤثر في تحصيل الدنيا، وشوق النفس إليها بكل طريق، فلم يكتف بالنهي عن تحصيل المال بالباطل، وقتل الأنفس، حتى نهى عن السبب المحرض على ذلك، وكانت المبادرة إلى النهي عن السبب آكد لفظاعته ومشقته، فبدىء به، ثم أتبع بالنهي عن السبب حسماً لمادة المسبب، وليوافق العمل القلبي العمل الخارجي، فيستوي الباطن والظاهر في الامتناع عن الأفعال القبيحة.

وقال في «المراغي»[٢]: المناسبة: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى عن أكل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

أموال الناس بالباطل، وعن القتل، وتوعد فاعلهما بالويل والثبور، وهما من أفعال الجوارح؛ ليصير الظاهر طاهراً عن المعاصي الوخيمة العاقبة.. نهى عن التمني، وهو التعرض لها بالقلب حسداً؛ لتطهر أعمالهم الباطنة، فيكون الباطن موافقاً للظاهر، ولأن التمني قد يجر إلى الأكل، والأكل قد يقود إلى القتل، فإن من يرتع حول الحمى.. يوشك أن يقع فيه انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ...﴾ قال أبو حيان[1]: مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما نهى عن التمني المذكور، وأمر بسؤال الله من فضله.. أخبر تعالى بشيء من أحوال الميراث، وأن في شرعه ذلك مصلحة عظيمة، من تحصيل مال للوارث لم يسع فيه، ولم يتعن فيه بطلب فرب ساع لقاعد.

وقال المراغي: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] نهى عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن تمني أحد ما فضل الله به غيره عليه من المال، حتى لا يسوقه التمني إلى التعدي، وهو وإن كان نهياً عاماً، فالسياق يعين المراد منه، وهو المال؛ لأن أكثر التمني يتعلق به، ثم ذكر القاعدة العامة في حيازة الثروة وهي الكسب.. انتقل إلى نوع آخر تأتي به الحيازة وهو الإرث.

قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ..﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها[3]: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى كلاً من الرجال والنساء عن تمني ما فضل الله به بعضهم على بعض وأرشدهم إلى الاعتماد في أمر الرزق على كسبهم، وأمرهم أن يؤتوا الوارثين أنصبتهم، وفي هذه الأنصبة يستبين تفضيل الرجال على النساء.. ذكر هنا أسباب التفضيل.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ سبب نزوله[١]: ما رواه الترمذي والحاكم عن أم سلمة أنها قالت: يغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾، وأنزل فيها ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: يا نبي الله للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل أفنحن في العمل هكذا، إن عملت المرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ...﴾ الآية أخرج[٢] أبو داود في سننه من طريق ابن إسحاق عن داود بن الحصين قال: كنت اقرأ على أم سعد ابنة الربيع، وكانت مقيمة في حجر أبي بكر فقرأت: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ فقالت: لا ولكن ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ﴾ وإنما نزلت في أبي بكر وابنه، حين أبى الإسلام، فحلف أبو بكر أن لا يورثه، فلما أسلم أمره أن يؤتيه نصيبه.

قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ...﴾ سبب نزوله: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تستعدي على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ: «القصاص»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ...﴾ الآية فرجعت بغير قصاص.

وروي أن سعد بن الربيع ـ كان نقيباً من نقباء الأنصار ـ نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد، فلطمها فأنطلق معها أبوها إلى رسول الله ﷺ، فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لتقتص منه»، فنزلت ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير» وأخرج[٣]

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

(٣) لباب النقول.

ابن جرير من طرق عن الحسن، وفي بعضها أن رجلاً من الأنصار لطم امرأته، فجاءت تلتمس القصاص، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص فنزلت: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، ونزلت: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

وأخرج نحوه عن ابن جريج والسدي وأخرج ابن مردويه عن علي قال: أتى النبي ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله إنه ضربني، فأثر في وجهي، فقال رسول الله ﷺ: «ليس له ذلك» فأنزل الله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ...﴾ الآية، فهذه شواهد يقوي بعضها بعضاً.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: لا تغتبطوا أيها المؤمنون كون ما فضل الله وخص به بعضكم، ورفعه به على بعض آخر من الأمور الدنيوية أو الدينية، كالجاه والمال والعلم والطاعة لأنفسكم، ولا تنافسوا فيه؛ لأن ذلك[1] التفضيل قسمة من الله، صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما ينبغي لكل من بسط في الرزق أو قبض، فعلى كل واحد أن يرضى بما قُسم له، ولا يحسد أخاه على حظه، فالحسد أن يتمنى أن يكون ذلك الشيء له ويزول عن صاحبه، والغبطة أن يتمنى مثلما لغيره، وهو مرخص فيه، والأول منهي عنه.

والتمني[2]: هو التعلق بحصول أمر في المستقبل عكس التلهف؛ لأنه التعلق بحصول أمر في الماضي، فإن تعلق بانتقال ما لغيره له، أو لغيره مع زواله عنه، فهو حسد مذموم، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وفي ذلك قال الإمام أحمد بن حنبل:

أَلاَ قُــلْ لِـمَــنْ بَـاتَ لِـيْ حَـاسِـدَا أَتَــدْرِيْ عَــلَــى مَــنْ أَسَــأْتَ ٱلأَدَبْ

(١) النسفي.

(٢) صاوي.

أَسَـأْتَ عَـلَـى ٱلـلَّـهِ فِـيْ فِـعْـلِـهِ   كَـأَنَّـكَ لَـمْ تَـرْضَ لِـيْ مَـا وَهَـبْ
فَـكَـانَ جَـزَاؤُكَ أَنْ خَـصَّـنِـيْ   وَسَـدَّ عَـلَـيْـكَ طَـرِيْـقَ ٱلـطَّـلَـبْ

وإن تعلق بمثل ما لغيره مع بقاء نعمته، فإن كان تقوى أو صلاحاً، أو إنفاق مال في الخير.. فهو مندوب، وهو المعني بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا في ٱثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، ويعلمها الناس» وأما إن تمنى المال لمجرد الغنى.. فهو جائز.

قال ابن عباس[١]: لا يتمنى الرجل مال غيره، ودابته وامرأته ولا شيئاً من الذي ثبت له، كالجاه وغير ذلك مما يجري فيه التنافس، وذلك هو الحسد المذموم؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله تعالى صادرة عن حكمة وتدبير لائق بأحوال العباد، متفرع على العلم بجلائل شؤونهم ودقائقها، ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، وقولوا: اللهم ارزقنا مثله أو خيراً منه مع التفويض.

قيل: نزلت هذ الآية في حق أم سلمة زوج النبي ﷺ، حين قالت للنبي ﷺ: ليت الله كتب علينا ما كتب على الرجال لكي نؤجر كما يؤجر الرجال، فنهى الله عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ﴾؛ أي: الرجال ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: النساء، من الجماعة والجمعة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بين الله ثواب كل من الرجال والنساء باكتسابهم فقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ من الثواب والأجر ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ أي: على ما اكتسبوا، وعملوا من الخيرات، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنفقة على النساء. ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾؛ أي: ثواب ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾؛ أي: على ما عملن من الخيرات في بيوتهن، كحفظ فروجهن وطاعة الله وأزواجهن، وقيامهن بمصالح البيت من الطبخ والخبز، وحفظ الثياب ومصالح المعاش وكالطلق والإرضاع.

أي: إن الله[٢] سبحانه وتعالى كلف كلاً من الرجال والنساء أعمالاً، فما

---

(١) مراح.   (٢) المراغي.

كان خاصاً بالرجال لهم نصيب من أجره لا يشاركهم فيه النساءُ، وما كان خاصاً بالنساء لهن نصيب من أجره، لا يشاركهن فيه الرجال، وليس لأحدهما أن يتمنى ما هو مختص بالآخر، وقد أراد أن يختص النساء بأعمال البيوت، والرجالُ بالأعمال الشاقة التي في خارجها، ليتقن كل منهما عمله، ويقوم بما يجب عليه مع الإخلاص.

وعلى كل منهما أن يسأل ربه الإعانة، والقوة على ما نيط به من عمل، ولا يجوز أن يتمنى ما نيط بالآخر، ويدخل في هذا النهي تمني كل ما هو من الأمور الخلقية، كالعقل والجمال؛ إذ لا فائدة في تمنيها لمن لم يعطها، ولا يدخل فيه ما يقع تحت قدرة الإنسان من الأمور الكسبية؛ إذ يحمد من الناس أن ينظر بعضهم إلى ما نال الآخرون، ويتمنوا لأنفسهم مثله أو خيراً منه بالسعي والجد.

والخلاصة: أنه تعالى طلب إلينا أن نوجه الأنظار والأفكار إلى ما يقع تحت كسبنا، ولا نوجهها إلى ما ليس في استطاعتنا، فإنما الفضل بالأعمال الكسبية، فلا تتمنوا شيئاً بغير كسبكم وعملكم، فعلى المسلم أن يعتمد على مواهبه وقواه في كل مطالبه، بالجد والاجتهاد، مع رجاء فضل الله فيما لا يصل إليه كسبه، إما للجهل به وإما للعجز عنه، فالزارع مثلاً يجتهد في زراعته، ويتبع السنن والأسباب التي سنها الله تعالى لعمله، ويسأل الله أن يمنع الآفات والجوائح عنه.

روى عكرمة أن النساء سألن الجهاد فقلن: وددنا أن الله جعل لنا الغزو فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال، فنزلت: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى أيها المؤمنون والمؤمنات ما احتجتم إليه من حوائج الدين والدنيا، يعطكم ﴿مِن﴾ خزائن ﴿فَضْلِهِۦٓ﴾ وإحسانه وإنعامه، فإن خزائنه مملوءة لا تنفذ، ولا تتمنوا نصيب غيركم ولا تحسدوا من فضل عليكم.

قال الفخر الرازي[1]: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ تنبيه على أن

(١) الفخر الرازي.

الإنسان لا يجوز له أن يعين شيئاً في الطلب والدعاء، ولكن يطلب من فضل الله ما يكون سبباً لصلاحه في دينه ودنياه، على سبيل الإطلاق انتهى.

وقد ورد في الحديث[1]: «لا يتمنين أحدكم مال أخيه، ولكن ليقل: اللهم ارزقني اللهم أعطني مثله»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سلوا الله من فضله فالله يحب أن يسأل وإن من أفضل العبادة انتظار الفرج».

وقرأ ابن كثير والكسائي[2]: ﴿وسلوا﴾ بحذف الهمزة، وإلقاء حركتها على السين، وذلك إذا كان أمراً للمخاطب وقبل السين واو أو فاء، نحو ﴿فسل الذين يقرؤون الكتاب﴾ و﴿فسلوا أهل الذكر﴾، وقرأ باقي السبعة بالهمز. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ - ومنه محل فضله وسؤالكم - ﴿عَلِيمًا﴾؛ أي: عالماً به، ولذلك جعل الناس على طبقات، فرفع بعضهم على بعض درجات بحسب مراتب استعدادهم، وتفاوت اجتهادهم في معترك الحياة، ولا يزال العاملون يستزيدونه، ولا يزال ينزل عليهم من جوده وكرمه ما يفضلون به القاعدين الكسالى، حتى بلغ التفاوت بين الناس في الفضل حداً بعيداً، وكاد التفاوت بين الشعوب يكون أبعدمن التفاوت بين بعض الحيوان وبعض الإنسان؛ أي: فإنه[3] تعالى هو العالم بما يكون صلاحاً للسائلين، فليقتصر السائل على المجمل، وليحترز في دعائه عن التعيين، فربما كان ذلك محض المفسدة والضرر.

﴿وَلِكُلٍّ﴾ إنسان ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾؛ أي: أولياء وأقارب ورثة يرثون ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾؛ أي: يرثون من المال الذي تركه الوالدان والأقربون إن ماتوا، فيكون الوالدان والأقربون موروثين لا وارثين، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾؛ مبتدأ خبره ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾؛ أي: والحلفاء الذين عقدتم لهم عقد

---

(١) مراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراح.

الحلف والنصرة وصافحت أيمانكم أيمانهم عند العقد، فآتوهم وأعطوهم الآن؛ أي: في صدر الإسلام نصيبهم وحظهم الذي تعطونهم في الجاهلية وهو السدس، وكان الحليف في الجاهلية يرث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وهذا التفسير مرويٌّ عن ابن عباس. وقيل معنى الآية: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ﴾؛ أي: ولكل[1] من الرجال الذين لهم نصيبٌ مما اكتسبوا، ومن النساء اللاتي لهن نصيب مما اكتسبن جعلنا موالي مما ترك؛ أي: أقارب وأولياء لهم حق الولاية على ما يتركونه من كسبهم ومالهم ويرثونه منهم، ثم بيَّن هؤلاء الموالي فقال: ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي: أولئك الموالي الذين يرثون كلاً من الفريقين هم الوالدان والأقربون والأزواج، الذين عقدت لهم أيمانكم؛ أي: إن هؤلاء الموالي هم جميع الورثة، من الأصول والفروع والحواشي والأزواج الذين عقدت أيمانكم، فإن كلاً من الزوجين له حق الإرث بالعقد، والمتعارف عند الناس في العقد أن يكون المصافحة باليدين، قاله أبو مسلم الأصفهاني.

﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾؛ أي: فأعطوهم هؤلاء الموالي نصيبهم المقدر لهم، ولا تنقصوهم منه شيئاً، وقيل: إن[2] لفظة كل واقعة على تركة، ومما ترك بيان لـ(كل)، والمعنى: ولكل تركة كائنة مما ترك الوالدان والأقربون، ومما ترك الزوج والزوجة الذين عقدت أيمانكم جعلنا موالي وورثة متفاوتة في الدرجة، يلونها ويحرزون منها أنصبائهم بحسب استحقاقهم، فالمراد بالذين عقدت أيمانكم الأزواج والزوجات، فالنكاح يسمى عقداً، وهو قول أبي مسلم الأصفهاني.

ويصح[3] أن تكون جملة جعلنا موالي صفة لكل، والضمير الراجع إليه محذوف، والكلام مبتدأ وخبر، والمعنى حينئذ: ولكل قوم جعلناهم وارثاً نصيب معين مغاير لنصيب قوم آخرين، مما ترك المورثون، فآتوهم نصيبهم من الميراث.

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) مراح.

وقيل: المراد من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الحلفاء، وبقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ﴾ النصرة والنصيحة والمصافاة في العشرة، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط، خبره ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ﴾، وعلى هذه الوجوه فليست الآية منسوخة، بخلاف ما لو حمل الذين عقدت أيمانكم على الحلفاء في الجاهلية، وقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ﴾ على الميراث وهو السدس، فالآية حينئذ منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾، وكذا لو حمل على مؤاخاة النبي ﷺ أو على الأبناء الأدعياء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أعمالكم وغيرها ﴿شَهِيدًا﴾؛ أي: مطلعاً عالماً بها، فهو عالم الغيب والشهادة؛ أي: إن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم في التركة وغيرها، فلا يطمعنَّ من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئاً، سواء أكان ذكراً أم أنثى، كبيراً أم صغيراً، وجاءت هذه الآية لمنع طمع بعض الوارثين في نصيب بعض.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلَّذِينَ عَٰقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ بالألف والمفعول محذوف؛ أي: عاقدتهم أيمانكم، وقرىء ﴿عَقَدَتْ﴾ بغير ألف، والمفعول محذوف أيضاً هو والعائد تقديره: عقدت حلفهم أيمانكم، وروي عن حمزة أنه قرأ: ﴿عقّدت﴾ بتشديد القاف على التكثير؛ أي: والذين عقدت لهم أيمانكم الحلف.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾، أي: مسلطون ﴿عَلَى﴾ تأديب ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ تسليط الولاة على الرعايا ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: بسبب تفضيل الله تعالى إياهم عليهن بكمال العقل، وحسن التدبير ورزانة الرأي، ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خُصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر، والشهادة في جميع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة وغير ذلك، لكون الرجل يتزوج بأربع نسوة ولا يجوز للمرأة غير زوج واحد، ومنه زيادة النصيب في الميراث، وبيده الطلاق والنكاح والرجعة وإليه الانتساب، فكل هذا يدل على فضل الرجال على

---

(١) عكبري وشوكاني.

النساء، ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ أي: وبسبب إنفاقهم عليهن من أموالهم في المهور والنفقات ومؤن النساء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد.. لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» أخرجه الترمذي.

أي: إن من[1] شأن الرجال أن يقوموا على النساء بالحماية والرعاية، وتبع هذا فرض الجهاد عليهم دونهن؛ لأن ذلك من أخص شؤون الحماية، وجعل حظهم من الميراث أكثر من حظهن؛ لأن عليهم من النفقة ما ليس عليهن، وسبب هذا: أن الله فضل الرجال على النساء في الخلقة، وأعطاهم ما لم يعطهن من الحول والقوة، كما فضلهم بالقدرة على الإنفاق على النساء من أموالهم، فإن في المهور تعويضاً للنساء، ومكافأة لهن على الدخول تحت رياسة الرجال، وقبول القيامة عليهن نظير عوض مالي يأخذنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾.

والمراد بالقيام: الرياسة التي يتصرف فيها المرؤوس بإرادة الرئيس واختياره؛ إذ لا معنى للقيام إلا الإرشاد والمراقبة في تنفيذ ما يرشد إليه وملاحظة أعماله، ومن ذلك حفظ المنزل، وعدم مفارقته إلا بإذنه، ولو لزيارة القربى وتقدير النفقة فيه، فهو الذي يقدرها بحسب ميسرته، والمرأة هي التي تنفذ على الوجه الذي يرضيه ويناسب حاله سعة وضيقاً.

ولقيام الرجل بحماية المرأة وكفايتها ومختلف شؤونها يمكنها أن تقوم بوظيفتها الفطرية، وهي الحمل والولادة وتربية الأطفال، وهي آمنة في سربها، مكفية ما يهمها من أمور أرزاقها. ثم فصل حال النساء في الحياة المنزلية، التي تكون المرأة فيها تحت رياسة الرجل، فذكر أنها قسمان: قسم صالحات مطيعات، وقسم عاصيات متمردات، فذكر القسم الأول بقوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾؛ أي: فالنساء اللاتي يراعين حقوق الله وحقوق العباد، ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

مطيعات لله ولأزواجهن ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾؛ أي: حافظات للسر الذي يجري بينهن وبين أزواجهن في الخلوة من الرفث ـ الجماع ـ والشؤون الخاصة بالزوجية، لا يطلعن أحداً على ذلك السر، ولو قريباً، وبالأولى يحفظن العرض من يد تلمس أو عين تبصر أو أذن تسمع، أو حافظات لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهن عنهن، من حفظ نفوسهن وأموالهم، ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾؛ أي: بسبب تحفيظ الله إياهن ذلك السر، وأمره إياهن بحفظه، فهن يطعنه ويعصين الهوى، أو حافظات لغيب أزواجهن بحفظ الله لهن ومعونته وتسديده، أو حافظات بما استحفظهن الله من أداء الأمانة إلى أزواجهن، على الوجه الذي أمر الله به، أوحافظات له بحفظ الله لهن بما أوصى به الأزواج في شأنهن من حسن العشرة، وقرأ أبو جعفر: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهَ﴾ بنصب الاسم الشريف على حذف المضاف؛ أي: بسبب حفظهن حدود الله وأوامره، وفي الآية: أكبر زجر وعظة لمن تتفكه من النساء بإفشاء الأسرار الزوجية، ولا تحفظ الغيب فيها، وفي الحديث: «إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه».

وكذلك: عليهن أن يحفظن أموال الرجال، وما يتصل بها من الضياع، روى ابن جرير والبيهقي: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها». وقرأ الآية. وهذا القسم من النساء ليس للرجال عليهن سلطان التأديب، إذ لا يوجد ما يدعو إليه، وإنما سلطانهم على القسم الثاني، الذي ذكره الله تعالى، وذكر حكمه بقوله: ﴿و﴾ النساء ﴿اللاتي تخافون نشوزهن﴾؛ أي: تظنون عصيانهن لكم وخروجهن عن طاعتكم، برؤية أمارات النشوز عليها، قولاً كأن كانت تلبيه أولاً إذا دعاها، وتخضع له إذا خاطبها، فرفعت عليه صوتها، أو لم تجبه إذا دعاها أو فعلاً كأن كانت تقوم له إذا دخل عليها وتسرع إلى أمره إذا أمرها، فرأى منها خلاف ذلك، أو تعلمون نشوزهن كأن دعاها إلى فراشه فأبت منه بغير عذر، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾؛ أي: فانصحوا لهن بالترهيب والترغيب، وذكروهن بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وخوفوهن عقوبة الله على النشوز، كأن يقول لها: اتقي الله وخافيه، فإن لي عليك حقاً وارجعي عما

أنت عليه، واعلمي أن طاعتي فرض عليك، ونحو ذلك فإن أصرت على ذلك.. هجرها في المضجع، كما قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾؛ أي: وأعرضوا عنهن في المراقد والمفارش، وحولوا عنهن وجوهكم في المضاجع، فلا تدخلوهن تحت اللحاف إذا حققتم منهن النشوز، ولم ينفعهن الوعظ والنصيحة بالقول، فإن أصرت على النشوز بعد الوعظ والهجران.. ضربها ضرباً غير مبرح، كما قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ إن لم ينجح الهجران ضرباً لا يكسر عظماً، ولا ينهر دماً، ولا يورث شيناً، والأولى ترك الضرب كما يستفاد من الأحاديث الصحيحة.

عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: «قلتُ يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». أخرجه أبو داود، قوله: «ولا تقبح»؛ أي: لا تقل قبحك الله.

وعن عبد الله بن زمعة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم لعله يجامعها ـ أو قال يضاجعها ـ من آخر اليوم» متفق عليه.

وعن عمرو بن الأحوص ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، وذكر في الحديث قصة فقال: «ألا فاستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً». أخرجه الترمذي، بزيادة قوله: «عوان» جمع عانية؛ أي: أسيرة، شبه المرأة ودخولها تحت أمر زوجها بالأسير، والضرب المبرح: الشديد الشاق.

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا يسأل الرجل فيم ضرب امرأته». أخرجه أبو داود.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان عليها.. لعنتها الملائكة حتى تصبح». متفق عليه.

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه، فأبت عليه.. إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها». وفي رواية: «إذا باتت مهاجرة فراش زوجها.. لعنتها الملائكة حتى تصبح». وفي أخرى «حتى ترجع».

وعن طَلْقِ بن علي: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى حاجة، فلتأته وإن كانت على التنور» أخرجه الترمذي.

وله عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إلينا».

وله عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة». ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾؛ أي؛ فإن رجعْن عن النشوز إلى طاعتكم عند هذا التأديب ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾؛ أي: فلا تطلبوا عليهن طريقاً إلى الضرب والهجران، على سبيل التعنت والإذاية، ولا تتعرضوهن بما وقع من النشوز، واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. أو المعنى: فإن أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية.. فلا تبغوا ولا تتجاوزوا ذلك إلى غيرها، فابدؤوا بما بدأ الله به، من الوعظ ثم الهجر ثم الضرب ثم التحكيم، ومتى استقام لكم ظاهر حالها.. فلا تبحثوا عما في سرائرها من الحب والبغض.

ثم هدد وخوف من يظلم النساء ويبغي عليهن فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ عَلِيًّا﴾؛ أي: متصفاً بجميع صفات الكمال ﴿كَبِيرًا﴾؛ أي: متنزهاً عن جميع النقائص، والمعنى: إن الله تعالى مع علوه وكبريائه لا يكلفكم ما لا تطيقون، فكذلك لا تكلفوهن ما لا طاقة لهن من المحبة، وأنه تعالى مع ذلك يتجاوز عن سيئاتكم، فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند طاعتهن لكم.

فكأنه يقول لهم: إن سلطانه عليكم فوق سلطانكم على نسائكم، فإذا بغيتم

عليهن.. عاقبكم، وإن تجاوزتم عن هفواتهن كرماً.. تجاوز عنكم، وكفر عنكم سيئاتكم.

وليس بخاف أن الرجال الذين يستذلون نسائهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم؛ إذ هم يتربون على الظلم ويستسيغونه، ولا يكون في نفوسهم شيء من الكرامة ولا من الشمم والإباء، وأمّة تُخرج أبناءً كهؤلاءِ إنما تُربي عبيداً أذلاء، لا يقومون بنصرتها، ولا يغارون لكرامتها، فما أحراهم بأن يكونوا قطعاناً من الغنم تزدجِرُ من كل راع، وتستجيب لكل ناعق.

استدراك في معنى قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ...﴾ الآية:

والحاصل: أن اللاتي[1] تأنسون منهن الترفع، وتخافون أن لا يقمن بحقوق الزوجية على الوجه الذي ترضونه.. فعليكم أن تعاملوهن على النهج الآتي:

١ ـ أن تبدؤوا بالوعظ الذي ترون أنه يؤثر في نفوسهن، فمن النساء من يكفيها التذكير بعقاب الله وغضبه، ومنهن من يؤثر في أنفسهن التهديد والتحذير من سوء العاقبة في الدنيا، كشماتة الأعداء، ومنعها بعض رغباتها كالثياب والحلي ونحو ذلك. وعلى الجملة: فاللبيب لا تخفى عليه العظات التي لها المحل الأرفع في قلب امرأته، فإن لم يجد ذلك.. فله أن يجرب:

٢ ـ الهجر والإعراض في المضجع، ويتحقق ذلك بهجرها في الفراش مع الإعراض والصد، وقد جرت العادة بأن الاجتماع في المضجع يهيج شعور الزوجية، فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر، ويزول ما كان في نفوسهما من اضطراب أثارته الحوادث قبل ذلك، فإذا هو فعل ذلك.. دعاها هذا إلى السؤال عن أسباب الهجر والهبوط بها من نشز المخالفة إلى مستوى الموافقة، فإن لم يفد ذلك.. فله أن يجرب:

(١) المراغي.

٣ ـ الضرب غير المبرح؛ أي: غير المؤذي إيذاء شديداً كالضرب باليد أو بعصا صغيرة.

وقد يستعظم بعض من قلد الإفرنج من المسلمين مشروعية ضرب المرأة الناشز، ولا يستعظمون أن تنشز وتترفع هي عليه، فتجعله وهو الرئيس مرؤوساً محتقراً، وتُصر على نشوزها، فلا تلين لوعظه ونصحه، ولا تبالي بإعراضه وهجره، فإن كان قد ثقل ذلك عليهم.. فليعلموا أن الإفرنج أنفسهم يضربون نسائهم العالمات المهذبات، بل فعل هذا حكماؤهم وعلماؤهم وملوكهم وأمراؤهم، فهو ضرورة لا يستغنى عنها، ولا سيما في دين عام للبدو والحضر من جميع أصناف البشر، وكيف يُستنكر هذا والعقل والفطرة يدعوان إليه، إذا فسدت البيئة ـ الحالة ـ وغلبت الأخلاق الفاسدة، ولم ير الرجل مناصاً منه، ولا ترجع المرأة عن نشوزها إلا به.

لكن إذا صلحت البيئة وصارت النساء يستجبن للنصيحة، أو يزدجرن بالهجر.. وجب الاستغناء عنه؛ إذ نحن مأمورون بالرفق بالنساء، واجتناب ظلمهن، وإمساكهن بمعروف، أو تسريحهن بمعروف.

والخلاصة: أن الضرب علاج مُرٌّ قد يستغني عنه الخير الكريم، ولكنه لا يزول من البيوت إلا إذا عم التهذيب الرجال والنساء، وعرف كلٌّ ما له من الحقوق، وكان للدين سلطان على النفوس، يجعلها تراقب الله في السر والعلن، وتخشى أمره ونهيه.

ثم بين الطريق السوي الذي يتبع عند حدوث النزاع وخوف الشقاق، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ والخطاب فيه لولاة الأمور، وصلحاء الأمة؛ أي: وإن علمتم أيها الولاة، أو أيها المؤمنون شقاقاً، ومخالفة واقعة بين الزوجين، ولم تعلموا من أيهما الشقاق.. ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ أي: فأرسلوا أيها الولاة أو المؤمنون برضى الزوجين ـ وجوباً ـ إلى الزوج رجلاً عَدْلاً عارفاً بالحكم ودقائق الأمور، كائناً من أقارب الزوج ندباً؛ لأن الأقارب أعرف

بحاله من الأجانب، وأشد طلباً للإصلاح بينهما، ولأن قلبه أسكن إليهم إن وجد منهم، وإلا فمن الأجانب يستكشف عن حاله ليعلم أهو ظالم أو مظلوم، وأرسلوا إلى الزوجة رجلاً عدلاً عارفاً بالحكم من أقاربها، يستكشف عن حالها؛ ليعلم أهي ظالمة أو مظلومة، ثم بعد استكشاف الحكمين ما عند الزوجين يجتمعان، ويتشاوران فيما هو الأصلح للزوجين من الموافقة إن أمكنت، أو المفارقة إن لم تمكن الموافقة، ويوكل الزوج حكمه في طلاق وقبول عوض عليه وتوكل هي حكمها في الاختلاع فيجتهدان، ويأمران الظالم بالرجوع، أو يفرقان إن رأيا في الفراق مصلحة، كما قال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾؛ أي: إن قصد الحكمان إصلاحاً، وتوفيقاً بين الزوجين، وقطعاً لخصومتهما.. ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾؛ أي: أوقع الله سبحانه وتعالى الموافقة بين الزوجين؛ أي: إن كانت نية الحكمين صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى.. أوقع الله الموافقة بين الزوجين، إما على الاجتماع، أو على الفراق، ببركة نية الحكمين، وسعيهما في الخير، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بموافقة الزوجين ومخالفتهما ﴿خَبِيرٗا﴾ ببواطن الزوجين، وسرائرهما كظواهرهما، فيعلم كيف يوفق بين المختلفين، ويجمع بين المتفرقين، وفيه وعد شديد للزوجين والحكمين إن سلكوا غير طريق الحق.

وعبارة المراغي في هذه الآية قوله[١]: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ...﴾ الآية، هذا الخطاب عام يدخل فيه الزوجان وأقاربهما، فإن قاموا بذلك فذاك، وإلا وجب على من بلغه أمرهما من المسلمين أن يسعى في إصلاح ذات بينهما، والخلاف بينهما قد يكون بنشوز المرأة، وقد يكون بظلم الرجل، فإن كان بالأول فعلى الرجل أن يعالجه بأقرب أنواع التأديب التي ذكرت في الآية التي سلفت، وإن كان بالثاني، وخيف من تمادي الرجل في ظلمه، أو عجز عن إنزالها عن نشوزها، وخيف أن يحول

---

(١) المراغي.

الشقاق بينهما دون إقامتهما لأركان الزوجية الثلاث، من السكون والمودة والرحمة.. وجب على الزوجين وذوي القربى أن يبعثوا الحكمين، وعليهم أن يوجهوا إرادتهم إلى إصلاح ذات البين، ومتى صدقت الإرادة، وصحت العزيمة.. فالله كفيل بالتوفيق بفضله وجوده. وبهذا تعلم شدة عناية الله بأحكام نظام الأسر والبيوت، وكيف لم يذكر مقابل التوفيق وهو التفريق؛ لأنه يبغضه، ولأنه يود أن يشعر المسلمين بأنه لا ينبغي أن يقع.

ولكن واأسفا لم يعمل المسلمون بهذه الوصية الجليلة إلا قليلاً حتى دب الفساد في البيوت، ونخر فيها سوس العداوة والبغضاء، ففتك بالأخلاق والآداب وسرى من الوالدين إلى الأولاد، ثم ذكر أن ما شرع من الأحكام جاء وفق الحكمة والمصلحة؛ لأنه من حكيم خبير بأحوال عباده، فقال؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾؛ أي: إنَّ هذه الأحكام التي شرعت لكم كانت من لدن عليم بأحوال العباد وأخلاقهم، خبير بما يقع بينهم وبأسبابه، ما ظهر منها وما بطن، ولا يخفى عليه شيء من وسائل الإصلاح بينهما.

وفي الآية: إرشاد إلى أن ما يقع بين الزوجين من خلاف، وإن ظن أنه مستعص يتعذر علاجه.. فقد يكون في الواقع على غير ذلك من أسباب عارضة، يسهل على الحكمين الخبيرين بدخائل الزوجين؛ لقربهما منهما أن يمحصا ما علق من أسبابه بقلوبهما، فيزيلاها متى حسنت النية وصحت العزيمة.

ولتعلم ـ أيها المؤمن ـ أن رابطة الزوجية أقوى الروابط التي تربط بين اثنين من البشر، فبها يشعر كل من الزوجين بشركة مادية ومعنوية، وبها يؤاخذ كل منهما شريكه على أدق الأمور وأصغرها، فيحاسبه على فلتات اللسان، وبالظنة والوهم وخفايا خلجات القلب، فيغريهما ذلك بالتنازع في كل ما يقصر فيه أحدهما من الأمور المشتركة بينهما، وما أكثرها وأعسر التوقي منها، وكثيراً ما يفضي التنازع إلى التقاطع، والعتاب إلى الكره والبغضاء، فعليك أن تكون حكيماً في معاملة الزوجة، خبيراً بطباعها، وبهذا تحسن العشرة بينكما، انتهى.

الإعراب

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾: الواو عاطفة أو استئنافية. ﴿لا تتمنوا﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم﴾ أو مستأنفة. ﴿مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ﴾: ما موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿فَضَّلَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِ﴾ متعلق به، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير به، ﴿بَعْضَكُمْ﴾: مفعول ﴿فَضَّلَ﴾ ومضاف إليه. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: جار ومجرور متعلق بفضل، ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، ﴿نَصِيبٌ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة، ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبٌ﴾، ﴿اكْتَسَبُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما اكتسبوه. ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله؛ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾، ﴿مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما اكتسبنه، ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقدير: حوائجكم. ﴿مِن فَضْلِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق باسألوا، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿اللَّهَ﴾ اسمها، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿عَلِيمًا﴾، وهو خبر كان، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة: مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

﴿وَلِكُلٍّ﴾: الواو استئنافية ﴿لكل﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والتنوين في ﴿كل﴾ عوض عن كلمة محذوفة، أي: لكل قوم ﴿جعلنا﴾ صفة لقوم، ومفعول ﴿جعلنا﴾ الأول محذوف، أي جعلناهم. ﴿مَوَالِيَ﴾: مفعول

ثان لـ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿مَوَالِيَ﴾. ﴿تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾، الجملة الفعلية صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: مما تركه الوالدان والأقربون، والتقدير: وجعلنا موالي وأقرباء يرثون مما تركه الوالدان والأقربون لكل إنسان، وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب فلا نطيل الكلام بذكرها.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره عاقدت حلفهم أيمانكم، ﴿فَـَٔاتُوهُمْ﴾: الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من العموم. ﴿أتوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿نَصِيبَهُمْ ۚ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾، وهو خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ﴾.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَوَّٰمُونَ﴾، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾ حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾: متعلق بـ﴿فَضَّلَ﴾، والجملة الفعلية صلة ما المصدرية، ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره بتفضيل الله بعضهم على بعض، والجار والمجرور متعلق بـ﴿قَوَّٰمُونَ﴾، ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟﴾: الواو عاطفة، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿أَنفَقُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره وبما أنفقوه.

﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من الضمير المحذوف.

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾.

﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية بمعنى الواو، ﴿الصالحاتُ﴾: مبتدأ، ﴿قَانِتَاتٌ﴾: خبر والجملة مستأنفة، ﴿حَافِظَاتٌ﴾: خبر ثان، ﴿لِلْغَيْبِ﴾: متعلق به، ﴿بِمَا﴾: الباء حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿حَفِظَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ما المصدرية، ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، وتقديره: بحفظ الله؛ أي: بتحفيظ الله إياهن، والجار والمجرور متعلق بـ﴿حافظات﴾. ﴿وَاللَّاتِي﴾: الواو عاطفة، ﴿اللاتي﴾: مبتدأ، ﴿تَخَافُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر، ﴿عظوهن﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾، ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾، وكذلك جملة ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ معطوفة عليها.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾؛ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حكم ما إذا نشزن، وأردتم بيان حكم ما إذا أطعنكم.. فأقول لكم: ﴿إن أطعنكم﴾: ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿أَطَعْنَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿فَلَا تَبْغُوا﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَبْغُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية، والجملة في محل الجزم على كونها جواباً لها. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَبْغُوا﴾. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به، وجملة إن الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿اللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله، ﴿عَلِيًّا﴾: خبر أول

لها، ﴿كَبِيرًا﴾ خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِنْ﴾: الواو استئنافية، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط، ﴿خِفْتُمْ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بإن، ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿فَابْعَثُوا﴾: الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، ﴿ابعثوا﴾؛ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿حَكَمًا﴾: مفعول به، ﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿حَكَمًا﴾. ﴿وَحَكَمًا﴾ معطوف على ﴿حَكَمًا﴾ الأول، ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾: صفة لـ﴿حَكَمًا﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يُرِيدَآ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إِن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿إِصْلَٰحًا﴾: مفعول به، ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بإن على كونه جواباً لها، ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُوَفِّقِ﴾، وجملة ﴿إِن﴾: الشرطية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على الله، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لكان، ﴿خَبِيرًا﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ﴿تَتَمَنَّوْا﴾: مضارع تمنى يتمنى تمنياً، من باب تفعل الخماسي، والتمني[1]: تشهي حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون، وبما لا يكون، وقيل التمني: تقدير الشيء في النفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظن، وقد يكون بلا روية، وأكثر التمني ما لا حقيقة له، وقيل: التمني عبارة عن إرادة ما يعلم أو يظن أنه لا يكون.

---

(١) الجمل.

﴿وَسۡـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ وفضله: إحسانه ونعمه المتكاثرة، ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ الموالي من يحق لهم الاستيلاء على التركة، واحده مولى، والمولى: الابن والعم وابن الابن وابن العم وكل قريب وعاصب.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ القوامون: جمع تصحيح لقوام، يقال هذا قيم المرأة وقوامها إذا كان يقوم بأمرها، ويهتم بحفظها، والقوام: هو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب، ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ يقال: فضله على غيره إذا حكم له بالفضل عليه، وصيره أفضل منه، والفضل: الزيادة والدرجة، يجمع على فضول، وما به الفضل قسمان:

فطري: وهو قوة مزاج الرجل وكماله في الخلقة، ويتبع ذلك قوة العقل، وصحة النظر في مبادىء الأمور وغاياتها.

وكسبي: وهو قدرته على الكسب والتصرف في الأمور، ومن ثم كلف الرجال بالإنفاق على النساء والقيام برياسة المنزل، ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ جمع قانتة، اسم فاعل من القنوت، وهو السكون والطاعة لله وللأزواج، ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾؛ أي اللاتي يحفظن ما يغيب عن الناس، ولا يقال إلا في حال الخلوة بالمرأة، كشؤون الجماع والاستمتاع فلا تخبرنه للناس، والغيب: السر يجمع على غياب وغيوب.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾؛ أي[1]: تظنون، فالخوف هنا بمعنى الظن، وربما يأتي بمعنى العلم، أصل النشوز الارتفاع إلى الشرور، ونشوز المرأة: بغضها لزوجها، وعصيانها لأمره، ورفع نفسها عليه تكبراً، وعبارة أبي السعود: النشوز من النشز وهو المرتفع من الأرض، يقال: نشزت الأرض إذا ارتفعت عما حواليها، ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾: يقال: هجره يهجره هجراً وهجراناً ـ من باب نصر ـ إذا صرمه وقطعه، ضد وصله، وهجر الشيء: تركه وأعرض عنه، وهجر زوجه: اعتزل عنها ولم يطلقها، و﴿المضاجع﴾: على زنة مفاعل، جمع مضجع ـ بفتح الجيم ـ موضع الضجوع، ﴿شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾: فيه وجهان[2]:

---

(١) الجمل. (٢) الجمل.

أحدهما: أن الشقاق مضاف إلى بين ومعناها الظرفية، والأصل شقاقاً بينهما، ولكنه اتسع فيه، فأضيف الحدث إلى ظرفه، وظرفيته باقية، نحو ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

والثاني: أنه خرج عن الظرفية وبقي كسائر الأسماء، كأنه أريد المعاشرة والمصاحبة بين الزوجين، وقال أبو البقاء: البين هنا الوصل الكائن بين الزوجين، وسمي الخلاف شقاقاً؛ لأن المخالف يفعل ما يشق على صاحبه، أو لأن كلا منهما صار على شق؛ أي: جانب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من المعاني والبيان والبديع:

منها: الإطناب في قوله: ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ و﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾، وفي قوله: ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ لأنه شبه استحقاقهم للإرث وتملكهم له بالاكتساب، واشتق من لفظ الاكتساب بمعنى الاستحقاق، اكتسبوا بمعنى استحقوا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ فقد كنى بذلك عن الجماع.

ومنها: التأكيد بصيغة المبالغة في قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾؛ لأن فعال من صيغ المبالغة، ومجيء الجملة اسمية لإفادة الدوام والاستمرار.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: لما كان الكلام[1] من أول السورة إلى هنا في وصايا عديدة، ونصائح حكيمة، كابتلاء اليتامى قبل تسليمهم أموالهم، والنهي عن إيتاء الأموال للسفهاء، وعن قتل النفس، والإرشاد إلى كيفية معاملة النساء، وطرق تأديبهن، تارة بالموعظة الحسنة، وأخرى بالقسوة والشدة، مع مراقبة الله عز وجل في كل ذلك.. ناسب بعدها التذكير بحسن معاملة الخالق، بالإخلاص له في الطاعة، وحسن معاملة الطوائف المختلفة من الناس، وعدم الضن عليهم بالمال في أوقات الشدة، مع قصد التقرب إلى الله تعالى، لا لقصد الفخر والخيلاء؛ لأن ذاك عمل

---

(١) المراغي.

من لا يرجو ثواب الله تعالى، ولا يخشى عقابه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: لما بين الله سبحانه وتعالى صفات المتكبرين وسوء أحوالهم، وتوعدهم على ذلك بأشد أنواع الوعيد.. زاد الأمر توكيداً وتشديداً.. فذكر أنه لا يظلم أحداً من العاملين بوصاياه لا قليلاً وكثيراً، بل يوفيه حقه بالقسطاس المستقيم، وفي هذا أعظم الترغيب لفاعلي البر والإحسان، وحفز لهممهم على العمل، وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦﴾.

وفي «الفتوحات» قوله[1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة؛ لأنه تعالى لما أمر بعبادة الله وبالإحسان للوالدين ومن ذكر معهم، ثم أعقب ذلك بذم البخل والأوصاف المذكورة معه، ثم وبخ من لم يؤمن ولم ينفق في طاعة الله، وكان هذا كله توطئة لذكر الجزاء على الحسنات والسيئات.. أخبر تعالى بصفة عدله، وأنه تعالى لا يظلم أدنى شيء، ثم أخبر بصفة الإحسان فقال: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما وصف الله سبحانه وتعالى الوقوف بين يديه يوم العرض، والأهوال التي تؤدي إلى تمني الكافر العدم، فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، والتي تجعله لا يستطيع أن يكتم الله حديثاً، وذكر أنه لا ينجو في ذلك اليوم إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان بالله والطاعة لرسوله.. وصف في هذه الآية الوقوف بين يديه في مقام الأنس وحضرة القدس المنجي من هول الوقوف في ذلك اليوم، وطلب فيه استكمال القوى العقلية وتوجيهها إلى جانب العلي الأعلى بأن لا تكون مشغولة بذكرى غيره، طاهرة من الأنجاس والأخباث؛ لتكون على أتم العدة للوقوف في ذلك الموقف الرهيب، مستشعرة تلك العظمة والجلال والكبرياء.

---

(١) الجمل.

أسباب النزول

قوله تعالى[1]: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كان علماء بني إسرائيل يبخلون بما عندهم من العلم، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير من طرق ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال: كان كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحري بن عمرو وحيي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت، يأتون رجالاً من الأنصار، يخالطونهم وينصحون لهم، فيقولون: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون، فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ إلى قوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني فقرأت: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم وابن المنذر عن علي قال: نزلت هذه الآية ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ في المسافر تصيبه الجنابة فيتيمم ويصلي.

وأخرج بن مردويه عن الأسلع بن شريك قال: كنت أرحّل ناقة رسول الله ﷺ، فأصابتني جنابة في ليلة باردة، فخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ...﴾ الآية كلها.

وأخرج الطبراني عن الأسلع قال: «كنت أخدم النبي ﷺ، وأرحل له، فقال لي ذات يوم: يا أسلع قم فأرحل، فقلت: يا رسول الله أصابتني جنابة، فسكت رسول الله ﷺ، وأتاه جبريل بآية الصعيد، فقال رسول الله ﷺ: قم يا أسلع فتيمم، فأراني التيمم ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين، فقمت فتيممت ثم رحلت له».

وأخرج ابن جرير عن يزيد بن أبي حبيب: أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون ممراً إلا في المسجد، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ...﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار كان مريضاً، فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ ولم يكن له خادم يناوله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال[١]: نال أصحاب النبي ﷺ جراحة، ففشت فيهم، ثم ابتلوا بالجنابة، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ...﴾ الآية كلها.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى أيها الناس، بقلوبكم وجوارحكم: أي؛ أطيعوه فيما أمر به ونهى عنه، ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟﴾ شركاً جلياً ولا خفياً ﴿بِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿شَيْـًٔا﴾ من الأشياء، سواء أكان جماداً كالصنم، أو حيواناً حياً أو ميتاً، فقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أمر بالطاعة، وقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ﴾ أمر بالإخلاص في العبادة فالثاني تأسيس لا تأكيد كما قيل.

فعبادة الله[٢]: هي الخضوع له، وتمكين هيبته وعظمته من النفس، والخشوع لسلطانه في السر والجهر، وأمارة ذلك: العمل بما به أمر، وترك ما

---

(١) لباب النقول. (٢) المراغي.

عنه نهى، وبذا تصلح جميع الأعمال من أقوال وأفعال، فالعبادة هي الخضوع لسلطة غيبية وراء الأسباب المعروفة، يرجى خيرها، ويخشى شرها، وهذه السلطة لا تكون لغير الله تعالى، فلا يرجى غيره ولا يخشى سواه، فمن اعتقد أن غيره يشركه فيها.. كان مشركاً، وإذا نهى الله عن إشراك غيره معه.. فلأن ينهى عن إنكار وجوده وجحد ألوهيته أولى.

وقيل[1]: العبودية أربعة أنواع: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود.

والإشراك بالله ضروب مختلفة[2]:

منها: ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن مشركي العرب من عبادة الأصنام، باتخاذهم أولياء وشفعاء عند الله، يقربون المتوسل بهم إليه، ويقضون الحاجات عنده، وقد جاء ذكر هذا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ومنها: ما ذكره عن النصارى من أنهم عبدوا المسيح عليه السلام، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

والخلاصة: وأخلصوا لله في العبادة، ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكاً؛ لأن من عبد مع الله غيره، أو أراد بعمله غير الله.. فقد أشرك به، ولا يكون مخلصاً.

وعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار يقال له: عفير، أو اسمه يعفور، فقال: «يا معاذ، هل تدري ما حق الله

---

(١) النسفي.
(٢) المراغي.

على عباده، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال: لا تبشرهم؛ فيتكلوا» متفق عليه. إنما قال: لا تبشرهم فيتكلوا؛ لأنه ﷺ رأى ذلك أصلح لهم، وأحرى أن لا يتكلوا على هذه البشارة، ويتركوا العمل الذي ترفع لهم به الدرجات في الجنة، وبعد أن أمر الله بعبادته وحده لا شريك له، أعقبه بالوصية بالوالدين، فقال: ﴿و﴾ أحسنوا ﴿بالوالدين إحساناً﴾ وبراً وعطفاً بالقيام بخدمتهما، وبالسعي في تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما بقدر الطاقة، وبعدم رفع الصوت عليهما، وعدم تخشين الكلام معهما، وعدم شهر السلاح عليهما، وعدم قتلهما، ولو كانا كافرين؛ لأنه ﷺ نهى حنظلة عن قتل أبيه أبي عامر الراهب وكان مشركاً.

وعن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ من اليمن استأذنه في الجهاد، فقال ﷺ: «هل لك أحد باليمن؟» فقال أبواي فقال: «أبواك أذنا لك؟» فقال: لا، فقال: «فارجع فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك». متفق عليه. وفي رواية قال: «أمك ثم أمك ثم أباك، ثم أدناك فأدناك»، قوله: «ثم أباك» فيه حذف تقديره: ثم بر أباك.

وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما، ثم لم يدخل الجنة».

وإنما قرن الله سبحانه وتعالى بر الوالدين بعبادته وتوحيده.. لتأكد حقهما على الولد.

والمعنى: أحسنوا بهما، ولا تقصروا في شيء مما يطلبانه؛ لأنهما السبب الظاهر في وجودكم وتربيتكم بالرحمة والإخلاص، وقد فصلت هذه الوصية في سورة الإسراء بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

والخلاصة: أنَّ العبرة بما في نفس الولد، من قصد البر والإحسان والإخلاص فيه، بشرط أن لا يحد الوالدان من حرية الولد واستقلاله في شؤونه الشخصية أو المنزلية، ولا في الأعمال الخاصة بدينه ووطنه، فإذا أراد أحدهما الاستبداد في شيء من ذلك.. فليس من البر العمل برأيهما اتباعاً لهواهما.

﴿و﴾ أحسنوا وصلوا ﴿بِذِي القُرْبَى﴾؛ أي: أحسنوا إلى صاحب القرابة لكم، وهو ذو رحمه من قبل أبيه وأمه، كأخ وعم وخال وغيرهم، وكرر الباء إشارة إلى تأكد حق الرحم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره.. فليصل رحمه». متفق عليه. قوله: ينسأ له في أثره يعني: يؤخر له في أجله وعمره، والمعنى: وأحسنوا معاملة أقرب الناس إليكم بعد الوالدين، وإذا أدى المرء حقوق الله، فصحت عقيدته، وصلحت أعماله، وقام بحقوق الوالدين.. صلح البيت، وحسن حال الأسرة، وإذا صلح البيت.. كان قوة كبيرة، فإذا عاون أهله ذوي القربى الذين ينسبون إليهم.. كان لكل منهم قوة أخرى تتعاون مع هذه الأسرة وبذا تتعاون الأمة جمعاء، وتمد يد المعونة لمن هو في حاجة إليها، ممن ذكروا بعد في قوله: ﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿اليتامى﴾ بالرفق بهم، وبمسح رأسهم، وبتربيتهم وحفظ أموالهم.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً». أخرجه البخاري.

وإنما أمر بالإحسان إليهم؛ لأن اليتيم قد فقد الناصر المعين وهو الأب مع صغره، وقلما تستطيع الأم مهما اتسعت معارفها أن تقوم بتربيته تربية كاملة، فعلى القادرين أن يعاونوا في تربيته، وإلا كان وجوده جناية وثقلاً على الأمة؛ لجهله وفساد أخلاقه، وكان خطراً على من يعاشرهم من لداته، وجرثومة فساد بينهم، ومعلوم أن اليتامى جمع يتيم، وهو صغير لا أب له، وإن كان له جد وأم كما سبق في البقرة.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿المساكين﴾ بالصدقة، أو بالرد الجميل، وهو جمع مسكين، وهو من التصقت يده بالتراب، فيشمل الفقير، وإنما أمر بالإحسان إليهم؛ لأنه لا ينتظم حال المجتمع إلا بالعناية بهم، وصلاح حالهم، وإلا كانوا وبالاً عليه.

والمساكين ضربان: مسكين معذور تجب مواساته، وهو من كان سبب عدمه الضعف والعجز، أو نزول آفة سماوية ذهبت بماله، ومثل هذا يجب عونه بمساعدته بالمال الذي يسد عوزه، ويستعين به على الكسب. ومسكين غير معذور في تقصيره، وهو من عدم المال بإسرافه وتبذيره، ومثل هذا يبذل له النصح ويدل على طرق الكسب، فإن اتعظ وقبل النصح فبها، وإلا ترك أمره إلى أولي الأمر، فهم أولى بتقويم إعوجاجه، وإصلاح ما فسد من أخلاقه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله»، وأحسبه قال: «وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر». متفق عليه.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿الجار ذي القربى﴾؛ أي: إلى الجار الذي قرب منكم جواره وداره، أو إلى الجار الذي له مع الجوار اتصال بكم في النسب، أوله[1] اتصال بكم في الدين، فقد روي عنه ﷺ: «الجيران ثلاثة: فجار له ثلاثة حقوق: حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام، وجار له حقان: حق الجوار وحق

---

(١) الجمل.

الإسلام، وجار له حق واحد: حق الجوار فقط، وهو المشرك من أهل الكتاب». رواه البزار وغيره.

وقرىء بالنصب[1] على الاختصاص تعظيماً لحقه؛ لأن له ثلاثة حقوق: حق القرابة وحق الجوار وحق الإسلام، كما قرىء ﴿والصَّلاةَ الْوُسْطَىٰ﴾ نصباً على الاختصاص.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿الجار الجَنْب﴾؛ أي: المجانب عنكم، أي البعيد داره عن داركم، أو الذي لا قرابة له منكم، فله حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وقرأ الأعمش والمفضل ﴿والجار الجنب﴾ بفتح الجيم وسكون النون؛ أي: ذي الجنب، وهو الناحية، وأنشد الأخفش: الناس جنب والأمر جنب. ذكره الشوكاني.

والجوار[2]: ضرب من ضروب القرابة، فهو قرب بالمكان والسكن، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب، فيحسن أن يتعاون الجاران، ويكون بينهما الرحمة والإحسان، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر.. فلا خير فيهما لسائر الناس.

وحدد الحسن البصري الجوار بأربعين داراً، من كل جانب من الجوانب الأربعة، والأولى عدم التحديد بالدور، وجعل الجار من تجاوره ويتراءى وجهك ووجهه في غدوك أو رواحك.

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام، وزاده الإسلام تأكيداً بما جاء في الكتاب والسنة، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه ودعوته إلى الطعام، وتعاهده بالزيارة والعيادة، إلى نحو ذلك.

وقد حث الدين على الإحسان في معاملة الجار ولو غير مسلم، وعن ابن

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.

عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورِّثه». متفق عليه. وعن عائشة مثله.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما باباً منك». رواه البخاري.

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك». أخرجه مسلم. وفي رواية قال: أوصاني خليلي ﷺ قال: «إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، ثم انظر إلى أهل بيت جيرانك فأصبهم منها بمعروف».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه». متفق عليه.

ولمسلم: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»، البوائق: الغوائل والشرور.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا نساء المؤمنات، لا تُحقِّرَنَّ جارة لجارتها، ولو فرسن شاة». متفق عليه. معناه: ولو أن تهدي إليها فرسن شاة: وهو الظلف وأراد به الشيء الحقير.

وعنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليقل خيراً أو ليصمت». متفق عليه.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿الصاحب بالجنب﴾، روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه الرفيق في السفر، والمنقطع إليك يرجو نفعك ورفدك، فهو إما رفيق في سفر، أو جار ملاصق، أو شريك في تعلم أو حرفة، أو قاعد بجنبك في مسجد أو مجلس، وقيل: هي المرأة، فإنها تكون معك وتضطجع إلى جنبك، وقيل: هو كل من صاحبته وعرفته، ولو وقتاً قصيراً، فيشمل صاحب الحاجة

الذي يمشي بجانبك، يستشيرك أو يستعين بك.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره». أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿ابن السبيل﴾؛ أي: إلى المسافر المنقطع عن بلده بالسفر، السائح الرحالة في غرض صحيح غير محرم.

والأمر بالإحسان إليه يتضمن الترغيب في السياحة والإعانة عليها، ويشمل اللقيط أيضاً، وهو أجدر بالعناية من اليتيم، وأحق بالإحسان إليه، وقد عني الأوروبيون بجمع اللقطاء وتربيتهم وتعليمهم، ولولا ذلك لاستطار شرهم، وعم ضرهم، وقد كنا أحق بهذا الإحسان منهم؛ لأن الله قد جعل في أموالنا حقاً معلوماً للسائل والمحروم.

وقال الأكثرون: المراد بابن السبيل الضيف يمر بك فتكرمه، وتحسن إليه؛ أي: وأحسنوا إلى الضيف بإكرامه، وله ثلاثة أيام حق، وما فوق ذلك صدقة.

وعن أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليكرم ضيفه جائزته»، قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه». وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليقل خيراً أو ليصمت». متفق عليه، زاد في رواية: «ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه»، قالوا: يا رسول الله وكيف يؤثمه؟ قال: «يقيم عنده ولا شيء له يقريه به»، قوله: «جائزته يومه وليلته» الجائزة: العطية؛ أي: يقري الضيف ثلاثة أيام، ثم يعطيه ما يجوز به من منهل إلى منهل، وقيل: هو أن يكرم الضيف، فإذا سافر.. أعطاه ما يكفيه يوماً وليلة، حتى يصل إلى موضع آخر، وقوله: أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه؛ أي: يوقعه في الإثم؛ لأنه إذا أقام عنده ولم يُقْرِهِ أثم بذلك.

﴿وَ﴾ أحسنوا إلى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وأيديكم من عبيدكم وإمائكم، ويشمل هذا تحريرهم وعتقهم، وهو أتم الإحسان وأكمله، ومساعدتهم على شراء أنفسهم دفعة واحدة، أو نجوماً وأقساطاً، وحسن معاملتهم في الخدمة، بأن لا يكلفوا ما لا يطيقون، ولا يؤذون بقول ولا بفعل.

وقيل: الآية[١] عامة فتشمل جميع الحيوانات من عبيد وإماء وغيرهم، فالحيوانات غير الأرقاء أكثر في يد الإنسان من الأرقاء، فغلب جانب الكثرة، فعبر عنه بـ﴿ما﴾، وأمر الله بالإحسان إلى كل مملوك آدمي وغيره. وقد روى الشيخان قوله ﷺ: «هم إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده.. فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، وإن كلفتموهم.. فأعينوهم عليه».

وقد أكد[٢] النبي ﷺ الوصية بهم في مرض موته، وكان ذلك من آخر وصاياه، فقد روى أحمد والبيهقي من حديث أنس قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: «الصلاة: وما ملكت أيمانكم»، وقد أوصانا الله سبحانه وتعالى بهؤلاء، حتى لا يظن أن استرقاقهم يجيز امتهانهم، ويجعلهم كالحيوانات المسخرة، ثم ذكر ماهو علة للأمر السابق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾؛ أي: لا تفتخروا على هؤلاء المذكورين لأن الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُحِبُّ﴾؛ أي: يعاقب ﴿مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ في مشيته متكبراً عن أقاربه الفقراء وجيرانه الضعفاء وأصحابه لا يحسن عشرتهم، ﴿فَخُورًا﴾ بلسانه على الناس بما أعطاه الله تعالى من العلم والمال وغيرهما، فالمختال[٣]: المتكبر الذي تظهر أثار الكبر في حركاته وأعماله، والفخور المتكبر: الذي تظهر آثار الكبر في أقواله، فتجده يذكر ما يرى أنه ممتاز به عن الناس زهواً بنفسه، واحتقاراً لغيره، والمختال الفخور مبغوض عند الله تعالى؛ لأنه احتقر جميع الحقوق التي

---

(١) الجمل.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

أوجبها الله للناس، وأوجبها لنفسه، من الشعور بعظمته وكبريائه، فهو كالجاحد لصفات الألوهية التي لا تليق إلا له.

فالمختال لا يقوم بعبادة ربه حق القيام؛ لأن العبادة لا تكون إلا عن خشوع للقلب، ومن خشع قلبه.. خشعت جوارحه، ولا يقوم بحقوق الوالدين ولا ذوي القربى لأنه لا يشعر بحق لغيره عليه، وبالأولى لا يشعر بحق لليتيم أو المسكين أو لجار قريب أو بعيد، فهو لا يرجى منه بر ولا إحسان، وإنما يتوقع منه إساءة وكفران.

ومن الكبر والخيلاء إطالة الثوب، وجر الذيل بطراً ومرحاً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾، وليس من الكبر والخيلاء أن يكون المرء وقوراً في غير غلظة، عزيز النفس مع الأدب والرقة.

روى أبو داود والترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، فقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمص الناس» بطر الحق: رده استخفافاً وترفعاً، وغمص الناس: احتقارهم والازدراء بهم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره خيلاء». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً». متفق عليه.

وعنه رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجِّل جمته، يختال في مشيته؛ إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة». متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل ممن

كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء.. خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الفخر والخيلاء في الفدادين من أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم». متفق عليه. الفدادون: هم الفلاحون والحراثون، وأصحاب الإبل والبقر، المتكثرون منها، المتكبرون على الناس بهما.

ثم بين الله سبحانه وتعالى المختال الفخور فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ والأظهر أن الموصول منصوب على الذم، أو مرفوع على الذم، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله كان مختالاً، وأن يكون مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أحقاء بكل ملامة، أو كافرون، والأوضح من هذه الأوجه كلها أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: هؤلاء المختالون الفخورون هم الذين يبخلون ويمنعون الناس ما منحوا به من المال والعلم، ويأمرون الناس غيرهم بالبخل، والامتناع من أداء ما يجب عليهم أداؤه من المال والعلم، ويحثونهم عليه.

روى ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس: كان جماعة من اليهود يأتون إلى الأنصار يتنصحون لهم، فيقولون: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ كما مر في أسباب النزول.

والمراد بالبخل في الآية[1]: البخل بالإحسان، الذي أمر به فيما تقدم، فيشمل البخل بلين الكلام، وإلقاء السلام، والنصح في التعليم، وإنقاذ المشرف على التهلكة.

وفي البخل أربع لغات: فتح الباء والخاء، وبها قرأ حمزة والكسائي،

---

(١) المراغي.

وبضمهما وبها قرأ الحسن وعيسى بن عمر، وبفتح الباء مع سكون الخاء وبها قرأ قتادة وابن الزبير، وبضم الباء وسكون الخاء وبها قرأ جمهور الناس.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يخفون ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه من العلم والمال وسعة الحال، فيشمل اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ، وما عندهم من العلم، والأغنياء الذين كتموا الغنى، وأظهروا الفقر وبخلوا بالمال، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وضع[1] الظاهر موضع المضمر، إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله سبحانه وتعالى، ومن كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه، كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء.

أي وهيَّأنا[2] لهؤلاء بكبرهم وبخلهم وعدم شكرهم عذاباً يهينهم ويذلهم، فهو عذاب جامع بين الألم والذلة جزاءاً لهم على ما اقترفوا، وسماهم الله كفاراً للإيذان بأن هذه أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور، لا من المؤمن الشكور. وفي الحديث الذي رواه أحمد أنه ﷺ قال: «إذا أنعم الله على عبده نعمة.. أحب أن يظهر أثرها عليه».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ معطوف على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، ووجه ذلك[3]: أن الأولين قد فرّطوا بالبخل، وبأمر الناس به، وبكتم ما آتاهم الله من فضله، وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم في غير مواضعها؛ لمجرد الرياء والسمعة، كما يفعله من يريد أن يتسامع الناس بأنه كريم، ويتطاول على غيره بذلك، ويشمخ بأنفه عليه، مع ما ضم إلى هذا الإنفاق الذي يعود عليه بالضرر من عدم الإيمان بالله ولا باليوم الآخر.

أي: وهم الذين يصرفون أموالهم في غير مصارفها، ليراهم الناس ويمدحوهم، ويقولوا فيهم: ما أسخاهم وما أجودهم، ولا يريدون بما أنفقوا وجه الله تعالى، ولا يصدقون بوحدانية الله تعالى، ولا بمجيء المعاد الذي فيه جزاء الأعمال.

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه». أخرجه مسلم.

الرئاء والرياء والمراءاة سواء، والحاصل: أن مانعي الإحسان من أهل الفخر والخيلاء فريقان: فريق يبخلون ويكتمون فضل الله عليهم، وفريق يبذل المال لا شكراً لله على نعمه، ولا اعترافاً لعباده بحق، بل ينفقونها مرائين الناس؛ أي: يقصدون أن يروهم فيعظموا قدرهم، ويحمدوا فعلهم.

والكبرياء كما تكون من شيء في نفس الشخص، تكون أيضاً بما يكون له من المال والنسب، والمرائي أقل شراً من البخيل؛ إذ هو يحمل الناس على قبول فخره واختياله في مقابلة ما يبذله لهم من مال، فكأنه رأى لهم عليه حقاً عوضاً من التعظيم والثناء الذي يطلبه بريائه، وأما البخيل: فقد بلغ من احتقاره للناس أنه لا يرى لهم عليه شيئاً من الحقوق فهو يكلفهم تعظيمه وأمواله مدخرة في الصناديق.

والمرائي بخيل في الحقيقة؛ إذ هو إنما يبذل المال لمن لا حق لهم عنده، ويبخل على أرباب الحقوق كالزوجة والولد والخادم والأقربين كالوالدين، ولا يتحرى في إنفاقه النفع العام ولا الخاص، وإنما يتحرى مواطن التعظيم والمدح، وإن كان الإنفاق ضاراً، كالمساعدة على فسق أو فتنة.. فهو تاجر يشتري تعظيم الناس له، وتسخيرهم للقيام بخدمته.

ومعنى قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ أي: إن المؤمنين المرائين في إنفاقهم يثقون بما عند الناس، من المدح والثناء والتعظيم والإطراء، ولا يثقون بما أعد الله لعباده من الثواب والجزاء، ويفضلون التقرب إليهم على التقرب إليه، فالله في نظرهم أهون من الناس، فمثل هؤلاء لا يعدون مؤمنين إيماناً حقيقياً بالله، ولا باليوم الآخر، بل إيمانهم ضرب من التخيل، ليس له ما يؤيده من أثر في القلب، ولا إذعان للنفس فهم لا يعرفون الله، وإنما يسمعون

الناس يقولون قولاً فيقلدونهم فيما يحفظونه منهم، فهم لا يعرفون أنه موجد الكائنات النافذ علمه وقدرته فيما في الأرض والسموات، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر، وأن هناك حياة أبدية.. لما فضلوا عليها عرض هذه الحياة القصيرة.

ومن أمارات التفرقة بين المخلص والمرائي:

أن الأول قلما يتذكر عمله أو يذكره إلا لمصلحة كترغيب بعض الناس في البذل، كأن يقول: إني على ما بي من فقر قد أعطيت كذا درهماً في مصلحة كذا، فاللائق بمثلك أن يبذل كذا وكذا درهماً.

أما الثاني: فهو يلتمس الفرص والمناسبات للفخر والتبجح بما أعطى وما فعل، كما لا يبذل المال ولا يعمل العمل الصالح إلا بقصد الرياء والسمعة، إذ ليس له وراء حظوظ الدنيا أمل ولا مطلب.

فهؤلاء حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾؛ أي: ومن يكن الشيطان معيناً له في هذه الأفعال في الدنيا.. فساء قريناً؛ أي: فبئس الصاحب له في النار هو، فإن الله تعالى يقرن مع كل كافر شيطاناً في سلسلة في النار؛ أي: إن هؤلاء المتكبرين ما حملهم على ما فعلوا إلا وسوسة الشيطان، وهو بئس الصاحب والخليل، والمقصد من هذا أن حالهم في الشر كحال الشيطان. وفي الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء في سيرته، وأن الواجب اختيار القرين الصالح على قرين السوء، وتعريض بتنفير الأنصار من معاشرة اليهود الذين كانوا ينهونهم عن الإنفاق في سبيل الله، وبيان أنهم شياطين يعِدون الفقر، وينهون عن العرف.

أما القرين الصالح: فهو عون على الخير، مرغب فيه، منفر بسيرته ونصحه عن الشر، مبعد عنه، مذكر بالتقصير، مبصر بالعيوب، وكم أصلح القرين الصالح فاسداً، وكم أفسد قرين السوء صالحاً، وفي «الفتوحات»: لما ذكر الأوصاف المتقدمة من البخل، والأمر به، والكتمان والإنفاق رئاء الناس، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر.. ذكر سببها الذي تنشأ عنه وهو مقارنة الشيطان، ومخالطته وملازمته للمتصفين بالأوصاف المتقدمة، كما يؤخذ من «النهر» لأبي حيان.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: وما الذي يصيبهم من الضرر ﴿لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ ورسوله ﴿و﴾ بمجيء ﴿اليوم الآخر﴾ إيماناً صحيحاً يظهر أثره في العمل، ﴿وَأَنفَقُوا﴾ في الخيرات ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ تعالى ابتغاء وجه الله، وطلباً لمرضاته، وإنما[1] قدم الإيمان هنا وأخره في الآية الأخرى؛ لأن القصد بذكره إلى التحضيض ههنا والتعليل ثمة. وفي هذا الأسلوب إثارة تعجيب الناس من حالهم؛ إذ هم لو أخلصوا.. لما فاتهم منفعة الدنيا، ولفازوا مع ذلك بسعادة العقبى، فكثيراً ما يفوت المرائي ما يرمي إليه من التقرب إلى الناس، وامتلاك قلوبهم، ويظفر بذلك المخلص الذي لم يكن من همه أن أحداً يعرف ما عمل.

فجهله جدير بأن يتعجب منه؛ لأنه جهل بالله، وجهل بأحوال الناس، ولو آمن وأخلص ووثق بوعد الله ووعيده.. لكان في هذا سعادته، فالإيمان سلوى من كل فائت، وفقده عرضة لليأس من كل خير، وأما المؤمن فأقل ما يؤتاه في المصائب الصبر، الذي يخفف وقعها على النفس، وأكثره رحمة الله، التي بها تتحول النقمة إلى نعمة، بما يستفيد من الاختبار والتمحيص وكمال العبرة والتهذيب.

وقد يبتلي الله المؤمن ويمتحن صبره، فيعطيه إيمانه من الرجاء به ما تخالط حلاوته مرارة المصيبة حتى تغلبها، وقد يأنس بها أحياناً؛ لعظم رجائه وصبره، وهذا وإن كان نادراً فهو واقع حاصل، ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِهِمْ﴾ وبأحوالهم المخفية ﴿عَلِيمًا﴾ يعني: لا يخفى عليه شيء من أعمال هؤلاء الذين ينفقون أموالهم لأجل الرياء والسمعة، فلا يثيبهم بما ينفقونه رئاء الناس، فينبغي للمؤمن أن يكتفي بعلم الله في إنفاقه، ولا يبالي بعلم الناس، فهو الذي لا ينسى عمل العاملين، ولا يظلمهم من أجرهم شيئاً.

وفي هذه الآيات الكريمة الهداية الكافية في معاملة الناس لربهم ولبعضهم بعضاً، ولكن المسلمين قصروا في اتباع هذه الأوامر، وأعرضوا عن مساعدة ذوي

---

(١) الخازن.

القربى والجيران واليتامى والمساكين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَظۡلِمُ﴾ أحداً ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ﴾؛ أي: وزن نملة حمراء صغيرة، أي: لا يظلم قليلاً ولا كثيراً، ونظم هذا الكلام مع الذي قبله: وماذا عليهم لو آمنوا وأنفقوا، فإن الله لا يظلم ولا يبخس ولا ينقص أحداً من ثواب عمله مثقال ذرة، وقال ابن عباس: الذرة رأس نملة حمراء، وقيل: الذرة كل جزء من أجزاء الهباء، الذي يكون في الكوة إذا كان فيها ضوء الشمس لا وزن لها، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأقل الأشياء، فخرج الكلام على أصغر شيء يعرفه الناس، وفي ذكره إيماء إلى أنه وإن صغر قدره عظم جزاءه.

والخلاصة: أن الظلم لا يقع من الله تعالى؛ لأنه من النقص الذي يتنزه عنه، وهو ذو الكمال المطلق والفضل العظيم، وقد شرع لهم من أحكام الدين وآدابه ما لا تستقل عقولهم بالوصول إلى مثله في هدايتهم وحفظ مصالحهم، وهي تسوق إلى الخير وتصرف عن الشر، وأيدها بالوعد والوعيد، فمن وقع بعد ذلك فيما يضره ويؤذيه.. كان هو الظالم لنفسه؛ لأن الله تعالى لا يظلم أحداً.

﴿وَإِن تَكُ﴾؛ أي: وإن يكن مثقال الذرة ﴿حَسَنَةً﴾ وأنث[1] الضمير لتأنيث الخبر، أو لإضافة المثقال إلى مؤنث، وحذف النون من غير قياس تخفيفاً وتشبيهاً بحروف العلة، وقرأ نافع وابن كثير ﴿حسنةٌ﴾ بالرفع على أن كان تامة بمعنى وإن حصلت حسنة، والباقون بالنصب. والمعنى: وإن تكن زنة الذرة حسنة، ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾؛ أي: يضاعف جزاء تلك الحسنة عشرة أمثالها، أو أضعافاً كثيرة إلى سبع مائة، كما جاء في آية أخرى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿يضعِّفْها﴾ بالتشديد من غير ألف، فكلاهما بمعنى واحد.

وقيل هذا عند الحساب فمن بقي له من الحسنات مثقال ذرة.. ضاعفها الله

---

(١) البيضاوي.

له إلى سبع مئة، وإلى أجر عظيم. قال قتادة: لأن تفضل حسناتي على سيئاتي بمثقال ذرة أحب إليَّ من الدنيا وما فيها. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر: فيعطى بحسنات قد عمل بها في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها». رواه مسلم.

﴿وَيُؤۡتِ﴾؛ أي: يعط الله صاحب الحسنة ﴿مِن لَّدُنۡهُ﴾؛ أي: من عنده تعالى: ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وثواباً جزيلاً فلا يقدر أحد قدره وهو الجنة.

أي: إنه تعالى لواسع فضله، لا يكتفي بجزاء المحسنين على إحسانهم فحسب، بل يزيدهم من فضله، ويعطيهم من لدنه عطاءً كبيراً، وسمي هذا العطاء أجراً ولا مقابل له من الأعمال؛ لأنه لما كان تابعاً للأجر على العلم سمي باسمه لمجاورته له، وفي ذلك إيماء إلى أنه لا يكون لغيرالمحسنين، إذ هو علاوة على أجور أعمالهم، فلا مطمع للمسيئين فيه، والفاء في قوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ فاء الفصيحة، والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع، أي: إذا كان الله لا يضيع من عمل العالمين مثقال ذرة.. فكيف يكون حال هؤلاء الكفار والمنافقين يوم القيامة، إذا جمعناهم والخلائق، وجئنا من كل أمة بشهيد يشهد عليهم؛ أي: نبي يشهد على فساد عقائدهم وقبح أعمالهم، فما من أمة إلا لها بشير ونذير، وهذه الشهادة عبارة عن عرض أعمال الأمم على أنبيائهم، لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين، ومقابلة عقائدهم وأعمالهم بعقائد الأنبياء وأعمالهم وأخلاقهم، فمن شهد لهم نبيهم بأنهم على ما جاء به وما أمر الناس بالعمل به.. فهم ناجون، ومن تبرأ منهم أنبياؤهم لمخالفة أعمالهم وعقائدهم لما جاؤوا به.. فأولئك هم الخاسرون، وإن ادعوا اتباعهم والانتماء إليهم.

﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾؛ أي: وجئنا بك يا محمد حالة كونك

---

(١) الخازن.

شاهداً على هؤلاء الذين سمعوا القرآن، وخوطبوا به بما علموا؛ أي: شاهداً على من آمن بالإيمان، وعلى من كفر بالكفر، وعلى من نافق بالنفاق، والرسول ﷺ بسيرته وأخلاقه العالية وسنته المرضية يكون حجة على من تركها، وتساهل في اتباعها، وعلى من تغالى فيها، وابتدع البدع المحدثة من بعده، أو المعنى: وجئنا بك شاهداً على صدق هؤلاء الأنبياء الذين شهدوا على أممهم لعلمك بعقائدهم، واستجماع شرعك مجامع قواعدهم، وقيل: وجئنا بك مزكياً معدلاً لأمتك؛ لأن أمته ﷺ يشهدون للأنبياء على قومهم إذ جحدوا البلاغ.

وروى الشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إقرأ عليَّ القرآن» فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل! قال: «نعم أحب أن أسمعه من غيري»، قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى إذاجئت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ قال: «حسبك الآن»، قال: فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. زاد مسلم: (شهيداً ما دمت فيهم)، أو قال: (ما كنت فيهم)، شك أحد رواته.

فانظر أيها الأخ الكريم كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم ﷺ، فبكى لتذكر هذا اليوم، وهل نعتبر كما اعتبر؟ وهل نستعد لهول ذلك اليوم باتباع سنته، ونجتهد في اجتناب البدع والتقاليد التي لم تكن في عهده، وبذا نكون أمة وسطاً لا تفريط عندها في الدين، ولا إفراط لا في الشؤون الجسمية، ولا في الشؤون الروحية، أو نظل في غوايتنا تقليداً للآباء، فنكون كما قال الكافرون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ جئنا من كل أمة بشهيد، ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: يتمنى الذين كفروا بالله ورسوله ﴿وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: خالفوا رسوله محمداً ﷺ، فيما أمر به ونهى عنه، ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: يتمنون لو دفنوا في الأرض، ويهال عليهم التراب، ويسوى عليهم كما يسوى على الموتى، أو يودون أنهم لم يبعثوا، وأنهم كانوا هم والأرض سواء، أو لم يخلقوا، وقال

الكلبي[1]: يقول الله تعالى للبهائم والوحوش والطيور والسباع: كوني تراباً، فتسوى بهن الأرض، فعند ذلك يتمنى الكافر لو يكون تراباً لعظم هول ذلك اليوم، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾؛ أي: لا يقدرون أن يكتموا ويخفوا عن الله سبحانه وتعالى حديثاً عن عقائدهم وأعمالهم؛ لأن جوارحهم تشهد عليهم.

أي: إنهم[2] يريدون الكتمان، أولاً لما علموا أن الله لا يغفر شركاً، فيقولون: ربنا والله ربنا ما كنا مشركين، رجاء غفران الله لهم، لكنهم تشهد عليهم الأعضاء والزمان والمكان، فلم يستطيعوا الكتمان، فهنالك يودون أنهم كانوا تراباً ولم يكتموا الله حديثاً.

قرأ نافع وابن عامر[3]: ﴿تَسَّوَّى﴾ بفتح التاء وتشديد السين، وقرأ حمزة والكسائي: بفتح التاء وتخفيف السين، وقرأ الباقون: بضم التاء وتخفيف السين، والمعنى على القراءة الأولى والثانية: أن الأرض هي التي تسوى بهم؛ أي: أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأض، فساخوا فيها، وقيل: الباء في قوله: ﴿بهم﴾ بمعنى على؛ أي: تسوى عليهم الأرض، وعلى القراءة الثالثة الفعل مبني للمفعول؛ أي: لو سوى الله بهم الأرض، فيجعلهم والأرض سواء، حتى لا يبعثوا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: لا تقيموا الصلاة ﴿وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾؛ أي: حال كونكم نشاوى من شرب الشراب ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾؛ أي: إلى أن تعلموا قبل الشروع فيها ما تقولونه، بأن تفيقوا من السكر، ﴿وَلَا﴾ تقيموها حال كونكم ﴿جُنُبًا﴾؛ أي: متصفين بالجنابة ﴿إِلَّا﴾ حال كونكم ﴿عَابِرِى سَبِيلٍ﴾؛ أي: مسافرين، وقيل إلا اسم بمعنى (غير) صفة لـ﴿جنباً﴾، أي؛ ولا تقيموها حال كونكم جنباً غير مسافرين، ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ من الجنابة ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ مرضاً يمنع من استعمال الماء، ﴿أَوْ عَلَىٰ

(١) الخازن.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

سَفَرٍ﴾، أي: متلبسين بسفر طويل أو قصير، ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾؛ أي؛ جاء أحدكم موضع قضاء الحاجة، فأحدث بخروج شيء من أحد السبيلين، والمراد به جميع أسباب الحدث الأصغر وأصل الغائط المكان المطمئن من الأرض، وقرأ ابن مسعود من ﴿الغيط﴾، وخرج على وجهين:

أحدهما: أنه مصدر، إذ قالوا: غاط يغيط غيطاً.

والثاني: أن أصله فيعل ثم حذف كـ: مَيْتٍ، قاله أبو حيان.

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ أي: أو ماسستم بشرتهن ببشرتكم، وبه استدل الشافعي - رحمه الله تعالى - على أن اللمس ينقض الوضوء، وقيل أو جامعتموهن، وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي المائدة ﴿لمستم﴾ واستعماله كناية عن الجماع أقل من الملامسة، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ يجب استعماله تتطهرون به للصلاة بعد الطلب، ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا﴾؛ أي؛ فاقصدوا تراباً ﴿طَيِّبًا﴾؛ أي: طاهراً بعد دخول الوقت، فاضربوا به ضربتين، ﴿فَٱمْسَحُوا۟﴾ منه ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ بالضربة الأولى، ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ بالضربة الثانية، وحذف الممسوح به هنا وأظهره في آية المائدة، في قوله: ﴿منه﴾ فحمل عليه ما هنا، وقد أشرنا له بقولنا منه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ كالتعليل للترخيص المستفاد مما قبله؛ أي: كان كثير العفو والمحو لذنوب عباده عن صحف الملائكة، غفوراً: أي: كثير الغفر والستر لها عن أعين الملائكة، فلا يؤاخذهم بها، فلذلك يسَّر عليكم الأمر ورخص لكم في التيمم. وقال الشوكاني قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾؛ أي؛ عفا عنكم وغفر لكم تقصيركم، ورحمكم بالترخيص لكم والتوسعة عليكم انتهى.

واعلم أن الخطاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ موجه إلى المسلمين قبل السكر، بأن يجتنبوه إذا ظنوا أنهم سيصلون، ليحتاطوا فيجتنبوه في أكثر الأوقات، وقد كان هذا تمهيداً لتحريم السكر تحريماً باتاً لا هوادة فيه، إذ من يتقي أن يجيء عليه وقت الصلاة وهو سكران، يترك الشرب عامة النهار وأول الليل، لتفرق الصلوات الخمس في هذه المدة، فلم يبق للسكر إلاوقت النوم من

بعد العشاء إلى السحر، فيقل الشراب لمزاحمة النوم له، وأول النهار من صلاة الفجر إلى وقت الظهيرة وقت الكسب والعمل لأكثر الناس، ويقل أن يسكر فيه إلا أصحاب البطالة والكسل.

وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء، فلا يصبحون إلا وقد زال السكر، وصاروا يعلمون ما يقولون، وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ ولم يقل ولا تقربوا الصلاة سكارى، مع أنه أخصر من الأول؛ لأن بين الأسلوبين فرقاً، الأول يتضمن النهي عن السكر الذي يخشى أن يمتد إلى وقت الصلاة، فيفضي إلى أدائها في أثنائه.

وخلاصة المعنى عليه: إحذروا أن يكون السكر وصفاً لكم عند حضور الصلاة، فتصلوا وأنتم سكارى، فامتثال هذا النهي إنما يكون بترك السكر في وقت الصلاة، وفيما يقرب منها، والثاني يتضمن النهي عن الصلاة حال السكر فحسب.

وأما نهيهم عن الصلاة جنُباً: فلا يتضمن نهيهم عن الجنابة قبل الصلاة؛ لأنها من سنن الفطرة، وإنما ينهاهم عن الصلاة في أثنائها حتى يغتسلوا؛ ولهذا قال جنباً، ولم يقل وأنتم جنب.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾؛ أي: ولا تقربوا الصلاة جنباً في أي حال، إلا حال كونكم عابري سبيل؛ أي: مجتازين الطريق. وقد روي أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، وكان يصيبهم الجنابة ولا يجدون ممراً إلا فيه، فرخص لهم في ذلك، ولم يأمر النبي ﷺ بسد تلك الأبواب والكوى إلا في آخر عمره الشريف، ولم يستثن إلا خوخة أبي بكر رضي الله عنه، الخوخة: الكوة والباب الصغير.

﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾؛ أي لا تقربوا الصلاة جنباً إلى أن تغتسلوا، إلا فيما رخص لكم فيه من حالة السفر.

وحكمة الاغتسال من الجنابة[1]: أن الجنابة تحدث تهيجاً في الأعصاب، فيتأثر البدن كله، ويحدث فتور وضعف فيه، يزيله الاغتسال بالماء، ومن ثم ورد: «إنما الماء من الماء» رواه مسلم.

والخلاصة: أن الدين طلب الصلاة حال العلم والفهم وتدبر القرآن والذكر، وذلك يتوقف على الصحو وترك السكر، كما طلب أن يكون الجسم نظيفاً نشيطاً، وذلك لا يكون إلا بإزالة الجنابة.

ولما كانت الصلاة فريضة موقوتة لا هوادة فيها؛ لأنها تذكر المرء وتعده للتقوى، وكان الاغتسال من الجنابة يتعسر في بعض الحالات، ويتعذر في بعضها الآخر.. رخص سبحانه وتعالى لنا في ترك استعمال الماء، والاستعاضة عنه بالتيمم، فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ المراد بالمرض: المرض الذي يخاف زيادته باستعمال الماء، كبعض الأمراض الجلدية، والقروح كالحصبة والجدري ونحو ذلك. والسفر يشمل الطويل والقصير، والمراد بالمجيء من الغائط الحدث الأصغر، بخروج شيء من أحد السبيلين القبل والدبر، أو بغيره من سائر أسباب الحدث الأصغر، وملامسة النساء التقاء البشرتين، أو غشيانهن على الخلاف المذكور فيه كما مر.

ففي هذه الحالات كلها ـ المرض، السفر، فقد الماء، عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء، والحدث الأكبر الموجب للغسل ـ اقصدوا وتحروا صعيداً طيباً؛ أي: تراباً طاهراً من الأرض لا قذارة فيه ولا أوساخ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ثم صلوا.

والخلاصة: أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة كحكم المحدث حدثاً أصغر، أو ملامس النساء ولم يجد الماء، فعلى كل هؤلاء التيمم فقط.

---

(١) المراغي.

روي أن هذه الآية نزلت في بعض أسفار النبي ﷺ، وقد انقطع عقد لعائشة فأقام النبي ﷺ يلتمسه، والناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فلما نزلت وصلوا بالتيمم.. جاء أسيد بن الحضير إلى مضرب عائشة، فجعل يقول ما أكثر بركتكم يا آل أبي بكر، وفي رواية يرحمك الله يا عائشة ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله للمسلمين فيه فرجاً.

ثم ذكر[1] منشأ السهولة واليسر، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ العفو التيسير والسهولة، ومنه قوله تعالى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، وقوله ﷺ: «قد عفوت عن صدقة الخيل والرقيق»؛ أي: أسقطتها تيسيراً عليكم، ومن عفوه وتيسيره وتسهيله أن أسقط في حال المرض والسفر وجوب الوضوء والغسل.

وفي ذلك إيماء إلى أن ما كان من الخطأ في صلاة السكارى، كقولهم: «قل يا أيها الكافرون أعبد ماتعبدون ونحن نعبد ما تعبدون» مغفور لهم، لا يؤاخذون عليه.

واعلم: أن التيمم من خصائص هذه الأمة، خصها الله تعالى به ليسهل عليهم أسباب العبادة، ويدل على ذلك ما روي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً، إذا لم نجد الماء» أخرجه مسلم.

فصول في أحكام تتعلق بالآية

الفصل الأول منها

إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى شيء من بدن المرأة، ولا حائل بينهما.. انتقض وضوئهما، وهو قول ابن مسعود، وابن عمر، وبه قال الزهري، والأوزاعي، والشافعي؛ لما روى الشافعي بسنده عن ابن عمر أنه قال: قُبلة

(١) المراغي.

الرجل امرأته وجَسُّهَا بيده من الملامسة، فمن قبَّل امرأته، أو جسها بيده فعليه الوضوء. أخرجه مالك في «الموطأ»، قال الشافعي: وبلغنا عن ابن مسعود مثله.

وقال مالك والليث بن سعد وأحمد وإسحاق: إذا كان اللمس بشهوة.. انتقض الوضوء، وإن لم يكن بشهوة.. فلا، ويدل عليه ما روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رسول الله ﷺ قبل امرأة من نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ، قال عروة: ومن هي إلا أنت فضحكت. أخرجه أبو داود.

وأجيب عن هذا الحديث بأنه ليس بثابت، قال الترمذي: إنه لا يصح إسناده بحال، وسمعت محمد بن إسماعيل يضعف هذا الحديث، وقال: حبيب بن ثابت لم يسمع من عروة، وضعف يحيى بن سعيد القطان هذا الحديث، وقال: هو شبه لا شيء، وفيه ضعف من وجه آخر، وهو أن عروة هذا ليس بعروة بن الزبير ابن أخت عائشة، إنما هو شيخ مجهول، قال البيهقي: يعرف بعروة المزني.

وإنما المحفوظ عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقبل وهو صائم، كذا رواه الثقات عن عائشة.

وقال أبو حنيفة: لا ينتقض الوضوء باللمس إلا أن يحدث الانتشار، وقال قوم: لا ينتقض بحال، وهو قول ابن عباس، وبه قال الحسن والثوري.

واحتج من لم يوجب الوضوء باللمس بما روى عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: (كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ، ورجلاي في قِبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي، فإذا قام بسطتهما، والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح). أخرجاه في «الصحيحين».

وأجاب من أوجب الوضوء باللمس عن هذا الحديث بأنه يحتمل أن يكون غمزه لها بحائل.

الفصل الثاني

اختلف قول الشافعي في لمس المحرم، كالأم والبنت والأخت أو أجنبية

صغيرة، فأصح القولين عنه: أنه لا ينتقض الوضوء به، والثاني: أنه ينتقض الوضوء به، ومأخذ القولين عند أصحاب الشافعي التردد بين التعلق بعموم الآية في قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، أو النظر إلى المعنى في النقض باللمس، وهو تحرك الشهوة، فإن أخذنا بعموم الآية.. فينتقض الوضوء بلمس المحارم، وإن أخذنا بالمعنى.. فلا ينتقض، وفي الملموس قولان، والملموس هو الذي لا فعل منه في المباشرة رجلاً كان أو امرأة، واللامس هو الفاعل للمس، وإن لم يقصد المباشرة.

فأحد القولين: أنه ينتقض وضوء اللامس والملموس لعموم الآية؛ لأنه لمس وقع بين الرجل والمرأة فينتقض وضوؤهما معاً.

والقول الثاني: أنه ينتقض وضوء اللامس دون الملموس؛ لما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فألتمسته فوضعت يدي على أخمص قدميه وهو ساجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». أخرجه مسلم.

فلو انتقض وضوؤه ﷺ لقطع الصلاة، ولو لمس شعر امرأة أو سنها أو ظفرها، فلا وضوء عليه.

الفصل الثالث في الحدث

وهو الخارج من السبيلين، عيناً كان كالبول والغائط، أو أثراً كالريح ونحوها، فإذا حصل شيء من ذلك.. فلا تصح صلاته، ما لم يتوضأ أو يتيمم عند عدم الماء؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»، فقال رجل من أهل حضرموت: ما الحدثُ يا أبا هريرة؟ قال: فساء أو ضراط. أخرجاه في «الصحيحين».

أما خروج النجاسة من غير السبيلين، كالفصد والحجامة والرعاف والقيء

ونحوها: فذهب قوم إلى أنه لا وضوء من خروج هذه الأشياء، يروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس، وبه قال عطاء وطاووس، والحسن وابن المسيب، وإليه ذهب مالك والشافعي؛ لما روي عن أنس قال: احتجم رسول الله ﷺ، فصلى ولم يتوضأ، ولم يزد على غسل محاجمه. أخرجه الدارقطني.

وذهب قوم إلى إيجاب الوضوء من ذلك، منهم سفيان الثوري، وابن المبارك، وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق، واتفق هؤلاء على أن خروج القليل منه لا ينقض، ويدل على انتقاض الوضوء بخروج هذه الأشياء ما روي عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء: أن النبي ﷺ قاء فتوضأ، قال معدان: فلقيت ثوبان في مسجد دمشق، فذكرت له ذلك، فقال: صدق، أنا صببت له وضوءه، أخرجه الترمذي، وقال: هو أصح شيء في هذا الباب.

الفصل الرابع

من نواقض الوضوء: زوال العقل بجنون أو إغماء أو نوم؛ لما روي عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «العين وكاء السه، فمن نام.. فليتوضأ». أخرجه أبو داود وابن ماجه.

ويستثنى من ذلك النوم اليسير قاعداً مفضياً بمحل الحدث إلى الأرض، ويدل على ذلك ما روي عن أنس قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرون العشاء الأخيرة، حتى تخفق رؤوسهم، ثم يصلون ولا يتوضؤون. أخرجه أبو داود.

وذهب قوم إلى أن النوم لا ينقض الوضوء بكل حال، وهو قول أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما، وبه قال الحسن وإسحاق والمزني. وذهب قوم إلى أنه لو نام قائماً أو قاعداً أو ساجداً وهو في الصلاة.. فلا وضوء عليه حتى يضطجع، وبه قال سفيان الثوري، وابن المبارك، وأصحاب الرأي، لما روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ليس على من نام ساجداً وضوء، حتى يضطجع، فإنه إذا اضطجع استرخت مفاصله». أخرجه أحمد ابن حنبل وضعف بعضهم هذا الحديث.

الفصل الخامس

من نواقض الوضوء مس الفرج من نفسه أو غيره، فذهب قوم إلى أنه يوجب الوضوء، وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ وبه قال سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق، غير أن الشافعي قال: ينتقض الوضوء إذا لمس ببطن الكف، والرجل والمرأة في ذلك سواء، ويدل على ذلك ما روي عن بسرة بنت صفوان، أن رسول الله ﷺ قال: «من مس ذكره.. فلا يصلِّ حتى يتوضأ»، أخرجه الترمذي، وقال حديث صحيح ولأبي داود والنسائي نحوه.

وعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مس فرجه فليتوضأ». أخرجه ابن ماجه وصححه أحمد وأبو زرعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أفضى بيده إلى ذكره، وليس دونه ستر.. فقد وجب عليه الوضوء» أخرجه أحمد ابن حنبل.

وذهب قوم إلى أن مس الذكر لا يوجب الوضوء، وهو قول علي وابن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة، وبه قال الحسن: وإليه ذهب الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي، واحتجوا بما روي عن طلق بن علي قال: قدمنا على رسول الله ﷺ، فجاءه رجل كأنه بدوي، فقال: يا نبي الله، ما ترى في مس الرجل ذكره بعد ما توضأ؟ قال: «هل هو إلا مضغة منه؟» أو قال: «بضعة منه». أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي نحوه بمعناه.

وأجاب من أوجب الوضوء على من مس الذكر عن حديث طلق بن علي، بأن قدومه على رسول الله ﷺ كان في أول الهجرة، وهو يبني المسجد، وأبو هريرة رضي الله عنه من آخرهم إسلاماً وقد روى بانتقاض الوضوء بمس الذكر، فصار حديث أبي هريرة رضي الله عنه ناسخاً لحديث طلق بن علي، وأيضاً فإن حديث طلق يرويه عنه ابنه قيس بن طلق، وهو ليس بالقوي عند أهل الحديث.

الفصل السادس: في التيمم وأركانه

التيمم لغة: القصد، ومنه قول بعضهم:

تَيَمَّمْتُكُم لَمَّا فَقَدْتُ أُولِيْ ٱلنُّهَىٰ   وَمَنْ فَقَدَ ٱلْمَاءَ تَيَمَّمَ بِٱلتُّرْبِ

وشرعاً: إيصال التراب إلى الوجه واليدين بشرائط مخصوصة، وأركانه خمسة:

الأول: تراب طاهر خالص له غبار يعلق بالوجه واليدين، ويجوز بالرمل إذا كان عليه غبار.

الثاني: قصد الصعيد، فلو تعرض لمهب الريح.. لم يكفه، ولو يممه غيره بإذنه مع عجزه جاز، وإن كان قادراً فوجهان.

الثالث: نقل التراب إلى الوجه واليدين.

الرابع: نية استباحة الصلاة، فلو نوى رفع الحدث.. لم يصح، وأكمله أن ينوي استباحة الفرض والنفل.

الخامس: مسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين والترتيب.

ولا يصح التيمم لصلاة إلا بعد دخول وقتها، ولا يجوز الجمع بين صلاتي فرض بتيمم واحد، وهو قول علي وابن عباس وابن عمر، وبه قال الشعبي والنخعي وقتادة، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، وذهب جماعة إلى أن التيمم كالوضوء فيجوز تقديمه على الوقت، ويجوز أن يصلي به ما شاء من النوافل قبل الفرض وبعده إلى أن يدخل وقت الصلاة الأخرى، وأن يقرأ القرآن إن كان جنباً ويشترط طلب الماء في السفر؛ بأن يطلبه في رحله وعند رفقته، وإن كان في صحراء ولا حائل دون نظره.. نظر حواليه، وإن كان دون نظره حائل قريب من تل أو جدار أو نحوه.. عدل عنه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا﴾، ولا يقال لم يجد إلا لمن طلب، ولا يشترط الطلب عند أبي حنيفة، فإن رأى الماء ولا يقدر عليه؛ لمانع من عدو، أو سبع يمنعه من الذهاب إليه، أو كان الماء في بئر وليس معه آلة الاستقاء.. فهو كالعادم، فيتيمم ويصلي ولا إعادة عليه. والله أعلم.

الإعراب

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة مسوقة[1] لبيان الأحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والأقارب ونحوهم، إثر بيان الأحكام المتعلقة بحقوق الأزواج، وصدر بما يتعلق بحقوق الله عز وجل التي هي آكد الحقوق، وأعظمها تنبيهاً، على عظم شأن حقوق الوالدين بنظمهما في سلكها، كما في سائر المواقع. ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُشْرِكُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُشْرِكُوا۟﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به منصوب؛ أي: لا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنماً أو غيره أو منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: لا تشركوا به شيئاً من الإشراك جلياً أو خفياً.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿بالوالدين﴾: جار ومجرور متعلق بفعل محذوف معطوف على جملة قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، تقديره: وأحسنوا بالوالدين. ﴿إِحْسَٰنًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بذلك المحذوف. ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه معطوف على قوله ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: معطوفان على ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. ﴿وَٱلْجَارِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الجار﴾: معطوف على ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، صفة لـ﴿جار﴾، ومضاف إليه. ﴿وَٱلْجَارِ﴾: معطوف على ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. ﴿ٱلْجُنُبِ﴾: صفة لجار؛ لأنه مشتق، لأنه اسم فاعل. ﴿وَٱلصَّاحِبِ﴾: معطوف على ﴿ذي القربى﴾. ﴿بِٱلْجَنۢبِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿الصاحب﴾، تقديره حالة كونه ملتبساً بالجنب؛ أي: بالقرب بجنبه. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: معطوف على ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ومضاف إليه.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر معطوفة على ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: وما ملكته أيمانكم. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المعللة لمحذوف تقديره: لا تفتخروا على هؤلاء المذكورين لأن الله لا يحب ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على من الموصولة. ﴿مُخْتَالًا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾، ﴿فَخُورًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، والعائد الضمير المستتر في ﴿كَانَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم، عائد على ﴿مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾، وجمعه اعتباراً لمعناه، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره في محل النصب بدل من ﴿مَن﴾ الموصولة، في قوله: ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾. ﴿يَبْخَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يَبْخَلُونَ﴾. ﴿بِٱلْبُخْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَأْمُرُونَ﴾. ﴿وَيَكْتُمُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَبْخَلُونَ﴾. ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾: ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَكْتُمُونَ﴾، ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: ما آتاهم الله إياه؛ لأن آتى بمعنى أعطى، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿مَآ﴾ الموصولة، أو من الضمير المحذوف. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة

مستأنفة. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْتَدْنَا﴾. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿مُهِينًا﴾: صفة له.

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: في محل الرفع معطوف على ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾؛ أي: وهم الذين ينفقون، ويجوز[1] أن يكون عطفاً على ﴿الكافرين﴾، بناء على إجراء التغاير الوصفي مجرى التغاير الذاتي. ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾. ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾: مفعول لأجله ومضاف إليه، أو حال من فاعل ﴿يُنفِقُونَ﴾، بتأويله بمشتق تقديره: ينفقون حالة كونهم مرائين الناس، فـ﴿رِئَاءَ﴾: مصدر مضاف إلى المفعول. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿الْآخِرِ﴾: صفة لـ﴿اليوم﴾.

﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿يَكُنِ الشَّيْطَانُ﴾: فعل ناقص واسمه مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونه فعل الشرط له. ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿قَرِينًا﴾ وهو خبر ﴿يَكُنْ﴾. ﴿فَسَاءَ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط وجوباً؛ لكون الجواب جملة جامدية. ﴿سَاءَ﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ لشبهه بالمثل، تقديره: هو يعود على ﴿الشَّيْطَانُ﴾. ﴿قَرِينًا﴾: تمييز له، والجملة في محل الجزم جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية: مستأنفة، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً تقديره: هو؛ أي: الشيطان أو القرين.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)﴾.

---

(١) كرخي.

﴿وَمَاذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، والجملة مستأنفة. ﴿لَوْ ءَامَنُوا﴾: ﴿لَوْ﴾ مصدرية. ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية، ﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، متعلق بما تعلق به ﴿عَلَيْهِمْ﴾، تقديره: وما الذي استقر عليهم في إيمانهم بالله واليوم الآخر، وفي المقام أوجه أخر من الإعراب فراجعها. ﴿وَأَنفَقُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنفِقُوا﴾. ﴿رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إياه، وهو العائد على ﴿ما﴾ أو الرابط لها، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِمْ﴾: متعلق بقوله ﴿عَلِيمًا﴾، وهو خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَظْلِمُ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إنْ﴾، وجملة ﴿إنْ﴾: مستأنفة. ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَإِن تَكُ﴾: الواو: استئنافية. ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، وعلامة جزمه سكون النون المحذوفة للتخفيف؛ لأن أصله: وإن تكون، فحذفت الضمة للجازم، والواو لالتقاء الساكنين، والنون للتخفيف، فالحذفان الأولان[1] واجبان، والثالث جائز، و﴿حَسَنَةٌ﴾: بالرفع فاعلها؛ لأنه من كان التامة؛ أي: وإن تحصل حسنة.. يضاعفها لصاحبها، من عشر إلى سبع مئة ضعف، وفي قراءة النصب ﴿حَسَنَةً﴾ خبر تكون، واسمها ضمير مستتر فيها جوازاً يعود على الذرة؛ أي: وإن تك الذرة حسنة.. يضاعفها، حتى يوافيها صاحبها يوم القيامة وهي كالجبل العظيم.

---

(١) الكواكب على المتممة.

﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾: فعل ومفعول مجزوم على كونه جواب الشرط، والفاعل ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة، ﴿وَيُؤۡتِ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾، مجزوم بحذف حرف العلة، والفاعل ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والمفعول الأول لآتى محذوف تقديره: ويؤت صاحبها، ﴿مِن لَّدُنۡهُ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يؤتِ﴾. ﴿أَجۡرًا﴾: مفعول ثان لآتى، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ﴿أَجۡرًا﴾.

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾﴾

﴿فَكَيۡفَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿كيف﴾: اسم للاستفهام التوبيخي والتقريعي، في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فكيف حالهم أو صنيعهم، والعامل[1] في إذا هو هذا المقدر، أو في محل النصب بفعل محذوف، تقديره: فكيف يكونون أو يصنعون، ويجري فيها الوجهان في نصبها: **إما** النصب على التشبيه بالحال، كما هو مذهب سيبويه، **أو** على التشبيه بالظرف، كما هو مذهب الأخفش، وذلك المحذوف هو العامل في إذا أيضاً، وجملة كيف مع العامل المحذوف مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿جِئۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾، والظرف متعلق بالعامل المحذوف في ﴿كيف﴾ كما مر آنفاً؛ أي: فكيف يكونون وقت مجيئنا. ﴿مِن كُلِّ أُمَّةِۭ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جِئۡنَا﴾، أو حال[2] من ﴿شهيد﴾ على قول من أجاز تقديم حال المجرور عليه. ﴿بِشَهِيدٖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جِئۡنَا﴾، ﴿وَجِئۡنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جِئۡنَا﴾ الأول. ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جِئۡنَا﴾. ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَهِيدٗا﴾، وهو حال من الكاف في ﴿بِكَ﴾.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾﴾.

(١) الجمل. (٢) العكبري.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية وهو مضاف. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه، مبني بسكون مقدر، منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين؛ لالتقائها ساكنة مع التنوين، والظرف متعلق بـ﴿يودُّ﴾. ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾. ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾: ﴿لَوْ﴾: مصدرية. ﴿تُسَوَّىٰ... ٱلْأَرْضُ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿بِهِمُ﴾: متعلق بـ﴿تُسَوَّىٰ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية، ﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يَوَدُّ﴾، تقديره: يودون تسوية الأرض بهم. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿حَدِيثًا﴾: مفعول ثان، والجملة إما معطوفة على جملة ﴿يَوَدُّ﴾ أو مستأنفة، والتقدير: وهم لا يكتمون الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: جملة ندائية مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء. ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة حال من فاعل ﴿تَقْرَبُواْ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَعْلَمُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى إلى، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، تقديره: إلى علمكم ما تقولون، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَقْرَبُواْ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿تَعْلَمُواْ﴾، ﴿تَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تقولونه.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

﴿وَلَا جُنُبًا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿جُنُبًا﴾: حال من فاعل ﴿تَقْرَبُواْ﴾، فهو معطوف على جملة قوله ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فكأنه قيل: لا تقربوا

الصلاة سكارى ولا جنباً، وهو السر[1] في إعادة لا ليفيد النهي عن كل. ﴿إِلَّا﴾: اسم بمعنى غير صفة لـ﴿جُنُبًا﴾، ولكن نقل إعرابها إلى ما بعدها؛ لكونها على صورة الحرف. ﴿عَابِرِي﴾: صفة لـ﴿جُنُبًا﴾، منصوب بالياء وهو مضاف. ﴿سَبِيلٍ﴾: مضاف إليه، والتقدير: لا تقربوا الصلاة جنباً غير عابري سبيل؛ أي: غير مسافرين؛ أي: حالة كونكم جنباً مقيمين غير معذورين، وقيل: إنه منصوب على الحال، فهو استثناء مفرغ، والعامل فيها فعل النهي، والتقدير: لا تقربوا الصلاة في حال الجنابة إلا في حال السفر. ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن المضمرة، والمصدر المؤول من أن المقدرة وما بعدها مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، وهي متعلقة بـ﴿تَقْرَبُوا۟﴾، والتقدير: ولا تقربوا الصلاة جنباً إلى اغتسالكم إلا عابري سبيل. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف جزم. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾، ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾: خبر كان. ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: جار ومجرور في محل النصب معطوف على خبر كان، والتقدير: وإن كنتم مرضى أو متلبسين بسفر.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ معطوف على ﴿كُنتُمْ﴾. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَحَدٌ﴾. ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَ﴾. ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم معطوف على ﴿كُنتُمْ﴾. ﴿فَلَمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَجِدُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. ، ﴿مَآءً﴾: مفعول به، ووجد هنا بمعنى وجدان الضالة، فيتعدى لواحد، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، معطوفة على قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، على كونها فعل شرط لها.

﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب

(١) كرخي.

جملة طلبية. ﴿تَيَمَّمُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل. ﴿صَعِيدًا﴾: مفعول به. ﴿طَيِّبًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية: مستأنفة كما أشرنا إليه سابقاً. ﴿فَامْسَحُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أمسحوا﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم معطوف على ﴿تَيَمَّمُوا﴾، على كونها جواب الشرط. ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿امسحوا﴾. ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾: معطوف على ﴿وجوهِكم﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾. ﴿عَفُوًّا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾، ﴿غَفُورًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها: في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المتعلقة بمعلول محذوف، تقديره: وإنما يسر عليكم، ورخص لكم في التيمم؛ لكونه عفواً غفوراً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ذِي الْقُرْبَىٰ﴾، ﴿الْقُرْبَىٰ﴾: مؤنث الأقرب، كالفضلى مؤنث الأفضل، وهو من قرُب من باب فعل المضموم، ومعناه الجار القريب الجوار أو النسب، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: ﴿الجُنُبُ﴾: بضمتين صفة يستوي فيه المفرد والمثنى، والمجموع مذكراً كان أو مؤنثاً، ومعناه: والجار البعيد القرابة أو الجوار، ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾: ﴿الجَنْب﴾: بالفتح والسكون الناحية والجانب، ﴿مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ المختال: اسم فاعل من اختال يختال، إذا تكبر وأعجب بنفسه، وألفه منقلبة عن ياء؛ لأنه من خال يخيل، وفي «المصباح»: وسميت الخيل خيلاً لاختيالها، وهو إعجابها بنفسها مرحاً، ومنه يقال اختال الرجل وبه خيلاء، وهو الكبر والإعجاب انتهى.

﴿فَخُورًا﴾: صيغة مبالغة من الفخر، وهو عد مناقب الإنسان ومحاسنه، وفي «المصباح»: أيضاً فخرت به فخراً من باب نفع، وافتخر به مثله، والاسم الفخار، وهو المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب، وغير ذلك، إما في المتكلم أو في آبائه انتهى. فالمختال: ذو الخيلاء والكبر، يأنف من أقاربه

وجيرانه وأصحابه ومماليكه، أو لا يلتفت إليهم، والفخور الذي يعدد محاسنه من العلم والمال والجاه تعاظماً وتكبراً، ﴿مُّهِينًا﴾؛ أي: ذا الإهانة والذلة اسم فاعل من أهان الرباعي.

﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾: القرين: المصاحب الملازم، وهو فعيل بمعنى مفاعل، كالخليط والجليس، والقرين أيضاً الحبل؛ لأنه يقرن به بين البعيرين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: ظلم من باب ضرب، يتعدى لمفعول واحد، وذلك الواحد محذوف تقديره: لا يظلم أحداً، وينتصب مثقال على أنه نعت لمصدر محذوف؛ أي: ظلماً وزن ذرة، كما تقول: لا أظلم قليلاً ولا كثيراً، وقيل: ضمن معنى ما يتعدى لاثنين، فانتصب مثقال على أنه مفعول ثان، والأول محذوف كما قدرنا، والتقدير: لا ينقص أحداً مثقال ذرة من الخير أو الشر، كما ذكره أبو حيان، والمثقال، أصله المقدار الذي له ثقل مهما قل ثم أطلق على المعيار المخصوص للذهب وغيره، والذرة أصغر ما يدرك من الأجسام، ومن ثم قالوا: إنها النملة، أو رأسها أو الخردلة أو الهباء ما يظهر من نور الشمس الداخل من الكوة، ولذلك روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه أدخل يده في التراب، ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة.

﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾: السكارى ـ بفتح السين وضمها ـ جمع سكران، مؤنثه سكرى، ويقال في لغة بني أسد: سكرانة، وفعله سكر من باب طرب، والسكر لغة: السد، ومنه قيل لما يعرض للمرء من شرب المسكر؛ لأنه يسد ما بين المرء وعقله، وأكثر ما يقال السكر، لإزالة العقل بالمسكر، وقد يقال ذلك؛ لإزالته بالغضب، ونحوه من عشق وغيره، والسكر ـ بفتح السين وسكون الكاف ـ حبس الماء، وبالكسر نفس الموضع المسدود، وأما السكر ـ بفتحهما ـ فما يسكر به من المشروب، ومنه قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

﴿وَلَا جُنُبًا﴾: الجنب يطلق على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، كما مر آنفاً؛ لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب، ويقال رجل جنب، ورجلان جنب، ورجال جنب، وامرأة جنب، وامرأتان جنب،

ونساء جنب، قاله الكرخي، ومثله أبو حيان، وهو المشهور في اللغة والفصيح، وبه جاء القرآن، وقد جمعوه جمع سلامة بالواو والنون، فقالوا: قوم جنبون، وجمع تسكير فقالوا: قوم أجناب، وأما تثنيته فقالوا: جنبان.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾: الغائط ـ بزنة فاعل ـ المنخفض من الأرض كالوادي، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة، للستر والاستخفاء عن الناس، ثم عبر به عن نفس الحدث، كناية للاستحياء عن ذكره، وفرقت العرب بين الفعلين منه، فقالت: غاط في الأرض إذا ذهب وأبعد، إلى مكان لا يراه إلا من وقف عليه، وتغوط إذا أحدث.

وقرأ ابن مسعود: ﴿من الغيط﴾ وفيه قولان:

أحدهما: وإليه ذهب ابن جني، أنه مخفف من فيعل، كهين وميت في هين وميت.

الثاني: أنه مصدر على وزن فعل يقال غاط يغيط غيطاً، وغاط يغوط غوطاً، وقال أبو البقاء: هو مصدر تغوط، فكان القياس غوطاً، فقلبت الواو ياء، وإن سكنت وانفتح ما قبلها لخفتها، كأنه لم يطلع على أن فيه لغة أخرى من ذوات الياء حتى ادعى ذلك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع[(١)]:

منها: التجوز بإطلاق الشيء على ما يقاربه في المعنى، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾ أطلق الظلم على انتقاص الأجر، من حيث إن نقصه عن الموعود به قريب في المعنى من الظلم.

ومنها: التنبيه بما هو أدنى على ما هو أعلى في قوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾؛ إذ لم يبين فيه المضاعفة في الأجر.

ومنها: السؤال عن المعلوم لتوبيخ السامع أو تقريره لنفسه في قوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا﴾.

ومنها: العدول من بناء إلى بناء لمعنىً في قوله: ﴿بِشَهِيدٖ﴾، ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿بِشَهِيدٖ﴾، ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾.

ومنها: التجوز بإطلاق المحل على الحال فيه في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

ومنها: التقديم والتأخير في قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع مثل: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾؛ أي: أحسنوا إلى الوالدين إحساناً، ذكره أبو حيان في «البحر المحيط».

ومنها: التعريض في قوله: ﴿مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ عرض بذلك إلى ذم الكبر المؤدي إلى احتقار الناس وإهانتهم.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾، ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ حيث كرر الباء، بخلاف نظيره في سورة البقرة فإنه لم يكرر فيه الباء، وفائدة إعادتها ثانياً التأكيد؛ لأن[1] هذه الآية في حق هذه الأمة، فالاعتناء بها أكثر، وإعادة الباء تدل على زيادة التأكيد، فناسب ذلك هنا، بخلاف آية البقرة؛ فإنها في حق بني إسرائيل، والمراد بهذه الجملة الأمر بالإحسان، وإن كانت خبرية، كقوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾. اهـ «سمين».

ومنها: التغليب في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾، حيث عبر بما دون

---

(١) الجمل.

﴿من﴾؛ لأنها لغير العاقل، نظراً لجانب الكثرة؛ لأن المملوك يشمل جميع الحيوانات من عبيد وإماء وغيرهم، فالحيوانات غير الأرقاء أكثر في يد الإنسان من الأرقاء، فغلب جانب الكثرة، وأمر الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى كل مملوك آدمي وغيره.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾؛ لأن مقتضى السياق أن يقال وأعتدنا لهم، فوضع الظاهر موضع المضمر، إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى، ومن كان كافراً بنعمته فله عذاب يهينه، كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء، فتلخص أن الكافرين هنا بمعنى الجاحدين.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ حيث كرر ﴿لا﴾، وكذلك الباء إشعاراً[1] بأن الإيمان بكل منهما منتف على حدته، فلو قلت: لا أضرب زيداً وعمراً.. احتمل نفي الضرب عن المجموع، ولا يلزم منه نفي الضرب عن كل واحد على انفراده، واحتمل نفيه عن كل واحد بانفراده، وإن قلت: ولا عمراً.. تعين هذا الثاني.

ومنها: تغليب الخطاب على الغيبة في قوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ لأن الضمير فيه عائد لكل من تقدم، من مريض ومسافر ومتغوط ولامس أو ملامس، وفيه تغليب للخطاب على الغيبة، وذلك أنه تقدم غيبة في قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾. وخطاب في: ﴿كُنتُم﴾ و﴿لمستم﴾، فغلب الخطاب في قوله ﴿كُنتُم﴾ وما بعده عليه، وما أحسن ما أتى به هنا بالغيبة لأنه كناية عما يستحيا منه، فلم يخاطبهم به، وهذا من محاسن الكلام، ومثله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الجمل.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنه تعالى لما ذكر شيئاً من أحوال الآخرة، وأن الكفار إذ ذاك يودون لو تسوى بهم الأرض، ولا يكتمون الله تعالى حديثاً وجاءت هذه

(١) البحر المحيط.

الآية بعد ذلك كالاعتراض بين ذكر أحوال الكفار في الآخرة، وذكر أحوالهم في الدنيا، وما هم عليه من معاداة المؤمنين، وكيف يعاملون رسول الله ﷺ، الذي يأتي شهيداً عليهم وعلى غيرهم، ولما كان اليهود أشد إنكاراً للحق، وأبعد من قبول الخير، وكان قد تقدم أيضاً: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ...﴾، وهم أشد الناس تحليا بهذين الوصفين.. أخذ يذكرهم بخصوصيتهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: هو أنه تعالى لما رجاهم بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ...﴾ الآية. خاطب من يرجى إيمانه منهم بالأمر بالإيمان، وقرن بالوعيد البالغ على تركه؛ ليكون أدعى لهم إلى الإيمان والتصديق به، ثم أزال خوفهم من سوء الكبائر السابقة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ...﴾ الآية، وأعلمهم أن تزكيتهم أنفسهم بما لم يزكهم به الله تعالى لا ينفع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنه سبحانه وتعالى لما هدد اليهود على الكفر، وتوعدهم عليه بأشد الوعيد، كطمس الوجوه، والرد على الأدبار، ثم بين أن ذلك الوعيد واقع لا محالة بقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾.. ذكر هنا أن هذا الوعيد وشديد التهديد إنما هو لجريمة الكفر، فأما سائر الذنوب سواه فالله تعالى قد يغفرها، ويتجاوز عن زلاتها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[3] في الآية السالفة: أن ممن دعوا إلى التصديق بالأنبياء فريق نأى وأعرض عن اتباع الحق، ثم توعد من أعرض بسعير جهنم.. فَصَّل هنا الوعيد بذكر أحوال الفريقين، وما يلاقيه كل منهم من الجزاء يوم القيامة.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود، وإذا كلم رسول الله ﷺ.. لوى لسانه، وقال: أرعنا سمعك يا محمد حتى نفقهك، ثم طعن في الإسلام دعابة، فأنزل الله فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار اليهود، منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسيد، فقال لهم: «يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به الحق»، فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، فأنزل الله فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني، عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام، قال: «وما دينه؟»، قال: يصلي ويوحد الله، قال: «استوهب منه دينه، فإن أبى فابتعه منه»، فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: وجدته شحيحاً على دينه، فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم، ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ وأخرج ابن جرير نحوه عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك وغيرهم.

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه أحمد وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة.. قالت قريش: ألا ترى إلى هذا الصنوبر ـ الرجل الفرد الضعيف الذليل بلا أهل وعقب وناصر ـ المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية، قال: أنتم خير منه، فنزلت فيهم: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ وأنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾. وأخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة حيي بن أخطب وسلاَّم بن الحقيق، وأبا رافع، والربيع بن أبي الحقيق، وأبا عمارة، وهوذة بن قيس، وكان سائرهم من بني النضير، فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتب الأولى، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد، فسألوهم فقالوا: دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله: ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: قال أهل الكتاب: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع وله تسع نسوة، وليس همه إلا النكاح، فأي ملك أفضل من هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ. . .﴾ الآية. وأخرج ابن سعد عن عمر مولى عمرة نحوه بأبسط منه.

التفسير وأوجه القراءة

بعد[1] أن ذكر الله سبحانه وتعالى في سابق الآيات كثيراً من الأحكام الشرعية، ووعد فاعلها بجزيل الثواب، وأوعد تاركها بشديد العقاب.. انتقل هنا إلى ذكر حال بعض الأمم، الذين تركوا أحكام دينهم، وحرفوا كتابهم، واشتروا الضلالة بالهدى، لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن عليهم، كما هيمن على من قبلهم فإذا هم قصروا.. أخذهم بالعقاب الذي رتبه على ترك

(١) المراغي.

أحكام دينه في الدنيا والآخرة، والمؤمنون بالله حقاً بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لا بد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصل لهم إلى إصلاح الأنفس، وذلك هو الأثر المطلوب منها، ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها، لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب.

وقد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط، كبعض اليهود الذين يكتفون ببعض القرابين وأحكام الدين الظاهرة، وهذا لا يكفي في اتباع الدين، والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أراده الله تعالى، فأرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى أن عمل الرسوم الظاهرة في الدين كالغسل والتيمم لا يغني عنهم شيئاً إذا لم يطهروا القلوب، حتى ينالوا مرضاته، ويكونوا أهلاً لكرامته، ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ كلام مستأنف[1]، مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حالهم، والتحذير من موالاتهم، والخطاب فيه لكل من تتأتى منه الرؤية من المؤمنين، وتوجيهه إليه ﷺ هنا مع توجيهه فيما بعد إلى الكل للإيذان بكمال شهرة شناعة حالهم، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها، والرؤية هنا بصرية؛ أي: ألم تنظر أيها المخاطب إلى حال هؤلاء الذين أعطوا حظاً يسيراً من علم التوراة، والمراد بهم أحبار اليهود حال كونهم ﴿يَشْتَرُونَ﴾؛ أي: يختارون لأنفسهم ﴿ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ - وهي البقاء على اليهودية - على الهدى بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة محمد ﷺ، وأنه هو النبي العربي المبشر به في «التوراة» و«الإنجيل»، أو يؤثرون تكذيب محمد ﷺ على تصديقه؛ ليأخذوا الرشا على ذلك، وتحصل لهم الرياسة كما قاله الزجاج، وإنما ذكر بلفظ الشراء لأنه استبدال شيء بشيء ﴿وَ﴾ حالة كونهم ﴿يُرِيدُونَ﴾، ويقصدون بما فعلوا من الكتمان، ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ أيها المؤمنون، وتخطئوا ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي: طريق الحق ودينه الذي لا طريق سواه، كما هم ظنوا، فتكونوا مثلهم، فهم

(١) الفتوحات.

دائبون على الكيد لكم، ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا؛ أي: ويتوصلون إلى إضلال المؤمنين، والتلبيس عليهم لكي يخرجوا عن الإسلام؛ أي: لم يكفهم[1] أن ضلوا في أنفسهم، حتى تعلقت آمالهم بضلالكم أنتم أيها المؤمنون عن سبيل الحق؛ لأنهم علموا أنهم قد خرجوا من الحق إلى الباطل، فكرهوا أن يكون المؤمنون مختصين باتباع الحقِّ، فأرادوا أن تضلوا كما ضلوا هم، كما قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾، وقرأ النخعي: ﴿وتريدون﴾ بالمثناة الفوقية، قيل معناه: وتريدون أيها المؤمنون أن تضلوا السبيل؛ أي: تدعون الصواب في اجتنابهم، وتحسبونهم غير أعداء الله، وقرىء: ﴿أن يضلوا﴾ بالياء وفتح الضاد وكسرها.

والتعبير[2] بالشراء دون الاختيار للإيماء إلى أنهم كانوا فرحين بما عملوا، ظانين أن الخير كل الخير فيما صنعوا، والتعبير بالنصيب يدل على أنهم لم يحفظوا كتابهم كله، إذ هم لم يستظهروه زمن التنزيل كما حفظ «القرآن»، ولم يكتبوا منه نسخاً متعددة في العصر الأول كما فعلنا، حتى إذا ما فقد بعضها، قام مقامه بعض آخر، بل كان عند اليهود نسخةٌ من التوراة، هي التي كبتها موسى عليه السلام ففقدت، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾.

والخلاصة: أنهم لم يأخذوا الكتاب كله، بل تركوا كثيراً من أحكامه لم يعملوا بها، وزادوا عليها، والزيادة فيه كالنقص منه، فالتوراة تنهاهم عن الكذب وإيذاء الناس وأكل الربا، وكانوا يفعلون ذلك، وزاد لهم علماؤهم ورؤساؤهم كثيراً من الأحكام والرسوم الدينية، فتمسكوا بها، وهي ليست من التوراة، ولا مما يعرفونه عن موسى عليه السلام فالذي لم يعملوا به من التوراة قسمان:

أحدهما: ما أضاعوه ونسوه.

وثانيهما: ما حفظوا حكمه، وتركوا العمل به، وهو كثير أيضاً.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾؛ أي: بمن هم أعداؤكم، فأنتم تظنون في المنافقين أنهم منكم، وما هم منكم، فهم يكيدون لكم في الخفاء، ويغشونكم في الجهر، فيبرزون لكم الخديعة في معرض النصيحة، ويظهرون لكم الولاء والرغبة والنصرة، والله أعلم بما في قلوبهم من العدواة والبغضاء، فهو تعالى يعلمكم ما هم عليه، ويخبركم به، وقد أخبركم بعداوتهم لكم، وما يريدون لكم؛ لتكونوا على حذر منهم، ومن مخالطتهم، أو هو أعلم بحالهم ومآل أمرهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وكفاكم الله سبحانه وتعالى عن غيره من جهة كونه ﴿وَلِيًّا﴾ لكم؛ أي: متولياً لأموركم، ومتصرفاً فيها، ومن كان الله وليه فلا يضره أحد. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وكفاكم الله سبحانه وتعالى عن غيره من جهة كونه ﴿نَصِيرًا﴾؛ أي: ناصراً لكم على أعدائكم، فهو تعالى ينصركم عليهم في كل موطن، فثقوا بولايته ونصرته.

أي: فهو[1] سبحانه وتعالى الذي يرشدكم إلى ما فيه خيركم وفلاحكم، وهو الذي ينصركم على أعدائكم، بتوفيقكم لصالح العمل، والهداية لأسباب النصر من الاجتماع والتعاون وسائر الوسائل، التي تؤدي إلى القوة، فلا تطلبوا الولاية من غيره، ولا النصرة من سواه، وعليكم باتباع السنن التي وضعها في هذه الحياة، ومنها: عدم الاستعانة بالأعداء، الذين لا يعملون إلا لمصالحهم الخاصة كاليهود وغيرهم.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ بيان للمراد من الذين أوتوا الكتاب بأنهم يهود ونصارى، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾: وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ جملتان معترضتان بين البيان والمبين، ثم بين المراد من اشترائهم الضلالة بالهدى، فقال: من الذين هادوا ورجعوا عن عبادة العجل قوم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ المذكورة في التوراة ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ أي: عن مواضع تلك الكلم؛ أي: يغيرون الكلم التي أنزل الله في التوراة عن مواضعها وهيأتها، التي ذكرها الله تعالى فيها، كتحريفهم في نعت

(١) المراغي.

النبي ﷺ أسمر ربعة، فوضعوا مكانه آدم طوال، وتحريفهم الرجم فوضعوا بدله الجلد. وقرىء: ﴿يحرفون الكِلْم﴾ بكسر الكاف وسكون اللام جمع كلمة تخفيف الكَلِمْ. وقرأ النخعي، وأبو رجاء: ﴿يحرفون الكلام﴾ وذكر الضمير في مواضعه مع عوده إلى الكلم، حملاً على معنى الكلم؛ لأنها جنس، قاله: العكبري.

فالتحريف يطلق على معنيين(١):

أحدهما: تأويل القول بحمله على غير معناه الذي وضع له، كما يؤولون البشارات التي وردت في النبي ﷺ، ويؤولون ما ورد في المسيح، ويحملونه على شخص آخر، ولا يزالون ينتظرونه إلى اليوم.

وثانيهما: أخذ كلمة أو طائفة من الكلم من موضع من الكتاب ووضعها في موضع آخر، وقد حصل هذا في كتب اليهود، خلطوا ما يؤثر عن موسى بما كتب بعده بزمن طويل، وكذلك ما وقع في كلام غيره من أنبيائهم، واعترف بهذا بعض العلماء من أهل الكتاب، وقد كانوا يقصدون بهذا التحريف الإصلاح في زعمهم، وسبب هذا النوع من التحريف أنه وجدت عندهم قراطيس متفرقة من التوراة، بعد فقد النسخة التي كتبها موسى عليه السلام وأرادوا أن يؤلفوا بينها، فجاء فيها ذلك الخلط بالزيادة والتكرار، كما أثبت ذلك بعض الباحثين من المسلمين.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول هؤلاء اليهود للنبي ﷺ: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: خالفنا غيرك، وذلك أنهم كانوا إذا أمرهم النبي ﷺ بأمر.. قالوا في الظاهر: سمعنا قولك، وعصينا غيرك، وأما في الباطن: سمعنا قولك وخالفنا أمرك، وقيل إنهم كانوا يظهرون هذا القول عناداً واستخفافاً، وقد روي عن مجاهد أنهم قالوا للنبي ﷺ: سمعنا قولك ولكن لا نطيعك، وكذلك كانوا يقولون له: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾؛ أي: ويقولون في أثناء مخاطبة النبي ﷺ خاصة كلاماً ذا وجهين، محتملاً للخير والمدح وللشر والذم، فأما معناه في المدح فإنهم يقولون: واسمع منا كلامنا حالة كونك غير مسمع منا مكروهاً لا يوافقك،

---

(١) المراغي.

وأما معناه في الذم: فإنهم يقولون: واسمع منا كلامنا حالة كونك غير مسمع كلاماً أصلاً لصمم أو موت، وهو دعاء منهم عليه بالموت، أو بذهاب سمعه، أو غير مسمع جواباً يوافقك فكأنك ما أسمعت شيئاً؛ أي: يخاطبون النبي ﷺ استهزاء به، مظهرين للنبي ﷺ إرادة المعنى الأول؛ أعني: الخير وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأخير؛ أعني: الشر والدعاء عليه.

وكذلك كانوا يقولون للنبي ﷺ في أثناء خطابهم له: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ وهي كلمة ذات وجهين، محتملة للخير إذا حملت على معنى اصرف سمعك إلى كلامنا، وأنصت لحديثنا وتفهم، أخذاً من المراعاة بمعنى المحافظة، وللشر إذا حملت على السب بالرعونة والحمق، بمعنى اشملنا وأفدنا رعونتك وحمقك، أو حملت على أنهم يريدون أنك يا محمد ترعى أغناماً لنا، بمعنى كن راعياً أغنامنا.

﴿لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾؛ أي: يقولون ذلك في مخاطبتهم له ﷺ لياً وفتلاً وصرفاً بألسنتهم عن الحق، الذي هو أطعنا واسمع وانظرنا إلى الباطل، الذي هو عصينا، واسمع غير مسمع، وراعنا وطعناً في الدين؛ أي: يقولون ذلك طعناً في دين الإسلام، بقولهم لأصحابهم إنما نشتمه ولا يعرف، ولو كان نبياً لعرف ذلك، فأطلعه الله تعالى على خبيث ضمائرهم، وما في قلوبهم من العداوة والبغضاء؛ أي: يقولون ذلك لصرف الكلام عن نهجه، وللقدح في دين الإسلام بالاستهزاء والسخرية، أو المعنى: هم[1] يلوون ألسنتهم فيجعلونها في الظاهر راعنا، وبلَيِّ اللسان وإمالته ـ راعينا ـ قصداً منهم للسباب والشتم والسخرية، أو جعله راعياً من رعاة الغنم، أو من الرعونة، أو من تحريف اللسان وليِّه في خطابهم النبي ﷺ وتحيته بقولهم: السام ـ الموت ـ عليكم، يوهمون بفتل اللسان وليه أنهم يقولون له: السلام عليكم، وقد ثبت هذا في صحيح الأحاديث، كما ثبت أن النبي ﷺ بعد أن علم منهم ذلك كان يجيبهم بقوله: وعليكم؛ أي: الموت على كل أحد منكم.

قال ابن عطية[2]: وهذا اللي باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

الآن في بني إسرائيل، ويحفظ في عصرنا أمثلة إلا أنه لا يليق ذكرها بهذا الكتاب انتهى. وهو يحكى عن يهود الأندلس، وقد شاهدناهم وشاهدنا يهود ديار مصر على هذه الطريقة، وكأنهم يربون أولادهم الصغار على ذلك، ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين، مما ظاهره التوقير ويريدون التحقير.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ﴾ باللسان أو بالحال عند سماع شيء من أوامر الله تعالى ونواهيه: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك، بدل قولهم سمعنا وعصينا، لعلمهم بصدقك، ولوجود الأدلة والبينات المتظاهرة على ذلك، وكذلك لو قالوا ﴿وَاسْمَعْ﴾ منا ما نقول ﴿وَانظُرْنَا﴾؛ أي: انظر إلينا أو أمهلنا وانتظرنا بمعنى أفهمنا، ولا تعجل علينا حتى نفهم عنك ما تقول، بدل قولهم: واسمع غير مسمع وراعنا، ﴿لَكَانَ﴾ قولهم هذا ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من ذلك السابق عند الله سبحانه وتعالى، ﴿وَأَقْوَمَ﴾؛ أي: أصوب وأعدل مما قالوه، لما فيه من الأدب والفائدة وحسن العاقبة، وقال أبو حيان: والحاصل أنهم لو تبدلوا بالعصيان الطاعة، ومن الطاعة الإيمان بك، واقتصروا على لفظ اسمع، وتبدلوا براعنا قولهم وانظرنا، فعدلوا عن الألفاظ الدالة على عدم الانقياد، والموهمة إلى ما أمروا به، لكان؛ أي: ذلك القول خيراً لهم عند الله تعالى وأقوم؛ أي: أعدل وأصوب، وقرأ أبي: ﴿وأَنْظِرْنَا﴾ من الإنظار وهو الإمهال، ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: خذلهم وطردهم وأبعدهم عن الرحمة والطاعة والهدى، ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: بسبب كفرهم بالله وبمحمد ﷺ بذلك القول وبغيره؛ إذ مضت سنة الله في البشر بأن الكفر يمنع صاحبه من التفكر والتروي والأدب في الخطاب، ويجعله بعيداً من الخير والرحمة، فلا يمتُّ - يصل - إليهما بسبب، ولا يصل إليهما برحم ولا نسب.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: فهم[1] لا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً غير نافع لهم لا يعتد به، فهو لا يصلح عملاً، ولا يطهر نفساً، ولا يرقي عقلاً، ولو كان

---

(١) المراغي.

إيمانهم بنبيهم وكتابهم إيماناً كاملاً.. لهداهم إلى التصديق بمن جاء مصدقاً لما معهم من الكتاب، وبين لهم ما نسوا منه، وما حرفوا فيه، كما جاء بمكارم الأخلاق، والسنن الكاملة في الاجتماع والتشريع، ولو اتبعوه.. كانوا على الهدى والرشاد، وعلى الحق والسداد، وقيل[1]: المعنى لا يؤمنون إلا زماناً قليلاً وهو زمان الاحتضار، فلا ينفعهم الإيمان وقتئذ، وبعضهم جعل قليلاً مستثنى من الهاء في لعنهم؛ أي: إلا نفراً قليلاً، فلا يلعنهم الله لأنهم لم يفعلوا ذلك، بل كانوا مؤمنين كعبد الله بن سلام وأصحابه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: يا أيها اليهود والنصارى، الذين أعطوا «التوراة» و«الإنجيل» ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا﴾؛ أي: صدقوا واتبعوا «القرآن»، الذي نزلنا على عبدنا محمد ﷺ، حالة كون «القرآن» المنزل على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾؛ أي: موافقاً «للتوراة» و«الإنجيل» اللذين معكم، في الدعوة إلى التوحيد، والأمر بالابتعاد عن الشرك، وفي القصص والمواعيد، والأمر بالعدل بين الناس، والنهي عن المعاصي والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، وتلك هي أصول الدين وأركانه، والمقصد الأسمى من إرسال جميع الرسل، ولا خلاف بينهم في ذلك، وإنما الخلاف في التفاصيل، وطرق حمل الناس عليها، وهدايتهم بها، وترقيتهم في معارج الفلاح، بحسب السنن التي وضعها الله تعالى في ارتقاء البشر، بتعاقب الأجيال واختلاف الأزمان.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾؛ أي: من قبل أن نمحو تخطيط صورها، من عين وحاجب وأنف وفم، وقرأ الجمهور: ﴿نَّطۡمِسَ﴾ بكسر الميم، وقرأ أبو رجاء: بضمها وهما لغتان، ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾؛ أي: فنجعلها على هيئة أقفائها؛ أي: آمنوا من قبل أن يحل بكم العقاب، من طمس الوجوه، والرد على الأدبار، أو من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم، التي توجهتم إليها من كيد الإسلام، ونردها خاسرة إلى الوراء، بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وقد كان لهم

(١) المراح.

عند نزول الآية شيء من المكانة والقوة والعلم والمعرفة.

وجعل بعضهم الرد على الأدبار حسياً؛ فقال: نردهم على أدبارهم بالجلاء إلى فلسطين والشام، وهي بلادهم التي جاءوا منها.

وخلاصة المعنى: آمنوا قبل أن نعمي عليكم السبيل، بما نبصِّر المؤمنين شؤونكم، ونغريهم عليكم، فتردوا على أدباركم بأن يكون سعيكم إلى ما ليس بخير لكم.

وقوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ فيه التفات؛ لأن الضمير فيه عائد على أهل الكتاب، والمعنى: يا أهل الكتاب آمنوا من قبل أن نلعنكم ونخذلكم بالمسخ والطرد عن رحمة الله، ﴿كَمَا لَعَنَّآ﴾ وخذلنا وطردنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ الذين اعتدوا بصيد السمك في يوم السبت، بمسخهم قردة وخنازير وطردهم عن رحمة الله تعالى، وقال ابن عطية: المراد بأصحاب السبت أصحاب أيلة الذين اعتدوا في السبت بالصيد، وكانت لعنتهم أن مُسخوا خنازير وقردة انتهى.

والخلاصة: آمنوا بما نزلنا على محمد ﷺ، من قبل أن تقعوا في الخيبة والخذلان، وذهاب العزة باستيلاء المؤمنين عليكم، وإجلائكم من دياركم، كما حدث لطائفة منكم، أو بالهلاك كما وقع بقتل طائفة أخرى وهلاكها، ثم هددهم وتوعدهم بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: قضاؤه بإيقاع شيء ما، كالعذاب واللعنة، أو المغفرة والرحمة، ﴿مَفْعُولًا﴾؛ أي: نافذاً لا محالة، وهذا إخبار عن جريان عادة الله في الأنبياء المتقدمين، أنه تعالى مهما أخبرهم بإنزال العذاب على الكفار فعل ذلك لا محالة.

والخلاصة: أنه يقول لهم: أنتم تعلمون أن وعيد الله للأمم السالفة قد وقع ولا محالة، فاحترسوا وكونوا على حذر من وعيده لكم، فإنه نافذ لا محالة، لا رادَّ لحكمه، ولا ناقض لأمره، فلا يتعذر عليه شيء يريد أن يفعله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: لا يغفر الإشراك والكفر به، سواء كان إشراك الربوبية، أو إشراك الألوهية أي: لا يغفر الإشراك لمن

اتصف به، ومات عليه بلا توبة ولا إيمان، وفي الآية كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد، وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ببيان استحالة المغفرة بدونه.

واعلم(1): أن الشرك بالله ضربان:

١ ـ شرك في الألوهية، وهو الشعور بسلطة وراء الأسباب والسنن الكونية لغير الله تعالى.

٢ ـ شرك في الربوبية، وهو الأخذ بشيء من أحكام الدين بالتحليل والتحريم عن بعض البشر دون الوحي، وهذا ما أشار إليه الكتاب الكريم بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، وقد فسر النبي ﷺ اتخاذهم أرباباً، بطاعتهم واتباعهم في أحكام الحلال والحرام.

وقد سرى الشرك في الألوهية والربوبية إلى بعض المسلمين منذ قرون كثيرة، وفي الآية إيماء إلى تسمية أهل الكتاب بالمشركين، وكأنه يقول لهم: لا يغرنكم انتماؤكم إلى الكتب والأنبياء، وقد هدمتم أساس الدين بالشرك الذي لا يغفره الله تعالى بحال.

والحكمة في عدم مغفرة الشرك أن الدين إنما شرع لتزكية النفوس، وتطهير الأرواح، وترقية العقول، والشرك ينافي كل هذا؛ لأنه منتهى ما تهبط إليه العقول، ومنه تتولد سائر الرذائل، التي تفسد الأفراد والجماعات.

وبالتوحيد يعتق المرء من رق العبودية لأحد من البشر، أو لشيء من الأشياء السماوية أو الأرضية، ويكون حراً كريماً، لا يخضع إلا لمن خضعت لسننه الكائنات، بما أقامه من ربط الأسباب بالمسببات.

والخلاصة: أن أرواح الموحدين تكون راقية، لا تهبط بها الذنوب إلى

---

(١) المراغي.

الحضيض الذي تهوي إليه أرواح المشركين، إذ مهما عمل المشرك من الطيبات.. فإن روحه تبقى مظلمة بالعبودية والخضوع لغير الله، ومهما أذنب الموحدون.. فإن ذنوبهم لا تحيط بأرواحهم، إذ خيرهم يغلب شرهم، ولا يبعد بهم الأمد وهم في غفلة عن ربهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾، فهم يسرعون إلى التوبة، ويتبعون السيئة بالحسنة، حتى يذهب أثرها من النفس، وذلك هو غفرانها.

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾؛ أي: ويغفر سبحانه وتعالى ما دون ذلك الإشراك المذكور في القبح من المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة، عملية كانت أو قولية، تفضلاً منه وإحساناً ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ المغفرة له من عباده الذين أذنبوا ذنباً دون الشرك، ومشيئة الله سبحانه وتعالى تكون على وفق حكمته، وعلى مقتضى سنته في خليقته، وقد جرت سنته بأن لا يغفر الذنوب التي لا يتوب صاحبها ولا يتبعها بالحسنات، التي تزيل آثارها من نفس فاعلها.

وقصارى ذلك: أن الشرك لإفساده للنفوس يترتب عليه العقاب حتماً في الدنيا والآخرة، وما عداه لا يصل إلى درجته في إفساد النفوس، فمغفرته ممكنة تتعلق بها المشيئة الإلهية، فمنه ما يكون تأثيره السيء في النفوس قوياً، ومنه ما يكون ضعيفاً، يغفر بالتأثير بصالح العمل.

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن يجعل لغير الله شركة مع الله سبحانه وتعالى، قيوم السموات والأرض، سواء أكانت الشركة بالإيجاد، أو بالتحليل والتحريم، ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ﴾ واختلق وفعل ﴿إِثۡمًا عَظِيمًا﴾؛ أي: إثما كبيراً عظيم الضرر غير مغفور إن مات عليه، تُستصغر في جنب عظمته جميع الذنوب والآثام، فهو جدير بأن لا يغفر، وما دونه قد يمحى بالغفران.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾؛ أي: ألم تنظر إليهم يا محمد، أو أيها المخاطب استفهام تعجيب؛ أي: إيقاع المخاطب وحمله على التعجب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان، والمراد بهم اليهود والنصارى، الذي يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه؛ أي: انظر واعجب يا محمد، أو أيها المخاطب من حال اليهود والنصارى، الذين يمدحون أنفسهم؛ أي:

تعجب من ادعائهم أنهم أزكياء بررة عند الله تعالى، مع ما هم عليه من الكفر وعظيم الذنب، أو من تكفير ذنوبهم، مع استحالة أن يغفر للكافر شيء من كفره أو معاصيه، وفيه تحذير من إعجاب المرء بنفسه وعمله، ويدخل في الآية كل من زكى نفسه، ووصفها بزيادة العمل والطاعة والتقوى، قال الشوكاني: واختلف[1] المفسرون في المعنى الذي زكوا به أنفسهم، فقال الحسن وقتادة: هو قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وقال الضحاك: هو قولهم: لا ذنوب لنا، ونحن كالأطفال، وقيل: هو قولهم: إن أباءهم يشفعون لهم، وقيل: ثناء بعضهم على بعض، ومعنى التزكية: التطهير والتنزيه، فلا يبعد صدقها على جميع هذه التفاسير وعلى غيرها، واللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق أو بباطل من اليهود وغيرهم.

واعلم[2]: أن تزكية النفس تارة تكون بالعمل الذي يجعلها زاكية طاهرة كثيرة الخير والبركة، بتنمية فضائلها وكمالاتها، ولا يكون ذلك إلا بابتعادها عن الشرور والآثام، التي تعوقها عن الخير، وهذه التزكية محمودة وهي التي عناها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾.

وتارة تكون بالقول بادعاء الكمال والزكاة، وقد اتفق العقلاء على استهجان تزكية المرء نفسه بالقول ولو حقاً، ومصدر هذه التزكية الجهل والغرور، ومن آثار هذه السيئة الاستكبار عن قبول الحق، والانتفاع بالنصح، وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم دعواهم الزكاة والطهارة بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ إضراب عن محذوف تقديره: لا عبرة بتزكيتهم أنفسهم، بأن يقولوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وبأنهم لا يعذبون في النار؛ لأنهم شعب الله المختار، وبتفاخرهم بنسبهم ودينهم، ﴿بَلِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُزَكِّي﴾ ويطهر من الذنوب والرذائل من يشاء تطهيره من عباده، من أيِّ شعب كان، ومن أيِّ قبيلة كانت، فيهديهم إلى صحيح

(١) فتح القدير.

(٢) المراغي.

العقائد، وفاضل الآداب، وصالح الأعمال، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ معطوف على محذوف، تقديره: فهؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم أنفسهم ادعاءً، ولا يظلمون وينقصون شيئاً من الجزاء على أعمالهم السيئة؛ أي: لا يظلمون في ذلك العقاب فتيلاً؛ أي: أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شق النواة، يضرب به المثل في القلة والحقارة، والفتيل في الأصل: الشيء المفتول، وسمي ما في شق النواة بذلك لكونه على هيأته، وقيل: الفتيل: ما تفتله بين أصابعك من وسخ وغيره، ويضرب به المثل في الشيء الحقير الذي لا قيمة له، وقد ضربت العرب المثل في القلة بأربعة أشياء اجتمعت في النواة وهي: الفتيل المذكور، والنقير وهو: النقرة التي في ظهر النواة، والقطمير وهو: القشر الرقيق فوقها، وهذه الثلاثة مذكورة في القرآن، والرابع: اليعروف وهو: ما بين النواة والقمع الذي يكون في رأس الثمرة كالعلاقة بينهما. اهـ. «سمين» فخذلانهم في الدنيا بالعبودية لغيرهم، وفي الآخرة بالعذاب والحرمان، من النعيم المقيم والثواب الجسيم، وما كان ذلك بظلم من الله سبحانه وتعالى لهم، بل كان بنقصان درجات أعمالهم وعجزها عن الصعود بأرواحهم إلى مستوى الرفعة والكرامة، لتزكيتهم إياها بالقول الباطل دون الفعل، فلم تصل بهم نفوسهم إلى مراتب الفوز والفلاح.

وقيل: الضمير[١] في ﴿يظلمون﴾ راجع إلى ﴿من﴾ في: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ باعتبار معناها، والتقدير: يثاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلاً، ولكن لا يساعده مقام الوعيد.

وفي الآية موضعان من العبرة[٢]:

الأول: أن الله يجزى عامل الخير بعمله ولو كان مشركاً؛ لأن لعمله أثراً في نفسه يكون مناط الجزاء، فيخفف عذابه عن عذاب غيره، كما ورد في الأحاديث إن بعض المشركين يخفف عنهم العذاب بعمل لهم، فحاتم الطائي

(١) الجمل.
(٢) المراغي.

بكرمه، وأبو طالب بكفالته النبي ﷺ ونصره إياه، وأبو لهب لعتقه جاريته ثويبة حين بشرته بمولد النبي ﷺ.

الثاني: أن يحذر المسلمون الغررو بدينهم، كما كان أهل الكتاب في عصر التنزيل وما قبله، وأن يبتعدوا عن تزكية أنفسهم بالقول، واحتقار من عداهم من المشركين، وأن يعلموا أن الله لا يحابي في نظم الخليقة أحداً، لا مسلماً ولا يهودياً ولا نصرانياً، ألا ترى أن خاتم النبيين قد شج رأسه، وكسرت سنه، وردي في حفرة، من جراء تقصير عسكره فيما يجب من اتباع أمر القائد، وعدم مخالفته، وأن يهتدوا بكتاب الله وبسنته في الأمم، وأن يتركوا وساوس الدجالين المخرفين، الذين يصرفونهم عن الاهتداء بهدي كتابهم، ويشغلونهم بما لم ينزل الله به عليهم سلطاناً، فإنه ما زال ملكهم وما ذهب عزهم.. إلا بتركهم لهدي دينهم، واتباعهم لأولئك الدجالين المخرفين، الذين جعلوا ما ليس من الدين ديناً لهم من العقائد الزائغة والمذاهب الفاسدة والطرائق المخترعة، كما هو كثير في بعض شعوب المسلمين، الذين أذلهم الاستئمار، وشتتهم الكفار؛ لتهاونهم في دينهم، وتساهلهم في عبادة ربهم.

وقرأ الجمهور(١): ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بفتح الراء، وقرأ السلمي بسكونها إجراء للوصل مجرى الوقف، وقيل: هي لغة قوم لا يكتفون بالجزم بحذف لام الفعل، بل يسكنون بعده عين الفعل، وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ بالياء، وقرأت طائفة: ﴿ولا تظلمون﴾ بتاء الخطاب.

ثم أكد التعجيب من حالهم الذي فهم من الآية السابقة، فقال: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾؛ أي: انظر يا محمد، أو أيها المخاطب، متعجباً إلى حال هؤلاء اليهود، كيف يختلقون على الله الكذب، وينسبونه إليه في قولهم: نحن بررة أزكياء عند الله، ونحن أبناء الله وأحباؤه، وإن الله سبحانه يعاملهم معاملة خاصة بهم، لا كما يعامل سائر عباده، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾؛ أي: وكفى هذا الافتراء والكذب

---

(١) البحر المحيط.

عليه سبحانه وتعالى من جهة كونه: ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ أي: ذنباً ظاهراً، يستحقون به العقوبة الشديدة، والعذاب الأليم الدائم.

أي: إن تزكية النفس والغرور بالدين والجنس مما يبطىء النفس عن نافع العمل، الذي يثاب عليه الناس، وكفى به إثماً ظاهراً، لأنه لا أثر له من حق، ولا سمة عليه من صواب، فاللّه لا يعامل شعباً معاملة خاصة تغاير سننه التي وضعها في الخليقة، وما مصدر هذه الدعوى إلا الغرور والجهل، وكفى بذلك شراً مستطيراً، ويدخل في مفهوم هذه الآية ما وقع في بعض بلدان المسلمين، لبعض أولاد العلماء والصالحين، الذين يتساهلون في دينهم، ويستخدمون الناس، فلا يصلّون الصلوات الخمس، ويفعلون المحرّمات، ويقولون للعوام: نحن سادة أبناء سادة، وأولياء أبناء أولياء، تطوى لنا الأرض، ونصلي في مكة، ويختلطون مع الأجانب، ويذكرون أذكاراً شيطانية، ويخبرون عن المغيبات، ويذبحون أموال الناس للجن، ويأخذونها منهم غصباً، فما هؤلاء إلا طواغيت ومردة، فهم أشد ضرراً على المسلمين من اليهود والنصارى، فيا لها مصيبة ابتلي بها المسلمون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ هذا تعجيب من حالهم، بعد التعجيب الأول، وأجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت في اليهود، وسبب نزولها كما مر[1]: أن كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وجماعة معهما، جاؤوا مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا، وقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمد، فقال كعب: ماذا يقول محمد؟ قالوا: يأمرنا بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك، قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت، نسقي الحاج، ونقري الضيف، ونفك العاني، وذكروا أفعالهم، فقال: أنتم أهدى سبيلاً، قاله ابن عباس.

---

(١) البحر المحيط.

أي: ألم تنظر يا محمد ـ أو أيها المخاطب ـ متعجباً إلى حال هؤلاء اليهود، الذين أعطوا حظاً قليلاً من علم «التوراة»، يؤمنون ويسجدون للجبت، والأصنام والطاغوت والشيطان، الجبت: اسم للأصنام، والطاغوت: شياطين الأصنام، ولكل صنم شيطان يعبر فيها ويكلم الناس، فيغترُّون بذلك، وقيل الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر، وقيل غير ذلك.

والخلاصة: ألم تنظر إلى حال هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، كيف حرموا هدايته، وهداية العقل والفطرة، وآمنوا بالدجل والخرافات، وصدقوا بالأصنام والأوثان، ونصروا أهلها من المشركين على المؤمنين المصدقين بنبوة أنبيائهم، والمعترفين بحقية كتبهم، ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب؛ أي: اليهود، ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وبمحمد ﷺ؛ أي: في حق الذين كفروا وشأنهم، يعني كفار مكة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: كفار مكة أبو سفيان وأصحابه؛ أي: أنتم يا هؤلاء ﴿أَهْدَىٰ﴾؛ أي: أصوب ديناً وأقوم طريقاً ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ؛ أي: أنتم أهدى من محمد وأصحابه، وذكرهم بلفظ الإيمان ليس من قبل القائلين بل من جهة الله تعالى، تعريفاً لهم بالوصف الجميل، وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح.

أي: يقولون: إن المشركين أرشد طريقة في الدين من المؤمنين، الذين اتبعوا محمداً ﷺ، ثم بين عاقبة أمرهم وشديد نكالهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ القائلون: إن عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله تعالى، هم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى؛ أي: طردهم الله تعالى، وأبعدهم عن رحمته، ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: ومن يطرده الله تعالى، ويبعده عن رحمته، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾؛ أي: لن تجد له أيها المخاطب ناصراً ينصره ويدفع عنه العذاب في الدنيا والآخرة، فهو تأكيد لما قبله.

والخلاصة: أولئك القائلون هم[1] الذين اقتضت سنن الله في خلقه أن

---

(١) المراغي.

يكونوا بعيدين عن رحمته، مطرودين من فضله وجوده، ومن يبعده الله تعالى من رحمته فلن ينصره أحد من دونه، إذ لا سبيل لأحد إلى تغيير سننه تعالى في خليقته، وهو قد جعل الخذلان نصيب من يؤمنون بالجبت والطاغوت؛ إذ هم قد جاوزوا سنن الفطرة، واتبعوا الخرافات والأوهام؛ لأنه إنما ينصر المؤمنين باجتنابهم ذلك، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم انتقل من توبيخهم على الإيمان بالجبت والطاغوت، وتفضيلهم المشركين على المؤمنين، إلى توبيخهم على البخل والأثرة، وطمعهم في أن يعود إليهم الملك في آخر الزمان، وأنه سيخرج منهم من يجدد ملكهم ودولتهم، ويدعو إلى دينهم، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ وخصت هذه الأشياء الحقيرة المذكورة بقوله: فتيلاً في قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وهنا بقوله: ﴿نَقِيرًا﴾ لوفاق النظير من الفواصل، ذكره أبو حيان. و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ بمعنى بل التي للاضراب الإبطالي، وهمزة الإنكار؛ لأن الكلام إنكار على اليهود، وإبطال لقولهم: نحن أولى بالملك والنبوة، فكيف نتبع العرب، وتكذيب لهم في زعمهم أن الملك يعود إليهم في آخر الزمان، فيخرج منهم من يجدد ملكهم ودولتهم، و﴿إِذًا﴾ في قوله: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ﴾ حرف جواب وجزاء لشرط مقدر، ورُفع الفعل بعدها، وإن كان مرجوحاً عند النحاة، لأن القراءة سنة متبعة، والفاء: للسببية الجزائية لذلك الشرط المحذوف. وقرىء - شاذاً على الأرجح -: بحذف النون، فقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: بل ألهم نصيب من الملك، يعني ليس لليهود ملك، ولو كان لهم ملك.. إذاً لم يؤتوا أحداً شيئاً لشدة حرصهم وبخلهم؛ أي: إنهم لا حظ لهم من الملك، إذ هم فقدوه بظلمهم وطغيانهم، وإيمانهم بالجبت والطاغوت.

والمعنى[1]: ليس لهم من الملك شيء البتة، ولو كان لليهود نصيب منه، فيتسبب عن ذلك أنهم لا يعطون واحداً من الناس قدر ما يملأ النقير، وهو النقرة

---

(١) مراح.

التي على ظهر النواة، التي تنبت منها النخلة، وهذا بيان لعدم استحقاقهم له، بل لاستحقاقهم الحرمان منه؛ بسبب أنهم من البخل والدناءة بحيث لو أوتوا شيئاً من ذلك.. لما أعطوا الناس من أقل القليل، ومن حق من أوتي الملك أن يؤثر الغير بشيء منه، فالله تعالى وصفهم في هذه الآية بالبخل، ووصفهم بالجهل في الآية المتقدمة، ووصفهم بالحسد في الآية الآتية، وهذه الخصال كلها مذمومة، فكيف يدعون الملك وهي حاصلة فيهم.

والخلاصة[1]: أن اليهود ذوو أثرة وشح، يشق عليهم أن ينتفع بهم غير اليهودي، فإذا صار لهم ملك.. حرصوا على منع الناس أدنى النفع وأحقره، ومن كانت هذه حاله حرص أشد الحرص على أن لا يظهر نبي من العرب، يكون لأصحابه ملك يخضع لهم فيه بنو إسرائيل، ولا تزال هذه حالهم إلى اليوم، فإن تم لهم ما يسعون إليه من إعادة ملكهم إلى بيت المقدس وما حوله.. فإنهم يطردون المسلمين والنصارى من تلك الأرض المقدسة، ولا يعطونهم منها نقيراً، ولكن هل يعود الملك كما يريدون، ليس في الآية ما يثبت ذلك، ولا ما ينفيه، وإنما الذي فيها بيان طباعهم فيه لو حصل.

وقرأ عبد الله بن مسعود وابن عباس ﴿فإذاً لا يؤتوا﴾ بحذف النون على إعمال إذاً. ثم انتقل من توبيخهم بالبخل إلى توبيخهم بالحسد، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وأم هنا بمعنى همزة الإنكار، وبل التي للإضراب الانتقالي[2]؛ لأنه انتقل من توبيخهم بما سبق إلى توبيخهم بالحسد الذي هو شر الرذائل وأقبحها؛ أي: بل أتريد اليهود أن يحسدوا الناس؛ أي: محمداً ﷺ وأصحابه على ما آتاهم الله تعالى؛ أي: على العطاء الذي أعطاهم إياه من النبوة والكتاب، وازدياد العز والنصر يوماً فيوماً، وكثرة النساء له ﷺ، وكانت له يومئذ تسع نسوة، فقالت اليهود: لو كان محمد نبياً.. لشغله أمر النبوة

(١) المراغي.

(٢) الجمل.

عن الاهتمام بأمر النساء، حالة كون ذلك العطاء ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تعليل للإنكار المفهوم من الاستفهام المضمن للهمزة المقدرة؛ أي: لا ينبغي لهم الحسد لمحمد وأصحابه، فإن حسدهم المذكور في غاية القبح والبطلان، لأنا قد آتينا وأعطينا من قبل محمد ﷺ آل إبراهيم، الذين هم أنبياء أسلافهم، وأبناء أعمام لمحمد ﷺ، ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوة؛ أي: أعطينا بعض آل إبراهيم الكتاب والنبوة، كموسى وعيسى وداود عليهم السلام، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: وأعطينا بعضهم الآخر ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره مع النبوة، كداود وسليمان ويوسف عليهم السلام، فكان لداود مئة امرأة مهرية، ولسليمان سبع مئة سرية، وثلاث مئة امرأة مهرية، وهؤلاء الثلاثة كانوا في بني إسرائيل، ولم يشغلهم أمر النبوة عن أمر الملك والنساء، فهم يعلمون بما آتيناهم، فلم يحسدوهم، وليس ما آتينا محمداً وأصحابه ببدع حتى يحسدوهم على ذلك، فلأي شيء يخصصون محمداً ﷺ بالحسد، دون غيره ممن أنعم الله عليهم من آل إبراهيم؟

والخلاصة: أنهم إن يحسدوه على ما أوتي.. فقد أخطؤوا؛ إذ ليس هذا ببدع منا؛ لأنا قد آتينا مثل هذا من قبل لآل إبراهيم، والعرب منهم فإنهم من ذرية إسماعيل ولده، فلم لم تعجبوا مما أوتي آل إبراهيم، وتعجبون مما أوتي محمد ﷺ؟ ولم لا يكون مستبعداً في حق هؤلاء، وكان مستبعداً في حق محمد ﷺ؟ وقوله: ﴿مُّلْكًا﴾ قال الرازي: الملك إما ظاهراً وباطناً وهو: ملك الأنبياء، وإما ظاهراً فقط وهو: ملك السلاطين، وإما باطناً فقط وهو: ملك العلماء، والثلاثة كلها موجودة في بني إسرائيل. وفي الآية[1] رمز إلى أنه سيكون للمسلمين ملك عظيم يتبع النبوة والحكمة، وقد ظهرت تباشيره عند نزول الآية بالمدينة، فقد قويت شوكتهم وأخذ أمرهم يعظم رويداً رويداً.

والحاصل: أن اليهود إما مغرورون مخدوعون، يظنون أن فضل الله لا

(١) المراغي.

يعدوهم ورحمته تضيق بغيرهم، وإما حاسبون أن ملك الكون في أيديهم، فهم لا يعطون أحداً منه ولو حقيراً كالنقير، وإما حاسدون للعرب على ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك، الذي ظهرت مبادؤه ومقدماته، ﴿فَمِنْهُم﴾؛ أي: فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم ﴿مَّنْ ءَامَنَ﴾، وصدق ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بما أوتي آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾؛ أي: من أعرض عن الإيمان بما أوتي آل إبراهيم، وكفر به، وأنت يا محمد لا تتعجب مما عليه هؤلاء القوم الحاسدون، فإن أحوال جميع الأمم مع جميع الأنبياء هكذا كانت، وهذا تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ، ليكون أشد صبراً على ما يناله من قبلهم من الأذى والجحود والإنكار، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن جبير وعكرمة وابن يعمر والجحدري: ﴿ومنهم من صُد عنه﴾ بضم الصاد مبنياً للمفعول، وقرأ أبي وأبو الحوراء وأبو رجاء والحوفي: بكسر الصاد مبنياً للمفعول، والمضاعف المدغم الثلاثي يجوز فيه إذا بنى للمفعول ما جاز في باع إذا بني للمفعول، فتقول: حُب زيد بضم الحاء، وحِب بكسرها، ويجوز الإشمام فيه أيضاً، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ﴾؛ أي: وكفى هؤلاء الكفار المتقدمين والمتأخرين عذاب جهنم، من جهة كونها ﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مسعرة متقدمة عليهم في الآخرة.

والمعنى: إن نصرف عنهم بعض العذاب في الدنيا.. فكفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم في العقبى؛ لأنهم آثروا اتباع الباطل والعمل بما يزين لهم الشيطان، ولا يزال ذلك دأبهم حتى يرديهم في دار الشقاء والنكال، وهي جهنم وبئس القرار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: إن الذين جحدوا ما أنزلت على رسولي محمد ﷺ، من آياتي الدالة على توحيدي، وصدق رسولي محمد ﷺ، ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ﴾ وندخلهم ﴿نَارٗا﴾ مسعرة تشويهم، وتحرق أجسامهم، حتى تفقدها الحس والإدراك. وقرأ حميد: ﴿نَصليهم﴾ بفتح النون من صليت، وقرأ سلام ويعقوب: ﴿نصليهُم﴾ بضم الهاء، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ﴾ واحترقت ﴿جُلُودُهُم﴾ وأجسامهم وفقدت التماسك الحيوي وبعدت عن الحس والحياة، ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾؛ أي:

بدلناهم جلوداً أخرى جديدة حية تشعر بالألم وتحس بالعذاب، بأن يجعل النضيج غير النضيج، فالذات واحدة، والمتبدل هو الصفة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع» متفق عليه.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر ـ أو قال: ناب الكافر ـ مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام»، رواه مسلم. ثم بين السبب في التبدل فقال: ﴿لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: لكي يجدوا ألم العذاب، ويدوم لهم ذوق العذاب، لأن الإحساس يصل إلى النفس بواسطة الألم في الجلد.

وفي التعبير بـ﴿يذوقوا﴾ إيماء إلى أن إحساسهم بذلك العذاب يكون كإحساس الذائق المذوق، لا يدخل فيه نقصان ولا زوال بسبب ذلك الاحتراق.

قال الدكتور عبد العزيز[1] بن إسماعيل باشا رحمه الله تعالى في كتابه «الإسلام والطب الحديث»: والحكمة في تبديل جلود الكفار أن أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية: فالإحساس فيها ضعيف، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً، بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة؛ لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألماً كثيراً، فالله تعالى يقول لنا إن النار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب.. نجدده كي يستمر الألم بلا انقطاع، ويذوقوا العذاب الأليم، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان، وكان الله عزيزاً حكيماً انتهى.

ثم أكد سابق الكلام وبين علته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَزِيزًا﴾؛ أي: قادراً غالباً لا يمتنع عليه شيء مما يريده مما توعد به أو وعد، ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: لا يفعل إلا الصواب، فيعاقب من يعاقبه على وفق حكمته، ومن حكمته أن ربط الأسباب بالمسببات، فلا يستطيع أحد أن يغلبه على أمره،

(١) المراغي.

فيبطل اطرادها، فهو كما جعل الكفر والمعاصي سبباً للعذاب كما تقدم في الآية.. جعل الإيمان والعمل الصالح سبباً للنعيم، وذلك ما بينه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما جاء به محمد ﷺ، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: امتثلوا المأمورات، واجتنبوا المنهيات. ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: تسيل من تحت أشجارها، وبين قصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من الماء، واللبن والخمر والعسل، حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: مقدرين الخلود في تلك الجنات ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: مدة لا نهاية لها ولا انقضاء؛ لأن نعيم الجنة لا ينقطع كعذاب النار، وإنما عبر هنا بالسين في قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، وفي الكفار بسوف في قوله: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾.. إشعاراً بقصر مدة التنفيس على سبيل تقريب الخير من المؤمن وتبشيره به، وهذا الكلام راجع إلى قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ لف ونشر مشوش على حد قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ على عادته تعالى من ذكر الوعيد مع الوعد وعكسه.

والمعنى: أن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله سيدخلون جنات يتمتعون بنعيمها العظيم كفاء ما أخبتوا إلى ربهم، وقدموا من عمل صالح؛ لأن الإيمان وحده لا يكفي لتزكية النفس وإعدادها لهذا الجزاء، بل لا بد معه من عمل صالح يشعر به المرء بالقرب من ربه، والشعور بهيبته وجلاله، ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾؛ أي: لهم في تلك الجنات أزواج مبرآت من العيوب الجسمانية، كالحيض والنفاس مثلاً، ومن العيوب الخلقية، فليس فيهن ما يوحشهم منهن، ولا ما يكدر صفوهم، وبذا تكمل سعادتهم، ويتم سرورهم في تلك الحياة، التي لا نعرف كنهها، وإنما نفهمها على طريق التمثيل وقياس الغائب على الشاهد، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾؛ أي: ظلاً كثيفاً كنيناً، لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم، ولا تنسخه شمس، أو المعنى: ونجعلهم في مكان لا حر فيه ولا قر، وفي ذلك إيماء إلى تمام النعمة والتمتع لهم برغد العيش، وكمال الرفاهية، فإن قلت[1]: إذا لم يكن في الجنة شمس يؤذي حرها، فما فائدة وصفها بالظل الظليل؟

---

(١) الخازن.

قلتُ: إنما خاطبهم بما يعقلون ويعرفون؛ وذلك لأن بلاد العرب في غاية الحرارة، فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة واللذاذة، فهو كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، ويقال: إن أوقات الجنة كلها سواء اعتدالاً لا حر فيها ولا برد.

وقرأ النخعي[١] وابن وثاب: ﴿سيدخلهم﴾ بالياء، وكذا ﴿ويدخلهم ظلاً﴾ فمن قرأ بالنون وهم الجمهور.. لاحظ قوله في وعيد الكفار: ﴿سوف نصليهم﴾، ومن قرأ بالياء.. لاحظ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، فأجراه على الغيبة.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التعجبي، ﴿لم ترَ﴾ فعل وجازم، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، أو على النبي ﷺ، ورأى هنا بصرية، تتعدى إلى مفعول واحد، وذلك الواحد عدت إليه بـ﴿إِلَى﴾ لأنها ضمنت معنى النظر، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ﴿تَرَ﴾ متعلق به. ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول ثان، والجملة صلة الموصول، ﴿مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبًا﴾، ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿أُوتُوا۟﴾، أو من الموصول. ﴿وَيُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَشْتَرُونَ﴾. ﴿أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يُرِيدُونَ﴾؛ أي: ويريدون ضلالتكم السبيل.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين البيان الذي هو قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، وبين المبين الذين هو قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾. ﴿وَكَفَىٰ﴾: الواو عاطفة، ﴿كفى بالله﴾: فعل وفاعل والباء زائدة. ﴿وَلِيّٗا﴾: منصوب على التمييز أو حال، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ على كونها معترضة. ﴿وَكَفَىٰ﴾: الواو عاطفة. ﴿كفى بالله﴾: فعل وفاعل. ﴿نَصِيرٗا﴾: تمييز أو حال، والجملة معطوفة على كونها معترضة. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لمبتدأ محذوف، تقديره: من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم. ﴿هَادُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، والجملة صفة لمبتدأ محذوف، تقديره: قوم محرفون الكلم عن مواضعه كائن من الذين هادوا، والجملة في محل الجر بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾، وقوله: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا﴾: مقول محكي لـ﴿يقولون﴾ منصوب به، وإن شئت قلت: ﴿سَمِعۡنَا﴾: فعل وفاعل والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾، وكذلك جملة: ﴿وَعَصَيۡنَا﴾: معطوف عليه، ﴿وَٱسۡمَعۡ﴾: الواو عاطفة. ﴿اسمع﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سَمِعۡنَا﴾، ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾: حال ومضاف إليه، أعني: حالاً من فاعل ﴿اسمع﴾، ومفعول ﴿اسمع﴾، محذوف تقديره: اسمع منا كلامنا، وكذلك المفعول الثاني لـ﴿مسمع﴾ محذوف تقديره: غير مسمع مكروهاً، ﴿وَرَٰعِنَا﴾: الواو عاطفة. ﴿راعنا﴾: فعل أمر ومفعول به

مجزوم بحذف حرف العلة؛ لأنه من راعى يراعي مراعاة بمعنى راقبه وحفظه، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سَمِعْنَا﴾. ﴿لَيًّا﴾: مفعول لأجله لـ﴿يقولون﴾، أو منصوب على الحالية من فاعل ﴿يقولون﴾، ولكن بعد تأويله بمشتق تقديره: حالة كونكم لاوين ألسنتكم، ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿لَيًّا﴾، ﴿وَطَعْنًا﴾: معطوف على ﴿ليـًّا﴾. ﴿فِي الدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿طعناً﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ﴿أنَّ﴾ حرف نصب ومصدر، والهاء اسمها. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ تقديره: قائلون، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لفعل محذوف هو فعل الشرط لـ﴿لو﴾، تقديره: ولو ثبت قولهم؛ لأن ﴿لو﴾ الشرطية لا يليها إلا الفعل. ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، وكذلك جملة ﴿وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾: معطوفات على ﴿سَمِعْنَا﴾، ﴿لَكَانَ﴾: اللام رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية. ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على القول الثاني، ﴿خَيْرًا﴾: خبر كان، وجملة كان جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾، ﴿وَأَقْوَمَ﴾: معطوف على ﴿خَيْرًا﴾. ﴿وَلَكِنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لكن﴾ حرف استدراك، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب، ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿لعن﴾، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع؛ لكون ما قبلها علة لما بعدها، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَعَنَهُمُ﴾، على كونها جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿قَلِيلًا﴾:

مستثنى من واو ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ منصوب، وعلى اعتبار قول البعض: (قليلاً منهم): جار ومجرور صفة لـ﴿قَلِيلًا﴾، وفي هذا[1] الوجه أنه كان المختار حينئذ الرفع على حد قول ابن مالك:

ما اَستثنَتِ (إلاَّ) مَعْ تَمَامٍ يَنتَصِبْ   وَبَعْدَ نَفْيٍ أَوْ كَنَفْيٍ اَنتُخِبْ
إِتْباعُ مَا اتَّصَلَ وَاَنصِبْ ما اَنْقَطَعْ   وَعَنْ تَمِيْمٍ فِيْهِ إِبْدَالٌ وَقَعْ

وبعضهم جعله مستثنى من ضمير ﴿لَّعَنَهُمُ﴾، وبعضهم جعله صفة لمصدر محذوف؛ أي: إلا إيماناً قليلاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء؛ أي: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء مستأنفة، ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل ومفعول ثان، والجملة صلة الموصول، ﴿ءَامِنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامِنُوا۟﴾، ﴿نَزَّلْنَا﴾: فعل وفاعل والمفعول محذوف تقديره نزلناه، وهو العائد على ما الموصولة، والجملة صلة لما أو صفة لها، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من ما الموصولة أو من الضمير المحذوف، ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾، ﴿مَعَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لما أو صفة لها، ﴿مِّن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿أَن نَّطْمِسَ﴾: ناصب وفعل مضارع منصوب وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿وُجُوهًا﴾: مفعول به والجملة الفعلية في تأويل مصدر مضاف إليه لـ﴿قَبْلِ﴾، تقديره آمنوا من قبل طمسنا وجوهاً منكم، ﴿فَنَرُدَّهَا﴾: الفاء عاطفة، ﴿نردها﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿نَّطْمِسَ﴾، تقديره فردّنا إياها، ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نرد﴾، ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾: فعل

---

(١) الجمل.

ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿نَّطْمِسَ﴾، ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾ حرف جر، ﴿ما﴾ مصدرية. ﴿لَعَنَّآ﴾: فعل وفاعل، ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة ما المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كلعننا أصحاب السبت، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نلعن﴾، ﴿وَكَانَ﴾: الواو استئنافية، ﴿كان أمر الله﴾: فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، ﴿مَفْعُولًا﴾: خبرها والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَغْفِرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿أَن يُشْرَكَ﴾: ناصب وفعل مغير، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إن الله لا يغفر الإشراك به. ﴿وَيَغْفِرُ﴾: الواو استئنافية، ﴿يَغْفِرُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَغْفِرُ﴾، ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يغفر﴾، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والمفعول محذوف، تقديره لمن يشاء غفرانه، والجملة صلة من الموصولة. ﴿وَمَن﴾: الواو استئنافية. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُشْرِكْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُشْرِكْ﴾، ﴿فَقَدِ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ وجوباً؛ لكون الجواب مقروناً بـ﴿قد﴾، ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿إِثْمًا﴾: مفعول

﴿ٱفۡتَرَىٰٓ﴾، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿أَلَمۡ﴾: الهمزة للاستفهام التعجبي. ﴿لم تر﴾: فعل مضارع وجازم، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَ﴾، ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿بَلِ﴾ حرف للإضراب الإبطالي، أضرب به على محذوف تقديره ولا عبرة بتزكيتهم أنفسهم بل الله يزكي من يشاء، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يُزَكِّي﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾: والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ذلك المحذوف، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والمفعول محذوف تقديره من يشاء تزكيته، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَلَا﴾: الواو عاطفة أو استئنافية، ﴿لا﴾ نافية. ﴿يُظۡلَمُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿فَتِيلًا﴾: مفعول ثان أو صفة لمصدر محذوف تقديره: ظلماً قدر فتيل، والجملة الفعلية إما معطوفة على محذوف تقديره: فيعاقبون ولا يظلمون فتيلاً أو مستأنفة.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿ٱنظُرۡ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على كل مخاطب، والجملة مستأنفة، ﴿كَيۡفَ﴾: اسم للاستفهام التعجبي في محل النصب بـ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، ونصبه إما على التشبيه بالحال كما هو مذهب سيبويه، أو على التشبيه بالظرف كما هو مذهب الأخفش، ﴿يَفۡتَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مفعول ﴿ٱنظُرۡ﴾، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، ﴿ٱلۡكَذِبَۖ﴾: مفعول ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾: فعل وفاعل، والباء زائدة والجملة مستأنفة، ﴿إِثۡمًا﴾: منصوب على التمييز أو على الحال، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ

﴿كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: الهمزة للاستفهام التعجبي، ﴿لم تر﴾: جازم وفعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، أو على المخاطب، والجملة جملة إنشائية مستأنفة. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَ﴾، ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا﴾: فعل ونائب فاعل ومفعول ثان، والجملة صلة الموصول، ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: صفة لـ﴿نَصِيبًا﴾. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿أُوتُواْ﴾، ﴿بِٱلۡجِبۡتِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: معطوف على الجبت. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾: مقول محكي لـ﴿يقولون﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول يقولون، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَهۡدَىٰ﴾، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، ﴿سَبِيلًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ أعني هؤلاء منصوب باسم التفضيل أعني ﴿أَهۡدَىٰ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما، ﴿يَلۡعَنِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بمن على كونه فعل الشرط لها، والمفعول محذوف تقديره يلعنه، ﴿فَلَن﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب مقروناً بـ﴿لن﴾ ﴿لن تجد﴾ فعل وناصب وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على المخاطب، والجملة في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور في محل النصب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿تَجِدَ﴾، ﴿نَصِيرًا﴾: مفعول أول له.

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾.

﴿أَمۡ﴾: منقطعة بمعنى همزة الإنكار وبل التي للإضراب الإبطالي أو الانتقالي، لما في الكلام من الانتقال من ذمهم بتزكيتهم أنفسهم، إلى ذمهم بادعائهم نصيباً من الملك، وبخلهم المفرط وشحهم البالغ، ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿نَصِيبٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة أو معطوفة[1] على محذوف، تقديره: أهم أولى بالنبوة ممن أرسلته، أم لهم نصيب من الملك؟ فإذن لا يؤتون الناس نقيراً، ﴿مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبٞ﴾، ﴿فَإِذٗا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة سببية، ﴿إذا﴾: حرف جواب ملغاة هنا غير عاملة لدخول فاء العطف عليها، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿نَقِيرًا﴾: مفعول ثان. والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية؛ أعني قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب لشرط محذوف تقديره: إن كان لهم نصيب من الملك.. فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً، ﴿إذاً﴾: حرف نصب وجواب، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يُؤۡتُونَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿إذاً﴾، وعلامة نصبه حذف النون الثابتة تبعاً للقراءة؛ لأن القراءة سنة متبعة، بدليل حذفها في القراءة الشاذة، و﴿الواو﴾ فاعل، وجملة الشرط المقدر مستأنفة.

﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾.

﴿أَمۡ﴾: منقطعة أيضاً، بمعنى همزة الإنكار وبل التي للإضراب الانتقالي، ﴿يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَىٰ مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَحۡسُدُونَ﴾، ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره إياه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المحذوف. ﴿فَقَدۡ﴾: ﴿الفاء﴾ تعليلية.

---

(١) الشوكاني.

﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ءَاتَيۡنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: مفعول أول ومضاف إليه، ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية، تقديره: ولا ينبغي لهم الحسد؛ لأنا قد آتينا آل إبراهيم فلم يحسدوهم، فلم حسدوا محمداً ﷺ، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مُّلۡكًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ الأول.

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٥٥﴾.

﴿فَمِنۡهُم﴾: ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع وفي الفتوحات قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ﴾ تفريع[1]، على أصل القصة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا﴾ انتهى. ويصح أن يقال: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أمرنا لهم بالإيمان بما نزلنا، وأردت بيان حالهم بعد ذلك.. فأقول لك: ﴿مِنۡهُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَنۡ﴾:اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنۡ﴾، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿وَمِنۡهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى، ﴿صَدَّ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنۡ﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿عَنۡهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿صَدَّ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ﴾: فعل وفاعل والباء زائدة، ﴿سَعِيرًا﴾: تمييز أو حال والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

(١) الجمل.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَفَرُوا﴾، ﴿سَوْفَ﴾: حرف تنفيس، ﴿نُصْلِيهِمْ﴾: فعل ومفعول أول، ﴿نَارًا﴾: مفعول ثان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿كُلَّمَا﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية مبني على السكون لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلق بالجواب، ﴿نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿جُلُودًا﴾: مفعول ثان، ﴿غَيْرَهَا﴾: ﴿غير﴾ صفة لـ﴿جُلُودًا﴾؛ لأنه بمعنى المغايرة، و﴿الهاء﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية جواب ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَآ﴾ مستأنفة، ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وجملة أن المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي، تقديره لذوقهم العذاب، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿عَزِيزًا﴾: خبر أول لها، ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾: فعل ومفعولان وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ولكنها سببية. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ضمير المفعول في ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، ﴿فِيهَا﴾: جار

ومجرور متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿أَبَدًا﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، و﴿أَبَدًا﴾ ظرف مستغرق للزمان المستقبل إلى ما لا نهاية له، فليس المراد بالخلود طول المكث.

﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

﴿لَّهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿أَزْوَٰجٌ﴾، وجوز مجيء الحال من النكرة تقدمها عليها. ﴿أَزْوَٰجٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: صفة لـ﴿أَزْوَٰجٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال ثانية من ضمير ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، أو صفة ثانية لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، ﴿ظَلِيلًا﴾: صفة مؤكدة لـ﴿ظَلِيلًا﴾، كـ: ليلٍ أليل ويوم أيوم وداهية دهياء، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: النصيب الحصة من الشيء والحظ، يقال: هذا نصيبي؛ أي: حظي، كأنه الشيء الذي رفع لك وأهدف لك، ويقال: ضرب فلان بنصيب؛ أي: فاز، ومنه اليانصيب عند المولدين، يجمع على أنصبة وأنصباء ونصب ذكره في «المنجد»، ﴿راعنا﴾: إما بمعنى أرقبنا وانظرنا نكلمك، من راعى يراعي مراعاة، بمعنى راقبه وحفظه، وإما بمعنى كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها وهي راعينا، من الرعونة: وهي الحمق وقلة العقل، ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾؛ أي: فتلاً بها، وصرفاً للكلام عن ظاهره إلى نسبة السب إليه.

وأصل ليّاً: لوياً من لوى يلوي لوياً، كـ: رمى يرمي رمياً، فقلبت الواو ياء فأدغمت الياء في الياء، فصار ليّاً مثل طي؛ لأنه مصدر طوى يطوي، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾: وصيغة التفضيل في خيراً وأقوم إما على بابها، واعتبار[1] أصل

(١) أبو السعود.

الفعل في المفضل عليه بناء على اعتقادهم، أو بطريق التهكم، وإما بمعنى اسم الفاعل، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾: أصل الطمس[١] محو الآثار وإزالة الأعلام بمحوها أو بإخفائها، كما تطمس آثار الدار وأعلام الطرق إما بأن تنقل حجارتها وإما بأن تسفوها الرياح، ومنه الطمس على الأموال في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾؛ أي: أزلها وأهلكها والطمس على الأعين في قوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ إما بإزالة نورها، وإما بمحو حدقتها، وفعله من باب فعل المفتوح، وفي مضارعه وجهان: الضم يقال: طمس يطمس طمساً وطموساً من باب نصر، والكسر: طمس يطمِس طمساً من باب ضرب، والوجه[٢]: تارة يراد به الوجه المعروف، وتارة وجه النفس وهو ما تتوجه إليه من المقاصد، كما قال تعالى: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾، وقال: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾، والأدبار: جمع دبر وهو الخلف والقفا.

﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ يقال: افترى فلان الكذب ـ من باب افتعل ـ إذا اعتمله واختلقه، وأصله من الفري بمعنى القطع، يقال: فرى عليه الكذب ـ من باب رمى ـ فرياً وفرية إذا اختلقه عليه من عند نفسه، قال الراغب: الإثم والآثام اسم للأفعال المبطئة عن الثواب؛ أي: عن الخيرات التي يثاب المرء عليها، وقد يطلق الإثم على ما كان ضاراً انتهى. ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾: من زكّى الرباعي مزيد زكى بمعنى طهر ونما، يقال: زكى نفسه يزكي تزكية إذا مدحها، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ والظلم النقص، والفتيل ما يكون في شق نواة التمر مثل الخيط، وبه يضرب المثل في الشيء الحقير، كما يضرب بمثقال ذرة، فهو فعيل بمعنى مفعول.

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الجبت أصله الجبس[٣]، وهو: الرديء الذي لا خير فيه، ويراد به هنا الأوهام والخرافات والدجل، والطاغوت: ما تكون

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

عبادته والإيمان به سبباً للطغيان والخروج من الحق، من مخلوق يعبد، ورئيس يقلد، وهوى يتبع.

﴿نَقِيرًا﴾: والنقير: النقرة التي في ظهر النواة، ومنها تنبت النخلة، يضرب بها المثل في الشيء الحقير التافه، كما يضرب المثل بالقطمير، وهو: القشرة الرقيقة التي تكون على النواة بينها وبين التمرة.

﴿يَحْسُدُونَ﴾ يقال: حسد فلان فلاناً ـ من باب نصر ـ إذا تمنى زوال نعمته عنه، فالحسد تمني زوال النعمة عن صاحبها المستحق لها، ﴿النَّاسَ﴾: والناس هنا محمد ﷺ ومن آمن معه.

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: والفضل: النبوة والكرامة في الدين والدنيا، ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الكتاب: العلم بظاهر الشريعة، والحكمة: العلم بالأسرار المودعة فيها، ﴿مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ يقال: صد عن الشيء إذا أعرض عنه، وهو من المضاعف اللازم، الذي جاء بالوجهين في مضارعه: الكسر على القياس، والضم على الشذوذ، كما قال ابن مالك في «لامية الأفعال»:

قَسَّتْ كذا وَعِ وَجْهَيْ صَدَّ أَثَّ وخَرْ   رَ الصَّلْدُ حَدَّتْ وثَرَّتْ جَدَّ مَنْ عَمِلا

يقال: صد عن الشيء يصد بالكسر على القياس، ويصد بالضم على الشذوذ صدوداً، إذا أعرض عنه، كما بسطنا الكلام عليه في شرحنا «مناهل الرجال على لامية الأفعال»، ﴿سَعِيرًا﴾: فعيل بمعنى مفعلة؛ أي: مسعرة، يقال: نار مسعرة؛ أي: موقدة، ويقال: أوقدت النار وأسعرتها إذا صيرتها موقدة.

﴿كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جمع آية، والمراد بالآيات[1]: الأدلة التي ترشد إلى أن هذا الدين حق، ومن أجلها القرآن؛ لأنه أول الدلائل، وأظهر الآيات وأوضحها، والكفر بها يعم إنكارها، والغفلة عن النظر فيها، وإلقاء الشبهات والشكوك، مع العلم بصحتها عناداً وحسداً ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ من أصلاه بالنار إصلاء إذا شواه بها، يقال: شاة مصلية؛ أي: مشوية، فهو بضم النون من باب

---

(١) المراغي.

أفعل الرباعي، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾؛ أي: احترقت وتهرأت وتلاشت، من قولهم: نضج الثمر واللحم ـ من باب فرح ـ نضجاً، إذا أدركا وطاب أكلهما، فهو ناضج ونضيج، واستنضج الكراع؛ أي: يد الشاة إذا طبخه، ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ يقال: ذاق الشيء يذوق ـ من باب قال ـ إذا أدركه بحاسة الذوق، والمعنى هنا؛ أي: ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع، كما تقول للعزيز: أعزك الله؛ أي: أدام لك العز وزادك فيه، ﴿كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ العزيز فعيل بمعنى فاعل، وهو القادر الغالب على أمره، لا يعجزه عنه شيء، والحكيم هو المدبر للأشياء وفق الحكمة والصواب، ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: اسم مفعول لمؤنث، من طهر المضعف؛ أي: منقاة من العيوب والأدناس الحسية والمعنوية، ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: وصف الظل بالظليل للمبالغة والتأكيد في المعنى، كقولهم ليل أليل ويوم أيوم؛ أي: ظلاً وارفاً لا يصيب صاحبه حرٌّ ولا سموم، ودائم لا تنسخه الشمس، وقد يعبر بالظل عن العز والمنعة والرفاهية، فيقال: السلطان ظل الله في أرضه، ولما كانت بلاد العرب غاية في الحرارة.. كان الظل عندهم أعظم أسباب الراحة، وكان ذلك عندهم رمزاً للنعيم المقيم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع(١):

منها: الاستفهام الذي يراد به التعجب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في الموضعين.

ومنها: التعجب بلفظ االأمر في قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ إذا فسر بالرسول محمد ﷺ، من باب ذكر الخاص باسم العام إشارة إلى أنه جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين، على حد قول القائل: أنت الناس كل الناس أيها الرجل، وقول الآخر:

وَلَيْسَ عَلَىٰ ٱللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِيْ وَاحِدِ

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الخطاب العام الذي أريد به الخاص في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ وهو دعاء الرسول ﷺ ابن صوريا، وكعباً وغيرهما من الأحبار إلى الإيمان حسب ما في سبب النزول.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ وفي قوله: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أطلق اسم الذوق الذي هو مختص بحاسة اللسان وسقف الحلق على وصول الألم للقلب، وفي قوله: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾؛ لأن أصل اللَّيِّ فتل الحبل، فاستعير الكلام الذي قصد به غير ظاهره، وفي قوله: ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ وهو عبارة عن مسخ الوجوه تشبيهاً بالصحيفة المطموسة التي عميت سطورها وأشكلت حروفها.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾، والوجه ضد القفا، وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفي قوله: ﴿مَّنْ ءَامَنَ﴾ و﴿مَّن صَدَّ﴾ وهذا طباق معنوي.

ومنها: الاستطراد في قوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَغْفِرُ﴾، وفي: لفظ الجلالة، وفي: لفظ الناس، وفي: ﴿آتينا﴾ ﴿وآتيناهم﴾، وفي قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾، وفي قوله: ﴿جُلُودُهُم﴾ ﴿وجلودا﴾، وفي: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ ﴿وَنُدْخِلُهُمْ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ﴾، وفي قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ﴾ ﴿وَيَغْفِرُ﴾، وفي قوله: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿لَّا يُؤْتُونَ﴾ ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾، وفي قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾ ﴿وآمنوا أهدى﴾.

ومنها: تلوين الخطاب في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾ أقام المضارع مقام الماض، إعلاماً أنهم مستمرون على ذلك.

ومنها: الاستفهام الذي معناه التوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾، وفي: ﴿أم يحسدون﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ عرض بشدة بخلهم.

ومنها: إقامة المنكَّر مقام المعرَّف لملاحظة الشيوع والكثرة في قوله: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾.

ومنها: الإطناب في مواضع.

ومنها: الحذف في مواضع

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه[1] لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة الأجر العظيم للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكان من أجلِّ تلك الأعمال أداء

---

(١) المراغي.

الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس لا جرم.. أمر بهما في هذه الآية.

وقال أبو حيان[1]: مناسبة هذه الآية لما قبلها هو: أنه تعالى لما ذكر وعد المؤمنين، وذكر عمل الصالحات.. نبه على هذين العملين الشريفين، اللذين من اتصف بهما كان أحرى أن يتصف بغيرهما من الأعمال الصالحة:

فأحدهما: ما يختص به الإنسان فيما بينه وبين غيره وهو أداء الأمانة، التي عرضت على السموات والأرض، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

والثاني: ما يكون بين اثنين من الفصل بينهما بالحكم العدل الخالي عن الهوى، وهو من الأعمال العظيمة التي أمر الله بها رسله وأنبياءه والمؤمنين، ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بحال غيره.. أمر بأداء الأمانة أولاً، ثم بعده بالأمر بالحكم بالحق انتهى.

وفي «الفتوحات» قوله تعالى[2]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ خطاب للمكلفين قاطبة، وهذه الآية مناسبة ومرتبطة بقوله سابقاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ...﴾ إلخ، وذلك أن اليهود كانوا يعرفون الحق وأوصاف النبي ﷺ المذكورة في «التوراة»، وهي أمانة عندهم، ومع ذلك كتموها وأنكروها، وقالوا لأهل مكة أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه، فلما خانوا في هذه الأمانة الخاصة.. أمر الله تعالى عموم المكلفين بأداء جميع الأمانات بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ...﴾ إلخ، تأمل انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ..﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه لما أمر الولاة أن يحكموا بالعدل.. أمر الرعية بطاعتهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ..﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما

(١) البحر المحيط.

(٢) الجمل.

أوجب في الآية السالفة على جميع المؤمنين طاعة الله وطاعة الرسول.. ذكر في هذه الآية أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول، ولا يرضون بحكمه، بل يريدون حكم غيره.

وعبارة أبي حيان[1]: مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنه تعالى لما أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر.. ذكر أنه يعجب بعد ورود هذا الأمر من حال من يدعي الإيمان، ويريد أن يتحاكم إلى الطاغوت، ويترك الرسول انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما[2]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أوجب فيما سلف طاعة الله وطاعة الرسول، وشنَّع على من رغب عن التحاكم إلى الرسول، وآثر عليه التحاكم إلى الطاغوت.. ذكر هنا ما هو كالدليل على استحقاق الرسول للطاعة، وعلى استحقاق المنافقين الذين لم يقبلوا التحاكم للمقت والخذلان؛ لأنهم لم يرضوا بحكم الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين فيما سلف أن الإيمان لا يتم إلا بتحكيم الرسول فيما شجر بينهم من خلاف مع التسليم والانقياد لحكمه.. ذكر هنا قصور كثير من الناس في ذلك؛ لوهن إسلامهم وضعف إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: لما أمر الله سبحانه وتعالى فيما سلف بطاعته وطاعة الرسول، ثم شنع على الذين تحاكموا إلى الطاغوت، وصدوا عن الرسول، ثم رغب في تلك الطاعة بقوله: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾.. حث على الطاعة، وشوق إليها بذكر مزاياها، وبيان حسن عواقبها، وأنها منتهى ما تصل إليه الهمم، وأرفع ما تشرئب إليه الأعناق.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا. . .﴾ الآية، سبب نزولها[١]: ما رواه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة.. دعا عثمان بن طلحة، فلما أتاه قال: «أرني المفتاح» مفتاح الكعبة ـ فأتاه به، فلما بسط يده إليه.. قام العباس فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي اجمعه لي مع السقاية، فكف عثمان يده، فقال رسول الله ﷺ: «هات المفتاح يا عثمان»، فقال: هاك أمانة الله، فقام ففتح الكعبة، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم نزل عليه جبريل برد المفتاح، فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ حتى فرغ من الآية، وفي رواية زيادة: وأسلم عثمان، وقال الرسول ﷺ: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة، لا يأخذها منكم إلا ظالم». وقيل[٢]: نزلت عامة، وهو مروي عن أبي وابن عباس والحسن وقتادة.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية الحديث، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه.

وقد أخرج ابن جرير[٣]: أنها نزلت في قصة جرت لعمار بن ياسر مع خالد بن الوليد، وكان خالد أميراً فأجار عمار رجلاً بغير أمره، فتخاصما فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ. . .﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما

---

(١) لباب النقول.

(٢) البحر المحيط.

(٣) لباب النقول.

يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا...﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال: كان الجلاس بن الصامت، ومتعب بن قشير، ورافع بن زيد، وبشر يدَّعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعوهم إلى الكهان حكام الجاهلية، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودي أحاكمك إلى أهل دينك، أو قال: إلى النبي؛ لأنه قد علم أنه لا يأخذ الرشوة في الحكم، واتفقا على أن يأتيا كاهناً في جهينة فنزلت.

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه الأئمة الستة عن عبد الله بن الزبير قال: خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في شراج الحرة، فقال ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك»، فقال الأنصاري: يا رسول الله أن كان ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير ثم احبس الماء، حتى يرجع إلى الجدار، ثم أرسل الماء إلى جارك»، واستوعب للزبير حقه، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: ما حسبت هذه الآيات إلا نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾.

وأخرج الطبراني في «الكبير»، والحميدي في «مسنده» عن أم سلمة رضي الله عنهما قالت: خاصم الزبير رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فقضى للزبير فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته، فنزلت: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ...﴾ الآية.

---

(١) لباب النقول.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ...﴾ الآية، قال: أنزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة، اختصما في ماء فقضى النبي ﷺ أن يسقي الأعلى ثم الأسفل.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الأسود قال: اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ، فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب فأتيا إليه فقال الرجل: قضى لي رسول الله ﷺ على هذا، فقال: ردنا إلى عمر، فقال: أكذاك قال؟ قال: نعم، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضي بينكما، فخرج إليهما مشتملاً على سيفه، فضرب الذي قال: ردنا إلى عمر، فأنزل الله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآية، وهذا مرسل غريب في إسناده ابن لهيعة.

وأخرج ابن جرير عن السدي قال: لما نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ ...﴾ الآية، افتخر ثابت بن شماس ورجل من اليهود، فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم، فقتلنا أنفسنا، فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ...﴾ الآية، سبب نزولها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه بسند لا بأس به عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك.. عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يردَّ النبي ﷺ شيئاً حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق قال: قال أصحاب[1] محمد ﷺ: يا

---

(١) لباب النقول.

رسول الله، ما ينبغي أن نفارقك فإنك لو قدْ مِتَّ لرفعت فوقنا، ولم نرك، فأنزل الله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ. . .﴾ الآية.

وأخرج عن عكرمة قال: أتى فتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، إن لنا منك نظرة في الدنيا، ويوم القيامة لا نراك فإنك في الجنة في الدرجات العلى، فأنزل الله هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «أنت معي في الجنة إن شاء الله» وأخرج ابن جرير نحوه من مرسل سعيد بن جبير ومسروق والربيع وقتادة والسدي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ أيها المكلفون، ﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾ وتسلموا ﴿ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾ التي إئتمنتم عليها ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ ومستحقيها، وتردوها إليهم فوراً، لما حكى الله سبحانه وتعالى عن أهل الكتاب أنهم كتموا الحق حيث قالوا للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. . أمر المؤمنين في هذه الآية بأداء الأمانات في جميع الأمور، سواء كانت تلك الأمور من باب المذاهب والديانات، أو من باب الدنيا والمعاملات؛ لأن الآية وإن نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة كما مر، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقرىء: ﴿أن تؤدوا الأمانة﴾ بالإفراد، كما ذكره أبو حيان.

والأمانة على ثلاثة أنواع(١):

الأول: أمانة العبد مع ربه، وهي ما عهد إليه حفظه من الائتمار بما أمره به، والانتهاء عما نهاه عنه، واستعمال مشاعره وجوارحه فيما ينفعه ويقربه من ربه، وقد ورد في الأثر: «إن المعاصي كلها خيانة لله عز وجل».

والثاني: أمانة العبد مع الناس، ومن ذلك رد الودائع إلى أربابها، وعدم الغش وحفظ السر ونحو ذلك، مما يجب للأهل والأقربين وعامة الناس والحكام. ويدخل في ذلك عدل الأمراء مع الرعية، وعدل العلماء مع العوام،

---

(١) المراغي.

بأن يرشدوهم إلى اعتقادات وأعمال تنفعهم في دنياهم وأخراهم، من أمور التربية الحسنة وكسب الحلال، ومن المواعظ والأحكام التي تقوي إيمانهم، وتنقذهم من الشرور والآثام، وترغبهم في الخير والإحسان، وعدل الرجل مع زوجه بأن لا يفشي أحد الزوجين سراً للآخر، ولا سيما السر الذي يختص بهما، ولا يطلع عليه عادة غيرهما.

والثالث: أمانة الإنسان مع نفسه؛ بأن لا يختار لنفسه إلا ما هو الأصلح والأنفع له في الدين والدنيا، وأن لا يقدم على عمل يضره في آخرته أو دنياه، ويتوقى أسباب الأمراض والأوبئة بقدر معرفته، وما يعرف من الأطباء، وذلك يحتاج إلى معرفة علم الصحة ولا سيما في أوقات انتشار الأمراض والأوبئة.

فكل هذه الأنواع داخلة في الأمانة التي أمر الله سبحانه وتعالى بأدائها إلى أهلها.

وروى البغوي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قلما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

﴿و﴾ إن الله سبحانه وتعالى يأمركم ﴿إذا حكمتم بين الناس﴾ إذا أردتم الحكم بين الناس ﴿أَن تَحۡكُمُواْ﴾ بينهم ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾؛ أي: بالحكم الذي شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على لسان نبيه محمد ﷺ. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمٰن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». أخرجه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأدناهم عنده مجلساً، إمام عادل. وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر». أخرجه الترمذي.

والحكم بين الناس له طرق منها: الولاية العامة والقضاء وتحكيم المتخاصمين لشخص في قضية خاصة. والحكم بالعدل يحتاج إلى أمور:

الأول: فَهْم الدعوى من المدعي، والجواب من المدعى عليه؛ ليعرف موضع التنازع والتخاصم بأدلته من الخصمين.

والثاني: خلو الحاكم من التحيز والميل إلى أحد الخصمين.

والثالث: معرفة الحاكم الحكم الذي شرعه الله تعالى؛ ليفصل بين الناس على مثاله من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة.

والرابع: تولية القادرين على القيام بأعباء الأحكام.

وقد أمر المسلمون بالعدل في الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ثم بَيَّن حسن العدل وأداء الأمانة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾؛ أي: نعم الشيء الذي يعظكم به، والمخصوص بالمدح أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس؛ إذ لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة. قرأ الجمهور بكسر النون إتباعاً لحركة العين؛ لأن أصله: نعم على وزن شهد، وقرأ بعض القراء بفتح النون على الأصل، وقرأ أبو عمرو بكسر النون وسكون العين.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ سَمِيعًا﴾ لكل المسموعات، يسمع ذلك الحكم إذا حكمتم بالعدل، ﴿بَصِيرًا﴾ لكل المبصرات، يبصركم إذا أديتم الأمانة، فيجازيكم على ما يصدر منكم.

والمعنى: فعليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه، فإنه أعلم منكم بالمسموعات والمبصرات، فإذا حكمتم بالعدل.. فهو سميع لذلك الحكم، وإن أديتم الأمانة.. فهو بصير بذلك، فيجازيكم على كل الأفعال والأقوال، وفي هذا وعد عظيم للمطيع ووعيد شديد للعاصي.

وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه.. فإنه يراك» متفق عليه. وفيه أيضاً إيماء إلى الاهتمام بحكم القضاة والولاة؛ لأنه قد فوض إليهم النظر في مصالح العباد، وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بأداء

الأمانات إلى أهلها، وبالحكم بين الناس بالعدل، مخاطباً بذلك جميع الأمة، أمر بطاعة الله وطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر، إذ لا تقوم المصالح العامة إلا بذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ واعملوا بكتابه فيما أمر به ونهى عنه، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ، واعملوا بسنته، فقد جرت سنة الله تعالى بأن يبلغ عنه شرعه رسل منا تكفل بعصمتهم، وأوجب علينا طاعتهم، ﴿و﴾ أطيعوا ﴿أولي الأمر﴾؛ أي: أصحاب أمر الأمة ومتولي شؤونهم بالأمر والنهي لهم حالة كونهم كائنين ﴿مِنكُمۡۖ﴾ أيها المؤمنون، وهم[1] الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند، وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه، بشرط أن يكونوا أمناء، وأن لا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله، التي عرفت بالتواتر، وأن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر واتفاقهم عليه، وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الديني: فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد، بل إنما يؤخذ عن الله ورسوله فحسب، وليس لأحد رأي فيه إلا ما يكون في فهمه، فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا أجمعوا على أمر من مصالح الأمة ليس فيه نص عن الشارع، وكانوا مختارين في ذلك، غير مكرهين بقوة أحد ولا نفوذه.. فطاعتهم واجبة، كما فعل عمر - رضي الله عنه - حين استشار أهل الرأي من الصحابة في اتخاذ الديوان الذي أنشأه، وفي غيره من المصالح التي أحدثها برأي أولي الأمر من الصحابة، ولم تكن في زمن النبي ﷺ، ولم يعترض عليه أحد من علمائهم في ذلك.

وقال الشوكاني[2]: وأولو الأمر هم الأئمة والسلاطين والقضاة، وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية، والمراد طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه، ما لم تكن معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد

---

(١) المراغي.
(٢) فتح القدير.

أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني». متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره، إلا أن يؤمر بمعصية الله، فإن أمر بمعصية الله.. فلا سمع ولا طاعة». متفق عليه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله» رواه البخاري.

وقال العلماء[(١)]: طاعة الإمام واجبة على الرعية ما دام على الحق، فإذا زال عن الكتاب والسنة.. فلا طاعة له، وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق.

﴿فَإِن تَنَزَعْتُمْ﴾؛ أي: فإن اختلفتم[(٢)] أيها المجتهدون ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من أمور دينكم، غير مذكور حكمه في الكتاب والسنة والإجماع ﴿فَرُدُّوهُ﴾؛ أي: فأرجعوا ذلك الشيء ﴿إِلَى﴾ كتاب ﴿اللَّهِ﴾ تعالى، ﴿وَ﴾ إلى ﴿الرسول﴾ محمد ﷺ، في حياته وإلى سنته المأثورة عنه بعد وفاته.

أي: فقيسوا ذلك الشيء المتنازع فيه على واقعة منصوص عليها في الكتاب والسنة، تشبهه في الصدرة، أي: في هيئة الصدور والوقوع والصفة، ويؤيد هذا[(٣)] المعنى الخبر والأثر:

أما الخبر: فهو أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن قُبلة الصائم فقال ﷺ «أرأيت لو تمضمضت»، والمعنى: أخبرني هل تبطل المضمضة الصوم أم لا؟، أي: فكما أن المضمضة مقدمة للأكل، فكذا القبلة مقدمة للجماع، فإذا كانت المضمضة لا تفسد الصوم.. فكذلك القبلة، ولما سألته ﷺ الخثعمية عن الحج عن أبيها.. قال: «أرأيت لو كان على أبيك دين، فقضيته عنه.. هل يجزىء ذلك

---

(١) الخازن.
(٢) المراح.
(٣) المراح.

عنه»؟ قالت: نعم قال: «فدين الله أحق بالقضاء».

وأما الأثر: فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: اعرف الأشباه والنظائر، وقس الأمور برأيك. فدل مجموع ما ذكر على أن قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ﴾ أمر برد الشيء المتنازع فيه إلى شبيهه، وهذا هو الذي يسميه الشافعي رحمه الله تعالى: قياس الأشباه، ويسميه أكثر الفقهاء: قياس الطرد.

وفي هذه الآية[1]: إشارة إلى أدلة الفقه الأربعة، فقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى الكتاب. وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ إشارة إلى السنة. وقوله: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ إشارة إلى الإجماع. وقوله ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ. . .﴾ إلخ إشارة إلى القياس.

وعبارة المراغي هنا قوله[2]: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ أي: فإذا لم يوجد نص على الحكم في الكتاب ولا في السنة. . ينظر أولو الأمر فيه؛ لأنهم هم الذين يوثق بهم، فإذا اتفقوا وأجمعوا. . وجب العمل بما أجمعوا عليه، وإن اختلفوا وتنازعوا. . وجب عرض ذلك على الكتاب والسنة وما فيهما من القواعد العامة، فما كان موافقاً لهما علم أنه صالح لنا ووجب الأخذ به، وما كان مخالفاً لهما علم أنه غير صالح ووجب تركه، وبذا يزول التنازع وتجتمع الكلمة، وهذا الرد واستنباط الفصل في الخلاف من القواعد هو الذي يعبر عنه بالقياس، والأول هو الإجماع الذي يعتد به.

ومما تقدم تعلم أن الآية مبينة لأصول الدين في الحكومة الإسلامية، وهي أربعة:

الأصل الأول: القرآن الكريم، والعمل به هو طاعة الله تعالى.

والأصل الثاني: سنة رسول الله ﷺ والعمل بها طاعة الرسول ﷺ.

والأصل الثالث: إجماع أولي الأمر، وهم أهل الحل والعقد، الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء في الجيش والمصالح العامة كالتجار والصناع

---

(١) صاوي. (٢) المراغي.

والزراع ورؤساء العمال والأحزاب ومديري الصحف ورؤساء تحريرها، وطاعتهم هي طاعة أولي الأمر.

والأصل الرابع: عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة المعلومة في الكتاب والسنة، وذلك قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فهذه الأربعة الأصول هي مصادر الشريعة، ولا بد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة، ممن يختارهم أولو الأمر من علماء هذا الشأن، ويجب على الحكام الحكم بما يقرونه، وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين:

الأولى: الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن الهيئة التشريعية.

والجماعة الثانية: جماعة الحاكمين والمنفذين وهم الذين يسمون الهيئة التنفيذية. وعلى الأمة أن تقبل هذه الأحكام وتخضع لها سراً وجهراً، وهي بذلك لا تكون خاضعة لأحد من البشر؛ لأنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى، أو حكم رسوله ﷺ بإذنه، أو حكم نفسها الذي استنبطه لها جماعة أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من أفرادها، الذين وثقت بإخلاصهم، وعدم اتفاقهم إلا على ما هو الأصلح لها.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ شرط جوابه محذوف معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم أيها المؤمنون تصدقون بوحدانية الله وبمجيء اليوم الآخر.. فردوا الشيء المتنازع فيه إلى الله ورسوله، بعرضه على الكتاب والسنة، فإن المؤمن لا يقدم شيئاً على حكم الله، كما أنه يهتم باليوم الآخر أشد من اهتمامه بحظوظ الدنيا، وفي هذا دليل على أن من لم يقدم اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظه.. فإنه لا يكون مؤمناً حقاً.

وفي «الخازن» قال العلماء: في الآية دليل على أن من لا يعتقد وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ومتابعة السنة والحكم بالأحاديث الواردة عن النبي ﷺ لا يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر انتهى.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: رد الشيء المتنازع فيه إلى الله ورسوله ﴿خَيۡرٞ﴾ لكم من

التنازع والقول بالرأي، بالنظر إلى مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿وَأَحۡسَنُ﴾ لكم ﴿تَأۡوِيلًا﴾؛ أي: مالاً وعاقبة ومرجعاً وأجراً في الآخرة؛ لأنه أقوى الأسس في حكومتكم، والله أعلم منكم بما هو الخير لكم، ومن ثم لم يشرع لكم في كتابه وعلى لسان رسوله إلا ما فيه مصالحكم ومنافعكم، وما هو أحسن عاقبة؛ لما فيه من قطع عرق التنازع وسد ذرائع الفتن. والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ استفهام تعجيب للمخاطب؛ أي: ألم تنظر يا محمد أو أيها المخاطب ﴿إِلَى﴾ عجيب أمر هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾؛ أي: يدعون ويقولون بأفواههم قولاً كذباً؛ لأن الزعم مطية الكذب، ﴿أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ من «القرآن» ﴿و﴾ بـ﴿ما أنزل من قبلك﴾ على الأنبياء من «التوراة» و«الإنجيل»، ومع ذلك الزعم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾ ويترافعوا ﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ أي: إلى الشخص الكثير الطغيان، الذي هو أبو برزة الأسلمي، أو كعب بن الأشرف، على الخلاف في سبب نزولها طلباً للحكم منه ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿قد أمروا﴾ في «القرآن» ﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: بالطاغوت قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾، وقال أيضاً: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾.

والمعنى: انظر أيها المخاطب إلى عجيب أمر هؤلاء الذين يزعمون الإيمان بك وبمن قبلك من الرسل، ويأتون بما ينافي الإيمان، إذ الإيمان الصحيح بكتب الله ورسله يقتضي العمل بما شرعه الله تعالى على ألسنة أولئك الرسل، وترك العمل مع الاستطاعة دليل على أن الإيمان غير راسخ في نفس مدعيه، فكيف إذا عمل بضد ما شرعه الله، فهؤلاء المنافقون إذا هربوا من التحاكم إليك، وقبلوا التحاكم إلى مصدر الطغيان والضلال، من أولئك الكهنة والمشعوذين[1]، سواء أكان أبا برزة الأسلمي أم كعب بن الأشرف.. فحالهم هذا دليل على أن الإيمان ليس له أثر في نفوسهم، بل هي كلمات يقولونها بأفواههم، لا تعبر عما تلجلج

---

(١) **المشعوذين**: من الشعوذة، وهي خفة في اليد وأعمال كالسحر، تري الشيء للعين على غير ما هو عليه اهـ.

في صدورهم، وكيف يزعمون بالإيمان بك، وكتابك المنزل عليك يأمرهم بالكفر بالجبت والطاغوت في آيات كثيرة كما مرت، وهم يتحاكمون إليه؟ فألسنتهم تدعي الإيمان بالله وبما أنزله على رسله، وأفعالهم تدل على كفرهم بالله وإيمانهم بالطاغوت وإيثارهم لحكمه.

ويدخل في هؤلاء كل من يتحاكم إلى الدجالين، كالعرافين وأصحاب المندل[١] والرمل من أولياء الشياطين المخرفين الضالين المضلين.

وفي الآية إيماء إلى أن من رد شيئاً من أوامر الله أو أوامر الرسول ﷺ.. فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك، أو من جهة التمرد والعناد. وقرأ الجمهور: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ﴾ مبنياً للمفعول. وقرىء مبنياً للفاعل فيهما، وقرأ عباس بن الفضل ﴿أن يكفروا بها﴾ بهاء التأنيث على أن الطاغوت جمع، كقوله تعالى: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾ وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عطف[٢] على يريدون، داخل في حكم التعجيب؛ أي: ويريد الشيطان ﴿أَن يُضِلَّهُمْ﴾ ويبعدهم عن طريق الحق والهدى ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ أي: إضلالاً بالغاً النهاية، وأن يجعل بينهم وبين الحق مسافة بعيدة فهم لشدة بعدهم عن الحق لا يهتدون إلى الطريق الموصلة إليه.

والخلاصة: أن الواجب على المسلمين أن لا يقبلوا قول أحد، ولا يعملوا برأيه في شيء له حكم في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وما لا حكم له فيهما فالعمل فيه برأي أولي الأمر؛ لأنه أقرب إلى المصلحة.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ...﴾ الآية، تكملة[٣] لمادة التعجيب، ببيان

---

(١) **المندل**: عند أصحاب التعزيم نوع من الرقى، وهو أن يخط المعزم دائرة على الأرض يجلسون داخلها إذا أرادوا دعوة الأرواح واستعلامها أمراً من الأمور، سموا أصحاب المندل لتبخيرهم المندل الذي هو نوع من الطيب الهندي عند إحضارهم الأرواح الذين هم نوع من الجن اهـ.

(٢) أبو السعود.

(٣) أبو السعود.

إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى كتاب الله ورسوله، إثر بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت؛ أي: وإذا قيل لأولئك الزاعمين للإيمان الذين يريدون التحاكم إلى الطاغوت ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ وأقبلوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في «القرآن» لنعمل به، ونحكمه فيما بيننا ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، ليحكم بيننا بما أراه الله تعالى ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾؛ أي: رأيت يا محمد هؤلاء المنافقين الزاعمين للإيمان، وأبصرتهم حال كونهم يعرضون عن حكمك إعراضاً كلياً متعمداً منهم، فذكر المصدر للتأكيد، وهذه الآية مؤكدة لما دلت عليه الآية التي قبلها، من نفاق هؤلاء الذين يرغبون عن حكم الله وحكم رسوله إلى حكم الطاغوت من أصحاب الأهواء؛ لأن حكم الرسول لا يكون إلا حقاً متى بينت الدعوى على وجهها، وأما حكم غيره بشريعته فقد يقع فيه الخطأ، بجهل القاضي بالحكم، أو بجهل تطبيقه على الدعوى، وهي أيضاً دالة على أن من أعرض عن حكم الله متعمداً ولا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به، فإنه يكون منافقاً لا يعتقد ما يزعمه من الإيمان، ولا ما يدعيه من الإسلام.

وقرأ الحسن ﴿تعالوا﴾ بضم اللام على أنه حذف منه لام الفعل اعتباطاً بل تخفيفاً، ثم ضم اللام لمناسبة واو الضمير بناء على أن أصله ﴿تعاليوا﴾ من تعاليت، والوجه فتح اللام كقراءة الجمهور. والاستفهام في قوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ للتعجب؛ أي: فكيف حال هؤلاء المنافقين، أو كيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة من مصائب الدنيا والآخرة، ووقعت عليهم بلية وعقوبة لا يقدرون على دفعها، وقيل المصيبة: هي قتل عمر ذلك المنافق، ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ أي: بسبب ما عملته واقترفته أيديهم من الإعراض عن حكمك والتحاكم إلى غيرك، وأطلعك الله على شأنهم في إعراضهم عن حكم الله، وتبين أن عملهم يكذب دعواهم الإيمان، ﴿ثُمَّ﴾ اضطروا إلى الرجوع إليك لتكشف عنهم ما نزل بهم من المصيبة، و﴿جَآءُوكَ﴾ معتذرين عن صدودهم حالة كونهم ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يقسمون باسم الله تعالى، قائلين والله ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾؛ أي: ما قصدنا بالتحاكم إلى غيرك إلا إحساناً وإصلاحاً في معاملتنا، لا إساءة بك، وإلا توفيقاً بين الخصمين وقطعاً للمنازعة بينهما، لا مخالفة لك في

حكمك، وقيل: جاء[1] أولياء المنافق الذي قتله عمر، يطلبون عمر بدمه، وقد أهدره الله تعالى، يحلفون بالله كذباً للاعتذار قائلين ما أراد صاحبنا المقتول بالتحاكم إلى عمر إلا أن يصلح، ويجعل الاتفاق بينه وبين خصمه، ويأمر كل واحد من الخصمين بتقريب مراده إلى مراد صاحبه، حتى يحصل بينهما الموافقة، وما خطر ببالنا أنه يقتل صاحبنا، وأنت يا رسول الله لا تحكم إلا الحق المر، ولا يقدر أحد على رفع الصوت عندك، وفي الآية وعيد شديد لهم على ما فعلوا، وأنهم سيندمون حين لا ينفعهم الندم، ويعتذرون حين لا يقبل منهم الاعتذار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنافقون الموصوفون بالصفات السابقة، هم ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ من النفاق والغيظ والعداوة، وهذا الكلام من الأسلوب الذي يستعمل فيما يعظم من خير أو شر، مسرة أو حزن، فيقول الرجل لمن يحبه، ويحفظ وده: الله يعلم ما في نفسي لك؛ أي: إنه لكثرته وقوته لا يقدر على معرفته إلا الله تعالى، ويقول في العدو الماكر المخادع: الله يعلم ما في قلبه؛ أي: إن ما في قلبه من الخبث والخديعة بلغ حداً كبيراً لا يعلمه إلا علام الغيوب.

فالمعنى هنا: إنَّ ما في قلوبهم من الكفر والحقد والكيد، وتربص الدوائر بالمؤمنين، بلغ من الفظاعة مقداراً لا يحيط به إلا من يعلم السر وأخفى، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تُقبل[2] عليهم بالبشاشة والتكريم؛ إذ هذا يحدث في نفوسهم الهواجس والخوف من سوء العاقبة، وهم لم يكونوا على يقين من أسباب كفرهم ونفاقهم، وكانوا يحذرون أن تنزل عليه سورة تنبئهم بما في قلوبهم، وإذا استمر هذا الإعراض عنهم.. ظنوا الظنون، وقالوا: لعله عرف ما في نفوسنا، لعله يريد أن يؤاخذنا بما في بواطننا، وقيل[3]: معنى ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: لا تقبل منهم ذلك العذر والحلف، ولا تظهر لهم أنك عالم بكنه ما في بواطنهم، فإن من هتك ستر عدوه.. فربما يجرئه ذلك على أن لا يبالي بإظهار العداوة،

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.

فيزداد الشر، وإذا تركه على حاله.. بقي في وجل فيقل الشر ﴿وَعِظْهُمْ﴾؛ أي: وازجرهم عن النفاق والكيد والحسد والكذب، وخوفهم بعذاب الآخرة، وانصح لهم، وذكرهم بالخير على وجه ترق له قلوبهم، ويبعثهم على التأمل فيما يُلقى إليهم من العظات والزواجر، ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: خالياً بهم ليس معهم غيرهم؛ لأن النصيحة على الملأ تقريع، وفي الخلوة محض المنفعة.

وعبارة «الجمل» ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: في حق أنفسهم الخبيثة، وقلوبهم المنطوية على الشرور التي يعلمها الله تعالى، أو في أنفسهم حال كونك خالياً بهم، ليس معهم غيرهم مساراً بالنصيحة؛ لأنها في السر أنفع ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾؛ أي: مؤثراً في أنفسهم واصلاً إلى كنه المراد، مطابقاً لما سيق له من المقصود، يغتمون به اغتماماً، ويستشعرون منه الخوف، وهو التخويف بعذاب الدنيا، بأن يقول لهم: إن ما في قلوبكم من النفاق والكيد معلوم عند الله الذي لا يخفى عليه السر والنجوى، وإنه لا فرق بينكم وبين سائر الكفار وإنما رفع الله السيف عنكم؛ لأنكم أظهرتم الإيمان، فإن واظبتم على هذه الأفعال القبيحة.. ظهر لكل الناس بقاءكم على الكفر، وحينئذ يلزمكم السيف، وتسفك دماؤكم، وتسبى نساؤكم وذراريكم، وتسلب أموالكم. وفي الآية شهادة للنبي ﷺ بالقدرة على بليغ الكلام، وتفويض أمر الوعظ والقول البليغ إليه؛ لأن لكل مقام مقالاً، والكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين، كما أن فيها شهادة له بالحكمة ووضع الكلام في مواضعه، وهذا نحو ما وصف الله به نبيه داود: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

قال القاضي عياض في كتابه «الشفاء» في وصف بلاغته ﷺ: أما فصاحة اللسان وبلاغة القول: فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأرفع، والموضع الذي لا يجهل، قد أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موضع عن شرح كلامه وتفسير قوله، وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المعشار الهمداني، وطهفة النهدي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن انتهى.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾؛ أي: وما أرسلنا رسولاً من الرسل قط ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليتبع بأمر الله الناس باتباعه، ويقتدى به فيما أمر به ونهى عنه، فما نرسلهم إلا ليطاعوا بإذن الله، فمن خرج عن طاعتهم أو رغب عن حكمهم.. خرج عن حكمنا وسنتنا، وارتكب الآثام، فسنتنا في هذا الرسول كسنتنا في الرسل قبله، وجيء بقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لبيان أن الطاعة الذاتية لا تكون إلا لله رب العالمين، لكنه قد أمر أن تطاع رسله، فطاعتهم واجبة بإذنه وإيجابه؛ لأن الله أذن في ذلك وأمر به قال تعالى ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وقيل: معنى بإذن الله، بعلم الله وقضائه؛ أي: طاعته تكون بإذن الله؛ لأنه أذن فيه، فتكون طاعة الرسول طاعة الله تعالى، ومعصيته معصية الله.

والمعنى: وما[١] أرسلنا من رسول إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليهم، وأنت يا محمد من الرسل الذين فرضت طاعتهم على من أرسلوا إليهم، ففيه توبيخ وتقريع للمنافقين، الذين تركوا حكم رسول الله ﷺ، ورضوا بحكم الطاغوت.

وهذه الآية[٢] دالة على أنه لا رسول إلا ومعه شريعة ليكون مطاعاً في تلك الشريعة، ومتبوعاً فيها، ودالة على أن الأنبياء معصومون عن المعاصي والذنوب، ودالة على أنه لا يوجد شيء من الخير والشر والكفر والإيمان والطاعة والعصيان إلا بإرادة الله تعالى.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾؛ أي: ولو أن هؤلاء المنافقين الذين تحاكموا إلى الطاغوت وأعرضوا عن حكمك ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت.. ﴿جَآءُوكَ﴾ يا محمد تائبين، من ذلك الذنب الذي هو النفاق، والتحاكم إلى الطاغوت، متنصلين مما ارتكبوا من المخالفة، ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: طلبوا من الله سبحانه وتعالى مغفرته لهم ذلك الذنب بالإخلاص، وبالغوا في الاعتذار إليك من إيذائك برد حكمك والتحاكم إلى غيرك، ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي وطلب لهم

---

(١) الخازن.	(٢) المراح.

الرسول محمد ﷺ من الله تعالى مغفرة ذنوبهم المذكورة، أو المعنى: سامح لهم الرسول ما فرطوا في حقه، فالسين والتاء فيه زائدتان؛ أي: سامحهم وعفا عنهم، وطلب لهم المغفرة؛ لأنه تعلق بهم حقان: حق لله، وحق لرسوله ﷺ، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: لصادفوا الله سبحانه وتعالى حالة كونه ﴿تَوَّابًا﴾؛ أي: قابلاً لتوبتهم ﴿رَّحِيمًا﴾؛ أي: متفضلاً عليهم بالرحمة والغفران، يعني لو أنهم تابوا من ذنوبهم ونفاقهم، واستغفرت لهم.. لعلموا أن الله يتوب عليهم، ويتجاوز عنهم ويرحمهم.

والمعنى: ولو أن أولئك القوم حين ظلموا أنفسهم، ورغبوا عن حكمك إلى حكم الطاغوت.. جاؤوك فاستغفروا الله من ذنبهم، وندموا على ما فرط منهم، وتابوا توبة نصوحاً، ودعا لهم الرسول بالمغفرة لتقبل الله توبتهم، وغمرهم بإحسانه، فرحمته وسعت كل شيء.

وإنما قرن[1] استغفار الرسول باستغفارهم؛ لأن ذنبهم لم يكن ظلماً لأنفسهم فحسب، بل تعدى إلى إيذاء الرسول من حيث أنهم أعرضوا عن حكمه، وهو صاحب الحق في الحكم وحده، فكان لا بد في توبتهم وندمهم على ما فرط منهم أن يظهروا ذلك للرسول ليصفح عنهم؛ لأنهم اعتدوا على حقه، وليدعو لهم بالمغفرة إذ أعرضوا عن حكمه، وإنما التفت[2] عن الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ ولم يقل: واستغفرت لهم؛ لأن القياس يقتضي هذا، لقوله أولاً جاؤوك تفخيماً لشأنه، وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب، وإن عظم جرمه، ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب، وأنهم إذا جاؤوه.. فقد جاؤوا من خصه الله تعالى برسالته، وأكرمه بوحيه، وجعله سفيراً بينه وبين خلقه.

وفي الآية[3]: إيماء إلى أن التوبة الصحيحة تقبل حتماً إذا استكملت

---

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.

شرائطها، ومنها: أن تكون عقب الذنب مباشرة، وقد سمى الله ترك طاعة الرسول ظلماً للأنفس؛ أي: إفساداً لها لأن الرسول هو الهادي إلى مصالح الناس في الدنيا والآخرة، وهذا الظلم شامل للاعتداء والبغي والتحاكم إلى الطاغوت وغير ذلك.

والاستغفار لا يكون مقبولاً إلا إذا ناجى العبد ربه عازماً على اجتناب الذنب، وعدم العودة إليه، مع الصدق والإخلاص لله في ذلك. أما الاستغفار باللسان عقب الذنب دون أن يوجد هذا التوجه بالقلب فلا يكون استغفاراً معتداً به عند الله إذ لا بد أن يشعر القلب أولاً بألم المعصية، وسوء مغبتها ـ عاقبتها ـ وبالحاجة إلى التزكي من دنسها، مع العزم القوي على اجتناب هذا الدنس، ومتى أخلص الداعي.. أجاب الله دعاءه بإعطائه ما طلب، أو بغيره من الأجر والثواب.

و﴿لا﴾ في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ زائدة زيدت لتأكيد معنى القسم، كما زيدت في: ﴿لئلا يعلم﴾؛ لتأكيد وجوب العلم، أو مفيدة لنفي أمر سبق، والتقدير: ليس الأمر كما يزعمون من أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك، فوربك؛ أي: فأقسمت لك بربك يا محمد، لا يؤمن هؤلاء المنافقون إيماناً صحيحاً ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾؛ أي: حتى يجعلوك حاكماً بينهم ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: فيما اختلط والتبس وأشكل، ووقع بينهم من المخاصمات والمنازعات، فتقضي بينهم فيها ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: لا يحسوا في قلوبهم ﴿حَرَجًا﴾؛ أي: ضيقاً وشكاً ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ وحكمت به، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾؛ أي: وينقادوا لك بظواهرهم انقياداً تاماً، بحيث لا يخالفونك في شيء ما. وقرأ أبو السمال: ﴿فيما شجر﴾ بسكون الجيم تخفيفاً فراراً من ثقل توالي الحركات، والمعنى: أنهم لا يؤمنون إيماناً صحيحاً مستوجباً للفوز بالثواب والنجاة من العذاب، وهو إيمانُ الانقيادِ ظاهراً وباطناً، إلا إذا كملت لهم ثلاث خصال:

الأولى: أن يحكموا الرسول في القضايا التي يشتجرون ويختصمون فيها، ولا يتبين لهم وجه الحق فيها.

والثانية: أن لا يجدوا حرجاً وضيقاً فيما يحكم به؛ أي: أن تذعن نفوسهم لقضائه وحكمه فيما شجر بينهم، بلا امتعاض من قبوله والعمل به؛ إذ المؤمن الكامل ينشرح صدره لحكم الرسول لأول وهلة؛ لأنه الحق، وأن الخير والسعادة في الإذعان له.

والثالثة: الانقياد والتسليم لذلك الحكم، فكثيراً ما يعرف الشخص أن الحكم حق، لكنه يتمرد عن قبوله عناداً أو يتردد في ذلك.

ويستفاد من هذه الآية شيئان:

الأول: عصمة النبي ﷺ، بمعنى أنه لا يحكم إلا بالحق المطابق لصورة الدعوى وظاهرها، لا بحسب الواقع في نفسه إذ الحكم في شريعته على الظاهر، والله يتولى السرائر، وقد قال ﷺ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق مسلم.. فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها» رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن، ومن ثم كانوا يسألونه إذا أمر بأمر لم يظهر لهم أنه الرأي، أعن وحي هو، أم عن رأي، فإن كان عن وحي.. أطاعوا وسلموا، وإن كان عن رأي.. ذكروا ما عندهم، وربما يرجع إليهم كما حدث يوم أحد.

والثاني: أنهم لا يؤمنون إيماناً صحيحاً يعتد به إلا إذا كانوا موقنين بقلوبهم، مذعنين في بواطنهم بصدق الرسول في كل ما جاء به من أمور الدين. ومن أمارة ذلك: أن يحكموه فيما شجر من خلاف، وأن لا يجدوا ضيقاً وحرجاً في حكمه؛ إذ الضيق إنما يلازم قلب من لم يخضع، وأن ينقادوا انقياداً كاملاً بلا تمرد ولا عناد في قبوله، كما مر جميع ذلك كله آنفاً.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ وفرضنا وأوجبنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هؤلاء المنافقين ﴿أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بأن يقتل كل واحد نفسه، أو يقتل بعضهم بعضاً ﴿أَوِ﴾ أن ﴿اخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ بالهجرة إلى دار أخرى، توبة من نفاقهم، كما كتبنا على بني إسرائيل القتل والخروج من مصر، ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: ما فعل هؤلاء المنافقون القتل والخروج المكتوب عليهم، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ فإن القليل منهم يفعل ذلك

المكتوب رياء وسمعة.

ومعنى الآية[١]: أنه تعالى لو فرض عليهم أن يقتلوا أنفسهم، إما بأن يقتل كل واحد نفسه، أو بقتل بعضهم بعضاً، أو أن يخرجوا من ديارهم بالهجرة إلى دار أخرى، كما فرض ذلك على بني إسرائيل، حين استتيبوا من عبادة العجل.. لم يطع منهم إلا القليل.

بين الله[٢] سبحانه وتعالى في هذه الآية أن صادق الإيمان هو الذي يطيع الله في كل ما يأمر به، في السهل والصعب، والمحبوب والمكروه، ولو كان ذلك بقتل النفس، والخروج من الديار، الجسم دار الروح والوطن دار الجسم، أما المنافق فيعبد الله على ما يوافق هواه وشهواته، فإن أصابه خير.. أطمأن به ورضي، وإن ناله أذى.. انقلب على وجهه، وارتد على عقبه، وباء بالخسران في الدنيا والآخرة.

قرأ أبو عمرو[٣] بكسر نون ﴿أن﴾ وضم واو ﴿أو﴾، وكسرهما حمزة وعاصم، وضمهما باقي السبعة، وأما ضم النون وكسر الواو فلم يقرأ به أحد، فالكسر على أصل التقاء الساكنين، والضم للاتباع للثالث؛ إذ هو مضموم ضمة لازمة، وإنما فرق أبو عمرو لأن الواو أخت الضمة. اهـ «سمين».

وقرأ الجمهور: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بالرفع على البدل من الواو في فعلوه، وهو المختار؛ لأنه استثناء من كلام تام غير موجب، وقرأ أبي وابن وأبي إسحاق وابن عامر وعيسى بن عمر ﴿إلا قليلا﴾ بالنصب على الاستثناء بعد النفي، وهو مرجوح.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ ويكلفون به؛ أي: ولو أن هؤلاء المنافقين فعلوا ما أمروا به، وتركوا ما نهوا عنه.. ﴿لَكَانَ﴾ ذلك الفعل والترك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: أنفع لهم في الدنيا والآخرة ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لأقدامهم على الحق،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الجمل.

وأكثر تصديقاً وتحقيقاً لإيمانهم، وإنما سمى[1] الله سبحانه وتعالى ذلك التكليف وعظاً؛ لأن أوامر الله تعالى وتكاليفه مقرونة بالوعد والوعيد والثواب والعقاب، وما كان كذلك يسمى وعظاً، وإنما كان فعل ذلك أشد تثبيتاً لهم على إيمانهم؛ إذ الأعمال هي التي تطبع الأخلاق والفضائل في نفس العامل، وتبدد الأوهام والمخاوف من نفسه، فبذل المال ـ مثلاً ـ آية من آيات الإيمان، وقربة من أعظم القرب، فمن فعله.. كان مؤمناً إيماناً صادقاً، ومن آمن بذلك ولم يفعله.. كان علمه بمنافعه ومزاياه له وللأمة والدين علماً ناقصاً، فكلما دعى الداعي إلى البذل.. طاف به طائف البخل والإمساك، وعرض له شح الفقر والإملاق، أو نقصان المال عن مال بعض الأقران، لكنه إذا اعتدل البذل صار السخاء خلقاً له وسجية، وقلما امتنع من فعله حين تدعو الحاجة إليه، إذ الطاعة تدعو إلى مثلها فالمرء يطلب الخير أولاً، حتى إذا حصله.. طلب أن يكون الحاصل ثابتاً قوياً.

﴿و﴾ لو أنهم فعلوا هذا الخير العظيم، وامتثلوا ما أمروا به، وأخلصوا العمل.. ﴿إذاً لآتيناهم﴾؛ أي: إذا لأعطيناهم من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثواباً جسيماً وافراً في الجنة، وكيف لا يكون عظيماً وقد وصفه النبي ﷺ بقوله «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». و﴿إذاً﴾ واقعة في جواب شرط مقدر كما أشرنا إليه في الحل، وسيأتي بيانه في الإعراب، ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ولأرشدناهم ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ أي: طريقاً قويماً موصلاً لهم إلى الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، كما ذكر ذلك سبحانه في الآية التالية، وهو دين الإسلام. وقيل: معنى صراطاً مستقيماً؛ أي: طريقاً[2] من عرصة القيامة إلى الجنة فحمل لفظ الصراط في هذا الموضع على هذا المعنى أولى؛ لأنه تعالى ذكره بعد ذكر الأجر، والدين الحق مقدم على الأجر، والطريق من عرصة القيامة إلى الجنة إنما يحتاج إليه بعد استحقاق الأجر. ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ أو غيره من بقية الرسل؛ أي: ومن يمتثل الله سبحانه وتعالى ورسوله محمداً ﷺ بفعل ما أمرا

(١) الخازن. (٢) المراح.

به، واجتناب ما نهيا عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المطيعون لهما، كائنون في الجنة ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ في الدنيا بالهداية والتوفيق؛ أي: يكون هذا المطيع يوم القيامة مرافقاً لأقرب عباد الله وأرفعهم درجات عنده، وهم الأصناف الأربعة الذين ذكرهم الله تعالى في الآية، وهم صفوة الله من عباده، وقد وجدوا في كل أمة، ومن أطاع الله ورسوله من هذه الأمة.. كان منهم، وحشر يوم القيامة معهم.

وقوله ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والمرسلين.. إلخ بيان للذين أنعم الله عليهم، وفي الآية سلوك التدلي، فإن منزلة كل واحد من الأصناف الأربعة أعلى من منزلة من بعده، ﴿والصدقين﴾؛ أي: السابقين إلى تصديق الرسل، فصاروا في ذلك قدوة لسائر الناس، وهم أفاضل أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، سموا بذلك لمبالغتهم في الصدق والتصديق ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ أي: القتلى في سبيل الله تعالى، أو الذين[1] يشهدون بصحة دين الله تعالى، تارة بالحجة والبيان، وتارة أخرى بالسيف والسنان، فالشهداء هم القائمون بالقسط، وأما كون الإنسان مقتول الكافر.. فليس فيه زيادة شرف لأن هذا القتل قد يحصل في الفساق ومن لا منزلة له عند الله، ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ غير الأصناف الثلاثة السابقة؛ لأن الأصناف الثلاثة صالحون أيضاً، وهم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، وقيل: الصارفون[2] أعمارهم في طاعة الله، وأموالهم في مرضاته، وكل من كان اعتقاده صواباً وعمله غير معصية فهو صالح، ثم إن الصالح قد يكون بحيث يشهد لدين الله بأنه هو الحق، وأن ما سواه هو الباطل، وهذه الشهادة تارة بالحجة والدليل وأخرى بالسيف، وقد يكون الصالح غير موصوف بكونه قائماً بهذه الشهادة، فثبت أن كل من كان شهيداً كان صالحاً، ولا عكس فالشهيد أشرف أنواع الصالحين، ثم الشهيد قد يكون صديقاً وقد لا، ومعنى الصديق: هو الذي كان أسبق إيماناً من غيره، وكان إيمانه قدوة لغيره، فثبت أن كل من كان صديقاً كان شهيداً، ولا عكس، فثبت أن أفضل الخلق الأنبياء، وبعدهم الصديقون، وبعدهم من ليس له درجة إلا محض درجة الشهادة، وبعدهم من ليس له درجة إلا محض درجة الصلاح.

---

(١) المراح.　　(٢) المراح.

﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ﴾؛ أي: وحسن كل واحد من الأصناف الأربعة من جهة كونه ﴿رَفِيقًا﴾ في الجنة، بأن يستمتع فيها المطيع برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم، وإن كان مقرهم في الدرجات العالية بالنسبة إلى غيرهم، والمخصوص بالمدح هؤلاء المذكورون من الأصناف الأربعة، وفي هذه الجملة معنى التعجب، كأنه قال: وما أحسن أولئك رفيقاً في الجنة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي أعطى الله المطيعين من الأجر العظيم، ومن مرافقة هؤلاء المنعم عليهم، هو ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ والعطاء ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، تفضل به على من أطاع الله ورسوله، لا أنهم نالوه بطاعتهم؛ أي: إن هذا الذي ذكر من الجزاء لمن يطيع الله والرسول هو الفضل الذي لا يعلوه فضل، فإن السمُوَ إلى إحدى تلك المنازل في الدنيا، ومرافقة أهلها في الأخرة، هو منتهى ما يأمله المرء من السعادة، وبه يتفاضل الناس، فيفضل بعضهم بعضاً، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾؛ أي: وكفى بالله سبحانه وتعالى من جهة كونه عليماً بالعصاة والمطيعين والمنافقين والمخلصين، ومن يصلح لمرافقة هؤلاء، ومن لا يصلح، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وقرأ الجمهور(١): ﴿وَحَسُنَ﴾ بضم السين وهي الأصل ولغة الحجاز، وقرأ أبو السمال: ﴿وحسْن﴾ بسكون السين وهي لغة بعض بني قيس.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على: ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة: ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً، ﴿أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع صلتها

---

(١) البحر المحيط.

في تأويل مصدر منصوب[1] على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾، تقديره: يأمركم تأدية الأمانات، أو منصوب بنزع الخافض، تقديره يأمركم بتأدية الأمانات؛ لأن حذفه مع أن وأن مطرد، كما قال ابن مالك:

نَــقْــلاً وَفِـــيَ أَنَّ وَأَنْ يَـــطَّــرِدُ   مَعْ أَمْنِ لَبْسٍ كَعَجِبْتُ أَنْ يَدُوْا

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجردة عن معنى الشرط، ﴿حَكَمْتُم﴾: فعل وفاعل، ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿حَكَمْتُم﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، تقديره: وقت حكمكم بين الناس، والظرف متعلق بـ﴿تَحْكُمُواْ﴾ الآتي على مذهب الكوفيين المجيزين تقديم معمول الصلة على حرف مصدري، ويقال على مذهب البصريين المانعين ذلك إن المعمول هنا ظرف، والظروف يغتفر فيها ما لا يغتفر في غيرها، ﴿أَن تَحْكُمُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿بِٱلْعَدْلِۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَحْكُمُواْ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية ﴿أن﴾: مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من قوله: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾، أو منصوباً بنزع الخافض، والتقدير: إن الله يأمركم تأدية الأمانات إلى أهلها وحكمكم بالعدل وقت حكمكم بين الناس، وفصل[2] هنا بين حرف العطف والمعطوف بـ﴿إذا﴾، وقد جوزه بعضهم، وجعله مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ وخص هذا أبو علي الفارسي بالشعر وليس بصواب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها، ﴿نِعِمَّا﴾: ﴿نِعْم﴾ فعل ماض من أفعال المدح، ﴿ما﴾ موصولة في محل الرفع فاعل، ﴿يَعِظُكُم﴾: فعل

---

(١) صاوي.   (٢) البحر المحيط.

ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿بِهِۦٓ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة ما الموصولة، والعائد ضمير به، والتقدير: إن الله نعم الشيء الذي يعظكم به، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ نكرة موصوفة في محل النصب على التمييز، ويكون فاعل ﴿نعم﴾ مستتراً فيه وجوباً تقديره: نعم الشيء شيئاً يعظكم به، وجملة ﴿يَعِظُكُم﴾ على هذا الوجه: صفة لـ﴿ما﴾؛ لأنها نكرة موصوفة، وقد ذكر القولين ابن مالك بقوله:

وَ(مَـا) مُـمَـيَّـزٌ وَقِـيْـلَ فَـاعِـلُ   فِيْ نَـحْـوِ نِـعْـمَ مَـا يَـقُـوْلُ ٱلْـفَـاضِـلُ

والمخصوص بالمدح محذوف وجوباً تقديره: تأدية الأمانات والحكم بالعدل وجملة نعم في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿سَمِيعًۢا﴾: خبر أول لها. ﴿بَصِيرًا﴾: خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، و﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد، زيد تعويضاً عما فات أي من الإضافة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾: وجملة النداء مستأنفة، ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء، وكذلك ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَأُوْلِي﴾: معطوف على ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، ﴿ٱلْأَمْرِ﴾: مضاف إليه، ﴿مِنكُمْۖ﴾: جار ومجرور حال من ﴿أولي الأمر﴾.

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية بمعنى الواو، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿تَنَٰزَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم على كونه فعل شرط لها، ﴿فِي شَيْءٖ﴾: جار ومجرور

متعلق به، ﴿فَرُدُّوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، ﴿ردوه﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواب شرط لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ردوه﴾. ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾، ﴿تُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: معطوف على الجلالة، وجملة ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجواب إن الشرطية محذوف معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم تؤمنون بالله فردوه إلى الله ورسوله، وجملة إن الشرطية مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَحْسَنُ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿تَأْوِيلًا﴾: منصوب على التمييز.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التعجبي، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو إلى المخاطب، والجملة الفعلية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَ﴾، ﴿يَزْعُمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: ضمير الغائبين في محل النصب اسمها، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي زعم، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة لما أو صفة لها، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الجر معطوفة على ما الأولى، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ما، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾، وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلة لما أو صفة لها.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أو من واو ﴿يَزْعُمُونَ﴾، ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريدون تحاكمهم إلى الطاغوت. ﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾، ﴿وَقَدْ﴾: الواو حالية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أُمِرُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾، ﴿أَن يَكْفُرُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَكْفُرُواْ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب، على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿أُمِرُوٓاْ﴾، تقديره: وقد أمروا كفرهم به، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يُرِيدُونَ﴾، ﴿أَن يُضِلَّهُمْ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ﴿ضَلَٰلَۢا﴾: مفعول مطلق، ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يريد﴾، تقديره: ويريد الشيطان إضلالهم ضلالاً بعيداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: نائب فاعل محكي، وجملة قيل في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، وإن شئت قلت: ﴿تَعَالَوْاْ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَعَالَوْاْ﴾، ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله، وجملة ﴿تَعَالَوْاْ﴾ في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿رَأَيْتَ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب إذا، وجملة إذا مستأنفة، ﴿يَصُدُّونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنكَ﴾: متعلق به، ومفعوله محذوف تقديره: غيرهم، ﴿صُدُودًا﴾: منصوب على المصدرية، وجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ في

محل النصب حال من ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، على القول بأن رأى بصرية، أما على القول بأن رأى علمية، فجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ في محل النصب مفعول ثان لرأى.

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿كيف﴾: اسم استفهام في محل النصب على التشبيه بالمفعول به بفعل محذوف، تقديره: فكيف يصنعون، ويجوز جعل ﴿كيف﴾ خبراً مقدماً لمبتدأ محذوف تقديره: فكيف صنعهم، ﴿إِذَآ﴾: ظرف مجرد عن معنى الشرط، في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة جملة إنشائية مستأنفة، ﴿أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَصَٰبَتْهُم﴾، والباء للسبب، ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما قدمته أيديهم، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿جَآءُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض معطوفة على جملة ﴿أَصَٰبَتْهُم﴾، ﴿يَحْلِفُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿جَآءُوكَ﴾، ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿أَرَدْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿إِحْسَٰنًا﴾: مفعول به، ﴿وَتَوْفِيقًا﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿أَرَدْنَآ﴾ من الفعل والفاعل جواب القسم لا محل لها من الإعراب، كما قاله أبو حيان في «النهر».

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صلة لما، أو صفة لها، وجملة ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول، ﴿فَأَعْرِضْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب بشرط محذوف، تقديره: إذا

كان حالهم كذلك فأعرض عنهم، وجملة الشرط المحذوف مستأنفة، ﴿أَعۡرِضۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم جواب للشرط المحذوف، ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾: معطوف على أعرض عنهم، وكذا قوله: ﴿وَقُل لَّهُمۡ﴾: معطوف عليه، ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿قل﴾، وقيل: يتعلق بـ﴿بَلِيغٗا﴾، ﴿قَوۡلَۢا﴾: منصوب على المصدرية، ﴿بَلِيغٗا﴾ صفة له.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿رَّسُولٍ﴾: مفعول به منصوب بفتحة مقدرة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿لِيُطَاعَ﴾: ﴿اللام﴾ لام كي، ﴿يطاع﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ونائب فاعله ضمير يعود على الرسول، ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يطاع﴾، أو حال من الضمير في ﴿يطاع﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي، تقديره: إلا لإطاعة الناس له، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾.

﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لو﴾: شرطية، ﴿أَنَّهُمۡ﴾ ﴿أنَّ﴾: حرف نصب، ﴿والهاء﴾: اسمها، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، ﴿ظَّلَمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، والظرف متعلق بـ﴿جَآءُوكَ﴾ الآتي، ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿جَآءُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، تقديره: ولو أنهم جاؤوا إياك وقت ظلمهم أنفسهم، وجملة ﴿أنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لفعل محذوف فعل شرط لـ﴿لو﴾، تقديره: ولو

ثبت مجيؤهم إياك وقت ظلمهم أنفسهم، ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿استغفروا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿جَآءُوكَ﴾، ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾: فعل وفاعل وجار ومجرور متعلق بـ﴿استغفر﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿وجدوا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿تَوَّابًا﴾: مفعول ثان، ﴿رَّحِيمًا﴾: صفة له، أو عطف بيان منه، أو حال من الضمير المستتر في ﴿تَوَّابًا﴾، وقيل: إن وجد متعد لواحد، و﴿تواباً﴾: حال من الجلالة، و﴿رحيماً﴾: صفة له، أو بدل منه، وجملة ﴿وجدوا﴾ جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد معنى القسم. ﴿وَرَبِّكَ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿ربك﴾ ﴿رب﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، ﴿والكاف﴾ مضاف إليه، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: فأقسم لك بربك يا محمد، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة، وفي ﴿لا﴾ هنا أربعة أقوال، ذكرها في «الفتوحات» لا نطيل الكلام بذكرها، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، تقديره: إلى تحكيمهم إياك، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾، ﴿شَجَرَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَجَرَ﴾، والجملة الفعلية صلة لما أو صفة لها، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَجِدُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾، ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَجِدُواْ﴾، تعلق الظرف بالفعل، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿حَرَجًا﴾،

﴿حَرَجًا﴾: مفعول به لـ﴿وجد﴾، إن قلنا: إنها متعدية إلى واحد، أما إذا كانت متعدية لاثنين. فالجار والمجرور ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أحد المفعولين لها، ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حَرَجًا﴾، ﴿قَضَيۡتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: مما قضيت به، ويصح أن تكون ما مصدرية، ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾، ﴿تَسۡلِيمٗا﴾: منصوب على المصدرية.

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: شرطية، ﴿أَنَّا﴾: أنَّ حرف نصب، ﴿نا﴾: اسمها، ﴿كَتَبۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: متعلق به، وجملة ﴿كَتَبۡنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، تقديره: ولو أنا كاتبون عليهم، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل شرط محذوف، تقديره: ولو ثبتت كتابتنا عليهم، ﴿أَنِ﴾، حرف نصب ومصدر، ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أَن﴾، ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿كَتَبۡنَا﴾، تقديره: ولو أنا كتبنا عليهم قتلهم أنفسهم، ويجوز أن تكون أن مفسرة، لأنَّ ﴿كَتَبۡنَا﴾ قريب من معنى أمرنا أو قلنا، ﴿أَوِ﴾، حرف عطف، ﴿ٱخۡرُجُواْ﴾: فعل وفاعل في محل النصب معطوف على ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ﴾، ﴿مِن دِيَٰرِكُم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱخۡرُجُواْ﴾، ﴿مَّا﴾: نافية رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿فَعَلُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلٞ﴾: بالرفع بدل من واو ﴿فَعَلُوهُ﴾: بدل بعض من كل، وهو الراجح من نصبه على الاستثناء؛ لأن الاستثناء من كلام تام غير موجب، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿قَلِيلٞ﴾، وهو الرابط بين البدل والمبدل منه.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ﴿أنَّ﴾ حرف نصب، ﴿والهاء﴾: اسمها، ﴿فَعَلُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿يُوعَظُونَ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿يُوعَظُونَ﴾ صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾، وجملة ﴿فَعَلُواْ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف، فعل شرط لـ﴿لو﴾، تقديره: ولو ثبت فعلهم ما يوعظون به، ﴿لَكَانَ﴾: اللام رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على المصدر المفهوم من ﴿فَعَلُواْ﴾، تقديره: هو؛ أي: لكان فعلهم ما يوعظون به، ﴿خَيْرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿لَّهُمْ﴾ متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾، ﴿وَأَشَدَّ﴾: معطوف على ﴿خَيْرًا﴾، ﴿تَثْبِيتًا﴾: منصوب على التمييز، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها جواب ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها، مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَإِذًا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذاً﴾: حرف نصب وجواب وجزاء، وهي ملغاة هنا عن عمل النصب، ﴿لَّآتَيْنَٰهُم﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿آتيناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿آتينا﴾، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، وجملة ﴿لَّآتَيْنَٰهُم﴾ معطوفة على جملة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ على كونها جواباً لـ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿هديناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿صِرَٰطًا﴾: مفعول ثان، ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾: صفة لـ﴿صِرَٰطًا﴾، وجملة ﴿لهديناهم﴾ معطوفة على جملة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ على كونها جواباً لـ﴿لو﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُطِعِ﴾: فعل مضارع مجزوم بمن على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾: معطوف على الجلالة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: كائن مع الذين، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾، على كونها جواب الشرط لها، وجملة من الشرطية مستأنفة، ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيۡهِم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنۡعَمَ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿عَلَيۡهِم﴾، ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو من الضمير في ﴿عَلَيۡهِم﴾، ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾: معطوفات على ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ﴿وَحَسُنَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿حسن﴾: فعل ماض من أفعال المدح، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: فاعل، ﴿رَفِيقٗا﴾: تمييز أو حال، والجملة مستأنفة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾: خبر، ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾، والعامل فيه معنى الإشارة، ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿الفضلُ﴾: صفة له، ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾: خبراً، والجملة مستأنفة، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلِيمٗا﴾: تمييز، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ هو مضارع أدى تأدية، من باب فعَّل المضعف، وهو هنا بمعنى أصل الفعل، والأمانات جمع أمانة، وهي مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: الشيء الذي يحفظ ليؤدى إلى صاحبه، ويسمى من يحفظها ويؤديها حفيظاً وأميناً ووفياً، ومن لا يحفظها ولا يؤديها خائناً، ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ العدل: مصدر لعدل من باب ضرب، وهو لغة: إيصال الحق إلى صاحبه من أقرب الطرق إليه،

وشرعاً: فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ لا الحكم بالرأي المجرد، ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم﴾: نِعْمَ بكسر النون إتباعاً لكسرة العين، وأصل النون مفتوحة، وأصل العين مكسورة، فأصله نَعِمَ بوزن عَلِمَ، ثم كسرت النون إتباعاً لكسرة العين.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ تنازع من باب تفاعل، والتنازع: التجاذب، والمنازعة: المجاذبة، والنزع: الجذب، كأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويجذبها، والمراد الاختلاف والمجادلة، ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ التأويل: مصدر أول ـ من باب فعل ـ تأويلاً، إذا فسر وبين، ولكن هنا بمعنى المآل والعاقبة، لا بمعنى التفسير والتبيين فله إطلاقان.

﴿يَزۡعُمُونَ﴾ مضارع زعم، من باب نصر، والزعم بتثليث الزاي في أصل اللغة القول، حقاً كان أو باطلاً، ثم كثر استعماله في الكذب، قال الراغب: الزعم حكاية قول يكون مظنة للكذب، وقد جاء في القرآن ذم القائلين به، كقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾، وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الطاغوت: الكاهن والشيطان والصنم وكل رئيس في الضلالة، يطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾: ليس مصدراً جارياً على يضلهم، ويحتمل أن يكون جعل مكان الإضلال، فوضع أحد المصدرين موضع الآخر، ويحتمل أن يكون مصدراً لثلاثي محذوف، تقديره: فيضلون ضلالاً بعيداً، ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾: يقال: صد عن الشيء يصد ـ من بابي ضرب ونصر ـ صداً وصدوداً، إذا أعرض عنه، وهو من المضاعف اللازم الذي جاء بالوجهين: الكسر على القياس، والضم على الشذوذ، لا من صد الذي هو المضاعف المعدى، فإنه بالضم على القياس لا غير، ومعناه المنع، يقال صده عن كذا إذا منعه وصرفه عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، فالصدود: مصدر سماعي له، وقياسه صد، على وزن فعل بسكون العين؛ لأنه من فعل المفتوح.

﴿إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا﴾؛ أي: في المعاملة بين الخصوم، وهو مصدر أحسن الرباعي، من باب أكرم، ﴿وَتَوۡفِيقًا﴾؛ أي: بينهم وبين خصومهم بالصلح والتوفيق، مصدر لوفق المضعف، والوفاق والوفق ضد المخالفة، ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: في الأمر الذي أشكل، والتبس عليهم، واختلطت واختلفت فيه آراؤهم، ومنه الشجر لالتفاف أغصانه واختلاطها وتداخل بعضها في بعض، ومنه قول طرفة:

وَهُمُ ٱلْحُكَّامُ أَرْبَابُ ٱلْهُدَىٰ   وَسُعَاةُ ٱلنَّاسِ فِيْ ٱلأَمْرِ ٱلشَّجَرْ

أي: المختلف، ومنه تشاجر الرماح؛ أي: اختلافها، يقال: شجر الأمر يشجر شجوراً وشجراً ـ من باب قعد ـ إذا التبس، وشاجر الرجل غيره في الأمر إذا نازعه فيه، وتشاجروا إذا تنازعوا، وخشبات الهودج يقال لها: شجار، لتداخل بعضها في بعض، ﴿حَرَجٗا﴾ الحرج: الضيق، وقيل: الشك، ومنه قيل للشجر الملتف: حرج وحرجة، وجمعها حراج، وقيل: الحرج الإثم، ﴿تَسۡلِيمٗا﴾: مصدر مؤكد لعامله.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبديع[1]:

منها: دخول حرف الشرط على ما ليس بشرط في الحقيقة في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾، وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، وفي قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾، وفي قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾، وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾.

ومنها: الاستفهام المراد به التعجب في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

(١) البحر المحيط.

﴿يَزْعُمُونَ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾، وفي قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾، وفي قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، وفي قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ﴾ أصل المنازعة الجذب باليد، ثم استعير للتنازع في الكلام، وفي قوله: ﴿ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ استعار البعد المختص بالأزمنة والأمكنة للمعاني المختصة بالقلوب؛ لدوام القلوب عليها، وفي قوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ استعار ما اشتبك وتضايق من الشجر للمنازعة التي يدخل بها بعض الكلام في بعض، استعارة المحسوس للمعقول، وفي قوله: ﴿أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ أطلق اسم الحرج الذي هو من وصف الشجر إذا تضايق على الأمر الذي يشق على النفس، للمناسبة التي بينهما وهو الضيق.

ومنها: التتميم وهو أن يتبع الكلام كلمة تزيد المعنى تمكناً وبياناً للمعنى المراد، وهو في قوله: ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾؛ أي: يبلغ إلى قلوبهم ألمه أو بالغاً في زجرهم.

ومنها: زيادة الحرف لزيادة المعنى في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ أتت ﴿مِّن﴾ لإفادة الاستغراق، إذ لو لم تدخل هي في الكلام لأوهم الواحد.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾، وفي قوله: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾، وفي لفظ الجلالة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

ومنها: التوكيد بالمصدر في قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

ومنها: التقسيم البليغ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به، والإشعار بعلة الحكم.

ومنها[1]: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ حيث لم يقل: واستغفرت لهم، بل قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ تفخيماً لشأنه، حيث عدل عن خطابه إلى ما هو من عظيم صفاته، فهو على أسلوب حكم الأمير بكذا، مكان حكمت بكذا، ووجه التفخيم فيه أن شأن الرسول أن يستغفر لمن عظم ذنبه.

ومنها: إيراد الأمر بصورة الأخبار، وتصديره بإنَّ المفيدة للتحقيق في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ للتفخيم وتأكيد وجوب العناية والامتثال.

ومنها: الإطناب في مواضع.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الجمل.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا (٧١) وإن منكم لمن
ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا (٧٢) ولئن أصابكم
فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما
(٧٣) ۞ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في
سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما (٧٤) وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله
والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها
واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا (٧٥) الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين
كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا (٧٦) ألم تر
إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم
يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل
قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا (٧٧) أينما تكونوا يدرككم
الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة
يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا (٧٨) ما أصابك
من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا (٧٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا (٧١)﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها هو[١]: أنه تعالى لما ذكر طاعته وطاعة رسوله، وكان من أهم الطاعات إحياء دين الله تعالى.. أمر بالقيام بإحياء دينه، وإعلاء دعوته، وأمرهم أن لا يقتحموا على عدوهم على جهالة، فقال: ﴿خذوا حذركم﴾، فعلمهم مباشرة الحروب، ولما تقدم ذكر المنافقين.. ذكر في هذه الآية تحذير المؤمنين من قبول مقالاتهم، وتثبيطهم عن الجهاد، فنادى أولاً باسم

---

(١) البحر المحيط.

الإيمان على عادته تعالى إذا أراد أن يأمر المؤمنين أو ينهاهم.

وقال المراغي: مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]؛ يعني قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾: أن الله سبحانه وتعالى، لما بين أولاً في هذه السورة كثيراً من الأمور الدينية، من عبادته تعالى وعدم الشرك به، والمدنية كمعاملة ذوي القربى والجيران واليتامى والمساكين، والشخصية كأحكام الزواج والمصاهرة والمواريث.. بين هنا في هذه الآيات بعض الأحكام الحربية والسياسية، ورسم لنا الطريق التي نسير عليها في حفظ ملتنا وحكومتنا المبنية على تلك الأصول من الأعداء انتهى.

قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما بين حال ضعفاء الإيمان، الذين يبطئون عن القتال في سبيله.. دلهم بهذه الآية على طريق تطهير نفوسهم من ذلك الذنب العظيم، ذنب القعود عن القتال، وأمر به إيثاراً لما عند الله من الأجر والثواب على ما في الدنيا من نعيم زائل وعرض يفنى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أنه لما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أولاً بالنفر إلى الجهاد، ثم ثانياً بقوله: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ثم ثالثاً على طريق الحث والحض بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾.. أخبر في هذه الآية بالتقسيم، أن المؤمن هو الذي يقاتل في سبيل الله، وأن الكافر هو الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، ليبين للمؤمنين فرق ما بينهم وبين الكفار، ويقويهم بذلك، ويشجعهم ويحرضهم، وأن من قاتل في سبيل الله هو الذي يغلب؛ لأن الله هو وليه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب، والطاغوت هنا الشيطان؛ لقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر، أولاً بأخذ الحذر والاستعداد للقتال والنفر له، وذكر حال المبطئين الذين ضعفت قلوبهم، وأمرهم بالقتال في سبيله، وفي سبيل إنقاذ المستضعفين.. ذكر هنا أن الإسلام كلفهم ترك ما كانوا عليه في الجاهلية، من تخاصم وتلاحم وحروب مستمرة، ولا سيما بين قبيلتي الأوس والخزرج، فإن الحروب بينهم لم تنقطع إلا بمجيء الإسلام، وأمرهم بكف أيديهم عن القتال والعدوان على غيرهم، وطلب إليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما فيهما من تهذيب النفوس والعطف والرحمة، حتى خمدت من نفوس كثير منهم حمية الجاهلية، وحل محلها شرف العواطف الإنسانية، إلى أن اشتدت الحاجة إلى القتال للذود عن بيضة الإسلام، ودفع العدوان من أولئك المشركين الذين آذوا المسلمين، وأحبوا فتنتهم في دينهم، وردهم إلى ما كانوا عليه، ففرضه عليهم، فكرهه المنافقون والضعفاء، فنعىٰ ذلك عليهم، ووبخهم أشد التوبيخ، وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنه تعالى لما أمر بالقتال حين طلبوه.. وجب امتثال أمر الله فلما كعَّ - جبن - عنه بعضهم.. قال تعالى: ألا تعجب يا محمد من ناس طلبوا القتال، فأمروا بالموادعة، فلما كتب عليهم.. فَرِقَ فريق وجزع، ذكره في «البحر المحيط» انتهى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه النسائي (ج ٦/ ص ٣) قال: أخبرنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، قال: أنبأنا أبي، قال الحسين بن واقد: عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن عبد الرحمٰن بن عوف الزهري

---

(١) المراغي.

(٢) النسائي.

وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا رسول الله إنا كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا.. صرنا أذلة، فقال: «إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا، فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال، فكفوا»، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.. الحديث أخرجه الحاكم أيضاً، وقال: رجاله رجال الصحيح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما جاء به محمد ﷺ، ﴿خُذُوا﴾ أسلحتكم، والزموا ﴿حِذْرَكُمْ﴾؛ أي: احترازكم واحتراسكم من عدوكم، ولا تمكنوه من أنفسكم، واستعدوا لاتقاء شره وحربه، بأن تعرفوا حاله ومبلغ استعداده وقوته، وإذا كان لكم أعداء كثيرون.. فاعرفوا ما بينهم من وفاق وخلاف، واعرفوا الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا عليكم، واعملوا بتلك الوسائل.

ويدخل في ذلك معرفة حال العدو، ومعرفة أرضه وبلاده، وأسلحته واستعمالها، وما يتوقف على ذلك من معرفة الهندسة والكيمياء وجر الأثقال، وبالجملة: يجب اتخاذ أهبة الحرب المستعملة فيها من طيارات وقنابل ودبابات وبوارج مدرعة ومدافع مضادة للطائرات إلى نحو ذلك، حتى لا يهاجمكم على غرة، أو يهددكم في دياركم، ويأخذ أراضيكم، وحتى لا يعارضكم في إقامة دينكم أو دعوتكم.

وقد كان النبي ﷺ والصحابة على علم بأرض عدوهم، كما لهم عيون وجواسيس يأتونهم بالأخبار، ولما أخبروه بنقض قريش للعهد وإخلالهم بشروط المعاهدة في صلح الحديبية.. استعدو لفتح مكة، ولم يفلح أبو سفيان في تجديد العهد مرة أخرى، وقد كان يظن أن المسلمين لم يعلموا بنكثهم له، وقد قال أبو بكر لخالد بن الوليد في حرب اليمامة: حاربهم بمثل ما يحاربونك به، السيف بالسيف والرمح بالرمح.

وما رواه الحاكم عن عائشة: «لا يغني حذر من قدر» لا يناقض أخذ

الحذر، فلا يعارض هذه الآية؛ لأن الأمر بالحذر داخل في القدر، فالأمر به لندفع عنا شرَّ الأعداء، لا لندفع القدر ونبطله؛ إذ القدر هو جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات، والحذر من جملة الأسباب، فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده.

﴿فَٱنفِرُواْ﴾؛ أي: فاخرجوا لقتال عدوكم، وانهضوا لمقاومته، ﴿ثُبَاتٍ﴾؛ أي: جماعات بعد جماعات، سرية بعد سرية، ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ﴾: واخرجوا إلى لقائه كلكم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين كوكبة واحدة، والتخيير فيه لولاة الأمور بحسب اجتهادهم، والمراد بادروا كيفما أمكن؛ أي: فانفروا جماعة إثر جماعة، بأن تكونوا فصائل وفرقا إذا كان الجيش كبيراً، أو موقع العدو يستدعي ذلك، أو تنفر الأمة كلها جميعاً إذا اقتضت الحال ذلك بحسب قوة العدو.

والخلاصة: أنكم إما أن تنفروا جماعات جماعات، وإما أن ينفر جميع المؤمنين على الإطلاق بحسب حال العدو.

وامتثال هذا الأمر يقتضي أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد، بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب، ويتمرن عليها، وأن تقتني السلاح الذي تحتاج إليه في هذا النضال، وتتعلم كيفية استعماله في كل زمان بما يناسبه.

وبهذا تعلم أن الحكومة الإسلامية يجب عليها أن تقيم هذا الواجب بنفسها، لا أن تبقى عالة على غيرها وعلى الأمة أن تساعدها عليه، بل تلزمها إياه إذا قصرت فيه، بعكس ما نراه الآن من تراخي الأمم الإسلامية وضعفها وتوانيها في ذلك، حتى طمعت فيها كل الدول التي تجاورها، واجتاحتها من أطرافها، واجتثت كثيراً من أراضيها وأقاليمها، واستأمرت عليها واستعبدتها، وضربت عليها الخراج والجزية، كالشعوب الأرومية الإسلامية في شرق أفريقيا، استعبدها استثمار الحبوش، فعلى الأمة الإسلامية التي استعبدها الاستثمار أن يتوبوا إلى ربهم، ويتمسكوا بدينهم، ويعضوا عليه بالنواجذ، ويتوسلوا إلى ربهم بصالح أعمالهم، ويسألوا الله النصر على أعدائهم الشيوعية، ويستغيثوا بالأمم الإسلامية التي تجاورهم، وأن يأخذوا أهبة الحرب وسلاحها، ويتعلموا

استعمالها، كهولاً وشباناً وغلماناً، بدل ما استغرقوا أعمارهم في آلة الحراثة والزراعة كابراً عن كابر، أفلا تنتبهون أيتها الأمة المستأمرة من سِنة الغفلة والعبودية. أفلا تعلمون أنتم في الحياة البرزخية والحياة البهيمية، بل حياتها أحسن من حياتكم؛ لأنها محبوبة محترمة عند صاحبها، فيا مصيبة عليكم ما أعظمها وما أقبحها، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد شدد دين الإسلام الحنيف أيما تشديد في هذا الأمر، أعني الاستعداد للعدو، فجاء مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وجاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى.

والخطاب في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ لجماعة المؤمنين بحسب الظاهر الشامل للمنافقين وضعفاء الإيمان؛ أي: وإن من عسكر رسول الله ﷺ، ﴿لَمَنْ﴾ وعزتي وجلالي ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾؛ أي: ليتثاقلنَّ ويتأخرنَّ عن الجهاد، ويتخلَّفنَّ عن القتال معكم، وهم المنافقون وضعفاء الإيمان، فالمنافقون يرغبون عن الحرب؛ لأنهم لا يحبون أن يبقى الإسلام وأهله، ولا أن يدافعوا عنه ويحموا بيضته، فهم يبطئون عن القتال، ويبطئون غيرهم عن النفر إليه، والجبناء وضعفة الإيمان يبطئون بأنفسهم عن القتال خوراً وخوفاً من صليل السيوف ومن الكر والفر ومقابلة العدو وهو شاكي السلاح، ثم فصل أحوال هؤلاء الضعفاء فقال: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم﴾ أيها المؤمنون المجاهدون، ونزلت بكم ﴿مُّصِيبَةٌ﴾؛ أي: واقعة من قتل أو هزيمة أو جهد عيش، ﴿قَالَ﴾ ذلك المبطىء فرحاً بما فعل حامداً رأيه شاكراً ربه: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾ بالقعود وأكرمني بالسلامة، ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: حاضراً معهم في المعركة، فيصيبني مثل ما أصابهم من المصائب والشدة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ بالتشديد، وقرأ مجاهد ﴿ليبطئن﴾ بالتخفيف، والقرآتان يحتمل أن يكون الفعل فيهما لازماً؛ لأنهم يقولون: أبطأ وبطأ في معنى

---

(١) البحر المحيط.

بَطُؤَ، ويحتمل أن يكون متعدياً بالهمزة أو التضعيف من بطأ، فعلى اللزوم المعنى: أنه يتثاقل ويتثبط عن الخروج للجهاد، وعلى التعدي يكون: قد ثبط غيره عن الخروج، وأشار له بالقعود، وعلى التعدي أكثر المفسرين.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن حصل لكم أيها المجاهدون فضل، ونعمة من الله سبحانه وتعالى، كفتح وغنيمة، فظفرتم بالعدو، وفتحتم البلاد، فغنمتم وأخذتم السبايا والأسرى.. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك المبطىء والمنافق: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَهُ﴾؛ أي: وبين ذلك المبطىء ﴿مَوَدَّةٌ﴾؛ أي: محبة وصلة في الدين ومعرفة في الصحبة ولا مخالطة أصلاً، وجملة التشبيه معترضة بين الفعل الذي هو ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وبين مفعوله الذي هو قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾؛ أي: ليقولن قول حاسد نادم: يا هؤلاء أتمنى كوني غازياً معهم، ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ أي: فأصيب غنائم كثيرة معهم، وآخذ حظاً وافراً من السبايا، والغرض من جملة التشبيه التعجب[1] كأنه تعالى يقول: انظروا إلى ما يقول هذا المنافق، كأنه ليس بينكم أيها المؤمنون وبين المنافق صلة في الدين، ومعرفة في الصحبة، وقيل: الجملة التشبيهية حال من ضمير ﴿ليقولن﴾؛ أي: ليقولن مشبَّهاً بمن لا معرفة بينكم وبينه، وقيل: هي داخلة في المقول؛ أي: ليقولن المثبط للمثبطين من المنافقين وضعفة المؤمنين، كأن لم تكن بينكم وبين محمد معرفة في الصحبة، حيث لم يستصحبكم في الغزو، حتى تفوزوا بما فاز محمد: يا ليتني كنت معهم، وغرض المثبط حينئذ إلقاء العداوة بينهم وبين رسول الله ﷺ.

ونسبة[2] إصابة الفضل إلى جانب الله تعالى، دون إصابة المصيبة من العادات الشريفة التنزيلية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ وتقديم الشرطية الأولى على الثانية لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق، وأثر نفاقهم فيها أظهر.

---

(١) المراح.
(٢) كرخي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ بفتح اللام، وقرأ الحسن ﴿ليقولن﴾ بضم اللام، أضمر فيه ضمير الجمع على معنى من، وقرأ ابن كثير وحفص ﴿كأن لم تكن﴾ بتاء التأنيث، والباقون بالياء، وقرأ الحسن ويزيد النحوي ﴿فأفوزُ﴾ برفع الزاي عطفاً على كنت، فتكون الكينونة معهم والفوز بالقسمة داخلين في التمني، أو على الاستئناف؛ أي: فأنا أفوز، وقرأ الجمهور بنصب الزاي وهو جواب التمني، والفاء في قوله: ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ رابطة[2] الجواب بشرط مقدر، تقديره: إن لم يقاتل في سبيل الله هؤلاء المثبطون المنافقون.. فليقاتل في سبيل الله، فليجاهد لإعلاء كلمة الله تعالى المؤمنون المخلصون ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: الذين يبيعون الحياة الدنيا ولذاتها بالآخرة، ويبذلون أرواحهم لله تعالى، ويجعلون الآخرة وثوابها ثمناً لها وعوضاً منها.

ثم رغب في القتال بعد الأمر به بذكر الثواب عليه فقال: ﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعته ويجاهد لإعلاء كلمة الله، لا للحمية والمفاخرة ﴿فـ﴾ يظفر به عدوه و﴿يقتل﴾ شهيداً ﴿أَوْ﴾ يظفر هو بعدوه، و﴿يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾؛ أي: نعطيه في كلا الحالين ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثواباً جسيماً من عندنا في الآخرة، خالداً مخلداً في دار الجزاء والنعيم المقيم، وإذا كان الأجر حاصلاً له على كلا التقديرين.. لم يكن عمل أشرف من الجهاد، ونبه بقوله: ﴿فَيُقْتَلْ﴾ أو يغلب على أن المجاهد ينبغي له أن يثبت في المعركة، حتى يكرم نفسه بالشهادة، أو يعز الدين بالظفر والغلبة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة». متفق عليه وهذا لفظ مسلم.

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الشوكاني.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ﴾ بسكون لام الأمر، وقرأت فرقة بكسرها على الأصل، وقرأ الجمهور: ﴿فَيُقْتَلْ﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ محارب بن دثار: ﴿فيقتل﴾ على بناء الفعل للفاعل، وأدغم باء يغلب في الفاء أبو عمرو والكسائي وهشام وخلاد بخلاف عنه، وأظهرها باقي السبعة، وقرأ الجمهور: ﴿نُؤْتِيهِ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرف ﴿يؤتيه﴾ بالياء.

ثم زاد ترغيباً فيه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والاستفهام فيه للتحريض والأمر بالجهاد؛ أي: وأيُّ عذر ثبت لكم أيها المؤمنون يمنعكم أن تقاتلوا في سبيل الله مع المشركين، لتقيموا التوحيد مقام الشرك، وتحلوا الخير محل الشر، وتضعوا العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة، ﴿و﴾ أي شيء منعكم أن تقاتلوا في تخليص ﴿المستضعفين﴾؛ أي: في فك الضعفاء إخوانكم في الدين من أيدي المشركين حالة كونهم ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ الضعفاء ﴿وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾؛ أي: الصبيان، وقيل المراد بالولدان العبيد والإماء، والمراد بالمستضعفين جماعة من المسلمين الذين بقوا بمكة وعجزوا عن الهجرة إلى المدينة، وكانوا يلقون من كفار مكة أذى شديداً، وكان النبي ﷺ يدعو لهم فيقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين»، قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان، ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾؛ أي: وفي تخليص المستضعفين الذين فقدوا النصير والمعين، وتقطعت بهم أسباب الرجاء، فاستغاثوا بربهم ودعوه ليفرج كربهم، ويخرجهم من تلك القرية ـ مكة ـ لظلم أهلها لهم، ويسخر لهم بعنايته من يتولى أمرهم، وينصرهم على من ظلمهم، فيتمكنوا بذلك من الهجرة إليكم، ويرتبطوا بكم بأقوى الروابط، وهي رابطة الإيمان، فهي أقوى من رابطة الأنساب والأوطان، فقالوا في دعوتهم واستغاثتهم: ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا ﴿أَخْرِجْنَا﴾؛ أي: حولنا وانقلنا ﴿مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ وهذه البلدة يعنون مكة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾؛ أي: التي اتصف أهلها وساكنوها بالظلم؛ لأنهم كانوا مشركين، وكانوا يؤذون

(١) البحر المحيط.

المسلمين أشد الإيذاء، ويوصلون إليهم أنواع المكاره والتعذيب، وما أحد من المسلمين فيها قدر على الهجرة، لأنهم يصدونهم عنها، ويعذبون مريديها عذاباً شديداً، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا﴾ يا إلهنا ﴿مِن لَّدُنكَ﴾؛ أي: من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ من المسلمين يتولى أمورنا، ويقوم بمصالحنا، ويحفظ علينا ديننا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا﴾ يا خالقنا ﴿مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾؛ أي: ناصراً من المؤمنين ينصرنا على أعدائنا، وقد استجاب الله دعاءهم فيسر لبعضهم الخروج، وبقي بعضهم إلى أن فتحت مكة، وولى النبي ﷺ عتاب بن أسيد، وكان ابن ثماني عشرة سنة، فكان ينصر المظلومين على الظالمين، وينصف الضعيف من القوي، والذليل من العزيز، وكان الولي[1] هو رسول الله ﷺ، والنصير عتاب بن أسيد.

وما شُرع القتال إلا لعدم حرية الدين، وظلم المشركين للمسلمين، فالقتال قبيح ولا يجيزه العقل السليم إلا لإزالة قبيح أشد منه ضرراً، والأمور بمقاصدها وغاياتها، كما قال تشجيعاً للمجاهدين وترغيباً لهم في الجهاد. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا كلام مستأنف، سيق لترغيب المؤمنين في الجهاد؛ أي: إنما يقاتل الذين آمنوا لأجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ والشيطان؛ أي: إنما يقاتل الذين كفروا لنصرة دين الشيطان وكلمة الباطل، واتباعاً لوسوسته وتزيينه الكفر، فلو ترك المؤمنون القتال.. لغلب الطغيان وعم الفساد، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾. ثم حث مرة أخرى على القتال، وبين لهم ضعف عدوهم فقال: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون وأولياء الرحمن ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وأصحابه الذين زين لهم الشيطان بوسوسته وخداعه الباطل، وأن في الظلم وإهلاك الحرث والنسل شرفاً لهم أيما شرف، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ومكره للمؤمنين ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ بالنسبة إلى مكر الله سبحانه وتعالى للكافرين، فالنصر والظفر لأوليائه، والهزيمة والخذلان للكافرين، فلا تخافوا أولياء الشيطان وخافون إن كنتم مؤمنين.

---

(١) المراح.

ألا ترى أن أهل الخير والدين يبقى ذكرهم الجميل على وجه الدهر، وإن كانوا حال حياتهم في غاية الفقر، وأما الملوك والجبابرة، فإذا ماتوا انقرض أثرهم، ولا يبقى في الدنيا رسمهم.

وقد جرت سنة الله أن الحق يعلو، والباطل يسفل، وأن الذي يبقى هو الأصلح والأمثل، فالذين يقاتلون في سبيل الله يطلبون ما تقتضيه سنة العمران، والذين يقاتلون في سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء في الأرض بغير الحق، وتسخير الناس لأغراضهم وشهواتهم، وسنن العمران تأبى ذلك، فلا يكون لذلك قوة ولا بقاء إلا لنومة أهل الحق عن حقهم، فإذا هم أفاقوا من غفوتهم.. تغلب الحق على الباطل، ورده خاسئاً محسوراً.

على أن الذين يقاتلون في تأييد الحق تتوجه هممهم إلى إتمام الاستعداد، ويكونون أجدر بالثبات والصبر، وفي ذلك من القوة ما ليس في كثرة العدد والعدد.

وهذا في الحروب الدينية التي قد تركها المسلمون منذ أزمان طويلة، ولو وجدت في الأرض حكومة إسلامية، تقيم القرآن، وتحوط الدين وأهله بما أوجبه الله من إعداد العدة للحرب.. لاتخذها أهل المدنية قدوة لهم وإماما في أعمالهم، وما كانت الحمية والعصبية والوطنية ديدناً لهم، فهم في أمد بعيد من النصر على أعدائهم، فيا مصيبة ابتلي المسلمون بها الآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ استفهام[1] تعجيب لرسول الله ﷺ من إحجامهم عن القتال، مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حرصاً عليه، بحيث كانوا يباشرونه كما ينبىء عنه الأمر بكف الأيدي، فإن ذلك مشعر بكونهم بصدد بسطها إلى العدو، والخطاب[2] فيه

(١) أبو السعود.

(٢) المراح.

لجماعة من المسلمين، منهم عبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وقدامة بن مظعون الجمحي، ومقداد بن الأسواد الكندي، وطلحة بن عبيد الله التيمي، كانوا مع النبي ﷺ بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة يلقون من المشركين أذى شديداً، فيشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ ويقولون: إئذن لنا في قتالهم، ويقول لهم رسول الله ﷺ: كفوا أيديكم عن القتل والضرب والاعتداء على الناس، فإني لم أؤمر بقتالهم، واشتغلوا بإقامة الصلاة، والخشوع لله، وإيتاء الزكاة، التي تمكن الإيمان في القلوب، وفيه دليل على أن فرض الصلاة والزكاة كان قبل فرض الجهاد، فلما هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمروا بقتالهم في وقعة بدر.. كرهه بعضهم، لا شكاً في الدين، بل نفوراً عن الإخطار بالأرواح، وخوفاً من الموت بموجب الجبلة البشرية، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾؛ أي: فرض ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾؛ أي: الجهاد في سبيل الله، في السنة الثانية من الهجرة، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: إذا جماعة من الذين سألوا أن يفرض عليهم الجهاد ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: يخافون الكفار أن يقتلوهم، ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: كخوفهم من الله تعالى؛ أي: كما يخافون أن ينزل عليهم بأسه، وإذا للمفاجأة جواب لما؛ أي: فلما كتب عليهم القتال.. فاجأ كَتب القتال خشيتهم من الناس، ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾؛ أي: بل يخافون من الناس خشية وخوفاً أشد وأقوى وأكثر من خشيتهم من الله تعالى، لما كان من طبع البشر من الجبن لا للاعتقاد، ثم تابوا وأهل الإيمان يتفاضلون فيه، ﴿وَقَالُوا﴾ خوفاً من الموت، لا لكراهتهم أمر الله بالقتال، وهذا عطف على جواب لما، وهو إذا الفجائية وما في حيزها، ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ﴾ وفرضت ﴿عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ والجهاد في هذا الوقت ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: هلا أخرتنا إلى أجل قريب ومدة قريبة، حتى نموت بآجالنا، ولا نقتل فيفرح بنا الأعداء، وذكر في حرف ابن مسعود: لولا أخرتنا إلى أجل قريب فنموت حتف أنفنا ولا نقتل فتسر بذلك الأعداء، ذكره أبو حيان في «البحر» وهذا القول استزادة في مدة الكف، ويجوز أن يكون هذا مما نطقت به ألسنة حالهم، من غير أن يتفوهوا به صريحاً، وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم شبهتهم فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد جواباً لهذا السؤال عن حكمة فرض القتال

عليهم، من غير توبيخ؛ لأنه لا للاعتراض لحكمه تعالى وترغيباً فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقي، ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: منفعة الدنيا ولذاتها ﴿قَلِيلٌ﴾ لأنه سريع الزوال، ووشيك الانصرام، وإن أخرتم إلى ذلك الأجل ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾؛ أي: ثوابها الباقي وجزاؤها، لا سيما المنوط بالقتال، ﴿خَيۡرٌ﴾ من ذلك المتاع الفاني، ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الله تعالى، وامتثل أوامره، واجتنب الكفر والفواحش؛ لأن نعم الأخرة كثيرة، ومؤبدة وصافية عن كدورات القلوب، ويقينية بخلاف نعم الدنيا؛ فإنها مشكوكة عاقبتها في اليوم الثاني، ومشوبة بالمكاره، ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾؛ أي: ولا تنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء، ولو كان قدر فتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قال في «التسهيل»: إن الآية في قوم من الصحابة كانوا قد أمروا بالكف عن القتال، فتمنوا أن يؤمروا به، فلما أمروا به.. كرهوه، لا شكاً في دينهم، ولكن خوفاً من الموت، كما مر هذا القول، وقيل: الآية في المنافقين، وهو أليق بسياق الكلام، واختار القرطبي وأبو حيان هذا القول وهو الأرجح، قال في «البحر»: الظاهر أن القائلين هذا هم منافقون؛ لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان، ولهذا جاء السياق بعده: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾، وهذا لا يصدر إلا من منافق انتهى.

وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير[1]: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ بالياء، وباقي السبعة بالتاء على الخطاب، وهو التفات، ثم رغبهم في القتال، وبين لهم أن الموت مصير كل شيء، فقال: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾؛ أي: في أي مكان وجدتم وحصلتم فيه، سواء كان براً أو بحراً، سفراً أو حضراً ﴿يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ أي: يأخذكم الموت الذي تكرهون لأجله القتال، زعماً منكم أنه من محله، ويقع بكم لا محالة، ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ﴾ متحصنين منه ﴿فِي بُرُوجٖ﴾ وحصون ﴿مُّشَيَّدَةٖ﴾؛ أي: مطولة مرتفعة قوية بالجص والنورة، فلا تخشوا القتال لأجله، ولا تتمنوا هذا التأخير الذي سألتم؛

(١) البحر المحيط.

لأنه لا فائدة فيه؛ لأنه لا منجا ولا ملجأ من الموت، سواء أكان بقتل أم بغيره، فلا فائدة في خور الطبع وحب الحياة، وقال زهير:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ ٱلْمَنَايَا يَنَلْنَهُ   وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ ٱلسَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وقرأ طلحة بن سليمان[1]: ﴿يدركُكُم﴾ برفع الكافين، وخرجه أبو الفتح على حذف فاء الجواب؛ أي: فيدرككم الموت، أو على أنه كلام مستأنف، وأينما متصل بلا تظلمون، وهي قراءة ضعيفة.

والخلاصة[2]: أن الموت أمر محتم لا مهرب منه، فهو لا بد أن يدرككم في أي مكان، ولو تحصنتم في شواهق القصور التي يسكنها ذوو الثراء والنعمة، أو في القلاع والحصون التي تقطنها حامية الجند، وإذا كان الموت لا مفر منه، وكان المرء قد يقتحم غمار الوغى ولا يصاب بالأذى، وقد يموت المعتصم في البروج والحصون، وهو في غضارة العيش.. فلا عذر لكم أيها المثبطون المبطئون، ولماذا تختارون لأنفسكم الحقير على العظيم، ولماذا لا تدافعون عن الحق وتمنعون الشر أن يفشو، حتى تستحقوا مرضاة الله وسعادة الآخرة، ولماذا تكرهون القتال وتجبنون، وتخافون الناس وتتمنون البقاء، أليس هذا بضعف في الدين، وركة في العقل، وخوراً في العزيمة، تؤاخذون بها، وتقوم عليكم بها الحجة.

ثم ذكر سبحانه وتعالى شأناً آخر من شؤونهم، أشد دلالة على الحمق وضعف العقل ومرض القلب، فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؛ أي: اليهود والمنافقين ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أي: خصب ورخص السعر وتتابع الأمطار، ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ﴾ الحسنة ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، قال المفسرون: كانت المدينة مملوءة من النعم وقت مقدم رسول الله ﷺ، فلما ظهر عناد اليهود والمنافقين على دعائه إياهم إلى الإيمان.. أمسك الله عنهم بعض الإمساك، كما جرت عادته تعالى في جميع الأمم، فعند

(١) البحر المحيط والبيضاوي.

(٢) المراغي.

هذا قالوا: ما رأينا أعظم شؤماً من هذا الرجل، نقصت ثمارنا ومزارعنا، وغلت أسعارنا منذ قدم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: جدوبة وشدة وغلاء سعر.. ﴿يَقُولُوا﴾؛ أي: يقول اليهود والمنافقون ﴿هَٰذِهِ﴾ السيئة ﴿مِنْ عِندِكَ﴾؛ أي: هذه من شؤم محمد وأصحابه؛ أي: وإن تصبهم نعمة.. نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية.. أضافوها إليك، كما حكى الله عن قوم موسى بقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ وعن قوم صالح بقوله: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، وهذا زعم باطل منهم، فكل من النعمة والبلية من عند الله تعالى، خلقاً وإيجاداً، يقع في ملكه بحسب السنن التي وضعها، والأسباب والمسببات التي أوجدها، ﴿قُلْ﴾ أجبهم يا محمد رداً لزعمهم الباطل، وإرشاداً لهم إلى الحق: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ أي: كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقاً وإيجاداً، من غير أن يكون لي مدخل في وقوع شيء منهما بوجه من الوجوه كما تزعمون، بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلاً، ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلي عقوبة له، ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾؛ أي: وإذا كان الأمر كذلك.. فأي شيء حصل لهؤلاء اليهود والمنافقين؟ وماذا دهاهم في عقولهم حالة كونهم ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

أي: لا يقربون أن يفهموا حديثاً من الأحاديث أصلاً، فقالوا ما قالوه، إذ لو فهموا شيئاً من ذلك.. لفهموا أن الكل من عند الله تعالى، فالنعمة منه تعالى بطريق التفضل، والبلية منه تعالى بطريق العقوبة على ذنوب العباد، عدلاً منه تعالى، والاستفهام هنا تعجبي مضمن معنى الإنكار.

وإذا[1] كانوا قد حرموا هذا الفقه من كل حديث.. فما أحراهم أن يحرموه من حديث يبلغه الرسول عن ربه، في الإخبار عن نظم الاجتماع، وارتباط الأسباب بالمسببات، وعما أحاط الله به المصطفين الأخيار من وافر الفضل، وخصهم به من جميل الرعاية، فتلك الحكم العالية لا تُنال إلا بفضل الروية،

---

(١) المراغي.

وطول الأناة والتدبير، ومن وصل إلى هذا القدر من الفهم. . لا يقول إن السيئة تقع بشؤم أحد، بل ينسب كل شيء إلى سببه.

وفي الآية إيماء إلى أن حصيف الرأي يجب أن يطلب فقه القول دون الأخذ بالجمل والظواهر، إذ من قنع بذلك. . بقي في عماية، ويظل طول دهره غِراً جاهلاً بما يحيط به من نظم هذا العالم.

ووقف أبو عمرو والكسائي على قوله[1]: ﴿فما﴾، ووقف الباقون على ﴿اللام﴾ في قوله: ﴿فمال﴾ إتباعاً للخط، ولا ينبغي تعمد ذلك، لأن الوقف على ﴿فما﴾ فيه قطع عن الخبر، وعلى اللام فيه قطع عن المجرور دون حرف الجر، وإنما يكون ذلك لضرورة انقطاع النفس.

والخطاب في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ للنبي ﷺ، ولكن المراد غيره؛ أي: أيُّ شيء أصابك وأتاك أيها الإنسان ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾؛ أي: من نعمة من النعم التي أنعم الله بها عليك ﴿فَـ﴾ هي أتت ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى بالذات تفضلاً وإحساناً منه، من غير استيجاب لها من قبلك، ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾؛ أي: وأيُّ شيء أصابك وأتاك من بلية من البلايا ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾؛ أي: فتلك السيئة أتت من نفسك، بسبب اقترافك المعاصي الموجبة لها، وإن كان الخلق من الله، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها، وحتى انقطاع شسع نعله، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

وحاصل المعنى[2]: أن كل حسنة تصيبك أيها المؤمن فهي من فضل الله وجوده، فهو الذي سخر لك المنافع التي تتمتع بها وتحسن لديك، فقد سخر لك الهواء الذي يحفظ الحياة، والماء العذب الذي يمد كل الأحياء وأزواج النبات والحيوان وغيرهما من مواد الغذاء، وأنعم عليك بوسائل الراحة والهناء، وكل سيئة تصيبك فهي من نفسك، فإنك بما أوتيت من قدرة على العمل، واختيار في

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

درء المفاسد، وجلب المنافع، وترجيح لبعض المقاصد على بعض، قد تخطىء في معرفة ما يسوء وما ينفع؛ لأنك لا تضبط إرادتك وهواك، ولا تحيط علماً بالسنن والأسباب، فأنت ترجح بعضاً على بعض، إما بالهوى، أو قبل أن تحيط خبراً بمعرفة النافع والضار، فتقع فيما يسوء.

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم، وأن عصيانه مما يجلب النقم، وطاعته إنما تكون باتباع سننه، وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله، وهذه الآية أصل من أصول الاجتماع وعلم النفس، وفيها شفاء للناس من خرافات الوثنية، واستدراجات الطاغوتية، وكرامات الشيطانية، وارتفاع وتكريم للنفس الإنسانية.

وفي مصحف ابن مسعود[1]: ﴿فمن نفسك وإنما قضيتها عليك﴾، وحكى أبو عمرو أنها في مصحف ابن مسعود: ﴿وأنا كتبتها﴾، وروي أن ابن مسعود وأبياً قرأ: ﴿وأنا قدرتها عليك﴾، وعنى بالنفس هنا المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، وقرأت عائشة رضي الله عنها: ﴿فَمَن نفسُك﴾ بفتح الميم ورفع السين، فـ﴿مَن﴾ استفهام معناه الإنكار؛ أي: فمن نفسك حتى ينسب إليها فعل، المعنى: ما للنفس في الشيء فعل.

فائدة: فإن قلت[2] إن قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ يعارض قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ الواقع رداً لقول المشركين ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ . . .﴾ الآية؟

فالجواب: أن قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي إيجاداً وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾؛ أي: من كسبك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

والحاصل: أنك إذا نظرت إلى الفاعل الحقيقي. . فالكل منه، وإذا نظرت

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

إلى الأسباب.. فما هي إلا من شؤم ذنب نفسك، يوصله إليك بسبب مجازاة وعقوبة لا من محمد ﷺ، وقال[1] بعض أهل العلم: والفرق بين ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أن من عند الله أعم، يقال: فيما كان برضاه وبسخطه وفيما يحصل وقد أمر به أو نهى عنه، ولا يقال: هو من الله إلا فيما كان برضاه وبأمره، وبهذا النظر قال عمر: إن أصبت.. فمن الله، وإن أخطأت.. فمن الشيطان انتهى.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: إلى الناس كافة حالة كونك ﴿رَسُولًا﴾؛ أي: مرسلاً إليهم بشريعتنا، بيان لجلالة منصبه ومكانته عند الله تعالى، بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه بناء على جهلهم بشأنه الجليل؛ أي: ليس لك إلا الرسالة والتبليغ وقد فعلت ذلك وما قصرت، وليس لك دخل فيما يصيب الناس من الحسنات والسيئات؛ لأنك لم ترسل إلا للتبليغ والهداية، لا للتصرف في نظم الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها، فما زعمه أولئك الجاهلون من أن السيئة تصيبهم بشؤمك محض خرافة، لا مستند لها من عقل أو نقل، ومخالف لما بينه الله تعالى من وظيفة الرسل.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ أي: وكفى الله سبحانه وتعالى شهيداً على جدك وعدم تقصيرك في أداء الرسالة وتبليغ الوحي، فأما حصول الهداية فليس إليك بل إلى الله تعالى، أو كفى الله شهيداً على أنك أرسلت للناس كافة بشيراً ونذيراً، لا مسيطراً ولا جباراً، ولا مغيراً لنظم الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فلا ينبغي لأحد من الناس، عربهم وعجمهم أن يخرج عن طاعتك واتباعك.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف

(١) البحر المحيط.

تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة، ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿خُذُوا﴾: فعل وفاعل والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿حِذْرَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿فَٱنفِرُوا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿ٱنفِرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿خُذُوا﴾. ﴿ثُبَاتٍ﴾: حال من واو ﴿ٱنفِرُوا﴾ ولكن في تأويل مشتق، تقديره: حالة كونكم متفرقين، ﴿أَوِ﴾: حرف عطف، ﴿ٱنفِرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱنفِرُوا﴾ الأول، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من واو ﴿ٱنفِرُوا﴾، ولكن بعد تأويله بمشتق، تقديره: حالة كونكم مجتمعين، والمعنى: بادروا إلى الخروج للقتال كيفما أمكن.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾.

﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾، ﴿لَمَن﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿من﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل النصب اسم إن مؤخر عن خبرها، تقديره: وإن من ليبطئن لكائن منكم، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿يبطئن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿من﴾، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، تقديره: وإن الذي أقسم والله ليبطئن لكائن منكم، وجملة القسم وجوابه صلة ﴿مَنْ﴾ إن قلنا ﴿مَنْ﴾ موصولة، أو صفة لها إن قلنا نكرة موصوفة، والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ وبذلك[1] علم أن جملة القسم مع جوابها خبرية مؤكدة بالقسم، فلا يمتنع وقوعها صلة للموصول، أو صفة للموصوف، والإنشائية إنما هي جملة القسم، أعني: أقسم بالله، كما ذكره الشيخ سعد الدين، واللام في ﴿لَمَنْ﴾ لام ابتداء، دخلت على اسم ﴿إن﴾؛ لوقوع الخبر فاصلاً.

---

(١) الفتوحات.

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

﴿فَإِنْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفصيل، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾، على كونه فعل شرط لها، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من يبطئن، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مع جوابها معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ مفصلة لها، ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ. . .﴾ إلى أخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿عَلَىَّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنْعَمَ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب مبني على السكون، والظرف متعلق بـ﴿أنعم﴾، ﴿لَمْ أَكُن﴾: جازم وفعل ناقص، واسمه ضمير يعود على المبطىء، ﴿مَّعَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾: وهو خبر ﴿أَكُن﴾، وجملة الكون في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ﴾ فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿فَضْلٌ﴾، ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: لام القسم مؤكدة للاَّم الأولى، ﴿يقولنّ﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على المبطىء، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، تقديره: ولئن أصابكم فضل من اللَّه.. يقول: يا ليتني كنت معهم، وإنما جعلنا المذكور جواب القسم، وجعلنا جواب الشرط محذوفاً جرياً على القاعدة إنه إذا اجتمع شرط وقسم متواليان، ولم يتقدم عليهما ذو خبر.. جعل المذكور جواب المتقدم منهما، وقدر جواب المتأخر منهما، كما قال ابن مالك:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ
وَإِنْ تَوَالَيَا وَقَبْلُ ذُوْ خَبَرْ فَٱلشَّرْطَ رَجِّحْ مُطْلَقاً بِلاَ حَذَرْ

﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً تقديره: كأنه، ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَكُنۢ﴾: مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وقرىء بالتاء نظراً للفظ المودة، وبالياء؛ لأن المودة والود بمعنى واحد، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر لـ﴿تَكُن﴾ مقدم على اسمها، ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾: معطوف على ﴿بَيْنَكُمْ﴾، والضمير فيه عائد على المبطىء، وجملة تكن في محل الرفع خبر ﴿كَأَن﴾، وجملة ﴿كَأَن﴾ من اسمها وخبرها: جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القول ومقوله، والتقدير: يقول يا ليتني، وقيل: ليس بمعترض بل هو محكي بالقول؛ أي: يقول كأن لم تكن، وحينئذ فالضمير في ﴿بَيْنَكُمْ﴾ عائد على المنافقين، وفي ﴿بينه﴾ عائد على محمد ﷺ، وقيل جملة ﴿كَأَن﴾ حال من ضمير الفاعل في: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، ﴿مَوَدَّةٌ﴾: اسم ﴿تَكُنۢ﴾ مؤخر. ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، والمنادى محذوف تقديره: يا قوم، وجملة النداء في محل النصب مقول القول، ﴿ليتني﴾ ﴿ليت﴾: حرف تمني ونصب، و﴿الياء﴾: اسمها، ﴿كُنتُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر كان، وجملة كان في محل الرفع خبر ليت، وجملة ليت في محل النصب مقول القول، ﴿فَأَفُوزَ﴾: الفاء عاطفة سببية، ﴿أفوز﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء السببية الواقعة في جواب التمني، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على المبطىء، ﴿فَوْزًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ﴿فَوْزًا﴾، وجملة ﴿أفوز﴾: صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى تقديره: أتمنى كوني معهم ففوزي فوزاً عظيماً، وقرىء ﴿فأفوزُ﴾ بالرفع على الاستئناف على تقدير: فأنا أفوز.

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾.

﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب شرط محذوف، تقديره: إن بطأ وتأخر

هؤلاء عن القتال.. فليقاتل في سبيل الله، و﴿اللام﴾: حرف طلب وجزم، ﴿يقاتل﴾: مجزوم باللام، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يقاتل﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر، في محل الرفع فاعل، والجملة في محل الجزم جواب للشرط المقدر، وجملة الشرط المقدر مستأنفة، ﴿يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَشْرُونَ﴾.

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب أو هما، ﴿يُقَٰتِلْ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿من﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُقَٰتِلْ﴾، ﴿فَيُقْتَلْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿يُقتَل﴾: فعل مضارع مغير الصيغة معطوف على ﴿يُقَٰتِلْ﴾ مجزوم بـ﴿من﴾، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع، ﴿يَغْلِبْ﴾: فعل مضارع مبني للفاعل معطوف على ﴿يُقتَل﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقتران الجواب بحرف التنفيس. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس للاستقبال البعيد. ﴿نُؤْتِيهِ﴾: فعل مضارع ومفعول أول مرفوع لعدم صلاحية لفظه للجواب لاقترانه بحرف التنفيس، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الجزم جواب ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والتقدير: أي شيء ثابت لكم، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تُقَٰتِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير المخاطبين، والعامل في هذه الحال الاستقرار المقدر، والتقدير: أيُّ شيء مستقر لكم حالة

كونكم غير مقاتلين، وفي «الفتوحات» وجملة قوله: ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيها وجهان.

أظهرهما: أنها في محل نصب على الحال؛ أي: ما لكم غير مقاتلين، أنكر عليهم أن يكونوا على غير هذه الحالة، وقد صرح بالحال بعد مثل هذا التركيب في قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ وقالوا في مثل هذه الحال: إنها حال لازمة؛ لأن الكلام لا يتم بدونها، وفيه نظر، والعامل في هذه الحال الاستقرار المقدر، كقولك مالك ضاحكاً.

والوجه الثاني: أن الأصل: وما لكم في أن لا تقاتلوا، فحذفت ﴿في﴾ فبقي أن لا تقاتلوا، فجرى الخلاف المشهور، ثم حذفت أن الناصبة، فارتفع الفعل بعدها، كقوله: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. اهـ. «سمين».

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: معطوف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولكنه على تقدير مضاف تقديره: وفي تخليص المستضعفين من أيدي الكفار، ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿المستضعفين﴾، ﴿وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلرِّجَالِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿المستضعفين﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف وجملة النداء مقول القول، ﴿أَخْرِجْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة جواب النداء على كونها مقول القول، ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَخْرِجْنَا﴾، ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه، ﴿ٱلظَّالِمِ﴾: صفة للقرية، ﴿أَهْلُهَا﴾: مرفوع به على الفاعلية، وأل في ﴿ٱلظَّالِمِ﴾ موصولة بمعنى: التي ظلم أهلها، فالظالم موافق للقرية إعراباً ولما بعده معنى؛ لأنه نعت سببي. ﴿وَٱجْعَل﴾: فعل دعاء وفاعله ضمير يعود على الله، وهو معطوف على

﴿أَخْرِجْنَا﴾. ﴿لَّنَا﴾: جار ومجرور في محل المفعول الأول لـ﴿جعل﴾، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿وَلِيًّا﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها فيعرب حالاً، ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول ثان لجعل، ﴿وَاجْعَل﴾: معطوف على ﴿أَخْرِجْنَا﴾. ﴿لَّنَا﴾: في محل النصب مفعول أول، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: حال من ﴿نَصِيرًا﴾ وهو مفعول ثان لجعل.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ءَامَنُوا﴾: صلته، ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾: خبره والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿كَفَرُوا﴾: صلته، ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿فِى سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾. ﴿فَقَٰتِلُوا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره إذا عرفتم أن الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله... إلخ، وأردتم بيان ما هو لازم لكم.. فأقول لكم: ﴿قاتلوا﴾: فعل وفاعل. ﴿أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَٰنِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ﴾: ناصب ومنصوب ومضاف إليه، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على كيد الشيطان، ﴿ضَعِيفًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التعجبي، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على كل مخاطب، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَ﴾، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾: نائب فاعل محكي، وجملة ﴿قِيلَ﴾: صلة الموصول، والعائد

ضمير لهم، وإن شئت قلت: ﴿كُفُّوٓاْ﴾: فعل وفاعل، ﴿أَيۡدِيَكُمۡ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على ﴿كُفُّوٓاْ﴾، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿كُفُّوٓاْ﴾.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَيۡهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡقِتَالُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿إِذَا﴾: حرف مفاجأة رابطة لجواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب على الأصح، كما هو مذكور في كتب النحو، ﴿فَرِيقٞ﴾: مبتدأ، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور صفة له، وهو المسوغ للابتداء، ﴿يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة ﴿كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لمصدر محذوف، تقديره: يخشون الناس خشية كائنة كخشية الله، وإضافة خشية إلى لفظ الجلالة من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ أي: كخشيتهم الله، ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف بمعنى بل، ﴿أَشَدَّ﴾، معطوف على ﴿خشية الله﴾ مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل، ﴿خَشۡيَةٗ﴾: تمييز له، أو ﴿أَشَدَّ﴾: معطوف على محل الجار والمجرور في ﴿كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾، و﴿خَشۡيَةٗ﴾: تمييز له، أو ﴿أَشَدَّ﴾: منصوب على الحال من ﴿خشية﴾ المذكور بعده؛ لأنه نعت نكرة قدمت عليها، و﴿خَشۡيَةٗ﴾: معطوف على محل الجار والمجرور في: ﴿كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾، والتقدير: يخشون الناس كخشية الله بل خشية أشد من خشية الله، ﴿وَقَالُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾. ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿لِمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَتَبۡتَ﴾ وهو فعل وفاعل، ﴿عَلَيۡنَا﴾: جار ومجرور

متعلق بـ﴿كُتِبَ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿ٱلْقِتَالَ﴾: مفعول به لـ﴿كُتِبَتَ﴾.

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلاّ. ﴿أَخَّرْتَنَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿أَخَّرْتَنَآ﴾، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا﴾: إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿قَلِيلٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، ﴿لِّمَنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿ٱتَّقَىٰ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول والعائد ضمير الفاعل، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُظْلَمُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿فَتِيلًا﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: تجزون فيها؛ أي: في الآخرة ولا تظلمون فتيلاً، والجملة المحذوفة مع المعطوفة عليها في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾.

﴿أَيْنَمَا﴾: ﴿أين﴾: اسم شرط جازم في محل النصب على الظرفية المكانية. ﴿ما﴾: زائدة، والظرف متعلق بـ﴿تَكُونُوا﴾، ﴿تَكُونُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿أَيْنَمَا﴾، على كونه فعل شرط لها، وكان هنا تامة، ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، مجزوم بـ﴿أَيْنَمَا﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿أَيْنَمَا﴾: مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾: الواو عاطفة، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بمحذوف خبر كان، وجملة كان فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لو﴾ معلوم مما قبله، تقديره: ولو كنتم في بروج مشيدة لأدرككم الموت، وجملة ﴿لو﴾

معطوفة على جملة محذوفة مثلها، تقديرها: لو لم تكونوا في بروج مشيدة لأدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة... إلخ.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿يَقُولُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مقول محكى وإن شئت قلت: ﴿هَٰذِهِۦ﴾: مبتدأ. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُوا﴾.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، مجزوم بـ﴿إن﴾، ﴿يَقُولُوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول القول، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿ما﴾: اسم استفهام تعجبي في محل الرفع مبتدأ. ﴿اللام﴾: حرف جر، وفصلت عن المجرور بها تبعاً لخط المصحف العثماني، وفي غير المصحف متصلة بمجرورها وجوباً صناعياً. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: في محل الجر بها، ﴿ٱلْقَوْمِ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه، الجار والمجرور في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، أو معترضة بين البيان والمبين، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَكَادُونَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يَفْقَهُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿حَدِيثًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَفْقَهُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿يَكَادُونَ﴾، وجملة

﴿يَكَادُونَ﴾ في محل النصب حال من اسم الإشارة، والعامل فيها ما في الظرف من معنى الاستقرار، **والمعنى**: وحيث كان الأمر كذلك فأيُّ شيء حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثاً. ويصح[1] أن تكون جملة ﴿لَا يَكَادُونَ﴾: مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال نشأ عن الاستفهام، كأنه قيل: ما بالهم وماذا يصنعون حتى يتعجب منه أو يسأل عن سببه فقيل لا يكادون يفقهون حديثاً من الأحاديث، فيقولون ما يقولون، إذ لو فهموا شيئاً من ذلك لفهموا هذا النص، وما في معناه، وما هو أوضح منه من النصوص الناطقة من أن الكل من عند الله تعالى، وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والإحسان، والبلية منه بطريق العقوبة على ذنوب العباد.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

﴿مَا﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما. ﴿أَصَابَكَ﴾: فعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿مَآ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿أَصَابَكَ﴾. ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية، ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو كائن من الله، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَآ﴾، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَآ﴾ الشرطية مستأنفة، وقال أبو البقاء[2]: ولا يصح أن تكون ﴿مَآ﴾ هنا موصولة؛ لأن ذلك يقتضي أن يكون المصيب لهم ماضياً مخصصاً، والمعنى على العموم، والشرط أشبه وأوفق، والتقدير: فهو من الله، والمراد بالآية الخصب والجدب، ولذلك لم يقل أصابت انتهى. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: اسم شرط، أو اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب الجار والمجرور الآتي. ﴿أَصَابَكَ﴾: فعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿مَآ﴾، وفاعله

---

(١) الفتوحات. (٢) العكبري.

ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، أو يقال: الجملة صلة الموصول إن قلنا ﴿مَآ﴾ موصولة. ﴿مِن سَيِّئَةٍ﴾: حال من فاعل ﴿أَصَابَكَ﴾، ﴿فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر المبتدأ إن قلنا ﴿ما﴾: موصولة، أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فهي كائنة من نفسك، والجملة في محل الجزم جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، إن قلنا إنها شرطية، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾. ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿رَسُولًاۚ﴾: حال مؤكدة من كاف ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ أي: ذا رسالة، ويجوز أن يكون مصدراً؛ أي إرسالاً. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل. ﴿شَهِيدًا﴾: حال من الجلالة والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ الحذر بكسر أوله وسكون ثانيه، والحذر بفتحتين كالمثل والمثل، كلاهما مصدر معناهما واحد: الاحتراس والاستعداد لاتقاء شر العدو، والتحفظ والتيقظ، وفي الكلام مبالغة، كأنه جعل الحذر آلة يقي بها نفسه، وقيل هو ما يحذر به من السلاح والخدم.

﴿فَٱنفِرُواْ﴾ النفر: الانزعاج والفزع من الشيء، وفي «المصباح»: نفر نفراً من باب ضرب في اللغة العالية، وبها قرأ السبعة، ونفر نفوراً من باب قعد لغة، وقرىء بمصدرها في قوله تعالى: ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ والنفير مثل النفور والاسم النفر بفتحتين انتهى.

﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع ثبة: وهي الجماعة من الرجال فوق العشرة إلى المئة، والسرية الجماعة أقلها مئة وغايتها أربع مئة، والمنسر من أربع مئة إلى ثمان مئة، والجيش من ثمان مئة إلى أربعة آلاف، والجحفل ما زاد على ذلك، وفي «السمين»: ﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع ثبة، ووزنها في الأصل فعلة كحطمة، فحذفوا لامها، وعوضوا عنها تاء التأنيث، وهل عينها واو ثبوة أو ياء ثبية؟ هناك قولان:

حجة القول الأول: أنها مشتقة من ثَبَا يَثْبُو، كحلا يحلو؛ أي: اجتمع.

وحجة الثاني: أنها مشتقة من ثبيت على الرجل إذا أثنيت عليه، كأنك جمعت محاسنه، ويجمع بالألف والتاء، وبالواو والنون، ويجوز في فائها حين جمع على ثبين الضم والكسر، وتصغيره ثبيوة على اللغة الأولى، كما تقول في سه سييهة، وعلى اللغة الثانية. ثبية.

﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ يقال: أبطأ وبطأ بمعنى؛ أي: تأخر وتثاقل، والثلاثي منه من باب قرب، والبطء التأخر عن الانبعاث في السير، وقد يستعمل أبطأ وبطأ بالتشديد متعديين، وعليه فالمفعول هنا محذوف؛ أي: ليبطئن غيره؛ أي: يثبطه ويجبنه عن القتال، ويقال أبطأ وبطؤ مثل أسرع وسرع مقابله، وبطآن اسم فعل بمعنى بطؤ.

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سبيل الله هي تأييد الحق، والانتصار له بإعلاء كلمة الدين، ونشر دعوته، ودفاع الأعداء إذا هددوا أمتنا، أو أغاروا على أرضنا، أو نهبوا أموالنا، أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس. ﴿يَشْرُونَ﴾: يبيعون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾، ﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: جمع وليد، وهو الصبي الصغير، وفي «السمين» الولدان: جمع وليد، وقيل جمع ولد، والمراد بهم الصبيان، وقيل الأرقاء، يقال للعبد وليد، وللأمة وليدة، فغُلِّب المذكر على المؤنث لاندراجه فيه. ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾: البروج المشيدة - واحدها برج - القصور العالية المطلية بالشيد، وهو الجص، أو الحصون والقلاع المتينة التي تعتصم فيها حامية الجند، وفي «أبي السعود»: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾؛ أي: في حصون رفيعة أو قصور محصنة، وقال السدي وقتادة: بروج السماء، ويقال شاد البناء وأشاده وشيده؛ أي: رفعه، وشيد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجبس، وفي «المصباح»: الشيد الجص، وشدت البيت أشيده - من باب باع - بنيته بالشيد، فهو مشيد، وشيدته تشييداً إذا طولته ورفعته. ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أي: شيء يحسن عند صاحبه كالرضا، والخصب والظفر بالغنيمة. ﴿سَيِّئَةٌ﴾ هي ما تسوء صاحبها كالشدة والبأساء والضراء والهزيمة والجرح والقتل. ﴿يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ يفهمون كلاماً يوعظون به.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع.

فمنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، وفي قوله: ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

ومنها: إسناد الفعل إلى ما لا يصح وقوعه منه حقيقة في: ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، و﴿أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ﴾.

ومنها: جعل الشيء من الشيء وليس منه لمناسبة في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾.

ومنها: الاعتراض على قول الجمهور في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لما يناله من النعيم في الآخرة وفي ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ استعار الطريق للاتباع وللمخالفة، وفي: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ أطلق كف اليد الذي هو مختص بالإجرام على الإمساك عن القتال.

ومنها: الاستفهام الذي معناه الاستبطاء والاستبعاد في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾.

ومنها: الاستفهام الذي معناه التعجب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟﴾.

ومنها: التجوز بفي التي للوعاء عن دخولهم في الجهاد.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ في قراءة النون.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾، و﴿يُقَٰتِلُونَ﴾، و﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، و﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾، و﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾، وفي اسم ﴿الله﴾.

ومنها: الطباق اللفظي في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

ومنها: المعنوي في قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طاعته، وفي قوله: ﴿سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ معصيته.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وفي ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

ومنها: التجوز بإسناد الفعل إلى غير فاعله في قوله: ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾، وفي ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: إيقاع أفعل التفضيل حيث لا مشاركة في قوله: ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[1] فيما تقدم بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول، وبين جزاء المطيع، وأحوال الناس في هذه الطاعة بحسب قوة الإيمان وضعفه، ثم أمر بالقتال، وبين مراتب الناس في الامتثال له.. أعاد هنا الأمر بالطاعة، وبين أنها أولاً وبالذات لله تعالى ولغيره بالتبع، وبين ضروب مراوغة الضعفاء والمنافقين.

قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية قبلها تثبيطهم عن القتال، واستطرد من ذلك إلى أن الموت يدرك كل أحد، ولو اعتصم بأعظم معتصم، فلا فائدة في الهرب من القتال، وأتبع ذلك بما أتبع من سوء خطاب

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

المنافقين للرسول عليه السلام، وفعلهم معه من إظهار الطاعة بالقول، وخلافها بالفعل، وبكتهم في عدم تأملهم ما جاء به الرسول عليه السلام من القرآن الذي فيه كتب عليهم القتال.. عاد إلى أمر القتال، وهكذا عادة كلام العرب تكون في شيء ثم تستطرد من ذلك إلى شيء آخر له به مناسبة وتعلق، ثم تعود إلى ذلك الأول.

قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما أمر[1] نبيه عليه السلام أن يحرض المؤمنين على الجهاد، وذكر أنه ليس عليه وزر من تمرد وعصى.. بين في هذه الآية أنهم حين أطاعوك، ولبوا دعوتك، أصابهم من هذه الطاعة خير كثير، وأن لك من هذا الخير نصيباً تستحق عليه الأجر؛ لأنك قد بذلت الجهد في ترغيبهم فيه، بجعل نفسك شفيعاً ونصيراً لهم في الوصول إلى تحصيل هذه الأغراض الشريفة.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها ظاهرة: وهي أنه تعالى لما ذكر أن الله كان على كل شيء حسيباً.. أردفه بالإعلام بوحدانية الله تعالى، والحشر والبعث من القبور للحساب، ذكره أبو حيان في «البحر».

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أحبني فقد أحب الله»، فقال بعض المنافقين: ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه رباً، كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم رباً، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه مسلم[3] عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) لباب النقول.

عنهما قال: لما اعتزل رسول الله ﷺ نساءه.. قال: دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصىٰ ويقولون طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، قال عمر: لأعلمن ذلك اليوم، فذكر الحديث، وفيه ـ بعد استئذانه على رسول الله ﷺ ـ فقلت: أطلقتهن يا رسول الله؟ قال: «لا»، قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد، والناس ينكتون بالحصى يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فأنزل وأخبرهم أنك لم تطلقهن، قال: «نعم إن شئت»، فذكر الحديث، وفيه: فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ وكنت أنا استنبطت ذلك، وأنزل الله تعالى آية التخيير.

قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ...﴾ الآية، نزلت هذه الآية[1] في مواعدة رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وذلك أن رسول الله ﷺ واعده موسم بدر الصغرى بعد حرب أحد، وذلك في ذي القعدة، فلما بلغ الميعاد.. دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، فكرهه بعضهم فأنزل تعالى هذه الآية: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني لا تدع جهاد العدو، والانتصار للمستضعفين من المؤمنين، لا تكلف إلا نفسك.

التفسير وأوجه القراءة

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ، ويوافقه فيما أمر به، ونهى عنه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، وذلك لأنه سبحانه وتعالى هو الآمر والناهي في الحقيقة، والرسول ﷺ إنما هو مبلغ للأمر والنهي، فليست الطاعة له بالذات، وإنما هي لمن بلغ عنه، إذ قد جرت سنته سبحانه وتعالى أن لا يأمر الناس، ولا ينهاهم إلا بواسطة رسل منهم، يفهمون عنهم ما يوحيه تعالى إليهم ليبلغوه عنه.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: وهذه الآية تدل على أن كل تكليف كلف

---

(١) الخازن.

الله تعالى به عباده في باب الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر الأبواب في القرآن، ولم يكن ذلك التكليف مبيناً في القرآن، لا سبيل لنا إلى القيام بتلك التكاليف إلا ببيان الرسول عليه السلام، وإذا كان الأمر كذلك لزم القوم بأن طاعة الرسول عليه السلام عين طاعة الله تعالى، وروى مقاتل أن النبي ﷺ كان يقول: «من أحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله تعالى»، فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل، لقد قارف الشرك، قد نهى أن نعبد غير الله، ويريد أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فالمؤمن[1] حقاً لا يكون خاضعاً إلا لخالقه وحده دون أحد من خلقه، والخروج عن ذلك شرك وهو نوعان:

الأول: أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية، ومن ثم ترجو نفعها، وتخاف ضرها، وتدعوها وتذل لها، وذلك هو الشرك في الألوهية.

الثاني: أن ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحريم، كما فسر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.. بطاعتهم فيما يحللون ويحرمون، وذلك هو الشرك في الربوبية.

ذاك أن المؤمن يجب أن يكون أعز الناس نفساً، وأعظمهم كرامة، فلا يرضى أن يستعبده سلطان ظالم، ولا حاكم مستعبد، إذ يعلم علم اليقين أن الكل عبيد مسخرون لله تعالى، يخضعون لأمره، وأن ذلك منتهى سعادتهم في الدارين.
هذا كله فيما يبلغه عن ربه، أما ما يقوله الرسول عليه السلام من تلقاء نفسه، وما يأمر به مما يستحسنه باجتهاده ورأيه من أمور المعيشة كتأبير النخل ـ تلقيحه بطلع الذكر ـ ونحوه، مما يسميه العلماء أمر إرشاد.. فطاعته فيه ليست من الفرائض التي فرضها الله تعالى؛ لأنه ليس ديناً ولا شرعاً عنه تعالى، فقد أمر النبي ﷺ

---

(١) المراغي.

بكيل الطعام، كالقمح وغيره من الحبوب، عند طحنه وعند عجنه، وهو من التدبير والاقتصاد في البيوت، وأكثر المسلمين أهملوه إلا من تعود منهم التدبير وحسن التقدير في المنازل، وكذلك أمر بأكل الزيت والادِّهان به.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا شكوا في الأمر أمن عند الله هو، أم من رأي الرسول واجتهاده، وكان لهم في ذلك رأي آخر.. سألوه فإن أجابهم بأنه من الله تعالى أطاعوه بلا تردد، وإن قال إنه من رأيه ذكروا رأيهم، وربما رجع النبي ﷺ عن رأيه إلى رأيهم، كما فعل في بدر وأحد، وجواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن طاعتك يا محمد التي هي طاعة الله تعالى محذوف، تقديره: فأعرض عنه، ولا تهتم به، ولا تحزن عليه، وليس لك أن تكرهه عليها. وقوله: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ تعليل لذلك المحذوف؛ أي: لأنَّا ما أرسلناك حفيظاً، تحفظ الناس عن المعاصي، ومسيطراً ورقيباً عليهم، ترقب أفعالهم وأقوالهم، فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار بعد الإقناع والاختبار، وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً، فعليك البلاغ وعلينا الحساب، قال المفسرون: وكان هذا قبل أن يؤمر بالجهاد ثم نسخ ذلك بآية السيف.

وفي هذه الجملة تسلية له ﷺ؛ لأنه كان يشتد حزنه بسبب كفرهم وإعراضهم عن الإيمان. ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول المنافقون ـ الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ـ إذا أمرهم النبي ﷺ بأمر.. أمرك يا محمد، ﴿طَاعَةٌ﴾؛ أي: مطاع مقبول عندنا، أو أمرنا طاعة، وشأننا طاعة لك؛ أي: إطاعة لك إظهاراً لكمال الانقياد والخضوع، ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾؛ أي: فإذا خرجوا من المكان الذين يكونون معك فيه إلى البراز والفضاء وهم منصرفون إلى بيوتهم.. ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾؛ أي: دبر جماعة منهم ليلاً قولاً غير الذي قالوا لك وأظهروه عندك نهاراً من الطاعة والسمع، وتكلموا فيما بينهم بعصيانك وتوافقوا عليه، وقيل: الضمير في تقول يعود على محمد ﷺ؛ أي: غير الذي تقوله يا محمد، وقرأ يحيى بن يعمر ﴿يقول﴾ بالياء ويحتمل أن يعود الضمير على الرسول عليه السلام، فيكون التفاتاً من الخطاب في: ﴿مِنۡ عِندِكَۖ﴾ إلى الغيبة، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَكۡتُبُ﴾

ويبين لك يا محمد في كتابه ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ويدبرون لك ليلاً، ويفضحهم بمثل هذه الآيات فيطلعك على أسرارهم، أو يثبت ذلك في صحائف أعمالهم، ليجازوا عليه، وفي هذا من التهديد الشديد ما لا يحفى.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يا محمد، ولا تهتم بما يبيتون، ولا تؤاخذهم بما أسروا ولم يعلنوا، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: واعتمد على الله تعالى، وفوض الأمر إليه، وثق به في جميع أمورك، فإن الله تعالى يكفيك شرهم، وينتقم لك منهم، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى من جهة كونه ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: مفوضاً إليه، لمن توكل عليه فهو قادر على إيقاع الجزاء بهم، وعالم بمقدار ما يستحقون منه، لا يعجزه منه شيء، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؛ أي: أيعرضون عن القرآن، فلا يتأملون فيه، ليعلموا كونه من عند الله تعالى، بمشاهدة ما فيه من الشواهد التي من جملتها هذا الوحي الناطق بنفاقهم، وأصل[1] التدبر التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل، سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه، وتدبر الكلام هو النظر والتفكر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها، وعاقبة من يعمل به ومن يخالفه، والهمزة هنا للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف كما قدرنا، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أجهل هؤلاء المنافقون حقيقة الرسالة، وكنه هذه الهداية، فلا يتدبرون القرآن الذي يدل على حقيقتها، ولو تدبروه لعرفوا أنه الحق من ربهم، وأن ما وعد به المتقين الصادقين وما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع لا محالة، فهو إذ صدق في الأخبار عما يبيتون في أنفسهم من القول، يصدق كذلك فيما أخبر عن سوء مصيرهم، والوبال والنكال في عاقبتهم. وقرأ الجمهور ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ بياء وتاء بعدها على الأصل، وقرأ ابن محيص بإدغام التاء على الدال. ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ تعالى بل كان من عندك كما يزعمون.. ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ﴾؛ أي: في هذا القرآن ﴿اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وتناقضاً جماً، من حيث[2] التوحيد والتشريك،

---

(١) المراغي.

(٢) النسفي.

والتحليل والتحريم، أو تفاوتاً من حيث البلاغة، فكان بعضه بالغاً حد الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه، يمكن معارضته، أو من حيث المعاني، فكان بعضه إخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم، وأما تعلق الملاحدة بآيات يدعون فيها اختلافاً كثيراً من نحو قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ فقد تقصى عنها أهل الحق، وستجدها مشروحة في كتابنا هذا في مظانها إن شاء الله تعالى.

والمعنى[١]: أنهم لو تدبروه حق تدبره.. لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف، صحيح المعاني قوي المباني، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها.

والخلاصة[٢]: أن تدبر القرآن، وتأمل ما امتاز به، هو طريق الهداية القويم، وصراط الحق المستقيم، فإنه يرشد إلى كونه من عند الله، وإلى وجوب الاهتداء به، وإلى أنه معقول في نفسه موافق للفطرة، ملائم للمصلحة وفيه سعادة الخلق في الدنيا والآخرة.

ولو تدبر المسلمون القرآن واهتدوا به في كل زمان.. لما فسدت أخلاقهم وآدابهم، ولما ظلم واستبد حكامهم، ولما زال ملكهم وسلطانهم، ولما صاروا عالة في معايشهم على سواهم، فإن قلت: إن قوله: ﴿ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ يدل بمفهومه على أن في القرآن اختلافاً قليلاً، وإلا لما كان للتقييد بوصف الكثرة فائدة مع أن لا اختلاف فيه أصلاً.. قلت: بأن التقييد بالكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة؛ أي: لو كان من عند غير الله تعالى لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فضلاً عن القليل، لكنه من عند الله تعالى فليس فيه اختلاف لا كثير ولا قليل.

واعلم: أنه يدل على كون القرآن من عند الله سبحانه وتعالى لا من عند غيره أمور كثيرة:

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الأول: أن أي مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كما صورها القرآن بلا اختلاف ولا تفاوت في شيء منها.

الثاني: أنه حكى عن الماضي الذي لم يشاهده محمد ﷺ ولم يقف على تاريخه، وعن الآتي، فوقع كما أنبأ به، وعن الحاضر فأخبر عن خبايا الأنفس ومكنونات الضمائر، كما أخبر عما بيتته هذه الطائفة مخالفاً لما تقول للرسول ﷺ، أو ما يقوله لها، فتقبله في حضرته، وترفضه في غيبته.

الثالث: أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله في سنن الاجتماع ونواميس العمران وطبائع الملل والأقوام، مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال وتكرار القصة الواحدة بالعبارات البليغة، تنويعاً للعبرة وتلويناً للموعظة، واتفاق كل ذلك وتوافقه على الصدق، وبراءته من الاختلاف والتناقض.

الرابع: أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله في بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع وسياسة الشعوب والقبائل، مع عدم الاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك.

الخامس: أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله فيما جاء به من فنون القول، وألوان العبر في أنواع المخلوقات في الأرض أو في السموات، فقد تكلم على الخلق والتكوين، ووصف جميع الكائنات، كالكواكب ونظامها والرياح والبحار والحيوان والنبات، وما فيها من الحكم والآيات، وكان في كل ذلك يؤيد بعضه بعضاً، لا تفاوت فيه ولا اختلاف بين معانيه.

السادس: أنه أخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة، وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل، وكان في كل ذلك جارياً على سنة الله تعالى في تأثير الأعمال الاختيارية في الأرواح، مع الالتئام بين الآيات الكثيرة، وهو غاية الغايات في ذلك عند من أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

هذا بالإضافة إلى أنه نزل منجماً بحسب الوقائع والأحوال، وكان النبي ﷺ عند نزول الآية أو الآيات يأمر بأن توضع في محلها من سورة كذا، وهو يحفظه حفظاً، وقد جرت العادة بأن من يأتي بكلام من عنده في مناسبات مختلفة لا

يتذكر جميع ما سبق له في السنين الطوال ولا يستحضره حتى يجعل الآخر موافقاً للأول، مع أن بعض الآيات كان ينزل في أيام المحن والكروب، وبعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام، إلى أن كرَّ الغداة ومرّ العشي لا يزيده إلا جدة، ولا يزيد أحكامه إلا ثباتاً ورسوخاً، وكلما اتسعت دائرة العلوم والمعارف، ونمت أحوال العمران. . زاد إيمان الناس به، إذ تتوثق روابط الصلة بين الدين والعلم، وتتظاهر أحكامه مع نواميس الاجتماع وشؤون الكون.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: وإذا جاء ضعفة المؤمنين الذين لا خبرة لهم بالشؤون العامة، وقيل: الضمير يعود إلى المنافقين ﴿أمرٌ﴾ من أمور المسلمين، وشأن من شؤونهم، سواء كان ذلك الأمر ﴿مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾ والبشارة والخير، كفتح وغنيمة ﴿أَوِ﴾ كان ﴿مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ والحزن والشر، كقتل وهزيمة. . ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: أفشى هؤلاء الضعفة أو المنافقون ذلك الأمر والخبر، وأشاعوه بين الناس، وذلك أن النبي ﷺ كان يبعث البعوث والسرايا، فإذا غَلبوا أو غُلبوا. . بادر هؤلاء الضعفة أو المنافقون يستخبرون عن حالهم، ثم يشيعونه، ويتحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله ﷺ، فيضعفون به قلوب المؤمنين، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ويستفاد من الآية: أنه لا ينبغي للعامة الذين لا خبرة لهم بالشؤون العامة أن تشيع أخبار الحرب وأسرارها، ولا أن تخوض في السياسة العامة للدولة، لأن ذلك مضرة لها، ومفسدة لشؤونها ومرافقها العامة، وعلاقاتها مع غيرها من الأمم، بالإضافة إلى أن في ذلك مشغلة لهم عن شؤونهم الخاصة، وضياع زمن كانوا فيه أحوج إلى العمل بما يفيدهم ويفيد الأمة، وهذا بيان لجناية ضعفاء الإيمان إثر بيان جناية المنافقين.

ثم بين ما ينبغي أن يفعل في مثل هذه الحال، فقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾؛ أي: ولو رد هؤلاء المذيعون من ضعفة الإيمان أو المنافقين هذا الخبر الذي تحدثوا به من الأمن أو الخوف، وفوضوا الكلام في الأمور العامة ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، وهو الإمام الأعظم، والقائد العام في الحرب ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: وإلى

أصحاب الرأي والعقل من أهل الحل والعقد ورجال الشورى ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: من المؤمنين من كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ولم يتحدثوا به، حتى يكون هؤلاء هم الذين يظهرونه.. ﴿لَعَلِمَهُ﴾؛ أي: لعلم حقيقة ذلك الخبر هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ ويذيعونه بين الناس من أولئك الضعفة أو المنافقين الذين يبغون ويطلبون علم ذلك الخبر ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: من الرسول ﷺ ومن أولي الأمر؛ أي: ولو أن هؤلاء الضعفاء أو المنافقين المذيعين، ردوا أمر الأمن أو الخوف وخبره إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم، بأن سكتوا عن إذاعته، وطلبوا معرفة الحال فيه من جهة الرسول ﷺ وأولي الأمر.. لعلمه هؤلاء الضعفة أو المنافقون المذيعون من جهة الرسول ومن جهة أولي الأمر؛ أي: لوجدوا علم حقيقة ذلك الخبر عندهم؛ لأنهم هم الذين يعرفون مثل ذلك الخبر، ويستخرجون خفاياه بدقة نظرهم، إذ لكل طائفة منهم استعداد للإحاطة ببعض المسائل المتعلقة بسياسة الأمة دون بعض، ولا ينبغي أن تذيعه العامة لما في ذلك من الضرر بها من سائر الوجوه والاعتبارات، وقرأ أبو السمال ﴿لعلمه﴾ بسكون اللام، فيخرج على لغة تميم؛ لأن تسكين عين علم قياس مطرد عندهم.

ثم امتن الله سبحانه وتعالى على صادقي الإيمان من عباده فقال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وإحسانه ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المؤمنون بالإسلام والتوفيق والهداية، ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ لكم ببعثة محمد ﷺ، وإنزال القرآن.. ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ وكفرتم بالله تعالى ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ منكم، فإن[1] ذلك القليل بتقدير عدم بعثة محمد ﷺ، وعدم إنزال القرآن، ما كان يتبع الشيطان، وما كان يكفر بالله، وهم مثل قس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل وأضرابهم.

وخلاصة المعنى: أي[2] ولولا فضل الله تعالى عليكم ورحمته بكم، إذ هداكم لطاعته وطاعة رسوله ﷺ ظاهراً وباطناً، ورد الأمور العامة إلى الرسول ﷺ، وإلى أولي الأمر منكم.. لاتبعتم وسوسة الشيطان فيما يأمركم به

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

من الفواحش، كما اتبعته تلك الطائفة، التي تقول للرسول ﷺ: طاعة لك، وتبيت غير ذلك، والتي تذيع أمر الأمن والخوف، وتفسد على الأمة سياستها، ولأخذتم بآراء المنافقين فيما تأتون وما تذرون، ولم تهتدوا إلى الصواب إلا قليلاً منكم ممن استنارت عقولهم بنور الإيمان، وعرفوا الأحكام بالاقتباس من مشكاة النبوة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا أردت يا محمد الفوز والظفر على الأعداء.. فقاتل في سبيل الله؛ أي: جاهد في طاعة الله تعالى لإعلاء كلمته امتثالاً لأمره، وأنت ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾؛ أي: لا تكلف إلا أفعال نفسك، ولا تطالب إلا بها دون أفعال الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، والذين يقولون لك طاعة ويبيتون غير ذلك، فمن أطاع الله تعالى لا يضيره عصيان من عصاه، والمعنى: قاتل في سبيل الله ولا تنظر لكسلهم، حال كونك غير مكلف إلا نفسك، فلا يضرك مخالفتهم وتقاعدهم عن القتال، وقد كان رسول الله ﷺ في شدة الحرب لا يتغير وجهه أبداً، بل كان يبتسم إذ ذاك، ولا يكترث بملاقاة الأعداء، وكان من خصائصه إذا بدأ بالحرب لا يرجع حتى يحكم الله تعالى بينه وبين عدوه.

وقرأ الجمهور(١): ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ على صيغة الخبر مبنياً للمفعول، والجملة في موضع الحال أو مستأنفة، وقرىء: ﴿لا نكلف﴾ بالنون وكسر اللام، ويحتمل وجهي الإعراب الحال والاستئناف، وقرأ عبد الله بن عمر ﴿لا تكلف﴾ بالتاء وفتح اللام والجزم على جواب الأمر.

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: وحث يا محمد المؤمنين على الخروج معك للقتال، بذلاً للنصيحة لهم، ورغبهم في الثواب عليه، بذكر الآيات الواردة في فضل الجهاد، فإن تخلفوا بعد ذلك.. فلا يضرونك، وإنما وبالهم على أنفسهم؛

---

(١) البحر المحيط.

فإنهم آثمون بالتخلف؛ لأن القتال كان مفروضاً عليهم إذ ذاك، فإن فرضه في السنة الثانية، وهذه القضية في السنة الرابعة، كما روي أن رسول الله ﷺ واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى في ذي القعدة، فلما بلغ الميعاد.. دعا الناس إلى الخروج، فكرهه بعضهم، فنزلت هذه الآية.

وفي الآية إيماء إلى أنه ﷺ كلف قتال الكافرين الذين قاوموا دعوته بقوتهم وبأسهم، وإن كان وحده، كما أنه تدل على أنه ﷺ أعطي من الشجاعة ما لم يعطَ أحد من العالمين، وفي سيرته الشريفة أصدق الأدلة على ذلك، فقد تصدى لمقاومة الناس جميعاً، بدعوتهم إلى ترك ما هم عليه من الضلال، وحين قاتلوه قاتلهم، وقد انهزم عنه أصحابه في أحد، فبقي ثابتاً كالجبل لا يتزلزل. ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: حقق الله سبحانه وتعالى ﴿أَن يَكُفَّ﴾ ويمنع ويصرف عنك ﴿بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: شدتهم وصولتهم وشوكتهم، وقد فعل ذلك بإلقاء الرعب في قلب أبي سفيان حين تخلف عن الخروج إلى الموعد، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَشَدُّ بَأْسًا﴾؛ أي: أقوى أخذاً وصولة وسلطة، من الذين كفروا، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾؛ أي: أشد عقوبة وتعذيباً منهم.

والمعنى: لا تخافوا بأس هؤلاء الكافرين وشدتهم، ولا يصدنكم ذلك عن طاعة الرسول ﷺ والعمل بتحريضه، فإن الله تعالى الذي وعد الرسول ﷺ بالنصر أشد منهم بأساً، وأشد منهم تنكيلاً، وقد جرت سنته أن تكون العاقبة للمتقين، ما استمسكوا بأوامره وتركوا نواهيه، وأعدوا العدة مع الصبر والثبات والتباعد عن أسباب الخذلان والفشل.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾؛ أي: من يشفع بين الناس شفاعة موافقة للشرع ﴿يَكُن لَّهُۥ﴾؛ أي: لذلك الشافع ﴿نَصِيبٌ﴾ وحظ من الأجر ﴿مِّنْهَا﴾؛ أي: بسببها، وقد بين النصيب في حديث: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب.. استجيب له، وقال الملك: ولك مثل ذلك». ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾؛ أي: مخالفة للشرع ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: نصيب من الوزر بسببها.

والغرض من هذه الآية[1]: بيان أنه ﷺ لما حرّضهم على الجهاد.. فقد استحق بذلك التحريض أجراً عظيماً، ولو لم يقبلوا أمره ﷺ.. لم يرجع إليه من عصيانهم شيء من الوزر، وذلك لأنه ﷺ بذل الجهد في ترغيبهم في الطاعة، ولم يرغبهم في المعصية البتة، فحقاً يرجع إليه من طاعتهم أجر، ولا يرجع إليه من معصيتهم وزر؛ فإن الشفاعة هي التوسط بالقول في وصول شخص إلى منفعة دنيوية أو أخروية، أو إلى خلاص من مضرة، كذلك من الشفع كأن المشفوع له كان فرداً فجعله الشفيع شفعاً.

وقال المراغي قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: من[2] يجعل نفسه شفيعاً وزوجاً لك، ويناصرك في القتال، وقد أمرت به وحدك.. يكن له من شفاعته نصيب بما يناله من الفوز والشرف والغنيمة في الدنيا، عندما ينتصر الحق على الباطل، وبما يناله من الثواب في الآخرة في جميع الحالات، سواء أدرك النصر في الدنيا أم لم يدرك.

ووصف الشفاعة بالحسنة لأنها تأييد ونصر للحق، ومثل هذا كل من يعاون فاعل الخير ويساعده، ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: ومن ينضم إلى عدوك فيقاتل معه، أو يخذل المؤمنين عن قتاله.. يكن له نصيب من سوء العاقبة، بما يناله من الخذلان في الدنيا، والعقاب في الآخرة، وهذه هي الشفاعة السيئة؛ لأنها إعانة على السيئات، وسمى هذا النصيب كفلاً؛ لأنه نصيب مكفول للشافع إذ هو أثر عمله، أو محدود لأنه على قدره.

والخلاصة: أن من ينضم إلى غيره معيناً له في فعل حسن.. يكن له منه نصيب، ومن ينضم إلى غيره معيناً له في فعل سيء.. ينله منه سوء وشدة.

ويدخل في الآية شفاعة الناس بعضهم لبعض، وهي قسمان: حسنة وسيئة، فالحسنة: أن يشفع الشافع لإزالة ضرر ورفع مظلمة عن مظلوم، أو جر منفعة إلى مستحق ليس في جرها إليه ضرر ولا ضرار.

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

والسيئة: أن يشفع في إسقاط حد أو هضم حق، أو إعطائه لغير مستحق، أو محاباة في عمل بما يوصل إلى الخلل والزلل، ولأجل هذا قال العلماء: الشفاعة الحسنة ما كانت فيما استحسنه الشرع، والسيئة فيما كرهه أو حرمه.

وفي الآية من العبرة لنا أن نتذكر أن الحاكم العادل لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإخباره بما لم يكن يعلم من مظلمة المشفوع له، أو استحقاقه لما يطلب له، ولا يقبل الشفاعة لإرضاء الشافع فيما يخالف الحق والعدل ويخالف المصلحة العامة. أما الحاكم الظالم فتروج عنده الشفاعات؛ لأنه يحابي أعوانه المقربين منه ليكونوا شركاء له في استبداده، ليثبتوا على خدمته وإخلاصهم له، والحكومات التي تروج فيها الشفاعات وتعتمد عليها الرعية في كل ما تطلب تضيع فيها الحقوق، ويحل الظلم محل العدل، ويسري من الدولة إلى الأمة، فيعم فيها الفساد، ويختل نظام الأعمال. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾؛ أي: قادراً على إيصال الجزاء إلى الشافع، مثل ما يوصله إلى المشفوع فيه، وحافظاً للأشياء، شاهداً عليها، فهو عالم بأن الشافع يشفع في حق أو باطل، فيجازي كلاً بما علم منه.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى كان مقتدراً على كل شيء، فلا يعجزه أن يعطي الشافع نصيباً وكفلاً من شفاعته، على قدرها في النفع والضر، ويجازي كلاً بما يستحق، لأن سننه قد قضت بأن يربط الجزاء بالأسباب.

وبعد أن علَّم الله سبحانه وتعالى المؤمنين طريق الشفاعة الحسنة والسيئة، وهي من أسباب التواصل بين الناس.. علمهم سنة التحية بينهم وبين إخوانهم؛ ليؤدبهم بأدب دينه، ويزكيهم ويطهر نفوسهم من الغل والحسد، فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ﴾؛ أي: وإذا حياكم أحد بتحية، بأن قال لكم: السلام عليكم، أو قال: السلام عليكم ورحمة الله.. ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾؛ أي: فأجيبوه بتحية أحسن وأكمل وأزيد من تحية المسلِّم عليكم، إذا كان المسلِّم من أهل الإسلام، بأن تقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله، أو وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ويقال: لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام: وبركاته، بدليل أن هذا القدر هو

الوارد في التشهد، فالأحسن هو أن المسلِّم إذا قال السلام عليك.. زيد في جوابه الرحمة، وإن ذكر السلام والرحمة في الابتداء.. زيد في جوابه البركة، وإن ذكر الثلاثة في الابتداء.. أعيدت في الجواب، وجواب السلام إكرام للمسلِّم، وتركه إهانة، والإهانة ضرر، والضرر حرام، وإذا استقبلك واحد فقل: سلام عليكم، واقصد الرجل والملكين، فإنك إذا سلمت عليهما ردا السلام عليك، ومن سلم الملك عليه.. فقد سلم من عذاب الله تعالى. ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾؛ أي: أجيبوها بمثلها، بأن تقولوا: وعليكم السلام في المثال الأول، أو وعليكم السلام ورحمة الله في المثال الثاني، فمعنى رد السلام جوابه بمثله؛ لأن المجيب يرد قول المسلِّم، وفيه حذف مضاف؛ أي: ردوا مثلها، والتسليم سنة، والرد على الفور فريضة، والأحسن أفضل.

وقد يكون[1] حسن الجواب بمعناه، أو كيفية أدائه، وإن كان بمثل لفظ المبتدأ بالتحية، أو مساويه في الألفاظ أو أخصر منه، فمن قال لك: السلام عليك بصوت خافت، يشعر بقلة العناية، فقلت له: وعليكم السلام بصوت أرفع وبإقبال يشعر بالعناية، أو بزيادة الإقبال والتكريم.. كنت قد حييته بتحية أحسن من تحيته في صفتها، وإن كانت مثلها في لفظها.

والخلاصة: أن الجواب عن التحية له مرتبتان:

أدناهما: ردها بعينها.

وأعلاهما: الجواب عنها بأحسن منها، والمجيب مخير بينهما.

والتحية[2]: تفعلة من حيًّا، وأصلها من الحياة، ثم جُعل السلام تحية؛ لكونه خارجاً عن حصول الحياة، وسبب الحياة في الدنيا أو في الآخرة، والتحية أن يقال: حياك الله؛ أي: جعل اللَّه لك حياة، وذلك إخبار، ثم جُعل دعاء، وهذه اللفظة كانت العرب تقولها، فلما جاء الإسلام.. بدل ذلك بالسلام، وهو

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

المراد به بالآية، يعني إذا سلم عليكم المسلِّم.. فأجيبوه بأحسن مما سلم به عليكم، وإنما اختير لفظ السلام على لفظة حياك الله؛ لأنه أتم وأحسن وأكمل، لأن معنى السلام السلامة من الآفات، فإذا دعا الإنسان بطول الحياة بغير سلامة.. كانت حياته مذمومة منغصة، وإذا كان في حياته سليماً.. كان أتم وأكمل، فلهذا السبب اختير لفظ السلام، ومن المطلوب المصافحة؛ لما ورد أنها تذهب الغل من القلوب، وأما تقبيل اليد فهو مكروه، إلا لمن ترجى بركته كشيخ أو والد، وأما المعانقة فمكروهة إلا لتشوق كقدوم من سفر ونحوه، ذكره الصاوي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾؛ أي[1]: محاسباً لكم على كل أعمالكم، وكافياً في إيصال جزاء أعمالكم إليكم، فكونوا على حذر من مخالفة هذا التكليف، وهذا يدل على شدة الاعتناء بحفظ الدماء؛ أي: إنه[2] تعالى رقيب عليكم في مراعاة هذه الصلة بينكم بالتحية، ويحاسبكم على ذلك، وفي هذا إشارة إلى تأكيد أمر هذه الصلة بين الناس، ووجوب رد التحية على من يسلم علينا ويحيينا، **والمعنى**: أنه تعالى على كل شيء من رد السلام بمثله أو بأحسن منه مجازٍ.

ذكر نبذة من أحكام السلام

فصل في فضل السلام والحث عليه

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف». متفق عليه. قوله: أي الإسلام خير معناه: أي خصال الإسلام خير. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم.. أفشوا السلام بينكم». أخرجه مسلم.

(١) المراح.

(٢) المراغي.

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: أمرنا نبينا ﷺ أن نفشي السلام، أخرجه ابن ماجه.

فصل في أحكام تتعلق بالسلام وفيه مسائل

المسألة الأولى: في كيفية السلام

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام.. قال: اذهب فسلم على أولئك ـ نفر من الملائكة جلوس ـ فاستمع ما يحيونك به، فإنها تحيتك، وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: عليك السلام ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله». متفق عليه، قال العلماء: يستحب لمن يبتدىء بالسلام أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيأتي بضمير الجمع، وإن كان المسلم عليه واحداً، ويقول المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فيأتي بواو العطف في قوله وعليكم، ليحصل الارتباط بين الجملتين.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فرد عليه ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ: عشر، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس فقال: عشرون، فجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس، فقال: ثلاثون» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن. وقيل إذا قال المسلم: السلام عليكم.. يقول المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله، فيزيده ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله.. يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فيزيده وبركاته، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. يرد عليه السلام بمثله ولا يزيد عليه

وروي أن رجلاً سلم على ابن عباس فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئاً، فقال ابن عباس: إن السلام انتهى إلى البركة، ويستحب للمسلِّم أن يرفع صوته بالسلام، ليسمع المسلَّم عليه، فيجيبه، ويشترط أن يكون الرد على الفور، فإن أخره ثم رد.. لم يعد جواباً وكان آثماً بترك الرد.

المسألة الثانية: في حكم السلام

الابتداء بالسلام سنة مستحبة ليس بواجب، وهو سنة على الكفاية، فإن كانوا جماعة، فسلم واحد منهم.. كفى عن جميعهم، ولو سلم كلهم.. كان أفضل وأكمل. قال القاضي حسين من أصحاب الشافعي: ليس لنا سنة على الكفاية إلا هذا، وفيه نظر؛ لأن تشميت العاطس سنة على الكفاية أيضاً كالسلام، ولو دخل على جماعة في بيت أو مجلس أو مسجد.. وجب عليه أن يسلم على الحاضرين، لقوله ﷺ: «أفشوا السلام»، والأمر للوجوب، أو يكون ذلك سنة مؤكدة؛ لأن السلام من شعار أهل الإسلام، فيجب إظهاره أو يتأكد استحبابه.

أما الرد على المسلّم: فقد أجمع العلماء على وجوبه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ والأمر للوجوب؛ لأن في ترك الرد إهانة للمسلِّم، فيجب ترك الإهانة، فإن كان المسلَّم عليه واحداً.. وجب عليه الرد، وإذا كانوا جماعة.. كان رد السلام في حقهم فرض كفاية، فلو رد واحد منهم.. سقط فرض الرد عن الباقين، وإن تركوه كلهم.. أثموا.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم». أخرجه أبو داود.

المسألة الثالثة: في آداب السلام

السنة أن يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير». متفق عليه.

وفي رواية للبخاري قال: يسلم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والقليل على الكثير، وإذا تلاقى رجلان.. فالمبتدىء بالسلام هو الأفضل، لما روي عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله عز وجل من بدأهم بالسلام». أخرجه أبو داود والترمذي، ولفظه قال: قيل: يا رسول الله، الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام، قال: «أولاهما بالله». قال الترمذي: حديث حسن.

ويُستحب أن يبدأ بالسلام قبل الكلام والحاجة، والسنة إذا مر بجماعة صبيان صغار أن يسلم عليهم؛ لما روي عن أنس رضي الله عنه: أنه مر على صبيان فسلم عليهم، وقال: كان رسول الله ﷺ يفعله. أخرجاه في «الصحيحين». وفي رواية لأبي داود أن النبي ﷺ: «مر على غلمان يلعبون فسلم عليهم».

وأما السلام على النساء: فإن كن جمعاً جالسات في مسجد أو موضع.. فيستحب أن يسلم عليهن، إذا لم يخف على نفسه أو عليهن فتنة، لما روي عن أسماء بنت يزيد قالت: «مر علينا رسول الله ﷺ في نسوة فسلم علينا». أخرجه أبو داود. وفي رواية للترمذي: «أن رسول الله ﷺ مر في المسجد يوماً وعصبة من النساء قعود فألوى بيده بالتسليم». قال الترمذي حديث حسن.

وإذا مر على امرأة مفردة أجنبية، فإن كانت جميلة.. فلا يسلم عليها، ولو سلم.. فلا ترد هي عليه؛ لأنه لم يستحق الرد، وإن كانت عجوزاً، لا يخاف عليه ولا عليها الفتنة.. سلم عليها، وترد هي عليه، وحكم النساء مع النساء كحكم الرجال مع الرجال في السلام، فيسلم بعضهن على بعض.

المسألة الرابعة: في الأحوال التي يكره فيها السلام

فمن ذلك الذي يبول أو يتغوط أو يجامع ونحو ذلك، لا يسلم عليه، فلو سلم.. فلا يستحق المسلِّم جواباً، لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجلاً مر ورسول الله ﷺ يبول، فسلم عليه، فلم يرد عليه. أخرجه مسلم. قال الترمذي: إنما يكره إذا كان على الغائط أو البول. ويكره التسليم على من في

الحمام، وقيل إن كانوا متزرين بالمآزر سلم عليهم وإلا فلا. ويكره التسليم على النائم والناعس والمصلي والمؤذن والتالي في حال الصلاة والأذان والتلاوة، ويكره الابتداء بالسلام في حال الخطبة؛ لأن الجالسين مأمورون بالإنصات للخطبة، ويكره أن يبدأ المبتدع بالتسليم عليه، وكذلك المعلن بفسق، وكذلك الظلمة ونحوهم، فلا يسلم على هؤلاء.

المسألة الخامسة: في حكم السلام على أهل الذمة اليهود والنصارى

واختلف العلماء فيه: فذهب أكثرهم إلى أنه لا يجوز ابتداؤهم بالسلام، وقال بعضهم: إنه ليس بحرام بل هو مكروه كراهة تنزيه، ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه». أخرجه مسلم.

وإذا سلم يهودي أو نصراني على مسلم فيرد عليه، ويقول: عليك، بغير واو العطف، لما روي عن أنس رضي الله عنه أن يهودياً أتى على رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: السام ـ الموت ـ عليكم، فرد عليه القوم، فقال رسول الله ﷺ: «هل تدرون ما قال»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم يا نبي الله، قال: «لا ولكنه قال كذا وكذا، ردوه عليَّ»، فردوه، فقال: «قلت: السام عليكم»، قال: نعم يا نبي الله، فقال ﷺ عند ذلك: «إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب.. فقولوا عليك؛ أي: عليك ما قلت». أخرجه الترمذي. فلو أتى بواو العطف وميم الجمع، فقال: وعليكم.. جاز؛ لأنَّا نجاب عليهم في الدعاء، ولا يجابون علينا، ويدل على ذلك ما روي عن جابر: أن رسول الله ﷺ مر عليه ناس من اليهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال: «وعليكم»، فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا، قال: «بلى قد سمعت فرددت عليهم، وإنا نجاب عليهم، ولا يجابون علينا». أخرجه مسلم.

وإذا مر المسلم على جماعة فيهم مسلمون ويهود ونصارى.. يسلم عليهم، ويقصد بتسليمه المسلمين، لما روي عن أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود فسلم عليهم. أخرجه الترمذي.

وبعد أن حث رسوله ﷺ على الجهاد، وأمر المسلمين بمشاركته فيه، وأمرهم بإظهار المودة وقت السلام.. بين أنهم مجزيون على كل هذا في يوم لا ريب فيه فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: خبر، وهذه الآية نزلت في منكري البعث؛ أي: الإلٰه المعبود بحق سبحانه وتعالى مخبر عنه بعدم وجود إله معه، قال[1] بعضهم: كأنه تعالى يقول: من سلم عليكم.. فاقبلوا سلامه، وأكرموه بناء على الظاهر، فإن البواطن إنما يعرفها الله الذي لا إلٰه إلا هو، وإنما ينكشف بواطن الخلق للخالق في يوم القيامة ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: والله ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك في يوم القيامة أنه كائن، والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ إنكاري؛ أي: لا أحد أصدق منه سبحانه وتعالى في إخباره ووعده ووعيده؛ لاستحالة الكذب عليه تعالى؛ لقبحه لكونه إخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه، والمقصود منه بيان أنه يجب كونه تعالى صادقاً، وأن الكذب والخلف في قوله تعالى محال، وأن القيامة كائنة لا شك فيها ولا ريب؛ إذ كلامه تعالى عن علم محيط بسائر الكائنات، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ فلا يمكن أن يكون خبره غير صادق بسبب النقص في العلم أو الغرض أو الحاجة؛ لأنه تعالى غني عن العالمين، أما كلام غيره فهو محتمل للصدق والكذب عن عمد وعلم أو عن سهو وجهل، وقد دل الدليل على أن القرآن كلام الله، فلم يبق عذر لمن قام عليه الدليل إذا آثر على قوله أقوال المخلوقين كما هو دأب الضالين، واعلم أن هذه الآية جمعت[2] التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء في الدار الآخرة، وهما الركنان الأساسيان للدين، وقد أرسل الرسل جميعاً لتبليغ الناس ما يجب عليهم من إقامتهما، وتأييدهما بصالح الأعمال والقرآن، قد يصرح بهما تارة معاً، وبالأول منهما تارة أخرى أثناء ذكر الأحكام، إذ هما العون الأكبر والباعث الأقوى على العمل بها، ولا سيما أحكام القتال، الذي يبذل المرء فيه نفسه ونفيسه للدفاع عن حرية الدين ونشر هدايته، وتأمين دعاته وأهله.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

والمعنى: الله لا إلٰه إلا هو فلا تقصروا في عبادته، والخضوع لأمره ونهيه، فإن في ذلك سعادتكم وارتقاء أرواحكم وعقولكم، وتحريركم من رق العبودية لأمثالكم من البشر، بل من دونهم من المعبودات، التي ذل لها المشركون، وهو سبحانه سيجمعكم ويحشركم إلى يوم القيامة، وهو يوم لا ريب فيه، ولا فيما يكون فيه من الجزاء عن الأعمال. وقرأ حمزة[1] والكسائي ﴿أصدق﴾ بإشمام الصاد زاياً، وكذا فيما كان مثله من صاد ساكنة بعدها دال نحو ﴿يصدقون﴾ و﴿تصدية﴾ وأما إبدالها زاياً محضة في ذلك فهي لغة كلب وأنشدوا:

يَـزِيـدُ زَادَ ٱلـلَّـهُ فِـيْ خَـيْـرَاتِـهِ　　　حَـامِـيْ ٱلـذِّمَـارِ عِـنْـدَ مَـزْدُوْقَـاتِـهِ

يريد عند مصدوقاته.

الإعراب

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿مَّن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة أو هما، ﴿يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب كما مر آنفاً. ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿ما﴾، لأنه من المواضع السبعة المجموعة في قول بعضهم:

إِسْـمِـيَّـةٌ طَـلَـبِـيَّـةٌ وَبِـجَـامِـدِ　　　وَبِـمَـا وَلَـنْ وَبِـقَـدْ وَبِـٱلـتَّـنْـفِـيْـسِ

---

(١) البحر المحيط.

﴿ما﴾: نافية، ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿حَفِيظًا﴾. ﴿حَفِيظًا﴾: حال من كاف المخاطب، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿طَاعَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمرك، أو أمرنا طاعة، أو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: منا طاعة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿بَرَزُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الخفض بإضافة إذا على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿مِنْ عِندِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿بَرَزُوا۟﴾، ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿طَآئِفَةٌ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿يقولون﴾ ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿تَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿طَآئِفَةٌ﴾، والجملة صلة الموصول.

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يَكْتُبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يبيتونه. ﴿فَأَعْرِضْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: أعرض. ﴿أعرض﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة

﴿توكل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة ﴿أعرض﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿توكل﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كفى بالله﴾: فعل وفاعل. ﴿وَكِيلًا﴾: حال أو تمييز، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: داخلة على محذوف، تقديره: أيعرضون عن القرآن فلا يتدبرون فيه، ﴿الفاء﴾: عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿القرآن﴾، ﴿مِنْ عِندِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كان﴾، تقديره: كائناً، ﴿مِن﴾: حرف جر. ﴿عِندِ﴾: مضاف. ﴿غَيْرِ﴾: مضاف إليه. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَوَجَدُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿وجدوا﴾: فعل وفاعل، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿وجدوا﴾، ﴿ٱخْتِلَٰفًا﴾: مفعول به، ﴿كَثِيرًا﴾: صفته، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَهُمْ أَمْرٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَمْرٌ﴾، ﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَمْنِ﴾. ﴿أَذَاعُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة استئنافاً بيانياً أو نحوياً.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط، ﴿رَدُّوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على الجار والمجرور قبله، ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾، ﴿لَعَلِمَهُ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿علمه﴾ فعل ومفعول، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿إذا﴾. ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو من الضمير في ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لولا﴾: حرف دال على امتناع شيء لوجود غيره. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: **مبتدأ ومضاف إليه**، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، والخبر محذوف وجوباً؛ لقيام الجواب مقامه، تقديره: موجودان، والجملة الاسمية شرط لـ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿اتبعتم﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: مفعول به. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: مستثنى من فاعل ﴿اتبعتم﴾ والجملة الفعلية جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة.

﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَقَٰتِلْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا أردت يا محمد الفوز والظفر على الأعداء.. فقاتل. ﴿قاتل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قاتل﴾ والجملة الفعلية جواب لـ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُكَلَّفُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير

يعود على محمد، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿نَفْسَكَ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿فَقَٰتِلْ﴾؛ أي: فقاتل حال كونك غير مكلف إلا نفسك وحدها، وقيل مستأنفة، أخبره تعالى أنه لا يكلفه غير نفسه. ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿حرض المؤمنين﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة ﴿قاتل﴾.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

﴿عَسَى﴾: من أفعال الرجاء ترفع الاسم وتنصب الخبر. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَكُفَّ﴾: فعل مضارع منصوب، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿بَأْسَ ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، وجملة ﴿يَكُفَّ﴾ من الفعل والفاعل صلة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه خبراً لـ﴿عَسَى﴾، ولكنه على حذف مضاف إما قبل الاسم تقديره: عسى أمر الله كف بأس الذين كفروا، أو قبل الخبر تقديره: عسى الله ذا كف بأس الذين كفروا، والكثير في كلامهم اقتران خبر ﴿عَسَى﴾ بـ﴿أن﴾ المصدرية، كما قال ابن مالك:

كَكَانَ كَادَ وَعَسَىٰ لَكِنْ نَدَرْ غَيْرُ مُضَارِعٍ لِهَذَيْنِ خَبَرْ
وَكَوْنُهُ بِدُوْنِ أَنْ بَعْدَ عَسَىٰ نَزْرٌ وَكَادَ ٱلْأَمْرُ فِيْهِ عُكِسَا

واستشكل[1] على هذه القاعدة المطردة في ﴿عَسَى﴾ بأن ﴿أن﴾ المصدرية تؤول بالمصدر، فيكون التقدير في الآية: عسى الله كف بأس الذين كفروا، والمصدر اسم المعنى، فلا يخبر به عن الذات، وأجيب عنه: بأنه على حذف مضاف إما قبل الاسم أو قبل الخبر، كما مر بيانه آنفاً، ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿أَشَدُّ﴾: خبره. ﴿بَأْسًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة مستأنفة، ﴿وَأَشَدُّ﴾: معطوف على ﴿أَشَدُّ﴾ ﴿تَنكِيلًا﴾: تمييز.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

---

(١) حاشية الحمدون على الألفية.

﴿مَّن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما. ﴿يَشْفَعْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَّن﴾ على كونه فعل الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾. ﴿شَفَٰعَةً﴾: مفعول به، ﴿حَسَنَةً﴾: صفة له، ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص، مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿يَكُن﴾، ﴿نَصِيبٌ﴾: اسمها مؤخر، ﴿مِّنْهَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبٌ﴾ و﴿مَّن﴾ فيه بمعنى الباء السببية، وجملة ﴿مَّن﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر إما جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَشْفَعْ﴾: مجزوم بـ﴿مَن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿شَفَٰعَةً﴾: مفعول به. ﴿سَيِّئَةً﴾: صفة لـ﴿شَفَٰعَةً﴾. ﴿يَكُن﴾: جواب الشرط. ﴿لَّهُۥ﴾: خبر ﴿يَكُن﴾ مقدم على اسمها. ﴿كِفْلٌ﴾: اسمها مؤخر. ﴿مِّنْهَا﴾: صفة لـ﴿كِفْلٌ﴾ وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَّن﴾ الأولى. ﴿وَكَانَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كان الله﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُّقِيتًا﴾، ﴿مُّقِيتًا﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿حُيِّيتُم﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾: متعلق بها، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿فَحَيُّوا۟﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿حيوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿بِأَحْسَنَ﴾: متعلق بـ﴿حيوا﴾، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿أحسن﴾، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع، ﴿رُدُّوهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿حيوا﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل

ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿حَسِيبًا﴾، ﴿حَسِيبًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل إن، ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَا﴾ محذوف تقديره: موجود، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَۚ﴾: ضمير للمفرد المنزه بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ مع خبره مستأنفة. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يجمعنَّكم﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، و﴿نون التوكيد﴾ حرف لا محل له من الإعراب، و﴿الكاف﴾ مفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة[1] القسمية إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب، أو خبر ثان للمبتدأ، أو هي الخبر و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ اعتراض اهـ. أبو السعود. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يجمعنكم﴾. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن، ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾ وجملة ﴿لَا رَيْبَ﴾ في محل النصب حال من يوم القيامة، ويجوز أن تكون صفة لمصدر محذوف؛ أي: جمعاً لا ريب فيه، والهاء تعود على الجمع. ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَصْدَقُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَصْدَقُ﴾، ﴿حَدِيثًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ الطاعة اسم مصدر لأطاع الرباعي، يقال: أطاع يطيع

---

(١) الفتوحات.

إطاعة وطاعة، والطاعة: الموافقة وامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يقال: بيت يبيت تبييتاً، من باب فعل المضعف، قال[1] الأصمعي وأبو عبيدة وأبو العباس: كل أمر قضي بليل قيل: قد بيت، وقال الزجاج: كل أمر مكر فيه، أو خيض بليل، فقد بيت، وقال الشاعر:

أَتَـوْنِـيْ فَـلَـمْ أَرْضَ مَـا بَـيَّـتُـوْا   وَكَـانُـوْا أَتَـوْنِـيْ بِـأَمْـرٍ نُـكُـرْ

وقيل: التبييت التبديل بلغة طيء قال شاعرهم:

وَتَـبِـيْـتُ قَـوْلِـيْ عِـنْـدَ ٱلْـمَـلِــ   ـيْـكِ قَـاتَـلَـكَ ٱلـلَّـهُ عَـبْـدَاً كَـفُـوْرَا

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ مضارع تدبر - من باب تفعل الخماسي - يتدبر تدبراً، وتدبر الشيء تأمله والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تفكر ونظر، والدبر: المال الكثير، سمي بذلك؛ لأنه يبقى للأعقاب وللأدبار، قاله الزجاج وغيره.

﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ يقال: أذاع الشر، وأذاع به، إذا نشره وأشاعه بين الناس وأظهره لهم، فالإذاعة: إظهار الشيء وإفشاؤه، يقال: ذاع يذيع من باب باع وأذاع، ويتعدى بنفسه وبالباء، فيكون إذ ذاك أذاع في معنى الفعل المجرد، قال أبو الأسود:

أَذَاعُـوْا بِـهِ فِـيْ ٱلـنَّـاسِ حَـتَّـىٰ كَـأَنَّـهُ   بِـعَـلْـيَـاءِ نَـارٍ أُوْقِـدَتْ بِـثُـقُـوْبِ

وقال أبو البقاء[2]: الألف في أذاعوا بدل من الياء، يقال ذاع الأمر يذيع، والباء زائدة؛ أي: أذاعوه، وقيل: حمل على معنى تحدثوا به، انتهى. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ يقال: رد الشيء إلى الشيء رداً وردوداً إذا أرجعه وأعاده إليه، ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ والاستنباط: استخراج ما كان مستتراً عن الأبصار، والنبط: الماء يخرج من البئر أول ما تحفر، والإنباط والاستنباط إخراجه، والنبط: الذين يستخرجون المياه والنبات من الأرض، ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، التحريض: الحث على

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العكبري.

الشيء بتزيينه وتسهيل الأمر فيه، قال الراغب: كأنه في الأصل إزالة الحرض بضمتين وسكون ثانية؛ أي: الأشنان، والحرض في الأصل ما لا يعتد به، ولا خير فيه، ولذلك يقال للمشرف على الهلاك حرض، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾، ﴿بأساً﴾ والبأس: القوة، وفي «المصباح» وهو ذو بأس؛ أي: شدة وقوة. ﴿تَنكِيلًا﴾ التنكيل بوزن تفعيل، مصدر نكل المضعف من النكل وهو: القيد، ثم استعمل في كل عذاب، وفي «المصباح»: نكل به ينكل ـ من باب قتل ـ نكلة قبيحة إذا أصابه بنازلة، ونكل به بالتشديد مبالغة، والاسم النكال، انتهى. قال أبو حيان[1]: التنكيل الأخذ بأنواع العذاب وتنزيله على المعذب، وكأنه مأخوذ من النكل: وهو القيد.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ قال الراغب: الشفع ضم الشيء إلى مثله، والشفاعة الانضمام إلى آخر، ناصراً له وسائلاً عنه، ﴿نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ، ﴿كِفْلٌ﴾؛ أي: حظ، ولكن النصيب في الخبر أكثر استعمالاً، والكفل في الشر أكثر منه في الخير، ولقلة استعمال النصيب في الشر وكثرة استعمال الكفل فيه غاير بينهما في الآية الكريمة، حيث أتى بالكفل مع السيئة وبالنصيب مع الحسنة، ﴿مُّقِيتًا﴾؛ أي: مقتدراً أو حافظاً أو شاهداً، قال الراغب: وحقيقته قائماً عليه يحفظه ويعينه، وقال النحاس: هو مشتق من القوت، والقوت مقدار ما يحفظ به الإنسان من التلف، يقال: قاته يقوته إذا أطعمه قوته، وأقاته يقيته إذا جعل له ما يقوته، وفي «المختار»: أقات على الشيء إذا اقتدر عليه، ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ التحية مصدر حياه، إذا قال له: حياك الله، وأصله تحيية بوزن تفعلة كترضية وتسمية وتنمية، فأدغموا الياء في الياء بعد نقل حركة الياء الأولى إلى الحاء، وهي في الأصل الدعاء بالحياة، ثم صار اسماً لكل دعاء وثناء، كقولهم أنعم صباحاً، وأنعم مساء، وعم صباحاً وعم مساء، وجعل الشارع تحية المسلمين السلام عليكم، إشارة إلى أن الدين دين سلام وأمان. ﴿فَحَيُّوا۟﴾ أصله حييوا، استثقلت الضمة

---

(١) البحر المحيط.

على الياء، فحذفت الضمة، فالتقى ساكنان الياء والواو، فحذفت الياء وضم ما قبل الواو لمناسبتها، ﴿حسيباً﴾ الحسيب: المحاسب، فهو فعيل بمعنى مفاعل، كالجليس بمعنى المجالس، وقد يراد به المكافىء والكافي، من قولهم حسبك كذا إذا كان يكفيك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البيان والبديع[1]:

منها: الالتفات في قوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ﴾، وفي قوله: ﴿بَيَّتَ﴾ و﴿يُبَيِّتُونَ﴾، وفي اسم الله في مواضع، و﴿أَشَدُّ﴾، وفي قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿يُطِعِ﴾ و﴿أَطَاعَ﴾، وفي ﴿بَيَّتَ﴾ و﴿يُبَيِّتُونَ﴾، وفي قوله: ﴿حُيِّيتُم﴾ ﴿فَحَيُّواْ﴾،

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ و﴿وَكِيلًا﴾، و﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً﴾، و﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾.

ومنها: الاستفهام المراد به الإنكار في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾، وفي قوله: ﴿شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ و﴿شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾.

ومنها: التوجيه في قوله: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾.

ومنها: إالاحتجاج النظري ويسمى المذهب الكلامي في قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: خطاب العين والمراد به الغير في قوله: ﴿فَقَٰتِلۡ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿أَن يَكُفَّ بَأۡسَ﴾.

ومنها: أفعل في غير المفاضلة في قوله: ﴿أَشَدُّ﴾.

ومنها: إطلاق كل على بعض في قوله: ﴿بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ واللفظ مطلق والمراد بدر الصغرى.

ومنها: الحذف في عدة مواضع تقتضيها الدلالة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ
اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا
تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا
تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ
اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ
يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ
السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا
مُّبِينًا (٩١) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ
مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ
جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما ذكر أحكام القتال، وختمها ببيان أنه لا إلٰه غيره يُخشى ضرره، أو يُرجى خيره، فتترك هذه الأحكام لأجله.. ذكر هنا أنه لا ينبغي التردد في أمر المنافقين، وتقسيمهم فئتين، مع أن دلائل كفرهم ظاهرة جلية، فيجب أن تقطعوا بكفرهم، وتقاتلوهم حيثما وجدوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً...﴾ الآيات،

(١) المراغي.

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى لما بين أحكام قتال المنافقين، الذين يظهرون الإسلام خداعاً، ويسرون الكفر، ويساعدون أهله على قتال المؤمنين، والذين يعاهدون المسلمين على السلم، ويحالفونهم على الولاء والنصر، ثم يغدرون ويكونون عوناً لأعدائهم عليهم.. ذكر هنا قتل من لا يحل قتله من المؤمنين والمعاهدين والذميين، وما يقع منهم من ذلك عمداً أو خطأ.
قال أبو حيان: ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما رغب في مقاتلة الكفار.. ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالمحاربة، ومنها: أن يظن رجلاً حربياً فيقتله وهو مسلم، انتهى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما رواه الشيخان وغيرهما عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

وأخرج[3] سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن سعد بن معاذ قال: خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: «من لي بمن يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني»، فقال سعد بن معاذ: إن كان من الأوس.. قتلناه، وإن كان من إخواننا من الخزرج.. أمرتنا فأطعناك، فقام سعد بن عبادة فقال: ما بك يا ابن معاذ طاعة رسول الله ﷺ، ولقد عرفت ما هو منك، فقام أسيد بن حضير فقال: إنك يا ابن عبادة منافق، وتحب المنافقين، فقام محمد بن مسلمة فقال: اسكتوا يا أيها الناس فإن فينا رسول الله ﷺ، وهو يأمرنا فننفذ أمره، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ...﴾ الآية.

وأخرج[4] أحمد عن عبد الرحمٰن بن عوف: أن قوماً من العرب أتوا

---

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول.
(٣) لباب النقول.
(٤) لباب النقول.

رسول الله ﷺ بالمدينة فأسلموا، وأصابهم وباء المدينة وحُمَّاها فأركسوا، وخرجوا من المدينة، فاستقبلهم نفر من الصحابة، فقالوا لهم: ما لكم رجعتم، قالوا: أصابنا وباء المدينة، فقالوا: أمالكم في رسول الله أسوة حسنة، فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ...﴾ الآية، في إسناده تدليس وانقطاع.

وروى[1] ابن جرير عن ابن عباس: أنها نزلت في قوم أظهروا الإسلام بمكة، وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، فاختلف المسلمون في شأنهم وتشاجروا فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم[2] وابن مردويه عن الحسن: أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال: لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأُحد وأسلم من حولهم، قال سراقة: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج، فأتيته فقلت: أنشدك النعمة، بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك.. أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا.. لم يحسن تغليب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد فقال: «اذهب معه فافعل ما يريد»، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، وأنزل الله عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ وكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ في هلال بن عويمر الأسلمي، وسراقة بن مالك المدلجي، وفي بني جذيمة بن عامر بن عبد مناف، وأخرج أيضاً عن مجاهد أنها نزلت في هلال بن عويمر الأسلمي، وكان بينه وبين المسلمين عهد، وقصده ناس من قومه فكره أن يقاتل المسلمين، وكره أن يقاتل قومه.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: كان الحارث بن يزيد من بني عامر بن لؤي يعذب عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل، ثم خرج الحارث مهاجراً إلى النبي ﷺ، فلقيه عياش بالحرة فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر، ثم جاء النبي ﷺ فأخبره، فنزلت ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا...﴾ الآية، فقرأها النبي ﷺ، قال له: قم فحرر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير من طريق بن جريج عن عكرمة: أن رجلاً من الأنصار قتل أخا مقيس بن صبابة، فأعطاه النبي ﷺ الدية فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه فقتله، ولحق بمكة بعد ذلك وارتد عن الإسلام، فقال النبي ﷺ: لا أؤمنه في حل ولا حرم، فقتل يوم الفتح، قال ابن جريج: وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: فأيُّ شيء ثبت لكم يا معشر المؤمنين حتى تفرقتم في شأن المنافقين، وصرتم في أمرهم ﴿فِئَتَيْنِ﴾؛ أي: فرقتين، فرقة ترى أنهم يعدون من الأولياء، ويستعان بهم على سائر المشركين المجاهرين لهم بالعداوة والكفر، وفرقة ترى أن يعاملوا كما يعامل غيرهم من المشركين المعلنين العداوة، ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه وتعالى قد أركسهم وصرفهم وردهم عن الحق الذي أنتم عليه من الإيمان والجهاد في سبيل الله، ﴿بِمَا كَسَبُوٓا﴾؛ أي: بسبب ما اقترفوا من أعمال الشرك والنفاق، واجترحوا من المعاصي، حتى إنهم لا ينظرون إليكم نظرة المودة والإخاء، بل نظرة العداوة والبغضاء، ويتربصون بكم الدوائر، ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تَهْدُوا﴾ وترشدوا إلى طريق الحق ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾؛ أي: من أراد الله تعالى إضلاله وغوايته؛ أي: أتقولون هؤلاء مهتدون والله تعالى أضلهم، وهذا خطاب للفئة التي دافعت عن المنافقين، والمراد بالهداية المنفية خلق الهداية في الخلق، وأما الهداية بمعنى الإرشاد والتبيين فهي للرسل، والاستفهام في الموضعين للإنكار مع

التوبيخ؛ أي: لا ينبغي لكم أن تختلفوا في قتلهم، ولا ينبغي لكم أن تعدوهم في المهتدين، والتوبيخ للفريق القائل للنبي ﷺ لا تقتلهم؛ أي: ينبغي لكم أن تجتمعوا على قتلهم لظهور كفرهم.

وقرأ عبد الله[1]: ﴿ركسهم﴾ ثلاثياً، وقرىء: ﴿ركَّسهم﴾ بالتشديد، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ومن يرد الله سبحانه وتعالى إضلاله عن طريق الحق ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ يا محمد أو أيها المخاطب ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الضال الذي أضله الله تعالى ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً تهديه فيها إلى الحق.

والمعنى: ومن[2] تقتضي سننه تعالى في خلقه أن يكون ضالاً عن طريق الحق.. فلن تجد له سبيلاً يصل بسلوكها إليه، فإن للحق سبيلاً واحدة هي صراط الفطرة المستقيم، وللباطل سبلاً كثيرة، عن يمين سبيل الحق وعن شمالها، كل من سلك منها سبيلاً بَعُدَ عن سبيل الحق بقدر إيغاله في السبيل التي سلكها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وقد أوضح النبي ﷺ معنى الآية بالخطوط الحسية، فخط في الأرض خطاً فجعله مثالاً لسبيل الله تعالى، وخط على جانبيه خطوطاً لسبل الشيطان، وهذه الخطوط المستقيمة لا تلتقي مع الخط الأول.

وسبيل الفطرة تقتضي أن يعرض الإنسان جميع أعماله على ميزان الشرع وسنن العقل، ويتبع ما يظهر له أنه الحق الذي فيه منفعته عاجلاً وآجلاً، وفيه كماله الإنساني، وأكثر ما يصده عن هذه السبيل التقليد والغرور بالطواغيت، وظنه أنه ليس هناك ما هو أكمل مما هو فيه، وبهذا يقطع على نفسه طريق الحق، والنظر في النفع والضر والحق والباطل، وشبهته في ترك صراط الفطرة أن عقله قاصر عن التمييز بين الحق والباطل والخير والشر، فعليه أن يتبع ما وجد عليه الآباء والأجداد من زعماء عصره، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يجول في صدور أولئك المنافقين من أماني فقال: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾؛ أي: تمنى هؤلاء المنافقون كفركم بمحمد ﷺ وبالقرآن كفراً مثل كفرهم بهما، ﴿فَتَكُونُونَ﴾ أنتم وهم ﴿سَوَآءً﴾؛ أي: مستوين في الكفر؛ أي: إن هؤلاء لا يقنعون بما هم عليه من الضلال والغواية، بل يطمعون أن تكونوا أمثالهم، وتحذوا حذوهم، حتى يقضى على الإسلام الذي أنتم عليه، وهذا منتهى ما يكون من الغلو والتمادي في الكفر، حيث لا يكتفون بضلالهم بل يرجون إضلال غيرهم.

ثم حذر المؤمنين من غوائل نفاقهم فقال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا جواب شرط محذوف، تقديره: إذا كان حال هؤلاء المنافقين ما ذُكر من ودادة كفركم، وطمعهم فيه.. فلا تجعلوا لكم منهم أولياء وأنصاراً يساعدونكم على المشركين، حتى يؤمنوا ويهاجروا من أوطانهم ويقاتلوا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله تعالى، والمراد بالهجرة هنا الخروج مع رسول الله ﷺ للقتال في سبيل الله تعالى، مخلصين صابرين محتسبين، وإنما قيد الهجرة بكونها في سبيل الله تعالى، لإخراج الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ومن شعار الكفر إلى شعار الإسلام لغرض من أغراض الدنيا كامرأة ينكحها أو دنيا يصيبها، فإن المعتبر وقوع تلك الهجرة لأجل أمر الله تعالى.

واعلم أن الهجرة ثلاثة أقسام(١):

هجرة المؤمنين في أول الإسلام: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ونحوهما من الآيات.

وهجرة المنافقين: وهي خروج الشخص مع رسول الله ﷺ صابراً محتسباً لأغراض الدنيا، وهي المرادة هنا.

وهجرة عن جميع المعاصي: وهي المرادة بقوله ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

---

(١) خطيب.

والمعنى: إذا كانت هذه حالهم.. فلا تتخذوا منهم أنصاراً يساعدونكم على المشركين حتى يؤمنوا ويهاجروا ويشاركوكم في سائر شؤونكم، فإن الصادقين في إيمانهم لا يدعون النبي ﷺ ومن معه عرضة للخطر، ولا يتركوا الهجرة إلا إذا عجزوا عنها، وإذاً فتركهم لها علامة على نفاقهم الذي اختلفتم فيه. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله تعالى، والمراد بها القتال مع المسلمين مع الإخلاص والنصح؛ أي: فإن أعرضوا عن الهجرة، وأقاموا على ما هم عليه من النفاق، من غير هجرة، ومن غير صدق ونصح مع المسلمين، ولزموا مواضعهم في خارج المدينة.. ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر إذا قدرتم عليهم ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ أي: أينما وجدتموهم في الحل أو في الحرم، فإن حكمهم حكم سائر المشركين قتلاً وأسراً، وهذا مشكل من حيث إن المنافقين ينطقون بالشهادتين، ومن نطق بهما لا يجوز أسره ولا قتله إلا أن يحمل هذا على قوم من المنافقين ارتدوا وصرحوا بالكفر. ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ﴾ في هذه الحالة ﴿وَلِيًّا﴾ يتولى شيئاً من مهام أموركم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصركم على أعدائكم، فإنهم أعداء، وقد استثنى الله سبحانه منهم من تؤمن غائلتهم بأحد أمرين:

أحدهما: ما ذكره بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ وهذا مستثنى من الأخذ والقتل فقط، وأما الموالاة فحرام مطلقاً، لا تجوز بحال، وعبارة الكرخي: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ استثناء من ضمير المفعول في: ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ لا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ وإن كان أقرب مذكور، لأن اتخاذ الولي منهم حرام بلا استثناء، بخلاف قتلهم، انتهت.

أي: فخذوهم واقتلوهم إلا الذين يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين، فيدخلون في عهدهم، ويرضون بحكمهم، فيمتنع قتلهم مثلهم، لأنهم صاروا في أمانكم بواسطة التجائهم إلى المعاهدين، والمعنى: أن من دخل في عهد من كان داخلاً في عهدكم فهم أيضاً داخلون في عهدكم فلا يجوز أخذهم ولا قتلهم.

وثانيهما: ما ذكره بقوله تعالى: ﴿أَوْ﴾ إلا الذين ﴿جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾؛ أي: أو إلا الذين جاؤوكم، وأتوكم حالة كونهم قد ضاقت صدورهم، وخافت قلوبهم عن قتالكم، وعن قتال قومهم، فلا تنشرح

صدورهم لأحد الأمرين، والمعنى: أنهم جاؤوا المسلمين مسالمين لا يقاتلونهم، ولا يقاتلون قومهم معهم، بل يكونون على الحياد، فهم لا يقاتلون المسلمين مع قومهم حفظاً للعهد، ولا يقاتلون قومهم مع المسلمين لأنهم أقاربهم.

والحاصل: أنه سبحانه وتعالى استثنى من المأمور بقتلهم فريقين:

أحدهما: من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين.

والآخر: من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين، فريق الإسلام وفريق قومهم، وقبول معذرة الفريقين موافق لما يبنى عليه الإسلام من التسامح والسماحة وعدم الاعتداء، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى تسليطهم عليكم وقتالهم لكم ﴿لَسَلَّطَهُمۡ﴾؛ أي: لسلط هؤلاء المعاهدين من الفريقين ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ ببسط صدورهم، وتقوية قلوبهم، وإزالة الرعب عنها، ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ ولم يكفوا عنكم، وهذا في الحقيقة جواب ﴿لو﴾، وما قبله توطئة له، وهذه اللام هي اللام التي في قوله تعالى: ﴿لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ وأعيدت تأكيداً، ولكنه لم يشأ فألقى في قلوبهم الرعب، وقرأ الجمهور(١): ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ بألف المفاعلة وقرأ مجاهد وطائفة: ﴿فلقتلوكم﴾ على وزن ضربوكم، وقرأ الحسن والجحدري ﴿فلقتّلوكم﴾ بالتشديد، **والمعنى**: أن ضيق صدوركم عن قتالكم إنما هو بقذف الله تعالى الرعب في قلوبهم، ولو قوى قلوبهم على قتال المسلمين.. لتسلطوا عليهم، والمقصود من هذا الكلام أن الله تعالى منَّ على المسلمين بكف بأس المعاهدين، فالله سبحانه بنظامه في الأسباب والمسببات، وسننه في الأفراد والجماعات جعل الناس في ذلك العصر أصنافاً ثلاثةً:

١ ـ سليمو الفطرة الذين حصفت(٢) آراؤهم، فسارعوا إلى الإيمان، واستناروا بنور الإسلام.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) يقال: حَصُف حصافة ـ من باب ظرف ـ إذا كان جيد الرأي محكم العقل فهو حصيف.

٢ ـ المسالمون الذين رجحوا أن يكونوا على الحياد، لا مع المشركين ولا مع المؤمنين.

٣ ـ الموغلون في الضلال والشرك، والمحافظون على القديم وهم المحاربون.

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾؛ أي: فإن ترك هؤلاء المعاهدون من الفريقين إياكم، وابتعدوا عن قتالكم، ولم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ مع قومهم ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾؛ أي: الصلح والأمان، وأعطوا لكم زمام أمرهم بالانقياد للصلح والأمان، وقرأ الجحدري ﴿السلم﴾ بسكون اللام، وقرأ الحسن: بكسر السين وسكون اللام، ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾؛ أي: ما جعل لكم سبيلاً وطريقاً تسلكونها للاعتداء عليهم بالأسر والقتل، إذ من قواعد ديننا أن لا نعتدي إلا على من يعتدي علينا، ولا نقاتل إلا من قاتلنا.

قال بعض المفسرين[1]: هذا منسوخ بأية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وقال بعضهم: هي غير منسوخة، لأنا إذا حملناها على المعاهدين، فكيف يمكن أن يقال إنها منسوخة؟ ثم بين تعالى جماعة آخرين وبالغ في ذمهم فقال: ﴿سَتَجِدُونَ﴾ أيها المؤمنون عن قريب قوماً ﴿ءَاخَرِينَ﴾ من المنافقين غير من سبق ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾؛ أي: يأمنوا من قتالكم بإظهار الإسلام عندكم ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾؛ أي: من بأس قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم، فكانوا مذبذبين بين المؤمنين والكافرين، فهم قد غلت عليهم أرواحهم، ورخصت عليهم عقولهم، يظهرون لكل من الفئتين أنهم منهم أو معهم، ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا﴾؛ أي: كلما دعوا ﴿إِلَى الْفِتْنَةِ﴾؛ أي: إلى الشرك وعداوة المؤمنين.. ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾؛ أي: قلبوا في الفتنة أقبح قلب، وكبوا فيها على وجوههم أشد انكباب، وأوقعوا فيها أبلغ إيقاع، وكانوا فيها شراً من كل عدو شرير، وهذا استعارة لشدة إصرارهم على الكفر وعدواة المسلمين؛ لأن من وقع

---

(١) الخازن.

في شيء منكوساً يتعذر خروجه منه، فهم يريدون أن يأمنوا جانب المسلمين، إما بإظهار الإسلام، وإما بالعهد على السلم وترك القتال، ثم يفتنهم المشركون؛ أي: يحملونهم على الشرك أو على مساعدتهم على قتال المسلمين، فيرتكسون ويتحولون شرَّ التحول معهم، وهكذا يفعلون ذلك المرة بعد المرة، فهم مردوا على النفاق، وهم[1] قوم من أسد وغطفان، كانوا مقيمين حول المدينة، فإذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا وقالوا لأصحاب رسول الله ﷺ: إنا على دينكم ليأمنوا من قتال المسلمين، وإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا من قومهم، حتى كان الرجل منهم يقول له قومه: بماذا أسلمت، فيقول: آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء. وقرأ ابن وثاب والأعمش: ﴿ردوا﴾ بكسر الراء لما أدغم نقل الكسرة إلى الراء، وقرأ عبد الله: ﴿ركسوا﴾ بضم الراء من غير ألف مخففاً، وقال ابن جني عنه: بشد الكاف.

وقد بين الله تعالى حكمهم بقوله ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾؛ أي: فإن لم يتركوا قتالكم، ﴿وَ﴾ لم ﴿يلقوا إليكم السلم﴾؛ أي: لم يطلبوا منكم الصلح، ﴿وَ﴾ لم ﴿يكفوا أيديهم﴾ عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: في أي محل وجدتموهم فيه من حل أو حرم، فلا علاج لهم غير ذلك، كما ثبت بالتجارب والاختبار، ﴿وَأُولَٰئِكُمْ﴾ الموصوفون بهذه الصفة ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على جواز قتلهم ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾؛ أي: حجة واضحة وبرهاناً ظاهراً، وهي ظهور عداوتهم، وانكشاف حالهم في الكفر والغدر، وإضرارهم بأهل الإسلام، أو جعلنا لكم عليهم تسلطاً ظاهراً، حيث أذنَّا لكم في أخذهم وقتلهم، ﴿وَمَا كَانَ﴾ ينبغي، ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ ولا يليق به ولا يصح ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق ﴿إِلَّا خَطَأً﴾؛ أي: إلا حالة كونه مخطئاً في قتله؛ أي: ليس المؤمن كالكافر الذي تقدم في إباحة دمه، فحينئذ لا يليق بمؤمن قتل مؤمن في حال من الأحوال، إلا في حالة كونه ملتبساً بخطأ، بأن قصد رمي غيره كصيد أو شجرة فأصابه، أو ملتبساً بشبه عمد كأن ضربه بما لا يقتل غالباً، كالعصا

(١) المراح.

الخفيفة والصفع واللطم، والمراد بالخطأ هنا: ما يشمل شبه العمد، فيقال حينئذ في ضبطه وتعريفه: هو ما لا يقارنه قصد إلى الفعل أو إلى الشخص، أو ما لا يقصد به زهوق الروح غالباً.

والمعنى: ليس[1] من شأن المؤمن ولا من خُلقه أن يقتل أحداً من المؤمنين، إذ الإيمان وهو صاحب السلطان على النفس والحاكم على الإرادة والمصرف لها يمنعه أن يجترح هذه الكبيرة عمداً، لكنه قد يفعل ذلك خطأ، ذلك أنه لا يكمل إيمان المؤمن إلا إذا شعر بحقوق الإيمان عليه، وهي حقوق الله تعالى وحقوق للعباد، ومن الثانية القصاص، لما في ذلك من الزجر من القتل، ولما في تركه من الاستهزاء بحقوق الدماء، ومن استهزأ بها.. كان قد انتهك أكبر حق من حقوق الأمة، وهدم ركناً من أركان الإيمان، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وسبب العقوبة على الفعل الخطأ كالقتل: أن الخطأ لا يخلو من التهاون وعدم العناية ومثله النسيان، إذ من شأنهما أن يعاقب الله تعالى عليهما، ومن ثم أمرنا الله تعالى أن ندعوه أن لا يؤاخذنا عليهما بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ كما ثبت بنص القرآن أن آدم نسي، وسمى مخالفته معصية وعوقب عليها، ولكن ورد في السنة قوله ﷺ: «وضع الله عن هذه الأمة ثلاثاً: الخطأ والنسيان، والأمر يكرهون عليه». رواه ابن ماجه. ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ بأن قصد رمي صيد أو غرض فأصاب مؤمناً، أو قصد رمي المشرك فأصاب مسلماً، أو ظن الشخص مشركاً فقتله فبان مسلماً، أو قتله شبه عمد، ويسمى عمد خطأ، وخطأ عمد، كأن ضربه بما لا يقتل عادة، كأن صفعه باليد، أو ضربه بعصا فمات، ولم يقصد قتله. ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: فالواجب عليه عتق نسمة من أهل الإيمان، لأنه لما أعدم نفساً مؤمنة كان كفارته أن يوجد نفساً،

---

(١) المراغي.

والعتق كالايجاد من العدم، ﴿و﴾ عليه من الجزاء مع عتق الرقبة ﴿دية مسلمة﴾؛ أي: مدفوعة ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾؛ أي: إلى أهل المقتول وورثته ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾؛ أي: إلا أن يعفوا أهل المقتول عن تلك الدية، ويسقطوها باختيارهم؛ لأنها إنما وجبت تطييباً لقلوبهم حتى لا تقع عداوة ولا بغضاء بينهم وبين القاتل، وتعويضاً عما فاتهم من المنفعة بقتله، فإذا هم عفوا.. فقد طابت نفوسهم، وانتفى المحذور، وكانوا هم ذوي الفضل على القاتل، وقد سمى الله تعالى هذا العفو تصدقاً، ترغيباً فيه وحثاً عليه وتنبيهاً على فضله، وفي الحديث: «كل معروف صدقة» وبينت السنة أنها مئة من الإبل، عشرون بنت مخاض، وكذا بنات لبون، وبنو لبون، وحقاق، وجذاع، وأنها على عاقلة القاتل، وهم عصبته، إلا الأصل والفرع، موزعة عليهم في ثلاث سنين: على الغني منهم نصف دينار، والمتوسط ربعٌ كل سنة، والحكمة في ذلك تقرير التضامن بين الأقربين، فإن لم يقوا.. فمن بيت المال ـ الوزارة المالية ـ فإن تعذر.. فعلى الجاني، وتجزىء قيمة الإبل إذا حصل التراضي بين الدافع والمستحق، ودية المرأة نصف دية الرجل؛ لأن المنفعة التي تفوت أهل الرجل بفقده أعظم من المنفعة التي تفوت بفقدها. وقد روي أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً جاء فيه: «إن من اعتبط ـ قتل بغير سبب شرعي ـ مؤمناً، قتلاً عن بينة، فإنه قود؛ أي: قصاص يقتل به إلا أن يرضى أولياء المقتول، وإن في النفس الدية، مئة من الإبل، ثم قال: وعلى أهل الذهب ألف دينار». وفي هذا دليل على أن دية الإبل على أهلها، إذا كانت هي رأس أموالهم، وأن الذين يتعاملون بالذهب كأهل المدن تكون من الذهب أو الفضة، وعلى أن هذا أصل لا قيمة للإبل.

فالدية ضابطها هو المال الواجب بالجناية على الحر في النفس، أو فيما دونها، ويعطى إلى ورثة المقتول، عوضاً عن دمه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَصَّدَّقُواْۚ﴾ وأصله يتصدقوا فأدغمت التاء في الصاد،

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ الحسن وأبو عبد الرحمٰن وعبد الوارث عن أبي عمرو ﴿تصدقوا﴾ بالتاء على الخطاب، وقرىء: ﴿تصدقوا﴾ بالتاء وتخفيف الصاد، وأصله تتصدقوا، فحذف إحدى التاءين على الخلاف في أيهما هي المحذوفة، وفي حرف أبي وعبد الله: ﴿يتصدقوا﴾ بالياء والتاء.

﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول خطأ ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾؛ أي: من سكان دار الحرب، بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم، أو بأن أتاهم بعد أن فارقهم لمهم من المهمات، ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: المقتول ﴿مُؤْمِنٌ﴾ ولم يعلم القاتل بكونه مؤمناً، كالحارث بن يزيد كان من قريش، وهم أعداء النبي ﷺ، والمؤمنون في حرب معهم، ولم يعلم المسلمون إيمانه، لأن قد قتله عياش حين خروجه مهاجراً، وهو لم يعلم بذلك، ومثله كل من آمن في دار الحرب ولم يعلم المسلمون بإيمانه حين قتله، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: فالواجب على القاتل بسبب قتله الواقع على سبيل الخطأ هو عتق نسمة من أهل الإيمان فقط، وأما الدية فلا تجب، إذ لا وراثة بين المقتول وأهله؛ لأنهم أعداء يحاربون المسلمين، فلا يعطون من أموال المسلمين ما يستعينون به على قتالهم والتنكيل بهم، وأما الكفارة فإنها حق الله تعالى ليقوم المعتوق به مقام المقتول في المواظبة على العبادات.

﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول خطأ ﴿مِن قَوْمٍ﴾ كفرة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَهُم﴾؛ أي: وبين أولئك الكفرة ﴿مِّيثَاقٌ﴾؛ أي: عهد مؤقت أو مؤبد على ترك القتال بينهم، كما هو حال الدول في العصر الحاضر يعقد بعضهم معاهدات ومواثيق مع بعض آخر على أن لا يقاتلوهم ولا يساعدوا عليهم عدواً، ﴿فَدِيَةٌ﴾؛ أي: فالواجب على قاتله دية ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾؛ أي: مؤداة ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: إلى أهل المقتول الكفار المعاهدين. وقرأ الحسن[1]: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق وهو مؤمن﴾ بزيادة: وهو مؤمن، وبه قال مالك، وقد اختلف الفقهاء في دية غير المسلمين، لاختلاف الرواية في ذلك، روى أحمد والترمذي أن النبي ﷺ قال: «عقل ـ دية ـ الكافر نصف دية المسلم»، وروي عن أحمد: أن

(١) البحر المحيط.

ديته كدية المسلم إن قتل عمداً، وإلا فنصف ديته، وذهب الزهري وأبو حنيفة: إلى أن ديته كدية المسلم لظاهر الآية في أهل الميثاق، وهم المعاهدون وأهل الذمة، وذهب الشافعي: إلى أن دية الكافر ثلث دية المسلم إن كان نصرانياً أو يهودياً تحل مناكحته، وثلثا عشرها إن كان مجوسياً أو كتابياً لا تحل مناكحته، وعلى الجملة فالروايات متعارضة ومن ثم اختلف الفقهاء فيها كما سيأتي بسط ذلك إن شاء الله تعالى. ﴿و﴾ على القاتل أيضاً ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾؛ أي: عتق نفس متصفة بالإيمان ولو صغيراً لحق الله تعالى، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة يعتقها في الكفارة، بأن لم يجد مالاً يشتريها به من مالكها ليحررها من الرق، أو لم يجد رقيقاً، ﴿فـ﴾ عليه ﴿صيام شهرين﴾ قمريين بدلاً عن عتق الرقبة ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾؛ أي: متواليين وجوباً بحيث لا يفصل يومين منهما إفطار في النهار بغير عذر شرعي، فإن أفطر يوماً بغير عذر شرعي، استأنفه وكان ما صامه قبل كأن لم يكن، أما الإفطار بعذر كحيض ونفاس فلا يضر، ولو كان كثيراً، ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: شرع الله سبحانه وتعالى ذلك التكفير توبة على القاتل خطأ، وتجاوزاً عن تقصيره في ترك الاحتياط، حيث لم يبحث عن المقتول وحاله، وحيث لم يجتهد حتى لا يخطىء، لأنه لو بالغ في الاحتياط.. لم يصدر منه ذلك الفعل الخطأ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بأحوال النفوس وما يطهرها، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرعه من الأحكام والآداب التي بها هدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة.

فائدة: حاصل[1] ما ذكره في الخطأ ثلاثة أقسام، لأن المقتول إما مؤمن أو كافر معاهد، والأول إما أن تكون ورثته مسلمين أو حربيين، فالمؤمن الذي ورثته مسلمون فيه الدية والكفارة، وكذا الكافر المُؤَمَّنُ، أما المؤمن الذي ورثته كفار حربيون ففيه الكفارة فقط.

---

(١) الفتوحات.

فصل في أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

المسألة الأولى: في بيان صفة القتل

قال الشافعي: القتل على ثلاثة أقسام: عمد وشبه عمد وخطأ.

أما العمد المحض: فهو أن يقصد قتل إنسان بما يقتل به غالباً، فقتل به، ففيه القصاص عند وجود التكافؤ، أو دية حالة مغلظة في مال القاتل.

وأما شبه العمد: فهو أن يقصد ضرب إنسان بما لا يقتل بمثله غالباً مثل أن ضربه بعصا خفيفة، أو رماه بحجر صغير فمات، فلا قصاص عليه، وتجب عليه دية مغلظة على عاقلته مؤجلة إلى ثلاث سنين.

وأما الخطأ المحض: فهو أن لا يقصد قتله، بل قصد شيئاً آخر فأصابه، فمات منه، فلا قصاص عليه، وتجب فيه دية مخففة على عاقلته، مؤجلة إلى ثلاث سنين. ومن صور قتل الخطأ أيضاً: أن يقصد رمي مشرك أو كافر فيصيب مسلماً، أو يقصد قتل إنسان يظنه مشركاً، بأن كان عليه لباس المشركين أو شعارهم، فبان مسلماً، فالصورة الأولى خطأ في الفعل والثانية خطأ في القصد.

المسألة الثانية: في حكم الديات

فدية الحر المسلم مئة من الإبل، فإذا عدمت الإبل.. فتجب قيمتها من الدراهم أو الدنانير في قول، وفي قول بدل مقدر، وهو ألف دينار، أو اثنا عشر ألف درهم، ويدل على ذلك ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كانت الدية على عهد رسول الله ﷺ ثمان مئة دينار، أو ثمانية آلاف درهم، قال: وكانت دية أهل الكتاب يومئذ على النصف من دية المسلم، فكانت كذلك حتى استخلف عمر، فقام خطيباً، فقال: إن الإبل قد غلت، ففرضها عمر على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم، وعلى أهل البقر مئتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألفي شاة، وعلى أهل الحلل مئتي حلة، قال: وترك دية أهل الكتاب، فلم يرفعها فيما رفع من الدية، أخرجه أبو داود.

وذهب قوم إلى أن الواجب في الدية مئة من الإبل، أو ألف دينار، أو اثنا عشر ألف درهم، وهو قول عروة بن الزبير، والحسن البصري، وبه قال مالك والشافعي.

وذهب قوم إلى أنها مئة من الإبل، أو ألف دينار، أو عشرة آلاف درهم، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

ودية المرأة نصف دية الذكر الحر، ودية أهل الذمة والعهد ثلث دية المسلم إن كان كتابياً، وإن كان مجوسياً فخمس الثلث ثمان مئة درهم، وهو قول سعيد بن المسيب وإليه ذهب الشافعي.

وذهب قوم إلى أن دية الذمي والمعاهد مثل دية المسلم، روي ذلك عن ابن مسعود، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي. وقال قوم: دية الذمي نصف دية المسلم، وهو قول عمر بن عبد العزيز، وبه قال مالك وأحمد، والأصل في ذلك ما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «دية المعاهد نصف دية الحر». أخرجه أبو داود. وعنه أن النبي ﷺ قال: «عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين وهم اليهود والنصارى» أخرجه النسائي. فمن ذهب إلى أن دية أهل الذمة ثلث دية المسلم أجاب عن هذا الحديث بأن الأصل في ذلك كان النصف، ثم رفعت زمن عمر دية المسلم ولم ترفع دية الذمي، فبقيت على أصلها وهو قدر الثلث من دية المسلمين.

والدية في قتل العمد وشبه العمد مغلظة فتجب ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفة في بطونها أولادها، وهذا قول عمرو بن زيد بن ثابت، وبه قال عطاء، وإليه ذهب الشافعي، لما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل متعمداً دُفع إلى أولياء المقتول، فإن شاؤوا قتلوا، وإن شاؤوا أخذوا الدية، وهي ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة، وما صولحوا عليه فهو لهم»، وذلك لتشديد العقل. أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب.

وعن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: خطب النبي ﷺ

يوم الفتح فقال: «ألا وإن قتيل العمد بالسوط والعصا والحجر مئة من الإبل، أربعون ثنية إلى بازل[1] عامها كلهن خلفة». وفي رواية أخرى: «ألا إن كل قتيل خطأ العمد أو شبه العمد قتيل السوط والعصا مئة من الإبل فيها أربعون في بطونها أولادها» أخرجه النسائي.

وذهب قوم إلى أن الدية المغلظة أرباع، خمس وعشرون بنت مخاض، وخمس وعشرون بنت لبون، وخمس وعشرون حقة، وخمس وعشرون جذعة، وهذا قول الزهري وربيعة، وإليه ذهب مالك وأحمد وأصحاب الرأي.

وأما دية الخطأ فمخففة، وهي أخماس بالاتفاق، غير أنهم اختلفوا في تقسيمها، فذهب قوم إلى أنها عشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون، وعشرون ابن لبون، وعشرون حقة، وعشرون جذعة، وهذا قول عمر بن عبد العزيز وسليمان بن يسار والزهري وربيعة، وبه قال مالك والشافعي، وأبدل قوم أبناء اللبون بأبناء المخاص يروون ذلك عن ابن مسعود، وبه قال أحمد وأصحاب الرأي.

والدية في قتل الخطأ وشبه العمد على العاقلة، وهم العصبات من الذكور، ولا يجب على الجاني منها شيء، لأن النبي ﷺ أوجبها على العاقلة. ودية الأعضاء والأطراف حكمها مبين في كتب الفقه، فلا نطيل الكلام بها، ودية أعضاء المرأة على النصف من دية أعضاء الرجل. والله أعلم.

المسألة الثالثة: في حكم الكفارة

الكفارة: إعتاق رقبة مؤمنة، وتجب في مال القاتل، سواء كان المقتول مسلماً أو معاهداً، رجلاً كان أو امرأة، حراً كان أو عبداً، فمن لم يجد الرقبة.. فعليه صيام شهرين متتابعين، فالقاتل إن كان واجداً لرقبة أو قادراً على تحصيلها بوجود الثمن، فاضلاً عن نفقته ونفقة عياله، وحاجته من مسكن ونحوه.. فعليه

---

(١) قوله بازل: يقال بزل ناب البعير يبزل بزولاً ـ من باب قعد ـ إذا طلع، وهو وهي بازل اهـ.

الإعتاق، ولا يجوز له أن ينتقل إلى الصوم، فإن عجز عن الرقبة، أو عن تحصيل ثمنها.. فعليه صوم شهرين متتابعين، فإن أفطر يوماً متعمداً في خلال الشهرين، أو نسي النية، أو نوى صوماً آخر.. وجب عليه استئناف الشهرين، وإن أفطر يوماً بعذر مرض أو سفر هل ينقطع التتابع؟ اختلف العلماء فيه:

فمنهم من قال: ينقطع التتابع وعليه استئناف الشهرين، وهو قول النخعي، وأظهر قولي الشافعي؛ لأنه أفطر مختاراً.

ومنهم من قال: لا ينقطع التتابع، وعليه أن يبني، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والشعبي.

ولو حاضت المرأة في خلال الشهرين أفطرت أيام الحيض، ولا ينقطع، فإذا طهرت.. بنت؛ لأنه أمر كتبه الله تعالى على بنات آدم، ولا يمكن الاحتراز عنه.

فإن عجز عن الصوم، فهل ينتقل عنه إلى الإطعام، فيطعم ستين مسكيناً؟.. فيه قولان:

أحدهما: أنه ينتقل إلى الإطعام كما في كفارة الظهار.

والثاني: لا ينتقل لأن الله تعالى لم يذكر له بدلاً، فقال: فصيام شهرين متتابعين توبة من الله، فنص على الصوم، وجعل ذلك عقوبة لقتل الخطأ والله أعلم.

ثم بين الله سبحانه وتعالى حكم القتل العمد وعقوبته الشديدة، فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ﴾ شخصاً ﴿مُؤْمِنًا﴾ بالله ورسوله، حالة كون القاتل ﴿مُتَعَمِّدًا﴾؛ أي: قاصداً قتله بما يقتل غالباً كالسيف مثلاً، عالماً بكونه مؤمناً ولو ظناً ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: فجزاء ذلك القاتل وعقوبته جهنم؛ أي: فجزاؤه وعقوبته على قتله أن يدخل جهنم حالة كونه ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾؛ أي: حالة كونه ماكثاً في جهنم مكثاً مؤبداً إن استحل قتله، أو ماكثاً مكثاً طويلاً إن لم يستحل ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: وسخط الله سبحانه وتعالى على ذلك القاتل سخطاً شديداً، يستلزم الانتقام منه، ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾؛ أي: وطرده الله تعالى من رحمته، وأبعده عنها في الدنيا والأخرة، ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ﴾؛ أي: وهيأ الله تعالى لذلك القاتل في جهنم ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾؛ أي: تعذيباً شديداً لا يقادر قدره إلا الله تعالى، جزاء على عمله الشنيع.

وللعلماء في توبة قاتل المؤمن عمداً آراء ثلاثة:

١ ـ يرى ابن عباس وفريق من السلف: أن قاتل المؤمن عمداً لا تقبل له توبة، وهو خالد في النار أبداً، ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد والنسائي عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً».

وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على دم امرىء مسلم بشطر كلمة، كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله تعالى»، وروي عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: «لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله تعالى من قتل مؤمن، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن.. لأدخلهم الله تعالى النار».

وعن ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن.. لأكبهم الله تعالى على مناخرهم في النار، وإن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والآمر». وهؤلاء يرون أن التائب من الشرك وقد كان قاتلاً زانياً تقبل توبته، ولا تقبل توبة المؤمن الذي ارتكب القتل وحده، إذ الأول لم يؤمن بالشريعة التي تحرم هذه الأمور، فله شبه عذر إذا هو كان متبعاً لهواه بالكفر، وما يتبعه، ولم يكن ظهر له صدق النبوة، فلما ظهر له الدليل على أن ما كان عليه كفر وضلال وتاب وأناب وعمل صالحاً كان جديراً بالعفو، وأما المؤمن الموقن بصحة النبوة وحرمة القتل، فلا عذر له، إذ هو يعلم أن المؤمن أخ له ونصير، فكيف يعود بعد هذا إلى الاستهانة بأمر الله وحكمه، وتوهين أمر دينه بهدم أركان قوته، ومن ثم يهن المسلمون ويضعفون، ويكون بأسهم بينهم شديداً.

وإنك لترى أنه ما انحلت الرابطة بين المسلمين، وانفصمت عروة الوفاق بينهم، إلا بعد أن أقدم بعضهم على سفك دماء بعض، ورجحوا شهوة الغضب والانتقام على أمر الله تعالى، ومن رجح شهوات نفسه الضارة على أمر الله، وعلى مصلحة المؤمنين بغير شبهة.. فهو جدير بالخلود في النار والغضب واللعنة، إذ هؤلاء تجرؤوا على حدود دينه ولم يبق للشرع حرمة في قلوبهم.

قال في «الكشاف»: هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم، وخطب جليل، ومن ثم روي عن ابن عباس أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة، والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية، ويرون ما فيها، ويسمعون هذه الأحاديث التي تقدم ذكرها، وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة، واتباعهم هواهم، وما يخيل إليهم مُناهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ انتهى.

٢ - فريق آخر يرى: أن المراد بالخلود المكث الطويل، لا الدوام؛ لتظاهر النصوص القاطعة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم، وما في الآية إخبار من الله بأن جزاءه ذلك، لا بأنه يجزيه ذلك، كما جاء في قوله جل ذكره: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فإنه لو كان المراد منها أنه سبحانه يجزى كل سيئة بمثلها، لعارضه قوله جل شأنه: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ ومن ثم روي عن النبي ﷺ مرفوعاً أنه قال: «هو جزاؤه إن جازاه»، وبهذا قال جمع من العلماء، وقالوا: هو كما يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر: إن فعلت فجزاؤك القتل والضرب، وهو إن لم يجازه.. لم يكن كذاباً، وقد روي عن ابن عباس جواز المغفرة بلا توبة أيضاً، وقال في الآية: هي جزاؤه، فإن شاء.. عذبه، وإن شاء.. غفر له.

٣ - ويرى فريق ثالث: أن حكم الآية إنما هو للقاتل المستحل، وحكمه مما لا شك فيه جواب المبتدأ: حكمه، وعكرمة وابن جريج فسرا متعمداً مستحلاً في الآية؛ أي: ومن يقتل مؤمناً، متعمداً لقتله، مستحلاً له.. فجزاؤهُ جهنم خالداً فيها أبداً.

الإعراب

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم استفهام إنكاري في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبره، تقديره: فأي شيء ثابت لكم، والجملة

مستأنفة، ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ﴾: متعلق بصار المحذوف، ﴿فِئَتَيْنِ﴾: خبر لصار المحذوف، تقديره: فمالكم صرتم فئتين في المنافقين، وجملة صار المحذوفة حال من ضمير ﴿لَكُمْ﴾، والتقدير: فأي شيء ثبت لكم حال كونكم صائرين فرقتين في المنافقين.

وفي «السمين»: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾[1]: مبتدأ وخبر، و﴿فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه متعلق بما تعلق به الخبر وهو ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: أي شيء كائن لكم، أو مستقر لكم في أمر المنافقين.

والثاني: أنه متعلق بمعنى ﴿فِئَتَيْنِ﴾، فإنه في قوة مالكم تفترقون في أمور المنافقين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

والثالث: أنه متعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿فِئَتَيْنِ﴾؛ لأنه في الأصل صفة لها، تقديره: فئتين مفترقتين في المنافقين، وصفة النكرة إذا تقدمت عليها.. انتصبت حالاً. وفي ﴿فِئَتَيْنِ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه حال من الكاف والميم في ﴿لَكُمْ﴾، والعامل فيها الاستقرار الذي تعلق به ﴿لَكُمْ﴾، ومثله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩)﴾ وقد تقدم أن هذه الحال لازمة؛ لأن الكلام لا يتم بدونها، وهذا مذهب البصريين في كل ما جاء من هذه التراكيب.

والثاني: وهو مذهب الكوفيين: أنه نصب على أنه خبر كان مضمرة، والتقدير: ما لكم في المنافقين كنتم فئتين، انتهى.

﴿وَاللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية أو استئنافية، ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾، أو مستأنفة، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أركس﴾، ﴿كَسَبُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾،

---

(١) الفتوحات.

أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما كسبوه، ﴿أَتُرِيدُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿تريدون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَن تَهْدُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: أتريدون هداية، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تَهْدُواْ﴾، ﴿أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: من أضله الله، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿من﴾ على كون فعل شرط لها، ﴿فَلَن﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿لن﴾، ﴿لن تجد﴾: ناصب وفعل، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، أو أي مخاطب. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور، في محل المفعول الأول لـ﴿تَجِدَ﴾، ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿تَجِدَ﴾، وجملة ﴿تَجِدَ﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَدُّواْ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿لَوْ﴾: مصدرية، ﴿تَكْفُرُونَ﴾ فعل وفاعل، وجملة ﴿لَوْ﴾ المصدرية مع صلتها: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ودوا كفركم أيها المؤمنون، ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الكاف﴾، تقديره: ككفرهم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف، تقديره: ودوا كفركم كفراً كائناً ككفرهم. ﴿فَتَكُونُونَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿تكونوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿سَوَآءً﴾: خبره، ولكنه في تأويل اسم الفاعل؛ لأنه لا يخبر عن الذات باسم المعنى، فهو في تأويل مستوين، وجملة ﴿تكونون﴾ في محل النصب معطوفة على جملة

﴿تَكۡفُرُونَ﴾، والتقدير: ودوا كفركم ككفرهم فكونكم أنتم وهم مستوين في الشرك، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصحية؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا كان حالهم ما ذكر.. فأقول لكم لا تتخذوا منهم أولياء، وجملة الشرط المحذوف مستأنفة، ويصح كون ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع على قوله: ﴿وَدُّواْ﴾. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾، وهو من أخوات ظن تنصب مفعولين، ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الأول، ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، أو معطوفة على جملة ﴿وَدُّواْ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يُهَاجِرُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى إلى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَتَّخِذُواْ﴾، والتقدير: فلا تتخذوا منهم أولياء إلى مهاجرتهم في سبيل الله، ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حكم ما إذا هاجروا، وأردتم بيان حكم ما إذا تولوا.. فأقول لكم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَخُذُوهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿خُذُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾، على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة متسأنفة، ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿خُذُوهُم﴾، ﴿حَيۡثُ﴾: في محل النصب على الظرفية مبني على الضم، والظرف تنازع فيه كل من الفعلين قبله أعني ﴿خُذُوهُم واقتلوهم﴾، ﴿وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيۡثُ﴾. ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ﴾: جازم وفعل وفاعل، في محل الجزم معطوف على خذوهم، ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور في محل النصب على كونه مفعولاً أول لاتتخذ. ﴿وَلِيّٗا﴾: مفعول ثان له. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ معطوف على ﴿وَلِيّٗا﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر، في محل النصب على الاستثناء من هاء ﴿خُذُوهُم واقتلوهم﴾، ﴿يَصِلُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿يَصِلُونَ﴾، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، ﴿وَبَيْنَهُم﴾: معطوف على ﴿بَيْنَكُمْ﴾ والظرفان متعلقان بمحذوف خبر مقدم لقوله: ﴿مِّيثَٰقٌ﴾: وهو مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿يَصِلُونَ﴾ على كونه صلة الموصول.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية دعائية لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿جَآءُوكُمْ﴾ ولكنها على تقدير قد، وقيل[1]: لا حاجة إلى تقديرها؛ لأنه قد جاء الماضي حالاً بغير تقديرها كثيراً، فإن لم تقدر قد.. فهو دعاء عليهم، كما تقول: لعن الله الكافر. اهـ. «كرخي». وفي «السمين»: وإذا وقعت الحال فعلاً ماضياً.. ففيها خلاف هل يحتاج إلى اقترانه بقد أم لا، والراجح عدم الاحتياج لكثرة ما جاء منه، فعلى هذا لا تقدر قد قبل ﴿حَصِرَتْ﴾ انتهى. ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف متعلق بـ﴿حَصِرَتْ﴾ تقديره: حصرت صدورهم عن قتالهم إياكم.

﴿أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

﴿أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، معطوف على ﴿يُقَٰتِلُوكُمْ﴾. ﴿وَلَوْ﴾. ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿سلطهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود

(١) الفتوحات.

على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بظرف محذوف ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، و﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ لعطفه على الجواب، ﴿قاتلوكم﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾، وفي «الجمل»: هذا[1] هو جواب ﴿لو﴾ في الحقيقة، وما قبله توطئة له، وهذه اللام هي اللام التي في قوله: ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾، وأعيدت توكيداً. وفي «أبي السعود»، واللام جواب ﴿لو﴾ على التكرير، أو على الإبدال. ﴿فَإِنِ﴾ ﴿الفاء﴾: تفريعية. ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿لم يقاتلوكم﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ معطوف على ﴿ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾، ﴿وَأَلْقَوْا۟﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم معطوف على ﴿ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾، ﴿إِلَيْكُمُ﴾: متعلق بـ﴿ألقوا﴾، ﴿ٱلسَّلَمَ﴾: مفعول به، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، لاقترانه بـ﴿ما﴾ النافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مفرعة على قوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ وهو في محل المفعول الأول لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: حال من ﴿سَبِيلًا﴾؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليها. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلَ﴾.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (٩١)﴾.

﴿سَتَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿ءَاخَرِينَ﴾: مفعول أول، ﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مفعول ثان لوجد، وجملة وجد مستأنفة، ﴿أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر

(١) الفتوحات.

منصوب على المفعولية لـ﴿يُرِيدُونَ﴾ تقديره: يريدون أمنهم إياكم، ﴿وَيَأْمَنُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَأْمَنُوكُمْ﴾، ﴿قَوْمَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والتقدير: وأمنهم قومهم، ﴿كُلَّ مَا﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب، ﴿رُدُّوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿أُرْكِسُواْ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَآ﴾ مستأنفة، ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم حالهم هذه وأردتم بيان ما تفعلون بهم.. فأقول لكم: ﴿إن لم يعتزلوكم﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿وَيُلْقُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، ﴿إِلَيْكُمُ﴾: متعلق بـ﴿يلقوا﴾. ﴿ٱلسَّلَمَ﴾: مفعول به، ﴿وَيَكُفُّوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿يَعْتَزِلُوكُمْ﴾، ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿خذوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿خذوهم﴾، ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان تنازع فيه ﴿خذوهم واقتلوهم﴾، ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أولئكم﴾: مبتدأ ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الأول لـ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليها، ﴿سُلْطَٰنًا﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة ﴿سُلْطَٰنًا﴾، وجملة جعل من الفعل والفاعل: في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكنه خبر سببي، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾ على اسمها، ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مؤمن﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿خَطَـًٔا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة مصدر محذوف، تقديره: إلا قتلاً خطأً، أو منصوب على الحال من فاعل ﴿يَقْتُلَ﴾، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها: في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً، والتقدير: وما كان قتل مؤمن مؤمناً جائزاً له إلا قتلاً خطأً، أو إلا حالة كونه مخطئاً.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿قَتَلَ مُؤْمِنًا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿خَطَـًٔا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿فَتَحْرِيرُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿تحرير﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فالواجب عليه تحرير رقبة، ﴿رَقَبَةٍ﴾: مضاف إليه، ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾: صفة لـ﴿رَقَبَةٍ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَدِيَةٌ﴾: معطوف على ﴿تحرير﴾. ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾: صفة لـ﴿دية﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، ﴿أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل، في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء من عام الأحوال، تقديره: ودية مسلمة إلى أهله في جميع الأحوال إلا حال تصدقهم وعفوهم عنها، وإن شئت قلت: ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿أَهْلِهِۦٓ﴾، والتقدير: ودية مسلمة إلى أهله إلا حالة كونهم متصدقين وعافين عنها، تأمل.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع على محذوف تقديره: هذا الحكم إذا كان المقتول منكم. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾، واسمها ضمير يعود على المقتول، ﴿مِن قَوْمٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿عَدُوٍّ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، ﴿لَّكُمْ﴾: صفة ﴿عَدُوٍّ﴾، وقيل[1]: يتعلق به؛ لأن عدواً في معنى معاد، وفعول يعمل عمل فاعل، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من اسم ﴿كَانَ﴾، ﴿فَتَحْرِيرُ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿تحرير رقبة﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾: صفة لـ﴿رَقَبَةٍ﴾، والخبر محذوف، تقديره: فتحرير رقبة مؤمنة واجب عليه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة ومفرعة على الجملة المحذوفة التي قدرناها آنفاً.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على المقتول، ﴿مِن قَوْمٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿وَبَيْنَهُم﴾ معطوف عليه، ﴿مِّيثَاقٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، ﴿فَدِيَةٌ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿دية﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بما بعده، ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾: صفة لـ﴿دية﴾، ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾، والخبر محذوف جوازاً تقديره: واجبة عليه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن

(١) العكبري.

كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ على كونها معطوفة على جملة محذوفة قدرناها سابقاً، ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: معطوف على ﴿دية﴾، ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾: صفة لـ﴿رَقَبَةٍ﴾.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع على محذوف، تقديره: هذا الحكم في حق من وجد الرقبة. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما، ﴿لَّمْ يَجِدْ﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ومفعوله محذوف تقديره: فمن لم يجد الرقبة، وهو متعد إلى واحد؛ لأنه من وجدان الضالة، لا بمعنى علم، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَصِيَامُ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿صيام﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فالواجب عليه صيام وهو مضاف. ﴿شَهْرَيْنِ﴾: مضاف إليه، ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾: صفة لـ﴿شَهْرَيْنِ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: معطوفة مفرعة على ذلك المحذوف. ﴿تَوْبَةً﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: تاب الله عليكم توبة منه، حيث نقلكم من الأثقل الذي هو الإعتاق إلى الأخف الذي هو الصيام، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿تَوْبَةً﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَقْتُلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مُؤْمِنًا﴾: مفعول به، ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾: حال من فاعل ﴿يَقْتُلْ﴾، ﴿فَجَزَآؤُهُ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿جزاؤه﴾: مبتدأ ومضاف إليه،

﴿جَهَنَّمُ﴾: خبر، ﴿خَٰلِدًا﴾: حال من ضمير ﴿جزاؤه﴾، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدًا﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة[1] على مقدر تدل عليه الجملة الشرطية دلالة واضحة، تقديره: حكم الله أن جزاءه ذلك وغضب عليه. ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿غضب﴾. ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿غضب﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِئَتَيْنِ﴾: تثنية فئة، والفئة الجماعة. ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾: من أركس الرباعي إركاساً، والإركاس[2] الرد والرجع، قيل: من آخره على أوله، والركس: بكسر أوله وسكون ثانيه الرجيع والروثة، ومنه قول النبي ﷺ في الروثة: «هذا ركس» وقال أمية بن أبي الصلت:

فَأُرْكِسُوْا فِيْ حَمِيْمِ ٱلنَّارِ إِنَّهُمُ كَانُوْا عُصَاةً وَقَالُوْا ٱلإِفْكَ وَٱلزُّوْرَا

والركس[3]: بوزن النصر إرجاع الشيء منكوساً على رأسه، إن كان له رأس، أو متحولاً عن حال إلى أردأ منها، كتحول الطعام والعلف إلى الرجيع والروث، والمراد به هنا تحولهم إلى الغدر والقتال بعد أن أظهروا الولاء والتحيز إلى المسلمين.

وحكى الكسائي والنضر بن شميل[4]: ركس وأركس بمعنى واحد؛ أي:

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

رجعهم، ويقال: ركس مشدداً بمعنى أركس، وارتكس هو؛ أي: ارتجع، وقيل: أركسه إذا أوبقه، قال الشاعر:

بِشُؤْمِكَ أَرْكَسْتَنِيْ فِيْ ٱلْخَنَا ... وَأَرْمَيْتَنِيْ بِضُرُوْبِ ٱلْعَنَا

وقيل: أضلهم، وقال الآخر:

وَأَرْكَسْتَنِيْ عَنْ طَرِيْقِ ٱلْهُدَىٰ ... وَصَيَّرْتَنِيْ مَثَلاً لِلْعِدَا

وقيل: بمعنى نكسه، قاله الزجاج:

رُكِسُوْا فِيْ فِتْنَةٍ مُظْلِمَةٍ ... كَسَوَادِ ٱللَّيْلِ يَتْلُوْهَا فِتَنْ

وفي «المصباح»: ركست الشيء ركساً ـ من باب قتل ـ قلبته، ورددت أوله على آخره، وعن الكسائي وغيره: الركس والنكس قلب الشيء على رأسه، أوردُّ أوله على آخره، وقال الراغب: معناهما الرد والنكس أبلغ؛ لأن النكس ما جعل أسفله أعلاه، والركس ما جعل رجيعاً بعد أن كان طعاماً. اهـ.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: وفي «المصباح»[1]: حصر الصدر حصراً ـ من باب تعب ـ إذا ضاق، وحصر القارىء إذا منع من القراءة، فهو حصير، والحصور الذي لا يشتهي النساء، وحصير الأرض وجهها، والحصير أيضاً الحبس، والحصير البادية، وجمعها حُصر، مثل بريد وبُرد، وتأنيثها بالهاء عامي. ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾: من باب افتعل الخماسي بمعنى ابتعد، وهو من مزيد الثلاثي؛ لأن ثلاثيه عزل: بمعنى بعد وانفصل عن القوم، ﴿سَبِيلًا﴾: السبيل الطريق، والمراد بها هنا طريق النجاة، ﴿وَلِيًّا﴾: الولي النصير والمعين.

﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾: الدية[2] ما غرِّم في القتل من المال، وكان لها في الجاهلية أحكام ومقادير، ولها في الشرع أحكام ومقادير سبق ذكر شيء منها، وأصلها مصدر أطلق على المال المأخوذ في القتل، ولذلك قال: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ والفعل لا يسلم بل الأعيان، تقول في تصريفه: ودىٰ يدي ودياً ودية،

(١) المصباح المنير.
(٢) البحر المحيط.

كما تقول: وشئ يشي وشياً وشية، ونظيره من صحيح اللام زنة وعدة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الأيات من البلاغة والبيان والبديع أنواعاً[1]:

منها: الاستفهام بمعنى الإنكار في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وفي قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟﴾، وفي قوله: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم﴾، وفي قوله: ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿خَطَـًٔا﴾ و﴿خَطَـًٔا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم﴾، وفي قوله: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، وقوله ﴿سَبِيلًا﴾، وقوله ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ...﴾ الآية.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾.

ومنها: التكرار في مواضع.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا...﴾ إلى آخره.

ومنها: الحذف في مواضع.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ حيث أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: عتق نسمة مملوكة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة[1]: وهي أنه تعالى لما ذكر جزاء من قتل مؤمناً متعمداً، وأنه مأواه جهنم، وذكر غضب الله عليه ولعنته، وإعداد العذاب العظيم له.. أمر المؤمنين بالتثبت والتبين، وأن لا يقدم الإنسان على قتل من أظهر الإيمان، وأن لا يسفكوا دماً حراماً بتأويل ضعيف، وكرر ذلك آخر الآية تأكيداً أن لا يقدم عند الشبه والإشكال حتى يتضح له ما يقدم عليه، ولما كان خفاء ذلك منوطاً بالأسفار والغزوات.. قال: إذا ضربتم في الأرض، وإلا فالتثبت والتبين لازم في قتل من تظاهر بالإسلام في السفر وفي الحضر.

وقال المراغي: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

(١) البحر المحيط.

﴿فَتَبَيَّنُوا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما بين في الآيات السابقة أنه ليس من شأن المؤمن أن يقتل مؤمناً إلا على سبيل الخطأ، وأن من قتل مؤمناً متعمداً فلا جزاء له إلا جهنم خالداً فيها أبداً.. أراد هنا أن ينبه المؤمنين إلى ضرب من ضروب قتل الخطأ كان يحصل في ذلك العهد عند السفر إلى أرض المشركين، حين انتشر الإسلام ولم يبق مكان في بلاد العرب وقبائلهم يخلو من المسلمين، أو ممن يميل إلى الإسلام، ويتحينون الفرص للاتصال بأهله، فأعلمهم أن لا يحسبوا كل من يجدونه في دار الكفر كافراً، وأن يتبينوا من تظهر عليهم علامات الإسلام كالشهادة والسلام الذي هو تحية المؤمنين، وأن لا يحملوا مثل هذا على الخداع، إذ ربما يكون الإيمان قد طاف على هذه القلوب وألم بها، وإن لم يكن قد تمكن فيها، ومن ثم أمر بالتثبت، ونهى عن إنكار إسلام من يدعي الإسلام ولو بإلقاء تحيته، فما بالك بمن ينطق بالشهادتين، وأبان أن الذي يدعوه إلى ظن هذا الظن إنما هو ابتغاء عرض الحياة الدنيا، وبهذا أرشد المؤمن إلى أن يتهم نفسه ويفتش عن قلبه، ولا يبني الظن على ميله وهواه، بل عليه أن يقبل الظاهر حتى يستبين له خلافه انتهى.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنه تعالى لما رغب المؤمنين في قتال - في سبيل اللّه - أعداءِ اللّه الكفار، واستطرد من ذلك إلى قتل المؤمن خطأ وعمداً بغير تأويل وبتأويل، فنهى أن يُقْدِم على قتله بتأويل أمر يحمله على الإسلام إذا كان ظاهره يدل على ذلك.. ذكر بيان فضل المجاهد على القاعد، وبيان تفاوتهما، وأن ذلك لا يمنع منه كون الجهاد مظنة أن يصيب المجاهد مؤمناً خطأ، أو من يلقي السلم فيقتله بتأويل، فيتقاعد عن الجهاد لهذه الشبهة، فأتى عقيب ذلك بفضل الجهاد وفوزه، بما ذكر في الآية من الدرجات والمغفرة والرحمة والأجر العظيم دفعاً لهذه الشبهة.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما[1] عاتب الله سبحانه وتعالى المؤمنين على ما صدر منهم، من قتل من تكلم بالشهادة.. ذكر هنا فضيلة الجهاد، وأن من نصب نفسه له.. فقد فاز فوزاً عظيماً، فعليه أن يحترز من الوقوع في الهفوات التي تخل بهذا المنصب العظيم، انتهت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: هي أنه تعالى لما ذكر ثواب من أقدم على الجهاد.. أتبعه بعقاب من قعد عن الجهاد، وسكن في بلاد الكفر، وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية السالفة فضل المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عجز.. ذكر هنا حال قوم أخلدوا إلى السكون، وقعدوا عن نصرة الدين، وعذروا أنفسهم بأنهم في أرض الكفر، حيث غلبهم الكافرون، ومنعوهم من إقامة الحق، وهم عاجزون عن مقاومتهم، ولكنهم في الحقيقة غير معذورين؛ لأنه كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذي يعتزون بهم، إذ هم بحبهم لبلادهم وإخلادهم إلى أرضهم وسكونهم إلى أهليهم ومعارفهم ضعفاء في الحق، لا مستضعفون، وهم بضعفهم هذا قد حرموا أنفسهم بترك الهجرة من خير الدنيا مما أفاء الله به على المؤمنين، ومن خير الآخرة بإقامة الحق وإعلاء كلمة الدين. وظلمهم لأنفسهم هو بتركهم العمل بالحق خوفاً من الأذى، وفقد الكرامة عند ذوى قرابتهم من المبطلين، وهذا الاعتذار وما أشبهه مما يعتذر به الذين سايروا أهل البدع على بدعهم في عصرنا الحاضر، بحجة دفع الأذى عن أنفسهم بمدارة المبطلين، وذلك عذر لا يعتد به، إذ الواجب عليهم إقامة الحق مع احتمال الأذى في سبيل الله، أو الهجرة إلى حيث يتمكنون من إقامة دينهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ...﴾ الآية، في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة[2]:

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

منها: ما أخرجه البخاري والترمذي والحاكم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم، فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية.

ومنها: ما أخرجه أحمد والطبراني وغيرهما عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي قال: بعثنا رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين، فيهم أبو قتادة ومحلم بن جثامة، فمر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي، فسلم علينا، فحمل عليه محلم فقتله، فلما قدمنا على النبي ﷺ وأخبرناه الخبر.. نزل فينا القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

وأخرج البزار من وجه آخر عن ابن عباس قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد، فلما أتوا القوم.. وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير، فقال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، فقتله المقداد، فقال النبي ﷺ: «كيف لك بلا إلٰه إلا الله غداً». وأنزل الله هذه الآية. وقيل غير ذلك.

ولا مانع من تعدد الوقائع قبل نزول الآية، وأن النبي ﷺ كان يقرؤها على أصحاب كل واقعة، فيرون أنهم سبب نزولها.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً، فجاءه بكتف فكتبها، وشكى ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾.

وقد روي[1]: أن الآية نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف، والربيع وهلال بن أمية من بني واقف، حين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه[1] البخاري عن ابن عباس أن أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، فيأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

وأخرجه بن مردويه وسمى منهم في روايته: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبا قيس بن الفاكهة بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة وغيرهم، وذكر في شأنهم أنهم خرجوا إلى بدر، فلما رأوا قلة المسلمين دخلهم شك، وقالوا: غر هؤلاء دينهم، فقتلوا ببدر.

وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس[2] قال: إن سبب نزول هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أن قوماً من أهل مكة قد أسلموا، وكانوا يخفون الإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت الآية فكتبوا بها إلى من بقي منهم بمكة، وأنه لا عذر لهم فخرجوا، فلحق بهم المشركون ففتنوهم فرجعوا، فنزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فكتب إليهم المسلمون بذلك فتحزنوا فنزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟...﴾ الآية، فكتبوا إليهم بذلك، فخرجوا فلحقوهم، فنجا من نجا، وقتل من قتل.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية، روى[3] ابن جرير عن ابن جبير أنها نزلت في جندب بن ضمرة وكان بلغه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية، وهو بمكة حين بعث بها رسول الله ﷺ إلى مسلميها، فقال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي إلى الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة، فحملوه على سرير وتوجهوا به إلى المدينة، وكان شيخاً كبيراً فمات بالتنعيم ـ موضع قرب المدينة ـ ولما

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

(٣) المراغي.

أدركه الموت.. أخذ يصفق بيمينه على شماله ويقول: اللهم هذه لك وهذه لرسولك ﷺ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك ﷺ، ولما بلغ خبر موته الصحابة رضي الله عنهم قالوا لبنيه: مات بالمدينة، فنزلت هذه الآية، وروي غير ذلك في سبب نزولها.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: يا أيها الذين صدقوا الله تعالى وصدقوا رسوله محمداً ﷺ، واتبعوا الأوامر وتركوا النواهي، ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إذا سافرتم وسرتم لجهاد أعداء الله تعالى وأعدائكم لإعلاء كلمته ورفعة دينه، ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾؛ أي: اطلبوا البيان والتحقق واليقين، وتأنوا في قتل من اشتبه عليكم أمره فلم تعلموا أمسلم هو أم كافر، ولا تعجلوا في قتل أحد إلا إذا علمتم يقيناً أنه حرب لكم ولله تعالى والرسول ﷺ. وقرأ[1] حمزة والكسائي هنا في الموضعين وفي الحجرات ﴿فتثبتوا﴾ بالثاء المثلثة؛ أي: اطلبوا التثبت والباقون: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، وكلاهما تفعَّل بمعنى استفعل التي للطلب؛ أي: اطلبوا إثبات الأمر وبيانه، ولا تقدموا عليه من غير رويّة وإيضاح.

والمراد في الآية: فتأنوا واتركوا العجلة واحتاطوا ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ أيها المؤمنون المجاهدون بغير تأمل وتبين ﴿لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾؛ أي: لمن حياكم بتحية الإسلام السلام عليكم ورحمة اللّٰه، أو لمن ألقى إليكم الاستسلام والانقياد بقول: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، الذي هو أمارة على الإسلام، ولم يقاتلكم وأظهر أنه من أهل ملتكم ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾؛ أي: إنك لست بمؤمن حقاً، وإنما تقوله تقية وخوفاً من السيف، فتقتلوه حالة كونكم ﴿تَبْتَغُونَ﴾ وتطلبون بقتله ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومتاعها من الغنائم، قاصدين ماله الذي هو سريع النفاذ والزوال ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾؛ أي: أرزاق كثيرة ونعم لا تحصى ولا تعد، وثواب جسيم، فاطلبوها عنده تعالى

---

(١) البحر المحيط.

يغنمكموها، فتغنيكم عن قتل أمثاله لماله. وقرأ[1] عاصم وأبو عمرو وابن كثير والكسائي وحفص ﴿ٱلسَّلَٰمَ﴾ بألف، قال الزجاج: يجوز أن يكون بمعنى التسليم، ويجوز أن يكون بمعنى الانقياد، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة وابن كثير من بعض طرقه، وجبلة عن المفضل عن عاصم بفتح السين واللام من غير ألف وهو من الاستسلام، وقرأ أبان بن زيد عن عاصم بكسر السين وإسكان اللام وهو الانقياد والطاعة، وقرأ الجحدري بفتح السين وسكون اللام، وقرأ أبو جعفر ﴿مؤمناً﴾ بفتح الميم؛ أي: لا نؤمنك في نفسك، وهي قراءة علي وابن عباس وعكرمة وأبي العالية ويحيى بن يعمر، ومعنى قراءة الجمهور: ليس لإيمانك حقيقة إنك أسلمت خوفاً من القتل، ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا الرجل الذي ألقى إليكم السلام، فقلتم له لست مؤمناً فقتلتموه، ﴿كُنتُم﴾ أنتم ﴿مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: في أول إسلامكم لا يظهر للناس منكم إلا مثل ما ظهر منه لكم من تحية الإسلام ونحوها، يعني[2] من قبل أن يعز الله تعالى دينه كنتم تستخفون أنتم بدينكم، كما استخفى هذا الذي قتلتموه بدينه من قومه حذراً على نفسه منهم، وقيل: معناه كذلك كنتم تأمنون في قومكم بهذه الكلمة، فلا تحقّروا من قالها ولا تقتلوه، وقيل معناه: كذلك كنتم من قبل مشركين. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ وتفضل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام والهداية، فلا تقتلوا من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقيل معناه: منَّ عليكم بإعلان الإسلام بعد الاختفاء، وقيل منَّ عليكم بالتوبة، وقيل قبل منكم تلك الكلمة، وعصم بها دماءكم وأموالكم، ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم؛ أي: إنكم أول ما دخلتم في الإسلام حقنت دماؤكم وأموالكم بالنطق بكلمة الشهادة، من غير نظر إلى معرفة أن ما في القلب موافق لما في اللسان، ومنَّ الله تعالى عليكم بذلك، فعليكم أن تعملوا مع الداخلين في الإسلام كما عمل معكم، وأن تعتبروا بظاهر القول، ولا تقولوا إن إقدامه على التكلم بهذه الكلمة إنما كان لأجل الخوف من السيف، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ أي: فكونوا على بيان ويقين من الأمر الذي تقدمون عليه، ولا تأخذوا بالظن، بل تدبروا ليظهر لكم أن

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

الإيمان المعتبر في حقن الدماء والأموال يكفي فيه ظاهر الحال، كما كفى معكم من قبل.

والمعنى: إذا كان الأمر كذلك.. فتبينوا، وقيسوا حاله بحالكم، وافعلوا به ما فعل بكم في أوائل أموركم، من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطىء الظاهر والباطن، وفي إعادة التبين مرة أخرى المبالغة في التحذير من ذلك الفعل والوعيد عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ﴾ أزلاً وأبداً ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿خَبِيرًا﴾؛ أي: عالماً فيجازيكم بحسبها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فلا تتهاونوا في القتل، واحتاطوا فيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف، وقرىء بفتحها، على أن تكون معمولة لقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ أي: أنه تعالى[2] خبير بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء من البواعث التي حفزتكم على الفعل، فإن كانت ابتغاء حظ الحياة الدنيا فهو تعالى يجازيكم على ذلك، فلا تفعلوا بل تثبتوا وتبينوا، وإن كان محض الدفاع عن الحق فهو تعالى يثيبكم على ذلك، وفي هذا وعيد وتحذير شديد من الوقوع في مثل هذا الخطأ، وكذلك فيه إرشاد إلى أن لا نحكم بتكفير من يخالفنا من أهل القبلة، والعلم الصحيح، والدعوة إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، بمجرد المخالفة لنا في رأي أو عقيدة، فإنَّ مثل هذا لا يقدم عليه المسلم جزافاً، وعلينا أن ننظر بعد هذا كله إلى أن الإسلام منع قتل من يلقي السلم، ومن بينه وبين المسلمين عهد وميثاق، إما على النصر وإما على ترك القتال، ورغب عن ابتغاء عرض الدنيا بالقتال؛ وليكون لمحض رفع العدوان والبغي، وتقرير الحق والإصلاح.

وأين هذا مما تفعله الدول الآن من القتال للربح وجمع الأموال، وهم ينقضون العهد والميثاق مع الضعفاء، ولا يلتزمون حفظ المعاهدات إلا مع الأقوياء.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: لا يكون القاعدون عن الجهاد بأموالهم بخلاً بها وحرصاً عليها، وبأنفسهم إيثاراً للراحة والنعيم على التعب وركوب الأخطار، الذين هم غير أصحاب الضرر والعذر من مرض أو عاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها، وفي معناه العجز عن الأهبة؛ أي: لا يكون القاعدون الموصوفون بما ذكر مساوين للمجاهدين الذين يبذلون أموالهم في الاستعداد للجهاد بالسلاح والخيل والمؤنة، ويبذلون أنفسهم بتعريضها للقتل في سبيل الحق، ومنع تعدي حرب الطاغوت؛ لأن المجاهدين هم الذين يحمون الأمة والبلاد، والقاعدون لا يأخذون حذرهم ولا يعدون عدتهم للدفاع، ويكونون عرضة لتعدي غيرهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: بغلبة أهل الطاغوت عليها، ولكن النكوص عن الجهاد لا يكون مذمة وبخلاً إلا مع القدرة.

أما مع العجز والضرر كالعمى والزمانة والمرض فلا تبعة فيه، فحينئذ فالقاعدون أولو الضرر يساوون المجاهدين؛ لأن العذر أقعدهم عن الجهاد، روى مسلم عن جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فقال رسول الله ﷺ: «إن بالمدينة رجالاً، ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم المرض»، وروى البخاري عن أنس قال: رجعنا من تبوك مع النبي ﷺ، فقال: «إن أقواماً خَلفنا، ما سلكنا شعباً ولا وادياً.. إلا وهم معنا، حبسهم العذر». وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ بالرفع بدل من القاعدون، ونافع وابن عامر والكسائي والباقون: بالنصب على الحال من ﴿القاعدون﴾، والأعمش بالجر على الصفة للمؤمنين.

ثم بين[1] ما أجمله أولاً من التفاضل الذي بين الفريقين وعدم تساويهما فقال: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾؛ أي: إن الله سبحانه

---

(١) المراغي.

وتعالى رفع المجاهدين على القاعدين بغير عذر درجة لا يقدر قدرها ولا يدرك كنهها، وهي ما خولهم الله تعالى عاجلاً في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل ودفع شر الأعداء عن الأمة والبلاد، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: ووعد اللّه تعالى كلا ممن جاهد وقعد عن الجهاد عجزاً منه، مع تمني القدرة عليه، المثوبة الحسنى: وهي الجنة، فكل منهما كامل الإيمان، مخلص لله تعالى في العمل.

وقيل المعنى: وفضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أولي الضرر ﴿دَرَجَةً﴾؛ أي: فضيلة واحدة في الآخرة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية، وأولو الضرر كانت لهم نية ولم يباشروا الجهاد، فنزلوا عن المجاهدين درجة، قال ابن عباس: أراد بالقاعدين هنا أولي الضرر، ﴿وَكُلًّا﴾ من المجاهدين والقاعدين مطلقاً ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ لهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الجنة بإيمانهم ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ في سبيل الله تعالى ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ الذين لا عذر لهم ولا ضرر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثواباً جزيلاً وأجراً وافراً، ثم فسر ذلك الأجر العظيم فقال: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ سبحانه وتعالى، وانتصاب أجراً عظيماً بنزع الخافض، أو على التمييز، ودرجات بدل منه، بدل كل من كل، ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على درجات؛ أي: وفضل الله سبحانه وتعالى المجاهدين في سبيل الله تعالى على القاعدين بلا عذر بأجر عظيم، وثواب وافر، بدرجات منه وبمغفرة ورحمة منه تعالى؛ أي: فضلهم عليهم بدرجات ومنازل بعضها فوق بعض، من منازل الكرامة، وبمغفرة للذنوب، وبرحمة لهم بنعيم الجنة. والمراد بهذه الدرجات(١) هي ما ادخره الله تعالى لعباده من المنازل الرفيعة التي يقصر الحصر عن عدها، كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ ودرجات الآخرة مبنية على درجات الدنيا، من قوة الإيمان بالله تعالى، وإيثار رضاه على الراحة والنعيم، وترجيح المصلحة العامة على الشهوات الخاصة، والمغفرة المقرونة بهذه الدرجات هي المغفرة لما يفرط منهم

---

(١) المراغي.

من الذنوب التي لا تكفرها سائر الحسنات التي يأتي بها القاعدون، والرحمة هي ما يخصهم به الرحمٰن زيادة على ذلك من فضله وإحسانه، وأخرج البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وحج، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها»، قالوا: أو لا نبشر الناس بقولك، فقال: «إن في الجنة مئة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله.. فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة».

فإن قلت[1]: قد ذكر الله عز وجل في الآية الأولى درجة واحدة، وذكر في هذه الآية درجات، فما وجه الحكمة في ذلك؟

قلتُ: أما الدرجة الأولى: فلتفضيل المجاهدين على القاعدين بوجود الضرر والعذر، وأما الثانية: فلتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير ضرر ولا عذر، فُضِّلوا عليهم بدرجات كثيرة، وقيل: يحتمل أن تكون الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم في الدنيا، والدرجات درجات الجنة ومنازلها، كما في الحديث والله أعلم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب عباده المؤمنين ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم، يتفضل عليهم برحمته ومغفرته، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «أيما عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيل الله ابتغاء مرضاتي.. ضمنت له إن أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة، وإن قبضته.. غفرت له ورحمته» أخرجه النسائي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ﴾؛ أي: تتوفاهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتقبض أرواحهم حين انتهاء آجالهم، والمراد بالملائكة ملك الموت وأعوانه، وهم ستة: ثلاثة منهم يلون قبض أرواح المؤمنين، وثلاثة يلون قبض أرواح الكفار والمنافقين، وقيل: أراد به

---

(١) الخازن.

ملك الموت وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم، كما يخاطب الواحد بلفظ الجمع. وقرأ إبراهيم[1]: ﴿توفاهم﴾ بضم التاء، مضارع وفيت، والمعنى: أن الله تعالى يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها؛ أي: يمكنهم من استيفائها فيستوفونها، وقرىء توفتهم بتاء التأنيث على أنه فعل ماض، حالة كونهم ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة، واختيارهم مجاورة الكفرة في دار الذل والظلم، الموجبة للإخلال في أمور الدين، حيث لا حرية لهم في أمورهم الدينية، ولا يتمكنون من إقامة دينهم ونصره وتأييده، وقد ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قالت الملائكة لهم حين القبض موبخين ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ أي: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؛ أي: أكنتم من أصحاب محمد ﷺ أم كنتم مشركين، أو أكنتم في حرب محمد ﷺ أو في حرب أعدائه؛ أي: إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، والحال أن الملائكة تقول للمتوفين بعد قبض أرواحهم توبيخاً لهم: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؛ أي: إنهم لم يكونوا في شيء منه، إذ هم قدروا على الهجرة ولم يهاجروا، ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال المتوفون للملائكة معتذرين اعتذراً غير صحيح: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾؛ أي: كنا مقهورين في أرض مكة، في أيدي الكفار، فعجزنا عن القيام بواجبات الدين بين أهل مكة، وهذه حجة لم تتقبلها الملائكة، ومن ثم ردوا عليهم المعذرة فـ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قالت الملائكة لهم توبيخاً مع ضرب وجوههم وأدبارهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ وترحلوا إلى قطر آخر من الأرض تقدرون فيه على إقامة الدين، وتحرروا أنفسكم من رق الذل الذي لا يليق بالمؤمن، ولا هو من خصاله؛ أي: إنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد، التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم، فبقيتم بين الكفار مع القدرة على الهجرة، فلكم مالهم، وقال ابن عباس: أي: ألم تكن المدينة آمنة فتهاجروا إليها، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المتوفون الذين تقول الملائكة لهم ما ذكر ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ ومنزلهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ كما أن مأواهم في الدنيا دار الكفر، لتركهم الفريضة؛ أي: إن أولئك الذين فصلت حالهم الفظيعة نسكنهم في الآخرة جهنم؛

---

(١) البحر المحيط.

لتركهم ما كان مفروضاً عليهم، إذ كانت الهجرة واجبة في صدر الإسلام، فـ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مبتدأ، و﴿جَهَنَّمُ﴾: خبره، والجملة خبر لـ﴿أولئك﴾، وهذه الجملة خبر إن، وقوله: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ حال من الملائكة على تقدير قد، كما أشرنا إليه آنفاً، أو هو الخبر، والعائد منه محذوف؛ أي: قالوا لهم: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾؛ أي: وقبحت جهنم مصيراً لهم؛ لأن كل ما فيها يسوؤهم.

وفي هذا[1] إيماء إلى الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة دينه كما يجب، لبعض الأسباب، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله تعالى، وأدوم على العبادة. وجبت عليه الهجرة، أما المقيم في دار الكفر ولا يمنع ولا يؤذى إذا هو عمل بدينه، وأقام أحكامه بلا نكير، فلا يجب عليه أن يهاجر، كما هو مشاهد من المسلمين المقيمين في بلاد الإنكليز الآن، كما أن الإقامة فيها ربما كانت سبباً من أسباب ظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه.

ثم استثنى أهل العذر ومن علم ضعفه منهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾؛ أي: فأولئك المذكورون مأواهم جهنم، إلا الذين صدقوا في استضعافهم ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ العجزة والزمنى، كعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام ﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾ كأم الفضل لبابة أم عبد الله بن عباس، ﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ كعبد الله المذكور وغيره، فإنه قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين في مكة، وإنما[2] ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة في شأن الهجرة، وإيهام أنها تجب لو استطاعها غير المكلف، فكيف من كان مكلفاً، وقيل أراد بالولدان المراهقين والمماليك حالة كونهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾؛ أي: لا يقدرون على حيلة الخروج، ولا على نفقته، أو كان بهم مرض، أو كانوا تحت قهر قاهر، يمنعهم من تلك المهاجرة، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾؛ أي: لا يعرفون طريقاً، ولا يجدون من يدلهم على الطريق. واستطاعة[3] الحيلة: وجدان أسباب الهجرة، وما تتوقف عليه من مركوب وزاد. واهتداء السبيل: معرفة الطريق بنفسه أو بدليل، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المستضعفون الذين لم يهاجروا

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.

للعجز وتقطع الأسباب ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: حقق الله سبحانه وتعالى ﴿أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ ولا يؤاخذهم بالإقامة في دار الكفر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَفُوًّا﴾؛ أي: كثير العفو والمحو للذنوب عن صحف الملائكة فلا يؤاخذ بها، ﴿غَفُورًا﴾؛ أي: كثير الغفر والستر لها عن أعين الملائكة، فلا يفضح صاحبها في الآخرة.

ثم رغب الله سبحانه وتعالى في أمر الهجرة، ونشط المستضعفين، لما جرت به العادة من أن الإنسان يتهيب الأمر المخالف لما اعتاده وأنس به، ويتخيل مصاعب ومشقات لا توجد إلا في خياله، وأن ما يتصوره بعض الناس من عسر الهجرة لا محل له، وأن عسرها إلى يسر، فقال: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ﴾؛ أي: ومن يرتحل من بلده الأصيلة إلى بلد آخر ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعته وطلب رضاه، لا لدنيا يصيبها، ولا لامرأة ينكحها مثلاً، ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يجد في الأرض التي هاجر إليها ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ﴾ في المعيشة؛ أي: يجد في تلك الأرض من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنوف أعدائه، الذين كانوا معه في بلدته الأصيلة، وذلك لأن من ارتحل إلى بلدة أجنبية وتحول إليها، فإذا استقام أمره في تلك البلدة، وتمكن فيها، ووصل خيره إلى أهل بلدته الأولى، خجلوا من سوء معاملتهم معه، وندموا عليه، ورغمت أنوفهم بسبب ذلك.

وقرأ[1] الجراح ونبيح والحسن بن عمران: ﴿مرغما﴾ على وزن مفعل كمذهب، قال ابن جني: هو على حذف الزوائد من راغم، وفي هذا وعد للمهاجرين في سبيله بتسهيل سبل العيش لهم، وإرغامهم أعداءهم، والظفر بهم، وبعد أن وعد سبحانه من هاجر في سبيل الله تعالى بالظفر بما يحب من وجدان السبل ميسورة أمامه، ومن سعة العيش.. وعد من يموت في الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم، الذي ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله تعالى، ونصرة رسوله ﷺ في حياته، وإقامة سننه بعد وفاته، وكان مستحقاً لهذا الأجر ولو مات بعد أن تجاوز عتبة بابه، ولو لم يصب تعباً ولا مشقة؛ فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه، كما في الحديث: «إنما الأعمال

---

(١) البحر المحيط.

بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»، فقال: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ﴾ ويرتحل منه حالة كونه ﴿مُهَاجِرًا﴾ ومتحولاً ﴿إِلَى﴾ محل فيه رضا ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ﷺ ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: يأته الموت ويأخذه قبل أن يصل إلى المقصد، وإن كان خارج بابه ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: فقد وجب أجر هجرته عند الله تعالى، بإيجابه على نفسه بمقتضى وعده وتفضله وكرمه، لا بحكم الاستحقاق، الذي لو لم يفعل لخرج عن الألوهية. وفي إبهام هذا الأجر وجعله حقاً واجباً عليه تعالى إيذان بعظم قدره، وتأكيد ثبوته ووجوبه، ولله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئاً، إذ لا سلطان فوق سلطانه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾ لما كان منه من القعود إلى وقت الخروج، ﴿رَّحِيمًا﴾ بإكمال أجر الهجرة له، فكذلك كل من قصد فعل طاعة ولم يقدر على إتمامها.. كتب الله تعالى له ثواباً كاملاً.

وقرأ النخعي وطلحة بن مصرف[1]: ﴿ثم يدركه﴾ برفع الكاف، قال ابن جني: هذا رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو يدركه الموت، فعطف الجملة من المبتدأ والخبر على الفعل المجزوم وفاعله، وخرج على وجه آخر وهو أن رفع الكاف منقول من الهاء، كأنه أراد أن يقف عليها، ثم نقل حركة الهاء إلى الكاف، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ونبيح والجراح: ﴿ثم يدركه﴾ بنصب الكاف، وذلك على إضمار أن المصدرية، قال ابن جني: هذا ليس بالسهل، وإنما بابه الشعر لا القرآن، ولك أن تقول: أجري ﴿ثم﴾ مجرى الواو والفاء، فكما جاز نصب الفعل بإضمار أن بعدهما، بين الشرط وجوابه، كذلك جاز في ﴿ثم﴾ إجراء لها مجراهما، وهذا مذهب الكوفيين، واستدلوا بهذه القراءة.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه

(١) البحر المحيط.

زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صلة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ضَرَبْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿تبينوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بحذف النون، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل، معطوف على ﴿تبينوا﴾ على كونها جواب ﴿إذا﴾، ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُولُواْ﴾، ﴿أَلْقَىٰٓ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿إِلَيْكُمُ﴾: متعلق بـ﴿أَلْقَىٰٓ﴾، ﴿ٱلسَّلَٰمَ﴾: مفعول ﴿أَلْقَىٰٓ﴾، ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾: مقول لـ﴿تَقُولُواْ﴾ محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَسْتَ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُؤْمِنًا﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿تَقُولُواْ﴾، ﴿تَبْتَغُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ مفعول به ومضاف إليه، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَقُولُواْ﴾.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿عند اللَّه﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿مَغَانِمُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿كَثِيرَةٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بـ﴿الفاء﴾ التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف، تقديره: وإنما نهيتكم عن القول المذكور، وابتغاء عرض الدنيا، لكون مغانم كثيرة عند الله تعالى، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم على كان واسمها، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِّن قَبْلُ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في خبر كان، والتقدير: كنتم كائنين كذلك الرجل حالة كونكم كائنين من قبل، وجملة كان مستأنفة، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ﴾

﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿منَّ اللَّه﴾: فعل وفاعل، معطوف على كان، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿منَّ﴾، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب لشرط مقدر، تقديره: إذا كان حالكم كحاله فتبينوا، ﴿تبينوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب إذا المقدرة، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَبِيرًا﴾، ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: تعملونه، ﴿خَبِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾: ناف وفعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: حال من ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾. ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾: بالرفع بدل من ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾. وهو أرجح؛ لأن الكلام منفي، والبدل معه أرجح من النصب كما تقرر في كتب النحو، وقيل إنه بالرفع صفة لـ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، وبالنصب على الاستثناء من ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، أو على الحال، وبالجر صفة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿المجاهدون﴾. ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق أيضاً بـ﴿المجاهدون﴾. ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على ﴿أموالهم﴾. ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان عدم الاستواء المفهوم من الجملة التي قبلها. ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿فَضَّلَ﴾. ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على أموالهم. ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾: متعلق أيضاً بـ﴿فَضَّلَ﴾. ﴿دَرَجَةً﴾: منصوب على التمييز، أو بنزع الخافض؛ أي: بدرجة واحدة، أو على المصدرية؛ أي: فضلهم تفضيلة، وقيل غير ذلك. ﴿وَكُلًّا﴾: مفعول أول لـ﴿وَعَدَ﴾ مقدم عليه لإفادة الحصر ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مفعول ثان له، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَضَّلَ﴾. ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿فَضَّلَ﴾

الأول. ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ متعلق بـ﴿فَضَّلَ﴾. ﴿أَجْرًا﴾: منصوب[1] على التمييز، وقيل على المصدرية؛ لأن ﴿فَضَّلَ﴾ بمعنى أجر، والتقدير: أجرهم أجراً، وقيل: مفعول لـ﴿فَضَّلَ﴾ لتضمنه معنى الإعطاء، وقيل منصوب بنزع الخافض، وقيل: على الحال من درجات مقدم عليها، ﴿عَظِيمًا﴾.

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿دَرَجَٰتٍ﴾: بدل من ﴿أَجْرًا﴾. ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿دَرَجَٰتٍ﴾. ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾: معطوفان على ﴿دَرَجَٰتٍ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول، ويجوز[2] أن يكون ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ فعلاً ماضياً، وإنما لم تلحق علامة التأنيث للفصل، ولأن التأنيث مجازي، ويدل على كونه فعلاً ماضياً قراءة ﴿توفتهم﴾ بتاء التأنيث، ويجوز أن يكون مضارعاً حذفت منه إحدى التاءين، والأصل: تتوفاهم، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: حال من ضمير ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾، والإضافة فيه غير محضة، إذ الأصل ظالمين أنفسهم، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة حال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ولكنها على تقدير قد؛ أي: حالة كون الملائكة قائلين لهم. ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿في﴾: حرف جر، ﴿م﴾: اسم استفهام في محل الجر بـ﴿في﴾ مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ما الموصولة، كما قال ابن مالك:

وَمَا فِيْ ٱلاسْتِفْهَامِ إِنْ جَرَّتْ حُذِفْ   أَلِفُهَا وَأَوْلِهَا ٱلْهَا إِنْ تَقِفْ

الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً لكان، ﴿كُنتُمْ﴾

---

(١) الشوكاني.   (٢) الفتوحات.

فعل ناقص واسمه، والتقدير: في أي شيء كائنين كنتم، وجملة كان في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿قَالُوا﴾ فعل وفاعل، والضمير عائد على المتوفين، والجملة الفعلية جواب الاستفهام لا محل لها من الإعراب. ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾، وجملة كان في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والضمير عائد إلى ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة بعاطف مقدر على جملة قوله: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَكُنْ﴾: مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿أَرْضُ اللَّهِ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿وَاسِعَةً﴾: خبرها. ﴿فَتُهَاجِرُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿تهاجروا﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب الاستفهام، والواو ضمير متصل فاعل، والجملة من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: ألم يثبت كون أرض الله واسعة فمهاجرتكم فيها، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿تهاجروا﴾. ﴿فَأُولَئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لخبر ﴿إِنَّ﴾ باسمها، لما في الاسم من العموم، ﴿أولئك﴾ في محل الرفع مبتدأ أول، ﴿مَأْوَاهُمْ﴾: مبتدأ ثان ومضاف إليه، ﴿جَهَنَّمُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل الرفع خبر لـ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَسَاءَتْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ساءت﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: هي، يعود إلى جهنم، ﴿مَصِيرًا﴾: تمييزه والمخصوص بالذم محذوف وجوباً، تقديره: هي، وجملة ﴿ساءت﴾ مستأنفة، مسوقة لبيان الذم والقبح.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨)﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: مستثنى من الضمير في ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾، كأنه قيل فأولئك في جهنم إلا المستضعفين، فعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً، وقيل إن المستثنى منه إما كفار أو عصاة بالتخلف قادرون على الهجرة، فلم يندرج فيهم المستضعفون، فيكون الاستثناء منقطعاً، ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾. ﴿وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلرِّجَالِ﴾. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾. ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: جملة فعلية معطوفة على جملة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأنه من جملة الحيلة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿عَسَى﴾: من أفعال الرجاء تنصب الاسم وترفع الخبر. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿أَن﴾. حرف نصب، ﴿يَعْفُوَ﴾: فعل مضارع منصوب، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه خبراً لـ﴿عَسَى﴾، ولكنه في تأويل اسم الفاعل؛ لأنه لا يخبر باسم المعنى عن الذات، تقديره: عسى الله عفواً عنهم، أو ذا العفو عنهم، وجملة ﴿عَسَى﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل، المدلول عليها بالفاء التعليلية، والتقدير: وإنما استثنيناهم لتحقيق الله وإثباته العفو عنهم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿غَفُورًا﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يُهَاجِرْ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، ﴿يَجِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿مُرَٰغَمًا﴾:

مفعول ﴿يَجِدْ﴾. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة لـ﴿مُرَٰغَمًا﴾. ﴿وَسَعَةً﴾: معطوف على ﴿مُرَٰغَمًا﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يَخْرُجْ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿مَن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَخْرُجْ﴾، ﴿مُهَاجِرًا﴾ حال من فاعل ﴿يَخْرُجْ﴾، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يَخْرُجْ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونه معطوفاً على فعل الشرط، وتقدم لك بيان وجه رفعه ونصبه في مبحث القراءة، فلا عود ولا إعادة، ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾، ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط لها، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿وَقَعَ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره: ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقال: ضرب في الأرض إذا سافر فيها، والضرب في الأرض السير فيها بالسفر للتجارة أو الجهاد؛ لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه أو بقوائم راحلته.

﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ تبين من باب تفعل الخماسي الذي هو من مزيد الثلاثي، وفي قراءة ﴿فتثبتوا﴾ بالثاء المثلثة، وهو من باب تفعل أيضاً، وفي «السمين»: وتفعل هنا على كلا القراءتين بمعنى استفعل الدال على الطلب؛ أي: اطلبوا التثبت أو البيان. اهـ.

﴿لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ ألقى هنا ماض اللفظ إلا أنه بمعنى المستقبل؛ أي: لمن يلقي؛ لأن النهي لا يكون عما وقع وانقضى، والماضي إذا وقع صلة.. صلح للمضي والاستقبال. اهـ. «سمين».

السلاَم بالألِفِ التحية، وقيل الاستسلام والانقياد، والسَلْم بفتح السين وسكون اللام الانقياد فقط، وكذا بالكسر والسكون، والمعنى: انقاد واستسلم لكم فلم يقاتلكم، ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: متاعها الحاضر الذي يأخذ منه البر والفاجر، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة مؤنث على وزن فعلى، مذكره الأدنى؛ أي: الحياة القريبة الزوال، أو الدنيئة الخسيسة لكثرة ما يكدرها، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ المغانم جمع مغنم ـ مفعل ـ من غنم الثلاثي، يصلح للزمان والمكان والمصدر، ويطلق على الغنيمة تسمية للمفعول بالمصدر؛ أي: المغنوم، وهو: ما يأخذه الرجل من مال العدو وفي الغزو قهراً، نحو قولهم هذا ضرب الأمير؛ أي: مضروبه، ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ الضرر يجمع على أضرار، ضد النفع والشدة والضيق وسوء الحال، والنقصان يدخل في الشيء، يقال: ضره يضره ضراً وضررا، من باب شد، فهو من المضاعف المعدى، ﴿دَرَجَةً﴾ الدرجة تجمع على درجات الطبقة والرتبة والمنزلة، ﴿أَجْرًا﴾ مصدر أجره أجراً؛ إذا أعطاه الأجر: وهو ما يعطى في مقابلة العمل الصالح.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ الحيلة: هي ما يتوصل به إلى المقصود بطريق خفي، يجمع على حيل، كفيلة تجمع على فيل ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾؛ أي: متحولاً[1] ينتقل إليه، فهو اسم مكان، وهو بمعنى المهاجر؛ أي: المكان الذي يهاجر إليه وعبر عنه بالمراغم؛ للإشعار بأنَّ المهاجر يرغم أنف قومه؛ أي: يذلهم، والرغم: الذل والهوان، وأصله لصوق الأنف بالرغام بفتح الراء، وهو التراب اهـ أبو السعود».

وقال أبو حيان: المراغم[2] مكان المراغمة: وهي أن يرغم كل واحد من المتنازعين، بحصوله في منعة منه أنف صاحبه، بأن يغلب على مراده، يقال:

---

(١) أبو السعود. (٢) البحر المحيط.

راغمت فلاناً إذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك انتهى.

وفي «المصباح»: الرغام[1] ـ بالفتح ـ: التراب، ورغم أنفه رغماً من باب قتل كناية عن الذل، كأنَّه لصق بالرغام هواناً، ويتعدى بالألف فيقال: أرغم الله أنفه، وفعلته على رغم أنفه بالفتح والضم؛ أي: على كره منه، وأرغمته غاضبته، وهذا ترغيم له؛ أي: إذلال له، وهذا من الأمثال التي جرت في كلامهم بأسماء الأعضاء، ولا يراد أعيانها، بل وضعوها لمعان غير معاني الأسماء الظاهرة، ولا حظ لظاهر الأسماء من طريق الحقيقة، ومنه قولهم: كلامه تحت قدمي وحاجته خلف ظهري، يريدون الإهمال وعدم الاحتفال انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبديع[2]:

منها: الاستعارة في قوله: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء، والسبيل لدينه، وفي قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ عبر به وهو حقيقة في المكان عن التساوي في المنزلة والفضيلة، وفي قوله: ﴿درجة﴾ حقيقتها في المكان، فعبر به عن المعنى، اقتضى التفضيل، وفي قوله: ﴿يُدْرِكْهُ﴾ استعار الإدراك الذي هو صفة من فيه حياة لحلول الموت، وفي قوله: ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ استعار الوقوع الذي هو من صفات الأجرام؛ لثبوت الأجر.

ومنها: التكرار في اسم الله تعالى، و﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ و﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿مغفرة﴾ و﴿غفورا﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ و﴿عَفُوًّا﴾ وفي قوله: ﴿يُهَاجِرْ﴾ و﴿مُهَاجِرًا﴾.

---

(١) المصباح المنير. (٢) البحر المحيط.

ومنها: إطلاق الجمع على الواحد في قوله: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على قول من قال: إنه ملك الموت وحده.

ومنها: الاستفهام المراد به التوبيخ في قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وفي: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

ومنها: السؤال والجواب في قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ وما بعدها.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لمّا[1] كان الكلام في سابق الآيات في الجهاد والحث عليه؛ لإقامة الدين وحفظه، وإيجاب الهجرة لأجل ذلك،

(١) المراغي.

وتوبيخ من لم يهاجر من أرض، لا يقدر على إقامة دينه فيها، والجهاد يستلزم السفر.. ذكر هنا أحكام من سافر للجهاد، أو هاجر في سبيل الله تعالى، إذا أراد الصلاة وخاف أن يفتن عنها، فبين أنه يجوز له أن يقصر منها، وأن يصلي جماعتها بالطريقة التي ذكرت في الآية الثانية من هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: لمَّا كان[1] الكلام فيما سلف في شأن الحرب وما يقع فيها، وبيان كيفية الصلاة في أثنائها وما يلاحظ فيها إذا كان العدو متأهباً للحرب، من اليقظة وأخذ الحذر، وحمل السلاح في أثنائها، وبين في أثناء السياق شدة عداوة الكفار لهم، وتربصهم غفلتهم، وإهمالهم ليوقعوا بهم.. نهى هنا عن الضعف في لقائهم، وأقام الحجة على كون المشركين أجدر بالخوف منهم؛ لأن ما في القتال من الألم والمشقة يستوي فيه المؤمن والكافر، ويمتاز المؤمن بأن له من الرجاء في ربه ما ليس عند الكافر، فهو يرجو منه النصر والمعونة، ويعتقد أنَّه قادر على إنجاز وعده، كما يرجو منه المثوبة على حسن بلائه في سبيله، وقوة الرجاء تخفف الآلام وتنسيه التعب والنصب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لمَّا[2] حذر المؤمنين من المنافقين أعداء الحق، وأمرهم أن يستعدوا لمجاهدتهم خوف أن يطمسوا معالم الدين والحق، ويهلكوا أهله.. أمرهم هنا أن يقوا بحفظ الحق، وأن لا يحابوا فيه أحداً.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أنَّه لما صرح بأحوال المنافقين، واتصل بذلك أمرُ المحاربة وما يتعلق بها من الأحكام الشرعية.. رجع إلى أحوال المنافقين؛ فإنَّهم خانوا الرسول ﷺ على ما ينبغي، فأطلعه الله تعالى على ذلك، وأمره أن لا يلتفت إليهم.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير عن علي قال: سأل قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنَّا نضرب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾. ثم انقطع الوحي، فلمَّا كان بعد ذلك بحول.. غزا النبي ﷺ، فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه ظهورهم هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها، فأنزل الله تعالى بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فنزلت صلاة الخوف.

وأخرج أحمد والحاكم وصححه البيهقي في «الدلائل» عن أبي عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي ﷺ الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ، فأخذوا السلاح، قال: فصففنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً.. الحديث، وروى الترمذي نحوه عن أبي هريرة، وابن جرير نحوه عن جابر بن عبد الله وابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ...﴾ الآية، أخرج البخاري عن ابن عباس قال نزلت ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ في عبد الرحمٰن بن عوف، كان جريحاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه الترمذي[2]

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

والحاكم وغيرهما، عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق - بشر وبشير ومبشر - وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب يقول: قال فلان كذا، وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنَّما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك - الدقيق الأبيض - فجعله في مشربة له فيها سلاح ودرع وسيف، فعدي عليه من تحت، فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي إنَّه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا وذهب بطعامنا وسلاحنا، فتجسسنا في الدار، وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، فقال: بنو أبيرق ونحن نسأل في الدار، والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجل منا له صلاح وإسلام، فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق، والله ليخالطنكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فأتيته فقلت: أهل بيت منا أهل جفاء، عمدوا إلى عمي فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، وأمَّا الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ: سأنظر في ذلك، فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسير بن عروة، فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عَمَد إلى أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا تثبت، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير تثبت وبينة؟ فرجعت فأخبرت عمي فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ بني أبيرق ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ﴾؛ أي: مما قلت لقتادة إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾ فلمَّا نزل القرآن أتي رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة، ولحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَن

﴿يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ...﴾ إلى قوله: ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

وأخرج ابن سعد في «الطبقات» بسنده عن محمود بن لبيد قال: عدا بشير بن الحارث على عُلَيَّة رفاعة بن زيد عم قتادة بن النعمان، فنقبها من ظهرها، وأخذ طعاماً له ودرعين بأداتهما، فأتى قتادة النبي ﷺ فأخبره بذلك، فدعا بشيراً فسأله، فأنكر ورمى بذلك لبيد بن سهل رجلاً من أهل الدار ذا حسب ونسب، فنزل القرآن بتكذيب بشير وبراءة لبيد: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ...﴾ الآيات، فلما نزل القرآن في بشير وعثر عليه.. هرب إلى مكة مرتداً، فنزل على سلافة بنت سعد، فجعل يقع في النبي ﷺ، وفي المسلمين فنزل فيه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ...﴾ الآية، وهجاه حسان بن ثابت حتى رجع، وكان ذلك في شهر ربيع سنة أربع من الهجرة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ﴾ وسافرتم أيها المؤمنون للغزو أو للتجارة أو غيرهما ﴿فِي﴾ بعض نواحي ﴿ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾ ولا حرج ولا إثم في ﴿أَن تَقۡصُرُواْ﴾ وتنقصوا، وتتركوا ركعتين ﴿مِنَ﴾ عدد ركعات ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الرباعية التي تصلونها في الحضر، بأن تصلوا الظهر والعصر والعشاء ركعتين ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ وخشيتم ﴿أَن يَفۡتِنَكُمُ﴾؛ أي: أن يقصدكم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ بفتنة وأذية، من قتل أو جرح أو أخذ في حال إتمامكم الصلاة، وذكر الخوف ليس للشرط والقيد، وإنَّما هو لبيان الواقع، حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو؛ لكثرة المشركين وقتئذ، ويؤيده حديث يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ وقد أمن؟ فقال: عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» رواه مسلم وأصحاب السنن. قال ابن كثير: وأمَّا قوله[1]: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ فقد يكون هذا خرج

(١) ابن كثير.

مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ﴾.. الآية.

وقد تقرر بالسنة المطهرة: أن النبي ﷺ قصر مع الأمن، ففي الصحيحين أنه ﷺ: «سافر بين مكة والمدينة لا يخاف إلا الله عز وجل، فكان يصلي ركعتين» فالقصر[1] مع الخوف ثابت بالكتاب، والقصر مع الأمن ثابت بالسنة، ومفهوم الشرط لا يقوى على معارضة ما تواتر عنه ﷺ من القصر مع الأمن، فحينئذ فالقصر في السفر رخصة، سواء وجد خوف أم لا، ويدل على أن قيد الخوف لا مفهوم له قراءة أبي: ﴿أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا﴾ بسقوط: ﴿إنْ خفتم﴾ والمعنى على هذه القراءة: كراهية أن يفتنكم الذين كفروا. وقرأ[2] الزهري ﴿تقصّروا﴾ مشدداً، وقرأ ابن عباس ﴿أن تقصروا رباعيا﴾ وبه قرأ الضبي عن رجاله، وقرأ أبي وعبد الله: ﴿أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم﴾ بإسقاط إن خفتم، وهو مفعول من أجله من حيث المعنى؛ أي: مخافة أن يفتنكم، كما مر آنفاً.

ويؤخذ من قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أنه رخصة لا واجب، وعليه الشافعي، لأن ﴿لَا جُنَاحَ﴾ يستعمل في موضع التخفيف والرخصة، لا في موضع العزيمة، بخلاف أبي حنيفة فإن القصر واجب عنده.

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾؛ أي: ظاهري العداوة، فتحرزوا عنهم؛ أي: إن العداوة الحاصلة بينكم وبين الكافرين قديمة، والآن قد أظهرتم خلافهم في الدين، وازدادت عداوتهم، وبسبب شدة العداوة قصدوا إتلافكم إن قدروا، فإنْ طالت صلاتكم.. فربما وجدوا الفرصة في قتلكم، فلأجل هذا رخصت لكم

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

في قصر الصلاة، لئلا يجدوا إلى قتلكم واغتيالكم سبيلاً، وإنَّما قال: ﴿عَدُوًّا﴾ ولم يقل: أعداء؛ لأنه يستوي فيه الواحد والجمع.

فصل في أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

المسألة الأولى في حكم القصر: قصر الصلاة في حالة السفر جائز بإجماع الأمة، وإنَّما اختلفوا في جواز الإتمام في حال السفر، فذهب أكثر العلماء إلى أن القصر واجب في السفر، وهو قول عمر وعلي وابن عمر وجابر وابن عباس، وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة، وهو قول مالك وأبي حنيفة، ويدل عليه ما روي عن عائشة قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين، ثم أتمها في الحضر، وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى. وفي رواية أخرى قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر، أخرجاه في «الصحيحين».

وذهب قوم إلى جواز الإتمام في السفر، ولكن القصر أفضل، يروى ذلك عن عثمان وسعد بن أبي وقاص، وإليه ذهب الشافعي وأحمد، وهو رواية عن مالك أيضاً، ويدل على ذلك ما روى البغوي بسند الشافعي عن عائشة قالت: كل ذلك قد فعله رسول الله ﷺ، قصر وأتم. وعن عائشة أنَّها اعتمرت مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، حتى إذا قدمت مكة.. قالت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت، وصمت وأفطرت، قال: «أحسنت يا عائشة» وما عاب علي. أخرجه النسائي، وظاهر القرآن يدل على ذلك؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾. ولفظة ﴿لَّا جُنَاحَ﴾ إنَّما تستعمل في الرخصة لا فيما يكون حتماً كما مر، وأجيب عن حديث عائشة (فرض الله الصلاة ركعتين) بأن معناه: فرضت ركعتين أولاً، وزيد في صلاة الحضر ركعتان على سبيل التحتم وأقرت صلاة السفر على جواز الاقتصار عليها، وثبت جواز الإتمام بدليل آخر، فوجب المصير إليه، ليمكن الجمع بين دلائل الشرع.

المسألة الثانية: اختلف في صلاة المسافر إذا صلى ركعتين، هل هي مقصورة أم غير مقصورة؟ فذهب قوم إلى أنَّها غير مقصورة؛ وإنَّما فرض صلاة المسافر ركعتان تمام غير قصر، يروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبد الله، وإليه ذهب سعيد بن جبير والسدي وأبو حنيفة، فعلى هذا يكون معنى القصر المذكور في الآية: هو تخفيف ركوعها وسجودها، ولكن يعارض هذا المعنى لفظة ﴿مِنَ﴾ في الآية أعني قوله: ﴿أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لأن لفظة ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، وذلك يوجب جواز الاقتصار على بعض ركعات الصلاة، وذهب قوم إلى أنَّها مقصورة وليست بأصل، وهو قول مجاهد وطاوس، وإليه ذهب الشافعي وأحمد.

المسألة الثالثة: ذهب الشافعي ومالك وأحمد والجمهور إلى أنَّه يجوز القصر في كل سفر مباح، وشرط بعضهم كونه سفر حج أو عمرة أو جهاد، أو سفر طاعة كطلب العلم، ولا يجوز القصر في سفر المعصية، كسفر ناشزة وآبق وقاطع طريق، وقال أبو حنيفة والثوري: يجوز ذلك.

المسألة الرابعة :اختلف العلماء في مسافة القصر، فقال داود الظاهري وأهل الظاهر: يجوز القصر في قصير السفر وطويله، ويروى ذلك عن أنس أيضاً، وقال عمرو بن دينار: قال لي جابر بن زيد: أقصر بعرفة. وأما عامة أهل العلم فإنَّهم لا يجوِّزون القصر في السفر القصير، واختلفوا في حد الطويل الذي يجوز فيه القصر، فقال الأوزاعي: مسيرة يوم، وكان ابن عمر وابن عباس يقصران ويفطران في رمضان في مسيرة أربعة برد، وهي ستة عشر فرسخاً، وقدر هذه المسافة المرحوم أحمد الحسيني بك في كتابه «دليل المسافر» بنحو (٨٩ك م)، وإليه ذهب مالك وأحمد وإسحاق، وقول الحسن والزهري قريب من ذلك، فإنهما قالا: مسيرة يومين، وإليه ذهب الشافعي فقال: مسيرة ليلتين قاصدتين ستة عشر فرسخاً، كل فرسخ ثلاثة أميال، فتكون ثمانية وأربعين ميلاً بالهاشمي، والميل ستة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرين إصبعاً معترضة معتدلة، والأصبع ست شعيرات معترضات معتدلات، وقال الثوري وأبو حنيفة وأهل الكوفة: لا قصر في

أقل من ثلاثة أيام.

ثم شرع الله سبحانه وتعالى في بيان كيفية صلاة الخوف فقال: ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في جماعتك من المؤمنين في حالة خوفهم من الأعداء ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: فأردت أن تقيم الصلاة إماماً لهم، فاجعلهم طائفتين ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾؛ أي: فلتقف فرقة واحدة من الفرقتين منهم وراءك ليصلوا ﴿مَّعَكَ﴾ الركعة الأولى من الثنائية، ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو ليحرسوا المصلين معك، خوفاً من هجوم العدو على المصلين، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق، ﴿فلتقم﴾ بكسر اللام، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ أي: وليحمل الذين يقومون معك في الصلاة أسلحتهم التي لا تشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر، ولا يدعوها وقت الصلاة، فإن ذلك أقرب إلى الاحتياط، وأمنع للعدو من الإقدام عليهم ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾؛ أي: فإذا سجد الذين يقومون معك في الصلاة ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾؛ أي: فليكن الذي يحرسونكم ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾؛ أي: من خلفكم؛ أي: من خلف المصلين معك، إذ أحوج ما يكون المصلي للحراسة حين السجود؛ لأنَّه لا يرى من يهم به، ويجب حينئذ أن يكون الحارسون مستعدين للقيام مقام المصلين، ليصلوا مع النبي ﷺ الركعة الثانية، كما صلت الفرقة الأولى الركعة الأولى معه، أو المعنى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾؛ أي: فإذا سجد المصلون معك وأتموا صلاتهم بعد نية المفارقة.. ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾؛ أي: فلينصرفوا إلى مصاف أصحابهم بإزاء العدو للحراسة من ورائكم، ثم يبقى الإمام قائماً في الركعة الثانية ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: ولتجيء الطائفة الأخرى الذين ﴿لَمْ يُصَلُّواْ﴾ معك في الركعة الأولى لاشتغالهم بالحراسة. وقرأ أبو حيوة: ﴿وليأت﴾ بالياء التحتانية على تذكير الطائفة، واختلف عن أبي عمرو في إدغام التاء في الطاء. ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ في الركعة الثانية كما صلت الطائفة الأولى معك الركعة الأولى، ثم يجلس الإمام منتظراً لهم في التشهد إلى أن يصلوا ركعة ثانية، ثم يسلم الإمام بهم ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ﴾؛ أي: ولتأخذ هذه الطائفة الثانية حذرهم واحتياطهم للعدو، وانتباههم وتيقظهم له ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ معهم في الصلاة، كما فعل الذين من قبلهم، وإنَّما أمر بالحذر هنا؛

لأن العدو لم يتنبه للمسلمين في أول الصلاة، بل يظنون كونهم قائمين لأجل المحاربة والنزال، فإذا قاموا للركعة الثانية.. ظهر للكفار كونهم في الصلاة، فحينئذ ينتهزون الفرصة في الهجوم عليهم، فخص الله تعالى هذه الطائفة بزيادة الحذر من الكفار.

والمعنى: وليكونوا حذرين من عدوهم، متسلحين لقتالهم، وقد بين الله سبحانه وتعالى علة الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى في الصلاة بقوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: تمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبما أنزل عليكم ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ وتنشغلون وتعرضون ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ التي تقاتلونهم بها ﴿وَ﴾ عن ﴿أمتعتكم﴾ التي بها بلاغكم وحياتكم في سفركم، بأن تشغلكم صلاتكم عنها. وقرىء: ﴿وأمتعاتكم﴾ وهو شاذ، إذ هو جمع الجمع ﴿فَيَمِيلُونَ﴾ حينئذ ﴿عَلَيْكُم مَّيْلَةً﴾؛ أي: يهجمون ويحملون عليكم حملة واحدة وأنتم مشغولون بالصلاة واضعون للسلاح تاركون حماية المتاع والزاد فيصيبون منكم غرة، فيقتلون من استطاعوا قتله، وينتهبون ما استطاعوا نهبه، فلا تغفلوا عنهم.

والمعنى: تمنوا أن ينالوا منكم غرة في صلاتكم، فيشدون عليكم شدة واحدة، ويأخذونكم بالدفعة، وهذا بيان ما لأجله أمروا بأخذ السلاح، ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: ولا حرج ولا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾؛ أي: إذا أصابكم أذى من مطر تمطرونه، فيشق عليكم حمل السلاح مع ثقله في ثيابكم، وربَّما أفسد الماء السلاح إذ يجعله يصدأ ﴿أَوْ﴾ إن ﴿كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ بالجراح أو بغير الجراح من العلل في ﴿أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ على الأرض، وتتركوا حملها رخصة لكم في وضعها، إذا ثقل عليكم حملها بسبب مطر أو مرض؛ لأن السلاح يثقل على المريض، ويفسد في المطر، **والمعنى**: لا وزر عليكم في وضع الأسلحة، وترك حملها إنْ تعذر عليكم حملها، إما لثقلها بسبب مطر أو مرض، أو لإيذاء من في الجنب ﴿وَ﴾ لكن ﴿خذوا حذركم﴾؛ أي: احترازكم من عدوكم وراقبوه ولا تغفلوا عنه؛ أي: ولكن يجب عليكم في جميع الأحوال أن تأخذوا حذركم، ولا تغفلوا عن أنفسكم، ولا عن أسلحتكم

وأمتعتكم؛ فإن عدوكم لا يغفل عنكم، ولا يرحمكم، والضرورات تقدر بقدرها.

وهذه الآية تدل على وجوب الحذر عن جميع المضار المظنونة، وبهذا الطريق كان الإقدام على العلاج بالدواء، والاحتراز عن الوباء، وعن الجلوس تحت الجدار المائل واجباً والله أعلم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعَدَّ﴾ وهيأ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى وبرسوله ﷺ ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾؛ أي: ذا إهانة وإذلال لهم في الدنيا، بأن يخذلهم وينصركم عليهم، فاهتموا بأموركم ولا تهملوا في مباشرة الأسباب، كي يحل بهم عذابه تعالى بأيديكم بالقتل والأسر والنهب، فهذا العذاب المهين هو عذاب غلب المسلمين، وانتصارهم عليهم، إذا قاموا بما أمرهم الله تعالى به، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

فصل في كيفية صلاة الخوف

واعلم: أنه دلت[1] هذه الكيفية التي ذكرت في هذه الآية على أن طائفة صلت مع الرسول ﷺ بعض صلاة، ولا دلالة فيها على مقدار ما صلت معه، ولا كيفية إتمامهم، وإنَّما جاء ذلك في السنة، ونحن نذكر تلك الكيفيات على سبيل الاختصار؛ لأنَّها مبينة ما أجمل القرآن:

الكيفية الأولى: صلت طائفة معه وطائفة وجاه العدو، وثبتت قائمة حتى تتم صلاتهم، ويذهبوا وجاه العدو، وجاءت هذه التي كانت وجاه العدو أولاً، فصلى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً حتى أتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم، وهذه كانت بذات الرقاع.

الكيفية الثانية: كالأولى إلا أنَّه حين صلى بالطائفة الأخيرة ركعة سلم، ثم قضت بعد سلامه، وهذه مروية في ذات الرقاع أيضاً.

---

(١) البحر المحيط.

الكيفية الثالثة: صف العسكر خلفه صفين، ثم كبر وكبروا جميعاً، وركعوا معه، ورفعوا من الركوع جميعاً، ثم سجد هو بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا.. سجد الأخرون في مكانهم، ثم تقدموا إلى مصافّ المتقدمين، وتأخر المتقدمون إلى مصافّ المتأخرين، ثم ركعوا معه جميعاً، ثم سجد فسجد معه الصف الذي يليه، فلما صلى.. سجد الآخرون، ثم سلم بهم جميعاً، وهذه صلاته بعسفان، والعدو في قبلته.

الكيفية الرابعة: مثل هذه إلا أنَّه ينكص الصف المتقدم القهقرى حين يرفعون رؤوسهم من السجود، ويتقدم الآخر فيسجدون في مصاف الأولين.

الكيفية الخامسة: صلى بإحدى الطائفتين ركعة والأخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا وقاموا في مقام أصحابهم مقبلين على العدو، وجاء أولئك فصلى بهم ركعة، ثم سلم، ثم قضى بهؤلاء ركعة، وهؤلاء ركعة في حين واحد.

الكيفية السادسة: يصلي بطائفة ركعة، ثم ينصرفون تجاه العدو، وتأتي الأخرى، فيصلي بهم ركعة، ثم يسلم، وتقوم التي معه تقضي، فإذا فرغوا.. ساروا تجاه العدو، وقضت الأخرى.

الكيفية السابعة: صلى بكل طائفة ركعة، ولم يقض أحد من الطائفتين شيئاً زائداً على ركعة واحدة.

الكيفية الثامنة: صلى بكل طائفة ركعتين ركعتين، فكانت له أربع ولكل رجل ركعتان.

الكيفية التاسعة: يصلي بإحدى الطائفتين ركعة، إن كانت الصلاة ركعتين، والأخرى بإزاء العدو، ثم تقف هذه بازاء العدو وتأتي الأولى، فتؤدي الركعة بغير قراءة، وتتم صلاتها، ثم تحرس، وتأتي الأخرى، فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها، وكذا في المغرب، إلا أنَّه يصلي بالأولى ركعتين، وبالثانية ركعة.

الكيفية العاشرة: قامت معه طائفة، وطائفة أخرى مقابل العدو، وظهورهم إلى القبلة فكبرت الطائفتان معه، ثم ركع وركع معه اللذين معه، وسجدوا كذلك،

ثم قام، فسارت التي معه إلى إزاء العدو، وأقبلت التي كانت بإزاء العدو، فركعوا وسجدوا وهو قائم كما هو، ثم قاموا فركع ركعة أخرى، وركعوا معه وسجدوا معه، ثم أقبلت التي بإزاء العدو، فركعوا وسجدوا وهو قاعد، ثم سلم وسلم الطائفتان معه جميعاً، وهذه كانت في غزوة نجد.

الكيفية الحادية عشرة: صلى بطائفة ركعتين ثم سلم، ثم جاءت الطائفة الأخرى، فصلى بهم ركعتين وسلم، وهذه كانت ببطن نخل. واختلاف هذه الكيفيات يرد على مجاهد قوله: إنه ما صلى الرسول ﷺ إلا مرتين، مرة بذات الرقاع من أرض بني سليم، ومرة بعسفان والمشركون بضجنان بينهم وبين القبلة، وذكر ابن عباس: أنَّه كان في غزوة ذي قرد صلاة الخوف، وقال أبو بكر بن العربي: روي عنه ﷺ أنَّه صلى صلاة الخوف أربعاً وعشرين مرة؛ أي: كيفية. وقال ابن حنبل: لانعلم أنه روي في صلاة الخوف إلا حديث صحيح، فعلى أي حديث صليت أجزأ، وكذا قال الطبري. ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: فإذا أديتم صلاة الخوف على هذه الكيفية وفرغتم منها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾؛ أي: فداوموا على ذكر الله تعالى في أنفسكم، بتذكر وعده بنصر من ينصرونه في الدنيا، ونيل الثواب في الآخرة، وبألسنتكم بالحمد والتكبير والدعاء حالة كونكم ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾؛ أي: قائمين وقاعدين ﴿و﴾ مضطجعين ﴿على جنوبكم﴾؛ أي: داوموا على ذكره تعالى في كل حال تكونون عليها، من قيام في المسايفة والمقارعة، وقعود للرمي أو المصارعة، واضطجاع من الجراح أو المخادعة، فذكر الله تعالى مما يقوي القلوب، ويعلي الهمم، ويجعل متاعب الدنيا حقيرة، ومشاقها سهلة، والثبات والصبر يعقبهما الفلاح والنصر، كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

والخلاصة: أننا إذا أمرنا بالذكر على كل حال نكون عليها في الحرب، كما يدل على ذلك السياق.. فأجدر بأن نؤمر به في حال السلم؛ لأن المؤمنين في جهاد مستمر وحروب دائمة، فهم تارة يجاهدون الأعداء، وأخرى يجاهدون

الأهواء، ومن ثم أمرهم الله تعالى بالذكر في كثير من الآي، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ لما في ذلك من تربية النفس وصفاء الروح، وتذكر جلال الله وعظمته، وأن كل شيء هين في سبيله، وابتغاء مرضاته.

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها جزاء معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر فإنَّ الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. اهـ.

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾؛ أي: فإذا سكنت قلوبكم من الخوف، وأمنتم بعد أن تضع الحرب أوزارها ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: فأدوا الصلاة المفروضة بتعديل أركانها، ومراعاة شرائطها، ولا تقصروا من هيآتها المعهودة، كما أذن لكم في حال الحرب.

وقيل معنى الآية[1]: فإذا أردتم أداء الصلاة.. فصلوا قياماً حال اشتغالكم بالمسايفة والمقارعة، وقعوداً جاثين على الركب حال اشتغالكم بالمراماة، وعلى جنوبكم حال ما تكثر الجراحات فيكم فتسقطون على الأرض، فإذا زال الخوف عنكم بانقضاء الحرب.. فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال، وهذا ظاهر على مذهب الشافعي من إيجاب الصلاة على المحارب في حال المسايفة إذا حضر وقتها، وإذا اطمأنوا فعليهم القضاء.

وقال ابن عباس: أي فإذا فرغتم من صلاة الخوف.. فصلوا لله قياماً للصحيح، وقعوداً للمريض، وعلى الجُنوب للجريح والمريض، فإذا ذهب منكم الخوف، ورجعتم إلى منازلكم.. فأتموا الصلاة أربعاً.

ثم علل وجوب المحافظة على الصلاة حتى في وقت الخوف، ولو مع

---

(١) المراح.

القصر منها، فقال ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ﴾ في حكم الله تعالى ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾؛ أي: فرضاً مؤكداً عليهم في أوقات محدودة، لا بد من أدائها فيها بقدر الإمكان، فأداؤها في أوقاتها مع القصر بشرطه خير من تأخيرها لتؤدى تامة كاملة.

والحكمة في توقيتها في تلك الأوقات المعلومة: أن الأشياء إن لم يكن لها وقت معين لا يحافظ عليها الجم الغفير من الناس، إلى ما في هذا النوع من الذكر المهذب للنفس من التربية العملية للأمة الإسلامية بأن تلتزم أداء أعمالها في أوقات معينة، مع عدم الهوادة فيها، ومن قصر فيها في تلك الأوقات الخمسة في اليوم والليلة.. فهو جدير بأن ينسى ربه ويغرق في بحار الغفلة، ومن قوي إيمانه وزكت نفسه لا يكتفي بهذا القدر القليل من ذكر الله تعالى ومناجاته، بل يزيد عليه من النوافل ما شاء الله أن يزيد.

والخلاصة: أن الصلوات الخمس إنما كانت موقوتة؛ لتكون مذكرة للمؤمن بربه في الأوقات المختلفة، لئلا تحمله الغفلة على الشر، أو التقصير في الخير، ولمن يريد الكمال في النوافل والأذكار أن يختار الأوقات التي يرى أنها أوفق بحاله. ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾؛ أي: ولا تضعفوا أيها المؤمنون، ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: في طلب القوم الكفار الذين ناصبوكم وظاهروكم العداوة بل عليكم أن تستعدوا لقتالهم بعد الفراغ من الصلاة، مع أخذ الحذر وحمل السلاح عند أدائها، وهذا في معنى الأمر بالهجوم عليهم؛ أي: لا تعجزوا ولا تتوانوا في طلب الكفار بالقتال، نزلت[1] هذه الآية في شأن بدر الصغرى، وذلك لما بعث رسول الله ﷺ طائفة في طلب أبي سفيان وأصحابه، فشكوا الجراحات حين رجعوا من أحد.

وسر هذا: أن الذي يوجه همته إلى المهاجمة تشتد عزيمته، وتعلو همته، أما الذي يلتزم الدفاع فحسب.. فإنه يكون خائر العزيمة ضعيف القوة، ﴿إِن تَكُونُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿تَأْلَمُونَ﴾؛ أي: إن كنتم تتوجعون بالجراح ﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛

---

(١) المراح.

أي: فإن الأعداء ﴿يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾؛ أي: يتوجعون بالجراح كما تتوجعون أنتم، فحصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم، فلم يكن خوف الألم مانعاً لهم من قتالكم، فكيف يكون مانعاً لكم من قتالهم؛ أي: إن ما ينالكم من الآلام ينالهم منه مثله، فهم بشر مثلكم، وهم مع هذا يصبرون، فمالكم لا تصبرون وأنتم أولى منهم بالصبر، وبين سبب هذا بقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ أي: وأنتم ترجون من الله ثوابه، وتخافون عذابه؛ لأنكم تعبدون اللّه تعالى والمشركون يعبدون الأصنام، فلا يصح منهم أن يرجوا منها ثواباً، أو يخافوا منها عقاباً، فيجب أن تكونوا أرغب منهم في الحرب، وأصبر عليها، أو المعنى[1]: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ من ظهور دينكم الحق على سائر الأديان الباطلة، ومن الثواب الجزيل، والنعم المقيم في الآخرة، كما أنه تعالى قد وعدكم إحدى الحسنيين، النصر أو الجنة بالشهادة إذا نصرتم دينه، ودافعتم عن حماه، وهذا الوعد من الرحمٰن مع خلوص الإيمان يدعوان إلى الرجاء والأمل، ويضاعفان العزيمة، ويحثان صاحبهما على العمل بصبر وثبات، أما اليائس من هذا الوعد الكريم فإنه يكون ضعيف العزيمة ميت الهمة، يغلب عليه الجزع والفتور، فإن تساويتم في الآلام فقد فضلتموهم في الثقة بحسن العاقبة، فأنتم أجدر منهم بالإقدام والجرأة، فإن أنفسكم قوية، لأنها ترى الموت مغنماً، وهم يرونه مغرماً، وقرأ الحسن[2]: ﴿تهنوا﴾ بفتح الهاء، وهي لغة، فتحت الهاء كما فتحت دال يدع، لأجل حرف الحلق. وقرأ عبيد بن عمير: ﴿ولا تهانوا﴾ من الإهانة، وقرأ الأعرج: ﴿أن تكونوا تألمون﴾ بفتح الهمزة على المفعول من أجله، وقرأ ابن المسيفع ﴿تِئْلمون﴾ بكسر التاء، وقرأ ابن وثاب ومنصور بن المعتمر: ﴿تسئلمون﴾ بكسر تاء المضارعة في الموضعين ويائها وهي لغة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بنياتكم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فلا يكلفكم شيئاً إلا بما هو عالم بأنه سبب لصلاحكم في دينكم ودنياكم، وقد ثبت في واسع علمه ومضت به سننه أن العاقبة للمتقين، والنصرة

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

لهم على الكافزين، ما داموا عاملين بهديه سائرين على الطريق التي وضعها لنصرة الحق على الباطل، من الأخذ بالأسباب وكثرة العَدَد والعُدَد، فإذا هم فعلوا ذلك. . كانوا أشد منهم قتالاً، وأحسن منهم نظاماً، وبذا يفوزون بالمطلوب، وبحسن العاقبة، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: هذا القرآن حالة كونه متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بتحقيق الحق وبيانه، ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: لأجل أن تحكم بين الناس ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: بما أعلمك الله تعالى به في هذا الكتاب من الأحكام وأوحى به إليك، ﴿وَلَا تَكُن﴾ يا محمد ﴿لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾؛ أي: لا تكن مدافعاً ومخاصماً عن الخائنين، تجادل وتدافع عنهم، والمراد بهم طعمة بن أبيرق وجماعته، بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، كما أخرجه الترمذي من حديث قتادة بن النعمان؛ أي: لا تكن مخاصماً لمن كان بريئاً من الذنب والسرقة، وهو اليهودي زيد بن سمين، لأجل الدفع عن الخائنين، وهم طعمة وقومه، اعتماداً على شهادتهم بالزور بأن اليهودي هو السارق لا هم.

وخلاصة ذلك: أن عليك أن لا تتهاون في تحري الحق اغتراراً بلحن الخائنين، وقوة جدلهم في الخصومة، لئلا تكون خصيماً لهم، وتقع في ورطة الدفاع عنهم، ويؤيد هذا حديث أم سلمة: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً. . فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار».

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، مما هممت به من القضاء على اليهودي بقطع يده، تعويلاً على شهادتهم الكاذبة، أو المعنى: واستغفر الله مما يعرض لك من شؤون البشر وأحوالهم، بالميل إلى من تراه ألحن بحجته، أو الركون إلى مسلم لأجل إسلامه تحسيناً للظن به، فهذا ونحوه صورته صورة من أتى ذنباً يوجب الاستغفار، وإن لم يكن متعمداً للزيغ عن العدل والتحيز للخصم، وفي هذا من زيادة الحرص على الحق والتشديد فيه ما لا يخفى، حتى كأن مجرد الالتفات إلى قول المخادع يجب الاحتراس منه، كما أن فيه إيماء إلى أن

القاضي لا يساعد من يظن أنه صاحب الحق، بل عليه أن يساوي بين المتخاصمين في كل شيء، ثم رغبهم في المغفرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن استغفره واسترحمه.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾؛ أي: لا تخاصم يا محمد ولا تدافع ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: يخونون أنفسهم بالمعاصي. وسمى خيانة غيرهم خيانة لأنفسهم؛ لأن ضررها عائد إليهم، وهم طعمة ومن عاونه من قومه ممن علم كونه سارقاً. ووجه هذا الخطاب إلى النبي ﷺ، وهو أعدل الناس وأكملهم، مبالغة في التحذير من هذه الخلة المعهودة في كثير من الحكام.

وخلاصة المعنى: لا تدافع عن هؤلاء الخونة، ولا تساعدهم عند التخاصم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى يبغض و﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾؛ أي: كثير الخيانة ﴿أَثِيمًا﴾؛ أي: كثير الإثم فإن طعمة خان في الدرع، وأثم في نسبة اليهودي إلى تلك السرقة، وطلب من النبي ﷺ أن يدفع السرقة عنه، ويلحقها باليهودي، وهذا يبطل رسالة الرسول، ومن حاول إبطالها وإظهار كذبه.. فهو كافر، والمراد بعدم الحب البغض والسخط؛ أي: إن الله تعالى يبغض من اعتاد الخيانة، وألفت نفسه اجتراح السيئات، وضربت عليها، ولم يعد للعقاب الإلهي الرهبة والخشية، التي ينبغي أن يفكر مثله فيها، وإنما يحب الله سبحانه وتعالى أهل الأمانة والاستقامة، ثم بين أحوال الخائنين ونعى عليهم أفعالهم فقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: يستترون من الناس حياء وخوفاً من ضررهم، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يستترون من الله، أو لا يستحيون منه تعالى، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه وتعالى مع أولئك الخائنين بعلمه ورؤيته وقدرته، ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾؛ أي: إذ يدبرون في الليل بينهم، ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ﴾ الله سبحانه، ولا يحبه ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: من الرأي الذي أداروه بينهم، وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ، فإنه يسمع قول طعمة، ويقبل يمينه على أنه لم يسرق؛ لأنه مسلم، ولا يقبل قول اليهودي؛ لأنه كافر، فلم يرض الله ذلك منهم، فأطلع نبيه ﷺ على سرهم، وما هموا به وسمى تدبيرهم تبييتاً؛ لأن الغالب أن تكون إدارة الرأي بالليل، وسماه قولاً؛ لأنه لا يحصل إلا بعد المقاولة بينهم.

وحاصل المعنى: أن شأن هؤلاء الخوانين أنهم يستترون من الناس عند اجتراحهم الآثام، إما حياء، وإما خوفاً من ضررهم، ولا يستترون من الله، ولا يستحيون منه بتركها لضعف إيمانهم، إذ الإيمان يمنع من الإصرار وتكرار الذنب، ولا تقع الخيانة من صاحبه إلا عن غفلة، أو جهالة عارضة لا تدوم، فمن يعلم أن الله يراه في حنادس الظلمات.. لا بد أن يترك الذنب والخيانة، حياء منه تعالى، وخوفاً من عقابه، وهو تعالى شاهدهم حين يدبرون ليلاً ما لا يرضى من القول، تبرئة لأنفسهم، ورمي غيرهم بجريمتهم. ثم توعدهم على عظيم جرمهم فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾؛ أي: حافظاً لأعمالهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات، ولا في الأرض، فلا سبيل إلى نجاتهم من عقابه، ثم حذر المؤمنين من مساعدة هؤلاء الخوانين والحدب عليهم فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ها حرف تنبيه، والخطاب فيه لقوم من المؤمنين، كانوا يذبون عن طعمة وقومه؛ أي: انتبهوا يا هؤلاء القوم الذي يذبون ويدافعون عن طعمة وقومه، أنتم ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ وخاصمتم ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن القوم الخائنين طعمة وقومه، وحاولتم تبرئتهم، وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب: ﴿عنه﴾ بالإفراد؛ أي: عن طعمة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عند تعذيبهم بذنوبهم يوم الخصم، والحاكم هو الله تعالى المحيط بأعمالهم، وأحوالهم وأحوال الخلق كافة، ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾؛ أي: مجادلاً ومخاصماً، والوكيل في الأصل القائم بتدبير الأمور، والمعنى: من ذا الذي يقوم بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه، والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ؛ أي: فلا يمكن أن يجادل هناك أحد عنهم، ولا أن يكون وكيلاً بالخصومة لهم، فيدافع عنهم العذاب، فعلى المؤمنين أن يراقبوا الله تعالى في مثل ذلك، ولا يظنوا أن من أمكنه أن ينال الفوز والحكم له وأخذه من قضاة الدنيا بغير حق، يمكنه أن يظفر به في الآخرة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

وفي الآية[(١)]: إيماء إلى أن حكم الحاكم في الدنيا لا يجيز للمحكوم له أن

---

(١) المراغي.

يأخذ به، إذا علم أنه حكم له بغير حقه، كما أن فيها توبيخاً وتقريعاً لأولئك الذين أرادوا مساعدة أبيرق على اليهودي.

ثم رغّب في التوبة من الذنوب وحثَّ عليها فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾؛ أي: قبيحاً يسوء ويحزن به غيره، كما فعل طعمة من سرقة الدرع لقتادة، ومن رمي اليهودي بالسرقة، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بفعل معصية تختص به، كالحلف الكاذب ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ من ذلك السوء والظلم بالتوبة الصادقة، ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾؛ أي: غفاراً لذنوبه ﴿رَّحِيمًا﴾؛ أي: متفضلاً عليه بالعفو والمغفرة حيث قبل توبته، وهذه[1] الآية دلت على أن التوبة مقبولة من جميع الذنوب، سواء كانت كفراً أو قتلاً عمداً أو غصباً للأموال؛ لأن السوء وظلم النفس يعم الكل، والمراد بوجدان الله غفوراً رحيماً هو: أن التائب المستغفر يجد أثر المغفرة في نفسه، بكراهة الذنب وذهاب داعيته، ويجد أثر الرحمة بالرغبة في الأعمال الصالحة، التي تطهر النفس، وتزيل الدرن عنها.

وفي ذلك ترغيب وحث لطعمة وقومه في التوبة والاستغفار، كما أن فيها بياناً للمخرج من الذنب بعد وقوعه، وفيها تحذير من أعداء الحق والعدل الذين يحاولون هدمهما، وهما أسس الشرائع، ثم حذر من فعل الذنوب والآثام، وذكر عظيم ضررها فقال: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾؛ أي: يعمل ذنباً ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يتعدى ضرره إلى غيره، فليتحرز عن إقبال نفسه للعقاب عاجلاً وآجلاً، والكسب عبارة عما يفيد جر منفعة أو دفع مضرة، ولذلك لم يجز وصف الله تعالى بذلك، وهذا إجمال بعد تفصيل، والمعنى[2]: ومن يعمل الإثم وير أنه قد كسبه وانتفع به.. فإنما كسبه وبال على نفسه، وضرر لا نفع له فيه، كما يخطر على بال من يجهل عواقب الآثام في الدنيا والآخرة، من فضيحة للآثم ومهانة له بين الناس وعند الحاكم العادل، كما وقع لأصحاب هذه القصة الذين نزلت في شأنهم هذه الآيات، ومن خزي في الآخرة، يوم لا ينفع مال ولا بنون

---

(١) كرخي. (٢) المراغي.

إلا من أتى الله بقلب سليم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بما في قلب عبده عند إقدامه على التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ تقتضي حكمته أن يتجاوز عن التائب، وأن لا يحمل نفساً وازرة وزر نفس أخرى، أو المعنى: إنه تعالى بعلمه الواسع حدد للناس شرائع يضرهم تجاوزها، وبحكمته جعل لها عقاباً يضر المتجاوز لها، فهو إذاً يضر نفسه، ولا يضر اللّه شيئاً.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾؛ أي: ومن يكسب ذنباً خطأ بلا تعمد أو صغيرة أو قاصرة على الفاعل، أو ما لا ينبغي فعله بالعمد أو بالخطأ، أو ذنباً بينه وبين الله تعالى، يعني يمينه الكاذبة. وقرأ معاذ بن جبل: ﴿ومن يكسب﴾ بكسر الكاف وتشديد السين، وأصله يكتسب. وقرأ الزهري ﴿خطية﴾ بالتشديد، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾؛ أي: كبيرة، أو ما يتعدى إلى الغير، كالظلم والقتل، أو ما يحصل بالعمد، أو ذنباً بينه وبين الناس، يعني سرقته ورميه اليهودي، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾؛ أي: يقذف بذلك الذنب شخصاً ﴿بَرِيٓـًٔا﴾ منه كما فعل طعمة حين رمى اليهودي بالسرقة ولم يسرق. فإن قلت[1]: الخطيئة والإثم شيئان، فكيف وحد الضمير في قوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾؟.

قلت: معناه ثم يرم بأحد هذين المذكورين بريئاً، وقيل: معناه ثم يرم بهما، فاكتفى بأحدهما عن الأخر، وقيل: إنه يعود الضمير إلى الإثم وحده؛ لأنه أقرب مذكور، وقيل: إن الضمير يعود إلى الكسب، ومعناه: ثم يرم بما كسب بريئاً؛ أي: ومن يكسب خطيئة أو إثماً، ثم يبرىء نفسه منه، وينسبه إلى شخص بريء منه، ويزعم أنه هو الذي كسبه.. ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ أي: فقد كلف نفسه بحمل وزر البهتان والكذب العظيم، وحمل وزر الذنب المبين الظاهر بافترائه على البريء، واتهامه إياه؛ أي: فقد[2] أوجب على نفسه عقوبة بهتان عظيم، وعقوبة ذنب بين، فالبهتان أن ترمي أخاك بأمر منكر، وهو بريء منه،

(١) الخازن.

(٢) المراح.

فصاحب البهتان مذموم في الدنيا أشد الذم، ومعاقب في الآخرة أشد العقاب، فقوله: ﴿بُهْتَنًا﴾ إشارة إلى الذم العظيم في الدنيا، وقوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ إشارة إلى العقاب الشديد في الآخرة، ولما[1] كانت الذنوب لازمة لفاعلها.. كانت كالثقل الذي يحمل، فعبر عنه باحتمل، ومثله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

وقد فشا هذا بين المسلمين في هذا الزمان، ولم يكن لهذا من سبب إلا ترك هداية الدين، وقلة الوازع النفسي والغفلة عن الأوامر والنواهي التي جاءت به الشريعة.

وبعد أن ذكر المختانين أنفسهم، ومحاولتهم زحزحة الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن الحق.. بيَّن فضله ونعمته عليه، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وإحسانه ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد بالنبوة، والتأييد بالعصمة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لك ببيان حقيقة الواقع وما هم عليه بالوحي، ﴿لَهَمَّت﴾ وقصدت ﴿طَّآئِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من الخائنين قوم طعمة ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾؛ أي: أن يخطئوك عن الحكم العادل المنطبق على حقيقة القضية في نفسها، ويوقعوك في الحكم الباطل، وذلك لأن قوم طعمة قد عرفوا أنه سارق، ثم سألوا النبي ﷺ أن يجادل عنه ويبرئه عن السرقة، وينسب تلك السرقة إلى اليهودي، ولكنه قبل أن يطمعوا في ذلك ويهموا به، جاءك الوحي ببيان الحق، وإقامة أركان العدل والمساواة فيه بين جميع الخلق ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: ما يضلون أحداً إلا أنفسهم بسبب تعاونهم على الإثم والعدوان، وشهادتهم بالزور والبهتان؛ لأن وبال ذلك عائد عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ﴾ يا محمد ﴿مِن شَيْءٍ﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى هو عاصمك من الناس، فإنهم وإن سعوا في إلقائك في الباطل.. فأنت ما وقعت فيه؛ لأنك عملت بالظاهر، ولا ضرر عليك في الحكم به قبل نزول الوحي، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿وَ﴾ أوحى إليك

---

(١) الشوكاني.

﴿الحكمة﴾؛ أي: السنة؛ أي: فكيف يضلونك وقد أنزل الله تعالى إليك الكتاب والحكمة، وقيل: الحكمة فقه مقاصد الدين وأسراره، ووجه موافقتها للفطرة، وانطباقها على سنن الاجتماع البشري ومصالح الناس في كل زمان ومكان ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾ من أمور الدين، وأسرار الكتاب والحكمة، وأخبار الأولين، وحيل المنافقين ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ أرسلك للناس كافة، وجعلك خاتم النبيين، واختصك بنعم كثيرة، ومزايا لا تدخل تحت حصر، فيجب أن تكون أعظم الناس شكراً له، كما يجب على أمتك مثل ذلك؛ ليكونوا خير أمة أخرجت للناس قدوة لغيرهم في جميع الخيرات. وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف المناقب والفضائل، مع أن الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم إلا القليل.

الإعراب

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ضَرَبْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، على كونه فعل شرط لها، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿فَلَيْسَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، لكون الجواب جملة جامدية، ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿ليس﴾. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسم ﴿ليس﴾ مؤخر، وجملة ﴿ليس﴾ من اسمها وخبرها جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿أَن تَقْصُرُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿مِنَ﴾ زائدة على مذهب الأخفش. ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾: مفعول به، و﴿من﴾: تبعيضية على مذهب الجمهور من عدم زيادتها في الإثبات، متعلقة بـ﴿تَقْصُرُوا۟﴾، وصفة لمحذوف عند سيبويه؛ أي شيئاً من الصلاة، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: فليس عليكم جناح في قصر الصلاة.

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾: حرف شرط وفعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إِنْ﴾ معلوم مما قبلها، تقديره: فليس عليكم جناح في قصر الصلاة، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية قيد لا مفهوم لها، ومستأنفة لا محل لها. ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعل، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إن خفتم فتنة الذين كفروا إياكم، ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ﴾ حرف نصب واسمها، ﴿كَانُواْ﴾ خبرها. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بكان أو حال من ﴿عَدُوًّا﴾ وهو خبر كان، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة ﴿عَدُوًّا﴾، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِمْ﴾: خبره، وجملة كان في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، ﴿فَأَقَمْتَ﴾: عاطف وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة كان، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق بـ﴿أقمت﴾، ﴿الصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به، ﴿فَلْتَقُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿لتقم طائفة﴾: جازم وفعل وفاعل، ﴿مِّنْهُم﴾: جار ومجرور صفة ﴿طَآئِفَةٌ﴾، ﴿مَّعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من ﴿طَآئِفَةٌ﴾ لوصفه بالجار والمجرور، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ﴾: جازم وفعل وفاعل، ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلْتَقُمْ﴾ على كونها جواب ﴿إذا﴾، ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿سَجَدُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿يكونوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر كان، وجملة كان جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة

﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ﴾: جازم وفعل وفاعل، ﴿أُخْرَىٰ﴾: صفة لـ﴿طائِفَةٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلْيَكُونُوا﴾، ﴿لَمْ يُصَلُّوا﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة صفة ثانية لـ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أو حال منها؛ لأنها تخصصت بالصفة، ﴿فَلْيُصَلُّوا﴾: عاطف وجازم، وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلْتَأْتِ﴾، ﴿مَعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يصلوا﴾، ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾: جازم وفعل وفاعل معطوف على ﴿فَلْيُصَلُّوا﴾، ﴿حِذْرَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: معطوف على ﴿حِذْرَهُمْ﴾.

﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢)﴾.

﴿وَدَّ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿لَوْ﴾: حرف مصدر ﴿تَغْفُلُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَغْفُلُونَ﴾، ﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَسْلِحَتِكُمْ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية، ﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ود الذين كفروا غفلتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم، ﴿فَيَمِيلُونَ﴾: عاطف وفعل وفاعل، ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق به، ﴿مَّيْلَةً﴾: مفعول مطلق، ﴿وَاحِدَةً﴾: صفة لـ﴿مَّيْلَةً﴾ والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿تَغْفُلُونَ﴾ على كونها صلة لـ﴿لَوْ﴾: المصدرية، والتقدير: ود الذين كفروا غفلتكم عن أسلحتكم فميلهم عليكم، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لا﴾: نافية، ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبرها، والجملة مستأنفة. ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، ﴿بِكُمْ﴾: جار ومجرور، خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها، ﴿أَذًى﴾: اسم ﴿كَانَ﴾، ﴿مِّن مَّطَرٍ﴾: صفة لـ﴿أَذًى﴾، والتقدير: إن كان أذى من مطر واقعاً بكم، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجزم فعل شرط لـ﴿إن﴾، وجوابها معلوم مما قبلها، تقديره: إن كان بكم أذى من مطر فلا جناح عليكم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾،

فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على قوله: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾، ﴿أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في وضعكم أسلحتكم، والجار المحذوف حال من الضمير المستكن في خبر ﴿لا﴾، أو خبر ثان لـ﴿لَا﴾، والتقدير: لا جناح كائن هو عليكم حالة كونه في وضعكم أسلحتكم، ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمها، ﴿أَعَدَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾ أو حال من ﴿عَذَابًا﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿مُّهِينًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم كيفية صلاة الخوف، وأردتم بيان ما هو أصلح لكم بعد الفراغ من الصلاة.. فأقول لكم، ﴿إذا قضيتم﴾: ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، ﴿فَٱذْكُرُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿اذكروا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿قِيَٰمًا﴾ حال من فاعل ﴿اذكروا﴾، ﴿وَقُعُودًا﴾: معطوف عليه، ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾: متعلق بمحذوف معطوف على ﴿قِيَٰمًا﴾ على كونه حالاً من فاعل ﴿اذكروا﴾ تقديره: ومضطجعين على جنوبكم، ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت على شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما تشتغلون بعد قضاء الصلاة وانتهائها، وأردتم بيان ما هو لازم لكم بعد الاطمئنان، وزوال الخوف عنكم.. فأقول لكم، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في

محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، ﴿فَأَقِيمُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿أقيموا﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾: مفعول به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَتۡ﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: حال من ﴿كِتَٰبًا﴾، ﴿كِتَٰبًا﴾: خبر كان، ﴿مَّوۡقُوتًا﴾: صفة لـ﴿كتابا﴾ وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لا تهنوا﴾: جازم وفعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَهِنُواْ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿تَكُونُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿تَأۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر كان، ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ وجوباً، ﴿إنهم﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَأۡلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معللة للنهي السابق قبلها، أعني قوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾، ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿تَأۡلَمُونَۖ﴾: فعل وفاعل، صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كإيلامكم، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: فإنهم يألمون، إيلاماً كائناً كإيلامكم. ﴿وَتَرۡجُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿ترجون﴾، ﴿لَا يَرۡجُونَۗ﴾: فعل وفاعل، صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما لا يرجونه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لها، ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من الكتاب، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، ﴿لِتَحْكُمَ﴾: ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿تحكم﴾: منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تحكم﴾، ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تحكم﴾ أيضاً، وجملة ﴿تحكم﴾ صفة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: لحكمك بين الناس، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَنزَلْنَآ﴾، ﴿أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: أراكه الله، وهو العائد على ﴿ما﴾ الموصولة والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، ﴿وَلَا تَكُن﴾: جازم وفعل ناقص، واسمه ضمير يعود على محمد، ﴿لِّلْخَآئِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿خَصِيمًا﴾، ﴿خَصِيمًا﴾: خبر ﴿تَكُن﴾، وجملة ﴿تَكُن﴾ مستأنفة. ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول أول، والثاني محذوف، تقديره: ذنبك، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿لا تكن﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾، ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾: جازم وفعل، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ﴾: متعلق به، ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب ومنصوب، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر معللة للنهي السابق

قبلها، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿خَوَّانًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿أَثِيمًا﴾: صفة له، أو خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿يَسْتَخْفُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: متعلق به، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ﴾: ناف وفعل وفاعل، معطوف على ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿مَعَهُمْ﴾: خبره، والجملة حال من لفظ الجلالة، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: فعل وفاعل، مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول لـ﴿يُبَيِّتُونَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾، والمفعول محذوف، تقديره: يرضاه، وهو العائد على ﴿مَا﴾ الموصولة، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها، ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: حال من الضمير المحذوف، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: متعلق بـ﴿مُحِيطًا﴾ وهو خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾: ﴿ها﴾: حرف تنبيه، ﴿أنتم﴾: مبتدأ، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء معترضة، لاعتراضها بين المبتدأ والخبر، ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾، ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلق بـ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ أيضاً، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة، ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿يُجَٰدِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُ﴾، والجملة الفعلية

خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ﴾ على كونها مستأنفة، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُ﴾، ﴿أَم﴾: منقطعة تعطف جملة على جملة، ﴿مَّن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿مَّن﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿وَكِيلًا﴾ وهو خبر ﴿يَكُونُ﴾، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿مَّن﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ﴾.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾: فعل ومفعول، مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿يَعْمَلْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول أول، معطوف على ﴿يَظْلِمْ﴾ أو على ﴿يَعْمَلْ﴾، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ذنبه، ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول أول، مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿غَفُورًا﴾: مفعول ثان، ﴿رَّحِيمًا﴾: صفة لـ﴿غَفُورًا﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿يَكْسِبْ إِثْمًا﴾: فعل ومفعول، مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾، ﴿إنما﴾ أداة حصر، ﴿يَكْسِبُهُۥ﴾: فعل ومفعول، ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة

على جملة ﴿من﴾ الأولى، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لها، ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾: جازم ومجزوم ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: معطوف على ﴿خَطِيٓـَٔةً﴾، ﴿ثُمَّ يَرْمِ﴾: معطوف على ﴿يَكْسِبْ﴾، مجزوم بحذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يرم﴾، ﴿بَرِيٓـًٔا﴾: مفعول به، ﴿فَقَدِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ وجوباً، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ٱحْتَمَلَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿بُهْتَٰنًا﴾: مفعول به، ﴿وَإِثْمًا﴾: معطوف عليه، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً؛ لقيام جواب ﴿لولا﴾ مقامه، تقديره: موجودان، ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾ ﴿همت طائفة﴾: فعل وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿طَّآئِفَةٌ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مع جوابها مستأنفة استئنافاً نحوياً، والمعنى: انتفى ضلالك الذي هموا به لوجود فضل الله عليك بالعصمة والحفظ، ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول به، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة

المتعلقة بـ﴿همت﴾ تقديره: لهمت طائفة منهم باضلالهم إياك، ﴿وَمَا﴾: الواو استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يُضِلُّونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَضُرُّونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿شَيْءٍ﴾: منصوب على المفعولية، بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف جر زائد؛ أي: ما يضرونك شيئاً من الضرر لا قليلاً ولا كثيراً، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَعَلَّمَكَ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أنزل﴾، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿علم﴾، ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَكُن﴾: فعل ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، واسمه ضمير يعود على محمد، ﴿تَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، ومفعوله محذوف، تقديره: ما لم تكن تعلمه، وهو بمعنى عرف يتعدى إلى مفعول واحد، وجملة ﴿تَعْلَمُ﴾ في محل النصب خبر ﴿تَكُن﴾، وجملة ﴿تَكُن﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف، ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أو حال منه، ﴿عَظِيمًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: يقال قصرت الشيء من باب نصر، إذا جعلته قصيراً بحذف بعض أجزائه، فمتعلق القصر جملة الشيء لا بعضه، فإن البعض متعلق الحذف، والقصير ضد الطويل، والقصر بالفتح من القصر ـ كعنب ـ ضد الطول، و﴿الجناح﴾: التضييق من جنح البعير إذا انكسرت جوانحه ـ أضلاعه ـ لثقل حمله، ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: في «المصباح» قال في «مختصر العين» يقع العدو بلفظ واحد على الواحد المذكر والمؤنث والمجموع انتهى. ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾:

والأسلحة جمع سلاح، وهو كل ما يتحصن الإنسان ويدافع به عن نفسه في الحرب، ويقاتل به، من سيف وخنجر ورمح ومسدس وبندقية، ومن جميع أسلحة العصر الحاضر، وقال الليث: يقال للسيف وَحْدَه سلاح، وللعصا وَحْدَها سلاح، وقال ابن دريد: يقال سلاح على وزن حمار، وسلح على وزن ضلع، وسلح على وزن صرد، وسلحان على وزن سلطان، ويقال: رجل سالح إذا كان معه سلاح، والسلح نبت إذا رعته الإبل.. سمنت وغزر لبنها، وما يلقيه البعير من جوفه يقال له: سُلاح بوزن غُلام، ثم عبر به عن كل عذرة.

﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾ والحذر بفتحتين وبكسر فسكون التحرز والاحتياط، يقال: حذر حذراً وحذراً من باب تعب. ﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: جمع متاع، وجمع الجمع أماتع وأماتيع، والمتاع كل ما ينتفع به من عروض الدنيا كثيرها وقليلها، سوى الفضة والذهب، وكل ما يلبسه الإنسان ويبسطه، وما ينتفع به انتفاعاً قليلاً غير باق بل ينقضي عن قريب، يقال: إنما الحياة الدنيا متاع؛ أي: بلغة يتبلغ به لابقاء له.

﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾: جمع مريض، كقتلى جمع قتيل، وجرحى جمع جريح. ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾: اسم فاعل من أهان يهين إهانة - نظير أعان - إذا أذله، فهو مهين وذاك مهان. ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ جمع قائم وقاعد، ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾: الهمزة فيه أصلية، ووزن الكلمة افعلل، والمصدر الطمأنينة كالقشعريرة، والاطمئنان كالاقشعرار، والطمأنينة سكون النفس من الخوف، وأما قولهم طامن رأسه فأصل آخر. ﴿مَّوْقُوتًا﴾: مفعول من وقت بالتخفيف، كمضروب من ضرب، ولم يقل موقوتة بالتاء مراعاة لكتاباً، فإنه في الأصل مصدر.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾: يقال وهن يهن من باب وعد، وهنا يقال وهنه إذا أضعفه، ووَهُنَ يَوْهُن وهناً بإسكان العين، ووهناً بالتحريك، من باب فعل المضموم، إذا ضعف في الأمر أو العمل أو البدن، ويقال: وَهِنَ يَهِن بكسر العين في الماضي والمضارع وَهْناً ووَهَناً، ووَهِنَ ويَوْهَن على وزن وَجِلَ يَوْجَل، وهنا بالتحريك بمعنى: وهن بضم العين. ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾: ويقرأ ﴿تيلمون﴾ بكسر التاء وقلب

الهمزة ياء، وهي لغة تميم. ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾: الهمزة[1] ههنا معدية، والفعل من رأيت الشيء إذا ذهبت إليه، وهو من الرأي، وهو متعد إلى مفعول واحد، وبعد الهمزة يتعدى إلى مفعولين، أحدهما الكاف، والآخر محذوف؛ أي: أراكه، وقيل المعنى: علمك، وهو متعد إلى مفعولين، وهو قبل التشديد متعد إلى واحد، كقوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾، ﴿لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾: فعيل بمعنى مفاعل؛ أي: مخاصماً لهم واللام على بابها؛ أي: لأجل الخائنين، وقيل: هي بمعنى عن وليس بشيء، لصحة المعنى بدون ذلك، ومفعول ﴿خَصِيمٗا﴾ محذوف، تقديره: خصيماً البريء، ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾: المجادلة أشد المخاصمة، ﴿خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾: هما صيغتا مبالغة؛ أي: كثير الخيانة والإثم ﴿وَكِيلٗا﴾ الوكيل هو الذي يوكل إليه الأمر في الحفظ والحماية ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ استفعل من الاستغفار، والاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى، مع الشعور بقبح الذنب والتوبة منه، ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ﴾: الكسب هو ما يجر منفعة أو يدفع مضرة، ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ﴾: ولولا ضابطها هي كلمة موضوعة للدلالة على امتناع وجود مضمون الجواب لوجود مضمون الشرط.

البلاغة

وتضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع[2]:

منها: الاستعارة في قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿فَيَمِيلُونَ﴾ استعار الميل للحرب.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿جُنَاحٌ﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ لاختلاف متعلقهما، وفي قوله: ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ ﴿وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ﴾، وفي الحذر والأسلحة، و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، و﴿تَأۡلَمُونَ﴾، وفي اسم ﴿ٱللَّهِ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ﴾ وفي قوله: ﴿كَفَرُوٓاْ

---

(١) العكبري.
(٢) البحر المحيط.

إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ و﴿تختانون﴾ و﴿خَوَّانًا﴾ و﴿يَسْتَغْفِرِ﴾ و﴿غَفُورًا﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿فَأَقَمْتَ﴾ ﴿فَلْتَقُمْ﴾، وفي قوله: ﴿لَمْ يُصَلُّوا۟﴾ ﴿فَلْيُصَلُّوا۟﴾، وفي قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ﴾، وفي قوله: ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ﴾، وفي قوله: ﴿يَكْسِبْ﴾ و﴿يَكْسِبْ﴾، وفي قوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿تَعْلَمُ﴾.

ومنها: العام يراد به الخاص في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهره العموم، وأجمعوا على أن المراد بها صلاة الخوف خاصة؛ لأن السياق يدل على ذلك، ولذلك كانت أل فيه للعهد انتهى. وإذا كانت أل للعهد.. فليس من باب العام المراد به الخاص؛ لأن أل للعموم وأل للعهد، فهما قسيمان، فإذا استعمل لأحد القسيمين.. فليس موضوعاً للآخر.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

ومنها: خطاب عين ويراد به غيره في قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ فإنه ﷺ محروس بالعصمة عن أن يخاصم عن المبطلين.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ للإنكار عليهم، والتغليظ لقبح فعلهم؛ لأن حياء الإنسان ممن يصحبه أكثر من حيائه وحده، وأصل المعية في الإجرام، والله تعالى منزه عن ذلك، فهو مع عبده بالعلم والإحاطة.

ومنها: إطلاق وصف الإجرام على المعاني في قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ
بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ
ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ
وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ
بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا
مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ
وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ
بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ
أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها ظاهرة؛ لأنه لا يزال الحديث[1] في الذين يختانون أنفسهم، ويستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، وهم طعمة بن أبيرق ومن أراد مساعدته من بني جلدته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ....﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما

(١) المراغي.

أنزل قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ في شأن طعمة بن أبيرق سارق الدرع، ورميه اليهودي بسرقته، وأنزل أيضاً قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ...﴾ إلخ، في ارتداده عن الدين، ولحوقه بالمشركين.. ذكر هنا أنه لو لم يرتد لم يكن محروماً من رحمة الله، ولكنه بارتداده صار بينه وبين رحمته حجاب أيما حجاب، فإن كل ذنب يجوز أن يغفره الله للناس إلا ذنب الشرك، فإن صاحبه مطرود من عفوه ورحمته.

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما بين في الآيات السالفة أن الشيطان يعدهم ويمنيهم، ويدخل في تلك الأماني ما كان يمنيه أهل الكتاب، من الغرور بدينهم، إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص، ويقولون إنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، وقد سرى لهم هذا الغرور من اتكالهم على الشفاعات، وزعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء، فهم يدخلون الجنة بكرامتهم لا بأعمالهم.. حذرنا هنا في هذه الآيات الكريمات أن نكون مثلهم، وكانت هذه الأماني قد دبت إلى المسلمين في عصر النبي ﷺ، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ...﴾ الآية، فلضعفاء الإيمان من المسلمين في الصدر الأول ولأمثالهم في كل زمن أنزلت هذه الموعظة، ولو تدبروها لما كان لهذه الأماني عليهم من سلطان.

أسباب النزول

قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ...﴾ الآية، روي في سبب نزولها[2]: أن طعمة بن أبيرق لما رأى أن الله تعالى هتك ستره، وبرأ اليهودي عن تهمة السرقة.. ارتد وذهب إلى مكة، ونقب جدار إنسان لأجل السرقة، فتهدم الجدار عليه ومات، فنزلت هذه الآية.

(١) المراغي. (٢) المراح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما روي[1] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن شيخاً من العرب جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني شيخ منهمك في الذنوب، إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به، ولم أتخذ من دونه ولياً، ولم أواقع المعاصي جراءة على الله تعالى، وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله هرباً، وإني لنادم تائب مستغفر، فما ترى حالي عند الله تعالى، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قالت اليهود والنصارى: لا يدخل الجنة غيرنا، وقالت قريش: إنا لا نبعث، فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وأخرج ابن جرير عن مسروق قال[3]: تفاخر النصارى وأهل الإسلام، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم، وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وأخرج نحوه عن قتادة والضحاك والسدي وأبي صالح، ولفظهم: تفاخر أهل الأديان، وفي لفظ: جلس ناس من اليهود، وناس من النصارى، وناس من المسلمين، فقال هؤلاء: نحن أفضل، وقال هؤلاء: نحن أفضل، فنزلت. وأخرج أيضاً عن مسروق قال: لما نزلت ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.. قال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَّا خَيْرَ﴾: ولا ثواب، ﴿فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: في كثير من نجوى الناس بعضهم لبعض ومحادثتهم معاً، أو لا خير في نجوى أولئك الذين

---

(١) المراح.

(٢) لباب النقول.

(٣) لباب النقول.

يسرون الحديث من غيرهم، من جماعة طعمة الذين أرادوا مساعدته على اتهام اليهودي وبهته، والنجوى هي المحادثة من بعض القوم لبعض، اثنين فما فوق، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ. . .﴾ الآية، فهي ضد السر، وهو محادثة الإنسان نفسه. ﴿إِلَّا﴾: في نجوى ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ واجبة أو مندوبة، ﴿أَوْ﴾ نجوى من أمر بـ﴿مَعْرُوفٍ﴾ وهو كل[1] ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل، فينتظم فيه أصناف الجميل، وفنون أعمال البر، كالكلمة الطيبة، وإغاثة الملهوف، والقرض، وإعانة المحتاج، فهو أعم من الصدقة، فيكون قوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ﴾ من عطف الخاص على العام. ﴿أَوْ﴾ نجوى من أمر بـ﴿إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ عند وقوع المشاحنة والمعاداة بينهم، من غير مجاوزة حدود الشرع في ذلك.

والحكمة في تخصيص هذه الثلاثة بالذكر[2]: أن عمل الخير المتعدي للناس، إما إيصال منفعة، أو دفع مضرة، المنفعة إما جسمانية وإليها الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، وإما روحانية وإليها الإشارة بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، ودفع المضرة أشير إليه بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، وإنما قال[3]: ﴿فِي كَثِيرٍ﴾ لأن من النجوى ما يكون في الشؤون الخاصة، كالزراعة والتجارة مثلاً، فلا توصف بالشر، ولا مقصودة من الخير، وإنما المراد بالنجوى الكثيرة المنفي عنها الخير هي النجوى في شؤون الناس، ومن ثم استثنى منها الأشياء الثلاثة التي هي جماع الخير للناس. والكتاب الحكيم يجعل النجوى مظنة الإثم والشر، ومن ثم خاطب الله المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. والسر في كون النجوى مظنة الشر في الأكثر أن العادة قد جرت بحب إظهار الخير، والتحدث به في الملأ، وأن الشر والإثم هو الذي يذكر في السر والنجوى، وفي الأثر: «الإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس». وقد استثنى الله سبحانه وتعالى من النجوى التي لا خير في أكثرها أموراً ثلاثة؛ لأن خيريتها أو

---

(١) الفتوحات.
(٢) أبو السعود.
(٣) المراغي.

كمالها تتوقف على الكتمان، وجعل التعاون عليها سراً والحديث فيها نجوى.

فالصدقة وهي من الخير قد يؤذي إظهارها المتصدَّق عليه، ويضع من كرامته، ومن ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ وقد يكون الجهر بالأمر بها والحث عليها أشد إيذاء وإهانة من إيتاءه إياها جهراً، ولو مع الإخلاص وابتغاء مرضاة الله تعالى.

وكذلك الأمر بالمعروف على مسمع من الناس، فكثيراً ما يستاء منه المأمور به، ولا سيما إذا كان الآمر من أقرانه، لأنه يرى في أمره إياه استعلاء عليه بالعلم والفضل، واتهاماً له بالتقصير أو الجهل، فمن ثم كانت النجوى به أبعد عن الإيذاء، ومثله الإصلاح بين الناس، فإنه ربما ترتب على إظهاره والتحدث به كثير من الشر، ألا ترى أن بعض الناس إذا علم أن ما يطالَب به من الصلح كان بأمر فلان من الناس.. لا يستجيب ولا يقبل، أو يصده عن الرضا به ذكره بين الناس، وعلمه بأنه كان بسعي وتواطؤ. أخرج البيهقي عن أبي أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم»، فقال: بلى يا رسول الله، قال: «تصلح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا»، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين»، وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»، قالوا بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وأن فساد ذات البين هي الحالقة» أخرجه الترمذي وأبو داود، وقال الترمذي: ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدِّين».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله ﷺ، فقال: «إذهبوا بنا نصلح بينهم». رواه البخاري.

وعن أم مكتوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين اثنين»، أو قال: «بين

الناس، فيقول خيراً أو ينمي خيراً» متفق عليه، زاد مسلم في رواية له قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس، إلا في ثلاث: يعني الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل زوجته، وحديث المرأة زوجها.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمور الثلاثة: الصدقة والمعروف والإصلاح؛ أي: فعل واحداً من هذه الثلاثة أو كلها؛ لأنه لما ذكر أولاً أن الخير في مَنْ أمر.. ذكر هنا ثواب من فعل، ويحتمل كون المعنى: ومن يفعل ذلك المذكور من الأمر بواحد من هذه الثلاثة فكأنه قال: ومن يأمر بذلك المذكور ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾؛ أي: لأجل طلب رضوان الله سبحانه وتعالى، لا لغرض دنيوي، كالرياء والسمعة والمحمدة.. ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾؛ أي: فسوف يعطي الله سبحانه وتعالى ذلك الفاعل في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جسيماً وأجراً جزيلاً، جزاء على عمله ذلك، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن المطلوب من الأعمال الظاهرة رعاية أحوال القلب في إخلاص النية، وتصفية القلب عن داعية الالتفات إلى غرض سوى رضوان الله تعالى.

والخلاصة: أن ابتغاء مرضاة الله تعالى إنما يكون بالإخلاص، وعدم إرادة السمعة والرياء، كما يفعل المتأخرون من الأغنياء والدول، خصوصاً في هذا العصر الفاسد أهله، تصدقنا كذا وكذا، ومنحنا كذا وكذا، وساعدنا كذا وكذا، وبنينا المساجد والقناطر كذا وكذا، وأنفقنا في كذا من الخيرات ملايين كذا وكذا، فهؤلاء إنما يبتغون الربح بما يبذلون أو يعملون، لا مرضاة الله تعالى، ولذلك يشق عليهم أن يكون عملهم خفياً، وأن يخلصوا في الحديث عنه نجياً؛ لأن الاستفادة منه بجذب القلوب إليهم، وتسخير الناس لخدمتهم، ورفعهم لمكانتهم، إنما تكون بإظهاره لهم، ليتعلق الرجاء فيهم. وقرأ أبو عمرو وحمزة[1]: ﴿يؤتيه﴾ بالياء، والباقون بالنون، على سبيل الالتفات، ليناسب ما بعده من قوله: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ﴾ فيكون إسناد الثواب والعقاب إلى ضمير المتكلم العظيم، وهو أولى من إسناده إلى ضمير الغائب، ومن قرأ بالياء..

---

(١) البحر المحيط.

لاحظ الاسم الغائب في قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

وبعد أن وعد اللّه سبحانه وتعالى بالجزاء الحسن لمن فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى، أوعد الذين يتناجون بالشر، ويبيتون ما يكيدون به للناس فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ؛ أي: يخالفه بارتداده عن الإسلام، وإظهار عداوته له، كطعمة بن أبيرق، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: من بعد ما ظهرت له الهداية على لسان الرسول، وقامت عليه الحجة ﴿وَيَتَّبِعْ﴾ سبيلاً ﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: غير سبيل الموحدين. . ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: نجعله والياً لما تولى من الضلال، ومباشراً له، ونخلي بينه وبين ما اختاره، ونتركه وما اختاره لنفسه في الدنيا، ونكله إلى ما توكل إليه، ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وندخله في الأخرة نار جهنم فيحترق فيها، ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾؛ أي: قبحت جهنم مرجعاً له، والمخصوص بالذم هي. وقرىء[1]: ﴿ونصله﴾ بفتح النون، من صلاه، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿يوله﴾ و﴿يصله﴾ بالياء فيهما، جرياً على قوله: ﴿فسوف يؤتيه﴾ بالياء، وفي هاء ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿نصله﴾ الإشباع والاختلاس والإسكان.

وفي هذه الآية[2]: بيان لسنة الله في عمل الإنسان، وإيضاح لما أوتيه من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار، فالوجهة التي يتولاها ويختارها لنفسه يوليه الله إياها؛ أي: يجعله والياً لها، وسائراً على طريقها، فلا يجد من القدرة الإلهية ما يجبره على ترك ما اختاره لنفسه، بحسب الاستعداد والإدراك وعمل ما يرى أنه خير له وأنفع في عاجله أو آجله، أو فيهما معاً، ثم ندخله جهنم ونعذبه أشد العذاب؛ لأنه استحب العمى على الهدى، وعاند الحق، واتبع الهوى، وما أقبحها عاقبة لمن تفكر وتدبر، وقد اشترط في هذا الوعيد أن يتبين له الهدى، أما من لم يتبين له فلا يدخل فيه، وهم أصناف:

فمنهم: من نظر في الدليل ولم يظهر له الحق، وبقي متوجهاً إلى طلبه

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

بتكرار النظر والاستدلال مع الإخلاص، وهذا معذور غير مؤاخذ، ومنهم: من لم تبلغه الدعوة الإسلامية، أو بلغته مشوهة معكوسة ككثير من أهل أوروبا في العصر الحاضر، وحال هؤلاء كحال من سبقهم، ومنهم: من اتبع الهدى تقليداً لمن يثق به كآبائه وخاصة أهله، وهذا لم يتبين له الهدى، ولذلك يتركه إلى كل ما يقره عليه أهله ورؤساؤه من البدع والضلالات والخرافات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: لا يغفر البتة لأحد أشرك به سواه، إذا مات على الشرك ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: وإنه قد يغفر لمن يشاء من المذنبين، ما دون الشرك من الذنوب، فلا يعذبهم عليه، ذاك أن الشرك هو منتهى فساد الأرواح، وضلال العقول، فكل خير يلابسه لا يقوى على إضعاف مفاسده وأثامه، والعروج بها إلى جوار ربها، إذ أنها تكون موزعة بين شركاء يحولون بينها وبين الخلوص إليه عز وجل، والله لا يقبل إلا ما كان خالصاً له.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى شيئاً فيدعوه معه، ويذكر اسمه مع اسمه، أو يدعوه وحده، ملاحظاً أنه يقربه إليه زلفى.. ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن القصد، وبعد عن سبيل الرشد ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ في سبيل الغواية، لأنه ضلال يفسد العقل، ويكدر صفاء الروح، ويجعله يخضع لعبد مثله، ويخضع أمام مخلوق يحاكيه، ويكون عبداً للخرافات والأوهام، أما من لم يشرك بالله.. لم يكن ضلاله بعيداً، فلا يصير محروماً عن الرحمة.

وخلاصة ما تقدم[(١)]:

١ ـ أن الشرك في العبادة الذي يتجلى في الدعاء هو أقوى أنواع الشرك؛ لأنه يكون باعتقاد ناشىء عن وجدان حاكم على النفس مستعبد لها.

٢ ـ أن الجزاء في الآخرة يكون تابعاً لما تكون عليه النفس في الدنيا، من سلامة العقيدة، ومقدار درجة الفضيلة التي يلازمها فعل الخيرات، أو فساد

(١) المراغي.

الفطرة، وخطأ العقيدة، والتدنس بالرذيلة التي يلازمها فعل السيئات.

٣ ـ أن الناس متفاوتون فيما بين ذلك من درجات ودركات، أخسها الشرك، وأعلاها التوحيد، ولكل منهم صفات تناسبها، فلو جاز أن يغفر الشرك، ويجعل صاحبه مع النبيين والصديقين والملائكة المقربين.. لكان ذلك نقضاً لسنة الله التي لا تبديل فيها ولا تغيير.

واعلم: أنه قد تقدم نص هذه الآية بعينها في غرض آخر من هذه السورة، وأعادها هنا مرة أخرى للتأكيد، ولتكون راسخة في نفوس السامعين، لأنه إنما ترجى الهداية والموعظة بإبراز المعاني التي يراد إيداعها في نفوس السامعين في كل سياق يقصد فيه توجيها إليها، وإعدادها لقبولها، ولن يتم ذلك إلا بتكرار المقاصد الأساسية، فالذين عرفوا سنن الاجتماع، وفهموا طبائع البشر وأخلاقهم، يكررون في خطبهم ومقالاتهم أغراضهم ومقاصدهم التي ينشرونها في الصحف والكتب، فإن الذهن إذا تكرر عليه مدح الشيء أو ذمه.. أثر فيه، إلا أن[1] آخر ما تقدم: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وآخر هذه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، ختمت كل آية بما يناسبها، فتلك كانت في أهل الكتاب، وهم مطلعون من كتبهم على ما لا يشكون في صحته من أمر الرسول ﷺ، ووجوب اتباع شريعته، ونسخها لجميع الشرائع، ومع ذلك فقد أشركوا بالله، مع أن عندهم ما يدل على توحيد الله، والإيمان بما نزل، فصار ذلك افتراءً واختلاقاً مبالغاً في العظم والجرأة على الله، وهذه الآية في ناس مشركين، ليسوا بأهل كتب ولا علوم، ومع ذلك فقد جاءهم الهدى من الله، وبان لهم طريق الرشد، فأشركوا بالله، فضلوا بذلك ضلالاً يستبعد وقوعه، أو يبعد عنه الصواب، ولذلك جاء بعده: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ وجاء بعد تلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، وقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد بهم اليهود، وإن كان اللفظ عاماً، ولما كان الشرك أعظم

---

(١) النهر.

الكبائر. كان الضلال الناشىء عنه بعيداً عن الصواب، لأن غيره من المعاصي وإن كان ضلالاً لكنه قريب من أن يراجع صاحبه الحق؛ لأن له رأس مال يرجع إليه وهو التوحيد، بخلاف المشرك، ولذلك قال تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ وناسب هنا أيضاً ذكر الضلال لتقدم الهدى قبله، ذكره أبو حيان في «النهر».

ثم بين الله تعالى كون الشرك ضلالاً بعيداً فقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾؛ أي: ما يعبد هؤلاء المشركون[١] من أهل مكة وغيرهم إلا أوثاناً يسمونها باسم الإناث، كقولهم: اللات والعزى ومناة، واللات تأنيث الله، والعزى تأنيث العزيز، ومناة تأنيث المنان، أو لأنهم يزينونها على هيئات النسوان. أو المعنى[٢]: هؤلاء المشركون لا يدعون لقضاء حاجتهم وتفريج كربهم إلا أمواتاً، فقد كانوا يعظمون الموتى ويدعونها، كما يفعل ذلك كثير من أهل الكتاب أو إلا إناثاً كاللات والعزى، وقد كان لكل قبيلة صنم يسمونه أنثى بني فلان.

وقرأ أبو رجاء[٣]: ﴿إن تدعون﴾ بالتاء على الخطاب، ورويت عن عاصم. وفي مصحف عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ﴿إلا أوثاناً﴾ جمع وثن وهو الصنم، وقرأ بذلك أبو السوار والهنائي، وقرأ الحسن: ﴿إلا أنثى﴾ على التوحيد، وقرأ ابن عباس وأبو حيوة والحسن وعطاء وأبو العالية وأبو نهيك ومعاذ القاريء: ﴿أُنثاً﴾ جمع أنيث كغرير وغرر، والأنيث: المخنث الضعيف من الرجال، وقرأ سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأبو المتوكل وأبو الجوزاء: ﴿إلا وثناً﴾ بفتح الواو والثاء من غير همزة، وقرأ ابن المسيب ومسلم بن جندب، ورويت عن ابن عباس وابن عمر وعطاء: ﴿إلا أنثاً﴾ يريدون وَثَناً، وقرأ أبو أيوب السجستاني: ﴿إلا وثناً﴾ بضم الواو والثاء من غير همزة كشُقُق، وقرأت فرقة:

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

﴿إلا أثناً﴾ بسكون المثلثة، وأصله وثناً، فاجتمع في هذا اللفظ ثمان قراءات ﴿إناثاً﴾ و﴿أنثى﴾ و﴿أنثاً﴾ و﴿أوثاناً﴾ و﴿وَثَناً﴾ و﴿أَثَنَاً﴾ و﴿أُثُناً﴾.

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾؛ أي: وما يعبدون بعبادتها إلا شيطاناً، شديد التمرد والبعد عن طاعة الله، إذ هو الذي أمرهم بعبادتها، وأغراهم بها، فكانت طاعتهم له في ذلك عبادةً له، ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: طرده الله عن كل خير، وأبعده عن رحمته وفضله، فإنه داعية كل شر وباطل في نفس الإنسان، بما يوسوس في صدره ويعده ويمنيه ﴿وَقَالَ﴾؛ أي: الشيطان عندما لعنه الله تعالى: وعزتك ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾؛ أي: لأجعلن لنفسي من عبادك حظاً مقدراً معيناً، وهم الذين يتبعون خطوات الشيطان ويقبلون وساوسه، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كل ألف واحد لله، وسائره للناس ولإبليس». وقيل: النصيب المفروض هو ما للشيطان في نفس كل أحد من الاستعداد للشر، إذ ما من إنسان إلا يشعر من نفسه بوسوسة الشيطان، فإن لم يكن بالشرك فبالمعصية والإصرار عليها، أو الرياء في العبادة، لكن الله أخبر أنه ليس له سلطان على عباده المخلصين، وقد جاء في القرآن والحديث ما يدل على هذا.

والخلاصة: أن الشيطان خلق متمرداً على الحق، بعيداً من الخير، مغرى بإغواء البشر وإضلالهم.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن طريق الهدى، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾؛ أي: ولألقين في قلوبهم الأماني الكاذبة، وهي تورث شيئين: الحرص والأمل، وهما يستلزمان أكثر الأخلاق الذميمة، ويلازمان للإنسان، وفي الحديث: «يهرم ابن آدم ويشبُّ معه اثنان: الحرص والأمل». فالحرص يستلزم ركوب الأهوال، فإذا اشتد حرصه على الشيء.. فقد لا يقدر على تحصيله إلا بمعصية الله وإيذاء الخلق، وإذا طال أمله.. نسي الآخرة، وصار غريقاً في الدنيا، فلا يكاد يقدم على التوبة، ولا يكاد يؤثر فيه الوعظ، فيصير قلبه كالحجارة أو أشد قسوة.

وقيل: إضلال الشيطان لمن يضلهم هو صرفهم عن العقائد الصحيحة،

وشغلهم عن الدلائل الموصلة إلى الحق والهدى، وتمنيته لهم تزيينه لهم الاستعجال باللذات الحاضرة، والتسويف بالتوبة والعمل الصالح.

والخلاصة: أن من شأن الشيطان ومقتضى طبعه: إضلال العباد، وشغلهم بالأماني الباطلة، كرحمة الله للمجرمين بغير توبة، والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة، وتزيين لذات الحياة العاجلة على ثواب الآجلة ونعيمها.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ بالتبتيك؛ أي: شق آذان الناقة ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾؛ أي: فليقطعن ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ويشقونها بموجب أمري لهم، والمراد به: ما كانوا يفعلونه من قطع آذان بعض الأنعام لأصنامهم، كالبحائر التي كانوا يقطعون آذانها أو يشقونها شقاً واسعاً، ويتركون الحمل عليها إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وهذا من سخيف أعمالهم الوثنية الدالة على ضعف عقولهم، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ بتغيير خلق الله، ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ صورة أو صفة، بموجب أمري لهم، كخصاء العبيد، وفقء العيون، وقطع الآذان، والوشم والوشر، ووصل الشعر، فإن المرأة تتوصل بهذه الأفعال إلى الزنا، وكانت العرب إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً.. عوَّروا عين فحلها، ويدخل في هذه الآية التخنث والسحاقات، لأن التخنث عبارة عن تشبه الذكر بالأنثى، والسحق عبارة عن تشبه المرأة بالذكر، وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقاً، لكن الفقهاء رخصوا في البهائم للحاجة، فيجوز في المأكول الصغير، ويحرم في غيره، وأما خصاء بني آدم فحرام.

وقال الشوكاني[1]: واختلف العلماء في هذا التغيير ما هو، فقالت طائفة: هو الخصاء، وفقء الأعين، وقطع الآذان، وقال آخرون: إن المراد بهذا التغيير هو: أن الله سبحانه وتعالى خلق الشمس والقمر والأحجار والنار ونحوها من المخلوقات لما خلقها له، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة، وبه قال الزجاج، وقيل: المراد بهذا التغيير، تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور، حملاً شمولياً أو بدلياً، انتهى.

---

(١) فتح القدير.

وعلى هذا القول الأخير فالمراد[1] بخلْق الله دينَه لأنه دين الفطرة، وهي الخلقة قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: إنه يراد به تغيير الفطرة الإنسانية عما فطرت عليه، من الميل إلى النظر والاستدلال، وطلب الحق، وتربيتها، وتعويدها الأباطيل والرذائل والمنكرات، فالله قد أحسن كل شيء خلقه، وهؤلاء يفسدون ما خلق الله، ويطمسون عقول الناس.

والخلاصة: أن الدين الفطري الذي هو من خلق الله وآثار قدرته ليس هو مجموع الأحكام التي جاء بها الرسل ليبلغوها للناس، بل هو ما أودعه في فطرة البشر من توحيده والاعتراف بقدرته وجلاله، وهو ما أشار إليه في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة».

ومن أهم أسس هذا الدين: فطرية العبودية للسلطة الغيبية، التي تنتهي إليها الأسباب، وتقف دون الوصول إلى حقيقتها العقول، وقرأ أبو عمرو[2]: ﴿ولأمرنهم﴾ بغير ألف كذا قاله ابن عطية، وقرأ أبي: ﴿وأضلنهم وأمنينهم وآمرنهم﴾ وتكون جملاً مقولة، لا مقسماً عليها.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن يجعل الشيطان المطرود ولياً وناصراً له متولياً عليه، أو يجعله رباً يطيعه من دون الله، ويتبع وسوسته وإغواءه، وهو البعيد من أسباب رحمة الله وفضله.. ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾؛ أي: خسراناً ظاهراً في الدنيا والآخرة، بتضييع رأس ماله وهو الدين الفطري، وذلك لأن طاعة الله تفيد المنافع العظيمة الدائمة، وطاعة الشيطان تفيد المنافع القليلة المنقطعة، ويعقبها العذاب الأليم؛ إذ أنه يكون أسير الأوهام والخرافات يتخبط في عمله على غير هدى، ويفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل والمواهب الكسبية التي أوتيها الإنسان وميز بها من بين أصناف الحيوان، ﴿يَعِدُهُمْ﴾؛ أي: يعد الشيطان الناس الفقر إذا هم أنفقوا شيئاً

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

من أموالهم في سبيل الله، ويوسوس لهم بأن أموالهم تنفد أو تقل، ويصبحون فقراء أذلاء، ويعدهم الغنى والثروة حين الإغراء بالقمار، ويعد من يغريه بالتعصب لرأيه وإيذاء مخالفه فيه من أهل دينه للجاه والشهرة وبعد الصيت ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾؛ أي: يلقي في قلوبهم أنه ستطول أعمارهم، وينالون من الدنيا آمالهم ومقاصدهم، ويوقع في قلوبهم أن الدنيا دول، فربما تيسرت لهم كما تيسرت لغيرهم، ويعدهم أيضاً بأن لا قيامة ولا جزاء، فاجتهدوا في استيفاء اللذات الدنيوية.

ويدخل في وعد الشيطان وتمنيته ما يكون من أوليائه من الإنس، وهم قرناء السوء، الذين يزينون للناس الضلال والمعاصي، ويمدونهم في الطغيان، وينشرون مذاهبهم الفاسدة، وآراءهم الضالة التي يبتغون بها الرفعة والجاه والمال، وهؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: وما يعدهم الشيطان إلا باطلاً يغترون به، ولا يملكون منه ما يحبون، فيزين لهم النفع في بعض الأشياء، وهي مشتملة على كثير من الآلام والمضار، فالزاني أو المقامر أو شارب الخمر يخيل إليه أنه يتمتع باللذات، بينما هو في الحقيقة يتمتع بلذائذ وقتية، تعقبها آلام دنيوية طويلة المدى وخيمة العواقب، إلى عذاب أخروي لا يعلم كنهه إلا من أحاط بكل شيء علماً. وقرأ الأعمش: ﴿وما يعدهم﴾ بسكون الدال، خفف لتوالي الحركات.

وبعد أن بين حال أولياء الشيطان.. ذكر عاقبتهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يعبث بهم الشيطان بوسوسته، أو بإغواء دعاة الباطل من أوليائه ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: مسكنهم ومنازلهم في الآخرة ومرجعهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا﴾؛ أي: عن جهنم ﴿مَحِيصًا﴾؛ أي: معدلاً ومهرباً يفرون إليه، إذ هم بطبيعتهم ينجذبون إليها، ويتهافتون عليها تهافت الفراش على النار، فتصلى وجوههم وجنوبهم وظهورهم. ثم بعدئذ ذكر عاقبة من لا يستجيب دعوة الشيطان وأولياءه، ولا يصيخ لأمره ونهيه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: وامتثلوا المأمورات واجتنبوا المنهيات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛

أي: بساتين ﴿تَجْرِي﴾؛ أي: تسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من الماء واللبن والخمر والعسل، حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: ماكثين ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك الجنات ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: أمداً لا نهاية له ولا انقضاء، لا يموتون ولا يخرجون منها، وذلك هو الفوز العظيم لمن سمت نفسه عن دنس الشرك، فلم تجعل للَّهِ أنداداً، ولم تحط بها الخطيئة في صباحها ومسائها، في غدوها ورواحها، وقرىء: ﴿سيدخلهم﴾ بالياء.

ولما ذكر أن وعد الشيطان هو غرور باطل.. ذكر أن هذا الوعد منه تعالى هو الحق الذي لا ارتياب فيه، ولا شك في إنجازه فقال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وعدهم الله تعالى بذلك الإدخال وعداً لا خلف فيه، وحق ذلك الإدخال، ﴿حَقًّا﴾ فالأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾؛ أي: لا أحد أصدق من الله قولاً فيما وعده لعباده الصالحين، وهذا توكيد ثالث، وفائدة هذه التوكيدات: معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة، وترغيب العباد في تحصيل ما وعده الله تعالى.

والمعنى: ذلك الذي وعدكم الله به هو الوعد الحق، فهو القادر على أن يعطي ما وعد بفضله وجوده وواسع كرمه ورحمته، وأما وعد الشيطان فهو غرور من القول وزور، إذ هو عاجز عن الوفاء، فهو يدلي إلى أوليائه بباطله، فحقه أن لا يستجاب له أمر ولا نهي، ولا تتبع له نصيحة، فوساوسه أباطيل وسراب بقيعة، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

﴿لَّيْسَ﴾ الثواب الذي تقدم الوعد به في قوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حاصلاً ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾؛ أي: بتمنياتكم يا معشر المؤمنين أن يغفر لكم وإن ارتكبتم الكبائر؛ أي: فإنكم تمنيتم أن لا تؤاخذوا بسوء بعد الإيمان ﴿وَلَآ﴾ حاصلاً بـ﴿أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: بتمنيات اليهود والنصارى، فإنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ فلا يعذبنا، وقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وليس الأمر كذلك، فإنه تعالى يخص بالعفو أو الرحمة من يشاء؛ أي: ليس يستحق

ذلك الثواب بالأماني، وإنما يستحق بالإيمان والعمل الصالح. أو المعنى: ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاة أهله به حاصلاً بأن يقول القائل منهم إن ديني أفضل وأكمل، بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه، فإن الجزاء إنما يكون على العمل، لا على التمني والغرور، فليس أمر نجاتكم ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطاً بالأماني في الدين، فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهي، ولا تحصل فائدتها بالانتساب إليها دون العمل بها.

وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة بن نصاح، والحكم، والأعرج: ﴿بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ بتخفيف الياء ساكنة، جمعاً على فعالل، كما يقال: قراقر وقراقير في جمع قرقور ـ بوزن عصفور ـ: السفينة الطويلة.

ثم أكد ذلك وبينه بقوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا﴾ ويرتكب ذنباً أيَّ ذنب كان، سواء كان مؤمناً أم كافراً ﴿يُجۡزَ بِهِۦ﴾؛ أي: يجازى بذلك الذنب الذي ارتكبه، فالمؤمن يجزى عند عدم التوبة، إما في الدنيا بالمصيبة، أو بعد الموت قبل دخول الجنة، أو بإحباط ثواب طاعته بمقدار عقاب تلك المعصية، والكافر يجزى بالمحن والبلاء في الدنيا وفي الآخرة دائماً، فعلى الصادق في دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله، ويجعل ذلك المعيار في سعادته، لا أن يجعل تكأته أن هذا الكتاب أكمل، ولا أن ذلك الرسول أفضل.

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ شق ذلك على المسلمين، وبلغت منهم مبلغاً شديداً، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «سددوا وقاربوا، فإن في كل ما أصاب المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها»، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة، ومن ثم يرى عامة العلماء الأمراض والأسقام ومصايب الدنيا وهمومها يكفر الله بها الخطايا.

﴿وَلَا يَجِدۡ﴾ الذي يعمل السوء، ويستحق العقاب عليه ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لنفسه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَلِيّٗا﴾ غير الله يتولى أمره، ويدفع الجزاء عنه، ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصره، وينقذه مما يحل به، لا من الأنبياء الذين تفاخر بهم، ولا

من غيرهم من المخلوقات التي اتخذها بعض البشر آلهة وأرباباً من دون اللّٰه، فكل تلك الأماني تكون أضغاث أحلام، وإنما يكون المدار في ذلك على الإيمان والأعمال، وأما شفاعة الأنبياء والملائكة في حق العصاة فإنما تكون بإذن الله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك.. فلا وليَّ لأحد ولا نصير لأحد إلا الله تعالى.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يَجِدْ﴾ بالجزم عطفاً على الجزاء، وروى ابن بكار عن ابن عامر: ﴿ولا يجدُ﴾ بالرفع على الاستئناف.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: بعضها[1]، حالة كونه ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ أو خنثى، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: وحالة كونه مؤمناً، فالحال الأولى لبيان من يعمل، والحال الثانية لإفادة اشتراط الإيمان في كل عمل صالح، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ العاملون المتصفون بالإيمان ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ جزاءً على عملهم الصالح، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾؛ أي: ولا ينقصون من جزاء أعمالهم الصالحة شيئاً قليلاً ولا كثيراً، ولو قدر نقرة النواة.

ويستفاد من الآية: أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة، وأما النعم التي يعطاها المؤمن في الدنيا من عافية ورزق وغير ذلك، فليست جزاء لأعماله الصالحة، بل تكفل الله بها لكل حي في الدنيا مسلماً أو كافراً، وإذا لم[2] ينقص ثواب المطيع، فلأن لا يزاد عقاب العاصي أولى وأحرى، كيف لا والمجازي أرحم الراحمين، وهو السر في الاقتصار على ذكره عقيب الثواب.

ومعنى الآية: أي ومن[3] يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس، في أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية، سواء كان العامل ذكراً أو أنثى، وهو مطمئن القلب بالإيمان.. فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة، بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم، ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئاً، ولو حقيراً كالنقير.

---

(١) الشوكاني والمراح.
(٢) أبو السعود.
(٣) المراغي.

وفي هذه الآية وما قبلها من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأماني التي يأوي إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين، الذين يظنون أن الله يحابي من يسمي نفسه مسلماً، ويفضله على اليهودي والنصراني لأجل هذا اللقب، فالذين يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم، وحرموا الاهتداء بهديه، هم في ضلال مبين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿يدخلون﴾ بضم حرف المضارعة مبنياً للمفعول هنا، وفي مريم، وفي أولى غافر، وقرأ كذلك ابن كثير وأبو بكر في ثانية غافر، وقرأ كذلك أبو عمرو في فاطر، وقرأ الباقون بفتحها مبنيا للفاعل.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن النجاة والسعادة منوطان بصالح الأعمال مع الإيمان.. أردف ذلك بذكر درجات الكمال فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾؛ أي: لا أحد أحسن ديناً وطريقة ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: نفسه ﴿لِلَّهِ﴾ وعبر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء؛ أي: ممن عرف ربه بقلبه، وأقر بربوبيته وبعبودية نفسه، وجعل قلبه خالصاً لله وحده، فلا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا رجاء، ولا يجعل بينه وبينه حجاباً من الوسطاء والشفعاء، ولا يرى في الوجود إلا هو، ويعتقد أنه سبحانه وتعالى ربط الأسباب بالمسببات، فلا يطلب شيئاً إلا من خزائن رحمته، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها، وهي السنن والأسباب التي سنها في الخلائق، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: والحال أنه آت بالحسنات تارك للسيئات؛ أي: والحال أنه مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل، مُتَحَلٍّ بأحسن الأخلاق والفضائل.

وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه؛ لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس، من إقبال وإعراض وسرور وكآبة، وما فيه هو الذي يدل على ما في السريرة، ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ معطوف على أسلم، وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ إما حال من إبراهيم.

والمعنى: أي واتبع ذلك المسلم الذي أسلم وجهه لله، إبراهيم الخليل عليه السلام في دينه وملته الحنيفية، حالة كون إبراهيم حنيفاً، ومائلاً عن الوثنية وأهلها، ومتبرئاً مما كان عليه أبوه وقومه، إلى الدين الحق، والصراط المستقيم

الذي هو عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ وإما حال من المتبع، والمعنى: حالة كون ذلك المتبع مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، الذي هو ملة إبراهيم.

قال ابن عباس[1]: ومن دين إبراهيم عليه السلام الصلاة إلى الكعبة، والطواف، ومناسك الحج، والختان ونحو ذلك. فإن قلت: ظاهر هذه الآية يقتضي أن شرع محمد ﷺ هو نفس شرع إبراهيم عليه السلام، وعلى هذا لم يكن لمحمد ﷺ شرع يستقل به، وليس الأمر كذلك فما الجواب؟.

قلت: إن شرع إبراهيم وملته داخلان في شرع محمد ﷺ وملته، مع زيادات كثيرة حسنة خص الله بها محمداً ﷺ، فمن اتبع ملة محمد ﷺ.. فقد اتبع ملة إبراهيم؛ لأنها داخلة في ملة محمد ﷺ، وشرع إبراهيم داخل في شرع محمد ﷺ، وإنما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لأن إبراهيم عليه السلام كان يدعو إلى توحيد الله وعبادته، ولهذا خصه بالذكر؛ لأنه كان مقبولاً عند جميع الأمم، فإنَّ العرب كانوا يفتخرون بالانتساب إليه، وكذا اليهود والنصارى، وإذا ثبت هذا، وأن شرعه كان مقبولاً عند الأمم، وأن شرع محمد ﷺ وملته هو شرع إبراهيم وملته.. لزم الخلق عموماً الدخول في دين محمد ﷺ، وقبول شرعه وملته.

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾؛ أي: صفياً بالرسالة والنبوة، محباً له خالص الحب؛ أي: اصطفاه الله سبحانه وتعالى من أهل أرضه بالنبوة والرسالة، لإقامة دينه، وتوحيده في بلاد غلبت عليها الوثنية، وأفسد الشرك عقول أهلها، وقد بلغ من الزلفى عند ربه ما صح به أن يسمى خليلاً وصفياً، فقد اختصه بكرامة ومنزلة تشبه الخليل لدى خليله، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تُتبع ملته وتؤتسى طريقته.

---

(١) الخازن.

والخلاصة: أنه مَنَّ عليه بسلامة الفطرة، وقوة العقل، وصفاء الروح، وكمال المعرفة، وفنائه في التوحيد.

وإنما سمي[1] إبراهيم خليلاً لأنه انقطع إلى الله في كل حال، وقيل: لأنه والى في الله وعادى في الله، وقيل: لأنه تخلق بأخلاق حسنة وخلال كريمة، وقيل: الخليل المحب الذي ليس في محبته خلل، وسمي إبراهيم خليل الله لأنه أحبه محبة كاملة ليس فيها نقص ولا خلل، وأُنشد في معنى الخلة التي هي بمعنى المحبة:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ ٱلرُّوْحِ مِنِّيْ   وَبِهِ سُمِّيَ ٱلْخَلِيْلُ خَلِيْلاَ

ومعنى خلة العبد لربه: جعل فقره وفاقته وحاجته إلى الله تعالى، ومعنى خلة الله للعبد: هي تمكينه من طاعته وعصمته وتوفيقه وستر خلله ونصره والثناء عليه، فقد أثنى الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام، وجعله إماماً للناس يقتدى به.

ثم ذكر ما هو كالعلة لما سبق بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا لغيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً؛ أي: إن كل ما في السموات والأرض ملك له ومن خلقه، مهما اختلفت صفات المخلوقات.. فجميعها مملوكة عابدة له، خاضعة لأمره، يصطفي من يشاء منها بما شاء من كرمه وجوده، لا اعتراض عليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أهل السموات والأرض وغيرهما ﴿مُّحِيطًا﴾ إحاطة قهر وتسخير، وإحاطة علم وتدبير، وإحاطة وجود؛ لأن هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها، ولا هي ابتدعت نفسها، بل وجودها مستمد من ذلك الوجود الأعلى، فالوجود الإلهي هو المحيط بكل موجود، فوجب أن يخلص له الخلق، ويتوجه إليه العباد، فهذه الجملة مقررة لمعنى الجملة التي قبلها؛ أي: أحاط علمه بكل شيء، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد جاءت هذه الآية خاتمة لما تقدم لفوائد:

---

(١) الخازن.

منها: بيان الدليل على أنه المستحق وحده لإسلام الوجه له، والتوجه إليه في كل حال؛ لأنه هو المالك لكل شيء، وغيره لا يملك لنفسه شيئاً.

ومنها: نفي ما يتوهم في اتخاذ إبراهيم خليلاً من أن هناك شيئاً من المقاربة في حقيقة الذات والصفات.

ومنها: التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده في الآيات التي قبلها، إذ من له ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً فهو أكرم من وعد، وفي «الفتوحات»: وهذه الجملة مستأنفة، مقررة لوجوب طاعة الله تعالى، وقيل: لبيان أن اتخاذه لإبراهيم خليلاً ليس لاحتياجه إلى ذلك، كما هو شأن الآدميين، وقيل: لبيان أن الخلة لا تخرج إبراهيم عن رتبة العبودية، وقيل: لبيان أن اصطفائه إبراهيم للخلة بمحض مشيئته تعالى اهـ.

فصل

وقد اتخذ الله تعالى محمداً ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي.. لاتخذت أبا بكر خليلاً».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً.. لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً» أخرجه مسلم، فقد ثبت بهذين الحديثين الخلة للنبي ﷺ، وزاد على إبراهيم عليه السلام بالمحبة، فمحمد ﷺ خليل الله وحبيبه، فقد جاء في الحديث عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر» أخرجه الترمذي بأطول منه.

الإعراب

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

﴿لَّا﴾: نافية عاملة عمل إن، ﴿خَيْرَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿فِي

﴿كَثِيرٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، والجملة مستأنفة، ﴿مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿كَثِيرٍ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ولكنه على حذف مضاف تقديره: إلا نجوى من أمر، أو في محل الجر بدل من ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾، ﴿أَمَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿بِصَدَقَةٍ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ﴾: معطوفان على ﴿صدقة﴾، ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿إِصْلَٰحٍ﴾، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: فعل ومفعول، مجزوم على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله مضاف، ﴿مَرْضَاتِ﴾: مضاف إليه، وهو مضاف، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة تسويفية، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس، ﴿نُؤْتِيهِ﴾: فعل مضارع، ومفعول أول، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ﴿أَجْرًا﴾ وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجزم جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿من يشاقق الرسول﴾: جازم ومجزوم ومفعول، و﴿مَنْ﴾: في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُشَاقِقِ﴾، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض، ﴿لَهُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد تبين الهدى له، ﴿وَيَتَّبِعْ﴾: معطوف على ﴿يُشَاقِقِ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿نُوَلِّهِۦ﴾: فعل ومفعول أول، مجزوم بـ﴿من﴾

على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى أو مستأنفة، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لولى، ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ومفعوله محذوف تقديره تولاه، وهو العائد على ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿وَنُصْلِهِۦ﴾: فعل ومفعول أول، معطوف على ﴿نُوَلِّهِۦ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿جَهَنَّمَ﴾: مفعول ثان، ﴿وَسَآءَتْ﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير يعود على ﴿جَهَنَّمَ﴾، ﴿مَصِيرًا﴾: تمييز، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا يَغْفِرُ﴾: ناف وفعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يُشْرَكَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بـ﴿أنْ﴾، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: لا يغفر الإشراك به، ﴿وَيَغْفِرُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَا يَغْفِرُ﴾، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف صل لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَغْفِرُ﴾، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ومفعوله محذوف، تقديره: لمن يشاء غفران ذنوبه، والجملة صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يُشْرِكْ﴾: فعل شرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على

﴿من﴾، ﴿ضَلَٰلَۢا﴾: منصوب على المصدرية، ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾﴾.

﴿إن﴾: نافية، ﴿يَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَدۡعُونَ﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿إِنَٰثٗا﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: نافية، ﴿يَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿شَيۡطَٰنٗا﴾: مفعول به، ﴿مَّرِيدٗا﴾: صفة له. ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب صفة ثانية لـ﴿شَيۡطَٰنٗا﴾، ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أتخذن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، ﴿مِنۡ عِبَادِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أتخذن﴾ أو حال من ﴿نَصِيبٗا﴾، ﴿نَصِيبٗا﴾: مفعول به، ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾: صفة له، والجملة الفعلية مع القسم المحذوف في محل النصب مقول القول.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أضلن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، و﴿الهاء﴾: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة مع القسم المحذوف في محل النصب معطوفة على

جملة قوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لأمنينهم﴾: لام قسم وفعل ومفعول ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لآمرنهم﴾: لام قسم وفعل ومفعول ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة مع القسم المحذوف معطوفة على جملة ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: زائدة زيدت لتأكيد القسم المذكور قبله، ﴿يبتكن﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿آمرن﴾ على كونها جواباً للقسم المحذوف، وأصله: والله لآمرنهم فيبتكونن، ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ مفعول به ومضاف إليه وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ مع القسم المحذوف معطوف على قوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: زائدة زيدت لتأكيد القسم المذكور قبله، ﴿يغيرن﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والأصل: ولآمرنهم بالتغيير فيغيرونن، والجملة معطوفة على جملة ﴿آمرنهم﴾، ﴿خَلْقَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿يَتَّخِذِ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿مَنْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: مفعول أول، ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول ثان، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿وليا﴾، ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿خَسِرَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿خُسْرَانًا﴾: مفعول مطلق، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة لـ﴿خُسْرَانًا﴾، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿يَعِدُهُمْ﴾: فعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: يعدهم

طول العمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ويمنيهم نيل الآمال، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَعِدُهُمْ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿غُرُورًا﴾: مفعول ثان لـ﴿يعد﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يَعِدُهُمْ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول، ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مبتدأ ثان ومضاف إليه، ﴿جَهَنَّمُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْهَا﴾: حال من ﴿مَحِيصًا﴾: وهو مفعول به لوجد، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة المبتدأ الثاني، على كونها خبراً للمبتدأ الأول، أو معطوفة على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من هاء ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: مصدر مؤكد لمضمون جملة قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ منصوب بفعل محذوف، تقديره: وعدهم الله ذلك الإدخال وعداً، لأن قوله:

﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ بمنزلة وعدهم، ﴿حَقًّا﴾: حال من المصدر المذكور قبله، أو منصوب بفعل محذوف، تقديره: حق ذلك حقاً، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أَصْدَقُ﴾، ﴿قِيلًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على المفهوم من المقام، تقديره: ليس الأمر من الثواب والفضل، ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف، تقديره: ليس الأمر منوطا بأمانيكم، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ مستأنفة، ﴿وَلَا أَمَانِيِّ﴾: معطوف على ﴿أمانيكم﴾ وهو مضاف، ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: مضاف إليه، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يَعْمَلْ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿سُوءًا﴾: مفعول به، ﴿يُجْزَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب الشرط، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَا يَجِدْ﴾: معطوف على ﴿يُجْزَ﴾ مجزوم بـ﴿مَنْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿لَهُ﴾: متعلق به، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ﴿وَلِيًّا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول ﴿يَجِدْ﴾، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: معطوف عليه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يَعْمَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾، ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾: متعلق به، ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَعْمَلْ﴾، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة حال أيضاً من فاعل ﴿يَعْمَلْ﴾، ﴿فَأُولَئِكَ﴾

﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿نَقِيرًا﴾: مفعول ثان، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَدْخُلُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿دِينًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، والجملة مستأنفة، ﴿مِّمَّنْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَحْسَنُ﴾ ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾: فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ والجملة صلة الموصول، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَسْلَمَ﴾، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة حال من فاعل ﴿أَسْلَمَ﴾، ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ معطوف على ﴿أَسْلَمَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿مِلَّةَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه، ﴿حَنِيفًاۗ﴾: حال من فاعل ﴿اتبع﴾، أو حال من إبراهيم المضاف إليه لوجود شرطه، كما قال ابن مالك:

وَلاَ تُجِزْ حَالاً مِنَ ٱلْمُضَافِ لَهْ ... إلاَّ إِذَا ٱقْتَضَىٰ ٱلْمُضَافُ عَمَلَهْ

أَوْ كَانَ جُزْءَ مَالَهُ أُضِيفَا ... أَوْ مِثْلَ جُزْئِهِ فَلا تَحِيفَا

فإن الملة لا تفارق الشخص، فهي كجزئه من هذه الجهة، ومتى كان المضاف جزءاً أو كالجزء من المضاف. صار كأنه صاحب الحال، فيصح توجه عامله للحال، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿خَلِيلًا﴾: مفعول ثان، أو حال من إبراهيم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والجملة

الاسمية مستأنفة، ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُّحِيطًا﴾: وهو خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾: النجوى[1] مصدر كالدعوى، يقال نجوت الرجل أنجوه نجوى، من باب دعا، إذا ناجيته، قال الواحدي: ولا تكون النجوى إلا بين اثنين، وقال الزجاج: النجوى ما انفرد به الجماعة، أو الاثنان سراً كان أو ظاهراً انتهى. وقال ابن عطية: النجوى المسارة بالحديث، وتطلق النجوى على القوم المتناجين؛ أي: المتسارين، وهو من باب قوم عدل وصف بالمصدر، وقال الكرماني: النجوى جمع نجي، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾، ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ المعروف هو ما تعرفه النفوس وتقره، وتتلقاه بالقبول. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ مصدر ابتغى الخماسي من باب افتعل، ثلاثية بغى ـ من باب رمى ـ يبغى بغاء، بضم أوله، وبغياً وبغية إذا طلب الشيء، ﴿مَرْضَاتِ﴾ مصدر ميمي بمعنى الرضوان؛ لأنه على وزن مفعلة، فأصله مرضوة فألفه بدل من الواو، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ شاقق من باب فاعل، والمشاقة المعاداة والمخالفة، مأخوذة من الشق، كأن كل واحد من المتعاديين يكون في شق غير الذي فيه الآخر، وإنما جاز إظهار القاف الأولى هنا؛ لأن الثانية سكنت بالجزم، وحركتها عارضة لالتقاء الساكنين. ﴿مَّرِيدًا﴾ المَريدُ العاتي المتمرد، من مَرُدَ ـ من باب ظرف ـ إذا عتا وتجبر، والمرِّيد ـ بوزن السكِّيت ـ الشديد المرادة والعتو، قال الأزهري: يقال مرد الرجل إذا عتا وخرج عن الطاعة، فهو مارد ومريد، ويقال مرد الرجل إذا عتا وعلا في الحذاقة وتجرد للشر والغواية، قال ابن عيسى: وأصله التملس يقال شجرة مرداء؛ أي: ملساء تناثر ورقها، وغلام أمرد لا نبات بوجهه، وصرح ممرد مملس، لا يعلق به شيء لملاسته، والمارد الذي لا يعلق بشيء من الفضائل.

---

(١) البحر المحيط.

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ من البتك وهو الشق والقطع، ومنه سيف باتك؛ أي: قاطع، يقال بتك يبتك ـ من بابي ضرب ونصر ـ بتكاً إذا شقه أو قطعه، وبتَّك بالتشديد للتكثير، كما في الآية. والبِتَكُ بكسر أوله وفتح ثانيه بوزن عنب القطع من الشيء واحدها بتكة، بفتح أوله وسكون ثانيه قال الشاعر:

حَتَىٰ إِذَا مَا هَوَتْ كَفُّ ٱلْوَلِيْدِ لَهَا طَارَتْ وَفِيْ كَفِّهِ مِنْ رِيْشِهَا بِتَكُ

﴿مَحِيصًا﴾، المحيص مفعل من حاص يحيص ـ من باب باع ـ حيصاً وحيوصاً ومحاصاً ومحيصاً، وحيصاناً بفتح الياء إذا حاد وعدل عنه، أو زاغ بنفور، ومنه فحاصوا حيصة حمر الوحش، ومنه قول الشاعر:

وَلَمْ نَدْرِ أَنَّ حِصْنَاً مِنَ ٱلْمَوْتِ حِيْصَةٌ كَمِ ٱلْعُمْرُ بَاقٍ وَٱلْمَدَا مُتَطَاوِلُ

ويقال ما منه محيص؛ أي: محيد ومهرب، والمحاص مثل المحيص قال الشاعر:

تَحِيْصُ مِنْ حُكْمِ ٱلْمَنِيَّةِ جَاهِدَاً مَا لِلرِّجَالِ عَنِ ٱلْمَنُوْنِ مَحَاصُ

وفي المثل: وقعوا في حيص بيص، وحاص باص إذا وقع في أمر لا يقدر على التخلص منه، ويقال حاص يحوص ـ من باب قال ـ حوصاً وحياصاً إذا نفر وزايل المكان الذي فيه، والحوص في العين ضيق مؤخرها. ﴿قِيلًا﴾ القيل مصدر كالقول والقال، وقال ابن السكيت: القيل والقال اسمان لا مصدران، ونصبه هنا على التمييز كما مر.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الأماني واحدها أمنية، وهي الصورة التي تحصل في النفس من تمني الشيء وتقديره، وكثيراً ما يطلق التمني على ما لا حقيقة له، ومن ثم يعبرون به عن الكذب، كما قال عثمان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت، ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف فعيل بمعنى فاعل، فالحنيف المائل عن الزيغ والضلال إلى الحق والعدل. ﴿خَلِيلًا﴾ الخليل فعيل من الخلة بفتح الخاء، وهي الفقر والفاقة؛ لأنه جعل فقره وحاجته إلى الله، أو من الخلة بضم الخاء وهي المودة والمحبة التي تتخلل النفس وتمازجها، أو من الخَلَل، قال ثعلب: إنما

سمي الخليل خليلاً؛ لأن محبته تتخلل القلب، فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته وأنشد قول بشار:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ ٱلرُّوْحِ مِنِّيْ وَبِهِ سُمِّيَ ٱلْخَلِيْلُ خَلِيْلاَ

وخليل إما فعيل بمعنى فاعل، كالعليم بمعنى العالم، وإما بمعنى مفعول، كالحبيب بمعنى المحبوب، وقد كان إبراهيم عليه السلام محبوباً للَّه ومحباً له. ﴿مُّحِيطًا﴾ اسم فاعل من أحاط الرباعي يحيط إحاطة، كأعان يعين إعانة؛ أي: عالماً بكل شيء من الجزئيات والكليات، فهو يجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها قليلها وكثيرها.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع[1]:

منها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا﴾، وفي قوله: ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا﴾، وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ و﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ﴾ و﴿يَغْفِرُ﴾، وفي قوله: ﴿يُشْرِكْ﴾ ﴿وَمَن يُشْرِكْ﴾، وفي ﴿لآمرنهم﴾، وفي: اسم الشيطان، وفي قوله: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ و﴿ما يعدهم﴾، وفي الجلالة، في مواضع، وفي قوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ﴾، وفي قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ﴾، وفي ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

ومنها: الطباق المعنوي في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾، و﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، و﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ يعني المؤمن، وفي قوله: ﴿سُوٓءًا﴾ و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ﴾ وفي قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ و﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وفي قوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

ومنها: التأكيد بالمصدر في قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، عبر به عن القصد أو الجهة، وفي قوله: ﴿مُّحِيطًا﴾ عبر به عن العلم بالشيء، من جميع جهاته.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ لتفخيم شأنه، والتنصيص على أنه متفق على مدحه.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى
ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن
تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ
بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ
ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟
أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن
تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا
فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ
بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ
بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ
مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها ظاهرة بالنظر[1] إلى ما كانت عليه العرب من تربيع كلامها، أنها تكون في أمر ثم تخرج منه إلى شيء، ثم تعود إلى ما كانت فيه أولاً، وهكذا كتاب الله سبحانه وتعالى، يبين فيه أحكام تكليفه، ثم يعقب بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ثم يعقب

(١) البحر المحيط.

ذلك بذكر المخالفين المعاندين الذين لا يتبعون تلك الأحكام، ثم بما يدل على كبرياء الله تعالى وجلاله، ثم يعود لتبيين ما تعلق بتلك الأحكام السابقة، وقد عرض هنا في هذه السورة أن بدأ بأحكام النساء والمواريث وذكر اليتامى، ثم ثانياً بذكر شيء من ذلك في هذه الآية، ثم أخيراً بذكر شيء من المواريث أيضاً، ولما كانت النساء مطروحاً أمرهن عند العرب في الميراث وغيره، وكذلك اليتامى.. أكد الحديث فيهن مراراً ليرجعوا عن أحكام الجاهلية.

وعبارة المراغي هنا: لما كان الكلام[1] أول السورة في الأحكام المتعلقة بالنساء واليتامى والقرابة، ومن قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى هنا في أحكام عامة في أسس الدين وأصوله، وأحوال أهل الكتاب والمنافقين والقتال.. عاد الكلام هنا إلى أحكام النساء، لشعور الناس بالحاجة إلى زيادة البيان في تلك الأحكام، فالآيات السالفة أوجبت مراعاة حقوق الضعيفين المرأة واليتيم، وجعلت للنساء حقوقاً مؤكدة في المهر والإرث، وحرمت ظلمهن، وأباحت تعدد الزوجات، وحددت العدد الذي يحل منهن حين عدم الخوف من الظلم، ولكن ربما يحدث لهم الاشتباه في بعض الوقائع المتعلقة بها، كأن يقع الاشتباه في حقيقة العدل الواجب بين النساء، هل يدخل العدل في الحب أو في لوازمه من زيادة الإقبال على المحبوبة، والتبسط في الاستمتاع بها، أو لا؟ وهل يحل للرجل أن يمنع اليتيمة ما كتب الله لها من الإرث حين يرغب في نكاحها؟ وبماذا يصالح امرأته إذا أرادت أن تفتدي منه؟ كل هذا مما تشتد الحاجة إلى معرفته بعد العمل بتلك الأحكام، فمن ثم جاءت هذه الآيات مبينة أتم البيان لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[2] وتعالى لما أمر أولاً بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين.. بين هنا أنه ما أمر بهذه الأشياء لاحتياجه إلى أعمال العباد؛ لأن كل ما في السموات والأرض

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

ملكه، فهو مستغن عنهم، وقادر على تثبيتهم على طاعته فيما شرعه لخيرهم ومصلحتهم، بل ليزدادوا بتدبرها إيماناً يحملهم على العمل بها والوقوف عند حدودها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر النساء والنشوز والمصالحة.. أعقبه بالقيام بأداء حقوق الله تعالى، وفي الشهادة حقوق لله، أو لأنه لما ذكر تعالى طالب الدنيا، وأنه عنده ثواب الدنيا والآخرة.. بين أن كمال السعادة أن يكون قول الإنسان وفعله لله تعالى، أو لأنه ذكر في هذه السورة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ والإشهاد عند دفع أموال اليتامى إليهم، وأمر ببذل النفس والمال في سبيل الله، وذكر قصة بن أبيرق، واجتماع قومه على الكذب والشهادة بالباطل، وندب للمصالحة.. أعقب ذلك بأن أمر عباده المؤمنين بالقيام بالعدل والشهادة لوجه الله سبحانه وتعالى، وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ حتى لا يكون منهم جور ما.

وقيل: المناسبة أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[1] بالقسط في اليتامى والنساء، في سياق الاستفتاء فيهن؛ لأن حقهن آكد، وضعفهن معهود.. عمم الأمر هنا بالقسط بين الناس؛ لأن قوام أمور الاجتماع لا يكون إلا بالعدل، وحفظ النظام لا يتم إلا به، وبما فيه من الشهادة لله بالحق، ولو على النفس والوالدين والأقربين، وعدم محاباة أحد لغناه أو لفقره؛ لأن العدل مقدم على حقوق النفس وحقوق القرابة وغيرها، وقد كانت سنة الجاهلية محاباة ذوي القربى؛ لأنه يعتز بهم، كما كانوا يظلمون النساء واليتامى لضعفهن وعدم الاعتزاز بهن.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها[2]: أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالقيام بالقسط والشهادة لله.. بين أنه لا يتصف بذلك إلا من كان راسخ القدم في الإيمان بالأشياء المذكورة في هذه الآية، فأمر بها.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية، قالت[1]: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها، قد شركته في مالها حتى في المذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في مالها، فيعضلها، فنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي: كان لجابر بنت عم دميمة، ولها مال ورثته عن أبيها، وكان جابر يرغب عن نكاحها، ولا يُنكِحها خشية أن يذهب الزوج بمالها، فسأل النبي ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري (ج ٩/ ص ٣٣٤) عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية في ذلك. الحديث رواه مسلم (ج ٨/ ص ١٥٧).

وقد أخرج أبو داود والترمذي والطيالسي، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي وابن جرير: أنها نزلت في شأن سودة، أخرجه الترمذي والطيالسي وابن جرير من حديث ابن عباس، وأخرجه أبو داود والحاكم وابن جرير أيضاً من حديث عائشة، ولفظ أبي داود: قالت عائشة لعروة: يا ابن أختي كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله يومي لعائشة، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منها، قالت: تقول في ذلك أنزل الله عز وجل وفي أشباهها، أراه قال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾.

---

(١) لباب النقول.

وأخرج الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي عن رافع بن خديج أنه كان تحته امرأة قد خلا من سنها، فتزوج عليها شابة، فآثر البكر عليها، فأبت امرأته الأولى أن تقر على ذلك، فطلقها تطليقة حتى إذا بقي من أجلها يسير.. قال: إن شئت راجعتك وصبرت على الأمر، وإن شئت تركتك حتى يخلو أجلك، قالت: بل راجعني أصبر على الأثرة، ثم آثر عليها فلم تصبر على الأثرة، فطلقها الأخرى، وآثر عليها الشابة، قال: فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله قد أنزل فيه: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ﴾.

وأخرج الحاكم[1] عن عائشة قالت: نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾ في رجل كانت تحته امرأة قد ولدت له أولاداً، فأراد أن يستبدل بها، فراضته على أن تقر عنده ولا يقسم لها.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: جاءت امرأة حين نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: إني أريد أن تقسم لي من نفقتك، وقد كانت رضيت أن يدعها فلا يطلقها ولا يأتيها، فأنزل الله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[2] ابن أبي حاتم عن السدي قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ حين اختصم إليه رجلان غني وفقير، وكان النبي ﷺ مع الفقير يرى أن الفقير لا يظلم الغني، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾؛ أي: يستخبرك ويسألك يا محمد جماعة من الصحابة ما أشكل عليهم ﴿فِي﴾ شؤون ﴿ٱلنِّسَآءِۖ﴾ وحقوقهن، ويطلبونك ببيان ما غمض وخفي عليهم من أحكامهن، من جهة حقوقهن المالية والزوجية، كالعدل في المعاشرة

---

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

وحين الفرقة والنشوز، والاستفتاء طلب الفتوى، وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشرعية وكشفه وتبيينه، قال المفسرون: والذي استفتوه فيه هو ميراث النساء والصغار، وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الأولاد، فلما نزلت آية الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾.. قالوا: يا رسول الله كيف ترث المرأة والصغير، وكيف نعطي المال من لا يركب فرساً، ولا يحمل سلاحاً، ولا يقاتل عدواً؟ فأجابهم بهذه الآية فقال: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد في جواب استفتائهم ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُفۡتِيكُمۡ﴾؛ أي: يبين لكم ما أشكل عليكم ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في حقوقهن وشؤونهن من الميراث والمعاشرة وغير ذلك، بما يوحيه إليك من الأحكام المبينة في الأحاديث، وبما سيأتي من الآيات الكريمة المتعلقة بشؤون النساء، ﴿وَ﴾ يبين لكم أيضاً ﴿ما يتلى﴾ ويقرأ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِى ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: في القرآن مما نزل في أول هذه السورة ﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: في بيان حقوق اليتامى من النساء، وقرىء[1] ﴿في ييامى النساء﴾ بيائين والأصل أيامى النساء، فأبدلت الهمزة ياء، كما قالوا: فلان ابن أعصر ويعصر، ﴿ٱلَّٰتِى لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾؛ أي: اللاتي لا تعطونهن ما وجب لهن من الميراث أو الصداق، وذلك لأنهم يورثون الرجال دون النساء، والكبار دون الصغار، فإنهم لا يعطونهن ما كتب لهن من الإرث إذا كان في أيديهم لولايتهم عليهن، ﴿وَتَرۡغَبُونَ﴾؛ أي: تطمعون في ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ وتتزوجوهن لمالهن وجمالهن بأقل من صداقهن، أو ترغبون وتعرضون عن أن تنكحوهن وتتروجوهن لدمامتهن، وتمسكوهن رغبة في مالهن، فلا تنكحوهن ولا تُنكحوهن غيركم حتى يبقى مالهن في أيديكم، وقد كان الرجل منهم يضم اليتيمة ومالها إلى نفسه، فإن كانت جميلة.. تزوجها وأكل المال، وإن كانت دميمة.. عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها، والمراد بالذي يتلى في يتامى النساء هو قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِى ٱلۡيَتَٰمَىٰ...﴾ الآية، وقوله: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ معطوف على يتامى النساء؛ أي: ويبين لكم ما يتلى

---

(١) العكبري.

ويقرأ عليكم أيضاً في شأن المستضعفين من الولدان والصغار، الذين لا تعطونهم نصيبهم من الميراث، وقد كانوا يورثون الرجال دون الأطفال والنساء، والمراد بالذي يتلى في حق المستضعفين قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ معطوف أيضاً على يتامى النساء؛ أي: ويبين لكم ما يتلى ويقرأ عليكم أيضاً في أن تقوموا لليتامى بالقسط؛ أي: يتلى عليكم في طلب قيامكم بالقسط والعدل في شؤون اليتامى من هؤلاء النساء والولدان المستضعفين، بأن تهتموا بهم اهتماماً خاصاً، وتعتنوا بشأنهم، ويجري العدل في معاملتهم على أكمل الوجوه وأتمها، فإن ذلك هو الواجب الذي لا هوادة فيه، ولا خيرة في شأنه، والمراد بالذي يتلى في ﴿أن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾.

والخلاصة: أن الذي يتلى في الضعيفين ـ المرأة واليتيم ـ هو ما تقدم في أول السورة، وأن الله يذكرهم بتلك الآيات المفصلة ليتدبروها ويتأملوا معانيها، ثم يعملوا بها، إذ قد جرت طباع البشر أن يتغافلوا عن دقائق الأحكام والعظات التي ترجعهم عن أهوائهم، وتؤنبهم على اتباع شهواتهم.

واعلم: أن المفهوم من الآية كون المفتي اثنين:

أحدهما: الله سبحانه وتعالى، يفتي ويبين بما يوحي إلى رسوله ﷺ من الأحاديث الواردة في حقوق النساء واليتامى وشؤونهن، وبما سيأتي من الآيات الكريمة، كالآية التالية لهذه الآية من قوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا﴾، وغيرها من الآيات المتعلقة بشؤون النساء.

والثاني: الكتاب يفتي ويبين بما يتلى منه في أول هذه السورة من الآيات النازلة في شؤونهن، والله أعلم بمعنى كتابه، فتأمل، وفيه مزيد اعتناء بتلك الفتوى.

ثم رغبهم في العمل بما فيه فائدة لليتامى، وحبب إليهم النصفة فقال تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾؛ أي: وما تفعلوا من الخير أو الشر ففيه اكتفاء لليتامى، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الخير المفعول ﴿عَلِيمٗا﴾ لا يعزب عن علمه شيء، ولا يضيع عنده شيء، فيجازيكم عليه، وهذا وعد لمن آثر الخير لهم.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾؛ أي: وإن خافت وتوقعت امرأة وزوجة ﴿مِنۢ بَعْلِهَا﴾ وزوجها ﴿نُشُوزًا﴾؛ أي: ترفعاً عليها بما لاح لها من قرائن وأمارات، بأن منعها نفسه ونفقتها، والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة، أو آذاها بسبٍّ أو ضرب أو نحو ذلك، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها بوجهه، بأن قلل من محادثتها ومؤانستها، لبعض أسباب من طعن في سن، أو دمامة، أو شيء في الأخلاق والخلق، أو ملال لها، أو طموح إلى غيرها، أو نحو ذلك.

ولكن الواجب عليها أن تتثبت فيما تراه من أمارات الإعراض، فربما كان الذي شغله من مسامرتها والرغبة في مباعلتها عوارض من مشاكل الحياة الدنيوية أو الدينية، وهي أسباب خارجية لا دخل لها فيها، ولا تعلق لها بكراهتها والجفوة عنها، وحينئذ عليها أن تعذره وتصبر على ما لا تحب من ذلك، أما إذا استبان لها أن ذلك لكراهته إياها ورغبته عنها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾؛ أي: فلا حرج ولا إثم على الزوج والمرأة حنيئذ في ﴿أَن يُصْلِحَا﴾ ويتوافقا فيما ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ويفعلا ﴿صُلْحًا﴾؛ أي: أمراً فيه صلاح وموافقة لهما عليه، كأن تسمح له ببعض حقها عليه في النفقة، أو المبيت معها، أو بحقها كله فيهما، أو في أحدهما لتبقى في عصمته مكرمة، أو تسمح له ببعض المهر ومتعة الطلاق، أو بكل ذلك ليطلقها كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ وإنما يحل له ذلك إذا كان برضاها، لاعتقادها أن الخير لها في ذلك؛ بلا ظلم ولا إهانة.

وقد روي أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها، وكان لها منه ولد، فقالت له: لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتقسم لي في كل شهرين، فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إلي، فأقرها على ما طلبت بعد ما أتى رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك، وأنزلت الآية فيه.

وهذا من جملة ما أخبر الله تعالى أنه يفتيهم به في النساء، مما لم يتقدم ذكره في هذه السورة، وقرأ الكوفيون[1]: ﴿يصلحا﴾ من أصلح الرباعي على وزن

---

(١) البحر المحيط.

أكرم، وقرأ باقي السبعة: ﴿يُصْلِحَا﴾ وأصله يتصالحا وأدغمت التاء في الصاد، وقرأ عبيدة السلماني ﴿يصالحا﴾ من المفاعلة، وقرأ الأعمش: ﴿أن أصالحا﴾، وهي قراءة ابن مسعود جعل ماضياً، وأصله تصالح على وزن تفاعل، فأدغم التاء في الصاد، واجتلبت همزة الوصل، والصلح ليس مصدراً لشيء من هذه الأفعال التي قرئت، فإن كان اسما لما يصلح به كالعطاء من أعطى.. فيحتمل أن يكون انتصابه على إسقاط حرف الجر؛ أي: يصلح،؛ أي: بشيء يصطلحان عليه، ويجوز أن يكون مصدراً لهذه الأفعال على حذف الزوائد. ﴿وَٱلصُّلْحُ﴾؛ أي: والمسامحة والمصالحة على شيء مما سبق ذكره ﴿خَيْرٌ﴾ من سوء العشرة وكثرة الخصومة، أو خير من التسريح والفراق؛ لأن رابطة الزوجية من أعظم الروابط، وأحقها بالحفظ، وميثاقها من أغلظ المواثيق، وعروض الخلاف بين الزوجين، وما يترتب عليه من نشوز وإعراض وسوء معاشرة من الأمور الطبيعية التي لا يمكن زوالها، وأفعل التفضيل في قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ ليس على بابه.

وأجمل ما جاء في الإسلام لمنع الخلاف بين الزوجين هو المساواة بينهما في كل شيء، إلا القيام برياسة الأسرة، لأنه أقوى من المرأة بدناً وعقلاً، وأقدر على الكسب، وعليه النفقة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فيجب على الرجل أن يعاشرها بالمعروف، وأن يتحرى العدل بقدر المستطاع، ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾؛ أي: جعلت الأنفس عرضة وهدفاً للشح والبخل، وجعل الشح حاضراً لها لا يغيب عنها، ولا ينفك عنها أبداً، والفعل فيه مبني للمفعول، والمعنى: أحضر الله الأنفس الشح؛ أي: جبلها عليه، فمتى تعلقت الأنفس بشيء منه.. فلا ترجع عنه إلا بمشقة، يعني: أن أنفسهما بل أنفس كل إنسان طبعت وجبلت على البخل بما يلزمها، أو بما يحسن فعله من الخيرات، فإذا عرض لها داع من دواعي البذل.. ألم بها الشح والبخل، ونهاها أن تبذل ما ينبغي بذله لأجل الصلح، فالنساء حريصات على حقوقهن في القسم والنفقة وحسن العشرة، والرجال حريصون على أموالهم أيضاً، فينبغي أن يكون التسامح بينهما كاملاً؛ إذ هما قد ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بذلك الميثاق العظيم، وأفضى بعضهما إلى بعض،

وقرأ العدوي[1]: ﴿الشح﴾ بكسر الشين، وهي لغة.

ثم رغب في بقاء الرابطة الزوجية جهد المستطاع، فقال: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ أيها الأزواج العشرة مع نسائكم، وإن كرهتموهن، بأن تسووا بين الشابة والعجوز في القسم والنفقة، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ ما يؤدي إلى الأذى والخصومة من الجور والميل، وتجتنبوا أسباب النشوز والإعراض، وما يترتب عليهما من الشقاق.. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه يجازيكم على ذلك الإحسان والتقوى، ويثيبكم عليهما، لأنه تعالى: ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان وغيره ﴿خَبِيرًا﴾؛ أي: عالماً لا يخفى عليه شيء منه، فيجازيكم عليه الجزاء الأوفى، وكان عمران بن حطان الخارجي من أُدم الناس، وامرأته من أجملهن، فأجالت في وجهه نظرها، ثم تابعت الحمد لله، فقال: ما لَكِ؟ فقالت: حمدت الله على أني وإياك من أهل الجنة، قال: كيف؟ قالت: لأنك رزقت مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت، وقد وعد الله الجنة الشاكرين والصابرين.

ثم بين أن العدل بين النساء في الميل القلبي في حكم المستحيل، فعلى الرجل أن يفعل جهد المستطاع، فقال: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟﴾؛ أي: ولن تقدروا أيها الأزواج على ﴿أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: على العدل والتسوية بين الزوجات في الحب وميل القلب، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وجهدتم وتحريتم وبالغتم، وكلفتم أنفسكم على التسوية بينهن في الحب والميل القلبي، حتى لا يقع ميل إلى إحداها بلا زيادة ولا نقص، ولو قدرتم لما قدرتم على إرضائها به، ومن ثم رفع الله ذلك عنكم، وما كلفكم إلا العدل فيما تستطيعون، بشرط أن تبذلوا فيه وسعكم، لأن الباعث على الكثير من هذا الميل هو الوجدان النفسي والميل القلبي الذي لا يملكه المرء، ولا يحيط به اختياره، ولا يملك آثاره الطبيعية، ولهذا خفف الله ذلك عنكم، وبين أن العدل الكامل غير مستطاع، ولا يتعلق به تكليف ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾؛ أي: وإذا كان ذلك غير مستطاع لكم، فعليكم أن لا تميلوا كل الميل إلى من تحبون منهن في القسم والنفقة، وتعرضوا عن الأخرى ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾؛ أي: فتتركوا التي أعرضتم عنها فتجعلوها كأنها ليست

(١) البحر المحيط.

بالمتزوجة ولا بالمطلقة، لا أيِّماً ولا ذات بعل، كالشيء المعلق، لا هو في السماء ولا هو على الأرض، بل هو في تعب، وقيل معناه: كالمسجونة، لا هي مخلصة فتتزوج، ولا هي ذات بعل فيحسن إليها، فإن الذي يُغفر لكم من الميل ويسامَح لكم هو ما لا يدخل تحت اختياركم، ولا يكون فيه تعمد التقصير أو الإهمال، أما ما يقع تحت اختياركم، فعليكم أن تقوموا به إذ لا هوادة فيه.

والمعنى[1]: أنكم لستم منهيين عن حصول التفاوت في الميل القلبي؛ لأن ذلك خارج عن قدرتكم ووسعكم، ولكنكم منهيون عن إظهار ذلك الميل في القول والفعل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما.. جاء يوم القيامة وشقه ساقط» أخرجه الترمذي.

وعند أبي داود: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما.. جاء يوم القيامة وشقه مائل».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، فيقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»، يعني: القلب، أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

وقرأ أبي[2]: ﴿فتذروها كالمسجونة﴾، وقرأ عبد الله: ﴿فتذروها كأنها معلقة﴾. ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ في معاملة النساء ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ ظلمهن، وتفضيل بعضهن على بعض، فيما يدخل في اختياركم كالقسم والنفقة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: فإن الله تعالى يغفر لكم ما دون ذلك، مما لا يدخل في اختياركم كالحب وزيادة الإقبال وغير ذلك، أو المعنى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ ما مضى من ميلكم، وتتداركوه بالتوبة ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ في المستقبل عن مثله.. غفر الله لكم ذلك، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيغفر ما حصل في القلب من الميل إلى بعضهن دون البعض، ويتفضل عليكم برحمته.

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

وفي الآية عظة وعبرة لمن يتأمل من عباد الشهوات، الذين لا يقصدون من الزوجية إلا التمتع باللذات الحيوانية، دون مراعاة أهم أسس الحياة الزوجية التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، ولا يلاحظون أمر النسل وصلاح الذرية، هؤلاء السفهاء الذواقون الذين يكثرون من الزواج ما استطاعوا، ولا باعث لهم إلا حب التنقل، والملل من السابقة، ولا يخطر لهم أمر العدل في بال، عليهم أن يتقوا الله تعالى، ويفكروا في ميثاق الزوجية، وفي حقوقها المؤكدة، وفي عاقبة نسلهم، وشؤون ذريتهم، وفي حال أمتهم التي تتألف من هذه البيوت المبنية على أسس الشهوات والأهواء، وفي حال ذريتهم التي تنشأ بين أمهات متعاديات.

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن الفراق قد يكون فيه الخير إذا لم يمكن الوفاق، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾؛ أي: وإن يتفرق الزوجان اللذان يخافان أن لا يقيما حدود الله، بأن كره الرجل امرأته لدمامتها أو كبرها، وأراد أن يتزوج غيرها، أو كان عنده زوجتان ولم يقدر على العدل بينهما.. ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كُلًّا﴾ منهما عن صاحبه ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾؛ أي: بسعة فضله، ووافر إحسانه وجوده، فقد يسخر للمرأة رجلاً خيراً منه، كما يهيىء له امرأة أخرى، تحصنه وترضيه وتقوم بشؤون بيته وأولاده، ويكون عيشه أهنأ من عيشه الأول بفضله تعالى، ولن يكون كل منهما جديراً بعناية الله تعالى وإغنائه عن الآخر إلا إذا التزما حدود الله، بأن اجتهدا في الوفاق والصلح، وظهر لهما بعد التفكير والتروي في الأسباب أنه غير مستطاع، فافترقا وهما حافظان لكرامتهما عما يجعلهما عرضة للنقد ونهش العرض، فإن ذلك مما يرغب الناس فيهما، لما يرونه فيهما من الأخلاق الفاضلة وعدم التلاحي والتنابذ والتهاجي واختلاق الأكاذيب، فالرجل ذو الخلق الكريم إذا علم أن امرأة اختلفت مع بعلها لأنها لم تقبل أن تعيش مع من يعرض عنها، أو يترفع عليها، بل أحبت أن تعيش معه بطريق عادلة.. رأى فيها أفضل صفات الزوجية، وكذلك كرائم النساء وأولياؤهن يرغبون في الرجل إذا علموا أنه يمسك المرأة بمعروف، أو يسرحها بإحسان، ولا

يلجؤه إلى الطلاق إلا الخوف من عدم إقامة حدود الله، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَٰسِعًا﴾ في العلم والقدرة والرحمة والفضل والجود ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: متقناً في أفعاله وأحكامه التي شرعها لعباده وفق مصالحهم.

فصل فيما يتعلق بهذه الآيات من الأحكام

واعلم أن الرجل إذا كان تحته امرأتان فأكثر يجب عليه التسوية بينهن في القسم، فإن ترك التسوية بينهن في فعل القسم.. عصى الله عز وجل في ذلك، وعليه القضاء للمظلومة، والتسوية في البيتوتة واجب، أما في الجماع فلا، لأن ذلك يدور على النشاط وميل القلب، وليس ذلك إليه، ولو كان في نكاحه حرة وأمة.. قسم للحرة ليلتين وللأمة ليلة واحدة.

وإذا تزوج جديدة على قديمات كن عنده.. فإنه يخص الجديدة بأن يبيت عندها سبع ليال، إن كانت الجديدة بكراً، وإن كانت ثيباً.. خصها بثلاث ليال، ثم إنه يستأنف القسم بينها وبينهن، ويسوي بينهن كلهن، ولا يجب عليه قضاء عوض هذه الليالي للقديمات، ويدل على ذلك ما روى أبو قلابة عن أنس رضي الله عنه قال: من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعاً وقسم، وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً وقسم، قال أبو قلابة: ولو شئت لقلت: إن أنساً رفعه إلى النبي ﷺ، أخرجاه في «الصحيحين».

وإذا سافر الرجل إلى سفر حاجة جاز له أن يحمل معه بعض أزواجه، بشرط أن يقرع بينهن، ولا يجب عليه أن يقضي للباقيات عوض مدة سفره وإن طالت إذا لم يزد مقامه في البلد على مدة المسافرين، ويدل على ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه. أخرجه البخاري مع زيادة فيه. وإذا أراد الرجل سفر نُقلَةٍ.. وجب عليه أخذ نسائه معه.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له جميع ما فيهما من المخلوقات خلقاً وعبودية وملكاً، فهو مدبر الأكوان، فلا يتعذر عليه

الإغناء بعد الفقر، ولا الإيناس بعد الوحشة، إلى نحو هذا مما ينبىء بعظيم القدرة، وكمال الجود والإحسان، فهذه الجملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه وشمول قدرته، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أمرنا الذين من قبلكم من اليهود والنصارى، وغيرهم من سالف الأمم، فيما أنزلناه عليهم من الكتب ﴿و﴾ أمرنا ﴿إياكم﴾ يا أهل القرآن، في كتابكم المنزل على محمد ﷺ؛ أي: أمرناهم وإياكم جميعاً بـ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وخافوا عقابه بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، فبتقوى الله تعالى ترقى معارفكم، وتزكوا نفوسكم، وتنتظم مصالحكم الدينية والدنيوية، ﴿و﴾ قلنا لهم ولكم: ﴿إن تكفروا﴾ نِعَمَ الله عليكم، وتجحدوا فضله وإحسانه لكم.. ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى جميع المخلوقات لا يضره كفركم ومعاصيكم، كما لا ينفعه شكركم وتقواكم، وقد وصاكم وإياهم بهما؛ لرحمته لكم، لا لحاجته إليكم؛ لأنه سبحانه وتعالى غني عنكم، لأن له تعالى ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المخلوقات والخزائن.

وفائدة[1] هذا التكرير التأكيد، ليتنبه العباد على سعة ملكه وينظروا في ذلك، ويعلموا أنه غني عن خلقه، ثم زاد ما سلف توكيداً فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَنِيًّا﴾ عن خلقه، وعن عباداتهم، فلا يزداد جلاله بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي والسيئات، ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله؛ أي: مستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد منكم فهو لا يحتاج إلى شكركم، لتكميل نفسه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. وفي الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم.. ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم.. ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته.. ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في

---

(١) الشوكاني.

البحر، يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً.. فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك.. فلا يلومن إلا نفسه». رواه مسلم.

ثم أعاد ما سلف لزيادة التوكيد فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا لغيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ خلقاً وملكاً، يتصرف فيهما كيفما شاء، إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: وكفى به سبحانه وتعالى قيماً وكفيلاً يوكل به، ويفوض إليه أمر العباد في أرزاقهم وأقواتهم وسائر شؤونهم، ﴿إِن يَشَأْ﴾؛ أي: إن يرد الله سبحانه وتعالى إعدامكم واستئصالكم.. ﴿يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يستأصلكم ويعدمكم بالمرة أيها المشركون من الأرض ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾؛ أي: ويوجد قوماً آخرين من الإنس، أو من غيره، موحدين له، يحلون محلكم في الحكم والتصرف، فهو قادر على ذلك؛ لأن كل ما في السموات والأرض فهو تحت قبضته وخاضع لسلطانه.

والمعنى: إن يشاء إفناءكم بالكلية وإيجاد قوم آخرين يشتغلون بعبوديته وتعظيمه يفنكم بالمرة ويوجد مكانكم قوماً خيراً منكم وأطوع لله تعالى.

والخلاصة: أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم، ولأن مشيئته لم تتعلق بهذا الإفناء لحكم ومصالح أرادها سبحانه، لا لعجز عن ذلك تعالى الله علواً كبيراً.

وفي هذه الآيات تهديد للمشركين الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويقاومون دعوته، وتنبيه للناس إلى التأمل في سنن الله تعالى التي جرت في حياة الأمم وموتها، وإن هذه السنن إذا تعلقت بها المشيئة.. وقعت لا محالة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: على إهلاككم وإذهابكم من الأرض وإخلاف غيركم مكانكم ﴿قَدِيرًا﴾؛ أي: قادراً إذ بيده ملكوت كل شيء، لكنه لحكم يعلمها لم تتعلق إرادته بذلك، ﴿مَّن كَانَ﴾ منكم أيها الناس ﴿يُرِيدُ﴾ ويقصد بسعيه وجهاده في حياته ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ ونعيمها ومتاعها بالمال والجاه ونحوهما، فلا يقتصر عليه، وليطلب الثوابين من الله تعالى ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ﴾؛ أي: بيده ثوابهما، فلا يضيع نفسه بالاقتصار على الثواب

الفاني، فإن العاقل يطلب ثواب الآخرة حتى يحصل له ذلك، ويحصل له ثواب الدنيا على سبيل التبع.

والمعنى: فعند الله تعالى ثواب الدارين جميعاً، بما أعطاكم من العقل والشعور وهداية الحواس، فعليكم أن تطلبوهما معاً، ولا تكتفوا بما هو أدناهما وهو ما يفنى، وتتركوا أعلاهما وهو ما يبقى، مع أن الجمع بينهما هين ميسور لكم، وهو تحت قدرتكم وسلطانكم، فمن خطل الرأي أن تتركوا ذلك، وترغبوا عنه، بل عليكم أن تقولوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

والخلاصة: أن من أراد بعمله الدنيا.. آتاه الله منها ما أراد، وصرف عنه من شرها ما أراد، وليس له ثواب في الآخرة يجزى به، ومن أراد بعمله وجه الله وثواب الآخرة.. فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، يؤتيه من الدنيا ما قدر له، ويجزيه في الآخرة خير الجزاء ذكره في «الخازن».

وفي الآية[1] إيماء إلى أن الدين يهدي أهله إلى السعادتين، وإلى أن ثواب الدنيا والآخرة من فضله تعالى ورحمته، وفي الآية أيضاً[2] تعريض بالكفار الذين كانوا لا يؤمنون بالبعث، وكانوا يقولون: ﴿ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾، وظاهر[3] الآية العموم، وقال ابن جرير الطبري: إنها خاصة بالمشركين والمنافقين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعَۢا﴾ لأقوال عباده حين مخاطباتهم ومناجاتهم ﴿بَصِيرٗا﴾ بجميع أمورهم في سائر حالاتهم، فعليهم أن يراقبوه في الأقوال والأفعال، وبذلك تزكو نفوسهم، وتقف عند حدود الفضيلة، التي بها تستقيم أمورهم في دنياهم، ويستعدون لحياة أبدية في آخرتهم يكون فيها نعيمهم وثوابهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾؛ أي: مبالغين في القيام ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ والعدل وإثباته، ومديمين القيام، فمن عدل مرة أو مرتين. لا

---

(١) المراغي.　　(٢) الواحدي.　　(٣) الشوكاني.

يكون في الحقيقة قواماً؛ أي: فلتجعلوا العناية بإقامة القسط على وجهه صفة ثابتة لكم، راسخةً في نفوسكم، والعدل كما يكون في الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان، أو يحكمه الناس فيما بينهم، يكون في العمل، كالقيام بما يجب بين الزوجات والأولاد من النصفة والمساواة بينهم، ولو سار المسلمون على هدى القرآن.. لكانوا أعدل الأمم، وأقومهم بالقسط وقد كانوا كذلك ردحاً طويلاً من الدهر، حين كانوا مهتدين بهديه، ولكن قد خلف من بعدهم خلف نبذوا تلك الهداية وراء ظهورهم، وسلكوا مسالك اليهود والنصارى، فصارت تضرب بهم الأمثال في ظلم حكامهم وسوء أحوالهم، وكانوا ﴿شُهَدَآءَ﴾ بالحق مخلصين ﴿لِلَّهِ﴾ بأن تتحروا الحق الذي يرضاه ويأمر به، من غير مراعاة أحد ولا محاباته، ﴿وَلَوْ﴾ كانت الشهادة ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فاشهدوا عليها، بأن تقروا بالحق ولا تكتموه، فإن من أقر على نفسه بحق.. فقد شهد عليها، لأن الشهادة إظهار الحق ﴿أَوِ﴾ كانت الشهادة على ﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ﴾ لكم؛ أي: ولو كانت الشهادة على والديكم، أو على أقرب الناس إليكم كأولادكم وإخوانكم، إذ ليس من بر الوالدين ولا من صلة ذوي الرحم أن يعاونوا على ما ليس بحق لهم، بالإعراض عن الشهادة عليهم أوليها والتحريف فيها، بل البر والصلة في الحق والمعروف، والشهادة على الوالدين بأن يشهد عليهما بحق للغير، وكذلك الشهادة على الأقربين، وذكر الأبوين لوجوب برهما، وكونهما أحب الخلق إليه، ثم ذكر الأقربين؛ لأنهم مظنة المودة والتعصب. وليس من شك في أن الحياة قصاص، فالذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس، يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم، فتكون المحاباة من أسباب فشو الظلم والعدوان والمفاسد التي لا يؤمن شرها، ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه من الوالدين والأقربين وغيرهم وهم الأجانب ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ وسواء كان المشهود له غنياً أو فقيراً، فلا تمتنعوا من الشهادة عليهما، طلباً لرضى الغني، أو ترحماً على الفقير، ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ منكم؛ أي: فإن الله سبحانه وتعالى أولى وأحق برعاية مصالحهما، وإصلاح شؤونهما منكم؛ أي: إن يكن المشهود عليه غنياً أو فقيراً.. فليشهد عليه، فالله أولى وأقرب بجنس الغني والفقير منكم، وشرعه

أحق أن يتبع فيهما، فحذار أن تحابوا غنياً طمعاً في بره، ولا خوفاً من أذاه وشره، ولا فقيراً عطفاً عليه، وشفقةً به، فمرضاة كل منهما ليست خيراً لكم ولا لهما من مرضاة الله، ولستم أعلم بمصلحتهما من ربهما، ولولا أنه يعلم أن العدل وإقامة الشهادة بالحق خير للشاهد والمشهود عليه. . لما شرع ذلك ولا أوجبه.

وقرأ عبد الله: ﴿إن يكن غني أو فقير﴾ على أن كان تامة، وفي قراءة أبي: ﴿فالله أولى بهم﴾ فالضمير عليها عائد على الأغنياء والفقراء، فالمراد حينئذ بالغني والفقير الجنس، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾ والشهوات إرادة ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾ عن الحق وتميلوا عنه، وتجوروا فيه، فهو حينئذ من العدول بمعنى الميل عن الحق، أو المعنى: فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس، فهو حينئذ من العدل ضد الجور، والمعنى على الأول: فلا تتبعوا الهوى والتشهي لئلا تعدلوا عن الحق إلى الباطل إذ في الهوى الزلل، ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر وأبو عمرو وعاصم والكسائي: بإسكان اللام وبعدها واوان، الأولى مضمومة والثانية ساكنة، من اللي، والمعنى على هذه القراءة: وإن تلفوا ألسنتكم عن الشهادة بالحق إلى الباطل، وتحرفوها عنه بأن شهدتم بالباطل على خلاف ما يعلم من الدعوى، ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ وتمتنعوا عن أداء الشهادة بالكلية، وتنكروها من أصلها، فالعطف مغاير، خلافاً لمن قال بالترادف، فالمراد من اللّيّ هنا: أداء الشهادة على غير وجهها الذي تستحق الشهادة أن تكون عليه. ومن الإعراض: أن لا يقوم بها أصلاً بوجه ما.

والحاصل: أن اللفظين يختلفان باختلاف المتعلق، وقيل: إن الليَّ مثل الإعراض في المعنى، قال تعالى: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾؛ أي: أعرضوا. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: فإن الله تعالى خبير بأعمالكم، لا يخفى عليه قصدكم، فهو مجازيكم بما تعملون، فيجازي المحسن المقبل بإحسانه، والمسيء المعرض بإساءته.

وعبر[1] بالخبير ولم يعبر بالعليم؛ لأن الخبرة: العلم بدقائق الأمور

(١) المراغي.

وخفاياها، والشهادة يكثر فيها الغش والاحتيال، حتى لقد يغش الإنسان فيها نفسه، ويلتمس المعاذير في كتمان الشهادة أو تحريفها، فليتدبر المسلمون ذلك، و﴿ليعلموا﴾ بهدي كتابهم، ويقيموا الشهادة، ففي ذلك فلاحهم في دينهم ودنياهم، وقرأ حمزة وابن عامر: ﴿وإن تلوا﴾ بلام مضمومة وواو واحدة ساكنة من الولاية، والمعنى: وإن وليتم إقامة الشهادة فأديتموها أو تعرضوا عن أدائها.. فإن الله كان بما تعملون خبيراً.

وقيل[1]: الخطاب على كلا القراءتين للحاكم، والمعنى على القراءة الأولى: وإن تلووا أيها الحكام؛ أي: تميلوا مع أحد الخصمين دون الآخر، أو تعرضوا عنه بالكلية. وعلى القراءة الثانية: وإن تلوا أيها الحكام أمور المسلمين وتضيعوهم، أو تعرضوا عنهم بالكلية.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب[2] لكافة المسلمين، وذكر ذلك عقب الأمر بالعدل؛ لأنه لا يكون عدل إلا بعد الاتصاف بالإيمان، فهو من ذكر السبب بعد المسبب، وقوله فيما يأتي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ . . .﴾ إلخ، بيان للطريق التي تفسد الإيمان، وهي الردة لتجتنب، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان بالله، وازدادوا فيه طمأنينة ويقيناً، ﴿و﴾ آمنوا بـ﴿رسوله﴾ محمد ﷺ خاتم النبيين، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه ﴿و﴾ آمنوا بـ﴿الكتاب الذي نزل﴾ الله سبحانه وتعالى بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة؛ لأن صيغة التفعيل تفيد التكرير كما قاله الزمشخري، ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ، بالعمل بما فيه من الأوامر والنواهي وهو القرآن الكريم ﴿و﴾ آمنوا بـ﴿الكتاب الذي أنزل من قبل﴾؛ أي: وبجنس الكتب التي أنزل الله تعالى من قبل القرآن على الرسل السالفة من قبل محمد ﷺ، كتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود وغيرها؛ أي: آمنوا بأنها حقة منزلة من عند الله تعالى، فإنه سبحانه وتعالى لم يترك عباده في زمن ما محرومين من البينات والهدى، وقرأ[3] ابن كثير وأبو

---

(١) الخازن بتصرف. (٢) الفتوحات. (٣) البحر المحيط.

عمرو وابن عامر: ﴿نزل﴾ و﴿أنزل﴾ بالضم مبيناً للمفعول، وقرأ الباقون: بالفتح فيهما مبيناً للفاعل.

وبعد أن أمر بالإيمان بما ذكر، توعد من كفر بذلك فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ ويجحد ﴿بِـ﴾ وجود ﴿اللَّه﴾ سبحانه وتعالى ﴿و﴾ بوجود ﴿ملائكته و﴾ بإنزال ﴿كتبه﴾ السماوية، وقرىء: ﴿وكتابه﴾، ﴿و﴾ بإرسال ﴿رسله و﴾ بمجيء ﴿اليوم الآخر﴾ مع ما فيه من الحساب والميزان والجزاء والجنة والنار؛ أي: من يكفر بواحد من هذه المذكورات، وهذه كلها أسس الإيمان وأركانه.. ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ عن صراط الحق، الذي ينجي صاحبه في الآخرة من العذاب الأليم، ويمتعه بالنعيم المقيم، ﴿ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ بحيث يعسر العود من الضلال إلى سواء الطريق.

ومن فرق بين كتب الله ورسله، فآمن ببعض وكفر ببعض كاليهود والنصارى.. فلا يعتد بإيمانه؛ لأنه إما يتبع الهوى، أو يقلد عن جهل وعمى، ذلك أن سر الرسالة هي الهداية، ولم يكن بعض النبيين فيها بأكمل من بعض، فإذا كفر ببعض الكتب أو الرسل.. كان كفره بها دليلاً على أنه لم يؤمن بشيء منها إيماناً صحيحاً مبنياً على فهم حقيقتها والبصر بحكمتها، وكل ذلك من الضلال البعيد عن طرق الهداية.

وإنما ذكر[1] الرسول فيما سبق؛ لذكر الكتاب الذي أنزل عليه، وذكر الرسل هنا؛ لذكر الكتب جملة.. فناسبه ذكر الرسل جملة، وتقديم الملائكة على الرسل؛ لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله.

الإعراب

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

---

(١) الشوكاني.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿فِي ٱلنِّسَآءِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قُلِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يُفْتِيكُمْ﴾: فعل ومفعول، ﴿فِيهِنَّ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع معطوفة على الضمير المستتر في ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ على كونه فاعلاً لـ﴿يفتيكم﴾، وسوغ العطف عليه جريان الجار والمجرور مجرى التأكيد، ﴿يُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ﴿يُتْلَىٰ﴾، ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُتْلَىٰ﴾، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في ﴿يُتْلَىٰ﴾، ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بما[1] تتعلق به الجار والمجرور قبله، لأن معناهما مختلف، فالأولى ظرف، والثانية بمعنى الباء؛ أي: بسبب اليتامى، كما تقول جئتك في يوم الجمعة في أمر زيد، وقيل: الثانية بدل من الأولى، ويجوز أن تكون الثانية تتعلق بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ما كتب في حكم اليتامى، ويجوز أن تكون الأولى ظرفاً والثانية حالاً فتتعلق بمحذوف ذكره أبو البقاء، والإضافة ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ على معنى من أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، ﴿ٱلَّٰتِي﴾: صفة لليتامى، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُؤْتُونَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لآتى؛ لأنه بمعنى أعطى، ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، ﴿لَهُنَّ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾ على كونه صلة الموصول، عطف جملة مثبتة على جملة منفية؛ أي: لا تؤتونهن واللاتي ترغبون

---

(١) العكبري.

أو تنكحونهن، كقولك: جاء الذي لا يبخل ويكرم الضيفان، ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف؛ لأن حذف الجار مع أنَّ وأن مطرد، تقديره: وترغبون في نكاحهن، والجار المحذوف متعلق بـ﴿ترغبون﴾، ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: معطوف على يتامى النساء، ﴿مِنَ الْوِلْدَانِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿المستضعفين﴾، ﴿وَأَن﴾ الواو: عاطفة، ﴿أن تقوموا﴾: ناصب وفعل وفاعل، ﴿لِلْيَتَامَىٰ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُومُوا﴾، ﴿بِالْقِسْطِ﴾: متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾، تقديره: وما يتلى عليكم في قيامكم لليتامى بالقسط، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم، ﴿تَفْعَلُوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿ما﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المحذوف، ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿اللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمًا﴾، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾.

﴿وَإِنِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿امْرَأَةٌ﴾: فاعل بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: وإن خافت امرأة خافت من بعلها نشوزاً، ﴿خَافَتْ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿امْرَأَةٌ﴾: فاعل، ﴿خَافَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿امْرَأَةٌ﴾، والجملة مفسرة للمحذوف لا محل لها من الإعراب، ﴿مِنْ بَعْلِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَافَتْ﴾، ﴿نُشُوزًا﴾: مفعول به، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾: معطوف عليه.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿لا﴾: نافية، ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿عَلَيْهِمَآ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، تقديره: فلا جناح كائن عليهما، وجملة ﴿لا﴾: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة، ﴿أَن يُصْلِحَا﴾: ناصب وفعل وفاعل، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿صُلْحًا﴾؛ لأنه نعت نكرة قدمت عليها، ﴿صُلْحًا﴾: منصوب على المصدرية، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: فلا جناح عليهما في صلحهما بينهما، والجار المحذوف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿لا﴾، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة معترضة، لاعتراضها بين جملتي الشرط، كالتي بعدها، ﴿وَأُحْضِرَتِ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿الْأَنفُسُ﴾: نائب فاعل، وهو المفعول الأول لـ﴿أحضر﴾، ﴿الشُّحَّ﴾: مفعول ثان، والجملة مستأنفة، ﴿وَإِن تُحْسِنُوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل لها، ﴿وَتَتَّقُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف عليه، ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إنَّ﴾ حرف نصب، ﴿اللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَبِيرًا﴾، ﴿خَبِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجزم جواب ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا﴾: فعل وفاعل وناصب، والجملة مستأنفة، ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾: فعل وفاعل وناصب، ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تعدلوا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ولن تستطيعوا العدل بين النساء، ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿حَرَصْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة

فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لو﴾ معلوم مما قبله، تقديره: ولو حرصتم فلن تستطيعوا، وجملة ﴿لو﴾؛ جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تَمِيلُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟﴾، ﴿كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾: منصوب على المصدرية؛ لأن ﴿كل﴾ لها حكم ما تضاف إليه، فإن أضيفت إلى المصدر.. كانت مصدراً، وإن أضيفت إلى ظرف.. كانت ظرفاً، ذكره أبو البقاء العكبري. ﴿فَتَذَرُوهَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿تذروها﴾: فعل وفاعل ومفعول، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، والجملة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: ولن تستطيعوا العدل بين النساء، فلا يكن منكم ميل كل الميل، فتركها كالمعلقة. ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾: جار ومجرور حال من الهاء في ﴿تذروها﴾، وإن شئت قلت: ﴿الكاف﴾: اسم بمعنى مثل في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تذر﴾؛ لأنها بمعنى ترك، فترك يتعدى إلى مفعولين، ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾: فعل وفاعل وجازم، مجزوم على كونه فعل الشرط، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾: معطوف عليه، ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول لها، ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل الجزم جواب ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾: فعل وفاعل، مجزوم على كونه فعل الشرط، ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾: فعل وفاعل ومفعول، مجزوم على كونه جواب الشرط، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُغْنِ﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿وَٰسِعًا﴾: خبر أول لها، ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان

لها، وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة معللة لمضمون الجملة التي قبلها

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة معللة لقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾، ﴿فِي السَّمَٰوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ معطوفة على: ﴿مَا فِي السَّمَٰوَاتِ﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿وَصَّيْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿الَّذِينَ﴾: في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة، ﴿أُوتُوا﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿الْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان؛ لأن أتى بمعنى أعطى يتعدى لمفعولين، الأول منهما نائب فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أُوتُوا﴾، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾: في محل النصب معطوف على الموصول، ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول وناصب، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم بتقوى الله، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾ على اسمها. ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، ﴿فِي السَّمَٰوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوفة على ﴿مَا فِي السَّمَٰوَاتِ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة القسم أو مستأنفة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾: فعل ناقص واسمها وخبرها، والجملة مستأنفة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا

ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَكِيلًا﴾: تمييز، والجملة مستأنفة. ﴿إِن يَشَأْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة، ﴿أَيُّهَا﴾: ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء و﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لـ﴿أيُّ﴾ تابع للفظه، وجملة النداء جملة معترضة؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه، ﴿وَيَأْتِ﴾: معطوف على ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، ﴿بِـَٔاخَرِينَۚ﴾: متعلق به، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرًا﴾، ﴿قَدِيرًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿مَّن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَّن﴾، ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾، ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿عند اللَّه﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم، ﴿ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿مَّن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَّن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿سَمِيعًۢا﴾: خبر أول لها، ﴿بَصِيرًا﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ

وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أيُّ﴾، وجملة النداء مستأنفة، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿كُونُواْ﴾: فعل أمر ناقص، والواو: اسمها، ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: خبرها، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: متعلق بـ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبر ثان لـ﴿كُونُواْ﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به ﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر لكان المحذوفة مع اسمها، تقديرها: ولو كانت الشهادة كائنة على أنفسكم، وجواب ﴿لو﴾ محذوف، تقديره: ولو كانت الشهادة على أنفسكم فاشهدوا عليها، وجملة ﴿لو﴾: مستأنفة، ﴿أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾: معطوفان على ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يَكُنۡ﴾: فعل ناقص مجزوم بـ﴿إن﴾، واسمها محذوف جوازاً، تقديره: إن يكن المشهود عليه، ﴿غَنِيًّا﴾: خبرها، ﴿أَوۡ فَقِيرٗا﴾: معطوف عليه، ﴿فَٱللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿اللَّه﴾: مبتدأ، ﴿أَوۡلَىٰ﴾: خبره، ﴿بِهِمَاۖ﴾: متعلق بـ﴿أَوۡلَىٰ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تَتَّبِعُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾: فعل وفاعل وناصب، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً لأجله، ولكنه على حذف مضاف، تقديره: فلا تتبعوا الهوى كراهية العدل بين الناس. ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾: معطوف عليه، ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب بالشرط، ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٗا﴾: وهو

خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أيُّ﴾، وجملة النداء مستأنفة، ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿ءَامِنُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة جواب النداء، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ءَامِنُواْ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ﴾: معطوفان على لفظ الجلالة، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للكتاب، ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: والكتاب الذي نزله على رسوله محمد ﷺ، ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: متعلقان بـ ﴿نَزَّل﴾ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾: معطوف على الجلالة أيضاً، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة لـ﴿الكتاب﴾، ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: والكتاب الذي أنزله من قبل، ﴿وَمَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل شرط مجزوم بها، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوفات على الجلالة، ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾: صفة لـ﴿اليوم﴾، ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقترانه بـ﴿قد﴾، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿ضَلَٰلًۢا﴾: منصوب على المصدرية، ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية: مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾: من باب استفعل السداسي وبناؤه للطلب، يقال استفتى

يستفتي استفتاء، والاستفتاء طلب الإفتاء، ويقال: أفتاه يفتيه إفتاء وفتوىً وفتياً، وأفتيت فلاناً في رؤياه عبرتها له، ومعنى الإفتاء: إظهار المشكل على السائل، وأصله من الفتى وهو الرجل الشاب الذي قوي وكمل.

فالمعنى كأنه بيان ما أشكل فيثبت ويقوى، والاستفتاء ليس في ذوات النساء، وإنما هو عن شيء من أحكامهن، ولم يبين، فهو مجمل، ومعنى ﴿يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حال ما سألتم عنه، وحكمه ذكره أبو حيان في «البحر»، وفي «المصباح»[1]: والفتوى بالواو وفتح الفاء وبالياء فتضم، وهي اسم من أفتى العالم إذا بين الحكم، واستفتيته سألته أن يفتي، والجمع الفتاوى بكسر الواو على الأصل: وقيل يجوز الفتح للتخفيف.

﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾؛ أي: تعنوا عناية خاصة، ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾؛ أي: بالعدل، ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ﴾؛ أي: توقعت ما تكره بوقوع بعض أسبابه، أو ظهور بعض أماراته، قيل: الخوف هنا على بابه، وهو حالة تحدث في القلب عند حدوث أمر مكروه، أو عند ظن حدوثه، وقيل: المراد بالخوف هنا العلم، ﴿نُشُوزًا﴾؛ أي: ترفعاً وتكبراً، قال ابن فارس: يقال نشزت المرأة: استعصت على بعلها، ونشز بعلها إذا ضربها وجفاها، ﴿أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾؛ أي: ميلاً وانحرافاً، قال النحاس: الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز: التباعد، والإعراض: أن لا يكلمها ولا يأنس بها.

﴿ٱلشُّحَّۚ﴾ قال ابن فارس[2]: الشح البخل مع الحرص، ويقال: تشاح الرجلان في الأمر لا يريدان أن يفوتهما، وهو بضم الشين وكسرها، وقال ابن عطية: الشح الضبط على المعتقدات والإرادة، ففي الهمم والأموال، ونحو ذلك مما أفرط فيه، وفيه بعض المذمة، وما صار إلى حيز الحقوق الشرعية وما تقتضيه المروءة فهو البخل، وهو رذيلة، لكنها قد تكون في المؤمن، ومنه الحديث: قيل: يا رسول الله أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم»، وأما الشح ففي كل أحد، ويدل عليه: ﴿وَأُحۡضِرَتِ

---

(١) المصباح المنير.
(٢) البحر المحيط.

﴿ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾، ومن يوق نفسه أثبت لكل نفس شحاً، وقول النبي ﷺ: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح»، ولم يرد به واحداً بعينه، وليس يحمد أن يقال هنا: أن تصدق وأنت صحيح بخيل، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، وفي «المصباح» حرص عليه حرصاً ـ من باب ضرب ـ إذا اجتهد، والاسم الحرص بالكسر، وحرص على الدنيا من باب ضرب أيضاً، وحرص حرصاً ـ من باب تعب لغة ـ إذا رغبت رغبة مذمومة، ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ تذر هي من الأفعال التي ليس لها التصرف التام، بل لها المضارع والأمر، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ فليس لها ماض، ولا اسم فاعل ولا مفعول، وهو بمعنى الترك، المعلقة: هي التي ليست مطلقة ولا ذات بعل، ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ جمع قوام صيغة مبالغة؛ أي: ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم مثلاً، وفي «المصباح» قسط قسطاً ـ من باب ضرب ـ وقسوطاً: جارَ، وعدلَ أيضاً، فهو من الأضداد، قاله ابن القطاع، وأقسط بالألف عدل، والاسم القسط بالكسر. اهـ. ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ جمع شهيد، أو شاهد على غير قياس.

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ بواوين[1]، أصله تلويون بوزن تضربون، نقلت ضمة الياء إلى ما قبلها وهو الواو بعد سلب حركتها، فسكنت الياء ثم حذفت لالتقاء الساكنين، وحذفت نون الرفع للجازم؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وهذه الياء التي حذفت هي لام الكلمة، فصار ﴿تَلْوُۥٓا۟﴾ بوزن تفعوا، وعلى القراءة الثانية: ﴿تلوا﴾ فعل به ما تقدم ثم نقلت ضمة هذه الواو التي هي عين الكلمة إلى الساكن قبلها، وهو اللام التي هي فاء الكلمة، فسكنت الواو ثم حذفت، فصار ﴿تلوا﴾ بوزن تفوا، إلا أن فيه حينئذ إجحافاً بالكلمة إذ لم يبق منها إلا فاءها.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبديع فنوناً[2]:

منها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، وفي قوله:

---

(١) الفتوحات. (٢) البحر المحيط.

﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾، وفي قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ و﴿يُفْتِيكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿صُلْحًا﴾ و﴿وَٱلصُّلْحُ﴾.

ومنها: التكرار في لفظ ﴿النساء﴾، وفي لفظ ﴿يتامى﴾ و﴿اليتامى﴾، و﴿رسوله﴾، ولفظ ﴿الكتاب﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾.

ومنها: اللفظ المحتمل للضدين في قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿نُشُوزًا﴾، وفي قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾، لأن الشح لما كان غير مفارق للأنفس ولا متباعد عنها.. كان كأنه أحضرها، وحمل على ملازمتها، فاستعار الإحضار للملازمة، وفي قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟﴾، وفي قوله: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾، وهذه كلها للأجسام استعيرت للمعاني.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ خص العمل.

ومنها: الحذف في مواضع.

ومنها: الطباق بين ﴿غنياً﴾ و﴿فقيراً﴾.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿آمِنوا﴾ و﴿آمنوا﴾ لتغيير الشكل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ
وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ
إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ
لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ
وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ
النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ
اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ
أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ
تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ
مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ
وَآمَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما أمر الله سبحانه وتعالى أولاً بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين، ثم عمم الأمر بالقسط بين الناس، الذي أساسه الإيمان الصادق.. ذكر في هذه الآيات حال قوم من أهل الضلال البعيد، آمنوا في الظاهر نفاقاً، وكان الكفر قد استحوذ على قلوبهم، ولم يجعل فيها مكاناً للاستعداد للفهم، ومن ثم لم يمنعهم ذلك من الرجوع إلى الكفر مرة بعد أخرى، إذ هم لم يفقهوا حقيقة الإيمان، ولا ذاقوا حلاوته، ولا أشربت قلوبهم حبه، ولا عرفوا فضائله ومناقبه، ثم أوعد بعدئذٍ المنافقين بالعذاب الأليم، وذكر أنهم أنصار الكافرين

على المؤمنين، فلا ينبغي للمؤمنين أن يتخذوا منهم أولياء، ولا أن يبتغوا عندهم جاهاً ولا منزلة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذم المنافقين بأنهم مذبذبون، لا يستقر لهم قرار، فهم تارة مع المؤمنين، وأخرى مع الكافرين. . حذر المؤمنين أن يفعلوا فعلهم، وأن يوالي بعض ضعفائهم الكافرين دون المؤمنين، يبتغون عندهم العزة، ويرجون منهم المنفعة، كما فعل حاطب بن أبي بلتعة، إذ كتب إلى كفار قريش يخبرهم بما عزم عليه النبي ﷺ في شأنهم؛ لأنه كان له عندهم أهل ومال.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قيل نزلت هذه الآية في اليهود، وهو قول قتادة، وأختاره الطبري، والمعنى: إنَّ الذين آمنوا بموسى، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعبادة العجل، ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ﴾ بعد رجوع موسى إليهم من المناجاة، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعيسى، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ، وقيل نزلت في المنافقين، آمنوا بألسنتهم ثم ارتدوا، ثم آمنوا ثم ارتدوا وثم ماتوا على الكفر، ويؤيد هذا القول قوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، قال ابن عباس: دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي ﷺ في البر والبحر، وقال ابن كثير: يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد إلى الإيمان، ثم رجع واستمر على ضلاله، وازداد حتى مات على الكفر، فإنه لا توبة له بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ أي: ليسامح لهم ولا ليعفو عنهم، ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً إلى الجنة، وذلك لأن من تكرر منه الإيمان مرات كثيرة يدل على أنه لا وقع للإيمان في قلبه، ومن كان كذلك لا يكون مؤمناً بالله إيماناً كاملاً صحيحاً، لأن يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر، ويثبتوا قلوبهم على الإيمان؛ لأن قلوبهم قد تعودت الكفر، وتمرنت على الردة، وكان الإيمان عندهم أهون شيء وأدونه، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم

يقبل منهم ولم يغفر لهم.

والمعنى: أنَّ هؤلاء قد استبان من ذبذبتهم واضطراب أحوالهم من إيمان إلى كفر ثم من كفر إلى إيمان وهكذا، إنهم قد فقدوا الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان، وفقه مزاياه وفضائله، ومثلهم لا يرجى لهم بحسب سنن الله في خليقته أن يهتدوا إلى الخير، ولا أن يسترشدوا إلى نافع، ولا أن يسلكوا سبيل الله، فجدير بهم أن يمنع الله عنهم رحمته، ورضوانه ومغفرته وإحسانه؛ لأن أرواحهم قد دنست، وقلوبهم قد عميت، فلم تكن محلاً للمغفرة، ولا للرجاء في ثواب، والله أرحم الراحمين واسع المغفرة، لم يكن ليحرم أحداً المغفرة والهداية بمحض الخلق والمشيئة وإنما مشيئته مقترنة بحكمته، وقد جرت سنة الله وحكمته الأزلية بأن يكون كسب البشر لعلومهم وأعمالهم مؤثراً في نفوسهم، فمن طال عليه أمد التقليد.. حجب عن عقله نور الدليل، ومن طال عليه عهد الفسوق والعصيان.. حرم من أسباب الغفران التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ ولا شك أن المغفرة وهي محو أثر الذنب من العبد إنما تكون بتأثير التوبة والعمل الصالح، الذي يزيل ما علق في النفس من تلك الآثام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

﴿بَشِّرِ﴾؛ أي: أخبر يا محمد ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وأنذرهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: مؤلماً، البشارة لا تستعمل غالباً إلا في سارِّ الأخبار، إذ هي مأخوذة من انبساط بشرة الوجه، فاستعمالها في الأخبار السيئة يكون من باب التهكم والتوبيخ؛ أي: بشر المنافقين بالعذاب المؤلم، الذي لا يقدر قدره ولا يحيط بكنهه إلا علام الغيوب، ثم بين بعض صفاتهم التي تستوجب لهم الذم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: هؤلاء المنافقون هم الذين يتخذون ويجعلون الكافرين المجاهرين بالكفر المعادين للمؤمنين أولياء وأنصاراً لأنفسهم ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَتَّخِذُونَ﴾؛ أي: يتخذون الكفرة أنصاراً حالة كونهم متجاوزين في اتخاذهم اتخاذ المؤمنين؛ أي: قاصرين في الموالاة والمناصرة على الكافرين، معرضين عن موالاة المؤمنين، وتاركين لها، ويمالؤون

الكافرين عليهم، اعتقاداً منهم أن أمر محمد لا يتم، وأن الدولة والغلبة للكافرين، وأن العزة لهم، ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾؛ أي: أيطلبون بموالاة الكفار الغلبة والقوة عندهم، والاستفهام إنكاري؛ أي: لا عزة للكفار، فكيف تبتغي عندهم العزة، ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ﴾ والغلبة والقوة كائنة هي ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، حالة كونها ﴿جَمِيعٗا﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، يؤتيها من يشاء، فعليهم أن يطلبوها من الله تعالى بصادق إيمانهم، واتباعهم هدايته التي أرشد إليها أنبياءه، وبينوا لهم أسبابها، وقد آتاها المؤمنين حينما اهتدوا بكتابه، وساروا على سننه، ونهجوا نهجه، فلما أعرضوا عن هذه الهداية التي اعتز بها أسلافهم.. ذلوا وخضعوا لأعدائهم، وصار منهم منافقون، يوالون الكافرين، يبتغون عندهم عزة وشرفاً، وما هم لها بمدركين، والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله تعالى.

وبعدئذ نهى المؤمنين أن يجلسوا مع من ينتقص الدين، ويزدري بأحكامه فقال: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: في القرآن في سورة الأنعام في مكة ﴿أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا﴾؛ أي: أنزل عليكم أنه إذا سمعتم آيات الله مكفوراً بها ومستهزأ بها؛ أي: سمعتم القرآن يكفر به الكافرون، ويستهزىء به المستهزؤون.. ﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ﴾؛ أي: فلا تجلسوا ﴿مَعَهُمۡ﴾؛ أي: مع الكافرين الذين يستهزؤون، ويسخرون بالقرآن ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾؛ أي: حتى يشرعوا ويشتغلوا بحديث في غير القرآن، ويتركوا الخوض فيه ﴿إِنَّكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِذٗا﴾؛ أي: إذا قعدتم معهم، واستمعتم حديثهم في استهزاء القرآن ﴿مِّثۡلُهُمۡۗ﴾؛ أي: مثل الكافرين في الاستهزاء والكفر به؛ أي: تكونون شركاء لهم في الكفر، لأنكم رضيتم به، ووافقتموهم عليه. قال البيضاوي: إذا هنا ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يذكر بعدها الفعل، وإفراد ﴿مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ لأنه كالمصدر، أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع انتهى. وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي غير داخلة تحت التنزيل. وقرىء شاذاً: ﴿مثلهم﴾ بالفتح، وهو مبني لإضافته إلى المبهم، كما بني في قوله: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾، ويذكر في موضعه إن شاء الله

تعالى، وقيل نصب على الظرف كما قيل في بيت الفرزدق:

وَإِذْ مَـــا مِـــثْـــلُـــهُـــمْ بَـــشَـــرُ

أي: إنكم في مثل حالهم، ذكره أبو البقاء، والمعنى: إنكم مشاركون لهم في الإثم قال بعضهم:

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ ٱلْقَبِيْحِ   كَصَوْنِ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلنُّطْقِ بِهْ
فَإِنَّكَ عِنْدَ سَمَاعِ ٱلْقَبِيْحِ   شَرِيْكٌ لِقَائِلِهِ فَٱنْتَبِهْ

والمراد بالذي نزله في الكتاب هو قوله تعالى في سورة الأنعام المكية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾، وقد كان بعض المسلمين يجلسون مع المشركين، وهم يخوضون في الكفر، وذم الإسلام والاستهزاء بالقرآن، ولا يستطيعون الإنكار عليهم، لضعفهم وقوة المشركين، فأمروا بالإعراض عنهم وعدم الجلوس معهم في هذه الحال.

ثم إن يهود المدينة كانوا يفعلون فعل مشركي مكة، وكان المنافقون يجلسون معهم، ويستمعون إليهم، فنهى الله المؤمنين عن ذلك.

والخلاصة: أنكم إذا سمعتم الكلام الذي يتضمن جعل الآيات في موضع السخرية والاحتقار.. فابتعدوا عنهم، ولا ترجعوا إليهم حتى يعودوا إلى حديث آخر.

وفي الآية[1] دليل على وجوب اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقيص والاستهزاء للأدلة الشرعية والأحكام الدينية، كما يقع ذلك كثيراً من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء العلماء بالكتاب والسنة، ولم يبق في أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه بكذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي.. سخروا منه، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأساً، ولا بالوا به بالة، وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع، وخالف

---

(١) الشوكاني.

مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع، بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيه الفائل واجتهاده الذي هو عن المنهج مائل مقدماً على كتاب الله وسنة رسوله، فهذه مصيبة يا لها مصيبة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الآية[١] إيماء إلى أن من يقر المنكر ويسكت عليه. يقع في الإثم، وإلى أن إنكار الشيء يمنع من انتشاره بين الناس، وقد وقع في هذا المنكر كثير من المسلمين، فإنهم يرون الملحدين في البلاد يخوضون في آيات الله ويستهزؤون بالدين، وهم يسكتون عن ذلك، ولا يبدون إنكاراً ولا اشمئزازاً ولا صداً ولا إعراضاً.

قال بعض أهل العلم[٢]: هذه الآية تدل على أن من رضي بالكفر.. فهو كافر، ومن رضي بمنكر يراه، وخالط أهله، وإن لم يباشر.. كان في الإثم بمنزلة المباشر، أما إذا كان ساخطاً لقولهم وفعلهم، وإنما جلس على سبيل التقية والخوف، فالأمر ليس كذلك، فالمنافقون الذين كانوا يجالسون اليهود ويطعنون في الرسول والقرآن مع اليهود هم كافرون مثل أولئك اليهود، أما المسلمون الذين كانوا بمكة يجالسون الكفار الذين كانوا يطعنون في القرآن.. فإنهم باقون على الإيمان؛ لأنهم إنما يجالسون الكفار للضرورة والتقية منهم، وأما المنافقون في المدينة فلا ضرورة لهم إلى الجلوس مع اليهود.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: منافقي أهل المدينة، عبد الله بن أبي وأصحابه وغيرهم، ﴿وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: كفار أهل مكة أبي جهل وأصحابه، وكفار أهل المدينة كعب بن الأشرف وغيرهم، ﴿فِى﴾ نار ﴿جَهَنَّمَ﴾ وقعرها حالة كونهم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين فيها؛ أي: فكما أنهم اجتمعوا في الدنيا على الاستهزاء بآيات الله تعالى.. فكذلك يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة، ولا يخفى ما في هذا من الوعيد للكفار والمنافقين، وهذه الجملة[٣]

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) أبو السعود.

تعليل لكونهم مثلهم في الكفر، ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ مشدداً مبنيا للمفعول، وقرأ عاصم: ﴿نَزَّلَ﴾ مشدداً مبنياً للفاعل، وقرأ أبو حيوة وحميد: ﴿نزَل﴾ مخففاً مبنياً للفاعل، وقرأ النخعي: ﴿أنزل﴾ بالهمزة مبنياً للمفعول، ومحل ﴿أَنْ﴾ رفع أو نصب، على حسب العامل فنصب على قراءة عاصم، ورفع على الفاعل على قراءة أبي حيوة وحميد، وعلى المفعول الذي لم يسم فاعله على قراءة الباقين، وهي مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن.

ثم بين بعض أحوال المنافقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ بدل من: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ﴾ أو صفة للمنافقين والكافرين؛ أي: الذين ينتظرون ما يحدث بكم من خير أو شر؛ أي: إن هؤلاء المنافقين ينتظرون أمرهم وما يحدث لكم من كسر أو نصر وشر أو خير، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فَتْحٌ﴾ ونصر ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ تعالى على الكافرين وظفر وغنيمة ﴿قَالُوٓا﴾؛ أي: قال المنافقون للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أيها المؤمنون في الدين والجهاد، والاستفهام فيه وفيما بعده تقريري؛ أي: لتقرير ما بعد النفي على حد: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾؛ أي: كنا معكم واستحوذنا عليكم ومنعناكم، فأعطونا من الغنيمة؛ أي: فإن نصركم الله وفتح عليكم.. ادعوا أنهم كانوا معكم، فيستحقون مشاركتكم في النعمة وإعطاءهم من الغنيمة، وإنما سمى[2] ظفر المسلمين فتحاً، وظفر الكافرين نصيباً تعظيماً لشأن المسلمين، وتحقيراً لحظ الكافرين لتضمن الأول نصرة دين الله وإعلاء كلمته، ولهذا أضاف الفتح إليه تعالى، وحظ الكافرين في ظفر دنيوي سريع الزوال ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ من الظفر عليكم ﴿قَالُوٓا﴾؛ أي: قال المنافقون للكافرين: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ألم نغلب عليكم، ونتمكن من قتلكم وأسركم، وأبقينا عليكم ورحمناكم، فرجعتم سالمين غانمين ﴿و﴾ ألم ﴿نمنعكم من المؤمنين﴾؛ أي: ألم نحمكم ونمنع المؤمنين من قتلكم وأسركم وظفرهم عليكم بتخذيلهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) كرخي.

والتواني في الحرب معهم، وإلقاء الكلام الذي تضعف به عزائمهم عن قتالكم، ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأسرارهم، وإلا لكنتم نهبة للنوائب، فاعرفوا لنا هذا الفضل، وهاتوا لنا نصيباً مما أصبتم. وقرأ أبي: ﴿ومنعناكم من المؤمنين﴾ وهذا معطوف على معنى مقدر، لأن المعنى: أما استحوذنا عليكم ومنعناكم، كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا﴾ إذا المعنى: أما شرحنا لك صدرك ووضعنا عنك، والجمهور على جزم ﴿ونمنع﴾ عطفاً على ما قبله، وقرأ ابن أبي: بنصب العين وهي ظاهرة، فإنه على إضمار أن بعد الواو المعية الواقعة في جواب الاستفهام، وقيل المعنى: إن[1] أولئك الكفار قد هموا بالدخول في الإسلام، والمنافقون حذروهم عن ذلك، وأطمعوهم أنه سيضعف أمر محمد، وسيقوى أمركم، فإذا اتفقت لهم صولة على المسلمين.. قال المنافقون للكفار: ألسنا غلبناكم على رأيكم في الدخول في الإسلام ومنعناكم منه، وقلنا لكم سيضعف أمر محمد، ويقوى أمركم، فلما شاهدتم صدق قولنا.. فادفعوا إلينا نصيباً مما أصبتم وغنمتم منهم.

والسر[2] في التعبير عن ظفر المؤمنين بالفتح، وأنه من الله، وعن ظفر الكافرين بالنصيب، كما مر الإيماء إلى أن العاقبة للحق دائماً، وأن الباطل ينهزم أمامه، مهما كان له أول أمره من صولة ودولة، وقد يقع أثناء ذلك نصيب من الظفر للباطل، ولكن تنتهي بغلبة الحق عليه كما قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما دام أهله متبعين لسنة الله، بأخذ الأهبة وإعداد العدة، كما أمر بذلك الكتاب العزيز بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

وإنما غلب المسلمون في هذه العصور على أمرهم، وفتح الكافرون بلادهم، التي فتحوها من قبل بقوة إيمانهم؛ لأنهم تركوا أخذ الأهبة وإعداد العدة، وقام أعداؤهم بكل ما تستدعيه الحروب الحاضرة، فأنشؤوا البوارج[3]

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) **البوارج** ـ جمع بارجة ـ: وهي السفينة الكبيرة للقتال.

والمدافع والدبابات المدرعة والغواصات المهلكة والطائرات المنقضة، إلى نحو ذلك من آلات التدمير والهلاك في البر والبحر والجو، ووسائل ذلك من علوم طبيعية أو آلية ميكانيكية أو رياضية.

﴿فَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ أيها المؤمنون الصادقون، وبين المنافقين الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ حكماً يليق بشأن كل من الثواب والعقاب، فيثيب أحباءه ويعاقب أعداءه، أما في الدنيا فأنتم وهم سواء في عصمة الأنفس والأموال، كما جاء في الحديث: «فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم»،

والحاصل: أن المنافقين[1] يميلون مع من له الغلب والظفر من الطائفتين، ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة، وهذا شأن المنافقين أبعدهم الله تعالى، وشأن من حذا حذوهم من أهل الإسلام، من التظهر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى، والميل إلى من معه الحظ من الدنيا في مال أو جاه، فيلقاه بالتملق والتودد والخضوع والذلة ويلقى من لاحظ له من الدنيا بالشدة والغلظة وسوء الخلق ويزدري به، ويكافحه بكل مكروه، فقبح الله أخلاق أهل النفاق وأبعدها، وهذا مما ابتلي به المسلمون كثيراً في عصرنا هذا، الذي تذهب فيه النحاس، وتنحس فيه الذهب وَعُدَّ العلم فيه جهلاً والجهل علماً، ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾؛ أي: غلبة وسلطة ما داموا مستمسكين بدينهم؛ أي: إن المؤمنين ما داموا مستمسكين بدينهم متبعين لأمره ونهيه، قائمين بعمل ما يستدعيه الدفاع عن بيضة الدين، من أخذ الأهبة وإعداد العدة.. لن يغلبهم الكافرون، ولن يكون لهم عليهم سلطان، وما غُلب المسلمون على أمرهم.. إلا بتركهم هدي كتابهم، وتركهم أوامر دينهم وراءهم ظهرياً، فذلوا بعد عزة، وأجلب الكفار عليهم بخيلهم ورجلهم، ودخلوا عليهم في عقر دارهم، وامتلكوا بلادهم، واقتسموا أراضيهم، وضربوا عليهم الجزية،

---

(١) الشوكاني.

واستعبدوهم بالأعمال الشاقة، كما استعبدت الفراعنة بني إسرائيل، كما هو مشاهد في شرقي أفريقيا في الشعوب الأرميا وأشباهها.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ هذا كلام مستأنف[1]، يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين وفضائحهم، ومعنى مخادعتهم لله هي أنهم يفعلون فعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطال الكفر، ومعنى كون الله خادعهم أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظهر بالإسلام في الدنيا، فعصم به أموالهم ودماءهم، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل؛ أي: إن المنافقين يخادعون رسول الله، فيظهرون له الإيمان ليدفعوا عنهم أحكام الإسلام الدنيوية من قتلهم، ويبطنون الكفر، ونسب ذلك إلى الله من جهة أن معاملة الرسول بذلك كمعاملة الله به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ وفي جعل ذلك خداعاً للَّه تنبيه إلى شيئين: فظاعة فعلهم فيما تحروه من الخديعة، إذ هم بمخادعتهم للرسول إنما يخادعون الله، وعظم شأن المقصود بالخداع وهو الرسول ﷺ، وأن معاملته بذلك كمعاملة الله به. وسمي المنافق منافقاً أخذاً من: نافقاء اليربوع، وهو جحره، فإنه يجعل له بابين يدخل من أحدهما، ويخرج من الآخر، فكذلك المنافق يدخل مع المؤمنين بقوله: أنا مؤمن، ويدخل مع الكفار بقوله: أنا كافر، وجحر اليربوع يسمى: النافقاء والسامياء والداميا، فالساميا: هو الجحر الذي تلد فيه الأنثى، والداميا: هو الذي يكون فيه الذكر، والنافقاء: هو الذي يكونان فيه «كرخي» اهـ.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَٰدِعُهُمْ﴾؛ أي: مجازيهم على خداعهم، وسمي ذلك مخادعة مشاكلة للفظ الأول، ونظيره: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ وإنما جعل كذلك؛ لأنه قد استعمل في المعاني المذمومة التي تتضمن الكذب، أو تدل على ضعف صاحبها وعجزه غالباً.

---

(١) الشوكاني.

قلتُ: هذا إذا كان الخداع صفة لمخلوق، والمذهب الأسلم الذي نلقى الله عليه إثبات صفة الخداع لله تعالى؛ لأنه وصف نفسه به، فيجب علينا أن نصفه بما وصف به نفسه، فنقول الخداع صفة ثابتة لله تعالى، لا نكيفه ولا نمثله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقرأ مسلمة بن عبد الله النحوي: ﴿خادعهم﴾ بإسكان العين على التخفيف واستثقال الخروج من كسر إلى ضم.

وخلاصة المعنى(١): أنه عبر عن سنة الله عاقبة أمرهم في العاجل والآجل، من حيث إنها جاءت على غير ما يحبون، بلفظ مأخوذ من المخادعة، إذ أنهم بمخادعتهم للرسول والمؤمنين يسيرون في طريق يضلون فيه، وينتهون إلى الخزي والوبال من حيث هم يطلبون السلامة والنجاة، فمخادعتهم لأنفسهم بسوء اختيارهم لها هو مخادعة الله لهم، إذ جرت سنته تعالى فيمن يعمل مثل عملهم أن يلاقي الخزي في الدنيا، والنكال في الآخرة، وهكذا حال المنافقين في كل أمة وملة، يخادعون ويكذبون ويكيدون ويغشون، ويتولون أعداء أمتهم، يبتغون بذلك يداً عندهم يمتون ـ يتقربون ـ بها إليهم، إذا دالت دولتهم، وكتب التاريخ ملأى بأخبار هؤلاء الأشرار، ويكثر عددهم في الأمم في أطوار الضعف وقوة الأعداء، إذ هم طلاب منافع، يلتمسونها من كل فج، ويسلكون لها كل طريق، ولو فيما يضر أمتهم والناس أجمعين.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: خداعه تعالى لهم: أن يعطيهم نوراً يوم القيامة يمشون به مع المسلمين، فإذا وصلوا إلى الصراط.. انطفأ نورهم، وبقوا في ظلمة، ودليله قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ﴾ معطوف على خبر إن، أخبر عنهم بهذه الصفات الذميمة؛ أي: وإذا قام المنافقون إلى الصلاة ﴿قَامُوٓاْ﴾ إليها حالة كونهم ﴿كُسَالَىٰ﴾ عنها؛ أي: متكاسلين متباطئين متثاقلين، ليست لديهم رغبة تبعثهم على عمل، ولا نشاط

(١) المراغي.

يدفعهم على فعل؛ لأنهم لا يرجون ثواباً في الآخرة، ولا يخشون عقاباً، إذ لا إيمان لهم وإنما يخشون الناس، فإذا كانوا بمعزل عن المؤمنين.. تركوها، وإذا كانوا معهم.. سايروهم بالقيام بها، ومن كانت هذه حاله.. وقع عمله على وجه الكسل والفتور. وقرأ الجمهور[١]: ﴿كُسَالَىٰ﴾ بضم الكاف، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ الأعرج: ﴿كسالى﴾ بفتح الكاف، وهي لغة تميم وأسد، وقرأ ابن السميقع: ﴿كسلى﴾ على وزن فعلى، وصف بما يوصف به المؤنث المفرد، على مراعاة الجماعة كقراءة: ﴿وترى الناس سكرى﴾، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ بها؛ أي: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة، وأن يراهم المؤمنون مسلمين فيعدوهم منهم، وقرىء[٢]: ﴿يرءون﴾ بهمزة مضمومة مشددة بين الراء والواو، ونسب الزمخشري هذه القراءة لابن أبي إسحاق، إلا أنه قال: قرأ ﴿يرءونهم﴾ بهمزة مشددة، مثل يرعُّونهم؛ أي: يبصرونهم أعمالهم، ويراؤونهم كذلك.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: لا يصلون إلا قليلاً بمرأى من الناس، وإذا لم يكن معهم أحد.. لم يصلوا، وإذا كانوا مع الناس.. راؤوهم وصلوا معهم، ولا يذكرون الله إلا باللسان، وسميت الصلاة ذكراً لاشتمالها عليه، حالة كونهم ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: مضطربين مترددين بين كفر السر وإيمان العلانية ﴿لَآ﴾ هم منسوبين ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنين لإسرارهم الكفر ﴿وَلَآ﴾ هم منسوبين ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكافرين لإظهارهم الإيمان، والمعنى: ذبذبهم وقلقلهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر، يترددون بينهما متحيرين، لا يخلصون إلى أحد الفريقين، لأنهم طلاب منافع، ولا يدرون لمن تكون له العاقبة، فمتى ظهرت الغلبة لأحدهما.. ادعوا أنهم منه، كما بين ذلك فيما سلف، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يخذله ويسلبه التوفيق ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً يوصله إلى الحق؛ أي: ومن قضت سنته أن يكون ضالاً عن الحق، موغلاً في الباطل بما قدم من عمل، وتخلق به من خلق.. فلن تجد له سبيلاً للهداية باجتهادك والمبالغة في إقناعه بالحجة والدليل، فإن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

وقرأ ابن عباس وعمرو بن فائد[1]: ﴿مذبذبين﴾ بكسر الذال الثانية، جعلاه اسم فاعل؛ أي: مذبذِبين أنفسهم، أو دينهم، أو بمعنى متذبذبين، كما جاء صلصل وتصلصل بمعنى واحد، وقرأ أبي ﴿متذبذبين﴾ اسم فاعل من تذبذب؛ أي: اضطرب، وكذا في مصحف عبد الله، وقرأ الحسن: ﴿مذبذبين﴾ بفتح الميم والذالين، قال ابن عطية: وهي قراءة مردودة انتهى، والحسن البصري من أفصح الناس، يحتج بكلامه، فلا ينبغي أن ترد قراءته ولها وجه في العربية، وهو أنه أتبع حركة الميم حركة الذال، وقرأ أبو جعفر: ﴿مدبدبين﴾ بالدال غير معجمة، كأن المعنى أخذتهم تارة بدبة وتارة في دبة، فليسوا ماضين على دبة واحدة، والدبة الطريقة.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة». متفق عليه. قوله كمثل الشاة العائرة ـ بالعين المهملة ـ ومعناه: المتحيرة المترددة، لا تدري لأي الغنمين تتبع، ومعنى تعير تتردد وتذهب يميناً وشمالاً مرة إلى هذه ومرة إلى هذه، لا تدري إلى أين تذهب، وهذا مثل المنافق مرة مع المؤمنين ومرة مع الكافرين، أو ظاهره مع المؤمنين وباطنه مع الكافرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وبرسوله سراً وعلانية ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: المجاهرين بالكفر ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أنصاراً وأصدقاء ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين، كما فعل المنافقون، ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ يا معشر المؤمنين المخلصين ﴿أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ أي: حجة واضحة على استحقاقكم العذاب؛ إذا اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين، فإن عملاً كهذا لا يصدر إلا من منافق، والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ، والمراد[2] بالولاية هنا النصرة بالقول أو بالفعل، بما يكون فيه ضرر

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

للمسلمين، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ أما استخدام الذميين منهم في الحكومة الإسلامية فليس بمحظور، والصحابة رضوان الله عليهم استخدموهم في الدواوين الأميرية، وأبو إسحاق الصابي جُعل وزيراً في الدولة العباسية، والمعنى[1]: أتريدون أيها المتخذون الكفار أولياء أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة، باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين، فتستوجبوا بذلك النار.

ثم بيَّن مقر النار مِنَ المنافقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: في الطبقة السفلى من النار، وهي الهاوية لغلظ كفرهم وكثرة غوائلهم، وأعلى الدركات جهنم، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد تسمى كلها باسم الطبقة العليا أعاذنا الله من عذابها.

سميت طبقات جهنم دركات لأنها متداركة متتابعة، وقيل الدرك بيت مقفل عليهم، تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم، وقيل: هي توابيت من حديد مقفلة عليهم في النار، وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار، لأنهم شر أهلها، إذ هم جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الرسول والمؤمنين وغشهم، فأرواحهم أسفل الأرواح، ونفوسهم أحط النفوس، ومن ثم كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل منها، أما أكثر الكفار فقد غلب عليهم الجهل بحقيقة التوحيد، فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره من صنم أو وثن، يتخذونه شفيعاً عنده ووسيطاً بينهم وبينه، وقد قاسوا ذلك على معاملة الملوك المستبدين والأمراء الظالمين.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾؛ أي: ولن تجد يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿نَصِيرًا﴾؛ أي: ناصراً ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم، وينقذهم من ذلك العذاب، أو يخففه عنهم، فيرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها.

وقرأ الحرميان[2]: نافع وابن كثير، والعربيان: أبو عمرو وابن عامر: ﴿في

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

الدرك﴾ بفتح الراء، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي والأعمش ويحيي بن وثاب بسكونها، واختلف عن عاصم، وروى الأعمش والبرجمي الفتح، وغيرهما الإسكان، وقال أبو علي: وهما لغتان كالشمْع والشمَع، ثم استثنى الله سبحانه وتعالى من المنافقين الذين استحقوا الدرك الأسفل من النار فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: تمسكوا بدين الله وكتابه، ووثقوا بوعده ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ وعملهم وعبادتهم ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وأرادوا به وجه الله تعالى، ولم يريدوا رياء ولا سمعة، فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت فقد كمل الإيمان، ولما[1] كان المنافق متصفاً بنقائض هذه الأوصاف من الكفر، وفساد الأعمال، والموالاة للكافرين، والاعتراز بهم، والمراءاة للمؤمنين.. شرط في توبتهم ما يناقض تلك الأوصاف، وهي التوبة من النفاق، وهو الوصف المحتوي على بقية الأوصاف من حيث المعنى، ثم فصل ما أجمل فيها، وهو الإصلاح للعمل المستقبل المقابل لفساد أعمالهم الماضية، ثم الاعتصام بالله في المستقبل، وهو المقابل لموالاة الكافرين والاعتماد عليهم في الماضي، ثم الإخلاص لدين الله، وهو المقابل للرياء الذي كان لهم في الماضي، ثم بعد تحصيل هذه الأوصاف جميعها، أشار إليهم بأنهم مع المؤمنين فقال: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ التائبون الموصوفون بهذه الصفات المذكورة من المنافقين كائنون ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين، الذين لم يصدر منهم نفاق أصلاً منذ آمنوا؛ أي: فأولئك مصحبون بالمؤمنين في أحكام الدنيا والآخرة، وفي الدرجات العالية من الجنة، لأنهم آمنوا كإيمانهم، وعملوا كعملهم، فيجزون جزاءهم، ولم يحكم عليهم بأنهم المؤمنون ولا من المؤمنين، وإن كانوا قد صاروا مؤمنين، تنفيراً مما كانوا عليه من عظم كفر النفاق، وتعظيماً لحال من كان ملتبساً بها، ومعنى مع المؤمنين رفقاؤهم ومصاحبوهم في الدارين كما مر آنفاً.

والخلاصة[2]: أن هذا الجزاء الشديد ـ الذي أعده الله للمنافقين ـ لا يكون للذين تابوا من النفاق والكفر، وندموا على ما فرط منهم وأتبعوا ذلك بأمور ثلاثة:

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

١ ـ اجتهادهم في صالح الأعمال التي تغسل أدران النفاق، بأن يلتزموا الصدق في القول والعمل، مع الأمانة والوفاء بالوعد، ويخلصوا النصح لله ورسوله، ويقيموا الصلاة مع الخشوع والخضوع، ومراقبة الله في السر والعلن.

٢ ـ اعتصامهم بالله، بأن يكون غرضهم من التوبة وصلاح العمل مرضاة الله مع التمسك بكتابه، والتخلق بآدابه، والاعتبار بمواعظه، والرجاء في وعده، والخوف من وعيده، والائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

٣ ـ إخلاصهم لله بأن يدعوه وحده، ولا يدعوا من دونه أحداً لكشف ضر، ولا لجلب نفع، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصاً له وحده، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ وكما جاء في قوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ويعطي ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جزيلاً في الآخرة، ودرجات عالية في الجنة، لا يقدر قدره، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

فائدة: وحذفت[1] الياء من ﴿يُؤْتِ﴾ في الخط مع عدم الجازم كما حذفت في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها، ومثله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ و﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ و﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ ونحوها، فإن الحذف في الجميع لالتقاء الساكنين، والقراء يقفون عليه دون ياء اتباعاً للخط الكريم، إلا يعقوب: فإنه يقف بالياء نظراً إلى الأصل، وروي ذلك عن الكسائي وحمزة.

ثم بين أن تعذيبهم إنما كان لكفرهم بأنعم الله عليهم فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ والاستفهام فيه إنكاري، بمعنى النفي؛ أي: لا يعذبكم إن حصل منكم الشكر والإيمان، والمعنى: أي منفعة له في عذابكم إن

(١) الشوكاني والسمين.

شكرتم وآمنتم، فإن ذلك لا يزيد في ملكه، كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه، فهل[1] يعذبكم الله لأجل التشفي من الغيظ أم لطلب النفع أم لدفع الضر، كما هو شأن الملوك، وكل ذلك محال في حقه تعالى، وإنما التعذيب أمر يقتضيه كفركم، فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر انتفى التعذيب، وتقديم الشكر على الإيمان لأن الإنسان إذا نظر في نفسه.. رأى النعمة العظيمة حاصلة في تخليقها وترتيبها، فيشكر شكراً مجملاً، ثم إذا تمم النظر في معرفة المنعم.. آمن به، ثم شكر شكراً مفصلاً، فكان ذلك الشكر المجمل مقدماً على الإيمان.

والخلاصة: أنه تعالى لا يعذب أحداً من خلقه انتقاماً منه، ولا طلباً لنفع،، ولا دفعاً لمضرة، لأنه تعالى غني عن كل أحد، منزه عن جلب منفعة له، وعن دفع مضرة عنه، بل ذلك جزاء كفرهم بأنعم الله عليهم، فهو قد أنعم عليهم بالعقل والحواس والجوارح والوجدان، لكنهم استعملوها في غير ما خلقت لأجله من الاهتداء بها، لتكميل نفوسهم بالفضائل والعلوم والمعارف، كما كفروا بخالق هذه القوى، فاتخذوا له شركاء، ولا ينفعهم تسميتهم شفعاء أو وسطاء، حتى فسدت فطرتهم، ودنست أرواحهم، ولو آمنوا وشكروا.. لطهرت أرواحهم، وظهرت آثار ذلك في عقولهم، وسائر أعمالهم التي تصلحهم في معاشهم ومعادهم، واستحقوا بذلك رضوان الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَاكِرًا﴾؛ أي: قابلاً لأعمالكم مثيباً عليها، موفياً أجوركم، وأتى[2] في صفة الشكر باسم الفاعل بلا مبالغة؛ ليدل على أنه يتقبل ولو أقل شيء من العمل وينميه ﴿عَلِيمًا﴾ بشكركم وإيمانكم، فيجازيكم، وفي قوله: ﴿عَلِيمًا﴾ تحذير وندب إلى الإخلاص لله تعالى.

الإعراب

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿الَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾ الثاني، ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾ الأخير، ﴿كُفْرًا﴾: مفعول به لـ﴿ازْدَادُوا﴾، وإنما عطفنا كلاً من المعطوفات على ما قبله جرياً على القاعدة: أن المعطوفان إذا كثرت، وكان العطف بمرتب.. يعطف كل على ما قبله، وإن كان العطف بواو.. كان العطف على الأول دائماً، ذكره الشيخ الحامدي على «شرح الكفراوي».

﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَكُنِ﴾: مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وهو من الأفعال الناقصة، ﴿اللَّهُ﴾: اسمها، ﴿لِيَغْفِرَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود، ﴿يغفر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يغفر﴾ ومفعول ﴿يغفر﴾ محذوف، تقديره: كفرهم، وجملة ﴿يغفر﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لم يكن الله لغفرانهم، الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه خبراً لـ﴿يكن﴾ تقديره: لم يكن الله مريداً لغفرانهم، هذا على مذهب البصريين وهو الراجح، وجملة ﴿يَكُنِ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد نفي ما قبلها، ﴿اللام﴾ حرف جر وجحود، ﴿يهدي﴾ منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، و﴿الهاء﴾: ضمير الغائبين في محل النصب مفعول أول، ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول ثان، وجملة ﴿يهدي﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله، والتقدير: لم يكن الله مريداً لغفرانهم، ولا مريداً لهدايتهم سبيلاً.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ،

والجملة مستأنفة، ﴿بِأَنَّ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم لـ﴿أنَّ﴾، ﴿عَذَابًا﴾: اسمها مؤخر، ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بكون عذاب أليم لهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَشِّرِ﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾، ﴿يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يَتَّخِذُونَ﴾، تقديره: يتخذون الكافرين أنصاراً حالة كونهم متجاوزين في اتخاذهم اتخاذ المؤمنين، ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿يبتغون﴾: فعل وفاعل، والجملة جملة استفهامية إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿عِندَهُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يبتغون﴾، ﴿الْعِزَّةَ﴾: مفعول به، ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿الْعِزَّةَ﴾: اسمها، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿لِلَّهِ﴾ لاعتماده على المبتدأ، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف، مفهوم من الاستفهام الإنكاري، تقديره: لا ينبغي ابتغاء العزة عند غير الله تعالى، لكون العزة لله سبحانه وتعالى جميعاً وفي «الفتوحات»[١] قوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ دخلت ﴿الفاء﴾ لما في الكلام من معنى الشرط، إذ المعنى: إن تبتغوا من هؤلاء عزة اهـ «سمين». وعبارة أبي السعود: وهذه الجملة تعليل لما يفيده الاستفهام الإنكاري من بطلان رأيهم، وخيبة رجائهم، فإن انحصار جميع أفراد العزة في جنابه عز وعلا بحيث لا ينالها إلا أولياؤه الذين كتب لهم العزة والغلبة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ يقتضي

(١) الجمل.

بطلان الاعتزاز بغيره سبحانه جل وعلا، واستحالة الانتفاع به، وقيل: هي جواب شرط محذوف، كأنه قيل: إن تبتغوا عندهم عزة فإن العزة للّه جميعاً اهـ.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾، وكذا ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾، ﴿أَنْ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، تقديره: أنه، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿سَمِعْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿يُكْفَرُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل أصله: يكفر بها أحد، فحذف الفاعل، وأقيم الجار والمجرور مقامه، والجملة في محل النصب حال من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَيُسْتَهْزَأُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿بِهَا﴾: نائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾، على كونها حالاً من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حالة كونها مكفوراً بها ومستهزءاً بها، ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً لكون الجواب جملة طلبية، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تَقْعُدُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَقْعُدُوا۟﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع خبر ﴿أَنْ﴾ المخففة، وجملة ﴿أَنْ﴾ المخففة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية على قراءة ﴿نَزَّلَ﴾ بالبناء للفاعل، أو مرفوع على النيابة عن الفاعل على قراءة البناء للمفعول، تقديره: على القراءة الأولى: وقد نزل عليكم في الكتاب عدم قعودكم مع الكفار والمنافقين وقت سماعكم آيات الله يكفر بها ويستهزء بها، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يَخُوضُوا۟﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد

﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، ﴿فِي حَدِيثٍ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿غَيْرِهِۦٓ﴾: صفة لـ﴿حَدِيثٍ﴾ على تأويله بمشتق؛ أي: مغاير إياه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى إلى، تقديره: إلى خوضهم في حديث غيره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَقْعُدُوا۟﴾ ﴿إِنَّكُمْ﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الكاف﴾ اسمها، ﴿إِذًا﴾: ههنا[١] ملغاة، لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يذكر بعدها الفعل، ﴿مِّثْلُهُمْ﴾: خبر ﴿إن﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر مسوقة لتعليل النهي المذكور قبله. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿جَامِعُ﴾: خبرها، ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: مضاف إليه، ﴿وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَامِعُ﴾، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر مسوقة لتعليل ما قبلها؛ أي[٢]: معللة لكونهم مثلهم في الكفر ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب.

• ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والمعنى: بشر الذين يتربصون بكم، ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿بِكُمْ﴾: متعلق به، ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: تفصيلية، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كان﴾، ﴿فَتْحٌ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿فَتْحٌ﴾؛ أي: فإن كان فتح من الله كائنا لكم، ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جملة مفصلة لجملة الصلة لا محل لها من الإعراب، ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت ﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿نَكُن﴾: فعل ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾

---

(١) العكبري.
(٢) أبو السعود.

واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾. ﴿مَّعَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿نَكُن﴾ تقديره: ألم نكن كائنين معكم، والجملة في محل النصب مقول القول.

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كان﴾، ﴿نَصِيبٌ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ التي قبلها. ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿نَسْتَحْوِذْ﴾: فعل مضارع مجزوم لـ﴿لم﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿وَنَمْنَعْكُم﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿نَسْتَحْوِذْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق به، ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿اللَّه﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَحْكُمُ﴾، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متعلق أيضاً بـ﴿يَحْكُمُ﴾، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَجْعَلَ﴾، ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق أيضاً بـ﴿يَجْعَلَ﴾ أو حال من ﴿سَبِيلًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها فيعرب حالاً ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول،

والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ أو من مفعوله. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قَامُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: متعلقان بـ﴿قَامُوٓاْ﴾ الأولى. ﴿قَامُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿كُسَالَىٰ﴾: حال من فاعل ﴿قَامُوٓاْ﴾، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع معطوفة على خبر ﴿إِنَّ﴾ أخبر عنهم بهذه الصفات الذميمة، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿كُسَالَىٰ﴾، أو بدل من ﴿كُسَالَىٰ﴾، كما قاله أبو البقاء، وفيه نظر لأن الثاني ليس كلاً للأول ولا بعضه، ولا مشتملاً عليه، أو الجملة مستأنفة، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرَآءُونَ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿قَلِيلًا﴾: نعت لمصدر محذوف، تقديره: إلا ذكراً قليلاً.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يُرَآءُونَ﴾، أو منصوب على الذم، ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾، ﴿لَآ﴾: نافية، ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير المستكن في ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾، تقديره: حالة كونهم لا منسوبين إلى هؤلاء المؤمنين، ولا منسوبين على هولاء الكافرين، ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَآ﴾: نافية، ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب، ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَلَن﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿لن﴾: حرف نصب، ﴿تَجِدَ﴾: منصوب بـ﴿لن﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به، لأنه

من وجدان الضالة، فله مفعول واحد لا من وجد بمعنى علم، وجملة ﴿تَجِدَ﴾ في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾: ناف وفعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾. ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، ﴿تريدون﴾: فعل وفاعل، والجملة جملة انشائية مستأنفة، ﴿أَن تَجْعَلُواْ﴾ ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: أتريدون جعلكم لله سلطاناً مبينا عليكم، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَجْعَلُواْ﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿سُلْطَٰنًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿سُلْطَٰنًا﴾: مفعول به، ﴿مُّبِينًا﴾ صفة له.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: اسمها، ﴿فِى ٱلدَّرْكِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿ٱلْأَسْفَلِ﴾: صفة لـ﴿ٱلدَّرْكِ﴾، ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلدَّرْكِ﴾، والعامل فيه معنى الاستقرار في الجار والمجرور لاعتماده على المخبر عنه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لن﴾: حرف نفي ونصب، ﴿تَجِدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به أو حال من ﴿نَصِيرًا﴾، ﴿نَصِيرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على خبر ﴿إن﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب على

الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، أو من الضمير المجرور في ﴿لَهُمْ﴾، ﴿تَابُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟﴾: معطوفان على ﴿تَابُوا۟﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿اعتصموا﴾، ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَابُوا۟﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أخلصوا﴾، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية لأن الفاء بعد الاستثناء تكون للتعليل غالباً، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر المبتدأ، تقديره: فأولئك كائنون مع المؤمنين، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية المعللة بمعلول محذوف، تقديره: وإنما استثنينا هؤلاء لكونهم مع المؤمنين، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿وَسَوْفَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس، ﴿يُؤْتِ﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، وحذفت الياء في خط المصحف العثماني تبعاً للفظ، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول أول، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان لأتى لأن أتى هنا بمعنى أعطى يتعدى إلى مفعولين، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ﴿أَجْرًا﴾.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

﴿مَّا﴾: اسم استفهام في محل النصب مفعول مقدم وجوباً لكونه مما يلزم الصدارة، ﴿يَفْعَلُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والاستفهام هنا للإنكار بمعنى النفي، كما مر في بحث التفسير؛ أي: لا يفعل الله عذابكم، ﴿بِعَذَابِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَفْعَلُ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿شَكَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿وَءَامَنتُمْ﴾: معطوف عليه، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها، تقديره: إن شكرتم وآمنتم لا يعذبكم الله، والجملة مستأنفة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كان اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمها، ﴿شَاكِرًا﴾: خبر أول لها، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ ازداد بمعنى زاد، لازماً ومتعدياً، يقال ازداد الشيء إذا طلب منه الزيادة، أصله ازتيد على وزن افتعل، قلبت تاء الافتعال دالاً فصار ازديد، فيقال تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار ازداد. ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ العزة والعز بكسر أولهما مصدران لعزه يعزه عزاً وعزة إذا غلبه، والعزة الغلبة والقوة. ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ﴾ يقال خاض خوضاً من باب قال، والخوض[1] الاقتحام في الشيء، تقول خضت الماء خوضاً وخياضاً، وخضت الغمرات اقتحمتها، وخاضه بالسيف حرك سيفه في المضروب، وتخاوضوا في الحديث إذا تفاوضوا فيه، والمخاضة موضع الخوض، والخوضة بفتح الخاء اللؤلؤة، واختاض بمعنى خاض، وتخوض إذا تكلف الخوض.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ في «المصباح» يقال: تربصت الأمر تربصاً انتظرته، والربصة وزان الغرفة، اسم منه وتربصت الأمر بفلان انتظرت وقوعه به، ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ وقولهم نستحوذ واستحوذ مما شذ قياساً، وفصح استعمالاً، لأن من حقه نقل حركة حرف علته إلى الساكن قبلها، وقلبها ألفاً، كاستقام، واستعان، واستبان، وبابه، والاستحواذ: التغلب على الشيء والاستيلاء عليه، ومنه: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، يقال: حاذ وأحاذ بمعنى والمصدر الحوذ.

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ والخادع اسم فاعل من خادعته فخدعته، إذا غلبته وكنت أخدع منه، ﴿كسالى﴾ بضم الكاف على قراءة الجمهور جمع كسلان، كسكارى جمع سكران، والضم لغة أهل الحجاز، وفعلان[2] هذا يجمع على فعالى كهذا، وعلى فعالى كغضبان وغضابى، والكسل الفتور عن الشيء والتواني فيه، وهو ضد النشاط، وأكسل إذا جامع وفتر ولم ينزل، وقال بعضهم في ذم الفلاسفة:

وَمَا ٱنْتَسَبُوْا إِلَىٰ ٱلإِسْلاَمِ إلاَّ ... لِصَوْنِ دِمَائِهِمْ أَنْ لاَ تُسَالاَ
فَيَأْتُوْنَ ٱلْمَنَاكِرَ فِيْ نَشَاطِ ... وَيَأْتُوْنَ ٱلصَّلاَةَ وَهُمْ كُسَالَىٰ

---

(١) البحر المحيط. (٢) النهر.

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ وأصل يراؤون يُرائِيُون، فأُعل كنظائره، والجمهور على أن يراؤون من المفاعلة، قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى: وهي مفاعلة من الرؤية؟

قلت: أن المرائي يريهم عمله، وهم يرونه إستحسانه.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ جمع مذبذب اسم مفعول من ذبذب، وفي «المصباح» ذبذبه ذبذبة إذا تركه حيران متردداً، وفي «أبي السعود»: حقيقة المذبذب ما يذب ويدفع عن كلا الجانبين مرة بعد أخرى، وعبارة البيضاوي: والمعنى مرددين بين الإيمان والكفر، من الذبذبة وهي جعل الشيء مضطرباً، وأصل الذب بمعنى الطرد، وقرىء بكسر الذال بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم، أو يذبذبون كقولهم: صلصل بمعنى تصلصل، وزلزل بمعنى تزلزل، وفي «الشوكاني»: الذبذبة الاضطراب، يقال ذبذبه فتذبذب ومنه قول النابغة:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلـلَّـهَ أَعْـطَـاكَ سُـوْرَةً   تَـرَىٰ كُـلَّ مُـلْـكٍ دُوْنَـهَـا يَـتَـذَبْـذَبُ

قال ابن جني: المذبذب القلق الذي لا يثبت على حال اهـ. وقرىء: بالدال المهملة بمعنى أخذوا تارة في دبة وتارة في دبة، وهي الطريقة، ومنه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: اتبعوا دبة قريش؛ أي: طريقتهم اهـ «زكريا».

﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ السلطان يذكر ويؤنث، فتذكيره باعتبار البرهان، وتأنيثه باعتبار الحجة، إلا أن التأنيث أكثر عند الفصحاء، وقال الفراء: التذكير أشهر، وهي لغة القرآن.

﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ قرأ الكوفيون بخلاف من عاصم: الدرك بسكون الراء، والباقون بفتحها، وفي ذلك قولان:

أحدهما: أن الدَّرْك والدَّرَك لغتان بمعنى واحد، كالشَّمْع والشَّمَع، والغَدْر والغدر.

والثاني: أن الدرك بالفتح جمع دركة، على حد بقر وبقرة، والدرك مأخوذ من المداركة وهي المتابعة، والدركات بالكاف منازل أهل النار، والدرجات

بالجيم منازل أهل الجنة، وسميت طبقات النار دركات لأن بعضها مدارك لبعض؛ أي: متابعه، فالدرك ما كان إلى أسفل، والدرج ما كان إلى فوق.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة[1]:

فمنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ و﴿خَٰدِعُهُمۡ﴾، وفي قوله: ﴿شَكَرۡتُمۡ﴾ و﴿شَاكِرًا﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿جَامِعُ﴾ و﴿جَمِيعًا﴾، وفي قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾، وفي ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ﴾ و﴿قَامُواْ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾، وفي قوله: ﴿لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾، وفي قوله: ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾، وفي قوله: ﴿فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ﴾، وفي قوله: ﴿سَبِيلًا﴾، وهذه كلها للأجسام استعيرت للمعاني.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ و﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار تهكماً.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ والغرض منه التقريع والتوبيخ.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ إذا كان الخطاب للمنافقين.

ومنها: التكرار أيضاً في: اسم الله، وفي قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ و﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الإشارة في مواضع.

ومنها: الاستعارة في: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة، وفي ﴿سَبِيلًا﴾، وفي ﴿سُلْطَٰنًا﴾ لقيام الحجة، والدرك الأسفل لانخفاض طبقاتهم في النار، واعتصموا للالتجاء.

ومنها: الحذف في مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بمعنى كلامه وبمراده به

* * *

(١) وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى لي من تفسير الجزء الخامس من القرآن الكريم، فالحمد لله على توفيقه، والشكر له على تنسيقه، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشة، ومداد كلماته صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين على سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.
وكان الفراغ من مسودة هذا المجلد السادس في اليوم الرابع والعشرين قبيل المغرب من شهر الله المحرم المبارك، من سنة تسع وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، بحارة الرشد من المسفلة من مكة المكرمة، زادها الله شرفاً، وختم عمرنا فيها، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.
تم بعون الله تعالى المجلد السادس من شرح حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ويليه المجلد السابع، وأوله قوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ رقم (١٤٨) من الآيات سورة النساء. وما أحسن قول العلامة الحريري في ملحمة الإعراب:

وَإِنْ تَجِدْ عَيْباً فَسُدَّ الْخَلَلاَ ... فَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيْهِ وَعَلَا

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد السابع

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

وَإِنْ تَجِدْ عَيْبَاً فَسُدَّ ٱلْخَلَلاَ وَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيْهِ وَعَلاَ
وَلِبَنِي سَبْعٍ وَخَمْسِيْنَ سَنَهْ مَعْذِرَةٌ مَقْبُوْلَةٌ مُسْتَحْسَنَهْ

آخرُ

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخرُ

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرْجَىٰ وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُوْنُ
فَٱصْبِرْ وَإِنْ طَالَتِ ٱللَّيَالِيْ فَرُبَّمَا أَمْكَنَ ٱلْحَزُوْنُ(١)
وَرُبَّمَا نِيْلَ بِٱصْطِبَارِ مَا قِيْلَ هَيْهَاتَ لاَ تَكُوْنُ

---

(١) الحزون ـ بفتح الحاء المهملة وضم الزاي ـ: الشاة السيئة الخلق اهـ. قاموس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على إفضاله، والصلاة والسلام على نبيه وآله، سيدنا محمد من القرآنُ مِنْ خُلُقِهِ وحالِه.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُوا۟
خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ
وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا
مُّهِينًا (١٥١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ
أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ
فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟
ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ
ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا
(١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ
طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا (١٥٦)
وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ
إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة.. ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبائح إلا في حقِّ منْ زاد ضرره وعظم خطره، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر. ثم تحدث عن اليهود، وعدد بعض جرائمهم الشنيعة، كطلبهم رؤية الله جهرةً، وعبادتهم للعجل، وادعائهم صلب المسيح، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة، إلى غير ما هناك من قبائح وجرائم شنيعة.

وعبارة المراغي هنا قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين كثيراً من عيوب المنافقين ومفاسدهم لإقامة الحجة عليهم وحذر المؤمنين من مثل أعمالهم وأخلاقهم ـ كما قال: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ بين هنا حكم الجهر بالسوء من القول، وإبداء الخير وإخفائه؛ حتى لا يستدل المؤمنون بذكر عيوب المنافقين والكافرين في القرآن على استحباب الجهر بالسوء من القول أو مشروعيته إذا كان حقاً على الإطلاق، فيفشوا ذلك، وفي هذا من الضرر ما سنذكره. وفي «الجمل»: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن ما تقدم فيه ذكر قبائح المنافقين وإيذائهم للمؤمنين، فالمؤمنون مظلومون، فيجوز لهم ذكر سوئهم جهراً، وأيضاً تناسب قوله شاكراً، أي: سواء كان سراً أو جهراً، وهذا ضده. انتهى.

وقال أبو حيان(١): مناسبة هذه الآية لما قبلها هي: أنه تعالى لمَّا ذكر من أحوال المنافقين وذمهم وإظهار فضائحهم ما ذكر وبين ظلمهم واهتضامهم جانب المؤمنين.. سوغ هنا للمؤمنين أن يذكروهم بما فيهم من الأوصاف الذميمة، وقال عليه السلام: «اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس» انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما بين ما عليه المنافقون من سوء الخليقة ومذموم الطريقة.. أخذ في الكلام على اليهود والنصارى وجعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل، وكفرهم بالرسل كفراً بالله.

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] بين في سابق الآيات حال الذين يكفرون بالله ورسله ويفرقون بين الله ورسله فيقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض وهم أهل الكتاب.. بين في هذه الآيات بعض حوادث لليهود تدل على شديد تعنتهم وجهلهم بحقيقة الدين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ...﴾ الآية، سبب نزولها: أن رجلاً استضاف قوماً فلم يحسنوا ضيافته، فلما خرج.. تكلم فيهم جهراً بسوء. وقيل: إن سبب نزولها أن رجلاً نال من أبي بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ حاضر، فسكت عنه مراراً، ثم رد عليه، فقام النبي ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، شتمني فلم تقل شيئاً، حتى إذا رددت عليه قمت؟! فقال له: «إن ملكاً كان يجيب عنك، فلما رددت عليه.. ذهب الملك وجاء الشيطان، فقمت» فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ الآية، سبب نزولها[3]: ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناسٌ من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاءنا بالألواح من عند الله، فأْتنا بالألواح حتى نصدقك، فأنزل اللّهُ عزَّ وجل: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾ فجثا رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) اللباب النقول.

ولا على أحد شيئاً، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ. . .﴾ الآية.

ورُوي: أن كعباً وأصحابه وفنحاص قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنتَ رسولاً من عند الله. . فأْتنا بكتاب من السماء جملة، كما جاء موسى بالألواح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ولا يرضى من أحد ﴿ٱلْجَهْرَ﴾ والإظهار أو الإسرار ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ والقبيح حالة كونه كائناً ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أو الفعل، والجهر ليس بقيد، وكذا القول ليس بقيد. ومعنى حب الله لشيء: هو الرضا به والإثابة عليه، والجهر يقابل السر والإخفاء. والسوء من القول: هو ما يسوء من يقال فيه، كذكر عيوبه ومساويه التي تؤذي كرامته؛ أي: لا يحبُّ الله رفع الصوت بالسوء؛ أي: بأحوال الناس المكتومة؛ كغيبة ونميمة، فإن العاقل من اشتغل بعيوبه.

والمعنى: أنه تعالى لا يحبّ من عباده أن يجهروا فيما بينهم بذكر العيوب والسيئات؛ لما في ذلك من المفاسد الكثيرة التي من أهمها:

١ ـ أنه مجلبة للعداوة والبغضاء بين من يجهر بالسوء ومن ينسب إليه هذا السوء، وقد يصل الأمر إلى هضم الحقوق وسفك الدماء.

٢ ـ وأنه يؤثر في نفوس السَّامعين تأثيراً ضارّاً بهم، فقد جرت العادة بأن الناس يقتدي بعضهم ببعض، فمن رأى إنساناً يسب آخر لضغائن بينه وبينه أو لكراهته إياه. . قلده في ذلك ولا سيما إذا كان من الأحداث الذين يغلب عليهم التقليد، أو من طبقة دون طبقته؛ إذ عامة الناس يقلدون خواصهم، فإذا ظهرت المنكرات في الخاصّة لا تلبث أن تصل إلى العامّة وتفشو بينهم، ومن تميل نفسه إلى منكر أو فاحشة. . يجترىء على ارتكابهما إذا علم أن له سلفاً وقدوةً فيهما، فسماع السّوء كعمل السوء، فذاك يؤثر في نفس السامع، وهذا يؤثّر في نفس الرائي والناظر، وأقل هذه الأضرار: أنه يضعف في النفس استقباحه واستبشاعه، خصوصاً إذا تكرر السماع أو النظر. وكثير من الناس يجهل مبلغ تأثير الكلام في القلوب، فلا ينزهون ألسنتهم عن السوء من القول ولا أسماعهم عن الإصغاء إليه.

والخلاصة: أن اللَّهَ لا يحبُّ الجهر بالسُّوء من القول، ولا الإسرار به؛ إذ هو قد نهى عن النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، لكنَّه خص الجهر هنا بالذكر؛ لمناسبة بيان مفاسد الكفار والمنافقين في هذا السياق، والجهر بالسوء أشد ضرراً من الإسرار به؛ لأن ضرره وفساده يفشو في جمهرة الناس ويعم سائر الطبقات.

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ قيل: الاستثناء فيه متصل، والمعنى عليه: لا يحبّ الله[1] تعالى أن يجهر أحد بالسّوء كائناً من القول إلا جهر من ظلم فهو غير مَسْخوطٍ عليه عنده تعالى، وذلك بأن يقول: سرق فلان مالي، أو غصبني، أو سبني، أو قذفني، ويدعو عليه دعاء جائزاً؛ بأن يكون بقدر ظلمه، فلا يدعو عليه بخراب دياره لأجل أخذ ماله منه، ولا يسب والده وإن كان هو فعل ذلك، ولا يدعو عليه لأجل ذلك بالهلاك، بل يقول: اللهمَّ خلص حقي منه، أو اللهمَّ جازه أو كافئه، ولا يجوز أن يدعو عليه بسوء الخاتمة أو الفتنة في الدين. وقيل:[2] الاستثناء فيه منقطع، والمعنى عليه: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾، أي: لكن من ظلمه ظالم فجهر بالشكوى من ظلمه شارحاً ظلامته لحاكم أو غيره ممن ترجى نجدته ومساعدته على إزالة هذا الظلم.. فلا حرج عليه في ذلك؛ فإن الله لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظّلم، ولا أن يخضعوا للضيم، بل يحب لهم العزة والإباء، فها هنا تعارضت مفسدتان: مفسدة الجهر بالشكوى من الظلم بقول السوء، ومفسدة السكوت على الظلم وهو مدعاة فشوه والتمادي فيه، وذاك مما يؤدي إلى هلاك الأمم وخراب العمران، وكانت ثانيهما أخف الضررين فأجيزت للضرورة التي تقدر بقدرها. وإذاً: فلا يجوز للمظلوم أن يتمادى في الجهر في السوء بما لا دخل له في دفع الظلم، وفي الحديث: «إن لصاحب الحق مقالاً». رواه الإمام أحمد.

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ ابن عباس وابن عمر وابن جبير وعطاء بن السائب والضحاك وزيد بن أسلم وابن أبي إسحاق ومسلم بن يسار والحسن وابن المسيب وقتادة وأبو رجاء: ﴿إلا من ظَلَمَ﴾ مبنياً للفاعل، وعلى هذه[٢] القراءة فالاستثناء منقطع؛ أي: إلا من ظَلَم في فعل أو قول فاجهروا له بالسوء من القول في معنى النهي عن فعله والتوبيخ له. وقال قوم: معنى الكلام: لا يحب اللَّهُ أن يَجهر أحد بالسوء من القول، لكن مَنْ ظَلَمَ.. فإنه يجهر بالسوء ظلماً وعدواناً وهو ظالم في ذلك، وهذا شأن كثير من الظلمة؛ فإنهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم على من ظلموه وينالون من عرضه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعًا﴾ لِمَا يجهر به من السّوء، فلا يفوته قولٌ من أقوال مَنْ يجهر بالسوء ﴿عَلِيمًا﴾ بما يسر به منه، فلا يعزب عن علمه البواعث التي أدت إليه؛ إذ لا يخفى عليه شيء من أقوال العباد ولا من أفعالهم ونياتهم، فمن جهر بالسوء الذي لا يحبه اللَّهُ لعباده لضرره ومفسدته لظلم وقع عليه.. فإنه لا يؤاخذه، بل ربما أثابه على ذلك؛ لإراحة الناس من شر فاعله، فإن الظالم إن لم يؤاخذ على ظلمه يزداد فيه ضراوة وإصراراً. وقيل: سميعاً لكلام المظلوم، عليماً بالظالم. وقيل: سميعاً بشكوى المظلوم، عليماً بعقبى الظالم، أو عليماً بما في قلب المظلوم، فليتقِ الله ولا يقل إلاّ الحق. وهذه الجملة خبر، ومعناه: التهديد والتحذير ﴿إِن تُبْدُواْ﴾ وتظهروا ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: عمل بر وخير؛ كالصلاة والصيام والصدقة مثلاً ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾؛ أي: تخفوا الخير وتعملوه سراً ﴿أَوْ تَعْفُواْ﴾ وتسامحوا ﴿عَن سُوٓءٍ﴾؛ أي: عن مظلمة لكم المؤاخذة عليها؛ أي: تسامحوا عن ظلم من ظلمكم وهذا هو المقصود من الكلام[٣]. وذكر إبداء الخير وإخفائه توطئة له، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وهذا تعليل لجواب الشرط المحذوف، تقديره: فهو أولى لكم من تركه؛ أي: فالعفو عن السوء أولى وأصلح لكم من ترك العفو؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَفُوًّا﴾؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) البيضاوي.

كثير[1] العفو عن ذنوب المذنبين مع قدرته على الانتقام منهم، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى يعف عنكم يوم القيامة، لأنه أهل للتجاوز والعفو عنكم، كما قاله الحسن: ﴿قَدِيرًا﴾؛ أي: أقدر على عفو ذنوبك منك على عفو ذنوب من ظلمك، كما قاله الكلبي. وقيل: المعنى: إن الله كان عفواً لمن عفا، وهو: المظلموم، قديراً على إيصال الثواب إليه وعقوبة الظالم، وقيل:[2] المراد بالخير: المال.

والمعنى: إن تبدوا الصدقة فتعطوها الفقراء جهراً أو تخفوها فتعطوها سراً، أو تعفوا عن مظلمة.. فإن الله كان عفواً لمن عفا، قديراً على إيصال الثواب إليه. وبالجملة فهو حث للمظلوم على عفو ما رُخص له في الانتصار منه، حثاً له على مكارم الأخلاق.

والخلاصة: أن فاعلي الخير سراً وجهراً والعافين عمن يسيء إليهم.. يجزيهم ربهم من جنس ما عملوا، فيعفو عن سيئاتهم ويجزل مثوبتهم، والله من شأنه العفو، وهو القدير الذي لا يعجزه الثواب الكثير على العمل القليل.

واعلم: أن جميع مواضع الخيرات على كثرتها محصورة في قسمين[3]:

أحدهما: صدق النية مع الحق.

والثاني: التخلق مع الخلق. فالذي يتعلق بالخلق ينحصر في قسمين أيضاً، وهما:

إيصال نفعٍ إليهم في السّر والعلانية، وهو المشار إليه بقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾.

ودفع ضرر عنهم، وهو المشار إليه بقوله: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ فدخل في هذين القسمين جميعُ أنواع الخير وأعمالِ البر.

ولما فرغ من ذكر المشركين والمنافقين.. ذكر الكفار من أهل الكتاب،

---

(١) المراح.

(٢) الخازن.

(٣) الخازن والمراح.

وهم اليهود والنصارى؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل والكتب المنزلة، والكفر بذلك كفر بالله تعالى، وينبغي حمل معنى الآية على هذا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ﴾ بمحمد ﷺ صراحة المستلزم كفرهم به كفرهم ﴿بِٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿و﴾ بجميع ﴿رسله﴾ تعالى[1]، لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعاً؛ فإن أهلَ الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله، لكنهم لما كفروا بالبعض.. كان ذلك كفراً بالله وبجميع الرسل، ومعنى قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ﴾ الإيمان بـ ﴿الله و﴾ بين الإيمان بـ ﴿رسله﴾؛ لأنهم كفروا بالرسل، بسبب كفرهم ببعضهم وآمنوا بالله، فكان ذلك تفريقاً بين الله وبين رسله ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ﴾ الرسل ﴿وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ﴾ الرسل وهم اليهود، آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد ﷺ، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى، وكفروا بمحمد ﴿وَيُرِيدُونَ﴾؛ أي: يقصدون بقولهم ذلك ﴿أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: أن يجعلوا بين الإيمان بالكل وبين الكفر بالكل ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: ديناً متوسطاً بينهما، وهو الإيمان بالبعض والكفر بالبعض، والحال أنه لا واسطة بين الإيمان والكفر؛ إذ الحق لا يختلف، فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله، وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ فالإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى قوله نؤمن ونكفر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المفرقون بين الله وبين رسله ﴿هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: هم الذين كفروا كفراً ﴿حَقّٗاۚ﴾؛ أي: ثابتاً يقيناً لا شك فيه؛ لأن الله تعالى قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما من نبي من الأنبياء إلا وقد أخبر قومه بحقيقة دين نبينا محمد ﷺ، فمن كفر بواحد منهم.. فقد كفر بالكل وبالله تعالى، وإنّما قال:[2] حقاً، توكيداً لكفرهم؛ لئلا يتوهم متوهم أن الإيمان ببعض الرسل يزيل اسم الكفر عنهم، وليعلم أن الكفر ببعض الأنبياء كالكفر بكلهم.

﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾؛ أي: هيأنا ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ اليهود والنصارى وغيرهم ﴿عَذَابٗا

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

﴿مُّهِينًا﴾؛ أي: ذا إهانة وإذلال لهم يهانون به في الآخرة جزاءً على كفرهم.

والخلاصة(١): أن الكافرين بالرسل فريقان:

فريق: لا يؤمن بأحد منهم؛ لإنكارهم النبوة وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم لا من عند الله تعالى، وأكثر الملحدين والشوعيين في هذا العصر من ذلك الفريق.

وفريق آخر: يؤمن ببعض الرسل دون بعض، كقول اليهود: نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد فهما ليسا برسولين؛ لأن النسخ عندهم من المستحيل، وكقول النصارى: نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد، وكل من الفريقين مستحقون للعذاب، ولا عبرة بما يدعونه إيماناً. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، أي: وأعددنا لكل كافرٍ، سواء أكان منهم أم من غيرهم عذاباً فيه ذل وإهانة لهم؛ جزاءَ كفرِهِم الذي ظنوا فيه العزة والكرامة، ذاك أن من آمن بالله ولم يؤمن بوحيه إلى رسله.. لا يكون إيمانه صحيحاً، ولا يهتدي إلى ما يجب عليه من الشكر، ولا يعرف كيف يعبده على الوجه الذي يرضيه، ومن ثم ترى أمثال هؤلاء ماديين، لا تهمهم إلا شهواتهم، كما أن من آمن ببعض الرسل وكفر ببعض، كأهل الكتاب.. لا يعتد بإيمانه؛ لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم، ومن فهم هذا حق الفهم.. علم أن صفات الرسل قد ظهرت بأكملها في محمد ﷺ، فهو قد جاء بكتاب حوى ما لم يحوه كتاب آخر، مع أنه نشأ بين قوم أميين، ونقل كتابه وأصول دينه بالتواتر القطعي والأسانيد المتصلة دون غيره من الكتب.

وبعد أن ذكر حال الفريقين السابق ذكرهما ذكر حال فريق ثالث فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾؛ أي: والذين صدقوا بوحدانية الله تعالى ونبوة جميع أنبيائه، وأن جميع ما جاؤوا به من عند الله حق وصدق ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من الرسل بالإيمان به، بل آمنوا بجميعهم، وهم المؤمنون، وإنما

---

(١) المراغي.

﴿بِظُلْمِهِمْ﴾، أي: تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل وقوعه شرعاً في ذلك الوقت، وهو رؤية الله جهرة، وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة؛ فقد جاءت بذلك الأحاديث المتواترة، ومن استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة فقد غلط غلطاً بيناً، ولو طلبوا أمراً جائزاً.. لما سموا ظالمين، ولما أخذتهم الصاعقة، كما سأل إبراهيم عليه السلام أن يريه إحياء الموتى، فلم يسمه ظالماً ولا رماه بالصاعقة ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: فأحييناهم بعد موتهم بالصاعقة، ثم بعد إحيائهم اتخذوا العجل الذي صاغه موسى السامري إلٰهاً، وعبدوه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ والمعجزات على يد موسى عليه السلام من اليد والعصا وفلق البحر وغيرها ﴿فَعَفَوْنَا﴾ وسامحنا لهم ﴿عَنْ ذَلِكَ﴾ الذنب العظيم حين تابوا، وتركنا عبدة العجل فلم نستأصلهم.

والمقصود من هذا[1]: تسلية النبي ﷺ، والمعنى: أنَّ هؤلاء الذين يطلبون منك يا محمد أن تنزل عليهم كتاباً من السماء إنما يطلبونه عناداً ولجاجاً، فإني قد أنزلت التوراة جملة واحدة على موسى، وآتيته من المعجزات الباهرات والآيات البينات ما فيه كفاية، ثم إنهم طلبوا الرؤية على سبيل العناد، وعبدوا العجل، وكل ذلك يدل على جهلهم وأنهم مجبولون على اللجاج والعناد. وفي قوله: ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ استدعاء إلى التوبة.

والمعنى: أنَّ أولئك الذين أجرموا لما تابوا.. عفونا عنهم، فتوبوا أنتم نعف عنكم ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾؛ أي: وأعطينا موسى قهراً ظاهراً وتسلطاً بيِّناً عليهم، فإنه أمرهم بقتل أنفسهم توبةً من عبادة العجل، فبادروا إلى الامتثال، فقتل منهم سبعون ألفاً في يوم واحد، وفي هذا بشارة للنبي ﷺ بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندون فإنك ستغلب عليهم آخراً وتقهرهم.

ثم حكى الله تعالى عنهم سائر جهالاتهم وإصرارهم على أباطيلهم، وقد تقدم بعضها في سورة البقرة، فقال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ﴾؛ أي: قلعنا ورفعنا وحبسنا

---

(١) الخازن.

فوق رؤوسهم ﴿ٱلطُّورَ﴾؛ أي: الجبل المسمى بالطور، وهو جبل معروف هناك، وفي[1] الشام جبل عرف بالطور ولزمه هذا الاسم، وهو طور سيناء، وليس هو المرفوع على بني إسرائيل؛ لأن رفع الجبل كان فيما يلي التيه من جهة ديار مصر، وهم ناهضون مع موسى عليه السلام، وتقدمت قصة رفع الطور في البقرة. ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾، أي: بسبب أخذ الميثاق وجعل العهد عليهم على أن يأخذوا جميع ما أنزل عليهم بقوة ويعملوا به مخلصين حين امتنعوا من قبول شريعة التوراة، فرفع الله عليهم الطور ليخافوا فقبلوها، وأعطوا العهد والميثاق على أَنْ لا يرجعوا عنها.

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ على لسان موسى أو على لسان يوشع عليهما السلام: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾؛ أي: باب هذه القرية، وهي قرية بيت المقدس، أو أريحا حالة كونكم ﴿سُجَّدًا﴾ أي: ركعاً خاضعين مطأطئين الرؤوس مائلي الأعناق ذلة وانكساراً لعظمته؛ أي: وقلنا لهم على لسان يوشع: ادخلوا باب هذه القرية بذلة وانكسار، فخالفوا ودخلوا وهم يزحفون على أستاههم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ قيل: على لسان داود عليه السلام: ﴿لَا تَعْدُوا۟﴾؛ أي: لا تجاوزوا حدود الله ﴿فِى﴾ يوم ﴿ٱلسَّبْتِ﴾ إلى ما لا يحل لكم فيه؛ أي: لا تظلموا باصطياد الحيتان فيه، وذلك أنهم نهوا عن أن يصطادوا السمك في يوم السبت، فاعتدوا واصطادوا فيه، فمسخوا قردة وخنازير، وقيل: المراد به: النهي عن العمل والكسب في يوم السبت.

وقرأ ورش[2]: ﴿لا تعدوا﴾ بفتح العين وتشديد الدال، على أن الأصل: لا تعتدوا، فألقيت حركة التاء على العين وأدغمت التاء في الدال، وقرأ قالون بإخفاء حركة العين وتشديد الدال، والنص بالإسكان، وأصله أيضاً: لا تعتدوا وقرأ الباقون من العشرة ﴿لا تعْدوا﴾ بإسكان العين وتخفيف الدال من عدى يعد، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ وقرأ الأعمش والأخفش ﴿لا تعتدوا﴾ من اعتدى الخماسي. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ الميثاق الغليظ: العهد المؤكَّد

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

باليمين؛ أي: وأخذنا منهم عهداً مؤكدًا شديداً بأن يعملوا بما أمرهم الله به، وأن ينتهوا عما نهاهم الله عنه. ثم إنهم نقضوا ذلك الميثاق، وهو قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ ما[1]: مزيدة للتأكيد، والباء: سببية متعلقة بلعنَّا المحذوف، ويجوز أن تتعلق بـ ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾ فيكون التحريم بسبب النقض، وما عطف عليه إلى قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾؛ أي: لعنَّا أهلَ الكتاب وفعلنا بهم ما فعلنا من لَعْن إلى غضب إلى ضرب الذلة والمسكنة وإزالة الملك والاستقلال بسبب نقضهم للميثاق الذي واثقهم الله به، فأحلوا ما حرمه الله، وحرموا ما أحله الله ﴿و﴾ لعناهم بـ﴿كفرهم﴾ وجحودهم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وحججه الدالة على صدق أنبيائه ﴿و﴾ لعناهم بـ﴿قتلهم الأنبياء﴾ الذين أرسلوا لهدايتهم بعد قيام الحجة والدلالة على صحة نبوتهم؛ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أي: بغير استحقاق لذلك القتل، حتى في زعمهم ﴿و﴾ لعنَّاهم بـ ﴿قولهم﴾ للنبي ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: جمع أغلف، كحمر وأحمر، أي: مغطاة مغشاة، أي: عليها أغطية، وغشاوة، فهي لا تفقه ما تقول، ومحجوبة عليها حجاب لا يصل إليها شيء من الذكر والوعظ ولا يؤثر فيها، وقيل: جمع غلاف، أي: قلوبنا أوعية للعلم، فلا حاجة بنا إلى ما تدعونا إليه، فرد اللَّهُ عليهم بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أظهر القراء لام بل في ﴿بَلْ طَبَعَ﴾؛ إلا الكسائي، فأدغم من غير خلاف، وعن حمزة خلاف؛ أي: ليس الأمر كما قالوا: بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم، فغشيت وغطيت بغطاء معنوي، فلا تعي وعظاً؛ مجازاة على كفرهم، أو جعلها الله كالسكة المطبوعة ـ الدراهم مثلاً ـ في قساوتها، وجعلها بوضع خاص لا تقْبل غيرَه؛ أي: ليس ما وصفوا به قلوبهم هو الحق الواقع، بل لأن الله تعالى ختم عليها بسبب كفرهم الكسبي، وما لَه من الأثر القبيح في أعمالهم وأخلاقهم، فهم باستمرارهم على ذلك الكفر لا ينظرون في شيء آخر نظر استدلال واعتبار، مع أنه من الأمور التي يصل إليها اختيارهم، ولكنّهم لا يختارون إلا ما ألفوا وتعودوا ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: أهل الكتاب ﴿إِلَّا﴾ إيماناً ﴿قَلِيلًا﴾ لا يعتد به، وهو

---

(١) البيضاوي.

إيمانهم بنبيهم وكتابهم فقط؛ لأنه تفريق بين الله ورسله، فالكفر ببعضهم كالكفر بجميعهم، وهم قد كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام، أو لا يؤمنون إلا فريقاً قليلاً منهم؛ كعبد الله بن سلام وأضرابه، وقيل: لا يؤمنون قليلاً ولا كثيراً.
﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: وطبع اللَّهُ على قلوبهم بكفرهم بعيسى عليه السلام؛ لإنكارهم قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون الأب، وهو[1] معطوف على ﴿بكفرهم﴾؛ لأنه من أسباب الطبع، أو معطوف على قوله: ﴿فَبِمَا﴾ نقضهم ويجوز أن يعطف مجموع هذا وما عطف عليه على مجموع ما قبله، ويكون تكرير ذلك الكفر إيذاناً بتكرر كفرهم، فإنهم كفروا بموسى، ثم بعيسى، ثم بمحمد ﷺ ﴿و﴾ طبع الله على قلوبهم بـ ﴿قولهم﴾ وافترائهم ﴿عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾ بنت عمران أمِّ عيسى عليهما السلام ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾؛ أي: كذباً شنيعاً يبهت من يقال فيه، أي: يدهشه ويحيره، لبعده وغرابته. والمراد به هنا: رميها بالفاحشة، حيث رموها بيوسف النجار، وكان من الصالحين بعدما ظهر منها من الكرامات الدَّالة على براءتها من كل عيب؛ فإنها ملازمة للعبادة بأنواع الطاعات، وعيسى تكلَّم حال كونه طفلاً منفصلاً عن أمِّه، والمعنى: إن الله تعالى طبع على قلوبهم بكفرهم بعيسى وأمه ورميهم إيّاها بالكذب العظيم، وأي بهتان أعظم من البهتان الذي تُبهتُ به العذراء التقية.

والخلاصة: أن هذا الكفر والبهتان من أسباب ما حلَّ بهم من غضب الله ﴿و﴾ طبع عليها بـ﴿قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وصلبناه. ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في زعم عيسى نفسه، فإن وصفهم له بوصف الرسالة استهزاء به، أو أن الله وضع الذكرَ الحسن بقوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم، فإنهم قالوا: هو ساحر ابن ساحرة، أو إنَّ ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وصفٌ له من عند الله تعالى مدحاً له، وتنزيهاً له عن مقالتهم التي لا تليق بها. أي: وطبع على قلوبهم بسبب قولهم هذا القول المؤذِن بالجرأة على الباطل والاستهزاء بآيات الله، وذكروه بوصف الرسالة تهكماً واستهزاء بدعوته بناء على أنه إنما ادعى النبوة

---

(١) البيضاوي.

والرسالة فيهم لا ألوهية كما ادعت النصارى، ثم قال تعالى إبطالاً ورداً لدعواهم قتله وصلبه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾؛ أي: ادعوا قتله وصلبه، والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا، وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾؛ أي: ألقي شبه عيسى على غيره حتى قتِل وصلب، فظنّوا أنّهم قتلوا عيسى وصلبوه، وهم إنما قتلوا غيره وصلبوه، قيل: ألقي شبه عيسى على ططيانوس، فقتلوه بدل عيسى. قال أبو حيان: لم نعلم كيفية القتل، ولا من ألقي عليه الشبه، ولم يصح بذلك حديث.

روى[١] النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رهطاً من اليهود سبوه وأمه، فدعا عليهم، فمسخهم اللَّهُ قردةً وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء. ا هـ خطيب. وفي القرطبي في آل عمران قال الضحاك: لمَّا أرادوا قتل عيسى اجتمع الحواريون في غرفة، وهم: اثنا عشر رجلاً، فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة، فأخبر إبليس جميع اليهود، فركب أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة، فقال المسيح للحواريين: أيكم يخرج ويُقْتَل ويكون معي في الجنة؟ فقال رجل: أنا يا نبي الله، فألقى إليه مدرعته من صوف وعمامته من صوف وناوله عكازه، وألقى اللَّهُ عليه شبه عيسى، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه، وأما المسيح فكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة الطعام والمشرب، فصار مع الملائكة ا هـ.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾؛ أي: في شأن عيسى ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾؛ أي: لفي تردد من قتله، وذلك أنهم لما قتلوا الشخص المشبه به.. كان الشبه ألقي على وجهه فقط، ولم يلق على سائر جسده شبه جسد عيسى فلما قتلوه.. نظروا إليه فقالوا: الوجه وجه عيسى، والجسد جسد غيره؛ فاختلفوا، فقال بعضهم: هذا عيسى، وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى، والبدن بدن صاحبنا، فليس هذا المقتول بعيسى. وقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ ﴿مَا لَهُم﴾؛ أي: ما لليهود ﴿بِهِ﴾؛ أي: بقتله ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: من يقين، أقتل أم لم يقتل؟ ﴿إلا اتباع الظن﴾ استثناء منقطع؛ أي: ما لهم

(١) الفتوحات.

في قتله علمٌ حقيقي، ولكنهم يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه بسبب إلقاء الشبه عليه. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾؛ أي: وما قتلوا عيسى بن مريم، وهم متيقنون أنه هو بعينه، إذ لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة؛ إذ الجند الذي أخذوه للقتل ما كانوا يعرفون شخص عيسى معرفة يقينية، بل أخذوا الذي ألقي عليه شبهه ظناً منهم أنه هو المسيح.

والخلاصة: أن روايات المسلمين جميعاً متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أعدائه ومريدي قتله، فقتلوا آخر ظنًّا منهم أنَّه هو.

﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: بل رفع الله سبحانه وتعالى عيسى بن مريم بروحه وجسده إلى موضع لا يجري فيه حكمُ غيرِ الله تعالى ولا يصل إليه حكم آدمي، وذلك الموضع هو السماء الثالثة كما في حديث «الجامع الصغير»: «آدم في السماء الدنيا تعرض عليه أعمال ذريته، ويوسف في السماء الثانية، وابنا الخالة يحيى وعيسى في السماء الثالثة.. إلخ» وفي بعض كتب المعاريج أنه في السماء الثانية.

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزًا﴾ في ملكه ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه، فرَفْعُ عيسى بروحه وجسده من الأرض إلى السماء لا صعوبة فيه بالنسبة إلى قدرة الله تعالى وحكمته؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى عزيزٌ يغلب ولا يغلب، وبهذه العزة أنقذ عبده ورسوله من اليهود الماكرين وحكام الروم الظالمين، وبحكمته جازى كل عامل بعمله، ومن ثم أحل باليهود ما أحل بهم من الذلة والمسكنة والتشريد في الأرض ويوفيهم جزاءهم يوم القيامة - ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ أي: وما أحد من أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿إِلَّا﴾ والله ﴿لَيُؤْمِنَنَّ﴾ ذلك الكتابي ﴿بِهِ﴾؛ أي: بعيسى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾؛ أي: قبل موت ذلك الكتابي، قبل أن تزهق روحه، حين عاين ملائكة الموت، فلا ينفعه إيمانهُ وقتئذ؛ لانقطاع التكليف. والمعنى: وإن كان أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وغيره من أمور الدين، فيؤمن بعيسى إيماناً حقاً لا زيغ فيه ولا ضلال، فاليهودي يعلم أنه رسولٌ صادقٌ في رسالته

ليس بالكذَّاب، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسولُه وليس بإله، وليس هو بابن الله.

وفائدة إخبارهم بذلك: بيان أنه لا ينفعهم حينئذ إيمانهم، فعليهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه مع عدم الجدوى والفائدة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ﴾ عيسى عليه السلام ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أهل الكتاب ﴿شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود: أنهم كذبوه وطعنوا فيه، وعلى النصارى: أنهم أشركوا به، وكل نبي شاهد على أمته، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، وقد ورد في الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم في الآخرة، فيبشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته. روى البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، وإن الكافر إذا حضر ـ حضره الموت ـ بشر بعذاب الله وعقوبته». وروى ابن مردويه عن ابن عباس: «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار» وهذا يؤيد ما روي عن ابن عباس في تفسير الآية: من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح مع الإنكار الشديد والتقبيح.

فصل في بيان الخلاف الجاري في مرجع الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾

واعلم: أنه اختلف المفسرون في هذا الضمير إلى من يرجع[١]:

فقال ابن عباس وأكثر المفسرين: إن الضمير يرجع إلى الكتابي، والمعنى على هذا القول: وما من أحد من أهل الكتاب إلا آمن بعيسى قبل موت ذلك الكتابي، ولكن يكون ذلك الإيمان عند الحشرجة حين لا ينفعه إيمانه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه إذا وقع في اليأس حين لا ينفعه إيمانه، سواء احترق أو تردى من شاهق أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة، فقيل

(١) الخازن.

له: أرأيت إن ضربت عنقه؟ قال: يتلجلج به لسانه. وقال شهر بن حوشب: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة بأجنحتها وجهه ودبره، وقالوا: يا عدو الله، أتاك عيسى نبياً فكذَّبت به! فيقول: آمنت أنه عبد الله ورسولُه، وتقول للنصراني: أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله وابن الله! فيقول: آمنت أنه عبدُ الله، فأهل الكتابين يؤمنون به، ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان.

وذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن الضمير يرجع إلى عيسى عليه السلام، وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، والمعنى على هذا: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتابين إلا آمن بعيسى حتى تكون الملة واحدةً وهي ملة الإسلام.

قال عطاء: إذا نزل عيسى إلى الأرض لا يبقى يهوديٌ ولا نصراني ولا أحدٌ يعبد غير الله إلا آمن بعيسى وأنه عبد الله وكلمته، ويدل على صحة هذا القول: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً مقسطاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد». متفق عليه. زاد في رواية «حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ الآية. وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلنَّ فيكم ابن مريم حَكَماً عادِلاً، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد». أخرجاه في «الصحيحين».

ففي هذا الحديث دليل على: أن عيسى ينزل في آخر الزمان في هذه الأمة، ويحكم بشريعة محمد ﷺ، وأنه لا ينزل نبياً برسالة مستقلةٍ وشريعة ناسخة، بل يكونُ حاكماً من حكام هذه الأمة وإماماً من أئمتهم؛ لقوله ﷺ: «فيكسر الصليب» يعني: يكسره حقيقة ويبطل ما تزعمه النصارى، وكذلك قتله الخنزير، وقوله:

«ويضع الجزية» يعني: لا يقبلها ممن بذلها من اليهود والنصارى، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام أو القتل وعلى هذا قد يقال: هذا خلاف ما هو حكم الشرع اليوم، فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها منه، ولم يجز قتله ولا إجباره على الإسلام؟

والجواب: إنَّ هذا الحكم ليس مستمراً إلى يوم القيامة، بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى عليه السلام، وقد أخبر النبي ﷺ بنسخه، وليس الناسخ هو عيسى عليه السلام، بل الناسخ لهذا الحكم هو نبينا محمد ﷺ؛ لأنه هو المبين للنسخ، أو أنّ عيسى عليه السلام يحكم بشريعة محمد ﷺ، فدل على أن الامتناع من قبول الجزية في ذلك الوقت هو شرع نبينا محمد ﷺ، والله أعلم. قال الزجاج: هذا القول بعيد ـ يعني قول من قال: إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في آخر الزمان ـ قال: لعموم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ قال: والذين يبقون يومئذ، يعني: عند نزوله شرذمة قليلة منهم. وأجاب أصحاب هذا القول ـ يعني الذين يقولون: إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في آخر الزمان ـ بأن هذا على العموم، ولكنَّ المراد بهذا العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت ويدركون نزوله فيؤمنون به.

ويكون معنى الآية: وما من أحد من أهل الكتاب أدرك ذلك الوقت إلا آمن بعيسى عند نزوله من السماء، وصحَّح الطبري هذا القول.

وقال عكرمة في معنى الآية: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي، فلا يموت يهودي ولا نصراني حتى يؤمن بمحمد ﷺ، وذلك عند الحشرجة، حتى لا ينفعه إيمانه، والله أعلم.

الإعراب

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ﴾ نافٍ وفعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة

﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: جار ومجرور متعلق بالجهر. ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: جار ومجرور حال من السوء. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، والاستثناء منقطع؛ أي: لا يحبّ الله الجهر بالسوء من أحد، لكن من ظُلم فله الجهر، وقيل: متصل، ولكنّه على حذف مضاف؛ أي: لا يحبّ الله الجهر بالسوء إلا جهر من ظلم. ﴿ظُلِمَ﴾: فعل ماضٍ مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على من، والجملة صلة الموصول. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿سَمِيعًا﴾: خبر أول له. ﴿عَلِيمًا﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة للوعد والوعيد.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول. ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم معطوف على تبدوا. ﴿أَوْ تَعْفُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم معطوف على تبدوا أيضاً. ﴿عَن سُوٓءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بتعفوا، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾: تعليل لجواب الشرط المحذوف، وتقديره فهو أي العفو أولى لكم من تركه، فإن الله كان عفوّاً قديراً. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ (الفاء): تعليلية، (إن): حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها، ضمير يعود على الله. ﴿عَفُوًّا﴾: خبر أول لها. ﴿قَدِيرًا﴾: خبر ثان لها، وجملة كان: في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿يَكْفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بيكفرون، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ معطوف على لفظ الجلالة ﴿وَيُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على يكفرون ﴿أَن يُفَرِّقُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ويريدون تفريقهم ﴿بَيْنَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُفَرِّقُوا۟﴾. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على صلة الموصول ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿نُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير يعود على الذين كفروا. ﴿بِبَعْضٍ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿وَنَكْفُرُ﴾: (الواو) عاطفة، (نكفر): فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الكافرين، ﴿بِبَعْضٍ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة نؤمن. ﴿وَيُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل. والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿أَن يَتَّخِذُوا﴾: ناصب وفعل وفاعل ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بيتخذوا على كونه مفعولاً أول له. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية ليريدون، والتقدير: ويريدون اتخاذهم سبيلاً بين ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿الْكَافِرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها مستأنفة. ﴿حَقًّا﴾: نعت لمصدر محذوف تقديره: هم الكافرون كفراً حقاً، والعامل فيه: اسم الفاعل، أعني: لفظ الكافرون. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: متعلق به ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿مُّهِينًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق بآمنوا. ﴿وَرُسُلِهِ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا﴾: جازم وفعل وفاعل، معطوف على آمنوا. ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بيفرقوا. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لأحد ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ ثان، ﴿سَوْفَ﴾: حرف تنفيس. ﴿يُؤْتِيهِمْ﴾: فعل ومفعول أول ﴿أُجُورَهُمْ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول،

والجملة من المبتدأ الأول وخبره معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أو مستأنفة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿غَفُورٗا﴾: خبر أول لكان. ﴿رَّحِيمٗا﴾: خبر ثان لها، وجملة كان مستأنفة.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل ومضاف إليه. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تُنَزِّلَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: متعلق به. ﴿كِتَٰبٗا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لسأل، تقديره: يسألك أهل الكتاب تنزيلك عليهم كتاباً من السماء، وجملة سأل مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾: جار ومجرور صفة لكتاباً، أو متعلق بتنزل. ﴿فَقَدۡ﴾: ﴿الفاء﴾ حرف تعليل وعطف على محذوف، تقديره: ولا تستغرب يا محمد سؤالهم لك ولا تستعظمه؛ لأنهم قد سألوا موسى أعجب وأغرب من ذلك، قد: حرف تحقيق، ﴿سَأَلُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿مُوسَىٰٓ﴾: مفعول أول، ﴿أَكۡبَرَ﴾: مفعول ثانٍ، ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بأكبر، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿فَقَالُوٓاْ﴾: الفاء حرف عطف وتفسير ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل والجملة جملة مفسرة معطوفة على جملة سألوا. ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾: مقول محكي لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿جَهۡرَةٗ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنها نوع من مطلق الرؤية فيلاقي عامله في الفعل كما في «الفتوحات». والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا. ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، أخذتهم الصاعقة: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قالوا. ﴿بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾ الباء: حرف جر وسبب، ظلم: مجرور بها، والهاء: مضاف إليه الجار والمجرور متعلق بأخذتهم ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الذكرى، أي: الأخباري،

﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلۡعِجۡلَ﴾: مفعول أول له، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهاً، كما أشرنا إليه في بحث التفسير، والجملة معطوفة على جملة قالوا، ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾: جار ومجرور متعلق باتخذوا، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة ففي تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، والتقدير: من بعد مجيء البينات إياهم. ﴿فَعَفَوۡنَا﴾: فعل وفاعل ﴿عَن ذَٰلِكَۚ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة اتخذوا. ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُوسَىٰ﴾: مفعول أول. ﴿سُلۡطَٰنًا﴾: مفعول ثان. ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له، والجملة معطوفة على جملة عفونا.

﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾.

﴿وَرَفَعۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على آتينا. ﴿فَوۡقَهُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق برفعنا، ويجوز أن يكون حالاً من الطّور. ﴿ٱلطُّورَ﴾: مفعول به. ﴿بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق برفعنا. ﴿وَقُلۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة رفعنا. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلق برفعنا. ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾: مقول محكي لقلنا، وإن شئت قلت: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿سُجَّدٗا﴾: حال من فاعل ادخلوا، والجملة في محل النصب مقول لقلنا. ﴿وَقُلۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على رفعنا أيضاً. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بقلنا. ﴿لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾: مقول محكي لقلنا، وإن شئت قلت: ﴿لَا تَعۡدُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل، ﴿فِي ٱلسَّبۡتِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَأَخَذۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على رفعنا. ﴿مِنۡهُم﴾: متعلق به. ﴿مِّيثَٰقًا﴾: مفعول به، ﴿غَلِيظٗا﴾: صفة له.

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥﴾.

﴿فَبِمَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية بمعنى الواو، الباء: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: زائدة، ﴿نَقۡضِهِم﴾: مجرور بالباء ومضاف إليه، الجار والمجرور متعلق بمحذوف،

تقديره: ولعناهم بسبب نقضهم. ﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾: ميثاق مفعول النقض ومضاف إليه. ﴿وَكُفْرِهِم﴾: معطوف على نقضهم. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بكفرهم. ﴿وَقَتْلِهِمُ﴾: معطوف أيضاً على نقضهم. ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾: مفعول القتل. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: قتلاً كائناً بغير حق. ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾: معطوف على نقضهم. ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: مقول محكي لقولهم، وإن شئت قلت: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب إبطالي، ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بطبع، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: ليس الأمر كما قالوا من قولهم: قلوبنا غلف بل طبع الله عليها. ﴿فَلَا﴾: الفاء: عاطفة تفريعية، لا: نافية. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة طبع. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾: معطوف على قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ وكرَّر الباء للفصل بينه وبين المعطوف عليه بأجنبي وهو قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ...﴾ إلخ. ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾: معطوف على كفرهم. ﴿عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾: متعلق بقولهم، أو حال من بهتاناً. ﴿بُهْتَٰنًا﴾: مفعول مطلق لقولهم، لأنه ضرب منه فهو كقولهم: قعد القرفصاء. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة بهتاناً. ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾: معطوف على كفرهم. ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: مقول محكي لقولهم، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ونا: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها، ﴿قَتَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلْمَسِيحَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة إنَّ في محل النصب مقول القول، ﴿عِيسَى﴾: بدل من المسيح، أو عطف بيان منه، ﴿ٱبْنَ﴾: صفة لعيسى وهو مضاف، ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي، ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: بدل ثان من المسيح، أو عطف بيان منه، وهو مضاف، ولفظ الجلالة: مضاف إليه. ﴿وَمَا﴾: الواو: حالية،

﴿ما﴾: نافية، ﴿قَتَلُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من ضمير قولهم، ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾: ناف وفعل وفاعل ومفعول معطوف على ما قتلوه. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لكن﴾: حرف استدراك، ﴿شُبِّهَ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب الفاعل، أو متعلق بشبه، ونائب الفاعل ضمير يعود على المقتول والمصلوب، والجملة استدراكية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ الواو: استئنافية، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ ﴿اللام﴾: لام الابتداء، ﴿في شك﴾: جار ومجرور خبر إن، ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور صفة لشك، وجملة إنَّ: مستأنفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر، والعامل فيه الاستقرارُ المقدر، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ﴿من﴾: زائدة، ﴿علم﴾: مبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجر صفة ثانية لشك، أي غير معلوم.

وفي «الفتوحات»[1] قولُه: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ يجوز في ﴿علم﴾ وجهان:

أحدهما: أنه مرفوع بالفاعلية، والعامل أحد الجارين إما لهم، وإما به، وإذا جُعل أحدهما رافعاً له تعلق الآخر بما تعلق به الرافع من الاستقرار المقدر، ومِنْ: زائدة لوجود شرطي الزيادة.

والوجه الثاني: أن يكون مبتدأً زِيدت فيه ﴿مِنْ﴾ أيضاً، وفي الخبر احتمالان أحدهما: أن يكون ﴿لَهُم﴾ فيكون به إما حالاً من الضمير المستكن في الخبر والعامل فيها الاستقرار المقدر، وإما حالاً من علم، وإن كان نكرة؛

(١) الجمل.

لتقدمها ولاعتماده على نفي. والاحتمال الثاني: أن يكون ﴿به﴾ هو الخبر. ﴿ولهم﴾ متعلق بالاستقرار كما تقدم، وهذه الجملة المنفية تحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: الجر على أنها صفة ثانية لشك؛ أي: غير معلوم.

الثاني: النصب على الحال من شك، وجاز ذلك وإن كان نكرة؛ لتخصيصه بالوصف بقوله منه.

الثالث: الاستئناف، ذكره أبو البقاء، وهو بعيد ا هـ «سمين».

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع؛ لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم، ﴿اتِّبَاعَ﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿الظَّنِّ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿قَتَلُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿يَقِينًا﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: وما قتلوه قتلاً يقيناً، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ على كونها صفة لشك.

﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾.

﴿بَل﴾: بل: حرف عطف وإضراب. ﴿رَّفَعَهُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق برفع، والجملة معطوفة على محذوف، تقديره: ليس الأمر كما قالوا من قولهم: إنا قتلنا المسيح، بل رفعه الله إليه ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَزِيزًا﴾: خبر أول لكان. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة. ﴿وَإِن﴾ (الواو): استئنافية، (إن): نافية، ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: جار ومجرور مضاف إليه صفة لمبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: وما أحد كائن من أهل الكتاب ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿لَيُؤْمِنَنَّ﴾: اللام موطئة لقسم محذوف، تقديره: والله ليؤمنن، ﴿يؤمنن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يؤمنن﴾، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يؤمنن﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه

في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بشهيداً، أو بيكون. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير يعود على عيسى. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بشهيداً. ﴿شَهِيدًا﴾: خبر يكون، وجملة يكون مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾: يحبُّ بضم أوله، من أحب الرباعي، وهو بمعنى حبه، وهو أكثر استعمالاً من حب الثلاثي، فهو محب وذاك محب ومحبوب، وأما ثلاثيه فمن المضاعف المعدّى الذي انفرد بالكسر الشاذ، ولم يسمع فيه الضم وكان قياسه ضمَّ عين المضارع، ولكنه لم يسمع على ما قاله ابن مالك في لامية الأفعال:

فَذُوْ ٱلتَّعَدِّيْ بِكَسْرِ حَبَّهُ وَعِ ذَا وَجْهَيْنِ هَرَّ وَشَذَّ عَلَّهُ عَلَلاَ

وعبارة «مناهل الرجال» هنا يقال: حبه يحبه، بفتح الياء وكسر الحاء حباً وحباً، لغة في أحبه يحبه بضم الياء وكسر الحاء، وقد تبع الناظم وابنه في ذلك الجوهري، لكن قال أبو حيان: إنه سمع فيه الضمَّ أيضاً، فيكون فيه وجهان، فعليه ليس في المضاعف المعدَّى كسرٌ فقط أصلاً. انتهت.

ومعنى حب الله للشيء هو: الرضا به والإثابة عليه كما مر، وعدمُ حبه للشيء: السخط عليه والعقاب به.

﴿ٱلْجَهْرَ﴾: ضد السر والإخفاء، يقال: جهر الأمر وبالأمر يجهر ـ من باب نصر ـ جهراً وجهاراً وجهرةً إذا أعلنه، وجهر بالقول يجهر ـ من باب فتح ـ جهراً وجهاراً إذا رفع به صوته، وجهر الصوت إذا رفعه. ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ ـ بضم أوَّله: اسم مصدر من ساءه الأمر يسوءه سوءاً وسواء وسواءة، من باب قال إذا أحزنه أو فعل به ما يكرهه، يجمع على أسواء. وكل آفة الشر والفساد.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من أبدى الرُّباعي، يقال: أبدى الشيء إذا

أظهره، ومن أخفى الرّباعي، يقال: أخفى الشيء إذا أسره وستره من غيره.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أصله أعددنا، قلبت الدال الأولى تاء، فهو من باب أفعل الرباعي، وليست التاء تاء الافتعال كما مر. ﴿سُلْطَٰنًا﴾: مصدر بمعنى التسلط، وفي «المختار»: والسلاطة: القهر، يقال: سلط ككرم وسمع، وسلاطة وسلوطة بالضم، وقد سلطه الله تسليطاً فتسلط عليهم، والسلطان: الوالي، والسلطان أيضاً: الحجة والبرهان، ولا يثنى ولا يجمع؛ لأن مجراه مجرى المصدر. انتهى. ﴿سُجَّدًا﴾: جمع ساجد، كعاذل وعذل، وراكع وركع، قال ابن مالك:

وَفُعَّلٌ لِفَاعِلٍ وَفَاعِلَهْ وَصْفَيْنِ نَحْوُ عَاذِلٍ وَعَاذِلَهْ

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا﴾: من عدا[1] يعدو - من باب غزا يغزو - وأصله: تعدووا، الواو الأولى المضمومة لام الكلمة استثقلت الضمة عليها فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، فوزنه: تعفوا، وقرأ ورش: ﴿لا تَعَدُّوا﴾ بفتح العين وتشديد الدال، على أن الأصل: لا تعتدوا، وتصريفه على هذه القراءة: أنه نُقلت فتحة التاء إلى العين الساكنة قبلها ثم قلبت التاء دالاً وأدغمت في الدَّال بعدها كما مر في بحث القراءة والمعنى: أنهم نهوا عن الاعتداء في السبت بصيد السمك، فخالف بعضهم واصطاد، وامتنع بعضهم من غير نهي للآخرين، وامتنع بعضهم مع نهي من اصطاد، فحل بمن اصطاد العذاب ونجا من نهى، وسيأتي بسط ذلك في سورة الأعراف.

﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: جمع أغلف، كحمر جمع أحمر، ويصح أن يكون جمع غلاف، ككتاب وكتب، وسكن للتخفيف. ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾: يقال: طبع الشيء يطبع - من باب فتح - طبعاً، إذا صوره بصورة ما، وطبع عليه إذا ختم عليه، ويقال: طبع الله على قلبه، أي: ختم وغطى، فلا يعي ولا يوفق، وطبع الدرهم إذا نقشه وسكه، وطبع السيف إذا عمله وصاغه، وطبع الله الخلق خلقهم. ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾: يقال: صلبه يصلبه صلباً، - من بابي نصر وضرب - إذا جعله

---

(١) الفتوحات.

مصلوباً، أي: معلقاً بعد القتل على خشبة قائمة مثلاً.

البلاغة

وتضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبديع[1]:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ و﴿وَيُرِيدُونَ﴾، وفي قوله: ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ و﴿كِتَٰبًا﴾، وفي قوله: ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ و﴿مِّيثَٰقًا﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿تُبْدُوا۟﴾ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾، وفي قوله: ﴿نُؤْمِنُ﴾ ﴿وَنَكْفُرُ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

ومنها: الإشارة في مواضع.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿أَن يُفَرِّقُوا۟﴾ ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟﴾، وهو حقيقة في الأجسام استعير للمعاني، وفي قوله: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ استعير للحجة، وفي قوله: ﴿غُلْفٌۢ﴾ استعار الغلاف بمعنى الغطاء؛ لعدم الفهم والإدراك؛ أي: لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة، و﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾.

ومنها: زيادة الحرف لمعنى التأكيد في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾.

ومنها: إسناد الفعل إلى غير فاعله في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، و﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وإلى الراضي به في قوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾، وفي قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾، وفي قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾.

ومنها: حسن النسق في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، والمعاطيف عليه؛ حيث نسقت بالواو التي تدل على الجمع فقط، وبين هذه الأشياء أعصار متباعدة، فشرّك أوائلهم وأواخرهم لعمل أولئك ورضا هؤلاء.

ومنها: إطلاق اسم الكل على البعض في قوله: ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن والإنجيل، ولم يكفروا بشيء من الكتب إلا بهما، وفي قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا﴾

---

(١) البحر المحيط.

ولم يقلْ ذلك إلا بعضهم.

ومنها: التعريض والتهكم في قوله: ﴿قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إذا قلنا: إنه من كلامهم، قالوه على سبيل التهكم والاستهزاء؛ لأنهم لا يؤمنون برسالته.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ رداً لمزاعمهم الفاسدة.

ومنها: التوجيه في قوله: ﴿غُلْفٌۢ﴾ من احتمال المصدر جمع غلاف، أو جمع أغلف.

ومنها: عود الضمير على غير مذكور في قوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ على من جعلهما لغير عيسى.

ومنها: النقل من صيغة فاعل إلى صيغة فعيل في قوله: ﴿شَهِيدًا﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، والأصل: سيؤتيهم، وتنكير الأجر للتفخيم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ حيث أطلق الكل وأريد البعض.

ومنها: الحذف في مواضع.

ومنها[(١)]: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ لغرض ذمهم وتذكيراً لوصفهم، أو المراد جميع الكافرين.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾؛ لأن قوله حقاً مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله.

ومنها: التوطئة في قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ قد ذكر

---

(١) الفتوحات.

في حيّز الشرط ثلاثة أشياء، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، إنما يظهر كونه جزاءً للثالث، فيكونُ المقصودُ مِنَ الكلام الثالث، والأوَّلان إنّما ذكرا توطئة له، كما أشار إليه «البيضاوي»، ونصُّه: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾. طاعة وبراً ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي: تفعلوه سراً ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾. لكم المؤاخذة عليه، وهو المقصود. وذكر إبداء الخير وإخفائه توطئة له، ولذلك رتب عليه قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا
(١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
(١٦١) لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ
الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ۞ إِنَّا
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ
قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا
مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَّٰكِنِ
اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ
يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الأيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[١] فضائح اليهود وقبيح أعمالهم.. ذكر هنا تشديده عليهم في الدّنيا والآخرة، أما في الدنيا: فتحريم طيبات كانت محللة لهم، وأما في الآخرة: فبما بينه الله بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ثم بين أن فريقاً آمنوا إيماناً صادقاً، وعملوا الصالحات، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وتوعدهم بالأجر العظيم يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ...﴾

---

(١) المراغي.

الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما فرغ من الكلام على أهل الكتاب.. فإنه ذكر[1] عنهم أولاً أنهم يفرقون بين الله ورسله، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ثم انتقل إلى ذكر شيء من عنادهم وإعناتهم للنبي ﷺ، وطلبهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وبين أنه لا غرابة في ذلك؛ فقد شاغبوا موسى من قبله وسألوه ما هو أكبر من ذلك، ثم ذكر كفرهم بعيسى عليه السلام وبهتهم أمه، ومحاولتهم قتله وصلبه، وفي كلٍّ هذا دليل على تأصل العناد فيهم، ولولا ذلك.. لما شاغبوك، فإن الدليل على نبوتك أوضح مما يدعون الإيمان بمثله ممن قبلك، وختم هنا الكلام في محاجتهم ببيان أن الوحي جنس واحد، ولو كان إيمانهم بالرسل السابقين صحيحاً.. لما كفروا بمحمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] أزال في الآيات السالفة ما كان لليهود من شبهة في نبوة محمد ﷺ بشهادة الله بما أنزل عليه مما لم يستطع البشر أن يأتوا بمثله.. أَنْذَرَ في هذه الآيات من يصر منهم على الكفر ويستمر على الإعراض والظلم، وبين لهم سوء العاقبة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما روى[3] ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال عدي بن زيد: ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى، فأنزل هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: دخل جماعة من اليهود على رسول الله ﷺ فقال لهم: «إني أعلم أنكم تعلمون أني رسول الله» فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ...﴾ الآية.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) لباب النقول.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: فالباء للسببية، والتنوين للتنكير والتعظيم؛ أي: فبسبب ظلم عظيم واقع من الذين رجعوا وتابوا عن عبادة العجل. ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الذين هادوا ﴿طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾؛ أي: مستلذات كانت محللة لهم قبل ظلمهم، لا بسبب شيء آخر، كما زعموا أنها كانت محرمةً على مَنْ قبلهم، فإن اليهود كانوا كلّما فعلوا معصية من المعاصي يحرم عليهم نوع من الطيبات التي كانت محللة لهم ولمن قبلهم عقوبة لهم. يعني: ما حرمنا عليهم الطيبات التي كانت حلالاً لهم إلا بظلم عظيم ارتكبوه، وذلك الظلم هو: ما ذكره من نقضهم الميثاق، وما عدد عليهم من أنواع الكفر والكبائر العظيمة، مثل قولهم: اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة، وكقولهم: أرنا الله جهرة، وكعبادتهم العجل، فبسبب هذه الأمور حرَّم الله عليهم طيباتٍ كانت حلالاً لهم، لعلهم يرجعون عن ظلمهم، وكانوا كلما ارتكبوا معصية يحرم عليهم نوع من الطيبات، وهم مع ذلك كانوا يفترون على الله الكذب، ويقولون: لسنا بأول من حُرِّمت عليه، بل كانت محرَّمةً على نوح وإبراهيم، فكذبهم اللّٰهُ تعالى في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أما الطيبات التي حرَّمها الله تعالى عليهم: فهي ما بُيِّن في قوله جلَّ ذكره في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الآية، وقد أبهمها الله تعالى هنا؛ لأن الغرض من السياق العبرة بكونها عقوبة، لا بيانها في نفسها، كما أبهم الظلم الذي كان سبباً في العقوبة؛ ليعلم أن أي نوع منه يكون سبباً للعقاب في الدنيا والآخرة، والعقاب:

إما دنيوي: كالتكاليف الشاقة زمن التشريع، والجزاء الوارد في الكتب على الجرائم، كالحدود والتعزيرات، وما اقتضته السنن التي سنها الله تعالى في نظم الاجتماع، من كون الظلم سبباً لضعف الأمم، وفساد عمرانها، واستيلاء الأمم الأخرى عليها.

وإما أخروي: هو ما بينه في الكتاب الكريم من العذاب في النار، ثم بين

هذا الظلم وفصله بعد ذكره أولاً إجمالاً؛ ليكون أوقع في النفس وأبلغ في الموعظة، فقال: ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾؛ أي: وحرَّمنا عليهم طيبات أحلت لهم بسبب صدهم ومنعهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودينه ﴿كَثِيرًا﴾؛ أي: ناساً كثيراً، أو صداً كثيراً، أو زماناً كثيراً، والأول أولى، والصد والصدود: المنع، وهو يشمل صدَّهم أنفسهم عن سبيل الله بما كانوا يعصون به موسى، ويعاندونه مراراً، وصدهم الناس عن سبيل الله بسوء القدوة، أو بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

وإنما أعيدت الباء في قوله[1]: ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾ ولم تُعَدْ في قوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ﴾ وما بعده؛ لأنه قد فصَل بين المعطوف والمعطوف عليه بما ليس معمولاً للمعطوف عليه، بل بالعامل فيه، وهو ﴿حَرَّمْنَا﴾ وما تعلق به، فلمَّا بعد المعطوف من المعطوف عليه بالفصل بما ليس معمولاً للمعطوف عليه.. أعيدت الباء لذلك، وأما ما بعده فلم يفصل فيه إلا بما هو معمول للمعطوف عليه، وهو الربا. ﴿و﴾ حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ﴿أخذهم﴾ وأكلهم ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ والزيادة في المعاملات ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿قد نهوا عنه﴾؛ أي: عن معاملة الربا مطلقاً على ألسنة أنبيائهم، والتوراةُ[2] التي بأيديهم إنما تصرحُ بتحريم أخذهم الربا من شعبهم ومن إخوتهم دون الأجانب، وهي محرَّفة، أما النسخة التي كتبها موسى.. فقد فقدت باتفاق اليهود والنصارى، وبعض أنبيائهم قد نهوا عن الربا إطلاقاً، فلم يقيدوه بشعب إسرائيل، كقول داود في «المزمور الخامس عشر من الزبور»: فضته لا يعطيها بالربا، ولا يأخذ الرشوة من البريء ﴿و﴾ حرَّمنا عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ﴿أكلهم﴾ وأخذهم ﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿بـ﴾ الوجه ﴿الباطل﴾؛ أي: بطريق الرشوة والخيانة وسائر الوجوه المحرمة مما أخذ فيه المال بلا مقابل يعتد به.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ والسحت: الكسب الحرام، فقد كانوا يأخذون أثمان الكتب التي يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: هي من عند الله تعالى.

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

وفي ذكر هذه الآية امتنان على هذه الأمة حيث لم يعاملهم معاملة اليهود فيحرّم عليهم في الدنيا الطيبات عقوبةً لهم بذنوبهم، فهذه الأربعة هي الذنوب التي اقترفوها، والجرائم التي ارتكبوها، وشدد عليهم بسببها في الدنيا والآخرة، أما التشديد في الدنيا.. فهو ما تقدم من تحريم الطيبات عليهم، وأما التشديد عليهم في الآخرة.. فقد بين جزاءهم عليها في الآخرة، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وأعددنا وهيّأنا للذين كفروا برسل الله، وجحدوا ما جاؤوا به، وأصروا على الكفر ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب دون من آمن منهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: عذاباً مؤلماً في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

قال المفسرون[1]: إنّما قال: منهم؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى علم أنَّ قوماً منهم سيؤمنون، فيأمَنون من العذاب، وبعد أن بيَّن الله تعالى في هذا السياق سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم، وأطلق القولَ في ذلك، وكان هذا مما يوهم أنَّه شامل لكل أفرادهم.. جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾؛ أي: لكن المتمكنون في علم التوراة من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: منهم، ومن المهاجرين والأنصار وسائر أمتك ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: يا محمد، وهو القرآن ﴿و﴾ يؤمنون بـ ﴿بما أنزل من قبلك﴾ على سائر الأنبياء من الكتب السماوية؛ أي: لكنْ أهل العلم الصحيح بالدين منهم، المستبصرون فيه، غير التابعين للظنّ، الذين لا يشترون به ثمناً قليلاً من المال والجاه، والمؤمنون من أمتك إيمان إذعان لا إيمان عصبية وجدل.. يؤمنون بما أنزل إليك من البينات والهدى، وما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل، ولا يفرِّقون بين الله ورسله بهوىً ولا عصبية، روى ابن إسحاق والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس: أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام، وأسيد بن سعية، وثعلبة بن سعية، حين فارقوا يهود وأسلموا.

---

(١) الخازن.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: وأمتدح المقيمين الصلاة الذين يُؤدّونها على وجه الكمال، فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان؛ إذ إقامتها بإتمام أركانها علامة كمال الإيمان، واطمئنان النفس به. وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: مبتدأ، خبرُه محذوف، تقديره؛ أي: والمؤتون الزكاة المفروضة في مصارفها، والمؤمنون بوحدانية الله ومجيء اليوم الآخر، مع ما فيه من الحساب والجزاء، مثل المقيمين الصلاة في استحقاق المدح بالتبع؛ إذ إقامتها تستدعي إيتاء الزكاة، فإنّ الذي يقيمها على الوجه الذي طلبه الشرع.. لا يمنع الزكاة؛ إذ هي مما تزكي النفس، وتعلي الهمة، وتهون على النفس المال ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ الآية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الموصوفون بالصفات السابقة ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: سنعطيهم في الآخرة على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره: ثواباً جزيلاً لا يدرك وصفه إلا علام الغيوب، وهو الجنة. قال أبو حيان(١): وارتفع الراسخون على الابتداء، والخبر ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لا غير؛ لأنَّ المدح لا يكون إلا بعد تمام الجملة، ومن جعل الخبر جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ فقوله ضعيف. وانتصب ﴿المقيمين﴾ على المدح، وارتفع ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾ أيضاً على إضمار (وهم) على سبيل القطع إلى الرفع، ولا يجوز أن يعطف على المرفوع قبله؛ لأن النعت إذا انقطع في شيء منه.. لم يعد ما بعده إلى إعراب المنعوت، وهذا القطع لبيان فضل الصلاة والزكاة، فكثر الوصف؛ بأن جعل في جمل. وقرأ ابن جبير(٢)، وعمرو بن عبيد، والجحدري، وعيسى بن عمر، ومالك بن دينار، وعاصم عن الأعمش، ويونس وهارون عن أبي عمرو: ﴿والمقيمون﴾ ـ بالرفع ـ نسقاً على الأول، وكذا هو في مصحف ابن مسعود، قاله الفراء، وروى أنها كذلك في مصحف أُبيّ، وقيل: بل هي فيه ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، كمصحف عثمان.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ حمزة ﴿سيؤتيهم﴾ ـ بالياء ـ عوداً على قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، وقرأ باقي السبعة على الالتفات، ومناسبة ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾.

﴿إِنَّآ﴾ قد ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد هذا القرآن ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد نوح، والكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ نعت لمصدر محذوف؛ أي: أوحينا إليك إيحاءً مثل إيحائنا إلى نوح والنبيين من بعده، وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وابن حبان في «صحيحه» عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاث مئة وثلاثة عشر، جم غفير»، والمعنى: إنا قد أوحينا إليك هذا القرآن كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ممن يؤمن بهم، والله لم يُنَزِّل على أحد منهم كتاباً من السماء كما سألوك للتعجيز والعناد؛ لأن الوحي ضرب من الإعلام السريع الخفي، وليس بالأمر المشاهد الحسي.

وقيل: هذه الآية متصلة في المعنى بقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فهي[1] جوابٌ لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء جملةً واحدة، والمعنى: أنكم يا معشر اليهود تقرون بنبوة نوح، وبجميع المذكورين في هذه الآية، وهم اثنا عشر نبياً، وأنّ الله تعالى أوحى إلى هؤلاء الأنبياء، وأنتم يا معشر اليهود معترفون بذلك، وما أنزل الله على أحد من هؤلاء المذكورين كتاباً جملة واحدة مثل ما أنزل على موسى، فكما لم يكن عدم إنزال الكتاب جملة واحدة على أحد هؤلاء الأنبياء قادحاً في نبوته.. فكذلك لا يكون إنزال الكتاب على محمد ﷺ مفرقاً قادحاً في نبوته، بل قد أنزل عليه كما أُنزل عليهم.

قال المفسرون[2]: وإنما بدأ الله عز وجل بذكر نوح عليه السلام؛ لأنه أول نبي بعث بشريعة وتكليف، وأول نذير على الشرك، وأنزل الله عليه عشر صحائف، وكان أول من عُذِّبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الأرض بدعائه، وكان أبا البشر كآدم عليهما السلام، وكان أطول الأنبياء عمراً، عاش ألف سنة،

---

(١) الخازن بتصرف. (٢) الخازن.

لم تنقص قوّته، ولم يشب، ولم تنقص له سن، وصبر على أذى قومه طول عمره.

ثم ذكر الله تعالى الأنبياء من بعده جملة بقوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِۦ﴾ ثم خص جماعة من الأنبياء بالذكر؛ لشرفهم وفضلهم فقال: ﴿و﴾ كما ﴿أوحينا إلى إبراهيم﴾ بن آزر ﴿و﴾ أوحينا بعد إبراهيم إلى ﴿إسماعيل﴾ بن إبراهيم، فمات بمكة ﴿و﴾ إلى ﴿إسحاق﴾ بن إبراهيم فمات بالشام ﴿و﴾ إلى ﴿يعقوب﴾ وهو إسرائيل بن إسحاق ﴿و﴾ إلى ﴿الأسباط﴾؛ أي: أولاد يعقوب الأثني عشر، فمنهم يوسف نبي رسول باتفاق، وفي البقية خلاف ﴿و﴾ أوحينا إلى ﴿عيسى﴾ بن مريم، وقدَّم[(١)] عيسى على أيوب ومن بعده ـ مع كونهم في زمان قبل زمانه ـ ردّاً على اليهود الذين كفروا به، وأيضاً قالوا ﴿و﴾ ليست إلا لمطلق الجمع. ﴿و﴾ إلى ﴿أيوب﴾ بن أموص ﴿و﴾ إلى ﴿يونس﴾ بن متَّى. قرأ الجمهور[(٢)]: ﴿يونس﴾ بياء ونون مضمومتين بلا همز، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ نافع في رواية بن جمّاز عنه ﴿يونِس﴾، بكسر النون، وهي لغة لبعض العرب، وقرأ النخعي وابن وثاب بفتحها، وهي لغة لبعض عقيل، وبعض العرب يهمز ويكسر، وبعض أسد يهمز ويضم النون. ﴿و﴾ إلى ﴿سليمان﴾ بن داود ﴿و﴾ كما ﴿آتينا﴾: وأعطينا أيّاه ﴿داود﴾ بن أيشا ﴿زبورا﴾ ـ بفتح الزاي ـ بوزن رسول، وقرأ حمزة زُبوراً بالضم، وهو جمع زبر، بمعنى: مزبور؛ أي: مكتوب، كفلس وفلوس، وهو: اسم للكتاب الذي أنزل عليه، وهو مئة وخمسون سورة، ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام، بل فيها تسبيح وتقديس وتحميد وثناء على الله عز وجل ومواعظ، وقد أفرد بالذكر، أعني: داود؛ لأن له شأناً خاصاً عند أهل الكتاب من حسن الصوت واجتماع الطيور عليه.

قال بعض العلماء[(٣)]: وإنّما لم يذكر موسى في هذه الآية؛ لأنَّ الله أنزل عليه التوراة جملةً واحدة، وكان المقصود بذكر من ذكر من الأنبياء في الآية أنّه

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الخازن.

لم ينزِّل على أحد منهم كتاباً جملة واحدة، فلهذا لم يذكر موسى عليه السلام ﴿و﴾ كما أرسلنا ﴿رسلاً﴾ آخرين غير هؤلاء ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل تنزيل هذه السورة، وهم الذين ذكرت أسماؤهم في السور المكية، كقوله في سورة الأنعام - في سياق الكلام عن إبراهيم -: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ﴿و﴾ كما أرسلنا ﴿رسلاً﴾ آخرين غير هؤلاء المذكورين ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ يا محمد، كالذين[1] أرسلوا إلى الأمم المجهول تاريخها عند قومك وعند أهل الكتاب المجاورين لبلادك، كالصين واليابان والهند وأوروبا وأمريكا وأفريقيا وأروميا.

وإنّما لم يقص الله علينا خبرهم؛ لأنَّ القصد من القصص: العبرة والتثبيت والذكرى والاحتجاج على نبوته ﷺ، - كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾، وقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ - وكل هذا يَثبت بذكر من قصهم الله علينا من الرسل.

فائدة: في أن إرسال الرسل عام في كل الأمم الأبيض والأحمر والأسود، وعلينا أنْ نعلم أن الله تعالى قد أرسل رسلاً في كل الأمم الأبيض والأحمر والأسود، فكانت رحمته بهم عامة، لا مختصة بشعب وجنس معين، كما يزعم أهل الكتاب، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾. وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. وهذه حقيقة دلَّ عليها الدّين السماوي، ولم يكن يعلمها أهل الكتاب الذين يزعمون أن القرآن مقتبس من كتبهم، وكم فيه من حقائق جلاها للناظرين بجميل بيانه،

---

(١) المراغي بزيادة.

بالوحي، وهو موافق لسنن الفطرة في تزكية النفوس وإعدادها للحياة الأبدية في عالم القدس، ويترتب على العمل به أو تركه جزاء حدده الله تعالى في الدنيا والآخرة، ولا يكون هذا الجزاء إلا لمن بلغته الدعوة على الوجه الصحيح.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزًا﴾ لا يغالب في أمر يريده، ومن عزته: أن لا يجيب المتعنت إلى مطلوبه ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله. وحكمته تقضي هذا الامتناع عن الإجابة؛ لأنه يعلم أنه لو فعل ذلك لأصروا على لجاجهم، كما فعلوا مع موسى بعد أن جاءهم بما طلبوا، ومن حكمته أيضاً: اختلاف الكتب والشرائع، فإن اختلافها في كيفية النزول وتغايرها في بعض الشرائع والأحكام إنما هو لتفاوت طبقات الأمم في الأحوال التي يدور عليها فلك التكليف، فكلَّفهم الله تعالى بما يليق بشأنهم وحالهم.

وقوله عز وجل: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ استدراك على ما علم من السياق من إنكارهم نبوته ﷺ، وعدم شهادتهم بها، وهي واضحة عندهم في مرتبة المشهود به، لكنَّهم استبدلوا المباهتة والمكابرة بالشهادة والإيمان، فسألوه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء يثبت دعواه، ويكون شاهداً له، فكأنَّه تعالى يقول لرسوله ﷺ: إنهم مع وضوح نبوتك لا يشهدون بها، لكن الله يشهد لك بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله إليك، البالغ في فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضته، فكان القرآن معجزاً. وإظهار المعجزة على يد من يدّعي الرسالة.. شهادة له بكونه صادقاً في دعواه، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: يشهد لك بالنبوة ويبينها بهذا القرآن الذي أنزله إليك. وقرأ السلمي والجرَّاح الحكمي: ﴿لكنَّ الله﴾ بالتشديد، ونصب الجلالة، وقرأ الحسن: ﴿بما أُنزل إليك﴾ مبنياً للمفعول. ثمَّ أكد هذه الشهادة، فقال: ﴿أَنزَلَهُۥ﴾؛ أي: أنزل الله تعالى هذا القرآن حالة كونه متلبساً ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى، بأنه في غاية الحسن ونهاية الكمال؛ أي: فإنّه أنزله بعلمه الخاص الذي لم تكن تعلمه أنت ولا قومك، بتأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان، وبما فيه من العلوم الإلٰهية والأدبية والسياسية

والاجتماعية، ومن علوم الأنبياء والرسل والأمم، وبما له من السلطان على الأرواح بهدايته، وبما فيه من أنباء الغيب عن الماضي والحاضر والمستقبل، وهو بهذه المزايا مثبت لشهادة الله به، وأنَّه وحي من عنده، وقيل: معناه: أنزله وهو عالم بأنك أهلٌ لإنزاله عليك، وأنك مبلغُه إلى عبادِه، وقيل: معناه: أنزله بما علم من مصالح عباده في إنزاله عليك. وقرأ السلميّ: ﴿نزَّله﴾ مشدّداً، وقال الزجاج: أنزله وفيه علمه. وقال أبو سليمان الدمشقي: أنزله من علمه. وقال ابن جريج: أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه.

والخلاصة[1]: كأن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيِّه: إنَّ جحود هؤلاء اليهود وعدم شهادتهم لك لا يضرّك بشيء، فالله يشهد بما أنزل إليك من الوحي، وأنت على يقين منه، وقد أيد الله شهادته لك بما أودعه فيه مما عجز عنه البشر، فكان بذلك مثبتاً لكونه أنزل عليك من لدنه، كما أيده بتصديق ما أنزله فيه من الوعد بالفلاح، والنصر لمن اتبعك، والوعيد لمن عاداك بالخذلان والخسران.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ﴾ بذلك أيضاً؛ لأنَّ الذي نزل به إليك هو الروح الأمين، وهو منهم، كما يؤيدك بجند منهم يثبتونك ويثبتون المؤمنين في القتال، كما في غزوة بدر. قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾. وإنّما تعرَف[2] شهادةُ الملائكة له ﷺ بصدقه فيما يدعيه من النبوة والرسالة؛ لأن ظهور المعجز على يده ﷺ يدل على أنه تعالى شهد له بالنبوة، وإذا شهد الله بذلك فقد شهدت الملائكة بذلك بلا شك؛ لأنَّه ثبت في القرآن أنهم لا يسبقونه تعالى بالقول.

والمعنى: يا محمد، إنْ كذبك هؤلاء اليهود.. فلا تبال بهم، فإنّ اللّهَ تعالى ـ وهو إله العالمين ـ يصدقك في ذلك، وملائكة السموات السبع والعرش والكرسي يصدقونك في ذلك، ومن صدقه الله والملائكة أجمعون.. لم يلتفت

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

إلى تكذيب أخس الناس ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ما شهد به لك من صدق نبوتك، وإن لم يشهد به غيرُه؛ حيث نصب الدليل، وأوضح السبيل، فشهادته أصدق، وقوله الحق، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وفيه تسلية للنبي ﷺ عن شهادة أهل الكتاب له، فإن اللّهَ يشهدُ وملائكته كذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بمحمد ﷺ، وبما أنزله الله تعالى عليه وشهد به، وهو القرآن ﴿وَصَدُّواْ﴾ غيرهم ومنعوا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن دين الإسلام من أراد سلوكه، بإلقاء الشبهات في قلوبهم، وهم اليهود؛ حيث قالوا: ما نعرف صفة محمد في كتابنا، وقالوا: لو كان رسولاً لأتى بكتابه دفعة واحدة من السماء، وقالوا: إنَّ الله ذكر في التوراة أنَّ شريعة موسى لا تنسخ إلى يوم القيامة، وقالوا: إنّ الأنبياء لا يكونون إلا من ولد هارون وداود. ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: عن الحق والصواب؛ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، ولأن المضلّ يكون أغرق في الضلال وأبعد في الانقطاع عنه؛ ولأنَّ أشد الناس ضلالاً مَنْ كان ضالاً، ويعتقد في نفسه أنه محق، ثم يتوسل بذلك الضلال إلى اكتساب المال والجاه، ثم يبذل غاية ما في وسعه في إلقاء غيره في مثل ذلك الضلال، فهو قد سار في سبيل الشيطان وبعد عن سبيل الله، فلم يعد يفقه أنَّها هي الموصلة إلى خير العاقبة. وقرأ عكرمة وابن هرمز: ﴿وصُدوا﴾ بضم الصاد، قيل: وهي في اليهود.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما أنزل إليك ﴿وَظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بإعراضهم عن الطريق الموصل إلى الخير والسعادة، وظلموا غيرهم بإغوائهم إياهم بزخرف قولهم وسوء سيرتهم وكتمان نعت محمد ﷺ وصدهم عن الصراط المستقيم وماتوا على الشرك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ أي: لم يكن من سنته تعالى أن يغفر لهم ذلك الكفر والظلم يوم الحساب والجزاء؛ لأن الكفر والظلم قد أفسدا فطرتهم، وأثرا في نفوسهم، وأعميا قلوبهم وجعلاها تستمرىء قبيح الأفعال، وتهوى شر الخلال والأعمال، ولا يزول هذا إلا إذا اتجهت نفوسهم إلى ما يضاد ذلك من إيمان صحيح وعمل صالح يزكي النفوس مما ران عليها، ويطهرها وينشئها نشأة أخرى، ولا سبيل إلى ذلك يوم الجزاء والحساب، ومن ثم قال تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

﴿طَرِيقًا﴾؛ أي: وليس من شأنه أن يهدي أمثالهم طريقاً يوصلهم إلى الجزاء على أعمالهم ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾: فهي الطريق التي ينتهي إليها من دنس نفسه بالكفر والظلم، وأوغل في السير فيها طول عمره، واستمرأ الشرور والمفاسد، حتى هوت به إلى وادٍ سحيقٍ، يعني: يهديهم إلى طريق تؤدي إلى جهنم، وهي اليهودية، لما سبق في علمه أنهم أهل لذلك، فانتظار المغفرة ودخول الجنات لأمثال هؤلاء انتظارٌ لإبطال نظام العالم، ونقض لسنن الله وحكمته في خلق الإنسان، وما أجود قولَ الشاعر:

تَرْجُوْ ٱلنَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إِنَّ ٱلسَّفِيْنَةَ لاَ تَجْرِيْ عَلَىٰ ٱلْيَبَسِ

حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: مقدرين الخلود والدوام في جهنم ﴿أَبَدًاۚ﴾؛ أي: مدةً لا نهاية لها ولا انقضاء، أي: يدخلونها ويذوقون عذابها حال كونهم خالدين فيها أبداً، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها أبدَ الآبدين، وإنما قال: ﴿أَبَدًاۚ﴾ بعد ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ لدفع احتمال أن الخلود هنا يراد به المكث الطويل.

فائدة: والفرق بين الخلود والأبد: أن الخلود: بقاء الشيء مدةً طويلة على حال واحدة، لا يطرأ عليه فيها تغيير ولا فناء، والأبد: الزمن الممتد الذي لا نهاية له ولا انقضاء، يقال: تأبد الشيء إذا بقي أبداً، وأبد بالمكان ـ من باب تعب ـ أبوداً إذا أقام به ولم يبرحه.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تخليدهم في جهنم، أو ترك المغفرة لهم والهداية مع الخلود في جهنم ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَسِيرًا﴾؛ أي: هيناً سهلاً على الله دون غيره؛ لأنه مقتضى حكمته وسننه، وليس بالعزيز على قدرته؛ لأنه لا يصعب عليه شيء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ وفي هذا تحقير لأمرهم، وبيانٌ بأن الله تعالى لا يعبأ بهم ولا يبالي بشأنهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب عام يدخل فيه جميع الكفار من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وغيرهم، وقيل: هو خطاب لمشركي مكة ﴿قَدْ

﴿جَآءَكُمُ﴾ هذا ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ الكريم محمد ﷺ حالة كونه متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالقرآن المنزل عليه، أو حالة كونه متكلماً بالدعوة إلى توحيد الله وعبادته والإعراض عن غيره ﴿مِن﴾ عند ﴿رَّبِّكُمْ﴾ وخالقكم الذي يستحق منكم العبادة ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ وصدقوا بجميع ما جاء به من عند ربكم.. يكن الإيمان به ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ وأحمد عاقبة مما أنتم عليه من الكفر والإشراك؛ لأن الإيمان يزكيكم ويطهركم من الدنس والرجس ويؤهلكم للسعادة الأبدية. وأفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأن الكفر ليس خيرٌ أصلاً ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وإن تستمروا على كفركم بالله وبالرسول.. فإن الله سبحانه وتعالى غني عن إيمانكم، ولا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بإيمانكم، وقادر على جزائكم بما يقتضيه كفركم وسوء عملكم، فإن له ما في السموات وما في الأرض ملكاً وخلقاً، وكلهم عبيده ينقادون لحكمه طوعاً أو كرهاً، فعبادة الكره وعدم الاختيار تكون بالخضوع لقدرته وسننه في الأكوان، وهي عامة في جميع الخلق، سواء منهم العاقل وغيره، وعبادة الاختيار: خاصة بالمؤمنين الأخيار، والملائكة الأبرار، ومن كان كذلك فهو قادر على إنزال العذاب الشديد عليكم لو كفرتم، أو فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لأمره وحكمه، أو فمن كان كذلك لم يكن محتاجاً إلى شيء، ففي هذه الجملة وعيدٌ لهم مع إيضاح وجه البرهان، وإماطة الستر عن الدليل بما يوجب عليهم القبول والإذعان؛ لأنهم يعترفون بأن الله خالقهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ لا يخفى عليه من أعمال عباده المؤمنين والكافرين شيء ﴿حَكِيمًا﴾ لا يضيع عمل عامل منهم، ولا يسوي بين المؤمن والكافر والمحسن والمسيء، أي: وكان شأنهُ تعالى العلم المحيط، والحكمة البالغة الكاملة في جميع أفعاله وأحكامه، فهو لا يخفى عليه أمركم في إيمانكم وكفركم وسائر أحوالكم، ومن حكمته: أن يجازيكم على ما تجترحون من الآثام والموبقات؛ فإنه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى، فطوبى لمن نهى النفس عن الهوى وآثر الآخرة على الدنيا، وويل لمن أعرض عن ذكر ربِّه، وأعرض عن أمره ونهيه، وحالف الشيطان وحزبه.

الإعراب

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿فَبِظُلْمٍ﴾: (الفاء): زائدة، كما قاله أبو البقاء. و(الباء): سببية. ﴿ظلم﴾: مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بحرّمنا الآتي. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة لظلم. ﴿هَادُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿حَرَّمْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بحرمنا. ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾: مفعول به. ﴿أُحِلَّتْ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على طيبات. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بأحلت، والجملة الفعلية صفة لطيبات. ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه معطوف على قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بصدهم. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به لصدهم؛ لأنه من إضافة المصدر إلى فاعله، أو صفة لمصدر محذوف، تقديره: صداً كثيراً، أو لزمان محذوف، تقديره: زماناً كثيراً.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

﴿وَأَخْذِهِمُ﴾: معطوف على صدهم، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله. ﴿ٱلرِّبَوٰا۟﴾: مفعوله منصوب بفتحة مقدرة. ﴿وَقَدْ﴾: (الواو): حالية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿نُهُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من ضمير أخذهم. ﴿وَأَكْلِهِمْ﴾: معطوف على ﴿صدهم﴾ وهو من إضافة المصدر إلى فاعله. ﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾: مفعول به لأكلهم، وهو مضاف. ﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: جار ومجرور متعلق بأكلهم على أنَّ الباء سببية، أو حال من ضمير أكلهم على أنَّ الباء للملابسة، أي: حالة كونهم متلبسين بالباطل. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على حرَّمنا. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق به. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من الكافرين، أو صفة له. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

﴿لَٰكِنِ﴾: حرف استدراك. ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾: مبتدأ. ﴿فِي ٱلْعِلْمِ﴾: متعلق به. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبرُ المبتدأ، والجملة الاسمية جملة استدراكية، لا محل لها من الإعراب. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بيؤمنون. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ما. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بأنزل، والجملة الفعلية صلة لما، أو صفة لها. ﴿وَمَآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر معطوفة على (ما) الأولى. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير مستتر فيه، والجملة صلة لما، أو صفة لها. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بأنزل.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾: الواو: استئنافية. ﴿المقيمين﴾: منصوب على المدح بفعل محذوف، تقديره: أمدح المقيمين. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول المقيمين، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: مفعوله. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: معطوف على المؤتون. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿المؤمنون﴾. ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿ٱلْآخِرِ﴾: صفة لليوم، وخبر المبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمين الصلاة في استحقاق الفضل والمدح، والجملة مستأنفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً، وهذا الإعراب الذي ذكرناه أرجح الأعاريب كما أشرنا إليه في بحث التفسير نقلاً عن أبي حيان.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

﴿إِنَّآ﴾: حرف نصب. و(نا): اسمها. ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ مستأنفة. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بأوحينا.

﴿كَمَآ﴾: (الكاف): حرف جر. (ما): مصدرية. ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰ نُوحٖ﴾: جار ومجرور متعلق بأوحينا. ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: معطوف على نوح. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة للنبيين، أو حال منه، أو متعلق بالنبيين. وقال أبو البقاء[1]: ولا يجوز أن يكون حالاً من النبيين، لأن ظروف الزمان لا تكون أحوالاً للجثث، ويجوز أن يتعلق ﴿مِنۢ﴾ بالنبيين، وجملة ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ صلة (ما) المصدرية، ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف، تقديره: إنّا أوحينا إليك إيحاء كائناً كإيحائنا إلى نوح والنبيين من بعده.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوحينا﴾ الأولى، على كونها صلة لما المصدرية. ﴿إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: جار ومجرور متعلق بأوحينا. ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾: معطوف على إبراهيم. ﴿وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾: معطوفان أيضاً على إبراهيم. ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾: معطوف على إبراهيم، وكذا قوله: ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾: معطوفات على إبراهيم جرياً على القاعدة: أن المعطوفات إذا كثرت ـ وكان العطف بالواو ـ يكون على الأول. ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿دَاوُۥدَ﴾: مفعول أول. ﴿زَبُورٗا﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوحينا﴾.

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾.

﴿وَرُسُلٗا﴾: مفعول لفعل محذوف، تقديره: وأرسلنا رسلاً، والجملة المحذوفة معطوفة على ﴿أوحينا﴾، وهو[2] الدَّال على هذا المحذوف بالالتزام، فإنَّ الإيحاء يلزمه الإرسال أو يدل عليه رسلاً ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صفة رسلاً. ﴿عَلَيۡكَ﴾: متعلق

(١) العكبري.
(٢) الجمل.

بقصصنا. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بقصصنا أيضا. ﴿وَرُسُلًا﴾: معطوف على رسلاً. ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾: جازم، وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صفة رسلاً. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بنقصصهم. ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿تَكْلِيمًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة مستأنفة.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿رُّسُلًا﴾: مفعول لفعل محذوف، تقديره: أرسلنا رسلاً، والجملة مستأنفة. ﴿مُّبَشِّرِينَ﴾: صفة. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: معطوف على مبشرين. ﴿لِئَلَّا﴾: (اللام): حرف جر وتعليل، (أنْ): حرف نصب ومصدر، (لا): نافية. ﴿يَكُونَ﴾: فعل ناقص منصوب بأن. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ليكون. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: حال من حجة. ﴿حُجَّةٌ﴾: اسم يكون مؤخر عن خبرها. ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بحجة، أو صفة لها، وجملة يكون صلة أن المصدرية، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بأرسلنا المحذوف، والتقدير: وأرسلنا رسلاً مبشرين ومنذرين؛ لإعدام كون حجة للناس على الله بعد الرسل. ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿عَزِيزًا﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة.

﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿لَّٰكِنِ﴾: حرف استدراك. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَشْهَدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بيشهد. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما أنزله إليك. ﴿أَنزَلَهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِعِلْمِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ضمير ﴿أَنزَلَهُ﴾، والتقدير: أنزله حالة كونه معلوماً له تعالى، أو

حال من فاعل ﴿أَنزَلَهُۥ﴾، تقديره: أنزله حالة كونه متلبساً بعلمه، وجملة أنزله جملة مفسرة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَشْهَدُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الاستدراكية على كونها لا محل لها من الإعراب. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، والباء زائدة. ﴿شَهِيدًا﴾: تمييز، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَصَدُّواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على كفروا. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بصدوا. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿ضَلُّواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿ضَلَٰلًۢا﴾: مفعول مطلق. ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنّ، وجملة إنّ مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَظَلَمُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على كفروا. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَكُنِ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بلم. ﴿لِيَغْفِرَ﴾: اللام: حرف جر وجحود. ﴿يغفر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بيغفر، وجملة يغفر في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، تقديره: لم يكن الله لغفرانهم، الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه خبراً ليكن، تقديره: لم يكن الله مريداً لغفرانهم، وجملة يكن من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر إنّ، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا﴾: (الواو): عاطفة. (لا): زائدة، زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿لِيَهْدِيَهُمْ﴾: (اللام): حرف جر وجحود. ﴿يهدي﴾: منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على الله. و(الهاء): ضمير الغائبين في محل النصب مفعول

أول ليهدي. ﴿طَرِيقًا﴾: مفعول ثان له، وجملة يهدي صلة أن المضمرة، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور باللام المتعلقة بخبر يكن المحذوف، وتقديره: لم يكن الله سبحانه وتعالى مريداً لغفرانهم، ولا مريداً لهدايتهم طريقاً. وقد أطلنا البحث عن لام الجحود في كتابنا «الخريدة البهية في إعراب أمثلة الآجرومية» فراجعه إن شئت.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿طَرِيقَ﴾: منصوب على الاستثناء، استثناء متصلاً؛ لأنّه من جنس الأول؛ لأن الأول في معنى العموم؛ لوقوعه في سياق النفي، ﴿طَرِيقَ﴾: مضاف. ﴿جَهَنَّمَ﴾: مضاف إليه. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال مقدرة من مفعول يهديهم. ﴿فِيهَآ﴾: جار ومجرور متعلق بخالدين. ﴿أَبَدًاۚ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بخالدين. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بيسيراً. ﴿يَسِيرًا﴾: خبر كان، وجملة كان من اسمها وخبرها مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة، (ها): حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لأيّ، تابع للفظه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من الرسول، أو متعلق بجاء. ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من الحال - أعني بالحق -، أي: حالة كون ذلك الحق كائناً من ربكم، أو متعلق بجاء، كما قاله أبو البقاء. ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾: (الفاء): عاطفة سببية، كما في «الجمل». ﴿آمنوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَدْ جَآءَكُمُ﴾ على كونها جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿خَيْرًا﴾: خبر ليكن المحذوفة مع اسمها. ﴿لَّكُمْۚ﴾: جار ومجرور متعلق بخيراً، أو صفة له، وجملة يكن المحذوفة جواب لشرط مقدر،

تقديره: إن آمنتم يكن الإيمان خيرٌ لكم مما أنتم عليه، وجملة الشرط المحذوف مع جوابه مستأنفة. ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾: جازم وفعل وفاعل، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فلا يضرّه كفركم، وجملة إن الشرطية مع جوابها المحذوف مستأنفة. ﴿فَإِنَّ﴾: (الفاء): تعليلية كما في «الجمل». (إنّ): حرف نصب. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لها. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب اسمها مؤخر. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ(ما)، أو صفة لها، ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على السمٰوات، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها: في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بجواب الشرط المحذوف. ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول له. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان له، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ ﴿الرَّاسِخُونَ﴾: جمع راسخ، والراسخ: هو المبالغ في علم الكتاب، الثابت فيه، من الرسوخ، وأصل الرسوخ في لغة العرب: الثبوت في الشيء، وكل ثابت راسخ، وأصله في الأجرام: أن ترسخ الخيل، أو الشجر في الأرض، ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ رَسَخَتْ فِيْ الصَّدْرِ مِنِّيْ مَوَدَّةٌ ... لِلَيْلَىٰ أَبَتْ آيَاتُهَا أَنْ تَغَيَّرَا

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: من أوحى الرباعي، يقال: أوحى يوحي إيحاء ووحياً، والوحي: اسم مصدر لأوحى، والوحي لغةً[1]: الإيماء والإشارة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. والإلهامُ الذي يقع في النفس، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وما يكون غريزة دائمة، كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ والإعلام في خفاء، بأن تعلم إنساناً بأمر تخفيه على غيره، كما قال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

(١) المراغي.

ووحي الله إلى أنبيائه: عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة، أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه، أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام: بأن الإلهام وجدانٌ تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾: والزبور[1]: ـ بفتح الزاي ـ وهي قراءة الجمهور، بمعنى: المزبور، أي: المكتوب، كالرسول والحلوب والركوب، بمعنى: المرسل والمحلوب والمركوب، من الزبر، أي: الكتابة ـ وبضمها ـ وهي قراءة حمزة، جمع زبر، كفلس وفلوس، والزبر بمعنى المزبور، والأصل في الكلمة: التوثيق، يقال: بئر مزبورة، أي: مطوية بالحجارة، وسمِّيَ كتاب داود زبوراً ـ بضم الزاي ـ؛ لقوة الوثيقة به، وفي «الفتوحات»: والزبور: جمع زبر، والزبر[2] ـ بالفتح ـ مصدر لزبر ـ من بابي ضرب ونصر، بمعنى: كتب أو جمع زبر ـ بالكسر ـ مثل: حمل وحمول، وقدر وقدور كما في «الشهاب». وفي «المختار». والزبر ـ بالكسر ـ: الكتاب، والجمع زبور، كقدر وقدور، ومنه قراءة بعضهم ﴿وآتينا داود زُبورا﴾اهـ.

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾: تكليماً: مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز، قال الفراء: العرب تسمي ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإن أوكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع[3]:

---

(١) الشوكاني.

(٢) الجمل.

(٣) البحر المحيط.

فمن ذلك: الطباق في قوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾ و﴿أُحِلَّتْ﴾، وفي قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾، وفي قوله: ﴿وَرُسُلًا﴾، وفي قوله: ﴿يَشْهَدُ﴾ و﴿يَشْهَدُونَ﴾، وفي قوله: ﴿كَفَرُوا۟﴾، وفي اسم الله.

ومنها: تخصيص بعض الأنبياء بالذكر في قوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ الخ؛ للتشريف وإظهار فضل المذكورين، وفيه تشبيه يسمى مرسلاً.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾، وهي في الأجرام، استعيرت للثبوت في العلم والتمكن فيه، وفي قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ و﴿يَشْهَدُ﴾ و﴿طَرِيقًا﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، والأصل: سيؤتيهم، وتنكير الأجر؛ للتفخيم.

ومنها: تقديم السبب على المسبّب في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ تنبيهاً على فحش الظلم، وتقبيحاً له، وتحذيراً منه.

ومنها: الإشارة إلى أوصاف متعددة في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾.

ومنها: للتأكيد بالمصدر في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، دلالة على وقوع الفعل على حقيقته، لا على مجازه، وهذا هو الغالب في كلامهم، وقد جاء التأكيد بالمصدر في المجاز إلا أنه قليل، فمن ذلك قول هند بنت النعمان بن بشير الأنصاري:

بَكَىٰ ٱلْخَزُّ مِنْ عَوْفٍ وَأَنْكَرَ جِلْدَهُ   وَعَجَّتْ عَجِيجاً مِنْ جُذَامِ ٱلْمَطَارِفِ

وقال ثعلب: لولا التأكيد بالمصدر لجاز أن تقول: قد كلمت لك فلاناً، بمعنى كتبت إليه رقعة وبعثت إليه رسولاً، فلمّا قال: تكليماً.. لم يكنْ إلا كلاماً مسموعاً من الله تعالى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا[1] فرغ من محاجة اليهود وإقامة الحجة عليهم، وهم قد غلوا في تحقير عيسى وإهانته وكفروا به.. ذكر هنا محاجَّة النصارى خاصة، ودحض شبهاتهم، وهم قد غلوا في تعظيم عيسى وتقديسه، كما دحض شبهات اليهود فيما سلف.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى[2] لمّا حاجّ أهل الزيغ والضلال جميعاً، فحاجّ النصارى في الآية السابقة، وحاجّ اليهود في الآية التي قبلها، وحاجّ المنافقين

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

والمشركين أثناء السورة، وفي سور كثيرة غيرها، وأقام الحجة عليهم جميعاً، وظهرت نبوةُ محمد ﷺ ظهورَ الشمس في رابعة النهار.. نادى الناس كافةً، ودعاهم إلى اتّباع برهانه، والاهتداء بنوره.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ...﴾ الآية، مناسبتها لآخر السورة: أنَّ الله سبحانه وتعالى[1] لمَّا تكلم في أول السورة في أحكام الأموال من الإرث وغيره.. ختم آخرها بهذه الآية؛ ليتشاكل المبدأ والمقطع، والوسط مشتملٌ على المناظرة مع فرق المخالفين للدين، وكثيراً ما يقع ذلك في السور.

ورُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنَّه قال في خطبته: ألا إنَّ آية أول سورة النساء أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والأخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه مسلم عن محمد بن المنكدر، سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمي علي، فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب علي من وضوئه، فأفقت وقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد علي شيئاً، حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾. الحديث أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود، وابن ماجه، وأحمد، والطيالسي، وابن الجارود، وأبو نعيم.

وروى ابن عبد الرزاق وابن جرير عن ابن سيرين قال[2]: نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ والنبي ﷺ في مسير له، وإلى جنبه حذيفة بن اليمان، فبلغها النبي ﷺ حذيفة، وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب، وهو يسير خلفه، فلما

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

استخلف عمر.. سأل عنها حذيفة، ورجا أن يكون عنده تفسيرها، فقال له حذيفة: والله إنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملني على أن أحدثك ما لم أحدثك يومئذ! فقال عمر: لم أرد هذا رحمك الله.

قال الخطابي: أنزل الله في الكلالة آيتين، إحداهما في الشتاء، وهي التي في أول سورة النساء، وفيها إجمال وإبهام لا يكاد يتبين المعنى من ظاهرها، ثم أنزل الآية الأخرى في الصيف، وهي التي في آخرها، وفيها من زيادة البيان ما ليس في آية الشتاء، فأحال السائل عليها؛ ليتبين المراد بالكلالة المذكورة فيها.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عام أريد به خاص؛ أي: يا أهل الإنجيل، وهم النصارى، وقيل: المراد بهم الفريقان، فغلو اليهود: بتنقيص عيسى؛ حيث قالوا: إنه ابن زانية، وغلو النصارى: بالمبالغة في تعظيمه؛ حيث قالوا: إنه شريك الله أو ابنه ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ أي: لا تتجاوزوا في دينكم الحدود التي حددها الله لكم، ولا تبالغوا في تعظيم عيسى؛ حيث وصفتموه بأنه ابن الله، أو شريكه، فإنَّ الزيادة في الدين ليس بحق، كالنقص فيه ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ولا تعتقدوا فيه ﴿إِلَّا﴾ القول والاعتقاد ﴿ٱلۡحَقَّۚ﴾ والصواب الثابت بنص دينيّ متواتراً، أو برهان عقلي قاطع، ومن تنزيهه تعالى عن الشريك والولد؛ أي: لا تصفوه بما يستحيل اتصافه تعالى به من الاتّحاد والحلول في بدن الإنسان أو روحه، واتخاذ الزوجة والولد، وليس لكم على ما زعمتم من دعوى الاتّحاد والحلول واتخاذ الزوجة والولد شيء من الأدلة المذكورة، فإنّ[1] نصارى أهل نجران أربع فرق:

ملكانية: وهم الذين قالوا: عيسى والرب شريكان، **ومرقوسية**: وهم الذين قالوا: عيسى ثالث ثلاثة، **ومار يعقوبية**: وهم الذين قالوا: عيسى هو الله، **ونسطورية**: وهم الذين قالوا: عيسى ابن الله، فأنزل الله فيهم هذه الآيات.

---

(١) مراح.

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ﴾ مبتدأ، و﴿عِيسَى﴾ بدل منه، أو عطف بيان له، و﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة لعيسى ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ خبر المبتدأ؛ أي: إنما المسيح عيسى ابن مريم هو رسول الله تعالى إلى بني إسرائيل، لا شريكه ولا ابنه، وقد أمرهم بأنْ يعبدوا الله وحده، ولا يشركوا به شيئاً، وزهدهم في الدّنيا، وحثهم على التقوى، وبشرهم بمحمد ﷺ خاتم النبيين، وأرشدهم إلى الاعتدال في كل شيء، فهداهم إلى الجمع بين حقوق الأبدان وحقوق الأديان. وقرأ جعفر بن محمد ﴿إنما المسيح﴾ على وزن السكيت. ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾؛ أي: ومكون بكلمة الله سبحانه وتعالى وأمره الذي هو «كن»، من غير واسطة أب، ولا نطفة، ﴿أَلْقَىٰهَآ﴾؛ أي: أوصلها ﴿إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾؛ أي: أوصل تلك الكلمة إلى مريم بنفخ جبريل في جيب درعها، فوصل النفخ إلى فرجها، فحملت به. ﴿وَرُوحٌ﴾: صادر ﴿مِّنْهُ﴾ سبحانه وتعالى، ومكون بأمره تعالى جبريل بالنفخ في جيبها، ولذلك نسبت إليه تعالى، وإنّما سمّي روحاً؛ لأنّه حصل من الريح الحاصل من نفخ جبريل، والريح يخرج من الروح. وهذه الإضافة للتفضيل والتشريف، وإن كان جميع الأرواح من خلقه تعالى، فإن الله سبحانه وتعالى لما أرسل إلى مريم الروح الأمين جبريل.. بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاماً زكياً، فاستنكرت ذلك؛ إذ هي عذراء لم تتزوج، فقال لها: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فكلمة «كن»: هي الكلمة الدالة على التكوين بمحض القدرة عند إرادة خلق الشيء وإيجاده، وهو أيضاً مؤيد بروح منه، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، وكما قال تعالى في صفات المؤمنين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وآية الله في خلق عيسى بكلمته وجعله بشراً سوياً بما نفخ فيه من روحه.. كآيته في خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه، فخلقهما كان بغير السنة العامة في خلق الناس من ذكر وأنثى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾. وزعم بعض النصارى: أن كلمة ﴿مِّنْهُ﴾ تدل على أن عيسى جزء من الله، بمعنى أنه ابنه، فقد نقل بعض المفسرين: أن طبيباً حاذقاً نصرانياً جاء للرشيد، فناظر علي بن الحسين الواقدي المروزي ذات يوم، فقال:

إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى، وتلا هذه الآية، فقرأ له الواقدي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ فلئن صح ما تقول.. لزم أن تكون جميع هذه الأشياء جزءاً منه تبارك وتعالى، فأفحم النصراني وأسلم، ففرح بذلك الرشيد، ووصل الواقدي بصلة عظيمة.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان له من العمل». متفق عليه.

﴿فَـَٔامِنُوا﴾ يا أهل الكتاب ﴿بِٱللَّهِ﴾ إيماناً يليق به، وهو أنه واحد أحد، تنزه عن صفات الحوادث، وأنَّ كل ما في الكون مخلوق له، وهو الخالق له، وأن الأرض في مجموع ملكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى اليابس منها، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها ﴿و﴾ آمنوا بـ ﴿رسله﴾ تعالى كلهم إيماناً يليق بشأنهم، وهو أنهم عبيد له، خصهم بضروب من التكريم والتعظيم، وألهمهم بضرب من العلم والهداية بالوحي، ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه ويشكرونه ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ أيها النصارى: الآلهة ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ الأب والابن وروح القدس، وقيل: المراد بالآلهة الثلاثة: الله سبحانه وتعالى، ومريم، والمسيح، وقيل: يعنون بالثلاثة: الثلاثة الأقانيم؛ أي: الأشخاص، فيجعلونه سبحانه وتعالى جوهراً واحداً، وله ثلاثة أقانيم، ويعنون بالأقانيم: أقنوم الوجود، وأقنوم الحياة، وأقنوم العلم، فيقولون: الله ثلاثة أقانيم، كل منها عين الآخر، وكل منها إلٰه كامل، ومجموعها إلٰه واحد، وربّما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فإنّ في هذا تركاً للتوحيد الذي هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء، واتباعاً لعقيدة الوثنيين، والجمع بين التثليث والتوحيد تناقض تحيله العقول، ولا يقبله أولوا الألباب.

﴿ٱنتَهُوا﴾؛ أي: امتنعوا وانزجروا عن مقالتكم بالتثليث.. يكن الانتهاء عن القول بالتثليث ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ من القول به، أو المعنى: انتهوا عن التثليث،

وقولوا قولاً آخر خيراً لكم منه، وهو قول جميع النبيين والمرسلين الذين جاؤوا بتوحيد الله وتنزيهه. ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما المستحق للعبادة من جميع المخلوقات إلا ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بالذات، منفرد في ألوهيته، منزه عن التعدد، فليس له أجزاء، ولا أقانيم، ولا هو مركب، ولا متحد بشيء من المخلوقات ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؛ أي: أسبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد، أو سبحوه تسبيحاً من ذلك، تقدس اللَّهُ سبحانه وتعالى على أن يكون له ولد، كما قلتم في المسيح: إنّه ابنه، إنه هو عينه، فإنه تبارك وتعالى ليس له مماثل فيكون له منه زوج يتزوجها فتلد له ولداً؛ لأن الولد جزء من الأب، وتعالى الله عن التجزئة، وعن صفات الحدوث، والتعبير[1] بالولد دون الابن ـ الذي يعبرون به في كلامهم ـ لبيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقي الذي يفهم من هذا اللفظ.. فلا بدّ أن يكون ولداً؛ أي: مولوداً من تلقيح أبيه لأمه، وهذا محال على الله تعالى، وإن أرادوا الابن المجازي لا الحقيقي.. فلا خصوصية لعيسى في ذلك؛ لأنه قد أطلق في كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداود وغيرهما من الأخيار.

وقرأ الحسن: ﴿إن يكون له ولد﴾ ـ بكسر الهمزة، وضم النون من يكون ـ على أن: إنْ نافية؛ أي: ما يكون له ولد، فيفيد الكلام التنزيه عن التثليث والإخبار بانتفاء الولد، فالكلام جملتان، وفي قراءة الجمهور جملة واحدة. ﴿لَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً، فمن كان مالكهما وما فيهما.. كان مالكاً لعيسى ومريم، وإذا كانا مملوكين له فكيف يتوهم كونهما له ولداً وزوجة؟ أي: إنه سبحانه وتعالى ليس له ولد يصح أن يسمى ابناً له حقيقة، بل له كل ما في السمٰوات وما في الأرض خلقاً وملكاً، والمسيح من جملتها، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾. ولا فرق في هذا بين الملائكة والنبيّين، وبين من خلقه ابتداء من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم، ومن خلقه من أصل واحد كحواء وعيسى، ومن خلقه من الزوجين الذكر والأنثى، فكل هؤلاء عبيده يحتاجون إلى فضله وكرمه وجوده،

---

(١) المراغي.

وهو يتصرف فيهم كما يشاء. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: كفى به حافظاً ووكيلاً، إذا وكلوا أمورهم إليه، تكل الخلائق أمورهم إليه، ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، فهو تعالى غني عن الولد، فإن الولد إنما يحتاج إليه أبوه ليعينه في حياته، ويقوم مقامه بعد وفاته، والله تعالى منزه عن كل ذلك. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وكفى به وكيلاً﴾؛ أي: مستقلاً بتدبير خلقه، فلا حاجة له إلى ولد يعينه انتهى.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾؛ أي: لن يأنف، ولن يتكبر، ولن يرتفع المسيح بن مريم عن أن يكون عبداً لله تعالى؛ أي: مقرّاً بالعبودية لله، مستمراً على عبادته وطاعته؛ لعلمه بعظمة الله تعالى وما يجب له من العبودية والشكر، وروي أن وفد نجران قالوا: يا محمد، إنك تعيب صاحبنا، فتقول: إنه عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبداً لله» قالوا: بلى، فنزلت: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾.

وقرأ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿عبيداً لله﴾ بصيغة التصغير ﴿وَلَا﴾ يستنكف ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ عند الله تعالى، كجبريل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش؛ أي: لن يترفعوا عن أن يكونوا عباداً لله تعالى، وذكر الملائكة استطراد؛ لأنه لما ذكر شأن عيسى عليه السلام للرد على النصارى.. ذكر الملائكة للرد على المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله، ومحله في سورة الزخرف عند قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ إلخ. ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ﴾ ويترفع ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ وطاعته تعالى أنفة وكبراً، فيرى أنه لا يليق به ذلك ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ عن الإيمان به والخضوع والتذلل له ﴿فسـ﴾ يجزيه أقبح الجزاء وأشد العذاب في الآخرة، إذ ﴿يحشرهم إليه جميعاً﴾؛ أي: إذ يحشر الناس إليه جميعاً للجزاء، المستنكفين منهم والمستكبرين وغيرهم في صعيد واحد، فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

(١) البحر المحيط.

فلا بدَّ من هذا التقدير؛ إذ الحشر عام للمؤمنين والكافرين كما يدل عليه التفصيل الآتي بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟﴾، فقد حذف من الإجمال ما أثبت في التفصيل. وقرأ الحسن بالنون بدل الياء في ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لحال الفريق المطوي ذكره في الإجمال، قدم على بيان حال مقابله؛ إظهاراً لفضله ومسارعة إلى بيان كون حشره أيضاً معتبراً في الإجمال، كما قدرناه سابقاً؛ أي: فأما الذين أمنوا بالله ورسله، وعملوا الصالحات والمأمورات، واجتنبوا المنهيات ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ من غير أن ينقص منها شيئاً أصلاً؛ أي: سيعطيهم أجورهم وافيةً كاملة على إيمانهم وعملهم الصالح بحسب سنته تعالى في ترتيب الجزاء على مقدار تأثير الإيمان والعمل الصالح في النفس وتزكيتها وطهارتها من أدران الشرور والآثام ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه على أجور أعمالهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟﴾؛ أي: أنفوا وترفعوا عن عبادته تعالى ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ أي: تكبروا عن الإيمان به تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: مؤلماً يستحقونه بحسب سنته أيضاً، بسبب استنكافهم واستكبارهم، لكن لا يزيدهم على ما يستحقون شيئاً؛ لأن رحمته سبقت غضبه، فهو يجازي المحسن بالعدل والفضل، ويجازي المسيء على إساءته بالعدل ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ولا يجد المستنكفون لأنفسهم من غير الله تعالى ﴿وَلِيًّا﴾ يلي أمورهم ويدبر مصالحهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويحفظهم من بأسه تعالى، ويرفع عنهم العذاب وينجيهم منه؛ إذ لا عاصم اليوم من أمر الله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لكافّة المكلّفين ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾؛ أي: رسول ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو: محمد رسول الله ﷺ، وإنما سماه برهاناً؛ لأنّ وظيفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل. أي: قد جاءكم من قبل ربّكم برهانٌ جلي يبين لكم حقيقة الإيمان به وبجميع ما أنتم في حاجة إليه من أمر دينكم، مؤيد

بالدلائل والبينات، ألا وهو النبي الأمي الذي هو برهان على حقية ما جاء به بسيرته العملية ودعوته التشريعية، فإن أمياً لم يتعلم في مدرسة ولم يعن في طفولته بما كان يسمى عند قومه علماً، كالشعر والنسب وأيام العرب، بل ترك ولدان المشركين وشأنهم، ولم يحضر سمار قومه ولا معاهد لهوهم، ولم يحظ من التربية المنزلية والتأديب الاجتماعي - في أول نشأته - ما يؤهله للمنصب الذي تصدى له في كهولته، وهو تربية الأمم تربية دينية اجتماعية سياسية حربية، وهو مع هذا قد قام به على أتم وجه وأكمل طريق، لهو برهان على عناية الله به وتأييده إياه بوحيه وهديه.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ بواسطة محمد ﷺ ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾؛ أي: نوراً نيراً في نفسه منوراً لغيره، وهو القرآن، وسماه نوراً؛ لأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب؛ أي: وأنزلنا إليكم بما أوحينا إليه كتاباً، هو كالنور في الهداية للناس مبيناً لكل ما أنزل لبيانه، من توحيد الله وربوبيته، وهو المقصد الأعلى الذي بعث به جميع الرسل، وكان كلٌّ منهم يدعو أمته إليه، ويستجيب له الناس بقدر استعدادهم لفهم حقيقته، ثم لم يلبثوا أن يشوهوه بالشرك وضروب الوثنية التي تدنس النفوس، وتهبط بها من أوج العزة والكرامة إلى المهانة والذلة بالخضوع لبعض مخلوقات من جنسهم، أو من أجناس أخرى.

ولما تغلغلت الوثنية في جميع الأديان المعروفة وأفسدتها على أهلها.. أنزل الله تعالى لهداية البشر هذا النور المبين، وهو القرآن، فبين لمن يفهم لغته حقيقة التوحيد بالدلائل والبراهين الكونية والعقلية مع ضرب الأمثال، وذكر شيء من القصص؛ لكشف ما ران على هذه العقيدة من شبهات المضلين، وأوهام الضالين التي مزجتها بالشرك. هذا البيان الذي جاء به القرآن لتقرير التوحيد واجتثاث جذور الوثنية.. لم يكن معهوداً مثله من الحكماء، ولا من الأنبياء، فمن ثم وجب أن يكون من رب العالمين ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

والخلاصة: أنّ محمداً النبي الأمي ﷺ كان برهاناً على حقية دينه، وكتابه

القرآن أنزل من العلم الإلهي، ولم يكن لعلمه الكسبي أن يأتي بمثله، وأنزل مبيناً لجميع الناس ما هم في حاجة إليه في معاشهم ومعادهم؛ ليتدبروا آياته ويسعدوا به في حياتهم الدنيا، وينالوا به الخير في العقبى، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾: في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وأحكامه ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾؛ أي: وتمسكوا بدينه، والتجؤوا إليه تعالى في أن يثبتهم على الإيمان ويصونهم عن نزغات الشيطان ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وهي الجنة ونعيمها ﴿و﴾ في ﴿فضل﴾ وكرم منه وإحسان زائد، كالنظر إلى وجهه الكريم، والتعظيم وغير ذلك من مواهب الجنة. والاعتصام: التمسك بما يعصم ويحفظ؛ أي: فأما الذين يعتصمون بهذا القرآن - فيدخلهم الله في رحمة خاصة منه، لا يدخل فيها سواهم، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم، ولكنه يخص من يشاء بما شاء من أنواعهما، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرحمة: الجنة، والفضل: ما يتفضل به عليهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهو: الإسلام والطاعة والسعادة الروحانية، والجار والمجرور في محل نصب حال من صراطاً، والضمير المجرور عائد على الله، بتقدير مضاف؛ أي: إلى ثوابه؛ أي: ويهديهم طريقاً قويماً، وهدايةً خاصة تبلغهم السعادة في الدنيا بالعزة والكرامة، وفي الآخرة بالجنة والرضوان، وهذا الصراط المستقيم لا يهدي إليه إلا الاعتصام بالقرآن الكريم، واتباع سنة سيد المرسلين، والمراد: أنه يوفّقهم ويثبتهم على تلك الهداية إلى الصراط المستقيم. وسكت عن القسم الآخر المقابل لهؤلاء المؤمنين المعتصمين؛ للإيذان بأنه بعد ظهور البرهان لا ينبغي أن يوجد، وإن وجد لا يؤبه له ولا يهتم بشأنه.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾؛ أي: يسألك المؤمنون يا محمد عن كيفية إرث مال من ليس له ولد ولا والد، تقدم لك في مبحث أسباب النزول: أنها نزلت في جابر بن عبد الله، له تسع أخوات، وليس له ولد ولا والد، وروى الطبري عن قتادة أن الصحابة أهمهم شأن الكلالة، فسألوا عنها النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وختم الله سبحانه وتعالى هذه السورة بذكر الأموال، كما أنّه افتتحها بذلك؛ لتحصل المشاكلة بين المبدأ والختام.

وجملة ما في هذه السورة من آيات المواريث ثلاثة:

الأولى: في بيان إرث الأصول والفروع.

والثانية: في بيان إرث الزوجين والأخوة والأخوات من الأم.

والثالثة: هي هذه، في إرث الأخوة والأخوات الأشقاء، أو لأب. وأما أولو الأرحام فمذكورون في آخر الأنفال، والمستفتي عن الكلالة هو جابر، لما عاده النبي ﷺ في مرضه، فقال: يا رسول الله، إني كلالة، فكيف أصنع في مالي؟ كما مر. ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ ويجيبكم ﴿فِى﴾ بيان إرث ﴿ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ ويبين لكم كيفية إرث مال من مات وليس له أصل ولا فرع وارثان، والكلالة: اسم يقع على الوارث وعلى الموروث، فإن وقع على الوارث.. فهو من سوى الوالد والولد، وإن وقع على الموروث.. فهو الذي مات ولا يرثه أحد من الوالدين، ولا أحد من الأولاد، والجواب هو ما ذكره بقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾ ومات، جملة[1] مستأنفة في جواب سؤال أخذ من يستفتونك، كأنه قيل: وما الذي يفتى به وما الحكم؟ فالوقف على الكلالة ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، أي: ولا والد، واقتصر سبحانه في هذه الآية على نفي الولد مع كون الأب يسقط الأخ كما يسقطه الولد الذكر؛ لأنّ المراد بيان حقوق الأخ مع الولد فقط هنا، وأما سقوطه مع الأب.. فقد تبين بالسنة، كما ثبت في «الصحيح» من قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر، والأب أولى من الأخ». ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ شقيقة، أو لأب ﴿فَلَهَا﴾؛ أي: فللأخت ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ بالفرض، والباقي للعصبة.

والمعنى: إن مات امرؤ غير ذي ولد ووالد، وله أخت شقيقة، أو من الأب.. فللأخت نصف ما ترك بالفرض، والباقي للعصبة إن كان، أو لها بالرد إن لم يكن له عصبة، فإن كان له ولد ذكر، أو والد.. فلا شيء لها ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: المرءُ الكلالة ﴿يَرِثُهَآ﴾؛ أي: يرث أخته، جميع ما تركت إن فرض موتها

---

(١) الفتوحات.

مع بقائه ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ذكر، ولا أنثى، أو والد يحجبه عن إرثها، فإن كان لها ولد ذكر.. فلا شيء له، أو أنثى.. فله ما فضل عن نصيبها، ولو كانت الأخت أو الأخ من أم.. ففرضه السدس، كما تقدم أول السورة. وإنما أطلق الإرث ولم يبين النصيب؛ لأنّ الأخ ليس صاحب فرض معين، بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل هو عصبة يحوز كل التركة عند عدم وجود أحد من أصحاب الفروض، وعند وجود أحد منهم يرث هو معه كلالةً جميع ما بقي ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: فإن كانت الأختان اثنتين فصاعداً دلَّ[1] على ذلك قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾. وقال «البيضاوي»: الضمير[2] لمن يرث بالأخوة، وتثنيته محمولة على المعنى، وفائدة الإخبار عنه باثنتين: التنبيه على أن الحكم باعتبار العدد دون الصغر والكبر وغيرهما، والمعنى: فإن كان من يرث بالأخوة شقيقتين، أو من أب.. فلهما الثلثان مما ترك أخوهما كلالةً، وكذا إن كن أكثر من اثنتين كأخوات جابر - فقد كن سبعاً أو تسعاً - والباقي لمن يوجد من العصبة إن لم يكن هناك أحدٌ من أصحاب الفروض، كالزوجة، وإلا أخذ كل ذي فرض فرضه أولاً. ﴿وَإِن كَانُوٓا۟﴾؛ أي: وإن كان من يرثون بالأخوة كلالة ﴿إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾؛ أي: إخوة مختلطة رجالاً أشقاء، أو من أب، ونساء شقيقات، أو لأب ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؛ أي: مثل نصيب الانثيين يقتسمون التركة على طريقة التعصيب، كما هي القاعدة في كل صنف اجتمع منه أفراد في درجة واحدة، إلا أولاد الأم، فإنهم شركاء في ثلث أمهم؛ لحلولهم محلها، ولولا ذلك لم يرثوا؛ إذ هم ليسوا من عصبة الميت. وقرأ ابن أبي عبلة[3]: ﴿فإن للذكر مثل حظ الأنثين﴾.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون أحكام دينكم من قسمة المواريث وغيرها كراهية ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ وتخطئوا فيها، وقرأ[4] الكوفي والفراء والكسائي وتبعهم الزجاج: ﴿لأن لا تضلوا﴾ وهي قراءة تفسيرية. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من مصالح العباد في المبدأ والمعاد، وفيما كلّفهم به من الأحكام

---

(1) النسفي.
(2) البيضاوي.
(3) البحر المحيط.
(4) البحر المحيط.

﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: عالم؛ لأنّ علمه محيط بكل شيء، فيبين لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم، فهو لم يشرع لكم من من الأحكام إلا ما علم أن فيه الخير لكم لصلاح أنفسكم، وذلك شأنه في جميع أفعاله وأحكامه فكلها موافقة للحكمة، دالة على واسع العلم وعظيم الرحمة. وقال أبو عبد الله الرازي[1]: في هذه السورة لطيفة عجيبة، وهي: أن أولها مشتمل على كمال تنزه الله سبحانه وتعالى وسعة قدرته، وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم، وهذان الوصفان بهما تثبت الربوبية والألوهية، والجلال والعزّة، وبهما يجب أن يكون العبد منقاداً للتكاليف.

الإعراب

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَغۡلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية. ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بتغلوا، والجملة الفعلية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بتقولوا. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلۡحَقَّۚ﴾: مفعول به لتقولوا؛ لأنه بمعنى لا تذكروا ولا تعتقدوا، ويجوز أن يكون صفة للمصدر المحذوف، أي: إلا القول الحق.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: مبتدأ. ﴿عِيسَى﴾: بدل منه، أو عطف بيان منه. ﴿ٱبۡنُ﴾ صفة لعيسى، وهو مضاف. ﴿مَرۡيَمَ﴾: مضاف إليه. ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾: معطوف على ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَلۡقَىٰهَآ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب

---

(١) الفخر الرازي.

حال من كلمته، وقد مقدرة معه، أو حال من الضمير المجرور في كلمته. ﴿إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: جار ومجرور متعلق بألقى. ﴿وَرُوحٌ﴾: معطوف على ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور، صفة لـ﴿روحٌ﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، وتقديره: إذا عرفتم أن عيسى رسول الله وروح منه وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: آمنوا. ﴿آمنوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿آمنوا﴾. ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الآلهة ثلاثة، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره في محل النصب مقول ﴿تقولوا﴾. ﴿ٱنتَهُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة بعاطف مقدَّر على جملة ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾: خبر ليكن المحذوفة مع اسمها، تقديره: يكن الانتهاء خيراً ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بخيراً، أو صفة له، وجملة يكن المحذوفة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبر. ﴿وَٰحِدٌ﴾: صفة له مؤكدة، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبحه تسبيحاً، أو سبحوه تسبيحاً، وهو مضاف، وضمير الجلالة مضاف إليه، وجملة ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿أَن يَكُونَ﴾: ناصب وفعل ناقص. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم ليكون. ﴿وَلَدٌ﴾: اسم يكون مؤخر، وجملة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: سبحانه عن كون ولد له، الجار والمجرور متعلق بسبحانه. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَا﴾:

موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة لما، أو صفة لها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف على ما في السموات ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾: فعل وفاعل ﴿وَكِيلًا﴾: تمييز، والجملة مستأنفة، أو معطوفة.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يَكُونَ﴾: فعل ناقص منصوب، واسمه ضمير يعود على المسيح. ﴿عَبْدًا﴾: خبر يكون. ﴿لِّلَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿عبداً﴾. ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ﴾: معطوف على المسيح. ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾: صفة للملائكة، وجملة يكون صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: عن كونه عبداً لله، ولا الملائكة المقربون عن كونهم عبيداً لله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يستنكف﴾.

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: إستئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما. ﴿يَسْتَنكِفْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾، فاعله ضمير يعود على مَن. ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَسْتَنكِفْ﴾. ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾: معطوف على يستنكف. ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾: الفاء: رابطة لجواب مَنْ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب مقروناً بحرف التنفيس. ﴿سيحشرهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بيحشر. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير يحشرهم، والجملة الفعلية في محل الجزم بمَنْ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة مَنْ الشرطية مستأنفة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن الله سبحانه وتعالى سيحشرهم إليه جميعاً، وأردت بيان

جار ومجرور متعلق بيفتيكم على إعمال الثاني، وهو اختيار البصريين، ولو أعمل الأول لأضمر في الثاني، فقال: يفتيكم فيها في الكلالة، وله نظائر في القرآن ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾.

﴿إِنِ﴾: حرف شرط. ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾: فاعل بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: إن هلك امرؤ هلك. ﴿هَلَكَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بإن على كونه فعل شرط لها. ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾: فاعل. ﴿هَلَكَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرؤ، والجملة الفعلية مفسرة لذلك المحذوف لا محل لها من الإعراب. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿ليس﴾. ﴿وَلَدٞ﴾: اسمها مؤخر. وجملة[1] ﴿لَيۡسَ﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾، تقديره: إن هلك امرؤ غيرُ ذي ولد، وليست الجملة في محل النصب على الحال كما قاله صاحب «الكشاف» وأبو البقاء؛ لأن ذا الحال نكرة غير موصوفة، فإنَّ ﴿هَلَكَ﴾ مفسِّرٌ للفعل المحذوف لا صفة، قاله الطيبي، وهو ظاهر؛ لأن أصل صاحب الحال التعريف؛ لأنه محكوم عليه بالحال، وحق المحكوم عليه أن يكون معرفة؛ لأنَّ الحكم على المجهول لا يفيد غالباً.

﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾.

﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ليس ﴿فَلَهَا﴾ (الفاء): رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿لها﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نِصۡفُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف. ﴿مَا﴾: إما موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿تَرَكَۚ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرىء، وجملة ترك صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: نصف ما تركه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾، على كونها جواباً لها، وجملة إنْ الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأنها واقعة في جواب

---

(١) الفتوحات.

سؤال مقدر مأخوذ من يستفتونك، كأنه قيل: وما الذي يفتى به وما الحكم؟ فالوقف على الكلالة كما مر. ﴿وَهُوَ﴾: الواو: استئنافية. هو: مبتدأ. ﴿يَرِثُهَآ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على امرىء، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَكُن﴾: فعل ناقص مجزوم بلم. ﴿لَّهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم ليكن. ﴿وَلَدٌ﴾: اسمها مؤخر، وجواب إن معلوم مما قبله، تقديره: إن لم يكن لها ولد.. فهو يرثها، والجملة مستأنفة.

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

﴿فَإِن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حكم ما إذا كانت الأخت واحدة، وأردت بيان حكم ما إذا كانتا اثنتين.. فأقول لك. ﴿إن كانتا اثنتين﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَتَا﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بإن على كونه فعل شرط. ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾: خبر كان. ﴿فَلَهُمَا﴾: الفاء: رابطة لجواب إن الشرطية. ﴿لهما﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلثُّلُثَانِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بإن، على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرىء، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط: الضمير المحذوف، تقديره: مما تركه.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ﴾: جازم وفعل ناقص واسمه. ﴿إِخْوَةً﴾: خبر كان. ﴿رِّجَالًا﴾: بدل من إخوة. ﴿وَنِسَآءً﴾: معطوف على رجالاً. ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾: (الفاء): رابطة لجواب (إن) الشرطية. ﴿للذكر﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِثْلُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف. ﴿حَظِّ﴾: مضاف إليه، وهو مضاف. ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: مضاف إليه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بإن الشرطية، على كونها جواباً

لها، وجملة إن الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدَّر إليه، تقديره: كراهية ضلالكم عن طريق العدل والحق، والمصدر المقدَّر منصوب بـ﴿يُبَيِّنُ﴾، على كونه مفعولاً لأجله، وهو متوفر الشروط المعتبرة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾: وهو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾: من غلا يغلو، كدعا يدعو، أصله: لا تغلووا، بوزن: لا تفعلوا، بواوين أولاهما مضمومة، ويقال فيه: استثقلت الضمة على الواو، ثمَّ حذفت، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الواو الأولى - وهي لام الكلمة -، فصار: لا تغلوا، بوزن: لا تفعلوا، يقال: غلا الشيء يغلو غلواً وغلاء، إذا جاوز الحد، والغلو: مجاوزة الحد، ومنه: غلا السعر.. إذا صار غالياً، وغلوة السهم.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾: استنكف - من باب: استفعل السداسي - وهو من مزيد الثلاثي بثلاثة أحرف، وسئل[1] أبو العباس عن الاستنكاف؟ فقال: هو من النكف، يقال: ما عليه في هذا الأمر نكف ولا وكف، والنكف: أن يقال له سوء، واستنكف: دفع ذلك السوء، انتهى. وفي «المصباح»: نكفت من الشيء نكفاً - من باب: تعب - ونكفت أنكف - من باب: قتل - لغة فيه. واستنكف: إذا امتنع أنفة واستكباراً، انتهى. وفي «البيضاوي»: والاستكبار دون الاستنكاف، ولذا عطف عليه فيما بعد، وإنما يستعمل الاستنكاف حيث لا استحقاق، بخلاف الاستكبار؛ فإنه قد يكون باستحقاق، انتهى. وقيل:[2] الاستنكاف: الامتناع عن الشيء أنفة وكبراً، والاستكبار: أن يجعل الإنسان نفسه كبيرة فوق ما هي عليه، غروراً وإعجاباً بها، وفي «الفتوحات»: الاستنكاف: الأنفة والترفع، من نكفت الدمع إذا نحيته على وجهك بالأصبع، والمعنى هنا: لن يأنف عيسى، ولن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

يترفع، ولن يتكبر عن أن يكون عبداً لله تعالى.

﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾: البرهان: الحجة، يجمع على براهين، يقال: برهن الشيء وعليه عنه: إذا أقام عليه الحجة وأوضحه ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾: يقال: اعتصم به ـ من باب: افتعل ـ إذا أمسكه بيده، واعتصم بالله: إذا امتنع بلطفه من المعصية، واعتصم بالله من الشر والمكروه: التجأ به ولاذ وامتنع.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع:

فمنها:[1] الاستعارة في قوله: ﴿لَا تَغْلُواْ﴾: والغلو: حقيقة في ارتفاع السعر، وفي قوله: ﴿وَكِيلًا﴾: استعير لإحاطة علم الله بهم. وفي قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ استعير للمجازاة.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ و ﴿يُفْتِيكُمْ﴾.

ومنها: التفصيل في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

ومنها: ذكر[2] العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فالكتاب عام أريد به الخاص، وهو الإنجيل، وكذلك أهل الكتاب المراد بهم حينئذ النصارى، فكل منهما عام أريد به خاص، وذلك لأن ما بعده يدل على ذلك، وهو قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾، وهي قولة النصارىٰ، وقيل: المراد بهم الفريقان، فغلو اليهود: بتنقيص عيسى؛ حيث قالوا: إنه ابن زانية، وغلو النصارى: بالمبالغة في تعظيمه؛ حيث قالوا: إنه إلٰه أو ابن إلٰه.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وهو من نوع قصر موصوف على صفة.

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) الجمل.

ومنها: الإضافة للتشريف والتكريم في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾.

ومنها: التنكير للتعظيم والتفخيم في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، بمعنى: أنه روح من الأرواح القدسية العالية المطهرة.

ومنها: المشاكلة بين المبدأ والختام في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم[1]

* * *

(١) وقد تم بعون الله وفضله تفسير سورة النساء في تاريخ: ٩/٢/١٤٠٩ هـ.

سورة المائدة

سورة المائدة مدنية، إلا قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، فإنها نزلت بعرفة في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفة، فقرأها النبي ﷺ في خطبته، وقال: «يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها، وحرموا حرامها»، وإنما قال فيها ذلك - مع كون كل القرآن كذلك -. لزيادة الاعتناء بها، وإلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، فإنها نزلت بمكة عام الفتح.

والمشهور أن المدني: ما نزل بعد الهجرة، سواء نزل بالمدينة أو بمكة أو في سفر. وتسمّى سورة المائدة، وسورة العقود، وسورة المنقذة. وسميت سورة المائدة؛ لورود ذكر المائدة فيها، حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته، وتكونُ لهم عيداً، وقصتها أعجب ما ذكر فيها؛ لاشتمالها على آيات كثيرة ولطف عظيم من الله العلي العظيم. وآياتها مئة وعشرون في العد الكوفي، ومئة وثنتان وعشرون في العد الحجازي، ومئة وثلاثة وعشرون في العد البصري.

فضلها: ومما يدل على فضلها: ما رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال:[1] (أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها). أخرجه أحمد.

وروى البغوي بسنده عن ميسرة قال: إن الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم ينزلها في غيرها، وهي قوله: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِ﴾،

---

(١) الخازن.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾، ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وتمام بيان الطهر في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾، ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾، و﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ وقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾.

المناسبة: ومناسبة افتتاحها لما قبلها[1]: هو أنه تعالى لما ذكر استفتاءهم في الكلالة وإفتاءهم فيها، وذكر أنه يبين لهم كراهة الضلال.. بين في هذه السورة أحكاماً كثيرة هي تفصيل لذلك المجمل، وقد ذكرناها آنفاً.

وقال المراغي: وجه التناسب بينها وبين ما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ أنّ سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحاً وضمناً، فالصريح: عقود الأنكحة، والصداق، والحلف، والمعاهدة، والأمان. والضمني: عقود الوصية، والوديعة، والوكالة، والإجارة.

٢ ـ أنّ سورة النساء مهدت لتحريم الخمر، وسورة المائدة حرمتها ألبتة، فكانت متممة لشيء مما قبلها.

٣ ـ أنَّ معظم سورة المائدة في محاجة اليهود والنصارى، مع ذكر شيء عن المنافقين والمشركين، وقد تكرر ذكر ذلك في سورة النساء، وأطيل به في آخرها.

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة: أن الأولى بدئت بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وفيها الخطاب بذلك في مواضع، وهذا أشبه بالتنزيل المكي، والثانية بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وفيها الخطاب بذلك في مواضع، وهذا أشبه بالتنزيل المدني المتأخر عن الأول.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة المائدة[3]

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الناسخ والمنسوخ لمحمد بن حزم.

تحتوي على تسع آيات منسوخة:

الآية الأولى منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ (٢ مدينة)، ثم نسخت بآية السيف.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾، نزلت في اليهود، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية، (٢٩) التوبة.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (٣٣ المائدة)، نسخت بالاستثناء منها فيما بعدها، بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾، فصارت ناسخة لها.

والآية الرابعة قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآية (٤٢ المائدة) نسخت بقوله تعالى ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الآية (٤٩ المائدة).

والآية الخامسة قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ الآية (٩٩ المائدة) نسخها آية السيف.

والآية السادسة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية (١٠٥ المائدة) نسخ آخرها أولها والناسخ منها قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ والهدى ههنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس في كتاب الله آية جمعت الناسخ والمنسوخ إلا هذه.

والآية السابعة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية (١٠٦ المائدة) أجاز الله تعالى شهادة الذميين على صفة في السفر ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (٢/الطلاق مدنية) وبطلت شهادة أهل الذمة في السفر والحضر.

والآية الثامنة قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ الآية (١٠٧ المائدة) نسخها الآية التي في الطلاق وهي قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ

﴿مِنكُمْ﴾ الآية (٢ مدنية الطلاق).

والآية التاسعة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، أي: على حقيقتها إلى قوله ﴿أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ وباقي الآية محكمة، نسخ ذلك من الآية بشهادة أهل الإسلام. انتهى.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ① يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ② حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ③﴾.

المناسبة

قد مر لك قريباً بيان وجه التناسب بين هذه السورة وبين السورة التي قبلها بأتم بيان، فراجعه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير عن عكرمة قال: قدم الحطم بن هند ـ واسمه شريح بن هند بن ضبعة البكري ـ المدينة في عير له، يحمل طعاماً، فباعه، ثم دخل على النبي ﷺ فبايعه وأسلم، فلمّا ولى خارجاً.. نظر إليه النبي ﷺ، فقال لمن عنده: «لقد دخل علي بوجه وولى بقفا غادر»، فلمّا قدم اليمامة.. ارتد عن

(١) لباب النقول.

الإسلام، وخرج في عير له يحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة، فلما سمع به أصحاب النبي ﷺ.. تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقتطعوه في عيره، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، فانتهى القوم، وأخرج عن السدي نحوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصدُّ هؤلاء كما صدوا أصحابنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن مسنده في كتاب «الصحابة» من طريق عبد الله بن جبلة بن حبان بن حجر عن أبيه عن جده حبان قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وأنا أوقد تحت قدر فيها لحم ميتة، فأنزل الله سبحانه وتعالى: تحريم الميتة، فأكفأت القدر.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿أَوْفُواْ﴾ وأتموا ﴿بِٱلْعُقُودِ﴾ والعهود المؤكدة التي بينكم وبين الله تعالى، أو بينكم وبين أنفسكم أو بينكم وبين الناس؛ أي: أوفوا ما عقده الله وجعله عليكم، وألزمه إياكم من التكاليف والأحكام الدينية، كالمأمورات: فوفاؤها فعلها، والمنهيات: فوفاؤها اجتنابها، وكالمعاملات الجارية بينهم، من بيع وشراء ونكاح وطلاق: فوفاؤها العمل بموجبها، وكالنذور التي ألزمها الشخص نفسه: فوفاؤها الإتيان بما نذره على نفسه.

وقال الراغب(١): العقود ثلاثة أضرب: عقد بين الله وبين العبد، وعقد بين

---

(١) المراغي.

العبد ونفسه، وعقد بينه وبين غيره من البشر، وكل واحد منها.. إما أن يوجبه العقل الذي أودعه الله في الإنسان، ويتوصل إليه ببديهة العقل، أو بأدنى نظر، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾. وإما أن يوجبه الشرع، وهو ما دلّنا عليه كتابُ الله تعالى وسنةُ رسوله محمد ﷺ.

وأساس العقود في الإسلام هو هذه الجملة ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾؛ أي: إنه يجب على كل مؤمن أن يفي بما عقده وارتبط به من قول أو فعل كما أمر الله، ما لم يحرم حلالاً، أو يحلل حراماً، كالعقد على أكل شيء من أموال الناس بالباطل؛ كالربا، والميسر والقمار، والرشوة، ونحو ذلك.

قيل[1]: المراد بالعقود: هي التي عقدها الله تعالى على عباده، وألزمهم بها من الأحكام، وقيل: هي العقود التي يعقدونها بينهم من عقود المعاملات، والأولى شمول الآية للأمرين جميعاً، ولا وجه لتخصيص بعضهما دون بعض. قال الزجاج: المعنى: أوفوا بعقد الله عليكم، وبعقدكم بعضاً على بعض، انتهى. والعقد الذي يجب الوفاء به هو ما وافق الكتاب والسنة، فإن خالفهما.. فهو ردٌّ لا يجب الوفاء به، ولا يحل.

والخلاصة: يا معشر المؤمنين ائتوا بالعقود والتكاليف التي ألزمها اللَّهُ تعالى إياكم بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وائتوا بموجب العقود الجارية بينكم من المعاملات، من بيع وإجارة مثلاً، وبموجب العقود التي جرت بينكم وبين أنفسكم من النذور، والعتاق، والطلاق.

ثم شرع يفصِّل تلك الأحكام التي أمر بالإيفاء بها، وبدأ بما يتعلق بضروريات معايشهم، فقال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ بعد تذكيتها ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الثلاثة، الإبل والبقر والغنم ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: إلا ما سيتلى عليكم تحريمه في هذه السورة، بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ إلخ؛ أي: أحل الله سبحانه

---

(١) الشوكاني.

وتعالى لكم أيها المؤمنون أكل البهيمة من الأنعام الثلاثة، وهي الأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام بعد تذكيتها، وألحق بها بعض الوحوش والطيور بالسنة، كالظباء، وبقر الوحش، وحماره، والضب، والحمام، ونحوها إلا ما حرِّم أكله عليكم فيما سيتلى عليكم في الآية الثالثة من هذه السورة بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾: حال من الكاف في قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾؛ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام حال كونكم غير محلي الصيد الذي حرّمه الله عليكم؛ أي: غير مجوزين للاصطياد في الإحرام باعتقاد حله، أو بفعله. ومعنى عدم إحلالهم له، تقرير حرمته عملاً واعتقاداً؛ أي: لا تجعلوه حلالاً عملاً واعتقاداً باصطياده، أو الأكل منه وأنتم محرمون بالحج، أو العمرة، أو كليهما، أو داخلون في أرض الحرم، فلا يحل الصيد لمن كان في أرض الحرم، ولو لم يكن محرماً، ولا للمحرم بالحج أو العمرة وإن كان في خارج حدود الحرم، بأن نوى الدخول في هذا النسك وبدأ بأعماله، كالتلبية.

والمعنى: أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا إن كانت الأنعام ميتةً، أو موقوذةً، أو مترديةً، أو نطيحةً، أو افترسها السبع، أو ذُبحت على غير اسم الله، فهي محرمة، وإلا أن تحلوا الصيد في حال إحرامكم، أو في حال كونكم في الحرم؛ فإنه لا يحل لكم ذلك.

والخلاصة: أحلت لكم هذه الأشياء غير محلي الاصطياد، ولا أكل الصيد في الإحرام.

وقرأ الجمهور ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ بالنصب على الحال، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿غيرُ﴾ بالرفع، ويخرج على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: وأنتم غير محلي الصيد. وقرأ الحسن والنخعي ويحيى بن وثَّاب ﴿حرم﴾ بسكون الراء، وهي لغة تميمية، يقولون في رسل: رسل، وفي كتب: كتب ونحو ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحْكُمُ﴾ ويقضي ﴿مَا يُرِيدُ﴾ ويشاء في عباده؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليله، وتحريم ما أراد تحريمه، كما

شاء بحسب الحكم والمصالح التي يعلمها سبحانه، فأوفوا بعقوده وعهوده، ولا تنكثوها ولا تنقضوها، فهو مالك الكل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: معالم دين الله وأحكامه؛ أي: لا تتهاونوا مأمورات الشرع، ولا منهياته، ولا تنتهكوا حرمتها بترك المأمورات وفعل المنهيات، بل احترموا شعائر الله وأحكامه، بفعل المأمورات واجتناب المنهيات، وهذا عام، وذكر ما بعده من المعطوفات من ذكر الخاص بعد العام. وقيل: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ ما أراد جعله أمارات تعلمون بها الهدى من الضلال؛ كمناسك الحج، وسائر فرائض دينه من حلال وحرام، وحدود حدها لكم.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تجعلوا شعائر دين الله حلالاً لكم، تتصرفون فيها كما تشاؤون، بل اعملوا بما بيَّنه لكم، ولا تتهاونوا بحرمتها وتحولوا بينها وبين المتنسكين بها، وتصدوا الناس عن الحج في أشهر الحج.

وقيل: ﴿الشعائر﴾: الهدايا المشعرة؛ أي: المعلمة، وأشعارها: أن يطعن في صفحة سنام البعير بحديدة، حتى يسيل دمه، فيكون ذلك علامة على أنه هدي، وهو سنة في الإبل والبقر، دون الغنم.

والمعنى: لا تحلوا أخذ الهدايا المشعرة بسرقة أو غصب أو نهب من صاحبها. وقال أبو حيان ﴿الشعائر﴾: هي جميع ما حرمه الله تعالى مطلقاً، سواء كان في الإحرام أو في غيره، والمعطوفات الأربعة بعده مندرجة في عموم قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، فكان ذلك تخصيصاً بعد تعميم.

والمعنى: لا تحلوا محرمات الله تعالى فعلاً واعتقاداً، بأن ترتكبوها وتعتقدوا حلها. ﴿وَلَا﴾ تحلوا ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ ذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم، ورجب، ولا تنتهكوا حرمتها؛ بأن تقاتلوا فيها أعداءكم من المشركين، كما رُوي عن ابن عباس وقتادة.

﴿وَلَا﴾ تحلوا ﴿ٱلْهَدْىَ﴾: الذي يهدى به إلى البيت الحرام من الأنعام أو غيرها، للتوسعة على من هناك من عاكفٍ وبادٍ؛ تقرباً إلى الله تعالى؛ وذلك بأن تمنعوا بلوغه محله من بيت الله بأخذه غصباً وذبحه، أو سرقته أو حبسه عند من أخذه. ﴿وَلَا﴾ تحلوا ﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾؛ أي: ذوات القلائد من الهدي؛ أي: ولا تحلوا الهدايا ذوات القلائد، وكأنه قال: لا تحلوا الهدي مقلداً ولا غير مقلد، وخص المقلد بالذكر؛ لأنه أكرم الهدي وأشرفه، والقلائد: جمع قلادة، وهي ما يعلق في عنق البعير ونحوه من حبل أو نعل؛ إشعاراً بأنها هدي. ﴿وَلَآ﴾ تحلوا ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، أي: ولا تحلوا قتال قوم قاصدين البيت الحرام لزيارته بحج أو عمرة، فتصدوهم عن ذلك بأي وجه كان. وقرأ عبد الله وأصحابه ﴿ولا آمي البيت الحرام﴾ بالإضافة. وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ حال من الضمير المستكن في آمّين؛ أي: حالة كون الآمّين يطلبون ربحاً وزيادة من ربهم بالتجارة المباحة، أو المعنى: طالبين ثوباً من ربهم ورضواناً منه بالحج أو العمرة، يحول[1] بينهم وبين عقوبته في الدنيا؛ لئلا يحل بهم ما حل بغيرهم في عاجل دنياهم، وهذا على قراءة الجمهور بالياء.. كلام مع المشركين، كما روي عن قتادة أنه قال: هم المشركون، يلتمسون فضل الله ورضوانه فيما يصلح لهم دنياهم، وفي رواية أخرى عنه: والرضوان الذي يبتغون أن يصلح لهم معايشهم في الدنيا، وأن لا يعجل لهم العقوبة.

وقرأ حميد بن قيس والأعرج[2]: ﴿تبتغون﴾ بالتاء، خطاباً للمؤمنين، والمعنى: على الخطاب: إن المؤمنين كانوا يقصدون قتالهم والغارة عليهم، وصدهم عن المسجد الحرام، امتثالاً لأمر الله تعالى وابتغاء مرضاته، إذ أمر تعالى بقتال المشركين وقتلهم، وسبي ذراريّهم، وأخذ أموالهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية. وقرأ الأعمش ﴿ورضواناً﴾ بضم الراء، وتقدم في آل عمران.. أنها قراءة أبي بكر عن عاصم، حيث وقع إلا في ثاني هذه السورة، فعنه فيه خلاف.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وفي «الخازن»: فصل: اختلف[1] علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فقال قوم: هذه الآية منسوخة إلى هنا؛ أي: إلى قوله: ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾؛ وذلك لأنّ قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ يقتضي حرمة القتال في الشهر الحرام وفي الحرم، وذلك منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وقولُه: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ يقتضي حرمة منع المشركين عن البيت الحرام، وذلك منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾، فلا يجوز أن يحج مشرك، ولا يأمن بالهدي والقلائد كافر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وأكثر المفسرين. وقال آخرون: لم ينسخ من ذلك شيء سوى القلائد التي كانت في الجاهلية يتقلدونها من لحاء شجر الحرم.

والظاهر: ما عليه جمهور العلماء من نسخ هذه الآية؛ لإجماع العلماء على أن الله عز وجل قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها، وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه وذراعيه جميع لحاء شجر الحرم لم يكن ذلك أماناً له من القتل، إذا لم يكن قد تقدم له عقد ذمة أو أمان، وكذلك أجمعوا على منع من قصد البيت بحج أو عمرة من المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾، والله تعالى أعلم، انتهى.

ثم صرح بما فهم من قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ فقال. ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾؛ أي: وإذا خرجتم من إحرامكم بالحج أو العمرة، أو من أرض الحرم ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ الصيد الذي حُرِّمَ عليكم بالإحرام؛ أي: في غير الحرم إن شئتم؛ لأنّه إنما حُرِّم عليكم الصيد في أرض الحرم، وفي حال الإحرام فقط، وقد زال سبب حرمته، والأمر[2] فيه أمر إباحة؛ لأنّه ليس واجباً على المحرم إذا حل من إحرامه أن يصطاد، نظير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أنه قد أبيح لكم ذلك بعد الفراغ من الصلاة.

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

وقرىء[1]: ﴿وإذا أحللتم﴾ وهي لغة في حل، يقال: أحل من إحرامه، كما يقال: حلَّ من إحرامه. وقرأ[2] أبو واقد، والجراح، ونبيح، والحسن بن عمران: ﴿فاصطادوا﴾ - بكسر الفاء -، قال الزمخشري: قيل: هو بدل من كسر الهمزة عند الابتداءِ بها. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ﴾؛ أي: لا يحملنكم بغض قوم وعدواتهم لكم؛ أي: شدة بغضكم لقوم من أهل مكة بسبب ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: عن العمرة عامَ الحديبية على ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ وتبغوا عليهم؛ أي: لا يحملنكم بغضكم قوماً لأجل صدهم إياكم عن المسجد الحرام على ظلمكم واعتدائكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفي من البغض.

والمعنى: ولا[3] يحملنكم بغض قوم وعداوتهم على أن تعتدوا عليهم؛ لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام، وقد كان المشركون صدوا المؤمنين عن العمرة عام الحديبية، فنهى المؤمنين أن يعتدوا عليهم عام حجة الوداع، وهو العام الذي نزلت فيه هذه السورة؛ لأجل اعتدائهم السابق.

وقرأ الجمهور: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ - بتشديد النون -. قرأ الحسن[4]، وإبراهيم، وابن وثاب، والوليد عن يعقوب: ﴿يجرمنْكم﴾ بسكون النون، جعلوا نون التوكيد خفيفة. وقرأ النحويان[5]، وابن كثير، وحمزة، وحفص، ونافع: ﴿شنآن﴾: بفتح النون. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر، وأبو جعفر: (شنْآن) بسكونها، والأظهر في الفتح: أن يكون مصدراً، وقد كثر مجيء المصدر على فعلان - بفتح العين -، وجوّزوا أن يكون وصفاً، وأما مجيء المصدر على فعْلان - بفتح الفاء، وسكون العين -. فقليل. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير ﴿إن صدوكم﴾ بكسرة الهمزة، على أنها شرطية، ويؤيدها قراءة ابن مسعود ﴿إن صدوكم﴾ وأنكر ابن جرير والنحاس

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.
(٥) أبو عمرو والكسائي.

وغيرُهما قراءة كسر إن، وقالوا: إنما صد المشركون الرسول والمؤمنين عام الحديبية، والآية نزلت عام الفتح سنة ثمان، والحديبية سنة ست، فالصد قبل نزول الآية. والكسر يقتضي أن يكون بعد؛ ولأن مكة كانت عام الفتح في أيدي المسلمين، فكيف يصدون عنها وهي في أيديهم؟ وهذا الإنكار منهم لهذه القراءة صعب جداً؛ فإنها قراءة متواترة؛ إذ هي في السبعة، والمعنى معها صحيح، والتقدير: إن وقع صد في المستقبل مثل ذلك الصد الذي كان زمن الحديبية، وهذا النهي تشريع في المستقبل، وليس نزول هذه الآية عام الفتح مجمعاً عليه، بل ذكر اليزيدي: أنها نزلت قبل أن يصدوهم، فعلى هذا القول يكون الشرط واضحاً. وقرأ باقي السبعة: بفتح الهمزة، جعلوه تعليلاً للشنآن، وهي قراءة واضحة؛ أي: شنئان قوم من أجل أن صدوكم عام الحديبية عن المسجد الحرام. والاعتداء: الانتقام منهم، بإلحاق المكروه بهم.

﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿عَلَى الْبِرِّ﴾؛ أي: على فعل المأمورات ﴿و﴾ على ﴿التقوى﴾؛ أي: وعلى اجتناب المنهيات. وقيل: تعاونوا على البر والتقوى؛ أي: على العفو والإغضاء[1]، ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى؛ أي: ليعن بعضكم بعضاً على ما يكسب البر والتقوى ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾؛ أي: على ترك المأمورات ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾؛ أي: على فعل المحظورات؛ أي: ولا يعن بعضكم بعضاً على الإثم والعدوان، وقيل: ولا تعاونوا على الانتقام والتشفي، والبر[2]: فعل المأمور، والتقوى: ترك المحظور، والإثم: ترك المأمور، والعدوان: فعل المحظور. وقال المراغي: البر: التوسع في فعل الخير، والتقوى: اتقاء ما يضر صاحبه في دينه أو دنياه، والإثم: كل ذنب ومعصية، والعدوان: تجاوز حدود الشرع والعرف في المعاملة، والخروج عن العدل فيها، وفي الحديث: «البر: حسن الخلق، والإثم: ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس». رواه مسلم وأصحاب السنن.

وروى أحمد والدارمي عن وابصة بن معبد الجهني: أنه قال: أتيت

---

(١) النسفي.
(٢) النحويان هما أبو عمرو والكسائي.

رسول الله ﷺ فقال: «جئت تسأل عن البر والإثم» قلت: نعم ـ وكان قد جاء لأجل ذلك ـ فأخبره النبي ﷺ بما في نفسه وأجابه، فقال: «استفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

والأمر بالتعاون[1] على البر والتقوى.. من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن؛ إذ يوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضاً على كل ما ينفع الناس، أفراداً وجماعات، في دينهم ودنياهم، وعلى كل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم.

وقد كان المسلمون في الصدر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة إلى ارتباط بعهد، كما تفعله الجماعات اليوم، فإن عهد الله وميثاقه كان مغنياً لهم عن غيره، ولكن لما نكثوا ذلك العهد.. صاروا في حاجة إلى تأليف هذه الجماعات؛ لجمع طوائف المسلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب التعاون على البر والتقوى. وقلما ترى أحداً الآن يعينك على عمل من أعمال البر إلا إذا كان مرتبطاً بعهد معك لغرض معين، ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا الواجب غالباً.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقابه، بامتثال أوامره واجتناب مناهيه، ولا تستحلوا شيئاً من محارمه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والانتقام لمن خالف أمره، ففيه وعيد شديد وتهديد عظيم. والمعنى: واتقوا الله بالسير على سننه التي بيّنها لكم في كتابه وفي نظم خلقه، حتى لا يصيبكم عقابه بالإعراض عن هدايته، فهو شديد العقاب لمن لم يتقه باتباع شرعه ومراعاة سننه في خلقه؛ إذ لا محاباة ولا هوادة في عقابه، فهو لم يأمر بشيء إلا إذا كان نافعاً، ولم ينه عن شيء إلا إذا كان ضاراً، وكذلك بعدم مراعاة السنن؛ لأن لذلك تأثيراً في خلق الإنسان وعقائده وأعماله، وكل ذلك مما يوقعه في الغواية، وينتهي به إلى سوء العاقبة، وهذا العقاب يشمل عقاب الدنيا والآخرة، كما جاء في بعض

(١) المراغي.

الآيات التصريح بذلك، وفي بعضها التصريح بأحدهما، كقوله في عذاب الأمم في الدنيا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾.

ثم شرع الله سبحانه وتعالى في بيان المحرمات التي أشير إليها في أول السورة بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهي عشرة أنواع:

الأول: ما ذكره بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ أي: حرم عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة.. إلا ميتة السمك والجراد؛ فإنهما مستثنيان بالحديث، والميتة: هي التي زالت حياتها بغير ذكاة شرعية، سواء مات حتف أنفه، أو ذبحه مجوسي أو وثني مثلاً، وكان أهل الجاهلية يقولون: إنكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله! واعلم أن تحريم الميتة.. موافقٌ لما في العقول؛ لأن الدم جوهر لطيف جداً، فإذا مات الحيوان حتف أنفه.. احتبس الدم في عروقه، وتعفن وفسد، وحصل من أكله مضار عظيمة.

والحكمة في تحريم الميتة:

١ ـ استقذار الطباع السليمة لها.

٢ ـ أنّ في أكلها مهانة تنافي عزة النفس وكرامتها.

٣ ـ والضرر الذي ينشأ من أكلها، سواء كانت قد ماتت بمرض، أو شدة ضعف، أو بغير ذلك.

٤ ـ وتعويد المسلم أن لا يأكل إلا مما كان له قصد في إزهاق روحه.

والثاني: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلدَّمُ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل الدم، والمراد به: الدم المسفوح؛ أي: السائل المائع الذي يسفح ويراق من الحيوان وإن جمد بعد ذلك، خلاف المتجمد طبيعة؛ كالطحال، والكبد، فإنهما خصّصا بالحديث، وكالدم الذي يتخلل اللحم عادة؛ فإنه لا يسمَّى مسفوحاً، وكان أهل الجاهلية يملؤون الأمعاء من الدم بصبه فيها ويشوونه ويطعمونه الضيف.

وحكمة تحريم الدم: الضرر والاستقذار أيضاً، أما الضرر؛ فلأنه عسر

الهضم جد العسر، ويحمل كثيراً من المواد العفنة التي تنحل من الجسم، وهي فضلات لفظتها الطبيعة كما تلفظ البراز ونحوه، واستعاضت عنها بمواد جديدة من الدم، وقد يكون جراثيم بعض الأمراض المعدية، وهي تكون فيه أكثر مما تكون في اللحم، ومن أجل هذا اتفق الأطباء على وجوب غلي اللبن قبل شربه؛ لقتل ما عسى أن يكون قد علق به من جراثيم الأمراض المعدية.

والثالث: ما ذكره بقوله: ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل لحم الخنزير، والمراد به: جميع أجزائه وأعضائه، وإنما خص اللحم بالذكر؛ لأنه المقصود بالأكل.

والحكمة في تحريم لحم الخنزير[1]: الضرر والاستقذار؛ لملازمته للقاذورات ورغبته فيها، أما ضرره.. فقد أثبته الطب الحديث؛ إذ أثبت أنه له ضرراً يأتي من أكله القاذورات، فإن أكله يولد الديدان الشريطية، كالدودة الوحيدة، ودودة أخرى تسمى الشعرة الحلزونية، وهي تنشأ من أكله الفيران الميتة، كما أثبت أن لحمه أعسر اللحوم هضماً؛ لكثرة الشحم في ألیافه العضلية، وأن المواد الدهنية التي فيه تمنع وصول عصير المعدة إلى الطعام، فيعسر هضم المواد الزلالية، وتتعب معدة آكله، ويشعر بثقل في بطنه واضطراب في قلبه، فإن ذرعه القيء، فقذف هذه المواد الخبيثة.. خف ضرره، وإلا تهيجت المعدة وأصيب بالإسهال، ولولا أن العادة قد جرت بتناول السموم أكلاً وشرباً وتدخيناً، ولولا ما يعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره.. لما أمكن الناس أن يأكلوه، ولا سيما أهل البلاد الحارة. قال أهل العلم: الغذاء يصير جزءاً من جوهر المغتذي، فلا بدَّ أن يحصل للمغتذي أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلاً في الغذاء، والخنزير مطبوع على حرص عظيم، ورغبة شديدة في المشتهيات، فحرم أكله على الإنسان؛ لئلا يتكيف بتلك الكيفية، ولذلك إن الفرنج لما واظبوا على أكل لحم الخنزير.. أورثهم الحرص العظيم والرغبة الشديدة في المشتهيات

(١) المراغي.

وأورثهم عدم الغيرة، فإنَّ الخنزير يرى الذكر من الخنازير ينزو على الأنثى التي هي له ولا يتعرض له؛ لعدم الغيرة. وأما الشاة.. فإنها حيوان في غاية السلامة، فكأنها ذات عارية عن جميع الأخلاق، فلذلك لا يحصل للإنسان ـ بسبب أكل لحمها ـ كيفية أجنبية عن أحوال الإنسان.

والرابع: ما ذكره بقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ أي: وحرم[1] عليكم ما ذكر على ذبحه غير اسم الله تعالى، وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عند الذبح، فحرم الله ذلك بهذه الآية، بقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، والمعنى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ﴾؛ أي: رفع الصوت ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بغير اسم الله ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: عند ذبحه، فاللاّم بمعنى الباء، والباء بمعنى عند، والإهلال: رفع الصوت، يقال: أهل فلان بالحج.. إذا رفع صوته بالتلبية له: «لبيك اللهم لبيك»، واستهل الصبي إذا صرخ عند الولادة، والمراد به: ما ذبح على ذكر غير الله تعالى من المخلوقات التي يعظمها الناس تعظيماً دينياً، ويتقربون إليها بالذبائح، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون أصواتهم بقولهم: باسم اللات، أو باسم العزى، وحكمة التحريم في هذا: أنه من عبادة غير الله، فالأكل منه مشاركة لأهله ومشايعة لهم عليه، وهو مما يجب إنكاره لا إقراره.

ويدخل في ذلك: ما ذكر عند ذبحه اسم نبي، أو ولي كما يفعل بعض أهل الكتاب وجهلة المسلمين الذين اتبعوا من قبلهم، وساروا على نهجهم باعاً فباعاً، وذراعاً فذراعاً.

والخامس: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾؛ أي: التي[2] ماتت بانعصار الحلق وانحباس النفس فيها، فالمنخنقة على وجوه: منها: أن أهل الجاهلية كانوا يخنقون الشاة، فإذا ماتت أكلوها، ومنها: ما يخنق بحبل الصائد، ومنها: ما يدخل رأسها بين عودين من شجرة فتختنق، فتموت.

---

(١) الخازن.

(٢) المراح.

وقد روى ابن جرير في تفسيرها أقوالاً[1]: فعن السدي: أنها التي تدخل رأسها بين شعبتين من شجرة، فتختنق فتموت، وعن ابن عباس والضحاك في التي تختنق فتموت، وفي رواية عن الضحاك: هي الشاة توثق فيقتلها خناقها، ثم قال: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: هي التي تختنق، إما في وثاقها، أو بإدخال رأسها في الموضع الذي لا تقدر على التخلص منه، فتختنق حتى تموت.

وهي بهذا المعنى من قبيل ما مات حتف أنفه، من حيث إنه لم يمت بتذكية الإنسان له لأجل أكله، فهي داخلة في الميتة، وإنما خصها بالذكر؛ لأن بعض العرب في الجاهلية يأكلونها، ولئلا يشتبه الأمر فيها على بعض الناس، بأن لموتها سبباً معروفاً، والعبرة في الشرع بالتذكية التي تكون بقصد الإنسان، لأجل الأكل حتى يكون واثقاً من صحة البهيمة التي يريد التغذي بها.

والسادس منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل الموقوذة ـ من الوقذ ـ وهي شدة الضرب، ويقال: شاة وقيذ وموقوذة، والموقوذة هنا: هي المضروبة بخشبة، أو عصا، أو حجر، أو بكل ما لا حد له، حتى تموت بلا ذكاة، وكانوا يأكلونها في الجاهلية.

والوقذ يحرم في الإسلام[2]؛ لأنه تعذيب للحيوان، قال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» رواه مسلم وأصحاب السنن.

ولما كان الوقذ محرماً حرم ما قتل به، وهي تدخل في عموم الميتة أيضاً على الوجه الذي ذكرنا؛ فإنها لم تذك تذكية شرعية، ويدخل في الموقوذة: ما رمي بالبندق ـ وهو نحو كرة من الطين تجفف ويرمى بها بعد يبسها ـ لما رُوي (أن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف ـ الرمي بالحصى ـ والخذف /و لكل يابس غير محدد، سواء رمى باليد، أو بالمخذفة، أو بالمقلاع. وقال: «إنه يفقأ العين ولا ينكأ العدو، ولا يحرز صيداً» ففي هذا الحديث نص على العلة، وهو أنه تعذيب

---

(١) الطبري. (٢) المراغي.

للحيوان، وليس سبباً مطرداً ولا غالباً للقتل.

أما بندق الرصاص المستعمل الآن وما في حكمه، كالمسدس.. فإنه يصيد وينكأ، ولذا أفتى العلماء بجواز الصيد به. قال ابن[1] عبد البر: واختلف العلماء قديماً وحديثاً في الصيد بالبندق والحجر والمعراض - ويعني بالبندق: قوس البندقة، وبالمعراض: السهم الذي لا ريش له، أو العصا التي رأسها محدد - قال: فمن ذهب إلى أنه وقيذ.. لم يجزه إلا ما أدرك ذكاته، على ما رُوي عن ابن عمر، وهو قول مالك، وأبي حنيفة، وأصحابه، والثوري، والشافعي، وخالفهم الشاميون في ذلك، قال الأوزاعي: في المعراض كله خرق أو لم يخرق، فقد كان أبو الدرداء، وفضالة بن عبيد، وعبد الله بن عمر، ومكحول.. لا يرون به بأساً، قال ابن عبد البر: هكذا ذكر الأوزاعي عن عبد الله بن عمر، والمعروف عن ابن عمر ما ذكر مالك عن نافع قال: والأصل في هذا الباب - والذي عليه العمل، وفي الحجة - حديث عدي بن حاتم، وفيه «ما أصاب بعرضة فلا تأكل، فإنه وقيذ» انتهى.

قلت: والحديث في «الصحيحين» وغيرهما عن عدي قال: قلت: يا رسول الله إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله». فقد اعتبر النبي ﷺ الخرق وعدمه، فالحق أنه لا يحل إلا ما خرق، ولا ما صدم، فلا بدَّ من التذكية قبل الموت، وإلا كان وقيذاً. وأما البنادق المعروفة الآن - وهي بنادق الحديد التي تحمل فيها البارود والرصاص ويُرمى بها - فلم يتكلم عليها أهل العلم؛ لتأخر حدوثها؛ فإنها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا في المئة العاشرة من الهجرة، وقد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات ولم يتمكن الصائد من تذكيته حياً؟ والذي يظهر لي.. أنه حلال؛ لأنها تخرق وتدخل في الغالب من جانب منه، وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال ﷺ في الحديث السابق: «إذا رميت

---

(١) الشوكاني.

بالمعراض فخرق فكله» فاعتبر الخرق في تحليل الصيد، ذكره الشوكاني.

وهذه الأنواع الستة السابقة[1] من أقسام الميتة، وذكرها بعدها.. من قبيل ذكر الخاص بعد العام، وإنما ذكرت بخصوصها للردّ على أهل الجاهلية؛ حيث كانوا يأكلونها ويستحلونها.

والسابع منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾؛ أي: الساقطة من علو إلى أسفل فماتت، من غير فرق بين أن تتردى من جبل، أو بئر، أو مدفن، أو غيرها، وسواء تردت بنفسها، أو رداها غيرها، والتردي: مأخوذ من الردى، وهو الهلاك، وهي في حكم الميتة؛ لأنه لم يكن للإنسان عمل في إماتتها، ولا قصد به إلى أكلها، ويدخل[2] فيها: ما إذا أصابه سهم وهو في الجبل فسقط على الأرض، فإنه يحرم أكله؛ لأنه لم يعلم هل مات بالتردي أو بالسهم؟ ولو رمى صيداً في الهواء بسهم فأصابه، فإن سقط على الأرض ومات.. حلَّ؛ لأن الوقوع على الأرض من ضرورته، وإن سقط على شجر أو جبل ثم تردى منه فمات.. لم يحل؛ لأنه من المتردية إلا أن يكون السهم ذبحه في الهواء، فيحل كيفما وقع؛ لأن الذبح قد حصل قبل التردية.

والثامن منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل النطيحة، وهي: البهيمة التي تنطحها بهيمة أخرى فتموت من النطاح، من غير أن يكون للإنسان عمل في إماتتها. وقرأ أبو عبد الله وأبو ميسرة: ﴿والمنطوحة﴾.

والتاسع منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل ما أكله السبع؛ أي: ما افترسه السبع ليأكله، ولو كان من جوارح السباع فمات بسبب افتراسه، سواء أكل منه أم لم يأكل، وأكله السبع؛ أي: ما افترسه السبع ليأكله، ولو كان من جوارح السباع فمات بسبب افتراسه، سواء أكل منه أم لم يأكل، وأكله منه ليس بشرط في التحريم؛ إذ يكفي فرسه إياه وقتله في تحريمه،

---

(١) الجمل.

(٢) المراح.

وكان العرب في الجاهلية يأكلون بعض فرائس السباع، ولكنّه مما تأنفه أكثر الطباع، وأكثر الناس يعد أكله ذلة ومهانة، وإن كانوا لا يخشون منه ضرراً. والسبع: اسم يقع على كل حيوان له ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترس بنابه؛ كالأسد، والذئب، والنمر، والفهد، ونحوها.

وقرأ الحسن، وأبو حيوة، والفياض، وطلحة بن سليمان[1]: ﴿السبع﴾ بسكون الباء، ورويت عن أبي بكر عن عاصم في غير المشهور، ورويت عن أبي عمرو، وقرأ عبد الله: (وأكيلة السبع) وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿وأكيل السبع﴾ وهما بمعنى مأكول السبع، وقال ابن حيان: وذكر هذه المحرمات.. هو تفصيل لما أجمل في عموم قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وبهذا صار المستثنى والمستثنى منه معلومين.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾؛ أي: إلا ما أدركتموه من هذه الخمسة الأخيرة ـ التي أولها المنخنقة ـ وفيه بقية حياة ويضطرب اضطراب المذبوح، فذكيتموه وأمتموه إماتة شرعية لأجل أكله، وهو استثناء من جميع ما تقدم ذكره من المحرمات سوى ما لا يقبل التذكية، من الميتة، والدم ولحم الخنزير، وما أكل السبع، وذلك هو: ما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة.

وخلاصة المعنى: ولكن لا يحرم عليكم ما ذكيتموه بفعلكم مما يقبل التذكية، ويكفي في صحة إدراك ذكاة ما ذكر أن يكون فيه رمق من الحياة، بأن يطرف بعينه، أو يضرب بذنبه، وقد قال علي رضي الله عنه: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة وهي تحرك يداً أو رجلاً.. فكلها. وإن لم يكن فيه حياة مستقرة.. فلا يحل بتذكيته؛ لأن موته حينئذ يحال على السبب المتقدم على التذكية من الخنق، وأكل السبع وغيرهما.

والعاشر منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل ما ذبح لأجل تعظيم النصب، فـ﴿على﴾ بمعنى اللام التعليلية، كما قاله

---

(١) البحر المحيط.

قطرب، والنُّصب: واحد الأنصاب، وهي حجارة كانت حول الكعبة، عددها ثلاث مئة وستون حجراً، وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها، ويعدون ذلك قربة، ومن هذا تعلم أن ما ذبح على النصب.. هو من جنس ما أهل لغير الله، فهو داخل فيه من حيث إنه يذبح بقصد العبادة لغير الله تعالى، وخص بالذكر مع دخوله فيه؛ لإزالة وهم من يتوهم أنه قد يحل لقصد تعظيم البيت الحرام إذا لم يذكر اسم غير الله عليه، وهو من خرافات الجاهلية التي جاء الإسلام بمحوها. وقيل: ليس هذا داخلاً فيما سبق؛ إذ ذاك فيما ذكر عند ذبحه اسم الصنم، وهذا فيما قصد بذبحه تعظيم الصنم من غير ذكر لاسم الصنم. قال ابن جريج[١]: كانت العرب تذبح بمكة وتنضح بالدم ما أقبل من البيت، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبي ﷺ: نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال، فأنزل الله ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

وخلاصة ما تقدم[٢]: أن الله تعالى أحل أكل بهيمة الأنعام وسائر الطيبات من الحيوان، ما دب منها على الأرض، وما طار في الهواء، وما سبح في البحر، ولم يحرم إلا الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله تعالى.

وقد كان بعض العرب يذبح الحيوان على اسم غير الله، وهو شرك وفسق، وبعضهم يأكل الميتة ويقول: لم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟ ولكنَّ الفارق بينهما: ما في هذا من مظنة الضرر، وفيه مهانة للنفس، ومن ثم جعل الله حل أكل المسلم لذلك منوطاً بإتمام موته، والإجهاز عليه بفعله هو؛ ليذكر اسم الله عليه، فلا يكون من عمل الشرك، ولئلا يقع في مهانة أكل الميتة وخسة آكلها بأكله المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وفريسة السبع، إلى ما في الموقوذة من إقرار الواقذ على القسوة

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

وظلم الحيوان، وذلك محرم شرعاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلنُّصُبِ﴾ - بضمتين - وقرأ طلحة بن مصرف: بضم النون وإسكان الصاد، وقرأ عيسى بن عمر: بفتحتين، ورُوي عنه كالجمهور، وقرأ الحسن: بفتح النون وإسكان الصاد..

ثم أضاف إلى محرمات الطعام التي كان أهل الجاهلية يستحلونها عملاً آخر من أعمالهم وخرافاتهم، فقال: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾؛ أي: وحرم عليكم طلب معرفة ما قسم لكم من الخير والشر بواسطة ضرب القداح، وذلك أنهم إذا قصدوا سفراً أو غزواً أو تجارةً أو نكاحاً أو أمراً آخر من معاظم الأمور.. ضربوا ثلاثة أقداح، مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي، والثالث: خال عن الكتابة، فإن خرج الأمر.. أقدم على الفعل، وإن خرج النهي.. أمسك، وإن خرج الغفل.. أعاد العمل مرة أخرى.

والاستقسام[2]: هو طلب معرفة ما قسم له دون ما لم يقسم له بواسطة الأزلام، والأزلام: جمع زلم، وهو قطعة من الخشب على هيئة السهم، لكن لا يركب فيه النصل الذي يجرح ما يرمى به من صيد وغيره، وكانت الأزلام ثلاثة، مكتوب على أحدها الأمر، وعلى الآخر النهي، والثالث غفل ليس عليه شيء، فإذا أراد أحدهم أمراً من معاظم الأمور.. أجال - حرك - هذه الأزلام، فإن خرج الأمر.. مضى لما أراد، وإن خرج النهي.. أمسك عن ذلك. ولم يمض فيه، وإن خرج الغفل.. أعاد الاستقسام كما مر آنفاً؛ أي: وحرم عليكم أن تطلبوا علم ما قسم لكم بالأزلام، كما كانت تفعل العرب في الجاهلية، وحكمة هذا التحريم: أنه من الخرافات والأوهام التي لا يركن إليها إلا من كان ضعيف العقل، يفعل ما يفعل من غير بينة ولا بصيرة، ويترك ما يترك كذلك، ويجعل نفسه ألعوبة للكهنة والسدنة، ويتفاءل ويتشاءم بما لا فأل فيه ولا شؤم، ومن ثَمَّ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

أبطل ذلك دين العقل والبصيرة، كما أبطل التطير والكهانة والعيافة[1] والعرافة وسائر خرافات الجاهلية، إلى أنَّ فيها افتراء على الله إن أرادوا بقولهم: أمرني ربي اللَّهَ عز وجل، وجهلاً وشركاً إن أرادوا به الصنم، إلى أنَّ فيه طلباً لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالى به. وقد استن بعض جهال المسلمين بسنة مشركي الجاهلية، أو بما يشبهها، فتراهم يستقسمون بالسبح وغيرها، ويسمون ذلك استخارة، أو فألاً، فيقتطعون طائفة من حب السبحة ويحركونها حبة بعد أخرى يقولون: افعل على واحدة، لا تفعل على الثانية، ويكون الحكم الفصل للحبة الأخيرة، وما هذا بالاستخارة التي ورد الإذن بها، بل قد ورد ما يؤيد تحريمها.

ومنهم من يستقسم، أو يأخذ الفأل من القرآن الكريم، فيصبغون عملهم بصيغة الدين، ويلبسون الباطل ثوب الحق، ولم يرد في هذا نص يجوز العمل به، ولكن الإلف والعادة جعلا هذه البدع مستحسنة، وتأولوا لها اسم الفأل الحسن، ورووا في ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن عائشة رضي الله عنها (أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الفأل الحسن)، وليس هذا من الفأل الحسن، بل الفأل ضد الطيرة التي أبطلتها الأحاديث.

والعجيب من أمر بعض المسلمين أنهم تركوا الاهتداء بالقرآن، وحرموه على أنفسهم، واكتفوا من الإيمان به، والتعظيم له بالاستقسام به، كما كانت الجاهلية تستقسم بالأزلام، أو الاستشفاء بمداد تكتب به آياته في كاغد، أو جام (فنجان)، وكل هذا من الضلالات والخرافات التي لم يرد شيء منها عن رسول الله ﷺ، ولا عن السلف الصالح. وأعجب من ذلك جعل بعض الدّجالين الاستقسام من قبيل الاستخارة، وجعل بعضهم له من قبيل القرعة المشروعة، وكل ذلك ضلال، إذ لا بينة فيه ولا سلطان.

الاستخارة التي وردت بها السنة: هي التوجه إلى الله تعالى، والالتجاء إليه بالصلاة والدعاء بأن يزيل عن المستخير الحيرة ويرشده إلى ما فيه الفائدة فيما

---

(١) العيافة: التفاؤل أو التشاؤم بطيران الطير ا هـ. م ج.

تتعارض فيه الدلائل والبينات، فلا يستبين له إن كان الخير في الإقدام أو في الترك، فإذا شرح الله صدره لشيء أمضاه. وقد روى الشيخان وأصحاب السنن وأحمد من حديث جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا سورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك...» الحديث.

والقرعة تشبه هذا، بل أمرها أظهر، فإنها إنما تكون للترجيح بين المتساويين قطعاً؛ كالقسمة بين اثنين؛ إذ لا وجه لإلزام من تقسم بينهما، بأن يأخذ زيد منهما هذه الحصة وعَمرو الأخرى، فتكون القرعة طريقة حسنة عادلة.
﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾: الإشارة راجعة إلى الاستقسام بالأزلام، أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا، وهذا أصح. والفسق: الخروج عن الحد، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن الفسق هو أشد الكفر، لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر؛ أي: ذلكم الاستقسام بالأزلام، أو جميع المحرمات السابقة فسق، وخروج عن الطاعة والإيمان، ورغبة في الشرك والمعاصي؛ لأنه طلب لمعرفة الغيب، وذلك حرام.

وروى[1] البغوي بسند الثعلبي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تكهن أو استقسم أو تطير طيرة ترده عن سفره... لم ينظر إلى الدرجات العلى من الجنة يوم القيامة»، وذلك ضلال باعتقاد أنه طريق إلى الدخول في علم الغيب، وافتراء على الله تعالى إن كان مرادهم بربي هو الله سبحانه وتعالى. وقال قوم آخرون: إنهم كانوا يحملون تلك الأزلام عند الأصنام، ويعتقدون أن ما يخرج من الأمر والنهي على تلك الأزلام فبإرشاد الأصنام وإعانتهم، فلهذا السبب كان ذلك فسقاً؛ أي: شركاً وجهالةً، وهذا القول أقرب وأولى، كما قاله الفخر الرازي.

﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾؛ أي: في هذا اليوم الحاضر، وهو يوم

---

(١) المراح.

من هذه المحرمات السابقة من الميتة وما بعدها ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾؛ أي: بسبب مجاعة يُخاف معها الموت لو ترك الأكل منها فأكل منها وهو لا يجد غيرها حالة كونه ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾؛ أي: غير متعمد ﴿لِإِثْمٍ﴾ بأن يأكلها فوق الشبع، كما قاله أهل العراق، أو بأن يكون عاصياً بسفره، كما قاله أهل الحجاز ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أكل شيئاً من تلك المحرمات عندما اضطر إليه ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده، حيث أحل لهم ذلك المحرم عند احتياجهم إلى أكله.

وفي «الفتوحات»: هذه الآية من تمام ما تقدَّم ذكره في المطاعم التي حرمها الله تعالى، ومتصلة بها، والمعنى: أن المحرمات وإنْ كانت محرمة إلا أنَّها قد تحل في حالة الاضطرار إليها، ومن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إلى هنا.. اعتراض وقع بين الكلامين، والغرض تأكيد ما تقدم ذكره في معنى التحريم؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل، والنعمة الكاملة، والإسلام الذي هو المرضي عند الله تعالى، ومعنى الآية: فمن اضطر إلى أكل شيء مما ذكر، فأكل في مجاعة لا يجد فيها غيره، وهو غير مائل إليه لذاته، ولا جائر فيه، متجاوز قدر الضرورة.. فإنَّ الله غفور لمثله، لا يؤاخذه عليه، وهو رحيم به يرحمه ويحسن إليه.

وقرأ ابن محيصن: (فمن اطر) بإدغام الضاد في الطاء. وقرأ الجمهور ﴿مُتَجَانِفٍ﴾ بألف من تجانف ـ من باب: تفاعل ـ. وقرأ أبو عبد الرحمٰن، والنخعي، وابن وثاب شذوذاً: (متجنف) بدون ألف من تجنف ـ من باب: تفعل ـ.

الإعراب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾: (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة. (ها): حرف تنبيه زائد. ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿أَوْفُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء،

لا محل لها من الإعراب. ﴿بِٱلْعُقُودِ﴾: جار ومجرور متعلق بأوفوا. ﴿أُحِلَّتْ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، وهو من إضافة الجنس إلى أخص منه، أو هي بمعنى من؛ لأن البهيمة أعم، فأضيف إلى أخص، كثوب خز، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل. ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء من بهيمة الأنعام، والتقدير[1]: أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا الميتة، وما أهل لغير الله، وغيرهما مما ذكر في الآية الثالثة من السورة. ﴿يُتْلَىٰ﴾ فعل مغير الصيغة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلقان به ﴿غَيْرَ﴾: حال من الضمير المجرور في عليكم، أو لكم، وقيل: هو حال من ضمير الفاعل في ﴿أَوْفُوا۟﴾، ﴿غَيْرَ﴾: مضاف. ﴿مُحِلِّى﴾: مضاف إليه، وهو مضاف. ﴿ٱلصَّيْدِ﴾: مضاف إليه، وحذفت النون للإضافة، وهو من إضافة الوصف إلى مفعوله. ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة حال من الضمير المستكن في ﴿مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾؛ لأنه جمع محل اسم فاعل، وهو يتحمل الضمير. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَحْكُمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: يريده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة. (ها): حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه، مجزوم بلا الناهية، والجملة

---

(١) العكبري.

جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ﴾: معطوف على شعائر. ﴿ٱلْحَرَامَ﴾: صفة للشهر، وكذلك قوله: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ﴾ معطوفات على شعائر الله ﴿ٱلْبَيْتَ﴾: مفعول به لآمين، لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفعل، وفاعله ضمير مستتر فيه، تقديره: ولا قوماً آمين هم البيت ﴿ٱلْحَرَامَ﴾ صفة للبيت ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: جار ومجرور صفة لفضلاً، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير في آمين؛ أي: حال كون الآمين مبتغين فضلاً من ربهم، ولا يجوز[1] أن تكون هذه الجملة صفة لآمين؛ لأن اسم الفاعل متى وصف قل عمله على الصحيح. ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾: معطوف على فضلاً.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾.

وَإِذَا: (الواو): استئنافية. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿حَلَلْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾: (الفاء): رابطة لجواب إذا. اصطادوا: فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: (الواو): استئنافية. (لا): ناهية. ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، أو مفعول به. ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾: فاعل ومضاف إليه، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿صَدُّوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل النصب بأن المصدرية، وجملة أن المصدرية مع صلتها.. في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة المتعلقة بـ﴿شَنَـَٔانُ﴾، تقديره: شنآن قوم لأجل صدهم إياكم. ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بصدوكم. ﴿أَن تَعْتَدُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المصدرية، وجملة أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً ليجرمنكم، والتقدير: ولا يجرمنكم

---

(١) الفتوحات.

﴿شنآن﴾ قوم اعتداءكم عليهم: إن قلنا: إنَّ جرم يتعدى إلى مفعولين، أو مجرور بعلى: إن قلنا إنَّ جرم يتعدى إلى مفعول واحد، تقديره: ولا يحملنكم شنآن قوم على اعتدائكم عليهم.

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿وَتَعَاوَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، أو مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلْبِرِّ﴾: متعلق بـ﴿تعاونوا﴾. ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾: معطوف على ﴿ٱلْبِرِّ﴾. ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَتَعَاوَنُوا۟﴾. ﴿عَلَى ٱلْإِثْمِ﴾: متعلق بلا تعاونوا. ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: معطوف على الإثم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾: فعل مغيّر الصيغة ونائب فاعل وجار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتفصيل ما أجمل في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾: معطوفان على الميتة ﴿وَمَآ﴾ (الواو): عاطفة. (ما): موصولة، أو موصوفة في محل الرفع معطوف على الميتة. ﴿أُهِلَّ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة. ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأهل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لأهل، والباء فيه بمعنى في، ولكنّه على حذف مضاف، أي: وما رفع الصوت لغير الله في ذبحه، والجملة الفعلية صلة لما، أو صفة لها، وكذا قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: معطوفات على الميتة ﴿وَمَآ﴾: (ما): في محل الرفع معطوف على الميتة. ﴿أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف،

تقديره: وما أكله السبع. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء من الخمسة الأخيرة. ﴿ذَكَّيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: إلا ما ذكيتموه ﴿وَمَا﴾: (ما): موصولة، أو موصوفة معطوفة على الميتة. ﴿ذُبِحَ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ما، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ذبح، ﴿عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾: متعلق بـ﴿ذبح﴾، وعلى فيه بمعنى اللام. ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾: ناصب وفعل وفاعل وجار ومجرور متعلق به، والجملة في تأويل مصدر معطوف على الميتة، والتقدير: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة.

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بيئس المذكور بعده ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِن دِينِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بيئس. ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع. لا: ناهية. ﴿تَخْشَوْهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة مفرعة على جملة يئس. ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾، و(النون): نون الوقاية، و﴿ياء﴾ المتكلم المحذوفة: اجتزء عنها بكسر نون الوقاية في محل النصب مفعول به؛ لأن أصله: واخشوني.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بما بعده. ﴿أَكْمَلْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بأكملت. ﴿دِينَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَأَتْمَمْتُ﴾: فعل وفاعل معطوف على أكملت. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بأتممت. ﴿نِعْمَتِى﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَرَضِيتُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَكْمَلْتُ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق برضيت. ﴿ٱلْإِسْلَٰمَ﴾: مفعول به. ﴿دِينًا﴾: تمييز محوّل عن المفعول منصوب.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ③﴾.

﴿فَمَنِ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حرمة هذه المذكورات في حالة الاختيار، وأردت بيان حكم من اضطر إلى أكلها.. فأقول لك. (من): اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط، أو هما. ﴿ٱضْطُرَّ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على مَنْ. ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق باضطر. ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾: منصوب على الحالية. ﴿لِّإِثْمٍ﴾: متعلق بمتجانف. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب من الشرطية. ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة من الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾: يقال في ثلاثيه: وفىٰ يفي وفاء، وفي رباعية: أوفى يوفي إيفاء، والوفاء والإيفاء: كل منهما الإتيان بالشيء وافياً لا نقص فيه، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾، والمراد بالوفاء: القيام بموجب العقد، والعقود: جمع عقد، وهو في الأصل: ضد الحل، ثم أطلق على الجمع بين أطراف الشيء وربط بعضها ببعض، ويستعمل في الأجسام الصلبة؛ كعقد الحبل، وعقد البناء، ويقال: عقد اليمين، وعقد البناء؛ أي: أبرمه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾، والمراد بالعقود هنا: ما يعم جميع ما ألزمه الله عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية، وما يعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات، والمعاملات، ونحوها مما يجب الوفاء به، أو يحسن ديناً، بأن يحمل الأمر على معنى يعم الوجوب والندب.

﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾: والبهيمة: ما لا نطق له، لما في صوته من الإبهام، وخص في العرف بما عدا السباع والطير. وقال الزمخشري: البهيمة: كل ذات أربع في البر والبحر. انتهى. وقال ابن عطية: البهيمة في كلام العرب: ما أبهم

من جهة نقص النطق والفهم انتهى. وقال في «القاموس»: البهيمة: كل ذات أربع قوائم، ولو في الماء، أو كل حي لا يميز. وما[1] كان على ـ فعيل أو فعيلة ـ وعينه حرف حلق اسماً كان، أو صفة. . فإنه يجوز كسر أوله إتباعاً لحركة عينه، وهي لغة بني تميم، تقول: رئي، وبهيمة، وسعيد، وصغير، وبحيرة، وبخيل. والأنعام: جمع نعم، وهي البقر والإبل والغنم. ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾: و﴿الصيد﴾: مصدر صاد يصيد ويصاد، ويطلق على المصيد، وقال داود بن علي الأصبهاني: ﴿الصيد﴾: ما كان ممتنعاً، ولم يكن له مالك، وكان حلالاً أكله، وكأنّه فسر الصيد الشرعي.

و﴿الحرم﴾ ـ بضمتين ـ: جمع حرام، وهو المحرم بالحجّ أو العمرة، فهو صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل. ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: جمع شعيرة، وهي معالم دينه، وغلب في مناسك الحج. ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾: الهدي: ما يهدى إلى الحرم من الأنعام ليذبح هناك، وهو من النسك. ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾: جمع قلادة، وهو ما يعلق في العنق، وكانوا يقلدون الإبل من الهدي بنعل، أو حبل، أو لحاء شجر؛ ليعرف ولا يتعرض له أحد، وكان الحرمي ربَّما قلّد ركابه بلحا شجر الحرم، فيعتصم بذلك من السوء. ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾: جمع الآم، والآم: القاصد، يقال: أممت الشيء إذا قصدته؛ أي: قاصدين ﴿فَضْلًا﴾؛ أي: ربحاً في التجارة. ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾؛ أي: رضاً من الله يحول بينهم وبين عقوبته في الدنيا. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾: يقال: جرمة على كذا: حمله عليه وجعله يجرمه؛ أي: يكسبه ويفعله، وقال أبو عبيدة والفراء: جرمه: كسبه، فلان جريمة أهله؛ أي: كاسبهم، والجارم: الكاسب، وأجرم فلان: اكتسب الإثم، وقال الكسائي: جرم وأجرم؛ أي: كسب غيره، وجرم يجرم جرماً: إذا قطع، وأصل الجرم: قطع الثمرة من الشجرة، وجرم بمعنى حق؛ لأن الحق يقطع عليه. قال الخليل: لا جرم أن لهم النار؛ أي: لقد حق. ﴿الشنآن﴾: البغض مطلقاً، أو الذي يصحبه التقزز من المبغوض، وهو[2] أحد مصادر شنىء، يقال: شنىء يشنأ ـ من باب: علم ـ شنأ

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

وشنآناً ـ مثلثي الشين ـ، فهذه ستة، وشناء، وشناءة، وشناء، وشناءة، ومشناءة، ومشنئة، ومشنئة، وشناناً، وشناناً، فهذه ستة عشر مصدراً، وهي أكثر ما حفظ للفعل. وقال سيبويه: كل بناء كان من المصادر ـ على فعلان ـ بفتح العين. . لم يتعد فعله إلا أن يشذ شيء، كالشنآن. وفي «الفتوحات»[1]: الشنآن: مأخوذ من شنيء المعتدي، كعلم، يقال: شنئت الرجل أشنأه: إذا أبغضته، وهذا المصدر سماعي مخالف للقياس من وجهين: تعدي فعله، وكسر عينه؛ لأنه لا ينقاس إلا مفتوحُها اللازم، كما قال في «الخلاصة»:

وَفَعَلَ ٱللَّازِمُ مِثْلُ قَعَدَا ... لَهُ فُعُوْلٌ بِٱطِّرَادٍ كَغَدَا

إلى أن قال:

وَٱلثَّانِيْ لِلَّذِيْ ٱقْتَضَىٰ تَقَلُّبَا

﴿وَٱلدَّمُ﴾: أصله: دمي، حذفت لامه اعتباطاً؛ أي: لغير علة تصريفية. ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾: في «المختار»: وقذه: ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت ـ وبابه وعد ـ، وشاة موقوذة: قتلت بالخشب. ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: هي التي ينطحها غيرُها فتموت بالنطح، وهي ـ فعيلة بمعنى مفعولة ـ صفة جرت مجرى الأسماء، فوليت العوامل، ولذلك ثبت فيها الهاء وفي «القاموس»: نطحه كمنعه وضربه إذا أصابه بقرنه ا هـ.

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾: السبع: اسم جنس يطلق على كل ذي ناب وظفر من الحيوان؛ كالأسد، والنمر، والدب، والذئب، والثعلب، والضبع، ونحوها. وقد أطلق على ذوات المخالب من الطير سباع، قال الشاعر:

وَسِبَاعُ ٱلطَّيْرِ تَغْدُوْ بِطَانَا ... تَتَخَطَّاهُمْ فَمَا تَسْتَقِلّ

ومن العرب من يخص السبع بالأسد، وسكون الباء: لغة نجدية، وسمع فتحها، ولعل ذلك لغة ﴿عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾: جمع نصاب، ككتب جمع كتاب، وسُمِّي الصنم نصاباً؛ لأنه ينصب ويرفع ليعظم ويعبد ﴿بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾؛ أي: القداح، واحدها

---

(١) الفتوحات.

زلم وزلم ـ بضم الزاي، وفتحها ـ، وهي: السهام. ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: اليأس: قطع الرجاء، يقال:[1] يئس الرجل منه ييأس ـ بالفتح ـ على القياس، وييئس ـ بالكسر ـ على الشذوذ، يأساً ويئاسة: إذا قنط منه وانقطع رجاؤه، كما قال ابن مالك في لامية الأفعال.

وَجْهَانِ فِيْهِ مِنَ ٱحْسِبْ مَعْ وَغِرْتَ وَحِرْ ... تَ ٱنْعِمْ بَئِسْتَ يَئِسْتَ أَوْلِهِ يَبِسْ وَهِلاَ

﴿فِى مَخْمَصَةٍ﴾: المخمصة: المجاعة التي تخمص فيها البطون؛ أي: تضمر، والخمص: ضمور البطن، والخلقة منه حسنة في النساء، ومنه يقال: خمصانة، وبطن خميص، ومنه: أخمص القدم، ويستعمل كثيراً في الجوع. ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾: وفي «المصباح»: جنف جنفاً ـ من باب: تعب ـ ظلم، وأجنف ـ بالألف ـ مثله.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والبيان والبديع:

منها: الاستعارة في قوله: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾؛ حيث استعار الإتيان بالشيء غير ناقص ـ ككيل الطعام ـ للقيام بموجب تلك العقود مثلاً، الوفاء بالمأمورات: فعلها، والوفاء بالمنهيات: تركها.

ومنها: التشبيه: حيث شبه الإلزام والالتزام الجاريين بين الله وبين العباد بربط حبل بحبل؛ لأنَّ العقود حقيقة في الربوط.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: حيث استعار الحل ـ الذي هو حقيقة في الأجسام ـ لانتهاك حرماتها، وحيث استعار الإعلام للمتعبدات التي تَعبد الله بها العباد من الحلال والحرام.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

---

(١) مناهل الرجال على اللامية.

ومنها: إضافة الأعم إلى الأخص في قوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، لأنَّ المراد القتال فيه، ففيه إطلاق المحل وإرادة الحال. وفي قوله: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾؛ لأنّ المراد به الهدايا المقلدات، ففيه إطلاق الحال وإرادة المحل، عكس ما قبله.

ومنها: التعميم ثم التخصيص في قوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، وما بعده من المعطوفات؛ لأنها داخلة في شعائر الله.

ومنها: الحذف في مواضع، كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ أي: أكلها.

ومنها: الإسناد إلى السبب في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾؛ لأنّ البغض يكون سبباً في الاعتداء.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا
عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ
أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا
مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟
بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ
جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى
وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟
ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ
قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات السابقة الخبائث التي حرمت عليهم.. أردف هنا بذكر الطيبات التي أحلت لهم؛ لإكمال دينهم بذكر الحلال والحرام.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما افتتح السورة بالأمر بإيفاء العهود، وَذَكَرَ تحليلاً وتحريماً في المطعم والمنكح واستقصى ذلك، وكان المطعم آكد من المنكح وقدمه عليه، وكان النوعان من لذات الدنيا الجسيمة ومهماتها للإنسان، وهي معاملات دنيوية بين الناس بعضهم من بعض.. استطرد منها إلى المعاملات الأخروية التي هي بين العبد وربّه سبحانه وتعالى.

ولما كان أفضل الطاعات بعد الإيمان الصلاة، والصلاة لا تكمن إلا بالطهارة.. بدأ بالطهارة وشرائط الوضوء، وذكر البدل عنه عند تعذر الماء، ولما كانت محاولة الصلاة في الأغلب إنّما هي بالقيام.. عبر بلفظ ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾؛ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

وعبارة المراغي هنا[2]: واعلم أن بين العبد وربه عهدين: عهد الربوبية والإحسان، وعهد العبودية والطاعة، وبعد أن وفى له بالعهد الأول، وبيَّن له ما يحل وما يحرم من لذات الحياة في الطعام والنكاح.. طلب إليهم الوفاء بالعهد الثاني، وهو عهد الطاعة، وأعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة، والصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة، لا جرم بدأ الله بذكر فرائض الوضوء.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[3] طائفة من الأحكام المتعلقة بالعادات.. ذكرنا بعهده وميثاقه علينا، وما التزمناه من السمع والطاعة له ولرسوله بقبول دينه الحق، لنقوم به مخلصين.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[4] أمر عباده بالوفاء بالعقود عامة، ثم امتن عليهم بإباحة كثير من الطيبات لهم، وتحريم ما يضرّهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

من الطعام إلا في حال الضرورة، ثم ذكر حل طعام أهل الكتاب ونسائهم إذا كن محصنات، ثم أمرهم بالطهارة مع رفع الحرج عنهم.. ذكر هنا ما ينبغي أن يكون من معاملتهم مع من سواهم، سواء أكانوا أعداء أم أولياء، ثم ذكر وعده لعباده الذين عملوا الصالحات، ووعيده لمن كفر وكذب بالآيات، وختمها بذكر المنة الشاملة والنعمة الكاملة، إذ أنقذهم من أعدائهم وأظهرهم عليهم، وكانوا على وشك الإيقاع بهم، ولكن رحمهم، وكبت أعداءكم وردهم صاغرين، ليكون الشكر أتم، والوفاء ألزم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها[1]: لما ذكر تعالى أوامر ونواهي.. ذكر وعد من اتبع أوامره واجتنب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر ما لِمَنْ آمن.. ذكر ما لِمَنْ كفر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه[2] الطبراني والحاكم والبيهقي وغيرهم عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فاستأذن عليه، فأذن له، فأبطأ، فأخذ رداءه فخرج إليه وهو قائم بالباب، فقال: قد أذنا لك، قال: «أجل، ولكنا لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب» فنظروا، فإذا في بعض بيوتهم جرو، فأمر أبا رافع: «لا تدع كلباً بالمدينة إلا قتلته»، فأتاه الناس، فقالوا: يا رسول الله، ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ...﴾ الآية.

وروى ابن جرير عن عكرمة أن رسول الله ﷺ بعث أبا رافع في قتل الكلاب حتى بلغ العوالي، فدخل عاصم بن عدي، وسعد بن أبي خيثمة، وعويمر بن ساعدة، فقالوا: ماذا أحل لنا يا رسول الله؟ فنزلتْ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ

(١) البحر المحيط. (٢) لباب النقول.

﴿أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.

قال ابن الجوزي[1]: وأخرج الحاكم في «صحيحه» حديث أبي رافع، قال البغوي: فلما نزلتْ هذه الآية.. أذن رسول الله ﷺ في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها، ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها. وقال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين - وهو زيد بن الخيل الذي سمّاه رسول الله ﷺ زيد الخير - قالا: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فماذا يحل لنا؟ فنزلت هذه الآية، قال البغوي: وهذا القول أصح في سبب نزولها.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه البخاري من طريق مالك بن أنس عن عبد الرحمٰن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش.. انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾، فقال أسيد بن حضير: ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العقد تحته، وفي رواية فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

والحديث أخرجه البخاري في مواضع، وأخرجه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، ومالك في الموطأ، وعبد الرزاق، والحاكم، وابن جرير.

---

(١) الخازن.

وروى الطبراني من طريق عباد بن عبد الله بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا.. خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أخرى، فسقط أيضاً عقدي، حتى حبس الناس على التماسه، فقال لي أبو بكر: بنيَّة في كل تكونين عناء وبلاء على الناس، فأنزل الله الرخصة في التيمم، فقال أبو بكر: إنك لمباركة.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ...﴾ الآية، في سبب نزولها ثلاثة أقوال[1]:

الأول: أنها نزلت في شأن يهود من بني قريظة، أو بني النضير، وذلك أنّ النبي ﷺ وأبا بكر وعمر عثمان وعلياً دخلوا عليهم - وقد كانوا عاهدوا النبي ﷺ على ترك القتال، وعلى أن يعينوه في الدّيات - فطلب منهم مالاً قرضاً لدية رجلين مسلمين، أو معاهدين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما مشركين أو حربيين، فقالوا: اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد، ثم هموا بالفتك برسول الله ﷺ وبأصحابه، فجاء عمرو بن جحاش برحى عظيمة ليطرحها عليه ﷺ بموافقتهم، فأمسك الله تعالى يده، فنزل جبريل عليه ﷺ وأخبره بذلك، فقام في الحال مع أصحابه، وخرجوا إلى المدينة.

والثاني: عن قتادة أنها نزلت في قوم من العرب، وهم بنو ثعلبة وبنو محارب، أرادوا الفتك برسول الله ﷺ، وهو في غزوته، فأرسلوا إليه أعرابياً ليقتله ببطن نخل، وذلك أن رسول الله ﷺ نزل منزلاً، وتفرق عنه أصحابه يستظلون في شجر العضاه، وعلق رسول الله ﷺ سيفه بشجرة، فجاء أعرابي وسل سيف رسول الله ﷺ، ثم أقبل عليه وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ قال النبي ﷺ: «الله» - قالها ثلاثاً -، فأسقطه جبريل من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: «من يمنعك مني»؟ فقال: لا أحد، ثم صاح رسول الله ﷺ بأصحابه، فأخبرهم، ولم يعاقبه. وفي رواية: أن الأعرابي قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن

---

(١) المراح.

محمداً رسول الله.

وعلى هذين القولين فالمراد من قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ تذكير نعمة الله عليهم بدفع الشر عن نبيهم، فإنه لو حصل ذلك.. لكان من أعظم المحن.

والثالث: أنها نزلت في شأن المشركين أنهم رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان في غزوة ذي أنمار، وهي غزوة ذات الرقاع، وهي السابعة من مغازيه ﷺ، وذلك أن المسلمين قاموا إلى صلاة الظهر بالجماعة فلمَّا صلوا.. ندم المشركون في عدم إكبابهم عليهم، وقالوا: ليتنا أوقعنا بهم في أثناء صلاتهم، فقيل لهم: إن للمسلمين بعد هذه الصلاة صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وآبائهم، فهموا بأن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى صلاة، فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل جبريل بصلاة الخوف.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: شروع منه في بيان ما أحله الله لهم، بعد بيان ما حرمه عليهم؛ أي: يسألك المؤمنون يا محمد ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾؛ أي: أي شيء أحل لهم؟ أو ما الذي أحل لهم من المطاعم إجمالاً، ومن الصيد ومن طعام أهل الكتاب ومن نسائهم؟ والسائلون هم: عاصم بن عدي، وسعد بن أبي خيثمة، وعويمر بن ساعدة، كذا قاله عكرمة كما مر في مبحث أسباب النزول، أي: يسألك المؤمنون ماذا أحل الله لهم من الطعام؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في الجواب ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ أي: أحل الله سبحانه وتعالى لكم أيها المكلفون المستلذات والمشتهيات التي تستطيبها النفوس السليمة الفطرة، المعتدلة المعيشة بمقتضى طبعها، فتأكلها باشتهاء واستلذاذ مما لم يرد بتحريمه نص من كتاب، أو سنة، وما أكله الإنسان كذلك يسيغه ويهضمه بسهولة ويتغذى بها غذاءً صالحاً، وما يستخبثه ويعافه لا يسهل عليه هضمه ويضرّه غالباً، فما حرّمه الله تعالى في الآية السابقة خبيث بشهادة الله الموافقة للفطرة المعتدلة، وأصحاب الفطر السليمة يعافون أكل الميتة حتف أنفها، وما ماثلها من فرائس السباع، والمترديات،

والنطائح، والدم المسفوح، وكذلك الخنزير يعافه من يعرف ضرره وانهماكه في أكل القاذورات.

والخلاصة: أحل لكم أيها المكلفون ما يستطاب أكله ويشتهى دون ما يخبث أو يعاف ﴿و﴾ أحل لكم أيضاً ﴿ما علمتم من الجوارح﴾؛ أي: صيد ما علمتموه من الكواسب، وسُمِّيت جوارح؛ لأنها تجرح الصيد؛ أي: من الحيوان الذي يكسب لكم بالاصطياد من سباع البهائم والطير؛ كالكلب، والباز، حال كونكم ﴿مُكَلِّبِينَ﴾؛ أي: معلّمين الجوارح كيفية الاصطياد، جمع مكلب، والمكلب: معلم الكلاب لكيفية الاصطياد، ويقرأ ﴿مكلبين﴾ - بالتشديد والتخفيف - يقال: كلبت الكلب وأكلبته فتكالب، أي: علمته فتعلم الاصطياد، ذكره أبو البقاء، وحالة كونكم ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾؛ أي: تعلمون تلك الجوارح الاصطياد ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ﴾ من طرق التعليم، ومن الحيل في الاصطياد، والجملة الفعلية حال ثانية من ضمير علمتم، والمقصود من التكرار: المبالغة في اشتراط التعليم، وأن يكون من يعلم الجوارح نحريراً في علمه، موصوفاً بالتأديب.

قال أبو حيان[1]: وأقصى غاية التعليم: أن يشلى فيستشلى، ويدعى فيجيب، ويزجر بعد الظفر فينزجر، ويمتنع من أن يأكل من الصيد. وقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾؛ أي: معلمين، حال مؤكدة لعلمتم، وفائدة هذه الحال - وإن كانت مؤكدة فكان يستغنى عنها - أن يكون المعلم مؤتمراً بالتعليم، حاذقاً فيه، موصوفاً به، واشتقت هذه الحال من الكلب، وإن كانت جاءت غايةً في الجوارح على سبيل التغليب؛ لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب، فاشتقت من لفظه؛ لكثرة ذلك في جنسه.

وقرأ ابن عباس وابن الحنفية[2]: ﴿وما عُلِّمتم﴾ مبنياً للمفعول، أي: من أمر الجوارح والصيد بها، وقرأ أيضاً: ﴿مُكْلِبين﴾ من أكلب. وفعل وأفعل قد يشتركان، وظاهر قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ حصول التعليم من غير اعتبار عدد، وكان

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

أبو حنيفة لا يجد في ذلك عدداً، وقال أصحابنا: إذا صاد الكلب وأمسك ثلاث مرات.. فقد حصل له التعليم، وقال غيرهم: إذا فعل ذلك مرة واحدة.. فقد صار معلَّماً.

وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: إن تعليمكم إياهن ليس من قبل أنفسكم، إنّما هو من العلم الذي علمكم الله، وهو أن جعل لكم روية وفكراً، بحيث قبلتم العلم، فكذلك الجوارح، يصير لها إدراك ما وشعور بحيث يقبلن الائتمار والانزجار، وفي قوله: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ إشعار ودلالة على فضل العلم وشرفه، إذ ذكر ذلك في معرض الامتنان، ومفعول علم وتعلمونهن الثاني محذوف، تقديره: وما علمتموه طلب الصيد لكم، لا لأنفسهن تعلمونهن ذلك، وفي ذلك دلالة على أن صيد ما لم يعلم حرام أكله؛ لأن الله تعالى إنما أباح ذلك بشرط التعليم، والدليل على ذلك الخطاب في ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وغير المعلم إنما يمسك لنفسه، وقوله: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: من الأدب الذي أدبكم به تعالى، وهو اتباع أوامره واجتناب نواهيه، فإذا أمر فائتمر، وإذا زجر فانزجر.. فقد تعلم مما علمنا الله تعالى. انتهى. والفاء في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ تفريعية[1]؛ لأنّ الجملة مفرعة على ما تقدم من تحليل صيد ما علموه من الجوارح، و(مِنْ) في قوله: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ للتبعيض؛ لأنّ بعض الصيد لا يؤكل، كالجلد، والعظم، والفرث، وما أكل الكلب منه؛ أي: كلوا بعض ما أمسكنه لكم، وهو الذي لم يأكلن منه.

أي: فكلوا[2] من الصيد ما تمسكه الجوارح عليكم؛ أي: تصيده لأجلكم، فتحبسه وتقفه عليكم بعدم أكلها منه، فإنْ أكلت منه.. فلا يحل أكل ما فضل عنها عند الجمهور؛ لأنه مثل فريسة السبع المحرمة في الآية السالفة. ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: سموا الله على ما علمتم من الجوارح عند إرساله إلى الصيد؛

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

أي: قولوا: بسم الله عنده، وإن نسيتم.. فلا حرج عليكم، فعلى هذا[1] يكون الضمير في عليه عائداً إلى ﴿ما علمتم من الجوارح﴾؛ أي: سموا الله عليه عند إرساله، وقيل: الضمير عائد إلى ما أمسكن عليكم، والمعنى: سموا عليه إذا أدركتم ذكاته، وقيل: يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الأكل، يعني: واذكروا اسم الله عليه عند الأكل، وسيأتي بيان هذه في سورة الأنعام عند قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إن شاء الله تعالى.

والتسمية واجبة عند أبي حنيفة ومستحبة عند الشافعي. وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: إنا قوم نصيد بهذه الكلاب، فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك إلا أن يأكل الكلب، فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك لنفسه، وإن خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلن فلا تأكل فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره» وفي رواية: «فإنك لا تدري أيها قتل»، وسألته عن صيد المعراض فقال: «إذا أصبت بحده فكل، وإذا أصبت بعرضه فقتل فإنه وقيذ فلا تأكل، وإذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكل، فإن وقع في الماء فلا تأكل». متفق عليه. وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إنَّا بأرض قوم أهل كتاب، أفنأكل في آنيتهم؟ وبأرض صيد أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلم وبكلبي المعلم فما يصلح لي؟ قال: «أما ما ذكرت من آنية أهل الكتاب: فإن وجدتم غيرها.. فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا غيرها.. فاغسلوها وكلوا فيها، وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل، وما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله عليه فكل، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل». أخرجه أبو داود بسند جيد.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ولا تقدموا على مخالفته، فتأكلوا من صيد الجوارح الغير المعلمة، أو مما تمسك عليكم من

(١) الخازن.

صيدها، وأمسكنه على نفسها، أو تطعموا ما لم يسم اسم الله عليه من الصيد والذبائح مما صاده أهل الأوثان، فإن الله تعالى قد حرم ذلك عليكم فاجتنبوه أيما اجتناب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ عندما يحاسب عباده يوم القيامة، واعلموا أن الله تعالى لا يضيع شيئاً من أعمالكم، بل تحاسبون عليها، وتجازون بها في الدنيا والآخرة، وهو يحاسب الناس كلهم يوم القيامة في وقت واحد، فما أجدر حسابه أن يكون سريعاً، ففيه تخويف لمن خالف أمره، وفعل ما نهاه عنه.

وبعد أن بين وجوب التذكية للذبائح لإبعاد المسلمين مما كان عليه المشركون من أكل الميتة، وشدد في التسمية على الطعام من صيد أو ذبيحة لإبعادهم عما كانوا عليه من الذبح لغير الله بالإهلال به لأصنامهم ليطهرهم من كل ما كانوا عليه من أدران الشرك.. بين حكم مؤاكلة أهل الكتاب ومناكحتهم، لأنَّهم لما كانوا في الأصل أهل توحيد ثم سرت إليهم نزعات الشرك ممن دخل في دينهم من المشركين، كان هذا مظنة التشديد في مؤاكلتهم ومناكحتهم، كما شدد في أكل ذبائح مشركي العرب، ونكاح نسائهم، فذكر أنا لا نعاملهم معاملة المشركين في ذلك، بل تحل لنا مؤاكلتهم، ونكاح نسائهم فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى وهي قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ أي: الآن أحل لكم المستلذات المشتهيات لأهل المروءة والأخلاق الجميلة على سبيل التفصيل، بعد أن كانت حلالاً لكم بالإجمال، وصار حكمها مستقراً ثابتاً.

وعبارة الخازن: وإنما كرر إحلال الطيبات للتأكيد، كأنَّه قال: اليوم أحل لكم الطيبات التي سألتم عنها، ويحتمل أن يراد باليوم اليوم الذي أنزلت فيه هذه الآية، أو اليوم الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾. ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. ويكون الغرض من ذكر هذا الحكم أنه تعالى قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ فبين أنه كما أكمل الدين وأتم النعمة.. فكذلك أتم النعمة بإحلال الطيبات، وقيل: ليس المراد باليوم يوماً معيناً.

وفي «تنوير المقباس»: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ أي: يوم الحج ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾؛ أي: المذبوحات من الحلال ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ﴾؛ أي: ذبائح الذين ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: أعطوا الكتاب التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى ﴿حِلّٞ لَّكُمۡ﴾؛ أي: حلال لكم ما كان حلالاً بالملة، فيحل لنا أكل ذبائح من تمسكوا بالتوراة والإنجيل إذ حلت المناكحة بيننا وبينهم، فحل الذبيحة تابع لحل المناكحة دون ذبائح أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من عبدة الأصنام والأوثان. والمراد بالطعام هنا الذبائح، لأن غيرها حلال بأصله، كالحبوب والثمار والفاكهة والخبز وما لا يحتاج إلى ذكاة، فإنه لا اختلاف في حلها باختلاف حال مالكها ومباشرها، والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى كما مر آنفاً.

وفي هذه الآية: دليل[1] على أن جميع طعام أهل الكتاب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين، وإن كانوا لا يذكرون على ذبائحهم اسم الله، وتكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾. وظاهر هذا أن ذبائح أهل الكتاب حلال، وإن ذكر اليهودي في ذبيحته اسم عزير، وذكر النصراني على ذبيحته اسم المسيح، وإليه ذهب أبو الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس والزهري وربيعة والشعبي ومكحول، وقال علي وعائشة وابن عمر: إذا سمعت الكتابي يسمي غير الله فلا تأكل، وهو قول طاووس والحسن وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. وقال مالك: إنه يكره ولا يحرم، فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير الله، وأمَّا مع عدم العلم فقد حكى الطبري، وابن كثير الإجماع على حلها لهذه الآية، ولما ورد في السنة من أكله ﷺ من الشاة المصلية التي أهدتها إليه اليهودية، وهو في «الصحيح»، وكذلك جراب الشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خيبر، وعلم بذلك النبي ﷺ وهو في «الصحيح» أيضاً، وغير ذلك، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وأمَّا المجوس: فذهب الجمهور إلى أنها لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم،

---

(١) الشوكاني.

لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم، وخالف في ذلك أبو ثور، وأنكر عليه الفقهاء ذلك.

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾؛ أي: وذبائحكم أيها المؤمنون حل لأهل الكتاب، فلا جناح عليكم أن تطعموهم من طعامكم أو تبيعوهم منه. وفائدة[1] ذكر ذلك: بيان أن إباحة الذبائح حاصلة من الجانبين، وليس كذلك إباحة المناكحة، فذكره للتمييز بين النوعين، وقال الشوكاني: وهذا من باب المكافأة والمجازاة، وإخبار للمسلمين بأن ما يأخذونه منهم من أعراض الطعام حلال لهم بطريق الدلالة الالتزامية.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ أي: وأحل لكم أيها المؤمنون نكاح الحرائر العفائف من المؤمنات إذا أعطيتموهن مهورهن، وإنما خص المحصنات بالذكر - وهن الحرائر أو العفائف - ليحث المؤمنين على تخيير النساء، ليكون الولد كريم الأصل من الطرفين، لا لنفي نكاح من عداهن، فإن نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق عند توفر الشرائط، وكذا نكاح غير العفيفات إذا تابت وحسنت توبتها. روى[2] طارق بن شهاب أن رجلاً أراد أن يزوج أخته فقالت: إني أخشى أن أفضحك، إني قد بغيت، فأتى عمر، فذكر ذلك له منها فقال: أليس قد تابت؟ قال: بلى. قال: فزوجها. وقرأ الشعبي: بكسر الصاد وبه قرأ الكسائي وقد تقدم الكلام في هذا مستوفى في البقرة والنساء، وذكرهن هنا توطئة وتمهيداً لقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: وأحل لكم أيها المؤمنون نكاح الحرائر من الذين أعطوا الكتاب من قبلكم وهم اليهود والنصارى ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: إذا أعطيتم من نكحتم من محصناتهم مهورهن، وتقييد الحل بإيتاء المهور لتأكيد الوجوب لا لاشتراطه في الحل، والتقييد بالحرائر لإخراج الإماء الكتابيات لأنه لا يجوز نكاحها إلا عند أبي حنيفة.

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

وعبارة المراح هنا: وتقييد[1] الإحلال بإعطاء المهور يدل على تأكد وجوبها، وعلى أن الأكمل بيانها لا هو شرط لصحة العقد، إذ لا تتوقف على دفع المهر، ولا على التزامه. ومن تزوج امرأة وعزم على أن لا يعطيها صداقها.. كان في صورة الزاني، وتسمية المهر بالأجر يدل على أن أقل الصداق لا يتقدر، كما أن أقل الأجر لا يتقدر في الإجارات، انتهت، حالة كونكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾؛ أي: مريدين للتزوج والإعفاف لهن ولكم ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾؛ أي: غير معلنين ومجاهرين بالزنا بهن ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾؛ أي: ولا مسرين بالزنا بمن لها حليل، أو متخذي صواحب تسرون بالزنا بهن؛ أي: ولا جاعلي صواحب منهن تزنون بهن سراً.

وعبارة الخازن هنا: يعني ولا منفردين ببغيّ واحدة قد خادنها وخادنته، واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها وحده، فقد حرم الله الجماع على جهة السفاح وهو الزنا، واتخاذ الصديق وهو الخدن، وأحله على جهة الإحصان، وهو التزوج بعقد صحيح. والمحصنون الأعفاء عن الزنا، والمسافحون الذين يأتون الفاحشة، مجاهرين بها، والمتخذوا الأخدان: الذين يأتونها سراً بالاختصاص بخدن من الأخدان، والخدن يطلق على الصاحب والصاحبة؛ أي: هن حل لكم إذا آتيتموهن أجورهن فعلاً، أو التزمتم بها حال كونكم أعفاء عن الزنا جهراً وسراً، إذ المقصد من الزواج أن يكون الرجل محصناً والمرأة محصنة يعف كل منهما الآخر، يجعله في حصن يمنعه من الفاحشة على أي وجه كانت، فلا يزني جهرة ولا سراً باتخاذ صاحبة خاصة به، ولا تكون المرأة كذلك.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: ومن يجحد وينكر ما أمر الله به من توحيده، ونبوة محمد ﷺ، وما جاء به من عند الله تعالى ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾؛ أي: فقد بطل ثواب عمله الذي كان عمله في الدنيا، وخاب وخسر في الدنيا والآخرة، وقيل في معنى الآية: ومن ينكر بشرائع الإسلام وتكاليفه التي من جملتها ما بين هنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة، ويمتنع عن قبولها.. فقد حبط عمله

(١) المراح.

الصالح الذي عمله قبل ذلك، وبطل ثوابه، سواء عاد إلى الإسلام أم لا، وخسر في الآخرة ما أعده الله للمؤمنين من الجزاء العظيم على الإيمان الصحيح، وهو إيمان الإذعان والعمل. روى ابن جرير عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن ناساً من المسلمين قالوا: كيف نتزوج نساءهم يعني نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.. الآية. فأحل الله تزوجهن على علم. انتهى. والمقصود من الآية: تعظيم شأن ما أحله الله تعالى وما حرمه، والتغليظ على من خالف ذلك. وقرأ ابن السميقع ﴿حبَط﴾ بفتح الباء. ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: ذلك الكافر ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: من المغبونين بذهاب الجنة ودخول النار إذا مات على ذلك الكفر، ولم يعد إلى الإيمان بذلك قبل الموت، وهذا الشرط لا بد منه؛ لأنه إذا تاب وآمن قبل الموت.. قبلت توبته وصح إيمانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة تعبيراً بالمسبب الذي هو القيام عن السبب الذي هو الإرادة على حد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾؛ أي: إذا أردت قراءته، وجمهور المسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام إلى الصلاة إلا إذا كان محدثاً؛ أي: إذا أردتم فعل الصلاة والقيام إليها وأنتم محدثون.. فاغسلوا وجوهكم... إلخ، رفعاً للحدث الأصغر، وهذا التقييد مستفاد من السنة العملية في الصدر الأول. فقد روى أحمد ومسلم وأصحاب السنن من حديث بريدة قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله؟ فقال: «عمداً فعلته يا عمر». وروى البخاري وأصحاب السنن عن عمرو بن عامر الأنصاري سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة قال: قلت: فأنتم كيف تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث. وروى أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ». فهذه الأخبار تدل على أن المسلمين لم يكونوا في عهد النبي ﷺ يتوضؤون لكل صلاة، وإنما كان النبي ﷺ يتوضأ لكل صلاة غالباً،

وصلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد أمام الناس لبيان جواز ذلك. ومن ذلك يعلم أن الوضوء لكل صلاة عزيمة، وهو الأفضل، وإنما يجب على من أحدث، وآخر الآية يدل على ذلك فإنَّه ذكر الحديثين ووجوب التيمم على من لم يجد الماء بعدهما، فعلم منه أن من وجده وجب عليه أن يتطهر به عقبهما، ولو كانت الطهارة واجبة لكل صلاة لما كان لهذا معنى.

والخلاصة: أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث، وإنما يستحب تجديده لكل صلاة. وفروض الوضوء المذكورة في هذه الآية أربعة:

الأول: غسل الوجه، وذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾؛ أي: أمروا[1] الماء عليها، ولا حاجة إلى الدلك خلافاً لمالك. والغَسل بالفتح: إسالة الماء على الشيء لإزالة ما عليه من وسخ ونحوه، والوجوه: جمع وجه وحده: من أعلى تسطيح الجبهة إلى أسفل اللَّحْيَيْن طولاً، ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضاً، لأنَّه مأخوذ من المواجهة الحاصلة بما ذكر، فيجب غسل جميع الوجه في الوضوء، ويجب إيصال الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والعذارين، والشارب والعنفقة، وإنْ كانت كثة، وأما اللحية: فإن كانت كثة لا ترى البشرة من تحتها.. لا يجب غسل ما تحتها، ويجب غسل ما تحت اللحية الخفيفة؛ والخفيفة هي ما ترى بشرتها من خلالها في مجلس التخاطب، والكثة بخلافها.

واستدل الشافعي على وجوب النية عند غسل الوجه بهذه الآية[2]، وحجته أن الوضوء مأمور به، وكل مأمور به يجب أن يكون منوياً، ولما روي في «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكل امرىء ما نوى». والوضوء من الأعمال، ويجب أن يكون منوياً، وإنَّما قلنا: إن الوضوء مأمور به، وإنَّه من أعمال الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. والإخلاص عبارة عن النية

---

(١) البيضاوي. (٢) الخازن.

الخالصة، ومتى كانت النية الخالصة معتبرة كان أصل النية في جميع الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى معتبراً.

واستدل أبو حنيفة على عدم وجوب النية في الوضوء بهذه الآية، قال: إن النية ليست شرطاً لصحة الوضوء؛ لأنَّ الله تعالى أوجب غسل الأعضاء الأربعة في هذه الآية، ولم يوجب النية فيها، فإيجاب النية زيادة على النص، والزيادة على النص نسخ، ونسخ القرآن بخبر الواحد وبالقياس غير جائز. وأجيب عنه بأنا إنَّما أوجبنا النية في الوضوء بدلالة القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

والفرض الثاني من فروض الوضوء المذكورة في القرآن: غسل اليدين، وذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿و﴾ اغسلوا ﴿أيديكم إلى المرافق﴾ والأيدي جمع يد، وحدها في الوضوء: من رؤوس الأصابع إلى المرفق. والمرفق بكسر أوله هو من الإنسان أعلى الذراع وأسفل العضد؛ أي: مجتمع الذراع والعضد. وذهب جمهور العلماء إلى وجوب إدخال المرفقين في الغسل، وحجتهم أن كلمة ﴿إلى﴾ هنا بمعنى (مع) نظير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾؛ أي: مع أموالكم.

ويعضده من السنة ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه توضأ، فغسل وجهه، فأسبغ الوضوء، ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد، ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع في العضد، ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق، ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ.

ونقل عن مالك والشعبي وزفر وأبي بكر بن داود الظاهري: أنَّه لا يجب إدخال المرفقين في الغسل، واختاره ابن جرير الطبري. ونقل عن مالك وقد سئل عن قول الله عز وجل: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ فقال: الذي أمر به أن يبلغ المرفقين في الغسل لا يجاوزهما. وحجة أصحاب هذا القول أن كلمة (إلى) لانتهاء الغاية، وما يجعل غاية للحكم يكون خارجاً عنه كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾؛ ولأن الحد لا يدخل في المحدود، فوجب أن

لا يجب غسل المرفقين في الوضوء.

وأجيب عنها بأنَّ الحد إذا كان من جنس المحدود دخل فيه، كما في هذه الآية؛ لأنَّ المرفق من جنس اليد، وإذا لم يكن من جنس المحدود.. لم يدخل فيه، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ لأنَّ النهار من غير جنس الليل، فلا يدخل فيه.

والثالث من فروض الوضوء المذكورة في القرآن: مسح الرأس، وذكره بقوله عز وجل: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ جمع رأس والرأس معروف. وقد اختلف فقهاء الأمصار في أقل ما يحصل به فرض مسح الرأس، فقال الشافعي: يكفي أقل ما يصدق عليه اسم المسح ولو شعرة. وقال مالك: يجب مسح جميعه وهو إحدى الروايتين عن أحمد، والرواية الأخرى عنه: أنه يجب مسح أكثره. وقال أبو حنيفة: يجب مسح ربعه، لأن المسح إنَّما يكون باليد وهي تستوعب مقدار الربع في الغالب، وفي رواية أخرى عنه: أنه يجب مسح قدر ثلاثة أصابع منه.

والمراد إلصاق المسح بالرأس، وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح بالرأس، فأخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب، وأخذ الشافعي باليقين فأوجب مسح ما يقع عليه اسم المسح، وأخذ أبو حنيفة ببيان السنة وهو ما يروى عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ: (توضأ فمسح بناصيته وعلى العمامة والخفين) متفق عليه. وقدرت الناصية بربع رأس.

والفرض الرابع من الفروض المذكورة في القرآن: غسل الرجلين، وذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿و﴾ اغسلوا ﴿أرجلكم إلى الكعبين﴾ أي مع الكعبين. والكعبان: هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين، أي: واغسلوا أرجلكم مع الكعبين ويؤيده عمل النبي ﷺ وعمل الصحابة، وقول أكثر الأئمة. فقد روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ رأى رجلاً لم يغسل عقبة فقال: «ويل للأعقاب من النار». وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة، فأدركنا وقد أرهقنا العصر، فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا، قال: فنادى بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثاً،

ويقوم المسح على الخفين عند لبسهما مقام غسل الرجلين، وقد روى ذلك خلائق لا يحصون من الصحابة، قال الحسن: حدثني سبعون من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمسح على الخفين، وقال الحافظ ابن حجر: قد صرّح جمع من الحفاظ بأن المسح على الخفين متواتر، وأقوى الأحاديث حجة فيه حديث جرير، فقد روى أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل له: تفعل هكذا؟ قال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه.

والخلاصة: أن غسل الرجلين المكشوفتين ومسح المستورتين هو الثابت بالسنة، المتواترة المبينة للقرآن، والموافق لحكمة هذه الطهارة.

وقرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر عنه(١): ﴿وأرجلِكم﴾ بالجر، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص عنه والكسائي ويعقوب: ﴿وأرجلَكم﴾ بالنصب. أما على قراءة الجر فهو إما معطوف على الرؤوس، فكما يجب المسح في الرؤوس كذلك من الأرجل، وإنَّما عطفت الأرجل على الممسوح للتنبيه على الإسراف في استعمال الماء فيها، لأنها موضع صب الماء كثيراً، والمراد غسلها، أو مجرور بحرف جر محذوف متعلق بفعل محذوف، تقديره: وافعلوا بأرجلكم غسلاً، وحذف حرف الجر وإبقاء الجر جائز، ولا يجوز هذا الكسر على الجوار على أنَّه منصوب في المعنى، عطفاً على المغسول، لأنَّ الجر بالجوار لا يرتكب إلا عند أمن اللبس، وهنا لا يؤمن اللبس، وأيضاً شرطه أن يكون بدون عاطف، والعاطف هنا موجود. وأمَّا على قراءة النصب فهو إمَّا معطوف على الرؤوس؛ لأنَّه منصوب المحل، والعطف على المحل جائز كالعطف على اللفظ كما هو مشهور عند النحاة، وإمّا معطوف على وجوهكم، فظهر لنا أن العامل في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ أحد شيئين، إمَّا قوله: ﴿وَامْسَحُوا﴾. وإمَّا قوله: ﴿فَاغْسِلُوا﴾ ولكن الأولى إعمال الأقرب منهما، حتى إن

---

(١) المراح.

بعضهم لا يجوز أن يكون العامل ﴿فَٱغْسِلُواْ﴾ لما يلزم عليه من الفصل بين المتعاطفين بجملة مبينة حكماً مستقلاً ليس فيها تأكيد للأول، وليست هي اعتراضية، فوجب أن يكون عامل النصب في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ هو قوله: ﴿وَٱمْسَحُواْ﴾ فتدل هذه الآية على وجوب مسح الأرجل، لكن وردت أحاديث صحيحة كثيرة بإيجاب غسل الرجل، وهو مشتمل على المسح ولا ينعكس، فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط، فوجب الرجوع إليه، ويقرأ في الشذوذ بالرفع على الابتداء؛ أي: وأرجلكم مغسولة أو كذلك.

فصل

قد تقدم أن الفروض المذكورة في هذه الآية أربعة، وهي: غسل الوجه، وغسل اليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين إلى الكعبين، وقد تقدم استدلال الشافعي بهذه الآية على وجوب النية في الوضوء، فصارت فرضاً خامساً، وذهب الشافعي ومالك وأحمد إلى وجوب الترتيب في الوضوء، وهو أن يغسل الأعضاء في الوضوء على الولاء كما ذكره الله تعالى في هذه الآية، فيغسل وجهه أولاً، ثم يديه، ثم يمسح رأسه، ثم يغسل رجليه، فصار الترتيب فرضاً سادساً. وذهب أبو حنيفة إلى أن الترتيب في الوضوء غير واجب، واحتج الشافعي على وجوب الترتيب بهذه الآية، وذلك أن الله تعالى أمر بغسل الوجه، ثم بغسل اليدين، ثم بمسح الرأس، ثم بغسل الرجلين، فوجب أن يقع الفعل مرتباً كما أمر الله تعالى، ولقوله ﷺ في حديث حجة الوداع «أبدأ بما بدأ الله به». وهذا الحديث وإن ورد في قصة السعي بين الصفا والمروة، فإنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولأن أفعال النبي ﷺ في الوضوء ما وردت إلا مرتبة، كما ورد في نص الآية، ولم ينقل عنه ولا عن غيره من الصحابة أنه توضأ منكساً أو غير مرتب، فثبت أن ترتيب أفعال الوضوء كما أمر الله تعالى ونص عليه في هذه الآية واجب، واحتج أبو حنيفة لمذهبه بهذه الآية أيضاً وذلك: أن الواو لا تفيد الترتيب، فإذا قلنا بوجوب الترتيب صار ذلك زيادة على النص، وذلك غير جائز. وأجيب عنه بأنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه توضأ إلا

مرتباً كما ذكر، وبيان الكتاب إنَّما يؤخذ من السنة.

فصل في ذكر الأحاديث التي وردت في صفة الوضوء وفضله

عن حمران مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه أن عثمان دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات، فغسلهما، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنشق واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه.. غفر له ما تقدم من ذنبه». متفق عليه.

زاد في رواية بعد قوله: «فأقبل بيديه وأدبر، بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه».

وعن عبد خير قال: أتانا علي كرم الله وجهه ـ وقد صلى ـ فدعا بطهور، فقلنا: ما يصنع بالطهور وقد صلى! ما يريد إلا ليعلمنا، فأتي بإناء فيه ماء وطست فأفرغ من الإناء على يمينه، فغسل يديه ثلاثاً، ثم تمضمض واستنشق ثلاثاً، فمضمض ونثر من كف يأخذ منه، ثم غسل وجهه ثلاثاً، وغسل يده اليمنى ثلاثاً، وغسل الشمال ثلاثاً، ثم جعل يده في الإناء فمسح رأسه مرة واحدة، ثم غسل رجله اليمين ثلاثاً، ورجله الشمال ثلاثاً، ثم قال: من سره أن يعلم وضوء رسول الله ﷺ فهو هذا. أخرجه أبو داود.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف الطهور؟ (فدعا بماء في إناء، فغسل كفيه ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل ذراعيه ثلاثاً، ثم مسح برأسه، فأدخل أصبعيه السباحتين في أذنيه، ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه، ثم غسل رجليه ثلاثاً، ثلاثاً، ثم قال: هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم، أو قال: ظلم وأساء). أخرجه أبو داود.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ مسح برأسه وأذنيه

الختانين، وإن لم يكن معه إنزال، فختان الرجل هو الموضع الذي يقطع منه جلدة القلفة، وشفرا المرأة محيطان بثلاثة أشياء، ثقبة في أسفل الفرج وهي مدخل الذكر، ومخرج الحيض والولد، وثقبة أخرى فوق هذه مثل إحليل الذكر، وهي مخرج البول لا غير، وموضع ختانها وهو ثقبة البول، وهناك جلدة قائمة مثل عرف الديك، وقطع هذه الجلدة هو ختانها، فإذا غابت الحشفة.. حاذى ختانها ختانه، وهذا هو معنى التقاء الختانين. أي: وإن كنتم أيها المؤمنون مصابين بالجنابة المذكورة وأردتم القيام إلى الصلاة ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾؛ أي: تطهروا من الجنابة بغسل البدن كله قبل الدخول في الصلاة التي أردتم القيام إليها، والمرأة كالرجل في ذلك كله. وعن عائشة رضي الله عنها (أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه، ثم يفرغ بيمينه على شماله،فيغسل فرجه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يدخل أصابعه في الماء يخلل بهما أصول شعره، ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على سائر جسده).

وقرأ الجمهور: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾. تشديد الطاء والهاء المفتوحتين وأصله تطهروا فأدغمت التاء في الطاء، واجتلبت همزة الوصل، وقرىء: ﴿فاطهروا﴾ بسكون الطاء والهاء مكسورة من اطهر رباعياً؛ أي: فأطهروا أبدانكم، والهمزة للتعدية. ولما بين الله سبحانه وتعالى وجوب الطهارتين: الوضوء والغسل، وكان المسلم لا بد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك في اليوم، ولا بد له من الغسل في كل أسبوع مرة أو أكثر غالباً.. بين الرخصة في تركهما عند المشقة أو العجز؛ لأن الدين يسر لا حرج فيه ولا عنت فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾؛ أي: وإنْ كنتم مرضى مرضاً يضره الماء أو يشق فيه استعمال الماء جلدياً كان كالجدري والجرب وغيرهما من القروح والجراح أو غير جلدي كالباطني ﴿أَوۡ﴾ مستقرين ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ طويلاً أو قصيراً، طاعة أو غيرها، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾؛ أي: المكان المنخفض الذي تقضى فيه حاجة الإنسان، التي لا بد منها، ويراد به شرعاً قضاء الحاجة من بول أو غائط؛ أي: أحدثتم الحدث الموجب للوضوء عند إرادة الصلاة ونحوها، كالطواف، ويسمى الحدث الأصغر ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ بذكر أو غيره، المراد

بالملامسة المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء، والحدث الموجب للغسل يسمى الحدث الأكبر، والموجب للوضوء يسمى الأصغر ﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾ يا معشر المسافرين والمحدثين حدثاً أصغر أو أكبر ﴿مَآءً﴾ بعد طلبه ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾؛ أي: فاقصدوا تراباً طاهراً ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ بالضربة الأولى ﴿وَأَيْدِيكُم﴾ بالضربة الثانية ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الصعيد. وقد تقدم تفسير هذا في سورة النساء مستوفى، وكذلك تقدم الكلام على ملامسة النساء وعلى التيمم وعلى الصعيد، ووجه التكرير هذا هنا لاستيفاء الكلام في أنواع الطهارة، ومن في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ لابتداء الغاية، وقيل للتبعيض وفي قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ دليل على أنَّه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ أيها المؤمنون فيما شرعه لكم في هذه الآية، وفي غيرها ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: حرجاً ما وضيقاً؛ أي: أدنى ضيق وأقل مشقة بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم عند عدم الماء، لأنَّه تعالى غني عنكم، رحيم بكم، فلا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والصلاح لكم ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الأقذار والرذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة، فتكونوا أنظف الناس أبداناً، وأزكاهم نفوساً، وأصحهم أجساداً، وأرقاهم أرواحاً. وقيل المعنى[1]: ليطهر قلوبكم عن صفة التمرد عن طاعة الله تعالى، لأنَّ الكفر والمعاصي نجاسات للأرواح، وذلك لأنه تعالى لما أمر العبد بإيصال الماء إلى هذه الأعضاء المخصوصة ـ وكانت طاهرة ـ لم يعرف العبد في هذا التكليف فائدة معقولة، فلمَّا انقاد لهذا التكليف.. كان ذلك الانقياد محض إظهار العبودية، فأزال هذا الانقياد عن قلبه آثار التمرد، فكان ذلك طهارة للقلوب والأبدان، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ فيجمع[2] لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح، والإنسان إنما هو روح وجسد. والصلاة تطهر الروح وتزكي النفس، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتعود المصلي مراقبة ربه في السر والعلن، وخشيته حين الإساءة، والرجاء فيه لدى الإحسان، والطهارة

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

التي جعلها الله شرطاً للدخول في الصلاة، ومقدمة لها، تطهر البدن وتنشطه، فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها، فما أجل نعم الله على عباده! وما أجدر من هدى بهداه بدوام الشكر عليه! ومن ثم ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أو المعنى ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ببيان كيفية الطهارة، وهي نعمة الدين بعد ذكر نعمة الدنيا، وهي إباحة الطيبات من المطاعم والمناكح، أو بالترخيص في التيمم والتخفيف في حال السفر والمرض، فتستدلوا بذلك على أنَّه تعالى يخفف عنكم يوم القيامة، بأن يعفو عن ذنوبكم ويتجاوز عن سيئاتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: وعدكم ذلك لكي تديموا شكره على نعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية.

فصل في ذكر الحكمة في شرع الوضوء والغسل

للوضوء والغسل فوائد أهمها[1]:

١ ـ أن غسل البدن كله وغسل الأطراف يفيد صاحبه نشاطاً وهمة، ويزيل ما يعرض للجسد من الفتور والاسترخاء بسبب الحدث، أو بغيره من الأعمال التي تؤثر تأثيره، وبذا يقيم الصلاة على وجهها، ويعطيها حقها من الخشوع، ومراقبة الله تعالى، إذ المشاهد أنَّه إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسيمة غايتها، بالوقاع أو الإنزال، حصل تهيج عصبي كبير، يعقبه فتور شديد، بحسب سنة رد الفعل، ولا يعيد نشاطه إلا غسل البدن كله.

٢ ـ أن النظافة ركن الصحة البدنية، فإن الوسخ والأقذار مجلبة الأمراض والأدواء الكثيرة، ومن ثم ترى الأطباء يشددون في أيام الأوبئة والأمراض المعدية في المبالغة في النظافة، وجدير بالمسلمين أن يكونوا أصح الناس أجساداً، وأقلهم أمراضاً، لأنَّ دينهم مبني على المبالغة في نظافة الأبدان والثياب والأمكنة، فإذا هم فعلوا ما أوجبه الدين تنتفي الأسباب التي تولد جراثيم ـ أصول ـ الأمراض عند الناس.

---

(١) المراغي.

٣ ـ تكريم المسلم نفسه لدى نفسه وأهله وقومه الذين يعيشون معهم، إذ من كان نظيف البدن والثياب.. كان جديراً بحضور كل مجتمع، ولقاء أشراف الناس وفضلائهم، ومن كان وسخاً قذراً فإنَّه يكون محتقراً عند كرام الناس ولا يعدونه أهلاً لأن يحضر مجالسهم، ويشعر في نفسه الضعة والهوان.

ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل والطيب ولبس الثياب النظيفة يوم الجمعة، لأنَّه يوم يجتمع فيه الناس في المساجد لعبادة الله تعالى. روى مالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم من طرق عدة أن النبي ﷺ قال: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم»، أي: بالغ ومكلف.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى هذه الأحكام، وذكر رفع الحرج الذي تم به الإنعام، ذكرنا بنعمه التي أنعم بها علينا فقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي هي نعمة الإسلام؛ أي: وتذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفاراً متباغضين، فأصبحتم بهداية الدين إخواناً متحابين. وقيل المعنى؛ أي: تأملوا في جنس نعم الله تعالى عليكم، وهو إعطاء نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون عن الآفات، والإيصال إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، فجنس نعمة الله جنس لا يقدر عليه غير الله، فمتى كانت النعمة على هذا الوجه.. كان وجوب الاشتغال بشكرها أتم ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: وتذكروا العهد الذي عاهدكم به على لسان رسوله حين بايعتم رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، المحبوب والمكروه والعسر واليسر، حين قلتم له: سمعنا ما أمرتنا به ونهيتنا عنه، وأطعناك فيه، فلا نعصيك في معروف، وكل ما جئتنا به فهو معروف.

مثل مبايعته ﷺ مع الأنصار في أول الأمر ليلة العقبة، ومبايعته ﷺ عامة المؤمنين بيعة الرضوان تحت الشجرة في الحديبية وغيرهما.

وكل نبي بعث في قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة، وقبول الدعوة والدخول في الدين، يعد قبولاً لهذا العهد، فعلينا أن نعد هذا التذكير خطاباً لنا، كما عده السلف من الصحابة خطاباً لهم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أيها المؤمنون في نسيان

نعمته، ونقض ميثاقه، فلا تنقضوا عهده، ولا تخالفوا ما أمركم به، وما نهاكم عنه، سواء أكان في هذه الآيات أم في غيرها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بخطرات القلوب فلا يخفى عليه ما أضمره كل واحد ممن أخذ عليه الميثاق، من نية الوفاء به، أو عدم الوفاء، وما تنطوي عليه السرائر، من الإخلاص أو الرياء، فلا تعزموا بقلوبكم على نقض تلك العهود؛ فإنَّه إنْ خطر ببالكم فالله يعلم ذلك، وكفى بالله مجازياً. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: كونوا مبالغين في القيام بالحق والعدل في أنفسكم، وفي غيركم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخلصين ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى في كل ما تعملونه من أمر دينكم وأمر دنياكم، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق ابتغاء مرضاة الله تعالى من غير اعتداء على أحد ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾؛ أي: شاهدين بالعدل والحق والصدق بلا محاباة لمشهود له، ولا لمشهود عليه، لأجل قرابة أو مال أو جاه، ولا تركه لفقر أو مسكنة أو عداوة، فالعدل هو ميزان الحقوق، إذ متى وقع الجور في أمة لأي سبب.. زالت الثقة من الناس، وانتشرت المفاسد، وتقطعت روابط المجتمع، فلا يلبث أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منه إلى العدل، فيذيقوهم الوبال والنكال، وتلك سنة الله في حاضر الأمم وغابرها، ولكن الناس لا يعتبرون، والشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به، أو عن إظهار الحاكم الحق بالحكم به، أو إظهاره بالإقرار به لصاحبه، والتكاليف محصورة في نوعين: تعظيم أمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله. فقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾. إشارة إلى النوع الأول وهو حقوق الله وقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ إشارة إلى الثاني وهو حقوق الخلق ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لا يحملنكم ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾؛ أي: شدة بغضكم لقوم مشركين ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ﴾؛ أي: على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل فعله، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفياً مما في قلوبكم، أو المعنى: ولا يحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم، وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم، وإن أساؤوا عليكم، ولا تحملنكم العداوة والبغضاء لهم على ترك العدل في أمرهم بالشهادة لهم بحقهم إذا

هم أصحاب حق، أو الحكم لهم بذلك، لأنَّ الله تعالى أمر جميع الخلق بأنْ لا يعاملوا أحداً إلا على سبيل الإنصاف، وترك الاعتساف، فالمؤمن يؤثر العدل على الجور والمحاباة، ويجعله فوق الأهواء، وحظوظ النفس، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببهما ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾؛ أي: افعلوا العدل، والحق أيها المؤمنون في عدوكم ووليكم ﴿هُوَ﴾؛ أي: العدل المدلول عليه بقوله: إعدلوا ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: إلى الاتقاء من معاصي الله تعالى، أو إلى الاتقاء من عذاب الله تعالى، أو إلى التقوى التي أمرتم بها غير مرة.

وهذه[1] الجملة مؤكدة للجملة السالفة، كرره للعناية بأمر العدل، وأنَّه فريضة لا هوادة فيها؛ لأنَّه أقرب لتقوى الله تعالى، والبعد عن سخطه، وتركه من أكبر المعاصي، لما ينشأ عنه من المفاسد التي تقوض نظم المجتمعات وتقطع الروابط بين الأفراد، وتجعل بأسهم شديداً.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم، فيجازيكم عليها.

والمعنى: واتقوا سخطه وعقابه، لأنّه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، ظاهرها وباطنها، واحذروا أن يجازيكم بالعدل على ترككم للعدل، وقد مضت سنته في خلقه بأن يجعل جزاء ترك العدل في الدنيا الذلة والمهانة للأمم والأفراد، وفي الآخرة الخزي يوم الحساب.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالعدل والتقوى وبشرهم بأن يكون ﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾؛ أي: ستر لذنوبهم ومحو لسيئاتهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: ثواب جسيم هو الجنة والرضوان منه تعالى، وهذه الجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً لسؤال مقدر، فكأنه قيل وأي شيء وعدهم؟ فقال المجيب لهم: مغفرة وأجر عظيم.

---

(١) المراغي.

فالإيمان والعمل الصالح يستران ويمحوان من النفس ما يكون فيها من سوء أثر الأعمال السالفة، فيغلب عليها حب الحق والخير، وتكون أهلاً للوصول إلى عالم القدس والطهر، والأجر العظيم هو الجزاء المضاعف على الإيمان والعمل الصالح، فضلاً من الله ورحمة من لدنه. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا بوحدانية الله تعالى وبرسالة رسله، ونقضوا عهوده ومواثيقه. والكفر هنا هو الكفر بالله ورسله، لا فرق في ذلك بين الكفر بالجميع وبين الكفر بالبعض ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ القرآنية، وبما جاءت به الرسل من عنده تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ الكافرون المكذبون ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: ملازموها ومصاحبوها أبداً لا يفارقونها. وهذه الآية نص قاطع في أن الخلود في النار ليس إلا للكفار، لأنَّ المصاحبة تقتضي الملازمة، كما يقال: فلان صاحبُ فلان، يعني ملازم له، وهذه الجملة مستأنفة، أتى بها جمعاً بين الترغيب والترهيب، إيفاء لحق الدعوة بالتبشير والإنذار.

وآيات الله قسمان: آياته المنزلة على رسله وآياته التي أقامها في الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكماله وقدرته وإرادته، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه، والجحيم النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾؛ أي: أنَّ هؤلاء الكفار المكذبين سيصلون العذاب في نار عظيمة، أعدَّها الله تعالى لمن كفر وكذب بآياته، لأن نفوسهم قد فسدت، وسوء حالهم قد ران على قلوبهم فأصبحوا صماً عمياً لا يبصرون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، يعني محمداً ﷺ وأصحابه ﴿اذْكُرُوا﴾؛ أي: تذكروا ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾؛ أي: إنعامه تعالى عليكم، بدفع بأس العدو عنكم بالشكر عليها ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾؛ أي: إذ قصد قوم من الكفار ﴿أَنْ يَبْسُطُوا﴾ ويمدوا ﴿إِلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والبطش والإهلاك، يقال: بسط إليه يده، إذا بطش به، وبسط إليه لسانه، إذا شتمه، ومعنى بسط اليد مدها إلى المبطوش به ﴿فَكَفَّ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ وصرفهم ﴿عَنْكُمْ﴾ وحال بينكم وبين ما أرادوه بكم من الضرر. روي من طرق متعددة أن الآية نزلت في رجل من قبيلة هم بقتل النبي ﷺ، أرسله قومه لذلك، وكان

بيده سيف وليس مع النبي ﷺ سلاح، وكان منفرداً.

وفي رواية أخرى: إن السيف الذي كان بيد الأعرابي كان سيف رسول الله ﷺ، علقه في شجرة وقت الراحة، فأخذه الرجل، وجعل يهزه ويهم بقتل النبي ﷺ، ثم سقط في يده، فأخذه رسول الله ﷺ وقال: «من يمنعك مني»؟ قال: لا أحد، ثم صاح رسول الله ﷺ بأصحابه، فأخبرهم، وأبى أن يعاقبه، كما مر ذلك كله في أسباب النزول.

وعلى هذا فالمراد تذكيرهم بنعمة الله عليهم، بدفع الشر والمكروه عن نبيهم، فإنَّه لو حصل ذلك.. لكان من المحن الكبرى التي تصيب المسلمين.

وقيل: إن المراد تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من قوة الإسلام، وعظمة شوكة المسلمين، فبعد أنْ كانوا أذلاء مغلوبين على أمرهم، بدل الحال غير الحال، وأصبحوا أعزة بعد الذلة، وغالبين بعد أن كانوا مقهورين، فهو سبحانه وتعالى يذكر المسلمين بوقائع الاعتداء كلها، سواء في ذلك حادثة المحاربي وأمثالها، لأن حفظه أولئك السلف هو حفظه لذلك الدين القويم، فالنبي ﷺ قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وأصحابه هم الذين تلقوها عنه وأدوها لمن بعدهم قولاً وعملاً.

ومن فوائد هذا التذكير للمتأخر ترغيبه في التأسي بالسلف في القيام بما جاء به الدين، من الحق والعدل والبر، ومعنى قوله: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء، من قتل ونهب، فكف الله تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم، فلم يستطيعوا تنفيذ ما هموا به ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه؛ أي: كونوا مواظبين على طاعة الله تعالى، ولا تخافوا أحداً في إقامة طاعات الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمد المؤمنون في جميع أمورهم: دينهم ودنياهم، فإنَّه تعالى الكافي لإيصال الخير ودفع الشر.

والمعنى: واتقوا الله الذي أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم، وتوكلوا عليه وحده، فقد أراكم عنايته بمن يكلون أمورهم إليه بعد مراعاة سننه، والسير عليها في اتقاء كل ما يخشى ضره، وتسوء عاقبته، لا على

أوليائكم وحلفائكم، لأن الأولياء قد تنقطع بهم الأسباب، ويجيبون داعي اليأس إذا اشتد اليأس، والحلفاء قد يغدرون كما غدر بنو النضير وغيرهم، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس.. تذكر أن الله تعالى وليه، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، فتتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله، ويخذل أعداءه، كما حدث لأولئك الكملة المتوكلين مع سيد المرسلين أيام ضعفهم، وقلتهم وفقرهم وتألب[1] الناس كلهم عليهم.

الإعراب

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة. ﴿مَاذَآ﴾: (ما): اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. (ذا): اسم الموصول في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مفعول ثان لِـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ ﴿أحل﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول ﴿لَهُمْۖ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع معطوف على ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾ ولكنه على حذف مضاف كما مر في بحث التفسير تقديره: وصيد ما علمتم. ﴿عَلَّمْتُم﴾: فعل وفاعل ومفعولاه محذوف تقديره: وما علمتموه الاصطياد. ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾: جار ومجرور حال من المفعول الأول الذي هو الضمير المحذوف تقديره: وما علمتموه حالة كونه كائناً من الجوارح؛ أي: من الحيوان الكاسب لكم، وجملة (علم) صلة الموصول، والعائد الضمير المحذوف.

---

(١) يقال: تألب الناس على كذا إذا تجمعوا واتفقوا عليه ا هـ م.

وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ في (ما) هذه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها موصولة بمعنى الذي، والعائد محذوف؛ أي: ما علمتموه، ومحلها الرفع عطفاً على مرفوع ما لم يسم فاعله؛ أي: وأحل لكم صيد أو أخذ ما علمتم، فلا بدّ من تقدير هذا المضاف.

والثاني: أنها شرطية، فمحلها رفع بالابتداء والجواب قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ وإنَّما دخلت الفاء لكون الجواب جملة طلبية.

والثالث: أنَّها موصولة أيضاً، ومحلها الرفع بالابتداء، والخبر قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ وإنَّما دخلت الفاء تشبيهاً للموصول باسم الشرط وقوله: ﴿مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ في محل نصب على الحال، وفي صاحبها وجهان: أحدهما: الموصول، وهو ما، والثاني: أنَّه الهاء العائد على ما الموصولة، وهو في المعنى كالأول، قال الشيخ: وفائدة هذه الحال وإنْ كانت مؤكدة لقوله: ﴿عَلَّمْتُم﴾ فكان يستغنى عنها الإشارة إلى أن يكون المعلم ماهراً في التعليم حاذقاً. ا هـ. «سمين».

﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾: حال من التاء في علمتم، ومفعولاه محذوفان تقديرهما: مكلبين إياهن الاصطياد؛ أي: معلمين ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان لتعلمون، ومن فيه تبعيضية ﴿عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: علمكم الله إياه، وجملة ﴿عَلَّمَكُمُ﴾: صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف، وجملة ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾: في محل النصب حال ثانية من فاعل علمتم.

وفي «الفتوحات» قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ في هذه الجملة أربعة أوجه[2]:

أحدها: أنَّها جملة مستأنفة.

---

(١) الجمل. (٢) الجمل.

الثاني: أنها جملة في محل نصب على أنها حال ثانية من فاعل علمتم، ومنع أبو البقاء ذلك لأنَّه لا يجيز للعامل الواحد أن يعمل في حالين.

الثالث: أنها حال من الضمير المستتر في مكلبين فتكون حالاً من حال، وتسمى المتداخلة وعلى كلا التقديرين المتقدمين فهي حال مؤكدة؛ لأن معناها مفهوم من علمتم ومن مكلبين.

الرابع: أن تكون جملة معترضة، وهذا على جعل ما شرطية أو موصولة خبرها ﴿فَكُلُوا﴾ فيكون قد اعترض بين الشرط وجوابه، أو بين المبتدأ وخبره. ا هـ «سمين» انتهت.

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿فَكُلُوا﴾ (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنه أحل لكم صيد ما علمتم وأردتم بيان كيفية الانتفاع به، وكيفية أكله.. فأقول لكم كلوا. ﴿كلوا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول به لِـ﴿كلوا﴾ و(من) فيه تبعيضية. ﴿أَمْسَكْنَ﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: أمسكنه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة أمسكن صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف، وجملة (كلوا): في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وكون الفاء فصيحة إنَّما يتمشى على القول بأن ما علمتم معطوف على الطيبات، لا على الوجهين الأخيرين من الأوجه الثلاثة المذكورة فيه. ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق باذكروا، والجملة معطوفة على جملة ﴿كلوا﴾. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على كلوا. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ خبر إنَّ ومضاف إليه، وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

﴿الْيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بما بعده. ﴿أُحِلَّ﴾: فعل

ماضٍ مغير الصيغة. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿أُحِلَّ﴾ ﴿الطَّيِّبَٰتُ﴾: نائب فاعل لـ ﴿أُحِلَّ﴾: والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَطَعَامُ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿طعام﴾: مبتدأ. ﴿الَّذِينَ﴾: مضاف إليه. ﴿أُوتُوا﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿الْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان لـ ﴿أُوتُوا﴾ لأنَّه بمعنى أعطوا. ﴿حِلٌّ﴾ خبر المبتدأ. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية المذكورة قبلها، وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون ﴿طعام﴾ معطوفاً على ﴿الطَّيِّبَٰتُ﴾ و﴿أُحِلَّ لَكُمُ﴾: خبر مبتدأ محذوف ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَالْمُحْصَنَٰتُ﴾ الواو عاطفة. ﴿المحصنات﴾: معطوف على ﴿الطَّيِّبَٰتُ﴾ ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره: والمحصنات من المؤمنات حل لكم أيضاً، وحل مصدر بمعنى الحلال، فلا يثنى ولا يجمع. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من الضمير في المحصنات، أو من نفس المحصنات إذا عطفتها على الطيبات ﴿وَالْمُحْصَنَٰتُ﴾ الواو: عاطفة. ﴿المحصنات﴾: إما معطوف على الطيبات، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره: حل لكم. ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾: جار ومجرور حال من الضمير في المحصنات، أو حال من نفس المحصنات إذا عطفناه على الطيبات. ﴿أُوتُوا الْكِتَٰبَ﴾: فعل ونائب فاعل ومفعول ثان، والجملة صلة الموصول. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُوتُوا﴾.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى الْءَاخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ ﴿أُحِلَّ﴾ أو بحل المحذوف. ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾. ﴿مُحْصِنِينَ﴾: حال من الضمير المرفوع في ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فيكون العامل آتيتم، ويجوز أن يكون العامل ﴿أُحِلَّ﴾: أو (حل) المحذوف، ذكره أبو البقاء. ﴿غَيْرَ﴾: صفة لمحصنين. ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾: مضاف إليه، أو حال من الضمير المستكن في ﴿مُحْصِنِينَ﴾، أو حال من فاعل ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ على أنه حال ثانية منه، وذلك عند من يجوز ذلك ﴿وَلَا﴾: (الواو):

عاطفة. (لا): زائدة زيدت لتأكيد النفي المفهوم من غير. ﴿مُتَّخِذِيٓ﴾: معطوف على ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾ مجرور بالياء وهو مضاف ﴿أَخۡدَانٖۗ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَن﴾: (الواو): استئنافية. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَكۡفُرۡ﴾: فعل مضارع مجزوم على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾: متعلق به. ﴿فَقَدۡ﴾: (الفاء): رابطة لجواب من وجوباً لاقترانه بقد. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه في محل الجزم بمن على كونه جواب الشرط لها، وجملة من الشرطية مستأنفة ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بما تعلق به الخبر الآتي ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: خبر وقوله: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: متعلق بما تعلق به الخبر لا به، إذ معمول الصلة لا يتقدم عليها ا هـ. وفي «الكرخي»: الظاهر أن الخبر قوله: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فيتعلق قوله: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بما تعلق به هذا الخبر، وهو الكون المطلق، ولا يجوز أن يكون ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هو الخبر، و﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ متعلقاً بما تعلق به الخبر، لأنه لا فائدة في ذلك. ا هـ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة. (ها): حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات، (أي): من الإضافة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لأي، تابع للفظه، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قُمۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قُمۡتُمۡ﴾. ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾: الفاء رابطة لجواب إذا. ﴿اغسلوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾: معطوف على وجوهكم. ﴿إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿اغسلوا﴾. وقال العكبري: ويجوز أن يتعلق بمحذوف

حال من أيديكم تقديره: حالة كونها مضافة إلى المرافق. ﴿وَٱمۡسَحُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿اغسلوا﴾. ﴿بِرُءُوسِكُمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿امسحوا﴾. ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾: بالنصب معطوف على ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾؛ أي: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم وأرجلكم. وبالجر لفظاً على الجوار معطوف على ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾ أيضاً، فتقول في إعرابه: أرجلكم معطوف على وجوهكم، وللمعطوف حكم المعطوف عليه تبعه بالنصب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الأخير، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الجوار؛ أي: اشتغال المحل بحركة سببها مجاورة المجرور ويقرأ في الشذوذ بالرفع على الابتداء؛ أي: وأرجلكم مغسولة، أو كذلك، ذكره أبو البقاء. ﴿إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿اغسلوا﴾ أو ﴿امسحوا﴾ أو حال من ﴿أرجلكم﴾.

﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾.

﴿وَإِن كُنتُمۡ﴾ جازم وفعل ناقص واسمه. ﴿جُنُبٗا﴾ خبر كان ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾: (الفاء): رابطة الجواب. ﴿اطهروا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم جواب إنْ الشرطية، وجملة إنْ الشرطية مستأنفة. ﴿وَإِن كُنتُم﴾: جازم وفعل ناقص واسمه ﴿مَّرۡضَىٰٓ﴾: خبره ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف معطوف على خبر كان تقديره: أو مستقرين على سفر ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم معطوف على قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ على كونها فعل شرط لإن ﴿مِّنكُم﴾: جار ومجرور صفة لأحد ﴿مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾: جار ومجرور متعلق بجاء ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾. ﴿فَلَمۡ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿تَجِدُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلم. ﴿مَآءٗ﴾: مفعول به؛ لأنَّ وجد لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، لأنَّه من وجدان الضالة، والجملة في محل الجزم، معطوفة على جملة الشرط، لكنه قيد في غير المرض وهو الثلاثة بعده، وأمَّا المرض.. فيتيمم معه ولو مع وجود الماء ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾: (الفاء): رابطة لجواب الشرط. ﴿تيمموا﴾: فعل وفاعل. ﴿صَعِيدٗا﴾: مفعول به. ﴿طَيِّبٗا﴾: صفة له، والجملة في محل الجزم جواب لإنْ الشرطية، وجملة إنْ الشرطية مستأنفة.

﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿فَٱمْسَحُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة تيمموا على كونها جواب الشرط ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾: جار ومجرور. ومضاف إليه متعلق بـ ﴿امسحوا﴾ ﴿وَأَيْدِيكُم﴾ معطوف على ﴿وُجُوهِكُمْ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿امسحوا﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِيَجْعَلَ﴾: اللام حرف جر وتعليل. ﴿يجعل﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق به. ﴿مِّنْ﴾: زائدة. ﴿حَرَجٍ﴾: مفعول به لجعل؛ لأنه يتعدى إلى مفعول واحد؛ لأنه بمعنى أوجد، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور باللام، ومفعول ﴿يُرِيدُ﴾ محذوف تقديره: ما يريد الله الرخصة في التيمم لجعله حرجاً عليكم، واللام متعلقة بـ ﴿يُرِيدُ﴾ وقيل: اللام زائدة، وجملة أن المصدرية مفعول ﴿يُرِيدُ﴾ تقديره: ما يريد الله برخصة التيمم جعل حرج عليكم. ﴿وَلَٰكِن﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ومفعول ﴿يُرِيدُ﴾ محذوف تقديره: ولكن يريد الرخصة في التيمم ليطهركم، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾. ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يطهر﴾: منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. و(الكاف): مفعوله، وجملة (أنْ) المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام وهي متعلقة بـ ﴿يُرِيدُ﴾؛ والتقدير: ولكن يريد الرخصة في التيمم لتطهيره إياكم، وقيل: اللام زائدة كما تقدم والتقدير: ولكن يريد تطهيره إياكم. ﴿وَلِيُتِمَّ﴾: (الواو): عاطفة. (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يتم﴾: منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿نِعْمَتَهُ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يتم﴾: وجملة أنْ المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ والتقدير: على الوجه الأول؛ ولكن يريد الرخصة في التيمم لتطهيره إياكم ولإتمام نعمته عليكم،

وعلى الوجه الثاني: ولكن يريد تطهيره إياكم وإتمام نعمته عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجّ ونصب. و(الكاف): : اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾: في محل الرفع خبر لعل، والتقدير: لعلكم شاكرون، وجملة لعل مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَاذْكُرُوا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿اذكروا﴾: فعل وفاعل. ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بنعمة الله، والجملة مستأنفة ﴿وَمِيثَاقَهُ﴾: معطوف على نعمة الله ﴿الَّذِي﴾: صفة للميثاق ﴿وَاثَقَكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿بِهِ﴾ متعلق بواثق، والجملة الفعلية صلة الموصول والعائد ضمير به ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿واثقكم﴾ ﴿قُلْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: مقول محكي وإن شئت قلت ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْتُمْ﴾. ﴿وَأَطَعْنَا﴾: معطوف على ﴿سَمِعْنَا﴾. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿اذكروا﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿اللَّهَ﴾: اسمها ﴿عَلِيمٌ﴾: خبرها ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بعليم، وجملة إن مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة. (ها): حرف تنبيه. ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿كُونُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿قَوَّامِينَ﴾: خبره. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بقوامين. ﴿شُهَدَاءَ﴾: خبر ثان لكونوا، وجملة كونوا جواب النداء. ﴿بِالْقِسْطِ﴾: جار ومجرور متعلق بشهداء. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية. ﴿يجرمن﴾: فعل مضارع في محل الجزم بلا الناهية مبني

على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. والكاف مفعول به. ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿كُونُواْ﴾: على كونها جواب النداء ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر ﴿أَلَّا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَعۡدِلُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المصدرية، وجملة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بعلى تقديره: على عدم العدل، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾. ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿هُوَ أَقۡرَبُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾: متعلق بـ ﴿أَقۡرَبُ﴾. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿خَبِيرُۢ﴾: خبرها ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بخبير ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يعملونه، وجملة إنَّ مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٠﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: وعد الله الذين أمنوا المغفرة والأجر العظيم، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على آمنوا ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَأَجۡرٌ﴾: معطوف عليه ﴿عَظِيمٞ﴾: صفة لأجر، والجملة الاسمية مستأنفة استغنى بها عن ذكر المفعول الثاني لوعد لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَكَذَّبُواْ﴾: معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿كذبوا﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: مضاف إليه والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره جملة كبرى في ضمنها جملة صغرى مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيها﴾ منادى. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لأي. ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة، والجملة مستأنفة. ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: ﴿هَمَّ قَوْمٌ﴾ **فعل وفاعل مضاف إليه لـ﴿إذ﴾** ﴿أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول وجار ومجرور في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿هَمَّ﴾ ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾: (الفاء): تفريعية عاطفة على ﴿هم﴾ ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق بكف ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: وهو فعل وفاعل، و(الفاء): زائدة، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: جمع طيبة وطيب والطيب ضد الخبيث، وهو صفة مشبهة من طاب يطيب من باب باع طيباً وطاباً وطيبة وتطياباً إذا لذّ وحلا وحسن وجاد، فالطيبات المستلذات. ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾: الجوارح الكواسب من سباع البهائم، والطير، كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والباز والشاهين، وهي جمع جارحة، والهاء فيها للمبالغة، وهي صفة غالبة إذ لا يكاد يذكر معها الموصوف ذكره أبو البقاء، وسميت بذلك لأنها تجرح ما تصيد غالباً، أو لأنها تكتسب، يقال: امرأة لا جارح لها؛ أي: لا كاسب، ومنه ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ما كسبتم، ويقال: جرح واجترح بمعنى اكتسب ﴿مُكَلِّبِينَ﴾: جمع مكلب بالتشديد من التكليب، وهو تعليم الكلاب وإضراؤها، ثم استعمل في تعليم الجوارح مطلقاً. وقال أبو حيان: المكلب بالتشديد معلم الكلاب ومضربها على الصيد، وبالتخفيف صاحب الكلاب، وقال الزجاج: رجل مكلب ومكلب وكلاب صاحب كلاب ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: جمع محصنة يقال: أحصنت المرأة إذا عفت، فهي

محصنة، بفتح الصاد؛ أي: عفيفة، وأحصنت المرأة إذا تزوجت، لأن زواجها قد أحصنها، فهي محصنة بفتح الصاد؛ أي: متزوجة وأحصن الرجل إذا تزوج، فهو محصن إذا تزوج، وأحصن المرأة إذا زوجها. قيل: المراد بالمحصنات هنا الحرائر، وقيل: العفيفات عن الزنا ﴿أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: مهورهن جمع أجر كفلس وفلوس ﴿مُحْصِنِينَ﴾: المراد بهم الأعفاء عن الزنا ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾: مجاهرين بالزنا، ويقال: سافحا وتسافحا، إذا زنيا وفجرا، فهو مسافح؛ أي: مجاهر بالزنا.

﴿مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۢ﴾؛ أي: مسرين بالزنا، والأخدان: جمع خدن بكسر أوله، والخدن الصديق، يطلق على الذكر والأنثى، وفي «المصباح» الخدن: الصديق في السر، والجمع: أخدان مثل حمل وأحمال انتهى. ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الغسل[1] في اللغة إيصال الماء إلى المغسول مع إمرار شيء عليه كاليد ونحوها، قاله بعضهم وقال آخرون: هو إمرار الماء على الموضع، ومن ذلك قول بعض العرب:

فَيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ ٱلدَّمْعُ كُحْلَهَا

والوجوه جمع وجه، وهو ما تحصل به المواجهة من الرأس ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ جمع يد، أصله يدي، بدليل جمعه على الأيدي حذفت لامه اعتباطاً؛ أي: لغير علة تصريفية ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾: جمع مرفق، والمرفق المفصل بين المعصم والعضد، وفتح الميم وكسر الراء أشهر ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾: جمع رجل والرجل معروفة، وجمعت على أفعل في القلة والكثرة ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ تثنية كعب، والكعب[2] العظم الناتىء في وجه القدم، حيث يجتمع شراك النعل ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ الجنب صفة يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع، فاطهروا بتشديد الطاء والهاء أصله تطهروا من باب تفعل الخماسي، فأدغمت التاء في الطاء واجتلبت همزة الوصل فصار اطهروا كما مر في مبحث القراءة ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾: جمع مريض كجرحى جمع جريح وقتلى جمع قتيل ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾: يقال: غاط الحفرة يغوط غوطاً، من باب قال إذا حفرها، وغاط في

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

المكان إذا دخل فيه، ويقال: غوط البئر إذا حفرها فأبعد قعرها، وتغوط إذا قضى الحاجة، والغائط المطمئن من الأرض وموضع قضاء الحاجة، لأن الرجل إذا أراد التبرز كان يرتاد غائطاً من الأرض يغيب فيه عن أعين الناس، والغائط أيضاً العذرة.

﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾: جمع قوام مبالغة قائم، والقوام بالشيء هو القائم به حق القيام ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: شهداء بالعدل جمع شهيد، ككرماء جمع كريم، وشرفاء، جمع شريف.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ وفي قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، وفي لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وفي قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ﴾، ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ﴾، ولفظ اليوم في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾؛ أي: صيد ما علمتم، وفائدته: دفع توهم أن مصيد الجارحة ليس من الطيبات.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، وفي قوله: ﴿عَلَّمْتُم﴾ و ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: الطباق المعنوي في قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾؛ لأن مكلبين بمعنى معلمين مؤكد لعلمتم.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ قد اعترض بها بين الشرط وجوابه، أو بين المبتدأ والخبر على جعل ما في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ شرطية أو موصولة خبرها ﴿فَكُلُوا۟﴾.

ومنها: إطلاق الكل وإرادة البعض في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ﴾؛ أي: بعض ما أمسكن فمن تبعيضية، وإلا فلا يجوز أكل دمه وفرثه.

ومنها: إقامة المسبب مقام السبب في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾؛ أي: أردتم القيام إليها، وذلك أنَّ القيام متسبب عن الإرادة، والإرادة سببه.

ومنها: الحذف في عدة مواضع كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾؛ لأنه على تقدير: وإذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون فاغسلوا وجوهكم... إلخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الميثاق الذي أخذه على المؤمنين في قوله: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾. ثم ذكر وعده إياهم،

(١) البحر المحيط.

ثم أمرهم بذكر نعمته عليهم إذ كف أيدي الكفار عنهم.. ذكرهم بقصة بني إسرائيل في أخذ الميثاق عليهم، ووعده لهم بتكفير السيئات، وإدخالهم الجنة، فنقضوا الميثاق وهموا بقتل الرسول، وحذرهم بهذه القصة أن يسلكوا سبيل بني إسرائيل.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما ذكرنا[1] الله سبحانه وتعالى بميثاقه الذي واثقنا به على السمع والطاعة لخاتم النبيين ﷺ، بين لنا في هذه الآيات أخذ الميثاق على اليهود والنصارى، وما كان من نقضهم له، ومن عقابه لهم على ذلك في الدنيا بضروب الذلة والمسكنة، وفي الآخرة بالخزي والعذاب، لنعتبر بحالهم، ونبتعد أن نكون على مثالهم، وليشرح لنا العلة في كفرهم بالنبي ﷺ، وسبب تصديهم لإيذائه وعداوة أمته، وليقيم الحجة عليهم بما تراه من ذكر المحاجة، وبيان أنواع كفرهم وضلالهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] بين أنه أخذ الميثاق على اليهود والنصارى، كما أخذه على هذه الأمة، وأنهم نقضوا العهد والميثاق وتركوا ما أمروا به، وأنهم أضاعوا حظاً عظيماً مما أوحاه إليهم، ولم يقيموا ما حفظوا منه.. دعاهم عقب ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبالكتاب الذي جاء به، وهذا البيان من دلائل نبوته ﷺ، وهو من معجزات القرآن الكثيرة المنبثة في تضاعيفه.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[3] أقام الحجة على أهل الكتاب عامة.. بين ما كفرت به النصارى خاصة.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: إنَّ[1] النبي ﷺ أتاه اليهود يسألونه عن الرجم؟ فقال: «أيكم أعلم»؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فناشده بالذي أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطور والمواثيق التي أخذت عليهم حتى أخذه أفكل ـ الرعدة ـ؟ فقال: إنَّه لما كثر فينا جلدنا مئة، وحلقنا الرؤوس، فحكم عليهم، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن قصي وبحر بن عمر وشاس بن عدي، فكلموه وكلمهم، ودعاهم إلى الله، وحذرهم نقمته وعذابه، فقالوا: تخوفنا به يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ...﴾ الآية.

وروي عنه قال: دعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة: يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهوذ: ما قلنا لكم هذا، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد جعل الله سبحانه وتعالى العهد المؤكد باليمين على بني إسرائيل، بواسطة موسى عليه

---

(١) لباب النقول.

السلام، على أن لا يعبدوا إلا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وعلى أن يعملوا بجميع ما في التوراة، وفيها شريعتهم التي أختارها لهم ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾؛ أي: اخترنا منهم على لسان موسى عليه السلام ﴿اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾؛ أي: رئيساً بعدد أسباطهم، من كل سبط نقيب، وأرسلنا هؤلاء النقباء إلى الجبارين ليتجسسوا عن أحوالهم.

روي أنه لما نجا بنو إسرائيل واستقروا بمصر بعد هلاك فرعون.. أمرهم الله سبحانه وتعالى بالسير إلى بيت المقدس، وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، وقال لهم: إني جعلتها لكم وطناً ودار هجرة، فاخرجوا إليها وجاهدوا من كان فيها من الجبابرة، وإني ناصركم، وأمر موسى أن يأخذ من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً بالوفاء بتنفيذ ما أمروا به، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتكفل له به النقباء، وسار بهم، فلما دنا من الأرض المقدسة، بعث النقباء يتجسسون الأخبار، فرأوا أجساماً قوية، وأجراماً كبيراً، وشوكة وقوة، فهابوهم ورجعوا، وحدثوا قومهم بما رأوا، وقد كان موسى نهاهم عن ذلك، فنكثوا الميثاق إلا نقيبين - كالباً ويوشع - وهما اللذان قال الله فيهما: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الآية وسيأتي الكلام في ذلك بعد.

﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى للنقباء على لسان موسى عليه السلام حين ذهبوا للتجسس ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالنصر والعون والحفظ من الجبابرة. وقيل[1] هو خطاب لعامة بني إسرائيل، والقول الأول أولى؛ لأنَّ الضمير يعود إلى أقرب مذكور، فكان عوده إلى النقباء أولى. ومعنى كونه معهم، أنَّه ناصرهم ومعينهم ما داموا محافظين على الميثاق، وهو راءٍ لأفعالهم، سميع لأقوالهم، عليم بضمائرهم، وقادر على مجازاتهم. ثم ابتدأ الكلام فقال مخاطباً لعامة بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام وعزتي وجلالي ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾ وأديتم ﴿الصَّلَاةَ﴾ المفروضة عليكم على وجهها ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾؛ أي: وأعطيتم ما فرض عليكم من الصدقات التي تتزكى بها نفوسكم. ﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ الذين أرسلتهم إليكم بعد موسى، كداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى، ومحمد ﷺ.

---

(١) الخازن.

وتأخير الإيمان عن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ـ مع كونهما من الفروع المرتبة عليه ـ لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم تكذيب بعض الرسل عليهم الصلاة والسلام ا هـ «كرخي». وقرأ الحسن: ﴿برسلي﴾ بسكون السين في جميع القرآن. ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: نصرتموهم بالسيف على الأعداء، معظمين لهم، بأن تدافعوا أعداءهم عنهم. وقرأ عاصم الجحدري: ﴿وعزَرْتموهم﴾. خفيفة الزاي. وقرأ في الفتح: ﴿وتعزروه﴾ بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي ومصدره: العَزْر. ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ أي: قرضاً مخلصاً لوجه الله تعالى، والمراد بهذا الإقراض الصدقات المندوبة، وخصها بالذكر تنبيهاً على شرفها وفضلها؛ أي: وبذلتم من المال زيادة على ما أوجبه الله عليكم بالزكاة، فكنتم بذلك بمثابة من أقرض ماله لغني مليء وفي، لا يضيع عليه بل يجده أمامه عند شدة الحاجة إليه، وهذه الجمل كلها شرطية، فالشرط مركب من خمسة أمور وهي قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وجواب الشرط قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن فعلتم هذه المذكورات كلها.. لأزيلن عنكم بتلك الحسنات تأثير سيئاتكم التي سلفت منكم في نفوسكم، فلا يبقى فيها رجس، ولا خبث يقتضي العقاب، فإنَّ الحسنات يذهبن السيئات كما يغسل الماء الأدران والأوساخ ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: ولأدخلنكم تلك الجنات التي لا يدخلها إلا من كان طاهراً من الشرك، وما يتبعه من المعاصي والآثام التي تفسد الفطرة ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾؛ أي: فمن جحد منكم شيئاً مما أمرتكم به، فتركه، أو عمل شيئاً مما نهيته عنه بعد أخذ الميثاق بالوفاء لي بطاعتي واجتنابه معصيتي ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: الطريق الواضح المستوي المستقيم، الذي يوصل سالكه إلى إصلاح قلبه، وتزكية نفسه، ويجعله أهلاً لجوار ربه في تلك الجنات.

ثم بين أنهم لم يوفوا بهذا العهد فجازاهم على سوء صنيعهم فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾؛ أي: فبسبب نقضهم ورميهم وغدرهم الميثاق الذي أخذ عليهم بتكذيب الرسل، وقتل الأنبياء، وكتمان صفة محمد ﷺ، ومن ذلك الميثاق

الإيمان بمن يرسل إليهم من الرسل ونصرهم وتبجيلهم وتعظيمهم ﴿لَعَنَّهُمْ﴾ وطردناهم وأبعدناهم من رحمتنا. ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾؛ أي: جافية منصرفة عن الانقياد للدلائل، وقيل: يابسة غليظة لا تلين لقبول الحق، وقيل منكرة لا تقبل الوعظ، وكل هذا متقارب، وقسوة القلب غلظه وصلابته.

وقرأ الجمهور من السبعة[1]: ﴿قَٰسِيَةً﴾ اسم فاعل من قسا يقسو، وقرأ عبد الله وحمزة الكسائي: ﴿قَسِيَّة﴾ بغير ألف وبتشديد الياء، وهي فعلية للمبالغة، كشاهد وشهيد، وقيل معنى قسية على هذه القراءة رديئة يابسة. وقرأ الهيصم بن شراخ ﴿قسية﴾ بضم القاف وتشديد الياء كجي، وقرىء بكسر القاف إتباعاً؛ أي:[2] استحقوا مقتاً وغضباً وبعداً من ألطافنا، فإن نقض الميثاق أفسد فطرتهم، ودنس نفوسهم، وقسى قلوبهم، حتى قتلوا الأنبياء بغير حق، وافتروا على مريم وأهانوا ولدها الذي أرسل إليهم لإصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم، وحاولوا قتله، وافتخروا بذلك، فبكل ذلك بعدوا عن رحمة الله تعالى، إذ جرت سنته أن الأعمال السيئة تؤثر في النفوس آثاراً سيئة، فتجعل القلوب قاسية لا تؤثر فيها الحجة والموعظة، ومن ثم تستحق مقت الله وغضبه والبعد من فضله ورحمته، وما مثل هذا إلا مثل من يهمل العناية بنفسه، ولا يراعي القوانين الصحية، فهو لا شك سيصاد بالأمراض والأسقام، ولا يلومن حينئذ إلا نفسه إذ كان هو السبب في ذلك بإهماله رعاية نفسه حالة كونهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾؛ أي: يغيرون كلام الله الذي أنزل في التوراة وحكمه الذي شرع لهم فيها ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ أي: عن حاله التي نزلت عليها؛ أي: يغيرون ما شق عليهم من أحكامها، كآية الرجم، بدلوها لرؤسائهم بالتحميم - وهو تسويد الوجه بالفحم - وغيروا أيضاً نعت محمد ﷺ التي نزلت في التوراة تلبيساً على سفلتهم؛ أي: أزالوا صفته المكتوبة في التوراة، وكتبوا مكانها صفة أخرى، فغيروا المعنى والألفاظ، فتحريف الكلم عن مواضعه يكون إما بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان، وإمَّا بتحريف المعاني، بحمل الألفاظ على غير ما

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

وضعت له، وكل منهما قد وقع في التوراة وغيرها من كتبهم، كما هو معلوم واضح لمن اطلع على التوراة.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام وقرأ أبو عبد الرحمٰن والنخعي: ﴿الكلام﴾ بالألف وقرأ أبو رجاء ﴿الكلم﴾ بكسر الكاف وسكون اللام. وهذه الجملة[1] وما بعدها جاءت بياناً لقسوة قلوبهم، ولا قسوة أشد من الافتراء على الله تعالى، وتغيير وحيه ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: تركوا بعضاً مما أمروا به في كتابهم، وهو الإيمان بمحمد ﷺ، وهذا[2] أيضاً من قسوة قلوبهم، وسوء فعلهم بأنفسهم، حيث ذكروا بشيء فنسوه. وتركوه، وهذا الحظ هو من الميثاق المأخوذ عليهم ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطَّلِعُ﴾ وتقف وتظهر ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: على خيانة من اليهود، فالخائنة مصدر بمعنى الخيانة كالقائلة بمعنى القيلولة، والخاطئة بمعنى الخطيئة، ويدل على ذلك قراءة الأعمش: ﴿على خيانة﴾ أو اسم فاعل، والهاء للمبالغة، كرواية؛ أي: خائن أو صفة لمؤنث؛ أي: قرية خائنة أو فعلة أو نفس خائنة.

أي: إنك يا محمد لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود على خيانة إثر خيانة، فلا تظنن أنك أمنت كيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم، فهم قوم لا وفاء لهم، ولا أمان، فمن نقض عهد الله وميثاقه.. فكيف يرجى منه وفاء؟! وكيف تكون منه أمانة؟! فهذه عادتهم وديدنهم معك، وهم على ما كان أسلافهم من خيانة الرسل، وقتلهم الأنبياء، فهم لا يزالون يخونونك وينكثون عهودك، ويظاهرون عليك أعداءك، ويهمون بالفتك منك وأن يسموك، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ استثناء من الضمير في منهم، وهم الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن أسلموا وصدقوا الله ورسوله، فلا تظنن بهم سوءاً ولا تخف منهم خيانة ولا خديعة، أو هم الذين بقوا على الكفر لكنهم بقوا على العهد ولم يخونوا فيه.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: سامح عما فرطوا في حقك ولا تعاقبهم ﴿وَٱصْفَحْ﴾؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

أي: أعرض عن زلاتهم ولا تلتفت إليها ما داموا باقين على العهد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ﴾ ويثيب ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى الناس بالعفو والصفح عن زلاتهم وهفواتهم. قيل:[1] هذا منسوخ بآية السيف، وقيل: خاص بالمعاهدين؛ أي: فاعف[2] عما فرط من هؤلاء القليل، واصفح عمن أساء منهم، وعاملهم بالإحسان الذي يحبه الله تعالى، فأنت أحق الناس باتباع ما يحبه الله ويرضاه، وهذا رأي أبي مسلم. وقال غيره: فاعف عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرمهم، فإنّي أحب من أحسن العفو والصفح، إلى من أساء إليه إيثاراً للإحسان والفضل على ما يقتضيه العدل.

وقد ثبت أن النبي ﷺ رغب ـ عند ما دخل المدينة ـ في مصالحة اليهود وموادعتهم، فعقد معهم العهد على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا من يحاربه، ولا يمالئوا عليه عدواً له، وأن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وحريتهم، وكان إذ ذاك منهم ثلاث طوائف حول المدينة، وهم بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، فنقضوا العهد، وهموا بقتل النبي ﷺ، فحل له قتالهم، ولكنه رجح السلم على الحرب، واكتفى بطردهم من جواره، وبعث إليهم أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدته بها بعد ذلك.. ضربت عنقه فأقاموا يتجهزون أياماً، ثم ثبط عزيمتهم عبد الله بن أبي، وأرسل إليهم أن لا تخافوا، إن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، وكان رئيسهم المطاع حيي بن أخطب شديد العداوة للنبي ﷺ، وهو الذي زين لهم قتله والغدر له، فركن إلى قول ابن أبيّ، وبعث إلى النبي ﷺ: إنا لن نخرج من المدينة فافعل ما بدا لك.

فعلم النبي ﷺ أنهم يريدون الحرب، فخرج هو والمسلمون للقائهم، يحمل لواءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلما وصلوا إليهم أقاموا على حصونهم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

يرمونهم بالنبل والحجارة، ولما اشتد عليهم الحصار، ورأوا أن لا سبيل لهم إلى المقاومة، رضوا بالخروج سالمين، وعلموا أن وعد ابن أبيّ كان هو الغدر والخيانة بعينها، وقد كان النبي ﷺ قادراً حينئذ على استئصالهم والقضاء عليهم، ولكنه اختار العفو والإحسان، واختار إبعادهم عن المدينة على أن يخرجوا منها، وليس معهم إلا أولادهم وما حملت الإبل إلا السلاح، ورحلوا إلى خيبر، وهذه الآية نزلت بعد هذا كله، لأنها من آخر ما نزل، ولم يعاقب اليهود بعدها على خيانة ولا غدر، ولكنه أوصى بإجلائهم عن جزيرة العرب.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ وعهدهم وكتبنا عليهم في الإنجيل اتباع محمد ﷺ، وبيان صفته، وأن لا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً، كما أخذنا الميثاق على بني إسرائيل اليهود، وإنما قال[1] تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾. ولم يقل من النصارى؛ لأنَّهم الذين ابتدعوا هذا الاسم وسموا به أنفسهم ادعاء لنصر دين الله؛ حيث قالوا لعيسى: نحن أنصار الله، لا أن الله تعالى سماهم به ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: تركوا نصيباً عظيماً مما أمروا به في الإنجيل، وهو الإيمان بمحمد ﷺ، وخص هذا[2] الواحد بالذكر مع أنهم تركوا أكثر ما أمرهم الله تعالى به؛ لأن هذا هو المعظم والمهم ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾؛ أي: ألقينا وأوقعنا ﴿بَيْنَهُمُ﴾؛ أي: بين فرق النصارى، النسطورية، واليعقوبية، والملكانية، كل فرقة منهم تعادي الأخرى، وقيل: الضمير يعود إلى اليهود والنصارى؛ أي: أوقعنا بين اليهود والنصارى، قاله مجاهد وقتادة والسدي، فإنهم أعداء يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم بعضاً. ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾ بالقتل والأسر ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾؛ أي: البغض في القلب ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ لأن نسيان حظ عظيم من كتابهم كان سبباً في تفرقهم في الدين، واتباع أهوائهم، وتبع هذا أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء بمقتضى سننه تعالى في هذه الحياة.

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

أي: من كان همه من الدين ابتغاء رضوان الله تعالى، لا تقرير ما ألفه، ونشأ عليه، وأخذه من أسلافه، مع ترك النظر والاستدلال، أو المعنى من سبق في علمه أنه يتبع وإلا فمن اتبع فلا معنى لهدايته ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ أي: إلى طرق السلامة من العذاب والمخاوف الموصلة إلى دار السلام، وهو دين الإسلام، وهذا منصوب بنزع الخافض، كما قدرناه، لأن يهدي إلى الثاني بإلى أو باللام ﴿وَيُخۡرِجُهُم﴾؛ أي: ويخرج الله سبحانه وتعالى المتبعين رضوانه، فالضمير عائد إلى من، والجمع باعتبار المعنى، كما أن الإفراد في اتبع باعتبار اللفظ ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: من ظلمات فنون الكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي إلى نور الإيمان وقوله: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ أي: بتوفيقه أو بإرادته، متعلق باتبع، ولا يجوز[1] أن يتعلق بيهدي، ولا بيخرج، إذ لا معنى له حينئذ، فدلت الآية على أنه لا يتبع رضوان الله إلا من أراد الله منه ذلك، وقيل ما يتعلق بيخرج؛ أي: يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه؛ أي: بإرادته بالجري على سننه تعالى في تأثير الأعمال الصالحة، والعقائد الصحيحة في النفوس وإصلاحها إياها ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ أي: يثبتهم[2] على ذلك الدين الحق بعد إجابة دعوة الرسول، وهو دين[3] الله وتوحيده، وقيل طريق الجنة، وقيل طريق الحق، والظاهر أنَّ هذه الجمل كلها متقاربة المعنى، وكررت للتأكيد، والفعل فيها مسند إليه تعالى، وإنَّما سمى الدين الحق صراطاً مستقيماً؛ لأنه واحد ومتفق من جميع جهاته. أمَّا الباطل فمتعدد الطرق، وكلها معوجة ملتوية، وفي «الفتوحات»: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هو أقرب الطرق إلى الله تعالى ومؤد إليه لا محالة، وهذه الهداية غير الهداية إلى سبل السلام، وإنَّما عطفت عليها تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾. أبو السعود. انتهت. وقد ذكر سبحانه[4] للكتاب ثلاث فوائد:

---

(١) المراح.
(٢) المراح.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

١ ـ أن المتبع لما يرضي الله بالإيمان بهذا الكتاب يهتدي إلى الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة، من كل ما يبعده عن الشقاء والهلاك، فيقوم في الدنيا بحقوق الله والحقوق الواجبة عليه لنفسه ـ روحية كانت أو جسدية ـ وللناس ويكون في الآخرة منعماً نعيماً روحياً وجسدياً.

وخلاصة ذلك: أنَّه يتبع ديناً يجد فيه ما يوصله إلى السلامة من الشقاء في الدنيا والآخرة، لأنَّه دين الإخلاص والعدل والمساواة.

٢ ـ أنه يخرج معتنقيه من ظلمات الوثنية والأوهام والخرافات التي أفسد بها الرؤساء جميع الأديان إلى نور التوحيد الخالص الذي يجعل صاحبه حراً كريماً بين يدي الخلق، خاضعاً للخالق وحده.

٣ ـ أنه يهدي إلى الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين إذا اعتصم به من اتبعه على الوجه الصحيح الذي أنزل لأجله، كما عمل بذلك أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وقرأ عبيد بن عمير والزهري وسلام وحميد ومسلم بن جندب[(١)]: ﴿به الله﴾، بضم الهاء حيث وقع. وقرأ الحسن وابن شهاب: ﴿سبل﴾ ساكنة الباء.

وعزتي وجلالي: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا غيره، قال ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)]: هؤلاء نصارى نجران، فإنهم قالوا هذه المقالة، وهو مذهب اليعقوبية والملكانية من النصارى؛ لأنَّهم يقولون في المسيح: إنَّه هو الله. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وإنَّما قالوا هذه المقالة الخبيثة لأنهم يقولون بالحلول، وأن الله قد حل في بدن عيسى، فلما كان اعتقادهم ذلك لا جرم.. حكم الله عليهم بالكفر، وقيل: لم يصرح به أحد منهم، ولكن مذهبهم يؤدي إليه، حيث اعتقدوا اتصاف عيسى بصفاته الخاصة؛ أي: بأنَّه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم. ثم ذكر الله تعالى ما يدل على

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

فساد مذهبهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة الشنيعة ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ ويقدر أن يدفع ﴿مِنَ﴾ أمر ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ﴾ الله تعالى ﴿أَن يُهْلِكَ﴾ ويبيد ويعدم ﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾ مريم بنت عمران اللذين اتخذتموهما إلٰهين، وإذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك فلا إلٰه إلا الله، ولا رب غيره ولا معبود بحق سواه، ولو كان المسيح إلٰهاً كما تزعم النصارى.. لكان له من الأمر شيء، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أقل حال، ولم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها. وتخصيصها بالذكر مع دخولها في عموم من في الأرض، لكون الدفع عنها أولى وأحق من غيرها، فهو إذا لم يقدر على الدفع عنها، أعجز عن أن يدفع عن غيرها، وذكر من في الأرض للدلالة على شمول قدرته، وأنَّه إذا أراد شيئاً، كان لا معارض له في أمره، ولا مشارك له في قضائه؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء النصارى: من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه، بل عن سائر الخلق جميعاً إنْ أراد أن يهلكهم ويبديهم ويعدمهم.

والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع مضمن معنى الإنكار؛ أي: لا أحد يملك ذلك، ولو كان المسيح إلٰهاً لقدر على ذلك.

وخلاصة هذا: أن المسيح وأمه من المخلوقات القابلة للفناء والهلاك كسائر أهل الأرض، فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعاً.. لا يستطيع أحد أن يرد إرادته؛ لأنَّه هو مالك الملك الذي يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك كما لا يستطيع أن يدفعه عن غيره.. فكيف يكون هو الله الذي بيده ملكوت كل شيء، فعيسى مماثل لمن في الأرض في الصورة والخلقة والجسمية والتركيب وتغيير الصفات والأحوال، فلا يكون خالقاً. ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وسلطنتهما وتصرفهما ﴿و﴾ ملك ﴿ما بينهما﴾؛ أي: بين السمٰوات والأرض وما فيهما قاطبة، فهو صاحب الملك المطلق، والتصرف في السمٰوات والأرض وما بينهما؛ أي: بين العالمين العلوي والسفلي بالنسبة إليكم، وإنَّما قال: وما بينهما ولم يقل: وما بينهن.. لأنه أراد

ما بين هذين النوعين أو الصنفين من الأشياء، فإنَّهما ملكه، وأهلهما عبيده، وعيسى وأمه من جملة عبيده. ثم دفع شبهة تحوك في صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال: ﴿يَخْلُقُ﴾ ويوجد سبحانه وتعالى ﴿مَا يَشَآءُ﴾ خلقه ويريد على أي هيئة شاء، ومن أيّ أصل شاء، وعلى أي شكل شاء؛ أي: إن تلك الشبهة التي عرضت لكم، وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإلٰه هو أنَّه خلق على غير السنة العامة، وأنه عمل أعمالاً عجيبة لا تصدر من عامة البشر، فالله له ملك السمٰوات والأرض، يخلق الخلق على مقتضى مشيئته، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط كعيسى عليه السلام، وقد يخلق بعضها من ذكر فقط كحواء من آدم، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى كسائر الناس وعامة الحيوان، ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات كخلق عامة المخلوقات، وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر كخلق الطير على يد عيسى عليه السلام معجزة له، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على يده أيضاً، فيجب أن ينسب الكل إليه تعالى لا إلى من أجرى ذلك على يده. وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض، ولا على ألوهية لبعضها، ولا على حلول الإلٰه الخالق فيها، فسنة الله في خلق المسيح ومزاياه، لا تدل على كونه إلٰهاً ورباً؛ لأن هذه المزايا في الخلق كلها بمشيئة الخالق، ولا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقاً ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر فبقدرته يخلق ما يشاء، على أي شكل شاء، ومن أي أصل شاء، ومن غير أصل، ولا يستصعب عليه شيء.

والخلاصة: أن كل من تعلقت به مشيئته تعالى ينفذ بقدرته، وإنَّما يعد بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص، لا بالنسبة إليه تعالى، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون من علم كسبي يجهله غيرهم، أو عن تأييد رباني لا صنع لهم فيه ولا تأثير.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ لعائن الله عليهم: نحن أبناء الله وأحباءه، أثبتت لأنفسها ما أثبتته لعزير، حيث قالوا: عزير ابن الله ﴿وَ﴾ قالت ﴿النصارى نحن أبناء الله

وأحباؤه﴾ أثبتت لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا: المسيح ابن الله. وقيل: هو على حذف مضاف؛ أي: نحن أتباع أبناء الله، وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء الله بمجرد الدعوى الباطلة، والأمانيّ العاطلة. فأمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد إلزاماً وتبكيتاً إذا كان الأمر كما زعمتم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿بِذُنُوبِكُمْ﴾ في الدنيا كما ترون من تخريب الوثنيين لمسجدكم الأكبر، ولبلدكم المرة بعد المرة، ومن إزالة ملككم من الأرض، والأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه، فلستم إذاً أبناء الله ولا أحباوه ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾؛ أي: من جملة ما خلق الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه لا يحابي أحداً ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يغفر له ممن يعلم أنَّه مستحق للمغفرة، وهم الذين آمنوا بالله تعالى وبرسله وتابوا من الكفر واليهودية والنصرانية ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذبه ممن يعلم أنَّه مستحق للعذاب، وهم الذين كفروا بالله وبرسله، وماتوا على اليهودية والنصرانية، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم، فكل هذا لا يجزيكم فتيلاً ولا قطميراً، وإنَّما الذي ينفعكم هو الإيمان الصحيح، وصالح الأعمال، فالجزاء إنَّما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب والأنساب ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات، فله التصرف التام يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: الرجوع بالحشر والمعاد؛ أي: تصيرون إليه عند انتقالكم من دار الدنيا إلى دار الآخرة؛ أي: إنَّه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق في كل شيء بمقتضى علمه، وحكمته وعدله وفضله، وجميع المخلوقات عبيد له، لا أبناء ولا بنات ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

وختمها بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إشارة إلى أنَّه سيعذبهم في الآخرة على هذا الكفر والدعاوى الباطلة، وأنَّهم عندما يصيرون إليه يعلمون أنَّهم عبيد آبقون يجازون، لا أبناء وأحباء يحابون. وقد كان اليهود يعتقدون أنَّهم شعب الله الخاص، ميزهم عن سائر البشر، فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم، وإنْ كان أصح منهم إيماناً وأصلح أعمالاً، ولا ينبغي أن يتبعوا محمداً ﷺ لأنه عربي لا إسرائيلي، والفاضل لا يتبع المفضول، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد

لأبنائه الأعزاء، والنصارى قد زادوا غروراً، فهم قد ادعوا أن المسيح فداهم بنفسه، وأنهم أبناء الله بولادة الروح، والمسيح ابنه الحقيقي، ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب.

وقد جاهد النبي ﷺ غرور اليهود جهاداً عظيماً، ولم يجد ذلك فيهم شيئاً، فرفضوا دعوته، وردوا ما جاءهم به من أن العمل مرضاة لله، وبه تنال تزكية النفس، وإصلاحها كما جاهد صلف خبث النصارى وكبرهم، وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فساداً وظلماً وعدواناً بشهادة المؤرخين، ومع كل هذا يدعون أنَّهم أبناء الله وأحباؤه، وأنَّهم ليسوا في حاجة إلى إصلاح دينهم، ولا دنياهم، كما فعل اليهود مثل ذلك.

والخلاصة: أن هذه الآيات تبين لنا سنة الله في البشر، وأن الجزاء إنما يكون على الأعمال لا على الأسماء والألقاب، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: يا معشر اليهود والنصارى ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ الذي بشرتم به في كتبكم، وأخبركم به أنبياؤكم حالة كونه ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: في زمن انقطاع من الرسل وطول عهد بالوحي، جميع ما تحتاجون إليه من أمور دينكم ودنياكم، من عقائد أفسدتها عليكم نزعات الوثنية، وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم إفراطكم في الأمور المادية والروحية، وعبادات وأحكام تصلح أمور الأفراد والمجتمع. وقد أرسل صلوات الله عليه، وقد فشا التغيير والتحريف في الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها، وطول زمانها، فاختلط فيها الحق بالباطل، والصدق بالكذب، وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات، إذ لهم أن يقولوا: يا إلٰهنا عرفنا أنَّه لا بدّ من عبادتك، ولكن كيف نعبدك؟ فبعث الله محمداً ﷺ في ذلك الحين لإزالة هذا العذر الذي بينه سبحانه بقوله: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾؛ أي: إنَّما أرسلنا إليكم رسولنا في زمن فترة الرسل، وانقطاع الوحي، كراهية أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين، ولا نذير ينذرنا بسوء العاقبة للمفسدين والضالين؛ أي: أرسلناه كراهية أن تقولوا هذا القول معتذرين عن تفريطكم ﴿فـ﴾ ـلا تعتذروا لأنَّه ﴿قد جاءكم بشير ونذير﴾ يبين لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية، وأنها منوطة

بالإيمان والأعمال، وأن الله لا يحابي أحداً ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، ومن دلائل قدرته نصر نبيه ﷺ، وإعلاء كلمته في الدنيا، وفي ذلك رمز لكم - إن كنتم من ذوي الأحلام - إلى ما يكون له من المنزلة في الدار الآخرة.

فائدة: وقد اختلفوا[1] في مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال أبو عثمان النهدي وقتادة في رواية عنه: كانت ست مئة، ورواه البخاري عن سلمان الفارسي وعن قتادة خمس مئة وستون سنة. وقال معمر عن بعض أصحابه: خمس مئة وأربعون سنة. وقال الضحاك: أربع مئة وبضع وثلاثون سنة. وذكر ابن عساكر في ترجمة عيسى عليه السلام عن الشعبي أنه قال: ومن رفع المسيح إلى هجرة النبي ﷺ تسع مئة وثلاث وثلاثون سنة، والمشهور هو القول الأول وهو أنها ست مئة سنة. ومنهم من يقول ست مئة وعشرون سنة، ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ست مئة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية. وبين كل مئة سنة شمسية، وبين القمرية نحو من ثلاث سنين. وكانت هذه الفترة بين عيسى بن مريم وبين محمد ﷺ، كما ثبت في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي». وفي هذا رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي، يقال له خالد بن سنان. كما حكاه القضاعي وغيره.

وفي هامش «ابن كثير»: التحقيق الموافق للحساب الفلكي أن الهجرة النبوية كانت سنة ست مئة واثنين وعشرين لميلاد عيسى. والبعثة كانت قبل الهجرة بعشر سنين، باعتبار التبليغ، فهذا قريب ما اعتمده المؤلف انتهى.

ومدة ما بين موسى وعيسى ألف سنة، لكنها ليست فترة لبعثة كثيرين من الأنبياء بينهما، وكانوا ألف نبي على ما قيل، ويتعبدون بشريعة موسى، كداود وسليمان وزكريا ويحيى، على نبينا وعليهم صلوات الله وسلامه.

---

(١) ابن كثير.

والمقصود من الآية[1]: أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير **الأديان**، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عمم، فإن الفساد كان قد عمّ جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين من بعض أحبار اليهود وعباد النصارى والصابئين.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لقد﴾: اللام موطئة لقسم محذوف. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿وَبَعَثْنَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿بعثنا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها جواب القسم. ﴿مِنْهُمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بعثنا﴾ أو حال من ﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، كما ذكره أبو البقاء. ﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ﴾: عدد مركب معرب الصدر مبني العجز. ﴿ٱثْنَىْ﴾: مفعول به لـ﴿بعثنا﴾: منصوب وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة لأنه ملحق بالمثنى، الذي رفعه بالألف ونصبه وجره بالياء، وحذفت النون لشبه الإضافة، أو لشبه التركيب على ما قيل ﴿عَشَرَ﴾: جزء المفعول في محل النصب مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، لتضمنه معنى حرف العطف، وإنَّما حرك ليعلم أنَّ له أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة فتحة طلباً للخفة لشبه التركيب لثقله ﴿نَقِيبًا﴾ تمييز منصوب.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى

---

(١) ابن كثير.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

﴿وَقَالَ﴾: (الواو): عاطفة، ﴿قال اللَّه﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لقد أخذ الله﴾ على كونها جواب قسم لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾: ﴿إنَّ﴾: حرف نصب، و(الياء): ضمير المتكلم اسمها. ﴿مَعَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر إنَّ تقديره: إنِّي كائن معكم بالحفظ والمعونة، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿لَئِنْ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿أَقَمْتُمُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بإن الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿الصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، في محل الجزم، معطوفة على جملة ﴿أَقَمْتُمُ﴾ على كونها فعل شرط لـ﴿إن﴾. ﴿وَءَامَنتُم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَقَمْتُمُ﴾. ﴿بِرُسُلِي﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿آمنتم﴾. ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَقَمْتُمُ﴾. ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ﴾. ﴿قَرْضًا﴾: مفعول مطلق لـ﴿أقرضتم﴾. ﴿حَسَنًا﴾ صفة لـ﴿قَرْضًا﴾. وقال أبو البقاء[1]: ﴿قَرْضًا﴾: يجوز أن يكون مصدراً محذوفَ الزوائد، والعامل فيه ﴿أقرضتم﴾؛ أي: إقراضاً، ويجوز أن يكون ﴿قَرْضًا﴾ بمعنى مقرضاً، فيكون مفعولاً به انتهى.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ﴾.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾: اللام: زائدة، زيدت لتأكيد لام القسم المذكورة سابقاً. ﴿أكفرن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول قال، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إنْ أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة.. أكفر

(١) العكبري.

عنكم سيئاتكم، وإنَّما جعلنا المذكور جواب القسم، وقلنا: جواب الشرط محذوف.. جرياً على القاعدة المشهورة عندهم: أنَّه إذا اجتمع شرط وقسم وذكر الجواب بعدهما.. كان الجواب للمتقدم منهما، ويقدر مثله للمتأخر منهما، كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمْ

﴿عَنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾. ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾: فعل ومفعول أول معطوف على قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ﴾: وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول ثانٍ لأدخل، أو منصوب على الظرفية المكانية، متعلق بأدخل ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لجنات.

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿فَمَن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم حكم من أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وآمن، وأردتم بيان حكم من كفر بعد ذلك.. فأقول لكم. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما. ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَفَرَ﴾. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: رابطة لجواب من الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بقد. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

﴿فَبِمَا﴾ (الفاء): استئنافية. (الباء): حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: زائدة. ﴿نَقْضِهِم﴾: مجرور بالباء ومضاف إليه، متعلق بـ﴿لَعَنَّـٰهُمْ﴾: وهو مصدر مضاف إلى الفاعل. ﴿مِّيثَـٰقَهُمْ﴾: مفعول المصدر، ومضاف إليه. ﴿لَعَنَّـٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لَعَنَّـٰهُمْ﴾. ﴿قُلُوبَهُمْ﴾: مفعول أول، ومضاف إليه. ﴿قَـٰسِيَةً﴾: مفعول ثانٍ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، والجملة مستأنفة، قال أبو البقاء: ويجوز أن تكون[1] حالاً من المفعول في ﴿لَعَنَّـٰهُمْ﴾ وأن تكون حالاً من الضمير في ﴿قَـٰسِيَةً﴾، ولا يجوز أن يكون حالاً من القلوب، لأنَّ الضمير في ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ لا يرجع إلى القلوب، ويضعف أن يجعل حالاً من الهاء والميم في ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ انتهى.

﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ﴾.

﴿وَنَسُوا۟﴾: (الواو): عاطفة. ﴿نسوا﴾: فعل وفاعل. ﴿حَظًّا﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُحَرِّفُونَ﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حَظًّا﴾. ﴿ذُكِّرُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿وَلَا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَزَالُ﴾: فعل مضارع مرفوع ـ هي فعل من الأفعال الناقصة ـ واسمه ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب. ﴿تَطَّلِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ﴾: جار ومجرور، متعلق به. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿خَآئِنَةٍ﴾، وجملة ﴿تَطَّلِعُ﴾: في محل النصب خبر زال تقديره: ولا تزال يا محمد مطلعاً على خائنة منهم، وجملة زال مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الاستثناء، والمستثنى منه ضمير منهم. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿قَلِيلًا﴾.

(١) العكبري.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿فَٱعْفُ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أخلاقهم الشنيعة، من التحريف والنسيان والخيانة، وأردت بيان ما هو الأصلح لك، وما هو الأنفع لهم.. فأقول لك: اعف. ﴿اعف﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به. ﴿وَٱصْفَحْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿فَٱعْفُ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من الذين﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَخَذْنَا﴾ الآتي على كونه مفعولاً أول. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿أَخَذْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿أَخَذْنَا﴾ والتقدير: وأخذنا من الذين قالوا إنَّا نصارى ميثاقهم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ والتقدير: ولقد أخذ الله الميثاق على اليهود فنقضوه، وأخذه على النصارى فنقضوه. ﴿فَنَسُواْ حَظًّا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حَظًّا﴾. ﴿ذُكِّرُواْ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَأَغْرَيْنَا﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿أغرينا﴾: فعل وفاعل. ﴿بَيْنَهُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق به. ﴿ٱلْعَدَاوَةَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾: معطوف عليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَنَسُوا۟﴾. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أغرينا﴾. ﴿وَسَوْفَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس. ﴿يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول. وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يَصْنَعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، وجملة كان من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يصنعونه.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مستأنفة. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل ومفعول به. ﴿رَسُولُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿يُبَيِّنُ﴾: فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير يعود على ﴿الرسول﴾. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿رَسُولُنَا﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تُخْفُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور متعلق به، أو حال من الضمير المحذوف، أو من ﴿ما﴾، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تخفونه. ﴿وَيَعْفُوا۟﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الرسول. ﴿عَن كَثِيرٍ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿يُبَيِّنُ﴾. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿نُورٌ﴾: فاعل. ﴿وَكِتَٰبٌ﴾:

معطوف عليه. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة لـ﴿كتاب﴾ والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة[1] لبيان أنَّ فائدة مجيء الرسول ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه، بل له منافع لا تحصى. ا هـ. «أبو السعود».

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور، متعلق به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿يَهْدِى﴾. ﴿ٱتَّبَعَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾. ﴿رِضْوَٰنَهُۥ﴾: مفعول ﴿ٱتَّبَعَ﴾ وهو مضاف. والهاء مضاف إليه، وجملة ﴿ٱتَّبَعَ﴾: صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿يَهْدِى﴾ أو بدل من ﴿رِضْوَٰنَهُۥ﴾ وجملة ﴿يَهْدِى﴾: من الفعل والفاعل في محل النصب بدل من جملة ﴿يُبَيِّنُ﴾ على كونها حالاً من ﴿رَسُولُنَا﴾ ويجوز[2] أن تكون حالاً من الضمير في ﴿يُبَيِّنُ﴾، ويجوز أن تكون صفة لـ﴿نُورٌ﴾ أو لـ﴿كتاب﴾ والهاء في ﴿بِهِ﴾ تعود على من سواء جعل ﴿يَهْدِى﴾ حالاً منه، أو صفة له، فلذلك أفرد، ذكره أبو البقاء. ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ وضمير المفعول في ﴿يخرجهم﴾ عائد إلى ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، وجمعه باعتبار المعنى، كما أفرده في ﴿ٱتَّبَعَ﴾ نظراً للفظ. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿يخرج﴾. وكذا قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ متعلق به. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱتَّبَعَ﴾: أو بـ﴿يخرجهم﴾ كما مرت الإشارة إليه في مبحث التفسير. ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة لصراط، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) الفتوحات.

(٢) العكبري.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

﴿لَقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَفَرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مع جوابه مستأنفة. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾ وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿ٱبْنُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله ﴿جَمِيعًا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَمَن﴾[1]: الفاء عاطفة على محذوف تقديره: قل كذبوا فمن يملك من الله شيئاً، أوليس الأمر كذلك. ﴿مَن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَمْلِكُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَمْلِكُ﴾. وقال أبو البقاء: إنَّه حال من شيئاً من حيث إنَّه كان صفة في الأصل للنكرة، تقدم عليها فانتصب حالاً. انتهى. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿مَن﴾ الاستفهامية، وجملة ﴿مَن﴾ الاستفهامية في محل النصب معطوفة على الجملة المحذوفة التي قدرناها سابقاً على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَرَادَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بأن الشرطية على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿أَن يُهْلِكَ﴾: ناصب ومنصوب وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿ٱلْمَسِيحَ﴾: مفعول به. ﴿ٱبْنَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَسِيحَ﴾. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه وجملة

---

(١) الفتوحات.

﴿يُهْلِكَ﴾: مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: إنْ أراد إهلاك المسيح ابن مريم، وجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إنْ أراد أن يهلك المسيح.. فمن يقدر أن يدفعه عنه، وجملة إنْ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَأُمَّهُ﴾: معطوف على ﴿الْمَسِيحَ﴾. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿الْمَسِيحَ﴾. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿المسيح وأمه ومن في الأرض﴾. ويجوز[1] أن يكون حالاً من ﴿من﴾ وحدها ﴿ومن﴾ ههنا عام، سبقه خاص من جنسه هو ﴿المسيح وأمه﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿للّه﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ والجملة الإسمية مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾. ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللّه﴾ والجملة[2] مستأنفة ﴿مَا يَشَاءُ﴾ ما موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَخْلُقُ﴾. ﴿يَشَاءُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللّه﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يشاؤه. ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾ وهو خبر المبتدأ، والجملة الإسمية معطوفة على جملة ﴿يَخْلُقُ﴾ على كونها مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾.

---

(١) العكبري.
(٢) العكبري.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً وقوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ. ﴿أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾: معطوف على ﴿أبناؤه﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول قال. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾: إلى آخر الآية مقول محكي لقل، وإنْ شئت قلت: ﴿فَلِمَ﴾: الفاء رابطة الجواب بالشرط المحذوف جوازاً تقديره: إنْ كنتم كما زعمتم.. فلم يعذبكم بذنوبكم. (اللام): حرف جر. ﴿م﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ما الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُعَذِّبُكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿بِذُنُوبِكُم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يعذب﴾ وجملة ﴿يُعَذِّبُكُم﴾ في محل الجزم على كونها جواباً للشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف مع جوابه في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء. ﴿أَنتُم بَشَرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مِّمَّنْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بَشَرٌ﴾. أي: بل أنتم بشر كائنون من جملة من خلقهم. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿من﴾: الموصولة، والعائد ضمير المفعول المحذوف تقديره: ممن خلقهم ﴿يَغْفِرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَغْفِرُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: لمن يشاء المغفرة له. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَغْفِرُ﴾. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ معطوف على السموات أيضاً. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ أو مستأنفة.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾: منادى مضاف، والجملة مستأنفة ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُمۡ﴾: فعل ومفعول ﴿رَسُولُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿يُبَيِّنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَسُولُنَا﴾. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب حال من ﴿رَسُولُنَا﴾. ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ﴾[1]: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَآءَكُمۡ﴾ على الظرفية؛ أي: جاءكم حين فتور من الرسل، وانقطاع من الوحي، أو متعلق بمحذوف حال من ضمير ﴿يُبَيِّنُ﴾ أو من ضمير ﴿لَكُمۡ﴾، أي يبين لكم ما ذكر حال كونه على فترة من الرسل، أو حال كونكم عليها أحوج ما كنتم إلى البيان. ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ جار ومجرور صفة لفترة؛ أي: كائنة من الرسل، مبتدأة من جهتهم ﴿أَن تَقُولُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر المعلل لقوله ﴿يُبَيِّنُ﴾، والمعنى يبين لكم كراهية قولكم عند تعذيبكم ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ وهو مقول محكي لـ﴿تَقُولُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾: نافية ﴿جَآءَنَا﴾: فعل ومفعول. ﴿مِنۢ﴾: زائدة. ﴿بَشِيرٖ﴾: فاعل. ﴿وَلَا نَذِيرٖ﴾: معطوف على بشير، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿تقولوا﴾. ﴿فَقَدۡ﴾: (الفاء): تعليلية لمعلول محذوف تقديره: فلا يكون لكم عذر يوم القيامة فتعتذروا؛ لأنَّه قد جاءكم بشير ونذير، والجملة المحذوفة مستأنفة. وما في «الشوكاني» هنا من أن الفاء فصيحة غير صواب، لأنَّه لا ينطبق عليها ضابط الفصيحة، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿جَآءَكُم بَشِيرٞ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿وَنَذِيرٞ﴾: معطوف على ﴿بَشِيرٞ﴾ والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة تقديره: فلا يكون لكم اعتذار يوم القيامة؛ لمجيء بشير ونذير لكم في الدنيا. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٞ﴾. ﴿قَدِيرٞ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

(١) الجمل.

﴿ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾: نقيب القوم: من ينقب عن أحوالهم، ويبحث عن شؤونهم، ونقب عليهم نقابة إذا صار عليهم نقيباً؛ أي: يفتش عن أحوالهم وأسرارهم. والنقيب: فعيل بمعنى فاعل، مشتق من التنقيب وهو التفتيش، ومنه: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، وسمي بذلك؛ لأنه يفتش عن أحوال القوم وأسرارهم كما مر آنفاً، وقيل: هو بمعنى مفعول، كأن القوم اختاروه على علم منهم وتفتيش عن أحواله، والظاهر أن النقيب فعيل للمبالغة، كعليم وخبير.

﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾: عزر[1] الرجل، قال يونس بن حبيب: أثنى عليه بخير، وقال أبو عبيدة: عظمه، وقال الفراء: رده عن الظلم، ومنه التعزير؛ لأنه يمنع من معاودة القبيح. وفي «المختار»: التعزير التوقير والتعظيم. وفي «القاموس»: التعزير: ضربٌ دون الحد، وهو أشد الضرب، والتفخيم والتعظيم، وضد الإهانة كالعزر والتقوية والنصر ا هـ.

﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ يجوز أن يكون مصدراً محذوف الزوائد وعامله ﴿أقرضتم﴾؛ أي: إقراضاً، ويجوز أن يكون بمعنى المقرض، فيكون مفعولاً به، والقرض الحسن: ما كان عن طيب نفس ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: وسطه، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: السبيل المستوي ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾؛ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا. ﴿قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾: اسم فاعل من: قسا يقسو قسوة، فياؤه بدل من واو، فأصله قاسوة؛ لأنه من القسوة. ويقرأ: قسية على وزن فعيلة، قلبت الواو ياء، وأدغمت فيها ياء، وفعيلة هنا بمعنى: فاعلة، ومعنى قاسية: يابسة غليظة تنبو عن قبول الحق.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾: والتحريف إمالة الشيء، عن موضعه إلى أي جانب من الجوانب ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ يقال: طلع الشيء إذا برز وظهر، واطلع افتعل منه.

(١) البحر المحيط.

﴿خَآئِنَةٍ﴾ فيها ثلاثة أوجه[1]:

أحدها: أنها اسم فاعل، والهاء للمبالغة كراوية ونسابة؛ أي: على شخص خائن.

والثاني: أن التاء للتأنيث، وأنث على معنى طائفة، أو نفس أو فعلة خائنة.

والثالث: أنها مصدر كالعافية والعاقبة، ويؤيد هذا الوجه قراءة الأعمش ﴿على خيانة﴾، وأصل خائنة خاونة فأعلّ إعلال قائمة ا هـ «سمين».

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ﴾ وفي «المختار»: والنصير الناصر، وجمعه أنصار، كشريف وأشراف، وجمع الناصر نصر كصاحب وصحب. والنصارى: جمع نصران ونصرانة، كالندامى جمع ندمان وندمانة، ولم يستعمل نصران إلا بياء النسب ونصره تنصيراً جعله نصرانياً. وفي الحديث: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه» ا هـ. وفي «المصباح»: ورجل نصارني بفتح النون، وامرأة نصرانية، ويقال: إنه نسبة إلى قرية اسمها نصرى، ولهذا قيل في الواحد نصرى على القياس والنصارى جمعه، مثل مهرى ومهارى، ثم أطلق النصراني على كل من تعبد بهذا الدين. ا هـ.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ من[2] أغراه بكذا؛ أي: ألزمه إياه، وأصله من الغراء بفتح الغين وكسرها، وهو ما يلصق به الورق أو الجلد ولامه واو. والأصل فأغرونا، وإنما قلبت الواو ياء لوقوعها رابعة، ومنه قولهم بيت مغروٌّ؛ أي: معمول بالغراء ويقال: غرى بالشيء، يغرى غراءً وغرى لصق به، وأغرى فلان زيداً بعمرو ولعه به، وأغريت الكلب بالصيد أشليته، وقال النضر: أغرى بينهم: هيّج.

وفي «المصباح»: غرى بالشيء غرىً ـ من باب تعب ـ أولع به من حيث لا يحمله عليه حامل، وأغريته به إغراء فأغري به بالبناء للمفعول، والاسم الغراء بالفتح والمد، والغراء مثل كتاب ما يلصق معمول من الجلود، وقد يعمل من السمك والغرا ـ مثل العصا ـ لغة فيه، وغروت الجلد أغروه من باب عدا؛ ألصقته

---

(١) الجمل.
(٢) الفتوحات.

بالغراء، وقوس مغروةٌ وأغريت بين القوم مثل أفسدت وزناً، ومعنى: وغروت غرواً ـ من باب قتل ـ عجبت ولا غرو؛ أي: لا عجب.

﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ والملك[1] والمِلك: الضبط والحفظ والقدرة من قولهم: ملكت على فلان أمره؛ أي: قدرت عليه؛ أي: فمن يقدر؛ أي: يمنع.

﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾: والفترة أصلها السكون، يقال: فتر الشيء إذا سكن، وقيل: هي الانقطاع. قاله أبو علي الفأرسي وغيره، ومنه فتر الماء إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة، وفتر الرجل عن عمله إذا انقطع عما كان عليه من الجد فيه، وامرأة فاترة الطرف؛ أي: منقطعة عن حدة النظر، والمعنى: أنه انقطع الرسل قبل بعثه ﷺ مدةً من الزمان، والهاء[2] فيه ليست للمرة الواحدة، بل فترة مرادف للفتور.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع:

فمنها: الالتفات في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾. ففيه التفات من الغيبة إلى التكلم، ومقتضى الظاهر أن يقول: وبعث الله، وإنّما التفت اعتناء بشأنه.

ومنها: المجاز المرسل في ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، بإسناد الفعل إلى الآمر مثل قولهم: بنى الأمير المدينة.

ومنها: إطلاق المشترك وإرادة أحد معانيه في قوله: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾؛ لأنَّ المراد به هنا: النصر.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

---

(١) الشوكاني.　　(٢) البحر المحيط.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ شبه الإنفاق في سبيل الله لوجه الله بالقرض على سبيل المجاز؛ لأنَّه إذا أعطى المستحق ماله لوجه الله تعالى، فكأنه أقرضه إياه. والاستعارة في قوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استعار الظلمات للكفر، والنور للإيمان على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى خطاب الفريقين.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا﴾؛ لأن النسيان مجاز عن الترك من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ﴾؛ لأنه كناية عن إيقاع العداوة بينهم، والتعبير بالإغراء أبلغ، كأن العداوة لاصقة بهم كالغراء اللاصق بالجلد.

ومنها: القصر في قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. وذلك أن الخبر إذا عرف بالألف واللام.. أفاد القصر، سواء كان التعريف فيه عهدياً أو جنسياً، فإذا ضم معه ضمير الفصل.. ضاعف تأكيد معنى القصر، فإذا صدرت الجملة بإنّ.. بلغ الكمال في التحقيق.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾، وفي قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ﴾. و﴿يهديهم﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما أقام الحجة على بني إسرائيل، وأثبت لهم رسالة نبيه ﷺ بما أوحاه إليه بشأنهم وشأن كتبهم وأنبائهم، من البشارات، وأخبار الغيب، وتحريف الكتب ونسيان حظ منها، وأيد ذلك بدحض شبهاتهم، وإبطال غرورهم، وهم مع كل هذا لم يزدادوا إلا كفراً وعناداً.. بين هنا تمرد أسلاف اليهود على موسى عليه السلام وعصيانهم إياه، مع تذكيره إياهم نعم الله تعالى وتعداده لما هو العظيم منها، وأن هؤلاء الذين هم بحضرة الرسول هم جارون معكم مجرى أسلافهم مع موسى، ليعلم الرسول ﷺ أن مكابرتهم للحق من أخلاقهم توارثوها من أسلافهم، وتأصلت في طباعهم، فلا بدع إذا هم أعرضوا عن دعوتك، وصدوا عن هديك. وفي هذا من تسلية النبي ﷺ ما لا يخفى إلى ما فيه من زيادة معرفة طبائع الأمم، وسنن الاجتماع البشري.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما فعلوا بعد أخذ

الميثاق؛ أي: واذكر يا محمد لبني إسرائيل المعاصرين لك وسائر من تبلغهم دعوتك قصة حين قال موسى لقومه، بعد أن أنقذهم الله تعالى من ظلم فرعون وقومه، وأخرجهم من ذلك البلد الظالم أهله ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ باللسان والجنان، واشكروه على ذلك بالطاعة له؛ لأن ذلك يوجب مزيدها كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ وتركها يوجب المؤاخذة والعذاب الشديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾. قال الطبري: هذا تعريف من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بتمادي هؤلاء اليهود في الغيّ وبعدهم عن الحق، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدة مخالفتهم لأنبيائهم مع كثرة نعم الله عليهم، وتتابع أياديه وآلائه لديهم، سلى بذلك نبيه محمداً ﷺ عما نزل به من مقاساتهم ومعالجتهم في ذات الله عز وجل. وقرأ ابن محيصن[1]: ﴿يا قوم﴾ بضم الميم، وكذا حيث وقع في القرآن. وروي ذلك عن ابن كثير، وهذا الضم هو على معنى الإضافة، كقراءة من قرأ: ﴿قل رب أحكم بالحق﴾ - بالضم - وهي إحدى اللغات الخمس الجائزة في المنادى المضاف لياء المتكلم، وما ذكره الشوكاني هنا من تقديره بـ: يا أيها القوم اذكروا، غير صواب؛ لأنه يشعر بأنه نكرة مقصودة. وقد بين لهم موسى أصناف هذه النعم التي منحها لهم مولاهم، وحصرها في ثلاثة أشياء:

الأول: وهو أرفعها قدراً وأعلاها ذكراً ما ذكره بقوله: ﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾؛ يعني: أن موسى عليه السلام ذكر قومه بني إسرائيل بأيام الله عندهم، وبما أنعم به عليهم فقال: يا قومي اذكروا إنعام الله تعالى عليكم حين جعل فيكم أنبياء؛ لأنه لم يبعث في أمة من الأمم ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء، فمنهم السبعون الذين اختارهم موسى من قومه، فانطلقوا معه إلى الجبل، ومنهم أولاد يعقوب؛ فإنهم كانوا أنبياء على قول الأكثرين.

والمعروف عند أهل الكتاب[2] أن المراد بالنبوة الإخبار ببعض الأمور

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الغيبية التي تقع في المستقبل بوحي أو إلهام من الله عز وجل، وقد كان جميع أنبيائهم من بعد موسى يحكمون بما في التوراة ويعملون بها، حتى المسيح عليه السلام. وأيضاً فإن الله تعالى أعلم موسى أنَّه يبعث من بعده في بني إسرائيل أنبياء، فكان هذا شرفاً عظيماً لهم، ونعمة ظاهرة عليهم.

والثاني: ما ذكره بقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾؛ أي: واذكروا إنعام الله تعالى عليكم حين جعلكم ملوكاً وأحراراً تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيداً في أيدي القبط. والمراد من الملك هنا: الحرية في تدبير أمورهم وأمور أسرهم بأنفسهم. وفي هذا من تعظيم هذه النعمة ما لا يخفى، ويؤيد هذا: ما رواه أبو سعيد الخدري، مرفوعاً «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب مِلِكاً». وما رواه أبو داود عن زيد بن أسلم: «من كان له بيت وخادم.. فهو ملك ولا شك أن من كان متمتعاً بمثل هذا.. كان متمتعاً بنحو ما يتمتع به الملوك من الراحة والحرية في التصرف في سياسة بيته، والناس يقولون إلى الآن لمن كان مخدوماً مع عشيرته، هانئاً في معيشته، مالكاً لمسكنه: هذا ملك أو ملك زمانه، يريدون أنه يعيش عيشة الملوك. وقال الضحاك: كانت منازلهم واسعة، فيها مياه جارية، ومن كان مسكنه واسعاً وفيه ماء جارٍ.. فهو ملك.

والثالث: ما ذكره بقوله: ﴿وَءَاتَنكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَلَمِينَ﴾؛ أي: ويا قوم اذكروا إنعام الله تعالى عليكم حين أعطاكم ما لم يعطِ أحداً من العالمين، من فلق البحر، وإغراق العدوّ، وإيراث أموالهم، وإنزال المن والسلوى، وإخراج المياه العذبة من الحجر، وتظليل الغمام؛ فإن ذلك لم يوجد في غير بني إسرائيل، أو عالمي زمانهم، وشعوبه التي كانت مستعبدة للطغاة من الملوك، فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام، فقد فلق البحر لهم، وأهلك عدوهم، وأورثهم أموالهم، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وأظل فوقهم الغمام، إلى غير ذلك من النعم التي أنعم الله بها عليهم، وبعد أن ذكرهم موسى بهذه النعم وشرحها لهم، أمرهم بمجاهدة العدوّ، وأبان لهم أن الله ناصرهم ما نصروه فقال: ﴿يَقَوْمِ ٱدْخُلُوا

﴿ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾؛ أي: المطهرة[1] من الوثنية والشرك لما بعث الله فيها من الأنبياء الدعاة إلى التوحيد، وجعلها مسكناً لهم وللمؤمنين، وإنَّما سميت مطهرة؛ لسكنى الأنبياء المطهرين فيها، فشرفت وطهرت بهم، فالظرف طاب بالمظروف، إنْ قلت: إنَّ الجبارين كانوا فيها، وهم غير مطهرين؟ أجيب بأنَّ الخير يغلب الشر، والنور يغلب الظلمة. وروى ابن عساكر عن معاذ بن جبل: إنَّ الأرض المقدسة ما بين العريش إلى الفرات، وبعضهم يسمي القسم الشمالي من هذا القطر باسم سورية، والباقي باسم فلسطين أو بلاد المقدس، أو الأرض المقدسة، أو أرض الميعاد؛ لأنَّ الله تعالى وعد بها ذرية إبراهيم، ويدخل فيما وعد الله به إبراهيم الحجاز وما جاوره من بلاد العرب. وقيل: معنى المقدسة المباركة؛ لكثرة خيراتها ونباتها وأشجارها ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾؛ أي: التي قسمها وقدرها لكم في سابق علمه، وجعلها مسكناً لكم. فإنْ[2] قلت: كيف الجمع بين الكتابة التي تفيد تحتم الدخول وبين قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾؟.

قلت: إنَّ المراد بالكتب الأمر بالدخول، أو بأن معنى قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾؛ أي: قدرها لكم في اللوح المحفوظ إنْ لم تقع منكم مخالفة، وقد وقعت فحرمت عليهم أربعين سنة، فهو قضاء معلق.

وقيل معنى:[3] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾؛ أي: وهبها الله لكم ميراثاً من أبيكم إبراهيم عليه السلام. روي أن إبراهيم عليه السلام لما صعد جبل لبنان قال الله سبحانه وتعالى له: «أنظر فما أدركه بصرك.. فهو مقدس وهو ميراث لذريتك» وكان بنو إسرائيل يسمون أرض الشام أرض الموعد. قال ابن عباس: الأرض هي الطور وما حوله. وقرأ ابن محيصن هنا وفي جميع القرآن: ﴿يا قومُ﴾ مضموم الميم ويروى قراءة عن ابن كثير، ووجهها أنها لغة في المضاف لياء المتكلم كقراءة: ﴿قال رب احكم بالحق﴾. وقرأ ابن السميقع: ﴿يا قومي ادخلوا﴾ بفتح الياء؛ لأنَّه منادى مضاف لياء المتكلم، قال ابن مالك:

---

(١) المراغي. (٢) صاوى. (٣) المراح.

وَٱجْعَلْ مُنَادَىٰ صَحَّ أَنْ يُضَفْ لِيَا كَعَبْدِ عَبْدِيْ عَبْدَ عَبْدَا عَبْدِيَا

فقول موسى عليه السلام[1]: كتب الله لكم، يريد به ما وعد الله به إبراهيم من حق السكنى في تلك البلاد المقدسة، لا أنَّ المراد أنَّها تكون كلها ملكاً لهم، لا يزاحمهم فيها أحد؛ لأن هذا مخالف للواقع، ولن يخلف الله وعده، فاستنباط اليهود من ذلك الوعد أنَّه لا بد أن يعود لهم ذلك الملك ليس بصحيح.

ونص هذا الوعد في سفر التكوين من التوراة: أنَّه لما مرّ إبراهيم بأرض الكنعانيين.. ظهر له الربّ وقال: لنسلك أعطيت هذه الأرض. وجاء فيه أيضاً: في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطيت هذه من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر فرات.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾؛ أي: لا تنكصوا ولا ترجعوا إلى خلفكم وعلى أعقابكم؛ أي: إلى مصر خوف العدوّ، وتتركوا طاعتي وما أوجبته عليكم من قتال الجبارين جبناً وفشلاً ﴿فَتَنقَلِبُوا﴾ وتصيروا بسبب ذلك ﴿خَٰسِرِينَ﴾ لخيري الدنيا والآخرة، لأن الفرار من الزحف من الكبائر، فإنَّهم لما سمعوا أخبار الجبارين قالوا: نجعل لنا رئيساً ينصرف بنا إلى مصر، وصاروا يبكون ويقولون: يا ليتنا متنا بمصر.

والمعنى: أي لا ترجعوا عما جئتكم به من التوحيد والعدل والهدى والرشاد إلى الوثنية، والفساد في الأرض، بالظلم والبغي واتباع الأهواء؛ فإنَّ في هذا الرجوع خسراناً لكم، إذ تخسرون فيه هذه النعم، ومنها الأرض المقدسة التي ستعطونها جزاء شكركم، فتحرمون من خيراتها وبركاتها، وقد جاء في بعض أوصافها: «أنها تفيض لبناً وعسلاً» وتعاقبون بالتيه أربعين سنة، ينقرض فيها المرتدون على أدبارهم.

ثم بعث موسى عليه السلام اثني عشر نقيباً ليتجسسوا لهم عن أحوال تلك الأرض، فلما دخلوا تلك البلاد.. رأوا أجساماً عظيمة هائلة، ثم انصرفوا إلى

---

(١) المراغي.

موسى فأخبروه بالواقعة، فأمرهم أن يكتموا ما شاهدوه، فلم يقبلوا قوله إلا رجلان منهم، وهما يوشع وكالب؛ فإنهما سهلا الأمر وقالا: هي بلاد طيبة كثيرة النعم، وقلوب القوم الذين فيها ضعيفة، وإن كانت أجسامهم عظيمة. وأما العشرة من النقباء.. فقد أوقعوا الجبن في قلوب الناس، حتى أظهروا الامتناع من غزوهم، ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: ليتنا متنا بمصر ولا يدخلنا الله بأرضهم، فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمة لهم ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا﴾؛ أي: قال قوم موسى له: إن في الأرض المقدسة ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾؛ أي: عاتين متغلبين لا طاقة لنا بهم، ولا قوة لنا بقتالهم، وسمي أولئك القوم جبارين لشدة بطشهم، وعظم خلقهم، وكانوا ذوي أجسام عظيمة، وأشكالٍ هائلة، وهم العمالقة بقية قوم عاد. وقيل: من الروم من ولد عيص بن إسحاق.

وقرأ ابن السميقع: ﴿قالوا يا موسى فيها قوم جبارون﴾. ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾؛ أي: لن ندخل أرض الجبارين التي أمرهم الله بدخولها؛ وهي الأرض المقدسة ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾؛ أي: حتى يخرج الجبارون من الأرض المقدسة، من غير صنع منا، فإنَّه لا طاقة لنا بإخراجهم منها، وإنَّما قالوا ذلك.. استبعاداً لخروج الجبارين منها، كقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بسبب ليس منا ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ فيها.

والخلاصة(1): أنَّ موسى لما قرب بقومه حدود الأرض المقدسة العامرة الآهلة.. أمرهم بدخولها مع الاستعداد لقتال من يقاتلهم من أهلها، وأنهم لما غلب عليهم الضعف والذل، واضطهاد المصريين لهم، وظلمهم إياهم.. أبوا وتمردوا واعتذروا بضعفهم، وقوة أهل تلك البلاد، وحاولوا الرجوع إلى مصر، وقالوا لموسى: إنَّا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها، وقولهم: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ تأكيد لما فهم مما قبله، مشعر بأنه لا علة لامتناعهم إلا ما ذكروه، وفي إجابتهم هذه دليل على منتهى الضعف، وخور

(1) المراغي.

العزيمة، وعلى أنَّهم لا يريدون أن يأخذوا شيئاً باستعمال قواهم البدنية ولا العقلية، ولا أن يدفعوا الشر عن أنفسهم، ولا أن يجلبوا لها الخير، بل يريدون أن يعيشوا بالخوارق والآيات ما داموا في هذه الحياة. ولا شك أن أمة كهذه لا تستحق أن تتمتع بنعيم الاستقلال وتحيا حياة العزّ والكرامة وتكون ذات تصرف مطلق في شؤونها ومن ثم لم تقم لها دولة بعد ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالى في مخالفة أمره ونهيه ويراقبونه ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالهداية والثقة بعون الله، والاعتماد على نصرة الله، والأشهر عند المفسرين أن الرجلين يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام، وهو ابن أخت موسى، ونبيء بعد موسى، وكالب بن يوقنا ختن موسى على أخته مريم بنت عمران، وهما اللذان وفيا من النقباء الذين بعثهم موسى في كشف أحوال الجبابرة، فكتما ما اطلعا عليه من حال الجبابرة إلا عن موسى، وأفشى ذلك بقية النقباء في أسباطهم، فآل بهم ذلك إلى الخور والجبن، بحيث امتنعوا عن القتال، فإذا فسرنا الرجلين بيوشع وكالب.. يستفاد من الكلام: أن مع موسى أقواماً يخافون الله فلا يبالون بالعدو لصحة إيمانهم وقوته، وهذان منهم، أو المعنى: من الذين يخافون العدوّ، لكن أنعم الله عليهما بالإيمان والثبات. وقيل[1]: هما رجلان من الجبابرة أنعم الله عليهما بالإيمان فآمنا، واجتمعا مع موسى، فحينئذ فالموصول واقع على الجبابرة، والواو في يخافون على بني إسرائيل، والعائد محذوف، والتقدير: قال رجلان من الجبارين الذين يخافهم بنو إسرائيل، أنعم الله عليهما بالإيمان مع موسى، ويدل على هذا التأويل قراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد: ﴿يخافون﴾ بضم الياء على صيغة المبني للمجهول؛ أي: الذين يخافهم بنو إسرائيل، وتحتمل هذه القراءة أن يكون الرجلان يوشع وكالب. ومعنى يخافون؛ أي: يهابون ويوقرون، ويسمع كلامهم لتقواهم وفضلهم، ويحتمل أن يكون من أخاف؛ أي: يخيفون بأوامر الله ونواهيه، وزجره ووعيده، فيكون ذلك مدحاً لهم كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾. ذكره أبو حيان في

(١) البحر المحيط.

«البحر». ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ﴾؛ أي: على الجبارين ﴿ٱلۡبَابَ﴾؛ أي: باب بلدهم؛ أي: باغتوهم وضاغطوهم في المضيق، وامنعوهم من البروز إلى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالاً.

وفي قراءة عبد الله: ﴿أنعم الله عليهما ويلكم ادخلوا عليهم الباب﴾. وهذا يدل على أن موسى كان قد أنزل محلته قريباً من المدينة ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ﴾؛ أي: باب بلدهم ﴿فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ من غير حاجة إلى القتال، فإنا شاهدنا أن قلوبهم ضعيفة، وإنْ كانت أجسامهم عظيمة؛ وإنَّما جزم هذان الرجلان بالغلبة؛ لأنَّهما كانا جازمين بنبوة موسى، فلما أخبرهم موسى بأن الله تعالى أمرهم بالدخول في تلك الأرض، وكتبها لهم قطعا بأن النصرة لهم، والغلبة حاصلة في جهتهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ في حصول هذا النصر لكم بعد ترتيب الأسباب، ولا تعتمدوا عليها فإنها غير مؤثرة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بصحة نبوة موسى، ومقرين بوجود الإله القادر، مصدقين لوعده.

والمعنى: أي[1] ادخلوا عليهم باب المدينة، فإذا فعلتم ذلك.. نصركم الله، وأيدكم بروح من عنده، بعد أن تعلموا ما في طاقتكم من طاعة ربكم، الذي تثقون به فيما لا يصل إليه كسبكم، إن كنتم مؤمنين بأن وعد الله حق، وأنَّه قادر على الوفاء به؛ وإنَّما جزم الرجلان بأنهم سيغلبون إذا دخلوا.. ثقة بنبوة موسى، وهو قد أخبرهم بأنَّ الله أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتبها لهم، لا جرم قطعا بالنصر والغلبة على العدوّ.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال بنو إسرائيل لموسى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ﴾؛ أي: أرض الجبارين ﴿أَبَدٗا﴾؛ أي: مدة حياتنا ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾؛ أي: ما دام الجبارون مقيمين في أرضهم، وكان هذا القول منهم فشلاً وجبناً، أو عناداً وجرأة على الله وعلى رسوله ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ﴾ يا موسى ﴿وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ هم قالوا هذه المقالة جهلاً بالله عز وجل وبصفاته، وكفراً بما يجب له، أو استهانة بالله ورسوله، وقلة

---

(١) المراغي.

حتى فتحها، وأمر الله يوشع بن نون: أن يأمر بني إسرائيل ـ حين يدخلون بيت المقدس ـ أن يدخلوا بها سجداً، وهم يقولون حطة؛ أي: حط عنا ذنوبنا، فبدلوا ما أمروا به، ودخلوا يزحفون على استاههم وهم يقولون حبة في شعرة، وقد تقدم هذا كله في البقرة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تسلية لموسى عليه السلام عنهم لما ندم على الدعاء عليهم، وبين أنهم أحقاء بذلك لفسقهم؛ أي: لا تحزن يا موسى على هلاكهم وعقوبتهم؛ لأنهم أهل مخالفة وخروج عن الطاعة، فهم فاسقون متمردون مستحقون لهذا التأديب الإلٰهي، وقيل: الخطاب لمحمد ﷺ، والمراد بالفاسقين معاصروه؛ أي: هذه فعال أسلافهم، فلا تحزن أنت بسبب أفعالهم الخبيثة معك، وردهم عليك؛ فإنَّها سجية خبيثة موروثة عندهم.

فائدة: واختلف المفسرون في مقدار الأرض التي تاهوا فيها[١]، فقيل: مقدار ستة فراسخ، وقيل: ستة فراسخ في اثني عشر فرسخاً، وقيل: تسع فراسخ في ثلاثين فرسخاً، وكان القوم ست مئة ألف مقاتل، وكانوا يرحلون ويسيرون يومهم أجمع، فإذا أمسوا.. إذ هم في الموضع الذي رحلوا منه، وكان ذلك التيه عقوبة لبني إسرائيل، ما خلا موسى وهارون ويوشع وكالب؛ فإن الله تعالى سهله عليهم، وأعانهم عليه، كما سهل على إبراهيم النار وجعلها برداً وسلاماً.

فإنْ قلت:[٢] كيف يعقل بقاء هذا الجمع العظيم، في هذا المقدار الصغير من الأرض أربعين سنة، بحيث لم يخرج منه أحد؟.

قلت: هذا من باب خوارق العادات، وخوارق العادات في أزمان الأنبياء غير مستبعدة؛ فإن الله على كل شيء قدير. وقيل: إن فسرنا ذلك التحريم بتحريم التعبد.. زال هذا الإشكال لاحتمال أن الله ما حرم عليهم الخروج من تلك الأرض، بل أمرهم بالمكث فيها أربعين سنة في المشقة والمحنة، جزاءً لهم على سوء صنيعهم، ومخالفتهم أمر الله، ولما حصل بنو إسرائيل في التيه شكوا إلى

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

موسى عليه السلام حالهم، فأنزل الله عليهم المنّ والسلوى، وأعطوا من الكسوة ما هي قائمة لهم، فينشأ الناشىء منهم، فتكون معه على مقداره وهيئته، وسأل موسى ربه أن يسقيهم، فأتى بحجر أبيض من جبل الطور، فكان إذا نزل ضربه بعصاه، فيخرج منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط منهم عين، وأرسل الله عليهم الغمام يظللهم في التيه، ومات في التيه كل من دخله ممن جاوز عشرين سنة، غير يوشع بن نون وكالب بن يوقنا، ولم يدخل أريحاء ممن قال: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾. واختلفوا في أنَّ موسى عليه السلام مات في التيه أم خرج منه. فقيل: إن موسى وهارون ماتا في التيه جميعاً. وإن[1] في هذا العقاب الإلٰهي لعبرة لأولي الألباب، يستفيدون منها، أن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستعباد تذهب أخلاقها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة، وتأنس بالمهانة، وإذا طال عليها الأمد أصبحت تلك الصفات غرائز وطباعاً خلقية لها، كما رأينا ذلك في بعض الشعوب التي أخذها الاستئمار، كشعوب الأروميا في شرقي أفريقيا، وغيرهم ممن أخذهم واستعبدهم الاستئمار، فإذا خرجوا من بيئتهم، ورفع عنهم نير الظلم والاستعباد.. حنوا إلى ما كانوا فيه أولاً، وتاقت نفوسهم إلى الرجوع إليه، وهذا شأن البشر في جميع ما يألفون، ويجرون عليه من خير وشرّ.

وقد أفسد ظلم الفراعنة فطرة بني إسرائيل في مصر، وطبع عليهم بطابع الذلة والمهانة، وقد أراهم الله تعالى ما لم ير أحداً من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته، وصدق رسوله موسى عليه السلام، وبيَّن لهم أنَّه أخرجهم من مصر لينقذهم من العبودية إلى نعيم الحرية، ومع هذا كله كانوا إذا أصابهم نصب أو جوع، أو كلفوا أمراً يشق عليهم، يتطيرون بموسى، ويذكرون مصر ويحنون إلى العودة إليها، وحين غاب عنهم موسى عليه السلام لمناجاة ربه، اتخذوا لهم عجلاً من حليهم وعبدوه، وكان يعلم أن نفوسهم ميتة، لا تطيعهم على دخول أرض الجبارين وأن وعده تعالى لأجدادهم إنَّما يتم إذا هلك ذلك الجيل الذي

(١) المراغي.

نشأ في الوثنية، ونشأ بعده جيل جديد يعيش في حرية البداوة وعدل الشريعة. وعلى هذه السنة العادلة أمر الله بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، بعد أن أراهم عجائب تأييده لرسوله، لكنهم أبوا واستكبروا، فأخذهم بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم قوماً آخرين، جعلهم الأئمة الوارثين بهممهم الموافقة لسنته في الاجتماع.

قصة وفاة موسى وهارون عليهما السلام

فأما هارون[1]: فإنه كان أكبر من موسى بسنة، قال السدي: أوحى الله عز وجل إلى موسى أني متوفي هارون، فأتِ به جبل كذا وكذا، فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل، فإذا بشجرة لم يرَ مثلها. وإذا بيت مبني وفيه سرير عليه فراش، وفيه رائحة طيبة، فلما رأى هارون ذلك البيت أعجبه وقال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير، قال: نمْ، قال: إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ، قال: لا تخف إنِّي أكفيك رب هذا البيت فنم، قال: يا موسى فنم أنت معي، فإن جاء رب هذا البيت غضب علي وعليك جميعاً، فلما ناما أخذ هارون الموتُ، فلما وجد مسه قال: يا موسى خدعتني، فلما قبض هارون، ورفع البيت والسرير إلى السماء ـ وهارون عليه ـ وذهبت الشجرة، فرجع موسى إلى بني إسرائيل وليس هارون معه، فقال بنو إسرائيل: حسد موسى هارون فقتله لحبنا إياه، قال موسى: ويحكم إن هارون كان أخي، أفتروني أقتله؟ فلما أكثروا عليه، قام موسى، فصلى ركعتين، ثم دعا الله عز وجل، فنزل السرير ـ وعليه هارون ـ فنظروا إليه وهو بين السماء والأرض فصدقوه، ثم رفع.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: صعد موسى وهارون عليهما السلام إلى الجبل، فمات هارون وبقي موسى، فقال بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، وآذوه، فأمر الله الملائكة، فحملوه حتى مروا به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة، فصدقت بنو إسرائيل أنه مات، وبرأ الله موسى مما قالوه، ثم

---

(١) الخازن.

إن الملائكة حملوه ودفنوه، ولم يطلع على موضع قبره أحد إلا الرخم، فجعله أصم أبكم.

وأما وفاة موسى عليه السلام، فقال ابن إسحاق: كان صفي الله موسى عليه السلام قد كره الموت وأعظمه، فأراد الله تعالى أن يحبب إليه الموت، فنبأ يوشع بن نون، فكان موسى يغدو ويروح إليه ويقول له: يا نبي الله ما أحدث الله إليك؟ فيقول له يوشع: يا نبي الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك، حتى كنت أنت تبتدىء به، وتذكره لي، ولا يذكر له شيئاً؟ فلما رأى موسى ذلك، كره الحياة وأحب الموت.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرسل ملك الموت إلى موسى، فلما جاءه صكه ففقأ عينه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت؟ فرد الله عليه عينه وقال: ارجع فقل له يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطت يده من شعرة سنة، قال: أي رب ثم مه؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر؟ قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثَم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر». متفق عليه.

وفي رواية لمسلم قال: جاء ملك الموت إلى موسى، فقال: أجب ربك، قال: فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها. ثم ذكر معنى ما تقدم. قال النواوي: قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث، وأنكره تصوره، قالوا: كيف يجوز على موسى فقأ عين ملك الموت؟ وأجاب عنه العلماء بأجوبة:

أحدها: أنه لا يمتنع أن يكون الله قد أذن لموسى في هذه اللطمة، ويكون ذلك امتحاناً للملطوم، والله تعالى يفعل في خلقه ما يشاء، ويمتحنهم بما أراد.

والثاني: أن موسى لم يعلم أنه ملك من عند الله تعالى، وظن أنَّه رجل قصده يريد نفسه، فدافعه عنها، فأدت المدافعة إلى فقأ عينه، لا أنه قصدها بالفقأ، وتؤيده رواية صكّه، وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين، واختاره المازري والقاضي عياض، قالوا: وليس في الحديث تصريح

بأنه قصد فقأ عينه. فإنْ قيل: فقد اعترف موسى حين جاءه ثانياً بأنه ملك الموت؟ فالجواب: أنَّه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت، فاستسلم له بخلاف المرة الأولى. وأما سؤال موسى الإدناء من الأرض المقدسة؟ فلشرفها وفضلها، وفضل من بها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم. وفيه دليل على استحباب الدفن في المواضع الفاضلة، والمواطن المباركة، والقرب من مدافن الصالحين.

قال بعض العلماء: وإنَّما سأل موسى الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس؛ لأنَّه خاف أن يكون قبره مشهوراً عندهم فيفتتن به الناس كما مرّ، والله أعلم.

قال وهب بن منبه: خرج موسى لبعض حاجته، فمرّ برهط من الملائكة يحفرون قبراً لم ير شيئاً أحسن منه، ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة، فقال لهم: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد كريم على ربه، فقال: إن هذا العبد من الله بمنزلة ما رأيت كاليوم قط؟ فقالت الملائكة: يا صفي الله تحب أن يكون لك؟ قال: وددت، قالوا: فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك، فنزل واضطجع وتوجه إلى ربه عز وجل، ثم تنفس أسهل تنفس، فقبض الله روحه، ثم سوت الملائكة عليه التراب.

وقيل: إن ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض روحه، وكان عمر موسى عليه السلام مئة وعشرين سنة، فلما مات موسى عليه السلام.. انقضت الأربعون سنة، وبعث الله يوشع إلى بني إسرائيل، فأخبرهم أن الله قد أمره بقتال الجبارين، فصدقوه وتابعوه، فتوجه ببني إسرائيل إلى أريحاء ـ وهي مدينة الجبارين ـ ومعه تابوت الميثاق، فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر. فلمّا كان في السابع نفخوا في القرون، وضجوا في الشعب ضجة واحدة، فسقط سور المدينة، فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم، وهجموا عليهم يقتلونهم، فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل من الجبابرة بضربونها حتى يقطعونها، وكان القتال والفتح يوم الجمعة، فبقيت منهم بقية، وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت، فقال: اللهم اردد علي الشمس، وقال للشمس: إنك في طاعة الله، وأنَّا في طاعة الله، وسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقف، حتى

ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت، ورد الله عليه الشمس وزيد في النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين، وتتبع ملوك الشام، فاستباح منهم أحداً وثلاثين ملكاً، حتى غلب على جميع أرض الشام، وصارت كلها لبني إسرائيل وفرق عماله نواحيها، وجمع الغنائم، فجاءت النار لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إنَّ فيكم غلولاً فليبايعني من كل قبيلة رجل ففعلوا، فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس ثور من ذهب، مكلل بالياقوت والجوهر، قد غلّه رجل منهم، فجعله في القربان، وجعل الرجل معه، فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان.

وفي الحديث الصحيح ما يدل على صحة هذا، وهو ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا رجل اشترى غنماً، أو خلفات وهو ينتظر أولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنَّك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءت - يعني النار - لتأكلها، فلم تطعمها، فقال: إنَّ فيكم غلولاً، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعها فجاءت النار فأكلتها». زاد في رواية فلم تحل الغنائم لأحد قبلنا، ثم أحل الله لنا الغنائم لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا. أخرجه البخاري ومسلم.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد وقت قول موسى لقومه، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه. ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿يَٰقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿خَٰسِرِينَ﴾ مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يا:

حرف نداء. ﴿قوم﴾: منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه فتحه مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة، منع من ظهورها اشتعال المحل بحركة المناسبة ﴿قوم﴾ مضاف. وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه مبنية على السكون، هذا على قراءة الجمهور بكسر الميم. وقرىء بضم الميم وإعرابه على هذه القراءة ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿قومُ﴾: منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة المقلوبة ضمة تشبيهاً له بالنكرة المقصودة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة ﴿قوم﴾ مضاف، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة المقلوبة ضمة في محل الجر مضاف إليه، مبنية على السكون لشبهها بالحرف شبهاً وضعياً، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. وهذه اللغة أعني ـ لغة الضم ـ هي اللغة السادسة من اللغات الست الجارية في المنادى الصحيح الآخر، المضاف إلى ياء المتكلم، سواء كان لفظ أب أو أم أو غيرهما، كما بينتها بياناً شافياً في رسالتي المسماة بـ«هدية أولي العلم والإنصاف، في إعراب المنادى المضاف» المطبوعة مع «الباكورة» الموضوعة على «الآجرومية» ولم يذكر هذه اللغة ابن مالك في «ألفيته» حيث قال:

وَٱجْعَلْ مُنَادَىٰ صَحَّ أَنْ يُضَفْ لِيَا   كَعَبْدِ عَبْدِيْ عَبْدَ عَبْدَا عَبْدِيَا

﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ٱذْكُرُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أو حال منها ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿فِيكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾: مفعول أول له، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ. ﴿وَجَعَلَكُم﴾: فعل ومفعول أول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿مُّلُوكًا﴾: مفعول ثان لجعل،

وجملة ﴿جَعَلَ﴾: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾ الأول. ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾: فعل ومفعول أول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثانٍ لآتى، وجملة آتى في محل الجرّ معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾ الأول. ﴿لَمْ يُؤْتِ﴾ جازم وفعل، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والمفعول الأول محذوف تقديره ما لم يؤته وهو العائد على ﴿مَّا﴾. ﴿أَحَدًا﴾ مفعول ثانٍ ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَحَدًا﴾، وجملة آتى صلة لما أو صفة لها ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول القول مع كونها جواب النداء. ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ صفة أولى لـ﴿ٱلْأَرْضَ﴾. ﴿ٱلَّتِى﴾: اسم موصول في محل النصب صفة ثانية لـ﴿ٱلْأَرْضَ﴾. ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿كَتَبَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: كتبها الله لكم، ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟﴾ جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾. على كونها جواب النداء ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَرْتَدُّوا۟﴾، أو حال من فاعله تقديره: ولا ترتدوا حال كونكم منقلبين على أدباركم ﴿فَتَنقَلِبُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بحذف النون على كونه معطوفاً على ﴿تَرْتَدُّوا۟﴾، أو منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي ﴿خَٰسِرِينَ﴾ حال من فاعل تنقلبوا.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿دَٰخِلُونَ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿قَوْمًا﴾: اسمها مؤخر. ﴿جَبَّارِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾، وجملة إنَّ في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿وَإِنَّا﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِنَّا﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ونا: اسمها. ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على قوم موسى، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنَّ،

وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى، على كونها مقول القول. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَخْرُجُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد حتى بمعنى إلى. ﴿مِنْهَا﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أَنْ﴾ المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، بمعنى إلى تقديره: إلى خروجهم منها، الجار والمجرور، متعلق بـ﴿نَّدْخُلَهَا﴾. ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت عدم دخولنا إلى خروجهم، وأردت بيان حكم ما إذا خرجوا منها.. فأقول لك. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿يَخْرُجُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ﴿يَخْرُجُواْ﴾. ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إِنَّا﴾: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. و(نا): ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿دَاخِلُونَ﴾: خبر إنَّ مرفوع بالواو، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾: الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ﴿رَجُلَانِ﴾ ﴿يَخَافُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَنْعَمَ﴾ وجملة ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾ في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿رَجُلَانِ﴾، ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ إلى قوله ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْخُلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ٱدْخُلُواْ﴾. ﴿ٱلْبَابَ﴾: مفعول به. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم قولنا: ادخلوا عليهم الباب، وأردتم بيان ما يترتب على الدخول.. فأقول لكم. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمنة معنى الشرط، في محل النصب على الظرفية،

والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿دَخَلْتُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾. ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿إن﴾: حرف نصب. (الكاف): ضمير المخاطبين في محل النصب اسمها ﴿غَٰلِبُونَۚ﴾: خبر إنَّ، وجملة إنَّ جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿توكلوا﴾. ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾: (الفاء): زائدة. ﴿توكلوا﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف معلوم مما قبلها تقديره: إنْ كنتم مؤمنين.. فتوكلوا على الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿قَٰعِدُونَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾: منادى مفرد علم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على قوم موسى، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل النصب مقول القول. ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿نَّدْخُلَهَآ﴾. ﴿مَّا﴾. مصدرية ظرفية. ﴿دَامُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهَاۖ﴾: جار ومجرور خبر دام، وجملة دام صلة ما المصدرية ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه تقديره: مدة دوامهم فيها وهذا الظرف المقدر[1] بدل من ﴿أَبَدًا﴾ بدل بعض من كل لأنَّ الأبد يعم الزمن المستقبل كله، ودوام الجبارين فيها بعضه،

(١) الفتوحات.

وظاهر عبارة الزمخشري يحتمل أن يكون بدل كل من كل، أو عطف بيان، والعطف قد يقع في النكرتين، على خلاف فيه تقدم. ا هـ. «سمين». ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿اذهب﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على موسى ﴿أَنتَ﴾ تأكيد لضمير الفاعل المستتر ﴿وَرَبُّكَ﴾ معطوف على ضمير الفاعل المستتر في ﴿اذهب﴾ والجملة معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ﴾ على كونها مقول ﴿قَالُواْ﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه مرفوع عطفاً على العامل المستتر في ﴿اذهب﴾ وجاز ذلك للتأكيد بالضمير على حد قوله:

وَإِنْ عَـلَـىٰ ضَـمِـيْـرِ رَفْـعٍ مُـتَّـصِـلْ   عَطَفْتَ فَٱفْصِلْ بِٱلضَّمِيْرِ ٱلْمُنْفَصِلْ

الثاني: أنَّه مرفوع بفعل محذوف؛ أي: وليذهب ربك، ويكون من عطف الجمل، وقد تقدم لي نقل هذا القول، والرد عليه، ومخالفته لنص سيبويه عند قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

الثالث: أنَّه مبتدأ والخبر محذوف، والواو واو الحال.

والرابع: أن الواو للعطف، وما بعدها مبتدأ محذوف الخبر أيضاً، ولا محل لهذه الجملة من الإعراب لكونها دعاء والتقدير: وربك يعينك. ا هـ. «سمين».

﴿فَقَٰتِلَآ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿قاتلا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه ﴿هَٰهُنَا﴾ ها: حرف تنبيه. هنا: ظرف مكان في محل النصب على الظرفية، مبني على السكون لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلق بـ﴿قَٰعِدُونَ﴾. ﴿قَٰعِدُونَ﴾ خبر إنَّ، وجملة إن مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة.

﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ﴾ إلى ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَمۡلِكُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة جواب النداء في محل خبر ﴿إِنَّ﴾ إنّ واسمها وخبرها في محل نصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿نَفۡسِي﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَأَخِيۖ﴾ معطوف على ﴿نَفۡسِي﴾. ﴿فَٱفۡرُقۡ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿افرق﴾: فعل دعاء وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مفرعة معطوفة على جملة ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾. ﴿بَيۡنَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿افرق﴾. ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف على ﴿بَيۡنَنَا﴾. ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ صفة للقوم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿فَإِنَّهَا﴾: (الفاء): استئنافية. (إنَّ): حرف نصب. و(الهاء): اسمها. ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾: خبرها. ﴿عَلَيۡهِمۡۛ﴾ متعلق بـ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾، وجملة (إنَّ) في محل النصب مقول (قال). ﴿أَرۡبَعِينَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية وعلامة نصبه الياء. ﴿سَنَةٗۛ﴾ تمييز لـ﴿أَرۡبَعِينَ﴾، والظرف متعلق بـ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾. ﴿يَتِيهُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب حال من الضمير المجرور في ﴿عَلَيۡهِمۡۛ﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾ ظرف لقوله: ﴿يَتِيهُونَ﴾ فيكون التحريم على هذا غير مؤقت بهذه المدة، أو هو ظرف لـ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ فيكون التحريم مقيداً بهذه المدة. والأول: تفسير كثير من السلف. وأمّا الوجه الثاني: فيدل عليه ما روي أنَّ موسى عليه السلام سار بعده بمن بقي منهم، ففتح أريحاء وأقام فيها ما شاء الله، ثم قبض. اهـ

«كرخي». ﴿فَلَا تَأْسَ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَأْسَ﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة ـ وهو الألف ـ والفتحة قبلها دليل عليها، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على موسى والجملة الفعلية معطوفة مفرعة على جملة (إنَّ) في محل النصب على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَأْسَ﴾. ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ الملوك: جمع مَلِك بفتح أوله وكسر ثانيه، والملك صاحب الملك، وصاحب الأمر، وصاحب السلطة على أمة أو قبيلة أو بلاد. ومعنى كونهم ملوكاً: أنَّهم ملكوا أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون. ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ والأدبار جمع دبر بفتح أوله وسكون ثانيه، والدبر خلف الشيء ووراءه، تقول: جعل كلامي دبر أذنيه؛ أي: تغافل عنه ولم يلتفت إليه. والمعنى هنا: لا ترجعوا وراءكم هاربين من الأعداء ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ جمع سلامة لجبار قال[1] الزجاج: الجبار من الآدميين العاتي، وهو البالغ النهاية في الفساد أو الكفر، أو الذي يجبر الناس على ما يريد، وأصله على هذا من الإجبار، وهو الإكراه؛ فإنَّه يجبر غيره على ما يريده، يقال: أجبره إذا أكرهه، وقيل: هو مأخوذ من جبر العظم، فأصل الجبار على هذا: المصلح لأمر نفسه، ثم استعمل في كل من جر إلى نفسه نفعاً بحق أو باطل. قال الفراء: لم أسمع فعالاً من أفعل إلا في حرفين: جبار من أجبر، ودراك من أدرك. وقال أبو حيان: والجبار فعال من الجبر، كأنه لقوته وبطشه يجبر الناس على ما يختار، والجبارة النخلة الطويلة العالية التي لا تنال بيد، واسم الجنس جبار. والمراد هنا: أنهم قوم عظام الأجسام، طوال متعاظمون، قيل: هم قوم من بقية قوم عاد، وقيل: هم من ولد عيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وقيل: هم من الروم، ويقال: إنَّ منهم عوج بن عنق المشهور المفرط، وما ذكره بعض المفسرين هنا والقصاصون في

(١) الشوكاني.

قصة عوج بن عنق من الأكاذيب الباطلة، والخرافات الفاشية، مما ينبغي أن يجرد الكتاب منها، وأن نضرب عنها صفحاً.

﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ من التيه، وهو في اللغة الحيرة، يقال: منه تاه يتيه تيهاً، من باب باع، أو تاه يتوه توهاً من باب قال: إذا تحير في أمره. والأرض[1] التوهاء: التي لا يهتدىٰ فيها وأرض تيه، وقال ابن عطية: التيه لذهاب في الأرض إلى غير مقصود.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ والأسى[2]: الحزن، يقال: أسى من باب جوى بكسر العين، يأسى أسى بفتحها، ولام الكلمة يحتمل أن تكون من واو، وهو الظاهر لقولهم: رجل أسوان بزنة سكران؛ أي: كثير الحزن، ويقال في تثنيته: أسوان، ويحتمل أن تكون من ياء، فقد حكى رجل أسيان؛ أي: كثير الحزن، فتثنيته على هذا أسيان. ا هـ «سمين». وفي «المصباح» أسي أسى من باب تعب إذا حزن، فهو أسي مثل حزين، وأسوت بين القوم أصلحت، وآسيته بنفسي بالمد سويته، ويجوز إبدال الهمزة واواً في لغة اليمن فيقال: وسيته انتهى. وفي «المختار» وأسا على مصيبته من باب عدا؛ أي: حزن، وقد أسى له؛ أي: حزن له انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، وفي قوله: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿مُّلُوكًا﴾؛ لأن المعنى: جعلكم كالملوك في الاستقلال بأمر أنفسكم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ لأنه كناية عن الهرب، وفي

(١) البحر المحيط. (٢) الجمل.

قوله: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ لأنه كناية عدم التقدم للحرب، وفي قوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ لأنه كناية عن الفصل والحكم بينهم.

ومنها: التنبيه والإشارة في قوله: ﴿هَٰهُنَا﴾.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾؛ لأنها جملة اعتراضية لبيان فضل الله على عباده الصالحين.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن المحرم عليهم دخولُ الأرض المقدسة لا ذاتها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لأنه بمعنى قدَّر الله لكم.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾، وفي قوله: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا۟﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾؛ لأنه مؤكِّد لقوله: ﴿أَبَدًا﴾؛ لأنه على تقدير الظرف؛ لأن المعنى: لن ندخُلَها أبداً مدَّة دوامهم فيها.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ
ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠
بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ
فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ
مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ
يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ (٣١) مِنْ
أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ
رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ
يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(٣٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ
مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا
هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]، هي: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تمرد بني إسرائيل وعصيانهم أمر الله تعالى في النهوض لقتال الجبارين.. ذكر قصة ابني آدم وعصيان قابيل أمر الله، وأنهم اقتفوا في العصيان أول عاصٍ لله تعالى، وأنهم

(١) البحر المحيط.

انتهوا في خور الطبيعة وهلع النفوس والجبن والفزع إلى غاية بحيث قالوا لنبيهم الذي ظهرت على يديه خوارق عظيمة، وقد أخبرهم أن الله كتب لهم الأرض المقدسة: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ وانتهى قابيل إلى طرف نقيض منهم من الجسارة، والعتو، وقوة النفس، وعدم المبالاة، بأن أقدم على أعظم الأمور وأكبر المعاصي بعد الشرك وهو قتل النفس التي حرم الله قتلها؛ بحيث كان أول من سن القتل، وكان عليه وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة، فاشتبهت القصتان من حيث الجبن عن القتل والإقدام عليه، ومن حيث المعصية بهما.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[١] حسد اليهود للنبي ﷺ، وإعراضهم عن دعوته مع وضوح البراهين الدالة على صدقه، وكثرة الآيات المثبتة لنبوته، حتى هم قوم منهم أنْ يبسطوا أيديهم لقتله، وقتل كبار أصحابه؛ كما ذكر ذلك في قوله: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.. ذكر هنا قصة ابني آدم بياناً لكون الحسد ـ الذي صرف اليهود عن الإيمان بالنبي ﷺ وحملهم على عداوته ـ عريقاً في الآدميين وأثراً من أثار سلفهم، كان لهؤلاء منه الحظ الأوفر. فلا تعجب من حالهم بعد هذا؛ فإن لهم أشباهاً ونظائر في البشر كابني آدم، وقد حدث بينهم من أجل التحاسد سفك الدماء، وقتل الأخ أخاه، وبذر تلك البذور السيئة في بني آدم إلى قيام الساعة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة[٢]؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية قبلها تغليظ الإثم في قتل النفس بغير نفس ولافسادٍ في الأرض.. أتبعه ببيان الفساد في الأرض الذي يوجب القتل؛ فإن بعض ما يكون فساداً في الأرض لا يوجب القتل، ولا خلاف بين أهل العلم أنَّ حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

أهل الإسلام.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا بين فظاعة جرم القتل، وشدد في تبعة القاتل، فذكر أن من قتل نفساً بغير حق فكأنَّما قتل الناس جميعاً.. ذكر هنا العقاب الذي يؤخذ به المفسدون في الأرض؛ حتى لا يتجرأ غيرهم على مثل فعلهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف أن اليهود قد هموا ببسط أيديهم إلى الرسول حسداً منهم له، وغروراً بدينهم، واعتقاداً منهم أنَّهم أبناء الله وأحباؤه.. أمر المؤمنين بأنْ يتقوه، ويبتغوا إليه الوسيلة بالعمل الصالح، ولا يفتتنوا بدينهم كما فعل أهل الكتاب، ثم أكد ذلك فبين أنَّ الفوز والفلاح لا يكون إلا بهما، فمن لم ينلهما لاقى من الأهوال يوم القيامة ما لا يستطاع وصفه.

وقال أبو حيان:[2] مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما ذكر جزاء من حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً من العقوبات الأربع، والعذاب العظيم المعد لهم في الآخرة.. أمر المؤمنين بتقوى الله وابتغاء القربات إليه؛ فإن ذلك هو المنجي من المحاربة والعذاب المعد للمحاربين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أرشد المؤمنين إلى معاقد الخير ومفاتح السعادة، وذكر فوزهم في الآخرة وما آلوا إليه من الفلاح.. شرح حال الكفار، وعاقبة كفرهم، وما أعد لهم من العذاب.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا...﴾ الآيتين، وقد ذهب أكثر الأئمة[1] إلى أنَّ الآيتين نزلتا في عكل وعرينة؛ فقد روى أحمد والبخاري ومسلم وأصحابُ السنن عن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ ناساً من عكل وعرينة قدموا على النبي ﷺ، وتكلموا بالإسلام، فاستوخموا المدينة ـ وجدوها رديئة المناخ ـ فأمر لهم النبي ﷺ بذود ـ بضع من الإبل ـ وراعٍ، وأمرهم أنْ يخرجوا فيشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبيّ ﷺ، واستاقوا الذود، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم ـ كحلوها بمسامير الحديد المحماة ـ وقطعوا أيديهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم، زاد البخاري: أن قتادة الذي روى الحديث عن أنس قال: بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك (كان يحث على الصدقة، وينهى عن المثلة). وروى أبو داودَ والنسائي عن أبي الزناد أنَّ رسول الله ﷺ لما قطع الذين سرقوا لقاحه، وسمل أعينهم بالنار، عاتبه الله تعالى في ذلك فأنزل: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واقرأ يا محمد على هؤلاء الحسدة من اليهود وأشباههم ﴿نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ عليه السلام؛ أي: خبر ولدي آدم من صلبه على الراجح عند المفسرين قابيل وهو أكبرهما وهابيل وهو أصغرهما تلاوةً متلبسة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق، مظهرة وكاشفة له، ومبينة لغرائز البشر وطبائعهم، وهي أنَّهم جبلوا على التباين والاختلاف الذي يفضي إلى التحاسد، والبغي، والقتل، ليعلموا الحكمة فيما شرعه الله في عقاب البغاة من الأفراد والجماعات، ويفقهوا أن بغي اليهود على الرسول والمؤمنين ليس من دينهم في شيء، وإنَّما ذاك للحسد

(١) المراغي.

والبغضاء، فما مثلهم إلا مثل ابني آدم؛ إذ حسد شرهما خيرهما، فبغى عليه فقتله، وكان مآله ما بينه الله سبحانه وتعالى في الآيات بعد. وهذه القصة دالة على أن كل ذي نعمة محسود، فلمَّا كانت نعم الله على سيدنا محمد ﷺ أعظم النعم، كان أهل الكتاب استخرجوا أنواع المكر في حقه ﷺ حسداً منهم، فكان ذكر هذه القصة تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾؛ أي: واتل عليهم قصتهما ليعتبروا بها حين قرب وقدم كل منهما إلى الله سبحانه وتعالى ﴿قُرْبَانًا﴾ وصدقة؛ بأمر أبيهما - وهو اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو صدقة. . ﴿فَتُقُبِّلَ﴾ القربان ﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو هابيل أصغرهما؛ أي: تقبل الله منه قربانه لتقواه، وإخلاصه، وطيب نفسه به ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ﴾ القربان ﴿مِنَ الْآخَرِ﴾ وهو قابيل أكبرهما أي لم يتقبل الله منه قربانه لعدم التقوى والإخلاص. ولم يبين الله سبحانه لنا كيف علما أنَّه تقبل من أحدهما دون الآخر، وربَّما كان ذلك بوحي من الله تعالى لأبيهما آدم عليه السلام. روي[1] عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما: أنَّ أحدهما كان صاحب حرث وزرع فقرب شر ما عنده وأرداه، غير طيبة به نفسه، وكان الآخر صاحب غنم وقرب أكرم غنمه، وأسمنها وأحسنها، طيبة به نفسه، كما روي عن بعضهم أن القربان المقبول كانت تجيء النار من السماء لتأكله، ولا تأكل غير المقبول، وكل هذا من الأخبار الإسرائيلية التي ليس لها مستند يوثق.

والقرابين عند اليهود أنواع: منها المحرقات للتكفير عن الخطايا بذبح ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب، ومنها التقدمات من الدقيق والزيت والألبان، ومنها ذبائح السلامة لشكر الرب تعالى، والقربان عند النصارى: ما يقدسه الكاهن من الخبز والخمر، فيتحول في اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه حقيقة، والقربان عند المسلمين: اسم لذبائح النسك كالأضاحي وغيرها.

فأضمر الذي لم يتقبل منه القربان - وهو قابيل - لأخيه هابيل الحسد إلى أن

---

(١) المراغي.

أتى آدم مكة لزيارة البيت وغاب، فأتى قابيل لهابيل وهو في غنمه وقال؛ أي: قابيل لهابيل: والله لأقتلنك يا هابيل؛ أي: إن الذي لم يتقبل منه توعد أخاه وحلف ليقتلنه، فقال هابيل: ولم تقتلني؟ قال قابيل: لأن الله تقبل قربانك ورد قرباني، وتريد أن تنكح أختي الجميلة وأنكح أختك الدميمة، فيتحدث الناس بأنك خير مني ويفتخر ولدك على ولدي. وقرأ زيد بن علي: ﴿لأقتلنْك﴾ بالنون الخفيفة. فأجابه الآخر الذي هو هابيل أحسن جواب ﴿فقال﴾: وما ذنبي الذي حملك على قتلي؟ فإن عدم قبول قربانك لعدم إخلاصك وتقواك لأنَّه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى القرابين، وسائر الأعمال الصالحة ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي ممن يتصف بتقوى الله، والخوف من عقابه باجتنابه الشرك، وسائر المعاصي كالرياء، والشح، واتباع الأهواء.

وخلاصة جوابه: إني لم أذنب إليك ذنباً تقتلني به، فإن كان الله لم يتقبل قربانك.. فحاسب نفسك لتعرف سبب ذلك؛ فإن الله إنما يتقبل من المتقين فاحمل نفسك على تقوى الله، والإخلاص له في العمل، ثم تقرب إليه بالطيبات يتقبل منك. قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. وفي الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب». وفي هذا من العبرة ما كان ينبغي أن يتعظ به المراؤون الذين يبتغون بما يتصدقون به الصيت - الذكر الحسن - واجتلاب الثناء من الناس، وحسن الأحدوثة.

ثم بين الله سبحانه وتعالى ما يجب للناس من احترام الدماء، وحفظ الأنفس، ولا سيما بين الأخوة فقال إخباراً عن هابيل: والله ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ ومددت ﴿إلي يدك لـ﴾ ـكي ﴿تقتلني﴾ وتباشر قتلي حسبما أوعدتني ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾ وماد ﴿يَدِىَ إِلَيْكَ﴾ يا قابيل ﴿لـ﴾ ـكي ﴿أقتلك﴾ وأباشر قتلك؛ أي: إن مددت يدك لتقتلني، فما أنا بالمجازي لك على السيئة بسيئة مثلها، فذاك لا يتفق مع شمائلي، وصفاتي، وأخلاقي؛ إذ لست ممن يتصف بهذه الصفة المنكرة التي تنافي تقوى الله تعالى والخوف من عذابه. ثم بين علة امتناعه عن قتله فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى وأخشى ﴿رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ومالك المخلوقات أن

يعاقبني إن بسطت يدي إليك لأقتلك؛ أي: إنّي أخاف الله، وأخشى أن يراني باسطاً يدي إلى الإجرام وسفك الدماء بغير حق، وهو رب العالمين الذي يغذيهم بنعمه، ويربيهم بفضله، وإحسانه، فالاعتداء على أرواحهم أكبر مفسدة لهذه التربية، ولا شك أن هذا الجواب يتضمن أبلغ الموعظة والاستعطاف لأخيه العازم على الجناية، وليس في الكلام ما يدل على عدم الدفاع ألبتة؛ ولكن فيه التصريح بعدم الإقدام على القتل، وقد روى الشيخان وأحمد وغيرهم قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فقتل أحدهما صاحبه.. فالقاتل والمقتول في النار» قيل: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

ثم قفى على عظته البالغة، ونصائحه النافعة، بالتذكير بعذاب الآخرة من قبل أنَّ الوعظ لا يؤثر في كل نفس فقال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾ وأقصد بالابتعاد من مقابلة الجريمة بمثلها. وقرىء: ﴿أني أريد﴾ كما هو صح - بفتح الهمزة - بمعنى كيف أريد. ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ وترجع يا قابيل ﴿بِإِثْمِى﴾؛ أي: بإثم قتلك إياي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذي كان منك قبل قتلي؛ أي: وإثمك الخاص بك، الذي كان من آثاره عدم قبول قربانك. وروي هذا عن ابن عباس. وقيل:[1] إن المراد أنَّ القاتل يحمل في الآخرة إثم من قتله، إنْ كان له آثام؛ لأن الذنوب والآثام التي فيها حقوق العباد لا يغفر الله منها شيئاً حتى يأخذ لكل ذي حق حقه، فيعطي المظلوم من حسنات الظالم ما يساوي حقه إنْ كانت له حسنات توازي ذلك، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازي ذلك إنْ كان له آثام وأوزار، وما نقص من هذا أو ذاك، يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنة أو النار.

﴿فَتَكُونَ﴾؛ أي: فتصير سبب ما حملت من الإثمين ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾ وأهلها في الآخرة جزاء ظلمك ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: عذاب النار ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: عقاب من تعدى، وعصى أمر الله بقتل أخيه، وبسائر المعاصي. وقيل:

---

(١) المراغي.

المعنى وكينونتك[1] من أصحاب النار جزاؤك؛ لأنّك من جنس الظالمين؛ لأنَّك ظالم في قتلي.

وقد سلك في عظته وجوهاً تأخذ بمجامع اللب، ويرعوي لها فؤاد المنصف، فقد تبرأ من كونه سبباً في حرمانه من تقبل القربان؛ لأن سبب التقبل عند الله هو التقوىٰ، ثم انتقل إلى تذكيره بما يجب من خوف الله، ثم إلى تذكيره بأن المعتدي يحمل إثم نفسه، وإثم من اعتدى عليه، ثم إلى تذكيره بعذاب النار لأنَّها مثوى الظالمين؛ ثم أبان[2] سبحانه وتعالى أنَّ المواعظ لم تجد فيه فتيلاً ولا قطميراً، فماذا تغني الزواجر والعظات في نفس الحاسد الظالم؟ فقال: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ وزينت ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لقابيل ﴿نَفْسُهُۥ﴾ الأمارة بالسوء، وسهلت عليه ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾ هابيل ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾؛ أي: أنَّه كان يهاب قتل أخيه، وتجبن فطرته دونه، وما زالت نفسه الأمارة تشجعه عليه حتى تجرأ وقتله عقب التطويع بلا تفكر ولا تدبر في العاقبة، والمشاهد بالاختبار من أحوال الناس أن من تحدثه نفسه بالقتل يجد من نفسه صارفاً، أو عدة صوارف تنهاه عن القتل، حتى تطوع له نفسه القتل بترجيح الفعل على الترك فحينئذ يقتل إنْ قدر.

قال ابن جريج[3]: لما قصد قابيل قتل هابيل لم يدرِ كيف يقتله، فتمثل له إبليس وقد أخذ طيراً، فوضع رأسه على حجر، ثم رضخه بحجر آخر، وقابيل ينظر إليه، فعلم منه القتل، فوضع قابيل رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم صابر، وقيل: بل اغتاله وهو نائم فقتله. واختلف في موضع قتله، فقال ابن عباس.. على جبل نور وقيل: على عقبة حراء، وقيل: بالبصرة عند مسجدها الأعظم، وكان عمر هابيل يوم قتل عشرين سنة، ولكن هذا الكلام كله من الإسرائيليات التي لا مستند لها يوثق به. وقد تكلم[4] المفسرون في أشياء من كيفية قتله، وعمره حين قتل، ولهم في ذلك اختلاف، ولم تتعرض الآية لشيء

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) البحر المحيط.

من ذلك. وقرأ الحسن وزيد بن علي والجراح والحسن بن عمران وأبو واقد: ﴿فطاوعته﴾ على أن فاعل بمعنى فعل، ﴿فَأَصْبَحَ﴾؛ أي: صار قابيل بقتل أخيه هابيل ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا؛ لأنه أسخط والديه، وبقي مذموماً إلى يوم القيامة؛ ولأن له عقاباً عظيماً في الآخرة؛ أي: كان من الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة، فهو في الدنيا قد قتل أبر الناس به، وهو الأخ التقي الصالح، وخسر في الآخرة؛ لأنَّه لم يصر أهلاً لنعيمها الذي أعد للمتقين.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنَّه أول من سن القتل». متفق عليه.

قال أصحاب الأخبار[1]: لما قتل قابيل هابيل تركه بالعراء ـ الفضاء الذي لا يستتر فيه شيء ـ ولم يدر ما يصنع به؛ لأنَّه أول ميت من بني آدم على وجه الأرض، فقصدته السباع لتأكله، فحمله قابيل على ظهره في جراب أربعين يوماً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سنة حتى أروح وأنتن، فأراد الله أن يري قابيل سنته في موتى بني آدم في الدفن، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه حفيرة، ثم ألقاه فيها، وواراه بالتراب، وقابيل ينظر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وهيج وأظهر له ﴿غُرَابًا يَبْحَثُ﴾ ويحفر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حفيرة بمنقاره ورجليه بعد قتل صاحبه، ثم ألقاه فيها، وأثار التراب عليه، فتعلم قابيل ذلك من الغراب، واللام في قوله: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ إمَّا[2] متعلقة بـ﴿بعث﴾ حتماً والضمير المستكن فيه عائد إلى الله تعالى؛ أي: بعث الله سبحانه وتعالى الغراب ليري الله سبحانه القاتل قابيل ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى﴾ ويستر ذلك القاتل ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾؛ أي: جيفة أخيه المقتول، أو متعلقة بـ﴿يبحث﴾، أو بـ﴿بعث﴾، والضمير راجع للغراب؛ أي: غراباً يبحث في الأرض ليري ذلك الغراب القاتل كيف يواري سوأة أخيه، و﴿كيف﴾ حال من ضمير يواري العائد

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

إلى قابيل، كالضميرين البارزين، وهو معمول ليواري، وجملة الاستفهام معلقة للرؤية البصرية، أو العرفانية المتعدية لمفعول واحد قبل تعديتها بهمزة النقل وبعده لاثنين، وحينئذ فـ﴿كيف﴾ في محل المفعول الثاني سادة مسده، والمراد بالسوأة الجسد لقبحه بعد موته.

وفي الآية إيماء إلى أنَّ الإنسان قد يستفيد من تجارب ما سواه، ولمَّا كان[1] الإنسان في أعماله موكولاً إلى كسبه واختياره، وكان هذا القتل أول قتل وقع من بني آدم، لم يعرف القاتل كيف يواري جثة أخيه المقتول الذي يسؤوه أن يراها بارزة للعيان، وفي ذلك دلالة على أن الإنسان في نشأته الأولى كان ساذجاً قليل المعرفة، لكن لما فيه من الاستعداد والعقل، كان يستفيد من كل شيء علماً، واختباراً، وتنمية لمعارفه وعلومه، وقد أعلمنا الله سبحانه وتعالى أنَّ القاتل تعلم دفن أخيه من الغراب، فإنَّه تعالى بعث غراباً إلى ذلك المكان الذي هو فيه، فبحث في الأرض؛ أي: حفر برجليه فيها يفتش عن شيء كالطعام ونحوه، فأحدث حفرة في الأرض، فلما رآها القاتل - وقد كان متحيراً في موارة أخيه - زالت الحيرة عنه، واهتدى إلى دفنه في حفرة مثلها.

وقوله: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾؛ أي: أنَّه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن، وحين رأى القاتل الغراب يبحث في الأرض تعلم منه سنة الدفن، وظهر له جهله، وضعفه، كما أشار إلى ذلك سبحانه حاكياً عنه: ﴿قَالَ﴾: قابيل ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾؛ أي: يا هلكتىٰ أحضري إلي لأتعجب منك، فهذا أوانك - وهي كلمة جزع[2] وتحسر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم - والويل والويلة الهلكة والاستفهام في قوله: ﴿أَعَجَزۡتُ﴾ استفهام[3] تعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب؛ أي: يا ويلتىٰ هل ضعفت ﴿أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ الذي وارى الغراب الآخر ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾ وأستر ﴿سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾؛ أي: جيفته وعورته عن الأعين

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.
(٣) أبو السعود.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ قابيل ﴿مِنَ ٱلنَّدِمِينَ﴾ على حمله لهابيل على ظهره سنة؛ لأنَّه لم يعلم الدفن إلاّ من الغراب، وعلى قتله؛ لأنَّه لم ينتفع بقتله، ولأنه سخط عليه بسببه أبواه وإخوته، فكان ندمه لأجل هذه الأسباب، لا لكونه معصية، وعلى استخفافه بهابيل بعد قتله لتركه في العراء؛ أي: الفضاء، فلما رأى أنَّ الغراب دفن غراباً ميتاً.. ندم على قساوة قلبه، وقال: هذا أخي لحمه مختلط بلحمي، ودمه مختلط بدمي، فإذا ظهرت الشفقة من الغراب على غراب، ولم تظهر مني على أخي.. كنت دون الغراب في الرحمة والأخلاق الحميدة، فكان ندمه لهذه الأسباب، لا لأجل الخوف من الله تعالى، فلا ينفعه ذلك الندم. وقيل: قبل[1] هذه الجملة جملة محذوفة تقديرها: فوارى سوأة أخيه، ذكره أبو حيان.

والمعنى: قال القاتل[2]: وافضيحتي أقبلي فقد آن الأوان لمجيئك، فهل بلغ من عجزي أن كنت دون الغراب علماً وتصرفاً، والندم الذي أظهره من الأمور التي تعرض لكل من يفعل شيئاً، ثم يتبين له خطأ فعله، وسوء عاقبته، والندم الذي يكون توبةً هو ما يصدر من الشخص خوفاً من الله تعالى، وحسرة على تعدي حدوده، وهو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «الندم توبة». رواه أحمد والبخاري والحاكم والبيهقي.

فصل في ذكر قصة القربان وسببه وقصة قتل قابيل هابيل

ذكر أهل العلم بالأخبار والسير: أن حواء كانت تلد لآدم في كل بطن غلاماً وجارية، فكان جميع ما ولدته أربعين ولداً في عشرين بطناً، أولهم قابيل وتوأمته إقليما، وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث، ثم بارك الله تعالى في نسل آدم. قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً. واختلفوا في مولد قابيل وهابيل، فقال بعضهم: غشى أدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمئة سنة، فولدت له قابيل وتوأمته إقليما في بطن، ثم هابيل وتوأمته لبودا في بطن. وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: أن آدم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

كان يغشى حواء في الجنة قبل أنْ يصيب الخطيئة، فحملت بقابيل وأخته، فلم تجد عليهما وحماً، ولا وصباً، ولا طلقاً، ولم تر دماً وقت الولادة، فلما هبطا إلى الأرض تغشاها، فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما الوحم، والوصب، والطلق، والدم، وكان إذا كبر أولاده.. زوج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى، وكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء غير توأمته التي ولدت معه؛ لأنَّه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم، فكبر قابيل وأخوه هابيل، وكان بينهما سنتان، فلمَّا بلغوا أمر الله آدم أن يزوج قابيل لبودا أخت هابيل، ويزوج هابيل إقليما أخت قابيل، وكانت إقليما أحسن وأجمل من لبودا، فذكر آدم ذلك لهما فرضي هابيل وسخط قابيل، وقال: هي أختي وأنا أحق بها، ونحن من أولاد الجنة، وهما من أولاد الأرض. فقال أبوه آدم: إنَّها لا تحل لك، فأبى أن يقبل ذلك، وقال: إن الله لم يأمرك بهذا، وإنما هو من رأيك، فقال لهما آدم: قربا لله قرباناً، فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها - وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها، وإنْ لم تكن مقبولة لم تنزل النار بل تأكلها الطير والسباع - فخرجا من عند آدم ليقربا بالقربان، وكان قابيل صاحب زرع، فقرب صبرة من طعام رديء، وأضمر في نفسه لا أبالي أتقبل مني أم لا، لا ليتزوج أختي أحد غيري، وكان هابيل صاحب غنم، فعمد إلى أحسن كبش في غنمه فقربه، وأضمر في نفسه رضا الله، فوضعا قربانهما على جبل، ثم دعا آدم، فنزلت النار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل، وقيل: بل رفع إلى الجنة فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدى به الذبيح عليه السلام، قاله سعيد بن جبير وغيره. ا هـ «خازن» مع بعض زيادات من «القرطبي».

قال المطلب بن عبد الله بن حنطب[1]: لما قتل ابن آدم أخاه.. رجفت الأرض بمن عليها سبعة أيام، وشربت دم المقتول كما تشرب الماء، فناداه الله تعالى: يا قابيل أين أخوك هابيل؟ فقال: ما أدري ما كنت عليه رقيباً، فقال الله تعالى: إن دم أخيك ليناديني من الأرض، فلم قتلت أخاك؟ فقال: أين دمه إن قتلته؟ فحرم

(١) الخازن.

الله على الأرض من يومئذ أن تشرب دماً بعده أبداً.

ويروى عن ابن عباس قال: لما قتل قابيل هابيل، كان آدم بمكة لزيارة البيت، وكان أولاده بالهند، فاشتاك الشجر ـ أي ظهر له شوك ـ وتغيرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، وأغبرت الأرض، فقال: قد حدث في الأرض حدث، فأتى الهند عند أولاده، فوجد قابيل قد قتل أخاه هابيل. وقيل: لما رجع آدم من مكة سأل قابيل عن أخيه؟ فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: بل قتلته، ولذلك اسود جلدك. وقيل: أن آدم مكث بعد قتل هابيل مئة سنة لا يضحك، وأنه رثاه بشعر فقال:

تَغَيَّرَتِ ٱلْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا ... فَوَجْهُ ٱلأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيْحُ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِيْ طَعْمٍ وَلَوْنٍ ... وَقَلَّ بَشَاشَةُ ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيْحِ

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: من قال: إن آدم قال شعراً فقد كذب، وإن محمداً ﷺ والأنبياء كلهم سواء، ولكن لما قتل هابيل رثاه آدم، وهو سرياني، فلمَّا قال آدم مرثيَّته، قال لشيث: يا بني أنت وصي، احفظ هذا الكلام ليتوارث فيرثى عليه، فلم يزل ينتقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية والسريانية، وهو أول من خط العربية، وكان يقول الشعر، فنظر في المرثية، فرد المقدم إلى المؤخر، والمؤخر إلى المقدم، فوزنه شعراً، وزاد فيه أبياتاً منها:

وَمَالِيْ لاَ أَجُوْدُ بِسَكْبِ دَمْعٍ ... وَهَابِيْلٌ تَضَمَّنَهُ ٱلضَّرِيْحُ
أَرَىٰ طُوْلَ ٱلْحَيَاةِ عَلَيَّ غَمّاً ... فَهَلْ أَنَا مِنْ حَيَاتِيْ مُسْتَرِيْحُ

قال الزمخشري: ويروى أنَّه رثاه بشعر، وهو كذب بحت. وقال الإمام الفخر الرازي: ولقد صدق صاحب «الكشاف» فيما قال. قال أهل الأخبار: فلما مضى من عمر آدم مئة وثلاثون سنة ـ وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ـ ولدت له حواء شيئاً. ـ وتفسيره هبة الله ـ يعني أنَّه خلف من هابيل، وعلمه الله ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادة الخالق في كل ساعة، وأنزل عليه خمسين صحيفة، وصار وصي آدم وولي عهده، وأما قابيل فقيل له: اذهب طريداً شريداً فزعاً

مرعوباً، لا تأمن من تراه، فأخذ بيد أخته إقليما، وهرب إلى عدن من أرض اليمن، فأتاه إبليس، وقال له: إنَّما أكلت قربان هابيل لأنَّه كان يعبدها، فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك، فبنى بيت النار، فهو أول من عبد النار، وكان قابيل لا يمر به أحد إلا رماه بالحجارة، فأقبل ابن لقابيل أعمى، ومعه ابنه، فقال ابن الأعمى لأبيه: هذا أبوك قابيل، فرماه بحجارة فقتله، فقال ابن الأعمى لأبيه: قتلت أباك قابيل! فرفع الأعمى يده ولطم ابنه فمات، فقال الأعمى: ويل لي! قتلت أبي برميتي وقتلت ابني بلطمتي. فلما مات قابيل عقلت إحدى رجليه بفخذه، وعلق بها، فهو معلق بها إلى يوم القيامة، ووجهه إلى الشمس حيث دارت، وعليه حظيرة من نار في الصيف، وحظيرة من ثلج في الشتاء، فهو يعذب بذلك إلى يوم القيامة. قالوا: واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من الطبول، والزمور، والعيدان، والطنابير، وانهمكوا في اللهو، وشرب الخمر، وعبادة النار، والفواحش، حتى أغرقهم الله تعالى جميعاً بالطوفان في زمن نوح عليه السلام، فلم يبق من ذرية قابيل أحد، وأبقى ذرية شيث ونسله إلى يوم القيامة. ا هـ. من «الخازن».

وهذا كله من الإسرائيليات التي لا أصل لها ننقلها ولا نصدقها ولا نكذبها، ولكن يستأنس بها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ - بألف بعد التاء وهي بدل من ياء المتكلم - وأصله: يا ويلتي بالياء، وهي قراءة الحسن، وأمال حمزة والكسائي وأبو عمرو ألف ويلتي. وقرأ الجمهور: ﴿أَعَجَزۡتُ﴾ بفتح الجيم. وقرأ ابن مسعود والحسن وفياض بن غزوان وطلحة وسليمان بن علي بكسرها، وهي لغة شاذة؛ وإنما مشهور الكسر في قولهم: عجزت المرأة؛ إذا كبرت عجيزتها. وقرأ الجمهور: ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾ بنصب الياء عطفاً على قوله: أن أكون؛ كأنه قال: أعجزت أنْ أواري سوأة أخي. وقرأ طلحة بن مصرف والفياض بن غزوان: ﴿فأواريْ﴾ بسكون الياء. فالأولى أن يكون على

---

(١) البحر المحيط.

القطع؛ أي: فأنا أواري سوأة أخي، فيكون أواري مرفوعاً.

وقرأ الزهري: ﴿سَوَة أخي﴾ بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى الواو، ولا يجوز قلب الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ لأن الحركة عارضة، كهي في سمول لغة في سموءل. وقرأ أبو حفص: ﴿سوة أخي﴾ بقلب الهمزة واواً وإدغام الواو فيه، كما قالوا في شيء: شيّ، وفي سيئة: سيَّة. قال الشاعر:

وَإِنْ رَأَوْا سَـيَّـةً طَـارُوا بِـهَـا فَـرَحَـاً مِـنِّـيْ وَمَـا عَـلِـمُـوْا مِـنْ صَـالِـحٍ دَفَـنُـوْا

وقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الجمهور على أنَّه متعلق بقوله كتبنا الآتي، فحينئذ هو كلام مستأنف لا يوقف عليه، فالوقف على قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ تام؛ أي:[1] من أجل ذلك المذكور من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل الحرام، وهي حصول خسارة الدين، والدنيا، وحصول الندم، والحسرة، والحزن في القلب.

ويروى عن نافع أنَّه كان يقف على اسم الإشارة، ويجعله من تمام الكلام الأول، وحينئذ الجار والمجرور متعلق بما قبله، واسم الإشارة عائد على ﴿قتل قابيل هابيل﴾. والمعنى: فأصبح قابيل من النادمين من أجل قتله هابيل وعدم موارته له التراب. وقرأ ابن القعقاع: ﴿مِن اجل ذلك﴾ بكسر الهمزة وحذفها، ونقل حركتها إلى الساكن قبلها، كما قرأ ورش ﴿منَ اجل﴾ بحذفها وفتحها ونقل الحركة إلى النون، وقرأ الجمهور بفتح الهمزة، والمعنى على مذهب الجمهور: من أجل جناية قابيل على هابيل، وبسبب جريمته ومعصيته ﴿كَتَبْنَا﴾؛ أي: أوجبنا وفرضنا في التوراة ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أن الشأن والحال ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ واحدة من بني آدم ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؛ أي: بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أو بغير فساد يوجب إهدار الدم، من كفر أو زنا أو قطع طريق. والمعنى[2]: أن نبأ ابني آدم هو الذي تسبب عنه الكتب المذكور على بني إسرائيل، وعلى هذا جمهور المفسرين، وخص بني

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

والقيام بحق الفرد بمقدار ما قرر له في الشرع قيام بحق الجميع، وكثيراً ما يشير القرآن إلى وحدة الأمة ووجوب تكافلها، حتى إنه ليسند أعمال المتقدمين إلى المتأخرين، ويشير إلى أن جناية الإنسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم.

ثم ذكر أن بني إسرائيل غلاظ القلوب، مسرفون في القتل وفي غيره، مع كثرة مجيء الرسل إليهم فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد جاءت بني إسرائيل ﴿رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم، المؤكدة لوجوب مراعاته، والمحافظة عليه، وببيان الأحكام والشرائع التي كتبنا عليهم، فلم تغن عن الكثير منهم شيئاً، إذ لم تهذب نفوسهم، ولم تطهر أخلاقهم، فكانوا بعد كل هذا التشديد عليهم في أمر القتل يسرفون فيه وفي سائر ضروب البغي والعدوان، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾؛ أي: ثمَّ إنَّ كثيراً من بني إسرائيل ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد مجيء الرسل، وبعد ما كتبنا عليهم تحريم القتل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾؛ أي: لمجاوزون حد الحق، ومبالغون في إكثار القتل، لا يبالون بعظمته؛ فإنهم كانوا أشدّ الناس جراءةً على القتل، حتى كانوا يقتلون الأنبياء. وإنَّما[1] قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾.. لأنَّه تعالى علم أنَّ منهم من يؤمن بالله ورسوله وهم قليل منهم، وعبارة «البيضاوي» هنا: أي[2] بعدما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة، تأكيداً للأمر، وتجديداً للعهد، كي يتحاموا عنها، كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل، ولا يبالون به، وبهذا اتصلت الآية بما قبلها، والإسراف التباعد عن حدّ الاعتدال في الأمر.

والعبرة في قصة ابني آدم: أن الحسد كان مثار أول جناية في البشر، ولا يزال هو أسّ المفاسد في المجتمع، فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه نسباً، أو جنساً، أو ديناً، فيبغي عليه ولو بما فيه ضرر له وللمحسود. والأمة التي تنشر بين أفرادها هذه الرذيلة، قلما تنجح وتتوجه همم أبنائها إلى ما يرقي شأنهم

(١) الخازن.
(٢) البيضاوي.

بين الأمم الأخرى، وقلما يتعاونون على ما فيه صلاحهم وتقدمهم في سائر مرافق الحياة، فيصبحون عبيداً بعد أن كانوا سادة، وأذلاء بعد أن كانوا في عزة وبلهنية من العيش، كما رأينا وجربنا ذلك في بعض الشعوب الذين عليهم الاستئمار كشعوب الأروميا في شرقي أفريقيا.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: إنَّما[1] جزاء الذين يخالفون أحكام الله، وأحكام رسوله، أو إنَّما مكافأة الذين يحاربون أولياء الله، وأولياء رسوله، وهم المسلمون ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾؛ أي: يعملون في الأرض عمل فساد، أو يسرعون في الأرض مفسدين بالمعاصي من القتل، وأخذ المال ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ واحداً بعد واحد إن قتلوا ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ ثلاثة أيام بعد القتل والصلاة عليهم. وقيل: يصلبون أحياءً، ثم يطعن بطنهم برمح حتى يموتوا إن جمعوا بين القتل وأخذ المال، وعبارة «المنهاج» في باب قاطع الطريق: فإن قتل وأخذ مالاً.. قتل ثمَّ صلب مكتفاً معترضاً على نحو خشبة ثلاثة أيام بلياليها وجوباً، ثم ينزل إن لم يخف تغيره قبلها، وإلا أنزل وقت التغير، وقيل: يبقى وجوباً حتى يتهرى ويسيل صديده تغليظاً عليه. وفي قول: يصلب حياً قليلاً، ثم ينزل فيقتل، والمراد بالقليل: أدنى زمن ينزجر به غيره عرفاً، انتهى مع بعض زيادات للرملي، و﴿أو﴾[2] لتقسيم عقوباتهم تقسيماً موزعاً على جناياتهم. قال ابن جريج: ﴿أو﴾ في جميع القرآن للتخيير إلا في هذه الآية. قال الشافعي رحمه الله: وبه أقول. اهـ. «كرخي». ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ بمفصل الكف ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ بمفصل القدم، حال كونها ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾؛ أي: مختلفة في القطع بأن تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، والتشديد في ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ﴾: قراءة الجمهور، وهو للتكثير بالنسبة إلى الذين يوقع بهم الفعل، والتخفيف في ثلاثتها قراءة الحسن ومجاهد وابن محيصن، ذكره أبو حيان في «البحر» ﴿أَوْ يُنفَوْاْ﴾؛ أي: يطردوا ويخرجوا ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من أرضهم التي يريدون الإقامة بها إلى مسافة قصر فما فوقها؛ لأنَّ المقصود من النفي

---

(١) المراح.
(٢) جمل.

الوحشة، والبعد عن الأهل والوطن. والظاهر أنَّ نفيه من الأرض هو إخراجه من الأرض التي حارب فيها. فإذا عين الإمام جهة فليس للمنفي طلب غيرها؛ أي: ينفوا من الأرض إن أخافوا السبل، فالقتل[١] لمن قتل فقط، والصلب لمن قتل وأخذ المال، والقطع لمن أخذ المال ولم يقتل، والنفي لمن أخاف فقط، قاله ابن عباس وعليه الشافعي.

وقال أبو حنيفة[٢]: النفي من الأرض هو الحبس، وهو اختيار أكثر أهل اللغة، قالوا: والمحبوس قد يسمى منفياً من الأرض لأنَّه لا ينتفع بشيء من طيبات الدنيا ولذاتها، ولا يرى أحداً من أحبابه، فصار منفياً عن جميع اللذات والشهوات والطيبات، فكان كالمنفي في الحقيقة. قال الشاعر وهو مسجون:

خَرَجْنَا مِنَ ٱلدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا   فَلَسْنَا مِنَ ٱلأَمْوَاتِ فِيْهَا وَلَا ٱلأَحْيَا
إِذَا جَاءَنَا ٱلسَّجَّانُ يَوْمَاً لِحَاجَةٍ   عَجِبْنَا وَقُلْنَا جَاءَ هَذَا مِنَ ٱلدُّنْيَا
وَتُعْجِبُنَا ٱلرُّؤْيَا يَحُلُّ حَدِيْثَنَا   إِذَا نَحْنُ أَصْبَحْنَا ٱلْحَدِيْثَ عَنِ ٱلرُّؤْيَا

وقال الشافعي: هذا النفي محمول على وجهين:

الأول: أن هؤلاء المحاربين إذا قتلوا وأخذوا المال.. فالإمام إنْ أخذهم أقام عليهم الحدّ، وإنْ لم يأخذهم طلبهم أبداً، فكونهم خائفين من الإمام هاربين من بلد هو المراد من النفي.

والثاني: القوم الذين يحضرون الواقعة، ويكثرون جمع هؤلاء المحاربين، ويخيفون المسلمين، ولكنهم ما قتلوا وما أخذوا المال.. فإن الإمام يأخذهم، ويعزرهم، ويحبسهم، فالمراد بنفيهم من الأرض هو هذا الحبس لا غير.

وقد جعل الله[٣] سبحانه وتعالى هذا النوع من العدوان محاربة الله ورسوله؛ لأنَّه اعتداء على الحق والعدل الذي أنزل الله على رسوله، ولما فيه من عدم الإذعان لدينه وشرعه في حفظ الحقوق، كما قال تعالى في المصرّين على أكل

---

(١) جلالين.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

الربا: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فمن لم يذعنوا لأحكام الشريعة.. يعدوا محاربين لله والرسول، ويجب على الإمام الذي يقيم العدل ويحفظ النظام أن يقاتلهم على ذلك، كما فعل أبو بكر بمانعي الزكاة حتى يفيئوا ويرجعوا إلى أمر الله تعالى، ومن رجع منهم في أي وقت يقبل منه، ويكف عنه، وقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾؛ أي: يسعون فيها سعي فساد؛ أي: مفسدين لما صلح من أمور الناس في نظم الاجتماع وأسباب المعاش. وجمهور العلماء على أن الآية نزلت في قطاع الطريق من المسلمين، كما تدل على ذلك حادثة العرنيين الذين خدعوا النبي ﷺ والمسلمين بإظهار الإسلام، حتى إذا تمكنوا من الإفساد بالقتل، والسلب.. عادوا إلى قومهم، وأظهروا شركهم معهم، وقد عاقبهم النبي ﷺ بمثل عقوبتهم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ويشترط في المحاربين ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون معهم سلاح، وإلا كانوا غير محاربين.

الثاني: أن يكون ذلك في الصحراء، فإن فعلوا ذلك في البنيان لم يكونوا محاربين كما قال أبو حنيفة والثوري وإسحاق.

الثالث: أن يأتوا مجاهرة، ويأخذوا المال، فإن أخذوه خفية.. فهم سراق، وإن اختطفوه وهربوا.. فهم منتبهون لا قطع عليهم، وكذا إن خرج الواحد والإثنان على آخر قافلة، فاستلبوا منها شيئاً؛ لأنهم لا يرجعون إلى قوة ومنعة، وإن خرجوا على عدد يسير فقهروهم.. فهم قطاع طريق.

والجزاء الذي يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين أحد أنواع أربعة: إما القتل، أو الصلب، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أو النفي من الأرض، وفوض لأولي الأمر الاجتهاد في تقدير العقوبة بقدر الجريمة.

والحكمة في عدم التعيين والتفصيل: أن المفاسد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان، وضررها يختلف كذلك، فمنها القتل، ومنها السلب، ومنها هتك الأعراض، ومنها إهلاك الحرث والنسل؛ أي: قطع الشجر، وقلع الزرع، وقتل المواشي، والدواب، أو الجمع بين جريمتين أو أكثر من هذه المفاسد، فللإمام أن يقتلهم إن قتلوا، أو يصلبهم إنْ جمعوا بين أخذ المال والقتل، أو

يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إنْ اقتصروا على أخذ المال، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق.

وهؤلاء المفسدون ضوعفت لهم العقوبات، فالقتل العمد العدوان يوجب القتل، ويجوز لولي الأمر العفو وترك القصاص، فغلظ ذلك في قاطع الطريق، وصار القتل حتماً لا هوادة فيه، ولا يجوز العفو عنه، وأخذ المال يتعلق به قطع اليمنى في غير قاطع الطريق بقطع الطرفين، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال.. جمع في حقهم بين القتل والصلب؛ لأن بقاءهم مصلوبين في ممر الطرق يكون سبباً لاشتهار إيقاع هذه العقوبة، فيصير ذلك زاجزاً لغيرهم عن الإقدام على مثل هذه المعصية، وإن اقتصروا على مجرد الإخافة عوقبوا بعقوبة خفيفة، وهي النفي من الأرض.

ثم بين آثار هذه العقوبة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء المذكور فيهم من القطع، والقتل، والصلب، والنفي. ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ أي: ذل وهوان وفضيحة للمحاربين المذكورين في الدنيا بين الناس ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم من المسلمين ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد هو عذاب النار، وبقدر تأثير إفسادهم في تدنيس نفوسهم، وتدسيتها، وظلمة أرواحهم بما اجترحت من الذنوب والآثام.

واستحقاق الأمرين إنما هو للكافر[1]، وأما المسلم: فإنَّه إذا أقيم عليه الحد في الدنيا.. سقطت عنه عقوبة الآخرة، فالآية محمولة على الكافر، أو إن فيها تقديراً في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ إلخ؛ أي: إذا لم تقم عليه الحدود المذكورة؛ لأنَّ[2] المسلم إذا عوقب بجناية في الدنيا.. كانت عقوبته كفارة له، وإن لم يعاقب في الدنيا فهو في خطر المشيئة، إنْ شاء عذبه بجنايته ثم يدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، هذا مذهب أهل السنة. ففي[3] «صحيح

(١) الجمل.
(٢) الخازن.
(٣) ابن كثير.

مسلم» عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: أنْ لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا يعضه؛ أي: يقذف بعضنا بعضاً، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله.. فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه).

وعن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب ذنباً في الدنيا فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود عليه في شيء قد عفا عنه». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

ثم استثنى ممن يستحق العقوبة من تاب فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ ورجعوا من شركهم وحربهم لله ورسوله، ومن السعي في الأرض بالفساد ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أيها الولاة بالأخذ لهم، فلا سبيل لكم عليهم بشيء من العقوبات المذكورة في الآية المتقدمة. ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿غَفُورٌ﴾ لهم لما فرط منهم من الشرك وغيره ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم بقبول توبتهم.

والمعنى:[1] لكم أن تعاقبوا هذا العقاب الذي تقدم ذكره من قطعوا الطريق وعثوا في الأرض فساداً إلا من تابوا إلى الله، وأنابوا إليه من قبل أن يتمكن منهم الحاكم، ويقدر على عقوبتهم، فإن توبتهم حينئذ ـ وهم في قوة ومنعة ـ جديرة بأن تكون توبة خالصة لله، صادرة عن اعتقاد بقبح الذنب، والعزم على عدم العودة إلى فعل مثله، وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا، وإذاً فهم قد تركوا الإفساد، ومحاربة الله ورسوله، ومن ثم لا يجمع لهم بين أشد العقاب في الدنيا والعذاب في الآخرة، بل يصير أمرهم لمغفرة الله ورحمته كما قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: فاعلموا أن الله غفور لما فرط من ذنوبهم، رحيم بهم يرفع العقاب عنهم، وهذه التوبة ترفع عنهم حق الله كله من عقاب في الدنيا والآخرة،

---

(١) المراغي.

ولكن تبقى حقوق العباد، فلمن سلبهم التائب أموالهم أيام إفساده أن يطالبوه بها، ولمن قتل منهم أحداً أن يطالبوه بدمه، وهم مخيرون بين القصاص والديه والعفو، فقد ثبت عن الصحابة إسقاط الحد عمن تاب، ولم يثبت أن أحداً تقاص التائب حقاً ولم يسمع له الحاكم.

وإذاً فتوبته لا تصح إلا إذا أعاد الأموال المسلوبة إلى أربابها، فإذا رأى ولي الأمر إسقاط حق مالي عن المفسد مراعاة للمصلحة العامة.. وجب أن يضمنه من بيت المال «وزارة المالية».

والخلاصة: أن هاتين الآيتين تضمنتا عقاب المحاربين المفسدين في الأرض، الذين يعملون أعمالاً مخلة بالأمن على الأنفس، والأموال، والأعراض في بلاد الإسلام، معتصمين في ذلك بقوتهم، مع عدم الإذعان لأحكام الشريعة باختيارهم، وهو أن يطاردهم الحكام ويتبعوهم حتى إذا قدروا عليهم.. عاقبوهم بتلك العقوبات بعد تقدير كل مفسدة بقدرها، ومراعاة المصلحة العامة، ومن تاب قبل القدرة عليه.. لا يعاقب بما هنا من العقوبات حكمه حكم سائر المسلمين.
والظاهر[1] من الاستثناء المذكور في الآية عدم الفرق بين الدماء والأموال، وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك، وعليه عمل الصحابة، وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّه لا يسقط القصاص وسائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة، والحق: هو القول الأول، وأما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المذكورة في الآية كما يدل عليه قيد ﴿قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله وسخطه بترك المنهيات ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾؛ أي: واطلبوا الوسيلة، والقرب إليه، واستحقاق مثوبته، ومرضاته بفعل المأمورات ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: في سبيل عبوديته، وطريق الإخلاص في معرفته وخدمته؛ أي: جاهدوا أنفسكم بكفها عن أهوائها، وحملها

---

(١) الشوكاني.

على النصفة والعدل في جميع الأحوال، وجاهدوا أعدائي، وأعداءكم، وأتعبوا أنفسكم في قتالهم ومنعهم من مقاومة الدعوة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتظفرون بنيل مرضاته، وبالفوز بكراماته؛ أي: افعلوا كل هذا المذكور، رجاء الفوز والفلاح والسعادة في المعاش والمعاد والخلود في جنات النعيم.

واعلم أنَّ[1] مجامع التكليف محصورة في نوعين: **أحدهما**: ترك المنهيات، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ **وثانيهما**: فعل المأمورات وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ والمراد بطلب الوسيلة والقرب إليه تعالى هو تحصيل مرضاته، وذلك بالعبادات والطاعات. ولما أمر الله تعالى بترك ما لا ينبغي وبفعل ما ينبغي، وكان الانقياد لذلك من أشق الأشياء على النفس، وأشدها ثقلاً على الطبع، لأن النفس لا تدعو إلا إلى المشتهيات واللذات المحسوسة.. أردف ذلك التكليف بقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾؛ أي: بمحاربة أعدائه البارزة والكامنة. ثم إن من يعبد الله تعالى فريقان: منهم من يعبده لا لغرض سوى الله، وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ ومنهم من يعبده للثواب مثلاً، وهو المشار إليه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: تفوزون بالمحبوب، وتخلصون من المكروه.

ثم أكد ما سبق من أن مدار الفوز والفلاح تقوى الله وتزكية النفس، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: إن الذين جحدوا ربوبية ربهم، وعبدوا غيره من عجل أو صنم أو وثن وماتوا وهم على هذه الحال قبل التوبة ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ أي: لو ثبت أن لكل واحد منهم ما في الأرض من أصناف أموالها، وذخائرها وسائر منافعها جميعاً ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾؛ أي: وضعفه معه ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾؛ أي: ليجعلوا كلاً منهما فدية لأنفسهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: من تعذيب الله إياهم على تركهم أمره، وعبادتهم غيره، فافتدوا بذلك كله من العذاب الواقع يوم القيامة؛ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: ما تقبل الله منهم ذلك فداء وعوضاً

---

(١) المراح.

من عذابهم وعقابهم، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا كلها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أيسر من هذا، وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي، ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة، فأبيت إلا الشرك». هذا لفظ مسلم، وفي رواية للبخاري قال: «يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: لقد كنت سألت ما هو أيسر من ذلك؛ أن لا تشرك بي». متفق عليه. ووحد[1] الضمير في ﴿به﴾ وإن كان قد تقدم شيئان: معطوف عليه ومعطوف، وهو ما في الأرض ومثله معه؛ إما لغرض تلازمهما، فأجرى مجرى الواحد كما قالوا: رب يوم وليلة مر بي، وإما لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، كأنَّه قال: ليفتدوا بذلك. قال الزمخشري: ويجوز أن تكون الواو في ﴿ومثله﴾ بمعنى مع فيوحد المرجوع إليه. وقرأ الجمهور: ﴿مَا تُقُبِّلَ﴾ مبيناً للمفعول، وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿ما تَقبل﴾ مبيناً للفاعل؛ أي: ما تقبل الله منهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: بل هو معذبهم عذاباً موجعاً مؤلماً لهم؛ لأنَّ سنته تعالى قد مضت بأن سبب الفلاح والنجاة إنما تكون من نفس الإنسان لا من خارج عنها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

وهذا هو الفارق بين الإسلام وغيره من الأديان، فالنصارى يعتقدون أن خلاصهم وسعادتهم يكون بالمسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم، والمسلمون يعتقدون أن العمدة في النجاة تزكية النفس بالفضائل والأعمال الصالحة.

فهذه الجملة الأخيرة تصريح بعدم قبول الفداء، وتصوير للزوم العذاب، فلا سبيل لهم إلى الخلاص منه. ثم ذكر ما يلاقونه من الأهوال حينئذ فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: يتمنون الخروج من النار دار العذاب

---

(١) البحر المحيط.

والشقاء بعد دخولهم فيها، ويقصدونه بقلوبهم إذا رفعهم لهب النار إلى فوق. وقيل: يكادون يخرجون منها لقوة النار ودفعها لهم، ولكن لا يقدرون ذلك. وقرأ الجمهور[1] ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ مبيناً للفاعل، ويناسبه: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ﴾. وقرأ النخعي وابن وثاب وأبو واقد: ﴿أن يخرجوا﴾ مبيناً للمفعول، ويضعف هذه القراءة وما هم بخارجين من النار. ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ﴾ ألبتة، وإنَّما قال: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾ بدل وما يخرجون للمبالغة ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: للكافرين خاصة دون عصاة المؤمنين ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: دائم، ثابت، لا يزول عنهم، ولا ينقطع ولا ينتقل أبداً، تارة بالبرد، وتارة بالحر، وتارة بغيرهما.

الإعراب

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿وَٱتْلُ﴾: (الواو): عاطفة أو استئنافية. ﴿اتل﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة ـ وهي الواو ـ وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على الجملة المقدرة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ...﴾ إلخ، يعني: اذكر يا محمد لقومك وأخبرهم خبر ابني آدم، أو الجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اتل﴾. ﴿نَبَأَ﴾: مفعول به، وهو مضاف. ﴿ٱبْنَىْ﴾: مضاف إليه وهو مضاف. ﴿ءَادَمَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنَّه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف العلمية والعجمية. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور[2] متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف تقديره: واتل عليهم تلاوةً متلبسة بالحق والصدق، حسبما تقرر في كتب الأولين. وفي «السمين» قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيه ثلاثة أوجه[3]:

أحدها: أنَّه حال من فاعل ﴿اتل﴾ ذلك حال كونك متلبساً بالحق؛ أي: بالصدق.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) أبو السعود.
(٣) السمين.

الثاني: أنَّه حال من المفعول ـ وهو ﴿نَبَأَ﴾؛ أي: اتل نبأهما متلبساً بالحق والصدق، موافقاً لما في كتب الأولين، لتقوم عليهم الحجة برسالتك.

الثالث: أنَّه صفة لمصدر ﴿اتل﴾؛ أي: اتل ذلك تلاوةً متلبسةً بالحق والصدق، وكان هذا الوجه هو اختيار الزمخشري؛ لأنَّه بدأ به، وعلى كل من الأوجه الثلاثة: فالباء للمصاحبة وهي متعلقة بمحذوف. ا هـ.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لم مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية مبني على السكون لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، والظرف متعلق بـ﴿نَبَأَ﴾؛ أي: اتل نبأهما وقصتهما الواقع في ذلك الوقت. ﴿قَرَّبَا﴾ فعل وفاعل. ﴿قُرْبَانًا﴾: مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿فَتُقُبِّلَ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿تقبل﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿قُرْبَانًا﴾. ﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تقبل﴾ وتفعل هنا بمعنى الثلاثي المجرد، والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿قَرَّبَا﴾. ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ﴾: الواو عاطفة. ﴿لم يتقبل﴾: جازم ومجزوم، ونائب فاعله ضمير يعود على القربان. ﴿مِنَ ٱلْآخَرِ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْآخَرِ﴾ والجملة مستأنفة. ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: (اللام): موطئة للقسم. ﴿أقتلن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب مبني على الفتح. و(الكاف): ضمير المخاطب في محل النصب مفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْآخَرِ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدِهِمَا﴾ والجملة

مستأنفة. ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر. ﴿يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾.

وقوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى﴾ إلى قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَئِنۢ﴾: (اللام): موطئة لقسم محذوف. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿بَسَطتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَيَّ﴾ ﴿إلى﴾: حرف جر مبني بسكون على الألف المنقلبة ياء مدغمة في ياء المتكلم. وياء المتكلم في محل الجر بـ﴿إلى﴾ مبني على الفتح، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَسَطتَ﴾ ﴿يَدَكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿لِتَقْتُلَنِى﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿تقتل﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله: ضمير مستتر يعود على ﴿ٱلْآخَرِ﴾ والنون: نون الوقاية والياء: ضمير المتكلم في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لقتلك إياي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَسَطتَ﴾. ﴿مَآ﴾: حجازية تعمل عمل ليس. ﴿أَنَا۠﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿بِبَاسِطٍ﴾: خبرها، والباء: زائدة في خبر ﴿مَآ﴾ الحجازية، وهو اسم فاعل يعمل عمل الفعل الصحيح، وفاعله: ضمير يعود على ﴿أَنَا۠﴾. ﴿يَدِىَ﴾: مفعول ﴿باسط﴾ ومضاف إليه. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق ﴿بِبَاسِطٍ﴾ وجملة ﴿مَآ﴾ الحجازية جواب القسم المحذوف لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف، دل عليه جواب القسم تقديره: إن بسطت إلي يدك لتقتلني.. فما أبسط يدي إليك لأقتلك، جرياً على القاعدة المقررة عند النحاة، من أنَّه إذا اجتمع شرط وقسم.. كان المذكور جواباً للسابق منهما، إلا فيما استثني عندهم كما مر لك ذكره مراراً.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿إِنِّىٓ﴾: ﴿إنَّ﴾ حرف نصب. و(الياء): اسمها. ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ﴾: فعل

ومفعول. ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على المتكلم، أعني: هابيل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة إن: في محل الجر بلام التعليل المقدرة معللة لما قبلها.

﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِنِّىٓ﴾ حرف نصب. والياء اسمها. ﴿أُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلم، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها في محل الجر، معطوفة على جملة إنَّ الأولى على كونها تعليلاً ثانياً لما قبلها. وقال أبو السعود: وإنَّما لم يعطف على التعليل قبله.. تنبيهاً على كفاية كل منهما في العلية. انتهى. ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ ناصب ومنصوب، وفاعله ضمير المخاطب أعني قابيل. ﴿بِإِثْمِى﴾: جار ومجرور ومضاف، متعلق بـ﴿تَبُوٓأَ﴾. ﴿وَإِثْمِكَ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿تَبُوٓأَ﴾: صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: إنِّي أريد بوءك بإثمي وإثمك، ﴿فَتَكُونَ﴾: معطوف على ﴿تَبُوٓأَ﴾ منصوب، واسمها ضمير يعود على المخاطب. ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿تكون﴾. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَطَوَّعَتْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿طوعت﴾: فعل ماضٍ. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به، ﴿نَفْسُهُۥ﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾. ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾: (الفاء): عاطفة تفريعية. ﴿قتله﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على القاتل، والجملة معطوفة على جملة ﴿طوعت﴾. ﴿فَأَصْبَحَ﴾: (الفاء): عاطفة تفريعية. ﴿أصبح﴾: فعل ماضٍ ناقص، واسمها ضمير يعود على القاتل. ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿أصبح﴾ وجملة ﴿أصبح﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

﴿فَبَعَثَ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنَّه قتل أخاه، وأردت بيان ما فعله بجيفة أخيه.. فأقول لك: ﴿بعث الله غراباً﴾: ﴿بعث الله﴾: فعل وفاعل. ﴿غُرَابًا﴾: مفعول، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَبْحَثُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْغُرَابِ﴾، والجملة صفة لـ﴿غُرَابًا﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْحَثُ﴾. ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ اللام حرف جر وتعليل. ﴿يريه﴾: فعل ومفعول أول منصوب بأنْ مضمرة جوازاً بعد لام كي: لأنَّه من أرى، بمعنى عرف يتعدى بالهمزة إلى مفعولين، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ إن قلنا اللام متعلقة بـ﴿بعث﴾، أو على الغراب إن قلنا هي متعلقة بـ﴿يَبْحَثُ﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الحال من فاعل ﴿يُوَٰرِى﴾ مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً. ﴿يُوَٰرِى﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على القاتل أعني: قابيل. ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿يُوَٰرِى﴾: في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لأرى؛ لأنَّها معلقة عنها باسم الاستفهام، وجملة يرى من الفعل والفاعل: صلة أنْ المضمرة، أنْ مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور إما متعلق بـ﴿بعث﴾ تقديره: فبعث الله غراباً، لإراءة الله إياه كيفية مواراة سوأة أخيه، أو متعلق بـ﴿يَبْحَثُ﴾ تقديره: غراباً يبحث في الأرض لإراءة الغراب إياه كيفية مواراة سوأة أخيه. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ إما متعلق بـ﴿بعث﴾، فالضمير المستتر في الفعل عائد على ﴿ٱللَّهُ﴾ أو متعلق بـ﴿يَبْحَثُ﴾ فالضمير عائد على الغراب. وفي «السمين» قوله: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى﴾ هذه اللام يجوز فيها وجهان:

أحدهما: أنَّها متعلقة بـ﴿يَبْحَثُ﴾؛ أي: ينبش ويثير التراب للإراءة.

والثاني: أنَّها متعلقة بـ﴿بعث﴾، وكيف معمولة لـ﴿يُوَٰرِى﴾، وجملة الاستفهام معلقة للرؤية البصرية، فهي في محل المفعول الثاني سادة مسده؛ لأنَّ رأى البصرية قبل تعديتها بالهمزة متعدية لواحد، فاكتسبت بالهمزة مفعولاً آخر،

وتقدم نظيرتها في قوله: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. ا هـ.

﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على القاتل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿ويلتى﴾: منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف بعد قلب الكسرة فتحة لمناسبة الألف، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، ويلة: مضاف. و(ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف): في محل الجر مضاف إليه، مبني على السكون لشبهها بالحرف شبهاً وضعياً، وجملة النداء: في محل النصب مقول. ﴿قَالَ﴾. وفي هذا المقام بحث نفيس ذكرته في رسالتي «هدية أولي العلم والإنصاف في إعراب المنادى المضاف». ﴿أَعَجَزْتُ﴾: (الهمزة): للاستفهام التعجبي. ﴿عجزت﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنْ أَكُونَ﴾: ناصب وفعل ناقص واسمه ضمير المتكلم يعود على القاتل، ﴿مِثْلَ هَٰذَا﴾: خبر أكون ومضاف إليه. ﴿ٱلْغُرَابِ﴾: بدل من اسم الإشارة، وجملة ﴿أَنْ﴾: المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: أعجزت كوني مثل هذا الغراب. ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾: (الفاء): عاطفة، ﴿أواري﴾: معطوف على ﴿أَكُونَ﴾ وفاعله ضمير يعود على القاتل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَكُونَ﴾. ﴿سَوْءَةَ أَخِى﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿فَأَصْبَحَ﴾ (الفاء): عاطفة. ﴿أصبح﴾: فعل ماضٍ ناقص واسمه ضمير يعود على القاتل. ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿أصبح﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَتَبْنَا﴾ وتقديمه

عليه لإفادة الحصر، و﴿كَتَبْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَتَبْنَا﴾. ﴿أَنَّهُۥ﴾: أنَّ حرف نصب ومصدر. والهاء: ضمير الشأن في محل النصب اسمها. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب أو الشرط أو هما. ﴿قَتَلَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿نَفْسًۢا﴾: مفعول به. ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَتَلَ﴾، أو حال من الضمير في ﴿قَتَلَ﴾ كما ذكره أبو البقاء؛ أي: مَنْ قتل نفساً ظالماً، ﴿أَوْ فَسَادٍ﴾: معطوف على نفس، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بفساد؛ لأنَّه بمعنى إفساد، أو صفة له. ﴿فَكَأَنَّمَا﴾: الفاء: رابطة لجواب من الشرطية. ﴿كأنَّ﴾: حرف تشبيه ملغاة لا عمل لها. ﴿ما﴾: كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿قَتَلَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿ٱلنَّاسَ﴾، أو تأكيد له، وجملة من الشرطية في محل الرفع خبر أنَّ، وجملة أنَّ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿كَتَبْنَا﴾ تقديره: من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل كون من قتل نفساً بغير نفس أو فساد.. مثل من قتل الناس جميعاً في هتك حرمة الدماء.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ (الواو): عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿أَحْيَاهَا﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿من﴾: وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿جَمِيعًاۚ﴾: حال من الناس، أو تأكيد له، وجملة ﴿مَنْ﴾: الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى. ﴿وَلَقَدْ﴾: (الواو): استئنافية. اللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿جَآءَتْهُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿رُسُلُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة

القسم المحذوف مستأنفة. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿الرسل﴾؛ أي: حالة كونهم متلبسين بالبينات ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾: ناصب واسمه. ﴿مِّنْهُم﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمسرفون الآتي، وكذلك يتعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وكون[1] لام الابتداء، لا يعمل ما بعدهما فيما قبلها، محله إذا كانت اللام في محلها فإن زحلقت إلى الخبر عمل ما بعدها فيما قبلها كما هنا. ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾: اللام: لام الابتداء، زحلقت إلى الخبر. ﴿مسرفون﴾: خبر إنَّ، وجملة إنَّ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على كونه جواباً لقسم محذوف.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُحَارِبُونَ﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾. ﴿فَسَادًا﴾: مفعول من أجله. وفي «الفتوحات» وفي نصب ﴿فَسَادًا﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّه مفعول من أجله؛ أي: يحاربون ويسعون لأجل الإفساد، وشرط النصب موجود.

والثاني: أنَّه مصدر واقع موقع الحال؛ أي: ويسعون في الأرض مفسدين أو ذوي فساد، أو جعلوا نفس الفساد مبالغة.

والثالث: أنَّه منصوب على المصدر؛ أي: أنَّه نوع من العامل قبله، لأنَّ يسعون معناه في الحقيقة يفسدون فساداً، وفساداً اسم مصدر قائم الإفساد، والتقدير: يفسدون في الأرض بسعيهم فساداً. انتهت.

---

(١) الجمل.

﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾: ناصب وفعل ونائب فاعل، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية تقديره: إنَّما جزاء الذين يحاربون الله تقتيلهم، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾. ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾: فعل ونائب فاعل ومضاف إليه معطوف على ﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾. ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾: معطوف على ﴿أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: جار ومجرور حال من الأيدي والأرجل؛ أي: حالة كونها مختلفة في القطع بمعنى أنَّه تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ﴿أَوْ يُنفَوْاْ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل معطوف على ﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾. ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به، وأو في جميع الأمثلة للتقسيم والتنويع؛ أي: تقسيم عقوبتهم تقسيماً موزعاً على حالتهم وجناياتهم.

﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ أول. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿خِزْيٌ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿خِزْيٌ﴾ والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، وجملة المبتدأ الأول مع خبرة مسأنفة استئنافاً بيانياً. وفي «الفتوحات» وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون ﴿لَهُمْ﴾ خبراً مقدماً و﴿خِزْيٌ﴾: مبتدأ مؤخراً. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ صفة له، فيتعلق بمحذوف.

والثاني: أن يكون ﴿خِزْيٌ﴾ خبراً لـ﴿ذَٰلِكَ﴾ و﴿لَهُمْ﴾ متعلق بمحذوف على أنَّه حال من ﴿خِزْيٌ﴾؛ لأنَّه في الأصل صفة له، فلما قدم عليه.. انتصب حالاً.

والثالث: أنْ يكون ﴿لَهُمْ﴾: خبراً لذلك و﴿خِزْيٌ﴾: فاعل ورفع الجار هنا الفاعل لما اعتمد على المبتدأ. ا هـ. «سمين». ﴿وَلَهُمْ﴾: (الواو): عاطفة.

﴿لهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿عَذَابٌ﴾؛ لأنَّه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ﴾، ﴿تَابُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿مِن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَابُوا۟﴾ قبل مضاف. ﴿أَن تَقْدِرُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من قبل قدرتكم، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقْدِرُوا۟﴾. ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره إذا عرفتم هذا الاستثناء وأردتم بيان سعة رحمة الله وغفرانه.. فأقول لكم. ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول لـ﴿أَنَّ﴾. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة أنَّ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: فاعلموا كون الله تعالى غفوراً رحيماً. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ فيه وجهان:

أحدهما: إنَّه منصوب على الاستثناء من المحاربين.

والثاني: أنَّه مرفوع بالابتداء، والخبر قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والعائد محذوف؛ أي: غفور لهم، ذكر هذا الثاني أبو البقاء، وحينئذ يكون الاستثناء منقطعاً بمعنى: لكن التائبون يغفر لهم. اهـ. «سمين».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾:

حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا﴾ فعل وفاعل ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱبْتَغُوٓا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَٱبْتَغُوٓا﴾. وفي «الفتوحات» في ﴿إِلَيْهِ﴾ وجهان:

أحدهما: أنَّه متعلق بالفعل قبله.

والثاني: أنَّه متعلق بنفس الوسيلة. قال أبو البقاء: لأنَّها بمعنى المتوسل به، فلذلك عملت فيما قبلها يعني: أنَّها ليست بمصدر، حتى يمتنع أنْ يتقدم معمولها عليها، ويجوز أنْ يكون حالاً؛ أي: وابتغوا الوسيلة كائنة إليه. ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ مفعول به ﴿وَجَٰهِدُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾. ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿وَجَٰهِدُوا﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج ونصب بمعنى كي، و(الكاف): اسمها. وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ إنَّ: حرف نصب. واسم الموصول في محل النصب اسمها ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب مقدر. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، لـ﴿أَنَّ﴾. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر عن خبرها. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَّا﴾ أو صفة لها. ﴿جَمِيعًا﴾ توكيد لاسم ﴿إِنَّ﴾ أو حال منه.

﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَمِثْلَهُۥ﴾ ﴿مثل﴾: معطوف على اسم أنَّ وهو ما الموصولة، وقيل: إنَّه منصوب على أنَّه مفعول معه وهو رأي الزمخشري وهو مضاف، و(الهاء): مضاف

إليه. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿مثله﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾: من اسمها وخبرها في تأويل مصدر، مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف بعد لو الشرطية؛ لأنَّ لو الشرطية لا تدخل إلا على الفعل والتقدير: إنَّ الذين كفروا لو ثبت كون ما في الأرض جميعاً ومثله معه لهم ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ (اللام): لام كي. ﴿يفتدوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأنْ مضمرة بعد لام كي. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يفتدوا﴾، وضميره عائد على ما الموصولة، وجيء بالضمير مفرداً وإنِ تقدمه شيئان وهما: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾، إما لتلازمهما، فهما في حكم شيء واحد؛ وإما لأنَّه حذف من الثاني لدلالة ما في الأول عليه كقوله:

وَإِنِّـي وَقَـيَّـارٌ بِـهَـا لَـغَـرِيْـبُ

أي: لو أن لهم ما في الأرض ليفتدوا به ومثله معه ليفتدوا به، وإما لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، بأن يؤول المرجع المتعدد بالمذكور كما مر بعض ذلك في بحث التفسير ذكره في «الفتوحات». وجملة أنْ المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي تقديره: لافتدائهم به أنفسهم من عذاب يوم القيامة، الجار والمجرور، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر أن وهو لهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يفتدوا﴾ أيضاً. ﴿مَا﴾: نافية رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ وجاء على الأكثر من كون الجواب المنفي بغير لام. ﴿تُقُبِّلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة بمعنى قبل، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾: الموصولة ومثله. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع خبر إنَّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والتقدير: إنَّ الذين كفروا غير مقبول منهم فداؤهم لو ثبت كون ما في الأرض جميعاً ومثله معه لهم فافتداؤهم به، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها مستأنفة ﴿وَلَهُمْ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية على كونها خبراً لـ﴿أَنَّ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَن يَخۡرُجُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، وجملة أنْ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: يريدون خروجهم من النار ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ﴿يَخۡرُجُواْ﴾. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية. ﴿هُم﴾: ضمير الغائبين في محل الرفع اسمها. ﴿بِخَٰرِجِينَ﴾ خبرها و(الباء) فيه زائدة. ﴿مِنۡهَا﴾: جار ومجرور متعلق ﴿بِخَٰرِجِينَ﴾ والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. ﴿وَلَهُمۡ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿لهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّقِيمٌ﴾: صفة له، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾ اتل فعل أمر من تلا يتلو تلاوة، يقال: تلا الكتاب إذا قرأه، والتلاوة: القراءة، ولا تكاد تستعمل إلا في قراءة كلام الله تعالى، والنبأ: الخبر الذي يهتم به لفائدة ومنفعة عظيمة، سمي به لأنَّه يأتي من مكان إلى آخر، ويجمع على أنباء ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا﴾ والقربان فيه احتمالان[1]:

أحدهما: وبه قال الزمخشري: أنَّه اسم لما يتقرب به إلى الله عز وجل من صدقة أو ذبيحة أو نسك أو غير ذلك، يقال: قرب صدقة وتقرب بها.

والاحتمال الثاني: أنْ يكون مصدراً في الأصل، ثم أطلق على الشيء المتقرب به كقولهم: نسج اليمن وضرب الأمير، ويؤيد ذلك أنَّه لم يثن مع أن الموضع موضع تثنية لأن كلاً من قابيل وهابيل له قربان يخصه، والأصل إذ قربا قربانين، وإنَّما لم يثن؛ لأنَّه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد وغيره ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ يقال: بسط اليد إليه يبسط من باب نصر بسطاً إذا مدها إليه ليقتله ﴿أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ يقال: باء يبوء بوءاً من باب قال: إذا رجع ويقال: باء بالحق، أو بالذنب، إذا أقر به، وباء فلان بفلان بواء، إذا قتل به وصار دمه بدمه، وفي

---

(١) الجمل.

النهاية لابن الأثير: أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي؛ أي: التزم وأقر. ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فطوعت؛ أي: فشجعت وزينت. قرأ الجمهور[1]: طوعت بتشديد الواو، ويقرأ شاذاً: ﴿طاوعت﴾ بوزن فاعل بالألف والتخفيف كما مر، وهما لغتان، والمعنى زينت، وقال: (طاوعت) تتعدى بغير لام، وهذا خطأ؛ لأن التي تتعدى بغير اللام تتعدى إلى مفعول واحد، وقد عداه ههنا إلى قتل أخيه، وقيل: التقدير: طاوعته نفسه على قتل أخيه، فزاد اللام وحذف على، ذكره أبو البقاء.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾ الغراب[2] طائر معروف، ويجمع في القلة على أغربة، وفي الكثرة على غربان وغراب اسم جنس، وأسماء الأجناس إذا وقعت على مسمياتها من غير أن تكون منقولة من شيء.. فإن وجد فيها ما يمكن اشتقاقه حمل على أنَّه مشتق، إلا أن ذلك قليل جداً، بل الأكثر أن تكون غير مشتقة نحو: تراب وحجر وماء، ويمكن أن يكون غراب مأخوذاً من الاغتراب، فإن العرب تتشاءم به، وتزعم أنَّه دال على الفراق ﴿يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ البحث في الأرض.. نبش التراب وإثارته. ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ من أرى الرباعي التي هي مزيد رأى بمعنى: عرف المتعدية لواحد، فتتعدى بالهمزة لاثنين: الأول: الضمير البارز، والثاني: جملة كيف ﴿يُوَارِى﴾ يقال: وارى الشيء يواري مواراة، من باب فاعل إذا أخفاه، والسوأة ما يسوء ظهوره، والعورة والسوأة يجوز تخفيف همزتها بإلقاء حركتها على الواو، فتبقى سوأة أخيه، ولا تقلب الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ لأن حركتها عارضة، ذكره أبو البقاء. ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ الويل حلول الشر، والويلة: الفضيحة والبلية والهلكة؛ أي: وافضيحتاه، وهي كلمة جزع وتحسر، والألف فيه بدل من ياء المتكلم ﴿أَعَجَزْتُ﴾ من باب فعل المفتوح، وهي اللغة الفاشية، وحكى الكسائي فيه: فعل بكسر العين والعجز: عدم الإطاقة ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ من الندم: وهو التحسر والتلهف، يقال: ندم يندم، من باب فرح إذا تحسر.

---

(١) العكبري. (٢) البحر المحيط.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ والأجل في الأصل[1]: الجناية، يقال: أجل عليهم شراً؛ أي: جنى عليهم جناية، ثم استعمل في تعليل الجنايات، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل سبب.

وعبارة الشوكاني: أي من أجل ذلك القاتل وجريرته، وبسبب معصيته، وقال الزجاج: أي: من جنايته، قال: يقال: أجل الرجل على أهله شراً بأجل أجلاً، إذا جنى مثل أخذ يأخذ أخذاً انتهت. والإسراف البعد عن حد الاعتدال مع عدم المبالاة. ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من حارب من باب فاعل الرباعي يحارب محاربة، والمحاربة من الحرب ضد السلم، والسلم السلامة من الأذى، والضرر والأفة والأمن على النفس والمال، والأصل في معنى كلمة الحرب التعدي وسلب المال، وحربية الرجل: ماله الذي يعيش به، والفساد ضد الصلاح، وكل ما يخرج عن وضعه الذي يكون صالحاً نافعاً.. يقال: إنَّه فسد، ومن كان سبباً لفساد شيء يقال إنَّه أفسده، فإزالة الأمن من الأنفس أو الأموال أو الأعراض، ومعارضته تنفيذ الشريعة العادلة كل ذلك.. إفساد في الأرض ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ والتقتيل المبالغة في القتل بكونه حتماً لا هوادة فيه، ولا عفو من ولي الدم ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ والتصليب المبالغة في الصلب، أو تكرار الصلب، كما قال الشافعي: يصلب بعد القتل ثلاثة أيام؛ بأن يربط على خشبة ونحوها منتصب القامة ممدود اليدين، وربما طعنوا المصلوب ليعجلوا موته ﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف معناه: إذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى، والعكس بالعكس. ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ والنفي من الأرض: النقل من البلد أو القطر الذي أفسدوا فيه إلى غيره من بلاد الإسلام إذا كانوا مسلمين؛ فإن كانوا كفاراً.. جاز نفيهم إلى بعض بلاد الإسلام، أو بعض بلاد الكفار ﴿لَهُمۡ خِزۡيٞ﴾ الخزي: الذلّ والفضيحة، يقال: أخزاه الله، إذا فضحه وأذله ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ﴾؛ أي: من قبل التمكن من عقابهم. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ اتقاء الله: هو اتقاء سخطه وعقابه

---

(١) المراغي.

بعدم مخالفة دينه وشرعه، يقال: اتقى عن الشيء، إذا جعل لنفسه وقايةً عنه، وهو من افتعل الخماسي، أصله اتقوا، يقال: اتقى اتقاء إذا صار تقياً، وابتغاء الوسيلة: طلب الوصول والقرب إليه تعالى بما يرضيه من العمل الصالح. والوسيلة[1] الواسلة إلى ما يتقرب منه، يقال: وسله وتوسل إليه، واستعيرت الوسيلة لما يتقرب به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وقال لبيد:

أَرَىٰ ٱلنَّاسَ لاَ يَدْرُوْنَ مَا قَدْرُ أَمْرِهِمْ ... أَلاَ كُلُّ ذِيْ لُبٍّ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَاسِلُ

وأنشد الطبري:

إِذَا غَفِلَ ٱلْوَاشُوْنَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا ... وَعَادَ ٱلتَّصَابِيْ بَيْنَنَا وَٱلْوَسَائِلُ

وفي «المصباح»: وسلت إلى الله بالعمل أسل من باب وعد، رغبت وتقربت، ومنه اشتقاق الوسيلة وهي: ما يتقرب به إلى الشيء، والجمع الوسائل، والوسيل: قيل: جمع وسيلة، وقيل: لغة فيها، وتوسل إلى ربه توسيلة إذا تقرب إليه بعمل. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

منها: الطباق بين كلمة ﴿قَتَلَ﴾ و﴿أَحْيَا﴾ وهو من المحسنات البديعية، وكذلك بين ﴿يعذب﴾ و﴿يغفر﴾.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّه على حذف مضاف؛ أي: يحاربون أولياء الله لأن الله تعالى لا يحارب ولا يغالب، فالكلام على سبيل المجاز.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾.

ومنها: التعريض بعدم تقوى القاتل في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَتُقُبِّلَ﴾، ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ﴾.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٨.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾، وفي قوله: ﴿قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا﴾ لأنَّ تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر على تفسير الجمهور.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ لأنه استعار الإحياء للاستبقاء، لأنَّ المراد استبقاءها وعدم التعرض لقتلها، وإحياء النفس بعد موتها لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ الآية. قال الزمخشري[1]: هذا تمثيل للزوم العذاب لهم، وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه من الوجوه.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ﴾.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿كَتَبْنَا﴾؛ أي: أمرنا بكتابته في الكتب المنزلة، ففيه نسبة الفعل إلى الآمر.

ومنها: تنزيل غير العاقل منزلة العاقل في قوله: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ لأنَّ أصل النداء أنْ يكونَ للعاقل حقيقة، وقد ينادى ما لا يعقل مجازاً.

ومنها: الاهتمام في قوله: ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾؛ لأنَّ المراد بسوأة أخيه جسده، فإنَّه مما يستقبح بعد موته، وخصت السوأة بالذكر للاهتمام بها، ولأن سترها

---

(١) الكشاف (١/٤٨٨).

آكد. وفيه أيضاً مجاز مرسل بإطلاق اسم البعض على الكل.

ومنها: الإتيان بضمير الشأن في قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ المنبىء[1] عن كمال شهرته ونباهته وتبادره إلى الأذهان، عند ذكر الضمير الموجب لزيادة تقرير ما بعده في الذهن، فإن الضمير لا يفهم منه من الأول إلا شأن مبهم له خطر، فبقى الذهن مترقياً لما يعقبه، فيتمكن عند وروده فضل تمكن؛ فكأنَّه قيل: إن الشأن الخطر هذا. ا هـ. «أبو السعود».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الجمل.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ..﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها(١): أنَّه تعالى لما ذكر جزاء المحاربين بالعقوبات التي فيها قطع الأيدي والأرجل من خلاف، ثم أمر بالتقوى لئلا يقع الإنسان في شيء من الحرابة، ثم ذكر حال الكفار.. ذكر حكم السرقة؛ لأن فيها قطع الأيدي بالقرآن، والأرجل بالسنة على ما يأتي ذكره، وهو أيضاً حرابة من حيث المعنى؛ لأنَّ فيه سعياً بالفساد، إلا أن تلك على سبيل الشوكة والظهور، والسرقة على سبيل الاختفاء والتستر.

وعبارة المراغي هنا: لما بين الله(٢) سبحانه وتعالى عقاب المحاربين الذين

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

يفسدون في الأرض، ويأكلون أموال الناس بالباطل جهرة، وأمر بتقوى الله، وابتغاء الوسيلة، والجهاد في سبيله، وهي الأعمال التي يكمل بها الإيمان، وتتهذب بها النفوس، حتى تنفر من الحرام، وتبتعد عن المعاصي.. ذكر هنا عقاب اللصوص الذين يأكلونها كذلك خفية، وجمع في هذه الآيات بين الوازع الداخلي: وهو الإيمان والصلاح،والوازع الخارجي: وهو الخوف من العقاب والنكال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ مناسبتها لما قبلها[١]: أنَّه تعالى لما ذكر تصرفه في أحكام السراق، ولم يحاب ما ذكر من العقوبات عليهم.. نبه على أن ذلك هو تصرف في ملكه، وملكه لا معقب لحكمه فيه، فيعذب من يشاء عذابه، وهم المخالفون لأوامره، ويغفر لمن يشاء وهم التائبون.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه تعالى لما بين أحكام الحرابة والسرقة، وكان في ذكر المحاربين أنَّهم يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فساداً.. أمره تعالى أنْ لا يحزن، ولا يهتم بأمر المنافقين وأمر اليهود من تعنتهم وتربصهم به، وبمن معه الدوائر، ونصبهم له حبائل المكروه، وما يحدث لهم من الفساد في الأرض، ونصب المحاربة لله ولرسوله، وغير ذلك من الرذائل الصادرة عنهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ...﴾ الآية، سبب نزولها[٢]: ما أخرجه أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو: أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فقطعت يدها اليمنى، فقالت: هل لي من توبة يا رسول الله؟ فأنزل الله في سورة المائدة ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ...﴾ الآية.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه مسلم عن البراء بن عازب قال: مرَّ على النبي ﷺ يهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم ﷺ فقال: «هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟؟ قال: لا والله لولا أنّك نشدتني لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا زنى الشريف.. تركناه، وإذا زنا الضعيف.. أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنّي أول من أحيا أمرك إذا أماتوه» فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: ائتوا محمداً ﷺ؛ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإنْ أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وللآيات سبب آخر أيضاً: وهو ما أخرجه أبو داود بسند رجاله رجال «الصحيح» (ج ٤/ ص ٢٨٦) عن ابن عباس قال: كانت قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير.. قتل به، وإذا قتل رجل من النضير.. يودي بمئة وسق من التمر، فلما بعث النبي ﷺ قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا: ادفعوه إلينا نقتله، فقالوا: بيننا وبينكم النبي ﷺ، فأتوه فنزلت ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ والقسط: النفس بالنفس، ثم نزلت ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى (ج ٢/ ص ٦١) وقد يمكن أنه قد اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كلّه. والله أعلم.

عمر وإبراهيم وابن أبي عبلة: ﴿والسارق والسارقة﴾ بالنصب على الاشتغال وهي قراءة أيضاً. وقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ مفعولان لأجله معلّلان للقطع؛ أي: اقطعوا أيديهما مجازاة لهما على عملهما وكسبهما السيء، وتنكيلاً ومنعاً لغيرهما عن السرقة، ولا عبرة أعظم من قطع اليد، الذي يفضح صاحبه طول حياته، ويسمه بميسم العار والخزي، ولا شك أن هذه العقوبة أجدر بمنع السرقة وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم، فالأرواح كثيراً ما تتبع الأموال إذا قاوم أهلها السراق وحاولوا منعهم من أخذها ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ أي غالب في انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرهما من أهل المعاصي، فلا معقب لحكمه لأنَّه القاهر على كل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه وشرائعه وتكاليفه، فهو يضع الحدود والعقوبات بحسب الحكمة التي توافق المصلحة، فما أمر بأمر إلا وهو صلاح، ولا نهى عن أمر إلا وهو فساد، وكأنَّه يقول: شددوا على السراق فاقطعوهم يداً يداً، ورجلاً رجلاً. وقيل: معنى ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: يضع الشيء في محله، فلا يحكم بقطع يده ظلماً، لأنَّ السارق لما خان هان، ولهذا أورد بعض اليهود على القاضي عبد الوهاب البغدادي سؤالاً حيث قال شعر:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِيْنَ عَسْجَدٌ وُدِيَتْ ... مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِيْ رُبْعِ دِيْنَارِ

فأجابه القاضي رضي الله عنه بقوله:

عِزُّ ٱلأَمَانَةِ أَغْلاَهَا وَأَرْخَصَهَا ... ذُلُّ ٱلْخِيَانَةِ فَٱفْهَمْ حِكْمَةَ ٱلْبَارِيْ

فصل في بيان الأحكام المتعلقة بالآية وفيه خمس مسائل

المسألة الأولى: اقتضت هذه الآية وجوب القطع على كل سارق، وقطع رسول الله ﷺ في السرقة. وعن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ قالوا: من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله!»، ثم قام فخطب ثم قال: «إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف.. تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف..

أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها: أتي رسول الله ﷺ بسارق فقطعه، فقالوا: ما كنا نراك تبلغ به هذا؟ قال: «لو كانت فاطمة لقطعتها» أخرجه النسائي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده». متفق عليه. قال الأعمش: يرون أنه بيض الحديد، وإنَّ من الحبال ما يساوي دراهم. أما السارق الذي يجب عليه القطع.. فهو البالغ العاقل، العالم بتحريم السرقة، فلو كان حديث عهد بالإسلام ولا يعلم أنَّ السرقة حرام فلا قطع عليه.

المسألة الثانية: اختلف العلماء في قدر النصاب الذي يقطع به، فذهب أكثر العلماء إلى أنَّه ربع دينار، فإن سرق ربع دينار، أو متاعاً قيمته ربع دينار.. يقطع، وهذا قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وبه قال عمر بن عبد العزيز والأوزاعي والشافعي. ويدل له: ما روي عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً» أخرجاه في «الصحيحين».

وذهب مالك وأحمد وإسحاق إلى أنَّه ثلاثة دراهم أو قيمتها؛ لما روي عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ «قطع سارقاً في مجن قيمته ثلاثة دراهم» أخرجه الجماعة. والمجن: الترس.

ويروى: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن قدر النصاب الذي تقطع فيه اليد خمسة دراهم، وبه قال ابن أبي ليلى، لما روي عن أنس قال: قطع أبو بكر في مجن قيمته خمسة دراهم وفي رواية: (قطع رسول الله ﷺ) أخرجه النسائي، وقال: الرواية الأولى أصح.

وذهب قوم إلى أنَّه قطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم، ويروى ذلك عن ابن مسعود، وإليه ذهب سفيان الثوري وأبو حنيفة، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ: أول من قطع في مجن قيمته دينار أو عشرة

دراهم). أخرجه أبو داود.

فإذا سرق نصاباً من المال من حرزٍ لا شبهة له فيه.. قطعت يده اليمنى من الكوع، ولا يجب القطع بسرقة ما دون النصاب. وقال ابن عباس وابن الزبير والحسن: القدر غير معتبر فيجب القطع في القليل والكثير، وكذا الحرز غير معتبر أيضاً عندهم، وإليه ذهب داود الظاهري، واحتجوا بعموم الآية، فإن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ يتناول القليل والكثير، وسواء من حرز أو غير حرز.

المسألة الثالثة في الحرز: الحرز: هو ما جعل للسكنى وحفظ الأموال، كالدور والمضارب والخيم التي يسكنها الناس، ويحفظون أمتعتهم فيها، فكل ذلك حرز وإن لم يكن فيه حافظ ولا عنده، وسواء سرق من ذلك وهو مفتوح الباب أو مغلق، فأما ما كان في غير بناء ولا خيمة.. فإنَّه ليس بحرز، إلا أن يكونَ عنده من يحفظه. أما نباش القبور فإنَّه يقطع، وهو قول مالك والشافعي وأحمد، وقال ابن أبي ليلى والثوري والأوزاعي وأبو حنيفة: لا قطع عليه، فإن سرق شيئاً من غير حرز كثمر من بستان لا حارس له، أو حيوان في برية ولا راعٍ له، أو متاع في بيت منقطع عن البيوت.. فلا قطع عليه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ سئل عن الثمر المعلق؟ فقال: «من أصاب بفيه منه من ذي حاجة غير متخذ خبنة فلا شيء عليه»، أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي، وزاد فيه «ومن خرج بشيء منه فعليه غرامة مثله والعقوبة، ومن سرق منه شيئاً بعد أن يؤويه الجرين فبلغ ثمن المجن فعليه القطع، ومن سرق دون ذلك فعليه غرامة مثله والعقوبة»، قوله: غير متخذ خبنة ـ الخبنة بالخاء المعجمة وبعدها باء موحدة ثم نون ـ وهو ما يحمله الإنسان في حضنه، وقيل: هو ما يأخذه في خبنة ثوبه، وهو ذيله وأسفله، والجرين: موضع التمر الذي يجفف فيه مثل البيدر للحنطة.

وروى مالك في «الموطأ»، عن أبي حسين المكي أن رسول الله ﷺ قال: «لا قطع في ثمر معلق ولا في حريسة الجبل، فإذا أواه المراح أو الجرين..

فالقطع فيما بلغ ثمن المجن» هكذا رواه مالك منقطعاً، وهو رواية من حديث عبد الله بن عمرو المتقدم، فإن هذه الرواية عن أبي حسين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وجده هو عبد الله بن عمرو بن العاص. قوله: «ولا في حريسة الجبل» من العلماء من يجعل الحريسة السرقة نفسها يقال: حرس يحرس حرساً، إذا سرق، ومنهم من يجعلها المحروسة. ومعنى الحديث: أنَّه ليس فيما يحرس في الجبل إذا سرق قطع؛ لأنه ليس بحرز، وقيل: حريسة الجبل هي الشاة التي يدركها الليل قبل أن تصل مأواها، والمراح ـ بضم الميم ـ هو الموضع الذي تأوي إليه الماشية بالليل.

وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «ليس على خائن ولامنتهب ولا مختلس قطع» أخرجه الترمذي والنسائي.

المسألة الرابعة: إذا سرق مالاً له فيه شبهة، كالولد يسرق من مال والده، أو الوالد يسرق من مال ابنه، أو العبد يسرق من مال سيده، أو الشريك يسرق من مال شريكه.. فلا قطع على أحد من هؤلاء فيه. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تقطع المرأة إذا سرقت من مال زوجها، ولا هو إذا سرق من مال زوجته. وقال مالك: يقطعان، ذكره أبو حيان في «البحر».

المسألة الخامسة: إذا سرق أول مرة.. قطعت يده اليمنى من الكوع، وإذا سرق ثانية.. قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم، واختلفوا فيما إذا سرق مرة ثالثة، فذهب أكثرهم إلى أنَّه تقطع يده اليسرى، فإن سرق مرة رابعة.. قطعت رجله اليمنى، ثم إذا سرق بعد ذلك.. يعزر ويحبس حتى تظهر توبته. يروى هذا عن أبي بكر، وهو قول قتادة، وبه قال مالك والشافعي لما روي عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال في السارق: «إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله» ذكره البغوي بغير سند. وذهب قوم إلى أنَّه إنْ سرق بعدما قطعت يده ورجله.. فلا قطع عليه بل يحبس. وروي عن علي أنه قال: إني أستحيي أن لا أدع له يداً يستنجي بها، ولا رجلاً يمشي بها. وهذا قول الشعبي والنخعي والأوزاعي، وبه قال أحمد وأصحاب الرأي.

﴿فَمَن تَابَ﴾ من السراق إلى الله تعالى، ورجع عن السرقة ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ لنفسه بعمله ما نهاه الله عنه من سرقة أموال الناس ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ نفسه وزكاها بأعمال البر. قال أبو حيان: وظاهر الآية أنَّه بمجرد التوبة لا يقبل إلا إذا ضم إلى ذلك الإصلاح، وهو: التنصل من التبعات بردها إن أمكن، وإلا فبالاستحلال منها، أو بإنفاقها في سبيل الله إن جهل صاحبها، انتهى. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾؛ أي: يقبل توبته تفضلاً منه وإحساناً لا وجوباً عليه، ويرجع إليه بالرضا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لما كان منه قبل التوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب.

فصل

وهذه التوبة مقبولة فيما بينه وبين الله؛ فأما القطع: فلا يسقط عنه بالتوبة عند أكثر العلماء؛ لأن الحد جزاء على الجناية، ولا بد من التوبة بعد القطع، وتوبته: الندم على ما مضى، والعزم على تركه في المستقبل، وإعادة المال المسروق بعينه إن كان باقياً، وإلا فدفع قيمته إن قدر. وعن أبي أمية المخزومي أن رسول الله ﷺ أتى بلص قد اعترف اعترافاً ولم يوجد معه متاع فقال له رسول الله ﷺ: «ما إخالك سرقت»، فقال: بلى، فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يعترف، فأمر به فقطع، ثم جيء به، فقال له رسول الله ﷺ: «استغفر الله وتب إليه» فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه، فقال النبي ﷺ: «اللهم تب عليه»، أخرجه أبو داود والنسائي بمعناه. وإذا قطع السارق.. يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم. وقال الثوري وأصحاب الرأي: لا غرم عليه، فلو كان المسروق باقياً عنده.. يجب عليه أن يرده إلى صاحبه وتقطع يده؛ لأنَّ القطع حق الله، والغرم حق الآدمي، فلا يسقط أحدهما بالآخر، والله أعلم.

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن عقاب السراق والعفو عن التائبين جاء وفق الحكمة والعدل والرحمة فقال: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ يا محمد أو يا مخاطب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سلطنتهما وتدبيرهما وتصرفهما، يدبر الأمر فيهما بحكمته وعدله ورحمته وفضله، يعني أنَّ الله تعالى

مدبر أمر ما في السمٰوات والأرض ومصرفه، وخالق من فيهما ومالكه، لا يمتنع عليه شيء مما أراده فيهما؛ لأن ذلك كله في ملكه وإليه أمره. ومن حكمته أنَّه وضع هذا العقاب لكل من يسرق ما يعد به سارقاً، كما وضع العقاب للمحاربين المفسدين في الأرض، وأنَّه يغفر للتائبين من هؤلاء وهؤلاء، ويرحمهم إذا صدقوا في التوبة وأصلحوا عملهم و﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه من العصاة تربية له، وتأميناً لعباده من شره وأذاه. ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ المغفرة له من التائبين برحمته وفضله، ترغيباً لهم في تزكية أنفسهم. قال ابن عباس[1] رضي الله عنهما: يعذب من يشاء على الصغيرة، ويغفر لمن يشاء على الكبيرة، وقيل: يعذب من يشاء على معصيته وكفره بالقتل والقطع وغير ذلك في الدنيا، ويغفر لمن يشاء بالتوبة عليه، فينقذه من الهلكة والعذاب، وإنما قدم التعذيب على المغفرة لأنَّه في مقابلة قطع السرقة على التوبة.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر على تعذيب من أراد تعذيبه من خلقه، وعلى غفران ذنوب من أراد إسعاده وإنقاذه من الهلكة من خلقه؛ لأنَّ الخلق كلهم عبيده، وفي ملكه، فلا يعجزه شيء في تدبير ملكه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ خاطب الله محمداً ﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ في مواضع كثيرة من القرآن، وما خاطبه بيا أيها الرسول إلا في موضعين، هما: في سورة المائدة في هذا الموضع، وموضع آخر بعده وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهذا الخطاب للتشريف والتعظيم، وتأديب المؤمنين وتعليمهم أن يخاطبوه بوصفه كما كان يفعل بعض أصحابه بقولهم: يا رسول الله، وجهل هذا بعض الأعراب لخشونتهم وسذاجة فطرتهم فكانوا ينادونه «يا محمد» حتى أنزل الله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ فكفوا عن ندائه باسمه. والحاصل: أن نداءه بيا أيها النبي وبيا أيها الرسول نداء تشريف وتعظيم وتفخيم لقدره، ونادى غيره من الأنبياء باسمه فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ ﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى

(١) الخازن.

مُتَوَفِّيكَ﴾، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وقوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي رباعياً، والباقون بفتح الياء وضم الزاي ثلاثياً، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ هكذا قراءة الجمهور بالألف من سارع، وقرأ السلمي يسرعون بغير ألف من أسرع، والمسارعة إلى الشيء: الوقوع فيه بسرعة والمراد هنا: وقوعهم في الكفر بسرعة عند وجود فرصة، وآثر لفظ (في) على لفظ (إلى) للدلالة على استقرارهم فيه؛ أي: لا تهتم أيها الرسول ولا تبال بمسارعة هؤلاء المنافقين الذين يبادرون في إظهار الكفر، وموالاة أعداء المؤمنين عندما يرون الفرصة سانحة؛ فالله يكفيك شرهم، ويقيك ضرهم، وينصرك عليهم، وعلى من شايعهم وناصرهم.

والمراد بالنهي عن الحزن هو أمر طبيعي، وليس للإنسان فيه اختيار النهي عن لوازمه التي يفعلها الناس مختارين من تذكر المصائب، وتعظيم شأنها، وبذا يتجدد الألم، ويبعد أمد السلوى. ثم بين أن أولئك المسارعين في الكفر من المنافقين ومن اليهود فقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ فـ(مِنْ) فيه بيانية للمسارعين والباء في قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ متعلقة بقالوا، لا بآمنا، وهؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ هم المنافقون وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يعني اليهود، معطوف على ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ وهو تمام الكلام، يعني أنَّ المسارعين في الفكر هم طائفة من المنافقين، وطائفة من اليهود.

والمعنى: لا يحزنك يا محمد الذين يسارعون في الكفر حالة كونهم من المنافقين الذين أذاعوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وحالة كونهم من الذين هادوا؛ أي: من اليهود. وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ راجع للفريقين، أو إلى المسارعين، واللام في قوله: ﴿لِلْكَذِبِ﴾ للتقوية أو لتضمين السماع معنى القبول، وسماعون خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم؛ أي: كل من الفريقين من المنافقين واليهود سماعون؛ أي: كثيروا الاستماع، سماع قبول للكذب الذي يقوله ويفتريه رؤوسائهم وأحبارهم في نعوت النبي ﷺ، وفي أحكام دينهم التي يتلاعبون فيها بأهوائهم. وقرأ الحسن وعيسى بن عمر: ﴿لِلكِذْب﴾ بكسر الكاف وسكون الذال، وقرأ زيد بن علي أيضاً: «الكُذُب» بضم الكاف والذال، وجمع كذوب كصبور وصبر؛ أي: سماعون لكذب الكذب ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ

﴿يَأْتُوكَ﴾؛ أي: هم سماعون أيضاً لكلامك يا محمد؛ لأجل إخباره ونقله لقوم آخرين من اليهود، لا يأتونك تكبراً وبغضاً؛ لأنهم لتكبرهم وبغضهم لك لا يقربون مجلسك ولا يحضرونه، وهم يهود خيبر، زنى فيهم محصنان فكرهوا رجمهما، فبعثوا قريظة ليسألوا النبي ﷺ عن حكمهما، وأرسلوا الزانيين معهم، فأمرهم النبي ﷺ برجمهما؛ أي: إنَّ[1] هؤلاء القوم من اليهود لهم صفتان: سماع الكذب من أحبارهم، ونقله إلى عوامهم، وسماع الحق منك ونقله لأحبارهم ليحرفوه فقوله ﴿لِقَوْمٍ﴾؛ أي: لأجل قوم لا يأتونك؛ أي: فيكونون وسائط بينك وبين قوم آخرين، والوسائط هم قريظة، والقوم الآخرون هم يهود خيبر. وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ صفة ثالثة لقوم؛ أي: سماعون لكلامك لنقله إلى قوم يحرفون ويزيلون ويغيرون ويبدلون كلم التوراة وأحكامها المذكورة فيها.

﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ أن وضعها الله تعالى وأثبتها فيها عن ﴿مَوَاضِعِهِۦ﴾؛ أي: عن مواضع تلك الكلم، فالضمير عائد على لفظ الكلم؛ أي: يحرفون كلم التوراة من بعد وضعه في مواضعه، إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة بكلمة، كما في نعوت محمد ﷺ، أو بإخفائه وكتمانه، كالبشارة بظهوره، ونصره بالرعب، وآية الرجم أو بالزيادة فيه أو بالنقص منه، وإما تحريفاً معنوياً بحمل اللفظ على غير ما وضع له، وقرىء ﴿الكلم﴾ بكسر الكاف وسكون اللام ﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول هؤلاء المحرفون - وهم يهود خيبر - لمن أرسلوهم إلى الرسول ﷺ ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم، وأرادوا أن يحابوهما بعدم رجمهما، وهم بنو قريظة ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ وأعطيتم ﴿هَٰذَا﴾ الجلد الذي طلبناه من محمد ﴿فَخُذُوهُ﴾؛ أي: فاقبلوه منه؛ أي: يقول المرسلون - وهم يهود خيبر - لمن أرسلوهم - وهم قريظة - إن أعطاكم محمد رخصة بالجلد عوضاً عن الرجم.. فخذوها وارضوا بها ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾؛ أي: وإن لم تعطوا هذا الجلد، بأن أفتاكم الرجم ﴿فَٱحْذَرُوا۟﴾ أن تقبلوه، وابتعدوا منه؛ أي: وإن حكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك، ولا ترضوا به.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾ وغوايته وضلاله وكفره ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: فلن تستطيع له أن تدفع عنه شيئاً من أمر الله الذي حكم عليه، وأراد به الذي هو الكفر والضلال؛ أي[1]: ومن يرد الله تعالى أن يختبرهُ في دينه، فيظهر الاختبار كفره وضلاله.. فلن تملك له أيها الرسول من الله شيئاً من الهداية والرشد؛ فهؤلاء المنافقون والجاحدون من اليهود قد أظهرت لك فتنة الله واختباره إياهم مقدار فسادهم، فهم يقبلون الكذب دون الحق، وهم محرفون كاتمون لأحكام كتابهم إتباعاً لأهوائهم ومرضاة لرؤسائهم وذوي الجاه منهم، فلا تحزن بعد هذا على مسارعتهم في الكفر، ولا تطمع في جذبهم إلى الإيمان، فإنَّك لا تملك لأحد نفعاً، وإنَّما عليك البلاغ والبيان، ولا تخف عاقبة نفاقهم، فإنَّما العاقبة للمتقين من أهل الإيمان، ولهم الخزي والهوان.

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إلى من تقدم ذكرهم من الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾؛ أي: أولئك المنافقون واليهود هم ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق، وخبث الضلالة؛ لإنهماكهم فيهما، كما طهر قلوب المؤمنين؛ أي[2]: إنَّ أولئك الذين بلغت منهم الفتنة ذلك المبلغ، هم الذين لم يرد الله تطهير قلوبهم من الكفر والنفاق؛ لأنَّ إرادته إنَّما تتعلق بما اقتضته سننه العادلة في نفوس البشر من أنَّها إذا دأبت على الباطل، ومرنت على الكيد والشر، وألفت الخلاف والضر، تحيط بها خطيئتها، وتطبق عليها ظلمتها.. فلا يبقى لديها لنور الحق منفذ، وتصبح غير قابلة للاستبصار والاعتبار الذي جعله الله وسيلة للاتعاظ والهداية، فهؤلاء الرؤساء من اليهود وأعوانهم لا تقبل طباعهم سواها، فلا تتعلق إرادته سبحانه بتطهير قلوبهم، وإلا كان ذلك خلافاً لما اقتضته سننه، وتبديلاً لنظمه في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المنافقين واليهود ﴿خِزْيٌ﴾؛ أي: ذل بالفضيحة للمنافقين، وبظهور نفاقهم بين المسلمين، وخوفهم من قتل المسلمين إياهم، وبالجزية والافتضاح لليهود بظهور كذبهم في كتمان التوراة ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المنافقين واليهود ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد، وهو الخلود في النار، وصفه بالعظم لتزايده فلا انقضاء له، أو لتزايد ألمه، أو لهما؛ أي: فخزي المنافقين في الدنيا هتك أستارهم بإطلاع الرسول على كذبهم، وخوفهم من القتل، وخزي اليهود فضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نصوص كتابهم في إيجاب الرجم، وعلو الحق على باطلهم، وقد صدق الوعيد على كل يهود الحجاز، كما يصدق على كل من يفسدون كفسادهم، ولا يغني عنهم الانتساب إلى نبي لم يتبعوه، ولا تنفعهم دعوى الإيمان بكل نبي لم يتبعوه، وعذابهم في الآخرة نجزم بحصوله، ولا نعلم مقدار كنهه، وحقيقة أمره.

قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرره[1] تأكيداً لقبحه، وليكون كالمقدمة لما بعده وهو: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ وهو من أخبار ذلك المبتدأ المقدر سابقاً؛ أي: سماعون للكذب الذي كانوا ينسبونه إلى التوراة ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾؛ أي: الحرام الذي[2] يصل إليهم من الرشوة في الحكم، ومهر البغي، وعسيب الفحل، وثمن الدم، وثمن الكلب، وثمن الخمر، وثمن الميتة، وحلوان الكاهن، وأجرة النائحة والمغنية، وأجرة مصور التماثيل، وثمن النرد وآلات اللهو، وثمن الصور الحيوانية إلى غير ذلك من أنواع المحرمات، روي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس وأبي هريرة ومجاهد.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب[3]: ﴿السُّحُت﴾ بضمتين. وقرأ باقي العشرة بإسكان الحاء، وزيد بن علي وخارجة بن مصعب، عن نافع بفتح

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

السين وإسكان الحاء، وقرىء بفتحتين، وقرأ عبيد بن عمير أيضاً بكسر السين وإسكان الحاء، فبالضم والكسر والفتحتين، اسم المسحوت: كالدهن والرعي والنبض، وبالفتح والسكون مصدر أريد به المفعول، كالصيد بمعنى المصيد، أو سكنت الحاء طلباً للخفة.

قيل: نزلت[1] في حكام اليهود، مثل كعب بن الأشرف ونظرائه، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم. قال الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاهم أحدهم برشوة.. جعلها في كمه، ثم يريها إياه ويتكلم بحاجته، فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب ويأكل الرشوة وهي: السحت. وأصل السحت الاستئصال، يقال: سحته إذا استأصله، وسميت الرشوة في الحكم سحتاً؛ لأنَّها تستأصل دين المرتشي، والسحت كله حرام، تحمل عليه شدة الشره، وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذي لا تكون له بركة، ولا لآخذه مروءة، ويكون في حصوله عار، بحيث يخفيه لا محالة، ومعلوم أن حال الرشوة كذلك، فلذلك حرمت الرشوة على الحاكم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم». أخرجه الترمذي. وأخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال الحسن: إنَّما ذلك في الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلاً، أو يبطل عنك حقاً. وقال ابن مسعود: الرشوة في كل شيء، فمن شفع شفاعة ليرد بها حقاً، أو يدفع بها ظلماً فأهدى بها إليه فقبل.. فهو سحت، فقيل له: يا أبا عبد الرحمٰن ما كنا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم، فقال: الأخذ على الحكم كفر، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ يا محمد؛ أي: جاءك اليهود متحاكمين إليك فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فأنت[2] مخير بين

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

الحكم بينهم، والإعراض عنهم، وتركهم إلى رؤسائهم، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم في بلادهم وإن تحاكموا إليهم، بل هم مخيرون يرجحون في كل حال ما يرونه من المصلحة، وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا؛ لأن من أخذت منهم الجزية.. تجري عليه أحكام الإسلام في البيوع والمواريث وسائر العقود إلا في الخمر والخنزير فإنَّهم يقرون عليه، ولكن لا يظهرونه، ويمنعون من الزنا كالمسلمين، فإنَّهم نهوا عنه ويقام عليهم حدّه.

فصل

اختلف علماء التفسير في حكم هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنَّها منسوخة، وذلك أنَّ أهل الكتاب كانوا إذا ترافعوا إلى النبي ﷺ.. كان مخيراً، فإن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، ثم نسخ ذلك بقوله ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فلزمه الحكم بينهم وزال التخيير، وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء ومجاهد وعكرمة والسدي.

والثاني: أنَّها محكمة، والحكام المسلمين بالخيار إذا ترافعوا إليهم.. فإن شاؤوا حكموا بينهم، وإن شاؤوا أعرضوا عنهم، وهذا القول مروي عن الحسن والشعبي والنخعي والزهري، وبه قال أحمد ابن حنبل، وهو الصحيح لأنَّه لا منافاة بين الآيتين. أمَّا قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ ففيه التخيير بين الحكم والإعراض. وأمَّا قوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ففيه بيان كيفية الحكم إذا حكم بينهم.

قال الإمام فخر الدين الرازي[1]: ومذهب الشافعي أنَّه يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليه؛ لأنَّ في إمضاء حكم الإسلام عليهم إذلالاً وصَغاراً لهم، فأمَّا المعاهدون الذين لهم مع المسلمين عهد

(١) الفخر الرازي.

إلى مدة.. فليس بواجب على الحاكم أن يحكم بينهم، بل يتخير في ذلك، وهذا التخيير المذكور في هذه الآية مخصوص بالمعاهدين. ولو ترافع إلينا ذميان في شرب الخمر.. لم نحدهما وإن رضيا بحكمنا؛ لأنَّهما لا يعتقدان تحريمها، وأمَّا إذا تحاكم مسلم وذمي وجب على الحاكم الحكم بينهم إجماعاً، لا يختلف القول فيه؛ لأنَّه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة، وكذا الذمي مع المعاهدين، انتهى بزيادة بعض الحروف.

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: وإن اخترت الإعراض عنهم ولم تحكم بينهم ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ من الضرر، فالله حافظك من ضررهم؛ أي: لأنهم إنَّما يتحاكمون إليك لطلب الأخف، فإذا أعرضت عنهم، وأبيت عن الحكم بينهم.. شق عليهم إعراضك عنهم، وصاروا أعداء لك، فلا تضرك عداوتهم لك، فإن الله تعالى يعصمك من الناس ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾، أي: وإن اخترت الحكم بينهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل الذي أمرت به، وهو ما تضمنه القرآن واشتملت عليه شريعة الإسلام ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾؛ أي: يثيب العادلين في الحكم.

والاستفهام في قوله ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ إلخ، إستفهام تعجيب من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ من تحكيمهم إياه، مع أنهم لا يؤمنون به وبكتابه، والحال أن الحكم منصوص عليه في التوراة التي يدعون الإيمان بها، وتنبيه على أنَّهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنَّما طلبوا به ما هو أهون عليهم وإن لم يكن ذلك حكم الله على زعمهم، ثم يعرضون عن حكمه ﷺ الموافق لكتابهم من بعد التحكيم، والرضا بحكمه ﷺ فقوله: ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ﴾ حال من فاعل يحكمونك وقوله: ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ حال من التوراة وقوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ معطوف على يحكمونك.

والمعنى: واعجب يا محمد من تحكيمهم إياك في حدّ الزنا، والحال أن عندهم التوراة كتابهم حالة كون التوراة موصوفة بكون حكم الله بالرجم في الزنا موجوداً فيها، ثم اعجب من توليهم وإعراضهم عن حكمك من بعد تحكيمهم

إياك، ورضاهم بحكمك.

فائدة: والاستفهام التعجبي ضابطه هو إيقاع[1] المخاطب في العجب؛ أي: التعجب. والتعجب هنا من وجهين:

الأول: قوله: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ...﴾ إلخ.

والثاني: قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ...﴾ إلخ كما أشرنا إليه في التفسير؛ أي: وكيف[2] يحكمونك في قضية كقضية الزانيين وعندهم التوراة، وهي شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه، ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقته إياها. وخلاصة ذلك أن أمرهم لمن أعجب العجب، وما سبب ذلك إلا أنَّهم ليسوا بمؤمنين بالتوراة إيماناً صحيحاً، ولا هم مؤمنين بك، إذ المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره، إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضاً، أيد به الأول، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك ﴿وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ البعداء من الله تعالى يعني اليهود ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة وإن كانوا يظهرون الإيمان بها لإعراضهم عنها أولاً، وعما يوافقها ثانياً، أو بك ولا بها، وإن طلبوا الحكم منك لأنَّهم لا يعتقدون صحة حكمك، وذلك دليل على أنَّه لا إيمان لهم بشيء، وأنَّ مقصودهم تحصيل منافع الدنيا، وأغراضهم الفاسدة، دون اتباع الحق.

الإعراب

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ مبتدأ. ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾: معطوف عليه، وفي الخبر وجهان:

أحدهما: وعليه سيبويه أنَّه محذوف تقديره: حكم السارق والسارقة فيما

---

(١) الجمل.

(٢) المراغي.

يتلى عليكم أو فيما فرض عليكم، ويكون قوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ﴾ بياناً لذلك الحكم المقدر، فما بعد الفاء مرتبط بما قبلها، ولذلك أتي بها فيه لأنَّه هو المقصود، ولو لم يؤتِ بالفاء لتوهم أنَّه أجنبي، والكلام على هذا جملتان: الأولى: اسمية خبرية، والثانية: فعلية إنشائية.

وثانيهما: وعليه الأخفش وجماعة من النحاة: أن الخبر الجملة الإنشائية من قوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ﴾ وإنَّما دخلت الفاء في الخبر لشبه المبتدأ باسم الشرط في العموم، إذ الألف واللام فيه موصولة، بمعنى الذي والتي، والصفة صلتها، فهي في قوة قولك: والذي يسرق والتي تسرق فاقطعوا أيديهما، والجملة من المبتدأ والخبر على كلا الوجهين مستأنفة كما سبق، ذلك كله في بحث التفسير. ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿جَزَآءَۢ﴾: مفعول لأجله منصوب، بـ﴿اقطعوا﴾ فالجزاء علة للأمر بالقطع، أو منصوب على المصدرية بفعل محذوف تقديره: جازاهما الله جزاء على ما كسبا، والجملة المحذوفة معللة للقطع أيضاً، كما ذكره أبو البقاء. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر بمعنى على. ﴿ما﴾: موصولة أو مصدرية. ﴿كَسَبَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: على الذي كسباه من السرقة، أو صلة (ما) المصدرية تقديره: على كسبهما، والجار والمجرور على كلا الوجهين متعلق بـ﴿جَزَآءَۢ﴾. ﴿نَكَٰلًا﴾: مفعول لأجله منصوب[1] بـ﴿جَزَآءَۢ﴾ فالنكال علة للجزاء، فتكون العلة معللة بشيء آخر، فتكون كالحال المتداخلة، كما تقول: ضربته تأديباً له، إحساناً إليه، فالتأديب علة للضرب، والإحسان علة للتأديب. ا هـ. «سمين». ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَكَٰلًا﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَزِيزٌ﴾ خبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، والجملة مسأنفة.

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

(١) الفتوحات.

﴿فَمَن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حكم السارق والسارقة، وأردت بيان حكم من تاب بعد سرقته.. فأقول لك. ﴿من تاب﴾: من اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿تَابَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ(من) على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على مَنْ. ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَابَ﴾. ﴿وَأَصْلَحَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ(من) معطوف على ﴿تَابَ﴾: وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: (الفاء): رابطة لجواب من الشرطية وجوباً. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها منصوب. ﴿يَتُوبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتُوبُ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مسأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول له. ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري. وما ذكر الشوكاني في أن الاستفهام للإنكار غير صواب. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَعْلَمْ﴾: فعل مضارع مجزوم، بـ﴿لم﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر ساد مسد مفعول علم تقديره: ألم تعلم كون ملك السماوات والأرض له تعالى. ﴿يُعَذِّبُ﴾ فعل مضارع والفاعل يعود على الله. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به ﴿يَشَآءُ﴾ مضارع صلة

الموصول ﴿وَيَغْفِرُ﴾ معطوفة على ﴿يُعَذِّبُ﴾ ﴿لِمَن﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿يغفر﴾ ﴿يَشَآءُ﴾ مضارع والفاعل يعود على الله، والجملة صلة الموصول ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾. ﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة. (ها): حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: صفة لـ(أي)، وجملة النداء مستأنفة. ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾: جازم وفعل ومفعول. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل، والجملة الفعلية جواب النداء. ﴿يُسَـٰرِعُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْكُفْرِ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور حال من الضمير في ﴿يُسَـٰرِعُونَ﴾ أو من ﴿ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ﴾. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قالوا بأفواههم: آمنا. ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾: جازم وفعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾، ﴿هَادُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم؛ أي: كل من الفريقين: اليهود والمنافقين قوم سماعون، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره مستأنفة، قوله: ﴿لِلْكَذِبِ﴾ فيه وجهان[1]:

أحدهما: اللام زائدة، تقديره: سماعون للكذب.

والثاني: ليست زائدة، فهي متعلقة بـ﴿سَمَّـٰعُونَ﴾، والمفعول محذوف تقديره

---

(١) العكبري.

سماعون أخباركم ليكذبوا عليكم فيها.

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾.

﴿سَمَّٰعُونَ﴾ خبر ثان للمبتدأ المقدر سابقاً، وقيل توكيد لفظي للأول وتكرير له. ﴿لِقَوۡمٍ﴾ متعلق به؛ أي: لأجل قوم، ويجوز أن تتعلق اللام في ﴿لِقَوۡمٍ﴾ بالكذب سماعون الثاني: مكرر والتقدير: ليكذبوا لقوم آخرين. ﴿ءَاخَرِينَ﴾ صفة أول ﴿لِقَوۡمٍ﴾. ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر صفة ثانية ﴿لقوم﴾. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثالثة ﴿لِقَوۡمٍ﴾ أو في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم يحرفون الكلم، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾.

﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر صفة رابعة ﴿لِقَوۡمٍ﴾، أو في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم يقولون، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿يُحَرِّفُونَ﴾. ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنۡ﴾ حرف شرط جازم. ﴿أُوتِيتُمۡ﴾: فعل ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إِنۡ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. هذا في محل النصب مفعول ثان. لـ﴿أُوتِيتُمۡ﴾ والأول كان نائب فاعل له. ﴿فَخُذُوهُ﴾ الفاء: رابطة لجواب (إنْ) الشرطية وجوباً. ﴿خذوه﴾ فعل وفاعل ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إِنۡ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنۡ﴾ الشرطية في محل النصب مقول القول. ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿لَّمۡ﴾: حرف جزم. ﴿تُؤۡتَوۡهُ﴾: فعل ونائب فاعل ومفعول ثان مجزوم بـ﴿لَّمۡ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٱحۡذَرُواْۚ﴾: (الفاء): رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿احذروا﴾ فعل وفاعل مبني على حذف النون، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً

لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: في محل النصب معطوفة عل جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿يَقُولُونَ﴾.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَمَن﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿يُرِدِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿منْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَلَن﴾ (الفاء): رابطة لجواب من الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بلن. ﴿لن﴾: حرف نصب. ﴿تَمْلِكَ﴾ منصوب بـ﴿لن﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَمْلِكَ﴾. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَمْلِكَ﴾ أيضاً، أو حال من ﴿شَيْـًٔا﴾؛ لأنَّه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به أو منصوب على المصدرية، وجملة ﴿تَمْلِكَ﴾ في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبر والجملة مستأنفة ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ جازم وفعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد الضمير في ﴿قُلُوبَهُمْۚ﴾ ﴿أَن﴾ حرف نصب. ﴿يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾: فعل ومفعول به ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: لم يرد الله تطهير قلوبهم. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار المتعلق به الخبر. ﴿خِزْيٌۖ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة[1] استئنافاً بيانياً لجواب سؤال ناشىء من تفصيل أفعالهم وأحوالهم الموجبة للعقاب، كأنَّه قيل: فما لهم من العقوبة؟ فقيل: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا

---

(١) الفتوحات.

﴿خِزۡيٌ﴾ إلخ. ﴿وَلَهُمۡ﴾ الواو: عاطفة. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: جار ومجرور، متعلق بالاستقرار المتعلق به الخبر. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾.

﴿سَمَّٰعُونَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم سماعون، والجملة مستأنفة كرره للتأكيد وتوطئة لما بعده. ﴿لِلۡكَذِبِ﴾ متعلق به. ﴿أَكَّٰلُونَ﴾: خبر لمبتدإ محذوف. ﴿لِلسُّحۡتِۚ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على الجملة التي قبلها. ﴿فإن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حالهم الخبيثة وأردت بيان حكم ما إذا تحاكموا إليك.. فأقول لك. ﴿إن جاءوك﴾ إن حرف شرط. ﴿جَآءُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بإنْ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَٱحۡكُم﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً. ﴿احكم﴾: فعل أمر في محل الجزم (بإنْ) على كونه جواباً لها مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿احكم﴾. ﴿أَوۡ﴾ حرف عطف وتخيير ﴿أَعۡرِضۡ﴾: فعل أمر في محل الجزم معطوف على ﴿احكم﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَنۡهُمۡۖ﴾: جار ومجرور، متعلق به، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: في محل النصب قول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾.

﴿وَإِن﴾: (الواو): عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تُعۡرِضۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(إن) على كونه فعل شرط لها وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق به. ﴿فَلَن﴾: الفاء: رابطة لجواب (إن) الشرطية وجوباً، لاقترانه بـ(لن). ﴿لن﴾: حرف نصب. ﴿يَضُرُّوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بـ(لن). ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: شيئاً من الضرر،

والجملة الفعلية في محل الجزم بإنْ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة إن الأولى على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿وَإِنْ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿حَكَمْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَاحْكُم﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية. ﴿احكم﴾: فعل أمر في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بَيْنَهُم﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿احكم﴾. ﴿بِالْقِسْطِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿احكم﴾ تقديره: حالة كونك متلبساً بالقسط، وجملة إن الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة إن الأولى. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾.

﴿وَكَيْفَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿كيف﴾ اسم استفهام في محل النصب حال من فاعل ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾ مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً. ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول مرفوع بثبات النون، والجملة مستأنفة. ﴿وَعِندَهُمُ﴾ الواو: واو الحال. ﴿عندهم﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿التَّوْرَاةُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من التوراة، والعامل فيها ما في (عند) من معنى الفعل.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾، والجملة معطوفة على جملة

﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾ ﴿وَمَآ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾ حجازية تعمل عمل ليس. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبر ﴿ما﴾ والباء زائدة والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾: ﴿السارق﴾: اسم فاعل من سرق يسرق من باب ضرب سرقاً بفتح الراء وسرقاً بكسرها، وسرقة بفتحها وسرقة بكسرها وسرقاناً، يقال: سرقه الشيء، وسرق منه الشيء، إذا أخذه منه خفية وبحيلة. وقال[1] الجوهري: السرقة بكسر الراء اسم الشيء المسروق، والمصدر من سرق يسرق سرقاً، وسرقة، وهو: أخذ الشيء في خفية عن الأعين، ومنه استرق السمع ومسارقة النظر. ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ اسم فاعل لمذكر يجمع على سرقة ككامل وكملة، وعلى سراق كعاذل وعذال، وعلى سارقون. ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾: اسم فاعل لمؤنث يجمع على سوارق وسارقات. وقال ابن عرفة[2]: السارق عند العرب: من جاء مستتراً إلى حرز فأخذ منه ما ليس له. ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾: يقال قطع الشيء يقطع، من باب فتح قطعاً ومقطعاً وتقطاعاً إذا جزه وأبانه وفصله، والقطع معناه: الإزالة والإبانة. والأيدي جمع يد برد اللام المحذوف في المفرد اعتباطاً؛ أي: لغير علة تصريفية، وجمعه هنا فراراً من كراهة الجمع بين تثنيتين، لو قال فاقطعوا يديهما، واليد: الجارحة المعروقة، واختلفوا في محل قطعها كما بيناه في بحث التفسير.

﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدر معنوي لاقطعوا؛ فهو منصوب به؛ لملاقته له في المعنى، أو منصوب بمحذوف يلاقيه في اللفظ تقديره: فجازوهما جزاء ﴿نَكَٰلًا﴾ اسم مصدر لنكل من باب فعل المضاعف ينكل تنكيلاً ونكالاً، ككلم يكلم تكليماً وكلاماً. وفي «المصباح»: نكل به ينكل من باب قتل نكلة قبيحة إذا أصابه بنازلة،

---

(١) الصحاح.
(٢) البحر المحيط.

ونكل به بالتشديد مبالغة، والاسم النكال. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ﴾ والحزن: ألم يجده الإنسان عند فوت ما يحب، ويقال: حزن يحزن حزناً من باب نصر ضد سره، وحزن يحزن حزناً من باب فرح له، وعليه ضد سر وفرح، فهو حزين، وأحزن الرجل إذا حزنه.

قال الشوكاني[1]: الحزن والحزن: خلاف السرور، وحزن الرجل بالكسر فهو حزن وحزين، وأحزنه غيره وحزنه، قال اليزيدي: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم وقد قرىء بهما ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ يقال: سارع[2] إلى الشيء إذا أسرع إليه من خارج ليصل إليه، وأسرع فيه إذا أسرع فيه وهو داخل فيه، وهنا كان الكفار داخلين في ظرف الكفر محيطاً بهم سرادقه، فالمفاعلة في سارع ليست على بابه، فهو بمعنى أسرع ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ جمع سماع من صيغ المبالغة على زنة فعال معدول عن سامعون وكذلك ﴿أَكَّٰلُونَ﴾ جمع أكال مبالغة آكل ﴿لِلسُّحۡتِۚ﴾ السحت والسحت بسكون الحاء وضمها: الحرام وكل ما خبث من المكاسب وحرم، فلزم منه العار، وقبح الذكر، كثمن الكلب والخنزير والخمر والرشوة في الحكم، سمي بذلك لأنه يسحت البركة؛ أي: يذهبها، أو لأنه يسحت عمر صاحبه، ويقال: سحته الله؛ أي: أهلكه، ويقال: أسحته إذا استأصله. وفي «المختار»: وسحته من باب قطع وأسحته استأصله، وقرىء بهما في قوله تعالى: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ﴾؛ أي: يستأصلكم ويهلككم، ومصدر الثلاثي سحت بفتحتين وسحت بإسكان الحاء. وقال الفراء: أصل السحت كلب الجوع، ويقال: فلان مسحوت المعدة إذا كان لا يلقى أحداً إلا خائفاً، وهو راجع لمعنى الهلاك، ويقال للحالق اسحت؛ أي: استأصل، وسمى الحرام سحتاً لأنَّه يسحت الطاعات؛ أي: يذهبها ويستأصلها.

---

(١) فتح القدير.

(٢) المراغي.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

منها: العموم في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾؛ لأن أل فيهما موصولة فتعم؛ لأنَّ المعنى: والذي سرق والتي سرقت.

ومنها: المجاز المرسل بإطلاق الكل وإرادة البعض في قوله: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ لأنَّ المقطوع الكف لا كل اليد.

ومنها: وضع الجمع موضع المثنى، لأنَّ المقطوع يمينهما؛ لأنَّه ليس في الإنسان إلا بيمين واحدة، وما هذا سبيله يجعل فيه الجمع مكان الاثنين كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

ومنها: الخطاب بلفظ الرسالة للتشريف والتفخيم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

ومنها: إيثار كلمة ﴿في﴾ الدالة على الظرفية على كلمة ﴿إلى﴾ الأصلية في تعدية مادة سارع في قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يفارقونه، وإنَّما يتنقلون بالمسارعة عن بعض فنونه إلى بعض آخر.

ومنها: التفصيل في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾، و﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، و﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، وفي قوله: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، و﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لزيادة التأكيد والتقرير.

ومنها: تنكير ﴿خِزْىٌ﴾ للتفخيم والتهويل.

ومنها: الطباق بين كلمتي ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجيبي في قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ لأنَّه تعجيب لرسول الله ﷺ من تحكيمهم إياه، وهم لا يؤمنون به وبكتابه.

ومنها: الإشارة بالبعيد في قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للإيذان ببعد درجتهم في العتو والمكابرة.

ومنها: اللف والنشر المشوش في قوله: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ فهما راجعان لقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ على خلاف الترتيب السابق.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها(١): أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر عجيب حال اليهود من تركهم حكم التوراة وهم يعلمونه، وطلبهم من النبي ﷺ الحكم بينهم ورضاهم به إذا وافق أهوائهم، وتركهم له إذا جاء على غير ما يريدون.. ذكر هنا أمر التوراة وأنها أنزلت هداية لبني إسرائيل، ثم أعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم من الفساد،

---

(١) المراغي.

وفي ذلك من العبرة أن الانتماء إلى الدين لا ينفع أهله إذا لم يقيموه ولم يتهدوا بهديه، وأن إيثار أهل الكتاب أهوائهم على هدى دينهم هو الذي أعمى لهم عن نور القرآن والاهتداء به.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنَّه تعالى لما ذكر أنَّه بين في التوراة أن حكم الزاني المحصن الرجم، وغيرته اليهود.. ذكر هنا أنَّه بين في التوراة أن النفس بالنفس وغيرته اليهود أيضاً، ففضلوا بني النضير على بني قريظة، وخصوا إيجاب القود على بني قريظة دون بني النضير.

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنَّه لما ذكر تعالى أنَّ التوراة يحكم بها النبيون.. ذكر هنا أنَّه قفاهم بعيسى ابن مريم تنبيهاً على أنَّه من جملة الأنبياء، وتنويهاً وتنزيهاً له عما تدعيه اليهود فيه، وأنَّه من جملة مصدقي التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أن الله سبحانه وتعالى لما بين إنزال التوراة ثم الإنجيل على بني إسرائيل، وذكر ما أودعه فيهما من الهدى والنور، وما ألزمهم به من إقامتهما، وما أوعدهم به من العقاب على ترك الحكم بهما.. ذكر هنا إنزاله القرآن على خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ومنزلته من الكتب قبله، وأنَّ الحكمة اقتضت تعدد الشرائع والمناهج لهداية البشر.

وعبارة أبي حيان[4] قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ. . .﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنَّه أنزل التوراة فيها هدى ونور، ولم يذكر من أنزلها عليه لاشتراكهم كلهم في أنَّها أنزلت على موسى، فترك ذكره للعلم بذكر، ثم ذكر عيسى وأنَّه أتاه الإنجيل، فذكره ليقروا أنَّه من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

جملة الأنبياء، إذ اليهود تنكر نبوته وإذا أنكرته أنكرت كتابه، فنص تعالى عليه وعلى كتابه.. ذكر هنا إنزال القرآن على محمد ﷺ، فذكر الكتاب ومن أنزله عليه مقرراً لنبوته وكتابه؛ لأن الطائفتين ينكرون نبوته وكتابه، وجاء هنا ذكر المنزل عليه بكاف الخطاب لأنَّه أنص على المقصود، وكثيراً ما جاء ذلك بلفظ الخطاب لأنَّه لا يلتبس ألبتة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...﴾ الآية، قال المفسرون[١]: سبب نزول هذه الآية: استفتاء اليهود رسول الله ﷺ في أمر الزانيين وقد سبق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ...﴾ الآية، سبب نزولها[٢]: أنَّ جماعة من اليهود ـ منهم كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس ـ قال بعضهم لبعض.. اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن تبعناك اتبعك اليهود، وإنَّ بيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم إليك، فتقفي لنا عليهم ونحن نؤمن بك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، ونزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس.

وذكر مقاتل: أن جماعة من بني النضير قالوا له: هل لك أن تحكم لنا على أصحابنا أهل قريظة في أمر الدماء كما كنا عليه من قبل ونبايعك؟ فنزلت هذه الآية. قال القاضي أبو يعلى: وليست هذه الآية تكراراً لما تقدم، وإنما نزلتا في شيئين مختلفين، أحدهما: في شأن الرجم، والآخر في التسوية في الديات حين تحاكموا إليه.

قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها[٣]: أن النبي ﷺ لما حكم بالرجم على اليهوديين تعلق بنو قريظة ببني النضير وقالوا: يا محمد

---

(١) زاد المسير.

(٢) زاد المسير.

(٣) زاد المسير.

هؤلاء إخواننا، أبونا واحد، وديننا واحد، إذا قتلوا منا قتيلاً.. أعطونا سبعين وسقاً من تمر، وإن قتلنا منهم واحداً.. أخذوا منا مئة وأربعين وسقاً، وإن قتلنا منهم رجلاً قتلوا به رجلين، وإن قتلنا امرأة.. قتلوا بها رجلاً، فاقض بيننا بالعدل، فقال رسول الله ﷺ: «ليس لبني النضير على بني قريظة فضل في عقل ولا دم». فقال بنو النضير: والله لا نرض بقضائك، ولا نطيع أمرك، ولنأخذن بأمرنا الأول، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قال الزجاج: ومعنى الآية: أتطلب اليهود حكماً لم يأمر الله به وهم أهل كتاب الله كما تفعل الجاهلية؟

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ على موسى عليه السلام ﴿فِيهَا هُدًى﴾؛ أي: بيان[١] للأحكام والشرائع والتكاليف ﴿وَنُورٌ﴾؛ أي: بيان للتوحيد والعقائد والنبوة والمعاد.

وعبارة المراغي هنا: أي إنَّا[٢] أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى وإرشاد للناس إلى الحق، وعلى نور وضياء يكشف به ما تشابه عليهم وأظلم، وبهذا الهدى خرج بنو إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم، وبذلك النور أبصروا طريق الاستقلال في أمر دينهم ودنياهم ﴿يَحْكُمُ بِهَا﴾؛ أي: بالتوراة. ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾؛ أي: انقاد، والحكم بالتوراة، فإن من الأنبياء من لم تكن شريعته شريعة التوراة، والذين كانوا منقادين لحكم التوراة هم الذين كانوا من مبعث موسى إلى عيسى عليهما السلام. وقيل: بينهما ألف نبي، وكلهم بعثوا بإقامة التوراة حتى يحدوا حدودها، ويقوموا بفرائضها، ويحلوا حلالها، ويحرموا حرامها ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ متعلق بيحكم؛ أي: يحكمون بها فيما بين اليهود؛ أي: يحكمون لهم وعليهم وبهم.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

وعبارة المراغي[1]: أي أنزلناها قانوناً يحكم به النبيون الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين، موسى ومن بعده من أنبياء بني إسرائيل إلى عيسى عليه السلام، للذين هادوا؛ أي: لليهود خاصة لأنها شريعة خاصة بهم لا عامة، ولم يكن لداود وسليمان وعيسى شريعة دونها. انتهت.

وقال الحسن والزهري وعكرمة وقتادة والسدي[2]: يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو سيدنا محمد ﷺ لأنَّه حكم على اليهوديين بالرجم، وكان هذا حكم التوراة، وإنَّما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له، ولأنَّه قد اجتمع فيه من خصال الخير ما كان حاصلاً لأكثر الأنبياء.

وقال ابن الأنباري: هذا رد على اليهود والنصارى؛ لأنَّ بعضهم كانوا يقولون الأنبياء كلهم يهود أو نصارى، فرد الله عليهم بذلك؛ أي: فإنَّ الأنبياء ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين؛ أي: منقادين لتكاليف الله تعالى، وفي ذلك تنبيه على قبح طريقة هؤلاء اليهود المتأخرين، فإن غرضهم من ادعاء الحكم بالتوراة أخذ الرشوة، واستتباع العوام، وتعريض بهم بأنهم بعدوا عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء عليهم السلام.

وقال ابن عباس: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾؛ أي: تابوا من الكفر ورجعوا عن عبادة العجل، وقال الزجاج[3]: ويحتمل أن يكون في الآية تقديم وتأخير على معنى: إنَّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴿وَالرَّبَّنِيُّونَ﴾؛ أي: ويحكم بأحكام التوراة الربانيون؛ أي: العلماء المجتهدون الذين انسلخوا من الدنيا، وزهدوا فيها، واشتغلوا بترتبية الناس بالدين والعلم ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾؛ أي: ويحكم بها الأحبار؛ أي: العلماء الذين حبروا وستروا الجهل والضلال بعلمهم وصلاحهم، والتزموا طريقة النبيين، وجانبوا دين اليهود، فالمراد بالربانيين الزهاد، وبالأحبار العلماء. وعن ابن عباس: الربانيون الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره، والأحبار هم الفقهاء وسائر علمائهم

---

(1) المراغي.

(2) المراح.

(3) زاد المسير.

والمعنى: ولا تتركوا بيانها للناس والعمل بها رجاء منفعة دنيوية قليلة تأخذونها من الناس كرشوة أو جاه، أو غيرهما من الحظوظ العاجلة التي تصدكم عن الاهتداء بآيات الله، وتمنعكم عن الخير العظيم الذي تنالونه من ربكم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله وأخفاه، وحكم بغيره، كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتحميم، وكتمانهم الرجم وقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة، وفي بعضهم بنصف الدية، والله قد سوى بين الجميع في الحكم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبينه، وغطوه وأظهروا لهم غيره، وقضوا به. وعبارة «المراح» هنا: قال ابن عباس: ومن لم يبين ما بين الله تعالى في التوراة من نعت محمد، وآية الرجم.. فأولئك هم الكافرون بالله والرسول والكتاب. وقال عكرمة: أي: ومن لم يحكم بما أنزل الله، منكراً له بقلبه، وجاحداً له بلسانه.. فقد كفر. أمَّا من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه ذلك إلا أنَّه حكم بضده.. فهو ظالم فاسق لتركه حكم الله تعالى. انتهت. وخلاصة المعنى: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به منكراً له.. كان كافراً لجحوده به، واستخفافه بأمره، وإنما ذكر[1] الكفر هنا لأنَّه يناسب المقام؛ لأنَّه جاء عقب قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهذا كفر، فناسب ذكر الكفر هنا، والإشارة بقوله ﴿أولئك﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناها، وكذلك ضمير الجماعة في قوله: ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فصل

واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآيات الثلاث فيه[2]، وهي قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. فقال

---

(١) الفتوحات. (٢) الخازن.

جماعة من المفسرين: إن الآيات الثلاث نزلت في الكفار، ومن غير حكم الله من اليهود، لأنَّ المسلم وإن ارتكب كبيرة لا يقال: إنَّه كافر، وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن البراء بن عازب. قال: أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ في الكفار كلها أخرجه مسلم.

وعن ابن عباس قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ هذه الآيات الثلاث في اليهود خاصةً قريظة والنضير، أخرجه أبو داود. وقال مجاهد في هذه الآيات الثلاث: من ترك الحكم بما أنزل الله رداً لكتاب الله.. فهو كافر ظالم فاسق. وقال عكرمة: ومن لم يحكم بما أنزل الله، جاحداً به.. فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به.. فهو ظالم فاسق. وهذا قول ابن عباس أيضاً، واختيار الزجاج لأنَّه قال: من زعم أن حكماً من أحكام الله تعالى التي أتت بها الأنبياء باطل.. فهو كافر. وقال طاووس: قلت لابن عباس أكافر من لم يحكم بما أنزل الله؟ فقال: به كفر وليس بكفر، ينقل عن الملة كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ونحو هذا روي عن عطاء قال: هو كفر دون الكفر. وقال ابن مسعود والحسن والنخعي: هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود، وفي هذه الأمة، فكل من ارتشى وبدل الحكم، فحكم بغير حكم الله تعالى.. فقد كفر وظلم وفسق، وإليه ذهب السدي، لأنه ظاهر الخطاب. وقيل: هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عياناً عمداً وحكم بغيره، وأما من خفي عليه النص، أو أخطأ في التأويل.. فلا يدخل في هذا الوعيد. وقال الرازي نقلاً عن عكرمة: إنَّ الحكم بالكفر على من حكم بغير ما أنزل الله إنَّما يكون فيمن أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أمَّا من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا أنَّه أتى بما يضاده.. فهو حاكم بما أنزل الله ولكنَّه تارك له، فلا يدخل تحت هذه الآية. وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: الثلاث الآيات التي في المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إلخ، ليس في الإسلام منها شيء، هي من الكفار. وعن الشعبي أنَّه قال: الثلاث الآيات التي في

المائدة أولها في هذه الأمة، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾؛ أي: فرضنا على بني إسرائيل في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ الجانية مقتولة ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾ المجني عليها فمدخول الباء هو المجنيّ عليه في هذا وما عطف عليه ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ مفقوءة ﴿بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ﴾ مجدوعة ﴿بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ﴾ مقطوعة ﴿بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ﴾ مقلوعة ﴿بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ﴾ والمراد بها ما يشمل الأطراف ﴿قِصَاصٌ﴾؛ أي: ذات قصاص إذا كانت بحيث تعرف المساواة؛ أي: يقتص فيها إذا أمكن فيها القصاص كالشفتين والأنثيين واليدين والقدمين واللسان والذكر ونحو ذلك. أمَّا ما لا يمكن فيه القصاص، كرض في لحم أو كسر في عظم، أو جراحة في بطن يخاف منها التلف.. ففيه أرش وحكومة. والحكومة[1]: جزء من دية النفس نسبته إليها كنسبة ما نقص من قيمة المجني عليه بفرضه رقيقاً، فلو كانت قيمته بلا جناية عشرة وبها تسعة.. فالحكومة عشر الدية، وهذا الحكم وإن كتب عليهم فهو مقرر في شرعنا.

وفي هذه الآية توبيخ لليهود، وتقريع لكونهم يخالفون ما كتبه الله عليهم في التوراة كما حكاه هنا، ويفاضلون بين الأنفس كما سبق، وقد كانوا يقيدون بني النضير من بني قريظة، ولا يقيدون بني قريظة من بني النضير.

وظاهر النظم القرآني[2]: أن العين إذا فقئت حتى لم يبق فيها مجال للإدراك.. أنَّها تفقأ عين الجاني بها، والأنف إذا جدعت جميعها.. فإنَّها تجدع أنف الجاني بها، والأذن إذا قطعت جميعها.. فإنها تقطع أذن الجاني بها، وكذلك السن. فأمَّا إذا كانت الجناية ذهبت ببعض إدراك العين، أو ببعض الأنف، أو ببعض الأذن.. فليس في هذه الآية ما يدل على ثبوت القصاص، وقد اختلف في ذلك إذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته، وكلامهم مدوّن في كتب الفروع.

---

(١) الجمل. (٢) الشوكاني.

والظاهر في قوله: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ أنَّه لا فرق بين الثنايا والأنياب والأضراس والرباعيات، وأنَّه يؤخذ بعضها ببعض، ولا فضل لبعضها على بعض، وإليه ذهب أكثر أهل العلم، ولكنه ينبغي أن يكون المأخوذ في القصاص من الجاني هو المماثل للسن المأخوذة من المجني عليه، فإن كانت ذاهبة.. فما يليها. وقرأ[1] نافع وعاصم وحمزة وخلف ويعقوب والأعمش بنصب ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ وما بعدها من المعاطيف على التشريك في عمل إن النصب، وخبر إن هو المجرور، وخبر والجروح قصاص، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بنصب، ﴿والعين﴾ ﴿والأنف﴾ ﴿والأذن﴾ ﴿والسن﴾، ورفع ﴿والجروح﴾ على أثر الجروح مبتدأ خبره قصاص، فتكون عاطفة جملة على جملة، وفيما قبله عاطفة مفرد على مفرد، وقرأ الكسائي وأبو عبيد بالرفع في الجميع عطفاً على المحل؛ لأن النفس قبل دخول الحرف الناصب عليها كانت مرفوعة على الابتداء. قال ابن المنذر: ومن قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام يتضمن بيان الحكم للمسلمين. وقرأ أبيّ بنصب النفس والأربعة بعدها، وقرأ ﴿وأن الجروح قصاص﴾ بزيادة أن الخفيفة، ورفع الجروح، ويتعين في هذه أن تكون أن مخففة من الثقيلة لا تفسيرية. وقرأ نافع ﴿والأذن بالأذْن﴾ بإسكان الذال معرفاً ومنكراً، ومثنى حيث وقع، وقرأ الباقون بالضم، فقيل: هما لغتان كالنكر والنكر، وقيل: الإسكان هو الأصل وإنما ضم اتباعاً. وقيل: التحريك هو الأصل وإنما سكن تخفيفاً.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾؛ أي: فمن تصدق بما يثبت له من حق القصاص، وعفا عن الجاني، ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: فهذا التصدق ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾؛ أي: لذلك المتصدق يكفر الله به ذنوبه، ويعفو عنه كما عفا عن أخيه بقدر ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته، وفي هاء ﴿له﴾[2] قولان: أحدهما: أن الهاء في ﴿له﴾ كناية عن المجروح أو وليّ المقتول، وذلك أن المجروح إذا تصدق بالقصاص.. كان ذلك كفارة لذنوبه، وهذا قول ابن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص والحسن، ويدل له ما روي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) الخازن.

يصاب بشيء من جسده فيتصدق به.. إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه به خطيئة». أخرجه الترمذي. وعن أنس قال: (ما رأيت رسول الله ﷺ رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو) أخرجه أبو داود والنسائي. وعن عبد الله بن عمر: تهدم عنه ذنوبه بقدر ما تصدق به. وروى عبادة بن الصامت: أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدق من جسده، بشيء.. كفر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه». والقول الثاني: في أن الضمير في قوله له يعود إلى الجارح أو القاتل، يعني أن المجني عليه إذا عفا عن الجاني.. كان ذلك العفو كفارة لذنب الجاني لا يؤاخذ به في الآخرة، وهذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل، كما أن القصاص كفارة، وأمَّا أجر العافي فعلى الله تعالى.

قال ابن القيم: والتحقيق أن القاتل يتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله تعالى، وحق للمقتول، وحق للولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولي ندماً على ما فعل، وخوفاً من الله تعالى، وتوبة نصوحاً.. سقط حق الله تعالى بالتوبة، وحق الأولياء بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق للمقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده، ويصلح بينه وبينه انتهى.

ولو سلم القاتل نفسه اختياراً من غير ندم وتوبة، أو لم يمكن من نفسه بل قتل كرهاً.. سقط حق الوارث فقط، وبقي حق الله تعالى؛ لأنه لا يسقط إلا بالتوبة، وبقي أيضاً حق المقتول، ويطالبه به في الآخرة لأن القاتل لم يسلم نفسه تائباً، ولم يصل منه للمقتول شيء. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ تعالى في القصاص، وفي غيره، نزلت[1] هذه الآية حين اصطلحوا على أنْ لا يقتل الشريف بالوضيع ولا الرجل بالمرأة ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الممتنعون عن حكم الله ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم، حيث لم يحكموا بما أنزل الله تعالى، الضارون لها بالعقوبة المؤبدة؛ أي: إن[2] كل من أعرض عما أنزل من القصاص المبني على قاعدة المساواة بين الناس، وحكم بغيره.. فهو من الظالمين، إذ العدول عن ذلك لا يكون إلا بتفضيل أحد الخصمين على الآخر، وغمص حق المفضل عليه وظلمه.

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.

والإتيان[1] بضمير الفصل مع اسم الإشارة، وتعريف الخبر يستفاد منه أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية، وناسب ذكر الظلم هنا لأنه جاء عقب أشياء مخصوصة من أمر القتل والجرح، فناسب ذكر الظلم المنافي للقصاص والتسوية، وإشارة إلى ما كانوا قرروه من عدم التساوي بين النضير وقريظة. ذكره أبو حيان. قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ شروع[2] في بيان أحكام الإنجيل إثر بيان أحكام التوراة، وهو عطف على أنزلنا التوراة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ أي: وأتبعنا على آثار النبيين الذين يحكمون بالتوراة وبعثنا عقبهم بعيسى ابن مريم حالة كون عيسى ﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقاً بقوله وفعله ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: لما قبل عيسى مما أتى به موسى ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ في التوحيد وبعض الشرائع، ومعنى كون عيسى مصدقاً للتوراة أنه أقرّ بأنه كتاب منزل من عند الله تعالى، وأقر بأنه كان حقاً، وجب العمل به قبل ورود النسخ والمعنى؛ أي:[3] وبعثنا عيسى بن مريم بعد هؤلاء النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة متبعاً طريقهم، جارياً على هديهم، مصدقاً للتوراة التي تقدمته بقوله وعمله، فشريعة عيسى عليه السلام هي التوراة، وقد نقلوا عنه في أناجيلهم أنه قال: «ما جئت لأنقض الناموس» شريعة التوراة «وإنَّما جئت لأتمم»، أي: لأزيد عليها ما شاء الله أن أزيد من الأحكام والمواعظ، ولكن النصارى نسخوها وتركوا العمل بها إتباعاً لبولس - رئيسهم - وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: أعطينا عيسى ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ بكسر الهمزة وقرىء شاذاً بفتحها معطوف على قفينا وقوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ حال من الإنجيل؛ أي: وأعطيناه الإنجيل حالة كون الإنجيل مشتملاً على الهدى، ومنقذاً من الجهالة والضلالة، لاشتماله على الدلائل الدالة على التوحيد، والتنزيه المنافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والأباطيل، وعلى براءة الله تعالى عن الزوجة والولد والمثل والضد، وعلى النبوة، وعلى المعاد، ومشتملاً على النور والبيان الذي يبصر به طالب الحق طريقه الموصل إليه، لأنه بيان للأحكام الشرعية، ولتفاصيل التكاليف.

---

(١) الشوكاني. (٢) أبو السعود. (٣) المراغي.

والخلاصة: حالة كون الإنجيل هادياً إلى التوحيد، ونوراً وبياناً للأحكام المشروعة لهم، والمراد بالهدى التوحيد، وبالنور الأحكام، فالعطف مغاير (و) حالة كون الإنجيل ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: لما قبل الإنجيل ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وهنا المنصوب معطوف على محل فيه هدى ونور على كونه حالاً من الإنجيل.. فليس بتكرار للأول، لأن في الأول: الإخبار بأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة، وفي الثاني: الإخبار بأن الإنجيل مصدق للتوراة فظهر الفرق بين اللفظين، وأنَّه ليس بتكرار، فالإنجيل مشتمل على النص بتصديق التوراة زيادة على تصديق المسيح لها بقوله وعمله.

والمعنى: أي حال كونه موافقاً لما في التوراة من أصول الدين، ومن بعض الشرائع، أو معترفاً بأنها من عند الله وإن نسخت أحكامها، لأن الله سبحانه وتعالى كلف أمة كل عصر بأحكام تناسبها، فالنسخ في الأحكام الفرعية لا الأصول كالتوحيد فلا نسخ فيه، بل ما كان عليه آدم من التوحيد هو ما عليه باقي الأنبياء ﴿و﴾ حالة كون الإنجيل ﴿هُدًى﴾ للناس؛ أي: سبب اهتداء لهم لاشتماله على البشارة بمبعث محمد ﷺ، فهو سبب لاهتداء الناس إلى نبوة محمد ﷺ، فهذه المسألة أشد المسائل احتياجاً إلى البيان، فالإنجيل يدل دلالة ظاهرة عليها لكثرة المنازعة بين المسلمين واليهود والنصارى في ذلك، فظهر مما ذكرنا لك الفرق بين هدى وهدى مرتين ﴿و﴾ حالة كون الإنجيل ﴿موعظة للمتقين﴾؛ أي: واعظاً لهم لاشتماله على النصائح والزواجر والمواعيظ البليغة، والأمثال والحكم النافعة، وإنَّما خص الموعظة بالمتقين؛ لأنَّهم الذين ينتفعون بها. والحكمة[1] في زيادة الموعظة في الإنجيل دون التوراة لأن التوراة كان فيها الأحكام الشرعية فقط، وإنما المواعظ كانت في الألواح وقد تكسرت، وأما الإنجيل فهو مشتمل على الأحكام والمواعظ جميعاً.

وقرأ الضحاك: ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ بالرفع، أي: وهو هدى وموعظة. وقرأ الجمهور بالنصب كما تقدم تقريره ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ﴾ قرأ الجمهور بلام الأمر ساكنة، وجزم الفعل بعدها، وبالواو حينئذ عاطفة، والجملة مقول لقول

---

(١) صاوي.

محذوف معطوف على آتينا، والمعنى: وآتينا عيسى بن مريم الإنجيل وأمرناه ومن تبعه بالحكم ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾؛ أي: في **الإنجيل** من الأحكام، فإنه قبل البعثة المحمدية حق، وأما بعدها فقد أمروا في غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد ﷺ في القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة، أو المعنى[1]: وليحكم أهل الإنجيل، بما أنزل الله فيه من الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ، ومن الأحكام التي لم تنسخ بالقرآن، فإن الحكم بالأحكام المنسوخة ليس حكماً بما أنزل الله فيه بل هو تعطيل له، إذ هو شاهد بنسخها؛ لأن شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة شهادة بنسخها. وقرأ الأعمش وحمزة بنصب الفعل من ﴿يحكم﴾ وكسر اللام، على أن اللام لام كي، والواو حينئذ للاستئناف، واللام متعلقة بمحذوف والتقدير: وآتيناه الإنجيل ليحكم هو ومن تبعه بما أنزل فيه من الأحكام في زمانهم. وقرأ أبي[2]: ﴿وأن ليحكم﴾ بزيادة أن قبل لام كي، ونصب الفعل بعدها، فأن زائدة، فاللام متعلقة بمحذوف تقديره: وآتيناه الإنجيل ليحكم هو ومن تبعه بما أنزل الله فيه كما مرّ آنفاً. وقرىء[3] أيضاً: ﴿وأن ليحكم﴾ بجزم الفعل على أن موصولة بالأمر كقولك: أمرتك بأن قم؛ أي: وأمرنا بأن ليحكم.

قال أهل المعاني[4]: قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المعنى: وقلنا ليحكم أهل الإنجيل، فيكون هذا إخباراً عما فرض عليهم في وقت إنزاله عليهم من الحكم بما تضمنه الإنجيل، ثم حذف القول؛ لأن ما قبله من قوله: (وكتبنا) (وقفينا) يدل عليه، وحذف القول كثير.

والوجه الثاني: أن يكون قوله (ليحكم) ابتداءً واستئنافاً، وفيه أمر للنصارى بالحكم بما في كتابهم وهو الإنجيل.

فإن قلت: فعلى هذا الوجه كيف جاز أن يؤمروا بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن.

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) بيضاوي.

(٤) الخازن.

قلت: إنَّ المراد بهذا الحكم الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأن ذكره في الإنجيل ووجوب التصديق بنبوته موجود، فإذا آمنوا بمحمد ﷺ.. فقد حكموا بما في الإنجيل.

وعبارة المراغي: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾؛ أي:[1] وقلنا لهم: ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الأحكام، والمراد: وأمرناهم بالعمل به، فهو كقوله في أهل التوراة ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾، وخلاصة ذلك زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل وتغييره، مثل ما فعل اليهود من إخفاء أحكام التوراة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في الكتب المنزلة من عنده تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: المتمردون الخارجون عن الإيمان إنْ كان مستهيناً، وعن طاعة الله إنْ كان لاتباع الشهوات. والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على أحكام، وأن عيسى عليه السلام كان مستقلاً بشرع مأموراً بالعمل بما فيه من الأحكام، قلت أو كثرت، لا بما في التوراة خاصة، ويشهد لذلك حديث البخاري «أعطي أهل التوراة التوراة فعملوا بها، وأهل الإنجيل الإنجيل فعملوا...» الحديث. وناسب[2] هنا ذكر الفسق؛ لأنه خروج عن أمر الله تعالى إذ تقدم قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ وهو أمركما قال تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: خرج عن طاعة أمره تعالى، فقد اتضح مناسبة ختم الجملة الأولى بالكافرين، والثانية بالظالمين، والثالثة بالفاسقين.

وفي الحقيقة[3]: الفسق يرجع للظلم؛ لأنَّه مخالفة الأمر، فتعبيره بالظلم أولاً، وبالفسق ثانياً، تفنن. قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وما عطف عليه؛ أي: وأنزلنا إليك يا محمد الكتاب؛ أي: القرآن حالة كونه متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق والعدل، فالجار والمجرور في محل الحال من الكتاب، أو من فاعل أنزلنا، أو من الكاف في إليك، وحالة كونك ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: لما تقدمه ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من[4] الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله تعالى على عبده ورسوله

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) صاوي.
(٤) ابن كثير.

محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال من الكتاب؛ أي: حال كونه مصدقاً لما تقدمه، إما من حيث أنَّه نازل حسبما نعت فيه، أو من حيث إنَّه موافق له في القصص والمواعيد، والدعوة إلى الحق والعدل بين الناس، والنهي عن المعاصي والفواحش. وأمَّا ما يترائى من مخالفته في بعض جزئيات الأحكام المتغيرة بسبب تغير الأعصار.. فليس بمخالفة في الحقيقة، بل هي موافقة لها من حيث إنَّ لكل من تلك الأحكام حق الإضافة إلى عصره، متضمن للحكمة التي يدور عليها أمر الشريعة، وليس في المتقدم دلالة على أبدية أحكامه المنسوخة حتى يخالفه الناسخ المتأخر، وإنما يدل على مشروعيتها مطلقاً من غير تعرض لبقائها وزوالها، بل نقول: هو ناطق بزوالها، مع أن الناطق بصحة ما ينسخها نطق بنسخها وزوالها. اهـ. «أبو السعود». وقوله: ﴿مَا يُتْلَىٰ﴾ معطوف على مصدقاً؛ أي: وأنزلنا[1] عليك هذا القرآن حالة كونه أميناً وشاهداً وحاكماً على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب الكريم الذي أنزله على محمد ﷺ آخر الكتب وخاتمها، وأشملها وأعظمها، وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل الله تعالى بحفظه بنفسه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ لأن هذا القرآن هو الذي لا ينسخ، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف، وإذا كان كذلك.. كانت شهادة القرآن على سائر الكتب بالصدق باقية.

وقرأ ابن محيصن ومجاهد[2]: ﴿مهيمَناً﴾ بفتح الميم الثانية على صيغة اسم المفعول؛ أي: مؤتمناً ومحفوظاً عليه، فإنه يصان من التحريف والتبديل، والحافظ هو الله تعالى، ففي قراءة اسم الفاعل الضمير في عليه، عائد على الكتاب الثاني وفي قراءة اسم المفعول، عائد على الكتاب الأول، وفي كلا الحالين هو حال من الكتاب

---

(١) ابن كثير.

(٢) البحر المحيط.

الأول لأنه معطوف على مصدقاً، والمعطوف على الحال حال.

﴿فَٱحْكُم﴾ يا محمد ﴿بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين جميع أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: بالقرآن والرجم الذي أنزل الله تعالى إليك لاشتماله على جميع ما شرعه الله لعباده في جميع الكتب السابقة عليه ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ يا محمد ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ أي: أهواء أهل الكتاب وشهواتهم التي هي الجلد والتحميم في الزاني المحصن، التي طلبوها منك حالة كونك معرضاً ومنحرفاً ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو الرجم في المحصن، وفيه[1] النهي له ﷺ أن يتبع أهوية أهل الكتاب ويعدل عن الحق الذي أنزله الله عليه، فإن أهل كل ملة من أهل الملل يهوون أن يكون الأمر على ما هم عليه وما أدركوا عليه سلفهم، وإن كان باطلاً منسوخاً أو محرفاً عن الحكم الذي أنزله الله على الأنبياء، كما وقع في الرجم ونحوه مما حرفوه من كتب الله تعالى.

والفاء في قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ فاء الفصيحة، والمعنى: وإذا[2] كان هذا شأن القرآن ومنزلته مما قبله من الكتب الإلٰهية وهو أنه رقيب وشهيد.. فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليك فيه من الأحكام دون ما أنزله إليهم، إذ شريعتك ناسخة لشريعتهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ولا تتبع ما يريدون، وهو الحكم بما يسهل عليهم، ويخفُّ احتماله، مائلاً بذلك عما جاءك من الحق الذي لا شك فيه ولا ريب ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فاللام متعلقة بجعلنا، ومنكم صفة لكل، ولا يضر الفصل بينهما بالعامل، والمعنى: لكل أمة كائنة منكم يا أيها الأمم الثلاثة، أمة موسى، وأمة عيسى، وأمة محمد، جعلنا؛ أي: عيناً ووضعنا شرعة ومنهاجاً خاصين بتلك الأمة لا تكاد أمة تخطىء شرعتها التي عينت لها، فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى شرعتهم التوراة، والتي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ شرعتهم الإنجيل، وأما أنتم أيها الموجودون في عصر محمد ﷺ من سائر

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

المخلوقات إلى يوم القيامة فشرعتكم القرآن ليس إلا، فآمنوا به وآمنوا بما فيه، فالشرعة وكذا الشريعة: الأحكام المشروعة التي شرعها الله تعالى لعباده ليتعبدوا بها ربهم، والمنهاج: الطريق الواضح الذي يؤدي إلى الشريعة، وقيل: الشرعة الأحكام المشروعة في العبادات والمعاملات من الأركان والشروط وغيرها، والمنهاج الفرائض والسنن والمعاملة التي لها أحكام مشروعة وشرائط مخصوصة، وقيل: هما بمعنى، والتكرار للتأكيد، والمراد بهما الدين. وقال قتادة: شرعة ومنهاجاً؛ أي: سبيلاً وسنة، فالسنن مختلفة للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة يحل الله عز وجل فيها ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل غيره هو التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم السلام. وروي عن قتادة أنَّه قال: الدين واحد والشريعة مختلفة. قال علي بن أبي طالب: الإيمان منذ بعث آدم عليه السلام: شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى، ولكل قوم شريعة ومنهاج. انتهى. وقرأ النخعي وابن وثاب: ﴿شرعة﴾ بفتح الشين.

فائدة: قال العلماء[1]: وردت آيات دالة على عدم التباين بين طرق الأنبياء، منها قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ ومنها قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ووردت آيات دالة على حصول التباين بينها، منها هذه الآية وهي قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وطريق الجمع بين هذه الآيات: أن كل آية دلت على عدم التباين، فهي محمولة على أصول الدين من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فكل ذلك جاءت به الرسل من عند الله، فلم يختلفوا فيه، وأما الآيات الدالة على حصول التباين بينها.. فمحمولة على الفروع وما يتعلق بظواهر العبادات، فجائز أن يتعبد الله عباده في كل وقت بما شاء، فهذا هو طريق الجمع بين الآيات، والله أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) الفتوحات.

ومن هذا يفهم أن الشريعة[١]: هي الأحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل، وينسخ اللاحق منها السابق، وأن الدين: هو الأصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأنبياء، وهذا العرف الجاري الآن، إذ يخصون الشريعة بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم فيه إلى الحكام.

والخلاصة: أنَّ الشريعة اسم للأحكام العملية وأنَّها أخص من كلمة الدين، وتدخل في مسمى الدين من جهة أن العامل بها يدين لله تعالى بعمله، ويخضع له ويتوجه إليه مبتغياً مرضاته وثوابه بإذنه. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أن يجعلكم أمة واحدة ذات شريعة واحدة، ورسول واحد، وكتاب واحد، ومنهاج واحد، تسيرون عليه، وتعملون به بأنَّه يخلقكم على استعداد واحد، وأخلاق واحدة، وطور واحد، في معيشتكم، فتصلح لكم شريعة واحدة في كل الأزمان فتكونون كسائر أنواع المخلوقات التي يقف استعدادها عند مستوى معين، كالطير أو كالنحل.. ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: جماعة متفقة على شريعة واحدة في جميع الأعصار، من غير اختلاف ولا نسخ ولا تحويل؛ أي: لفعل ذلك، إذ هو داخل تحت قدرته لا يستعصي عليه ﴿ولكن﴾ لم يشأ الله أن يجعلكم أمة واحدة، بل شاء الله أن يجعلكم أمة مختلفة في الشرائع ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ وأعطاكم من الشرائع المختلفة المناسبة للأزمنة والجماعة، هل تعملون بها منقادين لله تعالى، معتقدين أنَّ اختلافها مبني على الحكم اللطيفة والمصالح النافعة لكم، أم تتبعون الهوى وتقصرون في العمل؟

ومعنى ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: فيما[٢] أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والأزمان والرسل، هل تعملون بذلك وتذعنون له، أو تتركونه وتخالفون ما اقتضته مشيئة الله وحكمته، وتميلون إلى الهوى وتشترون الضلالة بالهدى؟ وفيه دليل على أن اختلاف الشرائع هو لهذه العلة، أعني الابتلاء

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

والامتحان، لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص.

ثم بين أنَّ الشرائع إنَّما وضعت للاستباق إلى الخير، لتجازى كل نفس بما عملت، فقال: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فالخطاب فيه لأمة محمد ﷺ؛ أي: إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع لابتلائكم.. فبادروا يا أمة محمد بالأعمال الصالحات التي تقربكم إلى الله زلفى، وسارعوا إلى ما هو خير لكم في دينكم ودنياكم، انتهازاً للفرصة وإحرازاً للفضل والسبق ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ وإنكم ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ دون غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: ترجعون إليه كلكم في الحياة الثانية ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: يخبركم عند الحساب ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: بحقيقة ما كنتم تختلفون فيه في الدنيا وفي أمور الدين، ويجازي المحسن على قدر إحسانه، والمسيء بإساءته، فاجعلوا الشرائع سبباً للتنافس في الخيرات، لا لإقامة الشحناء والعداوة بين الأجناس والعصبيات، والأثرة والتقدم بالوطن والجنسيات، لا بالعلم والتقوى والفضائل الدينيات. وهذه الجملة كالعلة لما قبلها.

قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ معطوف على الكتاب؛ أي: وأنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه، وقد استدل بهذا على نسخ التخيير المتقدم في قوله: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: إنا أنزلنا إليك الكتاب فيه حكم الله وأنزلنا إليك فيه ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القصاص ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ أي: شهواتهم بالاستماع لهم، وقبول كلامهم، ولو لمصلحة في ذلك، كتأليف قلوبهم وجذبهم إلى الإسلام، فالحق لا يوصل إليه بطريق الباطل، أي: ولا تتبع أهوائهم في عدم قتل الشريف بالوضيع وعدم قتل الرجل بالمرأة. قال العلماء[1]: ليس في هذه الآية تكرار لما تقدم، وإنَّما أنزلت في حكمين مختلفين: أمَّا الآية الأولى: فنزلت في رجم المحصن، وأن اليهود طلبوا منه أن يجلده، وهذه الآية نزلت في شأن الدماء والديات حين

---

(١) الخازن.

تحاكموا إليه في أمر قتيل كان بينهم. ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾؛ أي: واحذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاؤوا إليك من ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ ويصرفوك وينزلوك ويصدوك بمكرهم وكيدهم ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ في كتابه، فيحملوك على ترك العمل به لتحكم بغيره، ويردوك إلى أهوائهم.

أخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من اليهود: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا: يا محمد إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك.. اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وأنَّ بيننا وبين قومنا خصومة فنخاصمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك وأنزل الله عزّ وجل فيهم: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ كما مرّ ذلك في أسباب النزول، يريد أن الحكمة في إنزال هذه الآية: إقرار النبي ﷺ على ما فعل، والأمر بالثبات على ما سار عليه من التزام حكم الله، وعدم الانخداع لليهود.

فقوله: ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ بدل اشتمال من المفعول؛ أي: واحذرهم فتنتهم، أو مضاف إليه لمفعول من أجله محذوف؛ أي: احذرهم مخافة أنْ يفتنوك؛ أي: يصرفوك عن الحق، ويلقوك في الباطل كما سيأتي في بحث الإعراب ﴿فإن تولوا﴾؛ أي: فإن أعرضوا عن حكمك بما أنزل الله بعد تحاكمهم إليك وأرادوا غيره ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾؛ أي: فاعلم يا محمد ما سبب ذاك إلا لأن الله يريد ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾ ويعذبهم في الحياة الدنيا قبل الآخرة ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وهو ذنب التولي والإعراض عما جئت به؛ لأنَّ استثقالهم لأحكام التوراة وتحاكمهم إليك لعلك تتبع أهوائهم، ومحاولتهم لفتنتك عن بعض ما أنزل الله إليك، كل هذه أمارات على فساد الأخلاق وانحلال روابط الاجتماع، ولا بد أن تكون نتيجتها وقوع العذاب بهم، وقد حل بيهود المدينة وما حولها بغدرهم ما حل، فقد أجلى النبي ﷺ بني النضير عنها وقتل بني قريظة.

وإنَّما خص بعض الذنوب؛ لأن الله جازاهم في الدنيا على بعض ذنوبهم

بالقتل والسبي والجلاء، وأخر مجازاتهم على باقي ذنوبهم إلى الآخرة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: اليهود وغيرهم، لأنَّهم ردوا حكم الله تعالى ﴿لَفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن دائرة الطاعات، ومعادن السعادات، يعني: متمردون في الكفر، مصرون عليه، خارجون من الحدود والشرائع التي اختارها الله تعالى لعباده. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إذعانهم لما جاء به من الهدى والدين، وإعراضهم عن ذلك النور الذي أنزل إليه، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ﴾ للإنكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر كما في نظائره، أي: أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك، ويتولون عنه فيبغون عنك حكم الجاهلية المبني على التحيز والهوى لجانب دون آخر، وترجيح القوي على الضعيف؟ والمعنى: لا يبغون حكم الجاهلية منك على سبيل الظفر به لعصمتك. روي: أن بني النضير تحاكموا إلى الرسول ﷺ في خصومة كانت بينهم وبين بني قريظة، وطلب بعضهم من النبي ﷺ أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل وجعل دية القرظي ضعفي دية النضيري لمكان القوة والضعف، فقال ﷺ: «القتلى بواء» سواء، فقال بنو قريظة: لا نرضى ذلك، فنزلت الآية.

وخلاصة ذلك: توبيخهم، والتعجيب من حالهم بأنهم أهل كتاب وعلم، ومع ذلك كانوا يبغون حكم الجاهلية الذي يجيء به محض الجهل وصريح الهوى. وقرأ الجمهور[1] ﴿أفحكم﴾ بنصب الميم، وهو مفعول يبغون. وقرأ السلمي وابن وثاب وأبو رجاء والأعرج: ﴿أَفَحُكْمُ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ برفع الميم على الابتداء، والظاهر أن الخبر هو قوله: ﴿يبغون﴾ وحسن حذف الضمير قليلاً في هذه القراءة كون الجملة فاصلة. وقرأ قتادة: ﴿أبحكم الجاهلية﴾ بالباء الجارة بدل الفاء، وقرأ قتادة والأعمش أيضاً: ﴿أفحكم﴾ بفتح الحاء والكاف والميم، وهو جنس لا يراد به واحد، كأنه قيل: أحكام الجاهلية يبغون؛ أي: أفيطلبون حاكماً كحكام الجاهلية، وهي: إما الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى الموجبة للمداهنة في الأحكام، وإما أهل الجاهلية، وهي إشارة إلى الكهان الذين كانوا

---

(١) البحر المحيط.

يأخذون الحلوان ـ وهي رشا الكهان ـ ويحكمون لهم بحسبه، وبحسب الشهوات أرادوا بسفههم أنْ يكون خاتم النبيين حكماً كأولئك الحكام. وقرأ الجمهور: ﴿يَبْغُونَۚ﴾ بالياء على نسق الغيبة المتقدمة، وقرأ ابن عامر: ﴿تبغون﴾ بالتاء على الخطاب، وفيه مواجهتهم بالإنكار والردع والزجر، وليس ذلك في الغيبة فهذه حكمة الالتفات، والخطاب ليهود قريظة والنضير، والمعنى: قل لهم يا محمد: أفحكم الجاهلية تبغون. والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ للإنكار أيضاً؛ أي: لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين، لا عند أهل الجهل والأهواء؛ أي: لا أحد[1] أحسن حكماً من حكم الله عند قوم يوقنون بدينه، ويذعنون لشرعه؛ لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحق من الحاكم، والقبول والإذعان من المحكوم له والمحكوم عليه، وبهذا يحصل التفاضل بين الشرائع الإلٰهية والقوانين البشرية.

والخلاصة: أن مما ينبغي التعجب منه من أحوالهم، أنَّهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر ويؤثرونه على حكم الله العادل، وفي الأول: تفضيل القوي على الضعيف واستذلاله واستئصال شأفته، وفي الثاني: العدل الذي يستقيم به أمر الخلق وبه ينتشر الأمن والرضا والطمأنينة بين الناس، ويشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير، واللام في[2] قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ للبيان كما في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ وقولهم: سقياً لك، فيتعلق بمحذوف تقديره؛ أي: هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنْ لا أحسن حكماً من الله تعالى، وقيل: بمعنى عند كما أشرنا إليه في الحل.

الاعراب

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُا۟

---

(١) المراغي. (٢) البيضاوي.

ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: (إن): حرف نصب. و(نا) ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إنَّ) وجملة (إنَّ) مستأنفة. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿هُدٗى﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَنُورٞ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾. ﴿يَحۡكُمُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب حال من الضمير المجرور في ﴿فِيهَا﴾: أو مستأنفة[1] مبينة لرفعة رتبتها وسمو طبقتها، وقد جوز كونها حالاً من ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ فتكون حالاً مقدرة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾. ﴿أَسۡلَمُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يحكم﴾. ﴿هَادُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾: معطوفان على ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر. (ما): اسم موصول في محل الجر بالباء، الجار[2] والمجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا﴾: وقد أعاد الجار لطول الكلام، وهو جائز أيضاً، وإن لم يطل، وقيل: متعلق بفعل محذوف عامل في ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ تقديره: يحكم الربانيون والأحبار بما استحفظوا، وقيل: الجار والمجرور في محل النصب مفعول به لـ﴿يَحۡكُمُ﴾ تقديره: يحكمون بسبب استحفاظهم ذلك. ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة (ما) الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما استحفظوه. ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من الضمير المحذوف أو من (ما). ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾: (الواو): عاطفة، ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿شُهَدَآءَ﴾. ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبر كانوا، وجملة ﴿كانوا﴾: معطوفة على جملة ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ على كونها صلة (لما). ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أيها اليهود

(١) الفتوحات.
(٢) العكبري.

المعاصرين لمحمد ﷺ حال أسلافكم، وصلاح أحوالهم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم ﴿لا تخشوا الناس﴾: لا: ناهية جازمة. ﴿تَخْشَوُا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿اخشوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسر نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَا تَخْشَوُا﴾. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَشْتَرُوا﴾: فعل وفاعل مجرور بلام الناهية. ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿لِلَّذِينَ﴾. ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة له، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ﴾. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾: الواو: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما. ﴿لَّمْ يَحْكُم﴾: جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَحْكُم﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره بما أنزل الله. ﴿فَأُولَـٰٓئِكَ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لكن الجواب جملة اسمية. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، والجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

﴿وَكَتَبْنَا﴾: (الواو) عاطفة. ﴿كتبنا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كتبنا﴾. ﴿فِيهَآ﴾ متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَا﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلنَّفْسَ﴾: اسمها. ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾: جار ومجرور ﴿أَنَّ﴾: تقديره أنَّ النفس القاتلة مقتولة بالنفس المقتولة، وجملة

﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: كتبنا عليهم قتل النفس بالنفس أو أخذ النفس بالنفس ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ بالنصب معطوف على ﴿ٱلنَّفْسَ﴾ كونه اسم ﴿أَنَّ﴾ ﴿بِٱلْعَيْنِ﴾: جار ومجرور بمحذوف خبر ﴿أَنَّ﴾ تقديره: وأن العين مفقوءة بالعين وكذلك قوله: ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ المنصوب منها معطوف على اسم ﴿أَنَّ﴾ وخبر أن في كلها المجرور منها. ﴿قِصَاصٌ﴾ خبر لـ﴿وَٱلْجُرُوحَ﴾؛ أي: وأن الجروح قصاص؛ لكنه على حذف مضاف إما من الأول تقديره: وأن حكم الجروح قصاص، وإما من الثاني تقديره: وأن الجروح ذات قصاص، وهذا على قراءة نافع وحمزة وعاصم بنصب المعاطيف كلها، على التشريك في عمل ﴿أَنَّ﴾ النصب، وخبر ﴿أَنَّ﴾ هو المجرور منها، وخبر ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ فيكون من عطف المفردات، عطفنا الاسم على الاسم والخبر على الخبر، كقولك: إن زيداً قائم وعمراً منطلق، عطفت عمراً على زيد، ومنطلقاً على قائم.

أما قراءة[1] الكسائي برفع ﴿والعين﴾ وما بعدها.. فوجهها أبو علي الفارسي بوجهين:

أحدهما: أنْ تكون (الواو): عاطفة جملة اسمية على جملة فعلية، فتعطف الجمل كما تعطف المفردات، بمعنى أن قوله: ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾: مبتدأ و﴿بِٱلْعَيْنِ﴾: خبره، وكذا ما بعده، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية من قوله: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ وعلى هذا فيكون ذلك ابتداء تشريع وبيان حكم جديد غير مندرج فيما كتب في التوراة، (فالواو) ليست مشركة للجملة مع ما قبلها، لا في اللفظ ولا في المعنى.

الوجه الثاني: من توجيهي الفارسي: أن تكون (الواو) عاطفة جملة إسمية على الجملة من قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ لكن من حيث المعنى لا من حيث اللفظ.

وأما قراءة أبي عمرو وابن كثير وابن عامر بالنصب فيما عدا ﴿الجروح﴾..

(١) الفتوحات بتصرف.

فإنَّهم يرفعونه، فالمنصوب فيها كما تقدم في قراءة نافع. وأمّا ﴿الجروح قصاص﴾ ففيه ثلاثة أوجه:

الوجهان المذكوران في قراءة الكسائي، وقد تقدم إيضاحهما.

والوجه الثالث: أنه مبتدأ، وخبره قصاص، يعني أنَّه ابتداء تشريع وتعريف وحكم جديد.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

﴿فَمَن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حكم ما إذا اقتص من أن النفس مأخوذة بالنفس، والعين مأخوذة بالعين، وأردت بيان أجر من عفا عنه.. فأقول لك. (من): اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿تَصَدَّقَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تصدق﴾. ﴿فَهُوَ﴾: (الفاء): رابطة لجواب من الشرطية. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿كَفَّارَةٌ﴾: خبره. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَفَّارَةٌ﴾ أو متعلق به، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿لَّمْ يَحْكُم﴾: جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَحْكُم﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة الفعلية صلة لما، أو صفة لها، والعائد محذوف تقديره: بما أنزل الله. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ (الفاء): رابطة ﴿أولئك﴾ مبتدأ. ﴿هم﴾: ضمير منفصل. ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿قفينا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾. ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قفينا﴾. ﴿بِعِيسَى﴾: جار ومجرور متعلق بقفينا أيضاً. ﴿ٱبْنِ﴾: صفة لـ﴿عيسى﴾. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه. ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من ﴿عيسى﴾. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَمُصَدِّقًا﴾. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف صلة ﴿لِّمَا﴾ أو صفة لها. ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾: جار ومجرور حال من ما الموصولة، أو من الضمير المستقر في الظرف.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾: الواو عاطفة. ﴿آتيناه الإنجيل﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة ﴿قفينا﴾. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿هُدًى﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَنُورٌ﴾: معطوف عليه، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾. وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ حال من ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ و﴿هُدًى﴾ فاعل به، لأنَّه اعتمد بوقوعه حالاً، وأعربه أبو البقاء مبتدأ وخبراً، والجملة حال، والأول أحسن، لأنَّ الحال بالمفرد أولى، وأيضاً يدل على عطف ﴿مُصَدِّقًا﴾ المفرد عليه، وعطف المفرد على المفرد الصريح، أولى من عطفه على المؤول. اهـ «كرخي». ﴿وَمُصَدِّقًا﴾: حال ثانية من ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ فهي حال مؤكدة؛ لأنَّ الكتب الإلٰهية يصدق بعضها بعضاً، وقيل: حال من ﴿عيسى﴾ أيضاً. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة ﴿لِّمَا﴾. ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾: حال من (ما) أو من الضمير المستقر في الظرف ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ حالان من ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ أيضاً، ويجوز[2] أن يكون من ﴿عيسى﴾؛ أي: هادياً وواعظاً، أو ذا هدى وذا موعظة، ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله؛ أي: قفينا للهدى، أو آتيناه الإنجيل للهدى. وقد قرىء في الشاذ بالرفع؛ أي: وفي الإنجيل هدى وموعظة، وكرر الهدى توكيداً. ذكره أبو البقاء. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: جار ومجرور

---

(١) الجمل.
(٢) العكبري.

تنازع فيه كل من ﴿هُدًى﴾ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ على كونه متعلقاً بهما، أو صفة لهما.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلْيَحْكُمْ﴾: (الواو): استئنافية أو عاطفة. (اللام) لام الأمر مبنى على السكون لوقوعه إثر عاطف. ﴿يَحْكُمْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿أَهْلُ الْإِنجِيلِ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، أو مقول لقول محذوف معطوف على ﴿آتينا﴾ تقديره: وآتينا عيسى ابن مريم الإنجيل وقلنا ليحكم أهل الإنجيل. وقرىء بكسر اللام وفتح الميم على أنَّها لام كي، والجملة حينئذٍ معطوفة على محذوف تقديره: وقفينا بعيسى ابن مريم الإنجيل ليؤمنوا، وليحكم أهل الإنجيل، أو مستأنفة والتقدير: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل الإنجيل. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق ﴿يَحْكُمْ﴾. ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما أنزل الله. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿وَمَن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب. ﴿لَّمْ يَحْكُم﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَحْكُم﴾ ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أنزله الله. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: خبر، والجملة في محل الجزم جواب من الشرطية، وجملة من الشرطية مستأنفة.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿الْكِتَابَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة[1] على قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾ وما عطف عليه. ﴿بِالْحَقِّ﴾:

---

(١) أبو السعود.

جار ومجرور حال ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو من فاعل ﴿أَنزَلْنَا﴾ أو من الكاف في ﴿إِلَيْكَ﴾ وعلى كل فالباء للملابسة أو المصاحبة. ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من الكتاب. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة ﴿لما﴾. ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: حال من (ما) أو من الضمير المستقر في الظرف. ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾: معطوف على ﴿مُصَدِّقًا﴾ على كونه حالاً من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الأول. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

﴿فَٱحْكُم﴾: (الفاء): فاء الصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت منزلة القرآن من الكتب الإلٰهية، وأنه رقيب ومهمين عليها.. فأقول لك: احكم بينهم بما أنزل الله، ويصح كون الفاء عاطفة تفريعية على قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿احكم﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿بَيْنَهُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿احكم﴾. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿احكم﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما أنزله الله تعالى. ﴿وَلَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾: فعل ومفعول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱحْكُم﴾ ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف من فاعل ﴿تَتَّبِعْ﴾ تقديره: حالة كونك عادلاً لا عما جاءك، وفي «السمين» قوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: به قال أبو البقاء أنّه حال؛ أي: عادلاً عما جاءك، وهذا فيه نظر من حيث إن عن حرف جر ناقص لا يقع خبراً عن جثة، فكذلك لا يقع حالاً عنها، وحرف الجر الناقص، إنما يتعلق بكون مطلق، لا بكون مقيد، لأن المقيد لا يجوز حذفه.

والثاني: أن عن على بابها من المجاوزة لكن بتضمين ﴿تَتَّبِعْ﴾ معنى تزحزح وتنحرف؛ أي: لا تنحرف متبعاً، اهـ. ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ومفعول وفاعله

ضمير يعود على (ما) والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من الضمير في ﴿جَآءَكَ﴾ أو من (ما) الموصولة، ويجوز أن تكون بيانية متعلقة بـ﴿جاء﴾.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

﴿لِكُلٍّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لكل، ولا يضر فصل ﴿جَعَلْنَا﴾ بين الصفة والموصوف كما في قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ﴿شِرْعَةً﴾: مفعول به. ﴿وَمِنْهَاجًا﴾: معطوف عليه، والمعنى: لكل أمة كائنة منكم أيها الأمم السابقة، والآتية جعلنا شرعة ومنهاجاً، ويجوز أن يكون جعل متعدياً إلى اثنين بجعله بمعنى صيرنا، فيكون لكل مفعولاً ثانياً مقدماً وشرعة مفعولاً أولاً مؤخراً. ﴿وَلَوْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿جعلكم أمة﴾: فعل ومفعولان. ﴿وَٰحِدَةً﴾ صفة لـ﴿أُمَّةً﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة جواب لو لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَلَٰكِن﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ اللام لام كي. ﴿يبلوكم﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية صلة أنْ المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بفعل محذوف تقديره: ولكن فرقكم وجعلكم أمماً مختلفة ليبلوكم، ويختبركم فيما آتاكم ليظهر المطيع من العاصي، والجملة المحذوفة مستأنفة، أو استدراكية لا محل لها من

الإعراب. ﴿فِي مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يبلوكم﴾. ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: فيما آتاكموه، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة صلة لما أو صفة لها ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (الفاء): فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن مشيئة الله افتراقكم لاختباركم وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم استبقوا الخيرات. ﴿استبقوا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: مفعول به أو منصوب بنزع الخافض، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المخاطبين ولا يقال: هو حال من المضاف إليه، وهو لا يجوز؛ لأنَّه يقال: المضاف مقتض للعمل في المضاف إليه قال ابن مالك:

وَلاَ تُجِزْ حَالاً مِنَ ٱلْمُضَافِ لَهْ   إِلاَّ إِذَا ٱقْتَضَىٰ ٱلْمُضَافُ عَمَلَهْ

والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿ينبئكم﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية مفرعة معطوفة على الجملة الاسمية التي قبلها ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينبئكم﴾ ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

﴿وَأَنِ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ٱحْكُم﴾: فعل أمر في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية مبنى على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بَيْنَهُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱحْكُم﴾، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه معطوفاً على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والتقدير: وأنزلنا إليك الكتاب والحكم بينهم بما أنزل الله. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱحْكُم﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أنزله الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ جازم وفعل، ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل

النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾.

﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾

﴿وَٱحْذَرْهُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾. ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على كونه بدلاً من ضمير احذرهم بدل اشتمال، تقديره: واحذرهم فتنتهم إياك، أو على كونه مفعولاً لأجله، ولكنه على تقدير مضاف تقديره: واحذرهم مخافة فتنتهم إياك. ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَفْتِنُوكَ﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: أنزله الله إليك.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَإِن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما أنزلنا إليك، وما أمرناك به، وأردت بيان حالهم وشأنهم فيما إذا تولوا عن حكمك.. فأقول لك: ﴿إن تولوا﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿فَٱعْلَمْ﴾: الفاء: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿اعلم﴾: فعل أمر في محل الجزم بإن على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿أَنَّمَا﴾: أداة حصر أو تقول: ﴿أن﴾: حرف نصب و(ما) كافة. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب سادة مسد مفعولي اعلم. ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يصيب﴾ وجملة ﴿يصيب﴾: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: إصابته إياهم ببعض ذنوبهم. ﴿وَإِنَّ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿كَثِيرًا﴾ اسمها. ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾. ﴿لَفَٰسِقُونَ﴾: اللام

حرف ابتداء. ﴿فاسقون﴾: خبر ﴿إن﴾: وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: أيعرضون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية. (والفاء): عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف. ﴿حكم الجاهلية﴾: مفعول مقدم ومضاف إليه. ﴿يَبْغُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَحْسَنُ﴾: خبره. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَحْسَنُ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿حُكْمًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، وأصله وحكم من أحسن من حكم الله. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: (اللام): حرف جر بمعنى عند. ﴿قوم﴾: مجرور باللام الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَحْسَنُ﴾. ﴿يُوقِنُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الجرّ صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ...﴾ الآية، التوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى والذين هادوا هم اليهود ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ هو المنسوبون إلى الرب بمعنى الخالق المدبر لأمر الخلق ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ جمع حبر بسكر الحاء؛ وهو العالم ﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد ككرماء جمع كريم. ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ أصله تخشيوا تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان ثم حذفت الألف ثم حركت الواو بالحركة المجانسة لها ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ من قفى يقفي تقفية، وهو من قفا يقفو إذا تبع قفاه؛ أي: أرسلناه عقبهم، والتضعيف فيه ليس للتعدية؛ لأن قفا متعد لواحد قبل التضعيف.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وتقول العرب: قفى فلان إثر

فلان إذا تبعه، فلو كان التضعيف للتعدية إلى اثنين.. لكان التركيب: وقفيناهم عيسى ابن مريم، فهم مفعول ثانٍ وعيسى مفعول أول ولكنه ضمن معنى جئنا به على آثارهم وأقفائهم فعدي بالباء ﴿مهيمناً﴾ المهيمن الرقيب وقيل: الغالب المرتفع، وقيل: الحافظ، وقيل: الشاهد، ومن هذا قول حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر النبي ﷺ:

إِنَّ ٱلْكِتَابَ مُهَيْمِنٌ لِنَبِيِّنَا ... وَٱلْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلأَلْبَابِ

يريد أنَّه شاهد ومصدق لنبينا محمد ﷺ، واختلفوا فيه، هل هو أصل بنفسه؟؛ أي: إنَّه ليس مبدلاً من شيء، يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن، كبيطر يبيطر فهو مبيطر، وقال المبرد: أصله مؤيمن أبدل من الهمزة هاء كما قيل في أرقت الماء: هرقت، وبه قال الزجاج وأبو علي الفارسي. وقال الجوهري: هو من أمن غيره من الخوف وأصله: أأمن فهو مؤأمن بهمزتين، قلبت الثانية ياء كراهة لاجتماعهما، فصار مؤيمن ثم صيرت الأولى هاء، كما قالوا: هراقه وأراقه، يقال: هيمن على الشيء يهمين، إذا كان له حافظاً، فهو له مهيمن، كذا عن أبي عبيد.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: في «المصباح»: الشرعة بالكسر الدين، والشرع والشريعة ومثله مأخوذ من الشريعة وهي مورد الناس للاستسقاء سميت بذلك لوضوحها وظهورها وجمعها شرائع، وشرع الله لنا كذا يشرعه إذا أظهره وأوضحه، والمشرعة بفتح الميم والراء شريعة لما قال الأزهري: ولا تسميها العرب مشرعة حتى يكون الماء عدا لا انقطاع له كماء الأنهار، ويكون ظاهراً أيضاً، ولا يستقى منه برشاء، فإن كان من ماء الأمطار.. فهو الكرع بفتحتين، والناس في هذا الأمر شرع بفتحتين، وتسكن الراء للتخفيف؛ أي: سواء انتهى.

وقوله: ﴿منهاجاً﴾: في «المختار»: النهج بوزن الفلس، والمنهج بوزن المذهب، والمنهاج: الطريق الواضح، ونهج الطريق أبانه، ونهجه أيضاً سلكه، وبابهما قطع، والنهج بفتحتين تتابع النفس وبابه طرب. انتهى. وفي «المصباح»: النهج مثل فلس، الطريق الواضح، والمنهج والمنهاج مثله، ونهج الطريق ينهج

بفتحتين نهوجاً إذا وضح واستبان، وأنهج بالألف مثله ونهجته وأنهجته أوضحته يستعملان لازمين ومتعدين. انتهى. ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الأمة الجماعة المتفقة على دين واحد ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾؛ أي: ليختبركم من بلا يبلو بلوى من باب دعا، والابتلاء: الاختبار ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: ابتدروا وسارعوا إليها، وهو من باب افتعل الخماسي، والسين فيه فاء الكلمة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾، وفي قوله: ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

ومنها: التنزل من الأعلى إلى الأدنى في الوصف في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ فإن النبوة أعظم من الإسلام قطعاً فوصفهم بالإسلام ليس للتخصيص ولا للتوضيح بل لتنويه شأن الصفة فإن إبراز وصف في معرض مدح العظماء، منبىء عن عظم قدر الوصف لا محالة كما في وصف الأنبياء بالصلاح، ووصف الملائكة بالإيمان عليهم السلام ولذلك قيل: أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ فإن اللام لبيان اختصاص الحكم بهم، سواء كان لهم أم عليهم.

ومنها: توسيط المحكوم لهم بين المعطوفين في قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ إيذاناً بأن الأصل في الحكم بها، وحمل الناس على ما فيها هم النبيون وإنما الربانيون والأحبار خلفاء ونواب عنهم في ذلك.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ وما بعده.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[١] أنَّ من تولى الكافرين من دون الله يعد منهم، وأن الذين يسارعون فيهم مرضى القلوب مرتدون بتوليهم إياهم، فإن أخفوا ذلك فإظهارهم للإيمان نفاق.. بين هنا حقيقة دغمها بخبر من الغيب يظهره الزمن المستقبل، فالحقيقة أن المنافقين ومرضى القلوب لا غناء فيهم، ولا يعتد بهم في نصر الدين وإقامة الحق، فالله إنَّما يقيم دينه بصادقي الإيمان الذين يحبهم فيزيدهم رسوخاً في الحق، وقوةً على إقامته، ويحبونه، فيؤثرون ما يحبه من إقامة الحق والعدل على سائر ما يحبون من مال ومتاع وأهل وولد. وخبر الغيب أنَّه سيرتد بعض الذين آمنوا عن الإسلام جهراً ولا يضره ذلك، لأن الله تعالى يسخر من ينصره ويحفظه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى[٢] في الآيات السابقة عن موالاة الكافرين.. أمر هنا في هذه الآية بموالاة من تجب موالاتهم، وهم الله ورسوله والمؤمنون.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾، الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما نهى عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دونه، وبين العلة في ذلك، فأرشد إلى أن بعضهم أولياء بعض، ولا يوالي المؤمنين منهم أحد، ولا يواليهم ممن يدعون الإيمان إلا مرضى القلوب والمنافقون الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر.. أعاد النهي هنا عن اتخاذ الكفار عامة أولياء مع بيان الوصف الذي لأجله كان النهي وهو إيذاؤهم للمؤمنين بجميع ضروب الإيذاء ومقاومتهم دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[٣] ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

مردويه والبيهقي في «الدلائل»، وابن عساكر عن عبادة بن الوليد عن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ.. تشبث بأمرهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، وله من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أبي بن سلول، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، وفيه وفي عبد الله بن أبيّ نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

قال ابن كثير: واختلف المفسرون[1] في سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدي أنَّها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أُحد: أمَّا أنا فإنِّي ذاهب إلى ذلك اليهودي فآوي إليه، وأتهود معه لعله ينفعني إذا وقع أمر وحدث حادث، وقال الآخر: أمَّا أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام، فآوي إليه وأتنصَّر معه فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآيات. وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه؛ أي: إنه الذبح. رواه ابن جرير، وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[2] ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾. إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾. وأخرج البيهقي في «الدلائل» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ قال:

---

(١) ابن كثير. (٢) الشوكاني.

كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة فقام المسلمون إلى الصلاة.. قالت اليهود والنصارى: قد قاموا لا قاموا، فإذا رأوهم ركعوا وسجدوا، استهزأوا بهم وضحكوا منهم، فنزلت، هذه الآية.

وأخرج ابن[1] إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟ فقال: «أومن بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون»، فلمَّا ذكر عيسى.. جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى، ولا نؤمن بمن آمن به، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الآية. قال: أناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاءهم به وهم متمسكون بضلالتهم وبالكفر، فكانوا يدخلون بذلك، ويخرجون به من عند رسول الله ﷺ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ وتجعلوا ﴿ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾ وغيرهم من سائر الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أصدقاء وأنصاراً وأعواناً على أهل الإيمان بالله ورسوله؛ أي: لا يتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً

قال ابن جرير[2]: إن الله تعالى نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله وأخبر أن من اتخذهم نصيراً أو حليفاً وولياً من دون الله ورسوله.. فهو منهم في التحزب على الله

---

(١) الشوكاني.
(٢) الطبري.

ورسوله والمؤمنين، وأنَّ الله ورسوله بريئان منه، إلى أن قال: غير أنه لا شك أن الآية نزلت في منافق كان يوالي يهود أو نصارى جزعاً على نفسه من دوائر الدهر، لأن الآية التي بعد هذه تدل على ذلك. ا هـ.

ثم ذكر علة هذا النهي فقال: ﴿بَعْضُهُمْ﴾؛ أي: بعض كل فريق من ذينك الفريقين ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ آخر من فريقه، لا من الفريق الآخر، لما هو معلوم من أنَّ الفريقين بينهما غاية العداوة، وإنما أوثر الإجمال تعويلاً على ظهور المراد، لوضوح انتفاء الموالاة بين الفريقين رأساً، ومن ضرورة موالاة بعضهم لبعض اجتماع الكل على مضارتكم، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة؟ وقيل: المراد أن كل واحدة من الطائفتين توالي الأخرى، وتعاضدها، وتناصرها على عداوة النبي ﷺ، وعداوة ما جاء به، وإن كانوا في ذات بينهم متعادين متضادين، ووجه تعليل النهي بهذه الجملة أنها تقتضي أنَّ هذه الموالاة هي شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم، فلا تفعلوا ما هو من فعلهم، فتكونوا مثلهم، ولهذا عقب هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال: ومن يتولهم منكم إلخ؛ أي: إنَّ اليهود بعضهم أنصار بعض، والنصارى بعضهم أنصار بعض، ولم يكن للمؤمنين منهم ولي ولا نصير، إذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول ﷺ معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال ولا عدوان، فصار الجميع حرباً للرسول ومن معه من المؤمنين، ثم توعد من يفعل ذلك فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين؛ أي: ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين ـ وهم أعداء لكم ـ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإنَّ ذلك المتولي في الحقيقة ﴿مِنْهُمْ﴾ لا منكم؛ لأنه معهم عليكم، إذ لا يتصور أن يقع ذلك من مؤمن صادق، والمعنى: فإنَّه من جملتهم وفي عدادهم، وهو وعيد شديد، فإنَّ المعصية الموجبة للكفر هي التي قد بلغت إلى غاية ليس ورائها غاية. قال ابن جرير(١): فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين.. فهو من أهل دينهم فإنَّه لا يتولى متول أحداً إلا وهو راضٍ به وبدينه وما هو عليه، وإذا رضيه ورضي دينه.. فقد عادى من خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه انتهى.

---

(١) الطبري.

ومن هذا[1] تعلم أنَّه إذا وقعت الموالاة والمخالفة والمناصرة بين المختلفين في الدين لمصالح دنيوية.. لا تدخل في النهي الذي في الآية، كما إذا حالف المسلمون أمة غير مسلمة على أمة مثلها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها.. فمثل هذا لا يكون محظوراً، ثم ذكر العلة والسبب في الوعيد السابق فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بموالاة الكفار؛ أي: إن من يوالي أعداء المؤمنين وينصرهم، أو يستنصر بهم.. فهو ظالم بوضعه الولاية في غير موضعها، والله لا يهديه لخير ولا يرشده إلى حق، وهذه الجملة تعليل للجملة التي قبلها؛ أي: إن وقوعهم في الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر كمن يوالي الكافرين. روي[2] عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب إن لي كاتباً نصرانياً، فقال مالك: قاتلك الله؟ ألا اتخذت حنيفاً، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾. قلت: له دينه ولي كتابته، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله، قلت: لا يتم أمر البصرة إلا به، فقال: مات النصراني والسلام.

والمعنى: اجعله في ظنك أنه قد مات فما تعمل بعد موته؛ أي: فاعمله الآن ميتاً واستغن عنه بغيره من المسلمين. ثم أخبر أن فريقاً من ضعاف الإيمان يفعل ذلك فقال: ﴿فَتَرَى﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك ونفاق؛ أي: فترى المنافقين الذين اعتل إيمانهم بمرض النفاق كعبد الله بن أبيّ وأضرابه ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: يبادرون في مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم، لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار، فكانوا يغشونهم ويقرضونهم ويعينونهم على مهماتهم، ويخالطونهم لأجل ذلك. وقرأ إبراهيم بن وثاب في: ﴿فيرى﴾ بالياء من تحت، فقيل: الفاعل ضمير يعود على الله، وقيل: كل من تصح منه الرؤيا، وقيل: هو الموصول، ومفعوله يسارعون على حذف أن المصدرية؛ أي: فيرى القوم الذين في قلوبهم مرض أنْ يسارعوا فيهم فلما حذفت أنْ.. ارتفع الفعل، وقرأ قتادة

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

والأعمش: ﴿يسرعون﴾ بغير ألف من أسرع. ﴿يقولون﴾؛ أي: يقول المنافقون معتذرين عنها إلى المؤمنين؛ إنما نخالط اليهود لأنَّا ﴿نَخۡشَىٰٓ﴾ ونخاف خوفاً شديداً في المستقبل ﴿أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ وتدور علينا حادثة من حوادث الدهر، ويقع علينا مكروه، وتصيبنا مصيبة من مصائب الدهر، كالهزيمة في الحروب، والقحط والجدب، فنحتاج إلى نصرتهم وإقراضهم لنا، فعلينا أن نتخذ لنا أيادي عندهم في السراء نتشفع بها إذا مستنا الضراء. قال ابن عباس: معناه: نخشى أن لا يتم أمر محمد، فيدور علينا الأمر كما كان قبل محمد نتشفع، وقيل: الدائرة في المكروه كالجدب والقحط، والدولة في المحبوب.

وخلاصة ذلك: أنهم يخشون أن تدول الدولة لليهود أو المشركين على المؤمنين فيحل بهم العقاب لأنهم في شك من نصر الله لنبيّه، وإظهار دينه على الدين كله، إذ لم يوقنوا بنبوته ولا بصدقها، وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان، فكثير من وزراء بعض الدول الضعيفة يتخذ له يداً عند دولة قوية، يلجأ إليها إذا أصابته دائرة، فتغلغل نفوذ هذه الدول في أحشاء هذه الدولة وضعف استقلالها في بلادها بعملهم ولله الأمر من قبل ومن بعد، ثم رد على هؤلاء المنافقين، وقطع أطماعهم وبشر المؤمنين فقال: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: حقق الله سبحانه وتعالى ﴿أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ والنصر لرسوله ﷺ على أعدائه، وإظهار دينه على الأديان كلها، وإظهار المسلمين على أعدائهم من الكفار واليهود والنصارى، وقد فعل الله ذلك بمنه وكرمه، فأظهر دينه ونصر عبده ﴿أَوۡ﴾ يأتي بـ﴿أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى في هؤلاء المنافقين، كفضيحتهم أو إيقاع العقاب بهم ﴿فَيُصۡبِحُواْ﴾؛ أي: فيصبح هؤلاء المنافقين ويصيروا ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ﴾ وأضمروه وكتموه ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وقلوبهم من اتخاذ الأولياء على المؤمنين، وتوقع الدوائر عليهم فضلاً عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم ﴿نَٰدِمِينَ﴾ خاسرين، وعسى في كلامه تعالى للتحقق، لأن الكريم إذا أطمع في خير.. فعله، وهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به ورجائها له. والفتح إمَّا فتح مكة الذي كان به ظهور الإسلام والثقة بقوته وإنجاز الله وعده لرسوله، وإما فتح بلاد اليهود في الحجاز كخيبر وفدك وغيرهما، والأمر إما الإيقاع باليهود وإجلائهم عن موطنهم وإخراجهم من

حصونهم وصياصيهم، وإما القهر والإيجاف عليهم بالخيل والركاب، كبني قريظة، وإما بإلقاء الرعب في قلوبهم حتى يعطوا بأيديهم، كبني النضير وإما ضرب الجزية على اليهود والنصارى فينقطع أمل المنافقين، ويندمون على ما كان من إسرارهم بالولاء لهم.

وقرأ ابن الزبير ﴿فنصبح الفساق﴾ جعل الفساق مكان الضمير، قال ابن عطية: وخص الإصباح بالذكر لأن الإنسان في ليله مفكر، فعند الصباح يرى الحالة التي اقتضاها فكره. انتهى.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: يقول بعض المؤمنين لبعض في الوقت الذي أظهر الله تعالى نفاق المنافقين متعجبين من حال المنافقين ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ المنافقون الذين فضحهم الله تعالى الآن هم ﴿الَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾ وحلفوا لنا ﴿بِاللَّهِ﴾ تعالى ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وأغلظها وأشدها وأوكدها بتعداد أسماء الله تعالى فيها، وجمع صفاته فيها قائلين ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾؛ أي: نحن معكم يا معشر المؤمنين في الدين والمناصرة، ونحن معاضدوكم وناصروكم على أعدائكم اليهود، فلما حل بهم ما حل.. أظهروا ما كانوا يسرونه من موالاتهم وممالأتهم على المؤمنين كما قال في سورة التوبة: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: فهم لفرقهم وخوفهم يظهرون الإسلام تقية، والاستفهام هنا للتعجب.

وذلك أنَّ[1] المؤمنين كانوا يتعجبون من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى، ويقولون إنَّ المنافقين حلفوا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعنا ومن أنصارنا، والآن كيف صاروا موالين لأعدائنا من اليهود محببين للاختلاط بهم، فبان كذب المنافقين في أيمانهم الباطلة.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف[2]: ﴿ويقول الذين أمنوا﴾ بالرفع مع إثبات الواو كما في مصاحف أهل العراق على الاستئناف. وقرأ نافع وابن كثير

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

وابن عامر بالرفع مع حذف الواو، كما في مصاحف أهل الحجاز والشام على أن الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً في جواب سؤال نشأ من قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ كأن القائل يقول: فماذا يقول المؤمنون حينئذٍ؟ فقيل: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟. . .﴾ إلخ.

وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالنصب مع الواو عطفاً على يصبحوا لا على يأتي: لأنَّ ذلك القول إنَّما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين لا عند إتيان الفتح فقط، والمعنى: يقول المؤمنون مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم عند مشاهدتهم لانعكاس رجائهم تعريضاً بالمخاطبين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: غاية إيمانهم ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أيها اليهود بالمعونة، فإن المنافقين حلفوا لليهود بالمعاضدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أو المعنى: يقول المؤمنون بعضهم لبعض، مشيرين للمنافقين، متعجبين من حالهم، مستعظمين بما من الله عليهم من إخلاص الإيمان عند مشاهدتهم لإظهارهم الميل إلى موالاة اليهود والنصارى: إنهم كانوا يقسمون لنا بالله جهد أيمانهم إنهم معنا في ديننا في السر ومن أنصارنا، فالآن كيف صاروا موالين لأعدائنا، محبين للاختلاط بهم، والاعتضاد بهم، وهذا المعنى كما سبق في حلنا أولاً أنسب لقراءة الرفع مع إثبات الواو على الاستئناف، أما المعنى الأول أعني: قول المؤمنين مخاطبين لليهود، فهو أنسب لقراءة النصب، ولقراءة الرفع مع حذف الواو، ولقراءة الرفع مع الواو بجعل الواو عاطفة جملة على جملة، والله أعلم بمراده.

وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ أي: بطلت أعمال المنافقين، هو من تمام[1] قول المؤمنين، أو جملة مستأنفة والقائل هو الله سبحانه، والأعمال هي التي عملوها في الموالاة، أوكل عمل يعملونه؛ أي: ويقول المؤمنون: ضاعت أعمالهم التي يتكلفونها نفاقاً، كالصلاة والصوم والجهاد معنا ليقنعونا بأنهم منا، لأجل ما أظهروا من النفاق، وموالاة اليهود ﴿فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا

---

(١) الشوكاني.

بافتضاحهم، وفي الآخرة بإحباط ثواب أعمالهم، وحصلوا بالعذاب الدائم المقيم، أو المعنى[1]: ضاعت أعمالهم التي عملوها رياء وسمعة، لا إيماناً وعقيدة إن قلنا هو من قول الله عزّ وجلّ شهادة لهم بحبوط الأعمال لهم وتعجيباً من سوء حالهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا والعقبى لفوات المعونة ودوام العقوبة.

فائدة: وروى أرباب السير[2]: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة.. صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه أحداً ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة، وقسم تاركوه، فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره، وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه من الباطن ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

وقد عامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه به، فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة، بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، فحاربته بنو قينقاع بعد بدر وأظهروا البغي والحسد، ثم نقض العهد بنو النضير بعد ذلك بستة أشهر، ثم نقض بنو قريظة العهد لما خرج إلى غزوة الخندق، وكانوا من أشد اليهود عداوة للنبي ﷺ، وقد حارب كل طائفة وأظهره الله عليها، وكان نصارى العرب والروم حرباً عليه كاليهود.

ولما نهى[3] الله سبحانه وتعالى فيما سلف عن موالاة اليهود والنصارى، وبين أنها مستدعية للارتداد.. شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿مَن يَرۡتَدَّ﴾ ويرجع. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿من يرتدد﴾ بدالين مفكوكاً وهي لغة الحجاز،

---

(١) النسفي.

(٢) المراغي.

(٣) الجمل.

والباقون بواحدة مشددة، وهي لغة تميم. ﴿مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الحق الذي هو عليه وهو دين الإسلام فيبدله ويغيره بدخوله في الكفر بعد الإيمان، فيختار إما اليهودية أو النصرانية، أو غيرهما من أصناف الكفر ﴿فـ﴾ لن يضر الله شيئاً، وإنَّما ضر نفسه برجوعه عن الدين الصحيح الذي هو دين الإسلام لأنه ﴿سوف يأتي الله﴾ سبحانه وتعالى، ويجيء في المستقبل بدل المرتدين عن دينهم ﴿بِقَوْمٍ﴾ موصوفين بصفات ستة:

الأول والثاني منها: ما ذكره بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى؛ أي: يلهمهم الطاعة ويثيبهم عليها. ومعنى محبة الله إياهم: إنعامه عليهم، وتوفيقه إياهم وهدايته إياهم إلى طاعته، والعمل بما يرضى به عنهم ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾؛ أي: يحبون الله تعالى ويطيعونه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومعنى محبتهم لله تعالى: المسارعة إلى طاعته وتقديم خدمته على كل شيء، وابتغاء مرضاته، وأن لا يفعل ما يوجب سخطه وعقوبته، وأن يتحبب إليه بما يوجب له الزلفى لديه، جعلنا ممن يحبهم ويحبونه بمنه وكرمه، ولما كانت محبتهم لله ناشئة عن محبة الله إياهم.. قدم محبة الله على محبتهم، والأقرب أن الآية عامة لأصحاب رسول الله ﷺ ومن كان على قدمهم إلى يوم القيامة بقرينة التسويف.

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مشفقين عليهم، عاطفين لهم، أرقاء، رحماء لأهل دينهم وإخوانهم من المؤمنين، متذللين لهم، جمع ذليل لا ذلول كما سيأتي في مبحث الصرف. وقرىء شاذاً ﴿أذلة﴾ وهو اسم، كذا ﴿أعزةً﴾ نصباً على الحال من النكرة أعني: ﴿بِقَوْمٍ﴾؛ لأنها قربت من المعرفة بوصفها.

والرابع منها: ما ذكره بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: أشداء أقوياء، غلظاء على أعدائهم الكافرين. وقرأ عبيد الله: ﴿غلظاء على الكافرين﴾ مكان أعزة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أهل رقة على أهل دينهم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أهل غلظة على من خالفهم في دينهم. وقال ابن عباس رضي الله عنه: تراهم كالولد لوالده، وكالعبد لسيده، وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته.

والخامس منها: ما ذكره بقوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يقاتلون أعداء الله؛ لإعلاء كلمته، وسبيل الله هو طريق الحق والخير الموصل إلى مرضاته تعالى، ومن أعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال أعداء الحق، وهو من أكبر آيات المؤمنين الصادقين.

والسادس منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾؛ أي: لا يخافون عذل عاذل في نصرهم الدين بخلاف المنافقين، فإنهم كانوا يراقبون الكفار، ويخالفون لومهم، فبين تعالى في هذه الآية: أن من كان قوياً في الدين، فإنَّه لا يخاف في نصره لدين الله بيده أو بلسانه لومة لائم، وهذه صفة المؤمنين المخلصين. وقال ابن كثير: أي: لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم ولا عذل عاذل. وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن كنز من تحت العرش». أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٩) وسنده حسن.

وعن عبادة بن الصامت قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كان، لا نخاف في الله لومة لائم. والحاصل أنهم يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين، ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين، ويجمعون بين المجاهدة في سبيل الله، وعدم خوف الملامة في الدين، بل هم متصلبون، لا يبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب الشيطان من الإزدراء بأهل الدين، وقلب محاسنهم مساوي، ومناقبهم مثالب حسداً وبغضاً وكراهة للحق وأهله. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأوصاف الستة التي وصف بها القوم من المحبة والذلة والعزة ومن بعدها؛ لأن ذلك يشار به إلى المفرد والمثنى والمجموع كما

تقدم مع زيادة في قوله: ﴿عَوَانٌۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾. ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ وإحسانه وكرامته ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يعطيه ويكرم به من يشاء كرامته من عباده ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَٰسِعٌ﴾ الفضل كثير العطايا ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحقه ومن هو أهل لها.

تتمة فيما يتعلق بالآية: روى ابن جرير عن قتادة قال: أنزل الله هذه الآية يعني قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ الآية. وقد علم أنه سيرتد مرتدون من الناس، فلما قبض الله نبيه محمداً ﷺ.. ارتد عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد، أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل البحرين من عبد القيس أهل مسجد جواثي قالوا ـ أي المرتدون ـ نصلي ولا نزكي، والله لا تغصب أموالنا، فكلم أبو بكر في ذلك، فقيل له: إنهم لو قد فقهوا لهذا.. أعطوها وزادوها، فقال: لا والله لا أفرق بين شيء جمع الله بينه، ولو منعوا عقالاً مما فرض الله ورسوله.. لقاتلتهم عليه، فبعث الله عصابة مع أبي بكر، فقاتل على ما قاتل عليه نبي الله ﷺ حتى سبى وقتل وحرق بالنيران أناساً ارتدوا عن الإسلام، ومنعوا الزكاة فقاتلهم حتى أقروا بالماعون ـ الزكاة ـ صغرة: واحدهم صاغر، وهو المهيمن الذليل، أقمياء: واحدهم قميء، وهو الذليل الضعيف، فأتته وفود العرب فخيرهم بين خطة مخزية أو حرب مجلية، فاختاروا الخطة المخزية، وكانت أهون عليهم أن يقروا أن قتلاهم في النار، وأن قتلى المؤمنين في الجنة، وأن ما أصابوا من المسلمين من مال ردوه عليهم، وما أصاب المسلمون من مال لهم فهو لهم حلال، انتهى.

وعلى هذا فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه هم: أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة، قاله قتادة والضحاك، ورجح ابن جرير: أن الآية نزلت في قوم أبي موسى الأشعري من أهل اليمن، لما روي أن النبي ﷺ لما قرأ هذه الآية قال: «هم قوم أبي موسى» وإنْ لم يكونوا قاتلوا المرتدين مع أبي بكر، لأن الله وعد بأن يأتي بخير من المرتدين بدلاً منهم، ولم يقل أنَّهم يقاتلون المرتدين، ويكفي في صدق الوعد أن يقاتلوا، ولو غير المرتدين. وقد ارتد كثير من القبائل في عهد النبي ﷺ وبعده، فقد ارتدت إحدى عشرة فرقة، منها ثلاث في عهد النبي ﷺ وهم:

١ ـ بنو مدلج، ورئيسهم ذو الحمار وهو الأسود العنسي، وكان كاهناً تنبأ باليمن، واستولى على بلاده، وأخرج عمال النبي ﷺ، فكتب النبي ﷺ إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن، فأهلكه على يدي فيروز الديلمي، بيته فقتله، وأخبر رسول الله ﷺ بقتله، فسر به المسلمون وقبض عليه السلام من الغد.

٢ ـ بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، وقد تنبأ مسليمة، وكتب إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك أما بعد: فإني قد أشركت في الأمر معك، وأن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون، فكتب إليه النبي ﷺ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب السلام على من اتبع الهدى، أما بعد ﴿فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾» وكان ذلك سنة عشر، وحاربه أبو بكر، وقتله وحشي قاتل حمزة، وكان يقول: قتلت في جاهليتي خير الناس وفي إسلامي شر الناس.

٣ ـ بنو أسد وزعيمهم طليحة بن خويلد، وقد تنبأ فبعث إليه أبو بكر خالد بن الوليد فانهزم وهرب إلى الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه.

وارتدت سبع في عهد أبي بكر وهم:

١ ـ فزارة، قوم عيينة بن حصن.

٢ ـ غطفان، قوم قرة بن سلمة القشيري.

٣ ـ بنو سليم، قوم الفجاءة بن عبد ياليل.

٤ ـ بنو يربوع، قوم مالك بن نويرة.

٥ ـ بعض بني تميم وزعيمته سجاح بنت المنذر الكاهنة، وقد تنبأت وزوجت نفسها من مسيلمة، ولها قصص طويل في التاريخ، وصح أنّها أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها

٦ ـ كندة، قوم الاشعث بن قيس

٧ ـ بنو بكر بن وائل بالبحرين، قوم الحطم بن زيد، وقد كفى الله المؤمنين شرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه، وارتدت واحدة في عهد عمر رضي الله عنه وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم، تنصر جبلة ولحق بالشام ومات مرتداً.

ويروى أن عمر رضي الله عنه: كتب إلى أحبار الشام لما لحق بهم كتاباً جاء فيه: إن جبلة ورد إلي في سراة قومه فأسلم، فأكرمته، ثم سار إلى مكة فطاف فوطىء إزاره رجل من بني فزارة فلطمه جبلة فهشم أنفه وكسر ثناياه، فاستعدى الفزاري على جبلة إلي فحكمت إما بالعفو وإما بالقصاص، فقال: أتقتص مني وأنا ملك وهو سوقة؟ فقلت: شملك وإياه الإسلام، فما تفضله إلا بالعافية، فسأل جبلة التأخير إلى الغد، فلمَّا كان من الليل ركب مع بني عمه، ولحق بالشام مرتداً. وروي أنه ندم على ما فعل وأنشد:

تَنَصَّرْتُ بَعْدَ ٱلْحَقِّ عَاراً لِلَطْمَةٍ ... وَلَمْ يَكُ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ ضَرَرْ
فَأَدْرَكَنِيْ مِنْهَا لِجَاجٌ حَمِيَّةٌ ... فَبِعْتُ لَهَا ٱلْعَيْنَ ٱلصَّحِيْحَةَ بِٱلْعَوَرْ
فَيَا لَيْتَ أُمِّيْ لَمْ تَلِدْنِيْ وَلَيْتَنِيْ ... صَبَرْتُ عَلَىٰ ٱلْقَوْلِ ٱلَّذِيْ قَالَهُ عُمَرْ

وهؤلاء المرتدون لم يقاتلهم أحد، فإنَّ أبا بكر هو الذي قاتل جماهير المرتدين بمن معه من المهاجرين والأنصار. قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي[1]: ذلك الذي تقدم من الصفات فضل الله يعطيه من يشاء من عباده، وبه يمتازون عن غيرهم، وهذه المشيئة وفق السنن التي أقام بها أمر النظام في خلقه، فجعل من الناس الكسب والعمل نفسياً كان أو بدنياً، ومنه سبحانه وتعالى آلات الكسب والقوى ما بين بدنية وعقلية، حسية ومعنوية، كما أنَّ منه التوفيق والهداية واللطف والمعونة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فضله ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحقه، فعلينا أن لا نغفل عن فضله ومنته، ولا عما يقتضيه ذلك من الشكر له، والإنابة إليه، والإخبات والعبادة له. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لما نهى عن موالاة الكفرة.. ذكر عقيبه من هو حقيق بها، وإنَّما قال وليكم الله، ولم يقل أوليائكم

(١) المراغي.

للتنبيه على أن الولاية لله سبحانه وتعالى على الأصالة، ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع، لو قيل إنَّما أولياءكم الله ورسوله والذين آمنوا.. لم يكن في الكلام أصل وتبع؛ أي: لا ولي يلي أموركم أيها المؤمنون، ولا حافظ لكم ولا ناصر ينصركم على أعدائكم إلا الله سبحانه وتعالى ورسوله محمد ﷺ، والمؤمنون الصادقون الذين اتصفوا بهذه الصفات التالية المذكورة قريباً. وفي هذا تعريض للمنافقين في توليهم الكفار دون الله تعالى، ولما كانت كلمة الذين آمنوا تشمل كل من أسلم ولو ظاهراً.. بين المراد منها بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ بدل من الذين آمنوا، ويجوز رفعه على القطع، أو نصبه على المدح ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: يؤدونها لمستحقيها وقوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله، والمراد بالركوع الخشوع والخضوع؛ أي: يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون. وقيل: هو حال من فاعل الزكاة والمراد بالركوع هو المعنى المذكور؛ أي: يضعون الزكاة فيها مواضعها غير متكبرين على الفقراء ولا مترفعين عليهم.

قال في «الأساس»: العرب تسمي من آمن بالله ولم يعبد الأوثان راكعاً، وقال أبو مسلم: المراد بالركوع الخضوع. والمعنى؛ أي: أنَّ المؤمنين الذين يقومون بحق الولاية والنصرة لكم، هم الذين يقيمون الصلاة ويؤدونها حق الأداء باشتمالها على الأداب الظاهرة والباطنة، ويعطون الزكاة مستحقيها، وهم خاضعون لأوامر الله مع طيب نفس وهدوء قلب، لا خوفاً ولا رياء ولا سمعة، دون المنافقين الذين يقولون: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ويأتون بصورة الصلاة لا بروحها ومعناها المقصود منها، فإذا هم قاموا إلى الصلاة.. قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً. قال ابن الجوزي: فأما اتخاذهم الدين هزواً ولعباً.. فهو إظهارهم الإسلام وإخفاؤهم الكفر وتلاعبهم بالدين ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ﴾ بالإيمان به والتوكل عليه ﴿وَرَسُولَهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بنصرهم والاستنصار لهم.. فإنَّهم هم الغالبون على أعدائهم، لأنهم حزب الله، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ وجنده وأنصاره ﴿هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾ على أعدائهم بالحجة، فإنَّها مستمرة أبداً، إما بالصولة والدولة، فقد يغلبون كما وقع ذلك في زمن النبي ﷺ غير مرة، والحزب

في اللغة: أصحاب الرجل الذين يكونون معه على رأيه، وهم القوم الذين يجتمعون لأمر حزبه؛ أي: أهمه. والمعنى: أي إذا كان الله وليكم وناصركم، وكان الرسول والذين آمنوا أولياء لكم بالتبع لولايته.. فأنتم بذلك حزب الله والله ناصركم، ومن يتول الله بالإيمان به والتوكل عليه، ويتول الرسول والمؤمنين بنصرهم وشد أزرهم والاستنصار لهم دون أعدائهم.. فإنهم الغالبون، ولا يغلب من يتولاهم، لأنهم حزب الله الذي له الغلبة والقهر.

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله محمد ﷺ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾؛ أي: لا تجعلوا ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا﴾ وجعلوا ﴿دِينَكُمْ﴾ دين الإسلام الذي هو أفضل الأديان وناسخها ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: سخرية ﴿وَلَعِبًا﴾ أي ضحكاً، وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾ بيان للموصول السابق؛ أي: من اليهود والنصارى الذين أعطوا الكتاب ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ بالنصب عطف على الذين اتخذوا، أو بالجر عطف على الذين أوتوا الكتاب، والمراد بهم المشركون عبدة الأوثان، وإنَّما فصل بين أهل الكتاب والكفار - وإنْ كان أهل الكتاب من الكفار؛ لأن كفر المشركين من عبدة الأوثان أغلظ وأفحش من كفر أهل الكتاب - لأن أهل الكتاب لهم أساس، وإن حرفوا وبدلوا ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أصدقاء وأنصاراً لكم، لأن اللائق باتخاذهم دينكم هزواً ولعباً أن يقابل بالبغضاء والمنابذة والمجانبة، فاتخاذكم مع ذلك أولياء وأنصاراً كالأمر الخارج عن المعقول، والمرءوة إن كنتم تعقلون، وهذا النهي عن موالاة المتخذين للدين هزواً ولعباً يعم كل من حصل منه ذلك من المشركين، وأهل الكتاب وأهل البدع المنتمين إلى الإسلام والبيان بقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى آخره، لا ينافي دخول غيرهم تحت النهي إذا وجدت فيه العلة المذكورة، التي هي الباعثة على النهي.

والمعنى(١): يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين جاءتهم الرسل والأنبياء، وأنزلت عليهم الكتب من قبل بعث رسولنا محمد ﷺ، ومن قبل

---

(١) المراغي.

نزول كتابنا أولياء وأنصاراً وحلفاء، فإنَّهم لا يألونكم خبالاً، وإن أظهروا لكم مودة وصداقة، ذلك لأنَّهم اتخذوا هذا الدين هزواً ولعباً، فكان أحدهم يظهر الإيمان للمؤمنين وهو على كفره مقيم، وبعد اليسير من الزمن يظهر الكفر بلسانه بعد أن كان يبدي الإيمان قولاً، وهو مستبطن للكفر تلاعباً بالدين واستهزاء به، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

وكذلك نهى الله عن موالاة جميع المشركين، لأن موالاة المسلمين لهم بعد أن أظهرهم الله عليهم بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً تكون قوة لهم وإقراراً على شركهم الذي جاء الإسلام لمحوه من جزيرة العرب. وقد نهج الإسلام من أهل الكتاب سياسة غير سياسته مع مشركي العرب، فأباح أكل طعامهم ونكاح نسائهم، وشرع قبول الجزية منهم، وإقرارهم على دينهم، وخصهم هنا بلقب أهل الكتاب، ولقب المشركين بالكفار، وفي آيات أخرى بالمشركين والذين أشركوا، لأنَّهم لوثنيتهم عريقون في الشرك، والكفر أصلاً فيه. أما أهل الكتاب فالشرك والكفر قد عرض للكثير منهم عروضاً وليس من أصل دينهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: وخافوا عقاب الله أيها المؤمنون في موالاة هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً، حتى لا يضيع الغرض منها، وتكون وهنا لكم، ونصراً لهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم صادقي الإيمان، تحفظون كرامته، وتجتنبون مهانته، وتصدقون بالجزاء والوعيد على معصيته ومخالفته تعالى. والمعنى: واتقوا الله في موالاتهم إن كنتم مؤمنين حقاً، فإنَّ تقوى الله هي الحاملة على امتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب[1]: ﴿والكفارِ﴾ بالجر على تقدير: من أي ومن الكفار، وقرأ الباقون بالنصب على معنى لا تتخذوا الكفار أولياء، وهي رواية الحسينَ الجعفي عن أبي عمرو، وإعراب الجر والنصب واضح، وقرأ أبي

(١) البحر المحيط.

﴿ومن الكفار﴾ بزيادة ﴿من﴾ وقراءة عبد الله: ﴿ومن الذين أشركوا﴾.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾ وأذنتم للإقبال ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المفروضة ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾؛ أي: اتخذوا صلاتكم ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾؛ أي: لاعتقادهم أنه ليس فيها فائدة ومنفعة في الدين والدنيا قالوا: إنها لعب، والهزء السخرية، واللعب الأخذ في غير طريق، ذكره أبو حيان في «البحر»، وقيل: الضمير يعود للمناداة المدلول عليها بناديتم، ومعنى اتخاذهم الصلاة والمناداة هزواً ولعباً: تضاحكهم منها، وتغامزهم، والمعنى: وإذا أذن مؤذنكم داعياً إلى الصلاة.. سخر من دعوتكم إليها من نهيتم عن ولايتهم من أهل الكتاب والمشركين، واتخذوها هزواً ولعباً، وروى[1] الطبراني: أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قال: أحرق الله الكاذب، فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام، فتطاير شررها في البيت فأحرقته وأهله، وقيل: كان المنافقون من اليهود يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيراً للناس عنها، وقيل: إنَّ الكفار والمنافقين كانوا إذا سمعوا الأذان دخلوا على النبي ﷺ وقالوا: يا محمد لقد ابتدعت شيئاً لم يسمع بمثله فيما مضى، فإن كنت نبياً.. فقد خالفت الأنبياء قبلك، فمن أين لك صياح كصياح العير، فما أقبح هذا الصوت وهذا الأمر! فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية وأنزل: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية.

قيل[2]: وليس في كتاب الله تعالى ذكر الأذان إلا في هذا الموضع، وأما قوله تعالى في الجمعة: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾.. فهو خاص بنداء الجمعة، وقد اختلف أهل العلم في كون الأذان واجباً أو غير واجب، وفي ألفاظه، وهو مبسوط في مواطنه.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الاستهزاء المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون ما لهم في إجابة الصلاة وما عليهم في استهزائهم بها،

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

لأنهم لو كان لهم عقل كامل.. لعلموا أن خدمة الخالق المنعم بغاية التعظيم لا تكون مهزوءاً بها، فإنَّه أحسن أعمال العباد، وأشرف أفعالهم، ولذلك قال بعض الحكماء: أشرف الحركات الصلاة، وأنفع السكنات الصيام يعني: أن هزؤهم ولعبهم من أفعال السفهاء والجهال الذين لا عقل لهم.

وخلاصة المعنى: أي ذلك الفعل الذي يفعلونه وهو الهزؤ والسخرية: إنما كان لجهلهم بحقيقة الأديان، وما أوجب الله فيها من تعظيمه والثناء عليه بما هو أهله، ولو كان عندهم عقل.. لخشعت قلوبهم كلما سمعوا المؤذن يكبر الله تعالى ويمجده بصوته الندي، ويدعو إلى الصلاة له، والفلاح بمناجاته وذكره، فهو ذكر مؤثر في النفوس لا تخفى محاسنه على من يعقل الحكمة في إرسال الشرائع، ويؤمن بالله العلي الكبير. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا دينك هزواً ولعباً والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ إنكاري تهكمي؛ أي: هل تكرهون منا أو تعيبون علينا من شيء ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وحده ﴿و﴾ بـ﴿ما أنزل إلينا﴾ من القرآن الكريم ﴿و﴾ بـ﴿ما أنزل من قبل﴾ على رسله سبحانه وتعالى من التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب الإلٰهية، وهذا على سبيل التعجب من فعل أهل الكتاب، والمعنى: هل تجدون علينا عيباً في الدين إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وبما أنزل على جميع الأنبياء من قبل؟ وهذا ليس مما ينكر أو ينقسم منه، وهذا كما قال بعضهم:

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

يعني: أنه ليس فيهم عيب إلا ذلك، وهذا ليس بعيب بل هو مدح عظيم لهم، والحاصل: أن هذا ديننا الحق، وطريقنا المستقيم، فلم تنقمونه علينا وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ عطف[1] على المجرور؛ أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله، وما أنزل، وبأن أكثركم فاسقون، والمعنى: أعاديتمونا لأنَّا اعتقدنا توحيد الله وصدق أنبيائه وفسقكم لمخالفتكم لنا في ذلك؛ أي: وما تكرهون من

---

(١) النسفي.

أوصافنا إلا إيماننا بما ذكر واعتقادنا بأن أكثركم خارجون من الإيمان بما ذكر، فإن الكفر بالقرآن مستلزم بالكفر بما يصدقه بلا شك، ويجوز[١] أن تكون الواو بمعنى مع، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما ذكر معه، مع أن أكثركم فاسقون. وعبارة[٢] الخازن: يعني إنَّما كرهتم إيماننا ونقمتوه علينا، مع علمكم بأنا على الحق بسبب فسقكم وإقامتكم على الدين الباطل لحب الرياسة، وأخذ الأموال بالباطل، وإنما قال: أكثركم، لأن الله علم أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله وبرسوله.

وعبارة المراغي هنا: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ . . .﴾ الآية؛ أي: قل يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى هل من شيء تعيبونه علينا، وتكرهوننا لأجله إلا إيماننا الصادق بالله وتوحيده، وإثبات صفات الكمال له، وإيماننا بما أنزل إلينا، وبما أنزل من قبلي على رسله لقلة إنصافكم، ولأن أكثركم فاسقون خارجون عن حظيرة الإيمان الصحيح، وليس لكم من الدين إلا العصبية الجنسية، والتقاليد الباطلة.

والخلاصة: انَّه ما عندنا سوى ذلك، وهذا مما لا يعاب ولا ينقم منه، بل يمدح صاحبه ويكرم، لكنكم لفسقكم وخروجكم من حظيرة الدين الصحيح عبتم الحسن من غيركم، ورضيتم بالقبيح من أنفسكم وفي قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ إشارة إلى أن الحكم بالفسق عليهم ليس على العموم بل على الأكثر فقط، لأنَّه قد كان في أهل الكتاب ناس لا يزالون معتصمين بأصول الدين وجوهره من التوحيد وحب الحق والعدل، وهؤلاء هم الذين سارعوا إلى الإسلام عندما عرفوا حقيقة أمره، وتجلى لهم صدق الداعي إليه.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿تَنقِمُونَ﴾ بكسر القاف، والماضي نَقَم بفتحها، وهي التي ذكرها ثعلب في الفصيح، ونقم بالكسر ينقم بالفتح لغة حكاها الكسائي

---

(١) النسفي.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

وغيره. وقرأ بها أبو حيوة والنخعي وابن أبي عبلة، وأبو البرهشيم. وقرأ الجمهور: ﴿أُنزِلَ﴾ في الموضعين مبنياً للمفعول، وقرأه فيهما أبو نهيك مبنياً للفاعل، وقرأ نعيم بن ميسرة: ﴿وإن أكثركم فاسقون﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف، وهو واضح، المعنى بمعنى أمره تعالى أن يقول لهم هاتين الجملتين، وتضمنت الأخبار بفسق أكثرهم وتمردهم. وقرأ الجمهور بفتح همزة أن على أنها في موضع رفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: وفسق أكثركم ثابت معلوم عندكم، لأنكم علمتم أنَّا على الحق وأنكم على الباطل، إلا أن حب الرياسة والرشا يمنعكم من الاعتراف، أو في موضع نصب عطفاً على أن آمنا، إلا أنَّه حذف مضاف تقديره: واعتقادنا فيكم أن أكثركم فاسقون، أو في موضع جر عطفاً على علة محذوفة، والتقدير: ما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم وكثرة فسقكم، ثم رد على الاستفهام التهكمي باستفهام تهكمي مثله فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: قل لهم يا محمد هل أخبركم أيها المستهزئون بديننا وأذاننا ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بمن هو شر وأقبح مثوبة وجزاء عند الله تعالى من ذلك القوم الذين اتخذتم دينهم وأذانهم هزواً ولعباً يعني: المؤمنين، واستعمال ألمثوبة في الجزاء الحسن، أكثر من استعمالها في الجزاء السيء كما هنا، وقيل إن استعمالها في الجزاء السيء من باب التهكم والإزدراء كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا السؤال يستدعي سؤالاً منهم عن ذلك الذي هو شر، فكأنهم سألوه وقالوا من هو؟ فأجابهم بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الذي هو شر من ذلك القوم الذين اتخذتم دينهم هزواً ولعباً من لعنه الله سبحانه، وطرده وأبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: وانتقم منه، لأن الغضب إرادة الانتقام من العصاة، أو سخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾؛ أي: مسخ بعضهم قردة، وهم أصحاب السبت في زمن داود، وهم اليهود. ﴿و﴾ مسخ بعضهم ﴿الخنازير﴾ وهم كفار أهل مائدة عيسى، بعد أكلهم من المائدة، وقيل[1]: كلا المسخين في أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة،

---

(١) البيضاوي.

ومشايخهم خنازير ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾؛ أي: وأطاع الشيطان في وسوسته وتزينه لهم الكفر والمعاصي التي منها عبادة العجل، وعبارة الواحدي هنا: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بشر من المسلمين الذين طعنتم عليهم ﴿مَثُوبَةً﴾؛ أي: جزاء وثواباً ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هو من لعنه الله؛ أي: أبعده عن رحمته انتهت. والمعنى: قل[1] هل أنبئكم بشر من أهل ذلك الذين مثوبة؟ فإن قلت هذا يقتضي أن الموصوفين بذلك.. محكوم عليهم بالشر لأنَّه تعالى قال ﴿بشر من ذلك﴾، ومعلوم أنَّ الأمر ليس كذلك فما جوابه؟.

قلت: جوابه أنَّ الكلام خرج على حسب قولهم واعتقادهم، فإنَّ اليهود حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر، فقال لهم: هب أن الأمر كذلك لكن من لعنه الله وغضب عليه ومسخ صورته شر من ذلك.

وفي قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ انتقال[2] بهم من تبكيت لهم بإقامة الحجة على هزئهم ولعبهم بما ذكر إلى ما هو أشد منه تبكيتاً وتشنيعاً عليهم، ذلك هو التذكير بسوء حال أبائهم من أنبيائهم، وما كان من جزاء الله لهم على فسقهم وتمردهم، بأشد ما جازى به الفاسقين الذين ظلموا أنفسهم من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

أمَّا اللعن فقد ذكر في عدة مواضع من القرآن الكريم مع بيان أسبابه، والغضب الإلٰهي يستلزم اللعنة، واللعنة تلزمه، إذ هي منتهى المؤاخذة لمن غضب الله عليه. وأمَّا جعله منهم قردة وخنازير فقد تقدم في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ وسيأتي في سورة الأعراف ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ وجمهرة العلماء على أنهم مسخوا فكانوا قردة وخنازير على الحقيقة، وانقرضوا لأن الممسوخ لا يكون له نسل، ونقل ابن جرير عن مجاهد، أنَّه قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كما ضرب المثل بقوله: ﴿كَمَثَلِ

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾. وقرأ النخعي وابن وثاب[1]: ﴿أنبئكم﴾ من أنبأ وقرأ الجمهور: ﴿أنبئكم﴾ من نبأ وقرأ ابن بريدة والأعرج ونبيح وابن عمران: ﴿مثوبة﴾ كمعورة بسكون الثاء المثلثة وفتح الواو والجمهور ﴿مثوبة﴾ كمعونة. وقرأ أبي وعبد الله: ﴿من غضب عليهم وجعلهم قردة وخنازير﴾ وجعل هنا بمعنى صير.

فائدة: قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ فيه عشرون[2] قراءة كلها شاذة إلا اثنتين، فهما سبعيتان كما سيأتي بيانهما:

١ ـ قرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وابن عاصم وابن عامر ونافع والكسائي: ﴿وَعَبَدَ﴾ بفتح العين والباء والدال ونصب تاء ﴿ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾. وفيها وجهان أحدهما: أن المعنى: وجعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت، والثاني: أن المعنى: من لعنه الله وعبد الطاغوت.

٢ ـ وقرأ حمزة: ﴿وعَبُدَ الطاغوت﴾ بفتح العين والدال وضم الباء وخفض تاء الطاغوت. قال ثعلب: ليس لها وجه إلا أن يجمع فعل على فعل، وقال الزجاج وجهها أن الاسم بني على فعل كما تقول: علم زيد ورجل حذر؛ أي: مبالغ في الحذر، فالمعنى: جعل منهم خدمة الطاغوت ومن يلغ في طاعة الطاغوت الغاية. فهاتان الِراءاتان سبعيتان.

٣ ـ وقرأ ابن مسعود وأبي بن كعب: ﴿وعبدوا﴾ بفتح العين والباء ورفع الدال على الجمع ﴿الطاغوت﴾ بالنصب.

٤ ـ وقرأ ابن عباس وابن أبي عبلة ﴿وعبد﴾ بفتح العين والباء والدال إلا أنهما كسر التاء ﴿الطاغوت﴾ قال الفراء: أرادا عبدة فحذفا الهاء.

٥ ـ وقرأ أنس بن مالك: ﴿وعبيد﴾ بفتح العين والدال وبياء بعد الباء وخفض تاء ﴿الطاغوت﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير.

٦ ـ وقرأ أيوب والأعمش ﴿وعبد﴾ بضم العين وفتح الباء والدال مع تشديد الباء وكسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

٧ ـ وقرأ أبو هريرة وأبو رجاء وابن السميقع ﴿وعابد﴾ بألف مع كسر الباء وفتح الدال ومع كسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

٨ ـ وقرأ أبو العالية ويحيى ابن وثاب ﴿وعبد﴾ بضم العين والياء وفتح الدال من كسر تاء ﴿الطاغوت﴾، قال الزجاج: وهو جمع عبيد وعبد، مثل رغيف ورغف، وسرير وسرر، والمعنى: وجعل منهم عبيد الطاغوت.

٩ ـ وقرأ أبو عمران الجوني ومورق العجلي والنخعي: ﴿وعبد﴾ بضم العين وكسر الباء مخففة وفتح الدال مع ضم تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٠ ـ وقرأ أبو المتوكل وأبو الجوزاء وعكرمة ﴿وعبد﴾ بفتح العين والدال وتشديد الباء مع نصب التاء ﴿الطاغوت﴾.

١١ ـ وقرأ الحسن وأبو مجلز وأبو نهيك ﴿وعبد﴾ بفتح العين والدال وسكون الباء خفيفة مع كسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٢ ـ وقرأ قتادة وهذيل بن شرحبيل: ﴿وعبدة﴾ بفتح العين والباء والدال وتاء في اللفظ منصوبة بعد الدال ﴿الطواغيت﴾ بألف وواو وياء بعد الغين على الجمع.

١٣ ـ وقرأ الضحاك وعمرو بن دينار: ﴿وعبد﴾ بضم العين وفتح الباء والدال مع تخفيف الباء وكسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٤ ـ وقرأ سعيد بن جبير والشعبي: ﴿وعبدة﴾ مثل حمزة إلا أنهما رفعا تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٥ ـ وقرأ يحيى بن يعمر والجحدري: ﴿وعبد﴾ بفتح العين وضم الباء والدال مع كسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٦ ـ وقرأ أبو الأشهب العطاردي: ﴿وعبد﴾ بضم العين وسكون الباء وفتح الدال مع كسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٧ - وقرأ أبو السماك ﴿وعبدة﴾ بفتح العين والباء والدال وتاء في اللفظ بعد الدال مرفوعة من كسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٨ - وقرأ معاذ القارىء: ﴿وعابد﴾ مثل قراءة أبي هريرة، إلا أنه ضم الدال.

١٩ - وقرأ أبو حيوة: ﴿وعباد﴾ بتشديد الباء وبألف بعدها مع ضم العين وفتح الدال.

٢٠ - وقرأ ابن حذلم وعمرو بن فائد ﴿وعباد﴾ مثل أبي حيوة إلا أن العين مفتوحة والدال مضمومة. وهذه القراءة كلها شاذة إلا الأوليين كما مر. وقد سبق ذكر الطاغوت في سورة البقرة، وفي المراد به ها هنا قولان، أحدهما: الأصنام والثاني: الشيطان، ذكره ابن الجوزي في تفسيره.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الملعونون الممسوخون ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ أي: أقبح مكاناً ومستقراً من المؤمنين في الآخرة لأنَّ مكانهم سقر، ولا مكان أشدّ شراً منه، أو المعنى: أولئك الملعونون المغضوب عليهم المجعول منهم القردة والخنازير، العابدون الطاغوت شر مكاناً من غيرهم من الكفرة الذين لم يجمعوا بين هذه الخصال الذميمة ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: أكثرهم ضلالاً عن الطريق المستقيم وقصده ووسطه الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ومثلاً هؤلاء لا يحملهم على الاستهزاء بدين المسلمين وبصلاتهم وأذانهم إلا الجهل وعمى البصيرة. قال ابن كثير: والمعنى يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله، وإفراده بالعبادة دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟!. قال القرطبي: ولما نزلت هذه الآية عيَّر المسلمون اليهود، وقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير، فسكتوا ونكسوا رؤوسهم افتضاحاً وفيهم يقول الشاعر:

فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَىٰ ٱلْيَهُوْدِ   إِنَّ ٱلْيَهُوْدَ إِخْوَةُ ٱلْقُرُوْدِ

ثم بيّن حال المنافقين منهم فقال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾؛ أي: وإذا جاءكم أيها المؤمنون المنافقون من اليهود ﴿قَالُوٓاْ﴾ للرسول ولكم إننا ﴿ءَامَنَّا﴾ بالرسول وما

أنزل عليه ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قد دخلوا﴾ عليكم متلبسين ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ الضلال مقيمين عليه ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟﴾ متلبسين ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالكفر والنفاق أيضاً، فحالهم عند خروجهم كحالهم عند دخولهم، لم يتحولوا عن كفرهم بالرسول وما نزل من الحق، ولكنهم قوم دأبهم الخداع والنفاق كما جاء في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية. يعني: إنهم دخلوا كافرين وخرجوا كما دخلوا كافرين لم يتعلق بقلوبهم شيء من الإيمان، فهم كافرون في حالتي الدخول والخروج. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾؛ أي: عالم ﴿بما كانوا يكتمونـ﴾ـه ويخفونه في قلوبهم حين دخولهم من قصد تسقط الأخبار، والتوسل إلى ذلك النفاق والخداع، وحين خروجهم من الكيد والمكر والكذب الذي يلقونه إلى البعداء من قومهم كما علمت مما سلف عند قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

وفي قوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ تأكيد لكونهم حين الخروج كما هم حين الدخول، واحتيج إليه لمجيئه على خلاف المعروف، لأنَّ من كان يجالس الرسول ﷺ وأصحابه يسمع منه العلم والحكمة، ويرى من أحاسن أخلاقه ما يؤثر في القلوب ويلين قاسيها.. يرجع عن سوء عقيدته، وتصفو نفسه من كدوراتها؛ إلا إذا كان متعنتاً مخادعاً، فإن الذكرى لا تنفعه والعظات والزواجر لا تؤثر فيه.

وقد كان الرجل يجيء إلى النبي ﷺ يريد قتله حتى إذا رآه سمع كلامه.. انجابت عن قلبه ظلمات الكفر والفسوق، وآمن به وأحبه، وما شذ هؤلاء إلا لسوء نيتهم وفساد طويتهم، وذلك ما صرف قلوبهم عن التذكر والاعتبار، ووجه هممهم إلى الكيد والخداع، فلم يكن لديهم عقول تعي وتفقه مغزى الحكم والآداب.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: وترى يا محمد كثيراً من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينك هزواً ولعباً ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِى ٱلْإِثْمِ﴾ والشرك والمعاصي ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي الظلم والتعدي على الناس وتجاوز الحدود التي ضربها الله للناس

﴿و﴾ في ﴿أكلهم﴾ وأخذهم ﴿ٱلسُّحۡتَۚ﴾ والحرام، كالرشا وكل ما يعود على فاعله بالضرر في الدين والدنيا، فهم غارقون في الإثم والعدوان، فكلما قدروا عليهما ابتدروهما ولم يتأخروا عن ارتكابهما، ثم بالغ في قبح هذه الأعمال فقال وعزتي وجلالي: ﴿لَبِئۡسَ﴾ وقبح ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: لبئس شيئاً كانوا يعملونه عملهم هذا؛ أي: وعزتي وجلالي ما أقبح هذا العمل الذي يعمله هؤلاء من مسارعتهم في كل ما يفسد الأخلاق، ويدنس النفوس، ويقوض نظم المجتمع، وويل للأمة التي يعيش فيها أمثال هؤلاء، فهلا نهاهم علماؤهم وزهادهم وعبادهم عن أفعالهم بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر قبل أن يستفحل ويتفاقم الشر ويعم الضرّ وإلى هذا أشار بقوله: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ وكلمة لولا حرف تحضيض وتوبيخ لعلمائهم وعبادهم على تركهم النهي عن المنكر؛ أي: هلا يمنعهم الربانيون؛ أي: السياسيون الذين هم أئمتهم في التربية والسياسة أو العباد ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾؛ أي: العلماء في الدين؛ أي: هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون فيما ذكر من المعاصي عبادهم وعلماؤهم ﴿عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ﴾؛ أي: الشرك والكذب ﴿و﴾ عن ﴿أكلهم﴾ وأخذهم ﴿ٱلسُّحۡتَۚ﴾ والحرام والله ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقبح شيئاً كان الربانيون والأحبار يصنعونه من الرضى بهذه الأوزار والخطايا، وتركهم فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مع علمهم بقبحهما ومشاهدتهم لمباشرتهم لهما.

روي عن ابن عباس أنَّه قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية. وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، يريد ابن عباس أنها حجة على العلماء، إذا هم قصروا في الهداية والإرشاد، وتركوا النهي عن الشرور والآثام التي تفسد نظم الحياة للفرد والمجتمع، فحق على العلماء والحاكم أن يعتبروا بهذا النعي على اليهود، ساسة وعلماء ومر بين فيزدجروا ويعلموا أن هذه موعظةً وذكرى لهم إن نفعت الذكرى. فقوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ أبلغ من قوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لأن[1] العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يتدرب فيه

---

(١) الشوكاني.

صاحبه، ولهذا تقول العرب: سيف صنيع، إذا جود عامله عمله، فالصنع هو العمل الجيد، لا مطلق العمل فوبخ سبحانه الخاصة وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعل المعاصي، فجعل جزم العاملين ذنباً غير راسخ، وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنباً راسخاً، ولذلك ذم بهذا خواصهم، ولأن ترك الإنكار على المعصية أقبح من مواقعة المعصية، لأن النفس تلتذ بها، لأنها مرض الروح وهو صعب شديد ولا يكاد يزول، ولا كذلك ترك الإنكار عليها فيدخل في هذا الذم كل من كان قادراً على النهي عن المنكر من العلماء وغيرهم، وتركه وقال ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ ٱلدِّيْنَ إِلاَّ ٱلْمُلُوْ كَ وَأَحْبَارُ سُوْءٍ وَرُهْبَانُهَا

وقيل: غاير في العبارة بين المقامين لتفنن الفصاحة، ولترك تكرار اللفظ. فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم، ويفرجوا لها عن قلوبهم، فإنَّها قد جاءت بما فيه البيان الشافي لهم، بأن كفهم عن المعاصي مع ترك إنكارهم على أهلها، لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هم أشد حالاً وأعظم وبالاً من العصاة، فرحم الله عالماً قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهو أعظم ما افترضه الله عليه، وأوجب ما أوجب عليه، النهوض به، اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين، ومن العلماء العاملين الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وصل وسلم اللهم على من أرسلته رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾:

فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾: الناهية. ﴿ٱلْيَهُودَ﴾: مفعول أول. ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾: معطوف عليه. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿بَعْضُهُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَتَوَلَّهُم﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على (مَنْ). ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يتول﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: الفاء: رابطة لجواب من الشرطية وجوباً. (إنَّ): حرف نصب. (الهاء): اسمها. ﴿مِنْهُمْۗ﴾: جار ومجرور خبر (إنَّ) وجملة إنَّ في محل الجزم بـ(من) على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إن)، وجملة (إن) جملة تعليلية سيقت لتعليل كون من يواليهم منهم؛ أي: لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم، فيقعون في الكفر والضلال. كما ذكره أبو السعود.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَتَرَى﴾: (الفاء)[1]: إمَّا للسببية المحضة، أي: بسبب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المتصفين بما ذكر ترى الذين.. إلخ. أو للعطف على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾... إلخ من حيث المعنى اهـ. كرخي. ﴿ترى﴾: فعل مضارع وهي بصرية، وفاعله ضمير يعود على محمد أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة أو معطوفة على ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: فعل

(١) الفتوحات.

وفاعل. ﴿فِيهِمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الموصول. وقيل: تر علمية، وجملة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ في محل النصب مفعول ثانٍ، والأول أنسب بظهور نفاقهم. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾. ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿نَخْشَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المنافقين المرضى، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول ﴿أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾: ناصب وفعل، ومفعول وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿نَخْشَىٰٓ﴾ تقديره: نخشى إصابة الدائرة إيانا. ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ﴾ الفاء: استئنافية. ﴿عسى﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء ترفع الاسم وتنصب الخبر، و﴿عسى﴾ وإن كانت في أصلها للترجي إلاَّ أنَّها في كلام الله للتحقيق، لأن كلامه موافق لعلمه، وهو لا يتخلف. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿أَن يَأْتِيَ﴾: ناصب وفعل، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بِٱلْفَتْحِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ﴿أَمْرٍ﴾ تقديره: أو أمر كائن من عنده، وجملة ﴿يَأْتِيَ﴾ صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه خبراً لـ﴿عسى﴾ ولكنَّه في تأويل اسم الفاعل، لأنه لا يخبر باسم المعنى عن الذات تقديره: عسى الله آتياً بالفتح أو أمر من عنده أو ذا إتياناً بالفتح، وجملة عسى مستأنفة. ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ معطوفة ﴿بِٱلْفَتْحِ﴾ ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿يصبحوا﴾: فعل ناقص واسمه معطوف على ﴿يَأْتِيَ﴾: فهو داخل معه في حيز خبر عسى، وإنْ لم يكن فيه ضمير يعود على اسمها. فإن: فاء السببية مغنية عن ذلك، لأنَّها تجعل الجملتين كجملة واحدة، ذكره أبو السعود. ﴿عَلَىٰ مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَٰدِمِينَ﴾. ﴿أَسَرُّوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَسَرُّوا۟﴾ وجملة ﴿أَسَرُّوا۟﴾ صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: أسروه. ﴿نَٰدِمِينَ﴾: خبر أصبح منصوب بها، وجملة أصبح في تأويل مصدر معطوف على مصدر ﴿يَأْتِيَ﴾ على كونه خبراًلعسى، ولكنه في تأويل مشتق تقديره: فعسى الله آتياً بالفتح، فمصبحين نادمين على ما أسروا في أنفسهم.

﴿رَٰكِعُونَ﴾. قال الزمخشري[1]: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الذين آمنوا﴾ بدل كل من كل، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين، وإنما لم يجعل صفة لـ﴿الذين آمنوا﴾ لأنَّ الوصف بالموصول على خلاف الأصل، لأنَّه يؤول بمشتق، وأيضاً لأن ﴿الذين آمنوا﴾ وصف، والوصف لا يوصف إلا إذا جرى مجرى الاسم كالمؤمن مثلاً بخلاف الذين آمنوا، فإنه في معنى الحدوث، ألا ترى أنَّه جعل الذي يوسوس صفة للخناس، لأنَّه ليس في معنى الحدوث ا هـ. كرخي و«سمين».

﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على جملة ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل الفعلين؛ أي: يعملون ما ذكروهم خاشعون، متواضعون، أو حال من فاعل الفعل الأول؛ أي: يصلون الصلاة وهم راكعون.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَتَوَلَّ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿من﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ﴾: معطوفان على الجلالة، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾: (الفاء): رابطة لجواب من الشرطية وجوباً. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿حِزْبَ ٱللَّهِ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة (إنَّ) في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ(أي). ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلته. ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل والجملة جواب النداء

(١) الفتوحات.

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿تَتَّخِذُوا﴾. ﴿اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان ﴿وَلَعِبًا﴾ معطوف على ﴿هُزُوًا﴾ وجملة ﴿اتَّخَذُوا﴾ صلة الموصول الثاني ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿اتَّخَذُوا﴾ ﴿أُوتُوا﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿الْكِتَابَ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿أُوتُوا﴾ لأنَّ أتى بمعنى أعطى يتعدى لمفعولين، والجملة صلة للموصول المجرور بـ﴿من﴾. ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُوتُوا﴾. ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ بالنصب عطف على ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ وبالجر عطف على ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ كما مر في بحث التفسير ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ مفعول ثانٍ لقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿كُنْتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: خبر كان، وجواب إنْ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم مؤمنين.. فاتقوا الله، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾.

﴿وَإِذَا﴾: (الواو): عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿نَادَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَادَيْتُمْ﴾. ﴿اتَّخَذُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿هُزُوًا﴾: مفعول ثان. ﴿وَلَعِبًا﴾: معطوف عليه، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة قوله: ﴿اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ على كونها صلة الموصول والتقدير: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً، والذين إذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً. ﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ (الباء): حرف جر، ﴿أنَّ﴾: حرف نصب، والهاء: اسمها. ﴿قَوْمٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ صفة لقوم، وجملة أن في تأويل مصدر مجرور بالباء والتقدير: بسبب كونهم قوماً لا يعقلون، والجار والمجرور خبر لذلك؛ أي: ذلك كائن بسبب عدم عقلهم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أهل الكتاب﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي. ﴿تَنقِمُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَّآ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَنْ﴾: حرف مصدر ونصب. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أَنْ﴾ المصدرية ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: هل تنقمون منا إلا إيماننا بالله. ﴿وَمَآ﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على لفظ الجلالة. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضي مغير الصيغة ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَيْنَا﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾: معطوف أيضاً على الجلالة. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾: (الواو): عاطفة، ﴿أنَّ أكثركم﴾: ناصب واسمه. ﴿فَٰسِقُونَ﴾: خبر أن في تأويل مصدر معطوف على المصدر المؤول من أن أمنا، ولكنه على تقدير مضاف والتقدير: قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا إيماننا بما ذكر، واعتقاد كون أكثركم فاسقين؛ أي: اعتقادنا كون أكثركم فاسقين.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام التهكمي. ﴿أُنَبِّئُكُم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِشَرٍّ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان لنبأ، وهو هنا يتعدى إلى مفعولين فقط؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿مِّن ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلق ﴿بِشَرٍّ﴾. ﴿مَثُوبَةً﴾: تمييز لشر منصوب به، والظاهر[1] أنَّه من تمييز النسبة للمفرد؛ لأن

---

(١) الفتوحات.

الشر واقع على الأشخاص، والمثوبة هي الجزاء. فلا يفسر أشر بها، وكان أصل التركيب: هل أنبئكم من قبح مثوبته؛ أي: جزائه، وجملة ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ من الفعل والفاعل في محل النصب جزء المقول. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صفة لـ﴿مَثُوبَةً﴾. ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾: من اسم موصول في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره في محل النصب مقول القول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة من الموصولة. ﴿وَغَضِبَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة على ﴿لَّعَنَهُ﴾. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مِنْهُمُ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾. ﴿ٱلْقِرَدَةَ﴾: مفعول ﴿جعل﴾. ﴿وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْقِرَدَةَ﴾. ﴿وَعَبَدَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: مفعول ﴿عبد﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ على كونها صلة الموصول، وراعى في ضمير ﴿لَّعَنَهُ﴾ ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾. ﴿وَعَبَدَ﴾ على قراءته فعلاً ماضياً لفظ ﴿مَن﴾ وفي ضمير ﴿جعل﴾ ﴿مِنْهُمُ﴾ راعى معناها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿شَرٌّ﴾ خبر. ﴿مَّكَانًا﴾: تمييز ﴿شَرٌّ﴾ تمييز[1] نسبة؛ أي: أولئك قبح مكانهم على حد قوله:

وَٱلْفَاعِلَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱنْصِبَنْ بِأَفْعَلاَ   مُفَضِّلاً كَأَنْتَ أَعْلَىٰ مَنْزِلاً

والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾ إن قلنا إنَّه من كلام محمد، أو مستأنفة، إن قلنا إنَّه من كلام الله تعالى، ﴿وَأَضَلُّ﴾ معطوف على ﴿شَرٌّ﴾. ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿وَأَضَلُّ﴾.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها،

---

(١) الفتوحات.

على كونها فعل شرط لها. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿ءَامَنَّا﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَقَد دَّخَلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾ أو ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿دَّخَلُواْ﴾؛ أي: وقد دخلوا حالة كونهم متلبسين بالكفر. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ وجملة ﴿قَدْ خَرَجُواْ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿قد دخلوا﴾: على كونها حالاً من فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿خَرَجُواْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَكْتُمُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: بما كانوا يكتمونه.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰ﴾: (الواو): استئنافية، ﴿ترى﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به لـ﴿ترى﴾؛ لأنَّ ترى هنا بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْإِثْمِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿كَثِيرًا﴾ أو صفة ثانية له، ومفعول ثان لـ﴿ترى﴾ إن قلنا إنها علمية، والأول أنسب بالمقام كما في «الجمل». ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْإِثْمِ﴾. وكذا قوله: ﴿وَأَكْلِهِمُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْإِثْمِ﴾ وهو من إضافة المصدر إلى فاعله. ﴿ٱلسُّحْتَ﴾: مفعوله. ﴿لَبِئْسَ﴾ (اللام): موطئة للقسم. ﴿بئس﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: هو، يفسره التمييز المذكور بعده. ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل النصب على التمييز. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة كان صفة لما والرابط محذوف تقديره: يعملونه، والتقدير: لبئس هو؛ أي: عملهم من جهة كونه شيئاً

يعلمونه، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: عملهم هذا، ويجوز أن تكون ما فاعل بئس وهي اسم معرفة، والجملة بعدها صفة لمخصوص محذوف والتقدير: بئس الشيء شيء كانوا يعملونه، كما قال ابن مالك:

وَ(مَا) مُمَيَّزٌ وَقِيلَ فَاعِلُ فِيْ نَحْوِ: نِعْمَ مَا يَقُوْلُ الْفَاضِلُ

وجملة ﴿بئس﴾ جواب لقسم محذوف لا محل لها من الإعراب.

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾.

﴿لَوْلَا﴾: حرف تخضيض وتوبيخ. ﴿يَنْهَىٰهُمُ﴾: فعل ومفعول ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾: فاعل. ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾: معطوف عليه والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿عَن قَوْلِهِمُ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَنْهَىٰهُمُ﴾، وهو مصدر مضاف إلى فاعله. ﴿ٱلْإِثْمَ﴾: مفعوله. ﴿وَأَكْلِهِمُ﴾: معطوف على ﴿قَوْلِهِمُ﴾ وهو أيضاً مصدر مضاف إلى فاعله. ﴿ٱلسُّحْتَ﴾ مفعوله. ﴿لَبِئْسَ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿بئس﴾: فعل ماض. ﴿مَا﴾: اسم معرفة في محل الرفع فاعل، وجملة ﴿كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾: صفة لمخصوص محذوف أيضا، والتقدير: لبئس الشيء شيئاً شيء كانوا يصنعونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾. الأولياء جمع ولي، كأصفياء جمع صفي في الولاية، والمراد بالولاية هنا ولاية التناصر والمحالفة على المؤمنين، ومن ضرورة موالاة بعضهم لبعض اجتماع الكل على مضارتكم، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة. ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ والدائرة ما يدور به الزمان من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها، والدائرة من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها. وقال ابن حيان: الدائرة واحدة الدوائر وهي: صروف الدهر ودوله ونوازله، وقال الشاعر:

وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُوْرُ

انتهى.

وفرق الراغب بين الدائرة والدولة بأن الدائرة هي الخط المحيط ثم عبر بها عن الحادثة، وإنَّما تقال في المكروه، والدولة في المحبوب. انتهى. ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ وجهد الأيمان أغلظها، وهو في الأصل مصدر ونصبه على الحال؛ أي: مجتهدين في إقسامهم، أو على المفعولية المطلقة؛ أي: أقسموا إقسام اجتهاد اليمين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾؛ أي: بطلت أعمالهم التي كانوا مكلفين بها، وعملوا بها في أعين الناس، كالصلاة، والصيام، والجهاد معكم، فخسروا أجرها وثوابها، يقال: حبط العمل من باب فرح إذا بطل ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جمع ذليل كأدلة جمع دليل، بمعنى متواضعين من التذلل بمعنى التواضع لا جمع ذلول ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ جمع عزيز بمعنى متغلبين عليهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾؛ أي: عذل عاذل، وفي «المختار»: اللوم العذل، تقول: لامه على كذا من باب قال لوماً ولومة إذا عذله، واللائمة الملامة ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ والحزب في اللغة: أصحاب الرجل الذين يكونون معه على رأيه، وهم القوم الذين يجتمعون لأمر حزبه؛ أي: أهمه.

﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يقال: هزىء بفلان ومنه هَزْءاً وهُزْءاً وهُزُءاً إذا سخر به، والهزؤ أيضاً ما يهزء منه، يقال: هو هزءة بين الناس؛ أي: يهزأون ويسخرون منه، واللعب معروف وهو مصدر على غير قياس، وفعله لعب يلعب ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ والنداء الدعاء برفع الصوت، وناداه مناداة ونداء إذا صاح به، وتنادوا؛ أي: نادى بعضهم بعضاً وتنادوا؛ أي: جلسوا في النادي.

﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ وفي نقم لغتان: الفصحى وهي التي حكاها ثعلب في فصيحه، نقم بفتح القاف ينقم بكسرها، والأخرى: نقم بكسر القاف ينقم بفتحها، قال الكسائي: نقمت بالكسر لغة ونقمت الأمر أيضاً، يقال: نقمت إذا كرهته، وانتقم منه إذا عاقبه، والاسم منه النقمة والجمع نقمات مثل كلمة وكلمات، وإن شئت سكنت القاف ونقلت حركتها إلى النون، والجمع نقم مثل نعمة ونعم. ﴿مَثُوبَةً﴾ المثوبة بسكون الثاء المثلثة مع فتح الميم والواو، والمثوبة بضم الثاء مع سكون الواو الجزاء على الأعمال خيرها وشرها، وأكثر استعماله في الخير من ثاب إذا رجع ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ القردة جمع قرد بكسر أوله وسكون

ثانيه، ويجمع القرد أيضاً على أقراد وقرود وقردة بفتح القاف وكسر الراء، والأنثى قردة بكسر أوله وسكون ثانيه، وتجمع على قرد كقربة على قرب. والقرد حيوان خبيث يضحك ويطرب وسريع الفهم والتعلم، ويعرف عندالعامة بالسعدان، والعامة تستعمل القرد بمعنى الشيطان، فتقول: فلان كالقرد، وفي استنكار يا قرد. والخنازير جمع خنزير وهو حيوان معروف ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ بفتحات في عبد بصيغة الماضي ونصب الطاغوت على المفعولية في قراءة غير حمزة من السبعة، وقرأ حمزة بضم باء عبد وإضافته إلى الطاغوت عطفاً على القردة؛ أي: وجعل عبد الطاغوت؛ أي: عبادها، وهو اسم جمع لعبد لا جمع له بل جمعه أعبد، كما قال ابن مالك:

لِفَعَلَ ٱسْمَاً صَحَّ عَيْنَاً أَفْعَلُ وَلِلرُّبَاعِيِّ ٱسْمَاً أَيْضَاً يُجْعَلُ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ شر اسم تفضيل أصله أشرر بوزن أفعل حذفت همزته تخفيفاً لكثرة الاستعمال.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

منها: الإجمال الذي أريد به التفصيل في قوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾؛ لأنَّ المعنى: بعض اليهود أولياء بعض، وبعض النصارى أولياء بعض، لأن اليهود ليسوا أولياء النصارى، ولا النصارى أولياء اليهود لما بينهم من المعاداة، وإنَّما أوثر الإجمال تعويلاً على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين الفريقين رأساً.

ومنها: التأكيد بقوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، لأنَّها جملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي، ولتأكيد إيجاب الاجتناب المستفاد من النهي.

ومنها: المبالغة في الزجر في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ لأن المرض حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به، ويوجب الخلل في أفعاله، وقد يؤدي إلى الموت، استعير هنا لما في قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة، وعداوة النبي ﷺ، وغير ذلك من فنون الكفر المؤدية إلى الهلاك الروحاني.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَّرَضٌ﴾ للدلالة على كونه نوعاً مبهماً غير ما يتعارفه الناس من الأمراض.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾. لأن المسارعة حقيقة في الأجسام، وهي هنا كناية عن تنقل قلوبهم من بعض مراتب رغبة موالاتهم إلى بعض آخر.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿دَآئِرَةٌ﴾ لأنها حقيقة في الشيء الذي يحيط بغيره، استعيرت لما يقع بهم من مصائب الدهر.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لأن فيه معنى التعجب إن كان من كلام المؤمنين، كأنه قيل: ما أحبط أعمالهم، أو فيه تعجيب للسامعين من حبوط أعمالهم إن كان من كلام الله تعالى.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

ومنها: الطباق بين لفظي: ﴿أَذِلَّةٍ﴾ و﴿أَعِزَّةٍ﴾ في قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنَّه من المحسنات البديعية.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ فإن فيه تعريضاً بذم المنافقين فإنهم كانوا إذا خرجوا في جيش المسلمين خافوا أولياءهم اليهود، فلا يكادون يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم، وفي تنكير لومة ولائم مبالغة لا تخفى، لأن اللومة المرة من اللوم.

ومنها: دفع الإيهام في قوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنه لما قال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أوهم أنهم أذلاء محقرون مهانون، فدفع ذلك الإيهام بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: متغلبين عليهم.

ومنها: الوصف بالجملة الفعلية في جانب المحبة في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ لإفادة التجدد والحدوث، لأن الفعل يدل عليهما، وهو مناسب بالمقام، لأن

محبتهم لله تعالى تجدد طاعته وعبادته كل وقت، ومحبة الله إياهم تجدد ثوابه وإنعامه عليهم كل وقت.

ومنها: الوصف بالاسم الدال على المبالغة في جانب التواضع للمؤمنين والغلظة على الكافرين دلالة على ثبوت ذلك واستقراره، فإنه عريق فيهم. ومنها التهييج في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ومنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس في قوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ إلخ فقد جعلوا التمسك بالإيمان موجباً للإنكار والنقمة، مع أن الأمر بالعكس.

ومنها: الاستفهام التهكمي في: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ وفي قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ حيث استعملت المثوبة في العقوبة.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنَّه في مشاكلة قولهم: لا نعلم ديناً شراً من دينكم.

ومنها: التخضيض والتوبيخ في قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾؛ لأنَّه تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، وتوبيخ لهم على تركهم النهي، لأن لولا إذا دخلت على الماض أفادت التوبيخ، وإذا دخلت على المستقبل أفادت التحضيض كما ذكره «البيضاوي».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ
أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ
أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن
لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ
كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا
جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ
فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات السالفة بعض مخازيهم من مسارعتهم في الإثم والعدوان، وأكل السحت إلى نحو أولئك مما اختلت به نظم المجتمع في الأفراد والجماعات، فأصبحوا قوماً أنانيين، همة كل واحد منهم جمع المال واكتسابه على أي صورة كان، وبأي وجه جمع، وقد أثر هذا في أخلاقهم وأعمالهم أشد الأثر كما تشهد بذلك كتب دينهم.. ذكر هنا أفظع مخازيهم، وأقبحها بجرأتهم على ربهم، ووصفهم إياه بما ليس من صفته وإنكارهم جميع أياديه عندهم، وكثرة صفحه عنهم وعفوه عن عظيم جرمهم، توبيخاً لهم وتعريفاً

لنبيه ﷺ قديم جهلهم، واحتجاجاً له بأنه مبعوث ورسول إذ أخبر بخفي علومهم، ومكنون أخبارهم التي لا يعلمها إلا أحبارهم دون غيرهم من اليهود.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ...﴾ الآية، سبب نزولها[١]: ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. الآية. وأخرج أبو الشيخ من وجه آخر عنه قال: نزلت آية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: في فنحاص رأس يهود بني قينقاع.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ الآية، سبب نزولها[٢]: ما أخرجه أبو الشيخ عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعاً، وعرفت أن الناس مكذبي فوعدني لأبلغن أو ليعذبني» فأنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قال: كيف أصنع وأنا وحدي يجتمعون علي؟ فنزلت: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾. أخرج الحاكم والترمذي عن عائشة رضي الله عنه قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأخرج رأسه من القبة فقال: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله». وأخرج الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: كان العباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه فلما نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ترك الحرس، وأخرج أيضاً عن عصمة بن مالك الخطمي قال: كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فترك الحرس.

وأخرج ابن حبان في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا إذا أصبحنا ورسول الله ﷺ في سفر.. تركنا له أعظم شجرة وأظلها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت الشجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله يمنعني منك، ضع السيف»، فوضعه

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

فنزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني أنمار.. نزل ذات الرقيع بأعلى نخل، فبينا هو جالس على رأس بئر قد أدلى رجليه فقال الوارث من بني النجار: لأقتلن محمداً، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له أعطني سيفك، فإذا أعطانيه.. قتلته، فأتاه فقال له: يا محمد أعطني سفيك، فأعطاه إياه فرعدت يده، فقال رسول الله ﷺ: «حال الله بينك وبيني ما تريد» فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ...﴾ الآية، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رافع وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف، فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا؟ قال: «بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم بما فيها، وكتمتم ما أمرتم أن تبينوه للناس» قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا فأعنا على الهدى والحق، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾؛ أي: مقبوضة عن العطاء، بخيلة عن أن تنفق. واليد[1] عند العرب تطلق على الجارحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثًا﴾ وعلى النعمة، ومنه قولهم كم يد لي عند فلان، وعلى القدرة، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ وعلى التأييد ومنه قوله ﷺ: «يد الله مع القاضي حين يقضي»، وتطلق على معانٍ أخر. وهذه الآية على طريق التمثيل كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ والعرب تطلق غل اليد على البخل، وبسطها على الجود مجازاً ولا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل ومقبوض الكف ومنه قول الشاعر:

كَـانَـتْ خُـرَاسَـانُ أَرْضـاً إِذْ يَـزِيْـدُ بِـهَـا ... وَكُـلُّ بَـابٍ مِـنَ الْـخَـيْـرَاتِ مَـفْـتُـوْحُ

---

(١) الشوكاني.

فَٱسْتَبْدَلَتْ بَعْدَهُ جَعْداً أَنَامِلُهُ   كَأَنَّمَا وَجْهُهُ بِٱلْخَلِّ مَنْضُوحُ

فمراد اليهود بقولهم هذا عليهم لعائن الله تعالى: إن الله بخيل، قال ابن عباس وعكرمة والضحاك: إن الله تعالى قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما بعث الله محمداً ﷺ وكذبوا به، ضيق الله عليهم المعيشة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة. وأخرج الطبراني عن ابن عباس أنه قال النباش بن قيس: يد الله مغلولة؛ أي: قال[1] هذا الكلام بعض منهم ونسبه إلى الأمة بناء على التكافل العام بين أفرادها، وكونها كالشخص الواحد، وأن الناس في كل زمان يعزون إلى الأمة ما يسمعون من بعض أفرادها، وقد جرت سنة القرآن أن ينسب إلى المتأخرين ما قال أو فعله سلفهم منذ قرون. ولا عجب في صدور هذا القول من بعض الأشخاص منهم، فإنا نرى من المسلمين في عصرنا هذا مثله في الشكوى من الله عز وجل والاعتراض عليه عند الضيق، وفي إبان المصائب، فأجاب الله سبحانه وتعالى ودعا عليهم بالبخل والطرد من رحمته فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ربطت أيديهم إلى الأعناق بالأغلال بالأسر في الدنيا وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم ﴿وَلُعِنُوا۟﴾؛ أي: وطردوا من رحمة الله تعالى وعذبوا في الدنيا بالجزية وفي الآخرة بالنار ﴿بـ﴾ سبب ﴿ما قالوا﴾؛ أي: بسبب قولهم يد الله مغلولة. أو المعنى[2]: أمسكت أيديهم عن كل خير وطردوا عن رحمة الله تعالى. قال الزجاج: رد الله عليهم فقال: أنا الجواد الكريم وهم البخلاء، وأيديهم هي المغلولة الممسوكة، وقيل: هذا دعاء على اليهود علمنا الله كيف ندعوا عليهم فقال: غلت أيديهم؛ أي: في نار جهنم، فعلى هذا هو من الغل حقيقة؛ أي: شدت أيديهم إلى أعناقهم، وطرحوا في النار جزاء لهم على هذا القول، ومعنى لعنوا بما قالوا عذبوا بسبب ما قالوا، فمن لعنتهم أنهم مسخوا في الدنيا قردة وخنازير، وضربت عليهم الذلة والمسكنة والجزية، وفي الآخرة لهم عذاب النار.

---

(١) المراغي.   (٢) الخازن.

وعبارة المراغي هنا ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ هذا دعاء عليهم بالبخل وانقباض الأيدي عن العطاء، والإمساك عن الإنفاق في سبيل البر والخير، وما زالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً إلا إذا كان يرى أن له من ورائه ربحاً، كما دعا عليهم بالطرد، والبعد من رحمته، وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين.

ثم رد الله سبحانه وتعالى عليهم ما قالوه، وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء، وأن كل ما في العالم من خير هو سجل من ذلك الجود فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ لا مقبوضتان ﴿يُنفِقُ﴾ ويعطي ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ويريد من بسط وتضييق لمن يشاء؛ أي: بل هو الجواد المتصرف وفق حكمته وسننه في الاجتماع وتقتير الرزق على بعض العباد، لا ينافي سعة الجود وسريانه في كل الوجود، فإن له سبحانه الإرادة والمشيئة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق بحسب السنن التي أقام بها نظام الخلق، فإن شاء وسع وإن شاء قتر، فهو الباسط القابض، فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة، لا لشيء آخر، فإن خزائن ملكه لا تفنى ومواد جوده لا تتناهى، وعبر عن سعة الجود ببسط اليدين، لأن الجواد السخي إذا أراد أن يبالغ في العطاء جهد استطاعته يعطي بكلتا يديه، كما قال الأعشى يمدح جواداً:

يَـدَاكَ يَـدَا جُـوْدٍ فَـكَـفٌّ مُـفِـيْـدَةٌ   وَكَـفٌّ إِذَا مَـا ضُـنَّ بِـالـزَّادِ تُـنْـفِـقُ

وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة، وهذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقدرة يقتضيها المقام، والتقدير: ليس الأمر على ما وصفتموه تعالى به من البخل، بل هو تعالى جواد كريم على سبيل الكمال، فإن من أعطى بيديه من الإنسان فقد أعطى على أكمل الوجوه، فتثنية اليد مبالغة في الوصف بالجود.

فصل: في يد الله سبحانه وتعالى

وأما الكلام في اليد: فقد اختلف العلماء في معناها على قولين:

أحدهما: وهو مذهب جمهور السلف وعلماء أهل السنة وبعض المتكلمين وهو الذي نلقى عليه الرب جل جلاله، أن يد الله صفة من صفات ذاته، كالسمع والبصر والوجه، فيجب علينا الإيمان بها، والإذعان والتسليم بها، ونمرها كما جاءت في الكتاب والسنة، بلا كيف ولا تشبيه، ولا تعطيل. قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وقال النبي ﷺ: «إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمٰن، وكلتا يديه يمين».

والقول الثاني: قول أهل التأويل، فإنهم قالوا: اليد تذكر في اللغة على وجوه:

١ ـ الجارحة وهي معلومة.

٢ ـ النعمة، يقال: لفلان عندي يد أشكره عليها.

٣ ـ القدرة، قال الله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فسروه بذوي القوى والعقول، ويقال: لا يد لك بهذا الأمر، والمعنى: سلب كمال القدرة.

٤ ـ الملك يقال: هذه الضيعة في يد فلان؛ أي: في ملكه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾؛ أي: يملك ذلك، أما الجارحة.. فمنتفية في صفة الله عز وجل، لأن العقل دل على أنه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص وعضو مركب من الأجزاء والأبعاض، تعالى الله عن الجسمية والكيفية والتشبيه علواً كبيراً، فامتنع بذلك أن تكون يد الله بمعنى الجارحة. وأما سائر المعاني التي فسرت بها اليد.. فحاصلة، لأن أكثر العلماء من المتكلمين زعموا أن اليد في حق الله عبارة عن القدرة، وعن الملك، وعن النعمة، وههنا إشكالان:

أحدهما: أن اليد إذا فسرت بمعنى القدرة.. فقدرة الله واحدة، ونص القرآن وكذا الحديث السابق آنفاً ناطق بإثبات اليدين للرحمٰن في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

والإشكال الثاني: أن اليد إذا فسرت بالنعمة فنص القرآن ناطق بتثنية اليد، ونعم الله تعالى غير محصورة ولا معدودة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾. وأيضاً أن الله تعالى أخبر أنه خلق آدم بيديه، ولو كان معنى خلقه لآدم بيديه وخلقه بقدرته أو بنعمته أو بملكه لم يكن لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم، لأن جميع خلقه مخلوقون بقدرته، وجميعهم في ملكه ومتقلبون في نعمه، فلما خص الله آدم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ دون خلقه.. علم بذلك اختصاصه وتشريفه على غيره.

ونقل الإمام الفخر الرازي عن أبي الحسن الأشعري قولاً: إن اليد صفة قائمة بذات الله تعالى، وهي صفة سوى القدرة، من شأنها التكوين على سبيل الاصطفاء، قال: والذي يدل عليه أنه تعالى جعل وقوع خلق آدم بيديه على سبيل الكرامة لآدم، واصطفائه له، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة.. امتنع كون آدم مصطفى بذلك، لأن ذلك حاصل في جميع المخلوقات، فلا بدّ من إثبات صفة أخرى وراء القدرة، يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الاصطفاء، هذا آخر كلامه، فثبت بهذا البيان قول من قال: إن اليد صفة ثابتة لله تعالى، تليق بجلاله وأنها ليست بجارحة كما تقول المجسمة تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ولا بقدرة ولا نعمة ولا ملك كما يقول المؤولون والله سبحانه وتعالى أعلم بكنه ذاته وصفاته ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾؛ يعني: أنه تعالى يرزق كما يريد ويختار، فيوسع على من يشاء، ويقتر على من يشاء، لا اعتراض عليه في ملكه، ولا فيما يفعله، وهذا تأكيد للوصف بالسخاء، وأنه لا ينفق إلا على ما تقتضيه مشيئته، ولا موضع لقوله ﴿ينفق﴾ من الإعراب، إذ هي جملة مستأنفة كما سيأتي في مبحث الإعراب.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنفق أنفق عليك» وقال: «يد الله ملأى لا تفيضها نفقة سخاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض، فإنَّه لم ينقص ما بيده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان، يرفع ويخفض»، متفق عليه. وهذا الحديث أيضاً أحد أحاديث الصفات فيجب الإيمان به، وإمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل.

وقرأ أبو السمال بسكون العين في قوله[1]: ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ كما قال في عصر عصرون، وقال الشاعر:

لَــوْ عَـصْــرْنَــا مِـنْـهُ ٱلْـبَــا نَ وَٱلْـمِـسْـكَ ٱنْـعَـصَـرْ

ويحسن هذه القراءة أنها كسرة بين ضمتين، فحسن التخفيف، وقرأ عبد الله: ﴿بسيطتان﴾، يقال: يد بسيطة مطلقة بالمعروف، وفي مصحف عبد الله: ﴿بسطان﴾. يقال: يده بسط بالمعروف، وهو على فعل، كما تقول ناقة صرح، ومشيه سجح.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي ليزيدن كثيراً من اليهود والنصارى ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة ﴿طُغْيَٰنًا﴾؛ أي: تمادياً على الطغيان والضلال ﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: ثباتاً على الكفر والشرك، والمراد بالكثير منهم علماؤهم ورؤوساؤهم، وإنما قيد بالكثير لأن منهم من آمن، ومن لا يزداد إلا طغياناً، وهذا الإعلام بالرسول ﷺ بفرط عتوهم؛ أي: ليزيدن طغياناً إلى طغيانهم، وكفراً إلى كفرهم بما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء، لأنهم كلما نزلت آية من القرآن كفروا بها، فازدادوا شدة في كفرهم وطغياناً مع طغيانهم.

والمعنى[2]: أنَّ هذا الذي أنزلناه عليك أيها النبي من خفي أمور هؤلاء اليهود المعاصرين لك، ومن أحوال سلفهم وشؤون كتبهم وحقائق تاريخهم، هو من أعظم الأدلة على نبوتك، وكان ينبغي أن يجذبهم إلى الإيمان بك، إذ لولا النبوة والوحي ما علمت من هذا شيئاً، فلا تعرف الماضي لأنك أمي لم تقرأ الكتب، ولا تعرف الحاضر من مكرهم الخفي وكيدهم السري، لكنهم لطغيانهم وتجاوزهم الحدود في الكفر والحسد للعرب لم يجذبهم ذلك الإيمان، ولم يقربه إلا قليلاً منهم، ووالله ليزيدن ذلك كثيراً منهم طغياناً في بغضك، وعدواتك، وكفراً بما جئت به.

وقال قتادة: حملهم حسد محمد ﷺ والعرب على أن تركوا القرآن وكفروا

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

بمحمد ودينه. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾؛ أي: ألقينا وأوقعنا بين اليهود والنصارى، أو بين كل فريق من اليهود والنصارى ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ﴾؛ أي: الشحناء. قال أبو حيان: العداوة أخص من البغضاء، لأن كل عدو مبغض، وقد يبغض من ليس بعدو، انتهى.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فهي لا تنقطع أبداً واليهود مع كونهم المديرين لأعظم الأعمال المالية، ولهم النفوذ والتأثير في السياسة وسائر شؤون الاجتماع، مبغوضون لجماهير النصارى، وقيل: ألقى ذلك بين طوائف اليهود، فجعلهم مختلفين في دينهم متعادين متباغضين إلى يوم القيامة، فكل فرقة من اليهود تخالف الأخرى فلا يكاد تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم، فإن اليهود فرق، فإن بعضهم جبرية، وبعضهم قدرية، وبعضهم مرجئة، وبعضهم مشبهة، وكذا النصارى فرق، كالملكانية، والنسطورية، واليعقوبية، والماردانية.

فإن قلت: فهذا[1] المعنى أيضاً حاصل بين فرق المسلمين فكيف يكون ذلك عيباً على اليهود والنصارى حتى يذموا به؟.

قلت: هذه البدع التي حصلت في المسلمين إنما حدثت بعد عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة والتابعين. أما في الصدر الأول فلم يكن شيء من ذلك حاصلاً بينهم، فحسن جعل ذلك عيباً على اليهود والنصارى في ذلك العصرالذي نزل فيه القرآن على رسول الله ﷺ.

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟﴾ وأشعلوا ﴿نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ وأخمدها سبحانه وتعالى؛ أي: كلما هموا بالكيد للرسول والمؤمنين الصادقين.. خذلهم الله تعالى، وهم إما يخيبوا في سعيهم، ولا يتم لهم ما أرادوا من الإغراء والتحريض، وإما أن ينصر الله رسوله والمؤمنين.

يعني كلما[2] أفسد اليهود وخالفوا حكم الله.. يبعث الله عليهم من يهلكهم، أفسدوا أولاً فبعث الله عليهم بختنصر البابلي، ثم أفسدوا فبعث الله

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

طيطوس الرومي، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس وهم الفرس، ثم أفسدوا وقالوا: يد الله مغلولة، فبعث الله عليهم المسلمين، فلاتزال اليهود في ذلة أبداً. وقال مجاهد: معنى الآية كلما مكروا مكراً في حرب محمد ﷺ. . أطفأه الله تعالى. وقال السدي: كلما أجمعوا أمرهم على شيء ليفسدوا به أمر محمد ﷺ. . فرقه الله تعالى، وكلما أوقدوا ناراً في حرب محمد ﷺ أطفأ الله وأخمد نارهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وقهرهم ونصر نبيه ودينه. وقيل: المراد بالنار هنا الغضب؛ أي: كلما أثاروا في أنفسهم غضباً أطفأه الله بما جعله من الرعب في صدورهم، والذلة والمسكنة المضروبتين عليهم. والمعروف[1] في كتب السير أن اليهود كانوا يغرون المشركين بالنبي ﷺ والمؤمنين، ومنهم من سعى لتحريض الروم على غزوهم، ومنهم من كان يؤوي أعداءهم ويساعدهم، ككعب بن الأشرف، وما سبب ذلك إلا الحسدُ والعصبية، وخوف الأحبار والرهبان من إزالة الإسلام، لامتيازاتهم العلمية والدينية التي كانوا معروفين بها في بلاد الحجاز، فكانت عداوتهم للمسلمين عداوة سياسية جنسية ليست من طبيعة الدين ولا روحه، والدليل على ذلك: أن اليهود كان لهم ضلع بعد ذلك مع المسلمين في الشام والأندلس، لما رأوا من عدلهم وإزالة الجور والظلم الذي كان عليه الروم والقُوطُ.

وكذلك عداوة النصارى للمسلمين كانت سياسية، وكانت على أشدها بينهم وبين الروم المستعمرين للبلاد المجاورة للحجاز، كالشام ومصر، وكان نصارى البلاد أقرب ميلاً إلى المسلمين بعد أن وثقوا بعدلهم، وزال عنهم ظلم الروم، مع كونهم من أهل دينهم، وقد جرت العادة أن الناس يتبعون في العداوة أو المودة ما تمليه عليهم منافعهم ومصالحهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾؛ أي: سعي فساد؛ أي: يجتهدون ويفعلون في الأرض فعل فساد؛ أي: يجتهدون في الكيد والمكر للإسلام وأهله، وإثارة الفتنة بينهم وفي تعويق الناس عن محمد ﷺ وليس يقدرون على غير ذلك؛ أي: إن ما يأتونه من عداوة النبي ﷺ والمؤمنين وإيقاد الفتن والحروب، لم يكن بقصد الإصلاح للأخلاق وشؤون العمران والاجتماع، بل

(١) المراغي.

كانوا يقصدون السعي في الأرض للفساد، ويحاولون الكيد للمؤمنين، ومنع اجتماع كلمة العرب، ويودون أن لا يخرجوا من الأمية إلى العلم والعرفان، ولا من الوثنية إلى التوحيد حسداً لهم، وحباً في دوام امتيازهم عنهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بل يبغضهم ويعاقبهم، ومن ثم لا ينجح سعيهم ولا يصلح عملهم لأنهم يريدون أن يبطلوا حكمته تعالى في صلاح الناس وعمران البلاد.

ومن ثم أبطل سبحانه وتعالى كل ما كاده أولئك القوم للنبي ﷺ والعرب والإسلام، وأصلح بالإسلام ما كانوا خربوه من البلاد، ونصر المسلمين على كل من ناوأهم، وكذلك هم تركوا التوراة والإنجيل، وهما قد أنزلا لهداية الناس إلى الصلاح والإصلاح، فزال ملكهم وسلط الله عليهم غيرهم. قال قتادة: لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس فيها، وهم أبغض خلق الله إليه ثم ندمهم على سوء أعمالهم فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارى ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله وبرسوله محمد ﷺ وبما جاء به ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم، أو اجتنبوا من اليهودية والنصرانية ﴿لَكَفَّرْنَا﴾ وسترنا ﴿عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ وذنوبهم التي اقترفوها وعملوها قبل الإسلام، ومحوناها عنهم ولم نفضحهم بها، لأن الإسلام يجب ما قبله، ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: ولأدخلناهم مع سائر المسلمين في الآخرة بساتين يتنعمون بها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فالكتابي لا يدخل الجنة ولا يرفع عنه العقاب ما لم يسلم، والإسلام يجبّ ما قبله كما مرّ آنفاً.

وفي ذلك إعلام[(١)] من الله سبحانه وتعالى بعظم معاصي اليهود والنصارى، وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمته، وفتحه باب التوبة لكل عاصٍ، وإن عظمت معاصيه، وبلغت مبلغ سيئات اليهود والنصارى، وإخبارها بأن الإيمان لا ينجي إلا إذا شفع وقرن بالتقوى، ومن ثم قال الحسن: هذا العمود فأين الأطناب. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾؛ أي: أن أهل الكتاب ﴿أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ يعني[(٢)]: أقاموا أحكامهما، بإذاعة ما فيهما وعملوا بما فيهما من الوفاء بالعهود، والتصديق

(١) المراغي. (٢) الخازن.

بمحمد ﷺ، لأن نعته وصفته موجودان فيهما، فإن قلت: كيف يأمر أهل الكتاب بإقامة التوراة والإنجيل مع أنهما نسخاً وبدلاً؟

قلت: إنما أمرهم الله تعالى بإقامة ما فيهما من الإيمان بمحمد ﷺ واتباع شريعته، وهذا غير منسوخ.. لأنه موافق لما في القرآن؛ أي: ولو أنهم أقاموا ما في التوراة والإنجيل المنزلين بنور التوحيد المبشرين بالنبي، الذي يأتي من أبناء إسماعيل، والذي قال فيه عيسى عليه السلام: إنه روح الحق الذي يعلمهم كل شيء ﴿و﴾ أقاموا ﴿ما أنزل إليهم من ربهم﴾ على هذا النبي الكريم الذي بشرت به كتبهم، وقيل المراد[١] به: كتب أنبيائهم القديمة، مثل كتاب شعياء وكتاب أرمياء، وزبور داود، وفي هذه الكتب أيضاً ذكر محمد ﷺ، فيكون المراد بإقامة هذه الكتب الإيمان بمحمد ﷺ ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾؛ أي: لوسع الله عليهم رزقهم، ولأعطتهم السماء مطرها وبركتها، والأرض نباتها وخيرها، كما قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذه الجملة كناية عن المبالغة في السعة والخصب لا أن هناك فوقاً وتحتاً. والمعنى: لأكلوا أكلاً متصلاً كثيراً، قيل هذا في أهل الكتاب القائلين يد الله مغلولة، الذين ضيق عليهم عقوبة لهم، فلا يرد كون كثير من المتقين العاملين في غاية الضيق، فالتوسع والتضييق ليسا من الإكرام والإهانة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿كلا﴾؛ أي: إن الله يجعل ضيق الرزق كسعته نعمة في بعض عباده، ونقمة على آخرين، فلا يلزم من توسيع الرزق الإكرام، ولا من تضييقه الإهانة، اهـ كرخي. وفي هذا تنبيه إلى ما أصابهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم لا من قصور من فيض الله وعظيم عطائه، وإشارة إلى أنهم لو أقاموهما ما عاندوا النبي ذلك العناد، فالدين عندهم إنَّما كان أماني يتمنونها، وبدعاً وتقاليد يتوارثونها، فهم بين غلوّ وتقصير، وإفراط وتفريط، ثم ذكر أنهم ليسوا سواسية في أفعالهم وأقوالهم فقال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾؛ أي: من أهل الكتاب جماعة مستقيمة معتدلة في أمر دينها والعمل به من غير غلو ولا تقصير،

---

(١) الخازن.

لا تفرط ولا تهمل، وأصله من القصد، لأنَّ من عرف مقصوداً طلبه من غير اعوجاج عنه. وهذه الجملة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: هل جميعهم متصفون بالأوصاف السابقة أو البعض منهم دون البعض؟ ذكره الشوكاني. والمراد بالأمة المقتصدة من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من اليهود، والنجاشي وأصحابه من النصارى وسلمان وأصحابه ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب الذين أقاموا على كفرهم، مثل كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأبي ياسر وسائر رؤوساء اليهود ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بئس ما يعملونه من إقامتهم على كفرهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم! وهو المعاندة وتحريف الحق، والإعراض عنه والإفراط في العداوة وكتمان صفة محمد ﷺ، واجتراح المعاصي ويزعم النصارى منهم أن المسيح ابن الله ويكذبون بمحمد ﷺ، ويكذب اليهود بعيسى وبمحمد ﷺ، وعلى عيسى وسائر الأنبياء والمرسلين.

والمعتدلون لا تخلو منهم أمة، لكنهم يكثرون من طور صلاح الأمة وارتقائها، ويقلون في طور فسادها وانحلالها، ولا تهلك الأمم إلا بكثرة من يعمل السوء من أشرارها، وقلة من يعمل الصالحات من أخيارها، وهؤلاء المعتدلون هم السابقون إلى كل صلاح وإصلاح يقوم به المجددون من الأنبياء في مختلف العصور، ومن ثم قبل هذا الدين الجديد هؤلاء المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم، فكانوا مع إخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب والمحبين للعلوم والفنون.

روى ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يرفع العلم» قلت: كيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبنائنا؟ فقال: «ثكلتك أمك يا ابن نفير إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى، فما أغنى ذلك عنهم حين تركوا أمر الله ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الآية».

وأخرج أحمد وابن ماجه عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «وذلك عند ذهاب العلم» قلنا: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن

ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبنائهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتك أمك يا ابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أوليست هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء».

ومغزى هذا: أن العبرة في الأديان هو العمل بها، والاهتداء بهديها، وقد كان أهل الكتاب في ذلك العصر أبعد ما كانوا عن هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له، كما هو شأن المسلمين اليوم. وهذه الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال لها نظائر في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾. وقوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ الكريم والنبي الحليم محمد ﷺ ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: أوصل إلى الخلق جميع ما أنزل إليك ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: من مالك أمرك ومبلغك إلى كمالك مجاهراً به، ولا تخش في ذلك أحداً، ولا أن ينالك من ذلك مكروه أبداً، ولا تترك شيئاً مما أنزل إليك من ربك ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ﴾؛ أي: وإن لم تفعل ما أمرت به من تبليغ جميع ما أنزل إليك، بأن أخفيت شيئاً من ذلك في وقت من الأوقات أو كتمته، ولو إلى حين خوفاً من الأذى بالقول أو بالفعل ﴿فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾؛ أي: رسالة ربك؛ أي: فحسبك جرماً أنك ما بلغت الرسالة ولا قمت بما بعثت لأجله وهو تبليغ الناس ما أنزل إليهم من ربهم كما قال تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾. قال ابن عباس[1] رضي الله تعالى عنهما: يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك.. لم تبلغ رسالتي، يعني أنه ﷺ لو ترك إبلاغ البعض.. كان كمن لم يبلغ شيئاً مما أنزل الله إليه، وحاشا رسول الله ﷺ أن يكتم شيئاً مما أوحي إليه. روى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً مما أنزل إليه.. فقد كذب ثم قرأت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ أخرجاه في

---

(١) الخازن.

«الصحيحين» بزيادة فيه. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ﴿رسالاته﴾ على الجمع، وقرأ باقي السبعة على التوحيد. والحكمة[1] في التصريح بالأمر بالتبليغ وتأكيده بجعل كتمان بعضه ككتمان كله، مع العلم بأن الرسل صلوات الله عليهم معصومون من كتمان شيء مما أمرهم الله بتبليغه، وإلا بطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ، الحكمة في ذلك بالنظر إلى الرسول ﷺ، إعلامه بأن التبليغ حتم لا يجوز كتمانه على أي حال بتأخير شيء عن وقته على سبيل الاجتهاد، ولولا هذا النص.. لكان للرسول أن يجتهد بتأخير بعض الوحي إلى أن يقوى استعداد الناس لقبوله، ولا يحملهم سماعه على رده وإيذاء الرسول لأجله. والحكمة بالنسبة إلى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص، فلا يعذروا إذا اختلفوا فيها باختلاف الرأي والفهم.

ومن هذا تعلم أن ما نقل من الأقوال والآراء من جواز كتمان بعض الوحي غير القرآن عن كل الناس أو عن جمهورهم، لا يتفق مع الدين في شيء ولا يعول على ما رووه من الأخبار الضعيفة والأحاديث الموضوعة في هذا الباب، والحق الذي لا شبهة فيه أن الرسول بلغ جميع ما أنزل إليه من القرآن وبينه، ولم يخص أحداً بشيء من علم الدين، وأنَّه لا امتياز لأحد عن أحد في علم الدين إلا بفهم القرآن فهماً يتوسل إليه بعلم السنة، وآثار علماء الصحابة والتابعين، وعلماء الأمصار في الصدر الأول، وبمعرفة مفردات اللغة العربية وأساليبها، ومعرفة علوم الكون، وشؤون البشر، وسنن الله في الخلق. روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ أي آية من السماء أنزلت أشد عليك؟ فقال: «كنت بمنى أيام موسم، واجتمع مشركوا العرب وأفناء الناس في الموسم فنزل علي جبريل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ...﴾ الآيـــة. قال: فقمت عند العقبة فقلت: أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة؟ أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله وأنا رسول إليكم تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة، قال ﷺ: فما بقي رجل ولا أمة ولا صبي إلا يرمون علي بالتراب

(١) المراغي.

والحجارة ويقولون: كذاب صابىء، فعرض علي عارض فقلت: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك»، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعۡصِمُكَ﴾؛ أي يحفظك يا محمد ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من فتك الكفار وقتلهم إياك، فلا يصلون إليك. مأخوذ من عصام القربة وهو ما توكأ به؛ أي: يربط به فمها من سير جلد أو خيط. والمراد بالناس الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحي بيان كفرهم وضلالهم وفساد عقائدهم وأعمالهم، والنعي عليهم وعلى سلفهم، وكان ذلك يغيظهم ويحملهم على إيذائه ﷺ بالقول أو بالفعل، وائتمروا به بعد موت أبي طالب وقرروا قتله في دار الندوة، ولكن الله عصمه منهم وكذلك فعل اليهود بعد الهجرة.

وإن قلت[1]: أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته يوم أحد ـ وقد أوذي بضروب من الأذى ـ فكيف يجمع بين ذلك وبين قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾؟.

قلت: المراد منه أنَّه يعصمه من القتل فلا يقدر عليه أحد أراده بالقتل، ويدل على صحة ذلك ما روي عن جابر أنَّه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت الشجرة فعلق بها سيفه، ونمنا معه نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله، ثلاثاً ولم يعاقبه وجلس. وفي رواية أخرى قال جابر: كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، فجاء رجل من المشركين ـ وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة ـ فاخترطه فقال: تخافني؟ فقال: «لا»، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله»، فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ. أخرجه الشيخان في «الصحيحين»، وزاد البخاري

---

(١) الخازن.

في رواية له إن اسم ذلك الرجل غورث بن الحارث.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»، قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة السلاح، فقال: «من هذا»؟ قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاء بك»؟ فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام، متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: «أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله». أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب. وقيل[1]: وفي الجواب عن هذا: إن هذه الآية نزلت بعد ما شجّ رأسه في يوم أحد، لأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً. وقد وضعت هذه الآية ـ وهي مكية ـ في سياق تبليغ أهل الكتاب وهو مدني، لتدل على أن النبي ﷺ كان عرضةً لإيذائهم أيضاً، وأن الله تعالى عصمه من كيدهم، ولتذكر بما كان من إيذاء مشركي قومه من قبلهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى لا يهدي أولئك القوم الكافرين الذين هم بصدد إيذائك على التبليغ إلى ما يريدون، بل يكونون خائبين، وتتم كلمات الله تعالى حتى يكمل بها الدين. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن الله لا يرشد من كذبك وأعرض عنك. وقال ابن جرير الطبري معناه: أن الله لا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق وجار عن قصد السبيل وجحد ما جئت به. وقال أبو حيان: معناه إنَّما عليك البلاغ لا الهداية، فمن قضيت عليه بالكفر والموافاة عليه.. لا يهتدي أبداً، فيكون خاصاً. قال ابن عطية: وإما على العموم، على أن لا هداية في الكفر ولا يهدي الله الكافر في سبيل كفره.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن ربك ﴿يَٰٓأَهْلَ

---

(١) الخازن.

﴿ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ يعتد به من أمر الدين، ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبيين، وفيه تحقير وتقليل لما هم عليه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ وتتبعوهما فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص والعمل الصالح، وفيما بشرا به من بعثة النبي الذي يجيء من ولد إسماعيل، الذي سماه المسيح: روح الحق، وتعملوا بما فيهما من أوامر الله ونواهيه ﴿و﴾ حتى تقيموا ﴿ما أنزل إليكم من ربكم﴾ على لسان محمد ﷺ، وهو القرآن المجيد، فهو الذي أكمل به دين الأنبياء والمرسلين بحسب سنن الله في الكون، فإن إقامة الكتابين لا تصح بدون إقامته ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم﴾؛ أي: من أهل الكتاب أو جميع الكفار ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو القرآن ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾؛ أي: ضلالاً إلى ضلالهم، أو تمادياً في الجحود ﴿وَكُفۡرٗاۖ﴾ إلى كفرهم، أو ثباتاً على الكفر، وتصدير هذه الجملة بالقسم لتأكيد مضمونها.

والمعنى: وعزتي وجلالي إن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي أكمل الله به الدين المنزل على محمد خاتم النبيين إلا غلوا في تكذيبهم، وكفراً على كفرهم، لأنهم لم ينظروا فيه نظرة إنصاف، بل نظروا إليه بعين العصبية والعدوان، إذ كانوا على تقاليد وثنية، وأعمال وعادات سخيفة، فلم يكن لهم من الدين الذي يدينون به ما يقربهم إلى فهم حقيقة الإسلام، ليعلموا أن دين الله واحد، وأن ما سبق بدء، وهذا إتمام، أما غير الكثير - وهم الذين حافظوا على التوحيد ولم تحجبهم عن نور الحق شتى التقاليد - فهم الذين ينظرون إلى القرآن بعين البصيرة، فيعلمون أنَّه الحق من ربهم، وأنَّ من أنزل عليه هو النبي المبشر في كتبهم، فيسارعون إلى الإيمان به بحسب حظهم من سلامة الوجدان، واطمئنان النفس بما لديها من العلم والعرفان ﴿فَلَا تَأۡسَ﴾ ولا تحزن يا محمد ﴿عَلَى﴾ عدم إيمان ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: دع عنك التأسف على هؤلاء، فإن ضرر ذلك راجع إليهم، ونازل بهم، وفي المتبعين من المؤمنين غنى لك عنهم.

قال الراغب: الأسى الحزن، وأصله إتباع الفائت بالغم، والمعنى؛ أي: فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم، فإنَّ ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ولا إلى المؤمنين، وحسبك الله ومن اتبعك من مؤمني قومك، ومن مؤمني أهل

الكتاب، كعبد الله بن سلام وغيره من علمائهم.

والعبرة للمسلم من هذه الآية: أن يعلم أنه لا يكون شيء يعتد به من أمر الدين حتى يقيم القرآن، وما أنزل إليه من ربه فيه، ويهتدي بهديه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فحجة الله على عباده واحدة، فإذا كان الله لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا ما ورثوه من تلك التقاليد التي صدتهم عما عندهم من وحي الله تعالى.. فإنَّه لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظنا لكتابنا حتى نقيم حدوده، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والناس عن مثل هذا غافلون، وإلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون، ويحسبون أنَّهم على شيء ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ. جملة مستأنفة لترغيب من عداهم من المؤمنين المخلصين، والمراد[1] بالمؤمنين هنا: الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون، أو ما يعم المخلصين وغيرهم من المنافقين ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾؛ أي: دخلوا في دين اليهود ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مبتدأ، والنصارى معطوف عليه، والخبر محذوف تقديره: كائنان كذلك، وقال الخليل وسيبويه: الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك. وقرأ[2] عثمان وأبي وعائشة وابن جبير الجحدري ﴿والصابئين﴾ بالنصب، وبها قرأ ابن كثير. وقرأ الحسن والزهري: ﴿والصابيون﴾ بكسر الباء وضم الياء، وهو من تخفيف الهمزة كقراءة ﴿يستهزيون﴾ وقرىء: ﴿والصابُون﴾. بإبدال الهمزة ألفاً وحذفها وقرأ القراء السبعة ﴿والصابئون﴾ بالرفع، وعليه مصاحف الأمصار والجمهور ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: خالصاً فيما بينه وبين ربه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا من ورائهم من لذات الدنيا وعيشها.

والخلاصة: أن الذين صدقوا الله ورسوله، والذين دخلوا اليهودية،

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

والصابئين الذين يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، وهم فرقة من النصارى سموا صابئين لأنهم صبئوا عن الأديان كلها، بمعنى خرجوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا ما جاءت به الرسل من عند الله، وقيل: هم فرقة أقدم من النصارى، كانوا يعبدون الكواكب السبعة، وقيل: كانوا يعبدون الملائكة ـ والذين دخلوا النصرانية من أخلص منهم الإيمان بما ذكر، دواماً وثباتاً كما في المؤمنين المخلصين، أو إيجاداً وإنشاءً كما هو حال المنافقين وغيرهم من الطوائف الأخرى، فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا ورائهم من لذات الدنيا وعيشها بعد معاينتهم ما أكرمهم الله به من جزيل ثوابه.

وفي الآية: إيماء إلى أهل الكتاب لم يقيموا دين الله، لا الوسائل منه ولا المقاصد، فلا هم حفظوا نصوص الكتب كلها، ولا هم تركوا ما عندهم منها على ظواهرها، ولا هم آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الذي كان عليه سلفهم الصالح، وهم عملوا الصالحات كما كانوا يعملون إلا قليلاً منهم عذبوا على توحيد الله ورموا بالزندقة لرفضهم تقاليد الكنائس والبدع التي شرعها الأحبار والرهبان، كما أن فيها ترغيباً لمن عدا من ذكروا في الإيمان والعمل الصالح ليكون لهم من الجزاء مثل ما لأولئك.

فإن قلت[1]: قد قال الله تعالى في أول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثم قال في آخر الآية: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ فما فائدة هذا التكرار؟

قلت: فائدته أنَّ المنافقين كانوا يظهرون الإسلام ويزعمون أنهم مؤمنون، ففي هذا التكرار إخراجهم من قبيل المؤمنين فيكون معنى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: بألسنتهم لا بقلوبهم ثم قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ يعني من ثبت على إيمانه، ورجع عن نفاقه منهم. وقيل: فيه فائدة أخرى وهي: أن الأيمان يدخل تحته أقسام كثيرة، وأشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر، ففائدة التكرار التنبيه على أن أشرف أقسام الإيمان هذان القسمان.

---

(١) الخازن.

عليهما السلام، فسلط الله عليهم من سامهم الخسف وأوقع بهم البوار والدمار، فجاس البابليون بختنصر وأعوانه خلال ديارهم، وأحرقوا المسجد الأقصى، ونهبوا أموالهم، وسبوا أولادهم ونساءهم، وسلبوهم أموالهم وثلوا عروش ملكهم، وقتلوا منهم أربعين ألفاً ممن يقرأ التوراة، وذهبوا بالبقية إلى أرضهم بابل، فبقوا هناك دهراً طويلاً على أقصى الذل، إلى أن أحدثوا توبة صحيحة ﴿ثُمَّ﴾ رحمهم الله تعالى فتابوا و﴿تَابَ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على بني إسرائيل حين تابوا وأقلعوا عن الفساد، وأعاد إليهم ملكهم وعزهم على يد ملك من ملوك الفرس، إذ جاء إلى بيت المقدس وعمره، ورد من بقي من بني إسرائيل في أسر بختنصر إلى وطنهم، ورجع من تفرق في الأقطار، فاستقروا وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا أولاً.

﴿ثُمَّ عَمُوا﴾ عن إبصار الحق ﴿وَصَمُّوا﴾ عن سماعه مرة أخرى، وعادوا إلى ظلمهم وفسادهم في الأرض، وقتلوا الأنبياء بغير حق، فقتلوا زكريا ويحيى، وأرادوا قتل عيسى عليه السلام، فسلط الله عليهم الفرس، ثم الروم، فأزالوا ملكهم واستقلالهم، ففعلوا بهم ما فعلوا. وفي قوله: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أن عمى البصيرة والصمم عن المواعظ لم يكن للجميع بل كان للكثير منهم، والله تعالى يعاقب الأمم بذنوبها إذا كثرت وشاعت فيها، إذ العبرة بالغالب لا بالأقل النادر الذي لا يؤثر في صلاح ولا فساد ومن ثُمَّ قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾. وقرأ[1] النخعي وابن وثاب بضم العين والصاد في ﴿عموا وصموا﴾ وتخفيف الميم من عموا، إجراءاً لهما مجرى زكم الرجل ونحوه من الأفعال المبنية للمفعول لفظاً لا معنى، أو على أنَّ المعنى: إنَّ الله عماهم وصمهم؛ أي: رماهم بالعمى والصمم، وهو قليل، واللغة الفاشية أعمى وأصم ذكره «البيضاوي». وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿كثيراً منهم﴾ بالنصب، وقرأ الجمهور بالرفع على أنَّه بدل من فاعل ﴿عموا وصموا﴾.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ لنبيه وخاتم أنبيائه من الكيد والمكر وتدبير الإيقاع به، وتأليب القبائل والشعوب المختلفة، لتكون يداً واحدة للفتك به، وما سبب ذلك إلا اتباعهم للهوى، وأنهم عموا وصموا مرة أخرى، فصاروا لا يبصرون ما جاء به من النور والهدى، ولا يسمعون ما يتلوه عليهم من الآيات، وسيعاقبهم الله تعالى على ذلك بمثل ما عاقبهم به من قبل، وينكل بهم أشد النكال، ويذيقهم أنواع الوبال. وفي هذه[1] الجملة تهديد شديد، وناسب ختم الآية بهذه الجملة المشتملة على بصير إذ تقدم قبله فعموا، والتعبير بصيغة المضارع في ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ لحكاية الحال الماضية، ولرعاية الفواصل؛ أي: والله بصير بما عملوا.

الإعراب

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾: (الواو): استئنافية، ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول قال. ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية دعائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلُعِنُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملت ﴿غُلَّتۡ﴾ أو مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿لعنوا﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: بما قالوه، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، والتقدير: ولعنوا بقولهم المذكور. ﴿بَلۡ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على مقدر يقتضيه المقام تقديره: ليس الأمر كما قالوا بل يداه مبسوطتان، وهو في غاية الجود. ﴿يُنفِقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة مستأنفة. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم شرط غير جازم، لأنَّ شرط الجزم بها عند الكوفيين اتصال ما بها في محل النصب على

---

(١) البحر المحيط.

التشبيه بالمفعول به مبني على الفتح. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ومفعول المشيئة محذوف تقديره، كيف يشاء أن ينفق، وجواب الشرط محذوف أيضاً تقديره: كيف يشاء أن ينفق ينفق، وجملة الشرط مستأنفة وعبارة «الفتوحات» هنا قوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ في[1] هذه الجملة وجهان:

أحدهما: وهو الظاهر أنَّه لا محل لها من الإعراب؛ لأنَّها مستأنفة.

والثاني: أنَّها في محل رفع؛ لأنَّها خبر ثانٍ ليداه، و﴿كَيْفَ﴾ في مثل هذا التركيب شرطية، نحو كيف تكون.. أكون، ومفعول المشيئة محذوف، وكذلك جواب الشرط أيضاً محذوف، مدلول عليه بالفعل المتقدم على ﴿كَيْفَ﴾. والمعنى: ينفق كيف يشاء أن ينفق ينفق، نظير قوله: ويبسطه في السماء كيف يشاء أن يبسطه يبسط، فحذف مفعول يشاء، وهو أن وما بعدها، وقد تقدم أن مفعول يشاء ويريد، لا يذكران إلا لغرابتهما، ولا جائز أن يكون ينفق المتقدم عاملاً في كيف؛ لأنَّ لها صدر الكلام، وماله صدر الكلام لا يعمل فيه إلا حرف الجر أو المضاف. اهـ. «سمين».

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾: (الواو): استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿يزيدن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول أول. ﴿مِّنْهُم﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾. ﴿مَّآ﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَّآ﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ وكذلك متعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلة لـ﴿مَّآ﴾ أو صفة لها. ﴿طُغْيَٰنًا﴾ مفعول ثان ﴿ليزيدن﴾. ﴿وَكُفْرًا﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿يزيدن﴾ جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم مستأنفة.

---

(١) الجمل.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَأَلْقَيْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿بَيْنَهُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ألقينا﴾. ﴿الْعَدَاوَةَ﴾: مفعول به. ﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾: معطوف عليه. ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾؛ أي: حالة كونهما مستمرين إلى يوم القيامة. ﴿كُلَّمَا﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿أَوْقَدُوا نَارًا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿لِلْحَرْبِ﴾: صفة لـ﴿نَارًا﴾ أو متعلق بـ﴿أَوْقَدُوا﴾، والجملة الفعلية فعل شرط لكلما لا محل لها من الإعراب. ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة جواب ﴿كلما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كلما﴾: من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ فعل وفاعل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلق به ﴿فَسَادًا﴾ إما مفعول لأجله؛ أي: لأجل الإفساد، أو مفعول مطلق؛ أي: سعي فساد أو حال؛ أي: يسعون مفسدين والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ وجملة ﴿لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ خبره، والجملة الإسمية مستأنفة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥)﴾.

﴿وَلَوْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿وَاتَّقَوْا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿آمَنُوا﴾ وجملة ﴿آمَنُوا﴾: في محل الرفع خبر أن تقديره: ولو أن أهل الكتاب مؤمنون ومتقون، وجملة أنَّ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف تقديره: ولو ثبت إيمان أهل الكتاب واتقاؤهم لله، وجملة الفعل المحذوف مع فاعله فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَكَفَّرْنَا﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿كفرنا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به. ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾: مفعول به مضاف إليه، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾:

الواو عاطفة. ﴿أدخلناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه، وجملة ﴿أدخلناهم﴾: معطوفة على جملة ﴿كفرنا﴾ على كونها جواباً لـ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: (الواو): استئنافية أو عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿أَنَّهُمْ﴾ ﴿أنَّ﴾: حرف نصب، والهاء: في محل النصب اسمها. ﴿أَقَامُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَآ﴾ الواو: عاطفة. ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب معطوف على ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَيْهِم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿ما﴾ الموصولة، أو من الضمير في ﴿أُنزِلَ﴾ وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿أَقَامُوا۟﴾: في محل الرفع خبر أن تقديره: ولو أنَّهم مقيمون التوراة وما عطف عليه، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف تقديره: ولو ثبت إقامتهم التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم، وجملة الفعل المحذوف فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَأَكَلُوا۟﴾ (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿أكلوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الأولى. ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أكلوا﴾ أو صفة لمحذوف مفعول ﴿لَأَكَلُوا۟﴾ تقديره: لأكلوا رزقاً كائناً من فوقهم، أو مأخوذاً من فوقهم. ذكره أبو البقاء. ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أُمَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾: صفة لـ﴿أُمَّةٌ﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَكَثِيرٌ﴾: مبتدأ. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة له. ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض بمعنى بئس من أفعال الذم. ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع فاعل. وجملة

﴿يَعْمَلُونَ﴾: صلة لما والعائد محذوف تقديره: ما يعملونه، وجملة ﴿سَآءَ﴾: من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر المبتدأ، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: مصدرية والتقدير: ساء عملهم؛ والجملة الإسمية معطوفة على جملة ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾. قال أبو حيان[1]: واختار الزمخشري في ساء: أن تكون التي لا تتصرف، فإنَّ فيه التعجب، كأنَّه قيل: ما أسوأ عملهم، ولم يذكر غير هذا الوجه، واختار ابن عطية أن تكون المتصرفة، تقول: ساء الأمر يسوء، وأجاز أن تكون غير المتصرفة، فتستعمل استعمال نعم وبئس كقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾: فالمتصرفة تحتاج إلى تقدير مفعول؛ أي: ساء ما يعملون بالمؤمنين وغير المتصرفة تحتاج إلى تمييز؛ أي: ساء عملاً ما يعملون. انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (ياء): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة، (ها): حرف تبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿بَلِّغْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿بَلِّغْ﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: حال من ﴿مَآ﴾ أو من نائب فاعل ﴿أُنزِلَ﴾ وجملة ﴿أُنزِلَ﴾: صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها. ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَفْعَلْ﴾: مجزوم بلم وفاعل وفاعله ضمير يعود على محمد، ومفعول تفعل محذوف تقديره: وإن لم تفعل ما أمرت به من تبليغ جميع ما أنزل إليك من ربك.. فما بلغت رسالته، والجملة الفعلية في محل الجزم ﴿بإِن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إِن﴾ الشرطية وجوباً.

---

(١) البحر المحيط.

﴿ما﴾: نافية. ﴿بَلَّغْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَعْصِمُكَ﴾ خبره. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: متعلق به، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾. نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ مفعول به. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾: مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لَسْتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور خبر ليس، وجملة ليس جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد حتى بمعنى: إلى، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحتى تقديره: إلى إقامة التوراة، الجار والمجرور متعلق بليس. ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوف على ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾: معطوف على التوراة أيضاً. ﴿إِلَيْكُم﴾ متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ أو حال من ﴿ما﴾ أو من ضمير ﴿أُنزِلَ﴾.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾: (الواو): استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿يزيدن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول أول. ﴿مِّنْهُم﴾: صفة له. ﴿مَّآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع

فاعل ﴿يزيدن﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: صلة لما أو صفة لها. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: حال من ﴿مَّآ﴾ أو من ضمير ﴿أُنزِلَ﴾ ﴿طُغْيَٰنًا﴾ مفعول ثانٍ ﴿وَكُفْرًا﴾ معطوف عليه، وجملة ﴿يزيدن﴾ جواب لقسم محذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مسأنفة، ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة، لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنَّه يزيد ما أنزل إليك من ربك كثيراً منهم طغياناً وكفراً، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك. ﴿لا تأس﴾: ﴿لا﴾: ناهية وجازمة. ﴿تَأْسَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾ متعلق به ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأول. ﴿هَادُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مبتدأ. ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: معطوف عليه، والخبر محذوف تقديره: كائنان كهؤلاء المذكورين قبلهم، والجملة الاسمية معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرها، أو بين البدل والمبدل منه. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب بدل من اسم ﴿إِنَّ﴾ وما عطف عليه بدل بعض من كل، والرابط محذوف وتقديره: من آمن منهم. ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾: صفة لـ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾. ﴿وَعَمِلَ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به لـ﴿وَعَمِلَ﴾ أو مفعول مطلق له. ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ (الفاء): رابطة لخبر إنَّ باسمها، لما في اسمها من العموم. ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾: اسمها مرفوع. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق

بمحذوف خبر ﴿لا﴾ تقديره: فلا خوف كائناً عليهم. ﴿وَلَا هُمْ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿لا﴾: نافية ملغاة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾: خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ على كونها خبراً لـ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة. وفي المقام تسعة أوجه من الإعراب ذكرها «السمين»، فلتراجعه إن شئت منها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ فيه محذوف معلوم مما بعده تقديره: إنَّ الذين آمنوا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ مبتدأ. ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: معطوفان عليه. ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: بدل من المبتدأت الثلاث. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: خبر للمبتدأت الثلاث، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَخَذْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَأَرْسَلْنَآ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿رُسُلًا﴾: مفعول ﴿أرسلنا﴾. ﴿كُلَّمَا﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجواب. ﴿جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿كُلَّمَا﴾ وجواب ﴿كُلَّمَا﴾ محذوف جوازاً دل عليه ما بعده تقديره: كلما جاءهم رسول منهم بما لا تهوى أنفسهم.. عصوه وعادوه، وجملة ﴿كُلَّمَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب صفة لـ﴿رُسُلًا﴾ والرابط ضمير منهم الذي قدرناه. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ تقديره: رسول متلبس بما. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَهْوَىٰٓ﴾ فعل مضارع. ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما لا تهواه أنفسهم. ﴿فَرِيقًا﴾: مفعول مقدم جوازاً لـ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل

وفاعل، والجملة من الفعل والفاعل مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: كيف فعلوا برسلهم؟ فأجاب بقوله: فريقاً كذبوا. ﴿وَفَرِيقًا﴾: مفعول مقدم ليقتلون. ﴿يَقْتُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾.

ونص عبارة أبي السعود هنا[1]: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾: جملة شرطية مستأنفة، وقعت جواباً عن سؤال نشأ من الإخبار بأخذ الميثاق، وإرسال الرسل، وجواب الشرط محذوف كأنَّه قيل: فماذا فعلوا بالرسل؟. فقيل: كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما لا تحبه أنفسهم المنهمكة في الغي والفساد ـ من الأحكام الحقة والشرائع.. عصوه وعادوه. وقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾: جواب مستأنف عن استفسار كيفية ما أظهروه من آثار المخالفة المفهومة من الشرطية على طريقة الإجمال، كأنَّه قيل: كيف فعلوا بهم؟ فقيل: فريقاً منهم كذبوا من غير أن يتعرضوا لهم بشيء آخر من المضار، وفريقاً آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم، بل قتلوهم أيضاً. ا هـ.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَحَسِبُوا﴾ (الواو): استئنافية، ﴿حسبوا﴾: فعل وفاعل. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره: وحسبوا أنَّه لا تكون فتنة، إنْ كان حسب بمعنى علم، أو مصدرية ناصبة للمضارع، إنْ كان حسب بمعنى ظن، ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع تام بمعنى تقع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم على التقدير الأول، ومنصوب بأن المصدرية على التقدير الثاني. ﴿فِتْنَةٌ﴾: فاعل، وجملة ﴿لا تكون﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إنْ﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي حسب على التقدير الأول؛ أي: وعلموا عدم. وقوع فتنة، وجملة ﴿حسبوا﴾ من الفعل والفاعل مستأنفة، وكذلك على التقدير الثاني تكون جملة ﴿لا تكون فتنة﴾ صلة

---

(١) أبو السعود.

﴿أنْ﴾ المصدرية ﴿أنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿حسبوا﴾؛ أي: وظنوا عدم وقوع فتنة.

فائدة: وحاصل[1] استعمال (أن): أنها إن وقعت بعد مادة العلم وما في معناه كاليقين.. تعين الرفع بعدها، وتعين أنها مخففة من الثقيلة، وإن وقعت بعد مادة غيره مما لايحتمله كالشك والظن.. تعين النصب بعدها، وتعين أنها المصدرية، وإن وقعت بعد ما يحتمل العلم وغيره كالحسبان كما هنا.. جاز فيما بعدها الوجهان، فالرفع على جعل الحسبان بمعنى العلم، والنصب على جعله بمعنى الظن. وعبارة السمين هنا: والحاصل: أنَّه متى وقعت أن بعد علم.. وجب أن تكون المخففة، وإذا وقعت بعد ما ليس بعلم ولا شك.. وجب أن تكون الناصبة، وإن وقعت بعد فعل يحتمل اليقين والشك.. جاز فيه وجهان باعتبارين، إن جعلناه يقيناً.. جعلناها المخففة ورفعنا ما بعدها، وإنْ جعلناه شكاً.. جعلناها الناصبة ونصبنا ما بعدها. والآية الكريمة من هذا الباب، وأن مع صلتها على كلا التقديرين المخففة الناصبة سادة مسد المفعولين عند جمهور البصريين، وسادة مسد الأول فقط عند أبي الحسن. والثاني محذوف والتقدير: حسبوا عدم الفتنة كائناً أو حاصلاً. وحكى بعض النحويين أنَّه ينبغي لمن رفع أن يفصل أن من لا في الكتابة، لأن هناك الضمير فاصلة في المعنى، ومن نصب لم يفصل لعدم الحائل بينهما. ﴿فَعَمُوا﴾ الفاء: حرف عطف وتعقيب. ﴿عَمُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿حسبوا﴾. ﴿وَصَمُّوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عَمُوا﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، وعطف بثم الدالة على التراخي دلالة على أنهم تمادوا في الضلال إلى وقت التوبة. ﴿تَابَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَمُوا﴾ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخي ﴿عَمُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. ﴿وَصَمُّوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عَمُوا﴾. ﴿كَثِيرٌ﴾: بدل من الواو في ﴿عموا وصموا﴾ بدل بعض من كل. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرٌ﴾.

---

(١) الفتوحات.

وفي «الكرخي»: وهذا الإبدال في غاية البلاغة، فإنه لما قال: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾. . أوهم ذلك أن كلهم صاروا كذلك، فلما قال: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ﴾ علم أن هذا الحكم حاصل للكثير منهم لا للكل. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بَصِيرُۢ﴾: خبره. ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: جار ومجرور وصلة الموصول متعلق ببصير والجملة الاسمية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾ اليد مؤنثة أصله يَدْيٌ حذفت لامه اعتباطاً؛ أي: من غير صلة تصريفية طلباً للتخفيف بدليل جمعه على الأيدي. ﴿مَغْلُولَةٌۚ﴾: اسم مفعول غله يغله، من باب شد إذا وضع في يده أو عنقه الغلّ، والغل بضم الغين طوق من حديد أو جامد يجعل في اليد أو في العنق، يجمع على أغلال وغلول، وكونها مغلولة كناية عن كونها محبوسة مقبوضة ممسوكة عن البذل والرزق والعطاء، فنسبوا إلى الله البخل والقبض تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فمراد اليهود لعنة الله عليهم بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾: أن الله تعالى بخيل، فأجابهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾: دعاء عليهم بالبخل؛ أي: أمسكت وانقبضت عن العطاء ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يقال: بسط اليد يبسط بسطاً، من باب نصر إذا مدها، وبسط السيف إذا سله، وبسط الثوب نشره، ويده بسط بضم أوله وسكون ثانيه وبسط بضمهما ويد مبسوطة؛ أي: مفتوحة مطلقة، وبسط اليد هنا كناية عن كثرة العطاء والبذل والإحسان.

﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ﴾ والطغيان مصدر طغا الكافر يطغى، من باب سعى يسعى، أو طغي يطغى، من باب رضي يرضى إذا غلا في الكفر. والطغيان الغلو والتمرد في الكفر والغي والضلال، والعامة تقول طغاه الشيطان، أي: صرفه عن طريق الخير، وطغا الرجل إذا أسرف في الظلم والمعاصي. ويقال: كفر الرجل بالخلق يكفر من باب نصر، كَفْراً كُفْراً وكُفوراً وكُفراناً إذا نفاه وعطَّله، وكفر نعم الله وبنعم الله إذا جحدها وتناساها، وذلك ضد الشكر فعطف الكفر على الطغيان من عطف العام على الخاص، لأن الطغيان الغلو في الكفر.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾؛ أي: أوقعنا بينهم العداوة، والعداوة: الخصومة والمباعدة، والعدو: الخصم، وهو ضد الصديق، وهو من يفرح لحزنك ويحزن لفرحك، ويقال: عدا عليه يعدو من باب دعا، عَدْواً وعُدْواناً وعداوة إذا ظلمه، والبغضاء وكذا البَغاضةُ البُغْضُ الشديد، والبغض ضد الحب. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ والحرب ضد السلم فهي تصدق بالإخلال بالأمن والسلب والنهب، ولو بغير قتل وبتهييج الفتن والإغراء بالقتل، والكثير من الحرب التأنيث. وفي «المختار» الحرب مؤنثة وقد تذكر ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ﴾ يقال: أقام الشيء إقامة وقامة إذا أدامه، وأقام بالمكان دام فيه واتخذه وطناً، وأقام الحق إذا أظهره، وإقامة التوراة العمل بما فيها على أتم الوجوه، سواء في ذلك عمل النفس بالإيمان والإذعان، وعمل الجوارح والقوى البدنية ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾؛ أي: لوسع الله عليهم موارد الرزق.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾: والمقتصدة المعتدلة في أمر الدين، فلا تغلوا بالإفراط، ولا تهملوا بالتقصير. وفي «الفتوحات» قوله: مقتصدة؛ أي: عادلة لا غالية ولا مقصرة، فالاقتصاد في الشيء هو الاعتدال فيه، وقوله: ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ اسم فاعل من اقتصد الخماسي، يقال: اقتصد في الأمر ضد أفرط، وفي النفقة توسط بين الإفراط والتقتير، واقتصد في أمره استقام ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يقال: أسى يأسى أساً من باب رضي يرضى إذا حزن، فهو آس وأسيان، وهي آسية وأسيانة ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ جمع صابىء يقال: صبؤ يصبؤ من باب فعل المضموم، صبأ وصبؤاً إذا خرج عن دين إلى دين آخر، أو تدين بدين الصابئين فهو صابىء، يجمع على صائبين وصابئة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ لأنه استعار الغل للبخل، فاشتق من الغل بمعنى البخل مغلولة بمعنى بخيلة على طريقة الاستعارة

التصريحية التبعية، لأنها جرت في المشتقات بعد جريانها في المصادر، وفي قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾. لأنه استعار البسط للجود، فاشتق من البسط بمعنى الجود، مبسوطتان بمعنى منفقتان.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾. و﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، لأن اليد لما كانت آلة لكل الأعمال لا سيما لدفع المال وإنفاقه وإمساكه.. أسندوا البخل والجود إليها مجازاً، إسناداً للشيء إلى سببه.

وقال أبو حيان[1]: والذي يظهر أن قولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ استعارة عن إمساك الإحسان الصادر عن المقهور، على الإمساك، ولذلك جاؤوا بلفظ مغلولة، ولا يغل إلا المقهور فجاء قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء بغل الأيدي، فهم في كل بلد مع كل أمة مقهورون مغلوبون لا يستطيع أحد منهم أن يستطيل ولا أن يستعلي، فهي استعارة عن ذلهم وقهرهم، وأن أيديهم لا تنبسط إلى دفع ضرر ينزل بهم.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿غُلَّتْ﴾ فإنَّه في مقابلة ما تضمنه قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. وليست هذه المقابلة بدعا منهم فقد قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ لعائن الله عليهم وعلى سائر الكفرة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ لأنَّ الإلقاء حقيقة في الأجسام، وفي قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾، استعير فيه إيقاد النار الحسية لاختلاط الحرب، لأنَّ الحرب لا نار لها، وإنَّما شبهت بالنار؛ لأنَّها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها، وفي قوله: ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾. لأنَّه استعارة لإلقاء الرعب في قلوبهم.

وقال الجمهور: هو استعارة، وإيقاد النار عبارة عن إظهار الحقد والكيد والمكر بالمؤمنين، والاغتيال والقتال، وإطفاؤها صرف الله عنهم ذلك، وتفرق

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما ذكر أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل، وبعث فيهم رسلاً، وبين عتوهم وشدة تمردهم وما كان من سوء معاملتهم مع أنبيائهم، وعدد قبائح اليهود ومخازيهم.. شرع يفصل قبائح النصارى ويبطل أقوالهم الفاسدة، وآرائهم الزائفة، ثم ذكر أن المسيح يكذبهم في ذلك فحكى عنه، ثمَّ رد عليهم ما قالوه بلا روية ولا فكر ولا بصيرة حيث قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾. ثمَّ توعدهم على مقالة التثليث حيث قال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، الآية. ثم تعجب من إصرارهم

على التثليث بعد ما ظهرت البينات حيث قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾. ثم ذكر أن المسيح رسول كغيره من الرسل حيث قال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وأقام الدليل على ذلك، ثم أبطل مقالة النصارى في عيسى عليه السلام بالحجة والدليل حيث قال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لمَّا بين غلوهم وضلالهم وإضلالهم.. ذكر أسباب ذلك، وأرشد إلى ما أخذهم به، ثم بين سبحانه أسباب استمرارهم على العصيان وتعدي الحدود حيث قال: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾. الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما ذكر لنبيه أحوال أسلافهم.. ذكر له هنا أحوال حاضريهم مما يدل على رسوخ تلك الملكات فيهم.

التفسير وأوجه القراءة

ولما حكى الله سبحانه وتعالى عن اليهود ما حكاه من نقضهم الميثاق، وقتلهم للأنبياء، وتكذيبهم الرسل، وغير ذلك.. شرع في الإخبار عن كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد، فقال تعالى: وعزتي وجلالي ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ واعتقدوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ والمسيح هو الله، وهذا قول اليعقوبية والملكانية من النصارى، لأنَّهم يقولون: إنَّ مريم ولدت إلٰهاً، ولأنهم يقولون: إن الإلٰه جلَّ وعلا حلَّ في ذات عيسى واتحد بذات عيسى، فصار عيسى إلٰهاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً: لقد كفروا وضلوا ضلالاً بعيداً؛ إذا هم في إطرائه ومدحه غلوا أشد من غُلُوّ اليهود في الكفر به وتحقيره وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتاناً عظيماً، وقد صارت هذه المقالة أعني مقالة الاتحاد هي المقالة الشائعة عندهم، ومن عدل عنها عد مارقاً من الدين.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عيسى؛ أي: قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، والحال إنَّه قد قال لهم عيسى ابن مريم عند مبعثه إليهم ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾؛ أي: وحّدوه بالعبادة؛ أي: قال لهم ضد ما يقولون، فقد أمرهم بعابدة الله وحده معترفاً بأنَّه ربه وربهم، ودعا بني إسرائيل الذين أرسل إليهم إلى عبادة الله وحده، ولا يزال هذا الأمر محفوظاً في الأناجيل التي كتبت لبيان بعض سيرته وتاريخه، فدين المسيح مبني على التوحيد المحض، وهو دين الله الذي أرسل به جميع رسله. وفي هذه المقالة تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى، ذلك لأن عيسى عليه السلام لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية والإقرار للهبالربوبية، وأن دلائل الحدوث ظاهرة عليه.

وبعد أن أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص، أتبعه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ الشأن والحال ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ ويمت عليه؛ أي: إنَّ كل من يشرك بالله شيئاً من المخلوق من ملك أو بشر أو كوكب أو حجر أو نحو ذلك، فيجعله نداً له أو متحداً به أو يدعوه لجلب نفع أو دفع ضرر، أو يزعم أنه يقربه إليه زلفى، فيتخذه شفيعاً ليؤثر في إرادته تعالى وعلمه، ويحمله على شيء غير ما سبق به علمه وخصصته إرادته في الأزل ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ أي: فإن الله سبحانه وتعالى قد أوجب له النار، وحرم عليه دخول الجنة في سابق علمه، وبمقتضى شرعه الذي أوحاه إلى جميع رسله ﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾ ومسكنه في الآخرة ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ الهائلة أعاذنا الله تعالى منها؛ أي: فلا مأوى له إلا النار التي هي دار العذاب والذل والهوان.

والظاهر(١): أن هذه الجملة من كلام المسيح، فهو داخل تحت القول، وفيه أعظم ردع منه عن عبادته، إذ أخبر أنَّه من عبد غير الله منعه دار من أفرده بالعبادة، وجعل مأواه النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ وقيل: هي من كلام الله تعالى مستأنف أخبر بذلك على سبيل الوعيد والتهديد. وفي الحديث الصحيح من حديث عتبان بن مالك عن رسول الله ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال:

(١) البحر المحيط.

لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله». ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بشركهم بالله ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي ناصر ينصرهم ويمنعهم من دخول عذاب الله، ولا شفيع ينقذهم مما يحل بهم. ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ إما من كلام الله تعالى، أخبر أنهم ظلموا وعدلوا عن الحق في أمر عيسى، وتقولهم عليه فلا ناصر لهم على ذلك، وإمَّا من كلام عيسى. والظاهر[1] أنه من كلام عيسى، أخبرهم أنَّه من تجاوز الحد، ووضع الشيء في غير موضعه: فلا ناصر له ولا مساعد فيما افترى وتقول، وفي ذلك ردع لهم عما انتحلوه في حقه من دعوى أنَّه إله وأنه ظلم، إذ جعلوا ما هو مستحيل في العقل واجباً وقوعه، أو فلا ناصر له ولا منجي له من عذاب الله تعالى في الآخرة، ذكره أبو حيان. وصيغة الجمع في قوله: ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ للإشعار بأنَّ نصرة الواحد غير محتاج إلى التعرض لنفيه لشدة ظهوره، وإنما ينفى بالتعرض لنفي نصرة الجمع، والمراد بالظالمين هنا المشركون، بقرينة ما قبله، إذ الظالمون من المسلمين لهم ناصر وهو النبي ﷺ لشفاعته لهم يوم القيامة. انتهى «كرخي».

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾؛ أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى أحد آلهة ثلاثة، وهذا قول المرقوسية والنسطورية من النصارى. وفي تفسير قولهم هذا طريقان:

أحدهما: وهو قول أكثر المفسرين: أنهم أرادوا بهذه المقالة أن الله تعالى ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، وأن الألوهية مشتركة بينهم، وأن كل واحد منهم إله. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى للمسيح: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾. ففي قوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾: حذف تقديره: إن الله أحد آلهة ثلاثة، أو واحد من ثلاثة آلهة، قال الواحدي: ولا يكفر من قال: إن الله ثالث ثلاثة، ولم يرد به أنه ثالث آلهة ثلاثة، لأنه ما من اثنين إلا والله ثالثهما بالعلم، ويدل عليه قوله تعالى في سورة

---

(١) البحر المحيط.

المجادلة: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...﴾ الآية. وقد قال النبي ﷺ لأبي بكر: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

والطريق الثاني: ما حكاه المتكلمون عن النصارى: أنَّهم يقولون: إنَّ الإلٰه جوهر واحد مركب من ثلاثة أقانيم ـ أجزاء ـ أب وابن وروح قدس. وهذه الثلاثة إلٰه واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالأب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء باللبن واختلاط الماء بالخمر، وزعموا أن الأب إلٰه، والابن إلٰه، والروح إلٰه، والكل إلٰه واحد، وهذا الكلام معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا ترى في الدنيا مقالة أشد فساداً ولا أظهر بطلاناً ولا أقبح لفظاً من مقالة النصارى: الله ثالث ثلاثة، عليهم لعائن الله تعالى، ولا يجوز في العربية في ثالث ثلاثة إلا الإضافة، ولا يجوز النصب، لأنَّك لا تقول ثلثت الثلاثة.

واعلم: أن النصارى أخذت عقيدة التثليث من قدماء الوثنيين، ليست في أصل دينهم، ثم رد الله سبحانه وتعالى عليهم ما قالوه بلا روية ولا فكر ولا بصيرة فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾؛ أي: وما إلٰه في الوجود ﴿إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: إلا إلٰه موصوف بالوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، يعني: إنَّه ليس في الوجود إلٰه واحد موصوف بالوحدانية ـ لا ثاني له، ولا شريك له، ولا والد له، ولا صاحبة له ـ إلا الله سبحانه وتعالى، فهو الإلٰه الذي لا تركيب في ذاته ولا في صفاته، فليس ثم تعدد ذوات وأعيان، ولا تعدد أجناس وأنواع، ولا تعدد جزئيات وأجزاء، وهذه الجملة حالية، والمعنى: قالوا تلك المقالة والحال أنه لا إلٰه موجود إلا الله.

ثم توعدهم على هذه المقالة فقال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟﴾؛ أي: لم ينته النصارى ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾؛ أي: عن هذه المقالة الخبيثة، يعني مقالة التثليث، ويتركوه ويعتصموا بعروة التوحيد، ويعتقدوه، وعزتي وجلالي ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) البحر المحيط والخازن.

كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: ليصيبن الذين أقاموا وداموا على هذا القول الخبيث، وعلى هذا الدين الذي ليس بمرضي عذاب وجيع في الآخرة، وإنَّما قال تعالى ﴿مِنْهُمْ﴾ لعلمه السابق أن من النصارى من سيؤمن ويخلص ويترك هذا القول ويعلم أنه فاسق، وإنَّما[1] أظهر في موضع الإضمار لأن الأصل ليمسنهم، تكريراً للشهادة على كفرهم في قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ﴾ وتنبيهاً على أن العذاب على من دام على الكفر ولم ينقلع عنه. وفي الآية إيماء إلى أن هذا العذاب لا يمس إلا الذين كفروا منهم خاصة دون من تاب وأناب إلى الله تعالى، ورجع عن عقيدة التثليث وغيرها. وقال ابن جرير: والمعنى ليمسن الذين يقولون: المسيح هو الله، والذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، وكل كافر يسلك سبيلهم عذاب أليم. ثمَّ تعجب من حالهم بإصرارهم على التثليث بعد أن ظهرت لهم البينات، وقامت عليهم الحجج المبطلة له، والنذر بالعذاب المرتب عليه، وندب سائرهم إلى التوبة من هذه المقالة الخبيثة فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ والاستفهام فيه استفهام تعجيب وتوبيخ، والهمزة داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيسمعون هذه الشهادات المكررة، والتشديدات المقررة، ويثبتون على الكفر، فلا يتوبون ويرجعون إلى توحيد الله وطاعاته، ويستغفرونه عما وقع لهم من تلك العقائد الزائغة، والأقاويل الباطلة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه وتعالى غفور لمن تاب وآمن، رحيم لمن مات على التوبة.

والمعنى[2]: أيسمعون ما ذكر من التفنيد لآرائهم والوعيد عليها، ثم لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى التوحيد، واستغفار الله عما فرط منهم، والحال أن ربهم واسع الرحمة، عظيم المغفرة، يقبل التوبة من عباده، ويغفر لهم ما فرط من الزلات إذا هم آمنوا وأحسنوا واتقوا وعملوا الصالحات. ثم ذكر أن المسيح رسول كغيره من الرسل وأقام الدليل على ذلك فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ

---

(١) البيضاوي.

(٢) المراغي.

﴿مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ كلام[1] مستأنف مسوق لتحقيق الحق الذي لا محيد عنه، وبيان حقيقة حاله عليه السلام وحال أمه بالإشارة أولاً إلى أشرف ما لهما من نعوت الكمال التي بها صارا من جملة أكمل أفراد الجنس، وآخراً إلى الوصف المشترك بينهما، وبين جميع أفراد البشر، بل أفراد الحيوان استنزالاً لهم بطريق التدريج من رتبة الإصرار على ما تقولوا عليهما، وإرشاداً لهم إلى التوبة والاستغفار؛ أي: هو مقصور على الرسالة لا يكاد يتخطاها ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وذهبت وفنيت، فليس بإله، كما أن الرسل الذين كانوا من قبله لم يكونوا آلهة، وقد أتى عيسى بالمعجزات الدالة على صدقه، كما أن الذين من قبله أتوا بالمعجزات الدالة على صدقهم. أي: ما هو[2] إلا رسول من جنس الرسل الذين مضوا من قبله، جاء بالآيات من الله كما أتوا بأمثالها، فليس بإله كالرسل الخالية قبله، فإنهم لم يكونوا آلهة، فإن كان الله قد أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يد عيسى عليه السلام.. فقد فلق البحر، وأحيا العصا، وجعلها حية تسعى على يد موسى عليه السلام، وهو أعجب منه، وإن كان الله خلقه من غير أب.. فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب منه.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾؛ أي: وما أمه إلا صديقة؛ أي: تلازم الصدق أو تصدق الأنبياء وتبالغ في بعدها عن المعاصي، وفي إقامة مراسم العبودية، فما هي إلا كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق أو التصديق، ويبالغن في الاتصاف به، فما رتبه عيسى إلا رتبة نبي وما رتبة أمه إلا رتبة صحابي، فمن أين لكم أن تصفوهما بما لا يوصف به سائر الأنبياء وخواص الناس، فإن أعظم صفات عيسى عليه السلام الرسالة، وأكمل صفات أمه الصديقية، وذلك لا يستلزم لهما الألوهية، أما حقيقتهما النوعية والجنسية.. فهي مساوية لحقيقة غيرهما من أفراد نوعهما وجنسهما فهما ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ ويشربان الشراب كسائر أفراد البشر، ليقيما بنيتهما، ويمدا حياتهما، لئلا ينحل بدنهما ويهلكا، وكذلك يعرض لهما ما يستلزمه أكل الطعام من الحاجة إلى دفع الفضلات من البول والغائط، فلا يمكن أن يكون كل منهما

---

(١) أبو السعود.

إلٰهاً خالقاً، ولا رباً معبوداً، وبالجملة: فإنَّ فساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج إلى إقامة دليل عليه. ومن السفه أن يحتقر الإنسان نفسه، ويحتقر جنسه، ويرفع بعض المخلوقات المساوية له في الماهية، وبعض المشخصات الممتازة بميزات عرضية، فيجعل نفسه عبداً لها ويسمّيها آلهة أو أرباباً. قال أبو حيان: وهذه[1] الجملة استئناف إخبار عن المسيح وأمه منبهة كما ذكرنا على سمات الحدوث، وأنهما مشاركان للناس في ذلك ولا موضع لهذه الجملة من الإعراب.

وبعد أن بين حالهما بياناً لا يحوم حوله شائبة من الريب.. تعجب من حال من يدعى لهما الربوبية، ولا يرعوي عن غيه وضلاله، ولا يتأمل فيما هو عليه من أفن - ضعيف - الرأي والخطأ فقال: ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد متعجباً أو أيها السامع نظرة عقل أو فكر ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ﴾؛ أي: كيف نبين لهؤلاء النصارى (الآيات)؛ أي: الدلائل والبراهين البالغة أقصى الغايات في الوضوح على بطلان ما يدعون في أمر المسيح وأمه ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: أي: ثمَّ أنظر بعد النظر الأول كيف يصرفون عن تلك الآيات، ويعرضون عنها، وكيف لا ينتقلون من مقدماتها إلى نتائجها، ومن مباديها إلى غاياتها، فكأنهم فقدوا عقولهم، وصارت أفئدتهم هواءاً؛ أي: كيف يصرفون عن استماع الآيات وعن التأمل فيها، فالله بين لهم الآيات بياناً عجباً، وإعراضهم عنها أعجب منها. والاستفهام في الموضعين للتعجب، وفي تكرير[2] الأمر بقوله: ﴿ٱنظُرْ﴾، ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ﴾. دلالة على الاهتمام بالنظر، وأيضاً فقد اختلف متعلق النظرين، فإن الأول أمر بالنظر في كيفية إيضاح الله تعالى لهم الآيات وبياناها بحيث إنَّه لا شك فيها ولا ريب، والأمر الثاني بالنظر في كونهم صرفوا عن تدبرها والإيمان بها، أو بكونهم قلبوا عما أريد بهم.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى التراخي في قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ﴾؟

قلت: معناه ما بين التعجبين، يعني أنَّه من باب التراخي في الترتب؛ لا في الأزمنة ونحوها. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أمر له ﷺ بإلزامهم وتبكيتهم بعد

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

تعجبه من أحوالهم؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء النصارى وأمثالهم، ممن عبدوا غير الله تعالى: أتعبدون من دون الله؛ أي: متجاوزين عبادته وحده ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ تخشونه أن يعاقبكم به إذا أنتم تركتم؛ أي: ما لا يقدر أن يضركم إن تركتم عبادته ﴿وَلَا﴾ يملك لكم ﴿نَفْعًا﴾ ترجون أن يجازيكم به إذا عبدتموه؛ أي: وما لا يقدر أنْ ينفعكم إنْ عبدتموه، وهو عيسى عليه السلام، يعني[1]: لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا يقدر أنْ ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به، من صحة الأبدان، وسعة الأرزاق، فإنَّ الضار والنافع هو الله تعالى، لا من تعبدون من دونه، ومن لا يقدر على النفع والضر لا يكون إلٰهاً، وما[2] يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبتخليقه تعالى، فكأنه لا يملك منه شيئاً. وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية، حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء، لا يخرج مقدور عن قدرته، وفي هذا إيماء[3] إلى دحض مقالتهم بالحجة والدليل، فإن اليهود ـ وقد كانوا يعادون المسيح ويقصدونه بالسوء ـ لم يقدر على الإضرار بهم، وأنصاره وصحابته مع شديد محبتهم له لم يستطع إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الضر والنفع كيف يعقل أن يكون إلٰهاً؟. وإنَّما قال: (ما)، ولم يقل: (من) نظراً إلى ما هو عليه في ذاته من النوع الإنساني، توطئة لنفي القدرة عنه رأساً، وتنبيهاً على أنَّه من هذا الجنس، ومن كان له حقيقة يقبل المجانسة والمشاركة فبمعزِل عن الألوهية. وقيل: عبر بـ(ما) تنبيهاً على أول أحواله، إذ مرت عليه أزمان حالة الحمل لا يوصف بالعقل فيها، ومن هذه صفته فكيف يكون إلٰهاً. وإنَّما قدم الضر.. لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم وكفركم ومقالتكم في عيسى ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائركم وعقيدتكم في عيسى فيجازيكم عليها، ولا يخفى ما في هذه الجملة من التهديد، وهي[4] متعلقة بـ﴿أتعبدون﴾؛ أي: أتشركون بالله ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولونه، ويعلم ما تعتقدونه.

---

(١) الفتوحات.
(٢) الخازن.
(٣) النسفي.
(٤) المراغي.

ولما كان قول النصارى في المسيح من أشد أنواع الغلو في الدين بتعظيم الأنبياء فوق ما يجب أن يكون لهم من التعظيم، وكان إيذاء اليهود له وسعيهم في قتله من الغلو في الجمود على تقاليد الدين التي ابتدعوها، واتباع أهوائهم بلا علم، وكان هذا الغلو هو الذي دعاهم إلى قتل زكريا ويحيى. . قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب المعاصرين لك ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ أي: يا معشر اليهود والنصارى ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾؛ أي: لا تخرجوا عن الحد في عيسى غلواً ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: خروجاً باطلاً غير الحق بالإفراط والتفريط فيه، ولا تجاوزوا عن الحد اللائق به، وهو كونه عبد الله ورسوله، فالغلو مجاوزة الحد بالإفراط أو التفريط في الحق، وذلك أن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، فمجاوزة الحد والتقصير مذمومان في الدين، فإنَّ الغلو في الدين نوعان: غلو حق: وهو أن يجتهد في تحصيل حججه وتقريرها، كما يفعله الأصوليون والمتكلمون أهل العدل والتوحيد، وغلو باطل: وهو أن يتكلف في تقرير الشبه، ويتجاوز الحق، ويعرض عن الأدلة، وذلك يكون بالإفراط أو التفريط، فغلو النصارى بالإفراط في رفع عيسى وتعظيمه، فقالوا: إنه إلٰه، وغلو اليهود بالتقصير في حقه والمبالغة في حطه، فقالوا: إنه ابن زنا، وإنه كذاب، وكلا الغلوين مذموم.

أي: قل لهم يا محمد: يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا في دينكم واعتقادكم في عيسى عليه السلام الحد الذي حده الله فيه، ولا تخرجوه عن القدر الذي أعطاه الله إياه، وهو كونه عبد الله ورسوله تجاوزاً باطلاً غير الحق بالإفراط والتفريط فيه ﴿و﴾ قل يا محمد أيضاً لليهود والنصارى المعاصرين لك ﴿لا تتبعوا أهواء قوم﴾؛ أي: لا تقتفوا مذاهب قوم من رؤساء أسلافكم ﴿قَدْ ضَلُّوا۟﴾ عن التوراة والإنجيل ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلكم، أو من قبل مبعث محمد ﷺ، يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا عن شريعتهم قبل مبعث محمد ﷺ ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ من سفلتهم الذين تابعوهم على بدعهم وضلالهم ﴿وَضَلُّوا۟﴾ بعد مبعث محمد ﷺ ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن قصد الطريق قويمه الذي هو الإسلام حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه، فالمراد بالضلال الأول ضلالهم عن التوراة والإنجيل، وبالثاني: ضلالهم عن القرآن. قال القرطبي: وتكرير ضلوا

للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل، وضلوا من بعد، والمراد الأسلاف الذي سنوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى انتهى. والخلاصة[1]: أن الله سبحانه وتعالى نهى أهل الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل عن الغلو الذي كان عليه من قبلهم من أهل ملتهم، وعن التقليد الذي كان سبب ضلالهم، إذ هم قد اتبعوا أهوائهم، وتركوا سنن الرسل والنبيين والصالحين من قبلهم، لأن كل أولئك كانوا موحدين، وكانوا ينكرون الشرك والغلو في الدين، فعقيدة التثليث وتلك الشعائر الكنسية مستحدثة من بعدهم، كشرع عبادات لم يأذن بها الله، وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات، بل حرمها القسيسون والرهبان على أنفسهم وعلى من اتبعهم مبالغة في التنسك والزهد، أو رياء وسمعة، وجعلوا الأنبياء والصالحين أرباباً ينفعون ويضرون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله في الأسباب والمسببات الكسبية، ولذا جعلوهم آلهةً يعبدون من دون الله أو مع الله.

كل أولئك قد ضلوا به وأضلوا كثيراً ممن اتبعهم فيه، وسيكون سبب شقائهم وعذابهم في الآخرة إنْ لم يرجعوا عنه، وينيبوا إلى الله منه. وبعد أن بين الله ضلالهم وإضلالهم ذكر أسباب ذلك وأرشد إلى ما أخذهم به فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: لعن الله تعالى اليهود في الزبور والنصارى في الإنجيل ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ بأن دعوا عليهم، فاليهود[2] لعنوا على لسان داود، والنصارى لعنوا على لسان عيسى، والفريقان من بني إسرائيل، وهم أصحاب السبت وأصحاب المائدة. أمَّا أصحاب السبت فهم قوم داود، وذلك أن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت بأخذ الحيتان.. دعا عليهم داود عليه السلام وقال: اللهم العنهم واجعلهم آية، فمسخهم الله قردة. أما أصحاب المائدة، فإنَّهم لما أكلوا من المائدة وادخروا، ولم يؤمنوا.. قال عيسى عليه السلام: اللهم عذب من كفر بعدما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فمسخوا خنازير وكانوا خمسة آلاف ليس فيهم امرأة ولا صبي، وستأتي قصتهم إن شاء الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ اللعن

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

الفظيع ﴿بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾؛ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله تعالى وبسبب اعتدائهم، ومجاوزتهم الحد وتماديهم في العصيان ومبالغتهم فيه. ثم فسر الاعتداء والمعصية فقال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾؛ أي: كان بنوا إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾؛ أي: أرادوا فعله، وقيل: معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، ولا عن الإصرار عليه، والمعنى[1] أي: كانوا لا يمتنعون عن معاودة منكر فعلوه، ولا يتركونه، ولا يصدر من بعضهم نهي لبعض عن منكر أرادوا فعله. روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «من رضي عمل قوم.. فهو منهم، ومن كثر سواد قوم.. فهو منهم». وفي أبي السعود: وليس[2] المراد بالتناهي أن ينهى كل واحد منهم الآخر عما يفعله من المنكر، كما هو المعنى المشهور لصيغة التفاعل، بل المراد مجرد صدور النهي من أشخاص متعددة، من غير اعتبار أنْ يكون كل واحد منهم ناهياً ومنهياً، كما في تراؤوا الهلال. انتهى. وعزتي وجلالي ﴿لَبِئْسَ﴾ وقبح ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ه من ارتكاب المعاصي والعدوان، والمخصوص بالذم فعلهم هذا، وهو الإصرار على منكر فعلوه وترك النهي عنه.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أن كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾ ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه ـ لتعطفنه وتردنه ـ على الحق أطراً ـ عطفاً ورداً ـ ولتقسرنه على الحق قسرا». زاد في رواية: «أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم». أخرجه أبو داود. والقسر: القهر والإجبار. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية،

---

(١) المراح. (٢) المراح.

وأجل الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية، ومستحقاً لغضب الله وانتقامه، كما وقع لأهل السبت، فإن الله سبحانه وتعالى مسخ من لم يشاركهم في الفعل، ولكن ترك الإنكار عليهم، كما مسخ المعتدين، فصاروا جميعاً قردة وخنازير. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾. أخرجه الترمذي عنه فقال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وآكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ـ وجلس رسول الله ﷺ ـ وكان متكئاً فقال: ـ لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً». قال الترمذي: هذا الحديث حسن غريب. قوله: أكيله وشريبه وقعيده هو المؤاكل والمشارب والمقاعد، فعيل بمعنى فاعل. وقوله: لتأطرنه، الإطراء: العطف، يعني لتعطفنه ولتردنه إلى الحق الذي خالفه، والقسر: القهر على الشيء. كما مرّ آنفاً.

وأخرج الخطيب من طريق أبي سلمة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده ليخرجن ناسٌ من أمتي من قبورهم في صورة القردة والخنازير بما داهنوا أهل المعاصي وكفوا عن نهيهم وهم يستطيعون».

والآثار في هذا الباب كثيرة، وفيها وعيد عظيم على ترك التناهي ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وإلى متى نعرض عن أوامر ديننا ولا نرعوي عن غيّنا، ولا نتبع أوامر شرعنا. وبعد أن ذكر الله تعالى لنبيه أحوال أسلافهم، ذكر له أحوال حاضريهم مما يدل على رسوخ تلك الملكات فيهم فقال: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: تبصر يا محمد كثيراً من أهل الكتاب، ككعب بن الأشرف وأصحابه ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: يوالون ويصادقون كفار أهل مكة، أبا سفيان وأصحابه، بغضاً لرسول الله ﷺ وللمؤمنين؛ أي: فإن كعباً وأضرابه خرجوا إلى مشركي مكة ليتفقوا على محاربة النبي ﷺ.

والمعنى: ترى أيها الرسول الكريم كثيراً من بني إسرائيل يتولون الذين كفروا من مشركي قومك، ويحالفونهم عليك ويحرضونهم على قتالك، وأنت

تؤمن بالله وبما أنزله على رسله وأنبيائه، وتشهد لهم بصدق الرسالة، وأولئك المشركون لا يؤمنون بكتاب ولا رسول، ولا يعبدون إلٰهاً واحداً، ولولا اتباع الهوى وتزيين الشيطان لهم أعمالهم.. ما فعلوا ذلك، ولا خطر هذا بخاطرهم، وما استحبوا العمى على الهدى ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

وقد روي أن كعب بن الأشرف وأصحابه ذهبوا إلى مكة واستجاشوا المشركين على الرسول ﷺ، ولكن لم يتم لهم ما أرادوا إذ لم يلبوا لهم دعوة، ولا استجابوا لهم كلمة.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لبئس وقبح العمل الذي قدمته أنفسهم الخبيثة زاداً لآخرتهم من موالاتهم لعبدة الأوثان، والمخصوص بالذم ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ﴾ وغضب ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: موجب سخط الله عليهم، وهو العمل الذي هو موالاة عبدة الأوثان ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: وخلودهم أبد الآبدين في عذاب جهنم، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها، فهي من جملة المخصوص بالذم، فالتقدير: سخط الله عليهم وخلودهم في العذاب. والمعنى؛ أي: بئس شيئاً قدموه لأنفسهم في آخرتهم الأعمال التي أوجبت سخط الله وعظيم غضبه، وسيجزون بها شر الجزاء، إذ سيحيط بهم العذاب ولا يجدون عنه مصرفاً ويخلدون في النار أبداً، فالنجاة منه إنَّما تكون برضا الله عن عبده، وهم لم يعملوا إلا ما يوجب سخطه، وشديد غضبه.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟﴾؛ أي: ولو كان أهل الكتاب الذين يوالون المشركين ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾؛ أي: نبيهم الذي أرسل إليهم وهو موسى عليه السلام ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ من التوراة كما يدعون ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾؛ أي: ما اتخذ اليهود المشركين عبدة الأوثان ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وأصدقاء؛ لأن تحريم اتخاذ المشركين أولياء متأكد في التوراة في شرع موسى عليه السلام، فلما فعلوا ذلك.. ظهر أنه ليس مرادهم تقرير دين موسى واتباعه، بل مرادهم الرياسة والجاه، فيسعون في تحصيلها بأي طريق قدروا عليها. قال أبو السعود: وبيان الملازمة أن الإيمان بما ذكر وازع عن توليهم قطعاً. والمعنى؛ أي ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون

إنَّه من تمام كلام عيسى أو مستأنفة.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ﴾.

﴿لَّقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَفَرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب لقسم محذوف لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإنْ شئت قلت ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿ثَالِثُ﴾: خبرها. ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَمَآ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً تقديره: وما إلٰه كائن للخلق. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء. ﴿إِلَٰهٌ﴾ بدل من ﴿إِلَٰهٍ﴾ تابع لمحله. ﴿وَٰحِدٌ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٌ﴾. وأجاز الكسائي اتباعه على اللفظ بالجر في غير القرآن، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَنتَهُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَنتَهُواْ﴾. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: عما يقولونه ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ (اللام): موطئة لقسم محذوف. ﴿يمسن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور في موضع الحال إمَّا ﴿من الذين﴾ أو من ضمير الفاعل في ﴿كَفَرُواْ﴾ وجرى الزمخشري على أنها بيانية. ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة لـ﴿عذاب﴾ والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، والقدير: والله إن لم ينتهوا ليمسن الذين كفروا يمسهم عذاب أليم، وجاء هذا على القاعدة المقررة عندهم، وهي: إنَّه إذا اجتمع

شرط وقسم.. أجيب سابقهما ما لم يسبقهما ذو خبر، وقد يجاب الشرط مطلقاً كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمْ
وِإنْ تَوَالَيَا وَقَبْلُ ذُوْ خَبَرْ ... فَالشَّرْطَ رَجِّحْ مُطْلَقاً بِلاَ حَذَرْ
وَرُبَّمَا رُجِّحَ بَعْدَ قَسَمِ ... شَرْطٌ بِلاَ ذِيْ خَبَرٍ مُقَدَّمِ

فإن قلت: السابق هنا الشرط، والقسم مقدر فيمكن تقديره متأخراً.

قلت: إنَّه لو قصد تأخر القسم في التقدير لأجيب الشرط، فلما أجيب القسم.. علم أنَّه مقدر التقديم.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾.

﴿أَفَلَا﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف تقديره: ألا ينتهون عن تلك العقائد الباطلة. (والفاء): عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَتُوبُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بالنون، والجملة المحذوفة مع ما عطف عليها جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتُوبُونَ﴾. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿وَٱللَّهُ﴾: (الواو): واو الحال. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿يستغفرونه﴾.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

﴿مَّا﴾: نافية. ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱبْنُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿رَسُولٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لتحقيق الحق الذي لا محيد عنه، وبيان حقيقة حاله عليه السلام وحال أمه. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾: فعل ماض. ﴿مِن قَبْلِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَلَتْ﴾. ﴿ٱلرُّسُلُ﴾: فاعل، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، ولكنها سببية. ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾: مبتدأ وخبر،

والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿كَانَا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب خبر ﴿كَانَا﴾ تقديره: كانا آكلين الطعام، وجملة كان من اسمها وخبرها مستأنفة لا محل لها من الإعراب كما قاله أبو البقاء.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ٱنظُرْ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة ﴿كَيْفَ﴾ للاستفهام التعجبي في محل النصب على التشبيه بالمفعول به، والعامل فيه ﴿نُبَيِّنُ﴾، ولا يجوز أن يكون معمولاً لما قبله؛ لأنَّ له صدر الكلام ﴿نُبَيِّنُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ مفعول به، وهذه الجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول لـ﴿ٱنظُرْ﴾، و﴿كَيْفَ﴾ معلقة له عن العمل في لفظه. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ٱنظُرْ﴾: فعل وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱنظُرْ﴾ الأولى، ورتب بينهما بـ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي ما بين العجبين، وكأنه[1] أثبت العجب من توضيح الآيات، وتبيينها ثم ينظر إلى حال من بينت له، فيرى إعراضهم عن الآيات أعجب من توضيحها؛ لأنَّه يلزم من تبيينها تبينها لهم، والرجوع إليها، فكونهم أفكوا عنها أعجب. ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنى كيف في محل النصب على التشبيه بالمفعول به، والعامل فيه ما بعده. ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مفعول به لـ﴿ٱنظُرْ﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: (الهمزة): للاستفهام

(١) أبو السعود.

التوبيخي. ﴿تعبدون﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تعبدون﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَمْلِكُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَمْلِكُ﴾. ﴿ضَرًّا﴾ مفعول ﴿يَمْلِكُ﴾ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾: معطوف على ﴿ضَرًّا﴾ وجملة ﴿يَمْلِكُ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل أو بدل من المبتدأ. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: خبر أول. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾ أو في[1] محل النصب على الحال من فاعل ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أتعبدون غير الله، والحال أن الله هو المستحق للعبادة لأنَّه يسمع كل شيء ويعلمه، وإليه يشير كلام الزمخشري؛ فإنَّه قال: والله هو السميع العليم متعلق بـ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أتشركون بالله ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولون وما تعتقدون، أتعبدون العاجز وهو السميع العليم؟ انتهى. والرابط بين الحال وصاحبها الواو، ومجيء هاتين الصفتين بعد هذا الكلام في غاية المناسبة؟ فإنَّ السميع يسمع ما يشتكى إليه من الضر وطلب النفع، ويعلم مواقعهما كيف يكونان.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾ وإن شئت قلت ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أهل الكتاب﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تَغْلُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿فِى دِينِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَغْلُوا۟﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ صفة لمصدر

---

(١) البحر المحيط.

محذوف؛ أي: غلوا غير الحق؛ لأنَّ غلا من الأفعال اللازمة. ويجوز[1] أن يكون حالاً من ضمير الفاعل؛ أي: لا تغلوا مجاوزين الحق، قاله أبو البقاء ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾. ﴿أَهۡوَآءَ قَوۡمٍ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ فعل وفاعل والجملة في محل الجر صفة لـ﴿قَوۡمٍ﴾ ﴿مِن﴾: حرف جر. ﴿قَبۡلُ﴾: ظرف زمان في محل الجر بـ﴿مِن﴾ لشبهة بالحرف شبهاً افتقارياً، لافتقاره إلى المضاف إليه المحذوف تقديره: قبل مبعث محمد ﷺ، والجار والمجرور متعلق بـ﴿ضَلُّواْ﴾. ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ضَلُّواْ﴾ على كونها صفة لـ﴿قَوۡمٍ﴾ وكذلك جملة قوله: ﴿وَضَلُّواْ﴾ معطوف على جملة ضلوا ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بضلوا الأخير، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: عن السبيل السوي.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ونائب فاعل والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أو من ضمير الفاعل في ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿لُعِنَ﴾. ﴿وَعِيسَى﴾ معطوف على ﴿دَاوُۥدَ﴾. ﴿ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾: صفة لـ﴿عيسى﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر وسبب. و﴿ما﴾: مصدرية. ﴿عَصَواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة (ما) المصدرية. ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بعصيانهم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك اللعن المذكور كائن بسبب عصيانهم، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعۡتَدُونَ﴾: في محل النصب خبر كان

---

(١) الفتوحات.

تقديره: وكانوا معتدين، وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على جملة ﴿عَصَواْ﴾: على كونها صلة ﴿ما﴾: المصدرية، والتقدير: ذلك كائن بسبب عصيانهم وكونهم معتدين، وقيل: جملة كانوا مستأنفة كما يدل عليه ما بعده.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر كان، وجملة كان مستأنفة. ﴿عَن مُّنكَرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَنَاهَوْنَ﴾. ﴿فَعَلُوهُۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿مُّنكَرٍ﴾. ﴿لَبِئْسَ﴾ (اللام): موطئة للقسم. ﴿بئس﴾: فعل ماض من أفعال الذم. ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع فاعل. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ خبر ﴿كَانُواْ﴾ وجملة ﴿كانوا﴾ صلة لما الموصولة، وجملة ﴿بئس﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: فعلهم هذا الذي هو ترك النهي عن المنكر.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة ﴿كَثِيرًا﴾ والجملة الفعلية مستأنفة ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ في محل النصب حال من ﴿كَثِيرًا﴾ لتخصصه بالصفة، أو في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تَرَىٰ﴾ إن قلنا إنَّها علمية، والأول أنسب ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

﴿لَبِئْسَ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿بئس﴾: فعل ماض من أفعال الذم. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل. ﴿قَدَّمَتْ﴾ فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: فاعل قدم، وجملة قدم صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما قدمته لهم أنفسهم، وجملة بئس جواب القسم لا محل لها من

الإعراب ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿سَخِطَ﴾: فعل ماض في محل النصب بأنْ مبني على الفتح ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿سَخِطَ﴾ وجملة ﴿سَخِطَ﴾ في تأويل مصدر مرفوع خبر لمبتدأ محذوف؛ لأنَّه مخصوص بالذم تقديره: هو سخط الله عليهم ولكنه على حذف مضاف تقديره: لبئس العمل الذي قدمته لهم أنفسهم هو موجب سخط الله عليهم وهو موالاتهم لكفار مكة ﴿وَفِي ٱلۡعَذَابِ﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾ ﴿هُمۡ﴾ مبتدأ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر والجملة من المبتدأ، والخبر معطوفة على جملة ﴿أَن سَخِطَ﴾ على كونها مخصوصاً بالذم والتقدير: والمخصوص بالذم سخط الله عليهم وخلودهم في العذاب.

﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾.

﴿وَلَوۡ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بالنون. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَٱلنَّبِيِّ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿وَمَآ﴾: ما موصولة أو موصوفة في محل الجر، معطوفة على الجلالة أيضاً. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿إِلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ من الفعل والفاعل في محل النصب خبر كان، وجملة ﴿كان﴾: فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ﴾ ﴿مَا﴾: نافية. ﴿ٱتَّخَذُوهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: مفعول ثان وجملة ﴿اتخذ﴾: جواب (لو) لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لكن﴾: حرف نصب. ﴿كَثِيرٗا﴾: اسمها. ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرٗا﴾. ﴿فَٰسِقُونَ﴾: خبر ﴿لكن﴾ وجملة ﴿لكن﴾ مستأنفة استدراكية لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ المأوى اسم مكان من أوى الرجل البيت، يأوي من باب رمى، إواء ومأوى بالفتح على القياس إذا نزل فيه؛ لأنَّه معتل اللام فقياس

مصدره، وظرفه جميعاً بالفتح.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ والأنصار جمع ناصر، والنسبة إليه أنصاري، والناصر المعين لك على دفع ضد، أو عدوّ ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ والمراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة، ولهذا يضاف إلى ما بعده ولا يجوز فيه التنوين كما قاله الزجاج وغيره، وإنَّما ينون وينصب ما بعده إذا كان ما بعده دونه بمرتبة نحو: ثالث اثنين، ورابع ثلاثة؛ أي: جاعل اثنين ثلاثة، وجاعل ثلاثة أربعةً.

﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقال: مسه الشيطان بنصب أو عذاب يمسه ومسيساً ومسيسي إذا أصابه به، فهو من المضاعف المعدى، فقياسه ضم عين مضارعه، ولكن فتح هنا لأن ما قبل نون التوكيد لا ينون إلا مفتوحاً. ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ يقال: خلا الشيء يخلو خلواً وخلاء، إذا مضى، يقال: فعلته لخمس خلون من الشهر؛ أي: مضين. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾؛ أي: وما[1] أمه إلا صادقة فيما تقوله أو مصدقة لما جاء به ولدها من الرسالة، وذلك لا يستلزم الإلهية لها. قال أبو حيان[2]: هذا البناء من أبنية المبالغة، والأظهر أنَّه من الثلاثي المجرد، إذ بناء هذا التركيب منه كسكيت وسكير وشريب وطبيخ، من سكت وسكر وشرب وطبخ، ولا يعمل ما كان مبنياً من الثلاثي المتعدي كما يعمل فعول وفعال ومفعال، فلا يقال: زيد شريب الماء، كما تقول: ضراب زيداً، والمعنى: الإخبار عنها بكثرة الصدق. قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون من التصديق، وبه سمي أبو بكر الصديق، ولم يذكر الزمخشري غير أنه من التصديق، وهذا القول خلاف الظاهر من هذا البناء انتهى.

﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يقال: أفك الرجل يؤفك، إذا ضعف عقله الأفيك والمأفوك عاجز الرأي. قال أبو[3] حيان: الأفك بفتح الهمزة مصدر أفكه يأفكه إذا قلبه وصرفه ومنه: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾. ويقال: يؤفك عنه من

---

(١) العكبري.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

(٤) البحر المحيط.

أفك. قال عروة بن أذينة:

إنْ كُنْتُ عَنْ أَحْسَنِ ٱلْمُرُوْءَةِ مَأْ فُوْكَاً فَفِيْ آخَرِيْنَ قَدْ أُفِكُوْا

قال أبو زيد: المأفوك المأفون، وهو الضعيف العقل، وقال أبو عبيدة: رجل مأفوك لا يصيب خيراً، وائتفكت البلدة بأهلها انقلبت، والمؤتفكات مدائن قوم لوط عليه السلام قلبها الله تعالى، والمؤتفكات أيضاً الرياح التي تختلف مهابها. ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ مأخوذ من غلا الرجل في الدين يغلو غلواً، من باب غداً إذا شدد وتصلب فيه حتى جاوز الحد، أصله: لا تغلووا بواوين أولاهما مضمومة وهي لام الكلمة وثانيتهما واو الضمير، استثقلت الضمة على الواو ثم حذفت، فالتقى ساكنان فحذفت واو لام الكلمة فصار لا تغلوا بوزن تفعلوا، فالغلو الإفراط وتجاوز الحد، بالزيادة في الدين أو التفريط فيه بالنقص عنه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾ والأهواء[1] جمع هوى، وهو ما تدعو شهوة النفس إليه. قال الشعبي: ما ذكر الله تعالى الهوى في القرآن إلا وذمه. وقال أبو عبيدة لم نجد الهوى يوضع إلا موضع الشر، لأنه يقال: فلان يهوى الخير، إلا أنه يقال: فلان يحب الخير ويريده. فالأهواء: الآراء التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ السواء في الأصل الوسط، ولكن المراد به هنا الدين الحق، والسواء أيضاً المثل، يقال في المثنى: هما في هذا الأمر سواء، وإن شئت قلت: سواءان، وفي الجمع هم سواء، أو هم أسواء، ويقال أيضاً في الجمع على غير قياس: هم سواس وسواسية وسواسوة؛ أي: متساويان ومستاوون.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ واللعن: الحرمان من لطف الله وعنايته، والمراد باللسان[2] الجارحة لا اللغة كذا قاله الشيخ، يعني: إن الناطق بلعن هؤلاء لسان هذين النبيين وجاء قوله: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ﴾ بالإفراد دون التثنية والجمع، فلم يقل على لساني بالتثنية لقاعدة كلية وهي أن كل جزئين مفردين من صاحبيهما إذا أضيفا إلى كليهما من غير تفريق.. جاز

---

(١) الخازن. (٢) الفتوحات.

فيهما ثلاثة أوجه لفظ الجمع، وهو المختار، ويليه التثنية عند بعضهم، وعند بعضهم الإفراد مقدم على التثنية، فيقال: قطعت رؤوس الكبشين، وإن شئت قلت: قطعتُ رأسي الكبشين، وإن شئت قلت: رأس الكبشين، ومنه فقد صغت قلوبكما، وفي النفس من كون المراد باللسان الجارحة شيء، ويؤيد ذلك ما مال له الزمخشري، فإنَّه قال: نزل الله لعنهم في الزبور على لسان داود، وفي الإنجيل على لسان عيسى، وقوة هذا تأبى كونه للجارحة، ثم إني رأيت للواحديّ ذَكَر عن المفسرين قولين، ورجح ما قلته. ا هـ. «سمين».

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ أصله عصيوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقبلت ألفاً فالتقى ساكنان، ثم حذفت الألف، فصار عصوا لأنَّه من عصى سيده يعصى من باب رمى عصياً، ومعصية إذا خرج من طاعته، وخالف أمره وعانده فهو عاص. ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ظاهره[1] أن التفاعل بمعنى الاشتراك، أي: لا ينهى بعضهم بعضاً، وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر والتجاهر به، وعدم النهي عنه، والمعصية إذا فعلت وقدرت على العبد.. ينبغي أن يستتر بها وفي الحديث «من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر، فإذا فعلت جهاراً وتواطئوا على عدم الإنكار.. كان ذلك تحريضاً على فعلها»، ومسبباً مثيراً لإفشائها وكثرتها. وقيل: التفاعل هنا بمعنى الافتعال، يقال: انتهى عن الأمر وتناهى عنه إذا كف، والمعنى كانوا لا يمتنعون عن منكر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾. لأنَّ التحريم هنا مستعمل في المنع مجازاً، لانقطاع التكليف في دار الآخرة. وفيه أيضاً إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة.

ومنها: الإظهار أيضاً في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ

(١) البحر المحيط.

أَنصَارٍ﴾ للتسجيل[1] عليهم بوصف الظلم.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ لتكرير الشهادة عليهم بالكفر، وللإعلام بأنهم كانوا بمكان من الكفر.

ومنها: الإظهار أيضاً في مقام الإضمار في قوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إذ الأصل أن يقال: ليمسنهم أظهره لتكرير الشهادة عليهم بالكفر.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ استدعاء لهم إلى التنصل من تلك المقالة الشنعاء بعد أن كرر عليهم الشهادة بالكفر.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾. ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. قال أبو السعود: تكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب ولفظ: ثم لإظهار ما بين العجبين من التفاوت؛ أي: إن بياناً للآيات أمر بديع بالغ أقصى الغايات من الوضوح والتحقيق، وإعراضهم عنها أعجب وأبدع.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

ومنها: التفصيل في النهي في قوله: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿قَوْمٍ﴾ تحقيراً لهم.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾.

ومنها: التعجيب في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فإن فيه تعجيباً من سوء فعلهم مؤكداً ذلك بالقسم.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

---

(١) أبو السعود.

ومنها: الزيادة أيضاً في بعض المواضع كزيادة من في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾. والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين(١).

* * *

ولقد أجاد من قال هذا البيت:

وَعَيْنُ ٱلرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ ٱلسُّخْطِ تُبْدِيْ ٱلْمَسَاوِيَا

شعر آخر

أَيُّهَا ٱلْمُبْتَلَىٰ بِكَشْفِ ٱلْعَوْرَاتِ ... فَإِنَّ لَكَ عَوْرَةٌ أَسْوَأُ ٱلْعَوْرَاتِ

لاَ تَنْظُرْ كِتَابَتِيْ بِعَيْنِ ٱلتَّنْقِيْصِ ... فَإِنَّهَا غَالِيَةٌ عَنِ ٱلتَّرْخِيْصِ

---

(١) وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى لي من تفسير الجزء السادس من القرآن الكريم، فالحمد لله على توفيقه والشكر له على تيسيره، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، حمداً يعدل حمد الملائكة المقربين، ويمالىء ما في السمٰوات والأرضين، عدد خلقه، ورضا نفسه وزنة عرشه، ومداد كلماته، وصلاة وسلاماً دائمين متلازمين على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ من مسودة هذا المجلد السابع في الليلة الحادية والعشرين منتصف الليل، من شهر الله المبارك الجمادى الأخيرة، من شهور سنة تسع وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية بحارة الرشد من المسفلة من مكة المكرمة زادها الله تعالى شرفاً، وختم عمرنا فيها ﷺ من لا نبي من بعده سيدنا محمد وآله وصحبه وجنده والحمد لله ربّ العالمين. آمين.

• تمّ بعون الله تعالى المجلد السابع من تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ويليه المجلد الثامن وأوله قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ آية رقم: ٨٢ من آيات سورة المائدة.

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الثامن

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

جَنَىٰ اللَّهُ خَيْراً تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ   وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ السَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ   وَفِطنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخرُ

نَسْأَلُكَ يَا مُسَبِّبَ الأَسْبَابِ   تَيْسِيْرَ ٱلأُمُوْرِ يَا رَبَّ ٱلأَرْبَابِ
فِيْ تَفْسِيْرِنَا أَفْضَلَ ٱلْكِتَابِ   كِتَابَكَ يَا فَاتِحَ ٱلأَبْوَابِ

آخرُ

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيْحَا   لأَجْلِ كَوْنِ فَهْمِهِ قَبِيْحَا
أَيُّهَا الْمُبْتَلَىٰ بِكَشْفِ ٱلْعَوْرَاتِ   فَإِنَّ لَكَ عَوْرَةٌ أَسْوَأُ ٱلْعَوْرَاتِ
لاَ تَنْظُرْ كِتَابَتِيْ بِعَيْنِ ٱلتَّنْقِيْصِ   فَإِنَّهَا غَالِيَةٌ عَنِ ٱلتَّرْخِيْصِ
وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ صَافِيْ الْعَسَلْ   وَاخْتَارَ بِنَفْسِهِ شَوْيَ ٱلْبَصَلْ
لأَجْلِ مَرَضِهِ ٱلْعُضَالِ   قَدْ أَعْيَا ٱلأَطِبَّةَ ٱلْفِضَالِ
مِنْ حَسَدٍ وَكِبْرٍ وَعَجْبِ   وَغِلٌّ وحِقْدٍ أَيَّ ذَنْبِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على الرسول الكريم المرتضى، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه نجوم الهدى، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الفصل والقضا.

أما بعد: فإني لما فرغت من تفسير الجزء السادس من القرآن.. قصدت أن أشرع في تفسير الجزء السابع منه مستعيناً بعون الملك الجواد، مستمداً منه التوفيق والسداد لأقوم الطريق والرشاد فقلت:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ
أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا
وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا
عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٤) فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٨٥) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ (٨٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ (٨٧) وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ
(٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ
عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ
ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٨٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما حاج أهل الكتاب، وذكر من مخازيهم أنهم اتخذوا الدين الإسلامي هزواً ولعباً، وأن اليهود منهم قالوا: يد الله مغلولة، وأنهم قتلوا رسلهم تارة، وكذبوهم أخرى، وأن النصارى منهم اعتقدوا عقائد زائفة، فمنهم من قال: المسيح ابن الله، ومنهم من قال: إن الله ثالث ثلاثة، وقد عابهم على ذلك، وكرَّ عليهم بالحجة إثر الحجة لتنفيذ ما كانوا يعتقدون.. ذكر هنا أحوالهم في عداوتهم للمؤمنين، ومحبتهم لهم، ومقدار تلك المحبة والعداوة، وبين حال المشركين مع المؤمنين بالتبع.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] مدح النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين، وذكر من أسباب ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً.. ظن المؤمنون أن في هذا ترغيباً في الرهبانية، وظن الميالون للتقشف والزهد أنها منزلة تقربهم إلى الله، ولن تتحقق إلا بترك التمتع بالطيبات من الطعام واللباس والنساء، إما دائماً كامتناع من الزواج، وإما في أوقات معينة، كأنواع الصيام التي ابتدعوها، فأزال الله هذا الظن، وقطع عرق هذا الوهم بذلك النهي الصريح.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها هي[3]: أنه تعالى لما مدح النصارى بأن منهم قسيسين ورهباناً، وعادتهم الاحتراز عن طيبات الدنيا ومستلذاتها وأوهم ذلك ترغيب المسلمين في مثل ذلك التقشف والتبتل.. بيّن تعالى أن الإسلام لا رهبانية فيه.

وقال رسول الله ﷺ: «أمّا أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآتي النساء، وأنال الطيب، فمَن رغب عن سنتي فليس مني» وأكل ﷺ الدجاج والفالوذج،

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

وكان يعجبه الحلوى والعسل. انتهى.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ . . .﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى عن تحريم الطيبات، وعن الإعداء فيها، وتجاوز الحدود؛ لأن قوماً من المسلمين تنسكوا وحرموا على أنفسهم اللحم والنساء وغيرها من الطيبات تقرباً إلى الله تعالى.. سألوا عما يصنعون بأيمانهم التي حلفوا عليها، فأنزل الله تعالى هذه الآية جواباً لهم عما سألوا.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب، وأبي بكر بن عبد الرحمٰن، وعروة بن الزبير قالوا: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري، وكتب معه كتاباً إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين، ثم أمر جعفر بن أبي طالب، فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدمع، فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ إلى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي ثلاثين رجلاً من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا، فنزلت فيهم الآية.

وأخرج النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وروى الطبراني عن ابن عباس نحوه بأبسط منه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟. . .﴾ الآية، روى الترمذي وغيره عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني إذا أصبت

---

(١) لباب النقول.

اللحم.. انتشرت للنساء، وأخذتني شهوتي، فحرمت عليَّ اللحم، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير[1]، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: نزلت هذه الآية في رهط من الصحابة، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عكرمة: أن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالماً مولى أبي حذيفة، وقدامة تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح[2]، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهمُّوا بالاختصاء، وأجمعوا على القيام بالليل، وصيام النهار فنزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. فلما نزلت.. بعث إليهم رسول الله ﷺ، فقال: «إن لأنفسكم حقاً، وإن لأعينكم حقاً، وإن لأهلكم حقاً، فصلوا وناموا، وصوموا وأفطروا، فليس منا من ترك سنتنا»، فقالوا: اللهم صدقنا واتبعنا ما أنزلت مع الرسول.

وروى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: أن عبد الله بن رواحة أضافه ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ، ثم رجع إلى أهله، فوجدهم لم يطعموا ضيفه انتظاراً، فقال لامرأته: حبست ضيفي من أجلي؟ هو حرام علي، فقالت امرأته: هو عليَّ حرام، فقال الضيف: هو عليَّ حرام، فلما رأى ذلك.. وضع يده وقال: كلوا بسم الله، ثم ذهب إلى النبي ﷺ، فذكر الذي كان منهم، ثم أنزل

---

(١) المراغي.

(٢) **المسوح** - جمع مسح بكسر فسكون -: هو كساء من شعر يلبسه الرهبان.

الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ...﴾ الآية، سبب[1] نزولها: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ قال القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم: يا رسول الله، كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فنزلت هذه الآية. رواه العوفي عن ابن عباس.

التفسير وأوجه القراءة

وعزتي وجلالي ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ يا محمد ﴿أَشَدَّ النَّاسِ﴾ وأكثرهم وأبلغهم، والناس هنا: الكفار؛ أي: ولتجدن أشد الكفار ﴿عَدَاوَةً﴾ وبُغضاً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بك واتبعوك وصدقوا بما جئتهم به ﴿الْيَهُودَ﴾ يعني: يهود بني قريظة والنضير وفدك وخيبر وغيرهم من سائر يهود الحجاز؛ لشدة شكيمتهم - إبائهم وأنفتهم من الحق - وتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى، وقربهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «ما خلا يهوديان بمسلم إلا همَّا بقتله». وقد قال بعضهم: مذهب اليهود: أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من خالفهم في الدين بأي طريق كان، فإن قدروا على القتل فذاك، وإلا فبغصب المال، أو بالسرقة، أو بنوع من الحيلة. وأما النصارى: فليس مذهبهم ذلك، بل الإيذاء حرام في دينهم.

وذكر الله تعالى فيما سيأتي آنفاً أن النصارى ألين عريكة - أسهل خلقاً - من اليهود، وأقرب إلى المسلمين منهم.

﴿و﴾ لتجدن أيضاً أشدهم عداوة للذين آمنوا ﴿الذين أشركوا﴾؛ أي: المشركين من أهل مكة عبدة الأوثان، الذين اتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله، وأشد ما لاقى النبي ﷺ من العداوة والإيذاء كان من يهود الحجاز في المدينة وما حولها، ومن مشركي العرب ولا سيما مكة وما قرب منها، وقد كان اليهود والمشركون مشتركين في بعض الصفات والأخلاق التي اقتضت عداوتهم الشديدة

---

(١) زاد المسير.

للمؤمنين، كالكبر والعتو، والبغي وغلبة الحياة المادية، والأثرة والقسوة، وضعف عاطفة الحنان والرحمة، والعصبية الجنسية، والحمية القوية، ولكن مشركي العرب ـ على جاهليتهم ـ كانوا أرق من اليهود قلوباً، وأعظم سخاءً وإيثاراً، وأكثر حرية في الفكر واستقلالاً في الرأي. وقدَّم سبحانه ذكر اليهود؛ للإشارة إلى تفوقهم على العرب فيما وصفوا به فضلاً عما امتازوا به من قتل بعض الأنبياء، وإيذاء بعض آخر، واستحلال أكل أموال غيرهم بالباطل، ولم يكن ميلهم مع المسلمين في البلاد المقدسة والشام والأندلس قبل هذه الواقعة العصرية إلا ميلاً وراء مصلحتهم الخاصة؛ إذ هم تفيؤوا ظلال عدلهم، واستراحوا به من اضطهاد النصارى في تلك البلاد. و﴿لَتَجِدَنَّ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لتجدن يا محمد ﴿أَقْرَبَهُم﴾؛ أي: أقرب الناس ﴿مَّوَدَّةً﴾؛ أي: محبة وميلاً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بك وصدقوك ﴿الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾؛ أي: أنصار دين الله، ومموادون لأهل الحق، فإن النبي ﷺ رأى من نصارى الحبشة أحسن المودة؛ بحماية المهاجرين الذين أرسلهم النبي ﷺ في أول الإسلام من مكة إلى الحبشة خوفاً عليهم من مشركيها، الذين كانوا يؤذونهم أشد الإيذاء ليفتنوهم عن دينهم.

ولما أرسل النبي ﷺ كتبه إلى الملوك ورؤساء الشعوب.. كان النصارى منهم أحسنهم رداً، فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام، فلم يستطع لجمودهم على التقليد، فاكتفى بالرد الحسن. والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه رداً ـ وإن لم يكن أكثر منه ميلاً إلى الإسلام ـ وأرسل للنبي ﷺ هدية حسنة، ثم لما فتحت مصر والشام، وعرف أهلهما ما للإسلام من مزايا.. هرعوا إلى الدخول في الدين أفواجاً، وكان القبط أسرع إليه قبولاً.

والخلاصة: أن النبي ﷺ والمؤمنين به رأوا في عصره من مودة النصارى وقربهم من الإسلام بقدر ما رأوا من عداوة اليهود والمشركين، وأن من توقف من ملوكهم عن الإسلام، فما كان توقفه إلا ضناً بملكه، وأن النجاشي ـ أصحمة ملك الحبشة ـ قد أسلمت معه بطانته من رجال الدين والدنيا، ولكن الإسلام لم ينتشر في الحبشة بعد موته، ولم يهتم المسلمون بإقامة دينهم في تلك البلاد كما فعلوا في مصر والشام.

قلتُ: هذا في الزمان الأول، وإلا فالآن المسلمون في الحبشة ثمانون في المئة، حتى تداول فيها سبعون أميراً من أمراء المسلمين قبل أن يأخذها استئمار الأمحار بمساعدة الأوروبيين لهم على محاربة المسلمين.

وإنما أسند[1] تسميتهم نصارى إليهم دون تسمية اليهود؛ للإشعار بقرب مودتهم، حيث يدَّعون أنهم أنصار الله، وأوِدَّاءُ أهل الحق، وإن لم يظهروا اعتقاد حقية الإسلام، فتسميتهم نصارى ليست حقيقة، بخلاف تسمية اليهود يهوداً فإنها حقيقة، سواء سموا بذلك لكونهم أولاد ابن يعقوب: يهودا، أو لكونهم تابوا عن عبادة العجل، أو لترجيعهم في دراستهم إن قلنا: من تهود بمعنى: رجع ومطّط في الدراسة، ولكن ما رأينا في كتب اللغة: تهود بمعنى: تحرك في الدراسة، كما قاله أبو العلاء المعري.

فإن قلت: كفر[2] النصارى أشد من كفر اليهود؛ لأن النصارى ينازعون في الألوهية، فيدعون لله ولداً، واليهود إنما ينازعون في النبوة، فينكرون نبوة بعض الأنبياء، فلِمَ ذم اليهود ومدح النصارى؟

قلتُ: هذا مدح في مقابلة ذم، وليس مدحاً على الإطلاق، وأيضاً الكلام في عداوة المسلمين وقرب مودتهم، لا في شدة الكفر وضعفه، وقد قال بعضهم: مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر والأذى إلى من خالفهم في الدين، ومذهب النصارى أن الأذى حرام، فحصل الفرق بين اليهود والنصارى كما مر آنفاً.

وقيل: إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد، وطلب الرياسة، ومن كان كذلك.. كان شديد العداوة لغيره، وأما النصارى: فإن فيهم من هو معرض عن الدنيا ولذاتها، وترك طلب الرياسة، ومن كان كذلك.. فإنه لا يحسد أحداً، ولا يعاديه، بل يكون ألين عريكة ـ أخلاقا ـ في طلب الحق، فلهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: كونهم أقرب مودة للمؤمنين ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾؛ أي: بسبب أن منهم ﴿قِسِّيسِينَ﴾؛ أي: علماء ﴿وَرُهْبَانًا﴾؛ أي: عباداً، أصحاب صوامع ﴿وَأَنَّهُمْ لَا

---

(١) المراح.

(٢) الفتوحات.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: لا يتكبرون عن قَبول الحق إذا فهموه، كما استكبر اليهود والمشركون من أهل مكة؛ يعني: لا يتعظمون عن الإيمان والإذعان للحق.

والمعنى: أن السبب[1] في هذه المودة أن منهم قسيسين يتولون تعليمهم التعليم الديني، ويهذبون أخلاقهم، ويربون فيهم الآداب والفضائل، ورهباناً يعودونهم الزهد والتقشف والإعراض عن زخرف الدنيا ونعيمها، ويكبرون في نفوسهم الخوف من الله تعالى، والانقطاع لعبادته، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر أنه الحق؛ إذ من فضائل دينهم التواضع والتذلل والخضوع لكل حاكم، بل إنهم أمروا بمحبة الأعداء، وإدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، فكل أولئك يؤثّر في جمهور الأمة وسوادها الأعظم، وقد عهد من النصارى قبول سلطة المخالف لهم طوعاً واختياراً، بخلاف اليهود فإنهم إذا أظهروا الرضا اضطراراً.. أسروا الكيد، وأضمروا المكر؛ لأن الشريعة اليهودية تولد في نفوسهم العصبية الجنسية، والحمية القومية؛ لأنها خاصة بشعب إسرائيل، وأحكامها ونصوصها مبنية على ذلك.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾؛ أي: وإذا سمع أولئك الذين قالوا: إنا نصارى ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وهو القرآن ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ﴾؛ أي: تبصر أيها المخاطب الحاضر عندهم أعين أولئك السامعين ﴿تَفِيضُ﴾ وتسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ وهو ماء العين؛ أي: تمتلىء من الدمع حتى يسيل ويتدفق من جوانبها لكثرته.

وقرىء: ﴿تُرَى أعينهم﴾ بالبناء للمجهول. ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لأجل ما عرفوه من الحق الذي بينه لهم القرآن، ولم يمنعهم من قبوله ما يمنع غيرهم من عتو واستكبار، أو مما عرفوا في كتابهم من نعت محمد ﷺ. ثم ذكر سبحانه ما يكون منهم من القول إثر بيان ما كان من حالهم فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾؛ أي: ترى أعينهم تفيض من الدمع حالة كونهم يقولون: ربنا ويا مالك

---

(١) المراغي.

أمرنا آمنا، وصدقنا بهذا الكتاب النازل من عندك على محمد ﷺ، وبمن أنزلته عليه، وشهدنا أنه حق ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: من الذين شهدوا بأنه حق، أو بنبوته، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة؛ أي: فاكتبنا مع الذين يشهدون بحقية نبيك محمد ﷺ وكتابك.

والمعنى(١): يقولون هذه المقالة قاصدين بها إنشاء الإيمان والتضرع إلى الله تعالى، والخضوع له بأن يتقبله منهم، ويكتبهم مع أمة محمد ﷺ الذين جعلهم الله تعالى شهداء على الناس؛ لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم ومما يتناقلونه عن أسلافهم أن النبي الكريم الذي يكمل به الدين، ويتم به التشريع العام، يكون متبعوه شهداء على الناس، ويكونون حجة على المشركين والمبطلين، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾. ثم زادوا كلامهم توكيداً فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ والاستفهام فيه استفهام استبعاد وإنكار؛ أي: وأيُّ مانع يمنعنا من الإيمان بالله الذي لا إلٰه إلا هو، ويصدنا عن اتباع ما جاءنا من الحق على لسان هذا النبي الكريم بعد أن ظهر لنا أنه هو روح الحق الذي بشر به المسيح ﴿وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: وإننا لنطمع ونرجو بذلك الإيمان أن يدخلنا ربنا ويكتبنا مَعَ القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة، والفضائل والآداب الكاملة، وهم أتباع هذا النبي الكريم الذين استبان لنا أثر صلاحهم، وشاهدناه بأعيننا بعد ما كان منهم من فساد في الأرض، وعتو كبير في جاهليتهم.

والخلاصة: أنه لا مانع لنا من هذا الإيمان بعد أن تظاهرت أسبابه، وتحققت موجباته، فوجب علينا الجري على سننه واتباع نهجه وطريقه.

ثم بين سبحانه ما جازاهم به على ذلك فقال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فجزاهم الله وأعطاهم من الثواب ﴿بِمَا قَالُواْ﴾؛ أي: بسبب ما قالوا ونطقت به ألسنتهم من

---

(١) المراغي.

قولهم: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، معبراً عما في قلوبهم من خالص الإيمان وصحيح الاعتقاد.

وقرأ الحسن[1]: ﴿فآتاهم﴾ من الإيتاء بمعنى: الإعطاء، لا من الإثابة، والإثابة أبلغ من الإعطاء؛ لأنه يلزم أن يكون عن عمل، بخلاف الإعطاء فإنه لا يلزم أن يكون عن عمل، ولذلك جاء أخيراً ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نبّه على أن تلك الإثابة هي جزاء، والجزاء لا يكون إلا عن عمل. ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وحدائق في دار النعيم ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها الوارفة الظلال، وفي قصورها الرفيعة ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة: الماء واللبن والخمر والعسل ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ أي: مقدرين الخلود فيها أبداً، فلا يسلبها منهم أحد، ولاهم يرغبون عنها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الجزاء المذكور من الجنات الموصوفة ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: جزاء الذين أخلصوا عقائدهم، وأحسنوا أعمالهم، وعلينا أن نقف في وصف نعيم الآخرة على ما جاء به القرآن الكريم وصحت به السنة النبوية، ولا نعدوا ذلك إلى ما وراءه، فإن النعيم الروحاني والرضوان الإلهي لا يمكن أن يعبِّر عنه الكلام، ولا يحيط به الوصف، فنحن في عالم يخالف ذلك العالم في أوصافه وخواصه، مهما أكثرنا من الوصف فلا نصل إلى شيء مما أعده الله لهم هناك: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما أعد لعباده المحسنين من عظيم الثواب جزاء صادق إيمانهم.. ذكر جزاء المسيئين إلى أنفسهم بالكفران والتكذيب؛ جرياً على سنة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا توحيد الله، وأنكروا نبوة محمد ﷺ ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ القرآنية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: أصحاب النار الشديدة الحرارة وسكانها المقيمون فيها، لا يبرحون عنها أبد الآبدين، والجحيم والجاحم ما أشتد حره من النار.

(١) البحر المحيط.

فصل في ذكر قصة الهجرة الأولى، وسبب نزول هذه الآية

قال ابن عباس[1] ـ رضي الله عنهما ـ وغيره من المفسرين في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ إن قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كل قبيلة على من آمن منهم، فآذوهم وعذبوهم، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم، ومنع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب، فلما رأى رسول الله ﷺ ما نزل بأصحابه، ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين، ولم يؤمر بعد بالجهاد.. أمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: «إن بها ملكاً صالحاً لا يظلم، ولا يظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً»، فخرج إليها أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة سراً، وهم: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمٰن بن عوف، وأبو حذيفة بن عقبة وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة بنت أمية، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي خيثمة، وحاطب بن عمرو، وسهيل بن بيضاء، فخرجوا إلى البحر، وأخذوا سفينة بنصف دينار إلى أرض الحبشة، وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث النبي ﷺ، وهذه الهجرة الأولى.

ثم خرج بعدهم جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون، فكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان، فلما علمت قريش بذلك.. وجهوا عمرو بن العاص وجماعة بهدايا إلى النجاشي وبطارقته؛ ليردوهم إليهم، فدخل إليه عمرو وقال له: أيها الملك، إنه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش وأحلامها، وزعم أنه نبي، وإنه قد بعث إليك برهط من أصحابه ليفسدوا عليك قومك، فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم، وأن قومهم يسألونك أن تردوهم إليهم، فقال: حتى نسألهم، فأمر بهم، فأحضروا، فلما أتوا

---

(١) الخازن.

باب النجاشي قالوا: يستأذن أولياء الله، فقال: ائذنوا لهم فمرحباً بأولياء الله، فلما دخلوا عليه.. سلَّموا، فقال الرهط من المشركين: أيها الملك، ألا ترى أنا قد صدَقناك، إنهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها، فقال لهم الملك: ما منعكم أن تحيوني بتحيتي؟ فقالوا له: إنا حييناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة، فقال لهم النجاشي: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ فقال جعفر بن أبي طالب: يقول: هو عبد الله ورسوله، وكلمة الله وروح منه، ألقاها إلى مريم العذراء، ويقول في مريم: إنها العذراء البتول، قال: فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: واللّهِ ما زاد صاحبكم على ما قال عيسى قدر هذا العود، فكره المشركون قوله، وتغيرت وجوههم، فقال: هل تعرفون شيئاً مما أنزل على صاحبكم؟ قالوا: نعم، قال: اقرؤوا، فقرأ جعفر سورة مريم، وهنالك قسيسون ورهبان وسائر النصارى، فعرفوا ما قرأ، فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، فأنزل الله فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ...﴾ إلى آخر الآيتين، فقال النجاشي لجعفر وأصحابه: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ـ يعني: إنكم آمنون ـ فرجع عمرو وأصحابه خائبين، وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار وخير جوار إلى أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وعلا أمره، وقهر أعداءه، وذلك في سنة ست من الهجرة.

وكتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضميري أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت قد هاجرت مع زوجها ومات عنها، فأرسل النجاشي جارية ـ يقال لها: أبرهة ـ إلى أم حبيبة يخبرها أن رسول الله قد خطبها، فسُرَّت بذلك، وأعطت الجارية أوضاحاً[1] كانت لها، وأذنت لخالد بن سعيد في نكاحها، فأنكحها رسولَ الله ﷺ على صداق مبلغه أربع مئة دينار، وكان الخاطب لرسول الله ﷺ النجاشي، فأرسل إليها بجميع الصداق على يد جاريته أبرهة، فلما جاءَتها بالدنانير.. وهبتها منه خمسين ديناراً، فلم تأخذها، وقالت: إن الملك أمرني أن لا آخذ منك شيئاً، وقالت: أنا صاحبة دهن الملك وثيابه، وقد صدقت بمحمد ﷺ، وآمنت به، وحاجتي إليك أن تقرئيه مني

(١) **أوضاحاً**: حُلِيّاً من الذهب.

السلام، قالت: نعم، فقالت: قد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من دهن وعود، وكان رسول الله ﷺ يراه عندها فلا ينكره.

قالت أم حبيبة: فخرجنا إلى المدينة ورسول الله ﷺ يحاصر خيبر، فخرج من خرج إليه ممن قدم من الحبشة، وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله ﷺ، فدخلت عليه، فكان يسألني عن النجاشي، وقرأت عليه السلام من أبرهة جارية الملك، فرد رسول الله ﷺ عليها السلام، وأنزل الله عز وجل ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ يعني: أبا سفيان، وذلك بتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، ولما بلغ أبا سفيان أن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة.. قال: ذلك الفحل لا يجدع أنفه.

وبعث النجاشي بعد خروج جعفر وأصحابه إلى النبي ﷺ ابنه أزهى في ستين رجلاً من أصحابه، وكتب إليه: (يا رسول الله، إني أشهد أنك رسول الله صدقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك جعفراً، وأسلمت لله رب العالمين، وقد بعثت إليك ابني أزهى، وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت، والسلام عليك يا رسول الله). فركبوا في سفينة في أثر جعفر حتى إذا كانوا في وسط البحر.. غرقوا، ووافى جعفر وأصحابه رسول الله ﷺ وهو بخيبر، ووافى مع جعفر سبعون رجلاً عليهم ثياب الصوف، منهم اثنان وستون رجلاً من الحبشة، وثمانية من الشام، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس إلى آخرها، فبكى القوم حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام، فأنزل الله هذه الآية فيهم، وهي قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ يعني: وفد النجاشي الذين قدموا مع جعفر، وهم السبعون، وكانوا من أصحاب الصوامع.

وقيل: نزلت في ثمانين رجلاً: أربعين من نصارى نجران من بني الحارث بن كعب، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية روميين من أهل الشام.

وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام، فلما بعث محمد ﷺ.. آمنوا به، وصدقوه، فأثنى الله

عليهم بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني: لا يستعظمون عن الإيمان والإذعان للحق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾ على أنفسكم ﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: مستلذات ما أحل الله لكم من المآكل والمشارب والملابس والمناكح، ولا تمنعوا أنفسكم من التمتع بالمستلذات كمنعها من الحرام، أو لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً منكم وتقشفاً ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا﴾؛ أي: ولا تجاوزوا الحد في الانتفاع بالطيبات بالإسراف فيها، أو لا تجاوزا الطيبات إلى الخبائث المحرمة، والطيبات: الأشياء التي تستلذها النفوس، وتميل إليها القلوب؛ أي[1]: لا تحرموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات، بأن تتركوا التمتع بها عمداً تنسكاً وتقرباً إلى الله تعالى، ولا تعتدوا فيها وتتجاوزوا حد الاعتدال إلى الإسراف الضار بالجسد؛ بأن تزيدوا على الشبع والري، أو تجعلوا التمتع بها أكبر همكم في الحياة، أو تشغلكم عن الأمور النافعة من العلوم والأعمال المفيدة لكم، ولبني وطنكم، وهذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾.

والخلاصة: أن الاعتداء يشمل أمرين: الاعتداء في الشيء نفسه بالإسراف فيه، والاعتداء بتجاوزه إلى غيره مما ليس من جنسه، وهو الخبائث.

وقيل المعنى[2]: لا تعتقدوا تحريم الطيبات المباحات، فإن من اعتقد تحريم شيء أحله الله.. فقد كفر، أما ترك لذات الدنيا وشهواتها، والانقطاع إلى الله، والتفرغ لعبادته من غير إضرار بالنفس ولا تفويت حق الغير.. ففضيلة لا منع منها، بل مأمور بها.

قال ابن جرير[3] الطبري: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.
(٣) الشوكاني.

أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح؛ ولذلك ردَّ النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون، فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب الله عباده إليه، وعمل به رسول الله ﷺ، وسنه لأمته، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون؛ إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ، فإذا كان ذلك كذلك.. تبين خطأ من آثَر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله، وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذراً من عارض الحاجة إلى النساء.

قال: فإن ظن ظانٌّ أن الفضل في غير الذي قلنا؛ لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس، وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة، فقد ظن خطأً، وذلك أنَّ الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها، ولا شيء أضر للجسم من المطاعم الردية؛ لأنها مفسدة لعقله، ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سبباً إلى طاعته.

قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾؛ أي: لا تعتدوا على الله بتحريم طيبات ما أحل الله لكم، أو لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله عليكم؛ أي: لا تترخصوا فتحللوا حراماً، كما نهيتم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أنَّ من حرم على نفسه شيئاً مما أحله الله له.. فلا يحرم عليه ولا يلزمه كفارة.

ثم علل النهي عن الاعتداء بما ينفر منه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: لا يحب الله من يتجاوز حدود شرائعه بتحريم طيباته التي أحلها، سواء أكان التحريم من غير التزام بيمين أو نذر، أو بالتزام، وكل منهما غير جائز.

والالتزام[1] قد يكون لرياضة النفس وتهذيبها بالحرمان من الطيبات، وقد

(١) المراغي.

يكون ناشئاً عن بادرة غضب من زوجة أو ولد، كمن يحلف بالله أو بالطلاق أن لا يأكل من هذا الطعام أو نحوه من المباحات، أو يقول: إن فعل كذا.. فهو بريء من الإسلام أو من الله ورسوله أو نحو ذلك، وكل هذا منهي عنه شرعاً، ولا يحرم على أحد شيء منها يحرمه على نفسه بهذه الأقوال، ولا كفارة في يمين يحلفه الحالف في نحو ذلك عند الشافعي.

وتحريم الطيبات والزينة وتعذيب النفس هو من العبادات المأثورة عند قدماء اليهود واليونان، قلَّدهم فيها أهل الكتاب خصوصاً النصارى، فإنهم قد شددوا على أنفسهم، وحرَّموا عليها ما لم تحرمه الكتب المقدسة على ما فيها من الشدة والصرامة والمبالغة في الزهد، ولما جاء الإسلام وأرسل الله نبيه محمداً ﷺ خاتم النبيين بما فيه السعادة التامة للبشر في دنياهم وآخرتهم.. أباح للبشر على لسانه الزينة والطيبات، وأرشدهم إلى إعطاء البدن حقه، والروح حقها، فالإنسان ما هو إلا روح وجسد، فيجب العدل بينهما، وبذا كانت الأمة الإسلامية أمة وسطاً تشهد على جميع الأمم، وتكون حجة عليها يوم القيامة.

والحكمة في ذلك النهي: أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يستعمل عباده نعمه فيما خلقت لأجله، ويشكروه على ذلك، ويكره لهم أن يجنوا على الشريعة التي شرعها لهم، فيغلوا فيها بتحريم ما لم يحرمه، كما يكره لهم أن يفرطوا فيها بإباحة ما حرمه، أو ترك ما فرضه، وقد أشار إلى ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ وورد في الأثر: «إن اللّه طيب لا يقبل إلا طيباً».

﴿وَكُلُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى وأعطاكم حالة كونه ﴿حَلَٰلًا﴾ في نفسه لا من المحرمات، كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ونحو ذلك، وحالة كونه ﴿طَيِّبًا﴾ في كسبه وتناوله؛ بأن لا يكون ربَاً ولا سحتاً ولا سرقة ولا غصباً مثلاً، مع كونه مستلذاً غير مستقذرٍ لذاته أو لطارىء يطرأ عليه من فساد أو تغير لطول مكث ونحوه. والأكل في الآية يراد به التمتع الشامل للشرب ونحوه، وإنما خص الأكل بالذكر؛ لأنه أغلب الانتفاع بالرزق من حلال غير

مسكر ولا ضار، ومن كل طيب غير مستقذر في ذاته أو لطارىء عليه.

والخلاصة:[1] أنه ينبغي للمؤمن أن يتمتع بما تيسر له من الطيبات بلا تأثم ولا تحرج، ويحضر قلبه أنه عامل بشرع الله مقيم لسنة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، شاكراً له بالاعتراف والحمد والثناء عليه، كما أن امتناعه عن الطيبات التي رزقه إياها مع الداعية الفطرية إلى الاستمتاع بها إثمٌ يجنيه على نفسه في الدنيا، ويستحق به عقاب الآخرة؛ لزيادته في دين الله قربات لم يأذن بها، ولإضاعة حقوق الله وحقوق عباده، كإضاعة حقوق امرأته وعياله.

والتحريم والتحليل تشريع، وهو من حقوق الله، فمن انتحله لنفسه كان مدعياً الربوبية أو كالمدعي لها، وعن الحسن البصري: إن الله أدب عباده فأحسن أدبهم فقال: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ما عاب الله قوماً وسع عليهم الدنيا، فتنعموا وأطاعوا، ولا عذر قوماً زواها عنهم فعصوه. وعنه أنه قيل له: فلان لا يأكل الفالوذج ـ حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل ـ ويقول: لا أؤدي شكره، قال: أفيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم، قال: إنه جاهل، إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثرُ من نعمته عليه في الفالوذج.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وخافوا عقاب الله الذي آمنتم به في الأكل واللباس والنساء وغيرها، فلا تفتئتوا عليه في تحليل ولا تحريم، ولا تعتدوا حدوده فيما أحل وما حرم؛ إذ من جعل شهوة بطنه أكبر همه.. كان من المسرفين، ومن بالغ في الشبع وعرَّض معدته وأمعائه للتخمة.. كان من المسرفين، ومن أنفق في ذلك أكثر من طاقته، وعرض نفسه لذل الدَّين أو أكل أموال الناس بالباطل.. فهو من المسرفين، والله يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وقيل: المعنى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: امتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، فتقوى الله لا تتوقف على الرهبانية كما كان في الأمم السابقة.

والخلاصة: أن هدي القرآن في الطيبات هو ما تقتضيه الفطرة السليمة

---

(١) المراغي.

المعتدلة من التمتع بها مع الاعتدال والتزام الحلال، والاعتدال: هو الصراط المستقيم الذي يقل سالكه، فكثير من الناس يحيدون عنه، ويميلون في التمتع إلى جانب الإفراط والإسراف، ويكونون كالأنعام بل أضل؛ لأنهم يجنون على أنفسهم حتى قال بعض الحكماء: إن أكثر الناس يحفرون قبورهم بأسنانهم، وقليلون منهم ينحرفون إلى جانب التفريط والتقتير، إما اضطراراً لبؤسهم وعدمهم، وإما اختياراً كالزهاد والمتقشفين. وسبيل الاعتدال لسبيل شاقة على النفوس، عسرة على سالكها، كلها تدل على فضيلة العقل ورجحانه. والمعروف من سيرة الرسول ﷺ (أنه كان يأكل ما وجده، فتارة يأكل أطيب الطعام؛ كلحوم الأنعام والطير والدجاج، وتارة يأكل أخشنه؛ كخبز الشعير بالملح أو الزيت أو الخل، وحيناً يجوع، وأخرى يشبع)، فكان في كل ذلك قدوةً للموسر والمعسر، وما كان يهمه أمر الطعام، لكنه كان يعنى بأمر الشراب، ففي حديث عائشة: (كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد) أخرجه الترمذي. قال المحدثون: ويدخل في ذلك: الماء القراح، والماء المحلى بالعسل، أو نقيع التمر أو الزبيب.

واعلم: أن في قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ تأكيداً[1] للوصية بما أمر الله تعالى به وزاد التأكيد بقوله: ﴿الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء إلى ما أمر الله به وعما نهى عنه، وفي الآية: دليل على أن الله عز وجل قد تكفل برزق كل أحد من عباده، فإنه تعالى لو لم يتكفل بذلك.. لما قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾، وإذا تكفل برزق العبد.. وجب أن لا يبالغ في الطلب والحرص على الدنيا، وأن يعول على ما وعده الله تعالى وتكفل به، فإنه تعالى أكرم من أن يخلف الوعد.

قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ هذا كلام[2] مرتب على قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لأن بعض الصحابة حلف على الترهب لظنٍّ أنه قربة، فلما نزلت هذه الآية ـ أعني: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ـ شكوا

(١) الخازن. (٢) الصاوي.

الرسول ﷺ من اليمين، فنزلت هذه الآية ـ أعني آية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾ ـ أي: لا يطالبكم الله بكفارة ولا عقوبة في الملغى الكائن من أيمانكم؛ أي: الذي لم يقصد، بل سبق إليه اللسان، فـ﴿في﴾ بمعنى: من، أو متعلقة بـ﴿يؤاخذ﴾؛ أي: لا يؤاخذكم الله في أيمانكم باللغو الذي لم يقصد.

واللغو(١): اليمين الساقط الذي لا يتعلق به حكم، وهو أن يحلف على شيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن، وكانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنه قربة، فلما نزلت تلك الآية.. قالوا: فكيف أيماننا؟ فنزلت هذه الآية، وقال الشافعي: هي ما يجري على اللسان بلا قصد، وذلك عند اللجاج والغضب والعجلة. وقد ذهب(٢) الجمهور من الصحابة ومن بعدهم إلى أنها قول الرجل: لا واللَّهِ، وبلى واللَّهِ في كلامه غير معتقد لليمين، وبه فسَّر الصحابة الآية، وهم أعرف بمعاني القرآن.

وفي الآية: دليل على أن أيمان اللغو لا يؤاخذ الله الحالف بها، ولا تجب فيها كفارة.

والخلاصة(٣): لا يؤاخذكم الله تعالى ولا يطالبكم في الدنيا ولا في الآخرة بالأيمان التي تحلفونها بلا قصد، كما يقول الرجل في كلامه بدون قصد: لا واللَّهِ، وبلى واللَّهِ، فلا مؤاخذة على مثل هذه بكفارة في الدنيا، ولا عقوبة في الآخرة ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ الله سبحانه وتعالى ويطالبكم؛ إما بالكفارة في الدنيا، أو بالعقوبة في الآخرة ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾؛ أي: بحنث ما تعمدتم وقصدتم به اليمين. وفي الآية حذف؛ إما من الأول كما قدرناه، أو من الآخر؛ تقديره: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان إذا حنثتم، فحذف وقت المؤاخذة؛ لأنه كان معلوماً عندهم.

فاليمين المعقدّة(٤): من عقد القلب وصممه، ليفعلن أو لا يفعلن في

---

(١) النسفي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

المستقبل؛ أي: ولكن يؤاخذكم بأيمانكم المعقدّة الموثقة بالقصد والنية إذا حنثتم فيها، وأما اليمين الغموس: فهي يمين مكر وخديعة وكذب، قد باء الحالف بإثمها، وليست بمعقودة، ولا كفارة فيها كما ذهب إليه الجمهور. وقال الشافعي: هي يمين معقودة؛ لأنها مكتسبة بالقلب، معقودة بخبر، مقرونة باسم الله. والراجح: الأول، وجميع الأحاديث الواردة في تكفير اليمين متوجهة إلى المعقودة، ولا يدل شيء منها على الغموس، بل ما ورد في الغموس إلا الوعيد والترهيب، وأنها من الكبائر، بل من أكبر الكبائر، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ الآية، واليمين المنعقدة؛ إما بالله أو بأسمائه أو بصفاته.

وقرأ[1] نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم بتشديد القاف، قال أبو عمرو: معناها: وكدتم. وقرأ الكسائي وحمزة وأبو بكر عن عاصم بتخفيفها، قال ابن جرير: معناها: أوجبتموها على أنفسكم. وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر بألف بين العين والقاف. وقرأ الأعمش: ﴿بما عقدت الأيمان﴾ جعل الفعل للأيمان، فالتشديد؛ إما للتكثير بالنسبة إلى الجمع، وإما لكونه بمعنى المجرد نحو: قَدَر وقدَّر، والتخفيف هو الأصل، وبالألف بمعنى المجرد نحو: جاوزت الشيء وجزته وقاطعته وقطعته؛ أي: هجرته. وعبارة أبو البقاء هنا: قوله: ﴿عقدتم﴾ يقرأ بتخفيف القاف، وهو الأصل، وعقد اليمين هو قصد الالتزام بها. ويقرأ بتشديدها، وذلك لتوكيد اليمين كقوله: واللَّهِ الذي لا إله إلا هو، ونحوه. وقيل: التشديد يدل على تأكيد العزم بالالتزام بها. وقيل: إنما شدد لكثرة الحالفين وكثرة الأيمان. وقيل: التشديد عوض من الألف في عاقد، ولا يجوز أن يكون التشديد لتكرير اليمين؛ لأن الكفارة تجب وإن لم تكرر. ويقرأ: ﴿عاقد﴾ بالألف وهي بمعنى: عقدتم، كقولك: قاطعته وقطعته من الهجران، انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى: أي ولكن يؤاخذكم بما صممتم وعزمتم عليه من الأيمان وقصدتموه إذا أنتم حنثتم فيه، وهذه المؤاخذة بينها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ الخ، والكفارة الفعلية التي من شأنها أن تكفر الخطيئة؛ أي: تسترها؛ أي: فكفارة حنث الأيمان المعقودة ونقضها، أو فكفارة معقود الأيمان إذا حنثتم؛ أي: فالذي يكفر عقد اليمين إذا نقض، أو إذا أريد نقضه بالحنث به.. هو إحدى الخصال الثلاث الآتية على سبيل التخيير:

١ - إما ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾، أو فقراء، لكل مسكين مدّ عند الشافعية، ونصف صاع عند الحنفية؛ أي: تمليك عشرة مساكين، ولا[1] يتعين كونهم من فقراء بلد الحالف، والمساكين أعم من أن يكونوا ذكوراً أو إناثاً أو من الصنفين. والظاهر اشتراط تعدد الأشخاص، فلو أطعم مسكيناً واحداً كفارة عشرة أيام.. لم يجزه، وبه قال مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة يجزىء. ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾ أيها الناس ﴿أَهْلِيكُمْ﴾؛ أي: من أقصد ما تطعمونهم وأغلبه من غالب قوت بلد الحالف؛ أي: محل الحنث، لا من أعلاه ولا أدناه؛ أي: إطعام وجبة واحدة - الوجبة: الأكلة الواحدة في اليوم - لكل منهم من الطعام الغالب الذي يأكله أهلوكم في بيوتكم، لا من أردئه وأخسه الذي يتقشفون به تارة، ولا من أعلاه الذي يتوسعون به تارة أخرى؛ كطعام العيد ونحوه مما تكرم به الأضياف، فمن كان طعام أهله خبز البر، وأكثر إدامه اللحم بالخضر أو بدونها.. فلا يجزىء ما دون ذلك مما يأكلونه إذا قرفت أنفسهم من كثرة أكل الدسم؛ ليعود إليها نشاطها، والأعلى مجزىء على كل حال؛ لأنه من الوسط وزيادة، والثريد بالمرق، وقليل من اللحم أو الخبز مع الملوخية أو الرز أو العدس، من أوسط الطعام في مصر وكثير من الأقطار الشرقية الآن، وكان التمر أوسط طعام أهل المدينة في العصر الأول، وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام كما مر آنفاً.

٢ - ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾؛ أي: كسوة عشرة مساكين، قرأ الجمهور[2]: ﴿أو

---

(١) الجمل.   (٢) البحر المحيط وزاد المسير.

كسوتهم﴾ بكسر الكاف وسكون السين. وقرأ النخعي وابن المسيب وأبو عبد الرحمٰن السلمي وأبو الجوزاء ويحيى بن يعمر: ﴿أو كسوتهم﴾ بضم الكاف وسكون السين، وهما لغتان مثل: أسوة وإسوة، وقُدوة وقِدوة. وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية ومعاذ بن الحارث القارىء وأبو نهيك: ﴿أو كإسوتهم﴾ بكاف الجر الداخلة على إسوة؛ أي: قرؤوا بفتح الكاف وكسر الهمزة وكسر التاء والهاء. وقرأ محمد ابن السميقع اليماني، وأبو عمران الجوزي مثلهم إلا أنهما فتحا الهمزة. قال ابن الجوزي: ولا أرى هذه القراءة جائزة؛ لأنها تسقط أصلاً من أصول الكفارة.

والكسوة تختلف باختلاف البلاد والأزمنة كالطعام، فيجزىء في مصر القميص الطويل الذي يسمى بـ«الجلابية» مع السراويل أو بدونه، وهذا يساوي الإزار والرداء، أو العباءة في العصر الأول، ولا يجزىء ما يوضع على الرأس من طربوش أو عمامة، ولا ما يلبس في الرجلين من الأحذية والجوارب، ولا نحو منديل أو منشفة.

٣ - ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أي: أو إعتاق رقيق، وغلب استعمال الرقبة في المملوك والأسير، وقد يعبر عن ذلك بفك الرقبة كقوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)﴾، ولا يشترط أن تكون الرقبة مؤمنة، فيجزىء عتق الكافرة عند أبي حنيفة، واشترط الشافعي ومالك وأحمد إيمانها؛ حملاً للمطلق هنا على المقيد في كفارة القتل.

قال أبو حيان(١): وقد أجمع العلماء على أن الحانث مخيَّر بين الإطعام والكسوة والعتق، وهي مخالفة لسواد المصحف، وقدم(٢) الإطعام على غيره؛ لأنه أسهل؛ لكون الطعام أعم وجوداً، ولأن الإطعام أفضل من الإعتاق على ما قيل؛ لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام، أما العبد: فإنه يجب على مولاه إطعامه وكسوته. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واحداً من هذه الخصال الثلاثة المتقدمة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات، فإن عجز عن ذلك لمرض

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

مثلاً.. صام عند القدرة، فإن لم يقدر لكونه دنفاً ـ أي ملازم المرض ـ يرجى له عفو الله ورحمته إذا صحت نيته وصدقت عزيمته.

والاستطاعة أن يجد ذلك القدر الذي يكفر به فاضلاً عن قوته وقوت عياله يومه وليلته، وعن كسوته بقدر ما يطعم أو يكسو. وقد روى ابن مردوديه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت آية الكفارة.. قال حذيفة: يا رسول الله، نحن بالخيار؟ فقال ﷺ: «أنت بالخيار، إن شئت أعتقت، وإن شئت كسوت، وإن شئت أطعمت، فمن لم يجد... فصيام ثلاثة أيام متتابعات». فلو كان ماله في غير بلده، ووجد من يسلفه.. لم ينتقل إلى الصوم، أو لم يجد من يسلفه فقيل: لا يلزمه انتظار ماله من بلده ويصوم، وهو الظاهر؛ لأنه غير واجد الآن. وقيل: ينتظر، والظاهر أنه إذا كان عنده فضل عن قوته وقوت من تلزمه نفقتهم يومه وليلته، وعن كسوتهم بقدر ما يطعم أو يكسو، فهو واجد، وبه قال أحمد وإسحاق والشافعي ومالك. وقال مالك: إلا أن يخاف الجوع، أو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه، وقال أبو حنيفة: إذا لم يكن عنده نصاب.. فهو غير واجد. وقرأ[1] أُبي وعبد الله والنخعي: ﴿أيام متتابعات﴾، واتفقوا على أن العتق أفضل، ثم الكسوة، ثم الإطعام. وبدأ الله بالأيسر فالأيسر على الحال، وهذه الكفارة التي نص الله عليها لازمة للحر المسلم.

وإذا حنث العبد.. فقال سفيان وأبو حنيفة والشافعي: ليس عليه إلا الصوم، لا يجزئه غيره. وحكى ابن نافع عن مالك: لا يكفر بالعتق؛ لأنه لا يكون له ولاء، ولكن يكفر بالصدقة إن أذن له سيده، والصوم أصوب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخصال الأربعة من الإطعام أو الكسوة أو العتق أو الصوم عند العجز عن غيره ﴿كَفَّٰرَةُ﴾ إثم حنث ﴿أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ بالله أو بأحد أسمائه أو صفاته، وحنثتم أو أردتم الحنث باليمين؛ لأن الكفارة لا تجب بمجرد اليمين، إنما تجب بالحنث بعد اليمين. وفيه إشارة إلى أن تقديم الكفارة

---

(١) البحر المحيط.

على اليمين لا يجوز، بل بعد اليمين، وقبل الحنث إذا أراد الحنث كما تقدم.

﴿وَاحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾؛ أي: قللوا أيمانكم ولا تبذلوها في أتفه الأمور وأحقرها، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلاً عن الأيمان الكاذبة قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾، أو إذا حلفتم.. فلا تنسوا ما حلفتم عليه، أو لا تحنثوا فيها ما استطعتم إلا لضرورة تعرض أو مصلحة تجعل الحنث راجحاً أو بأن تكفروها إذا حنثتم ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين لكم كفارة أيمانكم إذا حنثتم.. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: أعلام شريعته، وأحكام دينه، وجميع ما تحتاجون إليه في أمر دينكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه التي أنعم بها عليكم التي من أجلها: بيان آياته وأحكام شريعته. وهنا فصلان مهمان:

الفصل الأول في بيان حكم الآية، وفيه مسائل

المسألة الأولى: في بيان الكفارة، وهي أربعة أنواع:

النوع الأول من الكفارة: الإطعام، فيجب إطعام عشرة مساكين، واختلفوا في قدر ما يطعم لكل مسكين. فذهب قوم إلى أنه يطعم لكل مسكين مد من الطعام بمد النبي ﷺ، وهو رطل وثلث بالبغدادي من غالب قوت البلد، وكذلك سائر الكفارات، وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت، وبه قال سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد، وسليمان بن يسار، وعطاء، والحسن، وإليه ذهب مالك والشافعي.

ويروى عن عمر وعلي وعائشة: أنه يطعم لكل مسكين مدان من بر، وهو نصف صاع، وبه قال أهل العراق. وقال أبو حنيفة: إن أطعم من الحنطة فنصف صاع، وإن أطعم من غيرها فصاع، وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد. وقال أحمد بن حنبل: يطعم لكل مسكين مد من البر، أو نصف صاع من غيرها؛ مثل التمر والشعير. ومن شرط الإطعام تمليك الطعام للمساكين، فلو عشاهم وغداهم.. لم يجزه. وقال أبو حنيفة: يجزيه ذلك، ولا يجوز إخراج القيمة في الكفارة كالدراهم والدنانير. وقال أبو حنيفة: يجوز ذلك. ولا إخراج

الدقيق والخبز في الكفارة، بل يجب إخراج الحب، وجوزه أبو حنيفة. ولا يجوز صرف الكل إلى مسكين واحد في عشرة أيام.

النوع الثاني من الكفارات: الكسوة، واختلف العلماء في قدرها، فذهب قوم إلى أنه يكسو كل مسكين ثوباً واحداً مما يقع عليه اسم الكسوة، إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء أو نحو ذلك، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن ومجاهد وعطاء وطاووس، وإليه ذهب الشافعي. وقال مالك: يجب أن يكسو كل مسكين ما تجوز به الصلاة، فيكسو الرجل ثوباً، والمرأة ثوبين: درعاً وخماراً. وقال أحمد: للرجل ثوبٌ، وللمرأة ثوبان: درع وخمارٌ، وهو أدنى ما يجزىء في الصلاة. وقال ابن عمر: يجب قميص وإزار ورداء. وقال أبو موسى الأشعري: يجب ثوبان، وهو قول سعيد بن المسيب وابن سيرين. وقال إبراهيم النخعي: يجب ثوب جامع كالملحفة.

النوع الثالث من الكفارات: العتق، فيجب إعتاق رقبة مؤمنة، وكذلك يجب في جميع الكفارات. وأجاز أبو حنيفة والثوري إعتاق الرقبة الكافرة في جميع الكفارات إلا كفارة القتل، فإن الله قيد الرقبة بالإيمان في كفارة القتل. ومذهب الشافعي أن المطلق يحمل على المقيد، ولا يجوز إعتاق المرتد بالإجماع، ويشترط أن تكون الرقبة سليمة الرق حتى لو أعتق في الكفارة مكاتباً، أو أم ولد، أو عبداً اشتراه بشرط العتق، أو اشترى قريبه الذي يعتق عليه، فكل هؤلاء لا يجزىء في إعتاق الكفارة، وجوز أصحاب الرأي عتق المكاتَب في الكفارة إذا لم يؤد من نجوم الكتابة شيئاً. وجوزوا عتق القريب في الكفارة، ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضر بالعمل، فلا يجزىء مقطوع اليد والرجل، ولا الأعمى، ولا الزَّمِن، ولا المجنون المطبق. ويجوز عتق الأعور والأصم ومقطوع الأذنين والأنف؛ لأن هذه العيوب كلها لا تضر بالعمل. وعند أبي حنيفة: كل عيب يفوت جنساً من المنفعة يمنع الجواز، فيجوز عتق مقطوع إحدى اليدين، ولا يجوز عتق مقطوع الأذنين في الكفارة.

النوع الرابع من الكفارات: الصوم، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ يعني

الكفارة السابقة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني: فإذا عجز من لزمته كفارة اليمين عن الإطعام أو الكسوة أو العتق.. وجب عليه صيام ثلاثة أيام. قال الشافعي: إذا كان عنده قوته وقوت عياله يومه وليلته، وفضل ما يطعم عشرة مساكين.. لزمته الكفارة بالإطعام، وإن لم يكن عنده هذا القدر.. جاز له الصيام. وقال أبو حنيفة: يجوز له الصيام إذا لم يكن عنده من المال ما تجب فيه الزكاة، فجعل من لا زكاة عليه عادماً. وقال الحسن: إذا لم يجد درهمين صام. وقال سعيد بن جبير: ثلاثة دراهم.

واختلفوا في وجوب التتابع في الصيام عن كفارة اليمين على قولين:

أحدهما: أنه يجب التتابع فيه قياساً على كفارة الظهار والقتل، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وطاووس وعطاء وقتادة، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد، وأحد قولي الشافعي.

والقول الثاني: لا يجب التتابع في كفارة اليمين، فإن شاء تابع، وإن شاء فرَّق، والتتابع أفضل، وبه قال الحسن ومالك، وهذا القول الثاني للشافعي.

المسألة الثانية: كلمة: ﴿أو﴾ في الآية للتخيير بين الإطعام والكسوة والعتق، فإن شاء أطعم، وإن شاء كسا، وإن شاء أعتق، فبأيها أخذ المكفر.. فقد أصاب وخرج عن العهدة.

المسألة الثالثة: لا يجوز صرف شيء من الكفارات إلا إلى مسلم حر محتاج، فلو صرف إلى ذمي أو عبد أو غني.. لا يجزيه، وجوز أبو حنيفة صرفها إلى أهل الذمة، واتفقوا على أن صرف الزكاة إلى أهل الذمة لا يجوز.

المسألة الرابعة: اختلفوا في تقديم الكفارة على الحنث، فذهب قوم إلى جوازه؛ لما روي عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين، فرأى خيراً منها.. فليكفِّر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير» أخرجه الترمذي.

وعن عبد الرحمٰن بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا

عبد الرحمٰن، لا تسأل الإمارة، فإنها إن أتتك عن مسألة.. وكَلت إليها، وإن أتتك من غير مسألة.. أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها.. فأتِ الذي هو خير، وكفِّر عن يمينك» متفق عليه.

وهذا قول عمر وابن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ وعامة الفقهاء، وبه قال الحسن وابن سيرين، وإليه ذهب مالك والأوزاعي والشافعي إلا أن الشافعي قال: إن كَفَّر بالصوم قبل الحنث لا يجوز؛ لأنه بدني، إنما يجوز بالطعام أو الكسوة أو العتق. وقال أبو حنيفة: لا يجوز تقديم الكفارة على الحنث، والله أعلم.

الفصل الثاني: في مسائل يجملك معرفتها تكملة لدينك

المسألة الأولى: لا يجوز الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته. قال ﷺ: «من كان حالفاً لا يحلف إلا بالله» رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر. ورويا أيضاً عنه أن النبي ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه، فقال: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً.. فليحلف بالله، أو ليصمت». وروى البخاري وأحمد عن ابن عمر قال: «كان أكثر ما يحلف به النبي ﷺ لا ومقلب القلوب». والمحرم أن يحلف بغير الله حلفاً يلتزم به ما حلف عليه، والبر به فعلاً أو تركاً؛ لأن الشارع جعل هذا خاصاً بالحلف بالله وأسمائه وصفاته، أما ما يجيء لتأكيد الكلام، ويجري على ألسنة الناس دون قصد لليمين.. فلا يدخل في باب النهي؛ نحو قوله ﷺ للأعرابي: «أفلح وأبيه إن صدق»، ويدخل في النهي: الحلف بالنبي والكعبة وسائر ما هو معظم شرعاً.

المسألة الثانية: يجوز الحنث لمصلحة راجحة مع التكفير قبله؛ لما رواه أحمد والشيخان في «الصحيحين»: عن عبد الرحمٰن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها.. فأت الذي هو خير، وكفِّر عن يمينك»، وفي لفظ عن أبي داود والنسائي: «فكفر عن يمينك، ثم ائتِ الذي هو خير»، ودلَّ اختلاف الرواية في تقديم الأمر بالكفارة، أو تأخيره

على جواز الأمرين.

والحلف باعتبار المحلوف عليه ثلاثة أقسام:

١ ـ حلف على فعل واجب، أو ترك حرام، وهذا تأكيد لما كلف الله به، فيحرم الحنث، ويكون الإثم مضاعفاً.

٢ ـ حلف على ترك واجب أو فعل حرام، ويجب في هذا الحنث؛ لأن اليمين معصية، ومن ذلك الحلف على إيذاء الوالدين وعقوقهما، أو منع ذي حق حقه الواجب له، والحلف على ترك المباح؛ كالطيب من الطعام، فإن في ذلك تشريعاً بتحريم ما أحل الله، كما فعلت الجاهلية في تحريم بعض الطيبات.

٣ ـ حلف على فعل مندوب أو ترك مكروه، وهذا طاعة يندب له الوفاء به، ويكره الحنث، ومن ذلك الحلف على ترك طعام معين كالطعام الذي في هذه الصحفة[1] مثلاً، كما فعل عبد الله بن رواحة في تحريمه الطعام على نفسه، ثم أكله منه لأجل الضيف. فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله وهو عند النبي ﷺ، ثم رجع إلى أهله، فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظاراً له، فقال لامرأته: حبست ضيفي من أجلي، هو عليَّ حرام، فقالت امرأته: هو عليَّ حرام، وقال الضيف: هو عليَّ حرام، فلما رأى ذلك.. وضع يده وقال: كلوا بسم اللّه، ثم ذهب إلى النبي ﷺ، فأخبره، فقال النبي ﷺ: «قد أصبت»، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

المسألة الثالثة: الأيمان ثلاثة:

١ ـ ما ليس من أيمان المسلمين، كالحلف بالمخلوقات نحو الكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء وتربتهم، وهذه يمين غير منعقدة، ولا كفارة فيها، بل هي منهي عنها نهي تحريم لما تقدم من الأحاديث.

---

(١) الصحفة: قصعة الطعام.

٢ ـ يمين بالله تعالى، كقوله: والله لأفعلن كذا، وهذه منعقدة فيها الكفارة عند الحنث.

٣ ـ أيمان في معنى الحلف بالله؛ يريد بها الحالف تعظيم الخالق كالحلف بالنذر والحرام والطلاق والعتاق، كقوله: إن فعلت كذا.. فعليَّ صيام شهر، أو الحج إلى بيت الله، أو الحل علي حرام لا أفعل كذا، أو الطلاق يلزمني لا أفعل كذا، أو إن فعلته.. فنسائي طوالق، أو عبيدي أحرار، أو كل ما أملكه صدقة، أو نحو ذلك، والصحيح الموافق للأقوال الثابتة عن الصحابة ـ وعليه يدل الكتاب والسنة ـ أنه يجزئه كفارة اليمين في جميع ذلك كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، وقال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، وثبت في «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً.. فليأتِ الذي هو خير، وليكفِّر عن يمينه».

المسألة الرابعة: الأيمان مبنية على العرف والنية، لا على مدلولات اللغة واصطلاحات الشرع، فمن حلف لا يأكل لحماً، فأكل سمكاً.. لا يحنث ـ وإن سماه الله لحماً طرياً ـ إلا إن نواه، أو كان يدخل في عموم اللحم في عرف قومه، كما أن من يحلف غيره يميناً على شيء، فالعبرة بنية المحلِّف لا الحالف، فقد روى مسلم وابن ماجه: «اليمين على نية المستحلف». واليمين الغموس التي يهضم بها الحق، أو يقصد بها الخيانة والغش، لا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام، بل لا بد من التوبة وأداء الحق والاستقامة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾، وقال ﷺ: «من حلف على يمين صبرٍ، وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرىء مسلم.. لقي الله وهو عليه غضبان» رواه البخاري ومسلم.

الإعراب

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾.

﴿لَتَجِدَنَّ﴾ اللام موطئة للقسم، ﴿تجدن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح؛

لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على المخاطب، والجملة جواب لقسم محذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿أَشَدَّ﴾: مفعول أول لتجد. ﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿عَدَٰوَةً﴾: تمييز منصوب بـ﴿أَشَدَّ﴾. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَدَٰوَةً﴾، ولما كان فرعاً في العمل عن الفعل.. قرن معموله باللام، ولا يضر في عملها كونها مؤنثة بالتاء؛ لأنها مبنية عليها، ويجوز أن يكون ﴿لِّلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿عَدَٰوَةً﴾ فيتعلق بمحذوف. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلْيَهُودَ﴾: مفعول ثانٍ لوجد. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب معطوف على ﴿ٱلْيَهُودَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لوجد. ﴿أَشْرَكُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾.

﴿وَلَتَجِدَنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، اللام موطئة للقسم. ﴿تجدن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة القسم الأول. ﴿أَقْرَبَهُم﴾: مفعول أول، ومضاف إليه. ﴿مَّوَدَّةً﴾: تمييز، والعامل فيه اسم التفضيل. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿مَّوَدَّةً﴾، أو صفة لها، أو متعلق بـ﴿أقرب﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿تجدن﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت: إنّ: حرف نصب وتوكيد، نا: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿نَصَٰرَىٰ﴾: خبرها، وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّ﴾ الباء حرف جر وسبب، ﴿أنَّ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿مِنْهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿أنَّ﴾ ﴿قِسِّيسِينَ﴾: اسمها مؤخر. ﴿وَرُهْبَانًا﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿أنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب كونهم قسيسين ورهباناً، الجار والمجرور متعلق

بواجب الحذف لوقوعه خبراً تقديره: ذلك كائن بسبب كونهم قسيسين ورهباناً، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾: الواو عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب، والهاء: اسمها، وجملة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من جملة ﴿أن﴾ الأولى تقديره: ذلك كائن بسبب كونهم قسيسين ورهباناً، وعدم استكبارهم.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية أو عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿سَمِعُوا﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿سَمِعُوا﴾، وسمع هنا لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد باتفاق النحاة؛ لأنه دخل على ما يسمع. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، ﴿إِلَى الرَّسُولِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على: محمد، أو على المخاطب. ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾: مفعول به لـ﴿تَرَىٰٓ﴾، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وجملة ﴿تَرَىٰٓ﴾ جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة لفظاً، وإن تعلق بما قبله في المعنى، ولذلك جعله[1] بعضهم أول الربع، أو في محل الرفع معطوفة على خبر ﴿أن﴾ الثانية تقديره: ذلك بسبب أنهم لا يستكبرون، وأن أعينهم تفيض من الدمع عند سماع القرآن. ﴿تَفِيضُ﴾: فعل مضارع وفاعل ضمير يعود على ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾. ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَفِيضُ﴾، أو حال من فاعل ﴿تَفِيضُ﴾، والتقدير: حالة كونها مملوءة من الدمع.

---

(١) الجمل.

﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَفِيضُ﴾. ﴿عَرَفُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما عرفوه. ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من العائد المحذوف.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير الفاعل في ﴿عَرَفُوا۟﴾. ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ إلى قوله: ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿فَٱكْتُبْنَا﴾: الفاء حرف عطف وتفريع. ﴿اكتبنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَّا﴾ على كونها مقول القول. ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿اكتبنا﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَمَا لَنَا﴾ الواو استئنافية. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف وجوباً لوقوعه خبراً تقديره: وأي شيء مستقر لنا، والجملة مستأنفة على كونها مقول القول. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿نُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُؤْمِنُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير في ﴿لَنَا﴾، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور في ﴿لَنَا﴾، والتقدير: أي شيء استقر لنا حالة كوننا غير مؤمنين. ﴿وَمَا﴾: الواو عاطفة. ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر معطوفة على الجلالة. ﴿جَآءَنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير الفاعل. ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿جَآءَنَا﴾. ﴿وَنَطْمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلمين، والجملة في محل النصب معطوفة على ﴿نُؤْمِنُ﴾ على أنها منفية كنفي ﴿نُؤْمِنُ﴾، والتقدير: وما لنا لا نؤمن ولا نطمع،

فيكون في ذلك الإنكار؛ لانتفاء إيمانهم وانتفاء طمعهم مع قدرتهم على تحصيل الشيئين: الإيمان، والطمع في الدخول مع الصالحين. ويجوز[1] أن يكون التقدير: ونحن نطمع، فتكون الجملة حالاً من ضمير الفاعل في ﴿نُؤْمِنُ﴾. ﴿أَن يُدْخِلَنَا﴾: ناصب وفعل ومفعول. ﴿رَبُّنَا﴾: فاعل. ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُدْخِلَنَا﴾. ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف متعلق بـ﴿نطمع﴾، والتقدير: ونطمع في إدخال ربنا إيانا مع القوم الصالحين.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت قولهم المذكور، وأردت بيان جزاء قولهم المذكور.. فأقول لك: أثابهم الله. ﴿أثابهم الله﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ الباء حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أثاب﴾، والتقدير: فأثابهم الله بقولهم ذلك. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول ثان لـ﴿أثاب﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾: ولكنها صفة سببية. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ضمير ﴿أثابهم﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق به. ﴿وَذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿جَزَآءُ﴾ خبر ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول.

---

(١) أبو البقاء.

﴿وَكَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كذبوا﴾. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثانٍ. ﴿أَصْحَـٰبُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني. ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: مضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. أيُّ: منادى نكرة مقصودة، ها: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات أي من الإضافة، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع صفة لأي. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُحَرِّمُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿طَيِّبَـٰتِ﴾: مفعول به وهو مضاف. ﴿مَآ﴾: مضاف إليه. ﴿أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف والتقدير: طيبات ما أحله الله لكم. ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَكُلُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كلوا﴾. ﴿رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مما رزقكم الله إياه، وهو العائد على ﴿ما﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿حَلَـٰلًا﴾: مفعول ﴿كلوا﴾، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: كلوا أكلاً حلالاً. ﴿طَيِّبًا﴾: صفة لـ﴿حَلَـٰلًا﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة

﴿كلوا﴾. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ اسم موصول في محل النصب صفة للجلالة. ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾. ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِٱللَّغۡوِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يؤاخذ﴾. ﴿فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿اللغو﴾ تقديره: حالة كونه واقعاً في أيمانكم، أو متعلق[(١)] ﴿بِٱللَّغۡوِ﴾؛ لأنك تقول: لغا في يمينه، وهذا مصدر بالألف يعمل، ولكن معدى بحرف الجر، أو متعلق بـ﴿يُؤَاخِذُكُم﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك. ﴿يُؤَاخِذُكُمُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ﴾. ﴿بِمَا﴾: الباء حرف جر ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية تقديره: بتعقيدكم الأيمان أو بعقدكم الأيمان، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُؤَاخِذُكُم﴾، أو ﴿ما﴾ موصول اسمي، والعائد محذوف تقديره: ولكن يؤاخذكم بالذي عقدتم عليه الأيمان إذا حنثتم.

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾.

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الله يؤاخذ بالأيمان المعقودة، وأردت بيان كفارتها.. فأقول لك ﴿كفارته﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ﴾: خبر ومضاف إليه وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ لأنه في تأويل حرف مصدري، وفعل مبني للفاعل؛ أي: فكفارته أن يطعم الحانث عشرة مساكين، ﴿عَشَرَةِ﴾: مضاف. ﴿مَسَٰكِينَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف؛ لأنه على صيغة منتهى

---

(١) العكبري.

الجموع. ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿إِطۡعَامُ﴾، أو صفة[1] لمفعول محذوف تقديره: أن يطعم الحانث عشرة مساكين طعاماً، أو قوتاً من أوسط؛ أي: متوسطاً كما ذكره أبو البقاء. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ﴾ في[2] محل نصب مفعول ثانٍ لـ﴿إِطۡعَامُ﴾، والأول ﴿عَشَرَةِ﴾؛ أي: أن تطعموا عشرة مساكين إطعاماً من أوسط ما تطعمون. ﴿أَوۡسَطِ﴾: مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿تُطۡعِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول الثاني له محذوف تقديره: من أوسط ما تطعمونه، وهو العائد على ﴿مَا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿أَهۡلِيكُمۡ﴾: مفعول أول لـ﴿تُطۡعِمُونَ﴾، ومضاف إليه منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم؛ لأنه جمع سلامة لأهل لم يستوف الشروط؛ لأنه اسم جنس، فليس بعلم ولا صفة، والذي حسَّن[3] إلحاقه بجمع المذكر السالم: أنه كثيراً ما يستعمل استعمال مستحق لكذا في قولهم: هو أهل لكذا؛ أي: مستحق له، فأشبه الصفات، فجمع جمعها، قال تعالى: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ وقال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾. ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف وتخيير. ﴿كِسۡوَتُهُمۡ﴾ معطوف على إطعام ومضاف إليه. وقرىء شاذاً: ﴿أو كإسوتهم﴾ فالكاف اسم بمعنى: مثل في محل الرفع معطوف على ﴿إِطۡعَامُ﴾؛ أي: أو مثل إسوة أهليكم في الكسوة. ﴿أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾: معطوف أيضاً على ﴿إِطۡعَامُ﴾، وهو مصدر مضاف إلى المفعول أيضاً؛ لأنه في تقدير: أو أن يحرر الحانث رقبة؛ أي: نسمة.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ﴾.

﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الواجب في كفارته واحد من هذه الثلاثة المذكورة إذا وجدها كلاً أو بعضاً، وأردت بيان حكم ما إذا لم يجد واحداً منها.. فأقول لك: ﴿من لم يجد﴾. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو

---

(١) العكبري.
(٢) الجمل.
(٣) الفتوحات.

الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَجِدْ﴾: مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها، وهو من وجدان الضالة يتعدى إلى مفعول واحد محذوف تقديره: فمن لم يجد واحداً من هذه الثلاثة. ﴿فَصِيَامُ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿صيام﴾: مبتدأ وهو مضاف. ﴿ثَلَٰثَةِ﴾: مضاف إليه وهو مضاف. ﴿أَيَّامٍ﴾: مضاف إليه، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: فصيام ثلاثة أيام واجب عليه في كفارته، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية الزمانية. ﴿حَلَفْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها تقديره: وقت حلفكم وحنثكم، والظرف متعلق بـ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ﴾. ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره بياناً كائناً كذلك؛ أي: مثل بيان كفارة الأيمان، وذلك المصدر المحذوف مفعول مطلق لـ﴿يُبَيِّنُ﴾ منصوب به. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: لعل حرف نصب وترج بمعنى كي التعليلية، والكاف اسمها. وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ في محل الرفع خبرها، وجملة لعل مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، والتقدير: يبين الله لكم آياته لكي تشكروا نعمه التي من أجلِّها بيان هذه الأحكام، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَتَجِدَنَّ﴾: من وجد بمعنى: علم يتعدى إلى مفعولين، وهو من المثال

الواوي، وهو ما كانت فاؤه واواً.

﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ﴾: وهو اسم تفضيل من شدَّ الثلاثي أصله: أشدد نظير أفضل، وكذلك ﴿أَقْرَبَهُم﴾: اسم تفضيل من قرب ﴿عَدَٰوَةً﴾: العداوة: البغضاء يظهر أثرها في القول والفعل ﴿مَّوَدَّةً﴾: والمودة محبةٌ يظهر أثرها في القول والعمل ﴿ٱلنَّاسِ﴾: هم يهود الحجاز، ومشركو العرب، ونصارى الحبشة في عصر التنزيل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾: والقسيسين[1]: جمع قسيس على وزن: فعّيل، مثال مبالغة كصدّيق، وهو هنا رئيس النصارى وعالمهم، وأصله من: تقسس الشيء إذا تتبعه وتطلبه بالليل، يقال: تقسست أصواتهم؛ أي: تتبعتها بالليل، ويقال لرئيس النصارى: قس وقسيس، وللدليل بالليل: قسقاس وقسقس، قاله الراغب. وقال غيره: القس ـ بفتح القاف ـ تتبع الشيء، قال رؤبة:

أَصْبَحْنَ عَنْ قِسِّ ٱلأَذَىٰ غَوَافِلاَ يَمْشِيْنَ هَوْنَاً حُرَّدَاً بَهَالِلاَ

ومنه سمي عالم النصارى قسيساً لتتبعه العلم، ويقال: قس الأثر وقصه بالصاد أيضاً، ويقال: قس وقس ـ بفتح القاف وكسرها ـ وقسيس، وزعم ابن عطية أنه أعجمي معرب. وفي «المراغي»: والقسيسون: واحدهم قسيس، وقسّوس: واحدهم قس، وهو الرئيس الديني فوق الشماس، ودون الأسقف، والأصل في القسيسين أن يكونوا من أهل العلم بدينهم وكتبهم؛ لأنهم رعاة ومفتون، انتهى.

وقال أبو حيان: القس: رئيس النصارى في الدين والعلم، وجمعه: قسوس، سمي بالمصدر لتتبعه العلم والدين، وكذلك القسيس فعّيل، كالشرّيب، وجمع القسيس بالواو والنون، وجمع أيضاً على قساوسة، قال أمية بن أبي الصلت:

لَوْ كَانَ مُنْقَلَبٌ كَانَتْ قَسَاوِسَةٌ يُحْيِيْهِمُ ٱللَّهُ فِيْ أَيْدِيْهِمُ ٱلزُّبُرُ

قال الفراء: هو مثل مهالبة، كثرت السينات فيه، فأبدلوا إحداهن واواً،

---

(١) الفتوحات.

يعني: أن قياسه قساسة. انتهى. وقال عروة ابن الزبير[1]: ضيعت النصارى الإنجيل وما فيه، وبقي منهم رجل يقال له: قسيس، يعني بقي على دينه، لم يبدله، فمن بقي على دينه وهديه.. قيل له: قسيس، فعلى هذا القس والقسيس مما اتفق فيه اللغتان.

قلتُ: وهذا يقوي قول ابن عطية، ولم ينقل أهل اللغة في هذا اللفظ القُس بضم القاف لا مصدراً ولا وصفاً؛ فأما قس بن ساعدة الإيادي: فهو علم، فيجوز أن يكون مما غير عن طريق العلمية، ويكون أصله قس أو قس بالفتح أو بالكسر كما نقله ابن عطية. وقُس بن ساعدة كان أعلم أهل زمانه، وهو الذي قال فيه عليه السلام: «يُبعث أمةً واحدةً». اهـ «سمين».

﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾ واحدهم[2]: راهب، وهو المتبتل المنقطع في دير أو صومعة للعبادة، وحرمان النفس من التنعم بالزوج والولد، ولذات الطعام والزينة، وذكر القسيسين والرهبان للجمع بين العبَّاد والعلماء. وقال[3] الشوكاني: والرهبان: جمع راهب، كركبان وراكب، والفعل: رَهِبَ الله يرهبه إذا خافه، والرهبانية والترهب: التعبد في الصوامع. قال أبو عبيد: وقد يكون رهبان للواحد والجمع. قال الفراء: ويجمع رهبان إذا كان للمفرد على رهابين كقربان وقرابين. وقد قال جرير في الجمع:

رُهْبَانُ مَدْيَنَ لَوْ رَأَوْكَ تَرَهَّبُوْا

وقال الشاعر في استعمال رهبان مفرداً:

لَوْ أَبْصَرَتْ رُهْبَانُ دَيْرٍ فِيْ ٱلْجَبَلْ لَٱنْحَدَرَ ٱلرُّهْبَانُ يَسْعَىٰ وَنَزَلْ

﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ أي: تمتلىء دمعاً فتفيض بتدفق من جوانبها لكثرته؛ لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء، وجعل الأعين تفيض، والفائض إنما هو الدمع؛ قصداً للمبالغة، كقولهم: دمعت عينه، قال امرىء القيس:

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

فَفَاضَتْ دُمُوْعُ ٱلْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً   عَلَىٰ ٱلنَّحْرِ حَتَّىٰ بَلَّ دَمْعِيَ مَحْمَلِي

﴿وَنَطْمَعُ﴾: الطمع قريب من الرجاء، يقال منه: طمع ـ من باب سمع ـ يطمع طمعاً وطماعةً وطماعيةً. ﴿فَأَثَبَهُمُ﴾ يقال: أثابه على كذا إثابةً إذا جازاه وكافأه عليه، والإثابة المجازاة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾: الجحيم مأخوذ من قولهم: جحم فلان النار، إذا شدد إيقادها يجحَم جحماً من باب فتح، ويقال لعين الأسد: جحمة لشدة اتقادها، قال الشاعر:

وَٱلْـحَـرْبُ لاَ تُـبْـقِـيْ لِـجَـا   حِـمِـهَـا ٱلـتَّـحَـيُّـلَ وَٱلْـمِـزَاحْ

﴿بِٱللَّغْوِ﴾: اللغو: مصدر لغا يلغو لغواً، يقال: لغا بكذا إذا تكلم باللغو، واللغو: ما لا يعتد به من كلام أو غيره، يقال: تكلم باللغو واشتغل باللغو؛ أي: بما لا يعتد به، واللغو في اليمين: قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا واللَّهِ وبلى واللَّهِ. ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾؛ أي: بما صممتم وعزمتم عليه منها وقصدتموه، ومنه قول الفرزدق:

وَلَـسْـتَ بِـمَـأْخُـوْذٍ بِـلَـغْـوٍ تَـقُـوْلُـهُ   إِذَا لَـمْ تُـعَـمِّـدْ عَـاقِـدَاتِ ٱلْـعَـزَائِـمِ

وأصل العقد نقيض الحل، والعقد على ضربين: حِسيّ كعقد الحبل، وحُكْميّ كعقد البيع واليمين والعهد، قال الشاعر:

قَـوْمٌ إِذَا عَـقَـدُوْا عَـقْـدَاً لِـجَـارِهِـمُ   شَـدُّوْا ٱلْـعِـنَـاجَ وَشَـدُّوْا فَـوْقَـهُ ٱلْـكَـرَبَـا

فعقد اليمين: توكيدها بالقصد والغرض الصحيح، وتعقيدها: المبالغة في توكيدها ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾: وأصل الكفارة من الكفر، وهو الستر والتغطية، ثم صارت في اصطلاح الشرع اسماً لأعمال كفَّرتْ بعض الذنوب والمؤاخذات؛ أي: تغطيها وتخفيها حتى لا يكون لها أثر يؤاخذ به المرء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾: والأوسط: الأغلب من الطعام في البيوت، لا الدون الذي يتقشف به أحياناً، ولا الأعلى الذي يتوسع به أحياناً أخرى ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أي: إعتاق نسمة مملوكة، والتحرير: الإخراج من الرق، ويستعمل التحرير في فك الأسير وإعفاء المجهود بعمل عن عمله، وترك إنزال الضرر به، ومنه قول الفرزدق:

أَبَنِي غُدَانَةَ إِنَّنِي حَرَّرْتُكُمْ فَوَهَبْتُكُمْ لِعَطِيَّةِ بْنِ جَعَالِ

أي: حررتكم من الهجاء الذي كان سيضع منكم، ويضر بأحسابكم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بالقسم ونون التوكيد في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ﴾.

ومنها: الطباق بين لفظي: ﴿عَدَٰوَةً﴾ و﴿مَّوَدَّةً﴾، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ أي: تمتلىء من الدمع، فاستعير الفيض الذي هو الانصباب للامتلاء مبالغة، ثم اشتق من الفيض بمعنى الامتلاء، تفيض بمعنى تمتلىء على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ حيث أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: عتق إنسان. وخص الرقبة بالذكر من بين أجزاء الإنسان؛ لأن الرقبة غالباً محل للتوثق والاستمساك.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾؛ لأن العقد نقيض الحل، حقيقة في الأجسام كالحبل، مجاز في المعاني.

ومنها: إطلاق الخاص وإرادة العام في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾؛ لأن المراد مطلق الانتفاع بالرزق أكلاً أو شرباً أو لبساً أو غير ذلك، وإنما خص الأكل بالذكر من بين أنواع الانتفاعات؛ لأنه أغلب الانتفاع بالرزق.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ
لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ
عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (٩٢) لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا
مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٩٣) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ
ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٩٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم
مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ
مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ
عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ
مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (٩٦) ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ
قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ (٩٧) ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
(٩٨) مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ (٩٩) قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ
وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (١٠٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى فيما سلف عن تحريم ما أحل الله من الطيبات، وأمر بأكل ما رزق الله من الحلال الطيب، وكان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر.. بيّن هنا أنهما غير داخلين فيما يحل، بل هما مما يحرم.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ. . .﴾ الآية، قال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما أمر الله تعالى بأكل ما رزقهم حلالاً طيباً، ونهاهم عن تحريم ما أحله لهم مما لا إثم فيه، وكان المستطاب المستلذ عندهم الخمر والميسر، وكانوا يقولون: الخمر تطرد الهموم، وتنشط النفس، وتشجع الجبان، وتبعث على المكارم، والميسر يحصل به تنمية المال، ولذة الغلبة.. بيّن تعالى تحريم الخمر والميسر؛ لأن هذه اللذة يقارنها مفاسد عظيمة، ففي الخمر إذهاب العقل، وإتلاف المال، ولذلك ذمَّ بعض حكماء الجاهلية إتلاف المال بها، وجعل ترك ذلك مدحاً فقال:

أَخِي ثِقَةٍ لاَ تُتْلِفُ الْخَمْرُ مَالَهُ ... وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهْ

وتنشأ عنها مفاسد أُخر من قتل النفس، وشدة البغضاء، وارتكاب المعاصي، والميسر فيه أخذ المال بالباطل، انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى عن تحريم ما أحل من الطيبات، ثم استثنى الخمر والميسر.. استثنى هنا مما يحل الصيد في حال الإحرام، وأوجب جزاء على من قتله، وبيَّن أن صيد البحر وطعامه حلال، وقد نزلت هذه الآية عام الحديبية حين ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم، فيتمكنون من صيده أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها هي: أنه تعالى لما أمرهم أن لا يحرموا الطيبات، وأخرج من ذلك الخمر والميسر، وهما حرامان دائماً.. أخرج بعده من الطيبات ما حرم في حال دون حال، وهو: الصيد، وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه، ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة، انتهى.

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ. . .﴾ الآية، مناسبة[1]

(١) المراغي.

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى في الآية السالفة المُحْرِمَ عن الاصطياد.. بيّن هنا أن البيت الحرام كما أنه سبب لأمن الوحش والطير، هو سبب لأمن الناس من الآفات والمخاوف، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة.

قال أبو حيان[1]: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة: وذلك أنه تعالى ذكر تعظيم الإحرام بالنهي عن قتل الوحش فيه بحيث شرع بقتله ما شرع، وذكر تعظيم الكعبة بقوله: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ فذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس؛ أي: ركز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى أحد، وصارت وازعة لهم من الأذى، وهم في الجاهلية الجهلاء لا يرجون جنة، ولا يخافون ناراً؛ إذ لم يكن لهم ما يمنعهم من أذى بعضهم، فقامت لهم حرمة الكعبة مقام حرمة الملك، هذا مع تنافسهم وتحاسدهم ومعاداتهم وأخذهم بالثأر، ولذلك جعل الثلاثة المذكورة بعد الكعبة قياماً للناس، فكانوا لا يهيجون أحداً في الشهر الحرام، ولا من ساق الهدي؛ لأنه يعلم أنه لم يجىء لحرب، ولا من خرج يريد البيت بحج أو عمرة، فتقلد من لحى الشجر، ولا من قضى نسكه، فتقلد من شجر الحرم، ولما بعثت قريش زمن الحديبية إلى المؤمنين الحلس.. قال رسول الله ﷺ: «هذا رجل يعظم الحرمة فالقوه بالبدن مشعرة» فلما رآها الحلس عظم عليه ذلك، وقال: ما ينبغي أن يصد هؤلاء، ورجع عن رسالة قريش. انتهى.

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أرشدنا إلى بعض آيات علمه في خلقه التي جعل بها البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد.. نبهنا في هذه الآية إلى أن العليم بكل شيء لا يمكن أن يترك الناس سدى، فهو لم يخلقهم عبثاً، ومن ثم لا يليق بحكمته وعدله أن يجعل الذين اجترحوا

---

(١) البحر المحيط.

السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا أن يسوّي بين الطيّب والخبيث، فيجعل البر كالفاجر، والمصلح كالمفسد، بل لا بد من الجزاء بالحق، لذلك جاءت هذه الآيات ترغيباً لعباده وترهيباً لهم ووعداً ووعيداً.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ. . .﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما حذر عن المعصية، ورغب في التوبة بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ الآية وأتبعه في التكليف بقوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، ثم بالترغيب في الطاعة، والتنفير عن المعصية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. . أتبعه بنوع آخر من الترغيب في الطاعة، والتنفير عن المعصية فقال: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ. . .﴾ الآية، أو يقال: لما بين أن عقابه شديد لمن عصى، وأنه غفور رحيم لمن أطاع. . بين أنه لا يستوي المطيع والعاصي، وإن كان من العصاة والكفار كثرة، فلا يمنعه كثرتهم من عقابهم، ذكره أبو حيان في «البحر».

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما رواه أحمد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما: فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ. . .﴾ الآية، فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: إثمٌ كبير، وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أمَّ أصحابه في المغرب، فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أشد منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾، ثم نزلت آية أشد من ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، قالوا: انتهينا ربنا، فقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله، وماتوا على سرفهم، وكانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، وقد جعله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(١) لباب النقول.

جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ . . .﴾ إلى آخر الآية.

وروى النسائي والبيهقي عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا، فلما أن ثمل القوم.. عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر في وجهه ورأسه ولحيته فيقول: صنع بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فيقول: واللَّهِ لو كان بي رؤوفاً رحيماً.. ما صنع بي هذا، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ. . .﴾ الآية. فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان قُتل يوم بدر، وفي بطن فلان قتُل يوم أحد، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . .﴾ الآية.

قوله تعالى[1]: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حُرِّمت قال: فقال لي أبو طلحة: أخرج فأهرقها، فجَرَت في سكك المدينة، فقال بعض القوم: قد قتل قوم وهي في بطونهم، فأنزل الله: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ . . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الواحدي والأصبهاني في «الترغيب» عن جابر: أن النبي ﷺ ذكر تحريم الخمر، فقام أعرابي فقال: إني كنت رجلاً كانت هذه تجارتي فاعتبقت منها مالاً، فهل ينفع ذلك المال إن عملت بطاعة الله تعالى؟ فقال النبي ﷺ: إن الله لا يقبل إلا الطيب، فأنزل الله تعالى تصديقاً لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ. . .﴾ الآية.

وفي «مسند» أحمد، و«مسند» أبي داود والترمذي: أن عمر كان يدعو الله تعالى: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فلما نزلت آية البقرة.. قرأها عليه

---

(١) لباب النقول.

النبي ﷺ، فظل على دعائه، وكذلك لمَّا نزلت آية النساء، فلما نزلت آية المائدة.. دُعي فقرئت عليه، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال: انتهينا، انتهينا.

وروي في سبب هذه الآيات: أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: فيَّ نزل تحريم الخمر، صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعانا، فأتاه ناس، فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر - وذلك قبل تحريمها - فتفاخروا، فقالت الأنصار: الأنصار خير، وقالت قريش: قريش خير، فأهوى رجل بلحى جزور - فك رأس جزور - فضرب على أنفي ففزره، قال: فأتيت النبي ﷺ، فذكرت له ذلك فنزلت.

والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج: أن الناس كانوا مغرمين بحبها، كلفين بها، فلو حرمت في أول الإسلام.. لكان تحريمها صارفاً لكثير من المدمنين لها عن الإسلام، ومن ثم جاء تحريمها أولاً في سورة البقرة على وجه فيه مجال للاجتهاد، فيتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه، ثم ذكرها في سورة النساء بما يقتضي تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة؛ إذ نهى عن القرب من الصلاة في حال السكر، فلم يبقَ لمن يصر على شربها إلا الاغتباق بعد صلاة العشاء، وضرره قليل، والصبوح من بعد صلاة الصبح لمن لا عمل له، فلا يخشى أن يمتد سكره إلى وقت الظهر، ثم تركهم الله على هذه الحال زمناً قويَ فيه الدين، وكثرت الوقائع التي ظهر لهم بها إثمها وضررها، فحرمها تحريماً باتاً لا هوادة فيه.

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت في البقرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ شربها قوم لقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وتركها قوم لقوله: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، منهم عثمان بن مظعون حتى نزلت الآية التي في النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فتركها قوم، وشربها قوم يتركونها بالنهار حين الصلاة ويشربونها بالليل حتى نزلت الآية التي في المائدة ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ...﴾ الآية. قال عمر: أَقُرِنْتِ بالميسر والأنصاب

والأزلام؟ بعداً لكِ وسحقاً، فتركها الناس، ووقع في صدور أناس منها، وقالوا: ما حرم علينا شيء أشد من الخمر حتى جعل الرجل يلقى صاحبه فيقول: إن في نفسي شيئاً، فيقول صاحبه: لعلك تذكر الخمر، فيقول: نعم، فيقول: إنَّ في نفسي مثل ما في نفسك، حتى ذكر ذلك قوم واجتمعوا فيه، فقالوا: كيف نتكلم ورسول الله شاهد ـ حاضر ـ وخافوا أن ينزل فيهم ـ أي قرآن ـ فأتوا رسول الله ﷺ وقد أعدوا له حجة، فقالوا: أرأيت حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش، أليسوا في الجنة؟ قال: بلى، قالوا: أليسوا قد مضوا وهم يشربون الخمر، فحرم علينا شيء دخلوا الجنة وهم يشربونه، فقال: «قد سمع الله ما قلتم، فإن شاء أجابكم»، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾، فقالوا: انتهينا. ونزل في الذين ذكروا حمزة وأصحابه: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ . . . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالله ورسوله وما أنزل إليه ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾؛ أي: إن الخمر التي تشربونها ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ الذي تتياسرونه وتلعبون به ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ التي تذبحون عندها ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾؛ أي: القداح التي تستقسمون بها ﴿رِجْسٌ﴾؛ أي: قذر تعاف منه العقول السليمة، وإثم سخطه الله وكرهه لكم، وهو ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وتحسينه وتزيينه لكم، وقيل: هو الذي كان عمل هذه الأمور بنفسه، فاقتدى به بنو آدم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾؛ أي: فاتركوا هذا الرجس ولا تعملوه، وكونوا في جانب غير الجانب الذي هو فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم وسلامة أبدانكم والتواد فيما بينكم، فجملة الترجي علة لما قبلها؛ أي: فاجتنبوا هذا المذكور لكي تنجوا من العذاب، وتدركوا الفلاح إذا اجتنبتم هذه المحرمات التي هي رجس.

والخمر: عصير العنب إذا اختمر؛ أي: صار خمراً. والمراد هنا: كل

شراب مسكر؛ لأن الخمر هنا كل ما خامر العقل وغطاه، وقد صح من حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «كل شراب أسكر فهو حرام» أخرجاه في «الصحيحين». وزاد الترمذي وأبو داود: «ما أسكر الفَرَقُ منه فملءُ الكف منه حرام». الفَرَق بالتحريك: إناء يسع ستة عشر رطلاً.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من شرب الخمر.. لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب.. تاب الله عليه، فإن عاد.. لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب.. تاب الله عليه، فإن عاد.. لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب.. تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة.. لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب.. لم يتب الله عليه، وسقاه من نهر الخبال»، قالوا: يا أبا عبد الرحمٰن، وما نهر الخبال؟ قال: صديد أهل النار. أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. وأخرجه النسائي.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه». أخرجه أبو داود.

والميسر: القمار، والقمار كل لعب يشترط فيه أن يأخذ الغالب من المغلوب شيئاً سواء كان بالورق، أو بغيره كالقداح. وسُمي القمار ـ أي: اللعب ـ ميسراً؛ لأن فيه أخذ المال بيسر، ويطلق الميسر أيضاً على الجزور التي كانوا يتقامرون عليها، وذلك أنهم كانوا ينحرون الجزور ويقسمونها ثمانية وعشرين قسماً أو عشرة أقسام، ثم يضربون بالقداح، وفيها الرابح والغفل، فمن خرج له قدح رابح.. فاز وأخذ نصيبه من الجزور، ومن خرج له الغفل.. غرم ثمنها.

والأنصاب: الحجارة التي كانوا يذبحون قرابينهم عندها ويعبدونها ويتقربون إليها، سُميت الأصنام بذلك؛ لأنها تنصب وترفع للعبادة. والأزلام: قداح؛ أي: قطع رقيقة من الخشب بهيئة السهام، كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم.

وبعد أن أمر الله تعالى باجتناب الخمر والميسر.. ذكر أن فيهما مفسدتين:

إحداهما: دنيوية، **وثانيتهما**: دينية، وقد أشار إليهما بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ويقصد ﴿أَن يُوقِعَ﴾ ويوجد ﴿بَيْنَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾ والإيذاء ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾؛ أي: الشحناء ﴿فِى ٱلْخَمْرِ﴾؛ أي: بسبب تزيين شرب الخمر لكم إذا صرتم نشاوى، كما فعل الأنصاري الذي شج رأس سعد بن أبي وقاص بلحى الجمل؛ لأنها تزيل عقل شاربها، فيتكلم بالفحش، وربما أفضى ذلك إلى المقاتلة، وذلك سبب إيقاع العداوة والبغضاء بين شاربيها ﴿و﴾ بسبب تزيين ﴿الميسر﴾ واللعب بالقمار لكم إذا ذهب ما لكم. وقال[١] قتادة: كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله، فيُقمَر ـ يغلب ـ فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله في يد غيره، فيورثه ذلك العداوة والبغضاء، فنهى عن ذلك، فظهر بذلك أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، وهذا فيما يتعلق بأمر الدنيا، وفيهما مفاسد تتعلق بأمر الدين، وهي ما ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿و﴾ يريد أن ﴿يصدكم﴾ ويمنعكم ويصرفكم ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وطاعته ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أفردها بالذكر مع دخولها في ذكر الله تعظيماً لها، وإظهاراً لشرفها؛ لأن شرب الخمر يورث اللذة الجسمانية، والنفس إذا استغرقت فيها.. غفلت عن ذكر الله وعن الصلاة، ولأن الشخص إذا كان غالباً في القمار.. صار استغراقه في لذة الغلبة مانعاً من أن يخطر بباله شيء سواه.

فإن قلتَ[٢]: لِمَ جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام في الآية الأولى، ثم أفرد الخمر والميسر في هذه الآية؟

قلتُ: لأن الخطاب مع المؤمنين بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، والمقصود نهيهم عن شرب الخمر واللعب بالقمار، وإنما ضم الأنصاب والأزلام إلى الخمر والميسر في الآية الأولى؛ لتأكيد تحريم الخمر والميسر، فلما كان المقصود من الآية النهي عن شرب الخمر والميسر لا جرم.. أفردهما بالذكر في الآية الثانية، والله أعلم.

---

(١) الخازن.　　(٢) الخازن.

والمعنى: أن[١] الشيطان يريد لكم شرب الخمر ومياسرتكم بالقداح ليعادي بعضكم بعضاً، ويبغض بعضكم إلى بعض عند الشراب والمياسرة، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوة الإسلام، ويصرفكم بالسكر والاشتغال بالميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي فرضها عليكم تزكية لنفوسكم وتطهيراً لقلوبكم.

أما كون الخمر سبباً لوقوع العداوة والبغضاء بين الناس حتى الأصدقاء منهم: فلأن شارب الخمر يسكر، فيفقد العقل الذي يمنع من الأقوال والأعمال القبيحة التي تسوء الناس، كما يستولي عليه حب الفخر الكاذب، ويسرع إليه الغضب بالباطل، فكثيراً ما يجتمع الشَرَبَة على مائدة الشراب، فيثير السكر كثيراً من ألوان البغضاء بينهم، وقد ينشأ القتل والضرب، والسلب والفسق والفجور، وإفشاء الأسرار، وهتك الأستار، وخيانة الحكومات والأوطان.

وأما الميسر: فهو مثار العداوة والبغضاء بين المتقامرين، فإن تعداهم فإلى الشامتين والعائبين، ومن تضيع عليهم حقوقهم من الدائنين وغير الدائنين، وكثيراً ما يفرط المقامر في حقوق الوالدين والزوج والأولاد حتى يوشك أن يمقته كل أحد، والميسر مع ما فيه من التوسعة على المحتاجين فيه إجحاف بأرباب الأموال؛ لأن من صار مغلوباً في القمار مرة.. دعاه ذلك إلى اللجاج والتمادي فيه رجاء أن يغلب فيه مرة أخرى، وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال، ولا شك أنه بعد ذلك سيصير فقيراً مسكيناً، ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا له غالبين.

وأما صدُّ الخمر والميسر عن ذكر الله وعن الصلاة، وهو مفسدتهما الدينية: فذلك أظهر من كونهما مثاراً للعداوة والبغضاء، وهما مفسدتهما الاجتماعية؛ لأن كل سكرة من سكرات الخمر، وكل مرة من لعب القمار، تصد السكران واللاعب وتصرفه عن ذكر الله تعالى الذي هو روح الدين، وعن الصلاة التي هي عماد

---

(١) المراغي.

د الدين؛ إذ السكران لا عقل له يذكر به آلاء الله وآياته، ويثني عليه بأسمائه وصفاته، أو يقيم الصلاة التي هي ذكر الله، ولو ذكر السكران ربه وحاول الصلاة.. لم تصح له، وكذلك المقامر تتوجه جميع قواه العقلية إلى اللعب الذي يرجو منه الربح، ويخشى الخسارة، فلا يتوجه همُّه إلى ذكر الله، ولا يتذكر أوقات الصلاة وما يجب عليه من المحافظة عليها.

وقد دلت المشاهدة على أن القمار أكثر الأعمال التي تشغل القلب وتصرفه عن كل ما سواه، بل يحدث الحريق في دار المقامر، أو تحل المصائب بالأهل والولد، ويستغاث به فلا يغيث، بل يمضي في لعبه، والنوادر في ذلك كثيرة على أن المقامر إذا تذكر الصلاة وترك اللعب لأجلها، فإنه لا يؤدي منها إلا الحركات بدون أدنى تدبر أو خشوع، لكنه على كل حال يفضل السكران، إذ إنه لا يكاد يضبط أفعال الصلاة.

ولما بين الله سبحانه وتعالى علة تحريم الخمر والميسر وحكمته.. أكد ذلك التحريم فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ومنزجرون عن إتيانهما، والاستفهام فيه استفهام تهديدي بمعنى الأمر، وهو أبلغ من الأمر صريحاً، فكأنه قيل: قد بينت لكم ما في هذه الأمور من أنواع الصوارف والموانع والقبائح، فهل أنتم منتهون مع هذه الصوارف، أم أنتم على ما كنتم عليه كأنكم لم توعظوا ولم تزجروا؟

والخلاصة: قد بينتُ لكم مفاسد الخمر والميسر، فهل تنتهون عنهما، أم أنتم مقيمون عليهما كأنكم لم توعظوا بهذه المواعظ؟ وقد أكد(١) الله سبحانه وتعالى تحريم الخمر والميسر بوجوه من التأكيد:

منها: أنه سماهما رجساً، والرجس كلمة تدل على منتهى ما يكون من القبح والخبث، ومن ثم قال ﷺ: «الخمر أمُّ الخبائث».

ومنها: أنه قرنهما بالأنصاب والأزلام التي هي من أعمال الوثنية وخرافات

---

(١) المراغي.

الشرك، وقد روى ابن ماجه عن أبي هريرة قوله ﷺ: «مدمن الخمر كعابد وثن».

ومنها: أنه جعلهما من عمل الشيطان؛ لما ينشأ عنهما من الشرور والطغيان وسخط الرحمٰن.

ومنها: جعل اجتنابهما سبيلاً للفلاح والفوز بالنجاة.

ومنها: أنه جعلهما مثاراً للعداوة والبغضاء، وهما من أقبح المفاسد الدنيوية التي تولد كثيراً من المعاصي في الأموال والأعراض والأنفس.

ومنها: أنه جعلهما صادين عن ذكر الله وعن الصلاة، وهما روح الدين وعماده وزاده وعتاده.

وفي هذه الآية[١]: دليل على تحريم الخمر لما تضمنه الأمر بالاجتناب من الوجوب، ولما تقرر في الشريعة من تحريم قربان الرجس فضلاً عن جعله شراباً يشرب.

وقد أجمع المسلمون على ذلك إجماعاً لا شك فيه ولا شبهة، وأجمعوا أيضاً على تحريم بيعها والانتفاع بها ما دامت خمراً. وكما دلت هذه الآية على تحريم الخمر.. دلت أيضاً على تحريم الميسر والأنصاب والأزلام، ثم أكد الله سبحانه وتعالى هذا التحريم بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى أيها المؤمنون فيما أمركم به من اجتناب الخمر والميسر وغيرهما من سائر المحرمات؛ كالأنصاب والأزلام ونحوهما. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ فيما بيَّنه لكم مما نزل عليكم من نحو قوله: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام». ﴿وَٱحْذَرُواْ﴾، عن مخالفتهما في التكاليف؛ أي: واحترزوا واجتنبوا مخالفة الله، ومخالفة رسوله ﷺ فيما أمركم به ونهاكم عنه، أو المعنى: واحذروا ما يصيبكم إذا أنتم خالفتم أمرهما من فتنة في الدينا، وعذاب في الآخرة، فإنه سبحانه لم يحرم عليكم إلا ما فيه ضرر لكم في دنياكم وآخرتكم، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ

---

(١) الشوكاني.

أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ وأعرضتم عن اتباع أمرهما ونهيهما ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أن الحجة قد قامت عليكم، وانقطعت بكم الأعذار، واستوجبتم السخط، واستحققتم العقاب؛ لأنه ﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ محمد ﷺ ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ أي: التبليغ من الله إليكم البلاغ المبين؛ أي: الواضح بلغة تعلمونها، والرسول قد خرج من عهدة التبليغ كمال الخروج، وما بقي بعد ذلك إلا العقاب؛ أي: فاعلموا أنكم لم تضروا الرسول ﷺ بتوليكم، فإنما عليه البلاغ، وقد أدى ما عليه، وإنما ضررتم به أنفسكم، وفي هذا تهديد أكيد، ووعيد شديد لمن خالف أوامر الله وفعل نواهيه.

ولما قال ناس من الصحابة لرسول الله ﷺ حين حرمت الخمر والميسر: كيف حال إخواننا الذين ماتوا، وهم يشربون الخمر، ويلعبون بالميسر.. أنزل الله فيهم قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله وبالقرآن ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: وعملوا الأعمال الصالحة فيما بينهم وبين ربهم؛ سواء كانوا من الأحياء أو الأموات ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: إثم ومؤاخذة ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾؛ أي: فيما أكلوا من مال الميسر، أو شربوا من الخمر فيما مضى قبل تحريمهما وتحريم غيرهما مما لم يكن محرماً أولاً ثم حُرِّم. ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾؛ أي: إذا امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بما كان قد نزل من الأحكام ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي كانت قد شرعت كالصلاة والصيام وغيرهما ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ما حرم عليهم بعد ذلك عند العلم به ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بما نزل فيه وفي غيره ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾؛ أي: استمروا على التقوى بامتثال جميع المأمورات واجتناب جميع المنهيات ﴿وَّأَحۡسَنُواْ﴾؛ صالح أعمالهم، فأتوا بها على وجه الكمال، وتمموا نقص فرائضها بنوافل الطاعات، وأخلصوها لله تعالى ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لأعمالهم، والمخلصين لها لوجهه؛ أي: يثيبهم على إخلاصهم، فلا يبقى في قلوبهم أثر من الآثار السيئة التي وصف بها الخمر والميسر من الإيقاع في العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

والخلاصة: أن مَن صحَّ إيمانه، وصلح عمله، وعمل في كل حين نصوص

الدين، وما أداه إليه اجتهاده، واستمر على ذلك حتى ارتقى إلى مقام الإحسان.. فلا يحول ما كان قد أكل أو شرب مما لم يكن محرماً عليه بحسب اعتقاده، دون تزكية نفسه وتطهير قلبه.

وقال الصاوي: والحاصل[١] أنه كرر سبحانه وتعالى قوله: ﴿ٱتَّقَواْ﴾ ثلاثاً، فقيل: **الأول**: محمول على مبدأ العمر، **والثاني**: على وسطه، **والثالث**: على آخره. وقيل: **الأول**: اتقوا المحرمات خوف الوقوع في الكفر، **والثاني**: الشبهات خوف الوقوع في المحرمات، **والثالث**: بعض المباحات خوف الوقوع في الشبهات. وقيل: **الأول**: تقوى العبد بينه وبين ربه، **والثاني**: تقوى العبد بينه وبين نفسه، **والثالث**: تقوى العبد بينه وبين الناس؛ لأن العبد لا يكمل إلا إذا كان طائعاً فيما بينه وبين ربه، مجاهداً فيما بينه وبين نفسه، محافظاً على حقوق العباد. انتهى.

تتمة: اختلف[٢] العلماء في شرب الخمر والنجاسات عند الضرورة. وأصح الآراء في ذلك: أنه يجوز بشرط الاضطرار الذي يبيح المحرمات من طعام وشراب بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ كمن غُص بلقمة فكاد يختنق، فلم يجد ما يسيغها به سوى الخمر، وكمن أصابته نوبة ألم في القلب كادت تقضي عليه، وقد أخبره الطبيب بأن لا سبيل لدفع الخطر سوى شرب مقدار من الخمر من النوع المعروف باسم: كونياك، فقد يرى الطبيب أنه يتعين في بعض الأحيان لعلاج ما يعرض من آلام القلب لدرء الخطر كما ثبت بالتجربة.

أما التداوي بالخمر لمن يظن نفعها ولو بإخبار الطبيب، كتقوية المعدة أو الدم أو نحو ذلك مما تسمعه من كثير من الناس: فذلك منهي عنه للحديث: «إنه ليس بدواء، ولكنه داء» رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

وكان سببه أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الخمر ـ وكان

---

(١) الصاوي.

(٢) المراغي بتصرف في بعض المواضع.

يصنعها ـ فنهاه عنها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال له النبي ﷺ ذلك.

وقوله: «ولكنه داء» هذا هو رأي الأطباء؛ إذ أن المادة المسكرة من الخمر سمٌّ تتوالد منها أمراض كثيرة يموت بها في كل عام عدد لا يحصى من الناس في البلاد التي ابتليت بها، والذين يشربون الخمر ولو بقصد التداوي يؤثِّر سمها في أعصابهم بكثرة التعاطي، فتصير مطلوبة عندهم لذاتها، فيضرهم سُمُّها، فعلى المسلم الصادق الإيمان أن لا يغترَّ برأي بعض الأطباء الذين يصفونها للتداوي لمثل الأمراض التي يصفونها لها عادة. وقد دلت التجارب على أن الذين يبتلون بشربها لا يقدمون على ذلك إلا بإغراء المعاشرين من الأهل والأصحاب على استبشاعهم لها، واعتقادهم ضررها، ومخالفتهم أوامر دينهم، لكن الذي يسهل عليهم ذلك: ظنهم أن الضرر المتيقن إنما يكون بالإسراف والانهماك في الشراب، وأن القليل منها إن لم ينفع فلا يضر، فلا ينبغي تركه مع ما فيه من لذة النشوة، والذهول عن هموم الدنيا وآلامها، إلى ما في ذلك من مجاملة الإخوان، لكنهم مخدوعون؛ إذ هم لو سألوا من سبقهم إلى هذه البلوى وأسرف في السكر حتى فسدت صحته ومروءته، وضاعت ثروته، هل كنت حين بدأت تنوي الإسراف والإدمان؟ لأجابك بأنه ما كان يقصد إلا النزر القليل في فترات متطاولة من الزمن، وما كان يعلم أن القليل يجر إلى الكثير الذي يصيبه بالداء الدوي، ولا يجد إلى الخلاص منه سبيلاً. وقد يعرض لبعض من يؤمن بحرمة الخمر شبهاتٌ فيقول: إن الخمر المتخذة من العنب هي المحرمة لذاتها، وأن ما عداها لا يحرم منه إلا المقدار المسكر فعلاً، لكنهم واهمون فيما فهموا؛ إذ جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام» رواه مسلم من حديث ابن عمر.

وآخر تَعِلَّة[1] لهم: الغرور بكرم الله وعفوه، أو اعتمادهم على بعض الأعمال الصالحة، ولا سيما ما يسمونه بالمكفرات، أو على الشفاعات. وهذا

(١) **التَعِلَّة** ـ بفتح أوله وكسر ثانيه وتشديد اللام ـ: ما يتعلل به ا هـ.

الجهل والغرور يصبح عقيدة في نفوسهم بما يسمعونه من كلام فساق الشعراء المدمنين كأبي نواس في قوله:

تَكَثَّرْ مَا ٱسْتَطَعْتَ مِنَ ٱلْمَعَاصِيْ   فَإِنَّكَ وَاجِدٌ رَبَّاً غَفُوْرَاً

وقوله:

وَرَجَوْتُ عَفْوَ ٱللَّهِ مُعْتَمِدَاً عَلَىٰ   خَيْرِ ٱلأَنَامِ مُحَمَّدِ ٱلْمَبْعُوْثِ

ولو صح أمثال هذا الهذيان.. لكان الدين لغواً وعبثاً، ولكان المسلم يضرب بأوامر دينه عرض الحائط انتظاراً لشفاعة ترجى، أو عفو ربما أتيح له من فضل ربه، وكان التقي والفاجر سواء. وقد ثبت في صحيح الأحاديث: أنه كان يؤتى بالشارب في عهد النبي ﷺ، فيضرب بالأيدي والجريد وبالثيات والنعال. وفي حديث أنس: (أن النبي ﷺ أتىٰ برجل قد شرب الخمر، فجلده بجريدتين نحو أربعين) قال: وفعله أبو بكر، فلما كان عمر.. استشار الناس، فقال عبد الرحمٰن بن عوف: أخف الحدود ثمانون، فأمر به عمر.

وفي «الصحيحين» عن علي رضي الله عنه: ما كنت لأقيم على أحد حداً فيموت وأجد في نفس شيئاً إلا صاحب الخمر، فإنه لو مات وَدَيته ـ أي: دفعت ديته ـ وذلك أن رسول الله ﷺ لم يسنّه. وفي «صحيح مسلم»: أن عثمان أتى بالوليد، وقد صلى الصبح ركعتين، وقال: أزيدكم، وشهد عليه الشهود أنه شرب الخمر، فأمر بجلده، وعلي رضي الله عنه يعد حتى بلغ الأربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جلد النبي ﷺ وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكلٌّ سنة، وهذا أحب إلي ـ يريد الأربعين ـ. وقوله: وكلٌّ سنة؛ أي: أنه جرى العمل به فعلاً، ولا يعارض ذلك قوله: أن النبي ﷺ لم يسن حد الخمر؛ لأن ضربه أربعين مرة واحدة لا يعد سنة محدودة له؛ لأنه قد خالف ذلك في بعض الأحيان، لكنه صار سنة بجري أبي بكر عليه.

والخلاصة: أن العقاب المشروع على شرب الخمر هو الضرب الذي يراد منه إهانة الشارب وزجره وتنفير الناس منه، وأن الضرب أربعين أو ثمانين كان اجتهاداً من الخلفاء، فاختار أبو بكر الأربعين، وعمر الثمانين بموافقته لاجتهاد

عبد الرحمٰن بن عوف بتشبيهه بحد قذف المحصنات. وقد روى الدارقطني عن علي رضي الله عنه قال: إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: وعزتي وجلالي لأختبرنكم في حال إحرامكم بالحج أو العمرة ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾؛ أي: بإرسال شيء من الصيد البري المأكول عليكم ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾؛ أي: يسهل عليكم أخذ صغاره بأيديكم؛ كالطيور، وطعن كباره برماحكم كالوحوش.

قال ابن عطية: والظاهر أن الله خص الأيدي بالذكر؛ لأنها أعظم تصرفاً في الاصطياد، وفيها تدخل الجوارح والحبالات وما عمل باليد من فخاخ وشباك، وخص الرماح بالذكر؛ لأنها أعظم ما يجرح به الصيد، وفيها يدخل السهم ونحوه. واحتج بعض الناس بهذه الآية على أن الصيد للآخذ لا للمثير؛ لأن المثير لم تنل يده ولا رمحه بعد شيئاً. انتهى.

وقال الصاوي: وهذا الابتلاء نظير ابتلاء الله قوم موسى بتحريم صيد السمك يوم السبت، ولكن الله حفظ هذه الأمة المحمدية من الوقوع فيما يخالف أمر ربهم، فتم لها السعد والعزُّ في الدنيا والآخرة، وأما أُمة موسى، فتعدوا واصطادوا: فمسخوا قردة وخنازير. انتهى.

ووجه الابتلاء في ذلك[١]: أن الصيد طعام لذيذ تشتد الحاجة إليه في الأسفار الطويلة؛ كالسفر إلى الجهات النائية، وأن سهولة تناوله تغري به؛ إذ ترك ما لا ينال إلا بمشقة لا يدل على التقوى والخوف من الله، كما يدل عليه ترك ما ينال بسهولة.

قال البيضاوي[٢]: نزلت في عام الحديبية، ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون، والتقليل والتحقير في ﴿بِشَىْءٍ﴾ للتنبيه على

---

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.

أنه ليس من العظائم التي تدحض الأقدام، كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده.. كيف يثبت عند ما هو أشد منه.

وقرأ النخعي وابن وثاب: ﴿يناله﴾ بالياء التحتانية. والجملة من قوله: ﴿تَنَالُهُۥٓ﴾ في موضع الصفة لقوله: ﴿بِشَيْءٍ﴾، أو في موضع الحال منه؛ لأنه قد وصف.

﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يختبركم الله سبحانه وتعالى بالصيد في حال إحرامكم ليعلم الله تعالى علم ظهور للعباد ﴿مَن يَخَافُهُۥ﴾؛ أي: من يخاف الله تعالى، ولم يره ويمتثل أمره ونهيه؛ لقوة إيمانه حالة كونه ملتبساً ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ عن الله تعالى؛ أي: غير راء له تعالى، أو المعنى: من يخاف الله تعالى حالة كونه ملابساً بالغيب عن الناس غير مرئي لهم، ولا خائف من إنكارهم.. فيترك أخذ شيء من الصيد، ويختار خشن العيش على لذة اللحم خوفاً من الله تعالى، وطاعة له في خفيته، وعلى هذين المعنيين يكون الجار والمجرور في قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿يخاف﴾، ويحتمل أن يكون حالاً من ضمير المفعول العائد على الله تعالى. والمعنى: ليعلم الله من يخافه حالة كون الله ملتبساً بالغيب عنه؛ أي: غير مرئي له. وقال[1] أبو حيان: ومعنى ﴿لِيَعْلَمَ﴾؛ ليتميز من يخاف عقاب الله تعالى، وهو غائب منتظر في الآخرة، فيترك الصيد، ممن لا يخافه فيقدم عليه، قاله الزمخشري.

وقيل المعنى: ليعلموا أن الله يعلم من يخافه بالغيب؛ أي: في السر حيث لا يراه أحد من الناس، فالخائف لا يصيد، وغير الخائف يصيد. وقال ابن عطية: والظاهر أن المعنى: بالغيب من الناس؛ أي: في الخلوة، مَنْ خاف الله.. انتهى عن الصيد من ذات نفسه. وقال الطبري: معناه في الدنيا، حيث لا يرى العبد ربه، فهو غائب. والمعنى: يختبركم الله تعالى بالصيد ليظهر من يخافه لقوة إيمانه، ويميزه عمن لا يخافه لضعف قلبه وقلة إيمانه.

والخلاصة[2]: أنه تعالى يريد أن يعاملكم معاملة المختبر الذي يريد أن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

يعلم الشيء وإن كان هو عالماً به تربيةً لكم، وتزكية لنفوسكم، وتطهيراً لها. وقرأ الزهري: ﴿ليُعْلِمَ اللَّهُ﴾ من أعلم الرباعي، وقال ابن عطية: أي ليعلم عباده. انتهى. فيكون من: أعلم المنقولة من عَلِم المتعدية إلى واحد تعدي عرف، فحذف المفعول الأول، وهو: عباده؛ لدلالة المعنى عليه، وبقي المفعول الثاني، وهو: من يخافه.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ بأخذ شيء من ذلك الصيد ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان الذي أخبركم الله تعالى به قبل حصوله ﴿فَلَهُۥ﴾؛ أي: فلذلك المعتدي بالاصطياد ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم شديد في الآخرة؛ إذ هو لم يبال باختبار الله له، بل انتهك حرمة نواهيه، وأبان أنه لا يخافه بالغيب، بل يخاف لوم المؤمنين وتعزيرهم له إذا هو أخذ شيئاً من الصيد بمرأى منهم ومسمع، كما هو دأب المنافقين الذين يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صدقوا الله ورسوله ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾؛ أي: لا تقتلوه ولا تتعرضوا له بإتلاف ولا اصطياد، والحال أنكم محرمون بالحج أو العمرة، أو داخلون في الحرم المكي. نهاهم عن قتل الصيد في حال الإحرام. وفي معناه: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، وهذا النهي شامل لكل أحد من ذكور المسلمين وإناثهم؛ لأنه يقال: رجل حرام، وامرأة حرام، والجمع: حُرُم، ويقال: أحرم الرجل إذا دخل في الحرم، وأحرم أيضاً إذا عقد الإحرام، فلا يجوز قتل الصيد للمحرم، ولا في الحرم. نزلت(١) هذه الآية في أبي اليسر، شد على حمار وحش فقتله وهو محرم، ثم صار هذا الحكم عاماً، فلا يجوز قتل الصيد ولا التعرض له ما دام محرماً، ولا في الحرم، ومقتول المحرم من الصيد ميتة، وإن ذبحه بقطع حلقومه ومريئه، وذلك لأن المحرم ممنوع من ذبحه لمعنى فيه؛ كذبح المجوسي. والمراد بالصيد: كل حيوان متوحش مأكول اللحم، وهذا قول الشافعي. وقال(٢) أبو حنيفة: هو كل حيوان

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

متوحش، سواء كان مأكولاً، أم لم يكن مأكولاً، فيجب عنده الضمان على من قتل سبعاً أو نمراً أو نحو ذلك، واستثنى الشارع خمس فواسق، فأجاز قتلهن مطلقاً. وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» متفق عليه. وفي رواية: «خمس لا جناح على مَنْ قتلهن في الحرم والإحرام».

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب كلهن فواسق، يقتلن في الحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» متفق عليه. ولمسلم «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم» وذكر نحوه. وفي رواية النسائي قال: «خمس يقتلهن المحرم: الحية، والعقرب، والفأرة، والغراب الأبقع، والكلب العقور» قال ابن عيينة: الكلب العقور: كل سبع ضارٍ يعقر، وقاس الشافعي عليها جميع ما لا يؤكل لحمه، قال: لأن الحديث يشتمل على أشياء بعضها سباع ضارية، وبعضها هوام قاتلة، وبعضها طير لا يدخل في معنى السباع ولا في معنى الهوام، وإنما هو حيوان مستخبث اللحم، وتحريم الأكل يجمع الكل، فاعتبره ورتب عليه الحكم. وذهب أصحاب الرأي إلى وجوب الجزاء في كل ما لا يؤكل لحمه إلا الأعيان المذكورة في الحديث، وقاسوا عليها الذئب، فلم يوجبوا فيه كفارة. وألحق[1] مالك بالكلب العقور: الذئب، والسبع، والنمر، والفهد؛ لأنها أشد منه ضرراً.

والظاهر أن المراد بالصيد الذي نهت عنه الآية: هو كل حيوان وحشي يؤكل لحمه، فلا جزاء في قتل الأهلي ولا ما لا يؤكل لحمه من السباع والحشرات، ومنها الفواسق المذكورة في الحديث.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾؛ أي: ومن قتل الصيد أو أتلف جزءاً منه ﴿مِنكُم﴾ أيها المؤمنون حالة كونه ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾؛ أي: قاصداً[2] لقتله، ذاكراً لإحرامه، عالماً أن ما يقتله مما يحرم قتله عليه، فإن قتله ناسياً لإحرامه، أو رمى صيداً وهو يظن أنه

---

(١) المراغي. (٢) النسفي.

ليس بصيد.. فهو مخطىء، وإنما شرط التعمد في الآية مع أن محظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ في جزاء الإتلافات؛ لأن مورد الآية فيمن تعمد. فقد روي: أنه عنَّ لهم في عمرة الحديبية حمار وحشي، فحمل عليه أبو اليسر بن عمرو فقتله، فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم، فنزلت الآية؛ ولأن الأصل فعل المتعمد والخطأ ملحق به للتغليظ. وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ.

﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾؛ أي: فعليه[1] ضمان شبه ما قتله من الصيد حالة كون ذلك المثل ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾؛ أي: من الإبل والبقر والغنم؛ أي: ومن قتل شيئاً من الصيد وهو محرم قاصداً قتله.. فعليه جزاءٌ من الأنعام مماثل لما قتله في هيئته وصورته وخلقته إن وجد ذلك المثل. فقد روى الدارقطني عن جابر عن النبي ﷺ قال: «في الضبع إذا أصابه المحرم كبشٌ، وفي الظبي شاةٌ، وفي الأرنب عناقٌ ـ الأنثى من ولد المعز قبل أن تبلغ سنة ـ وفي اليربوع جفرة ـ الأنثى من ولد الضأن التي بلغت أربعة أشهر ـ». وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «الضبع صيد، فإذا أصابه المحرم.. ففيه جزاءٌ كبش مسن، وتؤكل».

وإن لم يوجد المماثل من النعم، فقيمته حيث صيد، أو في أقرب الأماكن إليه. قال القاضي أبو يعلى[2]: والصيد الذي يجب الجزاء بقتله ما كان مأكول اللحم؛ كالغزال وحمار الوحش والنعامة ونحو ذلك، أو كان متولداً من حيوان يؤكل لحمه؛ كالسبع فإنه متولد من الضبع والذئب، وما عدا ذلك من السباع كلها فلا جزاء على قاتلها، سواء ابتدأ قتلها، أو عَدَت عليه فقتلها دفعاً عن نفسه؛ لأن السبع لا مثل له صورة ولا قيمة، فلم يدخل تحت الآية، ولأن النبي ﷺ أجاز للمحرم قتل الحية والعقرب والفويسقة والغراب والحدأة والكلب العقور والسبع العادي. قال: والواجب بقتل الصيد فيما له مثل من الأنعام.. مثله، وفيما لا مثل له.. قيمته، وهو قول مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة: الواجب فيه القيمة

---

(١) المراغي.   (٢) زاد المسير.

وحمل المثل على القيمة. وظاهر الآية يرد ما قال، ولأن[1] الصحابة حملوا الآية على المثل في الصورة والخلقة والصغر والعظم، فحكموا في بلدان شتى وأزمان مختلفة بالمثل من النعم، فحكموا في النعامة ببدنة، وهي لا تساوي بدنة، وحكموا في حمار الوحش ببقرة، وهو لا يساوي بقرة وكذا في الضبع بكبش، فدل ذلك على أنهم إنما نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة، فحكموا به، ولم يعتبروا القيمة، فيجب في الظبي شاة، وفي الأرنب سخل، وفي الضب سخلة، وفي اليربوع جفرة، ويجب في الحمامة وكل ما عب وهدر كالفواخت والقمري وذوات الأطواق شاة، وما سواه من الطير ففيه القيمة في المكان الذي أصيب فيه، وقتل المحرم بحج أو عمرة للصيد حرامٌ بالإجماع لنفس الآية، وأكل المحرم مما صاده الحلال جائز؛ لما روي: (أن النبي ﷺ والصحابة أكلوا مما أهدي إليهم من لحم الحمار الوحشي).

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي[2]: ﴿فَجَزَآءٌ﴾ بالتنوين ﴿مِّثْلُ﴾ بالرفع، فارتفاع جزاء على أنه مبتدأ خبر محذوف تقديره: فعليه جزاء، ومثل صفة له؛ أي: فعليه جزاء مماثل ما قتل. وقرأ باقي السبعة: ﴿فجزاءُ مثلِ﴾ برفع جزاء وإضافته إلى مثل، فيكون ﴿مثل﴾ مقحماً، والتقدير: فجزاء ما قتل. وقيل: من إضافة المصدر إلى المفعول، ويدل على هذا التقدير قراءة السلمي: ﴿فجزاءٌ﴾ بالرفع والتنوين ﴿مثلَ ما قتل﴾ بالنصب.

وقرأ محمد بن مقاتل ﴿فجزاءَ مثلَ ما قتل﴾ بنصب جزاء ومثل، والتقدير: فليُخرج جزاءً مثلَ ما قتل، و﴿مثل﴾ صفة لـ﴿جزاء﴾. وقرأ الحسن: ﴿من النعْم﴾ بسكون العين تخفيفاً.

فائدة: والظاهر من تقييد المنهيين عن القتل بقوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أنه لو صاد الحلال بالحل، ثم ذبحه في الحرم، فلا ضمان، وهو حلال، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: عليه الجزاء، ذكره أبو حيان في «البحر».

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾؛ أي: حالة كون ذلك الجزاء المماثل يحكم به؛ أي: يحكم بمماثلته ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: صاحبا عدالة منكم أيها المؤمنون؛ أي: رجلان صالحان من أهل دينكم، فقيهان فطنان في باب الشبه عدلان، فينظران إلى أشبه الأشياء بالمقتول من النعم، فيحكمان به، ووجه الحاجة إلى حكم العدلين: أن المماثلة بين النعم والصيد مما يخفى على أكثر الناس، وما لا مثل له بوجه من الوجوه يحكمان فيه بالقيمة.

قال ميمون بن مهران(١): جاء أعرابي إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: إني أصبت من الصيد كذا وكذا، فسأل أبو بكر رضي الله عنه أُبي بن كعب، فقال الأعرابي: أتيتك أسألك، وأنت تسأل غيرك، فقال أبو بكر رضي الله عنه: وما أنكرت من ذلك، قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، فشاورت صاحبي فإذا اتفقنا على شيء.. أمرناك به.

وعن قبيصة بن جابر: أنه حين كان محرماً ضرب ظبياً فمات، فسأل عمر بن الخطاب ـ وكان بجنبه عبد الرحمٰن بن عوف ـ فقال عمر لعبد الرحمٰن: ما ترى؟ قال: عليه شاة، قال: وأنا أرى ذلك، قال: فاذهب فأهدِ شاة، قال قبيصة: فخرجت إلى صاحبي، وقلت له: إن أمير المؤمنين لم يدر ما يقول حتى سأل غيره، قال: ففاجأني عمر، وعلاني بالدرة، وقال: أتقتل في الحرم، وتسفّه الحَكَم؟! قال الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فأنا عمر، وهذا عبد الرحمٰن بن عوف.

وقرأ جعفر بن محمد(٢): ﴿يحكم به ذو عدل﴾ بالإفراد، والمراد به: الجنس كما تكون من محمولة على المعنى فتقديره على هذا: فريق ذو عدل، أو حاكم ذو عدل؛ لأن عدلاً هنا مصدر غير وصف، ذكره أبو البقاء. وقوله: ﴿هَدْيًا﴾ حال من ضمير ﴿بِهِۦ﴾ و﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ صفة لـ﴿هَدْيًا﴾؛ أي: يحكم به؛ أي: بذلك المثل ذوا عدل منكم حالة كون ذلك المثل هدياً بالغ الكعبة؛ أي:

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط والعكبري.

مساقاً إلى أرض الحرم ليذبح فيه ويتصدق به على مساكين الحرم.

وسميت الكعبة كعبة لارتفاعها، والعرب تسمي كل بيت مرتفع كعبة، والمراد بالكعبة هنا: كل الحرم؛ لأن الذبح لا يقع في الكعبة وعندها ملاقياً لها، وإنما يقع في الحرم، وهو المراد بالبلوغ، فيذبح المثل في الحرم كدم الهدي، ويتصدق به على مساكين الحرم عند الشافعي. وقال أبو حنيفة: يتعين الذبح في الحرم، وأما التصدق به: فحيث شئتَ إذا وصل الهدي إلى الكعبة. والمعنى: إن ذلك الجزاء يكون هدياً يصل إلى الكعبة، ويذبح في جوارها، حيث تؤدى المناسك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم. قال أبو حيان[1]: والحرم كله منحر لهذا الهدي، فما وقف به بعرفة من هدي الجزاء ينحر بمنى، وما لم يوقف به فينحر بمكة وفي سائر بقاع الحرم بشرط أن يدخل به من الحل، ولا بد أن يجمع فيه بين حل وحرم حتى يكون بالغاً الكعبة. وقرأ الأعرج: ﴿هِديّاً﴾ بكسر الدال وتشديد الياء. انتهى.

وقوله: ﴿أَوْ كَفَّـٰرَةٌ﴾ معطوف على ﴿جزاء﴾، وقوله: ﴿طَعَامُ﴾ - بالرفع - بدل من ﴿كَفَّـٰرَةٌ﴾، أو عطف بيان لها، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي طعام. وقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قدر أمداد ذلك الطعام. ﴿عَدْلُ﴾: معطوف على ﴿طَعَامُ﴾، وقوله: ﴿صِيَامًا﴾ تمييز لـ﴿عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾، والمعنى: فمن قتل الصيد منكم متعمداً، وهو محرم.. فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النعم، أو كفارة هي إطعام مساكين بقيمة ذلك المثل، لكل مسكين مدٌّ عند الشافعي، ونصف صاع عند أبي حنيفة من غالب قوت البلد، أو كفارة هي صيام أيام تعادل وتساوي عدد أمداد ذلك الطعام الذي هو قيمة المثل عند الشافعي، أو يصوم يوماً بدل نصف صاع عند أبي حنيفة، فيختار الجاني بين هذه الخصال الثلاثة.

---

(١) البحر المحيط.

فصل

ذهب الشافعي ومالك وأبو حنيفة إلى أن كلمة[1]: ﴿أَوْ﴾ في هذه الآية للتخيير. وقال أحمد وزفر من أصحاب أبي حنيفة: إنها للترتيب، وهما روايتان عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الشافعي: إذا قتل صيداً له مِثْل.. فهو مخير بين ثلاثة أشياء: إن شاء ذبح المثل من النعم وتصدق به على مساكين الحرم، وإن شاء قَوَّم المثل دراهم، والدراهم طعاماً، ثم يتصدق به على مساكين الحرم، وإن شاء صام عن كل مد من الطعام يوماً، فأي ذلك فعل.. أجزأه موسراً كان أو معسراً، وهو قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: يصوم عن كل نصف صاع يوماً. وعن أحمد روايتان كالقولين، وأصل هذه المسألة: أن الصوم مقدَّر بطعام اليوم، فعند الشافعي مقدر بالمد، وعند أبي حنيفة مقدر بنصف صاع، وله أن يصوم حيث شاء؛ لأنه لا نفع فيه للمساكين.

وذهب جمهور الفقهاء[2]: إلى أن الخيار في تعيين أحد هذه الثلاثة الأشياء إلى قاتل الصيد الذي وجب عليه الكفارة؛ لأن الله تعالى أوجب عليه أحد هذه الثلاثة على التخيير، فوجب أن يكون هو المخير بين أيها شاء. وقال محمد بن الحسن من أصحاب أبي حنيفة: التخيير إلى الحكمين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، ومن قال: إن كلمة ﴿أَوْ﴾ للترتيب قال: إن لم يجد الهدي اشترى طعاماً وتصدق به، فإن كان معسراً صام. وقال مالك: إن لم يخرج المثل من النعم.. يقوِّم الصيد، ثم يجعل القيمة طعاماً، فيتصدق به أو يصوم. وقال أبو حنيفة: لا يجب المثل من النعم، بل يقوَّم الصيد، فإن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النعم، وإن شاء إلى الطعام، فيتصدق به، وإن شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من غيره يوماً. واختلفوا في موضع التقويم، فقال جمهور الفقهاء: يقوَّم في المكان الذي قتل فيه الصيد. وقال الشعبي: يقوَّم بمكة بثمن مكة؛ لأنه يصرف بها.

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد.. فعليه فيه الجزاء، فإن قتل ظبياً أو نحوه.. فعليه ذبح شاة تذبح بمكة، فإن لم يجد.. فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد.. فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل أيلاً - من بقر الوحش - فعليه بقرة، فإن لم يجدها.. صام عشرين يوماً، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحو ذلك.. فعليه بدنة من الإبل، فإن لم يجد.. أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد.. صام ثلاثين يوماً، والطعام مد مد يشبعهم. وقال مالك: بوجوب الشاة في خصوص حمام مكة ويمامها تعبداً، فإن لم يكن.. فصيام عشرة أيام من غير تقويم ولا حكم، وحمام غيرها وسائر الطيور ليس فيه إلا قيمته طعاماً، أو عدله صياماً، ذكره الصاوي.

وقرأ نافع وابن عامر[1]: ﴿كفارة طعام مساكين﴾ بالإضافة، والإضافة تكون بأدنى ملابسة؛ إذ الكفارة تكون كفارة هدي، وكفارة طعام، وكفارة صيام. وقرأ باقي السبعة بالتنوين ورفع ﴿طعام﴾.

وقرأ كذلك الأعرج وعيسى بن عمر إلا أنهما أفردا ﴿مسكين﴾ على أنه اسم جنس. وقرأ الجمهور ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ بفتح العين، وقرأ ابن عباس وطلحة بن مصرف والجحدري بكسرها.

وقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: أوجبنا عليه ذلك الجزاء بأقسامه الثلاثة ليذوق وبال أمره؛ أي: جزاء ذنبه الصادر منه، وعقوبة هتكه لحرمة الإحرام؛ إما بدفع الغرم، وإما بالعمل ببدنه بما يتعبه ويشق عليه، والوبال في الأصل: الشيء الثقيل الذي يخاف ضرره، وإنما سمَّى الله ذلك الجزاء وبالاً؛ لأن إخراج الجزاء ثقيل على النفس؛ لأن فيه تنقيصاً للمال، وهو ثقيل على النفس، وكذا الصوم أيضاً ثقيل على النفس؛ لأن فيه إنهاك البدن.

والمعنى[2]: أن الله سبحانه وتعالى أوجب على قاتل الصيد في الإحرام أو في الحرم أحد هذه الأشياء الثلاثة التي كل واحد منها ثقيل على النفس، حتى

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

يحترز عن قتل الصيد في الحرم، أو في حال الإحرام. ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وسامح لكم ﴿عَمَّا سَلَفَۚ﴾ وسبق منكم قبل هذا النهي والتحريم من قتل الصيد في الإحرام أو في الحرم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ ورجع إلى قتل الصيد بعد هذا النهي والتحريم، أو المعنى: ومن قتل الصيد وهو محرم بعد ورود هذا النهي وهو عالم بهذا النهي ﴿فـ﴾ـإنه ﴿ينتقم الله منه﴾؛ أي: يعاقبه في الآخرة عقوبة شديدة مع لزوم الكفارة له في الدنيا.

وقال ابن كثير[1]: ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد.. وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة، وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد. وحكىٰ علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: مَن قتل شيئاً من الصيد خطأً وهو محرم.. يحكم عليه فيه كلما قتله، وإن قتله عمداً.. يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك كما قال الله عز وجل. انتهى.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب على أمره فلا يغلبه العاصي ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ أي: صاحب عقوبة شديدة لمن عصاه. وقال ابن جرير[2]: في قوله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يقول الله جلَّ ذكره: والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه والأمر أمره، له العزة والمنعة. وقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يعني: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

والآية صريحة[3]: في أنَّ الجزاء الدنيوي إنما يمنع عقاب الآخرة إذا لم يتكرر الذنب، فإن تكرر.. استحق صاحبه الجزاء في الدنيا، والعقاب في الآخرة.

---

(١) ابن كثير.

(٢) الطبري.

(٣) المراغي.

مسألة: فإن قلتَ[1]: إن العفو فرع المعصية، وهي تحصل باشتغال المحرم بقتل الصيد بعد نزول آية التحريم، فما معنى العفو عن قتل الصيد قبل تحريمه المفهوم من قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾؟

قلتُ: إن المراد بالعفو هنا مجرد عدم المؤاخذة على ما سلف، فلا يرد السؤال المذكور، أفاده الكرخي، والخطاب في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ إما لكل مسلم أو للمحرمين خاصة؛ أي: أحل لكم أيها الناس صيد جميع المياه العذبة والملحة بحراً كان أو نهراً أو غديراً؛ أي: اصطياد صيد الماء والانتفاع به بأكله، واصطياده لأجل عظامه وأسنانه، وأحل لكم طعام البحر؛ أي: أكله، فالصيد هو ما صيد بالحيلة حال حياته ثم مات. والطعام ما يوجد مما لفظه البحر، أو نضب عنه الماء، ويحصل من غير معالجة في أخذه. والمعنى: وأحل لكم ما صيد من البحر ثم مات، وما قذفه البحر ميتاً، وروي هذا المعنى عن ابن عباس و ابن عمر وقتادة.

والخلاصة: أن المراد بطعامه عندهم: ما لا عمل للإنسان فيه ولا كلفة في اصطياده؛ كالذي يطفو على وجهه، والذي يقذف به إلى الساحل، والذي ينحسر عنه الماء وقت الجزر، ولا فرق بين حيه وميته.

فصل في حيوان الماء

واعلم: أن[2] جملة حيوان الماء على قسمين: سمك وغير سمك.

فأمَّا السمك: فجميعه حلال على اختلاف أجناسه وأنواعه. قال رسول الله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه، والحل ميتته» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي. ولا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب، فيحل أكله. وقال أبو حنيفة: لا يحل إلا أن يموت بسبب.

وما عدا السمك فقسمان: قسم يعيش في البر والبحر؛ كالضفدع والسرطان والتمساح والسلحفاة، فلا يحل أكلها. وقال سفيان: أرجو أن لا يكون بالسرطان

---

(١) الفتوحات بتصرف.
(٢) الخازن والمراح.

بأس. وقال الشافعي: السمكة الطافية في البحر حلال، والسمكة عنده كل ما لا يعيش إلا في الماء، ولو كان على صورة غير المأكول من حيوان البر؛ كالآدمي والكلب والخنزير، فهذا كله حلال عنده، وحجته الخبر السابق وهذه الآية؛ لأنها نزلت في قوم من بني مدلج كانوا أهل صيد البحر، سألوا النبي ﷺ عن طعام البحر، وعما حسر البحر عنه. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾؛ أي: ما حسر عنه البحر وألقاه. وقال أحمد: يؤكل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح؛ لأن التمساح يفترس ويأكل الناس. وقال ابن أبي ليلى ومالك: يباح كل ما في البحر.

وذهب جماعة إلى أن ما له نظير يؤكل من حيوان البر يؤكل مثل: بقر الماء ونحوه، ولا يؤكل ما لا يؤكل نظيره في البر مثل: كلب الماء وخنزيره. واختلفوا[1] في الجراد فقيل: هو من صيد البحر، فيحل أكله للمحرم. وذهب جمهور العلماء إلى أنه من صيد البر، وأنه لا يحل للمحرم أكله في حال الإحرام، فإن أصاب جرادة فعليه صدقة. قال عمر: في الجرادة تمرة، وعنه وعن ابن عباس رضي الله عنهم: قبضة من طعام. وكذلك طير الماء، فهو من صيد البر أيضاً.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ﴾ أيها المقيمون ﴿وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾؛ أي: وللمسافرين منكم؛ أي: أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر وأكله متاعاً لكم؛ أي: تمتيعاً ومنفعة لمن كان منكم مقيماً في بلده، يستمتع بأكله طرياً، وينتفع به، ومنفعة ومتعة للسائرين والمسافرين منكم من أرض إلى أرض، يجعلونه قديداً، ويتزودونه في سفرهم مليحاً للأكل، أو للبيع كما تزود موسى عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المحرمون ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ﴾؛ أي: أكل ما يصاد في البر، وهو كل ما لا يعيش إلا في البر ﴿مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾؛ أي: مدة كونكم محرمين بحج أو عمرة. وظاهره تحريم صيده على المحرم، ولو كان الصائد حلالاً، وإليه ذهب الجمهور إذا كان الصائد صاده للمحرم لا إذا لم يصده لأجله، وهو القول الراجح، وبه يجمع بين الأحاديث الآتية. وقيل: إنه يحل له مطلقاً، وإليه ذهب

---

(١) الخازن.

جماعة. وقيل: يحرم عليه مطلقاً، وإليه ذهب آخرون. وقد بسطنا الكلام على هذا الاختلاف في الفصل الآتي مع ذكر حجة كل واحد منهم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى تحريم الصيد على المحرم في ثلاثة مواضع من هذه السورة[(١)]:

أحدها: في أول السورة، وهو قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

والثاني: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

والثالث: هذه الآية: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ كل ذلك لتأكيد تحريم قتل الصيد على المحرم.

وقرأ ابن عباس: ﴿وَحَرَّمَ﴾ مبنياً للفاعل و﴿صَيْدَ﴾ بالنصب ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ بفتح الحاء والراء. وقرأ يحيى: ﴿ما دِمتُم﴾ بكسر الدال، وهو لغة يقال: دام يدام كخاف يخاف.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا اللّه ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ أي: تجمعون وترجعون إليه للمجازاة، لا إلى غيره حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالتجاء إلى ذلك الغير، فلا غير يلتجأ إليه، بل الأمر محصور فيه تعالى.

والمعنى[(٢)]: واخشوا الله تعالى، واحذروا عقابه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، وفيما نهاكم عنه من جميع ما تقدم من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وإصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم، وفي نحو ذلك، فإن إليه مصيركم ومرجعكم، فيعاقبكم بمعصيتكم، ويثيبكم على طاعتكم، ولا يخفى ما فيه من التشديد والمبالغة في التحذير من عقابه.

فصل

وقد اختلف العلماء: هل يجوز للمحرم أن يأكل من لحم صيد صاده غيره؟

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

فذهب قوم: إلى أنه لا يحل ذلك بحال، يروى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول طاووس، وإليه ذهب الثوري، واحتجوا على ذلك: بما روي عن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً ـ وهو بالأبواء أو بودان ـ فرده عليه ﷺ، فلما رأى ما في وجهه من الكراهة.. قال: «إنا لم نرده عليك إلا أنَّا حُرُم». أخرجاه في «الصحيحين».

وذهب جمهور العلماء: إلى أنه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد إذا لم يصده بنفسه، ولا صيد له، ولا دلَّ عليه بإشارته، ولا أعان عليه، وهذا قول عمر وعثمان وأبي هريرة رضي الله عنهم، وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وأصحاب الرأي، ويدل عليه: ما روي عن أبي قتادة الأنصاري قال: كنت جالساً مع رجال من أصحاب النبي ﷺ في منزل في طريق مكة، ورسول الله ﷺ أمامنا، والقوم محرمون، وأنا غير محرم عام الحديبية، فأبصروا حماراً وحشياً، وأنا مشغول أخصف نعلاً، فلم يؤذنوا لي، وأحبوا لو أني أبصرته، فالتفت فأبصرته، فقمت إلى الفرس فأسرجته، ثم ركبت ونسيت السوط والرمح، فقلت لهم: ناولوني السوط والرمح، قالوا: لا والله، لا نعينك عليه، فغضبت ونزلت، فأخذتهما، ثم ركبت فشددت على الحمار فعقرته، ثم جئت به وقد مات، فوقعوا فيه يأكلون، ثم إنهم شكُّوا في أكلهم إياه وهم حرم، فَرُحْنَا وخبأت العضد، فأدركنا رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك فقال: «هل معكم منه شيء»؟ فقلت: نعم، فناولته العضد، فأكل منها، وهو محرم. وزاد في رواية: أن النبي ﷺ قال لهم: «إنما هي طعمة أطعمكموها الله»، وفي رواية: «هو حلال فكلوه»، وفي رواية: قال لهم رسول الله ﷺ: «هل منكم أحدٌ أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها، قالوا: لا، قال: كلوا ما بقي من لحمها» أخرجاه في «الصحيحين». وأجاب أصحاب هذا المذهب من حديث الصعب بن جثامة: بأنه إنما ردَّه النبي ﷺ؛ لأنه ظن أنه إنما صيد لأجله، والمحرم لا يأكل ما صيد لأجله، والله أعلم.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ وسميت الكعبة كعبة لتربيعها؛ أي: لكونها مربعة من التكعيب بمعنى: التربيع، وأكثر بيوت العرب مدورة لا مربعة.

وقيل: سميت كعبة لارتفاعها وبروزها، وكل بارز كعبٌ مستديراً كان أو غير مستدير، ومنه: كَعْب القدم، وكعوب القنا، وكعب ثدي المرأة، وسمي بيتاً؛ لأن له سقوفاً وجداراً، وهي حقيقة البيت وإن لم يكن به ساكن، وسمي حراماً؛ لتحريم الله تعالى إياه وتعظيمه وتشريفه بأداء المناسك فيه، وبعدم تنفير صيده، وعدم قطع شجره وخلاه. والمراد بالبيت الحرام: جميع الحرم؛ لما صح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خطب يوم فتح مكة فقال: «إن هذا البلد حرَّمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه» متفق عليه.

و﴿البيت الحرام﴾ بدل من ﴿الكعبة﴾ أو عطف بيان منه؛ أي: أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الكعبة التي هي بيت الله الحرام ﴿قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: أمناً وسبباً لحصول مصالح الناس ومنافعهم في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم. أمَّا في أمر الدين: فإنه بها يقوم الحج وتتم المناسك، وضوعفت الحسنات فيها، وأما في أمر الدنيا: فإن مكة بلدة لا ضرع فيها، ولا زرع، وقلما يوجد فيها ما يحتاج إليه أهلها، فجعل الله الكعبة معظمة في قلوب الناس يرغب الناس جميعاً في زيارتها والسفر إليها من كل فج عميقٍ لأداء المناسك، وللتجارة، فصار ذلك سبباً في إسباغ النعم على أهل مكة إجابةً لدعوة إبراهيم عليه السلام، وكان العرب يتقاتلون ويغيرون إلا في الحرم حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم. . لم يتعرض له، ولو جنى أعظم الجنايات كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ فصار أهل مكة آمنين على أنفسهم وأموالهم، كما أنهم صاروا بسبب الكعبة أهل الله وخاصته، والسادة المعظمين إلى يوم القيامة. وأما في أمر آخرتهم: فإن البيت جُعل لقيام المناسك عنده، وجعلت تلك المناسك التي تقام عنده أسباباً لعلو الدرجات، وتكفير الخطيئات، وزيادة الكرامات والمثوبات، فلما كانت الكعبة الشريفة سبباً لحصول هذه الأشياء. . كانت سبباً لقيام الناس.

وقرأ ابن عامر[1]: ﴿قِيَما﴾ بغير ألف بوزن عِنَب، فإن كان أصله ﴿قياما﴾ بالألف، وحذفت فقيل: حكم هذا أن يجيء في الشعر، وإن كان مصدراً على فِعَل.. كان قياسه أن تصح فيه الواو كعوض.

وقرأ الجحدري: ﴿قيما﴾ ـ بفتح القاف وتشديد الياء المكسورة ـ وهو كسيد: اسم يدل على ثبوت الوصف من غير تقييد بزمان.

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾؛ أي: وكذلك جعل الله سبحانه وتعالى الأشهر الحرم قياماً للناس، والمراد بالشهر الحرام: الجنس، فيشمل الأشهر الأربعة: ذا القعدة وذا الحجة والمحرم ورجب؛ أي: سبباً لحصول مصالحهم وأمناً في معاشهم وحياتهم؛ لأن العرب كان يقتل بعضهم بعضاً، ويغير بعضهم على بعض في سائر الأشهر حتى إذا استهل الشهر الحرام.. زال الخوف، وقدروا على الأسفار والتجارات، وصاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم، وكانوا يحصلون فيه من الأقوات ما يكفيهم طول العام، ولولاه لتفانوا من الجوع والشدة ﴿و﴾ كذلك جعل الله سبحانه وتعالى ﴿الهدي﴾ سبباً لقيام الناس ومصالحهم، وهو ما يهدى إلى الحرم ويذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكينه، فيكون ذلك نسكاً للمُهدي وقواماً لمعيشة الفقراء ﴿و﴾ كذلك جعل الله سبحانه وتعالى ﴿القلائد﴾ قياماً للناس، وسبباً لمصالحهم، وهي ما يتخذ من لحاء شجر الحرم، فيعلق في عنق الإبل مثلاً؛ ليعلم أنه هدي للحرم، أو يعلّقه الشخص في عنقه؛ ليأمن من العدو؛ إذ أن من قصد البيت في الشهر الحرام.. لم يتعرض له أحد، ومن قصده في غير الشهر الحرام، ومعه هدي، وقلده، وقلد نفسه من لحاء شجر الحرم.. لم يتعرض له أحد؛ لأن الله تعالى أوقع في قلوبهم تعظيم البيت، فكل من قصده أو تقرب إليه.. صار آمناً من جميع الآفات والمخاوف.

ولما[2] كانت الكعبة موضعاً مخصوصاً لا يصل إليه كل خائف.. جعل الله الأشهر الحرم والهدي والقلائد قياماً للناس كالكعبة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجعل المذكور

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

والتدبير اللطيف ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾؛ أي: لأجل أن تتفكروا فيه أيها المؤمنون وتعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يعلم مصالح ما في السموات وما في الأرض الدينية والدنيوية، يعني: أنه تعالى علم في الأزل بمصالح العباد وما يحتاجون إليه، فجعل الكعبة البيت الحرام، والشهر الحرام، والهدي، والقلائد يأمنون بها؛ لأنه يعلم مصالح العباد كما يعلم تفاصيل ما في السموات وما في الأرض. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعميم بعد تخصيص؛ أي: وكيف لا يعلم ذلك، وأن علمه محيط بكل شيء فلا تخفى عليه خافية.

والخلاصة[1]: أن ذلك لم يكن إلا لحكمة بالغة صادرة عن علم بخفايا الأمور وغاياتها، فكان دليلاً على أنه سبحانه يعلم ما في السموات وما في الأرض من أسباب الرزق ونظام الخلق وغير ذلك، وأنه عليم بكل شيء فلا تخفى عليه خافية، وقد عجزت جميع الأمم في القديم والحديث عن تأمين الناس في قطر من الأقطار في زمنٍ معين من كل سنة بحيث لا يقع فيه قتل ولا قتال ولا عدوان.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: اعلموا أن ربكم الله الذي لا يخفى عليه شيء من سرائر أعمالكم وعلانيتها، وهو محصيها عليكم شديد العقاب والعذاب لمن دنس نفسه بالشرك والفسوق والعصيان. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾؛ أي: غفار لمن أناب إليه وتاب عن معاصيه ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن أطاعه وحافظ على طاعته، فلا يؤاخذه بما فرط منه قبل الإيمان، ولا بما يعمله من السوء بجهالة إذا بادر إلى التوبة وأصلح عمله، بل يستر ذنبه ويمحوه، فلا يبقى له أثر مع إيمانه وعمله الصالح، كما يستر الماء القليل القذر بما يغمره من الماء النقي الكثير، وفي تقديم العقاب على المغفرة والرحمة إيماءٌ إلى أن العقاب قد ينتهي بالمغفرة والرحمة؛ لأن رحمته تعالى سبقت غضبه، كما ورد في صحيح الحديث، ومن ثم

---

(١) المراغي.

يغفر كثيراً لمن ظلم نفسه. قال تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾. وبعد أن أبان الله سبحانه وتعالى أن الجزاء بيد الله العليم بكل شيء.. ذكر وظيفة الرسول، وهو توصيل الأحكام إلى أمته فقال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، وكذا سائر رسل الله تعالى صلوات الله عليهم أجمعين؛ أي: ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم بالإنذار بالعقاب بين يدي عذاب شديد، والإعذار إليكم بما يقطع حججكم. ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: إلا أن يؤدي الرسالة إليكم ثم إلينا الثواب على الطاعة، وعلينا العقاب على المعصية، ولا يخفى علينا المطيع لأوامرنا، والعاصي التارك للعمل بها، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ وتظهرون من الأعمال الحسنة والسيئة ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾؛ أي: وما تخفون في قلوبكم من الإيمان والنفاق والشرك، فيجازيكم عليها؛ إذ لا يغيب عنه شيء من ضمائر الصدور، وظواهر أعمال النفوس، فخليق بكم أن تتقوني ولا تعصوا أمري، وفي هذه الجملة وعد ووعيد. وفي هذا وعيد شديد وتهديد لمن يخالف أوامر الله ويعصيه، كما أن فيه إبطالاً لما عليه أهل الشرك والضلال من الخوف من معبوداتهم الباطلة، والتماس الخلاص والنجاة من العذاب بشفاعتها.

والخلاصة[1]: أن الرسول ليس عليه إلا البلاغ لدين الله وشرعه، وبعدئذ يكون المبلغون هم المسؤولون عند الله تعالى، والله الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون من العقائد والأقوال والأفعال، وهو الذي يجازيهم بحسب علمه المحيط بكل ذرة في الأرض والسموات، ويكون جزاؤه حقاً وعدلاً، ويزيد بعد ذلك من إحسانه عليهم وفضله، فاطلبوا سعادتكم من أنفسكم، وخافوا منها عليها.

وما ورد من الشفاعة في الآخرة فهو دعاء من النبي ﷺ يستجيبه الله، فيظهر عقبه ما سبق به علمه واقتضته حكمته بحسب ما جاء في كتابه دون أن يكون مؤثراً في علم الله ولا في إرادته، فالحادث لا يؤثر في القديم.

وبعد أن بين الله تعالى أن الجزاء منوط بالأعمال.. أراد أن يبين ما يتعلق

---

(١) المراغي.

به الجزاء من صفات الأعمال، والعاملين لها، وأرشد إلى أن هناك حقيقتين مختلفتين يترتب على كل منهما ما يليق بها من الجزاء، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد مخاطباً أمتك ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾؛ أي: لا يستوي الرديء والجيد من الأشياء والأعمال والأموال، فلا يتساوى الضار والنافع، ولا الفاسد ولا الصالح، ولا الحرام والحلال، ولا الظالم والعادل، ولا المسلم والكافر، فلكل منها حكم يليق به عند الله الذي يضع كل شيء في موضعه بحسب علمه؛ أي: لا يستويان في أنفسهما ولا عند الله وعند الناس: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ وأحبك وسرك أيها المخاطب ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ من الناس، أو من الأموال المحرمة؛ لسهولة تناولها والتوسع في التمتع بها؛ كأكل الربا والرشوة والخيانة.

والمراد[1]: نفي الاستواء في كل الأحوال ولو في حال كون الخبيث معجباً للرائي للكثرة التي فيه، فإن هذه الكثرة مع الخبيث في حكم العدم؛ لأن خبث الشيء يبطل فائدته، ويمحق بركته، ويذهب بمنفعته. والواو إما للحال، أو للعطف على مقدَّر؛ أي: لا يستوي الخبيث والطيب لو لم تعجبك كثرة الخيث، ولو أعجبك كثرة الخبيث كقولك: أحسن إلى فلان، وإن أساء إليك؛ أي: أحسن إليه إن لم يسيء إليك، وإن أساء إليك. وجواب ﴿لو﴾ محذوف؛ أي: ولو أعجبك كثرة فلا يستويان.

الخلاصة: أنهما لا يستويان لا في أنفسهما، ولا عند الله، ولو فرض أن كثرة الخبيث أعجبتك وغرتك، فصرت بعيداً عن إدراك تلك الحقيقة؛ وهي: أن القليل من الحلال خير من كثير من الحرام حسن عاقبة في الدنيا والآخرة، ألا ترى أن القليل الجيد من الغذاء أو المتاع خير من الكثير الرديء الذي لا يغني غناءه، ولا يفيد فائدته، بل ربما يضر ويؤذي صاحبه، فكذلك الحال بالنسبة إلى الناس، فالقليل الطيب منهم خير من الكثير الخبيث، فطائفة قليلة من شجعان المؤمنين تغلب الطائفة الكثيرة من الجبناء المتخاذلين، وجماعة قليلة من ذوي

---

(١) الشوكاني.

البصيرة والرأي تأتي من الأعمال ما يعجز عنه الكثير من أهل الحمق والبلاهة، فالعبرة بالصفة لا بالعدد، والكثرة لا تكون خيراً إلا بعد التساوي في الصفات الفاضلة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا الله تعالى فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تعدلوا من الطيب إلى الخبيث من الأعمال والأموال ظاهراً وباطناً ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: يا أصحاب العقول الكاملة السليمة الخالصة من الأمراض التي تدنسها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تظفروا بالمطالب الدنيوية والدينية العاجلة والآجلة.

والمعنى: فاتقوا الله يا أرباب العقول الراجحة، واحذروا أن يستحوذ عليكم الشيطان، فتغتروا بكثرة المال الخبيث، وكثرة أهل الباطل والفساد من الخبيثين، فتقوى الله هي التي تجعلكم من الطيبين، وبها يرجى أن تكونوا من المفلحين الفائزين بخيري الدنيا والآخرة.

وخصَّ أولي الألباب بالاعتبار؛ لأنهم هم أهل الروية والبصر بعواقب الأمور التي ترشد إليها مقدماتها بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها. أمَّا الأغرار الغافلون: فلا يفيدهم وعظ واعظ، ولا تذكير مذكر، فلا يعتبرون بما يرون بأعينهم، ولا بما يسمعون بآذانهم، كما يُشاهد ويرى من حال كثير من الأغنياء الذين ذهبت أموالهم الكثيرة التي جمعت من الحرام، وحال الدول التي ذهب ريحها بخلوها من فضيلتي العلم والخلق، وورثها من كانوا أقل منهم رجالاً ومالاً؛ إذ كانوا أفضل منهم أخلاقاً وأعمالاً.

الإعراب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، وجملة النداء مستأنفة. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لأيُّ. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر بمعنى ما النافية

وإلا المثبتة. ﴿ٱلْخَمْرُ﴾: مبتدأ. ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾: معطوفة عليه، وكذلك ﴿وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْخَمْرُ﴾. ﴿رِجْسٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ﴿رِجْسٌ﴾. ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان، وأردتم ما هو الواجب عليكم.. فأقول لكم: اجتنبوه. ﴿اجتنبوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: لعل: حرف ترج ونصب، والكاف ضمير المخاطبين في محل النصب اسمها. ﴿تُفْلِحُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر لعل، وجملة لعل في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُوقِعَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. ﴿بَيْنَكُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُوقِعَ﴾. ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾: معطوف عليه. ﴿فِى﴾: حرف جر وسبب. ﴿ٱلْخَمْرِ﴾: مجرور به. ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾: معطوف عليه، والجار والمجرور متعلق بـ﴿يُوقِعَ﴾، وجملة يوقع صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يريد﴾ تقديره: إنما يريد الشيطان إيقاعه العداوة والبغضاء بينكم بسبب الخمر والميسر. ﴿وَيَصُدَّكُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يُوقِعَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يصدكم﴾. ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿فَهَلْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن الشيطان يريد أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء

بسبب الخمر والميسر، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: هل أنتم منتهون؛ أي: انتهوا عن الخمر والميسر. ﴿هل﴾: حرف للاستفهام الاستخباري الذي هو بمعنى الأمر مبني على السكون. ﴿أَنتُم﴾: مبتدأ. ﴿مُّنتَهُونَ﴾ خبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة الاستفهام من حيث ما تضمنته من الأمر، والتقدير: انتهوا عن الخمر والميسر، وأطيعوا الله بالانتهاء عنهما ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾. ﴿وَٱحْذَرُواْۚ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، ومفعوله محذوف تقديره: واحذروا المعاصي كلها. ﴿فَإِن﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر، تقديره: إذا عرفتم وجوب طاعة الله تعالى، وطاعة رسول الله ﷺ، وأردتم بيان حكم ما إذا خالفتم الله والرسول.. فأقول لكم: ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية. ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. وفي «الفتوحات»: جواب الشرط محذوف تقديره: فجزائكم علينا، والمذكور دال على الجواب لا جواب. ﴿أَنَّمَا﴾: أن حرف نصب ومصدر. ما: كافة. ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة له، والجملة من المبتدأ والخبر صلة ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: فاعلموا كون البلاغ المبين على رسولنا لا غير.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَيْسَ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ مستأنفة. ﴿فِيمَا﴾: في حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر بـ﴿في﴾، الجار والمجرور صفة لـ﴿جُنَاحٌ﴾، أو متعلق بـ﴿جُنَاحٌ﴾ أو بـ﴿لَيْسَ﴾، أو متعلق بما تعلق به الخبر. ﴿طَعِمُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: فيما طعموه من الخمر والميسر. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿مَا﴾: زائدة. ﴿ٱتَّقَوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أيضاً، والظرف متعلق بالجواب المحذوف المعلوم من السياق تقديره: لا يأثمون ولا يؤاخذون وقت اتقائهم، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة، ويجوز أن تكون ﴿إِذَا﴾ ظرفاً مجرداً عن الشرط، وأن تكون شرطية وجوابها محذوف كما قدرنا آنفاً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿ٱتَّقَوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾. ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱتَّقَوا۟﴾ الذي قبله. ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾: معطوف على قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾. ﴿وَّأَحْسَنُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱتَّقَوا۟﴾ قبله. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ خبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة

لـ﴿أيُّ﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾: اللام: موطئة للقسم. ﴿يبلونكم﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿بِشَيْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يبلون﴾. ﴿مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ﴿شيء﴾ تقديره: بشيء كائن من الصيد. ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَيْدِيكُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ﴿شيء﴾، أو في محل النصب حال من ﴿شيء﴾ لتخصصه بالصفة. ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾: اللام: حرف جر وتعليل. ﴿يعلم الله﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يعلم﴾؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿يَخَافُهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: جار ومجرور حال من ضمير الفاعل في ﴿يخاف﴾؛ أي: يخاف الله حالة كونه غائباً عن الله، ومعنى كون العبد غائباً عن الله: أنه لم يرَ الله تعالى، أو حال من ضمير المفعول؛ أي: من يخاف الله حالة كونه تعالى ملتبساً بالغيب عن العبد؛ أي: غير مرئي له، وجملة ﴿يخاف﴾ من الفعل والفاعل صلة ﴿مَن﴾ الموصول، وجملة ﴿يعلم﴾ من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: لعلم الله علم ظهور للخلق من يخافه بالغيب، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يبلون﴾.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿فَمَنِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ابتلاء الله لكم بالصيد ليعلم الله من يخافه بالغيب، وأردتم بيان حكم من اعتدى على الصيد بعد النهي المفهوم من هذا الابتلاء.. فأقول لكم: ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما ﴿ٱعْتَدَىٰ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله

ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱعْتَدَىٰ﴾. ﴿فَلَهُۥ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿له﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لأي ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، وجملة النداء مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿حُرُمٌ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَقْتُلُوا۟﴾.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿قَتَلَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مِنكُم﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿قَتَلَهُۥ﴾؛ أي: كائناً منكم، وقوله متعمداً حال أيضاً من فاعل ﴿قَتَلَ﴾ فعلى رأي مَنْ يجوّز تعدد الحال، يجوز ذلك هنا، ومن منع يقول: إن ﴿مِنكُم﴾ للبيان متعلق بـ﴿قَتَلَ﴾ حتى لا تتعدد الحال. ﴿فَجَزَآءٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿جزاء﴾: مبتدأ وخبره محذوف تقديره: فعليه جزاء، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿مِّثْلُ﴾ بالرفع صفة لـ﴿جزاء﴾؛ لأنه بمعنى: مماثل، أو بدل منه. ويقرأ على المشهور بإضافة ﴿جزاء﴾ إلى المثل، وإعراب الجزاء يكون على ما تقدم، ﴿مِّثْلُ﴾ في هذه القراءة

مقحم كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ﴿مِّثْلُ﴾ مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل الجر مضاف إليه. ﴿قَتَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مِنَ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: قتله. ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مِّثْلُ﴾، أو صفة له.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ﴾.

﴿يَحْكُمُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿ذَوَا﴾: فاعل مرفوع بالألف؛ لأنه من المثنى. ﴿عَدْلٍ﴾: مضاف إليه. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿ذَوَا﴾؛ أي: كائنان منكم، وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿جزاء﴾ إذا نونته، وأما على الإضافة فهو في موضع الحال، والعامل فيه معنى الاستقرار المقدَّر في الخبر المحذوف ﴿هَدْيًۢا﴾: حال من ﴿جزاء﴾ على كل من القراءتين، أو من ضمير به، أو منصوب على المصدرية؛ أي: يهديه هدياً، أو منصوب على التمييز. ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾: صفة لـ﴿هَدْيًۢا﴾، وإن أضيف إلى ما بعده؛ لأن إضافته لفظية لا تفيد تعريفاً. ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾: معطوف على ﴿جزاء﴾؛ أي: أو عليه كفارة إذا لم يجد المثل. ﴿طَعَامُ﴾: بدل من ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي طعام، ويقرأ بالإضافة، والإضافة فيه لتبيين المضاف ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾: معطوف على ﴿جزاء﴾؛ أي: أو عليه عدل ذلك ﴿صِيَامًا﴾: تمييز لـ﴿عَدْلٍ﴾ كقولهم على التمرة مثلها زبداً؛ لأن المعنى: أو قدر ذلك صياماً. ﴿لِّيَذُوقَ﴾ اللام لام كي. ﴿يذوق﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على قاتل الصيد عمداً. ﴿وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي تقديره: لذوقه وبال أمره؛ أي: جزاء ذنبه، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أوجبنا عليه ذلك الجزاء لذوقه وبال أمره.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عفا﴾. ﴿سَلَفَۚ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿وَمَنۡ﴾: الواو: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿عَادَ﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية جوازاً. ﴿ينتقم الله﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، ولم يجزم لفظه مشاكلة لفعل الشرط، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾. ﴿مِنۡهُۚ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿ينتقم﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَزِيزٌ﴾ خبر. ﴿ذُو﴾: صفة لـ﴿عَزِيزٌ﴾ مرفوع بالواو. ﴿ٱنتِقَامٍ﴾: مضاف إليه.

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾.

﴿أُحِلَّ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَكُمۡ﴾: متعلق به. ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾: نائب فاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾: معطوف على ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾. ﴿مَتَٰعٗا﴾: مفعول لأجله؛ أي: أحل لكم صيد البحر وطعامه تمتيعاً لكم؛ أي: لأجل تمتعكم وانتفاعكم، وقيل: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف تقديره: متعكم الله بذلك تمتيعاً. ﴿لَّكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مَتَٰعٗا﴾؛ لأنه اسم مصدر لمتَّعَ المضعف. ﴿وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَحُرِّمَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ﴾: نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية ظرفية. ﴿دُمۡتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿حُرُمٗاۗ﴾: خبره وجملة دام من اسمها وخبرها صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه تقديره: مدة دوامكم محرمين، والظرف المقدر متعلق بـ﴿حرم﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول في محل النصب صفة للجلالة. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُحْشَرُونَ﴾. ﴿تُحْشَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير إليه. ﴿جَعَلَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿الْكَعْبَةَ﴾: مفعول أول. ﴿الْبَيْتَ﴾: بدل من ﴿الْكَعْبَةَ﴾، أو عطف بيان منه. ﴿الْحَرَامَ﴾: صفة لـ﴿الْبَيْتَ﴾. ﴿قِيَامًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿جَعَلَ﴾ إن كان جعل بمعنى: صيّر، وإن كان جعل بمعنى: خلق.. فقياماً حال من ﴿الْكَعْبَةَ﴾. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قِيَامًا﴾. ﴿وَالشَّهْرَ﴾: معطوف على ﴿الْكَعْبَةَ﴾. ﴿الْحَرَامَ﴾: صفة لـ﴿الشهر﴾. ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾: معطوفان أيضاً على ﴿الْكَعْبَةَ﴾، فالمعفول الثاني، أو الحال محذوف لفهم المعنى؛ أي: جعل الله أيضاً الشهر الحرام والهدي والقلائد قياماً. اهـ «سمين».

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لِتَعْلَمُوا﴾: اللام: حرف جر وتعليل. ﴿تعلموا﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك كائن لعلمكم أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

وفي «السمين»: ﴿ذَلِكَ﴾ فيه ثلاثة أوجه من الإعراب:

أحدها: أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الحكم الذي حكمناه ذلك لا غير.

والثاني: أنه مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: ذلك الحكم هو الحق لا غيره.

والثالث: أنه منصوب بفعل مقدَّر يدل عليه السياق؛ أي: شرع الله ذلك، وهذا أقواها؛ لتعلق لام العلة به. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾ خبرها، وجملة ﴿أَنَّ﴾ وما في حيزها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لتعلموا؛ لأن علم هنا بمعنى: عرف يتعدى لمفعول واحد تقديره: لتعلموا علم الله ما في السموات وما في الأرض. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها. ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أن مرفوع، وجملة أن في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من أنَّ الأولى تقديره: ذلك لتعلموا علم الله ما في السموات، وما في الأرض، وعلمه بكل شيء.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨﴾.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾، ومضاف إليه وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ تقديره: اعلموا كون الله شديد العقاب، وجملة قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من جملة ﴿أَنَّ﴾ الأولى تقديره: اعلموا كون الله شديد العقاب، وكونه غفوراً رحيماً.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ۝٩٩﴾.

﴿مَّا﴾: نافية. ﴿عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. وفي «الفتوحات»: وفي رفعه وجهان:

أحدهما: أنه فاعل بالجار قبله لاعتماده على النفي؛ أي: ما استقر على الرسول إلا البلاغ.

الثاني: أنه مبتدأ: وخبره الجار قبله، وعلى كل من التقديرين فالاستثناء مفرغ. اهـ «سمين». ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾. ﴿تُبۡدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تبدونه. ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾: معطوف على ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قُل﴾، وإنْ شئت قلتَ: ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾: معطوف عليه، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَلَوۡ﴾ الواو: عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَعۡجَبَكَ﴾: فعل ومفعول. ﴿كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾: فاعل ومضاف إليه، وجواب ﴿لو﴾ محذوف معلوم مما قبلها تقديره: ولو أعجبك كثرة الخبيث لا يستوي الخبيث والطيب، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على جملة محذوفة تقديرها: لو لم يعجبك كثرة الخبيث ولو أعجبك، وكلتا الجملتين في موضع الحال من فاعل ﴿لَّا يَسۡتَوِي﴾ تقديره: قل لا يستوي الخبيث والطيب حالة كون كثرة الخبيث غير معجبة لك ومعجبة لك. ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم عدم استواء الخبيث والطيب ـ ولو كثر الخبيث ـ وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم: اتقوا الله يا أولي الألباب. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: منادى مضاف منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج وتعليل، والكاف: اسمها، وجملة ﴿تُفۡلِحُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها في محل الجر بلام التعليل

المقدرة، والتقدير: فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه لرجاء فَلاحِكُمْ.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾: الخمر لغة: ما اتخذ من عصير العنب، وشرعاً: كل شراب مسكر وإن اتخذ من غير العنب، وسمي خمراً؛ لأنه يخامر العقل؛ أي: يستره ويغطيه. والميسر لغة: القمار؛ أي: اللعب بالقداح؛ أي: بالملاهي؛ كالطاب والمنقلة والطاولة والعود، وشرعاً: كل لعب تردد بين غُنْم وغُرْم، سواء كان بالملاهي أو بغيرها. ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾: جمع نَصَب بفتحتين؛ كجمل وأجمال، أو جمع نُصُب بضمتين؛ كعنق وأعناق، سميت الأصنام بذلك؛ لأنها تنصب للعبادة ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾: جمع زلَم بضم الزاي وفتحها مع فتح اللام فيهما، وهي القداح؛ أي: قِطَع رقيقة من الخشب بهيئة السهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم كما مرَّ.

﴿رِجْسٌ﴾: قال الزجاج: الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل قبيح، ويقال للعذرة والأقذار: رجس؛ لأنها قذارة ونجاسة. وفي «القاموس»: رجس كفرح، ورَجُس ككرم إذا عمل عملاً قبيحاً، والرجس المستقذر حساً أو معنى، يقال: رجل رجس، ورجال أرجاس. والرجس على أوجه: إما من جهة الطبع، وإما من جهة العقل، وإما من جهة الشرع؛ كالخمر والميسر، وإما من كل ذلك كالميتة؛ لأنها تعاف طبعاً وعقلاً وشرعاً، وأصله من الرجس - بفتح الراء - وهو شدة صوت الرعد. وفرّق ابن دريد بين الرجس والرجز والركس، فجعل الرجس: الشر، والرجز: العذاب، والركس: العورة والنتن. اهـ.

﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾: تجاوز الحق إلى الإيذاء ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾: يقال: طعم الشيء يطعمه - من باب علم - إذا أكله، ثم استعمل في ذوق طعم الشيء من طعام وشراب، ومن الأول قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾؛ أي: أكلتم، ومن الثاني قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾، أي: لم يذق طعم مائه. ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾: من بَلاَ يبلو من باب غزا يغزوا فهو

ناقص واوي، اتصل به نون التوكيد الثقيلة؛ أي: ليعاملنكم معاملة المختبر الذي يريد أن يعلم الشيء، وإن كان علام الغيوب، والمراد بالصيد هنا: المأكول البري الوحشي، وإلا فالصيد يطلق على المأكول وعلى غير المأكول، قال الشاعر:

صَـيْـدُ ٱلْـمُـلُـوْكِ أَرَانِـبٌ وَثَـعَـالِـبُ وَإِذَا رَكِـبْـتُ فَـصَـيْـدِيَ ٱلأَبْـطَـالُ

والصيد في الأصل: مصدر صاد يصيد صيداً من باب باع، وهو ههنا بمعنى اسم المفعول؛ أي: المصيد، وسمي صيداً ومصيداً لمآله إلى ذلك، وتوافر الدواعي إلى صيده، فكأنه لما أعد للصيد.. صار كأنه مصيد ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: وهو مصدر في موضع فاعل، ذكره أبو البقاء.

﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾: جمع حرام، يطلق على الذكر والأنثى، يقال: هو رجل حرام وامرأة حرام؛ أي: محرمة بحج أو عمرة، ويقع أيضاً على المحرم وإن كان في الحل، وعلى من في الحرم وإن كان حلالاً، وهما سيان في النهي عن قتل الصيد. ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾: والنعم: اسم جنس يجمع على أنعام، وهي في العرف الإبل والبقر والغنم ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾: العدل بالفتح(١): المعادل للشيء والمساوي له مما يدرك بالعقل، وبالكسر: المساوي له مما يدرك بالحس ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾: والوبال في اللغة(٢): الشيء الثقيل الذي يخاف ضرره، يقال: مرعى وبيل إذا كان فيه وخامة، وإنما سمى الله ذلك وبالاً؛ لأن إخراج الجزاء ثقيل على النفس لما فيه من تنقيص المال وثقل الصوم على النفس كما مر. وفي «السمين»: وقال الراغب: الوابل المطر الثقيل القطر، ولمراعاة الثقل قيل للأمر الذي يخاف ضرره وبال، قال تعالى: ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، ويقال: طعام وبيل، وكلأ وبيل يخاف وباله قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾. وقال غيره: والوبال في اللغة: ثقل الشيء في المكروه، يقال: مرعى وبيل إذا كان يستوخم، وماء وبيل إذا كان لا يستمرأ، واستوبلتُ الأرضَ؛ كرهتها خوفاً من وبالها.

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ والمراد بالبحر هنا: الماء الكثير الذي يوجد فيه السمك كالأنهار والآبار والبرك ونحوها، لا خصوص البحر المعروف. وصيد البحر: ما يصاد منه مما يعيش فيه عادة، وطعامه ما قذف به إلى ساحله.

﴿مَتَٰعًا﴾ اسم مصدر لمتع المضعف، يقال: متَّع يمتع تمتيعاً ومتاعاً فهو بمعنى: التمتيع. والسيارة: جماعة المسافرين يتزودون منه، وهي مؤنث سيَّار، وهي القافلة، وأصلها: القوم يسيرون، تجمع على سيارات.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾: والكعبة لغة: كل بيت مربع، وسميت الكعبة كعبةً لذلك، وأصل اشتقاق ذلك من الكعب الذي هو أحد أعضاء الآدمي. قال الراغب: كعب الرجل الذي هو عند ملتقى الساق والقدم، والكعبة: كل بيت على هيئتها في التربيع، وبها سميت الكعبة، وذو الكعاب بيت كان في الجاهلية لبني ربيعة، وامرأة كاعب إذا تكعب ثدياها. ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾: والقيام مصدر كالصيام، ويقال: هذا قيام له وقوام له، وكأنهم ذهبوا في قيام إلى أنه ليس بمصدر، بل هو اسم كالسواك، فلذلك صحت الواو: قال الشاعر:

قِـــوَامُ دُنْـــيَـــا وَقِـــيَـــامُ دِيْـــنِ

وإذا لحقته تاء التأنيث.. لزمت الياء، قالوا: القيامة، ذكره أبو حيان في «البحر». وأصل قياماً: قواماً، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار: قياماً، ثم كسرت القاف لمناسبة الياء.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾: البلاغ اسم مصدر لبلغ تبليغاً قائم مقام المصدر. ويحتمل(١) أن يكون مصدر البلغ المشدد على حذف الزوائد، فمعنى البلاغ: التبليغ، وقيل: البلاغ والبلوغ مصدران لبلغ الثلاثي، وإذا كان مصدراً لبلغ بمعنى: وصل فبلاغ الشرائع إلى المرسل إليهم؛ أي: وصولها إليها مستلزم لتبليغ من أرسل إليهم بها، فعبَّر باللازم عن الملزوم.

---

(١) البحر المحيط.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾، وفي قوله: ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، وفي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وفي قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وفي قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وفي قوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ و﴿ٱتَّقَواْ﴾.

ومنها: جمع[1] مؤكدات كثيرة في تحريم الخمر: منها: تصدير الجملة بـ﴿إنما﴾، ومنها: أنه قرنهما بعبادة الأصنام، ومنها: أنه جعلهما رجساً كما قال: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾. ومنها: أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت. ومنها: أنه أمر بالاجتناب. ومنها: أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً.. كان الارتكاب خيبة ومحقةً. ومنها: أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال وهو وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والميسر، وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلوات.

ومنها: الاستفهام الذي أريد به الأمر في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؛ لأن الاستفهام عقب ذكر هذه المعايب أبلغ من الأمر بتركها، كأنه قيل: قد بينت لكم المعايب، فهل تنتهون عنها مع هذا، أم أنتم مقيمون عليها كأنكم لم توعظوا؟

ومنها: عطف الخاص على العام في عطف ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ على ﴿ٱلْهَدْىَ﴾ لإفادة أن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْخَبِيثُ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبُ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَأَحْسَنُوٓاْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وهما من المحسنات البديعية.

ومنها: التعميم بعد التخصيص في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

---

(١) الشوكاني.

﴿ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾؛ لأن الذوق حقيقة في المذوقات، واستعير هنا لما يؤثر من غرامة وإتعاب النفس بالصوم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ من إسناد ما للفاعل إلى المفعول كعيشة راضية.

ومنها: بيان الواقع في قوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾؛ لأنه قيد به لبيان الواقع وقت نزول الآية؛ لأنها نزلت في أبي اليسر؛ حيث قتل حمار وحش وهو محرم عمداً، فالقيد فيه ليس لإخراج الخطأ؛ لأن الخطأ حكمه كحكم العمد في وجوب الجزاء.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأنه مجاز عن التبليغ، فعبر باللازم الذي هو البلاغ والوصول عن الملزوم الذي هو التبليغ والتوصيل.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ...﴾ الآية، مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾.. صار كأنه قيل: ما بلغه الرسول فخذوه، وكونوا منقادين له، وما لم يبلغه فلا تسألوا عنه، و لا تخوضوا فيه، فربما جاءكم بسبب الخوض الفاسد تكاليف تشق عليكم، قاله أبو عبد الله الرازي.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[٢] وظيفة الرسول وأنها تبليغ الرسالة، وبيان شرع الله ودينه فحسب، وبذا تبرأ

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

ذِمَّته.. ناسب أن يصرح بأن الرسول قد أدى وظيفة البلاغ الذي كمل به الإسلام، وأنه لا ينبغي للمؤمنين أن يكثروا عليه من السؤال؛ لئلا يكون ذلك سبباً لكثرة التكاليف التي يشق على الأمة احتمالها، فيسرع إليها الفسوق عن أمر ربها.

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنه تعالى لما نهى عن سؤال ما لم يأذن فيه ولا كلفهم إياه.. منع من التزام أمور ليست مشروعة من الله تعالى، ولما سأل قوم عن هذه الأحكام التي كانت في الجاهلية، هل تلحق بأحكام الكعبة.. بين تعالى أنه لم يشرع شيئاً منها، أو لما ذكر المحللات والمحرمات في الشرع.. عاد إلى الكلام في المحللات والمحرمات من غير شرع.

وقال المراغي: مناسبتها لما قبلها: لما[2] نهى الله في الآية السابقة عن تحريم ما أحل الله بالنذر أو بالحلف باسم الله تنسكاً وتعبداً مع اعتقاد إباحته في نفسه، وعن الاعتداء فيه، ونهى أن يكون المؤمن سبباً لتحريم شيء لم يكن الله قد حرمه، أو شرع حكم لم يكن الله قد شرعه؛ بأن يسأل الرسول ﷺ عن شيء مما سكت الله عنه عفواً وفضلاً.. ناسب بعد هذا أن يبين ضلال أهل الجاهلية فيما حرموه على أنفسهم، وما شرعوه لها بغير إذن من ربهم، وما قلد فيه بعضهم بعضاً على جهلهم، كما بين بطلان التقليد ومنافاته للعلم والدين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ...﴾ الآية، قال أبو حيان: ذكروا في مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أنه لما بين أنواع التكاليف، ثم قيل: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ...﴾ الآية، كان المعنى: إنَّ هؤلاء الجهال ـ مع ما تقدم من المبالغة في الإعذار والإنذار، والترغيب والترهيب ـ لم ينتفعوا بشيء منه، بل بقوا مصرين على جهلهم، فلا

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

تبالوا أيها المؤمنون بجهالتهم وضلالتهم، فإن ذلك لا يضركم، بل كونوا منقادين لتكاليف الله مطيعين لأوامره.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ. . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها[١]: أنه تعالى لما ذكر في الآية السالفة أن المرجع إليه بعد الموت، وأنه لا بد من الحساب والجزاء يوم القيامة. . أرشدنا إثر ذلك إلى الوصية قبل الموت، وأنه تجب العناية بالإشهاد عليها حتى لا تضيع على مستحقيها.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها[٢]: أنه لما ذكر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كان في ذلك تنفير عن أهل الضلال، واستبعاد عن أن ينتفع بهم في شيء من أمور المؤمنين من شهادة أو غيرها، فأخبر تعالى بمشروعية شهادتهم، أو الإيصاء إليهم في السفر على ما سيأتي بيانه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية، سبب نزولها: ما روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، لهم حنين، فقال رجل ـ عبد الله بن حذافة ـ: مَنْ أبي؟ قال: فلان، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. أخرجه البخاري /ج ٩ ص ٣٤٩/ الحديث أخرجه مسلم والترمذي وأحمد وابن جرير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: مَن أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية. أخرجه البخاري /ج ٩ ص ٣٥٢/ وابن أبي حاتم وابن جرير.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس كتب الله عليكم الحج» فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «أما إني لو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عما سكت عنكم، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ...﴾ الآية. أخرجه الطبري بسند رجاله رجال الصحيح. فهذه ثلاثة أسباب قال الحافظ في «الفتح» /ج ٩ ص ٣٥١/ : لا مانع أن يكون الجميع سبب نزولها، والله أعلم.

وقال في /ج ٩ ص ٣٥٢/ : والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل؛ إما على سبيل الاستهزاء والامتحان، وإما على سبيل التعنت عن الشيء الذي لو لم يسأل عنه لكان على الإباحة، لكن الأول ـ عبد الله بن حذافة ـ لم يسأل استهزاءً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ سبب نزولها: ما أخرجه البخاري /ج ٦ ص ٣٣٩/ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته.. فقدوا جاماً ـ الإناء ـ من فضة، مخوصاً من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجدوا الجام بمكة فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا: لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجام لصاحبهم، قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ الحديث أخرجه الترمذي /ج ٤ ص ١٠١/ وقال: حديث حسن غريب، وأخرجه أبو داود /ج ٣ ص ٣٣٧/ ، وابن جرير /ج ٧ ص ١١٥/ ، والبيهقي /ج ١٠ ص ١٦٥/ .

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله محمد ﷺ ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ﴾ ولا تبحثوا ﴿عَنۡ﴾ أحكام ﴿أَشۡيَآءَ﴾ من أمور الدين ودقائق تكاليفها، أو عن حقائق أشياء من

الأمور الغيبية والأسرار الخفية ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ أي: إن يظهر لكم حكمها أو يبين لكم حقيقتها ﴿تَسُؤْكُمْ﴾؛ أي: تحزنكم وتغمكم بشدة تكاليفها وكثرتها، كسؤالهم عن الحج هل هو واجب في العمر مرة أو كل عام مرة؟ أو تسؤكم بظهور حقائق تفضح أهلها؛ كسؤال رجل عن أبيه بعد موته أين هو؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إنه في النار». ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا﴾؛ أي: وإن تسألوا عن جنس تلك الأشياء التي من شأنها أن يكون إبداؤها مما يسوءكم ﴿حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ أي: حين يمكن تنزيل القرآن في شأنها، أو في حكمها، وهو زمان حياة الرسول ﷺ ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ أي: فإن الله يبديها ويظهرها لكم على لسان رسوله ﷺ.

وعبارة الشوكاني هنا قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾؛ أي[1]: لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بالسؤال عنها، ولا هي مما يعنيكم في أمر دينكم فقوله: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ في محل جر صفة لأشياء؛ أي: لا تسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصفة من كونها إذا بدت لكم؛ أي: ظهرت وكلفتم بها.. ساءتكم؛ نهاهم الله عن كثرة مساءلتهم لرسول الله ﷺ، فإن السؤال عما لا يعني ولا تدعو إليه حاجة قد يكون سبباً لإيجابه على السائل وعلى غيره. وقوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ هذه الجملة من جملة صفة أشياء، والمعنى: لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن، وذلك مع وجود الرسول ﷺ بين أظهركم، ونزول الوحي عليه ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ أي: تظهر لكم بما يجيب به لكم النبي ﷺ، أو ينزل به الوحي، فيكون ذلك سبباً للتكاليف الشاقة، وإيجاب ما لم يكن واجباً، وتحريم ما لم يكن محرماً، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحي بموت الرسول ﷺ، فإنه لا إيجاب ولا تحريم يتسبب عن السؤال. انتهت.

قال الحافظ ابن كثير[2]: أي لا تستأنفوا السؤال عنها، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق، وقد ورد في الحديث: «أعظم المسلمين جرماً من سأل

---

(١) فتح القدير. (٢) ابن كثير.

عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته»، لكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها.. بينت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها.

وخلاصة ذلك(١): تحريم السؤال عن الأشياء التي من شأن إبدائها أن يسوء السائلين إلا في حال واحدة، وهي: أن يكون قد نزل في شأنها شيء من القرآن فيه إجمال، وأردتم السؤال عن بيانه ليظهرلكم ظهوراً لامراء فيه، كما في مسألة تحريم الخمر بعد نزول آية البقرة.

وقال الزمخشري(٢): أي لا تكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلفكم إياها.. تغمكم وتشق عليكم، وتندموا على السؤال عنها. انتهى.

وقال ابن عباس في تفسير الآية(٣): لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم؛ إما لتكليف شرعي يلزمكم، وإما لخبر يسوءكم، مثل الذي قال: أين أبي؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء، وابتدأكم ربكم بأمر، فحينئذ إن سألتم عن بيانه بُيّن لكم وأُبدي. انتهى.

وعبارة «المراح» هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾؛ أي(٤): إن تظهر لكم تلك الأشياء.. تحزنكم، والمعنى: اتركوا الأمور على ظواهرها، ولا تسألوا عن أحوال مخفية إن تبد لكم تسؤكم، وما بلغه الرسول إليكم فكونوا منقادين له، وما لم يبلغه إليكم فلا تسألوا عنه، فإن خضتم فيما لا يكلف عليكم، فربما جاءكم بسبب ذلك الخوض ما يشق عليكم.

﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾؛ أي: وإن تسألوا عن أشياء مست حاجتكم إلى التفسير في زمن النبي ﷺ.. ينزل جبريل بالقرآن ويظهرها حينئذ، فالسؤال على قسمين: سؤال عن شيء لم يجر ذكره في الكتاب والسنة بوجه من الوجوه، فهذا السؤال منهي عنه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ

---

(١) المراغي.
(٢) الكشاف.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراح.

لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، وسؤال عن شيء نزل به القرآن، لكن السامع لم يفهمه كما ينبغي، فهاهنا السؤال واجب، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ فالضمير في ﴿عَنْهَا﴾ يرجع إلى أشياء أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾. فالمراد بالإنسان آدم عليه السلام، والمراد بالضمير ابن آدم؛ لأن آدم لم يجعل نطفة في قرار مكين. انتهت.

فائدة: قال الإمام الشاطبي[1]: الإكثار من الأسئلة مذموم، ولها مواضع نذكر منها عشرة:

أولها: السؤال عما لا ينفع في الدين؛ كسؤال بعضهم: مَنْ أبي؟

ثانيها: أن يسأل ما يزيد عن الحاجة؛ كسؤال الرجل عن الحج كل عام.

ثالثها: السؤال من غير احتياج إليه في وقت، ويدل عليه قوله ﷺ: «ذروني ما تركتكم».

رابعها: أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها، كما جاء في النهي عن الأغلوطات.

خامسها: أن يسأل عن علة الحكم في التعبدات؛ كالسؤال عن قضاء الصوم للحائض دون الصلاة.

سادسها: أن يبلغ بالسؤال حد التكلف والتعمق؛ كسؤال بني إسرائيل عن البقرة، وما هي، وما لونها؟

سابعها: أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي، ولذلك قال سعيد: أعراقيٌّ أنت؟

ثامنها: السؤال عن المتشابهات، ومن ذلك سؤال مالك عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم... إلخ.

---

(١) محاسن التنزيل للقاسمي.

تاسعها: السؤال عما حصل بين السلف، وقد قال عمر بن عبد العزيز: تلك دماء كف الله عنها يدي، فلا ألطخ بها لساني.

عاشرها: سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام، ففي الحديث: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾ بالتاء مبنياً للمفعول. وقرأ ابن عباس ومجاهد مبنياً للفاعل. وقرأ الشعبي بالياء مفتوحة من أسفل، وضم الدال ﴿يسؤكم﴾ بالياء فيهما مضمومة في الأول، ومفتوحة في الثاني. وقال ابن عطية: إن يبدها الله تعالى.

وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ﴾؛ إما جملة مستأنفة مسوقة لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المسألة، بل لأنها معصية في نفسها، مستتبعة للمؤاخذة؛ لأنها تغضب الرسول ﷺ، والضمير في قوله: ﴿عَنْهَاۗ﴾ راجع للمسائل، والمعنى: عفا الله عن مسائلكم التي كانت قبل النهي التي لا ضرورة إليها، وتجاوز عن عقوبتكم عليها في الآخرة لسعة رحمته ومغفرته وعظيم حلمه، فلا تعودوا إليها، فتكون هذه الجملة كقوله في الآية الأخرى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾، أو تكون في محل الجر صفة ثالثة لـ﴿أَشْيَآءَ﴾، والضمير في ﴿عَنْهَاۗ﴾ على هذا يعود على ﴿أَشْيَآءَ﴾، والمعنى: لا تسألوا عن أشياء قد عفا الله عنها؛ أي: تركها ولم يذكرها في كتابه بشيء من التكليف؛ فاسكتوا عنها كما سكت الله عنها، ولا تبحثوا عنها، ومما[2] يؤيد هذا المعنى حديث أبي ثعلبة الخشني - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تقربوها، وترك أشياء من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها»، وحديث سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله ﷺ عن أشياء فقال: «الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما قد عفا عنه، فلا تتكلفوا». هذان

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الحديثان أخرجهما في «جامع الأصول» ولم يعزهما إلى الكتب الستة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب منكم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن جهالتكم، فلا يعاقبكم إلا بعد الإنذار.

﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾؛ أي: قد سأل هذه المسائل؛ أي: عن أمثال هذه المسائل ﴿قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: قوم من الأمم الماضية أنبياءهم ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ثم صاروا بعد إبدائها وإعطائها كافرين وساترين لها، ومكذبين بها، وتاركين العمل بها، فأُهلكوا بسببها، فإن[1] من أكثر الأسئلة عن الأحكام الشرعية من الأمم السالفة.. لم يعملوا بما بين لهم منها، بل فسقوا عن أمر ربهم، وألقوا شرعهم ورائهم ظهرياً استثقالاً للعمل به، وأدى ذلك؛ إما إلى استنكاره، وإما إلى جحود كونه من عند الله، وسواء أكان هذا أم ذاك، فهو كفران به. انظر إلى قوم صالح عليه السلام، سألوا الناقة ثم عقروها، فأصبحوا بها كافرين، فاستحقوا الهلاك في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وإلى قوم موسى قالوا: أرنا الله جهرة، فكان هذا السؤال وبالاً عليهم، وإلى قوم عيسى عليه السلام سألوا نزول المائدة عليهم، ثم كذبوا بها، وقال مقاتل[2]: كان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أخبروهم بها.. تركوا قولهم، ولم يصدقوهم، فأصبحوا بتلك الأشياء كافرين، كأنه تعالى يقول[3]: إن أولئك سألوا فلما أعطوا سؤلهم.. كفروا به، فلا تسألوا أنتم شيئاً فلعلكم إن أعطيتم سؤلكم ساءكم ذلك.

ولا بد[4] من تقييد النهي في هذه الآية بما لا تدعو إليه حاجة كما قدمنا؛ لأن الأمر الذي تدعو إليه الحاجة في أمور الدين والدنيا.. قد أذن الله بالسؤال عنه فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال ﷺ: «قاتلهم الله، ألا فاسألوا، فإنما شفاء العيِّ السؤال».

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) زاد المسير.
(٤) الشوكاني.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سَأَلَهَا﴾ بفتح السين والهمزة، وقرأ النخعي: بكسر السين من غير همز يعني: بالكسر والإمالة، وجعل الفعل من مادة: سين، وواو ولام، لا من مادة: سين وهمزة ولام، وهما لغتان ذكرهما سيبويه، ومن كلام العرب: هما يتساولان بالواو، وإمالة النخعي: سأل، مثل إمالة حمزة: خاف.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن الرد على أهل الجاهلية فيما ابتدعوه، و﴿من﴾: زائدة في المفعول؛ أي: ما بحر الله بحيرة، ولا شق أذنها ﴿وَلَا﴾ سيب الله ﴿سَآئِبَةٍ﴾ ولا أعتقها لآلهتهم ﴿وَلَا﴾ وصل الله ﴿وَصِيلَةٍ﴾ ولا جعلها متروكة بلا ذبح ﴿وَلَا﴾ حمى الله من ﴿حَامٍ﴾، ولا حفظ ظهره من الركوب، ولا من الحمل عليه؛ أي: ما شرع الله ذلك لهم، ولا أمر به، وما جعله ديناً لهم.

فالبحيرة: هي الناقة التي يبحرون أذنها؛ أي: يشقونها شقاً واسعاً، وكانوا يفعلون بها ذلك إذا نتجت خمسة أبطن، وكان الخامس أنثى، كما روي عن ابن عباس، وقيل: هي الناقة التي تنتج خمسة أبطن في آخرها ذكر، فتشق أذنها ولا تذبح ولا تركب ولا تحلب، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، ولا يجز لها وبر، ولا يحمل على ظهرها، بل تترك لآلهتهم.

والسائبة: هي الناقة تسيب وتنذر لآلهتهم، وكان الرجل إذا شفي من مرض، أو قدم من سفر.. سيَّب ناقة أو بعيراً بنذرها لآلهتهم، فترعى حيث شاءت، ولا يحمل عليها شيء، ولا يجز وبرها، ولا يحلب لبنها إلا لضيف، وتكون كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها.

والوصيلة: الشاة التي تصل أخاها، فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً.. كان لآلهتهم، وإذا ولدت أنثى.. كانت لهم، وإن ولدت ذكراً وأنثى.. قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، فيترك مع أخته، فلا يذبحان حتى يموتا، فإذا ماتا.. اشترك في أكلهما الرجال والنساء.

---

(١) البحر المحيط.

والحامي: هو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن إذا ركب ولد ولده يقولون: حَمى ظهره، فلا يحمل عليه، ولا يركب، ولا يمنع من ماء ومرعى إلى أن يموت، فحينئذ تأكله الرجال والنساء.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: إن رؤساءهم كعمرو بن لحي وأصحابه ﴿يَفْتَرُونَ﴾ ويختلقون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ وينسبونه إليه، ويقولون: أمرنا الله بهذا.

وأول من سن لأهل الشرك تلك السنن الرديئة، وغيَّر دين الله ـ دين الحق دين إبراهيم وإسماعيل، وأضاف إلى الله أنه هو الذي حرم ما حرموا، وأحل ما أحلوا افتراءً على الله الكذب واختلاقاً عليه ـ هو عمرو بن لحي الخزاعي، فهو الذي غير دين إبراهيم، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، وحمى الحامي، ونصب الأوثان لأهل مكة.

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكتم بن الجون: «يا أكتم، عرضت عليَّ النار، فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة بن خندق يجرُّ قصبه في النار ـ القصب: المِعَى وجمعه الأقصاب ـ فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به، ولا به منك، فقال أكتم: أخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غير دين الله دين إبراهيم وإسماعيل». ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ وهم الأتباع ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك افتراء باطل افتراه رؤساءهم على الله كذباً، وأن ذلك من أعمال الكفر، بل يظنون أنهم يتقربون به إلى الله ولو بالوساطة؛ لأن آلهتهم التي يسيبون باسمها السوائب، ويتركون لها ما حرموه على أنفسهم ليست إلا وسطاء بينهم وبين الله بزعمهم، تشفع لهم عنده، وتقربهم إليه زلفى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: للذين كفروا أو لأكثرهم الذين هم الأتباع ﴿تَعَالَوْا۟﴾؛ أي: هلموا وأقبلوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في القرآن من الأحكام المؤيدة بالحجج والبراهين ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ المبلِّغ لها، والمبيِّن لمجملها فاتبعوهما فيها ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ أي: أجابوا من يدعوهم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول بقولهم: حسبنا وكافينا عن ذلك ما وجدنا عليه آبائنا

ورأيناهم يعملون به، ونحن لهم تبع، وهم لنا أئمة وقادة. فردَّ الله عليهم قولهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الهمزة فيه للإنكار والتوبيخ، داخلة على محذوف؛ أي: أيكفيهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الشرائع ولا يهتدون سبيلاً إلى المصالح، سواء أكانت دينية أو دنيوية، ولا يعرف ما يكفي الأفراد والأمم إلا بالعلم الصحيح الذي يميَّز به بين الحق والباطل، فأولئك قوم أميون يتخبطون في ظلمات من الوثنية، وخرافات من معتقدات الجاهلية، فمن وأدِ البنات إلى سلب ونهب وإغارات من بعضهم على بعض، ومن قتال تشتجر فيه الرماح إلى عداوة وبغضاء تملأ السهول والبطاح، ومن ظلم لليتامى والنساء إلى تفنن في الشَّعوذة وضروب السحر والكهانة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: الزموا أنفسكم واحفظوها من ملابسة الضلال والمعاصي والإصرار على الذنوب، وانظروا فيما يقربها من ربها ويخلعها من عقابه ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾؛ أي: لا يضركم ضلال من ضل من أهل الكتاب والمشركين وسائر الكفار والفساق ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ للحق أنتم في أنفسكم، وفي حق غيركم؛ بأن يعظ بعضكم بعضاً، ويرغب بعضكم بعضاً في الخيرات، وينفره من القبائح والسيئات.

وهذه الآية أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال الشوكاني(١): وليس في الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية.. فليس بمهتدٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً مضيقاً متحتماً، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) فتح القدير.

المنكر، أو لا يظن التأثير بحال من الأحوال، أو يخشى على نفسه أن يحل به ما يضره ضرراً يسوغ له معه الترك؛ أي: فيحرم عليه ذلك حينئذ إذا أدَّى إلى الوقوع في التهلكة.

فصل في ذكر نبذة مما يتعلق بالآية

فإن قلت[1]: هل يدل ظاهر هذه الآية على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

قلتُ: لا يدل على ذلك، والذي عليه أكثر الناس أن المطيع لربه عز وجل لا يكون مؤاخذاً بذنوب أصحاب المعاصي، فأمَّا وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فثابت بدليل الكتاب والسنة.

عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾. ولا تضعونها موضعها، ولا تدرون ما هي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا ظالماً، فلم يأخذوا على يديه.. أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو داود، وزاد فيه: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيِّروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب». وقال قوم في معنى الآية: عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يقبل منكم. وقال ابن مسعود: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قبل منكم، فإن رُدَّ عليكم فعليكم أنفسكم.

وعن أبي أمية الشيباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى

(١) الخازن.

مُتَّبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجابُ كل ذي رأي رأيَه. . فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم»، وفي رواية: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «لا، بل أجر خمسين منكم» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وقيل في معنى الآية: إن العبد إذا عمل بطاعة الله واجتنب نواهيه. . لا يضره من ضل، وقيل في معنى الآية: لا يضركم من كفر بالله وحاد عن قصد السبيل من أهل الكتاب إذا اهتديتم أنتم، وقال الحسن: لم يكن مؤمن فيما مضى، ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله.

وقال الطبري: وأولى هذه الأقوال وأصح التأويلات عندنا في هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق، وهو العمل بطاعة الله، وأداء ما لزم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ ومن التعاون على البر والتقوى، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم حتى يرجع عن ظلمه.

واعلم: أن كلاً من الآمر والمأمور يجب عليه اتباع الحق المأمور به، وقد دلت السنة الصحيحة على أن من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، أنه حمار من حمر جهنم يجر أمعاءه فيها.

ولقد أجاد من قال:

يَا أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا ٱلتَّعْلِيْمُ

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيْمُ

وقال آخر أيضاً:

أَتَنْهَىٰ ٱلنَّاسَ وَلاَ تَنْتَهِيْ ... مَتَىٰ تَلْحَقُ ٱلْقَوْمَ يَا أَكْوَعُ

فَيَا حَجَرَ ٱلشَّحْذِ حَتَّىٰ مَتَىٰ ... تَسُنُّ ٱلْحَدِيْدَ وَلاَ تَقْطَعُ

وقال الآخر:

وَغَـيْـرُ تَـقَـيٍّ يَـأْمُـرُ ٱلـنَّـاسَ بِٱلـتُّـقَـىٰ   طَـبِـيْـبٌ يُـدَاوِيْ ٱلـنَّـاسَ وَهْـوَ مَـرِيْـضُ

وقال الآخر:

فَـإِنَّـكَ إِذْ مَـا تَـأْتِ مَـا أَنْـتَ آمِـرُ   بِـهِ تُـلْـفِ مَـنْ إِيَّـاهُ تَـأْمُـرُ آتِـيَـا

فائدة: واعلم أنه يشترط في الآمر بالمعروف أن يكون له علم يعلم به أن ما يأمر به معروف، وأن ما ينهى عنه منكر؛ لأنه إذا كان جاهلاً بذلك، فقد يأمر بما ليس بمعروف، وينهى عما ليس بمنكر، ولا سيما في هذا الزمن الذي عم فيه الجهل، وصار فيه الحق منكراً، والمنكر معروفاً، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾. ويشترط في وجوبه مظنة النفع به، فإن جزم بعدم الفائدة فيه.. لم يجب عليه، كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾.

والخلاصة: أن العلماء من السلف متفقون على أن المؤمن لا يكون مهتدياً إذا أصلح نفسه ولم يهتم بإصلاح غيره؛ بأن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، وأن ذلك فرض لا هوادة فيه، ولكن هذه الفريضة تسقط إذا فسد الزمان فساداً لا يرجى معه تأثير الوعظ والإرشاد، أو فساداً يؤدي إلى إيذاء الواعظ المرشد؛ بأن يعلم أو يظن ظناً قوياً بأن لا فائدة من نصحه، أو بأنه سيؤذى إذا هو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، ويحرم عليه ذلك إذا أدَّى إلى الوقوع في التهلكة.

وحكى الزمخشري عن نافع أنه قرأ[1]: ﴿عليكم أنفسُكم﴾ بالرفع، وهي قراءة شاذة تخرَّج على وجهين:

أحدهما: يرتفع على أنه مبتدأ، و﴿عليكم﴾ في موضع الخبر، والمعنى: على الإغراء.

والوجه الثاني: أن يكون توكيداً للضمير المستكن في ﴿عَلَيْكُمْ﴾، ولم يؤكد بمضمر متصل؛ إذ قد جاء ذلك قليلاً، ويكون مفعول عليكم محذوفاً لدلالة

---

(١) البحر المحيط.

المعنى عليه والتقدير: عليكم أنفسكم هدايتكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم.

وقرأ الجمهور: ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ بضم الضاد والراء وتشديدها، قال الزمخشري: وفيه وجهان: أن يكون خبراً مرفوعاً، وأن يكون جواباً للأمر الذي دلَّ عليه اسم الفعل مجزوماً، وإنما ضُمت الراء؛ إتباعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة، والأصل: لا يضرركم، ويجوز أن يكون نهياً. انتهى.

وقرأ الحسن: بضم الضاد وسكون الراء من ضار يضور، وقرأ النخعي بكسر الضاد وسكون الراء من ضار يضير، وهي لغات.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: رجوعكم ورجوع من ضلَّ عما اهتديتم إليه يوم القيامة، وغلب الخطاب على الغيبة كما تقول: أنت وزيد تقومان. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: يخبركم عند الحساب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الخير والشر، فيجازيكم عليه، وفي هذه الجملة تذكير بالحشر وتهديد بالمجازاة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صدقوا الله ورسوله وما أنزل عليه ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ لما بين الله سبحانه وتعالى ما يتعلق بمصالح الدين.. شرع يبين ما يتعلق بمصالح الدنيا إشارةً إلى أن الإنسان ينبغي له أن يضبط مصالح دينه ودنياه؛ لأنه مكلف بحفظهما؛ أي: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، شهادة بينكم؛ أي: الشهادة المشروعة لكم إذا حضر أحدكم الموت؛ أي: قارب أحدكم على الموت بأن ظهرت عليه أمارات وقوع الموت، وأراد أن يوصي، وأراد أن يُشهد ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ على وصيته ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: هي شهادة اثنين من رجالكم أيها المؤمنون من ذوي العدل والاستقامة يشهدهما الموصي على وصيته، سواء كان في حضر أو سفر، وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾؛ أي: من المؤمنين ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين إن كنتم مسافرين ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: فنزلت بكم مقدمات الموت وعلاماته، وأردتم الإيصاء، علم الله سبحانه وتعالى أن من الناس من يسافر، فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين، ويحضره

الموت، فلا يجد من يشهده على وصيته من المسلمين، فقال: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ فالذميان في السفر خاصة إذا لم يوجد غيرهما؛ أي: فالعدلان المسلمان صالحان للشهادة في الحضر والسفر، وشهادة غير المسلمين لا تجوز إلا في السفر عند فقد المسلمين.

وعبارة «الخطيب»: المعنى: إن المحتضر إذا أراد الوصية.. ينبغي له أن يشهد على وصيته عدلين من أهل دينه إن وجدا، فإن لم يجدهما.. فليشهد آخرين من غيرهم.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا الشهادة المشروعة بينكم إذا حضر أحدكم أمارات الموت، وأراد الوصية والإشهاد عليها، هي شهادة عدلين منكم مطلقاً؛ أي: سواء كان في حضر أو سفر، وجد غير المسلمين أم لا، أو شهادة اثنين من غير أهل دينكم إن كنتم مسافرين فأصابتكم أمارات الموت، ولم يكن عند المحتضر واحد من المسلمين.

وعبارة «القرطبي» هنا: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في الكلام حذف تقديره: إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت فأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنكم ودفعتم إليهما ما معكم من المال، ثم متُّم، وذهب الاثنان إلى ورثتكم بالتركة، فارتابوا في أمرهما، وادعوا عليهما خيانة، فالحكم أن تحبسوهما من بعد الصلاة؛ أي: تستوثقوا منهما. انتهت.

وقرأ الجمهور: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ بالرفع وإضافة شهادة إلى ﴿بَيْنِكُمْ﴾، وقرأ الشعبي والحسن والأعرج: ﴿شهادة بينكم﴾ برفع شهادة وتنوينه، وقرأ السلمي والحسن أيضاً: ﴿شهادةً﴾ بالنصب والتنوين، وروي هذا عن الأعرج وأبي حيوة و﴿بَيْنِكُمْ﴾ على هاتين القراءتين منصوب على الظرف.

وقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ صفة لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾، وجملة قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ معترضة بين الصفة والموصوف؛ أي: أو شهادة آخرين من غير المسلمين توقفونهما من بعد صلاة العصر في المسجد الجامع عند المنبر؛ أي: توقفون أيها الحكام الشاهدين من غير المسلمين من بعد

صلاة العصر؛ لأن النبي ﷺ حلَّف عدياً وتميماً بعدها، ولأن العمل قد جرى عليه، فكان التحليف في ذلك الوقت هو المعروف، ولأنه هو الوقت الذي يقعد فيه الحكام للفصل بين الناس في المظالم والدعاوي؛ إذ يكون الناس قد فرغوا من معظم أعمال النهار، فيجتمعوا وقتئذ، ولأنه وقت تصادم ملائكة الليل وملائكة النهار، ولأن جميع الملل يعظمون هذا الوقت ويجتنبون فيه من الحلف الكاذب، وقيل: أي صلاة كانت، وقيل: من بعد صلاتهما على أنهما كافران كما في «القرطبي».

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فيحلف الشاهدان من غير المسلمين باسم الله؛ أي: فتستحلفونهما أيها الحكام على أنهما ما كذبا في شهادتهما ولا خانا في الوصية. ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم أيها الورثة أعني: ورثة الموصي الميت في السفر في صدقهما، واتهمتموهما بالخيانة في الوصية، ورفعتموهما إلى الحكام، أما الأمين: فيصدق بلا يمين. ويقولان في حلفهما والله: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ﴾؛ أي: بالقسم بالله ﴿ثَمَنًا﴾؛ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾؛ أي: ولو كان المقسم له أو المشهود له صاحب قرابة لنا، فإنا نؤثر الحق والصدق، ولا نؤثر العَرَض الدنيوي، ولا القرابة، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

والخلاصة: أنه يقول الحالف: إنه يشهد لله بالقسط، ولا يصده عن ذلك ثمن يبتغيه لنفسه، ولا مراعاة قريب له إن فرض أنَّ في إقراره وقسمه نفعاً له؛ أي: ولو اجتمعت هاتان الفائدتان.

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ويقولان في يمينهما أيضاً: ولا نكتم الشهادة التي أوجبها الله، وأمر أن تقام له كما قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾.

وقرأ علي ونعيم بن ميسرة والشعبي بخلاف عنه: ﴿شهادةً اللَّهَ﴾ بنصبهما وتنوين شهادة، وانتصبا بـ﴿نَكْتُمُ﴾ والتقدير: ولا نكتم الله شهادة. وعبارة «زاد المسير»: وقرأ سعيد بن جبير: ﴿ولا نكتم شهادةً﴾ بالتنوين. ﴿اللّٰهِ﴾ بقطع الهمزة وقصرها وكسر الهاء ساكنة النون في الوصل. وقرأ سعيد بن المسيب وعكرمة:

﴿شهادة﴾ بالتنوين والوصل منصوبة الهاء. وقرأ أبو عمران الجوني: ﴿شهادة﴾ بالتنوين، وإسكانِها في الوصل، ﴿اللَّه﴾ بقطع الهمزة، وقصرها مفتوحة الهاء. وقرأ الشعبي وابن السميقع: ﴿شهادة﴾ بالتنوين وإسكانها في الوصل ﴿اللَّه﴾ بقطع الهمزة ومدها وكسر الهاء. وقرأ أبو العالية وعمرو بن دينار مثله إلا أنهما نصبا الهاء. انتهت.

﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي: إنا إذا فعلنا ذلك الكذب، واشترينا بالقسم ثمناً من الدنيا، أو راعينا به قريباً؛ بأن كذبنا فيه لمنفعة لأنفسنا، أو لذوي قرابتنا، أو كتمنا شهادة الله كلاً أو بعضاً. ﴿لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ﴾؛ أي: لَكُنَّا من المتحملين للإثم المستحقين للجزاء عليه.

وقرأ الأعمش وابن محيصن: ﴿لملاثمين﴾ بإدغام نون ﴿من﴾ في لام ﴿الآثمين﴾ بعد حذف الهمزة، ونقل حركتها إلى اللام.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾؛ أي: فإن اطلع بعد التحليف؛ أي: عثر أهل الميت أو من يلي أمره على أن الشاهدين من غير المسلمين الحالفين استحقا إثماً؛ أي: استوجبا إثماً؛ إما بكذب في الشهادة، أو اليمين، أو بكتمان شيء من التركة في حال ائتمانهما عليها، أو كتمانٍ في الشهادة ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾؛ أي: فالواجب أن ترد اليمين إلى الورثة بأن يقوم رجلان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾؛ أي: مقام الشاهدين الكاذبين في حلفهما ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: حالة كونهما من الورثة الذين استحق لهم المال، فعليهم بمعنى: لهم اللذان هما ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾؛ أي: الأقربان إلى الميت الأحقان بإرثه؛ أي: فرجلان آخران من الورثة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنين، وليكونا من أولى من يستحق الميراث؛ أي: هذان الرجلان الوارثان القائمان مقام الخائنين ينبغي أن يكونا هما الأَولَيْنِ بالميت؛ أي: الأقربين الأحقين بإرثه إن لم يمنع من ذلك مانع، وهذا المعنى على قراءة ﴿استُحق﴾ بالبناء للمفعول، فعلى هذه القراءة يكون ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هما الأوليان كأنه قيل: من هما؟ فقيل: هما الأوليان. وقيل: هو بدل من الضمير في يقومان أو من ﴿آخران﴾، ويحتمل كون على في ﴿عَلَيْهِمُ﴾ على بابها، فتكون نائب فاعل لـ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾؛ أي: من الورثة الذين استحق

عليهم الإثم؛ أي: جني عليهم بالخيانة في مالهم، وهم أهل الميت وعشيرته، والمعنى[1] على قراءة البناء للفاعل: من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما ويختاروهما للقيام بالشهادة، ويظهروا بهما كذب الكاذبين؛ لكونهما الأقربين إلى الميت. فـ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾: فاعل ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾، ومفعوله أن يجردوهما للقيام بالشهادة. وقيل: المفعول محذوف، والتقدير: من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ بالبناء للفاعل ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾: فاعل مرفوع تثنية الأَوْلى.

وقرأ حمزة وأبو بكر: ﴿استُحق﴾ مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن: ﴿استحق﴾ مبنياً للفاعل، ﴿الأولان﴾: مرفوع تثنية أوَّل. وقرأ ابن سيرين: ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ تثنية الأُوْلى.

قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ عطف على ﴿يَقُومَانِ﴾؛ أي: فيحلفان بالله ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ﴾؛ أي: ليميننا، فالمراد بالشهادة هنا اليمين كما في قوله تعالى: ﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فيحلفان بالله بقولهما: واللّهِ لأيماننا على أنهما كاذبان خائنان في وصية ميتنا ﴿أَحَقُّ﴾ وأصدق ﴿مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾؛ أي: أيمانهما على أنهما صادقان فيما ادعيا. ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ عليهما بتهمة باطلة؛ أي: وما تجاوزنا الحق في أيماننا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: ويقولان في يمينهما: إنا إذا اعتدينا الحق فحلفنا مبطلين كاذبين.. لنكونن من الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وانتقامه. وعبارة[2] «المراح»: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾؛ أي: هذان الآخران ﴿بِٱللَّهِ﴾ بقولهما ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾؛ أي: والله ليمين المسلمين أصدق وأحق بالقبول من يمين النصرانيين ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾؛ أي: ما تجاوزنا الحق فيما ادعينا، وفي طلب المال، وفي نسبتهما إلى الخيانة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: إنا إن اعتدينا في ذلك.. كنا من الظالمين أنفسهم بإقبالها لسخط الله تعالى وعذابه.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

واتفق المفسرون[1] على أن سبب نزول هذه الآيات: أن تميم بن أوس الداري، وعدي بن بداء ـ وكانا نصرانيين ـ ومعهما بديل بن أبي مارية مولى عمرو بن العاص ـ وكان مسلماً مهاجراً ـ خرجوا إلى الشام للتجارة، فلما قدموا الشام. . مرض بديل، فكتب كتاباً فيه نسخة جميع ما معه، وألقاه فيما بين الأقمشة، ولم يخبر صاحبيه بذلك، ثم أوصى إليهما وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات بُديل، فأخذا من متاعه إناءً من فضة فيه ثلاث مئة مثقال منقوشاً بالذهب، ولما رجعا دفعا باقي المتاع إلى أهله، ففتشوا، فوجدوا الصحيفة وفيها ذكر الإناء، فقالوا لتميم وعدي: أين الإناء؟ فقالا: لا ندري، والذي دفع إلينا دفعناه إليكم، فرفعوا الواقعة إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا. . .﴾ الآية، ولما نزلت هذه الآية صلَّى رسول الله ﷺ العصر، ودعا تميماً وعديّاً، فاستحلفهما عند المنبر، ولما حلفا خلّى رسول الله ﷺ سبيلهما، ولما طالت المدة أُظهر الإناء، فبلغ ذلك بني سهم، فطالبوهما، فقالا: كنا قد اشتريناه منه، فقالوا: ألم نقل لكم هل باع صاحبنا شيئاً، فقلتما: لا؟ فقالا: لم يكن عندنا بيّنة فكرهنا أن نقر لكم، فكتمنا لذلك، فرفعوا القصة إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ. . .﴾ الآية، فقام عمرو بن العاص والمطلب ابن أبي وداعة السهميان، فحلفا بالله بعد العصر، فدفع الرسول ﷺ الإناء إليهما وإلى أولياء الميت، وكان تميم الداري يقول بعد إسلامه: صدق الله ورسوله، أنا أخذت الإناء، فأتوب إلى الله تعالى.

﴿ذَلِكَ﴾ الحكم الذي بيناه وشرعناه في هذه القصة من تكليف المؤتمن على الوصية أن يقوم على مرأى من الناس، ويشهد بعد الصلاة، ويقسم الأيمان المغلظة ﴿أَدْنَى﴾؛ أي: أدنى الطرق وأقربها إلى ﴿أَن يَأْتُوا﴾؛ أي: إلى أن يؤدي الشهود المتحملون للشهادة على الوصية ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾؛ أي: على الوجه الذي تحملوها عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا خيانة فيها خوفاً من العذاب الأخروي، والأنسب بالمقام في قوله: ﴿أَن يَأْتُوا﴾ وبقوله الآتي: ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾ تثنية

---

(١) المراح.

الضمير، وإنما جمع؛ لأن المراد ما يعم الشاهدين المذكورين وغيرهما من سائر الناس.

وفي «الخازن»: أن يأتي الوصيان وسائر الناس. وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ﴾ معطوف في المعنى على محذوف تقديره: ذلك أدنى وأقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها لأجل أن يخافوا من عذاب الآخرة بسبب الكذب والخيانة فيها ﴿أَوْ﴾ لأجل أن ﴿يَخَافُوٓاْ﴾ الافتضاح على رؤوس الأشهاد بإبطال أيمانهم والعمل بأيمان الورثة، فينزجروا عن الخيانة المؤدية إلى ذلك إن لم يخافوا من عذاب الآخرة، وذلك بـ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ﴾ على الورثة ﴿بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْۗ﴾؛ أي: بعد أيمان الشهود الخائنين في الوصية، فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم، فيفتضحوا، فأي الخوفين وقع حصل المقصود الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها.

والغرض من هذا الكلام(١): بيان المنفعة والفائدة في هذا الحكم الذي شرعه الله في هذا الموضع من كتابه. والمعنى: ذلك(٢) الذي شرعناه من تكليف المؤتمن على الوصية أن يقوم على مرأى من الناس، ويشهد بعد الصلاة، ويقسم الأيمان المغلظة أدنى الطرق وأقربها إلى أن يؤدي الشهداء الشهادة على وجهها بلا تبديل ولا تغيير تعظيماً لله، ورهبة من عذابه، ورغبة في ثوابه، أو خوفاً من الفضيحة التي تعقب استحقاقهما الإثم في الشهادة برد أيمان الورثة بعد أيمانهم، فتكون مبطلة لها؛ إذ من لم يمنعه خوف الله وتعظيمه أن يكذب لضعف دينه.. يمنعه خوف الخزي والفضيحة بين الناس.

والحاصل(٣): أن الشاهدين أو الوصيين، إذا علما أنهما إن لم يصدقا.. يتوجه اليمين على الورثة، فيحلفون، فينتزعون من الشاهدين ما أخذاه، ويفتضحان بظهور كذبهما.. حملهما ذلك على أحد أمرين: إما الصدق في الشهادة، والحلف من أول الأمر، وإما ترك الحلف الكاذب، فيظهر كذبهم ونكولهم، فبأحد الأمرين يحصل المقصود؛ لأنهم إذا صدقوا ولم يخونوا..

---

(١) الشوكاني بتصرف. (٢) المراغي. (٣) الفتوحات.

فالأمر ظاهر، وإن خانوا وامتنعوا من الحلف خوفاً من الفضيحة.. حلف الورثة وانتزعوا ما خان به الشهود، فتأمل.

وعبارة ابن الجوزي[1] هنا: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾؛ أي: ذلك الذي حكمنا به من ردِّ اليمين أقرب إلى إتيان أهل الذمة بالشهادة على وجهها؛ أي: على ما كانت، وأقرب أن يخافوا أن ترد أيمان أولياء الميت وتكرر بعد أيمانهم، فيحلفون على خيانتهم فيفتضحوا ويغرموا، فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا ذلك. انتهت.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وراقبوه في أيمانكم أن تحلفوا بها كاذبة وأن تخونوا مَنْ ائتمنكم ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما يقال لكم وما توعظون به سمعَ إجابة وقبول لهذه الأحكام وغيرها. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: فإن لم تتقوا ولم تسمعوا.. كنتم قوماً فاسقين خارجين عن أمر الله وطاعته، مطرودين من هدايته، مستحقين لعقابه؛ لأن الله تعالى لا يرشد القوم العاصين الكافرين الكاذبين إلى دينه وحجته، أو إلى طريق الجنة.

فائدة: وقد استنبط[2] العلماء من هاتين الآيتين فوائد وأحكاماً نذكر أهمها فيما يلي:

١ ـ الحث على الوصية وعدم التهاون في أمرها في سفر أو حضر.

٢ ـ الإشهاد عليها لتثبيت أمرها والرجاء في تنفيذها.

٣ ـ بيان أن الأصل في الشاهدين عليها أن يكونا مسلمين موثوقاً بعدالتهما.

٤ ـ بيان أن إشهاد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع؛ لأن مقصد الشارع منه إذا لم يمكن أداؤه على وجه الكمال أن لا يترك ألبتة.

٥ ـ شرعية اختيار الأوقات التي تؤثِّر في قلوب الشهود ومقسمي الأيمان رجاء أن يصدقوا ويبروا فيها.

٦ ـ التغليظ على الحالف بصيغة اليمين، بأن يقول فيه ما يرجى أن يكون

---

(١) زاد المسير.

(٢) المراغي.

رادعاً للحالف عن الكذب.

٧ ـ أن الأصل في أخبار الناس وشهاداتهم أن تكون مصدَّقة مقبولة، ومن ثَمَّ شرط في تحليف الشاهدين الارتياب في خبرهما.

٨ ـ شرعية تحليف الشهود إذا ارتاب الحكَّام والخصوم في شهادتهم، وهو الذي عليه العمل الآن في أكثر الأمم، وقد حتمته القوانين الوضعية الآن؛ لكثرة ما يقع من شهادة الزور.

٩ ـ شرعية ردِّ اليمين إلى من قام الدليل على ضياع حق له بيمين صار حالفها خصماً له.

١٠ ـ إذا احتيج إلى قيام بعض الورثة في أمر يتعلق بالتركة.. فأولاهم بذلك أقربُهم إليه.

الإعراب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لأيُّ. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَسْـَٔلُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَنْ أَشْيَآءَ﴾: جار ومجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف علة واحدة تقوم مقام علتين ترجع إحداهما إلى اللفظ، والأخرى إلى المعنى، وهي ألف التأنيث الممدودة، فلزومها لبناء ما هي فيه بمنزلة علة ترجع إلى اللفظ، ودلالتها على التأنيث بمنزلة علة ترجع إلى المعنى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَسْـَٔلُوا۟﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُبْدَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بحذف حرف العلة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿أَشْيَآءَ﴾. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُبْدَ﴾. ﴿تَسُؤْكُمْ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله

ضمير يعود على ﴿أَشْيَآءَ﴾، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل الجر صفة لـ﴿أَشْيَآءَ﴾.

﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِن تَسْـَٔلُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، وعلامة جزمه حذف النون. ﴿عَنْهَا﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿حِينَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿تَسْـَٔلُوا۟﴾. ﴿يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حِينَ﴾. ﴿تُبْدَ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿أَشْيَآءَ﴾. ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل الجر معطوفة على جملة ﴿إِن﴾ الأولى على كونها صفة لـ﴿أَشْيَآءَ﴾. ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿أَشْيَآءَ﴾. ﴿عَنْهَا﴾: متعلق به. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول. ﴿حَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿سَأَلَهَا﴾: فعل ومفعول. ﴿قَوْمٌ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿سأل﴾. قال أبو البقاء: ولا يجوز أن يكون صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، ولا حالاً منه؛ لأن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثة ولا حالاً منها، ولا خبراً عنها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿أَصْبَحُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهَا﴾: الباء حرف جر وسبب، الهاء ضمير المؤنثة في محل الجر بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَصْبَحُوا۟﴾، أو بـ﴿كَـٰفِرِينَ﴾. ﴿كَـٰفِرِينَ﴾: خبر ﴿أَصْبَحُوا۟﴾، وجملة ﴿أَصْبَحُوا۟﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة وجعل هنا

بمعنى: سمَّى يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الأول محذوف تقديره: ما جعل الله الحيوان ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ. . .﴾ إلخ. ﴿مِنۢ﴾: زائدة. ﴿بَحِيرَةٍ﴾: مفعول ثانٍ منصوب بفتحة مقدرة؛ أي: ما سمى الله الحيوان بحيرة ﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾: معطوف على ﴿بَحِيرَةٍ﴾، منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف جر زائد، وكذا تقول في: ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، ولكن تقول في ﴿حَامٍ﴾ منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف جر زائد مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنه اسم منقوص كقاضٍ؛ لأن أصله: ولا من حامي، استثقلت الكسرة على الياء، ثم حذفت فالتقى ساكنان، وهما الياء والتنوين، ثم حذفت الياء لبقاء دالها، فصار: ولا حامٍ؛ كقاضٍ. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿يَفۡتَرُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يفترون﴾. ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾: مفعوله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾. ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَفۡتَرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو: استئنافية. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿تَعَالَوۡاْ﴾: وما بعده إلى قوله: ﴿قَالُواْ﴾ نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، وإن شئت قلتَ: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿إِلَىٰ مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَعَالَوۡاْ﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: إلى ما أنزله الله. ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿قَالُواْ﴾:

فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿حَسْبُنَا﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿مَآ﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿وَجَدْنَا﴾: فعل وفاعل، ووجد[1] هنا: إما بمعنى علم، فيتعدى إلى مفعولين، فيكون ﴿عَلَيْهِ﴾ في محل المفعول الثاني. ﴿ءَابَآءَنَآ﴾: مفعول أول له، ويجوز أن يكون وجدنا بمعنى: صادفنا، فيتعدى إلى مفعول واحد بنفسه، وفي ﴿عَلَيْهِ﴾ على هذا الاحتمال وجهان:

أحدهما: هي متعلقة بالفعل، معدية له؛ كما تتعدى ضربت زيداً بالسوط،

والثاني: أن تكون حالاً من الآباء، ذكره أبو البقاء، وجملة ﴿وَجَدْنَا﴾ صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿عَلَيْهِ﴾.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿أَوَلَوْ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري والتعجبي، داخلة على محذوف تقديره: أَحَسْبُهُم ذلك؛ أي: كافيهم ذلك. حسبهم مبتدأ، ذلك خبره، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿ولو﴾ الواو: حالية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. وجملة ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لو﴾ محذوف دل عليه ما قبلها تقديره: ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون، يقولون: حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا. وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب حال من ﴿ءَابَآؤُهُمْ﴾ المقدر، والتقدير: أيقولون حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا حالة كون آبائهم جهلةً ضالين، لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون؟ وعبارة أبي السعود[2] قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ قيل: الواو للحال دخلت عليها الهمزة للإنكار والتعجيب؛ أي: أحسبهم ذلك ولو كان

---

(١) العكبري. (٢) أبو السعود.

آباؤهم جهلة ضالين. وقيل: للعطف على شرطية أخرى مقدرة قبلها، وهو الأظهر، والتقدير: أحسبهم ذلك، أو أيقولون هذا القول ولو لم يكن آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الدين، ولا يهتدون للصواب، ولو كانوا لا يعلمون.. إلخ؟ وكلتاهما في موضع الحال؛ أي: حسبهم ما وجدوا عليه آباءهم كائنين على كل حال مفروضة، وقد حذفت الأولى حذفاً مطّرداً لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة. انتهت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: اسم فعل أمر بمعنى: الزموا مبني على السكون وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنتم. ﴿أَنفُسَكُمۡۖ﴾: مفعول به لاسم الفعل، ومضاف إليه، وجملة اسم الفعل جواب النداء لا محل لها من الإعراب. و﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ اسم فعل أمر منقول من الجار والمجرور دال على الإغراء، كما قال ابن مالك:

وَٱلْفِعْلُ مِنْ أَسْمَائِهِ عَلَيْكَا وَهَكَذَا دُونَكَ مَعْ إِلَيْكَا

يعني: أن من أسماء فعل الأمر ما هو منقول من حرف جر، أو ظرف نحو: عليك زيداً؛ أي: الزمه، وإليك؛ أي: تنح، ودونك زيداً؛ أي: خذه، ومكانك؛ أي: اُثبت، وأمامك؛ أي: تقدَّم. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَضُرُّكُم﴾: فعل ومفعول. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾، والجملة صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَآ﴾، والظرف متعلق بـ﴿يَضُرُّكُم﴾. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿جَمِيعٗا﴾: حال من ضمير

المخاطبين، وصح مجيء الحال من المضاف إليه؛ لصحة عمل المضاف فيها وفي صاحبها؛ لكونه مما يشبه الفعل، كما قال ابن مالك:

وَلاَ تُجِزْ حَالاً مِنَ ٱلْمُضَافِ لَهْ ... إلاَّ إِذَا ٱقْتَضَىٰ ٱلْمُضَافُ عَمَلَهْ

أَوْ كَانَ جُزْءَ مَا لَهُ أُضِيفَا ... أَوْ مِثْلَ جُزْئِهِ فَلا تَحِيفَا

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع. ﴿ينبئكم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية المذكورة قبلها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينبئكم﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كنتم تعملونه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: سبق إعرابه غير ما مرةٍ. ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بـ﴿شَهَٰدَةُ﴾. ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف بدل من ﴿إِذَا﴾ بدل كل من كل ﴿ٱثْنَانِ﴾: خبر المبتدأ، ولكنه على حذف مضاف تقديره: شهادة بينكم حين الوصية شهادة اثنين منكم؛ لتحصل المطابقة بين المبتدأ والخبر، وذلك لأن الشهادة لا تكون هي الاثنان؛ إذ الجثة لا تكون خبراً عن المصادر، فأضمر مصدر يكون خبراً عن مصدر. ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾: صفة أولى لـ﴿ٱثْنَانِ﴾، ومضاف إليه مرفوع بالألف. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة ثانية لـ﴿ٱثْنَانِ﴾. ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾: معطوف على ﴿ٱثْنَانِ﴾. ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾، والجملة من المبتدأ والخبر جواب النداء لا محل لها من الإعراب.

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾.

﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿أَنتُمْ﴾: فاعل بفعل محذوف وجوباً يفسره ما بعده تقديره: إن ضربتم، فلما حذف الفعل.. انفصل الضمير. فقوله: ﴿ضَرَبْتُمْ﴾ جملة مفسرة للمحذوف لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بفعل الشرط المحذوف. ﴿فَأَصَٰبَتْكُم﴾: الفاء: عاطفة. ﴿أصابتكم﴾: فعل ومفعول في محل الجزم معطوف على ﴿ضَرَبْتُمْ﴾ المحذوف على كونه فعل شرط، لـ﴿إِنْ﴾ الشرطية. ﴿مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: فاعل ومضاف إليه، وجواب الشرط محذوف جوازاً لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: إن سافرتم في الأرض فقاربكم الأجل حينئذ، وما معكم أحد من أهل الإسلام.. فليشهد آخران من غيركم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الموصوف وهو ﴿ءَاخَرَانِ﴾ وبين صفته وهي قوله ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾، ولكنها صفة سببية. ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿يقسمان﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يقسمان﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ على كونها صفة ثانية لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾.

﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾.

﴿إِنِ﴾: حرف شرط. ﴿ٱرْتَبْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنِ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره: إن ارتابهما الوارث منكم بخيانة أو أخذ شيء من التركة.. فاحبسوهما، وحلفوهما من بعد الصلاة، وهذا الشرط وجوابه المحذوف جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القسم وهو قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾؛ لأنه قائم مقام القسم، وبين جوابه وهو قوله: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿نَشْتَرِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ءَاخَرَانِ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق

به. ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب ﴿يقسمان﴾ لا محل لها من الإعراب؛ لأنه يقوم مقام اليمين كما مر آنفاً. ﴿وَلَوْ﴾: الواو: اعتراضية. ﴿لو﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على المشهود له. ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، ومضاف إليه منصوب بالألف، وجواب ﴿لو﴾ محذوف؛ لدلالة ما قبلها عليه تقديره: ولو كان المشهود له ذا قربى.. لا نشتري به ثمناً، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف عليه؛ وهو قوله: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾، وبين المعطوف، وهو قوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نَكْتُمُ﴾. فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ءَاخَرَانِ﴾. ﴿شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ على كونها جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّآ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد، ﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب زائد لتأكيد معنى الكلام لا عمل لها؛ لعدم دخولها على الفعل. ﴿لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿مِنَ الآثمين﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إن﴾ تقديره: إنا لكائنون من الآثمين إن كتمنا شهادة الله تعالى، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾.

﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿عُثِرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر. ﴿أَنَّهُمَا﴾: ﴿أنَّ﴾: حرف نصب ومصدر، والهاء: ضمير المثنى الغائب في محل النصب اسمها. ﴿ٱسْتَحَقَّآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِثْمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ تقديره: على أنهما مستحقان إثماً، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بعلى تقديره: فإن عثر على استحقاقهما إثماً، الجار والمجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿عُثِرَ﴾. ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة

اسمية. ﴿ءَاخَرَانِ﴾: مبتدأ مرفوع بالألف، وسوغ الابتداء دخول فاء الجزاء عليه، وأيضاً وصفه بالجار والمجرور في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾، ولا يضر الفصل بين الصفة وموصوفها بالخبر؛ لأنه ليس أجنبياً. ﴿يَقُومَانِ﴾: فعل وفاعل. ﴿مَقَامَهُمَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَقُومَانِ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والتقدير: فشاهدان آخران قائمان مقام الخائنين، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾ الواقع مبتدأً، ويصح كونه حالاً من ضمير ﴿يَقُومَانِ﴾ كما مرَّ في مبحث التفسير. ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، الجار والمجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾، والتقدير: فآخران كائنان من الورثة الذين استُحِقَّ، وجُنِيَ عليهم بالخيانة في مالهم يقومان مقام الخائنين. ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾: بدل من ﴿ءَاخَرَانِ﴾ الواقع مبتدأ، أو عطف بيان منه مرفوع بالألف؛ لأنه مثنى الأولى بمعنى: الأقربان من الميت الموصي، وعلى قراءة: ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ بالبناء للفاعل، فـ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ فاعل ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾، والتقدير: فآخران كائنان من الورثة الذين استحق التقدم عليهم الأوليان منهم بالميت في إظهار كذب الخائنين يقومان مقام الخائنين في الشهادة واليمين لإظهار كذبهما.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿فَيُقْسِمَانِ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿يقسمان﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَقُومَانِ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ﴾: اللام: موطئة للقسم. ﴿شهادتنا﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَحَقُّ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَحَقُّ﴾، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿ٱعْتَدَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية على كونها جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّآ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها.

﴿إِذًا﴾: حرف جواب زائد لتأكيد معنى الكلام، ولذلك لم تدخل على الفعل. ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿من الظالمين﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يَأْتُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية. ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: ذلك أدنى وأقرب إلى إتيانهم بالشهادة على وجهها. ﴿بِٱلشَّهَٰدَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَأْتُوا۟﴾. ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الشهادة. ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَأْتُوا۟﴾. ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ﴾: ناصب وفعل مغيَّر ونائب فاعل، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: أو يخافوا ردَّ أيمان. ﴿بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متلعق بـ﴿تُرَدَّ﴾، أو صفة لـ﴿أَيْمَٰنٌۢ﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ صفة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

وقال بعضهم: هذه الآيات الثلاث في قراءتها وإعرابها وتفسيرها ومعانيها وأحكامها، من أصعب آي القرآن وأشكلها. وقال السخاوي: ولم أرَ أحداً من العلماء تخلَّص كلامه فيها من أولها إلى آخرها، ونحن نريد إن شاء الله تعالى أن نضع عليها رسالة صغيرة في بيان معانيها وإعرابها وقراءتها بأوضح ما يمكن في بيانها، بعد ما فرغنا من هذا الشرح إن شاء الله سبحانه وتعالى، ولذلك اختصرنا الكلام هنا في بيان ما يتعلق بها، وبالله التوفيق والهداية إلى أقوم الطريق.

﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾: الأصل[1] في أشياء على مذهب الخليل وسيبويه: شيئاء بوزن: لفعاء بهمزتين بينهما ألف، وهي فعلاء من لفظ شَيء، وهمزتها الثانية للتأنيث، وهي اسم جمع، كطرفاء وحلفاء، ولأجل همزة التأنيث لم تنصرف، ثم إن الهمزة الأولى التي هي لام الكلمة قدمت، فجعلت قبل الشين كراهية الهمزتين بينهما ألف، خصوصاً بعد الياء، فصار وزنها لفعاء، وهذا قول صحيح لا يرد عليه إشكال. ومذهب غيرهما: أنها جمع، واختلفوا فقال الكسائي وأبو حاتم: هو جمع شيء من غير تغيير؛ كبيت وأبيات، وهو غلط؛ لأن مثل هذا الجمع الذي كان على وزن أفعال ينصرف، وأشياء لا تنصرف لأجل ألف التأنيث، ولو كان وزنه أفعالاً لانصرفَ، ولم يسمع أشياء منصرفة ألبتة. وقال الكسائي: لم تنصرف أشياء لشبه آخرها بآخر حمراء، ولكثرة استعمالها، والعرب تقول: أشياوان كما تقول: حمراوان. وذهب الفراء والأخفش إلى أنها جمع على وزن أفعلاء، قال الفراء: شيء مخفف من شيء كما قالوا: أهوناء في جمع هين مخفف من هين. وقال الأخفش: ليس مخففاً من شيء، بل هو فعل جمع على أفعلاء، فاجتمع في هذين القولين همزتان: لام الكلمة وهمزة التأنيث، فقلبت الهمزة التي هي لام الكلمة ياء؛ لانكسار ما قبلها، ثم حذفت الياء التي هي عين الكلمة استخفافاً. وذهب قوم إلى أنَّ وزن شيء في الأصل شييىء، كصديق وأصدقاء، ثم حذفت الهمزة الأولى، وفتحت ياء المد؛ لكون ما بعدها ألفاً. قال: ووزنها في هذا القول: أفياء، وفي القول الذي قبله: أفلاء، وتقرير هذه المذاهب صحة وإبطالاً مذكور في علم التصريف.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾: البحيرة فعلية بمعنى: مفعولة، فدخول تاء التأنيث عليها لا يقاس، ولكن لما جرت مجرى الأسماء الجوامد. أنثت، واشتقاقها من البحر، والبحر: السعة، ومنه: بحر الماء لسعته.

---

(١) البحر المحيط والعكبري.

﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾: والسائبة هنا فيها قولان:

أحدهما: أنها اسم فاعل على بابه من ساب الماء يسيب ـ كباع يبيع ـ إذا جرى على وجه الأرض، يقال: ساب الماء، وسابت الحية، وهو مطاوع سيبته، يقال: سيبته فساب وانساب.

والثاني: أنها اسم فاعل بمعنى مفعول نحو قولهم: عيشة راضية؛ أي: مرضية، ومجيء فاعل بمعنى مفعول قليل جداً، نحو: ماء دافق اهـ «سمين».

﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾: الوصيلة فعلية بمعنى: فاعلة؛ لأنها إذا كانت من الإبل.. هي الناقة تبكر فتلد أنثى، ثم تثنّي بولادة أنثى أخرى ليس بينهما ذَكَر، فيتركونها لآلهتهم، ويقولون: قد وصلت أنثى بأنثى ليس بينهما ذكر.

﴿وَلَا حَامٍ﴾: والحامي اسم فاعل من حمى يحمي، كرمى يرمي، فهو حام؛ لأنه حمى ظهره من الركوب والحمل. وقال بعضهم: هو الفحل يولد من صلبه عشرة أبطن فيقولون: قد حمى ظهره فيتركونه كالسائبة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: ﴿تَعَالَوْاْ﴾: فعل أمر بمعنى أقبلوا، مبني على حذف النون، وأصله: تعالوون، تحركت الواو الأولى، وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار: تعالاون، فالتقى ساكنان: الألف والواو، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، وحذفت النون للبناء؛ لأن فعل الأمر مبني على ما يجزم به مضارعه، وهو بفتح اللام لكل مخاطب، ولو كان أنثى قال تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾.

﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾: الشهادة مصدر: شهد يشهد شهادة من باب علم، والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة.

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾ يقال: ضرب في الأرض إذا سافر فيها ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾؛ أي: تمسكونهما وتمنعونهما من الانطلاق والهرب، والحبس مصدر حبس يحبس حبساً من باب ضرب، والحبس: المنع من التصرف، يقال: حبست أحبس وأحبست فرساً في سبيل الله، فهو محبس وحبيس إذا وقفته للغزو. ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم في صدقهما فيما يقران به ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾؛ أي: اطلع، يقال: عثر على الرجل يعثر عثوراً من باب دخل ونصر، والعثور على الشيء: الاطلاع عليه من

غير سبق طالب له، يقال[1]: عثر على الرجل: اطلع عليه، مشتق من العثرة التي هي الوقوع، وذلك أن العاثر إنما يعثر بشيء كان لا يراه، فلما عثر به.. اطلع عليه ونظر ما هو، فلذلك قيل: لكل من اطلع على أمر كان خفياً عليه قد عثر عليه، ويقال: قد عثر عليه، وقد أعثر عليه إذا أطلعه عليه، ومنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أطلعنا، وأعثره عليه وقفه عليه وأعلمه به من حيث لم يكن يتوقع ذلك. وقال الليث: عثر يعثر عثوراً إذا هجم على أمر لم يهجم عليه غيره، وعثر عثرة إذا وقع وسقط على شيء. قال أبو البقاء: العثور: مصدر عثر على الشيء إذا اطلع عليه، وأما مصدر عثر في مشيه ومنطقه ورأيه، فالعثار. انتهى.

﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾: تثنية أولى بمعنى: أقرب، فقلبت الألف ياءً على حد قول ابن مالك:

آخِرَ مَقْصُورٍ تُثَنِّيْ اجْعَلْهُ يَا ... إِنْ كَانَ عَنْ ثَلَاثَةٍ مُرْتَقِيَا

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟﴾ ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟﴾، وفي: ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾.

ومنها: الاستخدام في قوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا﴾ وهو ذكر الشيء بمعنى وإعادة الضمير إليه بمعنى آخر، وهو من المحسنات البديعية؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا﴾ عائد إلى الأشياء التي مست الحاجة إلى السؤال عنها، والمراد بالأشياء المنهي عن السؤال عنها: الأشياء التي لم يكن لهم حاجة إلى السؤال عنها؛ كقول بعضهم: من أبي؟ أين ضالتي؟

ومنها: التفنن في قوله: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ حيث قال هنا: ﴿مَا وَجَدْنَا﴾، وفي البقرة: ﴿مَآ أَلْفَيْنَا﴾، وقال هنا: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهناك ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ للتفنن: وهو ذكر نوعين من الكلام؛ لثقل تكرار أحدهما على اللسان، وهو من المحسنات البديعية أيضاً.

(١) البحر المحيط.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

ومنها: إطلاق الجملة الخبرية مراداً بها معنى الطلبية في قوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾؛ لأنها بمعنى: فليشهد اثنان منكم.

ومنها: التجوز بإضافة ﴿شَهَٰدَةُ﴾ إلى ﴿بَيْنِكُمْ﴾؛ لأن حق الشهادة أن تضاف إلى المشهود به، كأن يقال: شهادة الحقوق؛ أي: الشهادة بها، فاتسع فيها، وأضيفت إلى البين؛ إما باعتبار جريانها بينهم، أو باعتبار تعلقها بما يجري بينهم من الخصومات.

ومنها: الاعتراض بـ﴿إِذَا حَضَرَ﴾ بين المبتدأ والخبر.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ لأنه مجاز عن حضور أسبابه ومقدماته.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الغيبة إلى الخطاب؛ لأنه لو جرى على لفظ: إذا حضر أحدكم الموت.. لكان الترتيب هكذا: إن هو ضرب في الأرض.. فأصابته.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

ومنها: التجوز بالجمع عن المثنى في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾؛ لأن المقام لتثنية الضمير، وإنما جمع؛ لأن المراد ما يعمُّ الشاهدين المذكورين وغيرهما من بقية الناس كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما أخبر بالحكم في شاهدي الوصية، وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة.. ذكَّر بهذا اليوم المهول المخوف، وهو يوم القيامة، فجمع بذلك بين فضيحة الدنيا وعقوبة الآخرة لمن حرَّف الشهادة، ولمن لم يتقِ الله ولم يسمع.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة يومٍ يجمعُ الله سبحانه وتعالى المرسلين والمرسل إليهم في صعيد واحد، وهو يوم القيامة. ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه وتعالى للرسل؛ مشيراً إلى خروجهم من عهدة الرسالة

(١) البحر المحيط.

وتوبيخاً لأممهم: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾؛ أي: أيَّ إجابة أجابكم بها أممكم حين دعوتموهم في دار الدنيا إلى توحيدي وطاعتي، أهي إجابة قبول وإذعان، أو إجابة رد وإنكار؟ ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال الرسل تفويضاً للأمر إلى العدل الحكيم العالم، وعلماً منهم أن الأدب في السكوت والتفويض، وأنَّ قولهم لا يفيد خيراً ولا يدفع شراً: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾؛ أي: لا علم لنا كعلمك فيهم؛ لأنك تعلم ما أضمروا وما أظهروا، ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا لنا، فعلمك فيهم أنفذ من علمنا وأبلغ، ولأن الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن، وهو معتبر في الدنيا؛ لأن الأحكام في الدنيا مبنية على الظن، وأما الأحكام في الآخرة: فهي مبنية على حقائق الأشياء وبواطن الأمور، ولا عبرة بالظن في القيامة، فلهذا السبب قالوا: لا علم لنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ يا إلهنا ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ أي: عالم الغيب والشهادة؛ أي: فإنك تعلم ما أجابوا وأظهروا لنا، وما لم نعلمه مما أضمروه في قلوبهم، وقيل: معناه: إنك لا يخفى عليك ما عندنا من العلوم، وإن الذي سألتنا عنه ليس بخاف عليك؛ لأنك أنت علام الغيوب؛ أي: العالم بأصناف المعلومات على تفاوتها بالنسبة إلى غيرك، ليس يخفى عليك خافية. وقيل: المعنى: لا علم لنا إلى جنب علمك، أو لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة. وقيل: المعنى: لا علم لنا إلا علم ما أنت أعلم به منا. وقيل: إنهم ذهلوا عما أجاب به قومهم لهول المحشر.

وقرأ ابن عباس وأبو حيوة[1]: ﴿ماذا أجبتم﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ: ﴿علاَّم﴾ بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ بتقدير الخبر لـ﴿إنَّ﴾؛ أي: إنك أنت الموصوف بصفاتك المعروفة من العلم وغيره، ونصب ﴿عَلَّٰمُ﴾؛ إما على الاختصاص، أو على النداء. وقرأ حمزة وأبو بكر: ﴿الغيوب﴾ بكسر الغين حيث وقع، كأن من قال ذلك من العرب.. قد استثقل توالي ضمتين مع الياء، ففر إلى حركة مغايرة للضمة، مناسبة لمجاورة الياء وهي الكسرة.

و﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾، وهو

(١) البحر المحيط.

تخصيص[1] بعد التعميم، وتخصيص عيسى من بين الرسل؛ لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه إفراطاً وتفريطاً؛ هذه تجعله إلهاً، وهذه تجعله كاذباً. وقيل: هو منصوب باذكر. و﴿قَالَ﴾[2] هنا بمعنى المضارع؛ لأن هذا القول يقع يوم القيامة مقدمة لقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وعبارة[3] «البيضاوي» هنا: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ﴾، والماضي بمعنى الآتي على حد، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ في أن الماضي أقيم مقام المضارع، وفي أن إذ واقعة موقع إذا التي للمستقبل لتحقق الوقوع، فكأنه واقع، أو نصب بإضمار اذكر. انتهت؛ أي: اذكر يا محمد لأمتك قصة إذ يقول الله سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم يوم القيامة ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾؛ أي: تذكّر إنعامي عليك بما سيأتي ﴿و﴾ إنعامي ﴿على والدتك﴾ وأمك مريم إذ أنبتها نباتاً حسناً، وطهرتها واصطفيتها على نساء العالمين، ورزقتها من حيث لا تحتسب. ذكَّره[4] سبحانه وتعالى نعمتهُ عليه وعلى أمه مع كونه ذاكراً لها عالماً بتفضل الله سبحانه بها؛ لقصد تعريف الأمم بما خصهما الله تعالى به من الكرامة، وميزهما به من علو المقام، أو لتأكيد الحجة وتبكيت الجاحد بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة، وتوبيخ من اتخذهما إلٰهين ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند الله تعالى، وأنهما عبدان من جملة عباده منعم عليهما بنعم الله سبحانه، ليس لهما من الأمر شيء، وليس المراد بأمره بالذكر يومئذ ـ أي: يوم القيامة ـ تكليفه شكرها، والقيام بواجبها؛ إذ ليس هناك تكليف، بل المراد توبيخ الكفرة المختلفين في شأنه وشأن أمه إفراطاً وتفريطاً. انتهى «أبو السعود».

وقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: ظرف للنعمة؛ لأنها بمعنى المصدر؛ أي: اذكر إنعامي عليك وقت تأييدي إياك بروح القدس؛ أي: بجبريل الأمين؛ أي: إذ قويتك وأعنتك بروح القدس؛ أي: بجبريل المطهر من أوصام الآثام حين لقنك وأعانك في تكليم الناس في المهد، وثبتك في إقامة الحجة عليهم في

---

(1) الشوكاني.
(2) الجمل.
(3) البيضاوي.
(4) الشوكاني.

الكهولة، فكان جبريل يسير معه حيث سار، يعينه على الحوادث التي تقع، ويلهمه المعارف والعلوم.

وعبارة «الخازن» هنا: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: بجبريل عليه السلام؛ لأن القدس هو الله تعالى؛ لأنه مصدر بمعنى: المقدس؛ أي: المطهر عن النقائص، وأضافه إليه على سبيل التشريف والتعظيم، كإضافة بيت الله وناقة الله. وقيل: أراد بروح القدس الروح المطهرة؛ لأن الأرواح تختلف باختلاف الماهية، فمنها روح طاهرة مقدسة نورانية، ومنها روح خبيثة كدرة ظلمانية، فخصَّ الله عيسى بالروح المقدسة الطاهرة النورانية المشرقة، وقد عدد عليه من النعم سبعاً: إذ أيدتك، وإذ علمتك، وإذ تخلق، وإذ تبرىء، وإذ تخرج الموتى، وإذ كففت، وإذ أوحيت.

وقرأ الجمهور: ﴿أَيَّدتُّكَ﴾ بتشديد الياء من باب فعَّل المضعف. وقرأ مجاهد وابن محيصن: ﴿آيدتك﴾ فوزن هذه القراءة يحتاج في معرفته إلى نقل مضارعه من كلام العرب، فإن كان يؤايد.. فوزنه: فاعل، وإن كان يؤيد.. فهو أفعل، وجملة قوله: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ مبينة لمعنى التأييد، و﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾ في محل النصب على الحال؛ أي: تكلم الناس حالة كونك طفلاً صغيراً في الحجر والسرير بقولك: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، الآية ﴿و﴾ حالة كونك ﴿كهلا﴾؛ أي: في زمن الكهولة؛ الزمن بين الثلاثين والأربعين؛ أي: تكلم الناس حال كونك صبياً وكهلاً، لا يتفاوت كلامك في الحالتين، مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتاً بيناً، وهذه معجزة عظيمة، وخاصة شريفة ليست لأحد قبله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[١]: أرسل الله عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة، فمكث في رسالته ثلاثين شهراً، ثم رفعه الله إليه، فذكر تكليمه في حال الكهولة لبيان أن كلامه في تينك الحالين كان على نسق واحد بديع، صادر عن كمال العقل والتدبير، ذكره «أبو السعود». والمعنى: اذكر يا محمد لأمتك

---

(١) الخازن.

قصة إذ يقول الله سبحانه يوم القيامة لعيسى ابن مريم: اذكر[١] بقلبك أو بلسانك إنعامي عليك وعلى والدتك حين تأييدي إياك بروح القدس، وتكليمك الناس في المهد بما يبرِّىء أمك من قول الآثمين الذين أنكروا عليها أن يكون لها غلام من غير زوج يكون أباً له، وذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾، وكهلاً حين بعثت فيهم رسولاً؛ تقيم عليهم الحجة في ما ضلوا به عن الصراط المستقيم.

وفائدة هذا القصص: تنبيه النصارى الذين كانوا عصر التنزيل إلى قبح مقالتهم، وسوء معتقدهم؛ لأن طعن سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء، وطعن هؤلاء تعدى إلى جلال الله وكبريائه؛ إذ وصفوه بما لا يليق به من اتخاذ الزوجة والولد.

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾؛ أي: واذكر نعمتي عليك وقت تعليمي إياك ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الكتابة والخط، أو المراد[٢]: جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل من ذكر الخاص بعد العام، وتخصيصهما بالذكر؛ لمزيد اختصاصه بهما، أما التوراة: فقد كان يحتج بها على اليهود في غالب ما يدور بينه وبينهم من الجدال، كما هو مصرَّح بذلك في الإنجيل، وأما الإنجيل: فلكونه نازلاً عليه من عند الله سبحانه وتعالى ﴿و﴾ علمتك ﴿الحكمة﴾؛ أي: الفهم والاطلاع على أسرار العلوم النظرية والعملية ﴿و﴾ علمتك ﴿التوراة﴾ التي أنزلتها على موسى ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الذي أنزلته عليك.

وذِكر الكِتابين[٣]؛ إشارة إلى الأسرار التي لا يطلع عليها أحد إلا أكابر الأنبياء عليهم السلام، فإن الاطلاع على أسرار الكتب الإلهية لا يحصل إلا لمن صار ربانياً في أصناف العلوم الشرعية والعقلية الظاهرة التي يبحث عنها العلماء.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾؛ أي: واذكر نعمتي عليك؛ إذ

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.

تجعل قطعة من الطين والتراب المندّىٰ مثل هيئة الطير وصورتها في شكلها، ومقادير أعضائها بإذني وأمري وتيسيري لك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك القطعة المصورة من ريح فمك، فتكون تلك القطعة المصورة ﴿طَيْرًا﴾؛ أي: حيواناً طائراً مثل الخفاش ﴿بِإِذْنِي﴾؛ أي: بتكويني وتخليقي. وإنما قال[1] هنا: ﴿فِيهَا﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿فيه﴾؛ لأن الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الهيئة المصورة بجعلها مصدراً بمعنى اسم المفعول؛ كالخلق؛ وذلك لأن النفخ لا يكون في الهيئة، إنما يكون في المهيأ ذي الهيئة، ويجوز أن يعود الضمير إلى الطير؛ لأنها مؤنثة قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ وأما الضمير المذكور في آل عمران في قوله: ﴿فيه﴾، فيعود إلى الكاف يعني: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، وإنما كرر قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾؛ تأكيداً لكون ذلك الخلق واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه، لا بقدرة عيسى عليه السلام وتخليقه؛ لأن المخلوق لا يخلق شيئاً، إنما خالق الأشياء كلها هو الله تعالى لا خالق لها سواه، وإنما كان الخلق لهذا الطير معجزة لعيسى عليه السلام أكرمه الله تعالى بها.

وقرأ ابن عباس[2]: ﴿فتنفخها فتكون﴾، وقرأ الجمهور: ﴿فَتَكُونُ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ عيسى ابن عمر: ﴿فيها فيكون﴾ بالياء من تحت. وقرأ[3] نافع ويعقوب: ﴿طائراً﴾، ويحتمل الإفراد والجمع كالباقر.

﴿و﴾ اذكر نعمتي عليك إذ ﴿تبرىء﴾ وتشفي ﴿الْأَكْمَهَ﴾؛ أي: الأعمى المطموس البصر الذي ولد كذلك ﴿و﴾ تبرىء ﴿الأبرص﴾؛ أي: صاحب البرص، وهو داء معروف يبيض منه الجلد. ﴿بِإِذْنِي﴾ لك، وتسهيله عليك، وتيسيره لك ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾؛ أي: بفعلي ذلك عند دعائك وقولك للميت: أخرج بإذن الله من قبرك، فيكون ذلك آية لك عظيمة.

وتكرير ﴿بِإِذْنِي﴾ في المواضع الأربعة؛ للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله،

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البيضاوي.

ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه كما مرَّ. وإنما قال في آل عمران[١]: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مرتين، وقال هنا: ﴿بِإِذْنِي﴾ أربع مرات عقيب أربع جمل؛ لأن ما هنا موضع ذكر النعمة والامتنان بها، فناسب الإسهاب والإطناب، وما هناك موضع إخبار لبني إسرائيل، فناسب الإيجاز.

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ معطوف على ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ﴾؛ أي: واذكر نعمتي عليك حين كففت ودفعت وصرفت ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾؛ أي: اليهود حين أرادوا قتلك، فلم يتمكنوا منه، وقوله: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ظرف لـ﴿كَفَفْتُ﴾؛ أي: إذ جئتهم بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقك؛ أي: بما ذكر هنا، وما لم يذكر؛ كالإخبار بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وغير ذلك من معجزاته، فـ(ال) فيه للجنس، وذلك أن عيسى عليه السلام لما أتى بهذه المعجزات العجيبة الباهرة.. قصد اليهود قتله، فخلصه منهم ورفعه إلى السماء. ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾؛ أي: فقال الذين استمروا على كفرهم من اليهود، ولم يؤمنوا بهذه المعجزات: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا الذي جاء به عيسى من المعجزات ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بين واضح.

وقرأ حمزة والكسائي هنا، وفي هود، والصف، ويونس[٢]: ﴿ساحر﴾ بالألف، والإشارة حينئذ إلى عيسى؛ أي: ما هذا الرجل وهو عيسى عليه السلام إلا ساحر ظاهر.

وقرأ ابن عامر وعاصم في يونس فقط بالألف. وقرأ باقي السبعة: ﴿سِحْر﴾ بكسر السين وسكون الحاء؛ أي: ما هذا الذي جاء به عيسى من الخوارق إلا سحر مبين، أو ما هذا؛ أي: عيسى إلا سحر مبين، وهذا على سبيل المبالغة؛ أو على حذف مضاف.

والخلاصة[٣]: أنهم لا يعتدون بما جاء على يديه من الآيات وخوارق

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح والبحر المحيط.
(٣) المراغي.

العادات، ولا يؤمنون به، وإن جاء بآيات أخرى؛ إذ لم يكن طعنهم لشبهات تتصل بها، بل كان عناداً ومكابرةً، ومن ثَمَّ ادعوا أن السحر صنعته، والتمويه وقلب الحقائق دأبه وعادته.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ معطوف على ما قبله؛ أي: واذكر نعمتي عليك حين أوحيت إلى الحواريين وألهمتهم، وقذفت في قلوبهم، وقد كذبك جمهور بني إسرائيل، وجعلتهم أنصاراً لك يؤيدون دعوتك وينشرون شريعتك. فالوحي بمعنى الإلهام، وقيل: أمرتهم على ألسنة الرسل من قبلك ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾؛ أي: أن صدقوا بوحدانيتي في الألوهية، وصدقوا برسالة رسولي عيسى عليه السلام، والحواريون: هم أصحاب عيسى وخواصه ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: ماذا قالوا؟ فقال: قالوا آمنا؛ أي: قال الحواريون للرب جلَّ جلاله، أو لعيسى: آمنا وصدقنا بوحدانيته تعالى، وبرسالة رسوله عيسى عليه السلام ﴿وَٱشْهَدْ﴾ أنت يا رب أو يا عيسى ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مخلصون في إيماننا، فأشهدوا الله على أنفسهم أنهم مسلمون؛ أي: مخلصون في إيمانهم، مذعنون لأوامره وتاركون لنواهيه، وإنما قدم[1] ذكر الإيمان على الإسلام؛ لأن الإيمان من أعمال القلوب، والإسلام والانقياد والخضوع في الظاهر، والمعنى: أنهم آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم.

قال أبو حيان في «البحر»: وتقدم نظير هذه الجملة في آل عمران إلا أنه هناك قال: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ لأنه تقدم ذكر اللَّه فقط في قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وهنا قال: ﴿ءَامَنَّا﴾، فلم يقيد بلفظ الجلالة؛ إذ قد تقدم ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وقال هناك: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا﴾، وهنا قال: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا﴾، وهذا هو الأصل؛ إذ ﴿أن﴾ محذوف منه النون لاجتماع الأمثال انتهى.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى كلاماً منقطعاً عما قبله؛ ليبين ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه عقب حكاية ما صدر من الحواريين من المقالة المعدودة من

(١) الخازن.

نعم الله عليه، فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة حين قال الحواريون لعيسى عليه السلام. ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾؛ أي: هل يرضى ربك ويختار ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: أن يهبط لنا من السماء خواناً وطبقاً عليها طعام، فنأكل منه إذا نحن سألناه، أو سألته لنا ذلك؟

قرأ الجمهور: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالياء على الغيبة، ورفع ﴿رَبُّكَ﴾؛ أي: هل يفعل ربك ذلك إن سألته لنا أو سألناه نحن؟ قال ابن الأنباري: ولا[1] يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكُّوا في قدرة الله، وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه: هل تستطيع أن تقوم معي؟ وهو يعلم أنه مستطيع، ولكنه يريد: هل يسهل عليك ذلك؟ وقال أبو علي: المعنى: هل يفعل ذلك بمسألتك إياه، وزعم بعضهم أنهم قالوا ذلك قبل استحكام إيمانهم ومعرفتهم، فرد عليهم عيسى بقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أن تنسبوه إلى عجز، والأول أصح. وفسر[2] بعضهم الاستطاعة بمعنى: القدرة، وقالوا: إن هذا السؤال لا يصدر عن مؤمن صحيح الإيمان، وأجابوا عن ذلك بعدة أجوبة:

الأول: أن هذا السؤال لأجل اطمئنان القلب بإيمان العيان، لا للشك في قدرة الله على ذلك؛ كما سأل إبراهيم عليه السلام رؤية كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه بإيمان الشهادة والمعاينة مع إقراره بإيمانه بذلك الغيب.

الثاني: أنه سؤال عن الاستطاعة بحسب الحكمة الإلهية؛ أي: هل ينافي الحكمة الإلهية أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ فإن ما ينافي الحكمة لا يقع، وإن كان مما تتعلق به القدرة؛ كعقاب المحسن على إحسانه، وإثابة الظالم على ظلمه.

الثالث: أن المراد: هل تستطيع سؤال ربك؟

وقرأ الكسائي[3]: ﴿تستطيع﴾ بتاء الخطاب لعيسى، و﴿رَبَّكَ﴾ بالنصب على التعظيم، بإدغام اللام في التاء، وبه قرأ علي وابن عباس، وسعيد بن جبير،

---

(١) زاد المسير.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

ومجاهد وعائشة، والمعنى عليها: هل تستطيع يا عيسى أن تسأل ربك؟ ولا إشكال على هذه القراءة.

﴿قَالَ﴾ لهم عيسى ابن مريم ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أن تسألوه شيئاً لم تسأله الأمم من قبلكم، وقيل: المعنى: خافوا عقاب الله في أن تقترحوا عليه أمثال هذه المقترحات التي كان سلفكم يقترحها على موسى؛ لئلا تكون فتنة لكم، فإنَّ من شأن المؤمن الصادق أن لا يجرب ربه باقتراح الآيات. وقيل: المعنى: اتقوا الله، وقوموا بما يوجبه الإيمان من العمل والتوكل عليه تعالى عسى أن يوفقكم إلى ذلك. وقيل: المعنى: اتقوا الله في اقتراح معجزة لم يسبق لها مثال بعد تقدم معجزات كثيرة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته تعالى، وبصحة نبوتي، أو إن صدقتم في ادعاء الإيمان والإسلام.. فإن ذلك مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات. وقيل: أمرهم بالتقوى؛ ليصير ذلك ذريعة لحصول المسؤول، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ انتهى «أبو السعود».

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال الحواريون ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ هذا بيان للسبب الحامل لهم على السؤال؛ أي: لسنا نريد بسؤال المائدة إزالة شبهتنا في قدرته تعالى على تنزيلها، أو في صحة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيمان والتقوى، بل سبب سؤالنا أنا نريد أن نأكل من تلك المائدة أكل تبرك. وقيل: أكل حاجة وتمتع. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾؛ أي: تسكن قلوبنا، وتستيقن بكمال قدرة الله تعالى؛ لأنا ـ وإن علمنا قدرة الله بالدليل ـ إذا شاهدنا نزول المائدة.. ازداد اليقين، وقويت الطمأنينة بأنك مرسل إلينا من عنده تعالى، أو بأن الله قد أجابنا إلى ما سألناه. وقال[1] ابن عباس: قال لهم عيسى: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً، ثم لا تسألونه شيئاً إلا أعطاكم إياه، فصاموا، ثم سألوا المائدة. ﴿وَنَعْلَمَ﴾ علماً يقينياً ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾؛ أي: نعلم أنك قد صدقتنا في دعوى النبوة، وفي أن الله يجيب دعوتنا، وفي قولك[2]: أنا إذا صمنا ثلاثين يوماً.. لا نسأل الله

(١) زاد المسير.
(٢) المراح.

تعالى شيئاً إلا أعطانا إياه. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عند من لم يحضرها من بني إسرائيل، أو من سائر الناس، وهذه المعجزة سماوية، وهي أعظم وأعجب، فإذا شاهدناها.. كنا عليها من الشاهدين، نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل؛ ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقيناً، ويؤمن بسببها كفارهم، أو نكون من الشاهدين لله بكمال القدرة، ولك بالنبوة بسبب مشاهدتها.

والحاصل: أنهم قالوا: نطلبها لفوائد:

١ ـ أننا نريد أن نأكل منها؛ لأننا محتاجون إلى الطعام، فإن الجوع قد غلبنا، ولا نجد طعاماً آخر.

٢ ـ أننا إذا شاهدنا نزولها.. ازداد اليقين وقويت الطمأنينة؛ إذ ينضم علم المشاهدة باللمس والذوق والشم إلى علم السمع منك، وعلم النظر والاستدلال.

٣ ـ أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني إسرائيل الذين لم يحضروها، أو من الشاهدين لله بكمال القدرة، ولك بالرسالة، وبذا يؤمن المستعد للإيمان، ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

وقرأ ابن جبير[١]: ﴿ونُعلَم﴾ بضم النون مبنياً للمفعول، وهكذا في كتاب «التحرير والتحبير»، وفي كتاب «ابن عطية» وقرأ سعيد بن جبير: ﴿ويُعلَم﴾ بالياء المضمومة، والضمير عائد على القلوب، وفي كتاب الزمخشري: ﴿ويعلم﴾ بالياء على البناء للمفعول. وقرأ الأعمش: ﴿وتعلم﴾ بالتاء؛ أي: وتعلمه قلوبنا. وقرأ الجمهور ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنون، وفي كتاب «التحرير والتحبير» وقرأ سنان وعيسى: ﴿وتكون عليها﴾ بالتاء الفوقانية.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: لما رأى عيسى ابن مريم أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك السؤال.. قام واغتسل ولبس المسح[٢] وصلى ركعتين، فطأطأ رأسه

(١) البحر المحيط.

(٢) **المسح** ـ بكسر الميم وسكون السين ـ: البلاسي بكسر الباء، يجمع على أمساح، والبلاس: ثوب من الشعر غليظ اهـ «تاج العروس».

وغض بصره، وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ يا ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا﴾ معشر المؤمنين ﴿مَآئِدَةً﴾؛ أي: خواناً عليه طعام ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾؛ أي: نتخذ يوم نزولها عيداً نعظمه ونصلي فيه، وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل من ﴿لَنَا﴾ بإعادة الجار؛ أي: يكون يوم نزولها عيداً لأهل زماننا، ولمن يجيء بعدنا لكي نعبدك فيه، فنزلت في يوم الأحد، فاتخذه النصارى عيداً لهم ﴿وَ﴾ تكون ﴿آية﴾ صادرة ﴿مِّنكَ﴾ لنا دالة على وحدانيتك وكمال قدرتك، وصحة نبوة رسولك عيسى عليه السلام ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾؛ أي: وأعطنا هذه المائدة المطلوبة لنا، أو ارزقنا رزقاً نستعين به على عبادتك. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأفضل المعطين، بل لا رازق في الحقيقة غيرك، ولا معطي سواك. والمعنى: أن[1] عيسى عليه السلام لما علم صحة قصدهم، وأنهم لا يريدون تعجيزه، ولا اقتراح آية.. دعا الله بهذا الدعاء، وناداه بالاسم الكريم الدال على الألوهية والقدرة والحكمة إلى نحو ذلك من صفات الكمال، ثم باسم الرب الجامع لمعنى الملك والتدبير والتربية والإنعام؛ أي: يا الله، يا مالك أمرنا، ومتولي تربيتنا أنزل علينا مائدة سماوية يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم، وتتغذى بها أبدانهم، وتكون عيداً خاصاً بنا معشر المؤمنين دون غيرنا، بأول من آمن منا، وآخر من آمن، واجعلها علامة من لدنك ترشد القوم إلى صحة دعوتي وصدق نبوتي، وارزقنا منها ومن غيرها ما به تتغذى أجسامنا، فأنت خير الرازقين، ترزق من تشاء بغير حساب، ومن محاسن هذا الدعاء: أنه أخَّر ذكر الفائدة المادية للمائدة عن ذكر فائدتها الدينية الروحية بعكس ما فعله الحواريون؛ إذ قدموا الأكل على غيره من الفوائد الأخرى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ على أن الجملة صفة لـ﴿مَآئِدَةً﴾. وقرأ عبد الله والأعمش: ﴿يكن﴾ بالجزم على جواب الأمر، والمعنى: يكن يوم نزولها عيداً وهو يوم الأحد، ومن أجل ذلك اتخذه النصارى عيداً كما مرَّ. وقيل: العيد: السرور والفرح، ولذلك يقال: يوم عيد، فالمعنى: يكون لنا سروراً وفرحاً. وقرأ زيد بن ثابت وابن محيصن والجحدري: ﴿لأُولانا وأُخرانا﴾ أنَّثوا

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

على معنى الأمة والجماعة. وقرأ ابن السميقع وابن محيصن والضحاك: ﴿وأنه منك﴾ بفتح الهمزة وبنون مشددة، والضمير في ﴿وأنه﴾ إما للعيد أو الإنزال.

فأجاب الله سبحانه وتعالى دعاء عيسى عليه السلام فـ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾؛ أي: المائدة المطلوبة لكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها الحواريون، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم: ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ مشدداً، وقرأ باقي السبعة مخففاً، والأعمش وطلحة بن مصرف: ﴿إني سأنزلها﴾ بسين الاستقبال؛ أي: وعد الله تعالى عيسى عليه السلام بإنزال المائدة مرة أو مراراً، لكنه رتب شرطاً على هذا الوعد فقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾؛ أي: بعد نزولها ﴿مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾؛ أي: تعذيباً، كالسلام بمعنى التسليم، والضمير[1] في ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ للمصدر، ولو أريد بالعذاب ما يعذب به.. لم يكن بد من الباء؛ أي: إني أعذب من يكفر تعذيباً لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: من عالمي زمانهم، أو العالمين مطلقاً، فجحدوا وكفروا بعد نزول المائدة، فمسخوا خنازير، فلم يعذب بمثل ذلك غيرهم، وفي هذا من التهديد والترهيب ما لا يقادر قدره.

والخلاصة[2]: أن من يكفر منكم بعد نزول هذه الآية التي اقترحتموها، وجاءت بطريق لا لبس فيه ولا شك.. فإني أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب مثله أحداً من سائر كفار العالمين؛ لأن عقاب المخطىء أو الكافر يكون بقدر تأثير الخطيئة أو الكفر في نفسه، والبعد فيه عن الشبهة والعذر، وأيُّ شبهة أو عذر لمن يرى الآيات من رسوله تترى، ثم يقترح آية خاصة تشترك في العلم بها حواسه جميعاً ويتنفع بها في دنياه قبل آخرته، فيعطى ما طلب، ثم ينكص بعد ذلك كله على عقبيه، ويكون من الكافرين؟!

وللعلماء في الطعام الذي نزل في المائدة آراء، فقيل: هو خبز وسمك، وقيل: خبز ولحم، وقيل: كان ينزل عليهم طعاماً أينما ذهبوا؛ كما كان ينزل المن على بني إسرائيل، كما رواه ابن جرير عن ابن عباس.

---

(١) النفسي. (٢) المراغي.

فائدة في المائدة: وروي عن سلمان[1] الفارسي: أنَّ عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء.. لبس صوفاً، ثم قال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا...﴾ الخ، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين: غمامة فوقها، وأخرى تحتها، وهم ينظرون إليها، حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه السلام، وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، وقال لهم: ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها، ويذكر اسم الله عليها، ويأكل منها، فقال شمعون رأس الحواريين: أنتَ أولى بذلك، فقام عيسى، وتوضأ، وصلى، وبكى، ثم كشف المنديل، وقال: باسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا شوك ولا فلوس تسيل دسماً، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها من الألوان ما خلا الكرَّاث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله من طعام الدنيا هذا، أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما، ولكنه شيء خلقه الله بالقدرة العالية، كلوا ما سألتم واشكروا.. يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقال الحواريون: لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال: يا سمكة احيي بإذن الله، فاضطربت، ثم قال لها: عودي كما كنت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا وقالوا بعد النزول والأكل: هذا سحر مبين، فمسخ الله منهم ثلاث مئة وثلاثين رجلاً، باتوا ليلتهم مع نسائهم، ثم أصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات، ويأكلون العذرة في الحشوش، ولما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام.. بكت وجعلت تطيف به، وجعل يدعوهم بأسمائهم واحداً بعد واحد، فيبكون ويشيرون برؤوسهم، ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام، ثم هلكوا. والله أعلم.

الإعراب

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

---

(١) الخازن والمراح.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف جوازاً تقديره: اذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿فَيَقُولُ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿يقول﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يَجْمَعُ﴾. ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ مقول محكي لـ﴿يقول﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَاذَآ﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أُجِبْتُمْ﴾ مقدَّم عليه وجوباً؛ لكونه مما يلزم الصدارة. ﴿أُجِبْتُمْ﴾: فعل ونائب فاعل، و الجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ إلى آخر الآية: مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: نافية. ﴿عِلْمَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لَا﴾ تقديره: لا علم موجود لنا، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، والكاف: في محل النصب اسمها. ﴿أَنتَ﴾: ضمير رفع منفصل مستعار لضمير النصب في محل النصب توكيد لاسم ﴿إن﴾. ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾: خبر ﴿إن﴾، ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، مسوقة لتعليل ما قبلها، وفي «الفتوحات»[1]: قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾: ﴿أَنتَ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون توكيداً لاسم ﴿إن﴾، فيكون منصوب المحل، وأن يكون مبتدأ خبره ما بعده، والجملة خبر ﴿إن﴾، وأن يكون فصلاً، وفيه الخلاف المشهور؛ هل له محل من الإعراب، أم لا؟ وإذا قيل: إن له محلاً من الإعراب، فهل يعرف بإعراب ما قبله كقول الفراء، فيكون في محل نصب، أو بإعراب ما بعده، فيكون في محل رفع، كقول الكسائي؟

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، ولكن بمعنى إذا التي للاستقبال متعلق بمحذوف تقديره: اذكر. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ بمعنى المضارع؛ لأن هذا القول

---

(١) الجمل.

يقع يوم القيامة مقدمة لقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿عِيسَى﴾: منادى مفرد العلم في محل النصب مبني بضم مقدر منع من ظهوره التعذر. ﴿ٱبْنَ﴾: صفة له تابع لمحله منصوب. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه. وإذا كان[1] المنادى علماً مفرداً ظاهر الضم موصوفاً بابن متصلٍ مضافٍ إلى عَلَمٍ.. جاز فتحه إتباعاً لفتحة ابن، وضمه على البناء الأصلي فيه، هذا على مذهب الجمهور. وأجاز الفراء، وتبعه أبو البقاء فيما لا يظهر فيه الضم ـ كما هنا ـ تقدير ضم البناء، وفتح الإتباع لابن، كما قال ابن مالك:

وَنَحْوِ زَيْدٍ ضُمَّ وَٱفْتَحَنَّ مِنْ نَحْوِ أَزَيْدُ بْنَ سَعِيْدٍ لاَتَهِنْ

ويجوز أن يكون المنادى في هذا التركيب منصوباً؛ لأنه في نية الإضافة، ويكون الابن مقحماً للتوكيد. قال التبريزي: الأظهر عندي أن موضع عيسى نصب، لأنك تجعل الاسم مع نعته إذا أضفته إلى العلم كالشيء الواحد المضاف انتهى. وكل ما كان مثل هذا التركيب.. جاز فيه الوجهان: نحو يا زيد بن عمرو، وأنشد النحويون:

يَا حَكَمُ بْنُ ٱلْمُنْذِرِ بْنِ ٱلْجَارُوْدْ أَنْتَ ٱلْجَوادَ بْنُ ٱلْجَوَادِ بْنِ ٱلْجُوْدْ

وإذا فتحت آخر المنادى في هذا التركيب.. تكون الفتحة حركة إتباع لحركة نون ابن، ولم يعتد بسكون باء ابن؛ لأن الساكن حاجز غير حصين، وسيأتي إن شاء الله تعالى في مبحث الصرف قاعدة مفيدة في مثل هذا المنادى على سبيل الاستطراد، وجملة النداء في الآية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي﴾: فعل ومفعول ومضاف إليه وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، والجملة الفعلية جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نعمتي﴾؛ لأنه مصدر بمعنى إنعامي. ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾: معطوف على ﴿عَلَيْكَ﴾.

---

(١) البحر المحيط بتصرف.

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿نِعْمَتِى﴾. ﴿أَيَّدتُّكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، والجملة في محل النصب حال من الكاف في ﴿أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تُكَلِّمُ﴾. ﴿وَكَهْلًا﴾: الواو: عاطفة. ﴿كهلا﴾: معطوف على محل الجار والمجرور قبله على كونه حالاً من فاعل ﴿تُكَلِّمُ﴾، والتقدير: تكلم الناس حالة كونك صغيراً في زمن المهد، وكبيراً في زمن الكهولة. ﴿وَإِذْ﴾: والظرف معطوف على الظرف في قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ على كونه متعلقاً بـ﴿نِعْمَتِى﴾. ﴿عَلَّمْتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿عَلَّمْتُكَ﴾. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوفات على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى معطوف على ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿تَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿مِنَ ٱلطِّينِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَخْلُقُ﴾، أو حال من هيئة الطير على قول من أجاز تقديم حال المجرور عليه، كما ذكره أبو البقاء. ﴿كَهَيْـَٔةِ﴾: الكاف: اسم بمعنى مثل في محل النصب مفعول ﴿تَخْلُقُ﴾ مبني على الفتح، وهو مضاف. ﴿هيئة﴾: مضاف إليه، وهو مضاف. ﴿ٱلطَّيْرِ﴾: مضاف إليه. ﴿بِإِذْنِى﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَخْلُقُ﴾.

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾.

﴿فَتَنفُخُ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿تنفخ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على

عيسى. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تنفخ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿تَخۡلُقُ﴾. ﴿فَتَكُونُ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على الهيئة. ﴿طَيۡرَۢا﴾: خبرها. ﴿بِإِذۡنِيۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، تنازع فيه كل من ﴿تنفخ﴾ و﴿تَكُونُ﴾. ﴿وَتُبۡرِئُ﴾: الواو: عاطفة ﴿تبرىء الأكمه﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾: معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿عيسى﴾. ﴿بِإِذۡنِيۖ﴾: متعلق بـ﴿تبرىء﴾، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿تَخۡلُقُ﴾. ﴿وَإِذۡ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى معطوف على قوله: ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾. ﴿بِإِذۡنِيۖ﴾: متعلق بـ﴿تُخۡرِجُ﴾.

﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿وَإِذۡ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى معطوف على قوله: ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجر مضاف إليه. لـ﴿إِذۡ﴾. ﴿عَنكَ﴾: متعلق بـ﴿كَفَفۡتُ﴾. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿كَفَفۡتُ﴾. ﴿جِئۡتَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾. ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿جِئۡتَهُم﴾. ﴿فَقَالَ﴾: الفاء: عاطفة ﴿قال الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿جِئۡتَهُم﴾. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾ وإن شئت قلت: ﴿إِنۡ﴾ نافية تعمل عمل ليس، ولكن بطل عملها لانتقاض نفيها بـ﴿إِلَّا﴾. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿سِحۡرٞ﴾: خبر. ﴿مُّبِينٞ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قالوا﴾.

﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿وَإِذۡ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى معطوف على ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿أَوۡحَيۡتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَوۡحَيۡتُ﴾. ﴿أَنۡ﴾: مفسرة بمعنى أي التفسرية؛ لوقوعها بعد ما في معنى القول دون حروفه، ويصح كونها مصدرية بتكلف، وتكون في موضع نصب بـ﴿أَوۡحَيۡتُ﴾؛ أي: أوحيت إليهم الأمر بالإيمان، كما ذكره أبو البقاء. ﴿ءَامِنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مفسرة لـ﴿أَوۡحَيۡتُ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿بِي﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامِنُواْ﴾. ﴿وَبِرَسُولِي﴾: معطوف عليه. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَٱشۡهَدۡ﴾: الواو: عاطفة. ﴿اشهد﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على الرب، أو على ﴿عِيسَى﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿بِأَنَّنَا﴾: الباء: حرف جر، ﴿أن﴾: حرف نصب، ونا: اسمها. ﴿مُسۡلِمُونَ﴾: خبرها، والجملة في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بكوننا مسلمين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ٱشهد﴾.

﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾.

﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى متعلق باذكر المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿يَٰعِيسَى﴾ إلى آخره مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿يَٰعِيسَى﴾: منادى مفرد علم. ﴿ٱبۡنَ﴾: صفة له، أو عطف بيان، أو بدل منه. ﴿مَرۡيَمَ﴾ مضاف إليه لـ﴿ٱبۡنَ﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿هَلۡ﴾ للاستفهام الاستخباري. ﴿يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الاستفهامية جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يُنَزِّلَ﴾: منصوب به، وفاعله ضمير يعود على الرب. ﴿عَلَيۡنَا﴾: متعلق به. ﴿مَآئِدَةٗ﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ صفة لها، أو متعلق بـ﴿يُنَزِّلَ﴾، وجملة

﴿يُنَزِّلَ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يستطيع﴾ تقديره: هل يستطيع ربك تنزيل مائدة من السماء علينا.

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، والجملة مستأنفة. ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إِن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم مؤمنين.. فاتقوا الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿نُرِيدُ﴾ فعل، والفاعل ضمير مستتر يعود على الحواريين ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿نَّأْكُلَ﴾ فعل مضارع منصوب بها، وفاعله ضمير يعود على الحواريين، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: نريد أكلنا منها، وجملة ﴿نُرِيدُ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿مِنْهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَّأْكُلَ﴾. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾. ﴿وَنَعْلَمَ﴾ معطوف أيضاً على ﴿نَّأْكُلَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿الْحَوَارِيِّينَ﴾ ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره: أنه. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿صَدَقْتَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم؛ تقديره: ونعلم صدقك إيانا حقاً.

فائدة: وإذا ولي أن المخففة من الثقيلة فعلٌ متصرف؛ فإن كان ماضياً.. فصل بينهما بـ﴿قَدْ﴾ نحو قوله تعالى: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾، وإن كان

مضارعاً.. فصل بينهما بحرف تنفيس كقوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، ولا يقع بغير فصل، قيل: إلا قليلاً، وقيل: إلا ضرورة، ذكره أبو حيان. ﴿وَنَكُونَ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿نَّأْكُلَ﴾، واسمها ضمير مستتر فيه يعود على الحواريين ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق بـ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾. ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿نكون﴾.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

﴿قَالَ عِيسَى﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة لـ﴿عِيسَى﴾، أو عطف بيان ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: منادى مفرد علم في محل النصب على النداء مبني على الضم لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً لتضمنه معنى حرف الخطاب، وإنما حرك؛ ليعلم أن له أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة ضمة جبراً لما فاته من الإعراب، والميم المشددة عوض عن حرف النداء مبني على الفتح، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿رَبَّنَآ﴾ نداء ثانٍ. ﴿أَنزِلْ﴾: فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿عَلَيْنَا﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَآئِدَةً﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة أولى لـ﴿مَآئِدَةً﴾، أو متعلق بـ﴿أَنزِلْ﴾، وجملة ﴿أَنزِلْ﴾ من الفعل والفاعل جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَآئِدَةً﴾. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿عِيدًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿عِيدًا﴾: خبر ﴿تَكُونُ﴾. ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾: جار ومجرور بدل من ﴿لَنَا﴾ بدل تفصيل من مجمل. ﴿وَءَاخِرِنَا﴾ معطوف على ﴿أولنا﴾، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ من اسمها وخبرها، في محل النصب صفة ثانية لـ﴿مَآئِدَةً﴾. ﴿وَءَايَةً﴾: معطوف على ﴿عِيدًا﴾. ﴿مِّنكَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آية﴾. ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزِلْ﴾ على كونها جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَنتَ﴾: مبتدأ ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: خبر مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا

﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنّ﴾ حرف نصب، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ خبر ﴿إِنّ﴾ ومضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿إِنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَمَن﴾: الفاء: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو جملة الشرط، أو هما. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بَعْدُ﴾: ظرف زمان في محل النصب على الظرفية مبني على الضم لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ لافتقاره إلى المضاف إليه المحذوف تقديره: بعد تنزيلها، وإنما حرك؛ ليعلم أن له أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة ضمة ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَكْفُرْ﴾. ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إن﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿أُعَذِّبُهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَذَابًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة إن في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾: ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أُعَذِّبُهُۥٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والهاء: ضمير عائد على المصدر في محل النصب على المفعولية المطلقة. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَحَدًا﴾، وجملة: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ في محل النصب صفة لـ﴿عَذَابًا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ قال الخطابي[1]: العلاَّم بمنزلة العليم، وبناء فعَّال بناء التكثير. فأما الغيوب: فجمع غيب: وهو ما غاب عنك.

---

(١) زاد المسير.

﴿نِعۡمَتِي﴾ وقال الحسن: المراد بذكر النعمة الشكر، فأما النعمة: فلفظها لفظ الواحد، ومعناها الجمع، ولكن هنا مصدر بمعنى الإنعام. ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾: قويتك، مأخوذ من الأيد، وهو القوة، يقال: آد يئيد أيداً وآداً إذا اشتد وقوي وصلب، وأيد تأييداً - من باب فعَّل المضعف - فهو مؤيد، وذاك مؤيد، وآيَد مؤايدة، فهو مؤيد وذاك مؤيد - من باب أفعل الرباعي - إذا قواه وأثبته، وتأيد - من باب تفعل - إذا تقوى، والإياد: ما أيد به الشيء ويقال: إيادا الجيش: جناحاه؛ أي: ميمنته وميسرته، والجبل الحصين، والأيد: القوي.

﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾: والمهد: الموضع يهيأ ويوطأ للصبي، يجمع على مهود كفلس وفلوس، ومعنى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾؛ أي: صغيراً في المهد ﴿وَكَهۡلٗاۖ﴾؛ أي: كبيراً في زمن الكهولة. وحكى[1] ثابت بن أبي ثابت: أن الكهل ابن أربعين إلى الخمسين، وقال غيره: ابن ثلاث وثلاثين.

﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ الطير: اسم جنس لطائر، وقال الخليل: الأكمهُ الذي يولد أعمى، وقد يقال لمن تذهب عينه بعد ما كان يبصر.

﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ تقدم[2] الكلام في اشتقاق هذه المفردات ومعانيها، وابن: صفة لعيسى، نصب لأنه مضاف، وهنا قاعدة كلية مفيدة؛ وذلك أن المنادى المفرد المعرفة الظاهر الضمة إذا وصف بابن أو ابنة، ووقع الابن أو الابنة بين علمين، أو اسمين متفقين في اللفظ، ولم يفصل بين الابن وبين موصوفه بشيء.. تثبت له أحكام، منها: أنه يجوز إتباع المنادى المضموم لحركة نون ابن، فيفتح نحو: يا زيد ابن عمر، ويا هندَ ابنة بكر. بفتح الدال من: زيد وهند، وضمها، فلو كانت الضمة مقدرة مثل ما نحن فيه.. فإن الضمة مقدرة على ألف عيسى، فهل يقدر بنائها على الفتح إتباعاً كما في الضمة الظاهرة؟ فيه خلاف، والجمهور على عدم جوازه؛ إذ لا فائدة في ذلك، فإنه إنما كان للإتباع، وهذا المعنى مفقود في الضمة المقدرة، وأجاز الفراء ذلك؛ إجراءً للمقدر مجرى

---

(١) إعراب النحاس. (٢) الفتوحات.

الظاهر، وتبعه أبو البقاء، فإنه قال: يجوز أن تكون على الألف من عيسى فتحة؛ لأنه قد وصف بابن، وهو بين علمين، وأن تكون فيها ضمة، وهو مثل قولك: يا زيد بن عمرو، بفتح الدال وضمها، وهذا الذي قاله غير بعيد. اهـ «سمين».

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ الوحي في اللغة: الإشارة السريعة الخفية، والإعلام بالشيء بسرعة وخفاء، والمراد به[1] هنا: ما يلقيه الله في نفوس الأحياء من الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾، وهكذا ألقى الله في قلوب الحواريين الإيمان به وبرسوله عيسى عليه السلام.

﴿مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ المائدة[2]: الخوان عليه طعام، فإن لم يكن عليه طعام.. فليس بمائدة، هذا هو المشهور، إلا أن الراغب قال: المائدة: الطبق الذي عليه الطعام، وتقال أيضاً للطعام، إلا أن هذا مخالف لما عليه المعظم، وهذه المسألة لها نظائر في اللغة، لا يقال للخوان مائدة إلا وعليه الطعام، وإلا فهو خوان، ولا يقال: جراب إلا وهو مدبوغ، وإلا فهو إهاب، ولا يقال: قلم إلا وهو مبري، وإلا فهو أنبوب.

واختلف اللغويون في اشتقاقها، فقال الزجاج: هو من ماد يميد ـ من باب باع ـ إذا تحرك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، ومنه: ميد البحر، وهو ما يصيب راكبه، فكأنها تميد بما عليها من طعام، قال: وهي فاعلة على الأصل.

وقال أبو عبيد: هي فاعلة بمعنى مفعولة، مشتقة من ماده بمعنى: أعطاه، وامتاده بمعنى: استعطاه، فهي بمعنى: مفعولة كعيشة راضية، وأصلها أنها ميد بها صاحبها؛ أي: أعطيها. والعرب تقول: مادني فلان يميدني: أحسن إلي وأعطاني، وقال أبو بكر الأنباري: سميت مائدة؛ لأنها غياث وعطاء، من قول العرب: ماد فلان فلاناً إذا أحسن إليه اهـ «سمين».

---

(١) المراغي.

(٢) الفتوحات.

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ والعيد[1] مشتق من العود؛ لأنه يعود كل سنة، قاله ثعلب عن ابن الأعرابي، وقال ابن الأنباري: النحويون يقولون: يوم العيد، لأنه يعود بالفرح والسرور، وعيد الفرح لا يعود بالفرح والحزن، وكل ما عاد إليك في وقت فهو عيد. وقال الراغب: العيد حالة تعاود الإنسان، والعائدة كل نفع يرجع إلى الإنسان بشيء، ومنه: العود للبعير المسن؛ إما لمعاودة السير والعمل، فهو بمعنى فاعل، وإما لمعاودة السنين إياه ومرورها عليه، فهو بمعنى: مفعول، وصغّروه على: عييد، وكسروه على: أعياد، وكان القياس: عويد؛ لزوال موجب قلب الواو ياء، لأنها إنما قلبت لسكونها بعد كسرة؛ كميزان، وإنما فعلوا ذلك فرقاً بينه وبين عود الخشب. اهـ «سمين». ﴿عَذَابًا﴾ في «السمين»[2]: عذاباً: اسم مصدر بمعنى التعذيب، أو مصدر على حذف الزوائد، نحو: عطاء ونبات لأعطى وأنبت، وانتصابه على المصدرية بالتقديرين المذكورين، والهاء في لا أعذبه عائدة على عذاب الذي تقدم أنه بمعنى التعذيب، والتقدير: فإني أعذبه تعذيباً لا أعذب مثل ذلك التعذيب أحداً. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾؛ لأن فيه توبيخاً للكفار.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

ومنها: التجوز في التعبير عما في المستقبل بلفظ الماضي في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن هذا القول يقع يوم القيامة إشعاراً بتحقق الوقوع، فأقام الماضي مقام المضارع، و﴿إذ﴾ مقام إذا التي للمستقبل، فأصل العبارة: إذ يقول الله.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بعد التعميم في قوله: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ فتخصيص عيسى من بين الرسل لاختلاف طائفتي اليهود

---

(١) السمين.	(٢) الجمل.

والنصارى فيه إفراطاً وتفريطاً، هذه تجعله إلٰهاً، وهذه تجعله كاذباً كما سبق.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

ومنها: التفصيل بعد الإجمال في قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾، وما عطف عليه؛ لأنه تفصيل لقوله: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى﴾، وفي قوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾؛ لأنه تفصيل لقوله: ﴿لَنَآ﴾.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إشعاراً بمزيد اختصاصه بهما.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾؛ لأنه بمعنى تصور، وفي قوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ لأنه بمعنى تحيي.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿بِإِذْنِى﴾؛ حيث كرره في أربعة مواضع للإشعار بأن ذلك كله من جهة الله تعالى ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله تعالى.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾؛ لأن حق المقام أن يقول: إذ قالوا، لتقدم المرجع.

ومنها: الحذف في مواضع.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿بِإِذْنِى﴾؛ لأنه جاء به أربع مرات عقيب أربع جمل؛ لأن المقام مقام ذكر النعمة والامتنان بها، فناسبه الإسهاب، بخلاف ما مرَّ في آل عمران؛ لأن ما هناك موضع إخبار لبني إسرائيل، فناسبه الإيجاز.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه كان الكلام[(١)] قبل هذه الآيات في تعداد النعم التي أنعم الله بها سبحانه على عيسى، وفي إلهامه للحواريين الإيمان به وبرسوله، وفي طلب الحواريين من عيسى إنزال مائدة من السماء، ثم طلب عيسى من ربه إجابة مطلبهم، وإخبار الله تعالى بأنه أجابهم، ثم لم يزل الكلام في هذه الآيات مع عيسى أيضاً، ففيها سؤال من الله على مرأى من قومه توبيخاً وتقريعاً لهم على افترائهم، وإجابة من عيسى عن ذلك فيها تنصل من ذلك الذنب العظيم الذي اقترفوه بعده، وهو القول بالتثليث، ثم إخبار من الله تعالى بما ينجي الإنسان من عذاب يوم القيامة مع بيان أن ما في السموات والأرض كله مملوك له، وفي قبضته يتصرف فيه بعدله وحكمته، وهو القادر على كل شيء لا شريك له يمنعه إن أعطى، أو يلزمه بالإعطاء إن منع.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾: معطوف على قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ عطف قصة على قصة، ﴿وَإِذْ﴾ بمعنى: إذا التي للمستقبل؛ لأن ﴿إِذْ﴾ قد تجيء بمعنى: إذا، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ يعني: إذا فزعوا، وقول أبي النجم:

---

(١) المراغي.

ثُـمَّ جَـزَاكَ ٱلـلَّـهُ عَـنِّـيْ إِذْ جَـزَىٰ   جَـنَّـاتِ عَـدْنٍ فِـيْ ٱلـسَّـمَـوَاتِ ٱلْـعُـلَـىٰ

و﴿قال﴾ بمعنى: يقول؛ لأن هذا القول إنما يكون في يوم القيامة، وإنما عبر بالماضي لما مر من الدلالة على التحقيق والوقوع، والظرف متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لأمتك قصة إذ يقول الله يوم القيامة لعيسى ابن مريم - توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم بإقراره عليه السلام بالعبودية على رؤوس الأشهاد، وأمره لهم بعبادة الله عز وجل -: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: هل قلت للناس في الدنيا. ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾، والله ثالثهما؛ أي: اجعلوني وأمي مريم معبودين لكم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: متجاوزين عبادة اللّه تعالى، وتاركين عبادته، والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ لمن ادعى ذلك على عيسى عليه السلام من النصارى؛ لأن عيسى عليه السلام لم يقل هذه المقالة.

فإن قلتَ[1]: إذا كان عيسى عليه السلام لم يقلها، فما وجه هذا السؤال مع علم الله بأنه لم يقله؟

قلتُ: وجه هذا السؤال: إثبات الحجة على قومه، وإكذاب لهم في ادعائهم ذلك عليه، وأنه أمرهم به، فهو كما يقول القائل لآخر: أفعلت كذا، وهو يعلم أنه لم يفعله، وإنما أراد تعظيم ذلك الفعل، فنفى عيسى عليه السلام عن نفسه هذه المقالة، وقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، فاعترف بالعبودية، وأنه ليس بإلٰه كما زعمت وادعت النصارى فيه.

فإن قلتَ: إن النصارى لم يقولوا بإلٰهيَّة مريم، فكيف يقول اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟

قلت: إن النصارى لما ادعت في عيسى عليه السلام أنه إلٰه، ورأوا أن مريم ولدته.. لزمهم بهذه المقالة على سبيل التبعية.

ومعنى قوله[2]: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة، وذلك يكون؛ إما باتخاذ إلٰه أو أكثر مع الله تعالى، وهو الشرك؛ إذ

---

(١) الخازن.   (٢) المراغي.

عبادة الشريك المتخذ هي غير عبادة الله تعالى خالق السموات والأرض، سواء اعتقد أن هذا الشريك ينفع ويضر استقلالاً، أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار الله إياه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب، أو بالوساطة عند الله؛ أي: بِمَالَه من التأثير والكرامة على النفع والضر، وهذا هو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة، كما حكاه الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

وقَلَّ أن يوجد من المشركين من يتخذ إلهاً غير الله متجاوزاً بعبادته الإيمان بالله الذي هو خالق الكون ومدبره، فالإيمان الفطري الذي غرس في نفوس البشر يرشد إلى أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك كنهها أحد، فالموحدون أتباع الأنبياء يتوجهون بعباداتهم إلى رب هذه السلطة الغيبية وحده اعتقاداً منهم أنه هو الفاعل الكامل التصرف، وإن نسب الفعل إلى غيره.. فبإقدار الله إياه، وتسخيره له بمقتضى سننه في خلقه، والمشركون يتوجهون إليه تارة، وإلى بعض ما يعظمون من خلقه تارة أخرى؛ كالشمس والنجوم والملائكة وبعض مخلوقات أخرى، ويتوجهون أحياناً إليهما معاً، فيجعلون تلك المخلوقات المعظمة وسيلة إلى خالق الأكوان ومدبر الكائنات.

والخلاصة: أن اتخاذ إلٰه من دون الله يراد به عبادة غيره، سواء أكانت خالصة لذلك الغير، أو شركة بينه وبين غيره، وقد نعى الله تعالى عليهم اتخاذ المسيح إلهاً في مواضع عديدة من هذه السورة، وعبادة أمه كانت معروفة في الكنائس الشرقية والغربية، أنكرت عبادتها فرقة إصلاح المسيحية التي جاءت بعد الإسلام بزمن طويل. وهذه العبادة منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود، ومنها ما هو استغاثة واستشفاع، ومنها ما هو صيام ينسب إليها ويسمى بصيام العذراء، وكل أولئك يقترن بخشوع وخضوع لذكرها ولصورها وتماثيلها واعتقاد السلطة الغيبية لها وأنها تنفع وتضر في الدنيا والآخرة؛ إما بنفسها أو بواسطة ابنها، ويسمونها: والدة الإله.

والآية ترشد إلى أنهم اتخذوها هي وابنها إلٰهين ـ والاتخاذ غير التسمية ـ فيصدق بالعبادة وهي واقعة حتماً.

﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام، وقد ارتعدت مفاصله، وارتعش جسمه من سماع هذا الخطاب؛ أعني قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قال مجيباً لله سبحانه وتعالى هذا الخطاب ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ من أن يكون لك شريك؛ أي: تنزيهاً لك عن النقائص وبراءة لك من العيوب؛ إذ لا شبهة في ألوهيتك وأنت منزه عن الشرك فضلاً أن يتخذ إلهان دونك، والمعنى: أنزهك يا إلهي تنزيهاً لائقاً بك عن أن يكون معك إلٰه آخر، فضلاً عن أن أقول ذلك، وبهذا أثبت له التنزيه عن المشاركة في الذات والصفات.

ثم انتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق عن قول ما ليس بحق، فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ﴾؛ أي: ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾؛ أي: أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله؛ أي: كيف أقول هذا الكلام ولست بأهل له، ولست أستحق العبادة حتى أدعو الناس إليها؛ أي: ليس من شأني ولا مما يصح أن يقع مني أن أقول قولاً لا حق لي أن أقوله؛ لأنك أيدتني بالعصمة عن مثل هذا القول الباطل. وهو بتنزيهه الله أولاً أثبت أن ذلك القول الذي نُسب إليه قول لا شائبة فيه من الحق، وليس من شأنه ولا مما يقع من مثله، وقد أكد هذا النفي مرة أخرى بحجة أخرى ارتقى فيها من برهان راجع إلى نفسه ـ وهو عصمته عليه السلام ـ إلى برهان أعلى راجع إلى ربه علام الغيوب فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ﴾؛ أي: إن صح أني قلته لهم فيما مضى ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ وهذا مبالغة في الأدب في إظهار الذل في حضرة ذي الجلال، وتفويض الأمور بالكلية إلى الكبير المتعالي. والمعنى: إني لا أحتاج إلى الاعتذار؛ لأنك تعلم أني لم أقله، ولو قلته.. لعلمته لأنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾؛ أي: ذاتي ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾؛ أي: ذاتك، فنفس[1] الشيء: ذاته وهويته، والمعنى: تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، وقيل: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾؛ أي: ما كان مني لهم من الأمر والنهي ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا

---

(١) النسفي.

﴿فِي نَفْسِكَ﴾؛ أي: ما كان منك لهم من الخذلان، وقيل: تعلم حقيقة ذاتي وما انطوت عليه، ولا أعلم حقيقة ذاتك ولا ما احتوت عليه من صفات الكمال.

واعلم: أنهم اختلفوا في إطلاق النفس على الله تعالى، فقيل: لا يجوز إطلاقها عليه إلا في مقام المشاكلة، والحق أنه يجوز إطلاق النفس على الله من غير مشاكلة؛ إذ ورد إطلاقها في غير المشاكلة قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ذكره الصاوي.

والمعنى: أن ذلك القول إن كان قد صدر مني.. فقد علمته؛ إذ علمك واسع محيط بكل شيء، فأنت تعلم ما أسره وأخفيه في نفسي، فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه وعلمه مني غيري، كما أني لا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لم ترشدني إليها بالكسب والاستدلال، لكني أعلم ما تظهره لي بالوحي بواسطة ملائكتك المقربين إليك ﴿إِنَّكَ﴾ يا إلهي ﴿أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾؛ أي: إنك أنت العالم بالخفايا عن العباد؛ لأنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك، ما كان منها وما سيكون وما هو كائن، وعلم غيرك مستمد من فيضك لا من ذاته، فهو إما أن يناله بواسطة المشاعر والحواس أو العقل، وإما أن يتلقاه هبة منك بالوحي والإلهام. فقوله: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[1] يدل بمنطوقه على أنه تعالى يعلم الغيب، فيكون مقرراً لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، ويدل بمفهومه على أنه لا يعلم الغيب غيره، فيكون مقرراً لقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ودل بتصدير الجملة بـ﴿إِنَّ﴾، وتوسط ضمير الفصل، وبناء المبالغة، والجمع المعرف باللام أن شيئاً لا يعزب عن علمه ألبتة كما هو مقرر في محله.

وبعد تنزيه ربه وتبرئة نفسه وإقامة البراهين على ذلك.. بيَّن حقيقة ما قاله لقومه؛ إذ الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة إلا بإثبات ما يجب أن يكونوا عليه من أمر التوحيد بعد نفي ضده، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾؛ أي: ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به. وقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ عطف[2] بيان للضمير في ﴿بِهِ﴾، أو بدل منه، وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل

---

(١) الفتوحات. (٢) البيضاوي.

مطلقاً، فيلزم منه بقاء الموصول بلا عائد، أو خبر محذوف، أو مفعوله، مثل: هو، أو أعني، وقيل[1]: ﴿أن﴾ مفسرة للهاء الراجع للقول المأمور به، والمعنى: ما قلت لهم في الدنيا إلا قولاً أمرتني به، وذلك القول هو أن أقول لهم: اعبدوا الله ربي وربكم؛ أي: وحدوه ولا تشركوا به شيئاً.

والخلاصة: أني ما قلت لهم في شأن الإيمان وأساس الدين إلا ما أمرتني بالتزامه اعتقاداً وتبليغاً لهم بأنك ربي وربهم، وأنني عبد من عبادك مثلهم إلا أنك خصصتني بالرسالة إليهم.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: وكنت قائماً عليهم مراقباً لهم أراقبهم وأمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه، أو مشاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان، أشهد على ما يقولون وما يفعلون، فأُقر الحق وأُنكر الباطل ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾؛ أي: مدة دوامي ووجودي بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾؛ أي: رفعتني من بينهم إلى السماء، فالمراد: وفاة الرفع لا وفاة الموت، وقال الحسن: الوفاة: وفاة الموت، ووفاة النوم، ووفاة الرفع. ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: كنت أنت الحفيظ عليهم المراقب لأعمالهم وأحوالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ دوني؛ لأني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم، وأنت تشهد على كل شيء؛ إذ لا يخفى عليك شيء، فالرقيب: الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، والشهيد: العالم الذي لا يعزب عن علمه شيء، وفي هذا إيماء إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما عرّفه بقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ أفعال القوم ومقالتهم بعد ما قبضه إليه. وقد تقدَّم في هذه السورة ما يثبت براءة عيسى عليه السلام من مثل هذه المقالة، وذلك قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم فوَّض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾؛ أي: إن

---

(١) المراح.

تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة وماتوا على كفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ لا يقدرون على دفع ضُر نزل بهم، ولا جلب نفع لأنفسهم، وأنت العادل فيهم؛ لأنك أوضحت لهم طريق الحق فرجعوا عنه وكفروا ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ أي: لمن تاب عن كفره منهم، ومات على الإيمان، فإن ذلك بفضلك ورحمتك ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يغالب في الانتقام ممن يريد الانتقام منه، لا يمتنع عليه ما يريده ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله كلها الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب.

قيل: قاله على وجه الاستعطاف كما يُستعطف السيد لعبده، ولهذا لم يقل: إن تعذبهم فإنهم عصوك، وقيل: قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم، ذكره «الشوكاني».

والمعنى: إن تعذب من أرسلتني إليهم فبلغتُهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك، فضلَّ منهم من ضل، وقالوا ما لم أقله، واهتدى منهم من اهتدى فلم يعبدوا معك سواك.. فإنهم عبادك وأنت الرحيم بهم، ولست أنا ولا غيري من الخلق بأرحم بهم منك، وإنما تجزيهم بحسب علمك بما يظهرون وما يبطنون، فأنت العليم بالمؤمن المخلص في إيمانه، وبمن أشرك بك غيرك، أو بمن أطاعك وبمن عصاك، وأنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، وإن تغفر.. فإنما تغفر لمن يستحق المغفرة، وإنك أنت العزيز الغالب على أمره، الحكيم في تصرفه وصنعه، فيضع كل جزاء وكل فعل في موضعه.

وخلاصة المعنى: أنك إن تعذب.. فإنما تعذب من يستحق التعذيب، وإن تغفر.. فإنما تغفر لمن هو أهل لذلك، ومهما توقعه فيهم من عذاب.. فلا دافع له من دونك، ومهما تمنحهم من مغفرة.. فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته؛ لأنك أنت العزيز الذي يغلب ولا يغلب، ويمنع من شاء ما شاء ولا يُمنع، وأنت الحكيم الذي يضع كل شيء موضعه، فلا يمكن أحداً غيرك أن يرجعك عنه.

ومن هذا تعلم أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئاً من الشفاعة

لقومه، ومما يؤيد هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ: (تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، فرفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم أمتي أمتي»، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل وسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك).

وما رواه البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ألا وإنه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة، فيؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال، فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ قال: فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم».

وما رواه أحمد والنسائي وابن مردويه: أنه ﷺ قام بهذه الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ...﴾ الآية، حتى أصبح، يركع بها ويسجد، فسأله أبو ذر عن ذلك فقال: «إني سألت ربي الشفاعة فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً».

فهذه الأحاديث صريحة في أن الشفاعة لا ينالها أحد يشرك بالله شيئاً.

قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا...﴾ كلام مستأنف ختم به حكاية ما حكى مما يقع يوم يسأل الله الرسل عليهم السلام؛ أي: قال الله سبحانه وتعالى: هذا اليوم ـ يعني: يوم القيامة ـ هو ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾؛ أي: إن هذا اليوم هو اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم في الدنيا في إيمانهم، وفي شهاداتهم وفي سائر أقوالهم وأحوالهم. والمعنى: إن صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة؛ لأنه يوم الإثابة والجزاء، وما تقدم من صدقهم في الدنيا يتبين نفعه يوم القيامة، والمراد بالصادقين: النبيون والمؤمنون؛ لأن الكفار لا ينفعهم صدقهم يوم القيامة.

قال[1] قتادة: متكلمان لا يخطئان يوم القيامة: عيسى عليه السلام؛ لأنه يقوم فيقول: ما قص الله عنه ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦ﴾ الآية، فكان صادقاً في الدنيا والآخرة فينفعه صدقه، وأما المتكلم الآخر فإبليس، فإنه يقوم ويقول: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ الآية، فصدق عدو الله فيما قال، ولم ينفعه صدقه انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ بالرفع على أن ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ و﴿يَوْمُ﴾ خبره، والجملة محكية بـ﴿قال﴾، وهي في موضع المفعول به لـ﴿قال﴾. وقرأ نافع: ﴿هذا يومَ﴾ ـ بفتح الميم ـ وخرجه الكوفيون على أنه مبني خبر لـ﴿هذا﴾، وبني لإضافته إلى الجملة الفعلية، وهم لا يشترطون كون الفعل مبنياً في بناء الظرف المضاف إلى الجملة، فعلى قولهم تتحد القراءتان في المعنى. وعند البصريين هو معرب لا مبني، منصوب على أنه ظرف لـ﴿قال﴾. وقرأ الأعمش: ﴿يوماً ينفع﴾ ـ بالتنوين ـ كقوله: ﴿واتقوا يوماً لا تجزىء﴾. وقرأ الحسن بن عياش الشامي: ﴿هذا يومٌ﴾ بالرفع والتنوين. وقرأ الجمهور ﴿صدقُهم﴾ بالرفع فاعل ينفع وقرىء بالنصب وخرج على أنه مفعول له أي لصدقهم، ثم بين الله تعالى ذلك النفع بذكر ما لهم من الثواب على صدقهم فقال: ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للصادقين في الآخرة على صدقهم في الدنيا ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: بساتين تسيل من تحت أشجارها الأنهار الأربعة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: حالة كونهم مقدرين الخلود والمكث الطويل في تلك الجنات ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: مدة لا نهاية لها ولا انقضاء، وتقدم لك الفرق بين الخلود والأبد فلا عود ولا إعادة. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن الصادقين في الآخرة بما عملوه في الدنيا من الطاعات الخالصة، ومعنى رضا الرب سبحانه عن عبده: قبول عمله منه وإثابته عليه. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: ورضي الصادقون عن الله سبحانه وتعالى بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال، ولا تتصوره عقولهم، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم، وأعلى منازل الكرامة، وهذا المذكور هو غاية السعادة الأبدية؛

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

إذ لا مطلب لهم أعلى منه حتى تمتد أعناقهم إليه وتتطلع نفوسهم لبلوغه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

والإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إلى نيل ما نالوه من دخول الجنة والخلود فيها أبداً ورضوان الله عنهم والفوز والظفر بالمطلوب على أتم الأحوال. وقيل[1]: الإشارة إلى رضوان الله؛ أي: ذلك الرضوان هو الفوز العظيم، فالجنة بما فيها بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف لا، والجنة مرغوب الشهوة، والرضوان صفة الحق، وأيُّ مناسبة بينهما؟ والمعنى: ذلك الفوز العظيم؛ أي: ذلك[2] الذي ذكر من النعيمين الجسماني والروحاني اللذين يحصلون عليهما بعد النجاة من أهوال يوم القيامة هو الفوز البالغ النهاية؛ لأن الفوز هو الظفر بالمطلوب مع النجاة من ضده أو مما يحول دونه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

وبعد أن بيَّن ما لأهل الصدق عنده من الجزاء الحق في مقعد الصدق.. بيَّن عقبه سعة ملكه وعموم قدرته الدالين على كون ذلك الجزاء لا يقدر عليه غيره تعالى فقال: ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سلطنة السموات السبع والأرضين السبعة ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾؛ أي: وسلطنة ما في السموات والأرض فاحمدوا الذي خلق السموات والأرض ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر؛ أي: أن كل ما سوى الله تعالى من الكائنات والأجساد والأرواح ممكن لذاته، موجود بإيجاده تعالى، وإذا كان الله موجوداً.. كان مالكاً له، وإذا كان مالكاً له.. كان له تعالى أن يتصرف في الكل بالأمر والنهي والثواب والعقاب كيف أراد، فصح التكليف على أي وجه أراده تعالى، وكان الله مالك الملك، فله بحكم المالكية أن ينسخ شرع موسى ويضع موضعه شرع محمد ﷺ، فبطل قول اليهود بعدم نسخ شرع موسى، ثم إن مريم وعيسى داخلان فيما سوى الله، فهما كائنان بتكوين الله تعالى، فثبت كونهما

(١) المراح. (٢) المراغي.

عبدين لله مخلوقين له، فظهر بهذا التقرير: أن هذه الآية برهان قاطع في صحة جميع العلوم التي اشتملت عليها هذه السورة.

وعبارة «الفتوحات» هنا: قوله ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، هذا[1] تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا في حق المسيح وأمه؛ أي: له تعالى خاصة ملك السموات والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرهم، يتصرف فيها كيف يشاء إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً وأمراً ونهياً من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل في ذلك. اهـ «أبو السعود». وأتى[2] بـ﴿ما﴾ دون ﴿من﴾ تغليباً لغير العقلاء على العقلاء؛ لأن غير العقلاء هم الأكثر المناسب لمقام إظهار العظمة والكبرياء، وكون الكل في ملكوته وتحت قدرته لا يصلح شيء منها للألوهية سواه، فيكون تنبيهاً على قصورهم عن رتبة الربوبية انتهى «كرخي».

والحاصل[3]: أن الملك كله والقدرة كلها لله وحده، وفي قوله: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ تعريض بأن المسيح وأمه اللذين عبدا من دون الله داخلان تحت قبضته تعالى، إذ الملك والقدرة له وحده، فلا ينبغي لأحد أن يتكل على شفاعتهما. ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وغاية ما أعطاهم الكرامة لديه، والمنزلة الرفيعة من بين عباده. ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

خاتمة: في بيان بعض ما تضمنته هذه السورة من التشريع والأحكام الاعتقادية والعملية:

---

(١) الجمل.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراغي.

أهم الأصول التي انفردت بها هذه السورة:

١ ـ بيان أن الله أكمل لعباده هذا الدين الذي ارتضى لهم، وأن دين الله واحد وإن اختلفت شرائع الأنبياء ومناهجهم، وأن هذا الدين مبني على العلم اليقيني في الاعتقاد، والهداية في الأخلاق والأعمال، وأن التقليد فيه باطل لا يقبله الله، وأن أصول الدين الإلهي على ألسنة الرسل كلهم هي الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فمن أقامها كما أمرت الرسل من أيِّ ملة كاليهود والنصارى، والصابئين، فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

٢ ـ بيان عموم بعثة النبي ﷺ، وأمره بالتبليغ العام، وأنه لا يكلف إلا التبليغ فقط، ومن حجج رسالته أنه بيَّن لأهل الكتاب كثيراً مما كانوا يخفون من كتبهم مما ضاع قبل بعثة النبي ﷺ، ومما كانوا يكتمونه من الأحكام اتباعاً لأهوائهم، وأن هذا الرسول قد عصمه الله وحفظه من أن يضره أحد أو يصده عن تبليغ رسالة ربه، وأننا نهينا عن سؤاله عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف.

٣ ـ بيان أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم أفراداً وجماعات، وأنه لا يضرهم من ضل إذا هم استقاموا على صراط الهداية، فهو لا يضرهم لا في دنيا ولا دين، ومن ذلك الوفاء بالعقود التي يتعاقدون عليها في جميع المعاملات الدنيوية، وتحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم، والتعاون على البر والتقوى كتأليف الجماعات العلمية والخيرية، وتحريم التعاون على الإثم والعدوان، وتحريم موالاة المؤمنين للكافرين، وبيان أن ذلك من آيات النفاق.

٤ ـ تفصيل أحكام الطعام حلالِه وحرامه، وبيان أن التحريم منه؛ إما ذاتي كالميتة وما في معناها، وإما لسبب ديني كالذي يذبح للأصنام، وبيان أن الضرورات تبيح المحظورات.

٥ ـ تحريم الخمر وكل مسكر، والميسر وهو القمار وما في حكمه؛

كالمضاربات في البورصة[1].

٦ - وجوب الشهادة بالقسط، والحكم بالعدل، والمساواة بين غير المسلمين والمسلمين ولو للأعداء على الأصدقاء، وتأكيد وجوب ذلك في سائر الأحكام.

٧ - بيان تفويض أمر الجزاء في الآخرة إلى الله وحده، وأن النافع في ذلك اليوم هو الصدق، وكان مسك ختامها ذكر الجزاء في الآخرة بما يناسب أحكامها كلها.

وقد روى أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي عن جبير بن نفير قال: حججت، فدخلت على عائشة فقالت: يا جبير تقرأ المائدة، قلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه. وروى أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عمر قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: اذكره، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾، أو مستأنفة. ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰعِيسَى﴾: منادى مفرد العلم. ﴿ٱبْنَ﴾: صفة له. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ءَأَنتَ﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخي. ﴿أنت﴾: مبتدأ. ﴿قُلْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل

---

(١) **البورصة**: مجتمع التجار وعملاء المصارف والسماسرة للمضاربة بالأموال. إيطالية، عربيها: المثابة اهـ «منجد».

النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْتَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱتَّخِذُونِي﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿وَأُمِّيَ﴾: معطوف على ياء المتكلم ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾: مفعول ثان لـ﴿اتخذوا﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿اتخذوا﴾ تقديره: حال كونكم متجاوزين الله، أو بمحذوف صفة لإلهين تقديره: إلهين كائنين من دون الله، وجملة اتخذوني في محل النصب مقول ﴿قُلْتَ﴾.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿عيسى﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: أسبحك سبحاناً، والجملة المحذوفة في محل النصب مفعول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص. ﴿لِيَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿يَكُونُ﴾. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿أَقُولَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على عيسى، وجملة ﴿أَقُولَ﴾ صلة ﴿أَنْ﴾ المصدرية، ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿يَكُونُ﴾ تقديره: ما يكون قول ما ليس لي بحق كائناً لي، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿أَقُولَ﴾، لأنه بمعنى: اذكر. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿مَا﴾ ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره: أعني، فاللام فيه للتبيين كـ(لام): سَقْياً لك. ﴿بِحَقٍّ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَيْسَ﴾، والتقدير: ما ليس كائناً بحق لي؛ أي: بلائق بي، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿لَيْسَ﴾. وقال أبو البقاء[1]: اسم ﴿لَيْسَ﴾ ضمير مستتر فيها، وخبرها ﴿لِي﴾ و﴿بِحَقٍّ﴾ في موضع الحال من الضمير في الجار، ويجوز أن يكون ﴿بِحَقٍّ﴾ مفعولاً به تقديره: ما ليس يثبت لي بسبب

---

(١) العكبري.

حق، فالباء تتعلق بالفعل المحذوف لا بنفس الجار؛ لأن المعاني لا تعمل في المفعول به، ويجوز أن يجعل ﴿بِحَقٍّ﴾ خبر ﴿لَيْسَ﴾ و﴿لِي﴾ تبيين كما في قولهم: سقياً لك ورعياً، ويجوز أن يكون ﴿بِحَقٍّ﴾ خبر ﴿لَيْسَ﴾ و﴿لِي﴾ صفة ﴿بِحَقٍّ﴾ قدِّم عليه فصار حالاً، وهذا يخرَّج على قول من أجاز تقديم حال المجرور عليه انتهى. وقيل[1]: إن ﴿لِي﴾ متعلقة بنفس ﴿حق﴾؛ لأن الباء زائدة و﴿حق﴾ بمعنى: مستحق؛ أي: ما ليس مستحقاً لي ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿كُنتُ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿قُلْتُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول؛ لأنه بمعنى: ذكرته، وجملة ﴿قُلْتُهُۥ﴾ في محل النصب خبر كان تقديره: إن كنت قائلاً إياه، أي: ذاكراً إياه ﴿فَقَدْ﴾: الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً لاقترانها بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿عَلِمْتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، وليست[2] علم هنا عرفانية؛ لأن المعرفة تستدعي سبق الجهل، فهي هنا على بابها، ومفعولها الثاني محذوف تقديره: فقد علمته واقعاً مني، وجملة علمته في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

﴿تَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول أول لـ﴿تَعْلَمُ﴾، والثاني محذوف تقديره: منطوياً وثابتاً. ﴿فِى نَفْسِى﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَلَآ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية ﴿أَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿عيسى﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تَعْلَمُ﴾. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به لـ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأن علم هنا بمعنى: عرف ﴿فِى نَفْسِكَۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿إِنَّكَ﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، والكاف: اسمها. و﴿أَنتَ﴾: تأكيد. ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾: خبرها ومضاف إليه، وجملة

---

(١) الجمل.
(٢) الصاوي بتصرف.

﴿إن﴾ في محل النصب مقول القول.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿قُلْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ﴿قُلْتُ﴾؛ لأنه بمعنى: ذكرت. ﴿أَمَرْتَنِى﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أمر﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾.

فائدة: حيث[1] وقعت ما قبل ليس، أو لم، أو: لا، أو: بعد إلا، فهي موصولة نحو: ﴿مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾، ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، وحيث وقعت بعد كاف التشبيه فهي مصدرية نحو: قل كما قال زيد، وحيث وقعت بعد الباء. فإنها تحتملهما نحو: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾، وحيث وقعت بين فعلين سابقهما علم أو دراية أو نظر.. احتملت الموصولية والاستفهامية نحو: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، وحيث وقعت في القرآن قبل إلا.. فهي نافية، إلا في ثلاثة عشر موضعاً: ﴿مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ﴾، ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ إلا موضعي هود من قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فهي فيهما مصدرية ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾، ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، حيث كان قاله في «الاتقان» اهـ «كرخي».

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

---

(١) الفتوحات.

﴿أَنِ﴾: مصدرية. ﴿اعْبُدُوا﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية، فعل أمر مبني على حذف النون. ﴿اللَّهَ﴾: مفعول به منصوب على التعظيم. ﴿رَبِّي﴾: بدل من الجلالة ومضاف إليه. ﴿وَرَبَّكُمْ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو؛ أي: الذي أمرتني به عبادتهم الله ربي وربهم، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿وَكُنتُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾. ﴿شَهِيدًا﴾: خبر ﴿كان﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ على كونها مقول القول، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿قُلْتُ﴾. ﴿مَّا﴾: مصدرية ظرفية. ﴿دُمْتُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهِمْ﴾: جار ومجرور خبر دام، وجملة دام صلة ﴿مَّا﴾ المصدرية، ﴿مَّا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه تقديره: مدة دوامي فيهم، والظرف المقدر متعلق بـ﴿كان﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾: فعل وفاعل ونون وقاية ومفعول، والجملة الفعلية فعل شرط ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿أَنتَ﴾: تأكيد لاسم ﴿كان﴾. ﴿الرَّقِيبَ﴾: خبر ﴿كان﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿الرَّقِيبَ﴾، وجملة ﴿كان﴾ جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾. ﴿وَأَنتَ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿شَهِيدٌ﴾. ﴿شَهِيدٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من تاء ﴿كُنتَ﴾.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تُعَذِّبْهُمْ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية،

وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿إنّ﴾: حرف نصب، والهاء اسمها. ﴿عِبَادُكَ﴾: خبرها ومضاف إليه، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تَغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿فَإِنَّكَ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إنّ﴾ الشرطية. ﴿إن﴾: حرف نصب، والكاف: اسمها. ﴿أَنتَ﴾: تأكيد للكاف. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر أول لـ﴿إنَّ﴾. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم: بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إنْ﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ﴾: خبر مرفوع؛ لأنه مضاف إلى معرب فبقي على حقه من الإعراب. ويقرأ بالنصب، ويقال في إعرابه: ﴿يومَ﴾: منصوب على الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: هذا واقع يوم ينفع هذا على مذهب البصريين وعند الكوفيين ﴿يومَ﴾ في محل النصب على الظرفية مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ لافتقاره إلى الجملة المضاف إليها، وعندهم يجوز بناؤه، وإن أضيف إلى فعل معرب، وأما عند البصريين فلا يبنى إلا إذا أضيف إلى فعل مبني. ﴿يَنفَعُ﴾ فعل مضارع. ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: مفعول به. ﴿صِدْقُهُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿جَنَّٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً مسوقة لبيان النفع المذكور، كأنه قيل: ما لهم من النعيم؟ فقال: لهم جنات. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿جَنَّٰتٌ﴾، ولكنها سببية. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾. ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَرَضُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿رَّضِىَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: خبر. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة لـ﴿فوز﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو مبتدأ ﴿فِيهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بخبر محذوف تقديره: كائن ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٌۢ﴾. ﴿قَدِيرٌۢ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾: اتخذ[1] من باب افتعل ثلاثيه: تُخِذ يتخذ من باب علم يعلم بمعنى: أخذ، فأدغمت إحدى التائين في الأخرى. قال ابن الأثير: وليس من الأخذ في شيء، فإن الافتعال من الأخذ ائتخذ؛ لأن فاءه همزة، والهمزة لا تدغم في التاء خلافاً لقول الجوهري: الاتخاذ افتعال من الأخذ إلا

(١) القاموس المحيط..

أنه أُدغم بعد تليين الهمزة وإبدال الياء تاء، ثم لما كثر استعماله بلفظ الأفتعال.. توهموا أصالة التاء، فبنوا منه فعل يفعل، وأهل العربية على خلافه.

﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ وسبحان مصدر لسبح سبحاناً كغفر غفراناً، ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله كمعاذ الله، وتصدير الكلام به اعتذار عما نسبت النصارى إليه، والمعنى: تنزيهاً لك عن أن يكون معك إلٰه سواك.

﴿مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾: دمت بوزن قلت؛ لأنه من دام يدوم، فهو أجوف واوي كقال، أصله: دوم من باب فعل المفتوح تحركت[1] الواو وانفتح ما قبلها فقلت ألفاً، فصار: دام كقال، فلما اتصل بتاء الضمير.. سكن آخر الفعل، فالتقى ساكنان؛ وهما الألف المنقلبة عن عين الكلمة وآخر الفعل، فحذفت الألف للتخلص من التقاء الساكنين، فصار: دمت، فجهل وزنه هل هو من باب فعل المفتوح أو المكسور أو المضموم؟ وجهل عينه هل هي واو أو ياء قبل انقلابها ألفاً؟ فروعي جانب التنبيه على العين المحذوفة، فأعطي حركة مجانسة لعينه، فصار: دمت بضم الدال، فعرف أن عينه واو من هذا الضم؛ لأنه حركة مجانسة للواو ويعرف كونه من باب فعل المفتوح من مصدره واسم فاعله؛ لأنه يقال فيه: دوام ودائم كما قال ابن مالك في لامية الأفعال:

وَٱنْقُلْ لِفَاءِ ٱلثُّلَاثِيِّ شَكْلَ عَيْنٍ إِذَا ٱعْـ ... ـتَلَّتْ وَكَانَ بِتَا ٱلْإِضْمَارِ مُتَّصِلَا
أَوْ نُوْنِهِ وَإِذَا فَتْحاً يَكُوْنُ فَعَنْـ ... ـهُ ٱعْتَضْ مُجَانِسَ تِلْكَ ٱلْعَيْنِ مُنْتَقِلَا

ويقال فيه: دام يدام كخاف يخاف، فحينئذ يقرأ بكسر الدال؛ لأنه من باب فعِل المكسور، فتكون حركته حركة نقل كخفت لا حركة مجانسة كقلت.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ توفى من باب تفعل الخماسي، ويستعمل التوفي في أخذ الشيء وافياً؛ أي: كاملاً، والموت نوع منه قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ وليس المراد هنا الموت، بل المراد الرفع إلى السماء.

﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ﴾ والرقيب فعيل بمعنى فاعل؛ أي: المراقب الحافظ

(١) مناهل الرجال على لامية الأفعال بتصرف.

لهم، وكذا ﴿شَهِيدٌ﴾ بمعنى شاهد.

﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هما[1] فعيل بمعنى فاعل، وفيهما من المبالغة ما ليس فيه، والحكمة لغة: الاتقان والمنع من الخروج عن الإرادة، ومنه: حكمة الدابة، والحكيم: صفة ذات إن فسر بذي الحكمة، وصفة فعل إن فسر بأنه المحكم لصنعته اهـ «سمين».

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾: ﴿رَّضِيَ﴾ من باب فعل المكسور رضاً بكسر أوله مصدر سماعي له، والقياس فتح أوله، ولكنه لم يسمع كما قال ابن مالك في خلاصته:

وَمَا أَتَىٰ مُخَالِفاً لِمَا مَضَىٰ فَبَابُهُ ٱلنَّقْلُ كَسُخْطٍ وَرِضَا

والاسم منه: الرضاء ممدوداً، وأصل رضوا: رضيوا استثقلت الضمة على الياء، ثم نقلت إلى ما قبلها بعد سلب حركته فالتقى ساكنان وهما: الياء والواو، ثم حذفت الياء للتخلص من التقاء الساكنين، فصار: رضوا بوزن فعوا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التجوز في استعمال: ﴿إذ﴾ بمعنى: إذا، والماضي بعده بمعنى المستقبل في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن هذا القول إنما يقع في يوم القيامة.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾؛ لأنه توبيخ لقومه وتبكيت لهم على رؤس الأشهاد.

ومنها: المشاكلة والمقابلة في قوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ﴾؛ لأنه أتى بقوله: ﴿مَا فِى نَفْسِكَۚ﴾ على جهة المقابلة والمشاكلة لقوله: ﴿مَا فِى نَفْسِى﴾ فهو كقوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ وكقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ لأنه أكد هذه

---

(١) الفتوحات ج ١ ص ٤٠.

الجملة بـ﴿إنّ﴾، والضمير المنفصل، وصيغة المبالغة، والجمع مع أل الاستغراقية.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، وفي قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾. وفي قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، وفي قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: المجاز اللغوي في قوله: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ لما فيه من الإسناد إلى السبب.

ومنها: الحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى لي في تفسير سورة المائدة، فالحمد لله على أفضاله، والشكر له على نواله، والصلاة والسلام على نبيه وصحبه وآله سيدنا محمد ﷺ زبدة أرساله ما تطارد الجديدان، وتطاول المدى والأوان.

وكان الفراغ من مسودة هذه السورة في تاريخ: ١٤٠٩/٨/١٩ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية يوم الأحد قبيل الظهر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

سورة الأنعام

سورة الأنعام مكية إلا ست آيات أو ثماني آيات أو تسع آيات، فإنها مدنيات: ٢٠/٢٣/٩١/٩٣/١١٤/١٤١/١٥١/١٥٢/١٥٣/، وهي وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الثلاث آيات. وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ إلى آخر الآيتين، وذكر مقاتل نحو هذا، وزاد آيتين وهما: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ الآية، فجملتها ثمان آيات. وقد روى كثير من المحدثين من غير واحد من الصحابة والتابعين أن هذه السورة نزلت جملة واحدة إلا هذه الآيات.

وهي مئة وخمس وستون آية: (١٦٥)، وعدد كلماتها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة: (٣٠٥٢)، وعدد حروفها اثنا عشر ألفاً وأربع مئة واثنان وعشرون حرفاً: (١٢٤٢٢). وقال القرطبي: هي مكية إلا آيتين هما ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ نزلت في ثابت بن قيس بن شماس.

مناسبة هذه السورة لما قبلها: الناظر[(١)] في ترتيب السور كلها في المصحف يرى أنه قد روعي في ترتيبها الطول والتوسط والقصر في الجملة؛ ليكون ذلك أعون على التلاوة، وأسهل في الحفظ، فالناس يبدؤون بقراءته من أوله، فيكون الانتقال من السبع الطوال إلى المئتين، فالمثاني، فالمفصل أنفى للمَلَل، وأدعى للنشاط، ويبدؤون بحفظه من آخره؛ لأنه أسهل على الأطفال، ولأنه قد روعي

---

(١) المراغي.

التناسب في معاني السور مع التناسب في مقدار الطول والقصر.

ووجه مناسبتها لآخر سورة المائدة من وجوه عدة:

١ ـ أن معظم سورة المائدة في محاجة أهل الكتاب، ومعظم سورة الأنعام في محاجة المشركين والملحدة.

٢ ـ أن سورة الأنعام قد ذكرت فيها أحكام الأطعمة المحرمة والذبائح بالإجمال، وذكرت في المائدة بالتفصيل وهي قد نزلت أخيراً.

٣ ـ أن هذه افتتحت بالحمد، وتلك اختتمت بفصل القضاء، وبينهما تلازم كما قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

التسمية: وسميت سورة الأنعام؛ لورود ذكر الأنعام فيها: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾، ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها.

ومن خصائصها: ما أخرجه[1] أبو عبيد وابن المنذر والطبري وابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، وحولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة. وأخرج ابن مردويه عن أسماء: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ وهو في مسير في زجل من الملائكة وقد نظموا ما بين السماء والأرض. وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت عليَّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد».

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو الشيخ والبيهقي في «الشعب» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما

---

(١) الشوكاني.

بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتقديس، والأرض ترتج، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم».

وأخرج الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، والإسماعيلي في «معجمه» والبيهقي عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام.. سبح رسول الله ﷺ ثم قال: لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق.

وأخرج البيهقي وضعفه والخطيب في «تاريخه» عن علي بن أبي طالب قال: أنزل القرآن خمساً خمساً، ومن حفظه خمساً خمساً لم ينسه إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة يشيعها من كل سماء سبعون ملكاً حتى أدوها إلى النبي ﷺ، ما قرئت على عليل إلا شفاه الله.

وأخرج السلفي بسند واهٍ عن ابن عباس مرفوعاً: من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.. نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم، ونزل إليه ملك من فوق سبع سموات ومعه مرزبة من حديد، فإن أوحى الشيطان في قلبه شيئاً من الشر.. ضربه ضربة حتى يكون بينه وبينه سبعون حجاباً، فإذا كان يوم القيامة.. قال الله تعالى: «أنا ربك وأنت عبدي، امش في ظلي، واشرب من الكوثر، واغتسل من السلسبيل، وادخل الجنة بغير حساب ولا عذاب».

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الفجر في جماعة وقعد في مصلاه وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام.. وكل الله به سبعين ملكاً يسبحون الله ويستغفرون له إلى يوم القيامة».

وفي فضائل هذه السورة: روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة وغير مرفوعة:

قال القرطبي: قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة؛ لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرّف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى

المتكلمون أصول الدين. انتهى من «الشوكاني».

تنبيه[1]: قال بعض العلماء: اختصت هذه السورة بنوعين من الفضيلة:

أحدهما: أنها نزلت دفعة واحدة.

والثاني: أنه شيعها سبعون ألفاً من الملائكة، والسبب في ذلك: أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى في كتابه «الناسخ والمنسوخ من القرآن»: سورة الأنعام تحتوي على أربع عشرة آية منسوخة:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ الآية (١٥) مكية فهي منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية (٢) مدنية من سورة الفتح.

والثانية والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية (٦٨/ ٨٩) مكية نسخت بقوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ الآية (١٤٠) مدنية.

والرابعة: قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ الآية (٧٠) مكية يعني به اليهود والنصارى، نسخت بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية (٢٩) من سورة التوبة.

والخامسة: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ الآية (٩١) مكية نسخت بآية السيف.

والسادسة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم

(١) الخطيب.

بِحَفِيظٍ﴾ الآية (١٠٤) مكية نسخت بآية السيف.

والسابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية (١٠٦) مكية نسخت بآية السيف.

والثامنة: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ الآية (١٠٧) مكية، نسخت بآية السيف.

والتاسعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية (١٠٨) مكية، نسخت بآية السيف.

والعاشرة والحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ الآية (١١٢/ ١٣٧) مكية، نسخت بآية السيف.

والثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الآية (١٢١) مكية، نسخت بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: الذبائح آية (٥).

والثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ آية (١٣٥) مكية نسخت بآية السيف.

والرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ آية (١٥٩) مكية نسخت بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)
وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ
مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ
وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ
قَرْنًا آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾.

المناسبة

مناسبة افتتاح هذه السورة لآخر المائدة[1]: أنه تعالى لما ذكر ما قالته النصارى في عيسى وأمه من كونهما إلهين من دون الله، وجرت تلك المحاورة، وذكر ثواب ما للصادقين، وأعقب ذلك بأن له ملك السموات والأرض وما فيهن، وأنه قادر على كل شيء.. ذكر بأن الحمد المستغرق جميع المحامد له، فلا يمكن أن يوجد معه شريك في الإلهية فيحمد، ثم نبه على العلة المقتضية لجميع المحامد والمقتضية كون ملك السموات والأرض وما فيهن له بوصف خلق السموات والأرض؛ لأن الموجد للشيء المنفرد باختراعه له الاستيلاء والسلطنة عليه، ولما قدم قولهم في عيسى وكفرهم بذلك، وذَكَر الصادقين وجزاءهم.. أعقب خلق السموات والأرض بجعل الظلمات والنور، فكان ذلك مناسباً للكافر والصادق.

---

(١) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما أرشد في الآيات السالفة إلى دلائل وحدانيته، ودل على أنها مع ظهورها لم تمنع الكافرين من الشك، وإلى دلائل البعث، وأنها على شدة وضوحها لم تمنع المشركين من الشك والريب، وإلى أن الله المتصف بتلك الصفات التي تعرفونها هو الله المحيط علمه بما في السموات والأرض، فلا ينبغي أن يشرك به غيره فيهما، ولكن المشركين جهلوا ذلك، وجوزوا أن يكون غير الرب إلٰهاً، بل عبدوا معه آلٰهة أخرى.. ذكر هنا سبب عدم اهتدائهم بالوحي، وأنذرهم عاقبة التكذيب بالحق، ولفت - صرف ووجَّه - أنظارهم إلى ما حل بالأمم قبلهم حين كذبوا رسلهم لعلهم يرعوون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أن اللَّه سبحانه وتعالى لما أرشد في الآيات المتقدمة إلى ما دعا إليه الرسول ﷺ من التوحيد والبعث، ثم ذكر بعدها الأسباب التي دعت قريشاً إلى التكذيب، وأنذرهم عاقبة هذا التكذيب بما يحل بهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وأنه لا يحول دونه ما هم فيه من قوة وضعف الرسول ﷺ، وتمكنهم في مكة وهي أم القرى، وأهلها القدوة والسادة بين العرب.. ذكر هنا شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحي وبعثة الرسول، وبها تم بيان أسباب جحودهم وإنكارهم لأصول الدين الثلاثة: التوحيد، والبعث، ونبوة محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف مقترحاتهم على النبي ﷺ، وأنهم تارة يطلبون إنزال ملك مع الرسول ﷺ، وأخرى يطلبون إنزال ملك بالرسالة، وكان مبنى هذه المقالة الاستهزاء، وكان قلب الرسول يضيق بها ذرعاً

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

عند سماعه إياها . . ذكر هنا ما يخفف عنه ما يلاقيه منهم من سوء الأدب ومن الهزء والسخرية، فأبان له أنك لست ببدع من الرسول، فإنَّ كثيراً منهم لاقوا من أقوامهم مثل ما لاقيت، بل أشد من ذلك وأنكى، فأنزل الله بهم من العذاب ما يستحقونه كفاء أفعالهم الشنيعة، وجرأتهم على من اصطفاهم ربهم من خلقه، ثم أمر هؤلاء المكذبين بأن يسيروا في الأرض ليروا كيف كان عاقبة المكذبين لأنبيائه.

أسباب النزول

وأما الأسباب: فلم يكن لهذه الآيات سبب لنزولها؛ لأنها إنما نزلت لتعليم العباد كيف يحمدونه فكأنه قال: قولوا يا عبادي عند حمدي وثنائي: الحمد لله. وقال أهل المعاني: لفظه خبر، ومعناه أمر، والمعنى: احمدوا الله سبحانه وتعالى لذاته، وعلى نعمه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: جنس الحمد بأنواعه، وكل الشكر على نعمه مستحق لله ﴿ٱلَّذِى﴾ خلقكم أيها الناس من نفس واحدة و﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أوجد وأبدع السموات السبع والأرضين السبعة على غير مثال، فهو سبحانه وتعالى هو المستحق عليكم الحمد والشكر على نعمه، لا ما تعبدون من دونه وتجعلونه شريكاً له من خلقه. والمراد بالسموات والأرض: العوالم العلوية التي يرى كثير منها فوقنا، وهذا العالم السفلي الذي نعيش فيه.

وإنما قدم[1] السموات على الأرض لشرفها؛ لأنها متعبد الملائكة، ولم تقع فيها معصية، والأرض وإن كان فيها الأنبياء، لكنها احتوت على الاشرار والمفسدين، ولتقدم وجودها على وجود الأرض كما قاله القاضي. ومراده أن السموات على هذه الهيئة مقدمة على الأرض الكائنة على هذه الهيئة الموجودة؛ لأنه تعالى قال في سورة النازعات: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾، فإنه صريح في أن بسط الأرض

(١) الفتوحات.

مؤخر عن تسوية السماء، كما سيأتي إن شاء الله تعالى إيضاحه في تلك السورة. اهـ «كرخي». ولا منافاة بين آية فُصِّلَت وبين آية النازعات فإن الأرض خلقت أولاً كرة ثم خلقت السموات من دخان كما دلت عليه آية فُصلت، ثم بنى السماء ورفعها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها. وإنما جمع السموات وأفرد الأرض؛ لاختلاف أجناسها، فإن الأولى على ما قيل من موج مكفوف، والثانية من مرمرة بيضاء، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من ياقوتة حمراء، والأرض وإن كانت سبعاً أيضاً إلا أنها من جنس واحد، واختلف هل الأرض واحدة؟ وهو الصحيح، فالتعدد باعتبار أقطارها، وقيل: طباق كالسماء، وأما السماء: فهي طباق باتفاق ذكره «الصاوي»، ولكن هذا كله إسرائيليات لا مستند له.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى بدأ هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال، وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد، فلاندّ له ولا شريك ولا نظير ولا مثيل. ومعنى الآية: احمدوا الله ربكم المفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام، الذي أوجد وأنشأ وأبدع خلق السموات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة بما يدهش العقول والأفكار تذكرة وذكرى لأولي الأبصار. والحمد(١): هو الثناء الحسن والذكر الجميل، والفرق بينه وبين المدح: أن المدح أعم من الحمد؛ لأن المدح يكون للعاقل ولغير العاقل، فكما يمدح العاقل على أنواع فضائله كذلك يمدح اللؤلؤ لحسن شكله، والياقوت على نهاية صفائه وصقالته. والحمد لا يكون إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإحسان، والحمد أعم من الشكر؛ لأن الحمد تعظيم المنعم لأجل ما صدر عنه من الإنعام واصلاً إليك أو إلى غيرك، والشكر: تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك وحصل عندك، والمقصود من الآية: ذكر الدلالة على وجود الصانع.

---

(١) المراح.

﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ﴾؛ أي: والذي أوجد وأنشأ الظلمات والنور الحسيين والمعنويين، كظلمة الليل ونور النهار وظلمة الكفر ونور الإيمان. واختلف[١] العلماء في المراد منهما: فمن قائل: إن المقصود منهما ظلمة الليل ونور النهار، وإلى هذا جنح ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي، وفي ذلك ردٌّ على المجوس ـ الثنوية ـ الذين زعموا أن للعالم ربين، أحدهما: النور، وهو الخالق للخير، والثاني: الظلمة، وهو الخالق للشر. ومن قائل: إن المراد منهما الكفر والإيمان، وروي هذا عن ابن عباس.

والفرق[٢] بين الخلق والجعل: أن كلاً منهما هو الإنشاء والإبداع إلا أن الخلق مختص بالإنشاء التكويني، وفيه معنى التقدير والتسوية، والجعل عام له، كما في هذه الآية الكريمة، وللتشريعي أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ الآية. وإنما جمع الظلمات دون النور؛ لكثرة محالها؛ إذ ما من جرم إلا وله ظل، والظل هو الظلمة بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار، وهذا إذا حملا على الكيفيتين المحسوستين بحاسة البصر وإن حمل النور على الإسلام والإيمان واليقين والنبوة، والظلمات على ظلمة الشرك والكفر والنفاق.. فنقول: لأن الحق واحد والباطل كثير. وفي «البيضاوي»[٣]: وجمع الظلمات لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، وفي «شيخ الإسلام» قوله: لكثرة أسبابها؛ إذ ما من جرم إلا وله ظل، والظل هو الظلمة بخلاف النور، فإنه من جنس واحد وهو النار، ولا ترد الأجرام النيرة كالكواكب؛ لأن مرجع كل نير إلى النار على ما قيل: إن الكواكب أجرام نورية نارية، وإن الشهب تنفصل من نار الكواكب، فصح أن النور من جنس النار. اهـ.

وإنما قدم الظلمات على النور؛ لأن الظلمة عدم النور عن الجسم الذي يقبله وعدم المحدثات متقدم على وجودها. ﴿ثُمَّ﴾ بعد قيام هذه الأدلة ﴿الَّذِينَ

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) الفتوحات.

﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وجحدوا به ﴿يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يميلون عن عبادته إلى عبادة غيره من الأصنام والأحجار، فهو من العدول[1] بمعنى الميل، ولا مفعول له حينئذ. والجار والمجرور في قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ﴿كَفَرُوا﴾، ويجوز أن يتعلق بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وقدم عليه للفاصلة، وفي ﴿الباء﴾ حينئذ احتمالان:

أحدهما: أن تكون بمعنى: ﴿عن﴾ ويعدلون من العدول أيضاً؛ أي: يعدلون عن ربهم إلى غيره.

والثاني: أنها للتعدية، ويعدلون من العدل بمعنى التسوية بين الشيئين، والمعنى: ثم الذين كفروا يسوون بربهم غيره من المخلوقين، فيكون المفعول محذوفاً. اهـ «سمين».

وعبارة «المراح» هنا: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي[2]: يشركون به غيره، وهذه الجملة إما معطوفة على قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، والباء متعلقة بـ﴿كَفَرُوا﴾، فيكون ﴿يَعْدِلُونَ﴾ من العدول بمعنى الميل، ولا مفعول له، والمعنى: إن الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه؛ لأنه تعالى ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا بربهم يميلون عنه فيكفرون نعمته، أو متعلقة بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وهو من العدل، ويوضع الرب موضع الضمير العائد إليه تعالى، والمعنى: إنه مختص باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ذاته، وباعتبار شؤونه العظيمة الخاصة، ثم هؤلاء الكفرة يسوون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر الذي رأسه الحمد، وإما معطوفة على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾، والباء متعلقة بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾ وقدمت لأجل الفاصلة، وهي إما بمعنى: عن، ويعدلون من العدول، والمعنى: إن الله تعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم الذين كفروا يعدلون عن ربهم إلى غيره، أو للتعدية و﴿يَعْدِلُونَ﴾ من العدل، وهو التسوية، والمعنى: أنه تعالى خلق هذه الأشياء العظيمة التي لا يقدر عليها أحد سواه، ثم إنهم يعدلون به جماداً لا يقدر على شيء أصلاً، فيكون المفعول

---

(١) الفتوحات.　　(٢) المراح.

محذوفاً، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الشرك بعد وضوح آيات قدرته تعالى.

والمعنى: ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم، فيساوون به أصناماً نحتوها بأيديهم، وأوهاماً ولدوها بخيالهم، ففي ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم. قال[1] ابن عطية: والآية دالة على قبح فعل الكافرين؛ لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض والظلمات والنور وغيرها قد تقرر، وآياته قد سطعت وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم؟ فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك، ثم تشتمني؟ أي: بعد وضوح هذا كله، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو.. لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ﴿ثم﴾ انتهى.

وعبارة «الفتوحات» هنا: و﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ليست للترتيب الزماني، وإنما هي للتراخي بين الرتبتين، والمراد: استبعاد أن يعدلوا به غيره مع ما أوضح من الدلالات.

وقال الزمخشري: فإن قلتَ: فما معنى: ﴿ثم﴾ هنا؟

قلت: استبعاد أن يعدلوا به مع وضوح آيات قدرته، وكذلك: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد أن يمتروا بعد ما ثبت أنه يحييهم ويميتهم ويبعثهم اهـ «سمين» انتهت.

وبعد أن وصف الخالق سبحانه وتعالى نفسه بما دل على توحيده واستحقاقه.. انتقل إلى خطاب المشركين الذين عدلوا به غيره في العبادة، مذكراً لهم بدلائل التوحيد والبعث فقال و﴿هو﴾؛ أي: المعبود الذي يستحق منكم العبادة أيها المشركون، الإله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ أي: خلق أباكم آدم من طين؛ أي: من تراب مخلوط بالماء؛ أي: من جميع أنواعه الأحمر والأبيض والأسود فلذلك اختلفت ألوان بني آدم، وعجن طينته بالماء العذب والملح والمر، فلذلك اختلفت أخلاقهم؛ أي: أخذ قبضة من جميع أنواع التراب وعجنها

---

(١) البحر المحيط.

بجميع أنواع المياه، فاختلاف الألوان لاختلاف ألوان تلك القبضة، واختلاف الأخلاق لاختلاف أنواع تلك المياه، وعلى هذا فالكلام على حذف مضاف كما قدرنا. وقيل: لا حذف، بل[1] كل فرد من أفراد البشر من سلالة من طين، فإنَّ بنيته مكونة من الغذاء، ومن ذلك البويضات التي في الأنثى، والحيوان المنوي الذي في الذكر، فكلها مكونة من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من نبات الأرض أو من لحوم الحيوان المتولدة من النبات، فالمرجع إلى النبات، والنبات إلى الطين، فثبت[2] أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية، ولا شك أنها متولدة من الطين، فثبت أن كل إنسان متولد من طين. وقال المهدوي: إن الإنسان مخلوق ابتداءً من طين؛ لخبر: «ما من مولود يولد إلا ويُذَرُّ على النطفة من تراب حفرته». وأياً ما كان الإنسان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث ما لا يخفى، فإن من قدر على إحياء ما لم يشم رائحة الحياة قط، كما على إحياء ما قارنها مدةً أظهرُ قدرة.

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلقكم من طين ﴿قَضَىٰٓ﴾؛ أي: كتب وقدر وحدد لكم ﴿أَجَلًاۖ﴾؛ أي: مدة معينة من وقت الولادة إلى وقت الموت لجلوسكم في الدنيا، وتسمى تلك المدة العمر؛ أي: خصص الله موت كل أحد بوقت معين، وذلك التخصيص تعلق مشيئته تعالى بإيقاع ذلك الموت في ذلك الوقت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ أي: حد معين ووقت معلوم من موتكم إلى بعثكم، وتسمى تلك المدة مدة البرزخ مكتوبة ﴿عِندَهُۥۖ﴾ سبحانه وتعالى[3]. ويروى عن ابن عباس أنه قال: لكل أحد أجلان: أجل من وقت الولادة إلى وقت الموت، وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان الإنسان تقياً وَصُولاً للرحم.. زيد له من أَجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجراً قاطعاً للرحم.. نقص من أجل العمر، وزِيد في أجل البعث، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.

والآية[4] ترشد إلى أنه تعالى قضى لعباده أجلين: أجلاً لحياة كل فرد منهم

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

ينتهي بموته، وأجلاً لإعادتهم وبعثهم بعد موت الجميع وانقضاء مدة الدنيا. ومعنى كونه مسمى عنده: أنه لا يعلمه غيره، لأنه لم يُطلع أحداً على يوم القيامة لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، والمراد بقوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ الذي لا يطلع عليه غيره ﴿ثُمَّ﴾ بعد ظهور مثل هذه الحجة الباهرة ﴿أَنتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تشكون في البعث، وتكذبون به بعد علمكم أنه ابتدأ خلقكم من طين، ومن قدر على الابتداء.. فهو أقدر على الإعادة، وهذا[1] استبعاد لامترائهم بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم، ومحييهم إلى آجالهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها، وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء.. كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، فالآية الأولى دليل التوحيد، والثانية دليل البعث، ويؤخذ منه صحة الحشر والنشر. والضمير في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ مبتدأ، ولفظ الجلالة خبره، والجار والمجرور متعلق بلفظ الجلالة؛ لأنه بمعنى المعبود، والضمير عائد الإله الموصوف بالصفات السابقة، وهي: خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وخلق الناس من طين إلى آخرها، فكان في الإخبار بذلك فائدة، وهذا ما عليه الجمهور.

والمعنى: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور إلخ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود المستحق للعبادة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾، والمتصرف فيهما لا غير، وقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ في القلوب من الدواعي والصوارف ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ في الجوارح من الأعمال، خبر بعد خبر جيء به تقريراً وتوكيداً لما قبله؛ لأن الذي يستوي في علمه السر والجهر هو الله وحده، والمراد بالسر: ما يخفيه الإنسان في ضميره، فهو من أعمال القلوب وبالجهر ما يظهره الإنسان فهو من أعمال الجوارح. والمعنى: إن الله لا يخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾؛ أي: مكتسبكم؛ أي: ما تستحقون على فعلكم من الثواب والعقاب.

بقي في الآية سؤال[2]، وهو أن الكسب، إما أن يكون من أعمال القلوب،

---

(١) البيضاوي. (٢) الخازن.

وهو المسمى بالسر، أو من أعمال الجوارح، وهو المسمى بالجهر، فالأفعال لا تخرج عن هذين النوعين يعني: السر والجهر، فقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ يقتضي عطف الشيء على نفسه، وذلك غير جائز، فما معنى ذلك؟ وأجيب عنه: بأنه يجب حمل قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ على ما يستحقه الإنسان على فعله وكسبه من الثواب والعقاب.

والحاصل فيه: أنه محمول على المكتسب كما فسرناه آنفاً، كذلك فهو نظير قولهم: هذا المال كسب فلان؛ أي: مكتسبه، ولا يجوز حمله على نفس الكسب وإلا لزم عطف الشيء على نفسه، ذكره الإمام فخر الدين الرازي.

قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ يعني: أهل مكة، كلام مستأنف وارد لبيان كفرهم بآيات الله تعالى، وإعراضهم عنها بالكلية بعد ما بين في الآية الأولى إشراكهم بالله تعالى وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد، وفي الآية الثانية امتراءهم في البعث، وإعراضهم عن بعض آياته، و﴿ما﴾: نافية، وصيغة المضارع لحكاية الماضية، أو للدلالة على الاستمرار التجددي. و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ زائدة في الفاعل؛ لاستغراق الجنس، ومعنى زيادتها: أن ما بعدها معمول لما قبلها فاعل لقوله: ﴿تَأْتِيهِم﴾، وفي قوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ تبعيضية صفة لـ﴿آية﴾؛ أي: وما يظهر لأهل مكة دليل من الأدلة التي يجب النظر فيها، والاستدلال والاعتبار بها من الآيات التكوينية كالسموات والأرض والظلمات والنور، أو ما يظهر لهم معجزة من المعجزات الباهرات التي جاء بها رسول الله ﷺ كانشقاق القمر، أو ما تنزل عليهم آية من آيات القرآن ﴿إِلَّا كَانُوا۟﴾؛ أي: كان أهل مكة ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن النظر فيها أو عن تصديقها أو عن سماعها وقبولها ﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: تاركين للنظر فيها ومكذبين بها، لا يلتفتون إليها ولا يرفعون بها رأساً لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب. قيل: الآية هنا: العلامة على وحدانية الله وانفراده بالألوهية. وقيل: الرسالة. وقيل: المعجز الخارق. وقيل: القرآن، ومعنى: ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن قبولها أو سماعها والإعراض ضد الإقبال كما أشرنا إلى هذه الأقوال في الحل.

وتضمنت[1] هذه الآية مذمة هؤلاء الذين كفروا بأنهم يعرضون عن كل آية ترد عليهم، ولما تقدم الكلام أولاً في التوحيد، وثانياً في المعاد، وثالثاً في تقرير هذين المطلوبين.. ذكر بعد ذلك ما يتعلق بتقرير النبوة، وبيَّن فيه أنهم أعرضوا عن تأمل الدلائل، ويدل ذلك على أن التقليد باطل، وأن التأمل في الدلائل واجب، ولذلك ذموا بإعراضهم عن الدلائل، فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾؛ أي: فقد كذب أهل مكة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو تلك الآية السابقة بتفصيلها ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: حين جاءهم وأتاهم ذلك الحق؛ أي: فقد كذب أهل مكة بالمعجزات كانشقاق القمر بمكة وانفلاقه فلقتين، فذهبت فلقة وبقيت فلقة، أو بالقرآن، أو بمحمد ﷺ. وظاهر[2] قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ أن الفاء للتعقيب، وأن إعراضهم عن الآية أعقبه التكذيب ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: يأتي أهل مكة ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: أخبار[3] عاقبة الشيء الذي كانوا به يستسخرون، وهو القرآن، أو محمد ﷺ على أن ﴿مَا﴾ عبارة عن ذلك الشيء، أبهمه تهويلاً للأمر وتعظيماً له؛ أي: سيعرفون أن هذا الشيء الذي استهزؤوا به ليس بموضع للاستهزاء، وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم، أو المعنى: سوف يأتيهم أخبار عاقبة كونهم مستهزئين بذلك الحق يوم بدر ويوم أحد ويوم الأحزاب على أن ﴿مَا﴾ مصدرية. والأنباء[4]: جمع نبأ، وهو الخبر العظيم المزعج، وجمعه إشارة إلى تكرر الجزاء لهم في الدنيا ويوم القيامة.

والخلاصة: فسوف يأتيهم جزاء استهزاء الذي كانوا يستهزئون به في العاجل بالقتل والأسر، والآجل بالعذاب الدائم في النار، وهذه الجملة معطوفة على محذوف تقديره: فقد كذبوا بالحق لما جاءهم واستهزئوا به، فسوف يأتيهم إلخ.

ولما هددهم وأوعدهم على إعراضهم وتكذيبهم واستهزائهم.. أتبع ذلك بما يجري مجرى الموعظة والنصيحة، وحض على الاعتبار بالقرون الماضية،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني بتصرف.
(٤) الصاوي.

فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ ويروا هنا بمعنى: يعلموا؛ لأنهم لم يبصروا هلاك القرون السالفة، والهمزة فيه للاستفهام التقريري، لا للإنكار كما قاله الشوكاني؛ لأن الاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، فلا يدخل على حرف النفي، ونظير ما هنا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾، وكم خبرية بمعنى: عدد كثير؛ أي: ألم يعلم هؤلاء الكفار المعرضون عن آياتنا المكذبون لرسولنا محمد ﷺ يعني: أهل مكة؛ أي: لم يعلموا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار في أسفارهم للتجارة إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء، كم من قرن أهلكنا من قبلهم؛ أي: أهلكنا من قبل زمان أهل مكة كثيراً من الأمم السالفة قرناً بعد قرن؛ بسبب تكذيبهم الرسل، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم.

والقرن[1]: يطلق على أهل كل عصر سموا بذلك؛ لاقترانهم، وقيل: القرن مدة من الزمان، وهي: ستون عاماً أو سبعون أو ثمانون أو مئة على اختلاف الأقوال، فيكون ما في الآية على تقدير مضاف محذوف؛ أي: من أهل قرن. وقوله: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾؛ أي: القرن، وجمع الضمير باعتبار كون القرن جمعاً في المعنى، وجملة ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾، والجملتان بعدها نعوت لـ﴿قَرْنٍ﴾؛ أي: قرناً موصوفاً بالصفات الثلاث، وقيل: مستأنفة؛ أي: ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من القرون الموصوفين بكونهم ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ يا أهل مكة؛ أي: أعطينا أولئك القرون والجماعة من البسطة في الأجساد والامتداد في الأعمار والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا ما لم نعطكم يا أهل مكة، ومع ذلك فقد أهلكناهم بذنوبهم، ولم ينفعهم ولم يدفع عنهم التمكين وما بعده من الصفات عذاب الله حين جاءهم، فيخاف على أهل مكة أن ينزل بهم الهلاك مثل ما نزل بمن قبلهم مع أن من قبلهم كانوا أعظم شأناً منهم، لكن لما كذبوا الرسل.. استحقوا الهلاك، فكذلك أهل مكة، إن استمروا على تكذيب محمد ﷺ يخشى عليهم الهلاك مثلهم. وفي قوله: ﴿لَّكُمْ﴾ التفات إلى الخطاب عن الغيبة التي في

---

(١) الشوكاني.

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ والمعنى: ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون بالحق أنا أهلكنا كثيراً من الأقوام الذين كذبوا الرسل قبلهم بعد أن أعطيناهم من التمكين والاستقلال في الأرض وأسباب التصرف فيها ما لم نعطهم مثله، ثم لم تكن تلك النعم بمانعة لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم وعتوهم واستكبارهم.

ثم ذكر بعد هذا ما امتازت به تلك القرون عن كفار قريش من النعم الإلٰهية التي اقتضتها طبيعة بلادهم، وخصب تربتها، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: أنزلنا المطر ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: على أولئك القرون حالة كونه ﴿مِّدْرَارًا﴾؛ أي: كثيراً متتابعاً كلما احتاجوا إليه، وهذه الجملة والتي بعدها معطوفتان على جملة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ كما مرَّ؛ أي: ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من القرون الموصوفين بكونهم مكناهم في الأرض، وبكونهم أرسلنا السماء عليهم مدراراً ﴿و﴾ بكونهم ﴿جعلنا الأنهار﴾ والمياه ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾؛ أي: تسيل من تحت بساتينهم وزروعهم فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار وسقيا الغيث المدرار ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾؛ أي: فأهلكنا أولئك القرون ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: بتكذيبهم الأنبياء، وبكونهم باعوا الدين بالدنيا؛ أي: أهلكنا[1] كل قرن من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب، فما أغنت عنهم تلك العدد والأسباب، فسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب.

والخلاصة: أن من مضى من قبلكم من الأمم أعطيناهم القوة الشديدة في الجسم، والسعة في الأموال والأولاد، ومع ذلك فلم ينفعهم من ذلك شيء، فلا تأمنوا سطوتي بالأولى منهم، قال الشاعر:

لاَ يَأْمَنُ ٱلدَّهْرَ ذُو بَغْيٍ وَلَوْ مَلِكًا ... جُنُودُهُ ضَاقَ عَنْهُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وهذا كما ترى آخر ما به الاستشهاد والاعتبار.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: أحدثنا من بعد إهلاك كل قرن ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: قوماً آخرين بدلاً من الهالكين يعمرون البلاد، ويكونون أجدر

(١) الفتوحات.

بشكران النعمة، فلبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه، وأن ما ذكر من إهلاك الأمم الكثيرة، فلم ينقص من ملكه شيئاً، بل كلما أهلك أمة.. أنشأ بدلها أخرى، فإنه تعالى يهلك من يشاء، ويوجد من يشاء. وإنما قال هنا: قرناً بالإفراد، وفي موضع آخر قروناً بالجمع، للتفنن؛ لأن المعنى واحد؛ لأنه أفرد هنا نظراً للجنس، وجمع في موضع آخر نظراً للمعنى. اهـ «أبو السعود».

وفي هذه[1] الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة والقرون الخالية، فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع.. أهلكناهم لما كفروا وطغوا وظلموا، فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عدداً وعدداً؟ وهذا يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، فكأنه قال: فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه، ذكره الحافظ ابن كثير.
والذنوب[2] التي تدعو إلى الهلاك ضربان:

١ - معاندة الرسل والاستكبار، والعتو والتكذيب.

٢ - كفران النعم بالبطر وغمط الحق، وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، كما جاء في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾. وفي هذه الآية ردٌّ على كفار مكة، وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف أصحاب النبي ﷺ وفقرهم، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وهؤلاء القوم الذين يخلفون من نزل بهم عذاب الله لا بد أن يخلفوا عنهم في صفاتهم، وإن كانوا من أبناء جنسهم، فالعبر والحوادث واختلاف الزمن لها تأثير كبير في النفوس تخفف من غلواء الناس، وتقلل من

(١) الخازن. (٢) المراغي.

بطشهم وعتوهم، وفي المشاهدة أكبر دليل على صحة ذلك.

ولما كان الرسول ﷺ يَعْجب مِن كُفْر قومه به، وبما أنزل عليه مع وضوح برهانه وإظهار إعجازه، وكان يضيق صدره لذلك، ويبلغ منه الحزن والأسف كل مبلغ كما قال في سورة هود ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾.. بيَّن الله سبحانه وتعالى أسباب ذلك ومناشئه من طباع البشر وأخلاقهم؛ ليعلم أن الحجة مهما تكن ناهضة.. فإنها لا تجدي إلا عند من كان مستعداً لها، وزالت عنه موانع الكبر والعناد، فقال: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿كِتَٰبٗا﴾ من السماء دفعة واحدة مجموعاً ﴿فِي قِرۡطَاسٖ﴾؛ أي: في أوراق مجمعة ﴿فـ﴾ ـرأوه نازلاً فيها بأعينهم و﴿لمسوه﴾؛ أي: لمسوا ذلك الكتاب والقرطاس عند وصوله إلى الأرض ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ منهم ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: ما هذا الذي رأيناه ولمسناه إلا سحر بيّن في نفسه، وإنما خيل إلينا أننا رأينا كتاباً ولمسناه بأيدينا، وما ثَمَّ كتاب نزل، ولا قرطاس رُئي، ولا لُمس، وتلك مقالة أمثالهم في آيات الأنبياء من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. والمعنى[1]: لم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا، وإذا كان هذا حالهم في المرئي المحسوس، فكيف فيما هو مجرد وحي إلى رسول الله ﷺ بواسطة ملك لا يرونه ولا يحسونه، وإنما قال: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لأن اللمس أقوى اليقينيات الحسية وأبعدها من الخداع؛ لأن البصر يخدع بالتخيل، وقال في سورة الحجر: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ - حبست ومنعت - أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾.

والحاصل: أن[2] علة تكذيبهم بالحق هي إعراضهم عن الآيات، وإقفال باب النظر والاستدلال لإخفاء الآيات في أنفسها وقوة الشبهات التي تحوم حولها.

﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال كفار مكة ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾؛ أي: هلا أنزل على

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

محمد ملك نراه يخبرنا بصدقه في دعوى النبوة والرسالة، ويشهد له بما يقول حتى نؤمن به ونتبعه كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ والمعنى: إن منكري النبوات يقولون: لو بعث الله إلى الخلق رسولاً.. لوجب أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة؛ لأن علومهم أكثر، وقدرتهم أشد، ومهابتهم أعظم، وامتيازهم عن الخلق أكمل، ووقوع الشبهات في نبوتهم أقل، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾؛ أي: لو أنزلنا ملكاً على الصفة التي اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويخاطبهم ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: لفرغ من إهلاكهم؛ أي: لأهلكناهم؛ إذ لم يؤمنوا عند نزوله ورؤيتهم له؛ لأن مثل هذه الآية البينة ـ وهي نزول الملك على تلك الصفة ـ إذا لم يقع الإيمان بعدها.. فقد استحقوا الإهلاك والمعاجلة بالعقوبة ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له طرفة عين، وكلمة: ﴿ثُمَّ﴾ للتنبيه على أن عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر؛ لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة وأشق. وقيل: إن المعنى: أن الله سبحانه لو أنزل ملكاً مشاهداً.. لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء، بل تزهق أرواحهم عند ذلك، فيبطل ما أرسل الله له رسله وأنزل به كتبه من هذا التكليف الذي كلف به عباده ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وذلك أن الآدمي إذا رأى الملك فإمَّا أن يراه على صورته الأصلية، أو على صورة البشر، فإن رآه على صورته الأصلية.. لم يبق الآدمي حياً، فإن رسول الله ﷺ لما رأى جبريل على صورته الأصلية.. غشي عليه، وإنَّ جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم وأضياف لوط وخصم داود وغير أولئك، وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية، فما ظنك بمن عداهم من العوام؟ وأيضاً إذا رآه.. يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف، فيجب إهلاكهم، وذلك مخل بصحة التكليف، وإن رآه على صورة البشر.. فلا يتفاوت الحال سواء كان هو في نفسه ملكاً، أو بشراً، وأيضاً إن إنزال الملك يقوي الشبهات؛ لأن كل معجزة ظهرت عليه ردوها وقالوا: هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك، ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القوة والعلم.. لفعلنا مثل ما فعلته.

والوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: ولو جعلنا الرسول ﴿مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: لجعلنا الملك ﴿رَجُلًا﴾؛ أي: على صورة الرجل؛ لأن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها، ولو نظر إلى الملك ناظر من الآدميين لصعق عند رؤيته. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾؛ أي[1]: ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أم آدمي؟ فإنما طلبوا حال لبس لا حال بيان؛ لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان.. قالوا: هذا إنسان مثلكم وليس بملك، فإن استدل لهم بأنه ملك كذبوه. قال الزجاج: المعنى: للبسنا عليهم؛ أي: على رؤوسائهم كما يلبسون على ضعفتهم، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينكم وبينه فرق، فيلبسون عليهم بهذا، ويشككونهم، فأعلم الله عز وجل أنه لو نزل ملكاً في صورة رجل.. لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون. وفي «تنوير المقباس»: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾؛ أي: على الملائكة ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾؛ أي: مثل ما يلبسون من الثياب، ويقال: وللبسنا عليهم؛ أي: خلطنا عليهم صورة الملك ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾؛ أي: كما يخلطون على أنفسهم صفة محمد ونعته انتهى.

والحاصل[2]: أنه كان لكفار مكة اقتراحان تقدموا بهما إلى النبي ﷺ في مواطن مختلفة:

١ - أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيراً يرونه ويسمعون كلامه، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

٢ - أن ينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم، والاقتراح الأول مبني على اعتقاد أنَّ أرقى البشر عقلاً وأخلاقاً وآداباً - وهم الرسل عليهم السلام - ليسوا بأهل لأن يكونوا رسلاً بين الله وبين عباده؛ لأنهم بشر يأكلون ويشربون كما جاء في سورة المؤمنين: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ

---

(١) الواحدي.
(٢) المراغي.

أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وقد ردَّ الله الاقتراحين من وجهين:

١ ـ ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾؛ أي: ولو أنزلنا ملكاً كما اقترحوا.. لقضي الأمر بإهلاكهم، ثم لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا، بل يأخذهم العذاب عاجلاً كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم، قال ابن عباس: ولو أتاهم ملك في صورته.. لأهلكناهم، ثم لا يؤخرون.

٢ ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾؛ أي: ولو جعل الرسول ملكاً.. لجعل متمثلاً في صورة بشر ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذي يبلغه عن ربه، ولو جعله ملكاً في صورة بشر.. لاعتقدوا أنه بشر؛ لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسون على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشراً، ولا ينفكون يقترحون جعله ملكاً وهم قد كانوا في غنى عن ذلك، وهذا شأن كثير من الناس يوقعون أنفسهم في المشكلات بسوء صنيعهم، ثم يحارون في المخلص منها.

وذكر البخاري[1] في تفسير قضاء الأمر عدة وجوه:

١ ـ أن سنة الله قد جرت بأن أقوام الرسل إذا اقترحوا آية، ثم لم يؤمنوا بها يعذبهم الله عذاب الاستئصال، والله لا يريد أن يستأصل هذه الأمة التي بعث فيها خاتم رسله نبي الرحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

٢ ـ أنهم لو شاهدوا الملك بصورته الأصلية.. لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون.

٣ ـ أن رؤية الملك بصورته آية ملجئة، يزول بها الاختيار الذي هو قاعدة التكليف.

---

(١) المراغي.

٤ ـ أنهم اقترحوا ما لا يتوقف عليه الإيمان، فلو أعطوه ولم يجد ذلك معهم نفعاً.. دل ذلك على منتهى العناد الذي يستدعي الإهلاك وعدم النظرة.

وقرأ ابن محيصن[١]: ﴿ولبسنا﴾ بلام واحدة، والزهري: ﴿وللبّسنا﴾ بتشديد الباء. ثم قال سبحانه وتعالى مؤنساً لنبيه ﷺ ومسلياً له. ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد استسخر واستحقر برسل أولي شأن خطير وذوي عدد كثير كائنين في زمان قبل زمانك؛ أي: استهزأ بهم قومهم كما استهزأ بك قومك أهل مكة. ﴿فَحَاقَ﴾؛ أي: أحاط ونزل وحل ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم﴾؛ أي: بالكفار الذين سخروا من أولئك الرسل ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: العذاب الذي كانوا يستهزئون به وينكرونه حينما أخبرتهم به الرسل؛ لأن الكفار كانوا يستهزئون بالعذاب الذي كان يخوفهم الرسول بنزوله.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى أخبر[٢] رسوله ﷺ بأن الكفار قد استهزؤا برسل كرام قبلك، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ فما تراه من استهزاء كفار قريش بك ليس ببدع منهم، بل هم جروا فيه على آثار أعداء الرسل قبلك، وقد حل بأولئك الساخرين العذاب الذي أنذرهم إياه أولئك الرسل جزاء على سوء صنيعهم.

وفي الآية وجوه من العبر:

١ ـ تعليم النبي ﷺ سنن الله في الأمم مع رسلهم.

٢ ـ تسلية له عن إيذاء قومه له.

٣ ـ بشارة له بحسن العاقبة، وما سيكون له من الغلبة والسلطان، وما سيحل بأولئك المستهزئين من الخزي والنكال، وقد أهلكهم الله تعالى، وامتن على نبيه بذلك في سورة الحجر: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ والمشهور أنهم كانوا خمسة من رؤساء قريش هلكوا كلهم يوم أحد.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وخلاصة المعنى: هوّن عليك يامحمد ماتلقى من هؤلاء المستخفين بحقك فيَّ وفي طاعتي، وامضِ لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدي والإذعان لطاعتي، فإنهم إن تمادوا في غيِّهم.. نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم، ونعجل النقمة لهم وتحل بهم المثلات.

وقال أبو حيان[1]: هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ على ما كان يلقى من قومه، وإشارة له بالتأسي بمن سبق من الرسل، وهو نظير: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ لأن ما كان مشتركاً من الشدائد أهون على النفس مما يكون فيه الانفراد، وفي التسلية والتأسي من التخفيف ما لا يخفى. وقالت الخنساء:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ ٱلْبَاكِيْنَ حَوْلِيْ ... عَلَىٰ إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِيْ
وَمَا يُبْكُوْنَ مِثْلَ أَخِيْ وَلَكِنْ ... أُسَلِّيْ ٱلنَّفْسَ عَنْهُ بِٱلتَّأَسِّيْ

قال بعض المولدين:

وَلاَ بُدَّ مِنْ شَكْوَىٰ إِلَىٰ ذِيْ مُرُءَةٍ ... يُوَاسِيْكَ أَوْ يُسْلِيْكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ

ولما كان الكفار لا ينفعهم الاشتراك في العذاب، ولا يتسلون بذلك.. نفى تعالى ذلك عنهم فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ انتهى بتصرف.

وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة بكسر دال[2] ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ على أصل التقاء الساكنين، وقرأ باقي السبعة بالضم اتباعاً ومراعاة لضم التاء؛ إذ الحاجز بينهما ساكن، وهو حاجز غير حصين.

ولما[3] كان ما يحل بالمستهزئين بالرسل من الهلاك بموجب سنة الله المطردة فيهم قد يكون موضعاً للريبة والشك لدى المخاطبين بذلك؛ إذ هم أمة أميّة لم تدرس الكتب والتواريخ، ولم تجالس العلماء فتعرف الأخبار بهلاك من

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

أهلك بذنوبهم.. أمر الله تعالى نبيه بأن يرشدهم إلى الطريق الذي يوصلهم إلى علم ذلك بأنفسهم، وهو السير في الأرض، والنظر فيما حلّ بالمكذبين ليعتبروا بذلك، فللرؤية من الاعتبار ما لا يكون في السماع كما قال بعض العصريين:

لَطَائِفُ مَعْنَىً فِيْ ٱلْعِيَانِ وَلَمْ تَكُنْ لِتُدْرَكَ إِلاَّ بِٱلتَّزَاوُرِ وَٱللِّقَا

فقال ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المستهزئين من قومك ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: قل لهم لا تغتروا بما وجدتم من الدنيا وطيباتها، ووصلتم إليه من لذاتها وشهواتها، بل سيروا في نواحي الأرض لتعرفوا صحة ما أخبرتكم به من نزول العذاب على الذين كذبوا الرسل في الأزمنة السالفة قيل: المراد بالسير: سير الأفكار، وقيل: سير الأقدام ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فالنظر على القول الأول: نظر فكرة وعبرة، وهو بالبصيرة لا بالبصر، وعلى القول الثاني نظر العين والبصر، والمعنى على الأول: ثم تفكروا في أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال، وعلى الثاني: ثم انظروا بأعينكم إلى آثار الأمم الخالية والقرون الماضية السالفة، فإنكم عند السير في الأرض والسفر في البلاد لا بد وأن تشاهدوا تلك الآثار، فيكمل الاعتبار ويقوى الاستبصار، والمعنى[1]: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سافروا في الأرض وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات، وكيف كانت عاقبتهم بعد ما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة وجناتهم مغبرة وأراضيهم مكفهرة، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة.. فأنتم بهم لاحقون وبعد هلاكهم هالكون.

وفي «الفتوحات»[2] قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾؛ أي: تفكروا وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ إما لأن النظر في آثار الهالكين لا يتم إلا بعد انتهاء السير إلى أماكنهم، فالتراخي المفاد بـ﴿ثم﴾ من حيث أن انتهاء السير بعيد عن ابتدائه، وإما لإظهار ما بين وجوب السير ووجوب النظر من التفاوت، فإن وجوب السير ليس إلا لكونه وسيلة

---

(١) الشوكاني. (٢) الجمل.

إلى النظر كما يفصح عنه العطف بالفاء في قوله: ﴿فانظروا﴾ في آية آخرى بخلاف وجوب النظر فإنه ذاتي مقصود في نفسه. انتهى.

وقال النسفي: والفرق بين[1] ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ وبين ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ أن النظر جعل مسبباً عن السير في ﴿فَٱنظُرُواْ﴾، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين. ومعنى ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بـ﴿ثم﴾ لتباعد ما بين الواجب والمباح انتهى.

قال أبو حيان[2]: والظاهر أن السير المأمور به هو الانتقال من مكان إلى مكان، وإن النظر المأمور به هو نظر العين، وإن الأرض هي ما قرب من بلادهم من ديار الهالكين بذنوبهم، كأرض عاد ومدين ومدائن قوم لوط وثمود وقال قوم الأرض هنا عام؛ لأن في كل قطر منها آثار الهالكين وعبراً للناظرين.

والخلاصة[3]: قل يا محمد لأولئك المكذبين الجاحدين حقيقة ما جئتهم به: سيروا في الأرض كما هو دأبكم وعادتكم، وتنقلوا في ديار أولئك القرون الذين مكناهم في الأرض ومكنا لهم ما لم نمكن لكم، ثم انظروا في أثناء رحلاتكم آثار ما حل بهم من الهلاك، وتأملوا كيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم وما تسمعون من أخبارهم، ثم اعتبروا إن لم تنهكم حلومكم ولم تزجركم حجج الله عليكم، واحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحل بكم مثل ما حل بهم.

الإعراب

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ. ﴿لِلَّهِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر صفة للجلالة. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف عليه، والفاعل ضمير يعود على الموصول،

(١) النسفي. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، وهي صلة حقيقية لرفعها ضمير الموصول ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلنُّورَ﴾: معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود على الموصول أيضاً، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ولكن المراد منها استبعاد أن يعدلوا به غيره مع ما أوضح من الدلالات؛ أي: استبعاد لما صنعوه من العدل مع ما تبين من أن الله سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السموات والأرض والظلمات والنور، فإن هذا يقتضي الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه، لا الكفر واتخاذ شريك له. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع مبتدأ. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، وتقديمه على عامله للاهتمام به ولرعاية الفواصل. ﴿يَعۡدِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقَكُم﴾: فعل ومفعول ﴿مِّن طِينٖ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، وأتى بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لما بين خلقهم وبين موتهم من التفاوت ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿أَجَلٗاۖ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿وَأَجَلٞ﴾: متبدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بما بعده ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة له ﴿عِندَهُۥۖ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ولكن المراد منها استبعاد صدور الشك منهم مع وجود المقتضى لعدمه. ﴿أَنتُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ على كونها مستأنفة.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾.

﴿وَهُوَ﴾ الواو: عاطفة. ﴿هو﴾ مبتدأ. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بلفظ الجلالة بتأويله؛ لأنه بمعنى المعبود. ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على الجار والمجرور ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿سِرَّكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾: معطوف على ﴿سِرَّكُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثان لـ﴿هو﴾، أو في محل النصب حال من الضمير المستتر في المعبود الذي هو بمعنى الجلالة. ﴿وَيَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل الرفع، أو في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَعْلَمُ﴾ الأول. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به لـ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لأنه بمعنى: عرف. ﴿تَكْسِبُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تكسبونه.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَأْتِيهِم﴾: فعل ومفعول به. ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾: ﴿مِّنْ﴾: زائدة. ﴿ءَايَةٍ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿ءَايَةٍ﴾، والتقدير: وما تأتيهم آية كائنة من آيات ربهم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَنْهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُعْرِضِينَ﴾ قدم عليه لرعاية الفاصلة. ﴿مُعْرِضِينَ﴾: خبر ﴿كَانُوا۟﴾، وجملة كان في محل النصب حال من ضمير ﴿تَأْتِيهِم﴾، والتقدير: وما تأتيهم آية من آيات ربهم إلا حالة كونهم معرضين عنها.

فائدة: واعلم[1] أن الفعل الماضي لا يقع بعد ﴿إلا﴾ إلا بأحد شرطين: إما وقوعه بعد فعل كهذه الآية الكريمة، أو اقترانه بـ﴿قد﴾ نحو: ما زيد إلا قد قام.

---

(١) الجمل.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿فَقَدْ﴾ الفاء: حرف عطف وتعقيب. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى: حين في محل النصب على الظرفية مبني على السكون، والظرف متعلق بـ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿جَآءَهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الحق، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾، والتقدير: فقد كذبوا بالحق حين مجيئه إياهم. ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: فقد كذبوا بالحق لما جاءهم واستهزؤوا به، وذلك المحذوف معطوف على جملة ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس واستقبال. ﴿يَأْتِيهِمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على ذلك المحذوف، ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾، ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، والضمير حينئذ يعود على الحق لا على ﴿مَا﴾؛ لأنها حينئذ حرف، فالضمير لا يعود إليها، قاله ابن عطية بخلاف الأخفش.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري مبنية على الفتح.

فائدة: والاستفهام التقريري: هو[1] حمل المخاطب على الإقرار بما بعد حرف النفي، وهو هنا: لم، والهمزة خرجت عن الاستفهام إليه، ولا يجاب إلا

---

(١) الحامدي على الآجرومية.

ببلى نظير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ اهـ «قليوبي على الآجرومية».

وما في «الشوكاني» هنا من أن الاستفهام للإنكار غير صواب. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَرَوْا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، والواو فاعل، وهي إما بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وهو أولى، أو علمية فتتعدى إلى مفعولين.. ﴿كَمْ﴾: خبرية بمعنى عدد كثير في محل النصب معفول مقدم وجوباً لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، وهي معلقة ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿قَرْنٍ﴾ تمييز لـ﴿كَمْ﴾ مجرور بـ﴿مِّن﴾ الزائدة، وجملة ﴿أَهْلَكْنَا﴾ في محل النصب سادة مسد مفعول رأى البصرية، أو مسد مفعولي رأى العلمية، وجملة ﴿يَرَوْا﴾ من الفعل والفاعل جملة إنشائية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿قَرْنٍ﴾، ولكنها سببية. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مكنا﴾. ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن﴾ ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾؛ لأن مكنا بمعنى: أعطينا، فيتعدى إلى مفعولين. ﴿لَمْ نُمَكِّن﴾: فعل وجازم، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لـ﴿مكنا﴾، ومفعوله الأول محذوف تقديره: ما لم نمكنه لكم، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿ما﴾ الموصوفة، والتقدير: مكناهم وأعطيناهم في الأرض شيئاً لم نمكنه ولم نعطه لكم.

وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ في[1] ﴿مَا﴾ هذه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موصولة بمعنى الذي، وهي حينئذ صفة لمصدر محذوف، والتقدير: التمكين الذي لم نمكن لكم، والعائد محذوف؛ أي: الذي لم نمكنه لكم.

والثاني: أن تكون مفعولاً بها، لكن على المعنى؛ لأن معنى ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾: أعطيناهم ما لم نعطكم، ذكره أبو البقاء، قال الشيخ: هذا تضمين، والتضمين لا يقاس.

---

(١) الجمل.

الثالث: أن تكون نكرة موصوفة بالجملة المنفية بعدها، والعائد محذوف؛ أي: شيئاً لم نمكنه لكم، ذكره أبو البقاء أيضاً. قال الشيخ: وهذا أقرب إلى الصواب اهـ «سمين».

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به. ﴿مِّدْرَارًا﴾: حال من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، والجملة في محل النصب أو الجر معطوفة على جملة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ﴾. ﴿مِن تَحْتِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، والجملة في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿جعلنا﴾ إن جعلنا[1] جعل تصييرية، وإن جعلناها اتخاذية.. كانت حالاً من ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ﴾. ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾: الفاء: عاطفة. ﴿أهلكنا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾: عطف مسبب على سبب. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أهلكنا﴾. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أنشأنا﴾. ﴿قَرْنًا﴾: مفعول به لـ﴿أنشأنا﴾. ﴿ءَاخَرِينَ﴾: صفة لـ﴿قَرْنًا﴾؛ لأنه اسم جمع كقوم ورهط، فلذلك اعتبر معناه في صفته.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿نَزَّلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿كِتَٰبًا﴾ مفعول ﴿نَزَّلْنَا﴾. ﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾: متعلق بـ﴿كِتَٰبًا﴾؛ لأنه مصدر

---

(١) الفتوحات.

بمعنى اسم المفعول أو نعت له. ﴿فَلَمَسُوهُ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿لمسوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَزَّلْنَا﴾. ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿لمسوه﴾. ﴿لَقَالَ﴾ اللام رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿قال﴾: فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنْ﴾ نافية. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿سِحْرٌ﴾ خبر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة سيقت للإخبار عنهم بفرط تعنتهم وتصلبهم في كفرهم. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿مَلَكٌ﴾: نائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿وَلَوْ﴾: الواو: عاطفة أو استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَّقُضِيَ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿قضي الأمر﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿قالوا﴾ أو مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُنظَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿قضى﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو: عاطفة أو استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ﴾: لـ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿جعلناه رجلا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة جواب ﴿لو﴾، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، أو مستأنفة. ﴿وَلَلَبَسْنَا﴾:

الواو: عاطفة، واللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾ مؤكدة للام الأولى، وقرىء بحذف لام الجواب اكتفاء بما في المعطوف عليه. ﴿لبسنا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة الجواب. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿لبسنا﴾. ﴿يَلْبِسُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يلبسونه. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ في ﴿مَّا﴾ هذه قولان:

أحدهما: أنها موصولة بمعنى: الذي؛ أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم، أو على غيرهم، قاله أبو البقاء، وتكون ﴿مَّا﴾ حينئذ مفعولاً بها.

الثاني: أنها مصدرية؛ أي: وللبسنا عليهم مثل ما يلبسون على غيرهم ويشكلونهم.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدِ﴾: الواو: استئنافية، اللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿بِرُسُلٍ﴾: جار ومجرور نائب فاعل ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور صفة ﴿رسل﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، والجملة القسمية مع جوابها مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب. ﴿فَحَاقَ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿حاق﴾: فعل ماض. ﴿بِٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿سَخِرُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْهُم﴾: متعلق به، وجملة ﴿سَخِرُوا﴾ صلة الموصول. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل ﴿حاق﴾. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت:

﴿سِيرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ٱنظُرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سِيرُواْ﴾. ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾. ﴿كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، ولم يؤنث ﴿كَانَ﴾ مع كون اسمها مؤنثاً؛ لأن تأنيثه غير حقيقي، أو لأنه بمعنى: المآل والمنتهى، فهو في معنى المذكر، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مفعول ﴿ٱنظُرُواْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الحمد لغة: الوصف بالجميل الاختياري على جهة التعظيم والتبجيل ظاهراً وباطناً، فخرج بقولهم على جهة التعظيم نحو قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ فإنه كان على جهة التهكم، لا على جهة التعظيم. واصطلاحاً: فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ والجعل: هو الإنشاء والإبداع كالخلق، وذكره بعد الخلق للتفنن؛ لأنه هنا بمعنى: خلق. و﴿ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾: جمع ظلمة، والظلمة: هي الحال التي يكون عليها مكان لا نور فيه، والنور ضدها، وهو قسمان: حسي: وهو ما يدرك بالبصر كنور الشمس والقمر، ومعنوي: وهو ما يدرك بالبصيرة كنور الإيمان والعلم.

﴿يَعْدِلُونَ﴾: يقال: عدل به غيره إذا جعله مساوياً له في العبادة والدعوة لكشف الضر وجلب النفع، فهو من العدل بمعنى التسوية بين الشيئين، ويصح أن يكون من العدول بمعنى: الميل، بمعنى: يميلون عن عبادته إلى عبادة غيره.

﴿مِّن طِينٍ﴾: والطين: التراب المندى يقال[1] منه: طان الكتان يطينه وطنه يا هذا، فهو من باب باع.

(١) البحر المحيط.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾: قضى بمعنى: كتب وقدر كما مر، والأجل: هو المدة المضروبة للشيء؛ أي: المقدار المحدود له من الزمان.

﴿تَمۡتَرُونَ﴾ من الامتراء بمعنى: الشك، لا من المماراة بمعنى الجدال.

﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾: الآيات[1] هنا: آيات القرآن المرشدة إلى آيات الأكوان، والمثبتة لنبوة محمد ﷺ.

﴿مُعۡرِضِينَ﴾: اسم فاعل من الإعراض وهو التولي عن الشيء والإدبار عنه.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾: والحق هو دين الله الذي جاء به خاتم رسله محمد ﷺ من عقائد صحيحة ومعاملات شرعية وآداب كريمة.

﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: الأنباء: المراد بها[2] في القرآن: وعد الله بنصر رسله وإظهار دينه ووعيده لأعدائه بخذلانهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة، وهو جمع: نبأ؛ كأسباب جمع سبب، والنبأ: ما يعظم وقعه من الأخبار.

﴿مِّن قَرۡنٖ﴾: والقرن من الناس: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه: قرون، وقد جاء في القرآن مفرداً وجمعاً. وقيل: القرن: القوم المجتمعون في زمن قلت السنون أو كثرت، لقوله عليه السلام: «خير القرون قرني» يعني: أصحابه، وقال قس بن ساعدة:

فِــيْ ٱلــذَّاهِــبِــيْــنِ ٱلأَوَّلِــيْــنَ   مِــنَ ٱلْــقُــرُوْنِ لَــنَــا بَــصَــائِــرْ

وقال آخر:

إِذَا ذَهَبَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِيْ كُنْتَ فِيْهِمُ   وَخُلِّفْتَ فِيْ قَوْمٍ فَأَنْتَ غَرِيْبُ

سموا بذلك لكون بعضهم يقرن ببعض، فهو من قرنت الشيء بالشيء جعلته بجانبه أو مواجهاً له.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

﴿مَكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقال: مكنه في الأرض أو في الشيء جعله متمكناً من التصرف فيه، ومكن له: أعطاه أسباب التمكن في الأرض، وقال أبو عبيدة: مكناهم ومكنا لهم لغتان فصيحتان بمعنىً، نحو نصحته ونصحت له كذا قاله أبو علي والجرجاني.

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾: السماء: المطر، والمدرار: الغزير. وقال أبو حيان: المدرار[1]: المتتابع، يقال: مطر مدرار وعطاء مدرار، وهو في المطر أكثر، ومدرار مفعال من الدر للمبالغة، كمذكار ومئناث ومهذار للكثير ذلك منه.

﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: الإنشاء: الخلق والإحداث من غير سبب، وكل من ابتدأ شيئاً فقد أنشأه، والنشء: الأحداث واحدهم ناشىء كخادم وخدم.

﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾: صفة لقرناً؛ لأنه اسم جمع كقوم ورهط فجمع الصفة اعتباراً لمعناه. ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾: الكتاب: الصحيفة المكتوبة ومجموعة الصحف في غرض واحد، والقرطاس ـ مثلث القاف ـ: اسم[2] لما يكتب عليه من رق أو ورق أو غير ذلك قال زهير:

لَـهَـا أَخَـادِيْـدُ مِـنْ آثَـارِ سَـاكِـنِـهَـا كَـمَـا تَـرَدَّدَ فِـيْ قِـرْطَـاسِـهِ ٱلْـقَـلَـمُ

ولا يسمى قرطاساً إلا إذا كان مكتوباً، وإن لم يكن مكتوباً فهو طرس وكاغد وورق، وكسر القاف أكثر استعمالاً وأشهر من ضمها، وهو اسمي أعجمي يجمع على قراطيس.

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ اللمس كالمس: إدراك الشيء بظاهر البشرة، وقد يستعمل بمعنى طلب الشيء والبحث عنه، ويقال: لمسه والتمسه وتلمسه، ومنه: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾.

﴿إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: خداع وتمويه يُري ما لا حقيقة له في صورة

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الحقائق. ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: لتم أمر هلاكهم ﴿لَا يُنظَرُونَ﴾ من الإنظار بمعنى: الإمهال؛ أي: لا يمهلون. ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم﴾: اللبس: الستر والتغطية، يقال: لبس الثوب يلبسه بكسر الباء في الماضي، وفتحها في المضارع من باب سمع إذا استتر به، ولبسه في عنقه، ولبَس الحق بالباطل يلبِسه بفتح الباء في الماضي، وكسرها في المضارع من باب ضرب إذا ستره به؛ أي: جعله مكانه ليظن أنه الحق، ولبست عليه أمره؛ أي: جعلته بحيث يلتبس عليه فلا يعرفه، ولبست الأمر على القوم ألبسه من باب ضرب إذا شبهته وجعلته مشكلاً عليهم، وأصله: الستر بالثوب.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾: من الهزؤ ـ بضمتين أو بضم وسكون، والاستهزاء[1]: السخرية، والاستهزاء بالشخص: احتقاره وعدم الاهتمام بأمره.

﴿فَحَاقَ﴾: يقال: حاق به المكروه يحيق من باب باع حيقاً وحيوقاً وحيقاناً إذا نزل به وأحاط عليه فلم يكن له منه مخلص.

وفي «الفتوحات»: ﴿فَحَاقَ﴾ ألفه منقلبة عن ياء، بدليل قولهم، في المضارع: يحيق كباع يبيع، والمصدر: حيق وحوق وحيقان كالغليان والنزوان. انتهت.

﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ يقال: سخر منه إذا هَزَأَ به، والسخري[2] والاستهزاء والتهكم معناها متقارب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحصر في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لأن لام الجنس[3] إذا دخلت على المبتدأ تفيد حصره في الخبر كما قال علي الأجهوري:

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) الفتوحات القيومية.

مُـبَـتَـدَأٌ بِـلاَمِ جِـنْـسٍ عُـرِّفَـا ... مُـنْـحَـصِـرٌ فِـيْ مُـخْـبَـرٍ بِـهِ وَفَـا
وَإِنْ عَـرَا عَـنْـهَـا وَعُـرِّفَ ٱلْـخَـبَـرْ ... بِـٱللاَّمِ مُـطْـلَـقـاً فَـبِـٱلْـعَـكْـسِ ٱسْـتَـقَـرّ

والمعنى: لا يستحق الحمد والثناء إلا الله تعالى.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وفي قوله: ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

ومنها: رعاية الفاصلة بتقديم الجار والمجرور على متعلقه في قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾؛ لأن الإتيان بصيغة المضارع دون الماضي لحكاية الحال الماضية، أو للدلالة على الاستمرار التجددي.

ومنها: التفخيم في قوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ لأن في إضافة آيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضمير: ﴿هم﴾ تفخيماً لشأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها.

ومنها: الالتفات من خطابهم بقوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾؛ لأنه خطاب لأهل مكة؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: ما لم نمكن لهم.

فائدة: والالتفات(١) له فوائد، منها تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد، وهذه فائدته العامة، ويختص كل موقع بنكت ولطائف باختلاف محله كما هو مقرر في علم البديع، ووجهه هنا حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه وأعطاه فضل عنايته، وخصصه بالمواجهة. اهـ «كرخي».

---

(١) الجمل.

ومنها: إقامة الظاهر مقام المضمر في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾؛ إذ الأصل: فقد كذبوا بها؛ أي: بالآية؛ لأن المراد بالحق نفس الآية، وفي قوله: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾؛ لأن فيه إظهاراً في مقام الإضمار شهادة عليهم بالكفر؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: لقالوا.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: أهل قرن، وفي قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾؛ أي: المطر، عبر عنه بالسماء؛ لأنه ينزل من السماء فهو مجاز.

ومنها: تنكير رسل في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ للتفخيم والتكثير.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

فائدة: ومن الأمور الاتفاقية في القرآن خمس سور منه بدئت بالحمد لله، وخمس منها ختمت به، فالخمس التي بدئت بالحمدلة: سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، وسورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وسورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وسورة سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وسورة فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

والخمس التي ختمت بها سورة الإسراء: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، وسورة النمل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وسورة الصافات: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾، وسورة الزمر: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وسورة الجاثية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه[1] الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تصرفه فيمن أهلكهم بذنوبهم.. أمر نبيه ﷺ بسؤالهم ذلك، فإنه لا يمكنهم أن يقولوا إلا أن ذلك لله تعالى، فيلزمهم بذلك أنه تعالى هو المالك المهلك لهم، وهذا السؤال سؤال تبكيت وتقرير، ثم أمره تعالى بنسبة ذلك لله تعالى ليكون أول من بادر إلى الاعتراف بذلك.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أن الله

---

(١) البحر المحيط.

سبحانه وتعالى لما ذكر أنه موجد العالم، المتصرف فيهم بما يريد، ودل ذلك على نفاذ قدرته.. أردفه بذكر رحمته وإحسانه إلى الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر أن له ملك ما حوى المكان من السموات والأرض.. ذكر ما حواه الزمان من الليل والنهار، وأن كان كل واحد من الزمان والمكان يستلزم الآخر، لكن النص عليهما أبلغ في الملكية، وقدم المكان؛ لأنه أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان.

قوله تعالى: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما قدم أنه خلق السموات والأرض، وأنه مالك لما تضمنه المكان والزمان.. أمر تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك على سبيل التوبيخ لهم؛ أي: من هذه صفاته هو الذي يتخذ ولياً وناصراً ومعيناً، لا الآلهة التي لكم؛ إذ هي لا تنفع ولا تضر؛ لأنها بين جماد أو حيوان مقهور.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر تعالى انفراده بتصرفه بما يريده من ضر وخير وقدرته على الأشياء.. ذكر قهره وغلبته، وأن العالم مقهورون ممنوعون من بلوغ مرادهم، بل يقسرهم ويجبرهم على ما يريده هو تعالى.

وعبارة «المراغي» هنا: قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر(1) سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أصول الدين الثلاثة: التوحيد، والبعث والجزاء، ورسالة محمد ﷺ، ثم ذكر شبهات الكافرين على الرسالة، وبين ما يدحضها، ثم أرشد إلى سننه تعالى في أقوام الرسل المكذبين، وأن عاقبتهم الهلاك والاستئصال والخزي والنكال تسليةً لرسوله ﷺ وتثبيتاً لقلبه، وإعانةً له على المضي في تبليغ رسالته.. ذكر هنا هذه الأصول الثلاثة بأسلوب آخر ـ أسلوب

---

(1) المراغي بتصرف.

السؤال والجواب ـ بهرهم فيه بالحجة، ودلهم على واضح المحجة تفنناً في الحجاج في المواضع الهامة، فإن الأدلة إذا تضافرت على مطلوب واحد.. كان لها في النفس قبول أيما قبول، وكذلك أساليب الحجاج إذا تنوعت دفعت عن السامع السأم، وجعلته ينشط لسماع ما يلقى إليه، فهو إذا لم يعقل الدليل الأول أو عمي عليه أسلوبه.. رأى في الدليل الثاني ما ينير له طريق المطلوب، أو رأى في الأسلوب الثاني ما يكفيه مؤنة البحث في الدليل الأول، فهو في غنى بما يكون أمامه عن أن يبحث عن فائت، أو يلجأ إلى غائب، ومن ثم نرى الخطباء المفلقين، والعلماء المبرزين ينوعون أساليب حجاجهم، ويكثرون البراهين على المطلوب الواحد، ليكون ذلك أدعى إلى الإقناع، وأقرب إلى الاقتناع انتهت.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما بيَّن في الآية السابقة أن شهادة الله على صحة نبوة رسوله ﷺ كافية في تحققها.. ذكر هنا كذبهم في ادعائهم أنهم لا يعرفون محمداً ﷺ، فهم يعرفون نبوته ورسالته كما يعرفون أبنائهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[2] ابن إسحاق وابن جرير من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال: جاء النحام بن زيد، وقردم بن كعب، ومجزىء بن عمرو، فقالوا: يا محمد، ما تعلم مع الله إلٰهاً غيره؟ فقال: «لا إلٰه إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو» فأنزل الله في قولهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين لرسالتك العادلين بربهم المعرضين عن دعوتك، يعني: كفار مكة ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

وتصرفاً؛ أي: من الذي كانت له هذه المخلوقات علويها وسفليها، وقد كانت العرب تؤمن بأن الله خالق السموات والأرض، وأن كل ما فيهما ملك وعبيد له كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، والمقصود من السؤال: التبكيت والتوبيخ، فإن أجابوك.. فذاك وإلا فـ﴿قُل﴾ لهم يا محمد إن ذلك كله ﴿لِلَّهِ﴾ فإنه لا جواب غيره؛ أي: فأخبرهم أن ذلك لله الذي قهر كل شيء، وملك كل شيء، واستعبد كل شيء، لا للأصنام التي تعبدونها أنتم، فإنها أموات لا تملك شيئاً ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، وإنما أمره بالجواب عقب السؤال.. ليكون أبلغ في التأكيد، وآكد في الحجة.

وعبارة «المراغي» هنا قوله: ﴿قُل لِلَّهِ﴾ هذا تقرير للجواب نيابة عنهم، أو إلجاء لهم إلى الإقرار بأن الكل له سبحانه وتعالى، ولا خلاف بيني وبينكم في ذلك، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً آخر إليه. وإتيان السائل بالجواب يحسن إذا كان ما يأتي به هو عين ما يعتقده المسؤول أو يغفل عنه أو ينكره لجهله أو غفلته عن كونه لازماً لما يعرفه ويعتقده انتهت.

ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه في سائر مخلوقاته.. أردفه بكمال رحمته وإحسانه إليهم، فقال تعالى: ﴿كَتَبَ﴾ الله سبحانه وتعالى وأوجب ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾؛ أي: على ذاته العلية إيجاب الفضل والكرم، وإيجاب إنجاز الوعد ﴿الرَّحْمَةَ﴾ والإحسان إلى خلقه؛ إذ أفاض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأن لا يعجل بالعقوبة لمن استحقها، بل يقبل التوبة والإنابة ممن تاب وأناب إليه، فالمراد بإيجابها على نفسه أنه وعد ذلك وعداً مؤكداً منجزاً لا محالة؛ إذ لا يجب على الله شيء لعباده، والمراد بالرحمة: ما يعم الدارين، ومن ذلك: الهداية إلى معرفته، والعلم بتوحيده، والإمهال على الكفار.

فصل في ذكر الأحاديث المناسبة للآية

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لما خلق الله الخلق.. كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي». متفق عليه.

وفي «البخاري»: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش». وفي رواية لهما: «إن الله لما خلق الخلق ـ وعند مسلم: لما قضى الله الخلق ـ كتب في كتاب كتبه على نفسه، فهو موضوع عنده ـ زاد البخاري: على العرش، ثم اتفقا ـ: إن رحمتي تغلب غضبي».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» متفق عليه. زاد البخاري في رواية له: «ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة.. لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب.. لم يأمن من العذاب»، ولمسلم «إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مئة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة.. أكملها بهذه الرحمة» رواه مسلم.

وعن عمر رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا واللَّهِ، وهي تقدر أن لا تطرحه، فقال ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها». متفق عليه.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ لام قسم، وجملة القسم مستأنفة مسوقة للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر، فلا تعلق لها بما قبلها من حيث الإعراب، وإن تعلقت به من حيث المعنى؛ أي: وعزتي وجلالي ليجمعنكم الله سبحانه وتعالى في القبور محشورين إلى يوم القيامة الذي لا شك في مجيئه لوضوح أدلته وسطوع براهينه، فيجازيكم على شرككم وسائر

معاصيكم، أو المعنى: ليجمعنكم إلى المحشر في يوم القيامة؛ لأن الجمع إنما يكون إلى المكان لا إلى الزمان.

والحاصل: أن الله[1] الذي تقرون معنى بأنه مالك السموات والأرض قد أوجب على ذاته العلية الرحمة بخلقه؛ إذ أفاض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن مقتضى هذه الرحمة أن يجمعكم إلى يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا شك في مجيئه لوضوح أدلته وسطوع براهينه للحساب والجزاء على الأعمال، إذ إنه وازع نفسي لا يتم تهذيب النفوس إلا به، فهو يمنع الظلم وهضم الحقوق وإيذاء الناس وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن خوفاً من هول ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها.

ولما كان مقتضى الرحمة والفضل أعم وأسبق من مقتضى العدل.. كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم، ومنهم من يعفو الله عنه، فالجزاء على الإساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة ولا يزاد فيه، وإنما الزيادة في الجزاء على الإحسان: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾.

وبيان الدين لهذا النوع من الجزاء رحمة أيضاً، فما مثله إلا مثل الحكومة العادلة تبيِّن للأمة ما تؤاخذ عليه من الأعمال الضارة، وما تكافىء به من يصدق في خدمتها ويرقى إلى سماء العزة والكرامة. وقد سبق حديث الشيخين وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي» والمراد بالسبق هنا: كثرة الرحمة وشمولها، كما يقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثرا فيه.

والخلاصة: أنه لما قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ فكأنه قيل: وما تلك الرحمة؟ فقيل: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ذلك أنه لولا خوف العذاب يوم القيامة لحصل الفساد في الأرض، واختلت نظم الاجتماع، وأكل القوي

(١) المراغي.

الضعيف، ولا وازع ولا زاجر، فصار التهديد بهذا اليوم من أسباب الرحمة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ في محل النصب على الذم، أو في محل الرفع على الابتداء، والخبر قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء[1] فيه للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبب عن خسرانهم، فإن إبطال العقل وإتباع الحواس والوهم، والانهماك في التقليد، وإغفال النظر.. أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع من الإيمان.

فإن قيل[2]: ظاهر اللفظ يدل على أن خسرانهم سبب لعدم إيمانهم، والأمر بالعكس.

أجيب: بأن سبق القضاء بالخسران والخذلان هو الذي حملهم على الامتناع من الإيمان بحيث لا سبيل لهم أصلاً. اهـ «كرخي»؛ أي: فمعنى ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: قضى عليهم بالخسران، فصح السبب في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومعنى خسران الأنفس: إفساد فطرتها، وعدم اهتدائها بما منحها الله تعالى من أسباب الهدايات، فالمقلدون خسروا أنفسهم باتخاذهم الأصنام، وعرضوها لسخط الله تعالى وأليم عذابه؛ لأنهم حرموها استعمال نعمتي العقل والعلم، فكانوا كمن خسر شيئاً من متاع الدنيا، وأصل الخسار: الغبن، يقال: خسر الرجل إذا غبن في بيعه.

والمعنى على النصب؛ أي: أخص هؤلاء الذين خسروا أنفسهم بالتذكير والذم والتوبيخ من بين من يجمعون إلى يوم القيامة؛ إذ هم لخسرانهم أنفسهم في الدنيا لا يؤمنون بالآخرة، فهم قلما ينظرون ويستدلون، وإن هم فعلوا ذلك.. قعد بهم ضعف الإرادة عن احتمال لوم اللائمين واحتقار الأهل والمعاشرين.

والمعنى على الرفع: الذين سبق عليهم خسران أنفسهم في علم الله تعالى، فهم لا يؤمنون في الدنيا لسبق الخسران عليهم في علمه.

---

(١) البيضاوي. (٢) الفتوحات.

والخلاصة[1]: أن الفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم، فمن خسر إحدى الفضيلتين.. فقد خسر نفسه، فرداً كان أو أمة، فما بال من خسرهما معاً؟

﴿وَلَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَا سَكَنَ﴾؛ أي: حل واستقر ووجد ﴿فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ إن قلنا: إنه من السكنى بمعنى: الحلول والاستقرار في المكان، أو: له سبحانه وتعالى ما سكن وتحرك في جميع الأزمان، إن قلنا: إنه من السكون ضد الحركة، وقال مقاتل: من المخلوقات ما يستقر بالنهار وينتشر بالليل، ومنها ما يستقر بالليل وينتشر بالنهار.

فإن قيل[2]: لِمَ خصَّ السكون بالذِّكر دون الحركة؟

فعن ابن العربي ثلاثة أوجه:

أحدها: أن السكون أعم وجوداً من الحركة؛ لأن الساكن من المخلوقات أكثر عدداً من المتحرك.

والثاني: أن كل متحرك قد يسكن وليس كل ساكن يتحرك.

والثالث: أن في الآية إضماراً، والمعنى: وله ما سكن وتحرك كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾؛ أي: والبرد، فيكون من باب الاكتفاء.

والمعنى: لله ما في السموات وما في الأرض، وله ما سكن في الليل والنهار، وخص هذا بالذكر وإن كان داخلاً في عموم ما في السموات والأرض تنبيهاً إلى تصرفه تعالى بهذه الخفايا، ولا سيما إذا جن الليل وهدأ الخلق.

وقال ابن جرير[3]: كل ما طلعت عليه الشمس وغربت، فهو من ساكن الليل والنهار، فيكون المراد منه: جميع ما حصل في الأرض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما في البر والبحر، وهذا يفيد الحصر، والمعنى: إن جميع الموجودات ملك لله تعالى لا لغيره.

---

(١) المراغي. (٢) زاد المسير بزيادة. (٣) الخازن.

وبعد أن ذكر سبحانه تصرفه في الخلق دقيقه وجليله كما هو شأن الربوبية الكاملة. . ذكر أنه هو السميع العليم، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه تعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم وأصواتهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بسرائرهم وأحوالهم؛ أي: وهو سبحانه وتعالى المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع، فمهما يكن خفياً عن غيره. . فهو يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، والمحيط علمه بكل شيء ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾.

والخلاصة: أنه تعالى لا تدق عن سمعه دعوة داعٍ، ولا يعزب عن علمه حاجة محتاجٍ حتى يخبره بها الأولياء، أو يقنعه بها الشفعاء؟!

وبعد هذا القول الذي أمر فيه رسوله للتذكير بأنه المالك لكل شيء والمدبر لكل شيء إذ هو سميع لكل شيء، ولا يعزب عن علمه شيء أمره هنا بقول آخر لازم لما سبق، وهو وجوب ولايته تعالى وحده والتوجه إليه دون سواه في كل ما هو فوق كسب البشر، والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَتَّخِذُ﴾ وأجعل ﴿وَلِيًّا﴾ ومعبوداً لنفسي ومتولياً لأموري؛ أي: لا أتخذ غير الله تعالى ولياً لنفسي كما اتخذتموهم أولياء لأنفسكم. والاستفهام فيه إنكاري بمعنى النفي، قال لهم ذلك لما دعوه إلى عباده الأصنام، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير الله ولياً لا لاتخاذ الولي مطلقاً. . دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل، والمراد بالولي هنا: المعبود؛ أي: كيف اتخذ غير الله معبوداً؟ ذكره «الشوكاني».

والمعنى[1]: قل لهم: لا أطلب من غيره تعالى نفعاً ولا ضراً، لا فعلاً ولا منعاً، فيما هو فوق كسبه وتصرفه الذي منحه الله لأبناء جنسه، أما تناصر المخلوقين وتولي بعضهم بعضاً فيما هو من كسبهم العادي: فلا يدخل في عموم الإنكار الذي يفهم من الآية، فقد أثنى الله على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض. وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون

---

(١) المراغي.

معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله يتوجهون إليهم بالدعاء، ويستغيثون بهم، ويستشفعون بهم عند الله في قضاء حاجاتهم من نصر على عدو، وشفاء من مرض وسعة في رزق إلى نحو ذلك. وهذا بلا شك عبادة لغير الله وشرك بالله؛ لاعتقادهم أن حصول المطلوب من غير أسبابه العادية قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء وإرادة الله، ويلزم هذا أن إرادة الله ما تعلقت بفعل ذلك المطلب إلا تبعاً لإرادة الولي الشافع أو المتخذ ولياً وشفيعاً.

وقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بدل من[1] الله أو صفة له، وقد تعرف بالإضافة؛ لأنه بمعنى الماضي بدليل قراءة ﴿فطر﴾ بصيغة الفعل الماضي فاتفقت الصفة والموصوف في التعريف؛ أي: موجد السموات والأرض ومنشئهما على غير مثال سبق.

وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما عرفت ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها؛ أي: ابتدعتها. وقد كانت المادة التي خلقت منها السموات والأرض كتلة واحدة دخانية، ففتق رتقها، وفصل منها أجرام السموات والأرض، وهذا ولا شك ضرب من الفطر والشق قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ وفي ذلك تعريض بأن من فطر السموات والأرض بمحض إرادته بدون تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع ينبغي أن لا يتوجه إلى غيره بالدعاء، ولا يستعان بسواه في كل ما وراء الأسباب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَاطِرِ﴾ بالجر على أنه بدل من الجلالة، أو صفة له كما مر. وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع على إضمار: هو. وقرىء شاذاً بالنصب، والأحسن أن يكون نصبه على المدح. وقرأ الزهري: ﴿فطر﴾ على صيغة الفعل الماضي. وقد أكد ما تقدم وزاده تثبيتاً بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُطْعِمُ﴾ ويرزق ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ ولا يُرزق كقوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾

---

(١) الجمل. (٢) البحر المحيط بتصرف.

والمعنى[١]: إن المنافع كلها من عند الله تعالى، وخص الإطعام من بين أنواع الانتفاعات؛ لأن الحاجة إليه أمس، كما خص الربا بالأكل، وإن كان المقصود الانتفاع بالربا.

والحاصل: أنه[٢] يرزق الناس الطعام وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويطعمه؛ لأنه منزه عن الحاجة إلى كل ما سواه أياً كان نوعها. وفي هذا إيماء إلى أن من اتخذوا أولياء من دونه من البشر محتاجون إلى الطعام، ولا حياة لهم بدونه، وأن الله هو الذي خلق لهم الطعام، فهم عاجزون عن خلقه وعاجزون عن البقاء بدونه، فأحرى بهم؛ أي: لا يتخذوا أولياء مع الغني الرزاق الفعال لما يريد. وإذا كان الإنكار توجه إلى البشر فأولى به أن يتوجه إلى الأصنام والأوثان؛ لأنها أضعف من البشر؛ إذ قد اتفق العقلاء على تفضيل الحيوان على الجماد، والإنسان على جميع أنواع الحيوان.

وقرأ الجمهور بضم الياء وكسر العين في الأول، وضمها وفتح العين في الثاني؛ أي: يرزق ولا يرزق كما فسرناه كذلك أولاً. وقرأ[٣] مجاهد وابن جبير والأعمش وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وأبو عمرو في رواية عنه: ﴿ولا يطعم﴾ بفتح الياء والعين في الثاني، والمعنى: أنه تعالى منزه عن الأكل، ولا يشبه المخلوقين. وقرأ يمان العماني وابن أبي عبلة: ﴿ولا يطعم﴾ بضم الياء وكسر العين مثل الأول، فالضمير في ﴿وهو يطعم﴾ عائد على الله، وفي ﴿ولا يطعم﴾ عائد على ﴿الولي﴾. وروى ابن المأمون عن يعقوب: ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ على بناء الأول للمفعول، والثاني للفاعل، فالضمير لغير الله. وقرأ الأشهب، ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ على بنائهما للفاعل، وفسر بأن معناه: وهو يطعم غيره ولا يستطعم لنفسه، وحكى الأزهري: أطعمت بمعنى: استطعمت. قال الزمخشري: ويجوز أن يكون المعنى على هذه القراءة: ﴿وهو يطعم﴾ تارة ﴿ولا يطعم﴾ أخرى على حسب المصالح. وقرىء[٤] بفتح الياء والعين في الأول

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الشوكاني.

وضمها وكسر العين في الثاني على أن الضمير يعود إلى الولي المذكور.

وفي قراءة من قرأ باختلاف الفعلين تجنيس التشكيل، وهو أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين، وسماه أسامة بن منقذ في بديعته: تجنيس التحريف، وهو بتجنيس التشكيل أولى كما سيأتي إن شاء الله تعالى في مبحث البلاغة، ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار قومك ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ من جناب الله تعالى ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ من هذه الأمة؛ أي: استسلم لأمر الله وانقاد إلى طاعته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: وقيل لي: ولا تكونن يا محمد من المشركين بالله تعالى في أمر من الأمور، والمعنى: أمرت بالإسلام، ونهيت عن الإشراك؛ أي: قل[1] لهم بعد أن استبانت لديكم الأدلة على وجوب عبادة الله وحده، وعدم اتخاذ غيره ولياً: إني أمرت من ربي الموصوف بجليل الصفات أن أكون أول من أسلم إليه، وانقاد لديه من هذه الأمة التي بعثت فيها، فلا أدعو إلى شيء إلا كنت أول مؤمن به سائر على نهجه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: وقيل لي بعد إسلام الوجه له: لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء ليقربوهم إليه زلفى.

وبعد أن أمره بهذا القول المبين لأساس الدِّين، وبين أنه مأموراً به كغيره.. أمره بقول آخر فيه بيان لجزاء من خالف الأمر والنهي السالفين، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك إلى عبادة غيري: إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم، ونهاني عن عبادة شيء سواه، و﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾ وخالفت ﴿رَبِّي﴾ فيما أمرني به ونهاني عنه فعبدت شيئاً سواه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: عذاباً عظيماً شديداً في يوم عظيم شديد هوله وهو يوم القيامة؛ أي: إني[2] أخاف عذاب يوم عظيم ـ وهو يوم القيامة ـ إن عصيت ربي، فالشرط معترض بين الفاعل والمفعول به، محذوف الجواب كما سيأتي في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

---

(١) المراغي. (٢) النسفي.

والخلاصة: قل لهم يا محمد: إنْ فُرض وقوع العصيان مني.. فإنني أخاف أن يصيبني عذاب ذلك اليوم العظيم ـ وهو يوم القيامة ـ الذي يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويجازيهم بما يستحقون. وفي الآية إشارة إلى أن هذا يوم لا محاباة فيه لأحد مهما كان عظيماً، وأنه لا تنفع فيه شفاعة الشافعين، بل الأمر يومئذ لله، فلا سلطان لغيره يتكل عليه من يعصيه ظناً منه أنه يخفف عنه العذاب أو ينجيه، وإذا كان خوف النبي ﷺ من العذاب على المعصية منتفياً لوجود العصمة.. فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له في جميع الأحوال.

﴿مَّن يُصْرَفْ﴾ العذاب ويدفع ﴿عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم العذاب العظيم، وهو يوم القيامة؛ أي: من يصرف الله سبحانه وتعالى عنه العذاب يومئذ ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾؛ أي: قد أنجاه الله مما يخاف، وأكرمه بما يحب، وأدخله الجنة دار كرامته. والإشارة في قوله: ﴿ذلك﴾ إلى الصرف، أو إلى الرحمة؛ أي: ذلك الصرف أو الرحمة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الفلاح العظيم والنجاة الظاهرة، يعني: أن صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين، وإنما ذكر الرحمة بعد صرف العذاب، لئلا يتوهم أن الحاصل له صرف العذاب فقط، بل حصلت له الرحمة مع صرف العذاب عنه.

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم[1]: ﴿من يصرف﴾ مبنياً للفاعل فـ﴿من﴾ مفعول مقدم، والضمير في ﴿يصرف﴾ عائد على الله، ويؤيده قراءة أُبي: ﴿من يصرف الله﴾. وقرأ باقي السبعة: ﴿مَّن يُصْرَفْ﴾ مبنياً للمفعول، ومعلوم أن الصارف هو الله تعالى، فحذف للعلم به أو للإيجاز. والمعنى: أنه من يدفع الله عنه العذاب في ذلك اليوم.. فقد رحمه؛ إذ أنجاه من الهول الأكبر، ومن نجا منه.. فقد دخل الجنة، والنجاة من العذاب والتمتع بالنعيم في دار البقاء هو الفوز المبين الظاهر الذي لا فوز أعظم منه.

واعلم: أن الفوز إنما ينال بحصول مطلوبين:

---

(١) البحر المحيط والبيضاوي.

أحدهما: سلبي، وهو النجاة من العذاب.

والثاني: إيجابي، وهو الظفر بالنعيم المقيم في الجنة.

وبعد أن بين أن صرف العذاب والفوز بالنعيم المقيم من رحمته في الآخرة.. بيَّن أن الأمر كذلك في الدنيا، وأن التصرف فيها له تعالى وحده، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: وإن يصبك الله تعالى ببلية كمرض وفقر ونحو ذلك، والضر: اسم جامع لما ينال الإنسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو في معناه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: فلا رافع له عنك إلا هو وحده؛ أي: وإن يصبك أيها الإنسان ضر كمرض وفقر وحزن وذل اقتضته سنة الله.. فلا كاشف له ولا صارف يصرفه عنك إلا هو سبحانه وتعالى دون الأولياء الذين يتخذون من دونه ويتوجه إليهم المشرك بكشفه، وهو سبحانه وتعالى؛ إما أن يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب الكسبية التي تزيله، وإما أن يكشفه بغير عمل منك، بل بلطفه وكرمه، فله الحمد على نعمه المتظاهرة التي لا حد لها.

فائدة: فالضر(١) إما في النفس كقلة العلم والفضل والعفة، وإما في البدن كعدم جارحة ونقص ومرض، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه. اهـ «كرخي».

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾؛ أي: وإن يصبك الله سبحانه وتعالى أيها الإنسان بخير ويعطكه؛ كصحة وغنى وقوة وجاه، والخير: اسم جامع لما ينال الإنسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: فهو قادر على حفظه عليك كما قدر على إعطائك إياه، وهو القدير على كل شيء، أما أولئك الأولياء الذين اتخذوا من دونه فلا يقدرون على مسٍّك بخير ولا ضر. وعبارة «الخازن» هنا: وهذه الآية خطاب للنبي ﷺ، والمعنى: لا تتخذ ولياً سوى الله؛ لأنه هو القادر على أن يمسك بضر، وهو القادر على دفعه عنك، وهو القادر على إيصال الخير إليك، وأنه لا يقدر على ذلك إلا هو فاتخذه ولياً وناصراً

(١) الفتوحات.

ومعيناً، وهذا الخطاب وإن كان للنبي ﷺ، فهو عام لكل أحد، والمعنى: وإن يمسسك الله بضر أيها الإنسان.. فلا كاشف لذلك الضر إلا هو، وإن يمسسك بخير أيها الإنسان.. فهو على كل شيء قدير من دفع الضر وإيصال الخير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال لي: «يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإنْ اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف» أخرجه الترمذي، زاد فيه رزين «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»، وفيه: «وإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، ولن يغلب عسر يسرين». قال ابن الأثير: وقد جاء نحو هذا أو مثله بطوله في «مسند» أحمد بن حنبل انتهت.

فعلى[1] المؤمن الصادق في إيمانه أن لا يطلب شيئاً من أمور الدنيا والآخرة من كشف ضر، وصرف عذاب، أو إيجاد خير، ومنح ثواب إلا من الله تعالى وحده دون غيره من الشفعاء والأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً. وهذا الطلب من الله؛ إما بالعمل ومراعاة الأسباب التي اقتضتها سنته في الخلق، ودل عليها الشرع وهدى إليها العقل؛ وإما بالتوجه إليه و دعائه كما ندب إلى ذلك كتابه الكريم، وسنة نبيه ﷺ قال تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾.

وبعد أن أثبت سبحانه وتعالى لنفسه كمال القدرة.. أثبت لها كمال السلطان والتسخير لجميع عباده، والاستعلاء عليهم مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور؛ ليرشدنا إلى أن من اتخذ الأولياء.. فقد ضل ضلالاً بعيداً فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾؛ أي[2]: الغالب

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

لعباده، العالي فوقهم، القاهر لهم وهم مقهورون تحت قدرته، والقاهر والقهار معناه: الذي يدبر خلقه بما يريد، فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ويذل خلقه، فلا يستطيع أحد من خلقه ردَّ تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره، وهذا معنى القاهر في صفة الله تعالى؛ لأنه القادر، والقاهر: الذي لا يعجزه شيء أراده. ومعنى فوق عباده هنا: أن قهره قد استعلى على خلقه، فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد على الخروج منه، ولا ينفك عنه، فكل من قهر شيئاً فهو مستعلٍ عليه بالقهر والغلبة. وقال «الشوكاني»: ومعنى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان، كما تقول: السلطان فوق رعيته؛ أي: بالمنزلة والرفعة، وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة وهو: منع غيره عن بلوغ المراد. انتهى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وتدبيره عباده ﴿الْخَبِيرُ﴾؛ أي: العالم بأعمالهم وما يصلحهم.

وخلاصة المعنى: أنه تعالى هو الغالب لعباده العالي عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم، فهو فوقهم بالقهر وهم دونه، وهو الحكيم في تدبيره، الخبير بمصالح الأشياء ومضارها، ولا تخفى عليه خوافي الأمور ولا يقع في تدبيره خلل ولا في حكمته دخل.

وقد ختم سبحانه هذه الأوامر القولية المبينة لحقيقة الدين وأدلته بشهادة الله لرسوله، وشهادة رسوله له، فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾.

روى ابن عباس: أن رؤساء أهل مكة قالوا: يا محمد، ما وجد الله غيرك رسولاً، وما ترى أحداً يصدقك، وقد سألنا اليهود والنصارى عنك، فزعموا أنه لا ذكر لك عندهم بالنبوة، فأرنا من يشهد لك بالنبوة؟ فأنزل الله قوله هذا: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؛ أي: قل لهؤلاء المشركين من قومك الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك أيُّ شهيد أكبر شهادة وأعظمها وأجدر أن تكون شهادته أصحها وأصدقها؟ ثم أمره بأن يجيب عن هذا السؤال بأن أكبر الشهداء

وأصدقهم وأعظمهم شهادة هو: الله سبحانه وتعالى، فقال ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد إن لم يجيبوا لك ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أكبر شهادة؛ لأنه لا جواب غيره؛ أي: أجب لهم بأن أكبر الأشياء شهادة هو من لا يجوز أن يقع في شهادته كذب ولا زور ولا خطأ، وذلك هو الله سبحانه وتعالى، وهو سبحانه وتعالى ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ يشهد لي بالحق، وعليكم بالباطل الذي تقولونه. والمراد[1] بشهادة الله: إظهار المعجزة على يد النبي ﷺ، فإن حقيقة الشهادة ما بُيِّن به المدعى، وهو كما يكون بالقول يكون بالفعل، ولا شك أن دلالة الفعل أقوى من دلالة القول لعروض الاحتمالات في الألفاظ دون الأفعال، فإن دلالتها لا يعرض لها الاحتمال، وإن المعجزة نازلة منزلة قوله تعالى صدق عبدي في كل ما يبلغ عني انتهى «كرخي».

والحاصل[2]: أنهم طلبوا شاهداً مقبول القول يشهد له بالنبوة، فبين الله تعالى بهذه الآية أن أكبر الأشياء شهادة هو الله تعالى، ثم بيَّن أنه يشهد له بالنبوة وهو المراد بقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ فهو بمنزلة التعليل لما قبله؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى يشهد لي بالنبوة؛ لأنه أوحى إليَّ هذا القرآن، وهو معجزة لأنكم أنتم الفصحاء البلغاء وأصحاب اللسان وقد عجزتم عن معارضته، فكان معجزاً، وإذا كان معجزاً.. كان نزوله عليَّ شهادة من الله تعالى بأني رسوله، وهو المراد بقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ يعني: أوحي إليَّ هذا القرآن لأخوفكم به وأحذركم مخالفة أمر الله عز وجل ولأبشركم، فحذف المعطوف لدلالة المعنى عليه، أو اقتصر على الإنذار؛ لأنه في مقام تخويف لهؤلاء المكذبين بالرسالة المتخذين غير الله إلٰهاً. وقوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ في محل النصب معطوف على الكاف في ﴿لِأُنذِرَكُم﴾؛ أي: ولأنذر به من بلغه القرآن ممن يأتي بعدي إلى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الأمم من الإنس والجن، فكل من بلغ إليه القرآن وسمعه فالنبي ﷺ نذير له. قال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه. وقال أنس بن مالك: لما نزلت هذه الآية.. كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل. وعن

---

(١) الجمل. (٢) الخازن.

عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً.. فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه البخاري.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فربَّ مبلِغ أوعى له من سامع» أخرجه الترمذي، وله عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم أخرجه أبو داود موقوفاً، وقالت فرقة: الفاعل ببلغ عائد على ﴿من﴾ لا على القرآن، والمفعول محذوف والتقدير: ومن بلغ الحلم.

وشهادة[1] الله بين الرسول وقومه ضربان: شهادته برسالة الرسول، وشهادته بصدق ما جاء به.

والأول أنواع ثلاثة:

١ ـ إخباره بها في كتابه بنحو قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

٢ ـ تأييده بالآيات الكثيرة التي من أعظمها القرآن، فهو المعجزة الدائمة بما ثبت من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، وبما اشتمل عليه من أخبار الغيب ووعد الرسول والمؤمنين بنصر الله وإظهارهم على أعدائهم.

٣ ـ وشهادة كتبه السابقة له، وبشارة الرسل السابقين به، ولا تزال هذه الشهادة في كتب اليهود والنصارى.

والثاني ثلاثة أنواع أيضاً:

١ ـ شهادة كتبه بذلك كقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟

---

(١) المراغي.

﴿ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾.

٢ ـ ما أقامه من الآيات في الأنفس والآفاق مما يدل على توحيده واتصافه بصفات الكمال.

٣ ـ ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الإيمان بإله واحد له صفات الكمال وببقاء النفس.

والخلاصة: أن شهادته تعالى هي شهادة آياته في القرآن، وآياته في الأكوان، وآياته في العقل والوجدان اللذين أودعهما في نفس الإنسان.

وقرأ الجمهور(١): ﴿وَأُوحِيَ﴾ مبنياً للمفعول، ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ مرفوع به. وقرأ عكرمة وأبو نهيك وابن السميقع والجحدري: ﴿وأوحي﴾ مبنياً للفاعل، و﴿القرآن﴾ منصوب به. والمعنى(٢): أوحى الله سبحانه وتعالى إليَّ هذا القرآنَ الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به وأنذر به من بلغ إليه؛ أي: كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة إلى يوم القيامة.

والاستفهام في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع لهم والإنكار عليهم على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل، أو بقلب الثانية؛ أي: لا تنبغي ولا تصح منكم هذه الشهادة؛ لأن المعبود واحد لا تعدد فيه. وأما من قرأ على الخبر.. فقد حقق عليهم شركهم؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيري: هل إنكم أيها المشركون لتشهدون وتثبتون وتعتقدون وتقرون ﴿أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ﴾ يعني: الأصنام، إن كان الخطاب لأهل مكة، فإنهم أصحاب أوثان، وإن كان لجميع المشركين، فالآلهة كل ما عبد من دون الله تعالى من وثن أو كوكب أو نار أو آدمي، وإنما قال: ﴿أُخْرَىٰۚ﴾ بتأنيث الصفة وإفرادها؛ لأن ما لا يعقل يعامل جمعه معاملة المؤنثة الواحدة، كما قال بعضهم:

وَجَمْعُ كَثْرَةٍ لِمَا لاَ يَعْقِلُ   الأَفْصَحُ الإِفْرَادُ فِيْهِ يَا فُلُ

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الشوكاني.

نظير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ولم يقل: الأول، ولا الأولين.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون به من أن مع الله آلهة أخرى، بل أجحد ذلك وأنكر ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا هُوَ﴾؛ أي: ما المستحق العبادة مني ومنكم إلا ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ومعبود منفرد في ذاته وصفاته وأفعاله لا شريك له، وبذلك أشهد لا بما شهدتم، بل أتبرأ من ذلك، وكرر: ﴿قُلْ﴾ تأكيداً للكلام. ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به؛ أي: وأنا بريء من كل شيء تعبدونه سوى الله تعالى، وهذه الجملة كالتوكيد لما قبلها. وفي هذه[1] الآية دليل على إثبات التوحيد لله عز وجل وإبطال كل معبود سواه؛ لأن كلمة: ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر، ولفظة الواحد صريح في التوحيد، ونفي الشريك، فثبت بذلك إيجاب التوحيد وسلب كل شريك، والتبرؤ من كل معبود سوى الله تعالى. قال العلماء: يستحب لكل من أسلم أن يأتي بالشهادتين، ويبرأ من كل دين خالف الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. ونص[2] الشافعي على استحباب ضمِّ التبرؤ إلى الشهادة؛ لأن الله تعالى لما صرح بالتوحيد.. قال: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الذين أعطيناهم الكتب السالفة، وهم علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ أي: يعرفون محمداً ﷺ من جهة الكتابين بصفته المذكورة فيهما ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بصفاتهم، فإنهم كذبوا في قولهم: إنا لا نعرف محمداً في كتابنا. وذلك أن كفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ: إنا سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر، وأنكروا معرفته.. بين الله عز وجل أن شهادته كافية على صحة نبوته، وبين في هذه الآية أنهم يعرفونه، وأنهم كذبوا في قولهم: إنهم لا يعرفونه. وروي أن النبي ﷺ لما قدم المدينة، وأسلم عبد الله بن سلام.. قال له عمر بن الخطاب: إن الله عز وجل أنزل على نبيه محمد ﷺ بمكة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا

(١) الخازن. (٢) المراح.

عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشد معرفة بمحمد ﷺ مني بابني، فقال عمر: وكيف ذاك؟ قال: أشهد أنه رسول الله حقاً ولا أدري ما يصنع النساء.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ وغبنوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ وأوبقوها وأهلكوها في نار جهنم بإنكارهم نبوة محمد ﷺ من جميع المشركين وكفار أهل الكتاب، والموصول مبتدأ خبره قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ودخلت الفاء عليه لشبه المبتدأ بالشرط في العموم؛ أي: فهم يؤثرون مالهم من الجاه والمكانة والرياسة في قومهم على الإيمان بالرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم، علماً منهم بأنهم إذا آمنوا.. سلبوا الرياسة، وجعلوا مساوين لسائر المسلمين في سائر الأحكام والمعاملات. وكذلك كان بعض رؤساء قريش يعز عليه أن يؤمن فيكون تابعاً ومرؤوساً، ويكون مثله مثل بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وغيرهما من فقراء المسلمين. فهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية خسروا أنفسهم لضعف إرادتهم، لا لفقدان العلم والمعرفة؛ لأن الله أخبر عنهم أنهم على علم ومعرفة. ومعنى[1] هذا الخسران كما قاله جمهور المفسرين: أن الله تعالى جعل لكل إنسان منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار، فإذا كان يوم القيامة جعل الله سبحانه وتعالى للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة، ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار.

وبعد أن ذكر أن إنكار نبوة محمد ﷺ خسران للنفس.. ذكر أن الافتراء على الله ظلم لها ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ للإنكار بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أشد ظلماً وأكثر عناداً وأخطأ فعلاً وأعظم كفراً ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَذِبًا﴾ كمن زعم أن له ولداً أو شريكاً أو أن غيره يدعى معه أو من دونه أو يتخذ ولياً له يقربه إليه زلفى ويشفع للناس عنده، أو زاد في دينه ما ليس منه ﴿أَوْ﴾ ممن ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ سبحانه وتعالى المنزلة كالقرآن، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هم مشركو العرب،

(١) المراح.

وقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ هم أهل الكتابين الذين أنكروا معرفته، وكذبوا قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾. وإذا كان كل من التكذيب والكذب والافتراء قد بلغ غاية القبح، وصاحبه يعد مفترياً ظالماً.. فما حال من جمع بينهما فكذب على الله، وكذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة. ثم بيَّن سبحانه وتعالى عاقبة الظالمين وسوء منقلبهم، فقال: ﴿إِنَّهُ﴾ أي إن الشأن والحال ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يظفر ﴿الظَّالِمُونَ﴾ عامة؛ أي: إن الظالمين عامة لا يفوزون في عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب الله تعالى، ولا بالفوز بنعيم الجنة بمعنى: أنهم لا ينجون من مكروه، ولا يفوزون بمطلوب، فكيف تكون عاقبة من افترى على الله الكذب وكذب بآياته، فكان أظلم الظالمين.

والخلاصة: أنه لا ينجح القائلون على الله الكذب، والمفترون على الله الباطل، كقول كفار مكة: هذه الأصنام شركاء لله، والله أمرنا بعبادتها، وقولهم: إن الملائكة بنات الله، وقولهم: أمرنا الله بتحريم البحائر والسوائب، وكقول اليهود والنصارى: حصل في التوراة والإنجيل أن هاتين الشريعتين لا يتطرق إليهما النسخ، ولا يجيء بعدهما نبي، وكقول المشركين: القرآن سحر، أو شعر، أو كهانة.

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن المفترين على الله الكذب يسألون يوم القيامة سؤال توبيخ وإنكار على ما اجترحوا، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: واذكر لهم يا محمد قصة يوم نحشر ونجمع العابدين والمعبودين جميعاً وسائر الناس على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم وظلم غيرها، وهو يوم القيامة. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ خاصة على رؤوس الأشهاد للتوبيخ وهم أشدهم ظلماً ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ وتظنون أنها أولياؤكم من دون الله تعالى، تستعينون بهم كما يستعان به، ويدعون كما يدعى، وأنهم يقربونكم إليه زلفى، ويشفعون لكم عنده، فأين ضلوا عنكم، فلا يرون معكم كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. ولعله[1] يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة

التي علقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أنهم يشاهدونهم، ولكن لما لم ينفعوهم.. فكأنهم غيب عنهم. وقال ابن[1] عباس: وكل زعم في كتاب الله، فهو كذب.

وعطف[2] بـ﴿ثم﴾ الدالة على التراخي نظراً للتراخي الحاصل بين مقامات يوم القيامة في المواقف، فإن فيه مواقف بين كل موقف وموقف تراخٍ على حسب طول ذلك اليوم.

وقرأ الجمهور: ﴿نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ﴾ بالنون فيهما. وقرأ حميد ويعقوب فيهما بالياء. وقرأ أبو هريرة: ﴿نحشِرهم﴾ بكسر الشين.

ثم أخبر سبحانه وتعالى بأنهم يوم القيامة ينكرون ذلك الشرك، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾، والفتنة هنا: الشرك، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: ثم لم تكن عاقبة فتنتهم وشركهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾؛ أي: إلا أن أقسموا بالله يوم القيامة بقولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وذلك إذا شاهدوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى لأهل التوحيد، فيقول بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد، فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، فيختم على أفواههم، وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر. وظاهر[3] الآيات يدل على أنهم كانوا ينكرون في بعض مواقف الحشر شركهم بالله توهماً منهم أن ذلك ينفعهم كما جاء في هذه الآية، ويعترفون به في بعض آخر كما جاء في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن هذه الآية وعن قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾؛ لأن معناهما متعارضان، فقال: أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا لنجحد إشراكنا فـ﴿قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

قال الزجاج: تأويل هذه الآية حسن في اللغة العربية، لا يعرفه إلا من

---

(١) البيضاوي. (٢) المراح. (٣) البحر المحيط.

وقف على معاني كلام العرب، وذلك أنه تعالى بيَّن كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين في حبه، فذكر أن عاقبة كفرهم وشركهم الذي لزموه طول أعمارهم، وقاتلوا عليه، وافتخروا به، وقالوا: إنه دين آبائنا، لم تكن إلا جحوده، والتبرؤ منه، والحلف على عدم التدين به، ونظير هذا في اللغة أنك ترى إنساناً يحب شخصاً غاوياً مذموم الطريقة، فإذا وقع في هلكة بسببه.. تبرأ منه فيقال له: ما كانت محبتك ـ عاقبة محبتك ـ لفلان إلا أن تبرأت منه وتركته انتهى. وعلى هذا فالفتنة: هي شركهم في الدنيا كما فسرها ابن عباس، ويكون في الكلام تقدير مضاف هو كلمة: عاقبة كما قدمنا ذلك. وقيل[1]: المراد بالفتنة هنا: جوابهم؛ أي: لم يكن جوابهم إلا الجحود والتبرؤ، فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذباً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي بالياء: ﴿ثم لم يكن﴾. وقرأ أبي وابن مسعود والأعمش: ﴿وما كان فتنتهم﴾. وقرأ طلحة وابن مطرف: ﴿ثم ما كان﴾. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرفع. وقرأت فرقة: ﴿ثم لم يكن﴾ بالياء، و﴿فتنتهم﴾ بالرفع، وإعراب هذه القراءات واضح، والجاري منها على الأشهر قراءة: ﴿ثم لم يكن فتنتهم﴾ بالياء بالنصب؛ لأن أن مع ما بعدها أجريت في التعريف مجرى المضمر، وإذا اجتمع الأعرف وما دونه في التعريف.. فذكروا أن الأشهر جعل الأعرف هو الاسم، وما دونه هو الخبر، ولذلك أجمعت السبعة على ذلك في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ وفي قوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾. وقرأ عكرمة وسلام بن مسكين: ﴿واللَّهُ ربُّنا﴾ برفع الاسمين، قال ابن عطية: وهذا على التقديم والتأخير؛ أي: قالوا: ما كنا مشركين، والله ربنا. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿ربَّنا﴾ بنصبه على النداء، أو المدح، والباقون بالكسر.

﴿انظُرْ﴾ يا محمد؛ أي: فكر وتأمل بعين البصيرة إلى حال هؤلاء المشركين

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

﴿كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الكذب الصريح بإنكار صدور الإشراك منهم في الدنيا؛ حيث قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: وانظر أيضاً كيف ضل وغاب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: يختلقون ويكذبون بألوهيته وشفاعته لهم من شركائهم وأصنامهم، فلم تغنِ عنهم شيئاً، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها لهم، وهذا على جعل ﴿مَّا﴾ موصولاً اسمياً واقعة على الآلهة. ويحتمل أن تكون مصدرية، والمعنى عليه: انظر يا محمد كيف كذبوا باليمين الفاجرة بإنكار صدور ما صدر منهم في الدنيا من الإشراك، وكيف ضل وذهب عنهم افتراؤهم، وتلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من أن الشركاء يقربونهم إلى الله حتى نفوا صدوره منهم بتاتاً، وتبرؤوا منه غاية البراءة؟

وهذا تعجيب لرسول الله ﷺ من حالهم المختلفة ودعواهم المتناقضة. وقال[1] مجاهد: إذا جمع الله الخلائق، ورأى المشركون سعة رحمة الله تعالى، وشفاعة رسوله ﷺ للمؤمنين قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجوا مع أهل التوحيد، فإذا قال الله لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ قالوا: واللَّهِ ربنا ما كنا مشركين، فيختم على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم.

فإن قلت[2]: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور على أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟

قلتُ: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرةً ودهشاً، ألا تراهم يقولون: ربنا أخرجنا منها، فإن عدنا.. فإنا ظالمون، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه، وقالوا: يا مالك ليقض علينا ربك، وقد علموا أنه لا يقضى عليهم.

الإعراب

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ

---

(١) البحر المحيط. (٢) النسفي.

يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿قُل﴾ مقول محكي لـ﴿قُل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لِّمَن﴾: ﴿اللام﴾ حرف جر. ﴿من﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بمحذوف وجوباً خبر مقدم لـ﴿مَّا﴾ الموصولة. ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾. ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾. ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِّلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر لمحذوف تقديره: هو الله، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾. ﴿كَتَبَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كَتَبَ﴾. ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾: مفعول به لـ﴿كَتَبَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل النصب حال من الجلالة. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾: ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿يجمعن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، والكاف: ضمير المخاطبين في محل النصب مفعول به. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بيجمع، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. وقيل[1]: موضعه نصب بدلاً من ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ أول. ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَهُمْ﴾: الفاء: رابطة الخبر بالمبتدأ لشبه المبتدأ بالشرط، ﴿هم﴾: مبتدأ ثانٍ، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ الثاني،

(١) البحر المحيط.

والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره جملة كبرى في ضمنها جملة صغرى مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَهُۥ﴾ الواو: استئنافية. ﴿له﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة وفي[1] «السمين»: قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ جملة اسمية فيها قولان: أظهرهما: أنها مستأنفة إخباراً بذلك، والثاني: أنها في محل النصب معطوفة على قوله: ﴿للَّه﴾؛ أي: على الجملة المحكية بـ﴿قل﴾؛ أي: قل: هو لله، وقل: له ما سكن. ﴿سَكَنَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿فِى ٱلَّيۡلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سَكَنَ﴾. ﴿وَٱلنَّهَارِۚ﴾: معطوف على الليل، ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبر أول. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: خبر ثانٍ، أو صفة لـ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، أو مستأنفة.

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري حقها أن تدخل على اتخذ، ولكن[2] لما كان الإنكار لاتخاذ غير الله ولياً، لا لاتخاذ الولي مطلقاً.. دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل، والمراد بالولي هنا: المعبود؛ أي: كيف اتخذ غير الله معبوداً. ﴿غير الله﴾: مفعول أول ومضاف إليه. ﴿أَتَّخِذُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿وَلِيّٗا﴾: مفعول ثانٍ له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾. ويجوز[3] أن يكون اتخذ متعدياً إلى واحد، وهو: ولياً، و﴿غير اللَّه﴾ صفة له قدمت عليه فصارت حالاً، ولا يجوز

---

(١) العكبري. (٢) الفتوحات. (٣) الشوكاني.

أن تكون غير هنا استثناء. ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بدل من الجلالة ومضاف إليه، أو صفة له، وقد تعرف بالإضافة، لأنه بمعنى الماضي. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ. ﴿يُطْعِمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُطْعَمُ﴾.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت ﴿إِنِّيٓ﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿أُمِرْتُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ تقديره: إني مأمور بأن أكون، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَنْ أَكُونَ﴾: ناصب وفعل مضارع، واسمه ضمير يعود على محمد. ﴿أَوَّلَ مَنْ﴾: خبر ﴿أَكُونَ﴾، ومضاف إليه، وجملة ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء المقدرة تقديره: قل إني أمرت بكوني أول من أسلم. ﴿أَسْلَمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تَكُونَنَّ﴾، وجملة ﴿تَكُونَنَّ﴾ في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ﴾، والتقدير: إني مأمور بكوني أول من أسلم، وبعدم كوني من المشركين. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ معطوف على ﴿أُمِرْتُ﴾ بتقدير عامل؛ أي: وقيل لي: ولا تكونن من المشركين، والمعنى: إني أمرت بما ذكر، ونهيت عن الإشراك. اهـ شيخنا.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّيٓ

﴿أَخَافُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت ﴿إِنِّ﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنِّ﴾ وجملة ﴿إِنِّ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنْ﴾ حرف شرط. ﴿عَصَيْتُ رَبِّي﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إِنْ﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن عصيت ربي.. أخاف عذاب يوم عظيم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الفعل الذي هو أخاف ومفعوله الذي هو عذاب يوم عظيم. ﴿عَذَابَ﴾ مفعول ﴿أَخَافُ﴾، وهو مضاف. و﴿يَوْمٍ﴾: مضاف إليه. ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مَّن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما ﴿يُصْرَفْ﴾: فعل مضارع مجهول أو معلوم، مجزوم بـ﴿مَّن﴾ على كونه فعل شرط لها، ونائب فاعله ضمير يعود على العذاب، أو فاعله ضمير يعود على الله؛ أي: أيُّ شخص يصرف العذاب عنه، أو: أيَّ شخص يصرف الله العذاب عنه ﴿عَنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُصْرَفْ﴾. وكذا الظرف في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق به. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَّن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكونه مقروناً بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿رَحِمَهُۥ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿مَّن﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿مَّن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: خبره. ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿من﴾ الشرطية على كونها مستأنفة.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: استئنافية. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿بِضُرٍّ﴾:

جار ومجرور متعلق به. ﴿فَلَا﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿لا﴾: نافية للجنس تعمل عمل إن. ﴿كَاشِفَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَهُۥٓ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾ تقديره: فلا كاشف له موجود. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَۖ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لا﴾ تقديره: فلا كاشف له موجود هو إلا هو سبحانه وتعالى. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿إِلَّا هُوَۖ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه بدل من محل ﴿لا كاشف﴾، فإن محله الرفع على الابتداء.

والثاني: أنه بدل من الضمير المستكن في الخبر اهـ «كرخي». وجملة ﴿لا﴾ النافية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾: الواو: عاطفة ﴿يَمْسَسْكَ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِخَيْرٍ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿فَهُوَ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ جوابه محذوف تقديره: فلا راد له غيره كما في آية يونس: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لكل من الجوابين المذكور في الشرطية الأولى، والمحذوف في الثانية. اهـ.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف إما متعلق بـ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، أو متعلق بمحذوف خبر ثانٍ لـ﴿وَهُوَ﴾، أو حال من الضمير في ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، والتقدير: وهو القاهر حالة كونه مستعلياً أو غالباً فوق عباده ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾: مبتدأ وخبر أول ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ خبر ثانٍ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَيُّ﴾: اسم استفهام مبتدأ مرفوع. و﴿شَيْءٍ﴾: مضاف إليه لـ﴿أَيُّ﴾ ﴿أَكْبَرُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿شَهَٰدَةً﴾: تمييز محول عن المبتدأ، والأصل: شهادة أي شيء أكبر، أو: أي شيء شهادته أكبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ﴾ إلى قوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، خبره محذوف؛ أي: الله أكبر شهادة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿شَهِيدٌۢ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو شهيد، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿بَيْنِى﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَهِيدٌۢ﴾. ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِى﴾. ﴿وَأُوحِىَ﴾: الواو: عاطفة ﴿أوحي﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿إِلَىَّ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾: نائب فاعل لـ﴿أوحي﴾ وبدل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية على كونها مقولا لـ﴿قُلْ﴾. ﴿لِأُنذِرَكُم﴾: اللام: لام كي. ﴿أنذركم﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنذر﴾. ﴿وَمَنۢ﴾: الواو: عاطفة. ﴿من﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على الكاف في ﴿أنذركم﴾. ﴿بَلَغَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على القرآن، والعائد محذوف تقديره: ومن بلغه القرآن، وجملة ﴿بَلَغَ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿أنذر﴾ من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي تقديره: لإنذاري إياكم به، والجار والمجرور متعلق بـ﴿أوحى﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه في محل نصب عطفاً على المنصوب في ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ وتكون ﴿من﴾ موصولة، والعائد عليها من صلتها محذوف؛ أي: ولأنذر الذي بلغه القرآن.

والثاني: أن في ﴿بَلَغَۚ﴾ ضميراً مرفوعاً يعود على ﴿من﴾، ويكون المفعول محذوفاً وهو منصوب المحل أيضاً عطفاً على مفعول ﴿لِأُنذِرَكُم﴾، والتقدير: ولأنذر الذي بلغ الحلم، والعائد هنا مستقر في الفعل.

والثالث: أن ﴿من﴾ مرفوعة المحل عطفاً على الضمير المرفوع في ﴿لِأُنذِرَكُم﴾، وجاز ذلك؛ لأن الفصل بالمفعول، والجار والمجرور أغنى عن تأكيده، والتقدير: لأنذركم به ولينذركم الذي بلغه القرآن. اهـ «سمين».

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري كما سبق في بحث التفسير. ﴿إنكم﴾: ناصب ومنصوب. ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾: اللام: لام الابتداء المؤكدة زحلقت إلى خبر ﴿إن﴾ ﴿تشهدون﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ التقدير: أئنكم لشاهدون، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر مقدم لـ﴿أن﴾. ﴿ءَالِهَةً﴾: اسم ﴿أَنَّ﴾ مؤخر عن الخبر. ﴿أُخْرَىٰۚ﴾: صفة لـ﴿ءَالِهَةً﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿تشهدون﴾؛ أي: لتشهدون كون آلهة أخرى مع الله. ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ أَشْهَدُۚ﴾: مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَّآ﴾: نافية. ﴿أَشْهَدُۚ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبره. ﴿وَٰحِدٌ﴾: صفة لـ﴿إله﴾، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَإِنَّنِى﴾: الواو: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف نصب، والنون للوقاية، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿بَرِىٓءٌ﴾: خبر ﴿إن﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَرِىٓءٌ﴾. ﴿تُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية أو الموصولة، والعائد حينئذ

محذوف تقديره: مما تشركونه، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ على كونها مقولا لـ﴿قل﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان؛ لأن آتى بمعنى: أعطى، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف جر وتنبيه. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿يَعْرِفُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿أَبْنَاءَهُمُ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: كمعرفتهم أبناءهم، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: معرفة كائنة كمعرفتهم أبناءهم. ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿فَهُمْ﴾: الفاء: رابطة الخبر لشبه المبتدأ بالشرط. ﴿هم﴾: مبتدأ ثان. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿من﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾. ﴿افْتَرَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿افْتَرَىٰ﴾. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول ﴿افْتَرَىٰ﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿افْتَرَىٰ﴾. ﴿بِآيَاتِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب ومنصوب. ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: الواو: استئنافية. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف جوازاً تقديره: واذكر لهم يا محمد قصة يوم نحشرهم. ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، أو توكيد له عند من يقول التأكيد، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾؛ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿نَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة نحشرهم. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَقُولُ﴾، ﴿أَشْرَكُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿نقول﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَيْنَ﴾: اسم استفهام في محل الرفع خبر مقدم. ﴿شُرَكَآؤُكُمُ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿نَقُولُ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿شُرَكَآؤُكُمُ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تَزْعُمُونَ﴾: فعل، وفاعله ومفعولاه محذوفان تقديرهما: تزعمونهم شركائكم، وجملة ﴿تَزْعُمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، والعائد الضمير المحذوف من ﴿تَزْعُمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَكُن﴾: فعل ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾. ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن قَالُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه اسماً لـ﴿تَكُن﴾ تقديره: ثم لم تكن عاقبة فتنتهم وشركهم إلا قولهم: واللّهِ ربنا، وجملة ﴿لَمْ تَكُن﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿ثم نقول﴾، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿وَٱللَّهِ﴾: الواو: حرف جر وقسم. ﴿اللَّهِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: نقسم والله، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿رَبِّنَا﴾: بدل من الجلالة أو عطف بيان منه. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مُشْرِكِينَ﴾: خبر كان،

وجملة كان في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ على كونها جواب القسم.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿انظُرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الحال من فاعل ﴿كَذَبُوا﴾ والعامل فيه ﴿كَذَبُوا﴾ وصاحب الحال الواو في ﴿كَذَبُوا﴾ أي: جاحدين كذبوا على أنفسهم ﴿كَذَبُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَبُوا﴾، وجملة ﴿كَذَبُوا﴾ في محل النصب على أنها مفعول لـ﴿انظُرْ﴾، وكيف علقته عن العمل في لفظه. ﴿وَضَلَّ﴾: فعل ماضٍ. ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به. ﴿مَّا﴾: موصولة أو مصدرية في محل الرفع فاعل لـ﴿ضل﴾. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ خبره، وجملة كان من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما كانوا يفترونه، أو صلة لماالمصدرية، ﴿مَّا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر على الفاعلية تقديره: وضل عنهم افتراؤهم، وجملة ﴿ضل﴾ معطوفة على جملة ﴿كَذَبُوا﴾. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَضَلَّ﴾ يجوز أن يكون نسقاً على كذبوا، فيكون داخلاً في حيز النظر، ويجوز أن يكون استئناف إخبار، فلا يدخل في حيز المنظور إليه، وقوله: ﴿مَّا كَانُوا﴾ يجوز في ﴿مَّا﴾ أن تكون مصدرية؛ أي: وضل عنهم افتراؤهم، وهو قول ابن عطية، ويجوز أن تكون موصولة اسمية؛ أي: وضل عنهم الذي كانوا يفترونه اهـ «سمين».

التصريف ومفردات اللغة

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾: يقال: كتب على نفسه يكتب من باب نصر؛ أي: أوجب إيجاب فضل وكرم، لا إيجاب لزوم، وقيل: كتب هنا بمعنى: وعد فضلاً وكرماً، وقيل: بمعنى: سطر وخط؛ أي: أمر بالكتب في اللوح المحفوظ. وقال الزجاج: الرحمة: إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا، فلم يعاجلهم على كفرهم، وقيل: الرحمة لمن آمن وصدق الرسل.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قال السدي: سكن هنا من السكنى يقال: سكن في المكان يسكن من باب دخل سكنى إذا حل واستقر فيه، ولم يذكر الزمخشري

غيره، قال: وتعديه بفي كما في قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وقيل: هو من السكون المقابل للحركة، وعلى هذا ففي المقام حذف؛ أي: وله ما سكن وتحرك، وحذف مقابله للاكتفاء كما في قوله: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: والبرد، واقتصر على ذكر السكون؛ لأن كل متحرك قد يسكن، ولأنه أكثر وجوداً. ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾: الولي: الناصر ومتولي الأمر المتصرف فيه.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي «المصباح»[1]: فطر الله الخلق فطراً من باب قتل: خلقهم، والاسم: الفطرة. اهـ. وفي «السمين»: والفطر: الإبداع والإيجاد من غير سبق مثال، ومنه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: موجد هما على غير مثال يحتذى. وعن ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى فطر وفاطر حتى اختصم إليَّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها؛ أي: أنشأتها وابتدأتها، ويقال: فطرت كذا وفطر هو فطوراً، وانفطر انفطاراً، وفطرت الشاة: حلبتها بإصبعين، وفطرت العجين: خبزته من وقته. وفي «الكرخي»: والفطير ضد الخمير، وهو العجين الذي لم يختمر، وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير، ويقال: إياك والرأي الفطير، ويقال: عندي خبز خمير وخبز فطير. اهـ. وأصل الفطر: الشق، ومنه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾، ويقال: فطر ناب البعير، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، وقوله: ﴿يتفطرن منه﴾.

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾؛ أي: هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد. ﴿يُصْرَفْ عَنْهُ﴾: يبعد عنه، ويقال: صرف الله عنه الأذى من باب ضرب إذا أبعده ونجاه عنه.

﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾؛ أي: بإنجائه من الهول الأكبر. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾: المس أعم من اللمس، وحقيقة المس تلاقي جسمين يقال: مسه السوء والكبر والعذاب والتعب إذا أصابه ونزل به، والضر: الألم والحزن والخوف وما يفضي إليها أو إلى أحدها.

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ يقال: كشف الضر إذا أزاله، وكشفَتْ عن ساقيها:

(١) العكبري.

أزالت ما يسترهما.

والخير[1]: ما كان فيه منفعة حاضرة أو مستقبلة، والنفع: اللذة والسرور وما يفضي إليهما أو إلى أحدهما، والشر: ما لا منفعة فيه ألبتة، أو ما كان ضره أكبر من نفعه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ من القهر، والقهر: الغلبة والحمل على الشيء من غير اختيار؛ أي: فالقهر؛ إما أن يراد به الغلبة، أو التذليل، وما هنا من الأول، وكذا قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ ومن الثاني قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾.

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ﴾ وشهادة الشيء حضوره ومشاهدته، والشهادة به: الإخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبني على المشاهدة بالبصر أو بالعقل والوجدان.

﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾: مأخوذ من الإنذار، والإنذار: التخويف، واكتفى به عن ذكر البشارة لمناسبته للمقام؛ أي: لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه القرآن، ووصل إليه من الأسود والأحمر، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة مما تشركون به؛ أي: من الأصنام.

﴿ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ﴾ ﴿أُخْرَىٰ ۚ﴾ صفة لآلهة، وصفه بالصفة المفردة. ولم يقل: آلهة أُخر بالجمع ليطابق الوصف موصوفه في الجمعية؛ لأن الآلهة مما لا يعقل يعامل جمعه معاملة المؤنثة الواحدة كما سبق، ولما كانت الآلهة حجارةً وخشباً.. أجريت هذا المجرى.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من آتى الرباعي فهو بمعنى: أعطى، فيتعدى إلى مفعولين.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ الجمهور بضم الشين من ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، وأبو هريرة بكسرها، وهما لغتان في المضارع من بابي: ضرب وقتل.

---

(١) الفتوحات.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ﴾، وفي قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، وفي قوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ إذا قلنا كتب بمعنى: أوجب؛ لأنه استعار الكتابة بمعنى: الخط والتسطير للكتابة بمعنى: الإلزام والإيجاب بجامع الإثبات في كل.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ إذا قلنا من السكون ضد التحرك، والاكتفاء: ذكر أحد متقابلين وحذف الآخر لعلمه من المذكور، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأنه بمعنى: أهلكوا، فالخسران حقيقة في البيوع.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾؛ أي: لا ينبغي لي ولا يمكن مني أن أعبد غيره.

ومنها: تجنيس(1) التشكيل في قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾، وضابطه: أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين، وسماه أسامة بن منقذ في بديعته: تجنيس التحريف، وهو بتجنيس التشكيل أولى.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لاعتراض الجملة الشرطية بين الفعل ومفعوله اللذين هما: ﴿أَخَافُ﴾ و﴿عَذَابَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، وقوله: ﴿وَإِن

---

(١) المراغي.

يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿بِضُرٍّ﴾. وفي قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾.

ومنها: التعليق بأمر مستحيل في قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾؛ لأن العصيان ممتنع في حقه ﷺ لعصمته. وقال[1] أبو عبد الله الرازي: نظير هذه الآية قولك: إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة إلى متساويتين.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، وفيه الحذف أيضاً تقديره: فلا كاشف له عنك إلا هو.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾.

ومنها: الجناس المغاير والمماثل في قوله: ﴿أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، وفي قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ﴾، وفي قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾، وفي قوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾، وفيه أيضاً الجمع بين الأسئلة والأجوبة، والجناس المغاير في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ﴾، وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾.

ومنها: القسم في قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجيبي في قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ
ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ
يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟
يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟
لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ
تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا
وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ
ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟
وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ
عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بين أحوال الكفار في الآخرة، وذكر ما يكون منهم من تلجلج واضطراب، فتارة ينكرون شركهم بالله، وأخرى يعترفون بها، وذكر ما يواجهون به من اللوم والتقريع على الشركاء الذين اتخذوهم أولياء وشفعاء.. ذكر هنا ما يوجب اليأس من إيمان بعض منهم لوجود الموانع الصادة عنه، فمهما توالت الآيات والنذر لا تجدي معهم شيئاً؛ إذ الحجب كثيفة، والأغطية سميكة، فاختراقها عسير، والوصول إليها في حكم المستحيل.

---

(١) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بيَّن في الآيات السابقة حال طائفة من المشركين تلقي السمع مصغية للقرآن، لكن لا يدخل القلب شيء مما تسمع؛ لما عليه من أكنة التقليد والاستنكار لكل شيء جديد، فهم يستمعون ولا يسمعون.. بين في هاتين الآيتين بعض ما يكون من أمرهم يوم القيامة، وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليعملوا صالح العمل، ويكونوا من المؤمنين حقاً، ثم كذبهم فيما يقولون، وأنهم لو ردوا.. لعادوا لما كانوا فيه؛ لفقد استعدادهم للإيمان، وأن حالهم بلغ مبلغاً لا يؤثر فيه كشف الغطاء ورؤية الأهوال.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا...﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] ذكر في الآيات السالفة إنكارهم في الدنيا للبعث والجزاء.. بين هنا حالهم في الآخرة يوم يكشف عنهم الغطاء، فيتحسرون ويندمون على تفريطهم السابق، وغرورهم بذلك المتاع الزائل، ثم أردفه ذكر حقيقة الدنيا مقابلاً بينها وبين الآخرة، وموازناً بين حاليهما لدى المتقين والعاصين.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أنزل هذه السورة في دعوة مشركي مكة إلى الإسلام ومحاجتهم في التوحيد والنبوة والبعث، وكثر فيها حكاية أقوالهم بلفظ: وقالوا، نحو: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ﴾، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ إلى نحو ذلك، وتلقين الرسول ﷺ الرد عليهم مع إقامة الحجة والبرهان بلفظ: قل، نحو: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بعد هذا الحجاج كله ذكر في هذه الآيات تأثير كفرهم في نفس النبي ﷺ، وحزنه مما يقولون في نبوته، وما يراه منهم من الإعراض عن دعوته، وسلاه على ذلك ببيان سنته سبحانه في الرسل مع أقوامهم، وأن كثيراً منهم كذبوا

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

فصبروا حتى جاءهم النصر المبين، وخذل الله أعداءهم الكافرين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾ الآية، سبب[1] نزولها: ما رواه أبو صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: حضر عند النبي ﷺ أبو سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، والحارث بن عامر، وأبو جهل في جمع كثير من قريش، واستمعوا إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر: يا أبا قتيبة، ما يقول محمد، فقال: والذي جعلها ـ الكعبة ـ بيته ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك شفتيه، ويتكلم بأساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى، يحدث قريشاً بما يستملحونه، قال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقاً، فقال أبو جهل: كلا لا تقر بشيء من هذا وقال: الموت أهون من هذا، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ...﴾ الآية، سبب[2] نزولها: ما رواه الحاكم وغيره عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أبي طالب، كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ، ويتباعد عما جاء به، وكان يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش بأبي طالب يريدون أن يفعلوا السوء برسول الله ﷺ فقال أبو طالب شعراً:

وَٱللَّهِ لَنْ يَصِلُوْا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّىٰ أُوَسَّدَ فِيْ ٱلتُّرَابِ دَفِيْنَا
فَٱصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وَٱبْشِرْ وَقَرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيُوْنَا
وَدَعَوْتَنِيْ وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحِيْ ... وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِيْنَا
وَعَرَضْتَ دِيْنَاً لاَ مَحَالَةَ أَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ ٱلْبَرِيَّةِ دِيْنَا

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي والبحر المحيط.

لَـوْلاَ ٱلْـمَـلاَمَـةُ أَوْ حِـذَارُ مَـسَـبَّـةٍ   لَـوَجَـدْتَـنِـيْ سَـمْـحـاً بِـذَاكَ مُـبِـيْـنَـا

وأخرج(١) ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال قال: نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشد الناس عليه في السر.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ...﴾ الآية، روى الترمذي والحاكم عن علي أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: وإنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وروى ابن جرير عن السدي أن الأخنس بن شريق، وأبا جهل التقيا، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، فإنه ليس هاهنا أحد يسمع كلامك غيري، قال أبو جهل: واللَّهِ إن محمداً لصادق، وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾ الآية، سبب(٢) نزولها: ما رواه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنه: أن الحارث بن عامر أتى النبي ﷺ في نفر من قريش، فقال: يا محمد، ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات، فإن فعلت آمنا بك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن أولئك الكافرين من أهل مكة ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: فريق يستمع إليك يا محمد إذا أنت تلوت القرآن داعياً إلى توحيد الله مبشراً ومنذراً ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ أي: والحال أنا قد جعلنا على قلوب هؤلاء المستمعين أغطية تمنعهم عن أن يفقهوه ويفهموه؛ أي: تحولهم دون فقهه وفهمه.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: وقد جعلنا أيضاً في آذانهم وأسماعهم وقراً؛ أي:

(١) لباب النقول مع زيادة من البحر المحيط.   (٢) لباب النقول.

ثقلاً وصمماً يمنعهم عن سماعه، ويحولهم دون سماعه بقصد التدبر والوصول إلى ما فيه من الهداية والرشد، وذلك كما مرَّ في أسباب النزول: أنه اجتمع أبو سفيان صخر بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية وأُبي ابنا خلف، والحارث بن عامر يستمعون القرآن، فقالوا للنضر: يا أبا قتيبة، ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول، إلا أني أراه يحرك ويقول أساطير الأولين. وفي هذا[1] الكلام تشبيه للحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية، فالقلب الذي لا يفقه الحديث ولا يتدبره، كالوعاء الذي وضع عليه الغطاء، فلا يدخل فيه شيء، والآذان التي لا تسمع الكلام سماع فهمٍ وتدبر كالآذان المصابة بالثقل أو بالصمم، فسمعها وعدمه سواء.

بيان هذا: أن الله سبحانه وتعالى جعل التقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه مانعاً من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق، فالمقلد لا يستمع إلى متكلم ليميز الحق من الباطل، وإذا وصل إلى سمعه ما هو مخالف لما يدين به لا يتدبره، ولا يراه جديراً بالموازنة بينه وبين ما عنده من عقيدةٍ أو رأي ليختار أقربهما إلى الصحة، وأجدرهما بالصدق، وأكثرهما هداية ورشاداً، وأبعثهما إلى اطمئنان النفس الموصل لها إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وقال[2] ابن عطية: وهذه عبارة عن ما جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلظ والبعد عن قبول الخير، كأنهم لم يكونوا سامعين لأقواله.

وقرأ الجمهور: ﴿وَقْرًا﴾ بفتح الواو وسكون القاف. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وقراً﴾ بكسر الواو وسكون القاف، كأنه ذهب إلى أن آذانهم وقِّرت بالصمم، كما تُوقَّر الدابة من الحمل.

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ﴾؛ أي: وإن يرى هؤلاء المشركون كل آية من الآيات، وعلامة من العلامات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك، كانشقاق القمر،

---

(١) زاد المسير. (٢) المراغي.

ونبع الماء من بين أصابعك، وحنين الجذع، وتصيير الطعام القليل كثيراً ﴿لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾؛ أي: لا يصدقوا بتلك الآيات أنها من الله تعالى، بل يقولون: إنها سحر ولا يفعلون بموجبها من الإيمان بك؛ إذ هم لا يفقهونها ولا يدركون المراد منها؛ لوقوف أسماعهم عند ظواهر الألفاظ، فحظهم كحظ الصم من سماع أصوات البشر، وكلمة: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ﴾ ابتدائية بمعنى الفاء، وإن لم يقع بعدها مبتدأ؛ لأن حتى الابتدائية هي الداخلة على الجمل التي يبتدأ بها، وإن لم يقع بعدها مبتدأ في الظاهر.

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ حال من الواو في ﴿جَآءُوكَ﴾، وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ جواب إذا، وهو العامل فيها؛ أي: فإذا جاءك يا محمد هؤلاء المشركون من أهل مكة حال كونهم مجادلين ومنازعين ومنكرين لك في دعوتك إلى التوحيد.. قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ما هذا الذي يقرؤه محمد ويتلوه إلا أكاذيب الأولين وخرافاتهم، فليست من عند الله تعالى.

والمعنى(١): أنهم بلغوا من الكفر والعناد، أنهم إذا جاؤوك مجادلين لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان، بل يقولون: إن هذا إلا أساطير الأولين.

وقال أبو(٢) حيان: وحتى إذا وقعت بعدها إذا يحتمل أن تكون بمعنى الفاء، ويحتمل أن تكون بمعنى: إلى أن، فيكون التقدير: فإذا جاءوك يجادلونك.. يقول الذين كفروا، أو يكون التقدير: وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً؛ أي: منعناهم من فهم القرآن وتدبره إلى أن يقولوا: إن هذا إلا أساطير الأولين في وقت مجيئهم مجادليك؛ لأن الغاية لا تؤخذ إلا من جواب الشرط لا من الشرط، وعلى هذين المعنيين يستخرج جميع ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

ذاك[1] أنهم لم يعقلوا مما في القرآن من أنباء الغيب إلا أنها حكايات وخرافات تسطر وتكتب كغيرها من الأنباء والخرافات، فلا علم فيها، ولا فائدة منها، وهذه حال من يسمع جرس الكلام ولا يتدبره ولا يفقه أسراره، أو من ينظر إلى الشيء نظرة جميلة لا يستنبط منها علماً، ولا يستفيد منها عقيدة ولا رأياً، وما مثلهما إلا مثل من يشاهد ألعاب الصور المتحركة ـ السينما ـ مفسرة بلغةٍ هو لا يعرفها، فكل همه مما يرى من المناظر والكتابة لا يعدو التسلية وشغل الوقت. فلو عقل هؤلاء قصص القرآن وتدبروا معانيها.. لكان لهم من ذلك آيات بينات تدل على صدق الرسول ﷺ، وعبر ومواعظ ونذر تبيِّن سنن الله تعالى في خلقه مع الأقوام الذين كذبوا وكان عاقبة أمرهم الدمار والنكال، ثم بين أن أمرهم لم يقتصر على حد الضلال، بل تعدوه إلى الإضلال، وساروا قدماً، فقال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: وأولئك المشركون المعاندون للنبي ﷺ الجاحدون لنبوته لا يقنعون بتكذيبهم له، وعده حديث خرافة، بل ينهون الناس عن استماعه؛ لئلا يقفوا على حقيقته فيؤمنوا به ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: ويتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً لاشمئزازهم ونفورهم منه، وتأكيداً لنهيهم فيكونون ناهين منتهين، يعني: أن كفار مكة كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، وعن الاجتماع به وينهونهم عن استماع القرآن، وكانوا هم كذلك، أو المعنى: ينهون عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأون عنه، فلا يؤمنون به كأبي طالب. ثم ذكر أن عاقبة ذلك الوبال والنكال لهم، فقال: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾؛ أي: وما يهلكون بما فعلوا من النهي والنأي ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بإقبالها لأشد العذاب ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: وما يعلمون أنهم يهلكون أنفسهم ويذهبونها إلى النار بما يفعلون من الكفر والمعصية.

والخلاصة[2]: وما يهلكون إلا أنفسهم بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه، وهو عذاب الضلال والإضلال، وما يشعرون بذلك، بل يظنون أنهم يبغون الغوائل لرسول الله ﷺ، وهذا من معجزات القرآن وإخباره بالغيب، فقد هلك جميع الذين أصروا على عداوته ﷺ بعضهم في نِقَمَ خاصة، وبعضهم في وقعة

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

بدر وغيرها من الغزوات، ويتبع هذا الهلاك الدنيوي هلاك الآخرة، واللفظ يشملهما معاً.

وقرأ[1] الحسن: ﴿وينون﴾ بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على النون، وهو تسهيل قياسي.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ولو تبصر يا محمد أو أيها السامع ما يحل بهؤلاء الكفار الذين ينهون عنك وينأون عنك من الفزع والهول والشدة والندم على كفرهم، والحسرة على ما فرط منهم في جنب الله حين وقفوا وعرضوا على النار الأخروي؛ أي: حين تعرضهم ملائكة العذاب من أرض الموقف على النار.. لرأيت أمراً عجيباً، وموقفاً فظيعاً، فجواب لو محذوف كما قدرنا، و﴿تَرَىٰٓ﴾ بصرية تتعدى إلى مفعول واحد كما قدرنا أيضاً؛ أي: لو رأيت ما يحل بهم في تلك الحالة.. لرأيت ما لا يحيط به الوصف، ولا يقدر على التعبير عنه اللسان، ولا يبلغ تصويره البيان، ولو أوتِيَ المتكلم بلاغة سحبان.

ثم ذكر ما يحدث منهم حينئذ، فقال: ﴿فَقَالُوا۟﴾ معطوف على ﴿وُقِفُوا۟﴾؛ أي: فيقول هؤلاء المشركون بربهم إذا حبسوا على النار ﴿يَٰلَيْتَنَا﴾؛ أي: يا قومنا نتمنى أن ﴿نُرَدُّ﴾ ونرجع إلى الدنيا حتى نتوب إلى الله، ونعمل صالحاً، ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وحججه التي نصبها دلالة على وحدانيته، وصدق رسله ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من المصدقين به وبرسله، ومن المتبعين لأمره ونهيه.

والخلاصة: أنهم حين عاينوا الشدائد والأهوال بسبب تقصيرهم.. تمنوا الردَّ إلى الدنيا ليسعوا في إزالة ذلك التقصير، ويتركوا التكذيب بالآيات، ويعملوا صالح العمل، وتمني هذا الرد إلى الدنيا بناء على جهلهم أنه محال، أو أنهم مع علمهم باستحالته لا مانع من تمنيه على سبيل التحسر؛ لأنه يصح أن يتمنى ما لا يكون.

وقرأ[2] الجمهور: ﴿وُقِفُوا۟﴾ مبنياً للمفعول، ومعناه عند الجمهور: حبسوا

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

على النار، ووقف في هذه القراءة متعد، ومصدره: الوقف، وقد سمع في المتعدي: أوقف، وهي لغة قليلة، وقرأ ابن السميقع وزيد بن علي: ﴿وقفوا﴾ مبنياً للفاعل من وقف اللازم، ومصدره: الوقوف، والمعنى[1]: على هذه القراءة؛ أي: ولو تراهم حين يكونون في جوف النار، وتكون النار محيطةً بهم ويكونون غائصين فيها مقدار عذابها.. لرأيت منظراً هائلاً، وحالاً فظيعاً، وإنما صح على هذا التقدير أن يقال: وقفوا على النار؛ لأنها دركات وطبقات بعضها فوق بعض، فيصح هناك معنى الاستعلاء.

وقرأ[2] الكسائي وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأهل المدينة برفع الأفعال الثلاثة: ﴿نردُ﴾، ﴿ولا نكذبُ﴾ و﴿نكونُ﴾.

والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمني؛ أي: تمنوا الرد وأن لا يكذبوا، وأن يكونوا من المؤمنين. وقرأ حفص وحمزة بنصب: ﴿نُكَذِّبَ﴾ ﴿وَنَكُونَ﴾ بإضمار: أن بعد الواو على جواب التمني. واختار سيبويه القطع في ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ويكون غير داخل في التمني، والتقدير: ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب؛ أي: لا نكذب رددنا أو لم نرد، قال: وهو مثل دعني ولا أعود؛ أي: لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني، واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمني بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لأن الكذب لا يكون في التمني. وقرأ ابن عامر: ﴿ونكونَ﴾ بالنصب، وأدخل الفعلين الأولين في التمني. وقرأ أُبي: ﴿ولا نكذب بآيات ربنا أبدا﴾. وقرأ هو وابن مسعود: ﴿ياليتنا نرد فلا نكذب﴾ بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها في جواب التمني كما ينصب بالواو.

ثم بيَّن أن[3] هذا التمني لم يكن لتغيير حالهم، بل لأنه بدا لهم ما كان خفياً عنهم، فقال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: بدالهم سوء عاقبة ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات، ونزل بهم عقابه، فتبرموا وتضجروا وتمنوا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

الخلاص منه بالرد إلى الدنيا، وترك ما أفضى إليه من التكذيب بالآيات وعدم الإيمان، كما يتمنى الموت من أنهكه المرض وأضناه الداء العضال؛ لأنه ينقذه من الآلام، لا لأنه محبوب في نفسه، ولا مرجو لذاته؛ بيان هذا: أنه إذا جاء ذلك اليوم الذي تبتلى فيه السرائر، وتنكشف فيه جميع الحقائق، وتشهد على الناس الأعضاء والجوارح، وتتمثل لكل فرد أعماله النفسية والبدنية في كتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، كما تتمثل الوقائع مصورة في آلة الصور المتحركة ـ فلم السينما ـ فكل أحد يظهر له في الآخرة ما كان خافياً عليه من خير في نفسه وشر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: فهي لا تخفى على أنفسكم فضلاً عن خفائها على ربكم.

والخلاصة: أنه تعالى بين لنا أن تمني أولئك الكفار لما تمنوا به، لا يدل على تبدل حقيقتهم، بل بدا لهم ما كان خافياً عليهم من أحوالهم بإخفائهم إياه على الناس أو عليهم: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فتمنوا الخروج مما حاق بهم، ولكن الحقيقة لا تتغير، وإنما يكون للنفوس أطوار وأحوال.

وعبارة «الشوكاني» هنا: قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ هذا[(١)] إضراب عما يدل عليه التمني من الوعد بالإيمان والتصديق؛ أي: لم يكن ذلك التمني منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد، بل هو لسبب آخر: وهو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون؛ أي: يجحدون من الشرك، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم، فعدلوا إلى التمني والمواعيد الكاذبة، وقيل: بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم، وقيل: بدا لهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، وقال المبرد: ﴿بَدَا لَهُم﴾ جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه، وهو مثل القول الأول، وقيل: المعنى: أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث

(١) فتح القدير.

والقيامة. ثم بيَّن أنهم كاذبون في هذا الندم، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا حسبما تمنوا ﴿لَعَادُوا﴾؛ أي: لرجعوا ﴿لـ﴾ فعل ﴿ما نهوا عنه﴾ من الكفر والنفاق والكيد والمكر والمعاصي، فإن ذلك من أنفسهم ثابت فيها؛ لخبث طينتهم وسوء استعدادهم، ومن ثم لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوا، ولا سوء ما رأوا، كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله تعالى ثم عاند ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال، ولو شاهدوا ما شاهدوا؛ أي: لأن دينهم الكذب، لأن قضاء الله جرى عليهم في الأزل بالشرك، وقيل: المعنى: وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان؛ أي: لكاذبون فيما تضمنه تمنيهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله، وبالكون من المؤمنين بالله ورسوله، فلو ردوا إلى الدنيا لرُد المعاند المستكبر منهم مشتملاً بكبره وعناده، والمنافق مرتداً بمكره ونفاقه، والشهواني ملوثاً بشهواته القابضة على زمامه. وأما ما ظهر لهم إذ وقفوا على النار من حقيقة ما جاء به الرسول، فما مثله إلا مثل ما يلوح لهم في الدنيا من الآيات والعبر، فهم يكابرون فيها أنفسهم، ويغالطون عقولهم ووجداناتهم، ألا ترى شارب الخمر والمقامر يريان ما حل بغيرهما من الشقاء، فيظهران الندم على ما فرط منهما، ويتوبان ويعزمان على أن لا يعود إلى مثل ما عملا، ثم لا يلبثان أن يرجعا سيرتهما الأولى خضوعاً لما اعتادا وألفا، وترجيحاً للذة العاجلة على المنفعة الآجلة؟

وقرأ إبراهيم ويحيى بن وثاب والأعمش: ﴿ولو ردوا﴾ بكسر على نقل حركة الدال من ردد إلى الراء؛ لأن الأصل: رددوا فنقلت كسرة الدال إلى الراء.

وجملة قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ معترضة[1] بين المعطوف وهو: ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ وبين المعطوف عليه، وهو ﴿لَعَادُوا﴾؛ أي: لعادوا إلى ما نهوا عنه. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما حياتنا إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت، وهذا من شدة تمردهم وعنادهم؛ حيث يقولون هذه المقالة

(١) فتح القدير.

على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ مستأنفة؛ أي: وقال كفار مكة ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما حياتنا إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد أن فارقنا هذه الحياة، وليس لنا بعد هذه الحياة ثواب ولا عقاب. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ وتبصر يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾ وحبسوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾؛ أي: عند ربهم لأجل السؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعقاب.. لرأيت أمراً فظيعاً، أو المعنى: وقفوا على جزاء ربهم؛ أي: على ما وعدهم ربهم من عذاب الكافرين وثواب المؤمنين، وعلى ما أخبرهم به من أمر الآخرة، والمعنى: ولو ترى هؤلاء الضالين المكذبين حين تقفهم الملائكة في الموقف الذي يحاسبهم فيه ربهم، ويمسكونهم إلى أن يحكم الله فيهم بما يشاء.. لأفظعك أمرهم، واستبشعت منظرهم، ورأيت ما لا يحيط به وصف، وجعلهم موقوفين على ربهم؛ لأن من تقفهم الملائكة وتحبسهم في موقف الحساب إمتثالاً لأمر الله فيهم، كما قال: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ٢٤﴾ يكون أمرهم مقصوراً عليه تعالى، لا يتصرف فيهم غيره، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ١٩﴾.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾؛ أي: يقول لهم ربهم حينئذ: أليس هذا الذي أنتم فيه من البعث هو الحق الذي لا شك فيه ولا ريب لا باطل كما تزعمون، والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ. ﴿قَالُواْ﴾ جواباً للرب حل جلاله ﴿بَلَىٰ﴾ هو حق لا يحوم حوله الباطل، أقسمنا لك ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾ وهذا إقرار مؤكد باليمين؛ لانجلاء الأمر غاية الانجلاء، وهم يطمعون في نفع ذلك الإقرار، وينكرون الإشراك فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين. ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: يقول لهم الرب سبحانه وتعالى: إذا كان الأمر كما اعترفتم.. فذوقوا العذاب الذي كنتم به تكذبون. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفركم وجحدكم في الدنيا بالبعث بعد الموت الذي دأبتم عليه، واتخذتموه شعاراً لكم لا تتركونه. وعبرَّ بالذوق عن ألم العذاب للإشارة إلى أنهم يجدونه وجدان الذائق في قوة الإحساس به.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: قد خسر أولئك الكفار الذين كذبوا

بما وعد الله به من البعث والقيامة ولقاء الله كلَّ ما ربحه وفاز به المؤمنون من ثمرات الإيمان في الدنيا، كرضا الله وشكره حين النعمة والعزاء وقت المصيبة، ومن ثمرات الإيمان في الآخرة من الحساب اليسير والثواب الجسيم، والرضوان الأكبر، والنعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب. وما سبب هذا إلا أن إنكار البعث والجزاء يفسد الفطرة البشرية، ويفضي إلى الشرور والآثام، فإن الاعتقاد بأن لا حياة بعد هذه الحياة.. يجعل همَّ الكافرين محصوراً في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية، كالجاه والرياسة والعلو في الأرض ـ ولو بالباطل ـ ومن كانوا كذلك.. كانوا شراً من الشياطين، يكيد بعضهم لبعض، ويفترس بعضهم بعضاً، لا يصدهم عن الشر إلا العجز، ولا تحكم بينهم إلا القوة. وشاهِدنا على ذلك أنَّ أرقى أهل الأرض في الحضارة والعلوم والفلسفة هم الذين يقوضون صروح المدنية بمدافعهم ودباباتهم وطياراتهم، وبكل ما أوتوا من فن واختراع، ويهلكون الحرث والنسل، ويخربون العامر من المدن ودور الصناعات بمنتهى القسوة والشدة، ويهلكون ملايين الأنفس ما بين قتيل وجريح دون أن تستشعر قلوبهم عاطفة رحمة ولا رحمة، ولو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء.. لما انتهوا في الطغيان إلى هذا الحد الذي نراه الآن.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾؛ أي: كذبوا بلقاء الله إلى أن جاءتهم الساعة والقيامة مباغتةً مفاجئةً لهم من غير شعور منهم لها، وقد ورد في الكتاب والسنة أنَّ الله تعالى أخفى علمها على كل أحد حتى الرسل والملائكة، فلا يعلم أحد متى يكون مجيئها، وفي أي وقت يكون حصولها. ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾؛ أي: قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله، وأصروا على هذا التكذيب حتى إذا جاءتهم منيتهم ـ وهي بالنسبة إليهم مبدأ الساعة، ومقدمات القيامة ـ مفاجئةً لهم من حيث لم يكونوا ينظرونها، ولا يعدون العدة لمجيئها.. قالوا: يا حسرتنا على تفريطنا في الحياة الدنيا التي كنا نزعم أن لا حياة بعدها؛ أي: أصروا على التكذيب حتى قالوا وقت مجيء الساعة لهم بغتةً: يا ندامتنا على تفريطنا وتقصيرنا في تحصيل الزاد للساعة في الدنيا، هذا أوانك فاحضري إلينا لنتعجب منك. ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ﴾؛

أي: والحال أنهم يحملون ﴿أوزارهم﴾ وذنوبهم وخطاياهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾ وعواتقهم؛ أي: يقاسون عذاب ذنوبهم مقاساة ثقل ذلك عليهم، فلا تفارقهم ذنوبهم، وخص الظهر بالذكر؛ لأنه يطيق من الحمل ما لا يطيقه غيره من الأعضاء، كالرأس والكاهل، وهذا كما تقدم في قوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ لأن اليد أقوى في الإدراك اللمسي من غيرها، وفي ذلك إيماء إلى أن عذابهم ليس مقصوراً على الحسرة والندامة على ما فات وزال، بل يقاسون مع ذلك تحمُّل الأوزار الثقال، وإشارة إلى أن تلك الحسرة من الشدة والهول بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من صنوف العقوبات.

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي: أن الأعمال القبيحة تتمثل بصورة رجل قبيح، يحمله صاحبها يوم القيامة، والصالحة بصورة رجل حسن، يحمل صاحبها يوم القيامة.

والخلاصة: أنهم ينادون الحسرة التي أحاطت بهم أسبابها وهم في أسوأ حال بما يحملون من أوزارهم على ظهورهم، وقد بيَّن الله تعالى سوء تلك الحال التي تلابسهم حينما يلهجون ويتكلمون بذلك المقال، فقال: ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتبهوا واعرفوا ما سأذكره لكم وهو قوله: ﴿سَآءَ﴾ وقبح ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ ويحملون على ظهورهم يوم القيامة؛ أي: ما أسوأ تلك الأثقال التي يحملونها وما أقبحها، والمخصوص بالذم ذنوبهم.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾؛ أي: وما هذه الحياة الدنيا التي قال الكفار فيها أنه لا حياة غيرها ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ﴾ فهي دائرة بين عمل لا يفيد في العاقبة، كلعب الأطفال، وعمل له فائدة عاجلة سلبية؛ كفائدة اللهو وهو دفع الهموم والآلام، ومن ثمَّ قال بعض الحكماء: إن جميع لذات الدنيا سلبية إذ هي إزالة للآلام، فلذة الطعام في إزالة ألم الجوع، وبقدر هذا الألم تعظم اللذة في إزالته، ولذة شرب الماء هي إزالة العطش، وهكذا، أو المعنى: وما الأشغال التي تشغلك في الحياة الدنيا عن خدمة الله وطاعته ﴿إِلَّا لَعِبٌ﴾؛ أي: عمل لا فائدة ولا عاقبة له؛ كلعب الأطفال ﴿وَلَهْوٌۖ﴾؛ أي: عمل فائدته عاجلة لا آجلة، وليس المراد أن

مطلق الحياة لعب ولهو، بل ما قرب منها إلى الله.. فهو مزرعة للآخرة، فليست من أشغال الدنيا، وما أبعد منها عنه.. فهو حسرة وندامة، واللعب: هو كل ما يشغل النفس عما تنتفع به، واللهو: صرفها عن الجد إلى الهزل، وقيل: المعنى أي: وما اللذات والمستحسنات الحاصلة في هذه الدنيا إلا فرح يشغل النفس عما تنتفع به، وباطل يصرف النفس عن الجد في الأمور إلى الهزل.

وفي الآية وجه آخر، وهو أن متاع هذه الدنيا متاع قليل قصير الأجل، لا ينبغي أن يغتر العاقل به، فما هو إلا كلعب الأطفال قصير المدة، فإن الطفل سريع الملل لكل ما يقدم إليه من أصناف اللعب، أو أن زمن الطفولة قصير، كله غفلة، أو كلهو المهموم في قصر مدته على كونه غير مقصود لذاته، والقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.

واللام في قوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ لام[1] قسم؛ أي: وعزتي وجلالي للدار التي هي محل الحياة الأخرى، وهي الجنة ـ جعلنا الله سبحانه وتعالى من أهلها ـ ﴿خَيْرٌ﴾، وأفضل ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ويجتنبون الكفر والمعاصي لخلو لذاتها من المضار والآلام، وسلامتها من التقضِّي والانصرام من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث الذين لا حظَّ لهم من حياتهم إلا التمتع الذي هو من قبيل اللعب في قصر مدته وعدم فائدته، أو من قبيل اللهو في كونه دفعاً لألم الهم والكدر.

والخلاصة: أن نعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا، كما قال الشاعر:

لِلَّـهِ أَيَّـامُ نَـجْـدٍ وَٱلـنَّـعِـيْـمُ بِـهَـا ... قَـدْ كَـانَ دَاراً لَـنَـا أَكْـرِمْ بِـهِ دَارَا

فالبدني منه أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته وفي دوامه وثباته، وفي كونه إيجابياً لا سلبياً، وفي كونه غير مشوب ولا منغص بشيء من الآلام، وفي كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض ولا إزالة أقذار، بخلاف نعيم الدنيا؛ لأن لذاتها يشوبها مكدرات، وسرورها يعقبه غم وحزن كما قال الشاعر:

أَشَـدُّ ٱلْـغَـمِّ عِـنْـدِيْ فِـيْ سُـرُوْرٍ ... تَـيَـقَّـنَ عَـنْـهُ صَـاحِـبُـهُ زَوَالاَ

---

(١) الخازن.

والروحاني منه كلقاء الله ورضوانه وكمال معرفته، يجل عنه الوصف والتحديد، ولا شبيه له في نعيم الدنيا.

وقرأ[1] ابن عامر وحده: ﴿ولدار الآخرة﴾ بالإضافة، فقيل: من إضافة الموصوف إلى صفته؛ كمسجد الجامع، وقيل: من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه؛ أي: ولدار الآخرة. وقراءة ابن عامر موافقة لمصحفه، فإنها رسمت في مصاحف الشاميين بلام واحدة، واختارها بعضهم لموافقتها لما أجمع عليه في يوسف: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، وفي مصاحف الناس بلامين. وقرأ باقي السبعة: ﴿وللدار الآخرة﴾ بتعريف الدار بأل ورفع الآخرة نعتاً لها.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: قل لهم: أتغفلون أيها المخاطبون المنكرون للبعث عن هذا المذكور، فلا تعقلون وتفهمون أن الحياة الدنيا لعب ولهو، وأنها فانية، والآخرة باقية، وأنتم ترون من يموت، ومن تنوبه النوائب وتفجعه الفواجع؟ ففي ذلك مزدجر عن الركون إليها، واستبعاد النفوس لها، ودليل على أن لها مدبِّراً يلزم الخلق عبادته وعدم إشراك غيره معه في ذلك التدبير والنظام، وإخلاص العبادة والطاعة له.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص[2]: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء، خطاباً لمن كان في حضرة الرسول ﷺ من منكري البعث كما فسرنا. وقرأ الباقون بالياء على الغيبة؛ أي: أيغفل الذين يتقون، فلا يعقلون أن الدار الآخرة خير لهم من هذه الدار، فيعملون لما ينالون به الدرجة الرفيعة والنعيم الدائم، فلا يفترون في طلب ما يوصل إلى ذلك.

وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ كلام مستأنف مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما ناله من الغم والحزن بتكذيب الكفار له. والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشأن والحال، والجملة بعده مفسرة له، وما ذكره «الشوكاني» وغيره هنا من أن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

﴿قَدۡ﴾ للتكثير غير ظاهر كما ذكره أبو حيان؛ لأن علمه تعالى لا يمكن فيه التكثير والزيادة. والظاهر أن يقال: إنها هنا للتحقيق والتوكيد، نظير قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، وقوله الشاعر:

وَقَـدْ تُـدْرِكُ ٱلإِنْـسَـانَ رَحْـمَـةُ رَبِّـهِ   وَلَـوْ كَـانَ تَـحْـتَ ٱلأَرْضِ سَبْعِيْنَ وَادِيَا

أي: حقاً علمنا يا محمد أنه ليحزنك ويهمك القول الذي يقولونه لك في الظاهر في طعنك وتكذيب نبوتك، ورد دعوتك إلى التوحيد، وتنفير العرب عنك من قولهم: إنك ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون.

قال ابن كثير[(١)]: يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له، ومخالفتهم إياه: قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وأسفك عليهم، كما جاء في قوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾. قرأ[(٢)] نافع: ﴿ليُحزنك﴾ بضم الياء وكسر الزاي من أحزن الرباعي، والباقون بفتح الياء وضم الزاي من حزن الثلاثي.

ثم بين أن هذا التكذيب منشؤه العناد والجحود لإخفاء الدليل، فقال: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ أي: فلا تحزن لما يقولون فيك وفي دينك في الظاهر؛ لأنهم لا يكذبونك في السر، فإنهم قد علموا صدقك. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآنية والإعجازية ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ ـها ويعاندونها، ويدفعونها بصدودهم عنها وتنفير الناس عنها بعد معرفة حقيقتها. وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر.

وقرأ علي ونافع والكسائي[(٣)]: ﴿يكذبونك﴾ بسكون الكاف من أكذب الرباعي؛ أي: لا يجدونك كاذباً؛ لأنهم يعرفون صدقك وأمانتك. وقرأ باقي السبعة وابن عباس: ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ بفتح الكاف وتشديد الذال من كذب المضعف؛

---

(١) ابن كثير.
(٢) المراح.
(٣) البحر المحيط.

أي: لا ينسبونك إلى الكذب بالاعتقاد واللسان. فقيل: هما بمعنى واحد نحو: كثر وأكثر، وقيل: بينهما فرق كما فسرنا. حكى الكسائي أن العرب تقول: كذّبت الرجل إذا نسبت إليه الكذب، وأكذبته إذا نسبت الكذب إلى ما جاء به دون أن تنسبه إليه.

والمعنى[1]: أنهم يقولون في كل معجزة: إنها سحر، وينكرون دلالة المعجزة على الصدق على الإطلاق، أو المعنى: أن القوم ما كذبوك، وإنما كذبوني؛ لأنك رسولي؛ كقول السيد لعبده وقد أهانه بعض الناس: أيها العبد، إنه ما أهانك، وإنما أهانني، والمقصود تعظيم الشأن لا نفي الإهانة عن العبد، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾. روى سفيان الثوري عن علي قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وروي أن الحارث بن عامر من قريش قال: يا محمد، واللَّهِ ما كذبتنا قط، ولكنا إن اتبعناك.. نتخطف من أرضنا، فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب.

والخلاصة[2]: أنهم لا ينسبون النبي ﷺ إلى افتراء الكذب، ولا يجدونه كاذباً في خبر يخبر به؛ بأن يتبين أنه غير مطابق للواقع، وإنما يدعون أن ما جاء به من أخبار الغيب التي من أهمها البعث والجزاء كذبٌ غير مطابق للواقع، ولا يقتضي ذلك أن يكون هو الذي افتراه، فإن التكذيب قد يكون للكلام دون المتكلم الناقل له، وذكر الرازي في نفي التكذيب مع إثبات الجحود أربعة أوجه:

١ ـ أنهم ما كانوا يكذبونه في السر، ولكنهم كانوا يكذبونه في العلانية، ويجحدون القرآن والنبوة.

٢ ـ أنهم لا يقولون له: إنك كذاب؛ لأنهم جربوه الدهر الطويل، فلم يكذب فيه قط، ولكن جحدوا صحة النبوة والرسالة، واعتقدوا أنه تخيل أنه نبي، وصدق ما تخيله فدعا إليه.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

٣ ـ أنهم لما أصروا على التكذيب مع ظهور المعجزات القاهرة وفق دعواه.. كان تكذيبهم تكذيباً لآيات الله المؤيدة له، أو تكذيباً له سبحانه وتعالى، فكأن الله قال له: إن القوم ما كذبوك، ولكن كذبوني، وذلك أن تكذيب الرسول كتكذيب المرسل المصدِّق له بتأييده على حد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

٤ ـ أن المراد أنهم لا يخصونك بالتكذيب، بل ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقاً، ويقولون في كل معجزة إنها سحر، فكأن الخلاصة أنهم لا يكذبونك على التعيين، ولكن يكذبون جميع الأنبياء والرسل.

ثم لفت وصرف نظر رسوله ﷺ لأن يقتدي بالرسل قبله في الصبر على التكذيب، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد كذب الرسل الذين من قبلك ـ كنوح ومن بعده ـ قومهم، كما كذبك قومك ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾؛ أي: فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ بإهلاك قومهم فاصبر يا أشرف الخلق كما صبروا.. تظفر على أعدائك كما ظفروا، بل أنت أولى بالتزام الصبر؛ لأنك مبعوث إلى جميع العالمين.

وقرأ[١] الجمهور: ﴿وَأُوذُوا۟﴾ بواو بعد الهمزة من آذى يؤذي رباعياً. وقرأ ابن عامر في رواية شاذة: ﴿وأذوا﴾ من غير واو بعد الهمزة، وهو من أذيت الرجل ثلاثياً لا من آذيت رباعياً. اهـ «سمين». وفي الآية تسلية للرسول ﷺ بعد تسلية، وإرشاد إلى سننه تعالى في الرسل والأمم، وقد صرح بوجوب الصبر على هذا الإيذاء في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾. وقد دلت التجارب على أن التأسي يهون المصاب، ويفيد شيئاً من السلوى، ومن هذا تعلم حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية مع الأمر بالصبر المرة بعد المرة؛ لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له ﷺ من شأنهما أن يتكررا بتكرر سببهما وبتذكره.

(١) الفتوحات.

وفي الآية بشارة للرسول ﷺ مؤكدة للتسلية بأن الله تعالى سينصره على المكذبين الظالمين من قومه، وعلى كل من يكذبه ويؤذيه من أمة الدعوة، كما أنَّ فيها إيماءً إلى حسن عاقبة الصبر، فمن كان أصبر.. كان حقيقاً بالنصر إذا تساوت بين الخصمين وسائل الغلب والقهر.

والمعنى: أن[1] هذا الذي وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأول ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم، بل وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك، فاقتد بهم، ولا تحزن، واصبر كما صبروا على ما كذبوا به وأوذوا، حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم، فإنا لا نخلف الميعاد، ولكل أجل كتاب ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: لا مغير ولا ناقض لحكمه وقضائه تعالى، وقد حكم الله سبحانه وتعالى بنصر الأنبياء في نحو قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾؛ أي: فإن وعد الله إياك بالنصر حق وصدق، ولا يمكن تطرق الخلف والتبديل إليه، بل وعده كائن، وأنت منصور على المكذبين ظاهر عليهم، وقد كان ذلك فللّه الحمد.

والحاصل: أن كلمات الله لا يمكن أن يبدلها مبدل، فنصر الرسل حتم لا بد منه، والتبديل: جعل شيء بدلاً من شيء آخر، وتبديل الكلمات والأقوال نوعان:

١ - تبديل ذاتها بجعل قول مكان قول، وكلمة مكان أخرى، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

٢ - تبديل مدلولها ومضمونها، كمنع نفاذ الوعد والوعيد، أو وقوعه على خلاف القول الذي سبق، وهذا الأخير هو المراد هنا.

ثم أكد سبحانه عدم التبديل بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي قد جاءك يا محمد من خبر المرسلين الذي قصصناه عليك من قبل

---

(١) الشوكاني.

في القرآن ما فيه كفاية وتأس لك بهم، كيف كذبهم قومهم وكيف أنجيناهم ودمرنا قومهم. فقد روي أن سورة الأنعام نزلت بين سورة الشعراء والنمل والقصص وهود والحجر المشتملة على نبأ المرسلين بالتفصيل. وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك، كعاقبة المكذبين للرسل، فيرجعون إليك، ويدخلون في الدين الذي أنت تدعوهم إليه طوعاً أو كرهاً.

وكما وعد الله رسله بالنصر.. وعد المؤمنين به في نحو قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فما بالنا نرى كثيراً ممن يدَّعون الإيمان في هذا الزمان غير منصورين، فلا بد إذاً من أن يكونوا في إيمانهم غير صادقين، ولأهوائهم متبعين، ولسنته في أسباب جاهلين، فالله لا يخلف وعده ولا يبطل سننه، بل ينصر المؤمن الصادق الذي يتحرى الحق والعدل في حربه، لا الظالم الباغي من خلقه، والذي يقصد إعلاء كلمة الله ونصر دينه، كما جاء في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ﴾ الشأن ﴿كَبُرَ﴾ وشق وعظم ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ وإبائهم عن الإيمان بما جئت به من القرآن، وأحببت أن تجيبهم إلى ما سألوه. ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ وقدرت ﴿أَن تَبْتَغِىَ﴾ وتطلب ﴿نَفَقًا﴾ ومنفذاً وسرباً ﴿فِى الْأَرْضِ﴾؛ أي: أن تتخذ منفذاً تنفذ به إلى جوف الأرض، والنفق: سرب في الأرض تخلص منه إلى مكان آخر.

وقرأ نبيح الغنوي: ﴿أن تبتغي نافقاء﴾ والنافقاء ممدوداً: هو أحد مخارج جحر اليربوع.

﴿أَوْ﴾ تبتغي ﴿سُلَّمًا﴾ ومصعداً ترتقي به ﴿فِى السَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ ومعجزة من جنس ما اقترحوه وطلبوه منك من تحت الأرض، أو من فوق السماء.. فأفعل ذلك، ولكنك لا تستطيع ذلك، فدع الحزن: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

والمعنى: وإن كان إتيانك بآية مما اقترحوا يدحض حجتهم ويكشف شبهتهم، فيؤمنون عن بينة وبرهان، فإن استطعت أن تبتغي لنفسك نفقاً تطلبه في الأرض، فتذهب في أعماقها، أو سلماً في جو السماء ترقى فيه إلى ما فوقها، فتأتيهم بآية مما اقترحوا عليك.. فأت بما يدخل تحت طوع قدرتك من ذلك، كتفجير ينبوع لهم من الأرض، أو تنزيل كتاب تحمله من السماء، وقد كانوا طلبوا ذلك كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ وقد أمره الله أن يجيبهم عن ذلك بقوله عقب هذا: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؛ أي: وليس ذلك في قدرة البشر، وإن كان رسولاً فالرسل لا يقدرون على شيء مما يعجز عنه البشر، ولا يستطيع إيجاده غير الخالق.

وخلاصة ذلك: أنك لن تستطيع الإتيان بشيء من تلك الآيات، ولا ابتغاء السبل إليها في الأرض ولا في السماء، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك؛ لعلمه أنه لن يكون سبباً لما تحبه من هدايتهم. والمقصود من هذا الكلام: أن يقطع الرسول طمعه عن إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان وإقبالهم على الكفر، وهذا دليل على مبالغة حرصه ﷺ على إسلام قومه إلى حيث لو قدر على أن يأتي بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء.. لفعل رجاءً لإيمانهم.

ثم أكد عدم إيمانهم، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى ﴿لَجَمَعَهُمْ﴾؛ أي: لجمع هؤلاء المكذبين لك ﴿عَلَى الْهُدَىٰ﴾ جمع إلجاء وقسر، ولكنه لم يشأ ذلك، ولله الحكمة البالغة؛ أي: ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه؛ إما بأن يجعل الإيمان ضرورياً لهم كالملائكة، وإما بأن يخلقهم على استعداد واحد للحق والخير، لا متفاوتي الاستعداد مختلفي الاختيار باختلاف العلوم والأفكار والأخلاق والعادات، ولكنه شاء أن يجعلهم على ما هم عليه من الاختلاف والتفاوت، وما يترتب على ذلك من أسباب الاختيار.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ أي: إذا عرفت سننه تعالى في خلق

الإنسان، وأنه لا تبديل لخلق الله. . فلا تكونن من الجاهلين لسننه في ذلك، فتتمنى ما تراه حسناً نافعاً، وإن كان حصوله ممتنعاً؛ لكونه مخالفاً لتلك السنن التي اقتضتها الحكمة الإلهية. فإن شدة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن الله بذلك، هو صنيع أهل الجهل، ولست منهم، فدع الأمور مفوضة إلى عالم الغيب والشهادة، فهو أعلم بما فيه المصلحة، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التي لو بدا لهم بعضها. . لكان إيمانهم بها اضطراراً، أو المعنى: ولا تجزع على إعراضهم عنك، ولا يشتد تحزنك على تكذيبهم بك، فإن فعلت ذلك. . فتقارب حالك من حال الجاهلين الذين لا صبر لهم.

وخلاصة ذلك: لا تكونن بالحرص على إسلامهم والميل إلى الإتيان بمقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شؤونه تعالى في خلقه.

الإعراب

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ الواو: استئنافية. ﴿منهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿يَسْتَمِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾، ووحد الضمير في الفعل حملاً على لفظ ﴿مَّن﴾ وما جاء منه على لفظ الجمع فعلى معنى ﴿مَّن﴾ نحو: ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ و﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: الواو: عاطفة. ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية المذكورة قبلها، أو مستأنفة مسوقة للإخبار بما تضمنته من الختم على قلوبهم وسمعهم، وجعلنا بمعنى: صيرنا يتعدى إلى مفعولين. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف مفعول ثانٍ لـ﴿جعلنا﴾. ﴿أَكِنَّةً﴾: مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾، والتقدير: وجعلنا أكنة مستقرة على قلوبهم. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر المنصوب على كونه

مفعولاً لأجله تقديره: وجعلنا على قلوبهم أكنة كراهية فقههم إياه. ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿جعلنا﴾. ﴿وَقۡرٗاۚ﴾: معطوف على ﴿أَكِنَّةً﴾ على كونه مفعولاً أولاً لـ﴿جعلنا﴾، ولا يعد الفصل بين حرف العطف والمعطوف بالظرف فصلاً، والتقدير: وجعلنا وقراً مستقراً في آذانهم.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: استئنافية. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿يَرَوۡاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿كُلَّ ءَايَةٖ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ورأى بصرية تتعدى لمفعول واحد ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُؤۡمِنُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿بِهَاۖ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿يؤمنوا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: ابتدائية تبتدأ بعدها الجمل، أو غائية لا عمل لها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿جَآءُوكَ﴾. ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿يقول﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنۡ﴾ نافية لا عمل لها لانتقاض نفيها بـ﴿إلا﴾. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر واستثناء لا عمل لها. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾.

﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾.

﴿وَهُمۡ﴾ الواو: حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: ينهون الناس. ﴿عَنۡهُ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الفاعل

في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾. ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُۖ﴾: متعلق به، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَنْهَوْنَ﴾. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾: الواو: عاطفة على محذوف. ﴿إن﴾: نافية لا عمل لها. ﴿يُهْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: وهم ينهون عنه وينأون عنه؛ أي: عن الرسول، أو القرآن قاصدين تخلي الناس عن الرسول فيلهلكونه، وهم في الحقيقة يهلكون أنفسهم، ذكره أبو حيان. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: الواو: حالية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَشْعُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُهْلِكُونَ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وهي بصرية، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أيِّ مخاطب، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، ومفعول ترى محذوف تقديره: ولو ترى حالهم إذ وقفوا على النار، وجواب ﴿لو﴾ محذوف أيضاً تقديره: ولو ترى حالهم إذ وقفوا على النار.. لرأيت أمراً عجيباً، وشأناً فظيعاً، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، وعبر بـ﴿إذ﴾ عما في المستقبل إشعاراً بتحقق وقوعه، والظرف متعلق بـ﴿ترى﴾. ﴿وُقِفُواْ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿فَقَالُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وُقِفُواْ﴾: ﴿يَٰلَيْتَنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، والمنادى محذوف تقديره: يا قومنا ليتنا، أو ﴿يا﴾: حرف تنبيه، فلا حذف. ﴿ليتنا﴾: ﴿ليت﴾: حرف تمنٍ ونصب، ونا: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿نُرَدُّ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير المتكلمين، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿ليت﴾، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نُكَذِّبَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة وجوباً بعد الواو العاطفة، وفاعله ضمير المتكلمين.

﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نكذب﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيَّد من الجملة التي قبلها من غير سابك؛ لإصلاح المعنى تقديره: يا قومنا نتمنى ردنا إلى الدنيا، وعدم تكذيبنا بآيات ربنا. ﴿وَنَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿نُكَذِّبَ﴾ منصوب بأن مضمرة، واسمها ضمير المتكلمين. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿نكون﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿نُكَذِّبَ﴾ على كونها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد تقديره: يا قومنا نتمنى ردنا إلى الدنيا، وعدم تكذيبنا بآيات ربنا، وكوننا من المؤمنين. هذا على قراءة النصب في الفعلين، وأما على قراءة رفعهما ﴿ولا نكذِّبُ﴾: الواو: حالية، وجملة ﴿نكذِّبُ﴾ في محل الرفع خبر مبتدأ محذوف تقديره: يا ليتنا نرد ونحن لا نكذب بآيات ربنا، والجملة الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل ﴿نُرَدُّ﴾، وجملة ﴿نكون﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿نكذِّبُ﴾ على كونها خبر المبتدأ المحذوف، والجملة الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل ﴿نُرَدُّ﴾، والتقدير: يا ليتنا نرد غير مكذبين، وكائنين من المؤمنين، فيكون تمني الرد مقيداً بهاتين الحالتين، فيكون الفعلان داخلين في المتمنى، ويحتمل كون الرفع في الفعلين بالعطف على الفعل قبلهما، وهو ﴿نُرَدُّ﴾، ويكونون قد تمنوا ثلاثة أشياء: الرد إلى دار الدنيا، وعدم تكذيبهم بآيات ربهم، وكونهم من المؤمنين.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب عما يدل عليه التمني من رغبتهم في الإيمان؛ أي: ليس الأمر كما يدل عليه تمنيهم من خلوص رغبتهم في الإيمان، بل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون من قبل من الشرك؛ لأنهم قالوا أولاً: والله ربنا ما كنا مشركين. ﴿بَدَا﴾: فعل ماضٍ. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل ﴿بَدَا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة التي قدرناها سابقاً بقولنا: ليس الأمر كما يدل عليه تمنيهم على كونها مستأنفة. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يُخْفُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿يُخْفُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾،

وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يخفونه من قبل. ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿رُدُّواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَعَادُواْ﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿عادوا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ على كونها مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿لِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عادوا﴾. ﴿نُهُواْ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿عَنْهُ﴾. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: الواو: استئنافية أو اعتراضية. ﴿إنّ﴾: حرف نصب، والهاء في محل النصب اسمها. ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء زحلقت عن محلها. ﴿كاذبون﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، أو معترضة لاعتراضها بين المعطوف الذي هو ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، والمعطوف عليه الذي هو، قوله: ﴿لَعَادُواْ﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ الواو: استئنافية أو عاطفة. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة قوله: ﴿لَعَادُواْ﴾ على كونها جواباً لـ﴿لو﴾. ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هِىَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿حَيَاتُنَا﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿حياتنا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية حجازية تعمل عمل ليس. ﴿نَحْنُ﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾: الباء: زائدة في خبر ﴿ما﴾. ﴿مبعوثين﴾: خبرها منصوب، وعلامة نصبه الياء المقدرة الممنوع ظهورها بالياء المجلوبة لأجل حرف جر زائد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قالوا﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ

بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد وهو محذوف تقديره: ولو ترى حالهم إذ وقفوا، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، أو على أيِّ مخاطب، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً، وجملة ﴿لو﴾ مع جوابها المحذوف مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان بحسب الأصل، ولكنها مضمنة هنا معنى الاستقبال في محل النصب على الظرفية، مبنية على السكون، والظرف متعلق بـ﴿ترى﴾. ﴿وُقِفُواْ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿وقفوا﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، أو حال من ربهم. وفي «الفتوحات»: في[1] هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها استئنافية في جواب سؤال مقدر تقديره: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ قال: قال لهم: أليس هذا بالحق؟

والثاني: أن تكون الجملة حالية، وصاحب الحال ربهم، كأنه قيل: وقفوا عليه قائلاً لهم أليس هذا بالحق؟ اهـ «سمين».

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: الهمزة: للاستفهام التوبيخي. ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص. ﴿هَٰذَا﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ الباء: زائدة في خبر ﴿ليس﴾. ﴿الحق﴾: خبرها، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي المفهوم من السؤال. ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾: الواو: حرف جر وقسم. ﴿ربنا﴾: مقسم به ومضاف إليه مجرور بواو القسم، الجار والمجرور

(١) الفتوحات.

متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم وربنا، والجملة القسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَذُوقُوا۟﴾: الفاء: حرف موضوع للدلالة[1] على ترتيب التعذيب على اعترافهم بحقية ما كفروا به في الدنيا. ﴿ذوقوا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِمَا﴾ الباء: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكْفُرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: فذوقوا العذاب بسبب كفركم في الدنيا، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ذوقوا﴾، ويصح أن تكون ﴿ما﴾ موصولاً اسمياً عائده محذوف تقديره: فذوقوا العذاب بسبب شرككم الذي كنتم تكفرون به في بعض المواقف بقولكم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿بَغْتَةً﴾: منصوب على الحالية من الساعة، ولكن على تأويله بالمشتق تقديره: مباغتة ومفاجئة لهم. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ في نصبها أربعة أوجه:

أحدها: أنها مصدر في موضع الحال من فاعل ﴿جَآءَتْهُمُ﴾؛ أي: مباغتة، أو من مفعوله؛ أي: مبغوتين.

---

(١) الجمل.

الثاني: أنها مصدر معنوي لـ﴿جَآءَتْهُمُ﴾؛ لأن معنى جاءتهم: بغتتهم بغتة، فهو كقولهم: أتيته ركضاً.

الثالث: أنها منصوبة بفعل محذوف من لفظها؛ أي: تبغتهم بغتة.

الرابع: بفعل من غير لفظها؛ أي: أتتهم بغتة انتهى. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ﴿حتى﴾ الغائية تقديره: استمروا على التكذيب إلى قولهم: يا حسرتنا على ما فرطنا في الساعة وقت مجيئها إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿كذبوا﴾. ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾: مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿حسرتنا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾: ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿فَرَّطْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرَّطْنَا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿على﴾ تقديره: على تفريطنا فيها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿حسرتنا﴾؛ لأنه في الأصل مصدر لفرَّط المضعف، والتفريط: التقصير مع القدرة على تركه.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

﴿وَهُمْ﴾: الواو: حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قالوا يا حسرتنا في حالة حملهم أوزارهم. ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَحْمِلُونَ﴾. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح وتنبيه. ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض من أفعال الذم. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل، وجملة ﴿يَزِرُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ساء الذي يزرونه، أو ساء شيء يزرونه، ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، وهي مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية تقديره: ألا ساء وزرهم، والمخصوص بالذم حملهم ذلك.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾: صفة لها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لَعِبٌ﴾: خبر المبتدأ ﴿وَلَهْوٌۖ﴾: معطوف عليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَلدَّارُ﴾: الواو: استئنافية. اللام: موطئة لقسم محذوف. ﴿الدار﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾: صفة الدار؛ لأنه في الأصل صفة بمعنى المتأخرة. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿لِّلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿يَتَّقُونَۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، و﴿خَيْرٌ﴾ أفعل التفضيل، وحسن حذف المفضل عليه لوقوعه خبراً، والتقدير: خير من الحياة الدنيا. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الهمزة، للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف تقديره: أتغفلون عن خيرية الدار الآخرة من الدنيا، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة، والمحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿نَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ﴿إنّ﴾ حرف نصب وتوكيد، وكسرت همزتها لدخول اللام المعلقة لنعلم عن العمل في خبرها قال ابن مالك:

وَكَسَرُوْا مِنْ بَعْدِ فِعْلٍ عُلِّقَا ... بِٱللَّامِ كَٱعْلَمْ إِنَّهُ لَذُوْ تُقَىٰ

والهاء ضمير الشأن في محل النصب اسمها. ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء زحلقت للخبر؛ لئلا يتوالى حرفا تأكيد. ﴿يحزنك﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلَّذِى﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ من اسمها وخبرها سادة مسد مفعولي ﴿نَعْلَمُ﴾. ﴿يَقُولُونَۖ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يقولونه.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء: تعليلية. ﴿إنّ﴾: حرف نصب، والهاء: اسمها ﴿لَا﴾:

نافية. ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل محذوف معلوم من السياق تقديره: لا تحزن لتكذيبهم إياك في الظاهر؛ لأنهم لا يكذبونك في السر. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: اسمها منصوب بالياء. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يجحدون﴾، وجملة ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾.

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾: الواو: استئنافية. اللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كذبت﴾، ولا يجوز أن يكون صفة لـ﴿رُسُلٞ﴾؛ لأنه زمان، والجثة لا توصف بالزمان ذكره أبو البقاء، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿فَصَبَرُواْ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿صبروا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كُذِّبَتۡ﴾ على كونها جواب قسم لا محل لها من الإعراب. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿كُذِّبُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿على﴾، والجار والمجرور متعلق بـ﴿صبروا﴾، والتقدير: فصبروا على تكذيب الكافرين إياهم. ﴿وَأُوذُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ﴾؛ أي: كذبت الرسل وأوذوا فصبروا على كل ذلك. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بمعنى إلى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿صبروا﴾؛ أي: فصبروا إلى إتيان نصرنا إياهم. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾: الواو: استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿مُبَدِّلَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُبَدِّلَ﴾، وخبر ﴿لا﴾ محذوف تقديره: ولا مبدل لكلمات الله موجود، وجملة ﴿لا﴾ مستأنفة. ﴿وَلَقَدۡ﴾: الواو: استئنافية،

واللام موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ومفعول. ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جاء﴾، وفاعل ﴿جاء﴾ محذوف تقديره: ولقد جاءك من نبأ المرسلين ما فيه كفاية، كما سبق في مبحث التفسير، ويحتمل كون الفاعل من نبأ المرسلين على جعل ﴿مِن﴾ زائدة، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾.

﴿وَإِن﴾: الواو: استئنافية. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ، شأنية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، واسمها ضمير الشأن. ﴿كَبُرَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾: فاعل، ومضاف إليه وجملة ﴿كَبُرَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مفسرة لاسمها الذي هو ضمير الشأن، ولا حاجة إلى تقدير: قد، وقيل: اسم كان ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾، و﴿كَبُرَ﴾ جملة فعلية في محل النصب على أنها خبر لـ﴿كان﴾ مقدم على اسمها؛ لأنها فعل رافع لضمير مستتر كما هو المشهور. اهـ «أبو السعود»، والإتيان بلفظ ﴿كَانَ﴾ مع استقامة المعنى بدونها ليبقى الشرط على مضيه، ولا تقلبه إن للاستقبال؛ لأن ﴿كَانَ﴾ لقوة دلالتها على المضي لا تقلبها كلمة ﴿إن﴾ إلى الاستقبال بخلاف سائر الأفعال. اهـ «كرخي». ﴿فَإِنِ﴾: الفاء: رابطة الجواب جوازاً. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿ٱسْتَطَعْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الثانية محذوف تقديره: فافعل ذلك، وجملة ﴿إن﴾ الثانية مع جوابها المحذوف جواب لـ﴿إن﴾ الأولى وجملة ﴿إن﴾ الأولى مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾: ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَبْتَغِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿نَفَقًا﴾: مفعول به. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَفَقًا﴾، أو متعلق بـ﴿تَبْتَغِيَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: فإن استطعت ابتغاء نفق في الأرض أو سلم في السماء. ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾: معطوف على نفقاً. ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿سُلَّمًا﴾، أو متعلق بـ﴿تَبْتَغِيَ﴾.

﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾: الفاء: عاطفة ﴿تأتي﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿تَبْتَغِىَ﴾ والهاء: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تأتي﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، ﴿لَجَمَعَهُمْ﴾: اللام رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿جمعهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جمع﴾. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت سننه تعالى في خلق الإنسان، وأنه لا تبديل لخلق الله، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ﴿لا تكونن﴾ ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع ناقص في محل الجزم بـ﴿لا﴾ مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير مستتر فيها تقديره: أنت يعود على محمد ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: جار ومجرور، وخبر ﴿تَكُونَنَّ﴾، وجملة ﴿تَكُونَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان، كأزمة جمع زمام، وأعنة جمع عنان، وفي «المصباح»: كننته أكنه من باب ردَّ سترته في كنه بالكسر، وهو: السترة، وأكننته: أخفيته. وقال أبو زيد: الثلاثي والرباعي لغتان في الستر، وفي الإخفاء جميعاً واكتن الشيء واستكن: استتر، والكنان: الغطاء وزناً، ومعنى، والجمع: أكنة مثل: أغطية انتهى.

وقال بعضهم: الكنُّ بالكسر ما يحفظ فيه الشيء، وبالفتح: المصدر، يقال: كننته كناً؛ أي: جعلته في كن، ويجمع على أكنان، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، والكنان: الغطاء الساتر والوعاء الجامع قال الشاعر:

إِذَا مَا ٱنْتَضَوْهَا فِي ٱلْوَغَىٰ مِنْ أَكِنَّةٍ حَسِبْتَ بُرُوْقَ ٱلْغَيْثِ هَاجَتْ غُيُوْمُهَا

والفعل من هذه المادة يستعمل ثلاثياً ورباعياً يقال: كننت الشيء كناً وأكننته إكناناً إلا أن الراغب فرّق بين فعل وأفعل، فقال: وخصَّ كننت بما يستر من بيت أو ثوب أو غير ذلك من الأجسام قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ وأكننت بما يستر في النفس قال تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ قلت: ويشهد لما قاله قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٧﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾، وكنا يجمع على أكنة في القلة والكثرة لتضعيفه اهـ «سمين».

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ في «المصباح»: الوقر بالكسر: حمل البغل والحمار، ويستعمل في البعير، وأوقر بعيره بالألف، وقرت الأذن توقر من باب تعب ووقرت تقر من باب وعد: ثقل سمعها، ووقرها الله وقراً من باب وعد، يستعمل لازماً ومتعدياً، والوقار: الحمل والرزانة، وهو مصدر وقر بالضم مثل: جمل جمالاً، ويقال أيضاً: وقر يقر من باب وعد فهو وقور مثل رسول، والمرأة وقور أيضاً فعول بمعنى فاعل، مثل صبور وشكور، والوقار: العظمة أيضاً والوقر بالفتح الثقل في السمع.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ والآية: العلامة الدالة على صدق الرسول ﷺ ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وفي «المختار»: والأساطير: الأباطيل، والواحد: أسطورة بالضم وإسطارة بالكسر انتهى.

وفي «السمين»: وأساطير فيه أقوال:

أحدها: أنه جمع لواحد مقدر، واختلف في ذلك المقدر فقيل: أسطورة، وقيل: أسطور، وقيل: أسطار، وقيل: أسطير، وقال بعضهم: بل لُفظ بهذه المفردات.

والثاني: أنه جمع جمع، فأساطير جمع: أسطار، وأسطار جمع: سطر بفتح الطاء، وأما سطر بسكونها فجمعه في القلة على أسطر، وفي الكثرة على سطور، كفلس وأفلس وفلوس، وبقية الأقوال ليس بشيء، فلا نطيل الكلام بذكرها، فراجعها في «الفتوحات».

ومعنى الأساطير: الأحاديث الباطلة والخرافات والترهات.

﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ أصله: ينهيون، استثقلت الضمة على الياء، ثم حذفت فالتقى ساكنان وهما: الياء والواو، ثم حذفت الياء فصار: ينهون.

﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾ وفي «المصباح»: نأى نأياً من باب سعى يتعدى بنفسه وبالحرف، وهو الأكثر، فيقال: نأيته ونأيت عنه، ويتعدى بالهمزة إلى الثاني فيقال: أنأيته عنه انتهى. والنأي عنه يشمل الإعراض عن سماعه، والإعراض عن هدايته، وأصله: ينأيون كينهيون فعل به ما فيه فعل آنفاً.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾ ووقف يتعدى، ولا يتعدى، وفرقت العرب بينهما بالمصدر، فمصدر اللازم على فعول، ومصدر المتعدي على فعل، ولا يقال: أوقفت، قال أبو عمرو بن العلاء: لم أسمع في شيء من كلام العرب: أوقفت فلاناً إلا أني لو رأيت رجلاً واقفاً فقلت له: ما أوقفك ههنا لكان عندي حسناً، وإنما كان حسناً؛ لأن تعدي الفعل بالهمزة مقيس نحو: ضحك وأضحكته أنا، ولكن سمع غيره في وقف المتعدي أوقفته اهـ «سمين». ويقال: وقف الرجل على الأرض وقوفاً إذا قام، ووقف المال على كذا وقفاً إذا حبسه عليه، وجعل منفعته له، كوقف العقار على الفقراء.

﴿إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾: والساعة في اللغة: الزمن القصير المعين، ثم أطلق على الوقت الذي ينقضي به أجل هذه الحياة، ويخرب العالم وما يتبع ذلك من البعث والحساب، سُمي بذلك لسرعة الحساب فيه، كأنه ساعة، والألف واللام في الساعة للغلبة كالنجم والثريا، لأنها غلبت على يوم القيامة. والبغتة: الفجأة، يقال: بغته بغتة إذا هجم عليه من غير شعور، والبغت والبغتة مفاجأة الشيء بسرعة من غير اعتدادٍ له، وجعل بال منه، حتى لو استشعر الإنسان به، ثم جاءه بسرعة لا يقال فيه: بغتة.

﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ والحسرة: الغم على ما فات، والندم عليه، وشدة التلهف والتألم عليه، كأن المتحسر قد انحسر وانكشف عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكب.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ التفريط: التقصير في الشيء مع القدرة على فعله، والتقصير ممن قدر على الجد والتشمير من الفرط، وهو السبق، ومنه الفارط والفرط، وهو الذي يسبق المسافرين لإعداد الماء لهم ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ جمع وزر بكسر أوله كحمل وأحمال وعدل وأعدال، والوزر في الأصل: الحمل الثقيل، ومنه وزره بزنة وعده: حمله على ظهره ووزرته حملته شيئاً ثقيلاً ووزير الملك من هذا؛ لأنه يتحمل أعباء ما قلده الملك من مؤونة رعيته وحشمه، ومنه: أوزار الحرب لسلاحها وآلها، ثم أطلق في الدين على الإثم والذنب، كأنه لثقله على صاحبه كالحمل الذي يثقل الظهر.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ واللعب: الفعل الذي لا يقصد به فاعله مقصداً صحيحاً من تحصيل منفعة، أو دفع مضرة، كأفعال الصبيان التي يتلذذون بها، واللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، وقد يسمى كل ما به استمتاع لهواً، ويقال: لهوت بالشيء ألهو به لهواً وتلهيت به إذا تشاغلت وغفلت به عن غيره. ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ الحزن: ألم يحل بالنفس عند فقد محبوب، أو امتناع مرغوب، أو حدوث مكروه، ولا سبيل لعلاجه إلا التسلي والتأسي كما قالت الخنساء:

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ ٱلْبَاكِيْنَ حَوْلِيْ عَلَىٰ إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِيْ
وَمَا يَبْكُوْنَ مِثْلَ أَخِيْ وَلَكِنْ أُسَلِّيْ ٱلنَّفْسَ عَنْهُ بِٱلتَّأَسِّيْ

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يقال: كذبه إذا رماه بالكذب والجحود، والجحد: نفي ما في القلب إثباته، أو إثبات ما في القلب نفيه، ويقال: جحده حقه وبحقه.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وكلمات اللّه هي وعده ووعيده، ومن ذلك وعده للرسل بالنصر، ووعيده لأعدائهم بالغلب والخذلان، كقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

﴿مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ النبأ: الخبر ذو الشأن العظيم يجمع على: أنباء كسبب وأسباب.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ يقال: كبر على فلان الأمر إذا عظم عنده وشق

عليه وقعه، والإعراض: التولي والانصراف عن الشيء رغبة عنه أو احتقاراً له.

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ استطاع من باب استغفل السداسي كاستعان واستقام يقال: استطعت الشيء إذا صار في طوعك منقاداً لك باستيفاء الأسباب التي تمكنك من فعله. ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾ ابتغى من باب افتعل الخماسي، والابتغاء: طلب ما في طلبه كلفة ومشقة من البغي، وهو تجاوز الحد، ويكون في الخير كابتغاء رضوان الله تعالى، وهو غاية الكمال، وفي الشر كابتغاء الفتنة، وهو غاية الضلال.

﴿نَفَقًا﴾ والنفق: السرب في الأرض، وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج، وفي «السمين» النفق: السرب النافذ في الأرض، وأصله في حجرة اليربوع، ومنه: النافقاء والقاصعاء انتهى.

﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ والسلم: المصعد والمرقاة، وقيل: الدرج، وقيل: السبب تقول العرب: اتخذني سلماً لحاجتك؛ أي: سبباً، وهو مشتق من السلامة؛ لأنه هو الذي يسلمك إلى مصعدك وتذكيره أفصح من تأنيثه.

﴿بِـَٔايَةٍ﴾ الآية: المعجزة ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ جمع: جاهل من الجهل، والجهل هنا ضد العلم، وليس كل جهل عيباً؛ لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علماً، وإنما يذم الإنسان بجهل ما يجب عليه، ثم بجهل ما ينبغي له، ويعدله كمالاً إذا لم يكن معذوراً في جهله.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية أو التمثيلية في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ لأن الظاهر أن الغطاء والصمم هنا ليسا حقيقة؛ بل ذلك من باب استعارة المحسوس للمعقول حتى يستقر في النفس، استعار الأكنة لصرف قلوبهم عن تدبر آيات الله، والثقل في الأذن لتركهم الإصغاء إلى سماعها.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ لتسجيل الكفر عليهم، وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ لتسجيل الظلم عليهم.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ لأن فيه التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، فإن قوله: ﴿جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ خطاب للرسول ﷺ.

ومنها: جناس التصريف في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾ وهو[1] أن تنفرد كل كلمة عن الأخرى بحرف، ﴿فينهون﴾ انفردت بالهاء، ﴿وينأون﴾ انفردت بالهمزة، ومنه: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ و﴿يفرحون﴾ و﴿يمرحون﴾، «والخيل معقود في نواصيها الخير»، وفي كتاب «التحبير» سماه تجنيس التحريف، وهو أن يكون الحرف فرقاً بين الكلمتين، وأنشد عليه قوله:

إنْ لَـمْ أَشِـنَّ عَـلَـىٰ ٱبْـنِ هِـنْـدٍ غَـارَةً ... لَـهَّـابَ مَـالٍ أَوَ ذَهَّـابَ نُـفُـوْسِ

وذكر غيره أن تجنيس التحريف هو أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين، كقول بعض العرب وقد مات له ولد: اللهم إني مسلم ومسلم.

ومنها: إبراز الآتي بصورة الماضي في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ إشعاراً بتحقق الوقوع.

ومنها: الإتيان بضمير مبهم يفسره خبره في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ إذ لا يعلم ما يراد به إلا بذكر خبره، وهو من الضمائر التي يفسرها ما بعدها لفظاً ورتبة اهـ «سمين».

ومنها: تأكيد الجواب بالقسم في قوله: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾؛ أكدوا اعترافهم باليمين إظهاراً لكمال يقينهم بحقيته، وإيذاناً بصدور ذلك عنهم للرغبة والنشاط.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنه شبه من استعاض الكفر عن الإيمان بمن خسر في صفقته العادم الربح ورأس ماله.

ومنها: الإضافة للتفخيم والتعظيم لشأن المضاف في قوله: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾؛

(١) البحر المحيط.

أي: جزائه تعظيماً لشأن الجزاء، وهو نظير قوله ﷺ: «لقى الله وهو عليه غضبان»؛ أي: لقي جزاءه.

ومنها: تعريف العهد في قوله: ﴿إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ بدون تقدم ذكر لها لشهرتها واستقرارها في النفوس.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ تنزيلاً لها منزلة العاقل؛ لأنه لا ينادى حقيقة إلا العاقل.

ومنها: تصدير الجملة الحالية بالضمير في قوله: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾؛ لأنه أبلغ في النسبة؛ إذ صار صاحب الحال مذكوراً مرتين من حيث المعنى.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾؛ لأنه شبه ما يجدونه من المشقة والآلام بسبب ذنوبهم بحمل الوزر الثقيل؛ أي: الحمل الثقيل.

ومنها: الجناس المغاير بين قوله: ﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿يَزِرُونَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾، وقوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾.

ومنها: القصر في مواضع كقوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، وقوله: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾؛ إذ قبله بآيات الله، فلو جاء على طبق ذلك لقيل: حتى أتاهم نصره. وفائدة هذا الالتفات: إسناد النصر إلى ضمير المتكلم المشعر بالعظمة.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ حيث أكدت الصيغة بإن وباللام وباسمية الجملة، للتنبيه على أن الكذب كان طبيعتهم.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ حيث جعل الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة، كقول الخنساء:

فَــإِنَّــمَــا هِــيَ إِقْــبَــالٌ وَإِدْبَــارُ

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

ومنها: التفخيم والتكثير بتنوين رسل في قوله: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾.

ومنها: تصدير الجملة بالقسم لتأكيد التسلية في قوله: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾؛ لأن عموم البلوى مما يهون أمرها بعض تهوين.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

فائدة: قال الإمام فخر الدين الرازي: قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يقتضي[1] له جواباً، وقد حذف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن، وأشباهه كثير في القرآن والشعر، وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره، ألا ترى أنك لو قلت لغلامك: واللّهِ لئن قمت إليك، وسكت عن الجواب ذهب فكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر، وعظم خوفه؛ لأنه لم يدر أيَّ الأقسام تبغي، ولو قلت: والله لئن قمت إليك لأضربنك، فأتيت بالجواب لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف.

وقال[2] أبو حيان: وجواب ﴿لو﴾ محذوف لدلالة المعنى عليه تقديره: لرأيت أمراً شنيعاً وهولاً عظيماً، وحذف جواب ﴿لو﴾ لدلالة الكلام عليه جائز، فيصح، ومنه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ الآية، وقول الشاعر:

وَجَــدِّكَ لَــوْ شَــيْءٌ أَتَــانَــا رَسُــوْلُــهُ سِــوَاكَ وَلَــكِــنْ لَــمْ نَــجِــدْ لَــكَ مَــدْفَــعَــا

أي: لو شيء أتانا رسوله سواك لدفعناه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) التفسير الكبير للرازي.

(٢) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ
عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ
فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ
يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ
تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ
﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم
بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا
ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم
مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ
سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ
هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما بين في الآية السابقة أنه لو شاء لجمع الناس على الهدى، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر مفطورين على ذلك، ولا أن يلجئهم إلجاءً بالآيات التي تقسرهم على ذلك، بل اقتضت حكمته أن يكون البشر متفاوتين في الاستعداد، مختارين في تصرفاتهم وأعمالهم، ومنهم من يختار الهدى على الضلال، ومنهم من يستحب العمى على الهدى.. ذكر هنا أن

(١) المراغي.

الأولين هم الذين ينظرون في الآيات، ويفقهون ما يسمعون من الحجج والبينات، وأن الآخرين لا يفقهون ولا يسمعون، فهم والأموات سواء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين فيما سلف أنه قادر على أن ينزل الآيات إذا رأى من الحكمة والمصلحة إنزالها، ولا ينزلها للتشهي والهوى كما يراه المقترحون من أولئك الظالمين المكذبين.. ذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك، فأرشد إلى عموم قدرته تعالى وشمول علمه وتدبيره، وأن كل ما يدب على وجه الأرض أو يطير في الهواء فهو مشمول بفضله ورحمته، فلو كان في إظهار هذه المعجزات مصلحة للمكلفين.. لفعلها، ولامتنع أن يبخل بها، إذ أنكم ترون أنه لم يبخل على شيء من الحيوان بمنافعها ومصالحها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بيَّن فيما سلف للمشركين أن علمه محيط بما في الأرض والسماء، وأن عنايته تعم كل ما درج على الأرض أو طار في الهواء، وأن أمم الحيوان مشابهة لأمم الإنسان، وقد أوتيت من الإلهام والمعرفة ما تميِّز به بين ما ينفعها ويضرها.. أمر نبيه ﷺ أن يوجه إليهم هذا السؤال، مذكراً لهم بما أودع في فطرتهم من توحيده عزَّ اسمه، ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض شاغل يفسد أذهانهم وقت الرخاء وارتفاع اللأواء، حتى إذا جد الجد ونزل بهم ما لا يطاق حمله من الشدائد.. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وضل عنهم ما كانوا يعبدون من الأصنام والأوثان، وما وضعوا رمزاً له من ملك أو إنسان.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ...﴾ الآية، مناسبة[2] هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما هددهم في الآيات السالفة بإتيان

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط بتصرف.

العذاب أو الساعة.. هددهم هنا بأخذ سمعهم وأبصارهم، والختم على قلوبهم، ولما كان هذا التهديد أخف من التهديد السابق.. لم يؤكد هنا بحرف الخطاب، واكتفى بخطاب الضمير فقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بلا كاف، ولما كان السابق أعظم من هذا.. أكد خطاب الضمير بحرف الخطاب فقال: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾، وفي تلك وهذه الاستدلال على توحيد الله تعالى، وأنه المتصرف في العالم، الكاشف للعذاب والراد لما شاء بعد الذهاب، وأن آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لله ولرسوله ﷺ دعوته إلى الإيمان والتوحيد ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: المؤمنون الذين يسمعون كلام الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ سماع تفهم وتدبر، فيعقلون الآيات، ويذعنون لما عرفوا بها من الحق، لسلامة فطرتهم، وصفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم دون الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، كالمقلدين الذين لا يفكرون في الأشياء بعقولهم، ودون الذين قالوا: سمعنا وعصينا من المستكبرين الجاحدين، فهؤلاء من موتى القلوب، وأبعد الناس عن الانتفاع بما يسمعون، لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة، وفي آذانهم من الوقر. ﴿وَالْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: الكفار الذين هم كموتى الأجساد الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاءً، ولا يفقهون قولاً؛ إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله تعالى، ولا يعتبرون بآياته، ولا يتذكرون فينزجرون عن تكذيب رسل الله ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: يترك أمرهم في الدنيا إلى أن يبعثهم الله تعالى من قبورهم مع سائر الناس ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: ثم إلى موقف حسابه يرجعون، ويحشرون إليه للمجازاة، فحينئذ يسمعون فينالون ما يستحقون على كفرهم وسيىء أعمالهم، وأما قبل ذلك.. فلا يسمعون فلا تبخع نفسك عليهم حسرات، إذ ليس في استطاعتك هدايتهم ولا إرجاعهم إلى محجة الرشاد.

وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَالْمَوْتَىٰ﴾ إلخ مقابل لقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ إلخ كأنه قال: والذين لا يستجيبون ولا يسمعون يبعثهم الله اهـ «خازن».

وقرىء[1]: ﴿ثم إليه يَرجعون﴾ بفتح الياء وكسر الجيم من رجع اللازم.

ثم ذكر شيئاً من عنادهم الدال على عظيم جحودهم، فقال: ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: وقال الظالمون لأنفسهم الذين يجحدون بآيات ربهم، ويعاندون رسوله إليهم، يعني: من رؤساء مكة، كالحارث بن عامر وأصحابه، وأبي جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، وأمية، وأبي بن خلف، والنضر بن الحارث. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: هلا أنزل على محمد آية ومعجزة من ربه دالة على نبوته من الآيات التي اقترحناها عليه، وجعلناها شرطاً لإيماننا به، كجعل الصفا ذهباً، وتوسيع أرض مكة، وتفجير الأنهار خلالها، أو من المعجزات التي أعطيها الأنبياء من قبله، كفلق البحر وإظلال الجبل، وإحياء الموتى، وإنزال الملائكة، وقلب العصا حية. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾؛ أي: على تنزيل آية مما اقترحوا؛ أي: على أن يوجد خوارق للعادة كما طلبوا إذا اقتضت الحكمة تنزيلها، لا ما تتعلق شهواتهم بتعجيز الرسول بطلبها، فقد مضت سنة الله تعالى بأن إجابة المعاندين إلى ما اقترحوا لم تكن سبباً للهداية في أمة من الأمم، بل كانت سبباً في عقاب المعاجزين للرسل بعذاب الاستئصال، وتنزيل الآية لا يكون خيراً لهم، بل هو شر لهم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من حكم الله تعالى في أفعاله، ولا من سننه في خلقه؛ أي: لا يدرون[2] أن في تنزيلها قلعاً لأساس التكليف المبنيِّ على قاعدة الاختيار، وأن الله تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من المعجزات القاهرة، فلم يؤمنوا عند ظهورها.. لاستحقوا عذاب الاستئصال، ولم يبق لهم عذر ولا علة، كما هو سنة الله، فاقتضت رحمة الله بهم صونهم عن هذا البلاء، فما أعطاهم هذا المطلوب رحمة منه تعالى عليهم، وإن لم يعلموا كيفية هذه الرحمة.

والخلاصة: أن طلبهم للآية أو الآيات مع وجود هذه الآيات البينات إنما هو محاولة تعجيز الرسول، لا أنه هو الدليل الذي يوصلهم إلى صدقه، يرشد إلى

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كلام[1] مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته تعالى وشمول علمه وسعة تدبيره؛ ليكون كالدليل على أنه قادر على تنزيل الآية، وإنما لم ينزلها محافظة على الحكم البالغة؛ أي: وما من دابة من الدواب التي تدب في أي مكان من أمكنة الأرض ﴿وَلَا﴾ من ﴿طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في أي ناحية من نواحي الأرض ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾؛ أي: إلا جماعات أمثالكم، خلقهم الله كما خلقكم، ورزقهم كما رزقكم، داخلة تحت علمه وتدبيره وتقديره وإحاطته بكل شيء. قال[2] العلماء: ما خلق الله عز وجل في الأرض لا يخرج عن هاتين الحالتين؛ إما أن يدب على الأرض أو يطير في الهواء، حتى ألحقوا حيوان الماء بالطير؛ لأن الحيتان تسبح في الماء كما أن الطير يسبح في الهواء، وإنما خص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء، وإن كان ما في السماء مخلوقاً له؛ لأن الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد، وإنما ذكر الجناح في قوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ للتوكيد كقولك: كتبت بيدي، ونظرت بعيني.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ قال مجاهد؛ أي: إلا أصناف مصنفه تعرف بأسمائها، يريد أن كل جنس من الحيوان أمة، فالطير أمة، والدواب أمة، والسباع أمة، تعرف بأسمائها مثل بني آدم يعرفون بأسمائهم، كما يقال: الإنس والناس، ويدل على أن كل جنس من الدواب أمة ما روي عن عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ قال: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم.. لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم». أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

فإن قلت: ثبت بالآية والحديث أن الدواب والطير أمم أمثالنا، وهذه المماثلة لم تحصل من كل الوجوه فيما يظهر لنا، فما وجه هذه المماثلة؟.

---

(١) أبو السعود. (٢) الخازن.

قلتُ: اختلف العلماء في وجه هذه المماثلة، فقيل: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتوحده وتسبحه وتصلي له، كما أنكم تعرفون الله وتوحدونه وتسبحونه وتصلون له، وقيل: إنها مخلوقة لله كما أنكم مخلوقون لله عز وجل، وقيل: إنها يفهم بعضها عن بعض، ويألف بعضها بعضاً، كما أن جنس الإنسان يألف بعضهم بعضاً ويفهم بعضهم عن بعض، وقيل: أمثالكم في طلب الرزق، وتوقي المهالك، ومعرفة الذكر والأنثى، وقيل: أمثالكم في الخلق والموت والبعث بعد الموت للحساب، حتى يقتص للجماء من القرناء، وقال سفيان بن عيينة؛ أي: ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشره كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاوس، والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائناً ما كان. وعبارة «المراغي» هنا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ؛ أي: لا يوجد[1] نوع من أنواع الأحياء التي تدب على الأرض، ولا نوع من أنواع الطير التي تسبح في الهواء إلا وهي أمم مماثلة لكم أيها الناس، وقد أثبت الإحصائيون الباحثون في طباع الحيوان الذين تفرغوا لدرس غرائزها وأعمالها، أن النمل مثلاً يغزو بعضه بعضاً، وأن المنتصر يسترق المنكسر ويسخره في حمل قوته وبناء قراه إلى نحو أولئك من الأعمال التي تخصه.

وخص دواب الأرض بالذكر؛ لأنها هي التي يراها المخاطبون عامة ويدركون فيها معنى المماثلة دون دواب الأجرام السماوية القابلة للحياة الحيوانية التي أعلمنا بوجودها في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا من أخبار الغيب التي دل العلم الحديث على صدقها، فقد أثبت الباحثون من علماء الفلك أن بعض الكواكب كالمريخ فيه ماء ونبات، فلا بد أن يكون أنواع من الحيوان، بل فيه أمارات على وجود عالم اجتماعي صناعي كالإنسان، منها ما يرى على سطحه بالمرقب ـ التلسكوب ـ من جداول منظمة، وخلجان وجبال ووديان إلى نحو أولئك.

---

(١) المراغي.

وهذه[1] الآية الكريمة ونحوها ترشدنا إلى البحث في طباع الأحياء لنزداد علماً بسنن الله تعالى وأسراره في خلقه، ونزداد بآياته فيها إيماناً وحكمة وكمالاً وعلماً، ونعتبر بحال المكذبين بها الذين لم يستفيدوا بما فضلهم الله به على الحيوان، فكانوا أضلَّ من جميع أنواعه التي لا تجني على نفسها ما يجنيه الكافر على نفسه.

﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾؛ أي: ما تركنا وما أهملنا ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ من الشيطان، ومن تغيير شيء منه ﴿مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: شيئاً من الكائنات، ما كان منها وما سيكون بحسب السنن الإلهية، فإن الله سبحانه وتعالى أثبت فيه جميع الحوادث، وهو خلق من عالم الغيب، وقيل: المراد بالكتاب هنا: علم الله المحيط بكل شيء، شبه بالكتاب لكونه ثابتاً لا ينسى. قال الحافظ ابن كثير: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: الجميع علمهم عند الله تعالى لا ينسى واحداً من جميعها من رزقه، سواء كان برياً أو بحرياً، كقوله: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾؛ أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ونظامها، وحاصر لحركاتها وسكناتها. انتهى.

وقيل: هو القرآن؛ أي: ما تركنا شيئاً من ضروب الهداية التي نرسل من أجلها الرسل إلا بيناه فيه، فقد ذكرت فيه أصول الدين وأحكامه، وحكمها، والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية التي سخرها الله للإنسان.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: ما تركنا في القرآن شيئاً من الأشياء المهمة من أمور الدين؛ إما[2] تفصيلاً، أو إجمالاً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ فأمر في هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله ﷺ، وكل حكم سنه الرسول لأمته فقد ذكره الله سبحانه وتعالى في

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

كتابه العزيز بهذه الآية، وبنحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾، وبقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أي[1]: إن القرآن وافٍ ببيان جميع الأحكام، فليس لله على الخلق بعد ذلك تكليف آخر، وإن القرآن دلَّ على أن الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة في الشريعة، فكل ما دل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة. كان ذلك في الحقيقة موجوداً في القرآن.

روي أن ابن مسعود كان يقول: ما لي لا ألعن من لعنه الله في كتابه، فقرأت امرأة جميع القرآن، فأتته فقالت: يا ابن أم عبد، تلوت البارحة ما بين الدفتين، فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة، فقال: لو تلوتيه لوجدتيه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، وإن مما أتانا به رسول الله ﷺ أنه قال: «لعن الله الواشمة والمستوشمة».

وذُكر أن الشافعي كان جالساً في المسجد الحرام فقال: لا تسألوني عن شيء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى، فقال رجل: ما تقول في المحرم إذا قتل الزنبور، فقال: لا شيء عليه، فقال: أين هذا من كتاب الله، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي»، وقال عمر رضي الله عنه للمحرم الذي قتل الزنبور: لا شيء عليك.

وروي أن أبا العسيف قال للنبي ﷺ: اقضِ بيننا بكتاب الله، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لأقضين بينكما بكتاب الله» ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف، وبالرجم على المرأة. وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبي ﷺ هو عين كتاب الله؛ لأنه ليس في نص الكتاب ذكر الجلد والتغريب. ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء مدة الدنيا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾؛ أي: إلى موقف حسابهم يجمعون؛ أي: يبعث الخلائق والأمم المذكورة من الإنس والدواب والطيور، ويساقون إلى موقف حسابهم حالة كونهم محشورين ومجموعين في صعيد واحد للمجازاة، وفيه

---

(١) المراح.

دلالة على أن البهائم تحشر كما يحشر بنو آدم. وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء منهم: أبو ذر، وأبو هريرة، والحسن وغيرهم، وذهب ابن عباس إلى أن حشرها: موتها، وبه قال الضحاك. والأول أرجح لهذه الآية، ولما صح في السنة المطهرة من أنه «يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ قال بعضهم: إن الله سبحانه وتعالى بعد توفير القصاص عليها يجعلها تراباً، وعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً، كما رواه الحاكم عن أبي هريرة وصححه.

وقرأ[1] ابن أبي عبلة ﴿ولا طائرٌ﴾ بالرفع عطفاً على موضع ﴿دَآبَّةٍ﴾، وقرأ الأعرج وعلقمة: ﴿ما فرَطنا﴾ بتخفيف الراء، والمعنى واحد.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: والكافرون الذين كذبوا بآياتنا المنزلة الدالة على وحدانيتنا وصدق ما جاء به رسولنا تكذيب جحودٍ واستكبارٍ، أو تكذيب جحود على تقليد الأباء ﴿صُمٌّ﴾ آذانهم، لا يسمعون دعوة الحق والهدى سماع قبول ﴿بكم﴾؛ أي: خرس ألسنتهم، لا ينطقون بما عرفوا من الحق تائهون ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾؛ أي: في ظلمات الكفر والجهل والحيرة، لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم، وهم يتخبطون في تلك الظلمات الحالكة: ظلمة الوثنية، وظلمة تقليد الجاهلية، وظلمة الجهل والأمية. والمعنى: هم كائنون في الظلمات التي تمنع من إبصار المبصرات، وضموا إلى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار؛ لتراكم الظلمة عليهم، فكانت حواسهم كالمسلوبة التي لا ينتفع بها بحال.

ثم بين سبحانه وتعالى أن الأمر بيده، ما شاء يفعل، فقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: من تعلقت مشيئته تعالى بإضلاله ﴿يُضْلِلْهُۗ﴾ عن طريق الهدى، كما أضل هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى، وإضلاله إياهم جاء على مقتضى سننه في البشر أن يُعرِض المستكبر عن دعوة من يراه دونه ـ وإن ظهر له أنه الحق ـ وأن يعرض المقلد عن النظر في الآيات والدلائل التي تنصب لبيان

---

(١) البحر المحيط.

بطلانها وإثبات خلافها ما دام مغروراً بها مكبراً لمن جرى من الإباء عليها، والمعنى: ومن يشاء الله إضلاله.. يخلق الله الضلال فيه ويمته على الكفر، فيضل يوم القيامة عن طريق الجنة، وعن وجدان الثواب. ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو طريق الحق الذي لا يضل سالكه؛ بأن يوفقه لاستعمال سمعه وبصره وعقله استعمالاً يعرف به الحق، ويعرف به الخير، ويعمل به بحسب سننه تعالى في الارتباط بين الأعمال البدنية والعقائد النفسية. والمعنى: ومن يشأ أن يجعله على طريق يرضاه وهو الإسلام.. يجعله عليه، ويهده إليه، ويمته عليه، فلا يضل من مشى إليه، ولا يزل من ثبت قدمه عليه، والاستفهام في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ استفهام[1] تعجيب، والكاف حرف خطاب أكد به الضمير للتأكيد لا محل له من الإعراب. وقال الكرماني[2]: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ كلمة استفهام وتعجب، وليس لها نظير؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين العادلين بالله الأوثان والأصنام على سبيل التخويف والتوبيخ: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا كالذي نزل بمن قبلكم من الأمم الذين كذبوا بالرسل، فقد هلك بعضهم بريح عاتية، وبعض آخر بالصاعقة، أو بمياه الطوفان المغرقة ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ﴾ وجاءتكم ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ والقيامة بأهوالها وخزيها ونكالها، وبعثتم لموقف الحساب ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى في هذه الأحوال ﴿تَدْعُونَ﴾ وتستغيثون لكشف ما نزل بكم من البلاء، أم إلى غيره من آلهتكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم ألوهية هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم أولياء، وزعمتم أنهم فيكم شفعاء، فأخبروني: أغير الله تدعون إذا أتاكم أحد هذين الأمرين؟.

والخلاصة: قل[3] يا أكرم الخلق لكفار مكة: يا أهل مكة، أخبروني إن أتاكم عذاب الله في الدنيا؛ كالغرق أو الخسف أو المسخ أو نحو ذلك، أو أتاكم العذاب عند قيام الساعة، أترجعون إلى غير الله في دفع ذلك البلاء، أو ترجعون

(١) البيضاوي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراح.

فيه إلى الله تعالى إن كنتم صادقين في أن أصنامكم آلهة، فأجيبوا سؤالي؟ أو المعنى: إن كنتم قوماً صادقين.. فأخبروني أإلهاً غير الله تدعون إلخ.

ثم أجاب عن ذلك بقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿تَدْعُونَ﴾ وتستغيثون ﴿فَيَكْشِفُ﴾ ويزيل ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾؛ أي: إنكم لا ترجعون في طلب دفع البلية إلا إلى الله سبحانه وتعالى، فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم بمحض مشيئته ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: وتتركون الأصنام ولا تدعونهم لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع. أي: ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهة والأندادَ إن أتاكم عذاب الله، أو أتتكم الساعة بمستجيرين بشيء غير الله من وثن أو صنم إذا اشتد بكم الهول، بل تدعونه وحده، وبه تستغيثون، وإليه تفزعون دون كل شيء غيره، فيفرج عنكم ويزيل البلاء عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه إنْ شاء ذلك؛ لأنه وحده القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء دون ما تدعونه إلهاً من صنم أو وثن؛ لأن الفزع إليه تعالى عند الشدائد مما ركز في فطرة البشر، تنبعث إليه بذاتها، كما تنبعث إلى الماء عند العطش، فلا يذهب به ما يتلقَّى بالتعليم الباطل من مسائل الدين، فهم به يجنون على غريزة التوجه إلى خالقهم وخالق العالم كله بما يتخذونه من الأنداد والأولياء والشفعاء الذين يتوجهون إليهم، كما يتوجهون إلى الله تعالى، ويحبونهم كحب الله، وما منشأ ذلك التقديس إلا اعتقاد القدرة على النفع والضر من غير طريق الأسباب المعروفة، لكنهم عند الشدائد وتراكم الأهوال والكروب ينسونهم، ويدعون الله وحده، ولهذا الحب والتعظيم ثلاث درجات:

١ ـ أعرقها في الجهل: أن يعتقد المرء في شيء من المخلوقات أنه إله ينفع ويضر بذاته، فيتوجه إليه ويدعوه ويتضرع إليه.

٢ ـ المرتبة الوسطى: أن يعتقد أن الإله قد حل في بعض المخلوقات واتحد بها، كما تحل الروح في البدن وتدبره، فيكونان شيئاً واحداً.

٣ ـ أضعف درجاته: أن يعتقد أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء القادر على كل شيء المتصرف في كل شيء، ولكن له وسطاء بينه وبين عباده يقربونهم

إليه زلفى، ويشفعون لهم عنده، فهو لأجلهم يعطي ويمنع، ويضر ينفع، وهذه هي الدرجة التي كان عليها مشركو قريش، فقد حكى الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾. والتوحيد الخالص هو: الإيمان بأن الله يفعل ما يشاء، ويختار، وأن جميع الخلائق مسخرون لإرادته وتدبيره، خاضعون لسننه وتقديره، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئاً إلا في دائرة الأسباب التي شرعها لعباده، وأن الوساطة بينه وبين عباده محصورة في تبليغ الرسول رسالته إليهم دون تصرفه فيهم، وأن شفاعة الآخرة لله وحده، يأذن بها إن شاء لمن شاء ممن ارتضى، يرشد إلى ذلك قوله تعالى لخاتم رسله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾. وقد بيَّن اللّٰه سبحانه وتعالى أن تلك الوساطة الشركية تنسى عند اشتداد الكروب والأهوال فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾، وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم بين سبحانه وتعالى أن من سننه أخذ عباده بالشدائد لعلهم يرعوون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد بعثنا رسلاً إلى أمم كثيرة كائنة في زمان قبل زمانك، فدعوهم إلى توحيدنا وعبادتنا، فلم يستجيبوا لهم وخالفوهم. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أخذ ابتلاء واختبار، وعاقبناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾؛ أي: بشدة الفقر والخوف من بعضهم ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ أي: بالأمراض والأوجاع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ أي: لكي يدعوا الله تعالى في كشفها بالتذلل، ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم؛ أي: ليكون ذلك مفيداً لهم لأن سنتنا قد جرت بأنهم في مثل هذه الحال يتضرعون ويجأرون بالدعاء إلى ربهم، فالشدائد تربي النفوس وتهذب الأخلاق، فترجع المغرورين عن غرورهم، وتكف الفجار عن فجورهم، فأخلق بها أن ترجع أهل الأوهام عن دعاء أمثالهم من البشر، بل من دونهم من الأصنام والأوثان. ولكن كثيراً من الناس يصلون إلى حال من الشرك والفجور لا يغيرها بأس، ولا يحولها بؤس، فلا تجدي معهم

العبر والمواعظ، ولا تؤثر فيهم صروف الدهر وغيره، ومنهم أولئك الأمم الذين أرسل إليهم هؤلاء الأنبياء، ومن ثَمَّ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ إلى آخر ما سيأتي. وفي هذه الآية تسلية للرسول[1] ﷺ، وأن عادة الأمم مع رسلهم التكذيب والمبالغة في قسوة القلوب حتى هم إذا أخذوا بالبلايا.. لا يتذللون لله ولا يسألونه كشفها، وهؤلاء الأمم الذين بعث الله تعالى إليهم الرسل أبلغ انحرافاً، وأشد شكيمةً، وأجلد من الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ، إذ خاطبهم تعالى بقوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الآية، وأخبر أنهم عند الأزمات لا يدعون لكشفها إلا الله تعالى.

وكلمة ﴿لولا﴾ في قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ حرف تحضيض، وهو الطلب بحث وإزعاج؛ أي: فهلا تضرعوا وتذللوا إلينا خاشعين تائبين حين جاءهم بأسنا وعذابنا؛ أي: حين جاءتهم مقدمات العذاب وبوادره، وحذروا عواقبه وأواخره لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم. ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: صلبت وصبرت على ملاقاة العذاب لما أراد اللّه من كفرهم وخذلانهم، فكانت كالحجارة أو أشد قسوة، فلم تؤثر فيهم النذر.

وعبارة «الفتوحات» هنا: قوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ استدراك وقع بين الضدين؛ أي: فلم يتضرعوا إليه تعالى برقة القلب والخضوع، ولكن ظهر منهم نقيضه، حيث قست قلوبهم؛ أي: استمرت على ما هي عليه من القساوة، أو ازدادت قساوة اهـ «أبو السعود». فهذا من أحسن مواقع الاستدراك اهـ شيخنا. انتهت.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي؛ أي: فلم يؤمنوا حين جاءهم بأسنا وعذابنا ووسوس إليهم بأن يثبتوا على ما كان عليه أباؤهم، ولا ينقادوا إلى رجال منهم ضعاف الأحلام، سفهاء العقول، لا ميزة لهم عليهم بعقل راجح ولا فكر ثاقب، وقال لهم: إن حال الدنيا هكذا تكون

---

(١) البحر المحيط.

شدة ثم نعمة، فلم يخطروا ببالهم أن ما أصابهم من الشدائد، ما أصابهم إلا لأجل عملهم الفاسد.

ثم ذكر ما حل بهم من الوبال والنكال بعد أن ابتلاهم بالحسنات، فقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: فلما[1] أعرضوا عما أنذرهم به رسلهم، وتركوا الاهتداء به، وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم، وأصروا على كفرهم وعنادهم، وجمدوا على تقليد من قبلهم.. بلوناهم بالحسنات، و﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: بسطنا عليهم أنواع الرزق، ورخاء العيش وصحة الأجسام، والأمن على الأنفس والأرواح استدراجاً لهم، فلم تربِّهم تلك النعم، ولا شكروا الله على ما أنعم، بل أفادتهم النعمة بطراً وكبراً، كما أفادتهم الشدائد عتواً وقسوة.

والمعنى[2]: فلما تركوا الاتعاظ والازدجار بما ذكروا به من البأس.. استدرجناهم بتيسير مطالبهم الدنيوية وعبر عن ذلك بقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ إذ يقتضي شمول الخيرات وبلوغ الطلبات.

والخلاصة[3]: أنه تعالى سلط عليهم المكاره والشدائد ليعتبروا ويتعظوا، فلما لم تجد معهم شيئاً.. نقلهم إلى حال هي ضدها، ففتح عليهم أبواب الخيرات، وسهل لهم سبل الرزق والرخاء، فلم ينتفعوا أيضاً. وما مثل هذا إلا مثل الأب المشفق على ولده، يخاشنه تارة ويلاينه أخرى طلباً لصلاحه واستقامة حاله، وارجاعاً له عن غيه وطغيانه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾؛ أي: حتى إذا اطمأنوا بما فتح لهم من الخيرات، وظنوا أن الذي أوتوا إنما هو باستحقاقهم، ولم يزدهم ذلك إلا بطراً وغروراً بأن ظنوا أن الذي نزل بهم من الشدائد ليس على سبيل الانتقام من الله ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: أنزلنا بهم عذابنا فجأة ليكون لهم أشد وقعاً وأكثر تحسراً؛ أي: أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كونهم مبغوتين، إذ فاجأهم على غرة من

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

غير سبق أمارات ولا إمهال للاستعداد أو للهرب ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾؛ أي: آيسون من النجاة، متحزنون غاية الحزن، منقطع رجاؤهم من كل خير. وفي الآية إيماء إلى أن البأساء والضراء وما يقابلها من السراء والنعماء مما يتهذَّب به من وفقهم الله للهداية، وألهمهم الرشاد والاختبار أكبر شاهد على صدق هذه القضية، فالشدائد مصلحة للفساد، مهذِّبة للنفوس، والمؤمن أجدر الناس بالاستفادة من الحوادث.

روى مسلم عن صهيب مرفوعاً: «عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إنْ أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له». وروى أحمد أن النبي ﷺ قال «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب.. فإنما هو استدراج» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الآية.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: استؤصل آخر القوم الذين ظلموا أنفسهم بإهلاكهم بالكلية حتى لم يبق منه أحد؛ أي: فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل والإصرار على الشرك، وأعمالهم الخبيثة بالكلية أصلاً وفرعاً بسبب ظلمهم بإقامة المعاصي مقام الطاعات. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: والثناء الكامل، والشكر التام للّه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إنعامه على رسله وأهل طاعته بإظهار حججهم على من خالفهم من أهل الكفر، وتحقيق ما وعدهم به من إهلاك المشركين وإراحة الأرض من شركهم وظلمهم، فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة، نعمةٌ جليلة مستحقة للحمد. قال الصاوي: هذا حمد من الله لنفسه على هلاك الكفار ونصر الرسل، وفيه تعليم المؤمنين أنهم يشكرون الله على ذلك إذ هو نعمة عظيمة انتهى.

والخلاصة: أن في الضراء والسراء للمتقين عبرة ونعمة ظاهرة أو باطنة.

وقرأ[1] ابن عامر: ﴿فتّحنا﴾ بتشديد التاء والتشديد لتكثير الفعل. وقرأ عكرمة: ﴿فقَطع دابر﴾ بفتح القاف والطاء والراء؛ أي: فقطع الله، وهو التفات إذ

(١) البحر المحيط.

فيه الخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب. وفي هذه الجملة إرشاد من الله تعالى لعباده المؤمنين بتذكيرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين، وقطع دابر الظالمين المفسدين، وإيماء إلى وجوب ذكره في عاقبة كل أمر وخاتمة كل عمل، كما قال تعالى في وصف عباده المتقين: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾؛ أي: أخبروني إن أزال اللَّه سمعكم وأبصاركم، فأصمكم وأعماكم، وطبع على قلوبكم، وأزال عقولكم حتى لا تعرفوا شيئاً، يعني: أذهب عنكم هذه الأعضاء أصلاً ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ﴾؛ أي: أيُّ فرد من الآلهة الثابتة بزعمكم ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾؛ أي: بما أخذ عنكم من هذه الأعضاء ويردها لكم، والاستفهام فيه إنكاري؛ أي: ليس لكم إلٰه يردها لكم، وإنما أفرد السمع وجمع ما بعده؛ لأن السمع مصدر لا يثنى ولا يجمع، بخلاف ما بعده. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بك وبما جئت به من التوحيد والهدى: أخبروني ماذا يكون من أمركم مع آلهتكم الذين تدعونهم مع الله، وترجون شفاعتهم إن أصمكم الله تعالى، فذهب بسمعكم وأعماكم، فذهب بأبصاركم وختم على قلوبكم، وطبع عليها فأصبحتم لا تسمعون قولاً، ولا تبصرون طريقاً، ولا تعقلون نفعاً ولا ضراً، ولا تدركون حقاً ولا باطلاً؟ ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم﴾ بما ذكر مما أخذه الله منكم؛ أي: لا إلٰه غيره يقدر على إتيانكم بما سلب، ولو كان ما اتخذتم من دونه من الأنداد والأولياء آلهة لقدروا على ذلك، وإذا كنتم تعلمون أنهم لا يقدرون، فلماذا تدعونهم؟ وما الدعاء إلا عبادة، والعبادة لا تكون إلا للإله القادر. ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ونكرر عليهم ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدالة على وحدانيتنا، ونتابع عليهم الحجج، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ونجعلها على وجوه شتى متغيرة من نوع إلى نوع آخر، فتارة بترتيب المقدمات العقلية، وتارة بطريق الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ليعتبروا ويتذكروا، فينيبوا ويرجعوا إلى ربهم، فكل واحد يقوي ما قبله في الإيصال إلى المطلوب ﴿ثُمَّ هُمْ﴾؛ أي: كفار مكة بعد تصريف الآيات

وتكريرها عليهم ﴿يَصۡدِفُونَ﴾ ويعرضون عن تلك الآيات، ويتجنبون عن التأمل والتفكر فيها، ويلقونها وراء ظهورهم، و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد إعراضهم عنها بعد ذكرها على الوجوه المختلفة، والغرض من هذه الجملة: تعجيب رسول الله ﷺ من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة.

وروى أبو قرة إسحاق بن محمد المسيبي عن نافع[1]: ﴿به انظر﴾ بضم الهاء، وهي قراءة الأعرج. وقرأ الجمهور بكسر هاء ﴿بِهِۦ﴾ في ﴿بِهِ ٱنظُرۡ﴾. وقرأ بعض القراء: ﴿كيف نصرف﴾ من صرف الثلاثي.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾؛ أي: أخبروني يا أهل مكة عن شأنكم ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ﴾ وجاءكم ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ الذي مضت سنة الله في الأولين بإنزاله بأمثالكم من المكذبين المعاندين ﴿بَغۡتَةً﴾ وفجأة؛ أي: مباغتاً ومفاجئاً لكم، فأخذكم على غرة لم تتقدمه أمارات تشعركم بقرب نزوله بكم ﴿أَوۡ جَهۡرَةً﴾؛ أي: أو أتاكم مجاهراً ومعايناً لكم وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه بحيث ترون مبادئه ومقدماته بأبصاركم ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ﴾ حينئذ ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: هل يهلك الله به إلا القوم الظالمين منكم، الذين أصروا على الشرك والعناد والجحود، إذ قد مضت سنته تعالى في مثل هذا العذاب أن ينجي منه الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين. والاستفهام هنا إنكاري.

والخلاصة: أنه لا يهلك بهذا العذاب غيركم لظلمكم أنفسكم وجنايتكم عليها بما اخترتم لها من الشرك والفجور، وعبادة من لا يستحق العبادة، وترك عبادة من هو بها حقيق وجدير. فإن قلت: إن المصيبة إذا وقعت تعم الصالح والطالح، فلِمَ خص الكافر هنا بالهلاك؟

قلتُ: الجواب: إن هلاك الكفار سخط وغضب، وهلاك المؤمن إثابة ورفع درجات، فلا يسمى في الحقيقة هلاكاً.

وقرأ ابن محيصن[2]: ﴿هل يهلك﴾ مبنياً للفاعل.

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير.
(٢) البحر المحيط.

ثم بين وظيفة الرسل، فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا﴾ حالة كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من آمن بهم بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من كفر بالعذاب، ولا قدرة لهم على إظهار المعجزات، بل ذلك مفوض إلى مشيئة الله تعالى؛ أي: وما نرسل المرسلين إلا ببشارة أهل الطاعة بالفوز بالجنة جزاء وفاقاً على طاعتهم، وبإنذار من أصر على الشرك والإفساد في الأرض بالعذاب؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة. ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ وصدق من أرسلناه إليه من رسلنا ﴿وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: أصلح اعتقاده وعمله بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب الدنيا الذي ينزل بالمكذبين الجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذي أعده الله تعالى للكافرين ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل؛ لأن الله سبحانه وتعالى يحفظهم من كل فزع وهول، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾، وكذلك هم لا يحزنون في الدنيا كحزن المشركين في شدته وطول مدته، فإذا عرض لهم الحزن بسبب صحيح؛ لموت ولد أو قريب، أو فقد مال أو قلة نصير، يكون حزنهم مقروناً بالصبر وحسن الأسوة، فلا يضرهم في أنفسهم ولا في أبدانهم، ولا يغير شيئاً من أخلاقهم وعاداتهم، فالإيمان يعصمهم من عنت البأساء وبطر النعماء، مسترشدين بنحو قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي أرسلنا بها رسلنا، ويبلغونها إلى الأمم ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: يصيبهم العذاب في الدنيا أحياناً عند الجحود والعناد، وفي الآخرة على سبيل الدوام والاطراد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعتنا جزاء كفرهم وإفسادهم وخروجهم عن أمر اللّه وطاعته، وارتكابهم مناهيه ومحارمه، وهذه الجملة مقابل لقوله: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ فكأنه قال: ومن لم يؤمن يمسهم العذاب.

وقرأ علقمة[1]: ﴿نمسهم العذاب﴾ بالنون المضمومة من أمس الرباعي، وأدغم الأعمش: ﴿العذاب بما﴾ كأبي عمرو. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش: ﴿يفسقون﴾ بكسر السين.

الإعراب

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر. ﴿يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَسْمَعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَالْمَوْتَى﴾: مبتدأ ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ على كونها مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُرْجَعُونَ﴾. ﴿يُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ على كونها خبر المبتدأ. وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب تركتها خوف الإطالة.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ الواو: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض. ﴿نُزِّلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿آيَةٌ﴾: نائب فاعل. ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة لـ﴿آيَةٌ﴾، أو متعلق بـ﴿نُزِّلَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب.

(١) البحر المحيط.

﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿قَادِرٌ﴾: خبرها، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جر. ﴿أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره: على تنزيله آية، الجار والمجرور متعلق بـ﴿قَادِرٌ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو: استئنافية. ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: اسمها ومضاف إليه. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ مستأنفة.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿دَآبَّةٍ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة دخول ﴿مِن﴾ الاستغراقية عليه، أو وصفه بما بعده. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿دَآبَّةٍ﴾. ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾: معطوف على ﴿دَآبَّةٍ﴾ تابع للفظه، وقرىء بالرفع تبعاً لمحله. ﴿يَطِيرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿طَٰٓئِرٍ﴾، والجملة صلة له. ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَطِيرُ﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أُمَمٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿أَمْثَالُكُم﴾: صفة لـ﴿أمم﴾، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿مَّا﴾: نافية. ﴿فَرَّطْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرَّطْنَا﴾. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿فَرَّطْنَا﴾ على تضمينه معنى ما أغفلنا، وما تركنا في الكتاب شيئاً يحتاج إليه من دلائل الإلهية؛ لأن فرطنا لا يتعدى إلا بواسطة حرف الجر إذا كان على معناه الأصلي، كما ذكره أبو حيان في «البحر». ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾. ﴿يُحْشَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق

بـ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿صُمٌّ﴾: خبر المبتدأ. ﴿وَبُكْمٌ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ثانٍ للمبتدأ تقديره: ضالون في الظلمات، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم كائنون في الظلمات. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَشَإِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: إضلاله. ﴿يُضْلِلْهُۚ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَشَأْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: هدايته. ﴿يَجْعَلْهُ﴾: فعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة لـ﴿صِرَٰطٍ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام التعجبي. ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، وحد الفعل رأى، والتاء ضمير المخاطبين في محل الرفع فاعل مبني على الفتح، والكاف: حرف دال على خطاب الجماعة مبني على الضم، والميم علامة الجمع، والمفعول[1]

(١) الفتوحات.

الأول لـ﴿رأيت﴾، والجملة الاستفهامية التي سدت مسد المفعول الثاني لها محذوفان، والتقدير: أرأيتكم عبادتكم الأصنام، هل تنفعكم؟ أو: اتخاذكم غير الله إلٰهاً هل يكشف ضركم؟ ونحو ذلك، فعبادتكم أو اتخاذكم مفعول أول، والجملة الاستفهامية سادة مسد الثاني، والمعنى: أخبروني عن حال عبادتكم الأصنام، هل تنفعكم إن أتاكم عذاب الله أم لا؟ وجملة ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية معطوف على ﴿إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾، وجواب الشرط محذوف دل عليه الاستفهام في قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾، والتقدير: إن أتاكم عذاب اللّه أو أتتكم الساعة.. دعوتم الله تعالى لا غيره، والجملة الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري. ﴿غَيْرِ ٱللَّهِ﴾: مفعول مقدم لـ﴿تَدْعُونَ﴾. ولفظ الجلالة مضاف إليه. ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل لهم: لا تدعون غير الله حينئذ. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص، واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبر كان، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم صادقين في أن غير الله ينفع.. فادعوه، والجملة الشرطية في محل النصب مقول القول.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف للإضراب الانتقالي عن النفي الذي علم من الاستفهام. ﴿إِيَّاهُ﴾: ضمير نصب في محل النصب مفعول مقدم. ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿فَيَكْشِفُ﴾: الفاء: حرف عطف وسبب. ﴿يكشف﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَدْعُونَ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿يكشف﴾. ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿إِلَيْهِ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿شَآءَ﴾: فعل شرط في محل الجزم بـ﴿إن﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، وجواب الشرط

محذوف تقديره: إن شاء يكشف، والجملة الشرطية في محل النصب مقول القول ﴿وَتَنسَوْنَ﴾: فعل وفاعل ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول. ﴿تُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تشركونه، وجملة ﴿تنسون﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لقد﴾اللام موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب لقسم محذوف تقديره: وأقسم والله لقد أرسلنا، وجملة القسم المحذوف مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَآ﴾. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿أُمَمٍ﴾. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أخذناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ على كونها جواب القسم. ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أخذنا﴾. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: معطوف على ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: لعل: حرف ترج ونصب، والهاء: اسمها، وجملة ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ خبر لعل، وجملة لعل مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف تحضيض. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ومفعول. ﴿بَأْسُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾ فصل به بين حرف التحضيض وما دخل عليه، وهو جائز. ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، والتقدير: فلولا تضرعوا إذ جاءهم بأسنا. ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾. ﴿وَزَيَّنَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَسَتْ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول

به لـ﴿زين﴾. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبر ﴿كَانُواْ﴾، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿نَسُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به. ﴿ذُكِّرُواْ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾، وجملة ﴿نَسُواْ﴾ فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿فَتَحْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿فَتَحْنَا﴾ جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء لدخولها على الجملة، وحرف غاية؛ لكون ما بعدها غاية لما قبلها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمَّن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَرِحُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿إذا﴾ في محل الخفض بها. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿أُوتُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما أوتوه. ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بَغْتَةً﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: أخذ بغتة، أو حال من الفاعل؛ أي: أخذناهم باغتين، أو من المفعول؛ أي: مبغوتين، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ على كونها غاية لما قبلها، والتقدير: فتحنا عليهم أبواب كل شيء إلى أخذنا إياهم وقت فرحهم بما أوتوا. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: حرف فجأة. ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿مُّبْلِسُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ على كونها جواباً لـ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. وقال أبو البقاء: ﴿إذا﴾ هنا

للمفاجأة، وهي ظرف مكان، وهي مبتدأ ﴿مُّبْلِسُونَ﴾: خبره، وهو العامل في ﴿إذا﴾.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَقُطِعَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قطع دابر﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿ٱلْقَوْمِ﴾: مضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أخذنا﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾. ﴿ظَلَمُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ﴾ مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والميم علامة جمع المخاطبين، والمفعول الأول محذوف تقديره: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذهما الله، والجملة الاستفهامية الآتية في موضع المفعول الثاني، والجملة الفعلية، في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾، ولم يؤتَ[1] هنا بكاف الخطاب وأتى به هناك؛ لأن التهديد هناك أعظم، فناسب التأكيد بالإتيان بكاف الخطاب، ولما لم يؤت بالكاف.. وجب ثبوت علامة الجمع في التاء؛ لئلا يلتبس، ولو جيء معها بالكاف لاستغني بها. ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾: حرف شرط وفعل وفاعل ومفعول. ﴿وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾: معطوف على ﴿سَمْعَكُمْ﴾. ﴿وَخَتَمَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم معطوف على ﴿أَخَذَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾: متعلق به، وجواب الشرط محذوف تقديره: أغير الله يأتيكم به، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مَّنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبره. ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صفة أولى لـ﴿إِلَٰهٌ﴾. ﴿يَأْتِيكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِلَٰهٌ﴾،

(١) الجمل.

والجملة صفة ثانية لـ﴿إِلَٰهٌ﴾. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يأتي﴾، والجملة الاستفهامية في محل النصب واقعة موضع المفعول الثاني لرأيت، كما مرَّ. ﴿ٱنظُرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الحال، والعامل فيه ﴿نُصَرِّفُ﴾ أو منصوب على التشبيه بالظرف، وهي معلقة لـ﴿ٱنظُرْ﴾ فهي في محل نصب بإسقاط حرف الجر. ﴿نُصَرِّفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾: مفعول به، وجملة ﴿نُصَرِّفُ﴾ في محل النصب مفعول ﴿ٱنظُرْ﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَصْدِفُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿نُصَرِّفُ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: الهمزة للاستفهام التعجبي. ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، والكاف: حرف خطاب، والميم: علامة الجمع، والمفعول الأول لها محذوف تقديره: أخبروني حالكم وشأنكم إن أتاكم عذاب الله، والمفعول الثاني جملة الاستفهام الآتية، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَتَىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾. ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه. ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾: حالان من ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مباغتاً أو مجاهراً، أو منصوبان على المفعولية المطلقة، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن أتاكم عذاب الله ما يهلك إلا القوم الظالمون، وجملة الشرط في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري. ﴿يُهْلَكُ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْقَوْمُ﴾: فاعل. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: صفته، وجملة الاستفهام في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿نُرْسِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: حال من ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: معطوف عليه ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ثمرة إرسال المرسلين، وأردت بيان حال من آمن بهم أو كفر.. فأقول لك: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾: ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿وَأَصْلَحَ﴾: في محل الجزم معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَلَا﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾: اسمها مرفوع. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾ تقديره: فلا خوف كائناً عليهم، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْسُقُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر

مجرور بالباء تقديره: بسبب فسقهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يمسهم﴾. وعبارة «الجمل» هنا: قوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ يجوز في ﴿من﴾ أن تكون شرطية، وأن تكون موصولة، وعلى كلا التقديرين فمحلها رفع بالابتداء، والخبر: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، فإن كانت شرطية.. فالفاء في جواب الشرط، وإن كانت موصولة.. فالفاء زائدة لشبه الموصول بالشرط، وعلى الأول يكون محل الجملتين الجزم، وعلى الثاني لا محل للأولى؛ لأنها صلة الموصول، ومحل الثانية الرفع على الخبرية، وحمل على اللفظ فأفرد في: ﴿ءَامَنَ﴾، وعلى المعنى فجمع في: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ويقوي كونها موصولة مقابلتها بالموصول بعدها في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ اهـ «سمين» انتهت.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يستجيب من استجاب، من باب استفعل، فالسين والتاء فيه زائدتان ليستا للطلب، فهو بمعنى: يجيب، يقال: أجاب[1] الدعوة إذا أتى ما دعى إليه من قول أو عمل، وأجاب الداعي، واستجاب له واستجاب دعاءه إذا لباه، وقام بما دعاه إليه. والقرآن الكريم استعمل أفعال الإجابة في المواضع التي تدل على حصول المسؤول كله بالفعل دفعة واحدة، واستعمل أفعال الاستجابة في المواضع المفيدة لحصول المسؤول بالتهيؤ والاستعداد، كقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ إذ الآية نزلت في وقعة حمراء الأسد بعد وقعة أحد، فالمراد: أنهم تهيؤوا للقتال، أو الأفعال المفيدة للدلالة على حدوث الفعل بالتدريج، كاستجابة دعوة الدين التي تبدأ بالنطق بالشهادتين، ثم بباقي أعماله بالتدريج. والاستجابة من الله يعبَّر بها في الأمور التي تقع في المستقبل، ويكون من شأنها أن تقع بالتدريج، كاستجابة الدعاء بالوقاية من النار بالمغفرة، وتكفير السيئات، وإيتاء ما وعد المؤمنين في الآخرة كما قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ

(١) المراغي.

﴿مِنكُم﴾ الآية.

والسمع والسماع يطلق على إدراك الصوت، وعلى فهم ما يسمع من الكلام ـ وهو ثمرة السمع ـ وعلى قَبول ما يفهم والعمل به، وهذا ثمرة الثمرة. والموتى: جمع ميت كقتيل جمع قتلى، والمراد بالموتى هنا: الكفار الراسخون في الكفر، المطبوع على قلوبهم، الميؤوس من سماعهم سماع تدبر تتبعه الاستجابة للداعي.

﴿يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ من بعث يبعث من باب فتح، والبعث لغة: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثت البعير؛ أي: أثرته من مبركه وسيرته إلى المرعى ونحوه.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ لولا: كلمة تحضيض تفيد الحث على حصول ما بعدها؛ لأن التحضيض معناه الطلب بحث وإزعاج، والآية المعجزة المخالفة لسنن الله في خلقه.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ والدابة: كل ما يدب على الأرض من الحيوان، مأخوذة من دب يدب بالكسر ـ من باب ضرب ـ دباً ودبيباً إذا مشى مشياً فيه تقارب خطو، والدبيب: المشي الخفيف، وكل ماشٍ على الأرض دابة، وقولهم: أكذب من دب ودرج؛ أي: أكذب الأحياء والأموات. والطائر: كل ذي جناح يسبح في الهواء، وجمعه: طير، كراكبٍ وركب.

والجناح[1]: أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء، وأصله: الميل إلى ناحية من النواحي، وإنما قيد بجناحيه لدفع الإيهام؛ لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير، كقولهم: طر في حاجتي؛ أي: أسرع فيها، وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ومع عدم الاعتدال يميل، فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين. وقيل: ذكر الجناحين. للتأكيد كضرب بيده، وأبصر بعينه، ونحو ذلك. والأمم: جمع أمة، وهي كل

(١) الشوكاني.

جماعة يجمعهم أمر واحد، كدين واحد أو زمان واحد، أو مكان واحد، أو صفات وأفعال واحدة أمثالكم جمع مثل، كأحمال وحمل، والمثل بمعنى: المثيل؛ أي: الشبيه.

﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ فرط من باب فعَّل المضعف، والتفريط في الأمر: التقصير فيه وتضييعه حتى يفوت يقال: فرطه وفرط فيه إذا ضيعه وقصر فيه.

﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكتاب هنا: هو اللوح المحفوظ، وقيل: القرآن. والحشر: هو الجمع والسوق.

﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ جمع: أصم وأبكم، كغر وأغر، وحمر وأحمر.

﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: هو عبارة عن العمى، كما في قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾، والمراد[1] به: بيان كمال عراقتهم في الجهل بسوء الحال، فإن الأصم الأبكم إذا كان بصيراً ربما يفهم شيئاً بإشارة غيره، وإن لم يفهمه بعبارته، وكذا ربما يفهم ما في ضميره بإشارته وإن كان عاجزاً عن العبارة، وأما إذا كان مع ذلك أعمى، أو كان في الظلمات، فينسد عليه باب الفهم والتفهيم بالكلية. اهـ «أبو السعود».

﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ بمعنى: أخبروني، وهو أسلوب يذكر للتعجيب والتنبيه إلى أن ما يذكر بعده غريب عجيب، تقوم به الحجة على المخالف. ﴿فَيَكْشِفُ﴾؛ أي: فيزيل ما تدعونه إلى كشفه إن شاء، من كشف الشيء عن الشيء يكشف ـ من باب ضرب ـ إذا أزاله عنه ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾؛ أي: عاقبناهم بالبأساء والضراء. وفي «المصباح»: يقال: أخذه الله إذا أهلكه وأخذه بذنبه: عاقبه عليه، وآخذه بالمد كذلك انتهى.

﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ صيغتا تأنيث لا مذكر لهما على أفعل، كأحمر وحمراء، كما هو القياس، فإنه لا يقال: أضرر ولا: أبأس صفةً، بل للتفضيل. والبأساء: تطلق على الحرب والمشقة، والبأس: الشدة في الحرب، والعذاب الشديد،

---

(١) الجمل.

والقوة والشجاعة، والضراء: من الضر ضد النفع. ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ من باب تفعل الخماسي يقال: تضرع إليه إذا أظهر الضراعة والخضوع له بتكلف، والتضرع تفعل من الضراعة، وهي الذلة والهيئة المنبئة عن الانقياد إلى الطاعة، يقال: ضرع يضرع ضراعة من باب فتح، فهو ضارع وضرع، قال الشاعر:

لِيُبْكَ يَزِيْدُ ضَارِعٌ لِخُصُوْمَةٍ ... وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيْحُ آلطَّوَائِحُ

أي: ذليل ضعيف، وللسهولة والتذلل المفهومة من هذه المادة اشتقوا منها للثدي اسماً، فقالوا له: ضرع.

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: صلبت وغلظت عن قبول الحق من القسوة؛ لأنه من قسا يقسو من باب دعا يدعو، فهو ناقص واوي أصله: قسوت، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الألف، فصار: قست بوزن فَعَت ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ والأخذ بالبأساء والضراء: إنزالهما بهم فجأة. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ جمع: مبلس، وهو اليائس المنقطع رجاؤه من الإبلاس، وهو الحزن الحاصل من شدة اليأس، ومنه اشتق إبليس، لشدة يأسه من رحمة الله.

وفي «المختار»: أبلس من رحمة الله؛ أي: يئس، والإبلاس أيضاً الانكسار والحزن، يقال: أبلس فلان إذا سكت غماً. اهـ. فمبلسون بمعنى: متحسرون يائسون من النجاة.

﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: آخرهم الذي يكون في أدبارهم، وقطع دابرهم؛ أي: هلكوا واستئصلوا بالعقاب، ولم يبق منهم أحد. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يقال: صرف الشيء إذا كرره على وجوه مختلفة، ومنه تصريف الرياح ﴿يَصْدِفُونَ﴾؛ أي: يعرضون عن ذلك، يقال: صدف عن الشيء إذا أعرض عنه صدفاً وصدوفاً، وصادفته: لقيته عن إعراض عن جهته. وفي «المختار»: صدف عنه: أعرض عنه، وبابه: ضرب وجلس، وأصدفه عن كذا: إذا أماله عنه. اهـ.

﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ والمراد[1] بالبغتة: العذاب الذي يأتيهم فجأة من غير سبق علامة، والمراد بالجهر: العذاب الذي يأتيهم مع سبق علامة تدل عليه.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: بلحوق العذاب.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ أي: بفوات الثواب.

﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ والمس: اللمس باليد، ويطلق على ما يصيب المدرك مما يسوء غالباً، من ضر وشر وكبر ونصب وعذاب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنه شبه الكفار بالموتى بجامع عدم العقل في كلٍ، واستعير اسم المشبه به وهو الموتى للمشبه وهو الكفار، على طريقة الاستعارة التصريحية.

وقال أبو حيان[2]: وتشبيه الكافر بالميت من حيث إن الميت جسده خالٍ من الروح، فيظهر منه النتن والصديد والقيح وأنواع العفونات، وأصلح أحواله دفنه تحت التراب، والكافر روحه خالية عن العقل، فيظهر منه جهله بالله تعالى ومخالفته لأمره، وعدم قبوله لمعجزات الرسل، وإذا كانت روحه خالية من العقل.. كان مجنوناً، فأحسن أحواله أن يقيد؛ أي: يحبس، فالعقل بالنسبة إلى الروح، كالروح بالنسبة إلى الجسد. انتهى.

ومنها: التجريد في قوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾؛ لأن الطائر يندرج في الدابة. فذكر[3] الطائر بعد ذكر الدابة تخصيص بعد تعميم، وذكر بعض من كل، فصار من باب التجريد.

ومنها: التأكيد بقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ لدفع توهم المجاز في طائر مع كون

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

جناحيه ترشيحاً له؛ لأن الطائر قد يستعمل مجازاً للعمل، كما في قوله تعالى: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾؛ أي: كالصم البكم في عدم السماع وعدم الكلام، فحذفت منه الأداة ووجه الشبه.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ لأنه شبه كفرهم وجهلهم وضلالتهم بالظلمات الحسية، بجامع عدم الاهتداء في كل إلى المقصود، وفي قوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ لأنه شبه الأسباب التي هيأها الله لهم، المقتضية لبسط الرزق عليهم بالأبواب، بجامع الوصول إلى المقصود في كل على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ لتهويل ما فتح عليهم وتعظيمه.

ومنها: القصر في قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾؛ أي: لا تدعون غيره لكشف الضر، فهو قصر صفة على موصوف.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وفي قوله: ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ﴾؛ لأنه كناية عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ
إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن
يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن
شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ
عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ
بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ
إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ
إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما(١) كان الكلام في الآيات السالفة في بيان أركان الدين، وأصول العقائد، وهي توحيد الله عز وجل، ووظيفة الرسل عليهم السلام، والجزاء على الأعمال يوم الحساب.. ذكر هنا وظيفة الرسل العامة بتطبيقها على خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه، وأزال أوهام الناس فيها، وأرشد إلى أمر الجزاء في الآخرة، وكون الأمر فيه لله تعالى وحده على وجه يزيد عقيدة التوحيد تقريراً وتأكيداً وبياناً وتفصيلاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا ...﴾ الآية، مناسبة هذه

---

(١) المراغي.

الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى نبيه عن طرد المستضعفين من حضرته استمالةً لكبراء المتكبرين من قومه، وطمعاً في إقبالهم عليه وسماعهم لدعوته، كما اقترحه بعض المشركين.. أمر بأن يلقى الذين يدخلون في الإسلام آناً بعد آنٍ عن بينة وبرهان بالتحية والسلام والتبشير برحمة الله ومغفرته، فقد كان السواد الأعظم من الناس كافرين؛ إما كفر جحود وعناد، وإما كفر جهل وتقليد للآباء والأجداد، وكان يدخل في الإسلام الأفراد بعد الأفراد، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء، وكان النبي ﷺ يكون تارة معهم يعلمهم ويرشدهم، وتارة يتوجه إلى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف أنه يفصِّل الآيات ليظهر الحق، وليستبين سبيل المجرمين.. ذكر هنا أنه نهى عن سلوك سبيلهم، وهو عبادة غير الله، وأن هذه العبادة إنما هي بمحض الهوى والتقليد، لا بسبيل الحجة والبرهان، فهي جمادات وأحجار ينحتونها بأيديهم، ويركِّبونها، ثم يعبدونها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم...﴾ سبب نزولها: ما[2] رواه ابن حبان والحاكم عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: لقد نزلت هذه الآية في ستة: أنا، وعبد الله بن مسعود، وأربعة، قالوا لرسول الله ﷺ: اطردهم، فإنا نستحيي أن نكون تبعاً لك كهؤلاء، فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا...﴾ إلى قوله: ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ سبب نزولها: ما روى أحمد والطبراني وابن أبي حاتم عن ابن مسعود

---

(١) المراغي.　　(٢) لباب النقول.

قال: مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ، وعنده خباب بن الأرت، وصهيب، وبلال، وعمار، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك، وهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ لو طردت هؤلاء.. تبعناك، فأنزل الله فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟﴾ إلى قوله: ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: جاء عنبسة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب، فقالوا: لو أن ابن أخيك يطرد عنه هؤلاء العبيد.. كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه، فكلم أبو طالب النبي ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وكانوا بلالاً، وعمار بن ياسر، وسالماً مولى أبي حذيفة، وصالحاً مولى أسيد، وابن مسعود، والمقداد بن عبد الله، وواقد بن عبد الله الحنظلي، وأشباههم، فأقبل عمر، فاعتذر من مقالته، فنزل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن خباب قال: جاء الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، فقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك.. فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا.. فاقعد معهم إن شئت، قال: «نعم»، فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم...﴾ الآية، ثم ذكر الأقرع وصاحبه فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الآية، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فنزلت: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية. قال ابن كثير: هذا حديث غريب، فإن الآية مكية، والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر.

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ماهان قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ، فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظاماً، فما رد عليهم شيئاً، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ

﴿يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُل﴾ يا أيها الرسول الذي بعث، كما بعث غيره من الرسل مبشراً من أجاب دعوته بحسن الثواب، ومنذراً من لم يقبلها بسوء العقاب لهؤلاء المكذبين لك بغير علم، يميزون به بين شؤون الألوهية وحقيقة النبوة، فيقترحون عليك من الآيات الكونية ما يعلمون أنه ليس في مقدور البشر، فهم إما أن يقولوه تعجيزاً، وإما أن يظنوا أن الإنسان لا يكون رسولاً إلا إذا خرج من حقيقة البشرية، وصار قادراً على ما لا يقدر عليه البشر، وعالماً بكل ما يعجز عنه علم البشر. ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ أيها المشركون من أهل مكة ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مفاتيح الأمكنة التي يحفظ فيها أرزاق الله، أتصرف في ما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشؤون المخلوقات، فكل هذا لله وحده، يتصرف فيه بما يشاء، فيعطي لعباده من خزائنه بحسب ما أوتي كل منهم من الاستعداد في دائرة ارتباط الأسباب بالمسببات، ولا يقدر أحد أن يتجاوز ذلك إلى ما لم يؤته، ولم يصل إليه استعداده، والمعنى: ليس عندي خزائن الرزق فأعطيكم منها ما تريدون؛ لأنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: إن كنت رسولاً من الله تعالى، فاطلب لنا منه أن يوسع عيشنا، ويغني فقرنا، فأخبر أن ذلك بيد الله تعالى لا بيدي.

فالتصرف المطلق إنما هو لله القادر على كل شيء، وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول المبلغ عنه أمر الدين قادراً على ما لا يقدر عليه البشر من التصرف في المخلوقات بالأسباب، فضلاً عن التصرف بغير سبب مما طلبه المشركون منه، وجعلوه شرطاً للإيمان به، كتفجير الينابيع والأنهار في أرض مكة، وإيجاد الجنات والبساتين فيها، وإسقاط السماء عليهم كسفاً، والإتيان بالله والملائكة قبيلاً. ﴿وَلَآ﴾ أقول لكم: إني ﴿أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فأخبركم بما مضى وما سيقع في المستقبل، وذلك أنهم قالوا له: أخبرنا بمصالحنا ومضارنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار، فأجابهم بقوله: ﴿ولا أعلم الغيب﴾ فأخبركم بما تريدون.

فصل في بحث الغيب

والغيب(١) ما غيب علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به، وهو قسمان:

١ ـ غيب حقيقي، وهو ما غاب عن جميع الخلق حتى الملائكة، وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ غيب إضافي، وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض، كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره لا يعلمه البشر.

أمّا ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها، فليس بداخل في عموم الغيب الوارد في كتاب الله، وهذه الأسباب ضروب:

١ ـ ما هو علمي كالدلائل العقلية والعلمية، فعلماء الرياضة يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس، ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثواني قبل وقوعه بألوف الأعوام.

٢ ـ ما هو عملي كالبرق الأثيري [التلغراف اللاسلكي] الذي يعلم به المرء ما يقع في أقاصي البلاد من وراء البحار، وبينه وبينها ألوف الأميال.

٣ ـ ما هو إدراكات نفسية خفية تصل إلى مرتبة العلم، كالفراسة والإلهام، وأكثر هذا النوع هواجس تلوح للنفس، ولا يجزم بها الإنسان إلا بعد وقوعها.

فإن قلت(٢): إن الله تعالى أثبت علم الغيب المتعلق بالرسالة للرسل عليهم السلام، كقوله في سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، فكيف أمره هنا أن يتنصل من ادعاء علم الغيب؟

قلتُ: إن إظهار شيء خاص من عالم الغيب على يدي الرسل، لا يجعل ذلك داخلاً في علومهم الكسبية، فإن الوحي ضرب من العلم الضروري، يجده النبي في نفسه حينما يظهره الله عليه، فإذا حبس عنه.. لم يكن له قدرة ولا وسيلة

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

كسبية للوصول إليه. يؤيد ذلك ما جاء في فترات الوحي في السيرة النبوية، وقد يكون توجّه قلب الرسول إلى الله تعالى في بعض الحوادث مقدمة لنزول الوحي في الحكم الذي طلب من ربه بيانه. يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾.

والخلاصة: أن الأنبياء لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم المكتسبة، كذلك لم يعطوا التصرف في خزائن ملك الله تعالى، فلم يمكّنهم ما لم يمكِّن من أسبابه حتى يكون من كسبهم وعملهم، ولا هو أعطاهم ذلك على سبيل الخصوصية.

ونفي ادعاء الرسول من الأمرين يتضمن التبرؤ من ادعاء الألوهية، أو ادعاء شيء من صفات الإله القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، ويتضمن جهل المشركين حقيقةَ الألوهية وحقيقة الرسالة، فقد اقترحوا عليه من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيما وراء الأسباب، وطلبوا منه الإخبار بما يكون في الزمان المستقبل ولا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفةً له كسائر الصفات، فقد سألوه عن وقت الساعة، وعن وقت نزول العذاب بهم، وعن وقت نصر الله تعالى له عليهم. وإذا علمت أن الأنبياء لم يؤتوا ذلك.. فأحر بمن دونهم منزلة عند الله تعالى من القديسين والأولياء المقربين أن لا يكون لهم ذلك، فادعاؤه لهم جهل عظيم وإثم كبير، ولا ينبغي التحدث به لا بين العامة ولا بين الخاصة، كما يجب محوه من الأذهان لدى الجاهلين سنن الله في الأكوان. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أشاهد من أمر الله ما لا يشاهده البشر، وأقدر على ترك الأكل والشرب والنكاح، وذلك أنهم قالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويتزوج النساء؟ ثم أمره أن يبيِّن وظيفة الرسول، فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾؛ أي: ما اتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: إلا وحي الله الذي يوحيه إليَّ، وتنزيله الذي ينزله عليَّ، فأمضي لوحيه وأعمل بأمره، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة على صحة ما أقول، وليس ذلك بالمنكر في عقولكم، ولا بالمستحيل وجوده، فما وجه إنكاركم لذلك؟

ثم وبخهم على ضلالهم وعنادهم، فأمر رسوله أن يبيِّن لهم أن الضال

والمهتدي لا يستويان، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾؛ أي: هل يستوي أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم ـ الذي دعوتكم إليه ـ فلم يميز بين التوحيد والشرك، ولا بين صفات الله وصفات البشر، وذو البصيرة المهتدي إليه، المستقيم في سيره عليه بالحجة والبرهان، حتى صار ذلك في مرآة قلبه أوضح مما ترى العينان وتسمع الآذان؟.

والخلاصة: أنهما لا يستويان، كما أن أعمى العينين وبصيرهما لا يستويان.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الهمزة فيه داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تسمعون الحق فلا تتفكرون فيما أذكر لكم من الحجج، وتتأملون فيه، فتعلموا صحة ما أقول لكم وأدعوكم إليه، وتميزوا بين ضلال الشرك وهداية الإسلام، وتعقلوا ما في القرآن من ضروب الهداية والعرفان بذلك الأسلوب الرائع الذي لم تعهدوه من قبل، فهل يكون ذلك في مقدوري، وقد لبثت فيكم عمراً من قبل عاطلاً من هذه المعرفة، وتلك البلاغة الساحرة، وذلك البيان الخلاب؟ وبعد أن أمره بتبليغ الناس حقيقة رسالته أمره بإنذار من يخشون الحساب والجزاء، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾؛ أي: وخوف يا محمد بما يوحى إليك من القرآن وغيره المؤمنين بالله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ ويخشون ﴿أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ويرجعوا إليه للمحاسبة والمجازاة، ويخافون أهوال الحشر وشدة الحساب، وما يتبع ذلك من الجزاء على الأعمال عند القدوم على الله في ذلك اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ يوم لا ولي ينصر، ولا شفيع يدفع العذاب إن أريد النجاة منه، بل أمر ذلك متوقف على مرضاة الله تعالى.

قال[1] ابن عباس: المراد بـ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾: المؤمنون؛ لأنهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الأهوال، وقيل معنى: ﴿يَخَافُونَ﴾: يعلمون، والمراد

---

(١) الخازن.

بهم: كل معترف بالبعث من مسلم وكتابي، وإنما خص الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم، وإن كان إنذاره ﷺ لجميع الخلائق؛ لأن الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر. وقيل: المراد بهم: الكفار؛ لأنهم لا يعتقدون صحته، ولذلك قال: يخافون أن يحشروا إلى ربهم، وجملة قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾؛ أي: من دون الله تعالى ﴿وَلِيٌّ﴾؛ أي: قريب ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم، في محل النصب حال من ضمير ﴿يُحْشَرُوٓا۟﴾؛ أي[1]: أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولي لهم يواليهم، ولا ناصر يناصرهم، ولا شفيع يشفع لهم من دون الله تعالى، وفيه ردٌّ على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم، وهم أهل الكتاب، أو أن أصنامهم تشفع لهم، وهم المشركون.

ثم إن[2] فسرنا ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أن المراد بهم: الكفار، فلا إشكال عليه، لقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وإن فسرناهم بالمؤمنين.. ففيه إشكال؛ لأنه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا محمد ﷺ للمذنبين من أمته، وكذلك تشفع الملائكة والأنبياء والمؤمنون بعضهم لبعض. والجواب عن هذا الإشكال أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله، لقوله عز وجل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وإذا كانت الشفاعة بإذن الله.. صح قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يعني: حتى يأذن الله لهم في الشفاعة، فإذا أذن فيها كان للمؤمنين ولي وشفيع.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: بإقلاعهم عما هم فيه، وعمل الطاعات متعلق بأنذر؛ أي: خوفهم لكي يتقوا المعاصي، ويكون لهم عوناً في الطاعة، فهؤلاء المؤمنون هم الذين يرجى أن يتقوا الله اهتداءً بهديك، وخوفاً من إنذارك، ويتحروا ما يؤدِّي إلى مرضاته ولا يصدهم عن ذلك إتكال على الأولياء، ولا اعتماد على الشفعاء علماً منهم أن الشفاعة لله جميعاً: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ كما أنهم يستيقنون أن نجاتهم إنما تكون بإيمانهم وأعمالهم وتزكيتهم

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

لأنفسهم، لا بانتفاعهم بصلاح غيرهم، أو شفاعة الشافعين لهم، كما هو حال المشركين الذين جهلوا أن مدار السعادة في الدنيا والآخرة مرتبط بتزكية النفس وطهارتها بالإيمان الصحيح، والأخلاق الكريمة، والأعمال الصالحة، لا على أمر خارج عن النفس لا تأثير له فيها.

والآية بمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

ثم نهى رسوله أن يطيع المترفين من كفار قريش في شأن المؤمنين المستضعفين، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾؛ أي: ولا تبعد يا محمد عن حضرتك هؤلاء المؤمنين الموحدين، ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾؛ أي: أول النهار وآخره، أو المراد: عامة الأوقات، إذ يقال: هو يفعل كذا صباحاً ومساء إذا كان مداوماً عليه، والدعاء إما العبادة مطلقاً، وقيل: المحافظة على صلاة الجماعة، وقيل: الذكر وقراءة القرآن، وقيل: المراد الدعاء لله بجلب النفع ودفع الضرر. والمعنى: ولا تطرد يا محمد الذين يعبدون ربهم بالصلوات الخمس، أو يذكرون ربهم طرفي النهار حالة كونهم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: يقصدون بذلك محبة الله تعالى ورضاه؛ أي: مخلصين في ذلك، وقيد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر.

وقال أبو حيان: معنى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: يخلصون نياتهم له في عبادتهم، ويعبر عن ذات الشيء وحقيقته بالوجه انتهى. والمذهب الأسلم الذي عليه السلف: ترك الوجه على ظاهره بلا تأويل، لأن الوجه صفة ثابتة للّه تعالى نعتقدها ونثبتها لله تعالى بلا تكيف ولا تمثيل ولا تعطيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾، وقرأ ابن عامر وأبو عبد الرحمٰن ومالك بن

---

(١) البحر المحيط.

دينار والحسن ونصر بن عاصم وأبو رجاء العطاردي: ﴿بالغدوة﴾. وروي عن أبي عبد الرحمٰن أيضاً: ﴿بالغدو﴾ بغير هاء. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿بالغدوات والعشيات﴾ بالألف فيهما على الجمع.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾؛ أي: من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب منك ذلك ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، بل حسابهم على أنفسهم، ما عليك منه شيء ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على هؤلاء الذين قصدت طردهم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، بل حساب أعمالك على نفسك لا عليهم، فعلام تطردهم؟ كلام معترض بين النهي وجوابه الآتي بقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وهو من تمام الاعتراض؛ أي[1]: إذا كان الأمر كذلك.. فأقبل عليهم، وجالسهم، ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل، و﴿من﴾ في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ للبيان، والثانية للتأكيد، وكذا في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

والمعنى[2]: أي ما عليك يا محمد شيء من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، كما أنه ليس عليهم شيء من أمر حسابك على أعمالك، حتى يكون هذا أو ذاك في طردك إياهم بإساءتهم في عملهم، أو في محاسبتك على عملك، فإن الطرد جزاء، والجزاء إنما يكون على سيىء الأعمال، ولا يثبت ذلك إلا بالحساب، والمؤمنون ليسوا بعبيد للرسل، ولا أعمالهم الدينية لهم، بل هي لله تعالى، يريدون بها وجهه لا وجوه الرسل، وحسابهم عليه تعالى لا عليهم، والرسل هداة مرشدون لا أرباب مسيطرون: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وإذا لم يكن للرسل حق السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم الدينية.. فأجدر بالناس أن لا يكون لهم هذا الحق على أنبيائهم. والظاهر أن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الضمائر كلها عائدة على ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ كما بينا في الحل، وقيل: الضمائر في ﴿مِنۡ حِسَابِهِم﴾، وفي ﴿عَلَيۡهِم﴾ عائدة على المشركين. قال الزمخشري: والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك، ولا أنت بحسابهم حتى يهمَّك إيمانهم، ويحركك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين، ذكره أبو حيان.

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب للنهي كما مرَّ أعني: قوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾؛ أي: لا تطرد هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي.. فتكون بطردك إياهم في زمرة الظالمين؛ أي: من الذين يضعون الشيء في غير مواضعه معدوداً من جنسهم؛ لأن الطرد لا يكون حقاً إلا على الإساءة في الأعمال التي يعملونها لمن له حق حسابهم وجزائهم عليها، ولست أنت بصاحب هذا الحق حتى تجري فيه على صراط العدل، فإن عملهم هو عبادة الله وحده، فحسابهم وجزاؤهم عليه كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

والخلاصة[1]: أن هذه الآية الكريمة أفادت أربعة أشياء:

١ ـ أن الرسول لا يملك التصرف في الكون.

٢ ـ أنه لا يعلم الغيب.

٣ ـ أنه ليس بملك.

٤ ـ أنه لا يملك حساب المؤمنين ولا جزاءهم.

وعبارة «المراح» هنا: قوله: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ الآية، معناه[2]: ما عليك من حساب رزق هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي شيء، فتملهم وتبعدهم، ولا من حساب رزقك عليهم شيء، وإنما الرازق لهم ولك هو الله تعالى، فدعهم يكونوا عندك، ولا تطردهم فتكون من الظالمين لنفسك بهذا الطرد، ولهم لأنهم استحقوا مزيد التقريب، وقيل: إن الكفار طعنوا في إيمان أولئك الفقراء، وقالوا: يا محمد إنهم إنما اجتمعوا عندك، وقبلوا

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

دينك؛ لأنهم يجدون عندك بهذا السبب مأكولاً وملبوساً، وإلا فهم فارغون عن دينك، فقال الله تعالى: إن كان الأمر كما يقولون.. فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر، وإن كان لهم باطن غير مرضي عند الله.. فحسابهم عليه لازم لهم لا يتعدى إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعدى إليهم.

فائدة: واحتج[1] الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية، فقالوا: إن النبي ﷺ لما همَّ بطرد الفقراء عن مجلسه لأجل الأشراف.. عاتبه الله تعالى على ذلك ونهاه عن طردهم، وذلك يقدح في العصمة لقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. والجواب عن هذا الاحتجاج أن يقال: إن النبي ﷺ ما طردهم ولا هم بطردهم لأجل الاستخفاف بهم، والاستنكاف من فقرهم، وإنما كان هذا الهم لمصلحة، وهي التلطف بهؤلاء الأشراف في إدخالهم في الإسلام، فكان ترجيح هذا الجانب أولى عنده، وهو اجتهاد منه، فأعلمه الله تعالى أن إدناء هؤلاء الفقراء أولى من الهمِّ بطردهم، فقربهم وأدناهم منه. وأما قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإن الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه، فيكون المعنى: إن أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب، فلاتهم بطردهم عنك، فتضع الشيء في غير موضعه، فهو من باب ترك الأفضل والأولى، لا من باب ترك الواجبات، والله أعلم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾؛ أي: ومثل ذلك الفتون المتقدم ﴿فَتَنَّا﴾؛ أي: ابتلينا ﴿بَعْضَهُم﴾؛ أي: بعض الناس؛ أي: الأغنياء الكفار ﴿بِبَعْضٍ﴾ منهم؛ أي: بالفقراء المسلمين؛ أي: ابتلينا الغني بالفقير، والفقير بالغني، والشريف بالوضيع، والوضيع بالشريف، فكل أحد مبتلى بضده، فأولئك الكفار الرؤساء والأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين إلى الإسلام مسارعين إلى قبوله، فقالوا: لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء المساكين، وأن نعترف لهم بالتبعية، فامتنعوا من الدخول في الإسلام لذلك، واعترضوا على الله في جعل أولئك الفقراء رؤساء في الدين، وأما فقراء

(١) الخازن.

الصحابة.. فكانوا يرون أولئك الكفار في الراحات والمسرات والطيبات والخصب والسعة، فكانوا يقولون: كيف حصلت هذه الأحوال لهؤلاء الكفار؟ وبالجملة فصفات الكمال مختلفة متفاوتة محبوبة لذاتها موزعة على الخلق، فلا تجتمع في إنسان واحد ألبتة، فكل أحد يحسد صاحبه على ما آتاه الله تعالى من صفات الكمال. ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾؛ أي: لتكون عاقبة أمرهم أن يقول المفتونون من الأقوياء والأغنياء والشرفاء في شأن الضعفاء والفقراء من المؤمنين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الصعاليك من العبيد والموالي والفقراء والمساكين ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾؛ أي: أنعم الله عليهم بهذه النعمة العظيمة التي هي نعمة الإسلام ومتابعة الرسول ﷺ وخصهم بها ﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾؛ أي: دوننا، أو من جملتنا، أو مجموعنا، ونحن الأكابر والرؤساء، وهم المساكين والضعفاء؟ والاستفهام فيه للإنكار بأن يخص الله تعالى هؤلاء الفقراء من بينهم بإصابة الحق، والسبق إلى الخير، فكأنهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضيلة.

والخلاصة[1]: أن ذلك لن يكون لأنهم هم المفضلون عند الله تعالى بما آتاهم من غنى وثروة وجاه وقوة، فلو كان هذا الدين خيراً.. لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء كما أعطاهم من قبل الجاه والثروة. وقد حكى الله عنهم مثل هذا بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾. ثم رد الله سبحانه وتعالى عليهم مقالتهم الدالة على العتو والاستكبار بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمه - فيوفقهم ويهديهم - من الكافرين لها، فيخذلهم ويحرمهم منها حتى تستبعدوا إنعامه عليهم؛ أي: إن المستحق لمن الله وزيادة نعمه إنما هو من يقدِّرها قدرها، ويعرف حق المنعم بها، فيشكره عليها، لا من سبق الإنعام عليه فكفر وبطر وعتا واستكبر. والاستفهام في ﴿أَلَيۡسَ﴾ للتقرير؛ أي: إنه تعالى كذلك، وبهذا مضت سنة الله في عباده، ولولا هذا لكانت النعم خالدة لا تنزع ممن أوتيها - وإن كفر بها - وهل فتن أولئك الكبراء إلا بما حصل لهم من الغنى والقوة، فظنوا جهلاً منهم بسنة الله في أمثالهم أنه تعالى ما

(١) المراغي.

أعطاهم ذلك إلا تكريماً لذواتهم، وتفضيلاً لهم على غيرهم.

وفي[1] هذا الاستفهام التقريري إشارة إلى أن الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى في تنزيل القرآن، وفي التوفيق للإيمان، شاكرون له تعالى على ذلك، وتعريض بأن القائلين بتلك المقالة بمعزل من ذلك كله. وفي الآية إيماء إلى أن ما اغتروا به من النعم لن يدوم، ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذي صبروا عليه، بل لا بد أن تنعكس الحال، فيُسلب الأقوياء ما أعطوا من قوة ومال، وتدول الدولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين، فيكونوا هم الأئمة الوارثين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾.

وكذلك[2] فيها إشارة إلى أن تركهم للإيمان لم يكن إلا جحوداً ناشئاً عن الكبر والعلو في الأرض، لا عن حجة ولا عن شبهة، وإلى أن ضعفاء المؤمنين السابقين لم يفتنوا بغنى كبراء المشركين وقوتهم.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ يا محمد القوم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: يصدقون بكتابنا وحججنا، ويقرون بذلك قولاً وعملاً سائلين عن ذنوبهم التي فرطت منهم، هل لهم منها توبة ﴿فـ﴾ـلا تؤيسهم منها و﴿قل سلام عليكم﴾؛ أي: أمان الله تعالى لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها، وهؤلاء هم القوم الذين نهاه الله عن طردهم، وهم المستضعفون من المؤمنين.

ثم ذكر العلة في هذا، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾؛ أي: قل لهم تبشيراً لهم بسعة رحمته تعالى، وبنيل المطالب: أوجب ربكم سبحانه وتعالى على ذاته المقدسة تفضلاً منه وإحساناً الرحمة لخلقه والإحسان إليهم، فإن فيما سخر للبشر من أسباب المعيشة المادية، وفيما آتاهم من وسائل العلوم الكسبية لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية، وتربية عباده بها في حياتهم الجسدية والروحية؛ لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

ثم بيَّن أصلاً من أصول الدين في هذه الرحمة للمؤمنين، فقال: ﴿أَنَّهُ مَنْ

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.

عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾؛ أي: ومن سعة رحمته **تعالى أنه** ـ أي: إن الشأن ـ من عمل وارتكب منكم أيها المؤمنون سوءاً؛ أي: عملاً تسوء عاقبته للضرر الذي حرمه الله لأجله حالة كونه ملتبساً ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ دفعته إلى ذلك السوء، كغضب شديد حمله على السب والضرب، أو شهوة مغتلمة قادته إلى انتهاك العرض ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ ورجع عن ذلك السوء ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: بعد أن عمله شاعراً بقبحه نادماً عليه خائفاً من عاقبته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله بأن أتبع ذلك العمل السيء بعمل يضاده ويذهب أثره من قلبه حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها وتصير أهلاً للقرب من ربها ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول توبته؛ أي: فشأنه تعالى في معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة، فيغفر له ما تاب عنه، ويتغمده برحمته وإحسانه. وقد بيَّن سبحانه في هذه الآية من أنواع الرحمة المكتوبة لعباده ما هم أحوج إلى معرفته بنص الوحي، وهو حكم من يعمل السوء بجهالة من عباده المؤمنين، وبقية أنواعها يمكن أن يستدل عليها بالنظر في الأنفس والآفاق، وأمَر نبيه بتبليغها لمن يدخلون في الدين؛ ليهتدوا بها، حتى لا يغتروا بمغفرة الله ورحمته، فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله، والغفلة عن تزكية أنفسهم، وحتى يبادروا إلى تطهيرها من إفساد الذنوب خوف أن تحيط بها خطيئتها: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

وقرأ عاصم وابن عامر[1]: ﴿أنه﴾ بفتح الهمزتين، فالأولى: بدل من الرحمة، والثانية: خبر مبتدأ محذوف تقديره: فأمره أنه؛ أي: إن الله غفور رحيم له. وقيل: إنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره: عليه أنه من عمل.

وقرأ ابن كثير والأخوان ـ الكسائي وحمزة ـ وأبو عمرو بكسر الهمزة فيهما، الأولى: على جهة التفسير للرحمة، والثانية: في موضع الخبر أو الجواب. وقرأ نافع بفتح الأولى على الوجهين السابقين، وكسر الثانية على وجهها أيضاً. وقرأت فرقة بكسر الأولى وفتح الثانية، حكاها الزهراوي عن الأعرج، وحكى سيبويه عنه

(١) البحر المحيط.

مثل قراءة نافع، وقال الداني: قراءة الأعرج ضد قراءة نافع.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه فصل الحقائق للمؤمنين؛ ليبتعدوا عن سلوك سبيل المجرمين، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما فصلنا لك يا محمد في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد وإبطال ما هم عليه من الشرك. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: نميز ونبين لك أدلة حججنا وبراهيننا على تقرير كل حق ينكره أهل الباطل، وقوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ معطوف على محذوف تقديره؛ أي: وكذلك نفصل الآيات ليظهر الحق، فيعمل به، ولتستبين وتتضح سبيل المجرمين؛ أي: طريق المشركين فتجتنب، فطريق الهدى واضحة، وطريق الضلال واضحة؛ لما في الحديث «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، ونهارها كليلها، لا يضل عنها إلا هالك».

وقرأ[1] ابن كثير وحفص والعربيان - أبو عمرو وابن عامر -: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء ﴿سَبِيلُ﴾ بالرفع. وقرأ أبو بكر والأخوان - الكسائي وحمزة -: وليستبين بالياء سبيل بالرفع فاستبان في هاتين القراءتين لازم. وقرأ نافع ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بتاء الخطاب ﴿سبيلَ﴾ بالنصب، فاستبان هنا متعدية. فقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ، وقيل له ظاهراً، والمراد: أمته؛ لأنه ﷺ كان استبانها، والمعنى: ولتبين يا محمد، أو يا مخاطب للناس سبيل المجرمين.

فالحاصل[2]: أن القراءات ثلاث سبعية، فمتى قرىء الفعل بالفوقانية جاز في ﴿سَبِيلُ﴾ النصب والرفع، والتاء مختلفة المعنى؛ لأنها في حالة النصب حرف خطاب، وفي حالة الرفع للتأنيث، ومتى قرىء بالتحتانية.. تعين الرفع في سبيل؛ وذلك لأن السبيل يذكر ويؤنث، فتأنيث الفعل بناء على تأنيثه، وتذكيره بناء على تذكيره.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الداعين لك إلى الإشراك ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ وزجرت وصرفت بما نصب لي ربي من الأدلة، وأنزل علي من الآيات في أمر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفتوحات.

التوحيد ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: عن عبادة الأصنام التي تعبدوها أنتم من دون الله، وتستغيثون بها عند الشدائد، التي لا علم لها ولا عقل؛ لأن الجمادات أخس من أن تعبد أو تدعى، وإنما كانوا يعبدونها على سبيل الهوى.

ثم أمره أن يبين لهم أن هذه العبادة مبنية على الرأي والهوى، وهي ضلال وغي فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ في عبادة الأصنام وطرد الفقراء؛ أي: ما[1] تميل إليه أنفسكم من عبادة غير الله، ولما كانت أصنامهم مختلفة.. كان لكل عابد صنم هوى يخصه، فلذلك جمع، وأهواؤكم عام، وغالب ما يستعمل في غير الخير، ويعم عبادة الأصنام وما أمروا به من طرد المؤمنين الضعفاء وغير ذلك مما ليس بحق، وهي أعم من الجملة السابقة، وأنص على مخالفتهم وفي قوله: ﴿أَهْوَآءَكُمْ﴾ تنبيه على السبب الذي حصل منه الضلال، وتنبيه لمن أراد اتباع الحق ومجانبة الباطل، كما قال ابن دريد:

وَآفَةُ ٱلْعَقْلِ ٱلْهَوَىٰ فَمَنْ عَلاَ ... عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا

ذكره أبو حيان؛ أي: لا أجري على طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى في عبادة الأحجار التي تنحتونها بأيديكم، ولا أوافقكم على ما تدعونني إليه لا في هذه العبادة، ولا في غيرها من الأعمال؛ لأنها مؤسسة على الهوى وليست على شيء من الحق والهدى. وكرر الأمر بالقول مع قرب العهد اعتناءً بالمأمور به، أو إيذاناً باختلاف القولين من حيث إن الأولى حكاية لما هو من جهته تعالى، وهي النهي، والثاني: حكاية لما هو من جهته عليه السلام، وهو الانتهاء عما ذكر من عبادة ما يعبدونه ذكره «أبو السعود».

﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ عن الهدى ﴿إِذًا﴾؛ أي: إن اتبعت أهواءكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: وما أنا في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم؛ أي: فإن فعلت ذلك.. فقد تركت محجة الحق، وسرت على غير هدى، فصرت ضالاً

---

(١) البحر المحيط.

مثلكم، وخرجت عن عداد المهتدين، وفي هذا تعريض بأنهم ليسوا من الهداية في شيء.

وقرأ[1] السلمي وابن وثاب وطلحة: ﴿ضلِلت﴾ بكسر فتحة اللام، وهي لغة، وفي «التحرير»: قرأ يحيى وابن أبي ليلى هنا، وفي السجدة في ﴿أئذا صللنا﴾ بالصاد غير معجمة، ويقال: صل اللحم أنتن، ويروى: ضللنا؛ أي: دفنا في الضلة، وهي الأرض الصلبة رواه أبو العباس عن مجاهد بن الفرات في كتاب «الشواذ» له، ذكره أبو حيان في «البحر».

ثم أمره أن يقول لهم: إني على هدى من ربي فيما أتبعه، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنِّي﴾ فيما أخالفكم فيه من التوحيد ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: على بيان قد بينه لي ربي، وبرهان قد وضح لي من ربي بالوحي والعقل؛ إذ القرآن بينة مشتملة على ضروب كثيرة من البينات العقلية والكونية التي يعجز الرسول عن الإتيان بمثلها ﴿و﴾ قد ﴿كذبتم به﴾؛ أي: والحال أنكم قد كذبتم به؛ أي: بالقرآن الذي هو بينتي من ربي، ومن عجيب أمركم أنكم تكذبون ببينة البينات، ثم تطمعون أن أتبعكم على ضلال من أمركم لا بينة لكم عليه إلا محض التقليد، والتقليد: براءة من الاستدلال، ورضىً بجهل الآباء والأجداد. وفي هذا حجة دامغة وبينة ناصعة على ما قبله من نفي عبادته ﷺ للذين يدعونهم من دون الله تعالى.

وفي «الفتوحات»: والضمير[2] في ﴿بِهِۦ﴾ يجوز أن يعود على ﴿رَّبِّي﴾؛ أي: وكذبتم بربي حيث أشركتم به، وهو الظاهر. وقيل: على القرآن؛ لأنه كالمذكور. وقيل: على ﴿بَيِّنَةٍ﴾؛ لأنها بمعنى البيان. وقيل: لأن التاء فيها للمبالغة لا للتأنيث، فمعناها على أمر بين من ربي، والمعنى: وكذبتم بالبيان الذي جئت به من عند ربي ـ وهو القرآن ـ والمعجزات الباهرات، والبراهين الواضحات التي تدل على صحة التوحيد وفساد الشرك. وبعد أن بين تكذيبهم به.. أردفه برد شبهة تخطر حينئذ بالبال، وهي: أن الله سبحانه وتعالى أنذرهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) الجمل.

عذاباً يحل بهم إذا أصروا على عنادهم وكفرهم، ووعد بأن ينصر رسوله عليهم، وقد استعجلوا النبي ﷺ ذلك؛ فكان عدم وقوعه شبهة لهم على عدم صدق القرآن؛ إذ هم يجهلون سنة الله في شؤون الإنسان، فأمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: ليس الأمر الذي تستعجلون بوقوعه من نقم الله وعذابه بيدي، ولا أنا على ذلك بقادر، ولم أقل لكم: إن الله فوض أمره إليَّ حتى تطالبوني به، وتعدون عدم إيقاعه عليهم حجة على تكذيبه. وقيل[1]: سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم بسبب هذا الشرك، وكان النضر بن الحارث وأصحابه يستعجلونه بقولهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ بطريق الاستهزاء، أو بطريق الإلزام على زعمهم، فقال تعالى: قل لهم يا محمد: ليس ما تستعجلون به من العذاب الموعود في القرآن، وتجعلون تأخره ذريعة إلى تكذيبه في حكمي وقدرتي حتى أجيء به وأظهر لكم صدقه.

ثم أكد ما سبق بقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: ما الحكم والتصرف في هذا الذي تستعجلونه من العذاب، وفي غيره من شؤون الخلق إلا لله وحده سبحانه وتعالى، وله في ذلك سنن حكيمة تجري عليها أفعاله وأحكامه، فلا يتقدم شيء منها على ميقاته ولا يتأخر عنه: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾. ثم بين سبحانه وتعالى أن كل ما قصه على رسوله أو قضاه فهو حق لا شبهة فيه، فقال: ﴿يَقُصُّ﴾ بالصاد المهملة المشددة؛ أي: يقص الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ، ويخبر له القصص ﴿ٱلْحَقَّ﴾ والخبر الصادق في وعده ووعيده وجميع أخباره.

وقرىء بسكون القاف وكسر الضاد المعجمة ـ كما سيأتي ـ بغير ياء؛ لسقوطها في اللفظ؛ أي: يقضي الله سبحانه ويحكم بين عباده القضاء الحق، أو يصنع الحق؛ لأن كل شيء صنعه الله تعالى فهو حق. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾؛ أي: أفضل الفاصلين الذين يفصلون بين الحق والباطل، أو هو أعدل الحاكمين في كل أمر، فهو لا يقع في حكمه وقضائه حيف وميل إلى أحد المتخاصمين، وهو النافذ حكمه في كل شيء، والمحيط علمه بكل شيء، وفي

---

(١) المراح.

مصحف عبد الله: ﴿وهو أسرع الفاصلين﴾.

وقرأ[1] ابن عباس وابن كثير ونافع وعاصم: ﴿يقص الحق﴾ بالصاد المشددة من القصص، والمعنى: إن كل ما أخبر به فهو حق. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿يقض الحق﴾ من القضاء، والمعنى: يقضي القضاء الحق. ولم[2] يُرسم ﴿يقض﴾ إلا بضاد؛ كأن الياء حذفت خطاً كما حذفت لفظاً لالتقاء الساكنين، كما حذفت في قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾، وكما حذفت الواو من قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ لما تقدم.

﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يستعجلون العذاب بقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ وبيدي وقدرتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: أمر ما تطلبون عجلته ووقوعه حالاً من نزول العذاب الموعود بكم؛ بأن يكون أمره مفوضاً إليَّ من الله تعالى: ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: لانفصل وانقطع النزاع بيني وبينكم، ولأتاكم ما تستعجلون به من العذاب، فأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي، واقتصاصاً من تكذيبكم، ولتخلصت منكم سريعاً لصدكم عن تبليغ دعوة ربي وصدكم الناس عني، وقد وعدني ربي بنصر المؤمنين المصلحين، وخذلان الكافرين المفسدين، ولم أمهلكم ساعة، ولكن الله حليم ذو أناةٍ، لا يعجل بالعقوبة.

فائدة: والفرق بين الاستعجال والإسراع: أن الاستعجال: المطالبة بالشيء قبل وقته، فلذلك كان العجلة مذمومة. والإسراع، تقديم الشيء، في وقته، فلذلك كانت السرعة محمودة.

والخلاصة: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب: لو أن عندي ما تسعجلون به.. لم أمهلكم ساعة، ولكن الله حليم لا يعجل بالعقوبة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين لا رجاء في رجوعهم

---

(١) زاد المسير والبحر المحيط. (٢) الفتوحات.

عن الظلم إلى الإيمان والحق والعدل، ومن ثمَّ لم يجعل أمر عقابهم إليَّ، بل جعله عنده، ووقت له ميقاتاً هو أعلم به ترونه بعيداً ويراه قريباً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾. وقيل: أعلم بما يستحقون به من العذاب، والوقت الذي يستحقونه فيه، وبما تقتضيه مشيئته من تأخيره استدراجاً لهم وإعذاراً إليهم.

الإعراب

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَّآ﴾: نافية. ﴿أَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أقول﴾، وجملة ﴿لَّآ أَقُولُ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: مقول محكي لـ﴿أَقُولُ﴾، وإن شئت قلت: ﴿عِندِى﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر مقدم. ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿أقول﴾. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿أَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿ٱلْغَيْبَ﴾: مفعول به؛ لأن علم هنا بمعنى: عرف يتعدى إلى مفعول واحد، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على الجملة الاسمية على كونها مقولاً لـ﴿أقول﴾.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَقُولُ﴾: فعل مضارع. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة ﴿لَآ أَقُولُ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾. ﴿إِنِّى مَلَكٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿أَقُولُ﴾ ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿أَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء

مفرغ. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿أَتَّبِعُ﴾. ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿إِلَيَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُوحَىٰٓ﴾، وجملة ﴿يُوحَىٰٓ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلۡ﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾: معطوف عليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾: الهمزة: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف تقديره: ألا تسمعون. الفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة عل ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾.

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾.

﴿وَأَنذِرۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿أنذر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنذر﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول به ﴿يَخَافُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿أَن يُحۡشَرُوٓاْ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: يخافون حشرهم إلى ربهم.

﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَيۡسَ﴾. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿وَلِيّٞ﴾: اسم ﴿لَيۡسَ﴾ مؤخر. ﴿وَلَا شَفِيعٞ﴾: معطوف عليه، ﴿ولا﴾: زائدة لتأكيد نفي ما قبلها، وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب حال من ضمير ﴿يُحۡشَرُوٓاْ﴾ تقديره: يخافون حشرهم حال كونهم عادمين ولياً يواليهم، وشفيعاً

يشفع لهم من دون الله تعالى. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: لعل: حرف ترجٍ ونصب بمعنى كي التعليلية، والهاء: اسمها، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلقة بـ﴿أنذر﴾؛ أي: وأنذرهم به لكي يتقوا الشرك والمعاصي.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه. ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾: معطوف على ﴿الغداة﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾ تقديره: يدعونه تعالى مخلصين له فيه.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿عَلَيْكَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه في محل النصب حال من ﴿شَيْءٍ﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها فانتصب حالاً منها، فصاحب الحال من ﴿شَيْءٍ﴾، والعامل فيها الاستقرار في عليك. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿شَيْءٍ﴾ مبتدأ مؤخر، والمعنى: ما شيء من حسابهم كائن عليك، والجملة من المبتدأ والخبر معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين النهي في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ وبين جوابه الآتي في قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مِنْ حِسَابِكَ﴾: جار ومجرور بيان مقدم لشيء، فهو صفة له لا حال منه؛ لما يلزم عليه من تقدم الحال على عاملها وصاحبها، وهو ممتنع على الأصح، أو حال منه على القول الضعيف نظير ما تقدم. ﴿عَلَيْهِم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِّن شَيْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها

معترضة، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾: الفاء: عاطفة سببية. ﴿تطردهم﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لم يكن شيء من حسابهم عليك، ولا شيء من حسابك عليهم فطردك إياهم. ﴿فَتَكُونَ﴾: الفاء: عاطفة سببية. ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن المضمرة وجوباً الواقعة في جواب النهي، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تكون﴾، وجملة ﴿تكون﴾ من اسمها وخبرها صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك؛ لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن طردك الذين يدعون ربهم، فكونك من الظالمين.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿فَتَنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿بَعْضَهُم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿بِبَعْضٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَتَنَّا﴾، والتقدير: وفتنا بعضهم ببعض فتوناً مثل ذلك الفتون المذكور، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿لِّيَقُولُوٓا۟﴾: اللام: لام كي وجر. ﴿يقولوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾: مقول محكي لـ﴿يقولوا﴾، وجملة القول من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لقولهم أهؤلاء إلخ، الجار والمجرور متعلق بـ﴿فَتَنَّا﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري. ﴿هؤلاء﴾ في محل النصب مفعول لفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده تقديره: أفضل الله هؤلاء من بيننا، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لـ﴿يقولوا﴾. ﴿مَنَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به.

﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿منّ﴾، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿عَلَيۡهِم﴾، وجملة ﴿من﴾ من الفعل والفاعل جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، ويجوز أن يكون ﴿هؤلاء﴾ مبتدأ، وجملة ﴿مَنَّ ٱللَّهُ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿يقولوا﴾: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري. ﴿لَيۡسَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِأَعۡلَمَ﴾: خبر ﴿لَيۡسَ﴾، والباء: زائدة في خبرها. ﴿بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعلم﴾، وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَكَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿فَقُلۡ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً لكون الجواب جملة طلبية. ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة كونه دعاء. ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول القول لـ﴿قل﴾. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَتَبَ﴾. ﴿ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾: مفعول به لـ﴿كَتَبَ﴾.

﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿أَنَّهُۥ﴾: حرف نصب، والهاء: ضمير الشأن اسمها ﴿مَنۡ﴾: اسم شرط أو موصولة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما.

﴿عَمِلَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿عَمِلَ﴾. ﴿سُوٓءَۢا﴾: مفعول به. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: جار ومجرور حال ثانية من فاعل ﴿عَمِلَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿تَابَ﴾: فعل ماض في محل الجزم معطوف على عمل، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تاب﴾. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ في محل الجزم معطوف على ﴿تَابَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿فَأَنَّهُۥ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿أن﴾: حرف نصب، والهاء: اسمها ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، وخبره محذوف، والتقدير: فالغفران والرحمة حاصلان له، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المفتوحة، وجملة ﴿أن﴾ المفتوحة في محل النصب بدل من ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾ بدل الشيء من الشيء، والتقدير: كتب ربكم على نفسه الرحمة كتب حصول الغفران والرحمة لمن عمل سوءاً بجهالة إلخ. هذا على قراءة الفتح في الهمزتين. وأما على قراءة الكسر في الهمزتين فكسر الأولى على الاستئناف على أن الكلام تم قبلها، وكسر الثانية أيضاً على الاستئناف بمعنى أنها في صدر جملة وقعت خبراً لـ﴿من﴾ الموصولة، أو جواباً لها إن كانت شرطاً. قال أبو علي[1]: من كسر ألف ﴿أَنَّهُۥ﴾ جعله تفسيراً للرحمة، ومن كسر ألف ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾، فلأن ما بعد الفاء حكمه للابتداء، ومن فتح ألف ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ﴾ جعل أنَّ بدلاً من الرحمة، والمعنى: كتب ربكم أنه من عمل، ومن فتحها بعد الفاء.. أضمر خبراً تقديره: فله أنه غفور رحيم، والمعنى: فله غفرانه انتهى. وهنا أوجه كثيرة من الإعراب لا نطيل الكلام بذكرها، ومن أرادها.. فليراجع كتب القوم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

---

(١) زاد المسير.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والتقدير: ونفصل الآيات تفصيلاً مثل التفصيل السابق من أول السورة إلى هنا، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف تقديره: ونفصل الآيات كذلك ليظهر الحق. ﴿تستبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإظهار الحق، ولإبانة سبيل المجرمين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نفصل﴾.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ إلى ﴿قُلْ﴾ الآتي مقول محكي لـ﴿قل﴾ منصوب به، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿نُهِيتُ﴾: فعل مغير، ونائب فاعله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: قل لهم: إني نهيت عن عبادة الأصنام الذين تدعونهم من دون الله تعالى: ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تدعونهم. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿تَدْعُونَ﴾ تقديره: حال كونكم مجاوزين الله تعالى، أو من الضمير المحذوف من ﴿تَدْعُونَ﴾.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ نافٍ وفعل ومفعول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة على كونها مقول القول. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء، ملغاة لا عمل لها؛ لعدم

الفعل بعدها. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة: ﴿ضَلَلْتُ﴾ على كونها مقول القول.

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إن﴾: حرف نصب، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿مِّن رَّبِّى﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بَيِّنَةٍ﴾. ﴿وَكَذَّبْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة مستأنفة على كونها مقول القول، أو في محل النصب حال من ﴿بَيِّنَةٍ﴾، ولكن بتقدير: قد. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿عِندِى﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

﴿إِنِ﴾: نافية. ﴿ٱلْحُكْمُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول القول، وفي قراءة ﴿يقض﴾ بالضاد المعجمة تقول في إعرابه ﴿يقض﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً للتخلص من التقاء الساكنين المحذوفة خطاً تبعاً للخط لما في اللفظ، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه فعل معتل بالياء. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

﴿بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَّوْ﴾: حرف شرط. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿عِندِى﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم لـ﴿أن﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب اسم ﴿أَنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف تقديره: لو ثبت كون ما تستعجلون به عندي، والجملة من الفعل المقدر وفاعله فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَقُضِىَ﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لَّوْ﴾. ﴿قضى الأمر﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿بَيْنِى﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿قضي﴾. ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِى﴾، والجملة من الفعل المغير ونائب فاعله جواب ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿خَزَآئِنُ اللَّهِ﴾ والخزائن جمع: خزانة أو خزينة، والخزانة ما يحفظ فيها الشيء الذي يراد حفظه، ومنع التصرف فيه مخافة أن ينال، ومنه[1] حديث: «فإنما يتخزن لهم ضروع مواشيهم أطعماتهم، أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزانته»، وهي بفتح الخاء. قال الشاعر:

إِذَا ٱلْمَرْءُ لَمْ يَخْزِنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ ... فَلَيْسَ عَلَىٰ شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانِ

وفي «المختار»: يقال: خزن المال إذا جعله في الخزانة واختزنه أيضاً، وخزن السر: إذا كتمه واختزنه أيضاً، وبابهما نصر، والمخزن أيضاً ما يخزن فيه

(١) البحر المحيط.

الشيء انتهى.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ والغيب: ما غيب علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب علمه كما مرَّ.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ والأعمى والبصير هنا الضال والمهتدي: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾: والإنذار: العظة والتخويف. ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الطرد[1]: الإبعاد بإهانة، وبابه: نصر، والطريد المطرود، وبنو مطرود وبنو طرَّاد فخذان من إياد. ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾ الغداة والغدوة، كالبكرة: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، أصلها: غدوة، فقلبت الواو ألفاً لتحركها بحسب الأصل، وانفتاح ما قبلها بحسب الآن، وهي نكرة، ويقرأ: ﴿بالغدوة﴾ بضم الغين وسكون الدال وواو بعدها، وأكثر ما تستعمل معرفة علماً، وقد عرفها هنا بالألف واللام.

﴿وَٱلۡعَشِيِّ﴾ آخر النهار، أو من[2] المغرب إلى العشاء، فقيل: هو مفرد، وقيل: هو جمع عشية. ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ يقال: فتن الذهب يفتن ـ من باب ضرب ـ فتنة ومفتوناً: إذا أدخله النار لينظر ما جودته، والفتنة: الاختبار والامتحان، والمعنى هنا: ابتلينا واختبرنا ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ ﴿مَنَّ﴾ ـ مِن باب شد ـ أي: أنعم الله عليهم بنعم كثيرة.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ السلام والسلامة: البراءة والعافية من الآفات والعيوب، والسلام من أسمائه تعالى، يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من عجز ونقص وفناء، واستعمل السلام في التحية بمعنى السلامة من كل ما يسوء، وبمعنى: تأمين المسلم عليه من كل أذى يناله من المسلم، فهو دليل المودة والصفاء، وهو تحية أهل الجنة يحييهم بها ربهم جلَّ وعلا وملائكته الكرام، ويحيي بها بعضهم بعضاً. ﴿كَتَبَ﴾؛ أي: أوجب وفرض وألزم. ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ والجهالة: السفه والخفة التي تقابل الحكمة والروية. ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾؛ أي: تتضح وتظهر يقال: استبنت الشيء وتبينته؛ أي: عرفته بيناً واضحاً. ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾ النهي: الزجر

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

عن الشيء بالقول نحو: اجتنب قول الزور، والكف عنه بالفعل، كما قال تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾.

﴿تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ الدعاء: النداء لطلب إيصال الخير أو دفع الضر، ولا يكون عبادةً إلا إذا كان فيما وراء الأسباب العادية التي سخرها الله للعباد، وينالونها بكسبهم واجتهادهم وتعاونهم عليها. ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا﴾ ضللت بفتح اللام، وهي لغة أهل الحجاز، وهي الفصحى، وهي قراءة الجمهور. وقرىء بكسرها، وهي لغة تميم، وهي قراءة ابن وثاب وطلحة بن مصرف كما مر، قال الجوهري: والضلال والضلالة ضد الرشاد، وقد ضللت أضل، قال الله: ﴿إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ قال: فهذه - يعني المفتوحة - لغة نجد، وهي الفصيحة، وأهل العالية يقول: ضللت أضل انتهى.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ والبينة: كل ما يتبين به الحق من الحجج العقلية أو الآيات الحسية، ومن ذلك تسمية الشهادة بيّنة، ويجوز أن تكون التاء في بينة للمبالغة كما مر، والمعنى: على أمر بيِّن، فلما نفى أن يكون متبعاً للهوى.. نبه على ما يجب اتباعه وهو الأمر الواضح من الله تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ﴾ والقصص: ذكر الخبر أو تتبع الأثر، من قص الحديث، أو من قص الأثر؛ أي: تتبعه، قال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾، وعلى هذه القراءة، فالحق مفعول به اهـ «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾، وفي قوله: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾، وقوله: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾؛ لأنه استعارة عن الكافر والمؤمن.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأنه إنما ذكر لمجرد تتميم الفائدة وتأكيدها، وإلا فالكلام قد تمَّ بدونه.

ومنها: ما يسميه أهل البديع ردَّ الصدر على العجز في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ كقولهم عادات السادات، سادات العادات.

وقال الزمخشري[1] بعد كلام قدمه في معنى التفسير: فإن قلت: أما كفى قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ حتى ضم إليه قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؟

قلت: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة، ومؤداهما واحد، وهو المعنى بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ولا يستقبل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً، كأنه قيل: لا يؤاخذ كل واحد لا أنت ولا هم بحساب صاحبه. انتهى.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم﴾، وفي قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ لأنها مؤكدة لقوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ واختار في التأكيد بالاسمية لتدل على الدوام والاستمرار.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ إشعاراً بوصفهم بالظلم، وحق الكلام أن يقال: والله أعلم بكم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن
وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ
مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ
ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ
أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾
قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم
بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ
عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا
كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر(1) رسوله ﷺ أن يبين للمشركين أنه على بينة من ربه فيما بلغهم إياه من رسالته، وأن ما يستعجلونه من عذاب الله تعجيزاً أو تهكماً ليس عنده، وإنما هو عند الله تعالى، وقد قضت سنته أن يجعل لكل شيء أجلاً وموعداً لا يتقدم ولا يتأخر، وأن الله تعالى هو الذي يقضي الحق ويقصه على رسوله.. ذكر هنا أن مفاتح الغيب عنده، وأن التصرف في الخلق بيده، وأنه

(1) المراغي.

هو القاهر فوق عباده لا يشاركه أحد من رسله، ولا من سواهم في ذلك.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما قال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.. انتقل من خاص إلى عام، وهو علم الله بجميع الأمور الغيبية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ...﴾ الآية، مناسبة[2] هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر استئثاره بالعلم التام للكليات والجزئيات.. ذكر استئثاره بالقدرة التامة تنبيهاً على ما تختص به الإلهية، وذكر شيئاً محسوساً قاهراً للأنام، وهو التوفي بالليل والبعث بالنهار، وكلاهما ليس للإنسان فيه قدرة، بل هو أمر يوقعه الله تعالى بالإنسان.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ الآية، مناسبة[3] هذه الآية لما قبلها: لما أبان الله سبحانه وتعالى لعباده إحاطة علمه، وشمول قدرته، واستعلاءه عليهم بالقهر، وحفظه أعمالهم عليهم.. ذكرهم هنا بالدلائل الدالة على كمال القدرة الإلهية، ونهاية الرحمة والفضل والإحسان.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[4]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكَّر المشركين ببعض آياته في أنفسهم، وبمننه عليهم بإنجائهم من الأهوال والكروب التي يشعر بها كل من وقعت له منهم؛ إما بتسخير الأسباب، وإما بدقائق اللطف والإلهام.. ذكر هنا قدرته على تعذيبهم، وأبان أنَّ عاقبة كفران النعم أن تزول وتحل محلها النقم، وأنه يمهل ولا يهمل، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات السابقة تكذيب قريش بالقرآن، وكون الرسول مبلِّغاً لا خالقاً للإيمان، وأحوالهم في ظهور

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

(٤) المراغي.

صدق أنبائه وأخباره على الزمان.. بين في هذه الآيات السبيل في معاملة من يخوض في آيات الله بالباطل، ومن يتخذ دين الله هزواً ولعباً من الكفار الذين لم يجيبوا الدعوة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ...﴾ الآيات، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ...﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف»، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال بعض الناس: «لا يكون هذا أبداً أن يقتل بعضنا بعضاً، ونحن مسلمون»، فنزلت: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَعِندَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى خاصة ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: مخازن الغيب أو المفاتح التي يتوصل بها إلى المخازن؛ أي: له سبحانه وتعالى علم الأمور المغيبة المخفية عن غيره، من الأرزاق والأمطار والآجال والعذاب والثواب والحساب والجزاء وغيرها.

وقرىء: ﴿مفاتيح﴾ بالياء. ﴿لَا يَعْلَمُهَآ﴾؛ أي: لا يعلم تلك الأمور المغيبة ولا يحيط بها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى، وهذه الجملة الفعلية مؤكدة لمضمون الجملة التي قبلها، ويندرج تحت مضمون هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب اندراجاً أولياً، كما يدل عليه السياق، فهو سبحانه وتعالى الذي يحيط بها، وسواه جاهل بذاته، لا يعلم منها شيئاً إلا بإعلامه عز وجل، فعلينا أن نفوِّض إليه إنجازه وعده لرسله بالنصر، ووعيده لأعدائه بالعذاب والقهر، وأن نجزم بأنه لا يُخلف وعده رسله، وإنما يؤخر تنفيذه إلى الأجل الذي اقتضته حكمته.

---

(١) لباب النقول.

روى البخاري[1] عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾».

وما حكاه الله تعالى عن عيسى عليه السلام من قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ﴾، وما قاله يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ داخل فيما يظهر الله عليه رسله من علم الغيب، كما قال تعالى في سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، وجاء في معنى الآية: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

وروى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعاً: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض».

وفي[2] هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتلي الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق ﷺ: «من أتى كاهناً أو منجماً.. فقد كفر بما أنزل الله على محمد».

﴿وَيَعْلَمُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ من النبات والدواب ﴿و﴾ ما في ﴿البحر﴾ من الحيوان والجواهر وغيرهما. وإنما[3] قدم ذكر البر؛ لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر، وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال والحيوان والنبات والمعادن. وإنما أخر البحر في الذكر؛ لأن إحاطة العقل بأحواله أقل، لكن الحس يدل على أن عجائب البحر أكثر، وأجناس المخلوقات فيه أعجب، وأن طول البحر وعرضه أعظم.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) المراح.

وقال مجاهد[1]: البر: المفاوز والقفار، والبحر: المدن والقرى فيه والأمصار، لا يحدث فيها شيء إلا وهو يعلمه. وقال جمهور المفسرين: هما البر والبحر المعروفان؛ لأن جميع الأرض إما بر، وإما بحر، وفي كل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه. والمعنى: أي: وعنده سبحانه وتعالى علم ما لم يغب عنكم؛ لأن ما فيهما ظاهر للعين، يعلمه العباد، وعلمه تعالى بما فيهما علم مشاهدة مقابل لعلم الغيب.

والخلاصة: أن عنده تعالى علم ما غاب عنكم مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر بعلمه، وعنده علم ما يعلمه جميعكم لا يخفى عليه شيء منه، فعنده علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾؛ أي: وما تسقط ورقة واحدة من أوراق الشجر أو النجم، ولا تبقى عليه في الصحارى والبراري، أو في الأمصار والقرى ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ أي: إلا والحال أنه سبحانه وتعالى عليم بالساقطة منها والباقية، ويعلم زمان سقوطها، ومكانه، وعدد الساقطة والباقية وأحوالها قبل السقوط وبعده.

﴿وَلَا﴾ من ﴿حَبَّةٍ﴾ ملقاة ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ وبطونها لتنبت، قيل: هي الحبة المعروفة تلقى في بطن الأرض قبل أن تنبت، وقيل: هي الحبة التي في الصخرة التي تحت الأرضين السبع. ﴿وَلَا﴾ من ﴿رَطْبٍ﴾، وهو كل ما ينبت، وقيل: الحي ﴿وَلَا﴾ من ﴿يَابِسٍ﴾ وهو كل ما لا ينبت، وقيل: الميت، وقيل: هما عبارة عن كل شيء؛ لأن جميع الأشياء إما رطبة أو يابسة ﴿إِلَّا﴾ هو ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: إلا كان كل ما ذكر ثابتاً مكتوباً في كتاب مبين؛ أي: موضح مبين مقدارها ووقتها ومكانها، وهو اللوح المحفوظ.

فإن قلت[2]: إن جميع هذه المذكورات داخلة تحت قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ فلِمَ أفردها بالذكر؟

قلتُ: ذكرها من قبيل التفصيل بعد الإجمال، وقد ذكر البر والبحر لما فيهما

---

(١) الخازن. (٢) الفتوحات.

من العجائب، ثم الورقة؛ لأنها يراها كل أحد، لكن لا يعلم عددها إلا الله، ثم ذكر ما هو أضعف من الورقة، وهو الحبة، ثم ذكر مثالاً يجمع الكل، وهو الرطب واليابس، فذكر هذه الأشياء، وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى، فصارت الأمثال منبهة على عظمة عظيمة، وقدرة عالية، وعلم واسع، فسبحان العليم الخبير.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: وما[1] تسقط من حبة بفعل الإنسان باختياره، كالحب الذي يلقيه الزراع في بطون الأرض يسترونه بالتراب، فيحجب عن ضوء النهار، أو تذهب به النمل في قراها وحجورها، أو بغير فعل الإنسان؛ كالذي يسقط من النبات في الشقوق والأخاديد، وما يسقط من الثمار رطباً ويابساً إلا وهو في كتاب مبين، وهو اللوح المحفوظ الذي كتب ذلك فيه، وكتب عدده، والوقت الذي يوجد فيه، والذي يفنى فيه، وجعل الكتاب مبيناً؛ لأنه يبين عن صحة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم عليه، هذا هو الذي اختاره الزجاج لقوله في الآية الأخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، واختار الرازي أن الكتاب المبين: علم الله تعالى الذي يشبه المكتوب في الصحف بثباته وعدم تغيره.

واتفق[2] علماء التفسير بالمأثور على تفسير الكتاب المبين وأم الكتاب والذكر في نحو ما تقدم من الآيات والأحاديث باللوح المحفوظ، وهو شيء أخبر الله به، وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقته، فعلينا أن نؤمن بأنه شيء موجود، وأن الله قد حفظ كتابه فيه، وأما دعوى أنه جرم مخصوص في سماء معينة.. فمما لم يثبت عن المعصوم ﷺ بالتواتر، فلا ينبغي أن يدخل في باب العقائد لدى المؤمنين.

وروي عن الحسن: أن حكمة كتابة الله لمقادير الخلق تنبيه المكلفين إلى عدم إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب. وزاد بعضهم حكمتين أخريين:

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

١ ـ اعتبار الملائكة عليهم السلام بموافقة المحدثات للمعلومات الإلهية.

٢ ـ عدم تغيير الموجودات عن الترتيب السابق في الكتاب، ويؤيده ما روى البخاري عن أبي هريرة «جف القلم بما أنت لاق».

وقرأ[١] ابن السميقع: ﴿مفاتيح﴾ بالياء، وروي عن بعضهم: ﴿مفتاح الغيب﴾ على الإفراد. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وابن السميقع: ﴿ولا رطبٌ ولا يابسٌ﴾ بالرفع فيهما، والأولى أن يكون معطوفين على موضع ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾، ويحتمل الرفع على الابتداء، وخبره ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ وينيمكم ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ ويراقبكم فيه، استعير[٢] التوفي من الموت للنوم؛ لما بينهما من المشاركة في إزالة الإحساس والتميز، فإن أصل التوفي: قبض الشيء بتمامه.

وعبارة «زادة على البيضاوي» نصها: وعلى[٣] ما ذكره المصنف ليس في ابن آدم إلا روح واحدة، يكون لابن آدم بحسبها ثلاثة أحوال: حالة يقظة، وحالة نوم، وحالة موت، فباعتبار تعلقها بظاهر الإنسان وباطنه تعلقاً كاملاً تثبت له حالة اليقظة، وباعتبار تعلقها بظاهر الإنسان فقط تثبت له حالة النوم، وباعتبار انقطاع تعلقها عن الظاهر والباطن تثبت له حالة الموت.

فعلى هذا: معنى ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: يقطع أرواحكم عن التعلق ببواطنكم؛ أي: يقطع تعلقها بالباطن، ومعنى ﴿يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾؛ أي: يرد تعلقها بالباطن. وقيل: معنى ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: يقبض أرواحكم عند النوم، وهذا مبني على أن في الجسد روحين: روح الحياة: وهي لا تخرج إلا بالموت، وروح التمييز: وهي تخرج بالنوم، فتفارق الجسد، فتطوف بالعالم وترى المنامات، ثم ترجع إلى الجسد عند تيقظه، وسيأتي بسط هذه المسألة وإيضاحها في سورة الزمر إن شاء الله تعالى. واقتصر هنا على الليل، وإن كان ذلك يقع في النهار؛ لأن الغالب أن يكون النوم فيه. ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ويعلم

---

(١) البحر المحيط. (٢) البيضاوي. (٣) زاده.

جميع ما كسبتم وعملتم في النهار؛ أي: يعلم جميع ما كسبتم حين اليقظة، ويكون معظم ذلك في النهار سواء أكان خيراً أم شراً.

وفي «الفتوحات»: والتقييد[1] بالظرفين جري على الغالب، إذ الغالب أن النوم في الليل والكسب في النهار، وخصَّ النهار بالذكر دون الليل؛ لأن الكسب فيه أكثر؛ لأنه زمن حركة الإنسان، والليل زمن سكونه. اهـ «كرخي».

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: يوقظكم في النهار، عطف على ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾، وتوسيط[2] الفعل بينهما لبيان ما في بعثهم من عظم الإحسان إليهم بالتنبيه على ما يكسبونه من السيئات. قال البيضاوي: أطلق البعث ترشيحاً للتوفي؛ أي: لما استعير التوفي من الموت للنوم.. كان البعث الذي هو في الحقيقة الإحياء بعد الموت ترشيحاً؛ لأنه أمر يلائم المستعار منه. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: هو الذي يتوفاكم بالليل، ثم يبعثكم بالنهار، ويعلم ما جرحتم فيه. ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ أي: يوقظكم ويرسلكم لكسب أرزاقكم وأقواتكم ومناجاة إلٰهكم وخالقكم؛ لأجل أن يقضي أجلاً مسمى؛ أي: لأجل أن يستوفي ويستكمل المتيقظ آخر أجله وعمره المعين له في علمه تعالى، فإن لأعماركم آجالاً مقدرة مكتوبة لا بد من قضائها وإتمامها. ومعنى الآية: أن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم، فإنه عالم بذلك، ولكن ليقضى أجل مسمى؛ أي: معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء آجالكم وموتكم ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ﴾ بعد بعثكم وحشركم ﴿يُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في حياتكم الدنيا، ويجازيكم بذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. والقادر[3] على البعث مِن تَوفي النوم قادرٌ على البعث من توفي الموت، وفي ذكر الأجل المسمى والرجوع إلى الله تعالى لأجل الحساب والجزاء إيماء إلى تأييد ما تقدم من حكمة تأخير ما كان يستعجله مشركوا مكة من وعيد الله لهم، ووعده لرسله

---

(١) الجمل. (٢) أبو السعود. (٣) المراغي.

بالنصر عليهم، وبيان عذاب الآخرة فوق ما أنذروا به من عذاب الدنيا، فمن لم يدركه العذاب الأول.. لم يفلت من الثاني.

وقال أبو حيان[1]: ولما ذكر تعالى النوم واليقظة.. كان ذلك تنبيهاً على الموت والبعث، وأن حكمهما بالنسبة إليه تعالى واحد، فكما أنام وأيقظ يميت ويحيي.

وقرأ طلحة وأبو رجاء: ﴿ليقضي أجلاً مسمى﴾ ببناء الفعل للفاعل، ونصب ﴿أجلاً﴾؛ أي: ليتم الله تعالى آجالهم، كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾. وفي قراءة الجمهور يحتمل أن يكون الفاعل المحذوف ضميره تعالى أو ضميرهم.

وبعد أن أبان الله سبحانه و تعالى أمر الموت والرجوع إلى الله للحساب والجزاء.. ذكر قهره لعباده، وإرسال الحفظة لإحصاء أعمالهم وكتابتها عليهم، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾؛ أي: الغالب المتصرف في خلقه بما يشاء في أمورهم إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً وإثابةً وتعذيباً إلى غير ذلك، العالي بقدرته وسلطانه ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فوقية تليق بجلاله لا نكيفها ولا نمثلها، بل نؤمن بها، ولا نعطلها ولا نؤولها، بل نمرها على ظاهرها كما جاءت، كما هو مذهب السلف الأسلم الأعلم في آيات الصفات وأحاديثها؛ أي: وهو سبحانه وتعالى القاهر المستحق منكم العبادة، لا المقهورون من الأوثان والأصنام المغلوبون على أمرهم. ومعنى القاهر: الغالب لغيره المذلل له، والله تعالى هو القاهر لخلقه، وقهر كل شيء بضده، فقهر الحياة بالموت، والإيجاد بالإعدام، والغنى بالفقر، والنور بالظلمة.

﴿وَيُرْسِلُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها العباد ويوكل بكم ﴿حَفَظَةً﴾؛ أي: ملائكة يحفظون أعمالكم ويكتبونها في صحائف تقرأ عليكم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد. يعني: أن من جملة قهره لعباده إرسال الحفظة عليهم لمراقبتهم، وإحصاء أعمالهم وكتابتها، وحفظها في الصحف التي تنشر يوم الحساب، وهي المرادة

---

(١) البحر المحيط.

بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾، وهؤلاء الحفظة هم الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾، ونحن نؤمن بهذه الكتابة ولا نعرف صفتها، ولا نتحكم فيها بآرائنا.

وما[1] مثل مراقبة أولئك الحفظة إلا مثل مراقبة رجال البوليس السري في حكومات العصر الحديث.

وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال في الآية: الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم، يحفظونهم من القتل، ألم تسمع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ لم يغن الحرس عنهم شيئاً، وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون».

والحكمة في كتابة الأعمال وحفظها على العاملين أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه، وتعرض على رؤوس الأشهاد.. كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات، وأبعث له على عمل الصالحات، فإن لم يصل إلى مقام العلم الراسخ الذي يثمر الخشية لله والمعرفة الكاملة التي تثمر الحياء.. ربما غلب عليه الغرور بالكرم الإلهي والرجاء في المغفرة والرحمة، فلا يكون لديه من الخشية والحياء ما يزجره عن المعصية، كما يزجره توقع الفضيحة في موقف الحساب على أعين الخلائق وأسماعهم، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

---

(١) المراغي.

إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ غاية لمحذوف تقديره: وهو الذي يرسل عليكم حفظة من الملائكة يراقبونكم ويحصون عليكم أعمالكم مدة حياتكم حتى إذا جاء أحدكم أسباب الموت ومقدماته، وانتهى عمله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ أي: قبضت روحه رسلنا الموكلون بذلك من الملائكة، وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذين يتولون ذلك بأمره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

روى ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس: أنه سُئل عن ملك الموت، أهو وحده الذي يقبض الأرواح؟ قال: هو الذي يلي أمر الأرواح، وله أعوان على ذلك، وقرأ هذه الآية، ثم قال: غير أن ملك الموت هو الرئيس.

وروي عن إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة: أن الأعوان يقبضون الأرواح من الأبدان، ثم يدفعونها إلى ملك الموت. وعن الكلبي: أن ملك الموت هو الذي يتولى القبض بنفسه، ويدفعها إلى الأعوان، فإن كان الميت مؤمناً.. دفعها إلى ملائكة الرحمة، وإن كان كافراً.. دفعها إلى ملائكة العذاب؛ أي: وهم يتوجهون بالأرواح إلى حيث يوجههم الله بأمره، وعلينا أن نؤمن بذلك ولا نبحث عن كيفيته.

فإن قلت: جاء إسناد التوفي إلى الله تعالى في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، وإسناده إلى ملك الموت في قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وإسناده إلى الرسل في قوله هنا: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، فكيف الجمع بين هذه الآيات؟.

قلتُ: وجه الجمع بين هذه الآيات: أن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى، فإذا حضر أجل العبد.. أمر الله ملك الموت بقبض روحه، ولملك الموت أعوان من الملائكة، فيأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده، فإذا وصلت إلى الحلقوم.. تولى قبضها ملك الموت بنفسه، فحصل الجمع بين الآيات. وقيل: المراد من قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾: ملك الموت وحده، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له.

وقرأ حمزة[1]: ﴿توفاه﴾ بألف ممالة، وظاهره أنه فعل ماض كتوفته إلا أنه ذكر على معنى الجمع، ومن قرأ: ﴿تَوَفَّتۡهُ﴾ أنث على معنى الجماعة. ويحتمل أن يكون مضارعاً، وأصله: تتوفاه، فحذفت إحدى التاءين على الخلاف في تعيين المحذوفة.

وقرأ الأعمش: ﴿يتوفاه﴾ بزيادة ياء المضارعة على التذكير.

﴿وَهُمۡ﴾؛ أي: والحال أن هؤلاء الرسل ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾؛ أي: لا يقصرون فيما أمروا به من قبض روح الميت، ولا يؤخرونه طرفة عين. وقرأ الأعرج وعمرو بن عبيد: ﴿لا يُفْرِطون﴾ بالتخفيف؛ أي: لا يجاوزون الحد فيما أمروا به بزيادة أو نقصان.

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوف على ﴿تَوَفَّتۡهُ﴾. وقرىء: ﴿رِدوا﴾ بكسر الراء بنقل حركة الدال المدغمة إلى الراء؛ أي: ثم بعد قبض الملائكة أرواحهم يرد أولئك الذين تتوفاهم الرسل بالبعث من القبور والحشر إلى موقف الحساب إلى حكم الله وقضائه وجزائه الذي هو ﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾ ومالك أمورهم، الذي هو ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ الذي لا يقضي إلا بالعدل ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم. وفي الآية[2] إيماء إلى أن ردهم إليه حتم؛ لأنه سيدهم الذي يتولى أمورهم، ويحكم بينهم بالحق وأما تولي بعض العباد أمورَ بعضٍ بملك الرقبه أو ملك التصرف والسياسة، فمنه ما هو باطل من كل وجه، ومنه ما هو باطل من حيث إنه موقوت لاثبات له ولا بقاء، وحق من حيث إن مولاهم الحق أقره في سننه الاجتماعية أو شرائعه المنزلة لمصلحة العباد العارضة مدة حياتهم الدنيا، وقد زال كل ذلك بزوال عالم الدنيا، وبقي المولى الحق وحده.

فإن قلت: ما الحكمة في إفراد الضمير في قوله: ﴿تَوَفَّتۡهُ﴾ العائد إلى ﴿أَحَدَكُمُ﴾ الذي هو بمعنى: البشر والخلق، وفي جمعه في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ بواو الجمع؟

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

قلتُ: السر في الإفراد أولاً، والجمع ثانياً: وقوع التوفي على الانفراد، والرد على الاجتماع، ذكره «أبو السعود».

وكلمة ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ حرف تنبيه واستفتاح؛ أي: انتبهوا أيها العباد واعلموا أن له سبحانه وتعالى وحده القضاء الحق في ذلك اليوم لا لغيره، لا بحسب الظاهر ولا بحسب الحقيقة، بخلاف الدنيا؛ فإنه وإن لم يكن حاكم في الحقيقة غيره تعالى، لكن فيها بحسب الظاهر حكام متعددة. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾؛ أي: أسرع من يحاسب؛ لأنه لا يحتاج إلى فكر وروية وعقد يد، وسرعة حسابه أنه يحاسب العباد كلهم في أسرع زمن وأقصره، لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره، ولا يشغله شأن عن شأن.

والخلاصة: أنه تعالى أسرع الحاسبين إحصاءً للأعمال ومحاسبة عليها. وقرأ الحسن والأعمش: ﴿الحقَ﴾ بالنصب في قوله: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ على إضمار فعل؛ أي: أعني أو أمدح، أو على أنه صفة مصدر محذوف تقديره: ثم ردوا إلى اللَّهِ مولاهم الردَّ الحقَّ.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الغافلين عن أنفسهم وعما أودع في الآفاق من آيات التوحيد توبيخاً وتقريراً لهم بانحطاط شركائهم عن رتبة الإلهية: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾؛ أي: من[1] ذا الذي ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه فتحيرتم وأظلمت عليكم الطرق ﴿و﴾ من ذا الذي ينجيكم من ظلمات ﴿البحر﴾ إذا ركبتم فيه، فأخطأتم الطريق، وأظلمت عليكم السبل، فلم تهتدوا. وقيل: ظلمات البر والبحر: مجاز عما فيهما من الشدائد والأهوال. وقيل: الحمل على الحقيقة أولى، فظلمات البر: هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح، فيحصل من ذلك الخوف الشديد؛ لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب، وظلمات البحر: ما اجتمع فيه من ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة الرياح العاصفة، والأمواج الهائلة، فيحصل من ذلك أيضاً

(١) الخازن.

الخوف الشديد من الوقوع في الهلاك. والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ، كما مرت الإشارة إليه، فالمقصود: أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان فيها إلا إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنه هو القادر على كشف الكروب وإزالة الشدائد، وهو المراد من قوله: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ أي: من إلٰه غير الله ينجيكم ويكشف عنكم تلك الكروب حالة كونكم تدعونه سبحانه وتعالى عند نزولها بكم تضرعاً وجهراً، وتدعونه خفية وسراً، وتخلصون له الدعاء في الحالتين، وتنسون ما تشركون، يعني: إذا اشتد بكم الأمر.. تخلصون له الدعاء تضرعاً منكم إليه واستكانة جهراً وخفية، يعني: جهراً حالاً، وسراً حالاً، حالة كونكم قائلين في الدعاء ومقسمين له فيه، والله ربنا ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ الله من هذه الظلمات، وخلصنا من الهلاك ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ له على هذه النعمة، نعمة الإنجاء؛ أي: لنكونن من المتصفين بالشكر، المخلصين له بالعبادة دون من نشركه معه في عبادته، والشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها.

وقرأ[1] الكوفيون: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ بالتشديد فيهما. وقرأ حميد بن قيس ويعقوب وعلي بن نصر عن أبي عمرو بالتخفيف فيهما. وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ والعربيان ـ أبو عمرو وابن عامر ـ بالتشديد في ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ والتخفيف في ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ جمعوا بين التعدية بالهمزة والتضعيف كقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ﴾. وقرأ[2] أبو بكر عن عاصم: ﴿خفية﴾ بكسر الخاء وسكون الفاء. وقرأ الباقون بضمها وسكون الفاء، وهما لغتان، وعلى هذا الاختلاف في سورة الأعراف. وقرأ الأعمش: ﴿وخيفة﴾ بكسر الخاء فبعده الياء الساكنة من الخوف؛ أي: مستكيناً أو دعاء خوف. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ بالغيبة. وقرأ الباقون: ﴿لئن أنجيتنا﴾ بالخطاب. والآية تدل[3] على أن الإنسان يأتي عند حصول الشدائد بأمور.

أحدها: الدعاء.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني. (٣) المراح.

وثانيها: التضرع.

وثالثها: الإخلاص بالقلب، وهو المراد من قوله: ﴿وَخُفْيَةً﴾.

ورابعها: الالتزام عند الشدائد بالشكر، وهو المراد من قوله: ﴿لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

ثم بين أنهم يحنثون في أيمانهم بعد النجاة، ويشركون بربهم سواه، فقال: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى وحده ينجيكم من ظلمات البر والبحر وشدائدهما المرة بعد المرة، ويكشفها عنكم ﴿وَ﴾ ينجيكم ﴿من كل كرب﴾ وغمّ سوى ذلك ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ يا أهل مكة بعدما تشاهدون هذه النعم الجليلة ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بعبادته تعالى غيره الذي عرفتم أنه لا يضر ولا ينفع ولا تفون بعهدكم.

والخلاصة[1]: أنه إذا شهدت الفطرة السليمة بأنه لا ملجأ في هذه الحالة إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضله، فالواجب أن يبقى هذا الإخلاص في جميع الأحوال والأوقات، لكن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل ذلك إلى الأعمال الجسمانية أو إلى نحو ذلك من الأسباب، ويعود إلى الشرك في العبادة، ولا يوفي بالعهد. وفي الآية تنبيه إلى أن من أشرك في عبادته تعالى غيره، فكأنه لم يعبده رأساً، فالتوحيد ملاك الأمر وأساس العبادة ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك الذين يشركون مع الله سواه، ولا يشكرون نعمه التي أسداها إليهم: إن الله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ﴾ ويرسل ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ تجهلون حقيقته، فيصب عليكم ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كالمطر كما فعل بقوم نوح، والحجارة كما رمي أصحاب الفيل وقوم لوط، والصيحة؛ أي: الصرخة التي صرخها جبريل على ثمود قوم صالح، والريح كما في قوم هود. ﴿أَوْ﴾ يثيره ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالرجفة، وغرق فرعون، وخسف قارون ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ ويخلط أمركم خلط اضطراب واختلاف لا خلط اتفاق، فيجعلكم ﴿شِيَعًا﴾ وفرقاً مختلفين على أهواء

---

(١) المراغي.

شتى، كل فرقة تشايع وتتبع إماماً في الدين، أو تتعصب لملك أو رئيس، فإذا كنتم مختلفين.. قاتل بعضكم بعضاً ﴿وَيُذِيقَ﴾ الله ﴿بَعْضَكُم﴾ بسبب تلك المخالفة ﴿بَأْسَ بَعْضٍۗ﴾ آخر وضرره، فيقتل بعضكم بيد بعض.

وقرأ أبو عبد الله المدني: ﴿يلبسكم﴾ بضم الياء من اللبس، استعارة من اللباس؛ أي: يلبسكم الفتنة حالة كونكم شيعاً. وقرأ الأعمش: ﴿ونذيق﴾ بالنون، وهي نون عظمة الواحد، وهي التفات فائدته نسبة ذلك إلى الله على سبيل العظمة والقدرة القاهرة.

فصل في الأحاديث المناسبة للآية

وعن جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾.. قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾.. قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ﴾.. قال: «هذا أهون - أو - هذا أيسر» أخرجه البخاري، وإنما كان هذا أهون؛ لأن المستعاذ مما قبله هو عذاب الاستئصال بإحدى الخصلتين الأوليين حتى لا يبقى من الأمة أحد.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنه أقبل مع النبي ﷺ ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية.. دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً، ثم انصرف إلينا فقال: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألت ربي: أن لا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألت ربي: أن لا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألت ربي: أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها» أخرجه مسلم.

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: صلَّى رسول الله ﷺ صلاة، فأطالها، فقالوا: يا رسول الله، صليت صلاة لم تكن تصليها، قال: «أجل، إنها صلاة رغبة ورغبة، إني سألت الله فيها ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألته: أن لا يهلك أمتي بسَنَة، فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من

غيرهم، فأعطانيها، وسألته: أن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها» أخرجه الترمذي.

ثم طلب منه النظر فيما لديه من الحجج والبينات، فقال: ﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد وتأمل بعين بصيرتك ﴿كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: كيف نبين دلائلنا وحججنا لهؤلاء المكذبين ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾؛ أي: يفهمون ويعتبرون فينزجروا ويرجعوا عماهم عليه من الكفر والتكذيب؛ أي: انظر كيف نصرف الآيات ونكررها مغيَّرة من حال إلى حال، لكي يقفوا على جلية الأمر، فيرجعوا عماهم عليه من العناد.

والمعنى[1]: تأمل بعين بصيرتك أيها الرسول، كيف نصرف الآيات والدلائل ونتابعها على أنحاء شتَّى، منها ما طريقه الحس، ومنها ما طريقه العقل، ومنها ما سبيله علم الغيب، لعلهم يفقهون الحق، ويدركون الحقائق بأسبابها وعللها التي تفضي إلى الاعتبار والعمل بها. وأقرب الوسائل إلى تحصيل ذلك: تصريف الآيات، واختلاف الحجج والبينات. وبذا يتذكرون ويزدجرون عما هم عليه مقيمون من التكذيب بكتابنا ورسولنا، وانكبابهم على عبادة الأوثان والأصنام. ثم ذكر أن قومه قد كذبوا به على وضوح حجته، فقال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾؛ أي: وكذب بالقرآن قومك يا محمد على ما صرفنا فيه من الآيات الجاذبة إلى فقه الإيمان؛ إذ يثبتها الحس والعقل والوجدان. ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾؛ أي: والحال أنه كتاب حق صادق فيما نطق به، ثابت لا شك فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿وكذبت به قومك﴾ بالتاء، كما قال ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾. وقيل[2]: الضمير في: ﴿بِهِۦ﴾ يرجع إلى العذاب، وهو الحق، يعني: أنه نازل بهم إن أقاموا على كفرهم وتكذيبهم. وقيل: الضمير يرجع إلى تصريف الآيات، وهو الحق؛ لأنهم كذبوا كونها من عند الله.

ثم أمر رسوله بأن يبلغهم بأن لا سبيل له في جبرهم على الإيمان به،

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: إنني لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، أبشركم وأنذركم، ولم أعط القدرة على التصرف في عباده حتى أجبركم على الإيمان جبراً، وأكرهكم عليه إكراهاً: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾. وقيل[١]: المعنى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين: لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن قبول الحق، بل إنما أنا منذر، والله هو المجازي لكم على أعمالكم، وقيل: معناه: إني إنما أدعوكم إلى الله وإلى الإيمان به، ولم أومر بحربكم؛ فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية السيف.

ثم هددهم وتوعدهم على التكذيب به فقال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾؛ أي: لكل شيء ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: وقت يقع فيه، والنبأ الشيء الذي ينبأ عنه ويخبر به. وقيل: المعنى: لكل عمل جزاء. وقيل[٢]: المعنى: لكل خبر يخبره الله مستقر؛ أي: وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير، وكان ما وعدهم به من العذاب في الدنيا وقع يوم بدر ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صحة هذا الخبر عند وقوعه؛ إما في الدنيا، وإما في الآخرة، والمعنى: لكل شيء ينبأ عنه ويخبر به مستقر؛ أي: وقت تستقر وتظهر فيه حقيقته، ويتميز حقه من باطله، فلا يبقى مجال للاختلاف فيه، وسوف تعلمون مستقر ما أنبأكم به كتابي من وعد ووعيد، ومن ذلك: ما وعد به الرسول من نصره عليهم، وما أوعد به أعدائه من الخزي والعذاب في الدنيا والآخرة. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا محمد أو أيها المخاطب هؤلاء المشركين ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ ويشرعون وينهمكون ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ القرآنية بالكفر والتكذيب والاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ

---

(١) الخازن. (٢) الواحدي.

﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: فصد عنهم بوجهك، وقم ولا تقعد معهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟﴾ ويشرعوا ﴿فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾؛ أي: حديث غير التكذيب والاستهزاء بآياتنا، ويصح عود الضمير على الآيات نظراً لمعناها؛ لأنها بمعنى الحديث والقول، ذكره أبو البقاء. قال المراغي: والمخاطب[1] بالآية الرسول ﷺ، ومن كان معه من المؤمنين، ثم المؤمنون في كل زمان؛ أي: وإذا رأيت أيها الرسول، أو أيها المؤمن، الذين يخوضون في آياتنا المنزلة من الكفار المكذبين، أو من أهل الأهواء المفرقين.. فصد عنهم بوجهك، وقم ولا تجلس معهم حتى يخوضوا في حديث غير الكفر بآيات الله، والاستهزاء بها من جانب الكفار، أو تأويلها بالباطل من جانب أهل الأهواء؛ وتأييداً لما استحدثوا من مذاهب وأراء، وتفنيداً لأقوال خصومهم بالشغب والجدل والمراء، وإذا خاضوا في غير ذلك.. فلا ضير في القعود معهم.

وسِرُّ[2] هذا النهي: أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم يغريهم في التمادي فيما هم فيه، ويدل على الرضا به والمشاركة فيه، والمشاركة في ذلك كفر ظاهر لا يرتكبه إلا كافر مجاهر، أو منافق مراء، كما أنَّ في التأويل لنصر البدع والآراء الفاسدة فتنةً في الدين، لا تنقص عن الأولى ضرراً، فإن أربابها تغشهم أنفسهم بأنهم ينصرون الحق ويخدمون الشرع، ومن ثم حذر السلف من مجالسة أهل الأهواء أشد مما حذروا من مجالسة الكفار؛ إذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر مقدار ما يخشى من فتنة المبتدع. ومن الناس من يحرفون آيات الله على مواضعها بهواهم؛ ليكفروا بها مسلماً، أو يضلِّلوا بها مهتدياً، بغياً عليه وحسداً له.

وفي[3] هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله ﷺ، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه، فأقل الأحوال

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير، وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر. وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه، وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها.. علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدة عمره، ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل، وأنكر المنكر. ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: وإن أنساك الشيطان بوسوسته نهينا إياك عن مجالسة الخائضين في آيات الله بعد تذكرك أولاً، وقعدت معهم وهم على تلك الحال، ثم ذكرت بعد ذلك.. ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أي: بعد تذكرك النهي ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم والاستهزاء بها بدلاً من الإيمان بها والاهتداء بهديها؛ أي: فقم عنهم ولا تجلس معهم بعد ذلك. وإنما[1] أبرزهم ظاهرين تسجيلاً عليهم بصفة الظلم، وإلا فحق العبارة أن يقال: فلا تقعد معهم. وجاء في الشرط الأول بـ﴿إذا﴾؛ لأن خوضهم في الآيات محقق، وفي الشرط الثاني بـ﴿إن﴾؛ لأن إنساء الشيطان له ليس أمراً محققاً، بل قد يقع وقد لا يقع، وهو معصوم منه، ولم يجيء مصدر على فعلى إلا ذكرى اهـ «سمين».

والخطاب[2] في قوله: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ للرسول ﷺ، والمراد غيره، أو هو للرسول ﷺ بالذات، ولغيره بالتبع، كما هو الشأن في أحكام التشريع غير الخاصة به ﷺ. ووقوع النسيان من الأنبياء بغير وسوسة من الشيطان لا خلاف في جوازه، قال تعالى لخاتم أنبيائه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وثبت وقوعه من موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، ولكن الله عصمهم من نسيان

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

شيء مما أمرهم بتبليغه.

وثبت في «الصحيحين» و«السنن» أن النبي ﷺ سها في الصلاة، وقال: «إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت.. فذكّروني». وإنساء الشيطان للإنسان بعض الأمور ليس من قبيل التصرف والسلطان حتى يدخل في مفهوم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾. ومن هذا تعلم أن نسيان الشيء الحسن الذي يسند إلى الشيطان؛ لكونه ضاراً ومفوتاً لبعض المنافع، أو لكونه حصل بوسوسته، ولو بشغل القلب ببعض المباحات، فلا يعد من سلطان الشيطان على الناس، واستحواذه عليهم بالإغواء والإضلال الذي نفاه الله تعالى عن عباده المخلصين بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وقرأ[1] ابن عامر: ﴿ينسينك﴾ مشدداً عدّاه بالتضعيف، وعدّاه غيره بالهمزة.

وروي عن ابن عباس: أنه لما قال المسلمون: إن قمنا كلما خاضوا لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام، وأن نطوف بالبيت.. نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والمعاصي ﴿مِنۡ حِسَابِهِم﴾؛ أي: من حساب الخائضين وعقوبتهم ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾، فـ﴿من﴾ زائدة؛ أي: ليس على الذين آمنوا واتقوا شيء من حساب الخائضين في آيات الله، فلا يحاسبون على خوضهم فيها، وعلى غيره من أعمالهم السيئة التي يحاسبهم الله تعالى عليها إذا هم تجنبوهم، وأعرضوا عنهم كما أمروا. ﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ﴾؛ أي: ولكن عليكم أيها المتقون أن تذكروهم ذكرى، وتعظوهم عظة إذا سمعتموهم يخوضون، بأن تقوموا عنهم، وتظهروا كراهة فعلهم وتعظوهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لعلهم يتجنبون الخوض في الآيات حياءً منكم، ورغبة في مجالستكم، قاله مقاتل. أو

---

(١) البحر المحيط.

لعلهم يتقون الوعيد بتذكيركم إياهم.

فصل

قال[1] سعيد بن المسيب وابن جريج ومقاتل: هذه الآية منسوخة بالآية التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾، وذهب الجمهور إلى أنها محكمة لا نسخ فيها؛ لأنها خبر، والخبر لا يدخله النسخ؛ لأنها إنما دلت على أن كل إنسان إنما يختص بحساب نفسه لا بحساب غيره. وقيل: إنما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكير والموعظة، فلا تكون منسوخة.

وبعد أن أمر رسوله بالإعراض عمن اتخذ آيات الله هزوا.. أمره بترك المستهزئين بدينهم، الذين غرتهم الحياة الدنيا فقال: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾؛ أي[2]: واترك يا محمد هؤلاء المشركين الذين اتخذوا وجعلوا دينهم الذي أمروا به ودعوا إليه ـ وهو دين الإسلام ـ لعباً ولهواً، وذلك حيث سَخِروا به واستهزؤوا به. وقيل: إنهم اتخذوا عبادة الأصنام لعباً ولهواً. وقيل: إن الكفار إذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه. وقيل: إن الله جعل لكل قوم عيداً، فاتخذ كل قوم دينهم ـ يعني: عيدهم ـ لعباً ولهواً، يلعبون ويلهون فيه إلا المسلمين، فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيراً وفعل الخير فيه، مثل عيد الفطر، وعيد النحر، ويوم الجمعة. ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني: أنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا، وغلب حبها على قلوبهم، فأعرضوا عن دين الحق، واتخذوا دينهم لعباً ولهواً. وقال الرازي: لأجل استيلاء حب الدنيا أعرضوا عن حقيقة الدين، واقتصروا على تزيين الظواهر ليتوصلوا بها إلى حطام الدنيا. انتهى. ومعنى الآية: وذر يا محمد الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، واتركهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم. والمراد بتركهم: ترك معاشرتهم ومخالطتهم، لا ترك الإنذار والتخويف.

---

(١) الخازن.　　(٢) الخازن.

وعبارة «المراغي» هنا[1] أي: ودَعْ أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين هؤلاء المشركين، الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، وغرتهم الحياة الدنيا الفانية، فآثروها على الحياة الباقية، واشتغلوا بلذاتها الحقيرة الفانية المشوبة بالمنغصات عما جاءهم من الحق مؤيداً بالحجج والآيات، فاستبدلوا الخوض فيها بما كان يجب من فقهها وتدبرها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾. واتخاذهم دينهم لعباً ولهواً؛ أنهم لما عملوا ما لا يزكي نفوسهم، ولا يطهر قلوبهم، ولا يهذب أخلاقهم، ولا يقع على وجه يرضي الله سبحانه، ولا يعد للقائه في دار الكرامة.. أضاعوا الوقت فيما لا يفيد، وهذا هو اللعب، أو شغلوا عن شؤونهم وهمومهم الأخروية وهذا هو اللهو.

وبعد أن أمره بترك المستهزئين بدينهم أمره بالتذكير بالقرآن، وتبليغ الرسالة، فقال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾؛ أي: وذكر يا محمد بالقرآن وعظ به هؤلاء المشركين وغيرهم مخافة ﴿أَن تُبْسَلَ﴾ وتحبس ﴿نَفْسٌۢ﴾ في جهنم وتهلك فيها ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: بسبب ما كسبت وعملت من الشرك والمعاصي، والضمير في قوله: ﴿بِهِۦٓ﴾ يعود على القرآن المعلوم من السياق؛ لأنه هو الذكر، بُعث به الرسول المذكر.

والمعنى[2]: وذكرهم بالقرآن ومواعظه، وعرفهم الشرائع لكي لا تهلك نفس وترتهن في جهنم بسبب الجنايات التي اكتسبت في الدنيا، وتحرم الثواب في الآخرة ثم وصف النفس المبسلة، وعلل إبسالها، فقال: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليس لتلك النفس التي هلكت من دون الله ﴿وَلِيٌّ﴾؛ أي: ليس لها ولي يلي أمرها، وناصر ينصرها غير الله تعالى ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لها في الآخرة عند الله إلا بإذنه، كما قال: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

ثم أرشد إلى أنه لا ينفع في الآخرة إلا صالح العمل لا الشفعاء والوسطاء، فقال: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾؛ أي: وإن تفد تلك النفس المبسلة كل نوع من أنواع الفداء وتعطه ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾؛ أي: لا يقبل ذلك العدل والفداء منها، والمراد: أنه لا يقع الأخذ ولا يحصل، وهذا كقوله في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

والخلاصة[1]: أن النفس المبسلة تمنع في ذلك اليوم من أي وسيلة من وسائل النجاة، فلا ولي ولا حميم ولا شفيع ولا فداء إلى نحو أولئك، مما ربما نفع في مقاصد الدنيا وأنجز بعض المنافع. وفي هذا إبطال لأصل من أصول الوثنية، وهو رجاء النجاة في الآخرة، كما هو الحال في الدنيا بتقديم الفدية لله تعالى، أو بشفاعة الشافعين ووساطة الوسطاء عنده تعالى، وتقرير لأصل ديني، وهو أن لا نجاة في الآخرة ولا رضوان من الله ولا قرب منه إلا بالعمل بما شرعه على ألسنة رسله من إيمان به، وعمل صالح يزكي النفس ويطهرها؛ أما من دس نفسه، وأبسله كسبه للسيئات والخطايا، واتخذ دين الله هزواً ولعباً، وغرته الحياة الدنيا، فلا تنفعه شفاعة، ولا تقبل منه فدية.

ثم بيَّن أن هذا الإبسال كان بسوء صنيعهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتخذون دينهم لعباً ولهواً المغترون بالحياة الدنيا هم ﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟﴾ وحرموا الثواب، وأسلموا للعذاب، وحبسوا عن دار السعادة ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: بسبب ما كسبوا من الأوزار والآثام حتى أحاطت بهم خطاياهم، ولم يكن لهم من دينهم الذي اتخذوه زاجر ولا مانع يرشدهم إلى التحول عن تلك الأعمال القبيحة، ويصدهم عن العقائد الزائغة.

ثم بين سبحانه ما يكون من الجزاء حين أُبسلوا، فقال: ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المتخذين دينهم لعباً ولهواً ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: من ماء حار مغلي

---

(١) المراغي.

بالغ النهاية في شدة الحرارة، يستردد ويتجرجر في بطونهم، وتتقطع به أمعائهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديد الألم بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفرهم المستمر في الدنيا الذي ظلوا عليه طول حياتهم حتى صرفوا عما جعل وسيلة للنجاة لو اتبعوه، وهذه الجملة تأكيد وتفصيل لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾.

والخلاصة[1]: أن رسوخهم في الكفر أفسد فطرتهم حتى لم يبق فيهم استعداد للحق والخير. وفي ذلك عبرة لمن يفقه القرآن، ولا يغتر بلقب الإسلام، ويعلم أنَّ المسلم من اتخذ القرآن إمامه، وسنة الرسول طريقه، لا من اغتر بالأماني والأوهام، ولا من ركن إلى شفاعة الشافعين والأولياء والناصرين.

الإعراب

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

﴿وَعِندَهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿عنده﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَعْلَمُهَا﴾: فعل ومفعول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، والعامل فيها الاستقرار الذي تضمنه الظرف؛ لوقوعه خبراً. ﴿وَيَعْلَمُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يَعلمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية التي قبلها، مسوقة لبيان تعلق علمه تعالى بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات ﴿فِي الْبَرِّ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة ما. ﴿وَالْبَحْرِ﴾: عطف على البر.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ

---

(١) المراغي.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَسۡقُطُ﴾: فعل مضارع. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿وَرَقَةٍ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿يَعۡلَمُهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿وَرَقَةٍ﴾، وجاءت[1] الحال من النكرة لاعتمادها على النفي، والتقدير: وما تسقط من ورقة إلا عالماً بها؛ لأنه مسقطها بإرادته. ﴿وَلَا﴾: (الواو): عاطفة، ﴿لا﴾: نافية. ﴿حَبَّةٍ﴾: معطوف على ﴿وَرَقَةٍ﴾. ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة لـ﴿حَبَّةٍ﴾. ﴿وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ معطوفان أيضاً على ﴿وَرَقَةٍ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: جار ومجرور وصفة، متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره: إلا هو كائن في كتاب مبين، وجملة الاستثناء في محل النصب بدل من جملة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ بدل كل من كل؛ أي: وما تسقط من ورقة، ولا توجد حبة وما بعدها إلا هو في كتاب مبين.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾. ﴿وَيَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يعلم﴾. ﴿جَرَحۡتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما جرحتموه. ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَرَحۡتُم﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب وتراخ. ﴿يَبۡعَثُكُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ على كونها صلة الموصول

(١) الفتوحات.

لا محل لها من الإعراب.

﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة له، والفعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وجملة أن المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي، واللام متعلقة بـ﴿يَبْعَثُكُمْ﴾، والتقدير: ثم يبعثكم فيه لقضاء أجل مسمى. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يُنَبِّئُكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية التي قبلها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنَبِّئُكُم﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿هو القاهر﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، أو حال من الضمير المستتر في ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ تقديره: حال كونه مستعلياً فوق عباده. ﴿وَيُرْسِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿حَفَظَةً﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على اسم الفاعل على كونها صلة لأل الموصولة، والتقدير: وهو الذي يقهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة.

وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ فيه ثلاثة أوجه[1]:

أحدها: أنه عطف على اسم الفاعل الواقع صلة لـ﴿أل﴾؛ لأنه في معنى

---

(١) الجمل.

يفعل، والتقدير: وهو الذي يقهر عباده، ويرسل، فعطف الفعل على الاسم؛ لأنه في تأويله.

والثاني: أنها جملة فعلية عطفت على جملة اسمية، وهي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾.

الثالث: أنها معطوفة على الصلة، و﴿ما﴾ عطف عليها، وهو قوله: ﴿يتوفاكم﴾ و﴿يعلم﴾، وما بعده؛ أي: وهو الذي يتوفاكم، ويرسل عليكم حفظة. اهـ «سمين». ﴿حَتَّىٰٓ﴾: ابتدائية لدخولها على الجملة، غائية لكون ما بعدها غاية لما قبلها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿رُسُلُنَا﴾؛ أو مستأنفة مسوقة للإخبار عنهم بهذه الصفة. اهـ «كرخي». وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ﴾ حتى[1] هذه هي التي يبتدأ بها الكلام، وهي مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها، كأنه قيل: ويرسل عليكم حفظة تحفظ أعمالكم مدة حياتكم، حتى إذا انتهت مدة حياة أحدكم كائناً ما كان، وجاءه أسباب الموت ومباديه.. توفته رسلنا. اهـ «أبو السعود».

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿رُدُّوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ على كونها جواب ﴿إذا﴾. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾: صفة أولى للجلالة. ﴿ٱلْحَقِّ﴾: صفة ثانية له. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح. ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلْحُكْمُ﴾: مبتدأ مؤخر،

---

(١) الجمل.

والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من الضمير المجرور باللام، والعامل في الحال الاستقرار الذي تعلق به الظرف.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿يُنَجِّيكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُنَجِّيكُم﴾. ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْبَرِّ﴾. ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿يُنَجِّيكُم﴾. ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: حالان من فاعل ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾. ولكن بعد تأويلهما بالمشتق؛ أي: تدعونه حال كونكم متضرعين ومخفين. ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾: اللام موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿أَنجَىٰنَا﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنجَىٰنَا﴾. ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ اللام: رابطة لجواب القسم. ﴿نكونن﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير يعود على المتكلمين. ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿نكون﴾، وجملة ﴿نكون﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه تقديره: إن أنجانا.. نكون من الشاكرين، وقد اجتمع هنا شرط وقسم، فحذف جواب المؤخر منهما، وهو الشرط على القاعدة، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول لقول محذوف منصوب على الحال من فاعل ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ تقديره: تدعونه قائلين: لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾: إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يُنَجِّيكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿مِّنۡهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنَجِّيكُم﴾. ﴿وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿أَنتُمۡ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿تُشۡرِكُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ على كونها مقولا لـ﴿قل﴾.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ ٱلۡقَادِرُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلۡ﴾، وإن شئت قلت ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلۡقَادِرُ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول القول لـ﴿قُلۡ﴾. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَبۡعَثَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبۡعَثَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره: على بعثه عليكم عذاباً من فوقكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ٱلۡقَادِرُ﴾. ﴿عَذَابٗا﴾: مفعول به. ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿عذابا﴾. ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَبۡعَثَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿شِيَعٗا﴾: حال من مفعول ﴿يَلۡبِسَكُمۡ﴾، ولكن في تأويل متفرقين. ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم﴾: فعل ومفعول أول معطوف على ﴿يَلۡبِسَكُمۡ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه. ﴿ٱنظُرۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم للاستفهام التعجبي في محل النصب على التشبيه بالمفعول به، والعامل فيه

﴿نُصَرِّفُ﴾، ولا يجوز أن يكون معمولاً لما قبله؛ لأن اسم الاستفهام له صدر الكلام. ﴿نُصَرِّفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾: مفعول به، وهذه الجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول لـ﴿ٱنظُرْ﴾، و﴿كَيْفَ﴾ معلقة له عن العمل في لفظه. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجٍ وتعليل ونصب، والهاء: اسمها، وجملة ﴿يَفْقَهُونَ﴾ في محل الرفع خبر لعل، وجملة لعل في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل ما قبلها، والمعنى: انظر يا محمد كيف نصرف لهم الآيات لكي يفقهوا ويفهموا ويتدبروا تلك الآيات.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَكَذَّبَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذب﴾: فعل ماض. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿قَوْمُكَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير به؛ أي: كذبوا به حال كونه حقاً، وهو أعظم في القبح، أو الجملة مستأنفة. ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾: مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَّسْتُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿وكيل﴾. ﴿بِوَكِيلٍ﴾: خبر ﴿ليس﴾، والباء زائدة، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل وحرف تنفيس، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية التي قبلها.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿رَأَيْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر

في محل النصب مفعول به لـ﴿رأى﴾؛ لأن رأى بصرية يتعدى لمفعول واحد. ﴿يَخُوضُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَخُوضُونَ﴾. ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية. ﴿أعرض﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إذا﴾ مع جوابها مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ﴾: فعل وفاعل وناصب، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾ بمعنى: إلى تقديره: إلى خوضهم في حديث غيره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أعرض﴾. ﴿فِي حَدِيثٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَخُوضُواْ﴾. ﴿غَيۡرِهِۦ﴾: صفة ومضاف إليه مجرور؛ لأنه بمعنى مغاير. ﴿وَإِمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إما﴾ إن: حرف شرط، وما: زائدة. ﴿يُنسِيَنَّكَ﴾: ينسين: فعل مضارع في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة، حرف لا محل لها من الإعراب، والكاف: ضمير المخاطب في محل النصب مفعول به. ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: فاعل. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية؛ لكون الجواب جملة طلبية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقۡعُدۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَقۡعُدۡ﴾. ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَقۡعُدۡ﴾ أيضاً. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾، وجملة ﴿تَقۡعُدۡ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الشرطية.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٦٩﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿يَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنۡ حِسَابِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من شيء؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِّن

﴿شَىْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِّن﴾: زائدة، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿ذِكْرَىٰ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: ولكن ذكروهم ذكرى، والجملة الاستدراكية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: لعل: حرف نصب وتعليل، والهاء: اسمها، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

﴿وَذَرِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ذر﴾: فعل أمر مبني بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب على المفعولية. ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿دِينَهُمْ﴾: مفعول أول لها. ﴿لَعِبًا﴾: مفعول ثان. ﴿وَلَهْوًا﴾: معطوف عليه، والجملة صلة الموصول. ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: فاعل. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لها، والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَذَكِّرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿ذكر﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر المنصوب على كونه مفعولاً لأجله، تقديره: وذكر به مخافة إبسال نفس. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُبْسَلَ﴾. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، وتاء تأنيث، وفاعله ضمير يعود على ﴿نَفْسٌۢ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كسبته. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَيْسَ﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿وَلِىٌّ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿وَلِىٌّ﴾: اسم ليس مؤخر. ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ مستأنفة، أو حال من ﴿نَفْسٌۢ﴾ أو صفة لها، كما

ذكره «أبو السعود».

﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تَعۡدِلۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿نَفۡسٌ﴾. ﴿كُلَّ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿عَدۡلٖ﴾: مضاف إليه. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُؤۡخَذۡ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿كُلَّ عَدۡلٖ﴾. ﴿مِنۡهَآۗ﴾: متعلق به، وجملة ﴿لَّا يُؤۡخَذۡ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿أُبۡسِلُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُبۡسِلُواْ﴾. ﴿كَسَبُواْۖ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كسبوه. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿شَرَابٞ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّنۡ حَمِيمٖ﴾: صفة لـ﴿شَرَابٞ﴾، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ثان لأولئك، أو في محل النصب حال من ضمير ﴿أُبۡسِلُواْ﴾، أو من الموصول، أو مستأنفة. ﴿وَعَذَابٌ﴾: معطوف على ﴿شَرَابٞ﴾. ﴿أَلِيمُۢ﴾: صفة لـ﴿عذاب﴾. ﴿بِمَا كَانُواْ﴾: الباء: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب كفرهم، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر في قوله: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ المفاتح: جمع مفتح ـ بفتح الميم وكسر التاء ـ بمعنى: المخزن، فيكون اسم مكان، والمخزن ـ بفتح الميم وكسر الزاي ـ: المكان الذي يخزن فيه الجواهر النفيسة وغيرها، أو جمع مفتح بكسر الميم وفتح التاء، والمفتح: هو المفتاح الذي تفتح به الأقفال، فيكون اسم الآلة، ففي

الكلام استعارة كما سيأتي في مبحثها.

وفي «السمين»: في المفاتح ثلاثة أقوال[1]:

أحدها: أنه جمع مفتح بكسر الميم، والقصر مع فتح التاء، وهو الآلة التي يفتح بها، كمنبر ومنابر.

والثاني: أنه جمع مفتح بفتح الميم وكسر التاء، كمسجد، وهو المكان، ويؤيده تفسير ابن عباس بقوله: هي خزائن المطر.

والثالث: أنه جمع مفتاح بكسر الميم والألف، وهو الآلة أيضاً إلا أن هذا فيه ضعف من حيث إنه كان ينبغي أن تقلب ألف المفرد ياء، فيقال: مفاتيح كدنانير، ولكنه قد نقل في جمع مصباح مصابيح، وفي جمع محراب محاريب، وهذا كما أتوا في جمع ما لا مدّ في مفرده، كقولهم: دراهم وصياريف في جمع: درهم وصيرف، فزادوا في هذا ونقصوا في ذلك. وقد قرىء ﴿مفاتيح﴾ كما مرَّ، وهي تؤيِّد أن مفاتح جمع: مفتاح، وإنما حذفت مدته، وجوز الواحدي أن يكون مفاتح جمع: مَفتح ـ بفتح الميم والتاء ـ كمذهب على أنه مصدر، فعلى هذا مفاتح جمع: مفتح بمعنى: الفتح، ويكون المعنى: وعنده فتوح الغيب؛ أي: هو يفتح الغيب على من يشاء من عباده. اهـ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والبحر[2]: كل مكان واسعٍ حاوٍ للكثير من الماء، والبر: ما يقابله.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ والسقوط: الوقوع من علو، والورقة واحدة الورق من النبات والكاغد، وهي معروفة، والرطب واليابس معروفان، يقال: رطب فهو رطيب، ورطب ويبس فهو يابس ويبيس، وشذ فيه يبس بحذف الياء وكسر الباء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ التوفي: أخذ الشيء وافياً؛ أي: تاماً كاملاً، ويقابله التوفية وهو إعطاء الشيء تاماً كاملاً، ويقال: وفاه حقه فتوفاه منه، قال تعالى:

---

(١) الفتوحات.　　(٢) المراغي.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾، ويقال: توفاه واستوفاه: أحصى عدده، ثم أطلق التوفي على الموت؛ لأن الأرواح تقبض وتؤخذ أخذاً تاماً، وأطلق على النوم كما في الآية، وفي آية الزمر.

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ والجرح: يطلق على العمل والكسب بالجوارح، وعلى التأثير الدامي من السلاح، وما في معناه كالبراثن والأظفار والأنياب من سباع الطير والوحش، وتسمى الخيل والأنعام المنتجة جوارح أيضاً؛ لأن نتاجها كسبها، والجرح كالكسب، يطلق على الخير و الشر، والاجتراح فعل الشر خاصة في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وفي «المصباح»: وجرح من باب نفع، واجترح عمل بيده واكتسب، ومنه قيل لكواسب الطير والسباع: جوارح جمع: جارحة؛ لأنها تكسب بيدها.

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾؛ أي: يوقظكم من النوم، وعرَّفوا النوم: بأنه فترة طبيعية تهجم على الشخص قهراً عليه، تمنع حواسه الحركة، وعقله الإدراك.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ والحفظة: جمع: حافظ، مثل: كتبة وكاتب، وهو جمع[1] منقاس لفاعل وصفاً مذكراً صحيح اللام عاقلاً، وقلَّ فيما لا يعقل، كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

وَشَاعَ نَحْوُ كَامِلٍ وَكَمَلَهْ

والمراد بالحفظة هنا: الكرام الكاتبون من الملائكة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والظلمات جمع: ظلمة، وهي عدم الضوء، وهي[2] ضربان: ظلمات حسية؛ كظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر، وظلمات معنوية؛ كظلمة الجهل بالمسالك والطرق، وظلمة فقد الأعلام والمنار، وظلمة الشدائد والأخطار؛ كالعواصف والأعاصير وهياج البحار إلى نحو ذلك من الشدائد التي تبطل الحواس، وتدهش العقول. قال الزجاج: تقول

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

العرب لليوم الذي فيه شدة: يوم مظلم، ويوم ذو كواكب؛ أي: أنه قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل في ظلمته، وفي المثل؛ أي: رأى الكواكب ظهراً؛ أي: أظلم عليه يومه لاشتداد الأمر فيه حتى كأنه أبصر النجم نهاراً.

﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ التضرع: تفعل من الضراعة، وهو المبالغة في الضراعة، وهي الذل والخضوع، والمراد منه هنا: ما كان صادراً عن الإخلاص الذي يثيره الإيمان الفطري المطوي في أنفس البشر. والخفية ـ بضم الخاء وكسرها ـ: الخفاء والاستتار. والدعاء قد يكون بالجهر ورفع الصوت مع البكاء، وقد يكون بالإسرار هرباً من الرياء، فتارة يجأر المرء بالدعاء رافعاً صوته متضرعاً مبتهلاً، وأخرى يسر الدعاء ويخفيه مخلصاً ومحتسباً، ويتحرى أن لا تسمعه أذن، ولا يعلم به أحد، ويرى أنه يكون بذلك أجدر بالقبول، وأرجى لنيل المسؤول. والخفية ـ بضم الخاء وكسرها ـ كما مرَّ: اسم مصدر من أخفى الشيء يخفي إخفاءً وخفية إذا ستره.

وقرأ الأعمش: ﴿خِيفة﴾ كما مرَّ بكسر الخاء وتقديم الياء الساكنة على الفاء، وهي من الخوف، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها وسكونها.

﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ والكرب: الغم الشديد، يأخذ بالنفس، ومنه رجل مكروب قال عنترة:

وَمَكْرُوْبٍ كَشَفْتُ ٱلْكَرْبَ عَنْهُ ... بِطَعْنَةِ فَيْصَلٍ لَمَّا دَعَانِيْ

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾؛ أي: يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط إتفاق، فيجعلكم فرقاً مختلفة لا فرقة واحدة. ومعنى خلطهم[1]: إنشاب القتال بينهم، فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال، كقول الشاعر:

وَكَتِيْبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيْبَةٍ ... حَتَّىٰ إِذَا ٱلْتَبَسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يَدِيْ
فَتَرَكْتُهُمْ تَقِصُ ٱلرِّمَاحُ ظُهُوْرَهُمْ ... مَا بَيْنَ مُنْعَفِرٍ وَآخَرَ مُسْنَدِ

والشيع جمع: شيعة، وهم كل قوم اجتمعوا على أمر واحد.

---

(١) البحر المحيط.

وفي «الفتوحات»[1]: والشيع جمع: شيعة، كسدرة وسدر، والشيعة من يتقوَّى به الإنسان، والجمع: شيع كما تقدم وأشياع، كذا قاله الراغب، والظاهر أن أشياعاً جمع: شيع كعنب وأعناب وضلع وأضلاع، وشيع جمع: شيعة، فهو جمع الجمع اهـ «سمين». وفي «القاموس»: وشيعة[2] الرجل ـ بالكسر ـ: أتباعه وأنصاره، والفرقة على حدة، وتقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولَّى علياً وأهل بيته، حتى صار اسماً لهم خاصَّةً، والجمع: أشياع وشيع؛ كعنب. انتهى.

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ﴾ وهذا هو ما عليه الناس اليوم من الاختلافات وسفك بعضهم دماء بعض، والبأس: العذاب الشديد، كما في «المصباح».

﴿نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: نحولها من نوع إلى آخر من فنون الكلام تقريراً للمعنى: وتقريباً إلى الفهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ الفقه: فهم الشيء بدليله وعلته المفضي إلى الاعتبار والعمل به.

﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ والوكيل: هو الذي توكل إليه الأمور. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ والنبأ: الشيء الذي ينبأ عنه، والمستقر: يصح كونه مصدراً، واسم مكان أو زمان؛ أي: استقرار أو مكانه أو زمانه.

﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ الخوض[3]، في اللغة: هو الشروع في الماء والعبور فيه، ويستعار للأخذ في الحديث والشروع فيه، يقال: تخاوضوا في الحديث وتفاوضوا فيه، لكن أكثر ما يستعمل الخوض في الحديث على وجه اللعب والعبث.

﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ والذكرى مصدر: ذكر يذكر ذكرى، جاء على وزن: فعلى، وألفه للتأنيث، ولم يجىء مصدر على فعلى غيره. ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ أصل[4] البسل في اللغة: التحريم والمنع، ومنه: هذا عليك بسل؛ أي: حرام

---

(١) الجمل.
(٢) القاموس المحيط.
(٣) الخازن.
(٤) الفتوحات.

ممنوع اهـ «خازن».

وعبارة «أبي السعود»: وأصل البسل والإبسال: المن، ومنه: أسد باسل؛ لأن فريسته لا تفلت منه، أو لأنه ممتنع، والباسل: الشجاع؛ لامتناعه من قرنه، وهذا بسيل عليك؛ أي: حرام ممنوع اهـ.

وفي «المختار»: وأبسله: أسلمه، فهو بسيل، وقوله تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ قال أبو عبيدة: أن تسلم، والمستبسل: الذي يوطّن نفسه على الموت أو الضرب، وقد استبسل؛ أي: استقتل، وهو أن يطرح نفسه في الحرب ويريد أن يقتل أو يقتل لا محالة، وفسر هنا: بالحبس في النار، وبالحرمان من الثواب وبالفضيحة.

قال أبو حيان: الإبسال: تسليم المرء نفسه للهلاك، ويقال: أبسلت ولدي: أرهنته قال الشاعر:

وَإِبْسَالِيْ بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ بَعُوْنَاه وَلاَ بِدَمٍ مُرَاقِ

بعوناه: جنيناه، والبعو: الجناية. انتهى.

﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٍ﴾؛ أي: تفتد بكل فداء كما عبر به «الخازن»، وعدل بهذا المعنى من باب ضرب.

وفي «المصباح»: يقال: عدلت هذا بهذا عدلاً من باب ضرب إذا جعلته مثله قائماً مقامه، والعدل أيضاً: الفدية، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٍ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ﴾. اهـ.

وفي «البيضاوي»: والعدل: الفدية؛ لأنها تعادل المفدى، و﴿كُلَّ﴾ نصب على المصدر.

﴿لَهُمۡ شَرَابٌ مِّنۡ حَمِيمٍ﴾ وشراب[1]: فعال بمعنى: مفعول، وفعال بمعنى: مفعول؛ كطعام بمعنى: مطعوم لا ينقاس، لا يقال: أكال بمعنى مأكول، وضراب

(١) الفتوحات.

بمعنى: مضروب، والحميم: الماء الشديد الحرارة، وأليم: شديد الألم، فكلاهما صيغة مبالغة على وزن فعيل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنه استعار المفاتح للأمور الغيبية، كأنها مخازن خزنت فيها المغيبات، قال الزمخشري: جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة؛ لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المغلقة بالأقفال، فهو سبحانه العالم بالمغيبات وحده، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾، فإنه استعار التوفي من الموت للنوم؛ لأن التوفي حقيقة في الموت لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز.

ومنها: الترشيح في قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ وهو ذكر ما يلائم المستعار منه. قال القاضي: أطلق البعث ترشيحاً للتوفي؛ أي: لما استعير التوفي من الموت للنوم.. كان البعث ـ الذي هو في الحقيقة الإحياء بعد الموت ـ ترشيحاً؛ لأنه أمر يلائم المستعار منه اهـ «كرخي».

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ لأنه استعار الظلمات المعطلة لحاسة البصر للشدائد الهائلة التي تبطل الحواس وتدهش العقول، وفي قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾؛ لأن الذوق حقيقة في المذوقات.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ لأن الخوض حقيقة في الانغماس في الماء، فاستعير للأخذ في الحديث والشروع فيه على وجه اللعب واللهو، وقيل: الخوض كناية عن الاستهزاء بها والطعن فيها.

ومنها: الحصر في مواضع، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ لأن تقديم الخبر على المبتدأ يفيد حصره في الخبر، وكقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، وقوله:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾، وقوله: ﴿رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وقوله: ﴿فوق وتحت﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للتسجيل عليهم بقبح ما ارتكبوا؛ حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء مكان التصديق والتعظيم، وحق العبارة أن يقال: فلا تقعد معهم كما مر.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ من إسناد ما للسبب إلى المسبب؛ لأن المراد بالإسناد أسباب الموت ومقدماته.

ومنها: الاستفتاح والتنبيه في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ
كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى
اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ
الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)
۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤)
وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ
رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ
هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي
فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ
وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ
نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر جزاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بأنه لا ولي لهم ولا شفيع من دون الله، وأنهم مبسلون في عذاب جهنم، ولهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.. أمر نبيه ﷺ بأن يقول لهم هذه المقالة؛ أي: كيف ندعوا من دون الله أصناماً لا تنفعنا بوجه من وجوه النفع إن أردنا منها نفعاً، ولا نخشى ضرها بوجه من الوجوه،

ومن كان هكذا.. فلا يستحق العبادة توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم عبادتها.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآية، مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه يحشر إلى جزائه العالم، وهو منتهى ما يؤول إليه أمرهم.. ذكر مبتدأ وجود العالم وخلقه له بالحق؛ أي: بما هو حق لا عبث فيه ولا هو باطل؛ أي: لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً، بل صدرا عن حكمة وصواب، وليستدل بهما على وجود الصانع؛ إذ هذه المخلوقات العظيمة الظاهر عليها سمات الحدوث، لا بد لها من محدث واحد عالم قادر مريد سبحانه جلَّ وعلا.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الجملة لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر خلق الخلق وسرعة إيجاده لما يشاء، وتضمن البعث إفنائهم قبل ذلك.. ناسب ذكر الوصف بالحكيم، ولما ذكر أنه عالم الغيب والشهادة.. ناسب ذكر الوصف بالخبير، إذ هي صفة تدل على علم ما لطف إدراكه من الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.. ناسب ذكر هذه الآية هنا، وكان التذكار بقصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه أنسب لرجوع العرب إليه؛ إذ هو جدهم الأعلى، فذكِّروا بأن إنكار هذا النبي محمد ﷺ عليكم عبادة الأصنام هو مثل إنكار جدكم إبراهيم على أبيه وقومه عبادتها، وفي ذلك التنبيه على اقتفاء من سلف من صالحي الآباء والأجداد، وهم وسائر الطوائف معظِّمون لإبراهيم عليه السلام.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ...﴾ الآية، سبب

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

نزولها: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن زجر عن بكر بن سوادة قال: حمل رجل من العدو على المسلمين، فقتل رجلاً، ثم حمل، فقتل رجلاً آخر، ثم حمل فقتل آخر، ثم قال: أينفعني الإسلام بعد هذا، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فضرب فرسه فدخل فيهم، ثم حمل على أصحابه، فقتل رجلاً ثم آخر، ثم قتل. قال فيرون: إن هذه الآية نزلت فيه. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يدعونك إلى دين آبائهم ﴿أَنَدۡعُواْ﴾؛ أي: نعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين عبادة الله الضار النافع ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾؛ أي: الأصنام التي لا تنفعنا في الدنيا والآخرة إن عبدناها، ولا تضرنا إن تركنا عبادتها، وأدنى مراتب المعبودية: القدرة على ذلك؛ أي: لا ينبغي لنا ولا يمكن منا أن نعبد غير الله سبحانه وتعالى بعد أن هدانا الله تعالى إلى الإسلام والتوحيد، والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ ﴿و﴾ هل ﴿نرد على أعقابنا﴾؛ أي: وهل نرجع وراءنا وخلفنا إلى الشرك ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وأرشدنا إلى دينه وأكرمنا به، لا نرجع إلى الشرك، ويقال لكل[2] من أعرض عن الحق إلى الباطل: أنه رجع إلى خلف، ورجع على عقيبه؛ لأن الأصل في الإنسان هو الجهل، ثم إذا تكامل حصل له العلم، فإذا رجع من العلم إلى الجهل مرة أخرى.. فكأنه رجع إلى أول مرة. والمعنى[3]: قل يا محمد للآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعوا من دون الله تعالى حجراً أو شجراً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع، والحياة والموت؟ إن كنتم تعقلون.. فتميزون بين الخير والشر، ولا شك أن خدمة من يرتجى نفعه ويرهب ضره أحق وأولى من خدمة ما لا يرجى منه شيء منهما، وهل نرد على أعقابنا بالعودة إلى الضلال والشرك بعد إذ هدانا الله

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

إلى الإسلام والتوحيد؟

والخلاصة: أن ذلك لا ينبغي لنا ولا يقع منا للأسباب الآتية:

١ ـ أن هذا تحول وارتداد عن دعاء القادر الذي يكشف الضر إن شاء، ويمنح الخير إن شاء إلى دعاء العاجز الذي لا يقدر على نفع ولا ضر.

٢ ـ أنه رد على الأعقاب، وتقهقر إلى الوراء.

٣ ـ أن من أنقذه الله القدير الرحيم من الضلالة بما أراه من آياته في الأنفس والآفاق لا يقدر أحد أن يضله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم ضرب مثلاً يصوِّر المرتد في أقبح حالة كانت تتخيلها العرب، فقال: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أنرد على أعقابنا ونرجع إلى الشرك حالة كوننا مشبهين بالشخص الذي استهوته واختطفته وأضلته الشياطين والغيلان ومردة الجن عن الطريق الموصل إلى المقصد، واستتبعته وألقته في الهوية والبراري والصحارى من الأرض حالة كونه ﴿حَيْرَانَ﴾؛ أي: متحيراً في شأنه لا يدري أين يذهب، لضلاله عن الطريق ﴿لَهُۥٓ﴾؛ أي: لذلك المستهوى الضال عن الطريق ﴿أَصْحَٰبٌ﴾ ورفقة ﴿يَدْعُونَهُۥٓ﴾ وينادونه ليردوه ﴿إِلَى ٱلْهُدَى﴾؛ أي: إلى الطريق الذي أخطأ عنه قائلين في ندائهم: ﴿ٱئْتِنَا﴾ وجئنا وأقبل إلينا، فإن الطريق ههنا، فلا يسمعهم ولا يجيبهم، فيهلك في الصحارى؛ أي: لا ينبغي لنا أن نكون مثل ذلك المستهوى الضال عن الطريق. والمعنى؛ أي: أنرد على أعقابنا، فيكون مثلنا في ذلك مثل الرجل الذي استتبعه الشيطان يهوى ويضل في الأرض حيران تائهاً، له أصحاب على المحجة واستقامة السبيل يدعونه إلى طريق الهدى الذي هم عليه، ويقولون له: ائتنا.

وخلاصة المثل[١]: أن من يرتد مشركاً بعد الإيمان.. كمن جعله العشق أو

---

(١) المراغي.

الجنون هائماً على وجهه ضالاً في الفلوات حيران لا يهتدي، تاركاً رفاقه على الطريق المستقيم ينادونه: عد إلينا وارجع، فلا يستجيب لهم لانجذابه وراء ما تراءى له بغير عقل ولا بصيرة. قال صاحب «الكشاف»: وهذا مبني على ما كانت تزعمه العرب وتعتقده من أن الجن تستهوي الإنسان وتختطفه، والغيلان تستولي عليه، كما قال تعالى: ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾. قال ابن عباس[1]: مثل عابد الصنم مثل من دعاه الغول فيتبعه، فيصبح وقد ألقته في مهمهٍ ومهلكة، فهو حائر في تلك المهامه. وحمل الزمخشري ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ على أنه من الهوى الذي هو المودة والميل؛ كأنه قيل: كالذي أمالته الشيطان عن الطريق الواضح إلى المهمه القفر، وحمله غيره كأبي عليٍّ على أنه من الهُوِيِّ بمعنى: السقوط؛ أي: ألقته في هوة ووهدة، ويكون استفعل بمعنى: أفعل، نحو استزل وأزل.

وقرأ السلمي والأعمش وطلحة[2]: ﴿استهوته الشيطان﴾ بالتاء، وإفراد الشيطان. وقال الكسائي: إنها كذلك في مصحف ابن مسعود انتهى. والذي نقلوا لنا القراءة عن ابن مسعود إنما نقلوه الشياطين جمعاً. وقرأ الحسن: ﴿الشياطون﴾، وتقدم، وقد لحن في ذلك، وقد قيل: هو شاذ قبيح، وفي مصحف عبد الله: ﴿أتينا﴾ فعلاً ماضياً لا أمراً، فـ﴿إِلَى ٱلْهُدَى﴾ متعلق به.

ثم أمره أن يرغب المشركين فيما يدعو إليه، لا فيما يدعونه إليه، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن[3] طريق الله الذي أوضحه لعباده ودينه الذي شرعه لهم ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ والنور والاستقامة لا عبادة الأصنام؛ لأن ما وراءه ضلال، ففيه زجر عن عبادتها، كأنه يقول: لا نفعل ذلك، فإن هدى الله هو الهدى، لا هدى غيره، والمعنى: قل لهم يا محمد: إن هدى الله الذي أنزل به آياته، وأقام عليه حججه وبيناته هو الهدى الحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الخازن.

ولا من خلقه، لا ما تدعون إليه من أهوائكم اتباعاً لما ألفيتم عليه آبائكم. ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: وقل لهم يا محمد: وأمرنا بأن نسلم ونخلص العبادة لله سبحانه وتعالى مالك العالمين، فأسلمنا لأنه هو الذي يستحق العبادة منا لا غيره، والآمر هو الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ أي: واتقوا رب العالمين؛ أي: وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى الله؛ لأن فيهما ما يقرب إليه، والمعنى: وأمرنا بالإسلام وبإقامة الصلاة وبالتقوى. وإقامة[1] الصلاة: الإتيان بها على الوجه الذي شرعت لأجله، وهي: أن تزكِّي النفس بمناجاة الله وذكره، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، والتقوى: اتقاء ما يترتب عليه مخالفة دين الله وشرعه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى لقائه ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وتجمعون؛ أي: وهو سبحانه وتعالى الذي تجمعون وتساقون إلى لقائه يوم القيامة دون غيره، فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها، فليس من العقل ولا من الحكمة أن يعبد أو يخاف أو يرجى غيره تعالى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وأوجد على غير مثال سابق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع وما فيها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها خلقاً ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والحكمة، وهو أنه على وفق سننه المطردة المشتملة على الحكم البالغة الدالة على وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته البالغة، ولم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً، فهو لا يترك الناس سدى، بل يجزي كل نفس بما كسبت، ونحو هذه الآية قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ ظرف لقوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: وقوله سبحانه وتعالى هو الحق الواقع الذي لا شك فيه حين يقول للشيء الذي أراد إيجاده: كن؛ أي: اخرج من العدم، فيكون؛ أي: فيوجد ذلك الشيء الذي

---

(١) المراغي.

تعلقت إرادته بإيجاده، وهو وقت إيجاد العالم وتكوينه، فلا مرد لأمره، ولا تخلف لقضائه وحكمه، ومن كان أمره التكويني مطاعاً.. يكون أمره التكليفي كذلك واجب الطاعة بلا حرج في النفس ولا ضيق منه، فالخلق حق، والأمر حق: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾.

والمراد من هذا الأمر[1]: التنبيه على نفاذ قدرته ومشيئته في تكوين الكائنات، وهذا بيان أن خلقه تعالى للسموات والأرض ليس مما يتوقف على مادة ولا مدة، بل يتم بمحض الأمر التكويني من غير توقف على شيء آخر أصلاً. والمراد بالقول كلمة: ﴿كُن﴾ تمثيل، لأن سرعة قدرته تعالى أقل زمناً من زمن النطق بـ﴿كُن﴾.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى خاصة ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ والسلطنة ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ﴾ وينادى ﴿فِي ٱلصُّورِۚ﴾ لبعث الخلائق، وهو يوم القيامة؛ أي: وله سبحانه وتعالى الملك يوم الحشر يوم يبعث من في القبور، وينفخ في الصور، والأمر حينئذ للّه وحده، ولا تملك نفس لنفس شيئاً من خير أو شر، أو نفع أو ضر، فكيف يرضى لنفسه من يعرف هذه الحقائق أن يدعو سواه، ويتخذ له إلهاً غير الله، ويرد على عقبيه ويرجع إلى أسوأ حاليه؟! وإنما أخبر[2] سبحانه وتعالى عن ملكه يومئذ، وإن كان الملك له تعالى خالصاً في كل وقت في الدنيا والآخرة؛ لأنه لا منازع له يومئذ يدِّعي الملك، وأنه المنفرد بالملك يومئذ، وأن من كان يدعي الملك بالباطل من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا في الدنيا قد زال ملكهم، واعترفوا بأن الملك لله الواحد القهار، وأنه لا منازع له فيه، وعلموا أن الذي كانوا يدعونه من الملك في الدنيا باطل وغرور.

واختلفت[3] العلماء في ﴿ٱلصُّورِۚ﴾ المذكور في الآية، فقال قوم: هو قرن ينفخ فيه، وهو لغة أهل اليمن. قال مجاهد: الصور قرن كهيئة البوق، ويدل على

---

(١) المراح.

(٢) الخازن.

(٣) الخازن.

صحة هذا القول: ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه». أخرجه أبو داود والترمذي.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ»، فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: كيف نفعل يا رسول الله؟ وكيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»، وربما قال: «توكلنا على الله» أخرجه الترمذي. وقال أبو عبيدة: الصور جمع صورة، ومعنى النفخ فيها إحياؤها بنفخ الروح فيها، وهذا قول الحسن ومقاتل. والقول الأول أصح؛ لما تقدم في الحديث، ولقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾، ولاجماع أهل السنة على أن المراد بالصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل نفختين: نفخة الصعق، ونفخة البعث للحساب.

وقرأ الحسن[1]: ﴿الصور﴾ بتحريك الواو، وحكاها عمرو بن عبيد عن عياض، ويؤيد تأويل من تأوله أن الصور جمع صورة؛ كثومة وثوم. وروي عن عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿ننفخ﴾ بنون العظمة.

وهو سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: عالم ما غاب عن عباده وما يشاهدونه ويعلمونه، فلا يغيب عن علمه شيء. قال الحسن: الغيب: ما غاب عنكم مما لم تروه، والشهادة: ما قد رأيتم من خلقه. وقال ابن عباس: الغيب والشهادة: السر والعلانية: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله وتدبير خلقه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بكل ما يفعلونه من خير وشر.

والمعنى[2]: أن الذي خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، والذي قوله الحق تكويناً وتكليفاً، والذي له الملك وحده يوم يحشر الخلائق: هو عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، وهو الخبير بدقائقها

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

وخفاياها، ولا يشذ عن علمه شيء منها، فلا ينبغي لعاقل أن يدعو غيره معه كما قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، وقال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾.

وقرأ الأعمش[1]: ﴿عالمِ﴾ بالخفض، ووُجِّه على أنه بدل من الضمير في: ﴿له﴾، أو من ﴿رب العالمينَ﴾ أو نعت للضمير في ﴿له﴾، والأجود الأول؛ لبعد المبدل منه في الثاني، وكون الضمير الغائب يوصف إنما أجازه الكسائي وحده، وليس مذهب الجمهور.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الذين لقناك فيما سبق الحجج على بطلان شركهم وضلالهم - إذ عبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم - قصص جدهم إبراهيم الخليل الذي يعظمونه ويدَّعون اتباع ملته، حين جادل قومه وراجعهم في بطلان ما كانوا يعملون؛ إذ قال لأبيه آزر منكراً عليه وعلى قومه، وعائباً عليه عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه: يا أبتِ ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تعبدها وتجعلها معبوداً لك من دون الله الذي خلقك وخلقها، فهو المستحق للعبادة دونها والأصنام: جمع صنم، وهو ما صوِّر على هيئة الإنسان، وعبد من دون الله، سواء كا ن من خشب أو حجر أو ذهب أو فضة أو غير ذلك، ذكره «الصاوي». ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ﴾ يا أبتِ ﴿وَقَوْمَكَ﴾ الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ وخطأ عن الصراط المستقيم. ﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: واضح ذلك الضلال لا شبهة فيه للهدى، فإن هذه الأصنام تماثيل تنحتونها بأيديكم من الحجارة، أو تقطعونها من الخشب، أو تصنعونها من المعادن، فأنتم أرفع منها قدراً وأعز جانباً، ولم تكن آلهة بذاتها، بل باتخاذكم إياها آلهة، ولا يليق بالعاقل أن يعبد ما هو مساوٍ له في الخلق، ولا ما هو مقهور بتصرف الخالق فيه، ومحتاج إلى الغني القادر، ولا يقدر على شيء لا نفع ولا ضر، ولا إعطاء ولا منع.

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور: ﴿ءَازَرَ﴾ بفتح الراء. وقرأ أبي وابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم بضم الراء على النداء، وكونه علماً، ولا يصح أن يكون صفة لحذف حرف النداء، وهو لا يحذف من الصفة إلا شذوذاً. وفي مصحف أبي: ﴿يا آزر﴾ - بحرف النداء - ﴿اتخذت أصناماً﴾ بالفعل الماضي. فيحتمل العلمية والصفة. وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿أأزراً تتخذ أصناماً﴾ بهمزة استفهام وفتح الهمزة بعدها وسكون الزاي ونصب الراء منونة، وحذف همزة الاستفهام من ﴿أتتخذ﴾. قال ابن عطية: المعنى: أعضداً وقوة ومظاهرة على الله تتخذ، وهو من قوله: ﴿اشدد به أزرى﴾. وقال الزمخشري: هو اسم صنم، ومعناه: أتعبد أزراً على الإنكار، ثم قال: أتتخذ أصناماً آلهةً؛ تبييناً لذلك وتقريراً، وهو داخل في حكم الإنكار؛ لأنه كالبيان له. وقرأ ابن عباس أيضاً وأبو إسماعيل الشامي: ﴿أإزراً﴾ بكسر الهمزة بعد همزة الاستفهام ﴿تتخذ﴾. قال ابن عطية: ومعناها: إنها مبدلة من واو، كوسادة وإسادة، كأنه قال: أوزراً ومأثماً تتخذ أصناماً، ونصبه على هذا بفعل محذوف. وقرأ الأعمش: ﴿إزرا تتخذ﴾ بكسر الهمزة وسكون الزاي ونصب الراء وتنوينها، وبغير همزة استفهام في ﴿تتخذ﴾، وذكره أبو حيان في «البحر».

واختلف(١) العلماء في لفظ ﴿ءَازَرَ﴾. فقال محمد بن إسحاق والكلبي والضحاك: آزر: اسم أبي إبراهيم، وهو تارح، ضبطه بعضهم بالحاء المهملة، وبعضهم بالخاء المعجمة، فعلى هذا يكون لأبي إبراهيم اسمان: آزر وتارح، مثل يعقوب وإسرائيل: اسمان لرجل واحد، فيحتمل أن يكون اسمه الأصلي: آزر، وتارح لقب له، أو بالعكس، والله سماه آزر، وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح؛ ليعرف بذلك، وكان آزر أبو إبراهيم من كوثى، وهي قرية من سواد الكوفة. وقال سليمان التيمي: آزر: سب وعيب، ومعناه في كلامهم المعوج. وقيل: الشيخ الهرم، وهو بالفارسية، وهذا على مذهب من يجوز أن في القرآن ألفاظاً قليلة فارسية، وقيل: هو المخطىء، فكأن إبراهيم عابه وذمه بسبب كفره وزيغه عن الحق. وقال سعيد بن المسيب ومجاهد: آزر: اسم صنم كان والد

(١) الخازن.

إبراهيم يعبده، وإنما سماه بهذا الاسم؛ لأن من عبد شيئاً أو أحبه.. جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسماً له، فهو كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾. وقيل: معناه: وإذ قال إبراهيم لأبيه يا عابد آزر، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. والصحيح هو الأول: أن آزر اسم لأبي إبراهيم؛ لأن الله تعالى سماه به، وما نقل عن النسابين والمؤرخين أن اسمه تارح، ففيه نظر؛ لأنهم إنما نقلوه عن أصحاب الأخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم.

وقد أخرج البخاري في «أفراده» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة..» الحديث، فسماه النبي ﷺ: آزر أيضاً، ولم يقل: أباه تارح، فثبت بهذا أن اسمه الأصلي آزر لا تارح، والله أعلم. وقيل: كان آزر من أهل حران، وهو تارخ بن ناحور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، ذكره أبو حيان في «البحر». وإبراهيم اسم خليل الرحمٰن أبي الأنبياء الأكبر من بعد نوح، وهو العاشر من أولاد سام كما في سفر التكوين من التوراة، ولد في بلدة: أور؛ أي: النور، من بلاد الكلدان، وهي المعروفة الآن باسم: أورفا في ولاية حلب كما يرجح ذلك المؤرخون. ومعنى إبراهيم: أبو الجمهور العظيم؛ أي: أبو الأمة، وهو تبشير من الله له بتكثير نسله من ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

وقد أثبت علماء الآثار(١) أن عرب الجزيرة سكنوا منذ فجر التاريخ بلاد الكلدان ومصر، وغلبت لغتهم فيهما، ونقل بعض المؤرخين أن الملك حمورابي الذي كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام عربي، وقد أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمه هاجر المصرية في الوادي الذي بنيت فيه مكة، وأن الله سخر لهما جماعة من جرهم سكنوا معهما هناك، والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما أرينا إبراهيم الحق في أمر أبيه وقومه، وهو أنهم

---

(١) المراغي.

كانوا في ضلال مبين في عبادتهم للأصنام والأوثان ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: أريناه مرة بعد مرة ملكوت السموات والأرض؛ أي: خلقهما بما فيهما من بديع النظام وغريب الصنع، فأريناه تلك الكواكب التي تدور في أفلاكها على وضع لا تعدوه، وأريناه الأرض وما في طبقاتها المختلفة من أصناف المعادن النافعة للإنسان في معاشه إذا هو استخدمها على الوجه الصحيح الذي أرشدناه إليه، وجلينا له بواطن أمورها وظواهرها، مما يدل على وحدانيتنا وعظيم قدرتنا وإحاطة علمنا بكل شيء. والمعنى[1]: وكما أرينا إبراهيم البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه، وما كانوا عليه من الضلال في عبادة الأصنام.. نريه ملكوت السموات والأرض، فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى كان أراه بعين البصيرة أن أباه وقومه على غير الحق فخالفهم، فجزاه الله بأن أراه بعد ذلك ملكوت السموات والأرض، فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى، والملكوت: الملك، زيدت فيه التاء للمبالغة، كالرهبوت والرغبوت والرحموت: من الرهبة والرغبة والرحمة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني آيات السموات والأرض، وذلك أنه أقيم على صخرة، وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب، وحتى رأى مكانه في الجنة، فذلك قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني: أريناه مكانه في الجنة، وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين، ورأى ما فيها من العجائب. وقرأ[2] أبو السمال: ﴿ملكوت﴾ - بسكون اللام -: وهي لغة بمعنى: الملك. وقرأ عكرمة: ﴿ملكوث﴾ بالثاء المثلثة. وقال: ﴿ملكوثا﴾ باليونانية والقبطية. وقال النخعي: هي ﴿ملكوثا﴾ بالعبرانية. وقرىء: ﴿وكذلك ترى﴾ بالتاء من فوق ﴿إبراهيم ملكوت﴾ - برفع التاء -؛ أي: تبصره دلائل الربوبية.

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ معطوف على محذوف معلوم من السياق تقديره: وكذلك أرينا إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليقيم بها الحجة على

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

المشركين الضالين، وليكون في خاصة نفسه من الموقنين؛ أي: من زمرة الراسخين في الإيقان، البالغين عين اليقين. وقيل: الواو زائدة، ومتعلق ﴿ٱلْمُوقِنِينَ﴾ محذوف تقديره: من الموقنين بوحدانية الله وقدرته، وقيل: بنبوته ورسالته. واليقين وكذا الإيقان: عبارة[1] عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة؛ لأن الإنسان في أول الحال لا ينفك عن شبهة وشك، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت.. صارت سبباً لحصول اليقين والطمأنينة في القلب، وزالت الشبهة عند ذلك.

ثم فصل سبحانه ما أجمله من رؤية ملكوت السموات والأرض، فقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾؛ أي: إنه سبحانه وتعالى لما بدأ يريه ملكوت السموات والأرض.. كان من أول أمره في ذلك أنه لما جن وأظلم عليه الليل وستر عنه ما حوله من عالم الأرض.. نظر في ملكوت السموات فـ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ عظيماً ممتازاً عن سائر الكواكب بإشراقه وبريقه ولمعانه، وهو كوكب: المشتري الذي هو أعظم آلهة بعض عبّاد الكواكب من قدماء اليونان والرومان، وهو في السماء السادسة. وقيل: هو الزهرة، وهي في السماء الثالثة، وبالجملة فالكوكب من السبعة السيارة المجموعة في قول بعضهم:

زُحَلٌ شَرَىٰ مَرِّيخَهُ مِنْ شَمْسِهِ   فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ ٱلأَقْمَارَا

وكان قوم إبراهيم أئمتهم في هذه العبادة، وهم لهم مقتدون، فلما رآه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿هَٰذَا﴾ الكوكب ﴿رَبِّي﴾ ومعبودي في زعمكم؛ أي: قال هذا في مقام المناظرة والحجاج لقومه تمهيداً للإنكار عليهم، فحكى مقالتهم أولاً ليستدرجهم إلى سماع حجته على بطلانها، فأوهمهم أولاً أنه موافق لهم على زعمهم ثم كر عليه بالنقض بانياً دليله على الحس والعقل ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ وغاب وغرب هذا الكوكب واحتجب عنه ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾؛ أي: لا أحب الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان، المتغيرين من حال إلى حال، المحتجبين

(١) الخازن.

بالأستار؛ أي: لا أحب[1] رباً يغيب ويحتجب؛ إذ من كان سليم الفطرة لا يختار لنفسه حب شيء يغيب عنه ويوحشه فقده، فما بالك بحب العبادة له الذي هو أعلى أنواع الحب وأكمله؛ لأنه قد هدت إليه الفطرة، وأرشد إليه العقل السليم، فلا ينبغي أن يكون إلا للرب الحاضر القريب السميع البصير الرقيب، الذي لا يغيب ولا يغفل ولا ينسى ولا يذهل، الظاهر في كل شيء بآياته:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ٱلْوَاحِدُ

والباطن في كل شيء بحكمته ولطفه الخفي: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾، وقد جاء في الحديث في وصف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والخلاصة: أن في هذا تعريضاً بجهل قومه في عبادة الكواكب، إذ يعبدون ما يحتجب عنهم ولا يدري شيئاً من أمر عبادتهم، وهذا قريب من قوله لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾. وإنما احتج[2] إبراهيم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؛ لأن الاحتجاج بالأفول أظهر؛ لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب، وجاء بلفظ ﴿ٱلْأَفِلِينَ﴾؛ ليدل على أن ثَمَّ آفلين كثيرين ساواهم هذا الكوكب في الأفول، فلا مزية له عليهم في أن يعبد للاشتراك في الصفة الدالة على الحدوث.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ إبراهيم ﴿ٱلْقَمَرَ﴾ حال كونه ﴿بَازِغًا﴾؛ أي: طالعاً من وراء الأفق أول طلوعه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿هَٰذَا﴾ القمر الطالع ﴿رَبِّي﴾؛ أي: معبودي على طريق الحكاية لما كانوا يقولون؛ تمهيداً لإبطاله كما علمت فيما سلف، والمتبادر من سياق الكلام أن إبراهيم رأى الكوكب في ليلة، ورأى القمر في الليلة التالية ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ القمر وغاب، كما أفل الكوكب وهو أكبر منه منظراً وأسطع نوراً وأقوى منه ضياء ﴿قَالَ﴾ إبراهيم مسمعاً من حوله من قومه: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾؛ أي: لئن لم يثبتني ربي على الهداية ويوفقني للحجة، وليس المراد

---

(١) المراغي.   (٢) البحر المحيط.

أنه لم يكن مهتدياً؛ لأن الأنبياء لم يزالوا على الهداية من أول الفطرة. وفي الآية دليل على أن الهداية من الله تعالى. ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين أخطؤوا الحق في ذلك، فلم يصيبوا الهدى، وعبدوا غير الله، واتبعوا أهواءهم، ولم يعملوا بما يرضيه سبحانه وتعالى.

وفي هذا تعريض يقرب من التصريح بضلال قومه، وإرشاد إلى توقف الهداية على الوحي الإلهي، وقد انتقل في المرة الثالثة من التعريض إلى التصريح بالبراءة منهم، والتصريح بأنهم على شرك بيِّن بعد أن تبلج الحق وظهر غاية الظهور، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ﴾ حالة كونها ﴿بَازِغَةً﴾؛ أي: طالعة من وراء الأفق ﴿قَالَ﴾ إبراهيم مشيراً إليها ﴿هَٰذَا﴾ الطالع، أو هذا الذي أرى الآن هو ﴿رَبِّى﴾؛ أي: معبودي، وإنما قال هذا ولم يقل هذه مع كون الشمس مؤنثة، قيل: نظراً لكونها بمعنى: الطالع كما أشرنا إليه في الحل، أو نظراً لكون الخبر مذكراً، أو لأن تأنيثها غير حقيقي ﴿هَٰذَآ﴾ الطالع الآن ﴿أَكْبَرُ﴾ من الكوكب والقمر قدراً، وأعظم ضياء ونوراً، فهو أجدر منهما بالربوبية، وفي هذا مبالغة في المجاراة لهم، وتمهيد لإقامة الحجة عليهم، واستدراج لهم إلى التمادي في الاستماع بعد ذلك التعريض الذي كان يخشى أن يصدهم عنه.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ الشمس وغابت كما أفل غيرها من الكوكب والقمر، واحتجب ضوؤها المشرق، وكانت الوحشة بذلك أشدَّ من الوحشة باحتجاب الكوكب والقمر.. صرح بما أراد بعد ذلك التعريض الذي تقدم، و﴿قَالَ﴾ متبرئاً من شرك قومه ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بالله من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدث.

والخلاصة: أنه حاور وداور وتلطف في القول، وأرخى لخصمه العنان حتى وصل إلى ما أراد بألطف وجهٍ وأحسن طريق متبرئاً من تلك المعبودات التي جعلوها أرباباً وآلهةً مع الله، وبعد أن تبرأ من شركهم.. قفى تلك البراءة ببيان عقيدته عقيدة التوحيد الخالص، فقال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾؛ أي: إني جعلت توجهي في عبادتي، أو قصدت بعبادتي وتوحيدي الله عز وجل، وذكر الوجه؛

لأنه العضو الذي يعرف به الشخص، أو لأنه يطلق على الشخص كله ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: للإله الذي خلق السموات والأرض، وأكمل خلقهن أطواراً في ستة أيام، فهو خالق هذه الكواكب النيرات، وخالقكم وما تصنعون منه هذه الأصنام من المعادن والنباتات حالة كوني ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة التي هي الشرك والخرافات إلى الدين الحق الذي هو التوحيد والإخلاص لله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله شيئاً من المخلوقات، وفي معنى الآية قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

وإسلام[1] الوجه له تعالى: توجه القلب إليه، وعبر عنه به؛ لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من الإقبال أو الإعراض، والسرور أو الكآبة إلى نحو أولئك، وتوجيهه له: جعله يتوجه إليه وحده في طلب حاجته، وإخلاص عبوديته إذ هو المستحق للعبادة القادر على الأجر والثواب. ومراد إبراهيم أنه مائل عن معبوداتهم الباطلة وغيرها، فتوجهه وإسلامه خالص لا يشوبه شرك ولا رياء، وما هو من المشركين به، الذين يتوجهون إلى غيره من المخلوقات كالكواكب أو الملائكة أو الملوك أو ما يتخذ لهم من الأصنام والتماثيل. وظاهر ما حكاه الله عن إبراهيم عليه السلام أن قومه يتخذون الأصنام آلهة لا أرباباً، ويتخذون الكواكب أرباباً آلهة، والإلٰه هو المعبود، وكل من عبد شيئاً.. فقد اتخذه إلٰهاً، والرب هو السيد المالك المربي المدبر المتصرف، وليس للخلق رب ولا إلٰه إلا الله الذي خلقهم، فهو المالك لكل شيء، وفي كل زمن، وعلى كل حال، وملك غيره ناقص موقوت، فهو المعبود بحق، والعبادة: هي التوجه بالدعاء والتعظيم القولي أو الفعلي إلى ذي السلطان الأعلى، خالق الخلق والموجد له والمتصرف فيه.

والأصل[2] في اختراع عبادة غير الله تعالى من حجر أو شجر أو شمس أو

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

قمر أمران:

١ ـ أن بعض ضعاف الأحلام رأوا بعض مظاهر قدرته تعالى في بعض خلقه، فتوهموا أن ذلك ذاتي لهذا المخلوق، ليس خاضعاً لسنن الله في الأسباب والمسببات.

٢ ـ اتخاذ بعض المخلوقات ذات الخصوصية في مظاهر النفع والضر وسيلة إلى الإلٰه الحق، تشفع عنده، وتقرب إليه كل من توجه إليها، فيتوسل ذو الحاجة إليها بدعائها وتعظيمها بالقول أو الفعل؛ لحمله تعالى بتأثيرها على قبوله وإعطائه سؤاله، وقد أقاموا مقام هذه المخلوقات التماثيل والأصنام والقبور وغيرها مما يذكّر بها، وهذه هي الوثنية الراقية التي كانت عليها العرب زمن البعثة، ومن ثَمَّ كانوا يقولون في طوافهم بالبيت الحرام: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما مَلك.

وكان قوم إبراهيم عليه السلام قد ارتقوا في وثنيتهم إلى هذه المرتبة، إذ إنهم عقلوا أن الأصنام لا تسمع دعاءهم، ولا تبصر عبادتهم، ولا تقدر على نفعهم وضرهم، وإنما قلدوا فيها آباءهم كما سيأتي في حججهم في سورة الشعراء، ومن ثَمَّ اتخذوا الأصنام آلهة معبودين لا أرباباً مدبرين، لكنهم اتخذوا[1] الكواكب أرباباً لما لها من التأثير السببي في الأرض، فكانوا يعتقدون أن الشمس رب الناس، والقمر يدبر الملوك ويفيض عليهم روح الشجاعة والإقدام، وينصر جندهم ويخذل عدوهم، ويعتقدون أنَّ مرداخ ـ وهو المشتري ـ شيخ الأرباب، ورب العدل والأحكام، وحافظ الأبواب التي يدخلها الخصوم لفصل الخصومات، وأن رنكال ـ وهو المريخ ـ رب الصيد وسلطان الحرب، و أن عشتار ـ وهو الزهرة ـ ربة الغبطة والسرور والسعادة، وتمثل بصورة امرأة عارية، وأن ـ نيو ـ وهو عطارد ـ رب العلم والحكمة.

وجاء إبراهيم بحجته البالغة، فحصر العبادة في فاطر السموات والأرض

---

(١) المراغي.

وحده دون غيره من الوسائل، فقال في تماثيلهم: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ﴾؛ أي: حاج إبراهيم عليه السلام وجادله ﴿قَوْمُهُۥ﴾ وخاصموه ونازعوه في أمر التوحيد، فهو إذ أبان لهم بطلان عبادة الأصنام، وربوبية الكواكب، وأثبت لهم وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده، حاجوه وخاصموه ببيان أوهامهم في شركهم، إذ قالوا: إن اتخاذ الآلهة لا ينافي الإيمان بالله الفاطر للسموات والأرض؛ لأنهم شفعاء عنده، ولما لم يجد ذلك معه.. خوفوه أن تمسه آلهتهم بسوء، وانتهت بهم خاتمة المطاف أن قالوا: إنهم ساروا على ما وجدوا عليه آباءهم، وليس للمقلد أن يحتج، ولكنه يجادل ويحاج مع كونه لا يخضع للحجة إذا قامت عليه، وكثيراً ما يضطرب المقلد لسماع الحجة؛ إذ يومض في قلبه نورها، ثم يعود إلى سابق وهمه خائفاً مما لا يخاف، راجياً ما لا يرجى.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ وتجادلوني ﴿فِى﴾ شأن ﴿ٱللَّهِ﴾ وما يجب في الإيمان به؛ أي: أتخاصمونني في كونه لا شريك له ولا ند ولا ضد، والاستفهام فيه للإنكار؛ أي: لا تخاصموني ولا ينبغي لكم ذلك ﴿و﴾ الحال أنه سبحانه وتعالى ﴿قد هداني﴾ وأرشدني إلى توحيده، وأنتم تريدون أن أكون مثلكم في الضلالة والجهالة وعدم الهداية، والمعنى: وقد فضلني عليكم بما هداني إلى التوحيد الخالص، وبما بصرني به من الحجة التي أقمتها عليكم، وأنتم الضالون بإصراركم على شرككم وتقليدكم فيه من قبلكم. وقرأ[1] نافع وابن عامر بخلاف عن هشام: ﴿أتحاجوني﴾ بتخفيف النون، وأصله بنونين الأولى علامة الرفع، والثانية نون الوقاية، والخلاف في المحذوف منهما مذكور في علم النحو. وقرأ باقي السبعة: بتشديد النون أصله: أتحاجونني، فأدغم فراراً من ثقل توالي مثلين متحركين.

(١) البحر المحيط.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: ولا أرهب من آلهتكم التي تدعونها من دون الله سوءاً ينالني في نفسي، ذلك أني أعتقد أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تقرب ولا تشفع.

قال هذا الكلام لهم لما خوفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه؛ أي: إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا ينفع. والضمير في: ﴿بِهِۦٓ﴾ يجوز أن يعود على الله؛ أي: الذي تشركونه بالله، وأن يعود على ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: الذي تشركون به الله تعالى ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ﴾؛ أي: لا[1] أخاف ما تشركون به في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى إصابة مكروه لي من جهتها، فإنه لا محالة كما شاء ربي، فإن شاء أن يسقط عليَّ صنم يشجُّني، أو كسف من شهب الكواكب يقتلني، فإن ذلك يقع بقدرة ربي ومشيئته، لا بمشيئة الصنم أو الكواكب، ولا بقدرته ولا بتأثيره في قدرته تعالى وإرادته، ولا بجاهه عنده وشفاعته، إذ لا تأثير لشيء من المخلوقات في مشيئة الله الجارية إلا بما يثبت في علمه الأزلي.

وحاصل المعنى[2]: وحاجه قومه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه منكرين لذلك، ومحاجة مثل هؤلاء إنما هي بالتمسك باقتفاء آبائهم تقليداً، وبالتخويف مما يعبدونه من الأصنام، كقول قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ﴾ فأجابهم بأن الله قد هداه بالبرهان القاطع على توحيده، ورفض ما سواه، وأنه لا يخاف من آلهتهم. ثم أتى بما هو كالعلة لما قبله، فقال: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ﴾؛ أي: أحاط ربي بكل شيء علماً، فلا يبعد أن يكون في علمه سبحانه إنزال المكروه بي من جهتها بسبب من الأسباب. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ داخلة على محذوف وهي للاستفهام التقريري والتوبيخي، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أتعرضون بعد ما أوضحته لكم عن التأمل في أن آلهتكم ليس بيدها نفع ولا ضر، فلا تتذكرون أيها الغافلون أنها غير قادرة على ضري ولا

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

على إيصال النفع إليكم، فالسلطة العليا له تعالى وحده ليس لغيره تأثير فيها ولا تدبير، فإذا أعطى بعض المخلوقات شيئاً من النفع أو الضر. . فلا يكون ذلك داعياً لرفعها عن رتبة المخلوقات، وجعلها أرباباً ومعبودات، وكان يجب أن يفطن لذلك العقلاء ويتذكروه؛ لأنه تذكير بما يدركه العقل بالبرهان، ويهدي إليه الوجدان.

وبعد أن أبان لهم أنه لا يخاف شركاءهم، بل يخاف الله وحده. . تعجب من تخويفهم إياه ما لا يخاف، وعدم خوفهم مما يجب أن يخاف منه، وقال ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ وأرهب ﴿ما أشركتم﴾ـوه بربكم من خلقه، فجعلتموه نداً له ينفع ويضر ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾؛ أي: والحال أنكم لا تخافون إشراككم بالله خالقكم ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: حجة بينة بوحي ولا نظر عقل تثبت لكم جعله شريكاً في الخلق والتدبير، أو في الوساطة والشفاعة، فافتياتكم على خالقكم بهذه الدعوى هو الذي يجب أن يخاف ويتقى.

والمعنى(١): وكيف أخاف ما لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق، والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك بالله، وهو الضار النافع الخالق الرازق، أورد عليهم هذا الكلام الإلزامي الذي لا يجدون عنه مخلصاً ولا متحولاً، والاستفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم والتعجب من فساد عقولهم، حيث خوفوه خشباً وحجراً لا ينفع ولا يضر، وهم لا يخافون عقبى شركهم بالله، وهو الذي بيده النفع والضر والأمر كله. و﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ مفعول أشركتم؛ أي: ولا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التي لم ينزل بعبادتها عليكم سلطاناً شركاء لله، أو المعنى: إن الله سبحانه لم يأذن بجعلها شركاء له، ولا أنزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها، فكيف عبدوها واتخذوها آلهة، وجعلوها شركاء لله سبحانه وتعالى؟!

والخلاصة(٢): أن ما يدعى لصحة هذا الخوف باطل، وأنه عليه السلام لم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

يجد لهذا الخوف وجهاً، فلا يخاف الشركاء لذواتهم، ولا لما يزعمون من وساطتهم عند الله وشفاعتهم، ولا لقدرة على الضر والنفع قد تدعى لهما. وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ مذكور على طريق التهكم مع الإعلام بأن الدين لا يقبل إلا بالحجة والبرهان، والتقليد ليس بعذر، ولا سيما تقليد من ليس على هداية ولا علم ولا بصيرة، والله لم ينزل بما ادعيتموه سلطاناً؛ لأنه باطل، فلا سلطان عليه ولا دليل.

والاستفهام في قوله: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ استفهام استخبار وتقرير؛ أي: فأي هذين الفريقين أحق وأجدر بالأمن على نفسه من عاقبة عقيدته وعبادته. والمراد بالفريقين: فريق الموحدين: الذين يعبدون الله وحده ويخافونه ويرجونه دون غيره، وفريق المشركين: الذين استكبروا تأثير بعض الأسباب، فاتخذوا ما اتخذوا من الآلهة والأرباب، ونسبوا إلى بعضها النفع والضر؛ كالشمس والقمر والكواكب والملائكة، ونكتة التعبير بـ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ دون أن يقول: فأينا أحق بالأمن: الإشارة إلى أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك، لا خاصة به وبهم، والبعد عن التصريح بخطئهم الذي ربما يدعو إلى اللجاج والعناد والاحتراس من تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله، وإن كان قد علم قطعاً أنه هو الآمن لا هم، كما قال الشاعر:

فَلَئِنْ لَقِيْتُكَ خَالِيَيْنِ لَتَعْلَمَنْ أَيِّي وَأَيُّكَ فَارِسُ ٱلأَحْزَابِ

أي: أينا، ومعلوم عنده أنه هو فارس الأحزاب لا المخاطب.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إن كنتم من أهل العلم والبصيرة في هذا الأمر.. فأخبروني بذاك وبيِّنوه بالأدلة. وفي هذا إلجاء لهم إلى الاعتراف بالحق، أو السكوت على الحمق والجهل.

والمعنى: أي[1] إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودي هو الله المتصف بتلك الصفات، ومعبودكم هي تلك المخلوقات.. فكيف تخوفوني بها، وكيف

---

(١) الشوكاني.

أخافها، وهي بهذه المنزلة، ولا تخافون من إشراككم بالله سبحانه؟ وبعد هذا فأخبروني؛ أي: الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف إن كنتم تعلمون بحقيقة الحال، وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة؟

ثم بين سبحانه وتعالى الحقيق بالأمن على سبيل التفصيل، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ أي: إن الذين آمنوا بالله وحده ولم يشركوا به شيئاً ولم يلبسوا؛ أي: لم يخلطوا إيمانهم بظلم؛ أي: بشرك، ولم ينافقوا في إيمانهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ يوم القيامة من عذاب النار دون غيرهم ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في الدنيا إلى سبيل الرشاد والصواب ثابتون عليه، وغيرهم على ضلال وجهل. والمراد[1] بالظلم الذي يلبس به المرء إيمانه بالله ويخلطه به: هو الشرك في العقيدة أو العبادة، كاتخاذ ولي من دون الله يدعى معه، أو من دونه، فيعظم كتعظيمه، ويحبه كحبه للاعتقاد أنَّ له نفعاً أو ضراً بذاته أو بتأثيره في مشيئة الله وقدرته، لا ظلم الإنسان نفسه بفعل بعض المضار أو ترك بعض المنافع عن جهل أو إهمال، ولا ظلمه لغيره ببعض التصرفات والأحكام. يدل على هذا التفسير ما رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية.. شق ذلك على المسلمين، وقالوا: يا رسول الله، وأيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس ذلك الذي تعنون، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». والمراد بالأمن: الأمن من عذاب الله الذي يحل بمن لا يرضى إيمانه ولا عبادته.

وقرأ مجاهد[2]: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بشرك﴾، ولعل ذلك تفسير معنى؛ إذ هي قراءة تخالف السواد. وقرأ عكرمة: ﴿ولم يلبسوا﴾ بضم الياء. ﴿وَتِلْكَ﴾ الحجة الدامغة التي تضمنها البيان السالف التي أوردها إبراهيم عليهم من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ...﴾ إلى قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ المثبتة للحق، المزيفة

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

للباطل، هي ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ أي: هي الحجة التي أرشدنا إليها إبراهيم وأعطيناه إياها؛ إما بوحي، أو إلهام حجة. ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ ليلزمهم ويقنعهم بها ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ بالهداية والإرشاد إلى الحق وتلقين الحجة، أو بما هو أعم من ذلك؛ أي: إننا نرفع من شئنا من عبادنا درجات بعد أن لم يكونوا على درجة منها، فالعلم درجة كمال، والحكمة درجة كمال، وقوة المعارضة في الحجاج درجة كمال، والسيادة والحكم بالحق كذلك، والنبوة والرسالة أعلى كل هذه الدرجات؛ لأنها تشمل عليها وتزيد. والله يرفع درجات من يؤتيهم ذلك بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية إلى ما به ترتقي درجته، ويصرف موانع هذا الارتقاء عنه، ويؤتي صاحب الدرجة الوهبية: النبوة ما لم يؤتِ غيره من أهل المناقب: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد الذي رباك وعلمك وهداك وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لعباده من الرفع والخفض ﴿عَلِيمٞ﴾ بشؤونهم من استحقاق الرفع وعدمه وسيريك ذلك عياناً في سيرتك مع قومك، كما أراكه بياناً فيما حدث عن إبراهيم مع قومه، وتأس في نفسك وقومك المكذبين بأبيك، واصبر على ما ينوبك منهم كما صبر.

ويحتمل(١) أن يكون المراد بالخطاب إبراهيم، فيكون من باب الالتفات والخروج من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب على سبيل التشريف بالخطاب.

الإعراب

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلۡ﴾، وإن شئت قلت الهمزة للاستفهام الإنكاري. ﴿ندعوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في

(١) البحر المحيط.

محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ندعوا﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿ندعوا﴾. ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَنفَعُنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَنفَعُنَا﴾. ﴿وَنُرَدُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ندعوا﴾. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نرد﴾، أو حال من ضمير ﴿نرد﴾؛ أي: منقلبين على أعقابنا. ﴿بَعْدَ﴾: منصوب على الظرفية. ﴿إِذْ﴾: حرف بمعنى أن المصدرية لا محل لها من الإعراب. ﴿هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة ﴿بَعْدَ﴾ إليه تقديره: بعد هداية الله إيانا، والظرف متعلق بـ﴿نرد﴾. وعبارة «الجمل» هنا: قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1] ﴿إِذْ﴾: ظرفية؛ أي: بعد وقت هدانا الله؛ أي: بعد وقت هداية الله لنا، أو بمعنى أن المصدرية، وهو ظاهر اهـ شيخنا. ﴿كَٱلَّذِى﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿نرد﴾؛ أي: نرد على أعقابنا مشبهين بالذي استهوته الشياطين، أو نعت لمصدر محذوف تقديره: نرد رداً، مثل: رد الذي استهوته الشياطين. ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾.

﴿حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿حَيْرَانَ﴾: حال من ضمير ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾. وعبارة «الجمل» هنا قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه متعلق بقوله ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾.

الثاني: أنه حال من مفعول ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾.

(١) الفتوحات.

الثالث: أنه حال من ﴿حَيْرَانَ﴾.

الرابع: أنه حال من الضمير المستكن في ﴿حَيْرَانَ﴾، و﴿حَيْرَانَ﴾ إما حال من هاء ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾، وإما من ﴿الذي﴾، وإما من الضمير المستكن في الظرف. انتهت ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أَصْحَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿حَيْرَانَ﴾. ﴿يَدْعُونَهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿إِلَى الْهُدَى﴾: متعلق به، والجملة صفة لـ﴿أَصْحَابٌ﴾. ﴿ائْتِنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف حال من فاعل ﴿يَدْعُونَهُ﴾؛ أي: يدعونه قائلين ائتنا. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿هُدَى اللَّهِ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾: ومضاف إليه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿الْهُدَى﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَأُمِرْنَا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾. ﴿لِنُسْلِمَ﴾: اللام: حرف جر بمعنى الباء. ﴿نسلم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين. ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نسلم﴾، وجملة ﴿نسلم﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام التي بمعنى الباء المتعلقة بـ﴿أمرنا﴾، والتقدير: وأمرنا بالإسلام لرب العالمين.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿نسلم﴾؛ أي: وأمرنا بالإسلام وبإقامة الصلاة. ﴿وَاتَّقُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: وأمرنا بالإسلام لرب العالمين. وبإقامة الصلاة، وبتقوى الله تعالى. ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبر. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُحْشَرُونَ﴾. وجملة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ صلة الموصول، والجملة الاسمية مستأنفة موجبة لامتثال ما أمر به من الأمور الثلاثة، كما ذكره «أبو السعود».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾ تقديره: حالة كونه ملتبساً بالحق والحكمة. ﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿الحق﴾ الآتي. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿كُن﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُ﴾، وإن شئت قلت: ﴿كُن﴾: فعل أمر من كان التامة، وفاعله ضمير يعود على شيء مخلوق، والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾. ﴿فَيَكُونُ﴾ الفاء: حرف عطف وتعقيب. ﴿يكون﴾: فعل مضارع من كان التامة، وفاعله ضمير يعود على شيء مخلوق، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَقُولُ﴾ على كونها مضافاً إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، والتقدير: قوله الحق يوم يقول كن فيكون؛ أي: واقع لا محالة.

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾: خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾؛ أي: يملك الأمور يوم. ﴿يُنفَخُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُنفَخُ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿عَٰلِمُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو عالم، والجملة مستأنفة ﴿عَٰلِمُ﴾: مضاف. ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْغَيْبِ﴾. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر أول. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٧٤﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال إبراهيم، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿لِأَبِيهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿ءَازَرَ﴾: بدل من أبيه، أو عطف بيان له، مجرور وعلامة جره الفتحة، والمانع له من الصرف العلمية والعجمية. ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام التوبيخي. ﴿تتخذ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ءَازَرَ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَصْنَامًا﴾: مفعول أول لـ﴿تتخذ﴾. ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول ثانٍ له. ﴿إِنِّيٓ﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿أَرَىٰكَ﴾ أرى: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾، والكاف: ضمير المخاطب في محل النصب مفعول أرى إن قلنا: إنها بصرية، ومفعول أول لها إن قلنا: إنها علمية. ﴿وَقَوْمَكَ﴾: معطوف على الكاف. ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿أرى﴾ إن قلنا: إنها بصرية، أو في محل المفعول الثاني إن قلنا: إنها علمية، وجملة ﴿أرى﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة للإنكار والتوبيخ قبلها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: إراءة مثل إراءته ضلال أبيه وقومه. ﴿نُرِيٓ﴾: فعل مضارع لأرى الرباعي، من رأى البصرية تتعدى بالهمزة إلى مفعولين، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مفعول أول. ﴿مَلَكُوتَ﴾: مفعول ثانٍ، وهو مضاف. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه. ﴿وَلِيَكُونَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف تقديره: ليستدل به على قومه. ﴿ليكون﴾: اللام لام كي ﴿يكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، واسمه

ضمير يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾: خبر ﴿يكون﴾، وجملة ﴿يكون﴾ في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولكونه من الموقنين، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور المحذوف تقديره: ونرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض، إراءة مثل ذلك لاستدلاله على قومه، ولكونه من الموقنين.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة تفصيلية. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿جَنَّ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلَّيْلُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿ما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿رَءَا﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾. ﴿كَوْكَبًا﴾: مفعول به لرأى لأنها بصرية، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عطف مفصل على مجمل. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، والجملة معطوفة على جملة رأى كوكباً بعاطف مقدر أو مستأنفة. ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَمَّآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿أَفَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿كوكب﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى. ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾. ﴿ٱلْءَافِلِينَ﴾: مفعول به منصوب بالياء، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿رَءَا ٱلْقَمَرَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿بَازِغًا﴾: حال من ﴿ٱلْقَمَرَ﴾؛ لأن رأى

بصرية، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى. ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿أَفَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْقَمَرَ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾. ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَئِن لَّمْ﴾ اللام: موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يهد﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة. ﴿ني﴾: النون نون الوقاية، والياء: مفعول به. ﴿رَبِّي﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿لَأَكُونَنَّ﴾: اللام: رابطة لجواب القسم. ﴿أكونن﴾: فعل مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، الثقيلة، واسمها ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿أكونن﴾. ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾، وجملة ﴿أكونن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم على القاعدة المطردة من أن المذكور يكون جواب ما قدم من الشرط والقسم، تقديره: إن لم يهدني ربي أكن من القوم الضالين، وجملة القسم وجوابه في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿رَءَا ٱلشَّمْسَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿بَازِغَةً﴾ حال من ﴿ٱلشَّمْسَ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على

﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى. ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. وكذا جملة قوله: ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿أَفَلَتْ﴾: فعل ماضٍ، والتاء علامة التأنيث، وفاعله ضمير ﴿ٱلشَّمْسَ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى آخره مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿قوم﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّي﴾: ﴿إن﴾ حرف نصب، والياء اسمها. ﴿بَرِيٓءٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿إن﴾ جواب النداء على كونها مقول القول لـ﴿قال﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَرِيٓءٌ﴾، وجملة ﴿تُشْرِكُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما تشركونه بالله.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿إِنِّي﴾ إنّ: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿لِلَّذِي﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَجَّهْتُ﴾. ﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿حَنِيفًا﴾: حال من فاعل ﴿وَجَّهْتُ﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: خبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَجَّهْتُ﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿قَالَ﴾: فعل

ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ إلى آخره مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: الهمزة: للاستفهام التوبيخي. ﴿تحاجوني﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبات النون المدغمة في نون الوقاية على قراءة التشديد، أو المحذوفة على قراءة التخفيف، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، والياء ضمير المتكلم في محل النصب مفعول به. ﴿فِي ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾.

﴿وَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: واو الحال. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿هَدَىٰنِۚ﴾: هدى: فعل ماضٍ، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزىء عنها بالكسرة في محل النصب مفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من ياء ﴿تحاجوني﴾؛ أي: أتجادلوني في الله حال كوني مهتدياً من عنده، أو حال من لفظ الجلالة؛ أي: أتخاصموني فيه حال كونه هادياً لي، فحجتكم داحضة لا تجدي شيئاً. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ على كونها حالاً من الياء، أو مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به. ﴿تُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تشركونه به.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يَشَآءَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿رَبِّي﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿شَيْـًٔاۗ﴾: مفعول به، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المستثنى المحذوف، والمستثنى منه محذوف أيضاً تقديره: ولا أخاف ما تشركون به في وقت من الأوقات؛ لأنها لا تضر ولا تنفع إلا وقت مشيئة ربي إصابةً لي بشيء من المكروه أو المحبوب، فيصيبني من جهتها، فيكون الاستثناء من عموم الأزمان، ويصح أن يكون من

عموم الأحوال، والتقدير: ولا أخاف ما تشركون به في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله تعالى.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسِعَ رَبِّي﴾: فعل وفاعل. ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿عِلْمًا﴾: تمييز محول عن الفاعل؛ أي: وسع علمه كل شيء كـ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتعليل الاستثناء؛ أي: لأنه أحاط بكل شيء علماً. ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة للاستفهام التوبيبخي داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة على كونها إنشائية لا محل لها من الإعراب، ولكنها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، والتقدير: أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم جمادات لا تضر ولا تنفع، فلا تتذكرون أنها غير قادرة على شيء ما.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾.

﴿وَكَيْفَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كيف﴾: اسم للاستفهام التعجبي في محل النصب على الحال مبني على الفتح، والعامل فيه ﴿أَخَافُ﴾. ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، والجملة مستأنفة على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما أشركتموه بالله. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَخَافُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿أَخَافُ﴾، والتقدير: وكيف أخاف الذي تشركون حال كونكم أنتم غير خائفين عاقبة إشراككم، وهذه الجملة وإن لم يكن فيها رابط يعود على ذي الحال. لا يضر ذلك؛ لأن الواو نفسها رابطة. اهـ «سمين». ﴿أَنَّكُمْ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، والكاف اسمها. ﴿أَشْرَكْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ تقديره: أنكم مشركون بالله، وجملة ﴿أن﴾ في

تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: ولا تخافون إشراككم بالله. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾: ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يُنَزِّلْ﴾: مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على اللّه. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يُنَزِّلْ﴾، وكذا ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿سُلْطَٰنًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يُنَزِّلْ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَأَىُّ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم معبودي ومعبودكم، وأردتم بيان حالي وحالكم.. فأقول لكم ﴿أي الفريقين أحق بالأمن﴾: ﴿أي﴾ اسم استفهام مبتدأ مرفوع. ﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾: مضاف إليه. ﴿أَحَقُّ﴾: خبر. ﴿بِٱلْأَمْنِ﴾: متعلق به، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبر كان وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم من ذوي العلم والاستبصار.. فأخبروني أيُّ هذين الفريقين أحق بالأمن؟

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿إِيمَٰنَهُم﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿بِظُلْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَلْبِسُوٓا۟﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثانٍ. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿ٱلْأَمْنُ﴾ مبتدأ ثالث، والجملة من المبتدأ الثالث وخبره خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾: مبتدأ وخبر، معطوف على جملة قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ على كونه خبراً للمبتدأ الثاني.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿تلك﴾: مبتدأ. ﴿حُجَّتُنَآ﴾: خبر المبتدأ. وجملة ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾ خبر ثانٍ، أو في محل النصب حال من ﴿حُجَّتُنَآ﴾، والعامل فيها معنى الإشارة، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿آتينا﴾؛ لأنه بمعنى: أعطينا. ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حُجَّتُنَآ﴾. ﴿نَرْفَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾. ﴿دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ ـ بالإضافة ـ: مفعول به، وهو مضاف، و﴿مَّن﴾ الموصولة: في محل الجر مضاف إليه. وبالتنوين: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: مفعول فيه، أو مفعول ثانٍ على تضمين نرفع بمعنى: نعطي، و﴿مَّن﴾ الموصولة: مفعول به. ﴿نَّشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: نشاءه. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿رَبَّكَ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر أول؛ لأن ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثانٍ لها، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ الأعقاب جمع: عقب، وهو مؤخر الرجل، وتقول العرب فيمن عجز بعد قدرة، أو سفل بعد رفعة، أو أحجم بعد إقدام على محمدة: نكص على عقبيه، وارتد على عقبيه، ورجع القهقرى، ثم صار يطلق على كل تحول مذموم.

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ أي: ذهبت بعقله وهواه، وكانت العرب في الجاهلية تزعم أن الجنون كله من تأثير الجن، ومنه قولهم: جن فلان؛ أي: مسته الجن، فذهبت بعقله، وكانوا يقولون: إن الجن تظهر لهم في المهامه، وتتلون لهم بألوان مختلفة، فتذهب بلب من يراها، فيهيم على وجهه لا يدري أين يذهب حتى يهلك، وهذه الشياطين التي تتلون هي التي يسمونها: الغيلان والأغوال والسعالي.

وقوله: ﴿حَيْرَانَ﴾؛ أي: تائهاً ضالاً عن الجادة، لا يدري ما يصنع؟ وهو وصف مذكر مؤنثه حيرى؛ كسكران وسكرى، فلذلك منع من الصرف، ويقال: حار يحار حيرة وحيرورة إذا تردد.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ والصور في اللغة: القرن، وهو هنا شيء من خلق الله على صورة القرن المستطيل، وفيه جميع الأرواح، وفيه ثقب بعددها، فإذا نفخ خرجت كل روح من ثقبة، ووصلت لجسدها، فتحله الحياة. اهـ «سمين». وقد ثقب الناس قرون الوعول والظباء وغيرها، فجعلوا منها أبواقاً ينفخون فيها، لها صوت شديد يدعى به الناس إلى الاجتماع، ويعزفون بها كغيرها من آلات الطرب.

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ والأصنام: جمع صنم، وهو والتمثال والوثن بمعنى واحد، وهو الذي يتخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو ذهب أو فضة على صورة الإنسان. اهـ «خازن».

﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ والضلال: العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التي يطلبها العاقل من سيره الحسي والمعنوي.

﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وملك الله وملكوته: سلطانه وعظمته، والملكوت: الملك، زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة، كما مرَّ.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ يقال[1]: جن عليه الليل وأجن بمعنى: أظلم، فيستعمل قاصراً، وجنه وأجنه الليل، فيستعمل متعدياً، فهذا مما اتفق فعل وأفعل لزوماً وتعدياً إلا أن الأجود في الاستعمال: جن عليه الليل وأجنه الليل، فيكون الثلاثي لازماً، والرباعي متعدياً. اهـ «سمين».

﴿رَءَا كَوْكَبًاۖ﴾ والكوكب والكوكبة واحد الكواكب، وهي: النجوم ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ في «المصباح»: أفل[2] الشيء أفلاً وأفولاً من بابي ضرب وقعد: غاب، ومنه: أفل فلان عن البلد إذا غاب عنها، والأفيل: الفصيل وزناً ومعنى، والجمع: إفال بالكسر. وقال الفارابي: الإفال: بنات المخاض فما فوقها، وقال أبو زيد: الأفيل: الفتى من الإبل. وقال الأصمعي: ابن تسعة أشهر أو ثمانية. وقال ابن فارس: جمع الأفيل: إفال، والإفال: صغار الغنم، والأفول: غيبوبة الشيء بعد ظهوره.

---

(١) الفتوحات. (٢) المصباح المنير.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ القمر معروف، سمي بذلك لبياضه، والأقمر: الأبيض، وليلة قمراء: مضيئة، قاله ابن قتيبة. وبزوغ القمر: ابتداء طلوعه، يقال: بزغ بفتح الزاي يبزغ بضمها، واستعمل قاصراً ومتعدياً يقال: بزغ البيطار الدابة؛ أي: أسال دمها، فبزغ هو؛ أي: سال، ثم قيل لكل طلوع: بزوغ، ومنه: بزغ ناب الصبي والبعير تشبيهاً بذلك اهـ «سمين».

وفي «المصباح»: بزغ البيطار والحاجم بزغاً من باب قتل: شرط، وأسال الدم، وبزغ ناب البعير بزوغاً: إذا طلع، وبزغت الشمس: طلعت فهي بازغة. اهـ.

﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وجه من باب فعل المضعف، وتوجيه الوجه لله تعالى تركه يتوجه إليه وحده في طلب حاجته وإخلاص عبوديته. ﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أخرجهما إلى الوجود لا على مثال سابق ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق الذي هو التوحيد.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ حاج من باب فاعل الرباعي المزيد بالألف بين الفاء والعين، يدل على المفاعلة، والمحاجة المجادلة والمغالبة في إقامة الحجة، والحجة تطلق تارة على الدلالة المبينة للمقصد، وتارةً على ما يدلي به أحد الخصمين في إثبات دعواه، أو ردِّ دعوى خصمه، وهي بهذا الاعتبار تنقسم إلى قسمين: إلى حجة دامغة يثبت بها الحق، وإلى حجة داحضة يموه بها الباطل، وقد اصطلحوا على تسمية مثل هذه شبهةً.

﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ بتشديد الجيم والنون أصله: أتحاججونني بوزن تضاربونني بجيمين، فأدغمت الجيم الأولى في الثانية، وكذا النون: أدغمت الأولى في الثانية على قراءة التشديد، وأما على قراءة التخفيف، فاختلفوا في المحذوفة من النونين، فقال سيبويه وغيره من البصريين: المحذوفة الأولى التي هي نون الرفع؛ لأنها نائبة عن الضمة، وهي قد تحذف تخفيفاً كما في قراءة أبي عمرو: ﴿ينصركم﴾ و﴿يأمركم﴾ و﴿يشعركم﴾ فكذا ما ناب عنها. وقال الفراء ومن وافقه: المحذوفة هي الثانية التي هي نون الوقاية؛ لأن الثقل إنما حصل بها، ولأن الأولى دالة على الإعراب، فبقاؤها أولى، وبرهن كل على مختاره بما

يطول بنا الكلام في ذكره، أفاده في «الفتوحات» وإنما اختاروا[1] التخفيف في قراءة من خففها فراراً من اجتماع مشددين في كلمة واحدة، وهما: الجيم والنون.

وقال أبو عبيدة[2]: وإنما كره التثقيل من كرهه للجمع بين ساكنين، وهما: الواو والنون، فحذفوها. قال أبو جعفر: والقول في هذا قول سيبويه، ولا ينكر الجمع بين ساكنين إذا كان الأول حرف مد ولين، والثاني مدغماً كما هنا.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ بحذف الياء؛ لأن الكسرة تدل عليها، والنون عوض منها إذا حذفتها، وإثباتها حسن.

﴿سُلْطَٰنًاۚ﴾ السلطان: الحجة والبرهان. ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ لم يلبسوا: لم يخلطوا، والظلم هنا: هو الشرك في العقيدة أو العبادة؛ كاتخاذ ولي من دون الله يدعى معه، أو من دونه، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق في قوله: ﴿يَنفَعُنَا﴾ و﴿يَضُرُّنَا﴾، ﴿والغيب﴾ و﴿الشهادة﴾.

ومنها: التقبيح والتشنيع في قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ عبر بالرد على الأعقاب عن الشرك لزيادة تقبيح الأمر وتشنيعه؛ لأنها المشية الدنية.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ مع ما قبله.

ومنها: التخصيص بعد التعميم في قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بعد قوله: ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اهتماماً بشأن الصلاة.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾، وفي قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾، وفي قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، وفي قوله: ﴿بَازِغًا﴾.

---

(١) الصاوي.

(٢) إعراب النحاس.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أفل﴾ و﴿الآفلين﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وبين الكوكب والقمر والشمس.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: أريناه.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأن فيه تعريضاً بضلال قومه.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾، وفي قوله: ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾ و﴿تُشْرِكُونَ﴾، وفي ﴿أَخَافُ﴾ و﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾.

والتكرار في: ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾؛ لأنه استعارة عن الرجوع إلى الشرك.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه أظهر حجة الله في التوحيد، وعدَّد وجوه نعمه وإحسانه إليه.. ذكر هنا أنه جعله عزيزاً في

---

(١) المراغي.

الدنيا؛ إذ جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من ذريته، وأبقى هذه الكرامة له إلى يوم القيامة.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] عدد نعمه على إبراهيم، فذكر إيتاءه الحجة على قومه، وأشار إلى رفع درجاته.. ذكر هنا ما مَنَّ به عليه من هبته له هذا النبي الذي تفرعت منه أنبياء بني إسرائيل، ومن أعظم المنن أن يكون من نسل الرجل الأنبياء والرسل، ولم يذكر إسماعيل مع إسحاق، قيل: لأن المقصود بالذكر هنا أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب، ولم يخرج من صلب إسماعيل نبي إلا محمد ﷺ، ولم يذكره في هذا المقام؛ لأنه أمره عليه السلام أن يحتج على العرب في نفي الشرك بالله، بأن جدهم إبراهيم لما كان موحداً لله متبرئاً من الشرك.. رزقه الله تعالى أولاداً ملوكاً وأنبياء انتهت.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه فضلهم واجتباهم وهداهم.. ذكر هنا ما فضلوا به.

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما[3] ذكر وقرَّر أن إنكار من أنكر أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، وحاجهم بما لا يقدرون على إنكاره.. أخبر أن هذا الكتاب الذي أنزل على الرسول مبارك كثير النفع والفائدة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[4] بين أن القرآن كتاب من عند الله تعالى، وردَّ على الذين أنكروا إنزاله على محمد ﷺ - لأنه بشر - بأن مثله مثل التوراة التي يعترفون بإنزالها على موسى - وهو بشر -.. أردف ذلك بوعيد من كذب على الله وادَّعى النبوة والرسالة، أو ادَّعى أنه قادر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

على الإتيان بمثل هذا القرآن، وهذا الوعيد يتضمن الشهادة بصدق النبي ﷺ. ذلك أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إذا لم يكن له بد من الإيمان بأنَّ القرآن من عند الله، ومن الاهتداء به.. فأكمل الناس إيماناً بالدار الآخرة وما فيها من الجزاء ـ وهو محمد ﷺ ـ لا يمكن أن يعرض نفسه لمنتهى الظلم الذي يستحق عليه أشد العذاب.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ...﴾ الآية سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف، فخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين» ـ وكان حبراً سميناً ـ فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه: ويحك، ولا على موسى؟ فقال: واللَّهِ ما أنزل الله على بشر من شيء، فلما سمع قومه تلك المقالة.. قالوا: ويلك! ما هذا الذي بلغنا عنك، أليس الله أنزل التوراة على موسى؟ فلِمَ قلت هذا؟! قال: أغضبني محمد فقلته، فقالوا: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق، فعزلوه من الحبرية وعن رياستهم لأجل هذا الكلام، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ...﴾ الآية، مرسل.

وأخرج ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قالت اليهود: ما أنزل الله من السماء كتاباً، فأنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ نزل في مسيلمة. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قال: نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يكتب للنبي ﷺ، فيملي عليه عزيز حكيم،

(١) لباب النقول.

فيكتب غفور رحيم، ثم يقرأ عليه فيقول: نعم، سواء، فرجع عن الإسلام ولحق بقريش، ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام، فأسلم قبل فتح مكة حين نزول رسول الله ﷺ بمر الظهران.

وأخرج عن السدي نحوه، وزاد: قال: إن كان محمد يوحى إليه.. فقد أوحي إلي، وإن كان الله ينزله على محمد.. فقد أنزلت مثل ما أنزل الله، قال محمد: سميعاً عليماً، فقلت أنا: عليماً حكيماً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه(١) ابن جرير وغيره عن عكرمة قال: قال النضر بن الحارث: سوف تشفع لي اللات والعزى، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ عطف فعلية على اسمية؛ أي: ووهبنا لإبراهيم إسحاق ابنه لصلبه من سارة نبياً من الصالحين، وجعلنا من ذريته يعقوب بن إسحاق نبياً منجباً للأنبياء والمرسلين، جزاءاً على الاحتجاج في الدين، وبذل النفس فيه. ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾؛ أي: وهدينا كلاً من إسحاق ويعقوب ووفقناه طريق الحق والرشاد، كما هدينا إبراهيم بما آتيناه من النبوة والحكمة وقوة المعارضة والحجة.

وإنما(٢) ذكر إسحاق دون إسماعيل؛ لأنه هو الذي وهبه الله تعالى بآية منه بعد كبر سنه وعقم امرأته سارة، جزاء إيمانه وإحسانه وكمال إسلامه وإخلاصه بعد ابتلائه بذبح ولده إسماعيل، ولم يكن له ولد سواه على كبر سنه، ويقول المؤرخون: إنَّ معنى ﴿إِسْحَٰقَ﴾: الضحاك، وأنه ولد وكانت سن أبيه مئة واثنتي عشرة سنة، وسن أمه تسعاً وتسعين سنة، وأنه عاش ثمانين ومئة سنة. ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل إبراهيم؛ أي: وهدينا جده نوحاً الذي هو آدم الثاني إلى مثل ما هدينا له إبراهيم وذريته، فآتيناه النبوة والحكمة وهداية الخلق

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

إلى طريق الرشاد، وقال: ﴿مِن قَبْلُ﴾ تنبيهاً على قدمه، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس. والمراد بذلك أن نسب إبراهيم من أشرف الأنساب؛ إذ قد رزقه الله أولاداً مثل إسحاق ويعقوب، وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين، كنوح وإدريس وشيث، فهو كريم الآباء شريف الأبناء، والمقصود من تلاوة هذه النعم على محمد ﷺ تشريفه؛ لأن شرف الوالد يسري إلى الولد. وفي ذكر نوح[1] لطيفة، وهي أن نوحاً عليه السلام عُبدت الأصنام في زمانه، وقومه أول قوم عبدوا الأصنام، ووحد هو الله تعالى ودعا إلى عبادته، ورفض تلك الأصنام، وحكى الله عنه مناجاته لربه في قومه حيث قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، وكان إبراهيم عُبدت الأصنام في زمانه، ووحد هو الله تعالى ودعا إلى رفضها، فذكر الله تعالى نوحاً وأنه هداه كما هدى إبراهيم.

والضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ اختلفوا في مرجعه، قيل: يرجع إلى نوح؛ لأنه أقرب مذكور، وهو اختيار جمهور المفسرين؛ لأن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، ولأن الله ذكر في جملة هذه الذرية لوطاً وهو ابن أخي إبراهيم، ولم يكن من ذريته، فثبت بهذا أن الضمير يرجع إلى نوح، وقيل: يعود إلى إبراهيم؛ لأن الكلام في شأنه بذكر ما أنعم الله عليه من الفضائل، وإنما ذكر نوحاً؛ لأنه جده، فهو كما قدمنا يرشد إلى فضل الله عليه في أصوله وفروعه. قال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم، وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب؛ لأن لوطاً ابن أخِ إبراهيم، والعرب تجعل العم أباً، فكأنه من ذريته. وقال أبو سليمان الدمشقي: ووهبنا له لوطاً في المعاضدة والنصرة انتهى. وقال الزجاج: كلا القولين جائز؛ لأن ذكرهما جميعاً قد جرى؛ أي: وهدينا من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُدَ﴾ بن إيشا، وكان ممن أتاه الله الملك والنبوة. ﴿و﴾ هدينا ﴿سليمان﴾ بن داود، وكان أيضاً ممن أوتي الملك والنبوة وقرنهما؛ لأنهما أبٌ وابن، ولأنهما ملكان نبيان، وقدم داود لتقدمه في

(١) البحر المحيط.

الزمان، ولكونه صاحب كتاب، ولكونه أصلاً لسليمان وهو فرعه ﴿و﴾ هدينا ﴿أيوب﴾ بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ﴿و﴾ هدينا ﴿يوسف﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وكان ممن أوتي الملك والنبوة، وقرن[1] بينه وبين أيوب؛ لاشتراكهما في الامتحان: أيوب بالبلاء في جسده، ونبذ قومه له، ويوسف بالبلاء بالسجن، وبغربته، وفي مآلهما بالسلامة والعاقبة، وقدم أيوب؛ لأنه أعظم في الامتحان. قال الفراء: يوسف ـ بضم السين من غير همز ـ لغة أهل الحجاز، وبعض بني أسد يقول: يؤسف بالهمز، وبعض العرب يقول: يوسف ـ بكسر السين ـ، وبعض بني عقيل: يوسَف بفتح السين، ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير». ﴿و﴾ هدينا ﴿موسى﴾ بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ﴿و﴾ هدينا ﴿هرون﴾ بن عمران أخا موسى، وكان أكبر منه بسنة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: وكما جزينا إبراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه بإيتائه الحجة الدامغة، وهبة الأولاد الأخيار.. نجزي من كان محسناً في عبادتنا، مراقباً في أعماله لنا على إحسانه، وقد فسر النبي ﷺ الإحسان بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه.. فإنه يراك». ﴿و﴾ هدينا ﴿زكريا﴾ بن آذن بن بركيا ﴿و﴾ هدينا ﴿يحيى﴾ بن زكريا ﴿و﴾ هدينا ﴿عيسى﴾ بن مريم بنت عمران ﴿و﴾ هدينا ﴿الياس﴾ بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران. وهذا هو الصحيح في نسبه، وقرن بين[2] هؤلاء الأربعة لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وبدأ بزكريا ويحيى؛ لسبقهما في الزمان، وقدم زكريا، لأنه والد يحيى، فهو أصل ويحيى فرع. وقرن عيسى وإلياس؛ لاشتراكهما في كونهما لم يموتا بعد على ما قيل في إلياس، وقدم عيسى؛ لأنه صاحب كتاب ودائرة متسعة ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء الأنبياء المذكورين سابقاً من إبراهيم إلى هنا ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: من الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي، والتحرز عما لا ينبغي.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

وتقدم خلاف القراء في زكريا مداً وقصراً. وقرأ ابن عباس باختلاف عنه والحسن وقتادة بتسهيل همزة ﴿إلياس﴾. ﴿و﴾ هدينا ﴿إسماعيل﴾ بن إبراهيم الخليل من هاجر، وهو أكبر ولده، وقيل: هو نبي من بني إسرائيل، كان زمان طالوت، وهو المعني بقوله إذ قالوا لنبي لهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، والقول الأول هو المشهور الصحيح، وإنما أخر ذكره إلى هنا؛ لأنه ذكر إسحاق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد، فلهذا السبب أخر إسماعيل إلى هنا ﴿و﴾ هدينا ﴿اليسع﴾ بن أخطوب بن العجوز، وقال زيد بن أسلم: هو يوشع بن نون.

وجمهور القراء يقرؤون: ﴿اليسع﴾ بلام واحدة مخففاً، كأن أل أدخلت على مضارع: وسع، منهم ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر. وقرأ حمزة والكسائي ها هنا، وفي ص: ﴿والليسع﴾ على وزن فيعل نحو الضيغم. ﴿و﴾ هدينا ﴿يونس﴾ بن متى، وهي أمه، ويقال فيه: يونس بضم النون، وفتحها، وكسرها، وكذلك سين يوسف بالتثليث كما تقدم. وبفتح نون: ﴿يونَس﴾، وسين ﴿يوسَف﴾ قرأ الحسن وطلحة ويحيى والأعمش وعيسى بن عمر في جميع القرآن، ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿و﴾ هدينا ﴿لوطا﴾ بن هاران أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ من هؤلاء الأنبياء المذكورين ﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالنبوة والرسالة، فهم يفضلون على الملائكة والأولياء وجميع الصالحين. وفيه دلالة على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، لعموم لفظ العالمين ما سوى الله تعالى، فيندرج في العموم الملائكة. وإنما جمع هؤلاء الأربعة؛ لأنه لم يبق لهم من الخلق أتباع ولا أشياع. واعلم[1] أن الله تعالى خص كل طائفة من الأنبياء بنوع من الكرامة والفضل، فمنهم أصول الأنبياء، وإليهم يرجع حسبهم جميعاً، وهم: نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب. ثم المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق بعد النبوة ستة:

الأولى: مرتبة الملك والسلطان والقدرة، ذكر فيها: داود وسليمان.

---

(١) البحر المحيط والمراح.

والثانية: مرتبة البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وذكر فيها: أيوب.

والثالثة: مرتبة الجمع بين البلاء والوصول إلى الملك، وذكر فيها: يوسف.

والرابعة: مرتبة قوة البراهين وكثرة المعجزات والقتال والصولة، وذكر فيها: موسى وهارون.

والخامسة: مرتبة الزهد الشديد، والانقطاع عن الناس للعبادة، وترك مخالطتهم، وذكر فيها: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس.

والسادسة: مرتبة عدم الاتباع، وذكر فيها: إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات ثمانية عشر نبياً لم يرتبهم بحسب أزمانهم، ولا بحسب فضلهم؛ لأن الكتاب أنزل ذكرى وموعظة للناس، لا تاريخا تفصل وقائعه مرتبة بحسب وجودها.

فائدة في أعمار الأنبياء

وعاش آدم[١] تسع مئة وستين سنة. ومكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين سنة. وعاش إبراهيم مئة وخمساً وسبعين سنة. وعاش ولده إسماعيل مئة وثلاثين سنة، وكان له حين مات أبوه تسع وثمانون سنة. وعاش أخوه إسحاق مئة وثمانين سنة، وولد بعد إسماعيل بأربع عشرة سنة. وعاش يعقوب بن إسحاق مئة وسبعاً وأربعين سنة. وعاش يوسف بن يعقوب مئة وعشرين سنة. وعاش موسى مئة وعشرين سنة. وعاش داود مئة سنة. وعاش ولده سليمان نيفاً وخمسين سنة. وعاش أيوب ثلاثاً وستين سنة، وكانت مدة بلائه سبع سنين. انتهى من «التحبير في علم التفسير» للجلال السيوطي: بتصرف.

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَنِهِمْ﴾ إما عطف[٢] على ﴿كُلًّا﴾ فالعامل فيه ﴿فَضَّلْنَا﴾، و﴿مِنْ﴾ تبعضية؛ أي: وفضلنا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم،

---

(١) التحبير في علم التفسير. (٢) المراح.

أو على ﴿نُوحًا﴾، فالعامل فيه ﴿هَدَيْنَا﴾، و﴿مِن﴾ ابتدائية، والمفعول محذوف؛ أي: وهدينا بالنبوة والإسلام من آبائهم جماعات كثيرة: آدم وشيثاً وإدريسَ وهوداً وصالحاً، ومن ذرياتهم جماعات كثيرة: أولاد يعقوب، ومن إخوانهم جماعات كثيرة: إخوة يوسف، لا كلهم؛ إذ أن بعض هؤلاء الأقربين لم يهتد بهدي ابنه، أو أبيه أو أخيه، ألا ترى إلى أبي إبراهيم، وابن نوح، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ عطف على[1] ﴿فَضَّلْنَا﴾، وتكرير الهداية في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ إلخ لتكرير التأكيد وتمهيداً لبيان ما هدوا إليه، يقال[2]: اجتبى فلان فلاناً لنفسه إذا اختاره واصطفاه، ومعنى اجتباء الله العبد: تخصيصه إياه بفيض إلهي يحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي منه، كما يحدث للأنبياء والصديقين والشهداء.

والمعنى: أي وفضلنا كلاً من الأنبياء المذكورين على العالمين واجتبيناهم؛ أي: اصطفيناهم بالنبوة والرسالة واخترناهم بالقرب إلينا وهديناهم؛ أي: أرشدناهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى دين الحق القويم الذي لا عوج فيه، وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشرك.

﴿ذَلِكَ﴾ الهدى الذي هدي به من تقدم ذكرهم من الأنبياء والرسل، فوفقوا به لإصابة الدين الحق الذي به رضا ربهم، وشرف الدنيا وكرامة الآخرة هو ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الخاص وتوفيقه ولطفه الذي ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ ويوفق به ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ حتى ينيب إلى طاعته، ويخلص العمل له، ويقر بالتوحيد، ويرفض الأوثان والأصنام.

والهداية ضربان: ضرب ليس لصاحبه سعي فيه، ولا هو مما ينال بالكسب، وهو النبوة، وهو ما أشير إليه بقوله لنبيه ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى

---

(١) أبو السعود. (٢) المراغي.

﴿٧﴾، وضرب آخر ينال بالكسب والاستعداد مع اللطف الإلهي والتوفيق لنيل المراد.

ثم ختم سبحانه الآية بنفي الشرك وتقرير التوحيد، فقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾؛ أي: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء المهديون بربهم مع الله سبحانه وتعالى إلهاً آخر، فعبدوا معه غيره ﴿لَحَبِطَ﴾ وبطل ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أجر أعمالهم التي كانوا يعملونها؛ أي: لبطل عنهم مع فضلهم وعلو درجاتهم أعمالهم المرضية، وعبادتهم الصالحة، فكيف بمن عداهم، والمقصود من هذا الكلام: تقرير التوحيد وإبطال طريقة الشرك إذ توحيد الله تعالى هو المزكي للأنفس، فضده وهو الشرك منتهى النقص والفساد المدنس لها، والمفسد لفطرتها، فلا يبقى معه فائدة لعمل آخر يترتب عليه نجاتها وفلاحها به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأنبياء الثمانية عشر المذكورون بأسمائهم هم ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ وأعطيناهم ﴿الْكِتَٰبَ﴾؛ أي: فهماً تاماً لما في الكتاب، وعلماً محيطاً بأسراره. فالمراد بإيتاء الكتاب لكل منهم: تفهيم ما فيه أعم من أن يكون ذلك بالإنزال عليه ابتداءً، أو بوراثته ممن قبله، ذكره «أبو السعود» بالمعنى. والمراد بالكتاب: ما ذكر في القرآن من صحف إبراهيم وموسى، وزبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى ﴿و﴾ آتيناهم ﴿الحكم﴾؛ أي: العلم والفقه في الدين، فإن الله تعالى جعلهم حكاماً على الناس نافذي الحكم فيهم بحسب الظاهر ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ فيقدرون بها على التصرف في ظواهرهم كالسلاطين، وفي بواطنهم وأرواحهم كالعلماء، وكل نبي من الأنبياء آتاه الله العلم الصحيح والفقه في أمور الدين وشؤون الإصلاح وفهم الكتاب الذي تعبده به، سواء أنزله عليه، أم أنزله على غيره، واختص بعضهم بإيتائه الحكم صبياً؛ كيحيى وعيسى؛ أي: بإعطائه ملكة الحكم الصحيح في الأمور.

وأما[1] الحكم بمعنى القضاء والفصل في الخصومات، فلم يعطه إلا بعض الأنبياء، وتكون هذه العطايا الثلاث أعني: الكتاب والحكم والنبوة مرتبة بحسب

---

(١) المراغي.

درجات الخصوصية، فبعض النبيين أعطي الثلاث؛ كإبراهيم وموسى وعيسى وداود، قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾، فهو قد دعا هذا الدعاء وهو رسول عليهم بعد محاجة قومه. وقال حكاية عن موسى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. وقال عز اسمه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾. وقال في داود وسليمان معاً: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. ومنهم من أوتي الحكم والنبوة، كالأنبياء الذين كانوا يحكمون بالتوراة، ومنهم من لم يؤت إلا النبوة فقط.

والخلاصة: أن كل من أوتي الكتاب.. أوتي الحكم والنبوة، وكل من أوتي الحكم ممن ذكر.. كان نبياً، وما كان نبي منهم كان حاكماً ولا صاحب كتاب منزل. وهذه هي مراتب الفضل بينهم صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم.

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾؛ أي: بهذه الثلاث: الكتاب والحكم والنبوة، أو بآيات القرآن ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المشركون من أهل مكة وغيرهم ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾؛ أي: برعايتها؛ أي: وفقنا للإيمان بها والقيام بحقوقها، وتولي نصر الداعي إليها. ﴿قَوْمًا﴾ كراماً ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾؛ أي: ليسوا بكافرين بها، فمنهم من آمن بها، ومنهم من سيؤمن بها عند ما يدعى إليها. فالباء[1] في قوله: ﴿لَيْسُوا بِهَا﴾ صلة وفي ﴿بِكَافِرِينَ﴾ لتأكيد النفي. وعبارة «الجمل»: قوله: ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾؛ أي: في وقت من الأوقات، بل هم مستمرون على الإيمان بها، فإن الجملة الاسمية الإيجابية كما تفيد دوام الثبوت كذلك السلبية تفيد دوام النفي بمعونة المقام، لا نفي الدوام كما حقق في مقامه. اهـ «أبو السعود» انتهت.

أخرج ابن[2] جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أهل مكة: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يعني: أهل المدينة والأنصار. اهـ.

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

والذي عليه المعول أن الموكلين بها هم أصحاب رسول الله ﷺ مطلقاً، فإن المهاجرين قد كانوا أول من آمن بها، وكانوا بعد الهجرة في المقدمة في كل عمل وجهاد، ولكن الأنصار هم المقصودون بالذات؛ لأن القوة والمنعة لم تكن إلا بهم، ومن ثَمَّ قال: ﴿لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ والأنصار لم يكونوا عند نزول هذه السورة مؤمنين.

وفي الآية[1] دليل على أن الله سبحانه وتعالى ينصر نبيه ﷺ، ويقوي دينه، ويجعله غالباً على الأديان كلها، وقد جعل ذلك، فهو إخبار عن الغيب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم في الآيات السابقة، والذين وصفهم الله تعالى بإيتائهم الكتاب والحكم والنبوة هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بالأخلاق الحسنة هداية كاملة ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾؛ أي: فبهدى هؤلاء المذكورين من الأنبياء وبأخلاقهم الشريفة دون ما يخالفه من أعمال غيرهم ﴿ٱقْتَدِهْ﴾؛ أي: اتبع أيها الرسول فيما يناله كسبك وعملك مما بعثت به من تبليغ الدعوة، وإقامة الدين والصبر على التكذيب والجحود، وإيذاء أهل العناد ومقلدي الآباء والأجداد، وإعطاء كل حال حقها من مكارم الأخلاق وأحاسن الأعمال؛ كالصبر والشكر والشجاعة والحلم والزهد والسخاء والحكم بالعدل. قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

والخلاصة[2]: أن الله سبحانه وتعالى أمره بالاقتداء بهم في الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة من الصبر على أذى السفهاء، والعفو عنهم، وقد كان مهتدياً بهداهم كلهم، فكانت مناقبه وفضائله الكسبية أعلى من مناقبهم وفضائلهم؛ لأنه اقتدى بها كلها، فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقاً فيهم مع ما أوتيه دونهم، ومن ثَمَّ شهد له ربه بما لم يشهد به لأحد منهم، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾، وكذلك فضائله الموهوبة هي فيه أظهر وأعظم، فبعثته عامة للناس أسودهم وأحمرهم، وبه ختمت النبوة والرسالة، وكمال الأشياء في خواتيمها صلوات الله عليه وعليهم أجميعن. وبهذه[1] الآية استدل بعض العلماء على أن محمداً ﷺ أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين، وذلك لأن جميع الصفات الحميدة كانت متفرقة فيهم، فيلزم أنه ﷺ حصلها ومتى كان الأمر كذلك.. وجب أن يقال: إنه ﷺ أفضل منهم بكليتهم، فكان نوح صاحب تحمل الأذى من قومه، وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل ومجاهدة في الله تعالى؛ وكان إسحاق ويعقوب صاحبي صبر على البلاء والمحن، وكان داود وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة، وكان أيوب صاحب صبر على البلاء، وكان يوسف جامعاً بين الصبر والشكر، وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة، وكان زكريا ويحيى وعيسى وإلياس من أصحاب الزهد في الدنيا، وكان إسماعيل صاحب صدق، وكان يونس صاحب تضرع، وكان سيدنا محمد ﷺ جامعاً لجميع هذه الأخلاق الحميدة كلها، فكان أفضلهم ورئيسهم.

تنبيه: ذكر بعض العلماء أن الأنبياء المرسلين الذين ذكروا في القرآن، ويجب الإيمان بهم تفصيلاً خمسة وعشرون، هم الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم في هذه الآيات، والسبعة الآخرون هم: آدم ـ أبو البشر ـ وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل وخاتم الجميع محمد ﷺ وعليهم أجميعن. وليس[2] في القرآن نص قطعي صريح في رسالة آدم عليه السلام، بل مفهوم قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ أن نوحاً أول نبي مرسل أوحى إليه رسالته وشرعه، وكذلك حديث الشفاعة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا فأراحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى تريحنا من مكاننا هذا، فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذي أصابه،

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

فيستحي من ربه عز وجل، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى الأرض، فيأتون نوحاً. . .» إلخ.

والخلاصة: أن الآية تدل على أن أول رسول شرع الله على لسانه الأحكام والحلال والحرام هو نوح عليه السلام، ويرى بعض العلماء أن آدم كان على هدى من ربه ربى عليه أولاده، وبشرهم بالثواب وأندرهم بالعقاب. وهذه هداية من جنس هداية الله للنبيين والمرسلين التي بلغوها أقوامهم، ولا ندري كيف هدى الله تعالى آدم إليها، فإن طرق الهداية متعددة، وقد تكون هي هداية الفطرة. ونوح ومن بعده أرسلوا إلى من فسدت فطرتهم، فأعرضوا عما دعوا إليه، وهذه هي الرسالة الشرعية التي يسمى من جاء بها: رسولاً، دون الأولى.

وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ وأهل حرميهما وأبو عمرو[1]: ﴿اقْتَدِهْ﴾ بالهاء ساكنة وصلاً ووقفاً، وهي هاء السكت أجروها وصلاً مجراها وقفاً وقرأ الأخوان حمزة والكسائي بحذفها وصلاً، وإثباتها وقفاً، وهذا هو القياس. وقرأ هشام: ﴿اقْتَدِهْ﴾ باختلاس الكسر في الهاء وصلاً وسكونها وقفاً. وقرأ ابن ذكوان: بكسرها ووصلها بياء وصلاً، وسكونها وقفاً، ويؤول على أنها ضمير المصدر لا هاء السكت، وتغليط ابن مجاهد قراءة الكسر غلط منه، وتأويلها على أنها هاء السكت ضعيف.

﴿قُل﴾ يا محمد لجميع من بعثت إليه من أهل مكة وغيرهم ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ ولا أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على هذا القرآن الذي أمرت أن أدعوكم إليه وأذكركم به، أو على تبليغ الرسالة أو على التوحيد ﴿أَجْرًاۖ﴾ وجعلاً من مال ولا غيره من المنافع من جهتكم، كما أن جميع من قبلي من الرسل لم يسألوا أقوامهم أجراً على التبليغ والهدى، وقد تكرر هذا الأمر له ﷺ في سور متعددة، كقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ﴾ قيل[2]: لما أمره الله تعالى بالاقتداء بالنبين، وكان من جملة هداهم عدم طلب الأجر على إيصال الدين

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

وإبلاغ الشريعة لا جرم اقتدى بهم، فقال: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾.

﴿إِنۡ هُوَ﴾؛ أي: ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ كافة؛ أي: ما هو إلا تذكير وموعظة وإرشاد للعالمين كافة، لا لكم خاصة. وفي هذا تصريح بعموم رسالته وبعثته ﷺ للناس جميعاً أسودهم وأحمرهم، إنسهم وجنهم. ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾؛ أي: وما عرفت الله سبحانه وتعالى اليهود وقومك المشركون حق معرفته، وما عظموه حق عظمته؛ أي: العظمة اللائقة به المستحقة له. قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: ما عظموا الله حق عظمته. وقال أبو العالية: ما وصفوا الله حق صفته. وقال الأخفش: ما عرفوا الله حق معرفته ﴿إِذۡ قَالُواْ﴾؛ أي: إذ قالت اليهود لك يا محمد حين خاصموك ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٍۗ﴾؛ أي: من كتاب، وذلك أن اليهود أنكروا إنزال الله من السماء كتاباً إنكاراً للقرآن.

أي: ما عرفوه[1] حق معرفته حيث أنكروا إرساله للرسل وإنزاله للكتب، فإن منكري الوحي الذين يكفرون برسل الله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه، ولا وصفوه حق صفته، ولا آمنوا بقدرته على إفاضة ما شاء من علمه بما يصلح به الناس من الهدى والشرائع على من شاء من البشر بواسطة الملائكة، أو بتكليمه إياهم بدون واسطة، وهم قد أنكروا الوحي، وجهلوا فضل البشر، وقالوا: ما أنزل الله على أحد منهم شيئاً.

وقرأ الحسن وعيسى الثقفي: ﴿وما قدَّروا﴾ بالتشديد ﴿حق قدَره﴾ بفتح الدال.

ومن عرف حكمة الله البالغة ورحمته الواسعة، وعلمه المحيط بكل شيء، ونظر في آياته في الأنفس والآفاق، وعلم أنه أحسن كل شيء خلقه، وخلق الإنسان مستعداً للصعود إلى أعلى عليين، والهبوط إلى أسفل سافلين، وجعل كماله أثراً لعلومه، وأعماله الكسبية التي عليها مدار حياته الدنيوية والأخروية.. علم أنَّ الإنسان مهما ارتقت معارفه لا يمكن أن يصل إلى الكمال الذي يؤهله

---

(١) المراغي.

لنيل السعادة الأبدية إلا إذا اهتدى بهدى النبيين والمرسلين، فإن إرسالهم وإنزال الوحي عليهم وإرشادهم للناس سبب لكل ارتقاء إنساني في حياته الجسمانية والروحية، فبذلك تذهب الضغائن والأحقاد من القلوب، ويزول الخلاف والشقاق بين الناس، ويعيشون في وفاق ووئام[1] علماً منهم بأن هناك سلطة عليا ترقب أعمالهم وتحاسبهم على النقير والقطمير في ذلك اليوم العبوس القمطرير، وتجزى كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب. ثم لقن الله رسوله ﷺ الرد على منكري الوحي والرسالة من مشركي قريش إثر بيان كون ذلك من شؤونه تعالى، ومن مقتضى نظام حياة البشر، وقد كانوا يعلمون أن اليهود هم أصحاب التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، فقد أرسلوا إلى المدينة وفداً، زعيماه: النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط؛ ليسألوا الأحبار عما يعلمون عن محمد وصفته؛ لأنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عند غيرهم من علم الأنبياء. فلما أتوا إلى أولئك الأحبار سألوهم عنه، فأنكروا معرفته، وبذا يكون الاحتجاج عليهم بإنزال التوراة على موسى احتجاجاً ملزماً ودافعاً لإنكارهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود والمشركين من قومك الذين أنكروا إنزال القرآن عليك بقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ على سبيل التوبيخ والقريع والتبكيت ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾؛ أي: من أنزل التوراة التي أنزلت على موسى بن عمران؟ وفي هذا الاستفهام توبيخ لليهود بسوء جهلهم وإقدامهم على إنكار الحق الذي لا ينكر حال كون ذلك الكتاب المنزل على موسى ﴿نُورًا﴾؛ أي: ضياء من ظلمة الضلالة ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: هادياً للناس، ومفرقاً بين الحق والباطل من دينهم، وذلك قبل أن تبدل وتغير، حال كونكم ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾؛ أي: تجعلون ذلك الكتاب ﴿قَرَاطِيسَ﴾؛ أي: أوراقاً مفرقة في دفاتر كثيرة ﴿تُبْدُونَهَا﴾؛ أي: تظهرون تلك القراطيس المكتوبة؛ أي: يظهرون ما وافق هواهم منها ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ من تلك القراطيس مما لا يوافق هواهم؛ كنعت محمد ﷺ،

---

(١) **الوئام**: بالهمزة بعد الواو كالوفاق وزنا ومعنى، وفي المثل: لولا الوئام لهلك الأنام؛ أي: لولا الموافقة بينهم اهـ مختار.

وآية الرجم. والمعنى[1]: يضعون الكتاب في ورقات مفرقة، فجعلوه أجزاء نحو نيف وثمانين جزءاً، وفعلوا ذلك ليتمكنوا من إخفاء ما أرادوا إخفاءه، فيجعلون ما يريدون إخفاءه على حدة ليتمكنوا من إخفائه.

قال أبو حيان: إن كان[2] المنكرون بني إسرائيل.. فالاحتجاج عليهم واضح؛ لأنهم ملتزمون نزول الكتاب على موسى، وإن كانوا العرب.. فوجه الاحتجاج عليهم أن إنزال الكتاب على موسى أمر مشهور منقول نقل قوم لم تكن العرب مكذبة لهم، وكانوا يقولون: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم انتهى.

وقرأ الجمهور بالتاء الفوقانية في الأفعال الثلاثة: ﴿تبدون﴾، ﴿تخفون﴾، ﴿تجعلون﴾. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة في الأفعال الثلاثة. فأما[3] الغيبة.. فللحمل على ما تقدم من الغيبة في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ إلخ. وعلى هذا فيكون في قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ تأويلان:

أحدهما: أنه خطاب لهم أيضاً، وإنما جاء به على طريقة الالتفات.

والثاني: أنه خطاب للمؤمنين من قريش اعترض به بين الأمر بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ﴾، وبين قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾. وأما قراءة تاء الخطاب.. ففيها مناسبة لقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ ورجحها مكي وجماعة، لذلك قال: وذلك أحسن في المشاكلة والمطابقة واتصال بعض الكلام ببعض، وهو الاختيار لذلك، ولأن أكثر القراء عليه.

وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ يحتمل أن يكون مستأنفاً مقرراً لما قبله، وأن يكون حالاً؛ أي: قل لهم: من أنزل الكتاب الذي جاء به، والحال أنكم قد علمتم أيها اليهود من ذلك الكتاب الذي أنزل على موسى من أمور دينكم ودنياكم ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ من قبل إنزال ذلك الكتاب من الأحكام والحدود،

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الفتوحات.

والحلال والحرام، ونعت محمد ﷺ وصفته، فإن أجابوك وقالوا: الله أنزله.. فذاك، وإلا فـ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أنزله على موسى لا جواب غيره ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الجواب ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾؛ أي: اتركهم يا محمد في باطلهم الذي يخوضون فيه، وينهمكون فيه حال كونهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: يستهزئون ويسخرون من الحق الذي جئت به، ويصنعون مثل صنع الصبيان الذين يلعبون حتى يأتي أمر الله فيهم.

والمعنى[1]: قل لهم أيها الرسول: الله أنزله على موسى، ثم دعهم بعد هذا البيان المؤيد بالحجة والبرهان فيما يخوضون فيه من باطلهم، وكفرهم بآيات الله حال كونهم يلعبون كما يلعب الصبيان. وفي أمر الرسول بالجواب عما سئلوا عنه إيماءً إلى أنهم لا ينكرونه لما في ذلك من المكابرة، وما في الاعتراف من الخزي إذا هم أقروا بما يجحدون من الحق. وبعد أن ذكر أنه أنزل الكتاب على موسى.. بين أنه أنزل القرآن على رسوله محمد ﷺ، فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الذي يقرؤه محمد ﷺ ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمد ﷺ بالوحي على لسان جبريل، كما أنزلنا من قبله التوراة على موسى ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ أي: كثير الخير دائم البركة والمنفعة، يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية.

وهذا من جملة الرد عليهم في قولهم[2]: ﴿مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أخبرهم بأن الله أنزل التوراة على موسى وعقبه بقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: على محمد ﷺ، فكيف تقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء. ﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلٰهية؛ أي: موافق لما في التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية في التوحيد، وتنزيه الله عما لا يليق به، وفي الدلالة على البشارة والنذارة.

وقوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ معطوف على معنى ما قبله؛ أي: أنزلناه للبركة والتصديق، ولتنذر به أم القرى، أو على معلوم من السياق تقديره: أنزلناه لتبشر

---

(١) المرغي. (٢) الشوكاني.

به من آمن به؛ أي: ولتخوف به عذاب الله وبأسه أهل أم القرى؛ أي: أهل مكة إن لم يؤمنوا به، وخص أم القرى وهي مكة؛ لكونها أعظم القرى والبلدان شأناً، ولكونها أول بيت وضع للناس، ولكونها قبلة هذه الأمة ومحل حجهم، فالإنذار لأهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض. وسميت مكة أم القرى؛ لاجتماع الخلق إليها في حجهم، كما يجتمع الأولاد إلى الأم، فيحصل لهم الحج الذي هو أصول العبادة، والتجارة التي هي أصول أسباب المعيشة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَاۚ﴾؛ أي: ولتنذر به من حول أم القرى من سائر أهل الأرض مشارقها ومغاربها. وقد ثبت عموم بعثة النبي ﷺ في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾؛ أي: وكل من بلغه ووصلت إليه هدايته، وقوله في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾، وقوله في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ ويصدقون ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: بقيام الساعة والمعاد إلى الله، ويصدقون بالثواب والعقاب، والمجازاة على الأعمال ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: يؤمنون بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه على محمد ﷺ، ويقرون به، سواء كان من أهل الكتاب، أم من غيرهم إذا بلغتهم دعوته؛ لأنهم يجدون فيه أكمل الهداية إلى السعادة العظمى في تلك الدار، وما مثلهم إلا مثل قوم ساروا في الفيافي والقفار، وضلوا الطريق، حتى إذا كادوا يهلكون قابلهم الدليل الخرّيت العالم بخفاياها والخبير بذرعها ومسالكها، فأرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وخلاصهم من هلاك محقق إذا هم اتبعوا مشورته وسلكوا سبيله، فقبلوا نصحه وكانوا من الفائزين، وأما الذين ينكرون البعث والجزاء.. فلا حاجة لهم إلى هدايته.

وفي هذا[1] تصريح بسبب إعراض الجمهرة من أهل مكة عن هذا الكتاب الذي فيه سعادتهم، وتنبيه إلى أنهم لما لم يعتقدوا البعث والجزاء.. امتنعوا عن قبول هذا الدين، وأنكروا نبوة محمد ﷺ. ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

يؤمنون بهذا الكتاب، والحال أنهم يحافظون ويداومون على صلاتهم، فيؤدونها في أوقاتها، ويقيمون أركانها وآدابها، وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات؛ لأنها عماد الدين ورأس العبادات بعد الإيمان بالله، فلم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾؛ أي: صلاتكم، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة.

قال ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً.. فقد كفر». ولأن المحافظة عليها تدعو إلى القيام بسائر العبادات المفروضة، وترك الفحشاء وجميع المحرمات، ومحاسبة النفس على لذاتها وشهواتها.

وقرأ الجمهور(١): ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ بالإفراد، والمراد به الجنس، وروى خلف عن يحيى عن أبي بكر: ﴿صلواتهم﴾ بالجمع، ذكر ذلك أبو علي الحسن بن محمد بن إبراهيم البغدادي في كتاب «الروضة» من تأليفه، وقال: تفرد بذلك عن جميع الناس.

والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ للإنكار بمعنى النفي. وهذه(٢) الجملة مقررة لمضمون ما تقدم من الاحتجاج عليهم بأن الله أنزل الكتاب على رسله؛ أي: كيف تقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء، وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام، ولا أحد أشد ظلماً، وأعظم جرماً ممن اختلق على الله كذباً. وكذب على الله في شيء من الأشياء، كالذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، أو جعل لله شريكاً أو ولداً أو صاحبة. ﴿أَوْ﴾ ممن ﴿قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ من الله شيء ﴿و﴾ الحال أنه ﴿لم يوح إليه شيء﴾ من الله، كمسيلمة الكذاب الذي ادَّعى النبوة باليمامة، والأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة باليمن، وطليحة الأسدي الذي ادَّعى النبوة في بني أسد، ونحوهم من كل من ادعى ذلك، أو يدعيه في أي زمان كان. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك؛

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

أي: ومن أظلم ممن ادَّعى أنه قادر على إنزال مثل ما أنزل الله على رسوله، كمن قال من المشركين: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، فقد أُثر عن النضر بن الحارث أنه كان يقول: إن القرآن أساطير الأولين، وإنه شعر لو نشاء لقلنا مثله.

ثم ذكر سبحانه وتعالى وعيده للظالمين لشدة جرمهم، وعظيم ذنبهم، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: ولو تبصر يا محمد، أو أيها المخاطب، إذ يكون الظالمون سواءٌ كانوا ممن ذكر في الآية، أو من غيرهم ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ وسكراته، وما يتقدمها من شدائد وآلام تحيط بهم، كما تحيط غمرات الماء الغرقى، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: لرأيت ما لا سبيل إلى وصفه، ولا قدرة للبيان على تجلي كنهه وحقيقته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: والحال أن ملائكة الموت باسطوا أيديهم ومادوها إليهم؛ لقبض أرواحهم الخبيثة بالعنف والضرب، كما قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

ثم حكى سبحانه وتعالى أمر الملائكة لهم على سبيل التهكم والتوبيخ حين بسط أيديهم لقبض أرواحهم ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾؛ أي: حالة كون الملائكة قائلين لهم: أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد، وخلصوها من هذه الآلام، أو أخرجوها من أبدانكم لنقبضها. قال صاحب «الكشاف»: هذا[1] تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الظلمة بفعل الغريم الملح، يبسط يده إلى من له عليه الحق ليعنف عليه في المطالبة، ولا يمهله، ويقول له: أخرج ما لي عليك الساعة، ولا أريم - لا أبرح - مكاني حتى أنزعه من أحداقك. انتهى.

ويرى بعضهم أنه لا داعي للعدول عن الحقيقة إلى التمثيل، فربما تمثل الملائكة للبشر بمثل صورهم، وتخاطبهم بمثل كلامهم، فهي إذاً ممكنة على الحقيقة، فلا معدل عنها. وحالة كون الملائكة قائلين لهم وقت الموت: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ أي: في هذا اليوم الذي تقبض فيه أرواحكم، تجزون وتلقون عذاب الذل والخزي والإهانة جزاء ظلمكم لأنفسكم.

---

(١) الكشاف.

وقرأ عبد الله وعكرمة: ﴿عذاب الهوان﴾ بالألف وفتح الهاء. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بسبب قولكم مفترين على الله غير الحق، كقول بعضهم: ما أنزل الله على بشر من شيء، وقول بعض آخر: أنه أوحي إليه، ولم يوح إليه شيء، وإنكار طائفة منهم لما وصف الله به نفسه من الصفات، واتخاذ أقوام له البنين والبنات. ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: وبسبب كونكم مستكبرين عن الإيمان بآيات الله تعالى احتقاراً لمن أكرمه الله بإظهارها على يديه ولسانه.

ومعنى الآية: ولو ترى[1] يا محمد الظالمين وقت كونهم في شدائد الموت في الدنيا، والملائكة باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم، قائلين لهم: أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد، وخلصوها من هذه الآلام، هذا الوقت تجزون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد بسبب الافتراء على الله، والتكبر عن آيات الله.. لرأيت أمراً فظيعاً، أو المعنى: ولو ترى الظالمين إذا صاروا إلى أنواع الشدائد والتعذيبات في الآخرة، فأدخلوا جهنم، والملائكة باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب مبكتين لهم، قائلين: أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب الشديد، هذا الوقت تجزون العذاب المشتمل على الإهانة بسبب كونكم قائلين قولاً غير الحق، وكونكم مستكبرين عن الإيمان بآيات الله.. لرأيت أمراً عظيماً. ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يقوله لهم يوم القيامة بعد ذكر ما تقول لهم ملائكة العذاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد جئتمونا أيها الظالمون وحداناً منفردين عن الأنداد والأوثان والأهل والإخوان، مجردين من الخدم والأملاك والأموال. وقرىء[2]: ﴿فراد﴾ بوزن ثلاث غير مصروف. وقرأ عيسى بن عمر وأبو حيوة: ﴿فراداً﴾ بالتنوين، وأبو عمرو ونافع في حكاية خارجة عنهما: ﴿فردى﴾ مثل: سَكْرى كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾.

﴿كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: كما أخرجناكم أول مرة من بطون أمهاتكم

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

حفاة عراة غلفاً، ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله في آية أخرى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ لأن المراد: لا يكلمهم تكليم إكرام ورضاء. ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ وأعطيناكم في الدنيا من الأهل والأولاد والأموال ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾؛ أي: في الدنيا، وما نرى معكم شيئاً منه؛ أي: إن ما كان شاغلاً لكم عن الإيمان بالرسل، والاهتداء بما جاءوا به من الأهالي والأولاد والأموال والخدم والحشم والأثاث والرياشي لا ينفعكم اليوم، كما كنتم تتوهمون، فهو لم يغن عنكم شيئاً، ولم يمكنكم الافتداء به أو ببعضه من عذاب الآخرة. ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ﴾؛ أي: وما رأينا وأبصرنا معكم ﴿شُفَعَآءَكُمُ﴾ من الملائكة والصالحين من البشر، ولا تماثيلهم، ولا قبورهم معكم ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وظننتم ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ مع الله، وقد زعمتم في الدنيا أنهم شركاء لله، تدعونهم ليشفعوا لكم عنده، ويقربونكم إليه زلفى بتأثيرهم في إرادته، وحملهم إياه على ما لم تتعلق به إرادته في الأزل. وفي هذه الجملة والتي قبلها هدم لقاعدتين من قواعد الوثنية، وهما: الفداء، والشفاعة.

وعزتي وجلالي ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: لقد انقطع اليوم ما كان بينكم أنتم وشركائكم في الدنيا، من صلات النسب والملك والولاء والصداقة ﴿و﴾ لقد ﴿ضل﴾ وغاب ﴿عَنكُم﴾ أيها الظالمون ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وتظنون في الدنيا من شفاعة الشفعاء، وتقريب الأولياء، وأوهام الفداء، وقد علمتم الآن بطلان غروركم واعتمادكم على غيركم.

والخلاصة: أن آمالكم قد خابت في كل ما تزعمون وتتوهمون، فلا فداء ولا شفاعة، ولا ما يغنى عنكم من عذاب الله من شيء.

وقرأ جمهور السبعة[1]: ﴿بَيْنُكُمْ﴾: بالرفع على أنه اتسع في الظرف، وأسند الفعل إليه، فصار اسماً، كما استعملوه اسماً في قوله: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، وكما حكى سيبويه: هو أحمر بين العينين، ورجحه الفارسي، أو على

(١) البحر المحيط.

أنه أريد بالبين: الوصل؛ أي: لقد تقطع وصلكم، قاله أبو الفتح والزهراوي والمهدوي. فالبين: اسم يستعمل للوصل والفراق، فهو مشترك بينهما، كالجون للأسود والأبيض.

وقرأ نافع والكسائي وحفص: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بفتح النون، وخرجه الأخفش على أنه فاعل، ولكنه مبني على الفتح حملاً على أكثر أحوال هذا الظرف، وقد يقال: لإضافته إلى مبني كقوله: ﴿ومِنَّادُونَ ذلك﴾ وخرجه غيره على أنه منصوب على الظرف، وفاعل ﴿تَّقَطَّعَ﴾ التقطع. وقرأ عبد الله ومجاهد والأعمش: ﴿ما بينكم﴾، والمعنى: تلف وذهب ما بينكم وبين ما كنتم تزعمون، على إسناد الفعل إلى الذي بينكم.

فصل في ذكر الأحاديث المناسبة للآية

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً. ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾» متفق عليه.

وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة: فقلت: الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك». متفق عليه.

وروى الطبري بسنده عن عائشة: أنها قرأت قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فقالت: يا رسول الله، واسوأتاه! إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟! فقال رسول الله ﷺ: «لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه، لا ينظر الرجال إلى النساء، ولا النساء إلى الرجال، شغل بعضهم عن بعض».

الإعراب

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُۥٓ﴾: متعلق بـ﴿وهبنا﴾. ﴿إِسْحَٰقَ﴾: مفعول به لـ﴿وهبنا﴾. ﴿وَيَعْقُوبَ﴾: معطوف عليه، ولم ينونا؛ لأنهما ممنوعان من الصرف للعلمية والعجمة.

فائدة: وجميع أسماء النبيين أعجمية ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة إلا سبعة مجموعة في قول بعضهم:

أَلاَ إِنَّ أَسْمَاءَ ٱلنَّبِيِّيْنَ سَبْعَةٌ ... لَهَا ٱلصَّرْفُ فِيْ إِعْرَابِ مَنْ يَتَنَشَّدُ

فَشِيْثٌ وَنُوْحٌ ثُمَّ هُوْدٌ وَصَالِحٌ ... شُعَيْبٌ وَلُوْطٌ وَٱلنَّبِيُّ مُحَمَّدُ

فهذه السبعة مصروفة؛ لأن أربعة منها عربية: وهم محمد، وصالح، وشعيب، وهود. وثلاثة منها أعجمية، ولكنها صرفت لخفتها بسكون الوسط، وهم: نوح، ولوط، وشيث صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ عطف فعلية على اسمية. ﴿كُلًّا﴾: مفعول مقدم لـ﴿هَدَيْنَا﴾. ﴿هَدَيْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَنُوحًا﴾: مفعول مقدم لـ﴿هَدَيْنَا﴾. ﴿هَدَيْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿هَدَيْنَا﴾ الأولى. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور حال من ﴿نُوحًا﴾. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿دَاوُۥدَ﴾ وما بعده تقديره: حالة كونهم كائنين من ذريته. وقوله: ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ معطوفات على ﴿نُوحًا﴾. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والتقدير: ونجزي المحسنين على إحسانهم جزاءً مثل جزائنا لإبراهيم، والجملة مستأنفة.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿زكريا ويحيى وعيسى وإلياس﴾: معطوفات على ﴿دَاوُۥدَ﴾. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ،

والجملة مستأنفة. ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ﴾: معطوفات أيضاً على ﴿دَاوُۥدَ﴾. ﴿وَكُلًّا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿كلاً﴾ مفعول مقدم. ﴿فَضَّلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾: جار ومجرور في محل النصب معطوف على ﴿كُلًّا﴾، فالعامل فيه ﴿فَضَّلْنَا﴾، أو معطوف على ﴿نُوحًا﴾ فالعامل فيه ﴿هَدَيْنَاۚ﴾، والتقدير: وفضلنا كلاً منهم، وبعض أبائهم، ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ﴾: معطوفان على ﴿ءَابَآئِهِمْ﴾. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَضَّلْنَا﴾، وكذلك ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿فَضَّلْنَا﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: جار ومجرور وصفة، متعلق بـ﴿هديناهم﴾.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَهْدِى﴾، والجملة الفعلية في محل[1] النصب حال من الهدى، والعامل فيه: الإشارة، ويجوز أن يكون حالاً من اسم الله تعالى، ويجوز أن يكون ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ بدلاً من ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ الخبر، ذكره أبو البقاء. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِى﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَن﴾، أو من العائد المحذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من يشاء هدايته من عباده. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿أَشْرَكُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَحَبِطَ﴾:

(١) العكبري.

اللام: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾. ﴿حبط﴾: فعل ماض. ﴿عَنْهُم﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل الرفع فاعل. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه، وجملة ﴿حبط﴾ جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، لأن آتى بمعنى: أعطى، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿فَإِن﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن هؤلاء آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، وأردت بيان ما إذا كفر بها.. فأقول لك: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿بِهَآ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: فاعل. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿وَكَّلْنَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿بِهَآ﴾ متعلق بـ﴿وَكَّلْنَا﴾. ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿لَّيْسُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهَآ﴾، متعلق بـ﴿كافرين﴾. ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾: خبر ليس، والباء فيه زائدة، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب صفة لـ﴿قَوْمًا﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: هداهم الله.

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن أولئك هم الذين هداهم الله، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿بهداهم اقتده﴾: ﴿بهداهم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اقْتَدِهْ﴾. ﴿اقْتَدِهْ﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وهي الياء، والهاء: حرف سكت مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: نافية. ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿أَجْرًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿سأل﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ذِكْرَىٰ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾. ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ذِكْرَىٰ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿حَقَّ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿قَدْرِهِۦٓ﴾: مضاف إليه، والأصل: قدره الحق، ثم أضيفت الصفة إلى الموصوف، كما ذكره «أبو السعود». ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية مبني على السكون. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها، والظرف متعلق بـ﴿قَدَرُوا۟﴾، والتقدير: وما قدروا الله حق قدره وقت قولهم. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ بَشَرٍ﴾: متعلق به. ﴿مِّن شَىْءٍ﴾: مفعول ﴿أَنزَلَ﴾، و﴿مِّن﴾: زائدة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإخباري في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة الفعلية خبر ﴿مَنْ﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾ في محل النصب صفة لـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿مُوسَىٰ﴾: فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿نُورًا﴾: حال من ضمير ﴿بِهِۦ﴾، فالعامل فيه ﴿جَآءَ﴾، أو من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والعامل فيه: ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿وَهُدًى﴾: معطوف على ﴿نُورًا﴾. ﴿لِّلنَّاسِ﴾ صفة لـ﴿هدى﴾. ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿قَرَاطِيسَ﴾: منصوب بنزع الخافض؛ أي: في قراطيس وأوراق، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿بِهِۦ﴾، أو من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿تُبْدُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿قَرَاطِيسَ﴾.

﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تبدون﴾، والرابط محذوف تقديره: وتخفون كثيراً منها، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَعُلِّمْتُم﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿علِّمتم﴾، وجملة ﴿علِّمتم﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾. ﴿لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير المفعول المحذوف تقديره: وعلمتم ما لم تعلموه. ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد لضمير الفاعل، كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

وَإِنْ عَلَىٰ ضَمِيْرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ   عَطَفْتَ فَٱفْصِلْ بِالضَّمِيْرِ ٱلْمُنْفَصِلْ

﴿وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ﴾: معطوف على ضمير الفاعل.

﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: الله أنزله، أو فاعل بفعل محذوف تقديره: أنزله الله، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ذَرۡهُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿فِي خَوۡضِهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ذَرۡهُمۡ﴾. وجملة ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ وعبارة «الفتوحات»: قوله: ﴿فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ يجوز أن يكون ﴿فِي خَوۡضِهِمۡ﴾ متعلقاً بـ﴿ذرهم﴾، وأن يتعلق بـ﴿يَلۡعَبُونَ﴾، وأن يكون حالاً من مفعول ﴿ذَرۡهُمۡ﴾، وأن يكون حالاً من فاعل ﴿يَلۡعَبُونَ﴾، فهذه أربعة أوجه انتهت.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة أولى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة ثانية له. ﴿مُّصَدِّقُ﴾: صفة ثالثة له، وهو مضاف ﴿ٱلَّذِي﴾ مضاف إليه. ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف صلة الموصول.

تنبيه: قوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ...﴾ إلخ صفات لـ﴿كِتَٰبٌ﴾، وقدّم وصفه بالإنزال على وصفه بالبركة بخلاف قوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ قالوا: لأن الأهم هنا وصفه بالإنزال؛ إذ جاء عقيب إنكارهم أن ينزل الله على بشر من شيء بخلافه هناك، ووقعت الصفة الأولى جملة فعلية؛ لأن الإنزال يتجدد وقتاً فوقتاً، والثانية اسماً صريحاً؛ لأن الاسم يدل على الثبوت والاستقرار، وهو مقصود هنا؛ أي: ذو بركة ثابتة مستقرة اهـ «سمين».

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾.

﴿وَلِتُنذِرَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام لام كي. ﴿تنذر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولإنذارك أم القرى، الجار والمجرور معطوف على جار ومجرور معلوم من معنى ما قبله على كونه متعلقاً. بـ﴿أنزلناه﴾ تقديره: وهذا كتاب أنزلناه للبركة، ولإنذارك أم القرى. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾. ﴿حَوْلَهَا﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُحَافِظُونَ﴾ المذكور بعده. وجملة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أظلم﴾. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿أُوحِىَ﴾ فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿إِلَىَّ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يُوحَ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿شَىْءٌ﴾: نائب فاعل لـ﴿يُوحَ﴾، وجملة ﴿يُوحَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالَ﴾.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿من افترى﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿سَأُنزِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مِثْلَ﴾: مفعول به، وهو مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل الجر مضاف إليه. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مثل ما أنزله الله. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: مبتدأ. ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، الجار والمجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذِ﴾، والظرف متعلق بـ﴿تَرَىٰٓ﴾ على كونه مفعولاً به لـ﴿تَرَىٰٓ﴾، والتقدير: ولو ترى وقت كون الظالمين في غمرات الموت، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في قوله ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾. و﴿أَيْدِيهِمْ﴾ خفض لفظاً، وموضعه نصب، وإنما سقطت النون للإضافة. ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف حال من الضمير في ﴿بَاسِطُوٓا۟﴾، والتقدير: والملائكة باسطوا أيديهم حالة كونهم قائلين للظالمين: أخرجوا أنفسكم. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿تُجْزَوْنَ﴾ المذكور بعده. ﴿تُجْزَوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿تُجْزَوْنَ﴾، والأول قام مقام الفاعل، والجملة الفعلية مقول للقول المحذوف.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص

واسمه. ﴿تَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُولُونَ﴾. ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: مفعول به. لـ﴿تَقُولُونَ﴾؛ لأنه بمعنى: تذكرون، وجملة ﴿تَقُولُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب كونكم قائلين غير الحق، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُجْزَوْنَ﴾. ﴿وَكُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾. وجملة ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿كان﴾ الأولى على كونها صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: وبسبب كونكم مستكبرين عن الإيمان بآيات الله تعالى.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، اللام موطئة للقسم، قد: حرف تحقيق. ﴿جِئْتُمُونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿فُرَٰدَىٰ﴾: حال من فاعل ﴿جِئْتُمُونَا﴾، ولم ينون؛ لأنه اسم لا ينصرف لألف التأنيث المقصورة كأسارى. ﴿كَمَا﴾ الكاف: حرف جر وتشبيه، ما: مصدرية. ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: كخلقنا إياكم أول مرة الجار والمجرور حال من فاعل جئتمونا والتقدير ولقد جئتمونا فرادى مشبهة حالكم حال خَلْقنا إياكم أول مرة. ﴿وَتَرَكْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿جِئْتُمُونَا﴾ على تقدير: قد، أو مستأنفة ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿تَرَكْتُمْ﴾. ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما خولناكموه. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تركتم﴾.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿نَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مَعَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿نَرَىٰ﴾. ﴿شُفَعَآءَكُمُ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَتَرَكْتُم﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول صفة لـ﴿شُفَعَآءَكُمُ﴾ ﴿زَعَمْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿فِيكُمْ﴾: متعلق بخبر ﴿أن﴾ المذكور بعده ﴿شُرَكَٰٓؤُا۟﴾: خبر ﴿أن﴾ مرفوع، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي زعم تقديره: زعمتم كونهم شركاء فيكم.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

﴿لَقَد﴾ اللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿تَّقَطَّعَ﴾: فعل ماضٍ. ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بفاعل محذوف تقديره: لقد تقطع الاتصال بينكم، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. وعبارة «السمين»[1] هنا: قوله: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ قرأ نافع والكسائي وعاصم في رواية حفص عنه: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ نصباً، والباقون: ﴿بَيْنُكُمْ﴾ رفعاً. فأما القراءة الأولى ففيها ثلاثة أوجه:

أحسنها: أن الفاعل مضمر يعود على الاتصال، والاتصال وإن لم يكن مذكوراً حتى يعود عليه ضمير، لكنه تقدم ما يدل عليه، وهو لفظ: شركاء، فإن الشركة تشعر بالاتصال، والمعنى: لقد تقطع الاتصال بينكم، فانتصب ﴿بَيْنَكُمْ﴾ على الظرفية.

الثاني: أن الفاعل هو ﴿بَيْنَكُمْ﴾، وإنما بقي على حاله منصوباً حملاً له على أغلب أحواله، وهو مذهب الأخفش، وقد يقال: لإضافته إلى مبنى.

الثالث: قال الزمخشري: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ معناه: لقد وقع التقطع بينكم، كما تقول جمع بين الشيئين تريد أوقع الجمع بين الشيئين على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل.

---

(١) الفتوحات.

وأما القراءة الثانية ففيها وجهان.

أحدهما: أن ﴿بين﴾ اسم غير ظرف، وإنما معناها الوصل؛ أي: لقد تقطع وصلكم.

الثاني: أن هذا كلام محمول على معناه؛ إذ المعنى: لقد تفرق جمعكم وتشتت، وهذا لا يصلح أن يكون تفسير إعراب انتهت مع بعض تصرف.

وقال الزجاج: والرفع أجود، والمعنى لقد تقطع وصلكم.

﴿وَضَلَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض. ﴿عَنكُم﴾: متعلق به. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل الرفع فاعل ﴿ضَلَّ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿تَقَطَّعَ﴾ على كونها جواباً لقسم محذوف. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تَزْعُمُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعولا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ محذوفان، التقدير: تزعمونهم شفعاء، حذفا للدلالة عليهما، كما قال الشاعر:

تَـرَىٰ حُبَّـهُـمْ عَـاراً عَـلَـيَّ وَتَـحْـسَـبِ

أي: وتحسبه عاراً، وجملة ﴿تَزْعُمُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف من ﴿تَزْعُمُونَ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

قوله: ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ وتقدم لك أن الجمهور قرؤوا: ﴿اليسع﴾ بلام واحدة ساكنة وفتح الياء، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿الليسع﴾ بلام مشددة وياء ساكنة بعدها، فقراءة الجمهور فيها تأويلان:

أحدهما: أنه منقول من فعل مضارع، والأصل: يوسع بكسر السين، ثم حذفت الواو لوقوعها بين ياء مفتوحة وكسرة، ثم فتحت السين بعد حذف الواو؛ لأجل حرف الحلق وهو العين، مثل: يهب ويقع ويدع ويلغ، ثم سمى به مجرداً عن الضمير، وزيدت فيه الألف واللام شذوذاً كاليزيد في قوله:

رَأَيْتُ ٱلْوَلِيْدَ بْنَ ٱلْيَزِيْدِ مُبَارَكاً   شَدِيْداً بِأَعْبَاءِ ٱلْخِلاَفَةِ كَاهِلُهْ

ولزمت فيه كما لزمت في الآية، وقيل: الألف واللام فيه للتعريف، كأنه قدر تنكيره.

والثاني: أنه اسم أعجمي لا اشتقاق له، وأما قراءة الأخوين، فأصله: ليسع كضيغم وصيرف، وهو اسم أعجمي، ودخول الألف واللام فيه على الوجهين المتقدمين، واختار أبو عبيد قراءة التخفيف، فقال: سمعنا اسم هذا النبي في جميع الأحاديث اليسع، ولم يسمّه أحد منهم الليسع، وهذا لا حجة فيه؛ لأنه روي اللفظ بأحد لغتيه، وإنما آثر الرواة هذه اللفظة لخفتها، لا لعدم صحة الأخرى. وقال الفراء: قراءة التشديد أشبه بأسماء العجم. وقد تقدم أن في نون يونس ثلاث لغات، وكذلك في سين يوسف اهـ «سمين».

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ والاجتباء: الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار، مشتق من جبيت الماء في الحوض: جمعته فيه، فالاجتباء ضم الذي تجتبيه إلى خاصيتك.

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ بها السكت، وهي حرف يجتلب للاستراحة عند الوقف، فثبوتها وقفاً لا إشكال فيه، وأما ثبوتها وصلاً فإجراء ومعاملة له مجرى الوقف، كما قال في «الخلاصة»:

وَقِفْ بِهَا ٱلسَّكْتِ عَلَىٰ ٱلْفِعْلِ ٱلْمُعَلّ   بِحَذْفِ آخِرٍ كَأَعْطِ مَنْ سَأَلْ

ثم قال:

وَرُبَّمَا أُعْطِيَ لَفْظُ ٱلْوَصْلِ مَا   لِلْوَقْفِ نَثْراً وَفَشَا مُنْتَظِمَا

والاقتداء: طلب موافقة الغير في فعله، فمعنى فبهداهم اقتداه؛ أي: ائتم بهم في التوحيد والصبر، دون الفروع المختلفة باختلاف الشرائع، ودون المنسوخة، فإنها بعد النسخ لا تتبع، ويقال: اقتدى به إذا اتبعه وجعله قدوة له؛ أي: متبعاً.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ هو مصدر ذكر يذكر ذكرى على وزن فعلى بكسر الفاء،

ولم يأتِ مصدر على وزن فعلى بكسر الفاء إلا ذكرى كما مرَّ.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يقال: قدر يقدر من باب نصر ينصر، وأصل القدر: السبر والحزر، يقال: قدر الشيء إذا سبره وحزره ليعرف مقداره، ثم استعمل في معرفة الشيء، وقدر الشيء ومقداره: مقياسه الذي يعرف به، ويقال: قدره يقدره إذا قاسه، والقدر والقدرة والمقدار: القوة أيضاً، والقدر: الغنى واليسار والشرف.

﴿يَلْعَبُونَ﴾ وفي «القاموس»: لعب كسمع لعباً بكسر العين ضد جد، فاللعب يشمل الهزل والسخرية والاستهزاء.

﴿قَرَاطِيسَ﴾ جمع قرطاس، كمصابيح جمع مصباح، وهو ما يكتب فيه من ورق أو جلد أو غيرهما.

﴿مُبَارَكٌ﴾ اسم مفعول من بارك؛ لأن الله سبحانه وتعالى بارك فيه بما فضل به ما قبله من الكتب في النظم والمعنى ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وأم القرى: مكة، وسميت بذلك، لأنها قبلة أهل القرى، أو لأنهم يعظمونها كالأم، أو لأن فيها أول بيت للناس.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الافتراء: اختلاف الكذب، وافتراء الكذب على الله: الاختلاق عليه، والحكاية عنه ما لم يقله، أو اتخاذ الأنداد والشركاء.

﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ والغمرات: جمع غمرة، وهي: الشدة الفظيعة، وأصلها: من غمره الماء إذا ستره؛ كأنها تستر بغمها من تنزل به اهـ «سمين». وفي «المختار»: وقد غمره الماء؛ أي: علاه، وبابه نصر، والغمرة: الشدة، والجمع: غمر بفت الميم كنوبة ونوب، وغمرات الموت: شدائده.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ واليوم: الزمن المحدود، والمراد به هنا: يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الناس للحساب والجزاء. والهُون ـ بالضم ـ والهوان: الذل، ومنه قوله تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ والهون ـ بالفتح ـ:

اللين والرفق، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾. وأضاف[1] العذاب إلى الهون إيذاناً بأنه متمكن فيه، وذلك لأنه ليس كل عذاب يكون فيه هون؛ لأنه قد يكون على سبيل الزجر والتأديب كضرب الوالد ولده، ويجوز أن يكون من باب إضافة الموصوف إلى صفته، وذلك أن الأصل العذاب الهون، وصفه به مبالغة، ثم أضافه إليه حد الإضافة في قولهم: بقلة الحمقاء، ونحوه، ويدل على أنْ الهون بمعنى الهوان قراءة عبد الله وعكرمة له كذلك اهـ «سمين».

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ واختلف[2] الناس في ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ هل هو جمع أم لا؟ والقائلون بأنه جمع اختلفوا في مفرده. فقال الفراء: فرادى جمع فرد بفتح الراء، وفريد وفرد بسكونها وفردان، فجوز أن يكون جمعاً لهذه الأشياء. وقال ابن قتيبة: هو جمع فردان كسكران وسكارى، وعجلان وعجالى. وقال قوم: هو جمع فريد كرديف وردافى، وأسير وأسارى، قاله الراغب. وقيل: هو اسم جمع؛ لأن فرداً لا يجمع على فرادى. وقول من قال إنه جمع له، فإنما يريد في المعنى، ومعنى فرادى: فرداً فرداً اهـ «سمين».

وفي «البيضاوي»: وفرادى جمع فرد، والألف للتأنيث ككسالى. وقرىء فراداً بالتنوين، كغراب وفراد بلا تنوين، كثلاث، وفردى كسكرى اهـ. فهذه أربع قراءات: الأولى: هي المتواترة، والثلاثة بعدها شواذ، كما في «السمين». ويقال[3]: رجل أفرد وامرأة فردى إذا لم يكن لهما أخ، وفرد الرجل يفرد فروداً إذا تفرد، فهو فارد.

قوله: ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: أعطيناكم، يقال[4]: خوله: أعطاه وملكه، وأصله: تمليك الخول كما تقول: مولته إذا ملكته المال، والترك وراء الظهر يراد

---

(١) الفتوحات.

(٢) الفتوحات.

(٣) البحر المحيط.

(٤) البحر المحيط.

به: عدم الانتفاع بالشيء.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ البين: الفراق، قيل: يطلق على الوصل فيكون مشتركاً. قال الشاعر:

فَوَٱللَّهِ لَوْلاَ ٱلْبَيْنُ لَمْ يَكُنِ ٱلْهَوَىٰ ... وَلَوْلاَ ٱلْهَوَىٰ مَا حَنَّ لِلْبَيْنِ ٱلِفُهْ

وهو هنا مصدر بان يبين بيناً بمعنى: البعد، ويطلق على الضدين، كالبعد والقرب والوصل والانقطاع، والمراد به هنا: الوصل؛ أي: الاتصال؛ أي: العلقة والارتباط، ويضاف البين إلى المثنى كقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، وإلى الجمع كقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولا يضاف إلى المفرد إلا إذا كرر كقوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

قوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ومرة في الأصل: مصدر لمر يمر مرة، ثم اتسع فيها، فصارت زماناً. قال أبو البقاء: وهذا يدل على قوة شبه الزمان بالفعل. وقال الشيخ: وانتصب أول مرة على الظرف؛ أي: أول زمان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الوصل والفصل في أسماء الأنبياء عليهم السلام.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾، وفي: ﴿أُنزِلَ﴾، وفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وفي ﴿كُنتُمْ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾، وفي قوله: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ﴾، وفي قوله: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾،

وفي قوله: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾؛ لأن تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر، وفي قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾.

ومنها: المبالغة في النفي في قوله: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ لأن فيه مبالغة في إنكار نزول شيء من الوحي على أحد من الرسل بزيادة ﴿مِّن﴾ الاستغراقية.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ لأن فيه استعارة لفظ الأم لمكة المكرمة؛ حيث شبهت بالوالدة، فاستعير لها لفظ الأم على طريقة الاستعارة التصريحية الترشحية؛ لأنها أصل المدن والقرى، ولفظ القرى ترشيح، وفي قوله: ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾؛ لأن الغمرة حقيقة في ستر الماء لمن دخل فيه، فاستعيرت لشدائد الموت. قال(١) الشريف الرضي: هذه استعارة عجيبة حيث شبه سبحانه ما يعتورهم من كرب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه، وسميت غمرة؛ لأنها تغمر قلب الإنسان.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾؛ لأن الترك وراء الظهر كناية عن عدم الانتفاع بالشيء.

ومنها: الزيادة والحذف في مواضع عديدة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تلخيص البيان.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ
تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ
(٩٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
(٩٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا
مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ
ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ
وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا
تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ
أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟
دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا
تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ
بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ
وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قدم الكلام[1] على تقرير التوحيد وتقرير النبوة.. أردفه بذكر الدلائل الدالة على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيهاً بذلك

(١) الخازن.

على أن المقصود الأعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله، وأنه مبدع الأشياء وخالقها، ومن كان كذلك.. كان هو المستحق للعبادة، لا هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها، وتعريفاً منه خطأ ما كانوا عليه من الإشراك الذي كانوا عليه.

وعبارة «المراغي» هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى بعد أن[1] أثبت أمر التوحيد، ثم أردفه بتقرير أمر النبوة والبعث، وذكر مسائل لها ملابسات لهذه الأصول.. عاد هنا وفصَّل طائفة من آيات التكوين تدل أوضح الدلالة على وحدانيته تعالى وقدرته وعلمه وحكمته، وبيان سننه في خلقه، وحكمه في الإحياء والإماتة، والأحياء والأموات، وتقديره وتدبيره لأمر النيرات في السموات، وإبداعه في شؤون النبات.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما استدل[2] على باهر حكمته وقدرته بدلالة أحوال النبات والحيوان، وذلك من الأحوال الأرضية.. استدل أيضاً على ذلك بالأحوال الفلكية؛ لأن فلق الصبح أعظم من فلق الحب والنوى؛ لأن الأحوال الفلكية أعظم وقعاً في النفوس من الأحوال الأرضية.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[3] ذكر البراهين الدالة على تفرده بالخلق والتدبير في عالم السموات والأرض.. ذكر هنا بعض ضروب الشرك التي قال بها بعض العرب وروى التاريخ مثلها عن كثير من الأمم، وهي اتخاذ شركاء لله من عالم الجن المستتر عن العيون، أو اختراع نسل له من البنين والبنات.

وقال أبو حيان[4]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما اختص به من باهر قدرته ومتقن صنعته، وامتنانه على عالم الإنسان

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

بما أوجد له مما يحتاج إليه في قوام حياته، وبين أن في ذلك آيات لقوم يعلمون، ولقوم يفقهون، ولقوم يؤمنون.. ذكر ما عاملوا به منشئهم من العدم وموجد أرزاقهم من إشراك غيره له في عبادته، ونسبة ما هو مستحيل عليه من وصفه بسمات الحدوث من البنين والبنات.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أقام[1] الأدلة والبراهين الواضحة على توحيده، وكمال قدرته وعلمه.. عاد هنا إلى تقرير أمر الدعوة والرسالة، وتبليغ النبي ﷺ أوامر ربه، ومدى تلك الأوامر من الهداية والإرشاد، وما يقوله المشركون في المبلغ لها، وأعلم سبحانه سنته فيهم وفي أمثالهم، وما يجب على الرسول معهم، وما ينفى عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[2] رسوله فيما سبق من الآيات بتبليغ وحيه بالقول والعمل، والإعراض عن المشركين بمقابلة جحودهم وطعنهم في الوحي بالصبر والحلم، وبيَّن أن من مقتضى سنته في البشر أن لا يتفقوا على دين واحد لاختلاف استعدادهم، وتفاوتهم في درجات الفهم والفكر، وذكر أن وظيفة الرسل أن يكونوا مبلغين لا مسيطرين، وهادين لا جبارين، فينبغي أن لا يضيقوا ذرعاً بما يرون وما يشاهدون من الإزدراء بهم، والطعن في دينهم، فإن الله هو الذي منحهم هذه الحرية، ولم يجبرهم على الإيمان.. نهى المؤمنين هنا عن سب آلهة المشركين؛ لأنهم إذا شتموا فربما غضبوا وذكروا الله بما لا ينبغي من القول، ثم ذكر طلب بعضهم للآيات؛ لأن القرآن ليس من جنس المعجزات، ولو جاءهم بمعجزة ظاهرة لآمنوا به، وحلفوا على ذلك، وأكدوه بكل يمين محرجة.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] عبد الرزاق قال: أنبأنا معمر عن قتادة قال: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما[2]: لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.. قال المشركون: يا محمد، لتنتهين عن سب آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، فيسبوا الله عدواً بغير علم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: لما حضر أبا طالب الموت.. قالت قريش: انطلقوا، فلندخن على هذا الرجل، فلنأمرنه أن ينهى عنا ابن أخيه، فإنا نستحيي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه ويحميه، فلما مات قتلوه، فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأمية وأبي ابنا خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمرو بن العاص، والأسود بن البختري، وبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب، فقالوا: استأذن لنا على أبي طالب، فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك، يريدون الدخول عليك، فأذن لهم فدخلوا، فقالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولندعه وإلهه، فدعا النبي ﷺ فجاءه، فقال له: هؤلاء قومك وبنو عمك، فقال رسول الله ﷺ: «ما يريدون»؟ قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك، قال أبو طالب: قد أنصفك قومك فاقبل منهم، قال النبي ﷺ: «أرأيتم لو أعطيتكم هذا، هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها.. ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم، وأدت لكم الخراج؟ قال أبو جهل: وأبيك: لنعطينكها وعشر أمثالها، فما هي؟ قال: قولوا: لا إله إلا الله، فأبوا واشمأزوا، قال أبو طالب: قل غيرها، فإن قومك قد فزعوا منها، قال: «يا عم

(١) لباب النقول.
(٢) الخازن.

ما أنا بالذي أقول غيرها، حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي، ولو أتوني بها، فوضعوها في يدي.. ما قلت غيرها» فغضبوا وقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ومن يأمرك، فأنزل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله قريشاً، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب به الحجر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، وأن ثمود لهم الناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: «أي شيء تحبون أن آتيكم به؟» قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً قال: «فإن فعلت تصدقوني»؟ قالوا: نعم والله، فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاء جبريل فقال له: إن شئت أصبح ذهباً، فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَجْهَلُونَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾؛ أي: شاق جميع الحبوب من الحنطة والشعير والذرة وغيرها، من الأورق الخضر ﴿و﴾ فالق ﴿النوى﴾ وشاقها، وهي التي في داخل الثمار عن الشجر الأخضر، فإذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة، ثم مر عليها مدة.. أظهر الله تعالى في تلك الحبة أو النواة من أعلاها شقاً، ومن أسفلها شقاً آخر، فيخرج من الحبة ورق أخضر، ومن النواة شجرة صاعدة في الهواء، ويخرج منها عروق هابطة في الأرض، وقيل: معنى فالق الحب والنوى: شاقهما الشق الذي فيهما من أصل الخلقة، وقيل: معنى فالق الحب والنوى: خالقهما. والنوى: جمع نواة، يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ والمنغا وغيرها. وهذه الجملة شروع منه سبحانه وتعالى في تعداد عجائب صنعه، وذكر ما تعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه.

---

(١) لباب النقول.

وقرأ عبد الله[1]: ﴿فلق الحب﴾ بصيغة الفعل الماضي.

وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾؛ أي: الحيوان ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ أي: من النطفة والبيضة وهي ميتة، في محل الرفع خبر بعد خبر، لـ﴿إنّ﴾، وقوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ أي: مخرج النطفة والبيضة وهي ميتة ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؛ أي: من الحيوان، معطوف على[2] قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ عطف جملة اسمية على جملة فعلية، ولا مانع من ذلك. وقيل: معطوف على ﴿فالق﴾ على تقدير أن جملة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ مفسرة لما قبلها، والأول أولى.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يخرج من النطفة بشراً حياً، ومن البيضة أفراخاً حية، ومن الحب اليابس نباتاً غضاً، ومن الكافر مؤمناً، ومن العاصي مطيعاً، وبالعكس.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الصانع هذا الصنع العجيب المذكور سابقاً من شق الحب والنوى بقدرته الباهرة هو ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود الحق المستجمع لكل كمال، والمفضل بكل إفضال، والمستحق لكل حمد وإجلال. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف تصرفون عن عبادته وتوحيده والإيمان بالبعث إلى عبادة غيره، واتخاذ شريك معه، وإنكار البعث مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته.

والمعنى: ذلكم المتصف[3] بكامل القدرة وبالغ الحكمة هو الله الخالق لكل شيء، المستحق للعبادة وحده، لا شريك له، فكيف تصرفون عن عبادته، وتشركون به من لا يقدر على شيء من ذلك؛ كفلق نواة وحبة، وإيجاد نخلة وسنبلة؟ ﴿فَالِقُ﴾ ظلمة الليل وكاشفها ومزيلها بضوء ﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ ونور النهار. والمراد بظلمة الليل: الغبش الذي يلي الإصباح المستطيل الكاذب. والإصباح بمعنى: الصبح، فالصبح والإصباح والصباح بمعنى واحد، وهو أول النهار، وذلك[4] لأن الأفق من الجانب الغربي والشمالي والجنوبي مملوء من الظلمة، ثم إنه تعالى شق ذلك البحر المظلم بأن أجرى جدولاً من النور فيه. وقيل: المعنى

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) المراح.

خالق الإصباح من الفلق بمعنى الخلق يعني: أن الله سبحانه وتعالى مبدي ضوء الإصباح وخالقه ومنوره.

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وأبو رجاء[1]: ﴿فالق الأصباح﴾ بفتح الهمزة. وقرأ الجمهور بكسرها، وهو على قراءة الفتح جمع: صبح، وعلى قراءة الكسر مصدر: أصبح. وقرأت فرقة بنصب: ﴿الإصباحَ﴾ وحذف تنوين ﴿فالق﴾، وسيبويه إنما يجوز هذا في الشعر نحو قوله:

وَلاَ ذَاكِـــرَ ٱلـــلَّـــهِ إِلاَّ قَـــلِـــيْـــلاً

حذف التنوين لالتقاء الساكنين، والمبرد يجوزه في الكلام. وقرأ النخعي وابن وثاب وأبو حيوة: ﴿فلق الإصباح﴾ بفعل ماضٍ، وهمزة مكسورة.

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾؛ أي: وجعل سبحانه وتعالى الليل وقت سكون وراحة وطمأنينة للخلق؛ لأن الناس يسكنون فيه عن الحركة في معاشهم، ويستريحون من التعب والنصب الحاصل لهم بشغل النهار.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي على صيغة الماضي، والباقون على صيغة اسم الفاعل. وقرأ يعقوب ساكناً. ﴿و﴾ جعل سبحانه وتعالى ﴿الشمس والقمر﴾ جاريين بـ﴿حسباناً﴾؛ أي: بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص؛ أي: قدر[2] الله تعالى حركة الشمس بمقدار معين من السرعة والبطء، بحيث تتم الدورة في سنة، وقدَّر حركة القمر بحيث تتم الدورة في شهر، وبهذه المقادير تنتظم مصالح العالم في الفصول الأربعة، وبسببها يحصل ما يحتاج إليه من نضج الثمار وحصول الغلات وأمور الحرث والنسل، والمعنى: جعلهما علامتي حساب وعد للأوقات، تتعلق بهما مصالح العباد، تحسب بهما الأوقات التي تتعلق بها العبادات والمعاملات، وسيَّرهما على تقدير لا يزيد ولا ينقص، ليدل عباده بذلك على عظيم قدرته وبديع صنعه.

وقرأ الجمهور بنصب ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ على إضمار فعل؛ أي: وجعل

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

الشمس والقمر كما مر في حلنا. وقرأ أبو حيوة بجر ﴿الشمس والقمر﴾ عطفاً على الليل على قراءة من قرأ: ﴿وجاعل الليل﴾، وقرىء[1] شاذاً: ﴿الشمس والقمر﴾ برفعهما على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: مجعولان حسباناً، أو محسوبان حسباناً.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى[2] جعلهما حسباناً؛ أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: تدبير الإله الذي قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبيرهما، والأنفع من التداوير الممكنة لهما. وعبارة أبي حيان: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذلك الجعل أو ذلك الفلق والجعل، أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جميع الأخبار من قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ إلى آخرها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب الذي كل شيء من هذه في تسخيره وقهره. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يعزب عنه شيء من هذه الأحوال، ولا من غيرها؛ أي[3]: حصول هذه الأحوال لا يمكن إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات، وبعلم نافذ في جميع المعلومات من الكليات والجزئيات، فليس حصول حركات أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة بالطبع، وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وخلق ﴿لَكُمُ﴾ أيها الناس ﴿ٱلنُّجُومَ﴾ والكواكب ﴿لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾؛ أي: للاهتداء بها ﴿فِى ظُلُمَٰتِ﴾ الليل عند المسير في ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا ضللتم الطريق وتحيرتم فيه، فامتن الله على عباده بأن جعل لهم النجوم ليهتدوا بها في المسالك والطرق، والجهات التي تقصد، والقبلة في البر والبحر؛ إذ حركات الكواكب في الليل يستدل بها على القبلة، كما يستدل بحركة الشمس في النهار عليها، والمعنى: وهو الذي خلق لكم النجوم لاهتدائكم بها في مشتبهات الطرق إذا سافرتم في بر أو بحر، ولاستدلالكم بها على معرفة القبلة، وعلى معرفة أوقات الصلاة. والمراد بالنجوم هنا: ما عدا الشمس والقمر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراح.

من النيرات؛ لأنه الظاهر من سياق الكلام، ولأنه المعهود في الاهتداء، وهذه إحدى منافع النجوم التي خلقها الله لها.

ومنها: ما ذكره الله في قوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

ومنها: جَعْلها زينة للسماء، ومن زعم غير هذه الفوائد.. فقد أعظم على الله الفرية. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: قد بينا العلامات الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا لقوم يعلمون؛ أي: يتأملون فيستدلون بالمحسوس على المعقول وينتقلون من الشاهد إلى الغائب؛ أي: فإن هذه النجوم كما يستدل بها على الطرقات في ظلمات البر والبحر، فكذلك يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم، وكمال قدرته وعلمه.

وكانت العرب في أيام بداوتها تؤقت بطلوع النجوم، فتحفظ أوقات السنة بالأنواء، وهي نجوم منازل القمر في مطالعها ومغاربها، وكان اهتداؤهم بالنجوم على ضربين:

١ ـ معرفة الوقت من الليل، أو من السنة.

٢ ـ معرفة المسالك والطرق والجهات.

والمراد بالظلمات: ظلمة الليل، وظلمة الأرض، أو الماء، وظلمة الخطأ والضلال.

وحاصل المعنى: والله هو الذي جعل لكم النجوم أدلة في البر والبحر إذا ضللتم الطريق، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلاً، فبها تستدلون على الطرق فتسلكونها، وتنجون من الخطأ والضلال في البر والبحر. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ وأوجدكم وخلقكم مع كثرتكم واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي الإنسان الأول الذي تسلسل منه سائر الناس بالتوالد، وهو آدم عليه السلام، وفي إنشاء البشر من نفس واحدة آيات بينات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته، وفي التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته، وإرشاد إلى ما يجب من التعارف والتعاون بين البشر، وأن يكون هذا التفرق إلى

شعوب وقبائل مدعاةً إلى التآلف، لا إلى التعادي والتقاتل وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾؛ أي: ولكم موضع استقرار في الأصلاب، وموضع استيداع في الأرحام، وإنما جعل الصلب مقر النطفة، والرحم مستودعها؛ لأن النطفة تتوالد في الصلب ابتداء، والرحم شبيهة بالمستودع، كما قال الشاعر:

وَإِنَّمَا أُمَّهَاتُ ٱلنَّاسِ أَوْعِيَةٌ ... مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلآبَاءِ أَبْنَاءُ

فالمستقر على هذا التفسير: صلب الأب، والمستودع: رحم الأم، لأن[1] النطفة حصلت في صلب الأب قبل حصولها في رحم الأم، فحصول النطفة في الرحم من فعل الرجل مشبه بالوديعة، وحصولها في الصلب لا من جهة الغير. وقال أبو مسلم الأصبهاني: إن تقدير الآية: هو الذي أنشأكم من نفس واحدة، فمنكم ذكر ومنكم أنثى، وإنما عبر عن الذكر بالمستقر؛ لأن النطفة إنما تنشأ في صلبه وتستقر فيه، وإنما عبر عن الأنثى بالمستودع؛ لأن رحمها شبيه بالمستودع لتلك النطفة.

وقرأ[2] ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعي: بكسر القاف على صيغة اسم الفاعل، والباقون: بفتحها. وأما ﴿مستودع﴾ فهو بفتح الدال لا غير، وهما مرفوعان على أنهما مبتدآن، وخبرهما محذوف، والتقدير على القراءة الأولى - أعني قراءة الكسر -: فمنكم مستقر على ظهر الأرض، وعلى القراءة الثانية - أعني قراءة الفتح -: فلكم مستقر على ظهرها؛ أي: موضع قرار، ومنكم مستودع في الرحم، أو في باطن الأرض، أو في الصلب. وقيل: المستقر في الرحم، والمستودع في الأرض. وقيل: المستقر في القبر. وأكثر أهل التفسير يقولون: المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما كان في الصلب. وقيل: المستقر من خلق، والمستودع من لم يخلق. وقيل: الاستيداع إشارة إلى كونهم في القبور إلى المبعث، ومما يدل على تفسير المستقر

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

بالكون على الأرض قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: قد بينا العلامات الدالة على قدرتنا من تفاصيل خلق البشر ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يدققون النظر ويتأملون فيها، فإن إنشاء البشر من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف صنعة، وإن الاستدلال بالأنفس أدق من الاستدلال بالنجوم في الآفاق لظهورها. وعبارة «المراغي» هنا: قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي[1]: إننا جعلنا الآيات المبينة لسنننا في الخلق مفصلة وموضحة لقدرتنا وإرادتنا، وعلمنا وحكمتنا، وفضلنا ورحمتنا لقوم يفقهون ما يتلى عليهم، ويفهمون المراد منه، ويفطنون لدقائقه وخفاياه.

وعبر هنا بالفقه، وفيما قبلها بالعلم؛ لأن استخراج الحكم من خلق البشر يتوقف على غوص في أعماق الآيات، وفطنة في استخراج دقائق الحكم. أما العلم بمواقع النجوم والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، فهو من الأمور الظاهرة التي لا تتوقف على دقة النظر، ولا غوص الفكر والتأمل في العبرة منها، وكذلك جميع المظاهر الفلكية. ثم ذكر بعد ذلك آية أخرى من آيات التكوين، وهي إنزال الماء من السماء، وجعله سبباً للنبات، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً؛ أي: وهو الله الذي خلق هذه الأجسام في السماء، ثم ينزلها إلى السحاب، ثم من السحاب إلى الأرض ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب هذا الماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: نبات كل صنف من أصناف النبات المختلف في شكله وخواصه وآثاره اختلافاً متفاوتاً في مراتب الزيادة والنقصان، سواء كان من النجم، أو من الشجر، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾؛ أي: من النبات ﴿خَضِرًا﴾؛ أي: زرعاً، والمراد من هذا الخضر العود الأخضر الذي يخرج أولاً في القمح والشعير والذرة والأرز، ويكون السنبل في أعلاه؛ أي: فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له شيئاً غضاً أخضر،

---

(١) المراغي.

وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة، كساق النجم وأغصان الشجر. ﴿نُّخۡرِجُ مِنۡهُ﴾؛ أي: من ذلك الخضر؛ أي: من هذا الأخضر المتشعب النبات آناً بعد آن. ﴿حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ بعضه فوق بعض في سنبلة واحدة، وهذا الخارج هو السنبل، مثل سنبل الشعير والقمح والذرة وسائر الحبوب.

وقرأ الأعمش وابن محيصن: ﴿يخرج منه حب متراكب﴾ على أنه مرفوع بـ﴿يخرج﴾، و﴿متراكب﴾ في رفعه ونصبه صفة له. وهذا تفصيل لنماء النجم الذي لا ساق له، وهو ما عدا الشجر. وفي تقديم الزرع على النخل دليل على أفضلية الزرع على الشجر، ولأن حاجة الناس إليه أكثر؛ لأنه القوت المألوف. ثم عطف عليه حال نظيره من الشجر، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾ خبر مقدم ﴿مِن طَلۡعِهَا﴾ بدل منه ﴿قِنۡوَانٞ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿دَانِيَةٞ﴾ صفة له؛ أي: وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوان دانية؛ أي: عنقود وعذوق قريبة يناله القاعد والقائم؛ لانحنائها بثقل حملها، أو لقصر ساقها، وفيه اكتفاء؛ أي: وغير دانية لطولها، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ وإنما اقتصر على ذكرها دون مقابلها لدلالتها عليه، وزيادة النعمة فيها بقربها إلى المجتني، ففيها سهولة التناول دون البعيدة لاحتياجها إلى كلفة. والطلع: أول ما يبدو ويطلع ويظهر من زهر النخل قبل أن ينشق عنه غلافه. والقنوان: واحدها: قنو، والقنو: العذق الذي يكون فيه التمر، وهو من النخل كالعنقود من العنب، والسنبلة من القمح. وذكر الطلع مع النخل؛ لأنه طعام وإدام دون سائر الأكمام.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿قِنۡوَانٞ﴾ بكسر القاف. وقرأ الأعمش والخفاف عن أبي عمر والأعرج في رواية: بضمها، ورواه السلمي عن علي بن أبي طالب. وقرأ الأعرج في رواية، وهارون عن أبي عمر: ﴿وقنوان﴾ بفتح القاف. وخرجه أبو الفتح على أنه اسم جمع على فعلان؛ لأن فعلاناً ليس من أبنية جمع التكسير.

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾ بالنصب بكسر التاء على قراءة الجمهور معطوف

---

(١) البحر المحيط.

على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عطف الخاص على العام لشرفه، ولما جرد النخل.. جردت جنات الأعناب لشرفهما؛ أي: وأخرجنا بالماء بساتين كائنة من أعناب. وقرأ محمد بن أبي ليلى والأعمش وأبو بكر في رواية عنه عن عاصم: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ بالرفع، وهي قراءة علي بن أبي طالب. وقدره أبو البقاء: ومن الكرم ﴿جنات من أعناب﴾ نظراً لقوله أولاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ معطوفان على نبات كل شيء؛ أي: وأخرجنا بذلك الماء شجر الزيتون وشجر الرمان حالة كون كل واحد منهما ﴿مُشْتَبِهًا﴾؛ أي: يشبه[1] بعضه بعضاً في بعض أوصافه ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾؛ أي: ولا يشبه بعضه بعضاً في البعض الآخر. وقيل: إن أحدهما يشبه الآخر في الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن، وباعتبار حجمه، ولا يشبه أحدهما الآخر في الطعم. وقال قتادة: مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها؛ لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان.

وقيل: هما منصوبان على الاختصاص، وإنما خصهما بالذكر لقرب منابتهما من العرب؛ أي[2]: وأخص من نبات كل شيء: الزيتون والرمان حال كون الرمان مشتبهاً في بعض الصفات وغير مشتبه في بعض آخر، فإنها أنواع تشتبه في شكل الورق والثمر، وتختلف في لون الثمر وطعمه، فمنها الحلو، والحامض، والمرُّ، وكل ذلك دال على قدرة الصانع وحكمة المبدع جلَّ شأنه.

واعلم[3]: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع، وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار، لأن الزرع غذاء، وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدم على الفواكه؛ وإنما قدم النخلة على غيرها؛ لأن ثمرتها تجري مجرى الغذاء، وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار، وإنما ذكر العنب عقب النخلة؛ لأنها من أشرف أنواع الفواكه، ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة في الأكل وسائر وجوه الاستعمال، ثم ذكر عقبه الرمان لما فيه من المنافع أيضاً؛ لأنه فاكهة ودواء. وقرأ الجمهور: ﴿مُشْتَبِهًا﴾، وقرئ شاذاً: ﴿متشابهاً﴾، وهما بمعنى واحد،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) الخازن.

كاختصم وتخاصم، واشترك وتشارك، واستوى وتساوى، ونحوها مما اشترك فيه باب الافتعال والتفاعل.

﴿أَنظُرُوٓاْ﴾ أيها المخاطبون نظر اعتبار واستبصار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾؛ أي: إلى ثمر كل واحد مما ذكر ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾؛ أي: إذا أخرج ثمره أول ظهوره، وكيف يخرج ضئيلاً لا يكاد ينتفع به ﴿و﴾ انظروا إلى ﴿ينعه﴾؛ أي: وإلى نضجه وإدراكه، وكيف أنه يصير ضخماً ذا نفع عظيم ولذة كاملة، ثم وازنوا بين صفاته في كل من الحالين يستبين لكم لطف الله وتدبيره وحكمته في تقديره، وغير ذلك مما يدل على وجوب توحيده؛ أي: انظروا أيها المخاطبون إلى حال هذه الثمار من ابتداء خروجها وظهورها إلى انتهاء كبرها ونضجها، كيف تتنقل من حال إلى حال في اللون والرائحة، والصغر والكبر، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مراً وبعضه مالحاً لا ينتفع بشيء منه، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً مستساغ المذاق، فسبحان القادر الخلاق.

والحاصل: انظروا نظر استدلال واعتبار كيف أخرج الله تعالى هذه الثمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة، فإنه مما يدل على قدرته الباهرة وحكمته الظاهرة.

وقرأ ابن وثاب ومجاهد وحمزة والكسائي[١]: ﴿إلى ثُمره﴾ بضم الثاء والميم، جمع ثمرة كخشبة وخشب، وأكمة وأكم. وقرأت فرقة بضم الثاء وإسكان الميم طلباً للخفة، كما تقول في الكتب: كتب. وقرأ باقي السبعة بفتح الثاء والميم، وهو اسم جنس، كشجرة وشجر. والثمر جنى الشجر وما يطلع منه. وقرأ الجمهور[٢]: ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ بفتح الياء وسكون النون. وقرأ قتادة والضحاك وابن محيصن بضم الياء وسكون النون. وقرأ ابن أبي عبلة واليماني ﴿ويانعه﴾ اسم فاعل من ينع، ونسبها الزمخشري إلى ابن محيصن.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ﴾؛ أي: إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

والأشكال والألوان ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ أي: لدلائل باهرة على قدرة الله تعالى ووحدانيته ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون بوجود الله تعالى ووحدانيته، وإن الذي أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيي الموتى ويبعثهم، وناسب ختم هذه الآية بقوله: ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ كون ما تقدم دالاً على وحدانيته وإيجاده المصنوعات المختلفة، فلا بدَّ لها من مدبر مع أنها نابتة من أرض واحدة، وتسقى بماء واحد ذكره في «الجمل».

والمعنى[1]: إن في ذلكم الذي أمرتم بالنظر إليه لدلائل عظيمة على وجود القادر الحكيم ووحدانيته لمن هو مؤمن بالفعل، ولمن هو مستعد للإيمان. أما غيرهم.. فإن نظرهم لا يتجاوز الظواهر، ولا يعدوها إلى ما تدل عليه من وجود الخالق ووحدانيته التي إليها ينتهي النظام، فهم لا يغوصون ليصلوا إلى أسرار عالم النبات، ولا يبحثون عن كون انتقاله من حال إلى حال على ذلك النمط البديع دالاً على كمال الحكمة، وعلى أن وحدة النظام في الأشياء المختلفة لا يمكن أن تصدر من إرادات متعددة.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾ هذا الكلام يتضمن ذكر نوع آخر من جهالاتهم وضلالتهم؛ أي: وجعل هؤلاء المشركون الجن شركاء للّه سبحانه وتعالى ﴿وَخَلَقَهُمۡۖ﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الجن، أو قد خلق الشركاء المجعولين، كما خلق غيرهم من العالمين، فنسبة الجميع إليه واحدة، وامتياز بعض المخلوقين عن بعض في صفاته وخصائصه لا يخرجه عن كونه مخلوقاً، ولا يصل به إلى درجة أن يكون إلهاً ورباً.

وفي المراد[2] من الجن هنا أقوال، فقال قتادة: إنهم الملائكة، فقد عبدوهم، وقال الحسن: إنهم الشياطين، فقد أطاعوهم في أمور الشرك والمعاصي. وقيل: إبليس، فقد عبده أقوام وسموه رباً، ومنهم من سماه إله الشر والظلمة، وخص الباري سبحانه بألوهية الخير والنور.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

وروي عن ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في الزنادقة الذين يقولون: إن الله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والحيوان، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور، رجح الرازي هذا الرأي قال: إن المراد من الزنادقة: المجوس الذين قالوا: إن كل خير في العالم، فهو من يزدان ـ النور ـ وكل شر فهو من أهرمن؛ أي: إبليس. وقرأ[1] الجمهور: بنصب ﴿ٱلْجِنَّ﴾، وأعربه الزمخشري وابن عطية مفعولاً أول لـ﴿جعلوا﴾، وجعلوا بمعنى: صيروا، و﴿شُرَكَآءَ﴾: مفعول ثانٍ، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ﴿شركاء﴾.

وقرأ أبو حيوة ويزيد بن قطيب: ﴿الجن﴾ بالرفع على تقدير: هم الجن، جواباً لمن قال: من الذي جعلوه شركاء؟ فقيل لهم: هم الجن، ويكون ذلك على سبيل الاستعظام لما فعلوه، والانتقاص لمن جعلوه شريكاً لله. وقرأ شعيب بن أبي حمزة: ﴿الجنِ﴾ بخفض النون، ورويت هذه عن أبي حيوة وابن قطيب أيضاً، وحمل على الإضافة التي للتبيين، ولا يتضح معنى هذه القراءة إذ التقدير: وجعلوا شركاء الجن لله، وهذا معنى لا يظهر. وقرأ[2] يحيى بن يعمر ﴿وخلْقهم﴾ بإسكان اللام، وكذا في مصحف عبد الله، والظاهر أنه عطف على الجن؛ أي: وجعلوا الذي ينحتونه أصنافاً شركاء لله، كما قال تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ فالخلق هنا واقع على المعمول المصنوع بمعنى: المخلوق، قاله ابن عطية. وقال الزمخشري: وقرىء: ﴿وخلْقهم﴾؛ أي: اختلاقهم الإفك يعني: وجعلوا لله خلقهم؛ حيث نسبوا قبائحهم إلى الله في قولهم: والله أمرنا بها. انتهى. والخلق هنا: مصدر بمعنى: الاختلاق. ﴿وَخَرَقُوا لَهُۥ﴾؛ أي: خرق هؤلاء المشركون واختلقوا وكذبوا، وجعلوا له سبحانه وتعالى ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾؛ أي: حالة كونهم ملتبسين بغير علم؛ أي: بجهل وضلالة؛ أي: واختلقوا له تعالى بحمقهم وجهلهم بنين وبنات بغير علم؛ أي: من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، ولكن رمياً بقول عن جهالة وغباوة من غير فكر وروية، ومن غير معرفة لمكانه من الشناعة والازدراء

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

بمقام الألوهية؛ حيث قال مشركو العرب: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فلو عرفوا أن الإله يجب أن يكون واجب الوجود لذاته.. لامتنعوا أن يثبتوا له تعالى البنين والبنات؛ فإن الولد دال على كونه منفصلاً من جزء من أجزاء الوالد، وذلك إنما يكون في مركب يمكن انفصال بعض أجزائه، وذلك في حق الفرد الواجب الوجود لذاته محال، فمن عرف حقيقة الإله استحال أن يقول: له تعالى ولد. وقرأ[1] نافع: ﴿وخرقوا﴾ بتشديد الراء وبالقاف، وباقي السبعة بتخفيفها، وقرأ ابن عمر وابن عباس ﴿وحرفوا﴾ بالحاء المهملة والفاء، وشدد ابن عمر الراء وخففها ابن عباس بمعنى: وزوروا له أولاداً، لأن المزور محرف مغير للحق إلى الباطل.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عن كل ما لا يليق به من سمات الحدوث، ونزه الله تعالى ذاته بنفسه عن كل ما لا يليق به ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾؛ أي: تقدس وترفع ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: عن الباطل الذي يصفونه به، وعما يقوله المشركون في حقه من أن له شريكاً وولداً. فالتسبيح[2] يرجع إلى ذات المسبح، والتعالي يرجع إلى صفته الذاتية التي حصلت له تعالى، سواء سبحه تعالى مسبح أم لا، فكأنه قال هنا: نزهت ذاتي عن كل ما لا يليق بي، وترفعت صفاتي عن ما لا يليق بها، وهو سبحانه وتعالى ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالق السموات والأرض وموجدهما ومبدعهما على غير مثال سبق، فهو الخالق المبدع. وقرأ المنصور ﴿بديعِ﴾ بالجر، رداً على قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ﴾، أو على ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾. وقرأ صالح الشامي ﴿بديعَ﴾ بالنصب على المدح، ذكره أبو حيان. والاستفهام في قوله ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ للإنكار والاستبعاد، وجملة قوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ﴾ حالية؛ أي: كيف يكون له سبحانه وتعالى ولد، والحال أنه لم يكن له زوج ينشأ الولد من ازدواجه بها، والولد لا يوجد إلا كذلك؛ لأنه إذا لم تكن صاحبه.. استحال وجود الولد، ولكن جميع الكائنات السماوية والأرضية صدرت عنه تعالى صدور إبداع وإيجاد من العدم لأصولها، وصدور تسبب

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

كالتوالد ونحوه بحسب سننه في الخلق. وقرأ النخعي: ﴿ولم يكن﴾ بالياء، ووجه على أن فيه ضميراً يعود على الله، أو على أن فيه ضمير الشأن، وجملة: ﴿لَهُۥ صَٰحِبَةٌۖ﴾ على هذين الوجهين في موضع نصب خبر يكن، أو على ارتفاع ﴿صاحبة﴾ بـ﴿يكن﴾، وذُكِّر للفصل بين الفعل والفاعل كقوله:

وَلَـــدَ الأُخَـــيْـــطِـــلَ أُمُّ سُـــوْءٍ

وحضر للقاضي امرأة ذكره أبو حيان في «البحر».

وجملة قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ﴾ مقررة لإنكار نفي الولد، ودليل بعد دليل على ذلك؛ أي: وهو سبحانه وتعالى خلق كل شيء من الكائنات خلقاً وأوجده إيجاداً، ولم يلده ولادة كما زعمتم، فما افتريتم واخترعتم من الولد، فإنما هو مخلوق له لا مولود منه. يعني[1]: إن الصاحبة والولد في جملة من خلق؛ لأنه خالق كل شيء، وليس كمثله شيء، فكيف يكون الولد لمن لا مثل له؟ وإذا نسب الولد والصاحبة إليه.. فقد جعل له مثل، والله تعالى منزه عن المثلية، وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من المعلومات ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه من مخلوقاته شيء؛ أي: إن علمه سبحانه وتعالى بكل شيء ذاتي له، ولا يعلم كل شيء إلا الخالق لكل شيء، ولو كان له ولد.. لكان هو أعلم به، ولهدى العقول إليه بآيات الوحي ودلائله، لكنه كذب الذين افتروا عليه ذلك كذباً بلا علم مؤيد بوحي ولا دليل عقلي.

والخلاصة[2]: أنه تعالى نفى عن نفسه الولد بوجوه:

١ ـ أن من مبدعاته السموات والأرضين، وهي مبرأة من الولادة لاستمرارها وطول مدتها.

٢ ـ أن العادة قد جرت بأن الولد يتوالد من ذكر وأنثى متجانسين، والله تعالى منزه عن المجانسة لشيء.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي والبيضاوي.

٣ ـ أن الولد كفء للوالد، والله لا كفء له؛ لأن كل ما عداه فهو مخلوق له لا يكافئه، ولأن علمه ذاتي ولا كذلك غيره.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ﴾ إلى الموصوف بما تقدم من خلق السموات والأرض وإبداعهما، ومن أنه بكل شيء عليم، ومن أنه خلق كل شيء، فإذا[1] كانت هذه الصفات ملاحظة في اسم الإشارة.. حصل التكرار في قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إذ يصير المعنى: الذي خلق كل شيء، خالق كل شيء ويجاب بأن قوله فيما سبق، وخلق كل شيء؛ أي: في الماضي، كما تنبىء عنه صيغة الماضي، وبأن قوله هنا: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: مما سيكون، فلا تكرار، وهكذا أجاب أبو السعود، فاسم الإشارة: مبتدأ، واسم الجلالة: خبر أول، وربكم: خبر ثانٍ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر ثالث، و﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبر رابع، والخطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ موجه إلى المشركين الذين أقيمت عليهم الحجة؛ أي: ذلكم الموصوف بالصفات السابقة أيها المشركون من أنه خلق السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال سبق، وأنه بكل شيء عليم هو المعبود بحق في الوجود، ربكم ومالككم، المستحق منكم العبادة، لا من تدعون من دونه من الأصنام؛ لأنها جمادات لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ولا تعلم، والله تعالى هو الخالق الضار النافع، لا معبود بحق في الوجود إلا هو سبحانه وتعالى، خالق كل شيء ما كان وما يكون، وما عداه مخلوق له يجب أن يعبد خالقه، فكيف يعبد من هو مثله ويتخذه إلهاً. والفاء[2] في قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ لمجرد السببية من غير عطف، إذ لا يعطف الإنشاء على الخبر، وعكسه؛ أي: هو حكم ترتب على تلك الأوصاف، وهي علل مناسبة، فحيث وجدت وجد، وحيث فقدت فقد، وبما تقرر علم أنَّ فائدة ذكر خالق كل شيء في الآية بعد قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ﴾ جعله توطئة لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾، وأما قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ﴾ فإنما ذكر استدلالاً على نفي الولد اهـ «كرخي».

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

أي: فبسبب كونه موصوفاً بالأوصاف السابقة ومستجمعا لها، وحدوه بالعبادة، ولا تشركوا به شيئاً من مخلوقاته، يعني: من كانت هذه صفاته.. فهو الحقيق بالعبادة فاعبدوه، ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى مع تلك الصفات الجليلة الشأن ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات ﴿وَكِيلٌ﴾؛ أي: رقيب على أعمالهم حافظ لها، فيجازيهم عليها، فيجب على كل مكلف أن يعلم أنه لا حافظ إلا الله، ولا مصلح للمهمات إلا الله، فحينئذ ينقطع طمعه عن كل ما سواه، ولا يرجع في مهم من المهمات إلا إليه تعالى، ويقال: أي: كفيل بأرزاق خلقه. وقيل: معناه موكول إليه جميع الأمور، متول عليها، يدبر ملكه بعلمه وحكمته، فيرزق عباده ويكلؤهم بالليل والنهار سراً وعلانية.

والخلاصة[1]: أنه لا حافظ إلا الله، ولا قاضي للحاجات إلا هو، فعلينا أن نقطع أطماعنا عن كل ما سواه، ولا نلجأ في المهمات إلا إليه سبحانه وتعالى.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ سبحانه وتعالى ولا تراه ﴿الْأَبْصَارُ﴾ جمع بصر، وهو حاسة النظر، أي القوة الباصرة، وقد يقال: للعين من حيث إنها محلها، أي محلُّ الحاسة، أي لا تراه أبصار الخلائق في الدنيا، وبهذا يعلم أنه لا تنافي بين هذه الآية وبين الأحاديث الصحيحة الدالة على رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة. فقد روي أنه ﷺ قال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة، كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب» فالمؤمنون يرونه في الآخرة لهذه الأحاديث، ولقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾. وأما الكافرون.. فهم يومئذ محجوبون عن ربهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

وقيل: معناه لا تراه الأبصار رؤية إحاطة تعرف بها كنهه وحقيقته عز وجل، وعلى هذا القول يكون نفي الإدراك على عمومه، فلا يحيط به بصر أحد لا في

---

(١) المراغي.

الدنيا ولا في الآخرة، لعدم انحصاره في بصرهم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فصل في البحث عن رؤية اللّه سبحانه وتعالى

وفي «الخازن» قال[1]: جمهور المفسرين معنى الإدراك: الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته، والأبصار ترى الباري سبحانه وتعالى ولا تحيط به، كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به. وقال سعيد بن المسيب في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تحيط به الأبصار. وقال ابن عباس: كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به، وقد تمسك بظاهر هذه الآية قوم من أهل البدع، وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة، وقالوا: إن الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه، وإن رؤيته مستحيلة عقلاً؛ لأن الله أخبر أن الأبصار لا تدركه، وإدراك البصر عبارة عن الرؤية، إذ لا فرق بين قولك أدركته ببصري، ورأيته ببصري، فثبت بذلك أن قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بمعنى: لا تراه الأبصار، وهذا يفيد العموم. ومذهب أهل السنة: أن المؤمنين يرون ربهم في عرصات القيامة، وفي الجنة، وإن رؤيته غير مستحيلة عقلاً. واحتجوا لصحة مذهبهم بتظاهر أدلة الكتاب والسنة والإجماع من الصحابة ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ إلى ربها ناظرة﴾ ففي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه في الآخرة إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ أي: يرى الأبصار ويحيط بها، ويبلغ كنهها، لا تخفى عليه منها خافية، وخص[2] الأبصار بالذكر ليجانس ما قبله، وإلا فهو يدرك الأبصار وغيرها من الأشياء.

وقال الزجاج: في هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار؛ أي: لا يعرفون كيفية حقيقة البصر، وما السبب الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه. انتهى. فاعلم أن خلقاً من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه، ولا يحيطون بعلمه، فكيف به تعالى والأبصار لا تحيط به، وهو اللطيف الخبير.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّطِيفُ﴾؛ أي: الخفي عن إدراك الأبصار له من اللطف بمعنى خفاء الإدراك، فيكون راجعاً لقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أي: فيلطف عن أن تدركه الأبصار بحيث تخسأ الأبصار دون إدراك حقيقته. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾؛ أي: العالم بدقائق الأشياء ولطائفها، فلا يعزب عن إدراكه شيء، فيكون راجعاً لقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

والخلاصة: أنه يلطف عن أن تدركه الأبصار، ولكنه خبير بكل لطيف، وهو يدرك الأبصار، ولا تدركه الأبصار.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا الكلام وارد على لسان رسول الله ﷺ لقوله آخره: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: قد جاءكم وأتاكم أيها الناس في هذه الآيات البينات بصائر كائنات من ربكم وخالقكم؛ أي: قد جاءتكم الحجج الكونية والبراهين العقلية في هذا القرآن، تثبت لكم عقائد الحق اليقينية التي عليها مدار سعادتكم في دنياكم وآخرتكم، تفضل بها عليكم ربكم الذي خلقكم وسواكم، وربىٰ أجسادكم، وأكمل مشاعركم، وقواكم، كما ربى أرواحكم وهذب نفوسكم، ومحص بها عقولكم حتى تصل إلى منتهى ما تسموا إليه النفوس البشرية من الكمال. والمراد بالبصائر هنا: الآيات الواردة في هذه السورة، أو القرآن بجملته، فلما كانت هذه الآيات والحجج والبراهين أسباباً لحصول البصائر.. سميت بصائر. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾؛ أي: فمن عرف تلك الآيات وأبصر بها الحق وآمن وعمل صالحاً، ثم اهتدى ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فلنفسه أبصر واهتدى، وقدم الخير، وبلغ السعادة؛ أي: فمنفعة إبصاره لنفسه؛ لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار. ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ عن تلك البصائر وكفر بها، وضل عن الحق وأعرض عن سبيله، وأصر على ضلاله تقليداً لآبائه وأجداده ﴿فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: فعلى نفسه عمي وجنى وأضر بها؛ أي: فمضرة ضلاله وكفره على نفسه، وكان وبال ذلك

العمى عليه؛ لأن الله تعالى غني عن خلقه. ونحو الآية قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾، وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾، وقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم من أرسلت به إليكم، والله هو الحفيظ عليكم، ولا يخفى عليه شيء ما أعمالكم، فهو يعلم ما تسرون وما تعلنون، ويجزيكم عليه بما تستحقون، فعليه وحده الحساب، وما علي إلا البلاغ. وقيل: معناه: لا أقدر أن أدفع عنكم ما يريده الله بكم. وقيل: معناه: لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ الوكيل، وهذا كان قبل الأمر بقتال المشركين، فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية السيف، وعلى القولين الأولين ليست منسوخة، والله أعلم بمراده.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومثل تصريفنا الآيات في غير هذه السورة ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ في هذه السورة؛ أي: ونبين دلائل قدرتنا ووحدانيتنا من الآيات التكوينية والبراهين العقلية في هذه السورة تبييناً مثل تبييننا إياها في غير هذه السورة. وقوله: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ معطوف على محذوف تقديره: وكذلك نصرف الآيات ونبينها ليهتدي بها المستعدون للإيمان على اختلاف العقول والأفهام، وليقول الجاحدون المعاندون من المشركين في عاقبة أمرهم قد درست هذا القرآن من قبل، وتعلمت من أهل الكتاب، وليس هذا بوحي منزل كما زعمت، وقد قالوا هذا إفكاً وزوراً، فزعموا أنه تعلَّم من غلام رومي كان يصنع السيوف بمكة، وكان يختلف إليه كثيراً، وذلك ما عناه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾. وقال ابن الأنباري: معنى الآية: وكذلك نصرف الآيات لنلزمهم الحجة، وليقولوا درست، وإنما صرف الآيات ليسعد قوم بفهمها والعمل بها، ويشقى قوم آخرون بالإعراض عنها، فمن عمل بها.. سعد، ومن قال: درست.. شقي، ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير». واللام في قوله: ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾ لام العاقبة، وضابطها هي التي تدخل على شيء ليس مقصوداً من أصل الفعل، ولا حاملاً عليه، وفي قوله:

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لام كي، وهي لام العلة، وضابطها: هي التي كان ما بعدها علة لما قبلها، والضمير فيه للآيات بتأويلها بالقرآن؛ أي: وكذلك نصرف الآيات ليهتدوا بها، وليقولوا درست، ولنبين تلك الآيات التي هي القرآن لقوم لديهم الاستعداد للعلم بما تدل عليه الآيات من الحقائق، وما يترتب على الاهتداء بها من السعادة دون أن يكون لديهم معارض من تقليد أو عناد.

والحاصل: أن لتصريف الآيات ثلاث فوائد:

١ ـ أن يهتدي بها المستعدون للإيمان.

٢ ـ وأن يقول الجاحدون: درست.

٣ ـ وأن نبينها لقوم يعلمون.

والحاصل: أنه علل تبيين الآيات بعلل ثلاث: أولاها محذوفة، واللام في الأولى والأخيرة لام العلة حقيقة بخلافها في الثانية، فهي لام العاقبة كما مرَّ آنفاً.

والخلاصة: أن الذين يقولون للرسول إنك درست هم الجاهلون الذين لم يفهموا تلك الآيات التي صرفها الله تعالى على ضروب مختلفة، ولم يفقهوا سرها وما يجب من إيثارها على منافع الدنيا، وأما الذين يعلمون مدلولاتها وحسن عاقبة الاهتداء بها.. فهم الذين يتبين لهم بتأملها حقيقة القرآن، وما اشتمل عليه من حسن التصرف المؤيد بالحجة والبرهان.

فصل

وفي ﴿دَرَسْتَ﴾ قراءات[1]، قرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿دارست﴾ بألف بين الدال والراء وسكون السين وفتح التاء، كفاعلت، وهي قراءة علي وابن عباس وسعيد ابن جبير ومجاهد وعكرمة وأهل مكة، والمعنى عليها: دارست يا محمد أهل الكتاب ودارسوك؛ أي: ذاكرتهم وذاكروك. وقرأ ابن عامر ويعقوب وجماعة من غير السبعة: ﴿درست﴾ بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف، كخرجت

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير والشوكاني.

مسنداً إلى ضمير الغائبة، وهي قراءة الحسن، والمعنى عليها: قدمت هذه الآيات وعفت وانقطعت وتكررت على أسماعهم حتى بليت وقدمت في نفوسهم. وقرأ باقي السبعة، وهم عاصم وحمزة والكسائي: ﴿درست﴾ كضربت، والمعنى عليها: درست يا محمد في الكتب القديمة، وتعلمت من أبي فكيهة وجبر ويسار. وسنبين هذا إن شاء الله تعالى عند قوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ في سورة النحل، وجميع من ذكرنا فتح الدال في قراءته. وقد روي عن نافع أنه قال: ﴿درست﴾ بضم الدال وكسر الراء وتخفيف التاء، وهي قراءة ابن يسر، ومعناها قرئت. وقرأ أبي بن كعب: ﴿درست﴾ بفتح الدال والسين وضم الراء وتسكين التاء.

قال الزجاج: وهي بمعنى: درست بفتحات؛ أي: أنمحت ومضت، إلا أن المضمومة الراء أشد مبالغة. وقرأ معاذ القارىء وأبو العالية ومورق: ﴿درست﴾ بضم الدال وكسر الراء وتشديدها ساكنة السين. وقرأ ابن مسعود وطلحة بن مصرف وابن عباس وأبي والأعمش: ﴿درس﴾ بفتح الراء والسين بلا ألف ولا تاء؛ أي: قرأ محمد. وروى عصمة عن الأعمش: ﴿دارس﴾ بألف. وروي عن الحسن: ﴿درسن﴾ مبنياً إلى المفعول، مسنداً إلى النون؛ أي: درست الآيات، وكذا هي في مصاحف عبد الله. وقرأت فرقة: ﴿درسن﴾ بتشديد الراء مبالغة في درسن. وقرىء: ﴿دارسات﴾؛ أي: هي قديمات، أو ذات درس كعيشة راضية. وقرىء: ﴿درست﴾ بالتشديد والخطاب؛ أي: درست الكتب القديمة. وقرىء: ﴿درست﴾ مشدداً مبنياً للمفعول المخاطب. وقرىء: ﴿دورست﴾ بالتخفيف والواو مبنياً للمفعول، والواو مبدلة من الألف في دارست. وقرأت فرقة: ﴿دارست﴾؛ أي: دارستك الجماعة الذين تتعلم منهم، وجاز الإضمار لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم، ويجوز أن يكون الفعل للآيات وهو لأهلها؛ أي: دارس أهل الآيات، فهذه خمس عشرة قراءة في هذه الكلمة. وقرأت طائفة منهم المبرد: ﴿وليقولوا﴾ بسكون اللام على جهة الأمر المتضمن للتوبيخ والتهديد؛ أي: وليقولوا ما شاءوا، فإن الحق بين. وقرأ الجمهور بكسرها، وقالوا: هذه اللام هي التي تضمر أن بعدها، والفعل منصوب بأن المضمرة، وهي لام كي.

تتمة: في معنى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ أي[1]: وليقول بعضهم: ذاكرت يا محمد أهل الأخبار الماضية، فيزداد كفراً على كفر. وذلك لأن النبي ﷺ كان يظهر آيات القرآن نجماً نجماً، والكفار كانوا يقولون: إن محمداً يضم هذه الآيات بعضها إلى بعض يتفكر فيها، ويصلحها آية فآية، ثم يظهرها، ولو كان هذا بوحي نازل إليه من السماء.. فلم لم يأت بهذا القرآن دفعة واحدة، كما أن موسى عليه السلام أتى بالتوراة دفعة واحدة؛ أي: فإن تكرير هذه الآيات حالاً بعد حال هي التي أوقعت الشك للقوم في أن محمداً ﷺ إنما يأتي بهذا القرآن على سبيل المدارسة مع التفكر والمذاكرة مع أقوام آخرين.

وبعد أن بين سبحانه لرسوله أن الناس في شأن القرآن فريقان: فريق فسدت فطرتهم، ولم يبقَ لديهم استعداد لهديه، ولا للعلم بما فيه من تصريف الآيات، ومن ثم كان نصيبهم منه الجحود والإنكار، وفريق آخر اهتدى به، وعمل بما فيه.. أمره أن يتبع ما أوحي إليه من ربه بالبيان له، والعمل به، فقال: ﴿اتبع﴾ يا محمد ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ما أنزل إليك من ربك؛ أي: ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك، وهو القرآن، فاعمل به وبلغه إلى عبادي، ولا تلتفت إلى قول من يقول: دارست أو درست، ولا تتبع أهوائهم. وفي قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تعزية لقلب النبي ﷺ، وإزالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم: درست. ونبه[2] بقوله سبحانه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على أنه سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لا شريك له، وإذا كان كذلك.. فإنه تجب طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلين، وزيغ الزائعين. وهذه الجملة معترضة لا محل لها من الإعراب، أكد بها إيجاب اتباع الوحي، أو حال مؤكدة من ﴿رَّبِّكَ﴾. ﴿واعرض﴾ يا محمد ﴿عَنِ﴾ استهزاء ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وشركهم الذين يستهزئون بك، ولا تبال بهم واتركهم ولا تقاتلهم في الحال حتى يأتيك الأمر بقتالهم، فيكون الأمر بالإعراض منسوخاً بآية السيف على هذا المعنى، أو

---

(١) المراح.
(٢) الخازن.

المعنى: اتركهم في الحال لا على الدوام، فيكون غير منسوخ.

وحاصل معنى الآية: أي[١] اتبع ما أوحي إليك لتزكي نفسك، وتكون إماماً لأبناء جنسك، فإن الاقتداء لا يتم إلا بمن يعمل بما يعلمه ويأتمر بما يُؤمر به، ثم قرن ذلك باعتقاد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فالخالق المربي للأشباح بما أنزل من الرزق، وللأرواح بما أنزل من الوحي، هو المعبود الواحد الذي لا شريك له، المجازي على الأعمال التي لا تقبل شفاعة ولا فداء. ثم أمره بعدئذ بالإعراض عن المشركين بأن لا يبالي بإصرارهم على الشرك ولا بمثل قولهم: درست؛ لأن الحق يعلو متى ظهر بالقول والعمل مع الإخلاص، ولا يضره الباطل بتزيينه بزخارف الأقوال، ولا بالانكباب على خرافات الأعمال، ثم هون عليه أمر الإعراض عنهم فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى توحيدهم وعدم إشراكهم لـ﴿مَآ أَشْرَكُواْ﴾ بأن يخلق البشر كلهم مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، لكنه خلقهم مستعدين للإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والطاعة والفسق، ومضت سنته بأن يكونوا مختارين في أعمالهم وفي كسبهم لعلومهم وأعمالهم، وجعل منها الخير والشر، وإن كانت غرائزهم وفطرهم كلها خيراً.

والمعنى[٢]: لا تلتفت يا محمد إلى سفاهات هؤلاء المشركين الذين قالوا لك: إنما جمعت هذا القرآن من مذاكرة الناس، ولا يثقلن عليك شركهم، فإنا لو أردنا إزالة الشرك عنهم.. لقدرنا، ولكنا تركناهم مع كفرهم، فلا ينبغي أن تشغل قلبك بكلماتهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هؤلاء المشركين ﴿حَفِيظًا﴾؛ أي: رقيباً، ولا حافظاً من جهتنا تحفظ عليهم أعمالهم لتحاسبهم عليها وتجازيهم بها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: وما أنت بحافظ ولا قيم عليهم من جهتم تقوم

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

بأرزاقهم وتتولى أمورهم وتتصرف فيها. والمعنى[1]: أنك لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب، وإنما بعثت مبلغاً، فلا تهتم بشركهم، فإن ذلك بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة[2]: أنه ليس لك ما ذكر من الوصفين كما يكون ذلك لبعض الملوك بالقهر أو التراضي، بل أنت بشير ونذير، والله هو الذي يتولى جزاءهم وحسابهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: ولا تشتموا أيها المؤمنون الأصنام التي كان المشركون يعبدونها ويدعونها من دون الله تعالى لجلب نفع لهم، أو دفع ضر عنهم بوساطتها وشفاعتها لهم عند الله تعالى ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾؛ أي: فيتسبب عن ذلك سب المشركين لله تعالى ﴿عَدْوًا﴾؛ أي: ظلماً ملتبساً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: بجهل بالله تعالى ليغيظوا المؤمنين، ولينتصروا لآلهتهم لشدة غيظهم لأجلها، فيخرجوا عن حال الاعتدال إلى ما ينافي العقل، كما يقع من بعض المسلمين إذا اشتد غضبه وانحرف، فإنه قد يلفظ بما يؤدي إلى الكفر نعوذ بالله من ذلك.

والمعنى: ولا تسبوا الأصنام التي كان المشركون يدعونها من دون الله، فيسبوا الله للظلم بغير علم بما يجب في حقه عليهم؛ لأنهم جهلة بالله تعالى؛ لأن بعضهم كان يقول بالدهر ونفي الصانع. قال[3] قتادة: كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم، فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله، فإنهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عز وجل انتهى. وإنما نهوا عن سب الأصنام وإن كان مباحاً لما ينشأ عن ذلك من المفاسد، وهو سب الله وسب رسوله، فظاهر الآية كان نهياً عن سب الأصنام، وحقيقتها النهي عن سب الله تعالى؛ لأنه سبب لذلك، وفي ذلك دلالة على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة.. وجب تركها، فإن ما يؤدي إلى الشر شر.

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.

وقيل معنى الآية[1]: ولا تسبوا أيها المؤمنون من يعبدون الأصنام من حيث عبادتهم لآلهتهم، كأن تقولوا: تباً لكم ولما تعبدون من الأصنام مثلاً، فيسبوا رسول الله ﷺ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل بجهالة منهم بما يجب عليهم، فإن الصحابة متى شتموهم.. كانوا يشتمون رسول الله ﷺ، فالله تعالى أجرى شتم الرسول مجرى شتم الله تعالى؛ لأن الكفار كانوا مقرين بالله تعالى، وكانوا يقولون: إنما حسنت عبادة الأصنام لتصير شفعاء لهم عند الله تعالى.

تنبيه: وفي هذه الآية دليل[2] على أن الداعي إلى الحق، والناهي عن الباطل إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد، كان الترك أولى به، بل كان واجباً عليه، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله المتصدين لبيانها للناس إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه، وفعلوا غيره من المنكرات عناداً للحق، وبغضاً لأتباع المحقين، وجرأة على الله سبحانه وتعالى، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة، وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها ديدنه وهجيراه كما يشاهد ذلك في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق.. وقعوا في كثير من الباطل، وإذا أرشدوا إلى السنة.. قابلوها بما لديهم من البدعة، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين، المتهاونون بالشرائع، وهم شر من الزنادقة؛ لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين، والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام وتحاماهم أهله، وقد ينفق كيدهم ويتم باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل. وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، وهي أصل أصيل في سد الذرائع، وقطع التطرق إلى الشبه.

وقرأ[3] الحسن وأبو رجاء وقتادة ويعقوب وسلام وعبد الله بن يزيد:

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

﴿عدوا﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو، وهو مصدر لعدا؛ لأنه يقال: عدا يعدو وعَدْواً وعدواناً وعُدُواً، وهي قراءة أهل مكة. وقرأ غيرهم بفتح العين وسكون الدال وتخفيف الواو. ومعنى القراءتين واحد؛ أي: ظلماً وعدواناً. وقرأ بعض المكيين ـ وعينه الزمخشري، فقال: عن ابن كثير ـ: بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو؛ أي: أعداء، وهو منصوب على الحال المؤكدة، وعدو يخبر به عن الجمع كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ ومعنى بغير علم: على جهالة بما يجب لله تعالى أن يذكر به، وهو بيان لمعنى الاعتداء.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل تزيين عبادة الأصنام للمشركين ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم كافرهم ومؤمنهم ﴿عَمَلَهُمْ﴾ من كفر وإيمان وشر وخير ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ وتزيينه هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير أو الشر، والاتباع لطرقه، وتزيين الشيطان: هو ما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السوء ﴿ثُمَّ﴾ بعد موتهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ بالبعث للمجازاة ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾؛ أي: يخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الطاعات والمعاصي التي لم ينتهوا عنها، ولا قبلوا من المرسلين ما أرسلهم الله به إليهم، وما تضمنته كتبه المنزلة عليهم.

والخلاصة[1]: أن سننا في أخلاق البشر قد جرت بأن يستحسنوا ما يجرون عليه ويتعودونه، سواء كان مما عليه أباؤهم، أو مما استحدثوه بأنفسهم إذا صار ينسب إليهم، وسواء أكان ذلك عن تقليد وجهل، أم عن بينة وعلم.

ومن هذا يعلم أن التزيين أثر لأعمالهم الاختيارية بدون جبر ولا إكراه، لا أن الله خلق في قلوب بعض الأمم تزييناً للكفر والشر، وفي قلوب بعضها تزييناً للإيمان والخير من غير أن يكون لهم عمل اختياري نشأ عنه ذلك، وإلا كان الإيمان والكفر، والخير والشر من الغرائز الخلقية التي تعد الدعوة إليها من العبث الذي يتنزه الله تعالى عن إرسال الرسل، وإنزال الكتب لأجله، وكان عمل الرسل

---

(١) المراغي.

والحكماء والمؤدبين الذين يؤدبون الناس عملاً لا فائدة فيه.

والخلاصة: أن تزيين الأعمال للأمم سنة من سنن الله جل شأنه، سواء في ذلك أعمالها وعاداتها وأخلاقها الموروثة والمكتسبة. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ثم إلى ربهم ومالك أمرهم رجوعهم ومصيرهم بعد الموت وحين البعث لا إلى غيره؛ إذ لا رب سواه، فينبئهم بما كانوا يعملون في الدنيا من خير أو شر، ويجزيهم عليه ما يستحقون، وهو تعالى بهم عليم. ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: وأقسم هؤلاء المشركون المعاندون بأوكد الأيمان وأشدها مبالغة، وكان إقسامهم بالله غاية في الحلف، وكانوا يقسمون بأبائهم وآلهتهم، فإذا كان الأمر عظيماً. . . أقسموا بالله تعالى، والمعنى: حلفوا غاية حلفهم وأوكده ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ من الآيات الكونية مما اقترحوه كقلب الصفا ذهباً. ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾؛ أي: بتلك الآية بأنها من عند الله تعالى، وأنك رسول من لدنه. وفي هذا إيماء إلى أنهم بلغوا غاية العتو والعناد؛ إذ هم لم يعدوا ما يشاهدونه من المعجزات من نوع الآيات، ومن ثم اقترحوا غيرها، وما كان غرضهم من ذلك إلا التحكم في طلب المعجزات وعدم الاعتداد بما شاهدوا من البينات.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿ليؤمنن بها﴾ مبنياً للمفعول وبالنون الخفيفة. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ﴾ والمعجزات التي من جنسها ما اقترحتموه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحده، فهو القادر عليها والمتصرف فيها، يعطيها من يشاء ويمنعها من يشاء بحكمته وقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فلا يمكنني أن أتصدىٰ لإنزالها بالاستدعاء والطلب. روي أن قريشاً اقترحوا بعض آيات، فقال رسول الله ﷺ: «فإن فعلت بعض ما تقولون. . أتصدقونني»؟ فقالوا: نعم، وأقسموا لئن فعلت لنؤمنن، فسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها طمعاً في إيمانهم، فهم رسول الله ﷺ بالدعاء، فنزلت الآية: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾؛ أي: وما يعلمكم أيها المؤمنون الذين تمنوا مجيء الآية ليؤمنوا، والنبي ﷺ منهم بدليل همه بالدعاء ورغبته في ذلك. والاستفهام فيه إنكاري

بمعنى النفي، وفي الكلام حذف أيضاً؛ أي: وأي شيء يدريكم ويعلمكم أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون، والمعنى: أنه ليس لكم شيء من أسباب الشعور بهذا الأمر الغيبي الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب، وهو أنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية.

وقرأ قوم بسكون ضمة الراء في[1]: ﴿يشعركم﴾، وقرىء باختلاسها. وأما الخطاب، فقال مجاهد وابن زيد: هو للكفار. وقال الفراء وغيره: المخاطب بها المؤمنون. وقرأ أبو عمرو وابن كثير والعليمي والأعشى عن أبي بكر وعاصم في رواية داود الإيادي: أنها بكسر الهمزة. وقرأ باقي السبعة بفتحها. وقرأ ابن عامر وحمزة: ﴿لا تؤمنون﴾ بتاء الخطاب. وقرأ باقي السبعة بياء الغيبة. فيتحصل من هذا المذكور أربع قراءات:

الأولى: كسر الهمزة والياء، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر - بخلاف عنه في كسر الهمزة - وهذه قراءة واضحة، أخبر تعالى أنهم لا يؤمنون ألبتة على تقدير مجيء الآية، وتم الكلام عند قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، ومتعلق ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ محذوف؛ أي: وما يشعركم ما يكون، فإن كان الخطاب للكفار.. كان التقدير: وما يشعركم ما يكون منكم، ثم أخبر على جهة الالتفات بما علمه من حالهم لو جاءتهم الآيات. وإن كان الخطاب للمؤمنين.. كان التقدير: وما يشعركم أيها المؤمنون ما يكون منهم، ثم أخبر المؤمنين بعلمه فيهم.

القراءة الثانية: كسر الهمزة والتاء، وهي رواية العليمي والأعشى عن أبي بكر عن عاصم، والمناسب أن يكون الخطاب في هذه القراءة للكفار، كأنه قيل: وما يدريكم أيها الكفار ما يكون منكم، ثم أخبرهم على جهة الجزم أنهم لا يؤمنون على تقدير مجيئها، ويبعد جداً أن يكون الخطاب في: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للمؤمنين، وفي: ﴿لا تؤمنون﴾ للكفار.

والقراءة الثالثة: فتح الهمزة والياء، وهي قراءة نافع والكسائي وحفص

---

(١) البحر المحيط.

فالظاهر أنَّ الخطاب للمؤمنين، والمعنى: وما يدريكم أيها المؤمنون أن الآية التي تقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بها، يعني: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأنتم لا تدرون ذلك، وكان المؤمنون يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية، ويتمنون مجيئها، فقال: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، على معنى: إنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون.

القراءة الرابعة: فتح الهمزة والتاء، وهي قراءة ابن عامر وحمزة، والظاهر أنه خطاب للكفار، ويتضح معنى هذه القراءة على زيادة ﴿لا﴾؛ أي: وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت، كما أقسمتم عليه انتهى. من «البحر المحيط» بالتقاط واختصار.

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ في هذه[1] الجملة وجهان:

أحدهما: أنها وما عطف عليها من قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ عطف على ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ داخل في حكم ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾؛ أي: وما يشعركم أيها المؤمنون أنَّا نقلب أفئدتهم وقلوبهم ونحولها ونصرفها عن إدراك الحق، فلا يفهمونه ﴿و﴾ أنا نقلب ﴿أبصارهم﴾ عن اجتلاء الحق ورؤيته، فلا يبصرونه، فلا يؤمنون بالآية التي اقترحوها إذا جاءت ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ﴾؛ أي: كما لم يؤمنوا بما جاء به محمد ﷺ من الآيات ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: قبل نزول مقترحهم من الآيات السابقة على اقتراحهم، كانشقاق القمر؛ أي: كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ مثل انشقاق القمر وغير ذلك من الآيات الباهرات، وتكون حالهم حينئذ كحالهم الأولى في عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة من الآيات، وقيل: في الكلام حذف تقديره: فلا يؤمنون به ثاني مرة، كما لم يؤمنوا به أول مرة، وتقليب الأفئدة والأبصار الطبع والختم عليها. ﴿و﴾ ما يشعركم أنَّا ﴿نذرهم﴾ ونتركهم ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ وضلالهم حالة كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويترددون في الطغيان متحيرين، والعمه: التردد في الأمر من الحيرة فيه، والطغيان: تجاوز

---

(١) الفتوحات.

الحد؛ أي: إنا ندعهم يتجاوزون الحد في الكفر والعصيان، ويترددون متحيرين فيما سمعوا ورأوا من الآيات محدثين أنفسهم: أهذا هو الحق المبين، أم السحر الذي يخدع عيون الناظرين؟ وهل الأرجح اتباع الحق بعد ما تبين، أو المكابرة والجدل كبراً وأنفة من الخضوع لمن يرونه دونهم؟ وإنما أسنده الخالق إلى نفسه لبيان سننه الحكيمة في ربط المسببات بأسبابها، فرسوخهم في الطغيان الذي هو غاية الكفر والعصيان، هو سبب تقليب القلوب والأبصار؛ أي: الختم عليها، فلا تفقه ولا تبصر.

والوجه الثاني من الوجهين: أن جملة قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها. قال الصاوي: قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ استئناف مسوق لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله سبحانه وتعالى لا غيره، فمن أراد له الهدى حوّل قلبه له، ومن أراد شقاوته حول قلبه لها انتهى. وفي الآية[1] دليل على أن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأن القلوب والأبصار بيده وفي تصريفه، فيقيم ما شاء منها ويزيغ ما أراد منها، ومنه قوله ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». فمعنى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ نزيغها عن الإيمان، ونقلب أبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب، وإن جاءتهم الآية التي سألوها فلا يؤمنون بها، كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، فعلى هذا يكون الضمير في: ﴿بِهِۦ﴾ عائداً على الإيمان بالقرآن، وبما جاء به رسول الله ﷺ قبل سؤالهم الآيات التي اقترحوها. قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون في تمردهم على الله واعتدائهم عليه يترددون لا يهتدون إلى الحق.

وقرأ[2] النخعي: ﴿ويقلب﴾ و﴿يذرهم﴾ بالياء فيهما، والفاعل ضمير الله. وقرأ أيضاً فيما روي عنه مغير الصيغة: ﴿وتقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ بالرفع فيهما على البناء للمفعول، ﴿ويذرهم﴾ بالياء وسكون الراء، وافقه على ﴿ويذرهم﴾

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

الأعمش والهمداني. وقال الزمخشري: وقرأ الأعمش: ﴿وتقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ على البناء للمفعول.

الإعراب

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾: معطوف على ﴿ٱلْحَبِّ﴾. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾: فعل ومفعول. ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ على كونها خبراً لـ﴿إن﴾ أو مستأنفة. ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾: معطوف على ﴿يُخْرِجُ﴾ إن قلنا: إن جملته خبر ثان لـ﴿إن﴾، ومعطوف على ﴿فَالِقُ﴾ إن قلنا: إن جملة ﴿يُخْرِجُ﴾ مستأنفة، فهي معترضة حينئذ. ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ متعلق بـ﴿مخرج﴾. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدّر تقديره: إذا عرفتم أن ذلك الصانع هو المستحق بالعبادة والألوهية، وأردتم بيان ما يستحقه حالكم من التعجب.. فأقول لكم: ﴿أنى﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تُؤْفَكُونَ﴾. ﴿تُؤْفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ويصح أن تكون الفاء استئنافية.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾: خبر رابع لـ﴿أن﴾، ومضاف إليه. ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع معطوفة على ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ على كونها خبر لـ﴿أن﴾. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: معطوفان على ﴿ٱلَّيْلَ﴾. ﴿حُسْبَانًا﴾: معطوف على ﴿سَكَنًا﴾، ففيه العطف على معمولي عامل

واحد. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿تَقْدِيرُ﴾: خبر. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: مضاف إليه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾: صفة له، والجملة مستأنفة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾؛ لأن ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: خلق يتعدى لمفعول واحد. ﴿لِتَهْتَدُوا۟﴾: اللام: لام كي. ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿بِهَا﴾: متعلق به. ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تهتدوا﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لاهتدائكم بها في ظلمات البر والبحر، والجار والمجرور متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، فإن قيل: كيف يتعلق حرفا جر متحدان في اللفظ والمعنى بعامل واحد فالجواب: أن الثاني بدل من الأول بدل اشتمال بإعادة العامل. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿فَصَّلْنَا﴾، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنشَأَكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول. ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿أنشأ﴾. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: الفاء: عاطفة تفصيلية. ﴿مستقر﴾: مبتدأ خبره محذوف تقديره: فمستقر كائن لكم على قراءة فتح القاف، وعلى قراءة كسرها: فمنكم مستقر، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية، أعني: جملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ على كونها تفصيلاً لها. ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: مبتدأ خبره محذوف أيضاً تقديره: ومستودع لكم، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة.

﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق به. ﴿يَفْقَهُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿مَآءً﴾: مفعول به لـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾: الفاء: حرف عطف وترتيب. ﴿أخرجنا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أخرجنا﴾. ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾: الفاء: حرف عطف وترتيب. ﴿أخرجنا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أخرجنا﴾، لأن العاطف هنا مرتب. ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ﴿أخرجنا﴾. ﴿خَضِرًا﴾ مفعول ﴿أخرجنا﴾. ﴿نُّخْرِجُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به. ﴿حَبًّا﴾ مفعول به لـ﴿نُّخْرِجُ﴾. ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾: صفة ﴿حَبًّا﴾، وجملة ﴿نُّخْرِجُ﴾ في محل النصب صفة ﴿خَضِرًا﴾، ولكنها سببية.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِن طَلْعِهَا﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور قبله بدل بعض من كل. ﴿قِنْوَانٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿دَانِيَةٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية معترضة لاعتراضها بين المعطوف الذي هو جنات، والمعطوف عليه الذي هو نبات كل شيء. ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾: معطوف على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ منصوب بالكسرة. ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿جنات﴾. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ معطوفان على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جرياً على القاعدة المشهورة عندهم، من أنه إذا تكررت المعطوفات، وكان العطف بالواو.. يكون على الأول، ولو كثرت المعطوفات، وإن كان العطف بمرتب.. يكون الكل معطوفاً على ما قبله كما مر قريباً في ﴿أخرجنا﴾، كما ذكرناه في «الباكورة الجنية على متن الأجرومية» نقلاً

عن الحامدي. ﴿مُشْتَبِهًا﴾: حال من ﴿الزيتون والرمان﴾؛ أي: حالة كونهما مشتبهاً ورقهما، وقيل: حال من ﴿الرمان﴾ فقط. ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾: معطوف على مشتبهاً؛ أي: حالة كونهما غير متشابه ثمرهما.

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة متسأنفة. ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿أَثۡمَرَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على كل ما ذكر من الأشجار، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَآ﴾، والظرف متعلق بـ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾، والتقدير: انظروا إلى ثمره وقت إثماره. ﴿وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾: معطوف على ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ مجرور بـ﴿إِلَىٰ﴾؛ أي: وانظروا إلى ينعه إذا أدرك.. تروا أمراً عجيباً دالاً على باهر قدرته. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكُمۡ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إن﴾. ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿أيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾. ﴿شُرَكَآءَ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿جعل﴾. ﴿ٱلۡجِنَّ﴾: مفعول أول، والتقدير: وجعلوا الجن شركاء لله. ﴿وَخَلَقَهُمۡۖ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من الجلالة على تقدير: قد. ﴿وَخَرَقُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَجَعَلُواْ﴾. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خرقوا﴾. ﴿بَنِينَ﴾: مفعول به. ﴿وَبَنَٰتِۭ﴾: معطوف عليه. ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿وَخَرَقُواْ﴾؛ أي: حالة كونهم ملتبسين بجهالة وغير علم. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: سبح نفسه بذاته تسبيحاً، ونزهه تنزيهاً من كل ما لا يليق به، والجملة

مستأنفة. ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تعالى﴾. ﴿يَصِفُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عما يصفونه به.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: وهو تعالى بديع السموات. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنى: كيف، في محل النصب على التشبيه بالحال، أو بالظرف، والعامل فيه ﴿يَكُونُ﴾. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع تام. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَلَدٌ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب، فلا نطيل الكلام بإيرادها. ﴿وَلَمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع تام مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَّهُۥ﴾: متعلق به ﴿صَـٰحِبَةٌ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُۥ﴾. ﴿وَخَلَقَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿خَلَقَ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر أول، والجملة مستأنفة. ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثانٍ ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿إِلَـٰهَ﴾ في محل النصب اسم ﴿لَآ﴾، وخبر ﴿لا﴾ محذوف تقديره: موجود، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبر ثالث. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾ في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لا﴾ المحذوف. ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: خبر رابع ومضاف إليه. ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: الفاء:

سببية كما في «الجمل». ﴿اعبدوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، وإن شئت قلت: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم كونه خالق كل شيء، وأردتم بيان ما يلزمكم.. فأقول لكم: اعبدوه، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿وَكِيلٌ﴾. ﴿وَكِيلٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ كما في «الجمل».

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿اللَّطِيفُ﴾: خبر أول. ﴿الْخَبِيرُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جاء﴾، أو صفة لـ﴿بَصَائِرُ﴾. ﴿فَمَنْ﴾: الفاء: عاطفة تفصيلة. ﴿من﴾: اسم شرط، أو اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿أَبْصَرَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿لنفسه﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فإبصاره كائن لنفسه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿قَدْ جَاءَكُم﴾ على كونها مفصلة لها﴿وَمَنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في

محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿عَمِيَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَعَلَيْهَا﴾: الفاء: رابطة الجواب. ﴿عليها﴾: جار ومجرور خبر مبتدأ محذوف تقديره: فعماه عليها، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿وَمَآ أَنَا﴾: ﴿ما﴾: حجازية. ﴿أنا﴾: في محل الرفع اسمها ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿حفيظ﴾. ﴿بِحَفِيظٍ﴾: خبر ﴿ما﴾ الحجازية، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية معطوفة على جملة: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف منصوب بـ﴿نُصَرِّفُ﴾. ﴿نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، والتقدير: ونصرف الآيات في غير هذه السورة تصريفاً مثل تصريفنا في هذه السورة. ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. اللام: حرف جر وعاقبة. ﴿يقولوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة. ﴿دَرَسْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول، وجملة ﴿يقولوا﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولقولهم درست، الجار والمجرور معطوف على جار ومجرور محذوف تقديره: وكذلك نصرف الآيات لاهتداء المهتدين، ولقوله الجاحدين بها في عاقبة أمرهم: درست. ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لنبينه﴾ اللام لام كي. ﴿نبينه﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق به. وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾، وجملة ﴿نبين﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: ولتبييننا إياه لقوم يعلمون، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿ٱتَّبِعْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة.

﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به ﴿أُوحِىَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أوحي﴾ أيضاً، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَعْرِضْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿اتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ﴾. ﴿عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعرض﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: عدم إشراكهم، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَآ﴾: نافية ﴿أَشْرَكُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ﴾: نافٍ وفعل وفاعل ومفعول أول. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿حفيظا﴾. ﴿حَفِيظًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿لو﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿وكيل﴾. ﴿بِوَكِيلٍ﴾: خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ...﴾ إلخ مؤكدة لها؛ لأنها عينها.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يدعونهم: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ضمير العائد المحذوف، أو من الموصول. ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ﴾: الفاء: عاطفة سببية. ﴿يسبوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي. ﴿عَدْوًۢا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، والتقدير: سباً عدواً، أو على الحالية، أو على كونه مفعولاً لأجله. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور حال مؤكدة من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم متعادين ملتبسين بغير علم، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع

صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك؛ لإصلاح المعنى تقديره: لا يكن سبكم آلهتهم، فسبهم الله عدواً بغير علم.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف منصوب بـ﴿زَيَّنَّا﴾. ﴿زَيَّنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿زَيَّنَّا﴾. ﴿عَمَلَهُمْ﴾: مفعول ﴿زَيَّنَّا﴾ والتقدير: زينا لكل أمة من الأمم عملهم تزيينا مثل تزيينا لهؤلاء المشكرين شركهم، والجملة مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخٍ. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّرْجِعُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿زَيَّنَّا﴾. ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾: الفاء: عاطفة. ﴿ينبئهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾: ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينبئهم﴾. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يعملونه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: مفعول مطلق ومضاف إليه. ﴿لَئِن﴾: اللام: موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم مؤكدة للأولى. ﴿يؤمنن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور متعلق به، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم من جواب القسم تقديره: إن جاءتهم آية يؤمنون بها، وإنما جعلنا المذكور جواب القسم لسبقه على الشرط كما هو القاعدة المقررة عندهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة لا محل لها من

الإعراب لاعتراضها بين القسم وجوابه، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلْآيَٰتُ﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: استفهامية للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ﴾. ﴿أَنَّهَآ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، الهاء: اسمها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾، والجملة في محل الخفض بـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر ساد مسد المفعول الثاني لـ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾، والتقدير: وما يشعركم إيمانهم وعدم إيمانهم وقت مجيء تلك الآيات؛ أي: لا تدرون ذلك، هذا على قراءة الفتح لـ﴿أن﴾، وأما على قراءة الكسر: فهي مستأنفة، وفي المقام أوجه من الإعراب لا نطيل الكلام بذكرها.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾: معطوف على ﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على كونها معمولة لـ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾؛ أي: وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم أو مستأنفة. ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾: الكاف: حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿لَمْ﴾ حرف جزم. ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق

بـ﴿يؤمنوا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم تقليباً مثل عدم إيمانهم به أول مرة. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿لم يؤمنوا﴾. ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾. ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نذرهم﴾، أو متعلق بـ﴿يعمهون﴾. وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿نذرهم﴾ أو من ضمير ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾، أو في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿نذر﴾؛ لأن الترك بمعنى التصيير، فيتعدى إلى مفعولين، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ يجوز أن تكون الإضافة محضة على أنه اسم فاعل بمعنى الماضي؛ لأن ذلك قد كان، ويدل عليه قراءة عبد الله ﴿إن الله فلق الحب والنوى﴾ فعلاً ماضياً. ويجوز أن تكون الإضافة غير محضة على أنه بمعنى الحال أو الاستقبال، وذلك على حكاية الحال، فيكون الحب مجرور اللفظ منصوب المحل، والفلق، وكذا الفرق والفتق: هو شق الشيء، وقيده الراغب بإبانة بعضه عن بعض. والحب: هو الذي ليس له نوى كالحنطة والشعير. والنوى: واحدها نواة، وهي ما يكون في داخل التمر والزبيب.

﴿والإصباح﴾ ـ بكسر الهمزة ـ: مصدر أصبح الرجل إصباحاً إذا دخل في الصباح، وفي «المصباح»: الصبح: الفجر، والصباح مثله، وهو أول النهار، والصباح أيضاً خلاف المساء، وأصبحنا: دخلنا في الصباح اهـ. وفي «السمين»: الجمهور على كسر الهمزة، وهو المصدر، يقال: أصبح يصبح إصباحاً. وقال الليث والزجاج: إن الصبح والصباح والإصباح واحد، وهو أول النهار. وقيل: الإصباح: ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقيل: هو إضاءة الفجر، نقل ذلك عن مجاهد. والظاهر أن الإصباح في الأصل مصدر سمي به الصبح. وقرأ الحسن وأبو رجاء وعيسى بن عمر:

﴿الأصباح﴾ بفتح الهمزة، وهو جمع: صبح نحو: قفل وأقفال، وبرد وأبراد. اهـ.

﴿سَكَنًا﴾ السكن: السكون وما يسكن فيه من مكان كالبيت، وزمان كالليل، وما يسكن الإنسان ويطمئن إليه استئناساً به من زوج أو حبيب. وفي «المصباح»: والسكن: ما يسكن إليه من أهل ومال وغير ذلك، وهو مصدر سكنت إلى الشيء من باب طلب.

﴿حُسْبَانًا﴾ والحسبان ـ بضم الحاء ـ: مصدر حسب كالحسبان بالكسر، فكل من مضموم الحاء ومكسورها مصدر حسب كالحساب، فلهذا الفعل ثلاثة مصادر. وفي «المصباح»: حسبت المال حسباً من باب قتل أحصيته عدداً، وفي المصدر أيضاً حسبة بالكسر، وحسباناً بالضم، وحسبت زيداً قائماً أحسبه من باب تعب في لغة جميع العرب إلا بني كنانة، فإنهم يكسرون المضارع مع كسر الماضي أيضاً على غير قياس حسباناً بالكسر بمعنى ظننت اهـ. والحساب: استعمال العدد في الأشياء والأوقات.

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ والمستقر: موضع القرار والإقامة، يقال: قر في مكانه واستقر، فمن كسر القاف.. قال: المستقر بمعنى القار، ومن فتحها.. جعله مكان استقرار. وأما المستودع: فيجوز أن يكون اسماً للإنسان استودع ذلك المكان، وذلك على قراءة الكسر، ويجوز أن يكون المكان نفسه؛ أي: المستودع فيه؛ أي: موضع الوديعة، والوديعة: هي ما يتركه المرء عند غيره ليأخذه بعد، ولكن المستودع هنا بفتح الدال لا غير، لكن على قراءة الكسر في مستقر يكون معنى مستودع شيء مودوع، وهو النطفة في الصلب. وعلى قراءة الفتح يكون معنى مستودع مكان استيداع، وهو الصلب نفسه ذكره في «الفتوحات».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وأصل ماء: ماه، والهاء خفية، والألف كذلك، فأبدل من الهاء همزة؛ لأن الهمزة جلدة، فأصله: موه، فلما تحركت الواو وانفتح ما قبلها.. قلبت ألفاً، فصار: ماء، ذكره العلامة النحاس في «إعراب القرآن».

﴿خَضِرًا﴾: اسم فاعل من خضر من باب فعل المكسور العين، يقال: خضر الشيء فهو خضر وأخضر كعور فهو عور وأعور، فخضر وأخضر بمعنى، والخضر من النبات: الغض الناضر الطري.

﴿مُّتَرَاكِبًا﴾ المتراكب: ما تراكب حبه بعضه فوق بعض.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ والنخل والنخيل: واحدهما نخلة، والنخل: شجر التمر، وفي «الفتوحات»: النخل: اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ والطلع: أول ما يخرج منها قبل انشقاق الكيزان، فيقال له في هذه الحالة طلع، فإذا انشقت عنه الكيزان سمي عذقاً، وهو القنو. والقنوان: جمع تكسير، مفرده: قنو كصنو وصنوان، وهذا الجمع يلتبس بالمثنى حالة الوقف، فإذا قلت: عندي قنوان، وسكنت النون.. لا يدرى أنه مثنى أو جمع، ويمتازان بتحريك النون، فنون المثنى مكسورة دائماً، ونون هذا الجمع تتوارد عليها الحركات الثلاث بحسب الإعراب، ويمتازان أيضاً في النسب، فإذا نسبت إلى المثنى رددته إلى المفرد، فقلت: قنوي، وإذا نسبت إلى الجمع.. أبقيته على حاله؛ لأنه جمع تكسير فقلت: قنواني، ويمتازان أيضاً في الإضافة، فنون المثنى تسقط لها بخلاف نون الجمع التكسير، فتقول في المثنى: هذان قنواك، وفي الجمع: هذه قنوانك، ويقال مثل هذا في صنوان مثنى وجمعاً.

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ وقال الزجاج: قرن الزيتون بالرمان؛ لأنهما شجرتان تعرف العرب أن ورقهما يشتمل على الغصن من أوله إلى آخره. قال الشاعر:

بُوْرِكَ ٱلْمَيْتُ ٱلْغَرِيْبُ كَمَا بُوْ رِكَ نَضْجُ ٱلرُّمَّانِ وَٱلزَّيْتُوْنْ

﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ والينع: مصدر ينع بكسر النون يينع بفتحها، فهي مكسورة في الماضي مفتوحة في المضارع، ويصح العكس، والمصدر على كل حال: ينع بوزن منع، والينع بالفتح و الضم مصدر ينعت الثمرة إذا نضجت، والفتح لغة أهل الحجاز، والضم لغة أهل نجد، ويقال: والمعنى: انظروا إلى ثمره إذا أثمر رقيقاً مستدقاً، وإلى ينعه ونضجه حين يينع ويبدو صلاحه وينضج.. وفي «المختار»:

ينع الثمر إذا نضج، وبابه ضرب و جلس وقطع وخضع انتهى.

﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ﴾ يقال: خلق الكلمة واختلقها وخرقها واخترقها إذا ابتدعها كذباً. وقال الراغب الخرق: قطع الشيء على سبيل الفساد، قال تعالى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ والخلق فعل الشيء بتدبير ورفق، والبدع بكسر أوله والبديع: الشيء الذي يكون أولاً، ومنه: البدعة في الدين. وقال الراغب: الإبداع: إنشاء صنعة بلا احتذاء ولا اقتداء، والبديع من أسمائه تعالى.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر: جمع بصيرة، ولها عدة معان: منها: عقيدة القلب، والمعرفة الثابتة باليقين، والعبرة، والشاهد المثبت للأمر، والحجة، والقوة التي تدرك بها الحقائق العلمية، ويقابلها البصر الذي تدرك به الأشياء الحسية، والمراد بها هنا: الآيات الواردة في هذه السورة، أو القرآن بجملته. وفي «القاموس»: البصر محركاً: حس العين، والجمع أبصار مثل سبب وأسباب، ومن القلب: نظره وخاطره، والبصير: المبصر - والجمع بصراء - والعالم، وبالهاء: عقيدة القلب والفطنة والحجة اهـ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: نأتي بها متواترة حالاً بعد حال مفسرين لها في كل مقام بما يناسبه.

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ يقال: درس الشيء يدرس من باب نصر إذا عفا وزال، فهو دارس ودرسته الريح وغيرها، ودرس اللابس الثوب درساً إذا أخلقه وأبلاه، فهو دريس، ودرسوا القمح إذا داسوه ليتكسر فيفرق بين حبه وتبنه، ودرس الناقة إذا راضها، ودرس الكتاب والعلم يدرسه درساً ودراسة ومدارسة؛ أي: ذلله بكثرة القراءة حتى خف وسهل عليه حفظه من ذلك، والمعنى العام للدرس: تكرار المعالجة وتتابع الفعل على الشيء حتى يذهب به، أو يصل إلى الغاية منه.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: حلفوا، وسُمي الحلف قسماً؛ لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب، والجهد بفتح الجيم: المشقة، وبضمها: الطاقة، ومنهم من يجعلهما بمعنى واحد، وانتصب ﴿جهد﴾ على النيابة عن المصدر المنصوب. بـ﴿أقسموا﴾؛ أي: أقسموا جهد إقساماتهم، والأيمان

بمعنى: الإقسامات كما تقول: ضربت أشد الضربات.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ وفي «المصباح»: عمه في طغيانه عمهاً من باب تعب إذا تردد متحيراً مأخوذ من قولهم: أرض عمهاء إذا لم يكن فيها أمارات تدل على النجاة، فهو عمه وأعمه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾، وفي قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، وفي قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾، وفي قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ من الغيبة إلى التكلم، وكان قياس ما قبله: فأخرج به، والنكتة في هذا الالتفات الاعتناء بشأن المخرج، والإشارة إلى أن نعمه عظيمة.

ومنها: الطباق بين لفظ ﴿ٱلْحَيَّ﴾ و﴿ٱلْمَيِّتِ﴾، وبين: ﴿الشمس﴾ و﴿القمر﴾، وبين: ﴿ٱلْبَرِّ﴾ و﴿البحر﴾، وبين لفظ: ﴿أَبْصَرَ﴾ و﴿عمي﴾.

ومنها: من المحسنات البديعية ما يسمى: رد العجز على الصدر في قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري الذي بمعنى النفي في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: لا وجه لصرفكم عن الإيمان بعد قيام البرهان.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ لمزيد الشرف؛ لأنهما من أعظم النعم.

ومنها: جناس الاشتقاق بين لفظ ﴿يُخْرِجُ﴾ و﴿مخرج﴾، وبين لفظ: ﴿بَصَآئِرُ﴾ و﴿أَبْصَرَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ من باب الإطلاق اسم السبب على المسبب؛ أي: حجج وبراهين؛ لأن البصائر جمع بصيرة، والبصيرة: هي النور الذي تبصر به النفس؛ أي: الروح، كما أن البصر هو النور الذي تبصر به العين، فأطلق البصائر التي هي الأنوار القلبية التي هي السبب في إدراك الحجج والبراهين على تلك الحجج التي تسبب عنها، والعلاقة السببية.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾؛ أي: لا تدركه الأبصار: لأنه اللطيف، وهو يدرك الأبصار، لأنه الخبير، فيكون اللطيف مستعاراً من مقابل الكشيف، وهو الذي لا يدرك بالحاسة، ولا ينطبع فيها. انتهى من «البيضاوي».

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ومن عَمي﴾؛ لأنه استعار العمى للضلال، وإنما عبر عن الضلال بالعمى تقبيحاً له وتنفيراً عنه.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى من تفسير الجزء السابع من القرآن الكريم، فالحمد لله على توفيقه، والشكر له على تيسيره حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، حمداً يعدل حمد الملائكة المقربين، ويملأ ما في السموات والأرضين عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.
وكان الفراغ من مسودة هذا المجلد الثامن في اليوم الخامس منتصف النهار من شهر الله المبارك ذي الحجة من شهور سنة تسع وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية بحارة الرشدة من المسفلة من مكة المكرمة زادها الله تعالى شرفاً، وختم عمرنا فيها، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده، سيدنا محمد وآله وصحبه وجنده، والحمد لله رب العالمين آمين. =

ولقد أجاد من قال:

وَلِبَنِيْ ثَمَانٍ وَخَمْسِيْنَ سَنَهْ مَعْذِرَةٌ مَقْبُوْلَةٌ مُسْتَحْسَنَهْ
وَإِنْ تَجِدْ عَيْبَاً فَسُدَّ ٱلْخَلَلاَ وَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيْهِ وَعَلاَ
أَلْحَمْدُ لِلَّهِ مُسَبِّبِ ٱلأَسْبَابِ عَلَىٰ مَا وَفَّقَنَا بِشَرْحِ ٱلْكِتَابِ
شَرْحَاً يُسَمَّىٰ حَدَائِقَ ٱلرَّوْحَانِ مُشْتَمِلاً عَلَىٰ عُلُوْمِ ٱلْقُرْآنِ

= تم تصحيح هذه النسخة من هذا المجلد الثامن بيد مؤلفه في آخر الساعة الأولى من يوم الإثنين اليوم الخامس عشر من شهر الربيع الثاني من شهور سنة ألف وأربع مئة وعشرة ١٤١٠ هـ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

تم بعون الله سبحانه وتعالى المجلد الثامن من تفسير «حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن»، ويليه المجلد التاسع، وأوله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ آية رقم: ١١١ من آيات سورة الأنعام.

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد التاسع

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ ... وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ ... وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ
وَلِبَنِيْ ثَمَانٍ وَخَمْسِيْنَ سَنَهْ ... مَعْذِرَةٌ مَقْبُوْلَةٌ مُسْتَحْسَنَهْ

آخرُ

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيْحاً ... لأَجْلِ كَوْنِ فَهْمِهِ قَبِيْحَا
وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ صَافِيْ ٱلْعَسَلْ ... وَٱخْتَارَ لِنَفْسِهِ شَوْيَّ ٱلْبَصَلْ
لأَجْلِ مَرَضِهِ ٱلْعُضَالِ ... قَدْ أَعْيَا الأَطِبَّةَ ٱلْفُضَّالِ
مِنْ حَسَدٍ وَكِبْرٍ وَعُجْبِ ... وِغِلٍّ وَحِقْدٍ أَيَّ ذَنْبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على إفضاله والشكر له على نواله والصلاة والسلام على نبينه محمد صلى الله عليه وسلم وآله.

أما بعد: فإني لما فرغت من شرح الجزء السابع من القرآن الكريم بتوفيقه وتيسيره.. أردتُ أن أشرع في شرح الجزء الثامن منه بعون الله وفضله، فقلت مستمداً منه تعالى:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ
وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ
(١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)
أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا
لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)
وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ
إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ
الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ
يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ
إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ..﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما

قبلها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبعث، واقتراح المشركين بعض الآيات على رسول الله ﷺ.. ذكر هنا أن رؤية المعجزات لن تفيد من عميت بصيرته، وأنه لو أتاهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة وإحياء الموتى حتى يكلموهم، وحشر السباع والدواب والطيور وشهادتهم بصدق الرسول.. ما آمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن؛ لتعرقهم وتأصلهم في الضلال.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بين في الآيات السابقة أن مقترحي الآيات الكونية أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، وبما تدل عليه من صدق الرسول في دعوى الرسالة، وأن المؤمنين كانوا يودون لو أجيب اقتراحهم ظنًّا منهم أن ذلك مفض إلى إيمانهم، وذكر لهم خطأهم بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فأفاد أن سننه فيهم وفي أمثالهم من المعاندين أنهم إذا رأوا آية تدل على خلاف ما يعتقدون نظروا إليها نظرة إنكار وجحود وحملوها على أنها؛ إما خديعة وسحر، وإما أنها من أساطير الأولين.. ذكر هنا ما هو أبلغُ من ذلك، وفصل الإجمال الماضي في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فأيأس النبي ﷺ من إيمانهم ولو جاءهم بكل آية وأتى لهم بكل دليل. انتهت.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[2] في سابق الآيات أن الذين اقترحوا الآيات الكونية، وأقسموا أنهم يؤمنون إذا جاءتهم كاذبون في أيمانهم، وأنهم ما هم إلا من شياطين الإنس الذين يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً وأن دأبهم صرف الناس عن اتباع الحق، وتزيين الباطل فيغتر من لا يؤمن بالآخرة، ويرضى بهم لموافقتهم أهواءه.. ذكر هنا الآية الكبرى؛ وهي القرآن الكريم، فهو أقوى الأدلة على رسالة نبيه ﷺ من جميع ما اقترحوه، وهو الذي يجب الرجوعُ إليه في أمر الرسالة واتباع حكمه فيها دون

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

أولئك الضالين المبطلين من شياطين الإنس والجن.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] أجاب عن شبهات الكفار، وبين بالدليل صحة نبوة محمد ﷺ.. ذكر هنا أنه لا ينبغي الالتفات إلى ما يقوله هؤلاء الجهال؛ لأنهم يسلكون سبيل الضلال والإضلال، ويتبعون الظنون الفاسدة الناشئة من الجهل والكذب على الله، فلا ينبغي الركون إليهم والعمل بآرائهم.

وفي سياق الحديث ذكر أن أكثر الأمم في عهد بعثة محمد ﷺ كانوا ضُلاّلاً يغلب عليهم الشرك، بعد أن أبان ضلال مشركي العرب ومن على شاكلتهم في عقائدهم، ثم أردف ذلك ببيان مسألة هامة لها خطر، وهي من أصول الشرك، تلك هي مسألة الذبائح لغير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ...﴾الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما تضمنت[2] الآية التي قبلها الإنكار على اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال، وكانوا يسمون في كثير مما يذبحونه اسم آلهتهم.. أمر المؤمنين بأكل ما سمي على ذكاته اسم الله تعالى لا غيره من آلهتهم أمر إباحة، وما ذكر اسم الله عليه فهو المذكى لا ما مات حتف أنفه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ[3] أنه قال: المستهزؤون بالقرآن كانوا خمسةً: الوليدُ بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب، والحارث بن حنظلة، ثم

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراح وزاد المسير.

إنهم أتوا رسول الله ﷺ في رهط من أهل مكة، وقالوا له: أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله، أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم أحق ما تقوله أم باطل، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً؛ أي: كفيلاً على صحة ما تدعيه، فنزلت هذه الآية، وقال ابن الجوزي: رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: أن مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكماً إن شئت من أحبار اليهود، وإن شئت من أحبار النصارى؛ ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك، فنزلت هذه الآية. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، سبب نزولها: أن الكفار قالوا للمسلمين: أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم؟ فنزلت هذه الآية، ذكره الفراء.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: أن الله تعالى لما حرم الميتة قال المشركون للمؤمنين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتل الله لكم أحق أن تأكلوه مما قتلتم - يريدون الميتة - فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال السيوطي: قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[3]: ما رواه أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: أتى ناس إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

وأخرج[4] أبو داود والحاكم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ قالوا: ما ذبح الله لا

---

(١) زاد المسير.

(٢) زاد المسير.

(٣) لباب النقول.

(٤) لباب النقول.

تأكلون وما ذبحتم أنتم تأكلون؟ فأنزل الله هذه الآية. وأخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.. أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً، فقولوا له: ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله بشمشار من ذهب؛ يعني الميتة، فهو حرام؟! فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ قال: الشياطينُ من فارس، وأولياؤهم قريش.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾؛ أي: أنزلنا على هؤلاء المشركين ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ كما طلبوا في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ فرأوهم بأعينهم المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة، وسمعوا بآذانهم شهادتهم لك بالرسالة ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من القبور كما طلبوا في قولهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ بأن نحييهم لهم، ونجعلهم حجة على صدق ما جئت به من الرسالة بأن أقروا بأن محمداً رسول الله، والقرآن كلام الله تعالى. ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي وجمعنا على هؤلاء المستهزئين زيادة على ما اقترحوه ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ من أصناف المخلوقات كالسباع والطيور حالة كونهم ﴿قُبُلًا﴾؛ أي: كفلاً بصدق محمد ﷺ مقرين له، أو المعنى: وجمعنا عليهم كلَّ شيء من المخلوقات قبلاً؛ أي: فوجاً فوجاً، وجماعة جماعة، وصنفاً صنفاً، أو المعنى: وحشرنا عليهم قبلاً؛ أي: مقابلة ومعاينة ﴿مَّا كَانُوا۟﴾؛ أي: ما كان هؤلاء المشركون ﴿لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إيمانهم؛ أي: ولو أظهر الله سبحانه وتعالى جميع تلك الأشياء العجيبة الغريبة لهؤلاء الكفار، فإنهم لا يؤمنون في حال من الأحوال الداعية إلى الايمان إلا في حال مشيئة الله تعالى لإيمانهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر المؤمنين ﴿يَجْهَلُونَ﴾ عدم إيمانهم؛ أي: أن الكفار لو أوتوا بكل آية.. لم يؤمنوا، ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمانهم عند مجيء الآيات؛ لجهلِهم عدم مشيئة الله تعالى لإيمانهم، فيتمنون مجيئها طمعاً فيما لا يكون؛ ولذلك يتمنى بعض المؤمنين لو يؤتى مقترحوا الآيات ما اقترحوا ظناً منهم أن ذلك يكون سبب إيمانهم مع أن الآيات لا تلزمهم الإيمان، ولا تغير

طباع البشر في اختيار ما يترجح لدى كل منهم بحسب ما يؤدي إليه فكره وعقله، ولو شاء الله لخلق الايمان في قلوبهم خلقاً بحيث لا يكون لهم فيه عمل ولا اختيار، وحينئذ لا يكونون محتاجين إلى الرسل، كما أنه لو شاء جعل الآيات مغيرة لطبائع البشر، وملزمة لهم أن يؤمنوا، فيكون الإيمان إلجاءً وقسراً لا اختياراً وكسباً، ولكنه لم يشأ ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾.

وقيل: الضمير في ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ عائد على الكفار، والمعنى: ولكن أكثر الكفار يجهلون[1] جهلاً يحول بينهم وبين درك الحق والوصول إلى الصواب، أو يجهلون[2] أنه لا يجوز اقتراح الآيات بعد أن رأوا آية واحدة، أو يجهلون أن كلاً من الإيمان والكفر هو بمشيئة الله وقدره. وقال الزمخشري: يجهلون، فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات.

وقرأ نافع وابن عامر[3]: ﴿قِبَلاً﴾ ـ بكسر القاف وفتح الباء ـ ومعناه: مقابلة؛ أي: عياناً ومشاهدة. قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد ونصبه على الحال. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿قُبُلاً﴾ ـ بضم القاف والباء ـ فقال مجاهد وابن زيد وعبد الله بن يزيد: جمع قبيل، وهو النوع؛ أي: نوعاً نوعاً، وصنفاً صنفاً. وقال الفراء والزجاج: جمع قبيل بمعنى كفيل؛ أي: كفلاً بصدق محمد ﷺ، والقبيل والكفيل والزعيم والأدين والحميل والضمين بمعنى واحد. وقيل: قبلاً بمعنى قبلاً؛ أي: مقابلة ومواجهة، ومنه قولهم: أتيتك قبلاً لا دبراً؛ أي: من قبل وجهك. وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة: ﴿قبلاً﴾ ـ بضم القاف وسكون الباء على جهة التخفيف من الضم ـ. وقرأ أبي والأعمش ﴿قَبِيلاً﴾ ـ بفتح القاف وكسر الباء وياء بعدها ـ وانتصابه في هذه القراءة على الحال. وقرأ ابن مصرف بفتح القاف وسكون الباء.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.

ثم أراد الله سبحانه وتعالى بعد ما تقدم تسلية نبيه ﷺ ببيان أن سنته في الخلق أن يكون للنبيين أعداء من الجن والإنس، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ استئناف مسوق لتسلية النبي ﷺ على ما يشاهده من عدواة قريش وما بنوه عليها من الأقاويل الباطلة ببيان أن ذلك ليس مختصاً بك، بل هو أمر ابتلي به كل من سبقك من الأنبياء فصبروا، ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد لما بعده. ذكره أبو السعود؛ أي: وكما جعلنا هؤلاء المستهزئين ومن نحا نحوهم أعداء لك. . جعلنا لكل نبي من الأنبياء الذين سبقوا قبلك ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾؛ أي: أعداءهم شياطين الإنس والجن ومردتهم، والمعنى: كما ابتليناك بالأعداء. . ابتلينا من قبلك بالأعداء من الإنس والجن؛ ليعظم الأجر والثواب عند الصبر على الأذى، فلك أسوة بهم ولست منفرداً بعداوة من عاصرك، بل هذه سنة من قبلك من الأنبياء.

وقال الزجاج: عدواً بمعنى[1]: أعداء. قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، وقال الشاعر:

إِذَا أَنَا لَمْ أَنْفَعْ صَدِيْقِيْ بِوِدِّهِ فَإِنَّ عَدُوِّيْ لَمْ يَضُرُّهُمُ بُغْضِيْ

و ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ منصوب[2] على البدل من ﴿عَدُوًّا﴾ ومفسر له، ويجوز أن يكون: ﴿عَدُوًّا﴾ منصوباً على أنه مفعول ثان قدم مسارعة إلى بيان العداوة، والمعنى: وكذلك جعلنا شياطين الإنس والجن أعداء لكل نبي. وفي: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم مردة الإنس والجن. قاله الحسن وقتادة.

والثاني: أن شياطين الإنس الذين مع الإنس، وشياطين الجن الذين مع الجن. قاله عكرمة والسدي.

والثالث: أن شياطين الإنس والجن كفارهم. قاله مجاهد وذكره ابن

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير.

الجوزي في «تفسيره». وقرأ الأعمش شاذاً[1]: ﴿الجن والإنس﴾ بتقديم الجن.

ومعنى جعلهم أعداء للأنبياء[2]: أن سنة الله قد جرت بأن يكون الشرير الذي لا ينقاد للحق كبراً وعناداً، أو جموداً على ما تعود، عدواً للداعي إليه من الأنبياء وورثتهم وناشري دعوتهم، وهكذا الحال في كل ضدين يدعو أحدهما إلى خلاف ما عليه الآخر في الأمور الدينية أو الاجتماعية، وهذا ما يعبر عنه بسنة تنازع البقاء بين المتقابلات التي تدعو إلى التنافس والجهاد، وتكون العاقبة انتصار الحق، وبقاء الأمثل الأصلح، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فالحياة جهاد لا يثبت فيه إلا الصابرون المجدون، وليس العمل للآخرة إلا كذلك ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

ثم بين الله سبحانه وتعالى بعدئذ أن من أثر عداوة هؤلاء الشياطين للأنبياء مقاومتهم للهداية والدعوة التي كلفوا بها، فقال: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾؛ أي: حالة كون تلك الشياطين يوحي بعضهم؛ أي: يلقي بعضهم ويسر ويناجي إلى بعض آخر، ويعلمه؛ أي: يلقي شياطين الجن إلى شياطين الإنس زخرف القول؛ أي: مزخرفه ومزينه ومحسنه ظاهراً مع بطلان باطنه غروراً؛ أي: ليغروا ويفتنوا بذلك المزخرف المؤمنين والصالحين عن دينهم وعبادتهم وطاعتهم أمر ربهم، يعني[3]: أن الشياطين يغرون بذلك الكذب المزخرف غروراً، وذلك أنَّ الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم، ويغرونهم بها غروراً. قال مقاتل[4]: وَكَّلَ إبليس بالإنس شياطين يضلونهم، فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن.. قال أحدهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، فأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا، فذلك وحي بعضهم إلى بعض. وقال غيره: إن المؤمن إذا أعيا شيطانه ذهب إلى متمرد من الإنس، هو شيطان الإنس،

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

(٤) زاد المسير.

فأغراه بالمؤمن ليفتنه. وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين. وقال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد عليَّ من شيطان الجن؛ لأني إذا تعوذت من ذاك ذهب عني، وهذا يجرني إلى المعاصي عياناً، ذكره ابن الجوزي. وقال ابن عباس: الجن هم أولاد الجان، وليسوا شياطين، والشياطين ولد إبليس، وهم لا يموتون إلا مع إبليس، والجن يموتون، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر. وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: الكهنة هم شياطين الإنس انتهى من «الشوكاني». ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد إيمانهم، أو عدم تزيين الشياطين زخرف القول ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: ما فعل الكفار معاداتك ومعاداة الأنبياء قبلك، أو ما فعل الشياطين إيحاء زخرف القول غروراً. وقال أبو حيان[1]؛ أي: ما فعلوا العداوة أو الوحي أو الزخرف، أو القول أو الغرور أوجه ذكروها انتهى. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ عليك وعلى الله، فإن الله تعالى يجزيهم وينصرك ويخزيهم و﴿ما﴾: إما مصدرية، والتقدير: اتركهم وافتراءهم عليك وعلى الله وإما موصولة؛ أي: اتركهم والذي يفترونه، يعني[2]: فخلهم يا محمد وما زين لهم إبليس وغرهم به من الكفر والمعاصي، فإني من ورائهم. وعبارة المراح: أي اترك يا محمد هؤلاء الكفرة المستهزئين وافتراءهم بأنواع المكايد، فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة. قال ابن الجوزي؛ أي[3]: فذر المشركين وما يخاصمونك به مما يوحي إليهم أولياؤهم وما يختلقون من كذب، وهذا القدر من هذه الآية منسوخ بآية السيف، انتهى. وهذا الأمر للتهديد للكفار كقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾؛ أي[4]: يلقي بعضهم إلى بعض القول المموه الذي به يظنون أنهم يسترون قبيح باطلهم، ويؤدونه بطرق خفية لا يفطن إلى باطلها كل أحد حتى يغروا غيرهم ويخدعوه، ويميلوه إلى ما يريدون. وأول مثل لهذا الغرور ما وسوس به الشيطان للإنسان

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.
(٣) زاد المسير.
(٤) المراغي.

الأول وزوجه الكريم ـ آدم وحواء ـ فزين لهما الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها كما قال: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ وهكذا يوسوس شياطين الإنس والجن لمن يجترحون السيئات ويرتكبون المعاصي، فيزينون لهم ما فيها من عظيم اللذة والتمتع بالحرية، ويمنونهم بعفوا لله ورحمته، وشفاعة أنبيائه وأوليائه حتى ليترنم أحدهم بقوله:

تكثَّر ما استطعت من الخطايا فإنك واجد رباً غفوراً

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: ولو شاء ربك أن لا يفعلوا هذا الغرور.. ما فعلوا، ولكنه لم يشأ أن يغير خلقهم أو يجبرهم على خلاف ما تزينه لهم أهواؤهم، بل شاء أن يكون الإنس والجن على استعداد لقبول الحق والباطل والخير والشر، وأن يكونوا مختارين سلوك أي الطريقين كما قال: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب ويخترعون من الإفك صرفاً للناس عن سبيل الحق، وسعياً في إضلالهم وصدهم عن طريق الرشاد، وامض لشأنك كما أمرت، فعليك البلاغ وعلينا الحساب والجزاء، وسترى سنتنا فيهم وفي أمثالهم، وقد أراه عاقبة أمرهم، فأهلك المستهزئين بالقرآن، ونصره على أعدائه المشركين: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ انتهت.

واللام في قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لام كي معطوفة على مقدر معلوم من السياق على كونها علة ليوحي؛ أي: يوحي بعض هؤلاء الشياطين إلى بعض المموه من القول؛ ليغروا به المؤمنين من أتباع الأنبياء، فيفتنوهم عن دينهم ﴿ولتصغى إليه﴾؛ أي: ولكي تميل إلى هذا المزخرف ﴿أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾؛ أي: قلوب الذين لا يصدقون بالبعث بعد الموت؛ لأنه الموافق لأهوائهم؛ إذ هم يميلون إلى حب الشهوات التي من جملتها مزخرفات الأقاويل ومموهات الأباطيل، أما الذين ينظرون إلى عواقب الأمور، فيعلمون بطلانها، فلا تغرهم تلك الزخارف، ولا تعجبهم تلك الأباطيل. ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾؛ أي: وليرضى الذين لا يؤمنون بالآخرة ذلك المزخرف لأنفسهم ويحبوه لهم بعد الإصغاء إليه بلا بحث ولا تمحيص فيه. ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾؛ أي:

وليكتسبوا بسبب ارتضائهم له وغرورهم ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾؛ أي: ما هم مكتسبون له من الآثام، فيعاقبوا عليها.

وقرأ النخعي والجراح بن عبد الله[1]: ﴿ولتصغِي﴾ - بكسر الغين - من أصغى الرباعي. وقرأ الحسن بسكون اللام في الأفعال الثلاثة، وقيل عنه بالسكون في: ﴿لْيرضوه ولْيقترفوا﴾ وبالكسر في: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾. وقال أبو عمرو الداني: قراءة الحسن إنما هي: ﴿ولتصغِي﴾ - بكسر الغين - انتهى. وخرِّج سكون اللام في الثلاثة على أنه شذوذ في لام كي، وهي لام كي في الثلاثة، وهي معطوفة على ﴿غُرُورًاۚ﴾، وسكون لام كي في نحو هذا شاذ في السماع قوي في القياس. قاله أبو الفتح. وقال غيره: هي لام الأمر في الثلاثة، ويبعد ذلك في ﴿ولْتُصْغِيْ﴾ - بإثبات الياء - وإن كان قد جاء ذلك في قليل من الكلام كما في قراءة قنبل: ﴿إنه من يتقي ويصبر﴾ على أنه يحتمل التأويل. وقيل هي في ﴿ولْتصغى﴾ لام كي سكنت شذوذاً، وفي: ﴿لْيرضوه ولْيقترفوا﴾ لام الأمر مضمنا التهديد والوعيد كقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾.

والاستفهام في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ للإنكار، والفاء عاطفة على فعل مقدر، والكلام على إرادة القول، والتقدر: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أأضل وأميل إلى زخارف الشياطين فـ﴿أَبْتَغِى﴾ وأطلب ﴿حَكَمًا﴾؛ أي: حاكماً ﴿غير الله﴾ يحكم بيني وبينكم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: والحال أنه سبحانه وتعالى هو الذي أنزل إليكم القرآن، وأنتم أمة أمية لا تدرون ما تأتون وما تذرون حالة كون ذلك الكتاب ﴿مُفَصَّلًاۚ﴾؛ أي: مبيناً فيه الحق والباطل، فلم يبق في أمور الدين شيء من الإبهام، فأي حاجة بعد ذلك إلى الحكم؛ أي: لا أبتغي حكماً غير الله نزلت حين قال مشركوا قريش للرسول ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود، وإن شئت من أساقفة النصارى، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك، والحكم[2] والحاكم معناهما عند أهل اللغة واحد، لكن بعض

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

أهل التأويل قال: الحكم أكمل من الحاكم؛ لأن الحكم لا يحكم إلا بالحق، والحاكم قد يجور، ولأن الحكم من تكرر منه الحكم، والحاكم يصدق بمرة.

والمعنى: ليس[1] لي أن أتعدى حكم الله تعالى، ولا أن أتجاوزه؛ لأنه لا حكم أعدل من حكمه، ولا قائل أصدق منه، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً فيه كل ما يصح به الحكم، وإنزاله مشتملاً على الحكم التفصيلي للعقائد والشرائع وغيرهما على لسان رجل منكم أمي مثلكم.. هو أكبر دليل وأظهر آية على أنه من عند الله لا من عنده، كما جاء في قوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾؛ أي: جاوزت الأربعين، ولم يصدر عني مثله في علومه، ولا في إخباره الغيب، ولا في فصاحته وبلاغته.

والخلاصة: أنكم تتحكمون في طلب المعجزات؛ لأن الدليل على نبوة محمد ﷺ قد حصل بوجهين:

١ ـ أنه أنزل إليكم الكتاب المفصل المشتمل على علوم كثيرة بأسلوب عجز الخلق عن معارضته، فيكون هذا دليلاً على أن الله تعالى قد حكم بنبوته.

٢ ـ ما سيذكره بعد من أن التوراة والإنجيل تشتملان على الآيات الدالة على أنه ﷺ حق، وأن القرآن كتاب حق من عند الله تعالى، ثم ذكر ما يؤكد ما سبق، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: وأهل الكتاب الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل والزبور ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أن هذا القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ حالة كونه متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق الذي لا شك فيه ولا شبهة، والمراد بهم علماء أهل الكتاب، فهو عام بمعنى الخصوص.

قرأ ابن عباس وابن عامر وحفص[2]: ﴿مُنَزَّل﴾ ـ بتشديد الزاي ـ والباقون بسكون النون. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد، أو أيها المخاطب ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ أي: من الشاكين في أن علماء أهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن حق، وأنه منزل من

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

عند الله ـ سبحانه وتعالى، ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم؛ أي: إن أنكر هؤلاء المشركون أن يكون القرآن حقاً، وكذبوا به.. فالذين أعطيناهم الكتب المنزلة من قبله كعلماء اليهود والنصارى.. يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، ذاك أنهم يعلمون أنه من جنس الوحي الذي نزل على أنبيائهم، وأن أوسع البشر علماً لا يستطيع أن يأتي بمثله مع أن كتبهم تشتمل على بشارات بذلك النبي لم تكن لتخفى على علمائهم في عصر التنزيل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وقد اعترف بذلك من أنار الله بصيرتهم من أهل الكتاب، فآمنوا وأنكر بعضهم الحق وكتمه بغياً وحسداً، فباء بالخسران المبين.

والخطاب في قوله[1]: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ إما للنبي ﷺ، والمراد به غيره على سبيل التعريض كقوله: ﴿فلا تكونن من المشركين﴾ وإما له ﷺ، والمراد النهي له عن الشك في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، فهو من باب التهييج والإلهاب؛ لأنه ﷺ لم يشك قط، أو الخطاب لكل من يتأتى منه الامتراء على مثال قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ لما[2] قدم من أول السورة إلى هنا دلائل التوحيد والنبوة والبعث، والطعن على مخالفي ذلك، وكان من هنا إلى آخر السورة أحكام وقصص.. ناسب ذكر هذه الآيات هنا؛ أي: تمت أقضيته ونفذت أقداره. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

والمعنى: إن الله قد أتم وعده ووعيده، فظهر الحق وانطمس الباطل. وقال قتادة: كلماته القرآن؛ أي: تم وعده لأوليائه بنصرهم، ووعيده لأعدائه بخذلانهم. وقال الزمخشري: في كل ما أخبره به، وأمر ونهى، ووعد وأوعد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ونافع[3]: ﴿كلمات﴾ بالجمع هنا، وفي يونس في الموضعين، وفي المؤمن. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب:

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) زاد المسير.

﴿كَلِمَة﴾ بالإفراد في جميع ذلك. وقد ذكرت العرب الكلمة وأرادت بها الكثرة، يقولون: قال قس في كلمته؛ أي: في خطبته، وزهير في كلمته؛ أي: في قصيدته. فمن قرأ بالإفراد.. قال: الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة، ومن قرأ بالجمع.. قال: لأن الله تعالى قال في سياق الآية: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، فوجب الجمع في اللفظ الأول إتباعاً للثاني، وترسم بالتاء المجرورة على كل من قراءة الجمع وقراءة الإفراد، وكذا كل موضع اختلف فيه القراء جمعاً وإفراداً، فإنه يكتب بالتاء المجرورة على كل من القراءتين باتفاق المصاحف إلا موضعين من ذلك، فقد اختلف فيهما المصاحف:

أحدهما: في يونس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

وثانيهما: في غافر في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فاختلفت فيهما المصاحف، فبعضها بالتاء المجرورة، وبعضها بالتاء المربوطة.

وقوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ تمييز لـ﴿كَلِمَتُ﴾؛ أي: تمت كلمات ربك وأقضيته من جهة الصدق فيما وعد وأوعد، ومن جهة العدل فيما أمر ونهى، أو المعنى: تمت كلمات ربك وقرآنه من جهة الصدق فيما أخبر عن القرون الماضية والأمم الخالية، وعما هو كائن إلى قيام الساعة، ومن جهة العدل في أحكامه من الأمر والنهي والحلال والحرام، وسائر الأحكام. ويصح كون ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ حالاً من ﴿الكلمة﴾؛ أي: حالة كونها صادقةً فيما أخبرت، وعادلة فيما أمرت ونهت، ويصح كونهما حالاً من ﴿رَبِّكَ﴾؛ أي: حالة كونه صادقاً فيما وعد وأوعد، وعادلاً فيما أمر ونهى. ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: لا مغير لأقضيته، ولا راد لأحكامه وأقداره، ولاخلف لمواعيده، أو لا مبدل لكلمات القرآن، فلا يلحقها تغيير لا في المعنى ولا في اللفظ؛ أي: لا أحد يبدل شيئاً من القرآن بما هو أصدق منه وأعدل، ولا بما هو مثله، ولا يقدر المفترون على الزيادة فيه والنقصان منه لا في اللفظ ولا في المعنى، وفي **هذا** ضمان من الله تعالى لحفظ القرآن كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. وفي «**الخازن**» لما وصفها بالتمام، وهو في

كلامه تعالى يقتضي عدم قبول النقص والتغيير، قال: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ انتهى. وفي حرف أبي: ﴿لا مبدل لكلمات الله﴾.

ومعنى الآية: وتمت[1] كلمة ربك فيما وعدك به من نصرك، وأوعد به المستهزئين بالقرآن من الخذلان والهلاك، كما تمت في الرسل وأعدائهم من قبلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ وتمامها صدقاً هو حصولها على الوجه الذي أخبر به، وتمامها عدلاً باعتبار أنها جزاء للكافرين المعاندين للحق بما يستحقون، وللمؤمنين بما يستحقون أيضاً، وقد يزادون على ذلك فضلاً من الله ورحمة، والمراد بالخبر لازمه، وهو تأكيد ما تضمنته الآيات من تسلية النبي ﷺ على كفر هؤلاء المعاندين وإيذائهم له ولأصحابه، وإيئاس للطامعين من المسلمين في إيمانهم حين إيتائهم الآيات المقترحة.

وخلاصة المعنى: كما أنَّ سنتي قد مضت بأن يكون للرسل أعداء من شياطين الإنس والجن.. تمت كلمتي بنصر المسلمين وخذلان الأعداء المفسدين ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: إن كلمة الله في نصرك وخذلان أعدائك قد تمت وأصبحت واقعةً نافذةً حتماً لا مرد لها؛ لأن كلمات الله لا مبدل لها، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يزيلها بكلمات أخرى تخالفها، وتمنع صدقها على من وردت فيهم، كأن يجعل الوعد وعيداً، أو الوعيد وعداً، أو يصرفهما عن الموعود بالثواب أو المتوعَّد بالعقاب إلى غيرهما، أو يحول دون وقوعهما.

والخلاصة: أنه لا مغير لما أخبر عنه من خبر أنه كائن، فيبطل مجيؤه، وكونه على ما أخبر جلَّ شأنه ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لتلك الأقوال الخادعة عنه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبهم من المقاصد والمكايد، والنيات، وبما يقترفون من الذنوب والسيئات، فيجازيهم عليها، أو المعنى: السميع لتضرع أوليائه ولقول أعدائه، العليم بما في قلوب الفريقين.

﴿وَإِن تُطِعْ﴾؛ أي: وإن توافق يا محمد ﴿أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

الكفار من الناس فيما يعتقدونه من إحقاق الباطل، وإبطال الحق. قيل: والمراد بأكثر أهل الأرض رؤساء مكة، والمراد بالأرض خصوص مكة. ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: يصرفوك عن الطريق الموصول إلى الله؛ أي: وإن تطع أحداً من الكفار بمخالفة ما شرعه الله وأودعه في كلماته المنزلة عليك يضلوك عن الدين الحق، وعن نهج الصواب، فلا تتبع أنت ومن اتبعك حكماً غير الذي أنزل إليك من الكتاب مفصلاً، فهو الهداية التامة الكاملة، فادع إليه الناس كافةً، ثم أكد ما سبق بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي: ما يتبع كفار أهل الأرض في إثبات مذهبهم، وتأسيس عقائدهم كتحليل الميتة وتحريم السائبة ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي: إلا ظن أن آباءهم كانوا على الحق، فهم على آثارهم مقتدون ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: وما هم إلا يكذبون، وهذا تأكيد لما قبله، فإن رؤساء أهل مكة منهم أبو الأحوص مالك بن عوف الجشمي، وبديل بن ورقاء الخزاعي، وجليس بن ورقاء الخزاعي قالوا للمؤمنين: إن ما ذبح الله خير مما تذبحون أنتم بسكاكينكم؛ أي: أن هؤلاء لا يتبعون في عقائدهم وأعمالهم إلا الظن الذي ترجحه لهم أهواؤهم وما هم إلا يخرصون في ترجيح بعض منها على بعض كما يخرص أرباب النخيل والكروم ثمرات نخيلهم وأعنابهم، ويقدرون ما تجود به من التمر والزبيب تخميناً وحدساً دون تحقيق لذلك، ولا برهان لهم على ما يقولون، فهم يكذبون على الله فيما ينسبون إليه من اتخاذ الولد، وجعل عبادة الأوثان ذريعة إليه، وتحليل الميتة وتحريم البحائر ونحو ذلك، وتاريخ تلك العصور يؤيد الحكم القطعي الذي في الآية من ضلال أكثر أهل الأرض، واتباعهم للخرص والظن، فأهل الكتاب من اليهود والنصارى قد تركوا هداية أنبيائهم، وضلوا ضلالاً بعيداً، وكذلك الأمم الوثنية التي كانت أبعد عهداً عن هداية الرسل والأنبياء.

وهذا من علم الغيب الذي أوتيه هذا النبي الأمي، وهو لم يكن يعلم من أحوال الأمم إلا النزر اليسير من شؤون الأمم المجاورة لبلاد العرب، ثم أعقبه تأكيداً آخر زيادة في التحذير فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك يا محمد، وعلمك بما أنزله إليك، وبين لك ما لم تكن تعلم من الحق ومن شؤون الخلق ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ منك ومن سائر عباده ﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: بمن يضل عن سبيله القويم

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ السالكين صراطه المستقيم، ففوض أمرهم إلى خالقهم، فهو العليم بالضال والمهتدي، ويجازي كلا بما يليق بعمله. وقرأ الحسن وأحمد بن أبي شريح: ﴿يُضل﴾ ـ بضم الياء ـ وفاعل ﴿يضل﴾ ضمير ﴿مَن﴾، ومفعوله محذوف؛ أي: من يضل الناس، أو ضمير الله على معنى يجده ضالاً، أو يخلق فيه الضلال، وهذه الجملة خبرية تتضمن الوعيد والوعد؛ لأن كونه تعالى عالماً بالضال والمهتدي كناية عن مجازاتهما. ذكره أبو حيان في «البحر».

وبعد أن أبان لرسوله ﷺ أن أكثر أهل الأرض يضلون من أطاعهم؛ لأنهم ضالون خراصون، وأنه تعالى هو العليم بالضالين والمهتدين.. أمر رسوله وأتباعه بمخالفة أولئك الضالين من قومهم، ومن غيرهم في مسألة الذبائح وترك جميع الآصار والآثام، فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وهذا كلام متفرع من النهي عن اتباع المضلين، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتموه أنتم، فقال الله للمسلمين: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: إذا كان حال أكثر هؤلاء الناس ما بينته لكم من الضلال، فكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح، وهو المذكى ببسم الله خاصة، دون غيره مما ذكر عليه اسم غيره فقط، أو مع اسمه تعالى، أو مات حتف أنفه ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ﴾ التي جاءتكم بالهدى والعلم ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ وبما يخالفها من الضلال والشرك مكذبين.

فصل

وقد كان مشركوا العرب وغيرهم من أرباب الملل يجعلون الذبائح من أمور العبادات، ويقرنونها بأصول الدين والاعتقادات، فيتعبدون بذبح الذبائح لآلهتهم ومن قدسوا من رجال دينهم، ويهلون لهم عند ذبحها، وهذا شرك بالله؛ لأنه عبادة يقصد بها غيره تعالى سواء سموه إلهاً أو معبوداً، أو لم يسموه.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾؛ أي: وأي سبب حاصل لكم أيها المؤمنين في: ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند الذبح وأن تأكلوا من غيره؛ أي: وأي غرض لكم في

الامتناع من أكله؟ وهو استفهام يتضمن الإنكار على من امتنع من ذلك؛ أي: لا شيء يمنعكم من ذلك، وهذا تأكيد في إباحة ما ذبح على اسم الله دون غيره؛ أي: ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه بعد أن أذن الله لكم بذلك؟ ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: والحال أنه سبحانه وتعالى قد بين لكم ما حرم عليكم بقوله سبحانه وتعالى في هذه السورة فيما سيأتي: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ومعنى ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ أي: ذكر عليه اسم غيره عند ذبحه كالأصنام والأنبياء الذين وضعت التماثيل ذكرى لهم. فهذا وإن كان متأخراً في التلاوة، فلا يمتنع أن يكون هو المراد؛ لأن التأخر في هذا قليل، وأيضاً التأخر في التلاوة لا يوجب التأخر في النزول.

أو بين لكم بقوله تعالى في أول سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية؛ لأن الله تعالى علم أن سورة المائدة متقدمة على سورة الأنعام في الترتيب لا في النزول. ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلا ما دعتكم الضرورة والمشقة وأحوجتكم إلى أكله بسبب شدة المجاعة مما حرم عليكم عند الاختيار؛ فهو حلال لكم لأجل الضرورة بأن لم يوجد من الطعام عند شدة الجوع إلا المحرم، فحينئذ يزول التحريم، والقاعدة الشرعية: (الضرورات تبيح المحظورات)، والقاعدة الأخرى: (الضرورة تقدر بقدرها) فيباح للمضطر ما تزول به الضرورة، ويتقي به الهلاك لا أكثر منه.

وقرأ العربيان[1] ـ أبو عمرو وابن عامر ـ وابن كثير: ببناء ﴿فصل﴾ و﴿حرم﴾ للمفعول مع التشديد. وقرأ نافع وحفص عن عاصم ببنائهما للفاعل، وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ببناء الفعل الأول للفاعل، وبناء الثاني للمفعول، وقرأ عطية العوفي: ﴿فَصَل﴾ ـ بالتخفيف مع البناء للفاعل ـ؛ أي: أبان وأظهر.

---

(١) المراح والشوكاني.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الذين يجادلونكم في أكل الميتة ويحتجون عليكم في ذلك بقولهم: أتأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما يذبحه الله تعالى؟ ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ أنفسهم وأتباعهم ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الزائفة وشهواتهم الفاسدة جهلاً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منهم بصحة ما يقولون، ولا برهان على ما فيه، يجادلون اعتداء وخلافاً لأمر الله تعالى ونهيه، وطاعة للشياطين كعمرو بن لحي فمن دونه؛ لأنه أول من بحر البحائر، وسيب السوائب، وأباح الميتة، وغيَّر دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

تتمة: وأصل[1] عبادة الأوثان أنه كان في القوم الذين أرسل إليهم نوح ـ عليه السلام ـ رجال صالحون، فلما ماتوا وضعوا لهم أنصاباً ليتذكروهم بها ويقتدوا بهم، ثم صاروا يكرمونها لأجلهم، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا حكمة وضعها، لكنهم حفظوا تكريمها والتبرك بها تديناً وتوسلاً إلى الله، فكان ذلك عبادة لها.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[2]: ﴿ليَضلون﴾ ـ بفتح الياء هنا ـ وفي يونس: ﴿ربنا ليَضلوا﴾ وفي إبراهيم: ﴿أنداداً ليَضلوا﴾، وفي الحج: ﴿ثاني عطفه ليَضل﴾، وفي لقمان: ﴿ليضل عن سبيل الله﴾، وفي الزمر: ﴿أنداداً ليَضل﴾ وضمها الكوفوين في الستة، ووافقهم الصاحبان نافع وابن عامر إلا في يونس وهنا ففتح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد الذي أرشدك وهداك ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ منك ومن سائر خلقه ﴿بِالْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: بالمجاوزين الحد في التحليل والتحريم الذين يتجاوزون ما أحله الله إلى ما حرمه عليهم، أو يتجاوزون حد الضرورة عند وقوعها، وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى. وفي الآية إيماء إلى تحريم القول في الدين بالتقليد؛ لأن ذلك من اتباع الأهواء بغير علم؛ إذ المقلد غير عالم بما قلد فيه. ثم أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يتركوا ظاهر الإثم وباطنه،

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

فقال: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾؛ أي: واتركوا أيها الناس ظاهر الإثم وعلنه، وباطن الإثم وسره خوفاً من عقاب الله تعالى وامتثالاً لنهيه. والإثم لغة: ما قبح، وشرعاً: ما حرمه الله تعالى ومنعه، والله سبحانه وتعالى لم يحرم على عباده إلا ما كان ضاراً بالأفراد، في أنفسهم أو في أموالهم أو في عقولهم أو في أعراضهم أو في دينهم، أو ضاراً بالجماعات في مصالحهم السياسية أو الاجتماعية، والظاهر من الإثم ما كان يظهر؛ وهو ما تعلق بأفعال الجوارح، والباطن ما كان لا يظهر؛ وهو ما تعلق بأعمال القلوب كالكبر والحسد والعجب، وتدبير المكايد الضارة والشرور للناس، ومنه الاعتداء في أكل المحرم الذي يباح للمضطر بأن يتجاوز فيه حد الضرورة كما بينه الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهذه[١] الجملة من جوامع الكلم والأصول العامة في تحريم الآثام، ومن ثم قال ابن الأنباري: المراد بذلك ترك الإثم من جميع جهاته كما تقول: ما أخذت من هذا المال لا قليلاً ولا كثيراً، تريد ما أخذت منه شيئاً بوجه من الوجوه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ في الدنيا، أي: يعملون نوعاً من أنواع الآثام الظاهرة أو الباطنة ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾؛ أي: بما كانوا يكسبون في الدنيا من الآثام إن لم يتوبوا، وأراد الله عقابهم، وهذا مخصوص بما إذا لم يتب كما قيدنا. أما إذا تاب المذنب من ذنبه توبة صحيحة لم يعاقب. وزاد[٢] أهل السنة في ذلك، فقالوا: المذنب إذا لم يتب.. فهو في خطر مشيئة الله تعالى إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه بفضله وكرمه، وبالجملة فلا يخفى ما في الآية من الوعيد والتهديد للعصاة، أي سيلقون جزاء إثمهم وعاقبة كسبهم للذنوب التي أفسدت فطرتهم ودست نفوسهم بإصرارهم عليها ومعاودتها المرة بعد المرة، أما الذين يعملون السوء بجهالة، ثم يتوبون من قريب، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون.. فهؤلاء يتوب الله عليهم ويمحو تأثير الإثم في قلوبهم بما

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

يفعلون من الحسنات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وبذلك تعود نفوسهم زكية، وتلقى ربها سليمة نقية من أدران السوء التي كانت قد وقعت منها لماماً. واتفق المسلمون على أن التوبة تمحو الحوبة؛ أي: أن التوبة الصحيحة بالعزم الصادق والندم على ما فات تمحو آثار الذنب الماضي، فإن الله قد يعفو عن المذنب فيغفر له ما فرط منه من الذنوب، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ثم صرح سبحانه وتعالى بالنهي عن ضد ما فُهِمَ من الأمر السابق بقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ لشدة العناية؛ لأنه من أظهر أعمال الشرك فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: مما مات حتف أنفه، ولا مما أهل لغير الله به مما ذبحه المشركون لأوثانهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾؛ أي: وإن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه بغير ضرورة لفسق وخروج عما يحل، أو إن ما ذكر عليه اسم غير الله لفسق ومعصية كما جاء في الآية الأخرى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وجوز ابن عطية أن يعود الضمير على المصدر المنفي الذي تضمنه قوله: ﴿لم يذكر﴾ كأنه قيل: وإن ترك الذكر لفسق؛ أي: لمعصية وكفر، وهذه الجملة لا موضع لها من الإعراب، وتضمنت معنى التعليل، فكأنه قيل: لفسقه.

فصل

اختلف العلماء في ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها[1]، فذهب قوم إلى تحريمها سواء تركها عامداً أو ناسياً، وهو قول ابن سيرين والشعبي، ونقله الإمام فخر الدين الرازي عن مالك. ونقل عن عطاء أنه قال: كل ما لم يذكر اسم الله عليه من طعام أو شراب فهو حرام، احتجوا في ذلك بظاهر هذه الآية. وقال الثوري وأبو حنيفة: إن ترك التسمية عامداً لا تحل، وإن تركها ناسياً تحل.

وقال الشافعي: تحل الذبيحة مطلقاً سواء ترك التسمية عامداً أو ناسياً،

(١) الخازن.

ونقله البغوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومالك في رواية عنه. ونقل ابن الجوزي عن أحمد روايتين فيما إذا ترك التسمية عامداً، وإن تركها ناسياً.. حلت، فمن أباح أكل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها قال: المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم الأصنام؛ بدليل أنه سبحانه وتعالى في سياق الآية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة الأمر بالتسمية في الصيد وغيره. وذهب الشافعي وأصحابه وهو رواية عن مالك ورواية عن أحمد أن التسمية مستحبة لا واجبة، وهو مروي عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح.

وأجمع العلماء على أن آكل ذبيحة المسلم التي ترك التسمية عليها لا يفسق، واحتجوا في إباحتها أيضاً بما روى البخاري في «صحيحه» عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت يا رسول الله، إن هنا أقواماً حديث عهدهم بشرك يأتوننا بلحمات، فما ندري أيذكرون اسم الله عليها أم لا؟ قال: «اذكروا أنتم اسم الله وكلوا». قالوا: لو كانت التسمية شرطاً للإباحة.. لكان الشك في وجودها مانعاً من أكلها كالشك في أصل الذبح. وقال الشافعي: أول الآية وإن كان عاماً بحسب الصيغة إلا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة؛ وهي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾.. علمنا أن المراد من هذا العموم هو الخصوص. والفسق: ذكر اسم غير الله في الذبح كما قال في آخر السورة: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ فصار هذا الفسق الذي أهل لغير الله به مفسراً لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ وإذا كان كذلك كان قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ مخصوصاً بما أهل لغير الله به، والله أعلم.

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾؛ أي: وإن شياطين الإنس والجن الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴿لَيُوحُونَ﴾؛ أي: ليوسوسون ﴿إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ من المشركين، ويلقون إليهم بالوسوسة والتلقين الخادع ما يجادلوكم به من الشبهات ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾؛ أي: ليجادل أولئك الأولياء إياكم أيها المؤمنون بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم، وتتركون ما قتله الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ﴾؛ أي: وإن وافقتم أيها المؤمنون أولئك الأولياء في أكل الميتة وما حرم الله عليكم ﴿إِنَّكُمۡ﴾

إذاً ﴿لَمُشْرِكُونَ﴾ مثلهم. قال الزجاج: وفيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أحل الله؛ فهو مشرك، وإنما سمي مشركاً؛ لأنه أثبت حاكماً غير الله ـ عز وجل ـ، ومن كان كذلك فهو مشرك انتهى. قال عكرمة: وإن الشياطين؛ يعني: مردة المجوس ليوحون إلى أوليائهم من مشركي قريش زخرف القول؛ ليصل ممن أكل الميتة إلى نبي الله وأصحابه ذلك أنه لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس، فكتبوا إلى قريش، وكانت بينهم مكاتبة إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال، وما يذبحه الله حرام، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء، فأنزل الله هذه الآية.

وما يذبح(١) عند استقبال ملك أو أمير أو وزير أفتى بعض الحنفية بتحريم أكله؛ لأنه مما أهل به لغير الله، وقال بعض الشافعية: هم إنما يذبحونه استبشاراً بقدومه؛ فهو كذبح العقيقة لولادة المولود، ومثل هذا لا يوجب التحريم، وهذا هو الراجح الذي عليه المعول.

الإعراب

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿أَنَّنَا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب. و ﴿نا﴾: اسمها. ﴿نَزَّلْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ تقديره: ولو أننا منزلون، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية بفعل محذوف تقديره: ولو ثبت تنزيلنا إليهم الملائكة، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾. ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع

---

(١) المراغي.

بفعل محذوف معطوفة على جملة ﴿أن﴾. ﴿وَحَشَرْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع بفعل محذوف معطوفة على جملة ﴿أَنَّنَا﴾. ﴿قُبُلًا﴾: حال من ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ لأنه تخصص بالإضافة، ولكنه في تأويل مشتق تقديره: حالة كونهم معاينين ومشافهين للكفار، والتقدير: ولو ثبت تنزيلنا إليهم الملائكة وتكليم الموتى إياهم وحشرنا كل شيء عليهم. ﴿مَّا﴾: نافية ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود. ﴿يؤمنوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كان﴾ تقديره: ما كانوا أهلاً للإيمان، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من عام الأحوال. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المستثنى المحذوف إليه تقديره: ما كانوا ليؤمنوا في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله تعالى إيمانهم. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف نصب. ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: اسمها، وجملة ﴿يَجْهَلُونَ﴾ خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: وجعلاً مثل جعلنا لك عدواً من هؤلاء المشركين. ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان لـ﴿جعل﴾. ﴿عَدُوًّا﴾: مفعول أول له. ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ بدل من ﴿عَدُوًّا﴾، والتقدير: وكذلك جعلنا عدواً شياطين الإنس والجن لكل نبي. وأعرب الزمخشري وأبو البقاء والحوفي ﴿شَيَٰطِينَ﴾ مفعولاً أول، والثاني ﴿عَدُوًّا﴾،

و﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ حالاً من ﴿عَدُوًّا﴾ لأنه صفته في الأصل، أو متعلق بالجعل قبله، والتقدير: وجعلنا شياطين الإنس والجن عدواً لكل نبي جعلاً مثل جعلنا هؤلاء عدواً لك، فاصبر كما صبروا. ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق به. ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ مفعول به. ﴿غُرُورًا﴾: مفعول لأجله، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿فَعَلُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنه لو شاء ربك ما فعلوه، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك ﴿ذرهم وما يفترون﴾: ﴿ذرهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو واو المعية. ﴿ما﴾: موصولة، أو نكرة موصوفة في محل النصب معطوفة على الهاء في ﴿ذرهم﴾، أو في محل النصب على أنه مفعول معه، أو مصدرية. ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ إن قلنا موصولة اسمية، أو صفة لـ﴿ما﴾ إن قلنا ﴿ما﴾ نكرة موصوفة، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: وذرهم والذين يفترونه، أو شيئاً يفترونه، أو صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على الهاء، أو منصوب على أنه مفعول معه، والتقدير: فذرهم وافتراءهم، أو مع افترائهم، وجملة ذرهم من الفعل والفاعل في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لتصغى﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تصغى﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، وجملة ﴿تصغى﴾ صلة أن

المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولصغي أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، الجار والمجرور معطوف على ﴿غُرُورًاۚ﴾، وما بينهما اعتراض، والتقدير: يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول للغرور ولصغي أفئدة الذين يؤمنون بالآخرة، ولكن لما كان المفعول الأول مستكملاً لشروط النصب نصب، وهذا فات فيه شرط النصب، وهو صريح المصدرية واتحاد الفاعل، فإن فاعل الوحي بعضهم، وفاعل الإصغاء الأفئدة، فلذا وصل الفعل بحرف العلة.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يرضوه﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولرضاهم إياه، الجار والمجرور معطوف على ﴿غروراً﴾. ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يقترفوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولاقترافهم ما هم مقترفون، الجار والمجرور معطوف على ﴿غُرُورًاۚ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على المفعولية. ﴿هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما هم مقترفونه.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾.

﴿أَفَغَيْرَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: أأميل إلى زخارف الشياطين. ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿غير الله﴾: مفعول به لـ﴿أَبْتَغِى﴾ مقدم عليه. ﴿أَبْتَغِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿حَكَمًا﴾ حال من ﴿غير﴾، أو تمييز له، وجملة ﴿أَبْتَغِى﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من الجلالة مؤكدة لإنكار ابتغاء غيره تعالى حكماً؛ لأن ﴿غير﴾ هنا بمعنى مغاير، فيصح عمله في المضاف إليه. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿إِلَيْكُمُ﴾: متعلق بأنزل.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به. ﴿مُفَصَّلًا﴾: حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول. ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَنَّهُۥ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، و﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿مُنَزَّلٌ﴾: خبرها. ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستتر في ﴿مُنَزَّلٌ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حال أهل الكتاب، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿لا تكونن﴾: ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لَا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: خبرها، وجملة تكون في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: حالان من كلمة ﴿رَبِّكَ﴾، أو تمييزان لها. ﴿لَّا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿مُبَدِّلَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُبَدِّلَ﴾، وخبر ﴿لَّا﴾ محذوف تقديره: لا مبدل لكلماته موجود، وجملة ﴿لَّا﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب حال من فاعل ﴿تمت﴾ على أن الظاهر مغن عن الضمير الرابط، أو مستأنفة. ذكره «أبو السعود». ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تُطِعْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إِن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿أَكْثَرَ﴾: مفعول به وهو مضاف. و﴿مَن﴾ الموصولة في محل الجر مضاف إليه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ جار ومجرور صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿يُضِلُّوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إِن﴾ على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف النون. ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية، مستأنفة. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿الظَّنَّ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿وَإِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِن﴾: نافية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، وجملة ﴿يَخْرُصُونَ﴾ في محل الرفع، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية المنفية معطوفة على الجملة الفعلية المنفية المذكورة فيها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿رَبَّكَ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل أو مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، أو خبر المبتدأ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مقررة لمضمون الجملة الشرطية وما بعدها ومؤكدة لما تفيده من التحذير كما في «أبي السعود». ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب بفعل محذوف دل عليه ﴿أَعْلَمُ﴾ تقديره: إن ربك هو أعلم يعلم من يضل، والجملة المحذوفة في محل الرفع بدل من ﴿أَعْلَمُ﴾. ﴿يَضِلُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَضِلُّ﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. و﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿بِالْمُهْتَدِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾.

﴿فَكُلُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على ما تقدم من مضمون الجمل المتقدمة كأنه قيل: اتبعوا ما أمركم الله به من أكل المذكى دون الميتة، ﴿كلوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كلوا﴾.

﴿ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ﴾: فعل ونائب فاعل ومضاف إليه. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق بـ﴿ذُكِرَ﴾، والجملة الفعلية لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير عليه. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾. ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم بآياته مؤمنين.. فكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: استفهامية للاستفهام الإنكاري التوبيخي في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَّا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَأۡكُلُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾، مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: وأي غرض لكم في عدم أكلكم مما ذكر اسم الله عليه والجار المحذوف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَأۡكُلُواْ﴾. ﴿ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ﴾: فعل ونائب فاعل ومضاف إليه. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل النصب حال من الجلالة. ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ﴿فَصَّلَ﴾. ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على المفعولية. ﴿حَرَّمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما حرمه عليكم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء، والظاهر أنه استثناء متصل؛ لأنه من جنس المستثنى منه. ﴿ٱضۡطُرِرۡتُمۡ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَيۡهِۗ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿إِلَيۡهِۗ﴾.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿كَثِيرًا﴾: اسمها. ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿يضلون﴾: فعل وفاعل. ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يضلون﴾، ومفعول ﴿يضلون﴾ محذوف على قراءة ضم الياء تقديره: ليضلون الناس، وقراءة الفتح لا تحتاج إلى حذف، فرجحها بعضهم بهذا الاعتبار. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يضلون﴾ تقديره: ملتبسين بغير علم، وجملة ﴿يضلون﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾: متعلق به، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه. ﴿وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾: معطوف على ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها. ﴿يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة صلة الموصول. ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يجزون﴾: ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يقترفونه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية وجازمة. ﴿تَأْكُلُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق

بـ﴿تَأْكُلُوا﴾. ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ﴾: جازم وفعل مغير ونائب فاعل ومضاف إليه. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿يُذْكَرِ﴾ وهو العائد على ﴿ما﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَإِنَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، أو حالية، ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿لَفِسْقٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿فسق﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ إما مستأنفة، أو معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ على مذهب سيبويه، أو حال من ﴿ما﴾ الموصولة في قوله: ﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ولا تأكلوه والحال إنه لفسق. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَيُوحُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿يوحون﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يوحون﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿يجادلوكم﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لمجادلتهم إياكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يوحون﴾. ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿أَطَعْتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وقبل ﴿إن﴾ الشرطية لام القسم مقدرة تقديره: ﴿ولئن أطعتموهم﴾. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمُشْرِكُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿مشركون﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها جواب القسم الذي قدرناه آنفاً، وحذف جواب الشرط لسد جواب القسم مسده، وجاز الحذف؛ لأن فعل الشرط ماضٍ كما ذكره السمين، والتقدير: وإن أطعتموهم فأنتم مشركون.

التصريف ومفردات اللغة

قوله: ﴿قُبُلًا﴾؛ أي: كفلاً وضمناً بصدق محمد ﷺ، جمع قبيل بمعنى كفيل، مثل رغيف ورغف، وقضيب وقُضب، ونصيب ونُصب، أو جمع قبيل بمعنى جماعة جماعة، أو صنفاً صنفاً كل صنف على حدة، والمعنى: وحشرنا عليهم كل شيء فوجاً فوجاً، ونوعاً نوعاً من سائر المخلوقات.

﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ والعدو ضد الصديق؛ وهو من يفرح لحزنك ويحزن لفرحك، ويستعمل للواحد والجمع والمذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾؛ أي: أعداء، وقال ابن عباس كل عات متمرد من الجن والإنس فهو شيطان.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ والإيحاء: الإعلام بالشيء من طريق خفي سريع كالإيماء، والزخرف: الزينة كالأزهار للرياض، والذهب للنساء، وما يصرف السامع عن الحقائق إلى الأوهام. قاله الزجاج، وقال أبو عبيدة: كل ما حسنته وزينته وهو باطل؛ فهو زخرف انتهى. والغرور: الخداع بالباطل.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يقال: صغَوْت[1] كدعوت، وصغَيْت كرميت، وصغِيت - بكسر الغين - كرضيت، فمصدر الأول: صغواً، والثاني: صغاً، والثالث: صغاً ومضارعها يصغَى - بفتح الغين - وهي لازمة، وأصغى مثلها لازم، ويأتي متعدياً بكون الهمزة فيه للنقل. قال الشاعر في اللازم:

تَرَىٰ ٱلسَّفِيْهَ بِهِ عَنْ كُلِّ مَحْكَمَةٍ ... زَيْغٌ وَفِيْهِ إِلَىٰ ٱلتَّشْبِيْهِ إِصْغَاءُ

وقال في المتعدي:

أَصَاخَ مِنْ نَبْأَةٍ أَصْغَىٰ لَهَا أُذُنَاً ... صِمَاخَهَا بِدَخِيْسِ ٱلذَّوْقِ مَسْتُوْرُ

وأصله: الميل. يقال: صغت النجوم إذا مالت للغروب، وفي الحديث: فأصغى لها الإناء. قاله أبو حيان، ويقال: صغي[2] إليه كرضي يصغى: مال، ومثله أصغى، ويقال: صغى فلان وصغوه معك؛ أي: ميله وهواه، كما يقال: ضلعه معك. وفي «المختار» صغا إذا مال، وبابه عدا وسما ورمى وصدى صغواً وصَغياً أيضاً، قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وأصغى إليه مال بسمعه ونحوه، وأصغى الإناء أماله، انتهى.

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ يقال: اقترف المال اكتسبه، والذنب اجترحه، وأكثر[3] ما يكون

---

(١) البحر المحيط بزيادة. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

في الشر والذنوب، ويقال: خرج يقترف لأهله؛ أي: يكتسب لهم، وقارف فلان الأمر؛ أي: واقعه، وقرفه بكذا رماه بريبة، واقترف كذباً، وأصله اقتطاع قطعة من الشيء.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ والحكم: من يتحاكم إليه الناس ويرضون حكمه ﴿مُفَصَّلًا﴾؛ أي: مبيناً فيه الحق والباطل، والحلال والحرام إلى غير ذلك من الأحكام ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ أي: المترددين الشاكين.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ والكلمة هنا: إما القرآن أو القضاء كما مر، وتمام الشيء كما قال الراغب: انتهاؤه إلى حدٍ لا يحتاج معه إلى شيء خارج عنه، وتمامها هنا أنها كافية وافية في الإعجاز والدلالة على صدق الرسول ﷺ، والصدق: يكون في الإخبار، ـ ومنها المواعيد ـ والعدل: يكون في الأحكام، والتبديل: التغيير بالبدل.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يقال: خرص يخرص ـ من باب نصر ـ إذا حزر وقال بغير تيقين ولا علم ومنه: خرص بمعنى كذب وافترى خرصاً وخروصاً، وقال الأزهري: وأصله التظني فيما لا يستيقن، وأصل الخرص القطع، ومنه خرص النخل يخرص إذا حزره ليأخذ منه الزكاة، فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به؛ إذ لا يقين منه، والمعنى؛ أي: وما هم إلا يحدسون ويقدرون، وإذا كان هذا حال أكثر من في الأرض.. فالعلم الحقيقي هو عند الله تعالى، فاتبع ما أمرك به، ودع عنك طاعة غيره وهو العالم بمن يضل عن سبيله ومن يهتدي إليه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ...﴾ إلخ. قال بعض أهل العلم[1]: إن أعلم في الموضعين بمعنى يعلم. قال: ومنه قول حاتم الطائي:

فَحَالَفَتْ طَيِّءٌ مَنْ دُونَنَا حِلْفَا ... وَٱللَّهُ أَعْلَمُ مَا كُنَّا لَهُمْ خَوَلَا

والوجه في هذا التأويل أن أفعل التفضيل لا ينصب الاسم الظاهر، فتكون من منصوبة بالفعل الذي جعل أفعل التفضيل نائباً عنه، وقيل: إن أفعل التفضيل

(١) الشوكاني.

على بابه، والنصب بفعل مقدر، وقيل: إنها منصوبة بأفعل التفضيل؛ أي: إن ربك أعلم أي الناس يضل عن سبيله، وهو ضعيف، وقيل: في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: بمن يضل. قاله بعض البصريين، وقيل: في محل جر بإضافة أفضل التفضيل إليها. والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة لتشريف المضاف إليه في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ وفيه أيضاً التعرض لوصف الربوبية تلطفاً في التسلية.

ومنها: الترقي في قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾. قال أبو حيان[1]: وترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة؛ لأنه أولاً يكون الخداع، فيكون الميل، فيكون الرضا، فيكون الفعل، فكان كل واحد منها مسبب عما قبله.

ومنها: التهديد والوعيد في قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ على حد قوله ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ لإفادة التعظيم والتبشيع لما يعملون نظير قوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

ومنها: التهييج والإلهاب في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ لأن النبي ﷺ معصوم من الامتراء إن كان الخطاب له.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ اعتناء بشأنها، وحق العبارة لا مبدل لها لتقدم المرجع.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ لأن المراد علماء أهل الكتاب، وفي قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن المراد بالأكثر رؤساء مكة،

---

(١) البحر المحيط.

وبالأرض أرض مكة.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ لأنه تأكيد للنفي المذكور قبله.

ومنها: الطباق بين لفظ: ﴿مَن يَضِلُّ﴾ ولفظ ﴿المهتدين﴾ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾، وبين لفظ ﴿ظَٰهِرَ﴾ ولفظ: ﴿باطن﴾ في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: تم كلامه ووحيه حيث أطلق الجزء وأراد الكل.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وبين قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ تأكيداً بالمفهوم من الأول.

ومنها: الزيادة في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[1]

(١) المراغي.

أن أكثر أهل الأرض ضالون متبعون للظن والحدس، وأن كثيراً منهم يضلون غيرهم بأهوائهم بغير علم، وأن الشياطين منهم العاشين عن أمر ربهم يوحون إلى أوليائهم ما يجادلون به المؤمنين ليضروهم ويحملوهم على اقتراف الآثام، ويحملوهم أيضاً على الشرك بالله بالذبح لغيره، والتوسل به إليه وهو عبادة له.. ضرب هنا مثلاً يستبين به الفرق بين المؤمنين المهتدين للاقتداء بهم، والكافرين الضالين للتنفير من طاعتهم والحذر من غوايتهم، مع ذكر السبب في استحسان الكافرين لأعمالهم؛ وهو تزيين الشيطان لهم ما يعملون، ومن ثم انغمسوا في ظلمات لا خلاص لهم منها، وأصبحوا في حيرة وتردد على الدوام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر(١) في الآيات السابقة أن سنته في البشر قضت بأن يكون في كل شعب أو أمة زعماء مجرمون يمكرون بالرسل وبدعاة الإصلاح، ويقاومون دعوتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. ذكر هنا أن هذه السنة تنطبق أشد الانطباق على مجرمي أهل مكة الذين تعنتوا أشد التعنت فيما أنزل على محمد ﷺ من الآيات، ثم ذكر بعد هذا سنة الله في المستعدين للإيمان، وغير المستعدين مع ظهور الحق في نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر(٢) ما أعده من العذاب للمجرمين، وما أعده من الثواب والنعيم في دار السلام للمؤمنين إثر بيان أحوالهم وأعمالهم التي استحق بها كل منهما جزاءه.. أردف ذلك بذكر ما يكون قبل هذا الجزاء من الحشر وبعض ما يكون في يومه من الحساب، وإقامة الحجة على الكفار وسنة الله في إهلاك الأمم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى عن الجن والإنس أن بعضهم يتولى بعضاً.. أردف ذلك ببيان أن ذلك يحدث بتقديره سبحانه وتعالى وقضائه.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ...﴾ الآية. مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما كان الكلام في الآيات السالفة في تقرير حجة الله على المكلفين الذين بلغتهم الدعوة، فجحدوا بها، وأنهم يشهدون على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا كافرين، وأن سنة الله في إهلاك الأمم في الدنيا بجنايتها على أنفسها لا بظلم منه تعالى.. ذكر هنا وعيد الآخرة، وأنه مرتب على أعمال المكلفين لا بظلم منه سبحانه وتعالى، ولا لحاجة له تعالى إليه، لأنه غني عن العالمين، بل لأنه مقتضى الحق والعدل المقرونين بالرحمة والفضل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ...﴾ الآية، سبب نزولها على القول بأنها في أبي جهل وحمزة: أن أبا جهل رمى[1] النبي ﷺ بفرث، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل، وكان حمزة قد رجع من صيد وبيده قوس، وحمزة لم يكن إذ ذاك، فأقبل حمزة غضبان حتى علا أبا جهل، وجعل يضربه بالقوى، وجعل أبو جهل يتضرع إلى حمزة ويقول: يا أبا يعلى ألا ترى ما جاء به، سفه عقولنا، وسب آلهتنا، وخالف آباءنا! فقال حمزة: ومن أسفه منكم عقولاً؟ تعبدون الحجارة من دون الله! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، فأسلم حمزة يومئذ، فنزلت هذه الآية. والقول الثاني؛ وهو قول الحسن في آخرين: أن هذه الآية عامة في حق كل مؤمن وكافر، وهذا هو الصحيح؛ لأن المعنى إذا كان حاصلاً في الكل دخل فيه كل أحد.

وأخرج ابن المنذر[2]، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم في الآية قال: نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل بن هشام كانا ميتين في

---

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.

ضلالتهما، فأحيا الله تعالى عمر بالإسلام وأعزه، وأقر أبا جهل في ضلالته وموته، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا فقال: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها على ما قيل: أن[1] الوليد بن المغيرة قال للنبي ﷺ: لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أولى بها منك؛ لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً، فأنزل الله هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا نحن وهم كفرسي رهان.. قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فأنزل الله هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

والهمزة في قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على جملة إسمية محذوفة، والواو عاطفة ما بعدها على تلك المحذوفة، والتقدير: أأنتم أيها المؤمنون كأولئك الشياطين أو كأوليائهم الذين يجادلونكم بما يوحون إليهم من زخرف القول الذي غروهم به، ومن كان ميتاً؛ أي: ضالاً كافراً ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾؛ أي: فهديناه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾؛ أي: ديناً وإيماناً ﴿يَمْشِى بِهِۦ﴾ آمناً ﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾ من جهتهم ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: كمن هو في ظلمات الكفر والضلال ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؛ أي: ليس بمؤمن أبداً؛ أي: لا يستويان؛ أي: لا يستوي المؤمن والكافر، فلفظة المثل زائدة كما أشرنا إليه في الحل؛ لأن المثل معناه الصفة، والمستقر في الظلمات ذواتهم لا صفاتهم، كما زيدت في قوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾: وفي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: ويحتمل كونها أصلية.

والمعنى عليه: أيستوي المؤمن والكافر ومن كان ميتاً بالكفر والجهل، فأحييناه بالإيمان وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس على بصيرة من أمر دينه

---

(١) الخازن.

وآدابه ومعاملاته للناس كمن مثله المبين لحاله مثل السائر في ظلمات بعضها فوق بعض ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر؛ وهو ليس بخارج منها؛ لأنه يبقى متحيراً لا يهتدي إلى وجه صلاحه، فيستولي عليه الخوف والفزع والعجز والحيرة الدائمة، وكذلك الخابط في ظلمات الجهل والتقليد، وفساد الفطرة ليس بخارج منها؛ لأنها قد أحاطت به وألفتها نفسه، فلم يعد يشعر بالحاجة إلى الخروج منها إلى النور، بل ربما شعر بالألم من هذا النور المعنوي كما يألم الخفاش بالنظر إلى النور الحسي، وإنما فسرنا الحياة في الآية بالهداية؛ لأنه كثيراً ما تستعار الحياة للهداية وللعلم، ومنه قول القائل:

وَفِيْ ٱلْجَهْلِ قَبْلَ ٱلْمَوْتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ   فَأَجْسَامُهُم قَبْلَ ٱلْقُبُوْرِ قُبُوْرُ
وَإِنَّ ٱمْرَءَاً لَمْ يَحْيَ بِٱلْعِلْمِ مَيِّتٌ   فَلَيْسَ لَهُ حَتَّىٰ ٱلنُّشُوْرِ نُشُوْرُ

والخلاصة[1]: أنه ينبغي للمسلم أن يكون حياً عالماً على بصيرة في دينه وأعماله وحسن سيرته، وأن يكون القدوة والأسوة للناس في الفضائل والخيرات، والحجة على فضل دينه على سائر الأديان، وإنما قال: ﴿في الناس﴾ إشارة إلى تنويره على نفسه وعلى غيره من الناس، فذكر أن منفعة المؤمن ليست قاصرة على نفسه، وهذا[2] مثل ضربه الله تعالى لحال المؤمن والكافر، فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتاً فأحياه وأعطاه نوراً يهتدي به في مصالحه، وأن الكافر بمنزلة من هو في الظلمات منغمس فيها ليس بخارج منها، فيكون متحيراً على الدوام. ووجه[3] المناسبة في ضرب المثلين هنا ما تقدم في أول السورة ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما زين للمؤمنين إيمانهم ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ والمشركين ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والمعاصي وعبادة الأصنام؛ أي[4]: حَسَّنَّا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدراً من الله وحكمة بالغة، لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ أي: مثل هذا التزيين الذي تضمنه المثل السابق، وهو تزيين نور الهدى والدين لمن أحياه الله حياة عالية، وتزيين ظلمات

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) ابن كثير.
(٤) ابن كثير.

الضلال والكفر لموتى القلوب.. قد زين للكافرين وحسن ما كانوا يعملون من الآثام، كعداوة النبي ﷺ وذبح القرابين لغير الله تعالى، وتحريم ما لم يحرمه الله، وتحليل ما حرمه بمثل تلك الشبهات التي تقدم ذكرها.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا﴾ ـ بفتح الواو بعد الهمزة ـ وقرأ نافع وابن أبي نعيم بإسكانها. وقرأ طلحة: ﴿أفمن﴾ بالفاء بدل الواو.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما جعلنا في مكة صناديدها رؤساء ليمكروا فيها ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ من سائر القرى والعواصم ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾؛ أي: جعلنا مجرميها وفساقها أكابر ورؤساء فيها، ﴿أَكَابِرَ﴾ مفعول ثان، و﴿مُجْرِمِيهَا﴾ مفعول أول، والظرف لغو متعلق بنفس الفعل قبله؛ أي: جعلنا في كل بلدة فساقها عظماء ورؤساء. وقيل: إن قوله: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ مفعول ثان مقدم، و﴿أَكَابِرَ﴾ مفعول أول مؤخر، وهو مضاف لمجرميها، فيصير المعنى: وكذلك جعلنا عظماء المجرمين كائنين في كل قرية. وقرأ ابن مسلم: ﴿أكبر مجرميها﴾ وأفعل التفضيل إذا أضيف إلى معرفة وكان لمثنى أو مجموع أو مؤنث جاز أن يطابق وجاز أن يفرد، كقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، أي: ليفعلوا المكر فيها، وهذا[٢] دليل على أن الخير والشر بإرادة الله تعالى، وإنما جعل المجرمين أكابر؛ لأنهم أقدر على الغدر والمكر وترويج الباطل على الناس من غيرهم، وإنما حصل ذلك لأجل رياستهم، وذلك سنة الله أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم وجعل فساقهم أكابرهم. وقال مجاهد: كان يجلس على كل طريق من طرق مكة أربعة أنفار يصرفون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، ويقولون لكل من يقدم: هو كذاب ساحر كاهن. فكان هذا مكرهم.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

وحاصل الكلام[1]: أن سنة الله تعالى في المجتمع البشري قد قضت أن يكون في كل عاصمة لشعب أو أمة بعث فيها رسول أو لم يبعث زعماء مجرمون يمكرون بالرسل وبسائر المصلحين من بعدهم، وهكذا كان الحال في أكثر أكابر الأمم والشعوب، ولا سيما في العصور التي تكثر فيها المطامع، ويعظم فيها حب الرياسة والكبرياء، فتراهم يمكرون بالأفراد والجماعات، فيحفظوا رياستهم ويعززوا كبرياءهم كما يمكرون بغيرهم من الساسة والرؤساء إرضاء لمطامع أمتهم، وتعزيزاً لنفوذ حكومتهم بين الشعوب والدول. والمراد بالأكابر المجرمين من يقاومون دعوة الإصلاح، ويعادون المصلحين من الرسل وورثتهم، وكان أكثر أكابر مكة كذلك، وتخصيص الأكابر بذلك؛ لأنهم أقدر على المكر واستتباع الناس لهم.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: وما يمكر أولئك الأكابر المجرمون الذين يعادون الرسل في عصرهم، ودعاة الإصلاح من ورثتهم من بعدهم ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: وما يحيق شر مكرهم إلا بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: وما يعلمون بذلك أصلاً، بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم. وهكذا شأن[2] من يعادون الحق والعدل، ليبقى لهم ما هم عليه من فسق وفساد؛ لأن سنة الله قد جرت بأن عاقبة المكر السيء تحيق بأهله في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فبما ثبت في القرآن من نصر المرسلين وهلاك الكافرين المعاندين، ومن علو الحق على الباطل، ومن هلاك القرى الظالمة، وبما أيده الاختبار، ودلت عليه نظم العمران من أن تنازع البقاء يقضي ببقاء الأمثل والأصلح ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

وقد أشارت الآيات إلى أن هذا كان سنة الله في الأولين، فقال: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾؛ أي: فالذين كانوا يمكرون السيئات لمقاومة إصلاح الرسل

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

حرصاً على رياستهم وفسقهم وفسادهم.. لم يكونوا يشعرون بأن عاقبة مكرهم تحيق بهم لجهلهم بسنن الله في خلقه، وهم خليقون بهذا الجهل. وأما في الآخرة فالأمر واضح والنصوص متظاهرة على ذلك. وهذه الجملة متضمنة لوعيد الماكرين من مجرمي أهل مكة، وفيها وعد وتسلية للنبي ﷺ والمؤمنين.

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ﴾؛ أي: وإذا جاءت مشركي العرب كالوليد بن المغيرة وعبد ياليل وأبي مسعود الثقفي ﴿ءَايَةٌ﴾ من القرآن تأمرهم باتباع محمد ﷺ وتخبرهم بصنيعهم ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ﴾؛ أي: قالوا: لن نصدقك ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل، فيخبرنا أنك رسول الله، وأنك صادق. قال تعالى رداً عليهم: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿أَعْلَمُ﴾؛ أي: عالم ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾؛ أي: الموضع الذي يجعل فيه رسالته؛ أي: أعلم من يليق برسالته؛ أي: بإرسال جبريل إليه لأمر من الأمور، وهذا إعلام بأنهم لا يستحقون ذلك التشريف، وهذا[1] المعنى قول الحسن، ومنقول عن ابن عباس.

وقيل معنى الآية: وإذا جاءتهم آية على صدق النبي ﷺ.. قالوا: لن نؤمن برسالته أصلاً حتى نؤتى نحن من الوحي والنبوة مثل إيتاء رسل الله. قال تعالى: إنه تعالى يعلم من يستحق الرسالة، فيشرفه بها ويعلم من لا يستحقها، وأنتم لستم أهلاً لها، ولأن النبوة لا تحصل لمن يطلبها، خصوصاً لمن عنده حسد ومكر وغدر.

وقيل المعنى[2]: وإذا جاءت أولئك المشركين آية بينة من القرآن تتضمن صدق الرسول ﷺ فيما جاء به عن ربه من التوحيد والهدى.. قالوا: لن نؤمن إلا إذا أتى على يديه من الآيات الكونية التي يؤيده الله بها مثل ما أوتي رسل الله كفلق البحر لموسى، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى. وقال ابن

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.

كثير: أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل، بمعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا...﴾ الآية.

وخلاصة ذلك: أنهم لا يؤمنون بالرسالة إلا إذا صاروا رسلاً يوحى إليهم، وقد رد عليهم جهالتهم وبين لهم خطأهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾؛ أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، وهذا كقوله حكاية عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ...﴾ الآية، يريدون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم مبجل في أعينهم من القريتين مكة والطائف، ذلك أنهم جازاهم الله تعالى بما يستحقون، كانوا يزدرون الرسول ﷺ بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وهم مع ذلك كانوا يعترفون بشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومرباه ومنشئه، وكانوا يسمونه بالأمين، فكان ينبغي أن يكون في ذلك مقنع لهم بأنه أولى من أولئك الأكابر الحاسدين له بالرسالة وبكل ما فيه الكرامة، ولكن الحسد والبغي والتقليد كل أولئك كان الباعث لهم على تلك الأقوال، وعمل هاتيك الأفعال في عداوته ومعاندته.

والخلاصة: أن الرسالة فضل من الله يمنحه من يشاء من خلقه لا يناله أحد بكسب، ولا يصل إليه بسبب ولا نسب، ولا يعطيه إلا من كان أهلاً له لسلامة الفطرة وطهارة القلب وحب الخير والحق، وقد اختار أن يجعل الرسالة في محمد صفيه وحبيبه، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم. وقرأ حفص وابن كثير: ﴿رسالته﴾ بالإفراد، والباقون على الجمع.

فائدة: ويستجاب[1] الدعاء بين هاتين الجلالتين وهذا دعاء عظيم يدعى به بينهما ووجد بخط بعض الفضلاء؛ وهو «اللهم من الذي دعاك فلم تجبه، ومن الذي استجارك فلم تجره، ومن الذي سألك فلم تعطه، ومن الذي استعان بك فلم

---

(١) المراح.

تعنه، ومن الذي توكل عليك فلم تكفه، يا غوثاه يا غوثاه يا غوثاه بك أستغيث أغثني يا مغيث واهدني هداية من عندك، واقض حوائجنا، واشف مرضانا، واقض ديوننا، واغفر لنا ولآبائنا ولأمهاتنا بحق القرآن العظيم والرسول الكريم برحمتك يا أرحم الراحمين».

ثم أوعدهم وبين سوء عاقبتهم لحرمانهم من الاستعداد للإيمان فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾؛ أي: سيصيب الذين أشركوا بقولهم: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ومكروا بك ﴿صَغَارٌ﴾؛ أي: ذل وهوان وحقارة في الدنيا ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ثابت لهم في حكم الله تعالى بالقتل والأسر ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ بالنار في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: بسبب مكرهم بقولهم ذلك، وحسدهم للنبي ﷺ، وتكذيبهم له وطلبهم ما لا يستحقون.

وقال اسماعيل الضرير[1]: في الكلام تقديم وتأخير؛ أي: صغار وعذاب شديد عند الله في الآخرة انتهى. أي: سيصيب[2] المجرمين الماكرين الذين قد قضت سنة الله أن يكونوا زعماء في كل شعب دب فيه الفساد عذاب شديد مكان ما تمنوه وعلقوا به آمالهم من عز النبوة وشرف الرسالة. ومعنى كونه من عند الله: أنه مما اقتضاه حكمه وعدله وسبق به تقديره، فإن ما هو ثابت عند الله في حكمه التكويني الذي دبر به نظام الخلق وحكمه الشرعي التكليفي الذي أقام به العدل والحق.. يقال: إنه من عند الله، ويكون هذا جزاء لهم على استكبارهم عن الحق في دار الدنيا كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وعذاب الأمم في الدنيا بذنوبها مطرد، وعذاب الأفراد لا يطرد، وإن كانوا من المجرمين الماكرين، وقد عذب الله في الدنيا أكابر مجرمي أهل مكة الذين

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

تصدوا لإيذاء النبي ﷺ والكيد له، فقتل منهم من قتل في بدر، ولَحِق الصغار والهوان بالباقين.

ثم أردف ذلك بالموازنة بينهم وبين المستعدين للإيمان، فقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾؛ أي: فمن يرد الله سبحانه وتعالى هدايته للحق ويرشده لدينه ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ﴾؛ أي: يوسع قلبه ﴿لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ حتى يقبله بصدر منشرح منبسط له.

ومعنى الآية[١]: فمن يرد الله تعالى أن يهديه للإيمان بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده.. يوفقه له ويشرح صدره لقبوله ويهونه عليه، ويسهله له بفضله وكرمه ولطفه به وإحسانه إليه، فعند ذلك يستنير الإسلام في قلبه، فيضيء به ويتسع له صدره.

والخلاصة[٢]: فمن كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبوله دعوة الإسلام الذي هو دين الفطرة والهادي إلى طريق الحق والرشاد.. وجد لذلك في نفسه انشراحاً واتساعاً بما يشعر به قلبه من السرور، فلا يجد مانعاً من النظر الصحيح فيما ألقي إليه فيتأمله وتظهر له عجائبه، وتتضح له دلالته، فتتوجه إليه إرادته، ويذعن له قلبه بما يرى من ساطع النور الذي يستضيء به لبه، وباهر البرهان الذي يتملك نفسه.

ولما نزلت هذه الآية[٣].. سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر، فقال: «هو نور يقذفه الله تعالى في قلب المؤمن، فينشرح له وينفسح»، فقالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: «نعم، الإنابة إلى الدار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت». وأسند الطبري عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل لرسول الله ﷺ حين نزلت عليه هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ قال: «إذا دخل النور القلب.. انفسح وانشرح». قالوا: فهل لذلك من آية يعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت».

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿أَن يُضِلَّهُۥ﴾؛ أي: إضلاله وشقاوته ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ﴾ وقلبه ﴿ضَيِّقًا﴾ عن قبول الإسلام غير متسع له ﴿حَرَجًا﴾؛ أي: شديد الضيق لا يتسع لشيء من الهدي، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان فهو بمعنى الضيق مع المبالغة كرره تأكيداً، وحسن ذلك اختلاف اللفظ ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: كأنما يتكلف صدره الصعود في السماء، ويحاول الطلوع إليها، ويزاول أمراً غير ممكن. قال ابن جرير: وهذا[١] مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه، أي: أن[٢] من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب.. يجد في صدره ضِيقاً أيما ضيق إذا طلب إليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد، والنظر في الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الناس، وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه، فتكون إجابته الداعي إلى الدين الجديد ثقيلة عليه، ويشعر بالعجز عن احتمالها، ويكون مثله مثل من صعد في الطبقات العليا في جو السماء إذ يشعر بضيق شديد في التنفس، وكلما صعد في الجو أكثر شعر بضيق أشد، حتى إذا ما ارتفع إلى أعلى من ذلك شعر بتخلخل الهواء، ولم يستطع سبيلاً إلى البقاء، فإن هو قد بقي فيها مات اختناقاً.

وخلاصة ذلك: أن الله ضرب مثلاً لضيق النفس المعنوي يجده من دعي إلى الحق، وقد ألف الباطل وركن إليه بضيق التنفس الذي يجده من صعد بطائرة إلى الطبقات العليا من الجو حتى لقد يشعر بأنه أشرف على الهلاك، وهو لا محالة هالك إن لم يتدارك نفسه، وينزل من هذا الجو إلى طبقات أسفل.

سبحانك ربي، نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرّها البشر، ولم يفقه

---

(١) الطبري.
(٢) المراغي.

معرفة كنهها إلا بعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرناً، وتقدّم فنُّ الطيران، الآن علم الطيارين بالتجربة صدق ما جاء في كتابك، ودل على صحة ما ثبت في علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوي في مختلف طبقات الهواء، وقد علم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة في الهواء من الطبقات التي هي أسفل منها، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق في التنفس نتيجة لقلة الهواء الذي يحتاج إليه حتى لقد يحتاجون أحياناً إلى استعمال جهاز التنفس؛ ليساعدهم على السير في تلك الطبقات.

وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جلياً؛ لأنهم لم يهتدوا لسرها، وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم، فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها بحسب ما أثبته العلم، ومن هذا صح قولهم: الدين والعلم صنوان لا عدوان، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفي أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين.

وخلاصة معنى الآية[(١)]: فمن يرد الله أن يهديه قوّى في قلبه ما يدعوه إلى الإيمان؛ بأن اعتقد أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر، فمال طبعه إليه وقويت رغبته في حصوله وحصل في القلب استعداد شديد لتحصيله، ومن يرد أن يضله ألقى في قلبه ما يصرفه عن الإيمان ويدعوه إلى الكفر بأن اعتقد أن شر الإيمان زائد وضرره راجح، فعظمت النفرة عنه، فإن الكافر إذا دعي إلى الإسلام شق عليه جداً، كأنه كلف أن يصعد إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه، ولا يقدر على ذلك، أو المعنى: كان قلب الكافر يصعد إلى السماء تكبراً عن قبول الإسلام.

وقرأ ابن كثير[(٢)]: ﴿ضَيْقاً﴾ ـ بالتخفيف ـ مثل هَيْن ولَيْن، وقرأ الباقون بالتشديد، وهما لغتان، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم: ﴿حَرِجاً﴾ ـ بكسر الراء ـ

(١) المراح.
(٢) الشوكاني وابن الجوزي.

ومعناه الضيق، فيكون تأكيداً لما قبله، وقرأ الباقون: ﴿حَرَجًا﴾ ـ بفتح الراء ـ جمع حرجة، وهي شدة الضيق. وقرأ ابن كثير: ﴿كأنما يَصْعد﴾ ـ بالتخفيف من الصعود ـ وقرأ النخعي: ﴿يصّاعد﴾ ـ بتشديد الصاد مع الألف ـ وأصله يتصاعد، وقرأ الباقون: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ ـ بالتشديد بدون ألف ـ وأصله يتصعد. وقرأ ابن مسعود وطلحة: ﴿تصعد﴾ ـ بتاء من غير ألف ـ وقرأ أبي بن كعب: ﴿يتصاعد﴾ بتاء وألف.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما جعل الله سبحانه وتعالى صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً بالإسلام ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾؛ أي: اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بآيات الله ويعرضون عن الإيمان بها، أو يسلط الله الشيطان عليهم، فيظهر أثر ذلك في تصرفاتهم وأعمالهم، فيكون غالباً قبيحاً سيئاً في ذاته، أو فيما بعث عليه من قصد ونية؛ لأن الإيمان الذي اجتنبوه هو الذي يصد عنه ويطهر الأنفس منه.

﴿وَهَٰذَا﴾ الإسلام الذي يشرح له صدر من أراد هدايته هو ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ الذي بعثك به، وبين لك أصوله وعقائده بالبراهين الواضحة والبينات الظاهرة حالة كونه ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ في نظر العقول الراجحة والفطر السليمة بعيداً من الإفراط والتفريط، فلا اعوجاج فيه ولا التواء، بل هو السبيل السوي وما عداه من الملل والنحل فهو معوج ملتو بما فيه من زيغ وفساد، وخروج عن الجادة التي يؤيدها العقل، وتستند إلى النقل، كما قال عليّ ـ كرم الله وجهه ـ في نعت القرآن: هو الصراط المستقيم، وحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: قد فسرنا آيات القرآن وأوضحناها، وبيناها بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والحلال والحرام، والأمر والنهي وغير ذلك ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: لقوم يتذكرون بها ويتعظون بما فيها من المواعظ والعبر، فيؤمنون بها فيزدادون بذلك يقيناً ورسوخاً في الإيمان كما يزدادون موعظةً تبعثهم على الإذعان والعمل الصالح؛ وهم أصحاب محمد ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وخصوا بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بها، وفيه إدغام التاء في الأصل في الذال.

﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء القوم المتذكرين ﴿دَارُ﴾الله ﴿السَّلَامِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: المنزه عن جميع النقائص؛ لأن السلام اسم من أسمائه تعالى، وهي الجنة أضافها إلى نفسه تعظيماً، أو دار السلامة من كل آفة وكدر ومكروه؛ أي: السلامة الدائمة التي تنقطع، سميت الجنة بذلك؛ لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلامة؛ لأن السلام بمعنى السلامة نظير الضلال والضلالة، أو دار السلام بمعنى التحية؛ لقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)﴾ حالة كونها مدخرة لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني أن الجنة معدة مهيأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم إليها ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَلِيُّهُم﴾؛ أي: متكفل لهم بجميع مصالحهم في الدين والدنيا ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب أعمالهم الصالحة، أو متولي أمورهم بالتوفيق والهداية في الدنيا، وبالجزاء والجنة في الآخرة، أو محبهم أو ناصرهم على أعدائهم بسبب أعمالهم الصالحة.

والظرف في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ متعلق بقول مقدر بعده، تقديرُهُ: ويوم نحشر الخلائق ﴿جَمِيعًا﴾ من الأولين والآخرين في عرصات القيامة، نقول للجن: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ وهذا أولى من تقدير: أذكر؛ لخروجه حينئذ عن الظرفية، كما قاله أبو حيان في «البحر». وقرأ حفص بالياء في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: ويوم يحشر الله سبحانه وتعالى الخلائق جميعاً، وهو يوم القيامة يقول للجن: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ وباقي السبعة بالنون، وهذا النداء نداء شهرة وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ أي: يا جماعة الجن ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾؛ أي: قد أكثرتم الاستمتاع والانتفاع، والتلذذ بالإنس بطاعتهم لكم ودخولهم فيما تريدون منهم. وقيل المعنى: أكثرتم الإغواء والإضلال من الإنس حتى صاروا في حكم الأتباع لكم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم﴾؛ أي: أولياء الجن وأصحابهم الذين هم ﴿مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿اسْتَمْتَعَ﴾ وانتفع ﴿بَعْضُنَا﴾ معاشر الجن والإنس ﴿بِبَعْضٍ﴾ آخر؛ أي: انتفع الجن بالإنس وانتفع الإنس بالجن؛ أي: انتفع كل من الجنسين بالآخر؛ أي: وقال الذين تولوا الجن من الإنس في جواب الرب تعالى: ربنا تمتع كل منا بالآخر بما كان للجن من اللذة في إغوائنا بالأباطيل وأهواء الأنفس وشهواتها، وبما كان لنا في طاعتهم ووسوستهم من اللذة في اتباع الهوى

والانغماس في اللذات. قال الحسن البصري: **وما كان استمتاع بعضهم ببعض** إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس انتهى.

قال الكلبي[1]: فأما استمتاع الإنس بالجن: كان الرجل في الجاهلية إذا سافر، فنزل بأرض قفراء، وخاف على نفسه من الجن.. قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في جوارهم، وأما استمتاع الجن بالإنس: فهو أنهم قالوا: سدنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا، فيزدادون بذلك شرفاً في قومهم وعظماً في أنفسهم. وقيل: استمتاع الإنس بالجن هو ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة، وتزيينهم الأمور التي كانوا يهوونها وتسهيل سبلها عليهم، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس للجن فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي، وقيل غير ذلك. وقيل: إن قوله: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٍ﴾ هو من كلام الإنس خاصة؛ لأن استمتاع الجن بالإنس، وبالعكس أمرٌ نادر لا يكاد يظهر، أما استمتاع الإنس بعضهم ببعض فهو ظاهر، فوجب الكلام عليهم.

﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾؛ أي: أدركنا ووصلنا بعد استمتاع بعضنا ببعض إلى الأجل الذي حددته لنا، وهو يوم البعث والجزاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، فاحكم فينا بما تشاء وأنت الحكم العدل، وقرىء: ﴿آجالنا﴾ ـ على الجمع الذي على التذكير والإفراد ـ قال أبو علي: هو جنس أوقع (الذي) موقع (التي)، انتهى. ذكره أبو حيان في «البحر». ومقصدهم[2] من هذا الإخبار إظهار الحسرة والندامة على ما كان منهم من التفريط في الدنيا وتفويض الأمر إلى ربهم العليم بحالهم، ولم يذكر هنا قول المتبوعين من الجن، وحكاه في آي أخرى، فقال ـ سبحانه ـ في الفريقين: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ وكما ذكر في سورة البقرة كيف يتبرأ بعضهم من بعض، وحكى في إبراهيم

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

أقوال كل من الضعفاء التابعين من الناس، وأقوال المتكبرين المتبوعين وقول الشيطان للفريقين وتنصله من استحقاق الملام وكفره بما أشركوا.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والإنس رداً عليهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ الأخروية ﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾؛ أي: منزلكم وموضع إقامتكم ومقركم فيها ومصيركم إليها حالة كونكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: في النار؛ أي: مقيمين فيها إقامة خلود أبداً ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ سبحانه وتعالى من الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب الزمهرير، فيشتد البرد عليهم فيه، فيطلبون الرد إلى الجحيم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه وتدبيره، فيضع كل شيء في محله اللائق به، وقيل: حكيم فيما يفعله من ثواب الطائع وعقاب العاصي، وفي سائر وجوه المجازاة ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه، فيجازي كلاً بعمله، أو عليم بعواقب أمور خلقه وما هم إليه صائرون، كأنه قال: إنما حكمت لهؤلاء الكفار بالخلود في النار؛ لعلمي بأنهم يستحقون ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض ﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ آخر منهم؛ أي: نسلط بعض الظالمين بالكفر والمعاصي، أي: نسلط ونؤمر بعضهم على بعض ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: بسبب ما يعملونه من الكفر والمعاصي، أو بسبب كسبهم وعملهم المعاصي. والضمير في ﴿كَانُوا۟﴾ عائد على البعض الثاني كما في «الجمل». والمعنى: كما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض نسلط بعض الظالمين بعضهم على بعض بسبب كسبهم من المعاصي، فيؤخذ الظالم بالظالم لما في الحديث. «ينتقم الله من الظالم بالظالم، ثم ينتقم من كليهما»، وفي الحديث أيضاً «كما تكونوا يولَّ عليكم» ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ... وما من ظالم إلا سيبلىٰ بأظلم

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى إذا أراد بقوم

خيراً ولى أمرهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شراً ولى أمرهم شرارهم. أي: ومثل[1] ذلك الذي ذكر من استمتاع أولياء الإنس والجن بعضهم ببعض في الدنيا لما بينهم من التناسب والمشاكلة نولي بعض الظالمين لأنفسهم وللناس بعضهم على بعض آخر بسبب ما كانوا يكسبون باختيارهم من أعمال الظلم المشتركة بينهم.

روي عن قتادة أنه قال في تفسير الآية: إنما يولي الله بين الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمن من أين كان وحيثما كان، والكافر ولي الكافر من أين كان وحيثما كان، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولعمري لو عملت بطاعة الله، ولم تعرف أهل طاعة الله.. ما ضرك ذلك، ولو عملت بمعصية الله وتوليت أهل طاعة الله.. ما نفعك ذلك شيئاً، انتهى. وروى أبو الشيخ عن منصور بن أبي الأسود قال: سألت الأعمش عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ ما سمعتهم يقولون فيه؟ قال: سمعتهم يقولون: إذا فسد الناس أمر عليهم شرارهم، انتهى. ذاك أن الملوك يتصرفون في الأمم الجاهلة الضالة تصرف الرعاة في الأنعام السائمة، فهم يتخذون الوزراء والحاشية من أمثالهم، فيقلدوهم وهم جمهور الأمة في سيء أعمالهم، فيغلب الفساد على الصلاح، ويفسقون عن أمر الله فيهلكون، أو يسلط عليهم الأمم القوية التي تستبيح حماهم، وتثل عروشهم ويصبحون مستعبدين أذلاء بعد أن كانوا سادة أعزاء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾. أما الأمم العالمة بسنن الاجتماع التي أمرها شورى بين زعمائها وأهل الرأي فيها، فلا يستطيع الملوك أن يتصرفوا فيها كما يشاؤون، بل يكونون تحت مراقبة أولي الأمر فيها، وقد[2] وضع الإسلام هذا الدستور، فجعل أمر الأمة بين أهل الحل والعقد، وأمر الرسول بالمشاورة وسار على هذا النهج، وجعلت الولاية العامة ـ الخلافة ـ بالانتخاب.

واقتفى الخلفاء الراشدون خطواته، وجروا على سنته، فقال الخليفة الأول

---

(١) الصاوي.

(٢) المراغي.

أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة له: أما بعد: فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإذا استقمت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني. وقال الخليفة الثاني على المنبر: من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه. وقال الخليفة الثالث على المنبر أيام الفتنة: أمري لأمركم تبع. وقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يشمل الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس من الحكام وغيرهم؛ إذ كل من هؤلاء وأولئك يتولى من يشاكله في أخلاقه وأعماله، وينصره على من يخالفه.

ثم أجاب سبحانه وتعالى عن سؤال يخطر بالبال، وهو: ما حال الظالمين إذا قدموا على الله يوم القيامة؟ فأجاب بأنهم يسألون، فقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ وهذا شروع(١) في حكاية ما سيكون من توبيخ المعشرين بما يتعلق بخاصة أنفسهم إثر حكاية توبيخ معشر الجن بإغواء الإنس وإضلالهم إياهم؛ أي: ويوم نحشرهم جميعاً نقول توبيخاً لهم وتقريراً: يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل من مجموعكم؛ أي: من بعضكم؛ وهو الإنس، والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع. والصحيح(٢) أن الرسل إنما كانت من الإنس خاصة، وقد قام الإجماع على أن النبي ﷺ مرسل للإنس والجن كافة، والمراد برسل الجن هم الذين سمعوا القرآن من النبي ﷺ، ثم ولوا إلى قومهم منذرين، فالمراد بالرسل ما يعم رسل الرسل، فالله تعالى إنما بكت الكفار بهذه الآية؛ لأنه تعالى أزال العذر وأزاح العلة بسبب أنه تعالى أرسل الرسل إلى الكل مبشرين ومنذرين، فإذا وصلت البشارة والنذارة إلى الكل بهذا الطريق.. فقد حصل ما هو المقصود من إزاحة العذر وإزالة العلة. وقد زعم(٣) قوم أن الله أرسل للجن رسولاً منهم يسمى يوسف.

وقرأ الأعرج: ﴿ألم تأتكم﴾ على تأنيث لفظ رسل بالتاء. والجن عالم غيبي لا نعرف عنه إلا ما ورد به، وقد دل الكتاب الكريم وصحيح الأحاديث على أن النبي ﷺ أرسل إليهم، كقوله تعالى حكاية عن الذين استمعوا القرآن

---

(١) أبو السعود. (٢) المراح. (٣) الجمل.

منهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ فهذا ظاهر في أنه كان مرسلاً إليهم فنؤمن بذلك، ونفوض الأمر فيما عداه إلى الله، ثم بين سبحانه وظيفة الرسل الذين أرسلهم الله إلى الفريقين بقوله: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾؛ أي: يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لكفار الجن والإنس على سبيل التقريع والتوبيخ والتقرير يا معشر الجن والإنس، ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آياتي؛ أي: يخبرونكم بما أوحي إليهم من آياتي الدالة على توحيدي وتصديق رسلي المبينة لأصول الإيمان، وأحاسن الآداب والفضائل، والمفصلة لأحكام التشريع التي من ثمراتها صلاح الأعمال والنجاة من الأهوال ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: ويخوفونكم لقاء عذابي في يومكم هذا؛ وهو يوم الحشر الذي عاينوا فيه ما أعد لهم من أنواع العقوبات الهائلة، ثم أجابوا عن سؤال فهم من الكلام السابق كأنه قيل: فماذا قالوا حين ذلك التوبيخ الشديد؟ فقيل: ﴿قَالُوا۟﴾ أي: قال كفار الجن والإنس ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾؛ أي: شهدنا واعترفنا وأقررنا بإتيان الرسل إيانا، وبإنذارهم لنا، وبمقابلتنا لهم بالكفر والتكذيب، وفي هذا الجواب اعتراف صريح بكفرهم وإقرار بأن الرسل قد أتوهم وبلغوهم دعوتهم إما مشافهةً أو نقلاً عمن سمعوا منهم.

وهذا موطن من مواطن يوم القيامة، وفي موطن آخر لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، وفي موطن ثالث يكذبون على أنفسهم بما ينكرون من كفرهم، وأنهم قدموا شيئاً من السيئات والخطايا، ونحو الآية: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾. وإنما وقعوا في ذلك الكفر بسبب أنهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: غرتهم وخدعتهم عن الآخرة زينة الحياة الدنيا ومتاعها من الشهوات والأموال والأولاد وحب السلطان على الناس وعظيم الجاه، فكفروا بالرسل عناداً وكبراً، وقلدهم في ذلك أتباعهم، واغتر كل منهم بما يغتر به من التعاون مع الآخر.

وأما غرور غيرهم ممن جاء بعدهم بالدنيا، فلما غلب عليهم من الإسراف في الشهوات المحرمة والجاه الباطل، حتى لقد أصبحت الحظوة بين الناس لذوي المال والنسب مهما اجترحوا من الموبقات، وأبسلوا من المكارم والخيرات.

﴿و﴾ بعد أن قامت عليهم الحجة ﴿شهدوا﴾ في الآخرة ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بـ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾ بتلك الآيات والنذر التي جاءت بها الرسل حين رأوا أنه لا يجديهم الكذب، ولا تنفعهم المكابرة. والكفر بالرسل ضربان: كفر بتكذيبهم بالقول، وكفر بعدم الإذعان النفسي الذي يتبعه العمل بحسب سنن الله في ترتيب الأعمال على الطباع والأخلاق. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إتيان الرسل يقصون على الأمم آيات الله لإصلاح حال الأفراد والجماعات في شؤونهم الدنيوية والأخروية، وينذرونهم يوم الحشر والجزاء بسبب ﴿أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ﴾؛ أي بسبب أن الله سبحانه وتعالى لم يكن من سننه في تربية خلقه أن يهلك الأمم بعذاب الاستئصال الذي أوعد به مكذبي الرسل بسبب ظلم من يظلم منهم ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم غافلون إن لم يرسل إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم، وينذرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، بل يسبق هلاك كل أمة إرسال رسول يبلغها ما يجب أن تكون عليه من الصلاح والحق بما يقصه عليها من آيات الوحي في عصره، أو بما ينقله إليها من يبلغونها دعوته من بعده؛ إذ من حكمة الله تعالى في الأمم جعل ما يحل بها من عقاب جزاء على عمل استحقته به، فيكون عقابها تربية لها وزجراً لسواها.

والخلاصة(١): أن الله تعالى لا يظلم أحداً من خلقه، بل هم الذين يظلمون أنفسهم، وأن الإهانة والتعذيب تربية لهم، وتأديب وزجر لغيرهم، وأن هذا العقاب للأمم منه ما هو في الدنيا ومنه ما هو في الآخرة، ومن الأول عذاب الاستئصال لمن عاندوا الرسل بعد أن جاؤوهم بما اقترحوا عليهم من الآيات الكونية، وبعد أن أنذروهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا بها كما حصل لعاد وثمود، وقد انقطع ذلك بانقطاع الرسل. وهلاك الأمم يكون بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق والفجور الذي يفسد الأخلاق، ويقطع روابط المجتمع، ويجعل بأس الأمة بينها شديداً.

---

(١) المراغي.

وقيل المعنى[1]: ما كان الله سبحانه وتعالى مهلك أهل القرى بظلم منه، فهو سبحانه وتعالى يتعالى عن الظلم، بل إنما يهلكهم بعد أن يستحقوا ذلك وترتفع الغفلة عنهم بإرسال الأنبياء، وقيل: المعنى أن الله لا يهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم مع كون الآخرين غافلين عن ذلك، فهو مثل قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من[2] المكلفين من الجن والإنس مؤمنهم وكافرهم ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ متفاوتة ومراتب مختلفة ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: من جزاء أعمالهم خيراً أو شراً، فيجازيهم بأعمالهم وتفاوتها بنسبة بعضهم إلى بعض، أو بنسبة عمل كل عامل، فيكون هو في درجة، فيترقى إلى أخرى كاملة ثم إلى أكمل.

والمعنى[3]: ولكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات؛ أي: منازل يبلغها بعمله إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، وإنما سميت درجات؛ لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج، وهذا إنما يكون في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا، فمنهم من هو أعظم ثواباً، ومنهم من هو أشد عقاباً، وهو قول جمهور المفسرين. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ مختص بأهل الطاعة؛ لأن لفظ الدرجة لا يليق إلا بهم ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿بِغَٰفِلٍ﴾؛ أي: بساه ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عما يعمل المكلفون من الثقلين من أعمال الخير أو الشر. والغفلة[4] ذهاب الشيء عنك لاشتغالك بغيره. وقرأ ابن عامر: ﴿تعملون﴾ - بالتاء الفوقية - وقرأ الباقون بالتحتية؛ أي: فكل[5] عملهم يعلمه ربهم، وهو محصيه عليهم ومجازيهم بالسيئة سيئة مثلها، ويضاعف الحسنات من فضله عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

وفي الآية: إيماء إلى أن مناط السعادة والشقاء هو عمل الإنسان ومشيئته،

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الخازن.
(٤) الشوكاني.
(٥) المراغي.

فإن شاء عمل عمل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فكان من الذين سمعوا القول واتبعوا أحسنه، فجازاه الله أحسن الجزاء، وإن شاء تنكّب عن جادة الدين ورمى أحكامه وراءه ظهرياً، وسار في غلواء الضلال، فكان من الأشقياء الذين كبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد هو ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ الكامل الغنى عن خلقه لا يحتاج إليهم، ولا إلى عبادتهم لا ينفعه إيمانهم ولا يضره كفرهم، ومع كونه غنياً عنهم فهو ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ الشاملة التي وسعت كل شيء إذ كل ما عداه فهو محتاج إليه تعالى في وجوده وبقائه ومحتاج إلى الأسباب التي جعلها سبحانه قوام وجوده، فلا يكون غناه عنهم مانعاً من رحمته لهم، وما أحسن هذا الكلام الرباني وأبلغه، وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة في هذا المقام، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هي غاية التفضل والتطول. ويقال في الخلق: هذا غني إذا كان واجداً لأهم تلك الأسباب التي هي من فيض مولاه، وهو مع ذلك محتاج إلى غيره. انظر إلى الغني ذي المال الكثير، تراه محتاجاً إلى كثير من الناس، من الزوج والخادم والعامل والطبيب والحاكم، ومحتاجاً إلى خالقه وخالق كل شيء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِن يَشَأْ﴾ - سبحانه وتعالى - إذهابكم أيها الكافرون المعاندون واستئصالكم بالعذاب المفضي إلى الهلاك واستخلاف غيركم بعدكم ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ بعذاب يهلككم به كما أهلك أمثالكم ممن عاندوا الرسل كعاد وثمود ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من الأقوام، فإنه غني عنكم وقادر على إهلاككم، وإنشاء قوم آخرين من ذريتكم أو ذرية غيركم يكونون أحق برحمته منكم ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾؛ أي: كما قدر على إنشأكم ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ وقد صدق وعده، فأهلك أولئك الذين عادوا خاتم رسله كبراً وعناداً، وجحدوا بما جاء به وهم يعلمون صدقه، واستخلف في الأرض غيرهم ممن كان كفرهم عن جهل أو تقليد لمن قبلهم، ولم يلبث كفرهم أن زال بالتأمل في آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، فكانوا أكمل الناس إيماناً وإسلاماً وإحساناً، وهم المهاجرون والأنصار وذرياتهم، وكانوا أعظم مظهر لرحمة الله للبشر حتى في حروبهم وفتوحهم،

وشهد لهم بذلك أعداؤهم، حتى قال مؤرخو الإفرنج: ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب. وقرأ زيد بن ثابت: ﴿ذَرية﴾ ـ بفتح الذال ـ وكذا في آل عمران، وأبان بن عثمان: ﴿ذَرِية﴾ ـ بفتح الذال وتخفيف الراء المكسورة ـ وعنه ﴿ذَرْية﴾ على وزن ضربة. وبعد أن أنذرهم عذاب الدنيا وهلاكهم فيها أنذرهم عذاب الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ ه من جزاء الآخرة بعد البعث ﴿لَآتٍ﴾لا محالة ولا مرد له، فإن الله لا يخلف الميعاد ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله بهرب ولا منع مما يريد، ولا فائتين عما هو نازل بكم وواقع عليكم، فهو القادر على إعادتكم كما قدر على بدء خلقكم، وهذا دليل قد ذكره الله تعالى في كتابه مرات كثيرة، وقد أنار العلم في هذا العصر أمر البعث وقربه إلى العقول، فأثبت أن هلاك الأشياء وفناءها ما هو إلا تحلل موادها وتفرقها، وأنه يمكن تركيب المواد المتفرقة وإرجاعها إلى تركيبها الأول في غير الأحياء.

ثم تمم الوعيد والتهديد بأمره لرسوله أن ينذرهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟﴾ واثبتوا ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ وطريقتكم التي أنتم عليها من الشرك والعداوة، فإني غير مبال بكم ولا مكترث بكفركم ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ وثابت على مكانتي وطريقتي التي رباني ربي عليها وهداني إليها، وأقامني عليها من الإسلام والمصابرة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعد حين ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: من تكون له العاقبة المحمودة التي يحمد عليها صاحبها في هذه الدار؛ أي: من له النصر في دار الدنيا، ومن له وراثة الأرض ومن له الدرجات العلى في الآخرة.

وفي «الفتوحات» العاقبة المحمودة: هي الاستراحة واطمئنان الخاطر، وهذه حاصلة في الدار الآخرة التي هي الجنة، فحصلت المغايرة بين الظرف والمظروف، انتهت. ويحتمل أن يراد بعاقبة الدار مآل الدنيا بالنصر والظهور، ففي الآية إعلام بغيب. وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ ترديد بينه عليه السلام وبينهم، ومعلوم أن هذا التهديد والوعيد مختص بهم، وإن عاقبة الدار الحسنى هي له ﷺ. قرأ أبو بكر: ﴿على مكاناتكم﴾ ـ على الجمع حيث وقع ـ فمن جمع قابل جمع المخاطبين بالجمع، ومن أفرد فعلى الجنس.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿من يكون﴾ ـ بالتحتية ـ وقرأ الباقون ﴿تكون﴾ بالفوقية.
قال صاحب «الكشاف»: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تحتمل وجهين: اعلموا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها، يقال للرجل: إذا أمر أن يثبت على حال: على مكانك يا فلان؛ أي: اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه إني عامل على مكانتي التي أنا عليها، والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم، فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم، فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة، انتهى.

والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ للشأن؛ أي: إن الشأن لا يفوز من اتصف بصفة الظلم، وهو تعريض لهم بعدم فلاحهم؛ لكونهم المتصفين بالظلم، أي: لا يفوزون بفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة، وإنما يفوز به أهل الحق والعدل الذين يؤدون حقوق الله وحقوق أنفسهم، ولا يكمل مثل هذا إلا لرسل الله وحزبهم المفلحين من المؤمنين، انظر كيف نصر الله رسوله على الظالمين من قومه كأكابر مجرمي مكة المستهزئين به، ثم من سائر مشركي العرب، ثم نصر أصحابه على أعظم أمم الأرض وأقواها جنداً كالرومان والفرس، ثم نصر من بعدهم على من ناوأهم من أهل الشرق والغرب، فلما ظلموا أنفسهم وظلموا الناس.. لم تبق لهم ميزة عن غيرهم تمكنهم من الفلاح والفوز، وانحصر الفوز في الأسباب المادية والأسباب المعنوية كالصبر والثبات والعدل والنظام، ولا عجب بعد هذا أن يتغلب عليهم غيرهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى إنما وعدهم نصره إذا هم نصروه وأقاموا شرعه وسلكوا سبيل الحق والعدل كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

الإعراب

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿أَوَ﴾ ﴿الهمزة﴾: داخلة على محذوف تقديره أأنتم مثلهم، و﴿الواو﴾: عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع

مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿مَيۡتٗا﴾: خبرها، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أحييناه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿وَجَعَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أحيينا﴾. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق به، لأن ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى خلق. ﴿نُورٗا﴾: مفعول ﴿جعل﴾. ﴿يَمۡشِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَمۡشِي﴾. ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق به أيضاً، وجملة ﴿يَمۡشِي﴾ في محل النصب صفة لـ﴿نُورٗا﴾. ﴿كَمَن﴾: جار ومجرور في محل الرفع خبر ﴿من﴾ الموصولة في قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿مَّثَلُهُۥ﴾ مبتدأ ومضاف إليه. ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: جار ومجرور خبره، والجملة صلة الموصول. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بِخَارِجٖ﴾: خبرها، و﴿الباء﴾: زائدة. ﴿مِّنۡهَا﴾: متعلق بـ﴿خارج﴾، وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور الواقع خبراً أعني قوله: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ﴾ تقديره: تزييناً مثل تزيين الإيمان للمؤمنين. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور في محل نصب صفة لمصدر محذوف تقديره: جعلاً مثل جعل أعمال الكافرين مزينة لهم ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة. ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿زُيِّنَ﴾. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾، صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه، وجملة ﴿زُيِّنَ﴾ من الفعل المغير ونائب فاعله مستأنفة.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: جعلاً مثل جعل صناديد مكة أكابر فيها. ﴿جَعَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿زُيِّنَ﴾. ﴿فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلۡنَا﴾. ﴿أَكَٰبِرَ﴾: مفعول ثان. ﴿مُجۡرِمِيهَا﴾ مفعول أول لـ﴿جعل﴾ منصوب بالياء، وقيل في

إعرابه غير ذلك كما مر في بحث التفسير. ﴿لِيَمْكُرُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: لمكرهم فيها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية: ﴿يَمْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَمْكُرُونَ﴾. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من الضمير في ﴿يَمْكُرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾: على كونها فعل شرط لها. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ إلى قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَن﴾: حرف نصب. ﴿نُّؤْمِنَ﴾: منصوب بـ﴿لَن﴾، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿نُؤْتَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصغية منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: لن نؤمن إلى إيتائنا مثل ما أوتي رسل الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نُّؤْمِنَ﴾. ﴿مِثْلَ﴾: مفعول ثان لـ﴿نُؤْتَىٰ﴾؛ لأنه بمعنى أعطى، والأول كان نائب فاعل لها. ﴿مِثْلَ﴾: مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾: فعل ونائب فاعل ومضاف إليه، والمفعول الثاني لأتى محذوف تقديره: مثل ما أوتيه رسل الله، وهو العائد على ﴿مَا﴾ الموصولة، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿حَيْثُ﴾: في محل النصب مفعول به لفعل محذوف دل عليه ﴿أَعْلَمُ﴾ تقديره: يعلم حيث يجعل رسالته، والجملة المحذوفة في محل الرفع بدل من ﴿أَعْلَمُ﴾

على كونها خبر المبتدأ، وإنما قدرنا العامل لـ﴿حَيْثُ﴾؛ لأن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به الصريح. ﴿يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾. ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول. ﴿أَجْرَمُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿صَغَارٌ﴾: فاعل ﴿يصيب﴾، وجملة ﴿يصيب﴾ مستأنفة. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صفة لـ﴿صَغَارٌ﴾، أو متعلق به أو بـ﴿يصيب﴾. ﴿وَعَذَابٌ﴾: معطوف على ﴿صَغَارٌ﴾. ﴿شَدِيدٌۢ﴾: صفة لـ﴿عذاب﴾. ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَمْكُرُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾، صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ تقديره: بسبب مكرهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يصيب﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن من كان ميتاً فأحييناه ليس كمن مثله في الظلمات، وأردت بيان علامة هداية الله وعلامة إضلاله.. فأقول لك: ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُرِدِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿أَن يَهْدِيَهُۥ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: فمن يرد الله هدايته. ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لِلْإِسْلَٰمِ﴾: متعلق بـ﴿يَشْرَحْ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو

هما. ﴿يُرِدِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿أَن يُضِلَّهُۥ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: ومن يرد إضلاله. ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا﴾: فعل ومفعولان مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿حَرَجٗا﴾: صفة ﴿ضَيِّقًا﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿كَأَنَّمَا﴾ ﴿كأن﴾: حرف نصب وتنبيه، ولكن بطل عملها لدخول ﴿ما﴾ الكافة عليه. ﴿ما﴾ كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿يَصَّعَّدُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على من يرد إضلاله. ﴿فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾: متعلق بـ﴿يَصَّعَّدُ﴾، وجملة التشبيه إما مستأنفة، أو في محل النصب حال من الضمير المستتر في ﴿ضَيِّقًا﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: جعلاً مثل جعل صدر من يرد إضلاله ضيقاً. ﴿يَجۡعَلُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾: مفعول أول. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني إن كان جعل بمعنى يصير، والتقدير: يصير الله الرجس مستعلياً عليهم محيطاً بهم، ومتعلق به إن كان بمعنى يلقي؛ لأنه يتعدى حينئذ إلى مفعول واحد، والمعنى كذلك يلقي الله العذاب على الذين لا يؤمنون. وجملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾: حال من ﴿صِرَٰطُ﴾، والعامل فيه اسم الإشارة باعتبار ما فيه من معنى الفعل، فإنه في معنى أشير، فهو على حد قول ابن مالك:

وَعَامِلٌ ضُمِّنَ مَعْنَىٰ ٱلْفِعْلَ لاَ ... حُرُوْفَهُ مُؤَخَّراً لَنْ يَعْمَلاَ

وهي حال مؤكدة لصاحبها لا مبينة؛ لأن صراط الله لا يكون إلا مستقيماً. ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿لِقَوۡمٖ﴾: متعلق بـ ﴿فَصَّلۡنَا﴾، وجملة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ صفة ﴿لِقَوۡمٖ﴾.

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب لوقوعها في جواب سؤال مقدر، كأن سائلاً سأل عما أعد لهم؛ فقيل له ذلك، وفي «الفتوحات» يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة، ويحتمل أن تكون حالاً من فاعل ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾، ويحتمل أن تكون وصفاً لقوم، وعلى هذين الوجهين؛ فيجوز أن يكون الحال، أو الوصف الجار والمجرور فقط، ويرتفع ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ بالفاعلية، وهذا عندهم أولى، لأنه أقرب إلى المفرد من الجملة، والأصل في الوصف والحال والخبر الإفراد فما قرب إليه أولى. ﴿عِندَ رَبِّهِمْۖ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من ﴿دَارُ﴾، والعامل فيها الاستقرار في ﴿لَهُمْ﴾ انتهت. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر بالباء الجار والمجرور متعلق بـ﴿وَلِيُّهُم﴾. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يعملونه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية. ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من الهاء، أو توكيد لها، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، والظرف متعلق بقول محذوف تقديره: ويوم يحشرهم جميعاً يقول الله سبحانه وتعالى توبيخاً لهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ...﴾ إلخ، وجملة القول المحذوف مستأنفة. ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول للقول المحذوف. ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِۖ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب النداء.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ﴾.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿أَوْلِيَآؤُهُم﴾. ﴿رَبَّنَا...﴾ إلخ مقول محكي

لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مقول ﴿قال﴾. ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه. ﴿بِبَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿ٱسْتَمْتَعَ﴾، والجملة الفعلية جواب النداء. ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَمْتَعَ﴾. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿أَجَلَنَا﴾. ﴿أَجَّلْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَنَآ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أجلته لنا.

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من الكاف في ﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾، والعامل فيه فعل مقدر إن جعل ﴿مثوى﴾ اسم مكان؛ لأنه لا يعمل، أو هو نفسه إن جعل مصدراً بمعنى الإقامة، وعلى الثاني يكون في الكلام حذف مضاف ليصح الإخبار؛ أي: ذات إقامتكم، وتكون الكاف فاعلاً بالمصدر ذكره في «الفتوحات». ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة بمعنى الزمن في محل النصب على الاستثناء. ﴿شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما شاءه الله تعالى، والمستثنى منه محذوف تقديره: خالدين فيها في كل زمان إلا الزمن الذي شاء الله عدم خلودهم ومكثهم فيها، أو إلا زمناً شاء الله عدم مكثهم فيها. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿رَبَّكَ﴾: اسمها. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر أول لها. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره: تولية مثل تمتيعنا الجن والإنس بعضهم ببعض. ﴿نُوَلِّى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة متسأنفة. ﴿بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول أول ومضاف

إليه. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول ثان. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُوَلِّي﴾: ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يكسبونه.

﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾.

﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ منادى مضاف. ﴿وَٱلْإِنسِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْجِنِّ﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: ويوم يحشرهم جميعاً يقول: يا معشر الجن والإنس، وجملة القول المحذوف مستأنفة. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التوبيخي، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يأت﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، و﴿الكاف﴾: مفعول به. ﴿رُسُلٌ﴾ فاعل. ﴿مِّنكُمْ﴾ صفة لـ﴿رُسُلٌ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المحذوف. ﴿يَقُصُّونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَـٰتِي﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿رُسُلٌ﴾، أو في محل النصب حال من ضمير ﴿مِّنكُمْ﴾ كما ذكره أبو البقاء؛ أي: من الضمير المستتر في الجار والمجرور. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه. ﴿هَـٰذَا﴾: بدل من ﴿يومكم﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿يَقُصُّونَ﴾.

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل: فماذا قالوا عند ذلك التوبيخ؟ فقيل: قالوا: ﴿شَهِدْنَا...﴾ الخ. ﴿شَهِدْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَهِدْنَا﴾. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿الحياة﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُواْ﴾، أو جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف الذي هو ﴿وَشَهِدُواْ﴾، والمعطوف عليه الذي هو ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَشَهِدُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾:

متعلق به، والجملة معطوفة على ﴿قَالُواْ﴾. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿كَٰفِرِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: وشهدوا على أنفسهم كونهم كافرين.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره: أنه. ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ﴾: جازم وفعل ناقص واسمه. ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾: خبر كان ومضاف إليه. ﴿بِظُلْمٍ﴾ جار ومجرور حال من ﴿رَّبُّكَ﴾؛ أي: حالة كونه متلبساً بظلم، أو حال من الضمير في ﴿مُهْلِكَ﴾، أو حال من ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: متلبسة بذنوبها، أو متعلق بـ﴿مُهْلِكَ﴾، وجملة ﴿يَكُن﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة تقديره: ذلك بسبب انتفاء كون ربك مهلك القرى. ﴿بِظُلْمٍ﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك كائن بسبب كون ربك الخ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَلِكُلٍّ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿دَرَجَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿دَرَجَٰتٌ﴾؛ أي: درجات كائنة مما عملوا. ﴿عَمِلُواْ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما عملوه. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية أو عاطفة ﴿ما﴾: حجازية. ﴿رَبُّكَ﴾: اسمها. ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: خبرها و﴿الباء﴾: زائدة. ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿بِغَٰفِلٍ﴾. ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عما يعملونه، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾: خبر أول. ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة، ويجوز أن يكون ﴿ربك﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾: وصفان له، ﴿إِن يَشَأْ﴾ وما بعده هو الخبر كما ذكره الكرخي. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَشَأْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، أو في محل الرفع خبر ﴿ربك﴾ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يذهب﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِنْ بَعْدِكُم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يستخلف﴾ ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول يستخلف. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يشاؤه.

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

﴿كَمَآ﴾ ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿أَنشَأَكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أنشأ﴾. ﴿ءَاخَرِينَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: كإنشائه إياكم من ذرية قوم آخرين، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ويستخلف من بعدكم، وينشىء إنشاءً كإنشائه إياكم من ذرية قوم آخرين؛ لأن استخلف هنا بمعنى: أنشأ وأوجد.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿تُوعَدُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: إن ما توعدونه. ﴿لَآتٍ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿آت﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص نظير قاض

وداع، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: حجازية. ﴿أَنتُم﴾: في محل الرفع اسمها. ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: خبرها، والباء زائدة، وجملة ﴿مَآ﴾ الحجازية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: جار ومجرور حال من واو ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾، أو متعلق به. ﴿إِنِّى﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الياء﴾: اسمها. ﴿عَامِلٌ﴾: خبرها، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَسَوْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، أو فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان من له العاقبة.. فأقول لكم، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس للاستقبال البعيد؛ لتأكيد مضمون الجملة، ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، وهي عرفانية تتعدى لمفعول واحد. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية معللة لما قبلها، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص. ﴿لَهُۥ﴾: خبرها مقدم على اسمها. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ صلة الموصولة، والتقدير: فسوف تعلمون الفريق الذي له عاقبة الدار. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، والهاء ضمير الشأن في محل النصب اسمها، وجملة ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في محل الرفع خبرها، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه واقع في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: وما عاقبتهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ المثل: الصفة والنعت، والظلمات جمع ظلمة؛ وهي ضد النور، وجمعها هنا؛ لأن المراد بها ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة كما مر.

﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أكابر جمع أكبر، أو كبير غير منصرف؛ لأنه على زنة مفاعل، والمجرمون فاعلوا الإجرام، والإجرام هو ما فيه الفساد والضرر من الأعمال. والقرية[1]: البلد الجامع للناس ـ العاصمة في عرف هذا العصر ـ وقد تطلق بمعنى الشعب أو الأمة، ويراد فيها البلد في إصطلاح هذا العصر، فيقولون: ثروة البلد مصلحة البلد، ويريدون الأمة.

﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ المكر: صرف المرء غيره عما يريده إلى غيره بضرب من الحيلة في الفعل، أو الخلابة في القول، وقال أبو عبيدة[2]: المكر الخديعة، والحيلة، والفجور والغدر والخلاف.

﴿صَغَارٌ﴾: الصَّغَار[3] والصَّغَر ـ بفتحتين ـ: الذلُّ والهَوان، جزاء الكفر والطغيان، والصغار: قلة في الأمور المعنوية، والصِغَر: ـ بزنة عنب ـ قلة في الأمور الحسية، والصاغر: الراضي بالمنزلة الدنية، يقال فيه[4]: صغر ككرم كما في «القاموس» وصغر كتعب كما في «المصباح» والمصدر صِغَرٌ كعنب، وصغر كقفل، وصغار كسحاب، والصغر ضد الكبر، يقال فيه: صغر ـ بالضم ـ فهو صغير، وصغر كفرح صغراً كعنب، وصغراً كشجر، وصغراناً كعثمان.

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ يقال[5]: شرح الله صدره فانشرح؛ أي: وسعه لقبول الإيمان والخير فوسع، وذلك أن الإنسان إذا اعتقد في عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر.. مال بطبعه إليه، وقويت رغبته فيه، فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر، وقيل: الشرح: الفتح والبيان، يقال: شرح الله لفلان أمره إذا أوضحه وأظهره، وشرح المسألة إذا كانت مشكلة وأوضحها وبينها، فقد ثبت أن للشرح معنيين:

---

(١) المراغي.

(٢) زاد المسير.

(٣) المراغي.

(٤) الفتوحات.

(٥) الفتوحات.

أحدهما: الفتح ومنه يقال: شرح الكافر بالكفر صدراً؛ أي: فتحه لقبوله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ يعني فتحه ووسعه لقبوله.

والثاني: أن الشرح نور يقذفه الله تعالى في قلب العبد، فيعرف بذلك النور الحق فيقبله، وينشرح صدره له ذكره في «الفتوحات».

﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ والضيق بالتشديد والتخفيف لغتان فيه كهين وهين ضد الواسع، وقيل: المخفف مصدر ضاق يضيق ضيقاً كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ يقال: ضاق يضيق ضِيقاً، وضَيقاً ـ بفتح الضاد وكسرها ـ ففي جعله مصدراً يجيء فيه الأوجه الثلاثة: في المصدر الواقع وصفاً لجثة نحو رجل عدل، وهي حذف مضاف، أو المبالغة، أو وقوعه موقع اسم الفاعل؛ أي: يجعل صدره ذا ضيق، أو ضائقاً، أو نفس الضيق مبالغة.

وقولنا فيه بالتخفيف؛ أي: تخفيف الياء بحذف الياء الثانية التي هي عين الكلمة، فيصير وزنه فَيْلاً بوزن ضرباً، وقولنا بالتشديد؛ أي: تشديد الياء، ووزنه فَيْعِل كهين وميت، وفي «السمين» وإذا قلنا: إنه مخفف من المشدد، فهل المحذوف الياء الأولى أو الثانية؟ فيه خلاف.

حرجاً وحرجاً ـ بفتح الراء وكسرها ـ هو المتزايد في الضيق؛ أي: شديد الضيق، فهو أخص من الأول، فكل حرج ضيق من غير عكس، وعلى هذا فالمكسور والمفتوح بمعنى واحد مأخوذ من الحرجة؛ وهي الشجر الكثير الملتف بعضه ببعض بحيث يصعب الدخول فيه. روي(1) أن عمر ـ رضي الله عنهه ـ سأل أعرابياً من بني مدلج عن الحرجة، فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية، فقال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير.

﴿ٱلرِّجۡسَ﴾ كل ما يستقذر حساً أو عقلاً أو شرعاً، أو هو ما لا خير فيه، أو

---

(1) المراغي.

اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾؛ أي: طريقه الذي ارتضاه وسننه التي اقضتها حكمته، والمستقيم ما لا إعوجاج فيه ولا زيغ.

﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ هي الجنة، أو هي دار السلامة من المنغصات والكروب.

﴿وَلِيُّهُم﴾؛ أي: متولي أمورهم وكافيهم كل ما يهمهم.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ المعشر والنفر والقوم والرهط الجمع من الرجال فحسب، ولا واحد لها من لفظها. وقال الليث: المعشر كل جماعة أمرهم واحد نحو معشر المسلمين، ومعشر الكافرين، ويطلق على الإنس والجن بدليل الآية، ويجمع[1] على معاشر كما ورد: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»، وقال الأفوه:

فِيْنَا مَعَاشِرُ لَمْ يَبْنُوا لِقَوْمِهِمُ ... وَإِنْ بَنَىٰ قَوْمُهُمْ مَا أَفْسَدُوْا عَادُوْا

﴿ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ يقال: استكثر من الشيء إذا أخذ الكثير منه يقال: استكثر من الطعام أكل كثيراً، وهو من استفعل، ثلاثيه كثر. وقال ابن[2] عباس ومجاهد وقتادة: أفرطتم في إضلالهم وإغوائهم.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ وأولياؤهم هم الذين تولوهم؛ أي: أطاعوهم في وسوستهم وما ألقوه إليهم من الخرافات والأوهام. ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا﴾ استمتع من باب استفعل ثلاثيه متع، والاستمتاع بالشيء جعله متاعاً، والمتاع ما ينتفع به انتفاعاً طويلاً ممتداً، وإن كان قليلاً. ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا﴾؛ أي: وصلنا يوم البعث والجزاء.

﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ المثوى مكان الثواء؛ أي: الإقامة والسكنى، أو مصدر ميمي بمعنى الثواء والإقامة، والخلود المكث الطويل غير المؤقت بوقت ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ وفي «المصباح» وقصصت الخبر قصاً من باب رد حدثته

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

على وجهه، والاسم القَصَص - بفتحتين - انتهى. فهو من المضاعف المعدى، فقياسه ضم عين مضارعه.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾؛ أي: يهلككم من أذهب الرباعي بمعنى أهلك وأعدم.

﴿يستخلف﴾؛ أي: ينشيء الذرية والنسل من استخلف بمعنى يخلف، فالسين والتاء زائدتان.

﴿بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: جاعلي من طلبكم عاجزاً غير قادر على إدراككم.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ المكانة الحالة التي هم عليها، واختلف في ميم مكان ومكانة، فقيل هي أصلية، وهما من مكن يَمْكُن من باب كرم يقال: مكن مكانة عند الأمير ارتفع وصار ذا منزلة، وقيل: هي زائدة، وهما من الكون، فالمعنى على الأول: اعملوا على ممكنتكم من أمركم وأقصى استطاعتكم، فالمكانة مصدر، وعلى الثاني: اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها، وعلى هذا تكون الميم زائدة، فيكون كل من المكان والمكانة مفعلاً ومفعلةً من الكون. ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ والدار هي الدنيا، والمراد بالعاقبة عاقبة الخير إذ لا اعتداد بعاقبة الشر؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا مزرعة الآخرة وقنطرة المجاز إليها، وأراد من عباده أعمال الخير لينالوا حسن العاقبة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية، في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾؛ لأنه استعار الموت للكفر، فاشتق منه ميتاً بمعنى كافراً، وفي قوله: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾؛ لأنه استعار الحياة للإيمان، وفي قوله: ﴿نُورًا﴾؛ لأنه استعار النور للهداية، وفي قوله: ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ لأنه استعار الظلمة للضلال.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿مَيْتًا﴾ وقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾، وبين قوله: ﴿نُورًا﴾ وقوله: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾؛ لأن الشرح كناية عن قبول النفس للحق والهدى الذي جاء به الرسول ﷺ.

ومنها: الطباق بين لفظي: الشرح والضيق.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿حَرَجًا﴾ لأنه تأكيد لـ﴿ضيقاً﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾؛ لأنه شبه حال من جعل الله صدره ضيقاً حرجاً عن الإيمان بحال من يكلف نفسه بالصعود إلى السماء المظلمة، أو إلى مكان مرتفع وعر كالعقبة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾؛ لأنه استعار الصراط بمعنى الطريق لما جاء به محمد ﷺ.

ومنها: الإضافة للتشريف، في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ إذا كان السلام من أسمائه تعالى.

ومنها: الظرفية المجازية في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ۖ﴾ الدالة على شرف الرتبة في المنزلة.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾؛ أي: أفرطتم في إغواء وإضلال الإنس، وفي قوله: ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾؛ أي: استمتع

بعض الإنس ببعض الجن، وبعض الجن ببعض الإنس.

ومنها: تعريف الطرفين لإفادة الحصر في قوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري التوبيخي في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

ومنها: تعويض التنوين عن المحذوف في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾؛ أي لكل العاملين.

ومنها: دخول إن واللام على الجملة الاسمية للتأكيد، في قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾؛ لأن المخاطبين منكرون للبعث، فلذا أكد الخبر بمؤكدين.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿اعملوا﴾ و﴿عامل﴾ في قوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾.

ومنها: التهديد والوعيد[1] في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ كقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وقوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ وقال الشاعر:

إِذَا مَا ٱلْتَقَيْنَا وَٱلْتَقَىٰ ٱلرُّسْلُ بَيْنَنَا ... فَسَوْفَ تَرَىٰ يَا عَمْرُوْ مَا ٱللَّهُ صَانِعُ

وقال آخر:

سَتَعْلَمُ لَيْلَىٰ أَيَّ دَيْنٍ تَدَايَنَتْ ... وَأَيَّ غَرِيْمٍ لِلتَّقَاضِيْ غَرِيْمُهَا

ومعلوم أن هذا التهديد والوعيد مختص بهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط بتصرف.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ
وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ
فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ
بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا
كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)
قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ
ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (١٤٠) ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ
وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ
إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ
ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ
أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ
وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ
كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ
ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قبح[1] طريقة

(١) البحر المحيط.

مشركي العرب في إنكارهم البعث.. ذكر أنواعاً من جهالاتهم تنبيهاً على ضعف عقولهم، وفي قوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ أنه تعالى كان أولى أن يجعل له الأحسن والأجود، وأن يكون جانبه تعالى هو الأرجح إذ كان تعالى هو الموجد لما جعلوا له منه نصيباً، والقادر على تنميته دون أصنامهم العاجزة عن ما يحل بها فضلاً أن تخلق شيئاً أو تنميه.

وعبارة «المراغي» هنا: بعد أن[1] حاجّ الله سبحانه وتعالى المشركينَ وسائر العرب في كثير من أصول الدين، وكان آخرها البعث والجزاء.. ذكر هنا بعض عبادتهم في الحرث والأنعام، والتحليل والتحريم بباعث الأهواء النفسية، والخرافات الوثنية، انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنه سبحانه وتعالى لما أخبر عنهم أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله.. أخذ يذكر تعالى ما امتن به عليهم من الرزق الذي تصرفوا فيه بغير إذنه تعالى افتراء منهم عليه واختلافاً، فذكر نوعي الرزق النباتي والحيواني، فبدأ بالنباتي كما بدأ به في الآية المشبهة لهذا، واستطرد منه إلى الحيواني إذ كانوا قد حرموا أشياء من النوعين.

وعبارة «المراغي» هنا: علمت[3] فيما سلف أن أصول الدين التي عني الكتاب الكريم بذكرها، واهتم ببيانها، وكررها المرة إثر المرة هي التوحيد والنبوة والبعث والقضاء والقدر، وقد بالغ سبحانه وتعالى في تقرير هذه الأصول، وأتبعها بذكر آراء لهم سخيفة وكلمات فاسدة في التحليل والتحريم تنبيهاً على ضعف عقولهم، وتنفيراً للناس من اتباع آرائهم والسير على أهوائهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله[4] سبحانه وتعالى لما أمر بالأكل من ثماره، وبإيتاء حقه.. نهى

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

عن مجاوزة الحد، فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ وهذا النهي يتضمن أفراد الإسراف، فيدخل فيه الإسراف في أكل الثمرة حتى لا يبقى منها للزكاة، والإسراف في الصدقة بها حتى لا يبقي لنفسه ولا لعياله شيئاً، وقيده أبو العالية وابن جريج بالصدقة بجميع المال، فيبقى هو وعياله كَلاً على الناس.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ أخرج[1] ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة في هذه الآية أنها نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر وربيعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أخرج ابن أبي شيبة[2]، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي العالية قال: ما كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة، ثم إنهم تباذروا وأسرفوا، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وأخرج ابن جرير[3] وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جد نخلاً، فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى، وليس له ثمرة، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله لم يكن إسرافاً، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان إسرافاً.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَجَعَلُوا۟﴾؛ أي: وعين شركاء مكة وغيرهم ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾؛ أي: مما خلق الله سبحانه وتعالى وحده ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾؛ أي: من حبوب الزرع وكذا من ثمار الأشجار ﴿و﴾ من نتاج ﴿الأنعام﴾ وهي الإبل والبقر

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

(٣) لباب النقول والشوكاني.

والغنم، ومن سائر أموالهم ﴿نَصِيبًا﴾؛ أي: حظاً وقسماً معيناً يصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وجعلوا نصيباً من ذلك لمن أشركوا معه من الأوثان والأصنام ينفقونه على سدنتها، وفي قرابين يذبحون عندها، دل[1] على هذا المحذوف تفصيله القسمين فيما بعد، وهو قوله: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾. ﴿فَقَالُوا﴾ في النصيب الأول ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾؛ أي: نتقرب به إليه ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾؛ أي: بكذبهم وافترائهم على الله تعالى متعلق بـ﴿قالوا﴾، وإنما نسبوا[2] للكذب في هذه المقالة مع أن كل شيء لله؛ لأن هذا الجعل لم يأمرهم الله به، فهو مجرد اختراع منهم ﴿و﴾ قالوا في النصيب الثاني ﴿هذا لشركائنا﴾؛ أي: لمعبوداتنا نتقرب به إليها. ومعنى قوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾؛ أي: بقولهم الذي لا بينة لهم عليه، ولا هدي من الله إذ جعله قربة لله يجب أن يكون خالصاً له وحده لا يشرك معه غيره فيه، وأن يكون بإذنه لأنه دين والدين لله ومن الله وحده، فهذا زعم مخترع لا دين مشترع، فيكون باطلاً.

وقد روي أنهم كانوا يجعلون نصيب الله لقرى الضيفان، وإكرام الصبيان والتصدق على المساكين، ونصيب آلهتهم لسدنتها وقرابينها، وما ينفق على معابدها، ثم[3] إن رأوا ما عينوه لله أزكى بدلوه بما لآلهتهم، فأعطوا نصيب الله لسدنة الأصنام، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها، فلم يصرفوه للمساكين، بل يصرفونه للسدنة، وكان إذا أصابهم قحط استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا ما جعلوه لآلهتهم، ولم يأكلوا منه، وإذا هلك ما جعلوه لها أخذوا بدله مما جعلوه لله، ولا يفعلون كذلك فيما جعلوه لها، وإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه، وقالوا: إن الله غني عن هذا، وإن سقط شيء مما جعلوه للأصنام في نصيب الله أخذوه وردوه إلى نصيب الصنم، وقالوا: إنه فقير.

وقرأ الكسائي ويحيى بن وثاب والسلمي والأعمش[4]: ﴿بزُعمهم﴾: - بضم الزاي - وهي لغة بني أسد، وقرأ الباقون بفتحها؛ وهي لغة أهل الحجاز وهما

---

(١) زاده.
(٢) بيضاوي.
(٣) المراح.
(٤) البحر المحيط والشوكاني.

مصدران. وقيل: الفتح في المصدر، والضم في الاسم، وقرأ ابن أبي عبلة: بفتح الزاي والعين فيهما، والكسر لغة لبعض قيس وتميم، ولم يُقرأ به.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ﴾؛ أي: فيما عينوه لشركائهم وآلهتهم ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يصرف إلى الوجوه التي جعلوها لله لا بالتصدق ولا بالضيافة ولا غيرهما، بل يهتمون بحفظه وإنفاقه على السدنة وذبح الذبائح والقرابين عندها ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ﴾؛ أي: وما عينوه وجعلوه له ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾؛ أي: يجعلونه لآلهتهم وينفقونه في مصالحها للتقرب به إليها ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: قبح الحكم حكمهم في إيثار آلهتهم على الله سبحانه، أو قبح ما يحكمون به بإيثارهم المخلوق العاجز عن كل شيء على الخالق القادر على كل شيء، وبعملهم شيئاً لم يشرعه الله.

وللقبح وجوه متعددة منها:

١ ـ أنه اعتداء على الله بالتشريع، وهو لم يأذن لهم فيه.

٢ ـ الشرك في عبادته تعالى، ولا ينبغي أن يشرك مع الله سواه فيما يتقرب به إليه.

٣ ـ ترجيح ما جعلوه لشركائهم على ما جعلوه لخالقها وخالقهم.

٤ ـ أن هذا حكم لا مستند له من عقل ولا هداية من شرع.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من أعمال الشرك أيضاً عملاً لا مستند له من عقل ولا شرع فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومثل تزيين قسمة القرابين من الحرث والأنعام بين الله وآلهتهم، وجعلهم آلهتهم شركاء لله في ذلك ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بوأد إناثهم ونحر ذكورهم ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾؛ أي: أولياؤهم من الشياطين ومن السدنة؛ أي: زين لكثير من المشركين شركاؤهم ـ سدنة الآلهة وخدمها ـ أن يقتلوا أولادهم.

وكان مصدر هذا التنزيين وجوهاً مختلفة منها:

١ ـ اتقاء الفقر الحاصل أو المتوقع، وقد أشار سبحانه إلى الأول بقوله:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ وأشاء إلى الثاني بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾.

٢ ـ اتقاء العار بوأد البنات؛ أي: بدفنهن وهن على قيد الحياة خشية أن يكن سبباً للعار أو السباء، أو خشية أن يقترن بأزواج دون آبائهن في الشرف.

٣ ـ التدين بنحر الأولاد للآلهة تقرباً إليها بنذر أو بغير نذر، فقد كان الرجل في الجاهلية ينذر إن ولد له كذا غلاماً.. لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب في قصص طويل أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أنا ابن الذبيحين».

وسمى الله المزينين لهم الشرك من شياطين الإنس ـ كالسدنة ـ أو شياطين الجن شركاء، وإن كانوا هم لم يسموهم لا آلهة ولا شركاء؛ لأنهم لما أطاعوهم طاعة إذعان وخضوع في التحليل والتحريم، ولا يكون ذلك إلا لله سماهم شركاء كما قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿زَيَّنَ﴾ ـ مبنياً للفاعل ـ و ﴿قَتْلَ﴾ ـ نصباً على المفعولية ـ و ﴿أَوْلَـٰدِهِمْ﴾ ـ خفضاً بالإضافة ـ و ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ ـ رفعاً على الفاعل ـ والمعنى؛ أي: وهكذا زين لهم شياطينهم قتل أولادهم، فأمروا بأن يئدوا بناتهم خشية الفقر والسبي، وبأن ينحروا ذكورهم لآلهتهم، فكان الرجل في الجاهلية يقوم فيحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور.. لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب لينحرن عبد الله.

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿زُين﴾ ـ مبنياً للمفعول ـ و﴿قتلُ﴾ ـ رفعاً على النيابة عن الفاعل ـ و﴿أولادَهم﴾ ـ نصباً على المفعولية ـ و﴿شركائهم﴾ ـ خفضاً على إضافة المصدر إلى فاعله ـ والمعنى؛ أي: وزين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم. وهذه القراءة متواترة صحيحة، ولا عبرة بقول ابن عطية: وهذه قراءة ضعيفة في لسان العرب، فقد قرأ ابن عامر على أبي الدرداء، وواثلة بن الأسقع وفضالة بن عبيد، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة المخزومي، وقرأ أيضاً على

---

(١) المراح.

عثمان، وولد هو في حياة رسول الله ﷺ. وقَرأت فرقة[١]، منهم السلمي والحسن وأبو عبيد الملك ـ قاضي الجند وصاحب ابن عامر ـ: ﴿زين﴾ ـ مبنياً للمفعول ـ و﴿قتل﴾ مرفوعاً مضافاً إلى ﴿أولادهم﴾، ﴿شركاؤهم﴾ مرفوعاً على إضمار فعل؛ أي: زينه شركاؤهم هكذا أخرجه سيبويه. أو فاعلاً بالمصدر؛ أي: قتل أولادهم شركاؤهم هكذا خرجه قطرب. فعلى توجيه سيبويه الشركاء مزينون لا قاتلون كما كان كذلك في القراءة الأولى، وعلى توجيه قطرب الشركاء قاتلون، ومجازه أنهم لما كانوا مزينين القتل جعلوا هم القاتلين، وإن لم يكونوا مباشري القتل، وقرأت فرقة من أهل الشام، ورويت عن ابن عامر: ﴿زِيْنَ﴾ ـ بكسر الزاي وسكون الياء ـ على أنه فعل ماض مبني للمفعول على وزن قيل وبيع و﴿قتل﴾ مرفوع على ما لم يسم فاعله و﴿أولادهم﴾ بالنصب، و﴿شركائهم﴾ بالخفض غاية ما في هذه القراءة أنه من زان الثلاثي، وبني للمفعول فأعل كبيع، فهي جارية على القراءة الأولى من الفصل بالمفعول.

ثم ذكر سبحانه وتعالى علة تزيين المنكرات لهم فقال: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾؛ أي: أنهم زينوا لهم هذه المنكرات ليردوهم ويهلكوهم بالإغواء والإضلال ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾؛ أي: وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام، ويفسدوا عليهم فطرتهم، فتنقلب عواطف ود الوالدين من رأفة ورحمة إلى قسوة ووحشية، فينحر الوالد ولده، ويدفن بنته الضعيفة بيده، وهي حية؛ أي: زينوا لهم ليضلوهم وليدخلوا عليهم الشك في دينهم.

والدين[٢] الذي لبَّسوه وخلطوه عليهم هو ما كانوا يدعونه من دين إسماعيل وملة إبراهيم عليهما السلام، وقد اختلط عليهم بما ابتدعوه من تقاليد الشرك حتى لم يعرف الأصل الذي كان يتبع من هذه الإضافات التي ضموها إليه، فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

وقرأ النخعي[1]: ﴿وليَلبسوا﴾ ـ بفتح الياء ـ قال أبو الفتح استعارة من اللباس عبارة عن شدة المخالطة، واللام متعلقة بـ﴿زين﴾، فهي على حقيقة التعليل إن كان التزيين من الشياطين، وعلى معنى الصيرورة إن كان من السدنة.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى عدم قتلهم أولادهم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: ما فعل كثير من المشركين قتل الأولاد بدفن البنات في حياتها، وبنحر الأولاد الذكور للأصنام ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: إذا عرفت يا محمد ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: اتركهم وافتراءهم وكذبهم في قولهم: إن الله يأمرهم بقتل أولادهم، أو فذرهم وما يختلقون من الإفك على الله والأحكام التي يشرعونها، وهو أمر تهديد ووعيد؛ أي[2]: ولو شاء الله سبحانه وتعالى أن يخلق الناس مطبوعين على عبادته طبعاً لا يستطيعون غيرها كالملائكة، فلا يؤثر فيه إغواء، ولا تجدي فيهم وسوسة لفعل، ولكن شاء أن يخلقهم مستعدين للتأثر بكل ما يرد على أنفسهم من الأفكار والآراء، وما يشاهدون من المحسوسات، واختيار ما يترجح عندهم أنه الخير على ما يقابله، ومن ثم يؤثر في نفوسهم ما يستفيدونه بالتعليم والاختيار والمعاشرة والمخالطة، والناس يتفاوتون في هذا جدَّ التفاوت، فلا يمكن أن يكونوا على رأي واحد، أو دين واحد، فدعهم أيها الرسول وما ينتحلونه من شرائع وما يفترون من عقائد، وعليك بما أمرت به من التبليغ والله هو الذي يتولى أمرهم، وله سنن في هداية خلقه لا تتبدل، ومن سننه أن يغلب الحق الباطلَ، ثم ذكر نوعاً ثالثاً من آرائهم الفاسدة فقال:

﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال المشركون الذين قسموا نصيب آلهتهم أقساماً ثلاثة: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾؛ أي: القرابين التي جعلناها للآلهة ﴿أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾؛ أي: زروع ﴿حِجْرٌ﴾؛ أي: محرمة ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾؛ أي: لا يأكل هذه الأنعام والحرث إلا خدمة الأوثان والرجال دون النساء ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾؛ أي: قالوا ما ذكر متلبسين بكذبهم، ومن غير حجة ﴿و﴾ هذه ﴿أنعام حرمت ظهورها﴾؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

ركوبها والحمل عليها، وهي البحائر والسوائب والحوامي والوصائل ﴿و﴾ هذه ﴿أنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾ إذا ركبت أو حملت أو ذبحت، ونسبوا ذلك التقسيم إلى الله تعالى ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾ وكذباً ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ سبحانه وتعالى حيث قالوا: إن الله تعالى أمرنا بهذا التقسيم، وهذا إما مفعولٌ له، وعامله: ﴿قالوا﴾، أو حالٌ من ضميره، أو مصدرٌ مؤكد له؛ لأن قولهم ذلك هو الافتراء ﴿سيجزيهم﴾ الله سبحانه وتعالى ويعاقبهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ه ويختلقون عليه؛ أي: أن الله سيكافؤهم بسبب تقولهم عليه وكذبهم، وقرأ أبان بن عثمان: ﴿نَعَم﴾ على الإفراد. وقرأ الجمهور: ﴿حِجۡرٌ﴾ ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ. وقرأ الحسن وقتادة والأعرج بضم الحاء وسكون الجيم، وقال القرطبي قرأ الحسن وقتادة بفتح الحاء وسكون الجيم، وعن الحسن أيضاً: ﴿حُجر﴾ ـ بضم الحاء ـ. وقرأ أبان بن عثمان وعيسى بن عمر بضم الحاء والجيم. وقال هارون كان الحسن يضم الحاء من ﴿حُجر﴾ حيث وقع إلا ﴿وحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ فيكسرها. وقرأ أبي وعبد الله وابن عباس وابن الزبير وعكرمة وعمرو بن دينار والأعمش: ﴿حرج﴾ ـ بكسر الحاء وتقديم الراء على الجيم وسكونها ـ وحرج على القلب معناه: معنى حجر، أو من الحرج، وهو التضييق. ذكره أبو حيان في «البحر». أي: أنهم[1] لغوايتهم وشركهم قسموا أنعامهم وزروعهم أقساماً ثلاثة:

١ ـ أنعام وأقوات من حبوب وغيرها تقتطع من أموالهم، وتجعل لمعبوداتهم تعبداً وتديناً، ويمتنعون من التصرف فيها إلا لها، ويقولون: هي حجر؛ أي: محتجرة للآلهة لا تعطى لغيرهم، وقوله: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾؛ أي: لا يأكل منها إلا الرجال دون النساء، وقوله: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾؛ أي: بادعائهم الباطل من غير حجة ولا برهان.

٢ ـ أنعام حرمت ظهورها، فلا تركب ولا يحمل عليها. قال السدي: هي البحيرة وما ذكر معها في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ . . .﴾ الآية.

---

(١) المراغي.

٣ ـ أنعام لا يذكورن اسم الله عليها في الذبح، بل يهلون بها لآلهتهم وحدها، وكانوا إذا حجوا لا يحجون عليها، ولا يلبون على ظهرها ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ﴾؛ أي: أنهم قسموا هذا التقسيم، وجعلوه من أحكام الدين، ونسبوه إلى الله افتراء عليه، واختلاقاً له، والله منه بريء فهو لم يشرعه لهم، وما كان لغير الله أن يحرم أو يحلل على العباد ما لم يأذن به الله كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿سَيَجْزِيهِم﴾ الجزاء[1] الذي يستحقونه، وينكل بهم شر النكال ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: بسبب هذا الافتراء القبيح، ثم ذكر ضرباً آخر من أحكامهم في التحريم والتحليل ينبىء عن سخفهم وقلة عقلهم فقال: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال مشركوا مكة وغيرهم: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ أي: ما ولد من هذه البحائر والسوائب حياً ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾؛ أي: حلال لذكورنا خاصة، والهاء في ﴿خَالِصَةٌ﴾ للمبالغة في الخلوص ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ﴾ جنس ﴿أَزْوَٰجِنَاۖ﴾ وهي الإناث، فيدخل فيه البنات والأخوات ونحوهن ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ﴾؛ أي: ذكورهم وإناثهم ﴿فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾؛ أي: وإن يكن الذي في بطون الأنعام ميتة.. فهم فيه؛ أي: في الذي في البطون شركاء يأكل منه الذكور والإناث؛ أي: وما ولد منها ميتاً أكله الرجال والنساء جميعاً ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿وَصْفَهُمْۚ﴾ لما في بطونها بالتحليل والتحريم والتخصيص والاشتراك من قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾؛ أي: سيوصل الله لهم جزاء ذنوبهم وهو وصفهم له بالتحليل والتحريم، فالواصف بذلك أولاً عمرو بن لُحي، وقد رآه النبي ﷺ يجر قصبه في النار، وكان يعلمهم تحريم الأنعام ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه، وهذه الجملة تعليل لمجازاته إياهم؛ أي: فمن أجل حكمته وعلمه لا يترك جزاءهم.

قوله: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ المراد[2] بالأنعام هنا البحائر؛

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

أي: المشقوقة الآذان، والسوائب التي تسيب وتترك للآلهة، فلا يتعرض لها أحد، وكانوا يجعلون لبنها للذكور، ويحرمونه على الإناث، وإذا ولدت ذكراً جعلوه خالصاً للذكور لا تأكل منه الإناث، وإذا كان ميتة اشترك فيه الذكور والإناث، وإذا ولدت أنثى تركوها للنتاج.

قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: سيجزيهم الله تعالى جزاء وصفهم؛ لأن حكمته تعالى في الخلق وعلمه بشؤونهم جعلت عقابهم عين ما يقضيه وصفهم ونعتهم الروحي؛ إذ لكل نفس في الآخرة صفات تجعلها في مكان معين سواء أكان في أعلى عليين، أم في أسفل سافلين.

والخلاصة: أن منشأ الجزاء نفس الإنسان باعتبار عقائدها وسائر صفاتها التي يطبعها عليها العمل، وقيل: المعنى سيجزيهم وصفهم لربهم بما جعلوا له من الشركاء في العبادة والتشريع، أو وصف ألسنتهم الكذب بما افتروا عليه فيهما كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ . . .﴾ الآية.

وقرأ عبد الله وابن جبير وأبو العالية والضحاك وابن أبي عبلة(١): ﴿خالصٌ﴾ - بالرفع بغير تاء - وهو خبر ﴿مَا﴾؛ و﴿لِذُكُورِنَا﴾ متعلق به. وقرأ ابن جبير فيما ذكر ابن جني: ﴿خالصاً﴾ - بالنصب بغير تاء - وانتصب على الحال من الضمير الذي تضمنته الصلة، أو على الحال من ﴿مَا﴾ على مذهب أبي الحسن في إجازته تقديم الحال على العامل فيها إذا كان ظرفاً أو جاراً ومجروراً نحو: ﴿زيد قائماً في الدار﴾ وخبر ﴿مَا﴾ على هذه القراءة هو ﴿لِذُكُورِنَا﴾.

وقرأ ابن عباس والأعرج وقتادة وابن جبير أيضاً: ﴿خالصةً﴾ - بالنصب - وإعرابها كإعراب خالصاً بالنصب، وخرج ذلك الزمخشري على أنه مصدر مؤكد كالعافية. وقرأ ابن عباس أيضاً وأبو رزين وعكرمة وابن يعمر وأبو حيوة والزهري: ﴿خالِصه﴾ بالإضافة إلى الضمير، وهو بدل من ﴿مَا﴾، أو مبتدأ خبره

---

(١) البحر المحيط.

﴿لِذُكُورِنَا﴾، والجملة خبر ﴿مَا﴾. وقرأ الجمهور: ﴿خَالِصَةٌ﴾ ـ بالرفع بالتاء ـ وقرأ أبو بكر[1]: ﴿وإن تكن﴾ ـ بتاء التأنيث ـ ﴿ميتةً﴾ بالنصب؛ أي: وإن تكن الأجنة التي تخرج ميتة. وقرأ ابن كثير: ﴿وإن يكن ميتةٌ﴾ ـ بالتذكير وبالرفع ـ على أنه من كان التامة، وقال الزمخشري: وقرأ أهل مكة: ﴿وإن تكن ميتةٌ﴾ ـ بالتأنيث والرفع ـ انتهى. فإن عنى ابن كثير فهو وهم، وإن عنى غيره من أهل مكة، فيمكن أن يكون نقلاً صحيحاً، وهذه القراءة التي عزاها لأهل مكة هي قراءة ابن عامر. وقرأ باقي السبعة: ﴿وَإِن يَكُن﴾ ـ بالتذكير ـ ﴿مَّيْتَةً﴾ ـ بالنصب ـ على تقدير: وإن يكن ما في بطونها ميتة. وقرأ يزيد: ﴿ميّتة﴾ ـ بالتشديد ـ، وقرأ عبد الله: ﴿فهم فيه سواء﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ بالوأد للبنات وبالنحر للذكور؛ أي: قد خسروا في الدنيا باعتبار السعي في نقص عددهم، وإزالة ما أنعم الله به عليهم، وفي الآخرة باستحقاق العذاب الأليم، والجملة جواب لقسم محذوف تقديره: وعزتي وجلالي لقد خسروا في الدنيا والآخرة ﴿سَفَهًا﴾؛ أي: قتلوهم لأجل السفه والحمق، وقلة العقل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: بغير حجة ولا إذن من الله، وهم ربيعة ومضر، وأمثالهم من العرب، وبنو كنانة لا يفعلون ذلك. وسبب هذا الخسران؛ لأن الولد نعمة عظيمة من الله على العبد، فإذا سعى في إبطاله استحق الذم العظيم في الدنيا؛ لأن الناس يقولون: قتل ولده خوفاً من أن يأكل طعامه، والعقاب العظيم في الآخرة وسببه خفة العقل؛ لأن قتل الولد إنما يكون للخوف من الفقر، والقتل أعظم ضرراً منه، والقتل ناجز، والفقر موهوم، وهذه السفاهة إنما نشأت من الجهل الذي هو أعظم المنكرات.

وقرأ الحسن والسلمي وأهل مكة والشام، ومنهما ابن كثير وابن عامر: ﴿قتّلوا﴾ ـ بالتشديد ـ. وقرأ اليماني: ﴿سفهاء﴾ ـ بصيغة الجمع ـ. ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى من الأنعام التي سموها بحائر وسوائب، وهو معطوف على ﴿قَتَلُوٓاْ﴾، فهو صلة ثانية ﴿ٱفْتِرَآءً﴾ وكذباً ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى بنسبة ذلك إليه تعالى

---

(١) البحر المحيط.

﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ضلوا وأخطؤوا بهذه الأفعال عن الصراط المستقيم ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ إلى الحق بعد ضلالهم، فعلم أن فائدته بعد قوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ أنهم بعد ما ضلوا لم يهتدوا مرة أخرى، كما ذكره الكرخي، فإن تحريم الحلال من أعظم أنواع الحماقة؛ لأنه يمنع نفسه تلك المنافع، ويستحق بسبب ذلك المنع أعظم أنواع العقاب، أو أن الجرأة بالافتراء أعظم الذنوب، وهم قد ضلوا عن الرشد في مصالح الدين ومنافع الدنيا، ولم يحصل لهم الاهتداء قط.

والحاصل(١): أن الله سبحانه وتعالى أنكر على مشركي العرب أمرين عظيمين ونعاهما عليهم، وحكم فيهم حكما عدلاً وهما:

١ ـ قتل أولادهم ووأد بناتهم، وبذلك خسروا خسراناً مبيناً، فإن قتل الأولاد يستلزم خسران كل ما كان يُرجى من العزة والنصرة والسرور والغبطة، والبر والصلة، وخسران العاطفة الأبوية ورأفتها، واستبدال القسوة والغلظة بها إلى نحو أولئك من مساوي الأخلاق التي يضيق بها العيش في الدنيا، وبها يحل العقاب في الآخرة.

٢ ـ تحريم ما رزقهم الله من الطيبات، وإيضاح هذا: أن الله سبحانه وتعالى قد حكم على من فعل هذين الجرمين بالخسران والسفاهة، وعدم العلم والافتراء على الله والضلال وعدم الاهتداء.

أما الخسران: فلأن الولد نعمة من الله على العبد، فإذا سعى العبد في زوالها.. فقد خسر خسراناً عظيماً؛ إذ هو قد استحق الذم في الدنيا، وقال الناس فيه: إنه قتل ولده خوف أن يأكل طعامه، والعقاب في الآخرة؛ لأنه ألحق أعظم أنواع الأذى بأقرب الناس إليه محبة.

وأما السفاهة: وهي اضطراب النفس وحماقتها، فلأنه أقدم على ضرر محقق، وهو القتل خوفاً من ضرر موهوم، وهو الفقر كما مر.

---

(١) المراغي.

وأما عدم العلم بما ينفع وما يضر وما يحسن وما يقبح، فذلك من أقبح القبائح والمنكرات، وأما الافتراء على الله فلأنهم جعلوه ديناً يتقرب به إليه، وهو جرأة عليه، وذلك من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأما الضلال المبين فلأنهم لم يهتدوا إلى مصالح الدين، ولا منافع الدنيا، وأما عدم الاهتداء إلى شيء من الحق والصواب فلأنهم لم يعملوا بمقتضى العقل، ولا بهدي الشرع في منافع الدنيا وسعادة الآخرة.

وفائدة قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ بيان أنهم لم يحصل لهم اهتداء قط، والإنسان أحياناً قد يضل ثم يهتدي، ولكن هؤلاء لم يحصل لهم اهتداء بحال.

أخرج البخاري عن ابن عباس قال: إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمئة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في الآية: هذا صنع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة، ويغذو كلبه.

﴿وَهُوَ﴾ - سبحانه وتعالى - ربكم ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ وأوجد وابتدع لكم ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين من الكروم ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ﴾؛ أي: مسموكات مرفوعات على العرش والسرير ﴿وَ﴾ جنات ﴿غير معروشات﴾؛ أي: متروكات على وجه الأرض لم تعرش، يقال: عرشت الكرم إذا جعلت لها دعائم وسمكاً تعطف عليه القطبان، واختلفوا في معنى قوله: ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ على أربعة[1] أقوال:

أحدها: أن المعروشات ما انبسط على وجه الأرض فانتشر مما يعرش كالكرم والقرع والبطيخ، وغير معروشات ما قام على ساق كالنخل والزرع وسائر الأشجار.

والثاني: أن المعروشات ما أنبته الناس، وغير معروشات ما خرج في

---

(١) زاد المسير.

البراري والجبال من الثمار، روياً عن ابن عباس.

والثالث: أن المعروشات وغير المعروشات الكرم منه ما عرش ومنه ما لم يعرش. قاله الضحاك.

والرابع: أن المعروشات الكروم التي قد عرش عنبها، وغير المعروشات سائر الشجر التي لا تعرش. قاله أبو عبيدة.

﴿و﴾ أنشأ ﴿النخل والزرع﴾ عطف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وإنما[1] أفردهما مع أنهما داخلان في الجنات؛ لما فيهما من الفضيلة على سائر ما ينبت في الجنات، والمراد بـ﴿الزرع﴾ جميع الحبوب التي يقتات بها، وتدخر حالة كون كل من النخل والزرع ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾؛ أي: مختلف المأكول منهما، وهو ثمرهما في الهيئة والطعم، واللون والرائحة، والجودة والرداءة، وهو حال مقدرة؛ لأن النخل والزرع وقت خروجه لا أكل منه حتى يكون مختلفاً، أو متفقاً، وهو مثل قولهم، مررت برجل معه صقر صائداً به غداً؛ أي: مقدراً للصيد به غداً.

﴿وَٱلنَّخْلَ﴾[2] وإن كان من قسم الجنات غير المعروشات ذكر على سبيل الانفراد لما فيه من المنافع الكثيرة، ولا سيما للعرب، فإن بسره ورطبه فاكهة وغذاء، وتمره من أفضل الأقوات التي تدخر، ومن أيسرها تناولاً في السفر والحضر، ولا يحتاج إلى طبخ ولا إلى معالجة، ونواه علف لرواحلهم، ويتخذ منه شراب لذيذ إذا نبذ في الماء قليلاً إلى ما في خوصه وليفه من الفوائد والمنافع، وبهذه الفوائد يفضل الكرم الذي هو أقرب الشجر منه تفكهاً وتغذية وشرباً، وأشبهه به شكلاً ولوناً في عنبه وزبيبه ومنافعه.

﴿وَٱلزَّرْعَ﴾ وهو النبات الذي يكون بحرث الناس يشمل كل ما يزرع لكنه خص بما يأتي منه القوت كالقمح والشعير، وقد ذكرت هذه الأنواع على طريق الترقي من الأدنى في التغذية واقتيات الناس إلى الأعلى والأعم، فإن الحبوب هي التي عليها المعول في الاقتيات.

---

(١) زاده.

(٢) المراغي.

﴿و﴾ هو سبحانه وتعالى الذي أنشأ، وخلق لكم ﴿الزيتون والرمان﴾؛ أي: شجرهما معطوف على ﴿جنات﴾ حالة كون كل منهما ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ ورقهما ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾ ثمرها في الجنس والطعم، أو يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم، ولا يتشابه بعضها ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم: ﴿من ثُمُره﴾ وقرأ الباقون بفتحهما؛ أي: كلوا أيها العباد من ثمر كل منهما، أو من ثمر ذلك المذكور كله ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾، وإن لم يدرك وينع؛ أي: كلوا من ثمره إذا حصل منه ثمر، وإن لم يدرك ويبلغ حد الحصاد، والأمر فيه أمر إباحة.

لما ذكر[1] الله سبحانه وتعالى ما أنعم به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع من الثمار ذكر ما هو المقصود الأصلي، وهو الانتفاع، فقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ وهذا أمر إباحة كما مر آنفاً، وتمسك بهذا بعضهم، فقال: الأمر قد يرد إلى غير الوجوب؛ لأن هذه الصيغة مفيدة لدفع الحرج، وقال بعضهم: المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق؛ لأنه تعالى لما أوجب الزكاة في الحبوب والثمار.. كان يحتمل أن يحرم على المالك أن يأكل منها شيئاً قبل إخراج الواجب فيها لمكان شركة الفقراء والمساكين معه، فأباح الله أن يأكل قبل إخراجه؛ لأن رعاية حق النفس مقدمة على رعاية حق الغير، وقيل: إنما قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ بصيغة الأمر، ليعلم أن المقصود من خلق هذه الأشياء التي أنعم الله بها على عباده هو الأكل.

وخلاصة ما سلف[2]: أنه سبحانه وتعالى بعد أن أعلم عباده بأنه هو الذي أنشأ لهم ما في الأرض من الشجر والنبات الذي يستعملون منه أقواتهم.. أعلمهم بأنه أباح ذلك كله لهم، فليس لأحد غيره أن يحرم شيئاً منه عليهم؛ لأن التحريم حق لله الخالق للعباد للأقوات جميعاً، فمن ادعاه لنفسه.. فقد جعل نفسه شريكاً له تعالى، كما أن من أذعن لتحريم غير الله.. فقد أشركه معه سبحانه وتعالى.

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

والتحريم الذي لا يكون إلا لله هو تحريم التشريع إما المنع من بعض هذا الثمر لسبب غير ذلك، فلا شرك، فإذا منع الطبيب بعض المرضى من أكل الثمر أو الخبز مثلاً؛ لأنه يضره يكون منعاً شرعياً أو تحريماً، لا على معنى أن الطبيب هو الذي شرع ذلك، بل الله هو الذي حرم كل ضار، والطبيب هو الذي عرَّف المريض ضرره.

وكذلك منع السلطان من صيد بعض الطيور لمصلحة عامة كالحاجة إلى كثرته لحفظ بعض الزروع؛ لأنه يأكل الحشرات المهلكة مثلاً لا يكون تحريماً ذاتياً، بل تحريماً ما دام السبب، والسلطان هو المكلف شرعاً بصيانة المصالح ودرء المفاسد، وليس له أن يحرم بمحض إرادته، وإذا هو أخطأ في اجتهاده.. وجب على الأمة الإنكار عليه، ووجب عليه أن يرجع إلى الحق.

وفائدة قوله[1]: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ بيان أن أول وقت الإباحة الأكل هو وقت الإثمار، وليس بلازم أن يدرك وينع، فالكرم ينتفع بثمره حصرماً فعنباً فزبيباً، والنخل يؤكل ثمره بسراً فرطباً فتمراً، والقمح يطحن ويؤكل خبزاً، أو يطبخ، أو يعمل حلوى على أشكال شتى.

﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾؛ أي[2]: وآتوا الحق المعلوم فيما ذكر من الزرع وغيره لمستحقيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين زمن حصاده وجذاذه وقطعه جملة، ويدخل في الحصاد جني العنب وصرم النخل.

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وعاصم ويعقوب[3]: ﴿حَصَادِهِۦ﴾؛ أي: يوم جذاذه وقطعه ـ بفتح الحاء ـ وهي لغة أهل نجد وتميم، وقرأ باقي السبعة بكسرها، وهي لغة أهل الحجاز. ذكره الفراء؛ أي[4]: اعزموا على إيتاء الزكاة لكل من الزروع والثمار يوم الحصاد، ولا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء. وإنما يجب إخراج الزكاة بعد التصفية والجفاف، والأمر بإيتائها يوم

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراح.

الحصاد؛ لئلا يؤخر عن وقت إمكان الأداء، وليعلم أن وجوبها بالإدراك ولو في البعض لا بالتصفية.

والمعنى(١): آتوا وأعطوا حق كل ما وجب يوم الحصاد بعد التصفية، وفائدة ذكر الحصاد الإشعار والتنبيه على أن الحق لا يجب بنفس الزرع وإدراكه، وإنما يجب يوم حصاده وحصوله في يد مالكه لا فيما يتلف من الزرع قبل حصوله في يد مالكه، وهذا يقتضي وجوب الزكاة في الثمار كلها، كما قاله أبو حنيفة، ويقتضي ثبوت حق في القليل والكثير، فالعشر واجب في القليل والكثير كما قاله أبو حنيفة.

فإن قلت(٢): على هذا التفسير إشكال؛ وهو أن فرض الزكاة كان بالمدينة، وهذه السورة مكية، فكيف يمكن حمل قوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ على الزكاة المفروضة؟

قلتُ: ذكر ابن الجوزي في تفسيره عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة أن هذه الآية نزلت بالمدينة، فعلى هذا القول تكون الآية محكمة نزلت في حكم الزكاة. وإن قلنا: إن هذه الآية مكية تكون منسوخة بآية الزكاة؛ لأنه قد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن، وقيل في قوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ إنه حق سوى الزكاة فرض يوم الحصاد، وهو إطعام من حضر وترك ما سقط من الزرع والثمر، وهذا قول علي بن الحسن وعطاء ومجاهد وحماد، قال إبراهيم: هو الضغث، وقال الربيع: هو لقاط السنبل، وقال مجاهد: كانوا يجيئون بالعذق عند الصرام، فيأكل منه من مر، وقال يزيد بن الأصم: كان أهل المدينة إذا صرموا النخل.. يجيئون بالعذق عند الصرام، فيعلقونه في جانب المسجد، فيجيء المسكين، فيضربه بعصاه، فما سقط منه أكله، فعلى هذا القول هل هذا الأمر أمر وجوب أو استحباب وندب؟ فيه قولان:

أحدهما: أنه أمر وجوب، فيكون منسوخاً بآية الزكاة، وبقوله ﷺ في

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

حديث الأعرابي: هل علي غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع».

والقول الثاني: أنه أمر ندب واستحباب، فتكون الآية محكمة، وقال سعيد بن جبير كان هذا حقاً يؤمر بإخراجه في ابتداء الإسلام، ثم صار منسوخاً بإيجاب العشر، ولقول ابن عباس: نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن، واختار هذا القول الطبري وصححه، واختار الواحدي والرازي القول الأول وصححاه.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾؛ أي: لا تجاوزوا أيها المؤمنون الحد في الإعطاء والبخل حتى تمنعوا الواجب من الصدقة، أو تعطوا كله، وروي أن ثابت بن قيس بن شماس عمد إلى خمس مئة نخلة فجذها، ثم قسمها في يوم واحد، ولم يرجع منها إلى منزله بشيء، فأنزل هذه الآية: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ وقد جاء في الخبر «ابدأ بنفسك، ثم بمن تعول»، أو المعنى: كلوا مما رزقكم من غير إسراف في الأكل كما قال في آية أخرى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

والإسراف مجاوزة الحد، والحد الذي ينهى الله سبحانه عن مجاوزته؛ إما شرعي: كتجاوز الحلال من الطعام والشراب وما يتعلق بهما إلى الحرام، وإما فطري طبيعي: وهو تجاوز حد الشبع إلى البطنة الضارة. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: المجاوزين الحد الذي شرعه في كل شيء، ففيه وعيد وزجر عن الإسراف في كل شيء؛ لأن من لا يحبه الله فهو من أهل النار.

﴿وَ﴾ هو - سبحانه وتعالى - الذي أنشأ وخلق لكم ﴿مِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ الثلاثة الإبل والبقر والغنم ﴿حَمُولَةً﴾؛ أي: ما يحمل الأثقال. وقرأ عكرمة وأبو المتوكل وأبو الجوزاء: ﴿حُمولة﴾ - بضم الحاء -. ﴿وَفَرْشًا﴾؛ أي: ما يفرش للذبح، أو ما ينسج من وبره وصوفه وشعره للفرش، أو المعنى: هو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة؛ أي: كباراً منها تصلح للحمل كالإبل ﴿وفرشاً﴾؛ أي: صغاراً مثل الفصلان الدانية من الأرض لصغر أجرامها كالفرش المفروش عليها ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: كلوا بعض ما رزقكم الله، وهو

ما أحل الله لكم من الحرث والأنعام، أو كلوا من هذه الأنعام وغيرها، وانتفعوا بها بسائر ضروب الانتفاع المباحة شرعاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: ولا تسلكوا السبل التي يُسوّلها لكم الشيطان بتحريم الحرث والأنعام، فتحرموا ما لم يحرمه الله تعالى، فإن ذلك إغواء وإضلال منه، والله المبدع قد أباحها لكم، فليس لغيره أن يحرم أو يحلل، ولا يتعبدكم به، ويقال: لمن اتبع آخر وبالغ في التأسي به: اتبع خطواته، ولا شك أن تحريم ما أحل الله من أقبح المبالغات في اتباع إغواء الشيطان؛ لأنه اتباع له في حرمان النفس من الطيبات لا في الاستمتاع باللذات كما هو أكثر غوايته. ثم علل النهي عن اتباعه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر العداوة، فقد أخرج آدم من الجنة، وقال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: لا تتبعوه لأنه ظاهر العداوة بينها لا يأمر إلا بكل قبيح يسوء فعله حالاً، أو استقبالاً، ويأمركم بالافتراء على الله بغير علم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه أن الأنعام؛ إما حمولة وإما فرش.. فصلها وقسمها إلى ثمانية أزواج، فإن الحمولة؛ إما إبل، وإما بقر، والفراش؛ إما ضأن، وإما معز، وكل من الأقسام الأربعة؛ إما ذكر، وإما أنثى، وكل هذا الإيضاح المحال التي تقولوها على الله تعالى بالتحريم والتحليل، ثم تبكيتهم بإظهار كذبهم وافترائهم في كل محل من هذه المحال بتوجيه الإنكار إليها مفصلة، فقال:

وهو سبحانه وتعالى أنشأ لكم ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؛ أي: ثمانية أصناف من الأنعام أنشأ لكم ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: زوجين الكبش والنعجة، وقدم الضأن على المعز؛ لغلاء ثمنه، وطيب لحمه، وعظم الانتفاع بصوفه، والضأن ذوات الصوف من الغنم، والمعز ذوات الشعر منها. وقرأ طلحة بن مصرف والحسن وعيسى بن عمر: ﴿من الضأن﴾ ـ بفتح الهمزة ـ وقرأ أبان بن عثمان: ﴿اثنان﴾ ـ بالرفع على الابتداء والخبر مقدم ـ ﴿و﴾ أنشأ لكم ﴿من المعز اثنين﴾؛ أي: زوجين التيس والعنز. وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو: ﴿من المعز﴾ ـ بفتح العين ـ وقرأ باقي السبعة بسكونها، وقرأ أبي: ﴿ومن المعزي﴾.

وهذه الأنواع الأربعة تفصيل للفرش فـ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول تبكيتاً وتوبيخاً وإنكاراً عليهم ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾؛ أي: هل حرم الله سبحانه وتعالى الذكرين الكبش والتيس من ذينك النوعين؟ ﴿أَمْ﴾ حرم ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ النعجة والعنز ﴿أم﴾ حرم ﴿ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾؛ أي: ما حملته إناث النوعين ذكراً كان أو أنثى؟ أي: قل لهم إن كان حرم الذكور.. فكل ذكر حرام، وإن كان حرم الإناث.. فكل أنثى حرام، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني؛ من الضأن والمعز.. فكل مولود حرام ذكراً كان أو أنثى، وكلها مولود، فيستلزم أن كلها حرام، فمن أين أخذتم تحريم البحائر والسوائب مثلاً، وتحليل غيرها. وقوله: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ فيه قراءتان لا غير، مد الهمزة مداً لازماً بقدر ثلاث ألفات، وتسهيل الهمزة الثانية على حد قوله في «الخلاصة»:

وَأَيْمُنُ هَمْزِ أَلْ كَذَا وَيُبْدَلُ مَدًّا فِي ٱلاسْتِفْهَامِ أَوْ يُسَهَّلُ

﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾؛ أي: أخبروني ببينة وحجة تدل على ذلك من كتاب الله، أو خبر من أنبيائه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى التحريم، والمراد من هذا التبكيت لهم، وإلزام الحجة؛ لأنه يعلم أنه لا علم عندهم ﴿و﴾ أنشأ لكم ﴿من الإبل اثنين﴾؛ أي: زوجين الجمل والناقة ﴿و﴾ أنشأ لكم ﴿من البقر اثنين﴾؛ أي: زوجين الثور والبقرة فـ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد تبكيتاً وتقريعاً لهم ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾؛ أي: هل حرم الله سبحانه وتعالى الذكرين الجمل والثور؟ ﴿أَمِ﴾ ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما الناقة والبقرة؟ ﴿أم﴾ حرم ﴿ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾؛ أي: ما حملته إناث النوعين يعني من الإبل والبقر ذكراً كان أو أنثى؟

وخلاصة ذلك: أن المشركين في الجاهلية كانوا يحرمون بعض الأنعام، فاحتج سبحانه على إبطال ذلك بأن لكل من الضأن والمعز، والإبل والبقر ذكراً وأنثى، فإن كان قد حرم منها الذكر.. وجب أن يكون كل ذكورها حراماً، وإن كان حرم جل شأنه الأنثى.. وجب أن يكون كل إناثها حراماً، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الإناث.. وجب تحريم الأولاد كلها؛ لأن الأرحام تشتمل على الذكور والإناث.

وقصارى[1] **ذلك**: أنه تعالى ما حرم عليهم من هذه الأنواع الأربعة، وأنهم كاذبون في دعوى التحريم، وقد فصل ذلك أتم التفصيل مبالغة في الرد عليهم، ثم زاد في الإنكار والتهكم بهم، فقال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾؛ أي: هل[2] شاهدتم الله حرم هذا عليكم ووصاكم به؟ لا؛ أي: لم تكونوا شهداء، فإنكم لا تقرون بنبوة أحد من الأنبياء، فكيف تنبئون هذه الأحكام، وتنسبونها إلى الله تعالى.

و﴿أَمْ﴾[3] هنا منقطعة بمعنى ﴿بل﴾، وهمزة الإنكار، و﴿بل﴾ للانتقال من توبيخهم بنفي العلم عنهم المستفاد من قوله: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾ إذ هو أمر تعجيز؛ أي: لا علم لكم بذلك إلى توبيخهم بنفي حضورهم وقت إيصائهم بالتحريم؛ أي: أعندكم[4] علم يؤثر عن أحد من رسله، فتنبئوني به، أم شاهدتم ربكم، فوصاكم بهذا التحريم مشافهة بغير واسطة؛ كلا ما حصل هذا ولا ذاك، فما هو إلا محض افتراء على الله يقلد فيه بعضكم بعضاً بقوله: إن الله حرم علينا كذا وكذا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والخلاصة: أنكم إذا لم تؤمنوا بنبي.. فلا طريق لكم إلى علم ذلك بحسب ما تقولون إلا أن تشاهدوا ربكم، وتتلقوا منه أحكام الحلال والحرام.

وبعد أن نفى الأمرين بالبرهان.. أثبت أنه افتراء على الله لإضلال عباده، وهو ظلم يجنيه الإنسان على نفسه وعلى غيره، ويجني سوء عاقبته، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والاستفهام للإنكار؛ أي: لا أحد أشد ظلماً ممن اختلق على الله كذباً بنسبة التحريم إليه ﴿لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾ عن دين الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ ولا حجة حال[5] من فاعل ﴿يضل﴾؛ أي: ليضل الناس حال كونه متلبساً بغير علم بما يؤدي بهم إليه، أو حال من فاعل ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾؛ أي: افترى على الله

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) الفتوحات.
(٤) المراغي.
(٥) المراح.

تعالى جاهلاً بصدور التحريم عنه تعالى؛ أي: فمن افترى عليه تعالى جاهلاً بصدور التحريم عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه كان أظلم ظالم، فما ظنك بمن افترى عليه تعالى؛ وهو يعلم أنه لم يصدر عنه.

أي: لا أحد أظلم منكم لأنكم من هؤلاء المفترين على الله بقصد الإضلال عن جهل تام.

والخلاصة: أن في ذلك تسجيل الغباوة عليهم، وعمى البصيرة باتباعهم محض التقليد من غير عقل ولا هوى، فإن عملهم ليس له إثارة من علم ولا قصد إلى شيء من الهدى إلى حق أو خير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهۡدِى﴾؛ أي: لا يوفق للرشاد ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يهدي أولئك المشركين؛ أي: لا ينقلهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان؛ أي: لا يهدي من افترى عليه الكذب، وقال عليه الزور والبهتان، ولا يهديه إلى الحق والعدل، لا من طريق الوحي، ولا من طريق العلم، بل يصده عن استعمال عقله فيما يهديه إلى الصواب، وعما فيه صلاحه عاجلاً وآجلاً، وهؤلاء كعمرو بن لحي وأضرابه.

وقد وجد في البشر[1]؛ ناس فكروا وبحثوا فيما يجب عليهم لله من الشكر والعبادة، واتباع الحق والعدل وفعل الخير بحسب ما يرشد إليه عقولهم، وأخطؤوا في بعض، وكانوا خير الناس للناس على حين فترة من الرسل كما فعل قصي؛ إذ وضع للعرب سننا حسنة كسقاية الحاج، ورفادتهم، وإطعامهم، وسن الشورى في مهام الأمور.

الإعراب

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾.

﴿وَجَعَلُواْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿جعلوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة.

---

(١) المراغي.

﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿جعل﴾. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور حال من ﴿نَصِيبًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿ذَرَأَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما ذرأه. ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾: جار ومجرور حال من العائد المحذوف، أو من ﴿ما﴾. ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾: معطوف عليه. ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول أول لـ﴿جعل﴾، ويحتمل كون[1] ﴿جعل﴾ متعدياً إلى واحد بمعنى عينوا وميزوا نصيباً، وكل من الظرفين متعلق بـ﴿جعلوا﴾، أو الثاني بدل من الأول. ﴿فَقَالُوا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفصيل، ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ﴿جعلوا﴾. ﴿هَذَا لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قالوا﴾. ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿هَذَا لِلَّهِ﴾.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قالوه في التقسيم، وأردت بيان عاقبة كل من النصيبين.. فأقول لك: ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿لِشُرَكَائِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً لما في المبتدأ من العموم، ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَصِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَصِلُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في سؤال مقدر كأنه قيل: ما عاقبة النصيبين؟.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ أول. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾. ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ، ﴿هو﴾: مبتدأ ثان، وجملة ﴿يَصِلُ﴾ خبره. ﴿إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَصِلُ﴾، وجملة المبتدأ الثاني خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض من أفعال الذم. ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع فاعل، وجملة ﴿يَحْكُمُونَ﴾ صلتها، والعائد محذوف تقديره: ما يحكمونه، وجملة ﴿سَآءَ﴾ في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف وجوباً هو المخصوص بالذم تقديره: ساء ما يحكمون حكمهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: وتزييننا مثل تزيين قسمة القرابين بين الله وآلهتهم. ﴿زَيَّنَ﴾: فعل ماض. ﴿لِكَثِيرٍ﴾: متعلق به. ﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: صفة لـ﴿لِكَثِيرٍ﴾. ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه، والتقدير: وزين لكثير من المشركين شركاؤهم قتل أولادهم تزييناً مثل تزيين قسمة القرابين بين الله وآلهتهم، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿يردوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بلام كي تقديره: لإردائهم إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿زَيَّنَ﴾. ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿يلبسوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿دِينَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: وللبسهم عليهم دينهم، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور

قبله، فعلل التزيين بشيئين بالإرداء وبالتخليط، وإدخال الشبهة عليهم في دينهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والمفعول محذوف تقديره: عدم فعلهم، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿فَعَلُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب الشرط لـ﴿لو﴾، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فَذَرْهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن تزيينهم بمشيئة الله تعالى، وأردت بيان ما هو المطلوب لك.. فأقول لك، ﴿ذرهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: مصدرية، أو موصولة في محل النصب معطوف على ضمير المفعول. ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على ضمير المفعول تقديره: فذرهم وافتراءهم، أو صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: فذرهم والذي يفترونه، وجملة ﴿ذرهم﴾: من الفعل والفاعل في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ﴾ إلى قوله: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿وَحَرْثٌ﴾: معطوف على ﴿أَنْعَٰمٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿حِجْرٌ﴾: صفة أولى لـ﴿أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾؛ لأنه مصدر على فعل يوصف به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث كذبح بمعنى: مذبوح كما سيأتي في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى. ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ﴾: فعل ومفعول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مَن﴾: اسم موصول

في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾. ﴿نَّشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين؛ أعني المشركين، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من نشاء. ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿قالوا﴾: تقديره: قالوا ذلك حالة كونهم متلبسين بزعمهم الباطل وكذبهم الفاسد، والمقول[1] الجمل الثلاث الأولى ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ...﴾ إلخ، الثانية ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ الخ باعتبار أنه خبر لمبتدأ محذوف، والثالث ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ باعتبار المذكور. ﴿وَأَنْعَٰمٌ﴾: معطوف على ﴿أَنْعَٰمٌ﴾ الأولى، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه أنعام الخ. ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية صفة لـ﴿أَنْعَٰمٌ﴾. ﴿وَأَنْعَٰمٌ﴾: معطوف على ﴿أَنْعَٰمٌ﴾ الأولى، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه أنعام؛ لأن العطف بالواو. ﴿لَّا يَذْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾: مفعول ومضاف إليه. ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَذْكُرُونَ﴾، والجملة الفعلية صفة لـ﴿أَنْعَٰمٌ﴾، لكنه[2] غير واقع في كلامهم المحكي كنظائره، بل مسوق من جهته تعالى تعييناً للموصوف، وتمييزاً له عن غيره. ﴿ٱفْتِرَآءً﴾: مفعول لأجله منصوب بـ﴿قالوا﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿ٱفْتِرَآءً﴾. ﴿سَيَجْزِيهِم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سَيَجْزِيهِم﴾. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يفترونه.

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قالوا﴾ الأولى. ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع

---

(١) الفتوحات. (٢) أبو السعود.

مبتدأ. ﴿فِى بُطُونِ هَٰذِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صلة لـ﴿مَا﴾. ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بدل من الإشارة. ﴿خَالِصَةٌ﴾: خبر المبتدأ، والتاء فيه للمبالغة لا للتأنيث كعلامة ونسابة كما سيأتي في مبحث الصرف إن شاء الله تعالى، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿لِّذُكُورِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَالِصَةٌ﴾. ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾: معطوف على ﴿خَالِصَةٌ﴾. ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ متعلق به.

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿إن﴾، واسمها ضمير يعود على ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾. ﴿مَّيْتَةً﴾: خبر ﴿يَكُن﴾. ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية، ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿شُرَكَآءُ﴾. ﴿شُرَكَآءُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿وَصْفَهُمْ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر أول لها. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿سَفَهًۢا﴾، مفعول لأجله منصوب بـ﴿قَتَلُوٓا۟﴾. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿قَتَلُوٓا۟﴾؛ أي: حالة كونهم متلبسين بغير علم. ﴿وَحَرَّمُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَتَلُوٓا۟﴾. ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب مفعول به. ﴿رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: إياه. ﴿ٱفْتِرَآءً﴾: مفعول لأجله منصوب بـ﴿حرموا﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ٱفْتِرَآءً﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿ضَلُّوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مؤكدة لما قبلها. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانُوا﴾: فعل ماض ناقص واسمه. ﴿مُهْتَدِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كَانُوا﴾ معطوفة على جملة ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنشَأَ﴾: فعل، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿جَنَّٰتٖ﴾: مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾: صفة له. ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾: معطوف على ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾. ﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ﴾: معطوفان على ﴿جَنَّٰتٖ﴾ عطف خاص على عام. ﴿مُخۡتَلِفًا﴾: حال من ﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ﴾. ﴿أُكُلُهُۥ﴾: فاعل ﴿مُخۡتَلِفًا﴾؛ أي: حالة كون كل منهما مختلفاً ثمره المأكول منه. ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾: معطوفان على ﴿جَنَّٰتٖ﴾. ﴿مُتَشَٰبِهٗا﴾: حال من ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾. ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖ﴾: معطوف عليه؛ أي: حالة كل من الزيتون والرمان متشابهاً ورقهما، وغير متشابه ثمرهما.

﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

﴿كُلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كُلُواْ﴾. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَثۡمَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على جميع ما ذكر، والجملة في محل الخفض بـ﴿إِذَآ﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إِذَآ﴾ معلوم مما قبله تقديره: إذا أثمر فكلوه، وجملة ﴿إِذَآ﴾ معترضة لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة معطوفة على جملة ﴿كُلُواْ﴾. ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾: ظرف ومضاف إليه في محل المفعول الثاني متعلق بـ﴿آتوا﴾، لأنه بمعنى أعطوا. ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف

على ﴿كُلُوا﴾. ﴿إِنَّهُ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبرها، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢)﴾.

﴿وَمِنَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من الأنعام﴾: جار ومجرور حال من ﴿حَمُولَةً﴾ وما بعده، ﴿حَمُولَةً﴾: معطوف على ﴿جنات﴾. ﴿وَفَرْشًا﴾: معطوف على ﴿حَمُولَةً﴾؛ أي: وأنشأ لكم حمولة وفرشاً من الأنعام. ﴿كُلُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إياه، وهو العائد على ﴿ما﴾ الموصولة، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كُلُوا﴾. ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿إِنَّهُ﴾: ﴿إنَّ﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾. ﴿عَدُوٌّ﴾: خبر ﴿إن﴾. ﴿مُبِينٌ﴾: صفة ﴿عَدُوٌّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣)﴾.

﴿ثَمَانِيَةَ﴾: معطوف بعاطف مقدر على ﴿جنات﴾؛ أي: وأنشأ لكم جنات معروشات، وثمانية أزواج. ﴿أَزْوَاجٍ﴾: مضاف إليه ﴿مِنَ الضَّأْنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنشأ﴾ محذوفاً. ﴿اثْنَيْنِ﴾: منصوبا بـ﴿أنشأ﴾ المحذوف، أو بدل من ﴿ثَمَانِيَةَ﴾ بدل تفصيل من مجمل. ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾: معطوف على قوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿نَبِّئُونِي﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، ﴿الذكرين﴾: مفعول مقدم منصوب بـ﴿حَرَّمَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿أَمِ﴾: حرف عطف. ﴿الْأُنْثَيَيْنِ﴾: معطوف على ﴿الذكرين﴾.

﴿أَمَّا﴾: ﴿أم﴾: حرف عطف مبني بسكون على الميم المدغمة ميم ﴿ما﴾، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿الذكرين﴾. ﴿ٱشْتَمَلَتْ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿نَبِّـُٔونِى﴾: فعل وفاعل ومفعول، والنون للوقاية. ﴿بِعِلْمٍ﴾: متعلق به، والجملة معترضة لاعتراضها بين التفاصيل المذكورة قبلها والتي بعدها على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم على كونه فعل شرط لها. ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبرها منصوب، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم صادقين نبئوني بعلم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنشأ﴾: محذوفاً. ﴿ٱثْنَيْنِ﴾: مفعول به لـ﴿أنشأ﴾ المحذوف تقديره: وأنشأ لكم من الإبل اثنين، والجملة الحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ على كونها تفصيلاً لـ﴿ثمانية أزواج﴾. ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾: معطوف على قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، ﴿الذكرين﴾: مفعول مقدم لـ﴿حَرَّمَ﴾. ﴿حَرَّمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿أَمِ﴾ حرف عطف. ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: معطوف على ﴿الذكرين﴾.

﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ﴾.

﴿أَمَّا﴾: ﴿أم﴾: حرف عطف، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿الذكرين﴾. ﴿ٱشْتَمَلَتْ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى همزة الإنكار وبل الانتقالية؛ لدخولها على الجملة المستقلة؛ أي:

المنقطعة عما قبلها؛ أي: بل أكنتم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية متعلق بـ﴿شُهَدَآءَ﴾. ﴿وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿بِهَٰذَا﴾: متعلق بـ﴿وَصَّىٰكُمُ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿فَمَنْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾: ﴿اللام﴾: لام كي. ﴿يضل الناس﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿من افترى﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإضلاله الناس، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾؛ أي: افترى على الله كذباً حالة كونه متلبساً بغير علم، أو متعلق بـ﴿يضل﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ يقال: ذرأ الله الخلق يذرأ ـ من باب فتح ـ ذرأً؛ أي خلقهم على وجه الابتداع والاختراع.

﴿نَصِيبًا﴾ ﴿النصيب﴾: الحظ والقسم، والجزء من الشيء.

﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ وفي «المصباح»[1]: زعم زعماً من باب قتل، وفي الزعم ثلاث لغات فتح الزاي لأهل الحجاز، وضمها لبني أسد، وكسرها لبعض قيس، ويطلق الزعم بمعنى القول، ومنه زَعمت الحنفيةُ، وزعم سيبويه؛ أي: قال، وعليه قوله تعالى: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ﴾؛ أي: قلت؛ أي: كما أخبرت، ويطلق على الظن، يقال: في زعمي كذا وعلى الاعتقاد، ومنه قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾. قال الأزهري: أكثر ما يكون الزعم فيما يشك فيه ولا يتحقق، وقال بعضهم: هو كناية عن الكذب. قال المرزوقي: أكثر ما يستعمل فيما كان باطلاً، أو فيه ارتياب. وقال ابن القوطبة: زعم زعماً إذا قال خبراً لا يدري أحقاً هو أو باطلاً. قال الخطابي: ولهذا قيل: زعم مطية الكذب، وزعم غير مزعم، قال غير مقول صالح، وادعى ما لا يمكن اهـ.

وفي «السمين» ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يتعلق بـ﴿قالوا﴾؛ أي: قالوا ذلك القول بزعم لا بيقين واستبصار.

والثاني: قيل: هو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به قوله ﴿لِلَّهِ﴾. وقرأ العامة بفتح الزاي هنا وفيما يأتي، وهذه لغة أهل الحجاز؛ وهي الفصحى. وقرأ الكسائي: ﴿بزُعمهم﴾ بالضم، وهي لغة بني أسد، وهل المضموم والمفتوح بمعنى واحد أو المفتوح مصدر والمضموم اسم؟ خلاف مشهور. وفي لغة لبعض قيس وبني تميم كسر الزاي، ولم يقرأ بهذه اللغة فيما علمت اهـ.

﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾؛ أي: يهلكوهم بالإغواء من أردى الرباعي ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾؛ أي: يخلطوا قرأ[2] الجمهور بكسر الباء من لبست عليه الأمر ألبسه ـ بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع ـ من باب ضرب إذا أدخلت عليه فيه الشبهة وخلطته فيه. وقرأ النخعي: ﴿وليلبسوا﴾. ـ بفتح الباء ـ فقيل: هي لغة في المعنى المذكور تقول: لبِسَت عليه الأمر ـ بفتح الباء وكسرها ـ ألبسه وألبسه، والصحيح

---

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

أن لِبس ـ بالكسر ـ بمعنى لبس الثياب، وبالفتح بمعنى الخلط.

﴿حِجْرٌ﴾ ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ فعل بمعنى مفعول؛ أي: محجور ممنوع كذبح وطحن بمعنى مذبوح ومطحون يستوي فيه الواحد والكثير والمذكر والمؤنث؛ لأن أصله المصدر، ولذلك وقع صفة لأنعام وحرث. قال ابن مالك في لامية الأفعال:

مِنْ ذِيْ ٱلثَّلَاثَةِ بِٱلْمَفْعُوْلِ مُتَّزِنَا وَمَا أَتَىٰ كَفَعِيْلٍ فَهْوَ قَدْ عُدِلَا
بِهِ عَنِ ٱلأَصْلَ وَٱسْتَغْنَوْا بِنَحْوِ نَجَا وَٱلنَّسْيُ عَنْ وَزْنِ مَفْعُوْلٍ وَمَا عُمِلَا

وقال شارحها في «مناهل الرجال»: وقد يرد لفظ المصدر بمعنى المفعول كاللفظ والصيد والخلق بمعنى الملفوظ والمصيد والمخلوق؛ لأن إطلاق المصدر بمعنى المفعول مجازاً كثير مطرد، انتهى.

﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ و﴿الهاء﴾[1] في ﴿خَالِصَةٌ﴾ للمبالغة في الخلوص كعلامة ونسابة قاله الكسائي والأخفش. وقال الفراء: تأنيثها لتأنيث الأنعام، ورد بأن ما في بطون الأنعام غير الأنعام، وتعقب هذا الرد بأن ما في بطون الأنعام أنعام، وهي الأجنة و﴿مَا﴾ عبارة عنها، فيكون تأنيث ﴿خَالِصَةٌ﴾ باعتبار معنى ﴿مَا﴾ وتذكير ﴿محرم﴾ باعتبار لفظها. وقرأ الأعمش: ﴿خالص﴾ قال الكسائي: معنى خالص وخالصة واحد إلا أن الهاء للمبالغة كما تقدم عنه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ الإنشاء[2]: إيجاد الأحياء وتربيتها، وكل ما يكمل بالتدريج كإنشاء السحاب والدور والشعر والجنات والبساتين والكروم الملتفة الأشجار؛ لأنها تجن الأرض وتسترها، والمعروشات: المحمولات على العرائش؛ وهي الدعائم التي يوضع عليها مثل السقف من العيدان والقصب. وأصل العرش في اللغة[3]: شيء مسقف يجعل عليه الكرم، وجمعه عروش يقال: عرشت الكرم أعرشه عرشاً ـ من بابي ضرب ونصر ـ

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

وعرشته تعريشاً إذا جعلته كهيئة السقف، واعترش العنب العريش إذا علاه وركبه، وغير المعروشات ما لم يعرش منها. والمراد أن الجنات نوعان: معروشات كالكروم، وغير معروشات من سائر أنواع الشجر الذي يستوي على سوقه ولا يتسلق على غيره.

﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾؛ أي: يوم جذاذه وقطعه. قال سيبويه[1]: جاؤوا بالمصدر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال فعال، وربما قالوا فيه: فعال؛ يعني: أن هذا مصدر خاص دال على معنى زائد على مطلق المصدر، فإن المصدر الأصلي إنما هو الحصد، والحصد ليس فيه دلالة على انتهاء زمان ولا عدمها بخلاف الحَصاد والحِصاد اهـ.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ من الإسراف؛ وهو تجاوز الحد فيما يفعله الإنسان، وإن كان في الإنفاق أشهر. وقيل السرف: تجاوز ما حد لك، وسرف المال إنفاقه في غير منفعة، ولهذا قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله؛ فهو سرف، وإن كان قليلاً.

﴿ٱلضَّأْنِ﴾ قيل: جمع ضائن للذكر وضائنة للأنثى؛ وقيل: اسم جمع وكذا يقال في المعز سكنت عينه أو فتحت. وفي «المصباح» المعز اسم جنس لا واحد له من لفظه، وهي ذوات الشعر من الغنم، الواحدة شاة وهي مؤنثة، وتفتح العين وتسكن، وجمع الساكن أمعز ومعيز مثل عبد وأعبد وعبيد، والمعزى ألفها للإلحاق لا للتأنيث، ولهذا تنون في النكرة، وتصغر على معيز، ولو كانت الألف للتأنيث.. لم تحذف، والذكر ماعز، والأنثى ماعزة اهـ، وفيه أيضاً والعنز الأنثى من المعز إذا أتى عليها حول.

﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ والحمولة الكبير من الإبل، والبقر الذي يحمل عليه الناس الأثقال، والفرش ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الإبل والبقر، أو ما يتخذ الفرش من صوفه ووبره وشعره كما مر.

---

(١) الفتوحات.

﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ والخطوات واحدها خُطوة - بالضم - وهي المسافة التي بين القدمين.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: التقسيم في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ وفي قوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ الخ. ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾.

ومنها: التكرار في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ وقوله: ﴿لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ لأنه استعار اللبس لشدة المخالطة الحاصلة بينهم وبين التخليط حتى كأنها لبسوها كالثياب، وصارت محيطة بهم.

ومنها: الطباق في قوله تعالى: ﴿أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ﴾ لأن الأنعام حيوان، والحرث جماد، وبين قوله: ﴿لذكورنا وأزواجنا﴾؛ أي: إناثنا، وبين قوله: ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾، وبين قوله: ﴿مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾، وبين قوله: ﴿حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ لأن الحمولة الكبار الصالحة للحمل، والفرش الصغار الدانية من الأرض كأنها فرش.

ومنها: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ لأن الخطوة ما بين القدمين استعارها لتسويل الشيطان ووسوسته، وهي أبلغ[1] عبارة في التحذير من طاعة الشيطان والسير في ركابه.

ومنها: الجناس المغاير في قوله تعالى: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

---

(١) تلخيص البيان.

ومنها: المقابلة في قوله تعالى: ﴿من الضأن.. ومن المعز.. ومن الإبل.. ومن البقر﴾.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ أظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار؛ لإظهار كمال عتوهم وضلالهم أفاده أبو السعود.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ لأن المقصود إنكار أن الله حرمها.

ومنها: الاعتراض في قوله تعالى: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾، وقوله: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ لأنه اعترض بهما بين المعدودات وقعت تفصيلاً لثمانية أزواج.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا
مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ
فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ
وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ
ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا
حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ
فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ
لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا
تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا
ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ
أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟
ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر أنهم حرموا ما حرموا افتراءً على الله.. أمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأن مدرك التحريم إنما

---

(١) البحر المحيط.

هو بالوحي من الله تعالى وبشرعه، لا بما تهوى الأنفس وما تختلقه على الله تعالى.

وعبارة «المراغي» هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر(١) في سابق الآيات أنه ليس لأحد أن يحرم شيئاً من الطعام ولا غيره إلا بوحي من ربه على لسان رسله، ومن فعل ذلك يكون مفترياً على الله معتدياً على مقام الربوبية، ومن اتبعه في ذلك.. فقد اتخذه شريكاً لله تعالى، وأبان أن من هذا ما حرمته العرب في جاهليتها من الأنعام والحرث.. أردف ذلك بذكر ما حرمه على عباده من الطعام على لسان خاتم رسله وألسنة بعض الرسل قبله.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ...﴾ الآية. مناسبة هذه الآية لما قبلها(٢): أنه سبحانه وتعالى لما بين أن التحريم إنما يستند للوحي الإلهي.. أخبر أنه حرم على بعض الأمم السابقة أشياء، كما حرم على أهل هذه الملة أشياء مما ذكرها من الآية قبل.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما كان(٣) الكلام في سالف الآيات في تفصيل أصول الإسلام من توحيد الله والنبوة والبعث، وفي دحض شبهات المشركين التي كانوا يحتجون بها على شركهم وتكذيبهم للرسل، وإنكارهم للبعث، وفي بيان أعمالهم التي هي دلائل على الشرك من التحريم والتحليل بخرافات وأوهام.. ذكر هنا شبهة مثل بمثلها كثير من الكفار، وهم وإن لم يكونوا قالوها وأوردوها على الرسول ﷺ فإن الله المحيط علمه بكل شيء يعلم أنهم سيقولونها، فذكرها وردَّ عليها بما يبطلها، وكان ذلك من إخباره بأمور الغيب قبل وقوعها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها(٤): أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما حرموه افتراءً

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

عليه، ثم ذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان.. ذكر ما حرمه تعالى عليهم من أشياء نهاهم عنها، وما أوجب عليهم من أشياء أمرهم بها.

وعبارة «المراغي» هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين لعباده جميع ما حرم عليهم من الطعام، وذكر حجته البالغة على المشركين الذين حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه عليهم، ودحض شبهتهم التي احتجوا بها على شركهم بربهم وافترائهم عليه.. ذكر في هذه الآيات أصول المحرمات في الأقوال والأفعال، وأصول الفضائل، وأنواع البر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه عبد بن حميد عن طاوس[1] قال: إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء، ويستحلون أشياء، فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين المفترين على الله الكذب فيما يضرهم من تحريم ما لم يحرم عليهم، وقل لغيرهم من الناس ﴿لَّآ أَجِدُ﴾ ولا أعلم ولا أرى ﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾؛ أي: فيما أوحاه إلي ربي. وروي عن ابن عامر: ﴿فيما أوحى﴾ - بفتح الهمزة والحاء - جعله فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل. ذكره أبو حيان في «البحر»؛ أي: فيما أوحاه إلي ربي في القرآن فلا ينافي تحريم ما أوحى إليه في غير القرآن، كذي الناب وذي المخلب من الطيور طعاماً. ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾؛ أي: على آكل يريد أن يأكله وفي قوله: ﴿يطعمه﴾: زيادة تأكيد وتقرير لما قبله. ذكره الشوكاني. وقال أبو بكر الرازي في قوله: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ دلالة على أن المحرم من الميتة ما يتأتى فيه الأكل منها، وإن لم يتناول الجلد المدبوغ، ولا القرن، ولا العظم، ولا الظلف، ولا الريش ونحوها

---

(١) المراغي.

انتهى. ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ ذلك الطعام ﴿مَيۡتَةً﴾ لم تذك ذكاة شرعية، وذلك شامل لما مات حتف أنفه، وللمنخنقة والموقوذة والنطيحة ونحوها مما سبق ذكره في المائدة. وقرىء: ﴿يطَّعِمه﴾ ـ بالتشديد وكسر العين ـ والأصل يتطعمه، فأبدلت التاء بطاء، وأدغمت فيها الأولى. ذكره أبو البقاء. وقرأ[1] ابن كثير وحمزة: ﴿تكون﴾ ـ بالتأنيث ـ ﴿مَيۡتَةً﴾ بالنصب على تقدير إلا أن تكون المحرمة ميتة. وقرأ ابن عامر: ﴿تكون﴾ ـ بالتأنيث ـ ﴿ميتةٌ﴾ ـ بالرفع ـ على معنى: إلا أن توجد ميتة، أو إلا أن تكون هناك ميتة. وقرأ الباقون ﴿يَكُونَ﴾ ـ بالتذكير ـ ﴿مَيۡتَةً﴾ ـ بالنصب ـ؛ أي: إلا أن يكون ذلك المحرم ميتة. وعلى قراءة ابن عامر يكون ما بعد هذا معطوفاً على ﴿أن يكون﴾ الواقعة مستثناة؛ أي: إلا وجود ميتة. وعلى قراءة غيره يكون معطوفاً على قوله: ﴿مَيۡتَةً﴾.

﴿أَوۡ﴾ إلا أن يكون ذلك المحرم ﴿دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾؛ أي: سائلاً كالدم الذي يجري من المذبوح، أو من الحي حال حياته، وغير[2] المسفوح معفو عنه كالدم الذي يبقى في العروق بعذ الذبح، ومنه الكبد والطحال.

وفي الحديث: «أحلت لنا ميتتان: السمك والجراد، ودمان: الكبد والطحال». وهكذا ما يتلطخ به اللحم من الدم. وقد حكى القرطبي الإجماع على هذا، وقيل لأبي مجلز[3]: القدر تعلوها الحمرة من الدم، فقال: إنما حرم الله تعالى المسفوح، وقالت نحوَه عائشةُ رضي الله عنها، وعليه إجماع العلماء. وقال أبو بكر الرازي، وفي قوله: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ دلالة على أن دم البق والبراغيث والذباب ليس بنجس انتهى.

﴿أَوۡ﴾ إلا أن يكون ذلك المحرم ﴿لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ وتخصيص[4] اللحم بالذكر؛ للتنبيه على أنه أعظم ما ينتفع به من الخنزير، وإن كان سائره مشاركاً له في التحريم بالتنصيص على العلة من كونه رجساً، أو لإطلاق الأكثر على كله، أو

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

الأصل على التابع؛ لأن الشحم وغيره يتبع اللحم، وقال الشوكاني: وظاهر تخصيص اللحم أنه لا يحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم، انتهى. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإن كل ما ذكر من الميتة وما بعدها. وأفرد الضمير؛ لأن العطف بأو ﴿رِجۡسٌ﴾؛ أي: نجس أو خبيث مخبث تعافه الطباع السليمة، وهو ضار بالأبدان الصحيحة. وقال الشوكاني: والضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ عائد إلى اللحم أو الخنزير، انتهى؛ أي: قذر لتعوده أكل النجاسة، أو خبيث مخبث ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ معطوف على المنصوب قبله، وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ذكر للتعليل، ﴿أو﴾ كان ذلك المحرم ﴿فسقاً﴾؛ أي: ذبحاً خارجاً عن الحلال لكونه أهل به؛ أي: ذبح به لغير الله بأن ذبح على اسم الأصنام مثلاً، وهو كل ما يتقرب به إلى غير الله سبحانه وتعالى تعبداً، ويذكر اسمه عليه عند ذبحه.

قال أبو حيان[1]: وجاء الترتيب هنا كالترتيب الذي في البقرة والمائدة، وجاءت هنا هذه المحرمات منكرة والدم موصوفاً بقوله: ﴿مَّسۡفُوحًا﴾، والفسق موصوفاً بقوله: ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ وفي تينك السورتين معرفة؛ لأن هذه السورة مكية؛ فعلق بالتنكير، وتينك السورتان مدنيتان؛ فجاءت تلك الأسماء معارف بالعهد حوالة على ما سبق تنزيله في هذه السورة انتهى.

فصل[2]

وذكر المفسرون هنا أشياء مما اختلف أهل العلم فيها، ونلخص من ذلك شيئاً، فنقول: أما الحمر الأهلية: فذهب الشعبي وابن جبير إلى أنه يجوز أكلها، وإن تحريم الرسول لها إنما كان لعلة، وأما لحوم الخيل: فاختلف السلف فيها، وأباحها الشافعي وابن حنبل وأبو يوسف ومحمد بن الحسن. وعن أبي حنيفة: الكراهة، فقيل: كراهة تنزيه، وقيل: كراهة تحريم؛ وهو قول مالك والأوزاعي والحكم بن عتيبة وأبي عبيد وأبي بكر الأصم. وقال به من التابعين مجاهد، ومن

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

الصحابة ابن عباس، وروي عنه خلافه، وقد صنف في حكم لحومل الخيل جزءاً قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي رحمه الله قرأناه عليه، وأجمعوا على تحريم البغال، وأما الحمار الوحشي إذا تأنس، فذهب أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح والشافعي: إلى جواز أكله، وروى ابن القاسم عن مالك أنه إذا دُجِّن وصار يعمل عليه كما يعمل على الأهلي أنه لا يؤكل.

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف وزفر ومحمد: لا يحل أكل ذي الناب من السباع، وذي المخلب من الطير، وقال مالك: لا يؤكل سباع الوحش ولا البر وحشياً كان أو أهلياً، ولا الثعلب ولا الضبع، ولا بأس بأكل سباع الطير الرخم والعقاب والنسور وغيرها ما يأكل الجيفة وما لا يأكل، وقال الأوزاعي: الطير كله حلال إلا أنهم يكرهون الرخم، وقال الشافعي: ما عدا على الناس من ذي الناب كالأسد والذئب والنمر، وعلى الطيور من ذي المخلب كالنسر والبازي لا يؤكل، ويؤكل الثعلب والضبع، وكره أبو حنيفة الغراب الأبقع، لا الغراب الزرعي، والخلاف في الحدأة كالخلاف في العقاب والنسر، وكره أبو حنيفة الضّبّ.

وقال مالك والشافعي: لا بأس به. والجمهور: على أنه لا يؤكل الهر الإنسي، وعن مالك: جواز أكله إنسياً كان أو وحشياً. وعن بعض السلف جواز أكله إنسيه. وقال ابن أبي ليلى: لا بأس بأكل الحية إذا ذكيت. وقال الليث: لا بأس بأكل القنفذ وفراخ النحل ودود الجبن ودود التمر ونحوه، وكذا قال ابن قاسم عن مالك في القنفذ. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تؤكل الفأرة. وقال أبو حنيفة: لا يؤكل اليربوع، وقال الشافعي: يؤكل. وعن مالك في الفأر التحريم والكراهة والإباحة. وذهب أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما إلى كراهة أكل الجلالة. وقال مالك والليث: لا بأس بأكلها. وقال صاحب «التحرير والتحبير»: وأما المخدرات كالبنج والسيكران واللفاح وورق القنب المسمى بالحشيشة.. فلم يصرح فيها أهل العلم بالتحريم، وهي عندي إلى التحريم أقرب؛ لأنه إن كانت مسكرة فهي محرمة بقوله ﷺ: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» وبقوله: «كل مسكر

حرام». وإن كانت غير مسكرة فإدخال الضرر على الجسم حرام. وقد نقل ابن بخسيشوع في كتابه: إن ورق القنب يحدث في الجسم سبعين داء، وذكر منها أنه يصفر الجلد، ويسود الأسنان، ويجعل فيها الحفر، ويثقب الكبد ويحميها، ويفسد العقل ويضعف البصر، ويحدث الغم ويذهب الشجاعة، والبنج والسيكران كالورق في الضرر. وأما المرقدات كالزعفران والمازريون.. فالقدر المضر منها حرام. وقال جمهور الأطباء: إذا استعمل من الزعفران كثير.. قتل فرحاً، انتهى وفيه بعض تلخيص.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾؛ أي: فمن دفعته ودعته ضرورة الجوع وفقد الحلال إلى أكل شيء من هذه المحرمات حالة كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطر مثله تارك لمواساته ﴿وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: متجاوز قدر حاجة في تناوله، وهو القدر الذي يسد الرمق ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿غَفُورٌ﴾ له، فلا يؤاخذه بالأكل من تلك المحرمات ﴿رَحِيمٌ﴾ له حيث رخص له في الأكل من تلك المحرمات.

ولما[1] كان صدر هذه الآية مفتتحاً بخطابه تعالى لنبيه ﷺ بقوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ﴾ اختتم الآية بالخطاب له ﷺ، فقال: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ﴾ ليدل على اعتنائه تعالى بتشريف خطابه افتتاحاً واختتاماً.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ ورجعوا عن عبادة العجل خاصة لا على غيرهم من الأولين والآخرين ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ﴾ حيوان ﴿ذِي ظُفُرٍ﴾؛ أي: صاحب ظفر وهو كل ما ليس منفرج الأصابع مشقوقها من البهائم والطير كالإبل والنعام والإوز والبط، كما قاله ابن عباس وابن جبير وقتادة ومجاهد، فهذا[2] رد عليهم في قولهم: لسنا أول من حرمت عليهم، وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا. وقرأ أبي والحسن والأعرج: ﴿ظفْر﴾ - بسكون الفاء -، والحسن وأبو السمال - قعنب -: ﴿ظِفْر﴾ بسكونها وكسر الظاء.

---

(١) البحر المحيط. (٢) أبو السعود.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الخالصة التي تؤخذ بسهولة، وهي ثروبهما جمع ثرب؛ وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكرش والكلى ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾؛ أي: إلا الشحم الذي حملته ظهورهما ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أو إلا الشحم الذي حملته المباعر والمصارين وعلقت بها ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾؛ أي: أو إلا شحماً مختلطاً بعظم مثل شحم الألية، فإنه متصل بالعصعص، وهذا إنما يكون في الضأن، فتلخص: إن الذي حرم عليهم من البقر والغنم شحومهما الخالصة، وهي شحوم الكرشي والكلى، وإن ما عدا ذلك حلال لهم.

والحاصل: أنه حرم عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه، وكل شيء منه، ومن البقر والغنم دون غيرهما مما أحل لهم من حيوان البر والبحر حرمنا عليهم شحومهما الزائدة التي تنزع بسهولة لعدم اختلاطهما بعظم ولا لحم، ولم يحرم عليهم منهما ما حملت الظهور أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. والسبب[(١)] في تخصيص البقر والغنم بهذا الحكم أن القرابين عندهم لا تكون إلا منهما، وكان يتخذ من شحمهما الوقود للرب، كما ذكر ذلك في الفصل الثالث من سِفْر اللاويين من التوراة، في قرابين السلامة من البقر والغنم: (كل الشحم للرب فريضة في أجيالكم في جميع مساكنهم، لا تأكلوا شيئاً من الشحم والدم).

﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ﴾؛ أي: جعلناه عقوبة وجزاء لهم على بغيهم وظلمهم؛ وهو قتلهم الأنبياء وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل، وليس ذلك التحريم لخبث ذاته، فكانوا[(٢)] كلما ارتكبوا معصية من هذه المعاصي.. عوقبوا بتحريم شيء مما أحل لهم وهم ينكرون ذلك، ويدعون أنها محرمة على الأمم قبلهم. ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود من الأنباء التي لم يكن النبي ﷺ، ولا قومه يعلمون منها شيئاً لأميتهم، وكان مظنة تكذيب المشركين له؛ لأنهم لا يؤمنون بالوحي، ومظنة تكذيب اليهود له بأن الله لم يحرم ذلك عقوبة ببغيهم وظلمهم.. أكده فقال: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾؛ أي: وإنا لصادقون

---

(١) المراغي. (٢) أبو السعود.

في هذه الأخبار عن التحريم وعلته؛ لأن أخبارنا صادرة عن العلم المحيط بكل شيء، ولأن الكذب محال علينا؛ لأنه نقص، فلا يصدر عنا، والمكذبون في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ إما اليهود، والمعنى عليه: فإن كذبك يا محمد اليهود، وثقل عليهم أن يكون بعض شرعهم عقاباً لهم على ما كان من بغيهم على الناس وظلمهم لهم ولأنفسهم، واحتجوا على إنكار كونه عقوبة بكون الشرع رحمة من الله ﴿فَقُل﴾ لهم في الجواب ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾؛ أي: فأجبهم بما يدحض ويبطل هذه الشبهة بأن رحمة الله واسعة حقاً ﴿و﴾ لكن ﴿لا﴾ يقتضي ذلك أن ﴿يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ ويمنع عقابه ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فإصابة الناس بالمحق والشدائد عقاباً لهم على جرائم ارتكبوها قد تكون رحمة بهم، وقد تكون عبرة وموعظة لغيرهم؛ لينتهوا عن مثلها، وهذا العقاب من سنن الله المطردة في الأمم، وإن لم يطرد في الأفراد. وإما المشركون، والمعنى عليه: فإن كذبك المشركون فيما فصلناه من أحكام التحليل والتحريم فقل لهم: ربكم ذو رحمة واسعة ولا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا به فإنه إمهال لكم لا إهمال لمجازاتكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد إذا هم أصروا على كفرهم وافترائهم على الله تعالى بتحريم ما حرموا على أنفسهم كما أن فيه إطماعاً لهم في رحمته الواسعة إذا رجعوا عن إجرامهم، وآمنوا بما جاء به الرسول ﷺ فيسعدون في الدنيا بحل الطيبات، وفي الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنات.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾؛ أي: سيقول لك يا محمد هؤلاء المشركون عناداً لا اعتذاراً عن ارتكاب هذه القبائح ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أن لا نشرك به من اتخذنا من الأولياء والشفعاء من الملائكة والبشر، وأن لا نعظم ما عظمنا من تماثيلهم وصورهم، وأن لا يشرك آباؤنا من قبلنا لـ﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾ نحن ﴿وَلَآ﴾ أشرك ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ من قبلنا ﴿و﴾: لو شاء الله أن ﴿لا﴾ نحرم شيئاً مما حرمنا من الحرث والأنعام وغيرها لـ﴿ما حرمنا من شيء﴾ ولكنه تعالى شاء أن نشرك به هؤلاء الأولياء والشفعاء؛ ليقربونا إليه زلفى، وشاء أن نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها، فحرمناها، فإتياننا إياها دليل على مشيئته تعالى وعلى رضاه وأمره بها. وقد رد عليهم شبهتهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومثل ذلك التكذيب

الذي صدر من مشركي مكة لرسوله ﷺ فيما جاء به من إبطال الشرك وإثبات توحيد الله في الألوهية والربوبية، ومنها حق التشريع والتحليل والتحريم ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ لرسلهم تكذيباً غير مبني على أساس من العلم.

والرسل صلوات الله وسلامه عليهم قد أقاموا الحجج والبراهين العلمية والعقلية على التوحيد وغيره مما ادعوا، وأيدهم الله تعالى بباهر الآيات، ولكن المكذبين لم ينظروا نظرة إنصاف، بل أعرضوا عنها وأصروا على جحودهم وعنادهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ وعذابنا، وأهلكناهم بذنوبهم وصاروا كأمس الدابر.

ولو كانت مشيئة الله تعالى لِما كانوا عليه من الشرك تتضمن رضاه عن فاعلها، وأمره بها.. لما عاقبهم عليها تصديقاً لما قال الرسل، كذلك لو كانت أعمالهم بالجبر المخرج لها عن كونها من أعمالهم.. لما استحقوا العقاب عليها، ولما قال: إنه أخذهم بذنوبهم وأهلكهم بظلمهم وكفرهم، ونحو ذلك مما جاء في كثير من الآيات.

فقوله: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ برهان دال على صدق الرسل في دعواهم، وبطلان شبهات المشركين المكذبين لهم، وبعد أن ذكرهم بالبرهان الواضح أمر رسوله أن يطالبهم بدليل يثبت ما يزعمون، فقال: ﴿هَلۡ عِندَكُم﴾ بما تقولون ﴿مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ تعتمدون عليه وتحتجون به ﴿فَتُخۡرِجُوهُ﴾؛ أي: فتخرجوا ذلك العلم وتظهروه ﴿لنا﴾ لنفهمه، ونوازن بينه وبين ما جئناكم به من الآيات العقلية، والوقائع المحكية عن الأمم قبلكم، ونتبين منها الراجح والمرجوح، وفي هذا الاستفهام من التعجيز والتوبيخ والتهكم ما لا يخفى، وهو بمعنى الإنكار؛ أي: ليس عندكم من علم تحتجون به فتظهرونه لنا ما تتبعون في دعاواكم إلا الظن الكاذب الفاسد، وما أنتم إلا تكذبون.

وقرأ النخعي وابن وثاب: ﴿إن يتبعون﴾ ـ بالياء ـ قال ابن عطية: وهذه قراءة شاذة يضعفها قوله: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ﴾؛ لأنه يكون من باب الالتفات. ذكره أبو حيان في «البحر».

ثم أردف ذلك ببيان حقيقة حالهم، فقال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي:

ما تبعون فيما أنتم عليه إلا الظن الباطل الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾؛ أي: وما أنتم في ذلك إلا تكذبون على الله تعالى؛ أي: أنكم لستم على شيء من العلم، بل ما تتبعون في عقائدكم وآرائكم في الدين والعمل به إلا الحدس والتخمين الذي لا يستقر عنده حكم.

وبعد أن نفى عنهم درجات العلم.. أثبت لذاته الحجة البالغة التي لا تعلوها حجة، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين إن لم تكن لكم حجة ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾؛ أي: الواضحة التي تقطع عذر المحجوج، وتزيل الشك عمن نظر فيها؛ وهي إرسال الرسل وإنزال الكتب.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين بعد تعجيزك إياهم عن أن يأتوا بأدنى دليل أو قول يرقى إلى أضعف درجة من العلم: إن لم يكن عندكم علم في أمر دينكم.. فإن لله وحده أعلى درجات العلم، وله الحجة البالغة على ما أراد من إحقاق الحق وإزهاق الباطل بما بينه في هذه السورة وغيرها من الآيات البينات على أصول العقائد، وقواعد التشريع الموافقة للعقول الحكيمة والفطر السليمة، وسننه في الاجتماع البشري، ولا يهتدي بهذه الآيات إلا المستعد للهداية المحب للحق الحريص على طلبه الذي يستمع القول فيتبع أحسنه دون من أعرض عن النظر فيها استكباراً عنها، وحسداً للمبلغ الذي جاء بها وجموداً على تقليد الآباء واتباع الرؤساء ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ سبحانه وتعالى هدايتكم جميعاً إلى الحجة البالغة ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكن لم يشأ هداية الكل بل هداية البعض.

أو المعنى: ولو شاء سبحانه وتعالى أن يهديكم بغير هذه الطريق التي أقام أمر البشر عليها؛ وهي التعليم والإرشاد بطريق النظر والاستدلال.. لهداكم أجمعين، فجعلكم تؤمنون بالفطرة كالملائكة المفطورين على الحق والخير جل شأنه. وفيه دليل على أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ إيمان الكافر، ولو شاء هدايته لهداه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾. ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ وقوله: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي

ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

وبعد أن نفى عنهم العلم، وسجل عليهم اتباع الخرص والكذب ليظهر لهم أنهم ليسوا على شيء يعتد به من العلم.. أمر رسوله ﷺ أن يطالب مشركي قومه بإحضار من عساه يعتمدون عليه من الشهداء في إثبات تحريم الله تعالى عليهم ما ادعوه من المحرمات، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾؛ أي: أحضروا شهداءكم وقدوتكم ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ ويخبرون عن مشاهدة وعيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿حَرَّمَ﴾ عليكم ﴿هَٰذَاۖ﴾ الذي حرمتموه على أنفسكم وزعمتم أن الله تعالى حرمه علينا.

والخلاصة: عليكم أن تحضروا من أهل العلم الذين تتلقى عنهم الأمم الأحكام الدينية وغيرها بالأدلة الصحيحة التي تجعل النظريات العلمية كأنها مشاهدات حسية من يشهد لكم بصحة ما تدعون ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ بعد حضورهم بأن الله حرم ذلك ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾؛ أي فلا تصدقهم فيما يقولون، بل بين لهم فساده؛ لأن السكوت قد يشعر بالرضا.

أي: فإن فرض إحضار هؤلاء الشهداء.. فلا تصدقهم، ولا تقبل لهم شهادة، ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها، فإن السكوت على الباطل كالشهادة به ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة وبما أرشدت إليه من الآيات الكونية في الأنفس والآفاق؛ أي: إن وقع منهم شهادة، فإنما هي باتباع الهوى، فلا تتبع أنت أهواءهم فهم كذبوا القرآن ﴿وَ﴾ لا أهواء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: ولا أهواء الذين هم مع جهلهم واتباعهم للأهواء لا يصدقون بالبعث بعد الموت حتى يحملهم الإيمان به على سماع الدليل والحجة إذا ذكروا بها ﴿و﴾ لا أهواء الذين ﴿هم بربهم يعدلون﴾؛ أي: يشركون بربهم، ويتخذون له مثلاً وعدلاً يشاركه في جلب الخير والنفع ودفع الضر إما استقلالاً، وإما بحمله الرب على ذلك، وتأثيره في فعله وإرادته.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يتبعون أهواءهم فيما يحللون وما يحرمون لأنفسهم وللناس ﴿تَعَالَوْا۟﴾ وأقبلوا إليّ أيها القوم ﴿أَتْلُ﴾ وأقرأ لكم ﴿مَا حَرَّمَ

﴿رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فيما أوحاه إليّ؛ وهو سبحانه وتعالى وحده الذي له حق التحريم والتشريع، وأنا مبلغ بإذنه، وقد أرسلني بذلك. وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا أعم؛ لأن بيان المحرمات يستلزم حل ما عداها، وقد بدأها بأكبر المحرمات وأعظمها وأشدها إفساداً للعقل والفطرة؛ وهو الشرك بالله سواء أكان باتخاذ الأنداد له، أو الشفعاء المؤثرين في إرادته، أو بما يذكر بهم من صور وتماثيل وأصنام وقبور، أو باتخاذ الأرباب الذين يتحكمون في التشريع، فيحللون ويحرمون. وجملة ما تلاه عليهم عشرة بالإجمال:

الأول منها: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء، وإن عظمت في الخلق كالشمس والقمر والكواكب، أو في القدر كالملائكة والنبيين والصالحين، فإن عظمتها لا تخرجها عن كونها مخلوقة لله مسخرة له بقدرته وإرادته ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ ومن الشرك أيضاً أن يريد بعبادته رياء أو سمعة، ويلزم هذا أن تعبدوه وحده بما شرعه لكم على لسان رسوله لا بأهوائكم، ولا بأهواء أحد من الخلق أمثالكم.

والثاني: ما ذكره بقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً تاماً كاملاً لا تدخرون فيه وسعاً، ولا تألون فيه جهداً، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت، فما بالك بالعقوق الذي هو من أكبر الكبائر وأعظم الآثام، وقد جاء في القرآن غير مرة قرن التوحيد والنهي عن الشرك بالأمر بالإحسان إلى الوالدين.

وكفى[1] دلالة على عظم عناية الشارع بأمر الوالدين أن قرنه بعبادته، وجعله ثانيها في الوصايا، وأكده بما أكده به في سورة الإسراء، كما قرن شكرهما بشكره في سورة لقمان في قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ وما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

---

(١) المراغي.

والمراد ببرهما احترامهما احترامَ المحبة والكرامة، لا احترام الخوف والرهبة؛ لأن في ذلك مفسدة كبيرة في تربية الأولاد في الصغر، وإلجاءً لهم إلى العقوق في الكبر، وإلى ظلم الأولاد لهم كما ظلمهم آباؤهم، وليس لهما أن يتحكما في شؤونهم الخاصة بهم لا سيما تزويجهم بمن يكرهون، أو منعهم من الهجرة لطلب العلم النافع، أو لكسب المال والجاه إلى نحو ذلك. وإنما[1] ثنى بالوصية بالإحسان إلى الوالدين؛ لأن أعظم النعم على الإنسان نعمة الله؛ لأنه هو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود، وخلقه وأوجده بعد أن لم يكن شيئاً، ثم بعد نعمة الله نعمة الوالدين؛ لأنهما السبب في وجود الإنسان، ولما لهما عليه من حق التربية والنفقة والحفظ من المهالك في حال صغره.

والثالث: ما ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ﴾؛ أي: وأن لا تقتلوا أولادكم الصغار لفقر حل ونزل ووقع بكم؛ لأنهم كانوا يئدون البنات لخوف الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾؛ أي: فإن الله سبحانه وتعالى يرزقكم وإياهم؛ أي: يرزق أولادكم تبعاً لكم، وجاء في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾.

وسر اختلاف الأسلوبين[2]، وتقديم رزق الأولاد هناك على رزق الوالدين على عكس ما هنا: أن ما هناك متعلق بالفقر المتوقع في المستقبل الذي يكون فيه الأولاد كباراً كاسبين، وقد يصير الوالدون في حاجة إليهم لعجزهم عن الكسب بالكبر، ففرق في تعليل النهي في الآيتين بين الفقر الواقع، والفقر المتوقع، فقدم في كل منهما ضمان رزق الكاسب للإيماء إلى أنه تعالى جعل كسب العباد سبباً للرزق، لا كما يتوهم بعضهم، فيزهد في العمل بشبهة كفالته تعالى لزرقهم. وقيل اختلاف أسلوب الآيتين للتفنن، وعبارة الصاوي هنا: وإنما قال هنا: ﴿إِمْلَٰقٍۖ﴾ وقال في الإسراء: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ﴾؛ لأن ما هنا في الفقر الحاصل بالفعل، وما في الإسراء في الفقر المتوقع، فهو خطاب للأغنياء، وقدم هنا خطاب الآباء، وهناك

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

ضمير الأولاد، فقيل: تفنناً، وقيل: قدم هنا خطاب الآباء تعجيلاً لبشارة الآباء الفقراء بأنهم في ضمان الله، وقدم هناك ضمير الأولاد لتطمئن الآباء بضمان رزق الأولاد، فهذه الآية تفيد النهي للآباء عن قتل الأولاد، وإن كانوا متلبسين بالفقر، والأخرى النهي عن قتلهم وإن كانوا موسرين، ولكن يخافون وقوع الفقر، انتهت.

الرابع: ما ذكره بقوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾؛ أي: ولا تقربوا كبائر الذنوب، وهي كل ما عظم قبحه منها سواء كان من الأفعال كالزنا، أو من الأقوال كقذف المحصنات الغافلات، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدل من ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ بدل تفصيل من مجمل، أو بدل اشتمال؛ أي: لا تقربوا ما ظهر من الفواحش للناس كالزنا والقذف، وما بطن منها واستتر عن الناس كالسرقة. وقيل[1]: الظاهر ما تعلق بأعمال الجوارح، والباطن ما تعلق بأعمال القلوب، كالكبر والحسد والتفكير في تدبير المكايد الضارة، وأنواع الشرور والمآثم.

وقيل: المراد بالفواحش هنا الزنا، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ علانيته وسره؛ أي[2]: ما يفعل منها علانية في الحوانيت كما هو دأب أراذلهم، وما يفعل سراً باتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم، وإنما جمع الفواحش بمعنى الزنا للنهي عن أنواعها، ولذلك ذكر ما أبدل منها. وقد روي عن ابن عباس في تفسير الآية أنه قال: كانوا في الجاهلية لا يرون بأساً بالزنا في السر، ويستقبحونه في العلانية، فحرم الله الزنا في السر والعلانية؛ أي: في هذه الآية وما أشبهها. وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال: ما ظهر منها: ظلم الناس، وما بطن منها: الزنا والسرقة؛ أي: لأن الناس يأتونهما في الخفاء. وروى عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» رواه البخاري ومسلم. وفي قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقة، وهي أن الإنسان إذا احترز عن المعاصي في الظاهر، ولم يحترز منها في الباطن.. دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله تعالى

(١) المراغي. (٢) المراح.

وطاعته فيما أمر به أو نهى عنه، ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم، ومن كان كذلك استحق العقاب، ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً لأجل خوف الله تعالى وتعظيماً لأمره استوجب رضوان الله تعالى.

والخامس منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها بالإسلام، أو بالعهد بين المسلمين وغيرهم كأهل الكتاب المقيمين بيننا بعهد وأمان، وقد جاء في الحديث «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وروى الترمذي قوله ﷺ: «من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله.. فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفاً» وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: إلا قتلاً متلبساً بالحق؛ فإنه مباح، إيماء إلى أن قتل النفس قد يكون حقاً لجرم يصدر منها. عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» متفق عليه.

وإنما[1] أفرد قتل النفس بالذكر مع دخوله في جملة الفواحش تعظيماً لأمر القتل وأنه من أعظم الفواحش والكبائر، وقيل: إنما أفرده بالذكر؛ لأنه تعالى أراد أن يستثني منه، ولا يمكن الاستثناء من جملة الفواحش إلا بإفراده بالذكر ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ التكاليف الخمسة من الأوامر والنواهي ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾؛ أي: أمركم به ربكم أمراً مؤكداً ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: لكي تعقلوا فوائد هذه التكاليف في الدين والدنيا. والوصية[2] في الأصل أن يعهد إلى إنسان بعمل خير، أو ترك شر، ويقرن ذلك بوعظ يرجى تأثيره؛ أي: أنه سبحانه وتعالى وصاكم بذلك ليعدكم، لأن تعقلوا الخير والمنفعة في فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه إذ هو مما تدركه العقول بأدنى تأمل.

وفي هذا تعريض بأن ما هم عليه من الشرك وتحريم السوائب وغيرها مما

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

لا تعقل له فائدة ولا تظهر فيه لذوي العقول الراجحة مصلحة.

والسادس: ما ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: ولا تقربوا مال اليتيم إذا وليتم أمره، أو تعاملتم به ولو بواسطة وليه، أو وصيه إلا بالفعلة التي هي أحسن من غيرها في حفظ ماله وتثميره، ورجحان مصلحته، والإنفاق منه على تربيته، وتعليمه ما به يصلح معاشه ومعاده. قال مجاهد: هي التجارة فيه. وقال الضحاك: هو أن يسعى له فيه، ولا يأخذ من ربحه شيئاً، هذا إذا كان القيم بالمال غنياً غير محتاج، فلو كان الوصي فقيراً.. فله أن يأكل بالمعروف، والنهي عن القرب من الشيء أبلغ من النهي عنه، فإن الأول يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل المؤدية إليه، وعن الشبهات التي هي مظنة التأويل، فيبتعد عنه المتقي ويستسيغها الطامع فيه إذ يراها بالتأويل من الوجوه الحلال لا تضر به، أو يرجح نفعها على ضررها كأن يأكل من ماله حين يعمل عملاً له فيه ربح، ولولاه ما ربح.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: احفظوا مال اليتيم إلى أن يبلغ أشده؛ أي: إلى بلوغه رشيداً، فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله، فأما[1] الأشد: فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى في الشباب إلى حد الرجال. والمراد بالأشد في هذه الآية: هو ابتداء بلوغ الحلم مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته سالكاً مسلك العقلاء لا مسلك أهل السفه والتبذير، وهذا هو المختار في تفسير هذه الآية.

والمعنى: احفظوا مال اليتيم، ولا تسمحوا له بتبذير شيء من ماله وإضاعته أو الإسراف فيه حتى يبلغ، فإذا بلغ رشيداً فسلموه إليه.

والخلاصة: أن المراد النهي عن كل تعد على مال اليتيم، وهضم لحقوقه من الأوصياء وغيرهم حتى يبلغ سن القوة بدناً وعقلاً؛ إذ قد دلت التجارِب على أن الحديث العهد بالاحتلام يكون ضعيف الرأي قليل الخبرة بشؤون المعاش يخدع كثيراً في المعاملات.

---

(١) الخازن.

وقد كان الناس في الجاهلية لا يحترمون إلا القوة ولا يعرفون الحق إلا للأقوياء، ومن ثم بالغ الشارع في الوصية بالضعيفين المرأة واليتيم.

وقد شرط الشارع الحكيم لإيتاء اليتامى أموالهم بلوغ سن الحلم[(1)]، وظهور الرشد في المعاملات المالية بالاختبار، كما سلف في سورة النساء من قوله: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية.

والقوة التي يحفظ بها المرء ماله في هذا العصر هي إتزان الفكر والرشد العقلي والأخلاقي بكثرة المران والتجارب في المعاملات، لكثرة الفسق والحيل، ووجود أعوان السوء الذين يوسوسون إلى الوارثين، ويزينون لهم الإسراف في اللذات والشهوات على جميع ضروبها حتى لا يتركوهم إلا وهم فقراء، وقلما يستيقظون من غفلتهم إلا إذا بلغوا سن الكهولة التي يكمل فيها العقل، ويفقهون تكاليف الحياة، ويهتمون فيها بأمر النسل.

والسابع: ما ذكره بقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾؛ أي: أتموا الكيل بالكميال ﴿و﴾ الوزن بـ﴿الميزان بالقسط﴾؛ أي: بالعدل والحق من غير نقصان من المعطي، ومن غير طلب الزيادة من صاحب الحق.

والمعنى: وأتموا الكيل إذا كلتم للناس أو اكتلتم عليهم لأنفسكم، وأوفوا الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون، أو لغيركم فيما تبيعون فليكن كل ذلك وافياً تاماً بالعدل، ولا تكونوا من أولئك المطففين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾.

والخلاصة: أن الإيفاء بالكيل والميزان يكون من الجانبين حين البيع وحين الشراء، فيرضى المرء لغيره ما يرضاه لنفسه، وقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ يدل على تحري العدل في الكيل والميزان حال البيع والشراء بقدر المستطاع ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: أن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا ما يسعها فعله بأن تأتيه بلا عسر ولا حرج، فهو لا يكلف من يبيع أو يشتري الأقوات ونحوها أن يزنها أو يكيلها

---

(١) المراغي.

بحيث لا تزيد حبة ولا مثقالاً، بل يكلفه أن يضبط الوزن والكيل له أو عليه سواء، بحيث يعتقد أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتد بهما عرفاً. والقاعدة الشرعية: أن التكليف إنما يكون بما في وسع المكلف بلا حرج ولا مشقة عليه، ولو اتبع المسلمون هذه الوصية وعملوا بها.. لاستقامت أمور معاملاتهم وعظمت الثقة والأمانة بينهم، ولكن وا أسفا فسدت أمورهم، وقلت ثقتهم بأنفسهم، ووثقوا بغيرهم لاتباعهم هذه الوصية وأمثالَها، وقد قص علينا الكتاب الكريم قصص من طففوا الكيل والميزان، فأخذهم ربهم أخذ عزيز مقتدر بما كان من ظلمهم كقوم شعيب. وقد حكى الله عنهم ما قال لهم نبيهم شعيب عليه السلام: ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وقال النبي ﷺ لأصحاب الكيل والميزان: «إنكم وليتم أمراً هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم».

والثامن: ما ذكره بقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ في الحكم أو الشهادة أو غيرهما ﴿فَٱعْدِلُوا۟﴾؛ أي: فاصدقوا ولو كان المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾؛ أي: صاحب قرابة منكم.

والمعنى[1]: وعليكم أن تعدلوا في القول إذ قلتم قولاً في شهادة أو حكم على أحد، ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة منكم؛ إذا بالعدل تصلح شؤون الأمم والأفراد، فهو ركن ركين في العمران، وأساس في الأمور الاجتماعية، فلا يحل لمؤمن أن يحابي فيه أحداً لقرابة ولا غيرها، فالعدل كما يكون في الأفعال كالوزن والكيل.. يكون في الأقوال، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

والتاسع: ما ذكره بقوله ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾؛ أي: وأتموا عهد الله، وهو شامل بما عهد الله تعالى إلى عباده ووصاهم به، وأوجبه عليهم، وبما أوجبه

---

(١) المراغي.

الإنسان على نفسه كنذر ونحوه، وبما عاهده الناس بعضهم بعضاً. فمن آمن برسول من رسل الله تعالى.. فقد عاهد الله حين الإيمان به أن يمتثل أمره ونهيه، وما شرعه للناس ووصاهم به فهو مما عهده إليهم، وما التزمه الإنسان من عمل البر بنذر أو يمين فهو عهد عاهد عليه ربه كما قال تعالى ناعياً على المنافقين سوء فعلهم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ الآية. وكذلك من عاهد السلطان وبايعه على الطاعة في المعروف، أو عاهد غيره على القيام بعمل مشروع وجب عليه الوفاء إذا لم يكن من قبيل المعصية. روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾؛ أي: أمركم ربكم به أمراً مؤكداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لعلكم تتعظون وتتذكرون فتأخذون ما أمركم به.

والتذكر[1] يطلق حيناً على تكلف ذكر الشيء في القلب أو التدرج فيه بفعله المرة إثر الأخرى، وحيناً على الاتعاظ والتدبر كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

والخلاصة[2]: أن ذلك الذي تلوته عليكم من الأوامر والنواهي وصاكم الله به رجاء أن يذكره بعضكم لبعض في التعليم والتواصي الذي أمر الله به في مثل قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ لما فيه من مصالح ومنافع كتدارك النسيان والغفلة من كثرة الشواغل الدنيوية، أو رجاء أن يتعظ به من سمعه أو قرأه.

ولما كانت[3] التكاليف الخمسة المذكورة في الآية الأولى أموراً ظاهرة يجب تعقلها وتفهمها.. ختمت بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولما كانت التكاليف

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) المراح.

الأربعة المذكورة في الآية الأخيرة أموراً غامضة لا بد فيها من الاجتهاد في الفكر حتى يقف على موضع الاعتدال.. ختمت بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وجملة ما ذكر في هاتين الآيتين من المحرمات تسعة أشياء: خمسة بصيغ النهي، وأربعة بصيغ الأمر، وتؤول الأوامر بالنهي؛ لأجل التناسب، وهذه الأحكام لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار.

وقرأ حفص وحمزة والكسائي[1]: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ حيث وقع بتخفيف الذال حَذْف التاء؛ إذ أصله: تتذكرون، وفي المحذوف خلاف، أهي تاء المضارعة أو تاء تفعل؟ وقرأ باقي السبعة: ﴿تذَّكرون﴾ - بتشديد الذال - أدغم تاء تفعّل في الذال.

والعاشر: ما ذكره بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ الذي[2] وصيتكم به وأمرتكم به في هاتين الآيتين هو ﴿صِرَٰطِى﴾؛ أي: طريقي وديني الذي ارتضيته لعبادي حالة كونه ﴿مُسْتَقِيمًا﴾؛ أي: قويماً مستوياً لا اعوجاج فيه ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ أي: فاسلكوه واعملوا بمقتضاه من تحريم وتحليل، وأمر ونهي وإباحة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾؛ أي: ولا تسلكوا الطرق المختلفة، والأهواء المضلة، والبدع الرديئة. وقيل: السبل المختلفة مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل والأديان المخالفة لدين الإسلام ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾؛ أي: فتميل بكم هذه الطرق المختلفة المضلة ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: عن دينه وطريقه الذي ارتضاه لعباده.

وقرأ الجمهور: ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ بتاء خفيفة، وقرأ البزي ﴿فتّفرّق﴾: بتشديدها. فمن خفف حذف إحدى التائين، ومن شدد أدغم وقيل: معنى الآية؛ أي: وإن[3] هذا القرآن الذي أدعوكم إليه، وأدعوكم به إلى ما يحييكم هو صراطي ومنهاجي الذي أسلكه إلى مرضاة الله، ونيل سعادة الدنيا والآخرة حال كونه مستقيماً لا يضل سالكه، ولا يهتدي تاركه؛ فاتبعوه وحده؛ ولا تتبعوا السبل الأخرى التي تخالفه - وهي كثيرة - فتتفرق بكم عن سبيله بحيث يذهب كل منهم في سبيل

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن. (٣) المراغي.

ضلالة ينتهي بها إلى الهلكة، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال.

والخلاصة: أن هذا صراطي مستقيماً لا عوج فيه؛ فعليكم أن تتبعوه إن كنتم تؤثرون الاستقامة على الاعوجاج، وترجحون الهدى على الضلال.

وقيل[1]: إن الله تعالى لما بين في الآيتين المتقدمتين ما وصاه به مفصّلاً.. أجمله في هذه الآية إجمالاً يقتضي دخول جميع ما تقدم ذكره فيه، ويدخل فيه أيضاً جميع أحكام الشريعة، وكل ما بينه رسول الله ﷺ من دين الإسلام؛ وهو المنهج القويم والصراط المستقيم والدين الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين، وأمرهم باتباع جملته وتفصيله.

وأخرج أحمد والنسائي وأبو الشيخ والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً»، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: «وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

وإنما جعل الصراط المستقيم واحداً[2]، والسبل المخالفة متعددة؛ لأن الحق واحد، والباطل وهو ما خالفه كثير، فيشمل الأديان الباطلة سواء أكانت وضعية أو سماوية، محرفة أو منسوخة. ونهى عن التفرق في صراط الحق، وسبيله؛ لأن التفرق في الدين الواحد، وجعله مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب ينصرونه، ويتعصبون له ويخطّئون من خالفه، ويرمون أتباعه بالجهل والضلال سبب لإضاعته؛ إذ كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها ويظهرها على مخالفيه، ولا يهمها إثبات الحق وفهم النصوص، والحق لا يكون وقفاً على عالِم معين، ولا على أتباعه، بل كل باحث يخطئ ويصيب، وذلك ما دل عليه العقل، وأثبته الكتاب والسنة والإجماع. ولما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.

فيه يجمع الكلمة ويعز أهل الحق.. كان التفرق فيه سبب ضعف المتفرقين وذلهم وضياع حقهم.

روى ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وإن هذا﴾ - بكسر الهمزة على الاستئناف - والتقدير: وإن الذي ذكر في هذه الآيات صراطي ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ جملة معطوفة على الجملة المستأنفة. وقرأ ابن عامر ويعقوب وعبد الله بن أبي إسحاق بالفتح والتخفيف على أنها مخففة، واسمها ضمير الشأن. وقرأ الباقون بالفتح مشددة بتقدير اللام على أنه علة مقدمة لقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾. وقرأ ابن عامر: ﴿صراطيَ﴾ - بفتح الياء -. وقرأ الأعمش: ﴿وهذا صراطي﴾: وفي مصحف عبد الله بن مسعود: ﴿وهذا صراط ربكم﴾ وفي مصحف أبي: ﴿وهذا صراط ربك﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاتباع للصراط المستقيم ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾؛ أي: أمركم ربكم في الكتاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي تتقوا وتجتنبوا الطرق المختلفة والسبل المضلة. والتقوى:[1] اسم لكل ما يتقى به من الضرر العام والخاص مهما يكن نوعه، وقد ذكرت في القرآن في سياق الأوامر والنواهي المختلفة من عبادات ومعاملات وآداب وعشرة وزواج، وتفسر في كل موضع بما يناسبه. والمعنى: ذلكم الاتباع لصراط الحق المستقيم، والاجتناب عن سبل الضلالات والأباطيل وصاكم ربكم به؛ ليهيئكم لاتقاء كل ما يشقي ويردي في الدنيا والآخرة، ويوصلكم إلى السعادة العظمى والحياة الصالحة.

وقال الرازي[2]: ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والثانية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك، وقتل الأولاد، وقربان الزنا، وقتل النفس المحرمة بغير حق غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها، فنهاهم

(١) المراغي. (٢) الفخر الرازي.

سبحانه لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها، وأما حفظ أموال اليتامى عليهم، وإيفاء الكيل والميزان، والعدل في القول، والوفاء بالعهد؛ فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به، فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون إن عرض لهم نسيان.

وقال أبو حيان[1] ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف، وقد مر سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق.. ختم الآية الثالثة بالتقوى لتي هي اتقاء النار؛ إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية، وحصل على السعادة لسرمدية.

فصل

وقد وردت أحاديث كثيرة بشأن هذه الوصايا نقلها الحفاظ الثقات:

منها: ما أخرجه الترمذي وحسنه، وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود قال: من سره أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه.. فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾.

ومنها: ما أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟» ثم تلا: «﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ثلاث آيات ثم قال: «فمن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه».

ومنها: ما أخرجه عبد بن حميد وأبو عبيد وابن المنذر عن منذر الثوري قال: قال الربيع بن خيثم: أيسرك أن تلقى صحيفة من محمد ﷺ بخاتمه؟ قلت: نعم، فقرأ هؤلاء الآيات من آخر سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ إلى آخر الآيات.

---

(١) البحر المحيط.

الإعراب

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَّآ﴾ نافية. ﴿أَجِدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾. ﴿فِي مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَجِدُ﴾. ﴿أُوحِيَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿إِلَيَّ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مُحَرَّمًا﴾: مفعول به لـ﴿أَجِدُ﴾؛ لأنه يتعدى إلى واحد؛ لأنه من وجد الضالة. ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾: متعلق بـ﴿مُحَرَّمًا﴾. ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿طَاعِمٍ﴾، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿طَاعِمٍ﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿أَن يَكُونَ﴾: ناصب ومنصوب. ﴿مَيْتَةً﴾: بالنصب خبر ﴿يَكُونَ﴾، واسمها ضمير يعود على الشيء المحرم، والجملة في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء تقدير: إلا كونه ميتة، والمصدر المؤول ليس مقصود في المعنى، والمعنى: لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم إلا ميتة. ﴿أَوْ دَمًا﴾: معطوف على ﴿مَيْتَةً﴾. ﴿مَّسْفُوحًا﴾: صفة له. ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾: معطوف على ﴿دَمًا﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إنّ﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿رِجْسٌ﴾: خبرها، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف تقديره: وإنما حرم ذلك المذكور لكونه رجساً ونجساً. ﴿أَوْ فِسْقًا﴾: معطوف على ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾. ﴿أُهِلَّ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أُهِلَّ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿أُهِلَّ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿فِسْقًا﴾ تقديره: أو فسقاً مهلاً به لغير الله.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط

مقدر تقديره: إذا عرفت حرمة هذه المذكورات، وأردت بيان حكم ما إذا اضطر إليها.. فأقول لك، ﴿من اضطر﴾: ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿ٱضْطُرَّ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿غَيْرَ﴾: منصوب على الحالية من ضمير ﴿ٱضْطُرَّ﴾. ﴿بَاغٍ﴾: مضاف إليه مجرور بكسرة مقدرة على الياء المحذوفة. ﴿وَلَا عَادٍ﴾: معطوف على ﴿بَاغٍ﴾ مجرور بكسرة مقدرة، وجواب الشرط محذوف تقديره: فمن اضطر إلى أكل شيء مما ذكر، فأكل منه.. فلا مؤاخذة عليه. ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿رَبَّكَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلة، والتقدير: فلا مؤاخذة عليه؛ لأن ربك غفور له رحيم به.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾: الآتي. ﴿هَادُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿حَرَّمْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ﴾: متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾ الآتي. ﴿حَرَّمْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿حَرَّمْنَا﴾ الأولى. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾. ﴿شُحُومَهُمَآ﴾: مفعول به ومضاف إليه.

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء. ﴿حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: إلا ما حملته ظهورهما. ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾: معطوف على ﴿ظُهُورُهُمَآ﴾: مرفوع على الفاعلية بضمة مقدرة تقديره: أو ما حملته الحوايا. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف بمعنى الواو كسابقتها. ﴿مَا﴾: موصولة، أو

موصوفة في محل النصب على الاستثناء معطوف على ﴿مَا حَمَلَتْ﴾. ﴿ٱخْتَلَطَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿بِعَظْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱخْتَلَطَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة في محل الرفع مبتدأ. ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والعائد محذوف تقديره: جزيناهم به. ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿بغيهم﴾: مجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جزينا﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَإِنَّا﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿نا﴾ اسمها. ﴿لَصَٰدِقُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ على كونها مستأنفة.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا أخبرتهم تحريم ما ذكر، وأردت بيان حكم ما إذا كذبوك.. فأقول لك، ﴿إن كذبوك﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كَذَّبُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿فَقُل﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾. ﴿وَٰسِعَةٍ﴾: صفة لـ﴿رَحْمَةٍ﴾. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُرَدُّ﴾. ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿أَشْرَكُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَوْ شَآءَ﴾ إلى آخره مقول محكي لقالوا، وإن شئت

قلت: ﴿لَوۡ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لَوۡ﴾. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَشۡرَكۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لَوۡ﴾، وجملة ﴿لَوۡ﴾ في محل النصب مقول قالوا. ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿ءَابَآؤُنَا﴾: معطوف على ﴿نا﴾، وجاز العطف لوجود الفصل بـ﴿لا﴾. ﴿وَلَا حَرَّمۡنَا﴾: معطوف على ﴿أَشۡرَكۡنَا﴾. ﴿مِن شَيۡءٖ﴾: ﴿مِن﴾: زائدة في المفعول ﴿شَيۡءٖ﴾؛ أي: ولا حرمنا شيئاً.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، والتقدير: كذب الذين من قبلهم تكذيباً مثل ذلك التكذيب لك في أن الله منع من الشرك، ولم يحرم ما حرموه المدلول عليه بقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ...﴾ الخ، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في تأويل مصدر مجرور بحتى تقديره: إلى ذوقهم بأسنا، الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: واستمروا على التكذيب إلى ذوقهم بأسنا. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هَلۡ عِندَكُم﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلۡ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري. ﴿عِندَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مِّنۡ﴾: زائدة. ﴿عِلۡمٖ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾. ﴿فَتُخۡرِجُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿تخرجوه﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب الاستفهام. ﴿لَنَآ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى تقديره: هل ثبوت علم عندكم فإخراجكم إياه لنا؟. ﴿إِن﴾: نافية. ﴿تَتَّبِعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلظَّنَّ﴾: مفعول به. ﴿وَإِنۡ﴾:

﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: نافية. ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، وجملة ﴿تَخْرُصُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿الفاء﴾: استئنافية أو رابطة لجواب شرط مقدر تقديره: إن لم تكن لكم حجة فلله الحجة، ﴿لله﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلْحُجَّةُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿ٱلْبَٰلِغَةُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْحُجَّةُ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، أو في محل الجزم بإن المقدرة على كونها جواباً لها. ﴿فَلَوْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض، وفاعله يعود على ﴿الله﴾، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: هدايتكم. ﴿لَهَدَىٰكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿هداكم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد لضمير المفعول، والجملة جواب ﴿لو﴾، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة مفرعة على جملة إن المقدرة على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلُمَّ﴾ اسم فعل أمر بمعنى أحضروا مبني على الفتح، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنتم. ﴿شُهَدَآءَكُمُ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب صفة للشهداء، وجملة ﴿يَشْهَدُونَ﴾ صلة الموصول. ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿حَرَّمَ هَٰذَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾،

وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعول شهد تقديره: الذين يشهدون تحريم الله هذا. ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قلت لك، وأردت بيان حكم ما إذا شهدوا.. فأقول لك: ﴿إن شهدوا﴾: ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿شَهِدُواْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَشْهَدْ﴾: مجزوم بـ﴿لا﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تَتَّبِعْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَا تَشْهَدْ﴾ على كونها جواباً لـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَهُم﴾: مبتدأ. ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾. وجملة ﴿يَعْدِلُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على كونها صلة الموصول الثاني.

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿تَعَالَوْاْ﴾ فعل وفاعل مبني على حذف النون، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿أَتْلُ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الواو، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿أَتْلُ﴾. ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط

محذوف تقديره: ما حرمه ربكم. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿حَرَّمَ﴾ لسبقه على مذهب البصريين، أو بـ﴿أَتْلُ﴾ لقربه على مذهب الكوفيين.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾.

﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: مصدرية. ﴿لا﴾: زائدة. ﴿تُشْرِكُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه بدلاً من ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، والتقدير: تعالوا أتل عليكم ما حرمه ربكم وأتل عليكم تحريم إشراككم به شيئاً، ويصح أن تكون ﴿لا﴾: نافية، و﴿أن﴾ مصدرية، وجلمة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية لمبتدأ محذوف تقديره: وذلك المتلو عدم إشراككم بالله شيئاً، ويصح أن تكون ﴿أن﴾ تفسيرية، وجملة: ﴿لا تشركوا﴾ مفسرة لجملة ﴿أتل عليكم﴾، وفي المقام أوجه متلاطمة من الإعراب لا نطيل الكلام بذكرها. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره: وأحسنوا بالوالدين. ﴿إِحْسَـٰنًا﴾: مفعول مطلق لذلك المحذوف، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾، والتقدير: ومن ذلك المتلو أن تحسنوا بالوالدين إحساناً. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾. ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم﴾. ﴿نَّحْنُ﴾: ضمير المتكلم المعظم نفسه في محل الرفع مبتدأ. ﴿نَرْزُقُكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿وَإِيَّاهُمْ﴾: معطوف على الكاف، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين المتعاطفين مسوقة لتعليل النهي قبلها.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على قوله: ﴿أَلَّا

﴿تُشۡرِكُواْ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب بدل من ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ بدل تفصيل من مجمل. ﴿ظَهَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿مِنۡهَا﴾: متعلق بـ﴿ظَهَرَ﴾ وهو الرابط بين البدل والمبدل منه، وجملة ﴿ظَهَرَ﴾ صلة ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿وَمَا بَطَنَۖ﴾: معطوف على ﴿مَا ظَهَرَ﴾. ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ﴾. ﴿ٱلَّتِي﴾ صفة لـ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾. ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: التي حرم الله تعالى قتلها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾: جار ومجرور صفة للمفعول المطلق المحذوف تقديره: لا تقتلوا إلا القتل الملتبس بالحق. ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾: مبتدأ. ﴿وَصَّىٰكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مسوقة لتعليل الوصية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة على ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِٱلَّتِي﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقۡرَبُواْ﴾. ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَبۡلُغَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡيَتِيمِ﴾. ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، الجار والمجرور متعلق بمحذوف معلوم من السياق تقديره: احفظوا ماله إلى بلوغه أشده؛ أي: حتى يصير بالغاً رشيداً فحينئذ سلموه إليه. ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ﴾. ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: جار

ومجرور حال من فاعل ﴿أَوْفُواْ﴾؛ أي وأوفوا الكيل والميزان حالة كونكم مقسطين؛ أي: متلبسين بالقسط والعدل.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿نُكَلِّفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿نَفْسًا﴾: مفعول به، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿وُسْعَهَا﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل. ﴿قُلْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بالجواب. ﴿فَاعْدِلُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة، ﴿اعدلوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾. ﴿وَلَوْ كَانَ﴾: ﴿الواو﴾ اعتراضية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر فيها يعود إلى معلوم من السياق تقديره: ولو كان المقول له أو عليه. ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ منصوب بالألف، وجواب ﴿لو﴾ معلوم مماقبلها تقديره: ولو كان المقول له ذا قربى فاعدلوا، وجملة ﴿لو﴾ معترضة. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَوْفُواْ﴾. ﴿أَوْفُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿وَصَّاكُم بِهِۦ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب ومنصوب، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿وَأَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿هَٰذَا﴾: في محل النصب اسمها. ﴿صِرَٰطِي﴾: خبرها. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾: حال مؤكدة من ﴿صِرَٰطِي﴾، والعامل فيها اسم الاشارة، وجملة ﴿أن﴾: من اسمها وخبرها في تأويل مصدر

مجرور بلام التعليل المقدرة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿اتبعوه﴾؛ أي: واتبعوا هذا المذكور في الآيتين، أو في جميع هذه السورة لكونه صراطي مستقيماً. ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: زائدة. ﴿اتبعوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾. ﴿فَتَفَرَّقَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿تفرق﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، وفاعله ضمير مستتر فيه تقديره: هي يعود على ﴿السُّبُلَ﴾. ﴿بِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تفرق﴾ على كونه مفعولاً به. ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تفرق﴾ أيضاً، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها تقديره: لا يكن منكم تتبع السبل فتفرقها بكم عن سبيله. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب ومنصوب، وجملة ﴿تَتَّقُونَ﴾ خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ اسم من طعم الثلاثي من باب سمع؛ أي: على آكل أي كان من الذكور أو من الإناث، فهذا[1] رد لقولهم: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا...﴾ الخ. وقوله: ﴿يطعمه﴾ من باب فهم، اهـ «مختار».

﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ المسفوح: المصبوب السائل كالدم الذي يجري من المذبوح من سفح يسفح ـ من باب فتح ـ سفحاً وسفوحاً، يقال: سفح الدم أو الدمع سفكه وأراقه وصبه. والسفح[2]: الصب، وقيل: السيلان، وهو قريب من الأول، وسفح يستعمل قاصراً ومتعدياً، يقال: سفح زيد دمعه ودمه؛ أي: أهراقه وسَفَحهُ؛ إلا أن الفرق بينهما وقع باختلاف المصدر، ففي المتعدي يقال: سفح،

---

(١) أبو السعود. (٢) الفتوحات.

وفي اللازم يقال: سفوح، ومن المتعدي قوله تعالى: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ فإن اسم المفعول التام لا يبنى إلا من متعد، ومن اللازم ما أنشده أبو عبيدة لكثير عزة:

أَقُـوْلُ وَدْمـعِـيْ وَاْكِـفٌ عِـنْـدَ رَسْـمِـهَـا   عَـلَـيْـكِ سَـلاَمُ اللهلـلَّـهِ وَٱلـدَّمْـعُ يُـسْـفَـحُ

﴿ٱضۡطُرَّ﴾؛ أي: أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء معه ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ أصله باغي استثقلت الكسرة على الياء، ثم حذفت فالتقى ساكنان، وهما الياء والتنوين، ثم حذفت الياء لبقاء دالها، فصار باغ بوزن قاض، ولم يحذف التنوين لما في حذفه من إجحاف كلمة مستقلة، وكذا يقال في عاد، والمعنى: فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء مما ذكر.. فأكله غير باغ خارج على المسلمين، ولا عاد متعد عليهم بقطع الطريق.

﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾ وفي الظفر لغات خمسُ أعلاها: ظُفُر - بضم الظاء والفاء - وهي قراءة العامة. وظُفْر: - بسكون العين وهي تخفيف لمضمومها -، وبها قرأ الحسن في رواية، وقرأ أبي بن كعب والأعرج: ﴿ظِفِر﴾ - بكسر الظاء والفاء - ونسبها الواحدي لأبي السمال، وقراءة ﴿ظِفْر﴾ - بكسر الظاء وسكون الفاء وهي تخفيف لمكسروها - ونسبها الناس للحسن أيضاً قراءة، واللغة الخامسة أظفور، ولم يقرأ بها فيما علمت، وجمع الثلاثي أظفار، وجمع أظفور أظافير - وهو القياس - وأظافر من غير مد، وليس بقياس، اهـ «سمين».

﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾: إما جمع[1] حاوياء، كقاصعاء وقواصع، أو جمع حاوية، كزاوية وزوايا، أو جمع حوية كهدية وهدايا، ففي مفرده أقوال ثلاثة، وقال الفارسي: يصح أن يكون جمعاً لكل من الثلاثة، فإن كان مفردها حاوية أو حاوياء.. فوزنها فواعل كضوارب كزاوية وزوايا وقاصعاء وقواصع، والأصل حواوي كضوارب، قلبت الواو التي هي عين الكلمة همزة، ثم قلبت الهمزة ياء، فاستثقلت الكسرة على الياء، فقلبت فتحة، فتحرك حرف العلة وهي الياء التي هي لام الكلمة بعد فتحة، فقلبت ألفاً فصارت حوايا ففيه أربعة أعمال، وإن شئت

---

(١) الفتوحات.

قلت: قلبت الواو همزة مفتوحة، فتحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً فصارت همزة مفتوحة بين ألفين يشابهانها، فقلبت الهمزة ياء، ففيه ثلاثة أعمال، واختلف أهل التصريف في ذلك، وإن قلنا: إن مفردها حوية فوزنها فعائل كطرائق، والأصل: حوائي فقلبت الهمزة ياء مكسورة، ثم فتحت تلك الياء، ثم قلبت الياء الثانية التي هي لام الكلمة ألفاً، فصار حوايا، ففيه ثلاثة أعمال، فاللفظ متحد والعمل مختلف. اهـ «سمين».

﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ ﴿هَلُمَّ﴾[1] هنا اسم فعل بمعنى أحضروا، و﴿شهداءكم﴾: مفعول به، فإن اسم الفعل يعمل عمل مسماه من تعد ولزوم. واعلم أن هلم فيها لغتان: لغة الحجازيين ولغة التميميين، فأما لغة الحجاز: فإنها فيها بصيغة واحدة سواء أسندت لمفرد أم مثنى أم مجموع، مذكر أو مؤنث نحو: هلم يا زيد يا زيدان يا زيدون يا هند يا هندان يا هندات، وهي على هذه اللغة عند النحاة اسم فعل لعدم تغيرها، والتزمت العرب على هذه اللغة فتح الميم وهي حركة بناء بنيت على الفتح تخفيفاً. وأما لغة تميم: وقد نسبها الليث إلى بني سعد فتلحقها الضمائر كما تلحق سائر الأفعال، فيقال: هلما هلموا هلمي هلممت. وقال الفراء: يقال: هلمين يا نسوة، وهي على هذه اللغة فعل صريح لا يتصرف هذا قول الجمهور، وقد خالف بعضهم في فعليتها على هذه اللغة وليس بشيء، والتزمت العرب فيها أيضاً على لغة تميم فتح الميم إذا كانت مسندة لضمير الواحد المذكر، ولم يجيزوا فيها ما أجازوه في رد وشد من الضم والكسر اهـ، «سمين».

﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ والإملاق الفقر في قول ابن عباس، وقيل: الجوع بلغة لخم، وقيل: الإسراف، يقال: أملق إذا أسرف في نفسه. قاله محمد بن نعيم اليزيدي، وقيل: الإنفاق، يقال: أملق ماله إذا أنفقه. قال المنذر بن سعيد: والإملاق الإفساد أيضاً. قاله شمر. قال: وأملق يكون قاصراً ومتعدياً، يقال: أملق الرجل

---

(١) الجمل.

إذا افتقر؛ فهذا قاصر، وأملق ما عنده الدهر؛ أي: أفسده، اهـ «سمين».

وفي «المصباح» أملق إملاقاً افتقر واحتاج، وملقت الثوب ملقاً ـ من باب قتل ـ غسلته وملقته ملقاً، وملقت له: توددت له ـ من باب تعب ـ وتملقت له كذلك اهـ.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ هما[1] الآلة التي يكال بها ويوزن وأصل الكيل مصدر، ثم أطلق على الآلة والميزان، في الأصل مفعال من الوزن، ثم نقل لهذه الآلة كالمصباح والمقياس لما يستصبح به ويقاس، وأصل ميزان موازن ففعل به ما فعل بميقات؛ أعني: قلبت الواو ياء لوقوعها إثر كسرة، فصار ميزان.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ والأشد قيل: هم اسم مفرد لفظاً ومعنى، وقيل: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: هو جمع، وعلى هذا فمفرده شدة كنعمة وأنعم. وقيل: شد كفلس وأفلس وكلب وأكلب، أو شد كضر وأضرر، أقول: ثلاثة في مفرده، وأصله من شد النهار إذا ارتفع، وقال سيبويه: واحده شدة، قال الجوهري: وهو حسن في المعنى؛ لأنه يقال: بلغ الكلام شدته، ولكن لا تجمع فعلة على أفعل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المغاير بين ﴿طاعم﴾ و﴿يطعمه﴾، وبين ﴿شُهَدَاءَكُمُ﴾ و﴿يَشْهَدُونَ﴾.

ومنها: القصر في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾؛ لأنه[2] استعار الظفر للحافر على ما قاله القتبي.

---

(١) الجمل. (٢) البحر المحيط.

ومنها: الإضافة لتأكيد التخصيص في قوله تعالى: ﴿شُحُومَهُمَآ﴾ لأنه لو أتى في الكلام ومن البقر والغنم حرمنا عليهم الشحوم لكان كافياً في الدلالة على أنه لا يراد إلا شحوم البقر والغنم، ولكنه أضاف لتأكيد التخصيص.

ومنها: المبالغة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لأنهما من صيغ المبالغة؛ أي: مبالغ في المغفرة والرحمة.

ومنها: التعريض في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ لأنه يتضمن التعريض بكذبهم في قولهم ما حرم الله علينا، وإنما اقتدينا بإسرائيل فيما حرم على نفسه، ويتضمن إدحاض قولهم ورده عليهم.

ومنها: الإتيان في مقول قل، أولاً: بالجملة الاسمية، وثانياً: بالجملة الفعلية، فناسبت الأبلغية في الله تعالى بالرحمة الواسعة، وجاءت الجملة الثانية فعلية ولم تأت اسمية، فيكون التركيب وذو بأس لئلا يتعادل الإخبار عن الوصفين، وباب الرحمة واسع فلا تعادل، ذكره أبو حيان في «البحر».

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ لأن حق العبارة ولا يردُّ بأسه عنكم ويحتمل كون الكلام على عمومه.

ومنها: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾؛ لأن المعنى: فلا تصدقهم، فإن تصديقهم في الشهادة الباطلة بمنزلة الشهادة لذلك الباطل، فأطلق اسم الشهادة على التصديق على سبيل الاستعارة التصريحية، ثم اشتق منه قوله: ﴿فَلَا تَشْهَدْ﴾ فيكون[1] استعارة تبعية، وقيل: هو مجاز مرسل من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم؛ لأن الشهادة من لوازم التسليم، وقيل: هو كناية، وقيل: مشاكلة.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ اعتناء بشأنه؛ لأن الفواحش يندرج فيها قتل النفس، فجرد منها هذا

---

(١) زاده.

استعظاماً له وتهويلاً، ولأنه قد استثنى منه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: ولو لم يذكر هذا الخاص، لم يصح الاستثناء من عموم الفواحش، فلو قيل في غير القرآن: لا تقربوا الفواحش إلا بالحق لم يكن شيئاً.

ومنها: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ لأنه استعار السبل للبدع والضلالات والمذاهب المنحرفة.

ومنها: التنكير في قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ لإفادة العموم والشمول.

ومنها: الإضافة في قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ للتشريف والتعظيم.

ومنها: التكرار في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ تأكيداً لشأن التوصية.

ومنها: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ فشبه الدين القويم بالصراط بمعنى: الطريق بجامع أن كلاً يوصل للمقصود، واستعار اسم المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ فشبه الأديان الباطلة بالطرق المعوجة بجامع أن كلاً يوصل صاحبه إلى المهالك، واستعير اسم المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية، ذكره الصاوي.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن
تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟
لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ
يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ
ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ
ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا
مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا
كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ
وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ
إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ
سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما[1] ذكر الحجج العقلية على أصول هذا الدين، ودحض شبهات المعاندين، وأردف ذلك بذكر الوصايا العشر في الآيات الثلاث التي قبل هذه الآيات.. نبه هنا إلى مكانة القرآن من الهداية، أو إلى وجوب اتباعه وذكر أعذار المشركين بما يعلمون أنها لا تصلح

(١) المراغي.

لهم عذراً عند الله تعالى، وافتتح هذا التنبيه والتذكير بذكر ما يشبه القرآن في التشريع ويسير على نهجه في الهداية، وهو كتاب موسى عليه السلام الذي اشتهر عند مشركي العرب، وعرفوا بالسماع خبره.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بين أنه إنما أنزل الكتاب إزالة للعذر وإزاحة للعلة، وقرن هذا الإعذار بالإنذار الشديد والوعيد بسوء العذاب.. أردف ذلك ببيان أنه لا أمل في إيمانهم البتة، وفصل ما أمامهم وأمام غيرهم من الأمم وما ينتظرونه في مستقبل أمرهم، وأنه غير ما يتمنون من موت الرسل وانطفاء نور الإسلام بموته صلوات الله وسلامه عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما وصى[2] هذه الأمة على لسان رسوله باتباع صراطه المستقيم، ونهى عن اتباع غيره من السبل، ثم ذكر شريعة التوراة المشابهة لشريعة القرآن ووصاياه، ثم تلا ذلك تذكيره لهم ولسائر المخاطبين بالقرآن بما ينتظر آخر الزمان من الحوادث الكونية للأفراد والأمم.. أردف ذلك بتذكير هذه الأمة بما هي عرضة له بحسب سنن الاجتماع من إضاعة الدين بعد الاهتداء بالتفرق فيه بالمذاهب والآراء والبدع التي تجعلها أحزاباً وشيعاً تتعصب كل منها لمذهب أو إمام، فيضيع الحق وتنفصم عرى الوحدة، وتصبح بعد أخوة الإيمان أمماً متعادية كما حدث لمن قبلهم من الأمم.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين في السورة أصول الإيمان وأقام عليها البراهين، وفند ما يورده الكفار من الشبهات، ثم ذكر في الوصايا العشر أصول الفضائل والآداب التي يأمر بها الإسلام وما يقابلها من الرذائل والفواحش التي ينهى عنها.. بين هنا الجزاء العام في الآخرة على الحسنات؛ وهي الإيمان

---

(١) المراغي.   (٢) المراغي.

والأعمال الصالحة، وعلى السيئات؛ وهي الكفر والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ...﴾ الآيات إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لآخر السورة: لما[1] كانت هذه السورة أجمع السور لأصول الدين، مع إقامة الحجج عليها ودفع الشبه عنها، وإبطال عقائد أهل الشرك وخرافاتهم.. جاءت هذه الخاتمة آمرة له ﷺ بأن يقول لهم قولاً جامعاً لجملة ما فصل، وهو أن الدين القيم والصراط المستقيم هو ملة إبراهيم دون ما يدعيه المشركون وأهل الكتاب المحرفون، وأنه ﷺ مستمسك به معتصم بحبله يدعو إليه قولاً وعملاً على أكمل الوجوه، وهو أول المخلصين وأخشع الخاشعين، وهو الذي أكمل هذا الدين بعد انحراف جميع الأمم عن صراطه. ثم بين أن الجزاء عند الله على الأعمال، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن المرجع إليه تعالى وحده، وأن له سنناً في استخلاف الأمم واختبارها بالنعم والنقم، وأن الله وحده هو الذي يتولى عقاب المسيئين ورحمة المحسنين.

التفسير وأوجه القراءة

و ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ للترتيب الذكري؛ أي: للترتيب في الذكر والإخبار، لا في الزمان؛ لأن إيتاء موسى الكتاب كان قبل نزول القرآن، والمعنى: ثم بعد ما أخبرتكم الوصايا المتقدمة.. أخبركم بأنا أعطينا موسى التوراة، أو يقال: إن ﴿ثُمَّ﴾ هنا بمعنى الواو الاستئنافية؛ أي: وأعطينا موسى التوراة ﴿تماماً﴾؛ أي: لأجل إتمام نعمتنا وكرامتنا ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ وآمن بها من بني إسرائيل وأحسن العمل بأحكامها، يدل على هذا المعنى قراءة عبد الله: ﴿على الذين أحسنوا﴾. وقرأ يحيى بن يعمر بالرفع، وخرج على حذف المبتدأ؛ أي: على الذي هو أحسن ديناً، كقراءة من قرأ ﴿مثلاً ما بعوضةٌ﴾ - بالرفع - ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ وبياناً لهم لكل شيء يحتاج إليه في الدين، فيدخل في

---

(١) المراغي.

ذلك بيان نبوة سيدنا محمد ﷺ ودينه ﴿وَهُدًى﴾؛ أي: وهداية لهم من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ أي: أماناً لهم من العذاب بإنزالها لمن آمن بها ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: آتيناه الكتاب جامعاً لكل ما ذكر من الصفات لكي يؤمنون ويصدقون بلقاء ربهم بالبعث من القبور، ويفوزون بالإيمان بها السعادة الأبدية في دار الكرامة السرمدية التي أعدها الله سبحانه وتعالى لمن آمن بوحيه وتمسك بشريعته.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى لما أخبر عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾. أردف بمدح التوراة كما جاء مثل هذا في قوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ثم قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ الآية.

وقد تكرر في الكتاب الكريم قرنه بالتوراة؛ لما بينهما من التشابه، فكل منهما شريعة كاملة؛ والإنجيل والزبور ليسا كذلك، فإن أكثر الإنجيل عظات وأمثال، وأكثر الزبور ثناء ومناجاة، إلى أن العرب كانوا يعلمون أن اليهود لهم كتاب يسمى التوراة، ولهم رسول يسمى موسى، وأنهم أهل علم، وكان يتمنى كثير من عقلائهم لو أتيح لهم كتاب كما أوتي اليهود التوراة، وأنه لو جاءهم كتاب لكانوا أهدى منهم وأعظم انتفاعاً به، لما يمتازون به من الذكاء وحصافة العقل ورجاحة الرأي.

وهذه الوصايا العشر التي في الآيات الثلاث، والتي لها نظير في سورة الإسراء كانت أول ما نزل بمكة قبل تفصيل أحكام العبادات والمعاملات في السور المدنية، وكذلك كانت أول ما نزل على موسى من أصول دينه، لكن وصايا القرآن أجمع للمعاني، فهي تبلغ العشرات إذا فصلت.

وهذه الوصايا وما أشبهها هي أصول الأديان على ألسنة الرسل يرشد إلى ذلك قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ وليس هذا الدين المشترك الذي أوصى به هؤلاء الرسل الكرام إلا التوحيد ومكارم الأخلاق، والتباعد عن الفواحش والمنكرات.

وقد يكون معنى الآية[1]: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء الناس: تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ووصاكم به، وهو كذا وكذا، ثم قل لهم وأعلمهم أننا آتينا موسى الكتاب إلى آخره ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾؛ أي: آتيناه الكتاب تماماً للنعمة والكرامة على من أحسن في اتباعه واهتدى به كما جاء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أو المعنى: آتيناه الكتاب تماماً كاملاً جامعاً لما يحتاج إليه من الشرائع كقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: مفصلاً لكل شيء من أحكام الشريعة عباداتها ومعاملاتها، مدنية أو حربية أو جنائية، وهذا كقوله في صفة القرآن: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ أي: ودليلاً من دلائل الهداية إلى الحق، وسبباً من أسباب الرحمة لمن اهتدى به، فينجيه الله من الضلال وعمى الحيرة ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: آتيناه الكتاب جامعاً لكل ما ذكر؛ ليجعل قومه محل رجاء للإيمان بالله تعالى، وموضع الفوز في دار الكرامة تلك الدار التي أعدها الله لمن اهتدى بوحيه.

وبعد أن وصف التوراة بتلك الصفات وصف القرآن الكريم، فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم شأنه ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمد ﷺ بواسطة الروح الأمين، كما أنزلنا الكتاب على موسى ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ أي: كثير الخير ديناً ودنيا جامع لأسباب الهداية الدائمة، وجاء بأكثر مما في كتاب موسى من تفصيل لهدى البشر في معاشهم ومعادهم ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ أي: فاتبعوا يا أهل مكة ما هداكم إليه ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ ما نهاكم عنه وحذركموه ﴿لَعَلَّكُمْ

---

(١) المراغي.

﴿تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لتكون رحمته مرجوة لكم في الدنيا والآخرة إن قبلتموه ولم تخالفوه. والمعنى[1]: هذا القرآن العظيم كتاب أنزلناه من اللوح المحفوظ ليلة القدر إلى سماء الدنيا في بيت العزة، ثم نزل مفرقاً على حسب الوقائع مبارك كثير الخير والمنافع في الدنيا بالشفاء به، والأمن من الخسف والمسخ والضلال، وفي الآخرة بتلقي السؤال عن صاحبه وشهادته له وكونه ظُلَّة على رأسه في حر الموقف والرقي إلى الدرجات العلا.

وقال التبريزي[2]: في الكلام إشارة، وهو وصف الله التوراة بالتمام، والتمام يؤذن بالانصرام، قال الشاعر:

إذَا تَــمَّ أَمْــرٌ بَــدَا نَــقْــصُــهُ ... تَــوَقَّــعْ زَوَالاً إذَا قِــيْــلَ تَــمّ

فنسخها الله بالقرآن ودينها بالإسلام، ووصف القرآن بأنه مبارك في مواضع كثيرة، والمبارك هو الثابت الدائم في ازدياد، وذلك مشعر ببقائه ودوامه.

وقوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ علة لمعلول محذوف تقديره: وأنزلنا إليكم يا أهل مكة هذا القرآن المرشد إلى توحيد الله وطريق طاعته وتزكية النفوس من أدران الشرك بلغتكم كراهية ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ يوم الحساب والجزاء معتذرين عن شرككم وإجرامكم ما جاءنا كتاب نفهمه بلغتنا ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾؛ أي: فريقين ﴿مِن قَبْلِنَا﴾ وهما اليهود والنصارى ﴿وَإِن كُنَّا﴾؛ أي: وقد كنا، وقيل: وإنه كنا ﴿عَن﴾ معرفة ما في كتبهم وفهم ﴿دِرَاسَتِهِمْ﴾ وقراءتهم للكتاب الذي أنزل عليهم ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾؛ أي: لجاهلين لا ندري ولا نعلم ما هي؛ لعدم فهمنا ما يقولون، لأنها بلغة غير لغتنا، ولأنهم أهله دوننا، ولأنا لم نؤمر بما فيه، ولغلبة الأمية علينا.

والمراد بهذه الآية: إثبات الحجة على أهل مكة وقطع عذرهم بإنزال القرآن بلغتهم على سيدنا محمد ﷺ كي لا يقولوا يوم القيامة: إن التوراة والإنجيل أنزلا

---

(١) الصاوي.
(٢) البحر المحيط.

على اليهود والنصارى، ولا نعلم ما فيهما، فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن عليهم بلغتهم.

والمعنى[1]: وأنزلنا هذا القرآن بلغتكم يا أهل مكة كراهية أن تقولوا يوم القيامة: إن التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا بلغتهما، فلم نفهم ما فيهما، فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن عليهم بلغتهم كي لا يعتذروا عند المجازاة على شركهم وكفرهم بمحمد ﷺ. وقرأ ابن محيصن[2]: ﴿أن يقولوا﴾ - بياء الغيبة - يعني: كفار قريش.

﴿أَوْ﴾ كراهية أن ﴿تَقُولُواْ﴾ يوم القيامة ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: لو أننا أنزل علينا الكتاب بلغتنا كما أنزل على اليهود والنصارى بلغتهم العبرانية أو السريانية، فأمرنا بما فيه ونهينا عما نهى عنه، وبين لنا خطأ ما نحن فيه ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾؛ أي: أصوب ديناً من اليهود والنصارى، وأطوع للحق الذي هو المقصد الأقصى والطريق المستقيم، وأسرع إجابة لأمر الرسول لجودة أذهاننا ومزيد ذكائنا، لأنا أذكى منهم أفئدة وأمضى عزيمة.

وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم مثل هذا في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛ أي: من إحدى الأمم المجاورة لهم من أهل الكتاب.

فرد الله تعالى عليهم بجواب قاطع لكل تعلّة، دافع لكل اعتذار، فقال: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ يا أهل مكة من الله سبحانه وتعالى على لسان محمد ﷺ: ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: قرآن عظيم فيه بيان للحلال من الحرام ﴿وهدى﴾ لما في القلوب من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾؛ أي: نعمة من الله لعباده الذي يتبعونه ويقتفون ما فيه؛ أي: لا تعتذروا بذلك، فقد جاءكم من ربكم كتاب مبين للحق بالحجج والبراهين في العقائد والفضائل والآداب وأمهات الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشؤون الاجتماع، وهو هاد لمن تدبره وتلاه حق تلاوته إذ يجذب

---

(١) عمدة التفاسير للشارح.
(٢) البحر المحيط.

ببلاغته وبيانه قلوب الناظرين فيه إلى الحق الذي فصله أتم تفصيل، وإلى عمل الخير والصلاح الذي بين فوائده ومنافعه؛ وهو رحمة عامة لمن يستضيؤون بنوره وتنفذ فيهم شريعته؛ إذ هم يكونون في ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، أحراراً في عقائدهم وعباداتهم، يعيشون في بيئة خالية من الفواحش والمنكرات، وبعد أن بين عظم قدر هذا الكتاب.. بين سوء عاقبة من كذب به، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ والفاء فيه فاء الفصحية؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا كانت هذه الآيات مشتملة على الهداية الكاملة والرحمة الشاملة.. فأقول لك: لا أظلم، والاستفهام فيه إنكاري؛ أي: فلا أحد أشد ظلماً ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآنية ولم يؤمن بها ﴿وَصَدَفَ﴾؛ أي: أعرض بنفسه ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن تلك الآيات؛ أي: عن العمل بما فيها من الأوامر والنواهي.

وقيل المعنى: كذب بآيات الله وصدف عنها؛ أي: صرف الناس ومنعهم عن الإيمان بها، فجمع بين الضلال بالتكذيب، والإضلال بصرف الناس عنها كما كان يفعل كبراء مجرمي قريش بمكة، فقد كانوا يصدفون العرب ويمنعونهم عن النبي ﷺ، ويحولون بينه وبينهم لئلا يسمعوا منه القرآن، فينجذبوا إلى الإيمان، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾. وقرأ ابن وثاب وابن أبي عبلة: ﴿ممن كذَب﴾ بتخفيف الذال. ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ﴾؛ أي: سنعاقب الذين ﴿يَصْدِفُونَ﴾ ويعرضون ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ الواضحة وحججنا الساطعة ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: شديد العذاب ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾؛ أي: بسبب إعراضهم عن آياتنا وتكذيبهم لرسلنا، والإضافة في سوء العذاب من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: العذاب السيء أو المعنى[1]: سنجزي الذين يصدفون الناس عن آياتنا ويردونهم عن الاهتداء بها سوء العذاب بسبب ما كانوا يتجرؤون عليه من الصدف عنها؛ إذ هم بذلك يحملون أوزارهم وأوزار من صدفوهم عن الحق، وحالوا بينهم وبين الهداية. وقرأت فرقة: ﴿يصدُفون﴾: بضم الدال.

---

(١) المراغي.

ونحو الآية قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾؛ أي: زدناهم عذاباً شديداً بصدهم الناس عن سبيل الله، فوق العذاب على كفرهم بسبب إفسادهم في الأرض بهذا الصد عن الحق.

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ إنكاري بمعنى النفي؛ أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون من أهل مكة وغيرهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: ملائكة الموت الذين يقبضون أرواحهم من عزرائيل وأعوانه، أو ملائكة العذاب. وقرأ الكسائي وحمزة: ﴿إلا أن يأتيهم﴾ - بالياء - ﴿أَوْ﴾ إلا أن ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يا محمد يوم القيامة للحكم[1] وفصل القضاء بين الخلائق إتياناً يليق به لا نكيفه ولا نمثله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ كما جاء في آية أخرى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾. وقيل المراد بإتيان الله إتيان ما وعد به من النصر لأوليائه، وأوعد به أعداءه من العذاب في الدنيا كما جاء في قوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾. وقيل أو يأتي أمر ربك بإهلاك ﴿أَوْ﴾ إلا أن ﴿يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾؛ أي: بعض علامات ربك الدالة على قرب الساعة، وهي عشرة[2]، وهي العلامات الكبرى، وهي الدجال، والدابة، وخسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، والدخان، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، ونار تخرج من عدن تسوق الناس إلى المحشر. وتقدير الآية[3]: أنهم لا يؤمنون بك يا محمد إلا إذا جاءتهم إحدى هذه الأمور الثلاثة، فإذا جاءتهم إحداها آمنوا، وذلك حين لا ينفعهم إيمانهم.

والخلاصة[4]: أنهم لا ينتظرون إلا أحد أمور ثلاثة: مجيء الملائكة، أو مجيء ربك بحسب ما اقترحوا بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ وقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾، أو مجيء بعض آيات ربك غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ ونحو ذلك من

---

(١) عمدة التفاسير.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

الآيات العظام التي علقوا بها إيمانهم. وفي الآية إيماء إلى تماديهم في تكذيب آيات الله وعدم اعتدادهم بها، وأنه لا أمل في إيمانهم البتة.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الموجبة للإيمان الاضطراري من الآيات التي اقترحوها، أو ما هو أعم من ذلك، فيدخل فيه ما ينتظرونه، وقيل: هي الآيات العظام التي تدل على قرب الساعة كطلوع الشمس من مغربها قبيل تلك القارعة التي ترج الأرض رجاً، وتبس الجبال بساً، ويبطل هذ النظام الشمسي بحدوث حادث تتحول فيه حركة الأرض اليومية، فيكون الشرق غرباً والغرب شرقاً كما في حديث «الصحيحين». والظرف متعلق بقوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا﴾؛ أي: نفساً كافرة، أو مؤمنة عاصية ﴿إِيمَٰنُهَا﴾ وقتئذ ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل ذلك ﴿أَوْ﴾ نفساً لم تكن ﴿كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾؛ أي: عملاً صالحاً من قبل ظهور تلك الآيات؛ أي: لا ينفع نفساً لم تكن آمنت من قبل أن تؤمن حينئذ، ولا ينفع نفساً لم تكن كسبت في إيمانها خيراً وعملاً صالحاً أن تفعل ذلك بعد مجيء تلك الآيات لبطلان التكليف الذي يترتب عليه ثواب الأعمال.

قال ابن كثير: إذا[1] أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك.. فإن كان مصلحاً في عمله؛ فهو بخير عظيم، وإن لم يكن مصلحاً، فأحدث توبة حينئذ.. لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الأحاديث. وقرأ ابن عمر وابن الزبير وابن سيرين وأبو العالية[2]: ﴿يوم تأتي﴾ - بالفوقية - مثل: ﴿تلتقطه بعض السيارة﴾ قال المبرد التأنيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل، ومنه قول جرير:

لَـمَّـا أَتَـىٰ خَـبَـرُ ٱلـزُّبَـيْـرِ تَـوَاضَـعَـتْ   سُـوْرُ ٱلْـمَـدِيْـنَـةِ وَٱلْـجِـبَـالُ ٱلْـخُـشَّـعُ

وقرأ ابن سيرين: ﴿لا تنفع نفساً﴾ - بالفوقية -. قال أبو حاتم: ذكروا أنها غلط منه، وقال الزمخشري: أنث الفعل؛ لكون الإيمان مضافاً إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه. وقرأ زهير القروي: ﴿يومُ يأتي﴾ - بالرفع - والخبر ﴿لا ينفع﴾

---

(١) ابن كثير.   (٢) البحر المحيط والشوكاني.

والعائد محذوف؛ أي: فيه. ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أيها المعاندون ما تتوقعون إتيانه ووقوعه بنا من اختفاء أمر الإسلام، أو انتظروا ما وعدتم به من مجيء إحدى هذه الآيات ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ معكم وعد ربنا لنا ووعيده لكم، أو منتظرون ما أوعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة، وقيل المعنى: قل لهم يا محمد انتظروا هلاكي إنا منتظرون هلاككم، ونحو الآية قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وقـــال ابن كثير: هذا تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سوف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك، وهو كقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

فصل في ذكر الأحاديث المناسبة للآية

قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ قال جمهور المفسرين[(١)]: هو طلوع الشمس من مغربها، ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض». أخرجه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدْري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ قال: «طلوع الشمس من مغربها». أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها.. تاب الله عليه». أخرجه مسلم.

وعن صفوان بن غسان المرادي قال: قال رسول الله ﷺ: «باب من قِبَل المغرب، مسيرة عرضه - أو قال: يسير الراكب في عرضه - أربعين أو سبعين سنة، خلقه الله تعالىٰ يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً للتوبة، لا يُغلق حتىٰ

---

(١) الخازن.

تطلع الشمس منه». أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها» وفي رواية: «فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً» متفق عليه.

وعن حذيفة بن أسد الغفاري رضي الله عنه قال: اطلع رسول الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذكرون» قلنا: الساعة، فقال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات»، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، وثلاث خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم». أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال قبل ست: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، وخويصة أحدكم، وأمر العامة». أخرجه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحىً، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً». أخرجه مسلم.

وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال: تصبحون والشمس والقمر من ههنا من قبل المغرب كالبعيرين القرينين، زاد في رواية عنه: فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً، وبسنده عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إنها تذهب إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي من حيث جئت، فتصبح طالعة من مطلعها لا ينكر الناس منها شيئاً حتى

تنتهي، فتخر ساجدة في مستقرها تحت العرش، فيقال لها: اطلعي من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها». قال رسول الله ﷺ: «أتدرون أي يوم ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً».

وبسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت رديف رسول الله ﷺ ذات يوم على حمار، فنظر إلى الشمس حيث غربت فقال: «إنها تغرب في عين حمئة، تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش حتى يأذن لها، فإذا أراد أن يطلعها من مغربها.. حبسها، فتقول: يا رب إن مسيري بعيد، فيقول لها: اطلعي من حيث غربت، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل».

وروي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ عشية من العشيات، فقال لهم: «عباد الله توبوا إلى الله قبل أن يأتيكم بعذاب، فإنكم توشكون أن تروا الشمس من قبل المغرب، فإذا فعلت حبست التوبة وطوي العمل»، فقال الناس: هل لذلك من آية يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن آية تلك الليلة أن تطول كقدر ثلاث ليال، فيستيقظ الذين يخشون ربهم، فيصلون له، ثم يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقض، ثم يأتون مضاجعهم فينامون، حتى إذا استيقظوا والليل مكانه، فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم، فإذا أصبحوا فطال عليهم.. رأت أعينهم طلوع الشمس، فبينما هم ينتظرونها إذ طلعت عليهم من قبل المغرب، فإذا فعلت ذلك لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا ينفع مشركاً إيمانه عند الآيات، وينفع أهل الإيمان عند الآيات إن كانوا اكتسبوا خيراً قبل ذلك.

وقال ابن الجوزي: قيل: إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها: أن الملاحدة والمنجمين زعموا أن ذلك لا يكون، فيريهم الله تعالى قدرته، فيطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق، فيتحقق عجزهم. وقيل: بل ذلك بعض الآيات الثلاث: الدابة، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها.

يروى عن ابن مسعود أنه قال: التوبة معروضة على ابن آدم، إن شاء قبلها ما لم تخرج إحدى ثلاث: الدابة، أو طلوع الشمس من مغربها، أو يأجوج ومأجوج.

ويروى عن عائشة قالت: إذا خرج أول الآيات.. طرحت التوبة، وحبست الحفظة، وشهدت الأجساد على الأعمال.

ويروى عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ قال: هي مجموع الآيات الثلاث: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض. وأصح الأقوال في ذلك ما تظاهرت عليه الأحاديث الصحيحة، وثبت عن النبي ﷺ أنه طلوع الشمس من مغربها.

قال الضحاك[١]: من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه.. قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل من قبل ذلك، فأما من آمن من شرك، أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية.. فلا يقبل منه؛ لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذاباً على أمة.. فآمنوا وصدقوا، فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك؛ لمعاينتهم الأهوال والشدائد التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة.

وفي كتاب «الإشاعة في أشراط الساعة» ما نصه[٢]: ومن الأشراط العظام طلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض، وهذان أيهما سبق الآخر.. فالآخر على أثره، فإن طلعت الشمس قبل.. خرجت الدابة ضحى يومها أو قريباً من ذلك. وإن خرجت الدابة قبل طلعت الشمس من الغد.

وروى أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صبيحة تطلع الشمس من مغربها يصير في هذه الأمة قردة وخنازير، وتطوى الدواوين، وتجف الأقلام، لا يزاد في حسنة، ولا ينقص من سيئة، ولا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً».

---

(١) الخازن.
(٢) الفتوحات.

وروى ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا تزال الشمس تجري من مطلعها إلى مغربها حتى يأتي الوقت الذي جعله الله تعالى غاية لتوبة عباده فتستأذن الشمس من أين تطلع، ويستأذن القمر من حيث يطلع، فلا يؤذن لهما، فيحسبان مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر، فلا يعرف مقدار حبسهما إلا قليل من الناس، وهم أهل الأوراد وحملة القرآن، فينادي بعضهم بعضاً، فيجتمعون في مساجدهم بالتضرع والبكاء والصراخ بقية تلك الليلة، ثم يرسل الله جبرائيل إلى الشمس والقمر، فيقول: إن الرب تعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما، فتطلعا منه لا ضوء لكما عندنا ولا نور، فتبكي الشمس وكذا القمر من خوف يوم القيامة وخوف الموت، فترجع الشمس والقمر، فيطلعان من مغربهما، فبينما الناس كذلك يتضرعون إلى الله عز وجل، والغافلون في غفلاتهم إذ نادى مناد: ألا إن باب التوبة قد أغلق، والشمس والقمر قد طلعا من مغاربهما، فينظر الناس إليهما، وإذا هما أسودان كالعكمين لا ضوء لهما ولا نور، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾. والعكم ـ بالكسر ـ الغرارة؛ أي: كالغرارتين العظيمتين، ومنه يقال لمن يشد الغرائر على الجمل: العكام، فيرتفعان مثل البعيرين المقرنين ينازع كل منهما صاحبه استباقاً، ويتصايح أهل الدنيا، وتذهل الأمهات عن أولادها، وتضع كل ذات حمل حملها؛ فأما الصالحون والأبرار فإنهم ينفعهم بكاؤهم يومئذ، ويكتب لهم عبادة، وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم بكاؤهم يومئذ، ويكتب عليهم حسرة، فإذا بلغت الشمس والقمر وسط السماء جاءهما جبريل، فأخذ بقرونهما، فردهما إلى المغرب، فيغربهما في باب التوبة، ثم يرد المصراعين، فيلتئم ما بينهما ويصيران كأنهما لم يكن صدع قط ولا خلل، فإذا أغلق باب التوبة.. لم يقبل لعبد بعد ذلك توبة ولم تنفعه حسنة يعملها بعد ذلك إلا ما كان قبل ذلك يحب أن يفعله قبل ذلك، فإنه يجري لهم وعليهم بعد ذلك ما كان يجري لهم قبل ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا...﴾ الآية.

قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ: وما باب التوبة يا رسول الله؟ فقال: «يا عمر، خلق الله باباً للتوبة جهة المغرب، فهو من أبواب الجنة، مصراعان من

ذهب مكللان بالدر والجواهر، ما بين المصراع إلى المصراع مسيرة أربعين عاماً للراكب المسرع، فذلك الباب مفتوح منذ خلقه الله تعالى إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغاربهما، ولم يتب عبد من عباد الله توبةً نصوحاً من لدن آدم إلى ذلك اليوم إلا ولجت تلك التوبة في ذلك الباب».

قال أبي بن كعب رضي الله عنه يا رسول الله، فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك، وكيف بالناس والدنيا؟ فقال: «لا يا أبي، إن الشمس والقمر يكسيان بعد ذلك ضوء النار، ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كانا قبل ذلك، وأما الناس بعد ذلك فيلحون على الدنيا ويعمرونها، ويجرون فيها الأنهار، ويغرسون فيها الأشجار، ويبنون فيها البنيان، ثم تمكث الدنيا بعد طلوع الشمس من مغربها مئة وعشرين سنة، السنة منها بقدر شهر، والشهر بقدر جمعة، والجمعة بقدر يوم، واليوم بقدر ساعة».

وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لا تقوم الساعة حتى تعبد العرب ما كان يعبد آباؤها عشرين ومئة عام بعد نزول عيسى ابن مريم وبعد الدجال اهـ.

ويستمتع المؤمنون بعد ذلك أربعين سنة لا يتمنون شيئاً إلا أعطوه حتى تتم أربعون سنة بعد الدابة، ثم يعود الموت فيهم، ويسرع فلا يبقى مؤمن، ويبقى الكفار يتهارجون في الطرق كالبهائم حتى ينكح الرجل المرأة في وسط الطريق يقوم واحد عنها وينزل واحد، وأفضلهم من يقول: لو تنحيت عن الطريق.. لكان أحسن، فيكونون على مثل ذلك حتى لا يولد لأحد من نكاح، ثم يعقم الله النساء ثلاثين سنة، ويكون كلهم أولاد زنا، شرار الخلق عليهم تقوم الساعة.

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: إذا طلعت الشمس من مغربها.. خر إبليس ساجداً ينادي ويجهر: إلهي مرني أسجد لمن شئت، فتجتمع إليه زبانيته، فيقولون: يا سيدنا ما هذا التضرع!؟ فيقول: إنما سألت ربي أن ينظرني إلى الوقت المعلوم، وهذا هو الوقت المعلوم انتهى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾؛ أي: إن الذين فرقوا وبددوا وشتتوا دينهم بأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

قال ابن عباس(١): هم اليهود والنصارى فرقوا دين إبراهيم الحنيف إذ تفرقوا فرقاً، وكفر بعضهم بعضاً، وأخذوا بعضاً وتركوا بعضاً كما أخبر بذلك الكتاب الكريم بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

وقال الحسن: هم جميع المشركين؛ لأن بعضهم عبدوا الأصنام وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا: إنهم بنات الله، وبعضهم عبدوا الكواكب، فكان هذا تفريق دينهم اهـ.

وقال أبو هريرة في هذه الآية: هم أهل الضلالة من هذه الأمة، وروي ذلك مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء، وليسوا منك؛ هم أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة» أسنده الطبري.

ولا مانع من الجمع بين الآراء(٢)، فإنه تعالى ذكر أهل الكتاب وشرعهم، وأمر من استجاب لدعوة الإسلام بالوحدة وعدم التفرق كما تفرق من قبلهم، كما جاء في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ ثم بين أن رسوله بريء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، كما فعل أهل الكتاب، فهو يحذر من صنيعهم، وينهى عن سلوك طريقهم، فمن اتبع سنتهم في هذا التفريق.. فالرسول بريء منه كما هو بريئ من أولئك المفرقين من سالفي الأمم، فعلى(٣) هذا يكون المراد من هذه الآية: الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة، وأن لا يتفرقوا في الدين، ولا يبتدعوا البدع المضلة. وفي حديث رواه أبو داود والترمذي: «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

---

(١) ابن كثير.

(٢) المراغي.

(٣) الفتوحات.

وقرأ حمزة والكسائي[1]: ﴿فارقوا دينهم﴾ هنا وفي الروم بألف وهي قراءة علي بن أبي طالب؛ أي: تركوا دينهم وخرجوا عنه. وقرأ باقي السبعة: ﴿فَرَّقُواْ﴾ بالتشديد. وقرأ إبراهيم النخعي والأعمش وأبو صالح: ﴿فرقوا﴾ بتخفيف الراء.

﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾؛ أي: أحزاباً وفرقاً مختلفة في الضلالة، كل فرقة تشيع وتتبع إماماً لها ﴿لَّسْتَ﴾ يا محمد ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من تفرقهم، أو من السؤال عن سبب تفرقهم، والبحث عن موجب تحزبهم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من الأشياء، فلا يلزمك من ذلك شيء ولا تخاطب به، إنما عليك البلاغ وهو مثل قوله ﷺ: «من غشنا فليس منا»؛ أي: نحن براء منه؛ أي: أنت بريء منهم وهم بريئون منك، وهذا على أن المراد من الآية: أهل الأهواء والبدع من هذه الأمة. وأما على القول بأن المراد من الآية: اليهود والنصارى والكفار، فمعناه لست من قتالهم في شيء، ولست مأموراً بقتالهم، فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية السيف.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ﴾؛ أي: جزاؤهم وعقابهم مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: أنه تعالى هو الذي يجازيهم على مفارقة دينهم، والتفريق له بما اقتضت به سنة الله تعالى من ضعف المتفرقين، وفشل المتنازعين، وتسليط الأقوياء عليهم، وإذاقة بعضهم بأس بعض، كما بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُواْ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن يعذبهم بأيديهم وأيدي أعدائهم في الدنيا يبعثهم يوم القيامة ف﴿يُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم عند الحساب ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا من الاختلاف والتفرق اتباعاً للأهواء، ثم يجازيهم على ذلك أشد الجزاء في النار وبئس القرار.

والخلاصة[2]: أن المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً؛ هم أهل الكتاب، والمقصود من براءة الرسول منهم تحذير أمته من مثل فعلهم؛ ليعلم أن من فعل فعلهم وحذا حذوهم من هذه الأمة.. فالرسول منه بريئ؛ إذ ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الكفار وأفعالهم ليس خاصاً بهم، بل إذا اتصف

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

المسلمون بمثل ما اتصفوا به.. كان حكمهم كحكمهم؛ لأن الله لا يبيح للمسلمين البدع والضلالات، والتفرق في الدين؛ لأنهم مسلمون، فإن ذلك يكون هدماً لأسس الدين، وخروجاً من سنن المهتدين.

ولدى التحقيق والبحث نجد أن أسباب التفرق في هذه الأمة في دينها وتبعة ضعفها في دنياها ترجع إلى أمور:

منها: التنازع على الملك، وقد حدث هذا من بدء الإسلام واستمر حتى وقتنا هذا.

ومنها: العصبية الجنسية والتعزة القومية في كل شعب وقبيل؛ إذ شمخ كل شعب بأنفه، وأبى أن يخضع لغيره اعتقاداً منه أنه أرقى الشعوب أرومة وأرفعها محتداً، فأنى له أن ينقاد لسواه.

ومنها: عصبية المذاهب والآراء في أصول الدين وفروعه، فأرباب المذاهب من الشيعة ذموا بقية المذاهب الأخرى كالحنفية والشافعية، ورجال الحديث تكلموا في أهل القياس.

ومنها: القول في الدين بالرأي، فإن كثيراً ممن يركن إليهم في الفتيا واستنباط الأحكام الدينية ضعيف عن حمل السنة، والتفقه في فهم الكتاب، فإذا عرضت له حادثة، ولم يفطن إلى مأخذها من الكتاب أو السنة.. أفتى فيها بالرأي، وقد يكون مصادماً للدليل النقلي، أو لفتاوى الصحابة والتابعين إلى أن آراء الناس تختلف باختلاف الزمان والمكان وشؤون المعيشة وأحوال الاجتماع، فأنى تتفق الألوف الكثيرة من الشعوب المختلفة في الأزمنة المتعاقبة.

ومنها: دسائس أعداء هذا الدين وكيدهم له، ووضع كثير من الأحاديث التي نفقت لدى بعض رجال الدين، واتخذوها مرجعاً في استنباط بعض الأحكام، والدين منها براء.

وعن معاوية رضي الله عنه قال[1]: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «ألا إن

---

(١) الخازن.

من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة» زاد في رواية: «وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخلته». أخرجه أبو داود.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة»، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي». أخرجه الترمذي.

قال الخطابي: في هذا الحديث دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة عن الملة والدين؛ إذ جعلهم من أمته.

﴿مَن جَآءَ﴾ ربه يوم القيامة ﴿بِـ﴾ الخصلة ﴿الحسنة﴾ والأعمال الصالحة من خصال الطاعات التي فعلها، وقلبه مطمئن بالإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾؛ أي: فلذلك العامل عنده تعالى ﴿عَشْرُ﴾ حسنات ﴿أَمْثَالِهَا﴾؛ أي: جوزي عليها بعشر حسنات أمثالها فضلاً من الله سبحانه وتعالى وكرماً منه، وهذا استئناف لبيان قدر جزاء العاملين، والتقييد بالعشرة؛ لأنه أقل مراتب التضعيف، وإلا فقد جاء الوعد به إلى سبعين، وإلى سبع مئة، وإلى أنه بغير حساب، إذ قد وعد بالمضاعفة دون قيد في قوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ ووعد بمضاعفة كثيرة في قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ووعد بالمضاعفة إلى سبع مئة ضعف في قوله: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

وفي هذا إشارة إلى تفاوت المنفقين وغيرهم من المحسنين في الصفات النفسية كالإخلاص في النية، والاحتساب عند الله، والإخفاء ستراً على المعطي، وتباعداً من الشهرة، والإبداء لحسن القدوة، وتحري المنافع والمصالح، وما

يقابل ذلك من الصفات الرذيلة كالرياء، وحب الشهرة الباطلة، والمن والأذى.

والحاصل: أن العشرة تعطى لكل من أتى بالحسنة، والمضاعفة فوقها تختلف بحسب مشيئته تعالى بما يعلم من أحوال المحسنين، فمن بذل الدرهم ونفسه كئيبة على فقده.. لا تكون حاله كمن يبذله طيبة به نفسه، مسرورة بتوفيق الله تعالى على عمل الخير، ونيل ثواب الآخرة، واعلم أن المضاعفة تابعة للإخلاص، فكل من عظم إخلاصه.. كانت مضاعفة حسناته أكثر ﴿وَمَن جَآءَ﴾ ربه يوم القيامة ﴿بِ﴾ الخصلة ﴿السيئة﴾ والأعمال القبيحة ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ من دون زيادة عليها على قدرها في الخفة والعظم، فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده في النار، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات، كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرحة بأن من عمل كذا فعليه كذا، وما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب.. فعلينا أن نقول: يجازيه الله بمثله وإن لم نقف على حقيقة ما يجازى به، وهذا إن لم يتب. أما إذا تاب، أو غلبت حسناته سيئاته، أو تغمده برحمته وتفضل عليه بمغفرته.. فلا مجازاة، وأدلة الكتاب والسنة مصرحة بهذا تصريحاً لا يبقى معه ريب لمرتاب. ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: عاملوا الحسنات وعاملوا السيئات ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب حسنات المحسنين، ولا بزيادة عقوبات المسيئين، فالزيادة في الحسنات من باب الفضل، والمجازاة بالمثل في السيئات من باب العدل. أي: أن كلا الفريقين فاعلي الحسنات، وفاعلي السيئات لا يظلم يوم الجزاء، لا من الله ـ لأنه منزه عن الظلم عقلاً ونقلاً، فقد روى مسلم من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه إنه قال: «يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا» الحديث ـ ولا من غيره؛ إذ لا سلطان لأحد من خلقه، ولا كسب في ذلك اليوم يمكنه من الظلم، كما يفعل الأقوياء الأشرار في الدنيا بالضعفاء.

فصل في الأحاديث المناسبة للآية

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، وكل سيئة

يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله تعالى» متفق عليه.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر، ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بي شيئاً.. لقيته بمثلها مغفرة». أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تبارك وتعالى: «وإذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي.. فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة، فلم يعملها.. فاكتبوها له حسنة، فإن عملها.. فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبع مئة». متفق عليه. هذا لفظ البخاري.

وفي لفظ مسلم عن محمد رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة.. فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها.. فأنا أكتبها له بعشر أمثالها، وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة.. فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها.. فأنا أكتبها له بمثلها»، فقال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة: رب ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به، فقال: أرقبوه، فإن عملها.. فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها.. فاكتبوها له حسنة، فإنما تركها من جرَّاي»[1] زاد الترمذي: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

وقرأ الحسن وابن جبير وعيسى بن عمر والأعمش ويعقوب والقزاز عن عبد الوارث[2]: ﴿عَشْرٌ﴾ - بالتنوين - ﴿أمثالُها﴾ بالرفع على أنه صفة لـ﴿عَشْرٌ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين لك من قومك ومن سائر البشر ﴿إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾؛ أي: إن ربي الذي رباني بالوحي هداني وأرشدني بما أوحاه إلي بفضله ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وطريق قويم لا عوج فيه ولا انحراف، ولا اشتباه

---

(١) من جرَّاي: خوفاً منّي. (٢) البحر المحيط.

يهدي سالكه إلى سعادة الدنيا والآخرة، وهو الذي يدعوكم إلى طلبه منه حين تناجونه، فتقولون: اهدنا الصراط المستقيم، وعرفني ﴿دِينًا قِيَمًا﴾؛ أي: ديناً صادقاً ثابتاً قويماً مصلحاً يستقيم به أمور الناس في معاشهم ومعادهم، وبه يصلحون.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو[1]: ﴿قَيِّماً﴾ بوزن سيد ـ بفتح القاف وكسر الياء المشددة ـ: فيعل من قام؛ كسيد من ساد، وهو أبلغ من قائم. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿قِيَماً﴾ ـ بكسر القاف وتخفيف الياء ـ وهو مصدر كالصغر والكبر، والحول والشبع وصف به مبالغة؛ أي: ديناً ذا قيم؛ أي: صدق، وكان أصله أن يأتي بالواو، فيقول: قوماً كما قالوا: عوض وحول، ولكنه شذَّ عن القياس.

الزموا ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: دينه وشريعته وما أوحي به إليه من الحنيفية السمحة حالة كون إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً من الأديان الباطلة إلى الدين المستقيم ﴿و﴾ حالة كون إبراهيم أيضاً ﴿ما كان من المشركين﴾ بالله يا معشر قريش؛ أي إنه منزه من الشرك وما عليه المبطلون وفيه تكذيب لأهل مكة القائلين: إنهم على ملة إبراهيم، وهم يعتقدون أن الملائكة بنات الله، ولليهود الذين يقولون: عزير ابن الله، وللنصارى القائلين: إن عيسى ابن الله، وهذا كقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

وهذا الدين هو دين الإخلاص لله وحده، وهو الدين الذي بعث به جميع رسله، وقرره في جميع كتبه، وجعله ملة إبراهيم؛ لأنه هو النبي الذي أجمع على الاعتراف بفضله وصحة دينه مشركوا العرب وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكانت قريش ومن لف لفها من العرب يسمون أنفسهم الحنفاء مدعين أنهم على ملة إبراهيم، وهكذا فعل أهل الكتاب حين ادعوا اتباعه واتباع موسى وعيسى

---

(١) زاد المسير.

عليهما السلام، كما قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ المفروضة علي وعلى أمتي التي أعبد بها ربي، وكذا الصلاة المستحبة؛ لأن المراد بالصلاة ما يشمل المفروض منها والمستحب ﴿وَنُسُكِي﴾؛ أي: جميع أنواع عبادتي من صوم وحج وزكاة وغيرها من سائر العبادات، فعطفه على ما قبله على هذا التفسير من عطف العام على الخاص، أو حجي وعمرتي. وكثر استعماله في عبادة الحج، أو ذبيحتي التي أذبح بها في الحج، أو في غيره؛ أي: إن صلاتي ونسكي مخلصان لله لا شركة لغيره فيهما ﴿و﴾ إن ﴿محياي﴾؛ أي: حياتي، أو ما أوتيته في حياتي من العمل الصالح والنعم ﴿وَمَمَاتِي﴾؛ أي: وفاتي، أو ما أموت عليه من الإيمان، وقيل: معناه أن طاعتي في حياتي لله، وجزائي بعد مماتي من الله؛ أي: كلاهما منسوبان ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: معبود العالمين وخالقهم ومالكهم.

وحاصل هذا الكلام(١): أن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله أن يبين للمشركين ويخبرهم أن صلاته ونسكه وسائر عبادته وحياته وموته كلها مخلصة لله، وواقعة بخلق الله وقضائه وقدره، فهو مخالف لهم في عبادة الأصنام وذبحهم لها ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ سبحانه وتعالى في شيء من ذلك من الصلاة والنسك، والمحيا والممات في الخلق والتقدير.

وقرأ الحسن وأبو حيوة(٢): ﴿نسْكي﴾ بإسكان السين، وقرأ الباقون بضمها، وقرأ نافع: ﴿محيايْ﴾: بسكون الياء، وقرأ الباقون بفتحها؛ لئلا يجتمع ساكنان. قال النحاس: لم يجزه؛ - أي: السكون - أحد من النحويين إلا يونس، وإنما أجازه؛ لأن المدة التي في الألف تقوم مقام الحركة. قال أبو حيان: وما روي عن نافع من سكون يا المتكلم في ﴿محيايْ﴾ هو جمع بين ساكنين أجري الوصل

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

فيه مجرى الوقف، والأحسن في العربية الفتح. قال أبو علي: هي شاذة في القياس؛ لأنها جمعت بين ساكنين، وشاذة في الاستعمال.

وروى أبو خالد عن نافع ﴿ومحيايِ﴾ - بكسر الياء -، وقرأ ابن إسحاق وعيسى بن عمرو الجحدري: ﴿ومحييّ﴾ - من غير ألف - على لغة هذيل؛ وهي لغة عليا مضر، ومنه قول الشاعر:

سَبَقُوْا هَوَيَّ وَأَعْنَقُوْا لِهَوَاهُمُ فَتُخُرِّمُوْا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

وقرأ عيسى بن عمر: ﴿صلاتيَ ونسكيَ ومحيايَ ومماتيَ﴾ - بفتح الياء -، وروي ذلك عن عاصم.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى في شيء من ذلك من الصلاة والنسك والمحيا والممات، ولا شريك له في الخلق والقضاء والقدر وسائر أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه ﴿و﴾ قل لهم يا محمد ﴿بذلك﴾ التوحيد أو الإخلاص ﴿أُمِرْتُ﴾؛ أي: أمرني ربي ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة؛ لأن إسلام كل نبي سابق على إسلام أمته؛ لأنهم منه يأخذون شريعته. قاله قتادة؛ أي: وأنا أول من أقر بالوحدانية، وأذعن وخضع لله سبحانه وتعالى، وأخلص في التوحيد والعبادة لله من هذه الأمة، وقيل معناه: وأنا أول المستسلمين لقضائه وقدره تعالى.

والمراد[1] من كون محياه ومماته لله تعالى أنه قد وجه وجهه، وحصر نيته وعزمه في حبس حياته لطاعته ومرضاته، وبذلها في سبيله، فيموت على ذلك كما يعيش، والآية جامعة لكل الأعمال الصالحة التي هي غرض المؤمن الموحد من حياته وذخيرته لمماته، ويكون فيها الإخلاص لله رب العالمين، فينبغي للمؤمن أن يوطن نفسه على أن تكون حياته لله ومماته لله، فيتحرى الخير والصلاح، والإصلاح في كل عمل من أعماله، ويطلب الكمال في ذلك لنفسه رجاء أن يموت ميتة ترضي ربه، ولا يحرص على الحياة لذاتها، فلا يرهب الموت فيمتنع من الجهاد في سبيل الله، كما أن عليه أن يقيم ميزان العدل، فيأخذ على أيدي أهل الجور،

---

(١) المراغي.

ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وأفرد[١] الصلاة بالذكر مع دخولها في النسك؛ لأن روحها ـ وهو الدعاء، وتعظيم المعبود، وتوجيه القلب إليه والخوف منه ـ مما يقع فيه الشرك..

والخلاصة: أنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لله رب العباد وخالقهم، فمن توجه إليه وإلى غيره من عباده المكرمين، أو إلى غيرهم مما يستعظم من خلقه.. كان مشركاً، فالله لا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

ومعنى ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ أي: لا شريك له في ألوهيته، فيستحق أن يشركه في العبادة ويتوجه إليه معه للتأثير في عبادته، وبذلك أمرني ربي، وأنا أول المسلمين المنقادين إلى امتثال ما أمره به، وترك ما نهى عنه. وفي هذا بيان إجمالي لتوحيد الألوهية بالعمل بعد بيان أصل التوحيد في العقيدة، ثم انتقل إلى برهانه الأعلى، وهو توحيد الربوبية بما أمره به، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الذي خلق الخلق ورباهم ﴿أَبْغِى﴾ وأطلب ﴿رَبًّا﴾ آخر أشركه في عبادتي له بدعائه والتوجه إليه لينفعني، أو يمنع الضر عني، أو ليقربني إليه زلفى؛ أي: هل أطلب رباً ومالكا وإلهاً غير الله سبحانه وتعالى أعبده وأتخذه إلهاً ومعبوداً؟ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: والحال أنه سبحانه وتعالى رب كل شيء مما عبد، ومما لم يعبد، ومالكه وخالقه، فكيف يليق بي أن أتخذ إلهاً غير الله؟ فهو الذي خلق الملائكة والمسيح، والشمس والقمر، والكواكب والأصنام، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وإذا كان هو الخالق والمدبر، فكيف أسفه نفسي، وأكفر بربي بجعل المخلوق المربوب مثلي رباً لي، وجميع المشركين يعترفون بأن معبوداتهم مخلوقة لله رب العالمين وخالق الخلق أجمعين.

والمعنى: أي[٢] لا أطلب إلهاً غيره ولا أتوكل إلا عليه، فهو رب كل شيء

(١) المراغي.

(٢) الجمل.

ومليكه وخالقه، فكيف يكون المملوك شريكاً لمالكه ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: ولا تحمل نفس ذنباً ﴿إِلَّا﴾ كان ﴿عَلَيْهَا﴾ جزاؤه لا على غيرها ﴿وَلَا تَزِرُ﴾؛ أي: ولا تعمل كل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾؛ أي: آثمة؛ أي: ولا غير وازرة أيضاً ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: ذنب نفس أخرى؛ أي: فلا تحمل آثمة ولا طائعة ذنب غيرها، وإنما[1] قيد في الآية بالوازرة موافقة لسبب النزول، وهو أن الوليد بن المغيرة كان يقول للمؤمنين: اتبعوا سبيلي أحمل عنكم أوزاركم، وهو وازر وآثم إثماً كبيراً. وفي الآية رد لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه، والواحد من القبيلة بذنب الآخر، وقد قيل: إن المراد بهذه الآية في الآخرة والأولى حمل الآية على ظاهرها؛ أعني: العموم، وما ورد من المؤاخذة بذنب الغير كالدية التي تحملها العاقلة، ونحو ذلك.. فيكون في حكم المخصص بهذا العموم، ويقر في موضعه، ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ فإن المراد بالأثقال التي مع أثقالهم هي أثقال الذين يضلونهم كما في الآية الأخرى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ذكره الشوكاني.

والخلاصة: أن الدين أرشدنا أن نجري على ما أودعته الفطرة في النفوس من أن سعادة الناس وشقاءهم في الدنيا بأعمالهم، والعمل يؤثر في النفس التأثير الذي يزكيها إن كان صالحاً، أو التأثير الذي يدسيها ويفسدها إن كان سيئاً، والجزاء مبني على هذا التأثير، فلا ينتفع أحد، ولا يتضرر بعمل غيره.

ومن كان قدوة صالحة في عمل، أو معلماً له.. فإنه ينتفع بعمل من أرشدهم بقوله أو فعله زيادة على انتفاعه بأصل ذلك القول أو الفعل، ومن كان قدوة سيئة في عمل، أو دالاً عليه ومغرياً به.. فإن عليه مثل إثم من فعله، وبيّن النبي ﷺ هذا بقوله: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان

---

(١) الفتوحات.

عليه وزرها، ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». رواه مسلم.

وهذه قاعدة من أصول كل دين بعث الله به رسله كما جاء في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾. وهذه الوصية من أعظم دعائم الإصلاح في المجتمع البشري، وهادمة لأسس الوثنية، وهادية للناس جميعاً إلى ما تتوقف عليه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فإن العمل وحده هو وسيلة الفوز وطريق النجاة، لا كما يزعم الوثنيون من طلب رفع الضر وجلب النفع بقوة من وراء الغيب، وهي وساطة بعض المخلوقات الممتازة ببعض الخواص والمزايا بين الناس وربهم ليعطيهم ما يطلبون في الدنيا بلا كسب ولا سعي من طريق الأسباب التي جرت بها سنته في خلقه، وليحملوا عنهم أوزارهم حتى لا يعاقبوا بها، أو ليحملوا الخالق على رفعها عنهم، وترك عقابهم عليها، وعلى إعطائهم نعيم الآخرة، وإنقاذهم من عذابها.

ومما ينتفع به المرء من عمل غيره ـ لأنه في الحقيقة كأنه عمله، إذ كان سبباً فيه ـ دعاء أولاده وحجهم وتصدقهم عنه وقضاؤهم لصومه، كما ورد في الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة. ذاك أن الله قد ألحق ذرية المؤمنين بهم بنص الكتاب، وصح في السنة أن ولد الرجل من كسبه.

﴿ثُمَّ﴾ بعد اختلافكم في الدنيا في الأديان والملل ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ لا إلى غيره ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم يوم القيامة للمجازاة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: يخبركم ويعلمكم ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا من الأديان والملل، فيثيب المسلمين ويعذب الكافرين؛ أي: ثم إن رجوعكم في الحياة الآخرة إلى ربكم دون غيره مما عبدتم من دونه، فينبئكم بما كنتم تختلفون فيه من أمر أديانكم المختلفة، ويتولى جزاءكم عليه وحده بحسب علمه وإرادته القديمين،

ويضل عنكم ما كنتم تزعمون من دونه، ونحو الآية قوله: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿الَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ يا أمة محمد ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ في ﴿الْأَرْضِ﴾ عن الأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضكم عن بعض. وقال الطبري: أي[1] استخلفكم بعد أن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية، فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها أو[2] إنكم خلفاء الله في أرضه تتصرفون فيها، على أن الخطاب عام للنوع الإنساني ﴿و﴾ هو الذي ﴿رفع بعضكم﴾؛ أي: الحسن والغني والشريف والعالم والقوي مثلاً ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾ آخر؛ أي: فوق القبيح والفقير والوضيع والجاهل والضعيف مثلاً ﴿دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: في الجمال والمال، والشرف والعلم والقوة مثلاً. وقال ابن كثير: أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، انتهى. وقال في «الخازن» والمعنى: خالف بين أحوال عباده، فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز عن التسوية، أو الجهل، أو البخل، فإن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص، وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان كما ذكره بقوله: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ كَانَ﴾؛ أي: ليختبركم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: فيما أعطاكم من نعمة المال والجاه والقوة، هل تشكرون عليها فلكم الثواب والزيادة، أو تكفرون فلكم العقاب والحرمان، ولينظر كيف يصنع الشريف بالوضيع، والغني بالفقير، والمالك بالمملوك، وليختبر الفقير والوضيع والمملوك هل يصبرون أم لا؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وكفر بنعمته، ووصف العقاب بالسرعة؛ لأن ما هو آت قريب، أو سريع عند إرادته تعالى، والمعنى: سريع العقاب إذا جاء وقته فلا يرد، كيف قال: سريع العقاب مع أنه حليم، والحليم هو الذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه وأنه سبحانه وتعالى ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن آمن به ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن قام بشكرها.

---

(١) الطبري. (٢) البيضاوي.

والمعنى: أنه سبحانه[1] وتعالى سريع العقاب لمن كفر به، أو كفر بنبيه وخالف شرعه وتنكب عن سنته، وهذا العقاب السريع شامل لما يكون في الدنيا من الضرر في النفس أو العقل أو العرض أو المال، أو غير ذلك من الشؤون الاجتماعية، وهذا مطرد في الدنيا في ذنوب الأمم، وأكثريّ في ذنوب الأفراد، ومطرد في الآخرة بتدسية النفس وتدنيسها.

وهو[2] سبحانه وتعالى على سرعة عقابه وشديد عذابه للمشركين غفور للتوابين، رحيم بالمؤمنين المحسنين؛ إذ سبقت رحمته غضبه، ووسعت كل شيء، ومن ثم جعل جزاء الحسنة عشر أمثالها، وقد يضاعفها بعد ذلك أضعافاً كثيرة لمن يشاء، كما جعل جزاء السيئة سيئة مثلها وقد يغفرها لمن تاب منها، كما قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾.

ولما[3] كان الابتلاء يظهر به المسيء والمحسن، والطائع والعاصي.. ذكر هذين الوصفين وختم بهما. ولما كان الغالب على فواصل الآي قبلها هو التهديد.. بدأ قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ يعني لمن كفر ما أعطاه الله تعالى، وسرعة عقابه إن كان في الدنيا فالسرعة ظاهرة، وإن كان في الآخرة فوصفه بالسرعة لتحققه؛ إذ كل ما هو آت قريب، ولما كانت جهة الرحمة أرجى.. أكد ذلك بدخول اللام في الخبر، ويكون الوصفان بنيا بناء مبالغةٍ، ولم يأت في جهة العقاب بوصفه بذلك، فلم يقل: إن ربك معاقب وسريع العقاب من باب الصفة المشبهة.

فائدة: في خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة من العقائد والأحكام[4]:

أولاً: العقائد وأدلتها بالأسلوب الجامع بين الإقناع والتأثير كبيان صفات الله بذكر أفعاله وسننه في الخلق، وآياته في الأنفس والآفاق، وتأثير العقائد في الأعمال مع إيراد الحقائق بطريق المناظرة والجدل، أو ورودها جواباً بعد سؤال،

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

وفي أثناء ذلك يرد شبهات المشركين، ويهدم هياكل الشرك ويقوض أركانه.

ثانياً: الرسالة والوحي، وتفنيد شبهات المشركين على الرسول ﷺ، وإلزامهم الحجة بآية الله الكبرى؛ وهي القرآن المشتمل على الأدلة العقلية، والبراهين العلمية، وقد كان كثير من الكفار مشركين وغير مشركين يكفرون بالرسل، ويستبعدون إنزال الوحي عليهم.

ثالثاً: البعث والجزاء والوعد والوعيد، بذكر ما يقع يوم القيامة من العذاب للمجرمين، والبشارة للمتقين بالفوز والنعيم، مع ذكر عالم الغيب من الملائكة والجن والشياطين، والجنة والنار، وقد كانت العرب كغيرها من الأمم تؤمن بالملائكة وبوجود الجن، ويعتقدون بأنهم يظهرون لهم أحياناً بصورة الغيلان، ويسمعون أصواتهم وعزفهم، وأنهم يلقون الشعر في هواجس الشعراء.

رابعاً: أصول الدين ووصاياه الجامعة في الفضائل والآداب، والنهي عن الرذائل، وإذا نحن فصلنا القول فيها نرجعها إلى الأصول الآتية:

١ ـ أن دين الله واحد، فتفريقه بالمذاهب والأهواء، وجعل أهله فرقاً وشيعاً خروج عن هدي الرسول الذي جاء به، وموجب لبراءته من فاعليه.

٢ ـ أن سعادة الناس وشقاوتهم منوطتان بأعمالهم النفسية والبدنية، وإن الجزاء على الأعمال يكون بحسب تأثيرها في الأنفس، وإن الجزاء على السيئة بمثلها، وعلى الحسنة بعشر أمثالها فضلاً من الله ونعمة، وجزاء السيئات على الإنسان وحده، وجزاء الحسنات له وحده، فلا يحمل أحد وزر غيره.

٣ ـ أن الناس عاملون بالاختيار والإرادة ولكنهم خاضعون للسنن والأقدار، فلا جبر ولا اضطرار، ولا تعارض بين عملهم باختيارهم ومشيئة الخالق سبحانه؛ إذ المراد من خلقه الأشياء بقدر وتقدير: أنه تعالى خلقها على وجه جعل فيه المسببات على قدر الأسباب بناء على علم وحكمة، فهو لم يخلق شيئاً جزافاً بغير تقدير ولا نظام يجري عليه.

٤ ـ أن لله سنناً في حياة الأمم وموتها، وسعادتها وشقائها، وإهلاكها

بمعاندة الرسل، والظلم والفساد في الأرض، وتربيتها بالنعم تارة، وبالنقم أخرى.

٥ ـ أن التحليل والتحريم وسائر الشعائر التعبدية من حق الله تعالى، فمن وضع حكماً لا يستند إلى شرع الله.. فقد افترى إثماً عظيماً.

٦ ـ الأمر بالسير في الأرض، وقد تكرر ذلك في الكتاب الكريم للنظر في أحوال الأمم، وعواقب الأقوام التي كذبت الرسل.

٧ ـ الترغيب في معرفة ما في الكون، والإرشاد إلى معرفة سنن الله فيه، وآياته الكثيرة الدالة على علمه وقدرته.

٨ ـ أن التوبة الصحيحة مع ما يلزمها من العمل الصالح موجبةٌ لمغفرة الذنوب.

٩ ـ استيلاء الناس بعضهم ببعض؛ ليتنافسوا في العلوم والأعمال النافعة، وإعلاء كلمة الحق والدين، ورفعة شأنه وإعزاز أهله.

الإعراب

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف بمعنى الواو. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل، وهو بمعنى أعطينا. ﴿مُوسَى﴾: مفعول أول. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، ﴿تَمَامًا﴾: مفعول لأجله؛ أي: لأجل إتمام النعمة. ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَمَامًا﴾. ﴿أَحْسَنَ﴾: فعل، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿وَتَفْصِيلًا﴾: معطوف على ﴿تَمَامًا﴾. ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تفصيلاً﴾. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: معطوفان عليه أيضاً؛ أي: لأجل الهداية والرحمة للذي أحسن وآمن به. ﴿لَّعَلَّهُم﴾: ناصب واسمه. ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق

بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع صفة أولى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿مُبَارَكٌ﴾: صفة ثانية. وفي «الفتوحات»[1]: يجوز أن يكون ﴿كِتَٰبٌ﴾ و﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿مُبَارَكٌ﴾ أخباراً عن اسم الإشارة عند من يجيز تعدد الخبر مطلقاً، أو بالتأويل عند من لم يجوز ذلك، ويجوز أن يكون ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿مُبَارَكٌ﴾ وصفين لـ﴿كِتَٰبٌ﴾ عند من يجيز تقديم الوصف غير الصريح على الوصف الصريح اهـ «سمين». ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿اتبعوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿اتبعوه﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾ خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوق لتعليل ما قبلها.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَقُولُوٓا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة مصدر مقدر معلل لفعل محذوف جوازاً تقديره: وأنزلنا عليكم هذا القرآن كراهية قولكم يوم القيامة، والجملة المحذوفة المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر ونفي. ﴿أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿تَقُولُوٓا۟﴾. ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِن قَبْلِنَا﴾: جار ومجرور

---

(١) الفتوحات.

ومضاف إليه صفة لـ﴿طَآئِفَتَيْنِ﴾. ﴿وَإِن كُنَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة ولكنهما مهملة لا عمل لها. فلا يقدر لها اسم وهي هنا بمعنى قد التي للتحقيق وفي «السمين» ﴿وَإِن كُنَّا﴾: ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة عند البصريين، وهي هنا مهملة، ولذلك وليتها الجملة الفعلية، انتهى. وقال أبو حيان: إن المخففة إذا لزمت اللام في أحد جزأيها، ووليها الناسخ.. فهي مهملة انتهى. ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقوله: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾. ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿غافلين﴾: خبر كان، وجملة كان واسمها في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿تَقُولُوٓاْ﴾.

﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿تَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَقُولُوٓاْ﴾ السابق منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿تَقُولُوٓاْ﴾ السابق على كونها في تأويل مصدر ومجرور بإضافة المصدر المقدر تقديره: أو كراهية قولكم يوم القيامة. ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ مقول محكي لـ﴿تَقُولُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه فاعلاً لفعل محذوف تقديره: لو ثبت إنزال الكتاب علينا، والجملة المحذوفة فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَكُنَّآ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، ﴿كنا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿أَهْدَىٰ﴾: خبره. ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَهْدَىٰ﴾، وجملة كان الناقصة جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿تَقُولُواْ﴾. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾[1]: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا

---

(١) الفتوحات.

صدقتم فيما تظنون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب. . فأقول لكم: قد حصل ما فرضتم وجاءكم بينة من ربكم، وإن شئت قلت: ﴿الفاء﴾: تعليلية لمحذوف تقديره: لا تعتذروا بذلك، فقد جاءكم بينة من ربكم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بَيِّنَةٌ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: معطوفان على ﴿بَيِّنَةٌ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

﴿فَمَنْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿مِمَّن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿وَصَدَفَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿عَنْهَا﴾: متعلق بـ﴿صدف﴾. ﴿سَنَجْزِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب مفعول أول مبني على الفتح على الأصح، وقيل: مبني على الياء، وقيل: منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم على لغة هذيل أو عقيل نحو قول الشاعر:

نَحْنُ اللَّذُوْنَ صَبَّحُوْا الصَّبَاحَا ... يَوْمَ النُّخَيْلِ غَارَةً مِلْحَاحَا

﴿يَصْدِفُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق ﴿يَصْدِفُونَ﴾. ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: مفعول ثان لـ﴿يَصْدِفُونَ﴾. ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص واسمه، وجملة ﴿يَصْدِفُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾

المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بصدفهم، الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿سَنَجْزِى﴾، والمعنى: سنجزيهم بسبب صدفهم وإعراضهم عن آياتنا سوء العذاب.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾.

﴿هَلْ﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: ناصب وفعل ومفعول وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: هل ينظرون إلا إتيان الملائكة. ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. وكذلك جملة قوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ معطوفة عليها، والتقدير: ما ينتظرون إلا إتيان الملائكة إياهم، أو إتيان ربك، أو إتيان بعض آيات ربك.

﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بقوله: ﴿لَا يَنفَعُ﴾ الآتي، وهو مضاف. ﴿يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾: فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَكُنْ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، واسمها ضمير يعود على ﴿نَفْسًا﴾. ﴿ءَامَنَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿نفساً﴾، وجملة ﴿ءَامَنَتْ﴾ في محل النصب خبر ﴿تَكُنْ﴾، وجملة ﴿تَكُنْ﴾ في محل النصب صفة ﴿نَفْسًا﴾ تقديره: نفساً عادمة إيمانها من قبل، ولا يضر الفصل بين الصفة والموصوف؛ لضرورة اتصال الفاعل بضمير المفعول؛ لامتناع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَتْ﴾. ﴿أَوْ كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿نَفْسًا﴾. ﴿فِىٓ إِيمَٰنِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَسَبَتْ﴾. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿كَسَبَتْ﴾: من الفعل والفاعل في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَتْ﴾ على كونها خبراً لـ﴿تَكُنْ﴾ تقديره: لم تكن

مؤمنة من قبل، أو كاسبة في إيمانها خيراً. ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد مبني بفتحة مقدرة على النون المدغمة في نون ﴿نا﴾ منع من ظهورها السكون العارض للإدغام. ﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿مُنتَظِرُونَ﴾: خبرها مرفوع بالواو، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿فَرَّقُواْ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿لَّسْتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿ليس﴾ تقديره: كائنا منهم. ﴿فِى شَىْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بما تعلق به الجار والمجرور قبله، والمعنى: لست مستقراً منهم في شيء؛ أي: من تفريقهم، ويجوز أن يكون ﴿فِى شَىْءٍ﴾ هو الخبر، و﴿مِنْهُمْ﴾: حال مقدمة عليه، وذلك على حذف مضاف، والمعنى: لست كائناً في شيء كائن من تفرقهم، فلما قدمت الصفة نصبت حالاً انتهى من «السمين»، وجملة ﴿ليس﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾: تقديره: إنَّ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً عادم أنت كونك منهم في شيء، ولكنه خبر سببي، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر ونفي. ﴿أَمْرُهُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ تقديره: إنما أمرهم مفوض إلى الله والجملة الاسمية مستأنفة، أو في محل الرفع معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿ليس﴾ على كونها خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ. ﴿يُنَبِّئُهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾. ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص

واسمه، وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانُوا﴾، وجملة ﴿كَانُوا﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية تقديره: بفعلهم، أو صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما كانوا يفعلونه، والجار والمجرور على كلا التقديرين متعلق بـ﴿يُنَبِّئُهُم﴾، ويحتمل كون الباء زائدة، وما بعدها في محل المفعول الثاني لـ﴿نبأ﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾: متعلق به. ﴿فَلَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿له﴾: خبر مقدم. ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: متعلق به. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب جوازاً مشاكلة للجملة السابقة، ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُجْزَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿مِثْلَهَا﴾: مفعول ثان لـ﴿يُجْزَىٰٓ﴾ ومضاف إليه والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواباً لها وإنما لم يجزم لفظه مشاكلة مع فعل الشرط وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: واو الحال. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿لا﴾: نافية ﴿يُظْلَمُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير في ﴿يُجْزَىٰ﴾، وجمع الضمير هنا اعتباراً لمعنى ﴿مَن﴾.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّنِي﴾: ناصب واسمه ونون وقاية؛ لأنها تقي الحرف المبني على الفتح من الكسرة. ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾: فعل ومفعول وفاعل ونون وقاية. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: جار ومجرور صفة متعلق بـ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لها، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿دِينًا﴾: بدل من محل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾؛ لأن المعنى: هداني ربي صراطاً مستقيماً ديناً قيماً، وهدى يتعدى تارة بإلى كما هنا، وتارة بنفسه كما في قوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وقيل: إنه منصوب على المصدرية المعنوية؛ أي: هداني هداية دين قيم، أو على إضمار عرفني ديناً قيماً، أو الزموا ديناً قيماً. ﴿قِيَمًا﴾ صفة لـ﴿ديناً﴾. ﴿مِّلَّةَ﴾: عطف بيان لـ﴿دِينًا﴾، أو بدل منه، أو على إضمار أعني. ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة عوضاً عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف للعجمة. ﴿حَنِيفًا﴾: حال من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض، واسمه ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، والجمل في محل النصب معطوفة على ﴿حَنِيفًا﴾ على كونها حالاً من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ تقديره: وحالة كونه عادماً كونه من المشركين.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، أو معطوفة بعاطف مقدر على جملة القول الأول. ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ إلى آخر الآيتين مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿صَلَاتِي﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ ومضاف إليه. ﴿وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾: معطوفات على ﴿صَلَاتِي﴾: جرياً على القاعدة المشهورة عند النحاة: إن المعطوفات إذا كثرت، وكان العاطف غير مرتب كالواو.. ويكون العطف على الأول، وإلا فكل على ما قبله. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة ومضاف إليه،

وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿شَرِيكَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾ تقديره: لا شريك موجود له، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من الجلالة تقديره: حالة كونه عادم الشريك له في ذلك. ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بقوله: ﴿أُمِرْتُ﴾. ﴿أُمِرْتُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من التاء في ﴿أُمِرْتُ﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، ﴿غير الله﴾: مفعول مقدم ومضاف إليه. ﴿أَبْغِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿رَبًّا﴾: منصوب على التمييز كما صرح به القرطبي، والكرخي، أو على الحال كما في «الجمل». ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: واو **الحال**. ﴿هو﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة في محل الرفع مبتدأ. ﴿رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الجلالة تقديره: هل أطلب رباً غير الله حالة كونه رب كل شيء وخالقه، فهو كافيَّ وحسبي. ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَكْسِبُ﴾، ويحتمل كونه حالاً من المفعول المحذوف تقديره: ولا تكسب كل نفس الذنب إلا حالة كون ذنبها مكتوباً عليها. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾: فعل وفاعل. ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾، أو مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ. ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية المذكورة قبلها. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿ينبئكم﴾: فعل ومفعول،

وفاعله ضمير يعود على الرب جل جلاله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ لأن العاطف هنا مرتب. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينبئكم﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾. ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كان﴾ تقديره: بما كنتم مختلفين فيه، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾، أو وصفة لها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾: فعل ومفعولان ومضاف إليه، والإضافة فيه على معنى في، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿جَعَلَكُمْ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿رفع﴾. ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: تمييز محول عن المفعول منصوب بـ﴿رفع﴾؛ لأن الأصل: ورفع درجات بعضكم فوق بعض. ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يبلوكم﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لبلائه إياكم؛ أي: لابتلائه إياكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿رفع﴾. ﴿فِى مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يبلوكم﴾. ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والمفعول الثاني محذوف تقديره: فيما آتاكم إياه، وهو العائد على ﴿ما﴾ الموصولة، أو الموصوفة، والجملة الفعلية صلمة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَغَفُورٌ﴾: ﴿اللام﴾: لام ابتداء، ﴿غفور﴾، خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿رَّحِيمٌۢ﴾: خبر ثان لها، والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى على كونها مستأنفة، والله أعلم.

﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ تماماً اسم مصدر لأتم الرباعي، أو مصدر له على حذف الزوائد؛ أي: إتماماً لنعمتنا على الذي أحسن العمل بما في ذلك الكتاب بالقيام به.

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ صدف هنا لازم بمعنى أعرض عنها، ويحتمل كونه متعدياً. ولذا قال أبو السعود: ﴿وَصَدَفَ﴾؛ أي: صرف الناس عنها. وفي «القاموس»: وصدف عنه يصدف ـ من باب ضرب ـ أعرض، وصدف فلاناً صرفه كأصدفه اهـ. وفي «المختار»: صدف عنه أعرض ـ وبابه ضرب وجلس ـ وأصدفه عن كذا: أماله عنه اهـ.

﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ والأمثال جمع مثل، وهو مذكر، فكان قياسه عشرة بالتاء على القاعدة المشهورة عندهم: إن المعدود إذا كان مذكراً تؤنث الآحاد من أسماء العدد، وبالعكس؛ لأنها تجري على خلاف القياس مطلقاً ركبت أم لا، إلا لفظ العشرة في حالة التركيب كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

ثَلاَثَةٌ بِٱلتَّاءِ قُلْ لِلْعَشَرَهْ فِيْ عَدِّ مَا آحَادُهُ مُذَكَّرَهْ

فالجواب: إن الكلام على حذف موصوف تقديره: عشر حسنات أمثالها، فالحسنات مؤنث، فناسب تذكير العدد.

وفي «السمين» إنما ذكر اسم العدد هنا مع أن المعدود مذكر لأوجه:

منها: أن الإضافة لها تأثير، فاكتسب المذكر من المؤنث التأنيث، فأعطي حكم المؤنث في سقوط التاء من عدده، ولذلك يؤنث فعله حالة إضافته لمؤنث نحو: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾.

ومنها: أن هذا المذكر عبارة عن مؤنث فروعي المراد منه دون اللفظ.

ومنها: أنه روعي الموصوف المحذوف، والتقدير: فله عشر حسنات أمثالها، ثم حذف الموصوف، وأقيمت صفته مقامه، وترك العدد على حاله، ومثله مررت بثلاثة نسابات، ألحقت التاء في عدد المؤنث مراعاة للموصوف

المحذوف؛ إذ الأصل: بثلاثة رجال نسابات.

وقال أبو عليّ: اجتمع هنا أمران كل منهما يوجب التأنيث، فلما اجتمعا قوي التأنيث:

أحدهما: أن الأمثال في المعنى حسنات، فجاز التأنيث.

والآخر: أن المضاف إلى المؤنث قد يؤنث وإن كان مذكراً. اهـ.

﴿قِيَمًا﴾ - بكسر[1] القاف وفتح الياء - على قراءة ابن عامر وعاصم والأخوين كما مر على أنه مصدر نعت به، وكان قياسه قوماً بالواو كعوض؛ لأنه من قام يقوم، فأعل لإعلال فعله. وقُرِىء: ﴿قيماً﴾ - بتشديد الياء - على وزن فَيِّعل كسيد من ساد يسود، وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة، والمستقيم أبلغ منه باعتبار الصيغة.

﴿حَنِيفًاۚ﴾ الأصل[2] في الحنيف: المائل عن الضلالة إلى الاستقامة، والعرب تسمي كل من اختتن أو حج حنيفاً تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم. اهـ «خازن». وفي «القاموس»: الحنيف كأمير: الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه، وكل من حج، أو كان على دين إبراهيم عليه السلام. وتحنف إذا عمل عمل الحنيفية، أو اختتن، أو اعتزل عبادة الأوثان، واحتنف إليه: مال. اهـ. وفي «المختار»: الحنيف المسلم، وتحنف الرجل إذا عمل عمل الحنيفية، ويقال احتنف؛ أي: اعتزل الأصنام وتعبد اهـ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أصل[3] الوزر الحمل الثقيل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ وهو هنا الذنب كما في قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾. قال الأخفش: يقال: وَزِرَ يَوْزَرْ كوَجِلَ يَوْجَل، ووزر يَزِر كوعَدَ يَعِد وزراً، ويجوز فيه إزراً بقلب الواو همزة، يقال: وزره يزره؛ أي: حمله يحمله.

﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ الخلائف جمع خليفة كصحيفة وصحائف، فهذا من قبيل قول ابن مالك:

---

(١) البيضاوي. (٢) الفتوحات. (٣) الشوكاني بزيادة.

والمد زيد ثالثاً في الواحد همزاً يرى في مثل كالقلائد

والخليف: هو من يخلف من كان قبله في مكان أو عمل أو ملك. وفي «القرطبي»: والخلائف جميع خليفة ككرائم جمع كريمة، وكل من جاء بعد من مضى؛ فهو خليفة اهـ. وفي «المصباح»: والخليفة: أصله خليف بغير هاء؛ لأنه بمعنى الفاعل دخلته الهاء للمبالغة كعلامة ونسابة، ويكون وصفاً للرجل خاصة، ويقال: خليفة آخر بالتذكير، ومنهم من يقول: خليفة أخرى بالتأنيث، ويجمع باعتبار أصله على خلفاء مثل شرفاء، وباعتبار اللفظ على خلائف اهـ.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ والابتلاء الاختبار والامتحان، يقال: بلا يبلو بلاء وبلوى من باب عدا، يقال: بلاه بلوى وبلاء جربه واختبره، وبلاه الله يبلوه بلاء - بالمد - إذا اختبره، وهو يكون بالخير والشر، اهـ «مختار».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾، ﴿أَوْ تَقُولُوا۟﴾ وفي: و﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ وفي: ﴿يَصْدِفُونَ﴾ وفي: ﴿يَأْتِيَ﴾ وفي: ﴿جَآءَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله تعالى: ﴿لكنا أهدى﴾ ﴿وهدى﴾ وفي قوله: ﴿وصدف﴾ ﴿ويصدفون﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وقوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، وبين: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ استعار التفريق الذي هو حقيقة في الأجسام لاختلافهم في الآراء، ثم اشتق منه فرقوا بمعنى: اختلفوا على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، وفي قوله: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأن الصراط حقيقة في الطريق الحسي استعارة للدين.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لأنه عرض بشركهم.

ومنها: عطف العام على الخاص، في قوله: ﴿خَلَقَ﴾ إذا فسرنا النسك بالعبادة الشاملة للصلاة.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في عدة مواضع كقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾.

ومنها: التهديد والوعيد في قوله: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، وفيه أيضاً الجناس المغاير.

ومنها: ما هو المعروف باللف عند البيانيين في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ وأصل الكلام فيه يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبل ما تكسبه من الخير بعد، إلا أنه لَفَّ الكلامين، فجعلهما كلاماً واحداً بلاغة وإعجازاً واختصاراً، أفاده صاحب «الانتصاف» حاشية «الكشاف».

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لأنه ليس هناك في الحقيقة أحمال على الظهور، وإنما هي أثقال الآثام والذنوب. ذكره الشريف الرضي.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ وحق العبارة يصدفون عنها لتسجيل شناعة وقباحة طغيانهم.

ومنها: زيادة التأكيد باللام، في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ ترجيحاً لجانب الغفران على سرعة العقاب.

وعبارة «الفتوحات» هنا: باللام في الجملة الثانية فقط، وقال في الأعراف باللام المؤكدة في الجملتين؛ لأن ما هنا وقع بعد قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ. . .﴾ الخ، وبعد قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ فأتى باللام المؤكدة في الجملة الثانية فقط ترجيحاً للغفران على سرعة العقاب، وما هناك وقع بعد قوله: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ

ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ وقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فأتى باللام في الجملة الأولى لمناسبة ما قبلها، وفي الثانية تبعاً للام في الأولى، اهـ «كرخي».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الأنعام بمنه وكرمه وتوفيقه في تاريخ: ١٤١٠/١/١٩هـ.

سورة الأعراف

وهي مكية كلها إلا خمس آيات، أو ثماني آيات؛ فهي مدنية. وروي[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مكية إلا خمس آيات أولها: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ وبه قال قتادة. وقال مقاتل: ثمان آيات في سورة الأعراف مدنية أولها: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إلى قول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾.

وعدد آياتها مئتان وست آيات أو خمس، وعدد كلماتها ثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمس وعشرون كلمة، وعدد حروفها أربعة عشر ألف حرف وعشرة أحرف؛ وهي أطول السور المكية، وسميت هذه السورة بالأعراف؛ لذكر لفظ الأعراف فيها من باب تسمية الشيء بجزئه.

وقد روي[2]: أنها نزلت قبل سورة الأنعام، وأنها نزلت مثلها دفعة واحدة، لكن سورة الأنعام أجمع لما اشتركت فيه السورتان؛ وهو أصول العقائد وكليات الدين التي قدمنا القول فيها.

المناسبة: ومناسبة ذكرها بعد سورة الأنعام؛ لأن هذه[3] كالشرح والبيان لما أوجز في سورة الأنعام، ولا سيما عموم بعثة النبي ﷺ، وقصص الرسل قبله، وأحوال أقوامهم، وقد اشتملت سورة الأنعام على بيان الخلق كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ وعلى بيان القرون كما قال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وعلى ذكر المرسلين وتعداد الكثير منهم، وجاءت هذه مفصلة لذلك، فبسطت فيها قصة آدم، وفصلت قصص المرسلين وأممهم، وكيفية هلاكهم أكمل تفصيل.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

الناسخ والمنسوخ: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: سورة الأعراف كلها محكمة إلا آيتين:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ الآية (١٨٠). نسخت بآية السيف.

ثانيتهما: قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ الآية (١٩٩). وهذه الآية من عجيب المنسوخ؛ لأن أولها منسوخ، وآخرها منسوخ، وأوسطها محكم قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ يعني: الفضل من أموالهم والأمر بالمعروف محكم، وتفسيره معروف، وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: منسوخ بآية السيف انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ
(٢) ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَم مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٥) فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ
وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ (٧) وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨)
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ
إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ
فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن
شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧) قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ (١٨)﴾.

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة لآخر السورة السابقة: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[١] في السورة السابقة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ واستطرد منه لما بعده إلى قوله في آخر السورة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم، وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعية.. ذكر ما يكون به التكاليف وهو الكتاب الإلهي بقوله: ﴿الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وذكر الأمر باتباعه بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ كما أمر به في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ وهذا وجه المناسبة بين آخر الأولى وأول الثانية. وأما وجه المناسبة بين جملة

(١) البحر المحيط.

السورتين؛ فقد تقدم بيانه آنفاً.

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن هذا الكتاب أنزل إلى الرسول.. أمر الأمة باتباعه، وما أنزل إليكم يشمل القرآن والسنة لقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۞﴾ ونهاهم عن ابتغاء أولياء من دون الله كالأصنام والرهبان، والكهان والأحبار، والنار والكواكب وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۞...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[1] فيما سلف أنه أنزل الكتاب إلى الرسول ﷺ؛ لينذر به الناس ويكون موعظة وذكرى لأهل الايمان، وأنه طلب إليه أن يأمر الناس باتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وأن لا يتبعوا من دونه أحداً يتولونه في أمر التشريع.. أردف هذا التخويف من عاقبة المخالفة لذلك، ولما يتبعه من أصول الدين وفروعه، والتذكير بما حلَّ بالأمم قبلهم بسبب إعراضهم عن الدين، وإصرارهم على أباطيل أوليائهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[2] الرسل في الآية السالفة بالتبليغ، وأمر الأمم بالقبول والمتابعة، وذكرهم بعذاب الأمم التي عاندت الرسل في الدنيا.. قفى على ذلك بذكر العذاب الآجل يوم القيامة، وأنه في ذلك اليوم يسأل كل إنسان عن عمله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[3] فيما سلف أن واضع الدين هو الله سبحانه وتعالى، فيجب اتباعه دون ما يأمر به غيره من الأولياء والشفعاء، وقفى على ذلك بذكر عذاب الدنيا بقوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ وذكر عذاب الآخرة بقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وبقوله:

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.. أردف ذلك بذكر نعمه على عباده بتمكينهم في الأرض، وخلق أنواع المعايش فيها مع بيان أن كثرة النعم توجب عليهم الطاعة له.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] عباده في الآية السابقة بنعمه عليهم بالتمكين لهم في الأرض، وخلق أنواع المعايش لهم فيها.. قفى على ذلك ببيان أنه خلق النوع الإنساني مستعداً للكمال، وأنه قد تعرض له وسوسة من الشيطان تحول بينه وبين هذا الكمال الذي يبتغيه.

قال أبو حيان: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما قدم[2] ما يدل على تقسيم المكلفين إلى طائع وعاص، فالطائع ممتثل ما أمر الله به مجتنب ما نهى عنه، والعاصي بضده.. أخذ ينبه على أن هذا التقسيم كان في البدء الأول من أمر الله للملائكة بالسجود، فامتثل من امتثل، وامتنع من امتنع، وأنه تعالى أمر آدم ونهى، فحكى عنه ما يأتي خبره، فنبه أولاً على موضع الاعتبار، وإبراز الشيء من العدم الصِّرف إلى الوجود والتصوير في هذه الصورة الغريبة الشكل المتمكنة من بدائع الصانع.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓصٓ ①﴾ هذه حروف تكتب بصورة كلمة ذوات الأربعة الأحرف، لكنَّا نقرؤها بأسماء هذه الأحرف، فنقول: ألف لام ميم صاد، وحكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء الحروف التي ليس لها معنى مفهوم غير مسماها الذي تدل عليه.. تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته منه شيء، فكأنه أداة استفتاح بمنزلة (ألا) و(ها) التنبيه.

وبالاستقراء نرى أن السور التي بدئت بها وبذكر الكتاب هي التي نزلت

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

بمكة لدعوة المشركين إلى الإسلام وإثبات النبوة والوحي، وما نزل منها بالمدينة كالزهراوين البقرة وآل عمران؛ فالدعوة فيها موجهة إلى أهل الكتاب، وهكذا الحال في بعض السور كمريم والعنكبوت والروم وصٓ ونٓ، فإن ما فيها يتعلق بإثبات النبوة والكتاب كالفتنة في الدين بإيذاء الضعفاء؛ لإرجاعهم عن دينهم بالقوة القاهرة، والإنباء بقصص فارس والروم، ونصر الله للمؤمنين على المشركين، وكان هذا من أظهر المعجزات الدالة على نبوة محمد ﷺ، ويرى بعض العلماء أنها أسماء للسور والأسماء المرتجلة لا تعلل، كما يرى آخرون أن الحكمة في ذكرها بيان إعجاز القرآن بالإشارة إلى أنه مركب من هذه الأحرف المفردة التي يتألف منها الكلام العربي، ومع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ليؤديهم النظر إلى أنه ليس من كلام البشر، بل من كلام خالق القوى والقدر.

وروي[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال معناه: أنا الله أفصِّل، وعنه: أنا الله أعلم وأفصِّل، وعنه: أن ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ قسم أقسم الله به، وهو اسم من أسماء الله تعالى. وقال قتادة: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ اسم من أسماء القرآن. وقال الحسن: هو اسم للسورة. وقال السدي: هو بعض اسمه تعالى المصور. وقال أبو العالية: الألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد، والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور. وقيل: هي حروف مقطعة استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمها، وهي سره في كتابه العزيز؛ وهذا القول هو الأصح الأسلم. وقيل: هي حروف اسمه الأعظم. وقيل هي حروف تحتوي معاني دل الله بها خلقه على مراده، وقد بسط الكلام على معاني الحروف المقطعة أوائل السور في أول سورة البقرة. قال أبو حيان[2]: وهذه الأقوال في الحروف المقطعة، لولا أن المفسرين شحنوا بها كتبهم خلفاً عن سلف.. ضربنا عن ذكرها صفحاً، فإن ذكرها يدل على ما لا ينبغي ذكره من تأويلات الباطنية، وأصحاب الألغاز والرموز.

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: هذا القرآن كتاب أنزل إليك من عند ربك يا محمد، ووصفه بالإنزال من عنده تعالى دال على عظم قدره وقدر من أنزل إليه؛ أي: هذا القدر الذي[1] كان قد نزل منه وقت نزول هذه الآية كتاب أنزل؛ أي: أنزل الله تعالى إليك يا محمد ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ﴾ وقلبك ﴿حَرَجٌ﴾ وضيق ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من تبليغه خوفاً من تكذيب قومك؛ أي: لا يضيق[2] صدرك من الإنذار به وإبلاغه من أمرت بإبلاغه إليهم، واصبر لأمري فيما حملتك من عبء النبوة كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن الله مَعَك.

وقد كلف ﷺ هداية الثقلين، وكان من المتوقع أن يلقى أشد الإيذاء والمقاومة والطعن والإعراض، وتلك أمور توجب ضيق الصدر كما قال في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ وقال في سورة النحل: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ وقال في سورة هود: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾.

ويراد بالنهي عن مثل هذا الأمر الطبيعي الاجتهاد في مقاومته، والتسلي عنه بوعد الله، والتأسي بمن سبقه من الرسل أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾؛ أي: أنزل إليك ذلك الكتاب لتنذر وتخوف به الكافرين من عذاب الله تعالى ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ولتذكر وتعظ به المؤمنين به. وقال «الخازن»: وهذا من المؤخر الذي معناه التقدير، تقديره: كتاب أنزلناه إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين، فلا يكن في صدرك حرج منه، والمراد بالمؤمنين هنا من كتب الله لهم الإيمان، سواء أكانوا مؤمنين حين نزول هذه السورة أم لا.

---

(١) عمدة التفاسير.
(٢) المراغي.

والخلاصة[1]: أنه أنزل إليك الكتاب لتنذر به قومك وسائر الناس، وتذكر به أهل الإيمان ذكرى نافعة مؤثرة.

قل يا محمد لهؤلاء المشركين، أو للناس كافة: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ أيها الناس ﴿مَآ أُنزِلَ﴾؛ أي: الوحي الذي أنزل ﴿إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الذي فيه الهدى والنور والبيان بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ وهو القرآن وسنة رسوله ﷺ؛ أي: قل لهم أيها الرسول: اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم وخالقكم ومدبر أموركم، فهو وحده الذي له الحق في شرع الدين لكم، وفرض العبادات عليكم، وتحليل ما ينفعكم، وتحريم ما يضركم؛ إذ هو العليم بما فيه الفائدة أو الضر لكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾؛ أي: ولا تتخذوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى؛ أي: غيره ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعونه لكم من الشياطين والكهان، والرهبان والأحبار، وقال «الخازن»: ولا تتخذوا[2] الذين يدعونكم إلى الكفر والشرك أولياء، فتتبعوهم، والمعنى: ولا تتولوا من دونه شياطين الإنس والجن، فيأمروكم بعبادة الأصنام، واتباع البدع والأهواء الفاسدة، انتهى. وفي «البيضاوي»: وقيل: الضمير في ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ لما أنزل؛ أي: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ من دون دين الله دين أولياء انتهى.

والمعنى: أي ولا تتخذوا من أنفسكم، ولا من الشياطين الذين يوسوسون لكم أولياء تولونهم أموركم، وتطيعونهم فيما يرومون منكم من ضلال التقاليد، والابتداع في الدين، فيضعوا لكم أحكام الحرام والحلال زاعمين أنهم منكم، فيجب عليكم تقليدهم، ولا أولياء ينجونكم من الجزاء على ذنوبكم، وتقصدونهم في جلب النفع لكم، أو رفع الضر عنكم زاعمين أنهم يقربونكم إلى الله زلفى، أو يشفعون لكم عنده في الآخرة.

والخلاصة: أن الله وحده هو الذي يتولى أمر العباد بالتدبير والخلق والتشريع، وله وحده الخلق والأمر، وبيده النفع والضر. وقرأ الجحدري: ﴿ابتغوا ما أنزل إليكم﴾ من الابتغاء. وقرأ مجاهد ومالك بن دينار: ﴿ولا

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

تبتغوا﴾ من الابتغاء أيضاً.

﴿قَلِيلًا مَّا﴾؛ أي: تذكراً قليلاً؛ أي: قلة أو زماناً قليلاً؛ أي: قلة ﴿تذكرون﴾؛ أي: تتعظون أيها المشركون حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره. والمعنى[1]: أنتم ما تتعظون بقليل ولا كثير، والمراد: نفي التذكر من أصله، لا إثبات القليل منه. وفي هذا إيماء إلى النهي عن طاعة الخلق في أمر الدين غير ما أنزل الله من وحيه، كما فعل أهل الكتاب في طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم، وزادوا على الوحي من العبادات، وما حرموا عليهم من المباحات كما جاء في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فكل من أطاع أحداً في حكم شرعي لم ينزله الله.. فقد اتخذه رباً.

واتباع الرسول ﷺ فيما صح عنه من بيان الدين داخل في عموم ما أنزل إلينا على رسوله؛ لأنه تعالى أمرنا باتباعه وطاعته، وأخبرنا أنه مبين لما نزل إليه كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وقد صح الحديث أنه ﷺ قال: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» رواه مسلم (٢٣٦٢) عن رافع بن خديج في مسألة تأبير النخل - تلقيح النخلة بطلع الذكر -.

وقرأ حفص وحمزة والكسائي[2]: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ - بتاء واحدة وتخفيف الذال -. وقرأ ابن عامر ﴿يتذكرون﴾ - بالياء والتاء وتخفيف الذال -. وقرأ باقي السبعة: ﴿تذَّكّرون﴾ بتاء الخطاب وتشديد الذال. وقرأ أبو الدرداء وابن عباس وابن عامر في رواية بتائين. وقرأ مجاهد بياء وتشديد الذال.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وكثير من أهل قرية وبلدة ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾؛ أي: أردنا إهلاك أهلها لما كذبوا رسلنا ﴿فَجَآءَهَا﴾؛ أي: فجاء أهلها ﴿بَأْسُنَا﴾؛ أي: عذابنا ﴿بَيَـٰتًا﴾؛ أي: حالة كونهم بائتين واقعين في الليل كقوم لوط ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾؛ أي: أو حالة كونهم قائلين؛ أي: مستريحين أو نائمين وقت الظهيرة كقوم

---

(١) تنوير المقياس.

(٢) البحر المحيط.

شعيب، مأخوذ من القيلولة؛ وهي استراحة وسط النهار، وإن لم يكن معها نوم. قال أبو حيان[1]: وخص مجيء البأس بهذين الوقتين؛ لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة، فمجيء العذاب فيهما أشق وأفظع؛ لأنه على حين غفلة من المهلكين من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب بهم، وفيه وعيد وتخويف للكفار، فكأنه قيل لهم: لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة والفراغ، فإن عذاب الله إذا نزل دفعة واحدة، فلا تغتروا بأحوالكم فلا يجمل بالعاقل أن يأمن غدر الليالي، ولا خدع الأيام، ولا يغتر بالرخاء فيعده علامة على أنه مستحق له، فهو مظنة الدوام.

وفي ذلك[2]: تعريض بغرور كفار قريش بقوتهم وثروتهم وعزهم وعصبيتهم، وأن ذلك من دلائل رضا الله عنهم كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾؛ أي: دعاءهم وتضرعهم واستغاثتهم، أو ما كان قولهم: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾؛ أي: حين جاءهم عذابنا، ورأوا أمارته في الدنيا إلا أن قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: مشركين؛ أي: ما كان قولهم وقتئذ إلا اعترافهم بظلمهم تحصراً وندامة، وهيهات أن ينفع الندم.

أي: فما كان دعاءهم ربهم واستغاثتهم به حين جاءهم العذاب إلا أن اعترفوا بظلمهم فيما كانوا عليه، وشهدوا ببطلانه تحسراً وندامة، وطمعاً في الخلاص، ولكن أنى ينفع الندم، وقد أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة. وفي الآية من العبرة أن كل مذنب يقع عليه عقاب ذنب فعله في الدنيا.. يعترف بجرمه، ويندم على ما فرط منه إذا هو علم أنه سبب العقاب، وقلما يشعر المرء بعقاب في الدنيا على الذنوب؛ لأنه يأتي على التراخي غالباً، فالأمراض التي تتولد من شرب الخمر كأمراض القلب والكبد والجهاز التناسلي، وضعف النسل واستعداده للأمراض إلى نحو ذلك من الأمراض الجسدية والعقلية تحصل ببطء،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وقلما يعرفها غير الأطباء، ومن ثم لا يشعر بها السكارى، وإنما يشعرون بما يعقب الشرب من صداع وغشيان يسهل عليهم احتماله، وترجيح لذة النشوة عليه إلى أنه لو علمها بعد، فقلما يفيد علمه بها شيئاً بعد بلوغ تأثيرها هذه الدرجة في السكر حتى تحمله على التوبة إذ داء الخُمّار يزمن، وحب السكر يضعف الإرادة. وعقاب الأفراد على الذنوب في الدنيا لا يطرد في الأمم، فعقابها في الدنيا على ما تجترح حتم لا شبهة فيه، ولكن له آجال ومواقيت أطول مما يكون في الأفراد، ويختلف باختلاف أحوال الأمة في القوة والضعف، فأمة نشأ فيها الظلم والطغيان، وعدمت الثقة بين أفرادها، واختلَّ نظام الأمن فيها، وكثر فيها الفسق والفجور.. تسوء حالها، وتنحل قواها، وتتفكك روابط الألفة والمودة بين أفرادها، وتضعف منعتها، فتحسب أهلها جميعاً وقلوبهم شتى، ولا يزال أمرها يأخذ في التدهور ـ السقوط في مهواة التسفل ـ والفساد حتى يستولى عليها العدو القاهر، ويمتص ثروتها، ويجعل أهلها أذلة مستضعفين، وقلما تشعر أمة بعاقبة ذنوبها قبل وقوع العقوبة كما لا يجديها نفعاً أن يقول حكماؤها: يا ويلنا إنا كنا ظالمين.

وربما عمَّها الجهل، وران على قلوبها الفساد، فلا تشعر بأن ما حل بها إنما كان جزاء وفاقاً، ونكالاً من الله على ما قدمت من عمل، واقترفت من إثم، فترضى باستذلال الغاصب واستعباده واستثماره، كما رضيت من قبل بما اجترحت من الآثام والذنوب، كما هو مشاهد في بعض شعوب إفريقيا، وإذا أرادت لها علاجاً، وتمنت لها دواء من دائها الدوي، وتلفتت يمنة ويسرة سراً وعلانيةً.. لم تجده إلا ما وصفه الكتاب الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ولن يكون ذلك إلا بالإقلاع عما ترتكب من الجرائم، والتوبة الصادقة، والعمل الطيب الذي تصلح به القلوب، وتستقيم الأمور، وهاكم ما قاله العباس عم النبي ﷺ حين توسل به عمر والصحابة بتقديمه لصلاة الاستسقاء لما انقطع الغيث، وعم الجدب: اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة.

وفي هذا عبرة أيما عبرة للشعوب الإسلامية التي ثُلَّت عروشها، وخوت صروح عظمتها، وقد كانت أجدر بهدى القرآن، ولكن أنى لها بذلك، وقد هجره

الخاصة، وتبعهم العامة؛ إذ جهلوا أحكامه وحكمه حتى لقد بلغ الأمر بنابتتها، ألا ترى سبباً لركود ريحها إلا اتباع القرآن، والعمل بهذا الدين: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

﴿فـ﴾ وعزتي وجلالي ﴿لنسألن﴾ الأمم ﴿الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: الأمم التي أرسلت إليهم الرسل جميعاً في موقف الحساب يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً لهم هل بلغت الرسل إليكم أوامري، وماذا أجبتم، وماذا عملتم من إيمان وكفر؟ ولا[1] معارضة بين هذه الآية التي تثبت السؤال العام، وبين قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾﴾ وقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لأن ليوم القيامة مواقف متعددة، والسؤال والجواب والاعتذار يكون في بعضها دون بعض.

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: الرسل عن إبلاغ تكاليفي إلى الأمم تأنيساً واستشهاداً لهم. قال ابن عباس: معناه نسأل الناس عما أجابوا المرسلين، ونسأل المرسلين عما بلغوه، والمراد بالسؤال حينئذ تقريع الكفار وتوبيخهم كما مر.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على المرسلين والأمم حين سكتوا بما عملوا في الدنيا ﴿بِعِلْمٍ﴾؛ أي: فلنخبرنهم حين سكتوا عن الجواب بما فعلوا في الدنيا إخباراً ناشئاً عن علم ويقين.

أي: فلنقصن على الرسل، وعلى أقوامهم الذين أرسلوا إليهم كل ما وقع من الفريقين قصصاً بعلم منا محيط بكل ما كان منهم، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، وقد روي عن ابن عباس أنه يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما يعملون.

﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عن إبلاغ الرسل، وعما أجابت به أممهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم؛ أي: وما كنا غائبين عنهم في وقت من الأوقات، ولا حال من الأحوال، بل كنا معهم نسمع ما يقولون، ونبصر ما يعملون، ونحيط

---

(١) المراغي.

علماً بما يسرون وما يعلنون كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾. وقال ابن كثير: يخبر[1] تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا، وبما عملوا من قليل وكثير، وجليل وحقير؛ لأنه تعالى الشهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، انتهى. وقال أبو حيان: والمعنى: نسرد عليهم أعمالهم قصة قصة بعلم منا لذلك، واطلاع عليه، وما كنا غائبين عن شيء منه، بل علمنا محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وهذا من أعظم التوبيخ والتقريع، حيث يقرون بالظلم، وتشهد عليهم أنبياؤهم، ويقص عليهم أعمالهم انتهى. وفي هذا إيماء إلى أن السؤال لم يكن للاستعلام والاستبانة لشيء مجهول عنه تعالى، بل للإعلام والإخبار بما حدث منهم توبيخاً لهم، وتأنيباً على إهمالهم. وهذا القصص[2] هو الذي يكون به الحساب، ويتلوه الجزاء، وقد دل عليه الكتاب الكريم في مواضع عدة، ودلت عليه السنة، فمن ذلك ما رواه ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع يسأل عن الناس، والرجل راع يسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده».

وما رواه المقدام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة بين يديه راية يحملها، ويتبعونه فيسأل عنهم ويسألون عنه».

وما رواه الترمذي عن أبي برزة الأسلمي مرفوعاً «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه».

وروى الحاكم وابن ماجه حديث شداد بن أوس مرفوعاً «الكيس من دان ـ حاسب ـ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

---

(١) ابن كثير.

(٢) المراغي.

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾؛ أي: وزن[1] الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، أو وزن صحائف الأعمال، أو وزن فاعليها ثلاثة أقوال: والأول هو الراجح، والوزن: هو عمل يراد به تعرف مقدار الشيء بالميزان، وهو مبتدأ خبره ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وقوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة للوزن؛ أي: والوزن العدل السوي واقع يومئذ؛ أي: يوم إذ يسأل الله تعالى الرسل وأممهم؛ وهو يوم القيامة ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ ويصح أن يكون الظرف صفة له، والخبر الحق؛ أي: والوزن[2] الواقع في ذلك اليوم الذي يسأل الله فيه الرسل والأمم، ويقص عليهم كل ما كان منهم هو الحق؛ أي الذي تعرف به حقائق الأمور وما يستحقه كل أحد من ثواب وعقاب.

فإن قلت: أليس[3] الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد، فما الحكمة في وزنها؟.

قلتُ: فيه حكم كثيرة:

منها: إظهار العدل، وأن الله تعالى لا يظلم عباده.

ومنها: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا، وإقامة الحجة عليهم في العقبى.

ومنها: تعريف العباد ما لهم من خير وشر، وحسنة وسيئة.

ومنها: إظهار علامة السعادة والشقاوة، ونظيره أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ، ثم في صحائف الملائكة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه تعالى.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ﴾ ورجحت ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ أي: حسناته على سيئاته؛ فهو[4] جمع موزون، وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات والحسنات، أو المعنى: فمن رجحت وثقلت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات؛ أي: ثقلت كفة اليمين بسبب قوة الإيمان وكثرة الحسنات على كفة الشمال؛ فهو جمع ميزان، فجمعه حينئذ

---

(١) مدارك التنزيل.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.
(٤) البيضاوي.

للتعظيم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ أي[1]: الناجون غداً من عذاب الله، والفائزون بجزيل ثوابه.

أي: فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرت الحسنات.. فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب، والحائزون للنعيم في دار الثواب ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ﴾ ونقصت ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ أي: حسناته، أو موازين أعماله الحسنة بسبب الكفر وكثرة المعاصي ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ وغبنوا ﴿أَنفُسَهُم﴾ وحرموها سعادتها، وحظوظها من جزيل ثواب الله تعالى وكرامته ﴿بِـ﴾ سبب ﴿ما كانوا بآياتنا يظلمون﴾؛ أي: يجحدون؛ أي: بسبب كفرهم وجحودهم، وتكذيبهم بمحمد ﷺ وبالقرآن؛ وهم الكفار، يعني[2]: سبب ذلك الخسران أنهم كانوا بحجج الله وأدلة توحيده يجحدون ولا يقرون بها.

والمعنى: ومن خفت موازين أعماله بسبب خفة الحسنات في الميزان أو بسبب الأعمال التي لا اعتداد بها في الوزن، أو بسبب كفره وكثرة ما اجترح من السيئات.. فأولئك الموصوفون بخفة الموازين هم الذين خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بآياتنا؛ إذ حرموها السعادة التي كانت مستعدة لها لو لم يفسدوا فطرتها بالكفر والمعاصي، وإصرارهم على ذلك إلى نهاية أعمارهم،

والخلاصة[3]: أن المؤمنين على تفاوت درجاتهم في الأعمال هم المفلحون، فمن مات مؤمناً فهو مفلح، وإن عذب على بعض ذنوبه بمقدارها، وإن الكافرين على تفاوت دركاتهم هم في خسران عظيم، وهناك فريق ثالث استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهم أصحاب الأعراف، وسيأتي ذكرهم بعد.

والحكمة في وضع ذلك الميزان[4]: أن يظهر ذلك الرجحان لأهل الموقف، فإن كان ظهور الرجحان في طرف الحسنات ازداد سروره بسبب ظهور فضله، وكمال درجته لأهل الموقف، فإن كان ظهور الرجحان في طرف السيئات، فيزداد حزنه وخوفه في الموقف.

---

(١) الخازن.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.
(٤) المراح.

ثم اختلفوا في كيفية ذلك الرجحان، فبعضهم قال: يظهر هناك نور في رجحان الحسنات، وظلمة في رجحان السيئات. وآخرون قالوا: بل يظهر رجحان في الكفة.

قال العلماء: الناس في الآخرة ثلاث طبقات: متقون لا كبائر لهم، وكفار، ومخلّطون وهم الذين يأتون الكبائر:

فأما المتقون: فإن حسناتهم توضع في الكفة النيرة، وصغائرهم لا يجعل الله لها وزناً، بل تكفر صغائرهم باجتنابهم الكبائر، وتثقل الكفة النيرة، ويؤمر بهم إلى الجنة، ويثاب كل واحد منهم بقدر حسناته.

وأما الكافر: فإنه يوضع كفره في الكفة المظلمة، ولا توجد له حسنة توضع في الكفة الأخرى، فتبقى فارغة، فيأمر الله تعالى بهم إلى النار، ويعذب كل واحد منهم بقدر أوزاره.

وأما الذين خلطوا: فحسناتهم توضع في الكفة النيرة، وسيئاتهم في الكفة المظلمة، فيكون لكبائرهم ثقل، فإن كانت الحسنات أثقل، ولو بصؤْأَبةٍ دخل الجنة، وإن كانت السيئات أثقل ولو بصوأبة دخل النار إلا أن يعفو الله، وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف. هذا إن كانت الكبائر فيما بينه وبين الله، وأما إن كان عليه تبعات، وكانت له حسنات كثيرة جداً، فإنه يؤخذ من حسناته فيرد على المظلوم، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم، فيحمل على الظالم من أوزار من ظلمه، ثم يعذب على الجميع.

قال أبو إسحاق الزجاج[1]: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال. وقال القرطبي: التي توزن هي الصحائف التي تكتب فيها الأعمال، والحق أن التي توزن هي الأعمال. فقد أخرج أبو داود والترمذي عن جابر مرفوعاً: «توضع الموازين يوم القيامة، فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على

---

(١) المراغي.

سيئاته مثقال حبة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة دخل النار». قيل: ومن استوت حسناته وسيئاته قال: أولئك أصحاب الأعراف.

والذي[1] عليه المعول في الإيمان بعالم الغيب أن كل ما ثبت من أخباره في الكتاب والسنة؛ فهو حق لا ريب فيه، فنؤمن به ولا نحكم رأينا في كيفيته، فنؤمن بأن في الآخرة وزناً للأعمال بميزان يليق بعالم الآخرة توزن به الأعمال، والإيمان، والأخلاق، ولا نبحث عن صورته وكيفيته.

﴿و﴾ عزتي وجلالي ﴿لقد مكناكم﴾ يا بني آدم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جعلنا لكم في الأرض مكاناً وقراراً، وأقدرناكم على الصرف فيها بالزراعة والغراس والبناء. وقال البيضاوي: أي مكناكم من سكناها وزرعها، والتصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿مَعَٰيِشَ﴾ جمع معيشة، وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها؛ أي: جعلنا لكم فيها أسباباً تعيشون بها أيام حياتكم مما تأكلون وتشربون وتلبسون ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى؛ أي: تشكرون شكراً قليلاً؛ أي: قلة على هذا الفضل والإنعام بالتمكين والجعل المذكورين.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَعَٰيِشَ﴾ ـ بالياء ـ وهو القياس؛ لأن الياء في المفرد هي أصل لا زائدة، فتهمز، وإنما تهمز الزائدة نحو صحائف في صحيفة. وقرأ الأعرج وزيد بن علي والأعمش وخارجة عن نافع وابن عامر في رواية: ﴿معائش﴾ ـ بالهمز ـ وليس بالقياس، لكنهم رووه وهم ثقات، فوجب قبوله، وشذ هذا الهمز كما شذ في منائر جمع منارة، وأصلها منورة، وكان القياس مناور.

والمعنى[3]: وعزتي وجلالي لقد جعلنا لكم يا بني آدم في الأرض أوطاناً تتبؤونها وتستقرون فيها، وجعلنا لكم فيها معايش تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب نعمة مني عليكم، وإحساناً مني إليكم، وأنشأنا لكم فيها ضروباً شتى من المنافع التي تعيشون بها عيشة راضية من نبات وأنعام، وطير وسمك، ومياه عذبة وأشربة مختلفة الطعوم والروائح، ووسائل مختلفة للتنقل والارتحال

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

من جهة إلى أخرى، تتقدم بتقدم العلم والاختراع من طيارات وسيارات، وقطر برية، وبواخر وسفن بحرية، وسبل متعددة لمداواة المرضى بالعقاقير المختلفة على يد نطس الأطباء إلى نحو ذلك، وكل ذلك يقتضي منكم الشكر الكثير، ولكن الشكر من العباد قليل كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ومن ثم عقب هذا بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: وأنتم قليلوا الشكر على هذه النعم التي أنعمت بها عليكم لا كثيروه كثرة تناسب كثرة الانتفاع بها، فقد عبدتم سواي واتخذتم الأولياء والشفعاء من دوني.

وشكر النعمة يكون بمعرفة المنعم بها، ثم حمده والثناء عليه بما هو له أهل، ثم التصرف فيها بما يحبه ويرضاه وتحقيق الأغراض التي أسداها لأجلها، فهذه النعم المُعْيِشَة ما خلقت إلا لحفظ الحياة الروحية التي بها تزكو النفس، وتستعد للحياة الأخرى الأبدية التي فيها النعيم المقيم، والسعادة المستقرة إلى غير نهاية.

وبالجملة: فنعم الله على الإنسان كثيرة، فلا إنسان إلا ويشكر الله تعالى في بعض الأوقات على نعمه، وإنما التفاوت في أن بعضهم يكون كثير الشكر، وبعضهم يكون قليل الشكر.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ...﴾ إلخ. تذكير[1] لنعمة عظيمة على آدم سارية إلى ذريته موجبة لشكرهم كافةً؛ أي: وعزتي وجلالي لقد خلقنا أباكم آدم، وأوجدناه من العدم حين كان طيناً غير مصور ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾؛ أي: ثم بعد خلقه صورناه حين كان بشراً بتخطيطه وشق حواسه، فالكلام على حذف مضاف كما قدرناه، فالخطاب لبني آدم، والمراد أبوهم، فهو من باب الخطاب لشخص مراداً به غيره. وقيل: الخطاب لآدم، فكأنه قال: ولقد خلقناك يا آدم، ثم صورناك، وإنما خاطبه بصيغة الجمع، وهو واحد تعظيماً له، ولأنه أصل الجميع.

والمعنى: ولقد خلقنا مادة هذا النوع الإنساني من الصلصال والحماء المسنون؛ أي: من الماء والطين اللازب، فمنه خلق الإنسان الأول، ثم جعلنا

---

(١) أبو السعود.

من تلك المادة صورة بشر سوي قابل للحياة، وقد يكون المعنى: إنا قدرنا إيجادكم تقديراً، ثم صورنا مادتكم تصويراً، ذلك شامل لخلق آدم وخلق مجموع الناس إذ أن كل فرد يقدر الله خلقه، ثم يصور المادة التي يخلقه منها في بطن أمه.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إكمال خلقه وتصويره ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾؛ أي: أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ولذريته سجود تحية وإكرام بالانحناء. فالمراد[1] به السجود اللغوي، وهو الانحناء، وقيل: إن السجود شرعي بوضع الجبهة على الأرض للَّهِ، وآدم قبلة كالكعبة ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾؛ أي: سجد الملائكة بعد الأمر؛ أي: سجد جميعهم لآدم، وذلك قبل دخول الجنة ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أبا الجن كان مفرداً مستوراً بألوف من الملائكة متصفاً بصفاتهم، فَغُلِّبوا عليه في قوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ...﴾ الخ، وقيل: هو أبو الشياطين فرقة من الجن لم يؤمن منهم أحد؛ أي: سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى وامتنع من السجود له تكبراً وعناداً، فالاستثناء منقطع ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ له؛ أي: ممن سجدوا له.

والمعنى: وبعد أن سويناه ونفخنا فيه من روحنا، وصار مستعداً لأن يكون خليفة في الأرض، وعلمناه الأسماء كلها.. قلنا لجماعة الملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أي: سجد الملائكة جميعاً إلا إبليس أبى واستكبر، وهو من الجن لا منهم، وهذا السجود سجود تكريم وتعظيم من الله لآدم، لا سجود عبادة، فقد قامت الدلائل القاطعة على أنه لا معبود إلا الله وحده.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى توبيخاً للَّعين ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ يا إبليس ﴿أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ بالسجود لآدم مع الملائكة؛ أي: أيُّ شيء منعك من السجود لآدم حين أمرتك بالسجود له؟ فعلى[2] هذا التأويل تكون ﴿لا﴾ زائدة في قوله: ﴿أن لا تسجد﴾ كما في قوله تعالى: ﴿لا أقسم﴾؛ أي: أقسم زيدت لتأكيد معنى النفي في منعك بدليل قوله في سورة صٓ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ بحذفها، وهو الأصل؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فيصير المعنى؛ أي شيء منعك من امتثال أمري،

(١) الصاوي. (٢) الخازن.

فرفضت أن تسجد لآدم مع الساجدين؟ وهذا قول الكسائي والفراء والزجاج. وقد تكون ﴿لا﴾ غير زائدة، والمنع بمعنى الحمل والاضطرار، وعليه فالمعنى: ما حملك واضطرك ودعاك إلى أن لا تسجد.

وخلاصة ذلك: أي شيء عرض لك، فحملك على أن لا تكون مع الملائكة في امتثال أمري؟ وقال ابن[1] كثير: واختار ابن جرير أن ﴿مَنَعَكَ﴾ مضمن معنى فعل آخر تقديره: ما أحوجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، وهذا القول قوي حسن، لأنه[2] لا يجوز أن يقال: إن كلمة من كتاب الله تعالى زائدة أو لا معنى لها.

﴿قَالَ﴾ اللعين الخبيث مجيباً للمولى عما سأله عنه ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾؛ أي: إنما لم أسجد لآدم؛ لأني أنا خير وأفضل من آدم وأشرف منه، فكيف يسجد الفاضل ويعظم المفضول ولو أمره ربه؟ وإنما[3] قال في الجواب: أنا خير منه، ولم يقل منعني كذا؛ لأنّ في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع، وهو اعتقاده أنه أفضل منه، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيده هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله، ثم علل ما ادعاه من الخيرية بقوله: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾؛ أي: وإنما كنت خيراً منه؛ لأنني خلقتني من نار نورانية، فهي أغلب أجزائي ﴿وَخَلَقۡتَهُۥ﴾؛ أي: وخلقت آدم ﴿مِن طِينٖ﴾ ظلماني، وهو أغلب أجزائه، فالنار أفضل من الطين؛ لأن النار مشرقة علوية لطيفة يابسة، مجاورة لجواهر السموات، والطين مظلم سفلي كثيف بعيد عن مجاورة السموات، والمخلوق من الأفضل أفضل.

وقد أخطأ إبليس اللعين طريق الصواب، فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزانته وسكونه وطول بقائه، والنار خفيفة مضطربة سريعة النفاد، ومع هذا فهو موجود في الجنة دونها، وهي عذاب دونه، وهي محتاجة إليه لتتحيز فيه، وهو مسجد وطهور، وهو سبب للحياة من إنبات النبات، وهي سبب لهلاك الأشياء، وهو سبب جمع الأشياء، وهي سبب تفريقها، ولولا سبق شقاوته

---

(١) ابن كثير. (٢) الخازن. (٣) الشوكاني.

وصدق كلمة الله عليه.. لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقدوة، فعنصرهم النوري أشرف من عنصره الناري، ومع ذلك سجدوا طاعةً لربهم.

ولا شك[1] أن في جوابه هذا ضروباً من الجهالة، وأنواعاً من الفسوق والعصيان، تتجلى وتتضح لك فيما يلي:

١ ـ اعتراضه على مولاه وخالقه بما تضمنه جوابه.

٢ ـ احتجاجه عليه بما يؤيد به اعتراضه، والمؤمن المذعن لأمر ربه يعلم أن لله الحجة البالغة والحكمة الكاملة فيما يفعل، ويأمر وينهى.

٣ ـ أنه جعل امتثال الأمر موقوفاً على استحسانه له، وموافقته لهواه، وهذا رفض لطاعة الخالق، وترفع عن مرتبة العبودية، والمرؤوس في الدنيا إذا لم يطع أمر الرئيس إلا فيما يوافق هواه.. صار الأمر فوضى، والعاقبة وخيمة. فلا يصح عمل، ولا يتم الفوز والنجاح.

وقد روى أبو نعيم في «الحلية» عن جعفر الصادق أن رسول الله ﷺ قال: «أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم. قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين». قال جعفر: فمن قاس أمر الدين برأيه قربه الله يوم القيامة بإبليس.

٤ ـ استدلاله على خيريته بالمادة التي منها التكوين، وخيرية المواد بعضها على بعض أمور اعتبارية تختلف فيها الآراء، ولا تثبت بالبرهان إلى أن كثيراً من المواد النفسية خسيسة الأصل، ألا ترى أن أصل المسك الدم؛ وهو أطيب الطيب إلى أن الملائكة خلقوا من النور، وهو قد خلق من النار، والنور خير من النار، وهم قد سجدوا امتثالاً لأمر ربهم.

٥ ـ أن جميع الأحياء النباتية والحيوانية التي في هذه الأرض إما من الطين مباشرة، أو بالواسطة، وهي خير ما فيها، وليس للنار شيء من هذه المزايا ولا ما يقرب منها.

---

(١) المراغي.

٦ ـ أنه قد جهل ما خص به آدم من استعداده العلمي والعملي أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، فكان بذلك أفضل منهم، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة وبالطاعة لربهم، وكل ما قدمنا مبني على أن الأمر بالسجود أمر تكليف، وأنه قد وقع حوار بين الله وإبليس، ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان؛ إذ جعل الملائكة ـ وهم المدبرون لأمور الأرض بإذن ربهم ـ مسخرين لآدم وذرتيه، وجعل هذا النوع الإنساني مستعداً للانتفاع بالأرض كلها بعلمه بسنن الله فيها وعمله بهذه السنن، فالانتفاع بمائها وهوائها، ومعادنها ونباتها وحيوانها، وكهربائها ونورها، وبذلك ظهرت حكمة الله وآياته فيها كما اصطفى بعض أفراده، وخصهم بوحيه ورسالته، وجعلهم مبشرين بدينه وهديه، وجعل الشيطان عاصياً متمرداً على الإنسان وعدواً له، وجعل النفوس البشرية وسطاً بين النفوس الملكية المفطورة على طاعة الله تعالى، وإقامة سننه في صلاح الخلق، وبين روح الجن الذي يغلب على شرارهم ـ وهم الشياطين ـ التمرد والعصيان، كما أنه آتى الإنسان إرادة واختياراً وإن شاء صعد إلى أفق الملائكة، وإن أراد هبط إلى أفق الشيطان.

فائدة: قال هنا[1]: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ وفي سورة الحجر: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ وفي سورة صۤ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ..﴾ الآية. اختلاف العبارات عند الحكاية: دل على أن اللعين قد أدرج في معصية واحدة ثلاث معاص: مخالفة الأمر، ومفارقة الجماعة، والاستكبار مع تحقير آدم. وقد وبخ على كل واحدة منها، لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه: اكتفاء بما ذكر في موطن آخر، وقد تركت حكاية التوبيخ رأساً في سورة البقرة والإسراء والكهف وطه اهـ «أبو السعود» انتهت.

﴿قَالَ﴾ المولى سبحانه وتعالى للعين عليه لعائن الله ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾؛ أي[2]: بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي اهبط وانزل من الجنة، وقيل: من

---

(١) الصاوي. (٢) ابن كثير.

السموات إلى الأرض. والهبوط[1]: الإنزال والانحدار من فوق على سبيل القهر والهوان والاستخفاف ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾؛ أي: فما ينبغي لك ويليق بك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ﴾ وتتعظم وتعصي ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة، أو في السموات، فإنها[2] مكان الخاشع والمطيع، وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة، وأنه سبحانه وتعالى إنما طرده وأهبطه؛ لتكبره لا لمجرد عصيانه. وقال الخازن: يعني: فليس لك أن تتكبر في الجنة عن أمري وطاعتي؛ لأنه لا ينبغي أن يسكن في الجنة، أو في السماء متكبر مخالف لأمر الله عز وجل، فأما غير الجنة والسماء.. فقد يسكنها المتكبر عن طاعة الله تعالى، وهم الكفار الساكنون في الأرض. وجملة قوله: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ لتأكيد الأمر بالهبوط. وجملة قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ تعليل للأمر بالخروج؛ أي: فاخرج يا إبليس من الجنة، أو من السموات إنك يا لعين من الصاغرين؛ أي: من المهانين الذليلين بالعقوبة. وقال النسفي: أي[3] من أهل الصغار والهوان على الله، وعلى أوليائه يذمك كل إنسان، ويلعنك كل لسان؛ لتكبرك، وبه علم أن الصغار لازم للاستكبار، وهكذا كل من تردى برداء الاستكبار.. عوقب بلبس رداء الهوان والصغار، ومن لبس رداء التواضع.. ألبسه الله رداء الترفع. وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله».

﴿قَالَ﴾ اللعين عند أمر المولى له بالخروج ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾؛ أي: أجلني وأمهلني وأخرني، فلا تمتني، أو لا تعجل عقوبتي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: قال رب أمهلني إلى يوم يبعث فيه آدم وذريته من قبورهم، فأكون أنا وذريتي أحياء ما داموا أحياء، وأشهد انقراضهم وبعثهم، وهو يوم النفخة الثانية عند قيام الساعة، ولا موت حينئذ؛ لأن الموت قد تم عند النفخة الأولى، فغرضه الفرار من الموت، والنجاة من ذوق مرارته، فطلب البقاء والخلود، فلم يجب إلى ما سأل، بل غاية ما أمهله الله تعالى إلى النفخة الأولى ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى في جواب سؤاله: ﴿إِنَّكَ﴾ يا إبليس ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: من المؤجلين والمؤخرين

(١) الخازن. (٢) البيضاوي. (٣) النسفي.

والممهلين إلى يوم النفخة الأولى حين يموت الخلائق كلهم بدليل قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وهو وقت النفخة الأولى، والموت حينئذ ممكن فيموت كغيره.

والخلاصة: أن إبليس يموت عقب النفخة الأولى التي يتلوها خراب هذه الأرض كما قال في سورة الحاقة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ ولا يبقى إلى يوم البعث.

﴿قَالَ﴾ إبليس اللعين ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ وأضللتني؛ أي: فبسبب إغوائك وإضلالك إياي يا رب؛ لأجل آدم وذريته أقسم لك بقولي: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾؛ أي: لأجلسن مترصداً ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لآدم وذريته ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: على طريقك الحق الموصل لهم إلى الجنة مترصداً لهم كما يقعد القطاع على الطريق انتهاباً للمارة. قال في «الجمل»: فغرض[1] إبليس اللعين بهذا أخذ ثأره منهم؛ لأنه لما طرد ومقت بسببهم على ما تقدم.. أحب أن ينتقم منهم أخذاً بالثأر. وفي «السمين»: والمعنى: فبسبب وقوعي في الغيِّ لأجتهدن في غوايتهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم.

والمعنى: فبسبب إغوائك إياي لأجلهم؛ لأقعدنّ لهم على صراطك المستقيم، فأصدنهم عنه وأقطعنه عليهم بأن أزين لهم طرقاً أخرى أشرعها لهم من جوانب هذا الطريق حتى يضلوا عنه، وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: لأشككنهم[2] في الآخرة بأن لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: لأرغبنهم في الدنيا، وأزيننها لهم بأنها لا تفنى، وآمرنهم بالجمع لها، والمنع والبخل والفساد ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: وَلأُشبِّهنَّ عليهم أمر دينهم وأمنعنهم من الحسنات ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾؛ أي: ولأُزينن لهم المعاصي، وآمرنهم بالسيئات، قال الطبري: معناه: لآتينهم[3] من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدنهم عن الحق، وأحسنن لهم الباطل. قال ابن عباس: ولا

(١) الفتوحات. (٢) تنوير المقباس. (٣) ابن جرير.

يستطيع أن يأتيهم من فوقهم؛ لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى. وقال النسفي: ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم؛ لمكان الرحمة والسجدة ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ يا رب ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر بني آدم ﴿شَٰكِرِينَ﴾ لك على نعمك التي أنعمت بها عليهم في عقولهم ومشاعرهم ومعايشهم وفي كل ما يهديهم إلى تكميل فطرتهم من تعاليم رسلك لهم، بل الأقلون منهم هم الذين يتبعون ذلك، وقد قال إبليس ذلك عن ظن، فأصاب لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾. وقيل: رآه في اللوح المحفوظ، وقيل: سمعه من الملائكة، وقيل: معنى ﴿شَٰكِرِينَ﴾ مطيعين لك، أو مؤمنين بك.

قال أبو حيان(١): والظاهر أن إتيانه من هذه الجهات الأربع كناية عن وسوسته وإغوائه له، والجد في إضلاله من كل وجه يمكن، ولما كانت هذه الجهات يأتي منها العدو غالباً ذكرها، لا أنه يأتي من الجهات الأربع حقيقة، وإنما خص بين الأيدي والخلف بحرف الابتداء الذي هو أمكن في الإتيان؛ لأنهما أغلب ما يجيء العدو منهما، فينال فرصته وقدم بين الأيدي على الخلف؛ لأنها الجهة التي تدل على إقدام العدو وبسالته في مواجهة قرنه غير خائف منه، والخلف من جهة غدر ومخاتلة، وجهالة القرن بمن يغتاله، ويتطلب غرته وغفلته، وخص الأيمان والشمائل بالحرف الذي يدل على المجاوزة؛ لأنهما ليستا بأغلب ما يأتي منهما العدو، وإنما يتجاوز إتيانه إلى الجهة التي هي أغلب في ذلك، وقدمت الأيمان على الشمائل؛ لأنها الجهة التي هي القوية في ملاقاة العدو، وبالأيمان البطش والدفع، فالقرن الذي يأتي من جهتها أبسل وأشجع إذ جاء من الجهة التي هي أقوى في الدفع والشمائل جهة ليست في القوة والدفع كالإيمان انتهى.

﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالى لإبليس اللعين حين طرده عن بابه، وأبعده عن جنابه، وذلك بسبب مخالفته وعصيانه ﴿ٱخْرُجْ﴾ يا إبليس ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الجنة،

---

(١) البحر المحيط.

أو من السموات، فإنه لا ينبغي أن يسكن فيها العصاة حالة كونك ﴿مذؤماً﴾؛ أي: مذموماً مبغوضاً معيباً مهاناً عند كل أحد. وفي «ابن كثير» قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ ما نعرف المذؤوم والمذموم إلا واحداً انتهى. وحالة كونك ﴿مَّدْحُورًا﴾؛ أي: مطروداً مبعداً من رحمتي، والأمر بالخروج هنا تأكيد لقوله سابقاً: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ وتوطئة لما بعده وعزتي وجلالي ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ وأطاعك يا إبليس ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي؛ من بني آدم ومن الجن، فاللام موطئة للقسم، واللام في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ للقسم أيضاً مؤكدة لِلاَّم الأولى؛ أي: والله لأملان وادي جهنم ﴿مِنكُمْ﴾؛ أي: منك ومنهم، فغلب ضمير الحاضر؛ لأنه رئيسهم، وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لضمير المخاطبين، فهذا وعيد بالعذاب لكل من أطاع الشيطان، وترك طاعة الرحمن.

والمعنى: أقسم أن من يتبعك من بني آدم فيما تزينه له من الشرك والفجور، ويصدق ظنك عليه.. ليكونن معك في جهنم دار العذاب، ولأملأنها منك، وممن تبعك منهم أجمعين. وفي قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أن الملء يكون من بعضهم، فإن بعض من يتبعه في بعض المعاصي من المؤمنين الموحدين يغفر الله لهم، ويعفو عنهم، ونحو الآية قول في سورة ص: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقرأ الزهري وأبو جعفر والأعمش(١): ﴿مذُوما﴾ ـ بضم الذال من غير همز ـ فتحتمل هذه القراءة وجهين:

أحدهما ـ وهو الأظهر ـ: أن تكون من ذأم المهموز سهل، وحذفها وألقى حركتها على الذال.

والثاني: أن يكون من ذام يذيم ـ كباع يبيع ـ فأبدل الياء بواو كما قالوا: في مكيل مكول. وقرأ الجمهور: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ ـ بفتح اللام ـ والظاهر أنها اللام الموطئة للقسم، و﴿من﴾ شرطية في موضع رفع على الابتداء، وجواب الشرط

---

(١) البحر المحيط.

محذوف يدل عليه جواب القسم المحذوف قبل اللام الموطئة، ويجوز أن تكون اللام لام الابتداء، و﴿من﴾ موصولة، و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب قسم محذوف بعد ﴿من تبعك﴾ وذلك القسم المحذوف، وجوابه في موضع رفع خبر ﴿من﴾ الموصولة. وقرأ الجحدري وعصمة عن أبي بكر عن عاصم ﴿لِمن تبعك منهم﴾ - بكسر اللام - واختلفوا في تخريجها، فقال ابن عطية: المعنى: لأجل من تبعك منهم لأملأن انتهى. وقال الزمخشري: بمعنى: لمن تبعك منهم الوعيد، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على أن ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ في محل الابتداء، ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ خبره، وهذا خطأ. وقال أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي: اللام متعلقة بالذأم والدحر، ومعناه: أخرج بهاتين الصفتين لأجل اتباعك. ذكر ذلك في كتاب «اللوامح في شواذ القراءات».

الإعراب

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾: تقدم لك في نظيره من الحروف المقطعة أنه لا يوصف بإعراب ولا بناء؛ لأن الحكم على الكلمة بالإعراب، أو البناء فرع عن إدراك المعنى، وليس معناه معلوماً لنا هذا على القول بأنه مما استأثر الله بعلمه، وأما على القول بأنه اسم للسورة؛ فهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا المص، أو مبتدأ خبره: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ﴾ إلى آخر السورة، والجملة الاسمية مستأنفة، وعلى القول الأول ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف جوازاً تقديره: هذا القرآن كتاب أنزل إليك، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿كِتَٰبٌ﴾، والجملة الفعلية صفة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿فَلَا يَكُن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت يا محمد أن هذا القرآن كتاب أنزل إليك للإنذار به وللتذكير، وأردت بيان ما هو الأرشد والأصلح لك.. فأقول لك: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ لأنه لا بد من تبليغه، ﴿لا﴾: ناهية جازمة.

﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿فِي صَدْرِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم لِ﴿يَكُن﴾. ﴿حَرَجٌ﴾: اسمها مؤخر. ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حَرَجٌ﴾، والتقدير: فلا يكن حرج كائن منه كائناً في صدرك، وجملة ﴿يَكُن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة معترضة بين الجار والمجرور ومتعلقه لا محل لها من الإعراب. ﴿لِتُنذِرَ﴾: ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿تنذر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تنذر﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام المتعلقة بـ﴿أُنزِلَ﴾ تقديره: أنزل إليك لإنذارك به ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: معطوف على المصدر المؤول من أن المصدرية، وفعلها مجرور بالكسرة المقدرة للتعذر تقديره: أنزل إليك للإنذار به وللتذكير، ويجوز[1] أن يكون مرفوعاً عطفاً على ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ أي: هذا كتاب وذكرى، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو ذكرى للمؤمنين، وأن يكون منصوباً بفعل من لفظه تقديره: وتذكر به ذكرى؛ أي: تذكرة. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿اللام﴾: إما زائدة في المفعول به تقوية له؛ لأن العامل فرع، والتقدير: وتذكر المؤمنين، وإما متعلقة بمحذوف صفة لـ﴿ذِكْرَىٰ﴾ كما في «السمين»، ﴿المؤمنين﴾: مجرور باللام.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

﴿اتَّبِعُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مَآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾، أو صفة لها. ﴿إِلَيْكُم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ أيضاً، وتكون ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية المجازية، أو متعلق بمحذوف حال؛ إما من الموصول، أو من عائده القائم مقام الفاعل. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾:

---

(١) عمدة المعربين للشارح.

الناهية، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿اتَّبِعُوا﴾. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿لَا تَتَّبِعُوا﴾، أو متعلق بمحذوف حال من ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليه، وإليه ميل الزمخشري، لأنه قال في «تفسيره» أي: لا تتولوا من دونه أحداً من شياطين الإنس والجن؛ ليحملوكم على الأهواء والبدع. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف، أي: تذكراً قليلاً تذكرون، أو صفة لظرف زمان محذوف أيضاً؛ أي: زماناً قليلاً تذكرون، فالمصدر، أو الظرف منصوب بالفعل بعده. وَ﴿مَّا﴾: زائدة زيدت لتأكيد القلة. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾؛ أي: ولا تتبعوا من دونه أولياء حالة كونكم متذكرين قليلاً؛ أي: غير متذكرين أصلاً.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾.

﴿وَكَم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كَمْ﴾: خبرية بمعنى عدد كثير، ولم ترد في القرآن إلا خبرية في محل النصب مفعول مقدم وجوباً؛ لكونه مما يلزم الصدارة حملاً على الاستفهامية لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور بعدها تقديره: وكم من قرية أهلكنا أهلكناها، أو في محل الرفع مبتدأ مبني على السكون لِشبهها بالحرف شبهاً معنوياً؛ لشبهها برب التكثيرية، أو لشبهها بالحرف شبهاً وضعياً. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿قَرْيَةٍ﴾: تمييز لـ﴿كم﴾ منصوب بها، وعلامة نصبه فتحة مقدرة. ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، أو جملة مفسرة للفعل المحذوف، والجملة الاسمية أو الفعلية المحذوفة مستأنفة. ﴿فَجَآءَهَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿جاءها﴾ فعل ومفعول. ﴿بَأْسُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾. ﴿بَيَٰتًا﴾: حال من مفعول ﴿جاء﴾، ولكنه بعد تأويله بمشتق تقديره: حال كونهم بائتين. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع. ﴿هُمْ قَآئِلُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على بياتاً على كونها حالاً من مفعول ﴿جاء﴾ تقديره: أو حالة كونهم قائلين.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾.

﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ ومضاف إليه. ﴿إِذْ﴾: ظرف زمان بمعنى حين مجرد عن معنى المضي في محل النصب على الظرفية مبني على السكون. ﴿جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾: فعل ومفعول وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾، والظرف متعلق بـ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿كَانَ﴾ تقديره: فما كان دعواهم وقت مجيء بأسنا إياهم إلا قولهم: إنا كنا ظالمين، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها معطوفة على جملة قوله: ﴿جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾. ﴿إِنَّا﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿نا﴾: اسمها. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿ظَٰلِمِينَ﴾: خبرها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ تقديره: إنا ظالمون، وجملة ﴿إن﴾: من اسمها وخبرها في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب لترتيب الأحوال الأخروية على الدنيوية في الذكر حسب ترتيبها عليها في الوجود انتهى. «أبو السعود»، ﴿اللام﴾: موطئة لقسم محذوف جوازاً تقديره: فأقسم بعزتي وجلالي، ﴿نسألن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب مبني على الفتح، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مع جوابه معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول أول لسأل مبني على الفتح والمفعول الثاني محذوف تقديره عما أجابوا الرسل. ﴿أُرْسِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: موطئة لقسم محذوف،

﴿نسألن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: مفعول أول لسأل، والثاني محذوف تقديره: عما أجيبوا، والجملة الفعلية جواب القسم وجملة القسم معطوفة على جملة القسم المذكورة قبلها. ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿نقصن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جواب القسم، وجملة القسم المحذوف معطوفة على جملة القسم المذكورة قبلها. ﴿عَلَيْهِم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نقصن﴾. ﴿بِعِلْمٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿نقصن﴾ تقديره: حالة كوننا متلبسين بعلم ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: واو الحال. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿غَآئِبِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿نقصن﴾.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الوزن﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، وهو مضاف، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر مضاف إليه مبني بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين، والظرف متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه خبراً تقديره: والوزن كائن، أو مستقر يومئذ؛ أي: يومئذٍ يسأل الرسل والمرسل إليهم، فحذفت الجملة المضاف إليها إذ وعوض عنها التنوين هذا مذهب الجمهور خلافاً للأخفش. وفي ﴿ٱلْحَقُّ﴾ على هذا الوجه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه نعت للوزن؛ أي: الوزن الحق كائن في ذلك اليوم.

والثاني: أنه خبر مبتدأ محذوف كأنه جواب سؤال مقدر من قائل يقول: ما ذلك الوزن؟ فقيل: هو الحق لا الباطل.

والثالث: أنه بدل من الضمير المستكن في الظرف، وهو غريب ذكره المكي، ويصح أن يكون خبر المبتدأ ﴿ٱلْحَقُّ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بـ﴿ٱلْوَزْنُ﴾.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الوزن يومئذ الحق، وأردت بيان أحوال الخلائق.. فأقول لك: ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية، ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط، أو هما. ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة، ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلق بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، والتقدير: فأولئك الذين خسروا أنفسهم بسبب: ظلمهم لآياتنا.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿مَكَّنَّٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية جواب القسم لا

محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مع جوابه مستأنفة. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جعلنا﴾، وكذا قوله ﴿فِيهَا﴾ متعلق به. ﴿مَعَايِشَ﴾: مفعول به لـ﴿جعلنا﴾؛ لأنه بمعنى خلقنا، فلا يتعدى إلا إلى مفعول واحد. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف منصوب بـ﴿تَشْكُرُونَ﴾. ﴿مَا﴾: زائدة زيدت لتأكيد القلة. ﴿تَشْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل؛ أي: تشكرون شكراً قليلاً؛ أي: قلة، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير المخاطبين، والتقدير: وجعلنا لكم فيها معايش حال كونكم شاكرين شكراً قليلاً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾: موطئة لقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب لقسم محذوف تقديره: أقسم بعزتي وجلالي لقد خلقناكم، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ على كونها جواباً للقسم. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾. ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾: متعلق بـ﴿قُلْنَا﴾. ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: مقول محكي لـ﴿قُلْنَا﴾، وإن شئت قلت ﴿اسْجُدُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْنَا﴾. ﴿لِآدَمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اسْجُدُوا﴾. ﴿فَسَجَدُوا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب. ﴿سجدوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُلْنَا﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿إِبْلِيسَ﴾ مستثنى منقطع منصوب بـ﴿إِلَّا﴾. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَكُنْ﴾: فعل ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، واسمه ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾. ﴿مِنَ السَّاجِدِينَ﴾: خبر ﴿يَكُنْ﴾، وجملة ﴿يَكُنْ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب حال من ﴿إِبْلِيسَ﴾ تقديره: حالة كونه ممتنعاً من السجود، كما قاله أبو البقاء، وقيل: هذه الجملة مستأنفة؛ لأنها جواب سؤال مقدر.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، والاستفهام فيه للتوبيخ. ﴿مَنَعَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: هو يعود على ﴿مَا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: أي شيء مانع إياك، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: مصدرية. ﴿لَا﴾: زائدة زيدت لتأكيد معنى النفي في ﴿مَنَعَكَ﴾. ﴿تَسْجُدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾. وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: ما منعك من سجودك. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ﴿تَسْجُدَ﴾. ﴿أَمَرْتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، والتقدير: ما منعك من السجود وقت أمري إياك به. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿مِّنْهُ﴾ متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قَالَ﴾. ﴿خَلَقْتَنِي﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِن نَّارٍ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَخَلَقْتَهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقْتَنِي﴾. ﴿مِن طِينٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خلق﴾.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿الفاء﴾: سببية، ﴿اهبط﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وقال النسفي: والفاء في قوله:

﴿فَٱهۡبِطۡ﴾ جواب لقوله ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾؛ أي: إن كنت تتكبر فاهبط انتهى. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تعليلية، ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص. ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿يكون﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَتَكَبَّرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبۡلِيسَ﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿تَتَكَبَّرَ﴾، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿يَكُونُ﴾ مؤخراً، والتقدير: فما يكون تكبرك فيها كائناً لك، ولائقاً بك، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿اخرج﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبۡلِيسَ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ مؤكدة لجملة قوله: ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾ ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ مسوقة لتعليل الخروج. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾، وجملة ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمِ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ إلى قوله: ﴿شَٰكِرِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿فَبِمَآ﴾:

﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا حكمت علي يا رب بالغَيّ والصَّغَار.. فأقول لك: ﴿بما أغويتني﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وقسم، أو حرف جر وسبب كما أشار إليه الزمخشري، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية، والجملة الفعلية مع ﴿ما﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بباء القسم، أو بباء السبب، وعلى كلا الوجهين فهي متعلقة بفعل قسم محذوف جوازاً تقديره: فأقسم بإغوائك إياي، أو أقسم بسبب إغوائك إياي. ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أقعدن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: متعلقان بـ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾. ﴿صِرَٰطَكَ﴾: منصوب على المفعولية، أو منصوب بنزع الخافض تقديره: على صِرَاطِكَ ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: صفة لـ﴿صراط﴾.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿لَآتِيَنَّهُم﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم أيضاً، ﴿آتينهم﴾: فعل ومفعول ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ على كونها جواباً لقسم محذوف. ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿آتين﴾. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله، وكرر حرف الجر إشارة إلى أن كل جهة من الجهتين مقصودة استقلالاً. ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على الجار والمجرور ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾. ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، أو ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، وكرر الجار هنا أيضاً إشارة إلى استقلال كل من الجهتين بالقصد، وإنما[1] عَدَّى الفعل إلى الأولين بـ﴿مِّنۢ﴾ الابتدائية؛ لأنه منهما متوجه إليهم، وعدى إلى

---

(١) الفتوحات.

الأخيرين بحرف المجاوزة؛ لأن الآتي منهما كالمنحرف المار على عرضهم، انتهى «أبو السعود»، وإشارة إلى نوع تباعد منه في الجهتين الأخيرتين، لقعود ملك اليمين، وملك اليسار فيهما، وهو ينفر من الملائكة، اهـ شيخنا. ﴿وَلَا تَجِدُ﴾: ناف وفعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ . . .﴾ إلخ. فتكون من جملة المقسم عليه، ويكون اللعين قد أقسم على جملتين مثبتتين، وأخرى منفية. ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: مفعول وجد إن كان وجد من الوجدان بمعنى اللقاء والمصادفة. ﴿شَٰكِرِينَ﴾: حال من الضمير، والمعنى: ولا تصادف أكثرهم ولا تلاقيهم حالة كونهم شاكرين، ويحتمل كون وجد من أفعال اليقين، و﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: مفعول أول، ﴿شَٰكِرِينَ﴾: مفعول ثان.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿اخْرُجْ﴾: منها إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿اخْرُجْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على إبليس، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿اخْرُجْ﴾. ﴿مَذْءُومًا﴾: حال أولى من فاعل ﴿اخْرُجْ﴾. ﴿مَّدْحُورًا﴾: حال ثانية منه عند من يجوز تعدد الحال لذي حال واحد، وأما عند من لا يجوزه فـ﴿مَّدْحُورًا﴾: صفة لـ﴿مَذْءُومًا﴾. ﴿لَّمَن﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم المحذوف تقديره: والله لمن تبعك.

فائدة: سميت[1] لام القسم موطئة؛ لأنها وطأت الجواب للقسم المحذوف؛ أي: مهدته له، وتسمى أيضاً المؤذنة؛ لأنها تؤذن بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها، لا على الشرط.

﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿تَبِعَكَ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على

---

(١) الفتوحات.

كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَبِعَكَ﴾. ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم أيضاً مؤكدة للأولى، ﴿أملأن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنا يعود على الله سبحانه، والجملة من الفعل والفاعل جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف لسد جواب القسم مسده تقديره: لمن تبعك أعذبه، وهذا الوجه أظهر في الإعراب كما قاله «الجمل». والوجه الثاني أن اللام في قوله ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾: لام الابتداء، و﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، و﴿تَبِعَكَ﴾: صلتها. و﴿مِنْهُمْ﴾: حال من فاعل ﴿تَبِعَكَ﴾، وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾: جواب قسم محذوف بعد قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾، وذلك القسم المحذوف وجوابه في محل الرفع خبر المبتدأ الذي هو ﴿من﴾ الموصُولة، والتقدير: للذي تبعك منهم، والله لأملأن جهنم منكم، فإن قلت[1]: أين العائد من الجملة القسمية الواقعة خبراً عن المبتدأ؟.

قلتُ: هو متضمن في قوله: ﴿منكم﴾ لأنه لما اجتمع ضميران غيبة وخطاب.. غلب الخطاب كما تقدم. ﴿جَهَنَّمَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية، والظرف متعلق بـ﴿أملأن﴾. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أملأن﴾. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد لضمير المخاطبين مجرور بالياء؛ لأنه جمع مذكر سالم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ الحرج: الضيق من عاقبة المخالفة. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ والذكرى: التذكر النافع والموعظة المؤثرة، وهو اسم مصدر لذكر يذكر تذكرة وذكرى.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وولاية[2] الله لعباده تولي أمورهم فيما لا يصل إليه كسبهم من هدايتهم ونصرهم على أعدائهم، وشرعه لهم عبادته، وبيان الحلال والحرام. ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ ﴿مَّا﴾: حرف زائد يؤكد به معنى القلة. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أصله

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

تتذكرون بتاءين أولاهما تاء المضارعة، والثانية تاء المطاوعة، فحذفت إحداهما على الخلاف في المحذوفة منهما.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ ﴿كم﴾: اسم يفيد التكثير، وهي خبرية: هنا، وكذا في جميع القرآن حيثما وقعت، وكم في كلام العرب قسمان: **خبرية**: وهي التي بمعنى عدد كثير، **واستفهامية**: وهي التي تكون بمعنى أي عدد، وهي اسم[1] بسيط لا مركب من كاف التشبيه، وما الاستفهامية حذف ألفها لدخول حرف الجر عليها، وسكنت كما قالوا: لم؛ تركيباً لا ينفك، كما ركبت في كأين مع أي، ولم يأت تمييزها في القرآن إلا مجروراً وأحكامها في نوعيها مذكورة في كتب النحو.

والقرية تطلق على الموضع الذي يجتمع فيه الناس وعلى الناس معاً، وتطلق على كل منهما كما جاء في قوله: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: أهل القرية، والقرية هنا تصلح لأن يراد بها القوم أنفسهم، وأن يراد بها المكان؛ لأنه يهلك كما يهلك أهله. ﴿بَأْسُنَا﴾ البأس العذاب.

﴿بَيَٰتًا﴾ والبيات: الإغارة على العدو ليلاً، والإيقاع به على غرة، وهو في الأصل مصدر بات يبيت بيتاً وبيتةً وبياتاً وبيتوتةً. قال الليث: البيتوتة دخولك في الليل، فقوله: بياتاً؛ أي: بائتين.

﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ والقائلون: هم الذين يستريحون، أو ينامون وسط النهار؛ أي: حين القائلة، وقال الليث: القيلولة نوم نصف النهار؛ وهي القائلة، وقال الأزهري: القيلولة الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن نوم. وقال الفراء: يقال: قال يقيل قيلاً ـ كباع يبيع بيعاً ـ وقائلةً وقيلولةً إذا استراح نصف النهار، فألفه منقلبة عن ياء بخلاف قال من القول، فهي منقلبة عن واو.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ والدعوى: ما يدعيه الإنسان، وتطلق على القول أيضاً.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جعلنا لكم[2] فيها أمكنة تتبوؤنها، وتتمكنون من الإقامة فيها.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَۗ﴾ بالياء[1] باتفاق السبعة، وإن قرىء شاذاً بالهمزة، وليس كصحائف؛ لأن المد فيه زائد؛ لأنه من صحف بخلاف معيشة، فإن المد فيها أصلي؛ لأنه من عاش يعيش عيشاً ومعاشاً وعيشةً ومعيشةً ومعيشاً. قال رؤبة:

إِلَيْكَ أَشْكُوْ شِدَّةَ ٱلْمَعِيْشِ وَجُهْدَ أَيَّامٍ نَتَفْنَ رِيْشِي

فأصل معيشة مَعْيُشَة كمكرمة، أو مَعْيِشَة كمنزلة، أو مَعْيَشَة كمتربة، فالياء فيه أصلية على كل حال، وقد قال في «الخلاصة»:

والمد زيد ثالثاً في الواحد همزاً يرى في مثل كالقلائد

وياء معيشة عين الكلمة، ثم إنه على الوجه الأول قلبت ضمة الياء كسرة، ثم نقلت للعين، وعلى الثاني نقلت كسرة الياء إلى العين، والوجه الثالث لا صحة له في التصريف. اهـ من «السمين».

وفي «المصباح»: عاش يعيش عيشاً ـ من باب سار ـ صار ذا حياة، فهو عائش، والأنثى عائشة، وعيَّاش أيضاً مبالغة، والمعيش والمعيشة مكسب الإنسان الذي يعبش به، والجمع معايش هذا على قول الجمهور أنه من عاش، فالميم زائدة، ووزن معايش مفاعل، فلا يهمز، وبه قرأ السبعة، وقيل: إنه من معش، فالميم أصلية، ووزن معيش ومعيشة فعيل وفعيلة، ووزن معائش فعائل، فيهمز كصحائف، وبه قرأ أبو جعفر المدني والأعرج. اهـ.

وفي «القاموس»: العيش الحياة، يقال: عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشةً وعِيشةً ـ بالكسر ـ وعيشوشة، والعيش أيضاً الطعام وما يعاش به والخبز، والمعيشة أيضاً ما يتعيش به من المطعم والمشرب، وما تكون به الحياة، وما يعاش به وفيه، والجمع معايش، والمتعيش من له بلغة من العيش. اهـ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ الخلق: التقدير[2]، يقال: خلق الخياط الثوب إذا قدره قبل قطعه، وخلق الله الخلق أوجدهم على تقدير أوجبته الحكمة.

---

(١) الفتوحات البحر المحيط.

(٢) المراغي.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ مأخوذ من أبلس إبلاساً بمعنى أيس؛ لأنه آيس من رحمة الله تعالى.

﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ والهبوط الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه، أو من منزلة إلى ما دونها؛ فهو إما حسي، وإما معنوي.

﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ والتكبر جعل الإنسان نفسه أكبر مما هي عليه. ﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ والصغار: الذلة والهوان ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾: يقال: أنظره إذا أمهله وأخره.

﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: والإغواء: الإيقاع في الغواية، وهي ضد الرشاد، يقال: غوى يغوي ـ من باب رمى ـ غياً وغواية إذا فسد عليه أمره، وفسد هو في نفسه، ومنه غوى الفصيل إذا أكثر من شرب لبن أمه حتى فسد جوفها، وأشرف على الهلاك، وقيل: أصله الهلاك، ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾. ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ﴾ الشمائل[1]: جمع شمال، وهو جمع كثرة، وجمعه في القلة على أشمل. قال الشاعر:

يَـأْتِـيْ لَـهَـا مِـنْ أَيْـمُـنٍ وَأَشْـمُـلِ

وشمال يطلق على اليد اليسرى، وعلى ناحيتها، والشمائل أيضاً جمع شمال؛ وهي الريح، والشمائل أيضاً: الأخلاق. يقال: هو حسن الشمائل.

﴿مذؤوما﴾ بالهمز[2]: اسم مفعول من ذأمه يذْأَمهُ ذَأْماً ـ كقطعه يقطعه قطعاً ـ إذا عابه ومقته، وفي «المختار»: الذأم: العيب يهمز ولا يهمز، يقال: ذأمه ـ من باب قطع ـ إذا عابه وحقره، فهو مذؤوم. اهـ. وفيه مقته إذا أبغضه من باب نصر، فهو مقيت، ويجوز[3] إبدال الهمزة ألفاً. قال الشاعر:

صَحِبْتُكَ إِذْ عَيْنِيْ عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ ... فَلَمَّا ٱنْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِيْ أَذِيْمُهَا

وفي المثل: لن يعدم الحسناء ذأما، وقيل: أردت أن تذيمه فمدحته، وقال الليث: ذأمته حقرته، وقال ابن الأنباري وابن قتيبة: ذأمه ذمه وعابه.

﴿مَّدْحُورًاۖ﴾ يقال: دحره إذا أبعده وأقصاه، ودحر الجند العدو إذا طرده

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفتوحات.
(٣) البحر المحيط.

وأبعده. قال الشاعر:

دَحَرْتُ بَنِيْ ٱلْحَصِيْبِ إِلَىٰ قَدِيْدِ وَقَدْ كَانُوْا ذَوِيْ أَشَرٍ وَفَخْرِ

يقال: دحره يدحره دحراً ودحوراً ـ من باب خضع ـ ومنه: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا﴾.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ لما فيه من إطلاق المسبب وإرادة السبب؛ لأن المراد النهي عن أسباب الحرج. قال أبو السعود: توجيه[1] النهي إلى الحرج مع أن المراد نهيه ﷺ عنه؛ إما للمبالغة في تنزيهه ﷺ عن وقوع مثل الحرج منه، فإن النهي لو وجه له لأوهم إمكان صدور المنهي عنه منه، وإما للمبالغة في النهي، فإن وقوع الحرج في صدره سبب لاتصافه به، والنهي عن السبب نهي عن المسبب بالطريق البرهاني، ونفي له من أصله بالمرة، فالمراد نهيه عما يورث الحرج انتهى.

ومنها: المجاز المرسل أيضاً في قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾: لما فيه من إطلاق المحل وإرادة الحال؛ أي: وكم من أهل قرية أهلكناهم.

ومنها: الاعتراض بين الجار ومتعلقه، في قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾، لأنه معترض بين قوله: ﴿أُنزِلَ﴾ وبين قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾.

ومنها: التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين، في قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لمزيد اللطف بهم وترغيبهم في امتثال الأمر.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾، وبين قوله: ﴿بَيَاتًا﴾ وقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾؛ لأن البيات معناه ليلاً، وقائلون معناه نهاراً وقت الظهيرة.

---

(١) أبو السعود.

ومنها: المجاز بالحذف قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾؛ أي: خلقنا أباكم آدم، وصورنا أباكم.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن الصراط حقيقة في الطريق الحسي، فاستعارة لطريق الهداية الموصل إلى جنات النعيم.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ وقوله: ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، وبين قوله: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، وبين قوله: ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾.

ومنها: تغليب الحاضر على الغائب في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ لأن فيه تغليب الحاضر الذي هو إبليس على الغائب، وهو الناس.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾، وقوله: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾، وفي قوله: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾.

ومنها: المغاير في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، وفي قوله: ﴿أَنظِرْنِىٓ﴾ وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا
رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ
أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ
ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا
لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ
كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لا يزال[1] الحديث متصلاً في الكلام في النشأة الأولى للبشر، وفي شياطين الجن، وقد ذكرت تمهيداً لهداية الناس بما يتلوها من الآيات في وعظ بني آدم وإرشادهم إلى ما به تكمل فطرتهم، وفي ذلك امتنان عليهم، وذكر لكرامة أبيهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ...﴾ الآية، مناسبة

---

(١) المراغي.

هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه أنزل له ولبنيه كل ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم كاللباس الذي يستترون به عوراتهم، ويتخذونه للزينة واللباس الذي يستعملون في الحرب كالمغافر والجواشن ونحوها، .. فعليكم أن تشكروه سبحانه وتعالى على هذه المنن العظام، وتعبدوه وحده لا شريك له.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: هو أنه سبحانه وتعالى لما ذكر قصة آدم، وفيها ستر السوءات، وجعل له في الأرض مستقراً ومتاعاً.. ذكر ما امتن به على بنيه، وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يواري السوءات، والرياش الذي يمكن به استقرارهم في الأرض واستمتاعهم بما خولهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله تعالى، لما[3] بين أنه جعل الشياطين قرناء للكافرين مسلطين عليهم متمكنين من إغوائهم.. ذكر هنا أثر ذلك التسليط عليهم؛ وهو الطاعة لهم في أقبح الأشياء مع عدم شعورهم بذلك القبح.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ﴾ معطوف على قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ عطف قصة على قصة؛ أي: وقلنا يا آدم اسكن أنت ﴿وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ أي: انزل أنت وزوجك حواء في الجنة، وهذا القول بعد إخراج إبليس من الجنة، أو من السماء، أو من بين الملائكة، وقيل: معطوف[4] على ﴿ٱخْرُجْ﴾؛ أي: وقلنا يا إبليس اخرج منها مذؤوماً مدحوراً، ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، ومعنى

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) المراح.

اسكن؛ أي: اتخذ أنت وزوجك حواء الجنة مسكناً لكما؛ أي: محل سكون وإقامة لكما. وتخصيص[1] الخطاب في قوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ به للإيذان بأصالته في تلقي الوحي، وتعاطي المأمور به، وتعميمه في قوله: ﴿فَكُلَا﴾ وفي وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ للإيذان بتساويهما في مباشرة المأمور به، وتجنب المنهى عنه، فحواء مساوية له فيما ذكر بخلاف السكنى؛ فإنها تابعة له فيها.

وفي «شرح المواهب» للزرقاني ما نصه[2]: واختلفوا في أن حواء خلقت في الجنة، فقال ابن إسحاق: خلقت قبل دخول آدم الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وقيل: خلقت في الجنة بعد دخول آدم الجنة؛ لأنه لما أسكن الجنة مشى فيها مستوحشاً، فلما نام خلقت من ضلعه القصرى من شقه الأيسر؛ ليسكن إليها، ويأنس بها. قاله ابن عباس، وينسب لأكثر المفسرين، وعلى هذا قيل: قال الله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بعد خلقها، وهما في الجنة، وقيل: قبل خلقها، وتوجه الخطاب للمعدوم لوجوده في علم الله تعالى. اهـ.

وقال المراغي: الجنة هي[3] التي خلق فيها آدم لا جنة الجزاء، فآدم خلق من الأرض في الأرض. وقد[4] تكررت هذه القصة في سبعة مواضع من الكتاب العزيز، ولم يرد في موضع منها أن الله رفعه إلى الجنة التي هي دار الجزاء، وإن كان الجمهور على أنها جنة الجزاء على الأعمال، ويرده أنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة، ولا تكليف في دار الجزاء، ولأنه نام فيها، وأخرج منها، ودخل عليه إبليس، ولا نوم في الجنة، ولا خروج بعد الدخول، ولا يمكن دخول الشيطان فيها بعد الطرد والإخراج.

والآية تدل على أن آدم كان له زوج في الجنة، وفي التوراة: أن الله ألقى على آدم سباتاً، فانتزع في أثنائه ضلعاً من أضلاعه، فخلق منه حواء امرأته، وأنها سميت امرأة؛ لأنها من امرىء أخذت وليس في القرآن ما يدل على هذا، وما

---

(١) أبو السعود.
(٢) الفتوحات.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

روي من ذلك مأخوذ من الإسرائيليات، وما روي في «الصحيحين» عن أبي هريرة من قوله ﷺ: «فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج» فهو من باب التمثيل على حد قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ والدليل على ذلك قوله بعد: «فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً».

فإنه لا شك أن المراد منه: لا تحاولوا تقويم النساء بالشدة والغلظة في المعاملة انتهى.

﴿فَكُلَا﴾؛ أنتما يا آدم وحواء من ثمار الجنة ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ أي: من أي مكان أردتما الأكل منه، وفي أي وقت شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ من حيث الأكل منهما ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم الضارين لها بتعريضها للعقوبة؛ أي: فتصيرا من الضارين لها.

والنهي عن القرب إلى الشيء أبلغ أثراً من النهي عن الشيء نفسه؛ إذ أنه يقتضي البعد عن موارد الشبهات التي تغرى به، كما جاء في الحديث: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه».

وقد أبهم سبحانه وتعالى هذه الشجرة، ولو كان في تعيينها خير لنا لعينها، وقد علل القرآن النهي عنها بأنهما إذا اقتربا منها كانا من الظالمين، لأنفسهما بفعلهما ما يعاقبان عليه، ولو بالحرمان من رغد العيش، وما يعقبه من التعب والمشقة.

فإن قلت: لِمَ قال هنا: ﴿فَكُلَا﴾ بالفاء، وفي البقرة ﴿وَكُلَا﴾ بالواو؟

قلت: لا منافاة بين الحرفين؛ لأن الواو للجمع المطلق، فتحمل على إحدى معانيها التي هي عطف اللاحق على السابق، فتتحد مع الفاء في المعنى الذي هو الترتيب. فإن قلت[1]: لِمَ حذف ﴿رَغَدًا﴾ هنا على سبيل الاختصار، وأثبت في البقرة؟

قلت: لأن تلك مدنية وهذه مكية، فوفى المعنى هنا باللفظ.

---

(١) البحر المحيط.

وقرئ[1]: ﴿هذي﴾ وهو الأصل لتصغيره على ذيا، والهاء بدل من الياء.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: حدَّث[2] لهما في أنفسهما، وفي «الخازن» يعني: فوسوس إليهما، والوسوسة: حديث يلقيه الشيطان في قلب الإنسان يقال: وسوس إذا تكلم كلاماً خفياً مكرراً، ومعنى وسوس لهما: فعل الوسوسة وألقاها إليهما. وقال المراغي: أي: زين لهما ما يضرهما ويسؤهما إذا هما رأيا ما يؤثران ستره، وأن لا يرى مكشوفاً. والأرجح أن هذه الوسوسة كانت بأن تمثل الشيطان لآدم وزوجه وكلَّمهما. انتهى.

فإن قلت: كيف وسوس إليهما وآدم وحواء في الجنة، وإبليس قد أخرج منها؟

قلت: أجيب عن هذا السؤال بأجوبة:

منها: أنه كان في السماء وكانا يخرجان إليه.

ومنها: أنه كان على باب الجنة، وهما على بابها من داخلها.

ومنها: ما قال الحسن: إنه وصلت وسوسته لهما في الجنة، وهو في الأرض بالقوة التي خلقها الله له، وقيل: كان يدخل إليهما في فم الحية، وهذان القولان ضعيفان؛ لمخالفتهما لفظ القرآن، ولكن البحث عن هذه المسألة ليس مما كلفنا الله بعلمه، فالكلام فيه لا يعنينا.

﴿لِيُبْدِيَ﴾؛ أي: ليظهر ﴿لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا﴾؛ أي: ما ستر عنهما بلباس النور، أو بثياب الجنة. وقال الصاوي: واختلف في ذلك اللباس، فقيل: غطاء على الجسد من جنس الأظفار فنزع عنهما وبقيت الأظفار في اليدين والرجلين تذكرة وزينةً وانتفاعاً، ولذلك قالوا: إن النظر إلى الأظفار في حال الضحك يقطعه، وقيل: كان نوراً، وقيل: كان من ثياب الجنة. انتهى.

﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾؛ أي: من عوراتهما، أراد الشيطان أن يسوءهما بظهور ما

---

(١) البيضاوي.
(٢) الواحدي.

كان مستوراً عنهما من عوراتهما، فإنهما كانا لا يريان عورة أنفسهما، ولا يراها أحدهما من الآخر. قيل: إنما بدت عوراتهما لهما لا لغيرهما، وكان عليهما نور يمنع رؤيتها، وإنما لم تقلب[1] الواو في ﴿وُۥرِىَ﴾ همزة؛ لأن الثانية مدة مأخوذة من المواراة؛ وهي الستر يقال: واريته بمعنى سترته، والسوءة فرج الرجل والمرأة، سمي بذلك؛ لأن ظهوره يسوء الإنسان. وفي الآية دليل على أن كشف العورة من المنكرات المحرمات، واللام في قوله: ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا﴾: لام العاقبة؛ وذلك لأن إبليس لم يقصد بالوسوسة ظهور عوراتهما، وإنما كان حملهما على المعصية فقط، فكان عاقبة أمرهما أن بدت عوراتهما. ﴿وَقَالَ﴾ إبليس لآدم وحواء فيما وسوسهما به ﴿ما نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ أي: ما منعكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة ﴿إِلَّآ﴾ لأحد أمرين كراهة ﴿أَن تَكُونَا﴾ بالأكل منها ﴿مَلَكَيْنِ﴾؛ أي: كالملكين فيما أوتي الملائكة من الخصائص والمزايا كالقوة، وطول البقاء، وعدم التأثر بتأثيرات الكون المؤلمة المتعبة ﴿أَوْ﴾ كراهة أن ﴿تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ في الجنة؛ أي: من الذين لا يموتون البتة، ويبقون في الجنة ساكنين يعني[2]: إنما نهاكما عن هذه الشجرة لكي لا تكونا ملكين من الملائكة تعلمان الخير والشر، أو تكونا من الباقين الذين لا يموتون، وإنما أطمع إبليس آدم بهذه الآية؛ لأنه علم أن الملائكة لهم المنزلة والقرب من العرش، فاستشرف لذلك آدم، وأحب أن يعيش مع الملائكة لطول أعمارهم، أو يكون مع الخالدين الذين لا يموتون أبداً.

وفي الآية[3]: إيماء إلى تفضيل الملائكة على آدم، وخصصه بعضهم بملائكة السماء والعرش والكرسي، من العالين المقربين، دون ملائكة الأرض المسخرين لتدبير أمورها، وإحكام نظامها.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿وُۥرِىَ﴾ وقرأ عبد الله: ﴿أوري﴾ ـ بإبدال الواو همزة وهو بدل جائز ـ. وقرأ ابن وثاب: ﴿ما وُري﴾ ـ بواو مضمومة من غير واو

---

(1) الشوكاني.
(2) الخازن.
(3) المراغي.
(4) البحر المحيط.

بعدها ـ على وزن كُسِي. وقرأ مجاهد والحسن: ﴿من سوتِهما﴾ ـ بالإفراد وتسهيل الهمزة بإبدالها واواً وإدغام الواو فيها ـ. وقرأ الحسن أيضاً وأبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح: ﴿من سوّاتهما﴾ ـ بتسهيل الهمزة وتشديد الواو ـ. وقرىء: ﴿من سواتهما﴾ ـ بواو واحدة وحذف الهمزة ـ ووجهه أنه حذفها وألقى حركتها على الواو، فمن قرأ بالجمع؛ فهو من وضع الجمع موضع التثنية كراهة اجتماع مثلين، ومن قرأ بالإفراد؛ فمن وضعه موضع التثنية، ويحتمل أن يكون الجمع على أصل وضعه باعتبار أن كل عورة الدبر والفرج، وذلك أربعة فهي جمع.

وقرأ ابن عباس والحسن بن علي والضحاك ويحيى بن كثير والزهري وابن حكيم عن ابن كثير[1]: ﴿ملِكين﴾ ـ بكسر اللام ـ ويدل لهذه القراءة ما في سورة طه من قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾؛ أي: أقسم وحلف إبليس لهما، والمفاعلة ليس على بابها بقوله: والله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ أي: إني لناصح لكما فيما رغبتكما فيه من الأكل من الشجرة، وأكد ذلك بأشد المؤكدات وأغلظها؛ إذ كان عندهما محل الظنة والتهمة في نصحه؛ لأن الله أخبرهما أنه عدو لهما. وقرىء: ﴿وقاسمهما بالله﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾؛ أي: جرأهما إبليس على أكل الشجرة ﴿بِغُرُورٍ﴾؛ أي: بسبب غروره وتزيينه لهما أكل الشجرة بالحلف لهما بالله، أو المعنى: فأسقطهما وحطهما عما كانا عليه من سلامة الفطرة وطاعة المولى بما غرهما به، وزين لهما من أكل الشجرة، وقد اغترا به وانخدعا بقسمه، وصدقا قوله اعتقاداً منهما أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً. وفي «الشوكاني» التدلية[2] والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل، يقال: أدلى دلوه أرسلها، والمعنى: أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة، وقيل معناه: أوقعهما في الهلاك، وقيل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

معناه: جرأهما على المعصية، فخرجا من الجنة انتهى.

وقيل معنَاه: فخدعهما[1] بزخرف من القول الباطل حتى أكلا قليلاً قصداً إلى معرفة طعم ذلك الثمر؛ لغلبة الشهوة، لا لكونهما صدقا قول إبليس.

ويرى بعض العلماء[2] أن الغرور كان بتزيين الشهوة، فإن من غرائز البشر وطبائعهم كشف المجهول، والرغبة في الممنوع، فقد نفخ الشيطان في نار هذه الشهوات الغريزية، وأثار النفس إلى مخالفة النهي حتى نسي آدم عهد ربه، ولم يكن له من قوة العزم ما يكفه عن متابعة امرأته، ويعتصم به من تأثير شيطانه كما قال في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾. وجاء في الصحيح عن أبي هريرة: «ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»؛ أي: لأنها هي التي زينت له الأكل من الشجرة، وقد فطرت المرأة على تزيين ما تشتهيه للرجل، ولو بالخيانة له.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ أي: فلما تناولا من ثمر تلك الشجرة يسيراً لمعرفة طعمه ﴿بَدَتْ لَهُمَا﴾؛ أي: ظهرت لكل منهما ﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾؛ أي: سوْته وسوْة صاحبه، وكانت مستورة عنهما؛ أي: ظهر لكل منهما قبل نفسه وقبل صاحبه ودبره، وزال عنهما ثوبهما من حلل الجنة، فدبت فيهما شهوة التناسل بتأثير الأكل من الشجرة، فنبهتهما إلى ما كان خفياً عنهما من أمرها، فخجلا من ظهورها، وشعرا بالحاجة إلى سترها ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: وشرعا يلزقان ويربطان على أبدانهما من ورق أشجار الجنة العريض ما يسترها.

والخلاصة[3]: أن الشيطان لما وسوس لهما بقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا...﴾ إلخ، ولم يقبلا منه ما قال.. لجأ إلى اليمين كما دل على ذلك قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ فلم يصدقاه أيضاً، فعدل بعد ذلك إلى الخداع كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾؛ أي: أنه شغلهما بتحصيل اللذات، فجعلاها نصب أعينهما، ونسيا النهي كما يدل على ذلك قوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

---

(١) المراح. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

قال ابن عباس: الورق الذي خصفا منه ورق الزيتون، وقيل: ورق شجر التين، وقيل ورق الموز، ولم يثبت تعيينها لا في القرآن، ولا في حديث صحيح. وقد قيل فيهما شعر:

لِلَّهِ دَرُّهُمُ مِنْ فِتْيَةٍ بَكَرُوْا ... مِثْلِ ٱلْمُلُوْكِ وَرَاحُوْا كَٱلْمَسَاكِيْنِ

وقرأ أبو السمال[1]: ﴿وطفَقا﴾ - بفتح الفاء - وقرأ الزهري: ﴿يخصفان﴾ من أخصف، فيحتمل أن يكون أفعل بمعنى فعل، ويحتمل أن تكون الهمزة للتعدية من خصف؛ أي: يخصفان أنفسهما. وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وابن وثاب: ﴿يُخصِّفان﴾ - بفتح الياء وكسر الخاء والصاد وشدها - وقرأ الحسن فيما روى عنه محبوب كذلك، إلا أنه فتح الخاء. ورويت عن ابن بريدة وعن يعقوب، وقرىء: ﴿يخصِّفان﴾ - بتشديد - من خصف على وزن فعل. وقرأ عبد الله بن يزيد: ﴿يُخُصِّفان﴾ - بضم الياء والخاء وتشديد الصاد وكسرها - وتقرير هذه القراءات في علم العربية. وقد عاتبه الله سبحانه وتعالى على تركه التحفظ والحيطة والتدبر في عواقب الأمور فقال: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ معاتباً لهما، وموبخاً لهما، وقال: يا آدم ويا حواء ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ أي: عن أن تقربا هذه الشجرة وعن الأكل من ثمرها ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر العداوة لكما حيث أبى السجود، فإن أطعتماه أخرجكما من الجنة حيث العيش الرغد إلى حيث الشقاء في العيش والتعب، والنصب في الحياة. والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ تقريري. قيل: لما كان وقت الهناء.. شرف بالتصريح باسمه في النداء، فقيل: ويا آدم اسكن، وحين كان وقت العتاب أخبر أنه ناداه، ولم يصرح باسمه. والظاهر أنه تعالى كلمهما بلا واسطة. وقال الجمهور: إن النداء كان بواسطة الوحي.

روي[2]: أنه تعالى قال لآدم: ألم يكن فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كدًّا، فأهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث، فحرث وسقى وحصد، ودرس وذرى وعجن وخبز.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]: لما أكل آدم من الشجرة.. قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني. قال: فإني أعقبتها أن لا تحمل إلا كرها، ولا تضع إلا كرهاً قال: فرنت ـ صاحت ـ حواء عند ذلك رنة ـ صيحة ـ فقيل لها: الرنة عليك وعلى بناتك، وقال محمد بن قيس: ناداه ربه: يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك؟ قال: أطعمتني حواء، فقال: لم أطعمتيه؟ قالت: أمرتني الحية، فقال للحية: لم أمرتها؟ قالت: أمرني إبليس، قال الله تعالى: أما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة تدمين كل شهر، وأما أنت يا حية فأقطع رجليك، فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك، وأما أنت يا إبليس فملعون مطرود مدحور عن الرحمة. وقيل: ناداه ربه يا آدم أما خلقتك بيدي، أما نفخت فيك من روحي، أما أسجدت لك ملائكتي، أما أسكنتك جنتي في جواري.

﴿قَالَا﴾؛ أي: قال آدم وحواء ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾؛ أي: أضررنا أنفسنا بطاعتنا للشيطان ومعصيتنا لأمرك، وقد أنذرتنا ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ما ظلمنا به أنفسنا ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بالرضا عنا، وتوفيقنا إلى الهداية وترك الظلم، وبقبول توبتنا إذا نحن أنبنا إليك، وإعطائنا من فضلك فوق ما نستحق، والله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لأنفسنا الهالكين لها بتعريضها للعقوبة.

والخلاصة[2]: أن الظفر بالمقصود والفوز بالسعادة لا ينالهما أحد بمغفرتك ورحمتك إلا من ينيب إليك، ويتبع سبيلك، ولا ينالهما من يصر على ذنبه ويحتج على ربه، كما فعل الذي أبى واستكبر فكان من الخاسرين.

وقال الضحاك في قوله[3]: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا...﴾ الخ. قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه عز وجل. ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى لآدم وحواء وإبليس والحية، كما قاله الطبري. ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾؛ أي: انزلوا من السماء

---

(١) الخازن. (٢) المراغي. (٣) الخازن.

إلى الأرض. وقال الفخر الرازي: إن الذي تقدم ذكره هو آدم وحواء وإبليس، فقوله: ﴿ٱهْبِطُوا﴾ يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة، قيل: هبط آدم في الهند، وحواء بجدة، وإبليس بالأبلة - بضم الهمزة الموحدة وبتشديد اللام - جبل بقرب البصرة، والحية بأصبهان. وقال المراغي: يرى كثير من سلف الأمة أن هذا الخطاب لآدم وحواء وإبليس عليه اللعنة؛ أي: اهبطوا من هذه الجنة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي: حالة كون بعضكم عدواً لبعض آخر؛ أي: إن الشيطان عدو للإنسان، فعلى الإنسان أن لا يغفل عن عداوته، ولا يأمن وسوسته وإغواءه كما جاء في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ فالعداوة ثابتة بين آدم وإبليس، وذرية كل منهما. وهذا[1] الإخراج من ذلك النعيم عقاب على تلك المعصية التي بها ظلما أنفسهما، وقد قضت به سنة الله في الخلق، إذ جعله أثراً طبيعياً للعمل السيء مترتباً عليه إما العقاب الأخروي على عصيان الرب، فقد غفره الله له بالتوبة التي أذهبت أثره من النفس، وجعلتها محلاً لاصطفائه كما قال في سورة طه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَلَكُمْ﴾ يا آدم وحواء وإبليس مع ذريتكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: استقرار وبقاء إلى زمن مقدر في علم الله؛ وهو الأجل الذي تنتهي فيه أعماركم، وتقوم فيه القيامة ﴿و﴾: لكم فيها أيضاً ﴿متاع﴾؛ أي: ما تستمتعون وتنتفعون به من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى حين انقضاء آجالكم، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾.

ومعنى الآية[2]: أن الله سبحانه وتعالى أخبر آدم وحواء وإبليس والحية أنه إذا أهبطهم إلى الأرض، فإن بعضهم لبعض عدو، وأن لهم في الأرض موضع قرار يستقرون فيه إلى انقضاء آجالهم، ثم يستقرون في قبورهم إلى انقطاع الدنيا. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني: إلى يوم القيامة،

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

وإلى انقطاع الدنيا.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى لآدم وذريته، وإبليس وأولاده ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في هذه الأرض التي خلقتم منها ﴿تَحْيَوْنَ﴾؛ أي: تعيشون مدة العمر المقدر لكل منكم، وللنوع بأسره ﴿وَفِيهَا﴾؛ أي: وفي الأرض ﴿تَمُوتُونَ﴾؛ أي: تكون وفاتكم، وموضع قبوركم حين انتهاء أعماركم ﴿وَمِنْهَا﴾؛ أي: ومن الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾؛ أي: يخرجكم ربكم بعد موتكم كلكم حين ما يريد أن يبعثكم من مرقدكم للنشأة الآخرة، ويحشركم للحساب يوم القيامة. وهذا الكلام[1] كالتفسير لقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ﴾ ولذلك جاء ﴿قَالَ﴾ بغير واو العطف، وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان: ﴿تخرجون﴾ - بالبناء للفاعل هنا - وفي الجاثية والزخرف وأول الروم، وعن ابن ذكوان في أول الروم خلاف. وقرأ باقي السبعة مبنياً للمفعول. ونحو الآية قوله تعالى في سورة طه: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

فصل في مغزى هذا القصص

قص الله - سبحانه وتعالى - علينا خبر النشأة الأولى[2]؛ ليرشدنا إلى ما فطرنا عليه، وإلى ما يجب علينا من شكره وطاعته، ويبين لنا أنه خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض، وجعله مستعداً لعلم كل شيء فيها، وتسخير ما فيها من القوى لمنافعه، وليهدينا إلى أنه كان في نشأته الأولى في جنة النعيم وراحة البال، وقد جعله مستعداً للتأثر بالأرواح الملكية التي تجذبه إلى الحق والخير، والأرواح الشيطانية التي تجذبه إلى الباطل والشر، وعاقبة التأثر الأولى سعادة الدارين، ونتيجة الثاني الشقاء فيهما، وهو أيضاً محتاج إلى الوحي لإرشاده وهدايته. فعلينا أن نعرف غرائزنا، ونربي أنفسنا على أن نتذكر عهد الله إلينا بأن نعبده وحده، ولا نعبد معه أحداً سواه، ولا ننساه فننسى أنفسنا، ونغفل عن تزكيتها، ونتركها كالريشة في مهاب أهواء الشهوات، ووساوس شياطين

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الضلالات، وعلينا أن نعرف أن آدم لم يكن نبياً ولا رسولاً عند بدء خلقه، ولا موضعاً للرسالة في ذلك الحين، بل أنكر بعضهم أن يكون رسولاً مطلقاً، وقال: إن أول الرسل نوح عليه السلام كما تدل على ذلك الآيات الواردة في الرسل والأحاديث، وما ورد في هذه القصة من التفسير بالمأثور، فأكثره مدخول مأخوذ من الإسرائيليات عن زنادقة اليهود الذين دخلوا في الإسلام للكيد له، وكان الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره من الإسرائيليات؛ فيغتر به بعض الناس فيظنون أنه لا بد له من أصل مرفوع إلى النبي ﷺ؛ لأنه لا يعرف بالرأي.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ بقدرتنا من سمائنا لتدبير أموركم ﴿لِبَاسٗا يُوَٰرِي﴾ ويستر ﴿سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ وعوراتكم التي قصد إبليس إبداءها من أبويكم حتى اضطروا إلى لزق الأوراق، فأنتم مستغنون عن ذلك باللباس يعني: ثياب القطن وغيره كالصوف والوبر والشعر ﴿و﴾ أنزلنا عليكم لباساً ﴿ريشاً﴾ لكم؛ أي: يكون زينة لكم؛ أي: لباساً يزين لابسه كالريش الذي يزين الطائر، استعير من ريش الطائر؛ لأنه لباسه وزينته، وذلك كالحرير والخز والقز وحلي الذهب والفضة؛ أي أنزلنا عليكم لباسين؛ لباساً يواري سؤاتكم ولباساً يزينكم؛ لأن الزينة غرض صحيح. والمعنى(١): خلقناه لكم بتدبيرات سماوية، وأسباب نازلة منها كالمطر، فهو سبب لنبات القطن والكتان وغيرهما كالتوت، ولمعيشة الحيوانات ذوات الصوف وغيره فبهذا الاعتبار كأن اللباس نفسه أنزل من السماء، ونظير هذا: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ...﴾ إلخ. ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ...﴾ إلخ. ومعنى إنزال ما ذكر من السماء: إنزال مادته من القطن والصوف والوبر والحرير وريش الطير وغيرها مما ولدته الحاجة، وافتن الناس في استعماله بعد أن تعلموا وسائل صنعه بما أوجد فيهم من الغرائز والصفات التي بها غزلوا ونسجوا وحاكوا ذلك على ضروب شتى، وخاطوه على أشكال لا حصر لها ولا عد، ولا سيما في هذا العهد الذي وفيت فيه الصناعات إلى أقصى مدى وأبعد غاية. ولا شك أن امتنانه علينا بلباس الزينة دليل على إباحتها والرغبة في استعمالها، والإسلام دين

---

(١) أبو السعود.

الفطرة، وليس فيه ما يخالف ما تدعو إليه الحاجة وحب الزينة من أقوى غرائز البشر الدافعة لهم إلى إظهار سنن الله في الخليقة.

وقرأ عثمان وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسلمي وعلي بن الحسين وابنه زيد وأبو رجاء وزر بن جيش وعاصم في رواية وأبو عمرو في رواية[١]: ﴿ورياشاً﴾ فقيل: هما مصدران بمعنى واحد، يقال: راشه الله يريشه ريشاً ورياشاً إذا أنعم عليه.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بالرفع مبتدأ خبره جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؛ أي: اللباس الناشيء عن تقوى الله تعالى وخوفه، وهو العمل الصالح والإخلاص فيه ذلك خير؛ أي: هذا اللباس الأخير خير من اللباسين الأولين؛ لأن الإنسان يكسى من عمله يوم القيامة، وإنما كان خيراً لأنه يستر من فضائح الآخرة. وفي[٢] الحديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، فإذا كان كذلك فينبغي للإنسان أن يشتغل بتحسين ظاهره بالأعمال الصالحة، وباطنه بالإخلاص، فإنه محل نظر لله تعالى، ولذلك قال بعضهم: إلهي زين ظاهري بامتثال ما أمرتني به ونهيتني عنه، وزين سري بالإسرار، وعن الأغيار فصنه. وقال المراغي: المشهور من كلام التابعين أن لباس التقوى لباس معنوي لا حسي. فقد قال ابن زيد: لباس هو التقوى خير، وعن ابن عباس أنه هو الإيمان والعمل الصالح، فإنهما خير من الريش واللباس، وروي عن زيد بن علي بن الحسين أنه لباس الحرب كالدرع والمغفر والآلات التي يتقى بها العدو، واختاره أبو مسلم الأصفهاني، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بنصب[٣] ﴿لباس﴾ عطفاً على ﴿لِبَاسًا﴾؛ أي: وأنزلنا عليكم لباس التقوى، وهو الإيمان كما قاله قتادة والسدي وابن جريج، أو العمل الصالح كما قاله ابن عباس، أو السمت الحسن كما قاله

(١) البحر المحيط. (٢) الصاوي. (٣) المراح.

عثمان بن عفان، أو خشية الله تعالى كما قاله ابن الزبير، أو الحياء كما قاله معبد والحسن.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: اللباس ﴿خَيْرٌ﴾ لصاحبه من اللباسين الأولين؛ لأنه يستر من فضائح الآخرة، وقرأ باقي السبعة بالرفع كما مر. ﴿ذلك﴾: المنزل من اللباسين ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من دلائل قدرته؛ أي: ذلك الذي تقدم ذكره من النعم بإنزال الملابس من آيات الله الدالة على قدرته، وعظيم فضله، وعميم رحمته لعباده، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، والمعنى: يا بني آدم قد أنزلنا عليكم أنواع الملابس؛ لكي تذكرون وتعرفون عظيم النعمة في ذلك اللباس، وتقومون بما يجب عليكم من الشكر والابتعاد من فتنة الشيطان، وإبداء العورات، أو لإسراف في استعمال الزينة.

ولما ذكر سبحانه وتعالى نعمة اللباس.. أراد أن ينبههم على أن الشيطان حسود وعدو لهم كما أنه حسود وعدو لأبيهم، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: لا يخرجنكم الشيطان عن طاعتي بفتنه ووسوته، فتمنعوا من دخول جنتي ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ آدم وحوء ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: إخراجاً مثل إخراجه أبويكم من الجنة بفتنته بأمره لهما بمخالفة أمري، فمنعا من سكنى الجنة. وهذا في الظاهر نهي للشيطان، وفي الحقيقة نهي لبني آدم عن الإصغاء لفتنته ووسوسته واتباعه، فليس المراد النهي عن تسلطه؛ إذ لا قدرة لمخلوق على منع ذلك؛ لأنه قضاء مبرم، بل المراد النهي عن الميل إليه.

والمعنى[١]: أي لا تغفلوا يا بني آدم عن أنفسكم، فتمكنوا الشيطان من وسوسته لكم، والتحيل في خداعكم، وإيقاعكم في المعاصي كما وسوس لأبويكم آدم وحواء، فزين لهما معصية ربهما، فأكلا من الشجرة التي نهاهم عنها، وكان ذلك سبباً في خروجهما من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها ودخولهما في طور آخر يكابدان فيه شقاء المعيشة وهمومها.

---

(١) المراغي.

وقرأ ابن وثاب وإبراهيم: ﴿لا يُفتننكم﴾ - بضم حرف المضارعة - من أفتنه بمعنى حمله على الفتنة. وقرأ زيد بن علي: ﴿لا يفتنكم﴾ - بغير نون توكيد - اهـ «سمين» وقوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حال من الضمير في ﴿أَخْرَجَ﴾، أو من ﴿أَبَوَيْكُم﴾؛ لأن الجملة فيها ضمير الشيطان، وضمير الأبوين؛ أي: حالة كون الشيطان ينزع ويسقط عن أبويكم لباسهما؛ أي: حالة كونه تسبب في سقوط لباسهما عنهما بأمرهما بالأكل من الشجرة ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾؛ أي: ليظهر لهما ﴿سَوْءَاتِهِمَآ﴾؛ أي: عوراتهما أي: ليري آدم سوأة حواء، وترى هي سوأة آدم؛ أي: أنه أخرجهما من الجنة، وكان سبباً في نزع لباسهما من ثياب الجنة، أو مما اتخذاه لباساً لهما من ورق الجنة؛ لأجل أن يريهما سؤاتهما، وفي ذلك إيماء إلى أنهما كانا يعيشان عريانين بعدما أهبطا إلى الأرض؛ لأنه ليس في الأرض ثياب تصنع، وليس هناك إلا أوراق الأشجار، وعلماء العاديات والآثار يحكمون حكماً جازماً بأن البشر قبل اهتدائهم إلى الصناعات كانوا يعيشون عراة، ثم اكتسوا بورق الشجر وجلود الحيوان التي يصطادونها، ولا يزال المتوحشون منهم إلى الآن يعيشون كذلك.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ تعليل للتحرز من الشيطان اللازم للنهي، كأنه قيل: فاحذروه لأنه يراكم ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾؛ أي أن إبليس وجنوده وأعوانه من شياطين الجن يرونكم يا بني آدم من مكان لا ترونهم فيه، والضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان خطره أشد، ووجوب العناية باتقائه أعظم، كما يرى ذلك في بعض الأوبئة التي ثبت وجودها في هذا العصر بالمجهر، فإنها تنفذ إلى الأجسام بنقل الذباب، أو البعوض، أو مع الطعام أو الشراب، أو الهواء، فتتوالد وتنمو بسرعة، وقد تسبب للإنسان أمراضاً مستعصية العلاج كالحمى الصفراء، والسل والسرطان إلى غير ذلك.

وفعل جنة الشياطين في أرواح البشر كفعل هذه الجنة التي يسميها الأطباء الميكروبات في الأجسام، فكلاهما يؤثر من حيث لا يرى فيتقى، والثانية تتقى بالأخذ بنصائح الأطباء، واستعمال الوسائل العلاجية الواقية، والأولى تتقى أيضاً

بتقوية الأرواح بالإيمان بالله وصفاته، وإخلاص العبادة له، والتخلق بالأخلاق الكريمة، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فتبتعد تلك الأرواح الشيطانية عنها، ولا تستطيع القرب منها.

والحاصل: أن الشياطين يرون بني آدم لكثافة أجسامهم وتلونهم، وبنو آدم لا يرونهم للطافتهم وعدم تلونهم، فأجسام الشياطين كالهواء، وأما رؤية الشياطين بعضهم بعضاً، فحاصلة لقوة في أبصارهم. قال مجاهد: قال إبليس: جعل لنا أربع: نرى، ولا نُرى، ونخرج من تحت الثرى، ويعود شيخنا شاباً. وقال مالك بن دينار: إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المجاهدة إلا من عصمه الله.

وهذا حيث كانوا بصورتهم الأصلية، وأما إذا تصوروا بغيرهم فنراهم؛ لأن الله تعالى جعل لهم قدرة على التشكل بالصور الجميلة أو الخسيسة، وتحكم عليهم الصورة كما في الأحاديث الصحيحة، فالآية ليست على عمومها، فالفرق بينهم وبين الملائكة أن الملائكة لا يتشكلون إلا في الصورة الجميلة، ولا تحكم عليهم، بخلاف الجن. وقد ورد أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم إلا من عصمه الله تعالى. وقرأ اليزيدي: ﴿وقبيلَه﴾ - بالنصب - عطفاً على اسم ﴿إن﴾.

ثم زاد في التحذير من الشيطان، وبيَّن شديد عداوته للإنسان، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ وصيرنا ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ وأعواناً وأصحاباً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لغير المؤمنين؛ أي: مكناهم من إغوائهم، فتحرزوا أنتم أيها المؤمنون منهم؛ أي: إنا صيرنا الشياطين قرناء للذين لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن مسلطين عليهم؛ أي: أن[1] سنتنا جرت بأن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن أولياء لشرار الإنس؛ وهم الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى وملائكته إيمان إذعان تزكو به نفوسهم لما بينهما من التناسب والتشاكل.

واكتساب الكفار لولاية الشياطين جاءت بسبب استعدادهم لقبول وسوستهم

---

(١) المراغي.

وإغوائهم، وعدم احتراسهم من الخواطر الرديئة، كاكتساب ضعفاء البنية للأمراض باستعدادهم لها، وعدم احتراسهم من أسبابها، كتناول الأطعمة والأشربة الفاسدة، والوجود في جو مملوء بالجراثيم القاتلة بعدم تعرضه للشمس والنور والهواء المتجدد.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾؛ أي: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله ورسوله ممن جعلوا الشياطين أولياء لأنفسهم فعلة ﴿فَاحِشَةً﴾؛ أي: فعلاً قبيحاً شرعاً وعقلاً من الأفعال التي تدينوا بها كتعريهم حين الطواف بالبيت، وسجودهم للأصنام، فلامهم لائم على ذلك ونهاهم عنه. قال أكثر المفسرين: المراد بالفاحشة هنا هي طواف المشركين بالبيت عراة. وقيل: هي الشرك، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعاً، والفاحشة في أصلها هي الذنوب التي بلغت الغاية في فحشها وقبحها. ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال الذين لا يؤمنون بالله في جواب اللائم والناهي محتجين بأمرين، تقليد الآباء والافتراء على الله ﴿وَجَدْنَا﴾ ورأينا ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على هذه الفاحشة ﴿ءَابَآءَنَا﴾ وأجدادنا وأسلافنا؛ أي: قالوا: وجدنا آباءنا يفعلون مثل ما نفعل، فنحن نقتدي بهم ونستن بسنتهم ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَمَرَنَا بِهَا﴾؛ أي: بهذه الفعلة، فنحن نتبع أمره، فإن أجدادنا إنما كانوا يفعلونها بأمر الله تعالى بها، وقد رد تعالى عن الأمر الثاني بأمر رسوله أن يدحضه بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في جوابهم رداً عليهم في المقالة الثانية ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ أي: إن هذا الفعل من الفحشاء، والله سبحانه بكماله منزه عن أن يأمر بالفحشاء، فإن عادته تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال، والحث على نفائس الخصال، وإنما يأمر بالفحشاء الشيطان، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾.

ثم رد عليهم المقالة الأولى، ووبخهم على تقليد الآباء والأجداد بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ، وهذا من جملة المأمور به في الجواب؛ أي: وقل لهم يا محمد: إنكم باتباعكم للآباء والأجداد في الآراء والشرائع غير المستندة إلى الوحي تقولون على الله ما لا تعلمون أنه

شرعه لعباده يعني: أنكم[1] ما سمعتم كلام الله مشافهة، ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله وعباده في تبليغ أوامره ونواهيه؛ لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء، فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون.

والخلاصة[2]: أنهم في عملهم الفاحشة استندوا إلى أمرين: أمر الله تعالى بها، وتقليد الآباء والأجداد، وقد رد الله عليهم في كل منهما، فرد على الأول ببيان أن الله لا يأمر بفاحشة، وأن الذي يأمر بها إنما هو الشيطان، ورد على الثاني بأن التشريع لا يعلم إلا بوحي من عنده إلى رسول يؤيده بالآيات البينات، وهو لم ينزل عليهم بفعل الفاحشة، فقولهم هذا إنما هو اتباع للأهواء فيما هو قبيح تنفر منه الطباع السليمة، وتستنقصه العقول الراجحة الحكيمة.

واعلم: أن في هذه الآية الشريفة لأعظم[3] زاجر وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون: إنا وجدنا آباؤنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون، والقائلون: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به، وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية، والنصراني على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية أو النصرانية أو البدعية، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغي، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص، فيا من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية إنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة، وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأي بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبياً واحداً أمرهم باتباعه، ونهى عن مخالفته، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

---

(1) الخازن. (2) المراغي. (3) الشوكاني.

﴿نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ ولو كان محض رأي أئمة المذاهب واتباعهم حجة على العباد.. لكان لهذه الأمة رسل كثيرة متعددون بعدد أهل الرأي المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به، وإن من أعجب الغفلة، وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله، ووجود سنة رسوله ﷺ، ووجود من يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، وملكة العقل عندهم.

وبعد أن أنكر عليهم أن يكونوا على علم بأمر الله فيما فعلوا.. بين ما يأمر به من محاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق بقوله لرسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: إنما ﴿أمر﴾ني ﴿رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بالاستقامة، والعدل في الأمور كلها، فأطيعوه، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ معطوف على المحذوف المقدر، أو على معنى ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ قال لهم: أمرني ربي بالقسط، فأقسطوا في الأمور كلها، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد؛ أي[1]: وجهوا وجوهكم في الصلاة إلى القبلة في أي مسجد كنتم فيه، أو في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود على أن المراد بالسجود الصلاة، أو المعنى[2] أعطوا توجهكم إلى الله تعالى حقه من صحة النية، وحضور القلب، وصرف الشواغل عند كل مسجد تعبدونه فيه سواء كانت العبادة طوافاً، أو صلاة، أو ذكراً ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: واعبدوه وحده حالة كونكم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ والعبادة، ولا تتوجهوا إلى غيره من عباده المكرمين زعماً منكم أنهم يشفعون لكم عند ربكم، ويقربونكم إليه زلفى، وقد جعلتم هذا من الدين افتراء على الله، وقولاً عليه بغير علم.

وبعد أن أبان أصل الدين ومناط الأمر والنهي فيه.. ذكرنا بالبعث والجزاء على الأعمال، فقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ وأنشأكم ربكم خلقاً وتكويناً بقدرته ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه سبحانه وتعالى بالبعث يوم القيامة، وأنتم فريقان سعداء وأشقياء ﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَىٰ﴾ه الله سبحانه وتعالى في الدنيا ببعثة الرسل، فاهتدى بهديهم، وأقام

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وجهه له وحده في العبادة، ودعاه مخلصاً له الدين لا يشرك به أحداً ﴿و﴾ أضل ﴿فريقاً﴾ آخر منكم ﴿حَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ أزلاً؛ لاتباعهم إغواء الشيطان، وإعراضهم عن طاعة بارئهم، وكل فريق يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

وقرأ أبي: ﴿تعودون فريقين فريقاً هدى﴾. وقيل المعنى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ في[1] الخلق شقياً وسعيداً، فكذلك ﴿تَعُودُونَ﴾ سعداء وأشقياء يدل على صحة هذا المعنى قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾؛ أي: أرشد إلى دينه، وهم أولياؤه ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾؛ أي: أضلهم، وهم أولياء الشياطين، أو المعنى: كما بدأكم من تراب تعودون إلى التراب.

وإنما حقت على الفريق الثاني الضلالة؛ لأنهم اقترفوا أسبابها، فوجدت نتائجها ومسبباتها، لا أنها جعلت لهم غرائز، فكانوا عليها مجبورين يرشد إلى ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمُ﴾؛ أي: إن هؤلاء الفريق الثاني ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ وجعلوا لأنفسهم ﴿ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى يطيعونهم في معصية الله، وهذه الجملة تعليل لقوله: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾؛ أي: أنهم حين أطاعوا الشياطين فيما زينوا لهم من الفواحش والمنكرات، فكأنهم ولّوهم أمورهم من دون الله الذي يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴿و﴾ هم مع عملهم هذا ﴿يحسبون﴾ ويظنون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ راشدون فيما تلقنهم الشياطين من الشبهات، كجعل التوجه إلى غير الله، والتوسل إليه في الدعاء مما يقربهم إلى الله زلفى قياساً على الملوك الجاهلين الذين لا يقبلون الصفح عن مذنب إلا بواسطة بعض المقربين عنده، ودلت هذه الآية على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين، بل لا بد من الجزم والقطع؛ لأنه تعالى ذم الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين، ولولا أن هذا الحسبان مذموم لما ذمهم بذلك، ودلت أيضاً على أن كل من شرع في باطل؛ فهو مستحق للذم سواء حسب كونه هدى، أو لم

---

(١) الواحدي.

يحسب ذلك اهـ «كرخي». والكثير[1] من أهل الضلال يحسبون أنهم مهتدون، وهم ما بين كافر جحود للحق كبراً وعناداً ـ كأعداء الرسل في عصورهم وحاسديهم على ما آتاهم الله من فضله، كما حكى سبحانه عن فرعون وملئه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وكالكبراء من قريش أمثال أبي جهل، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث في جمع كثير منهم، وهم الذين قال فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وهؤلاء هم الأقلون عدداً. وكافر بالتقليد واتباع نزغات الشيطان، أو باتباع الآراء الخاطئة والنظريات الفاسدة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ وهؤلاء هم جمهرة الناس في جميع الأمم، وذهب كثير من العلماء إلى أن من بذل جهده في البحث والنظر في الحق، ثم اتبع ما ظهر له أنه الحق بحسب ما وصلت إليه طاقته، وكان مخالفاً في شيء منه لما جاءت به الرسل لا يدخل في مدلول هذه الآية ونحوها، بل يكون معذوراً عند الله تعالى لقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

الإعراب

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يا آدم﴾: منادى مضافاً، وجملة النداء في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قلنا﴾، والتقدير: ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم، وقلنا: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، كما ذكره صاحب «زاده» ﴿ٱسْكُنْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر وجوباً. ﴿أَنتَ﴾: ضمير منفصل مؤكد لضمير الفاعل؛ ليصح عطف ما بعده عليه كما قال ابن مالك:

وإن على ضمير رفع متصل ... عطفت فافصل بالضمير المنفصل

(١) المراغي.

﴿وَزَوْجُكَ﴾: معطوف على الضمير المستتر. ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلف بـ﴿ٱسْكُنْ﴾، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿فَكُلَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿كلا﴾: فعل وفاعل معطوف على اسكن. ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كلا﴾. ﴿شِئْتُمَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقْرَبَا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَكُلَا﴾. ﴿هَٰذِهِ﴾: في محل النصب مفعول به. ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾: بدل من اسم الإشارة. ﴿فَتَكُونَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿تكونا﴾: فعل ناقص، واسمه معطوف على ﴿تَقْرَبَا﴾ مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تكونا﴾ وإن شئت قلت ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿تكونا﴾: فعل ناقص، واسمه منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، وعلامة نصبه حذف النون، والتقدير على هذا الوجه: لا يكن منكما قربان هذه الشجرة فكونكما من الظالمين.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَوَسْوَسَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الله سبحانه وتعالى نهاهما عن تلك الشجرة، وأوردت بيان هل امتثلا لذلك النهي أم لا.. فأقول لك: ﴿وسوس لهما الشيطان﴾: ﴿وسوس﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمَا﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿لِيُبْدِيَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وعاقبة، ﴿يبدي﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. ﴿لَهُمَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإبدائه لهما ما ووري، الجار والمجرور متعلق بـ﴿وسوس﴾. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به

لـ﴿يبدي﴾. ﴿وُۥرِىَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿عَنۡهُمَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ﴿ووري﴾ ﴿مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ضمير ﴿وُۥرِىَ﴾. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿وسوس﴾ على أنها عطف بيان لها. ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿ما﴾ نافية. ﴿نَهَىٰكُمَا﴾ فعل ومفعول. ﴿رَبُّكُمَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿عَنۡ هَٰذِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَهَىٰكُمَا﴾. ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَكُونَا﴾: فعل ناقص، واسمه منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿مَلَكَيۡنِ﴾: خبرها، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر المنصوب على أنه مفعول لأجله تقديره: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهية كونكما ملكين. ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿تَكُونَا﴾: فعل ناقص، واسمه معطوف على ﴿تَكُونَا﴾. ﴿مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾: خبر ﴿تَكُونَا﴾، والتقدير: أو كراهية كونكما من الخالدين.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾. ﴿إِنِّي﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿لَكُمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾. ﴿لَمِنَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿من الناصحين﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾ تقديره: إني لكائن من الناصحين لكما، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿دلى﴾: فعل ماض من باب فعل المضعف،

و﴿الهاء﴾: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة معطوفة على جملة ﴿قاسمهما﴾. ﴿بِغُرُورٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿دلى﴾ تقديره: فدلاهما الشيطان حالة كونه متلبساً بغرور وخداع لهما. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الأعراب. ﴿بَدَتْ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمَا﴾: متعلق به. ﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾. ﴿وَطَفِقَا﴾: فعل ناقص واسمه؛ لأنه من أفعال الشروع، وجملة ﴿يَخْصِفَانِ﴾ خبره، وجملة ﴿وَطَفِقَا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿بَدَتْ﴾ على كونها جواب ﴿لما﴾. ﴿عَلَيْهِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَخْصِفَانِ﴾. ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أيضاً.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَدَتْ﴾. ﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم ونفي. ﴿أَنْهَكُمَا﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جملة مفسرة للنداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَن تِلْكُمَا﴾: ﴿عَن﴾: حرف جر. ﴿تِ﴾: اسم إشارة يشار بها للمفردة المؤنثة البعيدة في محل الجر بـ﴿عَن﴾ مبني على الكسر لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، ﴿اللام﴾: لبعد المشار إليه، و﴿الكاف﴾: حرف دال على الخطاب، و﴿الميم﴾: حرف عماد، و﴿الألف﴾: حرف دال على التثنية. ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان له، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَنْهَكُمَا﴾. ﴿وَأَقُل﴾: فعل مضارع معطوف على أنه مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَّكُمَآ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ إلى آخره مقول محكي لـ﴿أقل﴾، وإن شئت قلت ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: اسمها. ﴿لَكُمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾. ﴿عَدُوٌّ﴾: خبر إن ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿عَدُوٌّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول لـ﴿أقل﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء على كونها مقول القول. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَغْفِرْ﴾. ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿تَغْفِرْ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم المقدر تقديره: نكن من الخاسرين، وجملة الشرط مع جوابه المحذوف معطوفة على جملة ﴿ظَلَمْنَآ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿لَنَكُونَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة لقسم محذوف تقديره: والله لئن لم تغفر لنا لنكونن، ﴿نكونن﴾: فعل مضارع ناقص في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على آدم وحواء. ﴿مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿نكون﴾، وجملة ﴿نكونن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بَعْضُكُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿لِبَعْضٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾. ﴿عَدُوٌّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ تقديره: اهبطوا حالة كونكم موصوفين بعداوة بعضكم لبعض. ﴿وَلَكُمْ﴾ ﴿الواو﴾: واو الحال، أو عاطفة. ﴿لكم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾. ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَمَتَـٰعٌ﴾: معطوف عليه. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: جار

ومجرور تنازع فيه ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾، أو معطوفة على جملة ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَحْيَوْنَ﴾. ﴿تَحْيَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿وفيها﴾: متعلق بـ﴿تَمُوتُونَ﴾. ﴿تَمُوتُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَحْيَوْنَ﴾. ﴿وَمِنْهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُخْرَجُونَ﴾. ﴿تُخْرَجُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿تَحْيَوْنَ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مستأنفة. ﴿قَدْ أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلْنَا﴾. ﴿لِبَاسًا﴾: مفعول به لـ﴿أَنزَلْنَا﴾. ﴿يُوَٰرِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿لِبَاسًا﴾. وجملة ﴿يُوَٰرِى﴾ صفة لـ﴿لِبَاسًا﴾ ﴿سَوْءَٰتِكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَرِيشًا﴾: معطوف على ﴿لِبَاسًا﴾. ﴿وَلِبَاسَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: بالنصب معطوف على ﴿لِبَاسًا﴾ أيضاً. ﴿لباسُ﴾ - بالرفع -: مبتدأ أول، ومضاف إليه. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، والجملة مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل جملة ﴿أَنزَلْنَا﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾: منادى مضاف، والجملة مستأنفة. ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾:

فعل ومفعول وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿كَمَآ﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم﴾: فعل ومفعول. ﴿مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ متعلق بـ﴿أَخۡرَجَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، والتقدير: لا يفتننكم الشيطان فتنة مثل إخراج أبويكم، أو لا يفتننكم فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم، أو لا يخرجنكم بفتنته إخراجاً مثل إخراجه أبويكم. ﴿ينزع﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾. ﴿عَنۡهُمَا﴾ متعلق به. ﴿لِبَاسَهُمَا﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿أَخۡرَجَ﴾ تقديره: حالة كونه ينزع عنهما لباسهما، أو في محل النصب حال من ﴿أَبَوَيۡكُم﴾. ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾: فعل ومفعول أول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾. ﴿سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾: مفعول ثان لأرى؛ لأن رأى بصرية تعدت إلى مفعولين بالهمزة، وجملة أرى صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَنزِعُ﴾ تقديره: ينزع عنهما لباسهما لإزالته إياهما سؤاتهما.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر باللام المقدرد مسوقة لتعليل النهي المستفاد من قوله: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فكأنه قيل: فاحذروه لأنه يراكم. ﴿هُوَ﴾: تأكيد لضمير الفاعل المستتر في ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾ ليصح العطف عليه كما قيل. ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾: بالرفع معطوف على ضمير الفاعل، وبالنصب معطوف على اسم ﴿إن﴾. ﴿مِنۡ حَيۡثُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾. ﴿لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيۡثُ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿جَعَلۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾: مفعولان لـ﴿جَعَلۡنَا﴾، وجملة ﴿جَعَلۡنَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ جملة معللة مؤكدة لجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ﴾. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار

ومجرور صفة لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، أو متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة الموصول.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت ﴿وَجَدْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهَآ﴾: متعلق به. ﴿ءَابَآءَنَا﴾: مفعول به ومضاف إليه؛ لأن وجد هنا بمعنى أصاب، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿أَمَرَنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿أَمَرَنَا﴾، وجملة ﴿أَمَرَنَا﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَأْمُرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَتَقُولُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبخي، وفيه معنى النهي، ﴿تقولون﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تقولون﴾. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ﴿تقولون﴾؛ لأنه بمعنى تذكرون وتفترون. ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما لا تعلمونه.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾: مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بِالْقِسْطِ﴾: متعلق بـ﴿أَمَرَ﴾ ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على محذوف معلوم من السياق: قل أمر ربي بالقسط فأقسطوا وأقيموا وجوهكم. ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أقيموا﴾. ﴿وَادْعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أقيموا﴾. ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من واو ﴿وَادْعُوهُ﴾. ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصِينَ﴾. ﴿الدِّينَ﴾: مفعول لـ﴿مُخْلِصِينَ﴾. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿بَدَأَكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿تَعُودُونَ﴾: فعل وفاعل، وجملة ﴿بَدَأَكُمْ﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، والتقدير: كبدئه إياكم، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: تعودون عوداً مثل بدئه إياكم في كونه عن عدم محض، وجملة ﴿تَعُودُونَ﴾ مستأنفة.

﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾.

﴿فَرِيقًا﴾: مفعول مقدم لـ﴿هَدَى﴾. ﴿هَدَى﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل بدأ؛ أي: تعودون كما بدأكم حال كونه هادياً فريقاً، ومضلاً فريقاً، وقد مضمرة هنا. ﴿وَفَرِيقًا﴾: مفعول لفعل محذوف تقديره: وأضل فريقاً، وجملة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ صفة لـ﴿فَرِيقًا﴾، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ على كونه مستأنفة، أو حالاً من فاعل بدأ تقديره: تعودون كما بدأكم حال كونه هادياً فريقاً، ومضلاً فريقاً حق عليهم الضلالة.

﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

﴿إِنَّهُمُ﴾: ناصب واسمه. ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور

ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أو حال من فاعل ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، والتقدير: اتخذوا الشياطين أولياء حالة كونهم مجاوزين الله. ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، أو حال من فاعل ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾. ﴿أَنَّهُم﴾: ناصب واسمه. ﴿مُّهْتَدُونَ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿حسب﴾، والتقدير: ويحسبون هدايتهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ قرب يستعمل لازماً، فيكون بضم الراء في الماضي والمضارع، ويستعمل متعدياً كما هنا فيكون بكسرها في الماضي، وفتحها في المضارع، وبفتحها في الماضي وضمها في المضارع، وفي «المصباح» قرب الشيء منا قرباً؛ أي: دنا إلى أن قال: وقربت الأمر أقربه ـ من باب تعب، وفي لغة من باب قتل ـ قِرباناً ـ بالكسر ـ فعلته، أو دانيته، اهـ.

﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ أصل الوسوسة: الصوت الخفي المكرر، ومنه قيل لصوت الحلي: وسوسة، ووسوسة الشيطان للبشر ما يجدونه في أنفسهم من الخواطر الرديئة التي تزين لهم ما يضرهم في أبدانهم أو أرواحهم، يقال: وسوس إذا تكلم كلاماً خفياً مكرراً.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مأخوذ من شاط إذا احترق، أو من شطن بمعنى بعد.

﴿مَا وُۥرِىَ﴾؛ أي: غطى وستر، وهو بوزن فوعل؛ لأنه مغير وارى على وزن فاعل كضارب، فلما بني للمفعول أبدلت الألف واواً كضورب، فالواو الأولى فاء الكلمة، والثانية: زائدة، فحينئذ لا يجب قلب الأولى همزة، وإنما يجب قلبها لو كانت الثانية أصلية كما أوضحوه في قول «الخلاصة»: وهمزا أول الواوين رد.

وقرأ عبد الله[1]: ﴿أوري﴾ ـ بإبدال الأولى همزة ـ وهو بدل جائز لا واجب، وهذه قاعدة كلية، وهي أنه إذا اجتمع في أول الكلمة واوان، وتحركت الثانية، أو كان لها نظير متحرك.. وجب إبدال الأولى همزة تخفيفاً، فإن لم

(١) الفتوحات.

تتحرك، ولم تحمل على متحرك جاز الإبدال كهذه الآية الكريمة.

﴿من سوءاتهما﴾ جمع سوءة، والسوءة ما يسوء الإنسان أن يراه غيره من أمر شائن، وعمل قبيح، وإذا أضيفت إلى الإنسان أريد بها عورته الفاحشة؛ لأنه يسوءه ظهورها بمقتضى الحياء الفطري. ﴿مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾؛ أي: من الذين لا يموتون أبداً.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾؛ أي: أقسم وحلف لهما، وفي «السمين» المفاعلة هنا يحتمل أن تكون على بابها. فقال الزمخشري: كأنه قال لهما: أقسم لكما إني لمن الناصحين، فقالا له: أتقسم بالله أنت إنك لمن الناصحين لنا، فجعل ذلك مقاسمة بينهم، أو أقسم لهما بالنصيحة، وأقسما له بقَبولها، أو أخرج قسم إبليس على وزن المفاعلة؛ لأنه اجتهد فيها اجتهاد المقاسم. وقال ابن عطية: وقاسمهما؛ أي: حلف لهما، وهي مفاعلة؛ إذ قَبول المحلوف له، وإقباله على معنى اليمين، وتقديره: كالقسم وإن كان بادىء الرأي يعطي أنها من واحد، ويحتمل أن يكون فاعل بمعنى أفعل كباعدته وأبعدته، وذلك أن الحلف لما كان من إبليس دونهما كان فاعل بمعنى أصل الفعل. انتهى.

﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ جمع ناصح اسم فاعل من نصح، ونصح يتعدى لواحد؛ تارة بنفسه، وتارة بحرف الجر، ومثله شكر وكال ووزن، وهل الأصل التعدي بحرف الجر، أو التعدي بنفسه، أو كل منهما أصل؟ الراجح الثالث، وزعم بعضهم أن المفعول في هذه الأفعال محذوف، وأن المجرور باللام هو الثاني، فإذا قلت: نصحت لزيد، فالتقدير: نصحت لزيد الرأي، وكذلك شكرت له صنيعه، وكلت له طعامه، ووزنت له متاعه، فهذا مذهب رابع، وقال الفراء: العرب لا تكاد تقول: نصحتك إنما يقولون: نصحت لك، وأنصح لك، وقد يجوز نصحتك، اهـ «سمين». والنصيحة: هي إرادة الخير للغير، وإظهاره له.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ يقال: دلى الشيء تدلية ـ كزكى تزكية ـ إذا أرسله، وأنزله من أعلى إلى أسفل رويداً رويداً، وقال الأزهري: وأصله أن الرجل العطشان يتدلى في البئر ليأخذ الماء، فلا يجد فيها ماء، فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه. والغرور: إظهار النصح مع إبطان الغش، وقيل: حطهما من منزلة

الطاعة إلى حالة المعصية؛ لأن التدلي لا يكون إلا من علو إلى سفل.

ومعنى الآية[1]: أن إبليس لعنه الله غر آدم باليمين الكاذبة، وكان آدم عليه السلام يظن أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، وإبليس أول من حلف بالله كاذباً، فلما حلف إبليس ظن آدم أنه صادق فاغتر به، والغرور: مصدر حذف فاعله ومفعوله، والتقدير بغروره إياهما.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: شرعا وأخذا يلزقان عليهما؛ أي: على القبل والدبر؛ أي: جعل كل منهما يستر عورتيه. يخصفان؛ أي[2]: يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة، من قولهم: خصف الإسكافي النعل إذا وضع عليها مثلها. وفي «المختار»: طفق يفعل كذا؛ أي: جعل يفعل كذا، وبابه طرب، وبعضهم يقول: هو من باب جلس. اهـ. وفي «المصباح»: خصف الرجل نعله خصفاً - من باب ضرب - فهو خصاف، وهو فيه كرقع الثوب.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ من حيي[3] من باب رضي، فتحيون أصله تحييون بوزن ترضيون، تحركت الياء الثانية وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فوزنه تفعون بحذف لام الكلمة.

﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ الريش: لباس[4] الحاجة والزينة، ولباس التقوى ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به في الحرب.

وفي «الفتوحات»: والريش فيه قولان:

أحدهما: أنه اسم لهذا الشيء المعروف.

والثاني: أنه مصدر يقال: راشه يرشه ريشاً إذا جعل فيه الريش، فينبغي أن يكون الريش مشتركاً بين المصدر والعين، وهذا هو التحقيق.

وقرىء: ﴿ورياشاً﴾ وفيه تأويلان[5]:

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.
(٤) المراغي.
(٥) الفتوحات.

أحدهما: وبه قال الزمخشري: أنه جمع **ريش** كشعب وشعاب.

والثاني: أنه مصدر أيضاً، فيكون ريش ورياش مصدرين لراشه الله ريشاً ورياشاً؛ أي: أنعم عليه. وقال الزجاج: هما اللباس، فعلى هذا هما اسمان للشيء الملبوس كما قالوا: لبس ولباس.

﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ الفتنة: الابتلاء والاختبار من قولهم: فتن الصائغ الذهب، أو الفضة إذا عرضهما على النار ليعرف الزيف من النضار.

﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ والقبيل: الجماعة يكونون من ثلاثة فصاعداً من جماعة شتى، هذا قول أبي عبيد، والقبيلة: الجماعة من أب واحد، فليست القبيلة تأنيث القبيل لهذه المغايرة اهـ «سمين». وفي «المصباح»: **والقبيل**: الجماعة ثلاثة فصاعدا من قوم شتى، والجمع قبل بضمتين، والقبيلة لغة فيه، وقبائل الرأس القطع المتصل بعضها ببعض، وبها سميت قبائل العرب، الواحدة قبيلة، وهم بنو أب واحد. اهـ.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ الفاحشة[1]: الفعلة المتناهية في القبح، والمراد بها هنا طواف أهل الجاهلية عراة كما ولدتهم أمهاتهم، ويقولون لا نطوف بيت ربنا في ثياب عصيناه بها.

﴿بِٱلْقِسْطِۖ﴾ والقسط الاعتدال في جميع الأمور، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط.

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ وإقامة الشيء: إعطاؤه حقه، وتوفيته شروطه كإقامة الصلاة، وإقامة الوزن بالقسط، والوجه قد يطلق على العضو المعروف من الإنسان كما في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ وقد يطلق على توجه القلب وصحة القصد كما في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾. ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾: وفي «القاموس»: والفِرقة ـ بالكسر ـ الطائفة من الناس، والجمع فرق، والفريق كأمير أكثر منها، والجمع أفرقاء وأفرقة وفروق. اهـ.

---

(١) المراغي.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾؛ أي: وقلنا يا آدم، وفي قوله: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ أي: فكلا منها؛ أي: من ثمارها حيث شئتمَا.

ومنها: المبالغة في النهي عن الأكل في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ لأنه عبر عن النهي من الأكل بالنهي عن القربان مبالغة.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ﴾ وفي قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أكد الخبر بالقسم وبـ﴿إن﴾ وباللام وبإسمية الجملة؛ لدفع شبهة الكذب، وهو من الضرب الذي يسمى إنكارياً؛ لأن السامع متردد.

ومنها: تخصيص الخطاب بآدم(١)، في قوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ للإيذان بأصالته في تلقي الوحي، وتعاطي المأمور به، وتعميمه في قوله: ﴿فَكُلَا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ للإيذان بتساويهما في مباشرة المأمور به، وتجنب المنهى عنه.

ومنها: المجاز المرسل، في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ لأنه مجاز عن الأكل من إطلاق المسبب وإرادة السبب.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ وهو(٢) حمل المخاطب على الإقرار بما علم عنده ثبوته أو نفيه. والمعنى(٣): أقر بذلك على حد ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَرِيشًا﴾ شبه لباس الزينة بريش الطائر بجامع الزينة في كل؛ لأن الريش زينة الطائر، كما أن اللباس زينة الأدميين، فاستعير اسم المشبه به للمشبه على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ لأنه من إضافة المشبه به إلى المشبه، فهو من قبيل إضافة لجين الماء، وقال الشوكاني(٤): ومثل هذه الاستعارة كثير

---

(١) الفتوحات.

(٢) الصاوي.

(٣) الصاوي.

(٤) فتح القدير.

الوقوع في كلام العرب، ومنه قوله:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عريانا، وإن كان كاسياً

ومثله قوله:

تغط بأثواب السخاء فإنني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وكان[1] مقتضى الظاهر لعلكم تذكرون، ونكتته دفع الثقل في الكلام.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾؛ لأن بين الجملتين طباقاً، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾؛ لأنه أسند النزع إليه لتسببه فيه.

ومنها: حكاية الحال الماضية، في قوله: ﴿ينزع﴾: عبر[2] بلفظ المضارع وعلى أنه حكاية حال؛ لأنها قد وقعت وانقضت.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الصاوي.

(٢) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلۡمُسۡرِفِينَ (٣١) قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (٣٢) قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى
ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٣٤) يَٰبَنِيٓ
ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ
(٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٦) فَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ
كَانُواْ كَٰفِرِينَ (٣٧) قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ
أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ
عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ
لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (٣٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١)
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ (٤٢) وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا
لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ
أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٤٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ...﴾ الآية، مناسبة[1]

---

(١) المراغي.

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر عباده في الآية السالفة بالعدل في كل الأمور، واتباع الوسط منها.. طلب إلينا أن نأخذ بالزينة في كل مجتمع للعبادة، فلنستعمل الثياب الحسنة في الصلاة والطواف ونحو ذلك، كما أباح لنا أن نأكل ونشرب مما خلق الله، بشرط أن لا نسرف في شيء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أنكر في الآية السالفة على المشركين وغيرهم من أرباب الملل الأخرى تحريم زينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق.. ذكر هنا أصول المحرمات التي حرمها على عباده لضررها، وجميعها من الأعمال الكسبية، لا من المواهب الخلقية؛ ليستبين للناس أن الله لم يحرم على عباده إلا ما هو ضار لهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين جماع المحرمات على بني آدم لما فيها من المفاسد والمضار للأفراد والمجتمع إثر بيان المباحات من الزينة والطيبات من الرزق بشرط عدم الإسراف فيها.. ذكر هنا حال الأمم في قبول هذه الأصول، أو ردها، والسير على منهاجها بعد قبولها، أو الزيغ عنها.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلها(١): أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن لكل أمة أجلاً لا تعدوه.. حكى هنا ما خاطب به كل أمة على لسان رسولها، وبينه لها من أصول الدين الذي شرعه لهدايتها، وتكميل فطرتها، وأرشدها إلى أنها إن كانت مطيعة تتقي الله فيما تأتي وتذر، وتصلح أعمالها، فلا يحصل لها في الآخرة خوف ولا حزن، وإن هي تمردت واستكبرت، وكذبت الرسل كانت عاقبتها النار، وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه

---

(١) المراغي.

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية السابقة عاقبة المكذبين بآياته المستكبرين عن قبولها والإذعان لها.. ذكر هنا أن من أشدهم ظلماً من يتقولون على الله الكذب، فينسبون إليه ما لم يقله كمن يثبت الشريك لله تعالى سواء كانت صنماً، أو كوكباً، أو يضيف إليه أحكاماً باطلة، أو يكذب ما قاله، كمن ينكر أن القرآن نزل من عند الله تعالى على رسوله محمد ﷺ. وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها[1]: أنه تعالى لما ذكر المكذبين.. ذكر من هو أسوأ حالاً منهم، وهو من يفتري الكذب على الله، وذكر أيضاً من كذب بآياته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن هذه الآية من تتمة ما سلف من وعيد الكفار، وجزاء المكذبين بالقرآن المستكبرين عن الايمان، بين بها أنهم خالدون في النار، وأنهم يلاقون فيها من الشدائد والأهوال ما لا يدرك العقل حقيقة كنهه، وأن هذا كفاء ظلمهم لأنفسهم، واستكبارهم عن طاعة ربهم، واتباع أوامره.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها، أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[2] وعيد أهل الكفار والمعاصي.. أردفه وعد أهل الطاعات، وقد جرت سنة القرآن بالجمع بينهما، فيبدأ بأحدهما لمناسبة سياق الكلام قبله، ثم يقفوه بالآخر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ...﴾ الآية، سبب نزولها[3]: ما روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية، وهي عريانة وعلى فرجها خرقة، وهي تقول:

الْيَوْمَ يَبْدُوْ بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ   فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.   (٣) لباب النقول.

فنزلت: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ...﴾ الآيتين.

وأخرج[1] عبد بن حميد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان الناس يطوفون بالبيت عراة، ويقولون لا نطوف في ثياب أذنبنا فيها، فجاءت امرأة فألقت ثيابها، فطافت ووضعت يدها على قبلها، وقالت:

الْيَوْمَ يَبْدُوْ بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية.

وقال مجاهد[2]: كان حي من أهل اليمن، كان أحدهم إذا قدم حاجاً أو معتمراً يقول: لا ينبغي أن أطوف في ثوب قد عصيت فيه، فيقول: من يعيرني مئزراً، فإن قدر عليه، وإلا طاف عرياناً، فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

وقال الزهري: إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، وهم قريش وأحلافهم، فمن جاء من غير الحمس وضع ثيابه، وطاف في ثوب أحمسي، ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه، فإن لم يجد من يعيره من الحمس، فإنه يلقي ثيابه، ويطوف عرياناً، وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها إذا قضى طوافه وحرمها؛ أي: جعلها حراماً عليه؛ فلذلك قال الله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة.

قال مجاهد: ما يواري عوراتكم ولو عباءة. وقال الكلبي: الزينة ما يواري العورة عند كل مسجد كطواف وصلاة، وقوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ أمر، وظاهره الوجوب، وفيه دليل على أن ستر العورة واجب في الصلاة، والطواف، وفي كل حال من الأحوال، وإن كان الرجل خالياً كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة.

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

والخطاب في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ عام[١] لجميع بني آدم، وإن كان وارداً في سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالذي ينبغي للأمة التجمل بالثياب عند حضور مشاهد الخير مع القدرة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾؛ أي: البسوا ثيابكم التي تستر عوراتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾؛ أي: في كل وقت صلاة وطواف، والزينة ما يزين الشيء، أو الشخص، ومعنى أخذها: التزين بها، والمراد بالزينة هنا: الثياب الحسنة كما يدل على ذلك سبب نزول الآيات. وأقل هذه الزينة ما يدفع عن المرء أقبح ما يشينه بين الناس، وهو ما يستر عورته، وهو الواجب لصحة الصلاة والطواف، وما زاد على ذلك من التجمل بزينة اللباس عند الصلاة - ولا سيما صلاة الجمعة والعيد - فهو سنة لا واجب.

ويرى بعض العلماء[٢] وجوب الزينة عند كل مسجد بحسب عرف الناس في تزينهم في المجامع والمحافل؛ ليكون المؤمن حين عبادة ربه مع عباده المؤمنين في أجمل حال، لا تقصير فيها ولا إسراف. أخرج الطبراني والبيهقي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم.. فليلبس ثوبيه، فإن الله عز وجل أحق من تزين له، فإن لم يكن له ثوبان. فليتزر إذا صلى، ولا يشتمل أحدكم في صلاته اشتمال اليهود».

وأخرج الشافعي وأحمد والبخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء».

وعلى الجملة: فالزينة تختلف باختلاف حال الناس في السعة والضيق، فمن عنده ثوب واحد يستر جميع بدنه.. فليستر به جميع بدنه، وليصل به، فإن لم يستر إلا العورة كلها، أو الغليظة منها؛ وهي السوءتان... فليستر به ما يستره، ومن وجد ثوبين، أو أكثر فليصل بهما.

وهذا[٣] الأمر بالزينة عند كل مسجد أصل من الأصول الدينية والمدنية عند

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

المسلمين، وكان سبباً في تعليم القبائل المتوحشة القاطنة في الكهوف والغابات أفراداً وجماعات لبس الثياب عند دخولها في حظيرة الإسلام، وكانوا قبل ذلك يعيشون عراة الأجسام رجالاً ونساءً حتى ذكر بعض المنصفين من الإفرنج أن لانتشار الإسلام في إفريقية منه على أوروبا بنشره للمدينة بين أهلها؛ إذ ألزمهم ترك العرى، وأوجب لبس الثياب، فكان ذلك سبباً في رواج تجارة المنسوجات. وبهذا نقل الإسلام أمماً وشعوباً كثيرة من الوحشية إلى الحضارة الراقية؛ أي: خذوا زينتكم عند المساجد وأداء العبادات ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من الطيبات ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ فيها بالتعدي إلى الحرام، أو بتحريم الحلال، أو بالإفراط في الطعام، بل عليكم بالاعتدال في جميع ذلك ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: لأن الله سبحانه وتعالى الخالق لهذه النعم لا يحب المسرفين؛ أي: لا يرتضي عنهم فعلهم، بل يعاقبهم على هذا الإسراف بمقدار ما ينشأ عنه من المضار والمفاسد؛ لأنهم قد خالفوا سنن الفطرة، وجنوا على أنفسهم في أبدانهم وأموالهم، وجنوا على أسرهم وأوطانهم إذ هم أعضاء في جسم الأسرة والأمة.

روى النسائي وابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ـ كبر وإعجاب بالنفس ـ ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده».

وعن ابن عباس أنه قال: كل ما شئت، واشرب ما شئت، والبس ما شئت إذا أخطأتك اثنتان: سرف أو مخيلة. والإسراف تجاوز الحد في كل شيء، والحدود لها أقسام:

منها: طبيعي كالجوع والشبع، والظمأ والري، فمن أكل إذا أحس بالجوع، أو كف عن الأكل إذا شعر بالشبع، وإن كان يستلذ الاستزادة أو شرب إذا شعر بالظمأ، واكتفى بما يزيله، ولم يزد على ذلك.. لم يكن مسرفاً في أكله وشربه، وكان طعامه وشرابه نافعين له.

ومنها: اقتصادي؛ وهو أن تكون النفقة على نسبة معينة من دخل الإنسان بحيث لا تستغرق كسبه.

ومنها: شرعي، فإن الشارع حرم من الطعام الميتة والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، وحرم من الشراب الخمر، وحرم من اللباس الحرير الخالص، أو الغالب على الرجال دون النساء، وحرم الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة، وعده من السرف المنهي عنه، فهذه الأشياء لا يباح استعمالها إلا لضرورة تقدر بقدرها.

والمعول عليه في الإنفاق في كل طبقة عرف المعتدلين فيها، فمن تجاوز طاقته مباراة لمن هم أغنى منه وأقدر كان مسرفاً، وكم جر الإسراف إلى خراب بيوت عامرة، ولا سيما في المهور، وتجهيز العرائس، وحفل العرس والمأتم[1]، والزار، قال الشاعر:

ثَلاَثَةٌ تَشْقَىٰ بِهَا ٱلدَّارُ ٱلْعُرْسُ وَٱلْمَأْتَمُ وَٱلزَّارُ

وهذا السرف كبير الضرر، عظيم الخطر على الأمم، أكثر من ضرره على الأفراد، ولا سيما في البلاد التي تأتي إليها أنواع الزينة من البلاد الأجنبية عنها، إذ تذهب الثروة إلى غير أهلها، وربما ذهبت إلى من يستعين بها على استذلالهم، والعدوان عليهم.

والخلاصة: أن الطعام والشراب من ضرورات الحياة الحيوانية، ولكن ضل في ذلك فريقان:

١ ـ فريق البخلاء والغلاة في الدين، تركوا الأكل والشرب من الطيبات المستلذة؛ إما بخلاً وشحاً، أو تحرجاً وتأثماً؛ إما دائماً، أو في أوقات مخصوصة من السنة.

٢ ـ فريق المترفين الذين أسرفوا في اللذات البدنية، وجعلوها جل هممهم، فهم يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام، وليس لهم غاية يقفون عندها،

(١) والمأتم عند العرب نساء يجتمعن في الخير والشر، والجمع مآتم، وعند العامة المصيبة يقولون: كنا في مأتم فلان، والصواب كنا في مناحة فلان اهـ «مختار».

أو نهاية ينتهون إليها.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة ﴿مَنْ حَرَّمَ﴾؛ أي: من الذي حرم عليكم ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ﴾ها وخلقها ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ من النبات كالقطن والكتان، ومن الحيوان كالحرير والصوف، ومن المعادن كالدروع ﴿و﴾ من الذي حرم عليكم ﴿الطيبات﴾؛ أي: المستلذات ﴿مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾؛ أي: من المآكل والمشارب، والاستفهام فيه إنكاري توبيخي؛ أي: لا أحد حرم عليكم أن تتزينوا بها، وتلبسوها في الطواف وغيره، ولا أن تأكلوا المستلذات من الرزق في الحج وغيره.

ومعنى إخراج الله للزينة[1]: خلق موادها، وتعليم طرق صنعها بما أودع في فطرهم من حبها، والميل إلى الافتتان في استعمالها؛ إذ خلقهم مستعدين لإظهار آياته في جميع ما خلق في هذا العالم الذي يعيشون فيه بما أودع في غرائزها من الميل إلى البحث في كشف المجهول، والاطلاع على خفايا الأمور، فهم لا يدعون شيئاً عرفوه بحواسهم أو عقولهم حتى يبحثوه من طرق شتى، وأوجه لا نهاية لها، ولم تنتهي بحوثهم ما دام الإنسان على ظهر البسيطة.

وغريزة حب الزينة، وحب التمتع بالطيبات كانت من أهم الأسباب في اتساع أعمال الفلاحة والزراعة، ورقي ضروب الصناعة، واتساع وسائل العمران، ومعرفة سنن الله وآياته في الأكوان، وهما لا يذمان إلا بالإسراف فيهما، والغفلة عن شكر المنعم بهما.

والخلاصة: أن الدين لم يحرمهما إلا إذا كانا عائقين عن الكمال الروحي، والكمال الخلقي، وأنه لم يجعل تركهما قربة إلى الله كما جرى على ذلك الوثنيون من البراهمة وغيرهم، وقلدهم في ذلك بعض المسلمين، وصاروا يبثون في الأمم الإسلامية تعاليم تقضي بأن روح الدين ومخ العبادة في التقشف، وحرمان النفس من التمتع بلذات الحياة. وقد بين الله سبحانه وتعالى وجه

---

(١) المراغي.

الصواب في ذلك بقوله لرسوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأمتك ﴿هِيَ﴾؛ أي: الزينة والطيبات ثابتة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله بطريق الأصالة، فالضمير عائد على الزينة والطيبات من الرزق، لكن على وجه أعم بأن يراد بها الأعم من الدنيوية والأخروية؛ لأجل أن يصح الإخبار عنها بقوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وبقوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم؛ لأنه يشركهم فيها المشركون، وإن لم يستحقوها مثلهم حالة كونها ﴿خَالِصَةً﴾ لهم ومختصة بهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم؛ لأنه لاحظ للمشركين يوم القيامة في الطيبات من الرزق. وقيل[1]: معناه خالصة لهم يوم القيامة من التكدير والتنغيص والغم؛ لأنه قد يقع لهم في الحياة الدنيا في تناول الطيبات من الرزق كدر وتنغيص، فأعلمهم أنها خالصة لهم في الآخرة من ذلك كله.

وقرأ قتادة[2]: ﴿قل هي لمن آمن﴾ وقرأ نافع: ﴿خالصة﴾ - بالرفع -، وقرأ باقي السبعة ﴿خالصةً﴾ بالنصب، فأما النصب فعلى الحال من الضمير المستكن في الجار والمجرور الواقع خبراً، وأما الرفع فعلى أنه خبر بعد خبر، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: وهي خالصة.

وقصارى ذلك: أن الدين يورث أهلها سعادة الدنيا والآخرة جميعاً كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾، وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

ذاك أن المؤمن يزداد علماً وإيماناً بربه، وشكراً له كلما عرف شيئاً من سننه وآياته في نفسه، أو في غيرها من الكائنات، ومن أهم أركان الشكر استعمال النعمة فيما وهبها المنعم لأجله من شكر الجوارح، كشكر اللسان بالثناء عليه، وشكر سائر الأعضاء كذلك.

ففي حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي والحاكم: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» والسر في هذا: أن الأكل والشرب من الطيبات بدون

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

إسراف هما قوام الحياة والصحة، وهما الدعامتان اللتان يتوقف عليهما القيام بجميع الأعمال الدينية والدنيوية من عقلية وبدنية، ولهما التأثير في جودة النسل الذي به يكثر سواد الأمة، والملابس الجيدة النظيفة لها فوائد:

١ ـ حفظ الصحة.

٢ ـ كرامة من يتجمل بها في نفوس الناس.

٣ ـ إظهار نعمة الله على لابسها، والمؤمن يثاب بنيته على كل ما هو محمود من هذه الأمور بالشكر عليها.

روى أبو داود عن أبي الأحوص قال: أتيت رسول الله ﷺ في ثوب دون، فقال: «ألك مال»؟ قلت: نعم. قال: «من أي المال»؟ قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق قال: «فإذا آتاك الله.. فلير أثر نعمته عليك وكرامته لك».

وأخرج الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» وقد كانت العرب تحرم زينة اللباس في الطواف تعبداً، وتحرم الادهان ونحوه حال الإحرام بالحج كذلك، وتحرم من الأنعام والحرث ما ذكر في سورة الأنعام، وحرم أهل الكتاب كثيراً من الطيبات، فجاء الدين الإسلامي الجامع بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة، والمطهر للنفوس، والمهذب للأخلاق، فأنكر هذا التحكم المخالف لسنن الفطرة، وبين أن هذا التحريم لم يكن إلا من وساوس الشيطان، ولم يوح به الله تعالى إلى أنبيائه ورسله المصطفين الأخيار.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كتفصيلنا هذا الحكم المذكور وتبييننا إياه ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونبين ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: الأحكام من الحلال والحرام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أني أنا الله وحدي لا شريك لي، فأحلوا حلالي، وحرموا حرامي.

أي: أن هذا التفصيل لحكم الزينة والطيبات، الذي ضل فيه كثير من الأمم والأفراد ما بين إفراط وتفريط، لا يعقله إلا الذين يعلمون سنن الاجتماع وطبائع

البشر ومصالحهم، ونحن قد فصلناه على لسان هذا النبي الأمي، الذي لم يكن يعرف شيئاً من تاريخ البشر في أطوار بداوتهم وأطوار حضارتهم قبل أن ننزلها عليه، فكان ذلك آية دالة على نبوته؛ إذ ما كان لمثله أن يعلمها إلا بالوحي من عندنا، ولولا الكتاب الكريم.. لما خرجت العرب من ظلمات الوثنية والجهالة إلى ذلك النور الذي صلحت به، وأصلحت أمماً كثيرة بالدين والفنون والآداب، وما أحيت من علوم الأوائل.

ولكن وا أسفا قد أضحى المسلمون من أجهل الشعوب بسنن الله في الأكوان، وبالعلوم والمعارف اللازمة لتقدم الحضارة والمدنية، وأصبحوا في مؤخرة الأمم، وصاروا مضرب الأمثال في التأخر والخمول والكسل، وبذلك استكانوا وذلوا، وصاروا أفقر الأمم وأضعفهم وأقلهم خدمة لدينهم، وخالفوا ما رسمه لهم ذلك من أن لهم زينة الدنيا وطيباتها وسعادتها وملكها، وأن عليهم أن يشكروا الله على ما يؤتيهم من ذلك، وأن عليهم أن يقوموا بما يرضيه من اتباع الحق والعدل، وكل ما تقتضيه خلافتهم في الأرض.

ولقد بلغ الجهل بكثير من المسلمين أن ظن - وبعض الظن إثم - أن دين الإسلام هو سبب ضعف المسلمين وجهلهم ومسكنتهم، وذهاب ملكهم، واستعباد الكفار لهم حتى رغب الجهال منهم الدخول في المسيحية والشيوعية؛ لطول ما عليهم من الاستئمار، كما رأينا ذلك في بعض القبائل من الشعوب الآرومية في شرقي إفريقيا؛ لاستعباد الجيوش لهم بأخذ أراضيهم، وضرب الجزية عليهم استعباداً لا نظير له إلا استعباد فرعون لبني إسرائيل، ولكن كتاب الله وسنة رسوله وتاريخ هذه الأمة شاهد صدق على فساد هذه القضية، وتزييف تلك الدعوى فليس لها من دعائم تستند إليها وتقف بها على رجليها.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من ثيابهم في الطواف، والذين يحرمون أكل الطيبات ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾؛ أي: الزنا ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ أي: جهرها وسرها ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾؛ أي: شرب الخمر ﴿وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: الظلم على الناس بغير الحق، فالقتل والقهر بالحق ليس بغياً ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: وحرم أن تسووا بالله في العبادة معبوداً ليس على ثبوته حجة، ولا يخفى ما فيه من التهكم بالمشركين[1] والكفار؛ لأنه لا يجوز أن ينزل حجة وبرهاناً بأن يشرك به غيره؛ لأن الإقرار بشيء ليس على ثبوته حجة ولا برهان ممتنع، فلما امتنع حصول الحجة والبينة على صحة القول بالشرك.. وجب أن يكون باطلاً على الإطلاق ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته، والافتراء عليه في التحريم والتحليل؛ أي: أن تقولوا على الله ما لا تعلمون حقيقته، وأن الله قاله، مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التي لم يأذن بها.

فالجنايات محصورة في خمسة أنواع[2]:

أحدها: الجناية على الأنساب؛ وهي المرادة بالفواحش الظاهرة والباطنة، وقد تقدم تفسيرها في سورة الأنعام، وهي إحدى الوصايا التي ذكرت هناك، وقد تقدم تخصيصها بفاحشة الزنا، وإن كان الأولى التعميم.

وثانيها: الجناية على العقول؛ وهي المشار إليها بالإثم والإثم[3] يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم والذم، وعطفه على ما قبله من عطف العام على الخاص، والثلاثة بعده معطوفة عليه عطف خاص على عام؛ لمزيد الاعتناء بها، وقيل: هو الخمر خاصة ومنه قول الشاعر:

شَرِبْتُ ٱلإِثْمَ حَتَّىٰ ضَلَّ عَقْلِيْ ... كَذَاكَ ٱلإِثْمُ تَذْهَبُ بِٱلْعُقُوْلِ

ومثله قول الآخر:

يَشْرَبُ ٱلإِثْمُ بِٱلصَّوَاعِ جِهَارَا

وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصاً بالخمر. قال النحاس: فأما أن يكون الإثم الخمر.. فلا يعرف ذلك، وحقيقته أنه جميع المعاصي كما قال الشاعر:

---

(١) المراح والمراغي والشوكاني. (٢) الشوكاني.

إِنِّـــي وَجَـــدْتُ ٱلْأَمْـــرَ أَرْشَـــدُهُ   تَـــقْـــوَىٰ ٱلْإِلٰـــهِ وَشَـــرُّهُ ٱلْإِثْـــمُ

قال في «الصحاح»: وقد يسمى الخمر إثماً، وأنشد: شربت الإثم... البيت، وكذا أنشده الهروي قبله في غريبته.

وثالثها: الجناية على النفوس والأموال والأعراض، وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو[1] الإثم الذي فيه تجاوز لحدود الحق، أو اعتداء على حقوق الأفراد أو جماعتهم، ومن ثم قرن بالعدوان في قوله: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وقيد البغي بكونه بغير الحق؛ لأن تجاوز الحدود المعروفة قد يكون فيما لا ظلم فيه ولا فساد، ولا هضم لحقوق الأفراد والجماعات كما في الأمور التي ليس لهم فيها حقوق، أو التي تطيب أنفسهم فيها عن بعض حقوقهم، فيبذلونها عن رضى وارتياح لمصلحة لهم يرجونها.

ورابعها: الجناية على الأديان؛ وهي من وجهين:

إما بالطعن في توحيد الله تعالى؛ وهو الشرك، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وهو أقبح الفواحش، فلا تقوم عليه حجة من عقل ولا برهان من وحي، وسميت الحجة سلطاناً؛ لأن لها سلطاناً على العقل والقلب.

وفي هذا إيماء إلى أن أصول الإيمان لا تقبل إلا بوحي من الله يؤيده البرهان كما قال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ كما أن فيه إرشاداً إلى عظم شأن الدليل والبرهان في الدين، حتى كأن من جاء بالبرهان على الشرك يصدق، وهذا من فرض المحال مبالغة في فضل الاستدلال كما قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وإما بالقول في دين الله بغير معرفة، وإليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: وهو من أسس المحرمات التي حرمت على ألسنة الرسل جميعاً؛ إذ هو منشأ تحريف الأديان المحرفة، وسبب الابتداع في الدين الحق، وقد انتشر الابتداع بين أهله، وتحكمت بينهم الأهواء، واتبعوا سنن من قبلهم

---

(١) المراغي.

كما جاء في الحديث: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جُحْر ضب لتبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». رواه الشيخان. ورأس البلية في هذا الابتداع القول في الدين بالرأي، فما من أحد يبتدع، أو يتبع مبتدعاً إلا استدل على بدعته بالرأي. وقد ظهرت مبادىء هذه البدع والأهواء في القرون الأولى قرون العلم بالسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما زال أمرها يستفحل حتى وصلت إلى ما نراه الآن. وما شرع[1] من اجتهاد الرأي في حديث معاذ وغيره؛ فهو خاص بالقضاء لا بأصول الدين وعباداته، فقد أكمل الله دينه، فلم يترك فيه نقصاً يكمله غيره بظنه ورأيه بعد وفاة رسوله، وليس لقاض ولا مفت أن يسند رأيه الاجتهادي إلى الله، فيقول: هذا حكم الله، وهذا دينه، بل يقول: هذا مبلغ اجتهادي، فإن كان صواباً فمن توفيق الله وإلهامه، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان.

والخلاصة: أنه لا ينبغي لأحد أن يحرم شيئاً تحريماً دينياً على عباد الله، أو يوجب عليهم شيئاً إلا بنص صريح عن الله ورسوله، ومن تهجم على ذلك.. فقد جعل نفسه شريكاً لله، ومن تبعه في ذلك.. فقد جعله رباً له، ومن ثم كان فقهاء الصحابة والتابعين يتحامون القول في الدين بالرأي، وقد أنكر الله سبحانه وتعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

وهذه الجنايات الخمسة المذكورة في هذه الآية أصول الجنايات، وأما غيرها فهي كالفروع.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: من الأمم التي كذبت الرسل ﴿أَجَلٌ﴾؛ أي: وقت معين لهلاكها ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: وقت هلاكهم؛ أي: أجل واحد اندرج تحت الأمة ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾؛ أي: لا يتركون بعد الأجل طرفة عين ﴿وَلَا

(١) المراغي.

﴿يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾؛ أي: ولا يهلكون قبل الأجل طرفة عين، فقوله: ﴿سَاعَةٗ﴾؛ أي: شيئاً قليلاً من الزمان؛ فهي مثل يضرب لغاية القلة من الزمان. ذكره أبو السعود. فالجزاء[1] مجموع الأمرين، لا كل واحد على حدته، والمعنى: أن الوقت المحدود لا يتغير، وهذا وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم السابقة؛ إذ خالفوا أمر ربهم؛ يعني[2]: فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة، وإنما ذكرت الساعة؛ لأنها أقل أسماء الأوقات في العرف يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة، يريد في أقصر وقت وأقربه، وإنما أفرد[3] الأجل؛ لأنه اسم جنس، أو لتقارب أعمال أهل كل عصر، أو لكون التقدير: لكل واحد من أمة. وقرأ الحسن وابن سيرين: ﴿فإذا جاء آجالهم﴾ بالجمع.

والمعنى[4]: قل يا محمد لقومك ولغيرهم لكل أمة أمد مضروب لحياتها مقدر لها بحسب السنن التي وضعها الخالق لوجودها، وهذا الأجل على ضربين: أجل لوجودها في الحياة الدنيا، وأجل لعزها وسعادتها بين الأمم:

الأول: أجل لأمة بعث فيها رسول لهدايتها، فردوا دعوته كبراً وعناداً، واقترحوا عليه الآيات فأعطوها مع إنذارهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا، فاستمروا في تكذيبهم، فأخذهم ربهم أخذ عزيز مقتدر، كما وقع لقوم نوح وعاد وثمود وفرعون وإخوان لوط وغيرهم.

وهذا النوع من الهلاك كان خاصاً بأقوام الرسل أولي الدعوة الخاصة بأقوامهم، وقد انتهى ذلك ببعثة النبي ﷺ الذي خاطبه الله بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.. وقد مضت سنة الله في الأمم أن الذين يقترحون الآيات لا يؤمنون بها، ومن ثم لم يعط الله تعالى رسوله شيئاً مما كانوا يقترحونه عليه.

---

(١) المراح.
(٢) الخازن.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

والثاني: أجل مقدر لحياة الأمم سعيدة عزيزة باستقلالها ومكانتها بين الأمم، وهذا منوط بسنن الله في الاجتماع البشري، وعوامل الرقي والعمران، وأسباب انتهاء هذا الاجتماع لا تعد، ومخالفة ما أرشدت إليه الآيات السالفة كإسراف في الزينة، أو إسراف في التمتع بالطيبات، أو باقتراف الفواحش والآثام والبغي على الناس، أو بالتوغل في خرافات الشرك والوثنية، أو بالكذب على الله بإرهاق الأمة بما لم يشرعه لها من الأحكام. فالأمم التي ترتكب هذه الضلالات والمفاسد يسلبها الله سعادتها، ويسلط عليها من يستذلها كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ وهاكم شاهد صدق على ما نقول، إن الأمم التي كان لها شأن يذكر في التاريخ كالرومان والفرس والعرب والترك وغيرهم، ممن سلب ملكهم كله أو بعضه، لم يكن لذلك من سبب سوى ما أسلفنا، وهذا الضرب من الأجل، وإن عرفت أسبابه لا يمكن أن يحد بالسنين والأعوام والليالي والأيام، ولكن الله يعلم تحديده بما أوجده من الأسباب التي تنتهي بمسبباتها، وبالمقدمات التي تترتب عليها نتائجها كما قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

الساعة لغة: أقل مدة من الزمن؛ أي: فإذا جاء الوقت الذي وقته الله لهلاكهم، وحلول العقاب بهم لا يتأخرون عنه بالبقاء في الدنيا أقل تأخر، كما أنهم لا يتقدمون أيضاً عن الوقت الذي جعله لهم وقتاً للفناء والهلاك. فإن قلت: لم أتى بالفاء هنا وفي سائر المواضع إلا في يونس فحذفها؟

قلت: لأن مدخولها في غير يونس جملة معطوفة على أخرى مصدرة بالواو، وبينهما اتصال وتعقيب، فحسن الإتيان بالفاء الدالة على التعقيب بخلاف ما في يونس. انتهى من «الفتوحات».

وفي الآية إيماء إلى أن الأمة قد تملك طلب تأخير الهلاك قبل مجيئه؛ أي: قبل أن تغلبها على إرادتها أسباب الهلاك بأن تترك الفواحش والآثام والظلم والبغي، والإسراف المفسد للأخلاق، وخرافات الشرك المفسدة للعقول، وتترك البدع في التحريم والتحليل بما لم يخاطب به المولى بأن يقوم فيها جماعة من

المصلحين، فيرشدوها إلى تغير ما بأنفسها من الفساد، فيغير الله ما بها، وهذا من استئخار الهلاك، أو منعه عنها قبل مجيء أهلها.

وخلاصة معنى الآية: أن لكل أمة أجلاً لا يتأخرون عنه إذا جاء ولا يتقدمون عليه أيضاً، فيهلكوا قبل مجيئه، ونحو الآية قوله: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؛ أي يا بني آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم من البشر ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾؛ أي: يتلون عليكم آياتي التي أنزلتها عليكم لبيان ما آمركم به من صالح الأعمال، وترك ما أنهاكم عنه من الشرك والرذائل وقبيح الأعمال ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ واجتنب منكم ما نهيته عنه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ نفسه بفعل ما أوجبته عليه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب الآخرة حين يخاف غيرهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين الجزاء على ما فاتهم في الدنيا، أما حزنهم على عقاب الآخرة فيرتفع بما حصل لهم من زوال الخوف.

وحكمة كون الرسول منهم[1]: أنه أقطع لعذرهم، وأظهر في الحجة عليهم إذ معرفتهم بأحواله تبين لهم أن المعجزات التي ظهرت على يديه إنما هي بقدرة الله لا بقدرته إلى ما في ذلك من حصول الألفة، فالجنس يألف بالجنس ويركن إليه، ومن ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾.

وقرأ أبيّ والأعرج[2]: ﴿إما تأتينكم﴾ ـ بالتاء على تأنيث الجماعة ـ و﴿يَقُصُّونَ﴾ محمول على المعنى إذ ذاك؛ إذ لو حمل على اللفظ لكان تقص.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة على أحد من رسلنا ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ أي: امتنعوا عن اتباع من جاء بها حسداً له على الرياسة، وتفضيلاً لأنفسهم عليه، أو لقومهم على قومه فـ﴿أولئك﴾ المكذبون المستكبرون عنها ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثون فيها مكثاً لا نهاية له.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

ومعنى الاستكبار عن قبول الآيات: رفضها كبراً وعناداً لمن جاء بها، كما حدث من رؤساء قريش حين استكبروا أن يكون محمد ﷺ إماماً لهم، إذ رأوا أنفسهم أحق بالرياسة منه؛ لأنهم أكثر منه مالاً وأعز نفراً.

والخلاصة: أن جميع الرسل قد بلغوا أممهم أن اتقاءهم لما يفسد فطرتهم من الشرك والمعاصي، وإصلاح أنفسهم بالطاعة يوجب الأمن وعدم الخوف مما يتوقع، وعدم الحزن على ما وقع منهم في الدار الأولى، وأن تكذيب ما جاؤوا به من الآيات والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه المكث في نار جهنم خالدين فيها أبداً كفاء ما فعلوا من التمرد وعصيان أوامر الديان.

والاستفهام في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إنكاري؛ أي: لا أحد أظلم وأقبح وأشنع ممن افترى واختلق على الله الكذب بأن أوجب على عباده من العبادات ما لم يوجبه، أو حرم عليهم من الدين ما لم يحرمه، أو عزا إلى دينه أحكاماً لم تنزل على رسله، أو بنسبة الشريك والولد إليه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ المنزلة عليهم سواء أكان بالقول، أو بما هو أدل منه كالاستهزاء بها، أو الاستكبار عن اتباعها، أو بتفضيل غيرها عليها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المفترون المكذبون بآيات الله ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي يصيبهم، ويوفى لهم نصيبهم وحظهم من الكتاب؛ أي: من الأعمار والأرزاق المكتوبة لهم في اللوح المحفوظ، فهم مع ظلمهم وافترائهم على الله لا يحرمون مما قدر لهم من الأرزاق إلى انقضاء آجالهم تفضلاً منه سبحانه وتعالى؛ لكي يصلحوا ويتوبوا، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾. و﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ غاية[1] لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له، وهي حتى التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية، وهي ﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾: أي: يوفى لهم نصيبهم من الأرزاق والأعمار المكتوبة لهم في اللوح

---

(١) النسفي.

المحفوظ مدةَ حياتهم، حتى إذا جاءتهم رسلنا ملك الموت وأعوانه حالة كون رسلنا ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾؛ أي: يقبضون أرواحهم؛ أي: يوفى لهم نصيبهم الذي كتب لهم مدة حياتهم حتى إذا ما انتهى بانتهاء آجالهم، وجاءتهم رسلنا يقبضون أرواحهم ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قالت رسلنا لأولئك المفترين المكذبين بآيات الله تعالى على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أين الشركاء والآلهة التي كنتم تعبدونهم في الدنيا من دون الله سبحانه وتعالى لقضاء الحاجات، ودفع المضرات، فادعوهم لينجوكم وينقذوكم مما أنتم فيه من الشدائد والعذاب ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال المفترون للملائكة ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾؛ أي: غابت الآلهة عنا وذهبوا، لا ندري أين مكانهم؛ أي: غابوا عنا، فلا نرجوا منهم الآن جلب النفع، ولا دفع الضر ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: واعترفوا على أنفسهم بـ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ بدعائهم إياهم وعبادتهم لهم؛ إذ هم قد زعموا أنهم عنده تعالى كأعوان الأمراء والسلاطين، وحاش الله أن يتخذ الأعوان والمساعدين، فالله غني بعلمه المحيط وقدرته الكاملة عن أن يحتاج إلى الأعوان والمساعدين، فإنما يحتاج إليها من يجهل أمور الناس، ويعجز عن معرفة أحوالهم، ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لاحتمال ذلك من طوائف، أو في أوقات مختلفة.

وخلاصة هذا: زجر الكافرين عما هم عليه من الكفر، وحملهم على النظر والتأمل في عواقب أمورهم، والتحذير من التقليد الذي سيرديهم في الهاوية.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى يوم القيامة؛ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب، وجعلوا له شركاء بواسطة الملائكة ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾؛ أي: ادخلوا بين أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت وسبقت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: أمم تقدم زمانهم على زمانكم؛ أي: ادخلوا في النار فيما بين الأمم الكافرين الذين تقدم زمانهم زمانكم من هذين النوعين الجن والإنس.

وفي هذا إيماء إلى أنه تعالى، لا يسوق الكفار بأجمعهم إلى النار دفعة

واحدة، بل يدخلهم فوجاً فوجاً، فيكون منهم سابق ومسبوق، ويشاهد من الأمة في النار من سبقه ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾؛ أي: كلما دخلت جماعة منهم في النار، ورأت ما حل بالسابقة من الخزي والنكال ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ في الدين والملة؛ إذ هي قد ضلت باتباعها والاقتداء بها في كفرها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

والخلاصة: فيلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصابئين، والمجوس المجوس.

﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾؛ أي: حتى إذا تداركوا في النار وتلاحقوا فيها، واجتمع بعضهم بعضاً، واستقروا فيها ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾؛ أي: قالت أخرى كل أمة منزلة وهم الأتباع والسفلة ﴿لِأُولَاهُمْ﴾؛ أي: لأجل أولاهم منزلة، وهم القادة والرؤساء ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ الرؤساء والقادة ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن الحق باتباعنا لهم، وتقليدنا إياهم فيما كانوا عليه من أمر الدين وسائر أعمالنا ﴿فَآتِهِمْ﴾؛ أي: أعطهم ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾؛ أي: عذاباً مضاعفاً مزاداً ﴿مِّنَ النَّارِ﴾ مثلي عذابنا لإضلالهم إيانا فوق العذاب على ضلالهم في أنفسهم حتى يكون عذابهم ضعفي عذابنا ضعفاً للضلال، وضعفاً للإضلال؛ أي: عذبهم مثل عذابنا مرتين.

ومعنى قوله: ﴿لِأُولَاهُمْ﴾؛ أي: في شأنهم، ولأجل إضلالهم، وليس المراد أنهم ذكروا هذا القول لأولاهم؛ لأنهم ما خاطبوهم، بل خاطبوا الله سبحانه بهذا الكلام.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾؛ أي: يقول الله سبحانه وتعالى جواباً لأخراهم: لكل منهم ومنكم[1] ضعف؛ أي: عذاب مضاعف، فكل ألم يحصل له يعقبه ألم آخر إلى غير نهاية، فالآلام متزايدة من غير نهاية، أما القادة فلكفرهم وإضلالهم، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أيها السائلون ما لكل فريق

---

(١) المراح.

منكم من العذاب، أو المعنى: ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ذلك.

وقيل معنى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾؛ أي: يقول الله تعالى للأتباع السائلين: لكل[1] من الرؤساء القادة ضعف من العذاب بإضلاله فوق عذابه على ضلاله، ولكن أيها الأتباع لا تعلمون عذابهم، فإن العذاب روحي ونفسي، والأول أنكى وأشد ألماً، فالرئيس العزيز في قومه إذا دخل السجن مع السفلة، وأوشاب الناس لا يكون ألمه كألمهم، وإن كان يشركهم فيما يأكلون ويشربون، وفي جميع ما يعملون؛ إذ يشعر بعذاب النفس وقهر الذل مما لا يشعر به الآخرون، وإن كانوا يظنون أن عقوبتهما واحدة في ألمها كما هي في صورتها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وقرأ أبو عمرو[2]: ﴿اداركوا﴾ - بقطع ألف الوصل - قال أبو الفتح: هذا مشكل، ولا يسوغ أن يقطعها ارتجالاً، فذلك إنما يجيء شاذاً في ضرورة الشعر في الاسم أيضاً، لكنه وقف مثل وقفة المستنكر، ثم ابتدأ فقطع. وقرأ مجاهد بقطع الألف وسكون الدال وفتح الراء بمعنى أدرك بعضهم بعضاً. وقرأ حميد: ﴿أُدرِكوا﴾ - بضم الهمزة وكسر الراء -؛ أي: ادخلوا في أدراكها. وقرأ ابن مسعود والأعمش: ﴿تداركوا﴾ ورويت عن أبي عمرو وقال أبو البقاء، وقرىء: ﴿إذا ادّركوا﴾ - بألف واحدة ساكنة والدال بعدها مشددة -، وهو جمع بين ساكنين، وجاز في المنفصل كما جاز في المتصل.

وقرأ الجمهور: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ - بالتاء على الخطاب للسائلين - كما مر تفسيره آنفاً. وقرأ أبو بكر والمفضل عن عاصم بالياء في: ﴿لا يعلمون﴾؛ أي: لا يعلم كل فريق قدر ما أعد له من العذاب، أو قدر ما أعد للفريق الآخر من العذاب قال أبو حيان: وهذه الجملة رد على أولئك السائلين، وعدم إسعاف لما طلبوا.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ﴾ في الكفر، أو في الدخول يعني القادة مخاطبة ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ يعني الأتباع حين سمعوا جواب الله تعالى لهم، إذا كان الأمر كما قلتم من أننا

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

أضللناكم ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ أي: أدنى فضل في الدنيا؛ أي: إنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب؛ لأنكم كفرتم اختياراً، لا أنا حملناكم على الكفر إجباراً، فلا يكون عذابنا ضعفاً ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أيتها الأخرى ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؛ أي: بما كنتم تقولونه وتعملونه في الدنيا من الشرك والمعاصي، فلا يكون عذابكم دون عذابنا مع أن الذنب واحد، وقد اعترفتم بتلبسكم بالضلال المقتضي، فذوقوا بكسبكم له مهما يكن سببه.

وقد جاء في سورة الصافات: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: كذبوا بدلائل توحيدنا، ولم يصدقوا بها، ولم يتبعوا رسلنا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾؛ أي: وتكبروا عن الإيمان بها، والتصديق لها، وأنفوا عن اتباعها، والانقياد لها، والعمل بمقتضاها تكبراً ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾؛ أي: لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء، ولا يصعد لهم إلى الله عز وجل في وقت حياتهم قول ولا عمل؛ لأن أرواحهم وأقوالهم وأعمالهم كلها خبيثة، وإنما يصعد إلى الله سبحانه وتعالى الكلم الطيب، والعمل الصالح كما قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما[١]: لا تفتح أبواب السماء لأرواح الكفار، وتفتح لأرواح المؤمنين. وفي رواية عن ابن عباس أيضاً قال: لا يصعد لهم قول ولا عمل. وقال ابن جريج: لا تفتح أبواب السماء لأعمالهم ولا لأرواحهم.

وروى الطبري بسنده عن البراء بن عازب[٢]: أن رسول الله ﷺ ذكر قبض

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء. قال: «فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ قال: فيقولون: فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فلا يفتح له»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾. وقيل في معنى الآية: لا تنزل عليهم البركة والخير؛ لأن ذلك لا ينزل إلا من السماء، فإذا لم تفتح لهم أبواب السماء، فلا ينزل عليهم من البركة والخير والرحمة شيء.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ أي: ولا يدخل هؤلاء المكذبون المستكبرون الجنة ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾؛ أي: حتى يدخل ذكر الإبل ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾؛ أي: في ثقب الإبرة، والجمل معروف؛ وهو الذكر من الإبل، وسم الخياط: ثقب الإبرة. قال الفراء: الخياط والمخيط ما يخاط به، والمراد به في هذه الآية: الإبرة، وإنما خص[1] الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات؛ لأنه أكبر من سائر الحيوانات جسماً عند العرب. قال الشاعر:

جِسْمُ ٱلْجِمَالِ وَأَحْلَامُ ٱلْعَصَافِيْرِ

وصف من هجاه بهذا بعظم الجسم مع صغر العقل، فجسم الجمل من أعظم الأجسام، وثقب الإبرة من أضيق المنافذ، فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه في ثقب الإبرة الضيق محالاً، فكذلك دخول الكفار الجنة محال؛ لأن المعلق بالمحال محال؛ لأن العرب إذا علقت ما يجوز كونه بما لا يجوز كونه استحال كون ذلك الجائز، وهذا كقوله: لا آتيك حتى يَشِيبَ الغرابُ، ويَبْيَضَّ القَارُ. ومنه قول الشاعر:

إِذَا شَابَ ٱلْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي ... وَصَارَ ٱلْقَارُ كَٱللَّبَنِ ٱلْحَلِيْبِ

وقال آخر:

مَنْ رَامَ ٱلْعِلْمَ بِلَا كَدٍّ ... سَيُدْرِكُهَا حِينَ شَابَ ٱلْغُرَابْ

---

(١) الخازن.

والمعنى: كما[1] يستحيل دخول الذكر من الإبل في خرق الإبرة يستحيل دخول الكفار الجنة، ويقال: حتى يدخل القلس الغليظ ـ وهو الحبل الذي تشد به السفينة ـ في خرق الإبرة.

وقرأ أبو عمرو: ﴿لا تُفْتَح﴾ ـ بتاء التأنيث والتخفيف ـ. وقرأ الكسائي وحمزة: ـ بالياء والتخفيف ـ. وقرأ باقي السبعة: بالتاء من فوق التشديد. وقرأ أبو حيوة وأبو البرهسم بالتاء من فوق مفتوحة والتشديد.

وقرأ ابن عباس[2] فيما روى عنه شهر بن حوشب ومجاهد وابن يعمر وأبو مجلز والشعبي ومالك بن الشخير وأبو رجاء وأبو رزين وابن محيصن وأبان عن عاصم: ﴿الجُمَّل﴾ ـ بضم الجيم وفتح الميم مشددة ـ وفسر بالقلس الغليظ؛ وهو حبل السفينة تجمع حبال وتفتل وتصير حبلاً واحداً. وقيل: هو الحبل الغليظ من القنب. وقيل: الحبل الذي يصعد به في النخل.

وقرأ ابن عباس في رواية مجاهد وابن جبير وقتادة وسالم الأفطس بضم الجيم وفتح الميم مخففة. وقرأ ابن عباس في رواية عطاء والضحاك والجحدري بضم الجيم والميم مخففة. وقرأ عكرمة وابن جبير في رواية بضم الجيم وسكون الميم. وقرأ المتوكل وأبو الجوزاء بفتح الجيم وسكون الميم. ومعناه في هذه القرآت كلها: القلس الغليظ؛ وهو حبل السفينة. وقراءة الجمهور: ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ ـ بفتح الجيم والميم ـ أوقع لأن سم الإبرة يضرب بها المثل في الضيق، والجمل وهو هذا الحيوان المعروف يضرب به المثل في عظم الجثة كما ذكرناه سابقاً. وقرأ عبد الله بن مسعود[3]: ﴿حتى يلج الجمل الأصغر في سم الخياط﴾.

وقرأ عبد الله وقتادة وأبو رزين وابن مصرف وطلحة بضم سين[4]: ﴿سم﴾. وقرأ أبو عمران الحوفي وأبو نهيك والأصمعي عن نافع بكسر السين. وقرأ عبد الله وأبو رزين وأبو مجلز: ﴿المِخْيَط﴾ ـ بكسر الميم وسكون الخاء وفتح

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

الياء .. وقرأ طلحة بفتح الميم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: ونجزي كل من صار الإجرام والشرك وصفاً له جزاء مثل جزاء هؤلاء المكذبين المستكبرين من عدم فتح أبواب السماء، وعدم دخولهم الجنة، لا من أجرموا جرماً بثورة غضب، أو نزوة شهوة، ثم لا يلبثون أن يندموا على ما فرط منهم كما قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ وقال أيضاً: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ولما بين الله سبحانه وتعالى أنَّ الكفار لا يدخلون الجنة أبداً.. بين أنهم من أهل النار، ووصف ما أعد لهم فيها، فقال ﴿لَهُم﴾: أي: لهؤلاء المكذبين المستكبرين ﴿مِّن﴾ نار ﴿جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ أي: فرش من تحتهم ﴿وَ﴾ لهم ﴿من فوقهم﴾ منها ﴿غَوَاشٍ﴾؛ أي: لحف وأغطية تغطيهم، والمراد: أنها محيطة بهم مطبقة عليهم من كل جانب، فلهم منها غطاء ووطاء وفراش ولحاف، وأصل المهاد المتمهد الذي يقعد عليه، ويضطجع عليه كالفراش والبساط، والغواش جمع غاشية، وهي الغطاء كاللحاف ونحوه. وقرىء: ﴿غواشٌ﴾ - بالرفع - كقراءة عبد الله: ﴿وله الجوارُ المنشآتُ﴾. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: ونجزي كل من صار الظلم لنفسه وللناس وصفاً لازماً له جزاء مثل جزاء المكذبين المستكبرين من كون جهنم مهاداً وغطاء لهم.

والآيتان تدلان على أن المجرمين والظالمين الراسخين في صفتي الإجرام والظلم هم الكافرون كما قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والمؤمنون لا يكونون كذلك بحال.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: والذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به من وحيه وتنزيله وشرائع دينه ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه في ذلك واجتنبوا ما نهاهم عنه، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾؛ أي: ولا نكلف نفساً مكلفة إلا ما يسهل عليها من الأعمال، وما يدخل في قدرتها، ولا يضيق فيه عليها، كلام معترض بين المبتدأ والخبر، اعترض به لأنه من جنس ما قبله، فإنه بيان أن ذلك العمل غير خارج عن قدرتهم، وتنبيه على أن

الجنة مع عظم قدرها يتوصل إليها بالعمل السهل من غير تحمل الصعب، والتقدير: والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ لا غيرهم ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها مكثاً مؤبداً لا يخرجون منها، ولا يسلبون نعيمها.

﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ أي: وقلعنا وأخرجنا، وأزلنا وصفينا ما في صدور المؤمنين ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ وحسد وحقد وعداوة كانت بينهم في الدنيا، فجعلناهم إخواناً على سرر متقابلين، لا يحسد بعضهم بعضاً على شيء خص الله تعالى به بعضهم دون بعض. ومعنى نزع الغل: تصفية الطباع، وإسقاط الوساوس، ودفعها عن أن ترد على القلوب، والمراد خلقناهم في الجنة على هذه الحالة، وليس المراد أنهم دخلوا الجنة بما ذكر، ثم نزع منهم فيها، بل المراد أنهم دخلوها مطهرين منه. قاله أبو حيان.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبوا ونُقّوا أذن الله لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا». أخرجه البخاري.

وجملة قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حال[1] من ضمير ﴿صُدُورِهِم﴾، والعامل فيها معنى الإضافة؛ أي حالة كونهم تجري وتسيل من تحت أشجارهم وقصورهم أنهار الخمر والعسل واللبن والماء زيادة في لذتهم وسرورهم، فيرونها وهم في غرفات قصورهم تتدفق في جناتها وبساتينها، فيزدادون حبوراً وسروراً، لا تشوب صفاءهم شائبة كدر. قال أبو حيان: والظاهر أن جملة ﴿تَجْرِى﴾ خبر مستأنف عن صفة حالهم.

---

(١) النسفي.

﴿و﴾ إذا دخلوا الجنة، واستقروا في منازلهم ﴿قالوا﴾ شاكرين لله بألسنتهم معبرين عن غبطتهم وبهجتهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾؛ أي: وفقنا وأرشدنا في الدنيا للعمل الذي هذا ثوابه، وتفضل علينا به رحمة منه وإحساناً إلينا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ ونرشد لذلك العمل الذي هذا ثوابه ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى إليه؛ أي: لولا أنه سبحانه وتعالى أرشدنا إليه ووفقنا بفضله ومنه وكرمه؛ أي: وما كان من شأننا ولا مقتضى فكرنا أن نهتدي إليه بأنفسنا لولا أن هدانا الله إليه بتوفيقه إيانا لاتباع رسله ومعونته لنا عليه، ورحمته الخاصة بنا إلى هدايته التي فطرنا عليها، وهداية ما خلق لنا من المشاعر والعقل. وفي الآية دليل على أن المهتدي من هداه الله، ومن لم يهده الله.. فليس بمهتد.

وقرأ ابن عامر(١): ﴿ما كنا﴾ بغير واو وكذا هي في مصاحف أهل الشام، وذلك لأنه جار مجرى التفسير لقوله: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ فلما كان أحدهما عين الآخر وجب حذف الحرف العاطف.

وقالوا أيضاً حين رأوا ما وعدهم به الرسل عياناً تبجحاً بما نالوه: والله ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ في الدنيا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ما أخبرونا به في الدنيا من الثواب صدق، فقد حصل لنا عياناً، وهذا مصداق ما وعدنا به في الدنيا على التوحيد وصالح العمل ﴿وَنُودُوٓا﴾؛ أي: نادتهم الملائكة عند رؤيتهم الجنة من مكان بعيد ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾؛ أي: تلك الدار التي ترى لكم من بعد هي الجنة التي وعدتكم الرسل بها في الدنيا، فـ﴿أنْ﴾ مفسرة لما في النداء، وكذا في سائر المواضع الخمسة الآتية. وجملة قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾؛ أي: أعطيتموها حال من الجنة، والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة؛ أي: حالة كونها موروثة معطاة لكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا، فالجنة ومنازلها لا تنال إلا برحمة الله تعالى، فإذا دخلوها بأعمالهم.. فقد ورثوها برحمته، ودخلوها برحمته؛ إذ أعمالهم رحمة منه لهم، وتفضل منه عليهم.

---

(١) البحر المحيط والمراح.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال[1]: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة». زاد في: «رواية فذلك قوله تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾».

وأخرج ابن جرير عن السدي قال[2]: ليس من مؤمن ولا كافر إلا وله في الجنة والنار منزل مبين، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار، فنظروا إلى منازلهم فيها، فقيل: هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله، ثم يقال: يا أهل الجنة، أورثتموها بما كنتم تعملون، فيقتسم أهل الجنة منازلهم.

وفي الآية[3]: دلالة واضحة على أن الجنة تنال بالعمل، وفي معناها آيات وأحاديث كثيرة. أما حديث أبي هريرة الذي رواه الشيخان: «لن يدخل أحداً عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته» فيراد منه أن عمل الإنسان مهما كان عظيماً.. فلا يستحق به الجنة لذاته لولا رحمة الله وفضله حين جعل هذا الجزاء العظيم على ذلك العمل القليل، فدخول الجنة بالعمل دخول بفضل الله ورحمته، ومن ثم قال بعده: «فسددوا وقاربوا»؛ أي: لا تبالغوا ولا تغلوا في دينكم، ولا تتكلفوا من العمل ما لا طاقة لكم به.

وأدغم النحويان[4] ـ أبو عمرو والكسائي ـ وحمزة وهشام الثاء المثلثة في التاء الفوقية في قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ وأظهرها باقي السبعة.

الإعراب

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾: منادى مضاف منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وجملة النداء مستأنفة. ﴿خُذُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿زِينَتَكُمۡ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿خُذُواْ﴾، والكلام على[1] حذف مضاف تقديره: عند قصد كل مسجد. ﴿وَكُلُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿خُذُواْ﴾. وكذلك قوله: ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾ معطوف عليه. ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿خُذُواْ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة لتعليل النهي المذكور قبلها.

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾.

﴿قُلۡ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ﴾ مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَنۡ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿حَرَّمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنۡ﴾. ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿ٱلَّتِيٓ﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿زِينَةَ﴾. ﴿أَخۡرَجَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَخۡرَجَ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أخرجها لعباده. ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: معطوف على ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾. ﴿مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾: جار ومجرور حال من ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿هِيَ﴾: مبتدأ. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول

(١) العكبري.

القول. ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فِي الْحَيَوٰةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿الْحَيَوٰةِ﴾. ﴿خَالِصَةً﴾ بالنصب: حال من الضمير المستكن في الخبر المحذوف؛ أي: هي كائنة لهم في الدنيا حالة كونها خالصة يوم القيامة، وبالرفع: خبر ثان لـ﴿هِيَ﴾. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَالِصَةً﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، والتقدير: نفصل الآيات تفصيلاً مثل ذلك التفصيل السابق. ﴿لِقَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُفَصِّلُ﴾، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر بمعنى ما النافية، وإلا المثبتة. ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ﴾: فعل وفاعل. ﴿الْفَوَاحِشَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب بدل من ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ بدل تفصيل من مجمل. ﴿ظَهَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿ظَهَرَ﴾. ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿مَا﴾ الأولى. ﴿بَطَنَ﴾: صلته. ﴿وَالْإِثْمَ﴾: معطوف على ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ عطف عام على خاص. ﴿وَالْبَغْيَ﴾: معطوف على ﴿الإثم﴾ عطف خاص على عام لمزيد الاعتناء به، وكذلك ما بعده. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿البغي﴾. ﴿وَأَن تُشْرِكُوا﴾: فعل وفاعل وناصب. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على ﴿الإثم﴾ عطف خاص على عام تقديره: وإشراككم بالله. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة. ﴿لَمْ يُنَزِّلْ﴾: فعل وجازم، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿يُنَزِّلْ﴾. ﴿سُلْطَانًا﴾: مفعول به لـ﴿يُنَزِّلْ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير

﴿به﴾. ﴿وَأَن تَقُولُوا۟﴾: فعل وفاعل وناصب. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على ﴿الإثم﴾ عطف خاص على عام تقديره: وقولكم على الله. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿به﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما لا تعلمونه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿أَجَلٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت لكل أمة أجلاً، وأردت بيان كيفية ذلك الأجل.. فأقول لك: ﴿إذا جاء أجلهم﴾ ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل جر مضاف إليه لجواب ﴿إذا﴾، على كونها فعل شرط لها والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ فعل وفاعل والجملة جواب ﴿إذا﴾ ولم يؤت هنا بالفاء الرابطة للجواب مع اقترانه بلا النافية؛ لأن المضارع المنفي بلا إذا وقع جواباً لإذا في الظاهر.. جاز أن يتلقى بالفاء، وأن لا يتلقى بها. قال الشيخ: وينبغي أن يعتقد أن بين الفاء والفعل بعدها اسماً مبتدأ، فتصير الجملة اسمية، ومتى كانت كذلك.. وجب أن تتلقى بالفاء أو إذا الفجائية ذكره في «الفتوحات». ﴿سَاعَةً﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾. ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾: على كونها جواباً لـ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِمَّا﴾ ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ﴿ما﴾ الزائدة، ﴿ما﴾:

زائدة. ﴿يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ ﴿يأتين﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة: حرفٌ لا محل له من الإعراب، و﴿الكاف﴾: ضمير المخاطبين في محل النصب مفعول به. ﴿رُسُلٌ﴾: فاعل. ﴿مِّنكُمۡ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ﴿رُسُلٌ﴾. ﴿يَقُصُّونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتِي﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿رُسُلٌ﴾. ﴿فَمَنِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب أو الشرط أو هما، أو ﴿من﴾ موصولة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة قوله: ﴿فَلَا خَوۡفٌ...﴾ إلخ. ﴿ٱتَّقَىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿وَأَصۡلَحَ﴾: معطوف على ﴿ٱتَّقَىٰ﴾. ﴿فَلَا خَوۡفٌ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية، ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوۡفٌ﴾: اسمها مرفوع. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، وفيه مراعاة لمعنى ﴿من﴾ بعد مراعاة لفظها في ﴿ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم جواب ﴿من﴾ الشرطية، أو خبر ﴿من﴾ الموصولة، وعلى هذا الوجه، فجملة ﴿ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، أو جملة ﴿من﴾ الموصولة من المبتدأ والخبر جواب ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿هُمۡ﴾: في محل الرفع اسمها، وجملة ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: في محل النصب خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لا﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم معطوف على جملة ﴿لا﴾ الأولى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ أول. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿عَنۡهَآ﴾: متعلق بـ﴿استكبروا﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ

ثان. ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾: خبر للمبتدأ الثاني ومضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ على كونها جواب ﴿إن﴾ الشرطية، وإيراد الاتقاء في الجواب الأول للإيذان بأن مدار الفلاح ليس مجرد عدم التكذيب، بل هو الاتقاء والاجتناب، وإدخال الفاء في الجزاء الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد، والمسامحة في الوعيد. اهـ «كرخي». ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَالِدُونَ﴾. ﴿خَالِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾.

﴿فَمَنْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾. ﴿افْتَرَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿افْتَرَىٰ﴾. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف. ﴿كَذَّبَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿افْتَرَىٰ﴾ على كونها صلة لـ﴿من﴾ الموصولة. ﴿بِآيَاتِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يَنَالُهُمْ﴾ فعل ومفعول. ﴿نَصِيبُهُم﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾: جار ومجرور حال من قوله: ﴿نَصِيبُهُم﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

﴿حَتَّىٰ﴾: غائية لكونها غاية لما قبلها، ابتدائية لدخولها على الجملة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَاءَتْهُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿رُسُلُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إِذَا﴾، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال

من ﴿رُسُلُنَا﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة من حيث اللفظ، وغاية لما قبلها من حيث المعنى. ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَيۡنَ﴾: اسم استفهام للاستفهام الاستخباري في محل الرفع خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿تَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من الضمير المحذوف في ﴿تَدۡعُونَ﴾، أو متعلق به، وجملة ﴿تَدۡعُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: أين الآلهة التي كنتم تدعونهم من دون الله.

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ضَلُّواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنَّا﴾: متعلق به، والجملة مقول لـ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَشَهِدُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالُواْ﴾. ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿شهدوا﴾. ﴿أَنَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿كَٰفِرِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿شهدوا﴾ تقديره: وشهدوا على أنفسهم كونهم كافرين.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾: إلى قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿أُمَمٖ﴾، والجملة في محل الجر صفة أولى لـ﴿أُمَمٖ﴾ ﴿مِن قَبۡلِكُم﴾ جار ومجرور ومضاف إليه صفة ثانية لـ﴿أُمَمٖ﴾. ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ جار ومجرور، صفة ثالثة لـ﴿أُمَمٖ﴾. ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، واعترض بأنه: كيف يتعلق حرفا جر

متحدا اللفظ والمعنى بعامل واحد؟ فأجيب عنه بأحد جوابين: **إما** بأن في الأولى ليست للظرفية، بل للمعية كأنه قيل: ادخلوا مصاحبين لأمم في الدخول، **وإما** بأن قوله ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: بدل من قوله: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ بدل اشتمال، فتكون الظرفية الأولى مجازاً؛ لأن الأمم ليسوا ظروفاً لهم حقيقة، وإنما المعنى: ادخلوا في جملة أمم. كذا في «الفتوحات».

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿كُلَّمَا﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها من الإعراب، أو في محل الجر مضاف إليه لـ﴿كُلَّمَا﴾. ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿أُمَّةٌ﴾، والجملة جواب ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَا﴾ مستأنفة. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: غائية ابتدائية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من واو ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إِذَا﴾، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَتْ﴾، واللام فيه للتعليل؛ أي: لأجلهم، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة، ولكنها غاية لما قبلها في المعنى. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: مبتدأ. ﴿أَضَلُّونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿فَـَٔاتِهِمْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، لكون ما قبلها علة لما بعدها، ﴿آتهم عذاباً﴾: فعل ومفعولان؛ لأنه بمعنى أعطهم، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة: ﴿أَضَلُّونَا﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿ضِعْفًا﴾: صفة أولى لـ﴿عَذَابًا﴾؛ لأنه بمعنى مضاعف. ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: صفة ثانية لـ﴿عَذَابًا﴾.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لِكُلٍّ﴾ خبر مقدم. ﴿ضِعْفٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿لَّا تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿قالت أخراهم﴾، وما بينهما اعتراض. ﴿لِأُخْرَاهُمْ﴾: متعلق بـ﴿قالت﴾. ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قال لكم الرب جل جلاله، وأردتم بيان حالنا وحالكم.. فأقول لكم. ﴿ما كان لكم﴾: ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق بـ﴿فَضْلٍ﴾. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿فَضْلٍ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، والتقدير: فما كان من فضل علينا كائناً لكم، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قالت﴾. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، و﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: موصولة في محل الجر بالباء. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكْسِبُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بالذي كنتم تكسبونه، أو بكسبكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ذوقوا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿الَّذِينَ﴾: اسمها. ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل صلة

الموصول. ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿عَنْهَا﴾: متعلق بـ﴿استكبروا﴾. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿تُفَتَّحُ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، ولكنها خبر سببي، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾. ﴿الْجَنَّةَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿يَدْخُلُونَ﴾. ﴿حَتَّى﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَلِجَ الْجَمَلُ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّى﴾: بمعنى إلى. ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَلِجَ﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّى﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى ولوج الجملة في سم الخياط، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَدْخُلُونَ﴾. ﴿وَكَذَلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، والتقدير: ونجزي المجرمين جزاء مثل جزاء المكذبين المستكبرين من عدم فتح أبواب السماء لهم، وعدم دخول الجنة إلى ولوج الجمل في سم الخياط.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)﴾.

﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنْ جَهَنَّمَ﴾: جار ومجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف العلمية والتأنيث المعنوي، الجار والمجرور حال من ﴿مِهَادٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليها. ﴿مِهَادٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو في محل النصب حال من واو ﴿يَدْخُلُونَ﴾. ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿غَوَاشٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة؛ للتخلص من التقاء الساكنين منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص، وسيأتي البحث عنه في مبحث الصرف إن

شاء الله تعالى، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾.
﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والتقدير: ونجزي الظالمين جزاء مثل جزاء الذين كذبوا واستكبروا، والجملة مستأنفة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿آمَنُوا﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿نُكَلِّفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿نَفْسًا﴾: مفعول به. ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾: منصوب على الاستثناء، والجملة الفعلية معترضة بين المبتدأ والخبر الآتي، أو هي خبر أول له مع تقدير الرابط تقدر: لا نكلف نفساً منهم إلا وسعها. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره جملة كبرى في ضمنها جملة صغرى مستأنفة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَالِدُونَ﴾. ﴿خَالِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿نَزَعْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿فِي صُدُورِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَا﴾. ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾: متعلق به. ﴿الْأَنْهَارُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية حال من ضمير ﴿صُدُورِهِم﴾. ﴿وَقَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿نزعنا﴾. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ونودي﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول

القول. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. ﴿هَدَىٰنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿لِهَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿هَدَىٰنَا﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: واو الحال، أو استئنافية. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿لِنَهْتَدِىَ﴾: ﴿اللام﴾: لام الجحود، ﴿نهتدي﴾: منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كان﴾ تقديره: وما كنا مريدين للهداية لولا أن هدانا، وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة، أو في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿هَدَىٰنَا﴾، والتقدير: الحمد لله الذي هدانا لهذا حالة كوننا عادمين الهداية لولا هدايته إيانا. ﴿لَوْلَآ﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿أَنْ﴾: مصدرية. ﴿هَدَىٰنَا﴾: فعل ومفعول في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿أَنْ﴾ المصدرية، ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف وجوباً تقديره: لولا هدايته إيانا موجودة، وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ محذوف دل عليها ما قبلها تقديره: لولا هدايته موجودة ما كنا لنهتدي، وجملة ﴿لَوْلَآ﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جاءت﴾، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف تقديره: نقسم والله، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿وَنُودُوٓا۟﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية. ﴿نودوا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قالوا﴾، أو مستأنفة. ﴿أَنْ﴾: مفسرة بمعنى: أي. ﴿تِلْكُمُ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾: خبر، والجملة مفسرة لجملة ﴿نودوا﴾ لا محل لها من الإعراب، أو ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿تِلْكُمُ﴾، مبتدأ. ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾: خبره، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أَنْ﴾ المخففة، وجملة ﴿أَنْ﴾ المخففة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿نودوا﴾. ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿الهاء﴾ في محل النصب مفعول ثان

لأورثتموا، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾، والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة، والتقدير: حالة كونها موروثة لكم، ولا يجوز أن يكون حالاً من ﴿تلك﴾ لوجهين:

أحدهما: أنه فصل بينهما بالخبر.

والثاني: أن تلك مبتدأ، والابتداء لا يعمل في الحال، ويجوز أن تكون ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ نعتاً لِـ﴿تِلْكُمُ﴾، أو بدلا، و﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ الخبر، ولا يجوز أن تكون الجملة حالاً من الكاف والميم؛ لأن الكاف حرف للخطاب، وصاحب الحال لا يكون حرفاً، ولأن الحال تكون بعد تمام الكلام، والكلام لا يتم بتلكم. ذكره أبو البقاء. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أورث﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوفا تقديره: تعملونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ والزينة[1]: فعلة من التزين، وهو اسم لما يتجمل به من ثياب وغيرها كقوله: ﴿وازّينت﴾؛ أي: بالنبات، والزينة هنا المأمور بأخذها هو ما يستر العورة في الصلاة. قاله مجاهد والسدي والزجاج.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ قال الكلبي: معناه كلوا من اللحم والدسم، واشربوا من الألبان، وكانوا يحرمون جميع ذلك في الإحرام. ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ قال ابن عباس: الإسراف: الخروج عن حد الاستواء.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الفواحش[2]: جمع فاحشة؛ وهي الخصلة التي يقبح فعلها لدى أرباب الفطر السليمة، والعقول الراجحة، ويطلقونها أحياناً على الزنا، والبخل، والقذف بالفحشاء، والبذاء المتناهي في القبح.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ الإثم لغة: القبيح الضار؛ وهو شامل لجميع المعاصي كبائرها كالفواحش، وصغائرها كالنظر بشهوة لغير الحليلة. وقال[1] الفضل: الإثم: الخمر وأنشد:

نَهَانَا رَسُوْلُ ٱللَّهِ أَنْ نَقْرَبَ ٱلْخَنَا وَأَنْ نَشْرَبَ ٱلإِثْمَ ٱلَّذِيْ يُوْجِبُ ٱلْوِزْرَا

وأنشد الأصمعي أيضاً:

وَرُحْتُ حَزِيْنَاً ذَاهِلَ ٱلْعَقْلِ بَعْدَهُمْ كَأَنِّيْ شَرِبْتُ ٱلإِثْمَ أَو مَسَّنِيْ خَبْلُ

قال: وقد تسمى الخمر إثماً، وأنشد:

شَرِبْتُ ٱلإِثْمَ حَتَىٰ زَالَ عَقْلِيْ

﴿وَٱلْبَغْيَ﴾ والبغي: تجاوز الحد، وقد يقال: بغى الجرح إذا تجاوز الحد في الفساد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ أي: مدة[2] العمر من أولها إلى آخرها.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: آخر هذه المدة، فلذلك أظهر لاختلاف معنى الأجل في الموضعين، فالأجل يطلق على جميع مدة العمر بتمامها، وعلى الجزء الأخير منها. وفي «المصباح»: أجل الشيء مدته ووقته الذي يحل فيه، وهو مصدر أجل الشيء أجلاً ـ من باب تعب ـ وأجل أجولاً ـ من باب قعد لغة ـ وأجلته تأجيلاً جعلت له أجلاً، والآجال جمع أجل مثل سبب وأسباب. والأمة: قال ابن عطية: الفرقة والجماعة من الناس؛ وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس. وقال غيره: والأمة الجماعة قلوا أو كثروا، وقد يطلق على الواحد كقوله في قس بن ساعدة: يبعث يوم القيامة أمة وحده، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾. ﴿ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾ المراد بهم الجماعات والأحزاب وأهل الملل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ أصله: تداركوا بوزن تفاعلوا، فأدغمت التاء في الدال بعد قلبها دالا وتسكينها، ثم اجتلبت همزة الوصل، فصار اداركوا، وهذه[3] المسألة نصوا على نظيرتها، وهي أن تاء الافتعال إذا أبدلت إلى حرف

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات. (٣) الفتوحات.

مجانس لما بعدها ـ كما تبدل طاء أو دالاً في نحو: اصطبر، واضطرب، وازدجر ـ إذا وزن ما هي فيه قالوا: نلفظ في الوزن بأصل تاء الافتعال، ولا نلفظ بما صارت إليه من طاء أو دال، فنقول: وزن اصطبر افتعل لا افطعل، ووزن ازدجر افتعل لا افدعل، فكذلك نقول هنا: وزن اداركوا تفاعلوا لا افّاعلوا، فلا فرق بين تاء الافتعال، وتاء التفاعل في ذلك.

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ وأخراهم وأولاهم يحتمل أن يكون فُعْلىَ أنثى أفعل الذي للمفاضلة، والمعنى على هذا كما قال الزمخشري: أخراهم منزلة؛ وهم الأتباع والسفلة لأولاهم منزلة؛ وهم القادة والسادة والرؤساء، ويحتمل أن تكون أخرى بمعنى آخرة تأنيث آخر مقابل أول، لا تأنيث آخر الذي للمفاضلة كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والفرق بين أخرى بمعنى آخرة، وبين أخرى تأنيث آخر بزنة أفعل التفضيل أن التي للتفضيل لا تدل على الانتهاء كما لا يدل عليه مذكرها، ولذلك يعطف أمثالها عليها في نوع واحد تقول: مررت بامرأة وأخرى وأخرى، كما تقول: مررت برجل وآخر وآخر، وهذه تدل على الانتهاء كما يدل عليه مذكرها، ولذلك لا يعطف أمثالها عليها، ولأن الأولى تفيد إفادة غير، وهذه لا تفيد إفادة غير، والظاهر في هذه الآية الكريمة أنهما ليستا للتفضيل، بل لما ذكرت لك. اهـ «سمين».

﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾ والمراد بالضعف هنا[1]: تضعيف الشيء وزيادته إلى ما لا يتناهى، لا الضعف بمعنى مثل الشيء مرة واحدة. اهـ. «كرخي». وفي «السمين»: قوله: ﴿ضِعْفًا﴾ قال أبو عبيدة: الضعف: مثل الشيء مرة واحدة. وقال الأزهري: ما قاله أبو عبيدة هو ما يستعمله الناس في مجاري كلامهم، والضعف في كلام العرب المثل إلى ما زاد، ولا يقتصر به على مثلين، بل تقول: هذا ضعفه؛ أي: مثلاه وثلاثة أمثاله؛ لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ لم يرد به مثلاً ولا مثلين، وأولى الأشياء به أن يجعل عشرة أمثاله كقوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ

(١) الفتوحات.

﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فأقل الضعف محصور وهو المثل، وأكثره غير محصور اهـ.

﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ وفي «السمين»: والولوج: الدخول بشدة، ولذلك يقال: هو الدخول في ضيق، فهو أخص من مطلق الدخول، والوليجة: كل ما يعتمده الإنسان، والوليجة: الداخل في قوم ليس هو منهم. وفي «المصباح»: ولج الشيء في غيره يلج ـ من باب وعد ـ ولوجاً إذا دخل، وأولجته إيلاجاً: أدخلته. اهـ. والجمل: الذكر من الإبل قيل: لا يقال له ذلك إلا إذا بلغ أربع سنين، وأول ما يخرج ولد الناقة حوار إلى الفطام، وبعده فصيل إلى سنة، وفي الثانية ابن مخاض وبنت مخاض، وفي الثالثة ابن لبون وبنت لبون، وفي الرابعة حق وحقة، وفي الخامسة جذع وجذعة، وفي السادسة ثني وثنية، وفي السابعة رباع ورباعية مخففة، وفي الثامنة سديس لهما، وقيل: سديسة للأنثى، وفي التاسعة بازل وبازلة، وفي العاشر خلف وخلفة، وليس بعد البزول والأخلاف سن بل يقال: بازل عام أو عامين، وخلف عام وعامين حتى يهرم، فيقال: له عود.

﴿سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ وفي «المصباح»: السم: ما يقتل بالفتح في الأكثر، وجمعه سموم ـ مثل فلس وفلوس ـ وسمام أيضاً مثل: سهم وسهما، والضم لغة لأهل العالية، والكسر لغة لبني تميم، والسم ثقب لإبرة، وفيه اللغات الثلاث، وجمعه سمام كسهام. وفي «السمين»: وسم الخياط: ثقب الإبرة، وهو الخرق وسينه مثلثة، وكل ثقب ضيق فهو سم، وقيل: كل ثقب في البدن، وقيل: كل ثقب في أنف أو أذن فهو سم، وجمعه سموم، والسم القاتل سمي بذلك للطفه، وتأثيره في مسام البدن حتى يصل إلى القلب، وهو في الأصل مصدر، ثم أريد به معنى الفاعل؛ لدخوله باطن والبدن، وقد سمه إذا أدخله فيه، ومنه السامة للخاصة الذين يدخلون في باطن الأمور ومسامها، ولذلك يقال لهم: الدخال، والسموم: الريح الحارة؛ لأنها تؤثر تأثير السم القاتل. والخياط والمخيط: الآلة التي يخاط بها فعال ومفعل كإزار ومئزر، ولحاف وملحف، وقناع ومقنع. اهـ.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ أي: فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾: جمع غاشية أصله: غواشي بتنوين الصرف، فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت، فاجتمع ساكنان الياء والتنوين، فحذفت الياء، ثم لوحظ كونه على صيغة مفاعل في

الأصل، فحذف تنوين الصرف، فخيف من رجوع الياء فيحصل الثقل، فأتي بالتنوين عوضاً عنها، فغواش المنون ممنوع من الصرف؛ لأن تنوينه تنوين عوض كما علمت، وتنوين الصرف قد حذف، وهذا بناء على أن الإعلال؛ أي: التغيير والتصرف بالحذف مقدم على منع الصرف؛ أي: حذف التنوين، وإنما كان الراجح تقديم الإعلال؛ لأن سببه ظاهر؛ وهو الثقل، وسبب منع الصرف خفي؛ وهو مشابهة الفعل.

وفي «السمين»: وللنحاة في الجمع الذي على مفاعل إذا كان منقوصاً بقياس خلاف: هل هو منصرف أو غير منصرف؟ فبعضهم قال: هو منصرف؛ لأنه قد زالت منه صيغة منتهى الجموع، فصار وزنه وزن جناح، وقد زال فانصرف. وقال الجمهور: هو ممنوع من الصرف، والتنوين تنوين عوض، واختلف في المعوض عنه ماذا؟ فالجمهور: على أنه عوض من الياء المحذوفة. وذهب المبرد: إلى أنه عوض من حركتها، والكسر ليس كسر إعراب، وهكذا جوار وموال، وبعض العرب يعرب غواش ونحوه بالحركات على الحرف الذي قبل الياء المحذوفة، فيقول: هؤلاء جوار، وقرىء: ﴿ومن فوقهم غواشٌ﴾ - برفع الشين - كما مر.

﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ والغِل: - بالكسر - الغش والحق أيضاً، وقد غل صدره يغل - بالكسر - غلاً إذا كان ذا غش أو ضغن أو حقد. اهـ من «المختار» ويجمع على غلال.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ لأن المراد بالمسجد الصلاة والطواف علاقته المحلية، ولما كان المسجد محل الصلاة والطواف أطلق عليهما ذلك.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ وبين ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

ومنها: الطباق بين ظهر وبطن في قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وبين أولاهم وأخراهم، في قوله: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ وبين مهاد وغواش، في قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾.

ومنها: الظرفية المجازية في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾؛ أي: ادخلوا حال كونكم في أمم.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾؛ لأنه معطوف على ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، فيشمل الفواحش وغيرها.

ومنها: عطف الخاص على العام؛ لمزيد الاعتناء به في الثلاثة المذكورة بعد ﴿الإثم﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ استعاره للحجة؛ لأن لها تسلطاً على القلب.

ومنها: التفصيل بعد الإجمال في قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ .. وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ اعترض به بين المبتدأ والخبر.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه كناية عن عدم قبول عملهم ودعائهم.

ومنها: تعليق الممكن بالمستحيل إفادة لاستحالته في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ﴾ فاستفيد منه أن دخول الكافر الجنة مستحيل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ لأن المراد ما في قلوبهم علاقته المحلية.

ومنها: الإتيان باسم الإشارة البعيدة في قوله: ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ إشارة إلى عظم رتبتها ومكانتها على حد قوله: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال أبو حيان: هذا استعارة لما يحيط بهم من النار.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما

قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] وعيد الكفار وثواب أهل الإيمان.. أردف ذلك ببيان بعض ما يكون بين الفريقين، فريق أهل الجنة وفريق أهل النار من المناظرة والحوار بعد استقرار كل منهما في داره.

وفيها دليل على أن الدارين في أرض واحدة يفصل بينهما سور لا يمنع إشراف أهل الجنة، وهم في أعلى عليين على أهل النار؛ وهم في هاوية الجحيم، وأن بعضهم يخاطب بعضاً بما يزيد أهل الجنة عرفاناً بقيمة النعمة، ويزيد أهل النار حسرة وشقاء على ما كان من التفريط في جنب الله تعالى.

وهذا التخاطب لا يقتضي قرب المكان على ما هو معهود في الدنيا، فعالم الآخرة عالم تغلب فيه الروحانية على ظلمة الكثافة الجسدية، فيمكن الإنسان أن يسمع من بعيد المسافات، ويرى من أقاصي الجهات. وإن ما جد الآن من المخترعات والآلات التي يتخاطب بها الناس من شاسع البلاد، وتفصل بينهما ألوف الأميال، إما بالإشارات الكتابية كالبرق - التلغراف اللاسلكي والسلكي - وإما بالكلام اللساني كالمسرة التليفون اللاسلكي والسلكي، ليقرب هذا أتم التقريب، ويزيدنا فهماً له. وقد تم لهم الآن أن يروا صورة المتكلم بالتليفون مطبوعة على الآلة التي بها الكلام، وأن ينقلوا الصور من أقصى البلدان إلى أقصاها بهذه الآلة التلفاز.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[2] مقال أهل الجنة لأهل النار، ومقال أصحاب الأعراف لأهل النار.. أردف ذلك بما قال أهل النار لأهل الجنة، وطلبهم منهم بعض ما عندهم من نعم الله عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أحوال أهل الجنة، وأهل النار، وأهل الأعراف، وذكر الحوار الذي كان بين هذه الفرق الثلاثة على وجه يحمل الناظر فيها على الحذر والاحتراس، والتأمل في العواقب لعله يرعوي عن غيه، ويهتدي إلى سبيل رشده.. عقب ذلك بذكر حال الكتاب الكريم، وعظيم فضله، وجليل منفعته، وأنه حجة الله على البشر كافة، وأنه أزاح به علل الكفار، وأبطل معاذيرهم، ثم يذكر حال المكذبين، وما يكون منهم يوم القيامة من الندم والحسرة، وتمني العودة إلى الدنيا لإصلاح أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآيات، علمت مما سلف من قبل أن الأسس التي عني القرآن الكريم بشأنها هي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر، وإثبات المعاد موقوف على إثبات الوحدانية لله تعالى، والعلم الشامل والقدرة التامة. ومناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بسط القول فيما سلف في أمر المعاد، وبين فئات الناس في ذلك اليوم، وما يدور من حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة.. قفى على ذلك بذكر الخلق والتكوين، وبيان مقدوراته تعالى وعظيم مصنوعاته؛ لتكون دليلاً على الربوبية والألوهية، وأنه لا معبود سواه.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما ذكر الأدلة على توحيد الربوبية.. قفى على ذلك بالأمر بتوحيد الألوهية بإفراده تعالى بالعبادة، وروحها ومخها الدعاء والتضرع له.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] تفرده بالملك والملكوت، وتصرفه في العلوي والسفلي وتدبيره الأمر وحده، وطلب إلينا أن ندعوه متضرعين خفية وجهراً، ونهانا عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، وأبان لنا أن رحمته

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

قريب من المحسنين.. قفى على ذلك بذكر بعض ضروب من رحمته؛ إذ أرسل إلينا الرياح وما فيها من منافع للناس فيها ينزل المطر الذي هو مصدر الرزق وسبب حياة كل حي في هذه الأرض، وفي ذلك عظيم الدلالة على قدرته تعالى على البعث والنشور.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر الدلائل على كمال إلّهيته وقدرته وعلمه من العالم العلوي.. أتبعها بالدلائل من العالم السفلي؛ وهي محصورة في آثار العالم العلوي، منها الريح والسحاب والمطر، وفي المعدن والنبات والحيوان، ويترتب على نزول المطر أحوال النبات، وذلك هو المذكور في الآية، وانجر مع ذلك الدلالة على صحة الحشر والنشر، والبعث والقيامة، وانتظمت هاتان الآيتان محصلتين المبدأ والمعاد. انتهى.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ حين استقرار أهل الجنة في الجنة، واستقرار أهل النار في النار إذا ما وجهوا إليهم أبصارهم يسألونهم سؤال افتخار على حسن حالهم، وسؤال تهكم وتذكير بجناية أهل النار على أنفسهم بتكذيب الرسل، وسؤال تقرير لهم بصدق ما بلغهم الرسل من وعد ربهم لمن آمن واتقى بجنات النعيم قائلين لهم: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا﴾؛ أي: قد وجدنا وتيقنا ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ على ألسنة رسله من النعيم والكرامة ﴿حَقّٗا﴾ وصدقاً لا شبهة فيه، وها نحن نستمتع بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم﴾ يا أهل النار ﴿مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ﴾؛ أي: ما أوعدكم ربكم من الخزي والنكال والعذاب على الكفر ﴿حَقّٗا﴾؛ أي: صدقاً ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال أهل النار مجيبين لأهل الجنة: ﴿نَعَمۡۚ﴾؛ أي: وجدنا ما أوعدنا به ربنا حقاً كما بلغنا على ألسنة الرسل، و﴿نعم﴾ حرف يجاب به عن الاستفهام في إثبات المستفهم عنه، ونونها

---

(١) البحر المحيط.

وعينها مفتوحتان، ويقرأ بكسر العين؛ وهي لغة، ويجوز كسرهما جميعاً على الإتباع. ذكره أبو البقاء.

فإن قلت[١]: هل هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار، أو من البعض للبعض؟

قلتُ: ظاهر قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ يفيد العموم، والجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد، فكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا. فإن قلت: إذا كانت الجنة في السماء، والنار في الأرض فكيف يمكن أن يبلغ هذا النداء، أو كيف يصح أن يقع؟

قلتُ: إن الله قادر على أن يقوي الأصوات والأسماع، فيصير البعيد كالقريب. اهـ «خازن». ويحتمل أنه تعالى يقرب إحدى الدارين من الأخرى؛ إما بإنزال العليا، وإما برفع السفلى.

فإن قلت: كيف يرى أهل الجنة أهل النار وبالعكس مع أن بينهما حجاباً وهو سور الجنة؟.

أجيب: باحتمال أن سور الجنة لا يمنع الرؤية لما وراءه لكونه شفافاً كالزجاج، وباحتمال أن فيه طاقات تحصل الرؤية منها. وقرأ[٢] ابن وثاب والأعمش والكسائي في جميع القرآن: ﴿نَعِم﴾ - بكسر العين -. قال مكي من قال: ﴿نعِم﴾ بكسر العين فكأنه أراد أن يفرق بين نَعَم التي هي جواب، وبين نَعِم التي هي اسم للبقر والغنم والإبل.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ﴾؛ أي: فنادى مناد ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: بين أهل الجنة وأهل النار؛ أي: نادى مناد أسمع الفريقين كلهم قائلاً: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم الجانين عليها بما أوجب حرمانها من النعيم المقيم، وهذا المؤذن إما مالك خازن النار، وإما ملك غيره يأمره الله بذلك.

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط وفتح القدير.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي والبزي بتشديد[١]: ﴿أنَّ﴾ ونصب ﴿لعنةَ﴾ وهو الأصل، وقرأ الباقون ﴿أَنْ﴾ بالتخفيف ورفع ﴿لَعْنَةُ﴾ على أنها المخففة من الثقيلة، أو المفسرة. وقرأ الأعمش بكسر همزة ﴿إن﴾ على إضمار القول، ثم المراد بالظالمين ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الذين يعرضون بأنفسهم عن سلوك سبيل الله الموصلة إلى مرضاته وثوابه، ويمنعون الناس عن سلوكها تارة بالزجر والقهر، وأخرى بسائر الحيل ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: يطلبون اعوجاجها؛ أي: يريدون إثبات كونها معوجة مائلة عن الحق بإلقاء الشكوك في أدلتها، أو ينفرون الناس عنها، ويقدحون في استقامتها بقولهم: إنها غير حق، وأن الحق ما هم عليه. وفي «أبي السعود» في آل عمران: بأن يلبسوا على الناس، ويوهموهم أن فيها ميلاً عن الحق بنفي النسخ، وتغيير صفة الرسول ﷺ عن وجهها، ونحو ذلك. اهـ. وفي «الخازن»: هنا[٢] ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: يحاولون أن يغيروا دين الله وطريقته التي شرع لعباده ويبدلونها. وقيل معناه: أنهم يصلون لغير الله، ويعظمون ما لم يعظمه الله، وذلك أنهم طلبوا سبيل الحق بالصلاة لغير الله، وتعظيم ما لم يعظمه الله، فأخطؤوا الطريق وضلوا عن السبيل. اهـ.

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾؛ أي: وبين الفريقين؛ فريقي أهل الجنة وأهل النار، أو بين الجنة والنار ﴿حِجَابٌ﴾؛ أي: حاجز يفصل كلاً منهما من الآخر، ويمنعه من الاستطراق إليه، وهذا الحجاب هو السور الذي سيأتي ذكره في سورة الحديد بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ . . .﴾ الآية. ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾؛ أي: وعلى أعالي ذلك السور المضروب بين الجنة والنار ﴿رِجَالٌ﴾ يرون أهل الجنة وأهل النار جميعاً قبل الدخول فيها، فـ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة وأهل النار ﴿بسيماهم﴾؛ أي: بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها كبياض الوجه وسواده، وهي التي وصفهم الله تعالى بها في نحو قوله: ﴿وُجُوهٌ

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

وهؤلاء الرجال هم طائفة من الموحدين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار جعلوا هناك حتى يقضى بين الناس، فبينما هم كذلك إذ يطلع عليهم ربهم فيقول لهم: «قوموا ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم». أخرجه أبو الشيخ والبيهقي وغيرهما عن حذيفة، وفي رواية عنه: «يجمع الله الناس، ثم يقول لأصحاب الأعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك، فيقال: إن حسناتكم تجاوزن بكم النار أن تدخلوها، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم، فادخلوها بمغفرتي ورحمتي».

وقيل(١): هؤلاء الرجال قوم قتلوا في سبيل الله، وهم عصاة لآبائهم، وقيل: هم قوم كان فيهم عُجْب، وقيل: هم قوم كان عليهم دَيْن، فهذه الأقوال تدل على أن أصحاب الأعراف أقوام يكونون في الدرجة النازلة من أهل الثواب، وقيل: إنهم الأشراف من أهل الثواب، وقيل: إنهم الأنبياء، وإنما أجلسهم الله على ذلك المكان العالي تمييزاً لهم على سائر أهل القيامة، وقيل: إنهم الشهداء وهم شهداء الله على أهل الإيمان والطاعة، وعلى أهل الكفر والمعصية، فهم يعرفون أن أهل الثواب وصلوا إلى الدرجات، وأهل العقاب وصلوا إلى الدركات، كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾.

﴿وَنَادَوْا﴾؛ أي: ونادى رجال الأعراف ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ حين رأوهم قائلين لهم ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يا أهل الجنة، وهذا السلام إما تحية ودعاء، وإما إخبار بالسلامة من المكروه والنجاة من العذاب؛ أي سلمتم من الآفات، وحصل لكم الأمن والسلام، هذا إن كان قبل دخول الجنة. فإن كان بعدها فهي تحية خالصة تدخل في عموم قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ وجملة قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ حال من فاعل ﴿نادوا﴾ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حال

---

(١) المراح.

من فاعل ﴿يَدْخُلُوهَا﴾؛ أي: نادوهم مسلمين عليهم حال كونهم؛ أي: حالة كون رجال الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد؛ أي: الآن، والحال أنهم طامعون في دخولها لما بدا لهم من يسر الحساب. وقد جاء[1] في الآثار، أن الناس يكونون في الموقف بين الخوف والرجاء، لا تطمئن قلوب أهل الجنة حتى يدخلوها. وروى أبو نعيم عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: لو نادى مناد يا أهل الموقف ادخلوا النار إلا رجلاً واحداً.. لَوَجَدْتُ أن أكون ذلك الرجل، ولو نادى ادخلوا الجنة إلا رجلاً واحداً.. لخشيت أن أكون ذلك الرجل. وقرأ ابن النحوي[2]: ﴿وهم طامعون﴾ وقرأ إياد بن لقيط: ﴿وهم ساخطون﴾ وقال مجاهد: أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء، فعلى هذا القول: إنما يكون لبثهم على الأعراف على سبيل النزهة، وليرى غيرهم شرفهم وفضلهم، والمراد من هذا الطمع طمع يقين؛ أي: وهم يعلمون أنهم سيدخلون الجنة.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾؛ أي: وجهت ﴿أَبْصَـٰرُهُمْ﴾؛ أي: أبصار رجال الأعراف بغير قصد. وقرأ الأعمش: ﴿وإذا قلبت أبصارهم﴾. ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: إلى جهنم، وقد قرىء ﴿تِلْقَآءَ﴾ هنا بمده وقصره قراءتان سبعيتان. ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال رجال الأعراف نعوذ بالله ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: وكلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النار تضرعوا إلى الله تعالى في أن لا يجعلهم من زمرتهم، والمقصود من جميع هذه الآيات الإنذار والتخويف من التقليد الرديء؛ ليتبصر المرء في عاقبة أمره، فيفوز بالثواب المقيم في جنات النعيم. وفي التعبير[3] بصرف الأبصار وتحويلها إيماء إلى أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة، ويلقون إليهم السلام، ويكرهون رؤية أهل النار، فإذا حولت أبصارهم إليهم من غير قصد ولا رغبة، بل بصارف يصرفهم إليها.. قالوا: ربنا لا تجعلنا معهم حيث يكونون، وفي ذلك من استعظام حال الظالمين،

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

واستفظاع مآلهم، وشناعة أمرهم ما لا يخفى. وعن سعيد بن جبير أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: يحاسب الله الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة.. دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة.. دخل النار، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ...﴾ الآيتين، ثم قال: إن الميزان يخفف بمثقال حبة ويرجح، ومن استوت حسناته وسيئاته.. كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرض أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الحنة قالوا سلام عليكم، وإذا صرفت أبصارهم إلى يسارهم رأوا أهل النار فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نعوذوا بالله من منازلهم.

قال: فأما أصحاب الحسنات، فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطي كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ وأما أصحاب الأعراف، فإن النور كان في أيديهم، فلم ينزع من أيديهم، فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فكان الطمع دخولاً قال سعيد: فقال ابن مسعود: على أن العبد إذا عمل حسنة كُتِب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة، ثم قال: هلك من غلب وحدانه أعشاره. اهـ.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من أهل النار كانوا عظماء في الدنيا، وهذا نداء آخر من بعض أصحاب الأعراف لبعض المستكبرين الذين كانوا يعتزون في الدنيا بغناهم وقوتهم، ويحتقرون ضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعف عصبيتهم، أو لحرمانهم من عصبية تمنعم وتذود عنهم، ويزعمون أن من أغناه الله، وجعله قوياً في الدنيا فهو الذي يكون له نعيم الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾. ومن هؤلاء زعماء قريش وطغاتها الذين قاوموا الإسلام في مكة، وعذبوا أهله كأبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل.

أي: نادى أصحاب الأعراف رجالاً من أهل النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: يعرف أصحاب الأعراف أولئك الرجال بسيماهم وعلاماتهم كسواد الوجوه وزرقة

العيون وتشويه الخلق، واختار أبو مسلم أنهم يعرفونهم بسيماهم الخاصة التي كانوا عليها في الدنيا، وقيل: بسيما المستكبرين؛ إذ قد جاء في الأثر ما يدل على أن لمن تغلب عليهم رذيلة خاصة علامة تدل عليهم، فيعرفون بها، فقد روى البخاري: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيعرفه، فيشفع له، فلا تقبل شفاعته، ثم يمسخه الله ذئباً منتناً ليزول عن إبراهيم خزيهُ» فمسخه ذئباً مناسب لحماقته ونتن الشرك. وقوله: ﴿قَالُوا۟﴾ بدل من ﴿نادى﴾؛ أي قال أصحاب الأعراف لأولئك الرجال وهم في النار: يا وليد بن المغيرة، ويا أبا جهل بن هشام، ويا أمية بن خلف مثلاً ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾؛ أي: أي شيء دفع عنكم جمعكم في الدنيا من المال والخدم والأتباع ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: وما أغنى عنكم استكباركم عن قبول الحق، وعلى الناس المحقين، والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ.

والخلاصة[1]: أنهم نادوهم قائلين لهم: ما أغنى عنكم جمعكم للأموال والخدم، ولا استكباركم على المستضعفين والفقراء من أهل الإيمان؛ إذ لم يمنع عنكم العقاب، ولا أفادكم شيئاً من الثواب. وقرىء: ﴿تستكثرون﴾ - بالثاء المثلثة - من الكثرة؛ أي: وما أغنى عنكم إكثاركم من الأموال والجند.

ثم زادوا لهم على هذا التبكيت بقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضعفاء الذين عذبتموهم في الدنيا كصهيب وبلال وسلمان وخباب وعمار وأشباههم هم ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾؛ أي: حلفتم في الدنيا يا معشر الكفار ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى ولا يصيبهم ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ منه؛ إذ لم يعطوا في الدنيا مثل ما أعطيتم من الأتباع والأشياع وكثرة الأموال؛ أي: أقسمتم في الدنيا لا يدخلهم الله الجنة في الآخرة، وقد دخلوا الجنة الآن على رغم أنوفكم. وقد قيل الآن من جهة الله لهؤلاء الذين أقسمتم على عدم دخولهم الجنة ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ بفضل الله تعالى، فهذا من بقية كلام أصحاب الأعراف، فهوخبر ثان عن اسم الاشارة؛ أي: أهؤلاء قد قيل لهم من

---

(١) المراغي.

جهة الله تعالى: ادخلوا الجنة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفتم في الدنيا، فظهر كذبكم في إقسامكم وحلفكم، ويدل على هذا المعنى قراءتان شاذتان: ﴿أدخلوا﴾ ـ بصيغة الماضي المبني للمفعول ـ من أدخل الرباعي، و﴿دخلوا﴾، وعلى هاتين القراءتين تقع هذه الجملة خبراً، والتقدير: دخلوا الجنة مقولاً فيهم: لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

وقيل[1]: إن أصحاب الأعراف لما قالوا لأهل النار ما قالوا.. قال لهم أهل النار: إن دخل هؤلاء الضعفاء، فأنتم لم تدخلوا الجنة، فلما عيروهم بذلك.. قيل لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، أي: لا خوف عليكم مما يكون في مستقبل أمركم، ولا أنتم تحزنون مما ينغص عليكم حاضركم. وقرأ الحسن وابن هرمز[2]: ﴿أدخَلوا﴾ أمر من أدخل الرباعي؛ أي: أدخلوا أنفسكم، أو يكون خطاباً للملائكة؛ أي: أدخلوا أيها الملائكة هؤلاء الضعفاء الجنة، ثم خاطب بعد للبشر بقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾. وقرأ عكرمة: ﴿دخلوا﴾ إخباراً بفعل ماض. وقرأ طلحة وابن وثاب والنخعي: ﴿ادخلوا﴾ خبراً مبنياً للمفعول كما ذكرنا هاتين القراءتين آنفاً.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾؛ أي: بقولهم صبوا علينا من الماء صباً كثيراً﴿أَوْ﴾ ألقوا علينا ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى من ثمار الجنة، وأطعمونا منها. وهذا الكلام يدل على حصول العطش الشديد، والجوع الشديد لأهل النار.

والمعنى: أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة ويطلبون منهم أن يفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التي يتمتعون بها من شراب وطعام. وعن ابن عباس ينادي الرجل أخاه، فيقول: يا أخي أغثني، فإني قد احترقت، فأفض علي من الماء، فيقال: أجبه، فيقول: إن الله حرمهما على الكافرين.

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

وعن أبي الدرداء[1]: أنَّ الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يزداد عذابهم، فيستغيثون، فيغاثون بالضريع ـ نبات رطبه يسمى شبرقاً، ويابسه يسمى ضريعاً ـ لا تقربه دابة لنتن ريحه ـ لا يسمن ولا يغني من جوع ـ ثم يستغيثون، فيغاثون بطعام ذي غصة، ثم يذكرون ويستغيثون، فيدفع إليهم الحميم والصديد بكلاليب الحديد، فيقطع ما في بطونهم، ويستغيثون إلى أهل الجنة، فيقول أهل الجنة: إن الله حرمهما على الكافرين، ويقولون لمالك: ليقض علينا ربك، فيجيبهم بعد ألف عام، ويقولون: ربنا أخرجنا منها، فيجيبهم الله سبحانه وتعالى بقوله: اخسؤوا فيها فلا تكلمون، فعند ذلك ييأسون من كل خير، ويأخذون في الزفير والشهيق. وهذا طلب[2] منهم مع علمهم باليأس من إجابته؛ إذ يعرفون دوام عقابهم، وأنه لا يفتر عنهم أبداً، ولكن اليائس من الشيء قد يطلبه كما قالوا في أمثالهم: الغريق يتعلق.

﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال أصحاب الجنة لأهل النار في جواب سؤالهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى قد ﴿حَرَّمَهُمَا﴾؛ أي قد حرم ماء الجنة ورزقها ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كما حرم عليهم دخولها، فلا سبيل لإفاضة شيء منهما عليهم، وهم في النار، إذ ليس لهم إلا ماؤها الحميم، وطعامها من الضريع والزقوم. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا﴾؛ أي: باطلاً ﴿وَلَعِبًا﴾؛ أي: فرحاً صفة للكافرين؛ أي: الذين جعلوا اللهو واللعب ديناً وديدناً لهم، فاللهو صرف الهم إلى ما لا يحسن أن يصرف إليه، واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ عن الآخرة؛ أي: شغلهم الطمع في طول العمر، وحسن العيش، وكثرة المال، وقوة الجاه، ونيل الشهوات عن الاستعداد والتزود للآخرة.

والخلاصة: أن الدنيا شغلتهم بزخارفها العاجلة، وشهواتها الباطلة، فغرتهم

---

(١) المراغي والمراح.

(٢) المراغي.

وضرتهم، وهي من شأنها أن تغر وتضر وتمر، ثم ذكر عاقبة أمرهم، فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم الحاضر يعني: يوم القيامة ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾؛ أي: نتركهم في النار ﴿كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: كما تركوا هم في الدنيا الاستعداد والتزود للقاء يومهم هذا؛ أي: نتركهم في عذابهم تركاً مثل تركهم العمل للقاء يومهم هذا، أو المعنى: نعاملهم معاملة من نسي، فنتركهم في النار؛ لأنهم أعرضوا عن آياتنا، والمراد من هذا النسيان: أن الله سبحانه وتعالى لا يجيب دعاءهم، ولا يرحمهم، بل يتركهم في النار كما تركوا العمل وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ معطوف على ﴿ما نسوا﴾؛ أي: كما نسوا وكما كانوا بآياتنا يجحدون؛ أي: ينكرونها؛ أي: وكما كانوا منكرين أن الآيات من عند الله إنكاراً مستمراً، ورفضوا ما جاءت به رسله ظلماً وعلواً.

والخلاصة: فاليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل في الدنيا للقاء الله يوم القيامة، وكما كانوا بآيات الله وحججه التي احتج بها عليهم الأنبياء والرسل يجحدون، ولا يصدقون بشيء منها. ويجوز[1] أن تكون الكاف للتعليل، أي: نتركهم في النار لأجل نسيانهم وجحودهم بآياتنا، والتعليل واضح في المعطوف دون التشبيه.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد جئنا هؤلاء الكفار من مشركي مكة وغيرهم ﴿بِكِتَٰبٍ﴾؛ أي: بقرآن كريم أنزلناه عليك يا محمد و﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾؛ أي: بينا حلاله وحرامه، ومواعظه وقصصه حالة كوننا ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بما فيه من العقائد والأحكام وغيرها؛ أي: عالمين بكيفية تفصيل أحكامه، أو المعنى: حالة كون ذلك الكتاب مشتملاً على علم كثير، وفضل كثير مختلف، وقد نظم بعضهم الأنواع التسعة التي اشتمل عليها القرآن في قوله:

حَلاَلٌ حَرَامٌ مُحْكَمٌ مُتَشَابِهٌ   بَشِيرٌ نَذِيرٌ قِصَّةٌ عِظَةٌ مَثَلُ

وقرأ ابن محيصن والجحدري[2]: ﴿فضلناه﴾ ـ بالضاد المنقوطة ـ والمعنى:

---

(١) زاده. (٢) البحر المحيط.

فضلناه على جميع الكتب عالمين بأنه أهل للتفضيل عليها حالة كون ذلك الكتاب ﴿هُدًى﴾؛ أي: هادياً من الضلالة إلى الرشد ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ أي: وذا رحمة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، ويعملون بما فيه من الأحكام، أو فصلناه لأجل الهداية والرحمة للمؤمنين. وقرىء ﴿هدى ورحمةٌ﴾ ـ بالرفع؛ أي: هو هدى ورحمة لهم. وقرأ زيد بن علي: ﴿هدى ورحمةٍ﴾ بالخفض على البدل من ﴿كتاب﴾، أو النعت، وعلى النعت لـ﴿كتاب﴾ خرجه الكسائي والفراء رحمهما الله تعالى.

وحاصل المعنى: ولقد[1] جئنا هؤلاء القوم بكتاب كامل البيان؛ وهو القرآن فصلنا آياته تفصيلاً على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من العلم والعمل تزكية لنفوسهم، وتطهيراً لقلوبهم، وجعلناه سبب سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وهدى ورحمة لمن يؤمن به إيماناً يبعثه على العمل بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه. انظر إليه تجده قد أوضح أصول الدين العامة بما لا يطلب معه زيادة لمستزيد، فنعى على المقلدين الأخذ بآراء من تقدمهم من آبائهم ورؤسائهم دون بحث ولا تمحيص في مثل قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وكرر القول ببطلان التقليد وضلال المقلدين، وحث على النظر والاستدلال، والاعتماد على البرهان في مثل قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وبهذا كان الإسلام دين العقل والفطرة، وينبوع الهدى والحكمة.

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ إنكاري؛ أي: ما ينتظر هؤلاء الكفار من أهل مكة وغيرهم إذ أعرضوا عن الإيمان به ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ وتفسيره؛ أي: إلا عاقبة ما وعدوا به في القرآن من حلول العذاب بهم يوم القيامة؛ أي ليس أمامهم شيء ينتظرونه في أمره إلا وقوع تأويله، وهو وقوع ما أخبر به من أمر الغيب الذي يقع في المستقبل في الدنيا، ثم في الآخرة مما وعد به المؤمنين من نصر وثواب، وأوعد به الكافرين من خذلان وعقاب.

---

(١) المراغي.

روي عن الربيع بن حسن أنه قال[1]: لا يزال يقع من تأويله أمر حتى يتم تأويله يوم القيامة حين يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾؛ أي: يوم يأتي عاقبة ما وعد لهم في القرآن، وهو يوم القيامة، وهو ظرف لقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾؛ أي: تركوا القرآن، وأعرضوا عن الايمان به ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل أن يأتي تأويله، والمعنى[2]: إن الذين تركوا الإيمان بالقرآن في الدنيا يقولون يوم القيامة: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ الذي أرسلهم الله تعالى به إلينا، وكذبناهم؛ أي: أنهم أقروا يوم القيامة بأن ما جاءت به الرسل من ثبوت البعث والنشر، والحشر والقيامة، والثواب والعقاب كل ذلك كان حقاً، وقوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ﴾: استفهام معناه التمني ﴿فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ اليوم من العذاب ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ أي: أو يردنا الله إلى الدنيا حتى نوحده بدل ما أشركنا به، أو نطيعه بدل ما عصيناه، والمعنى: نتمنى وجود الشفعاء، فشفاعتهم لنا من العذاب، أو ردنا إلى الدنيا، فعملنا عملاً غير الذي كنا علمناه أولاً، فيقال لهم في جواب الاستفهامين: لا. وقال الشوكاني: ومعنى الآية[3]: هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب، أو هل نرد إلى الدنيا فنعمل صالحاً غير ما كنا نعمل من المعاصي.

والحاصل: أنهم[4] يتمنون الخلاص بكل وسيلة ممكنة؛ إما بشفاعة الشفعاء، وإما بالرجوع إلى الدنيا ليعملوا فيها غير ما كانوا يعملون في حياتهم الأولى، فيكونون أهلاً لمرضاة ربهم. وإنما تمنوا الشفعاء وتساءلوا عنهم من حيث كان من أسس الشرك أن النجاة عند الله إنما تكون بوساطة الشفعاء، وعندما يستبين لهم الحق الذي جاءت به الرسل؛ وهو أن النجاة إنما تكون بالإيمان

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) فتح القدير.

(٤) المراغي.

الصحيح والعمل الصالح. . يتمنون لو يردون إلى الدنيا؛ ليعملوا بما أمرهم به الرسل.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ - برفع الدال - ﴿فَنَعْمَلَ﴾ - بنصب اللام - عطف جملة فعلية على جملة اسمية، وتقدمهما استفهام، فانتصب الجوابان؛ أي: هل شفعاء لنا فيشفعوا لنا في الخلاص من العذاب، أو هل نرد إلى الدنيا فنعمل عملاً صالحاً. وقرأ الحسن فيما نقل الزمخشري بنصب الدال ورفع اللام. وقرأ الحسن فيما نقل ابن عطية وغيره برفعهما: عطفَ ﴿فنعمل﴾ على ﴿نُرَدُّ﴾. وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حيوة بنصبهما، فنصب ﴿أو نرد﴾ عطفاً على ﴿فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ جواباً على جواب، فيكون الشفعاء في أحد أمرين؛ إما في الخلاص من العذاب، وإما في الرد إلى الدنيا لاستئناف العمل الصالح، وتكون الشفاعة قد انسحبت على الرد، أو الخلاص، و﴿فنعمل﴾ عطفٌ على: ﴿أو نرد﴾، ويحتمل أن يكون ﴿أو نرد﴾ من باب لألزمنك أو تقضيني حقي، على تقدير من قدر ذلك: حتى تقضيني حقي، أو كي تقضيني حقي، فجعل اللزوم مغياً بقضاء حقه، أو معلولاً له لقضاء حقه، وتكون الشفاعة إذ ذاك في الرد فقط.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: خسروا وغبنوا في تجارة أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: بطل وذهب وغاب عنهم ما كانوا يزعمون ويكذبون في الدنيا من أن الأصنام تشفع لهم، فلما أفضوا إلى الآخرة ذهب ذلك عنهم وعلموا أنهم في دعواهم كانوا كاذبين، والمعنى: أنه بطل كذبهم وافتراؤهم الذي كانوا يقولونه في الدنيا، أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكاً لله، فلم ينفعهم ولا حضر معهم.

وخلاصة ذلك: أنهم قد خسروا أنفسهم بتدنيسها بالشرك والمعاصي وعدم تزكيتهما بلفضائل والأعمال الصالحة فخسروا حظوظهما فيها وبطل كذبهم الذي

---

(١) البحر المحيط.

كانوا يفترونه على الله، أو غاب عنهم ما كانوا يعبدونه من الأصنام.

ثم ذكر سبحانه وتعالى دلائل القدرة والوحدانية، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أيها العباد وخالقكم ومعبودكم الذي يستحق منكم العبادة هو ﴿اللَّهُ﴾؛ أي: المعبود بحق في الوجود المنفرد في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿الذي خلق﴾ وأوجد ﴿السموات﴾ السبع ﴿وَالْأَرْضَ﴾ على غير مثال سابق ﴿فِي﴾ مقدار ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا التي أولها الأحد، وآخرها الجمعة، وإنما خلقها في ستة أيام مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة بأن يقول لها: كوني فتكون؛ ليعلم عباده الرفق والتأني والتثبت في الأمور، وعدم العجلة، وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾. ﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السموات والأرض وما بينهما ﴿اسْتَوَىٰ﴾؛ أي: علا وارتفع سبحانه وتعالى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تعطيل نثبته، ونؤمن به على الوجه الذي يليق به مع تنزيهه عما لا يجوز عليه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والإيمان بذلك غير موقوف على معرفة حقيقته وكيفيته، فالصحابة رضوان الله تعالى عليهم، والأئمة من بعضهم لم يشتبه أحد منهم فيه.

وقد أثر عن ربيعة شيخ الإمام مالك أنه سئل عن قوله: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق. وقال الحافظ بن حجر: مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه. وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه.. فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت ما وردت به الآثار الصريحة والأخبار الصحيحية على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله النقائص... فقد سلك سبيل الهدى. انتهى.

وقال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان

به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقال الإمام أحمد رحمه الله: أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل، فلا يقال: كيف ولم،نؤمنُ بأن الله على العرش كيف شاء، وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف، أو يحدها حاد، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما، ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل. وقال القرطبي: لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن، وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما، وهو المراد هنا. وقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يجعل الليل كالغشاء والغطاء للنهار، فيغطي بظلمته ضوء النهار جملة حالية من فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: استوى سبحانه وتعالى على العرش حالة كونه مغشياً الليل النهار. وقوله: ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾؛ أي: يطلب الليل النهار طلباً ﴿حَثِيثًا﴾ حال من الليل ﴿ٱلَّيْلَ﴾؛ أي: حالة كون الليل طالباً للنهار طلباً حثيثاً؛ أي: طلباً سريعاً لا يفتر عنه بحال؛ أي: مسرعاً.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿يغشّي﴾ بالتشديد من باب فعل المضعف. وقرأ الباقون بالتخفيف من باب أفعل، وهما لغتان، يقال: أغشى يغشي إغشاء، وغشى يغشي تغشية، ولم يذكر في هذه الآية، ويغشي النهار الليل اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر على حد ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾. وقرأ حميد بن قيس: ﴿يغشى الليلُ النهار﴾: على إسناد الفعل إلى الليل. وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ قال الأخفش: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ حال منها؛ أي: وخلق الشمس والقمر والنجوم حالة كونها مذللات بأمره وإرادته، خاضعات لتصرفه، منقادات لحكمه، جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره. وقرأ ابن عامر بالرفع في الأربعة على الابتداء والخبر، وقرأ أبان بن تغلب برفع ﴿والنجومُ مسخراتٌ﴾ فقط على الابتداء والخبر. ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتبهوا أيها العباد ﴿له﴾: سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْخَلْقُ﴾؛ أي: الإيجاد والاختراع، فهو الخالق لجميع المخلوقات علويها وسفليها المالك لذواتها ﴿و﴾ له سبحانه وتعالى أيضاً لا لغيره

﴿الأمر﴾؛ أي: التصرف والتدبير في جميعها؛ إذ هو المال لها لا شريك له فيها.

وفي معنى الآية قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقوله: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ وجاءت هذه الجملة توكيداً لما قبلها؛ لبيان أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو الذي دبرهما وصرفهما بحسب إرادته.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية خلق السموات والأرض في ذلك الأمد اليسير، ثم ذكر استواءه على عرشه، وتسخير الشمس والقمر والنجوم، وأن له الخلق والأمر.. قال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: تزايد خيره وبره، وكثرت بركته وإحسانه، وعم نواله وإنعامه. وقال الأزهري: معنى: ﴿تَبَارَكَ﴾ تعالى وتعاظم؛ أي: تعالى الله مالك العالمين بوحدانيته وألوهيته، وتعاظم بربوبيته وصفاته، وأن كل ما في هذا العالم من الخيرات الكثيرة، والنعم العظيم؛ فهو منه، فيجب على عباده أن يشكروه عليها ويعبدوه دون غيره مما عبدوه معه، وليس له من الخلق ولا من الأمر شيء. وفي هذه الآية رد على من يقول من أهل الضلال: إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: اسألوا أيها العباد ربكم، ومتولي أموركم، وخالقكم حال كونكم ﴿تَضَرُّعًا﴾؛ أي: متضرعين متذللين وخاضعين له ومبتهلين إليه ﴿و﴾ حالة كونكم ﴿خفية﴾؛ أي: مخفين ومسرين دعاءكم عن غيركم، أو هما صفتان لمصدر محذوف؛ أي: ادعوه دعاء تضرع، ودعاء خفية، والتضرع: الذلة والخشوع والاستكانة، والخفية: الإسرار به، فإن ذلك أقطع لعرق الرياء، وأحسن لباب من يخالف الإخلاص. وقرأ الجمهور بضم خاء ﴿وَخُفْيَةً﴾، وقرأ أبو بكر بكسرها؛ وهما لغتان.

وفي هذا إيماء إلى أن الإخفاء في الدعاء أفضل إن لم يكن وجباً، ويدل على ذلك وجوه:

١ ـ أنه تعالى أثنى على زكريا، فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾؛ أي: أنه أخفاه عن العباد، وأخلصه لله، وانقطع به إليه.

٢ ـ روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّا ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم» رواه مسلم.

٣ ـ روي أنه ﷺ قال: «دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية» وقال: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي».

٤ ـ روي عن الحسن البصري أنه قال: إن كان الرجل لقد جمع، وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعند الزور، وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ اهـ.

٥ ـ أن النفس شديدة الرغبة في الرياء والسمعة، فإذا رفع المرء صوته بالدعاء امتزج الرياء به، فلا يبقى فيه فائدة البتة، ومن ثم كان الأولى الإخفاء؛ ليبقى مصوناً عن الرياء.

وفصل بعض العلماء، فقال: إن التضرع بالجهر المعتدل يحسن في حال الخلوة والأمن من رؤية الناس للداعي، ومن سماعهم لصوته، فلا جهره يؤذيهم، ولا الفكر فيهم يشغله عن التوجه إلى الرب وحده، أو يفسد عليه دعاءه بحب الرياء والسمعة، ويحسن الإسرار في حال اجتماع الناس في المساجد والمشاعر وغيرها إلا ما ورد فيه رفع الصوت من الجميع كالتلبية في الحج، وتكبير العيدين. وإذا كان الليل ستراً ولباساً شرع فيه الجهر في قراءة الصلاة إلى أنه

يطرد الوسواس، ويقاوم فتور النعاس، ويعين على تدبر القرآن، وبكاء الخشوع للرحمن لدى المتهجدين في خلواتهم.

وقال الشيخ محمد بن عيسى الحكيم الترمذي: إن كان خائفاً على نفسه من الرياء.. فالأولى إخفاء العمل صوناً لعمله عن البطلان، وإن كان قد بلغ في الصفاء وقوة اليقين إلى حيث صار آمناً عن شائبة الرياء.. كان الأولى في حقه الإظهار لتحصل فائدة الاقتداء به. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى. قرأ ابن أبي عبلة ﴿إن الله﴾ جعل مكان المضمر المظهر. ذكره أبو حيان. ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: المجاوزين لما أمروا به في الدعاء بترك هذين الأمرين التضرع والإخفاء، وفي كل شيء، فمن جاوز ما أمره الله به في شيء من الأشياء.. فقد اعتدى، والله لا يحب المعتدين؛ أي: لا يثيبه البتة، ولا يحسن إليه، وتدخل المجاوزة في الدعاء في هذا العموم دخولاً أولياً، ومن الاعتداء[1] في الدعاء أن يسأل الداعي ما ليس له كالخلود في الدنيا، أو إدراك ما هو محال في نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء في الآخرة، أو يرفع صوته بالدعاء صارخاً به.

وعن النبي ﷺ[2]: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل» ثم قرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه..

وللاعتداء في الدعاء مظاهر شتى[3]:

١ ـ اعتداء خاص بالألفاظ كالمبالغة في رفع الصوت، والتكلف في صيغ الدعاء.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

٢ ـ اعتداء خاص بالمعنى؛ وهو طلب غير المشروع من وسائل المعاصي ومقاصدها كضرر العباد، وطلب إبطال سنن الله في الخلق، أو تبديلها كطلب النصر على الأعداء مع ترك وسائله كأنواع السلاح والعتاد، وطلب الغنى بلا كسب، وطلب المغفرة مع الإصرار على الذنب مع أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

٣ ـ اعتداء بالتوجه فيه إلى غير الله تعالى؛ ليشفع له عنده، وهذا شر أنواع الاعتداء كما قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ ومن طلب ذلك من غير الله.. فقد اتخذه إلهاً؛ لأن الإله هو المعبود كما روى أحمد عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة» وروى الترمذي عن أنس مرفوعاً: «الدعاء مخ العبادة» وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة»، قالوا: وما الوسيلة؟ قال: «القرب من الله عز وجل»، ثم قرأ: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ وابتغاء ذلك يكون بدعائه وعبادته بما شرعه على لسان رسوله دون غيره.

فائدة أخرى: وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «الدعاء»[١]، والخطيب في «تاريخه» عن الحسن بن علي قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية في كل ليلة أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم، ومن كل شيطان مريد، ومن كل سبع ضاري، ومن كل لص عادي: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وعشراً من أول سورة الصافات، وثلاث آيات من الرحمن أولها: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، وخاتمة الحشر. وأخرج أبو الشيخ بن عبيد بن أبي مرزوق قال: من قرأ عند نومه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآية.. بسط عليه ملك جناحه حتى يصبح، وعوفي من السرق.

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز قال: مرض رجل من أهل المدينة، فجاءه زمرة من أصحابه يعودونه، فقرأ رجل منهم:

---

(١) الشوكاني.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية كلها، وقد أصمت الرجل، فتحرك، ثم استوى جالساً، ثم سجد يومه وليلته حتى كان من الغد من الساعة التي سجد فيها قال له أهله: الحمد لله الذي عافاك، قال: بعث إلى نفسي ملك يتوفاها، فلما قرأ صاحبكم الآية التي قرأ سجد الملك وسجدت سجوده، فهذا حين رفع رأسه، ثم مال فقضي عليه. انتهى.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟﴾ أيها الناس ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والكفر، والدعاء إلى غير طاعة الله تعالى: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾؛ أي: بعد إصلاح الله إياها ببعثة الرسل، وبيان الشرائع، والدعاء إلى طاعة الله تعالى، وهذا المعنى قاله الحسن والسدي والضحاك والكلبي. وقيل معنى الآية: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاح الله لها بما خلق فيها من المنافع، وما هدى الناس إليها من استغلالها، والانتفاع بتسخيرها لهم، وامتنانه بذلك في مثل قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ وهذا الإفساد شامل لإفساد النفوس بالقتل، وقطع الأطراف والأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة، وإفساد الأديان بالكفر والمعاصي والبدع، وإفساد الأنساب بالإقدام على الزنا، وإفساد العقول بشرب المسكر ونحوه.

والخلاصة[١]: أن الإفساد شامل لإفساد العقول والعقائد، والآداب الشخصية والاجتماعية، والمعايش والمرافق من زراعة وصناعة وتجارة، ووسائل تعاون بين الناس.

وإصلاح الله تعالى لحال البشر كان بهداية الدين، وإرسال الرسل، وتمم ذلك ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي كان رحمة للعالمين، فبه أصلحت عقائد البشر، وهذبت أخلاقهم وآدابهم بما جمع لهم فيها من مصالح الروح والجسد، وما شرع لهم من التعاون والتراحم، وبما حفظ لهم من العدل والمساواة، وبما شرع لهم من الشورى المقيدة بقاعدة: درء المفاسد وحفظ المصالح، وبذا امتاز

(١) المراغي.

به دينهم عن بقية الأديان.

وبعد أن بين في الآية الأولى شرط الدعاء.. أعاد الأمر به إيذاناً بأن من لا يعرف أنه محتاج إلى رحمة ربه مفتقر إليها، ولا يدعو ربه تضرعاً وخفية، ولا يخاف من عقابه، ولا يطمع في غفرانه يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح، فقال: ﴿وَٱدْعُوهُ﴾؛ أي: وادعوا أيها الناس ربكم حالة كونكم ﴿خَوْفًا﴾؛ أي: خائفين من عقابه على مخالفتكم لشرعه المصلح لأنفسكم وأجسامكم، أو ذوي خوف من عقابه ﴿و﴾ حالة كونكم ﴿طمعاً﴾؛ أي: طامعين في رحمته وإحسانه في دنياكم وآخرتكم، أو ذوي طمع في رحمته، والخوف: الانزعاج من المضار التي لا يؤمن من وقوعها، والطمع: توقع حصول الأمور المحبوبة.

فإن قلت[1]: إنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقال هنا: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وهذا من عطف الشيء على نفسه، فما فائدة ذلك؟

قلتُ: الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: ليكن الدعاء مقروناً بالتضرع والإخبات، وقوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين، فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء، والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء، وقيل معناه: كونوا جامعين في أنفسكم بين الخوف والرجاء في أعمالكم كلها، ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله في العبادة والدعاء، وإن اجتهدتم فيهما.

ودعاء المولى حين الشعور بالعجز والافتقار إليه مما يقوي الأمل بالإجابة، ويحول بينها وبين اليأس إذا تقطعت الأسباب، وجهلت وسائل النجاح، والدعاء مخ العبادة ولبها، وإجابته مرجوة حين استكملت شرائطها وآدابها، فإن لم تكن

---

(١) الخازن.

بإعطاء الداعي ما طلبه، فربما كانت بما يعلم الله أنه خير له منه. ثم بين فائدة الدعاء وعلل سبب طلبه، فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وثوابه ﴿قَرِيبٌ مِّنَ﴾ عباده ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ذكر الخبر نظراً إلى أن الرحمة بمعنى الثواب كما فسرناه كذلك؛ أي: إن رحمته تعالى قريبة من المحسنين أعمالهم بأي نوع من الأنواع كان إحسانهم، لأن الجزاء من جنس العمل كما قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ فمن أحسن في عبادته.. نال حسن الثواب، ومن أحسن في الدعاء.. أعطي خيراً مما طلبه، وقد طلب الإحسان في كل شيء يهدي إليه دين الفطرة، وحرم الإساءة في كل شيء، وجعل جزاءها من جنسها كما قال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾. وقال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شي، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته». رواه مسلم.

وأصل الرحمة(١): رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، وإذا وصف بها الباري جل وعز، فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة، فرحمة الله عز وجل عبارة عن الإفضال والإنعام على عباده، وإيصال الخير إليهم.

وكون الرحمة قريبة من المحسنين(٢)؛ لأن الإنسان في كل ساعة من الساعات في إدبار عن الدنيا، وإقبال على الآخرة، وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة، وليس بينه وبين رحمة الله التي هي الثواب في الآخرة إلا الموت؛ وهو قريب من الإنسان.

والأحسن(٣) في علة تذكير ﴿قَرِيبٌ﴾ مع أن ﴿الرحمة﴾ مؤنثة أن يقال: تذكيره إما باعتبار أن الرحمة مجازية التأنيث، أو باعتبار أن المراد بها الثواب؛

---

(١) الخازن.
(٢) الخازن.
(٣) الجمل بتصرف.

وهو مذكر، فيكون التذكير باعتبار معناها كما مر آنفاً. تأمل.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، والمعنى: إن ربكم الذي دبر السموات والأرض، وهو الذي يرسل ويبعث الرياح والهواء حالة كون تلك الرياح ﴿بُشْرًا﴾ بالنون؛ أي: منتشرة متسعة، وبالباء أي مبشرة بمجيء المطر؛ أي: يرسلها ويهيجها ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: أمام المطر الذي هو رحمته حالة كونها نشراً، أو بشراً، وإنما سمي المطر رحمة؛ لأنه سبب لحياة الأرض الميتة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ ورفعت تلك الرياح، و﴿حتى﴾ غاية لقوله: ﴿يُرْسِلُ﴾ كما في «الشهاب» ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾؛ أي: غيماً مثقلاً بالماء ﴿سُقْنَٰهُ﴾؛ أي: سقنا ذلك السحاب ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾؛ أي: إلى مكان لا نبات فيه لعدم الماء ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾؛ أي: في ذلك البلد ﴿ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾أي: بذلك الماء، أو في ذلك البلد ﴿مِن كُلِّ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والزروع ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما أخرجنا الثمرات بالماء ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أحياء من قبورهم بعد فنائهم دروس آثارهم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أيها المنكرون للبعث ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ هذا الشبه، فيزول عنكم استبعادكم للبعث بنحو قولكم: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ أو المعنى: لكي تعتبروا أيها المنكرون للبعث، وتتذكروا أن القادر على إحياء هذه الأرض بالأشجار المزينة بالأزهار والثمار بعد موتها قادر على أن يحيي الأجساد بعد موتها.

وحاصل معنى الآية: أن ربكم المدبر لأمور الخلق هو الذي يرسل الرياح بين يدي رحمته؛ أي: بين الأمطار وأمامها حال كونها مبشرات بها فينشيء بها سحاباً ثقالاً لكثرة ما فيها من الماء، حتى إذا أقلتها ورفعتها إلى الهواء ساقها لإحياء بلد ميت قد عفت مزارعه، ودرست مشاربه، وأجدب أهله. ونحو الآية قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾؛ أي: فأنزلنا بالسحاب الماء؛ إذ قد ثبت أنه حينما يسخن الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة.. يرتفع في الجو

ويبرد؛ لوصوله إلى منطقة باردة، أو لامتزاجه بتيار من الهواء البارد، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء، وتكون السحاب، فالسحاب ناشيء من تكاثف بخار الماء من الهواء في الطبقات العالية من الجو، وهو لا يكون ثابتاً في مكان، بل يسير في اتجاه أفقي مدفوعاً بقوة الريح، ويتراوح بعده عن الأرض بين ميل وعشرة أميال، ويكون معتماً مشبعاً بالماء إذا كان قريباً من سطح الأرض، وهو الذي ينشأ عنه المطر؛ لتجميع قطيرات الماء التي فيه بعضها مع بعض بتأثير البرودة، فتكون قطيرات كبيرة تسقط من خلاله نحو الأرض؛ لثقلها بحسب سنة الله في جاذبية الثقل.

وقد أثبت العلم ودلت المشاهدة: أن سكان الجبال الشامخة يبلغون في العلو حذاء السحاب الممطر، أو يتجاوزونه إلى ما فوقه، فيكون دونهم ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ أي: فأخرجنا بالماء أنواع الثمار على اختلاف طعومها وألوانها وروائحها، فتخرج كل أرض أنواعاً مختلفة منها تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، ورحمته وفضله كما قال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

وبعد أن ذكرهم بهذه الآيات.. قفى على ذلك بما يزيل إنكارهم للبعث، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: ومثل هذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميتة بإحيائها بالماء نخرج الموتى من الناس وغيرهم إذ القادر على هذا قادر على ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ هذا الشبه، فيزول استبعادكم للبعث بنحو قولكم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وقولكم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾.

فأمثال هذه المقالات الدالة على إنكار خروج الحي من الميت تزول إذا أنتم تذكرتم خروج النبات الحي من الأرض الميتة إذ لا فارق بين حياة النبات، وحياة الحيوان، فكل منهما خاضع لقدرة الإله القادر على كل شيء، والحياة في عرف المخاطبين كانت تعرف بالتغذي، والنمو في النبات، والحس والحركة

في الحيوان.

إعادة الموتى

جاء في الكتاب الكريم قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، وقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ فأثبت في هذه الآيات الإعادة، وشببها بالبدء، هو تشبيه في جملة ذلك، لا في تفصيله، فإنه كما خلق جسد الإنسان الأول خلقاً ذاتياً مبتدأ، ونفخ فيه الروح يخلق أجسام أفراد الإنسان خلقاً ذاتياً معاداً، ثم ينفخ فيها أرواحها التي كانت بها أناسي في الحياة الدنيا، فما الأجساد إلا كالسكن للأرواح، وليس بالبعيد على خالق العالم كله أن يعيد أجساد ألوف الملايين دفعة واحدة.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع والحسن والسلمي وأبو رجاء والأعرج وأبو جعفر وشيبة وعيسى بن عمر وأبو يحيى وأبو نوفل الأعرابيان[1]: ﴿الرياح نُشُراً﴾ ـ جمعين بضم النون والشين ـ أرادوا جمع نشور، وهي الريح الطيبة الهبوب تهب من كل ناحية وجانب. وقرأ عبد الله وابن عباس وزر وابن وثاب والنخعي وطلحة بن مصرف والأعمش ومسروق وابن عامر وعبد الوارث والحسن البصري في رواية عنه: ﴿نُشْراً﴾ ـ بضم النون وسكون الشين ـ وهي في معنى ﴿نُشُراً﴾ ـ بضمتين ـ إلا أنهم سكنوا الشين تخفيفاً من الضم كرُسْل في رسل. وقرأ حمزة والكسائي وخلف والمفضل عن عاصم: ﴿نَشْراً﴾ ـ بفتح النون وسكون الشين ـ. قال الفراء: النشر: الريح الطيبة اللينة التي تنشيء السحاب. وقال ابن الأنباري: النشر: المنتشرة الواسعة الهبوب. وقرأ أبو رجاء العطاردي وإبراهيم النخعي ومسروق في رواية عنهم ومورق العجلي: ﴿نَشَراً﴾ ـ بفتح النون والشين ـ إما جمع نشور كعمود وعمد، أو جمع ناشر كغائب وغيب وحافد وحفد. هذه

(١) البحر المحيط وزاد المسير.

قراءات من قرأ بالنون، فجملتها أربعة. وقد قرأ آخرون بالباء الموحدة، فقرأ ابن عباس والسلمي وابن أبي عبلة: ﴿الرياح﴾ - جمعاً -: ﴿بُشُرا﴾ - بضم الباء والشين -. ورويت عن عاصم وهو جمع بشيرة كنذيرة ونذر. وقرأ عاصم كذلك إلا أنه سكن الشين تخفيفاً من الضم. وقرأ السلمي: ﴿بَشْراً﴾ - بفتح الباء وسكون الشين - وهو مصدر بشر المخفف، ورويت عن عاصم. وقرأ ابن السميقع وابن قطيب: ﴿بشرى﴾ بألف مقصورة كرجعى، وهو مصدر. فهذه ثماني قراءات؛ أربعة في النون، وأربع في الباء. والمعنى على كلها: أنه سبحانه وتعالى يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات.

وبعد أن ضرب الله إحياء البلاد بالمطر مثلاً لبعث الموتى.. ضرب اختلاف نتاج البلاد مثلاً لما في البشر من اختلاف الاستعداد لكل من الهدى والكفر، والرشاد والغي، فقال: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ أي: والأرض الطيبة التربة السهلة السمحة ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ ووافياً حسناً كثيراً غزير النفع ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: بمشيئة الله تعالى وتيسيره بلا كد ولا عناء، كذلك المؤمن المخلص يؤدي ما أمر الله به بطيبة النفس ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾؛ أي: والبلد الذي خبث أرضه السبخة ترابه ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾؛ أي: إلا بتعب وعناء وكلفة، والمعنى: إلا حالة كونه قليلاً عديم النفع. قال الشاعر في المعنى يذم إنساناً:

لاَ تُـنْـجِـزُ ٱلْـوَعْـدَ إِنْ وَعَـدْتَ وَإِنْ أَعْـطَـيْـتَ أَعْـطَـيْـتَ تَـافِـهـاً نَـكِـدَا

يعني بالتافه: القليل، وبالنكد: العسير، ومعناه: إنك إن أعطيت أعطيت القليل بعسر ومشقة وكلفة، وكذلك المنافق لا يؤدي ما أمر الله به إلا كرهاً بغير طيبة النفس. قال(1) المفسرون: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فشبه المؤمن بالأرض الخيرة الطيبة التراب، وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الأرض الطيبة، فإذا نزل المطر أخرجت أنواع الأزهار والثمار، وكذلك المؤمن إذا سمع القرآن آمن به، وانتفع به، وظهرت منه الطاعات

---

(1) الخازن.

والعبادات، وأنواع الأخلاق الحميدة، وشبه الكافر بالأرض الرديئة الغليظة البسخة التي لا ينتفع بها وإن أصابها المطر، فكذلك الكافر إذا سمع القرآن لا ينتفع به، ولا يصدقه، ولا يزيده إلا عتواً وكفراً، وإن عمل الكافر حسنة في الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها في الآخرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول: هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمره طيب، ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التي خرجت منها البركة، فالكافر خبيث وعمله خبيث.

ويدل[١] على صحة هذا التأويل ما روى الشيخان والنسائي وأحمد من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب التي تشرب ولا تنبت، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا، وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هي قيعان ـ أرض مستوية ـ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» وقد فسر النبي ﷺ القسم الأول؛ وهو الذي نفع وانتفع بالهادي المهتدي، وفسر القسم الثالث؛ وهو الذي لم ينفع ولم ينتفع بالجاحد، وسكت عن القسم الثاني؛ وهو الذي نفع غيره بعلمه، ولم ينتفع به هو؛ لأن له أحوالاً كثيرة، فمنه المنافقون، ومنه المفرطون في دينهم، والمشاهدة تدل على أن الطيبي الأخلاق يفعلون الخير والبر بلا تكلف، وأن الخبيثين لا يفعلون الخير ولا يؤدون الواجب إلا نكداً بعد إلحاف أو إيذاء حين الطلب، أو إدلاء إلى الحكام.

وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة وعيسى بن عمر[٢]: ﴿يُخْرج نباته﴾: ـ مبنياً للمفعول ـ؛ أي: يخرجه البلد. وقرأ ابن القعقاع: ﴿نكَداً﴾ ـ بفتح الكاف ـ قال

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

الزجاج: وهي قراءة أهل المدينة. وقرأ ابن مصرف بسكونها، وهما مصدران؛ أي: ذا نكد. وقرأ الباقون: ﴿نَكِدًا﴾ بفتح النون وكسر الكاف.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك التصريف البديع والتكرير العجيب ﴿نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾؛ أي: نردد الآيات الدالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، ونكررها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمتنا باستعمالها فيما تتم به حكمتنا، وبذلك يستحقون منا المزيد، ويكافؤون بالثواب عليها. وختم[1] هذه الآية بالشكر إذ كان موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد، والآية التي قبلها بالتذكر لما كان موضوعها الاعتبار والاستدلال. وقرىء: ﴿يصرف﴾ ـ بالياء التحتية ـ مراعاة للغيبة في قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ ذكره أبو حيان.

الإعراب

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، وسيأتي مقابله بقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ...﴾ الخ. ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿أَن﴾: مفسرة بمعنى: أي؛ لسبقها بجملة فيها معنى القول دون حروفه مبنية على السكون، وجملة الفعل بعدها جملة مفسرة لـ﴿نادى﴾ لا محل لها من الإعراب، وإن شئت قلت: ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿وَجَدْنَا﴾: فعل وفاعل، وجملة ﴿وَجَدْنَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة: في محل النصب مفعول ﴿نادى﴾، أو في محل الجر بجار محذوف تقديره: ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار بأنه قد وجدنا الخ. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول أول لـ﴿وَجَدْنَا﴾. ﴿وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾،

---

(١) المراغي.

أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما وعدناه ربنا. ﴿حَقًّا﴾: مفعول ثان لـ﴿وَجَدْنَا﴾، أو حال من الضمير المحذوف في ﴿وَعَدَنَا﴾ إن كان ﴿وجد﴾ بمعنى أصاب. ﴿فَهَلْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هل﴾: حرف للاستفهام الاستخباري. ﴿وَجَدتُّم﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَجَدْنَا﴾. ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول أول لـ﴿وجد﴾. ﴿وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما وعده ربكم. ﴿حَقًّا﴾ مفعول ثان لـ﴿وجد﴾، أو حال من الضمير المحذوف في ﴿وعد﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿نَعَمْ﴾: حرف جواب يجاب بها لتصديق الأخبار لا محل لها من الإعراب، والمجاب به محذوف لنيابة ﴿نَعَمْ﴾ عنه تقديره: وجدناه حقاً. ﴿فَأَذَّنَ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿أذن مؤذن﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿نادى﴾. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أذن﴾، أو صفة لـ﴿مُؤَذِّنٌ﴾. ﴿أَن﴾: تفسيرية بمعنى أي. ﴿لَّعْنَةُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جملة مفسرة لـ﴿أذن﴾ لا محل لها من الإعراب، وإن شئت قلت: ﴿أن﴾ المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في محل النصب مفعول ﴿أذن﴾ تقديره: فأذن مؤذن بينهم أنه لعنة الله على الظالمين، أو في محل الجر بحرف جر محذوف تقديره: فأذن مؤذن بينهم بأنه لعنة الله على الظالمين.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الجر صفة لـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ﴿يَصُدُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَصُدُّونَ﴾. ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَصُدُّونَ﴾. ﴿عِوَجًا﴾: حال من الهاء في ﴿يبغونها﴾، ولكنها في تأويل معوجة، ويصح كونه مفعولاً ثانياً. ﴿وَهُم﴾: مبتدأ. ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: جار ومجرور متعلق

بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾. ﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَصُدُّونَ﴾.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿حِجَابٌۚ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿رِجَالٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾. ﴿بِسِيمَىٰهُمْۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَعْرِفُونَ﴾. ﴿وَنَادَوْاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿أَن﴾: تفسيرية بمعنى أي مبنية على السكون. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ﴾: مبتدأ وخبر، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض الدعاء، والجملة الاسمية جملة مفسرة لجملة ﴿نادوا﴾ لا محل لها من الإعراب، وإن شئت قلت: ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن أنه سلام عليكم، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبرها، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في محل النصب مفعول ﴿نادوا﴾؛ أي: نادوهم أنه سلام عليكم، أو في محل الجر بحرف جر محذوف تقديره: نادوهم بأنه سلام عليكم. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نادوا﴾، أو مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل: ما صنع بأصحاب الأعراف.. فقيل: لم يدخلوها. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَطْمَعُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَدْخُلُوهَا﴾.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: ظرف

ومضاف إليه متعلق بـ﴿صُرِفَتْ﴾. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿لَا﴾: دعائية جازمة. ﴿تَجْعَلْنَا﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لَا﴾ الدعائية، وفاعله ضمير يعود على الرب جل جلاله، والجملة الفعلية جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿مَعَ الْقَوْمِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَجْعَلْنَا﴾. ﴿الظَّالِمِينَ﴾: صفة لـ﴿الْقَوْمِ﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿رِجَالًا﴾: مفعول به. ﴿يَعْرِفُونَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يعرفون﴾، وجملة ﴿يَعْرِفُونَهُم﴾: صفة لـ﴿رِجَالًا﴾، ولكنها سببية. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية بدل من جملة ﴿نادى﴾ بدل كل من كل. ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ﴾: إلى آخر الآية التالية مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾: استفهامية استفهام توبيخ في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَغْنَىٰ﴾: فعل ماض. ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق به. ﴿جَمْعُكُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على ﴿جَمْعُكُمْ﴾ على كونه فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾ تقديره: ما أغنى عنكم جمعكم، وكونكم مستكبرين، أو استكباركم عن الحق، وجملة ﴿أَغْنَىٰ﴾ في محل الرفع خبر ﴿مَا﴾ الاستفهامية، وجملة ﴿مَا﴾ الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾.

﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التوبيخي، ﴿هؤلاء﴾: مبتدأ.

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَنَالُهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ متعلق بـ﴿يَنَالُهُمُ﴾، وجملة ﴿يَنَالُهُمُ﴾ جواب لقسم محذوف تقديره: والله لا ينالهم الله برحمة، وجملة ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ مع جوابه صلة الموصول، والعائد الهاء من ﴿يَنَالُهُمُ﴾. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية نائب فاعل لقول محذوف تقديره: قد قيل لهم ادخلوا الجنة، وجملة القول المحذوف في محل الرفع خبر ثان لاسم الاشارة؛ أي: أهؤلاء قد قيل لهم ادخلوا الجنة. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾: اسمها مرفوع. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب حال من فاعل ﴿ادْخُلُوا﴾. ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة ﴿لا﴾. نافية. ﴿أَنْتُمْ﴾: اسمها، وجملة ﴿تَحْزَنُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لَا﴾ الثانية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَا﴾ الأولى.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)﴾.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه. ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿أَنْ﴾: مفسرة. ﴿أَفِيضُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مفسرة لجملة ﴿نادى﴾ لا محل لها من الإعراب، وإن شئت قلت: ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة ﴿أَفِيضُوا﴾ في محل الرفع خبرها، وجملة ﴿أَنْ﴾ المخففة في محل النصب مفعول ﴿نادى﴾، والتقدير: ونادى أصحاب النار أنه أفيضوا علينا، أو في محل الجر بجار محذوف تقديره: ونادى أصحاب النار بأنه أفيضوا علينا. ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾: جار ومجرور صفة لمفعول محذوف تقديره: أن أفيضوا علينا شيئاً من الماء. ﴿أَوْ مِمَّا﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله تقديره: أو أفيضوا علينا شيئاً مما رزقكم الله تعالى. ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما رزقكم الله إياه.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿حَرَّمَهُمَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان. ﴿وَلَعِبًا﴾: معطوف على ﴿لَهْوًا﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: فاعل. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾، والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حالهم ودينهم، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك، ﴿اليوم﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾. ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿نَسُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِقَآءَ يَوْمِهِمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿هَٰذَا﴾: في محل الجر صفة لـ﴿يَوْمِهِمْ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: كنسيانهم يومهم هذا، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: فاليوم ننساهم نسياناً كنسيانهم يومهم هذا. ﴿وَمَا كَانُواْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾، وجملة ﴿يَجْحَدُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية. ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من ﴿ما﴾ الأولى والتقدير: ننساهم نسياناً كنسيانهم لقاء يومهم، وكونهم منكرين أن الآيات من عند الله تعالى، ويجوز أن تكون الكاف للتعليل؛ أي فاليوم نتركهم لأجل نسيانهم وجحودهم، والتعليل

واضح في المعطوف دون التشبيه كما سبق ذكره عن «الفتوحات».

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جِئْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِكِتَٰبٍ﴾: متعلق به، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿كتاب﴾. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿فصلنا﴾؛ أي: حالة كوننا متلبسين بعلم، أو من المفعول؛ أي: حالة كون ذلك الكتاب مشتملاً على علم. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ إما حال من هاء ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾؛ أي: فصلناه حالة كونه هادياً وذا رحمة للمؤمنين، أو حالاً من ﴿كتاب﴾، وجاز مجيء الحال منه لتخصصه بالوصف، أو منصوبان على أنهما مفعولان لأجله؛ أي: فصلناه لأجل الهداية والرحمة للمؤمنين. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: جار ومجرور تنازع فيه كل من ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿هَلْ﴾ حرف للاستفهام الإنكاري. ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿يَقُولُ﴾ الآتي. ﴿يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿نَسُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ مقول محكي لـ﴿يَقُولُ﴾، وإن شئت قلت: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُ﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال

من ﴿رُسُلُ رَبِّنَا﴾؛ أي: حالة كونهم متلبسين بالحق.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾.

﴿فَهَل﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هل﴾: حرف للاستفهام الاستخباري، وفيه معنى التمني. ﴿لَّنَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِن شُفَعَآءَ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِن﴾ زائدة، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة: ﴿قَدْ جَآءَتْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿يَقُولُ﴾. ﴿فَيَشْفَعُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب الاستفهام. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى تقديره: فهل لنا ثبوت شفعاء فشفاعتهم لنا. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿نُرَدُّ﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ والتقدير: فهل لنا من شفعاء، أو هل نرد إلى الدنيا. ﴿فَنَعْمَلَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب الاستفهام، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى تقديره: فهل يوجد لنا رد إلى الدنيا فعملنا غير الذي كنا نعمل. ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَعْمَلُۚ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: غيره الذي كنا نعلمه.

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَضَلَّ﴾: فعل ماض. ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به. ﴿مَّا﴾ موصولة، أو مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾

صلة ﴿مَّا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وضل عنهم الآلهة اللاتي كانوا يفترونهن، أو صلة ﴿مَّا﴾ المصدرية تقديره: وضل عنهم افتراؤهم في الدنيا، وجملة ﴿ضل﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿رَبَّكُمُ﴾: اسمها. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبرها، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف عليه. ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾، فالآية الكريمة من باب أعطيت زيداً عمراً؛ لأن كلاً من الليل والنهار يصلح أن يكون غاشياً ومغشياً، فوجب جعل الليل في قراءة الجماعة هو الفاعل المعنوي، والنهار هو المفعول من غير عكس اهـ «سمين». ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلَّيْلَ﴾، والضمير البارز يعود على ﴿ٱلنَّهَارَ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يطلب﴾ ﴿حَثِيثًا﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره: يطلبه طلباً حثيثاً؛ أي: سريعاً.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾: معطوفات على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ حال من الثلاثة. ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾. ﴿أَلَا﴾: حرف استفهام وتنبيه. ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْخَلْقُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾:

معطوف عليه، والجملة مستأنفة. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة. ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ حالان من واو ﴿ٱدْعُوا۟﴾، ولكنه بعد تأويلهما بمشتق؛ أي: ادعوا ربكم حالة كونكم متضرعين ومخفين في دعائكم، أو صفتان لمصدر محذوف تقديره: دعاء تضرع ودعاء خفية. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ﴿إنَّ﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُفْسِدُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿لا تفسدوا﴾. ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُفْسِدُوا۟﴾ أيضاً. ﴿وَٱدْعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟﴾. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: حالان من واو ﴿ادعوه﴾، ولكن بعد تأويلهما بمشتق تقديره: ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ تعالى حالة كونكم خائفين من عقابه وطامعين في رحمته. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿قَرِيبٌ﴾ خبرها. ﴿مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَرِيبٌ﴾؛ لأنه صفة مشبهة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾. ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿بُشْرًۢا﴾: حال من ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ أي: حالة كونها مبشرات أو ناشرات. ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُرْسِلُ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: ابتدائية غائية. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَقَلَّتۡ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾. ﴿سَحَابًا﴾: مفعول به. ﴿ثِقَالًا﴾: صفة لـ﴿سَحَابًا﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿سُقۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿لِبَلَدٍ﴾: متعلق بـ﴿سقنا﴾. ﴿مَّيِّتٍ﴾: صفة ﴿لِبَلَدٍ﴾، والجملة جواب ﴿إِذَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ مستأنفة في اللفظ غاية لما قبلها في المعنى. ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سقنا﴾. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿أنزلنا﴾. ﴿ٱلۡمَآءَ﴾: مفعول به. ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أنزلنا﴾. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿أخرجنا﴾. ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أخرجنا﴾ أيضاً. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ﴿نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ من قبورهم إخراجاً مثل إخراج الثمرات من الأرض. ﴿نُخۡرِجُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾.

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾: مبتدأ وصفة. ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يَخۡرُجُ﴾. ﴿وَٱلَّذِي﴾: مبتدأ. ﴿خَبُثَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَخۡرُجُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على النبات، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿نَكِدٗاۚ﴾: حال من فاعل ﴿يَخۡرُجُ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ونصرف الآيات

تصريفاً مثل تصريفنا الآيات السابقة. ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿لِقَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُصَرِّفُ﴾، وجملة ﴿يَشْكُرُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ والنداء: رفع الصوت لطلب الإقبال ﴿مَا وَعَدَنَا﴾ والوعد: خاص بما كان في الخير أو يشمل الخير والشر، وهو الصحيح، والوعيد: خاص بالشر أو السوء، فتسمية ما كان لأهل النار وعداً؛ إما من قبيل التهكم، أو للمشاكلة.

﴿نَعَمْ﴾: هي حرف جواب كأجل وجير وإي وبلى، ونقيضها لا، ونعم لتكون لتصديق الأخبار، أو إعلام استخبار، أو وعد طالب، وقد يجاب بها النفي المقرون باستفهام، وهو قليل جداً، وتبدل عينها حاء، وهي لغة فاشية كما تبدل حاء حتى عيناً، وكسر عينها لغة قريش. اهـ «سمين».

﴿فَأَذَّنَ﴾ التأذين: رفع الصوت بالإعلام بالشيء. ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ اللعنة: الطرد والإبعاد مع الخزي والإهانة.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقال: صد عن الشيء يصُد - بضم الصاد - صدوداً أعرض عنه، وصده عن الأمر إذا منعه، وصرفه عنه من باب رد، فهو يتعدى ولا يتعدى.

﴿عِوَجًا﴾؛ أي: ذات عوج؛ أي: غير مستوية ولا مستقيمة حتى لا يسلكها أحد والعِوج - بالكسر - يكون في المعاني كالملة والدين والرأي والقول، ويكون في الأعيان ما لم يكن منتصباً، وبالفتح مختص بالأعيان المنتصبة كالرمح والحائط كما في «أبي السعود».

﴿حِجَابٌ﴾ والحجاب: هو السور الذي بين الجنة والنار كما قال في سورة الحديد: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾: جمع عرف ـ بزنة قفل ـ وهو أعلى الشيء، وكل مرتفع من الأرض وغيرها، ومنه عرف الديك والفرس والسحاب لعلوها، وجعل بعضهم الأعراف هو نفس الحجاب المتقدم ذكره، عبر عنه تارة بالحجاب، وتارة بالأعراف. قاله الواحدي، ولم يذكر غيره، ولذلك عرف الأعراف؛ لأنه عني به الحجاب. اهـ. ﴿بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ والسماء والسيمياء: العلامة. ﴿صُرِفَتۡ﴾: حولت.

والتلقاء جهة اللقاء؛ وهي جهة المقابلة يقال: فلان تلقاء فلان إذا كان حذاءه، ويستعمل تلقاء ظرف مكان كما هنا، ويستعمل [1] مصدراً كالتبيان، ولم يجىء من المصادر على التفعال بالكسر غير التلقاء والتبيان والزلزال، وإنما يجيء ذلك في الأسماء نحو التمثال والتمساح والتصفار، وانتصاب ﴿تلقاء﴾ ههنا على الظرف؛ أي: ناحية أصحاب النار.

﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ إفاضة الماء: صبه، ثم استعملت في الشيء الكثير، فيقال: فاض الرزق والخير، وأفاض عليه النعم، وقالوا: أعطاه غيضاً من فيض؛ أي: قليلاً من كثير، وما رزقهم الله يشمل الطعام والأشربة غير الماء.

﴿لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ اللهو[2]: صرف الهم بما لا يحسن أن يصرف به، واللعب: طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب كما مر به ذكره «البيضاوي». ﴿بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ الكتاب: هو القرآن الكريم، والتفصيل جعل المسائل المراد بيانها مفصولاً بعضها من بعض بما يزيل اشتباهها.

﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ وتأويل الشيء: عاقبته ومرجعه ومصيره الذي يؤول ذلك الشيء إليه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ والرب[3]: هو السيد والمالك والمدبر والمربي، والإله هو المعبود الذي يدعى لكشف الضر،

---

(١) الفتوحات.

(٢) البيضاوي.

(٣) المراغي.

أو جلب النفع، ويتقرب إليه بالأقوال والأعمال التي يرجى أن ترضيه، و﴿الله﴾: اسم لخالق الخلق أجمعين، ولا يثبت الموحدون رباً سواه، وأكثر المشركين يقولون: إنه أكبر الأرباب، أو رئيسهم وأعظم الآلهة، وكان مشركوا العرب لا يثبت رباً سواه، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ يراد بهما العالم العلوي، والعالم السفلي. الستة: رتبة من العدد معروفة، حاشيته العليا السبعة، وحاشيته السفلى الخمسة، وأصلها: سدسة أبدلت التاء من إحدى السينين، وأدغم فيها الدال، والدليل على ذلك أنك تقول: في التصغير: سديسة، وفي الجمع: أسداس، وتقول: جاء فلان سادساً. واليوم: الزمن الذي يمتاز عن غيره بما يحدث فيه كامتياز اليوم المعروف بما يحده من النور والظلام، وامتياز أيام العرب بما يقع فيها من الحرب والخصام، وليست هذه الأيام الستة من أيام الأرض، وهي التي مجموع ليلها ونهارها أربع وعشرون ساعة، فإن هذه إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض، فكيف يعد خلقها بأيام منها.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ والاستواء لغة: استقامة الشيء واعتداله، واستوى الملك على عرشه؛ أي: ملك، وثل عرشه؛ أي: هلك، واستوى هنا بمعنى علا وارتفع استواء يليق به سبحانه وتعالى. والعرش لغة: كل شيء له سقف، ويطلق على هودج للمرأة يشبه عريش الكرم، وعلى سرير الملك وكرسيه في مجلس الحكم والتدبير، وعرش الرحمن من أعظم المخلوقات محيطاً بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما.

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يقال: غشي الشيءُ الشيءَ ستره وغطاه، وأغشاه إياه جعله يغشاه؛ أي: يغطيه ويستره، ومنه إغشاء الليل النهار.

﴿حَثِيثٗا﴾؛ أي: مسرعاً من قولهم: فرس حثيث السير؛ أي: سريعه، والحث:[1] الإعمال والسرعة، والحمل على فعل الشيء كالحض عليه، فالحث

---

(١) الفتوحات.

والحض أخوان يقال: حثثت فلاناً، فأحثثت، فهو حثيث ومحثوث اهـ من «السمين». وفعله من باب رد كما في المختار».

﴿مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ أي: مذللات لما يراد منها طلوع وغروب، ومسير ورجوع بأمره؛ أي: بتدبيره وتصرفه. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ الخلق: التقدير، والمراد هنا الإيجاد بقدر ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: تعاظمت بركاته وكثرت، والبركة: الخير الثابت الكثير، وهو فعل ماض جامد لا يتصرف؛ أي: لم يجئ منه مضارع ولا أمر، ولا اسم فاعل.

﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ التضرع: التذلل؛ وهو إظهار ذل النفس من قولهم: ضرع فلان لفلان وتضرع إذا أظهر الذل له في معرض السؤال، والخفية: ضد العلانية من أخفيت الشي؛ أي: سترته، والاعتداء: تجاوز الحد، ومحبة الله للعمل: إثابته عليه، ومحبته للعامل: رضاه عنه.

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أصل الخوف: انزعاج في الباطن يحصل من توقع أمر مكروه يقع في المستقبل، والطمع: توقع محبوب يحصل في المستقبل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ والرياح[1]: جمع ريح؛ وهي الهواء المتحرك، وأصل ريح روح، والرياح عند العرب أربع بحسب مهابها من الجهات الأربع: الشمال والجنوب، وسميا كذلك باسم الجهة التي يهبان منها، والصبا أو القبول؛ وهي الشرقية، وقد ينسبونها إلى نجد كما ينسبون الجنوب إلى اليمن، والشمال إلى الشام، والدبور؛ وهي الغربية، والريح التي تنحرف عن الجهات الأصلية، فتكون بين اثنتين منها تسمى النكباء. قال الراغب: كل موضع ذكر الله فيه إرسال الريح بلفظ الواحد كان للعذاب، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع كان للرحمة. وفي الخبر أنه ﷺ كان يجثو على ركبته حين هبوب الرياح، ويقول: «اللهم اجعلها لنا رياحاً، ولا تجعلها ريحاً، اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا

(١) المراغي.

بعذابك، وعافنا قبل ذلك». وعن ابن[1] عمر أنها ثمان؛ منها أربعة عذاب؛ وهي القاصف والعاصف والصرصر والعقيم، ومنها أربعة رحمة؛ وهي الناشرات والمبشرات والمرسلات والنازعات. اهـ.

﴿بُشْرًا﴾ - بسكون الشين - مخفف بشراً بضمتين واحدها بشير بمعنى مبشرة، كغدر جمع غدير، نشراً بسكون الشين مع النون مخفف نشراً بضمتين، جمع نشور بمعنى منشورة غير مطوية، كرسول يجمع على رسل، والرحمة هنا المطر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾؛ أي: رفعت يقال: أقل[2] الشيء حمله ورفعه من غير مشقة، ومنه إقلال البطن عن الفخذ في الركوع والسجود، ومنه القلة؛ لأن البعير يحملها من غير مشقة، وأصله من القلة، فكأن المقل يرى ما يرفعه قليلاً، واستقل به أقله. وفي «المصباح»: كل شيء حملته، فقد أقللته. والسحاب: الغيم، واحده سحابة، والسحاب[3] اسم جنس جمعي تصح مراعاة لفظه ومراعاة معناه، فالثاني في قوله: ﴿ثِقَالًا﴾ والأول في قوله: ﴿سُقْنَٰهُ﴾، والثقال منه: المشبعة ببخار الماء و﴿سُقْنَٰهُ﴾ سيرناه، وقال أبو حيان: والسوق حمل الشيء بعنف.

﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وفي «المصباح»: البلد: يذكر ويؤنث، والجمع بلدان، والبلدة البلد، وجمعها بلاد مثل كلبة وكلاب. اهـ. وقال المراغي: والبلد[4] والبلدة الموضع من الأرض عامراً كان أو خلاء، وبلد ميت أرض لا نبات فيها ولا مرعى. وفي «القاموس»: والبلد والبلدة: مكة، وكل قطعة من الأرض متحيزة عامرة أو غير عامرة، والتراب والبلد القبر والمقبرة والدار والأثر الخ. اهـ.

﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ واحدها: ثمرة، والثمرة: واحدة الثمر، وهو الحمل

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الفتوحات.

(٤) المراغي.

الذي تخرجه الشجرة سواء أكل أو لا، فيقال: ثمر الأراك وثمر النخل والعنب.

﴿إِلَّا نَكِدًاۚ﴾ والنكد: كل شيء خرج إلى طالبه بتعسر يقال: رجل نَكِد ـ بفتح الكاف وكسرها ـ وناقة نكداء خفيفة الدر صعبة الحلب. وفي «المصباح»: نكد نكداً ـ من باب تعب ـ فهو نكد تعسر، ونكد العيش نكداً اشتد وعَسُر. اهـ. وفي «القاموس»: نكد عيشهم ـ كفرح ـ اشتد وعسر، والبئر قل ماؤها، ونكد زيد حاجة عمرو ـ كنصر ـ منعه إياها، ونكد فلاناً منعه ما سأله، أو لم يعطه إلا أوله اهـ. ونكد الرجل[1]: سئل إلحافاً وأُخجل، قال الشاعر:

وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَهُ طَيِّبَاً   لاَ خَيْرَ فِيْ ٱلْمَنْكُوْدِ وَٱلنَّاكِدِ

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ والتصريف: تبديل الشيء من حال إلى حال، ومنه تصريف الرياح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المقابلة في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ لأنه قابل الجمع بالجمع، والقاعدة: أن الجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد، فكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ﴾ لأنه عبر عن الوعيد بالوعد لمشاكلة ما قبله.

ومنها: التعبير بالماضي عما في المستقبل، في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ إشعاراً بتحقق وقوعه؛ لأن النداء إنما يكون في الآخرة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ﴾. وفيه أيضاً الإبهام إفادة

---

(١) البحر المحيط.

للتهويل والتعظيم.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿حرمهما﴾؛ لأنه استعار التحريم للمنع لانقطاع التكليف حينئذ، وفي قوله: ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾؛ لأنه شبه البلد المجدب الذي لا نبات فيه بالجسد الذي لا روح فيه بجامع عدم الانتفاع في كل على طريق الاستعارة التصريحية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ وفي «زاده»: فشبه[1] معاملته تعالى مع الكفار بمعاملة من نسي عبده من الخير، ولم يلتفت إليه وشبه عدم إخطارهم لقاء الله ببالهم، وعدم مبالاتهم به بحال من عرف شيئاً ونسيه، وكثر مثل هذه الاستعارات في القرآن؛ لأن تعليم المعاني التي في عالم الغيب لا يمكن أن يعبر عنها إلا بما يماثلها من عالم الشهادة. اهـ. وفي قوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنه شبه شغلهم بالدنيا بالطمع في طول العمر، وحسن العيش بغرور من يخدع في البيع مثلاً، بجامع عدم الوصول إلى المقصود في الكل، وفي قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾؛ لأنه شبه لحوق[2] وعيده لهم، وعدم فرارهم منه بانتظار الشيء وترقبه، فعبر عنه بالانتظار.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾؛ لأنه التفت عن الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿فسقناه﴾.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ...﴾ الخ؛ لأنه لما قال أولاً: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تمم هذا المعنى ببيان كيفية ما يخرج من النبات من الأرض الكريمة والسبخة.

ومنها: تخصيص خروج النبات الطيب بقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ على سبيل

---

(١) الفتوحات.

(٢) الفتوحات.

المدح والتشريف، وإن كان كل من النباتين يخرج بإذن الله تعالى.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: بمشيئته؛ لأنه كناية عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه، لأنه أوقعه في مقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ لأنه شبه قيام الموتى من قبورهم بإخراج النبات من الأرض، فذكرت الأداة، ولم يذكر وجه الشبه، وهو مطلق الإخراج من العدم.

ومنها: إيجاز القصر في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وهو جمع الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة، فالآية مع قلة ألفاظها جمعت معاني كثيرة استوعبت جميع الأشياء والشؤون على وجه الاستقصاء حتى قال ابن عمر: من بقي له شيء.. فليطلبه، وهذا الأسلوب البليغ يسمى إيجاز قصر.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ وهو حذف أحد المتقابلين لعلمه من الآخر؛ لأن فيه محذوفاً تقديره: ويغشي النهار الليل، وذكره في آية أخرى، فقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ﴾، وفي قوله: ﴿تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في مواضع.

ومنها: الإنكاري في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿رُسُلُ رَبِّنَا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

ومنها: القصر في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف
عليكم عذاب يوم عظيم (٥٩) قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين (٦٠) قال يا قوم
ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين (٦١) أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم
من الله ما لا تعلمون (٦٢) أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم
ولتتقوا ولعلكم ترحمون (٦٣) فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا
إنهم كانوا قوما عمين (٦٤) ۞ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره أفلا تتقون (٦٥) قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك
من الكاذبين (٦٦) قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين (٦٧)
أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين (٦٨) أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل
منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة
فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (٦٩) قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد
آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٧٠) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس
وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا
إني معكم من المنتظرين (٧١) فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا
بآياتنا وما كانوا مؤمنين (٧٢) وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم
من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها
تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم (٧٣) واذكروا إذ جعلكم خلفاء
من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا
فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين (٧٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه...﴾ الآيات، مناسبة(١) هذه الآية

---

(١) البحر المحيط.

لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر في هذه السورة مبدأ الخلق الإنساني، وهو آدم عليه السلام، وقص من أخباره ما قص، واستطرد من ذلك إلى المعاد ومصير أهل السعادة إلى الجنة، وأهل الشقاوة إلى النار، وأمره تعالى بترك الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، وكان من بعث إليه رسول الله ﷺ أولاً غير مستجيبين له ولا مصدقين لما جاء به عن الله سبحانه وتعالى.. قص تعالى عليه أحوال الرسل الذين كانوا قبله، وأحوال من بعثوا إليه على سبيل التسلية له ﷺ، والتأسي بهم، فبدأ بنوح عليه السلام إذ هو آدم الأصغر، وأول رسول بعث إلى من في الأرض، وأمته أدوم تكذيباً له وأقل استجابة.

وعبارة المراغي هنا: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[1] مبدأ الإنسان ومعاده، وأن مرده إلى الله في يوم تجازى فيه كل نفس بما كسبت.. أردف ذلك بذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وإعراضهم عن دعوتهم؛ ليبين للرسول أن الإعراض عن قبول دعوة الأنبياء ليس ببدء في قومك، بل سبق به أقوام كثيرون، وفي ذلك تسلية له ﷺ إلى ما فيه من التنبيه إلى أن الله تعالى لا يهمل أمر المبطلين، بل يمهلهم، وتكون العاقبة للمتقين، ومن العظة والاعتبار بما حل بمن قبلهم من النكال والوبال كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

وفي «الخازن»: واعلم أن[2] الله تبارك وتعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته، وغرائب خلقه وصنعته الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الدلالة القاطعة على صحة البعث بعد الموت.. أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما جرى لهم مع أممهم، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ؛ لأنه لم يكن الإعراض عن قبول الحق من قومه فقط، بل قد أعرض عنه سائر الأمم الخالية، والقرون الماضية، وفيه تنبيه على أن عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت إلى الخسار والهلاك في الدنيا، وفي الآخرة إلى العذاب العظيم، فمن كذب بمحمد ﷺ من قومه.. كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبله من

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

الأمم، وفي ذكر هذه القصص دليل على صحة نبوة محمد ﷺ؛ لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يلق أحداً من علماء زمانه، فلما أتى بمثل هذه القصص والأخبار عن القرون الماضية والأمم الخالية مما لم ينكره عليه أحد.. علم بذلك أنه إنما أتى به من عند الله عز وجل، وأنه أوحي إليه ذلك، فكان ذلك دليلاً واضحاً، وبرهاناً قاطعاً على صحة نبوته ﷺ. انتهى.

التفسير أوجه القراءة

واللام في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ وبعثنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ﴾ مشركي ﴿قَوْمِهِۦ﴾ واقعة في جواب قسم محذوف تقديره: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا نوح بن لَمَكَ ـ بفتح الميم وسكونها ـ بن متوشلخ ابن أخنوخ، وهو اسم إدريس عليهما السلام، واسم نوح عبد الغفار، ولقب بنوح؛ لكثرة نياحته؛ وإما لدعوته على قومه بالهلاك، أو لمراجعته ربه في شأن ولده كنعان، أو لأنه مر بكلب مجذوم، فقال له: اخسأ يا قبيح، فأوحىٰ الله إليه أعبتني أم عبت الكلب؟ فكثر نَوْحُه على نفسه لذلك. وتركت[1] الواو هنا وذكرت في سورة هود والمؤمنون؛ لعدم تقدم ما يعطف عليه هنا بخلاف ما يأتي، وإنما أتى بالقسم هنا للرد على المنكرين، وهو مما يجب التأكيد فيه، وقدم قصة نوح؛ لأن قومه أول من كفر، ولأنه أول رسول أرسله الله إلى قومه المشركين كما هو رأي كثيرٍ من المحققين كما ثبت في حديث الشفاعة وغيره.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى أقسم للمخاطبين بهذه الآية من أهل مكة ومن جاورهم من العرب بأنه سبحانه أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه منذراً لهم بأسه، ومخوفهم سخطه على عبادتهم غيره، وقد كانوا ينكرون الرسالة والوحي إذ ليس عندهم من علوم الرسل والأمم شيء إلا ما يتلقونه من اليهود والنصارى في بلاد العرب والشام ﴿فقال﴾ نوح ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وحدوه بالعبادة. وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ في حكم العلة لقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: اعبدوا

---

(١) الصاوي.

الله؛ لأنه ليس لكم إله غيره تتوجهون إليه في عبادتكم بدعاء تطلبون به ما تقدرون عليه، فربكم هو الخالق لكل شيء، وبيده ملكوت كل شيء، وهو الإله الحق الذي يجب أن تتوجه إليه القلوب بالدعاء وغيره.

ثم ذكر السبب في الأمر بعبادته وحده، وترك أدنى شوائب الشرك مُثبتاً للبعث والجزاء، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾؛ أي: إني أخاف عليكم عذاب يوم شديد هوله، وهو يوم البعث والجزاء إذا لم تمتثلوا ما أمرتكم به من عبادة الله وحده، وترك ما سواه، قال أبو السعود: هذه الجملة تعليل للعبادة ببيان الصارف عن تركها إثر تعليلها ببيان الداعي إليها، انتهى. قال أبو حيان: وفي هذه الجملة إظهار الشفقة والحنو عليهم. وقرأ[1] ابن وثاب والأعمش وأبو جعفر والكسائي: ﴿غيره﴾ ـ بالجر ـ على أنه بدل من لفظ إله، أو نعت له. وقرأ باقي السبعة بالرفع على أنه صفة لإله، أو بدل منه باعتبار محله الذي هو الرفع على الابتداء؛ لأن ﴿مِّنۡ﴾ زائدة، و﴿لَكُم﴾ خبره. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿غيرَه﴾ بالنصب على الاستثناء، والجر والرفع أفصح.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾؛ أي: الأشراف والرؤساء والكبراء ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ يا نوح ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ وخطأ عن الحق ﴿مُّبِينٖ﴾؛ أي: بين واضح ظاهر بتركك ملة آبائك حيث نهيتنا عن عبادة آلهتنا ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهم شفعاؤنا عند الله، ووسيلتنا إليه فببركتهم يتقبل منا صالح أعمالنا، ويعطينا سؤلنا لما كانوا من الصلاح والتقوى، ونحن لا نستطيع أن نوجه دعواتنا دون وساطتهم؛ لما نجترحه من السيئات التي تبعدنا عن حظيرة ذلك القدس الأعظم.

وخلاصة مقالتهم: أنت في غمرة من الضلال أحاطت بك، فجعلتك لا تجد إلى الصواب سبيلاً، ولم يقل[2] هنا: الذين كفروا من قومه كما قال في قوم هود فيما سيأتي؛ لأن الملأ من قوم هود كان فيهم من آمن ومن كفر، بخلاف

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

الملأ من قوم نوح، فكلهم أجمعوا على هذا الجواب، فلم يكن أحد منهم مؤمناً، فإن قيل: سيأتي في سورة هود تقييد قوم نوح بالذين كفروا، فالجواب: أن ما سيأتي في دعائهم إلى الإيمان في أثناء زمن رسالته، فكان فيهم من آمن ومن كفر، وأما ما هنا فهو في أول دعائه لهم.

﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام مجيباً لهم: ﴿يا قوم﴾ي، ناداهم بإضافتهم إليه استمالة لقلوبهم نحو الحق ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾؛ أي: ليس بي نوع من أنواع الضلالة البتة ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ﴾ إليكم ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والمعنى[1]: قال نوح عليه السلام في الجواب لهم: يا قوم لم آمركم بما أمرتكم به من توحيد الله، وإخلاص الطاعة له دون الآلهة والأنداد خروجاً مني عن محجة الحق، وضلالاً عن سبيل الرشاد، ولكني رسول من رب العالمين إليكم أهديكم باتباعي إلى ما يوصلكم إلى السعادة في دنياكم وآخرتكم، وأنقذكم من الهلاك الأبدي بالشرك بالله والمعاصي المدنسة للأنفس، والمفسدة للأرواح، ومن رحمة ربكم بكم أن لا يدعكم في عمايتكم وشرككم الذي ابتدعتموه بجهلكم حتى يبين لكم الحق من الباطل على يد رسول من لدنه يسلك بكم السبيل السويَّ الموصل إلى النجاة. وإنما[2] قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ ولم يقل: ليس بي ضلال؛ لأن نفيها أعم من نفي الضلال؛ لأن ضلالة دالة على واحدة غير معينة، ونفي فرد غير معين نفي عام بخلاف ضلال؛ فإنه مصدر يعم الواحد والتثنية والجمع، ونفيه لا يقتضي على سبيل القطع النفي العام، فكان قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أبلغ في نفي الضلال عن نفسه من قوله: ليس بي ضلال.

ولكن جاءت هنا أحسن مجيء لأنها بين نقيضين؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد شيئين: ضلال وهدى، والرسالة لا تجامع الضلال. وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنبيه على أنه ربهم؛ لأنهم من جملة العالم؛ أي: من ربكم المالك

---

(١) المراغي.

(٢) الفتوحات.

لأموركم الناظر لكم بالمصلحة حيث وجه إليكم رسولاً يدعوكم إلى إفراده بالعبادة. وجملة قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ في محل رفع على أنها صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، أو هي مستأنفة مبينة لحال الرسول؛ أي: أرسلني إليكم لأبلغكم ما طلب إلي تبليغه إليكم من التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر، والوحي والرسالة، والملائكة، والجنة والنار، والآداب والمواعظ والأحكام العامة من عبادات ومعاملات إلى نحو ذلك. والرسالات: كل ما أرسله الله به إليهم مما أوحاه إليه، وجمعها[1] باعتبار ما أوحى إليه في الأزمان المتطاولة، أو باعتبار المعاني المختلفة من الأمر والنهي، والزجر والوعظ، والتبشير والإنذار، أو باعتبار ما أوحي إليه، وإلى من قبله. قيل: في صحف إدريس وهي ثلاثون صحيفة، وفي صحف شيث وهي خمسون صحيفة.

وقرأ أبو عمرو: ﴿أبلغكم﴾ هنا في الموضعين، وفي الأحقاف بالتخفيف من أبلغ من باب أفعل، وباقي السبعة بالتشديد، والهمزة والتضعيف للتعدية فيه. ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾؛ أي: أخلص لكم النصيحة بتحذيركم عقاب الله تعالى على كفركم به، وتكذيبكم لي، وردكم نصحي. روى مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». فتبليغ[2] الرسالة هو يعرفهم أنواع تكاليف الله، وأقسام أوامره ونواهيه، والنصيحة هي: أن يرغبهم في الطاعات، ويحذرهم عن المعاصي بأبلغ الوجوه. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إنكم إن عصيتم أمره عاقبكم في الدنيا بالطوفان، وفي الآخرة بعقاب شديد خارج عما تتصوره عقولكم؛ أي: وأعلم من جهته بالوحي ما لا تعلمون من الأمور الآتية، أو أعلم من شؤونه وبطشه الشديد ما لا تعلمون.

وحاصل المعنى: أي وأنا[3] في هذا التبليغ وذلك النصح على علم من الله أوحاه إلي لا تعلمون منه شيئاً، كما أني أعلم من الله وشؤونه ما لا تعلمون في

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

نظام هذا العالم وما ينتهي إليه، وكما أعلم ما بعده من أمر الآخرة والحساب والجزاء، فإذا نصحت لكم، وأنذرتكم عاقبة شكركم من إنزال العذاب بكم في الدنيا إذا جحدتم وعاندتم. . فإنما أنصح لكم عن علم يقيني لا تعلمونه. قال ابن[1] عطية: وما أحسن سياق هذه الأفعال، قال أولاً: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾، وهذا مبدأ أمره معهم؛ وهو التبليغ كما قال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، ثم قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾؛ أي: أخلص لكم في تبيين الرشد والسلامة في العاقبة إذا عبدتم الله وحده، ثم قال وأعلم من الله ما لا تعلمون من بطشه بكم، وهو مآل أمركم إذا لم تفردوه بالعبادة، فنبه على مبدأ أمره ومنتهاه معهم. انتهى.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف، والواو عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف؛ أي: أكذبتم وعجبتم من ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾؛ أي: موعظة ووحي كائن ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: من مالك أموركم ﴿عَلَىٰ﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم تعرفونه، ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه، أو لا تعرفون لغته، فإنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام، ويقولون: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة. وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ علة للمجيء؛ أي: جاءكم ليحذركم، ويخوفكم عاقبة الكفر والمعاصي. وقوله: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ عبادة غير الله علة ثانية مرتبة على التي قبلها. وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: ولكي ترحموا بالتقوى، فلا تعذبوا علة ثالثة مرتبة على التي قبلها، وهذا الترتيب في غاية الحسن، فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة.

وفائدة حرف الترجي هنا[2]: التنبيه على عزة المطلب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة، بل هي منوطة بفضل الله تعالى، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه، ولا يأمن عذاب الله تعالى. والمعنى: أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم، ليحذركم عاقبة كفرهم، ويعلمكم

---

(١) البحر المحيط. (٢) الكرخي.

بما أعد لكم من العذاب على ذلك، ولتتقوا بهذا الإنذار ما يسخط ربكم عليكم بالشرك في عبادته، والإفساد في أرضه، وليعدكم بالتقوى لرحمته التي ترجى لكل من أجاب الدعوة واتقى.

وفي قوله[١]: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ بيان لشبهتهم على الرسالة، وهي أن الرسول بشر مثلهم، فكأنهم كانوا يرون أن الاشتراك في البشرية والصفات العامة يقتضي التساوي في جميع الخصائص والمزايا، ويمنع الانفراد بشيء منها، والمشاهدة أكبر برهان على بطلان هذه القضية، فالتفاوت في الغرائز والصفات الفاضلة، والاختلاف في القوى العقلية والمعارف والأعمال الكسبية جد عظيم في البشر، وليس في الأنواع الأخرى ما يشبه الإنسان في ذلك إلى أنه لو فرض التساوي بينهم، فهل هذا يمنع أن يختص الله بعض عباده بما هو فوق المعهود في الغرائز والمكتسب بالتعلم؟ كلا، إنه تعالى قدير على ذلك، وقد قضت به مشيئته، ونفذت به قدرته.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: فبعد ذلك كذبه جمهورهم، واستمروا على ذلك، وخالفوا أمر ربهم، ولجوا في طغيانهم يعمهون؛ أي: كذبوا نوحاً في ادعاء النبوة، وتبليغ الأحكام من الله، وأصروا على ذلك التكذيب تلك المدة المتطاولة بعد ما كرر عليهم الدعوة مراراً، فلم يزدهم إلا فراراً حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ ...﴾ الآيات.

﴿فـ﴾ أغرقناهم كما سيأتي آنفاً، و﴿أنجيناه﴾؛ أي: أنجينا نوحاً من الغرق. ﴿و﴾ أنجينا ﴿الذين﴾ آمنوا وصحبوا ﴿مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ من الغرق قيل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: كانوا تسعة، أبناؤه الثلاثة، وستة من غيرهم، وقيل: كانوا ثلاثة عشر، نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث وأزواجهم، وستة ممن كانوا آمنوا به، وقد جاءت القصة مفصلة في سورة هود، وسيأتي فيها: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

---

(١) المراغي.

وروي[1]: أن نوحاً عليه السلام صنع السفينة بنفسه في عامين، وكان طولها ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسين، وسمكها ثلاثين، وجعل لها ثلاث طبقات، فحمل في أسفلها الدواب والوحوش، وفي وسطها الإنس، وفي أعلاها الطير، وركبها في عاشر رجب، ونزل منها في عاشر المحرم.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؛ أي: برسولنا نوح، بالطوفان ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق غير مستبصرين به لما قام بهم من عمى البصيرة والقلب.

أي[2]: وأغرقنا من كذب بآياتنا بالطوفان بسبب تكذيبهم وما كان ذلك التكذيب إلا لعمى بصائرهم الذي حال بينهم وبين الاعتبار بالآيات، وفهمهم للدلائل الدالة على وحدانية الله تعالى، وقدرته على إرسال الرسل، وحكمته في ذلك، والثواب والعقاب في يوم الجزاء يوم يحشر الناس لرب العالمين، ويوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكنهم من شدة العذاب حَيارى.

قال أبو حيان: وفي قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ إعلام بعلة الغرق؛ وهو التكذيب، وبآياتنا يقتضي أن نوحاً عليه السلام كانت له آيات ومعجزات تدل على إرساله.

ذكر قصة هود عليه السلام

﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى عاد﴾ الأولى؛ وهي قبيلة سميت باسم جدهم الأكبر، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب لا في الدين، وقوله: ﴿هُودًا﴾ عطف بيان من ﴿أخاهم﴾، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وكانت منازل عاد بالأحقاف باليمن، والأحقاف: الرمل الذي عند عمان وحضرموت.

---

(١) المراح. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

وكان بين هود ونوح ثمان مئة سنة[1]، وعاش هود أربع مئة سنة وأربعاً وستين سنة. وإنما[2] صرح هنا وفيما سيأتي في صالح وشعيب بتعيين المرسل إليهم دون ما سبق في نوح وما سيأتي في لوط؛ لأن المرسل إليهم إذا كان لهم اسم قد اشتهروا به ذكروا به، وإلا فلا، وقد امتازت عاد وثمود ومدين بأسماء مشهورة.

وإنما جعل رسول كل قوم منهم[3]؛ لأنهم أفهم لقوله، وأعرف بحاله، وأرغب في اتباعه؛ لمعرفتهم شمائله وأخلاقه ﴿قَالَ﴾ هود لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أفردوا الله سبحانه وتعالى بالعبادة، ولا تجعلوا معه إلهاً غيره؛ لأنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ أي: ليس لكم إله غيره تعالى يستحق العبادة منكم، لأنه هو الخالق لكم المدبر لأموركم.

والحكمة في قوله هنا[4]: ﴿قال﴾: بدون الفاء، وفي قصة نوح: ﴿فقال﴾ بالفاء أن نوحاً كان مواظباً على دعوة قومه غير متوان فيها على ما حكي عنه في سورة نوح من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ فناسبه التعقيب بالفاء، وأما هود فلم يكن كذلك، بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء، والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتركتم التفكر في مصنوعات الله وما فعله بقوم نوح عليه السلام، فلا تتقون، ولا تخافون عقابه بعبادتكم غيره، واقترافكم الشرك والمعاصي، وهذا استبعاد وإنكار لعدم اتقائهم العذاب بعد ما علموا ما حل بقوم نوح. وإنما قال هنا[5]: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وفي سورة هود: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لعله خاطبهم بكل منهما، وقد اكتفى بحكاية كل منهما في موطن عن حكايته في موطن آخر، كما لم يذكر هنا ما ذكر هناك من قوله:

---

(١) التحبير للسيوطي.
(٢) أبو السعود.
(٣) البيضاوي.
(٤) الخازن.
(٥) الفتوحات.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ وقس على ذلك حال بقية ما ذكر وما لم يذكر من القصص. ذكره أبو السعود. ولما كانت هذه القصة معطوفة على قصة نوح، وقد علموا ما حل بهم من الغرق.. حسن قوله هنا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني: أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب، ولما لم يكن قبل واقعة قوم نوح شيء.. حسن تخويفهم من العذاب، فقال هناك: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ والرؤساء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾؛ أي: من قوم هود، وجحدوا توحيد الله، وأنكروا رسالة هود إليهم، وإنما وصف[1] الملأ هنا بالكفر دون ملأ قوم نوح؛ لأن الملأ من قوم هود كان فيهم من آمن ومن كفر، فممن آمن منهم مرثد بن أسعد أسلم وكان ممن يكتم إيمانه، بخلاف الملأ من قوم نوح، فكلهم أجمعوا على ذلك الجواب، فلم يكن أحد منهم مؤمناً في أول دعائه إياهم إلى الإيمان ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ يا هود ﴿فِى سَفَاهَةٍ﴾ وحماقة وجهالة وقلة عقل؛ أي: إنا لنتيقن كونك يا هود متمكناً ومتعمقاً في سفاهة وخفة عقل عن الحق، والصواب حيث فارقت ديننا، وتركت عبادة آلهتنا الذي اتخذت لهم الأمة الصور والتماثيل تخليداً لذكراهم، والتقرب بشفاعتهم إلى ربنا وربهم، وإنما[2] أخبر الله سبحانه وتعالى عن قوم نوح عليه السلام أنهم قالوا له: في ضلال مبين، وعن قوم هود أنهم قالوا له: في سفاهة، لأن نوحاً لما خوف قومه بالطوفان، وشرع في عمل السفينة، فعند ذلك قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حتى تتعب نفسك في إصلاح سفينة في أرض ليس فيها من الماء شيء، وأما هود عليه السلام، فإنه لما نهاهم عن عبادة الأصنام التي سموها صمداً وصموداً، ونسب من عبدها إلى السفه، وهو قلة العقل.. قابلوه بمثل ما نسبهم إليه، فقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾. اهـ «خازن».

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ يا هود ﴿مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ في ادعائك أنك رسول من عند الله تعالى، وفي قولهم هذا إيماء إلى تكذيبهم كل رسول؛ إذ هم قد عبروا عن

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين، وجعلوه واحداً منهم.

﴿قَالَ﴾ هود لهؤلاء الملأ الذين نسبوه إلى السفه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾؛ أي: ليس بي شيء مما تنسبونني إليه من السفه؛ أي: ليس الأمر كما تدعون من أن بي سفاهة ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أرسلني إليكم لأبلغكم رسالات ربي وأؤديها إليكم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يختار لها إلا من عرفوا برجحان العقل، وحصافة الرأي، وكمال الصدق، وإنما جمع الرسالة نظراً لاختلاف أوقاتها، ولتنوع معانيها، أو لأن المراد بها المرسل به؛ وهو يتعدد. ذكره أبو السعود.

ثم بين وظيفة الرسول وحاله عليه السلام فيما بلغ، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾؛ أي: أؤدي إليكم ما أرسلني به ربي إليكم من أوامره ونواهيه، وشرائعه وتكاليفه ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ﴾ فيما آمركم به من عبادة الله عز وجل، وترك عبادة ما سواه ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: موثوق فيما أبلغه عن ربي، فلا أكذب عليه في وحيه إلي، والأمين الثقة على ما ائتمن عليه.

وهذا رد لقولهم[1]: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فكأن هوداً قال لهم: كنت قبل هذه الدعوى أميناً فيكم، ما وجدتم مني غدراً ولا مكراً ولا كذباً، واعترفتم لي بكوني أميناً، فكيف نسبتموني الآن إلى الكذب؟ وفي هذا دليل على جواز مدح الإنسان نفسه في موضع الضرورة إلى مدحها، وإنما أتى هود[2] بالجملة الاسمية في قوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ﴾؛ ونوح بالفعلية حيث قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾؛ لأن صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد ساعة، وكان نوح عليه السلام يكرر في دعائهم ليلاً ونهاراً من غير تراخ، فناسب التعبير بالفعل، وأما هود فلم يكن كذلك، بل كان يدعوهم وقتاً دون وقت، فلذا عبر بالاسمية.

وفي إجابة[3] هؤلاء الأنبياء لأقوامهم بتلك الإجابة الصادرة عن الحكمة والإغضاء عما قالوا من وصفهم إياهم بالسفاهة والضلالة أدب حسن، وخلق

---

(١) المراح. (٢) الفتوحات. (٣) المراغي.

عظيم، وتعليم لعباده كيف يقابلون السفهاء، وكيف يغضون عن قالة السوء التي تصدر عنهم.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، كما مر نظيره آنفاً تقديره: أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة وبيان من ربكم وخالقكم ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: على لسان رجل من جنسكم ونسبكم ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ويخوفكم من عقاب ربكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة ﴿وَاذْكُرُوٓاْ﴾ فضل الله عليكم ونعمته لكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ إغراق ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وجعلكم ورثتهم ﴿وَزَادَكُمْ﴾ على غيركم ﴿فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾؛ أي: زادكم سعة في الأبدان والقوى على ما أعطاه لغيركم، وقد كانوا طوال الأجسام أقوياء الأبدان قيل: كان طول الطويل منهم خمسمئة ذراع، وطول القصير ثلاثمئة ذراع بذراع نفسه، وكان رأس الواحد منهم قدر القبة العظيمة، وكانت عينه بعد موته تفرخ فيها الضباع ﴿فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص كما في «البيضاوي»؛ أي: فاذكروا نعم الله وفضله عليكم، واشكروه على ذلك بإخلاص العبادة له، وترك الإشراك به، وهجر الأوثان والأصنام ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تنجوا من العذاب، وتفوزوا بما أعده الله سبحانه وتعالى للشاكرين لنعمه الراجين للمزيد منها، وتدركون الخلود والبقاء، والنعيم الأبدي في دار القرار.

ثم ذكر ما ردوا به عليه، فقال: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال قوم هود مجيبين له عن تلك النصائح العظيمة: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا هود ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾؛ أي: لأجل أن نخص الله سبحانه وتعالى بالعبادة وحده ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ أي: ونترك ما كان يعبد أباؤنا معه من الأولياء والشفعاء، وهم الوسيلة عنده، وهم الذين يقربوننا إليه زلفى، وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم؟

وبعد أن استنكروا التوحيد، واحتجوا عليه بما لا يصلح عقلاً ولا شرعاً أن يكون حجة من تقليد الآباء والأجداد.. اقترحوا الوعيد، فقالوا: ﴿فَأْتِنَا﴾؛ أي:

فجئنا يا هود ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ أي: بما تهددنا به من العذاب على ترك الإيمان بك، وترك العمل بما جئت به من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إخبارك بنزول العذاب، وغرضهم بهذا القول أنه إذا لم يأتهم هود بذلك العذاب ظهر لهم كونه كاذباً، وهذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يعدهم به لشدة تمردهم على الله، ونكوصهم عن طريق الحق، وبعدهم عن اتباع الصواب. فأجابهم هود على مقالتهم بقوله: ﴿قَالَ﴾ هود لقومه: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٌ﴾؛ أي: عذاب ﴿وَغَضَبٌۖ﴾؛ أي: سخط منه؛ أي: قد قضى عليكم ربكم ومالك أمركم بعذاب وطرد من رحمته، وقد كان عذابهم ريحاً صرصراً ذات صوت شديد عاتية تنزع الناس من الأرض، ثم ترميهم صرعى كأنهم أعجاز نخل منقعر، أي: قد قلع من منابته وزال من أماكنه، وفي هذه الجملة جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه. ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة، فقال: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾ والهمزة فيه للإنكار والاستقباح لإنكارهم مجيئه داعياً لهم إلى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام؛ أي: أتخاصمونني ﴿فِيٓ أَسۡمَآءٖ﴾ عارية عن المسمى؛ إذ ليس فيها من معنى الألوهية شيء ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾؛ أي: سميتم بها ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أصناماً، وكانت ثلاثة سموا أحدها صمودا، والأخرى صمدا، والثالثة هبا، فإنهم سموا الأصنام بالآلهة مع أن معنى الألوهية فيها معدوم؛ أي: وضعتموها أنتم وأباؤكم الذي قلدتموهم على غير علم ولا هدى منكم، ولا منهم لمسميات اتخذوها، فاتخذتموها آلهة زاعمين أنها تقربكم إلى الله زلفى، وتشفع عنده لكم ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: ما أنزل بعبادتها ﴿مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾؛ أي: من حجة ولا برهان يصدق زعمكم بأنه رضي أن تكون واسطة بينه وبينكم؛ لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأن الأصنام لو استحقت العبادة.. كان استحقاقها بجعله تعالى؛ إما بإنزال آية، أو نصب دليل، فقوله تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ عبارة عن خلو مذاهبهم عن الحجة والبينة.

والخلاصة:[1] أنه هو الذي يتوجه إليه وحده، ولا يشرك معه أحد من خلقه

---

(١) المراغي.

كما قال إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وكل ما يتعلق بعبادة الله لا يعلم إلا بوحي منه ينزله على رسله إذ لا يعلم إلا من عباده المبلغين عنه.

﴿فَانْتَظِرُوا﴾ ما يحصل لكم من عبادة هذه الأصنام، وهو نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لنزوله بكم، وفصل قضائه فينا وفيكم، وإنني لموقن بذلك وأنتم مرتابون.

﴿ف﴾لما جاء أمرنا، ووقع ما وقع ﴿أنجيناه والذين معه﴾؛ أي: أنجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنَّا﴾ لهم ﴿وَقَطَعْنَا﴾؛ أي: استأصلنا ﴿دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: آخرهم مع أولهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ما أبقينا أحداً من الذين لا يؤمنون، فلو علم الله أنهم سيؤمنون لأبقاهم.

والمعنى: فلما جاء أمرنا، ووقع ما وقع أنجينا هوداً والذين آمنوا به وبما دعا إليه من توحيد الله، وهجر الأوثان، وكانوا شرذمة قليلة يكتمون إيمانهم برحمة عظيمة من جهتنا بأن جعلوا في حظيرة ما يصل إليهم من الريح إلا ما يلين عليهم جلودهم وتلتذ به أنفسهم. وبعد ذلك[1] أتوا مكة مع هود، فعبدوا الله فيها حتى ماتوا، واستأصلنا دابر الذين جحدوا بآياتنا، ولم نبق منهم أحداً بريح صرصر ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ وكانت باردة ذات صوت شديد، ولا مطر فيها، وكان وقت مجيئها في عجز الشتاء، وابتدأتهم صبيحة الأربعاء لثمان بقين من شوال، وسخرت عليهم سبع ليال وثمانية أيام، فأهلكت رجالهم ونساءهم وأولادهم وأموالهم بأن رفعت ذلك في الجو فمزقته. وفي «الخازن»: قال السدي: بعث الله عز وجل الريح العقيم، فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فلما رأوها تبادروا إلى البيوت فدخلوها، وأغلقوا الأبواب، فجاءت الريح، فقلعت أبوابهم، ودخلت عليهم فأهلكتهم فيها، ثم أخرجتهم من البيوت، فلما أهلكتهم أرسل الله عليهم

---

(١) البيضاوي.

طيراً أسود، فنقلتهم إلى البحر، فألقتهم فيه. وقيل: إن الله تعالى أمر الريح، فأهالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام يسمع لهم أنين تحت الرمل، ثم أمر الريح، فكشفت عنهم الرمل، ثم احتملتهم، فرمت بهم في البحر. اهـ.

﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ اسم قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر، وهو ثمود بن عامر بن سام بن نوح، وتسمى عاداً الثانية ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَٰلِحًاۚ﴾؛ لأنه صالح بن عبيد بن أسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن المذكور، فهو من فروعه، فليس من أنبياء بني إسرائيل، وكان بين صالح وهود مئة سنة، وعاش صالح مئتين وثمانين سنة.

وكانت[1] مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، والمعنى: وأرسلنا إلى بني ثمود أخاهم صالحاً؛ لأن ثمود قبيلة. قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمود لقلة مائها، والثمد: الماء القليل.

﴿قَالَ﴾ صالح لثمود: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أفردوا الله بالعبادة وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾؛ أي: فليس لكم إله غيره تعالى يستحق منكم العبادة ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ ظاهرة ومعجزة واضحة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ تدل على صدقي فيما أقول لكم، وأدعوكم إليه من توحيد الله سبحانه وتعالى، وإفراده بالعبادة دون ما سواه، وهي إخراج الناقة من الحجر الصلد.

وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ إيماء إلى أنها ليست من فعله ولا مما ينالها كسبه، وهكذا سائر ما يؤيد الله به الرسل من خوارق العادات، وهذه المقالة كانت لهم بعد نصحهم وتذكيرهم بنعم الله، وتكذيبهم له كما جاء في سورة هود: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ إلى آخر الآيات، وجملة قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ حالة كونها ﴿لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾ على صدقي مشتملة على بيان البينة المذكورة أولاً، وانتصاب ﴿ءَايَةًۖ﴾ على الحال، والعامل فيها معنى الإشارة، وفي

(١) الخازن.

إضافة ﴿نَاقَةُ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى تشريف لها وتكريم كما يقال: بيت الله وروح الله.

ووجه كونها معجزة له خارقة للعادة أنها خرجت من صخرة في الجبل، وكونها لا من ذكر ولا من أنثى، وكان خلقها من غير حمل ولا تدريج؛ لأنه خلقت في ساعة، وخرجت من الصخرة، وقيل: لأنها كان لها شرب يوم ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم، وهذه من المعجزة أيضاً؛ لأن ناقة تشرب ما تشربه قبيلة معجزة، وكانوا يحلبونها في يوم شربها قدر ما يكفيهم جميعهم، ويقوم لهم مقام الماء، وهذا أيضاً معجزة. وقيل: إن سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء في يوم نوبتها، وتشرب في يوم نوبة ثمود، وهذا أيضاً معجزة، وإنما أضافها إلى الله؛ لأن الله تعالى خلقها من غير واسطة ذكر وأنثى. وقيل: لأنها لم يملكها أحد إلا الله تعالى. وقيل: لأنها كانت حجة الله على قوم صالح، وإنما استشهد صالح على صحة نبوته بالناقة؛ لأنهم سألوه إياها آية دالة على صدق دعوته، وصحة نبوته.

ثم ذكر ما يترتب على كونها آية من أنه لا ينبغي التعرض لها، فقال: ﴿فَذَرُوهَا﴾؛ أي: فاتركوها حالة كونها ﴿تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في الحجر؛ أي: إن الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، فاتركوها تأكل ما تأكل في أرض ربها، وليس لكم أن تحولوا بينها وبين أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من إنباتكم، وكانت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ترد غباً، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر، فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها، ثم تفجج فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم، فيشربون ويدخرون. وقرأ أبو جعفر في رواية: ﴿تأكلُ﴾ ـ بالرفع ـ وهو في محل حال حينئذ.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾؛ أي: ولا تقربوها ﴿بِسُوٓءٍ﴾؛ أي: بضرر من عقر وضرب مثلاً؛ أي: لا تضربوها ولا تعقروها ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من أنواع الأذى، ولا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوؤها وتضرها في نفسها، ولا في أكلها إكراماً لآية الله تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب أذاها؛ أي: فإنكم

إن فعلتم ذلك أخذكم عذاب أليم؛ أي: إذا لم تتركوا مسها بشيء من السوء أخذكم عذاب أليم، أي: شديد الألم. وقد وصف العذاب في سورة هود بالقريب، وهو يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم إياها بالسوء، وكذلك كان، وجاء في سورة القمر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ وجاء تفسير هذا في سورة الشعراء: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ أي: إن الماء الذي كانوا يشربون منه قسمة بينهم وبين الناقة؛ إذ كان ماء قليلاً، فكانوا يشربونه يوماً وتشرب هي يوماً، وقد روي عن ابن عباس: أنهم كانوا يستعيضون عن الماء يوم شربها بلبنها.

ثم ذكرهم بنعم الله عليهم، وبوجوب شكرها بعبادته تعالى وحده، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟﴾؛ أي: وتذكروا يا قومي نعم الله عليكم، وإحسانه إليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾؛ أي: جعلكم خلفاء في الأرض عن عاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أنزلكم وأسكنكم منازلهم في الأرض حالة كونكم ﴿تَتَّخِذُونَ﴾؛ أي: تعملون وتصنعون ﴿مِن سُهُولِهَا﴾؛ أي: من سهول الأرض ـ جمع سهل ـ والسهل من الأرض: اللين، وهو غير الجبل؛ أي: تصنعون وتأخذون من سهول الأرض وترابها ﴿قُصُورًا﴾؛ أي: مادة قصور كالطين واللبن والآجر، والمعنى: تتخذون من سهولها قصوراً زاهية ودوراً عالية بما ألهمكم الله من حذق في الصناعة، فجعلكم تضربون اللبن وتحرقونه آجراً ـ الطوب المحرق ـ وتستعملون الجص، وتجيدون هندسة البناء ودقة النجارة ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾؛ أي: تنقبون من الجبال بيوتاً؛ إذ علمكم صناعة النحت، وآتاكم القوة والجلد. روي أنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء لما في البيوت المنحوتة من القوة، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في باقي الفصول للزراعة والعمل. وقال الشوكاني: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾؛ أي: تتخذون في الجبال التي هي صخور بيوتاً تسكنون فيها، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال، فيتخذون فيها كهوفاً يسكنون فيها؛ لأن الأبنية والسقوف لطول أعمارهم كانت تفنى قبل فناء أعمارهم. اهـ.

والخلاصة: تبنون قصوراً عالية، وبيوتاً رفيعة للصيف بما تعملون من سهول الأرض من الطين واللبن والآجر والجبس، وتنقبون في الجبال بيوتاً للشتاء، وذلك لطول أعمارهم، فإن السقوف والأبنية تتهدم قبل انقضاء أعمارهم، فكان عمر واحد منهم ثلاث مئة سنة إلى ألف سنة كقوم هود. قال[١] وهب: كان الرجل يبني البنيان، فتمر عليه مئة سنة، فيخرب، ثم يجدده، فتمر عليه مئة سنة، فيخرب، ثم يجدده، فتمر عليه مئة سنة، فيخرب، فأضجرهم ذلك، فاتخذوا الجبال بيوتاً. وسميت القصور قصوراً؛ لقصور الفقراء عن تحصيلها وحبسهم عن نيلها. ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تذكروا نعم الله تعالى عليكم بالشكر عليها، فإنكم متنعمون مترفون ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ قال قتادة[٢]: معناه ولا تسيروا في الأرض مفسدين ومكثرين فيها الفساد، والعثو: أشد الفساد. وقيل: أراد به عقر الناقة، وقيل: هو على ظاهره، فيدخل فيه النهي عن جميع أنواع الفساد، والمعنى على هذا: ولا تعملوا في الأرض شيئاً من أنواع الفساد، والمعنى: وتذكروا هذه النعم العظام، واشكروها له بتوحيده، وإفراده بالعبادة، ولا تتصرفوا فيها تصرف كفران وجحود بفعل ما لا يرضي الله الذي خلقها لكم بالكفر، والعثي في الأرض بالفساد.

وقرأ الحسن[٣]: ﴿وتنحَتون﴾ ـ بفتح الحاء ـ وزاد الزمخشري أنه قرأ: ﴿وتنحاتون﴾ ـ بإشباع الفتحة ـ. وقرأ ابن مصرف بالياء من أسفل وكسر الحاء. وقرأ أبو مالك بالياء من أسفل وفتح الحاء، ومن قرأ بالياء فهو التفات، وقرأ الأعمش: ﴿تِعْثوا﴾ ـ بكسر التاء ـ لقولهم: أنت تعلم وهي لغة.

قصة الناقة

وروي: أن هذه الناقة هي آية مقترحة لقوم صالح لما حذرهم وأنذرهم سألوه آيةً، فقال: أية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة، فتدعو إلهك، وندعو آلهتنا، فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن. (٣) البحر المحيط.

لنا اتبعتنا. قال صالح: نعم. فخرج معهم، فدعوا أوثانهم وسألوها الإجابة، فلم تجبهم، ثم قال سيدهم ـ جندع بن عمرو بن جواس، وأشار إلى صخرة منفردة من ناحية الجبل يقال لها: الكاثبة ـ أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء، والمخترجة: ما شاكلت البخت من الإبل، فأخذ صالح عليه السلام مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن قالوا: نعم. فصلى ركعتين، ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، ثم تحركت، فانصدعت عن ناقة كما وصفوا، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله عظماً، وهم ينظرون، ثم نتجت سقباً مثلها في العظم، فآمن به جندع ورهط من قومه، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا، فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والحباب صاحبا أوثانهم، ورياب ابن كاهنهم، وكانوا من أشراف ثمود، وهذه الناقة وسقبها مشهور قصتهما عند جاهلية العرب. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود، فذرعت صدر الناقة، فوجدته ستين ذراعاً.

الإعراب

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم المحذوف. ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿فَقَالَ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿قال﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿نوح﴾، والجملة معطوفة مفرعة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿قوم﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِّنْ﴾ زائدة. ﴿إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ تابع لمحله، والتقدير: ما

إله غير الله كائن لكم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مسوقة لتعليل العبادة، أو للأمر بها كما في «أبي السعود» ﴿إِنِّيٓ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الياء﴾: اسمها. ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿نوح﴾. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿أَخَافُ﴾. ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿عَظِيمٖ﴾ صفة لـ﴿ٱللَّهَ﴾، وجملة ﴿أَخَافُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ معللة للعبادة ببيان الصارف عن تركها إثر تعليلها ببيان الداعي إليها. ذكره «أبو السعود».

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٦٠﴾.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿لَنَرَىٰكَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿نراك﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين. ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾: جار ومجرور في محل النصب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿رأى﴾؛ لأن ﴿رأى﴾ هنا من أفعال القلوب. ﴿مُّبِينٖ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٖ﴾، وجملة ﴿رأى﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿نوح﴾، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ إلى قوله: ﴿فكذبوه﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿قوم﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿بِي﴾: جار ومجرور خبر لـ﴿لَيۡسَ﴾ مقدم على اسمها. ﴿ضَلَٰلَةٞ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ في محل النصب مقول على كونها جواب النداء. ﴿وَلَٰكِنِّي﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك، و﴿النون﴾: للوقاية، و﴿الياء﴾: اسمها. ﴿رَسُولٞ﴾: خبرها. ﴿مِّن رَّبِّ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، وجملة ﴿لكن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها استدراكاً على ما قبلها.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾: فعل ومفعول أول. ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿نوح﴾. ﴿وَأَنصَحُ﴾ فعل مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره آنا يعود على نوح ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾. ﴿وَأَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على جملة ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعلم﴾، أو حال من ﴿مَا﴾ الموصولة المذكورة بعده، أو من عائده المحذوف؛ لأن علم هنا بمعنى عرف، فيتعدى إلى مفعول واحد. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول علم. ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما لا تعلمونه.

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿أَوَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿عَجِبْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: أكذبتم وعجبتم، والجملة المحذوفة مع ما عطف عليها في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿أَن﴾: مصدرية. ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل ومفعول في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿ذِكْرٌ﴾: فاعل لـ﴿جاء﴾. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفة لـ﴿ذِكْرٌ﴾، أو متعلق بـ﴿جاء﴾، وجملة ﴿جاء﴾ في تأويل مصدر منصوب بـ﴿عَجِبْتُمْ﴾ تقديره: أو عجبتم مجيء ذكر من ربكم. ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾: جار ومجرور إما متعلق بـ﴿جاء﴾؛ لأنه بمعنى نزل، أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور قبله؛ أي: ذكر كائن من ربكم حال كونه نازلاً على رجل منكم. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رَجُلٍ﴾. ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿ينذركم﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي،

وفاعله ضمير يعود على ﴿رجل﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور بلام كي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جاء﴾، والتقدير: أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لإنذاره إياكم. ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لتتقوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولاتقاءكم عذاب الله، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله على كونه متعلقاً بـ﴿جاء﴾. ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة معطوفة على جملة ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾؛ لأنها علة ثالثة؛ أي: جاءكم لإنذاركم، ولاتقائكم عذاب الله، ولرجائكم رحمة الله تعالى.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قال لهم نوح وما قالوا له، وأردت بيان عاقبة أمره وأمرهم.. فأقول لك: ﴿كذبوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أنجيناه﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿كذبوه﴾. ﴿وَالَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على الضمير في ﴿أنجيناه﴾. ﴿مَعَهُ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة الموصول. ﴿فِي الْفُلْكِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنجيناه﴾، أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف قبله. ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أنجيناه﴾. ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِآيَاتِنَا﴾: متعلق بـ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿قَوْمًا﴾: خبرها. ﴿عَمِينَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمًا﴾ منصوب بالياء، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها أعني: أغرقنا.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إلى عاد﴾: جار ومجرور معطوف على قوله: ﴿إلى نوح﴾ على كونه متعلقاً بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿أَخَاهُمْ﴾: مفعولُ ﴿أرسلنا﴾. ﴿هُودًا﴾: بدل من ﴿أَخَاهُمْ﴾، أو عطف بيان له. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿هود﴾، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم. ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَفَلَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري الاستبعادي داخلة على محذوف. ﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، والتقدير: أتعرضون فلا تتقون الله.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَلَأُ﴾. ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿مِن قَوْمِهِۦٓ﴾: جار ومجرور حال من واو ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿نا﴾: ضمير المتكلمين اسمها. ﴿لَنَرَىٰكَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿نراك﴾: فعل ومفعول أول. ﴿فِى سَفَاهَةٍ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني؛ لأن ﴿رأى﴾ هنا قلبية، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، وجملة ﴿رأى﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَنَظُنُّكَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿نظنك﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين. ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: في محل المفعول الثاني، وجملة ﴿نظنك﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة إن الأولى.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ناقص. ﴿بِي﴾: خبر مقدم لـ﴿لَيۡسَ﴾. ﴿سَفَاهَةٞ﴾: اسم ليس مؤخر، وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَلَٰكِنِّي﴾: ناصب واسمها. ﴿رَسُولٞ﴾: خبر ﴿لكن﴾. ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: صفة لـ﴿رَسُولٞ﴾، وجملة ﴿لكن﴾ استدراكية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَيۡسَ﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على هود. ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتقرير رسالته وتفصيل أحكامه، وقيل: صفة أخرى لـ﴿رَسُولٞ﴾، ولكنه راعى الضمير السابق الذي للمتكلم، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾، ولو راعى الاسم الظاهر بعده لقال: يبلغكم، والاستعمالان جائزان في كل اسم ظاهر سبقه ضمير حاضر من متكلم أو مخاطب، فيجوز لك وجهان: مراعاة الضمير السابق وهو الأكثر، ومراعاة الاسم الظاهر، فتقول: أنا رجل أفعل كذا مراعاة لأنا، وإن شئت قلت: أنا رجل يفعل كذا مراعاة لرجل، ومثله: أنت رجل تفعل ويفعل بالخطاب والغيبة اهـ «سمين». ﴿وَأَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿لَكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿نَاصِحٌ﴾. ﴿نَاصِحٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿أَمِينٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ﴾.

﴿أَوَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف. ﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿عَجِبۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: أكذبتم وعجبتم، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿أَن﴾: مصدرية. ﴿جَآءَكُمۡ﴾: فعل ومفعول في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية. ﴿ذِكۡرٞ﴾: فاعل ﴿جاء﴾. ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: صفة لـ﴿ذِكۡرٞ﴾، وجملة

﴿جاء﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعول ﴿جاء﴾ تقديره: أو عجبتم مجيء ذكر من ربكم، أو مجرور بمن المحذوفة تقديره: أوعجبتم من مجيء ذكر من ربكم. ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جاء﴾. ﴿مِّنكُمْ﴾: صفة ﴿رَجُلٍ﴾. ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾: ﴿اللام﴾ لام كي، ﴿ينذركم﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَجُلٍ﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإنذاره إياكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جاء﴾.

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَاذْكُرُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿اذكروا﴾. ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾: فعل ومفعولان، وفاعلة ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿خُلَفَآءَ﴾. ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿جَعَلَكُمْ﴾ على كونها مضافاً إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿اذكروا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿اذكروا﴾ الأول للتأكيد. ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿تُفْلِحُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَجِئْتَنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَجِئْتَنَا﴾: ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام الإنكاري، ﴿جئتنا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي، ﴿نعبد الله﴾: فعل ومفعول منصوب

بأن مضمرة، وفاعله ضمير المتكلمين. ﴿وَحْدَهُۥ﴾: حال من الجلالة، والجملة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: أجئتنا لأجل عبادتنا الله وحده، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جاء﴾. ﴿وَنَذَرَ﴾: معطوف على ﴿نعبد﴾ منصوب بأن مضمرة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿نذر﴾. ﴿كَانَ﴾: زائدة لزيادتها بين الموصول وصلته، أو الموصوف وصفته، أو شأنية. ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كان يعبده آباؤنا. ﴿فَأْتِنَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت إنكارنا عليك، وأردت بيان غاية قولنا لك.. فنقول لك أتنا، ﴿أتنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿هود﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أتنا﴾. ﴿تَعِدُنَآ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما تعدناه. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دل عليه ما قبله تقديره: إن كنت من الصادقين.. فأتنا بما تعدنا، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿هود﴾، والجملة مستأنفة. ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿وَقَعَ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق به. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَقَعَ﴾ أيضاً، أو حال من ﴿رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿رِجْسٌ﴾: فاعل ﴿وَقَعَ﴾. ﴿وَغَضَبٌ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى﴾: ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام

الإنكاري الاستقباحي. ﴿تجادلونني﴾: فعل وفاعل ونون وقاية ومفعول به مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فِىٓ أَسْمَآءٍ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: فعل وفاعل، ومفعول ثان، والمفعول الأول محذوف تقديره: أصناماً؛ أي: سميتم الأصنام بها، والجملة في محل الجر صفة أولى لـ﴿أَسْمَآءٍ﴾. ﴿أَنتُمْ﴾: تأكيد لضمير الفاعل ليصح العطف عليه. ﴿وَءَابَآؤُكُم﴾: معطوف على ضمير الفاعل. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهَا﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر صفة ثانية لـ﴿أَسْمَآءٍ﴾. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿سُلْطَٰنٍ﴾: مفعول به لـ﴿نَزَّلَ﴾. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿انتظروا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّى﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الياء﴾: اسمها. ﴿مَعَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾. ﴿مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة كما في «أبي السعود»؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قالوا لهود وما قال هود لهم، وأردت بيان عاقبة الفريقين.. فأقول لك: أنجيناه، ﴿أنجيناه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على هاء ﴿أنجيناه﴾. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة الموصول. ﴿بِرَحْمَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنجينا﴾. ﴿مِّنَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رحمة﴾. ﴿وَقَطَعْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أنجينا﴾ على كونه مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿دَابِرَ ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُواْ﴾

معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا﴾ على كونها صلة الموصول، وهو عطف علة على معلول، أو عُطف توكيداً. كما في «الفتوحات».

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾: جار ومجرور معطوف على قوله: ﴿إلى عاد﴾ وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي؛ لأنه بمعنى القبيلة، فإن لم يرد به القبيلة، بل أريد به الحي.. صرف لكنه لم يقرأ بالصرف هنا إلا شذوذاً، ذكره في «الفتوحات». ﴿أَخَاهُمْ﴾: مفعول أرسلنا. ﴿صَٰلِحًا﴾ بدل منه، أو عطف بيان له. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿صالح﴾، والجملة مستأنفة، أو حال من ﴿صَٰلِحًا﴾. ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾: إلى قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾ خبر مقدم. ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿غَيْرُهُۥ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة للعبادة. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفة لـ﴿بَيِّنَةٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها علة بعد علة. ﴿هَٰذِهِۦ﴾: مبتدأ. ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مستأنفة مسوقة لبيان البينة، ويصح أن تكون الجملة في محل الرفع بدلاً من ﴿بَيِّنَةٌ﴾. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر ثان لاسم الاشارة، أو حال من ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، أو معمول لمحذوف تقديره: أعني لكم. ﴿ءَايَةً﴾: حال من ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، والعامل فيها: إما معنى التنبيه، وإما معنى الإشارة، كأنه قال: أنبهكم عليها، أو أشير إليها في هذه الحال. ﴿فَذَرُوهَا﴾ ﴿الفاء﴾: تفريعية لكون ما قبلها علة لما بعدها؛ أي: ذروها لكونها آية من آيات الله، ﴿ذروها﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل

النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿تَأۡكُلۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الناقة، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَأۡكُلۡ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَمَسُّوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿بِسُوٓءٖ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ذروها﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾ ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿يأخذكم﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي. ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل. ﴿أَلِيمٞ﴾: صفة له، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى تقديره: لا يكن مسكم إياها بسوء فأخذ عذاب أليم إياكم.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى متعلق بـ﴿اذكروا﴾. ﴿جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جعل﴾، أو صفة لـ﴿خُلَفَآءَ﴾. ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿جَعَلَكُمۡ﴾. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق بـ﴿بوأكم﴾. ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من كاف المخاطبين في ﴿بوأكم﴾. ﴿مِن سُهُولِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، أو حال من ﴿قُصُورٗا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿قُصُورٗا﴾: مفعول به لـ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ على احتمال كون اتخذ متعدياً لواحد، ويجوز أن يكون متعدياً لاثنين ثانيهما: ﴿مِن سُهُولِهَا﴾. ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ وهذا على تضمين نحت معنى ما يتعدى إلى مفعولين؛ أي: وتتخذون الجبال بيوتاً بالنحت، ويجوز أن ينصب ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾: بنزع الخافض، و﴿بُيُوتٗاۖ﴾: مفعولاً به، ويجوز أن يكون

﴿ٱلْجِبَالَ﴾: مفعولاً به، ﴿بُيُوتًا﴾: حالاً مقدرة منه، ولكن بتأويلها بمشتق؛ أي: مسكونة. ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿اذكروا آلاء الله﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَعْثَوْاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿مُفْسِدِينَ﴾: حال من واو ﴿تَعْثَوْاْ﴾ مؤكدة لعاملها؛ لأن العثو بمعنى الفساد.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ في «المصباح»: قوم الرجل: أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد، وقد يقيم الرجل بين الأجانب، فيسميهم قومه مجازاً للمجاورة. وفي «التنزيل»: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قيل: كان مقيماً بينهم، ولم يكن منهم، وقيل: كانوا قومه. اهـ.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ واليوم هنا: يوم القيامة. ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وفي «المصباح» أيضاً: الملأ ـ مهموزاً ـ: أشراف القوم سموا بذلك لملأتهم بما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأي، أو لأنهم يملؤون العيون أبهة والصدور هيبة، والجمع أملاء مثل سبب وأسباب اهـ. وفي «أبي السعود»: الملأ: الذين يملؤون صدور المحافل بأجسادهم، والقلوب بجلالتهم وهيبتهم، والعيون بجمالهم وأبهتهم اهـ.

﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وفي «المصباح»: ضل الرجل الطريق وضل عنه يضل ـ من باب ضرب ـ ضلالاً وضلالةً إذا زل عنه، فلم يهتد إليه، فهو ضال هذه لغة نجد، وهي الفصحى، وبها جاء القرآن في قوله: ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وفي لغة لأهل العالية من باب تعب، والأصل في الضلال الغيبة، ومنه قيل للحيوان الضائع: ضالة ـ بالهاء ـ للمذكر والمؤنث، والجمع الضوال مثل: دابة ودواب اهـ.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ يقال[1]: نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له، والنصح: إرادة الخير لغيره كما يريده لنفسه. وقيل: النصح: تحري قول أو فعل فيه صلاح للغير. وقيل: حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكر.

والمعنى: أنه قال: أبلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه، وأرشدكم إلى الوجه الأصلح والأصوب لكم، وأدعوكم إلى ما دعاني إليه، وأحب لكم ما أحب لنفسي. قال بعضهم: والفرق بين إبلاغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله ونواهيه، وجميع أنواع التكاليف التي أوجبها عليهم، وأما النصيحة فهي أن يرغبهم في قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات، ويحذرهم عذابه إن عصوه.

﴿ذِكْرٌ﴾ والذكر: الموعظة. ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾؛ أي: على لسانه ﴿مِّنكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وفي «المختار»: الفلك السفينة واحد وجمع تذكر وتؤنث قال تعالى: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فأفرد وذكر، وقال: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ فأنث، ويحتمل الإفراد والجمع، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ فجمع وكأنه يذهب[2] بها إذا كانت واحدة إلى المركب فتذكر، وإلى السفينة فتؤنث. اهـ.

﴿عَمِينَ﴾ عن فهم الحق[3] جمع عم صفة مشبهة لكن تصرف فيه بحذف لامه كقاضٍ إذا جمع، فأصله عميين بيائين: الأولى مكسورة، والثانية ساكنة حذفت الأولى تخفيفاً على حد قول ابن مالك:

وَٱحْذِفْ مِنَ ٱلْمَقْصُوْرِ فِيْ جَمْعٍ عَلَىٰ ... حَدِّ ٱلْمُثَنَّىٰ مَابِهِ تَكَمَّلاَ

وفي «السمين» ويقال: عم إذا كان أعمى البصير غير عارف بأموره،

---

(١) الفتوحات.

(٢) أي فكأنه يلاحظ فيها معنى المركب فتذكر، أو معنى السفينة فتؤنث اهـ مؤلفه.

(٣) الفتوحات.

وأعمى؛ أي: في البصرة وهذا قول الليث. كما قال زهير:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ ٱلْيَوْمِ وَٱلأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنِيْ عَنْ عِلْمِ مَا فِيْ غَدٍ عَمِيْ

وقيل: عَمٍ وأعمى بمعنى كخضر وأخضر. وقال بعضهم: عم فيه دلالة على ثبوت الصفة واستقرارها كفرح وضيق، ولو أريد الحدوث.. لقيل عام كما يقال: فارح وضائق. وقد قرىء: ﴿قوماً عامين﴾ حكاها الزمخشري. اهـ.

﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ الأخ هنا: هو الأخ في النسب، وتقول العرب في أخوة الجنس: يا أخا العرب. ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ والسفاهة: خفة العقل والحمق. ﴿فَاذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ والآلاء[1]: جمع إِلْي - بكسر الهمزة وسكون اللام - كِحْمل وأحمال، أو جمع أُلْي - بضم الهمزة وسكون اللام - كقُفْل وأقفال، أو جمع إِلَى - بكسر الهمزة وفتح اللام - كضلع وأضلاع وعنب وأعناب، أو جمع أَلَى - بفتحهما - كقفا وأقفاء اهـ «سمين». والإلى على جميع أوجهها النعمة، وأما إلى الذي هو من حروف الجر.. فلا يجمع؛ لأنها حرف، والحرف لا يجمع.

﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ هو[2] مصدر محذوف الزوائد، وأصل هذا المصدر: الإيجاد من قولك: أوجدته إيجاداً إذا أفردته، فحذفت الهمزة والألف، وهما الزائدان.

﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ والرجس[3]: العذاب من الأرجاس الذي هو الاضطراب، والغضب: إرادة الانتقام.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى﴾ المجادلة: المماراة والمخاصمة، والسلطان الحجة والدليل، والدابر الآخر، ويراد به الاستئصال؛ أي: أهلكناهم جميعاً.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ وأخوة صالح لهم أخوة في النسب كأخوة هود لقومه، كما تقدم في مبحث التفسير، والبينة: المعجزة الظاهرة الدلالة. ﴿وَٱذْكُرُوٓا﴾؛ أي: تذكروا.

---

(١) الفتوحات. (٢) العكبري. (٣) أبو السعود.

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: أنزلكم فيها، وجعلها مباءة لكم، والمباءة في الأصل أعطان الإبل، والأرض: المراد بها: أرض الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى.

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ والنَّحْتُ: نجر الشيء الصلب اهـ «أبو السعود». وفي «القاموس»: نحته ينحته ـ كيضربه وينصره ويعلمه ـ براه، ونحت السفر البعير أنضاه، وفلاناً صرعه، والنحاتة البراية، والمنحت ما ينحت به اهـ. والعيث والعثي: الفساد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، وفي قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾، وفي قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، وفي قوله: ﴿وَاذْكُرُوا﴾، وفي قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، وفي قوله: ﴿سَفَاهَةٍ﴾.

ومنها: المبالغة[1] بجعل الضلال ظرفاً له حيث قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وزادوا في المبالغة حيث صدروا الجملة بـ﴿إن﴾ وزادوا في خبرها اللام.

ومنها: التعميم في قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ لأنها أعم من الضلال، وذلك لأن ضلالة دالة على واحدة غير معينة، ونفي فرد غير معين نفي عام. وفيه أيضاً المبالغة في الرد عليهم؛ لأنه نفى أن تلتبس به ضلالة واحدة فضلاً عن أن يحيط به الضلال، ولو قال: لست ضالاً لم يؤد هذا المؤدى.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ استمالة لقلوبهم إلى الحق.

ومنها: الاستعطاف[2] والتحضيض على تحصيل التقوى في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

---

(١) الفتوحات. (٢) البحر المحيط.

ومنها: الإضافة لتشريف المضاف إليه في قوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ و﴿فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ كالإضافة في بيت الله وروح الله.

ومنها: الرجوع في قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾، وفي قوله: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾: وهو العود إلى الكلام السابق بالنقض والإبطال.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾، وفي قوله: ﴿فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لأن إسناد المجيء إلى الذكر مجاز.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: على لسان رجل منكم.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في مواضع كقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ مثلاً.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ لأنه كناية لطيفة عن استئصالهم جميعاً بالهلاك.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ إفادة للتقليل والتنكير؛ أي: لا تمسوها بأدنى سوء.

ومنها: الإتيان بحرف الترجي في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ للتنبيه[١] على عزة المطلب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة، بل هي منوطة بفضل الله تعالى، وأن المتقي ينبغي له أن لا يعتمد على تقواه، ولا يأمن عذاب الله تعالى، كما مر.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ بين لفظي الجبال والسهول.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ لأن المعية[٢] مجاز عن

---

(١) الفتوحات. (٢) شهاب.

المتابعة، وفي قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأن[1] المس والأخذ هنا استعارة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه تعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ
ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم
بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا
تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا
تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ
طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ أي: تكبروا عن الإيمان بالله تعالى وبصالح ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: من قوم صالح. قرأ[1] ابن عامر: ﴿وقال الملأ﴾ - بواو عطف -. وقرأ الجمهور: ﴿قال﴾ بغير واو -. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ منهم؛ أي: للمساكين الذين استضعفهم المستكبرون

---

(١) البحر المحيط.

واستذلوهم، وعدوهم أراذل، وقوله: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الموصول بإعادة الجار بدل كل من كل إن قلنا: إن ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ عائد إلى قومه؛ أي: قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم بطريق الاستهزاء والسخرية، أو بدل بعض من كل إن قلنا: إن الضمير عائد إلى الذين استضعفوا؛ لأن في المستضعفين من ليس بمؤمن، ومقول القول قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ﴾ إلينا وإليكم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: لا تعلمون ذلك، والاستفهام فيه[1] للإنكار ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال المستضعفون جواباً عن سؤال المستكبرين ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ﴾ صالح ﴿مُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: نحن مصدقون بما جاء به صالح من ربه، أجابوهم[2] بأنهم مؤمنون برسالته مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم هل تعلمون برسالته أم لا مسارعة إلى إظهار ما لهم من الإيمان، وتنبيهاً على أن كونه مرسلاً أمر واضح مكشوف لا يحتاج إلى السؤال عنه، فأجاب المستكبرون تمرداً وعناداً بقولهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: إنا بالذي صدقتم به من نبوة صالح منكرون وجاحدون.

وعبارة المراغي هنا: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ...﴾ الخ. قد[3] جرت سنة الله أن يكون الفقراء المستضعفون أسرع الناس إلى إجابة دعوة الأنبياء والرسل، وإلى كل دعوة لإصلاح، فإنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم، وأن يكفر بها أكابر القوم وأغنياؤهم المترفون إذ يشق عليهم أن يكونوا مرؤوسين لسواهم، كما يصعب عليهم الامتناع عن الإسراف في الشهوات، والوقوف عند حدود الاعتدال. وعلى هذا السنن سار الملأ من قوم صالح إذ قالوا للمؤمنين منهم: أتعلمون أن صالحاً رسول من عند الله، ومرادهم بهذا: التهكم والاستهزاء بهم.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إنا بما أرسل به صالح من

---

(١) زاد المسير.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

الحق والهدى مصدقون ومقرون بأنه من عند الله، وأن الله أمر به، وعن أمر الله دعانا صالح. وفي جوابهم هذا دون أن يقولوا نعم، أو نعلم أنه مرسل منه، أو إنا برسالته عالمون إيماء إلى أنهم علموا بذلك علماً يقينياً إذعانِيّاً له السلطان على عقولهم وقلوبهم، وما كل من يعلم شيئاً يصل علمه إلى هذه المرتبة، بل من الناس من يعلم الشيء بالبرهان، لكنه يجحده ويحاربه، وهو موقن به حسداً لأهله، أو استكباراً عنه كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ عن أمر الله، وأمر رسوله صالح ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم﴾؛ أي: صدقتم به من نبوة صالح، وأن الذي جاء به هو الحق ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون منكرون لا نصدق به ولا نقر. وإنما لم يقولوا: إنا بالذي أرسل به صالح كافرون؛ لأن ذلك يتضمن إثبات الرسالة، فلو قالوه لكان شهادة منهم على أنفسهم بجحود الحق على علمهم به استكباراً وعناداً.

ثم ذكر ما فعلوه مما يدل على كفرهم بآيات ربهم، فقال: ﴿فَعَقَرُواْ﴾؛ أي: عقر أولئك المستكبرون ﴿ٱلنَّاقَةَ﴾؛ أي: ناقة صالح وقتلوها، ونسب الفعل إليهم جميعاً، والفاعل واحد منهم، وهو[1] قُدار بن سالف، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه ابن زانية، ولم يكن لسالف، ولكنه ولد على فراشه، وكان قدار عزيزاً متبعاً في قومه قتلها بأمرهم في يوم الأربعاء، فقال لهم صالح: إن آية العذاب أن تصبحوا غداً صفراً، ثم أن تصبحوا يوم الجمعة حمراً، ثم أن تصبحوا يوم السبت سوداً، ثم يصبحكم العذاب يوم الأحد؛ أي: نسب الفعل إليهم مع كون العاقر واحداً منهم كما جاء في سورة القمر: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ وجاء في «صحيح البخاري» مرفوعاً: «فانتدب لها رجل ذو عزة ومنعة في قومه كأبي زمعة؛ لأنهم لما اتفقوا عليه ورضوا به صاروا كأنهم فعلوه جميعاً». وفي ذلك تهويل وتفظيع لأمرهم، وإن أضراره ستصيبهم جميعاً، ومثل هذا من الأعمال ينسب إلى الأمة في جملتها، وتعاقب عليه جميعها كما قال تعالى:

---

(١) المراح.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

﴿وَعَتَوْا﴾؛ أي: تكبروا ﴿عَنْ﴾ قبول ﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ الذي أمرهم به صالح؛ أي: وتمردوا وتجبروا عن اتباع الحق الذي بلغهم صالح إياه، وهو ما سلف ذكره. روى أحمد والحاكم عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح، وكانت الناقة ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، وكانت تشرب يوماً، ويشربون لبنها يوماً، فعقروها، فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله، وهو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

﴿وَقَالُوا﴾ استهزاء وتهكماً ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وتخوفنا به من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ من عند الله تعالى حقاً، فإنهم كذبوا صالحاً في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقرأ ورش والأعمش: ﴿يا صالح اتتنا﴾ وأبو عمرو إذا أدرج بإبدال همزة فائتنا واواً لضمة حاء صالح. وقرأ باقي السبعة بإسكانها. وفي كتاب ابن عطية قال أبو حاتم: قرأ عيسى وعاصم: ﴿أوتنا﴾ ـ بهمزة وإشباع ضم ـ انتهى. فلعله عاصم الجحدري، لا عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة ذكره أبو حيان في «البحر». والوعد يكون في الخير والشر؛ أي: قالوا له: ائتنا بما وعدتنا به من عذاب الله ونقمته إن كنت رسولاً إلينا، وتدعي أن وعيدك تبليغ عنه، فالله ينصر رسله على أعدائه، فعجل ذلك لنا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة الشديدة من الأرض، والصيحة من السماء ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ أي: فصاروا في بلدهم خامدين ميتين، لا يتحركون، والمراد: كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب من غير اضطراب ولا حركة؛ أي: لم يلبثوا أن سقطوا مصعوقين جثثاً هامدة نزلت بهم الصيحة في أرضهم.

وفي سورة هود: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾، وفي سورة حم السجدة: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ وفي سورة الذاريات: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ والمراد

بالجميع الصاعقة، فإن لنزولها صيحة شديدة القوة ترجف من هولها الأفئدة، وتضطرب الأعصاب، وربما اضطربت الأرض، وتصدع ما فيها من بنيان.

وقد علم أن سبب حدوثها اتصال كهربائية الأرض بكهربائية الجو التي يحملها السحاب، فتحدث صوتاً كالصوت الذي يحدث باشتعال قذائف المدافع، وهذا الصوت هو المسمى بالرعد، وتحدث الصاعقة تأثيرات عظيمة، كصعق الناس والحيوان، وهدم المباني أو تصديعها، وإحراق الشجر ونحو ذلك، وقد هدى العلم إلى الطريق في اتقاء أضرارها بالمباني العظيمة بوضع ما يسمونه: «مانعة الصواعق».

وقد يجوز أن الله سبحانه وتعالى جعل هلاكهم في وقت ساق فيه السحاب المشبع بالكهرباء إلى أرضهم بحسب السنن المعروفة، وقد يجوز أن الله قد خلق تلك الصاعقة لأجلهم على سبيل خرق العادة، وأيهما كان قد وقع.. فقد صدق الله رسوله، وحدث ما أنذرهم به.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض صالح ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: خرج من بينهم قبل موتهم ﴿وَقَالَ﴾؛ أي: صالح ﴿يَٰقَوْمِ﴾ والله ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ وأوصلت إليكم ﴿رِسَالَةَ رَبِّي﴾؛ أي: ما أرسلني به ربي إليكم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ أي: بذلت لكم النصيحة بالترغيب والترهيب، وبذلت وسعي في نصيحتكم، ولكن لم تقبلوا مني ذلك كما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ أي: لا تطيعوا الناصحين لكم، بل تستمروا على عداوتهم. وروي[1] أن صالحاً خرج في مئة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً، فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمس مئة دار.

والمعنى[2]: قال لهم صالح بعد أن جرى عليهم ما جرى، مغتماً متحسراً، كما يقول المتحسر على من مات جانياً على حياته بالتفاني في شهواته: ألم أنهك عما يوردك ريب المنون؟ ألم أحذرك تلك العاقبة الوخيمة التي لم تتداركها قبل

---

(1) المراح. (2) المراغي.

وقوعها؟ فماذا أفعل إذ فضلت لذة الساعات والأيام على عيش هنيء يدوم عشرات الأعوام؟

وروي مثل هذا مرفوعاً عن النبي ﷺ من ندائه بعض قتلى قريش ببدر بعد دفنهم في القليب ـ البئر غير المبنية ـ «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟». قال راوي الحديث أبو طلحة الأنصاري، قال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ـ أو فيها ـ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» رواه البخاري وغيره من طريق قتادة عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه ثم قال: قال قتادة أحياهم الله حتى أسمعهم قوله ﷺ توبيخاً وتصغيراً لهم، ونقمة وحسرة وندماً عليهم اهـ. قال العلماء: ومثل هذا مما اختص به الأنبياء وبهذا الحديث ونحوه مما ورد من حياة الأنبياء والشهداء في البرزخ يستدل زوار الأضرحة والقبور الذين يدعون أصحابها لقضاء حاجاتهم، ويقولون إن كل من دعا ميتاً من الصالحين يسمع منه، ويقضي حاجته قياساً على ذلك مع علمهم بأن الأمور الغيبية يقتصر فيها على ما سمع عن الأنبياء، ولا يدخلها باب القياس.

وحاصل قصة قوم صالح عليه السلام(١): أن الله سبحانه وتعالى لما أهلك عاداً. . أقام ثمود مقامهم، وطال عمرهم، وكثر تنعمهم، ثم عصوا الله وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً ـ وكان منهم ـ فطالبوه بالمعجزة، فقال: ما تريدون؟ فقالوا: تخرج معنا في عيدنا ونخرج أصناماً، فتسأل إلهك، ونسأل أصنامنا، فإذا ظهر أثر دعائك اتبعناك، وإن ظهر أثر دعائنا اتبعتنا، فخرج معهم، ودعوا أوثانهم، فلم تجبهم، ثم قال: سيدهم جندع بن عمرو لصالح عليه السلام، وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل ـ يقال لتلك الصخرة كاثبة ـ: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة كبيرة جوفاء براء، فإن فعلت ذلك صدقناك. فأخذ

---

(١) المراح.

صالح عليهم المواثيق أنه إن فعل ذلك آمنوا، فقبلوا، فصلى ركعتين ودعا الله تعالى، فتمخضت تلك الصخرة كما تتمخض الحامل، ثم انفجرت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء، وكانت في غاية الكبر، ثم نتحت ولداً مثلها في العظم، فآمن به جندع ورهط من قومه، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به، فنهاهم ذؤاب بن عمرو والحباب صاحبا أوثانهم، ورباب بن صمعر كاهنهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترده غباً، فإذا كان يومها . . وضعت رأسها في البئر، فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها، ثم تفرج بين رجليها، فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم، فيشربون ويدخرون، وكانت إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي، فيهرب منها أنعامهم، وإذا وقع البرد تشتت ببطن الوادي، فتهرب مواشيهم، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة بنت غانم، وصدقة بنت المختار لما أضرت به مواشيهم، فعقروها واقتسموا لحملها وطبخوه، فرقى ولدها جبلاً مسمى بقارة، فرغا ثلاثاً، وقال لهم صالح عليه السلام: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه، وانفتحت الصخرة بعد رغائه، فدخلها فقال لهم صالح: تصبحون غداً وجوهكم مصفرة، وبعد غد وجوهكم محمرة، واليوم الثالث وجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين. ولما كان اليوم الرابع واشتد الضحى تحنطوا بالصبر، وتكفنوا بالإنطاع، فأتتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض، فتقطعت قلوبهم وهلكوا.

﴿و﴾ لقد أرسلنا لوطا؛ أي: لوط بن هاران بن تارخ، وهو ابن أخ إبراهيم، وإبراهيم عمه: ﴿إِذْ قَالَ﴾؛ أي: وقت قوله: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أهل سدوم، وكان قد أرسل إليهم، وذلك أن لوطاً بعد موت والده هاجر مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وكانت ولادته في الطرف الشرقي من جنوب العراق في موضع يسمى أرض بابل، فنزل إبراهيم عليه السلام أرض فلسطين، ونزل لوط عليه السلام الأردن، فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم يدعوهم إلى الله تعالى، وينهاهم عن فعلهم القبيح، وهو قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ أي: أتفعلون الفعلة الخسيسة القبيحة التي هي غاية في القبح، وكانت فاحشتهم: إتيان الذكران في

أدبارهم، ولما كان هذا الفعل معهوداً قبحه، ومركوزاً في العقول فحشه أتى بها معرفاً بالألف واللام ذكره أبو حيان. والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ؛ أي: لا ينبغي لكم أن تفعلوها، والحال أنه ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿مِن﴾ الأولى زائدة[1] لتوكيد النفي، وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبعيض.

والمعنى: ما سبقكم أيها القوم بهذه الفعلة الفاحشة أحد من العالمين قبلكم. والجملة[2] استئنافية مقررة للإنكار كأنه وبخهم أولاً بإتيان الفاحشة، ثم باختراعها، فإنه أسوأ. قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا قبل قوم لوط عليه السلام. والمعنى[3]: أي ما عملها أحد قبلكم في أي زمان، بل هي من مبتدعاتكم في الفساد، فأنتم فيها أسوة وقدوة، فتبؤون بإثمها وإثم من اتبعكم فيها إلى يوم القيامة. وفي هذا بيان بأن ما اجترحوه من السيئات مخالف لمقتضيات الفطرة، ومن ثم لم تتطلع إليه نفوس أحد من البشر قبلهم إلى ما فيه من مخالفة لهدي الدين. قال الحسن: كانوا يأتون الغرباء كانت بلادهم الأردن تؤتى من كل جانب لخصبها، فقال لهم إبليس - وهو في صورة غلام -: إن أردتم دفع الغرباء.. فافعلوا بهم هكذا، فمكنهم من نفسه تعليماً لهم، ثم فشا، واستحلوا ما استحلوا.

وفي تسمية[4] هذا الفعل بالفاحشة دليلٌ على أنه يجري مجرى الزنا يرجم من أحصن، ويجلد من لم يحصن، وفعله عبد الله بن الزبير: أتى بسبعة منهم، فرجم أربعة أحصنوا، وجلد ثلاثة، وعنده ابن عمر وابن عباس، ولم ينكروا به، وبه قال الشافعي. وقال مالك: يرجم أحصن أو لم يُحصَن، وكذا المفعول به إن كان محتلماً، وعنده يرجم المحصن ويؤدب، ويحبس غير المحصن؛ وهو مذهب عطية وابن المسيب والنخعي وغيرهم. وعن مالك أيضاً: يعزر أحصن أو لم يحصن؛ وهو مذهب أبي حنيفة. وحرَّق خالد بن الوليد رضي الله عنه رجلاً يقال له الفجاء عمل ذلك العمل، وذلك برأي أبي بكر وعلي، وإن أصحاب

---

(١) الخازن.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

رسول الله ﷺ أجمع رأيهم عليه، وفيهم علي بن أبي طالب ذكره أبو حيان.

والاستفهام في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ للإنكار والتوبيخ أيضاً، وهذا أشنع مما سبق؛ لتأكيده بأن وباللام واسمية الجملة. ذكره أبو السعود، وهذا بيان لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ أي: أئنكم أيها القوم لتأتون وتطؤون أدبار الرجال ﴿شَهْوَةً﴾؛ أي: لمجرد الشهوة واللذة، لا للولد ولا للألفة، وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ حال من الواو في ﴿تأتون﴾؛ أي: تطؤون أدبار الرجال حال كونكم متجاوزين النساء، وتاركين إياهن، أو حال من ﴿ٱلرِّجَالَ﴾؛ أي: حال كونهم منفردين عن النساء. والمراد بالإتيان هنا: الاستمتاع الذي عهد بمقتضى الفطرة بين الزوجين، وداعيته الشهوة وقصد النسل.

وإنما[1] ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل القبيح الخبيث؛ لأن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان، وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا، وجعل النساء محلاً للشهوة وموضعاً للنسل، فإذا تركهن الإنسان، وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال، فكأنما أسرف وجاوز الحد واعتدى؛ لأنه وضع الشيء في غير محله، وموضعه الذي خلق له؛ لأن أدبار الرجال ليست محلاً للولادة التي هي مقصودة بتلك الشهوة المركبة في الإنسان.

وقد سجل عليهم هنا أنهم يبتغون الشهوة وحدها، فهم أخس من سائر أفراد الحيوان؛ لأن الذكور منها تطلب الإناث بدافع الشهوة والنسل الذي يحفظ النوع، ألا ترى أن الطيور والحشرات تبدأ حياتها الزوجية ببناء الأعشاش في أعلى الأشجار، أو الوكن في قلل الجبال، أو الأحجار في باطن الأرضين، ولكن هؤلاء المجرمين لا غرض لهم إلا إرضاء شهواتهم، ومن يقصد اللذة وحدها دون النسل.. فقد أسرف فيها، وانقلب نفعها ضراً، وصار خيرها شراً.

وقرأ نافع وحفص عن عاصم[2]: ﴿إِنَّكُمْ﴾ ـ بهمزة واحدة مكسورة ـ على

---

(١) الخازن.

(٢) المراح.

الخبر المستأنف؛ وهو بيان لتلك الفاحشة. وقرأ ابن كثير بهمزتين بدون ألف بينهما وبتسهيل الثانية، وأبو عمرو كذلك لكنه أدخل الألف بينهما، وهشام بتحقيق الهمزتين بينهما مد، والباقون بتحقيقهما من غير مد بينهما على الأصل.

و﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ للإضراب الانتقالي من قصة إلى قصة؛ أي: بل أنتم قوم مجاوزون الحلال إلى الحرام؛ أي: إنكم لا تأتون هذه الفاحشة، ثم تندمون على ما فعلتم، بل أنتم قوم مسرفون فيها وفي سائر أعمالكم، ولا تقفون فيها عند حد الاعتدال، وقد جاء في سورة النمل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ أي: أنتم ذو سفه وطيش، وفي سورة العنكبوت: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ وفي كل هذا دليل على أنهم كانوا مسرفين في لذاتهم متعدين حدود العقل والفطرة، لا يعقلون ضرر ما يفعلون بجنايتهم على النسل والصحة والآداب العامة، فهم لو عقلوا ذلك.. لاجتنبوها، ولو كان لديهم شيء من الفضيلة.. لانصرفوا عنها. وقال هنا[1]: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ بصيغة اسم الفاعل؛ ليدل على الثبوت، ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأسماء. وقال في النمل: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ بالمضارع لتجدد الجهل فيهم، ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأفعال.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا﴾؛ أي: ما كان جواباً من جهة قومه شيء من الأشياء في المرة الأخيرة من مرات المحاورة بينه وبينهم إلا قولهم لبعضهم الآخرين المباشرين لتلك الأمور معرضين عن مخاطبة لوط عليه السلام ﴿أَخْرِجُوهُم﴾؛ أي: أخرجوا لوطاً وابنتيه زعورا ورييشا ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ سذوم - بوزن رسول بالذال المعجمة - من قرى حمص بالشام ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ أي: أي يتنزهون من أدبار الرجال، قالوا ذلك على سبيل السخرية بلوط وأهله، وعلى سبيل الافتخار بما هم فيه. وأتى هنا بقوله: ﴿وَمَا﴾ وفي النمل والعنكبوت بقوله: ﴿فما﴾ والفاء هي الأصل في هذا الباب؛ لأن المراد أنهم لم يتأخر جوابهم عن نصحته، وأما الواو فالتعقيب أحد محاملها، فتعين هنا أنها للتعقيب

---

(١) البحر المحيط.

لأمر خارجي؛ وهو القرينة في السورتين المذكورتين، لا أنها اقتضت ذلك بوضعها. اهـ «سمين».

والمعنى[1]: أي وما كان جواب قومه عن هذا الإنكار وتلك النصيحة شيئاً من الحجج المقنعة، أو الأعذار المسكنة لثورة الغضب، بل كان جوابهم الأمر بإخراجه هو ومن آمن معه من قريتهم، وما حجتهم على تبرير ما عزموا عليه إلا أن قالوا: إن هؤلاء أناس يتطهرون، ويتنزهون عن مشاركتهم في فسوقهم ورجسهم، فلا سبيل إلى معاشرتهم ولا مساكنتهم لما بينهم من الفوارق في الصفات والأخلاق. والظاهر أن قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ تعليل للإخراج؛ أي: لأنهم لا يوافقوننا على ما نحن عليه، ومن لا يوافقنا.. وجب أن نخرجه. ذكره أبو حيان.

وهذا الجواب منهم يدل على منتهى السخرية والتهكم والافتخار بما كانوا فيه من القذارة كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظوهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهد. وقد بلغ من قحتهم وفجورهم أن يفعلوا الفاحشة ويفخروا بها، ويحتقروا من يتنزه عنها، وهذا أسفل الدركات، ولا يهبط إليه إلا من لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾؛ أي: فأنجينا لوطاً وأهله؛ وهم بنتاه من العذاب الذي حل بقومه ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾؛ أي: زوجته الكافرة - واسمها واهلة -؛ لأنها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: من الباقين في ديارهم، فهلكت في العذاب مع الهالكين فيها؛ لأنها تسر الكفر موالية لأهل سذوم، وقال: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ تغليباً للذكور. وأما لوط فخرج مع بنتيه من أرضهم، وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا، ووصل إلى إبراهيم، وهو في فلسطين؛ أي: فأنجيناه وأهل بيته الذين آمنوا معه إلا امرأته، فإنها لم تؤمن به، بل خانته بولاية قومه الكافرين، فكانت من جماعة الهالكين، أو الباقين الذين نزل بهم العذاب في الدنيا، وبعده عذاب الآخرة.

---

(١) المراغي.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾؛ أي[1]: وأرسلنا عليهم إرسال المطر وإنزاله في الكثرة جُرّاً محروقاً معجوناً بالكبريت والنار. قال مجاهد: نزل جبريل عليه السلام، وأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط، فاقتلعها ورفعها إلى السماء، ثم قلبها، فجعل أعلاها أسفلها، ثم أتبعوا بالحجارة. وقيل المعنى[2]: وأنزلنا على الخارجين من المدائن الخمسة حجارة من السماء معلمة عليها اسم من يرمى بها. وروي أن تاجراً منهم كان في الحرم، فوقف الحجر له أربعين يوماً حتى قضى تجارته، وخرج من الحرم، فوقع عليه فأهلكه.

والإمطار[3] حقيقة في المطر مجاز فيما يشبهه في الكثرة من خير وشر مما يجيء من السماء، أو من الأرض؛ أي: وأرسلنا عليهم مطراً عجيباً أمره؛ وهو الحجارة التي رجموا بها. وجاء في سورتي هود والحجر أنها حجارة من سجيل مسومة؛ أي: معلمة ببياض في حمرة، وقد يكون سبب إمطار الحجارة عليهم إرسال إعصار من الريح حمل تلك الحجارة، وألقاها عليهم، أو أن تلك الحجارة من بعض النجوم المحطمة التي يسميها علماء الفلك: الحجازة النيزكية؛ وهي بقايا كوكب محطم تجذبه الأرض إليها إذا صار بالقرب منها؛ وهي تحترق غالباً من سرعة الجذب وشدته، وهي الشهب التي ترى بالليل، فإذا سلم منها شيء من الاحتراق، ووصل إلى الأرض.. ساخ فيها، وكان لسقوطه صوت شديد، وقد وجد بعض الناس بعض تلك الحجارة ووضعوها في دور الآثار.

﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ هؤلاء ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ وآخر أمرهم الذين كذبوا بالله ورسوله الذي أرسل إليهم، وعملوا الفواحش كيف أهلكناهم بعذاب مستأصل لهم، وهذا الخطاب، وإن كان للنبي ﷺ، لكن المراد به غيره من أمته؛ ليعتبروا بما جرى على هؤلاء، فينزجروا بذلك الاعتبار عن

---

(١) المراح.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

الأفعال القبيحة والفواحش الخبيثة، والمعنى: فانظر أيها المعتبر هذا القصص وتأمله حق التأمل؛ لتعلم عذاب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة.

وهذا العقاب أثر طبيعي لذلك، فإنك ترى الترف والفسق يفسدان أخلاق الأمم، ويذهبان ببأسها، ويفرقان كلمتها، ويجعلانها شيعاً وأحزاباً متعادية، فيسلط الله عليها من يستذلها، ويسلبها استقلالها، ويسخرها لمنافعه، ولا يزال بها هكذا حتى تنقرض وتكون من الهالكين، وقد يكون هلاكها بسنن الله في الأرض من إرسال الجوائح كالزلازل والرياح العاصفة، أو بالأوبئة والأمراض الفتاكة، أو بالثورات والفتن والحروب، ونحو ذلك مما يكون سبباً في انقراض الأمم وفنائها.

وخلاصة القول في تحريم هذه الفاحشة:

١ ـ أنها مفسدة للشبان بالإسراف في الشهوات.

٢ ـ أنها مفسدة للنساء اللواتي ينصرف أزواجهن عنهن، ويقصرون فيما يجب عليهم من إحصانهن.

٣ ـ قلة النسل، فإن من لوازم ذلك الرغبة عن الزواج، والرغبة في إتيان الأزواج في غير مأتى الحرث. وفي الحياة الزوجية الشرعية إحصان كل من الزوجين للآخر بقصر لذة الاستمتاع عليه، وجعل ذلك وسيلة للحياة الوالدية التي تنمو بها الأمة، ويحفظ بها النوع الإنساني من الزوال.

﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى﴾ أولاد ﴿مَدْيَنَ﴾ بن إبراهيم عليه السلام ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب، لا في الدين ﴿شُعَيْبًا﴾ بن ثويب بن مدين بن إبراهيم الخليل بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر؛ وهو هود عليه السلام، فبين شعيب وهود على هذا القول ثمانية آباء، وكان شعيب أعمى، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه. وقال قتادة: أرسل شعيب مرتين: مرة إلى مدين، ومرة إلى أصحاب الأيكة.

قيل: شعيب هو ابن بنت لوط، وقيل: زوج بنته، وهذه مناسبة بين قصته وقصة لوط. وقيل: مدين اسم لقرية شعيب بينها وبين مصر ثمانية مراحل سميت

باسم أبيهم مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

والمعنى: أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم في النسب لا في الدين؛ إذ ﴿قَالَ﴾ شعيب لقومه؛ وهم أهل كفر، وبخس للكيل والميزان ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾؛ أي: ليس لكم إله يستحق العبادة منكم غيره تعالى؛ لأنه خالقكم وموجدكم ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾؛ أي: معجزة واضحة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دالة على صدقي، ولم يذكر هنا ولا في أي سورة من سور القرآن آية معينة لشعيب عليه السلام، ولكن لا بد أن تكون له آية تدل على صدقه، وتقوم بها الحجة عليهم، وليست كل آيات الأنبياء مذكورة في القرآن. وقيل: أراد بالبينة مجيء شعيب بالرسالة إليهم، وقيل: أراد بالبينة الموعظة المذكورة بقوله الآتي: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ...﴾ الخ. فقد روى الشيخان من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»؛ أي: أن كل نبي مرسل أعطاه الله تعالى من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعوته ما شأنه أن يؤمن البشر على مثله. والبينة كل ما يتبين به الحق، فتشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية، والأمم القديمة لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات.

وكانت عادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يبدؤوا في الدعوة بالأهم فالأهم، ولما كانت الدعوة إلى توحيد الله وعبادته أهم الأشياء قال شعيب: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ثم بعد الدعوة إلى التوحيد شرع في نهيهم عما هم عليه من المعاصي، ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في الكيل والوزن.. دعاهم إلى ترك هذه العادة القبيحة، وهي تطفيف الكيل والوزن، فقال: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ أي: أتموا كيل المكيال ووزن الميزان إذا بعتم أموالكم للناس ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾؛ أي: ولا تنقصوا عن الناس أشياءهم وأثمانهم إذا اشتريتم من الناس، أو المعنى[1]: ولا تنقصوا حقوق الناس

---

(١) المراح.

بجميع الوجوه كالغصب والسرقة، وأخذ الرشوة، وقطع الطريق وانتزاع الأموال بطريق الحيل وقيل: كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه كما يفعل أمراء الجور.

وعبارة المراغي هنا: قوله: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ قد[1] ثنى الله سبحانه وتعالى بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا، والنهي عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا بعد أن أمرهم بتوحيد الله؛ لأن ذلك كان فاشياً فيهم أكثر من سائر المعاصي، ومن ثم اهتم به كما اهتم لوط بنهي قومه عن الفاحشة السوء أي التي كانت فاشية فيهم، فقد كانوا من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس، أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم، ويزيدون عليه، وإذا كالوهم، أو وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان؛ أي: ينقصونه، فيبخسون أشياءهم، وينقصونهم حقوقهم.

والبخس: يشمل نقص المكيل والموزون وغيرهما من المبيعات كالمواشي والأشياء المعدودة، ويشمل البخس في المساومة والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق، وفي الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل، وقد فشا كل من هذين النوعين في هذا العصر، فكثير من التجار باخسون مطففون فيما يبيعون وما يشترون، وكثير من المشتغلين بالعلوم والآداب والسياسة بَخّاسون لحقوق بني جلدتهم، مُدَّعون للتفوق عليهم، منكرون لما خص الله به سواهم من المزايا والخصائص حسداً عليهم وبغياً. وقد روي أن قوم شعيب كانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه، ويقولون: هذه زيوف، فيقطعونها قطعاً، ثم يشترونها منه بالبخس؛ أي: بالنقصان الظاهر، وأعطوه بدلها زيوفاً، وكانت هذه المعصية قد فشت فيهم في ذلك الزمان مع كفرهم الذي نالتهم الرجفة بسببه.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾؛ أي: بعد أن أصلحها الله سبحانه وتعالى ببعثة الرسل، وإقامة العدل، وإفاضة النعم فيها،

---

(١) المراغي.

وكل نبي يبعث إلى قوم فهو صلاحهم، فالإضافة في إصلاحها كإضافة مكر الليل. قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]: كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيباً رسولاً تعمل فيها المعاصي، وتستحل فيها المحارم، وتسفك فيها الدماء، فذلك فسادها، فلما بعث الله شعيباً، ودعاهم إلى الله صلحت الأرض؛ لأن بعثة كل نبي إلى قومه فهو صلاحهم.

وحاصل المعنى: أنه[2] سبحانه وتعالى أصلح حال البشر بنظام الفطرة، ومكنهم في الأرض بما آتاهم من القوى العقلية وقوة الجوارح، وبما أودع في خلق الأرض من سنن حكيمة وقوانين مستقيمة، وبما بعث به الرسل من المكملات لنظام الفطرة من آدات وأخلاق، ونظم في المعاملات والاجتماع، وبما أرشد إليه المصلحين من العلماء والحكماء الذين يأمرون بالقسط، ويهدون الناس إلى ما فيه صلاحهم في دينهم، والعاملين من الزراع والصناع والتجار أهل الأمانة والاستقامة الذين ينفعون الناس في دنياهم.

فعليكم أن لا تفسدوا فيها ببغي ولا عدوان على الأنفس والأعراض والأخلاق بارتكاب الإثم والفواحش، ولا تفسدوا فيها بالفوضى وعدم النظام، وبث الخرافات والجهالات التي تقوض نظم المجتمع، وقد كانوا من المفسدين للدين والدنيا كما يستفاد من هذه الآية وما بعدها ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي أمرتكم به من الإيمان بالله، ووفاء الكيل والميزان، وترك الظلم والبخس ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه من الكفر والمعاصي وظلم الناس في دينكم ودنياكم، فإن ربكم لا يأمر إلا بالنافع، ولا ينهى إلا عن الضار، ولأن الناس إذا علموا منكم الوفاء والصدق والأمانة.. رغبوا في المعاملات معكم، فكثرتم أموالكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مصدقين لي في قولي هذا؛ أي: وإنما يكون ذلك خيراً لكم إن كنتم مؤمنين بوحدانية الله وبرسوله، وبما جاءكم به من شرع وهدى، فالإيمان يقتضي الامتثال والعمل بما جاء به الرسول من عند الله، وإن خالف النفس

---

(١) القرطبي. (٢) المراغي.

والهوى. والمؤمن الموحد لا يخضع إلا لربه[1]، وإنما يطيع رسوله؛ لأنه مبلغ عنه كما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

هذا والبشر لم يصلوا في عصر من العصور إلى عشر ما وصلوا إليه في هذا العصر من العلم بالمنافع والمضار، ومعرفة المصالح والمفاسد في المعاملات والآداب، ومع هذا فإن العلم وحده لم يغنم شيئاً، فكثرت في البلاد الجرائم من قتل وسلب وإفساد زرع وفسق وفجور ونحو ذلك مما كان سبباً في تدهور نظم المجتمعات، فلم يبق اليوم من الإسلام إلا رسمه، ولا من الدين إلا اسمه، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فخير وسيلة لإصلاح الأمم تربية الأحداث والنابتة تربية دينية بإقناعهم بمنافع الفضائل كالصدق والأمانة والعدل، وإقناعهم بمضار الرذائل؛ لأن الوازع النفسي أقوى من الوازع الخارجي.

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾؛ أي: ولا تجلسوا على كل طريق محسوس حالة كونكم توعدون، وتخوفون بالقتل من مر عليكم ممن يذهب إلى شعيب ليؤمن به. وقد روي عن ابن عباس: أن بلادهم كانت خصبة، وكان الناس يمتارون منهم، فكانوا يقعدون على الطريق، ويخوفون الناس أن يأتوا شعيباً، ويقولون لهم إنه كذا فلا يفتننكم عن دينكم؛ أي: يقعدون على الطريق، ويخوفون الغرباء الذين يريدون الإيمان بشعيب بالقتل إن آمن به.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وتمنعون عن طاعة الله وعبادته ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾؛ أي: من آمن بالله أو بشعيب ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾؛ أي: وتطلبون لسبيل الله ودينه زيغاً وميلاً عن الحق، وعدولاً عن القصد والصواب بإلقاء الشكوك والشبهات فيها. وجملة الأفعال الثلاثة ـ التي هي توعدون وتصدون وتبغون ـ أحوال؛ أي: لا تقعدوا موعدين وصادين وباغين.

والخلاصة: أنه نهاهم عن أشياء ثلاثة:

١ ـ قعودهم على الطرقات التي توصل إليه مخوفين من يجيئه ليرجع عنه

---

(١) المراغي.

قبل أن يراه ويسمع دعوته.

٢ ـ صدهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان، والاستقامة على الطريق الموصلة إلى سعادة الدارين.

٣ ـ ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالطعن، وإلقاء الشبهات المشككة فيها، أو المشوهة لها، وهم بعملهم هذا ارتكبوا ضلالتين: التقليد والعصبية للآباء والأجداد، وضلالة الغلو في الحرية الشخصية التي أباحت لهم الطعن في الأديان حتى بلغوا في ذلك حد الطغيان.

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾؛ أي: وتذكروا الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد ﴿فكثركم﴾ الله سبحانه وتعالى بما بارك في نسلكم، واشكروا له ذلك بعبادته وحده واتباع وصاياه في الحق، والإعراض عن الفساد في الأرض. وقد روي أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط، فولدت له، فرمى الله في نسلهما البركة والنماء فكثروا. وقيل المعنى: إذ كنتم مقلين فقراء، فجعلكم مكثرين موسرين، وقيل: إذ كنتم أذلة قليلي العدد، فأعزكم بكثرة العدد والعدد.

﴿وَانظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: فانظروا وتأملوا نظر اعتبار كيف كان آخر أمر المفسدين في الأرض من الأمم والشعوب المجاورة لكم كقوم نوح وعاد وثمود، وكيف أهلكهم الله بفسادهم وبغيهم في الأرض، فاعتبروا بما حل بهم واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة كائنة ﴿مِّنكُمْ﴾ أيها القوم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا ﴿بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم من الأحكام والشرائع التي شرعها الله تعالى لكم ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ أخرى منكم ﴿لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ ولم يصدقوا بما أرسلت به إليكم ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾؛ أي: فانتظروا أيها المؤمنون والكافرون من الطائفتين ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم جميعاً من مؤمن وكافر بإعلاء درجات المؤمنين ونصرهم، وبإظهار خزي الكافرين وذلهم ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ أي: أفضلهم وأعلمهم؛ لأنه تعالى حاكم عادل منزه عن الجور لا معقب لحكمه ولا حيف فيه، ولا يخفى ما في هذا من الوعيد والتهديد، وحكم الله بين عباده ضربان:

١ ـ حكم شرعي يوحيه إلى رسله، وعليه جاء قوله تعالى في سورة المائدة بعد الأمر بالوفاء بالعقود وإحلال البهيمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

٢ ـ حكم فعلي يفصل فيه بين الخلق بمقتضى سننه فيهم كقوله في آخر سورة يونس: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

والمعنى: وإن كان جماعة صدقوا بالذي أرسلت به إليكم من إخلاص العبادة لله، وترك معاصيه من ظلم الناس وبخسهم في المكاييل والموازين، واتبعوني في كل ذلك، وجماعة أخرى لم يصدقوني وأصروا على شركهم، وإفسادهم. فاصبروا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم، وهو خير من يفصل، وأعدل من يقضي؛ لتنزهه عن الباطل والجور، وليعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم، وسيحل بهم مثل ما حل بأولئك بحسب السنن التي قدرها العليم الحكيم، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً، والله أعلم.

الإعراب

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَلَأُ﴾. ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من واو ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالُوٓا۟﴾ ﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور قبله كقولهم: مررت بزيد بأخيك. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قالوا﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ﴿صَٰلِحًا﴾: اسمها. ﴿مُّرْسَلٌ﴾: خبرها. ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: متعلق به، أو

صفة له، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: أتعلمون إرسال صالحٍ من ربه. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت ﴿إنّ﴾: حرف نصب، و﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾: ﴿أُرۡسِلَ﴾ فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿صالح﴾. ﴿به﴾: متعلق بـ﴿أُرۡسِلَ﴾ ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٦﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصولة. ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿نا﴾: اسمها. ﴿بِٱلَّذِيٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾. ﴿ءَامَنتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَعَقَرُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿عقروا الناقة﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾. ﴿وَعَتَوۡاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عقروا﴾. ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿عتوا﴾. ﴿وَقَالُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿عتوا﴾. ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿ٱئۡتِنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿صالح﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱئۡتِنَا﴾. ﴿تَعِدُنَآ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿صالح﴾ والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما تعدنا إياه. ﴿إنْ﴾: حرف شرط. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم

بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إن كنت من المرسلين فائتنا بما تعدنا من العذاب، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿أخذتهم الرجفة﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾. ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿أصبحوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِى دَارِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَٰثِمِينَ﴾. ﴿جَٰثِمِينَ﴾: خبر ﴿أصبح﴾ منصوب بالياء، وجملة ﴿أصبحوا﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾. ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿تولى﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿صالح﴾. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أصبحوا﴾. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿صالح﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿تولى﴾. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿لَقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة لقسم محذوف. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿رِسَالَةَ رَبِّى﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونه جواب النداء. ﴿وَنَصَحْتُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَلُوطًا﴾: معطوف على نوحاً؛ أي: وأرسلنا لوطاً أيضاً. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بأرسلنا المحذوف. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿لوط﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي. ﴿تأتون الفاحشة﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿سَبَقَكُم﴾: فعل ومفعول. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿سبق﴾. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿أَحَدٍ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿إِنَّكُمْ﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، و﴿الكاف﴾: اسمها، ﴿لَتَأْتُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿تأتون الرجال﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿شَهْوَةً﴾: مفعول من أجله، أو حال من واو ﴿تأتون﴾؛ أي: مشتهين، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من الواو في ﴿تأتون﴾؛ أي: حال كونكم متجاوزين النساء، أو من الرجال؛ أي: حال كونهم منفردين من النساء. ﴿بَلْ﴾: حرف للاضراب الانتقالي. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿قَوْمٌ﴾: خبر. ﴿مُّسْرِفُونَ﴾: صفته، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: خبرها ومضاف إليه مقدماً على اسمها. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾

مؤخراً تقديره: وما كان جواب قومه إلا قولهم، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَخْرِجُوهُم﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿أُنَاسٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ صفة لـ﴿أُنَاسٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قال لهم لوط وما قالوا له، وأردت بيان عاقبة أمره وأمرهم.. فأقول لك، ﴿أنجيناه﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾: معطوف على الهاء في ﴿أنجيناه﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: مستثنى ومضاف إليه. ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على المرأة. ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة استئنافاً بيانياً وقع جواباً عن سؤال نشأ من استثنائها، كأنه قيل: فماذا كان حالها؟ فقيل: كانت من الغابرين. ذكره أبو السعود.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به ﴿مَّطَرًا﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿فَٱنظُرْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على كل من يصلح للخطاب، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها وجوباً. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: اسمها ومضاف إليه. وفي «الفتوحات»: ﴿كيف﴾ وما في حيزها معلقة للنظر عن العمل،

فهي وما بعدها في محل نصب على إسقاط الخافض، والنظر هنا التفكر، و﴿كَيْفَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ واجب التقدم. اهـ «سمين».

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾: جار ومجرور متعلق بأرسلنا محذوفاً ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي. ﴿أَخَاهُمْ﴾: مفعول أرسلنا المحذوف. ﴿شُعَيْبًا﴾: بدل من ﴿أَخَاهُمْ﴾، أو عطف بيان له، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿شعيب﴾، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم. ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿غَيْرُهُۥ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ تابع لمحله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفة لـ﴿بَيِّنَةٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم مجيء بينة من ربكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿أوفوا الكيل﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْكَيْلَ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿أوفوا﴾.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوفوا الكيل﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿لا تفسدوا﴾. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبره، وجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية محذوف دل عليها ما قبلها تقديره: إن كنتم مؤمنين فبادروا إلى ما أمرتكم به، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوفوا الكيل﴾. ﴿تُوعِدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿تَقْعُدُوا﴾. ﴿وَتَصُدُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تُوعِدُونَ﴾. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تصدون﴾. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول تصدون. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنَ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿عِوَجًا﴾: حال من الهاء، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على ﴿تصدون﴾ على كونها حالاً من واو ﴿تَقْعُدُوا﴾. ﴿وَٱذْكُرُوٓا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوفوا﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى في محل النصب على الظرفية متعلق بـ﴿اذكروا﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿قَلِيلًا﴾: خبره، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كثركم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿كُنتُمْ﴾. ﴿وَٱنظُرُوا﴾:

فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوفوا﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: فعل ناقص واسمه ومضاف إليه و﴿كَيْفَ﴾ معلقة لـ﴿انظروا﴾ عن العمل فيما بعدها، و﴿كَيْفَ﴾ وما في حيزها في محل النصب بإسقاط الخافض كما في «الفتوحات» في هذا الموضع.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ طَآئِفَةٌ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِّنكُمْ﴾: صفة لـ﴿طَآئِفَةٌ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿بِٱلَّذِىٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿أُرْسِلْتُ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾: معطوف على ﴿طائفة﴾. ﴿لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي: وإن كانت طائفة منكم مؤمنين بالذي أرسلت به وطائفة غير مؤمنين. ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿اصبروا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، والجار والمجرور متعلق بـ﴿اصبروا﴾، والتقدير: فاصبروا إلى حكم الله بيننا وبينكم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من الجلالة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ أي: تكبروا، فالسين فيه زائدة.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾؛ أي: نحروها، وأصل العقر الجرح، وعقر الإبل قطع قوائمها، وكانوا يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت في مكانها ولا تنتقل. وفي «السمين»: والعقر أصله: كشف العراقيب في الإبل، وهو أن يضرب قوائم البعير أو الناقة، فيقع، وكانت سنتهم في الذبح، ثم أطلق على كل عقر، وإن لم يكن فيه كشف العراقيب تسمية للشيء بما يلازمه غالباً إطلاقاً للسبب على مسببه هذا قول الأزهري. وقال ابن قتيبة: العقر: القتل كيف كان، يقال: عقرتها فهي معقور، وقيل: العقر الجرح. اهـ.

وفي «المصباح»: عقره عقراً ـ من باب ضرب ـ جرحه وعقر البعير بالسيف عقراً ضرب قوائمه به، ولا يطلق العقر في غير القوائم، وربما قالوا: عقره إذا نحره، فهو عقير وجمال عقري. اهـ.

﴿وَعَتَوۡاْ﴾؛ أي: تمردوا مستكبرين، والعتو: الامتناع من الشيء: إما عن عجز وضعف ومنه عتا الشيخ عتياً إذا أسن وكبر، وإما عن قوة كعتو الجبارين والمستكبرين، ويقولون: نخلة عاتية إذا كانت عارية يمتنع جناها على من يريدها إلا بمشقة التسلق والصعود.

وفي «الفتوحات»: العتو والعتي النتو؛ أي: الارتفاع عن الطاعة، يقال منه: عتى يعتو عتواً وعتياً بقلب الواوين ياءين، والأحسن فيه إذا كان مصدراً تصحيح الواوين ـ: كقوله تعالى: ﴿وَعَتَوۡ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ـ وإذا كان جمعاً الإعلال: نحو قوم عتي؛ لأن الجمع أثقل، فناسبه الإعلال تخفيفاً، وقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيًّا﴾ يحتمل الوجهين. اهـ «سمين».

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الرجفة: المرة من الرجف، وهو الحركة والاضطراب، يقال: رجف البحر إذا اضطربت أمواجه، ورجفت الأرض زلزلت واهتزت، ورجف القلب والفؤاد من الخوف. ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ دار الرجل ما يسكنها هو وأهله، ويطلق على البلد؛ وهو المراد هنا.

﴿جَٰثِمِينَ﴾ يقال: جثم الناس إذا قعدوا لا حراك بهم، وفي «السمين» وقال: أبو عبيدة: الجثوم للناس والطير كالبروك للإبل. اهـ. وفي «المصباح»:

جثم الطائر والأرنب يجثم من بابي دخل وجلس جثوماً، وهو كالبروك من البعير، وربما أطلق على الظباء والإبل، والفاعل جاثم وجثام مبالغة، ثم استعير الثاني مؤكداً بالهاء للرجل الذي يلازم الحضر ولا يسافر، فقيل فيه: جثامة وزان علامة ونسابة، ثم سمي به، ومنه الصعب بن جثامة الليثي. اهـ. وفي «القاموس»: جثم إذا لزم مكانه ولم يبرح، أو وقع على صدره. اهـ.

﴿وَلُوطًا﴾ هو[1] لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم عليهما السلام ولد في الطرف الشرقي من جنوب العراق، وكانت تسمى أرض بابل، وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى ما بين النهرين، وكان يسمى جزيرة قوراً، وهناك كانت مملكة أشور، ثم أسكنه إبراهيم شرقي الأردن، لجودة مراعيها، وكان في ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت، أو بحر لوط قرى خمس سكن لوط في إحداها المسماة بسذوم، وكانت تعمل الخبائث، ولا يوجد الآن ما يدل على موضعها بالتحديد، وبعض الناس يقول: إن البحر قد غمرها، ولا دليل لهم على ذلك.

﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ شهوة إما مفعول لأجله، أو مصدر واقع موقع الحال؛ أي: مشتهين ملتذين، أو باق على مصدريته، ناصبه أتأتون؛ لأنه بمعنى: أتشتهون شهوة، ويقال: شَهِيَ يَشْهَى شَهْوَةً وشَهَىٰ يَشْهُو شهوة من بابي تعب وعلا. كما في «المصباح».

﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ في «المصباح»: غبر غبوراً - من باب قعد - إذا بقي، ويستعمل فيما مضى أيضاً، فيكون من الأضداد، قال الزبيدي: غبر غبوراً: مكث. اهـ.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ قال أبو عبيد[2]: يقال: مطر في الرحمة، وأمطر في

---

(١) المراغي.

(٢) الفتوحات.

العذاب. وقال الراغب: ويقال: مطر في الخير، وأمطر في العذاب قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وهذا مردود بقوله تعالى: ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فإنهم إنما عتوا بذلك الرحمة، وهو من أمطر رباعياً، ومطر وأمطر بمعنى واحد يتعديان لمفعول واحد، يقال: مطرتهم السماء وأمطرتهم، وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ ضمن معنى أرسلنا، ولذلك عدو يعلى، وعلى هذا فمطراً مفعول به؛ لأنه يراد به الحجارة، ولا يراد به المصدر أصلاً إذا لو كان كذلك؛ لقيل إمطاراً، اهـ «سمين».

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ والكيل[1]: مصدر كنى به عن الآلة التي يكال بها كقوله في هود: ﴿الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، فطابق قوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو باقي على المصدرية، وأريد بالميزان المصدر كالميعاد لا الآلة، فتطابقا، أو حمل الميزان على حذف مضاف؛ أي: ووزن الميزان والكيل على إرادة المكيال، فتطابقا.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يقال: بخسه حقه؛ أي: نقصه ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ والإفساد شامل لإفساد نظام الاجتماع بالظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، وإفساد الأخلاق والآداب بارتكاب الإثم والفواحش، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظم.

﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وإصلاح الأرض هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة المزكية للأنفس، والأعمال المرقية للعمران المحسنة لأحوال المعيشة. ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ الصراط: الطريق المحسوس.

﴿تُوعِدُونَ﴾؛ أي: تخوفون الناس بالقتل والضرب. وفي «القاموس» الوعيد: التهديد، والتوعد: التهدد كالإيعاد. اهـ. ثم قال: وهدده خوفه. اهـ.

---

(١) البحر المحيط.

﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ يحتمل[1] قلة العدد، ويحتمل قلة المال، ويحتمل قلة القوة التي هي الضعف، فقوله: ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾؛ أي: كثر عددكم وكثركم بالغنى بعد الفقر، وكثركم بالقوة بعد الضعف.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين قوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾.. و﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾: وبين ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ و﴿كَافِرُونَ﴾، وبين ﴿الرِّجَالَ﴾ و﴿النِّسَاءِ﴾ في قوله: ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾، وبين قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا﴾ وقوله ﴿وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، وفي قوله: ﴿أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ﴾، وفي قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾، وفي قوله: ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَعَقَرُوا﴾ لأن العاقر واحد منهم، فنسب العقر إلى الكل لرضاهم له نسبة لما للبعض إلى الكل.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾؛ أي: والصيحة من السماء وقد وقع التصريح بها آية أخرى، فكان عذابهم بالرجفة والصيحة، فذكر في كل موضع واحدة منهما اهـ «قاري».

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾.

ومنها: السخرية والاستهزاء بلوط وأهله في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

---

(١) الخازن.

ويسمى هذا النوع في علم البديع التعريض بما يوهم الذم، ولذلك قال ابن عباس: عابوهم بما يمدح به، وهذا مثل قول الشاعر:

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

والله سبحانه وتعالى أعلم(١)

* * *

(١) إلى هنا تم الجزء الثامن من تفسير القرآن العظيم بتوفيق الله الجواد الكريم، فنحمده على إفضاله، ونشكره على نواله، ونصلي ونسلم على صفيه وحبيبه محمد وآله وصحبه صلاة وسلاماً دائمين بدوام جوده وفضله وكرمه وطوله ما تطارد الجديدان، وتطاول المدى والزمان.

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بالمسفلة حارة الرشد من مكة المكرمة زادها الله شرفاً، ورزقنا الموتَ فيها، في اليوم التاسع عشر من الشهر المبارك الربيع الأول يوم الأربعاء قبيل الغروب من شهور سنة عشر وأربعمئة وألف من الهجرة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ـ بتاريخ: ١٩/ ٣/ ١٤١٠هـ، الموافق ١٨/ ١٠/ ١٩٨٩م في شهر أكتوبر.

وكان الانتهاء إلى هذا الموضع في التاريخ المذكور في أعلى الصحيفة بيد مؤلفه: محمد أمين بن عبد الله الأرمي الأثيوبي الهرري الراجي من ربه سبحانه أن يعينه على إكماله، وييسره عليه، ويوفقه لما هو المعنى عنده، ويجعل في عمره البركة إلى تمامه، ويحفظ عليه سمعه وبصره وفهمه وعقله وجسمه وجميع قواه إلى انتهائه، وينفع به من شاء من عباده، ويجعله لهم مرجعاً في علوم كتابه، وذخيرة له عند وفوده إلى دار الآخرة، ويجعله خالصاً مخلصاً لوجهه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

تم المجلد التاسع من شرح حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ويليه المجلد العاشر وأوله قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ...﴾ الآية.

شعرٌ

أُطْلُبْ وَلاَ تَضْجَرَنَّ مِنْ مَطْلَبٍ ... فَآفَةُ ٱلطَّالِبِ أَنْ يَضْجَرَا
أَمَا تَرَىٰ ٱلْحَبْلَ بِتَكْرَارِهِ ... فِيْ ٱلصَّخْرَةِ ٱلصَّمَّاءِ قَدْ أَثَّرَا

آخرُ

دَبَبْتُ لِلْمَجْدِ وَٱلسَّاعُوْنَ قَدْ بَلَغُوْا ... حَدَّ ٱلنُّفُوْسِ وَأَلْقَوْا دُوْنَهُ ٱلأُزُرَا
وَكَابَدُوْا ٱلْجُهْدَ حَتَّىٰ مَلَّ أَكْثَرُهُمْ ... وَعَانَقَ ٱلْمَجْدَ مَنْ وَافَىٰ وَمَنْ صَبَرَا
لاَ تَحْسَبِ ٱلْمَجْدَ تَمْرَاً أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ ٱلْمَجْدَ حَتَّىٰ تَلْعَقَ ٱلصَّبْرَا

الفهرس

تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد العاشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر

كِـتَـابٌ لَـوْ يُـبَـاعُ بَـوْزْنِـهِ ذَهَـبَـاً   لَـكَـانَ ٱلْـبَـائِـعُ فِـيْـهِ ٱلْـمَـغْـبُـوْنَـا
حَـوَىٰ مِـنْ ثِـمَـارِ ٱلـتَّـفْـسِـيْـرِ أَفْـنَـانَـاً   فَـٱلْـحَـمْـدُ لِـلَّـهِ عَـلَـىٰ مَـا حَـبَـانَـا

آخر

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ   وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ   وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخر

يَـا طَـالِـبَ ٱلْـعِـلْـمِ بَـاشِـرُ ٱلْـوَرَعَـا   وَجَـانِـب آلـنَّـوْمَ وَٱحْـذَرِ ٱلـشِّـبَـعَـا
دَاوِمْ عَـلَـىٰ ٱلـدَّرْسِ لاَ تُـفَـارِقْـهُ   فَـٱلْـعِـلْـمُ بِـٱلـدَّرْسِ قَـامَ وَٱرْتَـفَـعَـا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بحمدك نبتدي، وبعونك نستكفي، وبتوفيقك نهتدي إلى تفسير كتابك الكريم، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ونصلي ونسلم على نبيه وحبيبه سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه ما سطر القلم بمداد الإخلاص تفاسير الكتاب، راجياً منه سبحانه وتعالى الخلاص من التبعات في يوم القيامة، والفوز بدار السلام.

أما بعد: فأقول وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا
اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا
افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ
شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ
مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ
حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ
الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن
يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ
وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ
﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ...﴾ الآيات[١]، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ هذه الآيات من تتمة قصص شعيب، ذكر فيها جواب الملأ من قومه عما أمرهم به من عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وعدم الفساد في الأرض، وعما ختم به حديثه من التهديد والإنذار بقوله: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾.

وتولى الرد عليه أشراف قومه، كما هو الشأن في بحث كبريات المسائل ومهام الأمور.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها ظاهرة: وهي أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر جواب الملأ من قوم شعيب، وطلبهم منه العود إلى ملتهم، وبيَّن يأسهم منه بما كان من جوابه لهم الدال على ثباته في مقارعتهم، وأنَّه دائم النصح والتذكير لهم علَّهم يرعوون عن غيّهم.. ذكر هنا أنَّهم حذروا من آمن منهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، إذ سيلحقهم الخسار في دينهم، والخسار في دنياهم، لعل ذلك يثنيهم عن عزيمتهم، ويردهم إلى الرشاد من أمرهم، بحسب ما يزعمون، فكانت عاقبة ذلك أن أصبحوا كأمس الدابر، وأصبحت ديارهم خراباً يبابا، لا أنيس فيها ولا جليس.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[٢] حال الأمم السابقة مع أنبيائها، وبيَّن من العظة والعبرة، فقد كانت العاقبة في كل حال للمتقين، والدائرة تدور على المبطلين.. أشار هنا إلى سنة الله في الأمم التي تكذب رسلها، أنْ ينزل بها البؤس وشظف العيش، وسوء الحال في دنياهم، ليتضرعوا إلى ربهم وينيبوا إليه بالإقلاع عن كفرهم، والتوبة من تكذيب أنبيائهم، وفي هذا من التحذير لقريش والتخويف لهم ما لا يخفى.

ثم ذكر أنَّه بدل الرخاء بالبؤس ليعتبروا ويشكروا، لكنَّهم لم يفعلوا فأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

وقال أبو حيان[1]: مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر ما حل بالأمم السالفة من بأسه وسطوته عليهم آخر أمرهم، حين لا تجدي فيهم الموعظة.. ذكر تعالى هنا أنَّ تلك عادته في أتباع الأنبياء إذا أصروا على تكذيبهم. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بيَّن أخذه لأهل القرى الذين كذبوا رسلهم، وكفروا بما جاؤوا به، وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بما افتنّوا فيه من أفانين الشرك والمعاصي، كما حكى الله في محاورتهم لرسلهم، وإجابة الرسل لهم بما سلف ذكره.. ذكر هنا لأهل مكة ولسائر الناس ما كان يكون من إغداق نعمه تعالى عليهم لو آمنوا بالرسل، واهتدوا بهديهم، واعتبروا بسنة الله في الأمم من قبلهم، فإنَّ سنته تعالى في الأمم واحدة، لا تبديل فيها ولا تحويل.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّها خطاب وُجِّه إلى النبي ﷺ، تسلية وتثبيتاً له على الصبر على دعوته، بتذكيره بما في قصص أولئك الرسل مع أقوامهم، من وجوه العبر والمواعظ، وبيانِ أن ما يلاقيه منهم من ضروب العناد والاستكبار والإيذاء، ليس بدعا بين الأمم، بل ذلك طريق سلكه كثير من الأمم المجاورة لهم، كعاد وثمود وأصحاب الأيكة، وغيرهم ممن تقدم ذكرهم، وقصصهم تدور على ألسنتهم بحكم الجوار لهم، وطروق أرضهم في حلهم وترحالهم في رحلتي الشتاء والصيف.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: قال الأشراف من قوم شعيب، الذين تكبروا وأنفوا عن الإيمان به، وعن اتباع ما أمرهم به وما نهاهم عنه؛ أي: قالوا مقسمين: والله ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ أنت من قريتنا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

ولنخرجن معك الذين آمنوا بك، والظرف متعلق بالإخراج لا بالإيمان، أي: والله لنخرجنك وأتباعك ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾ مدين؛ أي: من بلادنا كلها، بغضاً لكم ودفعاً لغشكم ﴿أَوْ﴾ والله ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾؛ أي: أو لترجعن إلى ديننا ومعتقداتنا التي ورثناها عن أبائنا، وتدخلن في زمرتنا، وتندمجن في غمارنا.

الخلاصة[١]: ليكونن أحد الأمرين: إخراجكم من البلاد، أو عودتكم في الملة، فاختاروا لأنفسكم ما ترونه أرفق بكم وأوفق لكم.

وشعيب عليه السلام لم يكن قبل النبوة على ملة أخرى غير ملة قومه، فساغ لهم أنْ يطالبوه بالعود إلى ملتهم، وكونه لم يشاركهم في شركهم وفي بخس الناس أشياءهم ـ أمر سلبي لا يعده به جمهورهم خروجاً عنهم ـ فلا منافاة بين هذا وعصمة الأنبياء عن الكفر.

قال في «الخازن»: وهذا الكلام فيه إشكال، وهو[٢] أنَّ شعيباً عليه السلام لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع إلى ما كان عليه، فما معنى قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾؟ وأجيب عن هذا الإشكال: بأنَّ أتباع شعيب كانوا قبل الإيمان به على ملة أولئك الكفار، فخاطبوا شعيباً وأتباعه جميعاً، فدخل هو في الخطاب، وإنْ لم يكن على ملتهم قط، وقيل معناه: لتصيرن إلى ملتنا، فوقع العود على معنى الابتداء، كما تقول: قد عاد عليَّ من فلان مكروه، بمعنى قد لحقني منه ذلك، وإنْ لم يكن قد سبق منه مكروه، فهو كما قال الشاعر:

فَإِنْ تَكُنِ ٱلأَيَّامُ أَحْسَنَّ مُدَّةً إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

أراد فقد حارت لهن ذنوب، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان. انتهى.

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾؛ أي[٣]: أتأمروننا أنْ نعود

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

في ملتكم، وتهددوننا بالنفي من أوطاننا، والإخراج من ديارنا، إن لم نفعل، ولو كنا كارهين لكل من الأمرين؟ والاستفهام فيه للإنكار

والمعنى: لا تطمعوا في عودنا مختارين ولا مكرهين، فتأمل - ذكره الصاوي - إنَّكم لقد جهلتم أنَّ الدين عقيدة وأعمال، يتقرب بها إلى الله الذي شرعها لتكميل الفطرة البشرية، كما جهلتم أنَّ حب الوطن لا يبلغ منزلة حب الدين لدي ولدى قومي، فظننتم فيَّ وفيمن آمن معي أنَّنا نؤثر التمتع بالإقامة في الوطن على مرضاة الله تعالى بالتوحيد المطهِّر من أدران الخرافات، وبالفضائل المهذبة للنفوس، والمرقية لها في معارج الكمال، حتى تتم لنا سعادة الدنيا والآخرة.

فللدين منزلة في النفوس لا تسمو إليها منزلة أخرى، فإنْ تمكن صاحبه من إقامته في وطنه، وإصلاح أهله به.. فهم أحق به، وإن فتن في دينه فيه.. كان تركه واجباً عليه، وقد أوجب الله الهجرة على من يستضعف في وطنه، فيمنع من إقامة دينه فيه، فإن لم يفعل ذلك.. دخل تحت وعيد قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الآية.

وقال الشوكاني[1]: وجملة قوله: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، والهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود، والواو للحال؛ أي: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا للعود إليها، أو أتخرجوننا من قريتكم في حال كراهتنا للخروج منها، أو في حال كراهتنا للأمرين جميعاً؟

والمعنى: أنَّه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين، ولا يصح لكم ذلك، فإنَّ المكره لا اختيار له، ولا تعد موافقته مكرها موافقةً، ولا عوده إلى ملتكم مكرهاً عوداً، وبهذا التقدير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين في هذا

---

(١) فتح القدير.

المقام، حتى تسبب من ذلك تطويل ذيول الكلام.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾ واختلقنا ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَذِبًا﴾ عظيماً وتخرصنا عليه من القول باطلاً ﴿إِنْ﴾ نحن ﴿عُدْنَا﴾ ورجعنا ودخلنا في ﴿مِلَّتِكُم﴾ الباطلة، وقد علمنا فساد ما أنتم عليه من الملة والدين ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وخلصنا ﴿مِنْهَا﴾ وبصرنا خطأها، وهدانا الصراط المستقيم، باتباع ملة إبراهيم، وإذا كان اتباع ملتكم يعد افتراء على الله لأنَّه قول عليه، لا علم لنا به بوحي ولا برهان من العقل.. فكيف بمن يفتري عليه ويضل عن صراطه على علم؟ فالكفر بالحق وغمطه بعد العلم به هو شر أنواع الكفر، والافتراء على الله فيه أفظع ضروب الافتراء، التي لا تقبل فيها الأعذار بحال.

وفي قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾، أيضاً فيه من الإشكال(١) مثل ما في الأول، وهو أنَّ شعيباً عليه السلام ما كان في ملتهم قط حتى يقول: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ والجواب عنه مثل ما أجيب به عن الإشكال الأول، وهو أنْ تقول: إنَّ الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة، إلا أنَّ شعيباً نظم نفسه في جملتهم وإنْ كان بريئاً مما كانوا عليه من الكفر، فأجرى الكلام على حكم التغليب، وقيل: معنى ﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ علمنا قبح ملتكم، وفسادها، فكأنَّه خلصنا منها. وعبارة المراغي قوله: ﴿إِذْ نَجَّىٰنَا﴾؛ أي: نجى أصحابي منها، فهو تغليب بإدخاله في زمرتهم، أو: نجاني من الإنتماء إلى هذه الملة التي ما كنت أؤمن بعقيدتها، ولا أعمل بعمل أهلها. انتهى.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾؛ أي: ما ينبغي لنا، ولا يصح منا، ولا يستقيم ﴿أَن نَّعُودَ﴾ ونرجع إلى ملتكم وندخل ﴿فِيهَآ﴾ ونترك الحق الذي نحن عليه في حال من الأحوال ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾؛ أي: إلا في حال مشيئة ربنا أنْ نعود فيها، فهو وحده القادر على ذلك، لا أنتم ولا نحن، لأنَّا موقنون بأن ملتكم باطلة، وملتنا هي الحق، التي بها صلاح حال البشر وعمران الأرض، فحينئذ يمضي

---

(١) الخازن.

قضاء الله وقدره فينا، وينفذ سابق مشيئته علينا.

وهذه الجملة[1] رفض آخر للعود إلى ملتهم، مؤكد أبلغ التأكيد، مُؤْسٍ لهم من عودته ومن آمن معه إلى ملتهم، فبعد أن نفى وقوع العود منهم باختيارهم، نفاه نفياً مؤكداً بأنَّه ليس من شأنهم، ولا يجيء من قبلهم بحال من الأحوال، كالترغيب والترهيب، بالرجاء في المنافع، والخوف من المضار، كالإخراج من الديار إلا حالاً واحدة، وهي مشيئة الله، ومشيئته تجري بحسب علمه وحكمته في خلقه، وسنته في خلقه أنْ ينصر أهل الحق على أهل الباطل ما داموا ناصرين له، وقائمين بما هداهم إليه منه.

وخلاصة ذلك: لا تطمعوا أن يشاء ربنا الحفي بنا، عودتنا في ملتكم، بعد إذ نجانا منها بفضله، فما كان الله ليدحض حجته ويغير سنته.

وقال الواحدي: معنى[2] العود هنا الابتداء.

والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية: أنَّ شعيباً وأصحابه قالوا: ما كنا نرجع إلى ملتكم بعد أن وقفنا على أنَّها ضلالة تكسب دخول النار، إلا أنْ يريد الله إهلاكنا، فأمورنا راجعة إلى الله، غير خارجة عن قبضته، يُسعد من يشاء بالطاعة، ويشقي من يشاء بالمعصية، وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله تعالى، ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر، ألا ترى إلى قول الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. وكان نبينا محمد ﷺ كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قال الزجاج ـ رحمه الله تعالى ـ: المعنى: وما يكون لنا أنْ نعود فيها، إلا أنْ يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أنْ نعود فيها، وتصديق ذلك قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾؛ أي: أحاط علم ربنا سبحانه وتعالى أزلاً بكل الأشياء، ويعلم ما كان وما سيكون، قبل أنْ يكون، فالسعيد من سعد في علم الله، والشقي من شقي في علم الله، فهو سبحانه وتعالى يعلم كل حكمة ومصلحة ومشيئة تجري على موجب الحكمة، فكل

---

(١) المراغي. (٢) الواحدي.

ما يقع فهو مشتمل عليها، وفي هذا إيماء إلى عدم الأمن من مكر الله سبحانه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: اعتمدنا، وفي أنْ يثبتنا على ما نحن عليه من الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله، ويتم علينا نعمته ويعصمنا من نقمته، وإليه استندنا في أمورنا كلها، فإنَّه الكافي لمن توكل عليه؛ أي: إلى الله وحده وكلنا أمورنا، مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من الحفاظ على شرعه ودينه، فهو الذي يكفينا تهديدكم، وما ليس في استطاعتنا من جهادكم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. إذ من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية، ومراعاة السنن الكونية، والاجتماعية، فمن يترك العمل بالأسباب.. فهو الجاهل المغرور، لا المتوكل المأجور.

كيف وقد قال النبي ﷺ لمن سأله: أيترك ناقته سائبة ويتوكل على الله؟ «إعقلها وتوكل». رواه الترمذي، وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ، بعد أنْ أمره بمشورة أصحابه في غزوة أحد: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ وإنما يكون العزم بعد الأخذ في الأسباب، فقد لبس من يومئذ درعين، وأعد العدة لقتال أعدائه، ورتب الجيوش بحسب القوانين المعروفة في ذلك العصر.

وخلاصة رد شعيب على الملأ من قومه: أنَّه عجب من تهديدهم وإنذارهم، وأقام الأدلة على امتناع عودهم إلى ملة الكفر باختيارهم، وعدم استطاعة أحد إجبارهم عليه، غير الله الفعال لما يريد، ثمَّ ثنى بذكر توكله على الله الذي يكفي من توكل عليه ما أهمه، مما هو فوق كسبه واختياره، ثمَّ ثلث بالدعاء الذي لا يكون مرجو الإجابة إلا بعد القيام بعمل ما في الطاقة من الأعمال الكسبية مع التوكل على الله فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ﴾واحكم وافصل واقض ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل الذي لا جور فيه، ولا ظلم ولا حيف، الذي مضت به سنتك في التنازع بين المرسلين والكافرين، وبين المحقين والمبطلين. وكرر الظرف في قوله: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ بخلاف قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ زيادة في تأكيد تميزه ومن معه من قومه ا. هـ «سمين» ﴿وَأَنتَ﴾: يا ربنا ﴿خَيْرُ

﴿ٱلْفَٰتِحِينَ﴾؛ أي: خير الحاكمين لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم، وتنزهك عن ابتاع الظلم واتباع الهوى في الحكم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: وقال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم؛ أي: قال الرؤساء من قومه للسفلة ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ في دينه ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ في حال اتبعتموه فيما يقول ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: لمغبونون في الدين وفي الدنيا؛ لأنَّه يمنعكم من أخذ الزيادة من أموال الناس.

والمعنى: وقال الكافرون من قوم شعيب ـ وهم الملأ الذين جحدوا آيات الله، وكذبوا رسوله، وتمادوا في غيهم ـ لآخرين منهم: والله لئن اتبعتم شعيباً فيما يقول، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله، وأقررتم بنبوته.. إنَّكم إذاً لخاسرون في فعلكم وترككم ملتكم التي أنتم عليها، وعمموا الخسران ليشمل خسران الشرف والمجد، إذ بإيثاركم ملته على ملة آبائكم وأجدادكم، تعترفون بأنَّهم كانوا ضالين ومعذبين عند الله، وخسران الثروة والربح بما تحترفونه من تطفيف الكيل والميزان، وبخس الغرباء أشياءهم.

ووصف الملأ أولا بالاستكبار؛ لأنَّه هو الذي جرَّأهم على تهديده، وإنذاره بالإخراج من القرية، وإشعاره بأنَّهم أرباب السلطان فيها، وثانياً بالكفر؛ لأنَّه هو الحامل على الإغواء وصدهم عن الإيمان، والأخذ بما جاء به، ثم عللوا لهم صدهم بأنَّ في ذلك لهم مصلحة أيما مصلحة، وفائدة أيما فائدة.

والخلاصة: أنه تعالى وصفهم أولاً بالضلال، ثم وصفهم ثانياً بالإغواء والإضلال.

ثم ذكر عاقبة أمرهم وما أصابهم من نكال فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة الشديدة المهلكة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾؛ أي: فصاروا في مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: منكبين على وجوههم ميِّتين. وقد بين سبحانه في سورة الشعراء أنَّ الله أرسل شعيباً إلى أصحاب الأيكة ـ وهم إخوة مدين في النسب ـ. أخرج ابن عساكر، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال: كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر ومدين، وفي ذلك دليل على أن الله أرسله

إلى أهل مديَن وإلى من اتصل بهم إلى ساحل البحر، وأن حال الفريقين في الكفر والمعاصي كانت واحدة، وكان ينذرهم متنقلاً بينهم، وكان عذاب مدين بالصيحة والرجفة المصاحبة لها، وعذاب أصحاب الأيكة بالسموم والحر الشديد، وقد انتهى ذلك بظلةٍ من السحاب، فزعوا إليها يتبردون بظلها، فأطلقت عليهم فاختنقوا بها أجمعون.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾؛ أي: استؤصلوا بالمرة، وصاروا كأنَّهم لم يقيموا في قريتهم أصلاً؛ أي: عوقبوا بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾. وصاروا هم المخرجين من القرية إخراجاً لا دخول بعده أبداً ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ديناً ودُنيا دون الذين اتبعوه؛ فإنَّهم الرابحون في الدارين.

وعبارة «المراغي» هنا: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾ الآية. جاءت هذه الجملة بياناً من الله لما انتهى إليه أمرهم، وكيف كان عاقبة عملهم، فكأنَّ سائلاً سأل عما آل إليه تهديدهم لشعيب وقومه بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ وقولهم لقومهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فأجاب عن الأول جواباً مناقضاً له بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا...﴾ إلخ؛ أي: الذين كذبوا شعيباً وأنذروه بالإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم، فحرموها كأنْ لم يقيموا فيها، ولم يعيشوا فيها بحال، وأجاب عن الثاني: بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: الذين كذبوا وزعموا أنَّ من يتبعه يكون خاسراً، كانوا هم الخاسرين لما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة، دون الذين اتبعوه؛ فإنَّهم كانوا هم الفائزين المفلحين.

وفي الآية[١] إيماء إلى أنَّ الحريص على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على أهل الحق، تكون عاقبته الحرمان الأبدي منه، كما أنَّ الحريص على الربح، بأكل أموال الناس بالباطل، ينتهي بالحرمان منه ومن غيره.

---

(١) المراغي.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فأدبر شعيب عنهم، وخرج من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله ﴿وَقَالَ﴾ حزناً عليهم ﴿يَٰقَوْمِ﴾ والله ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ وأديت إليكم ما بعثني به إليكم، من الأوامر والنواهي والتوحيد ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ أي: وأظهرت لكم النصح فأبيتم قَبوله، فجاءكم العذاب ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾؛ أي: فكيف أحزن على عذاب قوم جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسله، وأتوجع لهلاكهم، بعد أنْ أعذرت إليهم، وبذلت جهدي في سبيل هدايتهم ونجاتهم، فاختاروا ما فيه هلاكهم؛ لأنَّهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب إصرارهم على الكفر وإنَّما يأسى مَن قصر فيما يجب عليه من النصح والإنذار.

والمعنى[1]: لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة مما حل بكم، فلم تَسمعوا قولي، ولم تقبلوا نصحي، فكيف آسى عليكم؟ والمراد: أنَّهم ليسوا مستحقين بأنْ يأسى الإنسان عليهم، والاستفهام فيه للإنكار وفيه معنى التعجب.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِّن نَّبِىٍّ﴾؛ أي: نبياً من الأنبياء فكذبه أهلها ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾؛ أي: عاقبناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾؛ أي: بالشدة في أحوالهم، كالخوف وضيق العيش ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ أي: الأمراض والأوجاع، أي: وما أرسلنا في قرية من القرى نبياً من الأنبياء، فكذبه أهلها، إلا أخذنا أهلها وعاقبناهم بالفقر والجوع، والأوجاع والأمراض ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾؛ أي: لكي يتضرعوا ويتذللوا، فَيَدَعوا ما هم عليه من الاستكبار وتكذيب الأنبياء، وينقادوا لأمر الله تعالى.

والمعنى: أنَّ سنتنا قد جرت ـ ولا مبدل لها ـ أنَّنا إذا أرسلنا نبياً في قوم وكذبوه. أنزلنا بهم الشدائد والمصائب، لنُعِدَّهم ونؤهِّلهم للتضرع والإخلاص في دعائنا بكشفها، وقد ثبت بالتجارب لدى علماء الأخلاق: أنَّ الشدائد تربي الناس، وتصلح فساد أحوالهم، فالمؤمن قد يشغله هناء العيش عن حاجته إلى

(١) المراح.

ربه، لكن الشدائد تذكره به، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها له بفقدها، وتنبهه الشدائد والأهوال إلى وجود الرب الخالق، والمدبر لأمور الخلق، وتذكره الأهوال بمصدر هذا النظام في الكون ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أخذناهم بالبأساء والضراء ﴿بَدَّلْنَا﴾؛ أي: أعطينا لهم ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾؛ أي: الرخاء والسعة؛ أي: ثمَّ أعطيناهم السعة والصحة بدل ما كانوا فيه من البلاء والمرض؛ لأنَّ ورود النعمة في المال والبدن يدعو إلى الاشتغال بالشكر، والمراد: بدلنا مكان الحال السيئة من البأساء والضراء، الحال الحسنة من السراء والنعمة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾؛ أي: حتى كثروا في أنفسهم وأموالهم ونموا، إذ إنَّ الرخاء مما يكون سبباً في كثرة النسل، وبه تتم النعمة في الدنيا على الموسرين، ومن هذه الحسنات: ما حدث لقوم هود من النعم التي بطروا بها، وذكرهم هود بها في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وكذا ما قاله صالح لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. ﴿وَقَالُوا۟﴾ قولاً يدل على أنَّهم لا يعتبرون بأحداث الزمان، إذ قالوا: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا﴾ ممن قبلنا ﴿ٱلضَّرَّآءُ﴾؛ أي: ما يسؤهم من الشدائد والأمراض ﴿وَٱلسَّرَّآءُ﴾؛ أي: ما يسرهم من الرخاء والراحة والخصب، كما أصابنا، وما نحن إلا مثلهم، فيصيبنا مثل ما أصابهم، وهذه عادة الزمان في أهله، فمرة يحصل فيهم الشدة والنكد، ومرة يحصل لهم الرخاء والراحة، وتلك عادة الدهر بأبنائه، فلا الضراء عقاب على ذنب يرتكب، ولا السراء جزاء على صالحات تكتسب، فصبروا على دينهم، فنحن مثلهم، نقتدي بهم، فليست عقوبة من الله بسبب ما نحن عليه من الدين والعمل، فلمَّا لم ينقادوا بالشدة وبالرخاء، ولم ينتفعوا بذلك الإمهال.. أخذهم الله بغتة أينما كانوا، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بعد ذلك ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة بالعذاب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: والحال أنَّهم لا يعلمون وقت نزول العذاب بهم، ولا يخطرون ببالهم شيئاً من المكاره، أي: فكان عاقبة أمرهم أنْ أخذناهم بالعذاب فجأة، وهم لا شعور لديهم بما سيحل بهم، إذ هم

قد جهلوا سنن الله التي وضعها في شؤون الاجتماع، فلا هم اهتدوا إليها بعقولهم، ولا هم صدقوا الرسل فيما أنذروهم به، ونحو هذه الآية قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فالكافرون إذا مسهم الشر.. يئسوا وابتأسوا، وإذا مسهم الخير.. بطروا واستكبروا وبغوا في الأرض، وأهلكوا الحرث والنسل، والمؤمنون بالله وما جاء به رسله تكون الشدائد والمصائب تربيةً لهم وتمحيصاً.

ولما ترك[1] المسلمون هدى القرآن في حكوماتهم ومصالحم العامة، في أعمال الأفراد.. سلبهم الله ما أعطاهم من أنواع العلم والحكمة، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، فاتبعوا أهل الكتاب في خرافاتهم وحفلهم، وتقليد آبائهم وأجدادهم، فغشيهم الجهل والثابتة منهم قلدوا الإفرنج في الفسق والفجور، وشر ما وصلوا إليه في طور فساد حضارتهم، وقلدوهم حتى فيما لا يوافق أحوالهم وبلادهم ومصالحهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الذين أهلكناهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿لَفَتَحْنَا﴾؛ أي: لبسطنا ﴿عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿و﴾ بركات من ﴿الأرض﴾ بالنبات، والثمار، والحبوب، والمواشي، والأمن، والسلامة؛ أي: لوسعنا عليهم الخيرات من فوقهم ومن تحتهم، ومن كل الجوانب من النعم التي لم يروا مثلها قط. وقال[2] السدِّي: المعنى: لفتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق، وقيل: بركات السماء إجابة الدعاء، وبركات الأرض تيسير الحاجات. وقيل: البركات النمو والزيادة، فمن السماء بجهة المطر والريح والشمس والقمر، ومن الأرض بجهة النبات والحفظ لما نبت؛ وذلك لأنَّ السماء تجري مجرى الأب، والأرض تجري مجرى الأم،

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

ومنهما تحصل جميع الخيرات بخلق الله وتدبيره. ذكره أبو حيان.

وقرأ ابن[1] عامر وعيسى الثقفي وأبو عبد الرحمن: ﴿لفتَّحنا﴾ بتشديد التاء. ومعنى الفتح هنا التيسير عليهم، كما تيسر على الأبواب المنغلقة بفتحها، ومنه: فتحت على القارىء، إذا يسرت عليه بتلقينك إياه ما تعذر عليه حفظه من القرآن إذا أراد القراءة.

والمعنى[2]: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ التي أرسلنا إليها رسلنا ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالرسل المرسلين إليهم ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ ما صمموا عليه من الكفر، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ليسرنا لهم خير السماء والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها، ويجوز أن يكون اللام في ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ للجنس، والمعنى: ولو أنَّ أهل القرى أينما كانوا، وفي أي بلد سكنوا آمنوا واتقوا. إلى آخر الآية.

وقيل المعنى[3]: ولو أنَّ أهل مكة ومن حولهم من أهل القرى آمنوا بما دعاهم إليه خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه، من عبادته تعالى وحده، واتقوا ما نهاهم عنه من الشرك والفساد في الأرض، بارتكاب الفواحش والآثام.. لفتحنا عليهم أنواعاً من بركات السماء والأرض لم يعهدوها من قبل، فتكون لهم أبواب نعم وبركات، غير التي عهدوا في صفاتها ونمائها وثباتها وأثرها فيهم، فأنزلنا عليهم الأمطار النافعة التي تخصب الأرض، وتكسب البلاد رفاهية العيش، وآتيناهم من العلوم والمعارف، وفهم سنن الكون، ما لم يصل إلى مثله البشر من قبل.

والخلاصة: أنَّهم لو آمنوا.. لوسعنا عليهم الخير من كل جانب، ويسرناه لهم، بدل ما أصابهم من عقوبات بعضها من السماء، وبعضها من الأرض.

والقاعدة التي أقرها القرآن الكريم: أنَّ الإيمان الصحيح، ودين الحق سبب

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

في سعادة الدنيا، ويشارك المؤمنين في المادي منها الكفار، وكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: إنَّ ذلك الفتح كان ابتلاء واختبارا لحالهم، وكان من أثره فيهم البطر والأشر، بدلاً من الشكر لمولي النعم، فكان نقمة لا نعمة، وفتنة لا بركة، ولكن المؤمنين إذا فتح الله عليهم.. كان أثره فيهم شكر الله تعالى عليه، والاغتباط بفضله، واستعماله في سبيل الخير دون الشر، وفي الإصلاح دون الإفساد، وكان جزاؤهم على ذلك زيادة النعم في الدنيا، وحسن الثواب عليها في الآخرة.

﴿وَلَكِن كَذَّبُوا﴾ بالأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ بالعذاب والجدوبة ﴿بِـ﴾سبب ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من الذنوب والمعاصي الموجبة لعذابهم، أو بسبب كسبهم الذنوب.

أي: ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا، بل كذبوا، فأخذناهم بما كانوا يعملون من أعمال الشرك والمعاصي التي تفسد نظم المجتمع البشري، وذلك الأخذ بالشدة أثر لازم لكسبهم المعاصي، بحسب السنن التي وضعها المولى في الكون، ويكون فيه العبرة لأمثالهم، إنْ كانوا يعقلون هذه النواميس العامة، التي لا تبديل فيها ولا تغيير.

ثم عجب من حالهم وذكر من غفلتهم فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ والتقريع، والهمزة داخلة على محذوف، والفاء عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف، والتقدير: أجهل أهلُ مكة وغيرهم من أهل القرى الذين بلغتهم الدعوة والذين ستبلغهم ما نزل بمن قبلهم، وغرهم ما هم فيه من نعمة فأمِنوا؟ ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾؛ أي: عذابنا ﴿بَيَاتًا﴾؛ أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم غافلون عن ذلك، فلا ينبغي لهم أنْ يأمنوا ذلك، والهمزة في قوله: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي أيضاً، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أجهلوا ذلك وأمِنوا؟ ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾؛ أي: عذابنا ﴿ضُحًى﴾؛ أي: نهاراً ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: والحال أنَّهم يشتغلون بما لا ينفعهم؛ أي: والحال أنَّهم مشتغلون باللعب،

ومنهمكون في أعمالهم التي هي كأنَّها لعب أطفال، لعدم الفائدة التي تترتب عليها.

والخلاصة: أنّه تعالى خوفهم نزول العذاب بهم في أوقات الغفلات، إما وقت النوم، وإمَّا وقت الضحى، إذ يكثر فيه تشاغل الناس باللذات. وفي «الخازن»: والمقصود من الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى خوفهم بنزول العذاب وهم في غاية الغفلة، وهو حال النوم في الليل، ووقت الضحى في النهار؛ لأنَّه الوقت الذي يغلب على الإنسان التشاغل فيه بأمور الدنيا، وأمور الدنيا كلها لعب، ويحتمل أنْ يكون المراد خوضهم في كفرهم، وذلك لعب أيضاً يضر ولا ينفع. انتهى.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر[1]: ﴿أوْ أمن﴾ بسكون الواو، وجعل أو عاطفة، ومعناها التنويع، لا أن معناها الإباحة أو التخيير، خلافاً لمن ذهب إلى ذلك، وحذف ورش همزة: ﴿أمن﴾ ونقل حركتها إلى الواو الساكنة، والباقون بهمزة، فالاستفهام بعدها واو العطف، وتكرر لفظ ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لما في ذلك من التسميع والإبلاغ والتهديد والوعيد بالسامع، ما لا يكون في الضمير لو قال: أو أمنوا؛ فإنه متى قصد التفخيم والتعظيم والتهويل جيء بالاسم الظاهر.

والاستفهام في قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ للتقريع[2] والتوبيخ وإنكار ما هم عليه من أمان ما لا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم في هذين الوقتين، وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لإنكار ما أنكره عليهم، وجاء العطف بالفاء وإسناد الفعل إلى الضمير؛ لأن الجملة المعطوفة تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أو ﴿أَمِنَ﴾ وتأكيد لمضمون ذلك، فناسب إعادة الجملة مصحوبة بالفاء. وقال أبو السعود: تكرير المكرر لزيادة التوبيخ والتقريع، والمراد بـ﴿مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ هنا إتيان بأسه في الوقتين المذكورين؛ ولذلك عطف الأول والثالث بالفاء؛ فإنَّ الإنكار فيهما متوجه إلى ترتب الأمن على الأخذ المذكور، وأما الثاني فمن تتمته

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

الأول، فلذلك عطف بالواو. انتهى.

و﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى الفاعل، وهو كناية عن أخذه العبد من حيث لا يشعر. قال ابن عطية: و﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هي إضافة مخلوق إلى الخالق، كما تقول: ناقة الله وبيت الله، والمراد فعل معاقب به مكر الكفرة، فلما كان عقوبة الذنب.. أضيف إلى الله؛ فإن العرب تسمى العقوبة ـ على أي جهة كانت ـ باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة. وهذا نص في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾. انتهى، وقال عطية: ألقوا في مكر الله: عذابه وجزاؤه على مكرهم، وقيل: مكره تعالى استدراجه بالنعمة والصحة، وأخذه على غرة، وكرر المكر مضافاً إلى الله تحقيقاً لوقوع جزاء المكر بهم. ذكره أبو حيان في «البحر».

والمذهب الأسلم الذي نلقى الله عليه: أن مكر الله تعالى صفة ثابتة له تعالى فنثبتها، ولا نكيفه ولا نعطله، أثرها أخذ العبد من حيث لا يشعر.

والمعنى: أجهلوا بأس الله تعالى بمن قبلهم، فأمنوا مكر الله لهم في هذين الوقتين: البيات والضحى ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ وعذابه ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: إلا الكافرون الذين خسروا أنفسهم، حتى صاروا إلى النار المؤبدة.

وقال المراغي: وإذا كانت الآية ناطقة بأن أمن الصالح المتعبد من مكر الله جهلاً يورث الخسر، فما بال من يأمن مكر الله وهو مسترسل في معاصيه، إتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته؟!. وقد كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء بقوله: «اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك». وذكر سبحانه أنَّ الراسخين في العلم يدعونه فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

وكما أن الأمن من مكر الله خسران ومفسدة.. فاليأس من رحمة الله كذلك، فكلاهما مفسدة تتبعها مفاسد.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ للتوبيخ والتقريع، كالتي قبلها، وهي داخلة على محذوف، والواو عاطفة ما بعدها على

ذلك المحذوف، والتقدير: أجهل الذين يرثون أرض مكة وما حولها من بعد إهلاك أهلها الذين هم أسلافهم سنتنا فيمن قبلهم؟ أي: أجهل هؤلاء الوارثون سنتنا فيمن قبلهم، من إهلاكهم بذنوبهم، ولم يهد لهم؛ أي: ولم يتبين لهؤلاء الوارثين من بعد إهلاك أهلها، الذين هم أسلافهم. ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصبنا أولئك المتقدمين؛ أي: أجهلوا سنتنا فيمن قبلهم ولم يبين لهم؟ أي: لهؤلاء الوارثين أنَّه؛ أي: أن الشأن والحال، لو شئنا وأردنا إصابة هؤلاء الوارثين بذنوبهم، أصبناهم وأهلكناهم بذنوبهم، وكفرهم بمحمد ﷺ، كما أصبنا وأهلكنا أولئك الموروثين الذين هم أسلافهم بذنوبهم، والواو في قوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بمعنى (أو) التي تمنع الجمع، عاطفة ما بعدها على أصبناهم؛ أي: أو نطبع ونختم على قلوب هؤلاء الوارثين إن نهلكهم بالعذاب، كما طبعنا على قلوب أولئك المتقدمين ﴿فَهُمْ﴾؛ أي: هؤلاء الوارثون حينئذ؛ أي: حين إذ طبعنا على قلوبهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ الموعظة من أخبار الأمم المهلكة، ولا يقبلونها.

والمراد[1]: لو شئنا نفعل بهؤلاء الوارثين إما الإهلاك وإما الطبع على القلب؛ لأنَّ الإهلاك لا يجتمع مع الطبع على القلب، فإذا أهلك شخص يستحيل أن يطبع على قلبه؛ وإنَّما يجعل الطبع حال استمراره على الكفر، فهو يكفر أولاً، ثم يكون مطبوعاً عليه في الكفر، ولم يكن هذا التقرير منافياً لصحة عطف قوله: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ على ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾.

والمعنى: أي أكان[2] ما ذكر آنفاً مجهولاً لأهل القرى، وأنه هو سنة الله، ولم يتبين لأولئك الذين يرثون الأرض من بعد أهلها، قرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، أنَّ شأننا فيهم، كشأننا فيمن سبقهم، فهم خاضعون لمشيئتنا، فلو نشاء أن نعذبهم بسبب ذنوبهم لعذبناهم، كما أصبنا أمثالهم ممن قبلهم بمثلها، وأهلكناهم كما أهلكناهم، فإن لم نهلكهم بالعذاب.. نطبع على قلوبهم، فلا يسمعون

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. إذ أن قلوبهم قد ملئت بمعتقدات وشهوات تصرفها عن غيرها، فجعلتهم من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً، وقد كان في مثل هذه القصص عبرة للمسلمين أيما عبرة، فكتابهم يقص عليهم قصص الأمم قبلهم، ويبين لهم أنَّ ذنوب الأمم لا تغفر، كذنوب الأفراد، وسننه فيها لا تتبدل ولا تتحول، فكان عليهم أنْ يتقوا كل ما قصه من ذنوب الأمم التي هلك بها من قبلهم، وزالت بها الدولة لأعدائهم، ولكنهم قصروا في وعظ الأمة بها، وإنذارهم عاقبة الإعراض عنها، وكان عليهم أن يعتبروا بقول النبي ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها» وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وفي «زاد المسير» وقرأ يعقوب[1]: ﴿نهد﴾ بالنون، وكذلك في طه والسجدة. قال الزجاج: من قرأ بالياء.. فالمعنى: أولم يبين الله لهم؟ ومن قرأ بالنون.. فالمعنى: أولم نبين؟ انتهى.

وقال الشوكاني: قرىء ﴿نهد﴾[2] بالنون وبالتحتية، فعلى قراءة النون يكون فاعل الفعل هو الله سبحانه وتعالى، ومفعول الفعل: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: أنَّ الشأن هو هذا، وعلى قراءة التحتية يكون فاعل ﴿يهد﴾ هو ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: أخذناهم بكفرهم وتكذيبهم، والهداية هنا بمعنى التبيين، ولهذا عدِّيت باللام. انتهى.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ التي بَعُد عهدها، وطال الأمد على تاريخها، وجهل قومك حقيقة حالها التي أهلكناها ـ وهي قرى قوم نوح، وهود وصالح، ولوط، وشعيب ـ المتقدم ذكرها ﴿نَقُصُّ﴾ ونتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ونخبرك ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾؛ أي: بعض أخبارها، مما فيه العبرة لقومك، والتسلية لك وللمؤمنين؛ لأنَّه[3] إنَّما قص عليه ﷺ ما فيه عظة وإنزجار، دون غيرهما، ولها أنباء غيرها لم يقصها عليه؛

---

(١) زاد المسير.

(٢) فتح القدير.

(٣) الفتوحات.

وإنَّما قص عليه أنباء أهل هذه القرى؛ لأنَّهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم، فتوهموا أنَّهم على الحق، فذكرها الله تعالى لقوم محمد ﷺ ليحترزوا عن مثل تلك الأعمال.

أي: نقص أنباءها عليك لتتسلى، وليحذر كفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصاب هذه القرى، والمضارع يحتمل أنْ يكون على معناه، والمعنى: نقص عليك فيما سيأتي مفترقاً في السور، كما هو الواقع، فإنَّ القرى المذكورة فيما سبق ستأتي قصصها في السور الآتية بأبسط مما ذكر هنا، ويحتمل أنْ يكون بمعنى الماضي، ويحتمل أنْ يكون بالمعنيين.

وقال المراغي: والحكمة في تخصصها بالذكر، أنَّها كانت في بلاد العرب وما جاورها، وكان أهل مكة. وغيرهم ممن وجهت إليهم الدعوة أول الإسلام يتناقلون بعض أخبارها، وهي جميعاً طبعت على غرار واحد في تكذيب الرسل، والمماراة فيما جاؤوا به من النذر، فحل بهم النكال بعذاب الاستئصال، فالعبرة في جميعها واحدة، ومن ثم فصلها في قصة موسى الآتية؛ لأنَّ قومه آمنوا به، وإنَّما كذب فرعون. انتهى.

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ موطئة للقسم؛ أي: إنَّ من أخبارهم - والله - لقد جاءتهم؛ أي: لقد جاءت كل أمة من تلك الأمم المهلكة أنبياءهم، الذين أرسلوا إليهم بالبينات؛ أي: المعجزات الواضحة، الدالة على صحة رسالتهم الموجبة للإيمان ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: فما كان أهل تلك القرى - بعد رؤية تلك المعجزات - ليؤمنوا بالشرائع التي كذبوها قبل رؤية تلك المعجزات، والمعنى[1]: كانت كلُّ أمة من تلك الأمم في زمن الجاهلية يتسامعون بكلمة التوحيد من بقايا مَنْ قبلهم فيكذبونها، ثم كانت حالهم بعد مجيء نبيهم الذي أرسل إليهم كحالتهم قبل ذلك، كأنْ لم يبعث إليهم أحد.

---

(١) المراح.

والمعنى[1]: ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم، وبالآيات التي اقترحوها عليهم لإقامة حجتهم، فجاء كل رسول قومه بما أعذر به إليهم، ولكن لم يكن من شأنهم أنْ يؤمنوا بعد مجيء البينات بما كذبوا به من قبل مجيئها حين بدأ الدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله وحده بما شرعه، وترك الشرك والمعاصي.

ذاك أنَّ شأن المكذبين عناداً أو تقليداً.. أن يصروا على التكذيب بعد إقامة الحجة، إذ لا قيمة لها في نظرهم، فهم إمَّا جاحدون ومعاندون ضلوا على علم، وإما مقلدون يأبون النظر والفهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما طبع الله سبحانه وتعالى، وختم على قلوب كفار الأمم الخالية، من أهل القرى المذكورة وأهلكهم ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ويختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين كتب عليهم أنَّهم لا يؤمنون من قومك، فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير، ولا ترغيب ولا ترهيب؛ أي: مثل ما ذكر من عناد هؤلاء وإصرارهم على الضلال، وعدم تأثير الدلائل والبينات في عقولهم.. يكون الطبع على قلوب من ران الكفر على قلوبهم، وصار العناد ديدنهم، سنة الله في أخلاق البشر وأحوالهم، إذ هم يأنسون بالكفر وأعماله، وتستحوذ أوهامه على عقولهم، ويملأ حب الشهوات أفئدتهم، فلا يقبلون بحثاً، ولا فيما هم عليه نقدا، فما مثلها إلا مثل السكة التي طبعت على طابع خاص أثناء سبك معدنها وإذابته، ثمَّ جمدت، فلا تقبل بعد ذلك نقضاً ولا شكلاً آخر. وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وإعلام له بأنَّ أهل مكة قد وصلوا إلى حال من الجمود والعناد، وفساد الفطرة وإهمال النظر والعقل، لا تؤثر فيها البينات وإنْ وضحت، والآيات وإنْ اقترحت، وقد كانوا يقترحون عليه الآيات، وكان يتمنى أنْ يؤتيه الله ما اقترحوا منها حرصاً على إيمانهم، حتى بين الله له طباعهم وأخلاقهم، ليعرف مبلغ أمرهم في قبول دعوته، وأنَّه لا أمل له

(١) المراغي.

فيهم بحال ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾؛ أي: وما وجدنا[1] لأكثر الأمم الخالية والقرون الماضية، الذين قصصنا خبرهم عليك يا محمد ـ من وفاء بالعهد الذي عهدنا إليهم، وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق ـ قال ابن عباس: إنَّما أهلك الله أهل القرى.. لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به؛ أي: وما وجدنا[2] لأكثر أولئك الأقوام عهداً يفون به، سواء أكان عهد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إذ قد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبي فوق جميع القوى، وعلى إيثار الحسن، واجتناب غيره، وعلى حب الكمال، وكراهة النقص، أم كان العهد الذي أخذه ربهم عليهم ـ وهم في الأصلاب ـ أنه ربهم ومليكهم، وأنَّه لا إله إلا هو، وأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا معه غيره، بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع، وقد جاء في «صحيح مسلم»: «يقول الله: إنّي خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» وفي «الصحيحين»: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»..

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَسِقِينَ﴾؛ أي: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين خارجين عن طاعتنا وأمرنا، وهذا المعنى على مذهب الكوفيين من كون ﴿إن﴾ للنفي واللام بمعنى إلا، وعند غيرهم إنَّ ﴿إن﴾ مخففة، واسمها ضمير الشأن، واللام فارقة، والمعنى حينئذ أي: وإنَّ الشأن والحال وجدنا أكثر الأمم في عالم الشهادة، خارجين عن كل عهد فطري وشرعي وعرفي، فهم ناكثون غادرون للعهود، مرتكبون أفانين المعاصي، وفي التعبير بالأكثر إيماء إلى أنَّ بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهده الله عليه، أو تعاهد عليه مع الناس.

الإعراب

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾.

---

(1) الخازن. (2) المراغي.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ كأنَّه قيل: فماذا قالوا بعد سماعهم هذه المواعظ من شعيب؟ إهـ أبو السعود. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول صفة للملأ ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور، حال من واو ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾. ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾: مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ اللام: موطئة للقسم ﴿نخرجنك﴾ فعل ومفعول، ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول قالوا ﴿يَٰشُعَيْبُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء مقول القول على كونها معترضة ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على الكاف في ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿مَعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نخرجنك﴾ وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مَعَكَ﴾ متعلق بالإخراج لا بالإيمان ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿نخرجنك﴾ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ واللام: موطئة للقسم المحذوف ﴿تعودن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكين، في محل الرفع فاعل؛ لأنَّ أصله تعودونن، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم معطوف على جملة القسم في قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾. ﴿فِى مِلَّتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تعودن﴾.

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿شعيب﴾: والجملة مستأنفة. ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾. وإن شئت قلت: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف تقديره: أتعيدوننا في ملتكم، أو تخرجوننا من قريتكم كارهين، كلا الأمرين، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾[1]. قال الزمخشري: الهمزة:

(١) البحر المحيط.

للاستفهام، والواو: واو الحال تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، أو مع كوننا كارهين. انتهى. فجعل الاستفهام خاصاً بالعود في ملتهم، وليس كذلك، بل الاستفهام هو عن أحد الأمرين: الإخراج أو العود، وجعل الواو واو الحال، وقدره: تعيدوننا في حال كراهتنا وليست واو الحال التي يعبر عنها النحويون بواو الحال، بل هي واو العطف، عطفت على حال محذوفة كقوله: ردوا السائل ولو بظلف محرق، ليس المعنى ردوه في حال الصدقة عليه بظلف محرق، بل المعنى: ردوه مصحوباً بالصدقة، ولو مصحوباً بظلف محرق. ذكره أبو حيان في «البحر». والواو: واو الحال: ﴿لو﴾: حرف شرط بمعنى إنْ الشرطية ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿كَٰرِهِينَ﴾: خبره، وجملة كان فعل شرط لـ﴿لو﴾. وجوابها معلوم مما قبلها تقديره: أو لو كنا كارهين تعيدوننا أو تخرجوننا؟ وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب، حال من ضمير المفعول في الفعل المحذوف تقديره: أتعيدوننا، أو أتخرجوننا، حالة كوننا كارهين كلا الأمرين؟

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة على كونها مقول ﴿قال﴾. وجواب القسم محذوف تقديره: والله لقد افترينا ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿عُدْنَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾، على كونها فعل شرط لها ﴿فِى مِلَّتِكُم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿عُدْنَا﴾: وجواب ﴿إِنْ﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إنْ عدنا في ملتكم.. فقد افترينا على الله كذباً. وجملة ﴿إِنْ﴾: الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بَعْدَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿عُدْنَا﴾. ﴿بَعْدَ﴾: مضاف ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مضاف إليه، ﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، والتقدير: بعد وقت تنجية الله تعالى إيانا منها ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَكُونُ﴾:

فعل مضارع ناقص ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿يَكُونُ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿نَّعُودَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾: وفاعله ضمير المتكلمين يعود على ﴿شعيب﴾ وأتباعه ﴿فِيهَآ﴾ جار ومجرور، متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿يَكُونُ﴾ تقديره: وما يكون العود فيها كائناً لنا، وجملة ﴿يَكُونُ﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من عام الأحوال ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَشَآءَ﴾: منصوب به، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، ﴿رَبُّنَا﴾: بدل من الجلالة، أو عطف بيان منه، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: عودنا، وجملة، ﴿أَن﴾ المصدرية مع ما في حيزها في تأويل مصدر مجرور بإضافة المستثنى المقدر إليه والتقدير: وما يكون لنا أن نعود فيها في حال من الأحوال، إلا في حال مشيئة الله عودنا فيها ﴿وَسِعَ رَبُّنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: مفعول به لـ﴿وَسِعَ﴾. ﴿عِلْمًاۚ﴾: تمييز محول عن الفاعل؛ أي: وسع علمه كل شيء ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَوَكَّلْنَاۚ﴾. ﴿تَوَكَّلْنَاۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف ﴿ٱفْتَحْ﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾: ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱفْتَحْ﴾. ﴿وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾: ظرف ومضاف إليه، معطوف على الظرف الأول ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ٱفْتَحْ﴾. ﴿وَأَنتَ﴾: مبتدأ ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾: حال من الواو ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾: إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: اللام: موطئة للقسم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿ٱتَّبَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿شُعَيْبًا﴾: مفعول به، ﴿إِنَّكُمْ﴾: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، والكاف:

اسمها، ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء ملغاة لا عمل لها لعدم دخولها على الفعل. ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿خاسرون﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: من اسمها وخبرها جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره: إنْ اتبعتم شعيباً.. فإنَّكم لخاسرون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الفاء: حرف عطف وتعقيب ﴿أَخذتهُمْ الرَّجفَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، الفاء: عاطفة ﴿أصبحوا﴾: فعل ناقص، واسمه ﴿فِى دَارِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿جَٰثِمِينَ﴾، ﴿جَٰثِمِينَ﴾ خبر ﴿أصبحوا﴾، وجملة ﴿أصبحوا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره: كأنهم ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَغْنَوْا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿كَأَن﴾ وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾: مبتدأ، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿تولى﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، وما بينهما اعتراض، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿تولى﴾ ﴿وَقَالَ﴾: معطوف على ﴿تولى﴾، ﴿يَٰقَوْمِ﴾: إلى آخر الآية مقول محكي لقال، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى

مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿لَقَدْ﴾: اللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول، ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية، جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَنَصَحْتُ﴾: فعل وفاعل ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾. ﴿فَكَيْفَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿كيف﴾: اسم استفهام في محل النصب على التشبيه بالحال، ﴿ءَاسَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿شعيب﴾ والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿نصحت﴾، ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ متعلق بـ﴿ءَاسَىٰ﴾، ﴿كَافِرِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمٍ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

﴿وَمَا﴾: نافية ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾، متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿نَّبِيٍّ﴾: مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ﴿إلا﴾: أداة استثناء مفرغ من عام الأحوال، ﴿أَخَذْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿أَهْلَهَا﴾: مفعول ﴿أَخَذْنَا﴾، ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾: متعلق بـ﴿أَخَذْنَا﴾، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: معطوف على ﴿الْبَأْسَاءِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ولكنها على تقدير قد والتقدير: وما أرسلنا في قرية من القرى المهلَكة، نبياً من الأنبياء، في حال من الأحوال، إلا في حال كوننا آخذين أهلها بالبأساء والضراء، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج، والهاء اسمها وجملة ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة: مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿بَدَّلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾: مفعول ﴿كان﴾ ومضاف إليه، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: في مكان السيئة، ﴿الْحَسَنَةَ﴾: مفعول أول، والمعنى: بدلنا مكان الحال السيىء الحال الحسن، فالحسنة هي المأخوذة الحاصلة، ومكان السيئة هو المتروك الذاهب، وهو الذي تصحبه الباء في مثل هذا التركيب، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَا﴾

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿عَفَوا﴾: فعل وفاعل، في محل النصب بأن المضمرة، ﴿وَقَالُوا﴾: معطوف عليه، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ الجار والمجرور، متعلق بـ﴿بَدَّلْنَا﴾؛ أي: بدلنا مكان السيئة الحسنة إلى عفوهم، وقولهم: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ﴿وَٱلسَّرَّآءُ﴾: معطوف على ﴿ٱلضَّرَّآءُ﴾: والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ الفاء: عاطفة ﴿أخذناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿قالوا﴾. ﴿بَغْتَةً﴾ مفعول مطلق؛ أي: أخذ بغتة، أو حال من فاعل ﴿أخذنا﴾. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من هاء ﴿أخذناهم﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو: استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ﴿أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: اسمها ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف بعد لو الشرطية؛ لأن ﴿لو﴾ لا يليها إلا الفعل، والتقدير: ولو ثبت إيمان أهل القرى وتقواهم. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿فتحنا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به: ﴿بَرَكَٰتٍ﴾ مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿بَرَكَٰتٍ﴾، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ وجملة ﴿فتحنا﴾ جواب ﴿لو﴾: لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك، ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة، على جملة ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿أخذناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا۟﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أخذنا﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يكسبونه.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف ﴿أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أجهل أهل القرى من مكة وما حولها سنتنا فيمن قبلهم فأمِنوا؟ ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَأْتِيَهُم﴾: فعل ومفعول، ﴿بَأْسُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: أفأمنوا إتيان بأسنا إياهم؟، ﴿بَيَٰتًا﴾: حال من ﴿بَأْسُنَا﴾؛ أي: بائتاً مستخفياً في الليل، وقيل: هو منصوب على الظرفية؛ أي: ليلاً، ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من هاء ﴿يَأْتِيَهُم﴾، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، هذا على مذهب الزمخشري، وأما على مذهب الجمهور: الفاء: عاطفة ما بعدها على ﴿أخذناهم بغتة﴾، وما بينهما اعتراض.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿أَوَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفل أهل القرى عن سنَنِنا فيمن قبلهم، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا؟ والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾: جملة فعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: إتيان بأسنا إياهم، ﴿ضُحًى﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿يأتي﴾. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَلْعَبُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من هاء ﴿يأتيهم﴾.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنُوا۟﴾ الهمزة: داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿أمنوا﴾: فعل وفاعل، ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والتقدير: أجهلوا سنتنا فأمنوا مكر الله؟ والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿فَلَا يَأْمَنُ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿لا﴾: نافية ﴿يَأْمَنُ مَكْرَ

﴿ٱللَّهِ﴾: فعل ومفعول ومضاف إليه، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلْقَوْمُ﴾: فاعل، ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: صفته، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَهْدِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾: وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَرِثُونَ﴾. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: أنه ﴿لَّوْ﴾: حرف شرط ﴿نَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ومفعول المشيئة محذوف تقديره: لو نشاء أصبنا إياهم، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لَّوْ﴾. ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وأتى بجواب ﴿لَّوْ﴾ هنا خالياً عن اللام، وهو جائز على قلة، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿يَهْدِ﴾ والتقدير: أغفل الذين يرثون الأرض من بعد أهلها، عن سننا فيمن قبلهم، ولم يهد ويبين لهم إصابتنا إياهم بذنوبهم لو نشاء الإصابة لهم، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ ﴿وَنَطْبَعُ﴾ الواو: عاطفة بمعنى (أو) التي تمنع الجمع، ﴿نطبع﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿نطبع﴾، والجملة معطوفة على ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ على كونها جواب ﴿لَّوْ﴾. ﴿فَهُمْ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿هم﴾: مبتدأ وجملة ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على ﴿نطبع﴾:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾: بدل منه، أو عطف بيان له، ﴿نَقُصُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿مِنْ﴾: حرف جر وتبعيض، ﴿أَنۢبَآئِهَا﴾: مجرور ومضاف إليه، الجار والمجرور، متعلق بـ﴿نَقُصُّ﴾، أيضاً، وجملة ﴿نَقُصُّ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: استئنافية، اللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿جَآءَتْهُمْ﴾: فعل ومفعول، ﴿رُسُلُهُم﴾: فاعل ومضاف إليه، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿جاء﴾ والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿فَمَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾: اللام: حرف جر وجحود، ﴿يؤمنوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يؤمنوا﴾. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: كذبوه، و﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾: وجملة ﴿يؤمنوا﴾ صلة أنْ المضمرة، أنْ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر كان، تقديره: فما كانوا مريدين لإيمانهم بما كذبوا من قبل. هذا على مذهب البصريين، وأما على مذهب الكوفيين: فاللام زائدة لتوكيد النفي، والتقدير عندهم: فما كانوا مؤمنين بما كذبوا من قبل. كما ذكرنا ذلك مبسوطاً في كتابنا «الدرر البهية في إعراب أمثلة الآجرومية» وعرف بعضهم لام الجحود ببيت واحد:

وَكُلُّ لاَمٍ قَبْلَهُ مَا كَانَا أَوْ ... لَمْ يَكُنْ فَلِلْجُحُودِ بَانَا

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَطْبَعُ﴾، والتقدير: يطبع الله على قلوب الكافرين من أمتك طبعاً مثل طبعه على قلوب الكافرين من الأمم الماضية، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: إستئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿وَجَدْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة

مستأنفة، ﴿لِأَكۡثَرِهِم﴾[1]: متعلق بوجد، كقولك: ما وجدت له مالاً؛ أي: ما صادفت له مالاً ولا لقيته، ويحتمل أن يكون حالاً ﴿مِّنۡ عَهۡدٖ﴾؛ لأنَّه في الأصل صفة نكرة، فلمَّا قدم عليها نصب على الحال، والأصل: وما وجدنا عهداً لأكثرهم، وهذا لم يذكر أبو البقاء غيره، وعلى هذين الوجهين: فـ﴿وجد﴾ متعدٍ لواحد، وهو ﴿مِّنۡ عَهۡدٖ﴾، ومن مزيدة فيه، والوجه الثالث: أنه في محل نصب مفعولاً ثانياً لوجد، إذ هي بمعنى علم، والمفعول الأول هو ﴿مِّنۡ عَهۡدٖ﴾، وقد يترجح هذا بأن ﴿وجد﴾ الثانية علمية لا وجدانية، بمعنى الإصابة، فإذا تقرر هذا.. فينبغي أن تكون الأولى كذلك مطابقة للكلام، ومناسبة له، ومن يرجح الأول يقول: إن الأولى لمعنى، والثانية لمعنى آخر اهـ «سمين». ﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: وإن الشأن والحال، ﴿وَجَدۡنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾: مفعول أول لوجد؛ لأنَّها علمية ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾: اللام فارقة بين المخففة والنافية، ﴿فاسقين﴾: مفعول ثان لوجد على حد قول ابن مالك:

وَخُفِّفَتْ أَنَّ فَقَلَّ ٱلْعَمَلُ   وَتَلْزَمُ ٱللاَّمُ إِذَا مَا تُهْمَلُ

وجملة وجد في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم﴾ وقال بعض[2] الكوفيين: إن ﴿إن﴾ في مثل هذا التركيب هي النافية، واللام بمعنى إلا، والمعنى: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ وفي السمين[3]: وعاد في لسانهم لها استعمالان:

أحدهما: وهو الأصل، أنَّه الرجوع إلى ما كان عليه من الحال الأول.

والثاني: استعمالها بمعنى صار، وحينئذ ترفع الاسم وتنصب الخبر، فلا تكتفي

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الفتوحات.

بمرفوع كقولهم: عاد السعر رخيصاً، واستشكلوا على كونها بمعناها الأصلي أنَّ شعيباً عليه السلام لم يكن قط على دينهم، ولا في ملتهم، فكيف يحسن أن يقال: أو لتعودن؛ أي: ترجعن إلى حالتكم الأولى، والخطاب له ولأتباعه؟ وقد أجيب عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنَّ هذا القول من رؤسائهم قصدوا به التلبيس على العوام، والإيهام لهم أنَّه كان على دينهم وعلى ملتهم.

الثاني: أنْ يراد بعوده رجوعه إلى حاله قبل بعثته من السكون؛ لأنَّه قبل أنْ يبعث إليهم كان يخفي إيمانه، وهو ساكت عنهم، بريء من معبوداتهم غير الله.

الثالث: تغليب الجماعة على الواحد؛ لأنَّهم لما أصحبوه مع قومه في الإخراج.. سحبوا عليه وعليهم حكم العود إلى الملة تغليباً لهم عليه، وأما إذا جعلنا بمعنى صار.. فلا إشكال في ذلك، إذ المعنى: لتصيرن في ملتنا بعد أن لم تكونوا، وفي ملتنا حال على الأول، خبر على الثاني، وعدي عاد بفي الظرفية تنبيهاً على أنَّ الملة صارت لهم بمنزلة الوعاء المحيط بهم.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾؛ أي: اقض؛ لأنهم يسمون القاضي: الفاتح والفتاح؛ لأنَّه يفتح مواضع الحق اهـ كرخي، وفي «السمين»: أن الفتح: الحكم بلغة حمير، وقيل: بلغة مراد، وفي «المراغي» الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال وهو قسمان: حسي يدرك بالبصر، كفتح العين والقفل والكلام الذي يكون من القاضي، ومعنوي يدرك بالبصيرة، كفتح أبواب الرزق والمغلق من مسائل العلم، والنصر في وقائع الحرب، والمبهم من قضايا الحكم، ويقال: فتح الله عليه إذا جد وأقبلت عليه الدنيا، وفتح الله عليه نصره، وفتح الحاكم بينهم، وما أحسن فتاحته؛ أي: حكمه كما قال شاعرهم:

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِيْ وَهْبٍ رَسُوْلاً   بِأَنِّيْ عَنْ فَتَاحَتِهِمْ غَنِيُّ

ويقال: بينهم فتاحات؛ أي: خصومات، وولي الفتاحة؛ أي: القضاء. انتهى.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الرجف الحركة والاضطراب، والمراد منها: الزلزلة

الشديدة، ومنه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ وقال هنا وفي سورة العنكبوت: الرجفة، وفي سورة هود ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: صيحة جبريل وصرخته عليهم من السماء، ولعلها؛ أي: الصيحة كانت في مبادىء الرجفة، فأسند هلاكهم إلى السبب القريب تارة، وإلى البعيد أخرى. اهـ أبو السعود.

وقال قتادة[1]: بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين، فأما أصحاب الأيكة.. فأهلكوا بالظلة، وأمَّا أهل مدين.. فأخذتهم الرجفة، صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا جميعاً، وقال أبو عبد الله البجلي: كان أبو جاد وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت، ملوك مدين، وكان ملكهم في يوم الظلة اسمه كلمن، فلما هلك رثته ابنته بشعر اهـ.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أصله يغنيوا بوزن يفعلوا، استثقلت الضمة على الياء ثم حذفت، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، أو يقال: تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان ثم حذفت الألف فصار: يغنوا بوزن يفعوا، وفي «المصباح»: غني بالمال يغنى غنى، مثل رضي يرضى رضى، فهو غني، والجمع أغنياء، وغني بالمكان: إذا نزل به واقام فيه فهو غان. اهـ.

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ والأسى شدة الحزن، وأصل آسى أأسى بهمزتين، قلبت الثانية ألفاً، وفي «المصباح» وأَسِيَ أساً ـ من باب تعب ـ حزن، فهو أسى مثل حزين. اهـ.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ قال أهل اللغة: السيئة كل ما يسوء صاحبه، والحسنة: كل ما يستحسنه الطبع والعقل، فأخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه يؤاخذ أهل المعاصي والكفر تارة بالشدة، وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ القرية المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها ـ العاصمة ـ والبأساء الشدة والمشقة، كالحرب والجدب، وشدة الفقر، والضراء ما

---

(١) الفتوحات.

يضر الإنسان في بدنه، أو نفسه، أو معيشته، والأخذ بها، جعلها عقاباً لهم. والتضرع إظهار الضراعة؛ أي: الضعف والخوضع ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾؛ أي: حتى نموا وكثروا عدداً وعُدداً، من عفا النبات والشعر إذا كثر وتكاثف ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة، فهو الأخذ حال السعة والرخاء، لا حال الجدب كما قيل؛ فإنَّه قد بدل بالسعة. اهـ أبو السعود.

﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تشمل معارف الوحي العقلية، ونفحات الإلهام الربانية، والمطر، ونحوه مما يوجب الخصب والخير في الأرض، وبركات الأرض، النبات والثمار، وجميع ما فيها من الخيرات والأنعام والأرزاق، والأمن، والسلامة من الآفات، وكل ذلك من فضل الله وإحسانه على عباده، وأصل البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، وسمي المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه، وكذا ثبوت البركة في نبات الأرض، لأنَّه نشأ من بركات السماء، وهي المطر، وقال البغوي: أصل البركة المواظبة على الشي؛ أي: تابعنا عليهم المطر من السماء، والنبات من الأرض، ورفعنا عنهم القحط والجدب. اهـ خازن.

﴿بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ البأس العذاب، بياتاً؛ أي: وقت بيات، وهو الليل.

﴿ضُحًى﴾؛ أي: ضحوة النهار، وهي في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت، اهـ أبو السعود، وفي «السمين»: والضحى: انبساط الشمس، وامتداد النهار، وسمى به الوقت، ويقال: ضحى وضحاء، إذا ضممته قصرته، وإذا فتحته مددته، وقال بعضهم: الضحى ـ بالضم والقصر ـ لأول ارتفاع الشمس، والضحاء ـ بالفتح والمد ـ لقوة ارتفاعها قبل الزوال، والضحى مؤنث اهـ.

﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: يلهون من فرط غفلتهم ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾: والمكر التدبير الخفي الذي يفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب، وفي «المختار»: المكر الاحتيال والخديعة، وقد مكر من باب نصر، فهو ماكر ومكَّار. اهـ وفي «السمين»: والمراد بمكر الله هنا: فعل يعاقب به الكفرة على كفرهم، وأضيف إلى الله لما كان عقوبة على ذنبهم ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ يقال: هداه

السبيل وهداه إليه، وهداه له؛ أي: دله عليه وبينه له.

﴿مِّنۡ عَهۡدٖۖ﴾ العهد الوصية، والوصية تارة يراد بها إنشاؤها وإيجادها، وأخرى يراد بها ما يوحى به، ويقال: عهدت إليه بكذا؛ أي: وصيته بفعله أو حفظه، وهو إما أن يكون بين طرفين ـ وهو المعاهدة ـ وإما من طرف واحد، بأن يعهد إليك بشيء، أو تلزم بشيء، والميثاق: هو العهد الموثق بضرب من ضروب التوكيد.

وقال الراغب[1]: عهد الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به في الكتاب وألسنة رسله، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع، كالنذور وما يجري مجراها اهـ ﴿الفاسقين﴾ والفسوق: الخروج عن كل عهد فطري وشرعي، بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصي، ووجدنا الأولى بمعنى ألفينا، والثانية بمعنى علمنا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تغليب حكم الجماعة على الواحد في قوله: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾؛ لأنَّ شعيباً لم يكن في ملتهم قط، فيعود فيها.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ لزيادة التقرير.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا﴾؛ لأنَّه كناية عن الإحاطة، وفي قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا﴾؛ لأن الفتح حقيقة في الأجسام كفتح الباب، وفي قوله: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب، كما ذكره أبو السعود. وفي قوله: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ

(١) المراغي.

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول، فهو من باب الاستعارة التصريحية التبعية؛ أي: وسعنا عليهم الخير من جميع الأطراف.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، من الإسناد إلى السبب؛ أي: فأخذهم الله بالرجفة.

ومنها: الطباق بين لفظ ﴿ٱلۡحَسَنَةَ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةِ﴾ وبين لفظ ﴿ٱلضَّرَّآءُ﴾ و﴿السراء﴾ في قوله: ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ وبين قوله: ﴿ٱلضَّرَّآءُ﴾ و﴿السراء﴾ في قوله: ﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾.

ومنها: التفخيم[1] والتهويل في تكرار لفظ ﴿أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ لما في ذلك من التسميع والإبلاغ والتهديد، ما لا يكون في الضمير لو قال: أو أمنوا؛ فإنَّه متى قصد التفخيم والتعظيم والتهويل جيء بالاسم الظاهر.

ومنها توسيط[2] النداء باسمه العَلمي بين المعطوفين في قوله: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾، لزيادة التقرير والتهديد، الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان؛ أي: والله لنخرجنك وأتباعك.

ومنها: الإخبار المتضمن معنى التعجب في قوله: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، كأنَّه قيل: ما أكذبنا على الله إن عدنا إلى الكفر، قاله الزمخشري.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

(٢) أبو السعود.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ
أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن
كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ
أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ
﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ
﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى
ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ
رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

المناسبة

لما قص(١) الله سبحانه وتعالى على نبيه أخبار نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وما آل إليه أمر قومهم، وكان هؤلاء لم يبق منهم أحد أتبع بقصص موسى وفرعون وبني إسرائيل، إذ كانت معجزاته من أعظم المعجزات، وأمته من أكثر الأمم تكذيباً وتعنتاً واقتراحاً وجهلاً، وكان قد بقي من أتباعه عالم وهم اليهود.. فقص الله علينا قصصهم لنعتبر ونتعظ ونزجر عن أن نتشبه بهم.

---

(١) البحر المحيط.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنَّ بين موسى وشعيب عليهما السلام مصاهرة ـ كما حكى الله تعالى في كتابه ـ ونسباً لكونهما من نسل إبراهيم، ولما استفتح قصة نوح بأرسلنا بنون العظمة.. أتبع ذلك قصة موسى فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾، ذكره أبو حيان في «البحر».

وعبارة «المراغي» هنا: هذه هي القصة السادسة من قصص الأنبياء التي ذكرت في هذه السورة، وفيها من الإيضاح والتفصيل ما لم يذكر في غيرها؛ لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات غيره ممن سبق ذكرهم، وجهل قومه كان أفحش، وقد ذكرت قصته في عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة، وذكر اسمه في سور كثيرة، زادت على مئة وثلاثين مرة، وسر هذا أنَّ قصته أشبه قصص الرسل بقصص النبي ﷺ، إذ أنَّه أوتي شريعة دينية دنيوية، وكوَّن الله تعالى به أمة عظيمة، ذات ملك ومدنية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾؛ أي: ثمَّ بعثنا من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، أو من بعد إهلاك الأمم المذكورة؛ أي: ثم بعدما فرغنا من ذكر قصص الأنبياء المذكورين وأممهم، نذكر قصة موسى وقومه فنقول: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا موسى بن عمران من بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل المذكورين في هذه السورة، وإهلاك أممهم، وقطع دوابرهم، حالة كونه مؤيداً ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ومعجزاتنا التسع، وملتبساً بأدلتنا وحججنا الدالة على صدقه، مثل العصا واليد، وغيرهما من الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، كما سيأتي التعبير عنها بهذا العدد في سورة الإسراء إنْ شاء الله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: أشراف قومه، وتخصيصهم[2] بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم؛ لأنَّ من عداهم كالأتباع لهم، سموا[3] ملأ لأنَّهم يملؤون المجالس بأجرامهم،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) أبو السعود.

والعيون بجمالهم، والقلوب بمهابتهم. ذكره أبو السعود.

وقال في «التحبير»[1]: فرعون اسمه الوليد بن مصعب بن الريان، وكنيته أبو مرة، وقيل: أبو العباس، وهو فرعون الثاني الذي أرسل إليه موسى، وكان قبله فرعون آخر، وهو أخوه، واسمه قابوس بن مصعب ملك العمالقة، ولم يذكر في القرآن، وفرعونُ إبراهيم النمروذُ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل. انتهى.

فائدة: كان ملك فرعون أربع مئة سنة، وعاش ست مئة وعشرين سنة، ولم ير مكروهاً قط، ولو كان حصل له في تلك المدة جوع يوم، أو حمى ليلة، أو وجع.. لما ادعى الربوبية، وفرعون في الأصل علم لشخص، ثم صار لقباً لكل من ملك مصر، كما في «الشهاب».

﴿فَظَلَمُواْ بِهَآ﴾؛ أي: ظلم فرعون وأتباعه بتلك الآيات، وجحدوا بها وأنكروها؛ لأنَّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وكانت هذه الآيات معجزات ظاهرة قاهرة، فكفروا بها؛ أي[2]: وضعوا الإنكار في موضع الإقرار بها، ووضعوا الكفر في موضع الإيمان، وذلك ظلم منهم على تلك الآيات الظاهرة، أو معنى ﴿فَظَلَمُواْ بِهَآ﴾؛ أي: ظلموا الناس بسببها لما صدوهم عن الإيمان بها، أو ظلموا أنفسهم بسببها ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمد، أو أيها المخاطب بعين بصيرتك ﴿كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بالكفر من إهلاكهم؛ أي: أنظر بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم، حيث صاروا مغرقين، وجعلناهم مثلاً نوعد به كفرة من كان في عصرك يا محمد.

وحاصل المعنى: أي ثمَّ[3] بعثنا ـ من بعد أولئك الرسل ـ موسى بالمعجزات التي تدل على صدقه فيما يُبلغه عنا إلى فرعون وأشراف قومه، فظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبراً وجحوداً، فكان عليهم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان باتباعهم لهم، وقال: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ ولم يقل فرعون

---

(١) التحبير.

(٢) المراغي.

(٣) أبو السعود.

وقومه؛ لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبني إسرائيل، وبيدهم أمرهم، وليس لسائر المصريين من الأمر شيء؛ لأنَّهم كانوا مستعبدين أيضاً، ولكن الظلم كان على بني إسرائيل الغرباء أشد، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر المصريين؛ لأنَّهم كانوا تبعاً لهم، وقد كان موسى مرسلاً إلى قومه بني إسرائيل قصداً، وإلى فرعون وملئه وسيلةً ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: فانظر أيها الرسول كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين في الأرض، بالظلم واستعباد البشر، حين جحدوا آيات الله وكفروا بها.

وفي هذا تشويق وتوجيه للنظر إلى ما سيقصه الله تعالى من عاقبة أمرهم، إذ نصر رسوله موسى - وهو واحد من شعب مستضعف مستعبد لهم - على فرعون وملئه، وهم أعظم أهل الأرض قوة وصولة، بأن أبطل سحرهم، وأقنع علماءهم وسحرتهم بصحة رسالته، وكون آياته من عند الله تعالى، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد، ثم بإنقاذ قومه وإغراق فرعون ومن تبعه من ملئه وجنوده، وهذه عبرة قائمة على وجه الدهر، وحجة على أنَّ الغَلَب ليس للقوة المادية فحسب، كما يقوله المغرورون بعظمة الأمم الظالمة الأجنبية لمن استضعفتهم من أهل الوطن، كما هو مشاهد الآن في شرقي أفريقيا كأرمينيا.

وبعد التشويق والتنبيه المتقدم، قص الله تعالى ما كان من أولئك القوم في ابتداء أمرهم، حتى انتهوا إلى تلك العاقبة فقال:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ وهذا كلام(١) مستأنف لتفصيل ما أجمل قبله من كيفية إظهار الآيات، وكيفية عاقبة المفسدين، ولم يكن هذا القول وما بعده من جواب فرعون إثر ما ذكر ههنا، بل بعد ما جرى بينهما من المحاورات المحكية بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ الآيات. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآيات. فطوى ذكره هنا للإيجاز؛ أي: وقال موسى عليه السلام - حين دخل على فرعون ودعاه إلى الإيمان بالله تعالى، وإلى الإيمان به:

---

(١) أبو السعود.

إنِّي رسول؛ أي: مرسل إليك وإلى قومك من رب العالمين؛ أي: من خالق العالمين كلهم، وسيدهم ومالكهم ومدبر جميع أمورهم، وأنا ﴿حَقِيقٌ﴾؛ أي: جدير وحريص ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا﴾ القول ﴿ٱلْحَقَّ﴾ والكلام الصدق، فهو لا يقول على الله إلا القول الحق، إذ لا يمكن أن يبعث الله رسولاً يكذب عليه، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، فهو معصوم من الكذب والخطأ في التبليغ.

والخلاصة: أنَّ كلامه اشتمل على عقيدة الوحدانية، وهي أنَّ للعالمين رباً واحداً، وعلى عقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة في التبليغ والهداية.

وقرأ نافع[1]: ﴿عليَّ أن لا أقول﴾ بتشديد الياء، جعل (على) داخلة على ياء المتكلم، فـ﴿حقيق﴾: مبتدأ، وخبره ما دخلت عليه ﴿أن﴾؛ أي: واجب وثابت علي ترك القول على الله إلا بالحق، وقرأ باقي السبعة ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمد اللام على أنَّها جارة للمصدر المنسبك مما بعدها، فـ﴿حَقِيقٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: وأنا حقيق وحريص على عدم القول على الله إلا الحق، كما مر آنفاً في حلنا. وقال أبو الحسن والفراء والفارسي: ﴿عَلَىٰٓ﴾: بمعنى الباء؛ أي: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، كما أنَّ الباء تكون بمعنى (على) في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾؛ أي: على كل صراط، فكأنه قيل: حقيق بأن لا أقول، كما تقول: فلان حقيق بهذا الأمر وخليق به، ويشهد لهذا التوجيه قراءة أبي ﴿بأن لا أقول﴾ وضع مكان ﴿عَلَىٰٓ﴾ الباء، وقرأ عبد الله والأعمش ﴿حقيق أن لا أقول﴾ بإسقاط ﴿عَلَىٰٓ﴾ فاحتمل أنْ يكون على إضمار (على)، كقراءة من قرأ بها، واحتمل أن يكون على إضمار الباء كقراءة أبي، وعلى كلا الاحتمالين يكون التعلق بـ﴿حقيق﴾.

ولمَّا ذكر أنَّه رسول من عند الله، وأنَّه لا يقول على الله إلا الحق.. أخذ يذكر المعجزة والخارق الذي يدل على صدق رسالته فقال: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ والخطاب فيه لفرعون وملائه الحاضرين معه؛ أي: قد جئتكم ببرهان قاطع ﴿مِّن

---

(١) البحر المحيط.

﴿رَبِّكُمْ﴾ ومعجزة شاهدة على رسالتي، دالة على صدق ما أقول، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] إيماء إلى أنَّهم مربوبون، وأنَّ فرعون ليس رباً ولا إلهاً، وإلى أنَّ البينة ليست من كسب موسى ولا مما يستقل به عليه السلام. ثم فرع على مجيئه بالبينة طلبه منه أن يرسل معه بني إسرائيل؛ أي: يطلقهم من أسره ويعتقهم من رقه وقهره، ليذهبوا معه إلى دار غير داره، ويعبدوا فيها ربهم وربه فقال: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: أطلقهم من أسرك، وخلهم من استعبادك، ليذهبوا معي إلى الأرض المقدسة، التي هي وطن آبائهم مع أموالهم فكان فرعون عاملهم معاملة العبيد في الاستخدام والأعمال الشاقة، مثل ضرب اللبِن، ونقل التراب، ونحو ذلك من الأعمال الشاقة. وقال المفسرون: كان سبب سكنى بني إسرائيل بمصر ـ مع أنَّ أباهم كان بالأرض المقدسة ـ أن الأسباط أولاد يعقوب جاؤوا مصر إلى أخيهم يوسف، فمكثوا وتناسلوا في مصر، فلما ظهر فرعون. استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة، فأحب موسى أنْ يخلصهم من هذا الأسر، ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم، وكانوا يؤدون إلى فرعون الجزاء، فاستنقذهم الله بموسى.

وكان[2] بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر، واليوم الذي دخل فيه موسى أربع مئة عام، والظاهر أن موسى لم يطلب من فرعون في هذه الآية إلا إرسال بني إسرائيل معه، وفي غير هذه الآية دعاه إياه إلى الإقرار بربوبية الله تعالى وتوحيده، قال تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ وكل نبي داع إلى توحيد الله تعالى، وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ فهذا ونظائره دليل على أنَّه طلب منه الإيمان، خلافاً لمن قال: إنَّ موسى لم يدعه إلى الإيمان، ولا إلى التزام شرعه. وليس بنو إسرائيل من قوم فرعون والقبط؛ ألا ترى أنَّ بقية القبط ـ وهم الأكثر ـ لم يرجع إليهم موسى، ثمَّ حكى سبحانه ما قاله فرعون حينئذ: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى ﴿إِن كُنتَ﴾ يا موسى ﴿جِئْتَ﴾ وأتيت من عند من أرسلك ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ ومعجزة وحجة دالة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

على صدقك ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾؛ أي: فأحضرها عندي ليثبت صدقك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك أنَّك رسول.

أي: قال فرعون لموسى: إنْ كنت قد جئت مؤيداً بآية من عند من أرسلك كما تدّعي.. فأتني بها، وأظهرها لدي إن كنت ممن يقول الصدق، ويلتزم قول الحق.

ثم ذكر أن موسى أجابه إلى ما طلبه فقال: ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾؛ أي: فلم يلبث موسى أنْ ألقى ورمى عصاه ـ التي كانت بيمينه ـ أمام فرعون ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: العصا ﴿ثُعْبَانٌ﴾؛ أي: حية ضخمة صفراء ذكر ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر بيِّن، لا خفاء ولا شك في كونه ثعباناً حقيقياً، يسعى وينتقل من مكان إلى آخر، وتراه الأعين من غير أنْ يسحرها ساحر فيخيل إليها أنَّها تسعى.

روي[1] أنَّه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعر فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، قائماً على ذنبه، مرتفعاً من الأرض بقدر ميل، وضع لحيه الأسفل على الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليبتلعه، فوثب فرعون عن سريره هارباً وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، فصاح فرعون: يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأُرسل بني إسرائيل، فأخذه فعاد عصاً، فإنْ قلت: وصفها هنا بالثعبان، والثعبان من الحيات العظيم الضخم، ووصفها في آية أخرى بأنَّها جان، والجان الحية الصغيرة، فبين الوصفين معارضة؟

قلت: يمكن الجمع بين الوصفين أنَّها كانت في عظم الحية كالثعبان العظيم، وفي خفة الحركة كالحية الصغيرة، وهي الجان. ذكره في «الخازن».

قيل[2]: بدأ بالعصا دون سائر المعجزات لأنَّها معجزة تحتوي على معجزات كثيرة، قالوا منها: أنَّه ضرب بها باب فرعون ففزع من قرعها، فشاب رأسه فخضبه بالسواد، فهو أول من خضب السواد. ومنها: انقلابها ثعباناً،

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

وانقلاب خشبة لحماً ودماً قائماً به الحياة من أعظم الإعجاز، ويحصل من إنقلابها ثعباناً من التهويل ما لا يحصل في غيره، وضربه بها الحجر فينفجر عيوناً، وضربه بها الأرض فتنبت، قاله ابن عباس، ومحاربته بها اللصوص والسباع القاصدة غنمه، واشتعالها في الليل كاشتعال الشمعة، وصيرورتها كالرشا لينزح بها الماء من البئر العميقة، وتلقفها الحبال والعصي التي للسحرة، وإبطالها لما صنعوه من كيدهم وسحرهم.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾؛ أي: نزع موسى يده اليمنى، وجذبها وأخرجها وأظهرها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه ـ بعد إلقاء العصا ـ أو من تحت إبطه، وفي التنزيل ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، ﴿فَإِذَا هِىَ﴾؛ أي: يده التي أخرجها ﴿بَيْضَآءُ﴾ بياضاً نورانياً، تتلألأ نوراً غلب شعاعه شعاع الشمس يظهر ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ إليها؛ أي: لكل من ينظر إليها.

ثم حكى الله سبحانه وتعالى ما قاله قومه، بعد أنْ رأوا من موسى ما رأوا فقال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾؛ أي: الأشراف ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم أهل مشورته ورؤساء دولته ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الرجل، يعنون موسى ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: حاذق في علم السحر، كثير في فهمه ومعرفته وفائق فيه، يعنون أنَّه ليأخذ بأعين الناس، حتى يخيل لهم أنَّ العصا صارت حية، ويرى الشيء بخلاف ما عليه، كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون، وإنَّما قالوا ذلك لأنَّ السحر كان هو الغالب في ذلك الزمان، فلما أتى بما يعجز عنه غيره.. قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

فإنْ قلت(١): قد أخبر الله تعالى في هذه السورة أنَّ هذا الكلام من قول الملأ لفرعون، وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فكيف الجمع بين الآيتين؟

قلتُ: لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولاً، ثم إنَّهم قالوه بعده، فأخبر الله تعالى عنهم هنا، وأخبر عن فرعون في سورة الشعراء. وقيل: يحتمل أنَّ فرعون

---

(١) الخازن.

قال هذا القول، ثم إنَّ الملأ من قومه ـ وهم خاصته ـ سمعوه منه، ثم إنَّهم بلغوه إلى العامة، فأخبر الله عز وجل هنا عن الملأ، وأخبر هناك عن فرعون، والله أعلم.

وجملة قوله: ﴿يُرِيدُ﴾؛ أي: موسى ﴿أَن يُخْرِجَكُم﴾ أيها القبطيون ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ ووطنكم مصر، صفة ثانية لساحر.

والمعنى: قال[1] الأشراف والرؤساء من قوم فرعون: إنَّ هذا الرجل لساحر عليم؛ أي: ماهر في فنون السحر، قد وجه كل همه لسلب ملككم منكم، وإخراجكم من أرضكم بسحره، إذ به يستميل الشعب إليه، وينتزع منكم الملك، ثم يخرج الملك وعظماء رجاله من البلاد، حتى لا يناوئُوه في شؤون الملك واستعادته منه، استشعرت[2] نفوسهم الخبيثة ما صار إليه أمرهم، من إخراجهم من أرضهم، وخلو مواطنهم منهم، وخراب بيوتهم، فبادروا إلى الإخبار بذلك، وكان الأمر كما استشعروا، إذ أغرق الله فرعون وآله، وأخلى منازلهم منهم، وهذا المذكور من كلام الملأ لفرعون، وأما قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فقيل[3]: هو من كلام فرعون؛ أي: قال فرعون للملأ ـ لما قالوا ما تقدم ـ بأي شيء تأمرونني فيه؟ وقيل: هو من كلام الملأ؛ أي: قالوا لفرعون: فبأي شيء تأمرنا فيه؟ وخاطبوه بما يخاطب به الجماعة تعظيماً له، كما يخاطب الرؤساء أتباعَهم، ولكن كون هذا من كلام فرعون هو الأولى، بدليل ما بعده، وهو قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾؛ أي: قال الملأ لفرعون حين استشارهم بقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أرجه وأخاه هارون؛ أي: أخر الفصل والقضاء في أمره وأمر أخيه، وأرسل في مدائن ملكك جماعات من رجال شرطتك وجندك، ﴿حَٰشِرِينَ﴾؛ أي: جامعين لك السحرة منها، وسائقيهم إليك، وكان رؤساء السحرة ومهرتهم في أقصى مدائن الصعيد.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، ومن ثم خيل إلى كثير منهم أنَّ ما جاء به موسى من قبيل ما تشعبذ به سحرتهم، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما حكى الله عن فرعون حيث قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۞ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾؛ أي: إنْ ترسلهم.. يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم بكل ساحر عليم؛ أي: بكل ماهر في السحر، كثير العلم بصناعته، فيكشفوا لك حقيقة ما جاء به موسى، فلا يفتن به أحد، وإنَّما قالوا: ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾؛ لأن السحر من العلوم التي توجد في المدائن الجامعة المأهولة بدور العلم والصناعة؛ وإنَّما نصحوه بإحضار السحرة الماهرين؛ لأنَّهم الجديرون أنْ يأتوا موسى بمثل ما أتى به من الأمر العظيم.

وقرأ الجمهور(١): ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بفتح النون، على أنَّ النون نون علامة الرفع هنا وفي الشعراء، وروى كردم عن نافع: بكسر النون فيهما، على أنَّ النون نون الوقاية، حذفت بعدها ياء المتكلم.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ﴾ فيه(٢) ست قراءات، ثلاث بإثبات الهمزة التي بعد الجيم، وهي: كسر الهاء من غير إشباع لابن ذكوان عن أبي عامر، وضمها كذلك لأبي عمرو، وبإشباع حتى يتولد من الضمة واو على الأصل لابن كثير وهشام عن ابن عامر، وثلاث بحذف الهمزة، وهي: سكون الهاء وصلاً ووقفاً لعاصم وحمزة، وكسر الهاء من غير إشباع لقالون، وبه حتى يتولد منها ياء لنافع والكسائي وورش.

وقرأ الأخوان حمزة والكسائي(٣): ﴿بكل سحار﴾ هنا، وفي يونس والباقون

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

﴿ساحر﴾ وفي الشعراء أجمعوا على ﴿سحار﴾ لتناسب ﴿سحار عليم﴾ لكونهما من ألفاظ المبالغة، ولما كان قد تقدم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.. ناسب هنا أنْ يقابل بقوله: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

فذلكة في السحر وضروبه: السحر[1] أعمال غريبة وحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم لأسبابها، وقد كان فناً من الفنون التي يتعلمها قدماء المصريين في مدارسهم الجامعة مع كثير من العلوم الكونية، واقتفى أثرهم في ذلك البابليون، والهنود، وغيرهم، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين من الهنود أعمال غريبة مدهشة من السحر، اهتم بعض الإنجليز وغيرهم بالبحث عن حقيقة أمرها، فعرفوا بعضاً وجهلوا تعليل الأكثر.

وهو لا يروج إلا بين الجاهلين، وله مكانة عظيمة في القبائل الهمجية، والبلادُ ذات الحضارة تسميه بالشعوذة ـ الاحتيال والدجل ـ وهو أنواع ثلاثة:

١ ـ ما يعمل بأسباب طبيعية من خواص المادة، معروفة للساحر، مجهولة عند من يسحرهم بها، كالزئبق الذي قيل إن سحرة فرعون وضعوه في حبالهم وعصيهم، كما سنذكره بعد، ولو ادعى علماء الطبيعة والكيمياء في هذا العصر السحر في أواسط أفريقيا وغيرها من البلاد التي يروج فيها السحر.. لأروهم العجب العجاب من غرائب الكهرباء وغيرها، حتى لو ادعوا فيهم الألوهية.. لخضعوا لهم، فضلاً عن النبوة والولاية.

٢ ـ الشعوذة التي ملاك أمرها خفة اليدين في إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض، وإراءة بعضها بغير صورها، وغير ذلك مما هو معروف في هذه البلاد وغيرها من البلاد المتمدنة.

٣ ـ ما يكون مداره على تأثير الأنفس ذات الإرادة القوية، في الأنفس الضعيفة، القابلة للأوهام والانفعالات التي يسميها علماء النفس: بالأنفس الهستيرية، وأصحاب هذا النوع يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين، ومنهم

---

(١) المراغي.

من يكتب بالأوفاق والطلسمات للحب والبغض، إلى نحو ذلك، ومن ذلك ما استحدث في هذا العصر من التنويم المغناطيسي، وعلى الجملة: فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص الكتاب الكريم، وبالاختبار الذي لم يبق فيه شك بين العلماء في هذا العصر.

وبعد أن ذكر فيما سلف أنَّهم طلبوا إليه تأخير الفصل في أمره، حتى يحضر السحرة ليفسدوا عليه أعماله، ويبينوا خبيء حيله.. ذكر هنا أن السحرة جاؤوا وطلبوا المثوبة من فرعون إن هم نفذوا ما طلبه، فأجابهم إلى ذلك، ففعلوا أفاعيلهم السحرية التي أوقعت الرهب في قلوب المشاهدين فقال: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ الذين حشرهم أعوان فرعون وشرطته ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ اللعين، وقال أبو حيان: وفي الكلام حذف يقتضيه المعنى، تقديره: فأرسل جنده حاشرين، وجمعوا السحرة، وأمرهم بالمجيء، وجاؤوا إليه وحين جاؤوا ﴿قَالُوٓاْ﴾ لفرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾؛ أي: إن لنا عليك لجعلاً عظيماً وأجراً وجائزة، كفاء ما نقوم به من العمل العظيم الذي يتم به الغلب على موسى ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ على موسى. قرأ[١] نافع وابن كثير وحفص عن عاصم ﴿إن لنا﴾ بهمزة واحدة على الإخبار فكأنهم قاطعون بالجعل، وإنَّه لا بد لهم منه، وجوز أبو علي أن تكون ﴿إن﴾ استفهاماً حذفت منه الهمزة، كقراءة الباقين الذين أثبتوها، قال: والاستفهام أشبه بهذا الموضع؛ لأنَّهم لم يقطعوا أن لهم الأجر، وإنَّما استفهموا عنه. ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير»، وقرأ حمزة والكسائي، وابن عامر وأبو بكر وأبو عمرو بهمزتين، فمنهم من حققهما، ومنهم من سهل الثانية، ومنهم من أدخل بينهما ألفاً، كأبي عمرو، والخلاف في كتب القراءات مبسوط على الاستفهام، استفهموا فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة، والاستفهام هنا للتقرير.

واشتراط[٢] الأجر وإيجابه على تقدير الغلبة، لا يريدون مطلق الأجر، بل المعنى: إن لنا لأجراً عظيماً، ولهذا قال الزمخشري: والتنكير للتعظيم، كقول

---

(١) المراح والبحر.

(٢) البحر المحيط.

العرب: إنَّ له لإبلاً، وإن له لغنماً، يقصدون الكثرة، وفي خطاب السحرة بذلك لفرعون دليل على استطالتهم عليه باحتياجه إليهم، وبما يحصل للعالم بالشيء من الترفع على من يحتاج إليه، وعلى من لا يعلم مثل علمه ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيباً لهم إلى ما طلبوا ﴿نَعَمْ﴾. قرأ الكسائي[1] بكسر العين؛ أي: إنَّ لكم لأجراً عظيماً على ما تقومون به من ذلك العمل الجليل ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك الأجر ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلينا، فتجمعون بين المال والجاه، وذلك منتهى ما تطمعون فيه من نعيم الدنيا وسعادتها، والمعنى[2]: إنَّ فرعون قال للسحرة: إنِّي لا أقتصر معكم على الأجر، بل أزيدكم عليه، وتلك الزيادة أني أجعلكم من المقربين إلي بالمنزلة، قال الكلبي: تكونون أول من يدخل علي، وآخر من يخرج من عندي.

وفي[3] مبادرة فرعون لهم بالوعد والتقريب منه، دليل على شدة اضطراره لهم، وأنَّهم كانوا عالمين بأنَّه عاجز، ولذلك احتاج إلى السحرة في دفع موسى عليه السلام.

﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قالت السحرة لموسى بعد وعد فرعون لهم: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ اختر ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ ما عندك أولاً ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾؛ أي: وإما أنْ نلقي نحن ما عندنا أولاً، وفي هذا التخير منهم له دليل على اعتدادهم بسحرهم، وثقتهم بأنفسهم، وعدم المبالاة بعمله، ولولا ذلك لما خيروه، إذ المتأخر في العمل يكون أبصر بما تقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى جهد خصمه.

﴿قَالَ﴾ لهم موسى عليه السلام - وهو واثق بشأنه، محتقر لهم غير مبال بهم - ﴿أَلْقُوا۟﴾ ما أنتم ملقون، وهو عليه السلام لم يأمرهم بفعل السحر ابتداء؛ وإنَّما أمرهم بأن يتقدموه فيما جاؤوا به لأجله، ولا بد لهم منه، وأراد بذلك التوصل إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه، ولم يكن هناك وسيلة للإبطال إلا ذلك، وقد صرح فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ

---

(١) المراح.
(٢) الخازن.
(٣) البحر المحيط.

﴿ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ ما ألقوا من حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها بما جاؤوا به من التمويه والتخييل الذي يفعله المشعوذون وأهل الخفة؛ أي: خيلوا إليهم ما لا حقيقة له، كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾؛ أي: استرهبوا الناس وأفزعوهم وأوقعوا في قلبهم الرهب والخوف، وأرهبوهم إرهاباً شديداً، حيث خيلوها حيات تسعى ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في مظهره، كبير في تأثيره في أعين الناس، يخافه كل من رآه، قال ابن كثير: أي: خيلوا إلى الأبصار أنَّ ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ألقوا حبالاً غلاظاً، وخُشباً طوالاً، فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وهذا هو السحر الذي هو محض تخييل في عين الرائي، والشيء المسحور حقيقته على ما هي عليه لم تقلب، وأما المعجزة ففيها قلب حقيقة الشيء ـ كالعصا ـ حيث صارت حية، هذا هو الفارق بين السحر والمعجزة اهـ. «خازن».

قال ابن إسحاق[١]: صف خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه، وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى رجل منهم ما في يده من العِصيّ والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الجبال ـ قد ملأت الوادي ـ يركب بعضها بعضاً، وكانت سعة الأرض ميلاً في ميل، فصارت كلها حيات، قيل[٢]: إنَّهم أتوا بالحبال والعصي ولطخوا تلك الحبال بالزئبق، وجعلوا الزئبق في دواخل تلك العصي، فلما أثَّر تسخين الشمس فيها.. تحركت والتوى بعضها على بعض، وكانت كثيرة جداً، فالناس تخيلوا أنها تتحرك وتلتوي باختيارها وقدرتها ﴿استرهبوهم﴾؛ أي: بالغوا في تخويف عظيم للعوام من حركات تلك الحيات والعصي، وخاف موسى أن يتفرقوا قبل ظهور معجزته، فكان خوفه لأجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوه من أمر تلك الحيات، وليس خوفه لأجل سحرهم؛

(١) الطبري. (٢) المراح.

لأنه كان على ثقة من الله تعالى أنَّهم لن يغلبوه وهو غالبهم.

فعلى هذا[1]: يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية إذا صح خبرها، ويمكن أنْ تكون هناك حيلة أخرى، كإطلاق أبخرة أثرت في الأعين، فجعلتها تبصر ذلك، أو أنَّ الحبال والعصي جعلت على صور الحيات، وحركت بمحركات خفية سريعة، لا تدركها أبصار الناظرين.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ على لسان جبريل بـ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها، فلما ألقاها ﴿فَإِذَا هِىَ﴾؛ أي: العصا ﴿تَلْقَفُ﴾؛ أي: تأخذ وتبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: ما يكذبون فيه من الحبال والعصى، ويقلبونه من الحق إلى الباطل؛ لأنَّه لا حقيقة له في الواقع، بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة؛ أي[2]: ولما ألقى موسى العصا.. صارت حية عظيمة، حتى سدت الأفق، ثم فتحت فكها، فكان ما بين فكيها ثمانين ذراعاً، وابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وكانت حمل ثلاث مئة بعير، فلما أخذها موسى.. صارت عصا كما كانت من غير تفاوت في الحجم أصلاً.

وظاهر السياق[3] يقتضي أن إلقاء العصا وانقلابها حية وقع مرتين بحضرة فرعون: الأولى كانت سبباً في جمع السحرة، والثانية بحضرتهم، فالأولى ذكرت سابقاً بقوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ الخ، والثانية هي المذكورة هنا، ووقع انقلابها حية أيضاً مرة أخرى قبل هاتين المرتين، ولم يكن حاضراً هناك أحد غير موسى، وقد ذكرت هذه المرة في صورة طه في قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

وقرأ حفص[4]: ﴿تلقف﴾، بسكون اللام من لقف، من باب علم وفهم، وقرأ باقي السبعة بفتح اللام وتشديد القاف، من تلقف يتلقف، من باب تفعل الخماسي، حذفت إحدى تائيه، إذ الأصل: تتلقف، وقرأ البزي بإدغام تاء المضارعة في التاء في الأصل، وقرأ ابن جبير ﴿تلقم﴾ بالميم؛ أي: تبلع كاللقمة

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) الفتوحات.
(٤) البحر المحيط.

قال الشاعر:

أَنْتَ عَصَا مُوْسَىٰ ٱلَّتِيْ لَمْ تَزَلْ تَلْقَمُ مَا يَأْفِكُهُ ٱلسَّاحِرُ

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: فظهر الحق الذي جاء به موسى، وثبت ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من السحر؛ أي: ظهر بطلانه وفساده. وسبب هذا الظهور أن السحرة قالوا: لو كان ما صنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا، فلما فقدت.. ثبت أن ذلك حصل بقدرة الله تعالى، لا لأجل السحر، فتبين لمن حضره وشهده أنَّ موسى رسول من عند الله، يدعو إلى الحق، وأنَّ ما عملوه ما هو إلا إفك السحر وكذبه ومخايله ﴿فَغُلِبُوا۟﴾؛ أي: فرعون وقومه ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك الموقف الذي أظهروا فيه سحرهم ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾؛ أي: صاروا ذليلين مبهوتين؛ أي: غلب موسى فرعون وجموعه في ذلك الجمع العظيم، الذي كان في عيد لهم، ضربه موسى موعداً لهم كما جاء في سورة طه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ وعادوا من ذلك الحفل صاغرين أذلة بما رزئوا من خيبة وخذلان.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾؛ أي: خروا سجداً لله تعالى؛ أي: فكأنَّهم من سرعة سجودهم ألقوا؛ أي: وألقي السحرة حينما عاينوا عظيم قدرة الله تعالى ساقطين على وجوههم سجداً لربهم؛ لأنَّ الحق قد بهرهم واضطرهم إلى السجود، حتى كأن أحداً دفعهم وألقاهم.

والخلاصة(١): أن ظهور بطلان سحرهم، وإدراكهم فجأة لآية موسى، وعلمهم بأنَّها من عند الله تعالى، لا صنع فيها لمخلوق، ملأت عقولهم يقيناً، وقلوبهم إيماناً، فكأن اليقين الحاكم على الأعضاء والجوارح هو الذي ألقاهم على وجوههم سجداً لرب العالمين، الذي بيده ملكوت كل شيء، وزالت من نفوسهم عظمة فرعون الدنيوية الزائلة، بعد أن ظهر لهم صَغاره أمام هذه الآية، فنطقوا بما حكى الله عنهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾؛ أي: قالوا صدقنا بما

---

(١) المراغي.

جاءنا به موسى، وأنَّ الذي علينا أن نعبده هو رب الإنس والجن وجميع المخلوقات، المدبر لها. وهذه الجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ماذا قالوا عند سجودهم أو في سجودهم؟ وأجيب: بأنَّهم قالوا: آمنا برب العالمين، ولما قالوا ذلك فكأن فرعون قال: إياي تعنون؟ فقالوا: لا بل ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾؛ أي: مالكهما ومعبودهما.

ولما[1] ظفروا بالمعرفة.. سجدوا لله تعالى في الحال، وجعلوا ذلك السجود شكراً لله تعالى على الفوز بالإيمان والمعرفة، وعلامة على انقلابهم من الكفر إلى الإيمان، وإظهاراً للخضوع والتذلل لله تعالى، فكأنهم جعلوا ذلك السجود الواحد علامة على هذه الأمور الثلاثة، على سبيل الجمع، وأولئك القوم كانوا عالمين بحقيقة السحر، فلما وجدوا معجزة موسى خارجة عن حد السحر.. علموا أنَّها أمر من الله، فاستدلوا بها على أن موسى نبي صادق من عند الله تعالى.

فصل

اختلفوا في عدد السحرة على ثلاثة عشر قولاً[2]:

أحدها: اثنان وسبعون، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: اثنان وسبعون ألفاً، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مقاتل.

والثالث: سبعون، روي عن ابن عباس أيضاً.

والرابع: إثنا عشر ألفاً، قاله كعب.

والخامس: سبعون ألفاً، قاله عطاء، وكذلك قال وهب في رواية، إلا أنَّه قال: فاختار منهم سبعة آلاف.

والسادس: سبع مئة، وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب أنه

(١) المراح.

(٢) زاد المسير.

قال: كان عدد السحرة الذين عارضوا موسى سبعين ألفاً متخيرين من سبع مئة ألف، ثم إنَّ فرعون اختار من السبعين الألف سبع مئة.

والسابع: خمسة وعشرون ألفاً. قاله الحسن.

والثامن: تسع مئة. قاله عكرمة.

والتاسع: ثمانون ألفاً. قاله محمد بن المنكدر.

والعاشر: بضعة وثلاثون ألفاً. قاله السدي.

والحادي عشر: خمسة عشر ألفاً. قاله ابن إسحاق.

والثاني عشر: تسعة عشر ألفاً. رواه أبو سليمان الدمشقي.

والثالث عشر: أربع مئة. حكاه الثعلبي.

فأما أسماء رؤسائهم.. فقال ابن إسحاق: رؤوس السحرة: ساتور، وعاذور، وحطحط، ومصفى، وهم الذين آمنوا، كذا حكاه ابن ماكولا، ورأيت عن غير ابن إسحاق: سابورا، وعاذورا وقال مقاتل: اسم أكبرهم شمعون.

قال ابن زيد[1]: كان اجتماعهم بالاسكندرية، وبلغ ذَنَب الحية وراء البحر، ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً، فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم، واحداً واحداً، حتى ابتعلت الكل، وقصدت القوم الذين حضروا ذلك المجمع، ففزعوا ووقع الزحام، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وفرعون يضحك تجلدا، فأقبلت الحية نحو فرعون، فصاح: يا موسى يا موسى، فأخذها موسى فصارت في يده عصا كما كانت، فلما رأت السحرة ذلك.. عرفوا أنَّه ليس بسحر، فعند ذلك خروا ساجدين، وآمنوا برب العالمين.

وكل هذا مبالغات إسرائيلية، وتهويلات لم يصح شيء منها، وليس في التوراة ما يأيدها.

---

(١) المراح.

فائدة[1]: وبدؤوا هنا بموسى قبل هارون ـ وإن كان أكبر سناً من موسى قيل بثلاث سنين ـ لأنَّ موسى هو الذي ناظر فرعون، وظهرت المعجزتان في يده وعصاه؛ ولأن قوله: ﴿وَهَٰرُونَ﴾، فاصلة، وجاء في طه ﴿رب هارون وموسى﴾؛ لأنَّ ﴿مُوسَىٰ﴾ فيها فاصلة، ويحتمل وقوع كل منهما مرتبا من طائفة وطائفة، فنسب فعل بعض إلى المجموع في سورة، وبعض إلى المجموع في سورة أخرى.

قال المتكلمون: وفي الآية دلالة على فضيلة العلم؛ لأنَّهم لما كانوا كاملين في علم السحر.. علموا أنَّ ما جاء به موسى حق خارج عن جنس السحر، ولولا العلم.. لتوهموا أنَّه سحر، وأنَّه أسحر منهم. ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ للسحرة ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: آمنتم برب موسى وهارون، أو صدقتم بموسى واتبعتموه مذعنين لرسالته ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ فيه وآمركم به؛ أي: قال ما ذكر منكراً على السحرة، موبخاً لهم على ما فعلوه، فالاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الصنيع الذي صنعتموه من الإيمان بموسى واتباعه ﴿لَمَكْرٌ﴾؛ أي: لحيلة وخديعة ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾؛ أي: احتلتموه ودبرتموه اتفاقاً مع موسى، وأنتم ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: في مدينة مصر قبل أنْ تخرجوا إلى هذا الميعاد وإلى هذه الصحراء، بما أظهرتم من المعارضة والرغبة في الغلب عليه مع إسرار اتباعه، بعد ادعاء ظهور حجته، كما قال في سورة طه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فأجمعتم كيدكم لنا في هذه المدينة ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ﴾؛ أي: من المدينة ﴿أَهْلَهَا﴾ من القبطيين؛ أي: لأجل أنْ تخرجوا المصريين منها بسحركم، ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والرياسة والتصرف في البلاد.

وكل[2] ذي لب وفطنة يعلم أنَّ هذه مقالة لا نصيب لها من الصحة، ولا ظل لها من الحقيقة؛ فإن موسى ـ إثر مجيئه من مدين ـ دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة، فلم يكن من فرعون إلا أنْ أرسل جنده في المدائن حاشرين، ووعدهم بالعطاء الجزيل، وموسى لا يعرف منهم أحداً، ولا رآه ولا

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنَّما قال ذلك تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾.

والحاصل[1]: أن قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ﴾ وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ﴾ الخ. هاتان شبهتان ألقاهما إلى أسماع عوام القبط، فأراهم أنَّ إيمان السحرة مبني على المواطأة بينهم وبين موسى، وأنَّ غرضهم بذلك إخراج القوم من المدينة، وإبطال ملكهم، ومعلوم أنَّ مفارقة الأوطان مما لا يطاق فجمع اللعين بين الشبهتين تثبيتاً للقبط على ما هم عليه، وتهييجاً لعداوتهم لموسى، ثم عقبهما بالوعيد ليريهم أن لهم قوة فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أصنع بكم من العذاب جزاء على هذا المكر والخداع، ثم بين ذلك بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾؛ أي: والله لأنكِّلن بكم أشد التنكيل، فلأقطعن الأيدي والأرجل منكم، حالة كونها مختلفة في شق وجانب؛ أي: أنه يقطع من كل شق طرفاً فيقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، فيخالف بينهما في القطع ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: ثم بعد قطع الأيدي والأرجل لأعلقنكم على الأخشاب، ممدودة أيديكم على صورة الصليب؛ أي: ثمَّ لأصلِّبَنَّ كل واحد منكم ـ وهو على تلك الحال ـ لتكونوا عبرة لمن تحدثه نفسه بالكيد لنا، والترفع عن الخضوع لعظمتنا، قال ابن عباس رضي الله عنه: أول من قطع الأيدي والأرجل وصلب فرعونُ.

والخلاصة: أنّ اتهامه السحرة بالتواطؤ مع موسى، إنَّما كان تمويها على قومه المصريين، إذ خاف عاقبة إيمان الشعب بموسى، فادعى أنَّه لا ينتقم من السحرة إلا حبا فيهم، ودفاعاً عنهم، وابقاء لاستقلالهم في وطنهم، كما هو شأن كل رئيس أو ملك في شعب يخاف أن ينتفض عليه وتجتمع كلمته على اختيار زعيم آخر، يقوم بدعوة دينية أو سياسية، وجاء هنا بـ﴿ثُمَّ﴾ وفي يونس والشعراء بـ﴿الواو﴾؛ لأنَّ الواو صالحة للمهلة، فلا تنافي في الآيات. ذكره في «الفتوحات».

---

(١) الفتوحات

واختلف[1] في قوله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ هنا وفي طه وفي الشعراء على أربع مراتب:

الأولى: قراءة الأخوين حمزة والكسائي وأبي بكر، عن عاصم وهي تحقيق الهمزتين في السور الثلاث من غير إدخال ألف بينهما، وهو استفهام إنكار، وأما الألف الثالثة فالكل يقرؤونها كذلك، وهي فاء الكلمة يجب قلبها ألفا لكونها بعد همزة مفتوحة، وأما الأولى: فمحققة ليس إلا، والثانية: قراءة حفص وهي ﴿أمنتم﴾ بهمزة واحدة بعدها ألف، والثالثة: قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر والبزي عن ابن كثير وهي تحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين، والرابعة: قراءة قنبل عن ابن كثير فقرأ في هذه السورة حال الابتداء ﴿أآمنتم﴾ بهمزتين، أولاهما محققة والثانية مسهلة بين بين وألف بعدها، كقراءة البزي، وحال الوصل يقرأ ﴿قال فرعون وآمنتم﴾ بإبدال الأولى واواً، وتسهيل الثانية بين بين وألف بعدها، وقرأ في سورة طه كقراءة حفص، وفي سورة الشعراء كقراءة البزي.

وقرأ[2] مجاهد وحميد المكي وابن محيص: ﴿لأقطعن﴾: مضارع قطع الثلاثي، و﴿لأصلبنكم﴾ مضارع صلب الثلاثي، بضم لام ﴿لأصلبنكم﴾ وروي بكسرها، وجاء هنا بـ﴿ثُمَّ﴾ وفي السورتين بالواو في ﴿ولَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ فدل على الواو أريد بها معنى (ثم)، من كون الصلب بعد القطع، والتعدية قد يكون معها مهلة وقد لا يكون.

وعندما سمع السحرة التهديد والوعيد السابق من ذلك الجبار المتكبر أجابوه بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: السحرة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: راجعون بالموت بلا شك، سواء كان بقتلك أو لا، فيحكم بيننا وبينك، وإنَّا إلى رحمة ربنا راغبون.

أي[3]: إنَّهم لا يبالون بقتلهم؛ لأنَّهم راجعون إلى ربهم، راجون مغفرته ورحمته، فتعجيل القتل يكون سبباً لقرب لقائه، والتمتع بجزائه، قال أبو حيان[4]: وهذا تسليم واتكال على الله تعالى، وثقة بما عنده، والمعنى: إنَّا نرجع

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

إلى ثواب ربنا يوم الجزاء على ما نلقاه من الشدائد، أو: إنا ننقلب إلى لقاء ربنا ورحمته، وخلاصنا منك ومن لقائك، أو: إنا ميِّتون منقلبون إلى الله فلا نبالي بالموت، إذ لا تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه. انتهى.

وقد يكون المعنى: إنا وإياك سننقلب إلى ربنا، وما أنت بمخلَّد بعدنا، فلئن قتلتنا.. فسيحكم الله بعدله بينك وبيننا، وما أحسن قول الشاعر:

إِلَىٰ دَيَّانِ يَوْمِ ٱلدِّيْنِ نَمْضِيْ ... وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ ٱلْخُصُوْمُ

وفي هذا إيماء إلى تكذيبه في دعوى الربوبية، وتصريح بإيثار ما عند الله على ما عنده من الشهوات الدنيوية الزائلة.

وما جاء في سورة الشعراء من قولهم: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ يؤيد المعنى الأول.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا﴾؛ أي: وما تكره منا ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾؛ أي: إلا إيماننا وتصديقنا بآيات ربنا ومعجزاته، التي ظهرت على يد عبده ورسوله موسى عليه السلام﴿لَمَّا جَاءَتْنَا﴾؛ أي: حين جاءتنا على يد موسى؛ أي: ما تعيب علينا إلا إيماننا بآيات ربنا، أو: ما لنا عندك ذنب تعذبنا عليه إلا إيماننا بآيات ربنا حين جاءتنا، وهذا الاستثناء شبيه بقوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

والخلاصة: أي وما تعيب منا وما تنكر منا إلا خير الأعمال، وأصل المفاخر، الذي هو الإيمان بالله تعالى، ومثل هذا لا يمكن العدول عنه مرضاة لك، ولا طلباً للزلفى إليك، وفيه تيئيس له، وكأنهم قالوا: لا مطمع لك في رجوعنا عن إيماننا، وإنَّ تهديدك لا يجدي فائدة.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو اليسر هاشم، وابن أبي عبلة[١]: ﴿وما تنقَم﴾ بفتح القاف، مضارع نقم بكسرها، وهما لغتان، والأفصح قراءة الجمهور.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى كلام السحرة بدعائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ ويا

(١) المراغي.

مالك أمرنا ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ أي: أصبب علينا صبراً كاملاً تاماً عند القطع والصلب ليكلا نرجع كفاراً؛ أي: هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا، حتى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء إفراغاً، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: أمتنا ثابتين على الإسلام، منقادين لأوامرك، مخلصين لك على دين موسى وإبراهيم، **والمعنى**: ربنا[1] هب لنا صبراً واسعاً تفرغه علينا، وأيدنا بروحك حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك، ولا من الرجاء في سوى فضلك، وتوفنا إليك، مذعنين لأمرك ونهيك، مستسلمين لقضائك، غير مفتونين بتهديد فرعون، ولا مطيعين له في قوله ولا فعله، وقد ذكر المؤرخون قديماً وحديثاً أنَّ المؤمنين بالله واليوم الآخر، من كل ملة ودين، يكونون أعظم شجاعة، وأكثر صبراً على مشاق الحروب من غيرهم، ومن ثم يحرص زعماء الشعوب على بث النزعة الدينية بين رجالات الجيوش، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء.

قال الكلبي: إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم، وقال غيره إنَّه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

الإعراب

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿بَعَثْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾. ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿بَعَثْنَا﴾. ﴿مُوسَى﴾: مفعول به ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من موسى؛ أي: حال كونه ملتبساً بآياتنا. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿بَعَثْنَا﴾. ﴿وَمَلَئِهِ﴾: معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾. ﴿فَظَلَمُوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿ظلموا﴾. ﴿فَانْظُرْ﴾: ﴿الفاء﴾:

---

(١) البحر المحيط.

فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ظلمهم بها، وأردت التعجب من عاقبتهم.. فأقول لك ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليه وجوباً لكونه مما يلزم الصدارة ﴿عَٰقِبَةُ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾، ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾: جملة استفهامية في محل النصب على إسقاط حرف جر تقديره: فانظر إلى مآل عاقبة المفسدين. كما في «الفتوحات» وجملة ﴿انظر﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿فرعون﴾: في محل النصب منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إِنِّي﴾: ﴿إن﴾ حرف نصب، و﴿الياء﴾ اسمها ﴿رَسُولٌ﴾: خبرها ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾ جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿حَقِيقٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره: أنا حقيق ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر ﴿أَن﴾: حرف نصب ﴿لَّآ﴾ نافية. ﴿أَقُولَ﴾ فعل مضارع منصوب ﴿أَن﴾ المصدرية، وفاعله ضمير المتكلم يعود على موسى، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَقُولَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مفعول به لـ﴿أَقُولَ﴾ لأنَّه بمعنى: أذكر أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: إلا القول الحق، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره: على عدم قولي إلا الحق، والجار والمجرور متعلق بـ﴿حَقِيقٌ﴾ ولكن ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى الباء؛ أي: حقيق بعدم قولي إلا الحق، هذا على قراءة الجمهور، وقرأ نافع: ﴿حقيق عليَّ أن لا أقول﴾

بتشديد الياء، وذلك لقلب ألف (على) ياء وإدغامها في ياء المتكلم، فعلى هذه القراءة ﴿حَقِيقٌ﴾: مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة عمله في الجار والمجرور بعده، فإنَّ ﴿عليَّ﴾: متعلق بـ﴿حَقِيقٌ﴾ وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية تقديره: حقيق على عدم قولي على الله إلا الحق، والجملة الإسمية على كلا التقديرين في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿جِئْتُكُم﴾: فعل وفاعل، ومفعول، ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾: متعلق به، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفة لـ﴿بينة﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿فَأَرْسِلْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿أرسل﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿فرعون﴾ والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿جِئْتُكُم﴾. ﴿مَعِيَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أرسل﴾، ﴿بَنِيَ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿فرعون﴾، والجملة مستأنفة ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية ﴿جِئْتَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان ﴿فَأْتِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية ﴿ائت﴾ فعل أمر في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿بِهَآ﴾ جار ومجرور، متعلق به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إنْ كنت من الصادقين.. فأت بها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿ألقى﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾، ﴿عَصَاهُ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: فجائية حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هِيَ﴾: مبتدأ ﴿ثُعْبَانٌ﴾: خبره، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة لـ﴿ثُعْبَانٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ألقى﴾. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ألقى﴾ ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: حرف فجأة ﴿هِيَ﴾: مبتدأ ﴿بَيْضَآءُ﴾: خبره، ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ متعلق بـ﴿بَيْضَآءُ﴾، أو صفة له؛ لأنَّه اسم فاعل لمؤنث، كحمراء وأحمر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿نزع﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿ٱلْمَلَأُ﴾. ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿قالوا﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ حرف نصب، واسم الإشارة اسمها ﴿لَسَـٰحِرٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿ساحر﴾ خبر ﴿إن﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: صفة ﴿ساحر﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾ أو على ﴿ساحر﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من الضمير المستكن في ﴿ساحر﴾، أو في محل الرفع صفة ثانية ﴿لَسَـٰحِرٌ﴾، ﴿أَن يُخْرِجَكُم﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: يريد إخراجه إياكم ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، متعلق بـ﴿يُخْرِجَكُم﴾. ﴿فَمَاذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة داخلة على قول محذوف تقديره: فقال فرعون: ماذا تأمرون؟ ﴿ماذا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول ثان مقدم وجوباً للزومه صدر الكلام، ﴿تَأْمُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والواو عائدة على ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، والمفعول الأول محذوف تقديره: فقال فرعون: أي شيء تأمرونني فيه؟ والجملة الفعلية في

محل النصب مقول لـ﴿قَالَ﴾ المحذوف، وجملة ﴿قَالَ﴾ المحذوف معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ ويجوز أنْ تكون ﴿ما﴾ اسم استفهام مبتدأ ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي، في محل الرفع خبره، وجملة ﴿تَأْمُرُونَ﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: فقال فرعون ما الذي تأمرونني فيه؟.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافياً بيانياً ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَرْجِهْ﴾: فعل أمر مبني بسكون على الهمزة المحذوفة للتخفيف؛ لأنه من أرجأ و﴿الهاء﴾: ضمير للمفرد المذكر الغائب في محل النصب مفعول به، مبني على السكون تشبيهاً له بهاء السكت مع إجراء الوصل مجرى الوقف، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿وَأَخَاهُ﴾: معطوف على ضمير المفعول ﴿وَأَرْسِلْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿أَرْجِهْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾: متعلق به، ﴿حَٰشِرِينَ﴾: مفعول به لـ﴿أرسل﴾، ومفعول ﴿حَٰشِرِينَ﴾ محذوف تقديره: حاشرين السحرة ﴿يَأْتُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به. ﴿عَلِيمٍ﴾: صفة ﴿سَٰحِرٍ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿جاء﴾ تقديره: وجاء السحرة فرعون فقالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ إلى آخر الآية. مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿لَنَا﴾: خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾، ﴿لَأَجْرًا﴾: اسمها مؤخر ﴿واللام﴾: حرف ابتداء وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بإنْ على كونه فعل شرط لها، ﴿نَحْنُ﴾: ضمير فصل، أو مؤكد لاسم كان،

﴿ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إن كنا نحن الغالبين.. فإن لنا لأجراً، وجملة ﴿إن﴾: الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿نَعَمۡ﴾: حرف جواب وتصديق، قائم مقام الجملة الجوابية تقديرها: قال: إن لكم لأجراً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَإِنَّكُمۡ﴾: الواو عاطفة ﴿إن﴾: حرف نصب ﴿والكاف﴾: اسمها ﴿لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إنَّ﴾ المحذوفة، القائم مقامها حرف ﴿نَعَمۡ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾: إلى آخر الآية. مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿إِمَّآ﴾: حرف تخيير ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تُلۡقِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود على موسى، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب، على كونه مفعولاً لفعل محذوف تقديره: اختر إما إلقاءك، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿وَإِمَّآ﴾: الواو عاطفة لـ﴿إِمَّآ﴾ على ﴿إِمَّآ﴾، ﴿أَن نَّكُونَ﴾: ناصب وفعل ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود على السحرة ﴿نَحۡنُ﴾: ضمير فصل، أو مؤكد لاسم ﴿نَّكُونَ﴾، ﴿ٱلۡمُلۡقِينَ﴾: خبر نكون، وجملة ﴿نَّكُونَ﴾ في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها تقديره: إختر إما إلقاءك وإما إلقاءنا، ومفعول الإلقاء في الموضعين محذوف لعلمه تقديره: إختر إما إلقاءك حبالك وعصيك، وإما إلقاءنا حبالنا وعصينا.

﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة مستأنفة ﴿أَلْقُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن موسى أمرهم بالإلقاء، وأردت بيان ما وقع منهم بعد أمره بالإلقاء.. فأقول لك ﴿لما ألقوا﴾ ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿أَلْقَوْا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لمَّا﴾، ﴿سَحَرُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿سَحَرُوٓا۟﴾، ﴿وَجَآءُو﴾: فعل، وفاعل معطوف على ﴿سَحَرُوٓا۟﴾، ﴿بِسِحْرٍ﴾: متعلق بـ﴿جَآءُو﴾، ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة لـ﴿سحر﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾: جار ومجرور، متعلق به ﴿أَنْ﴾: مفسرة أو مصدرية ﴿أَلْقِ﴾: فعل أمر في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ ﴿عَصَاكَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: وأوحينا إلى موسى إلقاءه عصاه ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فألقاها فإذا هي ﴿إذا﴾: فجائية حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هِىَ﴾: مبتدأ، ﴿تَلْقَفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على العصا، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب مفعول ﴿تَلْقَفُ﴾، أو مصدرية، وجملة ﴿يَأْفِكُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما يأفكونه، أو الجملة صلة ما المصدرية، والتقدير: تلقف إفكهم؛ أي: مأفوكهم من الحبال والعصي.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿فَوَقَعَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿وقع الحق﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوحينا﴾، ﴿وَبَطَلَ﴾: فعل ماض، ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع فاعل لـ﴿بَطَلَ﴾، ويصح أنْ تكون مصدرية، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه، أو صلة ﴿مَا﴾ المصدرية والتقدير: وبطل عملهم، وجملة ﴿بطل﴾ معطوفة على جملة ﴿وقع﴾. ﴿فَغُلِبُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿غلبوا﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿بطل﴾، ﴿هُنَالِكَ﴾ ﴿هنا﴾: اسم إشارة يشار به للمكان البعيد، في محل النصب على الظرفية المكانية مبني على السكون، ﴿اللام﴾: لبعد المشار إليه، ﴿والكاف﴾: حرف دال على الخطاب، والظرف متعلق بـ﴿غلبوا﴾، ﴿وَانقَلَبُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿غلبوا﴾، ﴿صَٰغِرِينَ﴾: حال من الواو في ﴿انقلبوا﴾.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿غلبوا﴾ ﴿سَٰجِدِينَ﴾: حال من ﴿السَّحَرَةُ﴾. ﴿قَالُوٓا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية حال ثانية من ﴿السَّحَرَةُ﴾ والتقدير: وألقي السحرة حالة كونهم ساجدين قائلين: آمنا برب العالمين. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا﴾. ﴿رَبِّ مُوسَىٰ﴾: بدل من ﴿بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَهَٰرُونَ﴾: معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓا﴾ مقول محكي، وإنّ شئت قلت: ﴿ءَامَنتُم﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿قَبْلَ﴾: منصوب

على الظرفية، متعلق بـ﴿ءَامَنتُم﴾، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿ءَاذَنَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَنْ﴾. وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره: قبل إذني لكم. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿هَٰذَا﴾: اسمها، ﴿لَمَكْرٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿مكر﴾: خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿مكر﴾، ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾، ﴿لِتُخْرِجُوا۟﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وكي ﴿تخرجوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام كي ﴿منها﴾ متعلق بـ﴿تخرجوا﴾، ﴿أَهْلَهَا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة أنْ المضمرة، أنْ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإخراجكم منها أهلها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم مكركم وأردتم بيان عاقبته.. فأقول لكم سوف تعلمون ما يحل بكم، وجملة ﴿سوف تعلمون﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿أقطعن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير المتكلم المستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَأَرْجُلَكُم﴾: معطوف عليه ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: جار ومجرور، حال من الأيدي والأرجل؛ أي: حالة كونها مختلفة في القطع، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أصلبنكم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير المخاطبين، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب

معطوفة على جملة القَسم الأول. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ إلى قوله: ﴿وقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّآ﴾: حرف نصب واسمه ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾: متعلق بـ﴿مُنقَلِبُونَ﴾، ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّآ﴾ وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿تَنقِمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾ ﴿مِنَّآ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل ماض، وفاعله في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية، ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أَنْ﴾ المصدرية، ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء تقديره: إلا إيماننا بآيات ربنا، ﴿لَمَّا﴾: حينية في محل النصب على الظرفية، ﴿جَآءَتْنَاۚ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الآيات، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾ تقديره: حين مجيئها إيانا، والظرف متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿أَفْرِغْ﴾: فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباري سبحانه، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به، ﴿صَبْرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها جواب النداء ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿مُسْلِمِينَ﴾: حال من ضمير المتكلمين، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَفْرِغْ﴾ على كونها جواب النداء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾. ﴿مُّوسَىٰ﴾[1] موسى ابن عمران

(١) المراغي.

ـ بكسر العين ـ وأهل الكتاب يقولون: عمرام بفتح أوله، وإنَّما سمي موسى لأنَّه ألقي بين ماء وشجر، فالماء بالقبطية: مو، والشجر: سى، وذلك أنَّ أمه وضعته بعد ولادته في تابوت ـ صندوق ـ وأقفلته إقفالاً محكماً، وألقته في نهر النيل، خوفاً من فرعون وحكومته أنْ يعلموا به فيقتلوه، إذ كانوا يذبحون ذكور بني إسرائيل عند ولادتهم، ويتركون نساءهم، وفرعون لقب لملوك مصر القدماء، كلقب قيصر لملوك الروم، وكسرى لملوك الفرس، كما مر، والراجح لدى كثير ممن يعنون بالتاريخ المصري القديم، أن فرعون موسى هو الملك منفتاح، وكان يلقب بسليل الإله: رع؛ أي: الشمس وقد كتب بجانب هيكله الذي بدار الآثار المصرية. الآية الكريمة ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ والملأ أشراف الناس، يملؤون المجالس بأجرامهم، والعيون بجمالهم، والقلوب بمهابتهم، كما مر عن أبي السعود، ومن المراد هنا ما يشمل الرفيع والوضيع ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾؛ أي: جحدوا بها وكفروا ﴿حَقِيقٌ﴾؛ أي: جدير وخليق به، يقال: أنت حقيق بكذا، كما يقال: أنت جدير به وخليق، وقال الليث: حق الشيء معناه: وجب، ويحق عليك أن تفعله، وحقيق أن أفعله، فهو بمعنى فاعل، وقد يكون بمعنى مفعول، تقول: فلان محقوق عليه أن يفعل ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ والنزع إخراج الشيء من مكانه ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؛ أي: تشيرون في أمره، يقال: مرني بكذا على معنى: أشر علي وأدل رأيك. ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾؛ أي: أرجىء أمره وأخره ولا تقض فيه بادىء الرأي، وهو من أرجأ الرباعي ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ جمع مدينة، ومدينة على وزن فعيلة، فالياء زائدة في المفرد، فلذلك تقلب همزة في الجمع على حد قوله في الخلاصة:

وَٱلْمَدُّ زِيْدَ ثَالِثاً فِيْ ٱلْوَاحِدِ   هَمْزاً يُرَىٰ فِيْ مِثْلِ كَٱلْقَلَائِدِ

والمدينة من مدن بالمكان يمدن، إذا أقام به، فالفعل من باب نصر، وفي «السمين»: والمدائن جمع مدينة ووزنها فعيلة، فميمها أصلية، وياؤها زائدة، مشتقة من مدن يمدن مدوناً؛ أي: أقام ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يجوز(١) أنْ يكون استفعل هنا

(١) الفتوحات.

بمعنى أفعل؛ أي: أرهبوهم، وهو قريب من قولهم قر واستقر، وعظم واستعظم، وهذا رأي المبرد، ويجوز أنْ تكون السين على بابها؛ أي: استدعوا رهبة الناس منهم، وهو رأي الزجاج. اهـ «سمين».

﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[1] قرأ العامة: ﴿تلقف﴾ بتشديد القاف من ﴿تلقف﴾ والأصل تتلقف بتائين، فحذفت إحداهما، إما الأولى وإما الثانية، وقد تقدم ذلك في نحو ﴿تذكرون﴾ والبزي: على أصله وإدغامها فيما بعدها، فيقرأ: ﴿فإذا هي تلقف﴾ بتشديد التاء أيضاً، وقرأ حفص ﴿تَلْقَفُ﴾ بتخفيف القاف من لقف، كعلم يعلم، وركب يركب، يقال: لقفت الشيء ألقفه لقفاً، وتلقفته أتلقفه تلقفاً إذا أخذته بسرعة فأكلته أو ابتلعته، ويقال: لقف ولقم بمعنى واحد، قاله أبو عبيد اهـ «سمين»، وفي «المختار»: لقف من باب فهم، وتلقفه؛ أي: تناولته بسرعة اهـ. ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أصل الإفك قلب الشيء عن وجهه، ومنه قيل للكذاب أفّاك؛ لأنّه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح إلى الباطل. اهـ «خازن». وفي «المصباح» أفك يأفك من باب ضرب، إفكاً بالكسر فهو أفوك وأفاك، وأفكته صرفته، وكل أمر صرف عن وجهه فقد أفك. اهـ وفي «المراغي»: المأفوك[2] المصروف عن وجهه الذي يحق أنْ يكون عليه، ومن ثم يقال للرياح التي عدلت عن مهابها: مؤتفكة، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ وقال: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، وعن الصدق في المقال إلى الكذب، وعن الجميل في الفعل إلى القبيح، فالإفك بالقول كالكذب، وقد يكون بالفعل، كعمل سحرة فرعون.

﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾. ﴿هُنَالِكَ﴾: يجوز أنْ يكون مكاناً؛ أي: غلبوا في المكان الذي وقع فيه سحرهم، وهذا هو الظاهر، وقيل: يجوز أن يكون زماناً، وهذا ليس أصله، وقد أثبت له بعضهم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وفي قول الشاعر:

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

ولا حجة فيهما؛ لأن المكان فيهما واضح. اهـ «سمين» ﴿وَانقَلَبُوا﴾؛ أي: عادوا ﴿صَٰغِرِينَ﴾؛ أي: أذلة بما رزئوا به من الخذلان والخيبة ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾؛ أي: خروا - سجداً؛ لأنَّ الحق بهرهم، واضطرهم إلى السجود.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: قال[1] ما ذكر منكراً على السحرة، موبخاً لهم على ما فعلوه، فالاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ، وأصل هذا الفعل آمن بوزن آدم، وأصله أأمن بهمزتين، فقلبت الثانية ألفاً وجوباً على القاعدة، والثانية هي فاء الكلمة، والأولى زائدة، فهو بوزن أفعل، كأكرم ثمَّ إنَّه دخلت عليه همزة الاستفهام، فاجتمع همزتان صريحتان، وبعدهما ألف منقلبة عن همزة في الأصل ﴿قبل أنْ آذن لكم﴾ أصله[2] أأْذن وهو فعل مضارع منصوب بأنْ المصدرية، والهمزة الأولى همزة المتكلم التي تدخل على المضارع، والثانية قلبت ألفاً لوقوعها ساكنة بعد همزة أخرى، وأصله أأذن على وزن أعلم. المكر: صرف الإنسان عن مقصده بحيلة، وهو **نوعان**، **محمود**: يراد به الخير، **ومذموم**: يراد به الشر ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والعكس بالعكس ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ والصلب: الشد على خشبة ونحوها، وشاع في تعليق الشخص بنحو حبل في عنقه ليموت، وهو المتعارف اليوم.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ عبارة «الخازن» يعني: وما تكره منا وما تطعن علينا. وقال عطاء: معناه وما لنا عندك ذنب تعذبنا عليه. انتهت. وفي «المصباح» نقمت عليه أمره ونقمت منه نقماً، من باب ضرب، ونقوماً، ونقمته أنقمه من باب تعب لغة إذا عبته وكرهته أشد الكراهة لسوء فعله، وفي «التنزيل»: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ على اللغة الأولى؛ أي: وما تطعن فينا وتقدح، وقيل: ليس لنا عندك ذنب، ولا ركبنا

(١) أبو السعود.

(٢) الفتوحات.

مكروهاً. اهـ وقال: نقمت بالشيء إذا أنكرته إما باللسان وإما بالعقوبة، كما قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ و﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾. ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾؛ أي: افض علينا صبراً يغمرنا كما يفرغ الماء من القرَب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإبهام في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ إفادة للتفخيم والتعظيم.

ومنها: التضمين في قوله: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ وهو إشراب كلمة معنى كلمة أخرى؛ لأنَّه ضمن ﴿ظلموا﴾ بمعنى (كفروا) فعداه بالباء.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ومنها: التضمين أيضاً في قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾. على قراءة العامة؛ لأنَّه ضمن ﴿حَقِيقٌ﴾ بمعنى (حريص) فعداه بعلى.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾، فإنَّه في مقابلة قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ لأنَّه بمعنى خل أمرهم، واترك سبيلهم حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة، وفي قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾؛ لأنَّه استعار النزع ـ الذي هو بمعنى أخذ الشيء بسرعة ـ للإخراج؛ لأنَّه بمعنى: أخرج يده من جيبه، أو من كمه.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ للمبالغة، أكده بإن وبإسمية الجملة، وباللام، وفي قوله: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أكد الجملة بإن، وباللام لإزالة الشك من نفوس السحرة، ويسمى هذا النوع من أنواع الخبر إنكارياً.

ومنها: التنكير إفادة للتعظيم في قوله: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ قال الزمخشري:

كقولهم: إن له لإبلاً، وإن له لغنماً وفي قوله: ﴿لَمَكْرٌ﴾.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ما يحل بكم، ثم البيان بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ جاء به في جملة قسمية تأكيداً لما يفعله.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿تلقي﴾ و﴿الملقين﴾ في قوله: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾. وتغيير النظم في الجملة الثانية ـ بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل، وتأكيد الضمير المتصل بالمنفصل ـ يدل على رغبتهم في التقدم وعدم مبالاتهم بموسى؛ لأن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا ممن له قوة وملكة في الأمر الذي يدعيه، فيخير من يقابله في الابتداء في العمل أو التأخر، فكأنَّه يقول: لا أبالي بفعلك سواء تقدم أو تأخر.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ لأنَّه استعار الوقوع للثبوت والحصول، وفي قوله: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ لأنَّ الإفراغ حقيقة في الماء.

ومنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا﴾ مثل قوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ
سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ
أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا
فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِنْدَكَ ۖ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ
وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا
كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ
قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ
(١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ
فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى[1] يخبر عما تمالأ عليه

(١) المراغي.

فرعون وملؤه، وما أضمروه لموسى وقومه، لقد نصح موسى قومه، ودار بينهم حوار قصه الله علينا في تلكم الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ . . .﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى وعد موسى لقومه بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ. . .﴾. . ذكر هنا مبادىء الهلاك الموعود به بما أنزله على فرعون وقومه من المحن، حالاً بعد حال، إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال تنبيهاً للسامعين، وزجراً لهم عن الكفر وتكذيب الرسل، حذر أن ينزل بهم من الشر مثل ما نزل بهؤلاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى. . .﴾ الآيات[1]، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر الله سبحانه وتعالى الآيات الخمس التي سبق ذكرها. . بين هنا ما كان من أثرها في نفوس المصريين جميعاً، وطلبهم من موسى أن يرفع الله عنهم العذاب، فإذا هو فعل. . آمنوا به، ثم تبين نكثهم وخلفهم للوعد كل مرة حدث فيها الطلب، حتى حل بهم عذاب الاستئصال بالغرق في البحر.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا . . .﴾ مناسبتها لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما بين ما حل بالمصريين من الغرق عقوبة لهم على تكذيبهم بموسى، بعد وجود الآية تلو الآية الدالة على صدقه. . ذكر هنا ما فعله ببني إسرائيل من الخيرات، إذ أصبحوا أعزة بعد أن كانوا أذلة، وملكوا الأرض المقدسة التي بارك الله فيها، وهي بلاد الشام.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ. . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين أنواع نعمه على بني إسرائيل، بأن أهلك عدوهم، وأورثهم أرضهم وديارهم. . أتبع ذلك بالنعمة الكبرى عليهم، وهي أنَّه جاوز بهم البحر آمنين، ثم ارتدوا وطلبوا من موسى أن يعمل لهم آلهة وأصناماً. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ عما رآه من اليهود بالمدينة، فإنَّهم جروا معه على دأب

---

(١) المراغي.

أسلافهم مع أخيه موسى صلوات الله وسلامه عليهم، وإيقاظ للمؤمنين أنْ لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم، ومراقبة نعم الله تعالى عليهم، فإن بني إسرائيل وقعوا فيما وقعوا فيه من جزاء غفلتهم عما مَنَّ الله تعالى به عليهم من النعم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ لفرعون لما خلى سبيل موسى: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾؛ أي: أتترك موسى وقومه بني إسرائيل أحراراً آمنين؟ والاستفهام للإنكار التعجبي؛ أي: لا تذرهم ﴿لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في أرض مصر؛ أي: لتكون عاقبتهم أنْ يفسدوا عليك قومك القبطيين بإدخالهم في دينهم، أو بجعلهم تحت سلطانهم ورياستهم. ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾؛ أي: ويترك عبادتك وعبادة آلهتك، فلا يعبدوك ولا يعبدوها، فيظهر لأهل مصر عجزك وعجزها، ولا يغيبن عنك إيمان السحرة، فقد يكون مقدمة لما بعده.

والتاريخ[١] المصري المستمد من العادات المصرية يدل على أنه كان للمصريين آلهة كثيرة، منها: الشمس ويسمونها: رع، وفرعون عندهم سليل الشمس وابنها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[٢]: كانت لفرعون بقرة كان يعبدها، وكان إذا رأى بقرةً حسنة أمرهم بعبادتها، ولذلك أخرج لهم السامري عجلاً، وقال السدي: كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناماً، وكان يأمرهم بعبادتها، وقال لهم: أنا ربكم ورب هذه الأصنام، وذلك قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، والأولى أن يقال: إن فرعون كان دهرياً منكراً لوجود الصانع، فكان يقول: مدبر هذا العالم السفلي هي الكواكب، فاتخذ أصناماً على صورة الكواكب، وكان يعبدها ويأمر بعبادتها، وكان يقول في نفسه،: إنه هو المطاع والمخدوم في الأرض، فلهذا قال: أنا ربكم الأعلى. اهـ من «الخازن».

---

(١) المراغي.　　(٢) الخازن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ويذرك﴾ بياء الغيبة ونصب الراء، وفي النصب وجهان، أظهرهما: أنَّه على العطف على ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾، والثاني: أنَّه منصوب على جواب الاستفهام، كما ينصب في جوابه بعد الفاء، وقرأ نعيم بن ميسرة والحسن في رواية عنه: ﴿ويذرك﴾ بالرفع عطفاً على أتذر بمعنى أتذره ويذرك، وعلى الاستئناف إخباراً بذلك، أو على الحال على تقدير: وهو يذرك، وقرأ الأشهب العقيلي والحسن في رواية عنه ﴿ويذرك﴾ بالجزم، إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة، أو عطفاً على ﴿يفسدوا﴾ على توهم الجازم كما قيل: في ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وقرأ أنس بن مالك: ﴿ونذرك﴾ بالنون ورفع الراء، توعدوه بتركه وترك آلهته، أو على معنى الإخبار؛ أي: إن الأمر يؤول إلى هذا.

وقرأ أبي وعبد الله[2]: ﴿ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك﴾ وقرأ الأعمش: ﴿وقد تركك وآلهتك﴾ وقرأ الجمهور: ﴿وآلهتك﴾ بفتح الهمزة على صيغة الجمع. والظاهر: أن فرعون كان له آلهة يعبدها كما مر عن ابن عباس، وقيل: إن الإضافة لأدنى ملابسة باعتبار أنَّه صنعها وأمرهم بعبادتها، لتقربهم إليه. وقرأ ابن مسعود وعلي وابن عباس وأنس رضي الله عنهم، والشعبي والضحاك: ﴿وإلهتك﴾: بكسر الهمزة، وفسروا ذلك بأمرين:

أحدهما: أن المعنى: ويذكر وعبادتك فلا يعبدك؛ لأن فرعون كان يعبد ولا يعبد، فيكون حينئذ مصدراً بمعنى العبادة.

والثاني: أن المعنى: ويذرك ومعبودك، والمراد بالآلهة الشمس التي كان يعبدها، والشمس تسمى إلهةَ، علماً عليها ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث، ونقل ابن الأنباري عن ابن عباس أنَّه كان ينكر قراءة الجمهور ويقرأ: ﴿وإلهتك﴾ ويقول إن فرعون يعبد ولا يعبد. اهـ «سمين».

واعلم[3]: أن فرعون بعد واقعة السحر كان كلما رأى موسى خافه أشد

---

(١) البحر المحيط وغيره.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراح.

الخوف، ولا يتعرض له، إلا أن قومه لم يعرفوا ذلك، فحملوه على أخذه وحبسه حين قالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ قال فرعون مجيباً للملأ ـ لما لم يقدر على موسى أن يفعل معه مكروهاً لخوفه منه ـ ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ أي: سنقتل أبناء بني إسرائيل تقتيلاً كلما تناسلوا ﴿وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾؛ أي: ونستبقي نساءهم أحياء للخدمات كما كنا نفعل بهم قبل ولادته، حتى ينقرضوا ويعلموا أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة.

وقال ابن عباس(١): كان فرعون قد ترك القتل في بني إسرائيل بعدما ولد موسى، فلما جاءه موسى بالرسالة ـ وكان من أمره ما كان ـ أعاد فيهم القتل، وقيل: لم يعد فيهم القتل بل وعده وهدده إياهم، وقرأ نافع وابن كثير ﴿سنَقْتل﴾ بالتخفيف مع فتح النون وسكون القاف، وقرأ الباقون بالتشديد مع ضم النون ﴿وإنا فوقهم﴾؛ أي: فوق بني إسرائيل في المنزلة والتمكن في الدنيا؛ أي: مُستَعلون عليهم بالغلبة والسلطان ﴿قَٰهِرُونَ﴾ لهم وغالبون عليهم، كما كنا من قبل فلا يقدرون على إذايتنا، ولا على الإفساد في أرضنا، ولا على الخروج من عبوديتنا، وإنما تركنا موسى وقومه بلا حبس لعدم التفاتنا إليهم، وعدم مبالاتنا لهم، لا لعجز ولا لخوف.

واختلف المفسرون(٢): هل أعاد عليهم القتل أم لا؟ فمنهم من قال: أعاد عليهم القتل، ومنهم من قال: لم يفعل ذلك لعدم قدرته لقوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. ولكن لما سمع بنو إسرائيل هذا الوعيد.. خافوا من فرعون، فشكوا ذلك إلى موسى، فطمأنهم موسى كما حكى الله عنه بقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾: بني إسرائيل يا قوم ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: اطلبوا معونة الله وتأييده على رفع ذلك الوعيد عنكم، ورفع أذاهم عنكم؛ فإن الله هو الكافي لكم ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ على أذاهم، أو على ما سمعتم من أقاويله الباطلة، ولا تحزنوا ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض مصر وكذا سائر أقطار الأرض، شرقها وغربها ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

خلقاً وملكاً، لا لفرعون، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء ﴿يُورِثُهَا﴾؛ أي: يورث الأرض ويعطيها ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي لمن يشاء إعطاءه إياها ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فهي على مقتضى سننه دول وأيام، وهذا إطماع من موسى عليه السلام لبني إسرائيل أنه يهلك فرعون وقومه، ويملك بنو إسرائيل أرضهم وبلادهم بعد إهلاكهم كما قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة في الدنيا والآخرة، وعاقبة كل شيء آخره ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: لمن يتقون الله، ويراعون سننه في أسباب إرث الأرض، باتحاد الكلمة، والاعتصام بالحق، وإقامة العدل، والصبر على الشدائد، والاستعانة بالله لدى المكاره، ونحو ذلك مما هدت إليه التجارب، ودلت عليه الشرائع، وهم موسى وقومه.

وقرأ الحسن، ورويت عن حفص[1]: ﴿يُوَرِّثها﴾: بضم الياء وفتح الواو وتشديد الراء المكسورة للتكثير، وقرأت فرقة: ﴿يورَثها﴾: بفتح الراء، مبيناً للمفعول. وقرأ ابن مسعود: ﴿العاقبة﴾: بالنصب عطفاً على الأرض، فالاسم معطوف على الاسم، والخبر على الخبر فهو من عطف المفردات، فنتيجة طلب الإعانة توريث الأرض لهم، ونتيجة الصبر العاقبة المحمودة، والنصر على من عاداهم، فلذلك كان الأمر شيئين ينتج عنهما شيئان:

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: لم أخليت هذه الجملة ـ أعني قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ ـ من الواو، وأدخلت على التي قبلها ـ أعني قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾؟

قلت: هذه جملة مستأنفة، والتي قبلها معطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾. انتهى.

والخلاصة: ليس الأمر كما قال فرعون، بل القهر والغلبة لمن صبر واستعان بالله، ولمن وعده الله تعالى توريث الأرض، ونحن الموعودون بذلك، ولكن بشرط أن نقيم شرعه ونسير على سننه في الخلق، وليس الأمر كما يظن فرعون وقومه من بقاء القوي على قوته، والضعيف على ضعفه، اعتمادا على أنَّ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الكشاف.

الآلهة ضمنت له بقاء ملكه، وعظمته، وجبروته، لكن هذه الوصية وتلك النصائح لم تؤثر في قلوب بني إسرائيل، ففزعوا من فرعون وقومه ﴿وقَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال بنو إسرائيل لموسى استكشافاً لكيفية وعد موسى إياهم بزوال تلك المضار، هل في الحال، أولا، لا كراهة لمجيء موسى بالرسالة، وشكاً في وعده ﴿أُوذِينَا﴾ يا موسى من جهة فرعون وقومه، بقتل أبنائنا، واستخدام نسائنا ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ﴾ رسولا بإعادة ذلك علينا، وذلك[1] أن بني إسرائيل كانوا مستضعفين في يد فرعون وقومه، وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة نصف النهار، فلما جاء موسى ـ وجرى بينه وبين فرعون ما جرى ـ شدد فرعون في استعمالهم، فكان يستعملهم جميع النهار، وأعاد القتل فيهم، ولما ذكروا ذلك لموسى.. أجابهم بما حكاه الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿قَالَ﴾ موسى لقومه مسليا لهم، حين رأى شدة جزعهم بما شاهدوه من فعل فرعون ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾؛ أي حقق ربكم ﴿أَن يُهْلِكَ﴾ ويستأصل ﴿عَدُوَّكُمْ﴾ فرعون وقومه ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يجعلكم خلفاء في أرض مصر بعد هلاك أهلها، أو المعنى: قال[2] موسى لهم: إن رجائي من فضل الله أن يهلك عدوكم الذي ظلمكم، ويجعلكم خلفاء في الأرض.

﴿فَيَنظُرَ﴾ سبحانه وتعالى ويرى ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ بعد استخلافه إياكم فيها، أتشكرون النعمة أم تكفرون، وتصلحون في الأرض أم تفسدون، ويكون جزاؤكم في الدنيا والآخرة وفق ما تعملون، وعبر بالرجاء ـ دون أن يجزم بذلك ـ لئلا يتركوا ما يجب من العمل، ويتكلوا على ذلك، أو لئلا يكذبوه؛ لأنَّ أنفسهم قد ضعفت بما طال عليها من الذل والاستخدام لفرعون وقومه، واستعظامهم لقومه وملكه، وقال التبريزي: يحتمل أن يكون قد أوحي بذلك إلى موسى، فعسى: للتحقيق، أو لم يوح، فيكون على الترجي منه، وهذا تصريح[3] بما رمز إليه أولاً. من أن الأرض لله، وقد حقق الله تعالى رجاءه وملكوا مصر في زمان

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

داود وسليمان، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون، وأهلك فرعون وقومه بالغرق، وأنجاهم.

ثم شرع في تفصيل مبادىء هلاكهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ابتلينا آل فرعون وقومه، في المدة التي كان موسى أقام بينهم يدعوهم إلى الله تعالى، والأخذ[1] ـ التناول باليد ـ ومعناه: هنا الابتلاء ومعنى ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ بالقحوط والجدوب، والسنة تطلق على الحول، وتطلق على الجدب ضد الخصب. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وذهابها بالعاهات؛ أي: ابتليناهم بالجدب وضيق المعيشة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: لكي يتذكروا ضعفهم أمام قدرة الله، وعجز ملكهم العالي الجبار، وعجز آلهتهم، ويرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل، ويجيبوا دعوة موسى عليه السلام، إذ قد دلت التجارب على أن الشدائد ترقق القلوب، وتهذب الطباع، وتوجه النفوس إلى مناجاة الرب سبحانه، والعمل على مرضاته والتضرع له، دون غيره من المعبودات متى اتخذوها وسائل إليه وشفعاء عنده.

فإن لم تجد المصائب في تذكر المولى، وبلغ الأمر بالناس أن يشركوا به، حتى في أوقات الشدائد، فهم في خسران مبين، وضلال بعيد، وكذلك كان دأب آل فرعون، بعد أن أنذرهم موسى عليه السلام.

قال ابن عباس وقتادة[2]: أما السنون فكانت لباديتهم ومواشيهم، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم، وهذه سيرة الله في الأمم، يبتليها بالنقم ليزدجروا ويتذكروا بذلك ما كانوا فيه من النعم، فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب، والرجوع إلى طلب لطف الله وإحسانه، وكذا فعل بقريش حين دعا عليهم رسول الله ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» وروي أنه يبس لهم كل شيء، حتى نيل مصر، ونقصوا من الثمرات، حتى كانت النخلة تحمل التمرة الواحدة.

ثم بين أن المصائب لم تفدهم ذكرى، بل زادتهم عتوا فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾؛ أي: فإذا جاءهم الخصب، والثمار، والمواشي، والسعة في الرزق

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

والعافية ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال آل فرعون ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ الحسنة؛ أي: نحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس، فبلادنا بلاد خصب ورخاء، وقد غاب عنهم أن يعلموا أن هذا من الله، فعليهم أنْ يشكروه عليها ويقوموا بحق النعمة فيه. قال أبو السعود: وهذه الجملة بيان لعدم تذكرهم وتماديهم في الغي. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: وإنْ أصابهم قحط وجدب ومرض وبلاء ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين؛ أي: تشاءموا بموسى وقومه وقالوا: إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه، وغفلوا عن سيئات أنفسهم، وظلمهم لقوم موسى، توهماً منهم أنَّ ذلك حق من حقوقهم.

وهذه المعاملة يعامل بها الآن الأجنبي في الوطن أو في الدين، كما نراه الآن في بعض الدول العصرية، فإنا لله وإنَّا إليه راجعون.

قال الزمخشري[1]: فإنْ قلت: كيف قيل: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ بـ﴿إذا﴾ وتعريف الحسنة، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بـ﴿إن﴾ وتنكير السيئة؟

قلتُ: لأنَّ جنس الحسنة وقوعه، كالواجب لكثرته واتساعه، وأما السيئة: فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا يسير منها، ومنه قول بعضهم:

وَقَدْ عَدَّدْتَ أَيَّامَ ٱلْبَلَاءِ فَهَلْ عَدَدْتَ أَيَّامَ ٱلرَّخَاءِ

انتهى.

وقرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف: ﴿تطيروا﴾ بالتاء وتخفيف الطاء، فعلاً ماضياً ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾؛ أي: حظهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: سبب خيرهم وشرهم في جميع ما ينالهم من خصب وقحط، هو من عند الله تعالى، ليس بسبب موسى ومن معه؛ أي: إن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله وتقديره، وهو الذي وضع لنظام الكون سنناً تكون فيه المسببات وفق أسبابها، وبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل عليها البلاء، ويكون إمتحاناً واختباراً لهم، ليتوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيهم على بني إسرائيل، وعن طغيانهم وإسرافهم في

---

(١) البحر المحيط.

جميع أمورهم، وقرأ الحسن: ﴿ألا إنما طيرهم﴾ وكان النبي ﷺ ﴿يتفاءل ولا يتطير﴾ وأصل الفأل الكلمة الحسنة، كانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد، فأثبت النبي ﷺ الفأل وأبطل الطيرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة تصرف الخالق في هذا الكون، ولا أسباب الخير والشر، ولا أن كل شيء فيه جاء بمشيئته وتدبيره؛ لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة، ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وقدره، والحق أن الكل من الله، فإسنادها إلى غير الله تعالى يكون جهلاً بكمال الله تعالى.

وبعد أن ذكر أن هذه الحسنات والسيئات لم تردعهم عماهم فيه من الطغيان.. ذكر أنَّه أصابهم بضروب أخرى من العذاب، وهي في أنفسها آيات بينات وهم مع ذلك لم يرعووا عن كفرهم وعنادهم ﴿وقالوا﴾؛ أي: آل فرعون وهم القبطيون لموسى عليه السلام ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾؛ أي: أي شيء تأتنا به وتظهره لدينا ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ أي: من علامة من عند ربك ﴿لِّتَسْحَرَنَا﴾؛ أي: لتصرفنا عما نحن عليه من الدين ﴿بِهَا﴾؛ أي: بتلك الآية ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدقين لك في الرسالة بسبب تلك الآية.

أي: إنَّك إن جئتنا بكل نوع من أنواع الآيات، التي يستدل بها على أنَّك محق في دعوتك، لأجل أن تسحرنا بها، وتصرفنا بها بدقة ولطف عما نحن فيه من ديننا، ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا، فما نحن بمصدقين لك، ولا بمتبعين رسالتك، والضميران في ﴿بِهِۦ﴾ و﴿بِهَا﴾ راجعان لـ﴿مَهْمَا﴾ الأول مراعاة للفظها، والثاني مراعاة لمعناها.

وهذا شروع في بيان ضرب آخر مما أخذوا به من فنون العذاب، التي هي أنفسها آيات بينات، وعدم رجوعهم مع ذلك عما كانوا عليه من العناد؛ أي: قالوا بعد ما رأوا ما رأوا من شأن العصا والسنين، ونقص الثمار: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ...﴾ الخ. وكان موسى رجلاً حديداً حاراً، فعند ذلك دعا عليهم وقال: يا رب إنَّ عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا، وإنَّ قومه قد نقضوا العهد، رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدهم آية،

فاستجاب الله له فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: أرسلنا على آل فرعون عقوبة على جرائمهم، وقد عدد سبحانه هنا من الآيات والعقوبات خمساً، وفي سورة الإسراء تسعاً، الأول: منها ما ذكره بقوله: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾؛ أي: أنزلنا عليهم مطراً أغرق أرضهم، وأتلف زرعهم وثمارهم، وبيوتُ بني إسرائيل وبيوت القبط متشبكة مختلطة، فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، ومن جلس منهم غرق، ولم يدخل من ذلك الماء في بيوت بني إسرائيل شيء، وركب ذلك الماء على أرضهم، فلم يقدروا أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً، ودام ذلك عليهم سبعة أيام، من السبت إلى السبت، حتى كان الرجل منهم لا يرى شمساً ولا قمراً، ولا يستطيع الخروج من داره، فصرخوا إلى فرعون فاستغاثوا به، فأرسل إلى موسى عليه السلام فقال: اكشف عنا العذاب فقد صارت مصر بحراً واحداً؛ فإن كشفت هذا العذاب عنا.. آمنا بك، فأزال الله تعالى عنهم المطر، وأرسل الريح، فجفت الأرض، وخرج من النبات ما لم ير مثله قط، فقالوا: هذا الذي جزعنا منه خير لنا، لكنا لم نشعر، فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل، فنكثوا العهد ولم يؤمنوا، فأقاموا شهراً في عافية ﴿و﴾ أرسل الله عليهم ﴿ٱلْجَرَادَ﴾ فأكل زروعهم وثمارهم، وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم، وابتلي الجراد بالجوع، فكانت لا تشبع، ولم يصب بني إسرائيل شيء من ذلك، وعظم الأمر عليهم، حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس، ووقع بعضها على بعض في الأرض ذراعاً، فضجوا في ذلك إلى موسى وقالوا: يا موسى أدع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز.. لنؤمنن لك، فأعطوه عهد الله وميثاقه، فدعا موسى عليه السلام، فكشف الله تعالى عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام، من السبت إلى السبت، فأرسل الله تعالى ريحاً فألقته في البحر، وكان قد بقي من زرعهم وغلاتهم بقية، فنظروا إلى ما بقي منها فقالوا: هذا الذي بقي يكفينا، ولا نؤمن بك ﴿و﴾ أقاموا شهراً في عافية، فأرسل الله عليم ﴿القمل﴾ واختلفوا في معنى القمل، والصحيح أنَّه هو القمل المعروف الذي يكون في بدن الإنسان وثيابه، ويؤيد هذا المعنى قراءة الحسن: ﴿والقمل﴾ ـ بفتح القاف وسكون الميم ـ فيكون فيه لغتان. القمل ـ بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة ـ كقراءة الجمهور، والقمل

كقراءة الحسن، وقيل: القمل البراغيث، وقيل الجعلان، وقيل: إنه السوس الذي يخرج من الحنطة، وقيل: غير ذلك مما يطول الكلام بذكره، وعن سعيد بن جبير: كان إلى جنبهم كثيب أحمر، فضربه موسى عليه السلام بعصاه، فصار قملاً، فأخذت أبشارهم وأشعارهم، وأشعار عيونهم، وحواجبهم، ولزم جلودهم كأنَّه الجدري، ومنعهم النوم والقرار، فصاحوا وصرخوا هم وفرعون إلى موسى عليه السلام، وقالوا: إنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء، فدعا موسى فرفع الله عنهم القمل بعدما أقام عليهم سبعة أيام، من السبت إلى السبت، فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا: اليوم قد تيقنا أنه ساحر، حيث جعل الرمل دواب ولم يؤمنوا ﴿و﴾ أقاموا شهراً في عافية، فأرسل الله عليهم ﴿الضفادع﴾ الحيوان المعروف، فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم، فلا يكشف أحد منهم عن ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل يجلس في الضفادع إلى رقبته، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه، وكان يثب في قدورهم، فيفسد عليهم طعامهم، ويطفىء نيرانهم، وكان أحدهم يضطجع، فيركبه الضفدع، فيكون عليه ركاماً حتى لا يستطيع أنْ ينصرف إلى شقه الآخر، ويفتح فاه إلى أكله فيسبق الضفدعُ أكلَه إلى فيه، ولا يعجن عجيناً، ولا يفتح قدراً إلا امتلأ الضفادع، فلقوا منها أذى شديداً، فشكوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة، فما بقي إلا أنْ نتوب التوبة النصوح، ولا نعود إلى الكفر، فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بأنْ أماتها وأرسل عليها المطر والريح فاحتملها إلى البحر بعدما أقامت عليهم سبعة أيام، من السبت إلى السبت، ثم أظهروا الكفر ﴿و﴾ أقاموا شهراً في عافية فأرسل الله علهم ﴿الدم﴾ في مياههم، فصارت مياههم كلها دماً، فما يسقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دماً عبيطاً - الخالص الطري - أحمر، فشكوا إلى فرعون وقالوا: إنَّه ليس لنا شراب، فقال فرعون: سحركم موسى، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا دما عبيطاً، وكان فرعون لعنه الله تعالى يجمع بين القبطي والإسرائيلي على الإناء الواحد، فيكون ما يلي القبطي دماً، وما يلي الإسرائيلي ماء، حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتي المرأة من بني إسرائيل حين جهدهم

العطش فتقول لها: اسقيني ماءك، فتصب لها من قربتها فيعود في إناء القبطية دماً، حتى كانت القبطية تقول للإسرائيلية: اجعليه في فيك ثم مجيه في فيّ، فتأخذه في فيها ماء، وإذا مجته في فيها.. صار دماً، واعترى فرعون العطشُ، حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها دماً، فمكثوا على ذلك سبعة أيام، من السبت إلى السبت، لا يشربون إلا الدم فأتوا موسى وشكوا إليه ما يلقونه، وقالوا: ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الدم لنؤمنن لك، ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل مع أموالهم، فدعا موسى عليه السلام ربه فكشفه عنهم وقوله: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ حال من تلك الأشياء الخمسة؛ أي: فأرسلنا عليهم هذه الأشياء الخمسة، حالة كونها آيات مفصلات؛ أي: علامات مبينات ومعجزات واضحات، لا يخفى على كل عاقل أن هذه الخمسة من آيات الله تعالى، التي لا يقدر عليها غيره، أو حالة كونها آيات مفرقات بعضها من بعض بزمان مدة شهر لامتحان أحوالهم، أيقبلون الحجة أو يستمرون على التقليد، وكان كل عذاب يبقى عليهم أسبوعاً، من سبت إلى سبت، وبين كل عذابين شهر ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ أي: تكبروا عن الإيمان بها وعن عبادة الله تعالى، لرسوخهم في الإجرام والإصرار على الذنوب، وإنْ كانوا يعتقدون صدق دعوته، وحجة رسالته، ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾؛ أي: مصرين على الذنب، لا يهتدون إلى الحق، ولا يقلعون عن الباطل.

والذي دلت عليه الآية[1]: أنَّه أرسل عليهم ما ذكر فيها، وأما كيفية الإرسال ومكث ما أرسل عليهم من الأزمان والهيئات، فمرجعه إلى النقل عن الأخبار الإسرائيليات، إذ لم يثبت من ذلك في الحديث النبوي شيء.

فقوله ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ...﴾. الخ، موزع[2] على الخمسة المذكورة، وهي الطوفان وما بعده، إذ كانوا في كل واحدة من الخمس المذكورة يلتجؤون إلى موسى ويطلبون منه الدعاء، ويسألونه أن يطلب لهم من ربه كشف ما نزل بهم، ويواعدونه بالإيمان به وإرسال بني إسرائيل معه، ويدعو الله فيكشف عنهم،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفتوحات.

فيستمرون على الإيمان شهراً ثم ينكثون؛ أي: فكلما وقع عليهم، وحل بهم الرجز والعذاب، الذي هو واحد من الخمسة المذكورة في الآية السابقة، اضطربوا وفزعوا أشد الفزع و﴿قَالُواْ﴾ كل مرة منها ﴿يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وتوسل إليه ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾؛ أي: بعهده عندك ورسالته لك أنْ يكشف عنا هذا الرجز والعذاب الذي نزل بنا، ونحن نقسم لك ﴿لَئِن كَشَفۡتَ﴾ ورفعت ﴿عَنَّا﴾ هذا ﴿ٱلرِّجۡزَ﴾ والعذاب بدعائك ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ ولنصدقن رسالتك ﴿وَلَنُرۡسِلَنَّ﴾؛ أي: لنطلقن ﴿مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ليعبدوا ربهم معك.

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ﴾؛ أي: فكلما كشفنا ورفعنا عنهم الرجز والعذاب، مرة بعد أخرى من المرات الخمسة السابقة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ ومدة من الزمن ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ ومنتهون إليه لا بد، وهو وقت إهلاكهم بالغرق في اليم ﴿إذا هم ينكثون﴾ وينقضون عهدهم ويحنثون في قسمهم في كل مرة؛ أي: فكلما رفعنا عنهم العذاب فاجؤوا نكث العهد من غير تأمل وتوقف، ثم عند حلول ذلك الأجل لا نزيل عنهم العذاب، بل نهلكهم به.

والخلاصة[١]: أنه كشف العذاب عنهم إلى حين من الزمان هم واصلون إليه ولابد، فمعذبون فيه أو مهلكون، وهو وقت الغرق، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ عند بلوغ الأجل المضروب لهم؛ أي: فلما بلغوا الأجل المؤقت لهم.. أردنا الانتقام منهم، والعقوبة لهم على ما أسلفوا من المعاصي ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾؛ أي: فأهلكناهم في البحر الملح ﴿بـ﴾سبب ﴿أنهم كذبوا بآياتنا﴾ التسع كلها الدالة على صدق رسولنا ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا﴾، أي: عن تلك الآيات ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ أي: معرضين غير ملتفتين إليها.

أي فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لهم، بأن أغرقناهم في البحر وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات، وعدم تفكرهم فيها، حتى صاروا كالغافلين عنها،

---

(١) المراغي.

فالمراد بالغفلة عدم التدبر، وهذا مؤاخذ به، فسقط ما يقال: الغفلة لا مؤاخذة بها.

والخلاصة: أنَّهم كانوا يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب، ثم يكذبون، حتى إذا انقضى الأجل المضروب لهم، انتقمنا منهم بسبب أنَّهم كذبوا بها كلها، وكانوا غافلين عما يعقبها من العذاب في الدنيا والآخرة، إذ كانت في نظر الكثير منهم من قبيل السحر والصناعة، ومن ثم كانوا يكابرون أنفسهم في كل آية منها، ويحاولون أن يأتي سحرتهم وعلماؤهم بمثلها.

ومنهم من اهتدى إلى الحق وظهر له صدقه، فآمن به جهرة ككبار السحرة، ومنهم من كتم إيمانه كالذي عارض فرعون وملأه بالحجة والبرهان، في قتل موسى كما سيأتي في سورة غافر، ومنهم من جحد بها كبراً وعلواً في الأرض، كفرعون وأكابر وزرائه ورؤسائه.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾؛ أي: يغلبون ويذلون ويمتهنون بقتل أبنائهم، واستبقاء نسائهم، وضرب الجزية عليهم، واستعمالهم في الأعمال الشاقة لفرعون وقومه، وهم بنو إسرائيل ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ التي كانت للعمالقة أولاً، التي باركنا فيها بكثرة الأشجار والثمار والأنهار فيها، وهي الشام ﴿وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ التي كانت للفراعنة أولاً ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة الأرزاق، وبالنِّيْل وهي مصر؛ أي: ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فيها ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: نفذت كلمة الله وقضاؤه، ومضت على بني إسرائيل تامة كاملة، وأنجز لهم وعده الحسن الذي وعدهم بالنصر لهم على أعدائهم حيث قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالمراد بالكلمة: وعدهم بالنصر على عدوهم والتمكين في الأرض من بعدهم، وتمامها: إنجاز ما وعدهم به من تمكينهم في الأرض وإهلاك عدوهم، وقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يرسم لفظ كلمت هنا بالتاء المبسوطة، وما عداها في القرآن يرسم بالهاء المربوطة على الأصل، ذكره في «الفتوحات» والحسنى صفة لكلمة، وهي تأنيث الأحسن ﴿بما صبروا﴾؛ أي:

بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه، وقد كان وعد الله تعالى إياهم مقروناً بأمرهم بالصبر والاستقامة، كما أمرهم نبيهم عليه السلام مبلغاً عن ربه ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ فمن قابل البلاء بالجزع.. وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر.. ضمن الله له الفرج، وقد تم وعد الله تعالى لهم بذلك، ثم سلبهم تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس، ولم يكن من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى.

﴿وَدَمَّرْنَا﴾؛ أي: دمرنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ في مصر من المباني والقصور التي كانوا يبنونها للمصريين، والمكايد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة لإبطال آياته، والتشكيك فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾.

فـ﴿فرعون﴾[1] اسمُ كان، و﴿يصنع﴾ خبر لـ﴿كان﴾ مقدم؛ أي: وخربنا الذي كان فرعون وقومه يصنعه من المدائن والقصور ﴿و﴾ خربنا ﴿مَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾؛ أي: ما كان فرعون وقومه يعرشونه ويرفعونه من الشجر والكروم، أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان.

وقرأ[2] ابن عامر وشعبة وأبو بكر بضم الراء، وباقي السبعة والحسن ومجاهد، وأبو رجاء بكسر الراء هنا، وفي «النحل» وهي لغة الحجاز، وقال الزيدي: هي أفصح، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿يعرشون﴾ بضم الياء وفتح العين وتشديد الراء، قال الزمخشري: وبلغني أنَّه قرأ بعض الناس ﴿يغرسون﴾ من غرس الأشجار، وما أحسبه إلا تصحيفاً.

وأسباب هذا التدمير لتلك المصانع والعروش أمور[3]:

١ ـ الآيات التي أيد الله تعالى بها موسى من الطوفان والجراد وغيرها، وسمتها التوراة الضربات العشر.

٢ ـ إنجاء بني إسرائيل، وحرمان فرعون وقومه من استعبادهم في أعمالهم.

---

(١) المراح.　(٢) البحر المحيط.　(٣) المراغي.

٣ ـ هلاك من غرق من قوم فرعون، وحرمان البلاد وسائر الأمة من ثمرات أعمالهم في العمران، وقد أنذرهم موسى عاقبة ذلك، فكذبوا بالآيات وأصروا على الجمود والعناد، فظلموا أنفسهم وما ظلمهم الله تعالى.

ووجه العبرة في هذه الآيات ما كان للإيمان في قلب موسى وهارون من التأثير، إذ تصديا لأكبر ملك، في أكبر دولة في الأرض استعبدت قومه في خدمتها عدة قرون، وما زالا يكافحانه بالحجج والآيات حتى أظفرهما الله تعالى به، وأنقذا قومهما من ظلمه، ولهذا يحذر ألا تستعظم قوة الدول الظالمة أمام قوة الحق كما قال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا[١] آخر ما قص الله تعالى من نبأ فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعارضته، ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مملكة فرعون واستعباده، ومعاينتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر، وطلب رؤية الله جهرة، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان، وأنَّه كما وصف: ظلوم كفار، جهول كفور إلا من عصمه الله تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. وليسلي رسول الله ﷺ مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهذا[٢] شروع في قصة بني إسرائيل، وشرح ما أحدثوه من الأمور الشنيعة، بعد أن أنقذهم الله من مهلكة فرعون، والمقصود من سياقها تسلية رسول الله ﷺ، وتنبيه المؤمنين، حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم.

أي: عبرنا بهم ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ بالسلامة، بأنْ فلق الله تعالى البحر عندضرب موسى البحر بالعصا؛ أي: إنَّهم تجاوزوه وخرجوا منه بعناية الله تعالى وتأييده وحفظه، حتى كانوا من الشط الغربي إلى الشط الشرقي، والبحر بحر القلزم طرف من بحر فارس، كما في النهر، وهو عند خليج السويس الآن، وروي[٣] أنه عبر

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات. (٣) البحر المحيط.

بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء، بعد ما أهلك الله فرعون وقومه، فصاموا شكراً لله تعالى، وأعطي موسى التوراة يوم النحر، فبين الأمرين أحد عشر شهراً.

وقرأ الحسن وإبراهيم وأبو رجاء ويعقوب: ﴿وجوَّزنا﴾ بتشديد الواو المفتوحة، من باب فعل المضعف، وهو مما جاء فيه فعل بمعنى فعل المجرد، نحو: قدر وقدر، وليس التضعيف للتعدية.

﴿فَأَتَوْا﴾؛ أي: مروا عقب مجاوزتهم البحر ودخولهم في بلاد العرب من البحر الآسيوي. ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ قال(١) قتادة وأبو عمرو الجوني: هم من لخم وجذام، كانوا يسكنون الريف، وقيل كانوا نزولاً بالرقة رقة مصر، وهي قرية بريف مصر، تعرف بساحل البحر، يتوصل منها إلى الفيّوم، وقيل: هم الكنعانيون الذين أمر موسى بقتالهم ﴿يَعْكُفُونَ﴾؛ أي: يقيمون ويواظبون ﴿عَلَىٰٓ﴾ عبادة ﴿أَصْنَامٍ﴾ وتماثيل على صور البقر كانت ﴿لَّهُمْ﴾؛ أي: لأولئك القوم الذين مروا عليهم، وهذا مبدأ شأن العجل الذي اتخذوه بعد ذلك وتعلقوا به، وكان ذلك أول فتنة العجل.

وقرأ الأخوان - حمزة والكسائي - وأبو عمرو في رواية عبد الوارث ﴿يعكِفون﴾ بكسر الكاف، وباقي السبعة بضمها وهما فصيحتان.

فصل في حقيقة الصنم

والأصنام(٢) جمع صنم، وهو ما يصنع وينحت من الخشب أو الحجر أو المعدن، مثالاً لشيء حقيقي أو خيالي، ليعظم تعظيم العبادة، وقد اتخذ بعض العرب في الجاهلية أصناماً من عجوة التمر فعبدوها، ثم جاعوا فأكلوها، والتمثال لا بد أن يكون مثالاً لشيء حقيقي، وقد يكون للعبادة فيسمى صنماً، وقد يكون للزينة، كالذي يكون على جدران بعض القصور، أو أبوابها، أو في حدائقها، وقد يكون للتعظيم غير الديني، كالتماثيل التي تنصب لبعض الملوك

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وكبار العلماء والقادة، للتذكير بتاريخهم وأعمالهم، للاقتداء بهم.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال بنو إسرائيل لموسى لما رأوا تلك التمثال عند أولئك القوم: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾؛ أي عيّن لنا تمثالاً نتقرب بعبادته إلى الله تعالى. ﴿كَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: كما لهؤلاء القوم ﴿ءَالِهَةٌ﴾؛ أي: تماثيل يعبدونها.

قالوا[١] ذلك حنينا منهم إلى ما ألفوا في مصر من عبادة المصريين وتماثيلها وأنصابها وقبورها، وسر هذا الطلب أنَّهم لم يكونوا قد فهموا التوحيد الذي جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين، إذ إن السحرة كانوا من العلماء، فأمكنهم التمييز بين آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، والسحر الذي هو من صناعات البشر وعلومهم.

ولم يذكر القرآن شيئاً يعين شأن هؤلاء القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل، والراجح أنَّهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر، روي عن قتادة أنَّهم من عرب لخم كما مر، وعن ابن جريج أن أصنامهم كانت تماثيل بقر من النحاس.

﴿قَالَ﴾ موسى للقائلين من قومه ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا قوم ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ أي: جاهلون عظمة الله تعالى، وأنَّه لا يستحق أن يعبد سواه؛ لأنَّه هو الذي أنجاكم من فرعون وقومه، فأغرقهم في البحر وأنجاكم منه، فلا جهل أعظم مما قلتم؛ فإنَّكم قلتموه بعدما شاهدتم المعجزة العظمى، وعن[٢] واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: لما خرج إلى غزوة حنين.. مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من قبلكم» أخرجه الترمذي، قال أبو حيان[٣]: تعجب موسى عليه السلام من قولهم على إثر ما رأوا من الآيات العظيمة، والمعجزات الباهرة، ووصفهم بالجهل المطلق، وأكده بـ﴿إنَّ﴾؛ لأنَّه لا جهل أعظم من هذه المقالة، ولا أشنع، وأتى بلفظ

---

(١) المراغي. (٢) الخازن. (٣) البحر المحيط.

﴿تَجۡهَلُونَ﴾ ولم يقل جهلتم، إشعاراً بأنَّ ذلك منهم كالطبع والغريزة، لا ينتقلون عنه في ماض ولا مستقبل. انتهى.

والخلاصة[1]: أنَّكم تجهلون مقام التوحيد، وما يجب من تخصيص الله بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر، كالأصنام والتماثيل والعجل، فالله قد كرم البشر، وجعلهم أهلاً لمعرفته ودعائه ومناجاته بلا واسطة تقربهم إليه، فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد.

وبعد أن بين لهم جهلهم وسفههم، بين لهم فساد ما طلبوه، عسى أن تستعد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه فقال:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾؛ أي: مهلك مدمَّر مكسر مضمحل معدوم، منمحق ما هم عليه من الدين والعبادة؛ أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى يهدم دينهم عن قريب، ويحطم أصنامهم ﴿وَبَٰطِلٞ﴾ زائل ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من عبادتها؛ أي: فلا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا دفع ضر.

والمعنى: إن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضي على ما هم فيه بالتبار والهلاك، بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار، وزائل ما كانوا يعملون من عبادة غير الله تعالى، فإنما بقاء الباطل في ترك الحق له وبعده عنه.

وفي هذا بشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض، وقد حقق الله تعالى ما قال: ﴿قَالَ﴾ لهم موسى متعجباً من قولهم: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾؛ أي: أأطلب لكم معبوداً غير الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: والحال أنَّه سبحانه وتعالى قد فضلكم على عالمي زمانكم، بالإسلام والتوحيد، أو فضلكم على العالمين كلهم بتخصيصكم بنعم لم يعطها

---

(١) المراغي.

غيركم، كالتخصيص بتلك الآيات القاهرات؛ فإنه لم يحصل مثلها لأحد من العالمين، وإنْ كان غيرهم فضلهم بسائر الخصال[1]، مثاله: رجل تعلم علماً واحداً، وآخر تعلم علوماً كثيرة سوى ذلك العلم، فصاحب العلم الواحد مفضل على صاحب العلوم الكثيرة بذلك الواحد، وفي الحقيقة أن صاحب العلوم الكثيرة مفضل على صاحب العلم الواحد، والمعنى: أأمركم أن تعبدوا رباً يتخذ ويطلب، بل الإله هو الذي يكون قادراً على الإيجاد وإعطاء الحياة، وجميع النعم، والاستفهام فيه للإنكار والتعجيب والتوبيخ.

والخلاصة[2]: أن موسى بدأ جوابه لقومه بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم، وثنى ببيان فساد ما طلبوه، وكونه عرضة للتبار والزوال؛ لأنَّه باطل في نفسه، ثم انتقل إلى بيان أن العبادة لغير الله لا تصح ألبتة، سواء أكان المعبود أفضل المخلوقات كالملائكة والنبيين، أو أخسها كالأصنام، ثم أنكر عليهم أن يكون هو الوساطة في هذا الجعل الذي دعا إليه الجهل، ليعلمهم أن طلب هذا الأمر المنكر منه عليه السلام جهل بمعنى رسالته، وأيد إنكاره لكلا الأمرين بما يعرفون من فضل الله تعالى عليهم، بتفضيلهم على أهل زمانهم، ممن كانوا أرقى منهم مدنيةً وحضارةً، وسعة ملك وسيادة على بعض الشعوب، وهم فرعون وقومه، برسالة موسى وهارون منهم، وتجديد ملة إبراهيم فيهم، وإيتائهما من الآيات ما تقدم ذكره.

ثم ذكر سبحانه وتعالى منته على بني إسرائيل فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل قصة وقت إنجائنا إياكم من فرعون وقومه بإهلاكهم بالكلية، حالة كون آل فرعون ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يذيقونكم أشد العذاب باستعمالكم في الأعمال الشاقة، وحالة كونهم ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ صغاراً ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: ويبقون بناتكم بلا قتل لاستخدامهن، وجملة ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ وما بعدها مفسرة لـ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، أو بدل منه ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

الإنجاء أو العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾؛ أي: إنعام أو ابتلاء ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أفلا تتعظون وتنتهون عن قولكم: اجعل لنا إلهاً؟!.

وحاصل المعنى: واذكروا إذ أنجيناكم ـ بإرسال موسى وبما أيدناه من الآيات ـ من آل فرعون الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب بجعلكم عبيداً مسخرين لخدمتهم، ويقتلون ما يولد لكم من الذكور، ويستبقون نساءكم لتزدادوا ضعفاً بكثرتهن، وفي ذلك العذاب والإنجاء منه ـ بفضل الله عليكم، وتفضيله إياكم على غيركم من سكان مصر، وسكان الأرض المقدسة التي سترثونها ـ بلاء عظيم؛ أي: اختبار لكم من ربكم، المدبر لأموركم، ليس هناك اختبار أعظم منه، فلا أجدر بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان ممن يعطى النعمة بعد النقمة، وأحق الناس بمعرفة الله تعالى، وإخلاص العبادة له، من يرى في نفسه وفي الآفاق ما يوقن به، أنَّه لا يمكن أن يكون فيه شركة لغير الله، وإن أعجب العجب أن تطلبوا بعد هذا كله ممن رأيتم على يديه هذه الآيات أنْ يجعل لكم آلهة من أخس المخلوقات، تجعلونها واسطة بينكم وبين الله تعالى، وهو قد فضلكم عليها وعلى من يعبدونها، ومن هم أرقى منهم.

وقرأ الجمهور: ﴿أنجيناكم﴾ وفرقة: ﴿نجيناكم﴾: مشدداً، وابن عامر: ﴿أنجاكم﴾، فعلى قراءة: ﴿أنجاكم﴾، يكون جارياً على قوله: ﴿وهو فضلكم﴾ خاطب به موسى قومه، وفي قراءة النون خاطبهم الله تعالى بذلك، قال الطبري: الخطاب لمن كان على عهد الرسول ﷺ تقريعاً لهم بما فعل أسلافهم، وبما جاؤوا به، وقرأ نافع: ﴿يقتلون﴾ من قتل الثلاثي، والجمهور ﴿يقتلون﴾ بالتشديد من قتل المضعف.

الإعراب

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ الواو: عاطفة أو مستأنفة، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة

معطوفة على جملة قوله: ﴿قال فرعون﴾، أو مستأنفة، ﴿مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾، ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿قال﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَتَذَرُ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، ﴿تذر﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، والجملة في محل النصب مقولِ ﴿قال﴾ ﴿مُوسَىٰ﴾ مفعول به ﴿وَقَوۡمَهُۥ﴾: معطوف عليه، ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وعاقبة، ﴿يفسدوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإفسادهم في الأرض، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تذر﴾، ﴿وَيَذَرَكَ﴾، الواو: عاطفة ﴿يذرك﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿وَءَالِهَتَكَۚ﴾: معطوف على الكاف في ﴿يذرك﴾ ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير المتكلمين يعود على ﴿فرعون وقومه﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿سَنُقَتِّلُ﴾، ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب و﴿نا﴾: اسمها، ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر أول لـ﴿إن﴾ ﴿قَٰهِرُونَ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سَنُقَتِّلُ﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لِقَوۡمِهِ﴾: جار ومجرور، متعلق به ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: اسمها ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر إنَّ، والجملة في محل

النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللة لما قبلها ﴿يُورِثُهَا﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله والجملة في محل نصب حال من الجلالة تقديره: حالة كونه مورثاً لها من يشاء من عباده، أو حال من الضمير المستكن تقديره: إنَّ الأرض مستقرة لله حال كونها موروثة من الله لمن يشاء من عباده. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من يشاؤه، ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: جار ومجرور، حال من العائد المحذوف، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ مبتدأ، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة إنَّ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾ وعلى قراءة النصب معطوفة على اسم إن.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أُوذِينَا﴾: إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿أُوذِينَا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿مِن قَبْلِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أُوذِينَا﴾ ﴿أَن تَأْتِيَنَا﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره: من قبل إتيانك إلينا، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله، ﴿مَا﴾: مصدرية ﴿جِئْتَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره: ومن بعد مجيئك إيانا، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة مستأنفة ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿عَسَىٰ﴾: من أفعال الرجاء تعمل عمل كان، ﴿رَبُّكُمْ﴾: اسمها ﴿أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عَسَىٰ﴾ تقديره: عسى ربكم إهلاكه عدوكم، ولكنه في تأويل مهلكاً عدوكم، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿يُهْلِكَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به،

﴿فَيَنظُرَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ينظر﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يستخلف﴾: وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام معلق ما قبلها عن العمل فيما بعدها في محل النصب على التشبيه بالمفعول به، والعامل فيه ما بعدها ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مفعول به لـ﴿ينظر﴾: علق عن العمل في لفظه باسم الاستفهام، والتقدير: عسى ربكم مهلكاً عدوكم، ومستخلفاً إياكم في الأرض فناظر كيف تعملون، وجملة عسى في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿أَخَذْنَآ﴾: فعل وفاعل ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: مفعول ومضاف إليه، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَخَذْنَآ﴾، ﴿وَنَقْصٍ﴾: معطوف على ﴿السنين﴾، ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلق بـ﴿نقص﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمها، وجملة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾ وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل جواب القسم.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أخذنا إياهم بالسنين وما بعده، وأردت بيان حالهم ومقالتهم حينئذ.. فأقول لك: ﴿إذا جاءتهم الحسنة﴾: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة، ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾: مقول محكي، أو مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿وَإِن﴾ الواو: عاطفة، ﴿تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: فعل ومفعول، وفاعل مجزوم

بإن الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾: على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إذا﴾، ﴿بِمُوسَىٰ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾، ﴿وَمَن﴾ موصولة في محل الجر، معطوفة على ﴿موسى﴾. ﴿مَّعَهُۥٓ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صلة مَنْ الموصولة ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح وتنبيه، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة من قِبله تعالى لرد مقالتهم الباطلة، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾، الواو: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك ونصب، ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبرها، والجملة الاستدراكية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو: استئنافية ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَهْمَا﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، أو في محل النصب مفعول مقدم، والخبر جملة الجواب، أو الشرط أو هما، على الخلاف المذكور، ﴿تَأْتِنَا﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿مَهْمَا﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير المخاطب يعود على ﴿موسى﴾ ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَأْتِنَا﴾ والضمير عائد على ﴿مَهْمَا﴾ ذكره نظراً للفظه ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾: جار ومجرور، حال من ضمير به ﴿لِّتَسْحَرَنَا﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾. ﴿بِهَا﴾: متعلق به، والضمير عائد على ﴿مَهْمَا﴾، وأنثه نظراً إلى كونه بمعنى ﴿ءَايَةٍ﴾، وجملة ﴿تسحرنا﴾ في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لسحرك إيانا، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَأْتِنَا﴾، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَهْمَا﴾ وجوباً، ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية، ﴿نَحْنُ﴾: في محل الرفع اسمها أو مبتدأ، ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿ما﴾ الحجازية، أو خبر المبتدأ، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية، أو جملة المبتدأ في محل الجزم بـ﴿مَهْمَا﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَهْمَا﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فدعا عليهم، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾. ﴿أرسلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به، ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾: معطوفات على ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾، وجملة ﴿أرسلنا﴾: معطوفة على جملة دعا المحذوفة، ﴿ءَايَٰتٍ﴾: حال من الأشياء الخمسة، ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾: صفة لآيات، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿استكبروا﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿أرسلنا﴾، ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قَوْمًا﴾ خبرها، ﴿مُّجْرِمِينَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، وجملة كان معطوفة على جملة ﴿استكبروا﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: استئنافية ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿وَقَعَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلرِّجْزُ﴾: فاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿ما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة، ﴿يَٰمُوسَى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَى﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿ٱدْعُ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، ﴿لَنَا﴾: متعلق به، ﴿رَبَّكَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿ٱدْعُ﴾ جواب النداء، في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿ما﴾ مصدرية، ﴿عَهِدَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿عِندَكَ﴾: متعلق بـ﴿عَهِدَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، وجملة ﴿ما﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بعهده عندك؛ أي: برسالته عندك؛ أي: متوسلاً بالرسالة التي جعلها عندك، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ٱدْعُ﴾، ويصح أن تكون ﴿ما﴾ موصولاً اسمياً ﴿لَئِن﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿إنْ﴾: حرف شرط: ﴿كَشَفْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل

شرط لها، ﴿عَنَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كَشَفْتَ﴾، ﴿ٱلرِّجْزَ﴾: مفعول به لـ﴿كَشَفْتَ﴾، قال أبو حيان: وجملة القسم حال من واو ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قالوا ذلك مقسمين لئن كشفت.. الخ انتهى، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للام الأولى، أتي باللام ثانياً إيذاناً بأنَّ الجواب بعدها مبني على قسم مقدر قبلها، لا على الشرط تقديره: والله لئن كشفت.. الخ ذكره في «الفتوحات». ﴿نؤمنن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير المتكلمين، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره: إنْ كشفت عنا الرجز نؤمن لك، وجملة القسم مع جوابه، وكذلك جملة الشرط في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿نؤمنن﴾ ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ﴾: الواو: عاطفة، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى، ﴿نرسلن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد وفاعله ضمير يعود على قوم فرعون، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾، على كونها جواب القسم، ﴿مَعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نرسلن﴾، أو حال من ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فدعا موسى الكشف عنهم فكشفنا عنهم الرجز المذكور، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كَشَفْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْهُمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلرِّجْزَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لما﴾: لا محل لها من الإعراب، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كَشَفْنَا﴾، ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الجر صفة، لـ﴿أَجَلٍ﴾، ولكنها سببية، ﴿إِذَا﴾: فجائية خلف عن الفاء الرابطة، حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَنكُثُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

﴿فَانتَقَمْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فنكثوا عهودهم فانتقمنا منهم، ﴿انتقمنا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿انتقمنا﴾، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: تفسيرية عاطفة، ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿انتقمنا﴾، مفسرة لها لأنَّ الإغراق عين الانتقام، ﴿فِي الْيَمِّ﴾ متعلق بـ﴿أغرقنا﴾، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء حرف جر وسبب، ﴿أنَّ﴾: حرف نصب و﴿الهاء﴾: اسمها، ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِآيَاتِنَا﴾: متعلق به، ﴿وَكَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿غَافِلِينَ﴾: خبر كان، ﴿عَنْهَا﴾: متعلق بـ﴿غَافِلِينَ﴾، وجملة ﴿كانوا﴾: معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا﴾، على كونها خبراً لـ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿كَذَّبُوا﴾: في محل الرفع خبر أنَّ، وجملة أنَّ في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: فأغرقناهم بسبب تكذيبهم بآياتنا، وغفلتهم عنها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أغرقنا﴾.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿أغرقنا﴾ ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿الْقَوْمَ﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان صلة الموصول ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾: مفعول ثان لـ﴿أورثنا﴾، ﴿وَمَغَارِبَهَا﴾: معطوف على ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾، ﴿الَّتِي﴾: صفة للمشارق والمغارب كما أشرنا إليه في مبحث التفسير ﴿بَارَكْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: صفة لـ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أورثنا﴾، ﴿عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تمت﴾، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ الباء حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿صَبَرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلق بـ﴿تمت﴾ تقديره: وتمت عليهم كلمت ربك بسبب صبرهم على إذاية فرعون.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾.

﴿وَدَمَّرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على جملة قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ولكن الواو لا تقتضي ترتيباً فلا يقال: إن التدمير قبل تمام النعمة، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿دَمَّرْنَا﴾، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿يَصْنَعُ﴾ فعل مضارع مرفوع بالضم والفاعل تقرير هو ﴿فِرْعَوْنُ﴾: اسم كان مؤخر، ﴿وَقَوْمُهُۥ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿يَصْنَعُ﴾: خبر كان، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كان فرعون وقومه يصنعونه، ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿مَا﴾: معطوفة على ﴿مَا﴾ الأولى على كونها مفعول ﴿دمرنا﴾، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص، واسمه، وجملة ﴿يَعْرِشُونَ﴾: خبر كان، وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره وما كانوا يعرشون.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: متعلق بـ﴿جاوزنا﴾، ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿جاوزنا﴾، ﴿فَأَتَوْاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿جاوزنا﴾. ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿أتوا﴾، وجملة ﴿يَعْكُفُونَ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ﴾: متعلق بـ﴿يَعْكُفُونَ﴾، ﴿لَّهُمْ﴾: صفة لـ﴿أَصْنَامٍ﴾، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب لما المحذوفة تقديرها: فلما رأوهم وأصنامهم قالوا: يا موسى... إلى قوله: ﴿قال﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالُواْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَى﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء مقول: ﴿قَالُواْ﴾ ﴿ٱجْعَل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يوعد على ﴿موسى﴾ والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. على كونها جواب النداء، ﴿لَّنَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱجْعَل﴾، ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول به لـ﴿ٱجْعَل﴾؛ لأنه بمعنى اصنع فتعدى إلى مفعول واحد، ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية ﴿لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة ﴿ما﴾: المصدرية، وحسن ذلك كون الظرف مقدراً بالفعل. كما ذكره أبو البقاء. الجار والمجرور صفة لـ﴿إِلَٰهًا﴾ تقديره: إلهاً كائناً كالآلهة التي

استقرت لهم، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّكُمْ﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب والكاف اسمها، ﴿قَوْمٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿تَجْهَلُونَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿مُتَبَّرٌ﴾: خبرها، ولكنه خبر سببي، وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾، ﴿مَآ﴾: موصولة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿مُتَبَّرٌ﴾: لأنه اسم مفعول يعمل عمل الفعل المغير لاعتماده على المخبر عنه، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة ﴿مَآ﴾ الموصولة ﴿وَبَٰطِلٌ﴾: معطوف على ﴿مُتَبَّرٌ﴾، ﴿ما﴾: موصولة في محل الرفع فاعل، ﴿باطل﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبر كان، وجملة كان صلة ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة مستأنفة ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري حقها أن تدخل على الفعل المذكور بعده، ﴿غير الله﴾: مفعول به لـ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ مقدم عليه أصله: أأبغي غير الله لكم إلهاً؟ فلمّا قدم غير حذف الجار، واتصل الكاف بالفعل.. فصار، أبغيكم، ﴿إِلَٰهًا﴾: تمييز لـ﴿غير﴾ منصوب به، أو منصوب على الحال ﴿وَهُوَ﴾ الواو: واو الحال، هو: مبتدأ، وجملة ﴿فَضَّلَكُمْ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب إما حال من الجلالة، أو من ضمير المخاطبين، أو مستأنفة، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ﴿فضل﴾.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية مبنية على السكون، والظرف متعلق بمحذوف، تقديره:

واذكروا إذا أنجيناكم، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: مفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب بدل من جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ على كونها حالاً من ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، وجملة قوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، معطوفة على جملة ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ على كونها بدلاً من ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿بَلَآءٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفة أولى لـ﴿بَلَآءٌ﴾، ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ثانية له، والجملة الاسمية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ كثر استعمال الأخذ في العذاب كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾، و﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قومه وخاصته وأعوانه في أمور الدولة، وهم الملأ من قومه، ولا يستعمل هذا اللفظ إلا فيمن يختص بالإنسان بقرابة قريبة، كما قال عَزَّ اسمه. ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ أو بموالاة ومتابعة في الرأي، كما قال: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: جمع سنة، وهي بمعنى الحول، ولكن أكثر ما تستعمل في الحول الذي فيه الجدب، كما هنا بدليل نقص الثمرات، وأصل سنة سنهة، فلامها هاء لقولهم: عاملته مسانهة، وقيل لامها واو لقولهم: سنيوة، وفي لفظ سنين لغتان:

أشهرهما: إجراؤه مجرى جمع المذكر السالم فيرفع بالواو وينصب ويجر بالياء، وتحذف نونه للإضافة، كما في الحديث الصحيح «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف».

واللغة الثانية: أن يجعل الإعراب على النون، ولكن مع الياء خاصة، نقل هذه اللغة أبو زيد والفراء.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾: والمراد بالحسنة هنا الخصب والرخاء، وبالسيئة: ما يسؤهم من جدب وجائحة، أو مصيبة في الأبدان والأرزاق ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ﴾؛ أي: يتشاءموا، وسر[1] إطلاق التطير على التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير، فإذا طارت من جهة اليمين.. تيمنت بها، ورجت الخير والبركة، وإذا طارت من جهة الشمال.. تشاءمت وتوقعت الشر، وسُميَ الطائر الأول السانح، والثاني البارح، وسموا الشؤم طيراً وطائراً، والتشاؤم تطيراً.

وأصل[2] ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾: يتطيروا فأدغمت التاء في الطاء لمقاربتها لها في المخرج، وقيل أصل التطير: أن يفرق المال ويطير بين القوم، فيطير لكل واحد حظه وما يخصه، ثم أطلق على الحظ والنصيب السيء بالغلبة، وفي «الخازن»: قال ابن عباس[3]: طائرهم ما قُضِيَ لهم وقدر عليهم من عند الله تعالى، وفي رواية عنه: شؤمهم عند الله، ومعناه أنَّ ما جاءهم بكفرهم بالله تعالى، وقيل الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله تعالى من عذاب النار. انتهى.

وفي «المصباح»: طائر الإنسان عمله الذي يقلده، وتطير من الشيء وٱطَّير منه، والاسم الطيرة، وزان عنبة أو هي التشاؤم. اهـ وفيه أيضاً: الشؤم الشر، ورجل مشؤوم غير مبارك، وتشاءم القوم به مثل تطيروا به.

﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ الطوفان لغة: ما طاف بالشيء وغشيه، وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو من الأرض، وفيه قولان، أحدهما: أنَّه جمع طوفانه؛ أي: هو اسم جنس كقمح وقمحة، وشعير وشعيرة، وقيل: بل هو مصدر كالنقصان والرجحان. وهذا قول المبرد مع آخرين، والأول قول الأخفش، قال: هو فعلان من الطواف؛ لأنه يطوف حتى يعم، وواحدته في القياس طوفانة، والطوفان الماء الكثير. قاله الليث، اهـ «سمين» ﴿الجراد﴾ جمع جرادة، الذكر والأنثى فيه سواء، يقال: جرادة ذكر وجرادة أنثى، كنملة وحمامة، قال أهل اللغة: وهو مشتق من

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات. (٣) الخازن.

الجراد، قالوا: والاشتقاق[1] في أسماء الأجناس قليل جداً، يقال: أرض جرداء؛ أي: ملساء، وثوب أجرد إذا ذهب وبره. اهـ «سمين» ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ قيل: هو القردان، وقيل: دواب تشبهها أصغر منها، وقيل: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وقيل: هو نوع من الجراد وأصغر منه، وقيل: الحمنان الواحدة حمنانة نوع من القردان، وقيل: هو القمل المعروف الذي يكون في بدن الإنسان وثيابه، ويؤيد هذا المعنى قراءة الحسن: ﴿والقَمْل﴾ بفتح القاف وسكون الميم كما مر.

﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ جمع ضفدع بوزن درهم، ويجوز كسر داله، فيصير بزنة زبرج، والضفدع مؤنث وليس بمذكر، فعلى هذا يفرق بين مذكره ومؤنثه بالوصف فيقال: ضفدع ذكر، وضفدع أنثى، كما قلنا ذلك في الملتبس بتاء التأنيث نحو: حمامة وجرادة وقملة اهـ «سمين».

وفي «القاموس»[2] الضفدع كزبرج وجعفر وجندب ودرهم، وهذا أقل ومردود، الواحدة بهاء، والجمع ضفادع وضفادي اهـ ﴿والدم﴾ هو الرعاف، وقيل هو دم كان يحدث في مياه المصريين. ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾، ﴿ٱلرِّجْزُ﴾[3]: العذاب الذي يضطرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم، وذلك شامل نقمة وجائحة أنزلها الله تعالى على قوم فرعون، كالخمس التي ذكرت قبل. ﴿بما عهد إليك﴾ والعهد النبوة والرسالة كما مر ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ والنكث لغة نقض ما غزل أو ما فتل من الحبال، ثم استعمل في الحنث في العهود والمواثيق، وأصله[4] من نكث الصوف ليغزله. ثانياً، فاستعير لنقض العهد بعد إحكامه وإبرامه.

﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ وفي «القاموس»: غفل عنه غفولاً إذا تركه وسها عنه اهـ وفي «المصباح» وقد تستعمل الغفلة في ترك الشيء إهمالاً وإعراضاً اهـ ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾، ﴿ٱلْيَمِّ﴾: البحر في اللغة المصرية الموافقة للغة العربية في كثير من مفرداتها، مما يدل على أن أصل الأمتين واحد ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وتمام الشيء وصوله إلى آخر حده، وكلمة الله هي وعده لبني إسرائيل بإهلاك عدوهم

---

(١) الفتوحات.
(٢) القاموس.
(٣) المراغي.
(٤) زاده.

واستخلافهم في الأرض ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ والتدمير إدخال الهلاك على السالم والخراب على العامر ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ والعرش رفع المباني والسقائف للنبات والشجر المتسلق، كعرائش العنب ومنه عرش الملك.

﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ وفي «الخازن» يقال: جاز الوادي وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره اهـ، وجاز الشيء وجاوزه وتجاوزه بمعنى؛ أي: عداه وانتقل عنه، وجاوز هنا بمعنى جاز، ففاعل بمعنى فعل ﴿يَعْكُفُونَ﴾ والعكوف على الشيء الإقبال عليه وملازمته تعظيماً له يقال: عكف يعكف بضم الكاف وكسرها من بابي قعد وضرب.

﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ والتبتر الإهلاك والتدمير، يقال: تبره إذا أهلكه ودمره، والتبار الهلاك، ومنه التبر وهو كسارة الذهب لتهالك الناس عليه، وقيل: التبتير التكسير والتحطيم، ومنه التبر؛ لأنَّه كسارة الذهب اهـ «سمين» ﴿وباطل﴾؛ أي: هالك وزائل لا بقاء له، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ يقال بغى وابتغاه إذا طلبه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المماثل في، قوله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، والجناس المغاير في قوله: ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ وفي قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ وقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ وبين قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ وقوله: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ وبين قوله: ﴿أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ وبين قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وبين قوله: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ ومنها الوصل في قوله: ﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ﴾ وفي قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ عدل عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة الماضية في ذهن المخاطب، والأصل: ما صنعوا وما عرشوا.

ومنها: العدول عن صيغة الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولم يقل[1] جهلتم إشعاراً بأن ذلك منهم كان كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماض ولا مستقبل.

ومنها: تصدير[2] الجملة بالقسم في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ لإظهار الاعتناء بمضمونها.

ومنها: تصديرها بحرف التنبيه في قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ﴾ لإبراز كمال العناية بمضمونها.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾؛ لأنَّه استعار الأخذ للابتلاء على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، وفي قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ﴾؛ لأنَّ الطائر حقيقة في الحيوان استعارة للحظ والنصيب أو الشؤم، ومنها الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؛ لأن النكث[3] حقيقة في حل الصوف ليغزله ثانياً، استعاره هنا لنقض العهد على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿بالسنين﴾؛ لأنَّ السنة حقيقة في الحول، استعارها هنا للجدوب والقحوط ونقص الثمرات تجريد، وهو ذكر ما يلائم المشبه المستعار له.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات. (٣) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر(١) ما أنعم به على بني إسرائيل من النجاة من العبودية، ومن جعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يُشرّعه الله

---

(١) المراغي.

تعالى لها من العبادات والأحكام.. ذكر هنا بدء وحي الشريعة لموسى عليه السلام، ممتناً عليهم بما حصل لهم من الهداية، بتكليم موسى وإعطائه التوراة، وفيها تفاصيل شرعهم وبيان ما يقربهم من ربهم من الأحكام، وقد روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم.. أتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون.. سأل موسى ربه الكتاب، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب وهو التوراة.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين في الآيات السالفة ما لحق فرعون وقومه من الهلاك بسبب استكباره وظلمه، وفساده في الأرض.. ذكر هنا سننه تعالى في ضلال البشر بعد مجيء البينات، وتكذيبهم لدعاة الحق والخير من الرسل وأتباعهم، وأبان أن السبب الأول لذلك هو التكبر، فإن من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى، فهم يكونون دائماً من المكذبين بالآيات الدالة عليه، ومن الغافلين، كما هي حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين، كفرعون وملئه، وفي هذا إيماء للنبي ﷺ بأن الطاغين المستكبرين من صناديد قومه لن ينظروا في دعوته، ولا في آيات القرآن الدالة على وحدانية الله تعالى، بما أقامته عليها من البراهين الكثيرة من آيات كونية، وآيات في الآفاق والأنفس.

وجملة الموانع الصادة لهم عن اتباعه ترجع إلى التكبر، فإنَّهم بزعمهم يعتقدون أنهم سادة قريش وكبراؤها وأقوياؤها، فلا ينبغي أن يتبعوا من دونهم سناً وقوةً وثروةً وعصبيةً.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما ذكر خبر مناجاة موسى لربه، واصطفائه إياه برسالاته وبكلامه، وأمره بأخذ الألواح بقوة.. ذكر هنا ما حدث أثناء المناجاة من اتخاذ قومه بني إسرائيل عجلا مصوغاً من الذهب والفضة، ثم عبادته من دون الله تعالى، لما رسخ في نفوسهم من فخامة المظاهر الوثنية الفرعونية في

مصر، وقد ذكرت هذه القصة عقب تلك لما بينهما من العلاقات الظاهرة، وللاشتراك في الزمن.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا . . .﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما أحدثه السامري من اتخاذه العجل لبني إسرائيل وعبادته له، ثم ندمهم على ما فرط منهم في جنب الله، وطلبهم الرحمة من ربهم.. ذكر هنا ما حدث من موسى من الأسى والحزن، حين رأى قومه على هذه الحال من الضلال والغي، ومن التعنيف واللوم لهارون على السكوت على قومه، حين رآهم في ضلالتهم يعمهون.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾؛ أي: ضربنا وجعلنا موعداً لموسى عليه السلام لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة ثلاثين ليلة، قيل هي شهر ذي القعدة. ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾؛ أي: وزدنا على تلك الثلاثين بعشر ليال تامات، وفي مصحف أبي ﴿تممناها﴾ بالتضعيف ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: فتم ميقات وعد ربه للمكالمة بتلك العشر المزيدة ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ صعد على جبل سيناء في أول هذا الموعد، وهبط في آخره، قيل: وكان التكليم في يوم النحر، وفائدة الإتيان بقوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ مع العلم بأنَّ الثلاثين والعشر أربعون، لئلا يتوهم أنَّ المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها، وقيل: إزالة توهم أن تكون عشر ساعات؛ أي: اتممناها بعشر ساعات، والذي يظهر أن هذه الجملة تأكيد وإيضاح ما ذكره أبو حيان في «البحر».

وروي[1] عن أبي العالية أنَّه قال في بيان زمان الموعد ـ يعني ذا القعدة وعشراً من ذي الحجة ـ: فمكث على الطور ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح فقربه الرب نجيا، وكلمه وسمع صريف الأقلام، والمعنى أي[2]: وعدناه بأنْ نكلمه عند انتهاء ثلاثين ليلة يصومها، وإنَّما عبر بالليالي مع أن الصوم في الأيام

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

لما نقله «زاده على البيضاوي» عن ابن عباس: أنَّه صام تلك المدة الليل والنهار، فكان يواصل الصوم، وحرمة الوصال إنما هي على غير الأنبياء. اهـ شيخنا.

وفي «الخازن»[1] قال المفسرون: إن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل ـ وهو بمصر ـ إذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما أهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه أنْ ينزل عليه الكتاب الذي وعد به بني إسرائيل، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً فصامها ـ وهي شهر ذي القعدة ـ فلما أتم الثلاثين. . أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله أن يصوم عشر ذي الحجة وقال له: «أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك؟» فكانت فتنة بني إسرائيل في تلك العشر التي زادها الله تعالى لموسى عليه السلام، وقيل: أمره بأن يتخلى ثلاثين يوماً بالصوم والعبادة، ويعمل فيها ما يتقرب به، ثم كلمه وأعطاه الألواح في العشر التي زادها فلهذا قال: وأتممناها بعشر.

وهذا التفصيل الذي ذكره هنا هو تفصيل ما أجمله في سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ فذكره هناك على الإجمال وهنا على التفصيل اهـ.

وفي «زاده على البيضاوي»[2]: ما الحكمة في تفصيل الأربعين هنا إلى الثلاثين والعشر مع الاقتصار على الأربعين في البقرة حيث قال: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؟ وتقرير الجواب: أنَّ الحكمة في التفصيل هنا الإشارة إلى أنَّ أصل المواعدة كان على صوم الثلاثين، وزيادة العشرة كانت لإزالة الخلوف، وما ذكره في سورة البقرة فهو بيان للحاصل وجمع بين العددين، أو يقال: فصل الأربعين هنا إلى مدتين لكون ما وقع في إحدى المدتين مغايراً لما وقع في الأخرى، فالثلاثون للتقرب، والعشر لإنزال التوراة. انتهى.

---

(١) الخازن. (٢) زاده.

﴿وقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين أراد الذهاب إلى الجبل لميقات ربه ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ وكان أكبر منه سناً ﴿اَخْلُفْنِي﴾؛ أي: كن خليفتي ﴿فِي قَوْمِي﴾ وراقبهم فيما يأتون وما يذرون، وكانت الرياسة فيهم لموسى، وكان هارون وزيره ونصيره بسؤاله لربه حين قال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم وأمرهم بعبادة الله تعالى، فهي صلاحهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تسلك سبيل من سلك الإفساد في الأرض بالمعاصي، ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم في أعمالهم، ومساعدتهم عليها، ومعاشرتهم والإقامة معهم حال اقتراف الإفساد.

والمقصود(١) من هذا النهي التأكيد؛ لأنَّ هارون عليه السلام لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين، فهو كقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وكقولك للقاعد: أقعد، بمعنى دم على ما أنت عليه من القعود، والمعنى: دم على عدم اتباع سبيل المفسدين.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾؛ أي: لميعادنا الذي وقتنا له للكلام فيه، ولإعطاء الشريعة له، وعبارة «المراح»: ولما جاء موسى لميعادنا في مدين، في يوم الخميس، يوم عرفة، فكلمه الله تعالى فيه من غير واسطة وأعطاه التوراة صبيحة يوم الجمعة يوم النحر. انتهى.

﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من وراء حجاب بغير واسطة ملك؛ أي: أزال الحجاب بين موسى وبين كلامه فسمعه من جميع جهاته، استشرفت نفسه للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فـ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ ذاتك المقدسة، واجعل لي من القوة على حمل تجليك ما أقدر به على النظر إليك، وكمال المعرفة بك؛ أي: مكنّي من رؤيتك ﴿انظر إليك﴾ يا إلهي ﴿قال﴾ سبحانه وتعالى لموسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾؛ أي: إنك لا تراني الآن ولا فيما يستقبل من الزمان الدنيوي، إذ ليس لبشر أن يطيق النظر إلي في الدنيا.

---

(١) الخازن.

قال أهل الأخبار: لما جاء موسى لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه وصام، ثم أتى طور سيناء، فأنزل الله تعالى ظلة غشيت الجبل على أربع فراسخ من كل ناحية، وطرد عنه الشيطان وهوام الأرض، ونحى عنه الملكين، وكشط له السماء، فرأى الملائكة قياماً في الهواء، ورأى العرش بارزاً، وأدناه ربه حتى سمع صريف الأقلام على الألواح، وكلَّمه وكان جبريل معه لم يسمع ذلك الكلام، فاستحلى موسى كلام ربه، فاشتاق إلى رؤيته فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ...﴾ الخ. وإنَّما سألها مع علمه بأنَّها لا تجوز في الدنيا لما هاج به من الشوق، وفاض عليه من أنواع الجلال، واستقر في بحر المحبة، فعند ذلك سأل الرؤية، وقيل: إنما سأل الرؤية ظناً منه بأنه تعالى يرى في الدنيا، وتعالى الله عن ذلك. وقال السدي: لما كلم الله موسى عليه السلام.. غاص عدو الله إبليس الخبيث في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى، فوسوس إليه أن مكلمك شيطان، فعند ذلك سأل موسى ربه الرؤية اهـ «خازن».

وسؤال موسى[1] للرؤية يدل على أنَّها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها، والجواب بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ يفيدا أنَّه لا يراه في هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنَّه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال في مثل هذا لا يأتي بفائدة، ومنهج الحق واضح، والاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ معناه أنَّك لا تثبت لرؤيتي ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرماً وصلابة وقوة، وهو الجبل فانظر إليه ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ﴾ الجبل ﴿مَكَانَهُۥ﴾ ولم يتزلزل عند رؤيتي له ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾؛ أي: فلعلك تراني وإنْ ضعف الجبل عن ذلك فأنت منه أضعف، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل، أو من باب التعليق بالمحال، وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا لما قدمنا.

والمعنى: فإنْ[2] ثبت الجبل لدى التجلي، وبقي مستقراً في مكانه.. فسوف

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

تراني، إذ هو مشارك لك في مادة هذا العالم الفاني، وإذا كان الجبل في قوته وثباته لا يستطيع أنْ يثبت ويستقر؛ لأنَّ مادته غير مستعدة لقوة تجلي خالقه وخالق كل شيء، فاعلم أنَّك لن تراني أيضاً، وأنت مشارك له في كونك مخلوقاً من هذه المادة، وخاضعاً للسنن الربانية في ضعف استعدادها، وقبولها للفناء ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: رب موسى أو رب الجبل ﴿لِلْجَبَلِ﴾؛ أي: ظهر له بعض ظهور وأدناه وأقله ظهوراً بلا كيف ﴿جَعَلَهُۥ﴾؛ أي: جعل ذلك التجلي الجبل ﴿دَكًّا﴾؛ أي: مدكوكاً مدقوقاً، فصار تراباً من الدك، وهو الدق مصدر بمعنى اسم المفعول، هذا على قراءة الجمهور[1]، وقرأ حمزة والكسائي ﴿دكاء﴾ بزنة حمراء، والدكاء الناقة التي لا سنام لها، والمعنى: جعله أرضاً دكاء؛ أي: مستوية لا ارتفاع فيها، تشبيهاً له بالناقة الدكاء، وقال الزمخشري: والدكاء اسم للرابية الناشزة من الأرض كالدكة. انتهى، والمعنى على هذا: جعله جبلاً صغيراً كالرابية، وقرأ ابن وثاب: ﴿دُكّ﴾ بضم الدال، وبالقصر جمع دكاء بالمد نحو: غز جمع غزاء، والمعنى: جعله قطعاً صغاراً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾؛ أي: سقط موسى على وجهه ﴿صَعِقًا﴾؛ أي: مغشياً عليه كمن أخذته الصاعقة، والتجلي إنَّما كان للجبل دونه، فما بالك لو كان له، والمعنى: أنَّه صار حاله لما غشي عليه، كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له، أي: النار النازلة من السماء عند الرعد والبرق ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ موسى وصحا من غشيته ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ يا إلهي؛ أي: تنزيهاً لك وتقديساً عما لا ينبغي في شأنك مما سألت؛ أي: أنزهك تنزيهاً من أنْ أسألك شيئاً لم تأذن لي به ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عن العود إلى مثل هذا السؤال، وأكثر المفسرين يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنَّه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى، فتاب ورجع عما طلب، وقال مجاهد: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: اسألك الرؤية. قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية؛ فإنَّ الأنبياء معصومون، وقيل: هي توبة من قتله للقبطي. ذكره القشيري. ولا وجه له في مثل هذا المقام.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك قبل قومي الموجودين في هذا العصر، المعترفين بعظمتك وجلالك.

والخلاصة[1]: أنَّ موسى لما نال فضيلة التكليم بلا واسطة، فسمع من عالم الغيب ما لم يسمع من قبل، تاقت نفسه أن يمنحه الرب شرف رؤيته، فطلب ذلك منه، وهو يعلم أنَّه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته التي منها كلامه، ولكن الله تبارك وتعالى قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولكي يخفف عليه ألم الرد أراه بعينه من تجليه للجبل ما فهم منه أنَّ المانع من جهته لا من جانب الفيض الإلهي، حينئذ نزه الله وسبَّحه وتاب إليه من هذا الطلب، فبشره بأنَّه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه، وأمره أنْ يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين له كما قال.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ واخترتك وفضلتك ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ المعاصرين لك من بني إسرائيل ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾، قرأ نافع وابن كثير بالإفراد، وهو مراد به المصدر؛ أي: بإرسالي، أو يكون على حذف مضاف؛ أي: بتبليغ رسالتي؛ لأنَّ مدلول الرسالة غير مدلول المصدر، وقرأ باقي السبعة بالجمع نظراً إلى أن الذي أرسل به ضروب وأنواع من الوحي ﴿و﴾ اصطفيتك ﴿بكلامي﴾؛ أي: بتكليمي لك بلا توسط ملك، وإنْ كان من وراء حجاب، وقد طلب موسى رفع هذا الحجاب لتحصل له الرؤيا مع الكلام، وقرأ الجمهور ﴿وبكلامي﴾ بالإفراد، على أنَّه مصدر كما فسرنا، أو على أنَّه على حذف مضاف؛ أي: وبسماع كلامي، وقرأ أبو رجاء ﴿برسالتي وبكلمي﴾ جمع كلمة؛ أي: وسماع كلمي، وقرأ الأعمش ﴿برسالاتي وتكلمي﴾ ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾؛ أي: فخذ ما أعطيتك من الشريعة، وهي التوراة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: من جماعة الشاكرين لنعمتي عليك وعلى قومك بإقامتها بقوة وعزيمة، والعمل بها، وأداء حقوق نعمي جميعها عليك، تنل المزيد من فضلي ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

---

(١) المراغي.

فصل في كلام الله تعالى ورؤيته

وأعلم[1]: أن إثبات الكلام والتكليم لله تعالى صريح في القرآن الكريم في آيات عدة، لا تعارض بينها، وأما الرؤية ففيها آيات متعارضة كقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وهما أصرح في النفي من دلالة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ على الإثبات؛ فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير في القرآن وفي كلام العرب، كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ وقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وفي الأحاديث الصحيحة تصريح بإثبات الرؤية بحيث لا تحتمل تأويلاً، والمرفوع منها مروي عن أكثر من عشرين صحابياً، ولم يرد في معارضتها شيء أصرح من حديث عائشة عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه ليلة المعراج؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، ثلاث من حدثكهن.. فقد كذب، من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه.. فقد كذب وفي رواية: فقد أعظم الفرية، ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ ومن حدثك أنه يعلم ما في غد.. فقد كذب، ثم قرأت ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ومن حدثك أنَّه كتم شيئاً من الدين.. فقد كذب، ثم قرأت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قال مسروق ـ وكنت متكئاً ـ فجلست وقلت: ألم يقل الله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ على ذلك؟ فقال: «إنما هو جبريل».

ومن هذا تعلم أنَّ عائشة تنفي دلالة سورة النجم على رؤية النبي ﷺ لربه بالحديث المرفوع، وتنفي جواز الرؤية مطلقاً، أو في هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ وهذا الاستدلال ليس نصاً في النفي حتى يرجح على الأحاديث الصريحة في الرؤية، وقد قال بها بعض علماء الصحابة، كابن

---

(١) المراغي.

عباس رضي الله عنهما، والمثبتون للرؤية يقولون: إن استنباط عائشة إنما هو لنفي الرؤية في الدنيا فقط، كما قال بذلك الجمهور، ولا تقاس شؤون البشر في الآخرة على شؤونهم في الدنيا؛ لأنَّ لذلك العالم سنناً ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه، حتى في الأمور المادية كالأكل والشرب والمأكول والمشروب، فماء الجنة غير آسن، فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره في مقره أو جوِّه، قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء.

وجمهرة المسلمين: أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق، وأنَّها أعلى وأكمل للنعيم الروحاني التي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة، وأنَّها أحق ما يصدق عليه قوله ﷺ: «قال الله عز وجل: اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» وهي المعبر عنها بقولهم: إنَّها رؤية بلا كيف.

وبعد أن أخبر سبحانه في الآيات السالفة أنَّه منع موسى رؤيته في الدنيا، وبشره بأنَّه اصطفاه على أهل زمانه برسالته وبكلامه، اخبرنا فيما بعد بما أتاه يومئذ بالإجمال فقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾؛ أي: وكتبنا لموسى في ألواح التوراة ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: كل شيء يحتاج إليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام، والمحاسن والقبائح، فـ﴿من﴾ زائدة في المفعول. وقوله: ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ بدل ﴿من كل شيء﴾، باعتبار محله وهو النصب على المفعولية. وقوله: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾؛ متعلق بتفصيلاً؛ أي: وكتبنا(١) له في الألواح كل شيء من المواعظ التي توجب الرغبة في الطاعة، والنفرة عن المعصية، ومن تفصيل الأحكام وشرح أقسامها؛ أي: إننا(٢) أعطيناه ألواحاً كتبنا له فيها أنواعَ الهداية، والمواعظ التي تؤثر في القلوب، ترغيباً، وترهيباً، وتفصيلاً لأصول الشرائع، وهي أصول العقائد والآداب، وأحكام الحلال والحرام، والراجح أنَّ هذه الألواح كانت أول ما أوتيه من وحي التشريع الإجمالي، أما سائر الأحكام

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

التفصيلية من العبادات والمعاملات المدنية والحربية والعقوبات.. فكانت تنزل عليه وقت الحاجة كالقرآن.

وهذه[1] الألواح هي التوراة، قيل كانت من زمردة خضراء، وقيل: من ياقوتة حمراء، وقيل: من زبرجد، وقيل: من صخرة صماء، وقد اختلفوا في عدد الألواح، فمن مقل قال: إنَّها اثنان وهذا ضعيف؛ لأنَّ أقل ما يصدق عليه الجمعُ ثلاثة على المشهور، ومن مكثر قال: إنَّها اثنا عشر، أو عشرة، أو سبعة، والله أعلم بحقيقة الحال. والألواح جمع لوح، وسمي لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني، وأسند الله سبحانه وتعالى الكتابة إلى نفسه تشريفاً للمكتوب في الألواح، وهي مكتوبة بأمره سبحانه، وقيل: هي كتابة خلقها الله تعالى في الألواح.

﴿فـ﴾قلنا له ﴿خُذْهَا﴾؛ أي: خذ الألواح واعمل بما فيها ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجد ونشاط، لا بتراخ وكسل؛ فإن العلم لا يأتي إلا للمجد المشتاق، سواء كان كسبياً أو وهبياً، فلا بد لمتعاطي العلم من الكد والتعب، ومخالفة النفس قال بعضهم:

بِقَدْرِ ٱلْكَدِّ تُكْتَسَبُ ٱلْمَعَالِيْ ... وَمَنْ طَلَبَ ٱلْعُلاَ سَهِرَ ٱللَّيَالِيْ
تَرُوْمُ ٱلْعِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلاً ... يَغُوْصُ ٱلْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ ٱللآلِيْ

وقال بعض العارفين:

فَجُدْ بِٱلرُّوْحِ وَٱلدُّنْيَا خَلِيْلِيْ ... كَذَا ٱلأَوْطَانُ تُدْرَكُ مِنْ سَنَاهُ

ذكره الصاوي.

وهذا الأمر على إضمار القول كما قدرنا؛ أي: وكتبنا له في الألواح ما ذكر، وقلنا له: هذه وصايانا وأصول شريعتنا وكلياتها، فخذها بقوة وجد وعزم ذاك أنَّك ستُكون بها شعباً جديداً بعادات جديدة، وأخلاق جديدة، مخالفة في جوهرها وصفاتها لما كان عليه هذا الشعب من الذل والعبودية لدى فرعون وقومه، وما كانوا عليه من الشرك والوثنية التي ألفوها من فرعون وقومه، وراضت

---

(١) الشوكاني.

أنفسهم لقبولها، فأنى للقائد والمرشد أن يصلح ذلك الفساد، ويرأب ذلك الصدع، إذا لم يكن ذا عزيمة وقوة وبأس شديد وحزم في أوامره ونواهيه ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ بني إسرائيل أن ﴿يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾؛ أي: بأحسن ما في تلك الألواح التي هي التوراة؛ لأنَّ فيها حسناً وأحسن، كالقود والعفو، والانتصار والصبر، والمأمور به والمباح، فأمروا بما هو الأكثر ثواباً، فعلى هذا المعنى: فأفعل التفضيل على بابه وهو مثل قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: أكثره أجراً، وقيل: أفعل التفضيل ليس على بابه، فمعنى: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾: بحسنها إذ كل ما فيها حسن، أو يقال: أمروا فيها بالخير، ونهوا عن الشر، وفعل الخير أحسن من ترك الشر.

وقيل المعنى[1]: يعملوا بمحكمها، ويؤمنوا بمتشابهها، وقال بعضهم: الحسن يدخل فيه الواجب والمندوب والمباح، وأحسن هذه الثلاثة الواجبات، والمندوبات، وقال المراغي: أي: وأمر قومك بالاعتصام بهذه الموعظة، والأحكام المفصلة في الألواح التي هي منتهى الكمال والحسن، كالإخلاص لله في العبادة، إذ يتحلى العقل، وتتزكى النفس مع ترك اتخاذ الصور والتماثيل؛ لأنَّها ذرائع للشرك، وسبب للوصول إليه ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قيل[2] هي أرض مصر التي كانت لفرعون وقومه، وقيل: منازل عاد وثمود، وقيل: هي جهنم، وقال مجاهد: وهذا المعنى أحسن، وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها، والمعنى على هذا القول: سأدخلكم الشام بطريق الايراث، وأريكم منزال الكافرين الذيك كانوا متوطنين فيها من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها، فلا تفسقوا مثل فسقهم، وقيل: الدار بمعنى الهلاك، والمعنى: سأريكم هلاك الفاسقين والخارجين عن طاعتنا كفرعون وقومه.

وقرأ الحسن[3]: ﴿سأوريكم﴾ بواو ساكنة بعد الهمزة، على ما يقتصيه رسم المصحف، وقال الزمخشري: وهذه لغة فاشية بالحجاز، يقال: أورني كذا

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

وأوريته، فوجهه أن يكون من أوريت الزند، كأن المعنى: بينه لي، والمعنى هنا: سأبين لكم عاقبتها، وقرأ ابن عباس وقَسَامةُ بن زهير ﴿سأورثكم﴾ بالثاء المثلثة، قال الزمخشري: وهي قراءة حسنة يقويها قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾.

وقال المراغي: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾؛ أي[1]: إنْ لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة، وتتبعوا أحسنه.. كنتم فاسقين عن أمر ربكم، فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين أنجاكم الله منهم، ونصركم عليهم، وسيريكم ما حل بهم بعدكم من الغرق.

قال ابن كثير: أي سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار.

قال ابن جرير: وإنَّما قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخالفه: سؤريك غداً ما يصير إليه حال من خالف أمري، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره، وفي الآية عبرة لمن يقرأها ويتدبر أمرها من وجوه:

١ ـ أن الشريعة يجب أنْ تتلقى بعزيمة وجد لتنفيذ ما بها من الإصلاح، وتكوين الأمة تكويناً جديداً، ومظهر ذلك الرسولُ المبلِّغ لها والداعي إليها، والمنفذ لها بقوله وعمله، فهو الأسوة والقدوة، وهذه سنة الله في كل انقلاب وتجديد اجتماعي وسياسي، وإنْ لم يكن بهدى الله، فما بالك بالدين ـ وهو أحوج ما يكون إلى إصلاح الظاهر والباطن ـ وقد أخذ سلفنا الصالح القرآن بقوة بالعمل بهداية دينهم، فسادوا جميع الأمم التي كانت لها القوة الحربية والصناعية والمالية والعددية، وسعدوا به في دنياهم، وسيكونون كذلك في آخرتهم، وخلف من بعدهم خلف أعرضوا عنه، وتركوا هدايته، فشقوا في دنياهم وآخرتهم كما قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى

---

(١) المراغي.

﴿ٱلْأَرْضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٢٧﴾.

٢ ـ أن شعب إسرائيل عظم ملكه حين أقام شريعته بقوة، حتى إذا غلبه الغرور، وظن أن الله ينصره لنسبه، وأنَّه شعب الله، ففسق وظلم.. أنزل الله به البلاء، وسلط عليهم البابليين، فأزالوا ملكه، ثم ثاب إلى رشده، فرحمه وأعاد إليه بعض ملكه، ثم ظلم وأفسد، فسلط عليه النصارى، فمزقوه كل ممزق.

٣ ـ أن المسلمين الذين اتبعوا سننهم، اغتروا بدينهم كما اغتروا واتكلوا على لقب الإسلام ولقب أمة محمد ولم يثوبوا إلى رشدهم، فزالت دولتهم، وذهب ريحهم، وامتلك عدوهم ناصيتهم، وجد في إفساد عقائدهم وأخلاقهم، وإيقاع الشقاق فيما بينهم، وتولى تربيتهم وتعليمهم كما يحب ويهوى، كما يرى ذلك كثيراً في أكثر بلدان المسلمين، خصوصاً في الجهات التي دخلها الشيوعيون شرقاً وغرباً، خاصة في شرقي إفريقيا كالشعوب الأروميا التي استعبدها استعمار الحبوش، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

﴿سَأَصْرِفُ﴾ وادفع ﴿عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ التي جاء بها موسى وغيره من الرسل ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ أي: مكر الذين يتكبرون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حالة كونهم ملتبسين ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ويترفعون عن الإيمان بها بإهلاكهم؛ أي: سأزيل[١] الذين يتكبرون في الأرض بالدين الباطل، وأدفعهم عن إبطال آياتي بإهلاكهم على يد موسى، وإنْ اجتهدوا كما اجتهد فرعون في إبطال ما رآه من الآيات على يد موسى، فلا يقدرون على منع موسى من تبغليها، وعلى منع المؤمنين من الإيمان بها، وقال الشوكاني[٢]: سأمنعهم فهم كتابي، وقيل: سأصرفهم عن الإيمان بها، وقيل: سأصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾. وقيل: سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها، ولا يعتبروا بها، واختلف في تفسير الآيات فقيل: هي المعجزات، وقيل: الكتب المنزلة، وقيل: هي خلق السموات والأرض، وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها، ولا مانع من

---

(١) المراح. (٢) فتح القدير.

حمل الآيات على جميع ذلك، وحمل الصرف على جميع المعاني المذكورة، و ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إما متعلق بقوله: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ أي: يتكبرون بما ليس بحق، أو بمحذوف وقع حالاً؛ أي: يتكبرون ملتبسين بغير الحق. انتهى.

وقال المراغي: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ . . .﴾ إلخ، أي: سأمنع[1] قلوب المتكبرين عن طاعتي وعلى الناس بغير حق، فهم الأدلة والحجج الدالة على عظمتي وعلى ما في شرائعي من هدى وسعادة لهم كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾. كما منعت فرعون وقومه عن فهم آيات موسى التي أوحيناها إليه، وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بتلبسهم بالباطل، وانغماسهم فيه، إذ لا قيمة للحق عندهم، فهم لا يبحثون عنه، ولا يطلبونه، وقد تظهر لهم آياته ويجحدونها، وهم بها موقنون، كما قال تعالى في قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ ثم بين صفات المتكبرين وأحوالهم فقال:

١ - ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾؛ أي: وإنْ يشاهدوا كل معجزة كفروا بكل واحدة منها، فهذه الجملة[2] معطوفة على ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ منتظمة معه في حكم الصلة، والمعنى: سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات، ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة، والآيات التكوينية والمعجزات، أي: لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت.

والمعنى[3]: أنَّهم إذا رأوا الآيات التي تدل على الحق وتثبته. . . لا يستفيدون منها فائدة ما، فلا يؤمنون بها؛ لأنَّ كثرة الآيات وتعدد أنواعها إنَّما تفيد من تكون نفسه تواقة لمعرفة الحق لكنه يجهل الوصول إليه، أو يشك في الطريق الموصلة إليه، لتعارض الأدلة لديه لخفاء دلالتها، أو لسوء فهمه لها، فإذا خفيت عليه دلالة بعضها. . فقد تظهر له دلالة غيره، فتنكشف الحقيقة واضحة أمامه، وتسفر له عن وجهها، وفي هذا إيماء إلى النبي ﷺ بأن الذين يقترحون

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

عليه الآيات من قومه لا يقصدون استبانة الحق وإيضاحه، بل يريدون إحداث الشغب والتعجيز، فإنْ هم أُجيبوا إلى طلبهم لم يؤمنوا بما جئت به، وقرأ مالك بن دينار ﴿وَإِن يُرَوا﴾ بضم الياء في الموضعين.

٢ - ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾؛ أي: سنبيل الهدى والبيان الذي جاء من الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أي[١]: لا يسلكوا سبيله؛ أي: وهم ينفرون من سبيل الهدى والرشاد، وهي السبيل المعبدة الواضحة، فإذا رأى أحدهم هذه السبيل لا يختارها لنفسه، ولا يفضلها على ما هو عليه من الغي، وهذا منتهى ما يكون من الطبع على القلب، والخروج عن جادة العقل، والفطرة، ومن الناس من يسلك هذه السبيل عن جهل، فإذا رأى لنفسه مخرجاً منها ارعوى وتركها، واختار لنفسه سبيل الرشاد.

٣ - ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾؛ أي: الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾؛ أي: يختارونه مسلكاً لأنفسهم؛ أي: إنَّهم إذا رأوا سبيل الغي والضلال.. هرعوا إليها، وخبوا فيها، وأوضعوا بما تزينه لهم أنفسهم من سلوكها، والسير فيها إلى آخر الحلبة، وهذه حال لهم شر من سابقتيها، وهؤلاء الذين اجتمعت لهم هذه الصفات هم الذين طبع الله على قلوبهم، وختم على سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فسبيل الحق بغيضة إليهم، وطريقه مكروهة لديهم.

قال الشوكاني[٢]: وجملة قوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ معطوفة على ما قبلها، داخلة في حكمها، وكذلك جملة قوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ المعنى: أنَّهم إذا وجدوا سبيلاً من سبل الرشد.. تركوه وتجنبوه، وإن رأوا سبيلاً من سبل الغي.. سلكوه واختاروه لأنفسهم.

وقرأ حمزة والكسائي[٣]: ﴿الرَّشَد﴾ بفتح الراء والشين، والباقون بضم الراء وسكون الشين. وروي عن ابن عامر بضمتين، وقال أبو عمرو بن العلاء

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح والبحر المحيط.

﴿ٱلرُّشْدِ﴾ ـ بضم وسكون ـ الصلاح في النظر، وبفتحتين الاستقامة في الدين، وقرأ أبو عبد الرحمن ﴿الرشاد﴾ وهي مصادر كالسقم والسقم والسقام، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿لا يتخذوها ويتخذوها﴾ على تأنيث السبيل، والسبيل تذكر وتؤنث قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ ولما نفى عنهم الإيمان وهو من أفعال القلب، استعار للرشد والغي سبيلين، فذكر أنَّهم تاركوا سبيل الرشد، سالكوا سبيل الغي.

ثم علل ما سلف من صرفهم عن النظر في الآيات، وعدم اعتبارهم بها فقال: ﴿ذلك﴾؛ أي: تكبرهم وعدم إيمانهم بشيء من الآيات، وإعراضهم عن سبيل الرشد، وإقبالهم التام إلى سبيل الغي، حاصل ﴿بـ﴾سبب ﴿أنهم كذبوا بآياتنا﴾ الدالة على صدق رسلنا، وباهر قدرتنا ﴿و﴾ بسبب أنَّهم ﴿كَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾؛ أي: كانوا معرضين عن النظر والتفكر فيها؛ أي: ذلك حاصل بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها.

أي: إننا[1] عاقبناهم على تكذيبهم بالآيات والغفلة عن النظر إلى الأدلة الموصلة إلى الحق، فيما أمرنا به ونهينا عنه بالختم على قلوبهم والغشاوة على أعينهم، حتى لا يجد الحق منفذاً في الوصول إليها.

والخلاصة: أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق هؤلاء مطبوعين على الغي والضلال طبعاً، ولم يجبرهم إجباراً ويكرههم عليه إكراهاً، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم، إذ هم آثروا التكذيب بالآيات، والصد عن السبيل الموصلة إلى الرشاد، وغفلوا عن النظر في أدلتها لشغلهم بأهوائهم، واتباع شهواتهم، وبذا لجوا في الطغيان، وتمادوا في العصيان، واحتقروا ما سوى ذلك، مما يهدي عقولهم إلى صواب الحق وسلوك طريقه، وأمثال هؤلاء هم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

(١) المراغي.

ولا شك أنَّ كثيراً من المسلمين الذين تعلموا التعاليم الغربية، ورأوا زخرف المدنية الأوروبية، وغرهم بهرجها وخبلتهم زينتها، تنطبق عليهم هذه الصفات، فهم يحتقرون هداية الدين الروحية وأوامره ونواهيه، وسائر تعاليمه، وماله من تأثير عظيم في النفوس وتوجيه لها إلى الخير، وصد لها عن الشر، والبعد عن الفواحش والمنكرات.

ذاك أنَّهم رأوا أنفسهم بعيدين عن الفنون والصناعات وزخرف الحياة الذي وصل فيه الغربيون إلى الغاية القصوى، وهم عبيد شهواتهم، منصرفون عن هداية الأديان إلى أبعد غاية، فحدثتهم أنفسهم أن ينهجوا نهجهم، ويسيروا على سنتهم، علهم يصلون في ذلك إلى بعض ما وصلوا إليه، ولو ساغ لبني إسرائيل أن لا يتبعوا موسى عليه السلام؛ لأنَّه لم يكن عنده من زينة الدنيا ومن الفنون والصناعات، ومن رائع المدنية مثل ما كان عند فرعون وقومه، لساغ لهم أنْ ينحدروا في تلك الهوة ويقعوا في تلك الحفرة، ولله في خلقه شؤون، وهو يصرف الأمور بيده، وله الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ وجحدوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا؛ أي: لم يصدقوها، ولم يأتمروا بأوامرها، ولم ينتهوا بنواهيها ﴿وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: وكذبوا بلقائهم الدار الآخرة، وما فيها من المجازاة بالبعث والنشور، وماتوا على ذلك ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ أي[1]: حسناتهم التي لا تتوقف على نية، كصلة الأرحام، وإغاثة الملهوفين؛ أي: لا يثابون عليها في الآخرة وإنْ نفعتهم في تخفيف العذاب، لكن التخفيف لا يقال له ثواب، والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إنكاري، بمعنى النفي؛ أي: ما يجزون في الآخرة إلا على ما كانوا يعملون في الدنيا من الكفر والمعاصي.

والمعنى[2]: والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق، والهدى على رسلنا، فلم يؤمنوا بها، ولم يهتدوا بهديها، وكذبوا بما يكون في الآخرة من الجزاء على الأعمال، من ثواب على الخير وعقاب على الشر، تحبط أعمالهم وتذهب

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

سدى؛ لأنَّهم عملوا لغير الله تعالى وأتعَبوا أنفسهم في غير ما يرضي الله تعالى، فتصير أعمالهم وبالاً عليهم، ولا يجزون إلا جزاء ما استمروا على عمله من الكفر والمعاصي، فأثر في نفوسهم وأرواحهم، حتى دساها وأفسدها، فقد مضت سننه تعالى بجعل الجزاء في الآخرة أثراً للعمل، مرتباً عليه، كترتيب المسبب على السبب ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ في جزائه مثقال ذرة ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾؛ أي: وصاغ بنو إسرائيل ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد إنطلاق موسى عليه السلام وذهابه إلى الجبل لمناجاة ربه، وفاء للموعود الذي وعده إياه ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾؛ أي: من حلي القبط وذهبهم التي استعاروها منهم لعلة العرس ﴿عِجْلًا﴾، أي: تبيعاً وأبدل منه قوله: ﴿جَسَدًا﴾؛ أي: جرماً وتمثالاً، لدفع توهم أنَّه صورة عجل منقوشة على حائط مثلاً ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾؛ أي: له صوت مثل صوت تبيع البقر؛ أي: صاغ لهم موسى السامري ـ رجل منهم، وكان رجلاً مطاعاً فيهم، ذا منزلة واحترام؛ لأنَّه رباه جبريل في الجبل ـ، ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ وتمثالاً على صورة عجل البقر، له صوت وصياح، فقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه، وإنَّما نسب الاتخاذ إليهم ـ مع أن الصائغ له هو موسى السامري ـ لأنَّه عمله برأي جمهورهم الذين طلبوا أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه.

قيل[١]: إن بني إسرائيل كان لهم عيد يتزينون فيه، ويستعيرون من القبط الحلي، فلما أغرق الله القبط بقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل، وصارت ملكاً لهم، فجمع السامري تلك الحلي ـ وكان رجلاً مطاعاً فيهم، صائغاً ـ فصاغ السامري عجلاً، وأخذ كفاً من تراب حافر فرس جبريل عليه السلام، فألقاه في جوف ذلك العجل، فانقلب لحماً ودماً، وظهر منه الخوار مرة واحدة، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى عليه السلام، وكان[٢] اسم السامري موسى بن ظفر، من قرية تسمى سامرة، وكان ابن زنا، وضعته أمه في جبل فأرسل الله جبريل فصار يرضعه من إصبعه، فكان يعرفه إذا نزل إلى الأرض، فلما نزل جبريل يوم غرق فرعون، وكان راكباً فرساً، فكان كل شيء وطئه بحافرها يخضر

(١) المراح. (٢) الصاوي.

ويثمر، ففطن موسى السامري لذلك، وعلم أن هذا التراب له أثر، فأخذ شيئاً منه ادخره، فلما توجه موسى عليه السلام للمناجاة.. صنع لهم العجل، ووضع التراب في فيه فصار له خوار، فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فنسي كما في سورة طه، وكان موسى السامري منافقاً، وانظر إلى من رباه جبريل، حيث كان منافقاً، وإلى من رباه فرعون، حيث كان مرسلاً فإنَّ هذا دليل على أن السعادة والشقاوة بيد الله، قال بعضهم:

إِذَا ٱلْمَرْءُ لَمْ يُخْلَقْ سَعِيْدَاً مِنَ ٱلأَزَلِ فَقَدْ خَابَ مَنْ رَبَّىٰ وَخَابَ ٱلْمُؤَمِّلُ
فَمُوْسَىٰ ٱلَّذِيْ رَبَّاهُ جِبْرِيْلُ كَافِرٌ وَمُوْسَىٰ ٱلَّذِيْ رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

قال ابن كثير[1]: وقد اختلف المفسرون في ذلك العجل، هل صار لحماً ودماً له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب إلا أنَّه يدخل فيه الهواء، فيصوت كالبقر، على قولين والله أعلم، انتهى.

ويرى[2] الرأي الأول قتادة والحسن البصري، في جماعة آخرين، وتعليل ذلك عندهم: أن السامري رأى جبريل حين جاوز ببني إسرائيل البحر راكباً فرساً، ما وطىء بها أرضاً إلا حلت فيها الحياة، واخضر نباتها، فأخذ من أثرها قبضة فنبذها في جوف تمثال العجل، فحلت فيه الحياة وصار يخور كما يخور العجل.

ويرى جماعة آخرون الرأي الثاني، ويقولون: إن خواره كان بتأثير دخول الريح في جوفه وخروجها من فيه، ذاك أنَّه صنع تمثال عجل مجوفاً، ووضع في جوفه أنابيب على طريق فنية، مستمدة من دراسة علم الصوت، وجعل وضعه على مهب أنابيب الرياح، فمتى دخلت الريح في جوف التمثال انبعث منه صوت يشبه خوار العجل، وقال آخرون: بل ذلك الخوار كان تمويهاً وعملاً منه يشبه عمل الحواة، ذاك أنَّه جعل التمثال أجوف، وجعل تحت الموضع الذي نصب فيه من ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس، فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار، والناس يفعلون مثل هذا في النافورات التي تجري فيها المياه، وبهذا الطريق ونحوه ظهر

---

(١) ابن كثير. (٢) المراغي.

الصوت من التمثال، ثم ألقى في روع الناس أن هذا العجل إلهكم وإله موسى، فعبدوه كلهم إلا هارون وقليلاً منهم وافقوه، كما قال الحسن، وقال الكرماني[1]: جعل في بطن العجل بيتاً يفتح ويغلق، فإذا أراد أن يخور. أدخل غلاماً يخور بعلامة بينهما إذا أراد، وقيل: يحتمل أن يكون الله أخاره ليفتن بني إسرائيل، وخواره قيل مرة واحدة ولم يثنِّ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقيل مراراً، فإذا خار سجدوا، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم، وقال ابن عباس وأكثر المفسرين: إن هذا العجل قد ذبحه موسى وحرقه وذرأه في الهواء، كما سيأتي في سورة طٰه في قوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ الخ.

وقرأ الكسائي وحمزة[2]: ﴿من حِلِيهم﴾ بكسر الحاء، إتباعاً لحركة اللام، كما قالوا: عصي، وهي قراءة أصحاب عبد الله ويحيى بن وثاب، وطلحة والأعمش، وقرأ باقي السبعة والحسن وأبو جعفر وشيبة بضم الحاء، وهو جمع نحو: ثَدْيٍ وثُديّ، وقرأ يعقوب: ﴿من حَليهم﴾ بفتح الحاء وسكون اللام وهو مفرد، ويراد به الجنس، أو اسم جنس مفرده حلية، كثمر وثمرة، وأضيفت الحلي إليهم لأنَّهم ملكوها غنيمة لما غرق قوم فرعون، أو أضيفت إليهم وإن كانت لغيرهم تجوزاً لأدنى ملابسة.

وقرأ علي وأبو السمال وفرقة ﴿جؤار﴾ بالجيم والهمز، من جار إذا صاح بشدة صوت. فرد الله عليهم ضلالاتهم، وأبان لهم فساد آرائهم، وقرعهم على جهالاتهم فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ؛ أي: ألم يعلم قوم موسى أنَّ هذا العجل لا يكلمهم بشيء ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً توصلهم إلى مصالحهم وسعادتهم بوجه من الوجوه.

أي: ألم يروا أنَّه فاقد لما يُعرف به الإله الحق من تكليمه لمن يختاره من البشر لرسالته، لتعليم عباده ما يجب عليهم معرفته من صفاته، وسبيل عبادته، كما كلم رب العالمين موسى عليه السلام، وألقى إليه الألواح التي فيها من

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

الشرائع ما يزكي النفوس، وتقوم بها مصالح العباد، وعليها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

وخلاصة ذلك: أنَّه فاقد لأهم صفة من صفات الإله الحق، وهي صفة الهداية والإرشاد للعباد، بإرسال الرسل الذين يختارهم إلى الناس، ومرجعها صفة الكلام، ثم أكد ما سلف وقرره بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أي: اتخذوا ذلك العجل إلهاً وعبدوه ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى، واشتغلوا بعبادة العجل.

أي: إنهم لم يتخذوه عن دليل وبرهان، بل اتخذوه عن تقليد للمصريين، إذ رأوهم يعبدون العجل - أبيس - من قبل، وعن تقليد لما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد، فعبدوه مثلهم، ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ولما اشتد ندمهم على عبادة العجل، وازدادت حسرتهم على ما فرط منهم في جنب الله تعالى، وتحيروا بعد عود موسى من الميقات ﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾؛ أي: وعلموا أنَّهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً بعبادة العجل ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: إن ذنبنا لعظيم، وإنْ جرمنا لكبير، وإنَّه لن يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة الله التي وسعت كل شيء و ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بقبول توبتنا ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن جريمتنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: من الذين خسروا سعادة الدنيا - وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد - وخسروا سعادة الآخرة وهي دار الكرامة والنعيم المقيم وجنات النعيم.

وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا كناية عن[1] الندم، ومعلوم أنَّ الندم متأخر عن علمهم بالخطأ، فتقديمه على الرؤية للمسارعة إلى بيانه، والإشعار بغاية سرعته، حتى كأنَّه سابق على الرؤية. اهـ «أبو السعود». ﴿وسقط﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وأصل الكلام: سقطت أفواههم على أيديهم، ففي بمعنى على، وذلك من شدة الندم، فإن العادة أنَّ الإنسان إذا ندم بقلبه على شيء عض بفمه على أصابعه، فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم،

---

(١) الفتوحات والمراح.

فأطلق اسم اللازم، وأريد الملزوم على سبيل الكناية، وهذا التركيب لم تعرفه العرب إلا بعد نزول القرآن الكريم.

وقرأ ابن أبي عبلة[1]: ﴿أسقط في أيديهم﴾ رباعياً مبنياً للمفعول، وقرأ ابن السميقع ﴿سقط في أيديهم﴾ مبنياً للفاعل، وفاعله مضمر؛ أي: الندم، هذا قول الزجاج، وقال الزمخشري: سقط العض، وقال ابن عطية: سقط الخسران والخيبة. وكل هذه أمثلة، ذكره في «الفتوحات».

وقرأ الأخوان ـ حمزة والكسائي ـ والشعبي وابن وثاب، والجحدري وابن مصرف، والأعمش وأيوب: بالخطاب في ﴿ترحمنا وتغفر لنا﴾ ونصب ﴿ربنا﴾ على النداء حكاية لدعائهم، وفاعل الفعلين مستتر؛ أي: لئن لم تغفر أنت يا ربنا. وقرأ باقي السبعة ومجاهد والحسن والأعرج، وأبو جعفر وشيبة بن نصاح وغيرهم: ﴿يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ بالياء فيهما، ورفع ﴿ربنا﴾ على الفاعلية حكاية لأخبارهم فيما بينهم؛ أي: قال بعضهم لبعض: لئن يرحمنا ربنا ويغفر لنا، وفي مصحف أبي: ﴿قالوا ربنا لئن ترحمنا وتغفر لنا﴾ بتقديم المنادى، وهو ﴿ربنا﴾ وفي قولهم: ﴿ربنا﴾ استعطاف حسن إذ الرب هو المالك الناظر في أمر عبيده، والمصلح منهم ما فسد.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام من مناجاته لربه في جبل الطور ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بني إسرائيل حالة كونه ﴿غَضْبَٰنَ﴾ على أخيه هارون، إذ رأى أنَّه لم يكن فيهم صلب الرأي، قوي الشكيمة، نافذ الكلمة ﴿أَسِفًا﴾؛ أي: حزيناً لما فعله قومه من عبادة غير الله تعالى، وكان قد أخبره الله تعالى بذلك قبل رجوعه كما سيأتي في سورة طه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ فقوله: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ حالان من موسى، وذكر جواب لما بقوله ﴿قال﴾ موسى لهم ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾؛ أي: بئس وقبح خلافة خلفتمونيها ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾؛ أي: من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة ربي، وقد كنت لقنتكم التوحيد، وكففتكم عن الشرك، وبينت

(١) البحر المحيط والفتوحات.

لكم فساده وسوء عاقبته، وحذرتكم صنيع القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر.

وقد كان من الحق عليكم أنْ تقتفوا أثري وتتبعوا سيرتي، بيد أنَّكم سلكتم ضد ذلك، فصنعتم صنماً كأحد أصنامهم، فعبده بعضكم، ولم يردعكم عن ذلك باقيكم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ، قال صاحب «الكشاف»: المعنى: أعجلتم عن أمر ربكم ـ وهو انتظار موسى ـ حافظين لعهده وما وصاكم به، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره، ولم أرجع إليكم فحدثتكم أنفسكم بموتي، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم.

وعبارة «المراح» هنا قوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيَ﴾؛ أي: بئسما قمتم مقامي، وكنتم خلفائي من بعد انطلاقي إلى الجبل، وهذا الخطاب إما لعبدة العجل ـ السامري وأشياعه ـ أي: بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله تعالى، وإما لهارون والمؤمنين معه؛ أي: بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم هذه ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: أعجلتم وعد ربكم من الأربعين، فلم تصبروا له، وذلك أنَّهم قدروا أن موسى لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة قد مات.

﴿وَأَلْقَى﴾ موسى ﴿الْأَلْوَاحَ﴾؛ أي: ألواح التوراة التي جاء بها؛ أي: وضعها في موضع ليتفرغ لما قصده من مكالمة قومه، فلما فرغ من مكالمتهم عاد إليها فأخذها؛ أي: طرحها من يديه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾؛ أي: بشعر رأس هارون بيمينه ولحيته بشماله حالة كونه ﴿يَجُرُّهُ﴾؛ أي: يجر هارون ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى نفسه بذؤابته لا على سبيل الإهانة، بل ليستكشف منه كيفية تلك الواقعة، ظناً منه أنه قد قصر في ردعهم وتأنيبهم، وكفهم عن عبادة العجل، كما فعل هو بتحريقه وإلقائه في اليم إنْ قدر، أو أن يتبعه إلى جبل الطور إنْ لم يستطع، كما حكى الله تعالى عنه في سورة طه ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)﴾ ولا شك أنَّ سياسة الأمم تختلف باختلاف أحوال رعاتها وسائسيها،

فالقوي منهم الشديد الغضب للحق كموسى، يشعر بما لا يشعر به من يغلب عليه الحلم ولين العريكة كهارون عليه السلام.

ثم ذكر سبحانه جواب هارون لموسى فقال: ﴿قَالَ﴾ هارون لموسى ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾؛ أي: يا ابن أمي لا تعجل بلومي وتعنيفي، ولا تظنن تقصيري في جنب الله تعالى، فإنِّي لم آل جهداً في الإنكار على القوم والنصح لهم ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾؛ أي: ولكن القوم قد وجدوني واعتقدوني ضعيفاً، ولم يرعووا لنصحي، ولم يمتثلوا لأمري ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾؛ أي: بل وأوشكوا وقاربوا أن يقتلونني لأنِّي نهيتهم عن عبادة العجل.

ناداه[1] نداء استعطاف وترفق، وكان شقيقه، وهي عادة العرب تتلطف وتتحنن بذكر الأم، كما قال:

يَـا ٱبْـنَ أُمِّـيْ وَيَـا شَـقِـيْـقَ نَـفْـسِـيْ

وقال آخر:

يَـا ٱبْـنَ أُمِّـيْ فَـدَتْـكَ نَـفْـسِـيْ وَمَـالِـيْ

وأيضاً: فكانت أمهما مؤمنة، قالوا: وكان أبوه مقطوعاً عن القرابة بالكفر، كما قال تعالى: لنوح عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وأيضاً لما كان حقها أعظم، لمقاساتها الشدائد في حمله وتربيته، والشفقة عليه.. ذكره بحقها، وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، وكان كثير الحلم، ولهذا كان محبباً في بني إسرائيل.

وقرأ الحرميان[2] ـ نافع وابن كثير ـ وأبو عمرو وحفص ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ بفتح الميم، فقال الكوفيون أصله: يا ابن أماه، فحذفت الألف تخفيفاً كما حذفت في يا غلام، أصله: يا غلاما، وسقطت هاء السكت لأنَّه درج، فعلى هذا الاسم معرب، إذ الألف منقلبة عن ياء المتكلم فهو مضاف إليه لابن، وقال سيبويه:

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

هما اسمان بنيا على الفتح كاسم واحد، كخمسة عشر ونحوه، فعلى قوله: ليس مضافاً إليه ابن، والحركة حركة بناء.

وقرأ باقي السبعة: بكسر الميم، فقياس قول الكوفيين: أنَّه معرب وحذفت ياء المتكلم، واجتزىء عنها بالكسرة، كما اجتزؤا بالفتحة عن الألف المنقلبة عن ياء المتكلم، وقال سيبويه: هو مبني أضيف إلى ياء المتكلم، كما قالوا: يا أحد عشر أقبلوا، وحذفت الياء، واجتزؤا عنها بالكسرة، وقرىء بإثبات ياء الإضافة فتقول: يا ابن أمي. وقرىء ابن أمِّ بكسر الهمزة والميم. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾؛ أي: فلا تفرح الأعداء أصحاب العجل بما تفعل بي من المكروه؛ أي: فلا تفعل بي من اللوم والتقريع ما يجعل الأعداء يشمتون ويفرحون بي.

وقرأ ابن محيصن[1]: ﴿تَشْمِت﴾ بفتح التاء وكسر الميم ونصب الأعداء. ومجاهد كذلك، إلا أنَّه فتح الميم، وعن مجاهد أيضاً ﴿فَلاَ تَشَمت﴾ بفتح التاء والميم ورفع الأعداء، وعن حميد بن قيس كذلك، إلا أنَّه كسر الميم، جعلاه فعلاً لازماً فارتفع به الأعداء.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا تعجلني في زمرة القوم الظالمين لأنفسهم، وهم الذين عبدو العجل، فتغضب مني كما غضبت منهم، وتؤاخذني كما آخذتهم؛ فإني لست منهم في شيء؛ أي: ولا تظن أنِّي واحد من الذين عبدوا العجل مع برائتي منهم، وإنما قال هارون تلك المقالة لأنَّه خاف أنْ يتوهم جهال بني إسرائيل أنَّ موسى عليه السلام غضبان عليه، كما أنَّه غضبان على عبدة العجل.

وفي هذا دليل على أنَّ هارون كان دون موسى في شدة العزيمة، وقوة الإرادة، وأَخْذ الأمور بالحزم، وهذا ما أطبق عليه المسلمون وأهل الكتاب، ثم أبان سبحانه أثر هذا الاستعطاف في قلب موسى عليه السلام فقال: ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ فيما أقدمت على أخي هارون من هذا الغضب ﴿وَلِأَخِي﴾ في تركه

---

(١) البحر المحيط.

التشديد على عبدة العجل ﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ﴾؛ أي: في جنتك بمزيد الإنعام بعد غفران ما سلف منا ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ أي: فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا.

وحاصل المعنى: أي قال موسى: رب اغفر لي ما فرط مني من قول وفعل فيهما غلظة وجفاء، واغفر له ما عساه يكون قد قصر فيه من مؤاخذة القوم على ما اجترموه من الآثام، خوفاً مما توقعه من الإيذاء الذي قد يصل إلى القتل، ﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ﴾ التي وسعت كل شيء، واغمرنا بجودك وفضلك، فأنت أرحم بعبادك من كل رحم، والآية صريحة في براءة هارون من جريمة اتخاذ العجل وفي إنكاره على متخذيه وعابديه من قومه.

الإعراب

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾.

﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾ الواو استئنافية، ﴿واعدنا﴾: فعل وفاعل، ﴿مُوسَىٰ﴾: مفعول أول، ﴿ثَلَٰثِينَ﴾: مفعول ثان ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: انقضاء ثلاثين أو تمام ثلاثين، ﴿لَيۡلَةٗ﴾: تمييز لـ﴿ثَلَٰثِينَ﴾. منصوب به، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿واعدنا﴾، ﴿بِعَشۡرٖ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أتممنا﴾، ﴿فَتَمَّ﴾: الفاء عاطفة تفريعية ﴿تم﴾: فعل ماض ﴿مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾: فاعل ومضاف إليه، ﴿أَرۡبَعِينَ﴾: مفعول به، ﴿لَيۡلَةٗۚ﴾: تمييز لـ﴿أَرۡبَعِينَ﴾ منصوب به، وجملة ﴿تم﴾ من الفعل والفاعل معطوفة مفرعة على جملة ﴿أتممنا﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لِأَخِيهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿قال﴾، ﴿هَٰرُونَ﴾: بدل من ﴿أخيه﴾ بدل كل من كل، أو عطف بيان منه، ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿هَٰرُونَ﴾، والجملة في محل النصب مقول

﴿قال﴾، ﴿فِي قَوۡمِي﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾، ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿هَٰرُونَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّبِعۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿هَٰرُونَ﴾، ﴿سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أصلح﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: استئنافية ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿جَآءَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعل معطوف على ﴿جَآءَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة، ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أَرِنِيٓ﴾ ﴿أرِ﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وهي الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والنون نون الوقاية والياء ضمير المتكلم في محل النصب مفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: أرني نفسك، والجملة الفعلية جواب النداء في محل النصب مقول القول، ﴿أَنظُرۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق؛ لأنَّه في تقدير: فإنْ فعلت بي ذلك أنظر إليك، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿إِلَيۡكَۚ﴾ متعلقان بـ﴿أَنظُرۡ﴾ ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الرب، والجملة مستأنفة، ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿لَن﴾: حرف نصب، ﴿تَرَىٰنِي﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾ وعلامة نصبه فتحة مقدرة منع من ظهورها التعذر، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والنون نون الوقاية، والياء ضمير المتكلم في محل النصب مفعول به لـ﴿ترى﴾؛ لأنَّ ترى

بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلَٰكِنِ﴾، الواو: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿أَنظُرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿أَنظُرْ﴾، والجملة الاستدراكية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾.

﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَإِنِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿ٱسْتَقَرَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْجَبَلِ﴾، ﴿مَكَانَهُۥ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿ٱسْتَقَرَّ﴾، ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة تسويفية، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس، ﴿تَرَىٰنِى﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معطوفة على الجملة الاستدراكية. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فتجلى ربه للجبل، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِلْجَبَلِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَجَلَّىٰ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل ﴿صَعِقًا﴾ حال من موسى، والجملة معطوفة على جملة ﴿جعل﴾، ﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطف على محذوف وتقديره: ثم أفاق موسى، ﴿لما﴾: حرف شرط، ﴿أَفَاقَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة جواب لما، وجملة لما معطوف على جملة محذوفة، ﴿سُبْحَٰنَكَ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنّ شئت قلت: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: أسبحك سبحاناً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿تُبْتُ﴾:

فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿تُبْتُ﴾، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تُبْتُ﴾.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّى﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، والياء اسمها ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿اصطفى﴾، ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق أيضاً بـ﴿اصطفى﴾، ﴿وَبِكَلَٰمِى﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله، وكرر حرف الجر تنبيهاً على مغايرة الاصطفاء للكلام، كما في السمين، ﴿فَخُذْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿خذ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾ والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿إنّي﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿ءَاتَيْتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: آتيتكه، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾: أوصفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف من ﴿ءَاتَيْتُكَ﴾، ﴿وَكُن﴾: فعل ناقص واسمه، ضمير يعود على موسى، ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كن﴾، وجملة ﴿كن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

﴿وَكَتَبْنَا﴾ الواو: استئنافية ﴿كتبنا﴾: فعل وفاعل، والجلمة مستأنفة، ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كتبنا﴾، وكذا يتعلق به قوله: ﴿فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾،

﴿مِن﴾: زائدة ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾: مفعول به لـ﴿كتبنا﴾. ﴿مَّوْعِظَةً﴾ بدل من محل ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾: على كونه مفعول ﴿كتبنا﴾. ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ معطوف على ﴿مَّوْعِظَةً﴾. ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تفصيلاً﴾.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿فَخُذْهَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة داخلة على قول محذوف تقديره: فقلنا له خذها، وجملة القول المحذوف معطوفة على جملة ﴿كتبنا﴾ ﴿خذها﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف الذي قدرناه آنفا، ﴿بِقُوَّةٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿خذها﴾؛ أي: خذها حال كونك متلبساً بقوة ونشاط، لا بتكاسل وغفلة، ﴿وَأْمُرْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿خذها﴾، ﴿قَوْمَكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿يَأْخُذُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بالطلب السابق تقديره: إن أمرتهم يأخذوا، ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يَأْخُذُوا﴾، ﴿سَأُورِيكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

﴿سَأَصْرِفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة مسوقة لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات، التي هي ما كتب في ألواح التوارة أو ما يعمها وغيرها، ﴿عَنْ آيَاتِيَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أصرف﴾. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع في محل النصب مفعول به، ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم ملتبسين بالدين غير الحق، ﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة ﴿إنْ﴾ حرف شرط، ﴿يَرَوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن الشرطية، ﴿كُلَّ آيَةٍ﴾: مفعول به لـ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنَّ رأى بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، ﴿لَّا يُؤْمِنُوا﴾:

فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿لَا يُؤْمِنُوا﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، على كونها صلة الموصول ﴿وَإِن يَرَوْا﴾: جازم وفعل وفاعل مجزوم على كونه فعل الشرط ﴿سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول مجزوم بإن الشرطية، على كونه جواباً لها، ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿اتخذوا﴾، جملة إنْ الشرطية معطوفة على جملة الصلة أيضاً.

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: عاطفة ﴿إنْ يروا﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن على كونه فعل شرط لها، ﴿سَبِيلَ الْغَيِّ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان مجزوم بإن الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة الصلة أيضاً. ﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، وسبب، ﴿أنّهم﴾: ناصب واسمه، ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور، متعلق به، ﴿وَكَانُوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿عَنْهَا﴾ متعلق بـ﴿غَافِلِينَ﴾ ﴿غَافِلِينَ﴾ خبر كان، وجملة كان في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا﴾، وجملة ﴿كَذَّبُوا﴾ في محل الرفع خبر أنَّ، وجملة أن من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك الصرف المذكور عن آياتنا كائن بسبب تكذيبهم آياتنا، وبسبب غفلتهم عنها، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَذَّبُوا﴾ صلة الموصول ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كَذَّبُوا﴾، ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿آياتنا﴾ مجرور بالكسرة الظاهرة، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل

الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري، ﴿يُجْزَوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل، وهو المفعول الأول، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿يُجْزَوْنَ﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه، وجملة ﴿يُجْزَوْنَ﴾ جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اتخذ﴾، ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اتخذ﴾ أيضاً، وجاز[1] تعلق حرفي جر بلفظ واحد بعامل واحد، لاختلاف مدلوليهما؛ لأنَّ ﴿مِنْ﴾ الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض، وأجاز أبو البقاء أن يكون ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: في موضع الحال، فيتعلق بمحذوف؛ لأنه لو تأخر لكان صفة؛ أي: عجلا كائناً من حليهم ﴿عِجْلًا﴾: مفعول أول لـ﴿اتخذ﴾. ﴿جَسَدًا﴾: بدل من ﴿عِجْلًا﴾ أو عطف بيان منه أو صفة له. اهـ. والمفعول الثاني محذوف تقديره: واتخذوا عجلاً جسدا له خوار إلها ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة في محل النصب صفة ﴿عِجْلًا﴾. ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، وقالوا: الهمزة للاستفهام الإنكاري التقريعي، ﴿لم يروا﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة الفعلية إنشائية لا ملح لها من الإعراب ﴿أَنَّهُ﴾ ناصب واسمه، والضمير عائد للعجل، ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على العجل، والجملة في محل الرفع خبر أنَّ، ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على العجل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ على كونها خبرا لـ﴿أَنَّ﴾،

---

(١) البحر المحيط.

وجملة أنَّ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى؛ لأنَّ رأى هنا بمعنى علم، تقديره: ألم يروا عدم تكليمه إياهم، وعدم هدايته إياهم سبيلاً ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: اتخذوه إلهاً، والجملة توكيد لفظي لـ﴿اتخذ﴾ الأول لا محل لها من الإعراب، ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة مستأنفة، وقال ابن عطية: يحتمل كونها حالاً من فاعل ﴿اتخذوه﴾ انتهى.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿سُقِطَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، وأصله سقطت أفواههم على أيديهم، ففي بمعنى على، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿وَرَأَوْا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سُقِطَ﴾، ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿قَدْ ضَلُّوا۟﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى تقديره: ورأوا ضلالهم، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة، ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿لَئِن﴾، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم المحذوف، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَرْحَمْنَا﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لَئِن﴾، ﴿رَبُّنَا﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ معطوف على ﴿يَرْحَمْنَا﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم الآتي تقديره: إن لم يرحمنا نكن من الخاسرين، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، مؤكدة للأولى، زيدت إشعاراً بأنَّ ما بعدها جواب القسم لا جواب الشرط، لتقدم القسم عليه، ﴿نكونن﴾ فعل مضارع ناقص في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، واسمها ضمير يعود على المتخذين عجلا، ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر نكون، وجملة نكون جواب القسم لا محل

لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مع جوابه في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: عاطفة ﴿لما﴾: حرف شرط، ﴿رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ متعلق: بـ﴿رَجَعَ﴾ ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾: حالان من ﴿مُوسَىٰٓ﴾ عند من يجيز تعدد الحال، وقيل: ﴿أَسِفًا﴾: بدل من ﴿غَضْبَٰنَ﴾ بدل بعض من كل، أو بدل اشتمال ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة لما معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾، أو مستأنفة ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾ وإن شئت قلت: ﴿بِئْسَمَا﴾: فعل ماض لإنشاء الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: هو، يعود على الشيء المبهم و﴿ما﴾: نكرة موصوفة في محل النصب على التمييز لفاعل بئس، ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب صفة ﴿لما﴾، والرابط محذوف تقديره: بئس الشيء خلافة خلفتمونيها، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: خلافتكم، وجملة بئس في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾ ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي التقريعي، ﴿عجلتم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾: مفعول به ومضاف إليه، عداه إلى المفعول بلا واسطة حرف جر لتضمينه معنى سبق، والأصل: أعجلتم عن أمر ربكم ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾، ﴿وَأَخَذَ﴾. فعل ماض معطوف على ﴿ألقى﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ ﴿بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أخذ﴾ ﴿يَجُرُّهُۥٓ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، ﴿إِلَيْهِ ۚ﴾، متعلق به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿أخذ﴾.

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا

تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿هارون﴾، والجملة مستأنفة، ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ إلى آخر الآية. مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ٱبْنَ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة في آخره، ﴿ٱبْنَ﴾ مضاف، ﴿أُمَّ﴾: مضاف إليه مجرور وعلامة جره كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف، بعد قلب الكسرة فتحة، المحذوفة تلك الألف اجتزاء عنها بالفتحة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة؛ لأنَّ ما قبل ياء المتكلم لا يكون إلا مكسوراً، ﴿أُمَّ﴾: مضاف، وياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف في محل الجر مضاف إليه، مبني على السكون، هذا على قراءة فتح ميم ﴿أُمَّ﴾. وأما على قراءة كسر ميم ﴿أُمِّ﴾ فتقول في إعرابه ﴿ٱبْنَ﴾: مضاف، ﴿أُمِّ﴾: مضاف إليه مجرور بالمضاف، وعلامة جره كسرة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة لياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة ﴿أم﴾ مضاف، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾: ناصب واسمه، ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿وَكَادُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وهو من أفعال المقاربة، ﴿يَقْتُلُونَنِى﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب خبر ﴿كادوا﴾، جملة كاد في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ على كونها خبراً لـ﴿إن﴾ ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تقريعية ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تُشْمِتْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾، ﴿بِىَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تُشْمِتْ﴾، ﴿ٱلْأَعْدَآءَ﴾: مفعول به، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى﴾: جازم وفعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ﴾: ظرف ومضاف إليه في محل المفعول الثاني لجعل، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ وجملة ﴿لا تجعلني﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة مستأنفة ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿ٱغْفِرْ﴾: فعل دعاء مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿لي﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ٱغْفِرْ﴾، ﴿وَلِأَخِي﴾، معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿وَأَدْخِلْنَا﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿ٱغْفِرْ﴾ وفاعله ضمير يعود على الرب جل جلاله، ﴿فِي رَحْمَتِكَۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أدخلنا﴾، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿أدخلنا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَوَٰعَدْنَا﴾: من باب فاعل الرباعي، يتعدى إلى مفعولين؛ أي: واعدناه بأن نكلمه عند انتهاء ثلاثين ليلة يصومها ﴿مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ الميقات الوقت الذي يقرر فيه عمل من الأعمال، كمواقيت الحج، ومواقيت الصلاة ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾؛ أي: كن خليفتي في سياسة القوم، وإصلاح أمورهم، ديناً ودنيا، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ يقال: جلا الشيء والأمر، وانجلى وتجلى، إذا ظهر، وجلاه فتجلى: إذا انكشف ووضح بعد خفاء في نفسه، أو على مجتليه وطالبه، وجلوت العروس بمعنى: أبرزته، وجلوت السيف أخلصته من الصداء، والمعنى: لما ظهر ربه للجبل ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ والدك الدق، وهو تفتيت الشيء أو سحقه، وقيل: تسويته بالأرض، وهو مصدر بمعنى المفعول؛ أي: جعله مدكوكاً مدقوقاً، فصار تراباً، هذا على قراءة من قرأ ﴿دكاً﴾ بالمصدر، وهم أهل المدينة، وأهل البصرة. وأما على قراءة أهل الكوفة ﴿جعله دكاء﴾ على التأنيث والجمع دكاوات كحمراء وحمراوات، وهي اسم للرابية الناشزة من الأرض، أو للأرض المستوية، فالمعنى: أنَّ الجبل صار صغيراً كالرابية، أو أرضاً مستوية ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾

الخر والخرور السقوط من علو والانكباب على الأرض كما قال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿وصَعِقًاۚ﴾؛ أي: صاعقاً صائحاً مغشياً عليه، يقال: صعق الرجل، من باب فرح، فهو صعق ومصعوق، إذا أصابته الصاعقة، والمعنى: أنَّه صار حاله لما غشي عليه كحال من يغشى عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ يقال: أفاق إذا رجع إليه عقله وفهمه بعد ذهابهما بالغشيان، والإفاقة رجوع الفهم والعقل إلى الإنسان بعد جنون أو سكر أو نحوهما، ومنه إفاقة المريض وهي رجوع قوته، وإفاقة الحلب وهي رجوع الدر إلى الضرع، يقال: استفق ناقتك، أي أتركها حتى يعود لبنها، والفواق ما بين حلبتي الحالب، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى اهـ «سمين».

﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ والاصطفاء وكذا الاجتباء: اختيار صفوة الشيء؛ أي: خالصه الذي لا شائبة فيه ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ والمراد به المصدر؛ أي: بإرسالي إياك، أو على أنَّه على حذف مضاف؛ أي: بتبليغ رسالتي ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ يحتمل أن يراد به المصدر؛ أي: بتكليمي إياك، فيكون كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾. ويحتمل أن يراد به التوراة، وما أوحاه إليه من قولهم: القرآن كلام الله، تسمية للشيء باسم المصدر، وقدم الرسالة على الكلام لأنَّها أسبق، أو ليترقى إلى الأشرف، وكرر حرف الجر تنبيهاً على مغايرة الاصطفاء للكلام كما مر.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التكبر: التكثر، من الكبر وهو: غمط الحق بعدم الخضوع له، ويصحبه احتقار الناس، فصاحبه يرى أنَّه أكبر من أن يخضع لحق أو يساوي نفسه بشخص، والرُشد والرَشد والرَشاد مصادر، كالسُقم والسَقم والسَقام، واختلف في معنى الرُشد والرَشد، هل هما بمعنى واحد أم لا؟ فقال الجمهور: نعم هما لغتان في المصدر، كالبُخل والبَخل، والسّقم والسَّقم، والحُزن والحَزن. وقال أبو عمرو بن العلاء: الرشد - بضم فسكون - الصلاح في النظر، وبفتحتين في الدين قال: ولذلك أجمعوا على قوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ بالضم والسكون، وعلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ بفتحتين، وروي عن ابن عامر: ﴿الرشد﴾ - بضمتين - فكأنَّه من باب الإتباع اهـ «سمين». وبالجملة الرشد الصلاح والاستقامة، وضده الغي والفساد،

والآيات الأولى هي البينات والدلائل، والثانية هي الآيات المنزلة من حيث اشتمالها على الهداية، وتزكية النفوس.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ الحلي - بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء - جمع حلي، بفتح الحاء وسكون اللام وتخفيف الياء، كثُدِي وثُدْيٍ، وأصله حلوي، اجتمعت الواو والياء، وسبقت الواو بالسكون، فقلبت ياء، وادغمت في الياء وكسرت اللام لأجل الياء ﴿عِجْلًا﴾ والعجل ولد البقر من العراب، أو الجواميس، كالحوار لولد الناقة، والمهر لولد الفرس ﴿جَسَدًا﴾ الجسد: الجثة، وبدن الإنسان، والشيء الأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ والخوار: صوت البقر، كالرغاء لصوت الإبل، والخوَر الضعف، ومنه أرض خوارة وريح خوارة، والخوران مجرى الروث، وصوت البهائم أيضاً ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ وسقط[1] في يده، وأسقط في يده - بضم أولهما بالبناء للمفعول، أي: ندم ويقولون: فلان مسقوط في يده، وساقط في يده؛ أي: نادم. قال في «العباب» و«تاج العروس» هذا نظم لم يسمع قبل القرآن، ولا عرفته العرب، وذكرت اليد لأنَّ الندم يحدث في القلب، وأثره يظهر فيها بِعَضِّهَا، أو الضرب بها على أختها، كما قال سبحانه في النادم: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾؛ لأنَّ اليد هي الجارحة العظمى، وربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾.

وقال الزمخشري[2]: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ولما اشتد ندمهم؛ لأنَّ من شأن من اشتد ندمه وحزنه أن يعض يده غما، فتصير يده مسقوطاً فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها؛ وقيل: من عادة النادم أن يطأطىء رأسه، ويضع ذقنه على يده معتمداً عليها ويصير على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه، فكأن اليد مسقوط فيها، وفي بمعنى على، فمعنى ﴿فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ على أيديهم كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ وأعلم أن (سقط في يده) عده بعضهم في الأفعال التي لا تتصرف كنعم وبئس ﴿أَسِفًا﴾ الأسف[3] الحزن والغضب.

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات. (٣) المراغي.

ويقال: أسف يأسف ـ من باب تعب ـ حزن وتلهف، وأسف كغضب وزناً ومعنى، ويعدى بالهمزة فيقال: آسفته، ومن استعمال الأسف بمعنى الحزن، قوله تعالى حكاية عن يعقوب: ﴿وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وبمعنى الغضب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ يقال عجله إذا سبقه، وأعجله استعجله، ويقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام، وفي «الخازن» العجلة التقدم على الشيء قبل وقته، والمعنى: أعجلتم ميعاد ربكم، فلم تصبروا له؟ أي: أعجلتم وعد ربكم من الأربعين، وقال الإمام: العجلة التقدم بالشيء قبل وقته، ولذلك كانت مذمومة، والسرعة غير مذمومة؛ لأن معناها عمل الشيء في أول أوقاته اهـ.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك، يقال: شمت فلان بفلان إذا سر بمكروه نزل به، والمعنى: لا تُسر الأعداء بما تفعل بي من المكروه. اهـ «خازن»، وفي «المصباح» شمت به يشمت، من باب سلم إذا فرح بمصيبة نزلت به، والاسم الشماتة، وأشمت الله به العدو اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ وقوله: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ وفي قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، وفي قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَرِنِىٓ﴾، ﴿لن تراني﴾: ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ وفي قوله: ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ و﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ لأنه بمعنى ولا تفسد فيهم، وفي قوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾.

ومنها: إرادة الخصوص بما ظاهره العموم في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من قومه، وفي قوله: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من أهل عصره.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وفي قوله ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾.

ومنها: الطباق بين كلمتي ﴿ٱلرُّشْدِ﴾ و﴿ٱلْغَيِّ﴾.

ومنها: التكرار والتأكيد في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ مع قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾؛ لأنَّ الذي صاغه موسى السامري، فأسند ما للبعض إلى الكل لرضاهم به، من إطلاق ما للبعض على الكل.

ومنها: الإضافة لأدنى ملابسة في قوله: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾؛ لأنَّ الحلي للقبطيين، فاستعاروه لغرض العرس.

ومنها: الإبدال في قوله: ﴿جَسَدًا﴾؛ لدفع التوهم؛ لأنَّه أبدله من ﴿عِجْلًا﴾ لدفع توهم أنَّه صورة عجل منقوشة على حائط مثلاً.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، للمبالغة في الحض على سلوك نهج الصالحين، والأصل: سأريهم؛ أي: قومك.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لأنَّه كناية عن الندم، فإن العادة أن الإنسان إذا ندم بقلبه على شيء عض بفمه على أصبعه، فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم، فأطلق اسم اللازم، وأريد الملزوم على سبيل الكناية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في استعارة لفظ ﴿في﴾ لمعنى (على) في قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: على أيديهم، شبه الاستعلاء الكلي بالظرفية الكلية، بجامع التمكن في كل، واستعير لفظ الطرفية للاستعلاء؛ أي: يقدر ذلك، فسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات التي هي معاني الحروف، فاستعير لفظ (في) الموضوعة لكل جزئي من جزئيات الظرفية لمعنى (على)، وهو الاستعلاء الخاص؛ أي: المقيد بالسقوط في هذا المثال، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ و﴿سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾؛ لأنَّ السبيل حقيقة في مكان المرور، فاستعاره للإيمان والضلال اللذين

هما من أعمال القلب، بجامع الإيصال إلى المقصود أو الهلاك في كل.

ومنها: الاستفهام الإنكاري[1] في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾ حيث عبدوا جماداً أو حيواناً عاجزاً، عليه آثار الصنعة، لا يمكن أنْ يتكلم، أو لا يهدي، وقد ركز في العقول أن من كان بهذه المثابة.. استحال أنْ يكون إلٰها، وهذا نوع من أنواع البلاغة يسمى الاحتجاج النظري، وبعضهم يسميه المذهب الكلامي.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] عتاب موسى لأخيه هارون عليهما

(١) المراغي.

السلام، ثم استغفاره لنفسه وله.. قفى على ذلك بذكر ما استحقه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل، وهو مما أوحاه الله تعالى إلى موسى يومئذ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال القوم، وقسمهم إلى قسمين: مُصِرٌّ على الذنب وعبادة العجل، وتائب منيب إلى ربه، وبين مآل كل من القسمين.. ذكر هنا بيان حال موسى بعد أن سكنت ثورة غضبه وهدأ روعه.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر كتابته للرحمة لمن يتبع محمداً ﷺ من قوم موسى، ووصفهم بأنَّهم هم المفلحون.. ذكر هنا حال خواص أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الإتباع، وعطفهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين ﷺ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً؛ أي: عبدوا العجل واستمروا على عبادته، كالسامري وأشياعه ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: سيصيبهم غضب وسخط وعقوبة كائنة من ربهم في الحياة الدنيا، وهو ما أمروا به من قتل أنفسهم توبة ﴿وَذِلَّةٌ﴾؛ أي: ذل وهوان ومسكنة ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منتظرة لهم ولأولادهم جميعاً إلى يوم القيامة، والذلة[1] التي اختص بها السامري هو الإنفراد عن الناس، والابتلاء بلا مساس، ويروى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك؛ أي: لا مساس، وإذا مس أحدهم أحداً غيرهم.. حُمَّا جميعاً في الوقت.

والمعنى[2]: أن الذين بقوا على اتخاذ العجل واستمروا عليه كالسامري وأشياعه، سيصيبهم غضب من ربهم في الحياة الدنيا، بأن لا يقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، وذلة عظيمة في الحياة الدنيا، وبالخروج من الديار والغربة عن

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

الوطن، وقال الواحدي[1]: إن الذين اتخذوا العجل، يعني اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، وهم أبناء الذين اتخذوا العجل إلهاً، فأضيف إليهم تعييراً لهم فعل آبائهم.. سينالهم غضب من ربهم؛ أي: عذاب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، وهي الجزية.

قال في «الخازن»: ثم للمفسرين في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن المراد بالذين اتخذوا العجل، الذين باشروا عبادته، وعلى هذا القول ففي الآية سؤال وهو: أن أولئك الأقوام الذين اتخذوا العجل تابوا إلى الله تعالى بقتلهم أنفسهم، كما أمرهم الله تعالى، فتاب عليهم، فكيف ينالهم الغضب والذلة مع التوبة؟ والجواب: أن ذلك الغضب إنما حصل لهم في الدنيا، وهو نفس القتل، فكان ذلك القتل غضباً عليهم، والمراد بالذلة هو: إسلامهم أنفسهم للقتل، واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطأ.

فإنْ قلت: السين في قوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ للاستقبال، فكيف تكون للماضي؟

قلتُ: هذا الكلام إنَّما هو خبر عما أخبر الله به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه، واتخاذهم العجل، ثم أخبره الله في ذلك الوقت أنَّه ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ فكان هذا الكلام سابقاً لوقوعه، وهو القتل الذي أمرهم الله به بعد ذلك.

والقول الثاني: أنَّ المراد بالذين اتخذوا العجل اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ كما مر عن الواحدي آنفاً، انتهى مع زيادة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً في الحياة الدنيا ﴿نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾؛ أي: نجزي كل من افترى على الله كذباً وعبد غيره في كل زمان، إذ فضحوا بظهور افترائهم كما فضح هؤلاء، قال[2] الحسن البصري: إنَّ ذل البدعة على أكتافهم وإنْ هملجت[3] بهم البغال، وطقطقت بهم البراذين،

---

(١) الواحدي.

(٢) المراغي.

(٣) هَمْلَجَتْ الدَّابة: سارت سيراً حسناً في سرعة.

وروي عن أبي قلابة أنَّه قرأ هذه الآية وقال: هي والله لكل مفتري إلى يوم القيامة أن يذله الله. وقال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلة، ثم قرأ هذه الآية. قال: والمبتدع مفتر في دين الله، قال أبو حيان[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾؛ أي: مثل ذلك النيل من الغضب والذلة، نجزي من افترى الكذب على الله، وأي افتراء أعظم من قولهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، والمفترون عام في كل مفتر، انتهى.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفر والمعاصي غيره ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾؛ أي: رجعوا إلى الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾؛ أي: من بعد عمل السيئات، بأنْ رجع الكافر عن كفره، والعاصي عن عصيانه ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: داموا واستمروا على إيمانهم، وزكوه بالعمل الصالح، أو تكون الواو حالية؛ أي: وقد آمنوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾؛ أي: من بعد تلك التوبة المقرونة بالإيمان ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم؛ أي: لستار لذنوبهم وإنْ عظمت وكثرت ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم؛ أي: منعم عليهم، مبالغ في إفاضة فنون الرحمة الدنيوية والأخروية عليهم؛ أي: من أتى بجميع السيئات ثم تاب.. فإن الله سبحانه وتعالى يغفرها له، وهذا من أعظم ما يفيد البشارة للمذنبين.

وينتظم في هذا المسلك متخذوا العجل وغيرهم من المجترحين للسيئات، عظمت ذنوبهم أو حقرت؛ لأنَّ الذنوب وإنْ جلت وعظمت، فعفو الله وكرمه أعظم وأجل، على شريطة التوبة والإنابة، وبدونها الطمع فيه طمع في غير مطمع، ألا ترى أن طمع الفساق في المغفرة بدون الإنابة إلى ربهم قد ذهب بكثير من حرمة الأوامر والنواهي من قلوبهم، وجعلهم يستحلون كثيراً من المحرمات، وكانوا شراً ممن قال الله فيهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ولم يكن طمعهم ثمرة إيمان وعمل صالح، بل هي أماني جر إليها الحمق والغفلة عما يجب من تعظيم تلك الأوامر والنواهي:

إِنَّ ٱلأَمَانِيَ وَٱلأَحْلَامَ تَضْلِيْلُ

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾؛ أي: زال وسكن عنه الغضب، باعتذار

---

(١) البحر المحيط.

أخيه إليه وتوبة القوم، ولجأ إلى رحمة ربه وفضله، وجأر بالدعاء له أن يغفر له ولأخيه خطاياهما ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾؛ أي: عاد إلى الألواح التي ألقاها غضباً، فأخذها ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾؛ أي: وفي المكتوب فيها من اللوح المحفوظ، وقيل: وفيما كتب له فيها، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، وقيل: وفيما نسخ من الألواح المتكسرة، ونقل إلى الألواح الجديدة، قال ابن عباس وعمرو بن دينار: لما ألقى موسى الألواح فتكسرت.. صام أربعين يوماً، فردت عليه في لوحين، وفيهما ما في الأولى بعينها، فيكون نسخها نقلها، وقال عطاء: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ معناه: وفيما بقي منها، وذلك أنَّه لم يبق منها إلا سبعها، وذهب ستة أسباعها، ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء اهـ «قرطبي».

﴿هُدًى﴾؛ أي: بيان للحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ للخلق بإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح، فالهدى ما يهتدون به من الأحكام، والرحمة ما يحصل لهم من الله تعالى عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة، واللام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ﴾ متعلقة بمحذوف صفة لـ﴿رحمة﴾، وفي قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ متعلقة بـ﴿يَرْهَبُونَ﴾ زيدت لتقوية العامل لضعفه بالتأخر، والمعنى: وفي نسختها هدى من الضلالة، ورحمة كائنة للذين هم يرهبون ويخافون عقاب ربهم، ويرجون ثوابه بالعمل بما فيها.

وقرأ معاوية بن قرة[1]: ﴿ولما سكن عن موسى الغضب﴾ وقرىء: ﴿ولما أسكت﴾ رباعياً مبنياً للمفعول، وكذا في مصحف حفصة؛ أي: أسكت الله عن موسى الغضب، وفي مصحف عبد الله: ﴿ولما صبر عن موسى الغضب﴾. وفي مصحف أبي: ﴿ولما انشق عن موسى الغضب﴾.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ هذا شروع في بيان ما كان من موسى ومن القوم الذين اختارهم، و﴿سَبْعِينَ﴾ مفعول ﴿اختار﴾، و﴿قومه﴾: منصوب بنزع الخافض، أي: من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل إليه؛ أي: وانتخب موسى واصطفى سبعين رجلاً من خيار قومه ممن لم يعبدوا العجل، وجملتهم اثنا عشر ألفاً، وكان جملة بني إسرائيل الذين خرجوا معه من مصر ست

---

(١) البحر المحيط.

مئة ألف وعشرين ألفاً، فكلهم عبدوا العجل إلا هذه الشرذمة القليلة، ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾؛ أي: للميقات الذي وقته الله تعالى له، ودعاهم للذهاب معه إلى حيث يناجي ربه من جبل الطور.

روي[1]: أن موسى اختار من اثني عشر سبطاً ستة ستة، فصاروا اثنين وسبعين فقال: ليستخلف منكم رجلان، فتشاجروا فقال: إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين، وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم، فخرج بهم إلى طور سيناء. فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام، وخروا سجداً فسمعوه تعالى يكلم موسى، يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إلى موسى وقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة؛ أي: لن نصدقك في أن الآمِرَ بما سمعنا من الأمر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتى نراه، فأخذتهم رجفة الجبل فماتوا يوماً وليلة ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة الشديدة؛ أي: أهلكتهم وأماتتهم رجفة الجبل وزلزلته وتحركه ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ﴾ إهلاكهم ﴿أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل خروجهم إلى الميقات ﴿و﴾ أهلكتني ﴿إياي﴾ معهم، قاله تسليماً لقضاء الله تعالى؛ أي: إنا كنا مستحقين للإهلاك ولم يكن من موانعه إلا عدم مشيئتك إياه.

والمعنى: أي فلما أخذتهم رجفة الجبل، وصعقوا قال موسى: رب إنني أتمنى أن لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معي إلى هذا المكان، فأهلكتهم وأهلكتني معهم، حتى لا أقع في شديد الحرج مع قومي فيقولوا: قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم، وإنْ لم تفعل فإني أسألك برحمتك أنْ لا تفعل الآن، والاستفهام في قوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ للاستعطاف، وفيه معنى النفي، ظن موسى أنما أهلكهم الله تعالى بعبادة قومهم العجل، أو بسوء أدبهم بسؤالهم رؤية الله جهرة؛ أي: لا تهلكنا يا إلهي بما فعل واقترف السفهاء والجهال منا من عبادة العجل، أو من سؤال رؤيتك جهرة، وفي هذا إيماء إلى أن عقلاء بني إسرائيل، وأصحاب الروية منهم لم يعبدوه، إنما عبده السفهاء وهم

(١) المراح.

الأكثرون ﴿إِنْ هِيَ﴾؛ أي[1]: ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾؛ أي: إلا محنتك بأن أوجدت في العجل خواراً فزاغوا به، وأسمعتهم كلامك، فافتتنوا بذلك حتى طمعوا فيما فوق ذلك. ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾؛ أي: بتلك الفتنة ﴿من تشاء﴾ إضلاله، فلا يهتدي إلى التثبت ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ هدايته إلى الحق، فلا يتزلزل في أمثالها فيقوى بها إيمانه.

وعبارة «المراغي»: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ...﴾ الخ؛ أي: ما تلك الفعلة التي كانت سبباً في أخذهم بالرجفة إلا محنة منك وابتلاء، جعلته سبباً لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية، وما يستحقون عليه العقوبة أو المثوبة، بحسب سننك في خلقك بالعدل والحق، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك، ولست بالظالم لهم في تقديرك، وتهدى من تشاء ولست بالمحابي لهم في توفيقك، فأمرهم دائر بين العدل والفضل. انتهت.

﴿أَنتَ﴾ يا إلهي ﴿وَلِيُّنَا﴾؛ أي: متولي أمورنا الدنيوية والأخروية، والقائم علينا بما تكسب نفوسنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما اقترفته أنفسنا مما يترتب عليه المؤاخذة والعقاب من مخالفة سنتك، والتقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك ﴿وَارْحَمْنَا﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء، بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية علينا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ حلماً وكرماً وجوداً؛ لأنَّك تغفر ذنوب عبادك لا لغرض ولا لطلب عوض، بل لمحض الفضل والكرم والجود، أما غيرك فإنَّما يتجاوز عن الذنب إما طلباً للثواب الجزيل، أو للثناء الجميل، أو دفعاً للربقة الخسيسة عن القلب، وأنت خير الراحمين رحمة، وأوسعهم فيها فضلاً وإحساناً، فرحمة من سواك نفحة مفاضة على قلوبهم من رحمتك ﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾؛ أي: وأثبت لنا ﴿فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: في هذه الحياة القريبة الزوال والخسيسة ﴿حَسَنَةً﴾؛ أي: حياة طيبة من نعمة وعافية، وبسطة في الرزق، وتوفيق للطاعة ﴿وَفِي﴾ الدار ﴿الْآخِرَةِ﴾ حسنةً؛ أي: واكتب[2] لنا في الدار الآخرة مثوبة حسنة بدخول جنتك، ونيل رضوانك، فهو بمعنى قوله: فيما علمنا من دعائه ﴿رَبَّنَا

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: تبنا إليك مما فرط من سفهائنا، من طلب الآلهة، وعبادة العجل، ومن تقصير عقلائنا في الإنكار عليهم، مستغفرين مسترحمين كما فعل من قبل آدام عليه السلام، إذ تاب من معصيته إليك، فتبت عليه واجتبيته، فكانت تلك سنتك في ولده. وقرأ[١] زيد بن علي، وأبو وجزة: ﴿هدنا﴾ - بكسر الهاء - من هاد يهيد إذا حرك؛ أي: حركنا أنفسنا وجذبناها لطاعتك، فيكون الضمير فاعلاً، ويحتمل أن يكون مفعولاً لم يسم فاعله؛ أي: حركنا إليك وأملنا، والضم في ﴿هُدْنَآ﴾ يحتملهما، وتضمنت هذه الجمل كونه تعالى هو ربهم ووليهم، وأنَّهم تائبون عبيد له خاضعون، فناسب عز الربوبية أنْ يستعطف للعبيد التائبين الخاضعين بسؤال المغفرة والرحمة والكتب ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ﴾؛ أي: اخص به ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾ من الكفار والعصاة، وليس لأحد علي اعتراض؛ لأنَّ الكل ملكي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾ وعمت ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من البر والفاجر، والمكلفين وغيرهم، قال[٢] جماعة من المفسرين: لما نزلت ورحمتي وسعت كل شيء.. تطاول إبليس إليها وقال: أنا من ذلك الشيء، فنزعها الله تعالى من إبليس، فقال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فآيس إبليس منها، وقالت اليهود: نحن نتقي ونؤتي الزكاة، ونؤمن بآيات ربنا، فنزعها الله من اليهود وأثبتها لهذه الأمة فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ الآية.

والظاهر[٣]: أنَّ هذه الجملة مستأنفة، مسوقة للإخبار عن عذابه ورحمته سبحانه وتعالى، والمعنى؛ أي: قد كان[٤] من سبق رحمتي غضبي أنْ جعلت عذابي خاصا، أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين، فهي من صفاتي التي قام بها أمر العالم منذ خلقته، والعذاب من أفعالي المترتبة على صفة العدل، ولولا الرحمة العامة المبذولة لكل

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.
(٣) البحر المحيط بتصرف.
(٤) المراغي.

أحد لهلك كل كافر وعاص عقب كفره وفجوره ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

وقرأ زيد بن علي والحسن وطاووس وعمرو بن فائد[1]: ﴿من أساء﴾ - بالسين المهملة - فعل ماض من الإساءة، وقال أبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاووس، وعمرو بن فائد رجل سوء، وقرأ بها سفيان بن عينية مرة واستحسنها، فقام إليه عبد الرحمن المقري، وصاح به وأسمعه، فقال سفيان: لم أدر ولم أفطن لما يقول أهل البدع.

ثم ذكر من ستكتب لهم الرحمة فقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾؛ أي: فسأكتب رحمتي، وأثبتها وأقدرها وأقضيها بمشيئتي في الآخرة خاصة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: المفروضة؛ أي: يعطون زكاة أموالهم وصدقاتها التي تتزكى بها أنفسهم، وخص الزكاة بالذكر دون ما عداها من الطاعات لأن النفوس شحيحة، ففتنته تقتضي أنْ يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين غيرها من الطاعات، كما إنَّ في ذلك إيماء إلى أنَّ اليهود أشربوا في قلوبهم حب المال، وفتنوا بجمعه ومنع بذله في سبيل الله ﴿و﴾ سأكتبها لـ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: بدلائل وحدانيتنا وقدرتنا، وصدق رسلنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون تصديق إيقان مبني على العلم الصحيح، دون تقليد للآباء والأجداد.

ثم بين الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة، ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ نعت ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أو بدل منه، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم الذين يتمسكون دين الرسول الكريم ويتبعون ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ محمداً ﷺ؛ أي: الذي لم يمارس القراءة والكتابة، ومع ذلك جمع علوم الأولين والآخرين، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل، والأمي إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب - وهم العرب - أو نسبة إلى الأم، والمعنىٰ: إنه باقٍ على حالته التي ولد عليها، لا يكتب ولا يقرأ

---

(١) البحر المحيط.

المكتوب، وقيل نسبة إلى أم القرى ـ وهي مكة ـ وقرأ يعقوب ﴿الأمي﴾ بفتح الهمزة، وخرجها بعضهم على أنَّه من تغيير النسب كما قالوا في النسب إلى أمية: أموي بفتح الهمزة، وخرجها بعضهم على أنَّه نسبة إلى الأم، بمعنى القصد الذي هو مصدر أم يؤم أما، بمعنى قصد، ومعناه: المقصود لكل أحد، وهذا الوصف من خصوصياته ﷺ، إذ كثير من الأنبياء كان يكتب ويقرأ، فالأمية آية من آيات نبوته ﷺ، فهو مع أميته قد جاء بأعلى العلوم النافعة، التي بها يصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم، فغير نظم البشر في تلك الحقبة الطويلة، وأثر في حياة الأمم التي حوله أكبر الأثر، بما شهد له المنصفون في كل الأديان، وقد وصف الله تعالى ذلك الرسول الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من بني إسرائيل بصفات:

منها: أنَّه نبي أمي.

ومنها: أنَّه هو ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾؛ أي: يجد الذين يتبعونه من بني إسرائيل اسمه ونعته ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ اللذين هما مرجعهم في الدين، بحيث لا يشكون أنَّه هو، وبالجملة فأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يتناقلون خبر بعثة محمد ﷺ فيما بينهم، ويذكرون البشارات من كتبهم، حتى إذا ما بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون، وكان علماؤهم يصرحون بذلك، كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء اليهود، وتميم الداري من علماء النصارى، وغيرهم من الذين أسلموا في عصر النبي ﷺ.

ومنها: أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره، من التوحيد ومكارم الأخلاق، وبر الوالدين وصلة الأرحام ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: عن كل ما تنكره القلوب ولا تعرفه، وهو ما كان من مساوىء الأخلاق، كعبادة الأوثان، والكفر بما أنزل الله على النبيين، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين.

ومنها: أنَّه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: كل ما تستطيبه الأذواق السليمة من الأطعمة، وفيه فائدة في التغذية مما حرم عليهم في التوراة، كلحوم الإبل،

وشحوم البقرة والغنم.

ومنها: أنَّه ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾؛ أي: كل ما تستخبثه الطبائع السليمة، وتستقذره النفوس، كالميتة والدم المسفوح، والخنازير، وما يؤخذ من الأموال بغير حق، كالربا والرشوة والغضب والخيانة.

ومنها: أنَّه ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾؛ أي: يسقط عنهم ثقل العهد الذي أخذ عليهم، والمراد[1] بالإصر هنا: العهد والميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل على أن يعملوا بما في التوراة من الأحكام، فكانت تلك الشدائد، قاله ابن عباس. وقيل[2]: التشديد الذي كان عليهم من تحريم السبت، وأكل الشحوم، وغير ذلك من الأمور الشاقة، قاله قتادة. وقال مسروق: لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب فيصبح وقد كتب على باب بيته أن كفارته أن تنزع عينيك فينزعهما. وقرأ ابن عامر ﴿أصارهم﴾ بالجمع. وقرىء: ﴿أصرهم﴾ بفتح الهمزة وبضمها. وقرأ طلحة: ﴿ويذهب عنهم إصرهم﴾ ﴿و﴾ يخفف عنهم ﴿الأغلال﴾؛ أي: التكاليف الشاقة ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ في عبادتهم ومعاملاتهم، كقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وكاشتراط قتل النفس في صحة التوبة، وتعيين القصاص في القتل العمد والخطأ، وقطع الأعضاء الخاطئة، وعدم صحة صلاتهم إلا في الكنائس، وغير ذلك من التكاليف التي كانت على بني اسرائيل، شبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق، كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل، فكذلك لا تمتد إلى الحرام الذي نهيت عنه.

والخلاصة[3]: أنَّ بني إسرائيل كانوا قد أخذوا بالشدة في أحكام العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات، فكانت مثلهم مثل من يحمل أثقالاً يئط منها، وهو موثق بالسلاسل والأغلال في عنقه ويديه ورجليه، وقد خفف المسيح عليه السلام عنهم بعض التخفيف في الأمور المادية، وشدد في الأحكام

---

(١) الخازن.
(٢) زاد.
(٣) المراغي.

الروحية، إلى أن جاءت الشريعة الوسطى السمحة التي بعث بها خاتم الرسل محمد صلوات الله عليه.

ثم بين سبحانه وتعالى كيفية اتباعه ﷺ، وعلو مرتبة متبعيه، واغتنامهم مغانم الرحمة في الدارين، إثر بيان نعوته الجليلة فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: بالرسول النبي الأمي حين بعث من قوم موسى، ومن كل أمة ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾؛ أي: منعوه وحموه من كل من يعاديه، مع التعظيم والإجلال؛ لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشمئزاز ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه باللسان والسنان ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ﴾ الأعظم ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾؛ أي: مع رسالته، وهو القرآن. سماه نوراً لأنَّه يظهر نور الإيمان لصاحبه، ويزيل عنه ظلمة الجهل والضلال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات السابقة، من الإيمان به والتعزير والنصر له، واتباع النور الذي أنزل معه ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بالرحمة والرضوان؛ أي: الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة، والناجون من السخط والعذاب، دون غيرهم من حزب الشيطان الذين خذلهم الله تعالى في الدنيا والآخرة.

وقرأ الجحدري وقتادة وسليمان التيمي وعيسى[1]: ﴿وعزروه﴾ بالتخفيف. وقرأ جعفر بن محمد: ﴿وعززوه﴾ بزايين، ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل.. أمره سبحانه أن يقول هذا القول الآتي، المقتضي لعموم رسالته ﷺ إلى الناس جميعاً فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لجميع البشر من عرب أو عجم ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: مرسل إليكم كافة لا إلى قومي خاصة، فهو بمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾؛ أي: وأنذر به كل من بلغه من الثقلين، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾..

وجاءت أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه ﷺ، بالرسالة العامة:

---

(١) البحر المحيط.

فمنها: ما روى الشيخان عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة وطهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة». وفي رواية: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد من قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي بعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». وقوله في الرواية الأولى: «وبعثت إلى كل أحمر وأسود». قيل: أراد بالأحمر العجم، وبالأسود العرب، وقيل: أراد بالأحمر الإنس، وبالأسود الجن.

ومنها: ما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بستة: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون».

ثم وصف الله تعالى نفسه بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية وبالإحياء وبالإماتة فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: إن الإله الذي أنا رسوله هو من له التصرف والملك في السموات والأرض وتدبير العالم كله، إذ وحدة النظام في جملة المخلوقات، وعدم التفاوت فيها دليل على وحدة مصدرها وتدبيرها، فهو المعبود وحده لا إله إلا هو، وتوحيد الربوبية بالإيمان، وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل؛ أي: بعبادة الله وحده، هما أصل الدين، والركن الأول في العقيدة، والركن الثاني: الإيمان برسالة محمد ﷺ، والركن الثالث: عقيدة البعث بعد الموت، وهي تتضمن الإحياء والإماتة وتصرف الرب في خلقه.

وقد بنى على تقرر هذه الأمور الثلاثة الدعوة إلى الإيمان فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾

أيها الناس جميعاً ﴿بِٱللَّهِ﴾ الواحد في ربوبيته وألوهيته، الذي يحيي كل ما تحله الحياة، ويميت كل ما يعرض له الموت بعد الحياة، وهذا أمر مشاهد كل يوم ﴿و﴾ آمنوا بـ﴿رسوله﴾ النبي الأمي الذي بعثه في الأميين رسولاً إلى الخلق أجمعين يعلمهم الكتاب، والحكمة، ويطهرهم من خرافات الشرك والجهل، والتفرق والتعادي، ليكونوا بهدايته أمة واحدة، يتحقق بها الإخاء البشري العام، وقد بشر بهذا النبي والأنبياء صلوات الله عليهم؛ لأنَّه المتمم لما بعثوا به من هداية الناس، قال الزمخشري: فإنْ قلت: هلا قيل: فآمنوا بالله وبي، بعد قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾؟

قلتُ: عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقه الالتفات من البلاغة، وليعلم أنَّ الذي يجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنَّه النبي الأمي، الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة ﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: يؤمن بتوحيد الله وبكلماته التشريعية، التي أنزلها لهداية خلقه على ألسنة رسله، وهي مظهر علمه ورحمته، والمراد بها القرآن وسائر الكتب السماوية، وبكلماته التكوينية التي هي مظهر إرادته وقدرته وحكمته، وقرأ الأعمش: ﴿الذي يؤمن بالله وآياته﴾ بدل ﴿كلماته﴾. وبعد أن أمرهم سبحانه بالإيمان أمرهم بالإسلام فقال: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ أي: واتبعوا ذلك النبي الأمي، واسلكوا طريقه، واقتفوا أثره في كل ما يأتي ويذر من أمر الدين ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾؛ أي: رجاء اهتدائكم بالإيمان وباتباعه إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة، وتلك هي الثمرة التي تجنى منهما، فما آمن قوم بنبي.. إلا كانوا بعد الإيمان به خيرا مما كانوا قبله من العزة والكرامة في دنياهم، وسعادتهم في آخرتهم، بنيل رضوان ربهم، والحظوة بالقرب منه.

وليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهي ما لا تعلق له بحق الله ولا حق خلقه، من جلب مصلحة أو دفع مفسدة، كمسائل العادات والزراعات والصناعات والعلوم، والفنون المبنية على التجارب، وما جاء فيها من أمر ونهي فهو إرشاد لا تشريع، وقد ظن بعض الصحابة أنَّ إنكار النبي ﷺ لبعض

الأمور الدنيوية المبنية على التجارب من قبيل التشريع، كامتناعهم عن تلقيح النخل حين نهاهم عنه فأشاص ـ أي خرج ثمره شيصاً رديئاً ـ فراجعوه فأخبرهم أنَّ مقاله كان عن ظن ورأي، لا عن تشريع ووحي، وقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». والحكمة في ذلك تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية متروكة لمعارف الناس وتجاربهم.

قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ كلام مستأنف، مسوق لدفع ما عسى أن يتوهم من تخصيص كتابة الرحمة بمن يتبع محمداً ﷺ، وذلك المتوهم هو حرمان قوم موسى من كل خير، وبيانه أنَّهم ليسوا كلهم يحرمون منها، بل من قوم موسى ﴿أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعة عظيمة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ويرشدونهم، ويدعونهم إلى الخير والهدى حالة كونهم متلبسين ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والعدل الذي جاء به موسى عليه السلام من عند الله تعالى ﴿وبه﴾؛ أي: وبالحق الذي جاء به موسى لا بغيره ﴿يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يحكمون بين الناس حكماً عدلاً موافقاً للصواب إذا حكموا بين الناس، فلا يتبعون هوى، ولا يأكلون سحتاً ولا رشا، واختلف[1] في هؤلاء القوم، فقيل: هم الذين أسلموا من بني إسرائيل، كعبد الله بن سلام وأصحابه، وقيل: هم قوم بقوا على الدين الحق الذي جاء به موسى عليه السلام قبل التحريف والتبديل، ودعوا الناس إليه، فإن[2] قيل: إن هؤلاء القوم كانوا قليلين في العدد ولفظ الأمة ينبىء عن الكثرة؟ **فالجواب**: أنَّهم لما أخلصوا في الدين جاز إطلاق الأمة عليهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾. اهـ كرخي.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾؛ أي: وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ومنهم الظالمون والفاسقون فجعلناهم ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾؛ أي: جعلناهم اثنتي عشرة فرقة تسمى أسباطاً؛ أي: قبائل، وصيرناهم ﴿أُمَمًا﴾؛ أي: جماعات، يمتاز كل منهم بنظام خاص في معيشته، وبعض شؤونه؛ لأنَّ كل سبط كان أمة عظيمة، وسبب[3] تفرقهم اثنتى عشرة أسباطاً أنَّ أولاد يعقوب كانوا

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

(٣) الفتوحات.

كذلك، فكل سبط ينتمي لواحد منهم، والأسباط جمع سبط وهو ولد الولد، فهو كالحفيد. هكذا في كتب اللغة، وتخصيص السبط بولد البنت، والحفيد بولد الابن أمر عرفي.

وقرأ أبان بن تغلب عن عاصم[1]: ﴿وقطَعناهم﴾: بتخفيف الطاء، وابن وثاب والأعمش وطلحة بن سليمان: ﴿عشِرة﴾ بكسر الشين، وعنهم الفتح أيضاً، وأبو حيوة وطلحة بن مصرف بالكسر، وهي لغة تميم، والجمهور بالإسكان، وهي لغة الحجاز.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ بنو إسرائيل؛ أي: حين طلبوا منه السقيا ـ وقد أخذهم العطش في التيه ـ فاستسقى ربه لهم؛ أي: أوحينا إليه بـ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ وهو الذي فرّ بثوبه، خفيف مربع كرأس الرجل، رخام أو كذان، كما في «الجلالين» في سورة البقرة فضربه ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾؛ أي: فانفجرت ونبعت وسالت منه عقب ضربه إياه اثنتا عشرة عيناً من الماء، بقدر عدد أسباطهم، وخص كل واحدة من الأسباط بعين منها للزحام وحفظاً للنظام ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾؛ أي: كل سبط منهم ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ أي: عينهم الخاصة بهم بالعلم الضروري الذي خلقه الله في كلٍّ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ﴾؛ أي: سخرنا لهم السحاب في التيه، تقيهم بظلها من حَرِّ الشمس، تسير بسيرهم وتسكن بإقامتهم، وكان ينزل لهم في الليل عمود من نور، يسيرون بضوئه، ولولا السحاب في التيه.. لأحرقتهم حرارة الشمس، إذ لم يكن هناك من الشجر ما يستظلون به ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ﴾ وهو شيء حلو كان ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس، ويأخذ كل إنسان صاعاً ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾؛ أي: الطير السماني ـ بتخفيف الميم ـ وبالقصر بوزن حبارى، وتسوقه ريح الجنوب عليهم، فيذبح كل واحد ما يكفيهم، وهو[2] يموت إذا سمع صوت الرعد، فيلهمه الله تعالى أن يسكن جزائر البحر، التي لا يكون فيها مطر ولا رعد إلى انقضاء أوانهما، فيخرج من الجزائر وينتشر في الأرض، وخاصيته

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

أن أكل لحمه يلين القلوب القاسية.

والمعنى[1]: فسهلنا عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه، وكان المن يقوم مقام الخبز عندهم، ويكفي الألوف من الناس، وتقوم السماني مقام اللحوم والطيور الأخرى، وقلنا لهم ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ أي: من مستلذات ما رزقناكم، وهو المن والسلوى، وفي ذلك تنبيه وتذكير لهم بما يجب عليهم من شكر هذه النعم، وقرأ عيسى الهمداني[2]: ﴿من طيبات ما رزقتكم﴾ موحداً للضمير.

والمعنى: أقصروا أنفسكم على ذلك المطعوم، ولا تطلبوا غيره، واشكروا رزق ربكم، وسئموا منه وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، وطلبوا غيره، فظلموا أنفسهم بكفران هذه النعم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفرهم بهذه النعم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمخالفة ما أمروا به؛ أي: بل ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والكفران، وكان ذلك من دأبهم وعادتهم آنا بعد آن.

ولا شك أن من ظلم نفسه.. كان لغيره أظلم، وإن كان ظلمه لنفسه مما يجهل أنَّه ظلم لها، إذ يتجلى له في صورة المنفعة، وتكون عاقبته مضرة، وهكذا الحال في جميع الظالمين والمجرمين، فهم يظنون أنَّهم بظلمهم وإجرامهم ينفعون أنفسهم، جهلاً منهم للعواقب، وقلة تدبر ما ينبغي أن يتفطن له.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلٰهاً، والجملة الفعلية صلة الموصولة، ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: جار

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

ومجرور صفة لـ﴿غَضَبٌ﴾. ﴿وَذِلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿غَضَبٌ﴾، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلق بـ﴿ينال﴾. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، وجملة ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة إنَّ مستأنفة، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الواو: استئنافية، ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ونجزي المفترين جزاء مثل جزائنا لهؤلاء المتخذين العجل، ﴿نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿تَابُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَمِلُوا۟﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَابُوا۟﴾، ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَابُوا۟﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، تنازع فيه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿لَغَفُورٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿سَكَتَ﴾: فعل ماض، ﴿عَن مُّوسَى﴾: متعلق به، ﴿ٱلْغَضَبُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُّوسَى﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾: لا محل له من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة، ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿هُدًى﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ معطوف على ﴿هُدًى﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلْأَلْوَاحَ﴾، ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، تنازع فيه كل من ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿لِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَرْهَبُونَ﴾، وجملة ﴿يَرْهَبُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ۖ﴾.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿قَوْمَهُۥ﴾: منصوب بنزع الخافض؛ أي: من قومه وهو في محل المفعول الثاني ﴿سَبْعِينَ﴾: مفعول أول لـ﴿اختار﴾، ﴿رَجُلًا﴾: تمييز له منصوب به، ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿اختار﴾، ﴿فَلَمَّآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فخرج بهم فأخذتهم الرجفة، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة جواب ﴿لما﴾ وجملة لما معطوفة على ذلك المحذوف الذي قدرناه آنفاً، ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿شِئْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿أَهْلَكْتَهُم﴾: فعل وفاعل، ومفعول، ﴿مِّن قَبْلُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَهْلَكْتَهُم﴾، ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ معطوف على ضمير ﴿أَهْلَكْتَهُم﴾، وجملة ﴿أَهْلَكْتَهُم﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، مع كونها جواب النداء.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

﴿أَتُهْلِكُنَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الاستعطافي الإنكاري، ﴿تهلكنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تهلكنا﴾، ﴿فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما فعله السفهاء. ﴿مِنَّآ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾، ﴿إِنْ﴾: نافية بطل عملها لانتقاض نفيها بإلا، ﴿هِىَ﴾: مبتدأ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿فِتْنَتُكَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿تُضِلُّ﴾: فعل

مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تُضِلُّ﴾، ﴿مَن﴾: موصولة في محل النصب مفعول ﴿تُضِلُّ﴾، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من تشاء إضلاله، وجملة ﴿تُضِلُّ﴾ في محل النصب حال من الكاف في ﴿فِتۡنَتُكَ﴾، ﴿وَتَهۡدِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿تهدي﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تُضِلُّ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تهدي﴾، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾: صلتها، والعائد محذوف تقديره: من تشاء هدايته، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿اغفر﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿اغفر﴾، ﴿وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾، ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ أو معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾.

﴿وَٱكۡتُبۡ﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾، ﴿لَنَا﴾: متعلق به، وكذا قوله: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ متعلق بـ﴿اكتب﴾، ﴿حَسَنَةً﴾: مفعول ﴿اكتب﴾، ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿هُدۡنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيۡكَۚ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّا﴾، وجملة ﴿إِنَّا﴾ في محل النصب مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿عَذَابِيٓ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿أُصِيبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿بِهِۦ﴾:

متعلق بـ﴿أُصِيبُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أُصِيبُ﴾، ﴿أَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من أشاؤه.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَرَحْمَتِي﴾: مبتدأ، ﴿وَسِعَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الرحمة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿عَذَابِيٓ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿وَسِعَتْ﴾، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية ﴿سأكتبها﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿وَسِعَتْ﴾ على كونها خبر المبتدأ، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿سأكتبها﴾، ﴿يَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَتَّقُونَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول، ﴿هُم﴾: مبتدأ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ في محل الجر نعت لـ ﴿الَّذِينَ﴾ الأول، أو بدل منه، ويجوز قطعه إلى النصب أو الرفع، ﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿النَّبِيَّ﴾ بدل من ﴿الرَّسُولَ﴾ أو عطف بيان له ﴿الْأُمِّيَّ﴾ صفة أولى لـ﴿النَّبِيَّ﴾. ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول في محل النصب صفة ثانية لـ﴿النَّبِيَّ﴾، ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مَكْتُوبًا﴾: مفعول ثان، ﴿عِندَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿مَكْتُوبًا﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿فِي التَّوْرَىٰةِ﴾: متعلق بـ﴿مَكْتُوبًا﴾ أيضاً، ﴿وَالْإِنجِيلِ﴾: معطوف على ﴿التَّوْرَىٰةِ﴾.

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿يَأْمُرُهُم﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَأْمُرُهُم﴾. ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: عطف على ما تقدم، وكذلك الجمل التي بعدها إلى قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾ معطوفات على جملة قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ﴿ٱلَّتِى﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿ٱلأَغْلَٰلَ﴾، ﴿كَانَتْ﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلأَغْلَٰلَ﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: خبر كان، وجملة كان صلة الموصول.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت صفاته المذكورة، وأردت بيان كيفية اتباعه.. فأقول لك، ﴿الذين آمنوا به﴾: ﴿الذين﴾: مبتدأ أول ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، وقوله: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ﴾ جمل معطوفات على جملة الصلة. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: في محل النصب صفة لـ﴿ٱلنُّورَ﴾، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿مَعَهُۥٓ ۙ﴾: ظرف متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ الذي مر في قوله: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿إِنِّي﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب و﴿الياء﴾ اسمها، ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبرها وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿إِلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حالة كوني مرسلاً إليكم، أو متعلق بـ﴿رسول﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المخاطبين في ﴿إِلَيْكُمْ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر صفة للجلالة، أو بدل منه، ويجوز القطع إلى الرفع أو النصب، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل إن، ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً تقديره: موجود، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ من اسمها وخبرها بدل أول من جملة الصلة لا محل لها من الأعراب، ﴿يُحْيِۦ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية بدل ثان من جملة الصلة، أو حال من الجلالة، وجملة ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوفة على جملة ﴿يُحْيِۦ﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنِّي رسول الله إليكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿أمنوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿وَرَسُولِهِ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾، ﴿ٱلنَّبِىِّ﴾: بدل من ﴿الرسول﴾ أو عطف بيان منه، ﴿ٱلْأُمِّىِّ﴾: صفة أولى لـ﴿ٱلنَّبِىِّ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾:

في محل الجر صفة ثانية له ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾، ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾: معطوف على الجلالة، ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على قوله ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة لعل مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم، ﴿أُمَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لدفع ما عسى أن يتوهم من تخصيص كتابة الرحمة بمن يتبع محمداً، وذلك المتوهم هو حرمان قوم موسى من كل خير، وبيانه: أنَّهم ليسوا كلهم يحرمون منها، بل منهم أمة الخ ذكره في «الفتوحات»، وجملة ﴿يَهْدُونَ﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿أُمَّةٌ﴾، ﴿بِالْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من الواو في ﴿يَهْدُونَ﴾ تقديره: حالة كونهم متلبسين بالحق، ﴿وَبِهِ﴾: متعلق بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾ وجملة ﴿يَعْدِلُونَ﴾: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَهْدُونَ﴾ على كونها صفة لـ﴿أُمَّةٌ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾: عدد مركب معرب الصدر مبني العجز، ﴿اثْنَتَيْ﴾: حال من مفعول ﴿قَطَّعْنَاهُمُ﴾، ﴿عَشْرَةَ﴾ جزء حال لا محل له من الإعراب، مبني على الفتح، والتقدير: وفرقناهم حالة كونهم معدودين بهذا العدد، ويجوز أن يكون ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ مفعولاً ثانياً لـ﴿قَطَّعْنَاهُمُ﴾، إذا كان بمعنى صيرناهم، وجملة ﴿قَطَّعْنَاهُمُ﴾ مستأنفة، وتمييز ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ محذوف لفهم المعنى تقديره اثنتي عشرة فرقة ﴿أَسْبَاطًا﴾: بدل من التمييز المحذوف، ولا يجوز كون أسباطا تمييزاً؛ لأنَّه جمع ﴿أُمَمًا﴾: بدل من ﴿أَسْبَاطًا﴾، ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾، ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أوحينا﴾ ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، ﴿اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾: فعل

ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة إذ إليها تقديره: وقت استسقاء قومه إياه، والظرف متعلق بـ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾.

﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ﴾.

﴿أَنِ﴾: مفسرة بمعنى أي التفسيرية، أو مصدرية، ﴿ٱضْرِب﴾: فعل أمر مبني على السكون أو في محل النصب بـ﴿أَنِ﴾ المصدرية مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، ﴿بِّعَصَاكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱضْرِب﴾. ﴿ٱلْحَجَرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة لـ﴿أَوْحَيْنَا﴾ لا محل لها من الإعراب، أو في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، متعلق بـ﴿أَوْحَيْنَا﴾ تقديره: وأوحينا إلى موسى بالضرب بعصاه الحجر، ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فضربه فانبجست، ﴿انبجست﴾: فعل ماض، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به، ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ﴾: عدد مركب معرب الصدر مبني العجز، ﴿ٱثْنَتَا﴾: فاعل مرفوع بالفعل، وعلامة رفعه الألف، ﴿عَشْرَةَ﴾: جزء فاعل مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً لتضمنه معنى حرف العطف، وإنَّما حرك ليعلم أنَّ له أصلا في الإعراب، وكانت الحركة فتحة للخفة مع ثقل التركيب، ﴿عَيْنًا﴾: منصوب على التمييز، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: مفعول به؛ لأنَّ علم بمعنى عرف والجملة مستأنفة ﴿وَظَلَّلْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به ﴿ٱلْغَمَٰمَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَوْحَيْنَا﴾. ﴿وَأَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿أَوْحَيْنَا﴾، ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْمَنَّ﴾: مفعول به ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: معطوف عليه.

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿كُلُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كُلُوا۟﴾. ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو

صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما رزقناكموه، وجملة ﴿كُلُواْ﴾ مقول لقول محذوف معطوف على ﴿أنزلنا﴾ تقديره: وأنزلنا عليهم المن والسلوى وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: فظلموا وكفروا بتلك النعم، ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾: في محل النصب خبر كان، وجملة كان من اسمها وخبرها جملة استدراكية معطوفة على الجملة التي قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ السكوت[1] في اللغة: ترك الكلام، نسب إلى الغضب على تصويره بصورة شخص ذي قوة ورياسة، يأمر وينهى، فيطاع. قال في «الكشاف»: هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء. اهـ.

﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾؛ أي: فيما نسخ وكتب منها، من النسخ كالخطبة من الخطاب، فهي فعلة بمعنى مفعول؛ أي: منسوخها؛ أي: مكتوبها، فالنسخ يطلق على الكتابة كما يطلق على النقل والتغيير والإضافة على معنى في؛ أي: المنسوخ والمكتوب فيها. وفي «الخازن» ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ النسخ عبارة عن النقل والتحويل، فإذا نسخت كتاباً من كتاب حرفاً بحرف.. فقد نسخت هذا الكتاب، فهو نقلك ما في الأصل إلى الفرع، فعلى هذا قيل: أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ، وقيل: أراد بها النسخة المكتتبة من الألواح التي أخذها موسى بعدما تكسرت. انتهى.

﴿هُدًى﴾، أي: بيان للحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالإرشاد إلى ما فيه الخير والإصلاح

---

(١) المراغي.

﴿يَرْهَبُونَ﴾ والرهبة أشد الخوف ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ يقال: اختاره من الرجال وانتقاه، إذا اصطفاه من بينهم، اختار[1] افتعل من الخير، وهو التخير والانتقاء، واختار من الأفعال التي تعدت إلى اثنين، أحدهما بنفسه والآخر بواسطة حرف الجر، وهي مقصورة على السماع، وهي اختار واستغفر وأمر وكنى ودعا وزوج وصدق، ثم يحذف حرف الجر ويتعدى إليه الفعل فيقال: اخترت زيداً من الرجال، واخترت زيداً الرجال، قال الشاعر:

ٱخْتَـرْتُـكَ ٱلـنَّـاسَ إِذْ رَثَّـتْ خَـلَائِـقُـهُـم وَٱعْـتَـلَّ مَـنْ كَـانَ يُـرْجَـىٰ عِـنْـدَهُ ٱلـسُّـوْلُ

أي: اخترتك من الناس. ﴿وَٱلرَّجْفَةُ﴾ الصاعقة ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ والفتنة الاختبار والامتحان مطلقاً، أو بالأمور الشاقة ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ الولي المتولي أمور غيره القائم عليها ﴿والحسنة﴾ في الدنيا هي العافية وبسطة الرزق، وعز الاستقلال، والملك و﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ دخول الجنة، ونيل الرضوان ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ من هاد يهود، كقال يقول، إذا تاب ورجع إلى الحق، فهو هائد، وقوم هود، وأصل[2] الهود: الرجوع برفق، وبه سميت اليهود، وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم، وبعده صار اسم ذم، وهو لازم لهم.

﴿ٱلنَّبِىَّ﴾[3] من النبأ، وهو الخبر المهم العظيم الشأن، وفي لسان الشرع من أوحى الله إليه وأنبأه بما لم يكن يعلم، بكسبه من خبر أو حكم به، يعلم علماً ضرورياً أنَّه من الله عز وجل ﴿والرسول﴾ نبي أمره الله تعالى بتبليغ شرع ودعوة دين، وبإقامته والعمل به، ولا يشترط أنْ يكون كتاباً يقرأ وينشر، ولا شرعاً جديداً يعمل به ويحكم بين الناس، بل يكون تابعاً لشرع غيره كله، كالرسل من بني إسرائيل الذين كانوا يتبعون التوراة عملاً وحكماً ﴿والأمي﴾ الذي لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم، وأهل الكتاب يلقبون العرب: بالأميين، كما حكى الله عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ ﴿والمعروف﴾ ما تعرف العقول السليمة حسنه لموافقته للفطرة والمصلحة، بحيث لا تستطيع أن ترده أو

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفتوحات.
(٣) المراغي.

تعترض عليه إذا ورد به الشرع ﴿والمنكر﴾: ما تنكره القلوب وتأباه على الوجه المذكور و﴿الطيب﴾ ما تستطيبه الأذواق من الأطعمة، وتستفيد منه التغذية النافعة ﴿والخبيث﴾ من الأطعمة ما تمجه الطباع السليمة، كالميتة والدم المسفوح، أو تصد عنه العقول الراجحة، لضرره في البدن، كالخنزير الذي تتولد من أكله الدودة الوحيدة، أو لضرره في الدين، كالذي يذبح للتقرب به إلى غير الله تعالى على سبيل العبادة ﴿والخبيث﴾ من الأموال ما يؤخذ بغير حق، كالربا والرشوة والغلول والسرقة والغصب، ونحو ذلك ﴿والإصر﴾ الثقل الذي يأصر صاحبه؛ أي: يحبسه من الحركة لثقله ﴿وَالْأَغْلَٰلَ﴾ واحدها غل - بالضم - وهي الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، ويقال لها: جامعة، وفي «المصباح» الغل - بضم الغين - طوق من حديد يجعل في العنق اهـ.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾؛ أي: عظموه، والتعزير: الإعانة والنصرة حتى لا يقوى عليه عدو، وتعزير الشيء تعظيمه وإجلاله ودفع الأعداء عنه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾؛ أي: على أعدائه، فهو معطوف على عزروه عطف لازم على ملزوم، ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾[1]؛ أي: صيرناهم قطعاً وفرقاً، كل فرقة منها سبط، والسبط ولد الولد مطلقاً، وقد يختص بولد البنت، وأسباط بني إسرائيل سلائل أولاده العشرة؛ أي: ما عدا لاوى، وسلائل ولدي ابنه يوسف وهما: افرايم ومنسى، إذ سلائل لاوى نيطت بها خدمة الدين في جميع الأسباط، ولم تجعل سبطاً مستقلاً ﴿والأمة﴾ الجماعة التي تؤلف بين أفرادها رابطة خاصة، أو مصلحة واحدة، أو نظام واحد ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ والاستسقاء طلب الماء للسقيا ﴿وانبجست﴾ والانبجاس والانفجار واحد، يقال: بجسه فانبجس وبجسه فتبجس، كما يقال: فجره؛ أي: شقه فانفجر، وقال الراغب: الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، وفي «المصباح»: بجست الماء بجساً من باب قتل فانبجس، بمعنى فجرته فانفجر. اهـ ﴿والغمام﴾ السحاب مطلقاً أو الأبيض منه أو الرقيق ﴿والمن﴾ مادة بيضاء تنزل من السماء كالطَّلِّ،

---

(١) المراغي.

حلوة الطعم، شبيهة بالعسل، وإذا جفت.. كانت كالصمغ ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ طير يشبه السماني - بوزن حبارى - لكنه أكبر منه ﴿كُلُّ أُنَاسٍ﴾ وأناس اسم جمع، واحده إنسان، وقيل: جمع تكسير له، وفي «المصباح» والإنسان اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والواحد والجمع، والأناس بالضم مشتق من الإنس وقد تحذف همزته تخفيفاً على غير قياس فيصير: ناس. اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ في هذا الكلام[1] مبالغة وبلاغة من حيث إنَّه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به، والمغري له عليه، حتى عبر عن سكونه بالسكوت اهـ «بيضاوي». ففي هذه الجملة استعارتان: استعارة بالكناية: حيث شبه الغضب بإنسان ناطق يغرى موسى ويقول له: قل لقومك كذا وكذا، وألق الألواح، وخذ برأس أخيك، ثم يقطع الإغراء ويترك الكلام كما مر، واستعارة تصريحية تبعية: حيث شبه سكون الغضب وخموده بانقطاع كلام المتكلم وسكوته.

ومنها: الطباق بين لفظي ﴿تُضِلُّ﴾ و﴿تهدي﴾ وبين لفظي: ﴿يُحْيِۦ﴾ و﴿يميت﴾ وبين لفظي: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين: ﴿فَٱغْفِرْ﴾ و﴿ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وبين قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ وهي - أعني المقابلة - أن يؤتى بأمرين أو أمور ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب، وهي من المحسنات البديعية.

---

(١) البيضاوي.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿للذين يتقون﴾؛ فإنَّ فيه تعريضاً بقومه كأنَّه قيل: لا لقومك لأنهم غير متقين.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ فإنَّ فيه التفاتاً من التكلم إلى الغيبة؛ لأنَّ الاسم الظاهر من قبيل الغيبة، لما في الالتفات من البلاغة والنكات المقررة عندهم، كما مر في مبحث التفسير، فحق العبارة أن يقال: فآمنوا بالله وبي.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَٱلْأَغْلَـٰلَ﴾؛ لأنَّ الغل في الأصل حديدة تجمع اليد إلى العنق وتمنعها من المد والتحرك، فشبه التكاليف الشاقة بالغل الذي هو الحديد، بجامع المنع في كل؛ لأنَّ التكاليف والتحريمات تمنع من الفعل، كما أن الغل يمنع من الفعل، وقيل: شبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق، فكما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل، فكذلك لا تمتد إلى الحرام الذي نهيت عنه، ذكره في «الفتوحات».

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾؛ لأنَّه استعار التقطيع للتفريق؛ لأنَّ التقطيع حقيقة في فصل الأجسام المتصلة بعضها عن بعض كالحبل، فاشتق منه قطعنا بمعنى فرقنا، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ
تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا
مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ
مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ
مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ
يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ
أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ
تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ...﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ لا يزال الكلام في قصة بني إسرائيل فالمناسبة ظاهرة؛ لأنَّ السابقة واللاحق كله في قصة واحدة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما ذكر هدايته للبشر بإرسال الرسل، وإنزال الكتب في قصة بني إسرائيل.. قفَّى على ذلك بذكر هدايته إياهم بما أودع في فطرتهم، وركب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به، وتوحيده وشكره منذ النشأة الأولى، فهو سبحانه بعد أنْ أظهر تمادي هؤلاء اليهود في الغي بعد أخذ الميثاق الخاص الذي دل عليه قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وذكر هنا أنَّهم نقضوا أيضاً الميثاق العام الذي أخذه على بني آدم جميعاً ـ وهم في صلب آدم ـ واشركوا بالله وقالوا: عزير ابن الله.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ...﴾ الآية، ذكر[2] في سبب نزولها أنَّ بعض اليهود المعاصرين للرسول ﷺ قالوا له: لم يكن من بني إسرائيل عصيان ولا معاندة لما أمروا به، فنزلت هذه الآية موبخة لهم، ومقررة كذبهم، ومعلمة ما جرى على أسلافهم من الإهلاك والمسخ، وكانت اليهود تكتم هذه القصة، فهي من ما لا يعلم إلا بكتاب أو وحي، فإذا أعلمهم بها من لم يقرأ كتابهم.. علم أنَّه من جهة الوحي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء اليهود المعاصرين لك، المنكرين عصيان أسلافهم ومعاندتهم لأمر الله تعالى قصة إذ قيل لهم؛ أي: لأسلافهم ﴿ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: قرية الجبارين، قوم من بقية عاد ـ رئيسهم عوج بن عنق ـ أي: قصة إذ قال الله تعالى لهم على لسان موسى: إذا خرجتم من التيه.. أسكنوا بيت المقدس، أو قال لهم على لسان يوشع بعد خروجهم من التيه: اسكنوا أريحاء ﴿وَكُلُواْ مِنْهَا﴾؛ أي: من ثمار القرية

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وزروعها وحبوبها وبقُولها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾؛ أي: من أي مكان شئتم من نواحيها، وفي أي وقت شئتم من غير أنْ يزاحمكم فيها أحد ﴿وَقُولُواْ﴾ وقت دخولها: مسألتنا ومطلبنا منك يا إلهنا ﴿حطة﴾؛ أي: حط ذنوبنا وامحوها بعفوك عنا ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾؛ أي: باب القرية، وقيل: باب القبة التي كانوا يصلون إليها ﴿سُجَّدًا﴾؛ أي: حالة كونكم ساجدين سجود انحناء لا سجوداً شرعياً بوضع الجبهة على الأرض، بل المراد اللغوي، وهو الانحناء بأن يكونوا على هيئة الراكعين، شكراً على إخراجهم من التيه ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيَٓـٰتِكُمْۚ﴾ وذنوبكم التي سلفت منكم، إن فعلتم ذلك المذكور الذي أمرتم به من القول والسجود.

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي والحسن والأعمش[1]: ﴿نغفر﴾ بالنون ﴿لكم خطيئاتكم﴾ جمع سلامة بالتاء مهموزاً، إلا أنّ الحسن خفف الهمزة وادغم الياء فيها، وقرأ أبو عمرو: ﴿نغفر﴾ بالنون ﴿لكم خطاياكم﴾ على وزن قضاياكم جمع تكسير، وقرأ نافع ومحبوب عن أبي عمرو: ﴿تغفر﴾ بالتاء مبنياً للمفعول ﴿لكم خطيئاتكم﴾ بجمع سلامة، وقرأ ابن عامر: ﴿تغفر﴾ بتاء مضمومة مبنياً للمفعول ﴿لكم خطيئتكم﴾ بالإفراد مهموزاً، وقرأ ابن هرمز ﴿تغفر﴾ بتاء مفتوحة على معنى إن الحطة تغفر، إذ هي سبب الغفران، وقرىء[2]: ﴿يغفر﴾ بالياء، فعلى هذا لا يقرأ ﴿خطايا﴾ بالإفراد.

﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة والامتثال لأمرنا ثواباً في حسناتهم، وقيل المعنى: من كان محسناً منكم.. كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً.. كانت له توبة ومغفرة كما مر في البقرة، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم ﴿مِنْهُمْ﴾ وهم أصحاب الخطيئة؛ أي: غيروا تلك الكلمة التي أمروا بها للتوبة وقالوا: ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: قالوا حنطة بدل حطة، وكذلك بدلوا الفعل الذي أمروا به من دخولهم سجداً فدخلوا زحفاً، فالحاصل أنّهم دخلوا الباب زاحفين على أدبارهم، قائلين حنطة على شعيرة، استخفافاً بأمر الله

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

تعالى واستهزاء بموسى، وهذا القول مجرد هذيان منهم، قصدهم إغاظة موسى، وليس له معنى يقابلون به معنى القول الذي قيل لهم. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ عقب ما فعلوا من غير تأخير ﴿رِجْزًا﴾؛ أي: عذاباً كائناً. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: طاعوناً وبلاء وعذاباً مقدراً من السماء. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أنفسهم؛ لأنَّهم خرجوا عن طاعة الله تعالى؛ أي: بسبب ظلمهم وخروجهم عن طاعتنا، روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً أو أقل، فهذا الوباء غير الوباء الذي حل بهم في التيه كما مر في البقرة.

تنبيه: تقدم[1] مثل هاتين الآيتين في سورة البقرة، غير أن بين الموضعين فروقاً كثيرة:

منها: أنَّه قال هنا: ﴿أسكنوا القرية﴾ وفي سورة البقرة ﴿أدخلوا﴾ والفائدة هنا أتم؛ لأنَّ السكنى تستلزم الدخول دون العكس.

ومنها: أنَّه قال هنا: ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، وفي سورة البقرة ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، فجاء العطف هناك بالفاء؛ لأنَّ بدء الأكل يكون عقب الدخول، كأكل الثمرات والفواكه التي تكون في كل ناحية من القرية، أما السكنى فأمر ممتد يكون الأكل في أثنائه لا عقبه.

كما وصف هناك الأكل بالرغد ـ وهو الواسع الهنيء ـ لأنَّ الأكل في أول الدخول يكون ألذ، وبعد السكنى والإقامة لا يكون كذلك.

ومنها: أنَّه قال هنا: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ وقدم هنا ما أخر هناك، وأخر ما قدمه، والواو لا تدل على طلب ترتيب بين الأمرين، فالاختلاف في التعبير دال على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذاك، وبين عكسه، إذ لا فارق بين أنْ يدعوا بقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: حط عنا أوزارنا وخطايانا الذي هو بمعنى قولنا: اللهم غفراناً، في حال التلبس بالتواضع والخضوع، وتنكيس الرؤوس شكراً لله على نعمه عند دخول القرية، وبين أن يبدؤوا بتنكيس الرؤوس

---

(١) المراغي.

والخضوع والتواضع، ثم يدعوا بقوله: ﴿حِطَّةٌ﴾.

ومنها: أنَّه قال هنا ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بدون واو وهناك ﴿وسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالعطف، والمعنى واحد، وترك الواو أدل على أن الزيادة تفضل من الله سبحانه وتعالى ليست مشاركة للمغفرة فيما جعل سبباً لها من الخضوع والسجود والاستغفار، والدعاء بحط الأوزار.

ومنها: أنَّه قال ههنا: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فزيد منهم على مثله في سورة البقرة.

ومعنى تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم: أنهم عصوا بالقول والفعل، وخالفوا الأمر مخالفةً تامةً لا تحتمل اجتهاداً ولا تأويلاً، فلم يراعوا ظاهر مدلول اللفظ، ولا الفحوى والمقصود منه، حتى كأن المطلوب منه غير الذي قيل لهم.

وما روي في الإسرائيليات من هذا التبديل من الألفاظ العبرانية أو العربية، فلا ثقة به، وإنْ خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفاً ومرفوعاً، كحديث أبي هريرة في «الصحيحين» وغيرهما: قيل لبني إسرائيل: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: ﴿حِطَّةٌ﴾ حبة في شعيرة، إذ هو مروي من طريق همام بن منبه ـ أخي وهب ـ وهمام، صاحب الغرائب في الإسرائيليات، وأبو هريرة لم يصرح بسماعه من النبي ﷺ، فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار، إذ ثبت أنَّه روي عنه.

ومنها: أنَّه قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ وقال هناك ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، فالاختلاف بين الإنزال والإرسال، وهو خلاف لفظي، وبين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وبين ﴿يَظْلِمُونَ﴾ و﴿يَفْسُقُونَ﴾، وفائدته بيان أنَّهم كانوا يجمعون بين الظلم: الذي هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو للغير، والفسق: الذي هو الخروج عن الطاعة، والرجز كما تقدم العذاب الذي تضطرب له القلوب، أو يضطرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم.

والعبرة في هذه القصص[1]: أن نعلم أنَّ الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل أن يعذبها في الآخرة، وأنَّ نبتعد بقدر الطاقة عن الظلم والفسق، فقد عاقب الله بني إسرائيل بظلمهم، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من فضائل ومزايا، ككثرة الأنبياء فيهم، وتفضيلهم على العالمين كما تقدم.

وقوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾[2] معطوف على عامل إذ المقدر؛ أي: واذكر لهم يا محمد إذ قيل لهم ﴿واسألهم﴾ وهذا سؤال توبيخ وتقريع؛ أي: اسألهم عن هذا الحادث الذي حدث لهم فيها، المخالف لما أمرهم الله به وقرىء ﴿وسلهم﴾.

وقد ذكرت[3] هذه القصة في سورة البقرة إجمالاً، وههنا ذكرت تفصيلاً، إذ كانت سورة الأعراف نزلت بمكة في أوائل الإسلام، ولم يكن النبي ﷺ لقي أحداً من اليهود، وقد كان أمياً لا يقرأ كتاباً كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فكان ذلك أدل على الإعجاز.

والخطاب فيه للنبي ﷺ، والسؤال للتقرير المتضمن للتقريع والتوبيخ، وبيان أن كفر أهل الكتاب بمحمد ﷺ وبمعجزاته ليس بدعاً جديداً منهم، فإنَّ أسلافهم أقدموا على هذا الذنب القبيح، والمعصية الفاحشة، واعتدوا هذا الاعتداء الشائن الذي قص خبره.

والمعنى: واسأل يا محمد اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع عن خبر أهل المدينة التي كانت قريبة من بحر القلزم ـ وهي أيلة قرية بين مدين والطور ـ وقيل: هي قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونا، وتقدم لك في أسباب النزول: أن اليهود قالوا: لم يصدر من بني إسرائيل عصيانٌ ولا مخالفة للرب، فأمره الله

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

تعالى أن يسألهم عن حال أهل هذه القرية في زمن داود عليه السلام تقريعاً فإنَّهم يعتقدون أنَّه لا يعلمه أحد غيرهم، فذكر الله لهم قصة أهل تلك المدينة، فبهتوا وظهر كذبهم، والظرف في قوله ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ متعلق بمضاف محذوف تقديره: واسألهم عن حال القرية إذ يتجاوزون حدود الله بصيد السمك في يوم السبت المأمورين بتركه فيه، وذلك أن اليهود أمرهم الله تعالى باتخاذ يوم الجمعة عيداً يعظمونه كما نعظمه، فأبوا واختاروا يوم السبت، فشدد الله عليهم ونهاهم عن الصيد فيه، وفيما اختاروه إشارة إلى انقطاعهم عن الخير إذ السبت في اللغة: القطع، فاختاروا ما فيه قطيعتهم، وقرىء[1]: ﴿يعدون﴾ من الإعداد للآلة، وكانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت، وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة، وقرأ شهر بن حوشب، وأبو نهيك ﴿يعدون﴾ ـ بفتح العين وتشديد الدال ـ وأصله يعتدون، فأدغمت التاء في الدال، كقراءة من قرأ: ﴿لا تعدوا في السبت﴾ وقرأ الجمهور ﴿يَعْدُونَ﴾ بفتح الياء وسكون العين، وضم الدال مخففة، وقرأ[2] ابن السميقع في: ﴿الأسبات﴾ على الجمع.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ متعلق بـ﴿يعدون﴾؛ أي: يتجاوزون حدود الله وينتهكون حرماتها باصطياد السمك، إذ تأتيهم الحيتان والأسماك يوم سبتهم؛ أي: يوم تعظيمهم لأمر السبت بالتجرد والتفرغ للعبادة، وقرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿يوم أسباتهم﴾، قال أبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامع»: وقد ذكرت هذه القراءة عن عمر بن عبد العزيز، وهو مصدر من أسبت الرجل إذا دخل في السبت، وقوله: شرعاً، حال من فاعل ﴿تَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: إذ تأتيهم الحيتان حالة كونها شرعاً؛ أي: ظاهرة على وجه الماء، قريبة من الساحل، ينظرون إليها ابتلاء من الله واختباراً لهم، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل، كما قال: ﴿ويوم لا يسبتون﴾؛ أي: لا يدخلون في السبت ولا يراعون حرمتها، وهو سائر الأيام ﴿لا تأتيهم﴾ كما كانت تأتيهم يوم سبتهم؛ أي: لا تظهر على ظاهر الماء، ولا تقرب إلى

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

الساحل، حذراً من اصطيادهم لاعتيادها أحوالهم، قيل: إنَّها اعتادت أنْ لا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت، فأمنت وصارت تظهر فيه، وتختفي في الأيام التي لا يسبتون فيها، لما اعتادت من اصطيادها فيها، فلما رأوا ظهورها وكثرتها يوم السبت. . أغراهم ذلك بالاحتيال على صيدها فيه.

وقرأ عيسى بن عمر وعاصم بخلاف عنه ﴿لا يسبُتون﴾ بضم كسرة الباء في قراءة الجمهور، وقرأ علي والحسن وعاصم بخلاف عنه ﴿يُسبِتون﴾ بضم ياء المضارعة، من أسبت إذا دخل في السبت، قال الزمخشري: وعن الحسن ﴿لا يُسبَتون﴾ بضم الياء على البناء للمفعول؛ أي: لا يدار عليهم السبت، ولا يؤمرون بأن يسبتوا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا البلاء والاختبار بظهور السمك يوم السبت ﴿نَبْلُوهُم﴾؛ أي: نبتليهم ونختبرهم، ونعاملهم معاملة المختبر لحال من يراد إظهار حاله، ليترتب الجزاء على عمله ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب فسقهم المستمر، وخروجهم عن أمر ربهم، واعتدائهم حدود شرعه، وقد جرت سنة الله تعالى بأن من أطاعه. . سهل له أمور الدنيا، وأجزل له الثواب في الآخرة، ومن عصاه. . ابتلاه بأنواع المحن والبلاء.

والظرف في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ معمول لعامله داخل في حكمه؛ أي: واسألهم يا محمد عن حال أهل تلك القرية، حين قالت جماعة منهم؛ ـ أي: من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والمشقة في موعظة أولئك الصيادين، حتى أيسوا من قبولهم الموعظة ـ لأقوام آخرين من الصلحاء الذين لم يقلعوا عن وعظ الصيادين، ولم يتركوه رجاء للنفع، وطمعاً في فائدة الإنذار؛ أي: قال الآيسون من الوعظ للمستمرين فيه: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾؛ أي: لم تستمرون في وعظ قوم ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؛ أي: مخزيهم في الدنيا بعذاب الاستئصال ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ موجعاً لعدم إقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والاصطياد.

وفي ذلك[1] دلالة على أن الذين كانوا يعدون في السبت بعض أهل القرية لا جميعهم، وإنَّ أهلها كانوا فرقاً ثلاثاً:

فرقة العادين في السبت التي أشير إليها في الآية الأولى.

وفرقة الواعظين لهؤلاء العادين، لينتهوا عن عدوانهم ويكفوا عنه.

وفرقة اللائمين للواعظين التي قالت لهم: لم تعظون قوماً قضى الله عليهم بالهلاك بالاستئصال، أو بعذاب شديد دون الاستئصال، أو المراد: مهلكهم في الدنيا، ومعذبهم في الآخرة، والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال الواعظون للائمين لهم: نعظهم ﴿مَعْذِرَةً﴾؛ أي: موعظة اعتذار نعتذر بها ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ عن السكوت على المنكر، فإذا طولبنا بإقامة فريضة النهي عن المنكر.. قلنا قد فعلنا، فنكون بذلك معذورين ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: ورجاء لأن يتقوا بعض التقاة، ويتركوا الصيد في السبت، فهو معطوف على معنى معذرة؛ أي: وعظناهم للاعتذار إلى ربكم، ولرجاء أن ينتفعوا بالموعظة، فيحملهم ذلك على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه، إذ نحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق كما أنتم منهم يائسون، وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَعْذِرَةٌ﴾ بالرفع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: موعظتنا معذرة؛ أي: موعظتنا إقامة عذر إلى الله، ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التقصير، ولطمعنا في أنْ يتقوا المعاصي، وقرأ حفص عن عاصم وزيد بن علي وعيسى بن عمر وطلحة بن مصرف ﴿مَعْذِرَةً﴾ ـ بالنصب ـ على أنَّه مفعول لأجله؛ أي: وعظناهم لأجل المعذرة، وللرجاء في اتقائهم المعاصي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: فلما ترك العادون ما وعظوا به، وأعرضوا عنه، حتى صار كالمنسي عنه، بحيث لا يخظر ببالهم شيء من تلك المواعظ أصلاً، ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾؛ أي: عن العمل السيء الذي هو أخذ الحيتان في يوم السبت، وهم الفريقان الآخران ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أنفسهم بأخذ

---

(1) المراغي. (2) الفتوحات.

الحيتان يوم السبت؛ أي: أهلكناهم ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾؛ أي: بعذاب شديد موجع ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب تماديهم في الفسق، حتى صار ديدنهم وهجيرهم؛ أي: أخذناهم بالعذاب بسبب الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة، وهو الظلم، فالباءان متعلقتان بـ ﴿أخذنا﴾؛ لأنَّ الأولى للتعدية، والثانية للسببية، فلا اعتراض.

والخلاصة(١): أنه لما ذكَّر المذكِّرون ولم يتذكر المعتدون.. أنجينا الأولين وأخذنا الآخرين، وقد جرت سنة الله بأن لا يؤخذ الظالم في الدنيا بكل ما يقع منه من ظلم، كما يدل على ذلك قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾، وقوله: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، ولكنه يؤاخذ الأمم والشعوب في الدنيا قبل الآخرة بما يقع منها من ظلم يظهر أثره بالاستمرار عليه كما قال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، كما عاقب الله بني إسرائيل كافة بتنكيل البابليين، ثم النصارى بهم، وسلبهم ملكهم حين عم فسقهم، ولم يدفع ذلك عنهم وجود بعض الصالحين فيهم.

وبالجملة: فالآية صريحة في هلاك الظالمين الفاسقين، ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل السوء وارتكاب المنكر، وسكت عن الفرقة التي أنكرت على الواعظين وعظهم وإنكارهم، وهي ناجية أيضاً؛ لأنَّها كانت منكرة للمنكر مستقبحة له، بدليل أنَّها لم تفعله، وإنَّما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهي، واعتقادها أنَّ القوم قد استحقوا عقاب الله تعالى بإصرارهم على الفسق، فلا يفيدهم الوعظ، وهذا رأي ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿بئيس﴾ على وزن فعيل، كرئيس، فالهمزة بين الباء والياء، وقرأ نافع: ﴿بيس﴾ بكسر الباء من غير همز، وقرأ ابن عامر كذلك، إلا أنَّه همز، وروى خارجة عن نافع: ﴿بيس﴾ - بفتح الباء - من غير همز - على وزن فعل -، وروى أبو بكر عن

---

(١) المراغي.

عاصم: ﴿بيأس﴾ على وزن فيعل كضيغم، وقرأ ابن عباس وأبو رزين وأيوب: ﴿بيآس﴾ على وزن فيعال، وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي ومعاذ القارىء: ﴿بئس﴾ بفتح الباء وكسر الهمزة، من غير ياء على وزن تعس، وقرأ الضحاك وعكرمة: ﴿بيس﴾ بتشديد الياء، مثل قيم، وقرأ أبو العالية وأبو مجلز: ﴿بئِس﴾ بفتح الباء والسين وبهمزة مكسورة، من غير باء ولا ألف، على وزن فعل، وقرأ أبو المتوكل وأبو رجاء ﴿بَآئِس﴾ بألفٍ ومدَّةٍ بعد الباء، وبهمزة مكسورة بوزن فاعل.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ وأبوا أن ينكفوا ويقلعوا ﴿عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الاصطياد؛ أي: فلما تمرَّدُوا وتكبروا، وأبو أن يتركوا ما نهاهم عنه الواعظون ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: لأولئك العادين باصطياد السمك ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ﴾؛ أي: صاغرين أذلاء بعداء عن الناس؛ أي: تعلقت إرادتنا بأن يكونوا كذلك، فكانوها صورةً ومعنى.

وهذا الجزاء تفصيل للعذاب البئيس الذي ذكر في الآية السالفة، وقيل: إنَّه عذاب آخر، فقد عاقبهم أوّلاً بالبؤس والشقاء في المعيشة، إذ من الناس من لا يربيه ولا يهذبه إلا الشدة والبؤس، ولما لم يزدهم البؤس إلا عتوا وإصراراً على الفسق والظلم.. مسخهم مسخ خَلْق وجسم، فكانوا قردةً على الحقيقة، وهذا ما يراه جمهرة العلماء، أو مسخ خُلُق ونَفْس، فكانوا كالقردة في الطيش والشر والإفساد لما تصل إليه أيديهم، وهذا رأي مجاهد قال: مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق.

وفي الآية إيماء إلى أنَّ هذا المسخ كان لمخالفتهم الأوامر وتماديهم في العصيان، ولم يكن لاصطياد الحيتان فحسب.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد قصة إذ أعلم ربك أسلاف اليهود على ألسنة أنبيائهم، إن لم يؤمنوا بأنبيائهم وعزني وجلالي ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ليسلطن عليهم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ﴾؛ أي: من يذيقهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: أشد العذاب؛ أي: من يقاتلهم إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية، وهو محمد ﷺ وأمته، والظرف في قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ منصوب على المفعولية بمقدر معطوف على ﴿وأسألهم﴾ والتقدير: واذكر يا محمد لليهود وقت أن تأذن ربك؛

أي أعلم أسلافهم، والمعنى: واذكر أيها الرسول إذ أعلم ربك هؤلاء القوم مرة إثر أخرى أنَّه قضى عليهم في علمه، وفقاً لما قامت عليه نظم الاجتماع، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يوقع بهم العذاب الشديد على ظلمهم وفسقهم وفسادهم في الأرض، والآية بمعنى قوله في سورة الإسراء ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾؛ أي: وإنْ عدتم بعد عقاب المرة الآخرة إلى الإفساد.. عدنا إلى التعذيب والإذلال، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى، فسلبوا ملكهم الذي أقاموه بعد أن نجوا من سبى البابليين، وقهرهم واستذلالهم، إلى أن جاء الإسلام فعاداه منهم الذين هربوا من الذل والنكال، ولجؤوا إلى بلاد العرب، فعاشوا فيها آمنين أعزاء، لكنهم نكثوا العهد الذي أعطوه للنبي ﷺ، وبه أمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم، فنصروا المشركين عليه، فسلطه الله عليهم، فقاتلهم ونصره عليهم، فأجلى بعضهم، وقتل بعضاً، وأجلى عمر البقية الباقية منهم إلى سورية، ولما فتحها.. انتقل اليهود من حكم الروم الجائر إلى سلطة الإسلام العادلة، ولكنهم فقدوا الملك والاستقلال في جميع الحالات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه إذا جاء وقته، فيعاقبهم في الدنيا، أما قبل مجيء وقت العذاب فهو شديد الحلم.. والمعنى: أي إن ربك سريع العقاب للأمم التي تفسق عن أمره، وتفسد في الأرض، فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد، يؤيد هذا قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: وإذا أردنا هلاك قرية من القرى.. أمرنا سادتها وكبرائها بالحق والعدل والرحمة، فعصوا أمر ربهم وأفسدوا وظلموا في الأرض، فحق عليهم القول بمقتضى سنته في خلقه، فحل بهم الهلاك، وحاق بهم النكال جزاء بما كانوا يعملون. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب من الكفر واليهودية ودخل في دين الإسلام.

والمعنىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أقلع عن ذنبه وأناب إليه، وأصلح ما كان قد أفسد في الأرض، قبل أن يحل به عذابه، والآية بمعنى قوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ

﴿لِمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ وقلما ذكر عذاب الفاسقين إلا قرنه بذكر الرحمة والمغفرة للمحسنين، حتى لا ييأس صالح مصلح من رحمة ربه بذنب عمله بجهالة، ولا يأمن مفسد من عقابه اغتراراً بعفوه وكرمه، وهو مُصِرّ على ذنبه، وقد فصل سبحانه عقابهم، فذكر بدء إذلالهم بإزالة وحدتهم، وتمزيق جامعتهم، فقال: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾؛ أي: وفرقنا بني إسرائيل الذين قبل النبي ﷺ في نواحي الأرض وأقطارها حالة كونهم فرقاً كثيرة، وأمماً؛ أي: جماعات مشتتة، فيها كل فرقة منهم في قطر من أقطارها، فلا يخلو منهم قطر، وليس لهم شوكة ولا دولة.. ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ كالذين نهوا من اعتدوا في السبت عن ظلمهم، والذين كانوا يؤمنون بالأنبياء من بعد موسى، والذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أناس ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ المذكورين في الصلاح لم يبلغوا مبلغهم، وهم سائر المؤمنين من بني إسرائيل، ومنهم الغلاة في الكفر والفسق، كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير حق، ومنهم السماعون للكذب، الأكالون للسحت والرشا، لتبديل الأحكام، والقضاء بغير ما أنزل الله تعالى، كما هو شأن الأمم؛ فإنَّها تفسد تدريجاً لا دفعة واحدة، كما نشاهد ذلك في المسلمين الذين تتبعوا نظم النصارى، ورضعوا البانهم، وقيل معنى ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومنهم أناس غير أولئك الصالحين، وهم الذين كفروا من بني إسرائيل وبدلوا وغيروا ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾؛ أي: واختبرناهم ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾؛ أي: بالنعم والخصب والعافية ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: بالجدوبة والشدائد ﴿لعلهم يرجعون﴾؛ أي: لكي يرجعوا عن معصيتهم إلى طاعة ربهم؛ فإن كلا من الحسنات والسيئات يدعو إلى الطاعة بالترغيب والترهيب، والمعنى: واختبرنا بني إسرائيل وامتحنا استعدادهم بالنعم التي تحسن في عيونهم، وتقر بها أفئدتهم، وبالنقم التي تسؤهم - وإنْ كانت قد تحسن بالصبر عاقبتها لديهم - رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم، وينيبوا إلى ربهم، فيعود إليهم فضله ورحمته.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾؛ أي: جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم بدل سوء ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أخذوا التوراة من أسلافهم يقرؤونها ولا يعملون بها وقرأ الحسن: ﴿وُرِّثوا﴾ بضم الواو وتشديد الراء، حالة كونهم ﴿يَأْخُذُونَ﴾ من

سفلتهم ﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: متاع الدنيا على تحريف الكلام في صفة محمد ﷺ، وفي الأحكام، وهم يستحقرون ذلك الذنب ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ أي: يغفر الله لنا ذنبنا ولا يؤاخذنا عليه؛ لأننا أبناؤه وأحباؤه، ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ﴾؛ أي: وإنْ يأتهم متاع مثل ما أتاهم أمس ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ لحرصهم على الدنيا، أو المعنى: إنَّهم يتمنون المغفرة من الله تعالى، والحال أنَّهم مصرون على الذنب غير تائبين عنه.

وحاصل المعنى: أي نبتت من أولئك ـ الذين منهم الصالح والطالح ـ نابتة ورثوا التوراة؛ أي: وقفوا على ما فيها، وكانوا عالمين بأحكامها بعد أسلافهم، والحال أنَّهم يؤثرون حطام الدنيا ومتاعها، بما يأكلونه من السحت والرشا، والاتجار بالدين والمحاباة في الحكم، ويقولون: سيغفر لنا ولا يؤاخذنا بما فعلنا، فإنَّنا أبناء الله وأحباؤه، وسلائل أبنائه وشعبه الذي اصطفاه من سائر البشر، إلى نحو ذلك من الأماني والأضاليل، وهم بالغون في خطاياهم، مصرون على ذنوبهم، فإن يأتهم عرض آخر مثل الذي أخذوه أولاً بالباطل.. يأخذوه ولا يستعففوا عنه، وهم يعلمون أن الله إنما وعد بالمغفرة للتائبين الذين يقلعون عن ذنبهم، ندماً وخوفاً من ربهم، ويصلحون ما كانوا قد أفسدوا، ثم رد الله عليهم ما زعموه بقولهم: سيغفر لنا، وهم مقيمون على ظلمهم وفسادهم وحبهم للدنيا فقال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والاستفهام فيه لتقرير ما بعد النفي، ولا يخفى ما فيه من التقريع والتوبيخ؛ أي: ألم يؤخذ ويجعل عليهم في التوراة العهد المؤكد باليمين على ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾؛ والصدق الذي بينه فيه، وقد منعوا فيها من تحريف الكتاب وتغيير الشرائع لأجل أخذ الرشوة. وللتمني، ففيه افتراء على الله تعالى، ففيها أن من ارتكب ذنباً عظيماً فإنَّه لا يغفر له إلا بالتوبة، ﴿و﴾ قد ﴿درسوا ما فيه﴾؛ أي: ما في الكتاب وقرؤوه وعلموا ما فيه، والمعنى: أنَّهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب، والحال أنَّهم قد درسوا ما في الكتاب وعلموه، فكان الشرك منهم عن علم لا عن جهل، والمقصود من الاستفهام التقريري: إثبات ما بعد النفي، والمعنى: قد أخذ عليهم الميثاق في الكتاب، ودرسوا ما فيه من الميثاق، وفهموا ما فيه، فهم ذاكرون لما أخذ عليهم من تحريم أكل أموال الناس بالباطل، والكذب على الله تعالى، وقيل: معنى

﴿درسوا ما فيه﴾؛ أي: محوه بترك العمل به والفهم له، من قولهم: درست الريح الآثار، إذا محتها، ولكن فيه بعد، وقرأ علي والسلمي: ﴿وادارسوا﴾، وأصله وتدارسوا، كقوله: ﴿فادارأتم﴾؛ أي: تدارأتم ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾؛ أي: ولثواب دار الآخرة ونعميها وهو الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ من تلك الرشوة الخبيثة الخسيسة، المعقبة خزي الدنيا والآخرة ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ﴾ عقاب الله، بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، ﴿أ﴾ تجهلون خيرية ذلك ﴿فلا تعقلون﴾؛ أي: فلا تعلمون أنَّ الدنيا فانية والآخرة باقية، وفي هذا الاستفهام من التوبيخ والتقريع ما لا يقادر قدره، أو المعنى: أفلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أنَّ ما في الآخرة خير وأبقى؛ لأنَّها دار المتقين.

والمعنى[١]: والدار الآخرة وما فيها من النعيم خير للذين يقتون المعاصي ما ظهر منها وما بطن؛ أي: خير لهم من حطام الدنيا الفاني، الذي يؤخذ بالرشا والسحت وغير ذلك، أتجهلون ذلك فلا تعقلون، وهو واضح لا يخفى على كل ذي عقل لم تطمسه الشهوات، ولم يعم بصيرته حطام الدنيا العاجل، وبذا يرجح الخير على الشر، والنعيم المقيم على المتاع الزائل، وفي هذا إيماء إلى أنَّ الطمع في متاع الدنيا هو الذي أفسد على بني إسرائيل أمرهم، واستحوذ عليهم حب العاجلة، فأذهب عنهم رشدهم.

وفي هذا عبرة للمسلمين الذين سرى إليهم كثير من هذا الفساد، وغلب عليهم الطمع وحب الدنيا وعرضها الزائل، وهم قد درسوا كتابهم الكريم، لكن التحلي بلقب الإسلام - والتعلل بأماني المغفرة مع الإصرار على الذنوب اتكالاً على الشفاعات والمكفرات - هو الذي غرهم وجعلهم يتمادون في غيهم، وكتابهم ينهاهم عن الأماني والأوهام، وكون الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله تعالى لمن رضي عنه كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾.

وقرأ[٢] نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب إلتفاتاً لهم، ويكون المراد إعلاماً بتناهي الغضب، وتشديد التوبيخ، أو يكون خطاباً لهذه الأمة؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط، والمراح.

أفلا تعقلون حالهم، والباقون بالياء جرياً على الغيبة في الضمائر السابقة.
﴿والذين يمسكون﴾ قرأ عمر[1] وأبو العالية وأبو بكر عن عاصم ﴿يمسكون﴾ من أمسك، والجمهور ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ مشدداً، من مسك المضعف، وهما لغتان جمع بينهما كعب بن زهير:

فَمَا تَمَسَّكُ بِٱلْعَهْدِ ٱلَّذِيْ زَعَمَتْ إِلاَّ كَمَا يُمْسِكُ ٱلْمَاءَ ٱلْغَرَابِيْلُ

وقرأ عبد الله والأعمش ﴿استمسكوا﴾ وفي حرف أبي ﴿تمسكوا﴾ بالكتاب.

أي: والذين يعملون ﴿بـ﴾ما في ﴿الكتاب﴾ الأول التوراة والإنجيل، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويبينون صفة محمد ﷺ ونعته، ولم يحرفوه ولم يغيروا، فإنَّهم بالتمسك به، كانوا أشد تمسكاً بالكتاب الثاني الذي هو القرآن ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: وداموا على إقامتها في مواقيتها، كعبد الله بن سلام وأصحابه، وإنَّما أفرد الصلاة بالذكر ـ وإن كانت داخلة في التمسك بالكتاب ـ تنبيهاً على عظم قدرها، وأنَّها من أعظم العبادات بعد الإيمان بالله ورسوله، والموصول مبتدأ والخبر قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بالعمل بما في الكتاب وبالصلاة؛ أي: لا نضيع ولا نحبط أجر أعمالهم الصالحة، وجاز جعل هذه الجملة خبراً عن الموصول؛ لأن الربط حاصل بلفظ ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ لأنَّه قائم مقام الضمير، لا سيما وهو فيه الألف واللام؛ فإنها تكفي في الربط عند الكوفيين، ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على الموصول الذي قبله، وهو قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وتكون حينئذ جملة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ جملة معترضة.

والمعنى[2]: أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب، ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه، وهم من تقدم ذكره، وطائفة يتمسكون بالكتاب؛ أي: بالتوراة ويعملون بما فيه، ويرجعون إليه في أمر دينهم، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

وحاصل معنى الآية: أي والذين يستمسكون بأوامر الكتاب، ويعتصمون بحبله في جميع شؤونهم، ويقيمون الصلاة التي هي عماد الدين وركن منه متين، كعبد الله بن سلام وأصحابه، لا نضيع أجرهم؛ لأنَّهم قد أصلحوا أعمالهم، والله لا يضيع أجر المصلحين، وهي بمعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.

ثم ختم سبحانه هذه القصة مذكراً ببدء حالهم في إنزال الكتاب عليهم، عقب بيان مخالفتهم لأمور دينهم، والخروج عنه فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لهم قصة إذ نتقنا جبل الطور وقلعناه من أصله ورفعناه ﴿فَوْقَهُمْ﴾؛ أي: فوق بني إسرائيل حتى صار ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: كأن ذلك الجبل ﴿ظلة﴾ وغمامة أظلت فوقهم ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾؛ أي: أيقنوا أنَّهم إنْ خالفوا أوامر دينهم ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أنَّ ذلك الجبل ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾؛ أي: ساقط عليهم لا محالة. وذلك أنَّه أخذ عليهم الميثاق ليأخذن الشريعة بقوة وعزم، فخالفوا الميثاق، فرفع فوقهم الطور، وأوقع في قلوبهم الرعب خوف وقوعه عليهم، فخر كل واحد منهم ساجداً لربّه، وقبل العمل بالميثاق.

روي(١): أنَّ بني إسرائيل أبَوَ أنْ يقبلوا التوراة، فرفع الجبل فوقهم، وقيل لهم: إنْ قبلتم العمل بها وإلا ليقعن عليكم، فوقع كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنّا بها العقوبة حين امتثلنا ما أمرنا به.

وفي الآية تعريض بأنَّهم إذا كانت حالهم في مبدأ أمرهم مخالفة كتابهم، فلا عجب إذا آل أمرهم إلى ترك العمل به بعد طول الأمد، وقساوة القلوب، والأنس بالمعاصي والذنوب، وقلنا لهم في حال رفع الجبل فوقهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾؛ أي: ما أعطيناكم من الكتاب وأحكام الشريعة، واعملوا به حالة

---

(١) المراغي.

كونكم متلبسين ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجد واجتهاد وعزم على تحمل تكاليفه ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾؛ أي: واذكروا ما في الكتاب الذي أعطيناكموه من الأوامر والنواهي بالعمل به، ولا تنسوه، وقيل: واذكروا ما فيه من الثواب والعقاب، وقيل: واعملوا بما فيه من الحلال والحرام. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي تجعلوا ذلك الامتثال وقاية وستراً لكم من عذاب الله تعالى، وتزكية لنفوسكم من الأدناس؛ فإنَّ قوة العزيمة في إقامة الدين تزكي النفوس وتهذب الأخلاق، كما أنَّ التهاون فيها يدسِّيها ويغريها على اتباع الشهوات ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ أو المعنى: لكي تتقون قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق. وقرأ[1] الأعمش ﴿واذكروا﴾ بالتشديد من الأذكار. وقرأ ابن مسعود ﴿وتذكروا﴾، وقرىء ﴿وتذكروا﴾ بالتشديد بمعنى وتذكروا.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ عطف قصةٍ على قصة، والحكمة في تخصيص[2] بني إسرائيل بهذه القصة الزيادة في إقامة الحجة عليهم، حيث أعلمهم الله بأنَّه أعلم نبيه بمبدأ العالم، فضلاً عن وقائعهم؛ أي: واذكر يا محمد للناس كافة قصة إذ أخذ ربك العهد ﴿مِنْ بَنِي ءَادَمَ﴾ على التوحيد وقال لهم: اعلموا أنه لا إله غيري، وأنا ربكم لا رب لكم غيري، فلا تشركوا بي شيئاً، فإنِّي سأنتقم ممن أشرك بي ولم يؤمن بي، وإنِّي مرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي هذا، ومنزل عليكم كتاباً، فتكلموا جميعاً وقالوا: شهدنا أنك ربنا لا رب لنا غيرك، فأخذ بذلك مواثيقهم حين استخرج ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أخرج بعضهم من ظهور بعض، آخر الأبناء من الآباء بطناً بعد بطن، فأخرج أولاً ذرية آدم من ظهره، فأخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، ثم أخرج من هذا الذر الذي أخرجه من آدم ذريته ذراً، ثم أخرج من الذر الآخر ذريته ذراً، وهكذا إلى آخر النوع الإنساني، وانحصر الجميع قدام آدم، ونظر لهم بعينه، وخلق فيهم العقل والفهم والحركة والكلام، وبين مسلمهم من كافرهم، بأن جعل الذر المسلم أبيض والكافر أسود ﴿وَأَشْهَدَهُمْ

---

(١) البحر المحيط. (٢) الصاوي.

﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ أي: أشهد أنفسهم على أنفسهم على أخذ ذلك الميثاق وقَبوله؛ أي: قررهم، فإنَّ الشهادة على النفس معناها الإقرار، وأشهد بعضهم على بعض، وقال لهم: ﴿أَلَسۡتُ﴾ أنا ﴿بِرَبِّكُمۡۖ﴾ وخالقكم ومعبودكم ﴿قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ أنت ربنا لا رب لنا غيرك، فأخذ بذلك مواثقهم، ثم كتب الله آجالهم، وأرزاقهم، ومصائبهم، فنظر إليهم آدم عليه السلام، فرأى منهم الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: رب هلا سويت بينهم؟ فقال: إني أحب أن أشكر، فلمَّا قررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض، أعادهم إلى صلب آدم، فلا تقوم الساعة حتى يولد كل منَ أخذ منه الميثاق، ثم استشهد الملائكة على قبولهم الميثاق، فقال: يا ملائكتي اشهدوا على قبولهم هذا الميثاق. قالت الملائكة: ﴿شَهِدۡنَآۛ﴾ ذلك عليهم، وعلى هذا المعنى يحسن الوقف على قوله ﴿بَلَىٰۛ﴾؛ لأنَّ كلام الذرية قد تم وانقطع بقوله: ﴿بَلَىٰۛ﴾؛ وقوله: ﴿شَهِدۡنَآۛ﴾ مستأنف من كلام الملائكة، وقيل هو من كلام الذرية، والمعنى: شهدنا على أنفسنا بهذا الإقرار، وعلى هذا المعنى لا يحسن الوقف على بلى؛ لأنَّ مقولهم لم يتم ولم ينقطع على ﴿بَلَىٰۛ﴾ وقيل[1]: المراد ببني آدم هنا آدم نفسه، وعلى هذا يكون معنى الآية: أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم.. مسح ظهره، فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم الذر، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه، ولا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وموقوفاً على غيره من الصحابة.

وقد أخرج مالك في «الموطأ» وأحمد في «المسند» وعبد بن حميد والبخاري في «تاريخه»، وأبو داود والترمذي، وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن حبان في «صحيحه» وغيرهم: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾.. الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها؟ فقال: «إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا

(١) الشوكاني.

رسول الله ففيم العمل؟ فقال: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله النار».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وأما المروي عن الصحابة في تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من صلبه في عالم الذر، وأخذ العهد عليهم وإشهادهم على أنفسهم.. فهي كثيرة، منها عن ابن عباس عند ابن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾... الآية. قال: خلق الله آدم، وأخذ ميثاقه أنَّه ربه، وكتب أجله ورزقه، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر، فأخذ مواثيقهم أنَّه ربهم، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم. وقد أخرج عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من ظهره، وفيما قاله رسول الله ﷺ في تفسيرها، مما قدمنا ذكره ما يغني عن التطويل.

وقرأ أبو عمرو وابن عامر ونافع(١): ﴿ذرياتهم﴾ بالجمع، وقرأ باقي السبعة ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بالإفراد، وهي تقع على الواحد والجمع، ثم بين سبحانه وتعالى سبب الإشهاد وعلته فقال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ قرأ أبو عمرو هنا وفيما يأتي بالياء التحتية على الغيبة، كما كان فيما قبله على الغيبة، وقرأ الباقون بالتاء الفوقية على الخطاب، وجملة ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ علة لمحذوف تقديره: فعلنا ذلك الأخذ والإشهاد كراهة أنْ تقولوا أيها الذرية، أو لكي لا تقولوا: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا﴾ التوحيد؛ أي: عن كون الله ربنا وحده لا شريك له ﴿غَـٰفِلِينَ﴾؛ أي: ساهين جاهلين؛ أي: إنَّا(٢) فعلنا هذا الأخذ والإشهاد بكم منعاً لاعتذاركم يوم القيامة بأن تقولوا: «إذا عذبت على الإشراك: إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين، إذ لم ينبهنا إليه منبه، ومآل هذا أنَّه لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل؛ لأنَّهم نبهوا بنصب الأدلة، وجعلوا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

مستعدين لتحقيق الحق، وإبعاد الشرك عن قلوبهم وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟﴾ بالتاء أو الياء معطوف على ﴿تَقُولُوا۟﴾ الأول؛ أي: فعلنا ذلك الأخذ والميثاق كراهية أنْ تعذروا بالغفلة أو بقولكم: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: إنَّما أسس الإشراك آباؤنا من قبل زماننا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً﴾ موجودين ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مقتدين بهم في الإشراك، جاهلين لا نهتدي إلى الحق، ولا نعرف الصواب، والفاء في قوله ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ داخلة على محذوف تقديره: أتؤاخذنا يا مولانا فتهلكنا بالإشراك الذي أسسه لنا، واخترعه آباؤنا المبطلون؛ أي: الملتبسون بالباطل، الذي هو الإشراك، ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر واقتفائنا آثارهم، والاستفهام فيه للاستعطاف، وفيه معنى الإنكار ولفظة ﴿أَوْ﴾ مانعة خلو لا جمع، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين.

والمعنى: أي أو[1] تقولوا في ذلك اليوم: إن آباءنا اخترعوا الإشراك وسنوه من قبل زماننا، وكنا جاهلين ببطلان شركهم، فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم، ولم نهتد إلى التوحيد، أتؤاخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب بما فعله المبطلون من آبائنا المضلين، فتجعل عذابنا كعذابهم؟

والخلاصة[2]: أنَّ الله لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد الآباء والأجداد، إذ التقليد عند قيام الدلائل، والقدرة على الاستدلال بها، مما لا يركن إليه ولا ينبغي لعاقلٍ أن يلجأ إليه، كما أنَّ الاعتذار بالجهل بعدما أقام عليهم من البينات الفطرية والعقلية مما لا يقبل.

والحاصل: أنَّ الله سبحانه وتعالى[3] بين في هذه الآية الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم، وأشهدهم على أنفسهم، وأنَّه فعل ذلك لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة، ويعتلوا بهذه العلة الباطلة، ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي[4]: ومثل هذا التفصيل الذي فصلناه في

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

الآيات السابقة في أخذ الميثاق وغيره، نفصل الآيات؛ أي: نبين الآيات اللاحقة الدالة على توحيدنا ليتدبروا فيها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: ولكي يرجعوا عن شركهم، وعبادة غير الله تعالى، إلى عبادته وتوحيده بذلك التفصيل والتوضيح، وقرأت فرقة ﴿يفصل﴾ بالياء؛ أي: يفصل هو؛ أي: الله تعالى.

والمعنى[1]: أي ومثل ذلك التفصيل المستتبع للمنافع الجليلة نفصل لبني آدم الآيات والدلائل، ليستعملوا عقولهم في التبصر فيها، والتدبر في أمرها، لعلهم يرجعون بها عن جهلهم، وتقليد آبائهم وأجدادهم.

وفي الآية إيماء إلى أنَّ مَنْ لم تبلغه بعثة رسول.. لا يعذر يوم القيامة في الشرك بالله تعالى، ولا بفعل الفواحش والموبقات التي تنفر منها الفطر السليمة، وتدرك ضررها العقول الحصيفة، بل يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه أنْ لا يعرف إلا منهم، وهو تفصيل العبادات، وعالم الغيب، وما سيكون في اليوم الآخر من أحوال العاصين، وشؤون النبيين والصديقين من عقاب وثواب، وكنه ذلك على الحقيقة.

الإعراب

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: استئنافية، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية متعلقة بمحذوف تقديره: واذكريا محمد لهم قصة إذ قيل لهم، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به، ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ إلى آخر الآية نائب فاعل محكي، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿اسْكُنُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿هَٰذِهِ﴾: في محل النصب على الظرفية عند سيبويه، وعلى المفعول به عند الأخفش ﴿الْقَرْيَةَ﴾ نعت لـ﴿هَٰذِهِ﴾ أو عطف بيان منه، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل

(١) المراغي.

لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿وَكُلُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْكُنُواْ﴾. ﴿مِنْهَا﴾ متعلق به، ﴿حَيْثُ﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية، متعلق بـ﴿كلوا﴾. ﴿شِئْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ٱسْكُنُواْ﴾، ﴿حِطَّةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: مسألتنا حطة، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قولوا﴾، ﴿وَٱدْخُلُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْكُنُواْ﴾، ﴿ٱلْبَابَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية، متعلق بـ﴿ادخلوا﴾، ﴿سُجَّدًا﴾ حال من واو ﴿ادخلوا﴾. ﴿نَّغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جواب الطلب لا محل لها من الإعراب، ﴿لَكُمْ﴾ متعلقان بـ﴿نَّغْفِرْ﴾. ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿سَنَزِيدُ﴾: فعل مضارع، ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة بعاطف مقدر كما أظهره في سورة البقرة على جملة ﴿نَّغْفِرْ﴾ على كونها جواب الطلب، وإنَّما لم يجزم لأنَّ الطلب عامل ضعيف فلا يعمل في المعطوف.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿فَبَدَّلَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنَّهم أمروا بقول حطة وأردت بيان ما قالوا.. فأقول لك، ﴿بدل الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذ المقدرة، وجملة إذ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿ظَلَمُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور، حال من واو ﴿ظَلَمُواْ﴾، ﴿قَوْلًا﴾: مفعول به، ﴿غَيْرَ﴾: صفة لـ﴿قَوْلًا﴾، ﴿غَيْرَ﴾: مضاف، ﴿ٱلَّذِى﴾: مضاف إليه، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿أرسلنا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بدل﴾،

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿أرسلنا﴾، ﴿رِجۡزٗا﴾ مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور، صفة لـ﴿رِجۡزٗا﴾، ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب ظلمهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أرسلنا﴾.

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا﴾.

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾: الواو: عاطفة قصة على قصة، ﴿اسألهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة في قوله: ﴿وإذ قيل لهم﴾ أعني: أذكر، أو مستأنفة، ﴿عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني، متعلق بـ﴿اسأل﴾، ﴿ٱلَّتِي﴾: صفة لـ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، ﴿كَانَتۡ﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، ﴿حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾: خبرها ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية، متعلق بمضاف محذوف في قوله: ﴿عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ تقديره: واسألهم عن حال القرية وقت عدوانهم في يوم السبت، ﴿يَعۡدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾، ﴿فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ متعلق بـ﴿يَعۡدُونَ﴾، ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، والظرف بدل من الظرف الذي قبله، أعني قوله: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ﴾، ﴿تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾، ﴿يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَأۡتِيهِمۡ﴾، ﴿شُرَّعٗا﴾: حال من ﴿حِيتَانُهُمۡ﴾؛ أي: تأتيهم حيتانهم حالة كونها ظاهرة على وجه الماء.

﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿يَوۡمَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾، ﴿لَا يَسۡبِتُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمَ﴾، ﴿لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الحيتان،

والجملة مستأنفة استئنافاً بيانيا، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: بلاء مثل البلاء المذكور وهو إتيانها لهم يوم السبت شرعاً، وعدم إتيانها في غيره نبلوهم بلاءً آخر بسبب فسقهم، ﴿نَبْلُوهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْسُقُونَ﴾: خبرها، وجملة كان صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب فسقهم، الجار والمجرور، متعلق بـ﴿نَبْلُوهُم﴾ بسبب فسقهم وتقدير الكلام: نبلوهم بسبب فسقهم المستمر بلاء آخر مثل البلاء المذكور في الحيتان.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: عاطفة ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان معطوف على الظرف في قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ على كونه متعلقاً بالمضاف المحذوف الذي قدرناه سابقاً، والتقدير: واسألهم عن حال القرية إذ يعدون في السبت، واسألهم عن حالهم إذ قالت أمة منهم، ﴿قَالَتْ أُمَّةٌ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لأمة، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿لِمَ﴾: اللام حرف جر، ﴿م﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَعِظُونَ﴾ والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع، ﴿تَعِظُونَ قَوْمًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿مُهْلِكُهُمْ﴾ خبره ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾: معطوف على ﴿مُهْلِكُهُمْ﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق لـ﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾، ﴿شَدِيدًا﴾: صفة لـ﴿عَذَابًا﴾، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿مَعْذِرَةً﴾: منصوب على كونه مفعولاً لأجله لفعل محذوف تقديره وعظناهم لأجل المعذرة، أو منصوب على المفعولية المطلقة بفعل مقدر من لفظه

تقديره نعتذر معذرة، وعلى قراءة الرفع مرفوع على كونه خبر مبتدأ محذوف تقديره: موعظتنا معذرة إلى ربكم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿مَعْذِرَةً﴾ ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ الواو: عاطفة، لعل: حرف نصب والهاء اسمها، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: خبرها، وجملة لعل في محل النصب معطوفة على معنى معذرة، على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ والتقدير: قالوا وعظناهم معذرة إلى ربكم ولعلهم يرجعون عما هم عليه من العدوان باصطياد السمك.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت انقسام أهل القرية إلى واعظة وعادية، وأردت بيان عاقبة كل من الفريقين.. فأقول لك، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿نَسُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿نَسُواْ﴾، ﴿ذُكِّرُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق به، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة ﴿لما﴾ والعائد أو الرابط ضمير به، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها، وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿يَنْهَوْنَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَنجَيْنَا﴾، ﴿ظَلَمُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِعَذَابٍۭ﴾: متعلق به، ﴿بَـِٔيسٍۭ﴾: صفة لـ﴿عذاب﴾: والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر، وسبب، و﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْسُقُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، والباء متعلقة بـ﴿أخذنا﴾؛ أي: أخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم، والباء الأولى للتعدية، وهذه للسببية، فلا اعتراض بتعلق حرفي جر متحدي اللفظ بعامل واحد، لاختلاف معناها.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفصيل، ﴿لما﴾: حرف شرط، ﴿عَتَوْا﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿عَن مَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿عَتَوْا﴾، ﴿نُهُوا﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، ﴿قُلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى على كونها مفصلة لأخذهم بالعذاب، ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قُلْنَا﴾: وإن شئت قلت: ﴿كُونُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قِرَدَةً﴾: خبر ﴿كُونُوا﴾، ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: صفة لـ﴿قِرَدَةً﴾: وجملة ﴿كُونُوا﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: عاطفة، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بمحذوف معطوف على قوله ﴿واسألهم﴾ تقديره: واسألهم عن القرية واذكر إذ تأذن ربك، ﴿تَأَذَّنَ﴾: فعل ماض بمعنى: أقسم ﴿رَبُّكَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿يبعثن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يبعثن﴾، وكذلك قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متعلق به أيضاً، ﴿مَن﴾: موصولة في محل النصب مفعول ﴿يبعثن﴾، ﴿يَسُومُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿رَبَّكَ﴾: اسمها، ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، وكذلك جملة قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: معطوفة عليها على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، أو مفعول أول، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، ﴿أُمَمًا﴾ إما حال من مفعول ﴿قطعناهم﴾، وإما مفعول ثان على تضمين قطع معنى صير، ﴿مِّنْهُمُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب صفة لـ﴿أُمَمًا﴾، ﴿وَمِنْهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لمبتدأ محذوف تقديره: ومنهم فريق كان دون ذلك الفريق الصالح، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ على كونها صفة لـ﴿أُمَمًا﴾، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿قطعناهم﴾، ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿بلونا﴾، ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: معطوف على ﴿الحسنات﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج بمعنى كي التعليلية، والهاء اسمها، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر مسوقة لتعليل ما قبلها والتقدير: وبلوناهم بالحسنات والسيئات لرجاء رجوعهم إلى طاعة الله تعالى.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾.

﴿فَخَلَفَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت انقسام هؤلاء المذكورين إلى فريقين فريق صالح وفريق طالح، وأردت بيان من خلف عنهم.. فأقول لك، ﴿خَلَفَ﴾: فعل ماض، ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: متعلق به، ﴿خَلْفٌ﴾: فاعل، والجملة من الفعل والفاعل في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿خَلْفٌ﴾، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾: مضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿وَرِثُوا۟﴾، ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَأْخُذُونَ﴾، ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾: مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿سَيُغْفَرُ﴾:

فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور نائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَإِن﴾. الواو: حالية أو استئنافية، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يَأْتِهِمْ﴾: فعل ومفعول مجزوم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿عَرَضٌ﴾: فاعل، ﴿مِّثْلُهُۥ﴾: صفة لـ﴿عَرَضَ﴾، ﴿يَأْخُذُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة إنْ الشرطيةْ في محل النصب حال من فاعل ﴿يَقُولُونَ﴾ أو مستأنفة.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، وهو الاستفهام الذي يقصد به إثبات ما بعد حرف النفي ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يُؤْخَذْ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿لم﴾، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به، ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أَن﴾: حرف نصب، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَقُولُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يَقُولُوا۟﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه بدلاً من ﴿مِّيثَٰقُ﴾ تقديره: ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب عدم قولهم على الله إلا الحق، ﴿وَدَرَسُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ﴿يُؤْخَذْ﴾ الداخل عليه همزة الاستفهام التقريري؛ أي: ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب، وألم يدرسوا ما فيه، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿درسوا﴾، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور، صلة لـ﴿مَا﴾: أو صفة لها، ﴿وَٱلدَّارُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾: صفة له ﴿خَيْرٌ﴾ خبر، والجملة مستأنفة، ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق بخبر، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: صلة الموصول، ﴿أَفَلَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف تقديره: أتجهلون خيرية ذلك، ﴿فلا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لا﴾: نافية ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: أفلا تعقلون خيرية ذلك، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والجملة

المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ، ﴿يُمَسِّكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿بِالْكِتَابِ﴾: متعلق به، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة يمسكون، ﴿إِنَّا﴾: حرف نصب واسمه، ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾: فعل ومفعول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿إن﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والرابط محذوف، تقديره: لا نضيع أجر المصلحين منهم، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: استئنافية أو عاطفة، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف معطوف على قوله: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ تقديره: واسئلهم عن القرية واذكر إذ نتقنا الجبل أو مستأنفة استئنافاً نحوياً، ﴿نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه، ﴿فَوْقَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نَتَقْنَا﴾، ﴿كَأَنَّهُ﴾: حرف نصب واسمه، ﴿ظُلَّةٌ﴾: خبره، وجملة ﴿كأن﴾ في محل النصب حال من ﴿الْجَبَلَ﴾ تقديره: حالة كونه مشابهاً بظلة، ﴿وَظَنُّوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على ﴿نَتَقْنَا﴾ أو في محل النصب حال من ﴿الْجَبَلَ﴾، ولكنه على تقدير: قد، ﴿أَنَّهُ﴾ حرف نصب واسمه ﴿وَاقِعٌ﴾ خبره. ﴿بِهِمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿وَاقِعٌ﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن تقديره: وظنوا وقوعه بهم، ﴿خُذُوا مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف حال من فاعل ﴿نَتَقْنَا﴾ تقديره: وإذ نتقنا الجبل فوقهم حالة كوننا قائلين لهم: خذو ما آتيناكم أو معطوف على ﴿نَتَقْنَا﴾ تقديره: وقلنا لهم، ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف؛ لأن آتى بمعنى أعطى تقديره: ما آتيناكموه، والجملة

صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها، ﴿بِقُوَّةٍ﴾: جار ومجرور حال من واو ﴿خُذُواْ﴾؛ أي: خذوا حالة كونكم ملتبسين بقوة، ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿خُذُواْ﴾، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾: حرف ترج وتعليل بمعنى، كي والكاف اسمها، وجملة ﴿تَتَّقُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر قصة إذ أخذ ربك، والجملة مستأنفة أو معطوفة على القصص التي قبلها، ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَخَذَ﴾، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، بدل من الجار والمجرور قبله، بدل بعض من كل، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبُّكَ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَخَذَ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أشهد﴾.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

﴿أَلَسْتُ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لست﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِرَبِّكُمْ﴾: خبره، ﴿والباء﴾: صلة، والجملة مقول لقول محذوف معطوف على ﴿أَخَذَ﴾ تقديره: وقال ألست بربكم ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي المذكور قبلها، قائمة مقام الجواب المحذوف تقديره: بلى أنت ربنا، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

فائدة: ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب تفيد إثبات النفي المذكور قبلها؛ لأنَّها لا يُجاب بها إلا النفي، سواء كان مقروناً بالاستفهام التقريري كما هنا، أو مجرداً، وأما نعم.. فحرف جواب لتصديق ما قبلها، قال ابن عباس: لو قالوا: نعم..

لكفروا؛ لأنَّ نعم لتقرير ما قبلها، مثبتاً كان أو منفياً، فكأنهم أقروا أنَّه ليس بربهم، وإلى ذلك أشار علي الأجهوري رحمه الله بقوله:

بَـلَـىٰ حَـرْفُ جَـوَابٍ لَـكِـنَّـهُ يَـصِـيْـرُ إِثْـبَـاتَـاً كَـذَا قَـرَّرُوْا
نَـعَـمْ لِـتَـقْـرِيْـرِ ٱلَّـذِيْ قَـبْـلَـهَـا إِثْـبَـاتَـاً أَوْ نَـفْـيَـاً كَـذَا حَـرَّرُوْا

﴿شَهِدْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ إن قلنا إنَّه من كلام الذر، أو مقول لقول محذوف، إن قلنا إنَّه من كلام الملائكة تقديره: قالت الملائكة: شهدنا على قَبولهم الميثاق ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: ظرف متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر إليه، المعلل لفعل محذوف تقديره: فعلنا الأخذ بالميثاق كراهية قولكم يوم القيامة، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿تَقُولُوا۟﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: حرف نصب واسمه، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَنْ هَـٰذَا﴾: متعلق بـ﴿غَـٰفِلِينَ﴾، ﴿غَـٰفِلِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿تَقُولُوا۟﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟﴾ معطوف على ﴿تَقُولُوٓا۟﴾ الأول ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول ﴿تَقُولُوٓا۟﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر ونفي، ﴿أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾: فعل وفاعل ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَشْرَكَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿تَقُولُوٓا۟﴾، ﴿وَكُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿ذُرِّيَّةً﴾: خبره ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور، صفة لذرية تقديره: كائنة من بعدهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾. ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الاستعطافي الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: أتؤاخذنا، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿تهلكنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الرب، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لما أوصفه لها والعائد أو الرابط محذوف تقديره بما فعله

﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، وجملة ﴿تهلكنا﴾: معطوفة على الجملة المحذوفة الداخلة عليها الهمزة كما قدرناه آنفاً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿تَقُولُوٓا۟﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾. الواو: استئنافية ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: وتفصيلا مثل ذلك التفصيل المذكور هنا ﴿نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على الله، والتقدير: ونفصل الآيات اللاحقة تفصيلاً مثل تفصيلنا الآيات السابقة ليتدبروها ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾. الواو: عاطفة، ﴿لعل﴾: حرف ترج وتعليل، و﴿الهاء﴾: اسمها، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: في محل الرفع خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ معطوفة على جملة محذوفة معللة للفعل السابق، والتقدير: ونفصل الآيات مثل ذلك ليتدبروها، ولعلهم يرجعون إلى طاعة الله سبحانه وتعالى؛ أي: ولرجاء رجوعهم إلى طاعة الله عما هم عليه من الإشراك.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾، هي أيلة، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية: ﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: قريبة منه على شاطئه. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾؛ أي: يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه.

﴿حِيتَانُهُمْ﴾ سمكهم جمع حوت، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، كنون ونينان لفظاً ومعنى. ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾؛ أي: تعظيمهم للسبت، وهو مصدر سبت اليهود تسبت، من باب ضرب، إذا عظمت السبت بترك العمل فيه، والتفرغ فيه للعبادة، وقيل: إنه اسم لليوم، والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه. ذكره أبو السعود.

وفي «المصباح» وسبت اليهود انقطاعهم عن المعيشة والاكتساب، وهو مصدر، يقال: سبتوا سبتاً، من باب ضرب إذا قاموا بذلك، وأسبتوا بالألف لغة اهـ.

﴿شُرَّعًا﴾: جمع شارع كراكع وركع، من شرع عليه إذا دنا وأشرف؛

أي: ظاهرة على وجه الماء ﴿نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: جماعة منهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ والمعذرة بوزن المغفرة، اسم مصدر لعذر يعذر عذراً، من باب ضرب، وهي بمعنى العذر، وهو التنصل من الذنب، فمعنى معذرة إلى ربكم، قياماً وإظهاراً بعذر أنفسنا إلى الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: تركوه ترك الناس، وأعرضوا عنه إعراضاً تاماً ﴿عن السوء﴾ والسوء العمل الذي تسوء عاقبته ﴿بئيس﴾ والبئيس الشديد، من البأس وهو الشدة، أو من البؤس وهو المكروه، أو الفقر، فهو فعيل من بؤس يبؤس بأساً وبؤساً إذا اشتد. ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ العتو الإباء والعصيان ﴿خَاسِئِينَ﴾؛ أي: أذلاء صاغرين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ قال سيبويه: أذن أعلم، وأذن نادى وصاح للإعلام ومنه ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ ومثله تأذن ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ ليسلطن ﴿يَسُومُهُمْ﴾ يذيقهم ويوليهم ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ فرقناهم ﴿أُمَمًا﴾؛ أي: جماعات ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: منحطون عنهم ﴿وَبَلَوْنَاهُم﴾ امتحناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الحسنات النعم، والسيئات النقم ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ والخلف بسكون اللام يستعمل في الأشرار، وبالتحريك في الأخيار يقال: خلف سوء بسكون اللام، وخلف صدق بفتحها اهـ «الخازن»، وفي «البيضاوي»: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾؛ أي: بدل سوء، وهو مصدر نعت به، ولذلك يقع على الواحد والجمع، وقيل: هو جمع وهو شائع في البشر، والخلف بالفتح في الخير. انتهى. وفي «السمين» والخلف بفتح اللام وبإسكانها هل هما بمعنى واحد؛ أي: يطلق كل منهما على القرن الذي يخلف غيره، صالحاً كان أو طالحاً أو أن الساكن اللام في الطالح، ومفتوحها في الصالح خلاف مشهور بين اللغويين، قال الفراء: يقال للقرن خلف: يعني ساكناً، ولمن استخلفته خلف يعني متحرك اللام. اهـ ﴿عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ والعرض بالتحريك متاع الدنيا وحطامها، و﴿الْأَدْنَىٰ﴾: الشيء القريب الزوال، والمراد به هنا الدنيا. ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾؛ أي: قرؤوا فهم ذاكرون له ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾؛ أي: يتمسكون به ويعملون.

وفي «المختار» أمسك بالشيء وتمسك واستمسك به، كله بمعنى اعتصم به وكذا مسك به تمسيكاً. اهـ.

وفي «المصباح» مسكت بالشيء مسكاً، من باب ضرب، وتمسكت وامتسكت بمعنى أخذت به وتعلقت واعتصمت، وأمسكته بيدي إمساكاً قبضته باليد، وأمسكت عن الأمر: كففت عنه. اهـ. ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾؛ أي: رفعناه، كما روى عن ابن عباس أو زلزلناه، وهو مرفوع يقال: نتق السقاء إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبد، أو اقتلعناه، كما هو رأي كثير من العلماء، وفي «الفتوحات»: ﴿والنتق﴾ اختلفت فيه عبارات أهل اللغة، فقال أبو عبيدة: هو قلع الشيء من موضعه والرمي به، ومنه نتق ما في الجراب إذا نفضه فرمى ما فيه، وامرأة ناتق ومنتاق إذا كانت كثيرة الولادة، وفي الحديث: «عليكم بزواج الأبكار فإنهم أنتق أرحاماً وأطيب أفواهاً وأرضى باليسير» وقيل: النتق الجذب بشدة، ومنه نتقت السقاء إذا جذبته بشدة لتقلع الزبدة من فمه، وقال الفراء: هو الرفع، وقال ابن قتيبة: هو الزعزعة وبه فسر مجاهد، وكل هذه معان متقاربة، وقد عرفت أن ﴿فوقهم﴾ يجوز أن يكون منصوباً بنتق؛ لأنَّه بمعنى رفع وقلع اهـ «سمين»، ونتق من باب نصر كما في «المختار».

﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ والظلة كل ما أظلك من سقف بيت، أو سماء، أو جناح طائر، والجمع ظلل وظلال ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ والظهور جمع ظهر، وهو ما فيه العمود الفقري لهيكل الإنسان الذي هو قوام بنيته فيصح أن يعبر به عن جملة الجسد ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ والذرية سلالة الإنسان من الذكور والإناث، ﴿شَهِدْنَا﴾ والشهادة تارة قولية كما قال: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا...﴾ الآية وتارة تكون حالية، كما قال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾؛ أي: حالهم شاهدة عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع.

فمنها: التكرار في قوله: ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ وفي قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ أي: عن أهل القرية لما فيه من إطلاق المحل وإرادة الحال.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾. وفي قوله: ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، وفي قوله: ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾ ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشعاراً بسرعة إيقاع العذاب بهم، وترجية لمن آمن منهم في غفرانه ورحمته.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾؛ لأنه استعار النسيان للشرك، فاشتق من النسيان بمعنى الشرك نسوا، بمعنى تركوا، بجامع الإعراض في كل على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿أَنجَيْنَا﴾ ﴿وَأَخَذْنَا﴾.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿حِيتَانُهُمْ﴾: لاختصاصهم بأحكام فيها.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لأنَّه استعار الأخذ للإخراج، فاشتق منه أخذ بمعنى أخرج، وإيثار[1] الأخذ على الإخراج للاعتناء بشأن المأخوذ، لما فيه من الإنباء عن اختيار الاصطفاء، وهو السبب في إسناده إلى الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي.

ومنها: إضافة ﴿رَبُّكَ﴾ إلى ضميره ﷺ للتشريف.

ومنها: الالتفات في لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ من التكلم إلى الغيبة؛ لأن مقتضى السياق أنْ يقال: وإذا أخذنا، كما قال أولاً: وإذ نتقنا الجبل فوقهم، والنكتة

---

(١) الفتوحات.

فيه: تعظيم شأن الرسول بتوجيه الخطاب إليه، وفي الآية أيضاً البيان بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، في قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ونكتته: التوبيخ والتأنيب.

ومنها: الإظهار في وضع الإضمار في قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ لأنَّ مقتضى السياق أن يقال: إنا لا نضيع أجرهم، ونكتة الإظهار: الإشارة إلى شرفهم، والاعتناء بهم.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام إظهاراً لفضله وشرفه في قوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنَّها داخلة بما في الكتاب، خصها بالذكر لأنَّها أعظم أركان الدين بعد التوحيد.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾؛ لأنَّه كناية عن سرعة المسخ، إذ لا يكلف الشخص إلا بما يقدر عليه، وكونهم قردة ليس في طاقتهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا
يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا
لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا
يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا
وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي
مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ
بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ
أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا
بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لَّا
أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ
السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر أنَّه أخذ العهد والميثاق على بني آدم جميعاً، وأشهدهم على أنفسهم بأنَّ الله ربهم، كي لا يكون لهم العذر يوم القيامة في الإشراك بالله، جهلاً أو تقليداً.. أردف ذلك بضرب المثل للمكذبين

(١) المراغي.

بآياته المنزلة على رسوله، بعد أن أيدها بالأدلة العقلية والكونية، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها، قادراً على بيانها، والجدل بها، لكنَّه لم يؤت العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفاً لعلمه فسلبها لأنَّ العلم الذي لا يعمل به لا يلبث أن يزول، فأشبه الحية تنسلخ من جلدها، وتخرج منه وتتركه على الأرض.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر أخذ الميثاق على توحيده تعالى وتقرير ربوبيته، وذكر إقرارهم بذلك وإشهادهم على أنفسهم.. ذكر حال من آمن به، ثم بعد ذلك كفر، كحال اليهود كانوا مقرين منتظرين بعثة رسول الله ﷺ، لما اطلعوا عليه من كتب الله المنزلة، وتبشيرها به، وبذكر صفاته، فلما بعث.. كفروا، فذكروا أنَّ ما صدر منهم هو طريقة لأسلافهم اتبعوها.

قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أمر[2] نبيه ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ عن آيات الله تعالى على أولئك الضالين الذين حالهم كحاله ليتفكروا فيه، ويتركوا ما هم عليه من الإخلاد إلى الضلالة، ويعودوا إلى حظيرة الحق.. أردف ذلك ببيان أنَّ أسباب الهدى والضلال ينتهيان للمستعد لأحدهما إلى إحدى الغايتين بتقدير الله تعالى، والسير على سننه في استعمال مواهبه، وهداياته الفطرية من العقل والحواس في أحد السبيلين كما قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ و﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قدم ذكر المهتدين والضالين.. أخبر هنا أنَّه هو المتصرف فيهم بما شاء من هداية وضلال. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ...﴾ مناسبة[3] هذه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

الآية لما قبلها: أنَّه تعالى لما ذكر أنَّه هو الهادي وهو المضل.. أعقبه بذكر من خلق للخسران والنار، وذكر أوصافهم فيما ذكر، وفي ضمنه وعيد الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما بين[1] في الآية السالفة أنَّ المخلقين لجهنم لما يستعملوا عقولهم ومشاعرهم في الاعتبار بالآيات، والتفقه في تزكية أنفسهم بالعلم النافع، فأورثهم ذلك الإهمال الغفلة التامة عن صلاح أنفسهم، بذكر الله تعالى وشكره والثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال.. أردف ذلك بذكر الدواء لتلك الغفلة، والوسائل التي تخرج إلى ضدها، وهي ذكر الله تعالى، ودعاؤه في السر والعلن، بكرة وعشياً.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر[2] أنَّه ذرأ كثيراً من الجن والإنس للنار.. ذكر نوعاً منهم ـ وهم يلحدون في أسمائه ـ وهم أشد الكفار عتياً، أبو جهل وأحزابه، وأيضاً لما نبه على أن دخول جهنم هو للغفلة عن ذكر الله تعالى، والمخلص من العذاب هو ذكر الله تعالى.. أمر بذكر الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، والقلب إذا غفل عن ذكر الله وأقبل على الدنيا وشهواتها وقع في الحرص، وانتقل من رغبة إلى رغبة، ومن طلب إلى طلب، ومن ظلمة إلى ظلمة، وقد وجدنا ذلك بالذوق، حتى إنَّ أحدهم ليصلي الصلوات كلها قضاء في وقت واحد، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله تعالى تخلص من آفات الغفلة، وامتثل ما أمره الله به، واجتنب ما نهى عنه. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[3] أنَّه ذرأ لجهنم كثيراً من الثقلين ـ الجن والإنس ـ وأبان أهم أسباب ذلك، وهي أن هؤلاء أفسدوا فطرتهم بإهمال مواهبهم من العقل والحواس، ثم أرشدنا إلى ما يصلح الفطرة من دعائه بأسمائه الحسنى.. أردف ذلك ببيان وصف أمة الإجابة، وثنى بذكر المكذبين من

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

أمة الدعوة، وثلث بتنفيذ ما عرض لهم من الشبهة، ثم أرشد إلى التفكر الموصل إلى الفقه في الأمور ومعرفة الحقائق، وإلى النظر الهادي إلى الحجة والبرهان الموصل إلى معرفة صدق الرسول، ثم ختمها ببيان عدم الطمع في هداية من قضت سنة الله بضلاله، وتركه يعمه في طغيانه.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه تعالى لما ذكر[1] من ذرأ للنار.. ذكر مقابلهم، وفي لفظة ﴿وَمِمَّنْ﴾ دلالة على التبعيض، وأن المعظم من المخلوقين ليسوا هداة إلى الحق، ولا عادلين به، انتهى.

وقال أيضاً: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه تعالى لما حضهم على التفكر في حال الرسول، وكان مفرعاً على تقرير دليل التوحيد.. أعقب بما يدل على التوحيد ووجود الصانع الحكيم.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أرشد من كانوا في عصر التنزيل وعصر نزول السورة إلى النظر والتفكر في اقتراب أجلهم بقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾.. أتبع ذلك بالإرشاد إلى النظر والتفكر في أمر الساعة التي ينتهي بها جميع أجل الناس.

والخلاصة: أن هذا كلام في الساعة العامة بعد الكلام في الساعة الخاصة بكل فرد، وهي انتهاء أجله.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه لما ذكر[2] التوحيد والنبوة والقضاء والقدر.. أتبع ذلك بذكر المعاد، وأيضاً فلما تقدم قوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، وكان ذلك باعثاً على المبادرة إلى التوبة.. أتى بالسؤال عن الساعة ليعلم أن وقتها مكتوم عن الخلق، فيكون ذلك سبباً للمسارعة إلى التوبة. انتهى.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا...﴾ الآية، مناسبة هذه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

الآية لما قبلها: أنَّ[١] الله سبحانه وتعالى لما أمر خاتم رسله أن يجيب السائلين عن الساعة: بأن علمها عند الله تعالى وحده.. قفى على ذلك بأمر رسوله ﷺ أن يبين للناس أنَّ كل الأمور بيده وحده، وأن علم الغيب كله عنده.

وهذه الآية أساس[٢] من أسس الدين وقواعد عقائده، إذ بينت حقيقة الرسالة، وفصلت بينها وبين الربوبية، وهدمت قواعد الشرك، واجتثت جذور الوثنية.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ قيل: نزلت هذه الآية في بلعم بن باعوراء، وكان قد[٣] حفظ بعض الكتب المنزلة، وقيل: كان قد أوتي النبوة، وكان مجاب الدعوة، بعثه الله إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان، فأعطوه الأعطية الواسعة، فاتبع دينهم وترك ما بعث به، فلما أقبل موسى في بني إسرائيل لقتال الجبارين.. سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى، فقام ليدعو عليه فتحول لسانه على أصحابه، فقيل له في ذلك؟ فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون، واندلع لسانه على صدره فقال: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة، وسأمكر لكم، وإنِّي أرى أنْ تخرجوا إليهم فتياتكم، فإن الله يبغض الزنا، فإن وقعوا فيه هلكوا، فوقع بنوا إسرائيل في الزنا، فأرسل الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً، وقيل: إنَّ هذا الرجل اسمه باعم، وهو من بني إسرائيل، وقيل: المراد به أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب المتقدمة، وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل محمد ﷺ، وشرفه الله بالنبوة.. حسده وكذبه، وكان أمية صاحب حكمة وشعر ومواعظ حسنة، فقصد بعض الملوك، فلما رجع مر على قتلى بدر فسأل عنهم؟ فقيل له: قتلهم محمد، فقال: لو كان نبياً ما قتل أقرباءه. فلما مات أمية.. أتت أخته فازعة إلى

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني والمراح والخازن.

رسول الله ﷺ، فسألها رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها؟ فقالت: بينما هو راقد أتاه اثنان، فكشفا سقف البيت ونزلا، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: أوعى؟ قال: وعي، قال أذكى؟ قال: أبى، قالت: فسألته عن ذلك؟ فقال: خير أريد بي، فصرف عني ثم غشى عليه فلما أفاق من غشيته قال شعراً:

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرَاً ... صَائِرٌ مَرَّةً إِلَىٰ أَنْ يَزُوْلاَ

لَيْتَنِيْ كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لِيْ ... فِيْ قِلاَلِ ٱلْجِبَالِ أَرْعَىٰ ٱلْوُعُوْلاَ

إِنَّ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ يَوْمٌ عَظِيْمٌ ... شَابَ فِيْهِ ٱلصَّغِيْرُ يَوْمَاً ثَقِيْلاً

فقال لها رسول الله ﷺ: أنشديني من شعر أخيك، فأنشدته بعض قصائده، فقال رسول الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه» فأنزل الله تعالى عز وجل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا. . .﴾ الآية، وقيل نزلت في قريش، آتاهم الله آياته التي أنزلها على محمد ﷺ فكفروا بها، وقيل: نزلت في اليهود والنصارى، انتظروا خروج محمد ﷺ فكفروا به.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ. . .﴾ الآية. قال(١) مقاتل: إن رجلاً دعا الله في صلاته، ودعا الرحمن، فقال بعض مشركي مكة - قال ابن الجوزي: هو أبو جهل - إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون إلهاً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ. . .﴾ أخرج(٢) أبو حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قام على الصفا ليلاً، فجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً: يا بني فلان، يا بني فلان، إنِّي لكم نذير مبين، وكان يحذرهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت؛ أي: إلى الصباح، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ. . .﴾ قال قتادة: قالت قريش لرسول الله ﷺ:

---

(١) الخازن. (٢) لباب النقول.

إن بيننا وبينك قرابة، فأسر إلينا متى الساعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وأخرج[1] ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال: قال جبل بن أبي قشير وسموأل بن زيد لرسول الله ﷺ ـ وهما من اليهود ـ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول، فإنا نعلم ما هي؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ يعني عن خبر الساعة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واقرأ وقص يا محمد على هؤلاء اليهود النبأ العجيب ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: خبر الشخص الذي أعطيناه حجج توحيدنا، وأفهمناه دلائل قدرتنا، حتى صار عالماً بها، وكان يعلم علوم الكتب المتقدمة، والتصرف بالاسم الأعظم، وهو أحد علماء بني إسرائيل على ما قيل، فكان يدعو به حيث شاء، فيجاب بعين ما طلب في الحال ﴿فَٱنسَلَخَ﴾ وانسل وخرج ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من آياتنا، وتركها وراءه ظهرياً، ولم يلتفت إليها ليهتدي بها؛ أي: انسلخ منها كما تنسلخ الحية من جلدها، بأن كفر بها، وأعرض عنها، وفي التعبير بالانسلاخ إيماء إلى أنَّه كان متمكناً منها، ظاهراً لا باطناً ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: وبعد أن انسلخ منها باختياره أتبعه الشيطان ولحقه وأدركه واستحوذ عليه، وتمكن من الوسوسة إذ لم يبق لديه من نور البصيرة، ولا أمارات الهداية ما يحول بينه وبين قبول وسوسته، وسلوك فهمه.

وقرأ طلحة بخلاف، والحسن فيما روى عنه هارون: ﴿فاتَّبعهُ﴾ مشدداً بمعنى تبعه، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي فصار من الضالين المضلين المفسدين في الأرض، قال ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء، كان عنده اسم الله الأعظم، وقال[2] ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، بعثه موسى إلى ملك مدين داعياً إلى الله، فرشاه الملك، وأعطاه الملك على أنّ يترك دين موسى، ويتابع الملك على دينه، ففعل وأضل الناس بذلك.

---

(١) لباب النقول.
(٢) التسهيل.

والخلاصة: أنَّه أوتي الهدى فانسلخ منه إلى الضلال، ومال إلى الدنيا، فتلاعب به الشيطان، وكانت عاقبته البوار والخذلان، وخاب في الآخرة والأولى.

وفي الآية عبرة وعظة للمؤمنين، وتحذير لهم من اتباع أهوائهم، حتى لا ينزلقوا في مثل تلك الهوة التي انزلق إليها صاحب المثل بحبه للدنيا، وركونه إلى شهواتها ولذاتها، ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾؛ أي: ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات وبالعمل بها إلى درجات الكمال والعرفان ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾؛ أي: لرفعنا ذلك المنسلخ ﴿بِهَا﴾؛ أي: بتلك الآيات إلى درجات الكمال، ومنازل العلماء الأبرار، بأن نخلق له الهداية خلقاً، ونلزمه العمل بها طوعاً أو كرهاً، إذ لا يعجزنا ذلك ولكنه مخالف لسنتنا ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾؛ أي: ولكن ذلك المنسلخ ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أراد الخلود في الأرض، وركن إلى الدنيا، ومال إليها، وآثر لذاتها وشهواتها على الآخرة، وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام، والأرض هنا عبارة عن الدنيا؛ لأنَّ الأرض عبارة عن المفاوز والقفار، وفيها المدن والضياع، والمعادن والنبات، ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا، فالدنيا كلها هي الأرض. ذكره في «الخازن» ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: واتبع ما تهواه نفسه، وجعل كل حظه من حياته التمتع من لذائذها الجسدية، ولم يوجه إلى الحياة الروحية عزماً، وركب رأسه فلم يراع الاهتداء بشيء مما آتيناه من آياتنا، فخسر دنياه وآخرته، ووقع هاوية الردى والهلاك وانحط في أسفل سافلين، وقيل: المعنى: اتبع رضا زوجته، وكانت هي التي حملته على الانسلاخ من آيات الله تعالى.

وخلاصة ذلك[1]: أنَّ من شأن من يؤتى الآيات أن تسمو نفسه وتصعد في سلم الكمال، لما فيها من الهداية إلى سبيل الخير الحاضة على العمل النافع، وما فيه فائدة روحية له، على شريطة أن يتلقاها بعزيمة ونية صادقة، كما جاء في الحديث: «إنَّما الأعمال بالنيات وإنَّما لكل امرىء ما نوى». أما من تلقاها بغير

---

(١) المراغي.

قصد أو بنية كسب المال والجاه، وفي نفسه ما يصرفه عنها.. فلن يستفيد منها شيئاً، وسرعان ما ينسلخ منها.

وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا، وشهوات النفس، ويتبعون الهوى، وذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى خص هذا الرجل بآياته وحكمته، وعلمه اسمه الأعظم، وجعل دعاءه مستجاباً، ثم إنَّه لما اتبع هواه، وركب إلى الدنيا، ورضي بها عوضاً عن الآخرة.. نزع منه ما كان أعطيه، وانسلخ من الدين، فخسر الدنيا والآخرة، ومن الذي يسلم من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى إلا من عصمه الله بالورع، وثبته بالعلم، وبصره بعيوب نفسه.

وعن كعب بن مالك الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» أخرجه الترمذي. ثم ضرب الله تعالى مثلاً لهذا الرجل الذي آتاه آياته فانسلخ منها واتبع هواه فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾؛ أي: مثل هذا المنسلخ عن آيات الله تعالى وصفته في الدناءة والخسة، ولزوم حاله له ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾؛ أي: كصفة الكلب الذي صار لهث اللسان طبيعة له ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ أيها المخاطب؛ أي: إن تزجره وتطرده ﴿يَلْهَثْ﴾؛ أي: يخرج لسانه مع التنفس الشديد ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾؛ أي: تترك ذلك الكلب غير مطرود ﴿يَلْهَث﴾؛ أي: يخرج لسانه مع التنفس؛ أي:[1] إن شددت عليه وأجهدته لهث، أو تركته على حاله لهث، لأن اللهث طبيعة أصلية فيه، فكذلك حال الحريص على الدنيا، إن وعظته.. فهو حرص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه، وإنْ تركته ولم تعظه.. فهو حريص أيضاً؛ لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة، كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب اهـ. «خازن».

وعبارة الشوكاني هنا قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾؛ أي:[2] فصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى أسفل رتبة، مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة، مماثلاً له في أقبح أوصافه، وهو أنه يلهث في كلا حالتي قصد

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

الإنسان له وتركه فهو لاهث، سواء زجر أو ترك، طرد أو لم يطرد، شد عليه أو لم يشد عليه، وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء، وجملة قوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ في محل النصب على الحال؛ أي: مثله كمثل الكلب حال كونه متصفاً بهذه الصفة، والمعنى: إن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوى عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه الواعظ، وذكره المذكر، وزجره الزاجر، أو لم يقع شيء من ذلك، قال القتيبي: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب؛ فإنَّه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال المرض، وحال الصحة وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، فقال: إن وعظته ضل، وإنْ تركته ضل، فهو كالكلب، إن تركته لهث، وإن طردته لهث كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾، واللهث: إخراج اللسان لتعب أو عطش، أو غير ذلك مع التنفس الشديد، وقيل معنى الآية: إنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هارباً، وإنْ تركته شد عليك ونبح فيتعب نفسه مقبلاً عليك، ومدبراً عنك، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان. انتهت.

والمعنى[1]: أن هذا الرجل كالكلب في صفته هذه، وهي أقبح حالاته وأخسها، فهو لإخلاده وميله إلى الدنيا واتباعه هواه يكون كذلك في أسوء حال، فهو في هم دائب، وشغل شاغل في جمع عرض الدنيا وزخرفها - يعني بخسيس أمورها وجليلها - كشأن عباد الأهواء وطلاب الأموال، ترى المرء منهم كاللاهث من الإعياء والتعب، وإنْ كان ما يعنى به حقيراً لا يتعب ولا يعيي، وتراه كلما أصاب سعة وبسطة في الدنيا.. زاد طمعاً فيها كما قال الأول:

فَمَا قَضَىٰ أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ وَلاَ انْتَهَىٰ أَرَبٌ إِلاَّ إِلَىٰ أَرَبِ

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم من التمثيل بتلك الحالة الخسيسة، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: ذلك المثل الخسيس مثل القوم؛ أي: تلك الصفة الخسيسية الدنيئة المذكورة في المنسلخ عن

---

(١) المراغي.

آياتنا صفة ليست خاصة به، بل هي صفة عامة قائمة بجميع القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود والمشركين وغيرهم، بعد أن علموا بها وعرفوها فحرفوا، وبدلوا وكتموا صفة محمد ﷺ، وكذبوا بها، فعم[1] هذا المثل جميع من كذب بآيات الله تعالى وجحدها، فوجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث: أنَّهم إذا جاءتهم الرسل ليهدوهم.. لم يهتدوا، وإنْ تركوهم لم يهتدوا أيضاً، بل هم ضلال في كل حال.

أي[2]: ذلك المثل البالغ في الغرابة، مثل هؤلاء القوم الذين جحدوا بآياتنا واستكبروا عنها، جهلاً بها وتقليداً للآباء والأجداد، فهم قد ظنوا أن إيمانهم بها يسلبهم العزة، ويحط من أقدارهم، ويحول بينهم وبين ما يستمتعون به من اللذات، فكان ذلك حجاباً حائلاً بينهم وبين النظر فيها نظر تبصر واستدلال، وإنْ كانوا نظروا إليها من تلك الناحية التي تروق لهم - وهي حرمانهم من التمتع بالحظوظ والشهوات - إلى ما فيها من الاعتراف بضلال السلف من الآباء والأجداد، فما أشبه حالهم، بحال من أوتي الآيات فانسلخ منها، وذلك ليس بعيب فيها، بل العيب عليه باتباعه هواه الذي حرمه من الانتفاع بها، قال بعضهم:

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعَيْنُ ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ ٱلْفَمُ طَعْمَ ٱلْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

﴿فَٱقْصُصِ﴾ يا محمد على هؤلاء المكذبين لك من اليهود وغيرهم هذا ﴿ٱلْقَصَصَ﴾ الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن آياتنا؛ فإن مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم، فالقصص مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: أخبرهم هذا الخبر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك، ويعملون فيه أفهامهم، فينزجرون عن الضلال، ويقبلون على الصواب.

قال أبو السعود[3]: وجملة الترجي في محل نصب على أنها حال من ضمير

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) أبو السعود.

المخاطب، أو على أنَّها مفعول له؛ أي: فاقصص القصص راجياً لتفكرهم، أو رجاء لتفكرهم. انتهى.

والخلاصة: فاقصص[1] أيها الرسول الكريم قصص ذلك الرجل الذي تشبه حاله حال أولئك المكذبين بما جئت به من الأيات البينات رجاء أن يتفكروا فيه، فيحملهم سوء حالهم، وقبح مثلهم على إطالة التأمل والتفكر في المخلص مما هم فيه، والنظر في الآيات بعين البصيرة لا بعين الهوى والعداوة، إذ هو من القصص الذي لا يعلمه إلا من درس الكتب، إذ هو من خفي أخبارهم، ففي إخبارك بذلك أعظم معجز.

﴿سَآءَ﴾ وقبح من جهة كونه ﴿مَثَلًا﴾ وصفة مثل ﴿ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بعد قيام الحجة عليها، وعلمهم بها وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبُوا۟﴾ فهو داخل مع حكم الصلة، أي: ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، وكانوا يظلمون أنفسهم بذلك التكذيب؛ أي: الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله، وظلم أنفسهم خاصة؛ أي: ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها ولا يتجاوزها.

والمعنى[2]: قبحت صفة أولئك القوم في الصفات، وساء مثلهم في الأمثال، بإعراضهم عن التفكر في الآيات، وبالنظر إليها نظر عداوة وبغضاء، وهم بعملهم هذا إنَّما يظلمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها، وجعلها السبيل الموصلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وقرأ[3] الحسن وعيسى ابن عمر والأعمش ﴿ساء مثل﴾ بالرفع ﴿القوم﴾ بالجر، واختلف على الجحدري، فقيل: كقراءة الأعمش، وقيل بكسر الميم وسكون الثاء وضم اللام مضافاً إلى القوم. ولم يبين الكتابُ الكريم اسمَ من ضرب به المثل ولا جنسه ولا وطنه، ولا جاء في السنة الصحيحة شيء من ذلك، فلا حاجة لنا في العظة إلى بيانه، ولرواة

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

التفسير بالمأثور روايات كثيرة في شأنه كما ذكرنا في مبحث أسباب النزول، وبالجملة فهذه الروايات الإسرائيلية لا يعتد بها، وليست بحجة في بيانه.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: من يوفقه الله تعالى لسلوك سبيل الهداية باستعماله عقله وحواسه فيما خلقا له، بمقتضى الفطرة وإرشاد الدين ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ الذي شكر نعم الله عليه، وأدى حقه عليه، ففاز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة، وفي[1] «السمين»: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ راعى لفظ ﴿مَن﴾ فأفرد، وراعى معناها في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فجمع، وياء ﴿ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ ثابتة عند جميع القراء لثبوتها في الرسم، وسيأتي لك خلاف في التي في الإسراء والكهف، وبحثها، وقال الواحدي: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ يجوز إثبات الياء فيه على الأصل، ويجوز حذفها استخفافاً اهـ.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾؛ أي: ومن يخذله ويحرمه التوفيق، فيتبع شيطانه وهواه، ويترك استعمال عقله وحواسه في فقه آياته، وشكر ما أنعم به عليه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: فهو الكفور الضال، الذي خسر سعادة الدنيا وسعادة الآخرة إذ هو قد خسر تلك المواهب التي كان بها إنساناً مستعداً للسعادتين الدنيوية والأخروية؛ أي: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالضلالة ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران في الدنيا والآخرة، فالهداية والضلالة من جهة الله تعالى، وإنما العظة والتذكير من جهة الوسائط العادية في حصول الاهتداء، من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعي إلى صرف العبد اختياره جهة تحصيله، كسائر أفعال العباد. ولا شك أن الهداية الإلهية نوع واحد وهو الإيمان الذي ثمرته العمل الصالح، أما أنواع الضلال فلا حصر لها، يرشد إلى ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ثم فصل سبحانه ما أجمله في الآية السالفة مع بيان سببه فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد خلقنا في العالم ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ

---

(١) الفتوحات.

﴿وَٱلْإِنسِ﴾؛ أي: خلقاً كثيراً منهما لسكنى جهنم، والمقام فيها، وهم الذين حقت كلمة العذاب عليهم، وخلقنا للجنة مثل ذلك بمقتضى استعداد الفريقين كما قال: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وقال: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾. ومن خلقه للنار فلا حيلة له في الخلاص منها؛ أي: خلق خلقاً كثيراً من النوعين لسكنى جهنم بحكم القبضة الإلهية حين قبض قبضة وقال: هذه للجنة ولا أبالي، وقبض قبضة وقال: هذه للنار ولا أبالي، وقوله: ﴿كثيراً﴾ يؤخذ منه أن أهل النار أكثر من أهل الجنة، وهو كذلك لما ورد من أنه من كل ألفٍ واحدٌ للجنة والباقي للنار، ثم بين سبب كونهم معدين لجهنم، وصفاتهم المؤهلة لذلك فقال: ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأولئك الكثير ﴿قُلُوبٌ﴾ وعقول ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ أي: لا يعقلون ولا يفهمون بها الخير والهدى؛ أي: إنَّهم لا يفقهون بقلوبهم ما تزكو به أنفسهم من توحيد الله، المبعد لها عن الخرافات والأوهام، وعن الذلة والصغار؛ فإن من يعبد الله تعالى وحده.. تسمو نفسه بمعرفته، فلا تذل بدعاء غيره، ولا الخوف منه ولا الرجاء فيه، والاتكال عليه، بل يطلب من الله ما يحتاج إليه، فإن كان مما أقدر الله عليه خلقه بإعلامهم بأسبابه، وتمكينهم منها.. طلبه بسببه مع مراعاة سننه في خلقه، وإنْ لم يكن كذلك.. توجه إلى الله لهدايته إلى العلم بما لم يعلم من سببه، وإقداره على ما يقدر عليه من وسائله، أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه، كالأطباء لمداواة الأمراض، وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال، والعلماء الراسخين للفتوى في المسائل العلمية، وحل إشكال ما غمض من حقيقتها.

﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: ولأولئك الكثير ﴿أَعْيُنٌ﴾ وأبصار ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ إبصار تأمل وتفكر في مصنوعات الله ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ﴾ وأسماع ﴿لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ سماع اعتبار واتعاظ في مصنوعاته؛ أي: فهم لا يفهمون بقلوبهم، ولا يبصرون بأعينهم، ولا يسمعون بآذانهم ما يرجع إلى مصالح الدين؛ أي: وكذلك لهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكر فيما يرون من آيات الله في خلقه، وفيما يسمعون من آياته المنزلة على رسله، ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه في خلقه، فيهتدوا بكل منها إلى ما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، فالآذان إنَّما خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع، والأبصار إنَّما خلقت لينتفع بكل ما يبصر، وإنَّما يكون

ذلك بتوجيه الإرادة والقصد إلى استعمال كل منهما فيما خلق له، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وا أسفا للمسلمين أصبحوا اليوم أشد الناس إهمالاً لاستعمال أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم في النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق، وصاروا أجهل الشعوب بالعلوم التي تعرف بها آياته في مشاعر الإنسان، وانفعالاته النفسية، وقواه العقلية، وآياته في الحيوان والنبات، والجماد والهواء، والماء والبخار، وسنن النور والكهرباء، والعلوم الفلكية. ومن أصاب منهم حظاً من معرفتها فإنَّما يعرفها للانتفاع بها في الحياة الدنيا، من غير مراعاة أنَّها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً مدبراً عليماً قديراً رحيماً، يجب أن يعبد وحده وأن يخشى ويحب فوق كل أحد، وأنْ تكون معرفته منتهى كل غاية من هذه الحياة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ من إبل وبقر وغنم، فهم لا حظ لهم من عقولهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشهم في هذه الحياة. ﴿بَلْ هُمْ﴾؛ أي: بل هؤلاء الموصوفون بالصفات المذكورة ﴿أَضَلُّ﴾ وأجهل وأخطأ من الأنعام؛ لأنَّها تعرف صاحبها وتطيعه، وهؤلاء الكفار لا يعرفون ربهم ولا يطيعونه؛ أي: بل هم أضل سبيلاً منها، إذ هذه البهائم لا تجني على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية في أكلها وشربها، وجمع حاجاتها، لكن عبيد الشهوات يسرفون في كل ذلك إسرافاً عظيماً، قد تتوالد منه الأمراض الكثيرة، كما قد يجاهدون هذه الشهوات جهاداً يفرطون فيه بحقوق البدن، فلا يعطونه ما يكفيه من الغذاء، ويقصرون في الحقوق الزوجية، فيجنون على أشخاصهم وعلى النوع كله بالتفريط، كما يجني عليهما عبيد الشهوات بالإفراط، وهداية الإسلام تحظر هذا وذاك، وتوجب الأكل من الطيبات بشرط عدم الإسراف، ولو سلكوا مسلك الإهتداء بالقرآن في فهم أسرار الخلق، ومعرفة منافعه.. لاستفادوا السعادة في معاشهم، والاستعداد لمعادهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ والساهون عما فيه صلاحهم في الحياتين، أو عما أعد الله لأوليائه من الثواب، ولأعدائه

من العقاب، وهم في الغفلة على درجات، فمنهم الغافلون عن آيات الله في الأنفس والآفاق التي تهدي العبد إلى معرفة ربه، والغافلون عن استعمال مشاعرهم وعقولهم في أفضل ما خلقت لأجله، والغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية والقومية والدينية.

والخلاصة: أنّ أهل النار هم الأغبياء الجاهلون الغافلون الذين لا يستعملون عقولهم في فقه حقائق الأمور، وأبصارهم وأسماعهم في استنباط المعارف، واستفادة العلوم، ولا في معرفة آيات الله الكونية، وآياته التنزيلية، وهما سبب كمال الإيمان والباعث النفسي على كمال الإسلام ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها، لدلالتها على أحسن المعاني وأشرفها. ﴿فَٱدْعُوهُ﴾؛ أي: فادعو الله سبحانه وتعالى وسموه ونادوه﴿بِهَا﴾؛ أي: بتلك الأسماء عند الدعاء لحوائجكم، وعند الذكر والثناء عليه، كأن تقول: يا الله يا رحمن يا رحيم؛ أي: فاذكروه ونادوه بها إما للثناء عليه نحو ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ونحو: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ وإما لدى السؤال، وطلب الحاجات، وذكر الأسماء الحسنى في أربع سور من القرآن:

أولها: هذه السورة.

ثانيها: في آخر سورة الإسراء في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾.

وثالثها: في أول طه في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

رابعها: في آخر الحشر في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. اهـ. الخطيب.

وللذكر فوائد: منها تغذية الإيمان، ومراقبة الله تعالى، والخشوع له، والرغبة فيما عنده، واحتقار آلام الدنيا، وقلة المبالاة بما يفوت المؤمن من نعيمها، ومن ثم جاء في الحديث: «من نزل به غم أو كرب أو أمر مهم فليقل:

لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم» رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

وروى الحاكم في «المستدرك» عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

وأسماء الله كثيرة، وكلها حسنى لدلالة كل منها على منتهى كمال معناه، وتفضيلها على ما يطلق منها على المخلوقين، كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم.

وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها.. دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر». وفي رواية: «من أحصاها» في رواية أخرى: «لله تسعة وتسعون اسماً، مئة إلا واحداً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». قال البخاري: أحصاها: حفظها. وفي رواية الترمذي قال: قال رسول الله ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة:

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن العزيز، الجبار المتكبر، الخالق البارىء المصور، الغفار القهار، الوهاب الرزاق، الفتاح العليم، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، السميع البصير، الحكم العدل، اللطيف الخبير، الحليم العظيم، الغفور الشكور، العلي الكبير، الحفيظ المقيت، الحسيب الجليل، الكريم الرقيب، المجيب الواسع، الحكيم الودود، المجيد الباعث، الشهيد الحق، الوكيل القوي، المتين الولي، الحميد المحصي، المبدىء المعيد، المحي المميت، الحي القيوم، الواجد الماجد، الواحد الصمد، القادر المقتدر، المقدم المؤخر، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الوالي المتعال، البر التواب، المنتقم العفو،

الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، المقسط الجامع، الغني المغني، المانع الضار النافع، النور الهادي، البديع الباقي، الوارث الرشيد الصبور» وقد شرحت معاني هذه الأسماء كلها في كتابي «هدية الأذكياء على طيبة الأسماء منظومة الأسماء الحسنى» لرستم الحلبي، فراجعه إن شئت.

وقد اختلف[1] المحدثون في سرد هذه الأسماء، هل هو مرفوع أو مدرج في الحديث من بعض الرواة؟ والثاني هو الراجح، ومن ثم لم يخرجه الشيخان لتفرد الوليد بن مسلم به واحتمال الإدراج كما قاله الحافظ بن حجر في «الفتح».

﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾؛ أي: فادعوا[2] بأسمائه التي سمى بها نفسه، أو سماه بها رسوله، ففيه دليل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية، ومما يدل على صحة هذا القول ويؤكده أنَّه يجوز أن يقال: يا جواد، ولا يجوز أن يقال: يا سخي، ويجوز أن يقال: يا عالم، ولا يجوز أن يقال: يا عاقل، ويجوز أن يقال: يا حكيم، ولا يجوز أن يقال: يا طبيب.

وللدعاء بها شروط: منها أن يعرف الداعي معاني الأسماء التي يدعو بها، ويستحضر في قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى، ويخلص النية في دعائه، مع كثرة التعظيم والتبجيل والتقديس لله، ويعزم المسألة مع رجاء الإجابة، ويعترف لله سبحانه وتعالى بالربوبية، وعلى نفسه بالعبودية، فإذا فعل العبد ذلك.. عظم موقع الدعاء، وكان له تأثير عظيم.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ﴾ تعالى؛ أي[3]: واتركوا أيها المؤمنون تسمية الذين يزيفون ويميلون عن الحق في أسمائه تعالى، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، يا سخي يا عاقل، أو بما يوهم معنى فاسداً، كقولهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه، كقولهم: ما نعرف إلا رحمن اليمامة، أو: وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام،

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) البيضاوي.

واشتقاق أسمائها منها، كاللات من الله، والعزى من العزيز، ولا توافقوهم عليه، أو: أعرضوا عنهم، فإنَّ الله سبحانه وتعالى مجازيهم كما قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لأنَّهم سيلقون جزاء عملهم، وتحل بهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، فاجتنبوا إلحادهم كيلا يصيبكم مثل ما يصيبهم، وهذا تهديد لمن ألحد في أسمائه تعالى، وهذا قبل الأمر بالقتال، فهو منسوخ بآية السيف، وقرأ حمزة ﴿يَلحدون﴾ بفتح الياء والحاء هنا وفي فصلت والنحل، ووافقه عاصم والكسائي في النحل، يقال: لحد وألحد إذا مال عن الحق، وهي قراءة ابن وثاب والأعمش وطلحة وعيسى، وقرأ باقي السبعة بضم الياء وكسر الحاء فيهن من ألحد الرباعي.

فصل في الإلحاد

في أسمائه تعالى وأقسامه

والإلحاد ضربان(١): إلحاد إلى الشرك بالله وهو ينافي الإيمان ويبطله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب كأن ينظر إليها مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيره، أو يعتقد أنَّها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى، وهذا يوهن عرا الإيمان، ولا يبطله.

والخلاصة: أن الإلحاد في أسمائه الحسنى أقسام:

١ ـ تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه في كتابه أو ما صح من حديث رسوله ﷺ، فقد اتفق أهل الحق على أن أسماءه وصفاته تعالى توقيفية؛ أي: تحتاج إلى إذن من الشارع لصحة إطلاقها عليه تعالى، وكل ما ورد في الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاء ووصفاً له، وإخباراً عنه، يصح إثباته له، ويمنع كل ما دلت على منعه، قال في «الكشاف»: كقول أهل البدو: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا سخي.

---

(١) المراغي.

٢ ـ ترك تسميته بما سمى به نفسه، أو وصفها به، أو ترك إسناد ما أسنده تعالى إلى نفسه من الأفعال، بناء على أن ذلك لا يليق به تعالى، أو أنَّه يوهم نقصاً في حقه، كأن هؤلاء الملحدين أعلم منه ومن رسوله ﷺ بما يليق به وما لا يليق.

٣ ـ تغيير أسمائه بوضعها لغيره مما عبد من دونه، كاللات والعزى.

٤ ـ تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضرب من التأويل، فقد ذهب جماعة من المسلمين إلى جعل الرب القدوس الذي ليس كمثله شيء كرجل من خلقه؛ لأنَّه تعالى وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك، كالسمع والبصر والكلام، والوجه، واليد، والرجل، والضحك، والرضا والغضب، وذهبوا إلى تأويل جميع صفاته تعالى حتى جعلوها كالعدم.

٥ ـ إشراك غيره فيما هو خاص به من أسمائه باللفظ، كاسم الجلالة الله، والرحمن، ورب العالمين، وما في معناه كرب السماء والأرض، أو رب الكعبة أو رب البيت (الكعبة) كما قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾.

٦ ـ إشراك غيره في كمال أسمائه، كمن يزعم أو يعتقد أن لغيره تعالى رحمة كرحمته، ورأفة كرأفته، وغير ذلك من معاني أسمائه، كالمجيب مثلاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وبعض الذين يدعون غير الله تعالى من الموتى يعتقدون أنَّهم أسرع وأقرب في إجابتهم من الله تعالى، فيجمعون بذلك بين شركين، شرك دعاء غير الله مع اعتقاد إجابته، وشرك الكفر بتفضيل غيره عليه سبحانه في سرعة الإجابة مع أن الله يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؛ أي: لا يجيب المضطر إلا هو، فهو المستحق وحده للعبادة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعة وعصابة كثيرة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ويدلونهم على الاستقامة حالة كونهم ملتبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل والصواب ﴿وَبِهِ﴾؛ أي: وبالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يحكمون بين الناس في الحكومات والخصومات الجارية فيما بينهم، ولا يجورون فيها، والمعنى: وبالحق خاصة يجعلون الأمور متعادلة، لا

زيادة في شيء منها على ما ينبغي، ولا نقص، لأنّا وفقناهم فكشفنا عن أبصارهم حجاب الغفلة التي ألزمناها أولئك المتقدمين، والمعنى[1]: ويكون ممن خلقنا جماعة كبيرة مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة يهدون الناس بالحق، ويدلونهم على الاستقامة، وبالحق يحكمون في الحكومات التي تجري بينهم، ولا يجورون في حكمهم، فسبيلهم واحدة؛ لأن الحق واحد لا يتعدد، وهؤلاء هم أمة محمد ﷺ.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «هذه أمتي بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون»، وأخرج عبد الله بن حميد وابن المنذر عن قتادة فيها قال: بلغنا أنَّ النبي ﷺ كان يقول إذا قرأها: «وهذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها» ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال: لتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة، يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ فهذه هي التي تنجو من هذه الأمة.

وروى الشيخان عن معاوية قال ـ وهو يخطب ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» وفي الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به، ويهدي إليه.

ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة.. بين حال من يخالفهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرآنية والكونية التي جاء بها محمد ﷺ، وهم جميع أنواع الكفرة من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ أي: سنأخذهم قليلاً قليلاً ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من حيث لا يحتسبون الهلاك والأخذ ولا يظنونه، وقيل معناه[2]: سنقربهم إلى ما يهلكهم، ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

ما يراد بهم؛ لأنَّهم كانوا إذا أتوا بجرم، أو أقدموا على ذنب.. فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة في الدنيا، فيزدادون بذلك تمادياً في الغي والضلال، ويتدرجون في الذنوب والمعاصي، فيأخذهم الله أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه، والمعنى: أي: والذين كذبوا بآيات الله، ولم يؤمنوا بها سندعهم ونتركهم يسترسلون ويستمتعون في غيهم وضلالهم، لا يدرون شيئاً من عاقبة أمرهم لجهلهم سنن الله تعالى في المنازعة بين الحق والباطل، وأن الحق يدفع الباطل، وما ينفع الناس يتغلب على ما يضرهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾.

وقد صدق الله وعده، فقد كان كفار قريش وصناديدها يبالغون في عداوة النبي ﷺ اغتراراً بكثرتهم وثروتهم، لا يعتدون به ولا بغيره ممن آمن به أولاً، وأكثرهم من الضعفاء الفقراء، فما زالوا يتدرجون في عداوتهم له، وقتالهم إياه حتى أظهره الله تعالى عليهم في غزوة بدر، فلم يعتبروا، ثم زادهم غروراً تغلبهم عليه آخر معركة أحد، حتى قال أبو سفيان يوم بيوم بدر، إلى أن كان الفتح الأعظم فتح مكة، فأظهر رسوله ﷺ ومن اتبعه عليهم من حيث لا يعلمون سننه تعالى.

وأثر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لما حملت إليه كنوز كسرى: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً، فإني سمعتك تقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ وقرأ بعضهم: ﴿سيستدرجهم﴾ بالياء فيحتمل أن يكون الفاعل الله سبحانه، وهو التفات من التكلم إلى الغيبة، وأن يكون الفاعل ضمير التكذيب المفهوم من قوله: ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾؛ أي: وأمهل لهؤلاء المكذبين المستدرجين في العمر، وأمد لهم في أسباب المعيشة، والتدرب على الحرب بمقتضى سنني في نظام الاجتماع البشري، كيداً لهم ومكراً بهم، لا حباً فيهم، ونصراً لهم، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وروى الشيخان من حديث أبي موسى: «إن الله ليمد للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

وخلاصة ذلك: أنَّ سنة الله قد مضت في الأمم والأفراد بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق، فالظالم إذا لم ينزل به العقاب عقب ظلمه ازداد بغياً وظلماً، ولا يحسب للعواقب حساباً، فيسترسل في ظلمه إلى أن تحيق عاقبة ظلمه في الدنيا بأخذ الحكام له، أو بوقوعه في المصائب والمهالك، وله في الآخرة عذاب النار، وبئس القرار.

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾؛ أي: إنَّ استدراجي ومكري وأخذي قوي لا يدافع بقوة، ولا بحيلة، وسمى العذاب كيداً لأنَّ ظاهره إحسان ولطف، وباطنه خذلان وقهر، وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر: ﴿أنَّ كيدي﴾ بفتح الهمزة على معنى: لأجل أن كيدي. وقرأ الجمهور بكسرها على الاستئناف، والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: أكذبوا بآياتنا ولم يتفكروا فيها فيعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾؛ أي: شيء من جنون؛ أي: أكذبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من بدء نشأته، وفي حقيقة دعوته، ودلائل رسالته، وآيات وحدانية الله وقدرته على إعادة خلقه كما بدأهم.

إنَّهم إنْ تفكروا في ذلك ملياً.. أوشكوا أن يعرفوا الحق، وما الحق إلا أن صاحبهم ليس به جنة، وقد حكى الكتاب الكريم أنَّهم رموه بالجنون كقوله في كفار مكة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾﴾ وقوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾.

وعبر عنه ﷺ بصاحبهم للإعلام بأن طول مصاحبتهم له ﷺ مما يطلعهم على نزاهته ﷺ عن شائبة الجنون.

وقد جرت عادة الكفار أن يرموا رسلهم بالجنون؛ لأنَّهم ادعوا أن الله خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشراً كغيرهم، لا يمتازون من سائر الناس بزعمهم؛ ولأنَّهم ادعوا ما لم يعهد له نظير عندهم، فقد حكى الله عن قوم نوح أنَّهم اتهموه بالجنون فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾. وقال في شأنهم: ﴿...﴾ ﴿٢٥﴾. وقال حكاية عن فرعون في موسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾. وقد بين سبحانه ذلك على وجه عام فقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾. ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما صاحبكم محمد ﷺ ﴿إِلَّا﴾ رسول ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: مخوف من عذاب الله لمن كذب به ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: مظهر لهم في التخويف بلغة يعرفونها؛ أي: إنَّه ليس بمجنون بل هو منذر ناصح، ومبلغ عن الله تعالى، فهو ينذركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة إذا لم تستجيبوا له، وقد دعاكم إلى ما فيه صلاحكم في الدنيا بجمع الكلمة، وصلاح حال الفرد والمجتمع، والسيادة على من سواكم، وصلاحكم في الآخرة بلقاء ربكم وأنتم في جنان النعيم.

ولو تأمل مشركوا مكة في نشأته ﷺ - وما جربوا من أمانته وصدقه - إلى أن اكتهل، ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد الله وعبادته وحده، وما دعاهم إليه من إصلاح في حالهم الدينية والمدنية والاجتماعية.. لعلموا أن هذا كله لا يصدر من مجنون، بل الذي يقتضيه العقل، ويسرع إليه الفكر أن هذا ليس من رأي ذلك النبي الأمي الناشىء بين الأميين، وأنَّ ما أقامه من الحجج والبراهين العقلية والكونية على ما يدعي لا يصدر ممن لم يناظر، ولم يفاخر، ولم يجادل أحداً فيما مضى، إن هو إلا وحي من الله ألقاه في روعه، ونزل من لدنه على روح القدس، والله يختص بفضله ورحمته من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ للاستفهام التوبيخي التعجبي، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أكذبوا الرسول الذي علموا صدقة وأمانته وقالوا: إنه مجنون، وهو الذي شهر لديهم بالروية والعقل، ولم ينظروا نظرة تأمل واستدلال في هذا الكون العظيم من السموات والأرض، فيروا ذلك النظام البديع فيهما الدال على القدرة الباهرة والحكمة الظاهرة ﴿و﴾ لم ينظروا في ﴿ما خلق الله﴾ سبحانه وتعالى فيهما ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأجناس التي لا يحصرها عدد، وإن دق وصغر، فإنَّهم لو تأملوا

في كل ذلك.. لرأوا آثار قدرته وعلمه وفضله ورحمته، وأنَّه لم يخلق شيئاً من ذلك عبثاً، ولا ترك الناس سدى، إنَّ كل ذرة فيهما لدليل لائح على الصانع المجيد، وسبيل واضح إلى التوحيد.

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَـلَـىٰ أَنَّـهُ ٱلْـوَاحِـدُ

إنهم لو نظروا في شيء من ملكوت السموات والأرض.. لاهتدوا بدلائله إلى تصديق الرسول ﷺ وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ معطوف[1] على ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و ﴿أَن﴾ مصدرية أو مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وكذا اسم ﴿يَكُونَ﴾ ضمير الشأن، والمعنى: أولم ينظروا في اقتراب آجالهم، وتوقع حلولها، فيسارعون إلى طلب الحق، والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مغافصة[2] الموت، ونزول العذاب، فإنهم لو نظروا في توقع قرب آجالهم وقدومهم على ربهم بسوء عملهم.. لاحتاطوا لأنفسهم، ورأوا أنَّ من الحكمة أن يقبلوا إنذاره ﷺ لهم، فما جاءهم به لا ينكرون أنَّه خير لهم في الدنيا، وخير لهم في الآخرة إذا صدق ما يقرره من أمر البعث والجزاء، وهو صدق وحق لا شك فيه.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ وكتاب ﴿بَعْدَهُۥ﴾؛ أي: بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون إن لم يؤمنوا به، وهو أكمل كتب الله تعالى بياناً، وأقواها برهاناً، فمن لم يؤمن به.. فلا مطمع في إيمانه بغيره، وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وهي جملة استفهامية سيقت للعجب؛ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث.. فكيف يؤمنون بغيره.

والمعنى[3]: فبأي كتاب بعد الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ يصدقون إنْ لم يصدقوا به، وليس بعد محمد نبي، ولا بعد كتابه كتاب؛ لأنَّه خاتم الأنبياء، وكتابه آخر الكتب لانقطاع الوحي بعد محمد ﷺ؟ ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان فقال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: من يرد الله سبحانه وتعالى إضلاله عن الحق والصواب: ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾؛ أي: فلا مرشد له إلى الحق، فإنَّ إعراضهم

---

(١) البيضاوي.

(٢) مغافصة الموت: مفاجئة الموت.

(٣) الخازن.

عن الإيمان لإضلال الله إياهم؛ أي: إن الله تعالى قد جعل هذا الكتاب أعظم أسباب الهداية للمتقين لا للجاحدين المعاندين، وجعل الرسول المبلغ له أقوى الرسل برهاناً، وأكملهم عقلاً وأجملهم أخلاقاً، فمن فقد الاستعداد للإيمان بهذا الكتاب وهذا الرسول.. فهو الذي أضله الله؛ أي: هو الذي قضت سنته في خلق الإنسان، وارتباط أعماله بأسباب تترتب عليها مسبباتها، بأن يكون ضالاً راسخاً في الضلال، وإذا كان ضلاله بمقتضى تلك السنن.. فمن يهديه من بعد الله؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير تلك السنن وتبديلها ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾؛ أي: وهو سبحانه وتعالى يذر هؤلاء الضالين ويتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يتحيرون يترددون حيرة، ولا يهتدون سبيلاً للخروج مما هم فيه، بما كسبت أيديهم من الطغيان، وتجاوز الحد في الظلم والفجور.

والخلاصة(١): أنَّه ليس معنى إضلال الله لهم أنَّه أجبرهم على الضلال وأعجزهم بقدرته عن الهدى، فكان ضلالهم جبراً لا اختياراً، بل المراد أنَّهم لما مرنت قلوبهم على الكفر والضلال، وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمه في الطغيان.. فقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضادها من الهدى والإيمان، فأصبحت نفوسهم لا تستنير بالهدى، وقلوبهم لا ترعوي لدى الذكرى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقرأ الحسن(٢) وقتادة وأبو عبد الرحمن وأبو جعفر والأعرج وشيبة ونافع وابن كثير وابن عامر: ﴿ونذرهم﴾ بالنون ورفع الراء، وأبو عمرو وعاصم: بالياء ورفع الراء، وهو استئناف إخبار قطع أو أضمر قبله نحن، فيكون جملة اسمية، وقرأ ابن مصرف والأعمش والأخوان - حمزة والكسائي - وأبو عمرو فيما ذكر أبو حاتم: بالياء والجزم، وروى خارجة عن نافع: بالنون والجزم، وخرج سكون الراء على وجهين:

أحدهما: أنَّه سكن لتوالي الحركات، كقراءة: ﴿وما يشعركم وينصركم﴾ فهو مرفوع.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

والآخر: أنَّه مجزوم عطفاً على مَحلَ ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾؛ فإنه في موضع جزم، فصار مثل قوله: ﴿فهو خير لكم ونكفر﴾: في قراءة من قرأ بالجزم، في (راء) و ﴿نكفر﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ أي: يسألك يا محمد كفار قريش سؤال استهزاء وسخرية ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: عن وقت قيام الساعة ومجيء القيامة، والساعة من الأسماء الغالبة، كالنجم للثريا، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة على حين غفلة من الناس، أو لأنَّ حساب الخلق يقضي فيها في ساعة واحدة، أو لأنَّها مع طولها في نفسها عند الخلق كساعة من الساعات عند الله.

وهذا كلام مستأنف مسوق لبيان بعض أنواع ضلالهم وطغيانهم؛ أي: يسألونك عن الساعة بقولهم ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؛ أي: متى إرساؤها ووقوعها وحصولها، وكأنه شبهها بالسفينة القائمة في البحر تشبيهاً للمعاني بالأجسام، والساعة الوقت الذي تموت فيها الخلائق، وقرأ الجمهور: ﴿أيان﴾ بفتح الهمزة، والسلمي بكسرها حيث وقعت، وهي لغة قومه بني سليم. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في جواب سؤالهم ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾؛ أي: علم وقت مجيئها كائن ﴿عِندَ رَبِّى﴾ سبحانه قد انفرد بعلمها، بحيث لم يخبر به أحداً من ملك مقرب، أو نبي مرسل؛ أي: ما علمها حاصل إلا عند الله سبحانه وتعالى، والمعنى: يسألونك أيها الرسول عن الساعة يقولون: متى إرساؤها واستقرارها؟ - والسائلون هم قريش - لأنَّ السورة مكية ولم يكن في مكة أحد من اليهود، وسؤالهم عن هذا الوقت استبعاد منهم لوقوعه، وتكذيب بوجوده، كما جاء حكاية عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾. وفي التعبير عن زمن وقوعها - بالإرساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والاضطراب - إيماء إلى أنَّ قيام الساعة هو انتهاء أمر هذا العالم، وانقضاء عمر هذه الأرض التي تدور بما فيها من العوالم المتحركة المضطربة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾؛ أي: قل إن علم الساعة عند ربي وحده، لا عندي ولا عند غيري من الخلق، وقد جاء بمعنى الآية قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ۝٤٤﴾ وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾ إشارة إلى أنَّ ما هو من شأن الرب لا يكون للعبد، فالله قد أعد نبيه ليكون منذراً ومبشراً، والإنذار إنَّما يكون بالساعة وأهوالها، لا للإخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها، إذ تحديد ذلك ينافي هذه الفائدة، بل فيه مفاسد، إذ لو وقت الرسول ميعاد الساعة بتاريخ معين لاستهزأ به المكذبون، ولألحوا في تكذيبه، وازدادوا ارتياباً، حتى إذا ما وقع الأجل وقع المؤمنون في رعب عظيم، ينغص عليهم حياتهم، ويشنج أعصابهم، فلا يستطيعون عملاً، ولا يستسيغون طعاماً ولا شراباً، ويسخر الكافرون من المؤمنين.

والخلاصة: أن هناك حكمة بالغة في إبهام أمر الساعة العامة للعالم، والساعة الخاصة بالأفراد والأمم والأجيال يجعلها من الغيب الذي استأثر الله تعالى به.

﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾؛ أي: لا يظهر أمرها الذي تسألونني عنه ﴿لِوَقْتِهَآ﴾؛ أي: في وقتها المعين لها ﴿إِلَّا هُوَۚ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لا يقدر على إظهار وقتها المعين بالإخبار عنه إلا هو سبحانه وتعالى، والمعنى: لا يكشف حجاب الخفاء عنها، ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الله تعالى، إلا هو سبحانه، إذ لا وساطة بينه وبين عباده في إظهارها، ولا في الإعلام بميقاتها، وإنَّما وساطة الرسل في الإنذار بها.

﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾؛ أي: ثقل وصعب تحصيل العلم بوقتها على أهل السموات والأرض، فلم يعلم أحد من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين متى وقوعها، وقيل المعنى: ثقل وقتها، وعظم أمرها في السموات والأرض على أهلهما من الملائكة والإنس والجن؛ لأنَّ الله تعالى أنبأهم بأهوالها، ولم يشعرهم بميقاتها، فهم دائماً يتوقعون أمراً عظيماً لا يدرون متى يفجؤهم قيامها.

وقال السدي: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها ملَك مقرب ولا نبي مرسل. وقال ابن عباس: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه ضرر يوم القيامة. وروي عن ابن جريج: أن ثقلها يكون يوم مجيئها ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝﴾ إلى نحو ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾ الساعة أيها السائلون عنها ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾؛ أي: إلا فجأة وحين غفلة من الخلق بلا إشعار ولا إنذار، وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته، فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه - أي يصلحه بطين وجص ليمسك الماء - فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فمه فلا يطعمها». والمراد من هذا كله أنَّها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم.

ويجب[١] على المؤمنين أنْ يخافوا ذلك، وأنْ يحملهم ذلك على مراقبة الله تعالى في أعمالهم، بأن يلتزموا فيها الحق ويتحروا الخير، ويتقوا الشر والمعاصي، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدل فيها، وكثرة القيل والقال في شأنها، وفي تعيين ميقاتها، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ فيه تقديم وتأخير؛ أي: يسألونك عنها كأنك حفي بها؛ أي: سألك قومك يا محمد عن حقيقة الساعة وكنهها وثقلها وشدائدها، كأنك حفي أي: عالم بها، ومتيقن لها، فعلى هذا التفسير فلا تكرار مع ما سبق؛ لأن السؤال الأول عن وقت مجيئها، وهذا الثاني عن حقيقتها وكنهها وثقلها، وقيل: السؤال هنا أيضاً عن وقت مجيئها، ولكن كرره تأكيداً لما سبق، وتقريراً له. وقد يكون المعنى: يسألونك عنها كأنك حفي وشفيق بهم، وصديق لهم بينك وبينهم مودة، ويؤيد هذا ما روي عن ابن عباس قال: لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأن محمداً حفي بهم؟ فأوحى الله إليه: «إنما علمها عنده استأثر به، فلا يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا رسولاً» وما روي عن قتادة قال: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة. فأشر إلينا متى الساعة، فقال: الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

وقرأ عبد الله[٢]: ﴿كأنك حفي بها﴾ بالباء مكان عن؛ أي: عالم بها، بليغ

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

في العلم بها ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾؛ أي: علم حقيقتها أو علم وقت مجيئها كائن ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، استأثر بعلمه لا يعلمه أحد من خلقه، أنا ولا غيري، وكرر الجواب إثر تكرير السؤال مبالغة في التأكيد، وإيآساً لهم من العلم بوقت مجيئها، وتخطئة لمن يسألون عنها، وعبَّر في هذا الجواب بلفظ الجلالة حيث قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي الجواب السابق بلفظ: ﴿رَبِّي﴾ حيث قال: ﴿عِندَ رَبِّي﴾ إشارة إلى أنَّه استأثر بعلمها لألوهيته، كما أشعر في السابق بأن علمها من شؤون ربوبيته، وكلاهما مستحيل على خلقه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون اختصاص علمها به تعالى، ولا حكمة ذلك، ولا أدب السؤال ولا نحو ذلك مما ينبغي أن يعلم في هذا الباب، وإنَّما يعلم ذلك القليلون منهم، وهم المؤمنون بما جاء في كتاب الله من أخبارها، وبما سمع من رسوله ﷺ، كمن حضروا تمثل جبريل عليه السلام بصورة رجل، وسؤاله النبي محمد ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، ثم عن الساعة؟ وإجابة النبي ﷺ له عن سؤاله الأخير بقوله: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»؛ أي: إنا سواء في جهل هذا الأمر، فلا يعلم أحد منا متى تقوم الساعة.

وقال الطبري[1]: المعنى: لا يعلمون أنَّ هذا الأمر لا يعلمه إلا الله، بل يظن أكثرهم أنَّه مما يعلمه البشر. اهـ وقيل: لا يعلمون أن القيامة حق؛ لأنَّ أكثر الناس ينكرون المعاد ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾... الآية. قيل: لا يعلمون أني أخبرتك أن وقتها لا يعلمه إلا الله، وقيل: لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفيت معرفة وقتها، والأظهر قول الطبري كما أشرنا إليه في الحل.

قال الألوسي[2]: وإنَّما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك، فإنه أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك، وظاهر الآيات أنه عليه السلام لم يعلم وقتها، نعم علم عليه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الألوسي.

الصلاة والسلام قربها على الإجمال، وأخبر به، فقد أخرج الترمذي وصححه عن أنس مرفوعاً: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى، وفي «الصحيحين» عن ابن عمر مرفوعاً أيضاً «إنما أجلكم فيما مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس». اهـ.

فصل في عمر الدنيا

ألف الجلال السيوطي رسالة سماها: «الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف» أخرج فيها عدة أحاديث في أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وأن مدة هذه الأمة تزيد على ألف ولا تبلغ الزيادة خمس مئة، وسمى بعضهم الألف الثانية بالألف المخضرمة؛ لأن نصفها دنيا، ونصفها الآخر أخرى، ولا شك أن ما جاء في هذا الباب كله مأخوذ من الإسرائيليات التي كان يبثها زنادقة اليهود والفرس في المسلمين، حتى رووه مرفوعاً وقد اغتر بها من لا ينظر في نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها، وقد هدمها الزمان وهدم كثيراً مثلها من الأوهام والخرافات، التي أريد بها الكيد للإسلام.

والخلاصة: أنَّ القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بسبعة آلاف لم يثبت في نص يعتمد عليه، وإنْ كانت قد رويت فيه آثار عن السلف، أكثرها مأخوذ عن أهل الكتاب، وفي أسانيدها مقال، قال ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ: أما نحن فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا، ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل.. فقد قال ما لم يأت قط عن رسول الله ﷺ فيه لفظة تصح، بل صح عنه خلافه، بل نقطع على أنَّ للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله تعالى، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «ما أنتم في الأمم قبلكم إلا كالشعر البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض» وهذه نسبة من تدبرها، وعرف مقدار عدد أهل الإسلام، ونسبة ما بأيديهم من معمور الأرض، وأنَّه الأكبر.. علم أنَّ للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله اهـ.

فصل في بعض أشراط الساعة وعلاماتها

الأشراط واحدها شرط، أسباب وسبب، وهي العلامات والأمارات الدالة على قربها، وقد ثبت في الكتاب والسنة أنَّ للساعة أشراطاً كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ ومن أعظم أشراطها بعثة خاتم النبيين بآخر هداية الوحي الإلهي للناس أجمعين، فبعثته قد كمل بها الدين، وبكماله تكمل الحياة البشرية الروحية، ويتلوها كمال الحياة المادية، وما بعد الكمال إلّا الزوال.

وقد وردت أحاديث في أشراط الساعة يدل بعضها على أنَّ الشهوات المادية تتنازع مع الهداية الروحية فيكون لها الغلبة زمناً. ثم تنتصر الهداية الروحية، ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر، حتى تقوم الساعة على شرار الخلق، وقد قسموا أشراطها ثلاثة أقسام:

١ ـ ما وقع بالفعل منذ قرون خلت، كقتال اليهود، وفتح بيت المقدس، والقسطنطينية.

٢ ـ ما وقع بعضه ـ وهو لا يزال في ازدياد ـ كالفتن والفسوق، وكثرة الزنا وكثرة الدجالين، وكثرة النساء وتشبههن بالرجال، والكفر والشرك، حتى في بلاد العرب.

٣ ـ ما سيقع بين يدي الساعة من العلامات الصغرى والكبرى.

المهدي المنتظر

أشهر الروايات أنَّ اسمه محمد بن عبد الله، والشيعة يقولون: إنَّه محمد بن الحسن العسكري، ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظَر، ويقولون: إنَّه دخل السرداب في دار أبيه في مدينة «سرَّ من رأى» التي تسمى الآن «سامراء» سنة (٣٦٥)، وله من العمر تسع سنين، وأنَّه لا يزال في السرداب حياً، وزعمت الكيسانية أنه محمد بن الحنفية، وأنه حي مقيم بجبل رضوى ـ جبل بالمدينة ـ بين أسدين يحفظانه، وعنده عينان نضاختان تفيضان عسلاً ولبناً، ومعه أربعون من أصحابه.

والمشهور في نسبه أنَّه علوي فاطمي من ولد الحسن، وهناك رواية مصرحة بأنَّه من ولد العباس، فقد روى الرافعي عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال للعباس: «ألا أبشرك يا عم إنَّ من ذريتك الأصفياء ومن عترتك الخلفاء، ومنك المهدي في آخر الزمان، به ينشر الله الهدى، ويطفىء نيران الضلالة، إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك يختم».

ومن حديث ابن عساكر عنه مرفوعاً «اللهم انصر العباس وولد العباس - ثلاثاً - يا عم، أما علمت أن المهدي من ولدك موفقاً مرضياً». وفي معناهما أحاديث أخرى لأبي هريرة وأم سلمة وعلي، وأكثر العلماء ينكرون هذه الأحاديث، ويقولون: إنها موضوعة لا نصيب لها من الصحة، ومن ثم لم يعتد بها الشيخان، ومن هؤلاء ابن خلدون، فقد ذكر الأحاديث التي وردت في المهدي وضعفها، وضعف أسانيدها، وانتهت به خاتمة المطاف إلى أنَّه لم يصح فيه شيء يوثق به، إلى أنْ قال: إن لله سنناً - في الأمم والدول والعمران - مطردة في كل زمان ومكان، كما ثبت في مصحف القرآن وصحف الأكوان، ومنها أن الدول لا تقوم إلا بعصبية، وأن الأعاجم سلبوا العصبية من قريش والعترة النبوية، فإن صحت أخبار هذا المهدي فلا يظهر إلا بعد تجديد عصبية هاشمية علوية، ولو سمعوا وعقلوا لسعوا وعملوا، ولكان استعدادهم لظهور المهدي بالاهتداء بسنن الله رحمة لهم تجاه ما كانوا في أخباره من الفتن والنقم فيهم، وربما أغناهم عن بعض ما يروجون من زعامته، إن لم يغنهم عنه كله.

هذا والمسلمون لا يزالون على ظهور المهدي، ويزعم دهماؤهم أنَّه سينقض لهم سنن الله، أو يبدلها تبديلاً وهم يتلون قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

فإذا كان من أشراط الساعة آيات، وكان في زمانها خوارق عادات، فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم، وإقامة لشرعهم في عزة وسلطان في أرضهم، وكان لكعب الأحبار جولة واسعة في تلفيق تلك الأخبار.

وقد كانت هذه المسألة أكبر مثارات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية،

إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان، ومن أدعياء الولاية لدعوى المهدوية في الشرق والغرب، وتأييد دعواهم بالقتال والحرب، وبالبدع والإفساد في الأرض، حتى خرج ألوف الألوف من هداة الدين، ومرقوا من الإسلام.

وقد كان من حصافة الرأي أنْ يكون خروج المهدي باعثاً لهم على الاستعداد لظهوره، بتأليف عصبية قوية بزعامته، تجدد الإسلام وتنشر العدل في الإسلام، لكنهم لم يفعلوا، بل تركوا ما يجب من حفظ سلطان الملة بجمع كلمة الأمة، وبإعداد ما استطاعوا من حول وقوة، واتكلوا على قرب ظهور المهدي، وأنه هو الذي سيرد إليهم ملكهم بالكرامات وخوارق العادات، لا بالمدافع والدبابات والطيارات، والقاذفات، والأساطيل، والغواصات، وقد فاتهم أنَّ الحرب كانت بين النبي ﷺ وبين المشركين سجالاً، وكان المؤمنون ينفرون منه خفافاً وثقالاً، فهل يكون المهدي أهدى وأحسن منه حالاً ومآلاً؟.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد فيما تبلغه لهم من أمر دينهم ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ ولا لغيري ﴿نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾؛ أي: جلب نفع ولا دفع ضر، مستقلاً بقدرتي على ذلك ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أنْ يقدرني عليه، فإذا أقدرني على جلب النفع.. جلبته بفعل أسبابه، وإذا أقدرني على منع الضر.. منعته بتسخير الأسباب كذلك.

وقد كان المسلمون ـ ولا سيما حديثوا العهد بالإسلام ـ يظنون أنَّ منصب الرسالة يقتضي علم الساعة وغيرها من علم الغيب، وأنَّ الرسول يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضر عن نفسه وعمن يحب، أو عمن يشاء، أو منع النفع وإحداث الضر بمن يكره، أو بمن يشاء، فأمره الله تعالى أن يبين للناس أنَّ منصب الرسالة لا يقتضي ذلك، وأن وظيفة الرسول إنَّما هي التعليم والإرشاد لا الخلق والإيجاد، وأنَّه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك مما علمه الله بوحيه، وأنه فيما عدا ذلك بشر كسائر الناس ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ أي: جلب منافع الدنيا، ودفع مضراتها ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾؛ أي: لحصلت كثيراً من الخير بترتيب الأسباب، كالادخار في زمن الخصب لزمن الجدب ﴿و﴾ لـ﴿ما مسني السوء﴾؛ أي: ولما أصابني

الضر والفقر لاحترازي عنه باجتناب الأسباب، وفي «الكرخي»: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ أي: سوء يمكن التقصي عنه بالتوقي عن موجباته، والمدافعة بموانعه، لا سوءٌ ما؛ فإن منه ما لا مدفع له. اهـ.

قال ابن كثير: أمره الله تعالى أن يفوض الأمر إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب في المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك، إلا ما أطلعه الله عليه كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ روى الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾؛ أي: من المال. وقال ابن جرير: أي: لو كنت أعلم الغيب.. لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص. وقال عبد الله بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته. اهـ.

ثم علل نفي امتيازه عن البشر بملك النفع والضر من غير طرق الأسباب، وسنن الله في الخلق، ونفي امتيازه عنهم بعلم الغيب فقال: ﴿إِنۡ أَنَا۠﴾؛ أي: ما أنا ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾؛ أي: مخوف من النار ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالجنة ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ بالجنة والنار؛ أي: كتب في الأزل أنهم يؤمنون فإنَّهم المنتفعون به، فلا ينافي كونه بشيراً ونذيراً للناس كافة، واللام في قوله: ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ تتعلق بكل من ﴿النذير﴾ و ﴿البشير﴾؛ لأن[1] النذارة والبشارة إنما ينفعان فيهم، أو متعلق بالبشير وحده، والمتعلق بالنذير محذوف؛ أي: إلا نذير للكافرين، وبشير للمؤمنين.

والمعنى[2]: إنَّه لا امتياز لي عن جميع البشر إلا بالتبليغ عن الله عز وجل بالإنذار والتبشير، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة، والآيات في ذلك كثيرة نحو قوله: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾.

والخلاصة: أنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام عباد مكرمون، لا يشاركون الله في صفاته ولا في أفعاله، ولا سلطان لهم على التأثير في علمه، ولا في

(١) النسفي. (٢) المراغي.

تدبيره، وإنَّما يمتازون باختصاص الله تعالى إياهم بوحيه واصطفائهم لتبليغ رسالته لعباده، وجعلهم قدوة صالحة للناس في العمل بما جاؤوا به عن الله تعالى من الصلاح والتقوى والأخلاق الفاضلة.

قال الشوكاني: وفي[1] هذه الآية من إظهار العبودية، والإقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد، والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له ﷺ ما فيه أعظم زاجر، وأبلغ واعظ لمن يدعي لنفسه ما ليس من شأنها، وينتحل علم الغيب بالنجامة أو الرمل، أو الطرق بالحصى أو الزجر اهـ.

قال أبو حيان: وظاهر[2] قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ انتفاء العلم عن الغيب على جهة عموم الغيب، كما روي عنه: «لا أعلم ما وراء هذا الجدار إلا أنْ يعلمنيه ربي» بخلاف ما يذهب إليه هؤلاء الذين يدعون العلم بالمستقبل الغيبي، وأنَّهم برياضة نفوسهم يحصل لهم إطلاع على المغيبات، وإخبار بالكوائن التي تحدث، وما أكثر ادعاء الناس لهذا الأمر، وخصوصاً في ديار مصر، حتى إنَّهم لينسبون ذلك إلى رجل متضمخ بالنجاسة، يظل دهره لا يصلي ولا يستنجي من نجاسة، ويكشف عورته للناس حين يبول، وهو عار عن العلم والعمل الصالح. انتهى.

الإعراب

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿وَٱتْلُ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ٱتْلُ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على العامل المقدر في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ كما ذكره أبو السعود، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿اتل﴾، ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، ﴿فَٱنسَلَخَ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿انسلخ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، ﴿فَأَتْبَعَهُ

---

(١) فتح القدير.　(٢) البحر المحيط.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿انسلخ﴾، ﴿فَكَانَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على المنسلخ، ﴿مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿شِئۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿رفعناه﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِهَا﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾: ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿والهاء﴾: اسمها. ﴿أَخۡلَدَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على المنسلخ، ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿لو﴾، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المنسلخ، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَخۡلَدَ﴾، ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت صفات المنسلخ المذكورة، وأردت بيان مثله لك.. فأقول: مثله كمثل الكلب، ﴿مَثَلُهُۥ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿تَحۡمِلۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ وفاعله ضمير يعود على المخاطب ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلقان بالفعل ﴿تَحۡمِلۡ﴾، ﴿يَلۡهَثۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡكَلۡبِ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب حال من ﴿ٱلۡكَلۡبِ﴾؛ أي: حالة كون الكلب لاهثاً في كل حال، ﴿أَوۡ تَتۡرُكۡهُ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿إِن تَحۡمِلۡ﴾ على كونه فعل شرط لـ﴿إن﴾ وفاعله ضمير يعود على المخاطب، ﴿يَلۡهَثۚ﴾: فعل مضارع معطوف على

﴿يَلْهَثْ﴾ الأول على كونه جواباً لـ﴿إن﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْكَلْبِ﴾.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾، ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، بـ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كَذَّبُوا۟﴾، ﴿فَٱقْصُصِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا تحققت أن المثل المذكور مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، وأردت بيان ما هو اللازم.. فأقول لك: ﴿ٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾: ﴿ٱقْصُصِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿ٱلْقَصَصَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج، ﴿والهاء﴾: اسمها، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ خبرها، وجملة[1] الترجي في محل النصب على أنَّها حال من ضمير المخاطب، أو على أنَّها مفعول له؛ أي: فأقصص القصص راجياً لتفكرهم، أو رجاءً لتفكرهم.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿سَآءَ﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً لشبهه بالمثل تقديره: هو، يعود على مبهم يفسره التمييز، ﴿مَثَلًا﴾ تمييز لفاعل ﴿سَآءَ﴾ المستتر فيه، ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ مخصوص بالذم مرفوع على الابتداء، ولكنه على تقدير مضاف تقديره: مثل القوم، وخبره جملة ﴿سَآءَ﴾ والتقدير: مثل القوم الذي كذبوا بآياتنا ساء مثلاً، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل رفع صفة لـ﴿ٱلْقَوْمُ﴾. ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾: مفعول مقدم لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾: خبره، وجملة

---

(١) الفتوحات.

﴿كَانُوا۟﴾ معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا۟﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو جملة الشرط، أو هما، ﴿يَهْدِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾: مبتدأ وخبر، و﴿الفاء﴾ رابطة الجواب وجوباً، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة من الشرطية مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: الواو: عاطفة ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب على الخلاف المذكور آنفاً، ﴿يُضْلِلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فعل، ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خبره والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ذَرَأْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ متعلق به، ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، ﴿وَٱلْإِنسِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْجِنِّ﴾، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿قُلُوبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب صفة ثانية لـ﴿كَثِيرًا﴾، ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهَا﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿قُلُوبٌ﴾، ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿أَعْيُنٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ على كونها صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، وجملة ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿أَعْيُنٌ﴾، وجملة ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ وجملة ﴿لَّا

﴿يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿ءَاذَانٌ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿أَضَلُّ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: صفة له، والجملة مستأنفة، ﴿فَٱدْعُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن لله الأسماء وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم، ﴿ادعوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَذَرُوا ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿فادعوا﴾، ﴿يُلْحِدُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبرها، وجملة: ﴿كَانُوا﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: كانوا يعملونه.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿وَمِمَّنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ممن﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿خَلَقْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وممن خلقناه، ﴿أُمَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿يَهْدُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق به، والجملة صفة لـ﴿أُمَّةٌ﴾، ﴿وَبِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وجملة ﴿يعدلون﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَهْدُونَ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول،

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿مِّنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، وجملة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

﴿وَأُمْلِي﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أملي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿لَهُمْۚ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، وفيه نوع من الالتفات؛ لأنَّ مقتضى السياق أن يقال: ونملي، أو مستأنفة أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: وأنا أملي، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿كَيْدِي﴾: اسمها ومضاف إليه، ﴿مَتِينٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: أكذبوا بآياتنا ولم يتفكروا، الواو: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لم يتفكروا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة معطوفة على المحذوف الذي قدرناه آنفاً، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿بِصَاحِبِهِم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِّن﴾: زائدة، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول لـ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾؛ لأنَّها علقت بما النافية، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿نَذِيرٌ﴾: خبر، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها وتأكيده.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف تقديره: أكذبوا الرسول الذي علموا صدقه، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لم ينظروا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾.

الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر، معطوفة على ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن شَيْءٍ﴾ حال من الضمير المحذوف من ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: وفي ما خلقه الله من شيء، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: وفي ما خلقه من شيء، ﴿وَأَنْ﴾ الواو: عاطفة ﴿أن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: وفي أنّه، ﴿عَسَىٰٓ﴾: فعل ماض تام من أفعال الرجاء، ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَكُونَ﴾ منصوب بـ﴿أَن﴾، واسمها ضمير الشأن، ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿يَكُونَ﴾، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿عَسَىٰٓ﴾ والتقدير: وأن عسى اقتراب أجلهم، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر معطوف على ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والتقدير: أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وفي ما خلق الله من شيء، وفي توقع اقتراب أجلهم، ﴿فَبِأَيِّ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب شرط محذوف تقديره: إن لم يؤمنوا بهذا القرآن.. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿بِأيّ حَدِيثٍۭ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، والاستفهام فيه تعجبي، ﴿بَعْدَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بالفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بالشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف مستأنفة.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَلَا﴾: الفاء رابطة الجواب بالشرط وجوباً، ﴿لا﴾ نافية تعمل عمل ليس، ﴿هَادِيَ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور، خبر ﴿لا﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة من الشرطية مستأنفة، وهذه الجملة تذييل لما قبلها، ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾: فعل ومفعول،

وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا هَادِيَ﴾، وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في محل النصب حال من هاء ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾. ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ متعلق بـ﴿يسألون﴾ على أنه مفعول ثان له، ﴿أَيَّانَ﴾: ظرف زمان بمعنى متى في محل النصب على الظرفية مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، لتضمنه معنى حرف الاستفهام، وهو خبر مقدم، و﴿مُرْسَاهَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الجر بدل عن ﴿السَّاعَةِ﴾، تقديره: يسألونك عن الساعة عن زمان حلول الساعة، كما ذكره أبو البقاء.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ إلى قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿عِلْمُهَا﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿عِندَ رَبِّي﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُجَلِّيهَا﴾: فعل ومفعول، ﴿لِوَقْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه في محل الرفع فاعل، والجملة مستأنفة في محل النصب مقول القول، ﴿ثَقُلَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿السَّاعَةِ﴾، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: متعلق به ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿السَّاعَةِ﴾، والجملة مستأنفة في محل النصب مقول القول، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بَغْتَةً﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: لا تأتيكم إلا إتيان بغتة.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان خطئهم في

توجيه السؤال إلى رسول الله ﷺ بناء على زعمهم أنَّه عليه الصلاة والسلام عالم بالمسؤول عنه، ﴿كَأَنَّكَ﴾: ﴿كأن﴾: حرف نصب وتشبيه، ﴿والكاف﴾: اسمها، ﴿حَفِيٌّ﴾ خبرها، وجملة ﴿كأن﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ أي: يسألونك حال كونك مشبهاً حالك عندهم بحال من هو حفي بها؛ أي: عالم، ﴿عَنْهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يسألون﴾، وجملة ﴿كأنَّ﴾ معترضة، وصلة ﴿حَفِيٌّ﴾: محذوف تقديره: بها، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مؤكدة للجواب السابق؛ لأنَّها عينه، وعبارة أبي السعود: أُمر عليه السلام بإعادة الجواب الأول تأكيداً للحكم وإشعاراً بعلته. انتهت. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿عِلْمُهَا﴾: مبتدأ، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبرها، وجملة الاستدراك مستأنفة.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت. ﴿لَّآ﴾: نافية، ﴿أَمْلِكُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿لِنَفْسِى﴾: جار ومجرور، متعلق به ﴿نَفْعًا﴾: مفعول به ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ معطوف على ﴿نَفْعًا﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء، ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: إلا ما شاءه الله.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة ﴿أَعْلَمُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا

محل لها من الإعراب، ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿استكثرت﴾: فعل وفاعل ﴿مِنَ الْخَيْرِ﴾ متعلق به، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿استكثرت﴾.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنْ﴾: نافية مهملة لانتقاض نفيها بإلا، ﴿أَنَا﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿نَذِيرٌ﴾: خبر، ﴿وَبَشِيرٌ﴾: معطوف عليه، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿لِقَوْمٍ﴾: جار ومجرور تنازع فيه ما قبله، فعند البصريين يتعلق بـ﴿بشير﴾ لقربة، وعند الكوفيين بـ﴿نَذِيرٌ﴾ لِسَبقه، ويجوز أنْ يكون متعلق النذارة محذوفاً؛ أي: نذير للكافرين، وحذف لدلالة ما قبله عليه، كما في «الكرخي» وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿قوم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ التلاوة: القراءة، والنبأ الخبر الذي له شأن، وانسلاخه منها: كفره بها ونبذه لها من وراء ظهره، ويقال لكل من فارق شيئاً بحيث لا تحدثه نفسه بالرجوع إليه: انسلخ منه، وقال أبو حيان: الانسلاخ التعري من الشيء حتى لا يعلق به منه شيء، ومنه: انسلخت الحياة من جلدها إذا خرجت منه اهـ.

﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: أدركه ولحقه، قال الجوهري: يقال: أتبعت القوم إذا سبقوك فلحقتهم، والمعنى: فصار هو قدوة ومتبوعاً للشيطان على سبيل المبالغة. ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾؛ أي: من الراسخين في الغواية بعد أن كان مهتدياً، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾؛ أي: ركن إلى الدنيا ومال إليها، وقال أبو السعود: الإخلاد إلى الشيء الميل إليه مع الاطمئنان به، وفي «المصباح» خلد بالمكان خلوداً ـ من باب قعد ـ أقام، وأخلد بالألف مثله، وخلد إلى كذا وأخلد إليه ركن اهـ ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾؛ أي: الذي هو أخس الحيوانات،

والكلب[1] حيوان معروف، ويجمع في القلة على أكلب، وفي الكثرة على كلاب، وشذوا في هذا الجمع، فجمعوه بالألف والتاء فقالوا: كلابات، وتقدمت هذه المادة في مكلبين، وكررناها لزيادة الفائدة ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تشد عليه وتطرده ﴿يَلْهَثْ﴾ يقال: لهث الكلب يلهث من باب قطع، لهثاً بفتح اللام ولهثا بضمها ولهاثا بضمها أيضاً إذا أخرج لسانه مع التنفس الشديد، وهي حالة له في التعب والراحة والعطش والري، بخلاف غيره من الحيوان، فإنَّه لا يلهث إلا إذا أعيا أو عطش ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ يقال ساء الشيء يسوء فهو سيء، إذا قبح، وساءه يسوؤه مساءة والمثل الصفة.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾. الذرء[2] لغة: الخلق، يقال: ذرأ الله الخلق إذا أوجد أشخاصهم، والخلق التقدير؛ أي: إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لا جزافاً، والجن: الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بالحواس. والقلب يطلق أحياناً على المضغة الصنوبرية الشكل في الجانب الأيسر من جسد الإنسان، وأحياناً على العقل والوجدان الروحي الذي يسمونه أحياناً بالضمير وهو محل الحكم في أنواع المدركات والشعور الوجداني لما يلائم أو يؤلم، وهو كثير بهذا المعنى في الكتاب الكريم كقوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ وسر استعمال القلب في هذا المعنى: ما يراه الإنسان من انقباض أو انشراح حين الخوف والاشمئزاز، أو حين السرور والابتهاج. والفقه: العلم بالشيء والفهم له، وفسره الراغب بالتوصل بعلم شاهد إلى علم غائب، وقد استعمله القرآن في مواضع كثيرة بمعنى دقة الفهم، والتعمق في العلم ليترتب عليه أثره ـ وهو الانتفاع به ـ ومن ثم نفاه عن الكفار والمنافقين؛ لأنهم لم يدركوا كنه المراد مما نفى فقهه عنهم، ففاتتهم المنفعة مع العلم المتمكن من النفس.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ و﴿الْأَسْمَاءُ﴾ جمع اسم، وهو اللفظ الدال على الذات، أو عليها مع صفة من صفاتها، و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ بوزن فعلى مؤنث الأحسن، كالكبرى والصغرى، وقيل: الحسنى مصدر وصف به، كالرجعى، وأفرده كما أفرد وصف ما لا يعقل في قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ ولو طوبق به.. لكان التركيب الحسن كقوله: ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾؛ أي: سموه ونادوه بها للثناء عليه، أو للسؤال وطلب الحاجات ﴿وَذَرُوا﴾؛ أي: أتركوا ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يقال: لحد وألحد لغتان، قيل بمعنى واحد، وهو العدول عن الحق، والإدخال فيه ما ليس منه ـ قاله ابن السكيت ـ وقال غيره: العدول عن الاستقامة، والرباعي أشهر في الاستعمال من الثلاثي، قال الشاعر:

لَيْسَ ٱلأَمِيْرُ بِٱلشَّحِيْحِ ٱلْمُلْحِدِ

والإلحاد الميل عن الوسط حساً أو معنى، والأول هو الأصل فيه، ومنه لحد القبر وهو ما يحفر في أسفل جانب القبر، مائلاً عن وسطه، وألحد السهم الهدف: إذا مال في أحد جانبيه ولم يصب وسطه، ومن الثاني: ألحد فلان إذا مال عن الحق، وقيل: ألحد بمعنى مال وانحرف، ولحد بمعنى ركن وانضوى، قال الكسائي: ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾؛ أي: سيلقون جزاء عملهم.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، الاستدراج[1] إما مأخوذ من درج الكتاب والثوب وأدرجه إذا طواه، وإما من الدرجة وهي المرقاة، فعلى الأول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ أي: سنطويهم طي الكتاب، ونغفل أمرهم كما قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ وعلى الثاني: سنأخذهم درجة بعد درجة بإدنائهم من العذاب شيئاً فشيئاً، كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزولها، وقال في «التحرير»[2]: الاستدراج استفعال من الدرج، بمعنى النقل درجة بعد درجة من سفل إلى علو، فيكون استصعاداً، أو بالعكس، فيكون استنزالاً، والمعنى؛ أي: نقربهم إلى الهلاك بإمهالهم وإدرار النعم عليهم، حتى يأتيهم وهم غافلون لاشتغالهم بالترفه، ولذا قيل: إذا رأيت

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.

الله أنعم على عبده ـ وهو مقيم على معصيته ـ فاعلم أنه مستدرج له، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ الإملاء الإمداد في الزمن، والامهال والتأخير من الملوة والملاوة، وهي الطائفة الطويلة من الزمن، والملوان الليل والنهار ﴿والكيد﴾ كالمكر: هو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره، بحيث ينخدع المكيد بمظهره، فلا يفطن له حتى ينتهي إلى ما يسؤه، وأكثره احتيال مذموم، ومنه ما هو محمود يقصد به المصلحة، ككيد يوسف لأخذ أخيه الشقيق من إخوته لأبيه برضاهم، ومقتضى شريعتهم، وفي «الكرخي»: وسمى الأخذ كيداً لأنَّ ظاهره إحسان وباطنه خذلان. اهـ.

و﴿المتين﴾ القوي الشديد، ومنه المتن وهو الوسط؛ لأنَّه أقوى ما في الحيوان، وقد متن بالضم يمتن متانة؛ أي: قوي واشتد. ﴿الجنة﴾: بالكسر نوع من الجنون، والإنذار: التعليم والإرشاد المقترن بالتخويف من مخالفته، والملكوت: الملك العظيم، ﴿ومَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مجموع العالم، والحديث: كلام الله تعالى وهو القرآن، والطغيان: تجاوز الحد في الباطل والشر، من الكفر والفجور والظلم، والعمه: التردد في الحيرة.

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَنهَا﴾. ﴿السَّاعَةِ﴾: لغة: جزء قليل غير معين من الزمن، وعند الفلكيين: جزء من أربع وعشرين متساوية، يضبط بآلة تسمى الساعة، وقد كان ذلك معروفاً عند العرب، فقد جاء في الحديث: «يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة». وقد تطلق بمعنى الوقت الحاضر، وبمعنى الوقت الذي تقوم فيه القيامة، كما هنا، وأكثر استعمال (ساعة) بدون أل في الكتاب الكريم بمعنى الساعة الزمنية، وبأل بمعنى الساعة الشرعية، وهي ساعة خراب العالم، وموت أهل الأرض جميعاً، وجاء المعنيان في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، والغالب التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذي يكون فيه الحساب والجزاء، والتعبير بالساعة عن الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم، ويضطرب نظامه، فالساعة مبدأ، والقيامة غاية ﴿أَيَّانَ مُرْسَنهَا﴾. ﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى متى، فهي للسؤال عن الزمان، و﴿مُرْسَنهَا﴾؛ أي: إرساؤها وحصولها واستقرارها، ويقال: رسا الشيء يرسو إذا ثبت، وأرساه

غيره، ومنه إرساء السفينة وإيقافها بالمرساة التي تلقى في البحر، فتمنعها من الجريان كما قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وقال أبو البقاء: ﴿ومُرْسَىٰهَا﴾: مفعل من أرسى، وهو مصدر مثل المدخل والمخرج بمعنى الإدخال والإخراج؛ أي: متى أرساها. اهـ وفي «المختار»: رسا الشيء ثبت، وبابه عدا، ورست السفينة وقفت عن الجري، وبابه عدا وسما. اهـ.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ يقال جلى فلان الأمر تجلية إذا أظهره أتم الإظهار، ﴿لوقتها﴾؛ أي: في وقتها كما يقال: كتبت هذا لغرة رمضان؛ أي: في غرته ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة من غير توقع ولا انتظار ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ من قولهم: أحفى في السؤال، إذا ألحف، وهو حفي عن الأمر بليغ في السؤال عنه، واستحفيته عن كذا استخبرته على وجه المبالغة، وتحفى بك فلان إذا تلطف بك وبالغ في إكرامك ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ قسمان: حقيقي لا يعلمه إلا الله تعالى، وإضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ والخير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية كالمال والعلم ﴿والسوء﴾ ما يرغبون عنه مما يسؤهم ويضرهم ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ والإنذار تبليغ مقترن بتخويف من العقاب على الكفر والمعاصي، والتبشير تبليغ مقترن بترغيب في الثواب مع الإيمان والطاعة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾؛ لأنه شبه الإعراض عن الآيات بانسلاخ نحو الحية من جلدها بجامع التجرد والتبري في كلٍّ.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حيث جعله قدوة وإماماً ومتبوعاً للشيطان على سبيل المبالغة، مع أنَّه تابع للشيطان.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ حيث شبه حاله

التي هي مثل في السوء، بحال أخس الحيوانات وأسفلها، وهي حالة الكلب في دوام لهثه، في حالتي التعب والراحة، فالصورة منتزعة من متعدد، ولهذا يسمى التشبيه التمثيلي.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ المراد بالأرض ما فيها من المستلذات والشهوات، فهو من إطلاق المحل وإرادة الحال.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، والجناس المغاير في قوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ و﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لأنه ذكرت فيه الأداة، ولم يذكر فيه وجه الشبه.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ لأنَّ الاستدراج في الأصل التحول والتنقل على الدرجات استصعاداً أو نزولاً، فاستعاره للأخذ والعقوبة شيئاً فشيئاً.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

ومنها: التذييل في قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّه تذييل[1] لما قبله خارج مخرج المثل.

---

(١) الصاوي.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ على قراءة النون.

ومنها: الاستعارة[1] بالكناية في قوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ حيث شبه الساعة بسفينة في البحر، وطوى ذكر المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإرساء، فذكره تخييل.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ وفي قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الصاوي.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا
حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ
(١٨٩) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا
لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ
إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ (١٩٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ
أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟
شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩٦)
وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى
ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْجَٰهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَٰنُهُمْ
يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا
يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ
مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[(١)]: أنه لما تقدم سؤال الكفار عن الساعة ووقتها، وكان فيهم من لا يؤمن بالبعث.. ذكر ابتداء خلق الإنسان وإنشائه تنبيهاً على أن الإعادة ممكنة،

---

(١) البحر المحيط.

كما أن الإنشاء كان ممكناً، وإذا كان إبرازه من العدم الصرف إلى الوجود واقعاً بالفعل، فإعادته أحرى أن تكون واقعة بالفعل. وقيل: وجه المناسبة أنَّه لما بين الذين يلحدون في أسمائه ويشتقون منها أسماء لآلهتهم وأصنامهم، وأمر بالنظر والاستدلال المؤدي إلى تفرده بالإلهية والربوبية.. بين هنا أنَّ أصل الشرك من إبليس لآدم وزوجته حين تمنياً الولد الصالح، وأجاب الله دعاءهما، فأدخل عليهما إبليس الشرك، بقوله: سمياه عبد الحرث؛ فإنَّه لا يموت، ففعلا ذلك.

وقيل المناسبة: لما افتتح[1] الله سبحانه وتعالى هذه السورة بالدعوة إلى التوحيد، واتباع ما أنزل على لسان رسوله، وتلاه بالتذكير بنشأة الإنسان الأولى في الخلق والتكوين والعداوة بينه وبين الشيطان.. اختتم السورة بهذه المعاني، فذكر بالنشأة الأولى، ونهى عن الشرك، واتباع وسوسة الشيطان، وأمر بالتوحيد، واتباع ما جاء به القرآن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أنَّها من تتمة ما قبلها مؤكدة له، ومقررة لما تتضمنه، وهو إثبات التوحيد ونفي الشرك، وهو رأس الإسلام وركنه المتين، فلا غرو أن يتكرر الكلام فيه في القرآن نفياً وإثباتاً ليتأكد في النفوس، ويثبت في القلوب، وبه تخلع جذور الوثنية، ويحل محلها نور الوحدانية.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: لما أنكر تعالى عليهم عبادة الأصنام، وحقر شأنها، وأظهر كونها جماداً عارية عن شيء من القدرة.. أمر تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك؛ أي: لا مبالاة بكم ولا بشركائكم، فاصنعوا ما تشاؤون، وهو أمر تعجيز؛ أي: لا يمكن أن يقع منكم دعاء لأصنامكم، ولا كيد لي، وكانوا قد خوفوه آلهتهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ الآية، مناسبة[4] هذه

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضره، وأراهم أنَّ الله هو القادر على كل شيء.. عقب ذلك بالاستناد إلى الله تعالى، والتوكل عليه، والإعلام أنَّه تعالى هو ناصره عليهم، وبين جهة نصره بأن أوحى إليه كتابه، وأعزه برسالته، ثم إنَّه تعالى يتولى الصالحين من عباده، وينصرهم على أعدائه ولا يخذلهم.

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنَّه هو الذي يتولى أمر رسوله وينصره: وأن الأصنام وعابديها لا يقدرون على إيذائه، وإيصال الضر إليه.. بين في هذه الآية النهج القويم، والصراط المستقيم في معاملة الناس، وهذه الآية تشمل أصول الفضائل، فهي من أسس التشريع التي تلي ـ في المرتبة ـ أصول العقيدة المبنية على التوحيد الذي تقرر فيما سلف، بأبلغ وجه وأتم برهان.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات أمثل الطرق في معاملة الناس بعضهم بعضاً، مما لو عملوا بهديه لم يجد الفساد إلى نفوسهم سبيلاً.. أردف ذلك بالوصية التي تتضمنها هذه الآيات الثلاث، وهي اتقاء إفساد الشياطين؛ أي: شياطين الجن المستترة، فالآية السالفة أمرت بالإعراض عن الجاهلين ـ وهم السفهاء ـ اتقاء لشرهم، وهذه الآيات أمرت بالاستعاذة بالله من الشياطين اتقاء لشرهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية السالفة أن شياطين الجن والإنس لا يقصرون في الإغواء والإضلال.. أردف ذلك بذكر نوع خاص من هذا الإغواء، وهو طلبهم آيات معينة ومعجزات مخصوصة، تعنتاً كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾؛ أي: إذا

---

(١) المراغي.

لم تأتهم بما طلبوا.. قالوا: هلا افتعلتها وأتيت بها من عند نفسك؛ لأنَّهم كانوا يقولون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر مزايا القرآن الكريم، وأنَّه آيات بينات للمؤمنين، وهدى ورحمة لهم.. أردف ذلك بذكر الدلائل على الطريق الموصلة لنيل الرحمة به، والفوز بالمنافع الجليلة التي ينطوي عليها، وهي الإنصات له إذا قرىء.

وقال أبو حيان[2]: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن القرآن بصائر وهدى ورحمة.. أمر باستماعه إذا شرع في قراءته، وبالانصات وهو السكوت مع الإصغاء إليه؛ لأنَّ ما اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة، حري بأن يصغى إليه حتى يحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة، وينتفع بها، فيستبصر من العمى، ويهتدي من الضلال، ويرحم بها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ...﴾ أخرج[3] البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: ما نزلت: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ إلا في أخلاق الناس.

وأخرج[4] ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن الشعبي قال: لما أنزل الله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟ قال لا أدري حتى أسال العالم، فذهب ثم رجع، فقال: إن الله أمرك أنْ تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك» وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: لما نزل ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ...﴾. الآية، قال رسول الله ﷺ: «كيف بالغضب يا رب»؟ فنزل: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الخازن.
(٤) الشوكاني.

أخرجه[1] ابن أبي حاتم وغيره عن أبي هريرة قال: نزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ في رفع الأصوات في الصلاة خلف النبي ﷺ. وأخرج عنه أيضاً قال: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ...﴾. الآية، وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله، وأخرج عن الزهري قال: نزلت الآية في فتى من الأنصار كان كلما قرأ رسول الله ﷺ شيئاً قرأه. وقال سعيد بن منصور في «سننه»: حدثنا أبو معتمر عن محمد بن كعب قال: كانوا يتلقفون من رسول الله ﷺ إذا قرأ شيئاً قرؤوا معه، حتى نزلت هذه الآية التي في الأعراف: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾.

قلتُ: ظاهر ذلك أنّ الآية مدنيَّة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ وأوجدكم وأنشأكم يا أهل مكة ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: من آدم عليه السلام على طريق التوالد والتناسل، وهذا كلام[2] مستأنف يتضمن ذكر نعم الله تعالى على عباده، وعدم مكافأتهم لها بما يجب من الشكر عليها، والاعتراف بالعبودية، وأنَّه المنفرد بالألوهية قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوف على ﴿خَلَقَكُم﴾؛ أي: وهو سبحانه وتعالى الذي خلقكم من نفس آدم على سبيل التوالد والتناسل، وجعل من هذه النفس الواحدة زوجها وقرينتها، على سبيل النزع والفصل، وهي حواء، خلقها من ضلع من أضلاع آدم من غير ألم، وقيل المعنى: ﴿جَعَلَ مِنْهَا﴾؛ أي: من جنسها ﴿زَوْجَهَا﴾، كما في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ والأول أولى، وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ علة للجعل المذكور؛ أي: جعله منها ليسكن آدم ويميل إليها، ويستأنس بها، ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه، أو جنسه؛ لأنَّ الجنس إلى الجنس أميل، خصوصاً إذا كان بعضاً منه كما سكن الإنسان إلى ولده، ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه، وإنَّما ذكر ضمير النفس في قوله: ﴿لِيَسْكُنَ﴾ بعدما أنث في قوله: ﴿وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ نظراً إلى

---

(١) لباب النقول.
(٢) الشوكاني.

معنى النفس، ليبين أنَّ المراد بها آدم، وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار، ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما إلى الأرض فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾؛ أي: فلما جامع آدم حواء ﴿حَمَلَتْ﴾ حواء، وعلقت بعد الجماع ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾؛ أي: حملاً هيناً غير ثقيل في باديء الأمر ﴿فَمَرَّتْ﴾ حواء ودامت متلبسة ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الحمل من غير خروج ولا سيلان منها، حتى كبر الولد في بطنها، وأحست بثقل الحمل، أو المعنى: ترددت في أغراضها وحوائجها من غير مشقة ولا كلفة، كما في «الفتوحات» ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ حواء؛ أي: فلما أحست حواء بثقل الحمل في بطنها، وأحست تحركها، وعرفت أنَّه حيوان في بطنها، وأخبرت حال حملها لآدم ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾؛ أي: دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما أن يؤتيهما ولداً صالحاً، حالفين بالله بقولهما والله ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: والله لئن أعطيتنا يا إلهنا ولداً صالحاً؛ أي: بشراً سوياً مثلنا؛ أي: كامل الخلق، مستوى الأعضاء، خالياً من العوج والعرج ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ يا إلهنا ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك على هذه النعمة، وذلك[1] أنَّ إبليس أتاها في غير صورته التي عرفته، وقال لها: ما الذي في بطنك؟ قالت ما أدري: قال: إنِّي أخاف أن يكون بهيمة أو كلباً أو خنزيراً، وذكرت ذلك لآدم، فلم يزالا في هم من ذلك، ثم أتاها فقال: إن سألت الله أن يجعله خلقاً سوياً مثلك فسميه عبد الحارث، وكان اسم إبليس عند الملائكة الحارث، ولم يزل بها حتى غرها، فلما ولدت ولداً سوي الخلق.. سمته عبد الحارث برضا آدم فذلك قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾؛ أي: فلما أعطى الله سبحانه وتعالى آدم وحواء ﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: ولداً صالحاً، وبشراً سوياً ﴿جَعَلَا﴾؛ أي: جعل آدم وحواء ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شُرَكَآءَ﴾ يعني إبليس، فأوقع الواحد موقع الجمع ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾؛ أي: في تسمية ما أعطاهما الله سبحانه وتعالى من الولد الصالح، حيث سمياه عبد الحارث، ولا ينبغي أن يكون عبداً إلا لله تعالى، ولم تعرف حواء أنَّه إبليس، ولم يكن هذا شركاً بالله، لأنَّهما لم يذهبا إلى أن الحارث

---

(١) الشوكاني.

ربهما، لكنهما قصدا إلى أنَّه كان سبب نجاته وسلامة أمه. قال كثير[1] من المفسرين: إنَّه جاء إبليس إلى حواء وقال لها: إنْ ولدت ولداً.. فسميه باسمي، فقالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، ولو سمى لها نفسه لعرفته، فسمته عبد الحارث، فكان هذا شركاً في التسمية، ولم يكن شركاً في العبادة، وإنَّما قصدت أن الحارث كان سبب نجاة الولد، كما سمى الرجل نفسه عبد ضيفه، كما قال حاتم الطائي:

وَإِنِّيْ لَعَبْدُ ٱلضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيَا وَمَا فِيَّ إلاَّ تِلْكَ مِنْ شِيْمَةِ ٱلْعَبْدِ

وقرأ[2] حماد بن سلمة عن ابن كثير: ﴿حِمْلاً﴾: بكسر الحاء، وقرأ الجمهور: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال الحسن: أي: استمرت به، وقيل: هذا على القلب؛ أي: فمر الحمل بها؛ أي: استمر بها، وقال الزمخشري: فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق، وقرأ ابن عباس فيما ذكر النقاش، وأبو العالية، ويحيى بن يعمر وأيوب ﴿فمرَت به﴾ خفيفة الراء من المرية؛ أي: فشكت فيما أصابها أهو حمل أو مرض؟. وقيل: معناه استمرت به، لكنهم كرهوا التضعيف فخففوه، نحو: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فيمن فتح من القرار، وقرأ عبد الله بن عمرو بن العاص والجحدري ﴿فمارت به﴾ بألف وتخفيف الراء؛ أي: جاءت وذهبت وتصرفت به، كما تقول: مارت الريح موراً، ووزنه فعل، وقال الزمخشري: من المرية كقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ ومعناه ومعنى المخففة: ﴿فمرت﴾ وقع في نفسها ظن الحمل، وارتابت به، ووزنه فاعل، وقرأ عبد الله ﴿فاستمرت بحملها﴾. وقرأ سعد بن أبي وقاص وابن عباس أيضاً والضحاك: ﴿فاستمرت به﴾. وقرأ أبي بن كعب والجرمي ﴿فاستمارت به﴾. والظاهر رجوعه إلى المرية، بني منها استفعل كما بني منها فاعل في قولك: ﴿ماريت﴾.

وقرىء: ﴿فلما أثقلت﴾ على البناء للمفعول، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعكرمة ومجاهد، وأبان بن تغلب ونافع وأبو بكر عن عاصم: ﴿شركاً﴾

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

على المصدر، وهو على حذف مضاف؛ أي: ذا شرك، ويمكن أن يكون أطلق الشرك على الشريك، كقولهم: زيد عدل، قال الزمخشري: أو أحدث لله إشراكاً في الولد. انتهى، وقرأ الأخوان ـ حمزة والكسائي ـ وابن كثير وأبو عمرو: ﴿شركاء﴾. على الجمع ويبعد توجيه الآية أنها في آدم وحواء على هذه القراءة، وتظهر باقي الأقوال عليهما، وفي مصحف أبي ﴿فلما آتاهما صالحاً أشركا فيه﴾ وجملة قوله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: فترفع الله سبحانه وتعالى، وتنزه عن شركة ما يشرك به الكفار، من الأصنام والطواغيت، معطوفة[1] على جملة قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ والتقدير: هو الذي خلقكم من نفس واحدة، فتعالى عما يشركون، ويكون في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ التفات وما بينهما، وهو قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وفي «الكرخي»: هذه الجملة مسببة معطوفة على خلقكم؛ أي: وليس لها تعلق بقصة آدم وحواء أصلاً، ويوضح ذلك تغيير الضمير إلى الجمع بعد التثنية، ولو كانت القصة واحدة لقال: عما يشركان، كقوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ اهـ، ويؤيد هذا التأويل قراءة السلمي: ﴿عما تشركون﴾ بتاء الخطاب، التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب.

وقال بعض المفسرين: وقد نسب[2] هذا الجعل إلى آدم وحواء، والمراد أولادهما، قال الحسن البصري: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهودوا ونصروا، وقال الحافظ ابن كثير: أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا التأويل، وأنه ليس المراد من السياق آدم وحواء، وإنَّما المراد من ذلك ذريته، ولهذا قال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ثم قال: فذِكره آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذِكر الشخص إلى الجنس. اهـ وقال صاحب «الانتصاف»: إن المراد جنس الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكأن المعنى ـ والله أعلم ـ: خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

الذي هو الأنثى.. جرى من هذين الجنسين كيت كيت، وإنَّما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإنْ كان فيهم الموحدون لأنَّ المشركين منهم، كقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾ وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾. اهـ وقال صاحب «الكشاف»: إن المراد بالزوجين الجنس لا الفرد؛ أي: معينان، والغرض بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفي والجلي في هذا الشأن وأمثاله، والجنس يصدق ببعض أفراده.

وبهذا[1]: تعلم أن ما روي عن بعض الصحابة والتابعين من أن الآية في آدم وحواء، وما روي في حديث سمرة بن جندب مرفوعاً: قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد ـ وذلك لأنَّها ولدت قبل ذلك عبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن فأصابهم الموت ـ فقال لها: سميه عبد الحارث، فإنَّه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان؛ أي: وسوسته، ونحوه آثار كثيرة في هذه المعنى مفصلة ومطولة، فهو خرافة من دس الإسرائيليين، نقلت عن مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه، فلا يوثق بها؛ لأنَّ فيها طعناً صريحاً في آدم وحواء عليهما السلام، ورمياً لهما بالشرك، ومن ثم رفضها كثير من المفسرين، وقال الحافظ ابن كثير: وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنَّها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

وأخبار أهل الكتاب ثلاثة أقسام[2]:

فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله.

ومنها: ما علمنا كذبه بما دل الدليل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً.

ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

وهو لا يصدق ولا يكذب لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». ثم بين

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

سبحانه فساد رأيهم، وسخافة عقولهم لهذا الشرك، فقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع؛ أي: أيشركون به سبحانه وتعالى، وهو الخالق لهم ولأولادهم، ولكل مخلوق ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾؛ أي: أصناماً لا تقدر على خلق شيء من الأشياء وإن كان حقيراً، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾، ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: بل هم مخلوقون، ولا يليق بذي العقل السليم أن يجعل المخلوق العاجز شريكاً للخالق القادر، ومعبوداً لنفسه، ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعابده.

والمعنى[١]: أتشركون الأصنام - وهي لا تقدر على خلق شيء - كما يخلق الله، وهم يخلقون؛ أي: يخلقهم الله تعالى ويوجدهم كما يوجدكم، أو المعنى: وهم ينحتون ويصنعون، فعبدتهم يخلقونهم، وهم لا يقدرون على خلق شيء، فهم أعجز من عبدتهم، وجملة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ معطوفة على جملة الصلة، وجمع الضمير اعتباراً بمعنى ﴿مَا﴾ كما أفرده في ﴿يَخْلُقُ﴾ اعتباراً بلفظه، وعبر عن الأصنام بضمير العقلاء نظراً لاعتقاد الكفار فيهم، أو لأن من جملة من عبد الشياطين والملائكة وبعض بني آدم، فغلبوا على غيرهم.

والآية وما بعدها حكاية لشرك عباد الأصنام عامة، وينتظم فيهم مشركو مكة وأمثالهم ممن نزل القرآن في عهدهم، وتوبيخ لهم بتفصيل أحوال أولئك الشركاء التي تنافي ما اعتقدوه، وقرأ السلمي ﴿أتشركون﴾ بالتاء من فوق.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾؛ أي: ولا يستطيع المعبودون نصراً ومعونة لعابديهم إذا حزبهم أمر مهم وخطب ملم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؛ أي: كما لا يستطيعون نصراً لأنفسهم على من يعتدي عليهم بإهانة لهم، أو أخذ شيء مما عندهم من طيب أو حلي، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

والخلاصة: أنهم يحتاجون إليكم في تكريمهم وفي الدفاع عنهم، وأنتم لا

---

(١) البحر المحيط.

تحتاجون إليهم، فلو تفكرتم في ذلك.. لآمنتم بالله تعالى وكفرتم بها ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾؛ أي: وإنْ تدعوا أيها المشركون الأصنام ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ أي: إلى أن يهدوكم إلى الحق والرشاد ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾؛ أي: لا يجيبوكم كما يجيبكم الله تعالى.

والمعنى: وإن تدعوا تلك الأصنام إلى أنْ يهدوكم إلى ما تحصلون به رغباتكم، أو إلى ما تنجون به من المكاره التي تحيق بكم.. لا يتبعوكم؛ أي: لا يوافقوكم ولا يجيبوا لكم، ولا ينفعوكم بجلب المصالح، أو دفع المضار، ويجوز أنْ يكون ضمير الفاعل في ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ إلى ﴿المؤمنين﴾ والمنصوب إلى ﴿الكفار﴾؛ أي: وإن تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء الكفار إلى الهدى والإيمان.. لا يتبعوكم؛ أي: لا يوافقوكم إلى الإيمان والتوحيد، فهم مصرون على شركهم، راسخون فيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لا يتَّبعوكم﴾ مشدداً هنا وفي ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤﴾. من اتبع الخماسي، ومعناه: لا يقتدوا بكم، وقرأ نافع فيهما: ﴿لا يتبعوكم﴾ مخففاً من تبع الثلاثي، ومعناه: لا يتبعوا آثاركم، ثم أكد عدم نفعهم فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المشركون ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾؛ أي: أدعوتم تلك الأصنام واستغثتم بها ﴿أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ عن دعوتها، وساكتون عن الاستغاثة بها؛ أي: دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء في عدم الإفادة، لا فرق بينهما؛ لأنهم لا ينفعون ولا يضرون، ولا يسمعون ولا يجيبون؛ فإنه لا يتغير حالكم في كلتا الحالتين إذ هم لا يفهمون دعاءكم، ولا يسمعون أصواتكم، ولا يعقلون ما يقال لهم، وفي «السمين»: وإنَّما أتى بالجملة الثانية اسمية ـ ولم يقل أم صمتُّم ـ لأنَّ الفعل يشعر بالحدوث؛ ولأنَّها رأس فاصلة اهـ.

والخلاصة: أنه لا ينبغي أنْ يعبد من كانت هذه صفته، وإنَّما الرب المعبود هو النافع من يعبده، الضار من يعصيه، الناصر وليه، الخاذل عدوه، والهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه.

---

(١) البحر المحيط.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ وتعبدونهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ أيها المشركون في كونهم مخلوقين لله، خاضعين لإرادته وقدرته، مع أنَّكم أكمل منهم؛ لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله، مسخرة لأمره، لا آلهة.

وإذا كانوا أمثالكم.. كان من المستحيل عقلاً أن تطلبوا منهم ما لا تستطيعون نيله بأنفسكم، ولا بمساعدة أمثالكم، وإنَّما يدعى الرب الخالق لما وراء الأسباب المشتركة، والذي تخضع لإرادته الأسباب، وهو لا يخضع لها، ولا لإرادته أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها، وفي هذا تقريع لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم.

والدعاء: هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع، الذي يوجه إلى من يعتقد الداعي أن له سلطانا يمكنه أن يجيبه إلى ما طلبه، إما بذاته وإما بحمله الرب الخالق على ذلك، وجملة قوله: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من أنَّهم إن دعوهم إلى الهدى.. لا يتبعوهم، وأنَّهم لا يستطيعون شيئاً؛ أي: فادعوا هؤلاء الشركاء والأصنام، فإنْ كانوا كما تزعمون.. فليستجيبوا لكم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع والضر؛ أي: إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم قادرون على ما تعجزون عنه بقواكم البشرية، من نفع أو ضر، فادعوهم، فليستجيبوا لكم إما بأنفسهم، وإما بحملهم الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون. وقرأ سعيد بن جبير: ﴿إن الذين تدعون﴾ بتخفيف ﴿إن﴾، وقرأ ﴿عباداً أمثالكم﴾ بنصب الدال واللام، على إعمال ﴿إن﴾ النافية عمل ما الحجازية، وقد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه وغيره، من اختيار الرفع في خبرها لإهمالها، وقد أطال أبو حيان الكلام فيها في «البحر»، فراجعه إنْ شئت.

ثم ارتقى سبحانه في الرد عليهم، وأثبت أنَّهم ليسوا أمثالهم بل أحط منهم منزلة، ودونهم رتبة، ووبخهم وأنبهم على عبادة هذه الأحجار والأصنام فقال:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ والاستفهام فيه وفيما بعده للتقريع والتوبيخ والإنكار؛ أي: إن هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم، فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم؛ فإنّهم ـ كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ـ ليست لهم ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ في نفع أنفسهم، فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ في دفع ما يؤذي ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ المنافع من المضار ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ تضرعكم ودعاءكم؛ أي: وليست لهم أيد يبطشون ويعملون بها كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليست لهم أعين يبصرون بها كما تبصرون، وليست لهم آذان يسمعون بها كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، وبهذه المنزلة من العجز؟!! و﴿أَمْ﴾ في هذه المواضع هي المنقطعة التي بمعنى (بل) والهمزة؛ كما ذكره أئمة النحو.

والمعنى[١]: أنّ هؤلاء فقدوا وسائل الكسب التي يناط بها النفع والضر في هذه الحياة، فليس لهم أرجل يسعون بها إلى دفع ضر أو جلب نفع، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجون منهم من خير، أو تخافون من شر، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم، ولا آذان يسمعون بها أقوالكم، ويعرفون بها مطالبكم، فهم ليسوا مثلكم، بل دونكم في الصفات والقوى التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الخلق، فكيف ترفعونهم عن مماثلتكم وهم دونكم بالاختبار والمشاهدة، وإنّكم تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول، ويقول بعضكم لبعض ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فما بالكم تأبون قبول الحق والخير من مثلكم، وقد فضله الله عليكم بالعلم والهدى، ثم ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهية، مع انحطاطه عن درجة المثلية؟

وقرأ الحسن والأعرج ونافع[٢]: ﴿يبطِشون﴾: بكسر الطاء، وقرأ أبو جعفر

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وشيبة ونافع بضمها. ثم أمر رسوله ﷺ أنْ يبين لهم حقارة شأنهم فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يحتقرون نعم الله عليهم ﴿ٱدْعُواْ﴾ ونادوا ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين اتخذتموهم أولياء من دون الله، واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وشركاؤكم جميعاً؛ أي: تعاونوا على كيدي وبالغوا فيما تقدرون عليه من المكر وأوقعوا الضر بي سريعاً ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: فلا تمهلوني ولا تؤخروني ساعة من نهار، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على ولاية الله وحفظه، فمعنى ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾: استعينوا بهم على إيصال الضر إلي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾؛ أي: امكروا بي، ولا تؤخرون عما تريدون بي من الضر.

والحكمة في مطالبتهم بهذا[1]: أن العقائد الموروثة يتضاءل دونها كل برهان، ولا يجدي معها دليل، ومن ثم طالبهم بأمر عملي ينزع هذا الوهم من أعماق القلوب، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء ويستنجدوا بهم لصد دعوة الداعين إلى الكفر بها، وإثبات العجز له، وإنكار ما لهم من سلطان غيبي وتدبير كامن، فإنْ كان لها سلطان في أنفسها أو من عند الله تعالى.. فهذا أوان ظهوره، وإلا فمتى يظهر ليساعد إبطال عبادتها، وينصر عابديها ومعظمي شأنها، ومن الجلي أنَّ القوم كانوا ينكرون البعث، فكل ما يرجونه منها من خير أو يخافونه منها من شر فهو في هذه الحياة.

وقرأ أبو عمرو وهشام بخلاف عنه: ﴿كيدوني﴾ بإثبات الياء وصلاً ووقفاً، وقرأ باقي السبعة بحذف الياء، اجتزاء بالكسرة عنها.

ثم زاد الأمر بياناً، وبالغ في حقارة هذه المعبودات وعابديها على ما كان به من ضعف وقلة ناصر، وهو بمكة حين نزول هذه السورة، فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ﴾؛ أي: إن ناصري ومتولي أموري هو ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ علي ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكريم والقرآن العظيم المؤيد لوحدانيته، ووجوب عبادته، ودعائه عند الشدائد والملمات، والناعي على المشركين عبادة غيره من وثن أو صنم، ﴿وَهُوَ﴾

---

(١) المراغي.

سبحانه وتعالى ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من عباده؛ أي: ينصرهم على أعدائه ولا يخذلهم، فلا تضرهم عداوة من عاداهم، وهم مَنْ صلحت أنفسهم بصحيح العقائد، وسلمت من الأوهام والخرافات، وبالأعمال التي تصلح بها شؤون الأفراد والجماعات، فنصرهم على ذوي الخزعبلات والأوهام، وفاسدي العقائد والأحلام، تصديقاً لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ وَلِيِّـۧىَ ٱللَّهُ﴾ بياء مشددة مضافاً لياء المتكلم المفتوحة، وهي ياء فعيل، أدغمت في لام الكلمة، وهي قراءة واضحة، أضاف الولي إلى نفسه، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه: بياء واحدة مشددة مفتوحة، ورفع الجلالة، قال أبو علي: لا يخلو إما أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة وهو لا يجوز؛ لأنَّه ينفك الإدغام الأول، أو تدغم ياء فعيل في ياء الإضافة ويحذف لام الفعل، فليس إلا هذا. انتهى.

وروي[2]: أن عمر بن عبد العزيز ما كان يدخر لأولاده شيئاً، فقيل له في ذلك؟ فقال: ولدي إما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين، فإنْ كان من الصالحين فوليه الله، ومن كان الله له ولياً.. فلا حاجة له إلى مالي، وإنْ كان من المجرمين.. فقد قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ومن رده الله لم أشتغل بإصلاح مهماته.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: والذين تعبدونهم من دون الله تعالى من الأصنام ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أيها المشركون في أمر من الأمور ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؛ أي: ولا يحفظون أنفسهم ويمنعونها مما يراد بهم من الضرر، فكيف أبالي بهم؟!! وهذه الجملة[3] من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم فهي معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ وَلِيِّـۧىَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا أبالي بهم؛ لأن

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الفتوحات.

وليَ الله؛ ولأنَّ ﴿الذين تدعون من دونه﴾ الخ. وبهذا يندفع توهم التكرار مع ما سبق؛ لأنَّ ما سبق للفرق بين من تجوز عبادته ومن لا، وما هنا لتعليل عدم المبالاة بهم.

والمعنى[١]: أي وإنَّ الذين تدعونهم لنصركم، وجلب النفع لكم، ودفع الضر عنكم عاجزون، فلا هم بالمستطيعون نصركم، ولا نصر أنفسهم على من يحقر شأنهم، أو يسلبهم شيئاً مما وضع عليهم من طيب، أو حلي، فقد كسر إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه الأصنام، فجعلهم جذاذاً، فما استطاعوا أنْ يدفعوه عن أنفسهم، ولا أن ينتقموا منه لها.

وقد روي[٢] عن معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ـ وكانا شابين من الأنصار قد أسلما، لما قدم النبي ﷺ المدينة ـ أنَّهما كانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانه ويتلفانها، ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك ويرتؤوا لأنفسهم رأياً آخر.

وكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيد قومه ـ صنم يعبده، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه، ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء ورأى ذلك.. علم أن ما كان عليه من الدين باطل وأنشد:

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ إِلهاً مُسْتَدِنْ   لَمْ تَكُ وَالْكَلْبُ جَمِيْعاً مُقْتَرِنْ

ثم أسلم وحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه، وبعد أن نفى عنهم القدرة على النصرة، أردف ذلك بنفي قدرتهم على الإرشاد إلى الهدى والرشاد.

فقال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾؛ أي: وإن تدعوا أيها المشركون أصنامكم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم وتنتصرون به من أسباب خفية أو ظاهرة ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ دعاءكم، ولا يجيبونه، فضلاً عن مدِّ يد المعونة والمساعدة؛

---

(١) المراغي.   (٢) المراغي.

لأنهم أموات غير أحياء، وقيل[1]: المعنى وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى والإيمان لا يسمعوا؛ أي: لا يقبلوا ذلك بقلوبهم، فلا يجيبوكم، والآية كقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾.

﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾؛ أي: وترى أيها المخاطب تلك الأصنام ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ بما وضع لهم من أعين صناعية، وحدق زجاجية، أو جوهرية، موجهة إلى من يدخل عليها، كأنها تنظر إليه ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بها؛ لأن حاسة الإبصار لا تحصل بالصناعة، وإنَّما هي من خواص الحياة التي استأثر الله بها؛ أي: والحال أنَّهم غير قادرين على الإبصار؛ لأنَّهم أموات غير أحياء، وهم إذ فقدوا السمع لا يسمعون نداء ولا دعاء ممن يعبدونهم، ولا من غيرهم، وإذ فقدوا البصر لا يبصرون حاله وحال خصمه، فكيف يرجى منهم نصر وشد أزر؟ أو أي معونة أخرى؟ أو كيف يخشى منهم إيصال ضر وأذى لمن يحتقرهم؟!!

وقيل المعنى: وترى يا محمد المشركين ينظرون إليك بأعينهم، وهم لا يبصرونك بقلوبهم. ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ يا محمد؛ أي: اقبل الميسور من أخلاق الناس من غير تجسس لئلا تتوالد العداوة والبغضاء، أو المعنى: خذ ما تيسر من المال فما آتوك به فخذه، ولا تسأل عما وراء ذلك، وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة، وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس، وذلك مثل قبول الاعتذار منهم، وترك البحث عن الأشياء، والعفو: المساهلة في كل شيء، وقال أبو السعود: ولما ذكر الله سبحانه وتعالى من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق.. حمله أمره عليه السلام بمكارم الأخلاق، التي من جملتها الإغضاء عنهم، انتهى.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾؛ أي: وأمر الناس بكل ما أمرك الله به، وهو كل ما عرفته بالوحي من الله عز وجل، وقرأ[2] عيسى بن عمر ﴿بالعرف﴾ - بضمتين - وهما لغتان، والعرف والمعروف والعارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن

---

(١) الفتوحات.
(٢) الشوكاني.

إليها النفوس، ومنه قول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ ٱلْخَيْرَ لاَ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ   لاَ يَذْهَبُ ٱلْعُرْفُ بَيْنَ ٱللَّهِ وَٱلنَّاسِ

﴿وَأَعْرِضْ﴾ واصفح ﴿عَنِ﴾ إساءة ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بالمعروف، المستهزئين بك؛ أي: إذا أقمت الحجة في أمرهم بالمعروف، فلم يفعلوا، فأعرض عنهم، ولا تمارهم، ولا تسافههم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة، قيل: وهذه الآية من جملة ما نسخ بآية السيف، قاله عبد الرحمن بن زيد وعطاء، وقيل: هي محكمة، قاله مجاهد وقتادة. وقيل[1]: إن كان المراد بالجاهلين الكفار، وبالإعراض عدم مقاتلتهم.. فالآية منسوخة بآية السيف، وإن كان المراد بالجاهلين ضعفاء الإسلام وأجلاف العرب، وبالإعراض عدم تعنيفهم والإغلاظ عليهم.. فالآية محكمة، وفي معنى ذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ وهو الذي لا عتاب فيه.

وقال بعضهم[2]: أول هذه الآية وآخرها منسوخ، ووسطها محكم، يريد بنسخ أولها أخذ الفضل من الأموال، فنسخ بفرض الزكاة، والأمر بالمعروف محكم، والإعراض عن الجاهلين منسوخ بآية القتال، وفي هذه الآية تعليم مكارم الأخلاق للعباد، فليس هذا الأمر من خصوصياته ﷺ.

وحاصل معنى الآية: أن الله سبحانه وتعالى[3] أمر نبيه في هذه الآية بثلاثة أشياء، هي أسس عامة للشريعة في الآداب النفسية والأحكام العملية:

١ ـ **العفو**: وهو السهل الذي لا كلفة فيه؛ أي: خذ ما عفا لك وسهل من أفعال الناس وأخلاقهم، وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى ينفروا، وهذا كما جاء في الحديث: «يسروا ولا تعسروا». وقال الشاعر:

خُذِ ٱلْعَفْوَ مِنِّيْ تَسْتَدِيْمِيْ مَوَدَّتِيْ   وَلاَ تَنْطِقِيْ فِيْ سَوْرَتِيْ حِيْنَ أَغْضَبُ

---

(١) الصاوي.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

وقيل إن المعنى: خذ العفو وما تسهل من صدقاتهم.

والخلاصة: أن من قواعد الدين وفوائده اليسر وتجنب الحرج، وما يشق على الناس، وقد صح أن النبي ﷺ: «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما».

٢ ـ الأمر بالمعروف: وهو ما تعرفه النفس من الخير وتأنس به وتطمئن إليه، ولا شك أنَّ هذا مبني على اعتبار عادات الأمة الحسنة، وما تتواطأُ عليه من الأمور النافعة في مصالحها، وإجمال القول فيه: أنه اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس.

وقد ذكر المعروف في السور المدنية في الأحكام الشرعية العملية، كوصف الأمة الإسلامية وحكومتها كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، وقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾، وعند ذكر الحقوق الزوجية كقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، وفي أحكام الطلاق كقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾، وقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

ومن ذلك ترى أن هذا اللفظ ﴿المعروف﴾ لم يذكر إلا في الأحكام الهامة، وأنَّ المراد به ما هو معهود بين الناس في المعاملات والعادات، ولا شك أنَّه يختلف باختلاف الشعوب والبلاد والأوقات، ومن ثم قال بعض الأئمة: المعروف ما يستحسن في العقل فعله، ولا تنكره العقول الصحيحة، ويكفي المسلمين المحافظة على النصوص الثابتة، إذ لا يمكن المؤمن أنْ يستنكر ما جاء عن الله ورسوله، وليكن للجماعة الإسلامية بعده رأي فيما يعرفون وينكرون، ويستحسنون ويستهجنون، ويكون عمدتهم في ذلك جمهور العقلاء، وأهل الفضل والأدب في كل عصر.

٣ ـ الإعراض عن الجاهلين: وهم السفهاء، بترك معاشرتهم، وعدم مماراتهم، ولا علاج للوقاية من أذاهم إلا الإعراض عنهم، وقد روي عن جعفر الصادق رحمه الله أنه قال: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

وروي الطبري وغيره عن جابر: «أنَّه لما نزلت هذه الآية سأل النبي ﷺ جبريل عنها؟ فقال: لا أعلم حتى أسأل، ثم رجع فقال: إن ربك يأمرك أنْ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». كما مر وأخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

خُـذِ ٱلْـعَـفْـوَ وَأْمُـرْ بِـعُـرْفٍ كَـمَـا أُمِـرْتَ وَأَعْـرِضْ عَـنِ ٱلْـجَـاهِـلِـيْـن
وَلِـنْ فِـيْ ٱلْـكَـلَامِ لِـكُـلِّ ٱلأَنَـامْ فَـمُـسْـتَـحْـسَـنٌ مِـنْ ذَوِيْ ٱلْـجَـاهِ لِـيْـنْ

وقال بعض العلماء: هذه الآية قد تضمنت قواعد الشريعة، فلم يبق فيها حسنة إلا وعتها، ولا فضيلة إلا شرحتها فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ إيماء إلى جانب اللين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء وأمور التكليف وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ تناول جميع المأمورات والمنهيات، وأنهما ما عرف في الشريعة حكمه، واتفقت القلوب على علمه، وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تناول جانب الصفح بالصبر الذي يتأتى للعبد به كل مراد في نفسه وغيره. اهـ.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ ويصيبنك[1] يا محمد ويعرض لك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾؛ أي: نخسة ووسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به من العفو والإعراض عن الجاهلين ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فاستجر بالله، والتجىء إليه في دفعه عنك ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع دعاءك واستعاذتك ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالك، أو سميع باستعاذتك بلسانك، عليم بما في ضميرك من استحضاره معاني الاستعاذة، فالقول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر، أو سميع بأقوال من آذاك، عليم بأفعاله، فيجازيه عليها مغنياً لك عن الانتقام، ومتابعة الشيطان.

والمعنى[2]: وإنْ يثر فيك الشيطان داعية الشر والفساد، بسبب غضب أو شهوة، فيجعلك تتأثر وتتحرك للعمل بها، كما تتأثر الدابة إذا نخست بالمهماز فتسرع، فالجأ إلى الله وتوجه إليه بقلبك ليعيذك من شر هذا النزغ، حتى لا يحملك على ما يزعجك من الشر، وعبر عن ذلك بلسانك فقل: أعوذ بالله من

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

الشيطان الرجيم؛ فإنَّه سميع لما تقول، عليم بما تحدثك به نفسك، ويجيش به صدرك، فهو سبحانه وتعالى يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر.

وقد دلت التجربة على أن الالتجاء إلى الله تعالى، وذكره بالقلب واللسان يصرف عن النفس وسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾. والخطاب في الآية وما ماثلها من الآيات موجه إلى كل مكلف يبلغه، وأولهم الرسول ﷺ، فإنَّ الشيطان يجد مجالاً في حمل الإنسان على ما لا ينبغي في حالة الغضب والغيظ، فأمر الله بالالتجاء إليه، والتعويذ في تلك الحالة، فهي تجري مجرى العلاج لذلك المرض.

فصل(١): واحتج الطاعن في عصمة الأنبياء بهذه الآية

فقالوا: لو كان النبي معصوماً.. لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ في قلبه ويحتاج إلى الاستعاذة منه، والجواب عنه بأوجه:

الأول: أن معنى الكلام: إن حصل في قلبك نزغ من الشيطان.. فاستعذ بالله، وإنَّه لم يحصل له ذلك ألبتة، فهو كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ وهو بريء من الشرك ألبتة.

والوجه الثاني: على تقدير أنَّه لو حصل وسوسة من الشيطان، لكن الله عصم نبيه ﷺ عن قَبولها وثبوتها في قلبه، روى مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال وإياي، إلا أنَّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

قال النواوي: ويروى: (فأسلم) بفتح الميم وضمها، فمن رفع قال: معناه فاسلم من شره وفتنته، ومن فتح قال: معناه أن القرين أسلم من الإسلام، يعني:

---

(١) الخازن.

صار مؤمناً، لا يأمرني إلا بخير، ورجح النواوي الفتح لقوله: «فلا يأمرني إلا بخير».

والوجه الثالث: يحتمل أنْ يكون الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به غيره، ومعناه: وإمَّا ينزغنَّك أيها الإنسان من الشيطان نزع.. فاستعذ بالله، فهو كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

قال القاضي عياض: واعلم أنَّ الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه، وفي هذا الحديث المذكور آنفاً إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه، أعلمنا أنَّه معنا لنحترز عنه بحسب الإمكان. والله أعلم.

ثم بين سبحانه طريق سلام من يستعيذُ من الشيطان من الوقوع في المعصية فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾؛ أي: إن الذين اتصفوا بوقاية أنفسهم عما يضرها ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ وأصابهم ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: شيء قليل من وسوسة الشيطان، وخاطر منه ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ ما أمرهم الله به، من ترك إمضاء الغضب، ومن أنَّ الإنسان إذا أمضى الغضب.. كان شريكاً للسباع المؤذية والحيات القاتلة، وإنْ تركه واختار العفو.. كان شريكاً لأكابر الأنبياء والأولياء والصالحين، ومن أنَّه ربما انقلب ذلك الضعيف الذي يريد أنْ يعدو عليه قوياً قادراً على الغضب، فحينئذ ينتقم منه على أسوأ الوجوه، أما إذا عفا كان ذلك إحساناً منه إلى ذلك الضعيف ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ بسبب التذكر مواقع الخطأ، ومكايد الشيطان، ومنتبهون لها، فيتحرزون عنها، ولا يتبعونه فيها؛ أي: إذا حضرن هذه التذكرات في قلوبهم، ففي الحال يحصل الخلاص من وسوسة الشيطان، ويحصل لهم الإبصار لها، والانكشاف عنها، وينتهون عن المعصية.

والمعنى: أن خيار المؤمنين وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ إذا ألم ونزل بهم طائف وخيال من الشيطان ليحملهم بوسوسته على المعصية، أو إيقاع البغضاء بينهم.. تذكروا أن هذا من إغواء الشيطان عدوهم الذي أمر الله بالاستعاذة منه، والالتجاء إليه في الحفظ من

غوايته، فإذا هم أولو بصيرة يربئون أنفسهم أن تطيعه فهو إنَّما تأخذ وسوسته الغافلين من ربهم، الذين لا يراقبونه في شؤونهم وأعمالهم، ولا شيء أقوى على طرد وسواس الشيطان من ذكر الله، ومراقبته في السر والعلن من قبل أنه يقوي في النفس حب الحق، وداعي الخير، ويضعف فيها الميل إلى الشرور والآثام.

فقويُّ الروح بالإيمان والتقوى غير قابل لتأثير الشيطان في نفسه، لكن الشيطان دائماً يتحين الفرص وعروض بعض الأهواء النفسية، من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام، حتى إذا وجد الفرصة سانحة افترصها، ولابس النفس وقوىَّ فيها داعي الشر، كالحشرات القذرة التي تعرض للنظيف إذا أهملها بالغفلة عنها فعلت فعلها، وإذا تداركها نجا من شرها وضرِّها.

وإن الإنسان ليشعر بتنازع دواعي الخير والشر في نفسه، وإن لداعية الخير والحق مسلكاً يقويها، ولداعية الشر والباطل شيطاناً يقويها، وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله: «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك. . فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾».

وقرأ النحويان[1]: أبو عمرو والكسائي وابن كثير: ﴿طيف﴾ فيحتمل أن يكون مصدراً من طاف يطيف طيفاً، كباع يبيع بيعاً، ويحتمل أنْ يكون مخففاً من طيف، كميت وميت، وليِّن وليْن، وقرأ باقي السبعة ﴿طائف﴾ اسم فاعل من طاف، وقرأ ابن جبير: ﴿طيف﴾ بالتشديد، وهو فيعل، وقرأ ابن الزبير: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تأملوا فإذا هم مبصرون﴾ وفي مصحف أبي ﴿إن الذين اتقوا إذا طاف من الشيطان طائف تأملوا فإذا هم مبصرون﴾. وينبغي أن يحمل هذا، وقراءة ابن الزبير على أن ذلك من باب التفسير، لا على أنَّه قرآن، لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون من ألفاظ القرآن.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾؛ أي: وإخوان الشياطين وهم الكفار، ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾؛ أي: تمدُّهم الشياطين وتساعدهم وتشجعهم ﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾ والضلالة بتزيينه لهم، ﴿ثُمَّ﴾ أولئك الإخوان الذين هم الكفار ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ ولا ينكفون عن الغي، ولا ينزجرون عنه بالتبصر فيه كما تبصر المتقون، وإخوانهم مبتدأ، والخبر جملة ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ ولكن الخبرجرى على غير من هو له؛ لأنَّ الضمير المرفوع يعود على ﴿الشياطين﴾ والمنصوب على ﴿الكفار﴾، فكأنَّه[1] قيل: والكفار الذين هم إخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي، وهذا التفسير الذي ذكرته هو قول الجمهور، وعليه عامة المفسرين، وجرى عليه الطبري، قال الزمخشري: وهذا التفسير هو أوجه التفاسير؛ لأنَّ ﴿إخوانهم﴾ في مقابلة ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾.

وقيل الضمير المرفوع يعود على الإخوان، والمنصوب على ﴿الشياطين﴾.

والمعنى[2]: وإخوان الشياطين من الكفار يمدونهم، أي: يقوون الشياطين في الغي والضلال، وذلك لأن شياطين الإنس إخوان لشياطين الجن، فشياطين الإنس يضلون الناس، فيكون ذلك تقوية منهم لشياطين الجن على الإضلال ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾؛ أي: لا ينكف الغاوون عن الضلال، والمغوون عن الإضلال، وعلى هذا فالخبر جارٍ على من هو له، وقيل غير ذلك.

والمعنى: أي إن[3] إخوان الشياطين ـ وهم الجاهلون والمشركون ـ الذين لا يتقون الله يتمكن الشياطين من إغوائهم، فيمدونهم ويزيدونهم في غيهم وإفسادهم؛ لأنَّهم لا يذكرون الله إذا شعروا بالنزوع إلى الشر، ولا يستعيذون به من نزغ الشيطان ومسه، إما لأنَّهم لا يؤمنون بالله، وإما لأنَّهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطاناً من الجن يوسوس إليه ويغريه بالشر، ثم لا يقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم، فلذلك يصرون على الشر والفساد لفقد الوازع النفسي، والواعظ القلبي.

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

والخلاصة: أنَّ المؤمنين إذا مسهم طائف من الشيطان يحملهم على المعاصي.. تذكروا فأبصروا وحذروا وسلموا، وإنْ زلوا تابوا وأنابوا، وإنَّ إخوان الشياطين تتمكن الشياطين من إغوائهم، فيمدونهم في غيهم، ولا يكفون عن ذلك، ومن ثم تراهم يستمرون في شرورهم وآثامهم لفقد الوازع النفسي.

وقرأ نافع[1]: ﴿يُمِدُّونَهم﴾ بضم الياء وكسر الميم، من أمد الرباعي، وباقي السبعة ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بفتح الياء وضم الميم، من مد الثلاثي، وقرأ الجحدري ﴿يمادونهم﴾ بألف بعد الميم من ماد على وزن فاعل، وقرأ الجمهور ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ بضم الياء من أقصر الرباعي، بمعنى كف، وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى ابن عمر ﴿ثمَّ لاَ يَقْصُرونَ﴾ بفتح الياء وضم الصاد من قصر الثلاثي؛ أي: ثمَّ لا ينقصون من إمدادهم وغوايتهم.

﴿وَإِذَا﴾ تباطأ ظهور الخوارق على يديك يا محمد و﴿لَمْ تَأْتِهِم﴾؛ أي: لم تأت أهل مكة ﴿بِآيَةٍ﴾؛ أي: بمعجزة باهرة مما اقترحوا وطلبوا منك ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال أهل مكة استهزاء وسخرية ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾؛ أي: هلا اصطفيت تلك الآية واخترعتها وأنشأتها من عند نفسك، كما اخترعت واختلقت ما قبلها، وقال[2] الكلبي: كان أهل مكة يسألون النبي ﷺ الآيات تعنتاً، فإذا تأخرت اتهموه وقالوا: لولا اجتبيتها، يعني: هلا أحدثتها وأنشأتها من عند نفسك كما اختلقت ما قبلها.

قال الفراء: تقول العرب: اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا افتعلته من قبل نفسك، وعبارة المراغي هنا: وإذا لم تأتهم أيها الرسول بآية قرآنية، بأن تراخى نزول الوحي زمناً ما.. قالوا: لولا افتعلت نظمها وتأليفها، واخترعتها من تلقاء نفسك، وقد يكون المعنى: وإذا لم تأتهم بآية مما اقترحوا عليك قالوا: هلا حباك الله بها بأن مكنك منها، فاجتبيتها وأبرزتها لنا إن كنت صادقاً في أن الله يقبل دعاءك، ويجيب التماسك.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يجيبهم الجواب الشافي بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات: لست ممن يأتي بالآيات ويختلقها من عند نفسه كما تزعمون بل ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ فما أوحاه إلي وأنزله علي أبلغته إليكم؛ أي: إنه ليس لي أن اقترح على ربي أمراً من الأمور، وإنما انتظر الوحي، فكل شيء أكرمني به قلته، وإلا وجب علي السكوت وترك الاقتراح.

وقد يكون المعنى: ما أنا بقادر على إيجاد الآيات الكونية، ولا بمفتات على الله في طلبها، وإنَّما أنا متبع لما يوحى إلي، فضلاً من ربي علي إذ جعلني مبلغا عنه، وقد وصف الله تعالى القرآن بثلاثة أوصاف فقال:

١ - ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: وقل لهم يا محمد هذا القرآن الذي أنزل عليَّ، وأوحاه الله إلي بصائر من ربكم؛ أي: بمنزلة البصائر للقلوب، فبه تبصر الحق وتدرك الصواب؛ أي: حجج بينة وبراهين نيرة للعقول في الدلالة على التوحيد والنبوة والمعاد - صادرة من ربكم، من تأملها حق التأمل يكن بصير العقل بما تدل عليه من الحق، فهي أدل عليه مما تطلبونه من الآيات الكونية.

٢ - ﴿وَهُدًى﴾؛ أي: وهو هاد إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

٣ - ﴿وَرَحْمَةٌ﴾؛ أي: وهو رحمة في الدنيا والآخرة.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: للذين يؤمنون به، ويمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه؛ أي: فالقرآن في حق أصحاب عين اليقين، وهم من بلغوا - في معارف التوحيد والنبوة والمعاد - مرتبة أصبحوا بها كالمشاهدين لها، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فهو لهؤلاء بصائر، وفي حق أصحاب علم القين، وهم الذين بلغوا إلى درجات المستدلين به هدى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة لا جرم، وهم أصحاب حق اليقين.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ عليكم أيها المؤمنون ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾؛ أي: فاصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه ﴿وَأَنصِتُواْ﴾؛ أي: اسكتوا عن

الكلام لاستماعه لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لكي يرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم من فرائضه في آيه، فمن استمع وأنصت كان جديراً أن يفهم ويتدبر، ومن كان كذلك.. كان حرياً أن يرحم.

والآية تدل على وجوب الاستماع والانصات للقرآن إذا قرىء، سواء أكان ذلك في الصلاة أو في خارجها، وهو المروي عن الحسن البصري، لكن الجمهور خصوه بقراءة الرسول ﷺ في عهده، وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده، ذلك أن إيجاب الاستماع والإنصات في غير الصلاة والخطبة فيه حرج عظيم، إذ يقتضي أن يترك له المشتغل بالعلم علمه، والمشتغل بالحكم حكمه، وكل ذي عمل عمله.

أما قراءة النبي ﷺ، فكان بعضها تبليغاً للتنزيل وبعضها وعظاً وإرشاداً، فلا يسع أحداً من المسلمين يسمعه يقرأ أن يعرض عن الاستماع، أو يتكلَّم بما يشغله، أو يشغل غيره عنه، وهكذا شأن المصلي مع إمامة وخطيبه، إذ هذا هو المقصود من الصلاة، والواجب فيها.

وما يفعله جماهير الناس، والمحافل التي يقرأ فيها القرآن ـ كالمآتم وغيرها ـ من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة، فمكروه كراهة شديدة، ولا سيما لمن كانوا على مقربة من التالي.

ولا يجوز[1] لقارىء أن يقرأ على قوم لا يستمعون له، وإنْ كان أكثرهم يستمع وينصت فشذ بعضهم بمناجاة صاحبه بالجنب بلا تهويش على القارىء، ولا على المستمعين كانت المخالفة سهلة لا تقتضي ترك القراءة، ولا تنافي الاستماع.

والواجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته، كما يحرص على تلاوته، وأنْ يتأدب في مجلس التلاوة، والضابط في ذلك: أنْ لا

---

(١) المراغي.

يصدر من السامع ـ ما يعد في اعتقاده أو في عرف الناس ـ أنه مناف للأدب، ولا بأس بقراءة القرآن حال القيام والقعود، والاضطجاع والمشي والركوب، ولا تكره مع حدث أصغر ولا مع نجاسة ثوب أو بدن، وإن كان يستحب الوضوء حين القراءة حال الحدث، ولا سيما للقارىء في المصحف، وتستحب القراءة بالترتيل والنغم الدالة على التأثير والخشوع، من غير تكلف ولا تصنع، فقد روى أبو هريرة مرفوعاً: «ما أَذِنَ ـ استمع ـ الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن» رواه الشيخان.

فصل

واختلف[1] العلماء في القراءة خلف الإمام، فذهب جماعة إلى إيجابها، سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسر، يروى ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ، وهو قول الأوزاعي، وإليه ذهب الشافعي، وذهب قوم إلى أنه يقرأ فيما أسر الإمام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الإمام فيه، يروى ذلك عن ابن عمر، وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد، وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق، وذهب قوم إلى أنَّه لا يقرأ سواء أسر الإمام أو جهر، يروى ذلك عن جابر، وإليه ذهب أصحاب الرأي[2]. حجة من لا يرى القراءة خلف الإمام ظاهر هذه الآية، وحجة من قال: يقرأ في السرية دون الجهرية، قال: إن الآية تدل على الأمر بالاستماع لقراءة القرآن، ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الإمام فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهرية، وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية، جمعاً بين دلائل الكتاب والسنة، وحجة من أوجب القراءة خلف الإمام في صلاة السرية والجهرية قال: الآية واردة في غير الفاتحة؛ لأن دلائل السنة قد دلت على وجوب القراءة خلف الإمام، ولم يفرق بين السرية والجهرية، قالوا: وإذا قرأ الفاتحة خلف الإمام تتبع سكتاته، ولا ينازعه في

(١) الخازن.

(٢) هذا يدل على أن المؤلف ربما يكون متعصباً لمذهب من المذاهب. اهـ.

القراءة، ولا يجهر بالقراءة خلفه، ويدل عليه ما روي عن عبادة بن الصامت: قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: أراكم تقرؤون وراء إمامكم؟! قال: قلنا: يا رسول الله إي والله، قال: لا تفعلوا إلا بأم القرآن؛ فإنَّه لا صلاة لمن لم يقرأ بها» أخرجه الترمذي بطوله، وأخرجاه في الصحيحين أقصر منه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج» يقولها ثلاثاً غير تمام، فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ قال: اقرأ بها في نفسك، وذكر الحديث. والخطاب في قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ للنبي ﷺ، ويدخل فيه غيره من أمته؛ لأنَّه عام لسائر المكلفين؛ أي: واذكر أيها المكلف ربك الذي خلقك ورباك بنعمه، عارفاً بمعاني الأذكار التي تقولها بلسانك، مستحضراً لصفات الكمال والجلال، والعز والعلو والعظمة ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾ وقلبك؛ أي: أسمع نفسك سراً، وذلك لأن الذكر باللسان إذا كان عارياً عن الذكر بالقلب.. كان عديم الفائدة؛ لأن فائدة الذكر حضور القلب واستشعاره عظمة المذكور عز وجل، وقيل: المعنى: أذكر ربك سراً في نفسك؛ لأن ذِكر النفس أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء والسمعة.

وقوله: ﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ منصوبان على الحال، ولكن بعد تأويله بالمشتق؛ أي: واذكر ـ أيها المكلَّف ـ ربك في نفسك حالة كونك متضرعاً ومتذللاً وخاضعاً له، وخائفاً منه، راجياً نعمه، وقرىء ﴿وخُفية﴾ بضم الخاء ﴿و﴾ اذكره بلسانك مع ذِكره في نفسك ذِكراً ﴿دون الجهر﴾ برفع الصوت ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ وفوق التخافت والسر، بل ذكراً قصداً وسطاً بين الجهر والمخافتة، بأن يذكر الشخص ربه بحيث يسمع نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾.

وذكر اللسان وحده دون ذكر القلب، وملاحظة معاني الذِّكر لا يجدي نفعاً، فكم رأينا من ذوي الأوراد والأدعية، الذين يذكرون الله كثيراً بالمئين والأُلوف،

ولا يفيدهم ذلك معرفة بالله تعالى، ولا مراقبة له؛ لأنَّ ذلك أصبح عادة لهم، تصحبها عادات أخرى منكرة، ومن ثم كان الواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان.

والمعنى: واذكر ربك أيها الملكف بأي[1] نوع من أنواع الذكر، من قرآن وتهليل وتحميد وتكبير وتسبيح ودعاء، وغير ذلك، سراً في نفسك إنْ لم يلزم عليه الكسل، وإلا جهراً وذكراً وسطاً دون الجهر، وفوق السر ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾؛ أي: في البكر والعشايا وما بينهما من جميع الأوقات، وقرأ أبو مجلز ﴿والإيصال﴾ جعله مصدراً لقولهم: أصلت؛ أي: دخلت في وقت الأصيل، والغدو جمع غدوة، وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والآصال جمع أصيل، وهو من العصر إلى الغروب، وإنَّما خص هذين الوقتين بالذكر؛ لأن الإنسان يقوم من النوم عند الغداة، فطلب أن يكون أول صحيفته ذكر الله تعالى، وأما وقت الآصال فلأن الإنسان يستقبل النوم ـ وهو أخو الموت ـ فينبغي له أن يشغله بالذكر، خيفة أنْ يموت في نومه، فيبعث على ما مات عليه، وقيل: إن الأعمال تصعد في هذين الوقتين، وقيل: لكراهة النفل في هذين الوقتين، فطلب بالذكر فيهما، لئلا يضيع على الإنسان وقته، ولأن من افتتح نهاره بذكر الله، واختتمه به، كان جديراً بأن يراقب الله ولا ينساه فيما بينهما، ﴿وَلَا تَكُن﴾ أيها الملكف ﴿مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكر الله تعالى، بل أشعر قلبك الخضوع له والخوف من قدرته عليك، إذا أنت غفلت عن ذلك، ومن غفل عن ذكره تعالى مرض قلبه، وضعف إيمانه، واستحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكره.

ثم ختم[2] سبحانه هذه الآيات بما يؤكد الأمر والنهي السابقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا محمد؛ أي: إن ملائكة الرحمٰن المقربين عنده ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون، بل يؤدونها حسب ما أُمروا به ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾؛ أي: ينزهون الله سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق

---

(١) الصاوي. (٢) المراغي.

بعظمته وكبريائه وجلاله، وعن اتخاذ الولد والند والشريك، ولا يفعلون كما يفعل هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأنداداً، يحبونهم كحبه ﴿وَلَهُۥ﴾ وحده سبحانه وتعالى، يصلون و﴿يَسْجُدُونَ﴾؛ فلا يشركون معه أحداً، فالواجب على كل مؤمن أنْ يجعل خواص الملائكة المقربين إليه تعالى من حملة عرشه، والحافين به أسوة حسنة له في صلاته وسجوده، وسائر عبادته.

فإنْ قلت[1]: التسبيح والسجود داخلان في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾؛ لأنَّهما من جملة العبادة، فكيف أفردهما بالذكر؟

قلت: أخبر الله عز وجل عن حال الملائكة أنَّهم خاضعون لعظمته لا يستكبرون عن عبادته، ثم أخبر عن صفة عبادتهم أنَّهم يسبحونه وله يسجدون.

ولما كانت الأعمال تنقسم إلى قسمين، أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأعمال القلوب هي: تنزيه الله عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله ﴿ويسبحونه﴾ وعبر عن أعمال الجوارح بقوله: ﴿وله يسجدون﴾.

وقد شرع الله سبحانه وتعالى لنا[2] السجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها، إرغاماً لمن أبى ذلك من المشركين، واقتداء بالملائكة المقربين، ومثلها آيات أخرى ستأتي في مواضعها، وقد كان ﷺ يقول في سجوده لذلك: «اللهم لك سجد سوادي، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعي وعملاً يرفعني» وفي سنن ابن ماجه عن ابن عباس أنَّه ﷺ كان يقول في سجدة التلاوة: «اللهم احطط عني بها وزراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً».

وهذه السجدة[3] من عزائم سجود القرآن، فيستحب للقارىء والمستمع أن يسجد عند قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم،

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

والجمهور على أنَّه ليس بواجب، وقال أبو حنيفة: هو واجب، ولا خلاف في أنَّ شرطه شرط الصلاة من طهارة خبث وحدث ونية واستقبال ووقت، إلا ما روى البخاري عن ابن عمر وابن المنكدر عن الشعبي: أنَّه يسجد على غير طهارة، وذهب الشافعي وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع اليدين، وقال مالك: يكبر لها في الخفض والرفع في الصلاة، وأما في غير الصلاة فاختلف عنه، ويسلم عنها عند الجمهور، وقال جماعة من السلف وإسحاق: لا يسلم ووقتها سائر الأوقات مطلقاً؛ لأنَّها صلاة بسبب، ذكره أبو حيان في «البحر» وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ النبي ﷺ: (كان يقرأ القرآن، فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته في غير وقت صلاة) متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويلنا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» رواه مسلم.

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليك بكثرة السجود لله، فإنَّك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة» رواه مسلم أيضاً.

وفي الآية إرشاد إلى أن الأفضل إخفاء الذِّكر، وقد روى أحمد قوله ﷺ: «خير الذِّكر الخفي».

الإعراب

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿خَلَقَكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿مِّن نَّفْسٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿خلق﴾، ﴿وَٰحِدَةٍ﴾: صفة لـ﴿نَّفْسٍ﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿زَوْجَهَا﴾: مفعول به

ومضاف إليه والجملة معطوفة على جملة ﴿خلق﴾. ﴿لِيَسْكُنَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يسكن﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على نفس واحدة، وذكره نظراً لمعناها، لأنَّها بمعنى آدم ﴿إِلَيْهَا﴾ متعلق بـ﴿يسكن﴾، وجملة يسكن: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بـ﴿جعل﴾؛ أي: وجعل منها زوجها لسكونه إليها.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: ولما سكن إليها غشاها وجامعها، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على آدم، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿حَمَلَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على حواء، ﴿حَمْلًا﴾ مفعول به أو مفعول مطلق، ﴿خَفِيفًا﴾ صفة لـ﴿حَمْلًا﴾: والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ المحذوفة، ﴿فَمَرَّتْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مرت﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على حواء، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق به، وجملة ﴿مرت﴾ معطوفة على جملة ﴿حَمَلَتْ﴾، ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: ولما مرت به أثقلت، ﴿لما﴾: حرف شرط ﴿أَثْقَلَت﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على حواء، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿رَبَّهُمَا﴾: بدل من الجلالة، والجملة جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ المحذوفة، ﴿لَئِنْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة لقسم محذوف تقدير: أقسمنا والله، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾: ﴿اللام﴾ لام قسم مؤكدة للأولى جيء بها لتدل على أن ما بعدها جواب القسم لا جواب الشرط، ﴿نكونن﴾: فعل مضارع ناقص في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على آدم وحواء، ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: خبرها،

وجملة ﴿نكون﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره: إن آتيتنا صالحاً.. نكن من الشاكرين، وجملة إنْ الشرطية معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين القسم وجوابه، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: دعوا الله ربهما فقالا: لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين، أو جملة مفسرة لجملة الدعاء لا محل لها من الإعراب، وفي «السمين»[1]: هذا القسم وجوابه فيه وجهان:

أظهرهما: أنَّه مفسر لجملة الدعاء، كأنَّه قيل: فما كان دعاؤهما؟ فقيل: كان دعاؤهما كيت وكيت.

والثاني: أنَّه مفعول لقول محذوف تقديره: فقالا: لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فآتاهما صالحاً، ﴿لما﴾: حرف شرط، ﴿ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿جَعَلَا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني. ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعول أول لـ﴿جَعَلَا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿فِيمَآ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾، ﴿ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾: فعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: فيما آتاه إياهما، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿تعالى الله﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وما بينهما اعتراض كما مر في مبحث التفسير، ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور، متعلق

(١) الفتوحات.

بـ﴿تعالى﴾، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: عما يشركونه به، أو صلة ﴿ما﴾ المصدرية، إنْ قلنا ﴿ما﴾ مصدرية أي: تعالى عن إشراكهم.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي ﴿يشركون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يشركون﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، وأفرده نظراً للفظ ﴿مَا﴾، ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُخْلَقُونَ﴾: خبره، وجمع الضمير هنا نظراً لمعنى ﴿مَا﴾ كما مر في بحث التفسير، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يَخْلُقُ﴾، على كونها صلة ﴿لما﴾ الموصولة ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة أيضاً على جملة الصلة ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به أو متعلق بنصراً ﴿نَصْرًا﴾: مفعول به ﴿وَلَآ﴾. الواو: عاطفة لا نافية، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به مقدم على عامله لرعاية الفاصلة، والجملة معطوفة على جملة الصلة أيضاً.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: استئنافية، ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم، ﴿تَدْعُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ متعلق به، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَتَّبِعُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بإنْ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿سَوَآءٌ﴾: خبر مقدم لمبتدأ متعد من الجملة التي بعدها، من غير سابك لإصلاح المعنى، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلقان بـ﴿سواء﴾. ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للتسوية، وهي في الأصل للاستفهام، ولكنه غير مراد هنا لوقوعها بعد ﴿سَوَآءٌ﴾، ﴿دعوتموهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ مؤخراً لـ﴿سَوَآءٌ﴾ من غير

سابك لإصلاح المعنى، وقيل: السابك هنا همزة التسوية كما مر في أول البقرة، ﴿أَمْ﴾: عاطفة متصلة لوقوعها بعد همزة التسوية، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿صَٰمِتُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية المذكورة قبلها على كونها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء والتقدير: دعاؤكم إياهم وصمتكم عنهم سواء؛ أي: سيان في عدم الإفادة، والجملة الاسمية مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَدْعُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿تَدْعُونَ﴾. ﴿عِبَادٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ صفة لـ﴿عِبَادٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب شرط محذوف تقديره: إن زعمتم أنَّها آلهة.. فادعوهم، ﴿ادعوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم على أنَّها جواب الشرط، وجملة الشرط المحذوف مع جوابها مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿واللام﴾: لام الأمر، ﴿يستجيبوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لام﴾ الأمر، والواو فاعل، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ على كونها جواباً لشرط محذوف، ﴿لَكُمْ﴾ متعلقان بالفعل ﴿يستجيبوا﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط معلوم مما قبله تقديره: إنْ كنتم صادقين في أنَّها آلهة.. فادعوهم، وجملة إنْ الشرطية مستأنفة مقررة لما قبلها.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ﴾.

﴿أَلَهُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿لهم﴾: جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿أَرْجُلٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يَمْشُونَ بِهَآ﴾ صفة ﴿أَرْجُلٌ﴾، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أَمْ﴾: عاطفة منقطعة بمعنى همزة الاستفهام الإنكاري، وبمعنى بل التي للإضراب الانتقالي من توبيخ إلى

توبيخ آخر، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿أَيْدٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها الثقل، وجملة ﴿يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾: صفة لـ﴿أَيْدٍ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾، ﴿أَمْ﴾: عاطفة، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿أَعْيُنٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ صفة ﴿أَعْيُنٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾ وكذلك جملة ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ معطوفة على الجملة الأولى.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول محكي لـ﴿قُلِ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿كِيدُونِ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة النون في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تُنظِرُونِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية وعلامة جزمه حذف النون، والواو: فاعل و﴿النون﴾ للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة النون في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿وَلِـِّۧىَ﴾: اسمها منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وهو مضاف وياء المتكلم في محل الجر مضاف إليه، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها تعليلاً لما قبلها. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة للجلالة، ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود

على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل الرفع خبر ﴿هو﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿نَزَّلَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿الذين﴾: مبتدأ، ﴿تَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: والذين تدعونهم، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿تَدۡعُونَ﴾، ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، ومعطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ﴾ مفعول مقدم لما بعده، ﴿يَنصُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ على كونها خبر الموصول.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل الشرط، ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ متعلق به، ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾ على كونها خبر الموصول ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾: فعل ومفعول به؛ لأنَّ رأى بصرية، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿تَرَاهُمْ﴾، وجملة ﴿تَرَاهُمْ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾، على كونها خبر المبتدأ، ﴿وَهُمۡ﴾، مبتدأ وجملة ﴿لَا يُبۡصِرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿يَنظُرُونَ﴾.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿وَأۡمُرۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة

على جملة ﴿خُذِ﴾. ﴿بِٱلْعُرْفِ﴾ متعلق به ﴿وَأَعْرِضْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿خُذِ﴾، ﴿عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ متعلق به.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿وَإِمَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إما﴾ ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ﴿ما﴾ الزائدة، ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: متعلق به ﴿نَزْغٌ﴾ فاعل، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجزم جواب ﴿إنْ﴾ الشرطية و﴿الفاء﴾: فيه رابطة الجواب وجوباً، لكون الجواب جملة طلبية، ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ﴿استعذ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول له، ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثان له، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها أعني جملة الأمر بالاستعاذة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، ﴿ٱتَّقَوْا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: صفة لـ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب إذا الشرطية، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة إنَّ مستأنفة، ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿إِذَا﴾ حرف فجأة لا محل لها من الإعراب، ﴿هُم مُّبْصِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾: مبتدأ، ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، ولكنه خبر سببي، والجملة الاسمية معطوفة على جملة

﴿إن﴾. ﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾ متعلق بـ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ على كونها خبر المبتدأ.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿لَمْ تَأْتِهِم﴾: جازم وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِآيَةٍ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلاَّ، ﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ﴾: إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿أَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿مَا يُوحَىٰ﴾: ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿أَتَّبِعُ﴾، ﴿يُوحَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿إِلَيَّ﴾: جار ومجرور، متعلق به، وكذا ﴿مِن رَّبِّي﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور، صفة لـ﴿بَصَائِرُ﴾، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: معطوفان على ﴿بَصَائِرُ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: جار ومجرور تنازع فيه كل من ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ على كونه صفة لهما، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قُرِئَ

﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً ﴿استمعوا﴾: فاعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿استمعوا﴾، ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿استمعوا﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾: حرف نصب وترج، و﴿الكاف﴾: اسمها، وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

﴿وَٱذْكُر﴾ الواو: استئنافية، ﴿اذكر ربك﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مكلف، والجملة مستأنفة، ﴿فِى نَفْسِكَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿اذكر﴾، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾: حالان من فاعل ﴿اذكر﴾، ولكن بعد تأويله بمشتق تقديره: حالة كونك متضرعاً وخائفاً من ربك، ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف[1] على قوله: ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ على كونه متعلقاً بـ﴿اذكر﴾، أو على كونه صفة لمصدر محذوف تقديره: واذكر ربك ذكراً دون الجهر، ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: جار ومجرور حال[2] من الدون؛ أي: حالة كون الدون من القول، أو متعلق بـ﴿ٱلْجَهْرِ﴾ على أن ﴿مِنَ﴾ بمعنى الباء؛ أي: الجهر بالقول تأمل، ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿اذكر﴾، ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ معطوف على ﴿الغدو﴾، ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على أي مكلف، ﴿مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

---

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ على كونها خبراً لـ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَلَهُۥ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يَسْجُدُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْجُدُونَ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ المشهور(١) أن الحمل ـ بفتح الحاء ـ ما كان في بطن أو على شجرة، والحمل بكسرها خلافه، وقد حكى في كل منهما الكسر والفتح، وهو هنا إما مصدر فينتصب انتصاب المفعول المطلق، أو الجنين المحمول، فيكون مفعولاً به، وخفته إما عدم التأذي به كالحوامل، أو على الحقيقة في ابتدائه، وكونه نطفة لا تثقل البطن اهـ «شهاب».

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾؛ أي: صارت ذات ثقل، كقولهم: البن الرجل وأتمر؛ أي: صار ذا لبن وتمر، وقيل: دخلت في الثقل كقولهم: أصبح وأمسى؛ أي: دخل في الصباح والمساء، والمعنى: صار حملها ثقيلاً.

﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾: اسم فاعل من صمت بمعنى سكت، والصمت السكوت، يقال منه: صمت يصمت صمتاً بالفتح في الماضي والضم في المضارع من باب قتل، ويقال: صمت بالكسر يصمت بالفتح، والمصدر الصمت، والصمات بضم الصاد اهـ «سمين». وإصمت(٢) بوزن إضرب اسم فلاة معروفة، وهي مسماة بفعل الأمر قطعت همزته، إذ ذاك قاعدة في التسمية بفعل فيه همزة وصل، وكسرت الميم؛ لأن التغيير يأنس بالتغيير، ولئلا يدخل في وزن ليس في الأسماء.

---

(١) شهاب. (٢) البحر المحيط.

﴿يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ في «المصباح»: بطش بطشاً، من باب ضرب، وبها قرأ السبعة، وفي لغة من باب قتل، وبها قرأ الحسن البصري. وأبو جعفر المدني، والبطش: الأخذ بقوة وشدة وعنف، ويقال: بطشت اليد إذا عملت فهي باطشة اهـ.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النزغ[1]: كالخنس والنغز والوكز، إصابة الجسد برأس محدد كالإبرة والمهماز والرمح، والمراد هنا: نزغ الشيطان بإثارته داعية الشر والفساد في النفس، بغضب أو شهوة، بحيث تلجىء صاحبها إلى العمل بتأثيرها، كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع، وفي «البحر المحيط»: النزغ أدنى حركة، ومن الشيطان أدنى وسوسة، قاله الزجاج، وقال ابن عطية: حركة فيها فساد، وقلما تستعمل إلا في فعل الشيطان؛ لأنَّ حركته مسرعة مفسدة، وقيل: هو لغة الإصابة تعرض عند الغضب، وقال الفراء: النزغ: الإغراء والإغصاب. اهـ.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ والاستعاذة بالله الالتجاء إليه ليقيك من شر هذا النزغ.

﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الطائف الخاطر منه كما مر، وقرىء ﴿طيف﴾ بوزن[2] بيع، يقال: طاف يطيف طيفاً، كباع يبيع بيعاً، فوزنه فعل، ويحتمل أنَّه مخفف طيف، كميْت مخفف ميِّت، فوزنه فيل؛ لأن عينه ـ وهي الياء الثانية ـ محذوفة، وفي «المراغي»: والطوف والطواف بالشيء الاستدارة به، أو حوله، وطيف الخيال: ما يرى في النوم من مثال الشخص، والمس يراد به هنا ما ينال الإنسان من شر وأذى، فقد ذكر في التنزيل مس الضر والضراء والبأساء، والسوء والعذاب.

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ والمد والإمداد الزيادة في الشيء ومن جنسه، واستعمل في القرآن في الخلق والتكوين، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ وفي مد الناس فيما يذم ويضر، كقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾، ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ والإقصار التقصير، ويقال أقصر عن الأمر تركه وكف عنه، وهو قادر عليه.

﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ الاستماع[1] أخص من السمع؛ لأنَّه إنَّما يكون بقصد ونية، أو توجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه، أما السمع فيحصل ولو بغير قصد، والانصات السكوت للاستماع حتى لا يكون شاغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ، وقال[2] الفراء: الانصات السكوت للاستماع، يقال: نصت وأنصت وانتصت، بمعنى واحد، وقد ورد الإنصات متعدياً في شعر الكميت حيث قال:

أَبُـوكَ ٱلَّـذِيْ أَجْـدَىٰ عَـلَـيْـهِ بِـنَـصْـرِهِ ... فَـأَنْـصِـتْ عَـنِّـيَ بَـعْـدَهُ كُـلَّ قَـائِـلِ

قال: يريد فأسكت عن، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ والتضرع إظهار الضراعة، وهي الذلة والضعف والخضوع، والخيفة حالة الخوف والخشة، وأصله خوفة، فوقعت الواو ساكنة إثر كسرة فقلبت ياء، فهو واوي من الخوف ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾؛ أي: ذكراً دون الجهر برفع الصوت، وفوق التخافت والسر، بأن يذكر ذكراً وسطاً.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ والغدو جمع غدوة، وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس، والآصال[3] جمع أصل، كعنق وأعناق، أو جمع أصيل كيمين وأيمان، ولا حاجة لدعوى أنَّه جمع جمع كما ذهب إليه بعضهم، إذ ثبت أنَّ أصلاً مفرد، وإنْ كان يجوز جمع أصيل على أصل. . فيكون جمعاً ككثيب وكثب، وممن ذهب إلى أنَّ آصالاً جمع أصل، ومفرد أصل أصيل الفراء، ويقال: جئناهم موصلين؛ أي: عند الآصال ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾؛ أي: ينزهونه عما لا يليق به. ﴿يَسْجُدُونَ﴾؛ أي: يصلون.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الكناية في قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾؛ لأنَّ التغشي هنا كناية عن الجماع، وهو من الكنايات اللطيفة.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿ءَاتَىٰهُمَا﴾، وفي قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، إنْ قلنا إنَّه معطوف على قوله: ﴿هو الذي خلقكم﴾ كما مر في بحث التفسير وبحث الإعراب.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ بعد قوله أولاً: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ وفائدته: الاشعار بمزيد الاعتناء بأمر التوبيخ، والتبكيت ببيان عجز الأصنام عما هو أدنى من النصر المنفي عنها وأيسر، وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير تحصيله للطالب.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ﴾ في عدم إفادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر، كما ذكره أبو السعود، وفي «السمين»: وإنَّما أتى في الآية بالجملة الثانية اسمية ولم يقل: أم صمتم؛ لأنَّ الفعل يشعر بالحدوث؛ ولأنَّها رأس فاصلة. اهـ.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ وكذا في المواضع الثلاثة المذكورة بعده.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ﴾، وفائدته زيادة التقريع والتوبيخ لهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾؛ لأنَّ النزغ في الأصل النخس ـ وهو حث السائق للدابة على السير ـ والمراد هنا الوسوسة، فشبهت الوسوسة بالنزغ، بمعنى الحث على السير، بجامع السرعة في كل، واستعير اسم المشبه به ـ الذي هو النزغ ـ للمشبه ـ الذي هو الوسوسة، فاشتق من النزغ بمعنى الوسوسة، ينزغنك بمعنى: يوسوسنك، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، وذكر الشيطان تجريد؛ لأنه يلائم المشبه الذي هو الوسوسة.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو ما حذف فيه أداة التشبيه ووجه الشبه، وأصله: هذا كبصائر من ربكم، وقيل: إنَّه من قبيل المجاز المرسل، حيث أطلق المسبب على السبب؛ لأنَّ القرآن لما كان سبباً لتنوير العقول.. أطلق عليه لفظ البصيرة؛ لأنَّ البصائر جمع بصيرة، وأصل البصيرة ظهور الشيء واستحكامه حتى يبصره الإنسان فيهتدى به، فأطلق لفظ البصيرة على القرآن تسمية للسبب باسم المسبب. اهـ. «كرخي».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾؛ لأنَّ المراد به جميع الأوقات، من إطلاق اسم الجزء على الكل على ما قيل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خاتمة في خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة من الموضوعات

جملة ما اشتملت عليه هذه السورة من المقاصد سبعة:

الأول: التوحيد: وهو يتضمن دعاء الله وحده، وإخلاص الدين له، وتخصيصه بالعبادة؛ فإنه شارع الدين، فيجب اتباع ما أنزله، ولا يجوز اتباع الأولياء من دونه في العقائد والعبادات، ولا التحليل والتحريم الديني، كما قال: ﴿اتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وإنَّ القول عليه بغير علم بتشريع أو غيره لا يجوز لأحد، كما قال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأن جميع ما يشرعه لعباده حسن، وما سواه قبيح ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ونحن مأمورون بذِكره تضرعاً وخفية سراً وجهراً.

الثاني: الوحي والكُتب: ويتضمن ذلك إنزال القرآن على النبي ﷺ للإنذار به، والأمر باستماعه والانصات له، رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به، وأمر المؤمنين باتباع المنزل عليهم من ربهم.

الثالث: الرسالة والرسل: ويشمل ذلك بعثة الرسل إلى جميع بني آدم كما قال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ وسؤالهم يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الأمم عن الإجابة، ومجيء الرسل بالبينات من الله تعالى تأييداً منه لهم، وعقاب الأمم على تكذيب الرسل، كما ذكر في قصص نوح وهود وصالح وشعيب.

الرابع: عالم الآخرة: ويتضمن ذلك البعث والإعادة في الآخرة كما قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ووزن الأعمال يوم القيامة، وترتيب الجزاء على ثقل الموازين وخفتها، وأنَّ الجزاء بالعمل، وإقامة أهل الجنة الحجة على أهل النار، والحجاب بين أهل الجنة وأهل النار، ونداء أصحاب النار أصحاب الجنة، واعتراف أهل النار في الآخرة بصدق الرسل، وصفة أهل النار، وقيام الساعة، وكونها تأتي بغتة.

الخامس: أصول التشريع: ويتضمن هذا وجوب اتباع الدين على أنّه قربة

يثاب فاعلها عليها، ويعاقب تاركها في الآخرة، وتحريم التقليد فيه، والأخذ بآراء البشر، وتعظيم شأن النظر العقلي والتفكر، لتحصيل العلم بما يجب الإيمان به، ومعرفة آيات الله وسننه في خلقه، والأمر بالعدل في الأحكام والأعمال، كما قال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ وحصر أنواع المحرمات الدينية العامة في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ . . .﴾ الخ وبيان أصول الفضائل الأدبية والتشريعية في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

السادس: آيات الله وسننه في الكون: ويتضمن ذلك خلق السموات والأرض في ستة أيام، واستواءه على العرش، ونظام الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره، وخلق الرياح والمطر، وإحياء الأرض به، وإخراجه الثمرات من الأرض، خلق الناس من نفس واحدة، وخلق زوجها منها ليسكن إليها، وإعداد الزوجين للتناسل، وتفضيل الإنسان على من في الأرض جميعاً، خلق بني آدم مستعدين لمعرفة الله تعالى، وإشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنَّه ربهم، وشهادتهم بذلك بمقتضى فطرتهم، بما منحوه من العقل، وحجته تعالى عليهم بذلك: خلقهم مستعدين للشرك وما يتبعه من الخرافات، وضرب الأمثال لاختلاف الاستعداد لكل من الخير والشر، وعلامة كل منهما فيهم يكون بما يرى من ثماره. وفي ذلك تعليم لنا بطلب معرفة الشيء بأثره، ومعرفة الأثر بمصدره، عداوة إبليس والشياطين من نسله لبني آدم، وإغوائهم بالفساد مع ذكر حكمة ذلك، بيان أن الشياطين أولياء للمجرمين الذين لا يؤمنون، منة الله تعالى على البشر، بتسهيل أسباب المعاش لهم في آيات الله تعالى ونعمه على بني إسرائيل، إلى نحو ذلك مما فيه سعادة البشر في دينهم ودنياهم.

السابع: سننه تعالى في الاجتماع والعمران البشري: ويتضمن ذلك إهلاك الله الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها، وأن للأمم آجالاً لا تتقدم ولا تتأخر عنها بما اقتضته السنن الإلهية العامة، ابتلاء الله الأمم بالبأساء والضراء تارة، وبالرخاء والنعماء أخرى، وأن الإيمان بما دعا إليه، والتقوى في العمل بشرعه، فعلاً وتركاً سبب لكثرة بركات السماء والأرض وخيراتها على الأمة، كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ وأن الله إرث الأرض، واستخلاف الأمم، والسيادة على الشعوب سنناً لا تتبدل، كما قال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَالْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾؛ أي: إن الأرض ليست رهن تصرف الملوك والدول بقدرتهم الذاتية، فتدوم لهم، وإنما هي لله، ولله سنن في سلبها من قوم، وجعلها إرثاً لقوم آخرين، وقد جعل العاقبة للمتقين الذين يتقون أسباب الضعف والتخاذل والفساد في الأرض، ويتصفون بضدها وبسائر ما تقوى به الأمم من الأخلاق والأعمال، كالصبر على المكاره، والاستعانة بالله الذي بيده ملكوت كل شيء وإنا نرى أن بعض الشعوب الإسلامية المستضعفة في هذا العصر باستعمار الشيوعية لها كالشعوب الأرمية في شرقي افريقيا يائسة من استقلالها وعزتها لما ترى من رجحان ذوي السيادة عليها في القوى المادية والسلاحية، جهلاً منهم بسنة الله التي بينها للناس؛ فإنَّ رجحان فرعون وقومه على بني إسرائيل، كان فوق رجحان قوى السائدين عليهم وقهرهم إياهم، وقد كان ينبغي للمسلمين أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه الله عليهم من ذنوب الأمم، التي هلك بها من كان قبلهم، حتى دالت دولتهم، وزال ملكهم، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

---

(١) إلى هنا تم ما تيسر لنا جمعه من تفسير سورة الأعراف، في الليلة الرابعة والعشرين من الجمادى الأخيرة، منتصف الليل، في تاريخ ٢٤/ ٦/ ١٤١٠هـ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات، وأزكى التحيات.. فالحمد لله على توفيقه، والشكر له على تيسيره، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، حمداً يعدل حمد الملائكة المقربين وجميع عباده الصالحين وصل الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين... آمين.

سورة الأنفال

سورة الأنفال مدنية إلا سبع آيات، من قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فمكية، والأصح[1]: أنَّ سورة الأنفال كلها مدنية كما في «الخازن» وإن كانت الآيات السبع المذكورة في شأن الواقعة التي وقعت بمكة، إذ لا يلزم من كون الواقعة في مكة أن تكون الآيات التي في شأنها مكية، فالآيات المذكورة نزلت بالمدينة تذكيراً له ﷺ بما وقع له في مكة، فقولهم: مدنية إلا سبع آيات ضعيف، وقيل: كلها مدنية إلا[2] قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾؛ فإنّها نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال. وجملة آيات هذه السورة خمس أو ست[3] وسبعون آية، وكلماتها ألف وست مئة وإحدى وثلاثون كلمة، وحروفها خمسة آلاف ومئتان وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم.

ومما ورد في فضلها: ما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي أيوب: (أنَّ[4] النبي ﷺ كان يقرأ بها في صلاة المغرب).

وأخرج الطبراني أيضاً عن زيد بن ثابت: (أن النبي ﷺ كان يقرأ في الركعتين من المغرب بسورة الأنفال).

المناسبة: ومناسبة هذه السورة لسورة الأعراف[5]: أنَّها في بيان أحوال النبي ﷺ مع قومه، وسورة الأعراف مبينة لأحوال الرسل مع أقوامهم.

الناسخ والمنسوخ: وجملة ما في هذه السورة من المنسوخ ست آيات[6]:

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) ابن كثير.
(٤) الشوكاني.
(٥) المراغي.
(٦) الناسخ والمنسوخ لابن حزم.

أولاهن: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ الآية (١) نسخت بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ...﴾ الآية (٤١).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ الآية (٣٣)، منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ﴾ الآية (٣٤).

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية (٣٨): منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ...﴾.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا...﴾ الآية (٦١) منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (٢٩)، من سورة التوبة.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ (٦٥) منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآية (٦٦).

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ (٧٢) وذلك أنهم كانوا يتوارثون بالهجرة لا بالنسب، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ الآية (٧٥).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ (٣) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)
كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ (٥) يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ
بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ
دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ
فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ
ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ
وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ
بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ
(١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٤)﴾.

المناسبة

المناسبة بين أول هذه السورة وآخر سورة الأعراف: أن سورة الأنفال بُدئت بالأمر بتقوى الله تعالى وبإصلاح ذات البين وبالحث على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وبيان أنَّ الخوف من الله تعالى وعدم الاستكبار عن طاعته من صفات المؤمنين، وأن إقامة الصلاة التي من أركانها السجود من صفاتهم، وأن سورة الأعراف ختمت بأخذ العفو، والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، المستلزم لإصلاح ذات البين، وبالأمر باستماع القرآن والإنصات له عند قراءته،

المسلتزم خوف القلوب من ربها، وزيادة الإيمان لها عند تدبرها معاني آيات الله تعالى، وختمت أيضاً ببيان أنَّ من صفات الملائكة المقربين عدم الاستكبار عن عبادته تعالى، وأنَّهم يسبحونه وله يسجدون؛ أي: يصلون، كما أنَّ من صفات المؤمنين إقامة الصلاة وعدم الاستكبار عن طاعة الله تعالى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ الآية، سبب نزولها[١]: ما أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قَتل قتيلاً.. فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً.. فله كذا وكذا»، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنَّا كنا لكم ردءاً، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا، فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

وروى أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قتل أخي فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، فأتيت به النبي ﷺ فقال: «اذهب فاطرحه في القبض» فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي، وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال النبي ﷺ: «اذهب فخذ سيفك».

وروى[٢] أبو داود والترمذي والنسائي عن سعد قال: لما كان يوم بدر.. جئت بسيف فقلت: يا رسول الله، إنَّ الله قد شفى صدري من المشركين، هب لي هذا السيف، فقال: «هذا ليس لي ولا لك»، فقلت: عسى أن يعطى هذا من لا يبلي بلائي، فجاءني الرسول ﷺ فقال: «إنَّك سألتني وليس لي، وإنَّه قد صار لي وهو لك»، قال: فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنَّهم سألوا النبي ﷺ عن الخُمس بعد الأربعة

---

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

الأخماس؟ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾. الآية.

وأخرج الإمام أحمد وابن جرير والحاكم، وقال صحيح على شرط مسلم، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، فأكبت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ على وفاق بين المسلمين. الحديث هذا لفظ أحمد. ولا تنافي بين السببين، إذ لا مانع أن تكون الآية نزلت في الجميع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ـ ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت ـ: «ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا؟» فخرجنا فسرنا يوماً أو يومين، قال: «ما ترون فيهم» فقلنا: يا رسول الله، ما لنا طاقة بقتال القوم إنما أخرجنا للعير، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال موسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ فأنزل الله عز وجل: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ سبب نزوله: ما أخرجه الإمام أحمد (ج ١/ ص ٣٠) قال: حدثنا أبو نوح قراد، أنبأنا عكرمة عن عمار، حدثنا سماك الحنفي ـ أبو زميل ـ حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى

أصحابه وهم ثلاث مئة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه ـ وعليه رداؤه وإزاره ـ قال: «اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجزني ما وعدتني، اللهم إنَّك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ رداءه، فرداه ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك؛ فإنَّه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾. الحديث أخرجه مسلم والترمذي وقال حسن صحيح غريب.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾؛ أي: يسألك يا محمد أصحابك ـ منهم سعد بن أبي وقاص ـ سؤال استفتاء أو سؤال طلب ﴿عَنِ الْأَنفَالِ﴾؛ أي: عن الغنائم يوم بدر لمن هي؟ أللشبان أم للشيوخ أو للمهاجرين هي؟ أم للأنصار أم لهم جميعاً؟ وسميت الغنائم أنفالاً لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم التي لم تحل لهم الغنائم؛ ولأنَّها عطية من الله تعالى زائدة على الثواب الأخروي للجهاد، وقرأ سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وعلي بن الحسين وغيرهم ﴿يسألونك الأنفال﴾ بدون ﴿عَنِ﴾ ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿الْأَنفَالُ﴾ والغنائم يوم بدر ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ أي: الحكم فيها لله سبحانه وتعالى، يحكم فيها بحكمه، وللرسول ﷺ، يقسمها بحسب حكم الله تعالى من غير أن يدخل فيه رأي أحد، وقد قسمها رسول الله ﷺ بالسواء، وقد[1] بين الله سبحانه وتعالى بهذه الجملة أنَّ أمرها مفوض إلى الله ورسوله، ثم بين مصارفها، وكيفية قسمتها، في آية الخُمس: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية. وللإمام أنْ ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس، وقد روي عن سعد بن وقاص أنَّه قال: قتل أخي عمير يوم بدر، فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأعجبني، فجئت به إلى النبي ﷺ، فقلت: إن الله شفى

---

(١) المراغي.

صدري من المشركين، فهب لي هذا السيف، فقال لي عليه الصلاة والسلام: «ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القبض» فطرحته وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا سعد، سألتني السيف وليس لي، وقد صار لي فخذه». والحديث سبق في أسباب النزول.

وكان سبب نزول الآية[١]: اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في يوم بدر كما سبق بيانه، فنزع الله ما غنموه من أيديهم وجعله لله والرسول فقال: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: حكمها مختص بهما، يقسمها بينكم رسول الله ﷺ على حسب ما أمره الله سبحانه به، وليس لكم حكم في ذلك.

وقد ذهب[٢] جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصة، ليس لأحد فيها شيء، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ...﴾ الآية. ثم أمرهم بالتقوى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وترك الاختلاف الذي وقع بينهم، فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى أيها المؤمنون في أخذ الغنائم، واتركوا المنازعة فيها؛ أي: فاجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع والاختلاف الموجب لسخط الله، لما فيه من المضار، ولا سيما في حال الحرب. ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: وأصلحوا الحال والشأن والمواصلة بينكم، بترك النزاع وتفويض أمر الغنائم إلى الله ورسوله؛ أي: وأصلحوا ما بينكم من الأحوال والشؤون، حتى تكون أحوال ألفة ومودة ومحبة واتفاق، وعبارة «البيضاوي» هنا؛ أي: وأصلحوا الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى، وتسليم أمره إلى الله والرسول. انتهت. وعبارة «الصاوي» هنا قوله: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: الحالة التي بينكم، وهي الوصلة الإسلامية، فالمعنى: اتركوا النزاع والشحناء، والزموا المودة والمحبة بينكم، ليحصل النصر والخير لكم، انتهت. وهذا

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.

الإصلاح[1] واجب شرعاً، وعليه تتوقف قوة الأمة وعزتها، وبه تحفظ وحدتها، روي عن عبادة بن الصامت قال: نزلت هذه الآية فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من بين أيدينا، فجعله لرسوله، فقسمه بين المسلمين على السواء، وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله، وإصلاح ذات البين.

﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ﷺ أيها المؤمنون في كل ما يأمر به وينهى عنه، ويقضي به ويحكم، فالله تعالى مالك أمركم، والرسول مبلغ عنه، ومبين لوحيه بالقول والفعل والحكم، وعلى هذه الطاعة تتوقف النجاة في الآخرة، والفوز بثوابها، والرسول ﷺ يطاع في اجتهاده في أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة، ولا سيما في الشؤون الحربية؛ لأنَّه القائد العام، فمخالفته تخل بالنظام، وتؤدي إلى الفوضى التي لا تقوم للأمة معها قائمة، ولأئمة المسلمين من حق الطاعة في تنفيذ الشرع، وإدارة شؤون الأمة، وقيادة الجند، ما كان له ﷺ بشرط عدم معصية الله تعالى، ومشاورة أولي الأمر، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: امتثلوا لهذه الأوامر الثلاثة إنْ كنتم مستمرين على الإيمان بالله؛ لأنَّ هذه الأمور الثلاثة ـ التي هي تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله والرسول ـ لا يكمل الإيمان بدونها، بل لا يثبت أصلاً لمن لم يمتثلها؛ فإن من ليس بمتق وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمن.

أي: إن كنتم كاملي الإيمان.. فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة، إذ كمال الإيمان يقتضي ذلك الامتثال؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أوجبه، فالمؤمن بالله حقاً يكون من نفسه وازع يسوقه إلى الطاعة واتقاء المعاصي، إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحياناً من ثورة شهوة، أو فورة غضب، ثم لا يلبث أنْ يفيء إلى أمر الله، ويتوب إليه مما عرض له.

ثم وصف الله تعالى المؤمنين بخمس صفات تدل على وجوب التقوى،

---

(١) المراغي.

وإصلاح ذات البين، وطاعة الله تعالى ورسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إنَّما المؤمنون حقاً المخلصون في إيمانهم هم الذين اجتمعت فيهم خمس خصال:

الأولى منها: ما ذكره بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ ورقت وخافت ﴿قلوبهم﴾: من الله تعالى خوف عقاب، وهو خوف العصاة، وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص، ولفظة ﴿إنَّما﴾ تفيد الحصر، والمعنى: ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله، إنَّما المؤمنون الصادقون في إيمانهم هم الذين إذا ذكروا الله بقلوبهم وجلت قلوبهم؛ أي: خضعت وخافت ورقت قلوبهم؛ أي: فزعوا لعظمته وسلطانه، أو لوعده ووعيده، ومحاسبته لخلقه، والآية بمعنى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

فإن قلت: إنَّه سبحانه وتعالى قال في هذه الآية: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بمعنى خافت، وقال في آية أخرى ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، فكيف الجمع بينهما؟.

قلتُ: لا منافاة بين هاتين الحالتين؛ لأن الوجل هو خوف العقاب، والاطمئنان إنما يكون من ثلج اليقين، وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد، وهذا مقام الخوف والرجاء، وقد جمعا في آية واحدة، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله، ورجاء ثوابه، وهذا حاصل في قلب المؤمنين.

والثانية: ما ذكره بقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: وإذا قرأت عليهم آيات القرآن المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾؛ أي: زادتهم تصديقاً ويقيناً في الإيمان، وقوة في الاطمئنان، ونشاطاً في الأعمال؛ لأنَّ تظاهر الأدلة، وتعاضد الحجج يوجد زيادة اليقين، فإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان مؤمناً بإحياء الله الموتى حين دعا ربه أن يريه كيف يحييها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ فمقام الطمأنينية في الإيمان يزيد على ما دونه من

الإيمان المطلق قوة وكمالاً، قيل: والمراد بزيادة الإيمان: هو زيادة انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات. وقيل: المراد بزيادة الإيمان: زيادة العمل؛ لأنَّ الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، والآيات المتكاثرة، والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». ففي هذا الحديث دليل على أنَّ الإيمان فيه أعلى وأدنى، وإذا كان كذلك.. كان قابلاً للزيادة والنقص، ويروى أن علياً المرتضى قال: لو كشف عني الحجاب ما ازددت يقيناً، والعلم التفصيلي في الإيمان أقوى من العلم الإجمالي، فمن آمن بأن لله علماً محيطاً بالمعلومات، وحكمة قام بها نظام الأرض والسموات، ورحمة وسعت جميع المخلوقات، ويعلم ذلك علماً إجمالياً، ولو سألته أنَّ يبين لك شواهده في الخلق.. لعجز، لا يوزن إيمانه إيمان صاحب العلم التفصيلي بسنن الله في الكائنات في كل نوع من أنواع المخلوقات، ولا سيما في العصور الحديثة، التي اتسعت فيها معارف البشر بهذه السنن، فعرفوا منها ما لم يكن يخطر عشر معشاره لأحد من العلماء في القرون الخوالي، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: في وصف ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ في غزوة أحد ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

والثالثة: ما ذكره بقوله: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾ ومالك أمرهم لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يعتمدون بالكلية، وينقطعون بالكلية عما سوى الله تعالى؛ أي: إنَّهم يتوكلون على ربهم وحده، لا يفوضون أمرهم إلى غيره، فمن كان موقناً بأن الله هو المدبر لأموره وأمور العالم كله.. لا يمكن منه أن يكل شيئاً منها إلى غيره، فلا يعتمد على مال، ولا على عمل، ولا يخاف من غيره.

واعلم: أن هذه الخصال الثلاث ـ أعني الوجل عند ذكر الله، وزيادة

الإيمان عند تلاوة القرآن، والتوكل على الله ـ من أعمال القلوب، والصفتان الباقيتان من أعمال الجوارح، كما سترى قريباً.

واعلم: أنَّه إذا كان الشرع والعقل حاكمين بأن للإنسان كسباً اختيارياً كلفه الله العمل به، وأنه يجازى على عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.. وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما وضعه الله تعالى في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، وأنَّ هذا الارتباط لم يكن إلا بتسخير الله تعالى وأما ما يناله باستعمالها فهو فضل من الله تعالى الذي سخرها وجعلها أسباباً، وعلمه ذلك، وأن ما لا يعرف له سبب يطلب به، فالمؤمن يتوكل على الله وحده، وإليه يتوجه فيما يطلبه منه، أما ترك الأسباب وتنكب سنن الله في الخلق.. فهو جهل بالله وجهل بدينه، وجهل بسننه التي لا تتبدل ولا تتحول.

والرابعة: ما ذكره بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذا الموصول في محل رفع على أنَّه وصف للموصول قبله، أو بدل منه، أو بيان له، أو في محل نصب على المدح، وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه، يعني: يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها؛ أي: يؤدونها مقومة كاملة في صورتها وأركانها الظاهرة من قيام، وركوع، وسجود، وقراءة، وذكر، وفي معناها وروحها الباطن من خشوع وخضوع، في مناجاة الرحمن، واتعاظ وتدبر في تلاوة القرآن، وبهذا كله تحصل ثمرة الصلاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

والخامسة: ما ذكره بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: وينفقون بعض ما رزقناهم في وجوه البر، من الزكاة المفروضة، والحج والجهاد، والنفقات الواجبة والمندوبة للأقربين، والمحتاجين، وفي مصالح الأمة ومرافقها العامة، التي بها يعلو شأنها بين الأمم، ويكون عليه تقدمها وعمرانها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات الخمس المذكورة ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً ﴿حَقًّا﴾ لا شك في إيمانهم؛ لأنهم حققوا إيمانهم بضم الأعمال القلبية والقالبية إليه.

روى الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، أنَّه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ماذا تقول يا حارثة؟ فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقال: «يا حارثة عرفت فالزم» ثلاثاً.

وروي عن الحسن أنَّ رجلاً سأله: أمؤمن أنت؟ قال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والجنة والنار، والبعث والحساب.. فأنا مؤمن، وإنْ كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ...﴾ الخ فوالله لا أدري أنا منهم أم لا.

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى أوصافهم، ذكر جزاءهم عند ربهم فقال: ﴿لَّهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء الموصوفين بالصفات السابقة ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ من الكرامة والزلفى، ومراتب متفاوتة، بعضها فوق بعض بحسب تفاوتهم في الإيمان، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين مئة عام» أخرجه الترمذي.

وله أيضاً عن أبي سعيد الخدري: أن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنة مئة درجة، لو أنَّ العالمين اجتمعوا في إحداهن.. لوسعتهم مدخرة لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي خلقهم وسواهم، وهو القادر على جزائهم على أعمالهم الصالحة في دار الجزاء والثواب، والله تعالى فضل بعض الناس على بعض، ورفعهم درجة أو درجات في الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وقال تعالى في الرسل: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾. الآية. وقال في درجات الدنيا وحدها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

وفي كونها عنده سبحانه وتعالى زيادة تشريف لهم، وتكريم وتعظيم وتفخيم.

﴿و﴾ لهم ﴿مغفرة﴾ من الله سبحانه وتعالى لذنوبهم التي سبقت وصولهم إلى درجات الكمال ﴿و﴾ لهم ﴿رزق كريم﴾؛ أي: ثواب حسن في الجنة، مقرون بالإكرام والتعظيم، خال عن كد الاكتساب وخوف الحساب، وهو ما أعد الله سبحانه وتعالى لهم من نعيم الجنة، من لذيذ المآكل والمشارب، وهناء العيش، والكريم تصف به العرب كل شيء حسن، لا قبح فيه ولا شكوى.

والكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ خبر لمبتدأ محذوف جوازاً تقديره: الأمر والشأن كائن كما أخرجك ربك، و﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: قضاء الله وأمره وشأنه كائن كإخراجه إياك من بيتك في المدينة، حال كونك ملتبساً بالحق والوحي ﴿و﴾ الحال ﴿إن فريقاً﴾ وجماعة ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ ذلك الخروج، لعدم استعدادهم له بالعدد والعدد، وقيل: إن الكاف اسم بمعنى مثل واقعة خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: حالهم في كراهة ما رأيت من تنفل جميع الغزاة بالسوية، مثل حالهم في كراهة خروجهم للحرب؛ أي فكراهتهم لقسمة الغنيمة على السوية مثل كراهتهم لقتال قريش.

والحاصل: أنه وقع للمسلمين في وقعة بدر كراهتان:

كراهة قسمة الغنيمة على السوية، وهذه الكراهة من شبابهم فقط، وهي الداعي الطبيعي، ولتأولهم بأنَّهم باشروا القتال دون الشيوخ.

والكراهة الثانية: كراهة قتال قريش، وعذرهم فيها أنَّهم خرجوا من المدينة ابتداء لقصد الغنيمة، ولم يتهيؤوا للقتال، فكان ذلك سبب كراهتهم للقتال، فشبه إحدى الحالتين بالأخرى في مطلق الكراهة.

وقيل: إن التشبيه واقع بين إخراجين؛ أي: إخراج ربك إياك من بيتك في مكة بالحق والوحي، وأنت كاره للخروج، وكان عاقبة ذلك الإخراج الظفر والنصر، والخير كائن، كإخراجه إياك ـ وبعض المؤمنين ـ من بيتك في المدينة بالحق والوحي في أنَّه يكون عقب ذلك الخروج الثاني الظفر والنصر والخير، كما

كانت عقيب ذلك الخروج الأول، وقيل: المعنى الأنفال ثابتة لله ثبوتاً بالحق والوحي، كثبوت إخراجك من بيتك بالمدينة بالحق والوحي، والحال: إنَّ فريقاً وطائفة من المؤمنين لكارهون ذلك الخروج.

وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام ـ وفيها تجارة عظيمة ومعه أربعون راكباً، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام ـ فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير وقلة القوم، فلما خرجوا وبلغوا وادي دقران ـ بوزن سلمان وهو قريب من الصفراء ـ نزل عليه ﷺ جبريل فقال: يا محمد، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين، إما العير وإما قريشاً، فاستشار النبي أصحابه فقال: «ما تقولون؟ إنَّ القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول، فالعير أحب إليكم أم النفير؟» ـ وهو اسم عسكر مجتمع ـ فقالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو، فتغير وجه رسول الله ﷺ، ثم ردد عليهم فقال: «إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل؛ أي: بجمع أهل مكة، ومضى إلى بدر» فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ، فقام عند ذلك أبو بكر وعمر، فأحسنا في القول، ثم قال سعد بن عبادة فقال: انظر أمرك فامض، فوالله لو سرت إلى عدن ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال مقداد بن عمرو: يا رسول الله، امض كما أمرك ربك، فإنا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس» فقال سعد بن معاذ: امض يا رسول الله لما أردت، فوالله الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، ففرح رسول الله ﷺ، وبسطه قول سعد، ثم قال ﷺ: «سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

وحاصل المعنى: أنَّ الأنفال لله يحكم فيها بالحق، ولرسوله يقسمها بين من

جعل الله لهم الحق فيها بالسوية، وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ممن كانوا يرون أنَّهم أحق بها، كما يكرهون إخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين، وقد كان كثير من المؤمنين كارهين لذلك، لعدم استعدادهم للقتال، ولقلة عددهم، وقلة سلاحهم، وكثرة عدوهم وسلاحهم، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾؛ أي: يجادلك يا محمد المؤمنون وينازعونك ﴿فِى ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: في القتال وتلقي النفير لإيثارهم عليه تلقي العير كراهية للقاء المشركين، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾؛ أي: بعد أن ظهر لهم الحق الذي هو القتال بإخبارك أنَّهم سينصرون أينما توجهوا، وبعد ما أمرت به، ويقولون: ما كان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا وأخبرته أولاً لنستعد ونتأهب له، وما كان هذا إلا لكراهتهم للقتال، إذ أنَّهم كانوا في حال ضعف، فكان من حكمة الله أو وعدهم أولاً إحدى طائفتي قريش تكون لهم على طريق الإبهام لا على طريق التعيين، فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام؛ لأنَّها كسب عظيم لا مشقة في إحرازه لضعف الحامية، فلما ظهر لهم أنَّها فاتتهم ونجت ـ إذ ذهبت من طريق سيف البحر، طريق الشاطىء ـ وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل ما لدى قريش من قوة، وأنَّها قد قربت منهم، ووجب عليهم قتالها، إذ تبين أنَّها هي الطائفة التي وعدهم الله تعالى بالنصر عليها.. صعب على بعضهم لقاؤها على قلتهم وكثرتها، وضعفهم وقوتها، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها، وطفقوا يعتذرون إلى النبي ﷺ بأنَّهم لم يخرجوا إلا للعير؛ لأنَّه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له.

ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدل فيه وجه.. فلا ينبغي أن يقال: إنَّ طائفة العير هي مراد الله؛ لأنَّها نجت، ولا بأن يقال: إننا لم نعد للقتال عدته؛ لأنَّه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعد الله به، فإذاً لا وجه للجدل إلا الجبن والخوف من القتال، وقرأ عبد الله ﴿بعد ما بُين﴾ بضم الباء من غير تاء، وفي قوله: ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ إنكار عظيم عليهم؛ لأن من جادل في شيء لم يتضح.. كان أخف عتباً، أما من نازع في أمر واضح.. فهو جدير باللوم والإنكار.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: يجادلونك في الحق حالة كونهم لشدة ما بهم من جزع ورهب، يساقون بعنف وشدة وقهر إلى موت محقق لا مهرب منه، لوجود أماراته وأسبابه، حتى كأنَّهم ينظرون إليه بأعينهم، إذ ما بين حالهم وحال عدوهم، من التفاوت في القوة والعدد، والخيل والزاد، قاض بذلك، ولكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين بالظفر والنصر عليهم ووعده لا يتخلف.

وأما هذه الأسباب العادية فكثيراً ما تتخلف: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الذي بيده كل شيء، وهو القادر على كل شيء، وهكذا أنجز الله وعده لرسوله والمؤمنين، وكان لهم الظفر والفوز على عدوهم، وكان هذا نصراً مؤزراً للمسلمين على المشركين، وبه علا ذِكرهم في البلاد العربية، وهابهم قاصيها ودانيها.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾؛ أي: واذكروا أيها المؤمنون قصة إذ وعدكم الله تعالى الظفر بإحدى الطائفتين العير والنفير ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾؛ أي: أن تلك الإحدى تكون وتحصل لكم وتتسلطون وتتصرفون فيها ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾؛ أي: والحال أنَّكم تتمنون وتحبون كون الطائفة غير صاحب الشوكة والقوة، وحصولها لكم - وهي العير - لضعفها وقلة عددها؛ لأنَّه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، وعبر عنها بذلك تعريضاً لكراهتهم للقتال، وطمعهم في المال، والمعنى: تمنون أنَّ العير التي ليس فيها قتال ولا سلاح ولا شوكة تكون لكم، والشوكة: الشدة والقوة ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بوعده غير ما أردتم ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ الذي أراده ويظهره، وهو نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: بآياته المنزلة على رسوله في محاربة ذات الشوكة، أو بما أمر به الملائكة من نزولهم للنصرة، أو بما قضى به من أسر المشركين وقتلهم وطرحهم في قليب - بئر - بدر، أو بأمره إياكم بالقتال، وقيل: بعداته التي سبقت لكم من إظهار الدين وإعزازه، وقيل: كلماته هي ما وعد نبيه في سورة الدخان، فقال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي من أبي جهل وأصحابه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ويهلك أصل الكافرين من أولهم إلى آخرهم،

ويعدم المعاندين بالجملة، ويذهب أثرهم، ويمحق قوتهم، وقد كان الظفر ببدر فاتحة الظفر فيما بعدها، إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة، قال صاحب[1] «الكشاف»: يعني أنَّكم تريدون الفائدة العاجلة، وسفساف الأمور، وأنْ لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم، والله عز وجل يريد معالي الأمور، وما يرجع إلى عمارة الدين، ونصرة الحق، وعلو الكلمة، والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقتلكم، وأعزكم وأذلهم اهـ.

وقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: وعد بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق الذي هو الإسلام؛ أي: ليظهر حقيته ويثبته، ويبطل الباطل الذي هو الشرك؛ أي: ليظهر بطلانه ويزيله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: المشركون أولو الاعتداء والطغيان إظهار الحق وإحقاقه، وإبطال الباطل وإزالته، ولا يكون ذلك بالاستيلاء على العير، بل بقتل أئمة الكفر من صناديد قريش الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم.

وفي الآية سؤالان[2]:

الأول: أن قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ تكرير مع قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ فما معناه؟

والجواب: أنَّه ليس بتكرار؛ لأن المراد بالمذكور أولاً تثبيت ما وعد في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء، وبالمذكور ثانياً تقوية الدين، وإظهار الإسلام مدى الأيام؛ لأنَّ الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم، وقهر الكافرين مع كثرتهم. . كان سبباً لإعزاز الدين وقوته، ولهذا السبب قرنه بقوله: ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾، وقيل: إنَّ الأول للفرق بين الإرادتين، إرادة الله تعالى وإرادتهم، والثاني لبيان الداعي إلى حمله ﷺ على اختيار ذات الشوكة ونصره؛ لأنَّ الذي وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سبباً لإعزاز الدين وقوته مدى الأيام.

---

(١) الكشاف. (٢) الخازن مع بعض زيادة.

السؤال الثاني: الحق حق لذاته، والباطل باطل لذاته، فما المراد بتحقيق الحق، وإبطال الباطل؟

والجواب: أنَّ المراد من تحقيق الحق: إظهار كون ذلك الحق حقاً، والمراد من إبطال الباطل: إظهار كون ذلك الباطل باطلاً، وذلك بإظهار دلائل الحق، وتقويته، وقمع رؤساء الباطل وقهرهم.

وقرأ مسلمة بن محارب[١]: ﴿يعدكم﴾ بسكون الدال لتوالي الحركات، وابن محيصن ﴿الله احدى﴾: بإسقاط همزة إحدى على غير قياس، وعنه أيضاً ﴿أحد﴾ على التذكير، إذ تأنيث الطائفة مجاز، وأدغم أبو عمرو ﴿الشوكة تكون﴾ وقرأ مسلم بن محارب ﴿بكلمته﴾ بالإفراد، وحكاها ابن عطية عن شيبة وأبي جعفر ونافع، بخلاف عنهم، وأطلق المفرد مراداً به الجمع للعلم به، أو أريد به كلمة تكوين الأشياء وهو: كن.

وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ ظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكروا أيها المؤمنون قصة وقت استغاثتكم ربكم؛ أي: وقت طلبكم الغوث والنصر من ربكم قائلين: ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا، والأمر بهذا الذكر لبيان نعمة الله عليهم حين التجائهم إليه، إذ ضاقت عليهم الحيل، وطلبوا مخلصاً من تلك الشدة، فاستجاب دعاءهم كما قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾؛ أي: فأجاب دعاءكم بأني ممدكم ومساعدكم فمعينكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ أي: متتابعين؛ أي يردف بعضهم بعضاً، ويتبعه؛ أي: يأتي بعضهم إثر بعض، وهذا[٢] الألف هم وجوههم وأعيانهم، وبهذا يطابق ما جاء في سورة آل عمران ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ و﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ وقيل[٣]: يجمع بين ما هناك وهنا بأن الملائكة كانت ألفاً في ابتداء الأمر، ثم صارت ثلاثة، ثم خمسة؛ أي: ثم صارت بعد الوعد بالألف ووقوع القتال بالفعل ومقاتلة الألف معهم صارت الألف بزيادة الله عليها ألفين ثلاثة آلاف، ثم صارت الثلاثة

---

(١) البحر المحيط. (٣) الفتوحات.

(٢) المراغي.

بزيادة ألفين عليها خمسة.

ومعنىٰ بـ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾؛ أي:[1] بإمدادي إياكم؛ أي: بوعدي إياكم بالإمداد، وذلك لأنَّه وقت الإجابة لم يحصل الامداد بالفعل؛ لأن الدعاء واستجابته كانا قبل وقوع القتال، وفي «الخازن»: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ الأصل بأني ممدكم؛ أي: مرسل إليكم مدداً وردءاً لكم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الهمزة على تقدير حذف الجر؛ أي: بأني، وقرأ عيسى بن عمر ورواها عن أبي عمرو ﴿إني﴾ بكسرها، وفيه مذهبان:

مذهب البصريين: أنه على إضمار القول؛ أي: فقال: إني ممدكم.

ومذهب الكوفيين: أنَّها محكية باستجابَ، إجراء له مجرى القول؛ لأنَّه بمعناه.

وقرأ الجمهور[3]: بألْفٍ بالإفراد، وقرأ الضحاك وأبو رجاء: ﴿بآلاف﴾ بهمزة ممدودة و﴿بألف﴾ على الجمع، وقرأ أبو العالية وأبو المتوكل: ﴿بألوف﴾ بوزن فلوس، بضم الهمزة واللام، وبواو بعدها، على الجمع، وقرأ تميم بن حذلم الضبي والجحدري: ﴿بألف﴾ بضم الألف واللام من غير واو ولا ألف، وقرأ أبو الجوزاء وأبو عمران: ﴿بيلف﴾: بياء مفتوحة، وسكون اللام من غير واو، ولا ألف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي والحسن ومجاهد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسر الدال؛ أي: متتابعين، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم وروي عن قنبل أيضاً بفتح الدال، قال الفراء: أراد فعل ذلك بهم؛ أي: إن الله أردف المسلمين بهم، وقرأ معاذ القارىء وأبو المتوكل الناجي وأبو مجلز: ﴿مُرَدَّفين﴾ بفتح الراء والدال، مع التشديد، وقرأ أبو الجوزاء وأبو عمران: ﴿مرُدِّفين﴾: بضم الراء وكسر الدال، وقال الزجاج: يقال ردفت الرجل إذا ركبت خلفه، وأردفته إذا أركبته خلفك، فمعنى ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يأتون فرقة بعد

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) زاد المسير.

فرقة، ويجوز في اللغة: مرَدِّفين ومُرُدِّفين ومُرِدِّفين، فالدال مكسورة مشددة على كل حال، والراء يجوز فيها الفتح والضم والكسر، قال سيبويه: الأصل مرتدفين، فأدغمت التاء في الدال، فصار مردفين؛ لأنَّك طرحت حركة التاء على الراء، وإنْ شئت لم تطرح حركة التاء، وكسرت التاء لالتقاء الساكنين، والذين ضموا الراء جعلوها تابعة لضم الميم ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وما جعل الله إمدادكم بإنزال الملائكة عياناً لعلة من العلل ﴿إِلَّا بُشْـرَىٰ﴾؛ أي: إلا لأجل البشرى لكم بأنَّكم تنصرون ﴿و﴾ إلا ﴿لتطمئن به قلوبكم﴾؛ أي: وإلا لتسكن بذلك الإمداد قلوبكم من الزلزال الذي عرض لكم، فكان من مجادلتكم للرسول في أمر القتال ما كان، وبذا تلقون أعداءكم ثابتين، موقنين بالنصر، وفي هذا إشعار بأنَّ الملائكة لم يقاتلوا، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم، وتطمين قلوبهم وتثبيتها، وحذف ﴿لكم﴾ هنا وأثبته في آل عمران لأن القصة هناك مسهبة، فناسبها الإثبات، وهنا موجزة فناسبها الحذف، وهنا قدم لفظة ﴿به﴾ وأخر هناك على سبيل التفنن والاتساع في دائرة الكلام، وجاء هنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مراعاة لأواخر الآي، وهناك ليست آخر آية، لتعلق ﴿يقطع﴾ بما قبله، فناسب أنْ يأتي ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ على سبيل الصفة، وكلاهما يشعر بالعلية، ذكره أبو حيان.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من عند غيره؛ أي: إنَّ الله ينصركم أيها المؤمنون فثقوا بنصره، ولا تتكلوا على قوتكم، فإمداد الملائكة، وكثرة العدد، والأهب ونحوها وسائط لا تأثير لها، فلا تحسبوا النصر منها، ولا تيأسوا منه بفقدها، وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد المسلم أن لا يتوكل إلا على الله تعالى في جميع أحواله، ولا يثق بغيره؛ فإن الله تعالى بيده النصر والإعانة؛ أي: ليس النصر إلا من عند الله تعالى دون غيره من الملائكة أو سواهم من الأسباب، فهو سبحانه الفاعل للنصر، والمسخر له كتسخيره للأسباب الحسية والمعنوية، ولا سيما ما لا كسب للبشر فيه، كتسخير الملائكة لتخالط المؤمنين، فتفيد أرواحهم الثبات والاطمئنان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب على أمره، قوي منيع لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، بل هو يقهر كل شيء ويغلب ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره

ونصره، ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء من عباده، لا يضع شيئاً في غير موضعه.

وظاهر الآية يدل على أن لإنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم فائدة معنوية، فهو يؤثر في القلوب فيزيدها قوة، وإنْ لم يكونوا محاربين، وهناك روايات تدل على أنَّهم قاتلوا فعلاً، وفي يوم أحد وعدهم الله وعداً معلقاً على الصبر والتقوى، ولكن الشرط الأخير قد انتفى، فانتفى ما علق عليه. واذكروا أيها المؤمنون نعمة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾؛ أي: نعمة إذ يلقي الله سبحانه وتعالى عليكم ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾؛ أي: النوم الخفيف ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾؛ أي: حالة كون النعاس أماناً من الله لكم؛ أي: سبب أمان وسلامة لكم من عدوكم أن يغلبكم، قال عبد الله بن مسعود[1] النعاس في القتال أمنة من الله؛ أي: طمأنينة منه، وفي الصلاة من الشيطان، والفائدة في كون النعاس أمنة في القتال: أنَّ الخائف على نفسه لا يأخذه النوم، فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلاً على الأمن، وإزالة الخوف، وقيل: إنَّهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم، وقلة المسلمين عدداً وعدداً وعطشوا عطشاً شديداً.. ألقى الله عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلال والعطش، وتمكنوا من قتال عدوهم، وكان ذلك النوم نعمة في حقهم؛ لأنَّه كان خفيفاً بحيث لو قصدهم لعرفوا وصوله إليهم، وقدروا على دفعه عنهم، وقيل في كون هذا النوم كان أمنة من الله: أنَّه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة، فناموا كلهم مع كثرتهم، وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم ـ مع وجود الخوف الشديد ـ أمر خارج عن العادة، فلهذا السبب قيل: إن ذلك النعاس كان في حكم المعجزة؛ لأنَّه أمر خارق للعادة، وهذه[2] الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم، وهي أنَّهم مع خوفهم من لقاء العدو، والمهابة لجنابه، سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين، وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها.

قيل: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

أحدهما: أنَّه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أنَّه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم.

وقيل: إن النوم غشيهم في حال التقاء الصفين، وقد مضى في يوم أحد نحو من هذا في سورة آل عمران، وروى البيهقي في «الدلائل» عن علي كرم الله وجهه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأينا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة، حتى أصبح. والمتبادر من الآية أنَّ النعاس كان في أثناء القتال، وهو يمنع الخوف؛ لأنَّه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر.

وقرأ[1] ابن كثير، وأبو عمرو، ومجاهد، وابن محيصن ﴿إِذْ يَغْشَيكُمُ النُّعَاسَ﴾ بفتح الياء، وسكون الغين، وفتح الشين بعدها ألف مضارع غشي الثلاثي، والنعاس رفع به، وقرأ الأعرج وابن نصاح وأبو حفص ونافع: ﴿يُغْشِيكُمُ﴾ بضم الياء وسكون الغين وكسر الشين، النعاس بالنصب مضارع أغشى الرباعي، وقرأ عروة بن الزبير، ومجاهد، والحسن وعكرمة، وأبو رجاء، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يغشيكم﴾ بضم الياء وفتح الغين مشددة الشين مكسورة، النعاس بالنصب، وقرأ الجمهور ﴿أَمَنَةً﴾ بالتحريك، وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي، وأبو المتوكل، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن محيصن، ﴿أمْنة منه﴾ بسكون الميم على وزان رحمة.

﴿و﴾ اذكروا نعمة ﴿إذ ينزل﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ أي: مطراً ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾؛ أي: بذلك الماء من الأحداث والجنابات، ﴿و﴾ ﴿يذهب عنكم رجز الشيطان﴾؛ أي: وسوسته إليكم، بأنكم لو كنتم على الحق ما كنتم عطاشاً مُحْدِثين، والمشركون على الماء ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ به ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ باليقين والصبر، وقال الواحدي: ويشبه أن تكون لفظة ﴿عَلَىٰ﴾ صلة، والمعنى: وليرْبِطَ قلوبكم بالصبر، وما أوقع فيها من اليقين، وفي «الوسيط»: ﴿عَلَىٰ﴾ زائدة، والمعنى: وليربطَ قلوبَكُم بما أنزل من الماء، ولا تضطرب بوسوسة الشيطان اهـ

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير.

«زاده» أي: يقويها ويعينها باليقين، فجعَلَها صابرةً قويةً ثابتة في مواطن الحرب، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾؛ أي: بذلك الماء ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾ على الرمل فقدروا على المشي عليه، كيف أردوا في مواطن القتال.

روى[1] ابن المنذر من طريق ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه: أنَّ المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء، فظَمِىء المسلمون، وصلُّوا مجنبين محدثين، وكان بينهم، رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن، وقال أتزعمون أنَّ فيكم نبيًّا وأنكم أولياء، وتصلون مجنبين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء، فسال عليهم الوادي ماء، فشرب المسلمون، وتطهَّروا، وثبتت أقدامهم؛ أي: على الرمل اللين لتلبده بالمطر، وذهبت وسوسته.

وقال ابن القيم: أنزل الله تعالى تلك الليلة مطراً واحداً، فكان على المشركين وابلاً شديداً مَنَعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلاً طهَّرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرضَ وصلب الرمل، وثبت الأقدام، ومهَّدَ به المنزل، وربط على قلوبهم فسبقَ رسول الله وأصحابُه إلى الماء، فنزلوا عليه شطر الليل، وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله وأصحابه أعلى الحياض، وبني لرسول الله ﷺ عريش على تَلّ مشرف على المعركة، ومشى في موضع المعركة، وجَعَل يشير بيدِهِ هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى، فما تعدَّى أحد منهم موضع إشارته.

وقال ابن إسحاق[2]: إن الحباب بن المنذر قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا أن نتأخر عنه، أمْ هو الرأي والحرب والمكيدةُ؟ قال: «بل هو الحرب والرأي والمكيدة» قال: يا رسول الله، فإنَّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم تغور ما وراءه من القُلب، ـ الأبار غير المبنية ـ ثم نبني عليها حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتِلُ القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي»

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

وفعلوا ذلك، وقد فهم من الآية أنَّه كان لهذا المطر أربع فوائد:

١ ـ تطهيرهم حسِّياً بالنظافة التي تنشط الأعضاء وتدخل السرور على النفس، وشرعيًّا بالغسل من الجنابة، والوضوء من الحدث الأصغر.

٢ ـ إذهاب رجس الشيطان ووسوسته.

٣ ـ الربط على القلوب؛ أي: توطين النفس على الصبر وتثبيتها، كما قال: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وهذا لما للمطر من المنافع التي تكون أثناء القتال.

٤ ـ تثبيتُ الأقدام به؛ ذاك أنَّ هذا المطر لبد الرمل وصيره بحيث لا تغوص فيه أرجلهم، فقدَروا على المشي كيف أرادوا، ولولاه لما قدروا على ذلك.

وقرأ طلحة[1]: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد، وعبارة النسفي: ﴿وَيُنْزِلُ﴾ قرأ مكيٌّ وبصري بالتخفيف، وقرأ غيرهم بالتشديد. اهـ.

وقرأ الجمهور: ﴿ماء﴾ بالمد، وقرأ الشعبي، ﴿ما﴾ بغير همز، والأصحُّ أنها بمعنى ماء المدودة، قصر للتخفيف، وقيل: هي ما الموصول، ولا يصح لأنَّ لام كي لا تكونُ صلة الموصول، وقرأ ابن المسيب ﴿لِيُطْهِرَكُم﴾ بسكون الطاء، وقرأ عيسى بن عمر ﴿ويذهبْ﴾ بسكون الباء، وقرأ ابن محيصن ﴿رُجز﴾ بضم الراء، وأبو العالية ﴿رجس﴾ بالسين.

واذكر يا محمد نعمة ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: نِعْمَةَ وقت إيحاء ربك إلى الملائكة، الذين أمد بهم المؤمنين يوم بدر، وإعلامه إياهم، فألْ فيه للعهد الذِّكري ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾؛ أي: أني مع المؤمنين بالنصر، والمعونة، والتأييد، أو أني معكم يا ملائكتي في إمدادهم وإعانتهم ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: فثبتوا يا ملائكتي قلوب الذين آمنوا بإلقاء النصر والغلبة في قلوبهم، أو ثبتوهم بقتالكم معهم للمشركينْ. وقيل: بَشّروهم بالنصر والظفر، فكان الملَك يمشي في صورة رجل أمام الصف، ويقول: أبشروا فإنَّ الله ناصركم عليهم، فالمراد بالمعية في

(١) البحر المحيط.

قوله أنِّي معكم معية الإعانة والنصر والتأييد في مواطن الجد، ومقاساة شدائد القتال، وهذه منة خفية أظهرها الله تعالى ليشكروه عليها.

وقال الزجاج[1]: كان التثبيتُ لهم بأشياء يلقونها في قلوبهم، تصح بها عزائمهم، ويتأكد جدهم، وللملك قوة إلقاء الخير، ويقال له: إلهام، كما إن للشيطان قوة إلقاء الشر، ويقال لها وسوسةٌ. وقوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ والخوف منكم تفسير لقوله: ﴿أني معكم﴾ كأنه قيل: أني معكم في إعانتكم بإلقاء الرعب في قلوبهم، فلا يكون لهم ثبات، وكان ذلك نعمة من الله تعالى على المؤمنين، حيث ألقَى الخوف منهم في قلوب المشركين، وقولُه: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فثبتوا﴾ وهو أمر للمؤمنين، أو للملائكة، وفيه دليل على أَنَّهُمْ قاتلوا، قال ابن الأنباري: ما كانت الملائكة تَعْرِفُ كيف تِقاتِلُ بني آدم، فعلمهم الله تعالى ذلك بقوله: فاضربوا يا ملائكتي فَوْقَ الأعناق ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2]؛ أي: فاضربوا رؤوسهم، واضْرِبُوا أطراف الأصابع؛ أي: اضربوا أيها المؤمنون، أو يا ملائكتي في جميع أعضاء المشركين من أعاليها إلى أسافلها، كيف شئتم؛ لأن الله تعالى ذَكَرَ الأشْرَفَ والأخس، فهو إشارة إلى جميع الأعضاء.

ومعنى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾؛ أي: فاضربوا الأعناق وما فوقها، وهي الرؤوس، ومعنى ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ أي: واضربوا أطراف أصابع اليدين، سميت[3] بذلك، لأنَّ بها صلاح الأشياء التي يمكن الإنسان أن يعملها بيديه، وإنما خصَّت بالذكر دون سائر الأطراف، لأجل أن الإنسان بها يقاتل، وبها يمسك السلاحَ في الحرب، وقيل: إنه سبحانه وتعالى أمرهم بضرب أعلى الجسدِ وهو الرأس، وهو أشرف الأعضاء وبضرب البنان، وهو أضعف الأعضاء، فيدخل في ذلك كلُّ عضو في الجسد، وقيل: أمرهم بضرب الرأس، وفيه إهلاك الإنسان، وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الإنسان عن الحرب؛ لأنه بالبنان يتمكن من مسكِ

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

السلاح وحمله والضرب به، فإذا قطعت بنانه تعطَّل عن ذلك كلِّه.

روي[١] عن أبي داود المازني، وكان شهد بدراً قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه، إذ وقع رأسهُ قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري. وعن سهل بن حنيف قال: لقد لقِينَا يومَ بدر، وإنَّ أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

وقرأ[٢] عيسى بن عمر بخلاف عنه: ﴿إِني مَعَكُمْ﴾ بكسر الهمزة على اضمار القول على مذهب البصريين، أو على إجراء ﴿يوحي﴾ مجرى يقول على مذهب الكوفيين، وقرأ ابن عامر، والكسائي، والأعرج: ﴿الرُّعُبُ﴾ بضم العين، وقال[٣] الفراء علمهم مواضع الضرب، فقال: اضربوا الرؤوس والأيدي، والأرجل، فكأنه قال: فاضربوا الأعالي إن تمكنتم من الضرب فيها، فإن لم تقدروا، فاضربوهم في أوساطهم، فإن لم تقدروا فاضربوهم في أسافلهم، فإنَّ الضرب في الأعالي يسرع بهم إلى الموت، والضرب في الأوساط يسرع بهم إلى عدم الامتناع، والضرب في الأسافل يمنعهم من الكر والفر، فيحصل من ذلك إما إهلاكهم بالكلية، وإما الاستيلاء عليهم. انتهى.

والخلاصة[٤]: فاضربوا الهَامَ وافلقوا الرؤوس، واجتزوا الرقابَ، وقطِّعوها، وقطعوا الأيدي ذات البنان، التي هي أداة التصرف في الضرب وغيره، وقد كان النبي ﷺ يمر بين القتلى ببدر بعد انتهاء المعركة، ويقول: «نفلق هاما» فيتم البيت أبو بكر رضي الله عنه وهو:

نُفَلِّقُ هَامَاً مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ ... عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوْا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

وفي ذلك دليل على ألمه ﷺ من الضرورة التي ألجأته إلى قتل صناديد قومه، فالمشركون هم الذين ظلموه، هو ومنْ آمن به، حتى أخرجوهم من وطنهم بغياً وعُدواناً، ثم تبعوهم إلى دار هجرتهم يقاتلونهم فيها.

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

ثم بيَّن سبب ذلك التأييد والنصر فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من تأييد الله للمؤمنين بالنصر والمعونة والإمداد، والظفر، والغلبة، وخذلانه للمشركين بالقتل والأسر والهزيمة، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: كائن بسبب أنَّ المشركين ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ﷺ؛ أي: خالفوهما في الأوامر والنواهي وعادوهما، فكان كل منهما في شقٍّ، وجانب غير الذي فيه الآخر، فالله هو الحق، والداعي إلى الحق ورسوله، هو المبلغ عنه، والمشركون على الباطل، وما يستلزمه من الشرور والآثام، والخرافات، والكاف في ذلك، لخطاب الرسول، أو لخطاب كل سامع ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: ومن يخالف الله ورسوله فيما أمرا به، ونهيا عنه. وأجمعوا[1] على الفك في ﴿يُشَاقِقِ﴾ اتباعاً لخط المصحف، وهي لغة الحجاز، والإدغام لغة تميم، كما جاء في الآية الأخرى ﴿وَمَن يشاقّ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى يعاقبه يوم القيامة على مخالفته، وشركه لأنه سبحانه وتعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ له، فالذي نزل بهم في ذلك اليوم قليل بالنسبة إلى ما أعده الله لهم من العقاب يوم القيامة، فلا أجدر بالعقاب من المشاقين له، الذين يؤثرون الشرك وعبادة الطاغوت على توحيده تعالى وعبادته، ويعتدون على أوليائه بمحاولة ردهم عن دينهم بالقوة والقهر، وإخراجهم من ديارهم، ثم اتّباعهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه، والخطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ للمشركين؛ أي: هذا العقاب الذي عجلت لكم أيها المشركون، المشاقون لله ورسوله في الدنيا، من انكسار وهزيمة مع الخزي، والذل أمام فئة قليلة العدد والعدد من المسلمين؛ أي: ذلك العذاب المذكور ﴿فَذُوقُوهُ﴾ عاجلاً في الدنيا وباشروه ﴿و﴾ اعلموا ﴿أن للكافرين عذاب النار﴾؛ أي: إنَّ لكم في الآخرة عذاب النار إن أصررتم على كفركم، وهو شر العذابين، وأبقاهما، وأشار بالتعبير بالذوق إلى أنَّ عذاب الدنيا يسير بالنسبة لعذاب الآخرة، وقيل: المعنى ذوقوا ما عجل لكم في الدنيا مع ما أجل لكم في الآخرة.

وقرأ الحسن وزيد بن علي وسليمان التيمي[2]: ﴿وإن للكافرين﴾ بكسر همزة ﴿إن﴾ على استئناف الإخبار.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الإعراب

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ جار ومجرور متعلق به على كونه مفعولاً ثانياً له، والجملة مستأنفة ﴿قُلِ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكى لـ﴿قُلِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱلْأَنفَالُ﴾ مبتدأ ﴿لِلَّهِ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ معطوف على الجلالة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿اتقوا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ على كونها مقولا لـ﴿قال﴾ ﴿وَأَصْلِحُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ معطوف على الجلالة ﴿إِن﴾ حرف شرط وجزم ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ خبرها وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله تقديره: إن كنتم مؤمنين فأطيعوا الله ورسوله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قل﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبر، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حقيقة المؤمنين المذكورين في الآية السابقة، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها، وجوابها صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، والعائد ضمير ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿وَإِذَا﴾ الواو: عاطفة ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿تُلِيَتْ﴾ فعل

ماض مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ نائب فاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إذا﴾. ﴿زَادَتْهُمْ﴾ فعل ومفعول أول ﴿إِيمَٰنًا﴾ مفعول ثان، وفاعله ضمير يعود على الآيات، والجملة جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ السابقة على كونها صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿زَادَتْهُمْ﴾. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، وجملة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى على كونها صلة الموصول، أو مستأنفة أو في محل النصب حال من مفعول ﴿زَادَتْهُمْ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع صفة للموصول الأول ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَمِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: مما رزقناهم إياه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف ﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على كونها صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ خبر، والجملة مستأنفة مسوقة، لبيان ما للمؤمنين من الأجور ﴿حَقًّا﴾ صفة لمصدر محذوف، تقديره: المؤمنون إيماناً حقاً ﴿لَّهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ تقديره: درجات كائنات عند ربهم، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ثان لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ﴾ معطوفان على ﴿دَرَجَٰتٌ﴾. ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة لـ﴿رزق﴾.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

﴿كَمَآ﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه ﴿ما﴾ مصدرية ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فعل ومفعول وفاعل ﴿مِنۢ بَيْتِكَ﴾ متعلق به ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ جار ومجرور متعلق به أيضاً، أو حال من مفعول ﴿أَخْرَجَكَ﴾؛ أي: حال كونك ملتبساً بالحق، والجملة الفعلية صلة

﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كإخراج ربك إياك ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً لمبتدأ محذوف تقديره الأمر والشأن كائن كإخراج ربك إياك من بيتك بالحق؛ أي: الأمرُ والشأنُ الجاري في الأنفال من قسمها بالتسوية بينهم، كائن كإخراج ربك من بيتك في كونه مكروهاً لهم، وقد ذكروا في متعلق هذه الكاف نحو عشرين وجهاً أكثرها معترضة، وبعضها صعبة، وفيما ذكرناه كفاية، لأنه أوضح الوجوه، وأسلمها من الاعتراض، ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا﴾ الواو: واو الحال ﴿إن﴾ حرف نصب ﴿فَرِيقٗا﴾ اسمها ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿فَرِيقٗا﴾ ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿كارهون﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿أَخۡرَجَكَ﴾ تقديره: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، حال كون فريق من المؤمنين كارهين خروجك.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿فِي ٱلۡحَقِّ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مستأنفة إخباراً عن حالهم في المجادلة، أو حال ثانية من مفعول ﴿أَخۡرَجَكَ﴾؛ أي: أخرجك في حال مجادلتهم إياك، ويحتمل أن تكون حالا من الضمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾؛ أي: لكارهون في حال الجدال. ﴿بَعۡدَمَا﴾ ﴿بعد﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ ﴿ما﴾ مصدرية ﴿تَبَيَّنَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الحق، والجملة صلة ما المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرود بإضافة الظرف إليه، تقديره: بعد تبينه ﴿كَأَنَّمَا﴾ ﴿كأن﴾ حرف نصب وتشبيه ﴿ما﴾ كافة لكفها ﴿كأن﴾ عن العمل فيما بعدها، ولذلك دخلت على الجملة الفعلية ﴿يُسَاقُونَ﴾ فعل ونائب فاعل ﴿إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾؛ أي: حال كونهم مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل، ﴿وَهُمۡ﴾ مبتدأ ﴿يَنظُرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿يُسَاقُونَ﴾.

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾.

﴿وَإِذۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكروا ﴿إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين﴾ فعل ومفعول أول، وفاعل ومفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إذ﴾ تقديره: واذكروا نعمة وقت وعد الله سبحانه وتعالى إياكم إحدى الطائفتين؛ ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ أنَّ حرف نصب والهاء اسمها ﴿لَكُمۡ﴾ جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب على البدلية من ﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ بدل اشتمال تقديره: وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين كونها لكم ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ الواو: حالية ﴿تودون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من كاف ﴿يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب ﴿غَيۡرَ﴾ اسمها ﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ مضاف إليه، ﴿تَكُونُ﴾ فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ وأنث الضمير مراعاة لمعنى ﴿غَيۡرَ﴾ وهو الفرقة ﴿لَكُمۡ﴾ جار ومجرور خبر ﴿تَكُونُ﴾، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ في محل رفع خبر ﴿أَنَّ﴾ تقديره كائنة لكم، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: وتودون كون غير ذات الشوكة لكم، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿كاف﴾ ﴿إذ يعدكم﴾. ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يُحِقَّ﴾، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ويريد الله إحقاق الحق بكلماته، ﴿وَيَقۡطَعَ﴾ معطوف على ﴿يُحِقَّ﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والتقدير: ويريد الله إحقاق الحق بكلماته، وقَطْعَ دابر الكافرين بقدرته وقهره.

﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾.

﴿لِيُحِقَّ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يحق﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي وفاعله ضمير يعود على الله ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ مفعول به ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ فعل

ومفعول معطوف على ﴿يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿يُحِقَّ﴾ مع ما عطف عليها صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي تقديره: لإحقاقه الحق، وإبطاله الباطل، الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: وعد بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة لإحقاقِهِ الحقَّ وإبطاله الباطل، والجملة المحذوفة مستأنفةٌ. ﴿وَلَوْ﴾ الواو: واو الحال ﴿لو﴾ حرف شرط وغاية لا جواب لها ﴿كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من الحق والباطل، تقديره: وعد بما وعد ليحق الحق، ويبطل الباطل، حالة كون المجرمين كارهين إحقاق الحق، وإبطال الباطل، و﴿لو﴾ الغائية هي التي لا تطلب جواباً، ويكون ما بعدها حالاً. وقال أبو حيان[(١)]: والتحقيق أن الواو فيه للعطف على محذوف، وذلك المحذوف في موضع الحال، والمعطوف على الحال حال، ونظيره قولهم: أعطوا السائل ولو جاء على فرس؛ أي: على كل حال، ولو على هذه الحالة التي تنافي الصدقة على السائل، وإنْ ﴿ولو﴾ هذه تأتي لاستقصاء ما بطن، لأنه لا يندرج في عموم ما قبله، لملاقاة التي بين هذه الحال وبين المسند الذي قبلها. انتهى.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره، واذكروا إذ تستغيثون، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾ تقديره، واذكروا أيها المؤمنون نعمة وقت استغاثتكم ربكم ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿استجاب﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجلمة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ ﴿أَنِّي﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، والياء اسمها ﴿مُمِدُّكُم﴾ خبرها، ومضاف إليه بـ﴿بِأَلْفٍ﴾ متعلق به ﴿مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ صفة

(١) البحر المحيط.

لـ﴿ألف﴾. ﴿مُرْدِفِينَ﴾ حال من ألف لتخصصه بالصفة، أو صفة ثانية لألف، وجملة ﴿أن﴾ المفتوحة في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: بإمدادي إياكم بألف ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿استجاب﴾، وعلى قراءة كسر همزة ﴿إن﴾ فهو مقول لقول محذوف تقديره: وقال: إني ممدكم بألف من الملائكة.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾ نافية ﴿جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ من أعم العلل ﴿بُشْرَىٰ﴾ مفعول لأجله ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ الواو: عاطفة و﴿اللام﴾ لا كي ﴿تطمئن﴾ منصوب بأن مضمرة ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿قُلُوبُكُمْۚ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولاطمئنان قلوبكم به، وهذا المصدر المؤول معطوف[1] على ﴿بُشْرَىٰ﴾ على كونه مفعولاً لأجله، ولكن جر باللام لفقد شرط النصب من اتحاد الفاعل كما لا يخفى، فإن فاعل الجعل هو الله تعالى وفاعل الاطمئنان القلوب، وعبارة «السمين» هنا: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول لأجله، وهو استثناء مفرغ، إذ التقدير: وما جعله لشيء من الأشياء، إلا للبشرى، وشروط نصبه موجودة، وهي اتحاد الفاعل، والزمان، وكونه مصدراً.

والثاني: أنه مفعول ثان لـ﴿جعل﴾ على أنه بمعنى صير.

والثالث: أنه بدل من ﴿الهاء﴾ في ﴿جَعَلَهُ﴾ قاله الحوفي.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿ما﴾ نافية، ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ مبتدأ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ جار ومجرور خبر المتبدأ، والجلمة الاسمية مستأنفة ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿عَزِيزٌ﴾ خبر أول لها ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان

---

(١) الفتوحات.

لها، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: اذكروا إذ يغَشِّيكُم النعاس، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾. ﴿أَمَنَةً﴾ إما حال من ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾، و﴿مِّنْهُ﴾ صفة له؛ أي: حالة كونه أماناً منه تعالى لكم، أو مفعول لأجله، أي لأجل تأمينه لكم، وفي المقام أوجه أخر من الإعراب تركناها خوف الإطالة. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق به ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلق به أيضاً ﴿مَآءً﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ على كونها مضافاً إليه، لـ﴿إِذْ﴾. ﴿لِّيُطَهِّرَكُم﴾ ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يطهركم﴾ فعل ومفعول به منصوب بأن مضمرةً وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتطهيره إياكم به الجار والمجرور متعلق بـ﴿ينزل﴾ ﴿وَيُذْهِبَ﴾ معطوف على ﴿يطهر﴾، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق به ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ الواو: عاطفة ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يربط﴾ منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولربطه على قلوبكم، الجار والمجرور معطوف على الجار، والمجرور في قوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم﴾ ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ معطوف على ﴿يربط﴾ ﴿بِهِ﴾ متعلق به وفاعله ضمير يعود على الله ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾ مفعول به.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر يا محمد إذ ﴿يُوحِى رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿أَنِّى﴾ أن حرف نصب، والياء

اسمها ﴿مَعَكُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه والظرف متعلق بمحذوف خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ومجرور بحرف جر، محذوف تقديره: بكوني ﴿مَعَكُمْ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُوحِى﴾. ﴿فَثَبِّتُوا﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿ثبتوا﴾. ﴿الَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة مفرعة على جملة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾. ﴿ءَامَنُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿سَأُلْقِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، وهذه الجملة كالتفسير لقوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾. ﴿فِى قُلُوبِ الَّذِينَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿ألقى﴾ ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿الرُّعْبَ﴾ مفعول به منصوب بـ﴿ألقى﴾. ﴿فَاضْرِبُوا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿اضربوا﴾ فعل وفاعل ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اضربوا﴾، وعلى هذا المفعول محذوف تقديره فاضربوا رؤوسهم فوق الأعناق، وقيل: ﴿فَوْقَ﴾ مفعول به على التوسع منصوب بالفعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿سَأُلْقِى﴾ وهذه الجملة كالتفسير لقوله: ﴿فَثَبِّتُوا﴾ الخ. ﴿وَاضْرِبُوا﴾ فعل وفاعل ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿اضربوا﴾ أو حال من ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب ﴿أن﴾ حرف نصب و﴿الهاء﴾ اسمها ﴿شَآقُّوا اللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾ تقديره: ذلك بأنهم مشاقوا الله ورسوله، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ تقديره: ذلك بسبب مشاقتهم الله ورسوله، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائن بسبب مشاقتهم الله ورسوله، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَمَن﴾ الواو: عاطفة ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما ﴿يُشَاقِقِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿اللَّهَ﴾ لفظ الجلالة مفعول

به، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف عليه ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً أو تعليلية للجواب المحذوف ﴿إن﴾ حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ خبرها، ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، والرابط محذوف تقديره، فإن الله شديد العقاب له، أو الجملة في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية، على كونها معللة للجواب المحذوف، تقديره: ومن يشاقق الله ورسوله يعاقبه الله تعالى؛ لأنَّ الله شديد العقاب، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ على كونها مقررة ومكملة لها.

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٤)﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فَذُوقُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة في الخبر على رأي الأخفش، ﴿ذوقوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: ذالكم العذاب، والجملة مستأنفة. ﴿فَذُوقُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، وجملة: ﴿ذوقوه﴾: مستأنفة. ﴿وَأَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: خبر مقدم لـ﴿أن﴾ ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: اسمها مؤخر ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي عَلِمَ المحذوف تقديره: واعلموا كون عذاب النار للكافرين، وجملة علم المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ أي[1]: سؤال استفتاء، لأنَّ هذا أول تشريع الغنيمة، وفاعل السؤال يعود على معلوم، وهو من حضر بدراً، وسأل: تارةً يكون لاقتضاء معنى في نفس المسؤول، فيتعدَّى بعن كهذه الآية، وقد يكون لاقتضاء مال فيتعدى لاثنين، نحو سألت زيداً مالاً، وقد ادعى بعضهم أن السؤال هنا بهذا المعنى، وزعم أن ﴿عن﴾ زائدة، والتقدير: يسألونك الأنفال، وأيد هذا بقراءة سعد بن

(١) الفتوحات

أبي وقاص وابن مسعود وعلي بن الحسين وغيرهم ﴿يسألونك الأنفال﴾ بدون عن، والصحيح أن هذه القراءة على إرادة حرف الجر ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[1] جمع نفل بفتح النون والفاء، كفرس وأفراس، والمراد بها هنا الغنائم، وسميت أنفالاً، والنفل هو الزيادة لزيادة هذه الأمة بها على الأمم السابقة، وفي «المصباح» النفل: الغنيمة، والجمع أنفال مثل سبب وأسباب، والنفل: وزان فلس مثله اهـ ومنه: صلاة النفل، وقيل: الغنيمة[2] كل ما حصل مستغنماً بتعب أو بغير تعب، وقبل الظفر أو بعده، والنفل ما يحصل للإنسان قبل القسمة من الغنيمة، ومن إطلاقها على الغنيمة قول عنترة:

إِنَّا إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْوَغَىٰ نَرْوِيْ ٱلْقَنَا وَنَعِفُّ عِنْدَ مَقَاسِمِ ٱلأَنْفَالِ

أي الغنائم.

ويطلق[3] النفل على معان أخر: منها اليمين، والابتغاء، ونبت معروف، والنافلة التطوع لكونها زائدة على الواجب، والنافلة ولد الولد، لأنه زيادة على الولد.

﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ والبين: يطلق على الاتصال والافتراق، وعلى كل ما بين طرفين، كما قال: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وذات البين الصلة التي تربط بين شيئين، وإصلاحها بالمودة وترك النزاع.

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل: الفزع والخوف وفي «السمين»[4] يقال: وجل بالكسر في الماضي يوجل بالفتح في المضارع، وفيه لغة أخرى قرىء بها شاذاً ﴿وجَلَت﴾: بفتح الجيم في الماضي، وكسرها في المضارع، فتحذف الواو في المضارع، كوعد يعد، ويقال في المشهورة: وجل يوجل بإثبات الواو في المضارع اهـ.

﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ والدرجات منازل الرفعة، ومراقي الكرامة ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) الفتوحات.

والطائفتان طائفة العير الآتية من الشام، وطائفة النفير التي جاءت من مكة للنجدة، وغير ذات الشوكة هي العير، والشوكة الحدة، والقوة: وأصلها واحدة الشوك شبهوا بها أسنة الرماح ﴿دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ودابر القوم: آخرهم الذي يأتي في دبرهم، ويكون من روائهم و﴿يحق الحق﴾؛ أي: يعز الإسلام؛ لأنه الحق ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: يزيل الباطل، وهو الشرك ويمحقه.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فالسين والثاء فيه للطلب؛ أي: تطلبون الغوث من ربكم، والاستغاثة طلب الغوث، وهو التخليص من الشدة والنقمة ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾؛ أي: أجاب لكم، فالسين والتاء فيه زائدتان ﴿مُمِدُّكُم﴾؛ أي: ناصركم ومعينكم ﴿بِأَلْفٍ﴾ قرىء بألف، وأصل آلف أألف بوزن أفلس فقلبت الهمزة الثانية ألفاً، فصار آلفا ﴿مُرْدِفِينَ﴾ من أردفه إذا أركبه وراءه ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ مصدر على وزن فعلى كرجعى بمعنى البشارة، وهو الخبر السار ﴿وتطمئن﴾: تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذي عرض لكم في جملتكم ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضع شيئاً في غير موضعه ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾؛ أي: يجعله مغطياً لكم، ومحيطاً بكم، وفيه ثلاث قراءات سبعية، يغشاكم كيلقاكم من غشيه، إذا أتاه، وأصابه، وفي «المصباح» غشيته أغشاه من باب تعب أتيته ﴿ويغشيكم﴾: من أغشاه؛ أي: أنزله بكم، وأوقعه عليكم ﴿ويغشيكم﴾ من غشاه تغشية غطّاه؛ أي: يغشيكم الله النعاس؛ أي: يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتماله عليكم، والنعاس على الأولى مرفوع على الفاعلية، وعلى الأخيرتين منصوب على المفعولية.

﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ والنعاس: فتور في الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم، فهو يضعف الإدراك، ولا يزيله كله، فإذا أزاله كان نوماً، وقال بعض الفقهاء: علامة النعاس: أن تسمع كلام الحاضرين ولا تفهمه، وعلامة النوم: أن لا تسمع كلامهم. ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ والرجز والرجس والركس الشيء المستقذر حساً، أو معنى، ويراد به هنا وسوسة الشيطان، وفي الكرخي: الرجز في الأصل العذاب الشديد، وأريد به هنا نفس وسوسة الشيطان مجازاً لمشقتها على أهل الايمان،

كما قيل: كل ما اشتدت مشقته على النفوس فهو رجز. اهـ.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ والربط على القلوب تثبيتها وتوطينها على الصبر، وفي «زاده» الربط الشد، يقال لكل من صبر على أمر ربط على قلبه، أي قواه وشدده. وعدى بعلى للإيذان بأن قوة قلوبهم بلغت في الكمال إلى أن صارت مستولية على القلوب، حتى صارت كأنها علت عليها، وارتفعت فوقها؛ أي: فتفيد التمكن في القوة ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ والرعب الخوف الذي يملأ القلب ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾؛ أي: الرؤوس ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ والبنان: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، وهي جمع بنانة وفي «المصباح» البنان الأصابع، وقيل: أطرافها، والواحدة بنانة اهـ وفي «السمين» والبنان قيل: الأصابع، وهو اسم جنس، الواحد: بنانة، وضربها عبارة عن الثبات في الحرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتالُ بخلاف سائر الأعضاء، قال عنترة:

وَقَدْ كَانَ فِيْ الْهَيْجَاءِ يَحْمِيْ ذِمَارَهَا   وَيَضْرِبُ عِنْدَ الْكَرْبِ كُلَّ بَنَانِ

﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: عادوا وخالفوا، وسميت العداوة مشاقة لأن كلاً من المتعاديين يكون في شق غير الذي يكون فيه الآخر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الأيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحصر في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لأن تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر.

ومنها: الإشارة بالبعيد عن القريب في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إشعاراً بعلو مرتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ استعار الدرجات التي هي حقيقة في المحسوسات للمراتب الرفيعة، والمنازل العالية في الجنة بجامع العلو في كل.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ شبه حالهم وقت قسم الأنفال

بالسوية بينهم بحالهم وقت إخراجه من بيته بجامع الكراهة في كل مع كونه خيراً لهم، وفي قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ شبههم بمن يساق إلى الموت؛ أي: القتل، وهو ينظر بعينه أسبابه، بجامع الكراهة في كل.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ فلما نجت العير علم أن الموعود بها النفير.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ وقوله: ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْحَقَّ﴾ و﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ فلذلك عطف عليه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ بصيغة الماضي على مقتضى الواقع.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ فإنها حقيقة في شوك الشجر فاستعيرت للسلاح بجامع الحدة والطعن في كل.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿إذ يغشاكم النعاسُ﴾: على قراءة رفع النعاس،

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنه كناية عن استئصالهم بالهلاك.

ومنها: تقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: لأن الرجز حقيقة في العذاب، فاستعاره لوسوسة الشيطان بجامع المشقة والضرر في كل، لأن وسوسة الشيطان ضرر ومشقة على أهل الايمان، كما أن العذاب مشقة على أهله.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ لأن الربط حقيقة في الأجرام، فاستعاره لتقوية القلوب وتثبيتها بجامع القوة في كل.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ لأن قوله ﴿سَأُلۡقِى﴾ الخ كالتفسير لقوله: ﴿أَنِّى مَعَكُمۡ﴾ وقوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾ الخ كالتفسير لقوله ﴿فَثَبِّتُواْ...﴾ الخ.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل، أو سبب الجمع بين العاجل والآجل؛ لأنَّ أصل الكلام فذوقوه وإن لكم عذاب النار، فوضع ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ موضع لكم شهادة عليهم بالكفر وتنبيهاً على العلة المذكورة.

ومنها: الإضافة لتشريف المضاف إليه في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ومنها: التهييج والإلهاب ـ أي: الإطناب ـ في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لأنَّ الإيمان موجود فيهم مع الصفات السابقة، والمعنى: إن كنتم مستمرين على الإيمان.

ومنها: الدلالة على التشريف والتكريم في قوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لأن في كونها عنده سبحانه وتعالى زيادة تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتفخيم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمۡ
يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ
جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (١٦) فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (١٧) ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ
كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٨) إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ
نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا
يَسۡمَعُونَ (٢١) ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ (٢٢) وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ
فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ (٢٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ
تُحۡشَرُونَ (٢٤) وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلۡعِقَابِ (٢٥) وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ
وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٢٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ
وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٢٧) وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ (٢٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ
سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (٢٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[١]: أنه تعالى لما أخبر أنه سيلقي الرعب في قلوب الكفار، وأمر من آمن بضرب فوق أعناقهم، وبنانهم.. حرضهم على الصبر عند مكافحة العدو، ونهاهم عن الانهزام.

---

(١) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه لما نهى الله تعالى عن تولي الأدبار.. توعد من ولى دبره وقت لقاء العدو.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما هدد المشركين بقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾.. أردف ذلك بتأديب المؤمنين، بالأمر بطاعة الرسول، وإجابة دعوته إذا دعا للقتال في سبيل حياطة الدين وصد من يمنع نشره ويقف في طريق تبليغ دعوته.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] وجوب طاعة الرسول ﷺ، وعدم التولي حين الجهاد.. أردفه بالأمر بالاستجابة له إذا دعاهم لهدى الدين وأحكامه عامة؛ لما في ذلك من تكميل الفطرة الإنسانية وسعادتها في الدنيا والآخرة، وكرر النداء بلفظ المؤمنين تنشيطاً لهم إلى الإصغاء لما يرد بعده من الأوامر والنواهي، وإيماء إلى أنهم قد حصلوا ما يوجب عليهم الاستجابة، وهو الإيمان.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[3] أخبر أن هؤلاء المشبه بهم لا يسمعون.. أخبر أن شر الحيوان الذي يدب الصم، أو أن شر البهائم، فجمع بين هؤلاء وبين جمع الدواب، وأخبر أنهم شر الحيوان مطلقاً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حذر من الفتنة بالأموال والأولاد.. أردف ذلك بطلب التقوى التي ثمرتها ترك الميل والهوى في محبة الأموال والأولاد.

(١، ٢) المراغي.

(١) البحر المحيط.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ...﴾ الآية، روى أبو داود (جـ ٢ ص ٣٤٩): حدثنا محمد بن هشام المصري، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا داود بن أبي نضرة، عن أبي سعيد، قال: نزلت في يوم بدر ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ الحديث أخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي وابن جرير، وعزاه الحافظ بن كثير (جـ ٢/ ص ٣٩٥) إلى النسائي، وابن مردويه مع من ذكرنا، ثم قال: وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم، كما دل عليه حديث أبي هريرة، من أن الفرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجمهور والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ...﴾ الآية، في سبب نزولها ثلاثة أقوال[1]:

أحدها: أن النبي ﷺ قال لعلي: «ناولني كفاً من حصباء» فناوله فرمى به في وجوه القوم، بما بقى منهم أحد إلا وقعت في عينه حصاة، رواه الطبراني عن ابن عباس، وفي رواية أخذ قبضة من تراب، فرمى بها، وقال: «شاهت الوجوه» فما بقى مشرك إلا شغل بعينيه بعالج التراب الذي فيها، فنزلت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وذلك يوم بدر، وهذا قول الأكثرين.

والقول الثاني: أن أُبَيَّ بن خلف، أقبل يوم أحد إلى النبي ﷺ يريده، فاعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا سبيله، وطعنه النبي ﷺ بحربته، فسقط أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور، فقالوا: إنما هو خدش، فقال: والذي نفسي بيده، لو كان الذي بي بأهل الحجاز لماتوا أجمعون، فمات قبل أن يقدم مكة، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن المسيب عن أبيه.

والثالث: أنَّ رسول الله ﷺ رمى يوم خيبر بسهم فأقبل السهم يهوي حتى

---

(١) زاد المسير.

قتل ابن أبي الحقيق وهو على فراشه، فنزلت هذه الآية. ذكره أبو سليمان الدمشقي في آخرين، والحديث مرسل[(١)]، جيد الإسناد، والمشهور أنها نزلت في رمية يوم بدر بالقبضة من الحصباء.

قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟...﴾ الآية، روى[(٢)] الحاكم عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير، قال: كان المستفتح أبا جهل، فإنه قال حين التقى القوم: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وأتى بما لا يعرف، فأَحِنهُ الغداة، وكان ذلك استفتاحاً، فأنزل الله ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية، قال: قال أبو جهل: اللهم انصر أعز الفئتين وأكرم الفرقتين، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ...﴾ الآية، روى[(٣)] سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن أبي قتادة، قال: نزلت هذه الآية ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ في أبي لبابة رفاعة بن عبد المنذر، وذاك أن النبي ﷺ لما حاصر بني قريظة، سألوه أن يصالحهم على ما صالح عليه بني النضير، على أن يسيروا إلى أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا، وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحا لهم، لأنَّ ولده وأهله كانوا عندهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ، فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه، أنه الذبح فلا تفعلوا، فأطاعوه، فكانت تلك خيانته، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس والأكثرين، وروي أن أبا لبابة ربط نفسه بعد نزول هذه الآية إلى سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام كذلك، ثم تاب الله عليه، فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاء فحله بيده،

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

(٣) زاد المسير.

فقال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال رسول الله ﷺ: «يجزئك الثلث». وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» وأخرج بعضه الطبري، وابن هشام.

وروى ابن جرير[١] وغيره عن جابر بن عبد الله: أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي ﷺ، فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان أن محمداً يريدكم، فخذوا حذركم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الآية. غريب جداً، في سنده وسياقه نظر.

وأخرج ابن جرير عن السدي، قال: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين، فنزلت.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾؛ أي: صدقوا الله ورسوله ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: قابلتموهم للقتال حالة كونهم ﴿زَحْفًا﴾؛ أي: زاحفين لقتالكم زحفاً، إذ الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فقابلوهم ببدر، والمعنى[٢] على التشبيه؛ أي: حالة كونهم مثل الزاحفين والماشين على أدبارهم، وذلك لأن الجيش إذا كثر والتحم بعضهم ببعض يتراءى أن سيره بطيء، وإن كان في نفس الأمر سريعاً، فالمقصود من هذه الحال بعد كون المراد التشبيه ما يلزم هذه المشابهة، وهو الكثرة.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾؛ أي: فلا تولوهم ظهوركم، وأقفيتكم منهزمين؛ أي: لا تجعلوا ظهوركم مما يليهم، بل قابلوهم بوجوهكم، وقاتلوهم مع قلتكم، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تلقونهم ﴿دُبُرَهُۥ﴾ بضمتين، وقراءة الحسن ﴿دُبْره﴾: بسكون الباء كقولهم عنق في عنق، أي ظهره؛ أي: ومن يجعل ظهره

---

(١) لباب النقول. (٢) الفتوحات.

والياً ومقبلاً إليهم شارداً منهزماً منهم ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾؛ أي: إلا رجلاً منعطفاً مائلاً لمكان رآه أحوج إليه ﴿لِقِتَالٍ﴾ فيه، أو لضرب من ضروبه رآه أنكى بالعدو كأن يوهم خصمه أنه منهزم منه ليغريه على اتباعه، حتى إذا انفرد عن أنصاره، كر عليه فقتله ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾؛ أي: منتقلاً منضماً ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾؛ أي: إلى جماعة أخرى من المؤمنين، في جهة غير الجهة التي كان فيها، ليشد أزرهم، وينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم، فصاروا أحوج إليهم ممن كان معهم؛ أي: من فعل ذلك التولي ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾؛ أي: رجع عن قتاله حالة كونه ملتبساً ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ الذي يأوي إليه في الآخرة أي منزله ومسكنه في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ دار العقاب ﴿وَبِئْسَ﴾؛ أي: قبح ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع هي. وانتصاب ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ على الاستثناء، أو على الحال كما سيأتي، والمعنى: ومن ينهزم ويفر من الزحف فقد رجع بغضب كائن من الله، إلا المتحرف والمتحيز، وهذا مخصوص بما إذا لم يزد الكفار على الضعف، ذاك أن المنهزم أراد أن يأوي إلى مكان يأمن فيه الهلاك، فعوقب بجعل عاقبته دار الهلاك، والعذاب الدائم، وجوزي بضد غرضه.

وفي الآية دلالة على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي، وجاء التصريح بذلك في صحيح الأحاديث، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً «اجتنبوا السبع الموبقات» ـ المهلكات ـ قالوا يا رسول الله وما هي؟: قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وقد خصص بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين، قال الشافعي: إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم، لم أحب لهم أن يولوا، ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة.

وروي عن ابن عباس قال: من فر من ثلاثة.. فلم يفر، ومن اثنين.. فقد فر.

و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم[1] ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة، وإيقاع الرعب في قلوبهم.. فأقول لكم: لم تقتلوا أنتم أيها المؤمنون الكفار في الحقيقة، ولكن الله سبحانه وتعالى قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر، من إلقاء الرعب في قلوبهم، وإمداد الملائكة لكم؛ أي: إن افتخرتم بقتلكم، فأنتم لم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم؛ لأنه هو الذي أنزل الملائكة، وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء النصر والظفر وقَوىٰ قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجذع، ذكره أبو حيان.

والمعنى: يا أيها[2] الذين آمنوا لا تولوا الكفار ظهوركم أبداً، فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر، ثم بنصر الله تعالى، انظروا إلى ما أوتيتم من نصركم عليهم على قلة عددكم، وكثرتهم واستعدادهم، ولم يكن ذلك إلا بتأييد من الله تعالى لكم، وربطه على قلوبكم، وتثبيت أقدامكم، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذي أفنى كثيراً منهم بقوتكم وعدتكم، ولكن الله قتلهم بأيديكم بما كان من تثبيت قلوبكم، بمخالطة الملائكة، وملابستها لأرواحكم وبإلقائه الرعب في قلوبهم، وهذا بعينه هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾، والمؤمن أحرى بالصبر الذي هو من أجل عوامل النصر من الكافر، إذ هو أقل حرصاً على متاع الدنيا، وأعظم رجاء لله والدار الآخرة، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾.

ثم انتقل من خطاب المؤمنين الذين قتلوا أولئك الصناديد بسيوفهم، إلى خطاب الرسول ﷺ، وهو قائدهم الأعظم فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد أحداً

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

من المشركين ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾؛ أي: في الوقت الذي رميت فيه القبضة من التراب بإلقائها في الهواء، فأصابت وجوههم، فإن ما فعلته لا يكون له من التأثير مثل ما حدث ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَمَىٰ﴾ وجوههم كلهم بذلك التراب، الذي ألقيته في الهواء على قلته أو بعد تكثيره بمحض قدرته.

فقد روي أن النبي ﷺ رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب وقال: «شاهت الوجوه» ثلاثاً، فأعقبت رميته هزيمتهم، ومعنى[1] شاهت الوجوه، قبحت يقال: شاه وجهه يشوه شوهاً وشوهة، ويقال: رجل أشوه وامرأة شوهاء إذا كانا قبيحين.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، أن النبي ﷺ لما قال في استغاثته يوم بدر: «يا رب إن تهلك هذه العصابة، فلن تعبد في الأرض أبداً» قال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها وجوههم، ففعل، فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين.

وقال ثعلب[2]: المعنى ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ الفزع والرعب في قلوبهم، ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالحصباء فانهزموا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ أي: أعانك وأظفرك، والعرب تقول: رمى الله لك، أي أعانك وأظفرك وصنع لك، وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب «المجاز» وقال محمد بن يزيد المبرد: المعنى ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ بقوتك ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ولكنك بقوة الله رميت، وقيل: المعنى إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ، لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه، لأنَّ أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلاً، هكذا في «الكشاف» فإن قلت: كيف نفى عن المؤمنين قتل الكفار مع أنهم قتلوهم يوم بدر، ونفى عن النبي ﷺ رميهم

(١) زاد المسير. (٢) الشوكاني.

مع أنه رماهم يوم بدر بالحصى في وجوهم، قلت: نفى الفعل عنهم وعنه باعتبار الإيجاد إذ الموجد له حقيقة هو الله تعالى، وإثباته لهم باعتبار الكسب والصورة فقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾؛ أي: أتيت بصورة الرمي، وقرأ[1] حمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، ﴿ولكِنِ ٱللَّهُ رمىٰ﴾ بتخفيف نون ﴿لكن﴾، ورفع الجلالة، والباقون بالتشديد ونصب الجلالة، وجاءت هنا لكن أحسن مجيء لوقوعها بين نفي وإثبات، ولم يقل: فلم تقتلوهم إذ قتلتموهم كما قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ مبالغة في الجملة الثانية اهـ من «السمين».

فصل

والفرق[2] بين قتل المسلمين للكفار، وبين رمي النبي ﷺ إياهم بالتراب: أن الأول فعل من أفعالهم المقدورة لهم، بحسب سنن الله في الأسباب الدنيوية، وأن الثاني لم يكن سبباً عادياً لإصابتهم، وهزيمتهم لا مشاهداً كضرب أصحابه، لأعناق المشركين، ولا غير مشاهد، إذ هو لا يكون سبباً لشكاية أعينهم، وشوهة وجوههم لقلته، وبعده عن راميه وكونهم غير مستقبلين له، كلهم، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى بيان نقص الأول، وعدم استقلاله بالسببية، وبيان أنه لولا تأييد الله ونصره لما وصل كسبهم المحض إلى هذا الفشل؛ لأنك قد علمت ما كان من خوفهم، وكراهتهم للقتال، وبمجادلة النبي ﷺ فهم لو ظلوا على هذه الحال مع قلتهم وضعفهم، لكان مقتضى الأسباب العادية أن يمحقهم المشركون محقاً.

والفرق بين فعله تعالى في القتل، وفعله في الرمي: أن الأول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل، كما هو الحال في جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل في حصول غاياتها إلا بفعل الله، وتسخيره لهم للأسباب التي لا يصل إليه كسبهم عادة كما بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فالإنسان يحرث الأرض ويلقي فيها البذر، ولكنه لا يملك إنزال المطر، ولا إنبات الحب وتغذيته بمختلف عناصر

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

التربة، ولا دفع الجوائح عنه.

وأن الثاني من فعله تعالى وحده، بدون كسب عادي للنبي ﷺ في تأثيره فالرمي منه كان صورياً لتظهر الآية على يده ﷺ، فما مثله في ذلك إلا مثل أخيه موسى عليه السلام، في إلقائه العصا ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾.

والواو في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾؛ أي: ولينعم على المؤمنين إنعاماً جميلاً عاطفة[1] لما بعدها على علة مقدرة قبلها؛ أي: ولكن الله رمى ليمحق الكافرين، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً بالنصر والغنيمة، وحسن السمعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم، والبلاء هنا بمعنى النعمة، والمعنى: فعل الله تعالى ما ذكر لإقامته حجته وتأييد رسوله، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً، إنه تعالى سميع لما كان من استغاثة الرسول والمؤمنين ربهم، ودعائهم إياه وحده ولكل نداء وكلام، عليم بنياتهم الباعثة عليه، والعواقب التي تترتب عليه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ خبره محذوف، والمصدر المؤول من قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مضعف مكرهم لرسوله وللمؤمنين، ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد، والإصلاح قبل أن يقوى أمرها وتشتد، معطوف عليه، والتقدير[2] ذلكم الإبلاء والإنعام للمؤمنين بالنصر والغنيمة حق، وتوهين كيد الكافرين بالهزيمة حق.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ﴿مَوهِّنٌ﴾ بفتح الواو، وتشديد الهاء، والتنوين فـ﴿كيدَ﴾ منصوب على المفعولية من وهن، والتعدية بالتضعيف بما عينه حرف حلق غير الهمزة قليل، نحو ضعفت، ووهنت، وبابه أن يعدى بالهمزة نحو أذهلته، وأوهنته، وألحمته، وقرأ باقي السبعة والحسن، وأبو رجاء، والأعمش، وابن محيصن بسكون الواو وتخفيف الهاء من أوهن، كأكرم منوناً، وأضافه حفص إلى كيد.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الصاوي.

وبعد أن ذكر خذلانهم وإضعاف كيدهم: انتقل منه إلى توبيخهم على استنصارهم إياه على رسول الله ﷺ وقد روى محمد بن إسحاق عن الزهري أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وأتى بما لا يعرف، فأحنه[١] الغداة، فكان ذلك منه استفتاحاً.

وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة، فاستنصروا الله، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين، فأجابهم الله تعالى بقولهم: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾؛ أي: إن تطلبوا الفتح والنصر لأعلى الجندين، وأهداهما ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ والنصر لأعلاهما وأهداهما، وهذا من قبيل التهكم بهم، لأنه قد جاءهم الهلاك والذلة.

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ وتنزجروا عن عداوة النبي ﷺ وقتاله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: فالانتهاء خير لكم، لأنكم قد ذقتم من الحرب ما ذقتم من قتل وأسر بسبب ذلك العدوان.

﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى حربه وقتاله ﴿نَعُدْ﴾ إلى مثل ما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجيء الفتح الأعظم، الذي به تدول الدولة للمؤمنين عليكم، وبه يذل شرككم، وتذهب ريحكم ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾؛ أي: ولن يدفع عنكم رهطكم ﴿شيئاً﴾ من بأس الله، وشديد نقمته، ولو كثرت عدداً إذ لا تكون الكثرة وسيلة من وسائل النصر أمام القلة، إلا إذا تساوت معها في أمور كثيرة، كالصبر والثبات، والثقة بالله تعالى، فهو الذي بيده النصر والقوة.

قال الحسن ومجاهد والسدي[٢]: وهذا خطاب للكفار على سبيل التهكم بهم، والمعنى: إن تستنصروا أيها الكفار لأعلى الجندين فقد جاءكم النصر لأعلاهما، وقد زعمتم أنكم الأعلى، فالتهكم في المجيء، أو: فقد جاءكم الهزيمة، فالتهكم في نفس الفتح، وإن تنتهوا عن قتال الرسول وعداوته وتكذيبه

---

(١) من حان الرجل إذا هلك وباعه باع، وأحانه الله إذا هلكه ا.هـ مختار.

(٢) المراح.

فهو خير لكم في الدين بالخلاص من العقاب والفوز بالثواب، وفي الدنيا بالخلاص من القتل، والأسر والنهب، وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى تسليط المسلمين على قتلكم، ولن تدفع عنكم جماعتكم شيئاً من الضرر ولو كثرت.

وقيل: هذا خطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا أيها المؤمنون، فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن المنازعة في أمر الأنفال، وعن طلب الفداء على الأسرى فهو خير لكم، وإن تعودوا إلى تلك المنازعة نعد إلى ترك نصرتكم، ثم لا تنفعكم كثرتكم.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم[1]: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بفتح همزة أن على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: والأمر، والشأن كون الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين بمعونته، وتوفيقه، فلا تضرهم قلتهم، ولا كثرة عددكم فهو يؤتي النصر من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، أو على أنه معطوف على علة محذوفة، لمعلول محذوف، تقديره: فعل الله بكم ما فعل من الأسر، والقتل، والهمزيمة، لأن الله سبحانه وتعالى ليس معكم، وأن الله مع المؤمنين، وقرأ باقي السبعة بكسرها على الاستئناف، وقرأ ابن مسعود: ﴿واللَّهُ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالله ورسوله ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الاجابة إلى الجهاد، وترك المال إذ أمر الله بتركه؛ أي: داوموا على طاعته، وعلى عدم التولي، وعلى ترك المال يدم لكم العز الذي حصل لكم ببدر ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: عن الرسول؛ أي: ولا تعرضوا عن طاعته، وعن قبول قوله، وعن معونته في الجهاد، فالضمير في ﴿عَنْهُ﴾ عائد على الرسول؛ لأنَّ طاعة رسول الله ﷺ هي من طاعة الله، ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى الله، وإلى رسوله، وقل: الضمير راجع إلى الأمر الذي دل عليه ﴿أَطِيعُوا۟﴾ وأصل تولوا تتولوا بتائين.

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم تسمعون كلامه الداعي إلى وجوب طاعته، وموالاته، ونصره في جهاده، ولا شك أن المراد بالسماع هنا: سماع

---

(١) الفتوحات والبحر المحيط.

الفهم والتصديق بما يُسمَع كما هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمعنى: وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج، والبراهين، وتصدقون بها، ولستم كالصم البكم ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ بألسنتهم ﴿سَمِعْنَا﴾ دعوتك ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: لا يتعظون، ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن، والمواعظ؛ أي: قالوا بألسنتهم: إنا قبلنا تكاليف الله تعالى، والحال: أنهم لا يقبلونها بقلوبهم، وهم المشركون، أو المنافقون، أو اليهود، أو الجميع من هؤلاء، فإنهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل، فهم كالذي لا يسمع أصلاً، لأنهم لم ينتفعوا بما سمعوا.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ جمع دابة، وهي كل ما دب على الأرض، وقل أن يستعمل في الإنسان، بل الغالب أن يستعمل في الحشرات، ودواب الركوب، فإذا استعمل في الإنسان كان ذلك في موضع الاحتقار؛ أي: إن شر ما دب على الأرض وأقبحه وأخسه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: في حكم الله وقضائه هم ﴿ٱلصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحق ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطقون به، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يعرفون ما فيه النفع لهم، فيأتونه، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه، فهم شر الدواب عند الله تعالى، لأنها تميز بعض تمييز، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها، والمعنى: إن شر الدواب في حكم الله وقضائه هم الصم الذين لا يصغون بأسماعهم ليعرفوا الحق، ويعتبروا بالموعظة الحسنة، فهم بفقدهم لمنفعة السمع كانوا كأنهم فقدوا حاسته، البكم الذين لا يقولون الحق ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا النطق الذين لا يعقلون الفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، إذ هم لو عقلوا لطلبوه واهتدوا إلى ما فيه المنفعة والفائدة لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

والخلاصة: أنهم حين فقدوا منفعة السمع والنطق والعقل.. كانوا كأنهم فقدوا هذه المشاعر والقوى بأن خلقوا خداجاً ناقصي هذه المشاعر، أو طرأت

عليهم آفات أذهبت هذه القوىٰ بل هم شرٌ منهم لأن هذه المشاعر، خلقت لهم، فأفسدوها على أنفسهم، إذ لم يستعملوها فيما خلقت لأجله حين التكليف، وفي الآية غاية الذم لهم بأنهم أشر من الكلب، والخنزير، والحمير.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: سعادة ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعاً ينتفعون به ويتعقلون عنده الحجج والبراهين، والمعنى: ولو علم الله فيهم خيراً أي استعداداً للايمان، والهداية بنور النبوة، ولم يفسد قبس الفطرة سوء القدوة، وفساد التربية... لأسمعهم بتوفيقه الكتاب والحكمة سماع تدبر وتفهم، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، فهم ممن ختم الله على قلوبهم، وأحاطت بهم خطاياهم.

قال الزجاج: ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ جواب كل ما سألوا عنه، وقيل: ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم؛ لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب، وغيره، ليشهدوا بنبوة محمد ﷺ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى الحجج والبراهين سماع تفهم، وقد علم أنه لا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ عن قبولها وأعرضوا عن إذعانها. ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنها قبل ذلك؛ أي: لتولوا عن القبول، والإذعان، والحال أنهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به، كراهية وعناداً للداعي إليه، ولأهله، فقد فقدوا الاستعداد لقبول الحق، والخير، فقداً تاماً لا فقداً عارضاً موقوتاً.

واعلم: أن للسماع درجات باعتبار ما يطالب الله به من الاهتداء بكتابه:

١ ـ أن يتعمد من يتلى عليه أن لا يسمعه مبارزة له بالعدوان بادىء ذي بدء خوفاً من سلطانه على القلوب أن يغلبهم.

٢ ـ أن يستمع، وهو لا ينوي أن يفهم ويتدبر، كالمنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾.

٣ ـ أن يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض، كما كان يفعل

المعاندون من المشركين وأهل الكتاب، وقت التنزيل وفي كل حين إذا استمعوا إلى القرآن أو نظروا فيه.

٤ ـ أن يسمع ليفهم ويتدبر ثم يحكم له أو عليه، وهذا هو المنصف، وكم من السامعين أو القارئين آمن من بعد أن نظر، وتأمل، فقد نظر طبيب فرنسي في ترجمة القرآن، فرأى أن كل النظريات الطبية التي فيه كالطهارة والاعتدال في المآكل، والمشارب، وعدم الإسراف فيهما، ونحو ذلك من المسائل التي فيها محافظة على الصحة، توافق أحدث النظريات التي استقر عليها رأي الأطباء، في هذا العصر، فرغب في هذا كله وأسلم.

وكثير من المسلمين يستمعون القراء، ويتلون القرآن، فلا يشعرون بأنهم في حاجة إلى فهمه وتدبر معناه، بل يستمعونه للتلذذ بتجويده، وتوقيع التلاوة على قواعد النغم، أو يقصدون بسماعه التبرك فقط، ومنهم من يحضر الحفاظ عنده في ليالي رمضان، ويجلسهم في حجرة البوابين أو غيرهم من الخدم تشبهاً بالأكابر والوجهاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صدقوا الله ورسوله ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ أي: أجيبوا الله والرسول بحسن الطاعة، والانقياد، فاستجاب هنا بمعنى أجاب، لأن السين والتاء فيه زائدتان، وإن كان استجاب يتعدى باللام، وأجاب بنفسه كما أن قوله: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ وقد يتعدى استجاب بنفسه، كما في قول الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيْبُ إِلَىٰ ٱلنَّدَىٰ ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيْبُ

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول محمد ﷺ؛ وإنما أفرد الضمير لأن استجابة الرسول استجابة لله تعالى، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد، وأخرج البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيته فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال ﷺ: «ألم يقل الله: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم»، ثم ذكر الحديث.

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خرج على أبيّ بن كعب

وهو يصلي فقال رسول الله ﷺ: «يا أُبي» فالتفت أُبي ولم يجبه، وصلى أبي، وخفف ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وعليك السلام، ما منعك يا أُبيّ أن تجيبني إذ دعوتك»، فقال: يا رسول الله، إنّي كنت في الصلاة فقال ﷺ: «أفلم تجد فيما أوحي إليَّ ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله تعالى، وذكر الحديث. وقال: حديث حسن صحيح.

قيل[1]: هذه الإجابة مختصة بالنبي ﷺ، فعلى هذا ليس لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر، وقيل: لو دعاه أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير.. فله أن يقطع صلاته.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: لما فيه حياتكم من علوم الديانات والشرائع، لأن العلم حياة، كما أن الجهل موت، قال الشاعر:

لاَ تَعْجَبَنَّ ٱلْجَهُوْلَ حُلَّتُهُ فَذَاكَ مَيْتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنُ

قال[2] السدي: هو الإيمان لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان، وقال قتادة: هو القرآن لأنه حياة القلوب، وفيه النجاة والعصمة في الدارين، وقال مجاهد: هو الحق، وقال محمد بن إسحاق: هو الجهاد لأن الله أعزه به بعد الذل، وقيل: هو الشهادة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

والمعنى[3]: أن الرسول ﷺ إذا دعاكم بأمر ربكم لما فيه حياتكم الروحية من علم بسننه في خلقه، ومن حكمة وفضيلة، ترفع نفس الإنسان وترقى بها إلى مراتب الكمال، حتى تحظى بالقرب من ربها، وتنال رضوانه في الدار الآخرة... فأجيبوا دعوته بقوة وعزم كما قال في آية أخرى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ وطاعته ﷺ واجبة في حياته، وبعد مماته، فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمور الدين الذي بعثه الله به، كبيانه لصفة الصلاة، وعددها، قولاً أو فعلاً

---

(١) الخازن.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

فقد صلى بأصحابه وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، وقال: «خذوا عني مناسككم». وكبيانه لمقادير الزكاة وغيرها من السنن العملية المتواترة، وأقواله كذلك، فكل من ثبت عنده شيء منها ببحثه أو ببحث العلماء الذين يثق بهم.. وجب عليه الاهتداء به، أما الإرشادات النبوية في أمور العادات كاللباس، والطعام، والشراب، والنوم.. فلم يعدها أحد من الأئمة ديناً يجب الاقتداء به فيه.

ويستدل[1] بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله، أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية، أن يبادر إلى العمل به كائناً ما كان، ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال، وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة، وترك التقيد بالمذاهب، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾؛ أي: يحول بين المرء وبين ما يريده بقلبه، فإن الأجل يحول دون الأمل، فكأنه[2] قال تعالى: بادروا إلى الأعمال الصالحة، ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقع طول البقاء فإن ذلك غير موثوق به، وقال مجاهد: المراد بالقلب هنا العقل؛ أي: فإن الله تعالى يحول بين المرء وعقله.

والمعنى: فبادروا إلى الأعمال، وأنتم تعقلون، فإنكم لا تأمنون زوال العقل، والله يحول بين المرء الكافر وطاعته، ويحول بين المرء المطيع ومعصيته، والقلوب بيد الله، يقلبها كيف يشاء، وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ولا يستطيعون المرء أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه تعالى.

والمعنى[3]: أنه تعالى هو المتصرف في جميع الأشياء والقادر على

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

الحيلولة بين الإنسان وبين ما يشتهيه قلبه، فهو الذي ينبغي أن يستجاب له إذا دعا، إذ بيده تعالى ملكوت كل شيء، وزمامه، وفي ذلك حض على المراقبة، والخوف من الله تعالى والبدار إلى الاستجابة له، وقال مجاهد: يحول بين المرء وعقله، فلا يدري ما يعمل عقوبة على عناده، وقال السدي: يحول بين كل واحد، وقلبه فلا يقدر على إيمان ولا كفر إلا بإذنه، وقيل: غير ذلك، وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿بين المرء﴾ بكسر الميم اتباعاً لحركة الإعراب، إذ في المرء لغتان فتح الميم مطلقاً، وإتباعها حركة الاعراب، وقرأ الحسن، والزهري: ﴿بين المرِّ﴾ بتشديد الراء من غير همز، ووجهه: أنه نقل حركة الهمزة إلى الراء، وحذف الهمزة، ثم شدها كما تشدد في الوقف، وأجرى الوصل مجرى الوقف ﴿و﴾ اعملوا ﴿أنه﴾؛ أي: أن الشأن ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿تُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة للجزاء على أعمالكم، فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم، فسارعوا إلى طاعة الله ورسوله ﷺ.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ أي بلية؛ أي: واحذروا سبب بلية إن أصابتكم ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ خطاب للمؤمنين جميعاً صلحائهم وغيرهم، والمراد بالفتنة العذاب الدنيوي كالقحط والغلاء وتسليط الظلمة، وغير ذلك؛ أي[1]: واحذروا أيها المؤمنون فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة بل تتعدى إليكم جميعاً، وتصل إلى الصالح والطالح، واتقاء تلك الفتنة بالنهي عن المنكر، فالواجب على كل من رآه أن يزيله إذا كان قادراً على ذلك، فإذا سكت عليه فكلهم عصاة، هذا بفعله وهذا برضاه، وقد جعل الله تعالى الراضي بمنزلة العامل، فانتظم في العقوبة. وعلامة الرضا بالمنكر: عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له إلا إذا تألم له تألمه لفقد ولده، أو ماله، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار، وعبارة المراغي هنا: وبعد أن أمرنا الله سبحانه بتلك الأوامر، ونهانا عن النواهي التي تخص أعمال الإنسان الاختيارية أمرنا أن نتقي الفتن الاجتماعية، التي لا تخص الظالمين، بل تتعداهم إلى غيرهم، وتصل

---

(١) المراح.

إلى الصالح والطالح فقال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾؛ أي: اتقوا وقوع الفتن التي لا تختص إصابتها بمن يباشرها وحده بل تعمه وغيره، كالفتن القومية التي تقع بين الأمم في التنازع على المصالح العامة من الملك والسيادة، أو التفرق في الدين والشريعة، والانقسام إلى الأحزاب الدينية، والأحزاب السياسية، ونحو ذلك من ظهور البدع، والتكاسل في الجهاد، وإقرار المنكر الذي يقع بين أظهرهم، والمداهنة في الأمر بالمعروف، ونحو ذلك من الذنوب التي جرت سنة الله تعالى أن تعقاب عليها الأمم في الدنيا قبل الآخرة، وروي عن ابن عباس قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب. وقال عدي بن عميرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك.. عذب الله الخاصة والعامة» وقال البيضاوي: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾؛ أي: اتقوا ذنباً يعمكم أثره، كإقرار المنكر بين أظهركم، والمداهنة في الأمر بالمعروف، وافتراق الكلمة، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد انتهى.

وروى البخاري والترمذي «أن الناس إذا رأوا الظالم، ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده» وفي مسلم من حديث زينب بنت جحش، سألت رسول الله ﷺ: «أنهلك وفينا الصالحون، قال: نعم إذا كثر الخبث».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به» متفق عليه.

فإن قلت[1]: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ يشمل الظالم وغير الظالم، كما تقدم تفسيره، فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة إلى من لم يذنب؟

---

(١) الخازن.

قلتُ: إنه تعالى مالك الملك، وخالق الخلق، وهم عبيده وفي ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، فيحسن ذلك منه على سبيل المالكية، أو لأنه تعالى علم اشتمال ذلك على أنواع من أنواع المصلحة، والله أعلم بمراده.

وقرأ ابن[1] مسعود وعلي، وزيد بن ثابت، والباقر، والربيع بن أنس، وأبو العالية ﴿لتصيبن﴾ وفي ذلك وعيد للظالمين فقط، وعلى هذا التوجيه خرج ابن جني قراءة الجماعة ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ وحكى النقاش عن ابن مسعود، أنه قرأ ﴿فتن أن تصيب﴾ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ أي: شديد عقابه للأمم، والأفراد، التي خالفت سننه التي لا تبديل لها ولا تحويل، أو خالفت هدى دينه المزكي، للأنفس المطهر للقلوب، ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه، والمعنى: الزموا الاستقامة خوفاً من عذاب الله تعالى، وهذا العقاب[2] منه ما هو في الدنيا، وهو مطرد في الأمم وقد أصيبت به الأمة الإسلامية في القرن الأول الذي كان أهله خير القرون بعده، إذ قصروا في درء الفتنة الأولى، فعاقبهم الله عقاباً شديداً على ذلك، ثم تسلسل العقاب في كل جيل وقع فيه ذلك، ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية على الملك والسلطان، حتى زالت الخلافة التي تنافسوا فيها وتقاتلوا لأجلها.

وقد يقع هذا العقاب للأفراد، لكنهم ربما لا يشعرون به، لأنه يقع تدريجياً، فلا يكاد يحس به، وأما العقاب الأخروي فأمره الله إلى العالم بالسر والنجوى، والذي جعل العقاب آثاراً طبيعية للذنوب التي تجترحها الأفراد والأمم.

وقوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ خطاب للمهاجرين يذكرهم فيه سبحانه بما كان من ضعفهم وقلتهم، وقد يكون الخطاب للمؤمنين عامة في عصر التنزيل، يذكرهم فيه بما كان من ضعف أمتهم العربية في الجزيرة بين الدول القوية من فارس والروم.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

أي: واذكروا يا معشر المهاجرين ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ في العدد في أول الإسلام ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مقهورون في أرض مكة ﴿تَخَافُونَ﴾ من مبدأ الإسلام إلى حين الهجرة إذا خرجتم من البلد ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: أن يأخذكم مشركو العرب من قريش وغيرها، بسرعة لشدة عداوتهم لكم، ولقربهم منكم، والمراد أن ينتزعوكم بسرعة، فيفتكوا بكم كما كان يتخطف بعضهم بعضاً في خارج الحرم، وتتخطفهم الأمم من أطراف جزيرتهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ﴿فـآواكـم﴾ وضـمـكـم أيـهـا المهاجرون إلى الأنصار ونقلكم إلى المدينة فصرتم آمنين من كفار مكة، ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ وإياهم؛ أي: قواكم ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى إياكم في بدر، وفي سائر غزواتكم، ويؤيدكم على من سواكم من فارس والروم، وغيرهما كما وعدكم بذلك في كتابه الكريم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من الغنائم وغيرها، وكانت محرمة على من كان قبل هذه الأمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم العظيمة؛ أي: رجاء أن تشكروا هذه النعم وغيرها مما يؤتيكم من فضله كما وعد في كتابه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ الآية. قال كان هذا الحي أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً وأبينه ضلالةً معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم، لا والله ما في بلادهم ما يحسدون عليه من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يأكلون، لا والله ما نعلم قبيلاً من حاضر الأرض يومئذ كان أشر منهم منزلاً حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من نعم الله عز وجل.

وفي الآية من العبرة التي يجب على المؤمنين أن يتذكروها أنه أورث من اهتدى بهديه سعادة الدنيا وبسطة السلطان، ومكن لأهله في الأرض، وأنالهم ما لم يكونوا يرجونه لولا هدى الدين، وأورثهم في الآخرة فوزاً ورضواناً من ربهم وروحاً، وريحاناً، وجنة نعيم.

هذا حين كانوا يعملون بهديه، فلما أعرضوا عنه، ونأوا بجانبهم، عاقبهم الله بما جرت به سننه في الأرض، فأضاعوا ملكهم، وسلط عليهم أعداءهم، فليعتبر المسلمون بما حل بهم، وليرجعوا إلى تاريخ أسلافهم، وليستضيؤوا بنورهم، وليتوبوا إلى رشدهم، لعله يعيد إليهم تراثهم الغابر، وعزهم الماضي ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى[1] فتعطلوا فرائضه، أو تتعدوا حدوده، وتنتهكوا محارمه التي بينها لكم في كتابه، ﴿و﴾ لا تخونوا ﴿الرسول﴾ محمداً ﷺ فترغبوا عن بيانه لكتابه إلى بيانه بأهوائكم، أو أراء مشايخكم، أو آبائكم، أو أوامر أمرائكم، أو ترك سنته إلى سنة آبائكم وزعمائكم زعماً منكم أنهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم، ﴿و﴾ لا ﴿تخُونوا أَماناتِكُم﴾ فيما بين بعضكم وبعض آخر منكم من المعاملات المالية، وغيرها حتى الشؤون الأدبية، والاجتماعية، فإفشاء السر خيانة محرمة، ويكفي في العلم بكونه سراً قرينة قولية كقول محدثك: هل يسمعنا أحد، أو فعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجيء، وآكد الأمانات السر وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين، كذلك لا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولي الأمر من شؤون سياسية أو حربية، فتطلعوا عليها عدوكم، وينتفع بها في الكيد لكم، وقرأ مجاهد ﴿أمانتكم﴾ بالإفراد، والمراد الجمع.

والخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين، قال أنس بن مالك: قلما خطب رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا عهد له» رواه الإمام أحمد.

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

---

(١) المراغي.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم تعلمون مفاسد الخيانة، وتحريم الله إياها وسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة، وقد يكون المعنى: وأنتم تعلمون أنَّ ما فعلتموه خيانة لظهوره، فإن خفي عليكم حكمه، فالجهل له عذر إذا لم يكن مما علم من الدين ضرورة، أو مما يعلم ببداهة العقل، أو باستفتاء القلب، كفعلة أبي لبابة التي كان سببها الحرص على المال والولد، ومن ثم فطن لها قبل أن يبرح مكانه، ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ عظيمةٌ مانعةٌ لكم عن أمور الآخرة؛ أي: محنة يظهر بها ما في النفس من اتباع الهوى، أو تجنبه، ولذلك مال أبو لبابة إلى قريظة في إطلاعهم على حكم سعد، لأنَّ ماله وولده كان فيهم؛ أي:[1] إن فتنة الأموال والأولاد عظيمة لا تخفى على ذوي الألباب، إذ أموال الإنسان عليها مدار معيشته، وتحصيل رغائبه، وشهواته، ودفع كثير من المكاره عنه من أجل ذلك يتكلف في كسبها المشاق، ويركب الصعاب ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام، ويرغبه في القصد والاعتدال ويتكلف العناء في حفظها، وتتنازعه الأهواء في انفاقها، ويفرض عليه الشارع فيها حقوقاً معينةً، وغير معينة كالزكاة، ونفقات الأولاد، والأزواج وغيرها وأما الأولاد فحبهم مما أودع في الفطرة، فهم ثمرات الأفئدة وأفلاذ الأكباد لدى الآباء والأمهات، ومن ثم يحملهما ذلك على بذل كل ما يستطاع بذله في سبيلهم من مال، وصحة، وراحة، وقد روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة».

فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الذنوب والآثام في سبيل تربيتهم، والإنفاق عليهم، وتأثيل الثروة لهم، وكل ذلك قد يؤدي إلى الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق، أو الأمة، أو الدين، وإلى البخل بالزكاة،

---

(١) المراغي.

والنفقات المفروضة، والحقوق الثابتة، كما يحملهم ذلك على الحزن على من يموت منهم بالسخط على المولى والاعتراض عليه، إلى نحو ذلك من المعاصي كنوح الأمهات، وتمزيق ثيابهن، ولطم وجوههن، وعلى الجملة: ففتنة الأولاد أكثر من فتنة الأموال، الرجل يكسب المال الحرام، ويأكل أموال الناس بالباطل، لأجل الأولاد.

فيجب على المؤمن أن يتقي الفتنتين، فيتقي الأولى بكسب المال من الحلال، وإنفاقه في سبيل البر، والإحسان، ويتَّقي خطر الثانية من ناحية ما يتعلق منها بالمال، ونحوه بما يشير إليه الحديث، ومن ناحية ما أوجبه الدين من حسن تربية الأولاد، وتعويدهم الدين والفضائل، وتجنيبهم المعاصي والرذائل.

﴿و﴾اعلموا أيها المؤمنون ﴿أن الله﴾ سبحانه وتعالى: ﴿عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ وثواب جسيم، فعليكم أن تؤثروا ما عند ربكم من الأجر العظيم، بمراعاة أحكام دينه، في الأموال والأولاد على ما عساه قد يفوتكم في الدنيا من التمتع بهما، فإنَّ سعادة الآخرة، وهو ثواب الله تعالى، خير من سعادة الدنيا، وهو المال والولد؟ لأن سَعَادَة الآخرة لا نهاية لها، ولا انقضاء، وسعادة الدنيا تفنى وتنقضي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: إن تمتثلوا أوامر الله وتجتَنبُوا نواهيه ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾؛ أي: نجاة مما تخافون في الدارين، أو يجعل لكم نوراً، وتوفيقاً في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل، وقال مجاهد: يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة، وقال مقاتل: مخرجاً في الدين من الشبهات، وقال عكرمة: نجاة، أي: يفرق بينكم وبين ما تخافون، وقال محمد بن إسحاق: فصلاً بين الحق والباطل، يظهر الله به حقكم، ويطفىء باطل من خالفكم، وقيل: يفرق بينكم وبين الكفار، بأن يظهر دينكم ويعليه، ويبطل الكفر ويوهنه، أو نصراً، لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الكفر بإذلال حزبه، والإسلام بإعزاز أهله، أو بياناً وظهوراً في أقطار الأرض ﴿وَيُكَفِّرۡ

عَنكُمْ﴾؛ أي: يمح[1] عنكم ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾؛ أي: الصغائر منها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾؛ أي: يستر لكم الكبائر منها ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: ذو المن والعطاء الجسيم على عباده بالمغفرة والجنة، أو المعنى: ﴿يكفر عنكم سيئاتكم﴾؛ أي: يسترها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾؛ أي: يزلها في الآخرة، وفي «الصاوي»: قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾ عطف مرادفٌ على ما قبله، انتهى وفي «البحر»: وإنما تغاير الظرفان لئلا يلزم التكرار ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ لأنه هو الذي يفعل ذلك بكم، فله الفضل العظيم عليكم، وعلى غيركم من خلقه، ومن كان كذلك فإنه إذا وعد بشيء وفى به، قيل: إنه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات، ويتفضل على العاصين بغفران السيئات، وقيل: معناه إن بيده الفضل العظيم، فلا يطلب من عند غيره.

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إيماء[2] وتنبيه إلى أنَّ ما وعد به المتقين من المثوبة فضل منه وإحسان، تفضل به علينا بدون واسطة، وبدون التماس عوض.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات ﴿أي﴾ من الإضافة، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

﴿زَحۡفٗا﴾ حال من المفعول به وهو الذين فهو مصدر مؤول بمشتق تقديره: حال كونهم زاحفين، ﴿فلا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إذا﴾، وجوباً لكون الجواب جملة طلبية ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ فعل وفاعل ومفعولان مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة جواب إذ لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا جواب النداء، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو: استئنافية ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿يُوَلِّهِمۡ﴾ فعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على من ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ ﴿يوم﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يُوَلِّهِمۡ﴾ ﴿يوم﴾ مضاف ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر، مضاف إليه، مبني بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين ﴿دُبُرَهُۥٓ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿مُتَحَرِّفٗا﴾ إما منصوب على الاستثناء من ضمير المؤمنين؛ أي: ومن يولهم إلا رجلاً منهم ﴿مُتَحَرِّفٗا﴾ أو متحيزاً أو حال من فاعل ﴿يُوَلِّهِمۡ﴾ ﴿لِّقِتَالٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مُتَحَرِّفٗا﴾ واللام فيه للتعليل ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا﴾ معطوف عليه ﴿إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مُتَحَيِّزًا﴾.

﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

﴿فَقَدۡ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب مقروناً بـ﴿قد﴾، ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿بَآءَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً، لا محل لها من الإعراب، ﴿بِغَضَبٖ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿بَآءَ﴾ أو حال من فاعله، والباء فيه للملابسة؛ أي ملتبساً ومصحوباً بغضب ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿بَآءَ﴾، ﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه، ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ خبره، ولم ينون للعلمية، والتأنيث المعنوي، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿بَآءَ﴾ على

كونها جواباً لـ﴿من﴾ الشرطية ﴿وَبِئْسَ﴾ الواو: استئنافية ﴿بئس المصير﴾ فعل وفاعل، وهو من أفعال الذم، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي، وهو مبتدأ، خبره جملة ﴿بئس﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَلَمْ﴾ ﴿الفاء﴾[١] فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره، إن افتخرتم بقتلهم، وأردتم بيان حقيقة الأمر فيهم، فأقول لكم: أنتم لم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم، لأنه هو الذي أنزل الملائكة، وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء لكم النصر والظفر، وقوى قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجزع كما ذكره الزمخشري ﴿لم تقتلوهم﴾ جازم وفعل وفاعل ومفعول والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو: عاطفة ﴿لكن﴾ حرف نصب واستدراك، ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿قَتَلَهُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله، ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾ وجملة ﴿لكن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لم تقتلوهم﴾ على كونها مقولاً لجواب إذاً المقدرة، ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿رَمَيْتَ﴾ فعل، وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فلم تقتلوهم﴾، وصح العطف عليها؛ لأن[٢] المضارع المنفي بـ﴿لم﴾ في قوة الماضي المنفي بما، فإنك إذا قلت: لم يقم كان معناه، ما قام ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية ﴿رَمَيْتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿رميت﴾؛ أي: وما رميت الرعب والهزيمة في قلوبهم، وقت رميك إياهم بالحصى ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو: عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك ونصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿رَمَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿وَمَا

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

رَمَيۡتَ﴾. ﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾ الواو: عاطفة ﴿ليبلي﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل ﴿يبلي﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مفعول أول، ﴿مِنۡهُ﴾ متعلق بـ﴿يبلى﴾ ﴿بَلَآءً﴾ مفعول ثان ﴿حَسَنًاۚ﴾ صفة له. قال الزمخشري؛ أي: وليعطي المؤمنين من عنده عطاءً جميلاً، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولإبلائه المؤمنين منه بلاءً حسناً، الجار والمجرور معطوف على علة محذوفة تقديره، ولكن الله رمى، وفعل بالكفار ما فعل لمحق الكافرين، ولإبلائه المؤمنين منه بلاءً حسناً، كما أشرنا إليه في مبحث التفسير. ﴿إِنَّ﴾ حرف مشبه بالفعل ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها منصوب ﴿سَمِيعٌ﴾ خبرها مرفوع و﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثان مرفوع.

﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨﴾.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ مبتدأ وخبره محذوف جوازاً تقديره ذلكم الإبلاء، والقتل والرمي حق، والجملة مستأنفة، ﴿وَأَنَّ﴾ الواو: عاطفة ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿مُوهِنُ﴾ خبرها ﴿كَيۡدِ﴾ بالجر مضاف إليه، وبالنصب مفعول ﴿مُوهِنُ﴾. ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مضاف إليه وجملة أن في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ خبره محذوف تقديره: وتوهين الله كيد الكافرين، حق، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، ويجوز أن تكون جملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم المحذوف تقديره: واعلموا توهين الله كيد الكافرين.

﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾.

﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿فَقَدۡ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية، وجوباً لكون الجواب مقروناً بـ﴿قد﴾ ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿فَهُوَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية ﴿هو خير﴾ مبتدأ وخبر ﴿لَّكُمۡۖ﴾ متعلق بـ﴿خَيۡرٞ﴾، والجملة الاسمية في محل

الجزم جواب إن الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿نَعُدْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى، ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لن﴾ حرف نصب ﴿تُغْنِيَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾ ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق به ﴿فِئَتُكُمْ﴾ فاعل، ومضاف إليه ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿نَعُدْ﴾ ﴿وَلَوْ﴾ الواو: عاطفة ﴿لو﴾ حرف شرط ﴿كَثُرَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الفئة، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ وجوابها محذوف تقديره: فلن تغنى عنكم، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة محذوفة تقديره، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً إن وجدت ولو كثرت ﴿وأنَّ﴾ الواو: استئنافية ﴿أنّ﴾ حرف نصب ﴿اللَّهَ﴾ اسمها ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ خبرها، وجملة ﴿إن﴾ في تأويل مصدر ساد من مفعولي علم المحذوف تقديره: واعلموا كون الله مع المؤمنين بالنصر والإمداد، والجملة مستأنفة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أي﴾ منادي نكرة مقصودة ﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿الَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء مستأنفة ﴿آمَنُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فعل وفاعل، ومفعول ﴿وَرَسُولَهُ﴾ معطوف على الجلالة والجملة جواب النداء ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَطِيعُوا﴾ ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بـ﴿تَوَلَّوْا﴾ ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَسْمَعُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَوَلَّوْا﴾. ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ جازم وفعل ناقص واسمه ﴿كَالَّذِينَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ ﴿قَالُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿سَمِعْنَا﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾ وان شئت قلت: ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ وجملة ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل

النصب حال من واو: ﴿قَالُواْ﴾.

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ اسم ﴿إن﴾ ومضاف إليه، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿شَرَّ﴾، ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ﴾ كل من الثلاثة خبر المبتدأ كقولهم: الرمان حلو حامض، وجملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾ الواو: استئنافية ﴿لو﴾ حرف شرط ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿فِيهِمْ﴾ متعلق بـ﴿عَلِمَ﴾ ﴿خَيْرًا﴾ مفعول به ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿أَسْمَعَهُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ حرف شرط وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب لو الشرطية ﴿تولوا﴾ فعل وفاعل والجملة جواب ﴿لو﴾ وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الأولى ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تولوا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ منادى نكرة مقصودة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء مستأنفة ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ معطوف على الجار، والمجرور قبله ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿دَعَاكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الرسول﴾ وجملة ﴿دعا﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها والظرف متعلق بالجواب المحذوف، تقديره: إذا دعاكم لما يحييكم.. استجيبوا لله وللرسُول ﴿لِمَا﴾ جار

ومجرور متعلق بـ﴿دعا﴾ ﴿يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجلمة معطوفة على جملة ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿يَحُولُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ﴾ ظرف ومضاف إليه، ﴿وَقَلۡبِهِۦ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡمَرۡءِ﴾ والظرف متعلق بـ﴿يَحُولُ﴾، وجملة ﴿يَحُولُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: واعلموا حيلولة الله بين المرء وقلبه، ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ ناصب واسمه ﴿إِلَيۡهِ﴾ متعلق بـ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ وجملة ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: وحشركم إليه تعالى.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ على كونها جواب النداء ﴿فِتۡنَةٗ﴾ مفعول به ﴿لَّا﴾ نافية ﴿تُصِيبَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على فتنة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعوله، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿فِتۡنَةٗ﴾ ﴿ظَلَمُواْ﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول ﴿مِنكُمۡ﴾ جار ومجرور حال من واو ﴿ظَلَمُواْ﴾ ﴿خَآصَّةٗۖ﴾ منصوب على الحال من الفاعل المستتر في قوله ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ وأصلها أن تكون صفة لمصدر محذوف تقديره إصابة خاصة كما في «السمين» ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره، واعلموا شدَّة عذاب الله تعالى.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ﴿اذكروا﴾ ﴿أَنتُمۡ﴾ مبتدأ ﴿قَلِيلٞ﴾ خبر والجلمة الاسمية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾ ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ صفة أولى لـ﴿قَلِيلٞ﴾ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق به، ﴿تَخَافُونَ﴾ فعل وفاعل، والجلمة في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿قَلِيلٞ﴾، ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿تَخَافُونَ﴾ تقديره: تخافون تخطف الناس إياكم، ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿أواكم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة مفرعة على الجملة الاسمية، في قوله: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ على كونها مضافاً إليه لـ﴿إذ﴾ ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿أواكم﴾ ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أيدكم﴾ ﴿وَرَزَقَكُم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿أواكم﴾ ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿رزق﴾ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ معطوف على الجلالة ﴿وَتَخُونُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على تخونوا الأول ﴿أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَأَنتُمۡ﴾ مبتدأ وجملة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿تَخُونُوٓاْ﴾ ومفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ محذوف تقديره: وأنتم تعلمون أن ما وقع منكم خيانة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تَخُونُوٓاْ﴾ على كونه جواب النداء، ﴿أَنَّمَآ﴾ ﴿أنَّ﴾ حرف نصب و﴿ما﴾ كافة لكفها ما قبلها عن العمل، فيما بعدها

﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَوْلَٰدُكُمْ﴾ معطوف عليه﴿فِتْنَةٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: واعلموا كون أموالكم وأولادكم فتنة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿عِندَهُۥٓ﴾ ظرف ومضاف إليه خبر مقدم ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة لأجر، وجملة المبتدأ والخبر، في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿أَنَّمَآ﴾ على كونها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾ تقديره وكون أجر عظيم عند الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ منادى نكرة مقصودة، والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صلة الموصول ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ جازم وفعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿يَجْعَل﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواب الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿فُرْقَانًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿وَيُكَفِّرْ﴾ معطوف على ﴿يَجْعَل﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق به ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَيَغْفِرْ﴾ معطوف على يجعل وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ﴾ خبر ومضاف إليه، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ﴿ٱلْفَضْلِ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿زَحْفًا﴾ من زحف[1] إذا مشى على بطنه كالحية، أو دبَّ على مقعده، كالصبي، أو على ركبتيه، أو مشى بثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو كزحف صغار الجراد، والعسكر المتوجه إلى العدوّ لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه

(١) المراغي.

يزحف، إذ الكل يرى كجسم واحد متصل، فتحس حركته بطيئة، وإن كانت في الواقع سريعة، وفي «المصباح» زحف القوم زحفاً من باب نَفَعَ وزحوفاً، ويطلق على الجيش الكثير، زحف تسمية بالمصدر، والجمع زحوف مثل فلس وفلوس، والصبي يزحف على الأرض قبل أن يمشي، وزحف البعير إذا أعيا فجر فرسنه، وأزحف بالألف، ومنه قيل: زحف الماشي، وأزحف أيضاً إذا أعيا. انتهى.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾: جمع دبر، وهو الخلف، ومقابله القُبل، ومن ثم يكنى بهما عن السوأتين، وتولية الدبر والأدبار، يراد بهما الهزيمة، لأن المنهزم يجعل خصمه متوجهاً إلى دبره ومؤخره، وفي «الجمل»[1]: يطلق الدبر على مقابل القُبل، ويطلق على الظهر، وهو المراد هنا، والمقصود ملزوم تولية الظهر، وهو الانهزام، فهذا اللفظ استعمل في ملزوم معناه. انتهى.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾؛ أي: لأجل التمكن من القتال، والمتحرف للقتال أو غيره: هو المنحرف عن جانب إلى آخر من الحرف، وهو الطرف ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا﴾ والمتحيز[2] المنضم إلى جانب، وقال أبو عبيدة: التحيز، والتحوز، التنحي والتحوز الانضمام، وقال الليثُ: ما لك متحوزاً إذا لم تستقر على الأرض، وأصله: من الحوز وهو الجمع، يقال: حزته في الطرس، فانحاز، وتحيز انضم، واجتمعَ، وتحوزت الحية انطوت واجتمعت، وسمي التنحي تحيزاً؛ لأنَّ المتنحي عَنْ جانب ينضم عنه، ويجتمع إلى غيره، وتحيز تفيعل أصله تحيوز اجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً، وأدغمت فيها الياء، وتحوز تفعل ضعفت عينه، ووزن[3] متحيز متفيعل، والأصل: متحيوز فاجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ والفئة: الطائفة من الناس ﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾ والمأوى: الملجأ الذي يأوي إليه الإنسان، ﴿وَمَا رَمَيۡتَ﴾ والرمي معروف، ويكون بالسهم، والحجر والتراب ﴿بَلَآءً﴾ هو اسم مصدر لأبلى يبلي إبلاءً وبلاءً، والمراد به هنا: المبلو به، أي:

---

(1) الفتوحات.
(2) البحر المحيط.
(3) الفتوحات.

المعطى ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والموهن: المضعف من أوهنه إذا أضعفه، والكيد: التدبير الذي يقصد به غيرُ ظاهره، فتسوء عاقبة من يقصد به ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ والاستفتاح: طلب الفتح، والفصْلُ في الأمر كالنصر في الحرب.

﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الخيانة[1]: لغة تدل على الإخلاف والخيبة بنقص ما كان يرجى ويؤمل من الخائن، فقالوا: خانه سيفه إذا نبا عن الضربة، وخانته رجلاه إذا لم يقدر على المشي، ومنه قوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تنقصونها بعض ما أحل لها من اللذات، ثُمَّ استُعْمِل في ضد الأمانة والوفاء؛ لأن الرجل إذا خان الرجل فقد أدْخل عليه النقصان، ﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ جمع أمانة، والأمانة كل حقٍّ مادي أو معنوي يجب عليك أداؤه إلى أهله، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾ والفتنة: الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه، أو قبوله أو إنكاره، فهي تكون في الاعتقاد والأقوال والأفعال، والأشياء، فيمتحن الله المؤمنين والكافرين، والصادقين والمنافقين، ويجازيهم بما يترتب على فتنتهم من اتباع الحق، أو الباطل، وعمل الخير أو الشر ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ وفي «المصباح» خطفه يخطفه من باب تعب استلبه بسرعة وخطفه خطفاً من باب ضرب لغة، واختطف وتخطف مثله، والخطفة مثل تمرة المَرَّة يقال لما اختطفه الذئب ونحوه من حيوان، هي خطفة تسمية بذلك اهـ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ التقوى: ترك الذنوب، والآثام، وفعل ما يستطاع من الطاعات، والواجبات الدينية، وبعبارة أخرى: هي اتقاء ما يضر الإنسان في نفسه، وفي جنسه، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة، والغايات الحسنة.

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ والفرقان أصله الفرق، والفصل بين الشيئين أو الأشياء، ويراد به هنا نور البصيرة الذي به يفرق بين الحق والباطل والضار والنافع،

---

(١) المراغي.

وبعبارة ثانية: هو العلم الصحيح والحكم الرجيح، وقد أطلق هذا اللفظ على التوراة والإنجيل، والقرآن، وغلب على الأخير قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ من قبل أن كلامه تعالى يفرق في العلم والاعتقاد بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، والعدل والجور، والخير والشر، والفرقان[1] في الأصل: مصدر فرق بين الشيئين؛ أي: حال بينهما. وقال ابن عباس وجماعة: ﴿فُرْقَانًا﴾؛ أي: مخرجاً في الدين من الضلال، وقال مزرد بن ضرار:

بَادَرَ ٱلأُفْقُ أَنْ يَغِيبَ فَلَمَّا ... أَظْلَمَ ٱللَّيْلُ لَمْ يَجِدْ فُرْقَانَا

وقال الآخر:

مَالَكَ مِنْ طُوْلِ ٱلأَسَىٰ فُرْقَانُ ... بَعْدَ قَطِيْنٍ رَحَلُوْا وَبَانُوْا

وقال الآخر:

وَكَيْفَ أَرْجُوْ ٱلْخُلْدَ وَٱلْمَوْتُ طَالِبِي ... وَمَا لِيَ مِنْ كَأْسِ ٱلْمَنِيَّةِ فُرْقَانُ

أو مخرجاً من الشبهات، وتوفيقاً وشرحاً للصدور؛ أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة، ولفظ ﴿فُرْقَانًا﴾ مطلق، فيصلح لما يقع به فرق بين المؤمنين والكافرين في أمور الدنيا والآخرة.

والتقوى هنا: إنْ كانت من اتقاء الكبائر، كانت السيئات الصغائر، ليتغاير الشرط والجزاء، وتكفيرها في الدنيا ومغفرتها إزالتها في القيامة، وتغاير الظرفان لئلا يَلْزَمَ التكرار كما مَرَّ في بحث التفسير.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً وضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه البليغ في قوله ﴿زَحْفًا﴾ لأن المعنى[2] على التشبيه بالزاحفين

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفتوحات.

على أدبارهم في بطء السير، وذلك لأنَّ الجيش إذا كثر والتحم بعضه ببعض يتراءى أن سيره بطيء، وإن كان في نفسه سريعاً، فالمراد من هذه الحال بعد كون المراد التشبيه ما يلزم هذه المشابهة، وهو: الكثرة.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ لما فيه من إطلاق اللازم، وهو تولية الظهر، وإرادة الملزوم، وهو الانهزام، فكأنه قال: فلا تنهزموا.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ حيث عدل عن ذكر الظهر إلى الدبر تعريضاً[1] بسوء حالهم، وقبح فعالهم، وخساسة منزلتهم، بذكر ما يستهجن ذكره، وهو الدبر، وبعض البيانيين يسمي هذا بالإيماء، وبعضهم بالكناية، وهذا ليس بشيء فإن الكناية أن تُصرِّح باللفظ الجميل على المعنى القبيح. ذكره في التحرير.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ وفي قوله: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والجناس المغاير في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ وفي قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وفي وقوله: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ لأن الأصح أن يكون الخطاب للمشركين على سبيل التهكم، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ لأنهم هم الذين وقع بهم الهلاك، والفتح وقع لغيرهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ لأنه كناية[2] عن كونه أقرب للشخص من قلبه لذاته، بل هو تعالى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الصاوي.

أقرب من السمع للأُذن، ومن البصر للعين، ومن اللمس للجسد، ومن الشم للأنف، ومن الذوق للسان، فشبه القرب بالحيلولة، واستعير اسم المشبه به، وهو الحيلولة للمشبه وهو القرب، واشتق من الحيلولة ﴿يَحُولُ﴾ بمعنى يقرب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ لما فيه من إطلاق المسبب الذي هو المصائب والفتن، وإرادة السبب الذي هو الذنوب والمعاصي.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ
خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ
هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ
عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ
ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَـٰسِرُونَ (٣٧) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ
سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ
ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ
ٱلنَّصِيرُ (٤٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية، مناسبة[١] هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر المؤمنين عامة بنعمه عليهم بقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.. ذكر هنا نعمه على رسوله خاصة، بدفع كيد المشركين، ومكر الماكرين بنصره عليهم، وخيبة مسعاهم في إيقاع الأذى به بعد أن تآمروا عليه، وقطعوا برأي معين فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً...﴾

(١) المراغي.

مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى لما نفى عنهم أن يكونوا ولاة البيت.. ذكر من فعلهم القبيح، ما يؤكد ذلك، وأن من كانت صلاته ما ذكر لا يستأهل أن يكونوا أولياءه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما بيّن أحوال هؤلاء المشركين في الطاعات البدنية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.. أردف ذلك بذكر أحوالهم في الطاعات المالية.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما ذكر[3] الله سبحانه وتعالى ما يحل بهم من حشرهم إلى النار، وجعلهم فيها وخُسْرهم.. تلطف بهم، وأنهم إذا انتهوا عن الكفر، وآمنوا غفرت لهم ذنوبهم السالفة، وليس ثم ما يترتب على الانتهاء عنه غفران الذنوب سوىٰ الكفر، فلذلك كان المعنى أن ينتهوا عن الكفر.

وعبارة «المراغي» هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما بين حال من يصرّ على الكفر، والصد عن سبيل الله، وقتال رسوله والمؤمنين، وعاقبة أعمالهم في الدنيا والآخرة.. أردف ذلك ببيان من يرجعون عنه، ويدخلون في الإسلام، لأن الأنفس في حاجة إلى هذا البيان.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ الآية، أجمع المفسرون على أن سبب نزول هذه الآية: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما بويع[4] رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وأمر أصحابه أن يلحقوا بالمدينة، أشفقت قريش أن يعلو أمره، وقالوا: والله لكأنكم به قد كر عليكم بالرجال، فاجتمع جماعة من

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) زاد المسير.

أشرافهم ليدخلوا دار الندوة فيتشاوروا في أمره، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ كبير، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا شيخ من أهل نجد، سمعت ما اجتمعم له، فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا من رأيي نصحاً، فقالوا: ادخل، فدخل معهم، فقالوا: انظروا في أمر هذا الرجل، فقال بعضهم: احبسوه في وثاق، وتربصوا به ريب المنون، فقال إبليس: ما هذا برأي يوشك أن يغضب له قومه، فيأخذوه من أيديكم، فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم، فتستريحوا من إيذائه لكم، فقال إبليس لا مصلحة لكم فيه، لأنه قد يجمع طائفة على نفسه، ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل: الرأي أن نجمع من كل قبيلة غلاماً، ثم نعطي كل غلام سيفاً فيضربوه به ضربة رجل واحد، فيفرق دمه في القبائل، فلا تقدر بنو هاشم على محاربة قريش كلها، فيرضون بأخذ الدية، فقال إبليس: هذا هو الرأي الصواب، فتفرقوا عن ذلك، وأتى جبريل رسول الله ﷺ، فأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبت في مضجعه تلك الليلة، وأمر علياً فبات في مكانه، وبات المشركون يحرسونه، فلما أصبح رسول الله ﷺ أذن الله له في الخروج إلى المدينة، وجاء المشركون لما أصبحوا، فرأوا عليّاً فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره حتى بلغوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخله لم يكن عليه نسج العنكبوت، فأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة، يذكره نعمته عليه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية. ذكره ابن هشام في «سيرته» (١/ ٤٨٠ـ ٤٨٣) قال فيه، قال ابن إسحاق: حدثني به من لا أتهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، وغيره ممن لا أتهم عن عبد الله بن عباس، ورواه أحمد في «مسنده» رقم (٣٢٥١) مختصراً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[١] ابن جرير عن سعيد بن جبير، قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث، وكان المقداد

---

(١) لباب النقول.

أسر النضر، فلما أمر بقتله، قال المقداد: يا رسول الله: أسيري، فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول، قال: وفيه أنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا...﴾» الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير، قال: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث.

وروى البخاري عن أنس قال: قال أبو جهل بن هشام: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت، ويقولون: غفرانك، غفرانك، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ...﴾ الآية.

ولا مانع من أن الآية نزلت في هذا وهذا، وأنهما معاً كانا سبباً لنزول الآية. والله أعلم.

وأخرج[1] ابن جرير عن ابن أبزى، قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فخرج إلى المدينة، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وكان أولئك البقية من المسلمين، الذين بقوا فيها يستغفرون، فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ...﴾ الآية، فأذن في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ...﴾ الآية[2]، سبب نزولها: أن قريشاً كانوا يطوفون بالبيت، ويصفقون، ويصفرون، ويضعون خدودهم بالأرض، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عمر.

وأخرج ابن جرير عن سعيد، قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في

---

(١) لباب النقول.

(٢) زاد المسير.

الطواف يستهزؤون به، ويصفرون، ويصفقون، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ . . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟. . .﴾ الآية، قال(١) ابن إسحاق: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمير بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن، قالوا: لما أصيب قريش يوم بدر، ورجعوا إلى مكة، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وآبناؤهم فكلموا أبا سفيان ومن كان له من قريش في ذلك العير تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا أن ندرك منه ثأراً، ففعلوا، ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن عتيبة، قال: نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين أربعين أوقية من ذهب. الأوقية اثنان وأربعون مثقالاً.

وأخرج(٢) ابن جرير عن ابن أبزى، وسعيد بن جبير، قالا: نزلت في أبي سفيان، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش - أي من أخلاط القبائل - ليقاتل بهم رسول الله ﷺ.

التفسير وأوجه القراءة

أي: ﴿و﴾ اذكر يا محمد لأمتك قصة ﴿إذ يمكر﴾ ويحتال في إيقاع الضرر والهلاك ﴿بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قومك، وهذا تذكار لما مكرت قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله تعالى في خلاصه من مكرهم، واستيلائه عليهم؛ أي: واذكر نعمته تعالى عليك في ذلك الزمن القريب، الذي يمكر بك فيه قومك الذين كفروا بما يدبرون في السر من وسائل إيقاع الهلاك بك، فإن في ذلك القصص على

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

المؤمنين والكافرين في عهدك، ومن بعدك، لأكبر الحجج على صدق دعوتك، ووعد ربك بنصرتك؛ أي: واذكر لهم قصة إذ يمكرون بك، ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ في مكان، ويمنعوك من الحركة بالوثاق[1]، أو الحبس أو الإثخان بالجرح من قولهم: ضربه حتى أثبته لا حراك به، ولا براح، وقال ابن عباس ومجاهد: ليقيدوك وقيل: المعنى ليحبسوك، وقرأ النخعي ﴿ليبيتوك﴾ من البيات، وقرىء ﴿ليثبتوك﴾ بالتشديد ﴿أو﴾ لـ﴿يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم ﴿أَوْ﴾ لـ﴿يُخْرِجُوكَۚ﴾ من وطنك مكة، وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم، فزعوا، فاجتمعوا في دار الندوة، متشاورين في أمره كما سبق في أسباب النزول.

وحديث ذلك المكر الذي ترتبت عليه الهجرة إلى المدينة، وبها ظهر الإسلام، وخذل الشرك، روي من طرق عدة أقربها رواية ابن إسحاق وابن هشام في سيرتهما كما ذكرناها سابقاً، وهذه الآية مدنية كسائر السورة، وهو الصواب.

والخلاصة: أن كلمتهم قد اتفقت على إيقاع الأذى بك بإحدى ثلاث خصال: إما بالحبس الذي يمنعك من لقاء الناس، ودعوتهم إلى الإسلام، وإما بالقتل، بطريق لا يكون ضررها عظيماً عليهم، كما مر، وإما بالإخراج والنفي من الوطن ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بك، وبمن معك من المؤمنين؛ أي: يريدون إهلاككم من حيث لا تحتسبون؛ أي: إن دأبهم معك، ومع من اتبعك من المؤمنين، تدبير الأذى لكم دائماً، والله محيط بما دبروا لكم، فقد أخرجك من بينهم إلى دار الهجرة، ووطن السلطان، والقوة وكرر[2] قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ إخباراً باستمرار مكرهم، وكثرته ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بهم؛ أي: ويرد الله سبحانه وتعالى عليهم مكرهم في نحورهم، وذلك بأن أخرجهم إلى بدر، وقلل المسلمين حتى حملوا عليهم، فلقوا ما لقوا، والمكر[3] هو التدبير، وهو من الله تعالى التدبير بالحق، والمعنى:

---

(١) البيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الخازن.

إنهم احتالوا في إبطال أمر محمد ﷺ والله سبحانه وتعالى أظهره وقواه ونصره، فضاع فعلهم وتدبيرهم، وظهر فعل الله وتدبيره، وسمي[1] ما وقع منه تعالى من التدبير مكراً مشاكلة بما وقع منهم من المكر ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾؛ أي: أفضل المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم، فهو تعالى يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم، وأعظم بلاء من مكرهم، لأن مكره تعالى نصر للحق، وإعزاز لأهله، وخذلان للباطل وحزبه، وفي الآية: إيماء إلى أن هذه حالهم الدائمة في معاملته ﷺ ومن تبعه من المؤمنين.

ولما قص الله سبحانه وتعالى مكرهم في ذات محمد ﷺ.. قص علينا مكرهم في دين محمد ﷺ فقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: وإذا قرأت على هؤلاء الذين كفروا ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآنية الواضحة، لمن شرح الله صدره لفهمها ﴿قَالُواْ﴾ جهلاً منهم، وعناداً للحق، وهم يعلمون أنهم كاذبون ﴿قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ ما قال محمد ﷺ من الآيات، أو قد سمعنا مثل ما قال محمد من التوراة والإنجيل، وقد تنازع هذا العامل مع قوله: ﴿لقلنا﴾ في قوله: مثل هذا ﴿لو نشاء﴾ القول ﴿لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾ الذي تلي علينا محمد ﷺ ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا القرآن الذي تلاه محمد ﷺ علينا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إلا أكاذيب الأولين، وأخبار الماضين، من القرون الخالية أي ما سطروه وكتبوه من القصص والأخبار.

والمعنى: ما هذا القرآن إلا ما كتب الأولون من القصص؛ أي: إنَّ أخبار القرآن عن الرسل، وأقوامهم تشبه قصص أولئك الأمم، فهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها، فما هي من خبر الغيب الدال على أنه وحي من الله، وقد كان النضر بن الحارث أول من قال هذه الكلمة، فقلده فيها غيره، لأنه كان يأتي الحيرة - بكسر الحاء بلدة بقرب الكوفة - يتجر، فيشتري كتب أخبار الأعاجم، ويحدث بها أهل مكة، ولكنهم لم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلقة، وأن محمداً هو الذي

(١) الشوكاني.

افتراها، إذ لم يكونوا يتهمونه بالكذب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ لأنهم يعلمون أنه أمي لم يتعلم شيئاً، بل قالوا ذلك ليصدوا العرب عن القرآن، وقد كان زعماء قريش كالنضر بن الحارث، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، يتواصون بالإعراض عن سماع القرآن، ويمنعون الناس عنه خوفاً من استمالة الناس إليه، لما رأوا من شدة تأثيره وسلطانه على القلوب، حتى قال الوليد بن المغيرة: كلمته المشهورة: إنه يعلو ولا يعلى عليه، وإنه يحطم ما تحته.

﴿و﴾ اذكر يا محمد قصة ﴿إذ قالوا﴾؛ أي: قصة إذ قال هؤلاء الذين كفروا من قومك دعاء على أنفسهم ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ القرآن وما يدعو إليه محمد ﷺ من التوحيد ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ والصدق حالة كونه منزلاً ﴿مِنْ عِندِكَ﴾ ليدين به عبادك كما يدعي محمد ﷺ ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾؛ أي: فأنزل علينا ﴿حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عقوبة على إنكارنا، قالوا هذه المقالة مبالغة في الجحود والإنكار ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: وجيع غير الحجارة، قاله النضر بن الحارث استهزاء، وقد أسره المقداد يوم بدر، فقتله النبي ﷺ، أو قاله أبو جهل وقد ذبحه ابن مسعود يوم بدر، وقرأ الجمهور: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب جعلوا ﴿هو﴾ فصلاً، وقرأ الأعمش، وزيد بن علي بالرفع، وهي جائزة في العربية، وفي هذا[1] إيماء إلى أنهم لا يتبعونه، وإن كان هو الحق المنزل من عند الله، بل يفضلون الهلاك بحجارة يرجمون بها من السماء، أو بعذاب أليم سوى ذلك كما أن فيه تهكماً وإظهاراً للحزم واليقين، بأنه ليس من عند الله، وحاشاه، ومنه يعلم أيضاً أن دعاءهم كفر وعناد، لا لأن ما يدعوهم إليه قبيح وضار.

روي أن معاوية قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال: أجهل من قومي قومك حين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولم يقولوا: فاهدنا له.

---

(١) المراغي.

ثم قال: سبحانه وتعالى: بياناً للموجب لإمهالهم، والتوقف في إجابة دعائهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾؛ أي: وما كان من سنة الله تعالى، ولا من مقتضى رحمته وحكمته أن يعذبهم وأنت الرسول موجود مقيم فيهم؛ لأنه إنما أرسلك رحمة ونعمة، لا عذاباً ونقمة، فإنك ما دمت فيهم، فهم في مهملة من العذاب الذي هو الاستئصال مع أنه قد جرت سنته أيضاً أن لا يعذب أمثالهم من مكذبي الرسل وهم بين أظهرهم، بل كان يخرج الرسل أولاً، كما حدث لهود، وصالح، ولوط، وقرأ أبو السمال: ﴿وما كان ليعذبهم﴾ بفتح اللام، وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ معَذِّبَهُمْ﴾ هذا الاستئصال ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ أي: وفيهم من يستغفر من المسلمين الذين بقوا فيهم بعد الهجرة؛ أي: وما كان الله ليعذبهم هذا العذاب الذي عذب بمثله الأمم قبلهم، فاستأصلهم وفيهم من يستغفر من المسلمين الذين بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين، فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده.

روى ابن جرير قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ ثم خرج إلى المدينة فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وكان من بقي في مكة من المؤمنين يستغفرون فلما خرجوا أنزل الله ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية، فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم به، وقيل: المعنى وما كان الله معذبهم وفي أصلابهم من يستغفر الله تعالى، وقيل: المعنى وهم يستغفرون في الطواف بقولهم: غفرانك.

قال أهل المعاني(١): دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب.

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل عليَّ

(١) الخازن.

أمانين لأمتي، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة» أخرجه الترمذي.

ولما بين الله سبحانه وتعالى أن المانع من تعذيبهم، هو الأمران المتقدمان، وجود رسول الله ﷺ بين أظهرهم، ووقوع الاستغفار.. ذكر بعد ذلك أنَّ هؤلاء الكفار، أعني كفار مكة، مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وأي شيء لهم يمنع من تعذيب الله إياهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: والحال أنهم يصدون النَّاس ويمنعونهم عن الوصول إلى المسجد الحرام لزيارته، كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت، وفي «السمين»: وما اسم استفهام إنكاري، مبتدأ و﴿لهم﴾ خبره، وقوله: ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ على تقدير الجار المتعلق بما تعلق به الظرف الواقع خبراً، والمعنى: وأي شيء ثبت واستقر لهم في أن لا يعذبهم الله؛ أي: في عدم تعذيبه؛ أي: أي مانع منه؛ أي: لا مانع منه بعد زوال هذين المانعين، وهما كون النبي ﷺ فيهم، وكون الضعفاء يستغفرون، وهم مستضعفون فيما بينهم، فلما زال هذان المنعان وجب عليهم العذاب، ولم يبق له مانع ا.هـ؛ أي: وأي شيء يمنع تعذيبهم، بما دون عذاب الاستئصال، عند زوال المانع منه، وكيف لا يعذبون وهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو لأداء النسك، فما كان مسلم يقدر أن يدخل المسجد الحرام، فإن دخل مكة.. عذبوه، إذا لم يكن فيها من يجيره، والمراد بالعذاب هنا: عذاب بدر، إذ قتل صناديدهم ورؤساء الكفر، كأبي جهل، والنضر بن الحارث، وأسر سراتهم.

وجملة قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ في محل نصب على أنها حال من فاعل ﴿يصدون﴾؛ أي: والحال أنهم ما كانوا أولياء المسجد الحرام، وما كانوا مستحقين للولاية عليه لشركهم وعمل المفاسد فيه، كطوافهم فيه عراة، رجالاً ونساء، وهذا رد لقولهم نحن ولاة الحرم والبيت، فنصد من نشاء، وندخل من نشاء ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: ما يلي أمره إلا من كان براً تقياً، لا من كان كافراً عابداً للصنم؛ أي: ما أولياء المسجد إلا الذين يتحرزون عن

المنكرات، كما كانوا يفعلونه عند البيت من المكاء والتصدية، ومن كانت هذه حاله لا يكون ولياً للمسجد الحرام، بل هم أهل لأن يقتلوا بالسيف، ويحاربوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا ولاية لهم عليه؛ أي: لا يعلمون أنهم ليسوا أولياء الله، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين، فهم الآمنون من عذابه بمقتضى عدله في خلقه، والجديرون بولاية بيته.

وقد نسب هذا الجهل إلى الأكثر، إذ كان فيهم من لا يجهل حالهم في جاهليتهم، وضلالهم في شركهم، وكون الله لا يرضى عنهم كما كان فيهم من يكتم إيمانه خوفاً من الفتنة، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة، وقد جرت سنة القرآن أن يدقق في الحكم، ولا يقول إلا الحق، ولا يقول كما يقول الناس: إنَّ القليل لا حكم له.

ثم بين سبحانه سوء حالهم في أفضل ما بُنِيَ البيت لأجله، وهي الصلاة، فقد كانوا يطوفون عراة فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾؛ أي: عبادتهم ﴿عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾؛ أي: صفيراً فكان الواحد منهم يشبك أصابع إحدى كفيه بأصابع الأخرى، ويضمها، وينفخ فيهما فيظهر من ذلك صوت ﴿وَتَصْدِيَةً﴾؛ أي: تصفيقاً أي ضرباً لإحدى الكفين على الأخرى أي: ما كان شيء مما يعدونه عبادة وصلاة إلا هذين الفعلين، وهما المكاء والتصدية؛ أي إذا كان لهم صلاة، فلم تكن إلا هذين، قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت عراة، مشتبكين بين أصابعهم، يصفرون ويصفقون بإحدى اليدين على الأخرى، وروي عن سعيد بن جبير، قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهزؤون ويصفرون، يفعلون ذلك إذا قرأ الرسول ﷺ يخلطون عليه في صلاته، فنزلت ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

وبالجملة[1]: فقد كانت صلاتهم وطوافهم من قبيل اللهو واللعب، سواء عارضوا الرسول ﷺ في طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته، أم لا؟ ﴿فَذُوقُوا

---

(١) المراغي.

﴿ٱلۡعَذَابَ﴾؛ أي: فذوقوا أيها المشركون في الدنيا عذاب القتل لبعض كبرائكم، والأسر للآخرين منهم، وانهزام الباقين، مدحورين مكسورين يوم بدر، ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ بالقرآن وبمحمد ﷺ.

والخلاصة: فذوقوا العذاب الذي طلبتموه، وما كان لكم أن تستعجلوه إذ قلتم: ﴿أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

وقرأ أبان بن تغلب، وعاصم، والأعمش بخلاف عنهما[١] ﴿صَلاتَهُم﴾ بالنصب ﴿إلا مكاءٌ وتصديةٌ﴾ بالرفع، وخطأ قوم منهم أبو علي الفارسي هذه القراءة لجعل المعرفة خبراً والنكرة اسماً، قالوا: ولا يجوز ذلك إلا في ضرورة كقوله:

يَكُوْنُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

وخرَّجها أبو الفتح على أن المكاء والتصدية اسم جنس، واسم الجنس تعريفه وتنكيره واحد، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه ﴿إلا مكاً﴾ بالقصر منوناً فمن مد فكالثغاء، والرغاء، ومن قصر فكالبكاء في لغة من قصر.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية، وهي المكاء والتصدية.. ذكر عقبها عبادتهم المالية التي لا جدوى لها في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسوله ﷺ يعني كفار قريش وخبر إن جملة قوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ ويصرفونها في محاربة النبي ﷺ ﴿لِيَصُدُّواْ﴾ الناس ويمنعوهم ﴿عَن﴾ الدخول في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ تعالى ودينه واتباع رسوله؛ أي: إن مقصدهم بالانفاق الصد عن اتباع محمد وهو سبيل الله وإن لم يكن عندهم كذلك.

قال مقاتل والكلبي[٢]: نزلت هذه الآية في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش، أبي جهل وأصحابه، يطعم كل واحد منهم كل يوم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

عشر جزور، وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: نزلت في أبي سفيان، وكان استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب، وأنفق فيهم أربعين أوقية، والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً كما مر، وأخرج ابن إسحاق عن مشايخه أنها نزلت في أبي سفيان ومن كان له في العير من قريش تجارة كما مر ذلك في أسباب النزول.

والمعنى[(١)]: أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم، هو الصد عن سبيل الحق، بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك، وإنفاق أموالهم عليها، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش، ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾؛ أي: فينفقون أموالهم في المستقبل في الصد عن سبيل الله، أو المعنى فسيعلمون عاقبة إنفاقها من الخيبة، وعدم الظفر بالمقصود، فحصلت المغايرة، ذكره في «الفتوحات» ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ نفقاتهم في ذلك ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾؛ أي: ندامة لفواتها وفوات قصدهم من نصرتهم على محمد ﷺ ﴿ثُمَّ﴾ في آخر أمرهم ﴿يُغْلَبُونَ﴾ كما وعد الله تعالى به في مثل قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

أي: إنه سيقع هذا الانفاق، وتكون عاقبته الحسرة؛ لأنه سيذهب المال، ولا يصلون إلى المقصود، بل يغلبون كما وعد الله به نبيه، وسينكسرون المرة بعد المرة.

ومعنى[(٢)] ﴿ثُمَّ﴾ في الموضعين: إما التراخي في الزمان لما بين الانفاق المذكور وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة بين بذل المال، وعدم حصول المقصود من المبيانة، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ أي: استمروا على الكفر، كأبي جهل وأصحابه، وإنما فسرنا كذلك؛ لأن من هؤلاء

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

الكفار المذكورين سابقاً من أسلم، وحسن إسلامه، كالعباس بن عبد المطلب ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ لا إلى غيرها ﴿يُحْشَرُونَ﴾؛ أي: يساقون يوم القيامة فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما.

وقد كان[1] للمسلمين في هذه الآية عبرة وعظة فلينفقوا أموالهم في سبيل الله كما أنفق أسلافهم فيها، لأن لهم بها سعادة الدارين، والكفار في هذا العصر ينفقون الكثير من الأموال للصد عن الإسلام، وفتنة الضعفاء من العامة بالدعوة إلى دينهم، وتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم، ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم إلى نحو ذلك من الوسائل الناجعة في نشر دينهم، وفتنة المسلمين عن دينهم، وهم لا يبالون ماذا يفعلون، ألا ساء ما يعملون.

ثم بين سبحانه العلة التي لأجلها كانت الحسرة عليهم والحشر إلى جهنم، فقال: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ﴾ وقرأ حمزة[2] والكسائي، ويعقوب، ﴿لِيُمَيِّزَ﴾ بضم الياء الأولى وفتح الميم وتشديد الياء الثانية المكسورة من التمييز، وهو أبلغ من الميز، وقرأ الباقون بالتخفيف من ماز يميز كباع يبيع، واللام متعلقة بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾ أو بـ﴿يُغْلَبُونَ﴾؛ أي: يحشرون إلى جهنم ليميز الله سبحانه وتعالى، ويفصل الفريق الخبيث من الكفار ﴿مِنَ﴾ الفريق ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ من المؤمنين ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾؛ أي: ويجعل الفريق الخبيث ﴿بَعْضَهُۥ﴾ منضماً متراكباً ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾؛ أي: فيجمعه ﴿جَمِيعًا﴾ ويضم بعضه إلى بعض، حتى يتراكم ويركب بعضه بعضاً، لفرط ازدحامهم، يقال: ركم الشيء يركمه إذا جمعه، وألقى بعضه على بعض، ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾ أي: يطرحه ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾؛ وقيل: المعنى يضم الله تعالى تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض، فيلقيها في جهنم، ويعذبهم بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفريق الذين كفروا، وخبثوا اعتقاداً وأعمالاً ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، لأنهم اشتروا بأعمالهم عقاب الآخرة.

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

وقيل: اللام في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره؛ أي: إن[1] الله سبحانه وتعالى كتب النصر والغلب لعباده المتقين، والخذلان والحسرة لمن يعاديهم ويقاتلهم من الكفار، للصد عن سبيل الله، ليميز الكفر من الإيمان، والحق والعدل من الجور والطغيان، وهذا التمييز بين الأمرين في سنن الاجتماع هو بقاء أمثل الأمرين وأصلحهما ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وسنن الله في الدنيا والآخرة واحدة، فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة، ومن ثم قال: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الآية؛ أي: ويجعل الله الخبيث بعضه منضماً متراكباً على بعض بحسب سنته تعالى في اجتماع المتشاكلات، واختلاف المتناكرات، كما جاء في الحديث: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» ثم يجعل أصحابه في جهنم إلى يوم القيامة، وبئس المصير لمن خسر نفسه وماله.

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾؛ أي: لهؤلاء الكفار الذين آذوك وصدوا عن سبيل الله من كفار مكة، كأبي سفيان وأصحابه، وغيرهم من سائر الكفار، وفي «الكشاف»: قل لأجلهم هذا القول وهو: ﴿إِن يَنتَهُوا۟﴾ وينزجروا ويرجعوا عما هم عليه من عداوتك وعنادك بالصد عن سبيل الله ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾؛ أي: يغفر الله سبحانه وتعالى لهم ما سلف، وسبق منهم من عداوتك، وصدهم عن سبيل الله، وغير ذلك من سائر الذنوب، فلا يعاقبهم على شيء من ذلك في الآخرة، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون، فلا يطالبون قاتلاً منهم بدم، ولا سالباً أو غانماً بسلب ولا غنم.

وفي مصحف ابن مسعود[2]: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟﴾ بالتاء المثناة من فوق ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ خطاباً لهم، وقرىء ﴿يَغفر﴾ مبنياً للفاعل والضمير لله تعالى.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

روى مسلم من حديث عمرو بن العاص، قال: فلما جعل الله الإيمان في قلبي، أتيت النبي ﷺ فقلت: أبسط يدك أبايعك فبسط يده، فقبضت يدي قال: «مالك؟» قلت: أردت أن أشترط، قال: «ماذا تشترط؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟».

﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾ ويرجعوا إلى الكفر، ومعاداة النبي ﷺ وإلى الصد عن سبيل الله؛ أي: وإن يرتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، ويرجعوا للكفر، وقتال النبي ﷺ ويكون العود بمعنى الاستمرار، ننتقم منهم بالعذاب ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: لأنه قد سبقت سيرة الأولين، الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتدمير، كما جرى على أهل بدر؛ أي: قد سبقت سنة الله فيهم بالاستئصال والتدمير فلهم ما لهم.

والمعنى: أي وإن يعودوا إلى العداء، والصد، والقتال تجر عليهم سننه المطردة في أمثال لهم من الأولين الذين عادوا الرسل، وقاتلوهم من نصر المؤمنين، وخذلانهم، وهلاكهم كما حدث لهم يوم بدر كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾.

ولا يخفى ما في قوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من[1] التهديد، والوعيد، الشديد، والتمثيل لهم بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله؛ أي: قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل ما فعل هؤلاء من الأولين من الأمم، أن يصيبه بعذاب، فليتوقعوا مثل ذلك، وترسم ﴿سنت﴾ هذه بالتاء المجرورة، وكذا الثلاثة التي في فاطر، وكذا التي في آخر غافر، ثم بين ما سلف من قوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ورغب المؤمنين في قتالهم فقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: حتى لا توجد فتنة في الدين؛ أي: وقاتل الذين كفروا أنت يا محمد ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب

(١) الشوكاني.

وضروب الإيذاء لأجل تركه كما فعلوا ذلك حين كانت لهم القوة والبطش في مكة، إذ أخرجوكم منها لأجل دينكم ثم أتوا لقتالكم في دار الهجرة ﴿وَ﴾ حتى ﴿يَكُونَ ٱلدِّينُ﴾؛ أي: العبادة ﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾: فلا يستطيع أحد أن يفتن أحداً عن دينه ويكرهه على ترك إلى دين المكره تقية وخوفاً منه.

وخلاصة ذلك[١]: قاتلوهم حتى يكون الناس أحراراً في عقائدهم، لا يكره أحد أحداً على ترك عقيدته إكراهاً، ولا يؤذي ويعذب لأجلها كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ والمسلمون إنما يقاتلون لحرية دينهم، ولا يكرهون عليه أحداً من دونهم.

وروي عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك، والمعنى عليه: قاتلوهم حتى لا يبقى شرك في مكة وغيرها، وتزولَ الأديان الباطلة فلا يبقى إلا الإسلام.

وتقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة؛ وهنا زيادة ﴿كُلُّهُۥ﴾ توكيداً للدين، وقرأ الأعمش ﴿ويكونُ﴾ برفع النون، والجمهور بنصبها.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن الكفر، وعن قتالكم، وعن سائر المعاصي بالتوبة والإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ أي: عليم لأنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ونياتهم، فيجازيهم على أعمالهم الحسنة من الإيمان وغيره ويثيبهم عليها بحسب علمه.

وقرأ الحسن ويعقوب من العشرة وسلام بن سليمان[٢]: ﴿بما تعملون﴾ بالتاء على الخطاب، لمن أمروا بالمقاتلة على معنى: فإن الله بما تعملون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الايمان بصير يجازيكم، فيكون[٣] تعليقه بانتهائهم دلالة على أنه كما يستدعي إثابتهم للمباشرة، يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبب، وبالياء التحتية على الغيبة باتفاق السبعة.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البيضاوي.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ أي: وإن أعرض أولئك الكفار عن التوبة، والإيمان، وعن سماع تبليغكم، ولم ينتهوا عن كفرهم، وفتنتهم وقتالهم لكم ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾؛ أي: مواليكم، ومعينكم عليهم، وهذا وعد صريح بالظفر والنصر؛ أي: فأيقنوا أيها المؤمنون بنصر الله تعالى ومعونته لكم، وهو متولي أموركم، فلا تبالوا بهم، ولا تخشوا بطشهم، وجواب ﴿إن﴾ محذوف، وجملة قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ علة للجواب المحذوف، والمعنى: وإن تولوا عن الإيمان، فلا تخشوا بأسهم، لأن الله مولاكم، وهو سبحانه وتعالى ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾؛ أي: نعم الولي بالحفظ، فلا يضع من تولاه ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾؛ أي: نعم الناصر على الأعداء، فلا يغلب من نصره، وكل من كان في حماية الله تعالى كان آمناً من الآفات، مصوناً عن المخلوقات، وهذا ثناء من الله تعالى على نفسه، فهو حمد قديم لقديم، وما غلب المسلمون في العصور الأخيرة وذهب أكثر ملكهم إلا لأنهم تركوا الاهتداء بهدي دينهم، وتركوا الاستعداد المادي والحربي الذي طلبه الله بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ واتكلوا على خوارق العادات، وقراءة الأحاديث، والدعوات، وذلك مما لم يشرعه الله، ولم يعمل به رسوله، إلى أنهم تركوا العدل والفضائل، وسنن الله في الاجتماع التي انتصر بها السلف الصالح، وأنفقوا أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الإسراف في شهواتهم.

وعلى العكس من ذلك، اتبع الإفرنج تعاليم الإسلام، فاستعدوا للحرب، واتبعوا سنن الله في العمران، فرجحت كفتهم، ولله الأمر.

وما مكن الله لسلف المسلمين من فتح بلاد كسرى، وقيصر، وغيرهما من البلاد إلا لما أصاب أهلها من الشرك وفساد العقائد في الآداب، ومساوي الأخلاق، والعادات، والانغماس في الشهوات، واتباع سلطان البدع، والخرافات فجاء الإسلام، وأزال كل هذا، واستبدل التوحيد والفضائل بها، ومن ثم نصر الله أهله على الأمم كلها.

ولما أضاع جمهرة المسلمين هذه الفضائل، واتبعوا سنن من قبلهم في اتباع

البدع والرذائل، وقد حذرهم الإسلام من ذلك، ثم قصروا في الاستعداد المادي والحربي للنصر في الحرب، عاد الغلب عليهم لغيرهم، ومكن لسواهم في الأرض ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾؛ أي: الصالحون لاستعمارها والانتفاع بما أودع فيها من كنوز وخيرات. وفق الله المسلمين إلى الهدى والرشاد، وجعلهم يعيدون سيرتهم الأولى، ويهتدون بهدي دينهم، ويستمسكون بآدابه، ويتبعون سيرة السلف الصالح، فيكتب لهم العز في الدنيا، والسعادة في الآخرة بمنه وكرمه، وفضله وجوده آمين.

الإعراب

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد قصة إذ يمكر بك ﴿يَمْكُرُ﴾: فعل مضارع ﴿بِكَ﴾ متعلق به ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول فاعل ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول وجملة ﴿يَمْكُرُ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل ﴿يثبتوك﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإثباتهم إياك الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَمْكُرُ﴾. ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يثبتوك﴾ وكذا قوله: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ معطوف على ﴿يثبتوك﴾ أيضاً، والتقدير: أو لقتلهم إياك أو لإخراجهم إياك ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل مستأنف كرره للتأكيد، ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يمكرون﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان

﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل، ومضاف إليه والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة، ومعطوفة على قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: مثل هذا القرآن، وهو التوراة والإنجيل، وقد تنازع هذا العامل مع قوله: ﴿لَقُلْنَا﴾ في قوله: ﴿مِثْلَ هَٰذَآ﴾ كما يستفاد من الخازن، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا؛ ﴿لَوْ﴾ شرطية ﴿نَشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المشركين ومفعوله محذوف تقديره: لو نشاء القول، والجملة فعل شرط لـ لو ﴿لَقُلْنَا﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿قلنا﴾: فعل وفاعل ﴿مِثْلَ هَٰذَآ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، لأن ﴿قلنا﴾: بمعنى ذكرنا، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة لو الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿إِنْ﴾: نافية مهملة لانتقاض نفيها بـ﴿إلا﴾ ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ ﴿إلا﴾: إداة استثناء مفرغ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾: والظرف متعلق بمحذوف تقديره: واذكر إذ قالوا، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وإذ يمكر بك﴾: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾: الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿هَٰذَا﴾: اسمها ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْحَقَّ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مِنْ عِندِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْحَقَّ﴾ ﴿فَأَمْطِرْ﴾

﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿أمطر﴾: فعل دعاء في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق به ﴿حِجَارَةً﴾: مفعول به ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حِجَارَةً﴾ وفائدة[1] توصيف الحجارة بقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الدلالة على أن المراد بالحجارة السجيل وهو حجارة مسومة، أي: معلمة معدة لتعذيب قوم من العصاة. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول قالوا: على كونها جواب النداء ﴿أَوِ ٱئْتِنَا﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿أمطر﴾، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق بـ﴿ٱئْتِنَا﴾ ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة لـ﴿عذاب﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية ﴿ما﴾: نافية ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود ﴿يعذبهم﴾: فعل ومفعول منصوب بـ﴿أن﴾: مضمرة بعد لام الجحود، وجوباً، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿يعذب﴾: صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ما كان الله لتعذيبهم الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً لكان تقديره: ما كان الله مريداً لتعذيبهم، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة، ومن أراد البسط في مبحث لام الجحود، فليراجع كتابنا «الدرر البهية في إعراب أمثلة الآجرومية» ﴿وَأَنتَ﴾: مبتدأ ﴿فِيهِمْۚ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿يعذبهم﴾: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾: ناف وفعل ناقص واسمه ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ وجملة ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل النصب حال من هاء ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟

---

(١) الفتوحات.

﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعل، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر متعلق بما تعلق به الظرف الواقع خبراً، تقديره: وأي شيء ثبت، واستقر لهم في أن لا يعذبهم الله؛ أي: في عدم تعذيب الله إياهم، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ خبره ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ متعلق به، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿يُعَذِّبَهُمُ﴾. ﴿وَمَا﴾ الواو: حالية ﴿ما﴾: نافية ﴿كَانُوٓا۟﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ﴿أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب حال من واو ﴿يَصُدُّونَ﴾. ﴿إِنْ﴾: نافية ﴿أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾: ناف وفعل ناقص واسمه ﴿عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من ﴿صَلَاتُهُمْ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مُكَآءً﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ معطوف عليه والجملة مستأنفة ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن صلاتهم هذا اللعب واللهو وأردت بيان ما يقال لهم في الجزاء، فأقول لك: يقال لهم: ذوقوا العذاب ﴿ذوقوا العذاب﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جر ﴿ما﴾ مصدرية ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة: ﴿تَكْفُرُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل

مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿ذوقوا﴾، والتقدير، فذوقوا العذاب بكفركم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿لِيَصُدُّوا۟﴾ ﴿اللام﴾: لام كي ﴿يصدوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لصدهم عن سبيل الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب ﴿سينفقونها﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص واسمها ضمير مستتر فيها يعود على نفقاتهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿حَسْرَةً﴾: لأنه صفة نكرة قدمت عليها، أو متعلق بـ﴿تَكُونُ﴾ ﴿حَسْرَةً﴾: خبر تكون، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ معطوفة على جملة ﴿سينفقونها﴾ ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف: ﴿يُغْلَبُونَ﴾ فعل مغير ونائب فاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿تَكُونُ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿كَفَرُوٓا۟﴾: صلة الموصول ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ متعلق بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾ وجملة ﴿يُحْشَرُونَ﴾ من الفعل المغير ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لِيَمِيزَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل ﴿يميز الله الخبيث﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ متعلق بـ﴿يميز﴾، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره لميز الله الخبيث من الطيب الجار

والمجرور متعلق بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾. ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يميز﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بَعْضَهُۥ﴾ بدل من ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ **بدل بعض من كل** ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿يجعل﴾. ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿يركمه﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يجعل﴾ وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير ﴿يركمه﴾ أو توكيد له، والجملة معطوفة على جملة ﴿يجعل﴾ ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿يركمه﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾ متعلق به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ صلة الموصول ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿يَنتَهُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿يُغْفَرْ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بإن على كونه جواب الشرط ﴿لَهُم﴾ متعلق به، ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة، في محل الرفع نائب فاعل، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول القول ﴿قَدْ سَلَفَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّا﴾ والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، ﴿وإن﴾ الواو: عاطفة ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿يَعُودُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب[1] الشرط محذوف تقديره: ننتقم منهم بالعقاب والعذاب، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلة ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول على كونها، معللة للجواب المحذوف.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة[1] معطوفة على جملة قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ لكنَّ لما كان الغرض من الأول التلطف بهم، وهو وظيفة النبي وحده، بالإفراد، ولما كان الغرض من الثاني تحريض المؤمنين على القتال، جاء بالجمع، فخوطبوا جميعاً ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية بمعنى إلى ﴿لَا تَكُونَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، وهو تام ﴿فِتْنَةٌ﴾ فاعله والجملة الفعلية، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى عدم كون فتنة، وشرك الجار والمجرور متعلق بـ﴿قاتلوا﴾ و﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾: فعل مضارع ناقص واسمه معطوف على تكون ﴿كُلُّهُۥ﴾ تأكيد للدين ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿يكون﴾: ﴿فَإِنِ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر: تقديره: إذا عرفتم ما أمرتكم به من قتالهم، وأردتم بيان حكم ما إذا انتهوا أو تولوا فأقول لكم: ﴿إن انتهوا﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿ٱنتَهَوْا۟﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب الشرط وجوباً ﴿إن﴾: حرف نصب ولفظ الجلالة اسمها ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾ الآتي ﴿يَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما يعملونه ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل وفاعل في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة

---

(١) الفتوحات.

لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية ﴿اعْلَمُوا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: فاعلموا، وأيقنوا كون الله تعالى مولاكم، وناصركم ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾: فعل وفاعل وهو من أفعال المدح، والمخصوص بالمدح، محذوف وجوباً تقديره: هو، وهو في محل رفع على الابتداء، وجملة ﴿نِعْمَ﴾ في محل الرفع خبر له، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الرفع، خبر للمخصوص بالمدح المحذوف وجوباً المرفوع على كونه مبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ على كونها إنشائية لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾؛ أي: ليشدوك بالوثاق ويرهقوك بالقيد والحبس حتى لا تقدر على الحركة؛ لأن كل من شد شيئاً وأوثقه فقد أثبته لأنه لا يقدر على الحركة، وهذا إشارة لرأي أبي البختري، بفتح الباء وسكون الخاء المعجمة، وقوله: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾؛ أي: كلهم قتلة رجل واحد، وهذا إشارة لرأي أبي جهل، الذي صوبه صديقه إبليس لعنهما الله تعالى، وقوله: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾؛ أي: من مكة منفياً، وهذا إشارة لرأي هشام بن عمرو اهـ من «شرح المواهب اللدنية».

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بك؛ أي: ويحتالون ويتدبرون في أمرك وشأنك، والمكر[1] هو: التدبير الخفي، لإيصال المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب، والغالب أن يكون فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل، وإذا نسب إلى الله.. كان من المشاكلة في الكلام بتسمية خيبة المسعى في مكرهم، أو مجازاتهم عليه باسمه.

---

(١) المراغي.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ إن قلت: كيف[1] قال: والله خير الماكرين؟ ولا خير في مكرهم؟

قلتُ: يحتمل أن يكون المراد: والله أقوى الماكرين، فوضع خير موضع أقوى، وفيه التنبيه على أن كل مكر يبطل بفعل الله. وقيل: يحتمل أن يكون المراد أن مكرهم فيه خير بزعمهم، فقال تعالى: في مقابلته؛ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ وقيل: ليس المراد التفضيل بل إن فعل الله خير مطلقاً اهـ. «خازن».

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والأساطير جمع أسطورة، كأراجيح جمع أرجوحة، وأحاديث جمع أحدوثة، وهي الأقاصيص والأخبار التي سطرت وكتبت في الكتب السالفة، بدون تمحيص ولا تثبت في صحتها، وفي «القاموس»: الأساطير الأحاديث لا نظام لها، واحدها: إسطار وإسطير، وأسطور وبالهاء في الكل، وأصل السطر الصف من الشيء، كالكتاب والشجر اهـ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ و﴿المكاء﴾[2] مصدر مكا يمكو مكواً من باب عدا و﴿مُكَآءً﴾ أيضاً إذا صفر، أي شبك أصابع إحدى كفيه بأصابع الأخرى، ويضمها وينفخ فيها، فيظهر من ذلك صوت، والمكاء بالضم كالبكاء والصراخ. وهمزة[3] ﴿المكاء﴾ مبدلة من واو؛ لقولهم مكا يمكو كغزا يغزو، ﴿والتصدية﴾ فيها قولان:

أحدهما: أنه من الصدى: وهو ما يسمع من رجع الصوت في الأمكنة الخالية الصلبة، يقال: منه: صدى يصدى تصدية، والمراد بها هنا ما يسمع من صوت التصفيق، والضرب بإحدى الكفين على الأخرى، وفي التفاسير: أن المشركين كانوا إذا سمعوا رسول الله ﷺ يصلي ويتلو القرآن صفقوا بأيديهم، وصفروا بأفواههم، ليشغلوا عنه من يسمعه ويخلو عليه قراءته، وهذا مناسب لقوله: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾، وقيل: مأخوذ من التصدد والضجيج

---

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

(٣) العكبري.

والصياح والتصفيق، فأبدلت إحدى الدالين ياءً تخفيفاً، ويدل عليه قراءة ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ بالكسر؛ أي يضجون ويلغطون.

والثاني: أنها من الصدِّ وهو المنع، والأصل تصددة بدالين أيضاً فأبدلت ثانيتهما ياء، ويؤيد هذا قراءة ﴿يَصُدُّونَ﴾ بالضم؛ أي: يمنعون.

﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾؛ أي: ندامة يقال: حسر يحسر كطرب يطرب بمعنى ندم ندامة، ويقال: حسر كمه عن ذراعه، من باب ضرب يضرب، ويقال: حسر بصره إذا كل، وتعب من باب جلس فالأول والأخير لازمان، والأوسط متعد، هذا ما في «المختار»، وفي «المصباح»: حسر عن ذراعه حسراً من بابي ضرب وقتل، وحسرت المرأة ذراعها وخمارها، من باب ضرب كشفته فهي حاسر بغيرها، وحسر البصر حسوراً من باب: قعد كل لطول المدى، وحسرت على الشيء حسراً من باب تعب، والحسرة اسم منه اهـ.

﴿يُحْشَرُونَ﴾ من بابي ضرب ونصر، كما في «المصباح» ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ يقال: ركمه إذا جمعه، وضم بعضه إلى بعض، وفي «المختار» ركم الشيء إذا جمعه وألقى بعضه على بعض، وبابه: نصر، وارتكم الشيء وتراكم اجتمع، والركام الرمل المتراكم، والسحاب، ونحوه اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾، وفي قوله: ﴿ينفقون أموالهم﴾ ﴿فيسنفقونها﴾، وفي قوله: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ و﴿الْمَاكِرِينَ﴾ وبين ﴿يُعَذِّبَهُمْ﴾ و﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ لأن المكر

حقيقة في الاحتيال في إيصال الضرر إلى الغير بطريق خفي، والمراد بمكر الله: رد مكرهم بطريق لا يعرفون، فإذاً يقال في تقرير الاستعارة: شبه المكر بمعنى رد الحيلة بالمكر بمعنى الاحتيال في ترتب أثره عليه، فاستعير اسم المشبه به الذي هو المكر بمعنى الحيلة للمشبه الذي هو المكر بمعنى ردها فاشتق من المكر بمعنى الرد، يمكر بمعنى يرد، على طريقه الاستعارة التصريحية التبعية.

ويصح أن يكون مجازاً مرسلاً إذا قلنا: المراد بمكر الله مجازاتهم على مكرهم بجنسه، من إطلاق اسم السبب على المسبب، والعلاقة السببية، والمشاكلة تزيده حسناً على حسن. وتصح الاستعارة في هذا المعنى أيضاً بأن يقال: شبه المكر بمعنى المجازاة بالمكر بمعنى الاحتيال، بجامع إيصال الضرر في كل، فاستعير اسم المشبه به الذي هو المكر بمعنى الاحتيال للمشبه الذي هو المكر بمعنى المجازاة، فاشتق من المكر بمعنى المجازاة، يمكر بمعنى يجازي، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ويصح أن يكون استعارة تمثيلية بتشبيه حالة تقليل المسلمين في أعينهم الحامل لهم على هلاكهم، بمعاملة الماكر المحتال بإظهار خلاف ما يبطن. ويصح أن يكون مشاكلة صرفة، فالوجوه أربعة اهـ «شهاب» بتصرف وزيادة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأن الإمطار حقيقة في إنزال الغيث، ويصح أن يكون مجازاً مرسلاً علاقته المشابهة في الصب بكثرة.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿إِن يَنتَهُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾، وفي قوله: ﴿فإن انتهوا﴾، وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونسأل الله الإعانة، وكمال التيسير، والتوفيق لنا لأصوب التفسير، وأن يكرمنا بإكماله كما وفقنا بابتدائه بمنه وكرمه وجوده وإفضاله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين آمين(1).

* * *

(1) قال المؤلف: وكان الفراغ من تسويد هذا المجلد العاشر من الشرح على الجزء التاسع من القرآن منتصف ليلة الجمعة، الليلة السابعة من شهر الله المبارك رجب الفرد، من شهور السنة العاشرة بعد الألف وأربع مئة ٧/ ٧/ ١٤١٠هـ من هجرة من أرسله الله تعالى ليكون للعالمين نذيراً، سيدنا ومولانا محمد من جعله الله لدينه سراجاً منيراً، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.
تم تصحيح هذه النسخة في الليلة السادسة والعشرين، أوائلها من شوال بيد مؤلفه في تاريخ ٢٦/ ١٠/ ١٤١١هـ فلله سبحانه الحمد والشكر على هذا التوفيق، ونسأله تعالى الإخلاص في جميع الأعمال، ليكون موجباً لنا الخلاص من عهدتها في يوم العرض والقصاص.

شعر

مُرَادِيَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْكَ فَجُدْ بِهِ   وَهُوَ عَلَىٰ ٱلتَّفْصِيْلِ عِنْدَكَ بَادِيْ
تَعَوَّدْتُ مِنْكَ ٱلْجُوْدَ وَٱلْفَضْلَ فِيْ ٱلَّذِيْ   أُوَمِّلُ مِنْ خَيْرٍ فَعَجِّلْ جَوَابِيْ
لَدَيْكَ جَمِيْعُ ٱلْخَيْرِ فَٱسْمَحْ بِنَيْلِهِ   لِعَبْدٍ يُنَاجِيْ يَا سَمِيْعَ نِدَائِيْ

الفهرس